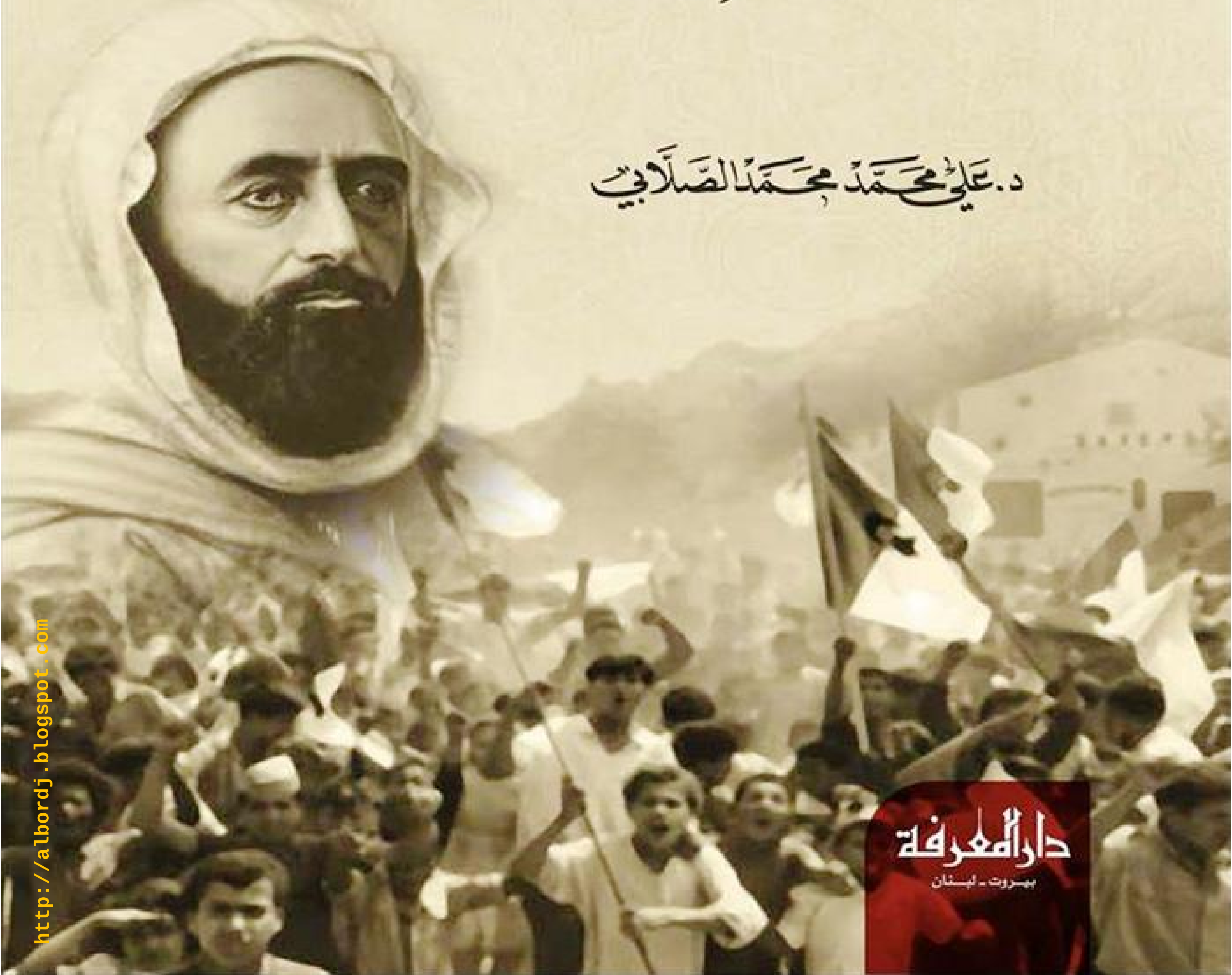
كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الأمير عبد القادر

تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى

د. علي محمد محمد الصلابي



دار المعرفة
بيروت - لبنان

سلسلة كفاح الشعوب

كِفاحُ الشَّعبِ الجزائِري

ضِدّ الاحتِلال الفرنسي

تاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى

تأليف

د. علي محمّد محمّد الصَّلاّبي



دار المعرفة – بيروت لبنان

الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدَّى لكلِّ ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدم قوافل الشهداء ودفع الثمن غالياً، وابتُلي بالجوع والخوف، فما وَهَن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير، وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله: {فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (فاطر، الآية : ٤٣)

قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (الكهف، آية : ١١٠).

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

قال تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ" (آل عمران ، آية : ١٠٢).

وقال تعالى: " يَا أَيُّهَا النَّاس اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا" (النساء ، آية : ١).

وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا" (الأحزاب، آية: ٧٠ . ٧١).

أمَّا بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

لقد منَّ الله عليَّ بالعيش مع العلم والعلماء، والفكر والمفكرين والثقافة والمثقفين، ودراسة التاريخ الإسلامي، وتاريخ الشعوب والعلوم الإسلامية، فصدرت بحمد الله ومنه وتوفيقه عدة موسوعات منها:

. موسوعة السيرة والخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

. موسوعة الحروب الصليبيَّة.

. موسوعة تاريخ شمال أفريقيا.

. موسوعة أركان الإيمان.

. موسوعة الفكر السياسي الإسلامي.

. موسوعة التفسير الموضوعي في القرآن الكريم: الوسطية في القرآن الكريم، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، المعجزة الخالدة.

وأخذت هذه الدراسات عقوداً من الزمن في البحث والدراسة حتى رأت النور بفضل الله وَمنِّه وتسديده وتوفيقه.

واليوم نتحدث عن موسوعة جديدة.

. موسوعة كفاح الشعوب.

وهذا الكتاب الأول منها: كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

فكان على الشكل التالي:

المبحث الأول: الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحِّدين، وأسباب سقوطها، وعن سقوط غرناطة ووصف حي لتسليمها، ومحاكم التفتيش وفتاوى هامة بخصوص الذين أكرهوا على التنصير وقواعد محاكم التفتيش في معاملة المسلمين وأهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً، وعن دولة بني مرين والدولة الوطاسية، والدولة السعدية بالمغرب الأقصى، وعن الدولة الحفصية ودولة بني عبد الواد.

المبحث الثاني: الاحتلال الإسباني في الجزائر وعن احتلال المرسا الكبير، وتنس ووهران وبجاية ومستغانم، عن أسباب الاحتلال الإسباني لسواحل الساحل الجزائري.

المبحث الثالث: العثمانيون في الجزائر، وقيام الدولة العثمانية: وترجمت لعثمان الأول مؤسس الدولة، وشرحت الدستور الذي سار عليه العثمانيون، وبيّنت أهم السلاطين بعد مؤسس الدولة، ووضحت سيرة الأخوين عروج وخير الدين بربروسة وأصلهما ودورهما بالجهاد في الجزائر والبحر الأبيض المتوسط، وانضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية عام

١٥١٩م، وأسباب ذلك. وتكلمت عن التحديات التي واجهت خير الدين، وعن سفره إلى إسطنبول وأثر جهاده على المغرب الأقصى وعن استيلاء شارل الخامس على تونس وعودة خير الدين إلى الجزائر، وعن حرص الدبلوماسية البرتغالية في تفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي، وأشرت لسيرة المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي وحملة شارلكان على الجزائر عام ١٥٤١م والنتائج المترتبة عن فشلها، ومصير شارلكان ووفاة حسن آغا الطوشي ووضحت سيرة المجاهد حسن خير الدين بربروسة وآخر أيام والده، وتقويم جهود خير الدين في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر.

استفدت كثيراً من كتاب الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الأخوة بربروس للدكتور محمد دراج.

وتوسَّعت في هذه المرحلة المهمة من تاريخ الدولة العثمانية بالجزائر وشمال أفريقيا، ولخّصت سياسة صالح رايس وجهوده للعمل على استرداد الأندلس، ووقوفه مع المسلمين هناك وعن بداية ضعف الدولة العثمانية، وعن هزيمة أسطول الدولة العثمانية، في معركة «ليبانتو» وأثر ذلك على أوروبا، وزوال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط.

لقد كان هذا الانكسار نقطة توقف عصر الازدهار والقوة للدولة العثمانية.

وكانت معركة «ليبانتو» فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، وأصبح الوجود العثماني بالجزائر في خطر مهدد بالزوال.

وقد مر الحكم العثماني في الجزائر بمراحل، وأهم هذه المراحل:

- عصر الباي: ١٥١٤م - ١٥٨٧م.
- عصر الباشوات: ١٥٨٧م - ١٦٥٩م.
- عصر الأغاوات: ١٦٥٩م - ١٦٧١م.
- عصر الدايات: ١٦٧١م - ١٨٣٠م.

وتحدثت عن التنظيم الإداري والسياسي والقضائي والحياة الاجتماعية في العهد العثماني بالجزائر.

المبحث الرابع: الاحتلال الفرنسي للجزائر. وكان بين يدي هذا المبحث مقدمة مهمة، ثم انصب الحديث عن الأسباب الحقيقية للاحتلال، السياسية والعسكرية والاقتصادية والدينية والظروف الدولية المواتية، وعن سقوط مدينة الجزائر واستلام الباي حسين، وعن الأخطاء التي وقع فيها كإعدامه لقائد جيشه، وثقته الخاطئة في وزير المالية، وعدم وجود انضباط من رجال أمنه، وعدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الاحتلال.

وتحدثت عن قيام الحكومة الفرنسية بطبع منشور باللغة العربية لكي يتم توزيعه على الجزائريين وأبناء الأتراك قبل دخول الأراضي الجزائرية، وقد جاء هذا البيان بمثابة خطة لخلق البلبلة في صفوف الجزائريين وإعطائهم انطباعاً بأن الفرنسيين جاءوا لتخليص الجزائريين من السيطرة التركية، وبذلك يتضامنون مع فرنسا ولا يتصدرون لها، وقد أحدث هذا البيان وبيانات أخرى ارتباكاً في صفوف وجهاء مدينة الجزائر.

وعلت أصوات بعض رجال التجارة والرأسماليين بالدعوة إلى الاستسلام، لأن الجزائر ضائعة لا محالة، ولو دخل الفرنسيون بالقوة على أثر هجوم مثلاً، فإنهم سينهبون المدينة ويقتلون جميع السكان والنساء والأطفال العزّل، وكان تبريرهم لقبول فكرة تسليم المدينة إلى الفرنسيين وفقاً لمعاهدة "استسلام" هو أن أمة شريفة مثل فرنسا لا تنكث بعهودها، وأننا سنعامَل بكل عدل وبغض النظر عن كون زيد أو عمر هو الذي يحكمنا، فإن المهم هو أن نُحْكَم كما ينبغي وفقاً لمبادئ الحكومة الفرنسية وأن لا تُمَس ديانتنا. ومن جهة أخرى فإن عماد الحضارة هي حقوق الإنسان ولذلك فإننا لا نخشى شيئاً من أمة متحضرة، وهذا هو التفكير الذي أدى في نهاية الأمر إلى عدم مقاومة الجيش الفرنسي[١].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٩.

ولكن الاحتلال الفرنسي نقض العهود والمواثيق، وداهم المنازل والبيوت وجرّد النساء من مصاغهن وملابسهن الثمينة وكذلك الأطفال، فتم الاعتداء على الأعراض وانتُهبت الأموال، وسُفِكَت الدماء، وتم مصادرة الأوقاف والأملاك..الخ.

المبحث الخامس: ظهور المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي وتطورها مع ظهور الشريف محيي الدين الحسني، الذي كان يحظى باحترام ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل. وحقق الجزائريون بقيادته انتصارات عظيمة ضد الاحتلال، ولكن تقدم سن محيي الدين جعله يتأخر في القيادة لصالح ابنه عبد القادر، الذي اشتهر بالشجاعة والذكاء والعلم والحزم والصفات الحميدة والخلال العظيمة، وتمت بيعته من قبل قبائل الجزائر على السمع والطاعة وكان اختياراً شعبياً موفَّقاً.

المبحث السادس: حكم الأمير عبد القادر بعد البيعة الشعبية وامتداد سلطانه حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري.

وبعد أن استقام للأمير الأمر، شَرَع في تنظيم أمور الدولة وتشكيل الكوادر الحكومية، فعيّن الأكفاء من الرجال، واعتمد الفقه الإسلامي، أي: التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة نظاماً لحكمه، وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

وسارع الأمير عبد القادر في تأسيس الجيش النظامي وطوَّر إستراتيجيته العسكرية واهتم بتطوير حرب العصابات وأصبح يتقنها إتقاناً كبيراً، وكان يفاجئ ويُربِك الخصم، وهذا ما جعل الأمير أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب. وهو بذلك سبق الأمير عبد الكريم الخطابي زعيم حرب الريف بالمغرب، والشيخ عمر المختار بليبيا واستفاد منه الكثير من قادة التحرر الذين جاءوا من بعده.

واهتم الأمير بتفعيل وتقوية الحكومة المركزية في دولته، وقسَّم البلاد إلى ثماني ولايات وجعل عليها خلفاء يديرونها من خلال مجلس شورى وادارات محلية فعّالة ووضع معايير في تعيين موظفي الدولة ومناصبهم من ذوي الكفاءات والقدرات والملكات الإدارية

والقيادية، وأعطى رعاية خاصة للمؤسسة القضائية لتسهم في رفع الظلم وإقامة العدل، وأسس مجلس شورى للدولة مكون من أحد عشر عضواً، وكان كثير الاستشارة والاستماع لأصحاب الخبرة والمعرفة والتجارب العملية في الشأن العام.

واهتمت دولة الأمير بالاقتصاد والموارد المالية وترشيد المصروفات، وشجعت حركة التجارة الداخلية والخارجية، وكان لدولة الأمير جهاز دبلوماسي متميز ونشط، ساهم في إنجاح مفاوضات عدة منها معاهدة «ديمشال» ومعاهدة «التافنة».

وبيّنت اهتمام دولة الأمير بجهاز المخابرات ونشر الثقافة من خلال المدارس والمساجد والزوايا والتشجيع على العلم والتعلم والتفقه، وتركيزها على الصناعة الحربية واحتياجاتها نظراً لاهميتها في حركة الجهاد ضد الاحتلال، كما استجلبت من الخارج خبراء وأهل تخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن.

وبيّنت معارك الأمير التي خاضها ضد العدو واضطرار العدو للمعاهدة، فقد توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، وكيف استفاد منها في تطوير وتقوية مؤسسات الدولة الناشئة وفتح مجال للعلاقات الخارجية مع الدول، فقد اعترف به سلطان مراكش، وعمل الأمير على بسط نفوذه وإقرار الأمن والسلام في المناطق الخاضعة لسلطانه.

ووضحت عبقرية الأمير وقيادته الفذة في الحرب والسلم ومحاربته للشعوذة والدجل بين الناس، وتوقفت عند العمل الاستخباراتي الفرنسي الخطير الموجه لاختراق دولة الأمير وأثره في إضعاف حركة الجهاد. ووضحت في هذا الكتاب اهتمام الأمير بالعمل على تنظيم دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو. وأراد أن يحيط علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة، فأرسل بعثة برئاسة عبد الله سقاط تحمل أسئلة موجهة إلى

علماء المغرب الأقصى، طالباً منهم الإجابة عليها وقد أجاب عليها شيخ الإسلام التسولي.

كان قصد الأمير من هذه الاستشارات القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله وتجنبه من أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر الله به بشهادة علماء متعمقين في الشريعة وأصول الدين[١].

وتحدثت عن نقض الاحتلال الفرنسي لمعاهدة «التافنة» وحرص الأمير على إطالة أمد الهدنة. ولكن القتال اندلع من جديد وكيف وجه الأمير نداءه للشعب وأوامره إلى خلفائه. وبدأت مرحلة جديدة، من الزحف على معسكرات العدو وحصونه وتكبد الفرنسيون خسائر رهيبة، فقد لخَّص بسيسكا توري معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن أفريقيا هي الخراب في السلم والإنهاك في وقت الحرب، ولقد قام الجنرال «بوجو» بردود أفعال عنيفة فدمر الأرياف والقرى وحرق المحاصيل وقطع الأشجار المثمرة وعاقب كل قبيلة وقعت تحت سلطانه ساهمت في دعم الأمير عبد القادر وجرّدها من أراضيها وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، فقد قتل من أبناء الشعب الجزائري عشرات الألوف رجالاً ونساء وأطفالاً وشيوخاً.

واضطرت فرنسا للنفير العام وواصلت – بلا انقطاع – تزويد الجنرالات الفرنسيين وجيوشهم في الجزائر بالإمدادات والمؤن والعتاد والرجال والسلاح والذخائر. وكانت إحدى هذه الدفعات وصلت يوم ٢٢/ ٢/ ١٨٤١م وكان عدد القوات ٨٨٠٠٠ جندي. علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وكان رد الأمير عبد القادر رسالة إلى الجنرال «بوجو» جاء فيها: اعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم، لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضرني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدَّره الله علي.

---

[١] المصدر السابق.

وقد استمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية، وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة، وهزم الجنرال «بيجو» في معارك أيالة ووهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحداثة الأسلحة.

وكانت قوة الأمير تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع في حرارة شمس أفريقيا المحرقة، في مكان ندرة المياه، إنها أيضاً في حياة الترحال التي خطها كأسلوب لمحاربة فرنسا.

لقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذة، وأظهروا إعجابهم بالأمير مثل المارشال «بوجو»، و«لامورسيير» و«شاغارنيه».

لقد قال الجنرال «بوجو» عن الأمير عبد القادر: خصم صنديد نخشى بطشه. وأصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر، ووضع قادة الاحتلال خطة جديدة للزحف الشامل، اعتمدت على تدمير المدن ومطاردة القبائل وارتكاب المجازر.

وفي تلك الفترة الحرجة من تاريخ شعب الجزائر ابتكر الأمير عبد القادر مدينة الخيام المتنقلة لتجنيب المدن الدمار، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكان الأمير يقوم بزياراته الميدانية مع القادة العسكريين والعلماء والأطباء في المناطق التي لا زالت تحت سلطته، وكان يتواصل مع جنوده وضباطه في الجبهات والثغور، يقدم لهم العون المعنوي والمادي ويرسل إليهم الرسائل والقصائد التي تحثهم على الجهاد والكفاح والنضال.

وتعرضت المدينة المتنقِّلة للهجوم من قبل قوات الاحتلال الفرنسي في إحدى غيبات الأمير واستطاع أن يرد رداً سريعاً على القوات التي هاجمت وأعاد بناء المدينة.

عملت فرنسا على تشديد الخناق على الأمير ودولته ومارست ضغوطاً سياسية وعسكرية على سلطان المغرب لكي ينحاز ضد الأمير، واضطر الأمير، في نهاية المطاف إلى طلب

الأمان للهجرة إلى ديار المسلمين في إسطنبول أو الشام ولكن فرنسا نقضت العهد وغدرت وسجنت الأمير.

وقد تحدثت عن الأيام التي قضاها في سجون فرنسا ثم مغادرتها إلى إسطنبول ثم استقراره في مدينة بورصة بالدولة العثمانية، ثم انتقاله إلى دمشق حيث مقر إقامته الأخير، وتكلمت عن تفرغه للعبادة والعلم والتدريس ومخالطة العلماء وعن جهوده الاجتماعية.

وناقشت الاتهامات التي وجهت إلى الأمير مثل: اتهامه بوحدة الوجود وتأثره بفكر بن عربي ونسبة كتاب المواقف إليه، واثبت بالدليل والبرهان بطلان الكثير مما نسب إليه وبراءته من عقيدة وحدة الوجود والانتساب إلى المحافل الماسونية.

لقد تعرض الأمير عبد القادر لحملات تشويه مركزة ومنظمة واختلقوا له الأكاذيب وزعموا أنه سلم نفسه لفرنسا واستسلم في نهاية المطاف، ونسبوا إليه رسائل ومعاهدات سخيفة ومخزية وزعموا أنها بخطه، ثم اختلقوا قصة انتسابه للجمعية الماسونية وزوَّروا عليه رسائل بهذا الخصوص، وكل ذلك كي يسقط اعتباره عند الناس كرجل مخلص لأمته، وحتى لا يكون قدوة للأجيال المتعاقبة في نضاله وكفاحه وجهاده وروحه الثائرة ضد الظلم والجور، ولكن الله أبى إلا أن يخرج الحق للناس بفضله ومَنِّه، ثم جهود الباحثين المخلصين.

إن الأمير عبد القادر اشتهر بين الناس بنزعته الإسلامية، واهتمامه بالقرآن والسنة والتصوف السني الرشيد على نهج الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي أثنى عليه علماء السلف من أمثال ابن تيمية وابن القيم وغيرهم كثير.

وقد درَّس الأمير عبد القادر بالجامع الأموي صحيح البخاري وموطأ الإمام مالك ورسالة أبي زيد القيرواني وأشاد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة، وكل هذه الكتب تخالف تماماً العقائد الموجودة في كتاب "المواقف" المنسوب إليه بالباطل والبهتان والافتراء.

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يعتقد يوماً من الأيام لا بوحدة الوجود ولا الحلول ولا الاتحاد، بل كانت عقيدته سنية صافية من البدع، اشتهر بالتقوى والخوف من الله عز وجل والإيمان به وباليوم الآخر وحفظ القرآن في سن مبكرة من حياته، مالكي المذهب، متقيد بشرع الله في حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته، وما نسب إلى الأمير من الرموز ووحدة الوجود والعقائد الفاسدة ما هي إلا أباطيل واتهامات تمَّ كشفها وبيان بطلانها بالعلم الرصين والحجج الدامغة والأدلة القاطعة في هذا الكتاب.

فالأمير عبد القادر منهجه في الحياة عبّر عنه في أبيات شعرية قال فيها:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

حيثما سار سر وحيثما وقف قف

ومن شعره العذب الجميل قوله:

الحمد لله الذي قد خصني

بصفات كل الناس لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني

لأنا الصبور لدى اشتداد الباس

وتحدثني شكراً لنعمة خالقي

إذ كان في ضمني جميع الناس

وثمّة أمر مهم ويحدث كثيراً في ما يتعلق بتشابه الأسماء، فهناك غير الأمير عبد القادر من العلماء والأسماء المتطابقة مع اسمه وكتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف واختلط الحابل بالنابل على بعض الناس، وقد بينت ذلك في هذا الكتاب، وناقشت في هذا الكتاب أيضاً اتهام الأمير بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم وتتبعت جذور هذه التهمة وبينت زيفها وبطلانها.

إن الحقيقة التاريخية التي وصلت إليها من خلال الدراسة العميقة والبحث الجاد وتتبع سيرة الأمير يوم بيوم وشهراً بشهر وسنةً بسنة في الجزائر وفي الحج وفي السجون وفي المنافي وفي المهجر، وفي مجالسه العلمية والحربية والسياسية تبين لنا أن الأمير لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا، والمبادرة التي قام بها الأمير في الدفاع عن المسيحيين في الشام كانت خالصة لوجه الله الكريم، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

لقد حاول تشرشل صاحب كتاب "حياة عبد القادر" ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيرهم ربط الأمير عبد القادر بالمحافل الماسونية ولكنهم عجزوا عن تقديم الدليل مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه. إن حياة الأمير صفحة مفتوحة للباحثين ناصعة البياض نقية طاهرة، واتهامات أعدائه الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى مع الحجج الدامغة، وتذهب جفاء لأنها زبد، وسيرته العطرة تبقى خالدة في معانيها وقيمها ومبادئها لأنها تنفع الناس.

إن كل الذين ادَّعوا انتساب الأمير عبد القادر إلى هذه الجمعية لم يقدموا أي دليل مادي أو مستند وثائقي يثبت صحة ادعائهم، ومنهم من يعتذر خشية الإطالة عن عدم تقديم الأدلة أو الوثائق، ويكتفي بإبراز صورة الأمير عبد القادر المعروفة وهو يرتدي الأوسمة التي وصلته من ملوك ورؤساء العالم، وعلى صدره وشاح الفروسية الأحمر الذي أهداه إليه ملك إيطاليا فكتور عمانوئيل مع الوسام الذي جاءه بمناسبة إنقاذ أرواح خمسة عشر ألف مسيحي في الفتنة المشهورة في الشام، وهذا من دون أي تعليق سوى عدم الرغبة في الإطالة، والحقيقة أن هذه الحجة هي أيضاً باطلة لأنه لو توافرت الوثيقة مهما كانت لما أحجموا عن ذكرها.

والحقيقة أنه لا يوجد أي مستند سوى أقوال تدخل في القيل والقال نقلاً عن مصدر بريطاني بقصد الدعاية للمحافل الماسونية وخدمة غايات استعمارية مكشوفة، فكثير من المستشرقين كانوا يقدمون خدمات قيِّمة لبلادهم تشجعهم عليها حكوماتهم لأغراض

استعمارية غير خافية، ولكن مما يزعج الباحثون عن الحقيقة أن نرى إفكهم واختلاقهم وقد تناقلتها أقلام كتّاب ومؤرخين من أبناء شعوبنا وكأنهم ظفروا بصيد ثمين، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث والتمحيص والتدقيق، فذكروا ما ذكروه نقلاً، لا تحقيقاً وبحثاً بدون أن يقدموا وثائق علمية ومستندات حقيقية وبراهين عملية.

إن اتهام الأمير عبد القادر بالانتساب إلى الماسونية تتهاوى أمام البحث العلمي ولا وجود لها في حقائق التاريخ، وإنما تدخل ضمن الحرب الاستخباراتية في تشويه رموز النضال والكفاح في هذه الأمة، ويأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بأنوارها لتزيل ظلام البهتان والأكاذيب.

وتحدثت في هذا الكتاب عن الأمير الإنسان وعلاقته بأمه وزوجته وأولاده وأقاربه وأصحابه وأصدقائه وأبناء شعبه، وعن مواهبه الأدبية والشعرية ونشرتها حسب المواقف والمناسبات.

ودوّنت في هذا الكتاب أيامه الأخيرة ومرضه ووفاته ودفنه، ونقل رفات الأمير بعد تحرير الجزائر عام ١٩٦٦م إلى بلاده في احتفال شعبي ورسمي مهيب، وما إن حطت الطائرة بجثمان الأمير في مطار العاصمة وأطل جثمانه الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية "هواري بومدين" والوزراء لتحمله، وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الألوف من الجزائريين والجزائريات "الله أكبر" تشق عنان السماء، وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء، وكانت دموع الفرح تملأ مآقي الجميع وتسيل مدراراً.

وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء بمناسبة هذا الحدث التاريخي الكبير حيًّا بها دمشق الفيحاء، جاء فيها:

يا دمشق الفيحاء ألف تحية

قد عرفناك في الندى أُموية

أي بُشرى حَمَلْتِها لبلادي

برُفات الأمير أي هدية

وخاطب في قصيدته الجيش الجزائري فقال:

من عُلاها استمدَّ جيش بلادي

ذلك العزم يوم خاض المنايا

هي ليست كما سمعتم رُفاتاً

بل تُراثاً مقدَّساً وعطايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

ذهب الغاصبون لا دوميشيل

ولادورليان، ولا صليل السلاح

مات بيجو وألف بيجو وأودى

كل جيش رمته هُوجُ الرياح

أنت في كل ثائر كنت تحيا

عبقريّاً محنكاً في الكفاح

إنَّ الله عز وجل أعلى ذكر الأمير في تاريخ البشرية المعاصر وأصبح من رموز النضال وأحرار العالم الذين ناضلوا وكافحوا وجاهدوا لتنال شعوبهم الحرية والكرامة، لقد أثار كفاحه البطولي ضد فرنسا الغازية إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم والدول الأُوروبية، كما كان له صدى كبير حتى في الولايات المتحدة الأمريكية، ففي سنة ١٨٤٦م أُسِّست في مدينة صغيرة بولاية إيوا "iowa" من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون، وتيموثي ديفيس وتشنز سايج أطلق عليها اسم «**القادر على شرف الأمير**».

إن الذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لمكانة الأمير العالمية هم الذين اندهشوا لتعدي سيرته المحيطات والبحار والفيافي والصحاري والقفار والقارات، في زمن كادت به

الاتصالات أن تنعدم، فقد كانت شعوب أوروبا وحكوماتها تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقتاله البطولي وعبقريته التنظيمية ووطنيته الفياضة وقيمه الإنسانية.

وفي هذا الكتاب يجد القارىء ما حدث في الجزائر من ثورات بعد رحيل الأمير عبد القادر عن وطنه، كثورة الزعاطشة وبو بغلة ولالَّة فاطمة والشريف محمد بن عبد الله بورْقلة وثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة، وثورة الصادق بالحاج ومحمد بوخنتاش الباركتي، وثورة أولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة وثورة المقراني والشيخ الحداد وبو مزراق، وثورة واحة العمري وانتفاضة الأوراس وثورة أبو عمامة.

وذكرت طبيعة الحكم العسكري بالجزائر وسياسة نابليون الثالث بها، وتغير طبيعة الحكم بعد هزيمة الإمبراطور وأسره لدى الألمان، وسيطرة الحكم المدني في العصر الجمهوري على الجزائر بواسطة المستوطنين الفرنسيين وسياستهم القمعية والدموية والإجرامية وتشريعهم لقانون الأنديجينا الجائر، واستغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر.
وسجَّلتُ في هذا الكتاب جهود المبشرين بالنصرانية في الجزائر وتعاونهم مع المستعمر، ودور لافيجري في دعم حركة التبشير وتعصبه ضد الإسلام والمسلمين وعمله على تنصير شمال أفريقيا والقارة السمراء، ووسائله وبرامجه ومنظماته التي ساهمت في دعم مشروعاته في الجزائر وأفريقيا، ووضحت فلسفة التبشير لدى الكاردينال لافيجري وأُسُسها ومنطلقاتها وأهدافها.

وكشفت للقارىء الكريم ما قام به الاحتلال الفرنسي من محاولات لتزوير تاريخ الجزائر، وما قام به أيضاً من دعم دراسات تخدم مخططات المستعمرين ومنها ما يتعلق بتاريخ أفريقيا، وعملوا على قلب الحقائق وصوروا الفتوحات الإسلامية على أنها فرضت على الأمازيغ الإسلام بالإكراه والسيف، وقد حاولت مراكز الأبحاث والدراسات التابعة للفرنسيين أن تربط ماضي شمال أفريقيا بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي

بالجزائر. وكان القصد منها إظهار امتداد المدينة اللاتينية بالمغرب الإسلامي، مؤكدة بأن هذه البلاد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي.

ومن هذا المنطلق اهتم الفرنسيون بالكتابة التاريخية بتوجه يخدم نفوذهم، ويؤكد شرعية احتلال البلاد، وادعوا حتمية إرجاع الجزائريين إلى حظيرة الدين المسيحي باعتباره دين الأغلبية منهم في الجزائر.

ولهذا الغرض تعددت هذه الكتابات بعد الاحتلال، وساهم فيها العسكريون ورجال الدين والرحالة وبعض الكتاب، وكلهم أشادوا بالغزو، خصوصاً أنصار الكنيسة الذين كان شعارهم أفريقيا لاتينية والجزائر فرنسية مسيحية.

لقد بُذلت جهوداً ضخمة وأُنْفقت الأموال الطائلة على دراسات وبحوث هدفها تزوير التاريخ ومحو الكيان الجزائري بهويته وتاريخه وحضارته للوصول إلى السيطرة الكاملة، إلا أن تمسك أبناء الشعب الجزائري في بلاد القبائل والمدن والأرياف والجبال والسهول بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططاتهم وجعلها غثاء لا أثر له في حياة الناس.

وإن الإنسان ليرى من خلال دراسته وبحثه العميق اعتزاز الجزائري والجزائرية بدينهم وقرآنهم وسنة نبيهم وتاريخهم وحضارتهم وهويتهم، وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس عندما قال:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله
أو قد مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له

رام المحال من الطلب

يا نشىءُ أنت رجاؤنا

وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها

وخض الخطوب ولا تهب

فإذا هلكت فصيحتي

تحيا الجزائر والعرب

لقد فشلت مساعي المبشرين وقاوم الجزائريون نشاط هذه البعثات بكل أنواع المقاومة المشروعة، وانتصرت إرادتهم على إرادة المحتلين وثقافتهم على ثقافة الغزاة الظالمين.

لقد تعاون وتناصر المبشرون والمستشرقون والاستعمار على محو الهوية والثقافة الجزائرية، ولكنهم جميعاً هُزموا في معركة الأفكار والعقائد والثقافة، وانتصرت عقيدة الشعب الجزائري وثقافته، وكانت دافعة لأبناء الجزائر في معركة الحرية والثقافة والكرامة والحقوق جيلاً بعد جيل.

فقد كان الشعب عصيًّا على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابته في الحضارة الغربية، ولكنها فشلت فشلاً ذريعاً. لقد كتب أحد الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن حقيقة الشخصية الوطنية الجزائرية فقال له: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

وهذا الكتاب يؤرخ لتاريخ الجزائر إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، ويليه الجزء الثاني بإذن الله تعالى تتمة له من الحرب العالمية الأولى إلى ثورة نوفمبر ١٩٦٢م.

مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث، وبدأت الحركات السياسية والمنظمات الشبابية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي والدعوة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء وعلى رأسهم الزعيم عبد الحميد بن باديس تشق طريقها

في وسط الظلام الدامس والظلم المنتشر في البلاد لتمهيد الطريق لوعي شعبي ونضال مرير، وكفاح شاق وجهاد أسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال، توجت بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما نسوق تفاصيله **بإذن الله تعالى في الكتاب القادم:**

"كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي"

للحقبة من الحرب العالمية الأولى إلى ثورة نوفمبر ١٩٦٢م.

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٣٦هـ، ١٧ إبريل ٢٠١٥م الساعة الخامسة بعد صلاة العصر بالدوحة، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: " مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (فاطر ، آية : ٢).

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف ولتحجرت المشاعر ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصرني بما يرضيك، واشرح صدري، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك باسمائك الحسنة وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على

إتمام هذا الجهد الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

. قال تعالى: " رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ" (النمل ، آية : ١٩).

وأختتم هذه المقدمة بقول الله تعالى: "وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ" (الحشر ، آية : ١٠).

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته

ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبِيّ

غفر الله له ولوالديه ولجميع

المسلمين

المبحث الأول

الأندلس والشمال الأفريقي بعد سقوط دولة المَوَحِدين

بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين، ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٧هـ، ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين، وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله تعالى.

أما الشمال الأفريقي بعد سقوط الموحدين فانقسم إلى دول، لا تجاوز الواحدة منها في أحيان إطار المدينة، ولا تجاوز في أحيان أخرى إطار القبيلة، واتسمت تلك الفترة التاريخية بالتداخل والتعقيد والغموض، واشتدت النزاعات الداخلية وتتابعت الهجمات الخارجية وظهرت فتن تجعل الحليم حيران من كثرتها وتشابهها. ومرت المنطقة بعملية مخاض طويلة، لأن دولة الموحدين نفسها مرت بمرحلة سقوط طويلة، وخرج من ذلك المخاض الطويل دول من أهمها: دولة بني حفص في أفريقيا، ودولة بني زيان في المغرب الأوسط، دولة بني مرين ثم بني وطاس في المغرب الأقصى[١]

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصلابي، ص: ٤٢٣.

أولاً: أسباب سقوط دولة الموحدين

ذكر المؤرخون أسباب وعوامل سقوط دولة الموحدين ومن أهمها:

. ظلمهم الفظيع للمرابطين وسفكهم للدماء واعتدائهم على الأموال وسبيهم للنساء بدون وجه حق ، لقد تعامل الموحدون مع المرابطين على نحو ظالم مستخدمين كل وسائل العنف مع خصومهم، ولذلك كفروهم، واستحلوا دمائهم وأموالهم وسبوا نسائهم، فأفنوا أعداداً كبيرة من المغاربة، ولأسباب تبدو أحياناً واهية أو أن ليس لها ما يبررها، فمضت فيهم سنة الله في الظلم والظالمين، والغالب أن الظالم حسب سنة الله في الظلم والظالمين، يعاقب في الدنيا على ظلمه للغير، ومن العادة أن المظلوم يدعو عادة على ظالمه لينتقم الله منه في الدنيا ليشفي ما في صدره من غيظ على ظالمه، وحيث إن دعوة المظلوم مستجابة لقوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه رسول الله إلى اليمن: **(واتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب)** .

ومن سننه تعالى في الظلم والظالمين أنهم لا يفلحون ولا يفوزون في الدنيا، وإن مآلهم إلى الخسران والهلاك كما أن الأمة الظالمة لها أجل محدود[١].

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان يعجِّل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة والدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدَّره الله لها بموجب سننه العامة التي وضعها لأجل الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها الله٢.

---

[١] المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د. عبادة كحيلة، ص: ١١٩.

[٢] السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص: ١٢١.

قال تعالى: "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ" (الأعراف، آية : ٣٤).

قال الألوسي في تفسيره لهذه الآية: " وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ" (الأعراف، آية : ٣٤).

أي: لكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي: وقت معين مضروب لاستئصالهم١.

ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهولاً لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين ، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد بالأيام ولا بالسنين، وهو محدد عند الله تعالى[٢].

إن سنة الله مطَّردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى:"ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيب * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ" (هود، آية : ١٠٠ ـ ١٠٢)

إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[٣]

قال تعالى:"وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" (هود ، آية : ١١٧)

---

[١] تفسير الألوسي (٨ / ١١٢).

[٢] السنن الإلهية في الأمم، ص: ١٢١.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٢٢.

قال الإمام الرازي في تفسيره: إن المراد من الظلم في هذه الآية: الشرك، والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أمل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح وعدم الفساد[١].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى:"بِظُلْمٍ" أي: بشرك وكفر، "وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ" (**هود: ١٧**) أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق: ومعنى الآية: إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[٢].

إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق – أي في الآخرة – . وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة[٣] .

إن دولة الموحدين قامت على أساس دموي في إرساء دعائمها ولذلك أسرف ابن تومرت في سفك الدماء وهتك الأعراض ومصادرة الأموال، وسار خليفته عبد المؤمن على منواله وكذلك كثير من زعماء الموحدين، فجرت فيهم سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم حتى أفضى أمر الدولة إلى الزوال.

١. ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين: حيث قامت هذه الثورة على أسس فكرية وعقدية ناهضت الأصول العقدية والأسس الفكرية التي قامت عليها دولة الموحدين والتزمت بأصول منهج أهل السنة والجماعة، وأعلنت انتماءها وولاءها للخلافة العباسية

---

[١] تفسير الرازي (١٨ / ٧٦) .

[٢]تفسير القرطبي (٩ / ١١٤).

[٣] رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإبن تيمية، ص: ٤٠

السنية، ورفعت شعاراتها وحاربت بكل ما تملك نفوذ الموحدين وظلمهم الوخيم، واستمرت لمدة خمسة عقود متتالية كانت تلك الحروب الطاحنة من الأسباب المباشرة في ضعف دولة الموحدين ومن ثم سقوطها.

٢. ثورات الأعراب المتتالية حيث إن قبائل بني سليم وبني هلال التي سكنت أفريقيا والمغرب الأوسط وبعد ذلك المغرب الأقصى لا تنظر إلا لمصالحها، فأحياناً تتحالف مع بني غانية ومع قراقوش التقوي ضد الموحدين، وأحياناً تخضع لدولة الموحدين، ثم دخلت في الصراع الداخلي بين أعداء الموحدين، فكانت من الأسباب التي فجرت الثورات الداخلية والتي ساهمت في الإفساد ودمار دولة الموحدين. لقد قدم الأعراب البدو إلى المغرب الأقصى أيام المنصور الموحدي عام ٥٨٤هـ. ومنذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠هـ أصبحوا يتدخلون في شؤون الدولة ويرهقونها بطلباتهم ويعملون بدورهم على عزل وتولية بعض ملوك الموحدين، ومن هؤلاء الأعراب بنو معقل، وبنو جابر: ولهؤلاء دور هام في تعريب قسم من سكان المغرب على سواحل الأطلسي، بمصاهرتهم للبربر، وبالاحتكاك بهم[١].

٣. ثورات الأندلس ضد الموحدين، ومن أشهر هذه الثورات: ثورة محمد بن مردنيش الذي لم يتم القضاء عليها إلا بعد ربع قرن من تحالفه مع النصارى ولم يبال ابن مردنيش أن يتحالف مع النصارى من أجل القضاء على نفوذ الموحدين في الأندلس، ولقد كلفت هذه الثورة دولة الموحدين الأموال الكثيرة وقتل في تلك المعارك خيرة رجالهم، وثورة ابن هود، وعامل بالنسبة الذي التجأ إلى ملك ليون.

وتقاعس الأندلسيون عن نصرة الموحدين لأول فرصة واتتهم، عندما أهانهم الوزير ابن جامع خلال معركة العقاب[٢]

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصلابي، ص: ٤١٣.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر، ص: ٨٣.

٤. النزاع على الخلافة بين الموحدين ولم يستطيعوا أن يضعوا نظاماً ثابتاً لتولي الخلافة عندهم:

كان لهذا النزاع آثار وخيمة على الدولة ومصيرها، فمنذ وفاة المستنصر أصبح من المعتاد أن يكون على رأس الدولة أكثر من خليفة، فاضطر كل منهم أن يستنجد بعناصر من قبائل، الموحدين والعرب المهاجرين وأصحاب المصالح من حكام الولايات المستبدين، بل وبأعدائهم من النصارى فوجدت مراكز القوى في النزاع فرصة سانحة لبسط نفوذها وتولية من تشاء وعزل من تريد، فسقطت هيبة الخلافة مما ساعد على اضمحلالها وزوالها، ونستطيع أن نحدد آثار طريقة اختبار الخليفة وما أعقبها من نزاع على السلطة على كيان الدولة في ثلاثة مظاهر: تعدد الخلفاء في وقت واحد والاستعانة بالنصارى، وتولية حكام ضعاف[1].

. ولما تولى الخلافة عبد الواحد بعد وفاة يوسف المستنصر خالف عليه بعد شهرين ابن أخيه العادل بن المنصور بمرسية، وحسم الأمر بخلع عبد الواحد ثم قتله والإجماع على خلافة العادل، وبعد قليل خرج على العادل واليه على قرطبة في ٦٢٣هـ / ١٢٢٦م السيد أبو محمد عبد الله العباسي، وبمقتل العادل بايع الموحدون المأمون ابن المنصور، فلما خشي الأشياخ قوة شخصيته بايعوا يحيى بن الناصر، وظل كل منهما مدعياً للأمر، عاملاً على إحراز النصر على منافسه طول خلافة المأمون وما يقرب من الأربعة أعوام من خلافة الرشيد (شوال ٦٢٤هـ /٦٣٣هـ) ١٢٢٦ . ١٢٢٧م، وفي عام ٦٢٩هـ / ١٢٣١م ظهر إلى جانبهم خليفة ثالث لما ادعى بالأمر السيد أبو موسى بن المنصور بسبتة وتسمى بالمؤيد، فلما حصره المأمون فر إلى ابن هود في الأندلس، ولاريب في أن هذا النزاع أفقد الخلافة هيبتها، فأهملت الإدارة وانتشرت الفتن، وقلت المجابي، واستبد الولاة بولاياتهم عندما اندلعت نار الحروب الضاربة بين بني عبد المؤمن[2]

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤١٣

[2] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ٨٤.

٥ . **صراع الأمراء وتحالفاتهم**، دخل زعماء الموحدين، من البيت الحاكم في تحالفات مع النصارى من أجل تحقيق كل فريق النصر على خصومه فأبو محمد عبد الله البياسي يستعين بالنصارى، والمأمون لما نكث أهل مراكش بيعته وهو بالأندلس استنصر ملك قشتالة الذي اشترط عليه عشرة حصون يختارها وأن يبني كنيسة للروم بمراكش مقابل عدد من الفرسان الروم، وهكذا دفع الصراع أمراء الموحدين إلى التنازل عن بعض أراضي الدولة في سبيل تحقيق مصالحهم الخاصة.

. إن النزاع بين أمراء البيت الحاكم في دولة الموحدين جعل المتنفذين من أشياخ الموحدين أو الإداريين أو القواد العسكريين يتدخلون في اختيار الحكام منذ وفاة المستنصر، ولما كانت الخلافة قد استقرت في بني عبد المؤمن فقد عمدوا لتولية حكام ضعفاء صغار السن أو مقعدي الشيوخ أو باحثين عن ملذاتهم[١].

إن ضعف الخلفاء يسَّر طريق مجموعات متعددة للسيطرة والتسلط على مقدرات الدولة والتحكم في سياستها وتوجيهها، وكان لأشياخ الموحدين أثر بالغ في ذلك من دون سائر المجموعات الأخرى إدراية أم قبلية أم عسكرية[٢].

ومنذ وفاة الناصر استبد هؤلاء الأشياخ بالأمور فرفعوا للخلافة من شاءوا وخلعوا من كرهوا، وقتلوا من أرادوا، وصار أمرهم كالأتراك مع بني العباس[٣].

إن أشياخ الموحدين الذين إحتلوا المراكز الأساسية في الدولة أصبحت لهم مكاسب لن يتخلوا عنها، فكانوا دائماً يبسطون نفوذهم لكي لا يفلت ذمام الحكم من أيديهم ولهذا استبدوا، ولما كانت مصالحهم متقاربة فقد أغرقوا الدولة في فتن وثورات لم تهدأ[٤].

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ٨٥.

[٢] المصدر السابق، ص: ٨٦.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٨٧.

[٤] المصدر نفسه، ص: ٨٩.

إن هذا الخلاف الشديد والنزاع الذي استحكم بين أبناء عبد المؤمن وظهور الخلفاء الضعفاء وتحكم أشياخ الموحدين في العاصمة، ونشوب الفتن فيها، جعل ولاة الأقاليم يستبدون بولاياتهم، وانفصل بعضهم نهائياً عن مراكش، لقد رافق الضعف السياسي المتمثل في الخلفاء وأشياخ الموحدين والولاة ضعف إداري ظهر في تحكم الولاة والوزراء.

لقد كانت الإدارة الموحدية في عصر ازدهار الدولة تمتاز بدقة الجهاز الإداري، وحسن ضبطه، ومتابعة الخلفاء وإشرافهم بأنفسهم، وكان عمل الوزراء والولاة هو التنفيذ والتبليغ، ومن ظهرت منه بوادر الاستبداد والتهاون نكب بلا رحمة[١].

٦. الانهيار العسكري الذي أصاب دولة الموحدين، وتغير أهداف الجيش الموحدي:

لاشك أن النزاع السياسي وضعف الهيكل الإداري للدولة تركا أثراً بالغاً في التنظيم العسكري للدولة، ولقد كانت قوات الموحدين العسكرية على مستوى رفيع من التعبئة المعنوية والاستعداد المادي، ولذلك حقَّقوا انتصارات هائلة على خصومهم، وحفظوا دولتهم من الطامعين في إسقاطها، إلا أن جيش الموحدين في زمن السلطان الناصر فقد قدرته على الضبط والربط وعلى وضع الخطط الحربية وضعاً صحيحاً وتنفيذاً أكيداً.

وظهر ذلك العجز القيادي والقدرة القتالية في معركة العقاب التي إنهزم فيها جيش الموحدين وتأثرت معنوياتهم القتالية ولم يستطع بعد تلك الكسرة العنيفة في موقعة العقاب أن يغدو جيشاً قادراً على تحقيق انتصارات بل تابع جيش الموحدين مسيرته الهابطة، فتكرس انحلاله وتفككه في الهزائم المتكررة أمام النصارى في الأندلس وأمام بني مرين في المغرب الأقصى[٢].

لقد ساهم في ضعف وانحلال الجيش، ضعف مبادئ الموحدين في نفوس الجند الذين أصبح همهم الأوحد الغنائم وجمعها لا القتال في سبيل المعتقد والمبدأ والفكرة.

---

[١] المصدر السابق، ص: ٩١ ، ٩٢.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤١٥.

ولقد تبدل هدف القادة في استعمال الجيش، فبدلاً من ردع الثوار المحاربين وجهاد الأعداء الكافرين تحوّل إلى اتخاذ الجيش أداة سياسية للاستعلاء وفرض النفوذ لحساب أشخاصهم أو لحساب غيرهم ولذلك فتحت أبواب الانضمام للجيش من المرتزقة من عرب وعجم.

لقد كان إدخال العربان في الجيش الموحدي كافة على أهدافه ونظامه، إذ لا همَّ لهم سوى السلب والتسلط من مراكز القوة. وجد هؤلاء العربان سوقاً رائجة وتجارة رابحة، ففي كل فتنة تنشب وكل حرب تندلع كان لهم دور بارز يشايعون هذا أو ذاك متوخين مصلحتهم المادية، ولا يتورعون عن بيع قائدهم مقابل حفنة من المال فينهزمون ساعة الصدام الحاسمة[1].

٧. الترف والانغماس في الشهوات الذي وقع فيه خلفاء الموحدين المتأخرون وانهماكهم في ملذاتهم غير مهتمين بشؤون الدولة والحكم، فقد فقدت الدولة سهر الحكام الأول وتدقيقهم في أمور الحكم، وإشرافهم على كل أمر جَلَّ أو صَغُر، فالناصر منذ هزيمة العقاب احتجب وانهمك في الملذات حتى وافاه حينه، ويوسف المستنصر لم يخرج من حضرته طوال أيام خلافته، وكان مولعاً بانتجاع البقر والخيل في رياضته وتوفي من طعنة بقرة شرود، والمرتضى كان ميالاً للدعة والمسالمة، ومولعاً بالسماع ليلاً ونهاراً[2] وكذلك المقربون منهم.

وهكذا أصبح هؤلاء المترفون لايهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولاينهون عنها، لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها، قال تعالى: " فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ" (هود، آية: ١١٦).

---

[1] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.

[2] السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد:ص: ١٨٦، عبد الكريم زيدان.

وقوله تعالى:" وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ".

أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة، والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[١].

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب قال تعالى:" وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ" (الأنبياء ، آية : ١١ ـ ١٢).

ومن سُنة الله تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى:" وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" (الإسراء ، آية : ١٦).

وجاء في تفسيرها: وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي: متنعّميها وجبَّاريها وملوكها ففسقوا فيها فحقَّ عليها القول فأهلكناها. وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع، لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجه الأمر إليهم آكد[٢]

٨. **تقلص أراضي الدولة في أفريقيا** والمغرب والأندلس فنتيجة لضعف السلطة المركزية، وتناحر عناصرها اغتنمت المراكز البعيدة الفرصة وانفصلت، فخرجت الأندلس عن طاعة الموحدين وتبعتها أفريقيا وتقلص نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى نفسه حتى سقطت عاصمتهم في يد المرينيين. ففي فترة الانحلال ازداد ضغط الممالك المسيحية على الأراضي الأندلسية: أرغون من الشرق وقشتالة من الشمال والبرتغال من الغرب، وظهر في شرق

---

[١] المصدر السابق.

[٢] تفسير الألوسي (١٥ / ١٢) .

الأندلس أبو عبد الله محمد بن هود في رجب ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م في مرسية وحكم تحت شعار العباسيين وسيطر ابن هود على معظم الأندلس وخلع أهل الأندلس طاعة الموحدين: (وقتلوهم في كل بلد منها وأجلوهم واستأصلوهم إلا من ستره الله منهم وأخفاه في ذلك الوقت عنهم)[١]

ودخلت الأندلس في دور طوائف ثالث فقام سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م زيان بن مردنيش، وفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م ثار محمد بن يوسف بن الأحمر بأرجونة، ونازع ابن هود على زعامة الأندلس فما جاء عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م إلا وسيطر على غرب الأندلس[٢].

زالت هيبة الموحدين من نفوس الأندلسيين وتحولوا شطر تونس حيث القوة الموحدية الجديدة بقيادة الحفصيين واضطرت الأندلس لمجابهة النصارى منفردة فابتلعوها ما عدا دولة بني نصر في غرناطة، وسقطت حواضر الأندلس واحدة تلو الأخرى، فسقطت قرطبة عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م، وبلنسية في عام ٦٣٦هـ / ١٢٣٩م، ومرسية ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م، وإشبيلية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م وكان هذا السقوط المريع مدة قصيرة جداً. وانفصلت أفريقيا سنة ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م، وقد ساعد على قيام دولة الحفصيين بها بعدها عن العاصمة، ثم إن الصراع والثورات والفتن جعلت أهل المدن يتشوقون للاستقرار والأمن فوجدوه مع الحفصيين، وبخاصة أن لهم سابقة وفضلاً في الدعوة وبناء الدولة الموحدية بالمغرب، وواتتهم الفرصة لما تنكر المأمون للدعوة المهدية وأزال رسومها، فجاء أبو زكريا بن أبي محمد عبد الواحد الحفصي إلى تونس وسيطر عليها، واستقل بها، و اتبع نظم الموحدين وكتب للجهات بطلب البيعات[٣]

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ١٠٨.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، ص: ١٠٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

وفي الوقت نفسه انفصلت فيه الأندلس وأفريقيا وبدأت أحوال الخلفاء في المغرب تضطرب والولايات تستقل[١].

فسيطرت قبائل بني مرين على بوادي المغرب، وانفصل بنو عبد الواد في تلمسان، واستقل الحفصيون في تونس وطرابلس، فهذه الانقسامات ساهمت في إضعاف الدولة الموحدية[٢].

٩. فتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين، بل هناك من زعماء الموحدين من أعلن البراءة منها:

كانت فكرة الموحدين قائمة على العقائد ومرتكزه على المهدية الهادفة للتجديد وهي سر حيوية التنظيم الدقيق في أجهزة حزب الموحدين، والذين توصّلوا من خلاله إلى الدولة، فأنتج هذا الإيمان طاعة عمياء يسّرت تنظيم الحزب فالجيش ثم الإدارة. يصف لنا المراكشي نوعية تلك الطاعة فيقول: {ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد إلى أن بلغوا في ذلك لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء}[٣].

ولم يكن لهم من هدف في بداية أمرهم سوى تحقيق فكرتهم في واقع الحياة ونشرها في العالمين.

ولما نجح عبد المؤمن في الانتقال بالدعوة من الثورة إلى نظام الدولة رافق ذلك تبدل في مفهومه الأساسي، فنقل الدولة من دولة الفكرة إلى دولة الوراثة، فكان انحراف في المبادئ التي قامت عليها فكرة الموحدين، لأن دولة الفكرة والمبادئ تقدم على مؤسساتها من يؤمن بالفكرة والمنهج والمبادىء التي قامت عليها ويلتزمها، وتبعد من يحيد عنها.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤١٨ .

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤١٨.

[٣] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ص:١٩١.

ولكن دولة الوراثة لا تنظر إلا في تقديم من يثبّت أقدامها، ولهذا استقدم عبد المؤمن قبيلة كومية متقوياً بهم، وولاهم المناصب في الدولة، وأصبحوا متقدمين على كثير من الموحدين، ولم تكن كومية مؤمنة بأفكار الدولة الأساسية بل خاضعة لسيادة الدولة، ولهذا فإن كثيراً ممن قدم منهم كان يسعى لمصلحة نفسه غير مهتم بأفكار لم يؤمن بها، ومع تقادم الزمن ضعفت الفكرة في النفوس وذبل الإيمان في القلوب فدب النزاع على المصالح الخاصة كما يصور ذلك خير تصوير النزاع على العرش واستبداد مراكز القوة المختلفة في الدولة.

ويبدو أن الخلفاء أنفسهم فقدوا الإيمان بالفكرة، فالمنصور يصرّح بذلك لخاصته والمأمون يمحو آثارها ويزيل رسومها، ويبدو أن هذا التحول قد بدأ في أيام عبد المؤمن، ومع مرور الأيام حدث انفصام بين الفكرة والدولة، فتجسّد ذلك عملياً في خلافة المستنصر، وقام على مرتكز نظري في عهد المأمون ولا ريب أن الفكر إن لم يداوم أصحابه عليه يتحجَّر ويغدو آفة عليهم[١].

كما لا يخفى انحراف الفكر التومرتي الذي فُرِض على الناس بالسيف والقوة مع كونه يتنافى مع الإسلام الصافي والعقيدة الصحيحة والتصور السليم، فجعلت الناس تنسل من المنظومة التومرتيه التي أسست عليها دولة الموحدين في بداية أمرها، محاولين البحث عن المنهج الصحيح الذي ينسجم مع الفطرة والفهم السليم للإسلام.

كانت هذه بعض الأسباب التي ساهمت في سقوط دولة الموحدين[٢].

- **خلفاء الموحدين:**

ـ عبد المؤمن بن علي ٥٢٤ ـ ٥٥٨ هـ / ١١٢٠ ـ ١١٦٣ م.

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤١٩.

[٢] المصدر نفسه ص٤٢٠.

- أبو يعقوب يوسف ٥٥٨ . ٥٨٠ هـ / ١١٣٦ . ١١٨٤ م.
- أبو يوسف يعقوب المنصور ٥٨٠ . ٥٩٥ هـ / ١١٨٤ . ١١٩٩ م.
- أبو محمد عبد الله الناصر ٥٩٥ . ٦١٠ هـ / ١١٩٩ . ١٢١٣ م.
- أبو يعقوب يوسف المستنصر ٦١١ . ٦٢٠ هـ / ١٢١٣ . ١٢٢٤ م.
- عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ٦٢٠ . ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م.
- أبو عبد الله بن يعقوب المنصور "العادل" ٦٢١ . ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٤ . ١٢٢٧ م.
- يحيى بن الناصر ٦٢٤ . ٦٢٧ هـ / ١٢٢٧ . ١٢٣٠ م.
- المأمون بن المنصور ٦٢٧ . ٦٣٠ هـ / ١٢٣١ . ١٢٣٢ م.
- الرشيد بن المأمون بن المنصور ٦٣٠ . ٦٤٠ هـ / ١٢٣٢ . ١٢٤٢ م.
- السعيد علي أبو الحسن ٦٤٠ . ٦٤٦ هـ / ١٢٤٢ . ١٢٤٨ م.
- أبو حفص عمر المرتضى ٦٤٦ . ٦٦٥ هـ / ١٢٤٨ . ١٢٦٦ م.
- أبو دبوس الواثق بالله ٦٦٥ . ٦٦٨ هـ / ١٢٦٦ . ١٢٧٠[١] م.

ثانياً: سقوط غرناطة

سقطت دولة الموحدين على يد المرنيين في المغرب الأقصى، وملك محمد بن يوسف بن هود قواعد الأندلس وظهر محمد بن يوسف الأنصاري في الجنوب، وغلب بعض الأمراء على إشبيلية، ونشب صراع على السلطة والملك بين أمراء الأندلس ودخلوا في قتال عنيف لنزع الحصون والقلاع من بعضهم بعضاً.

واستطاعت مملكة قشتالة النصرانية احتلال قرطبة في ٢٣ شوال ٦٣٣هـ / ٢٩ حزيران (يونيو) ١٢٣٦م، وكان سبب سقوط قرطبة المعاصي والآثام والابتعاد عن منهج الله

[١] المصدر نفسه صـ٤٢٠.

العظيم، وبالتالي أصابهم الضعف ودخلوا في الفوضى والنزاع والخلاف فقادهم ذلك إلى فقدان الأوطان والأرض، ومن ثم ضاعت الحضارة والتراث والإسلام، وبدأت مدن الإسلام الكبرى تتساقط في يد النصارى، فسقطت بلنسية عام ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م، ثم شاطبة ودانية وفي عام ٦٤٦ هـ. سقطت إشبيلية بعد حصار شديد ودفاع من المسلمين، ودام الحصار ثمانية عشر شهراً، أبدى فيها المسلمون آيات من البسالة والجلد والدفاع عن إشبيلية، وأخيراً جاء مصير أسود محتوم واستسلمت لفرديناند الثالث على أن يخيّر المسلمون بين البقاء في إشبيلية أو يهاجروا وفي الحال حُوِّل مسجدها الجامع إلى كنيسة، وأزيلت منها معالم الإسلام وتوزع أهلها في الحواضر الإسلامية الباقية. لقد كان سقوط إشبيلية إيذانا بسقوط سائر المدن والحصون الإسلامية فيما بينها وبين مصب الوادي الكبير فاستولى النصارى تباعاً على: شريش، شذونة، قادس، شلوقة، غليانة، روضة، ثغر شنتمرية، وغيرها...

وتحالف ابن الأحمر ـ ملك غرناطة ـ مع النصارى وعاونهم في الاستيلاء على قادس، وبهذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأرض الإسلامية في غربي الأندلس، وانكمشت رقعة الدولة الإسلامية بسرعة مروعة[1].

ويصف الشاعر أبو البقاء صالح بن شريف الرُّندي تلك الأوضاع التي وصل إليها حال الأندلس، ووضَّح في قصيدته أسباب تلك المأساة التي وقعت فيها شعوب الأندلس من تركهم لعوامل القوة والنصر، وحبهم للدعة والخنوع والترف، لقد عبّرت تلك القصيدة عن مشاعر وأحاسيس الشاعر بوضوح وأعطت تلك الأحاسيس الصادقة والمشاعر المخلصة والحزن العميق على ما حلّ بالمسلمين روحاً لتلك القطعة الشعرية المعبرة عن تلك الأحداث الجسام، عندما سقطت القواعد الأندلسية الكبرى، كقرطبة، وبلنسية وإشبيلية

[1] المصدر نفسه .٤٢٥.

ومرسية بيد النصارى. لقد صوَّر الشاعر المسلم أبو البقاء الرُّندي مأساة الأندلس في قصيدة تقطر ألما وحزنا، فلله دره، فلكم أغنت عن عشرات الكتب والمجلدات.

قال الشاعر:

لكل شيءٍ إذا ما تم نقصان
فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دُولٌ
من سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد
ولا يدوم على حال لها شان
أين الملوك ذوو التيجان من يَمَنٍ
وأين منهم أكاليل وتيجان
أتى على الكل أمر لا مردّ له
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
فجائع الدهر أنواع منوعة
وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهّلها
وما لما حل بالإسلام سلوان
وهي الجزيرة أمرٌ لا عزاء له
هوى له أحُدُ وانهدّ ثهلان[1]
أصابها العين في الإسلام فامتحنت
حتى خلت منه أقطار وبلدان

[1] أحد وثهلان: جيلان.

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية

وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم

من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص وما تحويه من نُزهٍ

ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كُن أركان البلاد فما

عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكي الحنفية البيضاء من أسف

كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية

قد أقفرت ولهما بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما

فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكي وهي جامدة

حتى المنابر ترثي وهي عيدان

يا غافلاً وله في الدهر موعظة

إن كنت في سنة فالدهر يقظان

وماشياً مرحاً يُلهيه موطنه

أبعد حمص تغر المرء أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها

وما لها مع طول الدهر نسيان

يا أيها البيضاء رايته

أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة

كأنها في مجال السبّق عُقبان

وحاملين سيوف الهند مرهفة

كأنها في ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر في دعة

لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس

فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم

قتلى وأسرى فما يهتز إنسان

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم

وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم

أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم

أحال حالهم كفرٌ وطغيان

بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم

واليوم هم في بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم

عليهم ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم

لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رُبَّ أمٍّ وطفل حيل بينهما

كما تفرَّق أرواح وأبدان

وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت

كأنما هي ياقوت ومرجان

يقودها العلج للمكروه مُكرهة

والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

إذ كان في القلب إسلام وإيمان[1]

وكان لابن الأحمر من هذه الحوادث موقفاً شاذّاً مؤلماً، فقد كان يقف إلى جانب أعداء أمته ودينه، وكان يبذل للنصارى ما استطاع من العون المادي والأدبي، وكان معظم الزعماء المسلمين من حكام المدن والحصون الباقية . قد أيقنوا بانهيار سلطان الإسلام في الأندلس . يهرعون إلى احتذاء أمثاله، وإلى الانضواء تحت لواء ملك قشتالة[2].

لقد غدر النصارى بحليفهم محمد بن يوسف الأحمر فغزوا أراضيه وشنُّوا عليه الحرب، فتغيرت حساباته وطمع إلى جمع كلمة الأندلس تحت لوائه ودمج ما تبقى من تراثها وأراضيها في مملكة موحدة تكون ملكاً له ولعقبه، فصانع النصارى، وتجنب الاشتباك معهم فشهد التهامهم لأشلاء الوطن الممزق وقلبه يفطر حزناً وأسى[3].

واستطاع هذا الرجل العجيب أن يؤسس دولة في الأندلس في غرناطة في الجنوب الشرقي في الأندلس، حاول ابن الأحمر أن يواجه النصارى، وخرج عن طاعتهم وأعلن النصارى

---

[1] نفح الطيب (٤/ ٤٨٦ ، ٤٨٧، ٤٨٨).

[2] نهاية الأندلس، ص: ٣٣.

[3] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٢٧.

الحرب عليه في عام ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م، فردَّهم بمعاونة المجاهدين الذين قدموا من العدوة المغربية، وهذا أول انتصار كبير منذ انهيار الموحدين، وفي عام ٦٦٢ هـ استطاع المرينيون بقيادة الفارس عامر بن إدريس فتح مدينة شريش التي اضطر ابن الأحمر في عام ٦٦٥ هـ أن يتنازل عنها إلى جانب أكثر من مائة موضع غربي الأندلس منها المدينة والقلعة[١].

وفي عام ٦٦٨ هـ ساءت العلاقات بين ابن الأحمر وملك قشتالة الذي بدأ بالجزيرة الخضراء خراباً، فطلب ابن الأحمر العون من أمير المسلمين أبي يوسف المريني، ولكنه مات قبل أن يرى ما حدث، وذلك في ٢٩ جمادى الثانية ٦٧١ هـ (كانون الأول ديسمبر ١٢٧٢ م) وقد قارب الثمانين من عمره، بعد أن وطد الملك لبني نصر بقي زهاء مائتين وخمسين عاماً أخرى[٢].

ثالثاً : وصفٌ حي لتسليم غرناطة

وفي الثاني من ربيع الأول ٨٩٧ هـ، كانون الثاني "يناير" سنة ١٤٩٢ م وفي وقت الصباح تم تسليم المدينة، فما إن تقدم النصارى الإسبان القشتاليون من تل الرحى صاعدين نحو الحمراء حتى تقدم أبو عبد الله الصغير وهو يلبس أثواب الهزيمة وعلى وجهه العار والشنار، وقال للقائد القشتالي بصوت مسموع: (هيا يا سيدي في هذه الساعة الطيبة وتسلم القصور . قصوري . باسم الملكين العظيمين اللذين أراد لهما الله القادر أن يستوليا عليها، لفضائلهما وزلات المسلمين)[٣].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٢٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٢٨.

[٣] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٤).

وتم تسليم القصور الملكية والأبراج على يد الوزير ابن كماشة الذي ندبه أبو عبد الله الصغير للقيام بهذه المهمة، وما كاد الكردينال وصحبه يجوزون إلى داخل القصر المنيف حتى صعدوا ووضعوا فوق برجه الأعلى صليباً كبيراً فضياً وبجانبه علم قشتالة وعلم القديس ياقب، وأعلن من فوق البرج ثلاثاً أن غرناطة أصبحت ملكاً للملكين الكاثوليكيين.

وأخذ رنين وبكاء يتردد في غرف قصر الحمراء وأبهائه، وكانت الحاشية منهمكة في حزم أمتعة الملك المخلوع في ركب قائم مؤثر يحمل أمواله وأمتعته ومن ورائه أهله وصحبه القلائل وبعض الفرسان المخلصين، وكانت أمه الأميرة عائشة تمتطي صهوة جوادها، يشع الحزن من محياها الوقور. وحين بلغ الباب الذي سيغادر منه المدينة إلى الأبد ضج الحراس بالبكاء وتحرك نحو منطقة البشرات، وفي شعب من الشعاب المطلة على غرناطة وقف أبو عبد الله الصغير مودعاً لمدينته وملكه، فأجهش بالبكاء على هاتيك الربوع العزيزة، فصاحت به أمه عائشة الحرة: "ابك مثل النساء مُلكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال".

إن هذه الكلمة حري بها أن تكون إطاراً لمأساة غرناطة وقد جمعت فيها كل العبر والأمثلة والحكم.

يقول الأستاذ نجيب زبيب عن هذه الكلمة: ولما حاولت التعليق عليها ارتعشت يدي وتساقطت الدموع من عيني أسىً وخشوعاً وتهيباً من عظمتها، لأنها أصبحت كلمة تاريخية، لا بل وأعظم كلمة قيلت في سقوط غرناطة[١].

ولقد صور أحد الشعراء على لسانها قولها:

تذكر الله باكياً هل يرد الدمع

مجداً ثوى وعاراً أقاما

[١] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ١٢٦ ، ١٢٧).

هدّني فوق خطبنا أنك ابني

يا لأمٍّ تسقى العذاب تؤاما

لم تصن كالرجال ملكاً فأمسى

ركنه اندك فابكه كالأيامى[1]

يقول المؤرخ عنان: وتحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس ثمة في تاريخ تلك الفترة شخصية تثير الإعجاب والاحترام ومن الأسى والشجى قدر ما يثير هذه الأميرة النبيلة من شجاعة وإقدام وتضحية[2].

إن لبعض النساء مواقف مشرفة في تاريخ الأندلس الجهادي تصلح نبراساً لفتياتنا وأمهاتنا وبناتنا وأخواتنا وما قصة عائشة الحرة مع ابنها إلا واحدة منها[3].

وبعد شهور من مصرع غرناطة غادر أبو عبد الله الصغير إلى الغرب مع أسرته وأمواله، ونزل مدينة مليلة ثم استقر في فاس[4]، مستجيراً بالسلطان أبي عبد الله محمد الشيخ زعيم بني وطاس، معتذراً عما أصاب الإسلام في الأندلس على يديه، ونظم هذا الاعتذار بشعر أبي عبد الله محمد بن عبد الله العربي العقيلي، وقدمه على لسان أبي عبد الله الصغير لزعيم بني وطاس في رسالة ومنها في مطلعها:

مولى الملوك ملوك العرب والعجم

رعياً لما مثله يُرعى من الذمم

بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن

جار الزمان عليه جور منتقم

---

[1] تاريخ دولة المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٣.

[2] نهاية الأندلس بتصرف، ص: ١٩٧.

[3] نفح الطيب (٦/ ٢٧٨).

[4] نفح الطيب قلا عن سقوط غرناطة، ص: ٩٦.

حتى غدا ملكه بالرغم مستلباً
وأفظع الحظ ما يأتي على الرغم
حكم من الله حتى لا مردّ له
وهل مرد لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاك الله صولتها
تصول حتى على الآساد في الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول
نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهامٌ للردى صبب
يرمي بأفجع حتف من بهن رُمي
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا
وأي ملك يظل الملك لم ينم
يبكي عليه الذي قد كان يعرضه
بأدمع مزجت أمواهها بدم[١]

ومرَّت سنون، وخبا أثر مصرع الأندلس شيئاً فشيئاً من نفوس المسلمين، وأسدل ستار من النسيان عليه، ولكن مأساة المسلمين المتنصرين " أو الموريسكيين " لم تقف وظهرت محاكم التفتيش التي هدفت إلى إبادة المسلمين في الأندلس.

لقد بدأت بمصرع غرناطة مرحلة مؤلمة ومؤسفة لشعب مغلوب، وعدو خائن نقض شروط المعاهدة بنداً بنداً، فمنعوا المسلمين من النطق بالعربية في الأندلس، وفرضوا إجلاء العرب الموجودين فيها، وحرق من بقي منهم، وزاد الكردينال "كمينس" على ذلك، فأمر

[١] نفح اطيب (٦/ ٦١٨ إلى ٦٨٨).

بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ونظمت أكداساً في أكبر ساحات المدينة وفيها علوم لا تقدر بثمن، بل هي خلاصة ما بقي من التفكير الإنساني، وتمّ حرقها[١].

لقد ظن رئيس الأساقفة بفعله ذلك أنه سوف يقضى على الإسلام في إسبانيا وأنَّ هذا له، وقد تركت حضارة الإسلام في الأندلس من الآثار ما يكفي لتخليد ذكرها على مر الدهور وكر العصور، وإن للإسلام جوله وصولة من جديد بإذن الله في ديارنا التي سلبت من أيدينا وسيكون ذلك قريباً عندما يمكن الله لهذه الأمة وإنها لتمر في مراحلها المعاصرة نحو وعد الله بالنصر والفوز والفلاح "وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيبًا".

رابعاً : محاكم التفتيش

هدفت إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكَنَسِّية وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثواراً وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمزقوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة، وفي تموز "يوليو" ١٥٠١م، أصدر الملكان الكاثوليكيان أمراً خلاصته: "أنه لما كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، ويعاقب المخالفون بالموت أو مصادرة الأموال".

فهاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها، ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع، فعند التبليغ عن مسلم أنه يخفي إسلامه، يزج به في السجن وكانت السجون مظلمة عميقة رهيبة، تغص بالحشرات

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤٥٤.

والجرذان، يقيد فيها المتهمون بالأغلال بعد مصادرة أموالهم لتدفع نفقات سجنهم: ومن أنواع التعذيب إملاء البطن بالماء حتى الاختناق، وربط يدي المتهم وراء ظهره، وربطه بحبل فوق راحته وبطنه ورفعه وخفضه معلقاً، سواء بمفرده أو مع أثقال تربط معه، والأسياخ المحمية، وسحق العظام بآلات ضاغطة، وتمزيق الأرجل وفسخ الفك، ولا يوقف التعذيب إلا إذا رأى الطبيب حياة المتهم في خطر، ولكن التعذيب يستأنف متى عاد المتهم إلى رشده أو جف دمه[١].

وقرار المحكمة لا يتم إلا عند التنفيذ في ساحة البلدة، وهو إما سجن مؤبد، أو مصادرة أموال وتهجير، أو إعدام حرقاً وهو الحكم الغالب عند الأحبار الذين يشهدون مع الملكين الكاثوليكيين حفلات الإحراق[٢].

ومما يذكر: أن هناك عذاباً اختص به النساء وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويجلسونها على قبر من القبور ويضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها وتظهر لمن يراها عن كثب كأنما هي جنية لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجن أو تموت جوعاً ورعباً[٣].

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه، وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها

---

[١] محاكم التفتيش، ص: ٩١ نقلاً عن سقوط غرناطة، ص: ١٠٠.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنازير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرَّها، ومصيبة ما أعظمها، وطامة ما أكبرها[1] .

. وانطفأ من الأندلس الإسلام والإيمان، فعلى هذا فليبك الباكون، ولينتحب المنتحبون، فإنا لله وإنَّا إليه راجعون، كان ذلك في الكتاب مسطوراً، وكان أمر الله قدراً مقدوراً[2].

. لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب.

. كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان.

فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكماً بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابساً للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام. لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين، حتى أنهم كانوا يكشفون عورة من يشكّون أنه مسلم فإذا وجدوه مختوناً أو كان أحد عائلته كذلك فليعلم أنه الموت نهايته هو وأسرته[3].

وكان دستور محاكم التفتيش في ديوان التحقيق يجيز محاكمة الموتى والغائبين وتصدر الأحكام في حقهم وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو تنبش قبورهم وتستخرج رفاتهم لتحرق في موكب (الأوتودافي) وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده فيقضي بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة[4].

---

[1] نهاية الأندلس، ص: ٣٢١.

[2] سقوط الأندلس، ص: ٧٢ .

[3] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

[4] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٥٦.

وكان أعضاء محاكم التفتيش يتمتَّعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه أية سلطة، وتحمي أشخاصهم وتنفذ أوامرهم بكل وسيلة، وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء إستعمال السلطة والقبض على الأبرياء، بل كثيراً ما وجد بين المحققين رجال من طراز إجرامي لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وكانت أحكام الغرامة والمصادرة أخصب مورد لاختلاس المحققين والمأمورين وعمال الديوان وقضاته وكانت الخزينة الملكية ذاتها تغنم مئات الألوف من هذا المورد، هذا بينما يموت أصحاب الأموال الطائلة في السجن جوعاً.

وكان العرش يعلم بهذه الآثام المثيرة ولا يستطيع دفعاً لها، ولأنه كان يرى فيها في الوقت نفسه أصلح أداة لتنفيذ سياسته في إبادة الموريسكيين الذين ظلوا دائماً موضع البغض والريب، وأبت إسبانيا النصرانية بعد أن أرغمتهم على اعتناق دينها أن تضمهم إلى حظيرتها، وأبت الكنيسة الإسبانية أن تؤمن بإخلاصهم لدينهم الجديد، وظلّت تتوجس من رجعتهم وحناهم لدينهم القديم وترى فيهم دائماً منافقين مارقين.

وإليك ما يقوله في ذلك مؤرخ إسباني كتب قريباً من ذلك العصر وأدرك الموريسكيين وعاش بينهم حيناً في غرناطة: وكانوا يشعرون دائماً بالحرج من الدين الجديد فإذا ذهبوا إلى القداس في أيام الآحاد فذلك فقط من باب مراعاة العرف والنظام، وهم لم يقولوا الحقائق قط خلال الاعتراف، وفي يوم الجمعة يحتجبون ويغتسلون ويقيمون الصلاة في منازلهم، وفي أيام الآحاد يحتجبون ويعملون، وإذا عُمِّد أطفالهم عادوا فغسلوهم سرّاً بالماء الحار. ويسمون أولادهم بأسماء عربية، وفي حفلات الزواج متى عادت العروس من الكنيسة بعد تلقي البركة تنزع ثيابها النصرانية وترتدي الثياب العربية ويقيمون حفلاتهم وفقاً للتقاليد العربية[1].

[1] . المصدر نفسه، ص: ٤٥٨. أي الأحكام.

وقد وصلت إلى المؤرخين وثيقة هامة تلقي ضوءاً أكبر على أحوال الموريسكيين في ظل التنصير وتعلقهم بدينهم القديم، كيف كانوا يتحيلون لمزاولة شعائرهم الإسلامية خفيةً ويلتمسون من جهة أخرى سائر الوسائل والأعذار الشرعية التي يمكن أن تبرر مسلكهم وتشفع لهم لدى ربهم[١].

خامساً: فتاوى هامة بخصوص الذين أكرهوا على التنصير

وهذه الفتاوى عبارة عن رسالة وجهت من أحد فقهاء المغرب إلى المسلمين الذين أكرهوا على التنصير، حيث قدم لهم بعض النصائح التي يُعين أتباعها على تنفيذ أحكام الإسلام عند الإكراه من قبل القوة النصرانية الحاقدة، وكانت تاريخ هذه الرسالة سنة ٩١٠هـ / ٢٨ نوفمبر ١٥٠٤م. وهذا نص الفتاوى:

الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً:

إخواننا القابضين على دينهم كالقابض على الجمر من أجزل الله ثوابهم فيما لقوا في ذاته، وصبروا النفوس والأولاد في مرضاته، الغرباء القرباء إن شاء الله من مجاورة نبيه في الفردوس الأعلى من جناته، وأرثوا سبيل السلف الصالح في تحمل المشاق وإن بلغت النفوس إلى التراق، نسأل الله أن يلطف بنا وأن يعيننا وإياكم على مراعاة حقه بحسن إيمان وصدق، وأن يجعل لنا ولكم من الأمور فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، بعد السلام عليكم من كاتبه إليكم، من عبيد الله أصغر عبيده وأحوجهم إلى عفوه ومزيده، عبيداً لله تعالى أحمد بن بو جمعة المغراوي ثم الوهراني، كان الله للجميع بلطفه وستره، سائلاً من إخلاصكم وغربتكم حسن الدعاء بحسن الخاتمة والنجاة من أهوال هذه الدار، والحشر مع الذين أنعم الله عليهم من الأبرار، ومؤكداً عليكم في ملازمة دين الإسلام، آمرين به من بلغ من أولادكم

[١] . الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣ / ٢٢٣) .

إن لم تخافوا دخول شر عليكم من إعلام عدوكم بطويتكم، فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس، وإن ذكر الله بين الغافلين كالحي بين الموتى، فاعلموا أن الأصنام خشب منجور وحجر جلمود لا يضر ولا ينفع ،وأن الملك ملك الله ما اتخذ الله من ولد وماكان معه من إله، فاعبدوه واصطبروا لعبادته، فالصلاة ولو بالإيماء، والزكاة ولو كأنها هدية لفقيركم أو رياء، لأن الله لا ينظر إلى صوركم، ولكن إلى قلوبكم، والغسل من الجنابة ولو عوماً في البحور، وإن منعتكم فالصلاة قضاءً بالليل لحق النهار وتسقط في الحكم طهارة الماء، وعليكم بالتيمم ولو مسحاً بالأيدي للحيطان، فإن لم يكن فالمشهور سقوط الصلاة وقضاؤها لعدم الماء والصعيد إلا أن يمكنكم الإشارة إليه بالأيدي والوجه إلى تراب طاهر أو حجر أو شجر مما يتيمم به، فأقصدوا بالإيماء نقله ابن ناجي في شرح الرسالة لقوله صلى الله عليه وسلم: «**فأتوا منه ما استطعتم**».

وإن أكرهوكم في وقت صلاة إلى السجود للأصنام أو حضور صلاتهم فأحرموا بالنية وانووا صلاتكم المشروعة وأشيروا لما يشيرون إليه من صنم ومقصودكم الله، وإن كان لغير القبلة تسقط في حقكم كصلاة الخوف عند الالتحام، وإن أجبروكم على شرب خمر فاشربوه لا بنية استعماله، وإن كلفوا عليكم خنزيراً فكلوه ناكرين إياه بقلوبكم ومعتقدين تحريمه، وكذا إن أكرهوكم على محرّم، وإن زوجوكم بناتهم فجائز لكونهم أهل كتاب وإن أكرهوكم على إنكاح بناتكم منهم فاعتقدوا تحريمه لولا الإكراه وأنكم ناكرون لذلك بقلوبكم، ولو وجدتم قوة لغيرتموه.

وكذا إن أكرهوكم على ربا أو حرام فافعلوا منكرين بقلوبكم، ثم ليس عليكم إلا رؤوس أموالكم وتتصدقون بالباقي إن تبتم لله تعالى، وإن أكرهوكم على كلمة الكفر فإن أمكنكم التوبة والالغاز فافعلوا وإلا فكونوا مطمئني القلوب بالإيمان إن نطقتم بها ناكرين لذلك، وإن قالوا: اشتموا محمداً فإنهم يقولون لهم مُمَدْ، فأشتموا مُمَداً، ناوين أنه الشيطان أو مُمَدْ اليهود، فكثير بهم اسمه وإن قالوا عيسى توفي بالصلب فانووا من التوفية الكمال

والتشريف من هذه وإماتته وصلبه، وإنشاد ذكره إظهار الثناء عليه بين الناس وإنه استوفاه الله برفعه إلى العلو وما يعسر عليكم فابعثوا فيه إلينا نرشدكم إن شاء الله على حسن ما تكتبون به.

وأنا أسأل الله أن يديل الكرة للإسلام حتى تعبدوا الله ظاهراً بحول الله من غير محنة ولا وجلة بل بصدمة الترك الكرام، ونحن نشهد لكم بين يدي الله أنكم صدقتكم الله ورضيتم به، ولابد من جوابكم والسلام عليكم جميعاً. بتاريخ غرة رجب عام عشرة وتسعمائة عرف الله خبره "يصل إلى الغرباء إن شاء الله"[١].

سادساً: قواعد محاكم التفتيش في معاملة مَن أُكرهوا على النصرانية

لقد نقل إلى المؤرخين (الدون روني) مؤرخ ديوان التفتيش الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها المسلمون المتنصرون في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة[٢].

يعتبر الموريسكي: وهو المسلم الذي أكره على الدخول في النصرانية، أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام:

إذا امتدح دين محمد، أو قال إن يسوع المسيح ليس إلهاً وليس إلا رسولاً، أو أن صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبلّغ عن ذلك، ويجب عليه أيضاً أن يبلغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحداً من الموريسكيين يباشر بعض العادات الإسلامية ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثياباً أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً باسم

---

[١] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين.

[٢] . الموسوعة العامة لتاريخ المغرب الإسلامي (٣ / ٢٢٦) .

الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده أو يسميهم بأسماء عربية أو يعرب عن رغبته في اتباعه هذه العادة أو يقول إنه يجب ألا يعتقد إلا بالله وبرسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر (السحور) أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة بأن يوجه وجهه نحو الشرق ويركع ويسجد ويتلو سوراً من القرآن، أو يتزوج طبقاً لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيديه على رؤوس أولاده أو غيرهم تنفيذاً لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة أو يدفنهم في أرض بكر أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة، منعتاً إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله أو يقول إنه لم يُنصَّر إيماناً بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله، لأنهم ماتوا مسلمين[1].

لقد استمرت محاكم التفتيش الظالمة وأصبح لهذا العمل الفظيع والحقير تلاميذ في الديار الإسلامية والعربية يمارسون القهر والظلم والجور بكل أنواعه على أبناء المسلمين الذين يطالبون بإعادة نظام الحكم الإسلامي في كافة شؤون حياتهم، إنها حلبة الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والعدل والظلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[2].

[1] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٠١ .

[2] المصدر نفسه.

سابعاً: أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عموماً

١. تفتت كيان الشمال الأفريقي بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بني مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عن ما تبقى للإسلام في الأندلس.

٢. سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد وتم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تمَّ بين (فرناندو) الذي أصبح ملكاً لمملكة أرجون وإيزابيلا التي تبوأت عرش مملكة قشتالة فيما بعد، ثم اتحدت المملكتان النصرانيتان وتعاونتا معاً بعد اتحادهما على القضاء كلية على سلطان المسلمين السياسي في الأندلس[1].

٣. الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات[2].

أما شوقي أبو خليل فيقول: والحقيقة تقول: إن الأندلسيين في أواخر أيامهم ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، وناموا في ظل ظليل من الغنى والحياة العابثة والمجون، وما يرضي الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، الذين كانوا يتدربون على السلاح منذ نعومة أظفارهم، ويرسلون إلى الصحراء ليتمرسوا على الحياة الخشنة الجافية، وغدا التهتك والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة والذهب واللآلئ.

---

[1] . مصرع غرناطة، ص: ٩٤، تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٦٤ .

[2] المصدر نفسه.

لقد ديست التقاليد وانتشر المجون، وبحث الناس عن اللذة في مختلف صورها، فكانت الخمور والقيان والمتع، وأقبلوا على الحياة يعبُّون في بحرها ويسكرون بعطرها، لقد استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وبحكم البديهة فإن شعباً يهوى إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة والمجون لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد، أو يتكون منهم جيش قوي، كفوء للحرب والمصاولة[1].

لقد تنافس الولاة والحكام في الجواري حتى أصبحت ساحات للمعارك والقتال، وأصبح الاقتران بالنصرانيات سُنة متبعة بينهم، ووقف عند هذه الحادثة: ذكر المؤرخون أن وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ كانت على يد وزيره محمد الرميمي بسبب النزاع حول فتاة نصرانية كانت لابن هود، فدبر له مكيدة قتل بها.

أهذه قيادة تستحق أن تحكم رقاب أمة محمد صلى الله عليه وسلم[2]؟ دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عند ما كان نشيد طارق بن زياد في العبور(الله أكبر) وبقينا فيها زمناً، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه خمر ليشرب قال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه[3].
يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل في الأندلس: كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أُشربت نفوسهم حُبه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم.
وضاعت ممالك الأندلس من أيدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

دوزن العود وهات القدحا

راقت الخمرة والورد صحا

---

[1] المصدر نفسه.

[2] . النصر والهزيمة، توفي خليل، ص: ١٢٣.

[3] . سقوط الأندلس، ص: ٢٧ .

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة، فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم
حلل الحرير عليكم ألوانا
ماكان أقبحهم وأحسنكم بها
لو لم يكن ببطرنة ماكانا

٤. الإختلاف والتفرق بين المسلمين: ولو نظرت إلى تاريخ العلاقات بين مملكة غرناطة ودولتي بني مرين وبني عبد الواد والدولة الحفصية لوجدت أمراً فظيعاً، وصل إلى حد الاشتباك والقتال بين المسلمين، بل أكثر من ذلك حيث تحالف المسلمون مع النصارى ضد إخوانهم في العقيدة من أجل شهوة السلطة، وكان هذا التفرق الذميم منذ ملوك الطوائف، بل إن التفرق من أبرز سمات عصر ملوك الطوائف، حتى قال ابن المرابط واصفاً حال المسلمين:

ما بال شمل المسلمين مبدد
فيها وشمل الضد غير مبدد
ماذا اعتذاركم غداً لنبيكم
وطريق هذا الغدر غير ممهد
إن قال لم فرطتم في دينكم
وتركتموه للعدو المعتدي
تالله لو أن العقوبة لم تخف
لكفى الحيا من وجه ذاك السيد[1]

[1] سقوط الأندلس ص٣٣.

إن سنة الله تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل سبحانه وتعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه إمام المحدثين البخاري رحمه الله تعالى: "**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**". **وفي رواية "فأهلكوا"**"[١].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود:"**فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف**"[٢].

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحضّ على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[٣]. والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم وهو الذي يؤدي إلى تفرقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين كل طرف يعتقد بطلان ما عند الطرف الآخر وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً «**وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة**» كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرىء العدو عليها فيطمع فيهاجمها ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها ويمسخ شخصيتها وفي ذلك انقراضها وهلاكها[٤].

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن نتوقى الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الأندلس وهلاكها واندثارها.

٥ . موالاة النصارى والثقة بهم والتحالف معهم حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

---

[١] صحيح البخاري بشرح ابن حجر (/ ١٠١، ١٠٢).

[٢] المصدر السابق (٩/ ١٠٢).

[٣] المصدر السابق.

[٤] تاريخولي المرابطين والموحدين ص٤٦٦.

إن الأمة حيث تخالف أمر ربها وتنحرف عن طريقه فلا بد أن يحل بها سخطه وتستوفي أسباب نقمته.

ـ قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ " (المائدة، آية: ٥٧).

ـ وقال تعالى:" لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللّهِ فِي شَيْءٍ " (آل عمران، آية: ٢٨).

ـ وقال تعالى:" لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ........" (المجادلة، آية: ٢٢).

وقد أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الأمة في الولاء والبراء فقال: «**أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله**»[١].

ويقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه ـ: «**من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب**»[٢].

فإذا كان هذا كله مسطراً في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير.

فهذا المعتضد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة، ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، ونراه جاهداً في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أما كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب.

---

[١] مسند أحمد (٤/ ٢٨٦).

[٢] البخاري مع الفتح، ك الرقائق رقم ٦٥٠١.

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء حتى أن بعض حكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام فهل يؤمن الذئب على الغنم[١].

وهذا أبو عبد الله الصغير سلطان غرناطة الأخير يرسل رسالة إلى ملك الإسبان يعتذر فيها عما فعله أبو عبد الله الزغل في إحدى المعارك ضد النصارى من قتل وجراح، ولما سقطت مالقة وحوّل مسجدها الأعظم إلى كنيسة ـ ردّه الله إلى أصله ـ أرسل أبو عبد الله الصغير إلى ملك النصارى يهنئه في ذلك، وسبب فرحه بسقوطها أنها كانت معقلاً لمنافسه عمه الزغل.

وعلى يد هذا الصغير قُدمت الأندلس للنصارى على طبق من ذهب، دون أن يجد النصارى في ذلك عناء يذكر.

وهل شكر النصارى لهذا المتخاذل خذلانه؟ لقد طردوه من الأندلس إلى المغرب، وفي ذلك يقول المقري ـ رحمه الله ـ ثم ارتحل السلطان أبو عبد الله إلى مدينة فاس حرسها الله ـ وما زال أعقابه بها إلى الآن من جملة الضعفاء السؤال، بعد الملك الطويل العريض، فسبحان المعز والمذل المانع المانح لا إله إلا هو[٢].

٦ ـ التخاذل عن نصرة من يحتاج النصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في تلك المرحلة معطلة كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**»[٣].

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً**"[٤].

---

[١] سقوط الأندلس صـ٢٤.

[٢] المصدر نفسه صـ٦٧، ٦٨.

[٣] البخاري مع الفتح، ك المظالم رقم ٢٤٤٢ (٥/ ١١٦).

[٤] المصدر السابق، ك المظالم (٥/ ١١٧) رقم ٢٤٤٦.

لقد تخاذل ملوك الشمال الأفريقي عن نصرة ما تبقى من الإسلام والمسلمين في الأندلس بسبب حروبهم الطاحنة المدمرة فيما بينهم، وانشغالهم ببعضهم، وأنهكت قواهم في حروب مريرة لم يستفد منها إلا أعداء الإسلام.

لقد كان التخاذل في الأندلس من زمن ملوك الطوائف حيث يتخاذلون عن نصرة من يستحق النصرة وإليك ما حدث في طليطلة:

قاد. عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف:

قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا هم له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد[1].

وبسبب هذا التخاذل سقطت كثير من الولايات الأندلسية في الفترة الزمنية بين عامي ٦٢٧ هـ . ٦٥٥ هـ وكانت سقوط أكثر الممالك الإسلامية في الأندلس في أقل من ثلاثين عاماً، تنقلب خارطة الأندلس، ويتمكن منها عبّاد الصليب، وتصبح معظم الأندلس أرضاً نصرانية تحارب الإسلام بكل ما تملك من أجل سحقه ومحوه من الوجود.

يقول المقري في نفح الطيب واصفاً استعداد النصارى لإحدى المعارك: وجاء الطاغية دون بطء في جيش لا يحصى ومعه خمسة وعشرون ملكاً، وذهب إلى طليطلة، ودخل على مرجعهم البابا، وسجد له تضرعاً وطلب منه استئصال ما بقي من المسلمين في الأندلس، وأكد عزمه على ذلك[2].

---

[1] التاريخ الأندلسي، صـ: ٣٣٢.

[2] نفح الطيب (١/ ٤٤٩ . ٤٥٠).

ويقول جوستاف لوبون في "حضارة العرب" إن الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة كانت مؤلفة من ١٤٠ ألف مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى أفريقية[١].

وكانت نتيجة تخاذل المسلمين كما قال الشاعر:

كم جامع فيها أعيد كنيسة
فأهلك عليه أسىً ولا تتجلد
أسفاً عليها أقفرت صلواتها
من قانتين وراكعين وسُجد
كم من أسير عندهم وأسيرة
فكلاهما يبغي الفداء فما فدى
كم من عقيلة معشر معقولة
فيهم تود لو أنها في ملحد
كم من تقيٍّ بالسلاسل موثق
يبكي لآخر في الكبول مقيّد
ضجّت ملائكة السماء لحالهم
وبكي لهم من قلبه كالجلمد
أفلا تذوب قلوبكم أخواننا
مما دهانا من ردى أو من ردي[٢]
أفلا تراعون الأذمة بيننا
من حرمة ومحبة وتودد
أكذا يعيث الروم في إخوانكم

[١] عوامل النصر والهزيمة، ص: ١٢١.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٧٠.

وسيوفكم للثأر تتقلد

يا حسرتى لحمية الإسلام قد

خمدت وكانت قبل ذلك توقد[1]

٧. غدر النصارى ونقضهم للعهود:

لم يكن النصارى عبّاد الصليب محلاً للعهود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر، فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[2].

قال تعالى:" وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ " (المائدة، آية : ١٤).

لقد سطّر النصارى في الأندلس تاريخا مليئاً بالدماء وهتك الأعراض وقتل النفوس وسبي النساء، قال تعالى:

- " لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ " (التوبة، آية: ١٠).
- "وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ " (البقرة، آية: ١٢٠).

لقد استماتت النصارى في حروبهم مع المسلمين فمارسوا كافة الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية، ولقد استطاعوا أن يضعوا برامج محكمة للقضاء على ملوك الطوائف ومن ثم على المسلمين عموماً، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة واستطاعوا أن يوحّدوا كلمتهم وأن يجعلوا صفهم متراصاً في مواجهة أمة الإسلام وإزالتها من الأندلس.

---

[1] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٦٣).

[2] اريخ دولتي المرابطين والموحدين ص: ٤٧٠.

٨ . إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية ونشأ على إثر ذلك عهد السنوات الصعاب، وكانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحداً وأصبحتَ الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس

أسماء معتمد فيها ومعتضد

ألقاب مملكة في غير موضعها

كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد[١]

ولم يكن حكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنوهم من حرب المسلمين لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفاً من سيوفه[٢].

فبعد أن كانت دولة الإسلام واحدة أصبحت أسر الطوائف سبعاً وعشرين طائفة أو إمارة أو دويلة تتنافس فيما بينها[٣].

يقول د. عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: وهكذا وجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية، باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمناً لبقائهم في السُّلطة ولقد أصاب الأمة من الضياع بقدر ما ضيّعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحرف هؤلاء المسئولون عن النهج الحنيف الذي كانت عليه الأندلس وحضارته[٤].

---

[١] سقوط الأندلس، ص: ٣١٠، ناصر العمر.

[٢] مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٦).

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤٧١.

[٤] التاريخ الأندلسي ص٣٢٥.

٩ . عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهداً مشكوراً لتوحيد صفوف المسلمين وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي: فرفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبت من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون ولكنه لم يصادف أسماعاً واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بيد أنه كلما وفد على ملك منهم في ظاهر أمره لقيه بالترحيب وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في الباطن يستجل نزعته ويستقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه بأمورهم وأعلمهم بتدبيرهم، لكنه يرجو حالا تثوب، ومذنباً يتوب[١].

إلا أن هناك بعض العلماء تخلوّا عن واجبهم المقدس، وقدموا مصالحهم الذاتية على مصالح الأمة ودخلوا في معارك فرعية وبالغوا فيها، فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة[٢]بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها، وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم ـ رحمه الله ـ : ولا يغرنك الفُساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم، والناصرون لهم على فسقهم[٣].

١٠ . الرضا بالخضوع والذل، تحت حكم النصارى والطاعة لهم:

ففي عام ٦٤٣ هـ تم الاتفاق على أن يحكم ابن الأحمر مملكته وأراضيه باسم ملك قشتالة وفي طاعته، وأن يؤدي له جزية سنوية، قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب وأن يعاونه في حروبه ضد أعدائه، فيقدم إليه عدداً من الجند أينما طلب منه ذلك، وأن

---

[١] الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الثاني ص٩٥، ٩٦.

[٢] سقوط الأندلس ص٣٥.

[٣] مجموع رسائل ابن حزم (٣/ ١٧٣).

يشهد اجتماع مجلس قشتالة باعتباره من الأمراء التابعين للعرش، وسلّم ابن الأحمر جيّان وأرجونة، وبركونة، وبيغ والحجاز وقلعة جابر للنصارى[1].

ولما حاصر النصارى إشبيلية في جمادى الأول عام ٦٤٥ هـ قدّم ابن الأحمر قوة من الفرسان للمعاونة في حصار الحاضرة الإسلامية والاستيلاء عليها، وأبدى المسلمون آيات من البسالة والجلد في الدفاع عن إشبيلية، وطال الحصار زهاء ثمانية عشر شهراً اضطروا إلى الخضوع والتسليم مقابل أن ينجوا بأنفسهم وأموالهم، وفي أوائل رمضان ٦٤٦ هـ دخل فرناندو الثالث مدينة إشبيلية، وفي الحال حوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة وأزيلت معالم الإسلام منها بسرعة[2].

ونتيجة لتصرفات هؤلاء الولاة هاجر كثير من أهل الأندلس المسلمين إلى بلاد المغرب فراراً بدينهم وأرواحهم، مع أن بلادهم يحكمها المسلمون، حتى قال شاعر الأندلس ابن الصلصال:

حشوا رواحلكم يا أهل أندلس

فما المقام بها إلا من الغلط

السلك يُنشر من أطرافه وأرى

سلك الجزيرة منشوراً من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه

كيف النجاة مع الحيات في سفط[3]

١١. سوء سياسة الولاة وإرهاق الناس بالجبايات:

وظهرت ظواهر متعددة تدل على سوء السياسة في الأندلس منها: تولية صغار السن الولاية وبعضهم لم يبلغوا الحادية عشرة، ومنها: الاستئثار بالأمر وترك الشورى، ومنها

---

[1] هاية الأندلس صـ٤٣.

[2] سقوط الأندلس صـ٢٢.

[3] التاريخ الأندلسي صـ٣٦٨.

تخوين الأمين، وتأمين الخئون، ومنها ظهور الظلم والعسف والجور وتمثل ذلك في صور عدة منها: إرهاق الأمة بالضرائب والجبايات والأتاوات والمكوس التي ما أنزل الله بها من سلطان.

يقول الدكتور الحجي: ساءت أحوال بلنسية بسوء السياسة وإرهاق أهلها بالضرائب لسداد مطالب القشتاليين الذين كثر عبثهم، وغدت لهم السيادة الحقيقية على المدينة، وغادرها كثير من أعيانها نتيجة لهذه السياسة الطائشة التي اتبعها القادر إرضاء لأنانيته ورغبة في البقاء في مركزه، ولو كان في ذلك ضياع الدين وانتقاص البلد وإرهاق الناس، وتحت حماية عدو متربص وخصم غادر[١].

وترتب على هذه السياسات الظالمة والمظاهر المنحرفة، والمظالم المتعدية، والجور المنتشر اضطرابات، وفتن وصراعات كثيرة، فمثلاً مملكة غرناطة حكمت بين عام ٦٣٥ هـ / وعام ٨٩٣ هـ من قبل تسعة وعشرين حاكماً، حتى إن بعضهم لم يستمر في الحكم أكثر من عدة أشهر وبعضهم سنة أو سنتين. لقد كان تقديم المصالح الشخصية مقدماً عند كثير من الولاة على مصالح المسلمين، ولذلك غلبت الأنانية وحب الذات والزعامة على كثير من المبادى والمثل والقيم[٢].

١٢ . الثورات الداخلية في الأندلس:

وكانت لها أسباب متعددة منها ظلم الولاة، ومنها قيام بعض النصارى الذين أخفوا مسيحيَّتهم وأظهروا الإسلام، فاستطاعوا أن يتّصلوا بممالك النصارى ويقوموا بدور تخريبي واستخباراتي ضد دولة الإسلام في الأندلس، وظهرت ثورات عديدة في الأندلس تنادي وتطالب بالاستقلال الذاتي، ومن أشهر هذه الثورات تلك التي قادها عمر بن حفصون والذي استطاع أن يعزل قرطبة عن سائر المناطق الأخرى، ثم اتصل بالعباسيين في العراق

[١] نفح الطيب (٤/ ٣٥٢) نقلاً عن سقوط الأندلس صـ٤٩.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين صـ٤٧٤.

والأغالبة في أفريقية، ولما يئس من الوصول إلى أهدافه أظهر ما كان يبطنه من النصرانية عام ٨٩٩ م، واتخذ اسم صموئيل وهو اسم في المعمودية، وأعلن عداءه للإسلام والمسلمين وقاتلهم بكل كره وعنف وحقد حتى كاد أن يسقط عاصمة الأمويين، إلى أن جاء الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث ـ الناصر وكان شجاعاً حازماً، فواصل الفتوحات وطالت مدته في الحكم "نصف قرن" فكانت أول مدينة استسلمت له إستجة ثم لحقت بها مدينة ألبيرة كذلك استسلمت مدينة جيان وقبلت "أرخدونة" أن تدفع الجزية، ورضخت إشبيلية لقوات عبد الرحمن في ٩١٣ م وأخضع "ريه" التي كانت ملاذاً لعاصمة ابن حفصون الذي قاد حركة عدائية ضد الإسلام في الأندلس ٣٧ عاماً، وحاصر طليطلة سنة ٩٣٢ م واستسلمت له، وكان الأعداء يتربَّصون بالإسلام في الأندلس، فملوك النصارى في الشمال لا يكلّون ولا يملّون في زرع الجواسيس وتفجير الثورات ودعم المنشقين من أجل القضاء على الإسلام، والدولة العبيدية الفاطمية الرافضية في أفريقية تحالفت مع ابن حفصون النصراني المرتد ضد مسلمي الأندلس وأرسلت الدعاة وأسسوا حزباً عبيدياً رافضياً في الأندلس وتستروا بالطرق الصوفية، وقاومهم عبد الرحمن الثالث واستطاع أن يقضي على معظم مخططات الأعداء الهادفة للقضاء على الإسلام في الأندلس، وكان بوسع عبد الرحمن أن يقضي على ممالك النصارى في الأندلس ولكن لله في خلقه شؤون[١].

لقد كانت الشبكات التخريبية الاستخباراتية التي فجرت الثورات وتسترت بالإسلام من الأسباب التي أدت إلى سقوط دولة الأندلس الإسلامية وزوال الإسلام منها[٢].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٧٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

ثامناً: دولة بني مرين والدولة الوطاسية والدولة السعدية

١ . دولة بني مرين بالمغرب الأقصى:

استطاعت قبيلة بني مرين أن تسقط دولة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وهم يتفرعون من قبائل "زناتة" مثل "مغراوة" وبني "يفرن" وكانت مضاربهم في الصحراء الكبرى وتعتبر من القبائل البدوية المتنقلة، وقد تزعم هذه القبيلة زعماء اشتهروا بالصلاح والتُّقى وسلامة العقيدة والابتعاد عن الأفكار التومترية المنحرفة. ومن أشهر زعمائهم قبل الوصول إلى الدولة:

- **. عبد الحق بن محيو المريني:**

كان عبد الحق أول من تزعم قبائل بني مرين ضد الدولة الموحدية، وأول من رسم الخطوط العريضة لدولة بني مرين، وكان قد اشتهر بالورع والتقى، وسلامة العقيدة، والابتعاد عن البدع، والأفكار الغريبة والتزم بالمذهب المالكي في سيرته[١].

وقد مات عبد الحق سنة ٦١٤ هـ، فخلفه بعده أبناؤه الأربعة: أبو سعيد عثمان، مات سنة "٦٤٢ هـ"، وأبو بكر عبد الحق، مات سنة "٦٥٦ هـ"، ويعقوب بن عبد الحق وهو الذي استطاع أن يقضي على الموحدين وصار أمير المغرب سنة ٦٦٨ هـ "١٢٦٩ م" وكانت له سيرة جهادية مشرقة في الأندلس.

- **. المنهج الذي قامت عليه الدولة المرينية:**

لا تستطيع أي حركة في المغرب أن تصل إلى القواعد الشعبية بدون رفع شعارات الإسلام، ولذلك من الطبيعي أن تستند دولة بني مرين إلى كونهم حماة الإسلام والمسلمين، وقد أثبتت الأحداث صدق هذه الدعوة في وقوفهم مع مسلمي الأندلس ضد الخطر النصراني على دولة الإسلام هناك، إلا أن صدامهم مع الموحدين

---

[١] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (٣/ ٥٥).

وانتصاراتهم المتتالية أقنعت بعض المؤرخين[1] أن حركة المرينيين ذات دلالة سياسية أكثر منها دينية، وأنهم لم يكن لهم مذهب ديني يدعون له كالمرابطين والموحدين وكانت شعاراتهم المرفوعة في حركتهم الانفصالية العمل على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية.

ومن هنا كسبوا محبة الناس، إلا أن إقدام زعماء بني مرين على قتال الموحدين يدل على قناعتهم الراسخة بأن الموحدين ليسوا مؤهلين لقيادة المغرب سواء من المنظور الشرعي أو السياسي. واتخذ زعماء بني مرين أسلوباً عسكرياً وسياسياً للوصول إلى الحكم وإسقاط الموحدين، حيث خاضوا معارك ضارية مع الموحدين وحققوا انتصارات كبيرة عليهم، ومن أجل الحفاظ على تلك المكاسب والانتصارات استعملوا أسلوباً سياسياً بارعاً، تمثل في الاعتراف بالخلافة الحفصية في تونس وطلب العون منهم، وبذلك حققوا مكاسب متعددة منها وقف خطر بني زيان القادم من الجزائر نحوهم، وقام بنو حفص بمساعدة بني مرين وتدمير تحالف بني زيان مع الموحدين والاستيلاء على تلمسان عاصمة بني زيان عام ٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م، ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبني حفص[2].

وعندما وصل السلطان أبو يوسف يعقوب المنصور للحكم استقل بالإمارة والسلطنة وانفصل عن الحفصيين.

وقام أبو يوسف باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم، واستطاع في فترة قصيرة أن يحقق نجاحات واسعة فاستطاع أن يضبط الأمن، ويرعى مصالح العباد، وعمل على توحيد المغرب الأقصى، وضم كافة المدن التي كانت منفصلة عن دولة الموحدين.

---

[1] من أمثال عبد الفتاح الغنيمي والدكتور أحمد مختار العبادي.

[2] موسوعة المغرب العربي (٣/ ٢٠٧).

ووضع خطوطاً دفاعية ضد الخطر الزياني القادم من الشرق واستطاع أن ينظم القبائل العربية ويستخدمها في محاربة الأقاليم المنفصلة عن الدولة، واستطاع أن يضم سبتة وطنجة تحت حكمه، وبذلك ضمن مفتاح العبور للأندلس، وضم إقليم سلجماسة للدولة في صفر ٦٧٣هـ / ١٢٧٤م، وبذلك أصبحت كل أراضي المغرب الأقصى تحت نفوذ الدولة المرينية، وأصبحت فاس عاصمة للدولة المرينية الجديدة، وفي عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م أمر السلطان المريني ببناء عاصمة للدولة المرينية وسميت البيضاء وأصبحت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم[١].

- **. حركة التوحيد للشمال الأفريقي:**

حاولت دولة بني مرين أن توحِّد الشمال الأفريقي تحت نفوذها ودخلت في معارك عنيفة مع بني عبد الواد والحفصيين في المغرب الأوسط والأدنى.

واستطاع المرينيون في عصر أبي الحسن المريني "٧٣١ هـ ـ ٧٥٢ هـ / ١٣٣١ ـ ١٣٥١م" وولده أبي عنان فارس (٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م) أن يوحدوا الشمال الأفريقي بالقوة وعادت وحدة الشمال الأفريقي لمدة قصيرة وأزال السلطان أبو الحسن بني زيان عن تلمسان في سنة ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م ثم أحسن إليهم وفرض لهم العطاء وتوقف عن التوسع لانشغاله بالجهاد في الأندلس، وعادت حركة التوسع في الشمال الأفريقي بعد هزيمته أمام النصارى في الأندلس، ودخل تونس في عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م لتمتد مملكته من مصراتة في ليبيا إلى السوس الأقصى وإلى رندة من عدوة الأندلس.

---

[١] المصدر نفسه (٣/ ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١).

لم يتألف أبو الحسن الحفصيين والقبائل العربية بالمال، والإحسان إليها، ففجَّروا ثوراتهم ضده واستطاعوا أن يهزموه على مقربة من القيروان.
وفي هذه الأثناء خرج عليه ولده أبو عنان وطلب الزعامة لنفسه واضطر أبو الحسن أن يتخلّى عن السلطة في سنة ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م ثم مات بعد شهور.

واصل أبو عنان حركة التوحيد لأقطار الشمال الأفريقي وأزال دولة بني زيان سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م وتابع سيره إلى أفريقية، ودخل تونس في سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م إلا أن انفجار الثورات على مستوى المغرب كله خصوصاً في فاس وطمع بعض أقربائه في السلطة جعله يعود إلى عاصمته، فوافاه الأجل في العام التالي[١].

وبوفاة أبي عنان انتهت المحاولات المرينية من أجل توحيد الشمال الأفريقي وتقلص النفوذ المريني في المغربين الأوسط والأدنى، ثم زال النفوذ المريني من جهة الشرق فلم يحاول السلاطين الذين من بعده أن يقوموا بأية غزوة في الأقاليم. وبدأ التدهور في الدولة المرينية بعد وفاة أبي عنان بسبب تسلم أمرها سلاطين ففقدوا المغربين الأدنى والأوسط، كما استولى البرتغاليون على مدينة سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م، فكان هذا بداية لانهيار دولة بني مرين، ثم استولى البرتغاليون على جزء كبير من ساحل المغرب، واحتلوا طنجة سنة ٨٦٩ هـ / ١٤٦٤ م واقتصرت الدولة المرينية على فاس[٢].

واضطربت أحوال الدولة بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس وتسلط على الأمور رجال لا همَّ لهم إلا مصالحهم الشخصية، وفي عهد آخر سلاطين بني مرين عبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس (٨٢٣ هـ - ٨٦٩ هـ / إلى ١٣٢٠- ١٤٦٥ م)

[١] المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب د. عبادة كحيلة صـ١٤١.
[٢] تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى العاشر صـ١٤٢.

قرب اليهود من مقاليد الحكم وتسلطوا على رقاب الأهالي، فانفجرت الثورة التي عمت أحياء فاس كلها واضطروا إلى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبي عبد الله محمد بن علي الإدريسي نقيب الأشراف بفاس في رمضان "٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م" وبذلك انتهت دولة بني مرين[١].

- **. أسباب سقوط بني مرين:**

. دسائس ملوك الإسبان ضدها، وتحالف زعماء غرناطة معهم ضد دولة بني مرين ساهم في إضعافهم وتقويض دولتهم، ودخول حكام غرناطة في تحالفات مع بني عبد الواد والحفصيين ضد بني مرين ضيق الخناق على دولة بني مرين.

. دخول بني مرين في صراع عنيف مع دويلات المغرب الأوسط والأدنى، كلفها الأموال والرجال والعتاد والأوقات وكان قتال بني العقيدة الواحدة والدين الواحد مما ساهم في إضعاف الشمال الأفريقي كله والتعجيل بسقوط دولة بني مرين.

. ضعف الأمراء والسلاطين في آخر عهد الدولة مما ساهم في إضعافها وتسلط الوزراء وزعماء العرب في شؤونها، وتنازعت الأهواء والمصالح فتولدت انفجارات داخلية ونزاع الأبناء والآباء والأعمام عجل بسقوط الدولة.

. المخاطر الخارجية والمكايد العالمية من قبل النصارى والذين شنوا حرباً على هذه الدولة التي شكلت خطراً على حركة الاسترداد في الأندلس، ولذلك هاجم البرتغاليون بني مرين واحتلوا سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م، فكان ذلك الاحتلال بداية الانهيار[٢].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلاَّبي ص٤٨٢.

[٢] اريخ دولتي المرابطين ص٤٨٣.

ـ تولي اليهود مناصب في دولة بني مرين، ومارس اليهود الظلم والجور على أهالي المغرب، فكان ذلك سبباً في قيام الشعب بثورة ضد دولة بني مرين وإزالتها من الوجود.

ـ أجل الله في هذه الدولة، لأن الدول لها آجال لا تتعداها. وغير ذلك من الأسباب.

٢ ـ الدولة الوطاسية:

ترجع الدولة الوطاسية في نسبتها إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين، وكانوا أصحاب نفوذ وسلطان وشوكة في الدولة المرينية، وأنزل بهم السلطان عبد الحق – آخر سلطان للدولة المرينية – نكبة عظيمة ونكَّل بهم أشد التنكيل، واستطاع محمد الشيخ أن يفلت من تلك التصفية الجسدية التي نزلت بقومه. وبعد أن تولى حكم المغرب الشريف محمد بن علي الإدريسي في عام ٨٦٨ هـ ، استطاع محمد الشيخ أن يجهز جيشاً لنزع السلطة والحكم من الإدريسي ودخل في حروب طاحنة واحتل فاس عام ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م وكلفه ذلك ضياع مدينة أصيلا من يده.

واستغل البرتغاليون الحرب الأهلية القائمة في المغرب وانصراف أمير أصيلا لمحاصرة فاس، فأرسلوا ٤٧٧ سفينة محملة بـ"٣٠ ألف مقاتل" في زمن ملك البرتغال الفونس الخامس، ووقعت أسرة الشيخ الوطاسي في الأسر، فاضطر للمفاوضة معهم وترتب عن تلك المفاوضات تنازل الوطسيون عن أراضٍ من المغرب واحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلا، وأُطلِق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته[١].

كانت الفتن على أشدها في المغرب عندما تولى الحكم محمد الشيخ واستطاع البرتغاليون النصارى أن يتوسعوا للاستيلاء على موانىء المغرب مثل سبتة وطنجة

[١] موسوعة المغرب (٣/ ٢٣ ، ٢٤).

وأصيلا، وتوغلت سراياهم وبعوثهم في الأطراف المجاورة التي احتلوها وكان سقوط غرناطة في فترة الوطاسيين "١٤٩٢ م" وقدم أهالي الأندلس في هجرات عظيمة نحو المغرب.

واستمر النفوذ الإسباني والبرتغالي في التوسع وبناء الحصون والقلاع والمراكز والنقاط الإستراتيجية التي امتدت على سواحل المحيط الأطلسي والبحر المتوسط، وكانت هذه الموانىء والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والإسبانية في طريقها إلى الهند والشرق الأقصى، كما كانت هذه المراكز نقاطاً للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب، وامتد نفوذ هذه المراكز إلى زعماء بعض القبائل والأهالي الذين تعاملوا معهم ووجدوا مصالحهم الذاتية في الخضوع لهم.

وقامت إمارات عديدة في المغرب الأقصى حملت على كاهلها مقاومة النفوذ الأجنبي في البلاد.

وظهرت قيادة السعديين كقوة حيوية، لكنها رفعت لواء الجهاد، ودعت إلى الوحدة المغربية، وتدرَّجت في تحقيق أهدافها واستطاعت أن تكسب ودّ الطرق الصوفية وزعماء القبائل، وتخوض حرباً جهادية ضد النصارى الإسبان والبرتغاليين وحرّروا الأراضي المحتلة، وبرز الزعيم محمد الشيخ السعدي الهاشمي القرشي في تلك المعارك واستطاع أن يسقط دولة الوطاسيين عام ٩٥٦ هـ.

إلا أن أبا حسون الوطاسي الذي فرّ من السعديين استطاع أن يتحالف مع العثمانيين ويهزم السعديين في فاس عام ٩٦١ هـ، وأعاد زعيم السعديين الكرة من جديد وأسقط الدولة الوطاسية في نفس العام ٩٦١ هـ[١].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص٤٨٤.

- **. أسباب سقوط الدولة الوطاسية:**

. دخولهم في معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغاليين من أجل مصالحهم وسلطتهم ونفوذهم.

. عجزهم عن الوقوف بجانب مسلمي الأندلس والدفاع عنهم وحمايتهم.

. ظهور الحركة الجهادية التي جعلت أهداف الشعب المغربي في أولوياتها وقد تزعم تلك الحركة السعديون.

. الضعف الاقتصادي الذي أصاب الدولة بسبب استيلاء النصارى على الحركة التجارية في الموانئ.

. التفكك السياسي بسبب الحروب الداخلية الطاحنة بين المغاربة[١].

٣ . السعديون:

يرجع أصل السعديين إلى الجزيرة العربية ويرجعون نسبهم إلى الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢]، ويرى الأستاذ محمود شيت خطاب أن الدولة السعدية هي الدولة العلوية الثانية في المغرب بقطع النظر عما أرجف به خصومها من الطعن في نسبها[٣]، وهي لم تعتمد في قيامها إلى "مهدوية" كاذبة أو عصبية قوية.

وأما تسميتهم بالسعديين، فيرى الاستاذ شوقي أبو خليل أنها لم تكن لهم في القديم ولم تظهر في سجلاتهم ورسائلهم، بل لم يجترئ أحد على مواجهتهم بهذه التسمية، لأنهم إنما

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ص: ٤٨٥.

[٢] وادي المخازن لشوقي أبي خليل، ص: ٣١

[٣] قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٢).

يصفهم بها من يقدح في نسبهم، ويطعن في شرفهم، ويزعم أنهم من بني سعد بن بكر ابن هوازن الذين منهم حليمة السعدية ظئر[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وكثير من العامة يعتقدون أنهم سموا بذلك لأن الناس سعدوا بهم، ثم استدل بقول أبي العباس الناصري السلاوي:"وإنما نصفهم نحن بذلك لأنهم اشتهروا عند الخاصة والعامة، فصار كالعلم الصرف المرتجل، مع أنه لا محذور بعد تحقيق النسب وثبوت الشرف[2].

وأما صاحب موسوعة المغرب العربي الدكتور عبد الفتاح الغنيمي فقد ذكر نسب محمد القائم السعدي مؤسس الأسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الإسلامي فقال: هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن مخلوف بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أبي عرفة بن الحسن بن أبي بكر بن علي بن حسن بن أحمد بن إسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الزكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[3].

كانت بواعث الالتفاف حول الزعامة السعدية تتمثل في حب المغاربة للجهاد ودحر المعتدين، ولذلك بحثت قبائل المغاربة عن شخص يقودهم في حركة الجهاد ضد المحتلين النصارى من الإسبان والبرتغال فأرشدوا إلى الشريف أبي عبد الله محمد القائم بأمر الله وكان مقيماً في درعة فأرسلوا إليه فجاء إليهم، واجتمع فقهاء المصامدة وشيوخ القبائل وبايعوه، فكان هو واضع النواة الأولى للدولة السعدية، وشرع في حركة الجهاد ووفقه الله في معارك ضارية وحقق انتصارات رائعة على النصارى، وزحزح أقدام الغزاة النصارى من أراضي المغرب وأصاب هيبتهم، فتيمن المسلمون بقيادته، وتفاءلوا بانتصاراته الرائعة وظل في جهاده المبارك إلى أن توفاه الله سنة ٩٢٣ هـ وخلف ولدين، وكان أبو العباس أحمد

---

[1] الظئر: المرضعة والعاطفة على غير ولدها.
[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٨٥.
[3] موسوعة المغرب العربي (٣/ ١١٤، ١١٥)

الأعرج أكبرهم، فبايعه الناس بعد والده، وحارب البرتغاليين وانتصر عليهم، وفي سنة (٩٣٠ هـ) دخل مراكش وجعلها عاصمة السعديين. وفي سنة (٩٤٠ هـ) اتفق مع الوطاسيين على اقتسام المغرب على أن يكون نصيب الأشراف السعديين من "تادلة"[١] إلى "السوس"، وللوطاسيين من "تادلة" إلى المغرب الأوسط.

وانتزع أبو عبد الله محمد الشيخ –الأخ الأصغر– الملك من أخيه وألقى القبض عليه واستطاع أن يقبض على الوطاسيين سنة "٩٦١ هـ" ودخل مدينة فاس، فصفا له ملك المغرب، ولكنه قتل سنة "٩٦٤هـ" وتولى زمام الأمور من بعده ابنه عبد الله الغالب، فحارب الأتراك والبرتغاليين وتوفي سنة "٩٨١ هـ"[٢]، فقام على العرش بعده ولده محمد المتوكل وكان فظاً غليظاً مستبداً ظالماً، قتل اثنين من إخوته عند وصوله إلى الحكم، وأمر بسجن آخر فكرهته الرعية[٣]، وصفه السلاوي بقوله: وكان السلطان المذكور فقيهاً أديباً مشاركاً مجيداً قوي العارضة في النظم والنثر، وكان مع ذلك متكبراً تياهاً غير مبال بأحد، ولا متوقف في الدماء، إلا أن هذا المتعجرف السفاك للدماء لم يهنأ بملكه حيث استطاع عمه أبو مروان عبد الملك، وأبو العباس أحمد أن يتحالفوا مع الأتراك في الجزائر، وسافر أبو مروان عبد الملك إلى عاصمة الخلافة العثمانية وطلب من السلطان سليم نجدته ومعونته، إلا أن السلطان العثماني انشغل بتخليص تونس من يد الإسبان، فجهز قوات عثمانية بقيادة سنان باشا واستطاعت أن تحرّر تونس من الاحتلال النصراني الإسباني، وكان أبو مروان عبد الملك في تلك الحملة وأبلى فيها بلاء حسناً، ثم كان هو أول من أبلغ بشارة الفتح إلى السلطان، فجازاه على ذلك بأن أمر صاحب الجزائر بمده بالجنود والعتاد حتى يرجع إليه حقه المغصوب في الحكم[٤].

---

[١] انظر: قادة فتح بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤).

[٢] المصدر نفسه.

[٣] وادي المخازن، ص: ٢٣.

[٤] قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٠٤).

وما إن وصل جيش عبد الملك المدعوم من قبل الخلافة العثمانية فاس حتى خرج إليه ابن أخيه محمد المتوكل على الله واستطاع عبد الملك أن يستميل القوّاد والوزراء فانقادوا إليه جميعاً وبايع أهل المغرب عبد الملك بن محمد الشيخ سنة "٩٨٣ هـ".

- **. من إصلاحات عبد الملك وأعماله:**

. أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة، فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

. اهتم بالتجارة البحرية، وكان للأموال التي غنمها من الحروب الدائمة على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان التجاري للدولة.

. أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

. استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

. فرض احترامه على أهل عصره حتى الأوروبيين احترموه وأجلُّوه.

قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بيني المعاصر لأحداث هذه الفترة: كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمينية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار، فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل، فأحرى لملك[١].

. اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة، أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية وأحوال السكان عامة، وعلى اطلاع ودراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية وكان

---

[١] وادي المخازن، ص: ٣٧.

أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة[1].

- **. معركة وادي المخازن:**

إن من الأعمال العظيمة التي قامت بها الدولة السعدية في زمن السلطان عبد الملك انتصارهم الرائع والعظيم على نصارى البرتغال في معركة الملوك الثلاثة، والتي تسمى في كتب التاريخ معركة القصر الكبير أو معركة وادي المخازن بتاريخ ٣٠ جمادى الثانية ٩٨٦ هـ الموافق: ٤ آب "اغسطس" ١٥٧٨ م.

ولقد كانت لتلك المعركة أسباب من أهمها:

. أراد البرتغاليون أن يمحوا عن أنفسهم العار والخزي الذي لحقهم بسبب ضربات المغاربة الموفقة والتي جعلتهم ينسحبون من أسفى وأزنور وأصيلا وغيرها في زمن يوحنا الثالث في آب (١٥٢١ . ١٥٥٧ م).

. أراد ملك البرتغال الجديد سبستيان بن يوحنا أن يخوض حرباً مقدسة ضد المسلمين حتى يعلو شأنهم بين ملوك أوروبا، وزاد غروره بعد ما حققه البرتغاليون من اكتشافات جغرافية جيدة أراد أن يستفيد منها من أجل تطويق العالم الإسلامي، يدفعه في ذلك حقده على الإسلام وأهله عموماً، وعلى المغرب خصوصاً، لقد جمع ذلك الملك البرتغالي بين الحقد الصليبي والعقلية الاستعمارية التي ترى أن يدها مطلقة في كل أرض مسلمة تعجز عن حماية نفسها من أي خطر خارجي من جهة أخرى، فخطط لغزو واحتلال المغرب[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٩، ٤٠.

[2] . وادي المخازن، ص: ٤٥ ، ٤٦ .

وشجع ملك البرتغال مجيء المتوكل (المخلوع) وطلبه للعون من النصارى والوقوف معه من أجل استرداد ملكه والقضاء على عمَّيْه عبد الملك المعتصم بالله، وأحمد المنصور، مقابل أن يتنازل له عن موانئ وشواطئ المغرب، فشرط عليه أن يكون للنصارى سائر السواحل، وله ما وراء ذلك[1].

- **. حشود النصارى:**

استطاع سبستيان أن يحشد من النصارى عشرات الألوف من الإسبان والبرتغاليين والطليان والألمان وجهز هذه الألوف بكافة الأسلحة الممكنة في زمنه، وجهز ألف مركب لتحمل هؤلاء الجنود نحو المغرب[2].

ووصلت قوات النصارى إلى طنجة وأصيلا في عام ١٥٧٨م

. الجيش المغربي:

كانت الصيحة في جنبات المغرب الأقصى: أن اقصدوا وادي المخازن للجهاد في سبيل الله.

والتفّت جموع المغاربة حول قيادة عبد الملك المعتصم بالله، وحاول المتوكل المسلوخ أن يخترق هذا التلاحم فكتب إلى أهل المغرب: ما استصرخت بالنصارى٣ حتى عدمت النصرة من المسلمين، وقد قال العلماء: إنه يجوز للإنسان أن يستعين على من غصبه حقه بكل ما أمكنه، وتهددهم قائلاً: "فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ" (البقرة، آية: ٢٧٩).

فأجابه علماء الإسلام عن رسالته برسالة دحضت أباطيله، وفضحت زوره وبهتانه وكذبه، ومما جاء فيها: الحمد لله كما يجب لجلاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خير أنبيائه ورسله، والرضى عن آله وأصحابه الذين هجروا دين الكفر، فما نصروه ولا

---

[1] . وادي المخازن، ص: ٤٦ .

[2] . وادي المخازن، ص: ٤٩ .

[3] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٨٩ .

استنصروا به حتى أسس الله دين الإسلام بشروط صحته وكماله، وبعد، فهذا جواب من كافة الشرفاء والعلماء والصلحاء والأجناد من أهل المغرب، لو رجعت على نفسك اللوم والعتاب لعلمت أنك المحجوج والمصاب.

وأما قولك: في النصارى فإنك رجعت إلى أهل العدوة واستعظمت أن تسميهم بالنصارى، ففيه المقت الذي لا يخفى، وقولك: رجعت إليهم حين عدمت النصرة من المسلمين ففيه محظوران يحضر عندهما غضب الرب جل جلاله أحدهما: كونك اعتقدت أن المسلمين كلهم على ضلال، وأن الحق لم يبق من يقوم به إلا النصارى والعياذ بالله، والثاني: أنك إستعنت بالكفار على المسلمين. قال عليه الصلاة والسلام: "**إني لا أستعين بمشرك**..." الاستعانة بهم ـ بالمشركين ـ على المسلمين فلا يخطر إلا على بال من قلبه وراء لسانه، وقد قيل قديماً: لسان العاقل من وراء قلبه ... وقولك: فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله، إيه أنت مع الله ورسوله؟

ولما سمعت جنود الله وأنصاره وحماة دينه من العرب والعجم قولك هذا حملتهم الغيرة الإسلامية، والحمية الإيمانية وتجدد لهم نور الإيمان، وأشرق عليهم شعاع الإيقان، فمن قائل يقول: لادين إلا دين محمد صلى الله عليه وسلم، ومن قائل يقول: سترون ما أصنع عند اللقاء، ومن قائل يقول: "وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ" (العنكبوت، آية: ١١) .

وقد افتخرت في كتابك بجموع الروم وقيامهم معك، وعوّلت على بلوغ الملك بحشودهم وأنى لك هذا مع قول الله تعالى:" وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ"(التوبة، آية : ٣٢).[١]

[١] ـ الاستقصاء نقلا عن وادي المخازن، ص: ٥٣ .

ولما عاين أهل القصر الكبير النصارى واستبطؤوا وصول السلطان عبد الملك أرادوا الفرار والتحصن في الجبال، فقام الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي بتثبيت الناس، وكتب عبد الملك المعتصم بالله من مراكش إلى سبستيان: إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك، وجوازك العدوة، فإن ثبت إلى أن تتقدم عليك فأنت نصراني حقيقي شجاع، وإلا فأنت كلب ابن كلب[1]. فليس من الشجاعة، ولا من روح الفروسية أن ينقض على سكان القرى والمدن والعزل، ولا ينتظر مقابلة المحاربين. وكان لذلك الخطاب أثر في غضب سبستيان وقرر أخيراً التريث رغم مخالفة أركان جيشة الذين[2] أشاروا عليه بالتقدم لاحتلال تطوان والعرايش والقصر. وتحركت قوات عبد الملك المعتصم بالله، وسار أخوه أحمد المنصور بأهل فاس وما حولها وكان اللقاء قرب محلة القصر الكبير.

- **. قوات الطرفين (البرتغالي النصراني والإسلامي المغربي):**

. الجيش البرتغالي:

١٢٥,٠٠٠، وما يلزمهم من المعدات، والرواية الأوروبية تقلل بعد الهزيمة عدد جيشها، وتضخم عدد جيش المغرب فهي تتحدث عن ١٤,٠٠٠ راجل، و٢٠٠٠ فارس و٣٦ مدفعاً، مقابل: ٥٠,٠٠٠ راجل من الجيش المغربي، و٢٢,٠٠٠ فارس، و١,٥٠٠ من الرماة و٢٠ مدفعاً.

ذكر أبو القاضي في (المنتقى المقصور) : عدد الجيش البرتغالي مائة ألف وخمسة وعشرون ألفاً[3]

وقال أبو عبد الله محمد العربي الفاسي في (مرآة المحاسن): إن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قتل في عددهم ثمانون ألف مقاتل[1].

---

[1] . وادي المخازن، ص: ٥٣.

[2] . المصدر نفسه، ص: ٥٤.

[3] . الإستقصاء (٥ / ٦٩) نقلاً عن وادي المخازن، ص: ٥٦ .

كان مع الجيش البرتغالي: ٢٠,٠٠٠ إسباني ، ٣٠٠٠ ألماني، ٧٠٠٠ إيطالي وغيرهم عدد كبير، مع ألوف الخيل، وأكثر من أربعين مدفعاً وكل هذه القوى البشرية والمادية بقيادة الملك سبستيان. وكان معهم المتوكل المسلوخ بشرذمة تتراوح ما بين: ٣٠٠ . ٦٠٠ رجل على الأكثر[٢].

. الجيش المغربي:

وكان جيش المغاربة تعداده ٤٠,٠٠٠ مجاهد، يملكون تفوقاً من الخيل ومدافعهم أربعة وثلاثون مدفعاً فقط وكانت معنوياتهم مرتفعة جداً بسبب:

. أنهم ذاقوا حلاوة الانتصار على النصارى المحتلين واستخلصوا من أيديهم ثغوراً كثيرة كانت محاطة بالأسوار العالية، والحصون المنيعة، والخنادق العميقة .

. التفاف الشعب حول القيادة، حيث تم التحام بين القبائل والطرق الصوفية وأهل المدن لأن المعركة كانت حاسمة في تاريخ الإسلام وفاصلة في تاريخ المغرب، وكان الشيخ أبو المحاسن الفاسي زعيم الطريقة الشاذلية الجزولية لا يكل ولا يمل في شحذ الهمم ورفع المعنويات، وقاد هذا الشيخ (أبو المحاسن يوسف الفاسي) أحد جناحي الجيش المغربي وأبلى بلاءً حسناً رائعاً وثبت إلى أن منح الله المسلمين النصر وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، وتورع أبو المحاسن عن الغنيمة بعد الانتصار العظيم، وعفَّ عنها، ولم يأخذ منها شيئاً[٣].

وأظهر عبد الملك المعتصم بالله عبقرية فذة في المعركة، وكذلك أخوه أبو العباس أحمد الذهبي:

لقد حنَّكت التجارب عبد الملك المعتصم بالله، فعزل عدوه عن أسطوله بالشاطئ بمكيدة عظيمة، وخطة مدروسة حكيمة عندما استدرج سبستيان إلى

---

[١] . وادي المخازن، ص: ٥٦.

[٢] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩١.

[٣] . وادي المخازن، ص: ٥٨ .

مكان حدده عبد الملك ميداناً للمعركة. وكان عزله عن أسطوله محكماً عندما أمر عبد الملك بالقنطرة أن تهدم ووجه إليها كتيبة من الخيل بقيادة أخيه المنصور فهدمها[1].

لقد جعل عبد الملك المدفعية في المقدمة، ثم صفوف للرماة المشاة وجعل قيادته في القلب وعلى المجنبتين رماة الفرسان والقوى الإسلامية المتطوعة وجعل مجموعة من الفرسان كقوة احتياطية لتنقضّ في الوقت المناسب وهي غاية الراحة لمطاردة فلول البرتغاليين، واستثمار النصر[2].

كان صباح الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م يوماً مشهوداً في تاريخ المغرب، ويوماً خالداً في تاريخ الإسلام، وقف السلطان عبد الملك المعتصم بالله خطيباً في جيشه، مُذكّراً بوعد الله للصادقين المجاهدين بالنصر٣.

قال تعالى:" وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ " (الحج، آية : ٤٠) .

وقال تعالى:" وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال، آية: ١٠) .

كما ذكَّر بوجوب الثبات:

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ " (الأنفال، آية : ١٥)

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللّهَ كَثِير لَّعَلَّكُم تُفْلَحُونَ " (الأنفال ، آية : ٤٥).

وبضرورة الانتظام:

"إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ" (الصف، آية: ٤).

---

[1] . المصدر نفسه، ص: ٦٢ .

[2] . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٢ .

[3] . وادي المخازن، ص: ٦٢ .

وذكر أيضا حقيقة لا مراء فيها: إن انتصرت الصليبية اليوم، فلن تقوم للإسلام بعدها قائمة.

ثم قرئت آيات كريمة من كتاب الله العزيز، فاشتاقت النفوس للشهادة[1].

ولم يأل القساوسة والرهبان جهداً في إثارة حماس جند أوروبا الذين يقودهم سبستيان، مذكِّرين أن البابا أحلَّ من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في هذه الحروب التي اتسمت بطابع الحروب الصليبية.

وانطلقت عشرات الطلقات النارية من الطرفين كليهما إيذاناً ببدء المعركة.

لقد قام السلطان عبد الملك برد الهجوم الأول منطلقاً كالسهم شاهراً سيفه يمهد الطريق لجنوده إلى صفوف النصارى، وغالبه المرض الذي سايره من مراكش ودخل خيمته وما هي إلا دقائق حتى فاضت روحه في ساحة الفدى، لقد رفض أن يتخلف عن المعركة قائلاً: ومتى كان المرض يثني المسلمين عن الجهاد في سبيل الله؟ وأمر هذا القائد المجاهد عجيب في الحزم والشجاعة، ولقد فاضت روحه وهو واضع سبابته على فمه مشيراً أن يكتموا الأمر حتى يتم النصر ولا يضطربوا وكان كذلك، فلم يعلم أحد بموته إلا أخوه المنصور وحاجبه رضوان العلج، وصار حاجبه يقول للجند: السلطان يأمر فلانا أن يذهب إلى موضع كذا، وفلاناً يلزم الراية، وفلاناً يتقدم وفلاناً يتأخر[2].

وقاد أحمد المنصور مقدمة الجيش وصدم مؤخرة الجيش البرتغالي، وأوقدت النار في برود النصارى، وصدم المسلمون رماتهم، فتهالك قسم منهم صرعى، وولى الباقون الأدبار قاصدين قنطرة نهر وادي المخازن وكانت تلك القنطرة أثراً بعد عين، نسفها المسلمون بأمر سلطانهم فارتموا بالنهر، فغرق من غرق وأسر من أسر وقتل من قتل، وصرع

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٤.

[2] وادي المخازن، ص: ٦٦، ٦٧.

سبستيان وألوف من حوله، ووقع المتوكل رمز الخيانة غريقاً في نهر وادي المخازن. واستمرت المعركة أربع ساعات وثلث الساعة وكتب الله فيها النصر للإسلام والمسلمين[1]. جاء في "درة السلوك" لأحمد بن القاضي، وهو معاصر لأحداث المعركة "مخطوطة بدار الوثائق بالرباط":

وابن أخيه[2] بالنصارى اعتصما
وصار يستنجدهم لمن سما
أجابه اللعين بستيان[3]
بجيشه ومعه الأوثان
وعدد الجيوش الذي جمعا
ينيف عن مائة ألف سُمعا
فقيض الله له المنصورا[4]
ملكاً شجاعاً أسداً هصورا
فخلص الإسلام من يد اللعين
بصبره على لقاء المشركين
ما منهم إلا قتيل وأسير
في ساعة من الزمان ذا شهير
مات بها بستيان اللعين
فما له عن الرّدى معين
ثم محمد الذي أتى به

[1] وادي المخازن، ص: ٦٦، ٦٧.

[2] إشارة إلى المتوكل.

[3] بستيان "لضرورة الوزن" وإلا فهو سبستيان.

[4] أحمد المنصور، أخو عبد الملك المعتصم بالله قاد المعركة بعد وفاة أخيه وكان جديراً بالشاعر أن يذكر عبد الملك الذي هيأ وخطط للمعركة.

مات غريقا يومه[1] فانتبه

لحكمة الله العظيم القاهر

أفادهم وزيّن المنابر

بذكر عمّه أبي العباس

الحازم الرأي شديد الباس

نجل الرسول المصطفى المختار

به زها المغربُ على الأقطار[2]

- **. أسباب نصر وادي المخازن:**

. القيادة الحكيمة التي تمثلت في زعامة عبد الملك المعتصم بالله وأخيه أبي العباس، ولحاجبه المنصور وظهور مجموعة من القادة المحنَّكين من أمثال: أبي علي القوري، والحسين العلج، ومحمد أبي طيبة، وعلي بن موسى، الذي كان عاملاً على العرائش.

. التفاف الشعب المسلم المغربي حول قيادته بسبب الشيخ أبي المحاسن يوسف الفاسي والذي استطاع أن يبعث روح الجهاد في القوى الشعبية.

. رغبة المسلمين في الذود عن دينهم وعقيدتهم وأعراضهم والعمل على تضميد الجراح بسبب سقوط غرناطة، وضياع الأندلس، والانتقام من النصارى الذين عذبوا المسلمين المهاجرين والذين تحت حكمهم في الأندلس.

. اشتراك خبراء من العثمانيين تميزوا بالمهارة في الرمي بالمدفعية وشارك كذلك مجموعة من الأندلسيين تميزوا بالرمي والتصويب بدقة مما جعل المدفعية المغربية تتفوق على المدفعية البرتغالية النصرانية.

---

[1] في نهر وادي المخازن.

[2] برده الغزو الصليبي وانتصاره الباهر في معركة وادي المخازن.

. الخطة المحكمة التي رسمها عبد الملك المعتصم بالله مع قادة حربه حيث استطاع أن يستدرج خصومه إلى ميدان تجول فيه الخيل وتصول، مع قطع طرق تموينه وإمداده، ثم نسفه للقنطرة الوحيدة على نهر وادي المخازن.

. القدرة والأسوة المثالية التي ضربها للناس كل من عبد الملك وأخيه أحمد المنصور حيث شاركوا بالفعل والسنان في القتال فكان حالهما له أثر أشد في اتباعهم من قولهم.

. تفوق القوات المغربية بالخيل حيث استطاع الفرسان أن يستثمروا النصر ويطوقوا النصارى المنهزمين ومنعتهم خيل المسلمين الخفيفة الحركة من أي فرصة في الفرار.

. استبداد سبستيان بالرأي وعدم الأخذ بمشورة مستشاريه وكبار رجال دولته مما جعل القلوب تتنافر.

. وعي الشعب المغربي المسلم بخطورة الغزو النصراني البرتغالي وقناعته بأنه جهاد في سبيل الله ضد غزو صليبي حاقد[1].

. دعاء وتضرع المسلمين لله بإنزال النصر عليهم وخذل وهزيمة أعدائهم وغير ذلك من الأسباب.

- **. نتائج المعركة:**

. أصبح سلطان المغرب بعد عبد الملك أحمد المنصور بالله الملقب بالذهبي، وبويع بعد الفراغ من القتال بميدان المعركة، وذلك يوم الاثنين ٣٠ جمادى الآخرة سنة ست وثمانين وتسعمائة للهجرة.

. وصلت أنباء الانتصار بواسطة رسل السلطان أحمد الذهبي إلى مقر السلطنة العثمانية في زمن السلطان مراد خان الثالث، وإلى سائر ممالك الإسلام المجاورة

[1] وادي المخازن، ص: ٧٢ . ٧٥.

للمغرب، وحل السرور بالمسلمين وعم السعد في ديارهم، ووردت الرسل من سائر الأقطار مهنئين ومباركين للشعب المغربي نصرهم العظيم.

ـ ارتفع نجم الدولة السعدية في أفق العالم وأصبحت دول أوروبا تخطب ودّها، واضطر ملك البرتغال الجديد "الريكي" أن يرسل وفداً إلى المغرب وكذلك ملك الإسبان محملة وفودها بالهدايا الثمينة. ثم قدمت رسل السلطان العثماني مهنئة ومباركة ومعهم هداياهم الثمينة[١]، وبعدها رسل ملك فرنسا، وأصبحت الوفود "تصبح وتمسي على أعتاب تلك القصور"[٢].

ـ سقط نجم نصارى البرتغال في بحار المغرب واضطربت دولتهم، وضعفت شوكتهم، وتهاوت قوتهم.

يقول لويس مارية ـ المؤرخ البرتغالي ـ واصفاً نتائج المعركة:

وقد كان مخبوءاً لنا في مستقبل الأعصار، العصر الذي لو وصفته ـ كما وصفه غيره من المؤرخين ـ لقلت: هو العصر النحس البالغ في النحوسة، الذي انتهت فيه مدة الصولة والظفر والنجاح، وانقضت فيه أيام العناية من البرتغال، وانطفأ مصباحهم بين الأجناس، وزال رونقهم، وذهبت النخوة والقوة منهم وخلفها الفشل، وانقطع الرجاء، واضمحل إبان الغنى والربح، وذلك هو العصر الذي هلك فيه سبستيان في القصر الكبير في بلاد المغرب[٣].

ـ مات في تلك المعركة ثلاثة ملوك، صليبي حاقد سبستيان ملك البرتغال، ملك مخلوع خائن محمد المتوكل، مجاهد شهيد عبد الملك المعتصم بالله.

ـ سارع البرتغاليون النصارى بفكاك أسراهم ودفعوا أموالاً طائلة للدولة السعدية.

---

[١] وادي المخازن، ص: ٧٠.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٧.

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٧.

. سادت فترة هدوء ورخاء وبناء وازدهار في العلوم والفنون والصناعات في بلاد المغرب.

. حدث تحول جذري في التفكير والتخطيط على مستوى أوروبا، حيث رأوا أهمية إتقان الغزو الفكري لبلاد المسلمين، لأن سياسة الحديد والنار تحطمت أمام إرادة الشعوب الإسلامية في المشرق والمغرب[١].

- **. السلطان أبو العباس أحمد المنصور بالله الذهبي:**

ولد أبو العباس أحمد المنصور بالله بفاس سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م. أبوه محمد المهدي، وأمه بربرية الأصل لها أوقاف بمراكش معروفة لدى المغاربة[٢].

درس في مراكز علمية عديدة ومن أهم هذه المراكز:"فاس، ومراكش بتارودانت.." ودرس علوم اللغة والأدب والتاريخ والتراجم والفقه والحديث والمنطق والبلاغة والفلك والرياضيات والأصول والتفسير[٣].

. إدارته للدولة:

استمر على منهج أخيه في بناء المؤسسات واقتناء ما وصلت إليه الكشوفات العلمية وتطوير الإدارة والقضاء والجيش، وترتيب وتنظيم الأقاليم التابعة للدولة.

وكان أحمد المنصور يتابع وزراءه وكبار موظفيه ويحاسبهم على عدم المحافظة على أوقات العمل الرسمية أو التأخير في الرد على المراسلات الإدارية والسياسية. وأحدث حروفاً برموز خاصة لكتابة المراسلات السرية حتى لا يعرف فحواها إذا وقعت في يد عدو، وهذا يدل على اهتمامه الشخصي بجهاز الأمن والاستخبارات التي تُحمى به الدولة من الأخطار الداخلية والخارجية. واهتم بالجهاز القضائي، وفصل السلطة

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٩٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٩٧.

[٣] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٤٩٨.

القضائية عن السلطة التنفيذية تماماً، ومنع السلطة التنفيذية من التدخل في السلطة القضائية.

وقد قارن مؤرخ فرنسي بين القضاء الأوروبي والقضاء المغربي في عهد السعديين فقال: في الوقت الذي كانت أوروبا في العصر السعدي يحتفظ الملوك فيها وحدهم بحق الحكم في عدد من القضايا، فإن الملوك السعديين لا ينظرون إلا في القضايا المرفوعة ضد رجال السلطة، وهذا ما كان يدعى بقضاء المظالم[1].

وترأس أحمد المنصور مجلس المظالم وجعله في جامع القصبة في مراكش، بجوار قصره، وشكَّل لجنة تراقب مجرى القضاء في الأقاليم ويهتم بمطالعة ودراسة تقاريرهم بعناية واهتم بضبط الإدارة وإحكام دولته وإقامة العدل على رعاياه.

وعمل على إقامة محطات في أرجاء البلاد يحرسها جنود مقيمون لا يبعد بعضهم عن بعض إلا بمسافة عشرين كيلومتراً، بحيث يستطيع المسافرون والقوافل أن تمر عبر القرى والبوادي بأمن وسلام.

وطوَّر عمل المؤسسات الاستشارية وأوجد مجلس الديوان أو مجلس الملاء واختصاصاته سياسية وقضائية وعسكرية، وهو أعلى مرجع قانوني للبلاد، إلا أنه لا يستطيع أن يتجاوز أحكام السلطة القضائية، ولو كانت ضد المجلس كله أو بعض رجاله، وكان مجلس الديوان من المرونة وسعة الأفق بحيث يسمح بدخول المختصين أو ممثلي المدن والمراكز القروية عندما يقتضي الأمر استشارات على نطاق شعبي واسع[2].

وطوَّر السلطان أحمد المنصور جيش دولته واقتدى بالنظام العثماني في التسليح والرتب واللباس، واهتم بإسناد القيادات لمن أظهر كفاءة عسكرية عالية وأثبتت الأيام أنه أهل لذلك، ومن أهم هذه القيادات: إبراهيم بن محمد السُفياني قائد

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٩٩.

[2] وادي المخازن، ص: ٤٢، ٤٣.

الجبهة الأمامية في وادي المخازن، وأحمد بن بركة، وأحمد الحداد العمري المعقلي. ودعّم جيشه بالوحدات الطبية من جراحين وغيرهم، وأقام مستشفيات متنقلة ميدانية تستقبل الجرحى والمرضى في الحروب واهتم بتأهيل التقنيين المتخصصين في جيشه، وقام السعديون ببناء دار العدة لصناعة المدافع واهتموا بتطوير الأسطول، خصوصا في ميناءي العرائش وسلا[1].

وامتدّ نفوذ الدولة السعدية نحو الجنوب، وضم بلاد السودان الغربي إلى نفوذه، ودخل لعبة الموازنات الدولية بين الإسبان والإنجليز والأتراك، وظهرت منه مواهب سياسية متميزة واستطاع أن يحقق الأمن والازدهار والرفاه والخصب لبلاده[2].

- **. انهيار الدولة السعدية:**

بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي في عام ١٠١٢ هـ / ١٦٠٣ م دخل المغرب في حالة من الضعف والتفكك آل به الأمر إلى سقوط الدولة السعدية، وقد كان لذلك السقوط عدة عوامل منها:

. الصراع المرير على كرسي الحكم بين أبناء الأسرة السعدية من الأسباب القوية التي عجّلت بنهاية الأسرة سريعاً وانهيارها.

. ساهم ذلك الصراع في قيام الثورات والحركات الانفصالية والإمارات المستقلة عن الحكومة المركزية في المغرب الأقصى، وانشغل الأمراء السعديون بالصراع فيما بينهم عن أحوال الرعية والعدو الخارجي.

. دخلت الولايات والإمارات المنفصلة في نزاع عسكري فيما بينها من أجل الحدود والتوسع، كل إمارة على حساب الأخرى، ولم تكن هذه الإمارات في وئام فيما بينها.

. ظهور إمارة قوية بقيادة الأسرة العلوية الشريفة أخذت تسعى لتوحيد المغرب.

[1] تاريخ عصر النهضة، د. نور الدين حسام، ص: ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨.

[2] تاريخ عصر النهضة، د. نور الدين حسام، ص: ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨.

. تولى الزعامة السعدية أبو العباس أحمد، وكانت قد وصلت الدولة في عهده إلى حالة من التردي والضعف والانهيار، حيث لا يزال طفلاً صغيراً وكان أخواله من العرب الشبانات لهم تطلع للوصول للحكم. انتهى الأمر بأن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدي آخر السلاطين السعديين عام ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ م وأزالوا نهائياً معالم الأسرة السعدية لمقتل أبي العباس، واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الأمور في البلاد، وبايعوا إبراهيم عبد الكريم زعيم القبيلة. وكان من الطبيعي أن تسقط تلك القبيلة، لأنها لم تملك القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسي في هذه المرحلة الحاسمة والمليئة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية والخارجية، وسقطت تلك القبيلة أمام زحف الأشراف العلويين الذين أصبحوا محل ثقة الشعب المغربي في عام ١٠٧٥ هـ / ١٤١٢ م وتولوا مقاليد المغرب ودخلوا مراكش، ولا تزال أسرة الأشراف العلويين في حكم البلاد إلى يومنا هذا[١].

٤ . الدولة الحفصية في تونس وليبيا:

. النشأة:

اختلف علماء التاريخ في نسب أمراء بني حفص، فمنهم من أرجعهم إلى عمر بن الخطاب كابن نخيل الذي يعتبر أول كاتب لديوان الدولة الحفصية[٢]. ومنهم من أرجعهم إلى قبيلة هنتاتة، التي تعتبر من أهم قبائل المصامدة على وجه الخصوص، ومن أكبر قبائل البربر في المغرب على وجه العموم.

وموطنها بجبال «درن» القريبة لمراكش ويعتبر أبو حفص من زعماء المصامدة وله مكانة ونفوذ بين قبائل المصامدة وهو من خواص ابن تومرت وآمن بدعوته وبذل قصارى جهده في مناصرته، وكان يأتي بعد عبد المؤمن في المنزلة عند الموحدين من

[١] اريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠١.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٧.

غير منازع، ويشترك معه في الألقاب الرئاسية، فبينما كان ابن تومرت ما يسمى بالإمام وعبد المؤمن بن علي بالخليفة كان يسمى هو بالشيخ[١]، وبلغ من احترام عبد المؤمن له وحسن تقديره إياه أن كان يأخد برأيه في كل مشاكل الحكم، وأكرم أولاده من بعده وأسند لهم المناصب والإمارة في الأندلس وأفريقية.

وعندما تولى الخلافة الموحدية الناصر بن المنصور أسند إلى أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي أمر أفريقية وأعطاه مطلق التصرف في إدارتها كي يستطيع القيام بأعبائها ويقضي على الفتن والثورات المستمرة هناك بزعامة بني غانية وأحلافهم من العرب. وكان من شروط أبي محمد الحفصي على الخليفة الموحدي أن يقيم ثلاث سنين ريثما تترتب الأحوال وتنقطع أطماع بني غانية عنها، وأن يحكمه الناصر فيمن يبقيه معه من الجند ويرضاه من أهل الكفاية، وأن لا يتعقب أمره في ولاية ولا عزل، فقبل الناصر شروطه، ومن هنا ورث الملوك الحفصيون سلطنة تونس وأفريقية[٢]، ويعتبر الانفصال الرسمي عن الدولة الموحدية بالنسبة للحفصيين على يد أبي زكريا عبد الواحد الحفصي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م.

وكانت هناك عدة أسباب شجعت الأمير أبا زكريا بن عبد الواحد الحفصي على الانفصال عنها:

- انهيار دولة عبد المؤمن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة ١٢١٢ م.
- رفض الخليفة الموحدي إدريس المأمون في عام ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م لتعاليم ابن تومرت ثم أزال اسمه من السكة والخطبة.
- قتل الخليفة الموحدي إدريس أشياخ الموحدين الذين عارضوا سياسته ومعظمهم من هنتاتة، قبيلة الحفصيين.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٠٧.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص: ١٢١.

فاستغل أبو زكريا عبد الواحد الموقف المتأزم ورفض مبايعة الخليفة إدريس المأمون، واتخذ الأسباب المذكورة ذريعة للخروج عن طاعة عبد المؤمن والاستقلال بولايته، واعتبر نفسه أحق بميراث فكر وعقائد وأهداف حركة ابن تومرت، ولذلك حرص الحفصيون منذ إعلانهم للانفصال عن التمسك بتعاليم ابن تومرت، وذكروا اسمه في الخطبة والسكة، كما طبَّقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولتهم الناشئة وإن كانت الظروف اقتضت تعديل بعض القضايا بحكم تغير الزمان والمكان[١].

واستطاع أبو زكريا بن عبد الواحد أن يشكل إمارة في تونس وقضى على البقية الباقية من بني غانية، واستولى على قسطنطينة وبجاية ودخل تلمسان، وأتته بيعة أهل طنجة وسبتة وسلجماسة، كما أتته بيعة بني مرين عندما كانوا يقاتلون الموحدين في المغرب الأقصى وكانت مناورة سياسية دلت على دهاء ومكر زعماء المرينيين[٢].

ودعا له عدد من ولاة الأندلس وبايعه أهل شرق الأندلس و إشبيلية والمرية والى الأمير أبي زكريا عبد الواحد، وجَّه أمير بلنسية وفداً برئاسة ابن الأبار يستصرخه لنجدة أهل بلنسية فقام ابن الأبار القضاعي بين يدي أمير الحفصيين منشداً قصيدته السينية الفريدة التي قال عنها المقري أنها فضحت من باراها وكبا دونها من جارها [٣]، وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً

إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست

فلم يزل منك عز النصر مُلتمسا

---

[١] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص: ١٢١.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين للصَّلاَّبي، ص: ٥٠٨.

[٣] الموسوعة العامة لتاريخ الأندلس والمغرب (٣/ ٢٠).

وحاشى مما تعانيه حُشاشتها

فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أصبح أهلها جزرا

للحادثات وأمسى جدها تعسا

في كل شارقة إلمام بائقة

يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غاربة إجحاف نائبة

تثني الأمان حذراً والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم

إلا عقائلها المحجوبة الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة

ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الأشراك مبتسماً

جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادي العائثات بها

يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرساً

ومن كنائس كانت قبلها كنسا

يا للمساجد عادت للعدى بيعا

وللنداء غدا أثناءها جرسا

لهفي عليها إلى استرجاع فائتها

مدارسا للمثاني أصبحت دُرُسا

وأربُعاً نمنمت أيدى الربيع لها

ما شئت من خلع موشية وكُسا

كانت حدائق للأحداق مونقة

فصوّح النصر من ادواحها وعسى

وحال ما حولها من منظر عجب

يستجلس الركب أو يستركب الجلسا

سرعان ما عاش جيش الكفر واحربا

غيث الدبا في مغانيها التي كسبا

وابتز بزتها مما تحيفها

تحيف الأسد الضاري لما افترسا

فأين عيش جنيناه بها خضراً

وأين عصر جليناه بها سلسا

محا محاسنها طاغ أتيح لها

ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورج أرجاءها لما أحاط بها

فغادر الشم أعلاها خُنسا

خلا له الجو فامتدت يداه إلى

إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً

ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صل حبالها أيها المولى الرحيم فما

أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا

إلى أن قال:

طهِّر بلادك منهم إنهم نجس

ولا طهارة ما لم تغسل النجسا

وأوطئ الفيلق الجرار أرضهم

حتى يطأطئ رأساً كل من رأسا

وانصر عبداً بأقصى شرقها شرقت

عيونهم أدمعاً تهمي زكاً وخسا

هم شيعة الأمر وهي الدار قد نهكت

داءً ما لم تباشر حسمه انتكسا

فاملأ هنئاً لك التأييد ساحتها

جرداً سلاهب أو خطيئة دعسا

واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه

لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى[1]

ولقد لبَّى السلطان الحفصي النداء وأرسل السفن المحملة بالعدة والعتاد والرجال والمؤن إلى المدينة المحاصرة، إلا أن تلك الإغاثة لم تفد أهل بلنسية بسبب الحصار المحكم من قبل النصارى مما جعل أهالي المدينة يضطرون إلى التسليم والخضوع للمعتدين النصارى الحاقدين[2].

---

[1] الموسوعة العامة لتاريخ المغرب (٣/ ١٢٠ . ١٢٢).

[2] المصدر نفسه (٣/ ١٢٢).

وفتح أبو زكريا أبواب أفريقية للهجرة الأندلسية وبلغ التأثير الأندلسي في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى، وكان أعظم حكام دولة الحفصيين وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره.

لقد كانت مناورة أبي زكريا عبد الواحد السياسية حققت أهدافها حيث استطاع أن يمكن لبني حفص الحكم في أفريقية وتوسع نفوذه من أحواز طرابلس شرقاً إلى مدينة الجزائر غرباً، وبدا كأنه سيعيد الوحدة إلى أقطار المغرب[1].

- **. ولاية العهد:**

سلك الحفصيون في ولاية العهد مسلك تعيين الأفراد من الأسرة الحاكمة. وفي عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م عَّين الأمير أبو زكريا ابنه على ولاية بجاية وحول له معظم الصلاحيات في سائر أعمالها.

وتميَّز أبو يحيى بحسن الكفاءة وسعة العلم وكثرة الورع وحب العدل، وجعل أهل مشورته وخاصته من أهل العلم والتقوى والدين والرأي السديد.

وكانت وصية أبي زكريا لابنه مليئة بالنصح والإرشاد ومما جعل وفي وصيته قبل موته في عام ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م:

. المحافظة على إقامة شعائر الإسلام في اتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

. تفقده للجيش وحسن معاملته لأفراده حسب درجاتهم، فلا يلحق السفيه بالكبير، فيجرئ السفيه عليه، ويفسد نية الكبير، فيكون إحسانه مفسدة له في كلا الوجهين.

. أوصاه الأمير بعدم الجزع عند حدوث الملمات، لأن الجزع يؤدي إلى القلق والاضطراب، وبالتالي إلى الفشل في معالجة الأمور، لذا عليه أن يعالجها بالصبر والاتزان مع استشارة النبهاء، وذوي التجارب من قادة الجيش.

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥١٠.

ـ أن يحسن اختيار مستشاريه، ممن اتصفوا بصدق القول والإخلاص في العمل، وأن لا يقتصر في استشارتهم على أحد منهم دون الآخر، بل يأخذ بآرائهم جمعيّاً، فإن تعداد الآراء هداية لمعرفة الصواب.

ـ عليه أن يتفقد أحوال رعيته، ويراقب العمال والولاة في أعمالهم، ويبحث عن سيرة القضاة وعن أحكامهم ومهما دعي للكشف عن ملمة فليكشفها، ولا يراع من حكمه أحداً إذا زاغ عن الصواب، ولا يقتصر على شخص واحد فقط في رفع مسائل وحوائج المتظلمين من أبناء رعيته.

ـ أوصاه بالتواضع والصفح عن الهفوات، لأنهما أنجح الطرق في معالجة الأمور.

ـ أن يعاقب بشدة كل مفسد عابث في طرقات المسلمين وأموالهم، متمادٍ في غيِّه في فساد صلاحهم وأحوالهم ومثل هذا ليس له إلا السيف.

ـ أما الحسود فعليه أن لا يقيل عثرته، لأن في إقالته ما يشجعه على القول والقول يدفعه إلى العمل، ووبال عمله يضر غيره، فليحسم داءه قبل انتشاره وبتدارك أمره قبل إظهاره.

ـ عليه أن يزهد في الدنيا، فلا ينشغل بلهوها وزينتها بل يعمل الأعمال الحميدة المشكورة التي تخلد ذكراه في الدنيا وينال بها مرضاة الله في الآخرة[1].

وبعد موت أبي زكريا تولى زعامة الحفصيين ابنه أبو عبد الله محمد الذي تسمى بالمستنصر بالله الذي أعلن نفسه أمير المؤمنين بعد سقوط بغداد بيد التتار عام ٦٥٦ هـ وكان إعلانه كأمير المؤمنين للمسلمين ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وبايعه شريف مكة بالخلافة[2].

---

[1] تاريخ الدول لابن خلدون (١/ ٤٠٦ ـ ٤٠٨).

[2] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس للعبادي، ص: ١٢٣.

وحاول الحفصيُّون أن يستندوا إلى الأسس الشرعية اللازمة في باب الخلافة كالأصل العربي، والنسب النبوي، إلى جانب قرابتهم للموحدين، فزعموا أنهم من سلالة عمر بن الخطاب[١]، وعمر رضي الله عنه كما تعلم من أشراف قريش وكانت إليه السفارة في الجاهلية، وقد تزوج النبي صلى الله عليه وسلم ابنته حفصة، فالحفصيون بحكم هذا الأصل القرشي، وهذا النسب النبوي، وبحكم قرابتهم للموحدين، وجدوا في أنفسهم الشرعية الكافية لأن يرثوا خلافة الموحدين المنهارة[٢]. وحرص الحفصيون على الاعتزاز بهذا الأصل، وإعلانه في كل حفل ومناسبة وتبارت أقلام كتابهم وقصائد شعرائهم بإطلاق اسم الدولة العمرية أو الفاروقية على الدولة الحفصية، وذكر نسبهم الذي يرجع إلى عمر الفاروق كما يقولون، فهذا ابن خلدون يمدحهم يقول:

قوم أبو حفص أب لهم

وما أدراك والفاروق هو أول[٣]

ودعم موقف الحفصيين في إعلان الخلافة سقوط بغداد بيد المغول واعتراف شريف مكة وأهل الحجاز بالخلافة الحفصية، وسارع ملك غرناطة ابن الأحمر بمبايعة الحفصيين وكذلك المرينيين في المغرب الأقصى بقول السلاوي الناصري: ولما بلغ بنو مرين بالمغرب وغلبوا على الكثير من ضواحيه، كانوا يدعون إلى أبي زكريا الحفصي تاليفاً لأهل المغرب، واستجلاباً لمرضاتهم وإتياناً لهم من ناحية أهوائهم، إذ كانت صبغة الدعوة الموحدية قد رسخت في قلوبهم[٤]، واعترف بنو زيان في تلمسان في المغرب الأوسط بهذه الخلافة.

---

[١] تاريخ المرابطين والموحدين، ص: ٥١٢.

[٢] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ٥١٢.

[٣] مصدر السابق.

[٤] السلاوي، الاستقصا (٢٨/٣ . ٢٩) نقلا عن العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأنداس.

وبذلك ظهرت خلافة قوية في الشمال الأفريقي عاصمتها تونس، وبسطت نفوذها في بلاد الأندلس والمغرب والحجاز، وشعر حكام مصر بخطورة أهداف الخلافة الحفصية وكانت السياسة المغربية في عهد المماليك تهدف إلى مد سلطانها على الحجاز لأسباب دينية واقتصادية وسياسية. ومن أهم تلك الأهداف: السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، فجميع الحكام الذين حكموا مصر واستقلوا بها كالطولونيين والإخشيديين والفاطميين "العبيديين" قد حرصوا على مد سلطانهم على الحجاز ثم جاء الأيوبيون والمماليك والعثمانيون، فساروا على نفس هذه السياسة لدرجة أنهم لقبوا أنفسهم بلقب "خدام الحرمين"[1].

وكان يحكم مصر في تلك الفترة (٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ) السلطان الظاهر بيبرس وكان من أقوى السلاطين الذين حكموا مصر، واستطاع أن يهزم المغول عند الحدود العراقية، وعلى الصليبيين في الشام حتى صارت سيرته مضرباً للأمثال، ورأى السلطان بيبرس أن سياسة الدولة الحفصية تتعارض مع أهداف دولته لهذا عمد إلى إحياء الخلافة العباسية في القاهرة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م، فأتى بأمير من أمراء العباسيين الفارين من المغول وبايعه بالخلافة في احتفال كبير بالقاهرة، ولقبه بالمستنصر بالله وقام الخليفة الجديد وقلد السلطان بيبرس حكم مصر والشام والحجاز، وما يغزوه من بلاد الأعداء. وبهذا العمل كسب بيبرس نفوذاً أدبياً وروحياً وسياسياً ووجه ضربة موجعة للدولة الحفصية، وشرع بيبرس بعدة إصلاحات بالحرم النبوي الشريف وأرسل كسوة الكعبة وأرسل الصدقات والشموع والزيت والطيب...الخ. ثم أدى بيبرس فريضة الحج وظهر منه خشوع وكرم متميز وأزال أنصار الحفصيين، وأمر بالدعاء للخليفة العباسي على منابر الحجاز بدلاً من الخليفة الحفصي، ووضع مندوباً تابعاً له

---

[1] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٢٧.

بجانب شريف مكة، إلا أن بعد مضي وقت قصير، ضعف نفوذ كل من الخلافتين وصار سلطانها في المنطقة التي تعيش فيها[1].

واستطاع المستنصر بالله أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا الحفصي أن يطور الدولة ويجعلها مقصداً للعلماء والأدباء وأن تتخذ مكانة رفيعة على المستوى الدولي في زمانه، وجاءته سفارات من دول متعددة بعضها من السودان، والبعض آخر من أوروبا، واهتم بعاصمة الدولة وتطور العمران وازدهرت الأحوال العامة في أيامه وأصبحت أعز أيام الدولة الحفصية.

وتعرضت الدولة الحفصية لهجمات نصرانية همجية يقيودها لويس التاسع ملك فرنسا في سنة ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م أي بعد عشرين سنة من غزوته الخائبة لمصر، إلا أنها أخفقت بسبب الوباء الذي عصف بها وعصف بحياة الملك نفسه[2].

مات المستنصر الموحدي عام (٦٧٥هـ / ١٢٧٧م) وبعد انقضاء القرن السابع الهجري، ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس، ثم لم تلبس أن نخرتها وأضعفتها الحروب الأهلية، واستقلت بجاية عن تونس وانتهز بنو مرين هذه الفرصة، وأخذوا يتدخلون في شؤون الدولة الحفصية واستولوا على تونس عدة مرات[3].

وأصبح الشمال الأفريقي في دوامة الصراع واستطاع الحفصيون أن يعودوا إلى حكم أفريقيا، لدى انسحاب المرينيين وبزغت مرحلة جديدة من الاستقرار النسبي في ولاية أبي العباس أحمد المعروف بالمستنصر ٧٢٢هـ / ١٣٧٠م ـ ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م واستطاع أن يصدّ هجوماً من النصارى على المهدية سنة ٧٩٢هـ /١٣٩٠م فهزموهم واستعادت الدولة الحفصية شيئاً من هيبتها وتمكن إبنه أبو فارس من الإستيلاء على تلمسان، وضم بعض الإمارات التي إستقلت في حياة أبيه ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م وعلى

[1] دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص: ١٢٧.

[2] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥١٤ .

[3] دراسات في تاريخ المغرب، ص: ١٢٩.

بسكرة سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م ثم نجح في الاستيلاء على مدينة الجزائر سنة ٨١٣هـ / ١٤١٠م، وفي عهد أبي فارس قدمت السفارات إلى تونس من جميع الأنحاء تخطب مودته وتطلب مصالحته خاصة ومنها سفارة من غرناطة وفاس ومصر، وتوفي أبو فارس سنة ٨٣٨هـ /١٤٣٤م، وخلفه ابنه الأصغر المستنصر فحكم ١٤ شهر ومات، وفي عهد أخيه أبي عمر وعثمان اشتعلت نار الفتنة بسبب أطماع أبناء عمومته بالسلطان، إلا أن أبا عمر استطاع أن يقضي على هذه الثورات سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م ويهزم عمه أبا الحسن[١].

وتقدمت تونس في مجال الحضارة في عهده وشكلت علاقات ومعاهدات تجارية مع فرنسا وسلاطين مصر والأندلس، ثم تمزَّقت وحدة الحفصيين بعد وفاته وهاجم الإسبان سواحل تونس، وتبدلت الحال حتى أصبحت حال الحفصيين يرثى لها، وعبَّر أبو محمد الحفصي عن الحال التي وصلت إليها في بيت شعر قال فيه:

وكنا أسوداً والرجال تهابنا

فجاء زمان فيه نخشى الأرانبا

وكان هذا الأمير قد تحالف مع الإسبان وثار عليه ابنه، فقبض عليه وسمل عينه وخلعه من منصبه، ثم قام الإسبان بمذبحة في تونس سنة ٩٤١هـ / ١٥٣٤م فكانت نهاية الحفصيين، وبدأ الصراع عليها بين العثمانيين والاسبان واستطاع العثمانيون أن يتغلبوا على الإسبان ولذلك دخلت تونس في حكم الدولة العثمانية الإسلامية عام ٩٧٦هـ / ١٥٦٨م.

وذكر الدكتور عبادة كحيلة أن الأمر خلص للعثمانيين عام ٩٨١هـ / ١٥٧٣م.

- **. طرابلس والدولة الحفصية:**

---

[١] المغرب الكبير (٢ / ٨٧٩) .

- اتخذ بنو حفص تونس مركزاً لسلطانهم وأرسلوا الأمراء إلى طرابلس، ومن أمرائهم على طرابلس أبو عبد الرحمن يعقوب الهرغي، وعبد الله بن إبراهيم بن جامع، ومحمد بن عيسى الهنتاتي، ويوسف بن طاهر اليربوعي، وقد حاول الأول الاستقلال بطرابلس ولكنه لم ينجح، وثار أعيان طرابلس ضده فقبضوا عليه وقتلوه، ولم تظهر حركات انفصالية في عهد الوالي الثاني، أما الوالي الثالث فقد انفصل بطرابلس عن أمراء بني حفص في أثناء إمارة أبي عبد الله محمد (٦٤٧ ـ ٦٦٥م) فعاد يعلن ولاءه إليه وتبعيته لإمارته، وجاء يوسف بن طاهر اليربوعي فأعلن استقلاله التام عن الحفصيين واستبد بالأمر.
- لقد كانت حركة انفصال المدن عن الدولة الحفصية كثيرة وكانت الثورات متصلة من أمير ضد أمير، وكان ذلك مما سبب الضعف والوهن للأسرة الحفصية الحاكمة، وفي مطلع القرن الثامن الهجري كان الإضطراب قد بلغ أشده، وكان زكريا بن أحمد اللحياني أحد أمراء بني حفص قد عاد حديثاً من الحج إلى طرابلس، فاجتمع الناس حوله وإختاروه أميراً لهم سنة ٧١١هـ ورأى اضطراب الأحوال بتونس فعقد العزم على غزوها واحتل تونس ثم سار شرقاً حتى وصل إلى برقة ثم رجع إلى طرابلس[١].

وأصبحت طرابلس عاصمة النشاط السياسي بأفريقيا حوالي ست سنوات، ثم انهزمت هذه الحركة أمام القوات التي قادها يحي أبو بكر سنة ٨١٨هـ الذي استطاع أن يحرر تونس، ولكنه فشل في ضم طرابلس بل ظل أمراء طرابلس يهددون تونس من حين إلى آخر[٢].

- **ـ طرابلس بين بني ثابت وبني مكي وبني حفص:**

---

[١] تاريخ الفتح العربي الطاهر الزاوي، ص: ٣٤٢.

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥١٦.

بنو ثابت عرب وشاحيون من بني سليم، آل إليهم حكم طرابلس من سنة ٧٢٤هـ. وظلوا يحكمونها بدون استقرار . حتى قبيل غزو الإسبان لها[١].

ومن ولاة بني ثابت:

. ثابت بن محمد (الأول) ٧٢٤هـ.

. محمد بن ثابت ٧٣٠هـ.

غزا جزيرة جربة وضمها إلى طرابلس واستعادها بنو حفص سنة ٧٤٨هـ[٢].

. ثابت محمد بن ثابت الثاني ٧٥٠هـ

استطاع تجار جنوى أن يخدعوا الطرابلسيين ويحتلوا المدينة في عام ٧٥٥هـ. وهرب ثابت من المدينة وحيل بين الأهالي وبين أسباب الدفاع، وغلبوا على أمرهم فملكوا البلاد ونهبوا الأموال وتملكوا المتاع، وأسروا الرجال وسبوا النساء، ونقلوا كل ما استطاعوا إلى جنوى فتدخل بنو مكي –وهم من البربر، ونسبهم من لواته– بزعامة أحمد بن مكي، وكان حاكماً لقابس وتفاوض مع الجنويين وطلبوا أن يدفع لهم خمسين ألف مثقال من الذهب العين، فقبل، وأرسل إلى السلطان أبي عنان في تونس يستنهض همته في دفع المبلغ، فلم يتفاعل، فأخرج ما عنده ووقف معه أهل قابس والجريد وتمْ دفع المبلغ وحرر بذلك طرابلس بعد أن مكث الجنويين فيها حوالي خمسة أشهر.

وقد أرسل إليه سلطان الحفصيين أبو عنان المال الذي دفعه فاعتذر عن أخذه، وإنها لشهامة ونخوة ورجولة وموقف يدل على حميته الإسلامية القوية وعاطفته الجياشة نحو إخوانه في العقيدة[٣].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥١٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥١٦ .

[٣] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: ٣٥٢ .

وبعد هذا الموقف الشهم النبيل رأى السلطان أبو عنان أن يعقد لأحمد بن مكي على طرابلس فتولاها وجعلها دار إمارته وبقي أميراً عليها إلى أن توفي عام ٧٦٦هـ .

وتولى ابنه عبد الرحمن ولاية طرابلس بعد وفاة أبيه فكان سيىء المعاملة عاجز الرأي مستبداً في الأمر كرهه الناس وسئموا حكمه.

واستطاع أبو بكر بن ثابت أن يحتل طرابلس بأسطول جاء به من مصر، فوقف الأهالي معه من أجل التخلص من ولاية عبد الرحمن بن مكي، وعمل أبو بكر بن ثابت على تحسين علاقته مع بني حفص واعترف لهم بالولاء[١].

وبعد وفاة أبي بكر بن محمد سنة ٧٩٢هـ ولى طرابلس ابن أخيه علي بن عمران بن محمد بن ثابت واستطاع أن ينفصل عن الحفصيين وتعرض لحصار عنيف إستمر لمدة سنة، إلا أنه قاوم ذلك واستطاع الحفصيون أن يدعموا ابن عمه يحيى بن أبي بكر واستطاعوا أن يملكوا طرابلس وأسندوا ولايتها إلى يحيى بن أبي بكر ولكن رأى الأمير الحفصي أن يعزله وعيّن عليها رجلاً من قبله يثق فيه، وأصبحت طرابلس تابعة له وانقرض حكم بني ثابت في طرابلس وإمارتهم عليها[٢] بعد أن حكموها نحو ٧٩ سنة [٣].

وتولى المنصور محمد بن عبد العزيز بن أبي العباس ولاية طرابلس عام ٨٠٣هـ واستمر في الحكم إلى وفاته عام ٨٣٣هـ.

ثم تولى ولاية طرابلس عبد الواحد بن حفص وقبل الشروع في عمله اشترط لقبولها شروطاً:

---

[١] المصدر السابق ، ص: ٣٥٣ .

[٢] المصدر نفسه.

[٣] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٤٦.

. أن يبقى واليها على البلاد ولا يعزل حتى يعيد البلاد إلى مجدها التجاري ونشاطها الثقافي .

. أن يستقلّ بالإدارة ولا يرد أمره في شيء .

. أن يتخذ من الجند لنفسه ما يريد .

وافق الأمير عبد العزيز الحفصي على تلك الشروط وظهر من عبد الواحد بن حفص حزماً ورأياً وإرادة ونشر العدل ومنع الظلم واستتب الأمن واطمأن الناس على أموالهم وأرواحهم ونعمت البلاد بالخيرات واتسعت التجارات وكثرت الأموال، وبقي والياً إلى أن توفي عام ٨٥٨هـ وكانت مدة حكمه ٢٥ سنة، كانت أيام رغد وهناء على أهل طرابلس[١].

ويرى الشيخ الطاهر الزاوي بأن طرابلس منذ أن تولاها عبد الواحد بن حفص سنة ٨٣٣هـ إلى أن احتلها الإسبان سنة ٩١٦هـ كانت في رخاء مستمر وأمن شامل، واستطاع الأهالي أن يجمعوا ثروة هائلة كانت مضرب المثل في الشمال الأفريقي، وانغمس أهلها في متع الحياة ووقعوا في الترف الذي أفسد عزائمهم وأخلاقهم ووضعت روح الجهاد والكفاح والنضال في نفوسهم، فطمع بهم الأعداء من النصارى وتكالبوا عليهم[٢].

وحانت الفرصة للإسبان فجهزوا مائة وعشرين قطعة بحرية انضمت إليها سفن أخرى من مالطة، وشحنت بخمسة عشر ألف جندي من الإسبان، وثلاثة آلاف من الإيطاليين والمالطيين وفي ٨ من ربيع سنة ٩١٦هـ تحركت قواتهم نحو طرابلس ووصلت أساطيلهم ليلة الثامن عشر من ربيع الآخر سنة ٩١٦هـ، الخامس والعشرين من يوليو سنة ١٥١٠م وبدأ القتال بين النصارى الإسبان والطليان والمالطيين وبين أهالي طرابلس، ولم تكن القوات متكافئة وسقطت

---

[١] تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص: ٣٥٧ ، ٣٥٩ .

[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٦٠ .

المدينة في يد الأعداء، فهتكت الأعراض وسبيت النساء وقتل الرجال وديست المقدسات، واستمر الإفساد الإسباني في البلاد ما يقرب من عشرين سنة ولم يستطيعوا أن يتجاوزوا فيها أسوار المدينة، ثم سلمت طرابلس إلى فرسان القديس يوحنا في عام ٩٤٢هـ ١٥٣٥م .

واستمر فرسان القديس يوحنا حتى عام ٩٥٨هـ / ١٥٥١م حيث استطاع الأبطال العثمانيون السنيون أن يحكموا الحصار، ويحرِّروا أسر مدينتنا الحبيبة من قبضة فرسان القديس يوحنا[١] .

- **. أسباب سقوط الدولة الحفصية:**

. إعتمادها للمنهج المنحرف الذي نظر له ابن تومرت، وحرصها على تبنِّي عقائده الفاسدة بعد أن انكشف زيف العقيدة التومرتية ومنهجه البدعي لكثير من أهالي الشمال الأفريقي فأصبح الولاء ضعيفاً للفكر التومرتي حتى عند أمراء الدولة الذين استخدموا تبني منهج ابن تومرت كمناورة سياسية من أجل القضاء على بقايا دولة الموحدين.

. الصراع الداخلي على الحكم بين أبناء البيت الحفصي، وما ترتب على ذلك من صراع عنيف وقتال دموي.

. استقلال بعض المدن كإمارات مستقلة عن عاصمة الحفصيين، فتضطر أحياناً الدولة لتجنيد الجيوش وتجهيزها من أجل إخضاع المدن لسلطانها، فيكلفها ذلك الكثير من الأموال والعتاد والرجال، وأحيانا تنهزم جيوش الدولة أمام مقاومة المدن الضارية.

---

[١] المصدر نفسه.

. استُهدفت مدن أفريقية من قبل الإسبان النصارى والأوروبيين عموماً، فعملوا على تنصير الشمال الأفريقي والانتقام من المسلمين واستغلال خيراتهم وثرواتهم، فدخلت الدولة في صراع معهم انتهى بالتحالف بين الإسبان والحفصيين.

. ظهور قوى إسلامية سنية أصيلة متمثلة في السلطة العثمانية والتي استطاعت أن تهزم النصارى في ميادين البر وميادين البحر، وكان دافع الدولة العثمانية في صراعها مع النصارى نصرة الإسلام والمسلمين وحب الجهاد في سبيل رب العباد.

. تطلع أهالي الشمال الأفريقي إلى قوة إسلامية سنية تقوم بتحريرهم من الإسبان ومن الأمراء الذين تحالفوا معهم ولم يحترموا مقدسات الأمة وعقيدتها ودينها، فوجدوا في العثمانيين بغيتهم فراسلوهم واتصلوا بهم وتعاونوا على البر والتقوى من أجل إعزاز الإسلام والمسلمين ودحر النصارى الغاصبين.

. كان سقوط دولة الحفصيين نتيجة طبيعية لما آلت إليه من التنازع بين المسلمين وعدم حرصهم على سلامة وحدة الأمة وأهدافها العظمى[١].

٥ . بنو عبد الواد "بنو زيان":

كان بنو زيان ولاة للجزائر من قبل الموحدين، وعندما ضعف أمر الموحدين انفصلوا بالمغرب الأوسط، وجعلوا مدينة تلمسان عاصمة لهم، وترجع أصولهم إلى قبائل زناتة الكبرى وعرفوا في كتب التاريخ ببني عبد الواد[٢].

---

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٢٠.

[٢] تاريخ قادة بلاد المغرب (٢/ ٢٣٤).

وكان بنو عبد الواد من أمراء القبائل الرُحَّل التي تنتقل في الصحراء الكبرى خلف الماء والكلأ والمراعي، ثم ساعدتهم الظروف والأحوال التي مرت بها المغرب على الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلاثمائة سنة تقريباً. وكان استقرار قبائل عبد الواد في سواحل المغرب الأوسط، واستطاعوا أن يفرضوا أنفسهم بالقوة على أهالي هذه البلاد وأصبحوا فيما بعد سادة المغرب الأوسط.

وانفصل زعيم بني عبد الواد يغمر اسن بن زيان عن دولة الموحدين وأبقى الطاعة الشكلية لها إلى أن سقطت فعلياً، وحكم زعيم بني عبد الواد ما يقارب الخمسين سنة "٦٣٣ هـ / ١٢٣٥م . ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م"، كان يغمر اسن يدرك صعوبة الموقف الذي أصبح فيه، لكون دولته أصغر دويلات الشمال الأفريقي وأقلها قوة، وأيقن بالخطر القادم من المغرب الأقصى بعد صعود نجم قبائل بني مرين، لذلك تحالف مع خلفاء الموحدين لكسر شوكة المرينيين، إلا أن تلك الأحلاف لم تستمر وانتهت بوصول بني مرين إلى الحكم بعد إسقاطهم للموحدين.

وأرادت الدولة المرينية أن تأمن حدودها الشرقية ودخلت في صراع عنيف وقتال مرير مع بني عبد الواد الذين هزموا في عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م أمام الضربات المرينية قرب وجدة، ثم تحركت القوات المرينية نحو تلمسان وضربت عليها حصاراً استمر لمدة عام كاملٍ، ثم رفع حتى تتفرغ الدولة المرينية للاستيلاء على ما تبقى من أقطار المغرب الأقصى[١].

وكان من سعد بني عبد الواد أن انشغل المرينيون بالجهاد في بلاد الأندلس، وتحالف بنو عبد الواد مع بني الأحمر لما ساءت العلاقة بين بني مرين وبني الأحمر

---

[١] المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، ص: ١٣٤.

بفعل العمل الاستخباراتي النصراني الإسباني، وقام بنو عبد الواد بالهجوم على حدود الدولة المرينية، فاضطر المرينيون أن يعودوا لحرب بني عبد الواد وألحقوا بهم هزائمهم في عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م.

وكان بنو عبد الواد يجدون في الصحراء الواسعة ملاذاً لهم عندما يشتد خطبهم وتنكسر حشودهم وتنهزم قواتهم أمام المرينين ، ثم ينتظرون الوقت المناسب والفرصة الملائمة ليعودوا إلى مدنهم في المغرب الأوسط.

كان بنو عبد الواد ينتهزون الفرص التي تحدث بين أبناء البيت المريني فيناصرون فريقاً على حساب آخر، كما كانوا يدخلون في أحلاف ضد المرينيين مع الحفصيين الذين رأوا في بقاء بني عبد الواد درعاً حصيناً بينهم وبين بني مرين، إلا أن تلك الحالة لم تستمر طويلاً حيث دخلت الدولتان في صراع عنيف ضد بعضهم البعض، وإن كان أخف من الصراع مع المرينيين.

واستطاعت الدولة المرينية أن تزيل الوجود الزياني والحفصي وتوحِّد المغرب كله في زمن أبي الحسن المريني في عام ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م إلا أن تلك الوحدة لم تستمر بسبب عوامل مرت بها.

لقد تعرضت دولة بني عبد الواد للانهيار أكثر من عشرين مرة ومع ذلك استطاعت أن تبقى في حكم المغرب الأوسط لمدة ثلاثة قرون، ويرجع ذلك إلى أسباب منها[١]:

- ظهور الزعيم يغمر اسن بن زيان والذي استمر في الحكم لمدة نصف قرن. يقول ابن خلدون عنه: كان يغمر اسن بن زيان من أشد بني عبد الواد بأساً وأعظمهم في النفوس مهابة وإجلالاً، وأعرفهم بمصالح قبيلته، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرياسة، شهدت له بذلك آثاره قبل الملك

[١] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٣.

وبعده، وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، تعظمه من أمره الخاصة وتضرع إليه في نوائبها العامة، فلما تولى الأمر بعد أخيه قام به أحسن قيام واضطلع بأعبائه وظهر على الخارجين وأصارهم في جملته وتحت سلطانه، وأحسن السيرة في الرعية بحسن السياسة والاصطناع وكرم الجوار، واتخذ الآلة ورتب الجند والمسالح وفرض العطاء[1].

- حصانة مدينتهم وموقعها الوعر، وخصوبة الإقليم المحيط بها وصبرهم ومصابرتهم في القتال وتحملهم للحصار.
- حسن سياستهم مع القبائل العربية الهلالية، فمنحوهم إقطاعات واسعة وأكرموهم بالأموال والعطاء، فكانوا من الأسباب الظاهرة في حماية الدولة.
- إسناد مرافق الدولة إلى الأندلسيين الذين هاجروا من ظلم النصارى الإسبان وجورهم وتعسفهم، فاستفادت الدولة من خبرتهم في الوزارة وفي الحياة المعمارية، والحياة الثقافية.
- اهتمامها بالتجارة واستفادوا من موقع تلمسان الذي كان محطة بين أفريقية المدارية وأوروبا، فكان يتم التبادل بين التجار بين ما يحملوه من أفريقيا من تبر ورقيق وجلود وعاج، وبين ما يحمله التجار من أوروبا وأخصها السلاح.
- فهيأت الدولة الأمن للتجار وخفَّضت عنهم الضرائب، واكتفت بما تحصِّله من رسوم فكانت التجارة سبباً في ازدهار الدولة وحصولها على الأموال اللازمة.
- اهتمام الدولة بالعلماء والأدباء والشعراء، حتى أن يحيى بن خلدون "ت ٧٨٠" وهو أخ المفكر الكبير والمؤرخ المعروف ابن خلدون استطاع أن يصل إلى وظيفة الحجابة في زمن الأمير أبي حمو موسى الثاني (٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م. ٧٩١ هـ / ١٣٨٩ م)، وكان هذا الأمير محباً للعلماء والأدباء، وكان هو نفسه أديباً شاعراً

[1] تاريخ ابن خلدون (٧/ ٧٩).

وله كتاب اسمه: "نظم السلوك في سياسة الملوك"، ووقف مع غرناطة في جهادها بالمال والرجال[1].

وفي عهد بني زيان على العموم نبغ جماعات من أشهر العلماء والأدباء والكتاب والمفكرين، ولعل في قمة هؤلاء عبد الرحمن الثعالبي مؤلف "الجواهر الحسان"، والمقري مؤلف "نفح الطيب"، كما امتازت هذه الدولة ببناء المدارس الفسيحة التي تعتبر من آيات الفن المعماري العربي، وأجريت على طلبتها وشيوخها الأرزاق[2].

- **. التنظيم الإداري في عهد بني عبد الواد:**

قسمت السلطات في الدولة إلى:

. السلطة العسكرية ويتولاها صاحب السيف.

. السلطة الإدارية ويتولاها صاحب القلم.

. السلطة القضائية ويتولاها قاضي القضاة.

. السلطة المالية ويتولاها صاحب المال.

ويتابع مسؤولي السلطات السابقة شخص يطلق عليه اسم "مزاول" وله حق الإشراف على كل هؤلاء، وهو ما يعرف في زماننا برئيس الوزراء، وفي كل مدينة أو قبيلة كان يوجد الحافظ (الوالي)، وهو حافظ النظام الإسلامي، وإلى جانبه المحتسب وهو المشرف على الحسبة، والقاضي وغيرهم من موظفي الدولة وجباة الضرائب[3].

- **. أسباب السقوط لبني عبد الواد:**

. النزاع الداخلي بين أبناء الأسرة الحاكمة من أجل الوصول إلى الحكم.

---

[1] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٤.

[2] موسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد شلبي (٤/ ٢٥٢).

[3] المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).

ـ قتال الحفصيين لهم في عهد أبي فارس عبد العزيز وعهد أبي عمر وعثمان أضعف الدولة وخلخل بنيتها القائمة عليها.

ـ ظهور دويلات على الساحل انفصلت عن قلب الدولة في تلمسان.

ـ مجيء الغزو الصليبي النصراني الإسباني واحتلالهم بجاية سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م، ثم استيلاؤهم على وهران ٩١٤ هـ، ثم سعيهم للاستيلاء على الجزائر، وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية[١]. وعجز بنو عبد الواد في التصدي لهم.

ـ ظهر على الساحة المجاهدون المسلمون الذين ينتمون إلى الدولة العثمانية، وكان على رأسهم خير الدين بربروسة الذي استطاع أن يضع حداً لعدوان الإسبان. وانتهى الأمر بزوال دولتي بني زيان في عام ٩٢٦ هـ / ١٥٥٤ م، ودخول المغرب الأوسط تحت الحكم الإسلامي العثماني والذي استطاع أن يهزم الإسبان[٢]، وكان تفاعل أهالي المغرب الأوسط مع الدولة العثمانية عظيماً، لأن المسلمين العثمانيين دحروا الإسبان وهزموهم وخلّصوا البلاد من التواكل والتخاذل الذي أخلد إليه بنو عبد الدار، فكان ذلك التخاذل والتواكل سبباً في تجرؤ الإسبان على احتلال وهران، واعتدى الجيش الإسباني النصراني على حرمات الدين والأعراض والنفوس والأموال وارتكبوا الفواحش، وقتلوا نحو ثمانية آلآف من الأطفال والشيوخ والنساء، وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة، وفي أواخر رمضان سنة ٩١٥ هـ / ١٥١١ م اقتحم النصارى الإسبان أسوار "بجاية" وحطموا الجامع الأعظم فيها وكثيراً من معالم المدينة[٣].

---

[١] المغرب الكبير (٢/ ٨٧٥).

[٢] تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، ص: ٥٠٥.

[٣] المصدر السابق، ص: ٥٠٦.

فكان من الطبيعي أن يفرح أهالي المغرب الأوسط لمجيء العثمانيين للدفاع عن الإسلام وأهله وداره، والتصدي للإسبان وغيرهم.

المبحث الثاني

الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

شجع الانحلال الذي كانت تعيشه بلدان الشمال الأفريقي كلًّا من الإسبان والبرتغال على العمل لاحتلال المناطق الساحلية منه، لتحقيق جملة من الأهداف الإستراتيجية التي كانا يطمحان إليها، فقد لاحظ أحد كتاب البلاط الإسباني هذا الانهيار وعبّر عنه بقوله: إن الحالة النفسية في كامل البلاد بلغت حداً من الانهيار يحمل محل الاعتقاد بأن الله أراد أن تكون هذه البلاد في متناول صاحب الجلالة[١].

وهكذا ففي سنة ١٤٩٤ عقدت البرتغال وإسبانيا افاقية لتقسيم مناطق النفوذ بينهما، وقد عرفت هذه الاتفاقية بـ"اتفاقية توردي سلاس"، تمّ بموجبها تقسيم المستعمرات بحيث كانت الأقاليم الشرقية من نصيب البرتغال، والغربية من نصيب أسبانيا، أما بالنسبة لشمال أفريقيا فقد أضيفت لها اتفاقية أخرى سنة ١٥٠٩ م عرفت بمعاهدة "فيلا فرنكا"، تم بمقتضاها جعل المستعمرات البرتغالية في الغرب أي في المغرب[٢].

والجدير بالذكر أن إسبانيا شرعت –منذ عقد اتفاقية "توردي سلاس" في تموز ١٤٩٤م– في العمل على احتلال سواحل الجزائر وتونس وليبيا، حيث تم احتلال ميناء المرسا الكبير، وميناء وهران قبل عقد الاتفاقية المتمِّمة في ١٥٠٩م التي باركها البابا إسكندر بورجيا معطياً بذلك الصبغة الدينية والرسمية لما جاء بعدها من حملات استعمارية لمدن الساحل الشمال الأفريقي[٣].

---

[١] الدخول إلى الجزائر، د. محمد دراج، ص: ٩٩.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

أولاً: احتلال المرسا الكبير، وتنس ووهران وبجاية ومستغانم

١. احتلال المرسا الكبير (١٥٠٥ م):

نظراً للأهمية الاقتصادية الخاصة لهذا الميناء، وقربه من مدينة وهران التي لا يبعد عنها سوى ٨ كيلومترات وكذا قربه من إسبانيا، ولأجل ذلك جعلت المخططات الإسبانية هذا الميناء هدفها الأول لحملاتها، وهكذا وصل الأسطول الإسباني إلى ميناء المرسا الكبير في ١١ سبتمبر ١٥٠٥ م يُقل ٥,٠٠٠ جندياً[١]، بعد أن تأخر، وكان هذا في صالح القوات الإسبانية، لأن القوات الرسمية والشعبية التي جاءت للدفاع عن الميناء عندما بلغها خبر إقلاع الأسطول من ميناء مدينة مالقة الإسبانية في ٢٩ أوت ١٥٠٥ م أسرعت إلى المرسا الكبير، وانتظرت وصوله، لكن عندما طال انتظارها ظنت أن الإسبان تراجعوا عن مهاجمة الميناء، فرجع أكثرهم تاركين حامية لا يزيد عدد أفرادها عن ٥٠٠ رجل وكُلِّت إليها مهمة الاستطلاع والمراقبة[٢].

وعندما وصل الأسطول الإسباني اشتبك مع حامية المرسا في معركة عنيفة غير متكافئة، انتهت باحتلال قلعة المدينة والتحصُّن بها، وبعد ٥٠ يوماً من المقاومة الشعبية العنيفة، قرر أعيان المدينة تسليم المدينة للإسبان مقابل اتفاقية تضمن لهم الحياة، وحرية الانسحاب من دون أذى. فوافق الإسبان على ذلك بشرط أن لا يأخذوا معهم أي شيء من الزاد والمؤن والحيوانات فأخلى الأهالي المدينة، ودخلها الإسبان ورفعوا فوقها أعلامهم، وحولوا في الحال جامعها الأعظم إلى كنيسة[٣].

أرسل الملك الزياني جيشاً بلغ بالإضافة إلى المتطوعين ٢٢,٠٠٠ جندياً من المشاة، و٢,٠٠٠ من الفرسان لتحرير المدينة، لكن الإسبان كانوا قد أحكموا تحصينهم بها،

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

ونصبوا مدافعهم على أسوارها ونشبت معارك عديدة تحت أسوار المدينة، لكنهم لم يتمكنوا من زحزحة الإسبان عن مواقعهم[1].

وما كاد خبر احتلال المرسا الكبير يصل إلى إسبانيا حتى اجتاحتها موجة من الفرح والابتهاج، وأعلن فيها العيد لمدة أسبوع وعملت الحامية الإسبانية من جهتها على فتح سوق تجاري إلى جانب المدينة بهدف تأمين متطلبات الحامية، وإقامة علاقات مع السكان، كما أغدقت الحامية الذهب والفضة على المتعاونين معها من التجار، غير أن الأهالي اعتبروا المتعاونين مع الإسبان خونة مارقين من الدين، وعاملتهم معاملة الأعداء، وأخذت توالي الغارات عليهم[2].

وهكذا فإنه بسقوط هذا الميناء تبدأ مرحلة طويلة من الصراع الدامي بين الجزائر وإسبانيا دام ٣٠٠ سنة وهي الفترة التي استغرقها الوجود العثماني بالجزائر[3].

٢ . خضوع مدينة تنس (١٥٠٧ م):

أدرك الإسبان بسرعة أن استغلال التناقضات الداخلية، والاستعانة بالخونة لتثبيت وجودهم أمر بالغ الأهمية، ومن ثم فقد شرعوا منذ احتلالهم للمرسا الكبير في توطيد علاقاتهم بالأعراب المحيطين بالمرسا الكبير واستمالتهم إليهم، واستعمالهم كأعوان لهم لتثبيت وجودهم، كما راحوا يبثون الشقاق بين أفراد البيت الزياني المتصارع على العرش بغية إنهاكه وإلهائه عن التصدي للاحتلال، فقد سبقت الإشارة إلى أن أبا زيان الثالث الملقب بالمسعود جلس على العرش الزياني سنة ١٥٠٣ م خلفاً لأبيه أبي عبد الله محمد الثالث الذي كان قد توفي في تلك السنة، فثار عليه عمه أبو حمو الثالث واغتصب منه العرش، وسجن السلطان الشرعي المسعود بينما فرَّ أخوه المدعو يحيى الثابتي إلى فاس

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

طالباً مساعدتهم له ضد عمه أبي حمو مغتصب العرش، فلم يلبث الثابتي إلا أن استدعاه أهالي تنس وعينوه ملكاً عليهم[1].

في هذه الفترة المتَّسمة بالفوضى السياسية وعدم الاستقرار نجد الإسبان ينتهزون الفرصة فيقومون ببسط حمايتهم على الأمير الثائر يحيى الثابتي ضد عمه السلطان المغتصب أبي حمو الثالث عقاباً له على إرساله جيشاً كبيراً لصدهم عن المرسا الكبير.

وهكذا أصبحت تنس تابعة للإسبان بدون مقاومة تذكر، فقد جعل أمراء البيت الزياني المتصارعين على العرش الانتصار الشخصي على غرمائهم ومنافسيهم فوق كل اعتبار، وراحوا يضحون بمدنهم ورعاياهم مقابل بقائهم متربعين على عرش متهالك[2].

٣ . احتلال وهران (١٥٠٩ م):

في ٢٠ أوت ١٥٠٨ م عين الملك الإسباني فرديناند الكاردينال خيمينيس قائداً عاماً على الحملة الموجهة لاحتلال مدينة وهران إحدى أكبر المدن الواقعة غرب الجزائر، وثاني أهم ميناء ومنفذ تجاري بعد ميناء المرسا الكبير، فقام هذا الأخير بإكمال إعداد الحملة وأبحر الأسطول الإسباني من ميناء قرطاجنة الإسباني يوم ٧ ماي ١٥٠٩ م وكان مكوناً من ١٥,٠٠٠ جندياً، فأقلته ٣٣ باخرة حربية و٥١ زورقاً صغيراً إلى سواحل وهران، فنزلت هذه القوات إلى البر دون عائق بعد أن التحقت بها قوات الأسطول الإسباني الذي كان مرابطاً في المرسا الكبير، كان المسلمون قد استعدوا لمواجهة الإسبان ولذلك فقد خرجوا للقائهم خارج المدينة واشتبكوا معهم في معارك شرسة عند مشارف المدينة، إلا أنه في الوقت الذي كانت فيه المعركة على أشدها قام حاكم المرسا الكبير بشراء ذمة أحد يهود الأندلس اللاجئين إلى وهران يدعى شطورا[3]، الذي كان يعمل قابضاً عاماً

---

[1] تلمسان عبر العصور محمد الطمار، ص: ٢٢٨.

[2] لدخلو العثماني إلى الجزائر، ص: ١٠٦.

[3] حرب الثلثمائة سنة، ص: ١١١.

للضرائب بالمدينة، واتفقا على أن يقوم اليهودي المذكور وأعوانه بفتح أحد أبواب المدينة المحاصرة للجنود الإسبان، وبالفعل بينما كان المدافعون المسلمون يأخذون أهبتهم للدفاع عن المدينة، إذ قام اليهودي «شطورا» بفتح باب المدينة المتفق عليه، وتدفق الجنود الإسبان كالسيل الجارف داخل المدينة يقتلون كل من يقف أمامهم[١].

فذهل المسلمون لهول المفاجأة، وارتد المدافعون عن الأسوار والحصون إلى داخل المدينة للدفاع عن ديارهم وحريمهم، فاقتحم الإسبان بقية الأبواب ودخلوا المدينة من كل الجهات يقتلون ويحرِّقون، فالتجأ جموع الناجين إلى حرم الجامع الأعظم وتحصنوا به وبمن حوله من الدور للمقاومة، واستمروا في دفاع يائس خمسة أيام، إلى أن انقشعت غيوم المعركة عن مقتل ٤٠٠٠ جزائري، وأسر أكثر من ٨٠٠٠ أُخذوا جميعاً إلى إسبانيا[٢]، وقد قدرت غنائم الإسبان بأكثر من ٢٤ مليون دينار ذهبي[٣]، وغادر خمينيس وهران بعد أن حول مساجدها إلى كنائس[٤]، وترك بها حامية تتولى حمايتها وحماية المرسا الكبير ومملكة تلمسان التي صارت تابعة لهم فيما بعد[٥].

أما نتائج سقوط وهران فنوجزها فيما يلي:

- قام الإسبان بعد سقوط وهران بشن غارات على القبائل المحيطة بالمدينة، فتمكنوا من إخضاعها وصارت هذه القبائل كما يقول الآغا بن عودة الزواوي: ... شيعتهم الذين

---

[١] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١٠٩.

[٢] تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس (١/ ١٥٧).

[٣] تاريخ الجزائر للميلي (٣/ ٢٦).

[٤] الدخول العثماني، ص: ١٠٩.

[٥] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

يعتمدون عليهم في جلب الأخبار، والمسير بهم في الطريق في الليل والنهار ، واتخذوا منهم الجواسيس، واشتدت قوتهم، وتعددت غزواتهم[١].

ـ دفع سقوط وهران الملك الزياني أبا حمو الثالث إلى إعلان تبعيته إلى الإسبان، وتعهد لهم بأن يدفع لهم جزية سنوية قدرت بـ١٢٠٠٠ دوقة ذهبية، و١٢ فرساً من جياد الخيل، و٦ من طيور الباز الجارحة[٢].

ـ تمكن الإسبان من بسط نفوذهم على سائر الغرب الجزائري حيث سارعت مدن أخرى إلى إعلان تبعيتها للإسبان خوفاً من بطشهم، وذلك بعد أن تأكد لها عجزها عن المقاومة، ومن هذه المدن: دلس، ومستغانم وشرشال[٣].

ومن ناحية أخرى فإن الإسبان أدركوا الأهمية الإستراتيجية لمدينة وهران، فراحوا يقومون بتحصينها تحصيناً محكماً مكنها من الثبات أمام جميع محاولات تحريرها إلى أن تمكن باشا الجزائر عثمان باشا الكبير من طرد الإسبان منها بشكل نهائي سنة ١٧٩٢ م[٤].

٤ ـ احتلال بجاية (١٥١٠ م):

وصل الأسطول الإسباني المكون من ٢٠ سفينة تحمل ١٠٠٠٠ مقاتل بجاية يوم ٥ جانفي ١٥١٠ م، والتحمت المعركة بين المسلمين والإسبان الذين أخذوا يتسلقون المرتفعات المحيطة بالمدينة من أسفلها ـ أي: من جهة الساحل ـ ووصلت إلى المنطقة التي تم إخلاؤها من الأطفال والنساء، والتقى الفيلقان الإسبانيان في وسط المدينة، وكان المدافعون عن المدينة قد اعتصموا بالبيوت لكن سرعان ما رأوا ضرورة الانسحاب وراء بجاية من أجل استمرار المقاومة وعرقلة الإسبان عن التوغل في داخل البلاد، وهكذا

---

[١] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

[٢] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

[٣] المصدر نفسه/ ص: ١١٠.

[٤] المصدر نفسه/ ص: ١١١.

غادروا المدينة بعد معركة لم يكتب لها النجاح، وكان على رأس المنسحبين: الملك عبد الرحمن الحفصي.

وعندما دخل الإسبان أعملوا السيف في رقاب من وجدوه من أهلها، والمدافعين عنها، وأسرفوا في القتل كما أسرفوا في وهران، وانجلت المعركة عن ٤١٠٠ قتيل، كما أمعنوا في نهب المدينة ونقلوا كنوزها ونفائسها إلى إسبانيا في ٣٠ سفينة، وبعد أن ثبَّت الإسبان وجودهم في بجاية أذنوا لأهالي المدينة في العودة إلى منازلهم، فرجع كثير منهم، لكن خارج المدينة رفض رجال القبائل الاعتراف بسلطة الملك عبد الرحمن عليهم، وبايعوا الأمير أبا بكر الذي كان يحكم قسنطينة باسم الحفصيين أميراً عليهم والتف حوله الثوار الذين أخذوا يناوشون الإسبان تحت قيادته.

٥ . خضوع مدينة الجزائر (١٥١١ م):

كانت مدينة الجزائر مستقلة تابعة نظرياً لمملكة بجاية، يتولى إدارتها الشيخ سالم التومي، شيخ قبيلة الثعالبة التي كانت مستوطنة في سهول متيجة ومدينة الجزائر، وعندما سقطت بجاية خشي أهلها أن يصيبهم ما أصاب أهالي وهران وبجاية، لأنهم كانوا يعلمون أنهم سيكونون الهدف المقبل للإسبان، فاجتمع أعيانها وتشاوروا في الأمر، وفي النهاية استقر رأيهم على إرسال وفد منهم إلى بجاية للتفاوض مع الإسبان للوصول إلى اتفاق يحفظ لهم حياتهم ومدينتهم[١].

وبعد أيام من سقوط بجاية توجه وفد مدينة الجزائر يرأسه الشيخ سالم للاجتماع بقائد الحملة الإسبانية بيدرو نافارو. حيث اتفق الطرفان على:

- عقد سلام بين مدينة بجاية والإسبان.
- تعهد الجزائريين بإطلاق سراح من بأيديهم من الأسرى المسيحيين.
- عدم التعرض للسفن الإسبانية بسوء.

---

[١] المصدر نفسه/ ص: ١١٤.

- يسافر وفد منهم إلى إسبانيا لعقد اتفاق نهائي مع الملك.
- أن يدفع الجزائريون لحاكم بجاية الإسباني نفس المقدار من المال الذي كانوا يدفعونه إلى ملك بجاية اعترافاً بالتبعية، ومقابل ذلك: لا يتعرض الإسبان لمدينة الجزائر بسوء[١].

وفي سنة ١٥١١ م سافر الوفد الجزائري إلى إسبانيا حيث اتفق الطرفان على أن يسلم الجزائريون أكبر جزرهم الصخرية للإسبان لكي يقيموا عليها قلعة تحرس سفنهم التجارية، وتضمن حرية مواصلاتهم البحرية، وتجعل في نفس الوقت مدينة الجزائر تحت مراقبتهم[٢].

وهكذا فبمجرد توقيع الاتفاق قام الإسبان ببناء القلعة البحرية في الجزيرة المحاذية لمدينة الجزائر، والتي صارت تعرف من ذلك الحين بصخرة الجزائر، أو قلعة الجزائر[٣].

٦ . خضوع مدينة مستغانم (١٥١١ م):

اتصل أهالي مستغانم بالإسبان، كما اتصل بهم أهالي مدينة الجزائر من قبل إثر احتلال بجاية وعنابة، عارضين تبعيَّتهم لهم مقابل التزامات مالية وأدبية بناءً على اتفاقيات عقدت بينهما، حفظ التاريخ لنا نصها في الأرشيف الإسباني، هذا ملخص ما جاء فيها:
- إعلان تبعية جميع أهالي مستغانم لإسبانيا.
- دفع الرسوم والضرائب والإتاوات التي كانوا يدفعونها من قبل إلى ملك تلمسان إلى إسبانيا.
- إطلاق جميع الأسرى المسيحيين الذين بأيديهم.
- يحق للقائد العام الإسباني بتلمسان احتلال قلاع وحصون المدينة إذا طلب منه صاحب الجلالة ذلك دون أي اعتراض من الأهالي.

---

[١] حرب الثلاثمائة بين الجزائر واسبانيا للمدني، ص: ١٢٨.

[٢] مدخل إلى تاريخ الجزائر الحديث، محمد العربي الزبيري، ص: ٣٢ ـ ٣٣.

[٣] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١١٦.

- يلتزم أهالي المدينة بتسليم القائد الإسباني كل ما يحتاج إليه من حيوانات نقل، ومواد بناء بأسعار محدودة.
- يلتزم أهالي المدينة بتموين مدينتي وهران والمرسا الكبير، ولا يسمحون مطلقاً بتعمير أو تفريغ أي سفينة بمرسا مستغانم إلا بإذن من الملكين.
- على سكان المدينة إعلام القائد العام بكل ما يهم جلالتيهما الاطلاع عليه، وبكل ما يتعلق بسلامة وهران والمرسا الكبير، وعليهم الامتثال لكل أمر يلقى إليهم من أجل الحرب أو السلام.
- لا يُلزم أهل المدينة على اعتناق الدين المسيحي وسمح لهم الملكان بأن يستمروا في حكم أنفسهم حسب شريعتهم وتبقى لهم ديارهم وممتلكاتهم[1].

ولم تأت سنة ١٥١٢ م حتى كانت معظم مدن الساحل الجزائري قد وقعت تحت الاحتلال الإسباني إما عن طريق استعمال القوة العسكرية كما حدث في المرسا الكبير ووهران وبجاية وعنابة، أو عن طريق إعلان الخضوع والتبعية للإسبان عندما تبين للزعماء المحليين عجزهم عن المقاومة، كما حدث في تنس والجزائر ومستغانم وشرشال ودلس وغيرها[2].

ثانياً: أسباب الاحتلال الإسباني لمدن الساحل

هناك عدة أسباب أدت بالإسبان إلى شن تلك الحملات العنيفة والبغيضة لاحتلال سواحل الجزائر وغيرها من مدن ساحل الشمال الأفريقي ترمي إلى تحقيق أهداف إستراتيجية من أهمها:

١ ـ الأسباب الدينية:

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٧.

كانت الحملات الإسبانية ذات صبغة دينية، لأن الدولة الإسبانية ذاتها قامت على أسس دينية صرفة، ونمت وترعرعت بين جدران الكنيسة، فالرهبان والقساوسة كانت لهم الكلمة الأولى في توجيه سياسة الدولة نحو المسلمين، سواء كان ذلك في الأندلس أو في الشمال الأفريقي، فهم الذين كانوا يُلهبون الحماس الديني في الجموع الإسبانية ويثيرون بواعث الكراهية والتعصب ضد المسلمين، كما أن البابا لعب دوراً كبيراً في تسخير جميع الإمكانيات المادية والبشرية لطرد المسلمين من الأندلس أولاً، ثم إخضاع الشمال الأفريقي لإسبانيا تمهيداً لتنصيره ثانياً، ولتحقيق هذين الهدفين الخطيرين أصدر البابا أمره بضرورة الاستمرار في دفع الضريبة الصليبية لملوك أسبانيا باعتبارهم حماة المسيحية، كما أن القساوسة والرهبان أنفقوا أموالاً باهظة لتحقيق هذه الغاية، ولم يترددوا في بيع أموال الكنيسة لتزويد الجيوش المسيحية المغيرة على سواحل الجزائر[١].

أما الملكة الإسبانية إيزابيلا، فإنها قد بذلت جهوداً كبيرة لطرد المسلمين من الأندلس، وملاحقتهم في مدن الشمال الأفريقي التي لجؤوا إليها فراراً بدينهم، فشرعت في تجهيز حملة كبيرة لغزو تلمسان لولا أن الأجل كان قد وافاها قبل تحقيق بغيتها، وبعد وفاتها تركت وصية لمن يتولون الحكم بعدها تطلب فيها منهم أن يحققوا أمنيتها الغالية التي كانت تتمنى تحقيقها بنفسها، ألا وهي فتح أفريقيا وعدم الكف عن القتال في سبيل الدين ضد الكفار[٢].

ومما يؤيد الطابع الديني للحملات الإسبانية أن الإسبان قاموا عند احتلالهم لمدينة وهران بتحويل الجامع الأعظم إلى كنيسة أطلقوا عليها اسم "كنيسة القديس ميكائيل"، ونفس الأمر كانوا قد فعلوه عند احتلالهم للمرسا الكبير، وفعلوه أيضاً في بجاية وفي كل مدينة تمكنوا من احتلالها.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٢] مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث الجزائر، ص: ١٥.

لقد كان تنصير المسلمين يعتبر الهدف الأسمى في هذه الحملات، فقد صرح الباحث الفرنسي بيير شونو بأن: تعميد المسلمين أو الهنود الأمريكيين كان يشكل أهم المهام وأنبلها للكنيسة[١]، بل إن إسبانيا وضعت تنصير العالم في نفس مرتبة اكتشاف الذهب[٢]، وهكذا كان أمل الإسبان في تحويل بلدان شمال أفريقيا إلى أفريقيا لاتينية – على غرار ما فعلوه في أمريكا اللاتينية – يمثل أعظم أهدافهم التي يصبون إليها [٣].

لقد أصدّر البابا قراراً يعلن فيه الحروب الصليبية على الممالك الإسلامية في شمال أفريقيا سنة ١٥١٨ م، وأمر ملوك أوروبا بعقد هدنة لمدة خمس سنوات لكي تتمكن فيها إسبانيا من التفرغ لاحتلال ما تبقى من مدن وسواحلها، ولم تكتف الكنيسة بذلك، بل جنَّدت كل إمكانيات العالم المسيحي لغزو الجزائر بقيادة إسبانيا وأصدرت فتوى دينية تضمنت الوعد بالغفران لكل من يساهم في دعم حملات غزو الجزائر بنفسه، وفرضت ضريبة صليبية على كل مسيحي للمساهمة في غزو الجزائر[٤].

٢ . الأسباب الأمنية:

كان مسلمي الأندلس كلما اشتدَّ عليهم الأمر، وضايقهم النصارى لجؤوا إلى ملوك المغرب طالبين منهم العون والمدد سواء كان ذلك في عصر المرابطين أو الموحدين أو المرينيين قبل أن تضعف شوكتهم ويصيبهم الهوان فيشتغلون ببعضهم عن عدوهم، وعلى هذا النهج سار ملوك بني زيان وبني حفص، الذين لم يترددوا في تقديم مختلف أشكال الدعم المادي والمعنوي إلى أن ضعف أمرهم وأصبحوا عاجزين حتى عن حماية ممالكهم، وبعد سقوط غرناطة تعرّض الأندلسيون لشتى صنوف الاضطهاد والتنكيل الأمر الذي دفع الآلاف منهم إلى الهجرة إلى بلدان شمال أفريقيا، وكان للجزائر الحظ الأوفر من هذه

---

[١] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١٢١.

[٢] الخليفة الدينية للتميمي، ص: ١٣.

[٣] الدخول العثماني، ص: ١٢١.

[٤] الدخول العثماني، ص: ١٤٧.

الهجرة، فقد استقبلت أعداداً هائلة من هؤلاء المهاجرين لاعتبارات الأخوة والجوار، وحمل هؤلاء المهاجرين معهم قصص التعذيب والاضطهاد الذي لاقوه ويلاقيه إخوانهم الذين لم يتمكنوا من الهجرة، كما راحوا يحرضونهم على نجدة إخوانهم وبذل ما يقدرون عليه لإنقاذهم مما هم فيه من ظلم واضطهاد[1].

وهكذا انطلق المهاجرون الأندلسيون بمساندة إخوانهم من مسلمي الشمال الأفريقي يشنون الغارات المتتالية على السفن والسواحل الإسبانية أو المتحالفة معها، يحرقون وينهبون ويخربون ويأسرون انتقاماً لأنفسهم ولإخوانهم المضطهدين في الأندلس من الإسبان الذين أخرجوهم من بلادهم وآذوهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم وأكرهوهم على التنصر أو مغادرة بلادهم إلى الأبد[2].

فوجد الإسبان في هذه الغارات ذريعة يتعللون بها لغزو المدن الساحلية لبلدان شمال أفريقيا واحتلالها، هذا وقد ذكر الوزان أن أهالي مدينة بجاية كانوا يسلحون مراكب وسفناً حربية، ويرسلونها لغزو سواحل إسبانيا، وهو ما حفَّز الإسبان إلى غزوها واحتلالها[3]، وأما أهالي وهران، فقد كان التجار منهم يجهزون مراكب وسفناً صغيرة مسلحة يغزون بها سواحل قطالونيا وجزر يبيزا ومينورقة حتى صارت المدينة تغصّ بالرقيق النصارى[4]، ونفس الشيء كان يفعله أهالي مدينة الجزائر، وعلى هذا فإن الغارات التي كان يقوم بها البحارة المسلمون انطلاقاً من سواحل الجزائر على إسبانيا وكل من يلوذ بها، إنما كان يندرج ضمن واجب الدفاع عن المستضعفين من المسلمين في الأندلس والضغط على السلطات الإسبانية لإجبارها على تخفيف قبضة الاضطهاد الذي تقوم به ضد المسلمين، وكان

---

[1] المغرب العربي، صلاح العقاد، ص: ١٦.

[2] العلاقات بين الجزائر والمغرب، بن خروف، ص: ٢٠.

[3] وصف أفريقيا للوزان، ص: ٤٢٣.

[4] المصدر نفسه، ص: ٣٩٩.

القادرون من أهالي هذه الموانيء لم يترددوا في الاشتراك فيها رغبة في الجهاد وطلباً للغنيمة، وهو ما حدث مع الكثير من البحارة الأتراك أن يولّوا وجوههم شطر السواحل الغربية للبحر المتوسط للغرض ذاته، والذين كان من أشهرهم الإخوة بربروس الذي سنفصل الحديث عنه بإذن الله لاحقاً.

يقول المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان ملخِّصاً نشاطات هذه الموانيء بقوله:.. وأقامت المراسي في جربة إلى المغرب الأقصى أنواعاً من الجمهوريات، أعدت العدة لممارسة القرصنة، فسلَّحت تونس وبنزرت وبجاية ومدينة الجزائر ووهران وهنِّين، وكلٍّ لحسابها سفناً شراعية تجوب البحر المتوسط[1].

ومن خلال ما سلف يتضح لنا بأن أهم الأسباب الأمنية التي دفعت الإسبان إلى احتلال سواحل شمال أفريقيا عامة والجزائر خاصة، هو شلُّ حركة الجهاد البحري التي كانت تنطلق من هذه الموانئ[2].

وإضافة إلى ما سبق فإن الإسبان كانوا يدركون بأن بلدان شمال أفريقيا تمر بمرحلة ضعف صعبة، ملؤها الفتن والحروب الأهلية وانعدام الاستقرار، كما كانوا يعلمون أن هذه الحروب يؤجج أوارها أصحاب السلطان من الطامعين في العرش والمنازعين فيه بحق أو بغير حق، لكنهم كانوا يدركون أيضاً أن هذا الوضع لن يستمر إلى الأبد، من ثم فهم كانوا يخشون أن يتغلب أهل المغرب على مشاكلهم، فتجتمع كلمتهم تحت سلطان قوي، فيعيدون عليهم الكرة، ويمدون المقاومة الإسلامية في الأندلس بالدعم المادي والعسكري ومن ثمّ يتمكّنون من استعادة الأندلس مرة أخرى، ولذلك كان احتلال سواحل شمال أفريقيا يمثل صمام الأمان الذي يمكنه أن يحول دون التفكير في إعادة فتح الأندلس من جديد[3].

---

[1] الدخول العثماني، ص: ١٢٦.

[2] الحروب الصليبية في المشرق والمغرب للمطاري، ص: ٢٦٣.

[3] تاريخ المغرب العربي الحديث، محمود علي عامر، ص: ١٣.

٣ . الأسباب الاقتصادية:

لقد دفعت التغيرات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوروبا في مطلع القرن السادس عشر كلًّا من إسبانيا والبرتغال إلى أن تبحثا عن موارد مالية أخرى خارج حدودهما السياسية المعروفة، وهكذا شرع البرتغال منذ ١٥ م في احتلال المراكز التجارية المطلة على المحيط الأطلسي في المغرب، لينطلق منها عبر السواحل الأفريقية الغربية ومروراً بالمحيط الهندي وصولاً إلى الشرق الأقصى حيث مصدر تجارة التوابل والحرير[١].

وأما إسبانيا فإنها بالإضافة إلى سيطرتها على مناطق الذهب في القارة الأمريكية المكتشفة حديثاً فإنها شرعت تبحث لنفسها عن أسواق جديدة لترويج منتجاتها وموارد مالية لتمويل حروبها في أوروبا وتحقيق طموحاتها التوسعية في شمال أفريقيا، كما أن اكتشاف القارة الأمريكية جعل إسبانيا في حاجة إلى موانئ ساحلية متعددة لحماية أساطيلها المثقلة بالبضائع من غارات البحارة الذين جعلوا موانئ شمال أفريقيا قواعد انطلاق لهم، ولذلك كان احتلال هذه السواحل يعتبر ضرورة اقتصادية لتأمين تجارتها في البحر المتوسط.

ومن جهة أخرى كان احتلال سواحل الشمال الأفريقية يهدف إلى التحكم في التجارة الأفريقية،ذلك لأنه من المعلوم أن الموانئ الجزائرية على وجه الخصوص كانت تقوم بدور الوسيط التجاري بين أفريقيا وأوروبا[٢].

وعليه فإن السيطرة على الموانئ الجزائرية كان سيمكنها من إزاحة الوسطاء الجزائريين والتحكم في التجارة الأفريقية القادمة من الصحراء متجهة إلى أوروبا عبر هذه الموانئ[٣].

٤ . الأسباب السياسية:

---

[١] المغرب الكبير جلال يحيى (٣/ ١١ . ١٨).

[٢] الاستقصاء، للناصري (٢ / ٣٧٣).

[٣] الدخول العثماني، ص: ١٢٨.

كانت الرغبة في التوسع بسط النفوذ خارج الحدود التقليدية لدى إسبانيا لبناء إمبراطورية مترامية الأطراف حلماً يراود الملك فرديناند وملكة إسبانيا منذ أن تحقق الزواج السياسي بين مملكتي قشتالة وأراغون وتوحيدهما تحت راية واحدة. فتمكّنا خلال فترة قصيرة من القضاء على الوجود الإسلامي في الأندلس قبل أن تمتد أطماعهما إلى احتلال الجزائر، يؤيد ذلك الخطوات التي قامت بها الملكة إيزابيلا لاحتلال تلمسان، ثم وصيتها لمن يتولى الحكم بعدها أن لا يتوقف عن تجهيز الجيوش لمحاربة الكفار.

كانت إسبانيا في هذه الفترة تملك الساحل الجنوبي من إيطاليا والجزر القريبة منه مثل: صقلية وبيزا وسردينيا وكوريسكا، بالإضافة إلى الجزر الخاضعة لها في غرب البحر المتوسط كجزر الباليار ومايورقه ومينورقة وغيرها، ولذلك فإنه من الطبيعي أن احتلال سواحل الجزائر وغيرها من سواحل شمال أفريقيا سوف يشكل لها وحدة جغرافية لممتلكاتها، وييسر لها سبل الاتصال المباشر بين جنوب غرب البحر المتوسط وشماله، ولاشك أن سيادة الإسبان على غرب المتوسط لا يمكن أن تتحقق ما لم يتم احتلال سواحل الجزائر، كما أن احتلال السواحل الإسلامية في شمال أفريقيا من شأنه أن يساهم في ترسيخ زعامة إسبانيا السياسية للعالم المسيحي الكاثوليكي، تلك الزعامة التي ما فتئت إسبانيا تفتقر إليها منذ أن بدأت الوحدة الدينية والمذهبية لأوروبا المسيحية تتعرض للاهتزاز، وانعدام الثقة بسبب ظهور حركة الإصلاح الديني[١].

أضف إلى ذلك كله: المصاعب الاجتماعية والأمنية والاقتصادية التي كانت تعيشها إسبانيا منذ ما كان يسمى بحروب الاسترداد التي توجب باحتلال غرناطة، هذه المصاعب التي كانت نتيجة طبيعية للتغيرات السياسية والاجتماعية والدينية التي كانت تمر بها الدولة والشعب الإسبانيان. الأمر الذي دفع ملوك إسبانيا إلى البحث عن حلول خارج الحدود

[١] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، نبيل عبد الحي رضوان، ص: ٢٢٢.

الجغرافية لبلادهم، فقد ذكر شكيب أرسلان أن إسبانيا في ذلك العهد كانت مليئة باللصوص وقطاع الطرق، حتى أنه قلما تخلو محلة من عبثهم وفسادهم[1].

فالمصاعب الاقتصادية الناتجة عن هجرة الصناع والحرفيين والتجار والمزارعين المسلمين واليهود أصاب الاقتصاد الإسباني بالركود، كما أن سيطرة الدولة على الموارد المالية لتغطية نفقات حروبها في أوروبا وشمال أفريقيا، وأجواء الحرب الأهلية ضد بقايا المسلمين في إسبانيا، وثورات البروتستانت في ألمانيا وسويسرا وغير ذلك من الأحداث السياسية التي كانت تعج بها أوروبا عامة، وإسبانيا على وجه الخصوص، جعلت الناس يشعرون بالتذمر وعدم الاستقرار.

مما حدا بالدولة إلى البحث عن سبل لإلهاء الشعب، وتأجيج نار التعصب الديني والمذهبي وإثارة بواعث الرعب من الخطر الإسلامي القادم من الجنوب، وهكذا كان احتلال سواحل الجزائر إحدى المشاجب المهمة التي تعلق عليها إسبانيا مشاكلها وعجزها الداخلي[2] .

ثالثاً: نتائج الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر

١ . النتائج الاقتصادية:

[1] خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب أرسلان، ص: ١٦٢.

[2] الدخول العثماني، ص: ١٣١.

تترتب على الاحتلال الإسباني نتائج وخيمة على اقتصاد الجزائر أدت بدورها إلى زيادة تدهور أحوال الدويلات التي كانت تشرف على إدارة الموانئ الجزائرية، كما ضاعفت من الضيق المادي للأهالي الذين كانوا يعتمدون على هذه الموانئ في تجارتهم الخارجية مع أوروبا على وجه الخصوص، ومن أهم هذه النتائج:

. بعد أن كانت الموانئ الجزائرية تلعب دوراً في إنعاش الاقتصاد الجزائري نتيجة لقيامها بدور الوسيط التجاري بين أفريقيا وأوروبا، أصيبت بعد سقوطها في يد الإسبان بالشلل التام نظراً لرفض التجار الجزائريين التعاون مع الإسبان، إلا أن تأثير هؤلاء التجار العملاء على سير الأوضاع الاقتصادية في الجزائر بقي محدوداً للغاية، وذلك بسبب العزلة التي فرضها عليهم السكان الذين كانوا ينظرون إليهم على أنهم خونة، ومتعاونون مع الأجنبي المحتل[1].

. ومن جهة أخرى فإن التجار الأجانب لم يعودوا يقصدون الموانىء الجزائرية، خصوصاً الجنويين والبنادقة بسبب خضوعها للإسبان، فطلب منهم السلطان الزياني القدوم إلى ميناء هنين إلا أن هذا الميناء سرعان ما احتله الإسبان ليشهد نفس المصير الذي عرفته بقية الموانئ الجزائرية الأخرى، أخذ الإسبان فور احتلالهم للمدن الجزائرية في إرهاق الأهالي، والتضييق عليهم بفرض الضرائب والغرامات الباهظة، فقد فرضوا على سبيل المثال على أهالي مدينة بجاية أن يؤدوا إليهم سنوياً:

٣٦٠٠ فتيقًا من القمح، و١٠٠ فتيقاً من الشعير، و٥٠ فتيقاً من الفول، و١٠٠ رأساً من الغنم، و٥٠ رأساً من البقر، و١٠٠٠ حملاً من الحطب[2].

. فكان من أثر هذه الإتاوات المالية وما شابهها أن ضاق الناس بها ذرعاً، واضطر الكثير منهم إلى ترك التجارة عبر الموانئ المحتلة فراراً من مضايقات الإسبان، الأمر الذي ساهم بدوره في انهيار تجارة تلك الموانئ [1].

[1] الدخول العثماني، ص: ١٣٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

٢ . النتائج السياسية:

لقد ترتب على الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر نتائج سياسية بالغة الخطورة على حاضر ومستقبل الجزائر، يمكننا رصدها في العناصر التالية:

. إخضاع الموانئ والمدن الجزائرية المحتلة لإشراف الإدارة الإسبانية المباشرة، الأمر الذي أفقد الأسر الحاكمة، والمجالس المحلية التي كانت تشرف على إدارة المدن الساحلية المحتلة سلطتها السياسية، فأصبحت المدن الجزائرية المحتلة دون قيادة سياسية تتولى قيادة الشعب مؤقتاً إلى حين ظهور قيادة كقوة تسند إليها مهمة إنقاذ البلاد وإدراتها بعد تحريرها، لقد التفّ الشعب حول القيادات الدينية المتمثلة في العلماء وشيوخ الطرق الصوفية الذين لعبوا دوراً كبيراً في تحريض وقيادة الشعب لمقاومة الاحتلال قبل وصول الأتراك إلى سواحل شمال أفريقيا.

. تهافت القوى الزيانية والحفصية في كل من تلمسان وبجاية على التقرب إلى الإسبان، معلنة تبعيّتها وخضوعها لهم بعد تبين عجزها عن مقاومة الاحتلال، فقد سارع السلطان الزياني بعد سقوط وهران إلى السفر إلى إسبانيا مصحوباً بهدايا ثمينة معلناً خضوعه للإسبان[٢].

أما الأميران الحفصيان عبد الرحمن وعبد الله اللذان كانا يتنازعان على عرش بجاية فقد وقَّع كل منهما على انفراد معاهدة خضوع وتبعية للإسبان[٣].

ولم يكتف الأمير عبد الرحمن الحفصي ملك بجاية بذلك، بل اعترف لهم بتملكهم لمدينة بجاية، وصخرة الجزائر التي أسسوا عليها قلعة البنيون وكل المراسي التابعة لمملكة بجاية[٤].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

[٢] الدخول العثماني، ص: ١٣٣

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٣٣.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٣٣.

وعلى أثر سقوط بجاية ساد القسم الشرقي من الجزائر موجة رعب كبيرة خصوصاً في المملكة الحفصية بتونس، فبادر السلطان الحفصي أبو عبد الله باسترضاء الملك الإسباني والتقرب إليه، بل إعلان التبعية له كما فعل ملك تلمسان بعد سقوط وهران وتعهد له بدفع جزية سنوية، مع فرسين من جياد الخيل، وأربعة من طير الباز كدليل على التبعية والخضوع، وأن يطلق سراح جميع الأسرى المسيحيين دون قيد أو شرط، وأن يزود بجاية بالمؤن التي تحتاج إليها مجاناً، كما أدى سقوط بجاية أيضاً إلى خضوع مدينة الجزائر للإسبان بعد أن صارت مطوقة من الشرق والغرب "بجاية ووهران".

. لم يقتصر الخضوع للإسبان على السلطات الرسمية من الملوك والأمراء، بل امتد ذلك إلى بعض القبائل العربية المحيطة بوهران التي سارعت إلى إعلان خضوعها لهم خوفاً من بطشهم، ورغبة في الانتفاع بالامتيازات التي كانوا يحلمون بها ولم يتمكنوا من تحقيقها على حساب منافسيهم من القبائل العربية الأخرى.

. انعكس الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر بشكل سلبي على مسلمي الأندلس، إذ لم تعد الموانئ الجزائرية قادرة على إرسال الإمدادات إليهم، والتخفيف عنهم مما يلاقونه من اضطهاد وظلم، نظراً لكون الإسبان كانوا قد فرضوا على أمراء وأعيان الموانئ الجزائرية التعهد بعدم السماح لأي سفينة بالانطلاق للإغارة على السفن المسيحية، واعتبرتهم مسؤولين عن أي إخلال بذلك[١].

. كما أدى الاحتلال الإسباني إلى ظهور المقاومة الشعبية بقيادة الزعماء المحليين، كشيوخ الطرق الصوفية وعلماء الدين، وبعض الأمراء المحليين، وتحريضهم للأهالي وتنظيمهم للثورة على الإسبان وذلك بعد عجز ملوك الدولتين الزيانية والحفصية عن التصدي للإسبان.

إن الأمانة التاريخية تقتضي الاعتراف بالدور الخطير الذي لعبه هؤلاء الزعماء في تعبئة الشعب باسم الدين للدفاع عن البلاد، وعرقلة الإسبان عن النفوذ إلى المناطق الداخلية

---

[١] الدخول العثماني، ص: ١٣٥.

واحتلالها وحصرهم داخل القلاع التي تحصنوا فيها[1]، إلى أن تمكن الأتراك العثمانيون من طردهم منها نهائياً.

- بالرغم من فعالية المقاومة الشعبية التي تمكنت من حصر الاحتلال في المدن الساحلية دون التوغل في داخل البلاد إلا أنها لم تتمكن من تحريرها، الأمر الذي جعل الزعماء المحليين للمدن الجزائرية ضرورة الاستعانة بالبحارين التركيين عروج وخير الدين بربروس طالبين منهما التدخل لتحرير مدنهم ورفع الظلم عنهم، وذلك بعدما بلغتهم انتصاراتهما على الإسبان في عرض البحر المتوسط وتمكنهما من تحرير قلعة جيجل، وفرض حصار شديد على بجاية كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد.

- وكان من النتائج المهمة التي غيرت تاريخ المنطقة والتي نتجت هي بدورها عن الاحتلال الإسباني لسواحل الجزائر تدخل الأتراك العثمانيين لحماية هذه السواحل وطرد الإسبان منها أداء لواجب الدفاع عن البلاد الإسلامية من جهة، واستجابة لاستغاثات أهالي المدن الجزائرية الذين ما فتئوا يرسلون إليهم الدعوات المتتالية طالبين منهم الإسراع لإنقاذ الجزائر قبل أن يؤول أمرها إلى ما آل إليه أمر الاندلس، فكان من أثر ذلك أن جعل هؤلاء الأتراك من الموانئ التي تم تحريرها، قواعد ينطلقون منها لشن غاراتهم على السفن والموانئ المسيحية والإسبانية في غرب البحر المتوسط، قبل أن تتطور الأحداث السياسية والعسكرية التي عرفتها الجزائر في تلك المرحلة من تاريخها، فيتم إلحاقها بالدولة العثمانية لتصبح بعد ذلك أهم إيالة عثمانية في غرب البحر المتوسط أسندت إليها مهمة التصدي للإسبان في شمال أفريقيا[2].

إن الاحتلال الإسباني بقي محصوراً في تلك المناطق غير قادر على التوغل في المناطق الداخلية بسبب اشتداد المقاومة الشعبية التي التفت حول القيادات الدينية من العلماء وشيوخ الطرق كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

---

[1] تاريخ أفريقيا الشمالية، جوليان (٢/ ٣٢٤).

[2] الدخول العثماني إلى الجزائر، ص: ١٣٦.

ويعترف المؤرخون الغربيون بأن القوات الإسبانية ظلت حبيسة في القلاع والحصون التي تمكنت من احتلالها وشُدِّد الحصار عليها بمجيء الأتراك العثمانيين إلى الجزائر[1].

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٥.

المبحث الثالث

العثمانيون في الجزائر

أولاً: قيام الدولة العثمانية

ينتسب العثمانيون إلى قبيلة تركمانية كانت بداية القرن السابع الهجري، الموافق الثالث عشر الميلادي تعيش في كردستان وتزاول حرفة الرعي، ونتيجة للغزو المغولي بقيادة جنكيز خان على العراق ومناطق شرق آسيا الصغرى، فإن سليمان جد عثمان هاجر في عام ٦١٧ هـ ـ ١٢٢٠ م مع قبيلته من كردستان إلى بلاد الأناضول فاستقر في مدينة أخلاط[١]، ثم بعد وفاته في عام ٦٢٨ هـ ـ ١٢٣٠ م خلفه ابنه الأوسط أرطغرل، والذي واصل تحركه نحو الشمال الغربي من الأناضول، وكان معه حوالي مائة أسرة وأكثر من أربعمائة فارس[٢]، وحين كان أرطغرل والد عثمان فارّاً بعشيرته التي لم يتجاوز تعدادها أربعمائة عائلة، من ويلات الهجمة المغولية، فإذا به يسمع عن بعد جلبة وضوضاء، فلما دنا منها وجد قتالاً حامياً بين مسلمين ونصارى وكانت كفة الغلبة للجيش البيزنطي، فما كان من أرطغرل إلا أن تقدم بكل حماس وثبات لنجدة إخوانه في الدين والعقيدة، فكان ذلك التقدم سبباً في نصر المسلمين على النصارى[٣].

وبعد انتهاء المعركة قدر قائد جيش الإسلامي السلجوقي هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوار الثغور في الروم[٤]، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في

---

[١] أخلاط: مدينة في شرق تركيا الحالية.

[٢] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٤١.

[٣] المصدر نفسه.

[٤] الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري، ص: ٣٥٣.

الجهاد ضد الروم، وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة نتيجة وجود عدو مشترك لهم في العقيدة والدين، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتى إذا توفي سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار على سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم[١].

ثانياً: عثمان مؤسس الدولة العثمانية

في عام ٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨ م ولد لأرطغرل ابنه عثمان الذي تنتسب إليه الدولة العثمانية[٢]، وهي السنة التي غزا فيها المغول بقيادة هولاكو بغداد عاصمة الخلافة العثمانية، وكانت الأحداث عظيمة، والمصائب جسيمة، يقول ابن كثير: «ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس من الآبار وأماكن الحشوش، وقنى الوسخ، وكمنوا أياماً لا يظهرون، وكانوا يجتمعون إلى الحانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالي الأمكنة فيقتلونهم بالأسطح، حتى تجري الميازيب من الدماء في الأزقة، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكذلك المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم[٣].

لقد كان الخطب عظيماً والحدث جللاً والأمة ضعفت ووهنت بسبب ذنوبها ومعاصيها، ولذلك سلط عليها المغول، فهتكوا الأعراض، وسفكوا الدماء وقتلوا الأنفس، ونهبوا الأموال، وخربوا الديار، في تلك الظروف الصعبة والوهن المستشري في مفاصل الأمة ولد عثمان مؤسس الدولة العثمانية، وهنا معنى لطيف ألا وهو بداية الأمة في التمكين هي

---

[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٤٢.

[٢] السلطان محمد الفاتح، ص: ١٢ عبد السلام عبد العزيز.

[٣] البداية والنهاية (١٣/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

أقصى نقطة من الضعف والانحطاط تلك هي بداية الصعود نحو العزة والنصر والتمكين إنها حكمة الله وإرادته ومشيئته النافذة.

قال تعالى:" إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ" (القصص ، آية : ٤).

وقال تعالى:" وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ" (القصص ، آية : ٥ ـ ٦).

ولا شك أن الله تعالى قادر على أن يمكن لعباده المستضعفين في عشية أو ضحاها، بل في طرفة عين قال تعالى:" إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ" (النحل ، آية : ٤٠).

فلا يستعجل أهل الحق موعد الله عز وجل لهم بالنصر والتمكين، فلا بد من مراعاة السنن الشرعية والسنن الكونية ولابد من الصبر على دين الله عز وجل: " وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ" (محمد ، آية : ٤).

والله إذا أراد شيئاً هيأ له أسبابه وأتى به شيئاً فشيئاً بالتدرج لا دفعة واحدة.

وبدأت قصة التمكين للدولة العثمانية مع ظهور القائد عثمان الذي ولد في عام سقوط الخلافة العباسية في بغداد.

وعندما نتأمل في سيرة عثمان الأول تبرز لنا بعض الصفات المتأصّلة في شخصه، كقائد عسكري، ورجل سياسي ومن أهم هذه الصفات:

الشجاعة، والحكمة، والإخلاص، والصبر، والجاذبية الإيمانية، وعدله، والوفاء، والتجرد لله في فتوحاته. ولقد كانت شخصية عثمان متزنة وخلابة بسبب إيمانه العظيم بالله تعالى واليوم الآخر، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقاً لتأييد الله وعونه، ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب

التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده عثمان، فجعل له مكانة وقدرة على التصرف في آسيا الصغرى من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار، لقد كانت رعاية الله له عظيمة، ولذلك فتح الله له باب التوفيق وحقق ما تطلع إليه من أهداف وغاية سامية، لقد كانت أعماله عظيمة بسبب حبه للدعوة إلى الله فقد فتح الفتوحات العظيمة بحد السيف، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بقوم دعاهم إلى الحق، والإيمان بالله تعالى، وكان حريصاً على الأعمال الإصلاحية في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق والعدالة وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان، مثلما كان معادياً لأهل الكفران[١].

ثالثاً: الدستور الذي عليه العثمانيون

كانت حياة الأمير عثمان مؤسس الدولة العثمانية، جهاداً ودعوة في سبيل الله، وكان علماء الدين يحيطون بالأمير ويشرفون على التخطيط الإداري والتنفيذ الشرعي في الإمارة، ولقد حفظ لنا التاريخ وصية عثمان لابنه أورخان وهو على فراش الموت، وكانت تلك الوصية فيها دلالة حضارية ومنهجية شرعية سارت عليها الدولة العثمانية فيما بعد، يقول عثمان في وصيته لابنه:

١ - يا بني إياك أن تشتغل بشيء لم يأمر به الله رب العالمين.

٢ - إذا واجهتك في الحكم معضلة فاتخذ من مشورة علماء الدين موئلاً.

٣ - يا بني أوصيك بعلماء الأمة أدم رعايتهم وأكثر من تبجيلهم.

٤ - اعلم يا بني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم، أمانة في عنقك سيسألك الله عنها.

٥ - يا بني أحط من أطاعك بالإعزاز، وأنعم على الجنود.

---

[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٤٦.

٦ - ولا يغرنك الشيطان بجندك ومالك.

٧ - وإن بالجهاد يعم نور ديننا كل الآفاق فتحدث مرضاة الله عز وجل.

٨ - من انحرف من سلالتي عن الحق والعدل حرم من شفاعة الرسول الأعظم يوم المحشر.

٩ - يا بني لسنا من هؤلاء الذين يقيمون الحروب لشهوة حكم أو سيطرة أفراد فنحن بالإسلام نحيا وبالإسلام نموت[١].

هذه الوصية الخالدة هي التي سار عليها الحكام العثمانيون في زمن قوتهم ومجدهم وعزتهم وتمكينهم.

وترك عثمان الأول الدولة العثمانية وكانت مساحتها ١٦,٠٠٠ كيلومتر مربع، واستطاع أن يجد لدولته الناشئة منفذ على بحر مرمرة واستطاع بجيشه أن يهدد أهم مدينتين بيزنطيتين في ذلك الزمان وهي: أزنيق وبورصة[٢].

رابعاً: سلاطين العثمانيين بعد مؤسس الدولة

١ - تولى السلطان أورخان الحكم بعد وفاة والده عام ٧٢٦ هـ وسار على نفس سياسة والده في الحكم والفتوحات وحرص على تحقيق بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم في فتح القسطنطينية، ووضع خطة إستراتيجية تهدف إلى محاصرة العاصمة البيزنطية من الغرب والشرق في آنٍ واحد.

ومن أهم الأعمال التي ترتبط بحياة السلطان أورخان تأسيسه للجيش الإسلامي، وحرصه على إدخال نظام خاص للجيش، فقام بتقسيم الجيش إلى وحدات تتكون كل واحدة من عشرة أشخاص أو مائة شخص أو ألف شخص، وخصص خمس الغنائم للإنفاق

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٦٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٦٦.

منها على الجيش، وجعله جيشاً دائماً بعد أن كان لا يجتمع إلا وقت الحرب وأنشأ له مراكز خاصة.

ـ واهتم أورخان بتوطيد أركان دولته وانصرف إلى الأعمال الإصلاحية والعمرانية، ونظم شؤون الإدارة وقوى الجيش وبنى المساجد وأنشأ المعاهد العلمية وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون، وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة.

٢ ـ وتولى الحكم بعد السلطان أورخان السلطان مراد الأول عام ٧٦١ هـ، وكان مراد الأول شجاعاً مجاهداً كريماً متديناً، وكان محباً للنظام متمسكاً به، عادلاً مع رعاياه وجنوده، شغوفاً بالغزوات وبناء المساجد والمدارس والملاجئ، وكان بجانبه مجموعة من خيرة القادة والخبراء والعسكريين شكل منهم مجلساً لشورته، وتوسع في آسيا الصغرى وأوروبا في وقت واحد.

واستطاع مراد الأول أن يفتح أدرنه في عام ٧٦٢ هـ واتخذ من هذه المدينة عاصمة للدولة العثمانية من عام ٧٦٢ هـ، وبذلك انتقلت العاصمة إلى أوروبا، وأصبحت أدنة عاصمة إسلامية، وكان السلطان مراد الأول يعلم أنه يقاتل في سبيل الله وأن النصر من عنده، ولذلك كان كثير الدعاء والإلحاح على الله والتضرع إليه والتوكل عليه، ومن دعائه الخاشع نستدل على معرفة السلطان مراد لربه وتحقيقه لمعاني العبودية، واستشهد في معركة قوصوه ضد الصرب، وقاد السلطان مراد الشعب العثماني ثلاثين سنة بكل حكمة ومهارة لا يضاهيه فيها أحد من ساسة عصره.

٣ ـ وتولى بايزيد الحكم بعد أبيه مراد عام ٧٩١ هـ، وكان شجاعاً شهماً كريماً متحمِّساً للفتوحات الإسلامية. ولذلك اهتم اهتماماً كبيراً بالشؤون العسكرية واستهدف الإمارات المسيحية في الأناضول، وخلال عام أصبحت تابعة للدولة العثمانية، وكان بايزيد مثل البرق في تحركاته بين الجبهتين البلقانية والأناضولية، ولذلك أطلق عليه لقب "الصاعقة".

وانهزم بايزيد أمام جيوش تيمورلنك بسبب اندفاعه وعجلته وعدم إحسانه لاختيار المكان الذي نزل به جيشه وتعرضت الدولة العثمانية لخطر داخلي ونشبت الحرب الأهلية في الدولة بين أبناء بايزيد على العرش واستمرت هذه الحرب عشر سنوات وكانت هذه المرحلة في تاريخ الدولة العثمانية مرحلة اختبار وابتلاء سبقت التمكين الفعلي المتمثّل في فتح القسطنطينية.

٤ ـ واستطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على الحرب الأهلية بسبب ما أوتي من الحزم والكياسة وبعد النظر، وتغلب على إخوته واحداً واحداً حتى خلص له الأمر وتفرد بالسلطان وقضى سنين حكمه في إعادة بناء الدولة وتوطيد أركانها. ويعتبره بعض المؤرخين المؤسس الثاني للدولة العثمانية، واستطاع السلطان محمد جلبي أن يقضي على حركة الشيخ بدر الدين الذي كان يدعو إلى المساواة في الأموال، والأمتعة والأديان ولا يفرق بين مسلم وغير مسلم في العقيدة، وكان السلطان محمد جلبي محباً للشعر والأدب والفنون، وقيل هو أول سلطان عثماني أرسل الهدية السنوية إلى أمير مكة.

٥ ـ تولى أمر السلطنة مراد الثاني عام ٨٢٤ هـ بعد وفاة أبيه محمد جلبي، وكان محبّاً للجهاد والدعوة إلى الإسلام، وكان شاعراً ومحباً للعلماء والشعراء.

٦ ـ تولى محمد الفاتح حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده عام ٨٥٥ هـ، وكان عمره آنذاك ٢٢ سنة، وقد تميز بشخصية فذة جمعت بين القوة والعدل، كما فاق أقرانه منذ حداثته في كثير من العلوم التي كان يتلقاها في مدرسة الأمراء وخاصة معرفته لكثير من لغات عصره وميله الشديد لدراسة التاريخ.

وكانت من أهم أعمال السلطان محمد الثاني فتحه للقسطنطينية، وكان لذلك الفتح أثر عظيم على العالم الإسلامي والأوروبي، وكان لفتح القسطنطينية أسباب مادية ومعنوية وشروط أخذ بها، وتحققت بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الفتح العظيم عندما

قال: «**لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش**»[١]، وكان ذلك الفتح في عام ٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م.

لقد حرص العثمانيون الأوائل على تحكيم شرع الله وظهرت آثاره الدنيوية والأخروية على المجتمع العثماني منها: الاستخلاف والتمكين، الأمن والاستقرار، النصر والفتح العز والشرف، انتشار الفضائل وانزواء الرذائل وغير ذلك من الآثار.

وكانت من أهم الصفات القيادية في شخصية محمد الفاتح: الحزم والشجاعة والذكاء والعزيمة والإصرار والعدالة، عدم الاغترار لقوة النفس وكثرة الجند، وسعة السلطان والإخلاص والعلم.

ومن أعمال السلطان محمد الفاتح الحضارية: بناؤه للمدارس والمعاهد، وتكريمه العلماء والشعراء والأدباء والمترجمين، والعمران والبناء وإنشاء المستشفيات واهتمامه بالتجارة والصناعة، والتنظيمات الإدارية والجيش والبحرية والعدل.

وترك محمد الفاتح وصية عبَّرت أصدق التعبير عن منهجه في الحياة، وقيمه ومبادئه التي آمن بها[٢]، وهذه الوصية جاء فيها:

- خذ مني هذه العبرة: حضرت هذه البلاد كنملة صغيرة فأعطاني الله تعالى هذه النعم الجليلة، فالزم مسلكي واحذُ حذوي، واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو، وأكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك:
- كن صالحاً رحيماً.
- وابسط على رعيتك حمايتك دون تمييز.
- واعمل على نشر الدين الإسلامي، فإن هذا هو واجب الملوك على الأرض.

---

[١] مسند أحمد (٤/ ٣٣٥).

[٢] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٥٧٩ إلى ٥٨٢.

. قدِّم الاهتمام بأمر الدين على كل شيء ولا تفتر في المواظبه عليه.

. ولا تستخدم الأشخاص الذين لا يهتمون بأمر الدين ولا يجتنبون الكبائر وينغمسون في الفحش.

. جانب البدع المفسدة وباعد الذين يحرضونك عليها.

. وسِّع رقعة البلاد بالجهاد.

. واحرس أموال بيت المال من أن تتبدَّد.

. وإياك أن تمدك إلى أموال أحد من رعيتك إلا بحق الإسلام.

. واضمن للمعوزين قوتهم وابذل أكرامك للمستحقين.

. وبما أن العلماء هم بمثابة القوة المبثوثة في جسم الدولة فعظِّم جانبهم وشجعهم وإذا سمعت بأحد منهم في بلد آخر فاستقدمه إليك وأكرمه بالمال.

. حذار حذار لا يغرنك المال ولا الجند وإياك أن تبعد أهل الشريعة عن مجلسك، وإياك أن تميل إلى أي عمل يخالف أحكام الشريعة فإن الدين غايتنا والهداية منهجنا وبذلك انتصرنا.

. واعمل على تعزيز هذا الدين وتوقير أهله.

. ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو أو أكثر من قدر اللزوم، فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك[١].

٧ . بعد وفاة السلطان محمد الفاتح تولى ابنه بايزيد الثاني ٨٨٦ هـ وكان سلطاناً وديعاً، نشأ محباً للأدب متفقهاً في علوم الشريعة الإسلامية شغوفاً بعلم الفلك، ودخل بايزيد الثاني في صراع مع أخيه جم، واشتبك مع المماليك في معارك على الحدود الشامية وحاول أن يساعد مسلمي الأندلس في محنتهم الشديدة.

---

[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ١٦٥ إلى ١٨١.

٨ ـ تولى الحكم السلطان سليم الأول بعد بايزيد الثاني وكان يحب الأدب والشعر الفارسي والتاريخ، ورغم قسوته فإنه كان يميل إلى صحبة رجال العلم وكان يصحب المؤرخين والشعراء إلى ميدان القتال ليسجلوا تطورات المعارك وينشدوا القصائد التي تحكي أمجاد الماضي.

وكان للسلطان سليم الأول دور في إضعاف النفوذ الشيعي في العراق وبلاد فارس وحقق على الصفويين الشيعة انتصاراً عظيماً في معركة جالديران.

وكانت نتيجة الصراع بين الدولة العثمانية والصفوية ضم شمال العراق، وديار بكر إلى الدولة العثمانية وأمَّن العثمانيون حدود دولتهم الشرقية، وسيطر المذهب السني في آسيا الصغرى بعد أن قضى على أتباع وأعوان إسماعيل الصفوي، واستفاد البرتغاليون من صراع الصفويين مع الدولة العثمانية وحاولوا أن يفرضوا على البحار الشرقية حصاراً عامًّا على كل الطرق القديمة بين الشرق والغرب.

ودخل السرور على الأوروبيين بسبب الحروب بين العثمانيين والصفويين وعمل الأوروبيون على الوقوف مع الشيعة الصفوية ضد الدولة العثمانية لإرباكها حتى لا تستطيع أن تستمر في زحفها نحو أوروبا.

واستطاع العثمانيون أن يحققوا انتصاراً ساحقاً على المماليك في معركة غزة ثم معركة الريدانية وأزاحوا دولة المماليك بعد ذلك من الوجود.

ـ وبعد مقتل السلطان الغوري ونائبه طومان باي بادر شريف مكة "بركات بن محمد" إلى تقديم السمع والطاعة إلى السلطان سليم الأول وسلمه مفاتيح الكعبة، وبذلك أصبح السلطان سليم خادماً للحرمين الشريفين.

ـ ودخلت اليمن تحت النفوذ العثماني بعد سقوط دولة المماليك وكانت تمثل بعداً إستراتيجياً وتعتبر مفتاح البحر الأحمر، وفي سلامتها سلامة للأماكن المقدسة في الحجاز،

واستفاد العثمانيون من وجودهم في اليمن فقاموا بحملات بحرية إلى الخليج بقصد تخليصه من الضغط البرتغالي.

. وبعد أن ضم العثمانيون بلاد مصر والشام ودخلت البلاد العربية تحت نطاق الحكم العثماني، واجهت الدولة العثمانية البرتغاليين بشجاعة نادرة، فتمكنت من استرداد بعض الموانئ الإسلامية في البحر الأحمر مثل: مصوع وزيلع، كما تمكنت من إرسال قوة بحرية بقيادة مير علي بك على الساحل الأفريقي فتم تحرير مقديشو وممبسة، ومُنِيَت الجيوش البرتغالية بخسائر عظيمة وقد تمكن العثمانيون من صد البرتغاليين وإيقافهم بعيداً عن الممالك الإسلامية والحد من نشاطهم، ونجحت الدولة العثمانية في تأمين البحر الأحمر وحماية الأماكن المقدسة من التوسع البرتغالي المبني على أهداف استعمارية وغايات دنيئة ومحاولات للتأثير على الإسلام والمسلمين بطرق مختلفة.

وكانت نتيجة الصراع العثماني البرتغالي: أن احتفظ العثمانيون بالأماكن المقدسة وطريق الحج، وحماية الحدود البرية من هجمات البرتغاليين طيلة القرن السادس عشر، واستمرار الطرق التجارية التي تربط الهند وإندونيسيا بالشرق الأدنى عبر الخليج العربي والبحر الأحمر.

واهتمت الدولة العثمانية بالشمال الأفريقي ووقفت مع حركة الجهاد البحري وقدمت لهم كافة المساعدات المالية والمعنوية.

ودخلت الجزائر تحت نفوذ الدولة العثمانية منذ السلطان سليم الول وظهر في ساحة الجهاد في الشمال الأفريقي قائدان عظيمان هما الأخوان عروج، وخير الدين بربروسا[١].

---

[١] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٥٨٣ إلى ٥٨٤.

خامساً: الأخوان عروج وخير الدين بربروسا

كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس ونزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي، ولما كان من بين المسلمين النازحين إلى هذه المناطق أعداد وفيرة من البحارة، فكان من الضروري أن تبحث عن الوسائل الملائمة لاستقرارها، إلا أن بعض العوامل قد توافرت لتدفع بأعداد من هؤلاء البحارة إلى طريق الجهاد ضد القوى المسيحية في البحر المتوسط، ويأتي في مقدمة هذه الأسباب الدافع الديني بسبب الصراع بين الإسلام والنصرانية وإخراج المسلمين من الأندلس ومتابعة الإسبان والبرتغال للمسلمين في الشمال الأفريقي، وقد ظلت حركات الجهاد الإسلامي ضد الإسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج بربروسا، واستطاعا تجميع القوات الإسلامية في الجزائر وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد أعداء الإسلام عن التوسع في موانئ ومدن الشمال الأفريقي، وقد اعتمدت هذه القوى الإسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا، وقد حقق المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين ضد البرتغال والإسبان وحلفاؤهم.

وقد حاول المؤرخون الأوربيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة، وكذلك شككوا في أصل قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج الأمر الذي يفرض ضرورة إلقاء الضوء على دور الأخوين وأصلهما وأثر هذه الحركة على الدور الصليبي في البحر المتوسط في زمن السلطان سليم الأول والسلطان سليمان القانوني:

١ . أصل الأخوين عروج وخير الدين:

يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين، وكان والدهما يعقوب بن يوسف من بقايا الفاتحين المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزيرة مدللي إحدى جزر الأرخبيل[١]، وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين[٢].

وكان لعروج وخير الدين أخوان مجاهدان هما إسحق ومحمد إلياس ولقد استند المؤرخون المسلمون إلى أصلهم الإسلامي إلى الحجج التالية:

. ما ذكره المؤرخ الجزائري "أحمد توفيق مدني" مستنداً على أثرين ما زالا موجودين في الجزائر: أولهما رخامة منقوشة كانت موضوعة على باب حصن شرشال، وثانيهما رخامة كانت على باب مسجد الشواس بالعاصمة الجزائرية، وقد نقش على الرخامة الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله، هذا برج شرشال أنشأه القائد محمود بن فارس التركي في خلافة الأمير الحاكم بأمر الله المجاهد في سبيل الله "أوروج بن يعقوب" بإذنه بتاريخ أربعة وعشرين، بعد تسعمائة ١٥١٨ م ونقش على الرخامة الثانية اسم "أوروج بن أبي يوسف يعقوب التركي"، وهناك ثالثة مسجل عليها بعض ما شيده خير الدين في الجزائر سنة ١٥٢٠[٣].

. إن اسم "عروج" . "أوروج" مأخوذ من حادثة الإسراء والمعراج التي يرجع أنه ولد ليلتها، وأن الترك ينطقونه "أوروج" ثم عرب إلى "عروج"[٤].

. إن ما ذكر عن الدور الذي لعبه الأخوان يؤكد حرصهما على الجهاد في سبيل الله ومقاومة أطماع إسبانيا والبرتغال في الممالك الإسلامية في شمال أفريقيا، ولقد أبدع

---

[١] المغرب في بداية العصور الحديثة، د. صلاح العقاد، ص: ٣٧.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: ١٦٠ . ١٦١.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: ١٦٠ . ١٦١.

[٤] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٢٣٢.

الأخوان في الجهاد البحري ضد النصارى، وأصبحت لحركة الجهاد البحري في القرن السادس عشر مراكز مهمة في شرشال ووهران والجزائر ودلي وبجاية وغيرها في أعقاب طرد المسلمين من الأندلس، وقد قويت بفعل انضمام المسلمين الفارين من الأندلس والعارفين بالملاحة وفنونها والمدربين على صناعة السفن[١].

٢ . دور الأخوين في الجهاد ضد الغزو الصليبي:

اتجه الأخوان عروج وخير الله إلى الجهاد البحري منذ الصغر، ووجها نشاطهما في البداية إلى بحر الأرخبيل المحيط بمسقط رأسهما حوالي سنة ١٥١٠ م، لكن ضراوة الصراع بين المسيحية في بلاد الأندلس وفي شمال أفريقيا بين المسلمين هناك، والذي اشتد ضراوة في مطلع القرن السادس عشر، قد استقطب الأخوين لينقلا نشاطهما إلى هذه المناطق، وبخاصة بعد أن تمكن الإسبان والبرتغاليون من الاستيلاء على العديد من المراكز والموانئ البحرية في شمال أفريقيا[٢].

وقد حقَّق الأخوان العديد من الانتصارات على القراصنة المسيحيين الأمر الذي أثار إعجاب القوى الإسلامية الضعيفة في هذه المناطق، ويبدو ذلك من خلال منح السلطان (الحفصي) لهم حق الاستقرار في جزيرة جربة التونسية وهو أمر عرضه لهجوم إسباني متواصل، اضطره لقبول الحماية الإسبانية بالضغط والقوة كما يبدو من خلال استنجاد أهالي هذه البلاد بهما، وتأثيرهما داخل بلادهم، مما أسهم في وجود قاعدة شعبية لهما تمكنهما من حكم الجزائر وبعض المناطق المجاورة، ويرى بعض المؤرخين أن دخول (عروج) وأخيه الجزائر وحكمهما لها لم يكن بناءً على رغبة السكان، ويستند هؤلاء إلى وجود بعض القوى التي ظلت تترقب الفرص لطرد الأخوين والأتراك المؤيدين لهما، لكن البعض الآخر يرون أن وصول (عروج) وأخيه كان بناء على استدعاء من ساكنها لنجدتهم من الهجوم الإسباني الشرس، وأن القوى البسيطة التي قاومت وجودهما كانت تتمثل في بعض

[١] قراءه جديدة في التاريخ العثماني، ص: ٨٠.

[٢] الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص: ٥٣.

الحكام الذين أُبعدوا عن الحكم أمام محاولات الأخوين الجادة في توحيد البلاد، حيث كانت قبل وصولهما أشبه بدولة ملوك الطوائف في الأندلس، وقد ساند أغلب أهل البلاد محاولات الأخوين، واشتركت أعداد كبيرة منهم في هذه الحملات، كما ساندهما العديد من الحكام[1] المحليين الذين شعروا بخطورة الغزو الصليبي الإسباني، ويظهر دور الأخوين المجاهدين بمحاولة تحرير بجاية من الحكم الإسباني سنة ١٥١٢م، وقد نقلا لهذا الغرض قاعدة عملياتها ضد القوات الإسبانية في ميناء جيجل شرقي الجزائر بعد أن تمكنا من دخولها وقتل حماتها الجنويين سنة ١٥١٤م لكي تكون محطة تقوية لتحرير بجاية من جهة ولمحاولة مساعدة مسلمي الأندلس من جهة أخرى، ويبدو أن الأخوين قد واجها تحالفاً قوياً نتج عنه العديد من المعارك النظامية وهو أمر لم يتعودوه ولكن أجبروا عليه بفعل الاستقرار في حكم الجزائر، وزاد من حرج الموقف قتل عروج في إحدى المعارك[2].

٣ . محاولة تحرير تلمسان واستشهاد عروج:

جاء وفد من تلمسان يخبر عروج بالفوضى التي تسودها بسبب النزاع الذي دبَّ بين أمراء العرش الزيني الذي فقد كل مقاومات البقاء الصالح، وصارت تلمسان مهددة بغزو إسباني، طالبين منه نجدة تلمسان، تخليصها من أبي حمو الثالث الذي هو تحت حماية الإسبان، بعد أن أعلن الطاعة بملك إسبانيا في مدينة برغوس وأطاح بالملك الزياني الشرعي أبي زيان وسجنه، وانطلق نتيجة لهذا صراع بين الأمراء الزيانيين واستجاب الأخوان فوراً لنداء تلمسان لأن هدفهما من السيطرة على جزائر بني مزغنة هو تحرير ساحل المغرب الأوسط من الاحتلال الإسباني والشواطئ الغربية أكثر عجلة في التحرير لقربهما من إسبانيا، وقرر عروج التحرك سالكاً طريق الهضاب الداخلية حتى لا يواجه القواعد الإسبانية بوهران، وإتخذ من قلعة بني راشد التي تتوسط بين معسكر ومستغانم

[1] المغرب في بداية العصور الحديثة، ص: ٣٧ ، ٣٨.

[2] الدولة العثمانية، للصلابي، ص: ٢٣٣.

مقراً أقام فيه موقعاً وضع فيه ٦٠٠ جندي تحت قيادة أخيه الثالث إسحاق بن يعقوب لحماية طريق مواصلاته وأمرهم بمناوشة الإسبان حتى يصرف انتباههم عن اكتشاف هدف الحملة نحو تلمسان، ثم تقدم على رأس جيشه ولما وصل سهل أربال وجد أبا حمو على رأس جيش كبير من ٦٠٠٠ فارس و٣٠٠٠ من المشاة فهاجمه، ونظراً لعدم تمتع جيش حمو بمعنويات عالية بسبب أهدافه المشبوهة وطنياً، لم يستطع الصمود أمام عروج، وواصل عروج تقدمه بسرعة نحو تلمسان التي فتحت له أبوابها واستقبله سكانها كمنقذ من السلطان الخائن.

وقام عروج بإخراج السلطان أبي زيان من السجن وأجلسه على العرش، وأما عمه الخائن أبو حمو الثالث فقد هرب إلى فاس ومنها توجه إلى وهران ملتجئاً إلى حاكمها الإسباني.

لكن ما أن استقرت الأوضاع قليلاً حتى عادت الفتن بين أمراء بني زيان يغذيها الإسبان وأبو حمو فقرر عروج مغادرة تلمسان والعودة إليها بخطة بعد أن قتل أبا زيان ورؤوس الفتنة، وأمر ملك أسبانيا شارل كوينتو كارلوس الخامس حاكم وهران أن يعيد أبا حمو إلى عرش تلمسان، وأرسل له عشرة آلاف جندي، وخرج أبو حمو من وهران على رأس جنود بدو ومعه فرقة إسبانية فهاجموا قلعة بني راشد، فدافع عنها إسحاق بن يعقوب، وجنده دفاع الأبطال لكنه سقط شهيداً وذلك في شهر يناير ١٥١٨م، وتقدم أبو حمو من الشرق، وقام حاكم وهران بإنزال قوة إسبانية ثانية في بلدة رشقون الساحلية وتوجهت مسرعة نحو تلمسان، وحاصرت القوتان تلمسان، وبالرغم من كثرة القوتين إلا أن عروج قاوم مع سكان المدينة وصمد للحصار ستة أشهر استطاع الإسبان بعدها فتح ثغرة في السور بالمدفعية، وتحولت المقاومة إلى حرب شوارع، وانسحب عروج إلى قلعة المشوار منتظراً النجدة من سلطان فاس التي لم تصل. وقاوم عروج مع جنوده الأتراك الخمسمائة عازمين على الاستشهاد بدل الاستسلام، وتمكن مع عشرة من رجاله مغادرة القلعة عنوة وفتح طريق نحو البحر، وكثر الطوق وتوجه ناحية الغرب، لكن فرقة من الفرسان الإسبان

تعقبته وحاصرته في زاوية سيدي موسى، وقاوم إلى أن استشهد مع الرجال الذين كانوا معه. كان شاهراً سيفه وجهاً لوجه مع قائد الفرقة الإسبانية، ودخلا في مبارزة، وبالرغم من الإعياء الذي سيطر على قوة عروج إلا أن المبارزة انتهت بغرز كل واحد سيفه في جسد الآخر وسقط عروج شهيداً عن عمر خمسين سنة.

وهكذا استشهد هذا المجاهد العظيم والسيف في يده يقاتل دفاعاً عن الإسلام في مواجهة الصليبية الإسبانية وعملائهم، وكما يقول ش أ جوليان: استطاع أن يضع الأسس لدولة إسلامية قوية وسط محيط من المنافسات القبلية والإمارات المغربية، دون أن تتمكن أوروبا من النيل منها[1].

٤ . مبايعة خير الدين:

اجتمع وجوه مدينة الجزائر وأبناء الفقيدين عروج وأخاه إسحاق وبايعوا خير الدين خليفة لشقيقه عروج مع قرارهم بضم الإمارة إلى الخلافة العثمانية، وكانت الدولة العثمانية هي أقوى القوى المرشحة لحماية المسلمين في ساحة البحر المتوسط، وكانت الشعوب الإسلامية في شمال أفريقيا متعاطفة معها وتتابع انتصاراتها على الساحة الأوروبية منذ فتح القسطنطينية، وأن الاتجاه للانضواء تحتها سيكسب خير الدين مزيداً من التأييد من قبل هذه الأهالي، وإلى جانب ذلك فإن الدولة العثمانية قد أبدت استجابة للمساعدة حين طلب منها الأخوان ذلك، كما أبدت رغبتها في مزيد من المساعدة لدوره، وكذلك لبقايا المسلمين في الأندلس، ومن منظور ديني أسهم في إكساب دورها تأييداً جماهيرياً وجعل محاولة التقرب منهما أو التحالف معهما عملاً مرغوباً[2]، وقد اختلف علماء التاريخ حول بداية التحالف بين العثمانيين والأخويين عروج وخير الدين فتذكر بعض المراجع أن

[1] الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي، ص: ٣٧٥ .

[2] الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩٠٢) للشناوي .

السلطان سليماً الأول كان وراء إرسالهم إلى الساحل الأفريقي تلبية لطلب المساعدة من سكان الشمال الأفريقي وعملاً على تعطيل أهداف البرتغاليين والأسبان في منطقة البحر المتوسط، وعلى الرغم من عدم تداول هذه الزاوية بين المؤرخين إلا أنها توضح أن العثمانيين لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التي تدور على ساحة المتوسط[١]، ويرجع بعض المؤرخين التحالف بين الجانبين إلى سنة ١٥١٤م في أعقاب فتح عروج وخير الدين لميناء "جيجل" حيث أرسل الأخوان إلى السلطان سليم الأول مجموعة من النفائس التي إستوليا عليها بعد فتح المدينة، فقبلها السلطان وردَّ لهما الهدية بإرسال أربع عشرة سفينة حربية مجهزة بالعتاد والجنود[٢]، وكان هذا الرد من السلطان العثماني يعكس رغبته في استمرار نشاط دور الأخوين ودعمه، على أن بعض المؤرخين يذكرون أن الدعم العثماني لهذه الحركة كان في أعقاب وفاة "عروج" سنة ١٥١٨م وبعد عودة السلطان العثماني من مصر إلى إسطنبول سنة ١٥١٩م[٣] .

على أن الرأي الأكثر ترجيحاً أن الاتصالات بين العثمانيين وهذه الحركة كان سابقاً لوفاة عروج وقبل فتح العثمانيين للشام ومصر، وذلك يرجع إلى أن الأخوين كانا في أمس الحاجة لدعم أو تحالف مع العثمانيين بعد فشلهما في فتح "بجاية"، كما أنهما حوصرا في "جيجل" بين الحفصيين الذين أصبحوا من أتباع الإسبان وبين "سالم التومي" حاكم الجزائر الذي ارتكز حكمه على دعم الإسبان له هو الآخر، فضلاً عن قوة الإسبان وفرسان القديس يوحنا التي تحاصرهم في البحر، فكان لوصول الدعم العثماني أثره على دعم دورهما وشروعهما في دخول الجزائر برغم هذه العوامل، حيث اتفق العثمانيين مع الأخوين على ضرورة الإسراع بدخولهما قبل القوات الإسبانية لموقعها الممتاز من ناحية

---

[١] قراءة جديدة في تتاريخ العثمانيين، ص: ٨٣ .

[٢] قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص: ٨٤.

[٣] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٢٣٥ .

ولكي يسبقوا الإسبان إليها، لاتخاذها قاعدة لتخريب الموانئ الإسلامية الواقعة تحت الاحتلال الإسباني، كبجاية وغيرها من ناحية أخرى.

وقد تمكن عروج من دخول مدينة الجزائر بفضل هذا الدعم وقتل حاكمها بعد أن تأكد من مساعيه للاستعانة بالقوات الإسبانية، كما تمكن من دخول ميناء شرشال، واجتمع له الأمر في الجزائر وبويع في نفس السنة التي هزمت فيها القوات المملوكية أمام القوات العثمانية في الشام سنة ١٥١٦م في معركة مرج دابق[١].

ولم يكن من الممكن للأخوين أن يقوما بهذه الفتوحات لولا تشجيع السلطان العثماني ودعمه إلى جانب دعم شعوب المنطقة، وقد سبق أن فشلا في دخول بجاية أمام نفس القوات المعادية[٢].

بعد أن بويع خير الدين في الجزائر في أعقاب ما حققه من انتصارات على الإسبان والزعماء المحليين المتحالفين معهم أصبح محط آمال كثير من الولايات والموانئ التي كانت وما زالت خاضعة سواء للأسبان أو لعملائهم، وكان أول الذين طلبوا نصرته أهل تلمسان، ومع أن استنجاد الأهالي كان من الممكن أن يكون كافياً لتدخّل "خير الدين" إلا أن موقع تلمسان الإستراتيجي الذي كان يجعل وجود "خير الدين" في الجزائر غير مستتب قد جعله يفكر في التدخل قبل أن يطلب الأهالي نجدته، وأن مطالبهم قد دعته للتعجيل بذلك[٣].

وأعد خير الدين جيشاً كبيراً زحف به إلى تلمسان سنة ١٥١٧م، وأمّن الطريق إليها، وبعد أن نجح في السيطرة عليها تمكن الإسبان وعملاؤهم من بني حمود من استعادتها، ولقي أحد إخوة خير الدين حتفه وهو "إسحاق" كما قتل عروج ـ كما مرّ معنا ـ وقد تركت هذه الأحداث أثراً بالغاً في نفس خير الدين مما دفعه إلى التفكير في ترك الجزائر

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: ١٧٤ ـ ١٧٥ .

[٢] قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص: ٥٨.

[٣] الدولة العثمانية للصَّلاَّبي، ص: ٢٣٦.

لولا أن أهلها ألحوا عليه بالبقاء وكانت موافقته على البقاء تفرض عليه ضرورة بذل المزيد من الارتباط بالدولة العثمانية وبخاصة بعد أن والت لها مصر والشام، فكان ذلك يؤكد احتياج الجانبين إلى مزيد من الارتباط بالآخر[١].

٥ . انضمام الجزائر إلى الدولة العثمانية: ١٥١٩م:

أدرك خير الدين حراجة موقفه بعد استشهاد أخيه، فقد كان مدركاً لمدى الخطر الذي يواجهه سواء من الإسبان الذين لن يكتفوا بقتل عروج، بل سوف يعاودون احتلال كامل سواحل الجزائر من جديد، كما كان على علم أيضاً بمدى هشاشة البناء الذي أقامه بسبب اضطراب ولاءات الزعماء والأهالي على حد سواء، كما أن اتساع رقعة الصراع مع الإسبان ومدى القدرة على بسط النفوذ على بلاد واسعة كالجزائر جعله يفكر في إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية قبل الشروع في أي خطوة أخرى[٢].

وهكذا فإنه عندما فرغ من تحصين المدينة دعا علماء الجزائر، وأعيانها إلى اجتماع عام، وذكرهم فيه أنه قد تمكن من حمايتهم من الإسبان، وأنه قد حصن المدينة بشكل يمكنهم من الدفاع عنها دون الحاجة إليه، ولذلك فإن مهمته في الجزائر تكون قد انتهت وعليهم أن يختاروا واحداً منهم يجعلوه أميراً عليهم[٣]، أما هو فقد قرر أن يمضي للجهاد في مكان آخر فناشده العلماء قائلين: بأنه يتعيَّن عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها وأنه لا رخصة له في ترك الأهالي عرضة للعدو الكافر، وإذا كان يريد الأجر بالجهاد في بلاد الروم، فإن هناك الكثير ممن يقوم به غيره، والمصلحة التامة تقضي ببقائه في مدينة الجزائر لحمايتها[٤].

---

[١] قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص: ٨٦.

[٢] الدخول العثماني، ص: ٢٢٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٢٢٨.

[٤] تاريخ المغرب الحديث والمعاصر، ص: ١١٣ . ١١٤.

فلما أكثروا عليه ذكّرهم بموقف سلطان تلمسان منه ومن أخيه، وموقف سلطان تونس الذي خذلهم في بجاية حيث منع عنهم البارود في أشد ساعات الحرب حرجاً[1]، وأعلمهم أنه لم يبق له من يستند إليه بعد الله، ولذلك فإنهم إذا أرادوا حماية بلدهم فعليهم أن يعلنوا تبعيتهم للسلطان العثماني، فهو الوحيد القادر على مساندتهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجونه من عتاد، ولا يكون ذلك إلا بالدعاء له في الخطبة، وضرب السكة باسمه، وأشار عليهم أن يكتبوا للسلطان بذلك، فاستحسن أعيان الجزائر ذلك، وكتبوا رسالة باسمهم إلى السلطان، كما كتب خير الدين كتاباً مماثلاً، ثم جهز أربعة سفن وجعل على رأسها الشيخ الفقيه أحمد ابن القاضي[2].

وعندما وصلت السفارة إلى إسطنبول في ١٥١٨م استقبلهم السلطان واحتفى بهم وقَبِل عرض أهالي الجزائر ثم أرسل ٢٠٠٠ من قوات سلاح المدفعية "طوبجولر" و٤٠٠٠ من المتطوعين والانكشارية وجاء معهم كثير من المهاجرين الأتراك، كما أعطى السلطان للجنود الذين يذهبون إلى الجزائر نفس امتيازات الانكشارية تشجيعاً لهم على التطوع للجهاد فيها، أما بالنسبة لخير الدين فقد أرسل السلطان إليه السيف، والخلعة السلطانية، والسنجق وفرماناً يقضي فيه بتعيينه بيلرباي على الجزائر[3].

في الحقيقة كان إعلان خير الدين – ومعه أهالي الجزائر – تبعيتهم الطوعية للدولة العثمانية مبعث سرور كبير للسلطان سليم، الذي كان يطمح إلى أن يمد نفوذ الدولة العثمانية إلى المحيط الأطلسي، فقد نقل أحمد جودت باشا عن بعض كتمة سر السلطان قوله: .. إن البحر المتوسط هو عبارة عن خليج واحد يمتد إلى بوغاز سبتة، فكيف يليق أن تجتمع فيه مدن مختلفة، ثم إنهم لا يكونون تحت حكم الدولة العلية، فعدم الاجتهاد في بلوغ هذه الغاية هو في قصور الهمة المزري بشأن الدولة. إني آليت على نفسي

---

[1] الدخول العثماني، ص: ٢٢٩.

[2] الدخول العثماني، ص: ٢٢٩.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢٣١.

وعاهدتها إن مد الله في عمري إني أحرمها الراحة والسكون ما لم أنشئ الأساطيل الكافية لنيل المرغوب وأستولي على ثغور البحر المتوسط[1].

بل تذكر بعض المصادر أن السلطان كان يعتزم السير بنفسه إلى المغرب، ولكن الأجل لم يمهله.

وهكذا أثبت خير الدين بقرار ضم الجزائر إلى ممتلكات الدولة العثمانية عبقريته السياسية، بعدما أثبت عبقريته العسكرية في معاركه التي خاضها ضد الممالك الأوروبية عامة وإسبانيا خاصة، وبهذا القرار الحكيم لم يحظ بتأييد الأهالي فحسب، بل حاز على تأييد السلطان نفسه حيث لم يتردد في تقديم دعمه غير المشروط لخير الدين فور وصول الوفد إلى إسطنبول[2].

وقد ترتب على القرارات التي أصدرها السلطان سليم الأول عدة نتائج هامة كان من بينها:

- دخول الجزائر رسميّاً تحت حكم الدولة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعي للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة باسمه.

- إن إرسال القوات العثمانية جاء نتيجة استغاثة أهل بلدة الجزائر بالدولة العثمانية واستجابة لرغبتهم، فلم يكن دخول القوات العثمانية غزواً أو فتحاً عسكرياً ضد رغبة أهل البلد.

- إن إقليم الجزائر كان أول أقليم من أقاليم شمال أفريقيا يدخل تحت سيادة الدولة العثمانية، وأصبحت الجزائر ركيزة لحركة جهاد الدولة العثمانية في البحر المتوسط[3]، وكانت حريصة على امتداد نفوذها بعد ذلك إلى كل أقاليم الشمال الأفريقي لتوحيده

---

[1] تاريخ جودة، أحمد جودت باشا (١/ ١٤٦).

[2] الدخول العثماني، ص: ٢٣٢.

[3] الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٢).

تحت راية الإسلام والعمل على تخليص مسلمي الأندلس من الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها الإسبان النصارى لقد كان زمن السلطان سليم الأول البداية لمد النفوذ العثماني إلى أقاليم شمال أفريقية من أجل حماية الإسلام والمسلمين وواصل ابنه سليمان ذلك المشروع الجهادي، لقد استجاب السلطان العثماني سليم لنداء الجهاد من أخوة الدين، وشرعت الدولة العثمانية في إنشاء أسطول ثابت لهم في شواطئ شمال أفريقيا والذي ارتبط منذ البداية باسم الاخوين عروج وخير الدين بربروسة[١].

٦ . التحديات التي واجهت خير الدين:

كان أمام خير الدين بربروسة في وضعه السياسي والعسكري الجديد أن يحارب على جبهتين:

أ . الجبهة الإسبانية لطرد الإسبانيين من الجيوب التي أقاموها، فضمَّ إليه عنابة وقالة في شرقي الجزائر وحقق انتصاراً باهراً على الإسبانيين حين استولى عام ١٥٢٩م على حصن بينون الإسباني على الجزيرة المواجهة لبلدة الجزائر، وقد استمر يقصف الحصن بقذائف مدافعه طوال عشرين يوماً حتى تداعت جوانبه، ثم اقتحم الحصن مع قوات كثيفة العدد كانت تحملها خمس وأربعون سفينة جاءت من الساحل وأسر قائد الحصن مع كبار ضباطه.

إن استيلاء خير الدين على البينون سنة ١٥٢٩م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ميناء الجزائر عاصمة كبرى للمغرب الأوسط، بل ولكلِّ شمال أفريقيا العثمانية فيما بعد، وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

ب . الجبهة الداخلية وكانت تتمثل في محاولة توحيد المغرب الأوسط التي لم تخل من مؤامرات بني زيان والحفصيين ومن بعض القبائل الصغيرة، ولكنه استطاع مد منطقة

---

[١] المشرق العربي والمغربي، د. عبد العزيز فائد، ص: ٩٧.

نفوذه باسم الدولة العثمانية ودخلت الإمارات الصغيرة تحت السيادة العثمانية لكي تحتمي بهذه القوة من الأطماع الصليبية الإسبانية ومن قهرها على اعتناق النصرانية، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلى بعض المدن الداخلية الهامة مثل القسطنطينية[١].

لقد نجح خير الدين في وضع دعامات قوية لدولة فتية في الجزائر، وكانت المساعدات العثمانية تصله باستمرار من السلطان سليمان القانوني، واستطاع خير الدين أن يصل إسبانيا، فقد قام عام ٩٣٦ هـ ـ ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلى السواحل الإسبانية للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبفضل الله ثم مساعدات الدولة العثمانية وموارد خزينة الجزائر المتنوعة من ضرائب وسبي وغنائم وزكاة والعشر والجزية والفيء والخراج وما يقوم به الحكام ورؤساء القبائل والعشائر من دفع العوائد وغيرها، أصبحت دولة الجزائر لها قاعدة اقتصادية قوية[٢].

لقد تضررت إسبانيا من نجاح خير الدين في الشمال الأفريقي وكانت إسبانيا يتزعمها شارل الخامس إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة والتي كانت تضم وقتذاك، إسبانيا وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا وإيطاليا، وكانت الدولة الرومانية المقدسة تدفع عن أوروبا المسيحية الخطر العثماني نحو شرق ووسط أوروبا، لذا يمكن القول بأن الصراع بين شارل الخامس وبين بيليربكية الجزائر كان بمثابة فتح جبهة حربية جديدة ضد الدولة العثمانية في الشمال الأفريقي، لذلك لم يكتف شارل بالهجوم المفاجئ على سواحل الجزائر، بل أرسل مبعوثاً للتجسس في شمال أفريقيا سنة ٩٤٠ هـ ـ ١٥٣٣م وهو الضابط "أوشوا دوسلا" الذي طاف بأنحاء تونس وهناك وجد استعداد الحفصيين للتعاون مع شارل الخامس، وحذَّر من امتداد النفوذ العثماني على تونس، وذكر أن هذا الاستيلاء

[١] الدولة العثمانية دولة إسلامية (٢/ ٩١٣).

[٢] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، نبيل عبد الحي، ص: ٣١١.

سيسهل على العثمانيين السيطرة على أفريقيا، ثم يتجهون بعد ذلك لاسترداد الأندلس، وهذا ما يخشاه العالم المسيحي.

كانت سياسة المملكة الحفصية في تونس تسير نحو انحطاط مستمر، وكان السلطان الحفصي الحسن بن محمد قد أساء السيرة في البلاد وقتل عدداً من إخوته، فاضطربت الأحوال في تونس وخرج البعض عن طاعة السلطان الحفصي، وكان أخو الحسن المسمى بالأمير الرشيد قد هرب من أخيه خوفاً من القتل ولجأ عند العرب في البادية، ثم ذهب إلى خير الدين في الجزائر، وطلب منه الحماية والعون ضد أخيه[1].

فمنحه ذلك خير الدين، الذي كان مركّزاً اهتمامه على تونس بسبب ضعف الحفصيين، والخلافات الداخلية التي مزقت الأسرة الحفصية، كما كان لتونس في نظره أهمية إستراتيجية كبيرة لإشرافها على المضيق الصقلي بحيث تسمح له السيطرة عليها في تحديد وقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي والغربي، بالإضافة إلى رغبة خير الدين في توحيد بلاد المغرب تحت حكم الدولة العثمانية ليتمكنوا من استرداد الأندلس[2].

سادساً: سفر خير الدين إلى إسطنبول

عزم السلطان سليمان القانوني بعد أن استولى على بلغراد، السفر بسائر جنوده إلى إسبانيا للاستيلاء عليها، وبدا للسلطان سليمان، أنه لابد له من رجل يعتمد عليه في دخول تلك البلاد على أن يكون عالماً بأحوالها، فوقع اختياره على خير الدين لما يعرفه عنه من شجاعة وإقدام، وكثرة هجومه على تلك النواحي، وما فتحه من بلاد العرب في الشمال الأفريقي وكيف أقر الحكم العثماني فيها، فوجه إليه خطاباً يطلبه فيه إلى حضرته ويأمره باستنابة بعض من يأمنه في الجزائر، وإن لم يجد من يصلح لذلك يبعث إليه

---

[1] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، د. نبيل عبد الحي، ص: ٣١١.

[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٣١٥.

السلطان نائباً، وبعث ذلك الخطاب مع رجل يدعى سنان جاوشي، فوصل الجزائر، وأوصل خطاب السلطان إلى خير الدين قبله ووضعه فوق رأسه ولما قرأه وعلم ما فيه نصب ديواناً عظيماً، وأحضر كافة العلماء والمشايخ وأعيان البلاد، وقرأ عليهم خطاب السلطان الذي وجهه إليهم وأعلمهم أنه لا يمكنه التخلف عن أمره، وعندما سمع أندريا دوريا زعيم الأسطول النصراني في البحر المتوسط بما عزم السلطان عليه من فتح إسبانيا واستقدام خير الدين من الجزائر لذلك، أراد أن يشغل خير الدين عن سفره إلى حضرة السلطان[1]، وأشاع بين الأسرى المسيحيين في الجزائر، عن عزم الحكومة الإسبانية في الهجوم على الجزائر وتخليصهم من الأسر، ففرح الأسرى الإسبان لذلك الخبر وتمردوا على خير الدين، الذي رأى أن من المصلحة العامة إعدام أولئك الأسرى ليأمن غائلتهم، ثم قام بتقوية الاستحكامات في الجزائر وزاد من عدد القلاع مظهراً أتم الطاعة للسلطان[2].

عزم خير الدين على السفر إلى إسطنبول ٩٤٠ هـ - ١٥٣٣م، وعيّن مكانه حسن آغا الطوشي، وكان رجلاً عاقلاً وصالحاً، صاحب علم واسع[3].

أبحر خير الدين شرقاً في البحر المتوسط وبرفقته أربع وأربعون سفينة وهزم في طريقه فرقة من أسطول آل هابسبرج بالقرب من المورة[4]، واستمر خير الدين في رحلته ووصل إلى مدينة بيروزان، وفرح أهالي المدينة لمقدمه وكانوا خائفين من هجوم أندريا دوريا، الذي ابتعد عندما سمع بمقدم خير الدين، ثم واصل خير الدين سفره، ورست مراكبه في قلعة أوارين "أنا وارنيه"، فصادف هنالك أسطولاً للسلطان سليمان القانوني وفرحوا بذلك، ثم خرجوا جميعاً حتى وصلوا إلى قرون، ثم كتب خير الدين إلى السلطان يعلمه بوصوله

---

[1] سيرة خير الدين باشا، عبد القادر عمر، ق٤٨ أ٤٨ب.

[2] حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سر هنك (١/ ٣٦١).

[3] فتوحات خير الدين، محمد أمين ق٢٧٠أ، ٢٧٠ب.

[4] جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس، ص: ٣١٦.

ويستأذنه بالقدوم على حضرته، فوجه إليه السلطان خطاباً يستحثه بالقدوم عليه[1]، وأقلع خير الدين من قرون ولم يزل مسافراً حتى وصل إلى إسطنبول ورسا بها ورموا بالمدافع كما هي العادة في ذلك، ومثل خير الدين بحضرة السلطان ووقف بين يديه، فأمر بأن يخلع عليه وعلى خواص أصحابه الجرايات الوافرة، وأنزلهم بقصر من قصوره وفوض إليه النظر في دار الصناعة[2]، ومنحه لقب قبودان باشا وزير بحرية . حتى تظل له السلطة الكاملة لمساندة النظام في الجزائر . لتحقيق هدف الدولة في استعادة الأندلس.

كان الصدر الأعظم في ذلك الوقت بمدينة حلب، فسمع بقدوم خير الدين على السلطان، وقد كانت أنباء غزواته ونكايته بالمسيحيين تصل إليه، فاشتاق إلى لقاء خير الدين، فوجه خطاباً للسلطان يلتمس منه أن يوجه إليه خير الدين لمقابلته، فأرسل السلطان إلى خير الدين مخبراً عن رغبة الصدر الأعظم فأجابه خير الدين بالموافقة، وسافر خير الدين متوجهاً إلى حلب، واحتفل الصدر الأعظم بمقدم خير الدين في حلب وأنزله في بعض القصور المهيبة، وفي اليوم الثاني من وصول خير الدين وصل مبعوث من قبل السلطان ومعه خلعة وأمر بمقتضاه أن خير الدين من وزراء السلطان، ويلبس الخلعة فنصب الديوان الأعظم وألبسوه خلعة الوزارة واحتفل به احتفالاً مهيباً، وأكرم إكراماً عظيماً لما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين في حوض البحر المتوسط.

ثم رجع خير الدين إلى إسطنبول وأكرمه السلطان سليمان غاية الإكرام، وشرع خير الدين في النظر في أمر دار الصناعة كما رسم له السلطان[3].

وبعد أن تم إعداد الأسطول العثماني الجديد خرج خير الدين بربروسة بأسطوله القوي من الدردنيل متجهاً نحو سواحل إيطاليا الجنوبية، فاستطاع أن يأسر الكثير منها، وأغار على

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص: ٣١٦.

[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٣١٦.

[3] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣١٧.

مدنها وسواحلها، ثم اتجه نحو جزيرة صقلية، فاسترجع كورون وليبانتو[1]، كان السلطان سليمان قد تشاور مع خير الدين بربروسة بأهمية تونس وضرورة دخولها في إطار إستراتيجية الدولة العثمانية، لتحقيق هدفها نحو استرداد الأندلس، وتأتي أهمية تونس بالنسبة للدولة من حيث موقعها الجغرافي إذ تقع في منتصف الساحل الشمالي لأفريقيا، وتوسطها بين الجزائر وطرابلس، ولقربها من إيطاليا التي تعتبر أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، بينما يمثل الجناح الآخر إسبانيا، علاوة على ذلك مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا حلفاء الإمبراطور شارل الخامس، وأشد الطوائف المسيحية عداوة للمسلمين، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط، وهكذا تضافرت تلك العوامل على إضفاء الأهمية العسكرية على تونس[2].

كانت المرحلة الثانية بالنسبة لخير الدين بعد هجومه على السواحل الجنوبية لإيطاليا وجزيرة صقلية هي تونس، وذلك لتنفيذ خطة الدولة والتي تقتضي تطهير شمال أفريقيا من الإسبان كمقدمة لاستعادة الأندلس، إذ سبق وأن أشار خير الدين بربروسة على السلطان سليمان القانوني في خطابه للسلطان الذي بعثه قبيل استدعاء السلطان له في ٩٤٠ هـ ـ ١٥٣٣م، إذ قال فيه:«... إن هدفي إذا قدر لي الشرف هو طرد الإسبان في أقصر وقت من أفريقيا، ومن الممكن أن تسمع بعد ذلك أن المغاربة قد أغاروا على الإسبان من جديد ليستعيدوا مملكة قرطاجة وأن تونس قد أصبحت تحت سلطانك، إنني لا أبغي من وراء ذلك أن أحول بينك وبين توجيه قواتك ناحية المشرق كلا ... لأن هذا لن يحتاج لكل ما تملك من قوات ولاسيما أن حروبك في آسيا أو أفريقيا تعتمد أكثر ما

[1] ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود، ص: ١٦٦.

[2] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩١٥ ـ ٩١٦).

تعتمد على قوات برية، أما هذا الجزء الثالث من العالم فإن كل ما أطلبه هو جزء من أسطولك وسيكون ذلك كافياً، لأن هذا الجزء يجب أن يخضع لسلطانك أيضاً..."[1].

وصل الأسطول العثماني تحت قيادة خير الدين إلى السواحل التونسية فعرج على مدينة عنابة، وتزود ببعض الإمدادات، ثم تقدم نحو بنزرت ثم اتجه إلى حلق الواد، إذ تمكن منها بدون صعوبة[2]، واستقبل خير الدين من قبل الخطباء والعلماء، وأكرموه وتوجهوا إلى تونس في نفس الوقت وهرب السلطان الحفصي الحسن بن محمد إلى إسبانيا[3]، ثم عين خير الدين الرشيد أخا الحسن بن محمد على تونس، وأعلن ضم تونس للأملاك العثمانية، في وقت بدت فيه سيادة العثمانيين في حوض البحر المتوسط الغربي[4].

سابعاً: أثر جهاد خير الدين على المغرب الأقصى

استفاد السلطان أحمد الأعرج السعدي من الجهود التي بذلتها الدولة العثمانية والشعب الجزائري بقيادة خير الدين بربروسة، فقام بمحاصرة مدينة آسفي بأزمور وذلك سنة ٩٤١ هـ ـ ١٥٣٤م، وكادت المدينة أن تقع بيد السعديين لولا النجدات التي بعثها البرتغاليون للمدينة المحاصرة، وقد بدا وكأن تعاوناً قد حصل بين العثمانيين والقوى الإسلامية في المغرب ضد المسيحيين ومراكزهم في الشمال الأفريقي، وعندما سمع الملك البرتغالي جان الثالث بوصول الأسطول العثماني في ٣ ربيع الأول ٩٤١ هـ ـ ١٣ سبتمبر، بقيادة خير الدين بربروسة إلى الشمال الأفريقي، فكر في الجلاء عن بعض المراكز مثل سبتة وطنجة باعتبارها مناطق حيوية للدفاع عن مصالح المسيحين في غرب البحر المتوسط، ولصد الهجوم العثماني عن شبه الجزيرة الأيبرية، بعث الملك يوحنا الثالث استفتاء إلى جميع

[1] فتح العثمانيين عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، ص: ١٢٧.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٣٠.

[3] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣١٩.

[4] فتح العثمانيين عدن، ص: ١٢٨.

الوجهاء والأعيان والأساقفة في بلاده يستشيرهم في موضوع الجلاء عن بعض مراكز الوجود البرتغالي في جنوبي المغرب، وكان المطلوب الإجابة على الأسئلة الآتية: هل ينبغي ترك آسفي وأزمور للمغاربة؟ هل ينبغي الجلاء عنهما أو عن بعضهما؟ وإذا كان ينبغي الاحتفاظ بهما هل تحول إلى حصون للتقليل من حجم المصروفات؟ ثم ما هي الأضرار الناتجة عن ذلك؟ وكيف نتفاداها؟

تلقَّى الملك البرتغالي أجوبة عديدة بين مؤيد في الإبقاء على المناطق الجنوبية في حوزة البرتغاليين وبين معارض، وكانت أجوبة رجال الدين للملك جان الثالث موحدة تقريباً تضمنت: النصح بالتخلي عن المراكز الجنوبية، يحول الملك كل وسائل الدفاع الموجودة هناك إلى المركز الشمالي لصد الخطر العثماني بقيادة خير الدين بربروسة، فأسقف ينصح بإخلاء سانتاكروز وأسفي وأزمور لأن أهميتها أقل بكثير من النفقات التي تصرف عليها، ويرى توجيه القوى ضد فاس، كما ينصح بتحسين وسائل الدفاع عن سبتة خوفاً من هجوم خير الدين عليها[١].

إن الوجود العثماني في الجزائر أثر على موقف الملك البرتغالي في المغرب، إذ تراجع عن القيام بعمليات عسكرية فيه، كما أدخل استيلاء العثمانيين على تونس الحيرة لدى البابا والإمبراطور شارل الخامس الذي اعتبر ذلك تهديداً مباشراً للمسيحية، ولخطوط مواصلاته البحرية مع أطراف مملكته[٢]، فوصل التهديد العثماني أقصاه فضلاً عن أن الدولة العثمانية ضمنت السيطرة على الممرات الضيقة بين صقلية وأفريقيا[٣].

---

[١] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص٣٢٠.

[٢] مراسلة غرناطة إلى السلطان سليمان، عبد الجليل التميمي عدد (٣) تونس.

[٣] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢١.

ثامناً: استيلاء شارل الخامس على تونس

كان الموقف ملائماً بالنسبة لإسبانيا وذلك للقيام برد عنيف فقد انشغلت الدولة العثمانية بالحرب مع الشيعة الروافض في بلاد فارس، وطغى على الصراع في أوروبا. ووعد فرانسوا الأول ملك فرنسا شارل الخامس بالحياد ـ تردد شارل في اختيار المكان الذي سيوجه إليه ضربته في شمال أفريقيا: الجزائر أو تونس، ولكن استنجاد السلطان الحفصي الحسن بن محمد والرغبة في عزل إسطنبول دفع شارل الخامس إلى اختيار تونس للهجوم[١]، قاد شارل الخامس عملية بحرية شاقة تكونت من ثلاثين ألف مقاتل إسباني وهولندي وألماني ونابولي وصقلي، على ظهر خمسمائة سفينة، وركب الإمبراطور البحر من ميناء برشلونة، وعندما رست سفنه أمام تونس قامت المعارك العنيفة بين الطرفين[٢]، الأمر الذي أعاد السيطرة الإسبانية على تونس في ٩٤٢ هـ ـ ١٥٣٥م[٣]، إذ لم تكن قوة خير الدين بكافية للرد على ذلك الهجوم، فكان الجيش الإسلامي تعداده سبعة آلاف جندي عثماني وصلوا مع خير الدين ونحو خمسة آلاف تونسي، كما تخلف الأعراب عن الجهاد فكانت النتيجة الحتمية أن استولى شارل على معقل حلق الوادي مرسى تونس[٤]، ونصب الإسبان الحسن بن محمد حاكماً عليها، وعملاً بمنطوق المعاهدة كان الحسن بن محمد سيسلم بونة والمهدية إلى شارل الخامس، فاستولى على بونة، وبما أن المهدية كانت في حوزة العثمانيين، فإن الحسن لم يستطع الوفاء بعهده فاشترط الإسبان عليه أن يكون حليفاً ومساعداً لفرسان القديس يوحنا بطرابلس[٥]، وأن يقوم بمعاداة العثمانيين وأن يتحمل نفقات ألفي إسباني على الأقل يتركون كحامية في قلعة حلق الواد، وعاد شارل

[١] تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس، ص: ٣٤.

[٢] حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٤٢٠).

[٣] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢١.

[٤] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٢١.

[٥] الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، عزيز سامح، ص: ٣٨.

الخامس إلى إسبانيا واستقبل استقبال الغزاة الفاتحين في الوقت الذي كان فيه السلطان يحارب فيه الدولة الصفوية الشيعية الرافضية لبلاد فارس[١].

تاسعاً: عودة خير الدين إلى الجزائر

عاد خير الدين إلى الجزائر بعد هزيمته في تونس، واستقر أول الأمر بمدينة قسطنطينية، ومن هناك أخذ يستعد لاستئناف الجهاد ضد الإسبان في الجبهات التي يحددها، وكان لزاماً على خير الدين – وقد استقر مؤقتاً بمدينة الجزائر نظراً لالتزاماته التي تفرضها عليه خطته الجديدة كقبودان باشا للأسطول الإسلامي العثماني – أن ي،شعر شارل الخامس بوجوده، وأن يرد على ضربة تونس بضربة مثلها، فقام بالهجوم على جزر البليار الإسبانية وعلى سواحلها الجنوبية، فاجتاز مضيق جبل طارق، وأطلق العنان لنفسه بالانقضاض على السفن الإسبانية والبرتغالية العائدة من الأراضي الأمريكية، والمحملة بالذهب والفضة، اهتزت لتلك الأحداث جميع الأوساط المسيحية، وأقلقت شارل الخامس الذي اعتقد أن خير الدين لن يقوى شأنه بعد حادثة تونس السابقة في ٩٤٢هـ. ١٩٣٥م[٢]، من ناحية أخرى دخلت الدولة العثمانية في تحالف رسمي مع فرنسا في ٩٤٣هـ. ١٥٣٦م، ويعتبر ذلك هو رد الفعل على الهجوم المضاد الذي قام به الإسبان على تونس[٣]، وبدا وكأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة قد طوقت من قبل خصومها الفرنسيين والعثمانيين مما أدى إلى استئناف الحروب بينهما من جديد، كما صارت أهداف إسبانيا والبرتغال واحدة وذلك في احتلال مراكز في بلاد المغرب بالإضافة إلى خوفهم من تقدم العثمانيين داخل شبه الجزيرة الأيبيرية.

[١] فتح العثمانيين عدن، ص: ١٣٠.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٢٧، ٢٣٦، ٢٤١، ٢٤٢.

[٣] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢٣.

عاشراً: الدبلوماسية البرتغالية وتفتيت وحدة الصف في الشمال الأفريقي

تلقَّى الملك أحمد الوطاس هزيمة ٩٤٣هـ ـ ١٥٣٦م من السعديين في موقعة بير عقبة قرب وادي العبيد، بسبب تخلي قبائل الخلوط التي كادت تكون القوة الأمامية للجيش الوطاسي، ونشرت الفوضى في سائر الجيش، وإثر هذه الهزيمة تقرب أحمد الوطاسي من البرتغال وذلك نتيجة شعوره بانشغال العثمانيين في حروبهم ضد الإسبان ووقَّع معهم معاهدة لمدة أحد عشر عاماً[١] تقضي بوضع المغاربة المقيمين في ضواحي أصيلا وطنجة والقصر الصغير تحت السلطة القضائية لملك فاس، كما يجوز لرعايا الملك الوطاسي المتاجرة بحرية داخل تلك المناطق باستثناء تجارة الأسلحة والبضائع المحظورة، وإذا وصلت مراكب عثمانية أو فرنسية أو تابعة لمسيحيين من غير الإسبان ولا البرتغاليين إلى أراضي برتغالية محملة بغنائم أخذت من المغاربة فلن يشترى منها شيء، وكذلك الحال بالنسبة للمغاربة لن يشتروا من العثمانيين ويتم الاستيلاء على الغنائم وترد من طرف لآخر ما لم تسمح قوات العدو في مهاجمتها[٢].

حاول البرتغاليون كذلك عقد هدنة مع السعديين، فبعثوا وفداً إلى مراكش للتفاوض مع المولى أحمد الأعرج الذي استجاب لذلك، لأنه كان في حاجة إلى تنظيم أمور دولته الناشئة سيما بعد الانتصارات التي حققها ضد خصومه الوطاسيين في موقعة بير عقبة ٩٤٣هـ ـ ١٥٣٦م، واتفق البرتغاليون مع السعديين لعقد هدنة بينهما في ٢٥ ذي القعدة ٩٤٤هـ ـ ٢٥ أبريل ١٥٣٧م لمدة ثلاث سنوات، مع إقامة تبادل تجاري بين رعاية طرفين[٣]، كان هدف البرتغاليين من التقرب مع الوطاسيين والسعديين هو الحيلولة دون

---

[١] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢٣.

[٢] جهود العثمانيين لاسترداد الأندلس، ص: ٣٢٣.

[٣] المصدر السابق، ص: ٣٢٤.

قيام تعاون حقيقي بين العثمانيين من ناحية والوطاسيين والسعديين من ناحية أخرى، لأن أي تعاون من هذا القبيل معناه تهديد لمصالح شبه الجزيرة الأيبيرية في المغرب، والأهم من ذلك خوف إسبانيا والبرتغال من تقدم الدولة العثمانية داخل شبه الجزيرة الأيبيرية، وتحقيق هدفها في استرداد الأندلس[1].

الحادي عشر: المجاهد الكبير حسن آغا الطوشي

اشتغل خير الدين بربروسة – بحكم منصبه قبودان باشا – بالعمل في الأسطول العثماني وبدأ نشاطه في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، بينما استمر حسن آغا الطوشي في منصبه المستخلف عليه نائب البيلربك يعمل على قهر القرصنة الأوروبية، فأبلى في سبيل ذلك البلاء الحسن، وصار شخصه في الجزائر مثالاً بارزاً في البطولة والتضحية الإسلامية في سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام في الشمال الأفريقي فاكتسبت الجزائر مهابة وجلالاً، وجعلت الأمم المسيحية تهرع إلى عاهلها الأكبر الإمبراطور شارل الخامس مستنجدة بسلطانه منضوية تحت لوائه، وقد حاول شارل الخامس ٩٤٦هـ ـ ١٥٣٩م، عقد هدنة مع خير الدين إلا أنه خاب أمله[2]، مثل ما خاب في محاولته السابقة عندما عرض على خير الدين سراً الاعتراف به حاكماً لشمال أفريقيا مقابل جزية بسيطة، إذ كان شارل الخامس يأمل في قيام تحالف إسباني جزائري يجابه به التحالف الفرنسي العثماني ويعمل على فصل شمال أفريقيا عن إسطنبول على أمل أنه إذا تحقق ذلك فلن تستطيع شمال أفريقيا إبداء مقاومة قوية يكون من السهل سقوطها[3] .

---

[1] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٢٤.

[2] تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي (٣ / ٦٢، ٦٣).

[3] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٣٥.

انهمك حسن آغا الطوشي في توطيد الأمن، ووضع الأسس للإدارة المستقرة ومحاولة جمع أطراف البلاد حول السلطة المركزية[1]، فأخضع مدينة مستغانم لدولته ثم تقدم نحو الجنوب الشرقي فاستولى على عاصمة الزاب بكرة وملحقاتها، وشيد هناك حصناً وأقام به حامية.

ركب الجيش العثماني في شهر جمادى الأول ٩٤٩هـ ـ سبتمبر ١٥٣٩م البحر، وكان قوامه ١٣٠٠ رجلاً، على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا عنها من الإسبان، نزل حسن آغا وجيشه إلى البر فاحتل البلدة وتمكن منها، واستحوذ على ما فيها من خيرات وأرزاق وغنائم للمسلمين، وتوغل في جهات الساحل الإسباني الجنوبي، وغنم ما وقع تحت يده من أموال ومتاع الإسبان ويختار من بينهم جماعات من الأسرى والسبايا يسوقهم للبيع في المدن المغربية الشمالية خاصة تطوان ثم يعود للميدان، وعندما أراد الرجوع إلى الجزائر إعترضت طريقه عمارة إسبانية كبيرة العدد، وقامت المعركة بين القوتين وكانت عنيفة قاسية، أسفرت عن غرق عدد من سفن الجانبين ومع ذلك كانت خسائر الإسبان في المعركة عظيمة[2].

الثاني عشر: حملة شارلكان على الجزائر والنتائج المترتبة عن فشلها

أراد شارلكان أن تكون هذه الحملة ضربة قاصمة للوجود العثماني في الشمال الأفريقي كله، وفي الجزائر خاصة. وقد ارتبطت هذه الحملة بعدة عوامل، أهمها:

١ . رغبة شارلكان في الانتقام للشرف الإسباني الذي لُطّخ بسبب الهزيمة العظيمة التي مُني بها الأسطول الإسباني في معركة بروزة سنة ١٥٣٨م[3]. وازدياد العمليات العسكرية التي يقوم بها غزاة الجزائر على السواحل الأوروبية في إيطاليا، وسردونيا، وجزر الباليار،

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٧٩.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٢٧٩.

[3] الدخول العثماني، ص: ٣٠٦.

حتى ضاق أهلها ذرعاً، وضجوا إلى ملكهم بالشكوى من غارات بحّارة الجزائر. فبعد انتصار بروزة، وطرد الإسبان من الجزائر فرض البحارة العثمانيون سيطرتهم على شرق وغرب البحر المتوسط، حتى صار شارلكان نفسه يصعب عليه السفر من برشلونة إلى نابولي[١].

٢. الانتصار السياسي الذي أحرزه الإسبان في تلمسان، والغرب الجزائري بفعل استمالتهم سلطان تلمسان، وتمكنهم من إخضاع الدولة الحفصية لسلطانهم بعد احتلالهم لتونس[٢]. فلم تبق لهم سوى مدينة الجزائر التي أصبحت قاعدة لغاراء البحارة العثمانيين. ولذلك فإن احتلال الجزائر كان سيضمن لشارلكان السيطرة على غرب البحر المتوسط، ويؤمن له الطرق البحرية بين شطري إمبراطوريته، ويمكنه من فرض حصار محكم من الشرق والغرب والجنوب على فرنسا، وإخضاعها بشكل نهائي لسلطانه[٣].

٣. وجود خير الدين في إسطنبول، وانشغاله بقيادة الأسطول العثماني، وما ترتب عليه من فراغ عظيم لا يمكن ملؤه في الجزائر[٤].

4. أن الجزائر لم يكن بها في ذلك الوقت من الجيش العثماني سوى العدد القليل – حسب ما جاء في تقارير الجواسيس الإسبان – واعتقادهم أن القوات المحلية غير قادرة على الدفاع عن المدينة.

٥. يرى البعض أن الحملة كانت تهدف إلى تخفيف الضغط العثماني على النمسا وألمانيا. وذلك بفتح جبهة جديدة في الجزائر، حيث ستكون الدولة العثمانية مضطرة إلى إرسال قواتها إلى هناك[١].

---

[١] بلحميسي مولاي، غارة شارلكان الخامس على مدينة الجزائر، مجلة الأصالة، وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، العدد ٨، السنة ١، ماي، جوان، ١٩٧٢، ص: ٩٥.

[٢] إلتر، ص: ١٥٥.

[٣] Un episode de l'Expedition de 1541 contre Alger, Reveue Africaine 3 – 4 trim. 1931.

[٤] كان خير الدين في هذه الفترة مستقراً في إسطنبول للإشراف عن قرب على الأسطول العثماني الذي صار قائداً عاما له. وقد أناب عنه حسن آغا في إدارة الجزائر حتى هذا التاريخ. أنظر: الدخول العثماني، ص: ٣٠٧.

أوّلاً: استعدادات الطرفين:

- **القوات المرابطة في الجزائر (التركية والمحلية والأندلسية):**

علم حسن آغا بخبر الحملة الإسبانية التي يعدّ لها الإمبراطور لغزو الجزائر. فشرع في إعداد العدّة لردّ العدوان، فقام بتحصين المدينة، وحشد القوات التركية والأندلسية المحلية للدفاع عن المدينة.

أما من الناحية العسكرية، فاستناداً إلى بعض الوثائق التي قام بتصويرها وترجمتها الأستاذ المدني من أرشيف سيمانكاس الإسباني، جاء تقرير سري مُرسل من طرف حاكم بجاية، ومؤرخ في ٢٩ مارس ١٥٣٦م ما يلي:

(إلى صاحبة الجلالة الملكة..

وهذه أنباء وردت علينا من مدينة الجزائر، نقلها لنا ستة من العبيد المسيحيين الذين تمكنوا من الفرار يوم ٢٧ فيفري، وغادروا الجزائر فوق فلك، ووصلوا إلى مدينة بجاية. يوجد الآن في مدينة الجزائر ٢،٠٠٠ من الأتراك، و٧،٠٠٠ أو ٨،٠٠٠ من مهاجري الأندلس في مدن الجزائر، ومليانة، وبقاع أخرى وضع بها بربروس حاميات. أما حاكم الجزائر اليوم فهو مرتد من سردينيا اسمه حسن آغا. وسكان المدينة في قلق شديد، لأنهم وصلتهم أنباء موثوق بها، تفيد تحرك أسطول جلالتكم.

وأخبرني الأسرى المذكورون أن الأمطار الغزيرة التي انهمرت في فصل الشتاء قد هدمت سور المدينة من ثلاث جهات، وعلى مسافات شاسعة. وقد أقدم السكان على ترميم ما تحطم بكل سرعة. لكن العمل لم يتم إلى الآن نظراً لعدم وجود البنائين العارفين. ويقولون هنا أنهم سيستعينون ب١٥٠٠ من البدو المحيطين بالجزائر من أجل إكمال العمل.

---

[١] بلحميسي، ص: ٩٥.

انظر الدخول العثماني للجزائر ودور الأخوة بربروس، د. محمد دراج، ص: ٣٠٨ ـ ٣٢٢.

أما مدينة قسطنطينة، ففيها ١٥٠٠ من الإنكشارية، يقودهم تركي اسمه القائد قلج علي[١] kilic Ali . وبربروس هو الذي أرسل هؤلاء الإنكشارية، وبما أن قلج علي هذا تابع لحكومة الجزائر، فلا ريب أنه سيقدم إلى مدينة الجزائر بمجرد علمه بتحرك أسطول جلالتكم)[٢]

من هذا التقرير يتبين لنا أن القوة التي كانت معدة للدفاع عن المدينة كانت تتراوح بين ٩ و ١٠ آلاف جندي من الأتراك والأهالي والأندلسيين[٣].

- **القوات الإسبانية**

يبدو أن شارلكان فكر في غزو الجزائر غداة احتلال تونس سنة ١٥٣٥م. وقد ذكر صاحب الغزوات أنه أرسل إلى المغرب جواسيسه للإطلاع على الطرق المناسبة التي تيسر له احتلال المدينة[٤].

وفي سنة ١٥٣٩م وافق البابا على تقديم إعانة مالية لتجهيز الحملة[٥]، كما بعث شارلكان إلى حاكم جنوة يأمره بتجهيز ما عنده من السفن، وإعدادها للسفر[٦]. فجمع الإمبراطور في ميناء(ماهون) بجزيرة مينورقة أسطولاً ضخماً اختلف المؤرخون في تقدير عدد سفنه ومقاتليه. فذُكِر أنه كان مكوَّناً من ١٦ سفينة شراعية، ٦٥ سفينة نقل عسكرية كبيرة تحمل ١٢٣٣٠ بحاراً، ٢٣٩٠٠ جندياً

---

[١] تلقّبه المصادر المحلية بالعلج على اعتبار أصله الإيطالي؛ إذ كان المسلمون يلقّبون الأسرى الأوروبيين بالعلوج، وهو لقب احتقار وإهانة؛ لأن العلج في اللغة: الحمار الوحشي. ويعتقد أن قلج علي من أصل إيطالي أسر من طرف البحارة الجزائريين سنة ١٥٢٠م، وبقي في الأسر مدّة ثم أسلم وترقّى في البحرية حتّى صار قائداً للأسطول العثماني. اشتهر بقيادته لوحدات الأسطول العثماني في معركة ليبانت سنة ١٥٧١م، توفي سنة ١٥٨٧م. لمزيد من التفاصيل:

محمد سي يوسف، أمير أمراء الجزائر علج علي باشا، دار الأمل، الجزائر ٢٠٠٩.، ص: ٦٩ . ٧٩.

٢ نص الرسالة في المدني، ص: ٢٧٨ . ٢٧٩.

٣ ذكر أحمد أسرار عدداً يقارب ما ورد في التقرير الإسباني. لكنه أشار إلى أن عدد الانكشاريين كان ٦,٠٠٠ جندي، وعدد العرب كان حوالي ٢,٠٠٠ / Asfar . age,s.216.

[٤] الغزوات، ص: ١١٦.

[٥] بلحميسي، ص: ٩٨.

[٦] التلمساني، محمد بن عبد الرحمن، الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ق ١٥.

بالإضافة إلى مئات القطع البحرية الصغيرة التي كانت ترافق الأسطول. وهي أكبر قوة عسكرية بحرية تشقّ عباب غرب البحر المتوسط في القرن السادس عشر. وقد شارك في هذه الحملة نبلاء من إسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا كجنود متطوعين. كما اشترك فرسان مالطة، حيث كلف ١٤٠ منهم بقيادة فرقة عسكرية مكونة من ٤٠٠ جندي مدربين تدريباً عالياً[١].

كان شارلكان يعلم أن دخول حسن آغا في مواجهة مع القوات الهائلة التي حشدها شارلكان لاحتلال الجزائر، بدون وصول دعم من إسطنبول يعتبر انتحاراً لا شك فيه، ولذلك وقع اختياره للوقت الذي كان فيه خير الدين في إسطنبول بينما خرج السلطان سليمان القانوني في حملته الهامايونية التاسعة لغزو المجر، حيث لا يمكن للعثمانيين أن يخوضوا معركتين كبيرتين في وقت واحد. وجعل ذلك موعداً لحملته الكبيرة على الجزائر.

والحقيقة كان وضع الجزائر إزاء هذه الحملة في غاية الخطورة، وأصبح مصير المدينة متوقفاً على نتيجة هذه المعركة. وكان السلطان القانوني مدركاً لهذا الخطر، ولذلك أرسل من بودين بالمجر فرمانا همايونيا يأمر فيه خير الدين بإرسال الدعم اللازم إلى الجزائر[٢].

بعد أن أنهى الأسطول الإسباني استعداداته انطلق من ميناء قرطاجنة carthegeneفي ١٥ و١٦ أكتوبر ١٥٤١م. فمر على وهران،

---

[١] هذا التقدير ذكره إلتر في، ص: ١٥٧؛ وقدر هامر عدد وحدات الأسطول الإسباني ب٢١٦ سفينة حربية، ولم يذكر عدد الجنود الذين خرجوا في هذه الحملة أنظر: Hammer,v.s.233؛ أما كاتب جلبي فقد ذكر أن تعداد الحملة كان ١٠٠ قطعة بحرية، و٤٠٠٠ حصان، و٥٠,٠٠٠ عسكري، أنظر كاتب جلبي، ص١١٦؛ أما المدني، فقد أشار إلى أن الأسطول الإسباني كان مكوناً من ٤٥٠ سفينة نقل و٦٥ سفينة حربية. و٢٠٠٠ فرس، بينما كان عدد البحارة ١٢٠٠٠ بحار. انظر المدني، ص: ٢٨١ ـ ٢٨٢. ويلاحظ أن هذه الأرقام تقريبية لا تعكس العدد الحقيقي للحملة بقدر ما تعكس حجمها. فهي تبين أن الحملة كانت كبيرة جداً بالنظر إلى هدفها الخطير الذي كانت ترمي إليه.

[٢] Gokbilgin, T.IA,age,s127.

حيث تزود من هناك بقوات إضافية ثم تابع سيره إلى الجزائر التي وصلها في ١٩ أكتوبر. فرسا الأسطول الإسباني قريباً من رأس ماتيفو في مقابل ميناء الجزائر، وبقي هناك يترقب حتى يوم الجمعة ٢١ أكتوبر.

ثانياً: سير الحملة:

لقد لعب حسن آغا قبل المعركة دوراً رئيساً في تنظيم وإدارة المقاومة، فإستدعى أعيان المدينة، ونظم اجتماعاً كبيراً دعا إليه العلماء والأعيان والقادة، وجعل يسكنهم ويهون عليهم أمر الإسبان، وفي الوقت نفسه كان يستشيرهم في طريقة تنظيم المقاومة[١]. ثم أمر بنصب المدافع على أبراج المدينة، كما أمر بقطع أشجار البساتين كلها كيلا يتستر بها النصارى في أثناء القتال. ثم فتح خزائن السلاح، ووزعه على أهالي المدينة مع ما يحتاجون إليه من البارود والرصاص[٢]، ولما اكتملت الاستعدادات خطب في الناس يشجعهم على الصمود. بينما كان يشرف بنفسه على عمليات تنظيم وقيادة المقاومة[٣].

واشترك في الاستعداد لهذه المعركة المصيرية جميع سكان المدينة، وسكان الريف المحيط بها، والأندلسيون، والأتراك[٤]. كما بقيت قوات أخرى خارج المدينة لكي تقوم بحركات التفافية متوالية حول الجيش الإسباني، مهمتها تنظيم هجمات على أطرافه[٥].

---

[١] التلمسانى، الزهرة، ق ١٥.

[٢] الغزوات، ص: ١١٧.

[٣] بالرغم من كل هذه الاستعدادات، والمواقف الشجاعة التي أبداها حسن آغا. لم يتردد المؤرخ التونسي ابن أبي دينار القيرواني من أن يدَّعي بأن حسن آغا حاول الهروب فمنعه شريف بركات شيخ مدينة الجزائر. انظر المؤنس، مصدر سابق، ص١٥١. وقد نسب الأستاذ المدني الادعاء الذي ذكره ابن أبي دينار عن محاولة فرار حسن آغا إلى بعض مؤرخي أوروبا وإسبانيا. ولم نتمكن من التعرف على المؤرخين الذين كان يعنيهم لأنه لم يشر إلى أي منهم باسمه أو باسم الكتاب الذي ورد فيه هذا الاتهام. انظر المدني، ص: ٢٨٢.

[٤] بلحميسي، ص: ١٠٢.

[٥] المدني، ص: ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

وفي صبيحة ٢٣ أكتوبر نزل الإسبان بمنطقة الحامة جنوب المدينة، فتصدّى لهم المقاومون لمنعهم من النزول إلى البر، فأطلق عليهم النصارى قذائف المدفعية من البحر فأبعدوهم، وتمكنوا من إنزال الجنود والسلاح. بينما تركوا المؤونة والعتاد في السفن معتقدين أن الاستيلاء على المدينة سوف يتم خلال ساعات. ثم أرسل شارلكان رسالة تهديد يطلب فيها من حسن آغا تسليم المدينة، فرد عليه حسن آغا بجواب شديد اللهجة[١].

وعندما حلّ الظلام فتحت أبواب المدينة، وشنت فرقة من المسلمين هجوماً مفاجئاً على معسكر الجيش الإسباني، وعادت إلى المدينة بعد أن تكبد العدو خسائر كبيرة[٢].

وفي صبيحة اليوم التالي تقدمت القوات الإسبانية على رأسها الإمبراطور شارلكان نحو المدينة. ثم أعطى أوامره بقصف المدينة، فرد عليه المدافعون عن المدينة بقذائف المدفعية التي كانت منصوبة على أسوارها. فاضطر معه الجيش الإسباني إلى الانسحاب إلى "رأس تافورة" قرب باب عزون على الساحل الشمالي الشرقي للمدينة، حيث استأنف القصف من هناك. فبادر المسلمون بالرد عليهم. فشعر الإمبراطور بخيبة أمل كبيرة لعدم قدرته على احتلال المدينة.

ثم شنت فرقة من الأهالي هجوماً خاطفاً على الجناح الأيسر للجيش الإمبراطوري، قرر على إثره الإمبراطور الاستيلاء على المرتفعات المشرفة على المدينة، للتحصن بها من مثل هذه الهجمات المفاجئة، وحتى يتمكن من مراقبة سير العمليات العسكرية. وبالفعل تمكن من الاستيلاء على المرتفع المعروف

[١] الغزوات، ص: ١١٧ - ١١٨.

[٢] بلحميسي، ص: ١٠٣.

بـ"كدية الصابون" وجعل منه قاعدة لعملياته[1]. ومن هناك اتجهت القوات الإسبانية في الساحل حيث تمكنت من احتلال التلال المجاورة لكدية الصابون، وهكذا توزع العدو على المناطق الإستراتيجية. تضاعفت المقاومة الجزائرية بقصف السفن الإسبانية بالمدفعية. كما وجَّهوا مدافعهم في الوقت ذاته إلى قواعد الجيش الغازي المعسكر في البر، واستمر تبادل القصف حتى خيم الظلام على ميدان المعركة.

وفي يوم ٢٥ أكتوبر بدأت الأمطار بالهطول، وفي المساء ازداد المطر غزارة، ورافقه هبوب رياح عنيفة هددت الأسطول بالغرق.

وقد وصف صاحب كتاب الغزوات هذه العاصفة بقوله:" هاجت الريح وساقت السحاب أمثال الجبال، وأمطرت السماء كالطوفان، وهاج البحر، واشتدت أمواجه وكثر اضطرابه بما لم يعهد مثله.."[2].

فقطعت هذه العاصفة حبال السفن، وساقت عدداً منها إلى البر حيث ارتطمت بالصخور. فلم تمض سوى ساعات قليلة حتى كانت ١٤٠ سفينة قد تحطمت تماماً، ولم تنج إلا السفن الكبيرة التي تضررت بنسبة قليلة بفضل مهارة قباطنتها، وثقل حجمها[3].

كان ببعض السفن التي ألقتها العاصفة إلى الساحل عدد من الأسرى المسلمين من الأتراك والجزائريين. بعضهم من الجزائر، وبعضهم من تونس، فبلغ عددهم ما يقارب

---

[1] أطلق الغربيون على هذا المكان اسم FORT L'EMPEREUR أي حصن الإمبراطور. انظر بلحميسي، ص: ١٠٣. وأيضا، إلتر، ص: ١٨٥.

[2] الغزوات، ص: ١١٩. لقد كان فصل الشتاء قد حل وبدأ موسم العواصف. وهو الموسم الذي ينتهي فيه الغزو، وتعود فيه السفن إلى الموانئ. ويستمر ذلك إلى منتصف نيسان حيث يستأنف الغزو البحري. انظر: Haedo,p.177.

[3] إلتر، ص: ١٦١. يبدو أن هذا الرقم مبالغ فيه كثيرا. يخالف ما أشار إليه المدني من أن عدد السفن التي تحطمت بسبب ارتطامها باليابسة بلغت ١٦ سفينة. المدني، ص: ٢٩٠.

١,٤٠٠ أسيراً. كانت العاصفة سبباً في خلاصهم، إذ تمكّنوا من فك قيودهم، والنجاة بأنفسهم[١]. وفي الوقت ذاته وقع عدد من الجنود الذين تمكنوا من النجاة من الغرق في قبضة الأهالي الذين جاءوا من النواحي. "فاستأصلوهم قتلاً وأسراً". فضاق الأمر بالإسبان، ولم يستطيعوا استعمال أسلحتهم النارية للدفاع عن أنفسهم[٢].

أما الجيش المحاصر للمدينة، فقد كان وضعه أكثر سوءاً. فقد أصبح الجنود يتّقون العاصفة والأمطار بالتفاف بعضهم حول بعض بعدما اقتلعت الرياح خيامهم[٣].

اعتبر أهل الجزائر هذه العاصفة عوناً من الله على أعدائه، فخرجوا من المدينة في هجوم شامل على أطراف القوات الإسبانية التي أربكت العاصفة نظامها، وفقدت القيادة السيطرة على الوضع، وقتل في هذه المعركة أكثر من ٤,٠٠٠ من الإسبان، و٢٠٠ من المسلمين[٤].

وفي صبيحة ٢٦ أكتوبر تيقّن شارلكان أنه لن يستطيع اقتحام المدينة أو إخضاعها، فكان غاية ما يأمله هو أن ينجو من هذه الورطة[٥]. فأمر قواته بالشروع في الانسحاب، بعد أن سبقه قائده أندريا دوريا إلى رأس ماتيفو[٦]. كان الانسحاب في غاية الصعوبة بسبب شدة الأمطار وكثرة الوحل في الطريق، بالإضافة إلى الهجمات التي كان الأهالي يشنونها على أطراف الجيش الإسباني.

---

[١] المرجع نفسه، ص: ١٦٢؛ وأيضا: المدني، ص: ٢٩٠.

[٢] الغزوات، ص: ١٢٠.

[٣] إلتر، ص: ١٥٩.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٢٠.

[٥] بلحميسي، ص: ١٠٤.

[٦] إلتر، ١٥٩ . ١٦٠.

نزل الإسبان في وادي الحراش جنوب شرق مدينة الجزائر. حيث باتوا هناك بعد أن أنهكهم التعب والجوع، فاضطروا إلى أكل ٤٠٠ من الخيل، وفي صبيحة ٢٧ أكتوبر عبروا وادي الحراش بعد أن صنعوا من ألواح سفنهم المحطمة جسراً.

وأثناء انسحاب القوات الإسبانية، لم يتوقف الأهالي عن مهاجمة جانبي الجيش ومؤخرته، فقتل عدد كبير من الجنود الذين كانوا في المؤخرة. ومن تمكن من النجاة حاول الهرب من القتل بالغطس في الوادي فغرق عدد منهم بسبب شدة اندفاع المياه[١].

وهكذا لم يتمكن الجيش الإسباني من الوصول إلى رأس ماتيفو إلا يوم ٢٩ أكتوبر، حيث قضى الإمبراطور هناك يومين للاستراحة، ثم أقلع الأسطول في أول نوفمبر متجهاً إلى إسبانيا.

ذكر كاتب جلبي أن عاصفة أخرى دفعت ما بقي من الأسطول الإسباني إلى بجاية التي كانت حتى ذلك الحين قاعدة إسبانية[٢].

وصل الإسبان إلى بجاية في ٤ نوفمبر ١٥٤١م فوجدوها محاصرة، والجوع يفتك بمن فيها من الجنود، فقام الإسبان بالاعتداء على الجالية اليهودية هناك، واستولوا على أموالهم، وكل ما يملكون[٣].

وبعد أيام غادر شارلكان بجاية، فوصل إلى ميورقة، ومنها إلى قرطاجنة التي دخلها في ٢ ديسمبر ١٥٤١م[٤].

---

[١] كاتب جلبي، ص: ٥٨ . ٥٩.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٨ . ٥٩.

[٣] بلحميسي، ص: ١٠٥؛ المدني، ص: ٢٩٥.

[٤] نفسه، ص: ١٠ المرجع السابق، ص: ٦.

الثالث عشر: نتائج فشل الحملة

كان لفشل حملة شارلكان على الجزائر في ١٥٤١م نتائج عسكرية وسياسية كبيرة، تركت آثاراً عميقة على المخططات الإسبانية في شمال أفريقيا، ومستقبل الوجود العثماني في الجزائر في هذه المرحلة من تاريخها.

فبالنظر إلى الخسائر المادية التي منيت بها القوات الأوربية، والتي كانت كبيرة جداً. الأمر الذي دفع دي غرامون De Grammont إلى حدّ وصفها بالفادحة. إذ بلغت ١٦ مركباً من نوع غليوت Galyot [١]، و١٤٠ سفينة ناقلة للجنود، ومدفعية ثقيلة وآلات الحصار والزاد والخيام..إلخ[٢]. وبلغ عدد المدافع التي خلفها الإسبان ٢٠٠ مدفعاً، وقيل ١٠٠ استولى عليها المسلمون، وزينوا بها الحصون الحربية، وسائر أسوار المدينة[٣]، حتى أصبح ما غنمه المسلمون يضرب به المثل[٤]. أما المراكب فإن جلها قد عطب على السواحل. وما كان قد غرق من السفن المعدة للحرب ولحمل الزاد والمؤونة فقد بلغت ١٣٠ مركباً[٥]. "وما وصل اللعين إلى بلده إلا باثني غراباً[٦]. وكان عدد السفن عند قدومه سبعمائة وخمسين جفناً، والعسكر سبعين ألفاً"[٧]. إلا أن بعض الغربيين قلّلوا من شأن الخسائر التي مُنِيَ بها الإسبان فذكروا أنهم لم يفقدوا سوى ١٤ غليوطة، و١٠٠ مركب صغير[٨].

---

[١] غليوت Galyot: نوع من السفن الحربية التي كانت مستعملة في ذلك العصر تتميز بكونها مدببة الطرفين. انظر: Midhat Sertoglu, Osmanli Tarih Lugti. Istanbbul. 1986. S119.

[٢] ذكر المباني أن عدد السفن التي فقدها الأسطول الإسباني في هذه الحملة بلغ ٢٠٠ سفينة بينها ٣٠ سفينة حربية. المدني، ص: ٢٩٧.

[٣] الغزوات، ص: ١٢٢؛ المدني، ص: ٢٩٧.

[٤] إلتر، ص: ١٦٢؛ Charrier, Negociaion de la Farnce dans le levant, paris. 1920. c. I. S. 522.

[٥] الغزوات، ص: ١٢١ . ١٢٢.

[٦] غراب: سفينة.

[٧] التلمساني، ص: ١٨.

[٨] بلحميسي، ص: ١٠٧. نقلا عن: P.AGUADO – BLEYE, Manuel de, Histoiria de Espana, t.II.pp. 454 – 455.

أما الخسائر البشرية، فإن المصادر الغربية إما أنها قد سكتت عنها، أو قدمت أعداداً تافهة. على غرار دي غرامون De Grammont الذي ذكر . بعد اعترافه بفداحة الخسائر المادية . بأن خسائر الإسبان البشرية كانت ضئيلة جداً[1]. أما المصادر الإسلامية فقد بالغت كثيراً في ذلك. فقد جاء في كتاب الغزوات أن:

"عدد القتلى بسيوف المسلمين في هذا اليوم اثنا عشر ألفاً.. ويقال أن فرائس الكفرة وفرائس خيلهم ملأت ما بين الجزائر دلس شرقاً، وشرشال غرباً"[2].

"وجاء الإسبان بأربعة آلاف من الخيل، فلم يعودوا إلى بلادهم بفرس واحد. فقد مات بعضها برماح المسلمين، والبعض أكلوها من الجوع الذي وقع بهم، وقتلوا بعضها بأيديهم لضيق سفنهم عن حمل رجالهم"[3].

أما النتائج السياسية والتي ربما تكون هي الأهم فلم تقتصر آثارها على الجزائر فحسب بل تعدت ذلك إلى خارجها. فقد عظم شأن حسن آغا عند السلطان سليمان القانوني الذي كافأه بأن أرسل إليه الخلعة السلطانية، وعينه بيلربايا على الجزائر تقديراً لشجاعته[4].

واتسع نفوذ الأتراك داخل البلاد، فالسلطان الزياني أبو محمد الزياني الذي كان قد أعلن تبعيته للإسبان خصوصاً بعد احتلالهم تونس سنة ١٥٣٥م، جعلته هزيمة شارلكان يعيد النظر في سياسته، ويعلن تبعيته للأتراك[5].

---

[1] انظر تعليقه في De Grammont, Relation de l'expedition de Charles Quint contre Alger, s. 84 – 85.

[2] الغزوات، ص: ١٢١؛ إلتر، ص: ١٦٢. وإذا صح ما نسبه المدني إلى أن الجثث وقطع الأسطول المحطمة تناثرت على طول الساحل الممتد من دلس إلى شرشال قد ذكره المؤرخون الأوروبيون الذين دأبوا على التقليل من خسائر هذه الحملة، فإن هذا الادعاء لا يكون مبالغا فيه. المدني، ص: ٢٩٠ . ٢٩١.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٢١؛ إلتر، ص: ١٦٣؛ وأيضا: المدني، ص: ٢٩٣.

[4] نفسه، ص: ١٢١ . ١٢٢؛ إلتر، ص: ١٦٧ . ١٦٨. ومن المفيد التنبيه إلى أن محمد بن عبد القادر ذكر في كتابه تحفة الزائر أن السلطان أرسل إلى خير الدين مع فرمان إمارة الجزائر. والصواب هو أن فرمان الإمارة جاء بتعيين حسن بن خير الدين الذي كان له الفضل في رد الحملة وليس لخير الدين الذي لم يشترك فيها لأنه لم يكن في الجزائر حينها. انظر محمد بن عبد القادر، تحفة الزائر، ص: ٩٤ . ٩٥.

[5] محمد بن عبد القادر، ص: ٩٤ . ٩٥.

وتوالت انتصارات الأتراك في شمال أفريقيا بعد ١٥٤١م، فقد تم القضاء على دولة بني زيان سنة ١٥٥٥م، وضمت تلمسان إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي، وأُجبر الإسبان على الانسحاب من طرابلس الغرب سنة ١٥٥٢م، وميناء تونس سنة ١٥٥٣م، وبجاية سنة ١٥٥٥م، وحوصروا في وهران مرارا بعد ١٥٥٦م. وأخرجوا من تونس نهائياً سنة ١٥٦٩م. فزادت هيبة العثمانيين في نفوس الأوروبيين، وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لا تقهر." وبقيت الجزائر كالعروس، تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار، وأمن الأقطار، ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها، وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن"[١].

وفشل المخطط الإسباني الرامي إلى احتلال سواحل شمال أفريقيا، وتنصير أهله. ونزلت أخبار الهزيمة على أوروبا نزول الصاعقة، لأن ما حدث في الجزائر يعتبر أعظم هزيمة مُنيَ بها الإمبراطور شارلكان منذ جلوسه على عرش إسبانيا، فاهتز نتيجة لذلك نفوذه في أوروبا ولم يبق له أي حليف سوى هنري الثالث ملك إنكلترا[٢].

وبادر ملك فرنسا فرنسوا الأول إلى عقد معاهدات مع السلطان سليمان القانوني[٣].

١ . مصير شارلكان

كان فشل شارلكان (شارل الخامس) في حملته على الجزائر، ذا أثر عميق لا على الإمبراطورية الإسبانية ولا على ملكها شارلكان، وإنما على مستوى الأحداث العالمية.

وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث الذي قيل فيه:

سلوا شارلكان كم رأى من جنودنا

فليس له إلا هُمُ من زواجر

---

[١] المدني، نقلا عن ابن المفتي حسن بن رجب شاوش، تاريخ باشوات وعلماء الجزائر، ص: ٢٩٧؛ والغزوات، ١٢١ . ١٢٢؛ فارس، تاريخ الجزائر الحديث، مرجع سابق، ص: ١٢٠؛ محمد بن عبد القادر، ص: ٩٤ . ٩٥.

[٢] الدخول العثماني، ص: ٣٢٣.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٣٢٣.

فجهز أسطولاً وجيشاً عرمرماً

ولكنه قد آب أوبة خاسر

ونزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة على أوروبا وتطورت الأحداث هناك وهنالك بسرعة. فلم يبق حليف للإمبراطور سوى هنري الثالث ملك إنكلترا، وانضم إلى ملك فرنسا الدوق (دي كليف) وملك الدنمارك وملك إسكندينافيا، وكان فرح الفرنسيين عظيماً لأن سقوط الجزائر كان يؤدي لا محالة إلى سقوط فرنسا، وبادر ملكها فرانسوا الأول لإبرام معاهدات مع السلطان العثماني وكان لهذه الغارة أيضاً نتائج معنوية داخل الشمال الأفريقي وأما في أوروبا (بقي رعب المسلمين في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة). ولم يعد شارل الخامس قادراً على التفكير في حملة أخرى ضد الجزائر، وطغى شبح خير الدين وحسن آغا على العامة والخاصة حتى أصبح الناس إذا رأوا جفناً عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيتصاعد الصراخ ويكثر العويل ويفر السكان من ديارهم ومن حقولهم ومتاجرهم. وإذا حطمت الزوابع مركباً توهم الناس أن خير الدين بربروسة هو الذي أثار البحر وهيجه وأغراه على إغراق سفنهم. وبلغ الخوف من قادة الجزائر أقصى درجة حتى أصبح أهل إسبانيا وإيطاليا إذا ما حدثت جريمة أو سرقة أو وقع فساد أو تخريب أو مرض أو وباء أو قحط قالوا خير الدين وأصحابه هم السبب في ذلك[١]، وكانوا يقولون:

بربوشة بربوشة

أنت صاحب كل شر

ما كان من ألم أو عمل

مؤذ وجهنمي مدمر

إلا والسبب فيه

هذا القرصان الذي

[١] خير الدين بربروسة، ص: ٢٠٠.

لا نظير له في العالم[1]

٢ ـ وفاة حسن آغا الطوشي:

استمر حسن آغا في القيام بواجبه المقدس حتى وفاته ٩٥١هـ ـ ١٥٤٤م فأجمع أهل الديوان في الجزائر على تولية الحاج بكير مكانه، وريثما يعين الباب العالي بإسطنبول الحاكم الجديد، الذي عين حسن ابن خير الدين وقدم في نفس السنة[2].

الرابع عشر: المجاهد حسن خير الدين بربروسة

شرع حسن بن خير الدين حال وصوله يستعد للجهاد ومواجهة المسيحيين، فعمل على تحصين مدينة الجزائر، وذلك في المناطق التي أظهر هجوم شارل الخامس عن ضعفهما، كما أخذ يعمل على توطيد النظام في الجزائر وبين صفوف الجيش، ثم انصرف إلى حل مشكلة تلمسان، إذ تبين له أن بقاء الأسرة الزيانية ووجود الإسبان في وهران يعيقان حل المشكلة[3].

كان حاكم تلمسان (أبو زيان) أحمد الثاني قد تولى الحكم بدعم من العثمانيين، غير أنه ما لبث أن خضع لمؤامرات خارجية وإنساق في تيارها وأخذ يتقرب من الإسبان، مما أدى إلى كره الأهالي له وقرروا خلعه عن العرش ومبايعة أحد إخوته (الحسن)؛ فتوجَّه أبو زيان إلى وهران طالباً الدعم من الإسبان، مقدماً لهم التعهدات بأن يحافظ على ولائه لهم، فقرر حاكم وهران إنتهاز هذه الفرصة، فجهز جيشاً، وإنضم إليه جموع الخاضعين للإسبان من بني عامر وفليتة وبني راشد وعلى رأسهم القائد المنصور من بو غنام، وتقدموا إلى تلمسان لإبعاد الحسن، وإعادة تنصيب أبي زيان على عرش المدينة، وما أن علم حسن بن خير الدين بتحرك القوى الإسبانية، حتى قاد الجيش الإسلامي في تلمسان ليمنع الإسبان من

---

[1] مجلة تاريخ وحضارة العرب في كلية الآداب في الجزائر ١٩٦٩م العدد ٦، ص: ٥٩٣٤.

[2] تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي (٣ / ٨٤).

[3] تاريخ الجزائر الحديث لمحمد فارس، ص: ٣٨، ٣٩.

الوصول إلى هدفهم، وتمكن حسن بن خير الدين من ذلك، ودعم حليفه الملك حسن في تلمسان[1]، الذي إعترف بسلطة الدولة العثمانية، كما ترك الباشا حسن بن خير الدين حامية عثمانية بقيادة القائد محمد في قلعة المشوار في تلمسان، إلا أنه مع ذلك ظل نفوذ الدولة العثمانية مهتزّاً خارج تلمسان، بسبب مضايقات بعض القبائل المجاورة بقيادة المزوار بن بوغنام، الذي يرغب في مساندة زوج إبنته الأمير مولاي أحمد، حليف الإسبان[2].

قامت الدولة العثمانية بدعم السلطان الشريف السعدي بنحو عشرين ألف مجاهد، فإلتفوا حوله، ودفعوه إلى بناء مراكب حربية للإستيلاء على إسبانيا، فوافق الشريف السعدي على ذلك وصرف لهم أجورهم ومكافآت لهم[3].

واستطاع الشريف السعدي أن ينهي الحكم الوطاسي وأصبح الإسبان متخوفين من هجوم عثماني سعدي مشترك، فقاموا بإنهاء إستحكامات مليلة، وفرضت عدة إجراءات أمنية على جبل طارق وقادش وغير ذلك من الإحتياطات.

لقد ظهر السعديون أول الأمر كمحررين للمغرب من الوجود المسيحي فأكسبهم ذلك تأييد المسلمين، إذ إعتبروا ذلك نوعاً من الجهاد، فقدمت الدولة العثمانية مساعدات كبيرة لتحقيق ذلك، ثم عرضت على السعديين مشروع إسترداد الأندلس، إلا أنه بعد أن دانت بلاد المغرب للشريف السعدي وإنتهاء الحكم الوطاسي، توجه الشريف بأنظاره نحو تلمسان، فأرسل جيوشاً كبيرة لإنهاء الحكم العثماني فيها، وعندما شعر العثمانيون بتلك الأطماع وإنحراف الشريف السعدي عن الهدف الإسلامي أرسلت له حملات ليعود إلى بلاده[4].

---

[1] الجزائر والحملات الصليبية، ص: ٢١، ٢٢.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٣٢٩.

[3] جهود العثمانيين، ص: ٣٣٠.

[4] جهود العثمانيين، ص: ٣٣٤.

إستمر المجاهدون شمال أفريقيا يهددون أمن غرب البحر المتوسط فقاموا بمناوشات بحرية أزعجت التجارة والسفن المحملة بين إسبانيا وإيطاليا، وغض المجاهدون من أهالي الشمال الأفريقي الجزء من البحر المتوسط بين سردينيا والساحل الأفريقي، وبذلك إضطرت السفن المسيحية أن تطرق الطرق الأكثر أماناً بالقرب من رأسي كورسيكا ولكن الاحتلال الفرنسي للرأس بمساعدة العثمانيين هددوا أيضاً الإتصالات بين إسبانيا وإيطاليا، ولم تكن هناك مهلة لشارل الخامس في الدفاع عن الطرق البحرية ضد القسطنطينية التي كانت حلمه منذ سنوات طفولته، كما أنه صار غير قادر على تقديم مصالح مباشرة لإسبانيا[١].

١ ـ آخر أيام خير الدين بربروسة:

إستمر خير الدين في قيادة الأسطول العثماني وحقق إنتصارات رائعة هزت أوروبا كلها، وبعد أن تحالفت الدولة العثمانية مع فرنسا جعل خير الدين من مدينة (مارسيليا) قاعدة لقيادته ومقرّاً لأسطوله وهناك ـ في مارسيليا ـ باع خير الدين ورجال أسطوله الغنائم التي حملوها معهم من إسبانيا، كما باعوا فيها رقيق الإسبان من الرجال والنساء، فتداولتهم أيدي القوم، وإشتراهم الفرنسيون بضاعة رابحة، ثم أخذوا يبيعونهم بأرباح طائلة إلى يهود (ليفورنو) الإيطالية، وكان هؤلاء بدورهم يعيدون بيع الأسرى الأرقاء إلى الإمبراطور (شارلكان) بأرباح خيالية. وإنضم الأسطول الفرنسي إلى الأسطول العثماني بأمر من ملك فرنسا. ووضع قائد الأسطول الفرنسي (الأمير فرانسوا دبو بوربون) قواته تحت قيادة (خير الدين) بإعتباره القائد العام للقوات المتحالفة (العثمانية ـ الفرنسية) وكان أول عمل قام به (خير الدين) هو قيادة القوات لمهاجمة (نيس) وطرد حاكمها (دوق سافوا)

[١] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٥٦.

وإنتزاعها من الحكم الإسباني وإعادتها لملك فرنسا، ثم إستقر خير الدين بأسطوله في مدينة (طولون) وجعلها قاعدة للجيش الإسلامي والأسطول الإسلامي، بعد أن غادرها معظم سكانها بأمر ملك فرنسا وتركوها في أيدي المسلمين. ثارت ثائرة المسيحية جمعاء ضد هذا التصرف الفرنسي، وأخذت الدعاية المضادة للمسلمين. تجتاح أرجاء أوروبا، يحملها الإسبان وغلاة الصليبية، ويستثمرونها إلى أقصى الحدود. ومن ذلك قولهم:(إن خير الدين قد إقتلع أجراس الكنائس، فلم تعد تسمع في طولون إلا أذان المؤذنين) وبقي خير الدين والجند الإسلامي بمدينة طولون حتى سنة ١٥٤٤م.

وكان (شارلكان) أثناء ذلك قد هاجم شمال شرقي فرنسا وإنهزم تحت جدران (شاتوتييري)[1] ثم إضطر للذهاب إلى ألمانيا، حيث كانت حركة التمرد البروتستانتي ضد الكاثوليكية بصفة عامة، وضده بصورة خاصة، قد أخذت أبعاداً خطيرة. وأرغمه ذلك بعد أن هوى نجمه وذبل عوده بنتيجة نكبته أمام الجزائر . إلى عقد معاهدة مع ملك فرنسا يوم ١٨ أيلول / سبتمبر ١٥٤٤م في مدينة كريسبي دي فالوا . ونتج عن هذه المعاهدة جلاء (خير الدين) وقواته عن مدينة (طولون) ورجع إلى العاصمة (إسطنبول). وبما أن الحرب لم تتوقف بين إسبانيا والمسلمين، فقد إستمر (خير الدين) في ممارسة الأعمال القتالية أثناء طريق عودته، فتوقف أمام مدينة جنوى، وإرتاع مجلس شيوخها فأرسل له مجموعة من الهدايا الثمينة مقابل عدم التعرض للمدينة بأذى، فتابع(خير الدين) طريقه حتى وصل جزيرة (ألبا) التي كانت تحت حكم إسبانيا . والتي أصبحت منفى نابليون بونابرت فيما بعد . فاحتلها، وغنم ما بها، كما احتل عدداً من المدن الساحلية، من بينها مدينة (لبياري) ورجع إلى العاصمة بسفنه مثقلة بالغنائم فاستقبل كأحسن ما تستقبل به الأمم أبناءها البررة.

---

[1] خير الدين بربروسة، ص: ١٦٦.

ولم يعمّر خير الدين بعد ذلك طويلاً، ومضى إلى جوار ربه، وكان قد سبقه رفيق جهاده حسن باشا الطوشي سنة ١٥٤٤م.

وغاب بوفاة (خير الدين) نجم طالما أضاءت له سماء المسلمين في البر والبحر، وانطوت بغيابه صفحة ناصعة من صفحات الجهاد في سبيل الله لتبدأ صفحة جديدة.

لقد قاد خير الدين حروب الإيمان وحقّق فوزاً عظيماً واتصف بالوفاء والإخلاص وإنكار الذات والاستعداد الدائم للتضحية والصدق والشجاعة بكل أشكالها، ويحفظ لنا التاريخ رده على شارلكان عندما قال له: (يجب ألا تنسى أن الإسبان لم يخذلوا في معركة، وأنهم قتلوا أخويه إلياس وعروج، وإن تمادى فيما هو عليه وركب رأسه فإن عاقبته ستكون كعاقبة أخويه).

فأجاب خير الدين: (سترى غداً، وإن غداً ليس ببعيد، إن جنودك ستتطاير أشلاؤهم وإن مراكبك ستغرق، وإن قوادك سيرجعون إليك مكللين بعار الهزيمة). وعندما حاصر شارلكان الجزائر بعد وفاة عروج بربروسة خرج له خير الدين ومعه حزم وعزم، وتلا على جميع قواده وجنوده قوله تعالى:"إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" (محمد ، آية : ٧) وتقدم للميدان ومعه رجاله، وقال لهم: (إن المسلمين في المشرق والمغرب يدعون لكم بالتوفيق، لأن انتصاركم انتصار لهم، وإن سحقكم لهؤلاء الجنود الصليبيين سيرفع من شأن المسلمين وشأن الإسلام)[١].

فصاحوا كلهم الله أكبر، وهاجموا الإسبان فأبادوهم عن آخرهم[٢].

وبعد حياة حافلة بالمغامرات، مكللة بالانتصارات، توفي بطل البحرية العثمانية ومؤسس إيالة الجزائر خير الدين بربروسة في إسطنبول ١٥٤٦م، ودفن في سواحل بشكتاش بإسطنبول[١].

---

[١] خير الدين بربروسة، ص: ١٧٠ . ١٧١.

[٢] المصدر السابق نفسه، ص: ١٧١.

٢ . تقويم جهود خير الدين في تثبيت الوجود العثماني في الجزائر:

تميزت الفترة التي تولى فيها خير الدين حكم الجزائر خلفاً لأخيه عروج بعدة خصائص هامة ميزت حكمه عن حكم أخيه، ومن جاء بعده من الولاة الأتراك:

الأولى: كثرة الثورات وحركات التمرد التي لعب زعماء القبائل، والأمراء المحليون دوراً كبيراً في إثارتها لأسباب مختلفة. وقد رأينا كيف اندلعت هذه الثورات فور انتشار خبر استشهاد عروج. فتمردت تنس، وشرشال، وبلاد القبائل، ومدينة الجزائر، وسائر المناطق المحاذية لها. لكن الذي يجب التنويه به، هو موقف خير الدين الذي تميز بالحزم الشديد إزاء هذه الحركات ومن كان سببا فيها. فتمكن نتيجة لذلك من إخماد هذه الثورات بسرعة كبيرةٍ. متّبعا في ذلك مع كل حالة ما يناسبها من شدة ولين، حسب ما يقتضيه حال الثورة، وطبيعة أسبابها، ومن يقف وراءها. فتمكن بحسن سياسته من القضاء على هذه الثورات أو تقليصها، مستعملاً سلاح الترغيب تارة، والترهيب تارة أخرى. وذلك إما باستمالة زعمائها إلى صفه كما فعل ذلك مراراً مع أمراء بني زيان. أو بكسر شوكتهم وتجريدهم من سلطانهم بحيث لم يعودوا يشكلون خطراً يذكر، وإما بالقضاء عليهم نهائياً حينما يرى أن ذلك هو السبيل المناسب لمثل هؤلاء.

ولكن على الرغم من الحزم الذي أبداه خير الدين نحو هذه الثورات ومثيريها، إلا أنه لم يتمكن من اجتثاثها بشكل نهائي. وغاية ما وفق إليه هو إضعاف زعمائها، أو تسكينها مؤقتاً. الأمر الذي أدى إلى اشتعالها مرة أخرى في عصر خليفتيه حسن آغا، وصالح رئيس الذي اقتنع في نهاية الأمر بضرورة القضاء النهائي على مملكة بني زيان سنة ١٥٥٥م. الذين كانت لهم اليد الطولى في إثارة الكثير من هذه الثورات بإيعاز من حلفائهم الإسبان الذين لم يفتؤوا يحلمون بالعودة إلى الجزائر.

[١] المرجع السابق ٢١٧، وأيضاً الدخول العثماني في الجزائر، ص: ٣٢٤ . ٣٢٩.

الثانية: إلحاق الجزائر رسمياً بالدولة العثمانية، وما تلا ذلك من ارتباط السياسة الخارجية للجزائر بسياسة الدولة العثمانية، خصوصاً في صراعها مع أوروبا المسيحية. فقد أدرك خير الدين بحكم معرفته العميقة بموازين القوى الدولية في ذلك العصر، أنه مهما كان الدعم المعنوي الذي يلقاه من القوى الدينية والشعبية المحلية المحبة له، والمقدرة لنضاله ونضال أخيه عروج؛ ومهما كانت إمكانياته العسكرية، فإنه لا يستطيع أن يتصدى بمفرده لدولة قوية مثل إسبانيا لمدة طويلة. خصوصاً وأن إسبانيا لم تكن في ذلك العصر مجرد مملكة تنازعه النفوذ على الجزائر، بل كانت تعتبر أكبر وأقوى دولة أوربية. ولذلك فإنه جعل إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية هو الضامن الوحيد لحماية ما حققه من إنجازات بمعية أخيه عروج، ولما سيحققه في مستقبل نضاله الطويل ضد إسبانيا. وهي الدولة الإسلامية الوحيدة القادرة على دعم عمليات إنقاذ المسلمين الذين يعانون مختلف أنواع الإرهاب الديني في إسبانيا.

الثالثة: تحرير كافة المناطق التي كانت خاضعة للاحتلال الإسباني. فلم تبق في أيديهم سوى بجاية ووهران. حيث تم في عهد خير الدين تحرير تنس، وشرشال، وجيجل، والجزائر، ودلس، ومستغانم، وهنين، وقلعة سيدي راشد... وغيرها. كما تصدى للحملات الإسبانية الرامية إلى إعادة احتلال مدينة الجزائر، وشرشال، وغيرها من المدن التي طردوا منها. حتى يئسوا من العودة إلى الجزائر. فاقتنعوا أخيراً بالاكتفاء بإثارة الثورات، ودعم المتآمرين على الوجود العثماني في الجزائر من أمراء بني زيان، أو غيرهم من الزعماء المحليين.

الرابعة: بروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى خير الدين قيادته. حيث تمكن من نقل المعركة مع أوروبا من البر إلى البحر، ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط واستطاع العثمانيون أن يسيطروا سيطرة كاملة على البحر المتوسط

اعتبارا من معركة بروزة سنة ١٥٣٨م. أما في غرب البحر المتوسط فقد كان البحارة العثمانيون يضربون السواحل الإيطالية والإسبانية بشكل مستمر، ويعترضون السفن الأوروبية في عرض البحر. حتى صار الإمبراطور شارلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر[١].

الخامسة: بروز ما يمكن تسميته بالأهمية السياسية للجزائر. هذه الأهمية التي فقدتها منذ سقوط دولة الموحدين. فتحولت على إثرها إلى رقعة من الأرض يتنازع السيطرة عليها أمراء الدولة الحفصية والمرينية. بينما تحول بنو زيان إلى لاعب وسط الميدان غاية ما يأمله هو المحافظة على التوازن بين القوتين المتنافستين!!.

لقد صنع خير الدين من الجزائر دولة متميزة عن جارتيها، وأقامها على نفس الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية اليوم تقريباً. ولذلك فإن إعتبار خير الدين المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة، لا يمكن وصفه بالأمر المجانب للصواب. لأن وقائع تاريخ الجزائر الحديث شاهدة على ذلك. فبنو زيان في أوسع مراحل نفوذهم لم يتجاوزوا مدينة الشّلِفْ جنوباً، ومدينة الجزائر وما جاورها شمالاً. وبالرغم من إمتداد نفوذ الدولة الزيانية إلى بجاية وقسنطينة شرقاً في إحدى فترات تاريخها. فإن ذلك لم يكن سوى لفترة قصيرة، ثم لم يتكرر ذلك بعد أبداً. أما وسط الجزائر وجنوبها فقد كان خاضعاً لنفوذ شيوخ القبائل، أو الأمراء المحليين الذين نصبوا أنفسهم في غياب سلطة مركزية قوية. وأما الجنوب الغربي للجزائر فقد كان أما تابعاً للمرينيين، أو للزيانيين اسمياً في أغلب الأحيان.

وكما يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة، فإليه يعود الفضل أيضاً في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة

---

[١] بلحميسي، مرجع سابق، ص: ٩٥.

العثمانية. إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في إمبراطورية شارلكان وحلفائه.

السادسة: إنقاذ عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى الجزائر. ومنحهم إقطاعات كبيرة مكنتهم من أن يجعلوا من بعضها مدناً شكلوا أغلبية سكانها، مثل: البليدة وتنس وشرشال. بينما شكلوا في مدن أخرى جالية فعالة مثل: الجزائر وبجاية والمدية وغيرها. وقد رأينا كيف نظم خير الدين ٣٦ حملة بحرية، نقل خلالها ٧٠,٠٠٠ أندلسي إلى الجزائر. ولم يكتف هؤلاء الأندلسيون بلعب دور كبير في المجال المدني والعمراني والفني فحسب، بل كان لهم دور كبير في مساندة الوجود العثماني ضد خصومهم المحليين. إذ شكلوا السند الشعبي الأكثر إخلاصاً للأتراك العثمانيين[١].

٣ ـ عزل حسن بن خير الدين عن الجزائر:

إنتهج حسن بن خير الدين بربروسة ـ بعد أن هزم السعديين في تلمسان ووطد دعائم الحكم العثماني فيها ٩٥٩هـ ـ ١٥٥١م ـ سياسة مضادة لكل الدول الأجنبية، بما فيها فرنسا التي كانت ترتبط بالدولة العثمانية بروابط رسمية جيدة، ساعدت الفرنسيين على الإفادة من الإمتيازات الاقتصادية التي منحت لها مع إسطنبول والتي شملت جميع أقاليم الدولة العثمانية، غير أن حسن بن خير الدين لم يلتزم بذلك، وأعلن عداءه لفرنسا في مناسبات عديدة، فما كان من فرنسا إلا أن أرسلت سفيرها المعتمد في إسطنبول إلى الجزائر بهدف معرفة المدى الذي سيصل إليه حسن بن خير الدين في عدائه لفرنسا، وفيما إذا كان هذا العداء سيؤثر على العلاقة الاقتصادية ما بين فرنسا وبيلربيكية الجزائر.
إجتمع سفير فرنسا بالبيلربك حسن بن خير الدين، وعرض عليه تقديم مساعدات عسكرية، لتنفيذ مشروع الدولة العثمانية في مهاجمة إسبانيا، ونجدة مسلمي الأندلس،

---

[١] الدخول العثماني، ص: ٣٠٦ إلى ٣٢٩.

لكن حسن بن خير الدين رفض هذا العرض، لمعرفته بمواقف فرنسا السابقة من الدولة العثمانية نفسها، وأعلن صراحة أن قضية الجهاد هي قضية خاصة بالمسلمين، وبين بأنه لا ينتصر بكافر على كافر، ورجع السفير الفرنسي إلى إسطنبول، حتى أوغر صدر الباب العالي بقوله: (إن السلطة الواسعة المطلقة التي يمارسها حسن بن خير الدين ومحاولته توسيع مملكته ستحطم وحدة الدولة العثمانية وتهدد كيانها بالإنقسام)[1] خاصة وأن والدته من الأسر الجزائرية المعروفة.

رأت الدولة العثمانية أنه لزاماً عليها من تغيير سياستها في المنطقة خاصة بعد أن صار المغرب حليفاً قوّياً للإسبان، مما أدى إلى قلب الموازين الإستراتيجية رأساً على عقب فإتخذ السلطان عدة تدابير لمواجهة الحالة الجديدة، ومن ذلك عزل السلطان سليمان القانوني بيلربك الجزائر حسن بن خير الدين بدعوى الإساءة إلى حسن الجوار مع المغرب، كما دعا إلى الوحدة الإسلامية وإلى حسن الجوار[2].

أسندت الدولة العثمانية بيلربيكية الجزائر إلى صالح رايس في صفر ٩٦٠هـ ـ يناير ١٥٥٢م، بدلاً من حسن بن خير الدين[3].

٤ ـ رسالة السلطان سليمان القانوني إلى حاكم فاس محمد السعدي:

(... هذا مثالنا الشريف العالي السلطاني وخطابنا المنيف السامي الخاقاني لازال نافذاً مطاعاً بالعون الرباني والصون الصمداني أصدرناه إلى الجناب العالي الأميري الكبير الأكرمي الأفخمي الأكملي الأرشدي، الأعدلي الهامي الماجد النصيري الذخيري الحسبي النسبي نسل السلالة الهامشية فرع الشجرة الزكية النبوية طراز العصابة العلوية المخفوف بصنوف لطايف عواطف الملك الصمد حاكم ولاية فاس يومئذ الشرف محمد دام علوه وزاد سموه.

---

[1] الجزائر والحملات الصليبية للعسيلي، ص: ٣٠ ـ ٣٢.

[2] بداية الحكم المغربي للسودان الغربي، لمحمد الغربي، ص: ٩٠ ، ٩١.

[3] المغرب في عهد السعدية، عبد الكريم، ص: ٧٩.

أصدرنا هذا المثال الشريف إلى جناب العالي نخصه منا سلام بتكميل صلاة (الصلات) المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلاة المودة بالتسليمات الزكيات. وبعد فإن الله جلت قدرته وعظمت مشيئته منذ أقامنا في دولة هائلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سائدة كالشمس وضحيها، وسعادة ساعية كالقمر إذا تليها، وخصنا خلافة جليلة عضد الإيمان بها منصور ومنحنا سلطة ساعد الإسلام بها مرفوع لا جرم وجب علينا وتحتم على ذمتنا أدار (شكر) هذا اللطف الجسيم والإحسان العميم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم، وكان أبداً دأبنا، ودائماً عادتنا الاهتمام بإجراء الشرع المبين وإنقاذ سيد الأولين عليه الصلاة وعلى آله أجمعين والقيام في إطفاء نايرة الكفر والطغيان وطي الظلم والعدوان ونشر العدل والإحسان. ولما بلغ سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقاً حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره، فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية وخلاصة خدام أعتابنا الجليلة أمير الأمراء الكرام كبير الكبراء الفخام ذي الجلال والإكرام والإحترام، صاحب الفرد والإحتشام المختص بمزيد عناية الملك الأعلى صالح باشا دام إقباله لفرط شهامته وشجاعته وكمال دينه وديانته فوضنا إليه تلك الديار وأمرنا بإقامة الشراع (الشرع) الشريف المتين، وإحياء تواقر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا الذين هم ودائع الله تعالى، وأن يكون مع أهالي الإسلام على أكمل إتحاد وأجمل إتفاق مجدّاً فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين مثابراً على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المتمردين على أن أقصى مراد حضرتنا العلية إحياء مراسم الإسلام وإطفاء ثائرة الكفرة والمتمردين اللئام وذلك المرام يكون بإتفاق أمراء وإتحاد أمناء شرع سيد الأنام ويتم به النظام ولا ينفي لآثارهم في الشهور والأعوام.

وأمرناه أيضاً أن ينظر إلى أحوال المسلمين بنظر الإشفاق والمراحم، وينظر بينهم بكمال العدالة وحسن المكارم ليكونوا في أيام دولتهم العادلة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء، وأحفاد سيد الأصفياء سمعنا عدلكم وإنصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم، ولذلك الشأن كتبنا إليكم منشوراً يوجب مضمونه المصافات ويشفي مكنونه أن تكون المودة في أقصى الغايات ولك أن تنبئوا بأخبار صحتكم الغالية إلى أعتابنا العالية...)[١].

تحريراً في أوائل شهر محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة، الموافق يناير ١٥٥٢م بمقام أدرنة كما بعث السلطان سليمان القانوني بخطاب آخر إلى حاكم المغرب محمد الشيخ السعدي، يمنحه بخلع، والخطاب عبارة عن مرسوم سلطاني قال فيه: (... هذا مثالنا الشريف ..إلخ أصدرنا إلى الجناب العالي حاكم فاس يومئذ الشريف محمد ... نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزاكيات وبعد...

فإن الله جلت قدرته وعظمته منذ أقامنا في دولة هايلة نركب خيولها، ونعمة طائلة نسحب ذيولها وسيادة سايدة كالشمس وضحيها.

وإمضاء سنن سيد الأولين والآخرين ومظاهرة حماة الدين ومجاهدين الكفرة المتمردين وأنت من أولاد سيد المرسلين وقائد الغر المحجلين صلوات الله عليه وسلامه وقد سمع سيدتنا العلية حسن إقدامك وكمال دينك وديانتك وخلوص طويتك وصفاء سيرتك وقيامك في الذب عن المسلمين وقمع أعداء الدين ولذلك الشأن حباك إحساننا الشريف العالي السلطاني ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٤.

خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسبباً لنسج المودة بيننا، على أن أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام وحماة دين النبي صلى الله عليه وسلم في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إن شاء الله تعالى...)[1].

٥ . مرسوم السلطان العثماني بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية:

بعث السلطان العثماني مرسومه إلى العلماء والفقهاء وسائر رعايا الجزائر يعلمهم فيه بتقليد صالح رايس مقاليد الولاية وقد جاء في ذلك المرسوم ما يلي: (... هذا مرسومنا.. أرسلناه إلى العلماء والفضلاء والفقهاء والأئمة والخطباء وجميع العلماء والقواد والنقباء وسائر رعايانا بولاية الجزائر الغربية، زيد توفيقهم يتضمن إعلامهم أن صدقاتنا الشريفة العالية الخاقانية وعوارضنا السنية السامية السلطانية قد أنعمت على مملوك حضرتنا العالية ومعتمد دولتنا القانية أمير الأمراء الكرام... صالح باشا دام إقبالاً، بولاية الجزائر لفرط شهامته وشجاعته وكمال قوته وصلابته وحسن سيرته وصفاء سريرته فوضنا إليه تلك الأرض وأمرناه بإحياء السنن والفروض والرعايا الذين هم ودائع الله تعالى وحفظ الثغور وسد خارق الأمور، لتكون رعايا أهل الإسلام ثمة في أيام دولتنا العادلة في أكمل الراحة، وأجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فليكونوا مع أمير الأمراء المشار إليه على أحسن حال وأكمل اتفاق مراد حضرتنا قيام قاموس الشرع القويم والصراط المستقيم وإحيائه مراسم الإسلام وطريقة سيد الأنام وحفظ العباد وصون البلاد وقمع الكفرة الفجرة بكل ناد وتقبلوا ذلك وتعتمدونه والله تعالى هو الموفق بمنه ويمنه والعلامة الشريف حجة بمضمونه)[2].

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٥.

[2] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٦٦.

تحرياً في أوائل محرم سنة تسع وخمسين وتسعمائة الموافق يناير ١٥٥٢م.

الخامس عشر: سياسة صالح رايس

١ . عمل صالح رايس في سياسته الداخلية على تحقيق أمرين:

أ . تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر.

ب . إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للأندلس، أما سياسته الحربية الخارجية فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف:

أولها: إبعاد الإسبان نهائياً عن أراضي الجزائر.

ثانيها: وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التي تقوم بها الدولة المغربية السعدية.

وثالثها: إعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس[١].

ابتدأ صالح رايس في مستهل ولايته بتحقيق الوحدة الداخلية، واستطاع أن يخضع الإمارات المستقلة لنفوذ الدولة العثمانية وأصبح وضع العثمانيين في الجزائر أقوى مما كان عليه، ثم بدأ صالح رايس في مخططه نحو المغرب الأقصى، واستفاد من الظروف التي تمر بها تلك الديار ووقف مع أحد أفراد أسرة بني وطاس الذي فقد أمله في وقوف الإسبان والبرتغاليين معه.

وتحركت القوات العثمانية للوقوف مع أبي حسون الوطاسي وحصلت اصطدامات عسكرية بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب باديس التي رسا بها الأسطول

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٦.

العثماني، إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، مما أفسح المجال أمام العثمانيين لكي يواصلوا زحفهم نحو الداخل، وقبل أن تنتهي سنة ٩٦٣ هـ . ١٥٥٣م، سقطت مدينة تازة في يد العثمانيين الذين اشتبكوا مع السعديين في معارك متواصلة أهمها بكدية المخالي في ساحة فاس، عند ذلك تقدمت القوات العثمانية ومعها أبو حسون نحو فاس التي دخلتها في ٣ صفر سنة ٩٦٤ هـ . ٨ يناير ١٥٥٤م[١].

وأعلن الباب العالي ضم المغرب إلى الدولة العثمانية بعد أن خطب الإمام للسلطان العثماني[٢].

ازداد فزع الإسبان والبرتغال لرؤية الأساطيل العثمانية وهي تسيطر على بعض الموانئ المغربية القريبة من مراكز احتلالهم التي سيطر عليها العثمانيون ومن ثم التوجه للأندلس، وقد جاء في الرسالة اتي بعثها الملك البرتغالي (جان الثالث) إلى الإمبراطور شارل الخامس، ما يدل على هذا الفزع إذ كتب إليه يحثه على التدخل في المغرب للحيلولة دون توطيد العثمانيين لإقدامهم في هذه البلاد، لأن ذلك يشكل خطراً كبيراً على مصالح الأمتين[٣].

مكث صالح رايس بمدينة فاس أربعة أشهر ضمن خلالها استقرار الأمور للدولة العثمانية، وفي خلال تواجده في فاس لم يترك الجهاد ضد الإسبان فأرسل فرقة من جيشه إلى الريف المغربي استرجع من الإسبان معقلهم الكبير باديس أو صخرة فالين كما يدعونها[٤]، كما حاول صالح رايس أن يستبدل الباشا العثماني أبا حسون بالشريف الإدريسي الراشدي مولاي بوبكر، بناء على اقتراح المرابطين الصوفيين للقيام على حكم فاس باسم السلطان العثماني، إلا أن ثورة الأهالي اضطرت صالح رايس لإعادة بو حسون إلى حكم فاس،

---

[١] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص: ٨٠ . ٨١.

[٢] بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، ص: ٩١.

[٣] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص: ٨١.

[٤] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٤٢.

فأذعن بوحسون لشروط العثمانيين بشأن الحفاظ على السيادة العثمانية من حيث الخطبة باسم السلطان العثماني وإقامة حامية عثمانية في مقر بلاطه[١].

٢ . تمهيده للعمل المشترك في استرداد الأندلس:

لم يكن صالح رايس يهتم قبل كل شيء إلا بمحاربة الإسبان، ولا يهدف من وراء أي عمل إلا جمع القوى الإسلامية من أجل تطهير البلاد من التواجد المسيحي، كان يرى قبل كل شيء وجوب طرد الإسبان من وهران، من النزول إلى الأندلس، لكن كيف يتسنى له ذلك وسلطان السعديين بالمغرب يترقب به الفرص وسلطان قلعة بني عباس ببلاد مجانة يعلن انفصاله واستقلاله. ترامت لصالح رايس يومئذ الأنباء عن ضعف القوى الإسبانية بمدينة مجانة، علاوة عن معاناة الحامية بالضيق، فرأى صالح أن يغتنم الفرصة وأن يبدأ بتطهير الشرق من الإسبان قبل أن يطهر الغرب، ولعل إنقاذ بجاية سيكون له أثر في عودة ملك بجاية إلى حظيرة الوحدة الإسلامية تحت ضغط السكان. سار صالح رايس في ربيع أول سنة ٩٦٣ هـ ـ يناير ١٥٥٥م، نحو مدينة بجاية على رأس قوة كبيرة بنحو ثلاثين ألف رجل عززهم في الطريق بالمجاهدين في إمارة كوكو، فوطدت الجيوش العثمانية وحاصروا المدينة، بينما جاء الأسطول العثماني يحمل الأسلحة والمدافع بجانب الجيش، وصوّب المسلمون قذائفهم على القلعة[٢]، ودارت معركة عنيفة ونجح صالح رايس في انتزاع بجاية من الإسبان في ذي القعدة سنة ٩٦٣ هـ ـ سبتمبر ١٥٥٥م، ولم يستطع حاكم نابولي من نجدة حاكمها في الوقت المناسب[٣]، كما استسلم الحاكم الإسباني للقوات العثمانية[٤].

٣ . مقتل بوحسون الوطاسي:

---

[١] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، إبراهيم شحاتة، ص: ١٤٧.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٤٣ ـ ٣٤٤.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث محمد خير الدين فارس، ص: ٤١.

[٤] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٨٨).

واجه بوحسون منافسة محمد الشيخ السعدي الذي جمع قوات من السوس والحوز، وأتى بجنوده إلى أن وصل رأس الماء من أحواز فاس[1]، وكان بوحسون بعد انسحاب العثمانيين قد أخذ في إعداد الجيوش وآلات الحرب إلى أن مضت ثمانية شهور فأمر بالخروج لمواجهة مولاي محمد الشيخ والوصول إلى مراكش، ولما تقابل الجيشان قام بينهما قتال عظيم، واستطاع بوحسون أن ينزل بالسعديين هزيمة شنيعة حتى استطاع أن يردهم على أعقابهم، ثم أرسل بوحسون لمولاي محمد الشيخ وقال له: اخرج أنت وأولادك إلى لقائي وأنا أخرج إليكم بنفسي ونترك المسلمين بدون قتال، فتظاهر محمد ورجع إلى والده وإخوته الستة الذين اجتمعوا على بوحسون فجعل يطاردهم حتى طمر به فرسه فسقط فطعنوه فاجتزوا رأسه وأتوا به جيشه، فانهزموا بلا قتال، وأخذ محمد الشيخ فاس[2]. وهكذا مات بوحسون بعد تسعة شهور من عودته لحكم فاس، وإن كانت قد ضاعت بموته الفرصة الأولى لإعلان السيادة العثمانية على فاس، إلا أن أحداث هذه الوقائع كانت تعني أن الفرصة ما زالت واسعة أمام العثمانيين لتطبيق غزوهم المحلي للمغرب، لاسيما وأن محمداً الشيخ السعدي ـ باسم القضاء على الحزب العثماني بين المغاربة ـ أنزل القتل في أكثر من مائتين من كبار أعيان فاس فضلاً عن الفقيهين والمرينيين إلى محمد عبد الوهاب الزقاق قاضي فاس، وإلى الحسن علي حزوز خطيب فاس[3].

٤ ـ التعاون البرتغالي الإسباني السعدي ضد العثمانيين:

بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين، ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في بلاد المغرب، بل والأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، فهذا التنافس السعدي العثماني

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، شارل جوليان (١/ ٣٤٤).
[2] تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص: ٢٠، ٢١.
[3] أطوار العلاقات المغربية، ص: ١٤٨.

على شمال أفريقيا، بل وعلى الخلافة الإسلامية كان في صالح الإسبان والبرتغال، ولا عجب إذا رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين[١].

بعث الملك جون الثالث رسالة إلى حاكم مازكان البرتغالي الفارودي كالفولو ردّاً على الطلب الذي تقدم به المولى محمد الشيخ إلى كل من مدريد ولشبونة لتزويده بقوات عسكرية ضد العثمانيين، كما حددت الرسالة بعض الشروط التي يراها البرتغاليون لمساعدة السعديين كتسليم بعض المراكز البحرية المغربية مثل بادس بنيون والعرائش، بالإضافة إلى تموين القوات المسيحية التي سيرسلها لمساعدته، وأخيراً يختتم الملك البرتغالي يوحنا الثالث بضرورة إخبار الإمبراطور الإسباني بذلك للتنسيق في عمل مشترك ضد العثمانيين، ونتيجة لهذا التقارب فقد عقدت هدنة بين السعديين والبرتغال بواسطة حاكم مازكان لمدة ستة أشهر وذلك في مطلع ٩٦٢ هـ ـ ١٥٥٥م، وظل مفعول هذه الهدنة زمناً طويلاً.

إذا كان حاكم مازكان هو الذي قام بدور الوساطة مع السعديين، فإن المزوار بوغانم هو الذي كُلِّف من قبل المولى محمد الشيخ بالوساطة مع الإسبان، وأول رسالة للمنصور في هذا الصدد تلك التي بعثها إلى حاكم وهران الإسباني الكونت دي الكودين في مطلع ربيع أول ٩٦٣ هـ ـ يناير ١٥٥٥م، وقد أخبر المزوار الكونت الإسباني بوصول رسائله وأنه أعلم بها المولى محمد الشيخ وابنه عبد الله اللذين أعربا عن سرورهما لقدوم وفد إسباني للتفاوض معه، وقد أرسل حاكم وهران بالفعل إلى فاس وفداً يتألف من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع المولى محمد الشيخ حول إعداد حملة مشتركة إسبانية ـ مغربية ضد العثمانيين[٢].

وقد جاء في التقرير الذي رفعه الوفد للكونت حاكم وهران الإسباني الذي أشرف على سير المحادثات(... بعدما سلمناه الرسائل... طلب إلينا الملك السعدي أن نقول له

---

[١] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٨٣.

[٢] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٨٣ ، ٨٤.

شفوياً عن سبب المهمة التي قدموا من أجلها إلى فاس... إننا جئنا استجابة لطلب مولاي عبد الله والقائد منصور بن غانم حيث طلب من حاكم وهران إرسال بعض الرجال للتفاوض في أمر الجزائر.

أجابنا الشريف بأنه لا يزال عند فكرته وأنه يرغب في طرد العثمانيين من بقايا أفريقيا، ومن أجل ذلك فهو يطلب من جلالة الإمبراطور إمداده بعشرة آلاف مقاتل مسلحين بأسلحة نارية، وأنه (أي الشريف) يرى بأنه من المناسب أن يقوم جلالة الإمبراطور بكل ما يلزم لهؤلاء المقاتلين من نفقات، ذلك لأن طرد العثمانيين إنما هو عمل تستفيد منه ممالك الإمبراطور والمسيحية جمعاء... وطالت المذكرات كثيراً. وأخيراً علمني القائد برشميده، بأن الشريف قد ادخر كثيراً من المال لمحاربة العثمانيين، وأنه يسعده أن يعين الإمبراطور على ذلك وأن الأمر مستعجل جدّاً...).

(... جاء ذكر الجزائر ماذا نصنع بها بعد احتلالها، فكان من رأي الملك السعدي تحطيم هذه المدينة وإزالتها تماماً، أما أهلها فتؤخذ أموالهم، وإذا امتنعوا فيقتلوا، ورفض الملك السعدي أن يؤخذ عبيداً للمسيحيين، وذكر الوفد أن الأتراك أجانب عن البلاد وأنهم أعداء له فيجب معاملتهم معاملة الأعداء، أما العرب فيمكن أن تترك لهم حريتهم في حالة استسلامهم دون مقاومة، إلا أن الملك السعدي أوضح أنه لن يسمح أبداً بأن يصبح أي عربي عبداً، لأن هذا مخالف للشريعة)[١].

يتبين من خلال ذلك مدى حقد الشريف السعدي على العثمانيين، الذي لم يتورع في الاستنجاد بالقوى المسيحية إسبانيا والبرتغال في سبيل تحقيق أهداف شخصية، حتى لو كان على حساب عقيدته الإسلامية ومصالح المسلمين.

نتيجة لذلك التقرير فقد بعث الكونت الكوديت حاكم وهران ذلك إلى الأمير فيليب ابن الإمبراطور شارل مشفوعة بخطاب هذا نصه: (... يجب علينا أن نعتبر أنفسنا

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٦١، ٦٢.

سعداء جدّاً في الوقت الذي يبذل فيه ملك فرنسا عدونا الألد كل جهوده للحصول على أسطول السلطان العثماني، حتى يهاجم ممتلكات جلالة الإمبراطور، وكون أمير عربي يعرض علينا نفوذه في مهاجمة العثمانيين في الجزائر ومحاربتهم وإبعادهم عن الأرض التي يحتلونها في أفريقيا وذلك فيما إذا قدمنا له اثني عشر ألفاً من المقاتلين الإسبان على حسابه، كذلك يتعهَّد الشريف السعدي في حالة الموافقة أن أبعث بأحد أبنائي رهينة لديه، وأن يصنع المال اللازم لتجهيز هذه الحملة بكل سرعة، بما أن هذه الصفقة ستجر خيراً عظيماً على جلالته وعلى المسيحية جمعاء فأنا لا أتردد في قبول طلب الشريف، وأرسل إليه ابني رهينة حتى لو كنت على يقين أنه يريد أن يذبحه، بل إنني وجميع من حولي مستعدين لتقديم أنفسنا كرهائن حتى لو كان الشريف يريد بيعنا عبيداً...)[1].

٥ . المخابرات العثمانية تكتشف المؤامرة:

اطلع صالح رايس على تلك المؤامرة التي كانت تحاك ضد الدولة العثمانية بين ملك المغرب والإسبان، والتي كان هدفها طرد العثمانيين من الجزائر، لأنه طالما أن الدولة في الجزائر معناه خطر على إسبانيا، فبعث صالح رايس للباب العالي يخبره بشأن تلك المحادثات، فكان جواب السلطان سليمان سريعاً وحاسماً بوجوب مهاجمة وهران قبل أن تسفر المحادثات بين الجانبين السعدي والإسباني عن نتيجة عملية، فأرسل السلطان سليمان أربعين سفينة لمساعدته في الاستيلاء على وهران والمرسا الكبير، ومنذ ذلك الوقت كانت الهجرة والتجنيد الطوعي من مختلف أنحاء الدولة العثمانية هي التي تغذي الأوجاق، الذي كان تبعاً لذلك يتجدَّد على الدوام[2].

٦ . وفاة صالح رايس:

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٦٤ . ٣٦٥.

[2] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٨١.

استعد صالح رايس لفتح وهران، وضم أسطوله إلى جانب أسطول السلطان وصار لديه نحو سبعين سفينة، واجتمع لديه من الجند ما يقارب من أربعين ألف جندي، وكان ينوي من إتمام زحفه هذا بالمسير إلى مراكش للقضاء على الفتن والاضطرابات وإخضاعها لسلطانه، ولكن القدر لم يمهله فتوفي صالح رايس بالطاعون في شهر رجب ٩٦٣ هـ ـ ١٥٥٦م عن عمر سبعين سنة[١].

إنَّ الدولة العثمانية سعت إلى ضم المغرب في نطاق توحيد البلاد الإسلامية والوقوف بها صفاً واحداً ضد الهجمات المسيحية، ذلك أن استقراره في قواعد بحرية تنتشر على طول سواحل المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي، يعني في حقيقة الأمر نجاح الأساطيل العثمانية في اعتراض الطرق البرية للبرتغال أو إسبانيا مع العالم الجديد والشرق، من هنا نرى أن نجاح الفكرة كان يعتمد أساساً على وصول العثمانيين إلى تلك السواحل ليشاركهم في ذلك المجاهدون الذين عملوا سنوات طويلة تحت إمرة أمراء البحر العظام، أمثال خير الدين وعروج بربروسة وصالح رايس[٢].

قام القائد يحيى بإكمال خطة صالح رايس فأبحر نحو وهران، وفي الطريق وصلت الأوامر السلطانية بتعيين حسن قورصو لمنصب بيلرباي، ووصلت الجيوش البرية والبحرية إلى وهران وحوصرت حصاراً شديداً، إلا أنها لم تفتح رغم استعدادات العثمانيين الكبيرة وذلك بسبب النجدات المتواصلة التي كانت تبعثها إسبانيا إلى المدينة المحاصرة[٣].

٧ ـ احتلال محمد الشيخ السعدي لتلمسان:

انتهز الشريف السعدي محمد الشيخ فرصة عودة الأسطول العثماني إلى إسطنبول فأسرع بإرسال جيوشه نحو تلمسان التي كان رجالها قد انضموا إلى صفوف المجاهدين في محاولتهم لاسترجاع وهران، فدخلها الشريف السعدي على غفلة ووضع على رأسها

---

[١] تاريخ الجزائر العام للجيلالي (٣/ ٨٨ ـ ٨٩).

[٢] صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص: ٣٤٣.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٦٦ ، ٣٦٧.

القائد ابن غنام زعيم قبائل بني راشد، ووزير آخر ملوك الزيانيين المحتمين بإسبانيا، أما الحامية العثمانية الموجودة في تلمسان بقيادة القائد محمود صفا بك فقد استطاعت الصمود في وجه السعديين حتى احتوت ذلك الهجوم السعدي.

إن السعديين كانوا يرون في ضم تلمسان عاملاً قوياً في توطيد سيطرتهم على المغرب الشرقي لصد كل تدخل عثماني في المغرب بعكس العثمانيين الذين كانوا يرون في التمركز بتلمسان تدعيماً لوجودهم في الجزائر وقاعدة حصينة لغزو المغرب[١]، باعتبارها أقرب نقطة للوصول للأندلس. كما أن شواطئ المغرب الشمالية والغربية تعتبر قواعد رئيسة لتهديد المواصلات البحرية للبرتغاليين والإسبان[٢].

بدأت الدولة العثمانية بتغيير سياستها مع الحكام السعديين، عندما بعث السلطان سليمان القانوني برسالة إلى سلطان الدولة السعدية يهنئه بما أحرزه من انتصارات ويعلمه لما كان عليه بنو مرين من الهدايا والرد والخدمة والميل إليه، وأن السلطان في نصرتهم وقد سبق وأن ظهر ذلك في آخر ملوك دولتهم أبي حسون، الذي زوده بأربعة آلاف جندي كان ذلك في محاولة من السلطان لتكوين اتحاد إسلامي كبير يواجه به الأخطار الخارجية، غير أن ذلك قوبل بالرفض من السلطان السعدي محمد الشيخ، الذي رد على مبعوث السلطان بقوله: (سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له: إن سلطان الغرب لابد أن ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه إن شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام)[٣].

---

[١] صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر، ص: ٣٤٥.

[٢] جهود العثمانيين، ص: ٣٧٨.

[٣] تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص: ٢٦ ،٢٧.

يظهر من ذلك استياء محمد الشيخ الذي لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما أظهر طموح محمد الشيخ الذي كان يحلم بإمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[١].

٨ . مقتل محمد الشيخ:

قتل محمد الشيخ في عام ٩٦٤ هـ - ١٥٥٧م من قبل حرسه الخاص، وتطورت الأحداث بالمغرب وخاصة فيما يتعلق بالدولة السعدية، إذ لم يعد هناك مجال للشك في أن العثمانيين إنما يسعون جادين للاستيلاء على المغرب لا باعتباره الجزء المتمم للشمال الأفريقي فحسب، بل ولأهميته الإستراتيجية كأقرب نقطة إلى بلاد الإسبان والبرتغال[٢].

٩ . عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

رأى السلطان العثماني ضرورة إعادة حسن بن خير الدين إلى الجزائر وذلك بعد مصرع حسن قور عام ٩٦٤ هـ ١٥٥٧م بعد انقطاع استمر لعدة أعوام قضاها في الجهاد في مواطن أخرى، واستبشر الناس برجوعه، وشرع في ترتيب أمور الجزائر، فنظم الإدارة، ورتب الجيش ترتيباً أعانه على ضبطه وبدأ في رحلته الجهادية ووضع أمامه هدفين عظيمين: تطهير الشمال الأفريقي من الوجود المسيحي؛ واسترداد الأندلس لحوزة المسلمين[٣].

١٠ . الثورات الداخلية في المغرب الأقصى:

اندلعت الثورات المناهضة للإمارة السعدية بعد مقتل محمد الشيخ في تارودانت فقامت ثورة المولى عثمان في السوس بالجنوب في جمادى الأول عام ٩٦٥ هـ - فبراير عام

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٧٩.

[٢] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٨٥.

[٣] جهود العثمانيين، ص: ٣٨٠.

١٥٥٨م، وثورة المولى عمر في دبو بالمشرق في رجب عام ٩٦٥ هـ. أبريل عام ١٥٥٨م، وثورة المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦ هـ. ديسمبر عام ١٥٥٨م، ثم كانت المذبحة الجديدة التي أنزلها عبد الله الغالب بثلاث من إخوته لرفضهم البيعة بولاية العهد لابنه محمد المتوكل، مما اضطر إخوته للهروب إلى تلمسان والجزائر فهرب المولى عمر والمولى عبد المؤمن وعبد الملك وأحمد المنصور، وذلك خوفاً من القتل[١].

قصد عبد الله الغالب إلى مراكش ثم تارودانت حيث انتقم من قتلة أبيه، كما قضى على ثورة السوس التي تزعّمها عثمان، ثم عاد سريعاً إلى فاس لإعداد قواته لصد الحملة العسكرية التي يقودها حسن بن خير الدين الذي حاول اغتنام فرصة الأحداث الداخلية المغربية لاحتلال البلاد[٢]، وقامت بين الطرفين معركة على وادي اللين بالقرب من فاس لم تسفر عن شيء، إلا أن حسن بن خير الدين الذي وصلته أنباء عن تحرك الإسبان من مدينة وهران بما يوشك أن يقطع عنه خط العودة، فذهب الجيش العثماني إلى مركز قصاصة في الشمال فركب سفينة وعاد للجزائر، بينما ذهب قائد تلمسان إلى حاميته استعداداً للحوادث المقبلة[٣].

١١ . مقتل حاكم وهران الكوديت:

كان دو الكوديت حاكم وهران يدرك أن استرجاع العثمانيين لتلمسان يهدد الوجود الإسباني تهديداً خطيراً، فقرر الاستيلاء على مستغانم التي جعلها العثمانيون قاعدة لهم للهجوم على وهران، وكان دا الكوديت يأمل أن يجعلها قاعدة للهجوم على الجزائر[٤]، لذلك أعدَّ قوة كبيرة تتكون من اثني عشر ألف مقاتل وخرج على رأسها فهاجم مدينة

---

[١] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ١٧.

[٢] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٨٦.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٧٢.

[٤] لسان المعرب، لأبي عبد الله السليماني، ص: ٩٤.

مستغانم، إلا أن محاولته باءت بالفشل إذ تكبَّدت القوات الإسبانية في ذي القعدة عام ٩٦٥ هـ ـ أغسطس عام ١٥٥٨م خسائر فادحة، وكان حاكم وهران الكوديت من بين القتلى، ورغم فشل الحملة الإسبانية ضد مستغانم فإن العثمانيين لم يعد لديهم أدنى شك في تواطئ المولى عبد الله الغالب بالله مع الإسبان، مما جعلهم يتخذون جانب الحيطة والحذر من محاولة القيام بمساعدة الثائرين ضد الحكام السعديين، فعندما ثار المولى عبد المؤمن في مراكش في ربيع الأول عام ٩٦٦ هـ ـ ديسمبر ١٥٥٨م واستنجد بوالي الجزائر الذي لم يمده بأية مساعدة عسكرية، بل رحَّب به في بلاد الجزائر وزوَّجه بإحدى بناته ثم ولاه مدينة تلمسان[١].

١٢ ـ سياسة حسن بن خير الدين في التضييق على الإسبان:

أراد حسن بن خير الدين أن يغتنم فرصة انتصار مستغانم لتطهير المركز الإسباني في وهران، وأخذ يستعد في مدينة الجزائر لجمع قوى جديدة منظمة منقادة إلى جانب الجيش العثماني، فجند عشرة آلاف رجل من زواوة[٢]، كما أنشأ قوة أخرى ووضع على رأسها أحد أعوان والده القدامى، وفي الوقت نفسه حاول الحصول على تأييد القوة المحلية، فتزوج من ابنة سلطان كوكو ابن القاضي، وكان هذا الزواج يخدمه من ناحية أخرى في الاستعانة بقوة ابن القاضي لمواجهة زعيم قبلي آخر (عبد العزيز بن عباس) الذي أعلن استقلاله في المغرب[٣]، بذلك صار أسطول الدولة العثمانية يتردد دائماً على مدينتي حجر باديس وطنجة[٤].

---

[١] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٨٧.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٧٧.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٤٥.

[٤] حقائق الأخبار عن دول البحار (١/ ٣١٩).

عيّن حسن بن خير الدين في عام ٩٦٥ هـ. ١٥٥٨م بويحيى الرايس[١] قائداً على باديس، فقام بتخريب الساحل الإسباني من قرطاجنة حتى رأس سانت فنست، وصار تحت قيادته في باديس عدة سفن وتلقب بحق سيد مضيق جبل طارق، وقد جاء في تقرير إسباني بقلم فرانسكوا دي إيبانير أن يحيى يملك أربع سفن حربية الأولى بقيادته وعلى ظهرها ٩٠ عثمانياً مسلحين بالسهام والأقواس والمناجيق، والثانية يقودها قره مامي وعلى ظهرها ٨٠ عثمانيًا مسلحين بنفس الأسلحة. والثالثة بقيادة مراد الرايس بقوة ٧٠ جنديّاً، والرابعة تحمل نفس العدد وبنفس الأسلحة وبالإضافة إلى هذه السفن الأربعة العاملة عبر مياه المضيق، كان في حوزة بو يحيى سفينتان في باديس ويقوم بصنع سفينة أخرى، ويتصل بنشاط سفن باديس سفن تطوان العرائش وسلا، ففي تطوان ثلاث سفن صغيرة، وفي العرائش ثلاث سفن أخرى على شاكلة سفن تطوان، وفي سلا سفينتان من النوع الآخر، إلا أن السفن الأخيرة لم تتبع قيادة بو يحيى، ودعا حسن بن خير الدين السفن الحربية الإسلامية للنهوض بنشاط يستهدف تخريب سواحل الأندلس والاستيلاء على سفن الهند، ورفع تجار إشبيلية نتيجة لذلك شكواهم للملك الإسباني يشكون فيها الفظائع التي تركتها سفن باديس والسفن الإسلامية الأخرى ضد السفن الإسبانية على طريق الملاحة والتجارة الهندية[٢]، ولم تستطع السفن العبور دون إذن من بو يحيى، فعمَّ الخوف سكان الساحل الإسباني، لدرجة أن هؤلاء لم يكونوا يزرعون أراضيهم إلا بكل حذر، وغالباً ما كان العثمانيون يحاصرونهم أثناء عملهم وكذلك الصيادون لم يكونوا يبتعدون كثيراً عن الشاطئ[٣].

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٨١.

[٢] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ٢١٩.

[٣] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٩٠.

١٣ . سياسة المولى عبد الله:

تابع المولى عبد الله سياسة والده الرامية إلى مقاومة الهدف في المغرب والاستعانة في سبيل ذلك بأعداء العثمانيين من إسبان وبرتغال عن طريق مهادنتهم، والمحافظة على أحوال السلم معهم، وقد دفعته سياسة المهادنة مع النصارى إلى الاستجابة لكثير من المطالب التي تقدمت بها بعض الدول الأوروبية كفرنسا التي استقبل سفيرها وحمله إلى الأمير أنطونيو دي بربون رسالة يعبر فيها عن استعداد المغرب للاستجابة للمطالب الفرنسية، ثم عقد الأمير الفرنسي معاهدة في شوال ٩٦٦ هـ - يوليو ١٥٥٩م مع المولى عبد الله الذي تنازل عن المرسا الصغير لفرنسا مقابل مده بالأسلحة والعتاد الحربي، وإرسال فرقة عسكرية تكون بمثابة حرس خاص للغالب، بعد أن فقد ثقته بالحرس التركي الذي سبق وأن اغتال والده محمد الشيخ، كانت فرنسا بعد أن عقدت معاهدة كاتوكمبر سيس في ٢١ جمادى الأولى في سنة ٩٦٦ هـ - ١٣ أبريل ١٥٥٩م مع إسبانيا والتي أنهت الحرب الإيطالية، أخذت تبحث عن أسلوب جديد يمكن الاعتماد عليه في حالة تجدد النزاع مع إسبانيا، خصوصاً وقد صار لفليب الثاني نفوذ قويّ في أوروبا، لأن المعاهدة المذكورة دعمت نفوذ إسبانيا في إيطاليا والأراضي المنخفضة مما يهدد فرنسا، فأخذ في التقرب من المغرب البلد الإسلامي. ومما لاشك فيه أن فرنسا كانت ترى في المغرب حليفاً يمكن الاعتماد عليه، كما كانت ترى في ميناء القصر الصغير الإستراتيجي الذي لا يبعد إلا بضع كيلومترات عن جبل طارق منطقة هامة يمكن اتخاذها للهجوم على إسبانيا.

ولعل ذلك كان سبباً في عدم قيام الدولة العثمانية بموقف إيجابي تجاه المعاهدة لأنها كانت تأمل في أن تقوم فرنسا بدور الوسيط مع السعديين، فهدف الدولة العثمانية وفرنسا واحد في مسألة الهجوم على إسبانيا وإن اختلفت من الناحية العقائدية. ففرنسا كانت ترغب في الهجوم على إسبانيا من أجل تحقيق نصر عسكري لتكون سيدة الموقف في غرب البحر المتوسط، بينما الدولة العثمانية تهدف إلى إنقاذ المسلمين من الحكام

الإسبان ثم استرداد الأراضي الإسلامية في الأندلس. حَوَّلَ حسن بن خير الدين أنظاره سنة ٩٦٦ هـ ـ ١٥٥٩م وتحرك بجيوشه نحو النواحي التابعة لأمير قلعة بني عباس عبد العزيز فاستولى على المسيلة وحصنها وبنى برجاً، وذلك لتثبيت الوجود العثماني هناك، ووضع حامية بلغ عددها أربعمائة جندي، ثم عاد حسن بن خير الدين متوجهاً صوب بلاد حمزة في أنحاء بربرة، عندها انقض أمير قلعة بني عباس على الحصن العثماني ونشبت معارك بين الحامية العثمانية لقي فيها الأمير عبد العزيز بن عباس صاحب .... حتفه وخلفه أحمد مقران الذي امتلك نواحي بلاد كوكو فاعترف به حسن بن خير الدين[١].

اشتدت حملة إزعاج تجارة المسيحيين من ناحية موانئ تونس والجزائر وذلك بالإغارة على السفن المسيحية، كما بعثت تلك الموانئ ببعض القوات العسكرية البرية وجزء من الأسطول، لمساندة السلطان في الشرق[٢].

١٤ ـ الأسطول العثماني يهاجم جربة في تونس:

قام الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا بالهجوم على جزيرة جربة في رمضان ٩٦٧ هـ ـ مايو ١٥٦٠م، ونجح الأسطول في تحقيق أهدافه ضد الإسبان[٣]، الذين لم يجدوا حرجاً من الاستنجاد بفرنسا[٤]، بعد ذلك كان من المقرر أن يقوم بيالي باشا ببعض الغارات في البحر المتوسط قبيل عودته لقسطنطينية، ولكن درغوث باشا الذي سبق وأن ضايقه الثوار في الداخل، أقنع بيالي باشا بالتوجه إلى طرابلس لمساعدته في القضاء على التمرد قرب تاجوراء، وقد وصل بيالي باشا إلى طرابلس وصول الفاتحين، ودخلت السفن العثمانية المزينة بالأعلام والشارات التي غنمها من الأعداء، بينما كانت أعلام الأعداء

---

[١] تاريخ الدولة السعدية، ص: ٨٧ ـ ٨٨.

[٢] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩١).

[٣] المصدر نفسه.

[٤] المصدر نفسه.

منكسة فوق سواري السفن وقام بيالي باشا بطرابلس أياماً قليلة كافية ... سكان تاجوراء، ثم أقلع بأسطوله صوب عاصمته[١].

١٥ . اعتقال حسن بن خير الدين وإرساله إلى إسطنبول:

استمر حسن بن خير الدين في استعداداته لمهاجمة المغرب، فشرع في تكوين قادة من رجال القبائل كان ينوي أن يوكل إليها حراسة الجزائر أثناء غيابه لعدم ثقته بالإنكشارية، الذين أحسوا بالخطر فقاموا في صيف ٦٨٦هـ . ١٥٦١م بإعتقال حسن باشا وأعوانه وأرسلوه مقيداً إلى إسطنبول ورافق حسن باشا عدد من زعماء الجند مهمتهم أن يوضحوا للسلطان الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التصرف، متهمين حسن باشا أنه كان ينوي القضاء على الأوجاق والاعتداء على جيش محلي بغرض الاستقلال عن السلطان، لكن السلطان أرسل أحمد باشا مع قوة بحرية لمعاقبة المتمردين والقضاء على الفوضى ونجح أحمد باشا في اعتقال زعماء التمرد وأرسلهم إلى إسطنبول[٢].

١٦ . عودة حسن بن خير الدين إلى الجزائر:

أعاد السلطان العثماني سليمان القانوني حسن بن خير الدين إلى بيلربكية الجزائر للمرة الثالثة في أواخر سنة ٩٧٠هـ . ١٥٦٢م معززاً بعشرة سفن حربية ومزوداً بقوة عسكرية مسلحة[٣] قضى بعدها حسن بن خير الدين خمسة أشهر بعد عودته يهيء العدة والعتاد لمهاجمة وهران والمرسا الكبير، وهما كل ما بقي لإسبانيا ببلاد الجزائر[٤].

خرج حسن بن خير الدين في سنة ٩٧١هـ . ١٥٦٣م من مدينة الجزائر نحو الغرب، يقود جيشاً كبيراً مؤلفاً من خمسة عشر ألف رجل من رماة البندقية وألف فارس من الصباحية

---

[١] المصدر نفسه.

[٢] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٤٦.

[٣] تاريخ الجزائر العام (٣ / ٩٣).

[٤] حرب الثلاثمائة، ص: ٣٧٩.

تحت إمرة أحمد مقرن الزواوي، وإثني عشر ألف رجل من زواوة وبني عباس، أما مؤن وذخيرة الجيش فقد حملها الأسطول العثماني إلى مدينة مستغانم التي اتخذها قاعدة للعمليات. وفي ١٣ إبريل وصل حسن خير الدين بكامل قوته أمام مدينة وهران وضرب حصاراً حولها، وكان الإسبان مستعدين لتلقي الصدمة وراء حصونهم وقلاعهم[١]، بعد أن توالت النجدات الإسبانية والبرتغالية على وهران استجابة لنداء حاكمها، ومنذ أن صارت القوات العثمانية على مسافة مرحلتين، وبينهما كان البيلربك نفسه على بعد ست مراحل مما اضطر حسن بن خير الدين إلى رفع الحصار قبل وصول المزيد من هذه النجدات التي اتخذت من مالطة مركزاً لتجمعها[٢]، وهكذا لم يستطع حسن بن خير الدين من تحقيق هدفه ذلك لأن فيليب الثاني كان قد وضع برنامجاً طموحاً للأسطول الإسباني، والبناء البحري في ترسانات إيطاليا وقطالونيا، كما وردت لخزانة إسبانيا إعانة من البابوية وإجتمعت سلطة قشتالة التشريعية في جلسة غير عادية، وأقرت وجوب إمداد إسبانيا بمعونات مالية، لتساندها في حربها مع العثمانيين، وكانت ثمرة تلك المجهودات إعادة التنظيم لهيكل إسبانيا وهزيمة العثمانيين في وهران سنة ٩٧١هـ ـ ١٥٦٣م.

بدأ فيليب الثاني يستعد لاحتلال جزيرة باديس وتشجع بذلك النصر الذي حققه في وهران، ووجه لذلك أسطولاً في نفس السنة ٩٧١هـ ـ ١٥٦٣م، فقاومه المجاهدون مقاومة عنيفة، اضطر الأسطول إلى التراجع[٣] والجدير بالذكر أن جزيرة باديس كانت أقرب نقطة مغربية إلى جبل طارق، وأنها كانت بالنسبة للمجاهدين ميناءً هامّاً[٤]، إذ يمكنهم من خلالها العبور للأندلس، كما يمكنهم التسلل لداخل الأراضي الإسبانية لتقديم المساعدة للمسلمين هناك والذين أطلقوا على أنفسهم الغرباء، وهذا ما دفع الإسبانيين للهجوم

---

[١] حرب الثلاثمائة، ص: ٣٧٩.

[٢] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ٢١٣.

[٣] جهود العثمانيين، ص: ٣٨٩.

[٤] تاريخ الدولة السعدية، عبد الكريم كريم، ص: ٣٦.

عليها من خلال محاولتهم السابقة، كما كانت جزيرة باديس بالإضافة إلى ذلك مثار رعب وخوف لدى السلطان السعدي الغالب بالله، إذ خاف السلطان أن يخرج الأسطول العثماني من تلك الجزيرة إلى المغرب، فاتفق مع الإسبان أن يخلي لهم الإدالة من حجرة باديس ويبيع لهم البلاد ويخليها من المسلمين، وينقطع أسطول العثمانيين في تلك الناحية[1]، مقابل الدفاع عن شواطىء المغرب إذ هاجمها الأسطول العثماني الذي علم بتلك المؤامرة فانسحب ورجع إلى الجزائر[2]، كما عزل بو يحيى رايس من منصبه في باديس في أواخر عام ٩٧١هـ . ١٥٦٣م، وانصرف العثمانيون عن الحرب في غرب البحر المتوسط، إذ توجه نشاط الأسطول الحربي إلى جزير مالطة في الشرق[3].

١٧ . الصراع على مالطة:

كان السلطان العثماني سليمان القانوني قد عزم على فتح جزيرة مالطة التي كانت أكبر معقل للمسيحيين في وسط البحر المتوسط، والتي سبق وأن استقر فيها فرسان القديس يوحنا، فأرسل السلطان العثماني أسطوله بقيادة بيالي باشا نفسه، كما طلب من درغوث رايس حاكم طرابلس وجربة، وحسن بن خير الدين أن يتوجها على رأس أسطوليهما الإسلاميين للمشاركة في عملية مالطة وإخضاعها استعداداً لمنازلة بقية المعاقل الإسلامية بعد ذلك، فسار حسن بن خير الدين على رأس عمارة تشمل ٢٥ سفينة وثلاثة آلاف رجل، ووصل الأسطول الإسلامي أمام مالطة يوم ١٨ مايو وفرض الحصار عليها، واستمر الحصار ضيقاً شديداً إلى أن جهزت المسيحية رجالها وأساطيلها ووصل المدد تحت قيادة نائب الملك في صقلية، برفقة أسطول تعداده ٢٨ سفينة حربية تحمل عدداً

---

[1] تاريخ الدولة السعدية لمؤلف مجهول، ص: ٨٩.

[2] تاريخ المغرب لمحمد بن عبود، ص: ١٧.

[3] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ١٩٠ . ١٩١.

كبيراً من المقاتلين ونشبت المعركة بين الطرفين، وتمكن الأسطول الإسلامي من الانسحاب في ١٨ ربيع الأول ٩٧٣هـ ـ ٨ ديسمبر ١٥٦٥م[١].

١٨ ـ حسن بن خير الدين بربروسة القائد العام للأسطول العثماني:

خلف السلطان سليمان القانوني السلطان سليماً الثاني، الذي أسند منصب القائد العام للأسطول العثماني إلى حسن بن خير الدين، فترك الجزائر متوجهاً إلى إسطنبول سنة ٩٧٥هـ ـ ١٥٦٧م[٢]، وتولى منصب بيلربي الجزائر بعد حسن بن خير الدين محمد بن صالح رايس، في ذي الحجة ٩٧٤هـ ـ يونيو ١٥٦٧م، وصادف في تلك السنة انتشار الأوبئة والمجاعة، صحبها تمرد الجند العثماني وأضرب الشعب، فاضطر إلى صرف وقته في مواساة المصابين وتسكين الفتن، ثم فاجأت محمد بن صالح رايس ثورة عامل قسطنطينية المتأثرة بولاة تونس الحفصيين فعزله البيلربي وقضى على ثورته، وولى على قسطنطينية القائد رمضان بن تشولاق، وفي ربيع الأول سنة ٩٧٥هـ ـ سبتمبر ١٥٦٧م، هاجم الإسبان مدينة الجزائر، إلا أنهم ردوا على أعقابهم، ثم لم تطل ولاية محمد بن صالح رايس، إذ تعيّن نقله إلى ولاية أخرى في أنحاء الدولة[٣].

السادس عشر: قلج علي تولى بيلربك الجزائر

أسند منصب بيلربك الجزائر إلى قلج علي في ١٤ صفر سنة ٩٧٦هـ ـ الموافق أغسطس ١٥٦٨م وعرف عنه العزم في تسيير الإدارة والبطولة الحربية والشجاعة[٤].

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٨٣.

[٢] المصدر السابق نفسه، ص: ٣٨٥.

[٣] تاريخ الجزائر العام (٣ / ٩٤ ، ٩٥).

[٤] المصدر السابق نفسه (٣/٩٥)

اتخذ قلج علي خطوات عملية لتنفيذ مشروع خطير للغاية وهو إعادة الحكم الإسلامي في إسبانيا وتحرير الشمال الأفريقي من الجيوب الصليبية، فوجه اهتمامه إلى الأسطول أكثر من غيره وصار بعده مبعث قلق ورهبة للأوروبيين[١]، كما انتزع من الفرنسيين حق احتكار المرجان بمركز القالة بسبب تماطلهم وتخلفهم عن دفع الضريبة لثلاث سنوات مضت وتصرفهم في المنطقة التي نزلوا فيها تصرف السادة[٢].

١ . إعادة تونس للحكم العثماني:

صمم قلج علي على ضرورة تصفية القواعد الإسبانية في تونس، قبل أن يبدأ نشاطه في شبه الجزيرة الأيبيرية[٣]، وذلك لتعبئة الدفاع عن طرابلس والجزائر، وكان الإسبان قد اتخذوا من تونس نقطة ارتكاز وقاعدة انطلاق على العثمانيين في طرابلس والجزائر[٤]، لذلك لابد من تأمينها.

كان قلج علي على اتصال بالوزير الحفصي أبي الطيب الخضار، ورأى ذلك الوزير أن فتح تونس قد حان وقته، وأرسل إلى قلج علي يهون عليه أمرها ويتعهد له بتقديم العون[٥].

جهز بيلربك الجزائر قلج علي جيشاً مؤلفاً من نحو سبعة آلاف مقاتل وزحف به نحو تونس، فقابل سلطانها أبا العباس أحمد بباجة، ثم بعد قتال عنيف انهزم الأمير الحفصي وتقدم قلج علي بمجموعة نحو تونس وأخذ بيعة أهلها للسلطان سليم الثاني.

ورتب حامية لحراسة البلاد تحت رعاية حيدر باشا وعاد إلى مقره بالجزائر[٦]، وبقيت منطقة حلق الواد بيد الإسبان، وكانت قوات قلج علي لا تكفي وحدها لتطهير البلاد

---

[١] تاريخ أفريقيا الشمالية، شارل جوليان (٣/ ٣٤٦).

[٢] المغرب العربي الكبير، شوقي الجمل، ص: ١٠٠.

[٣] المغرب العربي الكبير، جلال يحيى، ص: ٨٤.

[٤] الأتراك العثمانيون في شمال أفريقيا، عزيز سامح، ص: ٨٤.

[٥] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٤٩.

[٦] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٦).

من الاحتلال الإسباني، لذا فإنه كتب إلى إسطنبول يطلب مده بقوة تكفي لتحرير الموقع[1]، وكان اهتمام قلج علي بشرق الجزائر سياسة اختص بها من دون أسلافه، فكان يرى أنه لابد من تأمين ظهره ليتسنى له التقدم للغرب، ثم التوجه للأندلس، بعد أن يكون قد أضعف التواجد الإسباني في الشمال الأفريقي[2].

٢. ثورة مسلمي الأندلس:

كانت حركة الجهاد في الشمال الأفريقي قد شجعت مسلمي الأندلس وفجرت طاقاتهم الكامنة وجعلتهم يتغلبون على الحواجز النفسية التي بنيت في نفوسهم على مر السنين. وسادت الأقاليم الإسبانية موجة من الظلم والإرهاب والفظائع، فهذه الحالة المربكة وما صاحبها من مظالم وويلات جعلت بقية مسلمي إسبانيا في الجنوب سواء من الذين ظلوا محافظين على دينهم أو المنتصرين ظاهرياً، يتأهبون للانقضاض على الحكم الإسباني[3].

سادت إسبانيا إرهاصات ثورة المسلمين في غرناطة، فشكل الملك الإسباني فيليب الثاني نوعاً جديداً من الميلشيات تقيم في كل مدينة من مدن إسبانيا لمواجهة الثورة بين الذين استقبلوا مبعوثين من ملك فاس لجمع الخراج على تبعيتهم في الولاء لسيادة الأمير السعدي، كما تلقى مسلمو الأندلس مساعدات عثمانية[4]، أصبح الموقف صعباً بالنسبة لإسبانيا خاصة غرناطة، ومما زاد الحالة خطورة أن بحرية فيليب الثاني كانت متفرقة في أنحاء بعيدة، وحصونه غير معززة والسواحل مكشوفة، خاصة الشواطئ الجنوبية موقع المجاهدين.

---

[1] الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ص: ٨٥.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٣٩٥.

[3] حرب الثلاثمائة، ص: ٣٩٢.

[4] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ١٧٩ . ٢٠٤.

بعد أن أعيت النصارى كل الوسائل للقضاء على الروح الدينية لمسلمي الأندلس وتحويلهم للمسيحية لجأوا إلى العنف فحرموا على المسلمين التحدث بالعربية والاتصال بالمسلمين في الشمال الأفريقي وفي بعض أقاليم إسبانيا، كما حرموا على النساء الخروج إلى الشوارع متحجبات وقفل أبواب دورهم وتحطيم الحمامات وإقامة الحفلات حسب تقاليدهم، كل ذلك فجر الثورة وقاد مسلمي الأندلس إلى حرب البورشارات التي هي أهم حرب أو ثورة مسلحة قام بها المسلمون بعد سقوط غرناطة كانت هذه الحرب في عام ١٥٦٨م وتزعمها محمد بن أمية[١].

٣. خيانة السلطان السعدي الغالب بالله لمسلمي الأندلس:

بذل السلطان السعدي الغالب بالله الوعود المعسولة لرسل الثوار البورشارات ووعدهم بالنصر وتقديم كل ما يحتاجونه من عتاد وسلاح ورجال.. لكن استمر الغالب بالله محافظاً على روابطه الودية مع فيليب الثاني، وعمل على خذلان أهل الأندلس:" وأما أهل الأندلس وغشه لهم وتوريطهم للهلكة في دينهم وأقوالهم وأولادهم وفي نفوسهم فأمر مستعظم عند جميع من في قلبه ذرة من الإيمان، وأدنى مملكة من الإسلام وذلك أنه لما احتوى عليهم النصراني، وأخذ جميع أراضيهم وشملها سلطانه، بقي المسلمون بضع سنين تحت الذمة والذلة فقهروهم بكثرة المكس، فصاروا يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً وهم يناشدونه الله في الإغاثة. وأكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله لأنه هو القريب إلى أراضيهم، زمان قد قوي سلطانه وصحت اركانه وجندت أجناده وكثرت أعداده فأمرهم غشاً منه بأن يقوموا مع النصارى ليثق بهم في قولهم ويظهروا فعلهم، فلما قاموا على النصارى تراخى عما وعدهم به من الإغاثة وكذب عليهم وغشاً منه لهم ولدين الله جلّ وعلا ومصلحة لملكه الزائل، وكانت بينه وبين النصارى مكاتبات في ذلك ومراسلات،

---

[١] محنة المورسيكوس في إسبانيا لمحمد قشتيليو، ص: ٣٣ . ٣٥.

وأنه استشار معهم وأشار عليهم أن يخرجوا أهل الأندلس إلى ناحية المغرب وقصده بذلك تعمير سواحله ويكون لهم بمدينتي فاس ومراكش جيش عظيم ينتفع به في صالح ملكه"[1].

تسارعت الأحداث في إسبانيا، وبلغ عدد المجاهدين في أوائل سنة ٩٧٦هـ . ٥٦٩هـ أكثر من مائة وخمسين ألف، وصادف تلك الثورة صعوبات كبيرة بالنسبة للحكومة الإسبانية، إذ كانت غالبية الجيش متقدمة مع دوق البابا في الأراضي المنخفضة وأثبتت الدوريات البحرية أنها غير قادرة على حرمان الثوار المسلمين من الاتصال بالعثمانيين في الجزائر[2].

٤. قلج علي يقف موقف الأبطال مع مسلمي الأندلس:

كان قلج علي على اتصال مباشر بقيادة مسلمي الأندلس عبر قنوات خاصة أشرف عليه جهاز الاستخبارات العثمانية، واستطاع هذا القائد أن يمد الثوار في إسبانيا بالرجال والأسلحة والعتاد، وتم الاتفاق مع مسلمي الأندلس على القيام بثورة عارمة في الوقت الذي تصل فيه القوات الإسلامية من الجزائر إلى مناطق معينة على الساحل الإسباني[3].

جمع قلج علي جيشاً عظيماً قوامه أربعة عشر ألف رجل من رماة البنادق وستين ألفاً من المجاهدين العثمانيين من مختلف أرجاء البلاد، وأرسلهم إلى مدينتي مستغانم ومازغران استعداداً للهجوم على وهران ثم النزول في بلاد الأندلس، وكان يرافق ذلك الجيش عدد كبير من المدافع وألف وأربعمائة بعير محملة بالبارود الخاص بالمدافع والبنادق.

وفي اليوم المتفق عليه وصلت أربعون سفينة من الأسطول العثماني أمام مرسى المرية الإسباني، لشد أزر الثورة ساعة نشوبها لكن المخطط أخفق، وذلك بسبب سوء تصرف أحد رجال الثورة الأندلسيين إذ إنكشف أمره فداهمه الإسبان وضبطوا ما كان يخفيه من

---

[1] مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية، ص: ٣٧ . ٣٨.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٣٩٨.

[3] الدولة العثماني دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٢٦).

سلاح[1]، بعد أن نجح قلج علي في إنزال الأسلحة والعتاد والمتطوعين على الساحل الإسباني[2]، لم تقع الثورة في الموعد المحدد لها، وضاعت بذلك فرصة مفاجأة الإسبان[3].

لقد قام قلج علي في شعبان سنة ٩٧٦هـ ـ يناير سنة ١٥٦٩م ببعث أسطول الجزائر لتأييد الثائرين في محاولتهم الأولى، وحاول إنزال الجند العثماني في الأماكن المتفق عليها، لكن الإسبان كانوا قد عرفوا ذلك بعد اكتشاف المخطط، فصدوا قلج علي عن النزول وكانت الثورة في عنفوانها، وزوابع الشتاء قوية في البحر، فالأسطول الجزائري صار يقاوم الأعاصير من أجل الوصول إلى أماكن أخرى من الساحل ينزل بها المدد المطلوب، إلا أن قوة الزوابع أغرقت ٣٢ سفينة جزائرية تحمل الرجال والسلاح، وتمكنت ست سفن من إنزال شحنتها فوق سواحل الأندلس، وكان فيها المدافع والبارود والمجاهدون[4].

استمر قلج علي في إمداد مسلمي الأندلس رغم الكارثة التي حلت بقواته، وتمكن ذلك المجاهد الفذ من إنزال أربعة آالاف مجاهد من رماة البنادق مع كمية كبيرة من الذخائر وبعض من قادة المجاهدين العثمانيين، للعمل في مراكز قيادة جهاد مسلمي الأندلس[5].

وعاد العثمانيون فأرسلوا دعماً جديداً من الرجال والسلاح وإعانة للثورة الأندلسية، فصدرت الأوامر إلى قلج علي بذلك في ٢٣ شوال ٩٧٧هـ ـ ٣١ مارس ١٥٧٠م: "..عليك بالتنفيذ بما جاء في هذا الحكم حال وصوله وأن تعاون أهل الإسلام المذكورين بكل ما يتيسر تقديمه لهم وأن الغفلة عن الكفار غير جائزة .." وكان القائد المجاهد قلج علي قد عزم على الذهاب بنفسه ليتولى قيادة الجهاد هناك، لكن ما شاع عن تجمع

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

[2] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (٢/ ٩٢٦).

[3] جهود العثمانيين، ص: ٣٩٩.

[4] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٣.

[5] المصدر نفسه، ص: ٣٩٤.

الأسطول الصليبي للقيام بمعركة حاسمة مع المسلمين وأمر السلطان العثماني له بالاستعداد للمشاركة في هذه المعركة جعله مضطراً للبقاء في الجزائر منتظراً لأوامر إسطنبول[1].

وفي غمرة الثورة الأندلسية اتهم زعيم الثورة ابن أمية بالتقاعس عن الجهاد وهاجمه المتآمرون وقتل في منزله، واختير مولاي عبد الله بن محمد بن عبو بدلاً منه، وبعث قلج علي تعزيزات له ونجح الزعيم الجديد في حملاته الأولى ضد النصارى الإسبان وطوق جيشه مدينة أرجيه.

انزعجت الحكومة الإسبانية لهذه التطورات وعينت دون جوان النمساوي على قيادة الأسطول الإسباني "وهو ابن غير شرعي للإمبراطور شارل" فباشر قمع الثورة في سنواتها ٩٧٧هـ - ٩٧٨هـ / ١٥٦٩م - ١٥٧٠م، وأتى من الفظائع ما بخلت بأمثاله كتب الوقائع فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمر البلاد وكان شعاره لا هوادة. وانتهى الأمر بإذعان مسلمي الأندلس لكنه إذعان مؤقت، إذ لم يلبث مولاي عبد الله أن أعاد الكرة فاحتال الإسبان عليه، حتى قتلوه غيلة ونصبوا رأسه فوق أحد أبواب غرناطة زمناً طويلاً[2].

٥. المتوكل على الله بن عبد الله الغالب السعدي:

تولى أمر السعديين بعد وفاة عبد الله الغالب بالله ابنه المتوكل على الله الذي كان يضمر الشر لعميه عبد الملك ابي مروان وأحمد المنصور، فخرجا من المغرب واتجها إلى السلطان العثماني ليستنجدوا به[3]، وما من شك في أن انتصار العثمانيين في تونس ضد الإسبان واستتباب الأمر فيها قد شجعهم على مساعدة المولى عبد الملك المطالب بالعرش المغربي،

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٤٠٠.

[2] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٥.

[3] الحروب الصليبية في المشرق العربي لمحمد العمروسي، ص: ٢٦٥.

لبسط نفوذه على البلاد، ولأن الاستيلاء على المغرب يؤمن الحدود الغربية للدولة العثمانية، ويوطد أقدام العثمانيين في مجموع الشمال الأفريقي، علاوة على أن ضم المغرب من شأنه أن يبعث الرعب في قلوب الإسبان والبرتغال ويبعثهم على طلب ود السلطان في إسطنبول[١]، تابع المتوكل على الله خطة والده في التقرب من الدول المسيحية ومسالمتها لصد العثمانيين، حيث لم يعد لديه شك في أنهم سينجدون عميه بقوات عسكرية، فعقد اتفاقاً مع إنجلترا، التي كانت ترغب في تجارتها مع المغرب للفوائد التي تعود على التجار الإنجليز من وراء ذلك زيادة على أنها تدرك الأهمية العظمى التي للمغرب خصوصاً وقد كانت إنجلترا في حالة حرب ضد إسبانيا[٢]، وتوقيع المتوكل للاتفاقية التجارية مع الإنجليز، يعد العمل الوحيد الذي قام به خلال حكمه القصير، وقد فعل ذلك باعتبار الإنجليز كانوا من بين التجار الأجانب الذين يبيعون مواد الحرب من ذخائر وأسلحة للمغاربة منذ زمن بعيد، ولا تخفى علينا حاجة المتوكل في هذا الوقت إلى السلاح لصد الخطر العثماني ولمقاومة عمه المطالب بالعرش.

وجدت الدولة العثمانية في انشغال ملك إسبانيا فيليب الثاني بأحداث أوروبا الغربية حيث ثورة الأراضي المنخفضة، فرصة مناسبة للتدخل في المغرب[٣]، فأمدوا المولى عبد الملك بجيش قوامه خمسة آلاف مقاتل مسلحين بأحسن الأسلحة ودخل المولى عبد الملك فاس بعد أن أحرز انتصاراً كبيراً على ابن أخيه المتوكل وعاد الجيش أدراجه إلى الجزائر[٤].

٦. وقام عبد الملك بإصلاحات في دولته من أهمها:

١ . أمر بتجديد السفن، وبصنع المراكب الجديدة فانتعشت بذلك الصناعة عامة.

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٣٦٨.

[٢] بداية الحكم المغربي في السودان، ص: ٩٤.

[٣] المغرب في عهد الدولة السعدية عبد الكريم كريم، ص: ٩٧ ، ٩٩.

[٤] بداية الحكم المغربي في السودان، ص: ٩٤.

٢. اهتم بالتجارة البحرية وكانت الأموال التي غنمها من حروبه على سواحل المغرب سبب في انتعاش ونمو الميزان الاقتصادي للدولة.

٣. أسس جيشاً نظامياً متطوراً واستفاد من خبرة الجندية العثمانية وتشبه بهم في التسليح والرتب.

٤. استطاع أن يبني علاقات متينة مع العثمانيين وجعل منهم حلفاء وأصدقاء وإخوة مخلصين للمسلمين في المغرب.

٥. فرض احترامه على أهل عصره، حتى الأوروبيين احترموه وأجلّوه. قال الشاعر الفرنسي أكبريبا دو بين المعاصر لأحداث هذه الفترة: "كان عبد الملك جميل الوجه، بل أجمل قومه، وكان فكره نيراً بطبيعته، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية والأرمنية والروسية، وكان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، وباختصار فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا إن هذه أكثر مما يلزم بالنسبة لنبيل فأحرى للملك"[١].

٦. اهتم بتقوية مؤسسات الدولة ودواوينها وأجهزتها، واستطاع أن يشكل جهازاً شورياً للدولة أصبح على معرفة بأمور الدولة الداخلية وأحوال السكان عامة، وعلى دراية بالسياسة الدولية وخاصة الدول التي لها علاقة بالسياسة المغربية، وكان أخوه أبو العباس أحمد المنصور بالله الملقب في كتب التاريخ بالذهبي ساعده الأيمن في كل شؤون الدولة[٢]، وقد حقق انتصار كبير واستشهد في معركة وادي المخازن التي تحدثنا عنها.

٧. اقتراح عثماني على السعديين:

بدأت القوات الإسبانية في اكتساح الأراضي البرتغالية، ولم يستطع الأمير البرتغالي دون أنطونيو مقاومة تلك القوات الإسبانية التي ضمت أراضيه لسنة ٩٨٨هـ ـ ١٥٨٠م عند ذلك اقترح السلطان العثماني مراد الثالث عقد تحالف عسكري ضد الإسبان على أساس إمداده بأسطول حربي وقوات عسكرية فبعث في رجب ٩٨٨هـ ـ سبتمبر ١٥٨٠م رسالة

---

[١] وادي المخازن، ص: ٣٧.

[٢] المصدر السابق، ص: ٣٩ ، ٤٠.

قال فيها: ".. فلما وصل بمسامعنا الشريفة ومشاعرنا الحقانية المنيفة خبر طاغية قشتالة وأنه احتوى على سلطنة برتغالي أو كاد، وأنه جعل أهلها في الأغلال والأصفاد وأنه لكم جار وعدو مضرار حرّكتنا الحمية الإسلامية لإظهار الألفة الأزلية، أن تتخذ عهداً وتؤكد أن المملكتين محروستا الجوانب ونعلق العهد بالكعبة.. فإذا تم هذا الشأن نوجه لكم ثلاثمائة غراباً سلطانية وجيش عز ونصر وكماه عثمانية تستفتح بها إن شاء الله بلاد الأندلس..".

كان قلج علي بعد استقرار الدولة العثمانية في تونس بدأت أنظاره تتطلع إلى المغرب[١]، وأخذ يعمل في توحيد الوجهة السياسية لبلاد المغرب الإسلامي لضمه إلى الدولة، العثمانية[٢]، خاصة بعد تذبذب موقف المولى أحمد المنصور الأخير من الدولة صدرت الأوامر إلى قلج علي قائد الأسطول العثماني بالتوجه إلى المغرب لضمه للدولة العثمانية، فوصل قلج علي إلى الجزائر في جمادي الثانية ٩٨٩هـ - يونيو ١٥٨١م بينما كان المنصور يرابط عند نهر تانسيفت، وكانت القوات المغربية قد استعدت لمواجهة التدخل العثماني، إذ جهز جنوده وتقدم بها حتى حدود بلاده، كما سد مدخل مملكته وحصن الثغور، وإلى جانب تلك الاستعدادات وجه المنصور سفارة خاصة لإسطنبول وذلك بعد أن توصل إلى شبه اتفاق عسكري مع الملك الإسباني الذي انتهى من مشاكله بدخوله للعاصمة البرتغالية لشبونة في ٢٧ جمادي الثانية ٩٨٩هـ - ٣١ يوليو ١٥٨١م، على أساس تقديم المساعدة العسكرية للمغرب لمواجهة التدخل العثماني مقابل التنازل عن مدينة العرائش وامتيازات أخرى، وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بداً من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب بأن أمر قلج علي[٣] وجعفر باشا نائب قلج علي في الجزائر بالتخلي عن العمل بالمغرب والانتقال إلى الشرق حيث اضطربت الأمور بالحجاز

---

[١] تاريخ الجزائر الحديث محمد خير فارس، ص: ٥٢.

[٢] تاريخ الجزائر الحديث للجيلاني، ص: ١٠١.

[٣] المغرب في عهد الدولة السعدية، ص: ١١٢.

فتخلى قلج علي عن هدفه الطموح في استرداد الأندلس بعد توحيد الجبهة لبلاد المغرب الإسلامي[١].

تردد السفراء بين الأستانة وفاس فتوجّهت سفارات أحمد بن ودة والشاظمي وأبي الحسن علي بن محمد التمكروتي بين عامي ٩٧٩هـ ـ ١٥٨٨م / ٩٩٩هـ ـ ١٥٩٠م، واستقبل أحمد المنصور سفيراً عثمانياً في ٩٩٨هـ ـ ١٥٨٩م[٢].لم تتحقق رغبة السلطان العثماني في التحالف مع السعديين لاسترداد الأندلس، وذلك بسبب انشغال الدول بحروبها المضنية ضد الشيعة الصفوية في إيران والهابسبرج في وسط أوروبا، بالإضافة إلى واجبها نحو حماية مقدسات الأمة الإسلامية في الحجاز وتدعيم حزامه الأمني[٣].

٨. جهاد الوالي الجزائري وتغير الأوضاع:

جهز الوالي العثماني في الجزائر أسطوله في سنة ٩٩٠هـ ـ ١٥٨٢م لمحاربة إسبانيا فوق أرضها، فنزل المجاهدون المسلمون في برشلونة فأعملوا فيها تدميراً ثم عبروا مضيق جبل طارق، وهاجموا جزر الكناري التي تحتلها إسبانيا فدمروا المراكز العسكرية وغنموا ما فيها، ولم يكن الأسطول العثماني يذهب للأندلس لمجرد التنكيل بالإسبانيين ولتدمير منشآتهم بل كان بالدرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من نكبتهم وتعرض المجاهدون أثناء ذلك لمعارك قاسية وهزائم أحياناً[٤].

ازداد تطاول الإنكشارية في الجزائر على الأهالي في الوقت الذي انصرف رجال البحر ليمارسوا الجهاد البحري على نطاق واسع[٥]، لذلك حضر حسن فنزيانو من نشاطه البحري الذي بادر إلى عودته إلى الجزائر حينما بلغه انتشار الفوضى بين الجنود، فانتصب على الجزائر للمرة الثانية وفرض طاعته على الرعية وذلك في ربيع الثاني سنة

[١] تاريخ الجزائر للجيلاني، ص: ١٠١.

[٢] بداية الحكم المغربي بالسودان، ص: ٩٧.

[٣] جهود العثمانيين، ص: ٥٣٢.

[٤] الجزائر والحملات الصليبية، ص: ٥٩.

[٥] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥٩.

٩٩١هـ ـ أبريل ١٥٨٣م ولم يعارض الباب العالي في توليه لما كان له من العقل في حسم الخلاف وإطفاء نار الفتن واستتباب الأمن بالجزائر، باشر حسن فنزيانو تسيير الإدارة بما عهد منه من نشاط وحزم فإنه لم يترك قيادة الأسطول العثماني بالجزائر لغيره، وكثرت في أيامه المغانم بما كانت تجلبه السفن من السواحل الإسبانية والجزر الشرقية من نفائس، وبما كان يستولى عليه من الأسرى والمغانم في غزواته.

وفي ٩٩٢هـ ـ ١٥٨٤م أبحر حسن فنزيانو بأسطوله على ثغر بلنسية، وحمل أعداداً كبيرة من مسلمي الأندلس إذ أنقذهم من اضطهاد الإسبان، كما استطاع في السنة التالية إنقاذ جميع سكان كالوسا، إذ حملهم إلى الجزائر، وفي السنة التي بعدها توغل مراد رايس في المحيط الأطلسي فأغار على جزر الكناري وغنم منها غنائم كثيرة بما فيهم زوجة حاكم تلك الجزر، وبقي حسن فنزيانو على رأس الحكومة العثمانية بالجزائر إلى أن استدعاه السلطان في إسطنبول ليتولى منصب إمارة البحر "قبودان دوريا"[١] وذلك بعد وفاة قلج علي سنة ٩٩٥هـ ـ ١٥٨٧م.

٩. انتهاء نظام البيلربك في الجزائر:

بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظم البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ، واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك مثل

تونس وطرابلس[٢]، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

وكان الباشا موظفاً ترسله الأستانة لمدة ثلاث سنوات يتولى خلالها حكم البلاد دون أن يكون له سند أساسي أو سند محلي بين القوى التي تسيطر على البلاد[٣]، ويكون الباشا

---

[١] تاريخ الجزائر العام للجيلاني (٣/ ١٠٢ ، ١٠٣).

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٤١٠.

[٣] المغرب العربي للعقاد، ص: ٢٨.

في كل من طرابلس وتونس والجزائر وكيلاً للسطان ويكون مطلق التصرف لبعد الولاية عن العاصمة إسطنبول.

كانت أحداث ما بعد ٩٩٧هـ ـ ١٥٨٨م في النيابات العثمانية الثلاث طرابلس وتونس والجزائر تفيد بسطوة الجنود ورجال البحرية على السلطنة فيها على حساب سلطة الباشا، إلا أن طبيعة علاقات السلطة في داخل الولاية مع إمساك السلطنة العثمانية بسلطة إصدار الغرامات، قد ضمنا تحقيق الأهداف العثمانية في الحكم من حيث الخطبة باسم السلطان وتحصيل الأموال سنوياً والمساهمة في حروب الدولة والقبول بالباشا القادم من الاستانة ممثلاً أعلى للسلطان في حكم النيابة وهي جميعها من رموز السيادة العثمانية الرسمية[١].

كان ذلك هو التحول الذي جرى في الدولة نحو الشمال الأفريقي إثر معركة ليبانتو سنة ٩٧٨هـ ـ ١٥٧١م، فبعد أن كان الشمال الأفريقي تحت مسؤولية البيلربك الموجود في الجزائر، انقسمت المنطقة إلى ثلاث ولايات هي: طرابلس وتونس والجزائر وصارت ولايات عادية مثلها مثل سائر الولايات العثمانية الأخرى، لقد كان موقف الدولة السعدية من جهة، وتصرف بعض الإنكشاريين من جهة وجبهات المشرق من جهة وغير ذلك من الأسباب أضعف همة الدولة في إرجاع الأندلس.

لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

١. ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.

٢. وفاة قلج علي في ١٥٨٧م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقي في نظام الولايات.

٣. كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم[٢].

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٤٧٧.

[٢] الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان، ص: ١٢٣.

لقد كانت الدولة العثمانية في جهودها البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

١. قرب الشمال الأفريقي من كل من إسطنبول ومصر يجعل الإمدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لا تصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

٢. كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال أفريقية تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى، وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

٣. لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال أفريقية بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها[١].

١٠. بداية إضمحلال الدولة العثمانية:

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م، وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان، إذ وقع السلطان تحت تأثير زوجته روكسلانا التي تدخلت للتآمر ضد الأمير مصطفى ليتولى ابنها سليم الثاني الخلافة بعد أبيه، وكان مصطفى قائداً عظيماً ومحبوباً من الضباط، مما أدى إلى سخط الإنكشارية ونشوب ثورة كبرى ضد السلطان وأخمدها السلطان سليمان، وبذلك تم القضاء على مصطفى وابنه الرضيع وكذلك قتل السلطان ابنه بايزيد وأبناءه الأربعة بدسيسة من أحد الوزراء[٢]. ومن مظاهر الضعف في عهد سليمان بدء انسحاب السلطان من جلسات الديوان، وبروز سطوة الحريم والعجز

---

[١] الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان، ص: ١٢٤.

[٢] أصول التاريخ العثماني، ص: ١٠٢.

عن مواجهة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى نشوب القلاقل الشعبية في الروميلي والأناضول[1].

١١. السلطان سليم الثاني:

تولى الحكم في ٩ ربيع الأول سنة ٩٧٤هـ، ولم يكن مؤهلاً لحفظ فتوحات والده السلطان سليمان، ولولا وجود الوزير الفذ والمجاهد الكبير والسياسي القدير محمد باشا الصقللي[2] لأنهارت الدولة، إذ قام بإعادة هيبتها وزرع الرهبة في قلوب أعدائها وعقد صلحاً مع النمسا وأتم توقيع معاهدة في عام ٩٧٥هـ الموافق ١٥٦٧م احتفظت بموجبها النمسا بأملاكها في بلاد المجر، ودفعت الجزية السنوية المقررة سابقاً للدولة كما اعترف أمراء تراسلفانيا والأفلاق والبغدان[3].

أ. تجدد الهدنة مع شارل التاسع ملك فرنسا:

تجددت الهدنة مع ملك بولونيا وشارل التاسع ملك فرنسا في عام ٩٨٠هـ الموافق ١٥٦٩م كما زادت الامتيازات القنصلية الفرنسية وجرى تعيين هنري دي فالوا ـ وهو ملك فرنسا ـ ملكاً على بولونيا باتفاق مع فرنسا التي أصبحت بذلك ملكة التجارة البحر المتوسط. وطبقاً للمعاهدات السابقة فقد قامت تلك الدولة ـ أي فرنسا ـ بإرسال البعثات الدينية النصرانية إلى كافة أرجاء البلاد العثمانية التي يسكنها نصارى وخاصة بلاد الشام وقامت بزرع محبة فرنسا في نفوس نصارى الشام، مما كان له أثر يذكر في ضعف الدولة، إذ امتد النفوذ الفرنسي بين النصارى وبالتالي ازداد العصيان وتشجعوا على الثورات، فكان من أهم نتئج ذلك التدخل الاحتفاظ بجنسية ولغة الأقليات النصرانية حتى إذا

---

[1] الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي، ص: ٩٤.

[2] تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص: ١٢٣.

[3] المصدر السابق، ص: ١٢٤.

ضعفت الدولة العثمانية ثارت تلك الشعوب مطالبة بالاستقلال بدعم وتأييد دول أوروبا النصرانية[١].

إن اقتناع الدول الأوروبية بكون نظام الامتيازات الأجنبية حقاً من حقوق الطبيعة هو الذي دفع فرنسا لإرسال جنودها لمساعدة البندقية التي كان السلطان محمد الرابع "١٦٢٤م . ١٦٤٠م" يحاربها، كما أرسلت سفيرها برفقة عمارة بحرية لإرهاق الدولة العلية ومطالبتها بتحديد الامتيازات، لكن الصدر الأعظم حينئذ والذي كان مازال يمتلك قراره السياسي، أخبر السفير بأن المعاهدات هذه ليست اضطرارية واجبة التنفيذ ذلك لكونها منحة سلطانية فحسب، الأمر الذي جعل فرنسا تتراجع عن تهديداتها وتتحايل لدى السلطان ليوافق من جديد على تجديد نظام الامتيازات عام ١٦٧٣م، مما زاد الطين بلة، وبدلاً من أن تتعظ الدولة العثمانية مما حدث أمر السلطان محمداً الرابع "١٦٤٨م . ١٦٨٧م" بتفويض فرنسا حق حماية بيت المقدس[٢] تتابع بتجديد الامتيازات، وفي كل مرة يضاف قيد جديد على السلطنة، ففي تجديد عام ١٧٤٠م أضافت السلطنة امتيازات تجارية جديدة لفرنسا، ولكن الامتيازات تعرضت لتهديد حقيقي عندما احتل نابليون بونابرت مصر، فقد أوقفت السلطنة العمل بها غير أن نابليون كان قد تراجع في الوقت المناسب حفاظاً على علاقته بالسلطنة وذلك حين عرض انسحاب فرنسا من مصر لقاء تجديد الامتيازات، وقد تم ذلك بالفعل في ٩ تشرين أو أكتوبر ١٨٠١م وأضافت السلطنة امتيازاً جديداً يقضي بمنح فرنسا حرية التجارة والملاحة على البحر الأسود[٣].

لقد كانت نتائج هذه الامتيازات وخيمة جداً على السطنة، ولقد بين المؤرخ اليوناني ويمتري كيتسكس :" ..أن الامتيازات حطمت اقتصاد الامبراطورية بتحطيمها النظام

---

[١] المصدر السابق، ص: ١٢٤.

[٢] الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص: ٢٦.

[٣] الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي، ص: ٢٦.

الضريبي العثماني القائم على حماية التجارة المحلية ضد المنافسة الأجنبية.."[1] بل هذه الامتيازات حالت دون قيام السلطنة بتنفيذ مشروعات إصلاحية واستنباط موارد مالية جديدة لمواجهة نفقات الإدارة والحكم، لذلك أصبحت معاهدات الامتيازات الأجنبية بمثابة مواثيق مذلة للعثمانيين مادام الأوروبيين لا يخضعون للسلطات العثمانية، فقد أصبحوا وكأنهم يشكلون حكومة داخل الحكومة العثمانية[2].

الخزر "قزوين" عن طريق البحر الأسود لتمكن العثمانيين من وقف التوسع الروسي نحو الجنوب، وتطرد الفرس من القوقاز وأذربيجان بل وغزو فارس من الشمال بدلاً من مرور الجيوش العثمانية بأرض أذربيجان الوعرة، والاتصال بالازبك أعداء الصفويين وتتار القرم، ومن شأن كل ذلك أن يؤدي إلى أحياء طريق القوافل القديمة المارة بأواسط آسيا من الشرق إلى الغرب[3].

شرع العثمانيون في تنفيذ مشروع وصل نهر الدون بالفولجا وحل شهر جمادى الأولى ٩٧٧هـ . أكتوبر ١٥٦٩م حتى كان ثلث القناة قد اكتمل، ولكن موسم الشتاء قد أدى إلى إيقاف العمل، وحينئذ اقترح قائد الحملة استعمال سفن صغيرة محملة بالمدافع والذخيرة لشن الهجوم على استرخان إلا أن الحملة فشلت بسبب الظروف الطبيعية، ومع هذا استطاع صوقللي باشا أن يحقق بعض النجاحات كتشديد قبضة السلطان على أمراء مولدافيا وولاشيا وبولندا، وبذلك اعترضت الدولة العثمانية مرحلياً توسع روسيا شمال وغرب البحر الأسود[4].

ب . فتح قبرص:

---

[1] المصدر السابق، ص: ٢٧.

[2] الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها (١/ ٧٥).

[3] فتح عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي، ص: ١٤٥.

[4] جهود العثمانيين، ص: ٤٤٧.

كانت إيطاليا وإسبانيا تقدر أهمية جزيرة قبرص، وشاع في أوروبا عن تكون حلف ضد السلطان، ولكن لم يُعمل شيئاً في حينه لإنقاذ قبرص من العثمانيين الذين نزلوها بقوة كاسحة نفذت إلى الجزيرة بدون صعوبة ووقفت مدينة فامرجستا الحصينة أمام العثمانيين بقيادة باحليون وبراجادنيو اللذين واجها القوة العثمانية التي وصلت مائة ألف مقاتل استعمل خلالها العثمانيون جميع وسائل الحصار المعروفة من فر وكر وزرع للألغام ولم ينتج أي تأثير على الحامية، ولو وصلت قوة مسيحية للنجدة لصار العثمانيون في خطر إلا أن المجاعة قامت بعملها واستسلمت المدينة في ربيع الثاني ٩٧٩هـ ـ أغسطس ١٥٧١م.

نقلت الدولة العثمانية بعد فتحها لقبرص عدداً كبيراً من سكان الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة، رغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم.

١٢. معركة ليبانتو[١]:

ارتعدت فرائص الأمم المسيحية من الخطر الإسلامي العظيم الذي هدد القارة الأوروبية من جراء تدفق الجيوش العثمانية براً وبحراً، فأخذ البابا بيوس الخامس "١٥٦٦م ـ ١٥٧٢م" يسعى من جديد لجمع شمل البلاد الأوروبية المختلفة وتوحيد قواها براً وبحراً تحت راية البابوية[٢]، وقد كتب يقول :" .. إن السلطنة التركية قد تبسطت تبسطاً هائلاً بسبب نذالتنا[٣]". عقد البابا بيوس الخامس وفيليب الثاني ملك إسبانيا وجمهورية البندقية معاهدة في أوائل ٩٧٩هـ ـ مايو ١٥٧١م، تعهدوا فيها بالقيام بهجوم بحري ضد العثمانيين شارك في الحلف كذلك بعض المدن الإيطالية، وذلك بعد تحريك بيوس الخامس لروح التحالف فارتبطت توسكاني وجنوة وسافوي وبعض الإيطاليين في الحلف

[١] تقع في الطرف الشمالي للفم الغربي لخليج كورنث في اليونان اليوم.

[٢] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٦.

[٣] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٥.

المقدس[1]، وأرسل البابا إلى ملك فرنسا يريد العون: فاعتذر شارل التاسع بحجة ارتباطه بمعاهدات مع العثمانيين، فاجابه البابا طالباً منه التحلل من مواثيقه هذه ولم تمض سوى أيام قليلة حتى نقض الإمبراطور عهوده ومواثيقه التي أبرمها مع العثمانيين واتجه نحو إيفان ملك الروس يطلب إجابته نفير الحرب ووجد تباطؤاً عند ملك بولونيا واختير "دون جوان" النمساوي قائداً للحملة، وجاء في أحد بنود المعاهدة النصرانية :" إن البابا بيوس الخامس وفيليب ملك إسبانيا وجمهورية البندقية يعلنون الحرب الهجومية والدفاعية على الأتراك لأجل أن يستردوا جميع المواقع التي اغتصبت من المسيحيين ومن جملتها تونس والجزائر وطرابلس"[2].

سار دون جون إلى البحر الإدرياتيك حتى وصل إلى الجزء الضيق من خليج كورنث بالقرب من باتراس وليس ببعيد عن ليبانتو والتي أعطي اسمها للمعركة.

كان من رأي قادة الأسطول الإسلامي الإفادة من تحصين الخليج وعدم الاشتباك بالأسطول الصليبي، غير أن القائد العام علي باشا صمم على الخروج للمعركة معتمداً على تفوقه في عدد سفنه، ونظم علي باشا قواته فوضع سفنه على نسق واحد من الشمال إلى الجنوب، بحيث كانت ميمنتها تستند إلى مرفأ ليبانتو ومسيرتها في عرض البحر وقد قسمها علي باشا إلى جناحين وقلب فكان هو في القلب، وسيروكو في الجناح الأيمن وبقي الجناح الأيسر بقيادة قلج علي.

ومقابل ذلك نظم دون جون قواته فوضع سفنه على نسق يقابل النسق الإسلامي ووضع جناحه الأيمن بقيادة دوريا مقابل قلج علي، وأسند قيادة جناحه الأيسر إلى بربريجو مقابل سيروكو، وجعل دون نفسه لقيادة القلب وترك أسطولاً احتياطياً بقيادة سانت كروز[3].

---

[1] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٢.

[2] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٥ ـ ١٢٦.

[3] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٦.

أ ـ احتدام المعركة:

احتدمت المعركة في ١٧ جمادي الأولى سنة ٩٧٩هـ ـ ١٧ أكتوبر ١٥٧١م، أحاط الأسطول الإسلامي بالأسطول المسيحي وأوغل العثمانيون بين سفن العدو ودارت معركة قاسية أظهر فيها الفريقان بطولة كبيرة وشجاعة نادرة[١]، وشاءت إرادة الله هزيمة المسلمين ففقدوا ثلاثين ألف مقاتل وقيل عشرين ألفاً، وخسروا ٢٠٠ سفينة حربية منها ٩٣ غرقت والباقي غنمه العدو وتقاسمته الأساطيل النصرانية المتحدة[٢] وأسر لهم عشرة آلاف رجل[٣]، واستطاع قلج علي إنقاذ سفنه واستطاع كذلك المحافظة على بعض السفن التي غنمها ومن بينها السفينة التي تحمل عمل البابا، ورجع بها لاسطنبول التي استقبلته استقبال الفاتحين، رغم الشعور بمرارة الهزيمة[٤]، وبادر السلطان سليم الثاني إثر ذلك بترفيع قلج علي إلى رتبة قائد البحرية العثمانية "قبودان باشا" مع الاستمرار في منصبه كبيلر بك للجزائر[٥].

ب ـ أثر ليبانتو على أوروبا والدولة العثمانية:

احتفلت القارة الأوروبية بنصر ليبانتو، فلأول مرة منذ أوائل القرن الخامس عشر تحل الهزيمة بالعثمانيين[٦]، فهلل الأوروبيون وكبروا لذلك الانتصار وأقيمت معالم الزينات في كل مكان وأفرطت في التسبيح بحمد دون جون أمير الأساطيل المتحدة الذي أحرز هذا الانتصار إلى حد أن البابا لم يتورع عن القول أثناء الاحتفال في كنيسة القديس بطرس بمناسبة هذا النصر "إن الإنجيل قد عنى دون جون نفسه حيث بشر بمجيء رجل من الله يدعى حنا" وظل العالم المسيحي ومؤرخوه ينوهون بهذا النصر البحري، حتى أن القواميس

---

[١] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٤.

[٢] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٦.

[٣] المصدر السابق، ص: ١٢٦.

[٤] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٨ ، ٣٩٩.

[٥] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٤.

[٦] في أصول التاريخ العثماني، ص: ١٤٧.

المدرسية الحديثة لا تذكر ثغر ليبانت إلا وتذكر معه دون جون المشار إليه على اعتبار أنه أنقذ المسيحية من خطر كان يحيق بها[١].

لقد فرح البابا فرحاً عظيماً على الرغم من عدم ارتياحه لأن عدوه لا يزال عظيماً مرهوب الجانب وحاول إثارة شكوك الشيعة الاثني عشرية الصفوية ضد العثمانيين مستغلاً بعض الضغائن والمشكلات والاختلاف العقائدي فأرسل إلى الشاه طهماسب ملك العجم ومن جملة ما قال له: ".. لن تجد أبداً فرصة أحسن من هذه الفرصة لأجل الهجوم على العثمانيين إذ هم عرضة للهجوم من جميع الجهات.."[٢].

وأرسل يستعدي ملك الحبشة وإمام اليمن على الدولة العثمانية ولكن المنية عاجلته[٣].

إن نتيجة معركة ليبانتو كانت مخيبة لآمال العثمانيين، فقد زال خطر السيادة العثمانية في البحر المتوسط، ومع زوال الخطر زال الخوف الذي كان قوياً للمحافظة على حلف مقدسي دائم واستعاد الحسد والغيرة نشاطه بين الدول المسيحية[٤].

إن أهمية لبيانتو كانت عظيمة وأسطورة عدم قهر العثمانيين قد اختفت ولم تعاد للوجود ثانية على أقل تقدير في البحر، وأزيح ذلك الخوف عن قلوب حكام إيطاليا وإسبانيا، وتزعزع تأثير الدولة العثمانية على سياسة القوى الغربية لأوروبا، إذ كانت من الحقيقة "أن" القوات العثمانية هائلة في كل المجال البري والمجال البحري[٥]، كما أن الانتصار المسيحي في ليبانتو ١٥٧١م كان إشارة لتحضير حاسم في ميزان القوة البحرية في البحر

---

[١] فلسفة التاريخ العثماني، ص: ١٤٣.

[٢] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٦.

[٣] المصدر السابق، ص: ١٢٦.

[٤] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٥.

[٥] المصدر السابق، ص: ٤٤٥.

المتوسط، كما أنه أنهى عصراً من عصور العمليات البحرية الطموحة في البحر المتوسط والتي تكاليفها باهظة[١].

لم يعد يفكر العثمانيون بعد تلك الهزيمة في إضافة حلقة أخرى إلى سلسلة أمجادهم البحرية[٢]، إذا كان هذا الانكسار نقطة البداية نحو توقف عصر الازدهار لقوة الدولة البحرية[٣].

١٣. ظهور أطماع فرنسا في الشمال الأفريقي:

كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني ٩٨٠هـ ـ ١٥٧٢م، وذلك بواسطة سفيره بإسطنبول يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها، وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به، ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحت على طلبها وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة حتى تحصلت على امتيازات خاصة في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية[٤].

١٤. إعادة بناء الأسطول العثماني:

أقبل القبودان باشا قلج علي بهمة ونشاط متزايد على تجديد الأسطول العثماني وتعويض ما فقد منه، وما حل صيف ٩٨٠هـ ـ ١٥٧٢م، حتى هيأ مائتين وخمسين سفينة جديدة

---

[١] المصدر السابق، ص: ٤٥٥.

[٢] بد اية الحكم المغربي في السودان، ص: ٩٤.

[٣] فلسفة التاريخ العثماني، ص: ١٤٣.

[٤] تاريخ الجزائر العام (٣/ ٩٧ ـ ٩٨).

وخرج قلج علي بأسطوله في البحر وارتاعت البندقية من هذا الاستعداد البحري، فطلبت الصلح من الدولة العثمانية بشروط مخزية، إذ تنازلت لها عن جزيرة قبرص، كما دفعت غرامة حربية قدرها ثلاثمائة ألف دوكة[١]، ولكن هذا النشاط كان من قبيل اليقظة التي تسبق فترة الاحتضار البحري، ذلك لأن الدولة انصرفت إلى حروب متواصلة نشبت بينها وبين النمسا وحليفتها من جهة، وبينها وبين فاس من جهة أخرى كما أنها انشغلت بإخماد الثورات الداخلية المستمرة[٢].

١٥. احتلال تونس:

كان فيليب الثاني قد تشجع لاحتلال تونس بسبب لجوء السلطان الحفصي أبي العباس الثاني الذي حكم تونس ٩٤٢هـ ـ ٩٨٠هـ / ١٥٣٥م ـ ١٥٧٢م إليه وطلب منه المساعدة في إخماد الثورات بإعطائهم امتيازات كبيرة، وتتيح لهم سكن جميع أنحاء تونس، وتتنازل عن عناية وبنزرت وحلف الواد[٣]، فرفض أبو العباس الشروط ولكن أخاه محمد بن الحسين قبلها[٤]، بعد ذلك خرج دون جون بأسطوله من جزيرة صقلية في رجب ٩٨١هـ أكتوبر ١٥٧٣م، على رأس أسطول مكون من ١٣٨ سفينة تحمل خمسة وعشرين ألف مقاتل ونزل بقلعة حلق الواد التي كانت تحتلها إسبانيا، ثم باغت دون جون تونس واحتلها وخرج أهلها بوادي تونس فارين بدينهم من شر الإسبان[٥]، كما انسحب الحاكم العثماني إلى القيروان[٦]، وكانت أوروبا قد أدركت أنها تستطيع أن تقضي على الدولة ألا مجتمعة[٧].

---

[١] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٩.

[٢] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٦.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ١٤٣.

[٤] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٧.

[٥] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٣٩٩ ـ ٤٠٠.

[٦] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥٠.

[٧] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٧.

١٦. قلج علي واستعداداته الحربية:

اهتم قلج علي بتسليح البحارة وتدريبهم على الأسلحة النارية الحديثة وقد لفت هذا النشاط البحري أنظار كل المقيمين الأجانب وازدادت مكانة قلج علي، حتى البابا نصح فيليب الثاني ملك إسبانيا أن يسعى لإغرائه[١]، وذلك بمنحه راتباً من عشرة آلاف وإقطاعية من مملكة نابلس أو غيرها من ممتلكات العرش الإسباني ويتوارثها ....من بعده مع لقب كومت أو ماركيز أو دوق، كما شمل المشروع أيضاً منح امتيازات مماثلة لاثنين من مساعديه[٢]، وكان البابا يدرك أن مثل هذه المحاولة إن لم تنجح فيها على الأقل ستثير شكوك السلطان على قلج علي وهو الشخص الوحيد القادر على.....أمور السلطنة، ولكن هذه المحاولة فشلت وكانت النتيجة أنها أثارت غضب قلج علي بدلاً من أن تقربه[٣]، وأنه لا يمكن شراء أمانة المسلم المجاهد إذ إن وجوده في خارج الدولة إنما كان يعني أنه وهب نفسه لسبيل الله، وهذا ما سارت عليه الدولة في سياستها في جميع فتوحاتها، ولعل ذلك كان سبباً مباشراً في سرعة الفتح ونجاحه في كل الأقاليم والميادين التي طرقتها الدولة، وكان العثماني في أي موقع يخدم الدولة بكل إخلاص وما خدمته تلك إلا خدمة للإسلام[٤].

١٧. السلطان سليم يصدر أوامره لإعادة تونس:

أصدر السلطان سليم الثاني أوامره إلى وزيره سنان باشا وقبودانه قلج علي بالاستعداد للتوجه إلى تونس لفتحها نهائياً وإعادة نفوذ الدولة العثمانية إليها كما صدرت نفس الأوامر والتوجيهات لبقية الأقاليم بتحضير الجنود والذخيرة والمؤن والجنود مع مائتين وثلاث وثمانين سفينة مختلفة الأحجام، كما أكد على المكلفين بالخدمة في الأناضولي

---

[١] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥١.

[٢] أطوار العلاقات المغربية العثمانية، ص: ٢٨٠.

[٣] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥١.

[٤] جهود العثمانيين، ص: ٤٥٨.

والروم يلي بالاشتراك في السفر بحراً، كما أحضر المجدفين اللازمين للأسطول، وأنذر من لا يحضر من المجدفين بالفصل من مناصبهم على أن لا يسند إليهم في المستقبل أي عمل، وبينما كان الأسطول يتأهب أخذ حيدر باشا الحاكم العثماني في تونس والذي انسحب للقيروان في حشد المجاهدين من الأهالي الذين التفوا حوله[١].

أبحر الأسطول بقيادة سنان باشا وقلج علي في ٢٣ محرم ٩٨٢هـ. ١٤ مايو ١٥٧٤م، فخرج من المضايق ونشر أشرعته في البحر الأبيض، فقاموا بضرب ساحل كالابريا مسينا واستطاع العثمانيون أن يستولوا على سفينة مسيحية، ومن هناك قطعوا عرض البحر في خمسة أيام[٢]. في هذا الوقت وصل الحاكم العثماني في تونس حيدر باشا، كما وصلت قوة من الجزائريين بقيادة رمضان باشا، وقوة طرابلس بقيادة مصطفى باشا كما وصل ثمة متطوعين من مصر[٣].

بدأ القتال في ربيع سنة ٩٨١هـ. ١٥٧٤م، ونجح العثمانيون في الاستيلاء على حلق الواد بعد أن حوصروا حصاراً محكماً[٤]، وقامت قوات أخرى بمحاصرة مدينة تونس، ففر الإسبان الموجودون فيها ومعهم الملك الحفصي محمد بن الحسن إلى البستيون[٥] التي بالغ الإسبان في تحصينها وجعلوها من أمنع الحصون في الشمال الأفريقي.

توجه العثمانيون بعد تجمع قواتهم إلى حصار البستيون وضيق العثمانيون الخناق على أهلها من كل ناحية، وباشر الوزير سنان الحرب بنفسه كواحد من الجند حتى أنه أمر بعمل متراس يشرف منه على قتال من في البستيون، كما كان ينقل الحجارة والتراب على ظهره مثل الجنود، فعرفه أحد أمراء الجنود فقال له: ما هذا أيها الوزير؟ نحن إلى رأيك

---

[١] الأتراك العثمانيين في أفريقيا الشمالية، ص: ٢٥١.

[٢] المصدر السابق، ص: ٢٥٠.

[٣] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٤٠٠.

[٤] تاريخ الجزائر الحديث، ص: ٥١.

[٥] البستيون : قلعة بناها الإسبان بجانب تونس.

أحوج منا إلى جسمك، فقال له سنان: لا تحرمني من الثواب. وشدد سنان باشا في حصاره على البستيون حتى استطاع فتحه[1].

لجأ الحفصيون إلى صقلية حيث ظلوا يوالون الدسائس والمؤامرات والتضرعات لملوك إسبانيا سعياً لاسترداد ملكهم، واتخذهم الإسبان آلات طيعة تخدم بها مربهم السياسية حسبما تمليه الظروف عليهم وقضى سقوط تونس على الآمال الإسبانية في أفريقيا وضعفت سيطرتها تدريجياً حتى اقتصرت على بعض الموانئ مثل مليلة ووهران والمرسى الكبير، وتبدد حلم الإسبان نحو إقامة دولة إسبانية في شمال أفريقيا وضاع بين الرمال[2].

١٨. دفاع عن السلطان سليم ووفاته رحمه الله:

وصف المستشرق كارل بروكلمان[3] السلطان سليماً الثاني بأنه اشتهر باسم السكير، وبارتكابه المعاصي والذنوب والكبائر وبمصاحبته صحبة السوء والفسق والعصيان، وتأثر بهذه التهم الدكتور عبد العزيز الشناوي[4] رحمه الله ورد الدكتور جمال عبد الهادي على هذه الاتهامات فقال:

١. شهادة الكافر على المسلم مردودة، فكيف يسمح الكتاب من أبناء المسلمين لأنفسهم بترديد مثل هذه الشهادات والافتراءات على الحكام المسلمين بدون دليل، ألم يتعلموا في مدرسة الإسلام، قال تعالى :" لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا" (النور، آية : ١٢).

ويقول سبحانه :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا" (الحجرات، آية : ٦).

---

[1] حرب الثلاثمائة سنة، ص: ٤٠١.

[2] جهود العثمانيين، ص: ٤٦٠.

[3] الأتراك العثمانيون، كارل بروكلمان (٣/ ١٣٧).

[4] الدولة العثمانية دولة مفترى عليها (١/ ٦٧٢).

٢. إن المستشرقين ومن سار على نهجهم دأبوا على تصوير الحكام المسلمين المجاهدين بصورة السكارى الذين لا يتورعون عن ارتكاب المحرمات بل دأبوا على النيل من دين الله، والأنبياء والرسل عليهم السلام فكيف نأخذ عنهم مع علمنا بأنهم غير أمناء[1].

ثم ذكر أهم أعمال السلطان سليم الثاني التي تدل على نفي التهم التي ألصقت به وتقدم بنصيحة إلى أساتذة التاريخ الذين لا يتحرون الصدق والأمانة العلمية فقال:" نصيحة إلى أولئك الذين لا يتحرون الحقيقة ويرمون الناس في دينهم وخلقهم دون بينة أو دليل أن يتبينوا وليضعوا في الاعتبار أن القذف جريمة، وعليه تقام الحدود، آمل أن ينتبه أساتذة التاريخ ويتورعوا عن إيراد أي شبهة أو تهمة تتصل بأي شخص دون دليل أو بينة.

وليضعوا في الاعتبار أن الله يزن الحسنات، ويزن السيئات ولا يزن السيئات فقط دون الحسنات، والمؤرخ يجب أن يستشعر هذا ويدرك أن الكلمة أمانة وهي شهادة أمام الله، ومن هنا يلزمه التأكد من الخبر قبل أن يورده في كتابه"[2].

إن الدارس لتاريخ الدولة العثمانية في عهد السلطان سليم الثاني يدرك مدى القوة والهيمنة التي كانت عليها الدلوة. طلب نائب البندقية الصليبية في إسطنبول ـ في أعقاب معركة ليبانتو وتحطم الأسطول العثماني ـ مقابلة الصدر الأعظم محمد صوقلو باشا، ليسبر غوره ويقف على اتجاهات السياسة العليا للدولة العثمانية تجاه البندقية، وقد بادره الصدر الأعظم قائلاً: "إنك جئت بلا شك تتحسس شجاعتنا وترى اين هي، ولكن هناك فرق كبير بين خسارتكم وخسارتنا، إن استيلاءنا على جزيرة قبرص كان بمثابة ذراع قمنا بكسره وبتره، وبإيقاعكم الهزيمة بأسطولنا لم تفعلوا شيئاً أكثر من حلق لحانا، وإن اللحية لتنمو بسرعة وكثافة تفوقان السرعة والكثافة اللتين تنبت بهما في الوجه لأول مرة"[3]، وقد قرن الصدر الأعظم قوله بالعمل الفوري الجاد، وإنصافاً للسلطان سليم الثاني فإنه قد

---

[1] أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ، ص: ٦٤.

[2] أخطاء في التاريخ يجب أن تصحح، جمال عبد الهادي، ص: ٦٥.

[3] الدولة العثمانية دولة إسلامية (١/ ٦٧٨).

أبدى تحمساً شديداً لإعادة بناء الأسطول العثماني، فقد تبرع بسخاء من ماله الخاص لهذا الغرض كما تنازل عن جزء من حدائق القصر السلطاني لتبنى فيه أحواض السفن للتعجيل بإنشاء وحدات بحرية جديدة، واستطاع الأسطول الجديد أن يعاود جولاته في البحر المتوسط[1].

إن هذا الموقف يؤكد أن الإدارة القوية ليست مجرد حماس وإنما لابد وأن يقترن ذلك بالعمل الجاد الذي أثمر إعادة بناء الأسطول في فترة وجيزة وفي هذا دليل أيضاً على الرخاء الذي كانت تعيش فيه الأمة، ما فرضت الضرائب وما صودرت أموال ولا قالوا موتوا جوعاً لأنه لا صوت يعلو على صوت المعركة، لقد أنفق السلطان سليم من ماله ومال أسرته لأنه تعلم من مدرسة الإسلام[2]، قال تعالى :" وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ" (الأنفال، آية : ٦٠).

إن مؤرخي الغرب ذكروا أن سبب وفاة السلطان سليم الثاني الإفراط الشديد في تناول الخمر، إلا أن المؤرخين المسلمين يذكرون أن سبب وفاته انزلاق قدمه في الحمام فسقط سقطة عظيمة مرض منها أياماً ثم توفي عام ٩٨٢هـ[3].

السابع عشر: مراحل الحكم العثماني في الجزائر

مراحل الحكم العثماني بالجزائر قد مرت بأربع فترات مختلفة وكل مرحلة تميزت بأسلوب معين في تسيير شؤون البلاد. وتتمثل هذه المراحل أو العصور فيما يلي:

١. عصر الباي لاربايات ١٥١٤ . ١٥٨٧م "٩٢٠ . ٩٩٥هـ".

٢. عصر الباشوات: ١٥٨٧ . ١٦٥٩م "٩٩٥ . ١٠٦٥هـ".

٣. عصر الأغاوات: ١٦٥٩ . ١٦٧١م "١٠٦٥ . ١٠٨١هـ".

---

[1] المصدر السابق (١/ ٦٧٧ ، ٦٧٨).

[2] الدولة العثمانية، جمال عبد الهادي، ص: ٦٦.

[3] تاريخ الدولة العثمانية، ص: ١٢٨.

٤. عصر الدايات: ١٦٧١ ـ ١٨٣٠م "١٠٨١ ـ ١٢٤٦هـ".

١. عصر الباي لاربايات "أمير الأمراء" ١٥١٤ ـ ١٥٨٧م:

يمثل هذا العصر أزهى عصور الحكم التركي في الجزائر حيث ازدهرت البلاد في هذه الفترة من النواحي التعليمية والاقتصادية والعمرانية وذلك بفضل التعاون بين فئة "الرياس" في القيادة وأبناء الجزائر. وقد ساهم في تنمية البلاد وازدهارها مهاجرو الأندلس الذين وظفوا خبراتهم ومهاراتهم في ترقية المهن والبناء العمراني وتقوية الاقتصاد الجزائري. وقد تميزت هذه الفترة من تارخ الجزائر بحقائق يمكن أن نوجزها فيما يلي:

١. دام عهد الباي لاربايات مدة ٧٠ سنة.

٢. يأتي قرار تعيين الحاكم في الجزائر من طرف السلطان العثماني.

٣. كانت السلطة في يد رياس البحر أو جنود البحرية[١].

٤. تحرير برج فنار عام ١٥٢٩م من الإسبان وتحرير بجاية من الاحتلال الغسباني عام ١٥٥٥م وإنهاء الوجود الإسباني في تونس عام ١٥٧٤م.

٥. إزدهرت الجزائر في هذه الفترة التي تميزت الحياة السياسية فيها بالاستقرار وتحالف الجميع ضد العدو الإسباني.

٢. عصر الباشوات ١٥٨٧ ـ ١٦٥٩م:

تعتبر هذه الفترة مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر وذلك لأن السلطان العثماني أراد أن يخفف حدة النزاع بين فئة الرياس وفئة اليولداش وخاصة أن الفئة الأخيرة كانت مستاءة من تمتع فئة الرياس أو جنود البحرية بلقب الباي لاربايات أو أمير الأمراء، ولذلك قرر السلطان العثماني إلغاء هذه الرتبة وتعويضها برتية أخرى هي رتبة الباشا، ونتيجة لهذا التغيير أصبح السلطان العثماني يقوم بتعيين باشا لمدة ٣ سنوات يقوم بإرساله من تركيا ويستدعيه بعد إنتهاء فترة تعيينه، على أن يقوم بإرسال باشا آخر من هناك لكن المشكل

---

[١] أنظر كتاب التاريخ السياسي للجزائر، د. عمار أبو حوش، ص: ٥٧ ـ ٨٠.

هو أن كل باشا معين في الجزائر لمدة قصيرة لا تتجاوز ٣ سنوات كان ينصرف إلى السلب والنهب وجمع الثروة قبل عودته إلى القسطنطينية، وهذا ما دفع باليولداش أو رجال الجيش البري أن يثوروا على الباشوات ويضعفوا نظام الحكم في الجزائر.

وبإختصار فإن هذه المرحلة من تاريخ الجزائر قد تميزت بما يلي:

١. تعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس بعد أن كان هناك حاكم واحد للمنطقة يوجد مقر حكمه بالجزائر.

٢. بدأت تظهر الخلافات والتناقضات بين جنود البحرية الجزائرية "الرياس" وبين جنود البحرية العثمانية وخاصة عند ما حاول الأتراك أن يخضعوا المصالح الجزائرية لمصالح الإمبراطورية العثمانية.

٣. برزت قوة "الرياس" أو قوة رجال البحرية الجزائرية إلى درجة أن دول أوروبا أصبحت تخشى الجزائر وتسعى لإقامة علاقات تعاون معها. وعندما تعثرت المفاوضات قامت الدول المسيحية بشن حملة عسكرية على الجزائر في شهر سبتمبر من عام ١٧٠١م.

٤. حصل في هذه الفترة تصادم وتنافر بين جنود البحرية وجنود القوات البرية "اليولداش" وخاصة أن رجال البحرية كانوا يحصلون على غنائم كبيرة من جراء غاراتهم البحرية الناجحة على أساطيل القوات الأوروبية وهذا الصراع هو الذي تسبب في إضعاف الدولة الجزائرية.

٣. عصر الأغوات ١٦٥٩ . ١٦٧١م:

يعتبر هذا العهد من أقصر العهود وذلك نظراً لإقدام قادة الجيش البري "اليوليداش" على خلع الباشا وتعويض هذا القائد بقائد آخر من فئتهم أطلق عليه اسم "الآغا"، وفي الحقيقة أن هذا الانقلاب قد جاء بمثابة انقلاب على الباشا المعين من طرف الإمبراطورية العثمانية والمدعوم من طرف فئة الرياس ولكي لا يستأثر الآغا بالسلطة فقد تقرر أن يكون الحكم ديمقراطياً، أي يستعين الحاكم بالديوان العالي الذي كان يضم في البداية

أعضاء الفرق العسكرية البرية ثم توسعت العضوية فيه بحيث أصبح يضم ممثلين عن فئة الرياس وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر[1]، وتمشياً مع هذه الخطة فإن الجيش البري هو الذي أصبح يعين الأغا حاكماً للجزائر لمدة سنتين، يترقى بعدها إلى رتبة آغا شرف ويحل محله أغا آخر وهكذا إستفحل الصراع بين الأغوات من جهة، والرياس من جهة أخرى، وكانت النتيجة هي انتشار الفوضى وانعدام الأمن واستياء تركيا من انفصال حكام الجزائر عنها وقطع كل المساعدات عنهم، وفي عام ١٦٧١م إنهار نظام الأغوات وحل محله نظام الدايات، وباختصار فإن هذه الفترة القصيرة من نظم حكم الأغوات في الجزائر قد تميزت بما يلي:

١. إضمحلال نفوذ السلطان العثماني وغياب السيادة العثمانية في الجزائر.

٢. استفحال الصراعات المحلية سواء بين ضباط الجيش البري أو ضابط الجيش البحري، وتذمر أبناء الشعب من الفساد السياسي وانتشار الفوضى في البلاد.

٣. نجح "اليوليداش" في قلب نظام الحكم والإنفصال عن العثمانيين والحد من سلطة الرياس لكنهم فشلوا في إنتشار نظام سياسي ديمقراطي ناجح.

٤. كان الإنقلاب على الباشوات عبارة عن انتقام من طائفة أو فئة الرياس التي كانت كلمتها مسموعة في عهد الباشوات.

٤. عصر الدايات ١٦٧١ . ١٨٣٠م:

لقد استفاد حكام الجزائر من تجارب الحكم السابقة في هذا البلد بحيث حاولوا ترضية السلطان العثماني وتقوية مركز الحاكم "الداي" وذلك عن طريق تعيينه في منصبه مدى الحياة بناء على اقتراح من الديوان العالي وتعيين رسمي من طرف السلطان العثماني، وبكلمة مختصرة فإن الجزائر قد أصبحت دولة مستقلة عن تركيا وخاصة أن الداي أصبح

[1] محمد احسان الهندي، الحوليات الجزائرية، دمشق العربي للأعلان والنشر والطباعة والتوزيع ١٩٧٧م، ص: ٤٣.

ينتخب من طرف الديوان العالي "المجلس" الذي صار بمثابة برلمان في عصرنا الحالي، والسلطان العثماني لا يلعب أي دور في اختيار داي الجزائر وينحصر دوره في إصدار مرسوم أو فرمان لتثبيت اختيار الديوان العالي بالجزائر، وفي حالة شغور المنصب فإن الديوان العالي هو الذي يختار خليفته بنفس الأسلوب الآنف الذكر، وعندما حاول السلطان العثماني في عام ١٧١١م أن يقوم بتعيين حاكم على الجزائر قام داي الجزائر علي شاوس بطرده وتنصيب نفسه لدلاً منه، وعليه فإن تركيا قد احتفظت لنفسها بسلطان شكلية في الجزائر تمثلت بصفة خاصة في الدعاء للسلطان العثماني في صلاة الجمعة، والاعتراف بمراسيم التعيين والتعاون في مجال الحروب بحيث تقوم الجزائر بتقديم المساعدة العسكرية للبحرية التركية في حالة تعرض تركيا لاعتداء خارجي "كما حصل في معركة نافارين سنة ١٨٢٧م".

وبدون شك فإن عصر الدايات ١٦٧١ . ١٨٣٠م هو عصر القوة العسكرية والحاكم هو الذي يختار وزراءه بحرية تامة ويشكل مجلس الدولة بأسلوبه الخاص، لكن إنصافاً للحقيقة ينبغي أن نقول بأن نفوذ الجيش البحري الرياس وازدياد نفوذ الدايات لم يخدم أبناء الجزائر الأصليين ولم يستجب لمطالبهم، ولهذا فإن هذه القوات العسكرية والسياسية قد توجهت لخدمة مصالحها وتحقيق الغنائم لقادتها، وبالتالي فإن العناصر الجزائرية الأصل بقيت على الهامش ولم تكن لها مشاركة حقيقية في قيادة البلاد.

ومع كل هذا ينبغي أن نؤكد على حقيقة أساسية وهي أن الدولة الجزائرية في عهد الدايات قد تمتعت بحرية العمل في المجال السياسي وبنت جيشاً قوياً وعندها ميزانية مستقلة لا تقل أهمية عن ميزانيات الدول القوية في تلك الفترة وقد كان الداي يعقد المعاهدات بإسم الجزائر ويبعث بقناصل الجزائر إلى الدول الكبرى ويوافق على اعتماد القناصل في الجزائر بدون مشاورة تركيا، ويعلن الحرب ويستعمل العملة الخاصة بالجزائر وهذه العوامل كلها تبين استقلالية القرار الجزائري.

وبإختصار فإن فترة حكم الدايات قد تميزت بخصائص يمكن إيجازها فيما يلي:

١. في عهد الدايات تحول جنود البحرية من جنود مناضلين ومقاتلين ضد القوات المسيحية المناهضة للإسلام، إلى رجال يبحثون عن الغنائم لأنفسهم وللحكام.

٢. اهتم حكام الجزائر في القرن السابع عشر والثامن عشر بجمع الثروة من العمليات الحربية في البحر، ولم يهتموا بتطور الدخل من الثروة الفلاحية وتوفير الغذاء للسكان.

٣. نتيجة لاعتماد الحكام على الحروب والصراعات الداخلية بين فئات الجيش فقد لقي العديد من الحكام مصرعهم على يد المجموعات المعادية لهم بحيث أصبحت قضية اغتيال المسؤولين عملية عادية.

٤. تمكن حكام الجزائر في هذه المرحلة الأخيرة من القضاء نهائياً على الوجود الإسباني في الجزائر وخاصة في سنة ١٧٩٢م حيث تمكن قادة الجزائر من طرد الجيش الإسباني من وهران والمرسى الكبير.

الثامن عشر: التنظيم الإداري للجزائر في العهد العثماني

عندما يحاول الإنسان دراسة التنظيم الإداري الذي كان سائداً بالجزائر في العهد التركي فإنه يصطدم بحقيقة واضحة للعيان وهي أن تغير الحكام وتغير تسمياتهم واختلاف تصرفاتهم وطرق حكمهم تدفع بالكاتب إلى إبداء آراء عامة يغلب عليها طابع الشمولية في بعض الأحيان ولهذا فإن الأفكار الواردة في هذا التحليل تعبر عن النظام العام الذي تميزت به هذه الفترة الغامضة من تاريخ الجزائر.

وبصفة إجمالية فإن الدولة الجزائرية في العهد العثماني كانت عبارة عن جمهورية عسكرية تربطها بتركيا علاقات دينية واتفاقات شكلية، وقد اعتبر حكام الجزائر أنفسهم حلفاء للسلطان العثماني ويتعاملون مع قادة الدول الأوروبية بصفة مباشرة ويبرمون الاتفاقيات التجارية معهم ويتفاوضون مع جميع الدول إنطلاقاً من مبدأ الدفاع عن مصالح الجزائر

وليس مصلحة تركيا، وتظهر هذه السياسة الجزائرية بوضوح في تجاهل الدول الأوروبية للوجود التركي بالجزائر وتعاملهم مباشرة مع حكام الجزائر، وفي نهاية القرن التاسع عشر اقدمت فرنسا على إقامة علاقات دبلوماسية بينها وبين الجزائر مماثلة لتلك العلاقات الموجودة بينها وبين المغرب الأقصى الذي لم يكن خاضعاً للسيادة العثمانية بحيث أطلقت على ممثلها السياسي بكل من المغرب والجزائر لقب: مكلف بالأعمال[1].

وباختصار فإن السلطة المركزية بالجزائر العاصمة هي التي كانت توجه دفة الأمور السياسية بالبلاد. وحسب التقسيم الإداري الموجود في عهد الدايات، فإن الجزائر كانت مقسمة إلى أربعة مقاطعات إدارية تتمثل في الآتي:

١. دار السلطان:

وهي عبارة عن مقاطعة إدارية توجد في الجزائر العاصمة ونواحيها يوجد بها مقر نائب السلطان العثماني أو الداي، وتمتد هذه المقاطعة من مدينة دلس إلى مدينة شرشال غرباً ويحدها من الجنوب بايليك التيطري.

٢. بايليك الشرق:

ويعتبر من أكبر الولايات الموجودة في الجزائر حيث أنه يمتد من الحدود التونسية شرقاً حتى بلاد القبائل الكبرى غرباً ويحده من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب الصحراء وكانت مدينة قسنطينة عاصمة هذه المقاطعة.

٣. بايليك الغرب:

الذي كانت عاصمته مازونا حتى سنة ١٧١٠م ثم مدينة معسكر، وعندما إسترجعت مدينة وهران من الإسبان في سنة ١٧٩٢م صارت هي عاصمة هذه المقاطعة، وكانت هذه المقاطعة تمتد من الحدود المغربية غرباً إلى ولاية التيطري شرقاً، ومن البحر شمالاً إلى الصحراء جنوباً وتأتي في الدرجة الثانية من ناحية المساحة أي بعد ولاية قسنطينة.

[1] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ص: ٢٢.

٤. بايليك التيطري:
كانت عاصمته مدينة المدية، وهو أصغر ولايات القطر يحده من الشمال سهل المتيجة ومن الجنوب الصحراء.

التاسع عشر: التنظيم السياسي للدولة

إنه لمن الإنصاف أن نقول بأن وحدة التراب الجزائري وبروز قيادة سياسية متمركزة بالجزائر العاصمة قد تدعمت بشكل ملحوظ في العهد التركي، ففي عهد الأتراك قامت القيادة السياسية بتحرير جميع المناطق التي كانت تحتلها قوات الدول المسيحية وتعيين المسؤولين المحليين في جميع المقاطعات الإدارية التي تشتمل عليها الدولة الجزائرية وباختصار فإن التنظيم السياسي للدولة الجزائرية في الفترة الأخيرة من العهد العثماني "عهد الدايات" كان كالتالي:

أولاً الداي: هو رئيس الدولة "الحاكم الأعلى" وهو القائد العام للجيش في البلاد وبصفته المسؤول الأول عن سياسة الجزائر، فقد كان يمارس كل صلاحيات رئيس السلطة السياسية المتمثلة في تطبيق القوانين المدنية والعسكرية، توقيع المعاهدات استقبال السفراء المعتمدين لدى الجزائر اختيار وزراءه وحكام المقاطعات أو الولايات، والإشراف بنفسه على مراقبة إيرادات الدولة وخزينتها[١].

وفي العادة يتم انتخاب الداي من طرف أعضاء الديوان العالي الذي يتكون من رؤساء الوحدات العسكرية وبعض كبار المسؤولين في الدولة، وقد كان عدد أعضاء الديوان العالي يتراوح بين ٨٠ و ٣٠٠ عضو، وحين يختلف أعضاء الديوان العالي يرفعون العلم الأحمر، وإذا اتفقوا على انتخاب داي جديد فإنهم يرفعون العلم الأخضر.

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٤٩.

وقد جرت العادة أن يتفرغ الداي للحكم بمجرد انتخابه وتنصيبه في عمله في قصر الجنينة ولا يسمح له بالخروج من القصر إلا مرة واحدة في الاسبوع حيث يذهب إلى بيته لقضاء أمسية وليلة واحدة مع عائلته وأولاده ثم يعود إلى القصر لاستئناف عمله، وجرت العادة أن يخصص كل صباح لاستقبال المواطنين والنظر في الشكاوي والمظالم التي تعرض عليه لكي يفصل فيها بالعدل والإنصاف، ثم يتفرغ في كل مساء لتسيير شؤون الدولة والاجتماع بوزرائه واستقبال رؤساء البعثات الأجنبية المعتمدين بالجزائر.

ويلاحظ هنا أن الداي كان يتقاضى راتبه على أساس رتبته العسكرية في الجيش بصفته أغا ولهذا تقرر أن يحصل على أموال إضافية ومساعدات تتمثل في هدايا ثمينة يتلقاها من البايات الثلاث لتغطية نفقاته ورواتب حراسه، كما كان يحصل الداي على هدايا ثمينة من كبار موظفي الدولة عند تنصيبهم في وظائفهم، ومن القناصل الأجانب الذين يعينون بالجزائر ونسبة محدودة من غنائم الغزوات البحرية، وأكثر من ذلك فإن الداي كان يتولى بنفسه الإشراف على تسيير مؤسسات تجارية وذلك بقصد جلب أموال لخزينة الدولة، وفي حالة وفاته أو عزله فإن هذه الأموال التي يحصل عليها الداي تحول إلى خزينة الدولة.

ثانياً الديوان "مجلس الوزراء": كان ديوان الداي هو الساعد الأيمن لرئيس الدولة لأنه يضم الشخصيات المقربة إليه والتي يعتمد عليها في تنفيذ سياسة الحكومة التي يقودها الداي، والديوان في الحقيقة هو بمثابة مجلس الوزراء في يومنا هذا، وقد أشتهر باجتماعاته اليومية لدراسة المسائل العادية المسجلة في جدول أعمال الديوان، أما اجتماع يوم السبت فكان يخصص لدراسة المسائل ذات الأهمية[١]، وحسب بعض الدراسات فإن هذا الديوان يتكون من ٣٥ شخصية مدنية وعسكرية تشرف على تسيير شؤون الدولة في المسائل المالية والعدالة والأمن. وبالإضافة إلى القاضي والمفتي وغيرهما من الشخصيات

---

[١] جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، ص: ١٠٦ ـ ١٠٧.

المرموقة التي كانت تعمل في اطار الديوان فإن الداي كان يستعين بالعناصر القوية التي كانت تساعده في أداء مهامه وتتمثل هذه العناصر في:

١. الخنزناجي: وهو بمثابة وزير المالية حيث كان مسؤولاً عن خزينة الدولة، ولا يمكن أن تفتح إلا بحضوره لأنه هو الوحيد الذي يحتفظ بمفاتيح الخزينة العامة.

٢. الأغا: وهوقائد الجيش البري "بما في ذلك فرق الإنكشارية ووحدات الخيالة العرب والمتطوعون".

٣. خوجة الخيل: هو المشرف على أملاك الدولة حيث يعتبر المسؤول الأول عن جمع الضرائب وصيانة أملاك الدولة وإعادة استثمارها والاتصال بالقبائل عند تعاملها مع الحكومة.

٤. بيت المالجي: هو المسؤول عن جميع المسائل المتعلقة بالوراثة وتحديد نصيب خزينة الدولة من الوراثة أو من الأملاك التي تصادر سواء بسبب عزل الموظفين أو وفاة أصحاب الثروة أو غيابهم عن الجزائر، وفي حالة غياب صاحب الثروة، فإن المسؤول يتولى تسيير العقارات والأموال الموروثة، وعند وفاة المسؤول عن بيت المالجي فإن جميع أمواله والثروات المتوفرة لديه تذهب إلى خزينة الدولة.

٥. وكيل الخرج: وهو المكلف بالشؤون الخارجية مع الدول الأجنبية وعن كل ما له علاقة بالبواخر والتسليح والذخيرة والتحصينات ومواجهة الخصوم في عرض البحر الأبيض المتوسط.

٦. الباش كاتب: هو الأمين العام للحكومة حيث يتولى تسجيل صياغة وجميع القرارات التي يتخذها الديوان في اجتماعاته اليومية تحت إشراف الداي، وفي جميع القرارات التي يتخذها الديوان كان الباش كاتب يبدأ بكتابة العبارة التقليدية التالية "نحن باشا ديوان جند الجزائر المنيع"[١].

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٥٣.

وبالإضافة إلى كبار هؤلاء المسؤولين في الدولة الذين يعتمد عليهم الداي في تنفيذ سياسته بالبلاد، كان هناك موظفون سامون يقومون بأعمال محددة تدل على حسن التنظيم السياسي الموجود في الدولة الجزائرية، ومن جملة الوظائف المحددة لهؤلاء المسؤولين نخص بالذكر:

. الكاتب الأول: المسؤول عن المراسلات الخارجية والداخلية للداي، والمشرف على ثلاث سجلات خاصة بأموال الدولة، رواتب الجنود رواتب رجال الجمارك وكل سجل يمسكه كاتب خاص.

. الكاتب الثاني: الذي يتمثل دوره في متابعة ومراقبة السجل الخاص بالجنود وهذا السجل عبارة عن نسخة ثانية من السجل الموجود لدى الكاتب الأول.

. الكاتب الثالث: ويتمثل دوره في متابعة ومراقبة كل المعلومات الموجودة بسجل أموال الدولة وذلك انطلاقاً من النسخة الثانية التي يسلمها له الكاتب الأول.

. الكاتب الرابع: ويتمثل دوره في ضبط السجل الثاني من إيرادات الدولة من الجمارك الذي يسلمه له الكاتب الأول.

. رئيس التشريفات أو البروتوكول وهو بمثابة مدير البلاط وينحصر دوره في تسهيل عمليات الاتصال بين الداي والشخصيات التي يستقبلها، وفي العادة يتميز رئيس التشريفات بمعرفة اللغات الأجنبية بالإضافة إلى العربية والتركية.

. الكاخيا وهو المكلف بحراسة خزينة الدولة والاحتفاظ بمفاتيحها.

. الخزنادار وهو الشخص المسؤول عن خزن المال والاحتفاظ به إلى أن يتلقى الأمر بإنفاقه.

. الحكيم باشي والذي هو رئيس أطباء قصر الداي.

. الشاوش وهو الحاجب أو البواب الذي يتولى مراقبة الدخول والخروج إلى قصر الداي.

ثالثاً الباي: هو بمثابة الوالي في يومنا هذا، ويقوم بأعماله في الأقاليم الذي يشرف عليه نيابة عن الداي الذي هو رئيس الدولة ورمز للسيادة الوطنية.

ومثلما ذكرنا سابقاً فإن الجزائر كانت مقسمة إلى ثلاث مقاطعات أو ولايات هي: بايليك الشرق وبايليك الغرب وبايليك التيطري، بالإضافة إلى الجزائر العاصمة ونواحيها التي كانت تسمى دار السلطان.

والنقطة التي ينبغي التأكد عليها هنا هي أن الباي كان يعتبر من كبار موظفي الدولة والداي هو الذي يختاره من بين الشخصيات المرموقة في المجتمع الجزائري التي تلتزم بدفه رسوم مرتفعة وتقديم هدايا قيمة وفي مستوى هذا المنصب، لكنه في واقع الأمر كان الباي يتصرف بحرية تامة في تسيير ولايته، والداي لا يراقبه وكل ما هو مطلوب من الباي هو إظهار الولاء للداي، وإرسال الضرائب السنوية مع نائب الباي "الخليفة" إلى الداي في وقتها المحدد بدون تأخير، وعندما تنتهي فترة تعيينه في المنصب والتي تدوم ٣ سنوات يتعين على الباي أن يحضر إلى الجزائر العاصمة ويحضر معه جميع أنواع الهدايا التي تساعده على استمراره في عمله أو تعيينه في منصبه إذ كان ذلك لأول مرة، وفي العادة تكون هذه الزيارة بمثابة فرصة سانحة للداي لكي يحاسب الباي ويقرر الزج به في السجن إذا كان قد أخطأ وتجاوز صلاحية ممارسته لوظيفته، ويستخلص من بعض الدراسات أن الداي كان يعتمد على البايات في جمع المال الضروري لتغطية نفقاته ودفع رواتب حراسه. ففي سنة ١٦٨١م كان الداي يتقاضى مرتباً يقدر بحوالي مائة وستة قروش في السنة وهو أعلى مرتب يمكن تقاضيه من طرف ضابط قديم في الجيش بينما كان البايات الثلاثة يدفعون للداي ثلاثة آلاف قرش كل سنة[١].

وبالنسبة لكبار الموظفين في كل ولاية فقد كان الباي يستعين بموظفين سامين في إدارته وهم:

---

[١] جمال قنان، نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث ١٥٠٠ . ١٨٣٠، ص: ١٠٦.

١. الخليفة الذي يعتبر نائباً للباي، وهو الذي يحمل الضرائب السنوية إلى الداي ويمثل في بعض المناسبات.

٢. قائد الدار وهو مسؤول عن حراسة المدينة والعناية بها ودفع رواتب الجنود.

٣. أغا الدائرة وهو قائد الفرسان من العرب التابعين للدولة.

٤. الباشكاتب الذي يعتبر مسؤولاً عن كتابة رسائل الباي ومسك دفاتره المالية.

٥. الباش سيار الذي يقوم بمهمة نقل الرسائل بين الباي والداي.

٦. الباش سايس الذي يتولى العناية بخيول البايليك وتربيتها[1].

رابعاً: الأوطان: هي الوحدات الإدارية الموجودة بكل بايليك أو ولاية ويرأس كل وطن مسؤول يحمل إسم قايد، يتسلم عند تعيينه ختماً وبرنوس أحمر وذلك دلالة على تفويضه السلطة، واعتماده كمسؤول مدني وعسكري في الوحدة الإدارية التي توضع تحت تصرفه، والقايد في العادة هو الممثل الرسمي في منطقته حيث يتكفل بجمع الضرائب والمحافظة على الأمن العام والاتصال بالسلطات العليا عند الضرورة ويتفرع عن كل وطن مجموعة من اندواوير يرأس كل واحد شخص يحمل إسم شيخ الذي يكون في أغلب الأحيان من أبناء القرية أو الدوار الذي يحكمه.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن القياد كان يتم اختياره بناء على مواصفات معينة بحيث ينتمون إلى الأتراك أو إلى الكوروعلي وهم الأشخاص الذين ولدوا من أباء أتراك وأمهات جزائريات، وهذا يعطينا فكرة عن تمسك حكام الجزائر بمبدأ عدم الاعتماد على أبناء البلد الأصليين وحرمانهم من المشاركة في الحكم.

وفي نفس الإطار يجدر بنا أن نشير إلى أن حكام الجزائر قد دأبوا على انتهاج سياسة قمعية ضد السكان الذين لا يتعاونون مع العثمانيين، فمنذ سنة ١٥٦٣م مارس حكام

---

[1] الهندي مرجع سابق، ص: ٥٧.

الجزائر سياسة تقسيم السكان إلى ثلاث مجموعات، المجموعة الأولى وهي قبائل المخزن التي تتحالف مع الحكام وتتعاون معهم في جمع الضرائب والمحافظة على الأمن، ومقابل ذلك يعفى سكان تلك القبائل من دفع الضرائب.

المجموعة الثانية أطلقوا عليه اسم قبائل الدائرة، وهي القبائل التي تلتزم بتمويل الجيش بالرجال والمال عند الضرورة، ومقابل ذلك يدفع أفرادها ضرائب من حين لآخر وبصفة غير منتظمة.

المجموعة الثالثة هي قبائل الرعية وهي القبائل التي لا يتمتع أفرادها بأية امتيازات، ويدفعون الضرائب بإنتظام وتسلط عليهم العقوابات الصارمة إن هم قصروا في ذلك[1].

وبالنسبة لمدينة الجزائر أو دار السلطان، فإن حكام الجزائر قد قاموا بتقسيم سكان الجزائر العاصمة إلى مجموعات عرقية ومهنية ويتعين على كل مجموعة أن تختار زعيماً لها يطلق عليه اسم شيخ يكون همزة الوصل بين مجموعته وبين شيخ البلد "الذي هو بمثابة رئيس البلدية في يومنا هذا" وعليه فإن كل مجموعة عربية وقبائلية وأندلسية مهاجرة ويهودية، كان لها شيخ يمثلها ويتحكم فيها ويحرص على خلق التأييد والدعم للحكومة، أما بالنسبة لأصحاب المهن فقد كان لكل مهنة رئيس يدعى: الأمين هو الممثل الشرعي لأصحاب مهنته في بلديته ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن شيخ البلد كان يتم اختياره من بين وجهاء مدينة الجزائر ويكون دوماً من أصل عربي.

العشرون: نظام القضاء خلال العهد العثماني

لقد كان الداي في الجزائر مصدر السلطة السياسية والقضائية، وفي إمكانية تفويض هذه السلطات إلى البايات والقضاة، لكن إذا كانت الأحكام التي يصدرها القضاة لا تحظى

[1] الهندي مرجع سابق، ص: ٥٨ . ٥٩.

بموافقة الداي في الجزائر العاصمة أو موافقة الباي في إلى مقاطعته، فإنه يكون بإمكان القائد السياسي أن يسحب هذا التفويض من القاضي أو الباي، وبما أن السلطان العثماني كان من المتعلقين بالمذهب الحنفي وسكان الجزائر من المتعلقين بالمذهب المالكي، فقد جرت العادة أن يقوم السلطان العثماني بتعيين المفتي الحنفي ويقوم الداي بتعيين المفتي المالكي، وهذا معناه أنه كانت توجد بالجزائر محاكم خاصة بالمسلمين الذين ينتمون إلى المذهب الحنفي، ومحاكم أخرى خاصة بالسكان الذين ينتمون إلى المذهب المالكي، كما كانت توجد محاكم خاصة بالأسرى المسيحيين، ومحاكم أخرى خاصة باليهود، وفي حالة ما إذا كانت هناك خصومات بين المسيحيين والمسلمين فإن الداي هو الذي يفصل في هذه القضايا.

وفي القضايا المدنية "مثل البيع والشراء والإيجار والزواج والطلاق ...الخ" فقد كان الداي يفوض إلى القضاة لكي ينظروا في القضايا والمنازعات المعروضة عليهم وتنفيذ الأحكام بسرعة، وكل مسلم يحق له أن يعرض نزاعه على القاضي الحنفي أو المالكي سواء كان جزائرياً أو فرنسياً أو مغربياً، وفي العادة يكون القاضي هو صاحب الكلمة الأخيرة في الموضوع ويساعده في عمله أحد أعوانه، بالإضافة إلى كاتبين يقومان بتسجيل الأحكام وتوثيق العقود وكذلك شاوش في المحكمة يتمثل دوره في المحافظة على الأمن خلال جلسات المحكمة والإشراف على تنفيذ الأحكام التي يصدرها القاضي، ولم تكن الدولة هي التي تدفع مرتبات القضاة، وإنما يحصلون على رسوم ومبالغ مالية عن كل عقد يسجلونه ويضعونه ختماً عليه، وفي القرى والمناطق النائية، كان القاضي يقوم بتدريب المساعدين له ويرسلهم إلى القرى الصغيرة لكي ينظروا في القضايا المعروضة عليهم ويصدروا الأحكام نيابة عنه، ويطلق على هذا الشخص اسم الوكيل.

وبالنسبة للطعن في أحكام القضاة، فقد جرت العادة أن ترفع الطعون إلى المجلس الشريف، الذي يضم القاضي المالكي والقاضي الحنفي، والمفتي المالكي والمفتي الحنفي، وفي كل يوم خميس يجتمع أعضاء المجلس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة وينظرون في الطعون المقدمة إليهم داخل المسجد، أما إذا كان المتخاصمون من غير المسلمين، فإن القضاة يخرجون إلى صحن الجامع لكي يستمعوا إلى المشتكين.

أما بالنسبة للمسائل الجنائية "مثل القتل والسرقة والخيانة والتآمر ..الخ" فقد كانت من اختصاص الداي أو الباي، وفي المسائل البسيطة فإن الداي يفوض للقيادة والشيوخ أو الباي لكي يعاقبوا المخالفين، أما القضايا الخطيرة فإن الداي أو الباي هو الذي يصدر الحكم وفي دار السلطان أو العاصمة ونواحيها، فإن الداي يفوض خوجة الخيل لكي يحاكم العرب، والأندلسيون يحاكمون من طرف الكيخيا، والأتراك من طرف الأغا، وفي العادة توجد لدى الداي أو الباي مجموعة من رجال الأمن تتكون من ١١ شاوش يرتدون اللباس الأخضر وهم الذين يقومون بتنفيذ حكم الإعدام في المسلمين غير الأتراك وذلك أمام دار الحكومة، وبالنسبة لعملية الشنق فقد كانت تتم في باب عزون، أما العبيد فكانوا يشنقون أمام السجن الذين كانوا موقوفين فيه، والمسيحيون كانوا يشنقون، أما إعدام اليهود فكان يتم حرقاً في باب الواد، وإذا قام أي شخص بقتل أي تركي فإن العقوبة تكون برمي الفاعل من المرتفعات إلى البحر، وإذا لم يتم التعرف على القاتل فإن سكان الحي الذي توجد فيه الجثة يتعرضون لعقوبة جماعية[١].

وبإختصار فإن الأتراك كانت لهم امتيازات مقارنة بالأهالي حيث كانوا يعاقبون سراً في دار أغا الإنكشارية حتى لا تهان كرامتهم، أما بقية السكان فكانت الأحكام قاسية ومجحفة بالنسبة إليهم، وعند إدانتهم والحكم عليهم بالإعدام تعلق جثثهم أو تحرق حتى يكونوا عبرة لغيرهم من السكان، وبما أن القاضي ومساعديه لم يكونوا يتلقون رواتب

---

[١] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٦٥ . ٦٧.

حكومية فقد كانت الرشوة متفشية والرسوم مرتفعة والأحكام التي يصدرها القضاة أو الداي أو نوابهم في الأرياف لا رجعة فيها تقريباً.

الحادي والعشرون: الحياة الاجتماعية والسياسية في العهد العثماني

تشير بعض الدراسات إلى أن عدد سكان الجزائر العاصمة قد بلغ خلال القرن السابع عشر حوالي ١٠٠,٠٠٠ نسمة، منهم ٣٠,٠٠٠ أوروبي، وعند احتلال الجزائر من طرف فرنسا عام ١٨٣٠م لم يكن في العاصمة سوى ٣٢,٠٠٠ ساكن، منهم ١٨,٠٠٠ عربي، ٤,٠٠٠ تركي، ١,٠٠٠ قبائلي، ٢,٠٠٠ زنجي، ٢,٠٠٠ كولوغلي "أي ينحدر من أب تركي وأم جزائرية" و٥,٠٠٠ يهودي[1]، ولكن عدد السكان الجزائريين بدأ يتضاءل تدريجياً بسبب الأوبئة والمجاعات والانتقال إلى الريف للتهرب من دفع الضرائب والضغوطات السياسية.

وبالرغم من عدم وجود إحصائيات رسمية عن سكان القطر الجزائري في العهد العثماني، فإن بعض التقديرات تشير إلى أن سكان الجزائر في نهاية العهد العثماني كان يتراوح بين ثلاثة ملايين وثلاثة ونصف مليون نسمة، وأن ٥% من هؤلاء السكان كانوا يعيشون في المدن، و ٩٥% من السكان الجزائريين كانوا يعيشون في الريف[2].

وحسب التنظيم الإجتماعي السائد بالبلاد في نهاية حكم الداي فإن التقسيم الإجتماعي والمهني كان كالتالي:

[1] محمود إحسان الهندي، الحوليات الجزائرية، ص: ٧٤ ، ٧٥.

[2] ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ص: ٤١.

١. الطبقة الأرستقراطية التركية: وهي الفئة المسيطرة على الجزائر حتى نهاية الحكم العثماني بالجزائر في سنة ١٨٣٠م، وبالرغم من قلة عدد أفراد هذه الجالية التي لم يتجاوز عدد أفرادها سنة ١٨٣٠م ٢٠,٠٠٠ نسمة فإنها كانت قوية وذات نفوذ واسع في البلاد، ويحرص أفرادها على إبقاء المناصب الحكومية بين أيديهم، وعزل السكان الأصليين للبلاد عنهم حتى لا ينافسوهم في السلطة والنفوذ وتميز الأتراك عن غيرهم من السكان باتباع تقاليد تركية والافتخار بأعمالهم العسكرية والاعتزاز بلغتهم الأصلية والعزوف عن خدمة الأرض. وكان معظم الأتراك يفضلون كسب عيشهم من المرتبات التي يحصلون عليها من خزينة الدولة أو من إيجار المحلات التي تحمل أسماءهم أو من إيجار البساتين التي يملكونها في المناطق التي يقيمون بها، ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أن الأتراك كانوا يفضلون استقدام ابناء وطنهم من منطقة الأناضول في حالة الاحتياج إلى آخرين، ويرفضون باستمرار تشغيل أبناء البلد إلا عند الضرورة.

ولهذا بقيت العلاقة بين الأتراك وسكان الجزائر تتصف بالجفاء والعداء والنفور حتى يوم مغادرة الأتراك لأرض الجزائر. وهذا السلوك يختلف عن سلوك أتراك آخرين في تونس ومصر حيث عملت الأسرة الحسينية في تونس على خلق التقارب والتعاون بين أبناء البلد والحاكمين الأتراك، ونفس الشيء حصل في عهد محمد علي حيث حصل تقارب بين سكان مصر والطائفة التركية بذلك البلد.

٢. جماعة الكراغلة: وهي الجماعة التي برزت إلى الوجود وتميزت عن السكان إلى درجة أن عددهم بلغ في نهاية القرن الثامن عشر بمدينة الجزائر حوالي ٦,٠٠٠ نسمة، كما تزايد عددهم بشكل ملحوظ في مدينة تلمسان وبالرغم من انتمائهم إلى آباء من أصل تركي، فإن الكراغلة لم يحصلوا على امتيازات أو يشاركوا في الحكم، ولم يكن لهم الحق في الانتساب إلى الجيش أو الحصول على مناصب إدارية بحكم أنهم قد يتحالفون مع أبناء

الجزائر الأصليين. وكان الكراغلة يملكون ثروات ويستثمرونها في المزارع ويترفعون عن خدمة الأرض أو القيام بأعمال يدوية.

٣. المهاجرون الأندلسيون: كانوا يشكلون قوة تجارية هائلة بالجزائر حيث ساهموا في تنمية التجارة وإنشاء صناعات رفيعة بالبلاد، وقد ارتفع عددهم بالجزائر بعد أن قامت إسبانيا بطردهم بصفة جماعية سنة ١٦١٠م، وبما أنه لم يكن في إمكانهم الالتحاق بالجيش والوظائف العليا بالدولة، فقد توجه معظمهم إلى التجارة والصناعة حيث أظهروا مهاراتهم وكفاءاتهم بفضل الأموال التي جلبوها معهم من الأندلس وخبرتهم الكبيرة في ميادين صناعة الأسلحة والبارود والنجارة والخياطة وصناعة الخزف، وقد اشتهروا أكثر من غيرهم في تجارة الجملة وتمويل السفن بالبضائع، كما اشتهروا بإنتاج الحرير في مدينة القليعة وزراعة قطن جديد في مستغانم.

أما أبناء البلد الأصليين فقد كان معظمهم يشتغلون بالزراعة والتجارة وتميز بني مزاب بتواجدهم في الحمامات العمومية والمجازر والمطاحن، أما الزنوج فكانوا يشتغلون كغسالين وخبازين وخدم.

٤. فئة اليهود: بالرغم من وجود عدة فئات أجنبية مسيحية فإن الجماعة النشيطة التي إرتفع شأنها في الجزائر هي جماعة اليهود لأن اليهود كانوا يتعاملون مع الداي وقادة الجيش الرياس، ويقومون بشراء وبيع البضائع أو الغنائم التي يحصل عليها رجال الجيش، كما اشتهر اليهود بعمليات السمسرة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية إلى درجة أنه أصبح من الصعب على أي عربي أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجورة من أحد اليهود[١]، وقد اغتاظ سكان الجزائر من الكسب الفاحش والأموال الهائلة التي تحصل عليها على حساب الدولة الجزائرية وسكانها إلى درجة أن أحد الجنود الإنكشاريين

---

[١] سعيدوني، مرجع سابق، ص: ٤٦.

غامر بحياته وأقدم يوم ٢٨ جوان ١٨٠٥م على قتل زعيم الجالية اليهودية نفتالي بوشناق عند خروجه من قصر الجنينة حيث خاطبه بعبارته المشهورة "السلام عليك يا ملك الجزائر" ونتج عن هذا الاغتيال نهب الحي اليهودي وقتل الداي مصطفى "١٧٩٨ - ١٨٠٥م" المتعامل مع كبار اليهود وذلك يوم ٣٠ أوت ١٨٠٥م[1].

الثاني والعشرون: أسباب التدهور السياسي والاقتصادي بالجزائر

لقد كان حوض البحر الأبيض المتوسط من أكثر المناطق في العالم حيوية ونشاطاً من حيث التجارة والقيام بهجومات عسكرية على المدن الساحلية واحتلالها، وفرض الرسوم المالية عليها لكي يعيش سكانها في سلام، وقد ازدهرت تجارة الرقيق والاستيلاء على البواخر التي تحمل بضائع، والقرصنة خلال الحروب الصليبية، وانتشرت القرصنة بصفة خاصة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط منذ اليوم الذي سقطت فيه غرناطة سنة ١٤٩٢م بيد المسيحيين الإسبان الذين كانوا يلاحقون المسلمين الفارين من بطشهم حتى مدن المغرب العربي الساحلية التي لجأوا إليها، وكان هذا دافعاً قوياً للجزائر لكي تحمي المسلمين وتصد غارات المسيحيين البحرية عليها وتحمي تجارة المسلمين، وفي الحقيقة أن الجزائريين لم يكن هدفهم القيام بالقرصنة وإنما الجهاد والدفاع عن وطنهم وعن بلد هم اسياده، كما أن العمليات الحربية كانت موجهة ضد أساطيل الدول التي تعتدي

---

[1] المصدر السابق، ص: ٤٧.

عليهم وتستولي على بواخرهم ولم تكن الغاية من الهجومات على السفن الأجنبية هي الحصول على الغنائم فقط[1].

وبإختصار فإن قوة الدولة الجزائرية في العهد التركي كانت مستمدة من وجود جيش بحري بلغت قوته في عهد الرايس حميدو ما يقرب ٥٠٠ قطعة بحرية يعمل على متنها ما بين ٣٠,٠٠٠ و ٤٠,٠٠٠ بحار، وبفضل هذا الأسطول البحري تمكنت الجزائر من:

١. مساعدة مهاجري الأندلس وحمايتهم من إعتداءات القراصنة المسيحيين.

٢. التصدي للغارات البحرية التي كان يشنها الأوروبيون على مدن المغرب العربي وسفن المسلمين التجارية.

٣. القيام بعمليات تحريرية لطرد الغزاة الإسبان من مدن المغرب العربي التي تمكنوا من النزول بها مثل جيجل عنابة بجاية وهران تونس مراكش.

٤. الاشتراك مع القوات البحرية العثمانية لصد غزوات التحالفات الأوروبية الصليبية ضد الجيوش الإسلامية.

٥. حماية التجارة الوطنية وإغناء الخزينة بعائدات مالية جاءت من الغنائم الحربية[2].

وفي الحقيقة أن مشكلة الرياس أو الجيش البحري الجزائري تنبع من ارتباط القيادة بتركيا حيث أن التعاون بينهما في البداية وخاصة عندما كانت تركيا في أوج عظمتها وعزتها، قد عزز مكانة الجيش البحري في الجزائر الذي كان يحصل على غنائم ويفرض رسوماً مالية على الدول التي تمر بواخرها عبر السواحل الجزائرية، لكن ضعف تركيا أثر سلبياً على حكام الجزائر حيث كان من الصعب عليهم مواجهة الدول الأوروبية التي تحالفت فيما بينها ضد الجزائر والنقطة الثانية التي ينبغي أخذها بعين الاعتبار هي أن فرنسا قد ساهمت إلى حد كبير في إضعاف الجزائر، ففي عام ١٥٧٧م تمكن الفرنسيون من تعيين قنصل لهم في مدينة الجزائر، ثم استطاعوا في السنة التالية أن يحصلوا على إذن بالبحث

[1] جلال يحيى، المغرب الكبير في العصور الحديثة وهجوم الإستعمار، ص: ٤٩ . ٥٤، وص ٨٧ . ١٠٦.

[2] عبد القادر زبادية، الصادق الغولي، صالح السماوي، تاريخ المغرب العربي الحديث، ص: ٣٧ . ٣٨

عن المرجان في سواحل الشرق الجزائري وتعهدوا بدفع ضرائب ولكن بشرط أن لا يقيموا أية تحصينات على الشواطئ، وبطبيعة الحال لم يحترم الفرنسيون هذه التعهدات وقاموا بتحصين المركز التجاري الذي أقاموه بالقرب من مدينة عنابة وأطلقوا عليه اسم باستيون، وذلك بالرغم من معارضة السلطان العثماني، وفي سنة ١٦٠٤م أظهر الأتراك إستياءهم من إقدام فرنسا على شراء القمح من الأهالي وبيعه إلى أوروبا في حين أن القحط قد عم بلاد الجزائر، والسكان يعانون من مجاعة، ولذلك قاموا بتهديم المركز التجاري الفرنسي مرتين عام ١٦٠٤ وعام ١٦٣٧م، لكن الباي اضطر إلى بناء الباستيون مرة ثالثة سنة ١٦٤٠م وذلك لتهدئة سكان المنطقة الذين قاموا بالثورة على الباي لأنهم ينتفعون بالاتجار مع الفرنسيين، وبعد نجاح الثورة الفرنسية في عام ١٧٧٩م وفرض الحصار عليها من طرف الدول الأوروبية المناهضة لفرنسا، قامت الجزائر بتأمين الغذاء الضروري من القمح إلى الدولة الفرنسية، وعندما طالب التاجران الإيطاليان سنة ١٧٩٧م بكري وبوشناق "وهما من أصل يهودي ويقيمان في الجزائر" ثمن القموح المصدرة إلى فرنسا أجابت الدولة الفرنسية بأنها ترفض دفع الأموال لليهودين لأن عليهما ديون للفرنسيين الذين التجأوا إلى المحاكم الفرنسية للمطالبة بأموالهم، وهكذا تطور النزاع بين الجزائر وفرنسا لأن الداي حسين لا يستطيع الحصول على الأموال التي توجد في ذمة بكري وبوشناق مادامت فرنسا ترفض دفوع ديونها إلى التاجرين اليهودين.

وفي عام ١٨٢٤م أرسل الداي ثلاثة رسائل إلى الحكومة الفرنسية بشأن الأموال الموجودة في فرنسا ولكنها لم تقدم له أي جواب، وفي تلك الفترة علم حسين باشا بأن فرنسا قد قامت بتسليح مركز الباستيون، وذلك بالرغم من وعد الشرف الذي قطعه قنصل فرنسا دوفال بعدم تحصين المراكز التجارية الفرنسية، فزاد هذا الخبر من غضب الباشا وانتهز فرصة قدوم القنصل الفرنسي دوفال للتهنئة بعيد الفطر يوم ٢٩ أفريل ١٨٢٧م فاستفسر منه عن سبب عدم رد الحكومة على رسائله، وهنا أجابه القنصل دوفال: "أن ملك

فرنسا وشعبها لا يحررون لك ورقة ولا يرسلون رداً حتى على رسائلك المرسلة"، وآنذاك نهض الداي من مكانه محتداً وضرب القنصل بالمروحة التي كانت بيده مرة أو ثلاثة، وكانت نتيجة هذه اللطمة هي إعلان الحرب على الداي يوم ١٦ جوان ١٨٢٧م ومحاصرة مدينة الجزائر بحراً إلى أن تم الاستيلاء عليها ٥ جويلية ١٨٣٠م[1].

والنقطة الثالثة التي ينبغي أن نشير إليها بالنسبة لتدهور الأوضاع السياسية والاقتصادية بالجزائر في مطلع القرن التاسع عشر هي أن التحالف بين الدول الأوروبية ضد الجزائر وإجبارها على عدم مهاجمة السفن الحربية والتجارية للدول الأوروبية التي تمر بالبحر الأبيض المتوسط، قد أثر سلبياً في الوضع المالي والسياسي للجزائر، فبالرغم من التبريرات التي قدمها الداي حسين إلى الدول الكبرى التي قررت في مؤتمر فيينا ومؤتمر إكس لاشابيل سنة ١٨١٨م، أن تعتبر أن كل نيل أو مساس بتجارة إحدى الدول الأوروبية ينتج عنه رد فعل سريع من طرف الدول الأوروبية المتحالفة فإن بريطانيا لم تقتنع بتبريرات الداي وقامت بمحاصرة ميناء الجزائر والهجوم على البواخر الراسية فيه وذلك يوم ١٢ جويلية ١٨٢٤م، وقد حاول الداي حسين أن يقنع الدول الكبرى بأن الجزائر لا تستطيع أن تتخلى عن حقها في التعرف على البواخر الأجنبية لأن هذه الوسيلة الوحيدة للتعرف على البواخر العدوة من الصديقة، لكن بريطانيا وروسيا والنمسا وهولندا، كانت مصممة على تجريد حكومة الجزائر من الدخل المالي الأساسي لخزينتها وبذلك يصعب عليها دفع مرتبات جنودها والمحافظة على ولائهم لها، وهذا ما حصل بالضبط حيث أن قلة المدخول من الغنائم والجمارك جعل خزينة الداي شبه فارغة وهو غير قادر على دفع مرتبات جنوده[2].

والنقطة الرابعة التي تجدر بنا أن نركز عليها الإلمام بأسباب تدهور الأوضاع في الجزائر في بداية القرن التاسع عشر هي أن سوء تصرفات الداي مع قناصل الدول الأوروبية في

[1] أرجمنت كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، ص: ٣٠ . ٣٤.

[2] عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، ص: ١٣٤.

الجزائر وتلهفه على المال، ومعاناة خزينة الدولة من غلاء المواد المجهزة المستوردة وبخس أثمان المواد الأولية المصدرة وبالإضافة إلى صعوبة تنمية الموارد الداخلية للبلاد، قد نتج عنها إنهيار الأسطول البحري وانتشار المجاعة والأمراض في البلاد وتعدد الانتفاضات الشعبية والاغتيالات، ولهذه الأسباب تمكن الجيش الفرنسي من محاصرة الجزائر واحتلال سيدي فرج يوم ١٤ جوان، والاستيلاء على العاصمة يوم ٥ جويلية ١٨٣٠م[١].

ونستخلص من ما تقدم أن ضآلة الموارد الخارجية للدولة الجزائرية مثل:

١. الرسوم الجمركية على الواردات.

٢. الغنائم التي كان يحصل عليها الرياس من الغزو.

٣. الفدية التي كانت تدفع لتحرير الأسرى والعبيد.

٤. الهدايا التي كانت تقدم للداي عند تعيين القناصل بالجزائر.

٥. الجزية المفروضة على الدول الأوروبية مقابل عدم التعرض لسفنها، هي التي جعلت حكومة الداي تعيش في ضائقة مالية حادة.

ونتيجة لإضمحلال المدخول المالي للدولة أبدى الداي وحكومته اهتماماً خاصاً بالشؤون الداخلية للبلاد، وصمم على تعويض المداخيل الآتية من الغنائم والجمارك والهدايا بمداخيل محلية يتحمل أعباءها سكان الجزائر وكانت تلك المداخيل تتمثل في:

١. الزكاة التي تفرض على الماشية والحبوب والأموال.

٢. الحكر وهو الإيجار الذي يدفعه الفلاحون مقابل استثمارهم للأراضي التي تملكها الدولة.

٣. الخراج وهي الضريبة التي يدفعها الأجانب من مسيحيين ويهود.

٤. العشور وهي الضرائب على المحصول.

---

[١] سعيدوني، مرجع سابق، ص: ٨٢ ـ ٨٤.

٥. اللازمة وهي ضريبة استثنائية تدفع كمساهمة من المواطنين في نفقات الجيش والدفاع عن الوطن[١].

وكانت النتيجة الحتمية لزيادة الضرائب هي تزايد السخط الشعبي على حكم الداي، وتهرب السكان من دفع الضرائب جملة واحدة، وقيام ثورات شعبية في عدة نواحي بالبلاد وهذا ما يفسر الانهيار السريع للنظام التركي بالجزائر[٢].

---

[١] محمود الهندي مرجع سابق، ص: ٦٧ . ٦٨.

[٢] عبد الله شريط محمد مبارك الميلي، مختصر تاريخ الجزائر، ص: ١٧٦.

أنظر التاريخ السياسي للجزائر، د. عما أبو حوش، ص: ٥٨ . ٨٠.

المبحث الرابع

الاحتلال الإجرامي الفرنسي للجزائر

مقدمة:

إن معظم المؤرخين لا يؤمنون بالإهانة المزعومة المتمثلة في ضربة المروحة التي أصابت قنصل فرنسا "بيار ديفال" من طرف الدّاي حسين "يوم ٢٩ أفريل ١٨٢٧" الذي كان يوم عيد المسلمين.

هناك روايات متعارضة صدرت من القنصل ومن الدّاي: فالدّاي يتحدث عن ضربة حفيفة ناجمة عن محادثات تميزت بالشدة في موضوع العلاقات الجزائرية الفرنسية، في تلك المحادثات أشار الدّاي إلى أنه لم يتلق جواباً من الحكومة الفرنسية في موضوع الدين الذي كان على عاتقها بعد أن زوّدتها شركة بكري بوشناق بالحبوب علماً بأن الخزينة الجزائرية لها حقوق مترتبة على تلك الصفقة، وقد تم بشأن هذه القضية اتفاق صادق عليه الدّاي يوم ٢٣ ديسمبر ١٨١٩م وغرفة النواب الفرنسية يوم ٢٤ جويلية ١٨٢٠م.

وفي تقرير موجه إلى السلطان سليم الثالث، أكد الدّاي أن القنصل أجاب بكلام شاتم الدين الإسلامي ولشخصية السلطان، إن اجابة القنصل كانت تحمل ما معناه: إن الملك الفرنسي والدولة الفرنسية لا يرضيان بالإجابة على رسائلك.

لقد حول القنصل "بيار ديفال" القضية إلى قضية تمس بشرف فرنسا في حين أنه هو الذي أهان بجوابه الإسلام والدولة الجزائرية[١].

كان الدّاي قد سمح ليهوديين من أصل إيطالي هما بكري وبوشناق، وتحت حماية قنصلية فرنسا بتصدير القمح الجزائري إلى فرنسا في سنوات الثورة الفرنسية، كان هذان المرابيان

---

[١] الثورة الجزائرية د. بو علام بن حمودة، ص: ١٥.

يشتريان القمح بثمن منخفض ويبيعانه لفرنسا بثمن غال. كان بوشناق يقيم في مدينة الجزائر، وكان بكري يعيش في فرنسا وكان ثمن هذا القمح يعتبر قرضاً دولياً بسبب دخول الحكومة الفرنسية وداي الجزائر، كطرفين في صفقاته، وكانت التجارة الخارجية يسيطر عليها المرابون اليهود وفرنسا والتجارة الداخلية في عهد الدّاي حسين تحت سيطرة المرابين اليهوديين.

ولم يخف بعض الساسة الفرنسيين النزهاء امتعاضهم من موقف حكومتهم من هذا الدين، فقد قام وزير خارجية فرنسا تاليران بتقديم رأيه في مجلس الوزراء عندما عبر عن اقتناعه بحق الجزائر في هذا الدين، وبضرورة أن تعبر فرنسا عن عرفانها لهذا البلد على موقفه من مد الشعب الفرنسي بالقمح مع تأجيل الدفع في الأوقات الحرجة التي كانت تمر بها خزينة الدولة الفرنسية[١]، لكن لم يسمع إلى نصيحته وتراكم الدين فوصل إلى ثمانية ملايين فرنك، لكن حكومة القنصلية لم تسمح إلا بدفع نصف هذا المبلغ، ولم تنفذ الخزينة الفرنسية أمر الدفع واستمر الوضع على ما هو عليه طوال عهد الإمبراطورية، لأن نابليون يرفض تسديد أي دين ما لم يجبر بالقوة على ذلك وفي سنة ١٨١٩م طالب المرابيان اليهوديان فرنسا بدفع المبلغ الذي ارتفع إلى ٢٤ مليون فرنك كثمن للقمح الجزائري، وشكلت الحكومة الفرنسية لجنة لبحث المسألة وخفضت المبلغ من ٢٤ مليون إلى سبعة ملايين فرنك، ووافق اليهوديان على هذا التخفيض كتسوية نهائية للمسألة وصدر اعتراف رسمي من الحكومة الفرنسية في قرارها الصادر يوم ٢٨ اكتوبر ١٨١٩م، ووافق البرلمان على هذا القرار يوم ٢٤ يوليو ١٨٢٠م، ووافق الدّاي على هذه التسوية وطالب بدفع المبلغ المعترف به في أقرب وقت لحاجة خزينة الدولة الجزائرية للمال.

ومن الغريب أن الحكومة الفرنسية قررت اقتطاع مبلغ من الدين لليهوديين المرابيين اللذين يتمتعان بالجنسية الجزائرية واللذين قررا عدم العودة للجزائر، وكإمعان في نسج خيوط

---

[١] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٤٣.

المؤامرة على الدين قررت المحكمة الفرنسية حق المرابين في جزء من الدين الذي هو دين من الدولة الجزائرية على الدولة الفرنسية، واعترض الدّاي على أن تفصل محكمة فرنسية في خلاف بينه وبين يهوديين من رعاياه طالباً من الحكومة الفرنسية إعادتهما له كمجرمين، ولم ترد الحكومة الفرنسية عليه، فاضطر إلى الكتابة إلى ملك فرنسا طالباً منه دفع المبلغ سبعة ملايين فرنك لخزينة الدولة الجزائرية، وسحب القنصل الفرنسي بالجزائر الذي يعمل على عرقلة حل هذه المسألة بين الدولتين، وتسليم اليهوديين وكتعبير على قلة اللياقة الدبلوماسية قررت فرنسا تثبيت القنصل وتكليفه بتبليغ الدّاي أن الملك قرر عدم النظر في مطالبه.

ثم قررت الحكومة الفرنسية عدم الاعتراف بتسديد الدين للدولة الجزائرية وإنما تسديده للمرابين اليهوديين وتجنب القنصل زيارة الدّاي منتظراً وصول الاسطول الفرنسي للجزائر من طولون وفي يوم ٣٠ أفريل ١٨٢٧م حضر القنصل لحفل استقبال بقصر الدّاي، وعندما سأله الدّاي عن الرد الذي تلقاه من حكومته على رسالته التي بعث بها للملك أجابه باستفزاز: "إن حكومتي لن ترد عليك .." فاعتبر الدّاي هذا الجواب إهانة له وطلب من القنصل مغادرة القاعة ملوحاً بمروحة كانت في يده واعتبرت الحكومة الفرنسية أن الدّاي أهانها عندما ضرب قنصلها بالمروحة واعتبرت ضربة المروحة سبباً كافياً لغزو الجزائر[1].

قطعت العلاقات بين البلدين وراحت فرنسا تعد العدة لغزو الجزائر بعد أن انكشفت شواطئها على إثر تدمير اسطولها في معركة نافارين وانقسم المسؤولون الفرنسيون: فريق يخشى من المقاومة الجزائرية فيقترح الاكتفاء بفرض حصار بحري على السواحل الجزائرية كرد على إهانة الدّاي وإجباره على الخضوع للمطالب الفرنسية، أما الفريق الثاني فيرى ضرورة القيام بعملية إنزال واحتلال مدينة الجزائر وهو التيار اليميني الذي يرى في احتلال

[1] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٤٤.

الجزائر عملية تنسي الشعب هزيمة ١٨١٥م وأسرة بوربون متحمسة لهذا الحل من تثبيت عودتها لعرش فرنسا الذي تحقق بفرض قوى خارجية.
فرض الأسطول الفرنسي حصار على السواحل الجزائرية ثلاث سنوات من ١٦/ ٦/ ١٨٢٧م وحتى ١٣/ ٦/ ١٨٣٠م تاريخ الغزو، وكلف الحصار فرنسا مبلغ سبعة ملايين فرنك سنوياً.

. مشروع محمد علي باشا ملك مصر:

وتدخل محمد علي ملك مصر وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي: ليبيا وتونس والجزائر، وضمهما لمصر، وإسقاط الدّاي عدو فرنسا مقابل دعم فرنسا له، على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية بالجزائر وقد عبر عن استعداده للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قومه ٦٢ ألف جندي.

لكن بريطانيا عارضت تدخل محمد علي وتوسعه غرباً بالرغم من محاولة هذا إقناعها بأن هدفه منع فرنسا من احتلال بلد مسلم وفي يوم ٢٣/ ١/ ١٨٣٠م هددت بريطانيا فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي، وفشل المشروع لا بسبب التهديد البريطاني فقط وإنما بسبب معارضة وزيري الحربية والبحرية الفرنسيين ورفضهما إقحام محمد علي في قضية الجزائر، وإرضاء لوزيريه قدم رئيس الوزراء بولينياك تعديلاً لعرض محمد علي يتمثل في دعم محمد علي للسيطرة على طرابلس وتونس مقابل مساعدته لفرنسا على احتلال الجزائر، ورفض محمد علي المشروع المعدل لأنه لا يريد أن يسجل عليه العمل على مساعدة دولة مسيحية على استعمار بلد مسلم وفي الأخير رفض مجلس الوزراء الفرنسي مشروع محمد علي في جلسة ١٢/ ١٠/ ١٨٢٩م[١].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٤٦.

. وصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي لمحمد علي:

وصف المؤرخ الجبرتي محمد علي بأنه مخادع وكذاب يحلف الإيمان الكاذبة ظالم لا عهد له ولا ذمة يضمر السوء، واستخدم العسف والجور في نفس الوقت الذي يعد فيه بالعدل لا يخفف من عسفه وظلمه واستبداده استجداء شيخ[١]، ولقد دعت هذه الصفات البعض بأن يصور محمد علي بأنه ميكافللي، أو أنه تعلم على فكر ميكافللي صاحب نظرية "الغاية تبرر الوسيلة" فقيل له مرة ـ أي محمد علي ـ إن ميكافللي ألف كتاباً اسمه "الأمير" فكلف أحد النصارى المحيطين به ـ وقد اعتاد أن يكون أغلب مرافقيه من النصارى واليهود واسمه أرتين ـ بترجمة هذا الكتاب، وأن يوافيه كل يوم بصفحة مترجمة، فلما وصل إلى الصفحة العاشرة توقف على المواصلة قائلاً بأنه يمتلك من الحيل مالم يخطر لميكافللي على بال[٢].

ولقد علق بعض الكتّاب على ذلك بأن هذه الصفات التي رشحت محمد علي لأن يصبح والياً على مصر[٣]، وتلك الصفة القذرة من حب الزعامة وإلى حد الجنون وقسوة القلب، والنظر إلى الذات، وعدم المبالاة بالإسلام هي التي تبحث عنها المحافل الماسونية لصناعة الأبطال الذين يدمرون الإسلام ودوله من داخله.

إن محمد علي باشا لم يكن لديه مانعاً أن يقوم بدور الاحتلال للجزائر لصالح فرنسا إلا أن البرلمان الفرنسي رفض ذلك ومواقف بعض الدول الاوروبية اجبرته على التخلي عن تلك الفكرة التوسيعية على حساب شعوب ودول تمر بأضعف مراحلها.

لقد كانت المصالح الفرنسية ترى ضرورة دعم محمد علي ليتحقق لها اطماعها المستقبلية في حفظ وتقوية محافلها الماسونية، وإضعاف الدولة العلية العثمانية وزرع خنجرها المسموم في قلب الدولة العثمانية ولذلك أنشأت لمحمد علي اسطولاً بحرياً متقدماً متطوراً وترسانة

---

[١] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٧٣.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٣٧٤.

[٣] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٧٤.

بحرية في دمياط والقناطر الخيرية لتنظيم عملية الري في مصر، وكل ذلك إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبي الذي فشلت الحملة الفرنسية بتنفيذه بسبب اضطرارها إلى الخروج[١].

أولاً: الأسباب الحقيقية للاحتلال الفرنسي للجزائر

كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة ولكنها ادعت أمام الرأي العام الأوروبي أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر، وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ ١٧٩٢م، أي سنة إبعاد إسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، فقد كانت هناك رغبة قوية للتجار الفرنسيين والقيادة السياسية بتلك البلاد أن تحل فرنسا محل إسبانيا في شمال أفريقيا وتسيطر على هذه المنطقة الغنية بالثروات الطبيعية وبصفتها موقعاً استراتيجياً هاماً من الناحية العسكرية، فإن الجيش الفرنسي كان يسعى باستمرار لتقوية اسطوله وإنهاء السيطرة الإنجليزية على حوض البحر الأبيض المتوسط، كما أن هناك أسباب عديدة سياسية، ودينية واقتصادية وغيرها ويمكن تلخيص أهم الأسباب في الآتي:

١. السياسية:

وتتمثل في اعتبار حكومة الجزائر تابعة للإمبراطورية العثمانية التي بدأت تنهار والدول الأوروبية تتهيأ للاستيلاء على الأراضي التابعة لها وخاصة أن الفرنسيين كانوا يعتقدون أنهم سيحصلون على غنيمة تقدر ١٥٠ مليون فرنك توجد بخزينة الدّاي. كما أن شارل العاشر ملك فرنسا كان يرغب في خلق تعاون وثيق مع روسيا في حوض البحر الأبيض المتوسط حتى يتغلب على الهيمنة البريطانية في البحر المتوسط والتمركز في ميناء الجزائر الذي كان يعتبر في نظر الملك الفرنسي تابعاً للأمبراطورية العثمانية المنهارة، ثم إن المعارضة سيطرت على مجلس النواب في انتخابات نوفبر ١٨٢٧م خلقت مصاعب

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣٧٧.

داخلية للملك الفرنسي الذي كان يعتقد أن الحل الوحيد لإسكات المعارضة هو احراز انتصار باهر على دّاي الجزائر، وإذا لم يتمكن من ذلك فإن المعارضة ستحرز انتصاراً آخر في الانتخابات البرلمانية[1].

٢. الأسباب العسكرية:

إن انهزام الجيش الفرنسي في أوروبا وفشله في احتلال مصر والانسحاب منها تحت ضربات القوات الإنجليزية في سنة ١٨٠١م قد دفع نابليون بونابرت أن يبعث بأحد ضباطه إلى الجزائر في الفترة الممتدة من ٢٤ ماي إلى ١٧ جويلية ١٨٠٨م لكي يضع له خطة عسكرية تسمح له بإقامة محميات فرنسية في شمال أفريقيا تمتد من المغرب الاقصى إلى مصر "مثلما عملت روما في الماضي" وفي عام ١٨٠٩م قام هذا الضابط العسكري "بوتان" بتسليم المخطط العسكري لاحتلال الجزائر إلى نابليون واقترح فيه على الامبراطور الفرنسي أن يحتل مدينة الجزائر عن طريق البر، ثم التوسع لاحتلال بقية أراضي الجزائر لأن بقية المقاطعات الجزائرية سوف تتعاون فيما بينها وتطيح بالسلطات الفرنسية في الجزائر العاصمة وعند إنهزام نابليون في معركة واترلو سنة ١٨١٥م وتحالف الدول الكبرى ضد الجيش الفرنسي في اوروبا شعر ملك فرنسا أنه من الأفضل أن يعتمد على سياسة التوسع في أفريقيا ويعمل على انشغال الجيش بمسائل حيوية تتمثل من إمكانية قيام الجيش بإنقلاب ضده في فرنسا، وبالفعل فإن الجيش الفرنسي قد انشغل باحتلال الجزائر واقام سلطة عسكرية متينة بهذا البلد إلى غاية نوفبر ١٩٥٤م يوم قامت الثورة الجزائرية الأخيرة ووضعت نهاية لخرافة الجزائر الفرنسية[2].

٣. الأسباب الاقتصادية:

كانت فرنسا تطمع في خيرات الجزائر وثرواتها الطبيعية الوافرة وتتطلع لتعريف منتجاتها في أسواقها، كما كانت ترغب في التخلص من ديون الجزائر عليها وتتمثل قيمة كميات

[1] التاريخ السياسي للجزائر د. عمار بو حوش، ص: ٨٣ ، ٨٤.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٨٤.

القمح الوفيرة التي استوردتها فرنسا منها، وسبق تأجيل السداد بمساعدة بعض التجار اليهود في الجزائر وقد كشف القنصل التجاري الفرنسي عن هذه الدوافع الاقتصادية في رسالته التي بعث بها إلى حكومته في باريس قبيل غزو الجزائر حيث قال:

أن الفوائد المادية التي تعود على فرنسا من غزو الجزائر بغض النظر عن ملايين الفرنكات الذهبية التي تزخر بها الخزانة الجزائرية، أجدى وأنفع لفرنسا من كل عمليات الغزو الاقتصادي التي قامت به حتى الآن... فهناك سهول طيبة ذات خصب عجيب، ومناجم غنية بالحديد والرصاص وجبال من العناصر المعدنية كلها تنتظر الأيدي التي تستغلها[١].

إن الجانب الاقتصادي قد لعب دوراً قوياً في إقدام فرنسا على احتلال الجزائر، ويظهر هذا بوضوح في الدراسة التي نشرها السيد تاليرات في شهر جويلية من عام ١٧٩٧م والتي كان عنوانها محاولة حول الامتيازات التي يمكن الحصول عليها من جراء إنشاء مستعمرات جديدة في الظروف الحالية، وقد طلبت حكومة فرنسا في عهد نابليون بونابرت من قنصلها في الجزائر أن يجيبها بدقة عن بعض الأسئلة المتعلقة بمشروع احتلال الجزائر.

وقد تعاون الرأسماليون الفرنسيون مع رجال الجيش الفرنسي في دفع الحكومة والدولة لاحتلال الجزائر والاستيلاء على الأرض الخصبة بها وزراعة العنب والبحث عن الذهب في المناجم الجزائرية، واستجابة لهذا المخطط قام الجنرال "كلوزيل" في بداية الاحتلال بإصدار قانون يقضي بتسليم الأراضي الجزائرية الخصبة للمهاجرين الأوربيين وبرزت قوة التجار والنواب الفرنسيين في تكوين كتلة قوية بالبرلمان للدفاع عن مكتسبات الاوربيين في الجزائر وطرد كل من يحاول مراقبتهم أو الحد من سيطرتهم وقد أحرزوا على نجاح هائل إلى درجة أنهم استطاعوا شراء أغلب الاراضي المنتجة في سنوات قليلة، وفي أغلب الحالات

---

[١] تاريخ العرب الحديث د. حلمي محروس، ص: ٢٢١.

كان التجار المتلهفون على امتلاك خيرات الجزائر يشترون أراضي وهم لم يروها بتاتاً، لأنها تباع لهم من طرف شخص ثالث يكون في العادة يهودي ـ أو متعاون معهم من أجل المال ـ يستحوذ على الدراهم المدفوعة له والأشخاص الذين كانوا يقومون بالوساطة لبيع الأراضي للفرنسيين في معظمهم يهود وهم وحدهم الذين رحبوا بقدوم الجيش الفرنسي إلى الجزائر وبرجال التجارة، وليس هناك جدل بأن مجموعة صغيرة من اليهود الذين كانوا يقومون بالوساطة في كل عملية تجارية قد كانت الفئة المستفيدة من غزو الجزائر، لأن الاحتلال الفرنسي قد حقق للجالية اليهودية بالجزائر امنيتها الكبرى[1] في الثراء السريع بدون حسيب ولا رقيب.

٤. الأسباب الدينية:

فقد رغبة فرنسا في نشر المسيحية في أفريقيا إنطلاقاً من الجزائر وفي هذا الشأن قال وزير الحربية الفرنسية في تقريره الذي قدمه لملك فرنسا "شارل العاشر" :" لقد أرادت العناية الإلهية أن تستأثر جلالتكم في شخص قنصلكم بواسطة ألد أعداء المسيحية، ولعله لم يكن من باب المصادفة أن يدعى ابن لويس التقي لكي ينتقم للدين وللإنسانية ولاها منه الشخصية منه في نفس الوقت ولعل الزمن يسعدنا بأن ننتهز الفرصة لكي ننشر المدينة بين السكان الأصليين وننصرهم"[2].

لقد كان للجانب الديني أثر كبير في احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م فمن الأسباب التي دعت فرنسا إلى الغزو هو دعواها إنقاذ المسيحية والمسيحيين من أيدي "القراصنة الجزائريين" والقضاء على عش القرصنة ـ الجزائر ـ حسب تعبيرها أيضاً، ففرنسا كانت تعتبر نفسها حامية الكنيسة الكاثوليكية وترى في احتلال الجزائر عملاً هاماً أسدت به إلى العالم المسيحي وشعوب البحر الأبيض المتوسط خدمة كبيرة، فالعامل الديني في الاحتلال نلمسه من الدور الذي لعبه رجال الدين في الحملة بحيث أن قرار شارل العاشر

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٨٥.

[2] الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، خديجة بقطاش، ص: ١٥.

كان مدفوعاً من الأسقف الكبير وزير الشؤون الدينية فريسوس الذي كانت من ورائه روما، ولا يمكن أن ننسى وزير الحربية في تقرير قدمه للملك شارل العاشر يوم ١٤ أكتوبر ١٨٢٧ عن آماله في تنصير الجزائر بما يلي: يمكن لنا في المستقبل أن نكون سعداء ونحن نمدن الأهالي ونجعلهم مسيحيين. وكليمون تونير يرى أنه ليس من الغريب أن تكون العناية الإلهية مع الملك لأن عمله هذا في سبيل الدين وأكد الملك شارل ذلك حينما خاطب كل أساقفة المملكة قائلاً لهم: إن مردنا أن تقيموا صلوات في جميع الكنائس وتطلبوا من الله أن يحمي الراية ويعطينا النصر[١]، ومما يمكن قوله أن الجانب الحكومي سرّ لما سوف يحققه جيش الملك من انتصار، لأنه انتصار في سبيل البعث الديني المسيحي بأفريقيا الرومانية إلى المسيحية على انقاض القائد الروماني سبيون، وخاصة المدن التي ازدهرت في العهد الروماني اللاتيني[٢].

وأمام هذه النشوة علقت الصحافة اليسارية على هذا الطابع الديني للاحتلال وذكرت إن عمل القنصل دوفال كان بوحي من الفاتيكان وكذلك الحال لعمل بكري وبوشناق اليهوديين، فروما استبشرت خيراً بغزو الجزائر واعتبرته عملاً مقدساً لفائدة المسيحية[٣].

وقد جاء في المعاهدة التي كتبت في ٥ جويلية ١٨٣٠م التي حرّرها قائد الحملة دوبورمون ووقعها الدّاي حسين: أن السلطات الفرنسية ستحترم الأملاك والنساء والديانة لكننا نجد الجنرال دوبرمون يخطو خطوة إلى الوراء يدفعه في ذلك التعصب الديني، فبعد سقوط مدينة الجزائر بأيدي الفرنسيين سارع دوبورمون إلى اقامة صلاة بالقصبة شارك فيها الجيش ورجال الدين وخطب فيهم قائلاً: لقد أعدتم معنا فتح باب المسيحية لأفريقيا ونتمنى في القريب أن نعيد الحضارة التي انطفأت فيها منذ زمن طويل[٤]، ويروي بعضهم

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٦.

[٣] الحركة التبشيرية في الجزائر، ص: ١٦.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١٧.

قائلاً: إن الاحتفال الذي جرى في العقبة التي بناها أبناء محمد صلى الله عليه وسلم لمواجهة أبناء عيسى عليه السلام قد رتلوا الأناجيل عالية أمام آيات القرآن التي أصبحت ميتة والتي كانت تغطي الجدران[1].

وفي نفس الوقت كان الملك شارل العاشر يحضر قداساً في كنيسة نوتردام دي باري، يحمد الله الذي نصره على الأعداء[2].

إن الجنرال دوبورمون أخذ على نفسه بأن يعمل بالمعاهدة فيحترم الديانة الإسلامية ومقدساتها، وقد نص البند الخامس من المعاهدة على حرية العمل بالدين الإسلامي واحترام كل شيء يرمز إليه، كما نص هذا البند على احترام الممتلكات لكن هذه المعاهدة بقيت حبراً على ورق، لأن الفرنسيين خرقوا هذه المعاهدة باستلائهم على أمكنة العبادة وتحويلها إلى كنائس وثكنات وباستيلائهم على الأوقاف والزوايا، وتجرءوا كذلك على نبش القبور لاستخراج الأجر والأحجار للبناء ولأخذ عظام الموتى لصنع السماد وبيعها في مدينة مرسيليا[3].

ويعترف الفرنسيون بما قام به الجيش حينما دخل مدينة الجزائر فالجنرال لاموريسيير المعروف بتدينه يقول: حللنا بمدينة الجزائر فاتخذنا من المدارس مخازن وثكنات واصطبلات واستحوذنا على أملاك المساجد والمدارس، وكنا نعتقد أننا سنعلم الشعب العربي مبادئ الثورة الفرنسية، ولكن للأسف أن المسلمين رأوا في ذلك ضربة للدين والعقيدة.

إن عودة الكنيسة إلى الحياة السياسية في عهد شارل العاشر قد سمحت بنشاط الإرساليات التبشيرية في فرنسا وخارجها، وساعدت على خلق جو ديني، وانعكست آثاره على احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠م واتضحت هذه الآثار في الطابع الديني الذي اكتسبته هذه الحملة والنزعة الصليبية التي اتصف بها المسؤولون، وبعد الاحتلال لم تعمل

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٧.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٧.

السلطات على احترام الديانة الإسلامية كما جاء في اتفاقية جويلية ١٨٣٠م عند استيلائها على المساجد والمؤسسات وهدمها دون احترام المشاعر الدينية للسكان وكان هذا بمثابة تدخل في شؤونهم الدينية ويمكن أن نعتبره . في نظرنا . وجهاً من أوجه التبشير التي تتعدد وسائله ومظاهره وسوف يحاول المسؤولون ورجال الدين تنفيذه لتثبيت السلطة الفرنسية في الجزائر ولاسيما بعد تأسيس الأسقفية وتوافد رجال الدين عليها[١].

٥. إدعاء فرنسا أنها احتلت الجزائر لكي تضع حدًّا لأعمال القرصنة البحرية:

في ذلك الوقت كانت القرصنة البحرية عملاً مشاعاً لجميع الدول ومنها فرنسا واسبانيا والبرتغال وهولندا وسردينيا التي كانت أساطيلها تمارس القرصنة البحرية، وكان القراصنة الاوروبيون يمارسون الوحشية في معاملة اسراهم، إذ كانوا يدمغونهم بالحديد المحمي في النار ويقتلون البعض الآخر بدون رحمة أو شفقة، أما البحارة الجزائريون فكانوا يهاجمون السفن التابعة للدول المعادية لبلادهم، وعلى هذا الأساس لا يمكن اعتبارهم "قراصنة" لشرعية اعمالهم وضرورة تأمين سلامة مياه بلادهم الإقليمية.

فضلاً عن أن الجزائريين كانوا يعاملون اسراهم معاملة إنسانية كأسرى حرب، ومما يذكر أن دول أوروبا البحرية كانت تدفع للجزائر اتاوات معينة مقابل حراسة الأسطول الجزائري لسفنها ومنع القراصنة من التعرض لها، فكانت إنجلترا ترسل مع كل قنصل جديد مبلغ ستمائة جنيه استرليني ذهباً كهدية لحكومة الجزائر، وكانت السويد والدنمارك تدفع اتاوة سنوية قدرها ٦٤٠٠ قرش جزائري، وتدفع صقلية والبرتغال ٢٤٠٠ قرش كل عام وذلك عدا الهدايا التي كان يجلبها معه كل قنصل جديد[٢]، ويظهر ذلك من خلال ذكر أهم الأسباب التي دفعت بفرنسا إلى شن هجوم على الجزائر واحتلالها وأن حادثة المروحة ما هي إلا ذريعة لمحاصرة عاصمة الجزائر وإجبار الدّاي على الاستسلام ويظهر هذا بوضوح

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٣١.

[٢] تاريخ العرب الحديث د. حلمي محروس، ص: ٢٢٣.

في تصرف الكومندان كولي الذي ارسلته فرنسا على رأس قوة بحرية في ١١ جوان ١٨٣٠م لمطالبة الدّاي بتقديم الاعتذارات إلى قنصل فرنسا بالجزائر على ظهر سفينة فرنسية، ويرفع العلم الفرنسي فوق حصون مدينة الجزائر وعلى الأخص فوق قصر الدّاي، وفي مقر البحرية ثم توجيه التحية للعلم الفرنسي بمائة طلقة مدفعية جزائرية وقد أنذر الضابط الفرنسي الدّاي بأن عدم الاستجابة لهذه المطالب في ظرف ٢٤ ساعة يعني إعلان الحرب على الجزائر، وبالفعل فقد رفض الدّاي هذه الشروط المجحفة والمهينة وبذلك أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر يوم ١٦ جوان ١٨٢٧م[١].

٦. الظروف الدولية المواتية:

استغلت فرنسا الجو الدولي، فقد انهزم الاسطول التركي بالقرب من الميناء الاغريقي نافاران في أثناء حرب استقلال اليونان ٢٠ اكتوبر ١٨٢٧م.

. تقبل القيصر نيكولا الأول للحملة ضد الجزائر لأن الضربة قد تضعف السلطة العثمانية وتؤمن حرية الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

. وقوف ملك بروسيا المواقف نفسها.

. عدم معارضة دول شمال أوروبا.

. قبول ملك نابولي لإبحار سفن رعاياه في خدمة الجيوش الفرنسية من موانئ بلده.

. حياد باي تونس تجاه الخلاف الجزائري الفرنسي منذ سنة ١٨٢٨م خلافاً لتضامن الشعب التونسي مع الجزائر، كما يريد في الحقيقة توسيع أراضيه ويسعى إلى وضع أخيه كدّاي على رأس الجزائر.

تجدر الإشارة إلى أن باشا طرابلس يوسف القرمانلي عبّر في رسالة عن تضامنه مع الدّاي حسين وأن ملك اسبانيا فردينان السابع تحفظ تُجاه الحملة الحربية نظراً إلى معاهدته التجارية مع الدّاي حسين وإلى احترامه لمعارضة بريطانيا لحملة فرنسا على الجزائر

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٠.

ولسعيها لايجاد حل سلمي وكانت قد حثت السلطان العثماني على ارسال شخصية إلى الجزائر قصد إقناع الدّاي حسين بقبول الحل السلمي، ولقد أوفد السلطان السيد طاهر باشا إلا أن السلطات الفرنسية منعته من الاتصال بالدّاي، وفي ٣٠ ماي ١٨٣٠م رفضت فرنسا استقبال مبعوث السلطان العثماني سليم الثالث الدّاي اراد أن يجد حلاً سلمياً للخلاف بين فرنسا والجزائر وقد فسرت السلطات الفرنسية ذلك الموقف بوجود الحصار لميناء الجزائر والحقيقة هي أن القرار السياسي المتعلق باحتلال الجزائر قد اتُخذ فأعلنه الملك في اليوم الثاني من مارس ١٨٣٠م عند افتتاح دورة غرفة النواب[١].

٧. الخيارات التي عرضت على مجلس الوزراء الفرنسي قبل البدء في غزو الجزائر:

وقد ناقش الوزراء الفرنسيين الخيارات التالية إحداها:

. الإبقاء على الدّاي في حكم الجزائر، على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فنجد عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الاحتفاظ به.

. أو إعادة الجزائر إلى الدولة العثمانية مع إقامة حكومة منظمة فيها تضمن احترام الملاحة الأوروبية في البحر المتوسط.

. أو أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا.

. أو أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وتقوم باستغلالها اقتصادياً وقد تم الإتفاق على الرأي الأخير[٢].

ثانياً: كيف تم احتلال الجزائر

كانت عوامل الانهيار واضحة في حكومة الدّاي حسين واضحة المعالم وقدرته على الصمود ضعيفة وبالتالي كان طبيعياً أن ينجح الفرنسيون في احتلال الجزائر، فقد انفرد الدّاي بالسلطة واعتمد على مجموعة صغيرة من الجند والأقرباء الذين كانوا في حاشيته

[١] الثورة الجزائرية د. بو علام بن حمودة، ص: ١٧ ، ١٨.

[٢] تاريخ العرب الحديث، ص: ٢٢٤.

وفي خدمته، وحدث تهميش في عهد لابناء الجزائر فقد كانوا يعيشون في عزلة كبيرة ومبعدين عن ادارة الحكم في البلاد كما أن سقوط حكومة الدّاي بسهولة وسرعة فائقة، بسبب عدم وجود جيش قوي وقيادة له حكيمة وواعية على ما كان عليه في عهد خير الدين بربوس ومن بعده كما أن الدّاي كان مهتم بجمع الأموال والثروات، ولم يستعد لمثل هذا اليوم العصيب وكان يعتقد بأن الجزائر محصنة وأن جيشه التقليدي الذي لا يتجاوز ستة آلاف جندي تركي قادر على مواجهة الفرنسيين في حالة هجومهم على موانئ الجزائر[1].

كانت فرنسا قد أعدت العدة وقررت غزو الجزائر منذ يناير ١٨٣٠م وألفت ثلاث لجان للإعداد للحملة التي قررت أن يكون الإنزال في سيدي فرج، وفي ٧ شباط ـ فبراير أصدر الملك شارل العاشر مرسوماً ملكياً يعلن التعبئة العامة، وأعلن في خطاب العرش: أن الحملة انتقام للشرف الفرنسي، وأنها حملة مسيحية على بلاد المسلمين المتوحشين وأنها خدمة للعالم المسيحي.

وصل عدد جنود الحملة ٣٧٠٠٠ جندي، وعدد الخيول ٤٥٠٠٠، و٩١ مدفعاً و٦٠٠ سفينة منها ١٠٣ حربية، كانت السفن شراعية باستثناء عدد لا يتجاوز أصابع اليدين كانت بخارية، وقد نظمت هذه القوات في ثلاث فرق مشاة وكتيبتين من الفرسان، وبطاريات من مدفعية الميدان والحصار، كما نظم الأسطول في ثلاث أساطيل أسطول سفن الإنزال، وثالث يتألف من سفن النقل التي تحمل من الذخيرة ما يكفي الجيش لمدة ثلاثة أشهر.

ثالثاً: الأساطيل الفرنسية

غادرت أساطيل الحملة طولون يوم ٢٥ أيار ـ مايو ١٨٣٠م وبعد أيام وصلت أمام مدينة الجزائر وأما نشاط الرياح قرر أميرال الأسطول عدم الرسو والعودة نحو الشمال وفي ذهنه

---

[1] التاريخ السياسي، ص: ٩٠.

الإفراط في تذكر النكبات التي أصابت الأساطيل الأوروبية أمام هذه المدينة وبخاصة أسطول شارل كوينثو الإسباني . مثلما ذكر المارشال ماكماهون في مذكراته وسخط قائد الحملة الجنرال بورمون وكاد أن يأمر الأميرال بعدم الانسحاب، لكنه خشي إحداث شقاق بين القوات البرية والبحرية وفي أثناء مناورة أسطول الحملة هذه وفي وسط المسافة بين الساحل الجزائري وجزر البليار شوهدت بارجتان حربيتان تركيتان تتجهان نحو سفينة القيادة الفرنسية، وأقتربتا منها وتوقفتا وصعد ضابط تركي واجتمع بالجنرال بورمون حيث عرض عليه رسالة من الخلافة العثمانية تطلب فيها التوقف على غزو الجزائر مقابل التزامها بسحب الدّاي حسين وتقديم التعويضات اللازمة لفرنسا ورفض بورمون هذا العرض التركي، وكانت الخلافة العثمانية في وضع ضعف واقعة تحت رحمة السيطرة الاوروبية بسبب الصراع بينها وبين محمد علي والي مصر[١].

وبعد رسو الأسطول في جزر البليار أيام توجه مرة ثانية للجنوب ووصل الاسطول الفرنسي أمام مدينة الجزائر يوم ١٣ يونيو . حزيران وبعد أن قام بمناورة استعراضية توجه إلى سيدي فرج، وفي الساعة الثانية صباحاً من يوم ١٤ هبطت الفرقة الأولى مشاة وعلى رأسها الجنرال بيرتوزان، وقبل نزول الفرقة قام الاسطول بتوجيه أول طلقات مدفعيته إلى مئذنة مسجد سيدي فرج فدمرتها، وفسر ذلك بأن هذه رسالة موجهة للجزائر وللعالم بأن الغزو هو غزو صليب للهلال وجرى الإنزال بدون مقاومة كبيرة، وقامت هذه القوات باقامة معسكراتها وتحصينها، ثم تقدمت نحو الجزائر، وما كادت هذه القوات تستقر على الأرض حتى هوت عليها قذائف مدفعية السواحل القليلة التي كانت منصوبة في سيدي فرج، فبعثرت قذائفها أشلاء مجموعة من جنود العدو ونشرت أجسادها في الفضاء واستمر قصف المدفعية الجزائرية نصف ساعة دفع قوات الاحتلال إلى التقهقر وبعدها تمكنت القوات الغازية من إخماد هذه البطارية التي قاوم مدفعيوها الشجعان إلى أن

[١] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٤٧.

استشهدوا، وفي ١٨ حزيران ـ يونيو هاجمت قوات الاحتلال الجيش الجزائري الذي كان يرابط في خط دفاع أول بستاويلي، وكانت القوات الجزائرية بقيادة نسيب الدّاي إبراهيم آغا يساعده باي قسنطينة أحمد باي وكان تعداده ستة آلاف جندي متواضعي التسليح والتدريب، وبالرغم من ذلك فقد شن الجيش على قوات الاحتلال هجوماً عاماً يوم ١٩ يونيو ـ حزيران، ودارت معركة شديدة أسفرت عن انهزام الجيش الجزائري الذي كان يعتمد على خفة الحركة والكر والفر، ويستعمل بنادق عتيقة ويعتمد أساساً على استعمال السيوف في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يعتمدون على جيش منظم ونيران كثيفة وتسليح حديث، وطوابير ثابتة تتقدم متلاحمة تصد هجمات الفرسان الجزائريين وتشتت شملهم في خطة محكمة، وانسحب الآغا إبراهيم من ستاويلي وقام بعمل عراقيل لقوات العدو تاركاً في أرض المعركة ٢٧٠٠ خيمة منها خيمته، و٦٠ جملاً نحرها الفرنسيون وأكلوها لحماً.

ويقول حمدان خوجة في كتابه المرآة: دخل إبراهيم آغا الحرب بلا جيش مدرب منظم، وبدون ذخائر وبدون مواد غذائية وبدون شعير للخيل وبدون أي كفاءة للقيام بالحرب، لقد أعطى كل جندي طلقتين اثنتين فقط.

ويقول الجنرال بيرتوزان: إن الرماة الجزائريين يحسنون أفضل منا في الرماية، وكان رأي أحمد باي تجنب حرب المواجهة أمام الجيش الفرنسي القوي والمسلح، وتشكيل المقاتلين الجزائريين في مجموعات وتوزيعها على طول الطريق بين سيدي فرج والجزائر، لكن الآغا إبراهيم البعيد عن الكفاءة لم يستمع إليه كان أكبر خطأ ارتكبه الدّاي عزل الآغا يحيى الكفء من قيادة الجيش وتعيين إبراهيم لا لشيء إلا لأنه صهره[1].

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٤٨.

بعد هزيمة ستاويلي هرب إبراهيم من الميدان واختفى في منزل ريفي، وأرسل له الدّاي حمدان خوجة فأقنعه بالعودة لقيادة الجيش، فعاد لكنه هرب مرة أخرى عندما وصل العدو لسيدي خالف.

وفي يوم ٢٢ تقدمت قوات العدو نحو سيدي خالف وتصورت أنها لا تلاقي مقاومة، لكنها فوجئت بقوة يقودها القائد الشجاع مصطفى بو مزراق والي تيطري تمكنت من إلحاق خسائر مهمة بالعدو قبل أن تنسحب نحو العاصمة.

وأمام هذه المقاومة التي تعتمد على الشجاعة قرر الجنرال بورمون قائد الحملة انتظار تعزيزات وصلت يوم ٢٥ من الشهر، ثم أمر بالتقدم نحو مدينة الجزائر يوم ٢٩ يونيو ـ حزيران قاصداً قلعة السلطان، وفقاً للخريطة التي سبق أن أعدها الجاسوس العقيد بوتان في عهد نابليون، لكن قواته ضلت طريقها، فقد شاهدت بحيرة من الماء تصورت أنها البحر فأمر بورمون سائر القطاعات التوقف والتوجه نحو الماء فاندفعت الفرقة الثانية وفجأة وجدت نفسها تغوص في وهاد صعبة كلف قائد الفرقة الجنرال لوفيردو جهداً وساعات من أجل السيطرة على الموقف والخروج من وهاد ووديان وغابات بوزريعة وإخراج قواته من الفوضى العارمة التي وقعت فيها نتيجة لكونها تاهت عن الطريق وانحرفت شمالاً، ولم يستغلها الجزائريون الذين كانوا فاقدي القيادة العسكرية والكفاءة، ومثلما يقول المارشال ماكماهون في مذكراته: ولو اتيح للجنود الاتراك الذين يعسكرون على طريق الميناء الحقيقي أن يهاجموا الفرقة الثانية أثناء ضلالها لكبدوها خسائر فادحة[1].

وانتظرت قوات الاحتلال التحاق قطع الأسطول من سيدي فرج وقامت قطعة الحربية بقصف مرابطي مدفعية المدينة وتمكنت من فتح ثغرات فيها، وعندها أمر بورمون بالتقدم يوم ٣ تموز ـ يوليو، ووصلت القوات الغازية خط الدفاع الأول المتمثل في برج مولاي

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٤٩.

حسن وحضر الفرنسيون الخنادق وراحوا يهاجمون البرج الذي كان يقوده قائد فاشل أيضاً هو الخزناجي، وقاوم الجزائريون مقاومة شرسة لكن النيران تسربت إلى مخزن البارود الصغير بالبرج فأحدثت انفجاراً مهولاً دمر جزءاً من القلعة استغله الفرنسيون فاحتلوها بعد أن تكبدوا خسائر كبيرة، تم كل ذلك في ساعات وصاروا يهدون المدينة من هذه القلعة وتحصيناتها المشرفة على القصبة، بعد أن نصبوا عليها مدافعهم ووجهوا فوهاتها للمدينة، ومن البحر كان الأسطول الفرنسي يصوب مدافعه للمدينة واقتنع باي تيطري مصطفى بو مزراق أن لا أمل في المقاومة فانسحب إلى ولايته[١].

١. سقوط مدينة الجزائر واستسلام الدّاي:

لما تأكد نزول الجيش الفرنسي سيدي فرج يوم ١٤ جوان ١٨٣٠م وبدأ يستعد لكي يزحف على الجزائر العاصمة من الغرب، وشعر حاكم الجزائر الدّاي حسين بالخوف على نفسه وعلى سلطته وقرر الدّاي حسين باشا أن يجتمع برؤساء الهيئات المهنية الموجودة في المدينة وأعيان البلاد وشيوخ القبائل والعلماء ورجال القانون واستعرض معهم الوضع الخطير الذي كانت عليه المدينة وطلب منهم إعطاءه رأيهم حتى يمكن التوصل إلى وسيلة تحقيق السلامة وتقضي على الشرور وقال لهم حسب شاهد عيان: أصدقائي لا تتحرجوا وقولوا رأيأكم بصراحة، ففي مثل هذه الظروف يجب أن نتداول على أنجع الوسائل ولست إلا واحداً منكم، فماذا ترون؟ هل من الممكن أن نقاوم الفرنسيون مدة أطول؟ أم هل يجب أن نسلم المدينة بمعاهدة تسمى "استسلام". وبما أن كلام الدّاي غامض ولا أحد يعرف ماذا يريد من أعيان المدينة، فقد أجابوه بأسلوب مماثل حيث كان ردهم كالآتي: سنحارب إلى أن نستشهد عن آخرنا ومع ذلك فإذا فضل سموكم وسائل أخرى فإنه حر في أن يعمل ما يراه صالحاً وسيجدنا عند إرادته[٢]، وفي الحقيقة أن إشارة الدّاي إلى قبول الاستسلام للفرنسيين وتسليم المدينة حسب نصوص معاهدة يوقعها

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٥٠.

معهم تدل دلالة واضحة على قناعته بأنه غير قادر على المقاومة وأن انهيار حكومته هي مسألة وقت فقط، والمؤرخون الذين عايشوا الدّاي وتعرفوا على ما يجري في الأوساط المحيطة به أكدوا بأن الصراع الذي كان يدور بين معاونيه منذ مدة مهد الطريق للاحتلال الفرنسي بسرعة فائقة[١].

وعندما أحس الدّاي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين فأرسل أحد أمناء سره لمفاوضتهم، بعد أن حاول توسيط القنصل البريطاني الذي رفضه الفرنسيون، وأبلغوا الدّاي تسليم المدينة بلا قيد ولا شرط، وصل شخصان كرسولين وقابلا الجنرال بورمون وعرضا عليه تعويضات سخية تقدم له مع الاعتذار مقابل عودة الجيش الفرنسي، ويروي الفرنسيون أنه عندما رفض طلبهما صاح أحدهما قائلاً: إذا كان يسرك يا جنرال أن ترى رأس الدّاي بين يديك فإنني سأذهب الآن للعودة به إليك في طبق. لكن الجنرال اكتفى بإعادة شروطه على الرسولين والمتمثلة في الاستسلام بلا شرط، وأرسل الجنرال بورمون إلى الدّاي نص المعاهدة الآتية:

. تسلّم قلعة القصبة وكل القلاع الأخرى المتصلة بالمدينة وميناء هذه المدينة إلى الجيش الفرنسي هذا الصباح الساعة العاشرة.

. يتعهد القائد العام للجيش الفرنسي أمام سعادة باشا الجزائر أن يترك له الحرية وكل أمواله الشخصية.

. يكون الباشا حراً في أن يتوجه هو وأسرته وثروته الخاصة إلى المكان الذي يختاره، وإذا فضل البقاء بالجزائر فله ذلك هو وأسرته تحت حماية القائد العام للجيش الفرنسي الذي سيعين له حرساً لضمان أمنه الشخصي وأمن أسرته.

. يتعهد القائد العام أن يقدم لكل الجنود الإنكشارية نفس المعاملة ونفس الحماية.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر د. عمار بو حوش، ص: ٩١.

. سيظل العمل بالدين الإسلامي حراً، كما أن حرية السكان مهما كانت طبقاتهم ودياناتهم وأملاكهم وتجارتهم وصناعتهم لن يلحقها أي ضرر، وستكون نساؤهم محل احترام، ويلتزم القائد العام على ذلك بشرفه، وسيتم تبادل وثائق هذا الاتفاق قبل الساعة العاشرة من هذا الصباح، وسيدخل الجيش الفرنسي حالاً بعد ذلك إلى القصبة وكل القلاع حول المدينة والميناء. الكونت دي بورمون. ختم حسين باشا داي الجزائر.

قدم بورمون المعاهدة في إطار أمر ينفذ من طرف الدّاي بدون مناقشة بنوده.

وقع الدّاي في أثناء الليل المعاهدة التي هي عبارة عن شروط استسلام وسلمت المدينة فعلاً صباح ٥ تموز . يوليو ١٨٣٠م[١].

وفي يوم ٦ جويلية ١٨٣٠م دخل الجنود الفرنسيين مدينة الجزائر من الباب الجديد بأعلى المدينة وأنزلت أعلام دولة الدّاي من جميع القلاع والأبراج، وارتفعت في مكانها رايات الاحتلال الفرنسي، وأقيمت صلاة للمسيحيين وخطب فيها كبير قساوسة الحملة، فقال مخاطباً قائد الحملة الفرنسية: لقد فتحت باباً للمسيحية على شاطئ أفريقيا[٢].

ودخل الجنرال بورمون المدينة وسكن أحد قصورها، وبعد أيام أمر بورمون الجنرال بيرتوزان بإحصاء محتويات خزينة الدولة الجزائرية التي سلم الدّاي مفاتيحها لبورمون مع وثيقة الاستسلام، ويروي المارشال ماكماهون الذي رافق الجنرال للخزنة كضابط صغير: كانت الخزينة عبارة عن حجرة تبلغ مساحتها ستة أمتار في خمسة، في أقصاها سياج من خشب البلوط يبلغ ارتفاعه مترين، كدست بينه وبين جدار الغرفة نقود فضية من كل نوع وعلى اليمين صندوق كبير فيه نقود من الذهب لاسيما النوع الإسباني، وعلى الأرض ثلاثة أقراص صغار أو أربعة من الذهب وقدر هذا الكنز بما يعادل ثمانين مليون فرنك، وهو مبلغ يفوق تكاليف الحملة التي قدرت بـ ٤٣ مليون فرنك، ويبدو أن الخزينة كانت تحتوي

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥١.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠٠.

على مبالغ أكثر نهبها الضباط بعد أن أحرقوا سجلات الخزينة بحيث أن المبلغ الذي سجل نهائياً كان لا يعدو ٤٨ مليون فرنك.

ومن الغريب أن الدّاي لم يتصرف بحكمة فيقوم بتهريب أموال الخزينة نحو قسنطينة حيث ستكون هي عون الباي أحمد الذي قرر المقاومة.

وطلب حسين باشا من بورمون إعطاءه ماله الخاص المتمثل في ثلاثين ألف قطعة ذهبية[١]. وقد أثنى القائد الفرنسي على مشاعر الدّاي الإنسانية لحقن الدماء بإبرامه هذه المعاهدة السلمية لتسليم مدينة الجزائر[٢].

وفي يوم ١٠ جويلية ١٨٣٠م رحل الدّاي عن مدينة الجزائر وتوجه إلى نابولي بايطاليا ثم التحق بفرنسا، وأخيراً توجه إلى الإسكندرية بصحبة حريمه وأتباعه وحمل معه خزينته الخصوصية وكان بها نحو تسع ملايين فرنك، وكميات من المجوهرات، والتقى بمحمد علي باشا حاكم مصر ولم يحسن الترحيب به[٣].

وأقام بمصر حتى وافته المنية بالإسكندرية سنة ١٨٣٤م وبعزل الدّاي من طرف الجيش الفرنسي وجبره على الاستسلام، انتهى العهد التركي بالجزائر الذي دام ٣٢٦ سنة[٤]، واستقبل سكان مدينة الجزائر هذا الاستسلام بحزن وحمل الكثير منهم أمتعتهم وغادروها نحو قسنطينة رافضين الإقامة تحت حكم النصارى.

وأما أحمد باي فبعد سقوط قلعة مولاي حسن وتيقّنه من مصير الدّايوية انسحب مع فرسانه إلى وادي القلعة ثم إلى عين الرباط موقع مستشفى مصطفى باشا الآن ثم تقدم شرقاً نحو قسنطينة وانضم إليه ١٦٠٠ شخصاً هربوا من الجيش، وفي الطريق اتصل به بورمون وعرض عليه أن يبقى كما هو إذا قبل دفع أتاوة لفرنسا، فلم يجب على عرضه

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٣٥٢.

[٢] تاريخ العرب الحديث، ص: ٢٢٩.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٢٢٩.

[٤] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠٠.

وواصل سيره الذي استغرق ٢٢ يوماً إلى أن وصل إلى الحامة ضاحية قسنطينة، ووجد بها أنباء مفادها أن بعض خصومه الأتراك قاموا بحركة وبايعوا بايا مكانه اسمه حمود شاكر، لكن أنصار الحاج أحمد عندما علموا بوصوله قادوا حركة تحت قيادة خليفته ابن عيسى وبعض العلماء، فقام الانقلابيون بقتل مرشحهم وإعلانهم الولاء للحاج أحمد[١].

٢. الأخطاء التي وقع فيها الدّاي حسين حاكم الجزائر:

ارتكب الدّاي حسين أخطاء فادحة كلفته فقدان نفوذه وسلطته في الجزائر ومن أهم هذه الأخطاء:

أ. إعدامه لقائد الجيش:

كانت الغلطة التي ارتكبها الدّاي وكلفته فقدان نفوذه وسلطته في الجزائر هي إقدامه على إعدام قائد جيشه البارع الآغا يحي الذي شغل هذا المنصب مدة ١٢ سنة في عهد الدّاي حسين، فقد كان هذا القائد من أكفأ القادة العسكريين في عهد الديات، وهو الذي دعم سلطة أحمد باي في شرق البلاد، ويحظى بمحبة الجنود العرب والقبائل، ولكن الخزناجي وزير مالية الدّاي غار من القائد يحي وخشي أن يكون داياً في يوم من الأيام وقام بتقديم تقارير كاذبة إلى الدّاي اتهم فيها الآغا يحي بأنه ينوي القيام بانقلاب ضد الدّاي وأنه وعد بعض الأشخاص بإسناد مناصب وزارية إليهم في حالة نجاح خطته الانقلابية، فاغتاظ الدّاي وأمر بنفي قائد الجيش واستبداله بصهره إبراهيم الذي لا يفهم شيئاً في فن الحرب أو قيادة الجيش، وخوفاً من اكتشاف خيوط المؤامرة وعودة الآغا يحي إلى قيادة الجيش أو إلى الحكم قام المتآمرون بتوجيه تهمة أخرى إلى الآغا يحي وأخبروا الدّاي بأنه يتصل برؤساء العرب والقبائل الذين يزورونه ليلاً في منفاه بالبليدة. كما أكد الخزناجي وجماعته في تقاريرهم المزيفة للدّاي بأن الآغا يحي يعقد الاجتماعات في بيته ويعد خطة لمهاجمة الجزائر والاستيلاء على السلطة وتعيين نفسه رئيساً للحكومة، وأقنع

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٣.

الدّاي بأن القائد يحيى خائن فأمر بإعدامه سنة ١٨٢٧م، وابتداء من ذلك اليوم وإلى يوم ٥ جويلية ١٨٣٠م بقي الجيش بدون قائد حقيقي لأن صهر الدّاي إبراهيم الذي أسند إليه هذا المنصب لم يكن يفقه شيئاً في فن الحرب.

ولهذا فإن تعيين الآغا إبراهيم على رأس الجيش قد مهّد الطريق للاحتلال الفرنسي، فالقائد الجديد لم يتخذ أية إجراءات محددة لمواجهة الغزاة الفرنسيين وإنما قام بتصوير خطة تقضي بإعطاء أوامر للقبائل العربية الذين سيكونون بجانبه لكي يطوقوا الجنود الفرنسيين ويقضوا عليهم، ونسي هذا القائد أن مجيء القبائل العربية يتطلب وقتاً طويلاً وأن الخيالة العرب يسكنون في أماكن بعيدة عن العاصمة ومن الصعب الاتصال بهم بسرعة[1].

ولا يفوتنا أن نلاحظ هنا بأن المجموعة القليلة من القبائل العربية التي وصلت إلى الجزائر العاصمة لم تكن لديهم المؤونة والذخيرة، ولم يكن في إمكانهم شراء ذلك على نفقاتهم الخاصة، ولذلك كانوا يعودون من حيث أتوا ويتركون آغا إبراهيم وحده، وبإيجاز فإن الدّاي الذي كان على علم مسبق بخطة الفرنسيين القاضية بالدخول من ميناء سيدي فرج، لم يأمر قائده جيشه بحفر الخنادق أو نصب المدافع هناك والتصدي للأعداء بمجرد أن تطأ أقدامهم أرض الجزائر. وفي اليوم الذي نزل فيه الجيش الفرنسي من بوارجه الحربية لم يكن بسيدي فرج سوى ١٢ مدفعاً و٣٠٠ فارس تحت تصرف صهره إبراهيم، وعندما وقعت معركة ستاويلي وانهزم فيها إبراهيم آغا وجماعته غادر المعسكر وترك جيشه واختفى في دار ريفية مع ثلاثة أو أربعة من جنوده، وفي هذه الأثناء قرر الدّاي أن يطلب من المفتي "شيخ الإسلام" أن يتولى تجنيد الناس وأن يقوم بجمع الشعب للدفاع عن البلاد، ولكن لسوء الحظ كان الأوان قد فات كما أن شيخ الإسلام رجل عادل وفاضل ولكنه

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٢.

بعيد عن أن يكون محارباً، وفي هذه اللحظة الحرجة لم يكن من الممكن أن يقود جيشاً ويصد عدواً، ونتيجة لكل هذا فلم يبق إلا تسليم مدينة الجزائر للفرنسيين[١].

ب. ثقة الدّاي حسين في وزير المالية:

والخطأ الثاني الذي وقع فيه الدّاي ونتج عنه تسهيل عملية احتلال الجزائر يكمن في ثقته العمياء واعتماده على وزير للمالية "الخزناجي" وإرساله للدفاع عن قلعة مولاي حسن "حصن الإمبراطور" وكان ما يصبو إليه الخزناجي هو أن ينجح في الحصول على تأييد الميليشيا "الإنكشارية" ويتمكن من عزل الدّاي ويستولي على الحكم، ويبدو أن وزير مالية الدّاي كان يهدف إلى التفاوض مع الفرنسيين وإبرام معاهدة حسب شروط فرنسا مقابل الاعتراف بالخزناجي كبديل للدّاي.

وكان الكاتب الخاص للدّاي مصطفى قادري ينتمي إلى جماعة الخزناجي، وعندما أرسله الدّاي حسين لمفاوضة الجنرال بورمون والتفاهم معه بشأن معاهدة الاستسلام كان مصطفى قادري يتفاوض باسم الخزناجي وليس باسم الدّاي، وقد وعد بورمون بأنه سيحمل له رأس الدّاي حسين وأنه مستعد للتفاهم مع فرنسا على ما تشاء، ولكن الجنرال الفرنسي أجاب مصطفى قادري بأنه لم يأت لمساعدة المتآمرين ولكنه جاء لكي يحارب. ونستخلص من هذه الحقائق أن جماعة الدّاي المحيطة به كانت تتآمر عليه في الخفاء وتتواطأ مع أعدائه، ولذلك كان من الصعب عليه أن ينجح في محاربة فرنسا وصد هجوماتها على الجزائر[٢].

ج. عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن:

والخطأ الثالث الذي ارتكبه الدّاي يتمثل في عدم وجود انضباط في صفوف رجال الأمن والسماح لبعض العناصر أن تتصل بالعدو وتنقل معلومات تضليلية من مخابراته وتنشرها في الأوساط الشعبية بالجزائر.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٣.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر صأ ٩٤.

وعلى سبيل المثال نلاحظ أنه بمجرد إنزال الجنود الفرنسيين بسيدي فرج قام جزائري يدعى أحمد بن شعنان بالاتصال بالمعسكر الفرنسي للتعرف على ما إذا كان الفرنسيون قد جاءوا مستعمرين أو محررين من النفوذ التركي، وانتهز الفرنسيون هذه الفرصة لكي يقنعوه بأنهم جاءوا كمحررين من المستعمرين الأتراك، وزودوه في نفس الوقت بنسخ من البيان الفرنسي الذي حملوه معهم من فرنسا، وهو مطبوع باللغة العربية، وأوضحوا فيه أن الفرنسيين جاءوا إلى الجزائر للانتقام لشرفهم من الباشا أو الدّاي، وأن الفرنسيين سيعاملون الجزائريين كما عاملوا إخوانهم المصريين من قبل، وبطبيعة الحال إن نقل هذه المعلومات المضللة إلى الأوساط الشعبية في الجزائر يعتبر خدمة للعدو الفرنسي وتثبيطاً لعزائم كل الجزائريين الذين كانوا يرغبون في مواصلة النضال والدفاع عن البلاد[١].

د . عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين:

والخطأ الرابع الذي ارتكبه الدّاي وجماعته أنهم لم يضعوا خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين ولم توجد القيادة التي تستعين بآراء الخبراء ويتفق أعضاؤها على خطة دقيقة، فقد ادعى الدّاي أنه يعرف مكان نزول الفرنسيين بسيدي فرج لأن جواسيسه في فرنسا ومالطة وجبل طارق قد زودوه بكل التفاصيل عن خطة فرنسا، لكن المجلس الذي عقد لتحديد خطة معينة للدفاع عن البلاد وشارك فيه الآغا إبراهيم قائد الجيش وصهر الدّاي، ومصطفى باي التيطري، وخوجة الخيل، وخليفة باي العرب، وحمدان بن عثمان خوجة لم يتمكن من وضع إستراتيجية دقيقة لمواجهة الجيش الفرنسي، واستناداً إلى ما قاله أحد أعضاء هذا المجلس وهو حمدان بن عثمان خوجة، فإن الاجتماع الذي عقد بمكان قرب سيدي فرج تمخض عن بروز آراء متضاربة فقائد الجيش الآغا ابراهيم الذي افتتح الاجتماع كان يرى أنه يجب بناء حصون على شاطئ البحر وتزويدها بمدافع قوية حتى تمنع الفرنسيين من النزول. أما حمدان بن عثمان خوجة قال للآغا إبراهيم بأنه إذا وضعنا

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٤.

كل أملنا في إقامة التراسين والحصون فإنكم لن تنتصروا لأن نيران المراكب الفرنسية ستقضي على هذه المنجزات المقامة بسرعة، وتكون أعمالكم قد ذهبت سدى، ثم إنكم لن تتمكنوا من تسليح الحصون دون تعرية مدينة الجزائر التي ينبغي أن تهتموا كل الاهتمام بالدفاع عنها، ومن جهته لاحظ باي قسنطينة بأنه من الصعب على الجزائريين أن يتمركزوا في موقع واحد ويتغلبوا على الجيش الفرنسي، وحسب رأيه أنه ليس من الحكمة أن تجمع القوات الجزائرية في نقطة واحدة، ومن الأفضل أن توزع بحيث ينقل جزء منها إلى غرب سيدي فرج، ومعنى ذلك فإذا قرر الفرنسيون ملاحقة الجزائريين فإنهم يبتعدون عن هدفهم الذي هو مدينة الجزائر، وسيكون ذلك لصالح الجزائر، لأن الجيش الجزائري سيبدأهم بالهجوم، وإذا قصد الفرنسيون مدينة الجزائر فإن الجيش الجزائري سيهاجم من الخلف ويستطيع الانتصار عليهم.

كما اقترح باي قسنطينة أن يتولى كل قائد الإشراف على وحدة من وحدات الجيش، ويكون مقر القيادة هو مدينة الدار البيضاء، وكانت إجابة الآغا إبراهيم على ملاحظات باي قسنطينة جافة وقاسية حيث قال له: إنكم لا تعرفون التكتيك الأوروبي أنه يتعارض كل المعارضة مع تكتيك العرب.

وهكذا باءت كل مجهودات الجزائريين لوضع خطة دقيقة لمجابهة العدو الفرنسي بالفشل، بالاضافة إلى أن الآغا إبراهيم جاء ليحارب فرنسا بدون جيش منظم وبدون ذخيرة وبدون مؤونة وبدون شعير للخيل وبدون المقدرة الضرورية على مواجهة الحرب[١].
وأما بالنسبة للجانب الفرنسي فإن الأوروبيين قد جاءوا وفي حوزتهم الخطة التي رسمها الضابط الفرنسي "بوتان" لاحتلال الجزائر يوم ٢٤ ماي ١٨٠٨م.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٩٦.

كما أن رئيس مجلس وزراء فرنسا "بولينياك" قام بإعداد خطة وعرضها على مجلس الوزراء قبل أن يرسل الجيش الفرنسي من مدينة طولون إلى الجزائر يوم ٢٥ ماي ١٨٣٠م وتتمثّل خطة "بولينياك" فيما ينبغي أن تكون عليه الجزائر بعد الانتصار عليها، واقترح على مجلس الوزراء حرية الاختيار بين البدائل التالية:

. إبقاء الدّاي في حكم الجزائر على أن تشرف فرنسا عليه من الناحية العسكرية فيحدد له عدد الجيش والأسطول الذي يستطيع الدّاي الاحتفاظ به.

. أو إعادة الجزائر إلى الدولة العثمانية لإنشاء حكومة منظمة فيها تضمن احترام الجزائريين للملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

. أو أن تتقاسم فرنسا الجزائر مع الدول الأوروبية وخاصة إنجلترا.

. أو أن تحتل فرنسا الجزائر بصورة دائمة وأن تستغلها اقتصادياً.

وطبعاً فإن الحل المقترح في النقطة الرابعة هو الذي وقع عليه الاختيار بعد الانتصار الفرنسي على الدّاي والقضاء على حكومته[1].

٣. الحرب النفسية والإعلامية الفرنسية:

عشية مغادرة الأسطول الفرنسي لميناء طولون لشن الحرب على الجزائر، قامت الحكومة الفرنسية بطبع منشور باللغة العربية لكي يتم توزيعه على الجزائريين وأبناء الأتراك قبل دخول الأراضي الجزائرية وتوضيح وجهة النظر الفرنسية بالنسبة لهذا الغزو الأوروبي لأرض إسلامية.

وقد جاء هذا البيان بمثابة خطة لخلق البلبلة في صفوف الجزائريين وإعطائهم انطباعاً بأن الفرنسيين جاءوا لتخليص الجزائريين من السيطرة التركية، وبذلك يتضامنون مع فرنسا ولا يتصدون لها، وتظهر هذه الحقائق من خلال البيان الذي جاء فيه:

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٦ ، ٩٧.

إننا نحن أصدقاءكم الفرنسيين نتوجه الآن نحو مدينة الجزائر إننا ذاهبون لكي نطرد الأتراك من هناك.

إن الأتراك هم أعداؤكم وطغاتكم الذين يتجبرون عليكم ويضطهدونكم والذين يسرقون أملاككم وإنتاج أراضيكم والذين يهددون حياتكم باستمرار.
إننا لن نأخذ المدينة منهم لكي نكون سادة عليها إننا نقسم على ذلك بدمائنا، وإذا انضممتم إلينا وإذا برهنتم على أنكم جديرون بحمايتنا فسيكون الحكم في أيديكم، كما كان في السابق وستكونون سادة مستقلين في وطنكم.

إن الفرنسيين سيعاملونكم كما عاملوا المصريين إخوانكم الأعزاء الذين لم يفتأوا يفكرون فينا ويتأسفون على فراقنا طوال الثلاثين سنة الماضية، منذ خرجونا من بلادهم، والذين ما زالوا يرسلون أبناءهم إلى فرنسا ليتعلموا القراءة والكتابة وكل فن وحرفة مفيدة، ونحن نعدكم باحترام نقودكم وبضائعكم ودينكم المقدس لأن ملك فرنسا المعظم حامي وطننا المحبوب يحمي كل دين فإذا كنتم لا تثقوا في كلمتنا وفي قوة سلاحنا فابتعدوا عن طريقنا ولا تنضموا إلى الأتراك الذين هم أعداؤنا وأعداؤكم، فابقوا هادئين.

إن الفرنسيين ليسوا في حاجة إلى مساعدة لضرب وطرد الأتراك.

إن الفرنسيين لكم وسيظلون أصدقاءكم المخلصون فتعالوا إلينا وسنكون مسرورين بكم، وسيكون ذلك فرصة لكم، وإذا احضرتم إلينا الأطعمة والأغذية والأبقار والأغنام فسندفع ثمن ذلك بسعر السوق وإذا كنتم خائفين من سلاحنا فأشيروا علينا بالمكان الذي يقابلوكم فيه جنودنا المخلصون دون سلاح مزودين بالنقود في مقابل التموين الذي تأتون به وهكذا يحل السلام بينكم وبيننا لمصلحتكم ومصلحتنا[١].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٨.

وكان لهذا البيان وبيانات أخرى وزعت في الجزائر الأثر الكبير في نفوس وجهاء مدينة الجزائر الذين كانوا يقولون: لا ينبغي لنا أن نعرض العاهل ولا سكان المدينة إلى أخطار محققة باستعمالنا وسائل الشدة والعنف[١].

وقد تحطمت معنويات التجار والمحاربين في الجزائر بمجرد استيلاء بورمون على حصن الأمبراطور وتأهبه لكي يزحف على العاصمة بجيوشه الكبيرة.

كان رجال التجارة والرأسماليون يميلون إلى الاستسلام لأن الجزائر ضائعة لا محالة، ولو دخل الفرنسيون بالقوة على أثر هجوم فإنهم سينهبون المدينة ويقتلون جميع السكان والنساء والأطفال العزل، وكان تبريرهم لقبول فكرة تسليم المدينة إلى الفرنسيين وفقًا لمعاهدة "استسلام" هو أن أمة شريفة مثل فرنسا لا تنكث بعهودها وأننا سنتمتع بحريتنا ونعامل بكل عدل وبقطع النظر عن كون زيد أو عمر هو الذي يحكمنا، فإن المهم هو أن نحكم كما ينبغي وفقاً لمبادئ الحكومة الفرنسية، وأن لا تمس ديانتنا ومن جهة أخرى فإن عماد الحضارة هي حقوق الإنسان ولذلك فإننا لا نخشى شيئاً من أمة متحضرة. وهذا هو التفكير الذي أدى في نهاية الأمر إلى عدم مقاومة الجيش الفرنسي[٢].

وهؤلاء المساكين يبدو أنهم لم تكن لهم علاقة بالذاكرة التاريخية وماذا فعلت فرنسا لما دخلت مصر، وكيف التجأ القائد الفرنسي كليبر إلى العنف فدك القاهرة في عام ١٨٠٠م بالمدافع من كل جانب وشدد الضرب على حي بولاق، واندلعت ألسنة النيران في كل مكان منه، والتهمت الحرائق عدداً كبيراً من الوكائل والخانات فلم يجد سكان بولاق مفراً من التسليم وتلاهم سكان الأحياء الأخرى، وتولى مشايخ الأزهر الوساطة وأخذوا من كليبر العفو الشامل والأمان، ولكنه ما لبث أن غدر بالمسلمين بعد أن خمدت الثورة، وكان اقتصاصه منهم رهيباً شديداً فأعدم بعضهم وفرض غرامات فادحة

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٩٨.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٩٩.

على كثير من العلماء والأعيان، كما فرض المغارم على أهل القاهرة جميعاً، ولم يستثن منهم الطبقات الشعبية الكادحة[١].

وعهد كليبر إلى المعلم "يعقوب" أن يفعل بالمسلمين ما يشاء، ومما يذكر ان بطريك الأقباط لم يقر يعقوب على تصرفاته، وكثيراً ما بذل له النصح بالعدول عن خطته، ولكن يعقوب كان يغلظ له القول وكان يدخل الكنيسة راكباً جواده ورافعاً سلاحه ولم يزدد إلا إمعاناً في تأييد الفرنسيين[٢].

٤. سرقات جيش الاحتلال وتعاون اليهود معه:

أما يهود الجزائر فقد كتب عنهم المؤرخ الفرنسي جوليان: لقد استقبل يهود الجزائر المحتلين بالفرح، وعندما انتشر الجنود الفرنسيون في فوضى ينهبون المنازل كان اليهود يوجهونهم نحو الأماكن التي بها ما ينهب ويقومون بشراء ما نهبوا منهم بأبخس الأثمان[٣].

أ. قصة هروب اليهود من الاضطهاد الأوروبي:

هؤلاء اليهود الذين هربوا من الاضطهاد الأوروبي إلى الجزائر هم اليهود "الشيكلين" من جزر البليار في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي واليهود "الكيبوسين" من إسبانيا في نهاية القرن الرابع عشر وبخاصة بعد نهاية دولة بني الأحمر في غرناطة سنة ١٤٩٢م، ومن إيطاليا سنة ١٣٤٢م، وسنة ١٣٥٠م، ومن فرنسا سنة ١٤٠٣م، ومن هولندا سنة ١٣٥٠م، ومن بريطانيا سنة ١٤٢٢م، واستقبلهم الشعب الجزائري بكرم وأنقذهم من الإبادة في أوروبا، لكنهم قابلوا هذا الإحسان بالتنكر للجميل فانضموا منذ دخول الفرنسيين لهم ضد مواطنيهم الجزائريين[٤].

---

[١] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٦٦.

[٢] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٣٦٦.

[٣] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٣.

[٤] المصدر نفسه، ص: ٤٥٤.

ب . مداهمة البيوت:

كان الجنود يداهمون المنازل فيجرِّدون النساء من مصاغهن وملابسهن الثمينة، وكانوا يجردون حتى الأطفال من ملابسهم ومن السلاسل الذهبية التي كانت مدلاة في صدورهم. وقد شارك النهب ضباط كبار جعل الضابط "لوفيردو" يعلق على ذلك في رسالة لزوجته فيقول: "لم أشاهد في حياتي أحقر مما تم" ورويت نوادر عن هذا النهب، فضابط اسمه ديمية أصيب بإفلاس وخسر كل ممتلكاته قبل ذهابه للجزائر لكنه عاد من الجزائر ثرياً، وعندما سئل من أين أتى بهذا المال؟ أجاب: لقد ورثت زوجتي عن عمها ستة ملايين فرنك. وعلق على ذلك الموسيقار الإيطالي روسيني صاحب أوبرا الإيطالية في الجزائر، فأجابه ساخراً : أنا لا أعلم أن دّاي الجزائر عم زوجتك[١].

ج . صدمة أعيان الجزائر:

عندما دخلت الجيوش الفرنسية مدينة الجزائر قام قائد الحملة الفرنسية بورمون بطمأنة أعيان الجزائر وإعطاؤهم انطباعاً بأن الجيش الفرنسي لن يبقى في الجزائر أكثر من ستة أشهر، وأكد بأن هذه هي نية الحكومة، وبأنه عندما يشرع في الجلاء فإنه سيترك البلاد بين أيدي أعيانها وتحت تصرفهم، وكان يقول كذلك أن الجزائر كانت من ممتلكات الباب العالي، وقد أحاط بعض الناس الذين كانوا يطمحون في الوصول إلى الحكم بالمارشال بورمون، وتقربوا إليه وأظهروا له إخلاصاً لا حدود له لمواصلة مشاريعهم الجنونية آملين أنهم سيخلفون الفرنسيين فيما بعد[٢].

لكن أعيان الجزائر الذين كانوا يشكلون طبقة غنية متحدرة الأصل من أهل البلاد ومن مهاجري الأندلس قد خاب أملهم في الفرنسيين حين أدركوا أن فرنسا جاءت لتبقى، وأن أموالهم وأراضيهم صودرت وأصبحت ملكاً للدولة الجديدة، وأن مساجدهم وزواياهم قد

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٤.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠١.

احتلت من طرف الجيش الفرنسي أو تحولت إلى كنائس، وقد اندهشوا حين اكتشفوا أن السلطات الفرنسية تعطي عهد الأمان وتنقضه، وتقوم بعزل وطرد ونفي أولئك الذين قبلوا التعاون مع فرنسا بدعوى عدم القيام بالواجب، أو التآمر لاستعادة الحكم الإسلامي أو الانضمام إلى الثائرين ضدها[١].

وبطبيعة الحال لم تكن لهم قوة كافية لمجابهة الفرنسيين أو وسائل للضغط عليهم وبالتالي استطاع الفرنسيون أن يشتتوهم بالنفي والمحاكمات وتسليط الطائفة اليهودية عليهم[٢].

د . جشاعة الفرنسيين:

تأكّدت جشاعة الفرنسيين وتهافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى ذخائر قصر الدّاي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى فرنسا، ويستفاد من بعض المصادر التاريخية أن الفرنسيين قد استولوا على:

. ٧ أطنان و٣١٢ كيلو غرام من الذهب "من قصر الدّاي".

. ١٠٨ طناً و٧٠٤ كيلو غرام من الفضة "من قصر الدّاي".

. ٢٤,٧٠٠,٠٠٠ فرنكاً وهي قيمة الذهب الموجود بالخزينة الجزائرية.

. ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك فرنسي من العملات الأجنبية الموجودة بالخزينة.

ونستخلص من بعض الوثائق أن ضباط الحملة الفرنسية قد اختلسوا لأنفسهم ما قيمته ٥٠ مليون فرنك فرنسي، واكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية وقد أرسلت هذه الأموال والثروات الجزائرية في صناديق خاصة إلى فرنسا على ظهره بواخر فرنسية وتبلغ قيمة المبلغ الإجمالي لهذه المسروقات ٤,٨٦٨,٧٩٤,٤٥٢ فرنكاً فرنسياً[٣].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠١.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٢.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

هـ . تجريد الجزائريين من أراضيهم:

قرر قادة الجيش الفرنسي انتهاج سياسة احتلال الجزائر وتجريد الجزائريين من أراضيهم وقد قام بهذه العملية الجنرال "كلوزيل" وهو أول جنرال يعين حاكماً عاماً للجزائر من شهر سبتمبر ١٨٣٠م إلى غاية فبراير ١٨٣١م. ففي هذه الفترة تقرر أن يتم تنحية باي التيطري واقترح على باي تونس أن يعين أحد أشقائه باياً على وهران وآخر يعين باياً على قسنطينة، وبذلك يتعاون معه باي تونس على التخلص من أية مقاومة جزائرية في شرق البلاد أو غربها، كما قام هذا الحاكم العام بمحاولة مع التجار والفلاحين الفرنسيين لإقناعهم بالقدوم إلى الجزائر والاستيلاء على الأرض وزرع العنب فيها والبحث عن الذهب في المناجم الجزائرية.

وعندما باءت هذه المحاولة بالفشل قرر أن ينتهج سياسة الاستيلاء على الأراضي الجزائرية الخصبة وتسليمها للمهاجرين الأوروبيين، وبذلك تجد الحكومة الفرنسية نفسها مضطرة لاحتلال الجزائر بصفة نهائية وتقديم المساعدة المالية للمستوطنين الفرنسيين بالأرض المحتلة في الجزائر.

ولهذا قام بإصدار قرار في الشهور الأولى من احتلال الجزائر يقضي بتسليم الاراضي للمعمرين، ونتيجة لذلك أصبحت مرسليا زاخرة بالتجارة والأموال المتدفقة عليها من الجزائر، وباختصار فإن ضعف الحكومة الفرنسية وغموض سياستها في الجزائر قد دفع بالمعمرين أن يلتجؤا إلى الدسائس والمؤامرات وطرد اية شخصية مدنية أو عسكرية تحاول الحد من سلطة المستوطنين الأوروبيين أو تسعى لمراقبتهم أو الحد من سيطرتهم وقد أحرزوا نجاحاً هائلاً في خططهم إلى درجة أنهم استطاعوا شراء أغلب الأراضي المنتجة في سنوات قليلة، كما أن بعض الموظفين الفرنسيين نالوا مراتب عالية في الإدارة في حين أنهم لو بقوا في فرنسا لن يلتفت إليهم أي واحد وكان شعار الغزاة والمستعمرون الجدد، أن العربي في

نظرهم ما هو إلا حيوان مخلوق وهو ممتلئ بالتعصب الإسلامي ولا يمكن وقفه عند حده إلا بالقوة[1].

و. احتلال مصحوب بأعمال تدميرية وإجرامية:

سجل كثير من الضباط فظائع جيش الاحتلال، فبيليسية وصف احتلال مدينة الجزائر بقوله: أكثر احتلال تم في فوضى يفوق ما تم في أكثر القرون بربرية هو احتلال الجزائر[2].

وفي رسالة وجهها الجنرال بيرتوزان لوزير الدفاع بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٨٣١م قال مشخصاً فظائع الاحتلال: عندما جئت إلى هذه الشواطئ نصف المتمدنة فكرت في أن واجبي أن أشرِّف اسم الفرنسي وحكومة الملك.. إنني أعترف لك بصراحة بأنني أعتقد بأنه لم يحدث في أي زمان من العهد التركي أن مر سكان هذه المناطق بهذا الإنكار للعدالة مثل الذي تحملوه على أيدينا، لم أتمكن من إصلاح هذا الوضع، لأن تفاصيل كثيرة لم أستطع السيطرة عليها بسبب عدم إيجاد بين مرؤوسي شخص واحد له إرادة لجعل العدالة تنتصر، وكم من مرة تملكني الخجل من رؤيتي للأخلاق الفرنسية تتدهور في حضور العالم المتمدن الذي يراقبنا من خلال قناصل دولة، وحتى أمام هؤلاء الأفارقة الذين نحتقرهم والذين يتمتعون بروح رفيعة، لقد كتبت لكم مراراً أننا لم نأت هنا إلا لنهب الثروات العمومية والخاصة.

ويصف الضابط بيليسية دو ربينو البؤس الذي صار فيه سكان مدينة الجزائر فيقول: لا يوجد أي واحد يريد أن يتعمق في أسرار هذه الآلام أطفال بؤساء يمدون أيديهم متسولين، وفتيات يائسات في سن الزواج دفعهن الجوع إلى الدعارة، لا أحد يبحث عن أسباب هذه الآلام[3].

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٠٣ ، ١٠٤.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٥.

[3] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٦.

وقد اعترف "اليكسيس دي طوكفيل" في كتاب عنوانه: دراسة عن الجزائر بتلك السياسة قائلاً: لقد سمعت مرات عديدة في فرنسا أناساً أحترمهم ولا أوافقهم يستنكرون إحراق المحاصيد وإفراغ المطامير والاستيلاء على رجال بدون سلاح، وعلى نساء وعلى أطفال، لكن هذه الأعمال ضرورية لأي شعب يريد محاربة العرب.. إن قانون الحرب يرخص لنا تدمير البلد، ونقوم بذلك عن طريق إتلاف المحاصيد وعن طريق الهجومات التي تسمى غزوات والتي تستهدف إلى الاستيلاء على الأشخاص وعلى القطعان.

إن المقدم "لوسيان فرانسوا دي مونطانياك" يروي في كتابه "رسائل عسكري في الجزائر من عام ١٨٣٧م إلى ١٨٤٥م أن المشير "بيجو" صرّح أمام الضباط المجتمعين «إن الحرب التي سنشنها ليست حرباً بالبنادق لن نستطيع أن نتغلب نهائياً على العرب إلا عندما ننتزع منهم الموارد التي يمنحها إياهم التراب»[١].

أما المشير "سانت أرنو" فإنه يفتخر في رسائله بأنه ترك مروره عبر بلاد القبائل حريقاً واسعاً، بحيث أحرقت كل القرى "وعددها ٢٠٠ تقريباً" أحرقت حدائقها وقُطعت أشجار الزيتون فيها.

وكتب العميد "برتيزان" بعد قيادته جيوش الحملة الحربية يناير ١٨٣١م إلى ٦ ديسمبر ١٨٣١م، ما أكثر الأعمال التدميرية والسرقات، لقد حطمت الجيوش كل شيء في ضواحي الجزائر وأحرقت الأشجار ودمرت الديار، فالمسلمون واجهوا مجموعات تعتبر أرذل الناس في البحر المتوسط وأكثرهم فقراً وأسفلهم أخلاقاً.

قتل المقدم "لوسيان فرانسوا دي مونطانياك" في معركة سيدي إبراهيم في سبتمبر ١٨٤٧م لكنه كاتب قبل موته صديقه قائلاً: هكذا يا صديقي ينبغي أن تقام الحرب ضد العرب، يجب قتل كل الأطفال ونقلهم على متن سفن إلى جزر "ماركيز" أو إلى أماكن أخرى،

---

[١] ثورة الجزائر د. بو علام حمودة، ص: ٤٥٦.

بكلمة واحدة يجب قتل كل من لا يركع أمام أرجلنا مثل الكلاب، هذا معناه إبادة، لم يتورع سانت أرنو عن ذكر الكلمة، فكتب: "هذه هي الحرب في أفريقيا، نتعصب بدورنا فتتحول إلى حرب إبادة"[١].

ولقد تم تقتيل أولاد رياح في جبال الظاهرة شرق مستغانم، لقد فر السكان إلى مغارات خوفاً من وحشية جيوش العقيد "جان جاك بيليسي" إلا أن هذا الأخير أمر بإشعال النار في كل مخارج المغارة حتى مات بالاختناق ألف شخص رجالاً ونساء وأطفالاً. هذه الجريمة النكراء غطاها رئيس مجلس الوزراء المشير "سولت" مصرحاً: إن فعلاً مثل هذا ينتمي إلى الحرب ولم تتخذ عقوبات ضد العقيد بيليسي بل رُقي إلى منصب سفير في بريطانيا العظمى، ثم منصب حاكم عام للجزائر من سنة ١٨٦١م إلى سنة ١٨٦٤م.

إن تقتيل قبيلة أولاد رياح لم يكن منفرداً، فالعقيد بيليسي يُقر للمشير "بيجو" بأنه حذا حذوه ووصف له كيف أشعل النار. وقد فعل "سانت أرنو" في بلاد القبائل مثلما فعل "بيليسي" في جبال الظاهرة، ففي الرسالة المؤرخة في ١٥ أوت ١٨٤٥م يروي أنه كان يحاصر القبيلة ويغلق عليها كل المخارج ثم يشعل النار فتتحول القرية إلى مقبرة تتسع لـ ٥٠٠ لص.

و"الفونس دي لامارتين" الشاعر الذي كان نائباً بالمجلس الوطني تدخل في المداولات قائلاً: من بين ٧,٠٠٠ نسمة "نساء وأطفال وشيوخ وجنود عرب" هل تعلمون عدد الذين وصلوا أحياء إلى الحرّاش ثلاثة الآف، أما الباقي فإنه مات منهوكاً في الطريق، وإنه يضيف في ١٥ ماي ١٨٤٥م. كل الناس الساكنين في قرية بجبال الجرجرة قُتلوا بالسيوف عندما خرجوا للقتال، أما باقي السكان فقد أحرقوا تحت السقوف التي أضرمنا فيها النيران.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٢ ، ٢٣.

ويكتب "دي مونطانياك" يوم ٢٠ ديسمبر ١٨٤٤م: إن رأس عربي مقطوع له تأثير أكثر من موت خمسين شخصاً، ولقد فهمت هذا منذ زمان فقليلاً ما كان يفلت أحد من يدي.

ويذكر "موريس هيريسون": آذان العرب قيمة كل زوج منها ١٠ فرنك، أما النساء فإنهن بقين صيداً مفضلاً.

بالنسبة إلى النساء يفصّل "دي مونطانياك" الموضوع قائلاً: البعض من النساء يبقى كرهائن والبعض يُبدل بها أحصنة، والبعض الآخر يباع بالمزايدة مثل الحيوانات، هكذا نفعل بهذا البلد "الجزائر" بالأزهار التي نجعلها تتفتح لتنوير حياتنا.

وقد ذكر حمدان خوجة في مذكراته منظراً غير إنساني: وهو التفريق بين الأتراك وزوجاتهم الجزائريات وأولادهم، وذلك طبقاً لتعاليم المشير "دي بورمون" يروي حمدان خوجة: إن بعض الجنود الفرنسيين كانوا يحولون أنظارهم تأثراً بمشهد إركاب الأتراك بالقوة لإبعادهم من الجزائر وعن الجزائر وعن أسرهم.

ونقل الشاعر المشهور "فكتور هيغو" كلاماً يقال في الصالونات يوم ١٥ أكتوبر ١٨٥٢م، ذكر العميد لوفلو أنه في المعارك بعض الجنود الفرنسيين كانوا يلقون نحو رفاقهم أجساد أطفال يسقطون على حرابهم، وقد كان المسلمون متابعين حتى في المقابر إذ كانت عظامهم تحرق لصنع فحم العظام أو كانت تستعمل لتصفية السُكّر[١].

٥. مصادرة الأوقاف الإسلامية:

اهتم كلوزيل مدة حكمه بمشاريع الاستعمار والتنظيم الإداري للجزائر في مجالات شتى: الاقتصادية والعمرانية والتوسيعية، وقد اتضح من خلال المشاريع الأولى أن فرنسا جاءت للبقاء والاستعمار وليس لتأديب الدّاي حسين كما كان شائعاً فكان من بين اهتمامات

---

[١] المصدر نفسه

هذا العسكري، إحصاء الملكيات المختلفة ولهذا أصدر يوم ٨ سبتمبر ١٨٣٠م قراراً استهدف حجز أملاك العثمانيين، ثم أوقاف مكة والمدينة وإلحاقها بمصلحة الدومين التي تم إنشاؤها في عهد دي بورمون، وقد حدد هذا القرار التعسفي مهلة ثلاثة أيام لعملية الاستظهار وإثبات الملكية وأن السلطة ستعاقب كل من تحداها بدون انتظار.

وإذا لم يكن لهذا القرار صدى يذكر في العاصمة باريس، ولا ردود فعل من الملك لويس فيليب الذي كان مهتماً بالمشاكل الداخلية التي خلقتها ثورة جويلية، وبالمشاكل الخارجية فإن هناك احتجاجات من سكان المدينة عبّر عنها المفتون والعلماء والوكلاء وبينوا لهذا العسكري أن أملاك مكة والمدينة ليست ملكاً للعثمانيين، وإنما هي من أصول مختلفة وأن الذين يشرفون عليها ـ أي الوكلاء ـ ليسوا عثمانيين بالضرورة وإنما هم من مدن الجزائر المختلفة.

وأمام هذا الاحتجاج تراجع كلوزيل عن القرار المتعلق بالاستيلاء على أوقاف مكة والمدينة وقدَّر بعض القادة العسكريين خطورة بقاء هذه الأوقاف بأيدي أصحابها فهي تساعدهم على القيام بالثورة ضد الاحتلال، وقد ثبت أن معظم الثورات التي كانت ضد المحتل في بداية المحتل وطيلة القرن التاسع عشر قد ساهمت الأوقاف الإسلامية فيها.

وبعد ثلاثة أشهر من إصدار القرار الأول أصدر كلوزيل قراراً آخر يوم ٧ ديسمبر ١٨٣٠م مدفوعاً بنصائح السيدين فوجدوا وفونلاند استهدف به هذه المرة ضم كل الأملاك والأوقاف الدينية "وهي تشمل أوقاف مكة والمدينة والمساجد والزوايا" إلى مصلحة أملاك الدولة ـ الدومين ـ وطلب من المفتين والوكلاء أن يقدموا حساباتهم إلى هذه المصلحة الجديدة.

ويذكر هابار بأن هذا القرار كان ضربة للدين والثقافة الإسلامية لانعكاس آثاره على الحياة الاجتماعية للسكان، فالأوقاف كانت المصدر المالي للتعليم والترقية الاجتماعية.

كانت الأوقاف موجودة في الجزائر كما كانت في بقية البلاد الإسلامية، وهي حبس مال أو أراض ونحو ذلك تصرف منفعته على الفقراء وخدمة الدين والعلم، ولعبت دوراً معتبراً في العهد العثماني وخاصة في مجال التعليم ونشر الثقافة وهي نوعان: "الأوقاف الخاصة أو العائلية والأوقاف العامة، وهي التي تهمنا ويحسبها أهل الخير لأغراض خيرية دينية، مثل التي تخصص للتعليم والعناية بالحج واستصلاح المساجد ومساعدة الأيتام.

وكانت الأوقاف العامة كثيرة بمدينة الجزائر، وقد قدر عددها في الأيام الأولى من الاحتلال ٢٦٠٠ ملكية، وعدد غير قليل في المدن الأخرى كقسنطينة ووهران، ويمكن ترتيب الأوقاف في مدينة الجزائر كما يلي:

- أوقاف مكة والمدينة.
- سبل الخيرات.
- الجامع الكبير.
- الزوايا.
- أوقاف الأندلس.
- الإنكشارية.
- المياه.
- الطرق.

وبمقتضى قرار ٧ ديسمبر ١٨٣٠م أصبحت كل الأوقاف ملكاً للسلطة الاستعمارية أو تابعة لمصلحة الدومين، غير أنه أبقى على الوكلاء الذين كلفوا بجمع دخلها وتسليمه إلى السيد جيراداان الذي عين مديراً لإدارة أملاك الدولة الفرنسية في الجزائر، واختير لهذا المنصب لأنه كان يجيد اللغة العربية، ونظراً لأهمية هذا المنصب وضع إلى جانبه موظفون مدنيون يساعدونه في الوظيفة.

ولم تتمكن السلطة الاستعمارية من تنفيذ هذا القانون الجائر كلياً في مدينة الجزائر ولكنها استطاعت تنفيذه في وهران وعنابة.

ولم تجد السلطات الفرنسية صعوبات في مصادرة أوقاف العيون وتسليمها إلى مهندسين فرنسيين، ونفس الشيء لأوقاف الطرق، سلمت إلى مصلحة الجسور بحجة ضعف وعجز الأمناء الذين لم تكن لهم القدرة الكافية للقيام بهذا.

وأما أملاك الجيش الانكشارية فقد احتجزت لأنها أملاك عثمانية، وإن بقاءها بأيديهم يحرضهم على الثورة في نظر الفرنسيين، وأجبر وكيل أوقاف مكة والمدينة على دفع الدخل للخزينة المالية العامة وتوقف إرسال جزء منه إلى شريف مكة حتى لا يشتغل في إشعال وتموين الثورات.

إن السلطة الفرنسية تصرفت في الأوقاف تصرفاً ينافي وعدها في احترام الديانة الإسلامية، فقد حولت الكثير إلى كنائس وإلى مراكز طبية وإدارية وثكنات عسكرية وحمامات وسلمت بعض العقارات للمستفيدين الأوروبيين ترغيباً في البقاء ومنها ما استأجر لكبار التجار لتخزين بضائعهم ومنها ما بيع وتعرض لهدم من أجل توسيع الطرقات وتكوين الساحات العامة وكان جامع السيدة أول مسجد يعرض لمعاول الهدم، بدعوى إقامة ساحة داخل المدينة ـ هي ساحة الشهداء اليوم ـ تستعمل للدفاع وقمع الاحتجاجات في حالة انتفاضة السكان[1].

ويذكر الوكيل المدني بيشون إن الجيش استولى فيما بين ١٨٣٠م ـ ١٨٣٢م على خمس وخمسين ملكية تابعة لأوقاف مكة والمدينة وعلى إحدى عشرة ملكية تابعة للمسجد الكبير[2].

ويعتبر قرار ٧ ديسمبر ١٨٣٠م من البوادر الأولى للاستعمار والتدخل السافر في الشؤون الدينية للسكان، كما يعتبر من الخطوات الأولى لمحو التراث العربي الإسلامي بالجزائر،

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ٢٣ ، ٢٤.

[2] المصدر نفسه.

وهتك ما هو مقدس وقيام السلطة بهذا العمل لقي معارضة شديدة، حتى من بعض الفرنسيين، وعلى هذا يمكن أن نقسم هذه المعارضة إلى نوعين:

النوع الأول: ويشمل طائفة من المسؤولين الفرنسيين الذين رأوا في القرار شيئاً ينافي مبادئ الدولة الفرنسية وينقض عهد الأمان الذي أُعطي للسكان، فالجنرال برتوزين كان قد فكر إبان حكمه في الجزائر فيفري ١٨٣١م وديسمبر ١٨٣١م، في إرجاع أوقاف مكة والمدينة، لأن حجزها مخالف لمعاهدة جويلية ١٨٣٠م وأما الوكيل المدني بيشون فقد اتخذ موقفاً معارضاً للقرار برسالة وجهها إلى رئيس مجلس الوزراء يوم ١١/ ١١/ ١٨٣١م طالباً فيها بفسخ القرار بسرعة حتى يسمح ذلك للسلطة بتمهيد طرق التوفيق مع القبائل القاطنة داخل البلاد، وموقف بيشون فتح الطريق أمام البعض في التعبير عن تذمرهم من القرار، ومن بين هؤلاء السيد الحاج محيي الدين آغا العرب الذي شكا لبيشون وناشده بإرجاع أوقاف مكة والمدينة وإعادة المساجد المختلفة إلى أصلها.

النوع الثاني: من المعارضين للقرار العلماء ورجال الدين والمفتيون والقضاة، من أمثال محمد بن محمود بن العنابي المفتي الحنفي ومصطفى بن الكبابيطي وشخصيات أخرى من أعيان مدينة الجزائر أمثال حمدان بن عثمان خوجة، وأحمد بو ضربة وغيرهم، فبحكم المناصب التي كانوا يحتلونها عند الفرنسيين تمكن هؤلاء من التعبير عن تذمرهم بما حل بالأوقاف والمساجد عن طريق تقديم الشكايات والعرائض إلى السلطة الحاكمة، فالمفتي ابن العنابي هاله ما كان يجري في مدينة الجزائر، ويصفه حمدان خوجة قائلاً: بأنه رجلاً نزيهاً وقاضياً، ذنبه الوحيد أنه كان يكتب دائماً إلى الجنرال كلوزيل يلومه على تصرفاته التي كانت تبدو له مخالفة لوثيقة الاستسلام وللقوانين الفرنسية، ولحقوق الإنسان، فاعتبره

كلوزيل عنصراً خطيراً على السلطة بحجة أنه يعمل على تحريض السكان على الثورة، فألقى عليه القبض سجنه ثم نفاه بعد أن أوقع به الفخ[١].

والخلاصة هي: لقد نظر الفرنسيون إلى الأملاك الدينية بمنظار فرنسي استعماري همجي بربري وقد بين حمدان خوجة هذا المعنى عندما قال: إنهم فعلوا ذلك للحصول على وسيلة يكسبون بها ثروة طائلة في أسرع وقت ممكن ولو على حساب الإنسانية وشرف الأمة، وثانياً لافتتان الأنفس وترغيب فرنسا في الاحتفاظ بالأيالة.

إن تدخل السلطات الفرنسية المحتلة للجزائر في شؤون الممتلكات الدينية اعتداء صريح وواضح وعمل ممنهج للقضاء على الديانة الإسلامية أو إضعافها التي وعدت باحترامها واحترام كل ما يرمز إليها، كما يعتبر قيامها بتحويل المساجد إلى كنائس للقيام بشعائرها الدينية نوعاً من التنصير المقنع الذي تتعدد مظاهره وأشكاله[٢].

رابعاً: موقف الدولة العثمانية من احتلال فرنسا

كان الاحتلال الفرنسي للجزائر في عهد السلطان محمود الثاني الذي تولى قيادة الدولة من عام ١٨٠٨م إلى عام ١٨٣٩م.

كانت الدولة العثمانية، في وضع لا تحسد عليه ودعمت الدول الأوروبية محمد علي باشا لإضعاف الدولة العثمانية، ولقد ساهم محمد علي في بيان الضعف الذي وصلت إليه الدولة العثمانية، وبالتالي بدأت الدول الأوروبية تتهيأ الظروف السياسية لتقسيم أراضيها، وبينما كانت جيوش محمد علي تمكن النصارى في بلاد الشام وتضعف شوكة المسلمين، كانت جيوش فرنسا في عام ١٨٣٠م تغتصب الجزائر بعدما ضعفت الخلافة العثمانية،

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ٢٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٦ ، ٢٧.

وكانت الدول الأوروبية مؤيدة لهذا الاغتصاب السافر، فقد حان توزيع تركة الرجل المريض وحل المسألة الشرقية بالطريقة الأوروبية.

وفي أعقاب هزيمة الجيوش العثمانية أمام جيوش محمد علي في الشام وفي الأناضول، اضطرت الدولة العثمانية للاستنجاد بروسيا بعد أن لمست أن محمد علي يحظى بتأييد بريطانيا وفرنسا، وعقدت معاهدة "نكيار السكلة سي" سنة ١٨٣٣م في أعقاب هدنة كوتاهية وكانت المعاهدة بمثابة تحالف دفاعي بين روسيا والعثمانيين، مما أدى إلى مسارعة كل من بريطانيا وفرنسا بالتصدي لمحمد علي خشية المزيد من التدخل الروسي، وفرضت عليه اتفاقية لندن سنة ١٨٤٠م وقد ترتب على هذه الأحداث إجهاض محاولة الإصلاح التي حاول السلطان محمود الثاني أن يقوم بها في الدولة العثمانية واضطرت الدولة العثمانية لقبول وصاية الدول الأوروبية في مقابل حمايتها من أطماع محمد علي[١].

وهكذا كانت سياسة محمد علي خطوة مدروسة من قبل أعداء الإسلام لتهيئة المنطقة بأكملها لمرحلة استعمارية، مازالت آثارها تعاني منها الأمة حتى اليوم. لقد استطاعت السياسة النصرانية الأوروبية أن تحقق أهدافها الآتية بواسطة عميلها محمد علي وهي:

ـ تحطيم الدولة السعودية الأولى التي كادت أن تكون سداً منيعاً أمام الأطماع البريطانية في الخليج العربي خصوصاً، والمشرق عموماً.

ـ فتح الأبواب على مصراعيها لإقامة مؤسسات معادية للدين الإسلامي والمسلمين في محافل ماسونية وإرساليات تبشيرية وأديرة وكنائس ومدارس كان لها الأثر البارز في بذر بذور التيارات القومية المعادية للإسلام، وبث الأفكار المعادية لمصالح الأمة الإسلامية.

ـ إتاحة الفرصة لشركات تجارية أوروبية تتحكم في الاقتصاد.

ـ منح امتيازات واسعة للأوروبيين، ومنع أهالي مصر والشام من تلك الامتيازات.

---

[١] قراءة جديدة في التاريخ العثماني، ص: ١٨٨.

. خنق التيار الإسلامي الأصيل وضيق على العلماء والفقهاء ولم يسمح للمسلمين أن يتكتلوا من أجل أهدافهم النبيلة.

. أصبح محمد علي نموذجاً تحتذى به الدولة الأوروبية في صنع عملائها في داخل ديار المسلمين، كمصطفى كمال وغيره.

وبعد أن حققت الدول الأوروبية أهدافها بواسطة عميلها محمد علي، حان الوقت لإضعاف قواته وتحجيمها، فقد تحققت أهدافهم، ووصلوا إلى مقاصدهم فلا بد من إضعاف قوات محمد علي، ودخل الإنجليز في صراع سافر مع قوات محمد علي، واستطاعت بمساندة أهل الشام من هزيمتها، والاستحواذ على الثغور الشامية. وقتل في هذه المعارك ثلاث أرباع قوات محمد علي من شعب مصر وبلاد الشام، وأجبر محمد علي تحت ضغوط الإنجليز على التوقيع لمعاهدة:

. يتنازل فيها عن حكم بلاد الشام، وأن يظل حكم مصر وراثياً له ولأبنائه.

. أن يحدد الجيش المصري بثمانية عشر ألفاً.

. أن لا تصنع مصر سفناً للأسطول.

. أن لا يعين والي مصر في الجيش ضابطاً أعلى من رتبة ملازم، وأن يدفع للدولة العثمانية ثمانين ألف كيس سنوياً[١].

وشرعت فرنسا وبريطانيا تثير الفتن الطائفية بين الأقليات غير المسلمة في لبنان، والهدف هو إنهاك قوة الدولة العثمانية التي أرسلت قوات لإنهاء الفتنة، وكذلك إيجاد المبرر للتدخل الفرنسي والبريطاني في لبنان تمهيداً لتمزيقه واحتلاله[٢].

واحتلت روسيا الأفلاق والبغدان، وتم اتفاق عثماني روسي "بلطة ليمان" قرب إسطنبول عام ١٢٦٥هـ / عام ١٨٤٨م يبقى في الإقليمين جيش عثماني روسي حتى يستقر الوضع وما دخل الروس في ذلك؟

---

[١] الدولة العثمانية د. جمال عبد الهادي، ص: ١٠٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

وبهذا المكر أصبح للنصارى وجود عسكري في ديار الإسلام ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (إبراهيم، آية : ٤٦).

واشتد صراع الدول الأوروبية على تقسيم ولايات الدولة العثمانية، تركة الرجل المريض، وكانت الدول الأكثر اهتماماً بمصير الدولة العثمانية ومصير أملاكها هي:

. بريطانيا التي أرادت تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصاً، وتأمين معها سواء عن طريق السويس والبحر الأحمر وعن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات.

. روسيا القيصرية التي أرادت أن تجد لها منفذًا من البحر الأسود إلى المياه الدافئة بالبحر المتوسط، أرادت كذلك أن يكون لها النفوذ الأكبر في شبه جزيرة البلقان لتؤسس بها دولة سلافية كبرى.

. فرنسا التي أخذت على عاتقها من زمن مبكر حماية مصالح رعايا النصارى الكاثوليك في بلاد الشام بصفة عامة والمارونيين على الأخص في لبنان، والتي أرادت رعاية مصالحها في هذه المنطقة، ثم استعلاء نفوذها في أملاك الدول الأخرى في الساحل الشمالي الأفريقي وبالتحديد في تونس والجزائر.

. وفيما عدا الدول الثلاث الرئيسة التي ذكرناها، فإن دولاً أخرى مثل النمسا وبروسيا اهتمت بمصير الدولة العثمانية التي بات من المتوقع هلاكها وزوالها، فسميت بذلك برجل أوروبا المريض[1].

لقد تضافرت عدة عوامل ساهمت في إبراز المسألة الشرقية إلى عالم الوجود منها:

. أن الطريق الذي تستطيع روسيا بواسطته الوصول إلى المياه الدافئة، هو الطريق الذي يصل البحر الأسود ببحر مرمرة، ثم بحر إيجة وأخيراً بالبحر المتوسط أي بالمرور من مضيقي البسفور والدردنيل، وهما في حوزة الأمبراطورية العثمانية.

---

[1] الدولة العثمانية للصلابي، ص: ٤٠٥ ، ٤٠٦.

. إن الدول العظمى التي يكون لها قواعد قوية في البحر الأسود، ويتسنى لها السيطرة على المضايق، تصبح ذات مركز ممتاز تتمكن بفضله من بسط سلطانها على بلاد الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وعلى طريق المواصلات والتجارة من البحر المتوسط إلى الهند والشرق الأقصى.

. إن الدولة التي يمتد تفوذها إلى البلقان، تفرض سيطرتها على الشعوب البلقانية بعد تقلص سلطان العثمانيين على هذه المنطقة وتصبح كذلك ذات مركز ممتاز يمكنها من الاستيلاء على القسطنطينية نفسها ويهدد باحتلال التوازن الدولي في أوروبا[1].

وفي خلال الربع الأول من القرن التاسع عشر، كانت سياسة الدول . باستثناء روسيا وفرنسا . تدور حول المحافظة على كيان الأمبراطورية العثمانية لأسباب ناشئة من وجود العوامل التي ذكرناها.

وكانت بريطانيا في مقدمة الدول المتمسكة بمبدأ المحافظة على كيان الأمبراطورية العثمانية وقتئذ[2].

وعندما بات ممكناً ملء الفراغ الذي ينجم من تقلص النفوذ العثماني عن البلقان، وتخلصت بريطانيا وسائر الدول عن مبدأ المحافظة على الدولة العثمانية وسعت الدول الأوروبية بالفعل لتصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان، وكان من بين الدول البلقانية المستقلة حتى نهاية القرن التاسع عشر اليونان، ورومانيا، وبلغاريا، والصرب[3].

تولى الحكم في الدولة العثمانية بعد وفاة السلطان محمود الثاني ابنه عبد المجيد الأول وكان ضعيف البنية شديد الذكاء واقعياً ورحيماً.

---

[1] الدولة العثمانية د. عبد العزيز الشناوي (١ / ١٩٤ . ٢٣٢).

[2] الدولة العثمانية د. إسماعيل ياغي، ص: ١٤٣.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٤٤.

وكان السلطان عبد المجيد خاضعاً لتأثير وزيره رشيد باشا الذي وجد في الغرب مثله وفي الماسونية فلسفته، ورشيد باشا هو الذي أعد الجيل التالي له من الوزراء ورجال الدولة وبمساعدته أسهم هؤلاء في دفع عجلة التغريب التي بدأها هو.

وكانت حركة الإصلاح والتجديد العثماني تدور حول نقاط ثلاثة هامة: الاقتباس من الغرب فيما يتعلق بتنظيم الجيش وتسليمه في نظم الحكم والإدارة، الاتجاه بالمجتمع العثماني نحو التشكيل العلماني، الاتجاه نحو مركزية السلطة في إسطنبول والولايات وتكلل خطا كلخانة وهمايون بدستور مدحت باشا عام ١٨٧٦م. ولأول مرة في تاريخ الإسلام ودوله يجري العمل بدستور مأخوذ من الدستور الفرنسي والبلجيكي والسويسري، وهي دساتير وضعية علمانية.

ووضعت حركة التنظيمات الدولة العثمانية رسمياً على طريق نهايتها كدولة إسلامية، فعملت القوانين ووضعت مؤسسات تعمل بقوانين وضعية، والابتعاد عن التشريع الإسلامي في مجالات التجارة والسياسة والاقتصاد، وقد سحب من الدولة العثمانية شرعيتها في أنظار المسلمين وأصبحت في حالة من الضعف والهوان منعها من الدفاع عن ممتلكاتها والتصدي للمشاريع الغازية.

المبحث الخامس

ظهور المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي

إن الشخصيات البارزة في الجزائر العاصمة أو أعيان المدينة لم تكن لهم قوة يضغطون بها على الجيش الفرنسي، وقد كانت الشخصيات المرموقة معزولة عن أبناء البلد، وينتمي معظم أعيان البلد إلى مهاجري الأندلس أو طبقة غنية تملك الأرض في سهل متيجة وتسيطر على التجارة، ولهذه الأسباب لم يتحالف الفرنسيون المحتلون مع الشخصيات البارزة في الجزائر سواء كانوا أتراكاً أو عرباً، وإنما قاموا بنفي وطرد الأتراك إلى بلدهم الأصلي وذلك بدعوى أنهم يقومون بمؤامرات ضد الفرنسيين في الجزائر، وهذا بالرغم من التزام الفرنسيين في معاهدة الاستسلام بأن الأتراك يعتبرون من سكان المدينة وفي إمكانهم البقاء في الجزائر.

وبالنسبة لغير الأتراك فإن فرنسا قد عمدت إلى انتهاج سياسة تشتيتهم ونفيهم وتسليط الطائفة اليهودية عليهم، والشيء الذي فتح أعينهم على الخطأ الذي وقعوا فيه حين تعاونوا مع قوات الاحتلال هو عزل وطرد ونفي أولئك الأشخاص الذين قبلوا التعاون مع فرنسا وذلك بدعوى عدم القيام بالواجب أو التآمر لاستعادة الحكم الإسلامي أو الانضمام إلى الثائرين ضدها[١].

وحسب بعض المصادر الموثوق بها فإن قائد الجيش في الجزائر "كلوزيل" قد طلب من أعيان مدينة الجزائر قائمة بأسماء العائلات الكبيرة في المدينة، وذلك لكي يختار منها باياً جديداً على ولاية التيطري خلفاً لباي التيطري مصطفى بو مزراق الذي رفض الخضوع لسلطة فرنسا وأعلن نفسه باشا ورئيساً للأيالة.

---

[١] محاضرات في تاريخ الجزائر، أبو القاسم سعد الله، ص: ٦٦.

وبالفعل فتاريخ يوم ٢٣ نوفبر ١٨٣٠م قام الجنرال كلوزيل بتعيين مصطفى بن عمر، وهو ابن خال زوجة حسين باشا باياً على التيطري، وكان هذا الشخص قليل المبادرة ولم تكن له قدرة لا على التنظيم ولا على الحكم، كما أن الجنرال كلوزيل أمره عند تعيينه أن لا يغير شيئاً من الإدارة السابقة، وأن يعمل كأنه باي قديم[١].

ولهذا فقد وجد الباي الجديد نفسه وجهاً لوجه مع السكان ولا يملك أي جيش يساعده على تدعيم سلطته، لكن عليه أن يقوم بجمع الضرائب على الطريقة التي كانت تجمع بها في عهد الأتراك، وبكل بساطة رفض سكان المدينة أن يدفعوا الضرائب ولم يكن لهذا الباي الوسائل لارغامهم على ذلك والمشكل هنا أن الباي قد حاول أن يعتمد على سكان مدينة المدينة[٢]، لكنه فشل في ذلك، وعندما تصاعدت المقاومة ضد فرنسا والباي الجديد في التيطري طلب مصطفى بن عمر النجدة من القائد الفرنسي الجديد الذي قرر إنهاء مهامه وجلبه معه إلى الجزائر حيث حاول أن يبعث به إلى وهران ويعينه باياً عليها، لكن الجنرال "بواي" الذي كان مسؤولاً عن تلك الناحية رفض التعاون مع الباي المخلوع، وهكذا قام الجيش الفرنسي بتعيين حمدان بن أمين السكة ابن مصطفى ابن عمر آغا العرب.

وكان الفرنسيون يتوقعون من آغا العرب أن يكسب ود وصداقة العرب وأن يتعرف على المشاريع التي يفكرون فيها ولكنه لم يفعل فكثرت الثورات وواجه الفرنسيون اضطرابات لم يتوقعوها ونتيجة لذلك قام الجيش الفرنسي بعزله يوم ٧ جانفي ١٨٣١م وإبعاده إلى فرنسا خوفاً أن يشترك في مؤامرة ضد السلطات الفرنسية أو يتعاون مع القبائل العربية ضد قوة الاحتلال الفرنسي، وباختصار فإن الفرنسيين قد استخدموا الباي وابنه ثم تخلوا

---

[١] محاضرات في تاريخ الجزائر، ص: ٦٩.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر د. عمار بو حوش، ص: ١٠٦.

عنهما ثم نفيهما إلى فرنسا والتخلص منهما مثلما تخلصوا من مصطفى بو مزراق عن طريق اسره يوم ٢٣ نوفبر ١٨٣٠م بالجزائر العاصمة.

وما يمكن أن نستخلصه من ما تقدم أن استسلام حسين باشا وتوقيع معاهدة السلام والخضوع لفرنسا يوم ٥ جويلية ١٨٣٠م لم تكن هي نهاية المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي للجزائر، بل بداية لمقاومة شعبية واسعة من أبناء الجزائر المجاهدين[١].

أولاً: بداية المقاومة الشعبية

وكدليل على اقتناع بورمون بأن البلاد دانت له وأنه من السهل فتح المدن قرر التوجه لاحتلال البليدة على رأس جيش قوامه ٢٠٠٠ جندي وبضع مئات من الخيالة ومدافع وذلك يوم ٢٣/ ٧/ ١٨٣٠م ووصل الجيش بالفعل إلى البليدة فقام برحلة استطلاع فيها، وكان رجال القبائل يراقبونه فما إن عاد حتى نصبوا له كميناً ببلدة بوفاريك وقتلوا الكثير من الجيش ولم ينج منه سوى بورمون مع عدد قليل من جنوده تمكنوا به من العودة به لمدينة الجزائر، وقتل العميد فرسيل. بعد هزيمة الفرنسيين ببوفاريك، اضطر الفرنسيون أمام المقاومة الشعبية إلى إخلاء مدينتي وهران وعنابة، وعند ذلك اقتنع المارشال بورمون بأن دولة الدّاي قد سقطت وبدأت مقاومة الشعب وبدأت معها متاعب فرنسا لقد لخص المؤرخ الفرنسي ش أ جوليان عناصر المقاومة فقال: إن القبائل المرتبطة بالأرض هي التي انطلقت تنظم المقاومة وليس المدن والأثرياء[٢]، واجتمع في غربي مدينة الجزائر في برج منفوست "قرب برج البحري" شيوخ الزوايا بالناحية وقرروا مقاومة المحتلين الذين برهنوا خلال أيام من احتلالهم أنهم نهّابون للمتلكات حارقون للزرع، مخربون للمنازل معتدون على النساء مدنسون للمساجد[٣].

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٧.

[٢] الجزائر في التاريخ عثمان سعدي، ص: ٤٥٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٤٥٨.

لقد وضع الفرنسيون أيديهم على المساجد ودور الأوقاف وغيرها من المعاهد وأغلقوا المدارس وصادروا كل ما فيها، ومن ضحايا هذه المصادرات كانت المكتبات الملحقة بها، فاختفت الكتب والمخطوطات التي كانت تعد بالآلاف ومنها مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة الجزائر ومكتبات بقية المدن الجزائرية، فعمد السكان إلى إخفاء مخطوطاتهم وكتبهم في أسطونات معدنية طمروها في الأرض، ومنهم من حمل معه مخطوطاته الثمينة إلى حيث يرتحل كالأمير عبد القادر الذي جمع في مدينته آلاف الكتب والمخطوطات النادرة فحُرقت أثناء الهجوم على هذه المدينة وسُرق أكثرها[١].

ويروي الضابط المرافق للجنرال بيرتوزان البارون بارشو دي بانهوين: أن جمهورهم كان ضخماً يلوح بالسلاح يقفز فرسانه على الخيل، ويصفق بحرارة لتحريض الشيوخ على القتال، كان المجتمعون من الشعب ومجلس الكبار واضعين تحت تأثير حادثة انتصار المقاومين بالبليدة فارتفعت هتافاتهم بالحرب أعلن هذه المقاومة المبكرة ابن زعموم رئيس قبيلة فيلسية القوية التي تقع منازلها في مدخل القبائل الكبرى قرب تيزي ونيف وكذلك المرابط الحاج سيدي السعدي، بالإضافة إلى إعلان والي تيطري مصطفى بو مزراق المقاومة[٢].

١. ثورة في فرنسا:

وصلت يوم ١١ أغسطس ـ آب أنباء اندلاع ثورة في فرنسا، فحاول بورمون وضع الجيش الفرنسي المتواجد بالجزائر في خدمة الملك شارل العاشر، لكن قائد الأسطول رفض التعاون معه وأيده عدد كبير من الضباط. واضطر بورمون إلى إنزال علم الأسرة المالكة بوربون الأبيض ورفع العلم المثلث الألوان، ثم جاء الجنرال كلوزيل قائداً عاماً في الجزائر، فعاد المرشال بورمون لفرنسا يحمل معه قلب ابنه الضابط الذي قتل أثناء الحملة.

---

[١] الأمير عبد القادر الجزائري، بديعة الحسني، ص: ٣٤.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٥٩.

غيرت ثورة يوليو علاقات فرنسا مع الدول الأوروبية بالرغم من أنها أتت بلويس فيليب ملكاً، لكن هذه الملكية كانت مدعومة بالبورجوازية الليبرالية، وترتكز على مبادئ الثورة الفرنسية فقد تخلت عن علم أسرة بوربون الملكية، ورفعت علم الثورة المثلث الألوان، ولهذا فقد عاد التحالف الأوروبي ضد الملك الفرنسي الجديد المعروف عنه إيمانه بمبادئ الثورة، وخشية المملكات والإمارات الأوروبية من عودة فرنسا إلى عهد نشر الثورة في أوروبا على غرار حروب نابليون. ورفض نيقولا قيصر روسيا الاعتراف بلويس فيليب، كما أعلن ميتيرنيخ في النمسا تضامن ملوك أوروبا ضد الروح الثورية الفرنسية التي جاء بها لويس فيليب، ولو كانت أوضاع المقاومة الجزائرية منظمة ولها رأس لاستغلت هذا التناقض الأوروبي مع فرنسا وسخرته لصالحها وجلبت دعماً أوروبياً يمكنها من طرد الاحتلال الفرنسي.

كان الكثير من الدول ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة ١٨٣٢م أنها ستستمر في احتلال الجزائر طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك، وحينما أعلن المارشال مسول سنة ١٨٣٣م أن فرنسا غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر، وأنها تفعل فيها ما تريد وليس لها نية الجلاء عنها، لفت اللورد جراي نظر السفير الفرنسي في لندن تاليران إلى هذه التصريحات وطلب منه تبليغ الحكومة الفرنسية ضرورة الاحتراس. وفي سنة ١٨٣٤م صرح وزير المستعمرات البريطاني: بأن بريطانيا لم توافق على احتلال فرنسا لمدينة الجزائر كما تحدث اللورد بلمرستون سنة ١٨٣٨م عن حقوق الباب العالي في نيابة الجزائر وأن وجود فرنسا هناك لا يعدو كونه احتلالاً عسكرياً، لكن معارضة بريطانيا لفرنسا هذه عندما لم تجد من يستغلها بالجزائر ضعفت أمام إصرار فرنسا على خلق الأمر الواقع، ولم تعترف بريطانيا رسمياً بالوجود الفرنسي وتقدم أوراق اعتماد قنصلها بالجزائر للإدارة الفرنسية هناك إلا سنة ١٨٥١م عندما أرسل كما بينا كلوزيل خلفاء لبورمون، وكلوزيل له خبرة طويلة لا في الجيش فقط

وإنما في الزراعة، فعمره كان ستين سنة، قضى سنوات منفياً بأمريكا وأول ما فعله تثبيت الوجود الفرنسي بمدينة الجزائر، فقام بإنشاء إدارة لتسييرها، وشجع الاستيطان، كما حارب الفوضى التي وجدها في تواجد الجيش بالمدينة، فقد لاحظ أن الجنود احتلوا المساكن الجزائرية الجميلة واستخدموا أثاثها وخشبها الثري المنقوش كحطب للتدفئة وطبخ الطعام، فقرر إخراجهم من هذه المنازل وأقام لهم نقاطاً ومعسكرات خارج المدينة وعلى الطرق التي قرر إقامتها نحو سهل المتيجة[١].

٢. هزيمة كلوزيل في البليدة والمدية:

تقرر إرسال هذا الجيش المتواجد بمدينة الجزائر لاحتلال مدن أخرى، ففي ١٧/ ١١/ ١٨٣٠م قاد المارشال كلوزيل جيشاً هاماً من عشرة الآف جندي يساعده ثلاث جنرالات، فاحتل البليدة وأقام بها حامية وتوجه الجيش لاحتلال مدية ومليانة، وعسكر في الشفة ومن هناك شاهد تجمعاً كبيراً من فرسان القبائل على المرتفعات، فقرر عدم اتباع طريق وادي الشفة وقرر اتباع طريق موازية، وترصد له المجاهدون بقيادة بو مزراق فدحرجوا عليهم من فوق الممر الضيق صخوراً ضخمة قتلت العديد منهم وعندما وصل الجيش غابة الزيتون اصطدموا بمقاومة خلفت في صفوفهم خسائر كبيرة ووصل جيش العدو مدية واحتلها لكن بخسائر كبيرة وذلك في ٢٢/ ١١/ ١٨٣٠م، واستسلم له مصطفى بو مزراق، وتصور أن الأمور دانت له، وصرف النظر عن التقدم لمليانة ثم عاد إلى الجزائر بعد أن ترك بها حامية قوية من ثلاثة الآف جندي وعين عليها باياً باسم فرنسا العميل مصطفى بن عمر. لكن المجاهدين هاجموا الحامية وجعلوا استمرارها بالمدينة مكلفاً الأمر الذي جعل كلوزيل يأمر بإخلائها فأخليت في ١/ ١/ ١٨٣١م، ولدى عودته من البليدة هاجمه المجاهدون بقيادة ابن زعموم، هاجموا الحامية وهي معركة ضارية معهم منذ ثلاثة أيام، وأن المجاهدين قد احتلوا معظم أحيائها وأن قائد الحامية الكولونيل

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٦٠.

روليير لا يحتل سوى جامع كبير جعله مستشفى لجرحاه وعدداً قليلاً من المنازل القريبة من باب الجزائر، ووصل كلوزيل البليدة بجيشه وأنقذ ما تبقى من حاميته، كما علم بأن وحدة كانت متوجهة إلى الجزائر كَمِنَ لها المجاهدون في بوفاريك وأبادوها عن آخر رجل، ووصل لبوفاريك يوم ٢٨ فوجد المدفعيين الخمسين الذي أرسلهم لإحضار الذخائر مقتولين شر قتلة، وأمام هذه المقاومة الجبارة قرر كلوزيل إخلاء مدينتي مدية وبليدة وسحب حاميتهما إلى مدينة الجزائر[١].

٣. تجنيد الجزائريين:

عندما عجز كلوزيل عن الحصول على إمدادات كبيرة من فرنسا طلب من حكومته السماح له بتجنيد جزائريين من قبائل زواوة، فأذنت له، فكون وحدات يقودها ضباط فرنسيون منح لهم مراتب أعلى من المراتب التي تعطى لضباط الجيش، وصرف لهؤلاء الجنود أجوراً مغرية قصد منها إغراء الجزائريين على التطوع في هذه الوحدات التي اتخذت لها زياًّ خاصاً مستمداً من الزي التركي والمملوكي، وسمي هذا الجيش "بالزواف" نسبة إلى قبائل زواوة، واصطدمت هذه الوحدات في البداية بهروب جنودها وعودتهم إلى قبائلهم، بسبب عدم تأقلمهم مع القيود التي يفرضها عليهم نظام هذا الجيش الغريب، بحيث لم يتجاوز حجمها كتيبتين، لكن كلوزيل اعتبرها بداية مشجعة وأمام مقاطعة الشعب لجنود الزواف، بل ومقاطعة أسرهم لهم، صار الكثير منهم يهرب سلاحه، بل واتخذ المقاومون هذه الوحدات وسيلة لجلب السلاح فكانوا يرسلون متطوعين يقيمون فترة في الثكنات والمعسكرات ويهربون بالأسلحة بعد أن يكونوا قد تدربوا، ففي ٢٤/ ١٠/ ١٨٣٠م أعلن الجنرال بويير سرقة ٢٠٦ بندقية و٨ سيوف، وأمام الضغط الشعبي لم يتطوع في صفوف الزواف في السدس الأول لسنة ١٨٣١م سوى ٢٠ مشكوكاً في ولائهم.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٢.

٤. توطين أوروبيين:

جاء كلوزيل بفكرة يبدو أنه كونها نتيجة لعيشه في أمريكا سنوات، فهو يرى أن الأسلوب الوحيد للسيطرة على الجزائر هو توطين أوروبيين بهذا البلد الواسع والغني، وتطبيق ما طبقه الإنسان الأوروبي بالعالم الجديد إما بإبادة الجزائريين أو بطردهم للصحراء. ركز كلوزيل اهتمامه متيجة فاختار المتطوعين للاستيطان من الجنود السابقين وأمر بإعطاء كل واحد منهم ستة أربانتان، والأدوات اللازمة للزراعة والأسلحة للدفاع عن أنفسهم، وأقام مزرعة اعتبرها المزرعة الأولى النموذجية بالحراش وهي "مزرعة حوش حسن باشا" التي تضم ١٠٠٠ هكتار، وخصصت حامية عسكرية لحماية المزرعة كما تقرر تموين الكولون بالمزرعة بسائر المواد التي يحتاجونها من أغذية وأدوات من مخازن الجيش، واشترى كلوزيل لحسابه الخاص ثلاث مزارع ووجه ضابطاً وجنوداً لخدمتها ورفع الجنرال بيرتوزان تقريراً لوزارة الدفاع ذكر فيه: كيف استغل كلوزيل نفوذه فاشترى بأبخس الأثمان مزارع في بابا علي وفي واعلي أدّا وهي تمثل أملاكاً لأطفال أيتام، اشتراها بواسطة المرابيين اليهوديين بوشناق وبكري[١].

في هذا الجو كان الضباط يشترون ممتلكات الجزائريين الهاربين من الحكم النصراني بأبخس الأثمان بواسطة المرابين اليهود، لدرجة أن الجنود سخطوا وقالوا: نحن لم نأت إلى هنا لحماية المضاربين، وبأسلوب السرقة هذا تأسست المزارع الأوروبية بالساحل وسهل المتيجة، وقد وصف الجنرال بيرتوزان هؤلاء الكولون الأوروبيين القادمين في رسالة وجهها لوزير دفاعه بتاريخ ٢٥/ ٣/ ١٨٣١م قال فيها: لا بد من الكف عن الاعتماد على متطوعي باريس الذين التقطوا من أرصفة العاصمة المنغمسين في الحقارة والسكر، لدرجة صار يطلق عليهم هنا "البدو الفرنسيون".. إن الفوضى تزداد بمجيء أفاقي أوروبا الذين تقيأتهم إسبانيا وإيطاليا وبخاصة مالطة[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

ويرفض البارون بيشون الاستيطان في «كتابه مدينة الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي» ١٨٣٣م فيقول: إن الاستيطان يستأصل الجزائريين، فسهل متيجة كل قطعة به لها صاحبها، أن يسكنه الكولون معناه إنفاق عشرات الملايين وتخصيص ٥٠٠٠ جندي لحراستهم، وهذا معناه جلب العار لفرنسا وجعل الجزائريين يقفون ضد فرنسا، سواء كانوا عرباً أو قبائل أو كراغلة. ما يدعيه البعض من إمكانية زراعة محاصيل استوائية خطأ، فأرض الجزائر لا تصلح إلا للحبوب والزيتون والكروم، وكالجنرال بيرتوزان يرفض البارون بيشون استقدام ألمان وسويسريين مثل الذين أحضرهم كلوزيل وأنفق عليهم مبالغ ضخمة من الخزينة وملّكهم أرضاً بعد أن طرد منها أصحابها، فهو يحدد موقفه ضد الأسلوب المستغل والاستئصالي المبيد للجزائريين الذي يستهدف سرقة أرضهم وطردهم للصحراء، ويرى أن القبائل الجزائرية لن تتخلى بسهولة عن أراضيها كما فعلت قبائل العالم الجديد بأمريكا[١].

ويقول: إن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية[٢].

ويقول أرمون فيكتور هين مؤسس الشركة الكولونيالية للجزائر: يستحيل إدماج الأهالي ينبغي طردهم للجنوب وإبادتهم، لابد من معاملتهم كالوحوش ورميهم هناك في رمال الصحراء[٣].

لقد أصدر الفرنسيون قوانين ظالمة صادروا بها أراضي الأهالي، وكل قبيلة تهزم في المقاومة تجرد من أراضيها الخصبة وتطرد إما للجبال أو إلى الصحراء وتملك الأرض للمزارعين الفرنسيين، وكم من أراضٍ أخذت من أصحابها واضطروا إلى أن يعملوا بها كأجراء لدى سارقيها.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٤٦٤.

لقد اقترح المارشال كلوزيل على حكومته تشجيع الأوروبيين على الاستيطان بالجزائر، وفتح خط بحري أسبوعي بين مرسيليا والجزائر بالبواخر البخارية التي تقطع المسافة في أربع وخمسين ساعة، لا بالسفن الشراعية التي كانت تقطعها في خمسة أيام وأحياناً أكثر.

وقام القناصلة الفرنسيون بالعواصم الأوروبية بنشر إعلانات تحث الشباب الأوروبي على الهجرة إلى فردوس الجزائر وكانوا يشبهونها بأمريكا، وتوجه المئات منهم إلى مرسيليا فالجزائر بحيث وصل عددهم في الستة أشهر الأولى للاحتلال ثلاثة الآف مهاجر إسبان وإيطاليين ومالطيين، كما أفرغت الحكومة الفرنسية إصلاحيات الأحداث من نزلائها وأرسلتهم إلى الجزائر بحيث بلغت الدفعة الأولى ٤٥٠٠ نزيل.

ولقد فتح المارشال كلوزيل سياسة الاستيطان عندما أحضر أحد وكلاء الهجرة خمسمائة ألماني وسويسري تعاقد معهم على تشغيلهم في أمريكا، لكن ما إن أوصلهم الجزائر حتى تخلى عنهم فالتقطهم كلوزيل وأمر الجيش بنصب خيام لهم خارج مدينة الجزائر ووزع عليهم أرضاً كانت أوقافاً إسلامية[١].

٥. لجنة برلمانية فرنسية للتحقيق في الجزائر:

أرسل البرلمان الفرنسي لجنة للتحقيق في الجزائر قضت فيها شهري سبتمبر ـ أيلول / أكتوبر ـ تشرين أول ١٨٣٣م، ومما ورد في تقريرها: أرسلنا إلى العقوبة أناساً على أساس مجرد شك. قمنا بتجريد ورثة قصّر من ممتلكاتهم، قتلنا ناساً حاملين لأذون مرور وعلى أساس مجرد شكوك ذبحنا جماعات كاملة اكتشف بعدها أنهم أبرياء، قدمنا للمحاكمة أشخاصاً اشتهروا بأنهم مقدسون وأولياء موقرون لا لشيء إلا لأنهم وقفوا يدافعون بشجاعة عن مواطنيهم ووجد قضاة لإدانتهم ورجال متمدنون لإعدامهم، وتسببنا في فوضى عارمة بين قبائل بسبب كرمها عندما قبلت طلب هاربين من جيشنا باللجوء إليها، حولنا المساجد إلى كنائس، واحتللنا منازل دون أي تعويض، صادرنا أملاك

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٧٤.

الأوقاف أي أملاك منشآت دينية، دمرنا المقابر واحتقرنا بذلك أكثر شيء مقدس لدى الشعوب، لقد نُهِب العرب وأُذِلوا وانقض المرابون على الجزائر كفريسة سهلة للنهب فكونوا ثروات ضخمة متجاوزين أبسط مبادئ الشرف، وباختصار لقد أغرقنا في البربرية هؤلاء البرابرة الذين جئنا لتمدينهم، ثم نشكو من أننا فشلنا معهم[١].

٦. أحكام السيطرة على مدينة الجزائر:

وأمام قوة المقاومة الجزائرية وفشل محاولات كلوزيل احتلال مدن أخرى رأى الاحتفاظ بمدينة الجزائر وحولها وإدارتها فرنسياً، وإيجاد أسلوب آخر لإدارة الأقاليم الأخرى بحكم محلي يعترف بالسيادة الفرنسية العليا، فقرر إقامة كيانين بوهران وقسنطينة تحت الحماية، الفرنسية، يداران بمسلمين، وعرض كلوزيل على باي وهران وباي تيطري ابن مصطفى بو مزراق تعيينهما بايين تحت الحماية فرفضا وساعد كلوزيل على تحقيق هذه الفكرة باي تونس حسين الذي صنف على أنه صديق لفرنسا، فقد سبق له أن هنأ فرنسا على احتلالها للجزائر وسمح للجيش الفرنسي بالتزود بما يحتاجه من تونس[٢].

٧. حكام تونس يدعمون الاحتلال:

أرسل كلوزيل وفداً لباي تونس حسين باشا يحمل اتفاقية تنص على تعيين سيدي مصطفى شقيق باي تونس باياً على قسنطينة تحت الحماية الفرنسية ووافق باي تونس على الاتفاقية ووقع عليها حامل أختامه يوم ١٨/ ٨/ ١٨٣٠م وتنص الاتفاقية على: أن يطبق الباي مصطفى كل ما يرسمه له القائد العام الفرنسي بالجزائر كما لو أن هو الذي عينه ويعمل لصالح فرنسا أولاً ولصالح الإقليم ثانياً وأن يقوم بجمع الضرائب من السكان على أن يدفع منها نسبة للدولة الفرنسية، وفي ٦/ ٢/ ١٨٣١م وقع كلوزيل اتفاقية أخرى تنص على تعيين أحمد أحد أقارب باي تونس في منصب باي وهران، لكن عندما أرسل

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٦٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٦٥.

كلوزيل، الاتفاقية الأولى إلى باريس عارضها وزير الخارجية بحجة أنها تعطي حقوقاً في قسنطينة لباي تونس، واعتبر كلوزيل قد تجاوز صلاحياته بتوقيعه على هذه الاتفاقية التي تعتبر من صلاحيات وزارة الخارجية وشكا للملك الذي أصدر قراراً يوم ٢٩/ ١/ ١٨٣١م بإلغاء هذه الاتفاقية ونشر هذا القرار قبل أن يعلم به كلوزيل ولعب اليهود دوراً كبيراً في عقد هذه الاتفاقيات مما جعل ش.أ. جوليان يقول: إن اليهود المشهورون بمكرهم برهنوا على أنهم ضروريون كوسطاء ومخبرو أجهزة مخابرات.. إن تقريب اليهود ورفع مستواهم من طرف الفرنسيين بدت للجزائريين على أنها فضيحة اجتماعية[1].

وفي هذه الاثناء وصلت إلى وهران يوم ١١ فبراير . شباط ١٨٣١م سفينة تونسية تحمل بضع مئات من الجنود التونسيين بقيادة خير الدين آغا وكيل الباي المتوقع وفقاً لاتفاقية كلوزيل، وقام بإقناع الأتراك بضرورة تأييده حتى يعيد الحكم التركي للبلاد، وانخدع هؤلاء بأقواله وانضم بعضهم إليه لكن الشعب ثار عليه وعليهم وقتلوا الكثير من أتباعه وهرب أتراك تلمسان من انتقام الشعب واعتصموا بقلعة المشوار فاضطر خير الدين آغا إلى طلب سفينة تعيده مع جنده إلى تونس، وعادت الأمور إلى الصفاء بين الشعب والأتراك. وإزاء تصرفات كلوزيل الفردية قررت الحكومة الفرنسية إعادته إلى فرنسا وتعيين خلف له وهو الجنرال بيرتوزان[2].

٨. ثورة سيدي السعدي وابن أبي مزراق وابن زعموم:

ثار ابن أبي مزراق عندما علم بنفي كلوزيل لوالده مصطفى بو مزراق إلى الإسكندرية وقد سبق لهذا أن سلم نفسه لكوزيل فأمنه، لكنه نكث العهد واعتقله، ثم نفاه، ثار ابن أبي مزراق فجمع الجموع وتمكن من طرد الفرنسيين وعاملهم الخائن مصطفى بن عمر من مدية، فتوجه بيرتوزان على رأس جيش كبير إلى مدينة مدية فوصلها في ٢٩/ ٦/

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٦٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ٤٦٦.

١٨٣١م وانسحب المقاومون من المدينة نحو الجنوب وطاردوهم، ودمر في طريقه حقول الحبوب الناضجة وقطع الاشجار المثمرة، لكن المقاومين قاموا بهجوم مضاد ودفعوا جيش العدو خارج مدية، وأمام ضربات المقاومين اضطر بيرتوزان إلى العودة إلى الجزائر وأخذ معه عميله ابن عمر، وصل الجزائر مهزوماً يوم ٥/ ٧ ولاحق ابن أبي مزراق الفرنسيين وانضم له ابن زعموم الذي اكتسح الحراش ودمر المزرعة الكولونيالية النموذجية والمزارع التي أسسها كلوزيل، وقتل من قتل من الكولون وهرب من هرب داخل أسوار مدينة الجزائر التي وصل المقاومون حتى أبوابها، واستمر ابن أبي مزراق مسيطر على ولاية التيطري إلى أن جاء الأمير عبد القادر فانضم لدولته.

وعاد في هذه الأيام الحاج سيدي السعدي إلى الظهور في جبال زواوة ودعا القبائل إلى الجهاد، وكان الجنرال بيرتوزان بعد طرد الفرنسيين من المدية قد جمع عدداً من أعيان العرب والبربر وطلب منهم ترشيح من يصلح منهم للولاية على العرب والبربر في داخل البلاد بعد تأكده من استحالة السيطرة على الداخل مباشرة، فرشحوا له محيي الدين بن السيد علي مبارك من زاوية القلعية، فعيّنه آغا العرب، وقبل بشرط واضح قاله للجنرال: أقبل بشرط أن يبقى العرب في أماكنهم ويبقى الفرنسيون في أماكنهم. أي يمد الفرنسيون احتلالهم وأن يبقوا في مدينة الجزائر وما جاورها وخرج محيي الدين إلى نواحي القليعة أرسل رسله للقبائل يدعوها للطاعة، ولم يطل وضعه فقد خرج عليه الحاج سيدي السعدي وحاصره مع جيشه العميل فوجد الآغا نفسه مضطراً للرضوخ له وضم جيشه لجيش الثوار وبخاصة بعد إبادة الفرنسيين لقبيلة العوفية في ربيع ١٨٣٢م وتقدم السعدي نحو مدينة الجزائر وراح يقتل الكتائب الفرنسية المتواجدة حولها مع الكولون، وخرج الجنرال بيرتوزان من المدينة والتحم مع الثوار فانهزم الفرنسيون وهربوا نحو مدينة الجزائر والمجاهدون وراءهم يقتلون ويأسرون ويغنمون ودخلوها وأغلقوا أسوارها، ووصل سيدي السعدي حتى باب عزون ووقف أمامه متحدياً وهو مغلق، وعاد المجاهدون إلى مواقعهم

غانمين منتصرين، وكانت تنقصهم الوسائل العصرية للجيوش لتطوير هذا النصر وتحويله إلى اقتحام العاصمة وتطهيرها من المحتل.

واستطاع إبراهيم بك احتلال قصبة عنابة وقام بقتل سائر الضباط والجنود الفرنسيين، وهكذا أضاف المجاهدون هزيمة فرنسية بعنابة إلى الهزيمة التي ألحقوها بهم في مدية وثار الرأي العام الفرنسي على هذه الهزائم المتلاحقة[١].

وأمام تعثر الأمور قررت الحكومة الفرنسية في نهاية ١٨٣١م إعفاء الجنرال بيرتوزان وتعيين الدوق دي روفيجو خلفاً له، وأصيب بيرتوزان بذهول واعتبر عملية إعفائه إهانة له، واحتج ضد ما سماه تدنيساً لشرفه ورفض أي قيادة تسند له.

حضر الدوق دي روفيجو ومعه جيش قوي، وأول ما قام به بناء سلسلة من التحصينات الصغيرة على طول ساحل منطقة الجزائر تبدأ من بوانت بيسكال حتى الحراش، مروراً بمرتفعات الحامة ثم القبة وبير خادم وبوزربعة فدالي ابراهيم، ومدت طريق وربطت بين هذه النقاط، كما فتحت طرق أخرى داخل هذه الدائرة واخترقت هذه الطرق المقابر وعوملت القبور باحتقار وامتهان غريبين، فقد روى الضابط بيلسية دي ربينو: شقت المقابر وحفرت القبور وشاهدنا مشردين يلعبون بازدراء برؤوس الموتى البشرية وعندما سطر المهندسون الطريق وسط المقبرة عملت المعاول والفؤوس عملها فتفتح القبر وتقسمه نصفين وتقسم معه الهيكل العظمي البشري فتنتشر عظامه التي تجمع وتستعمل كحصى في ردم حفر الطريق، وتبقى بعض العظام بارزة للعيان على جانبي الطريق[٢]، وشمل هذا التدنيس مقابر الدايات والوجهاء الكائنة بين باب عزون وبرج باب عزون، لقد أضيف

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٦٨.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٧٠.

هذا العدوان على المقابر إلى العدوان على المساجد جعل أحد الوجهاء يصرح للضابط بيشون: عن قريب سوف لا نعرف أين سنعيش ولا أين سنموت.

وشاع بين الناس أن عظام موتى هذه المقابر شحنت لفرنسا لاستعمالها في صناعة السكر، فقد ذكر ش: أ: جوليان: أن طبيباً فرنسياً بمرسليا صرح أنه شاهد على الباخرة "جوزفين" في مارس ١٨٣٣م وجود شحنة آتية من الجزائر تتكون من عظام بشرية جماجم وفكاك وعظام فخذ وعظام زند وغيرها، وكلها عظام بشرية، ويفصّل الدكتور سيجو ما شاهد فيقول: والعظام تبدو كأنها أخرجت للتو من التراب وأن آثاره بادية عليها.

ويؤكد العالم بير بروجر على استعمال العظام في الصناعة، وشاع أن هذه العظام المستخرجة من المقابر الجزائرية تستعمل في صناعة السكر الأبيض وهذا هو الذي جعل الأمير عبد القادر يصدر قراراً سنة ١٨٣٨م يحرم فيه السكر الأبيض.

أصدر الدوق دي روفيجو أمراً يوم ١٧/ ١٢/ ١٨٣١م بإخلاء جامع كتشاوة وتحويله إلى كنيسة مركزية، وهاجم الجيش ٤٠٠٠ من السكان كانوا معتصمين به احتجاجاً على هذا القرار رافضين تسليمه وأخرجهم الجنود بالقوة، ومات بالمسجد عدد من المعتصمين وكانت مجموعة من المشائخ الضعيفي النفوس قد وافقوا على هذا القرار ومنهم عبد القادر بو دربة الذي وعد بوسام الشرف، وهذا القرار يخالف المعاهدة التي وقع عليها الجنرال بورمون يوم احتلال الجزائر ووضعت الصلبان على الجامع ودشن هذا الجامع كنيسة في يناير سنة ١٨٣٢م وأرسل البابا غريغوار السادس عشر مباركته، وفي أفريل . نيسان ١٨٣٢م أباد الجيش الفرنسي قبيلة عوفية بالحراش بنسائها ورجالها وأطفالها، وعاد الجنود لثكناتهم وهم يحملون على سيوفهم رؤوس شيوخ القبيلة، وبيعت بالأسواق عقود وأقراط وأسورة وعليها دم ضحاياها، كانت الأقراط معروضة وقطع من شحمات آذان صاحباتها

لازالت لاصقة بها، دفعت هذه الفظائع شيخ الزاوية سيدي السعدي إلى إعلان الجهاد في اجتماع جماهيري عقده في "سوق علي" قرب بوفاريك وأسندت قيادة الجهاد لابن زعموم وانضم إليهما الباشا محي الدين.

وفجأة سقط الدوق دي روفيجو مريضاً ونقل لباريس فمات بعد أشهر بسرطان الفم، ويعلق الشعب الجزائري على ذلك بأنه انتقام من الله على فظائعه، وكان الدّاي حسين قد استقر في لجهورن بإيطاليا ومن هناك راح يتصل بالجزائريين ويشتري السلاح ويرسله للجزائر، كان يعد العدة لثورة مسلحة يقودها هو، لكن روفيجو الذي عمل وزير شرطة في عهد نابليون تمكن من كشف اتصالاته الأمر الذي جعله يصرف النظر كلياً عن دعمه للمقاومة وينتقل إلى الإسكندرية سنة ١٨٣٣م حيث بقي بها إلى أن توفي سنة ١٨٣٨م.

احتلت القوات الفرنسية عنابة للمرة الثالثة في عهد دي روفيجو لكنها لم تحاول احتلال قسنطينة لمناعتها، وحاول دي روفيجو الدخول مع أحمد باي في مفاوضات وعرض عليه تعيينه باياً مستقلاً بقسنطينة مع ربط علاقة فرنسا بوضع شبيه بالوضع الذي عرض على بكوات تونس، لكن أحمد باي رفض العرض، وأصر على مقاومة الاحتلال الفرنسي وأعلن نفسه باشا الجزائر، واعترف به سلطان الدولة العثمانية، وعندما فشل دي روفيجو مع أحمد باي بث جواسيسه بمنطقة قسنطينة وحاول إقناع بعض شيوخ القبائل على التمرد عليه مقدماً لهم سائر الإغراءات، وسقط الشيخ فرحات شيخ بسكرة في إغراء الدوق وأرسل وفداً للدوق يعلن ولاءه فحمَّله هدايا ثمينة للشيخ فرحات وعادوا إلى البسكرة بالهدايا، لكن المجاهدين ترصدوا لهم في متيجة وجردوهم من الهدايا، وعاد الوفد للدوق فأرسل جيشاً لمعاقبة المجاهدين، فتحرك سيدي السعدي وشنها حرباً على الدوق

وجيشه، حرب كر وفر متجنباً المواجهة، وكانت نهاية دي روفيجو العودة إلى فرنسا مريضاً كما سبق أن بيّنا.

وبضغط من الثائر سيدي السعدي انسحب محيي الدين ابن السيد علي مبارك الذي عاد الفرنسيون وعينوه آغا العرب في القليعة يحكم القبائل باسمهم، وانسحب إلى جبال مناد، وبقي بها إلى أن ظهر الأمير عبد القادر فانضم له، وأحس الحاج سيدي السعدي بتقدم سنه وعلم بمبايعة الأمير فانتقل لمعسكره بعد أن أمر اتباعه باتباع الأمير، وبقي متعبداً في المعسكر إلى أن وافته المنية[١].

٩. أصوات فرنسية ضد الاحتلال:

وأمام الخسائر التي تكبدتها الخزينة الفرنسية من جراء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال ارتفعت أصوات فرنسية ضد الاستعمار، وهاجم عدد من النواب في جلسة مناقشة الميزانية المصروفات الاستثنائية للاحتلال وطلبوا من الحكومة في هذه السنة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء الجزائر الذي لن تقوى على تحمله فترة طويلة، ووقف وزير الحربية المارشال سول واجماً أمام هذا النقاش لكن الشاعر لامارتين أنقذه وهب لنجدته فصاح: إن للسياسة وللشرف الوطني وزناً مثل وزن الذهب، وإخلاء مدينة الجزائر سيبقى لطخة في تاريخ فرنسا، وفي تاريخ هذا المجلس. فحتى الشعراء تحول بعضهم إلى مردة وشياطين للاستعمار.

وفي يوم ٢٢/ ٧/ ١٨٣٤م صدر أمر ملكي بتحويل الجزائر من منطقة تخضع للاحتلال العسكري لقوات فرنسية إلى احدى الممتلكات الفرنسية وأن يتولاها حاكم عام للممتلكات الفرنسية في شمال أفريقيا وفي ١٩/ ٨/ ١٨٣٤م صدر أمر ملكي يقضي بتنظيم القضاء في الجزائر[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

١٠. ظهور الشريف محيي الدين الحسني:

استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة، وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم، وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر فحول هذه المقاومة من محلية إلى وطنية.

وبدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر الشريف الهاشمي محيي الدين شيخ الطريقة القادرية، وينسب إلى بني هاشم أرومة الرسول صلى الله ليه وسلم[١].

كان محيي الدين بن مصطفى الحسني ذا مكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه، فازدادت خبرات سيدي محيي الدين القتالية وبالدعوة إلى الجهاد وتنظيم صفوف المقاومة خلال سنتين من الاحتلال ولكن بشكل غير منظم، وفي أواخر شهر أيار من عام ١٨٣٢م عقد اجتماعاً في مزرعة القيطنة التي ورثها عن اجداده الأدارسة دعا إليها جميع رؤساء القبائل المجاورة والمدن المحتلة ووقف خطيباً قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم قال تعالى :" وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ" (الأنفال، آية : ٦٠). ودعاهم إلى الجهاد فساعدوه على تدريب وتنظيم قوة جهادية، وتلا عليهم الآيات القرآنية التي تحث على مقاومة الشر والظلم وقتال المعتدين من هذه الآيات قوله تعالى :" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة، آية : ١٩٠).
وقال سبحانه :" إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا" (الصف، آية : ٤).
وكان يرتل هذه الآيات بصوت أدخل الخشوع على القلوب الثائرة، وعندما تم تدريب تلك القوة على استعمال السلاح ورمي السهام كلّف أحد المجاهدين وهو السيد عبد

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٧٥.

القادر بن زيان باستكشاف مراكز المحتلين بوهران فتسلل متخفياً في جوف الليل، ولما قرب من المدينة شاهد قوات العدو معسكرة في ساحة المدينة في مكان يسمى خنق النطاح فرجع بهذا الخبر إلى سيدي محيي الدين وبعد وضع خطة الهجوم نادى بالجهاد فاجتمع حوله في مزرعة القيطنة الرجال واستقبلهم بصيحة مدوية "الله أكبر" وأسرع الناس إلى المقاومة فتقدمهم إلى وادي سيك وخيم في المرتفعات المطلة على معسكرات العدو، وانتظر حتى غطى ظلام الليل تلك المناطق فأمر بإشعال النيران بأعالي التلال، وقبل بزوغ الفجر انقض الفرسان على القوات المتمركزة في الساحة من أربع جهات ودارت معركة دامية بين الفريقين بالبنادق والسهام ثم التحموا بالسلاح الأبيض وكان الأمير عبد القادر على متن جواده الأشقر يصول ويجول بين الصفوف ويحرض المجاهدين على الثبات والصبر بقوله "دافعوا عن كرامتكم ودينكم أيها المجاهدون" فبادره أحد جنود العدو برمية من رمحه تحت إبطه الأيسر، فالتفت إليه وهوى بسيفه على الجندي المعتدي فقدّه نصفين، وجاء آخر فرماه بحربة فأصابت جواده بجرح وعدد من الطعنات فسقط الحصان فقفز على غيره بسرعة البرق وتابع المعركة، وانتصف النهار والمعركة على أشدها وانتهت بهزيمة المعتدين فانسحب من بقي منهم حياً تاركين قتلاهم في ساحة المدينة فتبعهم الفرسان المجاهدون حتى أجهزوا عليهم قبل وصول النجدة إليهم[١].

وقد سجل الأمير عبد القادر هذه المعركة في قصيدة طويلة من ٤٤ بيتاً منها:

ألم تر في خنق النطاح نطاحنا

غداة التقينا كم شجاع له لوى

وكم هامة ذاك النهار قددتها

بحد حسامي والقنا طعنة شوى

وأشقر تحتي كلمته رماحهم

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، بديعة الحسني الجزائري، ص: ١٩.

ثمان ولم يشك الجوى بل وما التوى

بيوم قضى نحبا أخي فارتقى إلى

جنان له فيها نبي الرضا أوى

فما ارتد من وقع السهام عنانه

إلى أن أتاه الفوز راغم من عوى

ويوم قضى تحتي جواد برمية

وبي أحدقوا لولا أولو البأس والقوى

ولما بدا قربي بيمناه حربة

وكفّي بها نار بها الكبش قد شوى

فأيقن أني قابض الروح فانكفا

يولي فوافاه حسامي مذ هوى

شددت عليه شدة هاشمية

وقد وردوا ورد المنايا على الغوى[1]

وعاد الشيخ محيي الدين مع ابنه الفارس بعد أن حقق هذا الانتصار في أول معركة يخوضها ضد العدو. عاد إلى وادي سيق حيث أقام هناك أياماً اتصل فيها بشيوخ قبائل الناحية، ثم توجه إلى القيطنة، بعد أن أذن للمجاهدين بالعودة إلى عشائرهم وانتظار أوامره مرة ثانية.

وبعد أيام دارت معركة خندق النطاح الثانية، فبعد أن استراح الشيخ محيي الدين أرسل للمجاهدين فتجمعوا من كل صوب وتوجه بهم إلى وهران، وما أنتقدم مسافة حتى شعر بوعكة صحية فعاد إلى بيته وسلم قيادة الجيش لابنه عبد القادر وانتقل الأمير إلى وادي سبق، وانتظر هناك إلى أن التحق به فرسان القبائل ثم توجه إلى عين الكرمة القريبة من

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٧٧.

وهران، وعلم الجنرال بويه بتحرك الجيش المسلم فخرج من المدينة على رأس جيش عززه بفرق حضرت من فرنسا حديثاً، وعسكر في خنق النطاح، وكأنه صمم على الانتقام لهزيمة جيوشه في المكان نفسه قبل أيام، قسم الجنرال جيشه إلى ثلاث فرق اثنتان للقتال وواحدة تركت احتياطياً وعسكر الأمير في مواجهة العدو، وقسم قواته إلى خمس وحدات وحدتان تقاتلان ووحدتان للدفاع، ووحدة من الفرسان الخفاف كلفت بتطويق العدو من الخلف ودارت المعركة، وهزم فيها جيش الجنرال فانسحب نحو اسوار المدينة، وما كاد يتقدم حتى فاجأته وحدة التطويق وألتحمت بقواته وقتلت العديد منهم، ولم ينج سوى الجنرال مع عدد قليل من ضباطه وجنده، وقتل مائة مجاهد في هذه المعركة منهم الفارس ذو الخامس عشرة سنة أحمد ابن أخ الأمير، محمد السعيد وقد كان فارساً شجاعاً، شاهده الأمير وفرسه يسقط ميتاً فهجم الأمير مع ثلة من فرسانه على المكان وراحوا يحيطون به، وتقدم من الفارس الشاب وحمله على جواده وسط ذهول جنود العدو وعاد الأمير منتصراً إلى ولده الذي أمر المجاهدين بالتوجه لأسرهم وانتظار النداء القادم وأدرك الجنرال بويه قوة خصمه ومهارته فاستنجد بالقيادة العامة بمدينة الجزائر التي أرسلت له تعزيزات هامة، فقرر خوض معركة ثالثة وفي نيته هزم المسلمين هذه المرة وضرب معسكره في برج رأس العين غربي المدينة، ونقلت عيون المسلمين تفاصيل تحركات العدو للشيخ محي الدين، فأمر بجمع الجموع، وخرج من حاضرته القبطينة وتوجه إلى وادي سيق، فعسكر هناك إلى أن تجمعت جموع المجاهدين، فعقد قيادتهم للأمير عبد القادر، وتقدم الجيش المسلم إلى أن أطل على معسكر العدو، وبات على مشارف وهران وجنوده يهللون ويكبرون ويهزجون بأناشيد الجهاد التي اهتزت لها قلوب الأعداء، عبأ الأمير جيشه إلى وحدات كل قبيلة لها مقاتلوها وعلى رأسهم اختار ابناً من أبنائها.

ومع طلوع النهار بدأت المعركة فاستعمل العدو مدفعيته فقذف بقنابلها المجاهدين الذين كانوا متحصنين وراء تلال وخنادق وكان الأمير يقاتل وينتقل كالبرق بين المقاتلين يحثهم

ويوجههم، وقتل في هذا اليوم أيضاً فرسه فركب فرساً آخر واستمر يقاتل إلى أن سقط الليل فتوقف القتال، وعندما شعر الجنرال بويه بقوة المسلمين استغل سقوط الليل وانسل مع جنده إلى ما وراء أسوار المدينة وفي الصباح أصدر الأمير أوامره بالعودة إلى حاضرته.

واستمر الشيخ محيي الدين مع ابنه عبد القادر يخوضون سلسلة من المعارك من شهر ايار ـ مايو وحتى شهر تشرين الثاني ـ نوفبر وعند ذلك تأكد للناس من قدرة الشيخ على جمع الصفوف وتوجيه الجهاد ضد العدو١، وتوجهت وفود من مناطق الجزائر إلى محيي الدين بعد أن اجتمعت في سهل غريس وقرّر هؤلاء الزعماء بالاجماع انتخاب سيدي محيي الدين لحكم البلاد وقيادة كفاحها وانطلقوا مجتمعين إلى مزرعته في القيطنة، حيث كان قد وصلها لزيارة قصيرة، وما زال منتصباً على صهوة جواده ببرنسة الأبيض وقامته المهيبة وسيفه على يمينه، هادئاً محتفظاً بتلك النظرة التي عرف بها، والتي لا تُرى إلا في أعين كبار القادة المجاهدين تلك النظرة التي تنحني لها الجباه وتخفق لها القلوب احتراماً ورهبة ومحبة، فنزل من على جواده ورحب بالقادمين، ثم دعاهم إلى قاعة واسعة مفروشة بالسجاد العجمي والمقاعد الأنيقة داخل منزله الريفي الذي شيد من الحجر يعلو سقفه القرميد الأحمر، يتقدمهم العلماء وكبار السن وامتلأت القاعة ولم يفاجأ هذا الشيخ الوقور بقدوم هؤلاء القوم، وظنهم جاؤوا للتشاور وتبادل الآراء، ولكن عندما وقف أحد الزعماء قائلاً: لقد ادلهم الخطب وعمت الفوضى في البلاد والعدو دخل المساجد، وأحرقت الكتب وهدم الدور على أصحابها، ولابد للبلاد من سلطان له سلطة شرعية، وقد اخترناك لتحمل هذه المسؤولية، شكر السيد محيي الدين الجميع قائلاً: أشكر ثقتكم ولكن أعتذر عن قبول هذا المنصب، فأنا الآن أقوم بواجبي الديني والوطني مجاهداً في سبيل الله، كأي واحد منكم فوقف زعيم آخر وأخذ يحاوره قائلاً: إن هذا المنصب يزيدك قوة وهذا المنصب من سمات الجهاد لجمع الكلمة وإدارة شؤون العباد، ونحن هنا جميعاً

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٧٨ ، ٤٧٩.

جئنا لنشد على يدك الطاهرة مبايعين على الطاعة والجهاد، فلا تخذلنا فالبلاد كما ترى بحاجة إلى رأس كحاجة البخارة إلى قبطان.

وألتفت السيد محيي الدين إلى الجميع مخاطباً وقال: إن كان رأيكم وثقتكم بولدي عبد القادر كرأيكم بي فأنا متنازل له عن هذه البيعة، فتشاوروا فيما بينكم وإذا عقدتم العزم فموعدنا في سهل غريس تحت شجرة الدردارة صباح الاثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م[١]، وهذا ما تم وجاء الناس من كل حدب وصوب لمبايعة الأمير عبد القادر.

١١. الأسباب التي ساهمت في التفاف الناس حول محيي الدين:

كان لمحيي الدين مكانه في قومه لوفور فضله وحسن خلقه وسعة علمه وشدة تدينه، كما أن للنسب الشريف ولزعامته للطريقة القادرية أثر في التفاف الناس حوله.

أ. فبالنسبة للنسب: فقد هاجر أحد أجداده إلى المغرب الأقصى وهو ادريس ابن عبد الله بن الحسن المثنى ابن الحسن السبط لن علي وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، فلما وصل التفت حوله القبائل وبايعوه أماماً عليهم وبعد في نهاية القرن الثامن بويع ولده إدريس الأصغر ومن بعده أولاده وأحفاده ودامت دولة الأدارسة في المغرب والأندلس حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر رغم أن دولة الأدارسة زالت منذ زمن إلا أن الأسرة الإدريسية ولشرف نسبهم إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، بقي عزها واحترامها، واجلالها دائماً محفوظاً عند المغاربة عموماً وبعد أن تخلت الدولة العثمانية بسبب ضعفها على الإشراف السياسي على شؤون البلاد، وتخلى المغرب عن مساعدة الجزائر، لم يبق أهلها مكتوفي الأيدي أمام المحتل الفرنسي، فالتفت القبائل حول السيد محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن المختار الحسين الهاشمي القرشي ففضلاً عن أن

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٣.

أسرته من الأشراف الأدارسة بالمغرب الأوسط أي الجزائر، فقد كانت له منزلته الرفيعة ومكانته العظيمة في نفوس الأهالي[1].

ب . الطريقة القادرية:

كان التصوف والانتساب إلى الطرق الصوفية صفات ذلك العصر، والسيد محيي الدين الذي عاش بين عامي ١٧٧٦م إلى ١٨٣٣م كان منتمياً إلى الطريقة القادرية وممثليها في المغرب الأوسط ولم يكن لهذا الانتماء مزية في ذلك العصر لأن معظم الناس والعلماء خاصة في مصر والمغرب العربي كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية التي كانت منتشرة آنذاك وذات أتباع كُثُر كالطريقة الشاذلية والدرقاوية والطيبية والزيانية والخلوتية والناصرية والرحمانية وغيرها وكان الذين التفوا حول السيد محيي الدين وساروا معه على درب الجهاد ونصرة الإسلام وجمع الكلمة وتوحيد الجزائريين تحت راية المقاومة والجهاد من مختلف الطرق وألوان الطيف الشعبي[2]، والطريقة القادرية تنسب إلى الشيخ عبد القادر بن أبي صالح بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داوود بن موسى بن عبد الله بن موسى بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب[3]، وتكاد تجمع كتب السير والتراجم على أن كنيته: أبو محمد ونسبته الجيلاني وأما الألقاب التي أطلقت عليه فكثيرة منها الإمام وإمام الحنابلة وشيخهم في عصره نقله عنه ابن رجب ومنها لقب شيخ الإسلام أطلقه عليه الذهبي[4].

ولد الشيخ عبد القادر في بلدة جيلان وراء طبرستان وذلك سنة إحدى وسبعين وأربعمائة للهجرة وقيل إنه ولد سنة سبعين وأربعمائة هجرية[5].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر د. عبد الكريم منصور، ص: ٧٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٣.

[3] الشيخ عبد القادر د. سعيد القحطاني، ص: ٢٨.

[4] سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٤٣٩)

[5] المصدر نفسه (٢٠ / ٤٣٩).

ويكفي في معرفة الشيخ عبد القادر الجيلاني العلمية ثناء شيخ الإسلام ابن تيمية عليه، فقد شهد ابن تيمية للشيخ عبد القادر بأنه من الشيوخ الكبار[1]، ثم شهد له أنه من أعظم مشايخ زمانه في الأمر بالتمسك بالشريعة الغراء، فيقول: والشيخ عبد القادر ونحوه من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشرع والأمر والنهي وتقديمه على الذوق ومن أعظم المشايخ أمراً بترك الهوى والإرادة النفسية[2].

وقال القاضي أبو عبد الله المقدسي قال: سمعت شيخاً موفق الدين ابن قدامة يقول: دخلنا بغداد سنة ٥٦١هـ فإذا الشيخ الإمام محيي الدين عبد القادر ممن مثله انتهت إليه الرئاسة بها علماً وعملاً وحالاً وإفتاءً وكان يكفي طالب العلم عن قصده غيره من كثر ما اجتمع فيه من العلوم والصبر على المشتغلين وسعة الصدر وكان ملء العين وجمع الله فيه أوصافاً جميلة وأحوالاً عزيزة، وما رأيت بعده مثله وكل الصيد في جوف الفراء[3].

وقال ابن الجوزي عنه: تكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد وكان له سمت وصمت وكان يجلس عند سور بغداد مستنداً إلى الرباط ويتوب عنده في المجلس خلق كثير[4].

. منهج الشيخ عبد القادر في توضيح العقيدة:

بيّن رحمه الله عقيدته بوضوح كثيراً ما يردد في مجالس وعظه وحلقات دروسه عبارة: اعتقادنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة[5]، ومن خلال دراسة مؤلفات الشيخ عبد

---

[1] الإمام عبد القادر الجيلاني للصلابي، ص: ١٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠.

[3] الذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب (١ / ٢٩٤).

[4] الإمام عبد القادر الجيلاني للصلابي، ص: ١٧.

[5] سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٤٤٢).

القادر الجيلاني يلاحظ الباحث أن له منهجاً واضح المعالم في إيضاح القضايا التي يعالجها خصوصاً قضايا العقيدة ويمكن تلخيصه:

. تعريفه للإيمان:

ونعتقد أن الإيمان قول باللسان ومعرفة بالجنان وعمل بالاركان يزيد بالطاعة وينقص بالعصيان ويقوى بالعلم ويضعف بالجهل وبالتوفيق يقع[1].

. حرصه على عدم الخروج عن مدلول الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في إثبات الأسماء والصفات لله عز وجل: يدل على ذلك قوله ولا نخرج عن الكتاب والسنة نقرأ الآية والخبر ونؤمن بما فيها ونكل الكيفية في الصفات إلى علم الله[2].

. الإمساك عما لم يرد ذكره في كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من إثبات أو نفي، وهذا واضح جلي في قوله: ونعوذ بالله من أن نقول فيه وفي صفاته ما لم يخبرنا به هو أو رسوله صلى الله عليه وسلم[3].

. شروط قبول العبادة وقد قرر الشيخ عبد القادر الجيلاني ضرورة توفر الإخلاص والمتابعة في العبادة وبيّن أن مجرد النطق بالشهادتين وأداء الأعمال التي تقتضيها لا يكفي إلا بعد تحقق الشرطين[4].

يقول: إذا عملت هذه الأعمال . يعني الإتيان بالأوامر وترك النواهي، لا تقبل منك إلا بالإخلاص فلا يقبل قول بلا عمل ولا عمل بلا إخلاص وإصابة السنة.

ويقول في موضوع آخر: وجميع ما ذكرناه من صيام الأشهر والأضحية والعبادات من الصلاة والأذكار وغير ذلك لا يقبل إلا بعد التوبة وطهارة القلب وإخلاص العمل لله تعالى وترك الرياء والسمعة[5].

---

[1] الغنية للجيلاني (١ / ٦٢).

[2] الشيخ عبد القادر للقحطاني، ص: ٧٢.

[3] الإمام عبد القادر الجيلاني، ص: ١٩.

[4] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

[5] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

وحذر كثيراً من الرياء والعجب وذلك لخطورته على دين العبد ولسهولة وقوع الإنسان فيه فقال: ينبغي لكل متعبد عارف أن يحذر من جميع أحواله من الرياء ورؤية الخلق والعُجب فإن النفس خبيثة وهي منشأ الأهواء المضلة والشهوات المردية واللذات الحائلة بين العبد وبين الحق عز وجل[١].

. القضاء والقدر:

يقول الشيخ عبد القادر: ينبغي أن يؤمن بخير القدر وشره وحلوه القضاء ومره، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه بالحذر وما أخطأه من الأسباب لم يكن ليصيبه بالطلب وأن جميع ما كان من سالف الدهور والأزمان، وما يكون إلى يوم البعث والنشور بقضاء الله وقدره المقدور، وأنه لا محيص لمخلوق من القدر المقدور الذي خط في اللوح المسطور[٢].

. أهمية الاعتصام بالكتاب والسنة:

يقول الشيخ عبد القادر: لا فلاح لك حتى تتبع الكتاب والسنة ويقول: إذا لم تتبع الكتاب والسنة ولا الشيوخ العارفين بهما فلا تفلح أبداً[٣].

. ذم البدع والتحذير منها:

حذر الشيخ عبد القادر من الابتداع في الدين وأوصى بالاتباع ويقرن ذلك بوصيته بالتوحيد وضرورة مجانبة الشرك، حيث يقول: اتبعوا ولا تبتدعوا وأطيعوا ولا تمرقوا ووحدوا ولا تشركوا[٤].

وبيّن أن أساس الخير في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم فيقول: أساس الخير في متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في قوله وفعله[٥].

---

[١] الغنية للجيلاني (٢ / ٦٧).

[٢] الغنية (١ / ٦٥).

[٣] الإمام عبد القادر، ص: ٤١.

[٤] المصدر نفسه، ص: ٤١.

[٥] الغنية للجيلاني (١ / ٧٩).

. **مفهوم التصوف عند الشيخ عبد القادر:**

رسم الشيخ عبد القادر الجيلاني منهجاً متكاملاً للتصوف يجمع بين العلم الشرعي المؤسس على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وبين التطبيق العملي والالتزام بالشرع، فقد قال: انظر لنفسك نظر رحمة وشفقة واجعل الكتاب والسنة أمامك وانظر فيها وأعمل بهما ولا تغتر بالقيل والقال والهوس، قال تعالى :" فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ" (الحشر، آية : ١٧). ولا تخالفوه فتتركوا العمل بما جاء به ولا تخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة كما قال الله عز وجل في حق قوم ضلوا سواء السبيل " وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ" (الحديد، آية : ٢٧)[١].

وقال: يا قوم انصحوا القرآن بالعمل به لا بالمجادلة فيه، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة عليكم بالإيمان به صدقوا بقلوبكم وأعملوا بقلوبكم وأعملوا بجوارحكم واشتغلوا بما ينفعكم ولا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية[٢].

. **تعريف التصوف:**

قال الشيخ عبد القادر: التصوف هو الصدق الحق وحسن الخُلقُ مع الخَلْق[٣]. وقال: هو تقوى الله وطاعته ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر وسخاء النفس وبشاشة الوجه وبذل الندى وكف الأذى، وتحمل الأذى والفقر وحفظ حرمات المشايخ والعشرة مع الإخوان والنصيحة للأصاغر والأكابر وترك الخصومة والإرفاق وملازمة الإيثار ومجانية الادخار وترك صحبة من ليس من طبقتهم، والمعاونة في أمر الدين والدنيا، وبيّن الشيخ عبد القادر الجيلاني أن التصوف يقوم على خصال منها:

. **السخاء:** ويجعل القدوة في ذلك خليل الرحمن إبراهيم الذي اشتهر . صلوات الله وسلامه عليه . بذلك.

---

[١] الفتح الرباني للجيلاني، المجلس الحادي عشر، ص: ٤١.

[٢] فتوح الغيب للجيلاني المقالة السابعة والخمسون، ص: ١٦٦.

[٣] زاد المعاد في هدى خير العباد (١ / ٧١).

. **الصبر**: والقدوة في التخلق بهذا الخلق العظيم أيوب عليه السلام فقد أثنى الله عليه بقوله :" وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (ص، آية : ٤٤).

وذلك لما تحلى به من الصبر لمواجهة تلك الابتلاءات العظيمة التي لا يكاد يطيقها بشر في جسده وماله وولده.

. **الإشارة**: ويذكر أن القدوة فيها هو زكريا عليه السلام وكأنه يشير بهذا إلى سرعة بديهته وشدة فهمه وذكائه عليه السلام، فإنه لما رأى أن الله يرزق مريم فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء أدرك بفطنته مدى قدرة الله عز وجل وعدم ارتباطها بالاسباب وأن الله قادر على أن يرزقه ولداً ولو كان شيخاً كبيراً قد وهن عظمه واشتغل بالشيب راسه مع كبر امرأته فدعا الله وناداه وقال :" رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء" (آل عمران، آية : ٣٨)[1].

. **السياحة**: ويذكر أن القدوة فيها هو عيسى ابن مريم عليه السلام.

. **الفقر**: ولاشك أن أعظم الناس اتصافاً بهذا الوصف هو الافتقار إلى الله وصدق اللجوء والاعتماد عليه هو خير البشر وسيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم والشواهد على هذا كثيرة جداً في سيرته العظيمة[2].

ووضع الشيخ عبد القادر الجيلاني ضابطاً دقيقاً للصوفي فيقول: الصوفي من صفا باطنه وظاهره بمتابعة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم[3].

ويقول الصوفي الصادق في تصوفه يصفو قلبه عما سواه مولاه عز وجل وهذا شيء لا يجيء بتغيير الخُلق وتعفير الوجوه وجمع الاكتاف ولقلقة اللسان وحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل والزهد

---

[1] فتوح الغيب للجيلاني، المقالة الخامسة والسبعون، ص: ١٦٦.

[2] الغنية للجيلاني (٢ / ١٦٠).

[3] الفتح الرباني للجيلاني ، المجلس الخامس والعشرون، ص: ٩٠.

في الدنيا وإخراج الخلق من القلب وتجرده عما سوى مولاه عز وجل[1]، وقد تأثر الشيخ عبد القادر الجيلاني بالإمام الغزالي الذي اشتهر أمره وذاع صيته في بداية نشأة عبد القادر، ويظهر تأثر الشيخ عبد القادر به في كتابه "الغنية" حيث التشابه بينه وبين كتاب الإحياء للغزالي[2].

وفي نظري أن الشيخ عبد القادر بسط تعاليم الغزالي ونقحها وزاد عليها كوّن تياراً إسلامياً متماسكاً وحوّل هذا التيار إلى عمل جماعي منظم منضبط واستطاع تكوين صف قيادي مساعد له، ساهموا في تشكيل التيار الإسلامي العريض[3] الذي دفع بحركة الجهاد في عهد السلطان نور الدين زنكي.

. إصلاح التصوف:

أعطى الشيخ عبد القادر عناية خاصة لإصلاح التصوف وإعادته إلى مفهوم "الزهد" ثم توظيفه لأداء دوره في خدمة الإسلام وإصلاح المجتمع ولقد تمثلت جهوده في هذا الميدان:

تنقية التصوف مما طرأ عليه: من انحرافات في الفكر والممارسة ثم رده إلى وظيفته الأصلية كمدرسة تربوية هدفها الاساسي في غرس معاني التجرد الخالص والزهد الصحيح ويمثل كتاباه "الغنية لطالبي طريق الحق" "فتح الغيب" خلاصة أفكاره في هذا المجال ولقد تناول الكتاب الثاني بالشرح ابن تيمية في الجزء العاشر من الفتاوى المسمى "كتاب السلوك" وقدمه نموذجاً للزهد الذي حث عليه القرآن الكريم والسنة الشريفة، ولم يكن عبد القادر في هذه المهمة يعتمد على البحث النظري أو الحديث الوعظي وإنما طبقه في ميدان التربية العملية في مدرسته ورباطه[4].

---

[1] الإمام عبد القادر الجيلاني، ص: ٤٧.

[2] الشيخ عبد القادر الجيلاني، ص: ٥١٨.

[3] الإمام عبد القادر الجيلاني، ص: ٤٩.

[4] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ماجد عرسان الكيلاني، ص: ٢٠٩.

. الحملة على المتطرفين من الصوفية:

حمل عبد القادر في مواعظه وكتبه على تلبّسوا بالتصوف أو شوّهوا معناه، لأن التصوف الصحيح صفاء وصدق لا يتحققان بتغيير الخرق وتصفير الوجوه وجمع الأكتاف ولقلقة اللسان بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتسبيح والتهليل، وإنما يجيء بالصدق في طلب الحق عز وجل، والزهد في الدنيا، وإخراج الخلق من القلب وتجردهما عما سوى مولاه عز وجل[1]، كذلك انتقد ما شاع بين بعض الصوفية من سماع الألحان والرقص وبدع لا تتفق مع الكتاب والسنة وقرر أن المريد الصادق لا يهيجه كلام غير كلام الله، وهو في غنى عن الأشعار والقيان والأصوات وصراخ المدّعين وشركاء الشياطين ركاب الأهوية مطايا النفوس والطباع أتباع كل ناعق وزاعق[2].

. محاولة التنسيق بين الطرق الصوفية وإيجاد التآلف بينها:

في الفترة الواقعة بين عامي ٥٤٦هـ . ٥٥٠هـ / ١١٥١م . ١١٥٥م جرت حركة تنسيق واتصالات بين الطرق الصوفية بهدف توحيد الجهود وتنظيم التعاون، ولتحقيق هذا الهدف عقد عدد من الاجتماعات واللقاءات أدت إلى نتائج هامة على المستوى التنظيمي والمستوى النظري وتصدر الشيخ عبد القادر الزعامة وكان أول الاجتماعات استهدفت توحيد القيادة اجتماع عقد في رباط المدرسة القادرية الكائن في منطقة الحلة في بغداد حيث حضر الاجتماع ما يزيد على الخمسين من شيوخ العراق وخارجه، وكان الاجتماع الثاني خلال موسم الحج حيث حضره شيوخ الطرق الصوفية من مختلف أرجاء العالم الإسلامي، حضر هذا اللقاء:

. الشيخ عبد القادر الجيلاني من العراق.

. والشيخ عثمان بن مرزوق القرشي الذي شاعت شهرته وانتهت إليه المشيخة في مصر.

. والشيخ أبو مدين المغربي الذي يعود إليه نشر الزهد في المغرب في ذاك العصر.

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٠٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٠٩.

. كذلك حضر الاجتماع شيوخ من اليمن حيث أرسل معهم الشيخ عبد القادر رسولاً ينظم أمورهم[1].

وفي نفس الفترة جرت اتصالات بين الشيخ عبد القادر والشيخ رسلان الدمشقي الذي انتهت إليه تربية المريدين ورئاسة المشايخ في الشام[2].

ثم تلا ذلك اجتماع موسع حضره جمع كبير من الشيوخ الذين يمثلون مدارس الإصلاح في مختلف أقطار العالم الإسلامي واستطاع الشيخ عبد القادر الجيلاني أن ينقل التصوف السني إلى حركة منظمة في العراق وعلى مستوى العالم الإسلامي ولقد ترتب على هذه اللقاءات المستمرة للمشايخ والعلماء آثار هامة من أهمها:

. خروج الزهد من عزلته التي كان فيها في حالة التصوف واسهامه في مواجهة التحديات التي تجابه العالم الإسلامي، فقد توثقت الصلات بين نور الدين زنكي في دمشق وبين شيوخ مدارس الإصلاح في بغداد وحرّان وجبال هكار ودمشق ثم أعقب ذلك تداعي هذه المدارس للعمل مع نور الدين وصلاح الدين، واستمر هذا التعاون حيث أولى السلطانان عنايتهما الفائقة بمدارس الزهد وساطتهما وبنيا لها فروعاً جديدة وأوقفا عليها الأوقاف، في المقابل حملت هذه المدارس مسؤولياتها وأخذت دورها في التوجيه المعنوي للجهاد بطريقة فعالة[3].

إن الطريقة القادرية التي أسسها الشيخ عبد القادر الجيلاني من المدارس السنية والتي كانت تؤمن بالجهاد في سبيل الله تعالى واشتهر من علمائها أفاضل وأكابر في العالم الإسلامي وفي بلاد المغرب وتوارثتها الأجيال واستفادت من تعاليمها ومنهاجها التربوية، وكان من المتقدمين فيها السيد محيي الدين بن مصطفى الحسني والد الأمير عبد القادر الجيلاني، ولقد دلت الأخبار المتعلقة بالمدارس الإصلاحية وخصوصاً مدرسة الشيخ عبد

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٤٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٤٥.

[3] المصدر نفسه، ص: ٢٤٧.

القادر أنها لعبت دوراً رئيسياً في إعداد جيل لمواجهة الخطر الصليبي في البلاد الشامية[1]، وتدل الإشارات والشواهد التاريخية على أن الطلاب الشاميين كانوا يشكلون مجموعة كبيرة بين الطلاب الذين يفدون من خارج العراق للدراسة في مدرسة عبد القادر كذلك كانت الشام منطقة جذب لرجالات الدين والمتحمسين لنصر الإسلام وجهاد الأعداء، وتبدو مظاهر التعاون بين مدارس الإصلاح والدولة الزنكية في الآتي:

. الإسهام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي:

قامت المدرسة القادرية بدور هام في إعداد أبناء النازحين من مناطق الاحتلال الصليبي، فكانت تستقدمهم وتوفر لهم الإقامة والتعليم، ثم تعيدهم إلى مناطق الثغور والمرابطة ولقد كان هؤلاء الطلاب يُعرفون باسم "المقداسة" نسبة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس وكان من بين هؤلاء الطلاب بعضهم الذي اشتهر فيما بعد من ميدان الفقه والسياسة، ويمكن القول إن إرسال هذه البعوث الطلابية إلى بغداد كان سببه الأول: حاجة الدولة الزنكية إلى نمط معين من القيادات والموظفين والإداريين.

والثاني: ما اشتهرت به مدرسة عبد القادر من تجسيد لسياسات الإصلاح، ولقد توثقت الصلات بين الشيخ عبد القادر والسلطان المجاهد الكبير نور الدين محمود زنكي، فكان نور الدين يرسل أبناء المقدسة النازحين من القدس إلى بغداد ليدرسوا في مدرسة الشيخ عبد القادر ثم يعودوا إلى مناطق الثغور قادة ودعاة ومرشدين كما كان نور الدين يستقدم مشاهير العلماء الذين تخرجوا من المدرسة القادرية[2].

وكانت المدرسة القادرية والقيادة الزنكية تعد أبناء النازحين لقيادة حركة الجهاد بدل أن تأتي عليهم حياة التشرد والضياع، أو أن يجدوا طريقهم إلى المدارس العادية التي كانت تعد الطلاب للوظائف والمصالح الشخصية[3].

---

[1] هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٧٥.

[2] الشيخ عبد القادر الإمام الزاهد القدوة، ص: ٢٧٥.

[3] الإمام عبد القادر للصلابي، ص: ١١٤.

. المشاركة في ميادين سياسية:

اشتغل نفر من تلاميذ المدرسة القادرية مع نور الدين ثم صلاح الدين في السياسة ولعب بعضهم أدواراً في غاية الخطورة ومن الأمثلة على ذلك: أسعد ابن المنجا بن بركات، فقد أشار ابن رجب بالإضافة إلى عمله في التدريس والقضاء أنه كان له اتصال بالملوك وخدمة السلاطين[1]، وكذلك زين الدين علي ابن إبراهيم بن نجا الواعظ الأنصاري الدمشقي الذي وصف لقاءه بالشيخ عبد القادر فقال: فاشتغلت عليه بالعلم ففتح الله عليّ في سنة بما لم يفتح على غيري في عشرين سنة وتكلمت ببغداد[2].

ولقد قُدّر لابن نجا هذا أن يكون من رجال صلاح الدين ومستشاريه، وقد ارسله الشيخ عبد القادر الجيلاني للشيخ عثمان بن مرزوق القرشي قائد المعارضة السنية بمصر وشيخ المدرسة الإصلاحية في مصر وقد قام ابن نجا بدور خطير وهام في زحف جيش نور الدين محمود زنكي إلى مصر أنتهى بفتحها وتوحيدها مع الشام وتخليص الأمة من الدولة الفاطمية الشيعية، فلو تتبعنا مسيرة ابن نجا هذا بعد أن استأذن عبد القادر بالرحيل إلى مصر لوجدناه يتوجه إلى دمشق، ويستقر بها مدة ليست قصيرة حيث اشتغل بالوعظ والتدريس، ثم وفد إلى بغداد عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م رسولاً لنور الدين حيث خلع عليه الخليفة، وبعد ذلك مباشرة يدخل مصر ويتصل بالخلافة الفاطمية وينال الحظوة عند حكام الدولة الفاطمية[3]، ويذكر ابن رجب أن ابن نجا الواعظ زار الشيخ عثمان بن مرزوق القرشي المتحمس لعبد القادر وسأله عن إمكانية قدوم أسد الدين شيركوه إلى مصر، فكان جواب الشيخ هو المشورة بالانتظار مدة وكل محاولة سريعة لابد وأن تفشل فجرى الأمر كما ذكر[4].

---

[1] طبقات الحنابلة (٢ / ٤٩) ، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٧٩.

[2] قلائد الجواهر، ص: ٣٣ للتادفي.

[3] مرآة الزمان (٨ / ٥١٥) سبط ابن الجوزي.

[4] طبقات الحنابلة (١ / ٣٠٨).

وكان الشيخ عثمان يرى أن يسبق غزو أسد الدين شيركوه أحد قادة نور الدين محمود زنكي وعمّ صلاح الدين الأيوبي لمصر مزيد من تهيئة الأجواء العامة لاستقباله، بما يشيعه زعماء التصوف السني والوعاظ عن الخير الذي سيصحب قدومه وأما عن حظوة ابن نجا في بلاط الفاطميين، فكانت من ضمن الخطة التي استهدفت اختراق البلاط الفاطمي لمعرفة مواطن الضعف والقوة عندهم، ودعم التعبئة الفكرية التي كان يقودها أمثال الشيخ بن مرزوق، لأن ابن نجا قد قام بنفس الدور الاستطلاعي في مناسبة تالية[١].

وتبدو أهمية الدور الذي لعبه زين الدين بن نجا في كشفه لمؤامرة الفاطميين ضد صلاح الدين عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣م[٢].

. وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني:

أجمع المؤرخون على أن الشيخ عبد القادر الجيلاني قد توفي عام ٥٦١هـ[٣]، وقد عاش عبد القادر إحدى وتسعين سنة[٤].

وقيل أنه لم يمرض في حياته مرضاً شديداً سوى مرض موته الذي دام يوماً وليلة فقط[٥]، وقد سأله ابنه عن مرضه فقال له: لا يسألني أحد عن شيء، أنا أتقلب في علم الله عز وجل، إن مرضي لا يعلمه أحد، ولا يعقله أحد، وسأله ابنه الشيخ عبد الجبار: ماذا يؤلمك من جسمك؟ فقال: جميع أعضائي إلا قلبي فما به ألم وهومع الله وكان يقول رحمه الله تعالى: أنا لا أخاف من أي إنسان، أنا لا أخاف من الموت، ولا من ملك الموت، وكان يرفع يديه ويمدهما وهو يقول: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أتاه الحق وسكرة الموت فجعل يردد: استعنت بلا إله إلا الله سبحان من تعزز بالقدرة وقهر عباده بالموت، لا إله إلا الله محمد رسول الله وقد تعزر عليه التلفظ بكلمة تعزز فظل يرددها حتى تلفظ

---

١ هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص: ٢٨٢.

٢ الإمام عبد القادر، ص: ١١٨.

٣ المصدر نفسه، ص: ١٢١.

٤ المصدر نفسه، ص: ١٢١.

٥ المصدر نفسه، ص: ١٢١.

بها، ثم أخذ يردد: الله، الله، الله، حتى خفي صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه ثم خرجت روحه الكريمة[1].

قال عنه الإمام الذهبي: ليس من كبار المشايخ من له أحوال وكرامات أكثر من الشيخ عبد القادر، لكن كثيراً منهم لا يصح وفي بعض ذلك أشياء مستحيلة[2].

وقال الحافظ المفسر ابن كثير: وانتفع به الناس انتفاعاً كثيراً وله سمت حسن وصمت عن غير الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيه زهد كبير، وله أحوال ومكاشفات ولاتباعه وأصحابه فيه مقالات ويذكرون عنه أقوالاً وأفعالاً ومكاشفات أكثرها مغالاة، وقد كان صالحاً ورعاً وقد صنّف كتابه "الغنية" "وفتوح الغيب" وفيها أشياء حسنة ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة ضعيفة وموضوعة وبالجملة كان من سادات المشايخ الكبار قدّس روحه ونوّر ضريحه[3].

هذه ملامح ومعالم عن الطريقة القادرية التي سار عليها قادة الجهاد ضد الاحتلال الفرنسي من أمثال الشيخ الشريف محيي الدين وابنه الأمير عبد القادر الجزائري.

---

[1] الإمام عبد القادر، ص: ١٢١.

[2] سير أعلام النبلاء (٢٠ / ٤٥٠).

[3] البداية والنهاية (١٦ / ٤٢٠).

المبحث السادس

الأمير عبد القادر الجزائري

أولاً: نسبه ونشأته

١ ـ نسبه:

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر بن أحمد المختار بن عبد القادر بن أحمد المشهور بابن خده بن محمد بن عبد القوي بن علي بن أحمد بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد بن ادريس الأصغر ابن ادريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الوجود محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

فقد كانت اسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف ففي القرن الثامن هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المغرب، هارباً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأدارسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس انتقل أحد اجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر بعد سقوطها عام ١٤٩٢م واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف[٢].

وذكر محمد محمد الجوزي أن عبد القادر بن أحمد المعروف بابن خده وهي مرضعته كان حاكماً لمناطق غريس، عالماً مهيباً فقهياً تولى الرئاسة بعد موت من خلفهم من أجداده

---

[١] الأمير عبد القادر الجزائري، بديعة الحسني، ص: ٣٣.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٩.

الأدارسة وألف كتباً كثيرة، وتوفي رحمه الله في القرن العاشر للهجرة[1]، وأما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني بعد أن زار مدينة بغداد عام ١٧٩١م واشتهرت أسرته بالورع وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم وتوفي جده مصطفى بعين غزالة قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام ١٧٩٧م عند عودته من الحج، ودفن في نفس المكان وما يزال قبره معروفاً حتى الآن.

ولد والده محيي الدين بقرية القيطنة عام ١٧٧٦م ودرس على يد أبيه مصطفى وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، وأشتهر والده بسداد الرأي وغزارة العلم وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد علي قارة الذي حكم من عام ١٨١٢م إلى ١٨١٧م وآخرهم حسن بن موسى الذي حكم من ١٨٢٧م حتى ١٨٣٠م.

٢. مولده ونشأته:

ولد في ٢٥ سبتمبر ١٨٠٧م في قرية القيطنة، وأمه السيدة بنت عبد القادر بن خدة وهي تنحدر من بيت علم وتقوى من أولاد سيدي عمر بن دوحة[2]، تلقى دروسه الابتدائية في مسقط راسه تحت اشراف والده الذي بذل قصارى جهده ولم يدخر جهداً في سبيل ذلك، فأخذ منه القراءة والكتابة واتقنها في سن مبكرة جداً ولفت نظر والده ذكائه ونبوغه وختم القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشر، وأصبح فارساً يشار إليه وبرع في تلقي العلوم التاريخية والفلسفية والفقهية وتعلم مبادئ شتى العلوم اللغوية والشرعية ونال درجة الطالب وكلف بتحفيظ القرآن للأطفال وإلقاء الدروس والتفسير في الزاوية، ومن أجل إتمام دراسته سافر عام ١٨٢١م إلى مدينة أرزيو الساحلية التي تقع شمال مدينة معسكر على بعد حوالي سبعين كيلو متر، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد ابن الطاهر البطيوي الذي كان مشهوراً بغزارة العلم وسعة الاطلاع وبعدها رحل

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٥٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ٥٠.

إلى مدينة وهران إلى مدرسة العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة در الأعيان في أخيار وهران، وتوسيع في المعارف اللغوية والفقهية والنحو والبيان والفلسفة والمنطق وصقل ملكاته الأدبية والشعرية واجتهد في حضور حلقات العلم لعلماء وهران مثل الشيخ مصطفى الهاشمي والشيخ بن نقريد وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية وعاد إلى مسقط رأسه وتزوج بابنة عمه الآنسة خيرة بنت أبي طالب عام ١٨٢٣م وأقام في القيطنة معلماً[١].

وكانت له رحلات علمية للقرويين والزنيونة[٢]، وكانت البيئة التي عاش فيها بيئة إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة وفي ظلها تكونت شخصية وهي التي أثرت في تكوينه النفسي والجسماني والفكري والاجتماعي والسياسي وهذا التكوين يعود إلى عوامل منها:

. العامل الوراثي والبيولوجي والعقلي للأمير.

. البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ في ظلها وعاش فيها.

لقد سمع الأمير عن ذلك التصرف من والده الذي لاشك قد حُفر في ذاكرته وهو محاربة والده لأصحاب الطرق الصوفية الشاذة.

فقد جاء في كتاب تحفة الزائر: أصل ابن الشريف من الكسانة قبيلة بوادي العبد قرب غريس، أخذ العلم في صغره عن سيدي محيي الدين في مدرسة القيطنة ثم رحل إلى المغرب الأقصى ولقي الشيخ العربي الدرقاوي وسلك طريقته وقفل راجعاً إلى وطنه وجاء إلى حضرة سيدي محيي الدين زائراً، وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعاً فأدبه سيدي الجد بالسياط واستتابه[٣].

فهذا الحادث التاريخي ليس دليلاً فقط على منزلة والد الأمير عبد القادر ومكانته الاجتماعية والدينية إنما هو دليل على الوقوف في وجه أصحاب الطرق المنحرفة ومحاربة

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٩٢.

[٢] فكر الأمير عبد القادر للأميرة الجزائري، بديعة الحسني ، ص: ٦٩.

[٣] تحفة الزائر محمد باشا (١ / ٧٥ . ٧٦).

البدع ومحاربة الابتعاد عن الشرع والسنة والاجماع، والأمير عبد القادر أيضاً أثناء حكمه وفي عهد دولته حارب اصحاب الطرق المنحرفة، ووقف في وجه نشر دعوتهم وفضح أمرها[1].

فالطرق الصوفية في شمال أفريقيا أحد الروافد الثقافية والفكرية وقد تعامل معها العلماء وفق المعايير العلمية القائمة على العلم والانصاف في الافراد والمناهج، لقد كان السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر من الشخصيات المهمة في التأثير على ابنه الأمير وكان رجلاً مهاباً محترماً، ليس لكونه قادرياً كما تردده أقلام الدعاية فقط . وإنما لكونه عالماً فقيهاً وحكيماً وشجاعاً، امتاز بالأخلاق الإسلامية والصفات الحميدة والنبل الكريم وعلو منزلته العلمية وهيبة قبيلته بني هاشم التي يمتد نسبها إلى الادارية وحتى عند ولاة العثمانيين كانت له منزلة خاصة وكان مرهوب الجانب من قبلهم جميعاً بدافع تقدير ومحبة، فأمر طبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية على أولاده ومنهم الأمير عبد القادر، فقد برزه هذه الآثار على الأمير في سن مبكرة من ذكاء ومواهب فكرية وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف إلى جانب نفس أبية وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون ومبدع تلك الطبيعة الغناء التي نشأ في احضانها، فالحياة البسيطة في هذه المزرعة والمناخ السياسي الذي نشأ فيه، كان صحياً ومتماسكاً في جزء من دولة كبرى أمنت الاستقرار والازدهار للجزائر وحاربت البدع وأصحابها[2].

٣. الأوصاف المعنوية:

لقد وصف العديد من المؤرخين الأذواق والعادات والسلوك الاجتماعي لعبد القادر منها: كان يزدري الترف في الملبس، فكانت كسوته بسيطة ولكنها نظيفة، كان غاية في التدين ويحمل دوماً مسبحة لا يقف عن التسبيح بها ذاكراً اسم الله وكان باستطاعته امتطاء

[1] فكر الأمير عبد القادر، ص: ٦٨.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٢.

الفرس لمدة يوم أو يومين، وكان زاهداً مثالياً، كان الأكل عنده ـ على الأكثر ـ "الروينة" وهي نوع من العصيدة مصنوعة من طحين وحليب في كمية صغيرة، فلم يكن يقبل الطعام إلا لقوته وليس لذاته، في قلة الأكل وفرة للصحة هذا ما كان يقوله وكان عفيفاً عن الأموال وكان يمتنع من اقتطاع أي شيء من الخزينة العامة لأغراضه الشخصية، وكان يراقب موظفيه ويمنعهم من الإسراف، كما كان يحب الكتب ويهتم بجمع المخطوطات، وكان يشجع الشعراء والكتاب الذين كانت أناشيدهم الملحمية تغذي إيمان المقاتلين وكان يتذوق الشعر وله ملكة شعرية تدلنا أشعاره عليها وتسجل أشعاره فترة تجديد في الشعر الجزائري، يكمن طابعها الجذاب دائماً في كونها ذات علاقة بالفعل والعمل وأنها تحمل إيمانه الوطني، اللغة، الصورة المجازية، تراكيب الأسلوب.. كلها مهدت لتجديد أدبي ينسجم مع مرحلة النضال والكفاح والجهاد والبناء.

لم يكن قاسياً بطبعه وخيرات الأرض لم تسيطر على قلبه وقتاله للمسيحيين لكونهم معتدين غاصبين لا لدينهم، كان يؤم جنوده للصلاة يومياً وكان يتأمل ويتدبر في معاني القرآن الكريم الذي كان زاده الروحي ومرجعه الكبير في خطبه ومواعظه وكان يستلهم الصلابة والثبات والصمود من إيمانه العميق والمنهج الرباني في العسر واليسر والمنشط والمكره والرخاء والشدة[١].

٤. الحج:

قال تعالى:" وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ" (الحج، آية : ٢٧ ـ ٢٩).

[١] الأمير عبد القادر وبناء الأمة، عبد القادر بو طالب، ص: ٥٣ ، ٥٤.

كانت قافلة الحجيج هي أهم قافلة دينية وتجارية في نفس الوقت تنطلق من شمال أفريقيا إلى المشرق وكان هناك عدة طرق للحج، يذهب الحجيج المغاربة كل سنة إلى البقاع المقدسة مصحوبين بعدد كبير من الإبل المحملة بالبضائع من الأقمشة الصوفية والأحذية المغربية، كالبلغة والشواشي بل حتى العبيد السود أحياناً، فبعد أن يتجمع الحجيج في مدينة فاس وتازة بالمغرب الأقصى، ويكونون الركب الفاسي تنطلق القافلة، فمنهم من يأتي سائراً على قدميه، والبعض الآخر يمتطي الخيل أو البغال أو الحمير أو الإبل وتعبر الجزائر سواء عن طريق الجريد عبر عين ماضي والأغواط وقرية أولاد جلال وبسكرة لتصل إلى مدينة قابس التونسية، أو عبر الطريق الساحلي مروراً على وادي الشلف وقسنطينة ومدينة تونس، وخلال مسار الطريق يتضخم الركب بحجيج كل بلد، ثم تصل القافلة إلى طريق بعد رحلة تدوم أكثر من شهرين وفي طرابلس يستجمع الحجيج قواهم ثم يستأنفون رحلتهم إلى أن يصلوا إلى القاهرة بعد أربعين أو خمسين يوماً أخرى من السفر و بعدما ينظموا للركب المصري يتوجهون مباشرة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج بعد أن يكونوا قد قطعوامسافة أربعة الآف وسبعمائة كلم تقريباً وفي البقاع المقدسة تتم مقايضة السلع المحملة من المغرب العربي بالأقمشة الموصلية الحريرية الشرقية والأنسجة الفارسية والهندية الثمينة والعنبر والتوابل، وبعد أداء فريضة الحج ينصرف الحجاج عائدين أدراجهم، وفي القاهرة يتزود الحجيج المغاربة بما تبقى لهم من أموال بالحرير الخام والقطن وعند رجوع الحاج إلى بلده يكون قد ضاعف عدة مرات قيمة البضائع التي حملها معه بعدما اجتاز ذهاباً وإياباً، حوالي عشرة الآف كلم، متحصناً بالاعتماد على الله، واحتسابه الأجر والمثوبة منه ومستعينين بالله للتغلب على مخاطر ومهالك أثناء الطريق من وباء أو اغتيال من طرق قطاع الطرق، وعند الوصول كل إلى بلده يتوجه التجار الحجيج مصحوبين ببضاعتهم مباشرة إلى إحدى الأسواق الكبيرة لبيعها[1].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٥٣ ، ٥٤.

٥. رحلة الأمير عبد القادر مع والده للحج:

تحرك السيد محيي الدين مع ابنه عبد القادر إلى الحج عن طريق البر والبحر، فكانت بدايتهم من وهران مروراً بوادي الشلف وبرج حمزة فمدينة قسنطينة ثم محطة الكاف ومنها إلى مدينة تونس وكنا في كل محطة نزل عند إخواننا وأحبائنا الذين فرحوا بمقدمنا ومقامنا عندهم ومن تونس ركبنا البحر متجهين إلى الأسكندرية زرنا معالمها ووقفنا عند باب البحر عند مقامي الشيخ أبي العباس المرسي وأبي الحسين وانتقلوا بعدها إلى القاهرة وزاروا بالمقطم مقام مرشد السالكين الشيخ ابن عطاء الله السكندري أحد شيوخ الطريقة الشاذلية كما زاروا مساجدها العريقة وتعرفوا على أعيان المدينة وكبراءها وجالسوا علماءها من أمثال الشيخ علي بن محمد الميلي، والشيخ المعروف بابن الأمير، وأعجبوا شديداً بما وصلت إليه الحياة في مصر من تقدم وازدهار في شتى المجالات العلمية والاقتصادية والصناعية وكان ذلك في عهد محمد علي باشا وقد تحدثنا عنه سابقاً وبعد هذه الاستراحة في مصر سافرنا مع الركب المصري ووصلوا قناة السويس فركبوا البحر الأحمر نحو جدة ثم مكة المكرمة وبعد أداء فريضة الحج زاروا المدينة المنورة وصلوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أمام قبره وترحموا على الصحابة والتابعين المدفونين بالبقيع ومن المدينة وحلوا إلى دمشق بصحبة الركب الشامي ومكثوا فيها عدة أشهر وتعرفوا على مشاهير الصلحاء والعلماء والأعلام وكانوا يقضون جل وقتهم في الجامع الأموي دائبين على القراءات وحضور حلقات الدرس العلمية التي كان يدرس فيها كبار العلماء، وقرأوا الحديث وصحيح البخاري بالجامع الأموي على الإمام المحدث عبد الرحمن بن محمد الكزبري الشافعي الدمشقي محدث الديار الشامية والمشهور بتدريس البخاري الشريف وكانت عامة العلماء تحضره للأخذ عنه وأخذوا العلم على يد غيره من علماء الشام ثم توجهوا إلى مدينة بغداد واستقر بهم المقام فيها وزاروا مقام عبد القادر الجيلاني وجددوا العهد مع نقيب الأشراف وشيخ الجادة القادرية الشيخ محمود القادري الجيلاني وبعد

مقام عدة أشهر غادروا بغداد نحو الشام من جديد ولم يتجهوا غرباً مباشرة لخطورة الطريق وانتشار قطاع الطرق ومن الشام توجهوا إلى المدينة المنورة ثم مكة وأدوا مناسك الحج للمرة الثانية، وبعد أيام التشريق انصرفوا نحو القاهرة مع الركب الحجازي الذي قدم من المغرب العربي للحج في رحلة صيفية حارة عام ١٨٢٨م ومن القاهرة اتجهوا صوب إقليم برقة وزاروا قبر والد محيي الدين بعين غزالة قرب قرية درنة وبعد اجتيازنا للجبل الأخضر واصلوا طريق الساحلي ووصلوا إلى مدينة بنغازي البحرية ومنها وصلوا الطريق غرباً وتوقفوا بمصراتة على مقام سيدي أحمد بن عيسى البرنوسي الفاسي المشهور باسم الزروق، ثم اتجهوا إلى تاجورة طرابلس الغرب وواصلوا السير حتى وصلوا إلى بن قردان بالجنوب الشرقي الساحلي لتونس ثم اتجهوا شمالاً إلى مدينة قابس، بعدها انحرفوا إلى القيروان، ثم شمالاً إلى الكاف على الحدود الغربية لتونس ومنها دخلوا إلى الجزائر ووصلوا قسنطينة ثم قلعة بني حماد ثم برج حمزة بالقرب من مدينة البويرة حالياً فوادي الشلف مروراً على المدية ومليانة وأخيراً وصلوا إلى أهلهم بمعسكر سالمين غانمين[١].

٦. نداؤه إلى سلطان المغرب ليأخذ بزمام المقاومة:

سبقت العودة من الاراضي المقدسة سقوط العاصمة بقليل وكان رد الفعل تجاه الغزو الفرنسي في القطينة كمثيله في كافة أرجاء البلاد وظن الناس في البداية أن الاحتلال لن يكون إلا مؤقتاً لأنه سبقت حالات أخرى مماثلة له ولم تدم بل مرت كسحابة صيف، غير أن القلق قد بلغ معظم الجزائريين عندما ظهر جلياً أن فرنسا كانت تنوي البقاء نهائياً في الجزائر ومد غزوهم إلى كافة البلاد وقد أدى ذهاباً الأتراك إلى فوضى واضطراب في الأرجاء الداخلية للبلاد وحاول الشيخ محيي الدين وابنه عبد القادر أن يعيد اقرار السلام.

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٥٥ ، ٥٦.

كما كان الحال في كل الأرباع الأخرى من البلاد، وكان الشيخ محيي الدين قد ترأس العديد من اجتماعات الأعيان المرابطين حول هذا الموضوع بالذات، لقد سادت الفوضى كل الارجاء واقترح الشيخ أن يلجأ إلى سلطان المغرب الأقصى ليقود المقاومة ذلك لأن قوة منظمة هي الوحيدة الكفيلة بالوقوف في وجه الغزو قبلت القبائل هذا المقترح وبعثت بوفد إلى السلطان مولاي عبد الرحمن، ليقترح عليه قيادة المقاومة ضد الغزاة وقبل السلطان ذلك، وبعث ابنه الذي أتى على رأس جيش صغير مكون من ٥٠٠ فارس ودخل تلمسان بموكب ضخم، فكانت البشرى والفرح العارم وكان أهالي الجزائر مع التضامن المغاربي لدحر فرنسا المعتدية الغازية لديار المسلمين.

كانت سمة السلطان كبيرة في أرجاء الجزائر وكانت تؤدي صلاة الجمعة باسمه كما كانت تؤدى في مملكته نفسها ولكن هذا الأمر لم يدم ودخل السلطان المغربي مع فرنسا في اتفاقية مكناس بتاريخ ٢٢ مارس ١٨٣٢م التي جرت بين السلطان وممثل المارشال وهكذا فإن الوصاية المغربية على الجزائر لم تدم أكثر من سنة بقليل وكان على الوفد الجزائري وأن يغادر العاصمة المغربية دون الحصول على المساعدة المرغوب فيها ماعدا اعتراف سيدي محيي الدين بالسيادة ولو الاسمية للسلطان[١].

ثانياً: بيعته

بعد الجهود العظيمة التي بذلها السيد محيي الدين للتصدي للغزاة وقيادة القبائل للجهاد في سبيل الله رأى الناس أهمية مبايعته ولكنه اعتذر بكبر سنه ودفع المواطنين للتفكير في مبايعة ابنه عبد القادر لقناعته بقدرته على ذلك واتفق مع الأهالي على موعد لعقد البيعة صباح الأثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م وفي ذلك الصباح المشرق لم يفاجأ سكان مناطق غريس بقدوم زعماء مناطق بعيدة إذ كثيراً ما كانوا يأتون

[١] حوار مع الأمير عبد القادر.

للاجتماع بالشريف محيي الدين في هذا المكان، ويجلسون تحت الدردارة للتشاور معه أو لعقد ندوات فقهية أو لحل مشكلة اجتماعية ولكن هذه المرة لاحظ السكان أن العدو أكبر من المعتاد بكثير، ولابد أن الأمر جلل، وأخذوا يتهامسون فيما بينهم وعندما علموا أن نجل الشريف محيي الدين مرشح سلطاناً على البلاد كبروا بأعلى أصواتهم "الله أكبر" ولم لا يكون وهو شاب قوي على درجة عالية من العلم وفارس شجاع، وسيم الطلعة، شريف النسب، كريم ومتواضع، ومعظم القبائل تكن لسيدي محيي الدين وأولاده محبة واحتراماً، وبعد ساعات غصّ المكان بوفود زعماء القبائل وأعيان المدن والأشراف والعلماء وزعماء القبائل الشرقية والغربية، عطاف وسنجاس وبنوالقصير ومرابطوا بيجاية وجميع بنو خديد وبنو العباس وعكرمة وفليتة والمطاملية ومجاهر والبرجية والدوائر والزمالة والغرابة واليعقوبية وخيموا في مناطق أريحة من مناطق غريس حول شجرة الدردار وكان يجلس في ظلها بصدر المكان الشريف محيي الدين بطلعته القور ولباسه الجزائري وحوله جميع أفراد عائلته من إخوة وأولاد عم وأبناء هذه الشجرة الموغلة في القدم كانت حتى الماضي البعيد مركزاً للاجتماعات والتشاور١.

جلس عبد القادر إلى جانب والده وإخوته الذين علت وجوههم ابتسامة الرضا لأن كلاً منهم كان يدرك أن شقيقهم عبد القادر كان أكثرهم شجاعة وقوة تحمل وكانوا يحبونه ويفخرون به، ولم يبد أي منهم اعتراضاً على اختيار أبيهم له وعندما اكتمل هذا الاجتماع التاريخي تقدم الوالد من عبد القادر مبايعاً وشد على يده قائلاً: كيف ستحكم البلاد يا ولدي،؟ أجاب عبد القادر: بالعدل والحق الذي أمر به رب العالمين، سأحمل القرآن بيد وعصا من حديد بيد أخرى، وسأسير على هدي كتاب الله وسنة رسوله، ثم التفت الوالد سيدي محيي الدين مخاطباً الجموع قائلاً لهم: إنه ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين لقب ليس سلطاناً ولا ملكاً وإنما أميراً عليكم أيها الأخوة المؤمنون، ثم

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٤.

تقدمت عائلته تشد على يده مبايعة وتلاهم الأعيان ورؤساء القبائل حسب مراكزهم والعلماء والأشراف وكل من حضر ذلك الاجتماع التاريخي العظيم وكان جميع زعماء القبائل يرتدون اللباس الجزائري القومي المهيب والأنيق وكأنهم في عيد[1].

١. مكان التوقيع على نص المبايعة:

قبل مغادرة تلك الجموع المكان وقف الشريف محيي الدين فيهم إماماً وصلى صلاة العصر وبعد أن صلى ركعتين صلاة الاستخارة اقترح أن يكون التوقيع على نص المبايعة في مسجد الحسن في عين البيضاء، فوافق الجميع لما لهذا المسجد من مكانة تاريخية حافلة بالأمجاد، لقد كان منبراً علمياً ومنطلقاً للمجاهدين عام ١٧٩٧م ضد الغزو الإسباني، وشيد الباي محمد بن عثمان في محازاته معهداً علمياً تخرج فيه أعداد كبيرة من الطلبة شاركوا في تحرير وهران من قبضة الإسبان، واختاروا موعداً ليوم التوقيع على المبايعة الثالث عشر من رمضان ١٢٤٨هـ والرابع من شباط ـ فبراير عام ١٨٣٣م وكان الشريف قد كلف منذ فترة أخاه العلامة علي بن أبي طالب بن مصطفى بن المختار بكتابة نص البيعة بمساعدة بعض العلماء والأشراف كالسيد محمد بن حوا، والعالم محمد الثعالبي، والسيد عبد الرحمن بن حسن الدحاوي وإخوته العلماء والسيد محمد بن عبد الله المشرفي، وعبد القادر بن محمد بو طالب، وفي هذه المناسبة رأى ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين وقبل توقيع المبايعة أن من واجبه إرسال رسالة إلى الخليفة العثماني السلطان محمود يخبره فيها بالأحداث وما آلت إليه البلاد بعد استسلام الدّاي حسين، والفوضى التي حدثت وعن مقاومة الغزو واستبسال أبناء الشعب بالدفاع عن دينهم وكرامتهم ودورهم ومساجدهم[2]، كان الأمير يكن كل الاحترام والتقدير للدولة العثمانية وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في محله وسرى خبر مبايعة عبد القادر بن محيي الدين بين القبائل فأخذت الوفود تترى على دار الشريف محيي الدين في القيطنة راغبة بالطاعة والمبايعة

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢٧.

على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى الجهاد وفي الموعد المحدد وبعد صلاة الفجر انطلقت عائلة الشريف محيي الدين من القيطنة على متن الجياد نحو جنوب مدينة معسكر في ضاحية العين البيضاء حيث يقع المسجد المذكور الذي اشتهر أيضاً بجمال بنائه وحدائقه العالية الرشيقة التي غطى نصفها الضباب، وفور وصولهم قفزوا عن جيادهم وسلموها للسياسي ثم خلعوا أحذيتهم ووضعوها في المكان المخصص ودخلوا قاعة المسجد الواسعة المفروشة بالسجاد الفاخر ولفّوا حول أجسادهم برانسهم البيضاء، ثم جلس الشريف محيي الدين وإلى جانبه أولاده وعندما دخل رؤساء القبائل الجزائرية وقف عبد القادر بن محيي الدين وفي عينيه بريق العزم والإخلاص والإيمان وقد تزمّل برداء الهيبة التي اشتهر بها ووسامة المحيا وبياض البشرة وتناسق الجسم[1].

٢. خطبة الأمير عبد القادر للجموع ونص البيعة:

خاطب زعماء القبائل والأعيان وممثلي العشائر والعلماء فقال: بعد ذكر اسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على رسوله بادرهم بقوله: إنني لست أفضلكم خلقاً وشجاعة وحكمة، ولم يخطر لي هذا المنصب يوماً ولكنني أجبرت عليه كما تعلمون فهو مسؤولية أمام الله وأمامكم، أرجو منه تعالى التوفيق والعون لتطهير البلاد من الغزاة ورفع راية الإسلام عالية في سماء بلادنا، فالإسلام هو الذي وحدّ قبائلنا بعد شتات وجعلها قوة لا تقهر، تدفعنا ميادين المجد والشرف وجعلنا إخوة يحب أحدنا لأخيه ما يحب لنفسه ولا فرق بين عربي وأعجمي ولا أبيض ولا أسود إلا بالتقوى وأمرنا بالعدل والمساواة وإذا عدنا إلى التاريخ نجد كل من دخل هذه البلاد غازياً من رومان وفاندال وإسبان هزمتهم قوة بأس وشجاعة الأجداد، وكان هدف غزوهم لبلادنا إخضاع شعوبنا وإذلالها ونهب خيرات بلادنا لزيادة رفاهية شعوبهم والذين حالف النصر أعلامهم من الفاتحين حملوا إلى هذه البلاد حضارة إلهية، وشيدوا صروحاً من القيم باقية إلى الأبد لا ينضب معينها ودخلوا هذه البلاد

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٨.

لتكون دعوة الإسلام حرة فيها، قال تعالى :" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء، آية : ١٠٧). ومدينة راقية لا تزال آثارها تشهد عليها في مدننا في فاس، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، وفي وهران، وقسنطينة، إخوتي في الإسلام، أيها السادة زعماء القبائل والعلماء أيها المجاهدون من أبناء هذا الوطن العظيم سنكون أقوياء سندافع عن الراية والرسالة التي حملها لنا طارق بن زياد وموسى بن نصير وسيظل ارتباطنا وثيقاً بدولة الخلافة العثمانية ارتباطاً روحياً بنظامها الإسلامي، ولن نكون جاحدين لأعمال الأخيار من الولاة في خدمة الإسلام ومحاربتهم لقوى الشر في بلادنا ولن تخرج دولتنا عن طاعة الخليفة، ولن نكون عوناً لأعدائها عليها، وكما قال والدي: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً وأرفض لقب سلطان أو ملك " حَسْبِيَ اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ" (التوبة، آية : ١٢٩). والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته١.

فلاقت هذه الخطبة حماساً منقطع النظير من جموع الحاضرين، وضج المسجد بأصوات الرجال "الله أكبر" ثم نهض العالم الفقيه محمد بن حوا وكان يرتدي الثوب الجزائري وفوقه البرنس الأبيض وعلى رأسه العمامة البيضاء، وقرأ نص المبايعة:

(بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله أجمعين، بعد مبايعة الإمام الجليل الشريف محيي الدين وتنازله عنها لولده عبد القادر بن محيي الدين أحيا الله بهما الدين وأعانهما على القيام بإعلاء كلمته وأهلك بدولتهما أهل البغي والفساد والغزاة المعتدين، نحن جميعاً علماء غريس وأشرافها وما جاورها وزعماء قبائل العباس والخالدي والإبراهيمي والحساني والعوفي والجعفري والبرجي والشقراني والزلامطة ومغراوة وبني السيد وحق الخلوية والمشارف وكافة أهل وادي الحمام وزعماء الدوائر والزمالة وبني خويدم وعكرمة وفلقية والمفاحلية والغراية والحساسة وأولاد الشريف وصدامه وكل من حضر هذه

١ المصدر نفسه، ص: ٢٩.

البيعة، نبايع أبا المكارم ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين صاحب الفضل المجاهد الشجاع ذا النسب الشريف قامع أعداء الله الظالمين أيده الله بنصره، نبايعه على الجهاد والحكم بكتاب الله وسنة رسوله وعلى الطاعة، ونصره الله في السراء والضراء ومن ينكث فإنما ينكث على نفسه وخسر يومه وأمسه والله الموفق.)

وخرجت الجموع متفائلة مستبشرة يهنئ بعضهم بعضاً[1].

٣. رسالة من الأمير عبد القادر إلى سائر القبائل في أنحاء البلاد:

الحمد لله، إلى قبيلة كذا.. خصوصاً أشرافها وعلماؤها وأعيانها وفقكم الله وسدد أموركم، وبعد فإن أهل معسكر وغريس الشرقي والغربي ومن جاورهم واتحد بهم قد أجمعوا على مبايعتي وبايعوني على أن أكون أميراً عليهم وعاهدوني على السمع والطاعة في اليسر والعسر، وعلى بذل أنفسهم وأولادهم وأموالهم في إعلاء كلمة الله، وقد قبلت بيعتهم وطاعتهم، كما أنني قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه مؤملاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين ورفع النزاع والخصام بينهم وتأمين السبل ومنع الأعمال المنافية للشريعة المطهرة وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق نحو القوي والضعيف فلذلك ندعوكم لتتحدوا وتتفقوا جميعاً وأعلموا أن غايتي القصوى اتحاد الملة المحمدية والقيام بالشعائر الأحمدية وعلى الله اتكالي في ذلك كله فأحضروا لدينا لتظهروا خضوعكم وتؤدوا بيعتكم وفقكم الله وأرشدكم، حرر عن أمر ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين، بمعسكر في الثالث من رجب سنة ١٢٤٨هـ الموافق ٢٧/ ١١/ ١٨٣٢م.

ما إن تمت للأمير البيعة حتى قصد منزله وقال لأم أولاده: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأني

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٠.

قد تحملت ما يشغلني عنك. وبطبيعة الحال عبرت له زوجته عن استمرارها في العيش معه وأن تتقاسم معه أعباء المسؤولية١.

٤. تجربة جديدة في الحكم:

جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة في الحكم، جديدة على العصر الذي عاش فيه وليست جديدة في التاريخ، عندما رشحه والده للولاية عام ١٨٣٢م كان أمامه نماذج من الحكام المسلمين، سلطان آل عثمان، وشاه إيران وملك أفغانستان، ثم ولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر وإمام اليمن وقد كان يمكنه أن يقلد هؤلاء أو حتى يقلد الداي حسين المخلوع ولكن الأميررفض أن يكون نموذجه أحد هؤلاء جميعا، وأختار نموذجاً جديداً يؤصّل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي.

وإن الدارس يتبين له هذا النهج الجديد القديم في عدة سلوكيات وإعلانات من قبل الأمير، فقد اتخذ علماً مخلفاً لعلم آل عثمان، استوحاه فيما يبدو من التقاليد الشعبية وهو قطعة من القماش الأبيض تتوسطها يد مفتوحة والبياض رمز الطهارة والجدة والصفاء واليد الخماسية ترمز إلى نفي الغريب والتعوذ من الحسود والشرير والغالب على الظن أن هذه اليد كانت صفراء اللون، وعندما يرجع المرء إلى ظروف المبايعة يلاحظ أننا أمام بعث لتقاليد كاد حكام المسلمين أن ينسوه وهو الخضوع لإرادة المحكومين ودعوتهم للتعبير عن اختيارهم بمحض الحرية، وكأننا هنا أمام الظرف الذي بويع فيه الخليفة أبو بكر الصديق أو الخليفة عمر بن الخطاب فهنا أيضاً كانت المبايعة الخاصة ثم العامة ففي مدينة معسكر كانت طقوس المبايعة تذكرنا بما جرى في المدينة المنورة.

لقد شملت مراسيم البيعة على درس من القرآن الكريم والمصحف باليد، مركزه على عقاب الله الذي يحل بمن تقاعس عن الجهاد والدفاع عن عرضه وأرضه ومقدساته، وكان الأمير قد تطور في لهجته حتى بلغ درجة من الحماس حولت القعود إلى قيام يتعاهدون على

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٠.

الجهاد وذلك عندما التزم للحضور وقال لهم: أنني لن أعمل بقانون غير قانون القرآن، ولن يكون مرشدي غير تعاليم القرآن، والقرآن وحده فلو أن أخي الشقيق قد أحل دمه بمخالفة القرآن لنفذت فيه الحكم، وقد أكد على ذلك بقوله لهم: عليكم واجب الخضوع في كل الأعمال إلى نصوص كتاب الله وتعاليمه والحكم بالعدل طبقاً للسنة النبوية[1].

ولنقرأ في أول منشور للأمير إلى قومه: إن قبيلة كذا وقبيلة كذا قد وافقوا بالإجماع على تعيين وبناء عليه انتخبوني لإدارة حكومة بلادنا وقد تعهدوا أن يطيعوني في السراء والضراء وفي الرخاء والشدة، وأن يقدموا حياتهم وحياة أبنائهم وأملاكهم فداء للقضية المقدسة "الجهاد" من أجل ذلك إذن تولينا هذه المسؤولية الخطيرة على مضض شديد، آملين أن يكون ذلك وسيلة لتوحيد المسلمين ومنع الفرقة بينهم وتوفير الأمن العام إلى كل أهالي البلاد ووقف كل الأعمال غير القانونية التي يقوم بها الفوضويون ضد المسلمين، وصد وطرد العدو الذي اعتدى على بلادنا مريداً أن يغل أعناقنا بقيوده ولقبول هذه المسؤولية اشترطنا على كل أولئك الذين منحونا السلطات العليا أن عليهم دائماً واجب الخضوع، في كل أعمالهم إلى نصوص وتعاليم كتاب الله وإلى الحكم بالعدل في مختلف مناطقهم طبقاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وبالإضافة إلى ذلك كان عبد القادر هو الذي يقود المعارك الجهادية وهو الذي يؤم الناس في الصلاة وكان في مراسلاته وأوامره يستشهد بالقرآن الكريم وكان عند كل غروب . بعد العصر . يقف أمام خيمته يلقى درساً في الوعظ على قومه ولم يكن من الضروري حضور أي كان، ولكن لم يكن يتخلف أحد، إذا أمكن عن حضور هذه الخطبة الوعظية، وبذلك كان الجميع يجددون يومياً حرارة الغيرة الحربية والدينية التي كانت تتقد داخل صدورهم، فكان عبد القادر بذلك كأنه منبع رئيسي من الضوء والحرارة لقومه.

---

[1] حياة الأمير عبد القادر مقدمة أبو القاسم سعد الله، ص: ٨.

وقد كان عبد القادر هو الذي يجلس شخصياً للفصل في المظالم، وهو القاضي الأعلى في الدولة وأما الولايات فقد فوض لخلفائه "ولاته" القيام بنفس الدور الذي كان يتولاه هو، وكان الأمير لا يفصل في القضايا الخطيرة كالصلح أو الحرب إلا بعقد مجلس الشورى وعرض القضية أمامه وأخذ رأيه وتنفيذ ما يتفق عليه الحاضرون.

إن هذا النموذج الذي سلكه الأمير في الحكم كان جديداً. قديماً، كما قلنا لأنه لا أحد من حكام المسلمين عندئذ كان يسلك هذا الطريق، ويبدو أن الأمير لو طال به العمر واستمر في الحكم لاختار نظام الخلفاء الراشدين أو النظام الجمهوري ولكن بمفهوم ذلك الوقت، وما نظن أنه كان سيورث الحكم لأحد من أبنائه أو اقاربه، كما فعل الأمويون ومن جاء بعدهم من حكام المسلمين١، وقد نص على ذلك: هذا المنصب الذي اخترتموني له لن يكون متوارثاً وأرفض لقب "سلطان أو ملك"٢.

بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسئولية الحكم وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة اربا ع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة وتشكيل الكوادر الحكومية فعين الأكفاء من الرجال واعتمد الفقه الإسلامي أي التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة، نظاماً لحكمه وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

بهذه المرجعية الإسلامية المتكاملة التي أثبتت قدرتها على حلّ جميع مشكلات الحياة في جميع الأزمنة والأمكنة التي دخلها الإسلام وغمرها بسلطانه بدءاً من عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، ويهدي هذا النظام الإلهي العظيم أراد الأمير عبد القادر السير في حكمه لأنه كان يؤمن أن هذا النظام وحده يمكنه

[1] المصدر نفسه، ص: ٩.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٩.

من مواجهة المشكلات المعقدة الاجتماعية والاقتصادية والزراعية والعسكرية ومن الوقوف أمام تحديات الأعداء وتوسع المجتمعات وتطورها مع الزمن[١].

٥. مفهوم البيعة:

عرّف العلماء البيعات بتعريفات عدة منها تعريف ابن خلدون: العهد على الطاعة لولي الأمر[٢]، وعرفها بعضهم بقوله: البيعة على التعاقد على الإسلام[٣].

وعرّفت كذلك بأنها أخذ العهد والميثاق والمعاقدة على إحياء ما أحياه الكتاب والسنة وإقامة ما أقامه، وكان المسلمون إذا بايعوا الأمير جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد والولاء، فأشبه هذا الفعل البائع والمشتري فسمي هذا الفعل بيعة.

إن البيعة بمعناها الخاص هو إعطاء الولاء والسمع والطاعة للأمير مقابل الحكم بما أنزل الله تعالى، وأنها في جوهرها وأصلها عقد وميثاق بين الطرفين، الأمير من جهة وهو الطرف الأول والشعب من جهة ثانية وهو الطرف الثاني، فالأمير يبايع على الحكم بالكتاب والسنة والخضوع التام للشريعة، عقيدة وشريعة ونظام حياة والشعب يباع على الخضوع والسمع والطاعة للأمير أو الرئيس في حدود الشريعة.

فالبيعة خصيصة من خصائص نظام الحكم في الإسلام تفرد به عن غيره من النظم الأخرى في القديم والحديث، ومفهومه أن الحاكم والمحكوم كليهما مقيد بما جاء به الإسلام من الأحكام الشرعية، ولا يحق لأحدهما سواء كان الحاكم أو الشعب ممثل بأهل الحل والعقد الخروج على أحكام الشريعة، أو تشريع الأحكام التي تصادم الكتاب والسنة، أو القواعد العامة في الشريعة ويعد ذلك فعل مثل ذلك خروجاً على الإسلام،

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ص: ٣٨.

[٢] المقدمة لابن خلدون، ص: ٢٠٩.

[٣] التداول على السلطة التنفيذية للصلابي، ص: ٧٤.

بل إعلان الحرب على النظام العام للدولة، بل أبعد من هذا نجد أن القرآن الكريم ينفي عنهم صفة الإيمان١.

قال تعالى :" فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا" (النساء، آية : ٦٥).

. والبيعة عقد لا يحتمل الإكراه.

. ويحتمل الشروط المسبقة.

. ولا أمامه إلا بعد عقد البيعة.

. وأنه لا عقد بيعة إلا برضا الأمة واختيارها.

. ولا رضا بلا شورى بين المسلمين في أمر الإمامة وشؤون الأمة.

. وأنه لا شورى بلا حرية.

. وأنه السيادة والطاعة المطلقة لله ورسوله٢.

إن الإمارة عقد بين الأمة والحاكم يلتزم فيها الحاكم إنفاذ الشريعة والفصح للأمة ومشاورتها، وتلتزم له إن هو وفي بذلك السمع والطاعة وينتج من ذلك، أن الأمة هي مصدر كل سلطاته وأن لها عليه السيادة، كل ذلك في إطار الدستور "الشريعة"٣.

٦. وضعية البلاد عند مبايعة الأمير عبد القادر:

بينما كانت فرنسا تثبت وتدعم موقفها في الجزائر وضواحيها والمتيجة حيث نهبت المدية من طرف البارون دي روفيفو فإن هذا الأخير قد أخذ على عاتقه، مذبحة قبيلة الأوفياء بالقرب من الحراش وهذا ما أثار غضب قادة القبائل الذين عينوا بن زعموم قائداً لهم، لقد اضطر هذا الأخير إلى التراجع نهائياً حينما تبين له ضعف المتمردين أثر السحق السريع لتمردهم كان بايلك الجزائر واقعاً تحت السلطة الفعلية للمحتل الذي كان يثبت

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٧٦.

[٢] الحرية أو الطوفان د. حاكم المطيري، ص: ٢١ . ٤٥.

[٣] الحريات العامة راشد الغنوشي (١ / ٢٦٢).

وجوده في البليدة التي كان ينوي انطلاقاً منها وصنع حد لهجومات قبيلة حجوط، وبفضل مد الطرق التي تربط بين المراكز المتعددة في المنطقة والتي كانت تحت تصرف "المكاتب العربية" المكونة حديثاً، كان الفرنسيون هكذا يظنون أنهم سيتمكنون من بسط الغزو على كافة أرجاء البلاد، وقد قام المحتل أيضاً بإدماج قوات السبايسية كأعوان يرافقون الجنود في مهماتهم، كذلك ظهرت بعد ذلك فرقة القناصة تولي قيادها ابتداء من ١٨٣١م قاطع طريق حقيقي ذي أصول مشكوك في أمرها قدم للاحتلال خدمات عظيمة، غير أن ثمنها تمثل في العديد من أعمال النهب والتقتيل خاصة في منطقة القبائل وعنابة، وقد عرف باسم يوسف وقد حمل شارع كبير في أعالي الجزائر اسمه هذا طوال الفترة الاستعمارية وكان لفرنسا نية مبيتة ثابتة في غزو كامل البلاد على الرغم من الصعوبات التي اعترضته في التيتري وفي الشرق من طرف أحمد باي، وكذلك الاختلاف في وجهات النظر بين حكامه والتي ترجع أساساً إلى اعتبارات خاصة بالسياسة الداخلية. غير أن ما واجهه من عداء من طرف السكان اضطر فرنسا إلى التصرف بمرونة والبحث عن وسطاء من بين القادة المؤثرين ولو اضطره ذلك إلى اخضاعهم بعد تقوية نفوذه عليهم، باستعمال الرشوة والخديعة والقوة، هكذا كانت خطة الغزو على مراحلوالتي يبينها وزير الحرب "سولت" في التعليمات التي أخطاها إلى جنرالاً في الميدان . الجزائر حيث يأمرهم بتقديم بطيء انطلاقاً من القواعد العسكرية في الساحل بقية السعي وراء استبطال بحظوظ وافرة في تحقيق نجاح دائم وثابت، وذلك عن طريق مؤسسات زراعية يقوم الأوروبيون بانجازها.

وهكذا فالوضعية كانت مقلقة للغاية ذلك أن الفرنسيين وهم يحتلون كل الساحل من وهران إلى عنابة كانوا قد بدأوا . بكل جراءة . في سياسة للتوطين في المناطق المحتلة كما شرعوا بتصلب في صنم القبائل إلى صفوفهم أو تحييدها وشلها إذا ما تعذر ذلك.

بهذا فإن المهمة المناطة بالأمير الشاب كانت من الصعوبة بمكان بالرغم من الحماسة التي تلت بيعته، فكان عليه أن يحسب حساب قادة القبائل الذين أبدوا له عداءهم كما كان عليه أيضاً أن يتحكم في اندفاع مناصريه لأجل هذا تقيد بتكوين جيش نظامي وكانت مدينة معسكر التي جعل منها عاصمته المؤقتة مكان التحضير لتدريب جيشه وبهذا فإن هذه العاصمة القديمة لبايلك الغرب اخذت مكانة كبيرة في دولة الأمير عبد القادر.

لقد ترك انهيار الإدارة التركية خلافة هذه الأخيرة إلى قادة قبائل المخزن الذين لم يكتفوا برفض الاستجابة إلى نداء الأمير الشاب الذي لم يكن ينتمي إلى طبقتهم الاجتماعية وإنما تقربوا إلى المحتل الفرنسي ليحافظوا على امتيازاتهم.

والأمير عبد القادر الذي لم يكن يجهل شيئاً عن مساوماتهم كان ينتظر الوقت المناسب لينتهي من أمرهم وكان مكتفياً في هذا الوقت باثبات مكانته عند القبائل الموالية له، كمدافع عن القضية الوطنية مكلف بمهمة طرد المحتلين الفرنسيين من الأراضي المغتصبة، فكان ينظم حكمه طبقاً لهذا المفهوم١.

ثالثاً: بناء الدولة

١. تأسيس الجيش النظامي:

بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى انشاء جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، واهتم بتدريبه على احدث الفنون العسكرية، وزوده بالاسلحة المتقدمة وقبل أن يباشر بتحقيق هذه الفكرة عقد مجلساً عاماً من رجال الدولة وأعيانها وأخذ موافقتهم على هذا الاجراء، ثم عمم بلاغاً على الأهالي جاء فيه: ليُبلغ الشاهد الغائب أنه صدر أمر مولانا ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين بتجنيد

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٦٢ ، ٦٣.

الأجناد وتنظيم العساكر في البلاد كافة فمن أراد أن يدخل تحت اللواء المحمدي ويشمله هذا النظام فليسارع إلى دار الإمارة في مدينة معسكر لتسجيل اسمه في الدفاتر الأميرية[1].

تلقى الشعب الجزائري هذا البلاغ بارتياح كبير، وسارع الشباب وتسابقوا للالتحاق بالجيش النظامي الفتي، حتى بلغ عداد أفراده عام ١٨٣٩م ثلاثة وستين ألف مقاتل وقد قسم هذا الجيش إلى ثلاثة فرق:

أولاً: فرقة المشاة ولىّ على قيادتها من مشاهير الأبطال قدور بن بحر.

ثانياً: فرقة من الخيّالة ولىّ على قيادتها عبد القادر بن عز الدين.

ثالثاً: فرقة من المدفعية ولىّ على قيادتها محمد السنوسي ولقد اختار الأمير جميع رؤساء الجند من ذوي الشجاعة والبأس والذكاء من الذين يتحلون بالإيمان والصبر وانتقامهم من أشراف البيوتات وزعماء القبائل مثل محمد القوشامة وسالم الزنجي وأحمد القدور وغيرهم.

ثم وضع قوانين في كتاب سماه "وشاح الكتائب" ضم أربعة وعشرين قانوناً لها أصول ولها فروع وقد وضعت جميعاً لمصلحة هذا الجيش المحمدي، ولسلامة تكوينه العسكري ولضمان قدرته على القتال وتحمل المكاره وللتدريب على الجهاد والصبر، وتمكن الأمير عبد القادر من الصمود بهذا الجيش الناشيء في وجه أكبر امبراطوريات العالم الاستعماري القديم، وعلى الرغم من إمكانات فرنسا الضخمة تمكن الأمير من محاربتها سبعة عشر عاماً استولى خلالها على أكثر من ثلثي مساحة الجزائر حالياً، وانتصر عليها في الكثير من المعارك الطاحنة التي بقي ذكرها يتردد حتى الآن على ألسنة الفرنسيين قبل الجزائريين لما وجدوه من معاملة شريفة لبطل مسلم عظيم، حتى غزت أخباره بيوتهم في فرنسا نفسها، لأن الأمير عبد القادر جسّد جميل المروءات ومحاسن الفضائل في معاملة الأسرى والجرحى من جيش أعدائه[2].

---

[1] فارس الجزائر العماد مصطفى طلاس، ص: ١٣٩.

[2] الأمير عبد القادر بديعة الحسني، ص: ٤٨.

وشكَّل الأمير عبد القادر بجانب الجيش الرسمي قوى غير نظامية تعمل على حماية مناطقها، غير أنها كانت تستطيع عند الضرورة أن تنخرط في الجيش النظامي، وذلك فقط لتلبية نداء الأمير أو خلفائه في الولايات وهذه القوى غير النظامية كانت تتكون غالباً من المتطوعين وكان عليها أن تتجهز على حسابها الخاص وكان عددها بالألوف تزيد وتنقص.

وفيما يخص تسليح جيشه النظامي يعطي الأمير نفسه التوضيحات التالية:

كل جنودي النظاميين كانوا مسلحين ببنادق فرنسية أو إنجليزية تحصلت عليها خلال معاركنا وعند الفارين من الجيش أو بشرائها في المغرب.. وكان الكبريت يأتي من فرنسا أما ملح البارود فكنت أجده في كل مكان خلال زمن السلم وكانت المدن الساحلية الفرنسية تزودني بالرصاص وقد أعطاني المغرب منه كمية معتبرة، كما أنني تمكنت من استغلال منجم للرصاص في الونشريس[1].

وقد كان الأمير يسهر شخصياً على كيفية استعمال الذخائر ويعطي أوامر صارمة لخلفائه كي يشحوا في عملية صرفها[2].

أ. هيكلة الجيش النظامي:

كانت المشاة مقسمة إلى كتائب تضم كل منها ١٠٠٠ رجل يقودهم آغا، وكانت هذه مقسمة إلى سرايا من ١٠٠ جندي يقودها قايد، وكان يقود كل نصفيها سياف وكل عشرين رجل كان يقودهم ضابط صف، وكل عشرة يقودهم عريف يسمى جاويش.

كان على قادة كل هذه التشكيلات أن يتفقدها الآغا يوم السبت، والسياف يوم الخميس والسبت اما الجاويش فكان عليه أن يتفقد رجاله كل يوم صباحاً ومساء.

وقد كان الانضباط جد صارم، وكان يراعى تطبيقه بمنتهى الدقة، وكانت مواده مجموعة في شكل قانون عام أقامه وكتبه الأمير نفسه.

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٨٦.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٨٧.

كما كان سلم الرتب محترماً بمعنى الكلمة وكانت كل مخالفة يعاقب عليها عقاباً شديداً، وكان على الجندي أن يحافظ على نظافة سترته التي كان مسؤولاً عنها، وكذا كانت الحال بالنسبة للسلاح الذي في حوزته، كانت العقوبات على الإخلال بهذه القوانين تتراوح ما بين السجن إلى الحكم بالإعدام. وهذا الأخير كان يقام في حالة الخيانة أو الفرار في زمن الحرب. ومروراً بنزع الرتب والعقوبات الجسدية.

كان للجندي الحق في راتب، وكان الخيالة يتلقون ضعفه وكان يتلقى غذاءه عيناً ووفيراً في زمن السلم، ولكنه كان يخفض في زمن الحرب إلى بعض الكعك أو الروينة المصنوعة من طحين القمح المقلي، وكان على كل شارة علامة مكتوبة.

- الآغا كان يحمل: الصبر مفتاح النصر.

- وبالنسبة للسياف: لا أضر من المخالفة وعدم الطاعة.

- أما لرئيس المدفعية فكانت: وما رميت إذ رميت ولكنَّ الله رمى.

وكان اللباس العسكري يختلف بحسب الرتب، فكان من الجوخ بالنسبة للضباط ومن الكتاب بالنسبة للجنود، أما الأسلحة فكانت تشتمل على المدفع والهاون "مهراز" والبندقية "مكحلة" والسيف والحربة.

وكانت الألبسة والأسلحة والذخائر كلها تضع في ورشات الدولة بتاكدمت، معسكر، تازة، بوغار، مليانة..الخ، أو كانت تستورد من أوروبا عن طريق المغرب.

وكان موظفون سامون يدبرون هذه الورشات وكان المعلمون خاصة من الأجانب يدرّسون المهنة العسكرية للشباب المجندين وكانت هناك مكافآت مخصصة للذين يلمعون، كما كانت تدفع معاشات للمصابين ولعائلات الذين قتلوا في المعارك، كما كان هناك وسام لمكافآت الأعمال البطولية ويتشكل من صفيحة معدنية ينقش ٣ أو ٥ أو ٧ ريشات حسب أهميتها ولهذا كانت تسمى "ريشة"، كانت الشمسية الرمز المميز للسيادة، وهي التمييز الوحيد الذي حظي به الأمير نفسه وكان يحملها فارس عندما يكون الأمير راكباً

أو أحد من المشاة عندما يكون مترجلاً، وكان في الحالتين محاطاً بالحامية السوداء. وكان العلم يحتوي على لونين الأخضر والأبيض وكان هذا اللون الأخير يشكل دائرة طرزت في وسطها يد مفتوحة، وقد استوحي منه العلم الجزائري الحالي والفرق الوحيد يأتي في استبدال اليد بهلال أحمر ما بين اللونين الأبيض والأخضر اللذين بقيا.

ولكي تثبت روح التضحية والانضباط في هذا الجيش فقد كان قانونه العام يقرأ لكل الوحدات مرتين وأحياناً ثلاث مرات في الشهر، كما كانت الشعارات التي يتضمنها تخاط على أكمام الجنود والضباط على حد سواء نذكر من بينها: لا أنفع من التقوى والشجاعة على الكتف اليمنى للآغا وعلى اليسرى: لا أضر من المخالفة وعدم الانضباط.

وكان الأمير عبد القادر نموذجاً ومثالاً للخصائل الأخلاقية الرفيعة والقتالية المحترفة فقد أثار في نفوس جنوده وضباطه ومواطنيه صوراً رائعة للتفاني والإخلاص في خدمة القيم والمبادئ والحرص على تحرير الوطن من المحتلين الغزاة، ويقر كل كتاب سيرته بما فيهم الفرنسيون أنه كان نزيهاً، وأنه كان يملك أقصى درجات الشعور بمكانة وقيمة الأموال العامة، وأنه لم يعرف سوى خدمة القضية التي كان يعلم أنها عادلة ضارباً بذلك أسمى مثال للتفاني والشجاعة الخارقة وكل ميزاته كانت مدونة في القانون العام لكي يتخذ منه مثالاً يحتذى وعلى هذا المنوال فقد كان يذكر خصوصاً أنه لم يسحب أبداً من الأموال للانفاق على شؤونه الخاصة وأنه كان دائماً يرجع إلى الخزينة العامة كل الهدايا التي كانت تقدم له لأنه كان خادماً وفياً للدولة وليس لمصالحه الخاصة[1].

ب ـ إستراتيجية الأمير والدفاع عن الأقاليم:

اهتم الأمير عبد القادر بإنشاء خط دفاعي كبير بين التل والصحراء، وقد أقامه في وسط العديد من الصعوبات لأنه كان مقيداً بالمدة الزمنية، ولم تكن هذه المناطق المحصنة

[1] المصدر نفسه، ص: ٨٨ ، ٨٩.

مخصصة للصمود أكبر وقت ممكن أمام الهجومات الفرنسية بل كانت بالخصوص لأجل تمتين سلطته بالقبائل المنضمة إليه.

لقد شيد من الغرب إلى الشرق سبدو لحماية تلمسان، تاكدمت للدفاع عن معسكر تازة للتحكم في منطقة الجزائر العاصمة وبوغار على الحد بين التنقل والصحراء وبسكرة في جنوب قسنطينة، غير أنه قد ركز أكبر قدر من جهوده على تاكدمت لأنها كانت قريبة من تيهرت العاصمة القديمة للرستميين، وكان يعلق على تاكدمت آمالاً عريضة كشف عنها في حديث أجراه مع سجين فرنسي: مازال عندي الأمل في أن أعيد تاكدمت إلى مجدها القديم هنا سأجمع القبائل، فنحن في مأمن من هجومات الفرنسيين ومن هذه الصخرة المرتفعة سأنقض كما ينقض الصقر من على عشه فوق المسيحيين فأطردهم من الجزائر ومن عنابة ووهران[1].

وكان الأمير قد عمل على أن يجعل من تاكدمت مركزاً للثقافة وأن يبني لها جامعة، غير أنه لم يسعفه الوقت لذلك، كانت تاكدمت تبعد عن حاميات العدو الذي لا يستطيع بلوغها إلا بعد قطع التل والهضاب العليا، وهذا الموقع كان يعطي الأمير ميزة لمعرفة تحركات العدو في وقتها وتدارك خطر أي هجوم.

زيادة على ذلك فإن موقعها بين التل والصحراء جعل من السهل على البدو أن يقصدوها لشراء بضائع التل مقابل ماشيتهم وهو ما كان يسمح للأمير بمراقبتهم عن قرب لأنهم يكوّنون مورداً مهماً للزكاة، وقوة لا يستهان بها في الحرب. وبفضل عزلتها فقد كانت أحسن من أية مدينة أخرى لتشكيل المركز الضروري للصناعة الحربية وهنا كذلك أنشأ بيت العملة الوطنية[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٩٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ٩٠ ، ٩١.

ج. الإستراتيجية العسكرية:

أما عن الإستراتيجية العسكرية للأمير فهي تتلخص في كلمة واحدة وهي الحركية، فقد تميز في قدرته على استعمالها عملياً حتى خصومه وفي مقدمتهم "بيجو" يشهد بعبقريته العسكرية، فقد كانت خططه العسكرية تتغير حسب الظروف، فكانت غالباً على شكل اشتباكات بكميات صغيرة، وفي بعض المرات كانت على صورة حرب مواقع غير أن طبيعة النضال الذي كان يقوده الأمير فرضت عليه حرب العصابات التي كان يجيدها إجادة خارقة للعادة، فكانت تفاجئ وتربك الخصم، وهي التي جعلت الأمير أشهر وألمع رواد هذا النوع من الحرب.

وإذا كانت حرب العصابات تأتي دائماً بثمارها المتمثلة في تكبيد العدو خسائر ثقيلة، فإن رد فعل هذا الأخير ضد القبيلة المشتبهة في تبليغها المعلومات يكون وحشياً ولا يعرف الرحمة. ولهذا فإن الأمير لم يكن يستعملها إلا بأقصى قدر من الحيطة، وأكبر الحظوظ في النجاح، وكانت معرفة الأمير الجيدة للميدان تمنحه هو وجيشه تفوقاً ملحوظاً على القوات الفرنسية، فكانت تسمح له بفضل حركيته ومصالح استخباراته باستدراج العدو إلى الأماكن الأكثر ملاءمة، وقد كان الجيش الفرنسي على العكس من ذلك يبحث عن حرب المواقع، ويرغم الأمير على الاشتباك في المعارك، فكان في هذه الحالة يصاب بخسائر إلا أنه كان أيضاً يكبد العدو مثلها وكان دائماً يتمكن من التحرز في ظروف حسنة.

وبالمقابل فإنه كان يحدث للأمير أحياناً عندما يرى الظروف مواتية أن يتسبب في نشوب معارك كانت تنتهي بخسائر كبيرة في صفوف العدو[1].

وقد تحدث بعض الباحثين عن الفن العسكري لدى الأمير عبد القادر، منهم ضابط قديم في الجيش اللبناني وهو السيد أديب حرب وعنوانه "الحياة العسكرية للأمير عبد القادر"

---

[1] المصدر السابق، ص: ٩١.

وهو موضوع أطروحته لنيل شهادة الدكتوراة من جامعة القديس يوسف ويوضح المؤلف في كتابه العبقرية العسكرية للأمير على ضوء التقنيات العصرية التي كان الأمير قد طبق بعضها، بل وأثراها حسب المؤلف الذي يرجع إلى المعارك الكبرى التي قادها الأمير خلال كفاحه من أجل استقلال بلاده[1].

٢. الحكومة المركزية:

كان الأمير يرى أن تنظيم الجبهة الداخلية وتوطيدها هما الأساس الأول الذي ينبغي أن تقوم عليه حرب التحرير وكان هدفه قبول التفاوض والتساهل مع العدو وكسب الوقت لاستكمال أسباب هذا التنظيم وكان الأمير دائم الحرص على إبعاد الطابع الفردي عن سلطته بإشراك ممثلين عن العلماء والأشراف ورؤساء القبائل يقل عددهم أو يكثر حسب أهمية المسائل أو القرارات وكان الأمير يدرك مدى عمق الروح الاستقلالية لدى القبائل وزعماء الطرق الصوفية ومدى تأثير ذلك على عملية التوحيد مما يجعلها أكثر صعوبة، كما كان يدرك مدى كره هؤلاء للغزاة وبربطه بين التوحيد والمقاومة وكان يأمل أن يساعده كره الأجنبي على تذليل صعوبات التوحيد ولكن الأمر لم يكن سهلاً[2]، وقد حرص الأمير على أن تكون حكومته من ذوي الخبرات الذين اشتهروا بالكفاءة والقدرة والخبرة والعلم والفضل والتقوى، وكان الأمير يطلب منهم القسم على التقيد بالعدل وخدمة الوطن والإخلاص، وكان هناك منادي في الأسواق يطلب من كل من له حاجة أو شكوى على خليفة أو قائد أو زعيم فليرفعها إلى ديوان الأمير من غير واسطة وكان الأمير ينصف الجميع، ومن لا يرفع ظلامته إليه فلا يلومنّ إلا نفسه[3].

وقد أسس الأمير الديوان الذي كان مقره في معسكر أو المدية أو ينقل إبان الظروف العدوانية إلى تلك الأماكن التي يرتئي أنها الأكثر ملاءمة لظروف الحرب، وكان مطبوعاً

---

[1] المصدر السابق، ص: ٩٢.

[2] فارس الجزائر، ص: ٢٣٣.

[3] فكر الأمير عبد القادر، بديعة الحسني، ص: ٥٥.

بمركزية شديدة في القرار بالرغم من اللامركزية الإدارية الواسعة وكان على رأس الحكومة وزير أول بمساعدة ثلاث كتّاب، كاتبان للدولة إحداهما للحبوس نصب عليها الحاج طاهر أبو زيد، والأخرى للشؤون الخارجية، عهد بمهامها إلى الرجل المشهور ميلود بن عراش وكانت هناك خزينتان احداهما عامة والأخرى خاصة، وأخيراً مجلس استشاري أو مجلس الشورى يتكون من أحد عشر عضواً ويترأسه قاضي القضاة الذي كان على علم بكل شؤون الدولة[1].

لقد شرع الأمير عبد القادر في تكوين جيش وطني وفي إنشاء المؤسسات، وفي وضع قوانين جديدة مستمدة من الشريعة الإسلامية وصك عملة باسمه واستطاع تأسيس دولة ذات طابع جزائري خاص على قاعدة شعبية وحدد الأهداف التي يرمي إلى تحقيقها من خلال تنظيم المقاومة الجزائرية والتي من أهمها:

. نشر الأمن وتأديب الخونة العصاة.

. توحيد القبائل حول مبدأ الجهاد.

. مقاومة الفرنسيين بكل الوسائل.

. دفع الفرنسيين إلى الاعتراف بالجزائر كدولة وبعبد القادر أميراً للبلاد[2].

٣. تقسيم البلاد إلى ثماني ولايات:

قام التنظيم الإداري لدولة عبد القادر على أسس فدرالية يتمثل في وجود ٨ مقاطعات إدارية يرأس كل مقاطعة خليفة للأمير، ويتواجد هؤلاء الخلفاء في:

. تلمسان، محمد البو حميدي الولهاصي.

. معسكر، محمد بن فريحة المهاجي، ثم مصطفى بن أحمد التهامي.

. مليانة، محيي الدين بن علال القليعي ثم محمد بن علال.

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٤.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١٠.

ـ التيطري، مصطفى بن محيي الدين ثم محمد البركاني.
ـ مجانة، محمد بن عبد السلام المقراني، ثم محمد الخروبي.
ـ بسكرة، فرحات بن سعيد ثم الحسين بن عزوز.
ـ برج حمزة، أحمد بن سالم الدبنيسي.
ـ المنطقة الغربية من الصحراء، قدور بن عبد الباقي.

وبعد استيلائه على إقليم التيطري والسيطرة عليه وسط الترحيب العام قسمه إلى أربع مناطق أتبعها بمدينة المدية، وولى عليها أخاه السيد الشريف مصطفى بن محي الدين، ثم أنشأ ديوان الإنشاء والتعمير وولى عليه السيد الحاج مصطفى بن أحمد التهامي وقسم الولايات إلى دوائر، ووضع على كل دائرة رئيساً، وهذه الدوائر عبارة عن قبائل تتشكل كل منها من بطون وعشائر، فجعل لكل قبيلة قائداً وعلى كل بطن أو عشيرة شيخاً يرأسها فكانت الأوامر تصدر إلى كل هذه المراتب عن طريق التسلسل وكان المشايخ يرفعون القضايا المهمة إلى القيادة العليا، وهذه بدورها ترفعها تسلسلاً حتى تصل إلى ديوان الأمير.

ونجح الأمير في ربط البلاد بإدارة شرعية تتمتع بالكفاءة والنزاهة والاستقامة فأبعد أكثر الرؤساء الذين اشتهروا بالبطش إبان الحكم العثماني واختار معاونية من ذوي الأخلاق الحميدة، وأخذ يعتمد على كل من يتمتع بالعلم والشرف والفضيلة ولم يولّ أحداً محاباة ولا سلمهم زمام الأمور إلا بعد أداء القسم المقدس.

وكان يتم تعيين العاملين في الدولة وفق مراسيم خاصة تُحرر بقلم كاتب الديوان الخاص، ويوضع عليها خاتم الدولة وهو خاتم كبير نقش عليه في الوسط هذا البيت:

من تكن برسول الله نصرته
إن تلقه الأسد في أكامها نجمُ

ونقش على الجوانب: الله، محمد، أبو بكر، عمر، عثمان، علي، وفي دائرة صغيرة داخل الخاتم نقش "ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين" والتاريخ الهجري ١٢٤٨هـ لم يعتمد الأمير على تقاليد في الحكم نقلاً عمّن سبقه، بل أقام حكومة ذات طابع جزائري جديد وتمكن من وضع تنظيمات إدارية وقضائية وعسكرية واقتصادية لدولته الفتية، وعلى الرغم من أن القبائل التي تتكون منها دولته كانت تتنافس فيما بينها إلا أنه كون منها ما يشبه "فيدرالية ذات ثماني ولايات" يحكمها قانون موحد وتخضع لنظام واحد ولسيادة واحدة وقد وضع نظاماً عملياً يتلاءم مع حقائق القرن التاسع عشر وظروفه التي تقضي بإيجاد دولة حديثة وأهم المبادئ التي تسلحت بها دولة الأمير العدل والمساواة وحقوق الإنسان واحترام الكرامة الإنسانية وسيادة القانون، واحترام النظام وحب الجهاد وكراهية المستعمر وقد استمدت مفاهيم هذه القيم من الإسلام.

واهتم الأمير بمفهوم دولة المواطنة وتسلحت دولته بمبدأ المساواة حتى بينه وبين مواطنيه أو بين المواطنين والحكام، وكان للقضاة وحدهم حق إصدار الأحكام، والسكان جميعاً لهم الحق في التقاضي وطبقت المساواة حتى بين أفراد القبيلة ورئيسها ونجح الأمير في جعل الشعب يتجاوز الشعور بالوحدة القبلية إلى الشعور بالوحدة الوطنية[1].

لقد استطاع الأمير عبد القادر أن يثير الجزائريين بخطابه الوطني الذي ترددت فيه عبارات: بلادكم، أرضكم، دينكم، نساؤكم، وحذر من هذا العدو الفرنسي الذي يريد أن يغل الأعناق وأن يعتدي على الشرف وتوجه إلى كل القبائل وكل الزوايا وكل الجهات وتجاوز خطابه بني فلان وبني فلان إلى الشعب إلى المواطنين حيثما كانوا ومهما كان انتماؤهم القبلي أو الصوفي أو الجهوي وربما لم تعرف الجزائر قائداً من أبنائها استعمل هذا الخطاب من قبل، فقد كان تحرك الأمير عبد القادر كرجل دولة وطنية لا كرجل طريقة أو

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر، ص: ٤١.

قبيلة أو جهة، لقد بذل جهوداً عظيمة في جمع كلمة الجزائريين لمواجهة العدو المشترك من خلال ادارة منظمة وحكومة رشيدة، وجيش مجهز وتعبئة عامة لكل مواطنيه وكان يهتم بالمواطن المعطي الفاعل في بناء الدولة والتصدي للغزاة وكان يقول لا تسألوا عن أصل الرجل بل اسألوا عن حياته وأعماله وشجاعته ومؤهلاته وستعرفون من هو، فإذا كانت مياه النهر طاهرة مقبولة فلأنها جاءت من نبع صاف[١].

لقد امتدت سلطة الأمير عبد القادر منذ ١٨٣٨م لتشمل الأغلبية العظمى من البلاد، وإذا كان الفرنسيون مازالوا يحتلون جزءاً من التراب الوطني، فإن العمل الذي أنجزه الأمير في بضع سنين قد كان عظيماً ويبدو وشيكاً على بلوغ غايته، لم يصبح الأمير السيد بلا منازع ولا شريك على الجزء الأكبر والأوفر ثروة وسكناً في البلاد فحسب، لكن القبائل التي كانت مشتتة متنافرة سابقاً قد أصبحت الآن موحدة تحت ظل لواء واحد، وسلطة قوية ومركزية لم يسبق لها مثيل تضمن أمن الأشخاص والممتلكات في كل مكان، بفضل قضاء فعال ومنصف بالنسبة للجميع وفي وجود جيش عصري يضمن حماية التراب ومستعد لمواجهة كافة الاحتمالات وقد توجت كل الجهود الرامية إلى عصرنة البلاد وتوحيد الشعب الذي خرج من الفوضى التي تركته فيها القرون العقود الماضية وكللت بنجاح بفضل عبقرية الأمير، وتفانيه في خدمة المصلحة العامة، هو ومن معه من الرجال الذين أحسن اختيارهم صحيح أن العمل لم يكن قد اكتمل لكن قوامه وأساسه كان قد أنجز[٢]، وقد كانت تلك الجهود المباركة نواة قوية للدولة الجزائرية الحديثة.

٤. معايير تعيين موظفي الدولة ومناصبهم:

كان يتم اختيار موظفي الدولة من أبناء الشعب الجزائري وزعماء القبائل، والأعيان، والعلماء، وأصحاب المكانة المرموقة من ذوي الكفاءات والقدرات والملكات الإدارية والقيادية، كان كل موظف في الدولة ابتداءً من أسمى موظف وهو الخليفة إلى أبسط

[١] فارس الجزائر، ص: ٢٣٦.

[٢] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١١١.

الشيوخ، يملك في نطاقه كامل السلطة الإدارية والعسكرية والمالية على قمة السلم كان الخليفة بتفويض من الأمير الذي كان يمثله ويملك السلطة المطلقة في ولايته التي يقود جيشها في وقت الحرب ويتحكم في آغاتها وقيادتها وشيوخها، وكان يحكم في القضايا التي تتعلق بالدولة وقضايا الاستئناف ضد أحكام وقرارات الآغات، وقد كانت تتجمع عنده الضرائب التي يرفعها الآغات والقيادة والشيوخ ومدة خدمته غير محددة لأنه كان يختار لكفاءته وإخلاصه وقد تبين أنهم جميعاً أهل لثقة الأمير، فلم يخن أي منهم هذه الثقة على الرغم من محاولات العدو رشوتهم.

من الجهة الأخرى نجد أن انتداب الآغا كان قابلاً للفسخ، لكنه قابل للتجديد، وتدوم مدته النظرية سنتين، وكان الآغا مسؤولاً عن الأمن في نطاق اختصاصه كما كان يجند المحاربين، ويرفع محصلة الضرائب التي كان يجمعها القادة والشيوخ في منطقته وكان هو القاضي في المسائل الخارجة عن نطاق الشريعة بشرط الامتثال للاستئناف في قراراته أمام الخليفة، وأخيراً فقد كان يراقب قرار القيادة في حدود مسؤوليته، كانت مدة انتداب القائد تقدر سنة مع قابليتها هي الأخرى للتجديد وقد كان يمارس مهامه في نطاق قبيلته، وعلاوة على دوره كمقسط للضريبة المقدرة على منطقته الذي يساعده على القيام به الشيوخ، فقد كان القائد يمارس سلطة دركية وفي زمن الحرب كان يقود كتيبة تشكل بالخصوص من الجنود غير النظاميين١.

أخيراً في القادة يوجد الشيخ وهو على العكس من رؤسائه يجب أن يكون منحدراً من نفس القبيلة ومن نفس الجزء المنوط به قيادته، وهو يستمد سلطته من ثقة مواطنيه فيه، ومن هنا تأتي أهميته الاجتماعية بالرغم من تواضع مهمته.

ويجمع هو الآخر في نطاقه الخاص وظائف الشرطة ومحصل الضرائب وضابط الحالة المدينة، غير أنه كان مسؤولاً بوجه خاص على الأمن العام في قبيلته وهي مهمة صعبة

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٦.

ومرهقة لأنه لم يكن يملك الحق في إصدار العقوبات على الجانحين فهذا امتياز خاص بالآغا.

كان الأمير يختار القيادة من الأشياخ الأكثر أهلية واستحقاقاً ولأجل تفادي الرشوة كان الموظفون يعينون من الطبقة الميسورة بالإضافة إلى معاشاتهم فإنهم كانوا يتقاضون حصة من الضرائب والمخالفات "الخطايا" التي كانوا يجبونها[1].

٥. السلطة القضائية:

كانت السلطة القضائية في دولة الأمير عبد القادر منفصلة عن السلطة التنفيذية بقدر ما كان من يمارسها منفذاً للقانون وليس ممثلاً للأمير مع أن هذا الأخير هو الذي يعينه وقد كانت صلاحيته واسعة: نظام الأحوال الشخصية والميراثية، والشؤون العقارية، وكان أيضاً يصادق على العقود المحررة من طرف الكاتب الشرعي أو الموثق الذي كان يزاول وظائفه في مقر القضاء، كما كانت صلاحية القاضي تمتد حتى إلى القضايا الجنائية.

كان القاضي بطبيعة منصبه شخصية مهمة وكان يتم اختياره لثقافته وخصاله الفاضلة وكان يُعيّن إما من بين العلماء المشهورين، أو عند تعذر ذلك فبامتحان ولم تكن تخرج عن دائرة اختصاصه إلا القضايا المتعلقة بالأمن العام التي كانت من اختصاص الخليفة أو الآغا، وكان القاضي كغيره من الموظفين يقبض راتباً محترماً وكان فوق ذلك يتبع الأرتال في تحركاتها وهو مرفوق باثنين من المعاونين أحدهما مكلفاً بتنفيذ الحكم.

وكان الأمير: لا يسمح إلا بالأحكام المطابقة لشريعة الله التي ما كان يعتبر نفسه إلا منفذاً لها[2].

فالمرجعية الدستورية العليا في دولة الأمير عبد القادر: القرآن الكريم والسنة النبوية والاسترشاد باجتهاد العلماء والفقهاء المجتهدين، وللمذهب المالكي مكانة متميزة في دول الشمال الأفريقي وإن كانت أمور الدول لا تعتمد عليه فقط، وإنما تحتاج إلى الانفتاح

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٧.

[2] المصدر نفسه.

على المذاهب السنية الأخرى واجتهادات فقهاء كل عصر الذين فهموا النصوص وأدركوا حكمتها وغاياتها ولديهم من الملكات الفقهية والتربية الإيمانية الربانية التي تجعلهم يتحرون المصلحة العامة في المواضيع الطارئة التي لا يوجد فيها نصّ ملزم صريح مع قدرة فائقة في حساب تطور الأزمان.

ومن أشهر قضاة دولة الأمير عبد القادر: العلّامة قاضي القضاة أحمد بن الهاشمي المراحي، والسيد عبد بن المصطفى المشرفي.

وكان الأمير عبد القادر حازماً في منع شرب الخمر ولعب الميسر وبصورة خاصة بين صفوف المقاتلين، كما حظر التدخين لكونه إسرافاً، ونهى الرجال عن إستعمال الذهب والفضة إلا في الأسلحة.

كان عبد القادر حريصاً على رفع الظلم وإقامة العدل وتقوية المؤسسة القضائية ويرى أن ذلك من أسباب قوة الشعب وصلابة الدول وعوامل النصر على الغزاة الفرنسيين، لقد واجه الاستعمار الفرنسي زعيم فذ، وشعب يتكون ودولة تبنى على أسس راسخة بزعامته.

٦. مجلس الشورى:

اتخذ الأمير في كل مقاطعة داراً للشورى لبحث الأمور الهامة في الدولة وجعل انتخاب أعضاء هذه المجالس "مجالس الشورى" من قبل النّواب الذين كانوا يُدعون بالخلفاء وربط هذه المجالس بالمجلس الأعلى للبلاد المؤلف من أحد عشر عالماً وبمجالس الإستئناف، وأما العلماء الأحد عشر فمنهم السادة: أحمد المحفوظي، أحمد بن طاهر بن الشيخ المشرفي، ومحمد بن مختار الورغي، ومختار بن مكي الحاج، عبد القادر بن روكس، وإبراهيم ابن القاضي، وأحمد ابن الهاشمي، وأما نفقات هذه المجالس فكانت تصرف من بيت المال

كباقي كوادر الدولة وأما أصحاب الوظائف الدينية وما يتعلق بها فكانت رواتبهم تصرف من خزينة وزارة الأوقاف[1].

كان مجلس الشورى الأعلى في الدولة الفتية ينعقد والأمير في وسطه، وكان يتفحص الطعون في قرارات القضاة، ويشكل هذا المجلس علماء أجلاء كانوا يتمادون في التدقيق عندما تعارضهم مشاكل عويصة إلى أن يطلبوا باسم الأمير رأي العلماء المعروفين بتعمقهم في علوم الشريعة، في الغالب كانوا يستشيرون علماء جامعة القرويين بفاس، كذلك كان يستشار علماء الأزهر في بعض الأحيان، غير أنه نظراً لبعد المسافة فإن الأمير لم يكن يلجأ إليهم إلا في الحالات الإستثنائية.

والأمير لم يكن أبداً يتخذ القرار ببساطة، كان دوماً يستشير المجلس الذي يترأسه في أغلب اجتماعاته والذي كان في معظم الحالات يعكس صدى الرأي العام[2].

٧. الاقتصاد والمالية العامة:

لقد أنشأ الأمير نظاماً اقتصادياً تشرف عليه الدولة الهدف منه جعل اقتصاد البلاد في خدمة الغايات القتالية بصورة خاصة، مصلحة الفقراء والشعب بصورة عامة، فكان الجباة يخرجون مرتين في السنة بجباية الزكاة والأعشار بعد أن يقسموا على القرآن الكريم بألا يظلموا أحداً وألا يعتدوا على أحد، وأنشأ ديوان الأوقاف وأوكل أمره إلى أبي الحاج عبد الله الجيلاني بن فريحة وأوكل أمور ديوان الأوقاف إلى السيد عبد الرحمن الحاج طاهر أبي زيد كما أنشأ ديوان صناعة العملة ومعاملة الأسلحة وكل ما يتعلق بأدوات الحرب وأوكل أموره إلى السيد أبي البركات محمد الجيلاني، وأسند الأمور الداخلية إلى أبي محمد السيد الجيلاني بن الهادية، أما كتّاب الديوان فكانوا من السادة الأشراف، السيد أحمد بن أبي طالب والسيد مصطفى التهامي. وكان حاجبا الخزينة هما: السيدين محمد بن

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٥.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٩٨.

الحاج علي الريحاوي والحاج النجادي الريحاوي، وكان السيد محيي الدين بن عبد الله ناظر الإسطبلات[1].

كانت إيرادات الدولة الفتية تستعمل في نفقات الإدارة والجيش على الأغلب ويجدر التوضيح هاهنا بأن كل الرواتب والمعاشات كانت تدفع نقداً وعيناً بالسلع الغذائية على وجه الخصوص وأنها كانت تتم بانتظام.

لقد بقيت عملة الأمير متداولة حتى بعد استسلامه واستمرت كذلك إلى أن أخذت السلطة الاحتلالية سنة ١٨٤٩م إجراءات خاصة ليسحبها من التداول.

وكانت الخزينة العامة قيمة معتبرة بالنسبة لذلك العصر وتقوم بالعملة الصعبة، وقطع الذهب بما يعادل أربعة ملايين من الفرنكات الحالية وهي نتاج الصادرات إلى إسبانيا وفرنسا من الحبوب والماشية والأصواف الآتية من الضرائب، وزيادة على ذلك فكان يوجد لحاجيات الحرب كميات ضخمة من البارود والكبريت وملح البارود والمعادن وكانت الحبوب مخزنة في مطامير موزعة على كامل إقليم الدولة[2].

٨. التجارة:

كانت التجارة مزدهرة بفضل الأمن الذي كان مستتباً تماماً في كل الأقاليم الواقعة تحت سلطة الأمير وكان الأمير صارماً فيما يخص قضية أمن الطرق والأسواق وكانت العقوبات قاسية بالنسبة لمن كانوا يعترضون القوافل المحملة بالبضائع[3]، وكان سلطان فاس معجباً بجهود الأمير ونجاعتها، وذلك أن القوافل القادمة من المغرب كانت تهاجم خلال الفترة

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٤.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٠٢.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

التي قبل مجيء الأمير عبد القادر للسلطة وبيعته مما كان يجعل المبادلات التجارية بين البلدين نادرة للغاية[1].

وكان الأمير يعين محتساباً وهو ما يشبه المفتشين وكان في نفس الوقت يعمل على التحكم في أسعار ونوعية البضائع في الأسواق ويراقب الأخلاق التي كانت سليمة ومحترمة، ومنذ اتفاقية دي ميشال أصبح الفرنسيون الذين كانوا يحتلون الموانئ لا يستلمون أية بضاعة أساسية من دولة الأمير، من حبوب وماشية وأصواف إلا بترخيص منه. كان الإقليم الخاضع للأمير أكثر أمناً كما كان النظام به أكثر استتباباً، مما هو عليه في مناطق النفوذ الفرنسية وفي المغرب، وكانت الشرطة الفعّالة لدولة الأمير تهتم بالأخلاق الحميدة وتحارب الذميمة، وتحارب الكحول والتدخين والمقامرة[2]... الخ.

٩. الدبلوماسية:

إن المعاهدة الأولى المسماة "دي ميشال" الموقعة بين الحكومة الفرنسية والأمير تختص بشروط التعيين المتبادل للممثلين، مع أنه قد كان هناك جدل بين الفرنسيين والأمير حوَّل عبارة ممثل بالنسبة للطرف الأول وقنصل بالنسبة للثاني.

مهما كانت العبارة، فإن الأمر كان يتعلق بدبلوماسيين معتمدين عند كلًّا من الطرفين، ذلك أنه قد اعترف ضمنياً في هذا الاتفاق، ولو على جزء من الإقليم بالسيادة الزمنية والروحية لعبد القادر "أمير المؤمنين" كان الأمير بفضل اختيار هؤلاء الوكلاء الدبلوماسيين من بين اليهود، الذين كانوا يعتبرون أنفسهم من رعاياه مثلهم مثل غيرهم من الجزائريين، وذلك لمهارتهم الدبلوماسية وكذلك لمعرفتهم لكلتا اللغتين، وككل الدبلوماسيين فقد كان هناك ثلاثة مهمتهم تتمثل في السهر على التطبيق الدقيق للمعاهدة وتبادل أصحاب الجنح والجنايات والفارين من الجيش، وتطبيق الأحكام الصادرة في كلتا المنطقتين.

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

كانت فرنسا في هذه الفترة تحتل مدن الجزائر وهران، أرزيو، ومستغانم، وكان قناصلة الأمير حسب بن أشنهو هم على التوالي مادوخاي "مردوش" وبن دوران والحاج حبيب، ومحمد بن يخو وخالفه بن حمود.

وقد كان هناك أوروبيون يمثلون الأمير في الجزائر مثل كارافيني غير أنه قد اعتبر من قبل فرنسا شخصية غير مرغوب فيها وذلك تمهيداً لأزمة ١٨٣٩م وهذا ما زاد في حدة التوتر بين فرنسا والأمير وهو ما أدى إلى استئناف الأعمال العدوانية، على الرغم من الروابط الوثيقة التي كانت تجمع الأمير بسلطان فاس، فإنه لم يكن بين الدولتين علاقات دبلوماسية بالمعنى المعروف وإنما تبادل للوفود في فاس، ومكلف واحد بالأعمال هو الحاج بن جلون في فرنسا كان غالباً مبعوث الأمير إلى باريس هو ميلود بن عراش الذي يمكن اعتباره آنذاك كسفير معتمد لدى الحكومة الفرنسية.

وأخيراً، فإذا كانت هناك علاقات تجارية لهذه الدولة الفتية مع إسبانيا وخصوصاً مع إنجلترا، هذه الأخيرة التي كانت تحابي الأمير، وكانت في نفس الوقت تعمل على التقرب من فرنسا، فإنه لم يوجد أي تمثيل بين هذه البلدان والأمير، وعلى العكس من ذلك فإن الأمير كان منذ توليه وحتى الشهور الأخيرة من كفاحه على علم تام بما كان يجري ليس في فرنسا فقط، وإنما كذلك في الدول الأوروبية الأخرى[١].

١٠. المخابرات:

لقد كان له مصلحة أخبار حقيقية ويرجع الفضل في ذلك إلى مبعوثيه الذين كانوا مركزاً كبيراً للمبادلات، وكانت له بمثابة قاعدة للإمداد ليس لتوريد الأسلحة والذخيرة فقط، بل وكذلك لنشر وجمع الأخبار وكان يتابع ما يصدر من جرائد أوروبية ويكلف من يقوم بترجمتها، وحسب ميلود بن عراش سفيره فوق العادة في باريس، فإن الأمير كان له ابتداء

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

من ١٨٣٨م عميل يتجسس لصالحه، وهو جنرال فرنسي متقاعد يقيم في باريس حيث كان يتمتع بنفوذ كبير وكان يخبره بكل ما قد يهمه[١]، وكان هذا الجهاد المرتبط بالأمير يتابع تحركات الفرنسيين وعملاءهم داخل القطر الجزائري بحرفية عالية.

١١. الثقافة:

قبل الاحتلال الفرنسي كان التعليم ينشر عن طريق الزوايا وكان كل من العلماء والفقهاء ومثلهم الطلبة أو المدرسون هؤلاء وأولئك يجودون بعلومهم ومعارفهم كل منهم في القبيلة الخاصة به وقد كان تعليم المواطنين من بين انشغالات الأمير منذ توليته، وهذا ليس بغريب من قبل زعيم يعترف بقيمة العلم والمعرفة والثقافة.

وهكذا فقد كانت جهوده التوحيدية تتماشى بالتوازي مع إقامة نظام تربوي عام، وقد أقيمت في الأرياف مثلها مثل المدن المدارس، حيث لم يكن التلاميذ يدرسون القرآن فقط، وإنما القراءة والكتابة والحساب وكان هذا التعليم مجانياً، مثلما كان التعليم ذو المستوى الأعلى الملقن في الزوايا والمساجد، هاهو ذا ما كتبه الأمير حول هذا الموضوع: "كان أولئك الذين يبتغون قدراً أكبر من التقدم في دراستهم يرسلون مجاناً إلى الزوايا والجوامع فكانوا يجدون فيها طلبة قادرين على تكوينهم في التاريخ وعلوم الدين، كنت أخصص للطلبة راتباً منتظماً كانت قيمته تتفاوت حسب علمهم وجدارتهم، وكانت أهمية تشجيع التعليم تبدو لي من الضرورة بمكان، بحيث أنني أكثر من مرة عفيت عن حكم الإعدام على مجرم لسبب وحيد هو كونه طالباً"[٢].

كان الأمير يحرص بنفسه على صيانة الكتب والمحفوظات، وكان يعطي القبائل أوامر دقيقة من أجل صيانة الكتب، ويأمر بعقوبة صارمة في حق كل من يمسك متلبساً بإتلافها أو تمزيقها، هكذا فقد أنشئت مكتبة كبيرة لتجميع المؤلفات والمخطوطات ذات

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

القيمة، كان الكثير منها يؤخذ إثر المعارك أو يشترى أو يسلم من قبل الجنود الذين كانوا يجزون على ذلك.

لقد أتلفت هذه المكتبة ذات الأهمية البالغة من قبل القوات الفرنسية عند سقوط الزمالة في ١٨٤٣م وقد كان لهذا تأثير بالغ في نفس الأمير[١].

١٢. الصناعة:

لم يكن بحث الأمير وتخزينه للمعادن الخالصة ضرورياً فقط لصنع عملته، بل كذلك من أجل تكوين صناعة قادرة على جعله مستقلاً عن الخارج، وقد استطاع في سنة ١٨٣٩م أن يجمع بين ألفي قنطار من الحديد ومئتين من النحاس وقد تمخضت أبحاثه عن اكتشاف منجم للكبريت قام مباشرة باستغلاله، ومنجم آخر للرصاص، وقد جعل من مدنه قواعد صناعية بإنشاء مصانع ومخازن للبارود في معسكر مليانة، المدية، وتاكدمت، ومعامل للسلاح في مليانة بفضل استخراج الحديد الخام من جبل زكار المطل على المدينة، كما أنه قد أنشأ مسابك المدافع في تلمسان، ولم تكن هذه المراكز مخصصة لصنع الأسلحة فقط، كذلك كانت تصنع الملابس للعسكريين والمدنيين على حد سواء.

كان الأمير دائم الانشغال بعدم الارتباط والتبعية للخارج، ونظراً لمحدودية إمكانياته وموارده فقد كان يعوضها بالشراء من المغرب عن طريق المكلف بأعماله في فاس، ومن وهران ومن مدينة الجزائر لكميات كبيرة من الحديد والصلب وصفائح الفولاذ والأقمشة والجوخ المخصصة بالدرجة الأولى لتجهيز جيشه، لقد كانت جبارة تلك الجهود التي قام بها الأمير بغية تعزيز البلاد بصناعة تمكنه على قدر المستطاع من تجهيز بلاده حتى يتحرر من التبعية للخارج[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

يكتب الكونت دي سيفري في كتابه: «عبد القادر ومساجين الحرب»: كانت المشاغل والمخازن والمعامل والصناعات الحربية والسلمية والحصون والأسواق والمدن كلها تنبعث وكأنها نتاج أعمال سحرية[1].

غير أنه كان يلزمه التقنيون كذلك: وقد وجد تقنيين لصناعة النقد خاصة من الفرنسيين الذين كانوا في مجملهم من الفارين المعتنقين الإسلام.

وكان حريصاً على الاستفادة من فرنسا في جانب التقنية من خلال إرسال مواطنين إليها ولكن محاولاته باءت بالفشل من جراء التردد والتحفظ التي ظهر من جانب فرنسا.

وكان يحرص على الاستفادة من الخبراء وأهل التخصص في ميادين الصناعة وعلم المعادن واستفاد من خبير فرنسي كان مهتماً بالأبحاث المنجمية بعث به سلطان المغرب إليه ليقدم خدماته للأمير، وفعلاً بدأ التنقيب في جبل زكار واكتشف أن خام الحديد متوافر بكثرة وقد استوردت من إسبانيا عجلة مائية ومسقط مياه يستعمل كقوة دافعة وذلك لاستخدامها في إنشاء مصنع ذي فرن عال، ولإعطاء المشروع كامل أهميته كان الأمير يصر على معاينته بموكب من القادة السياسيين والعسكريين وقد حضر الأمير كل مراحل العملية بكل اهتمام وقلق، وعندما صُبَّ قضيب الحديد قام الأمير أمام الملأ بتقبيل المهندس، وعندما برد الحديد أخذه الأمير بين يديه وتفحص كل أوجهه ثم عرضه على كل مرافقيه وأنصاره[2].

لقد كان الأمير يهتم بالتطور والرقي وبالرغم من أن الأمير كان ابن بيئة محافظة وأسرة متصوفة ومنطقة ريفية منعزلة، إلا أنه كان قريباً من مدينة معسكر التي كانت مقراً لسلطة باي الغرب، ثم إنه قضى بعض الوقت في التعليم بوهران التي كانت قبل فتحها ١٧٩٢م مدينة ذات طابع إسباني. وكان الأمير عميق التمسك بالدين وتعاليمه وبنصوص القرآن والسنة ومتمكناً من التراث العربي والحضارة الإسلامية: يحفظ الشعر والأمثال والخطب

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٦.

والحكم، ويعرف حياة الفلاسفة والرياضيين والأطباء ومع ذلك وجد نفسه بحكم ظروف بلاده على قمة هرم السلطة، فكان عليه أن يوائم بين التقليد والتجديد بين التراث التليد والحضارة الغربية الغازية.

وقد استجاب الأمير لضغط هذه الحضارة في عدة مجالات دون التضحية بمقدساته، فأدخل نظماً ومصانع وأجهزة لا عهد لقومه بها، وقد عرفنا ذلك عنه، وفي بعض مراسلاته مع الفرنسيين سيما مع ملك فرنسا لويس فيليب، وردت عبارات تدل على أنه كان ينتظر أن يتعاون مع الفرنسيين على إدخال المفيد من الحضارة الأوروبية على شعبه١.

لقد كان الهدف الأسمى والأشمل لعبد القادر هو جعل عرب وأمازيغ الجزائر شعباً واحداً ودعوتهم للمحافظة التامة على دينهم، وبعث روح الوطنية فيهم، وإيقاظ كل قدراتهم الهامدة سواء للحرب أو للتجارة أو للزراعة أو للأخلاق والتعليم.

كان الأمير ينشد توحيد الشعب وتوعيته وإلحاقه بركب العالم المتقدم وبناء دولة تجمع بين الإسلام وحاجات العصر٢.

كل المؤرخين الفرنسيين يذكرون رسالته المؤثرة التي بعث بها إلى الملكة أميلي في هذا المضمار: عوض أن تبعثي إلي بجبنائك الأمجاد كي يقاتلوني، فليأتوا ليساعدوني على أن أضع في بلادي أسس حضارة تكونين قد أسهمت فيها، فتكونين قد حققت هدفين اثنين تنزلين السكينة على قلبك النابض بالأمومة وتسعدين كلًّا من رعاياك ورعايانا، وعسى الله أن يحفظ لك كل ما هو عليك عزيز وغال.

لم يكن هناك رد عملي وفعلي فروح الغزو والسيطرة التي كانت المحرك الدائم لفرنسا، لم تكن تطيق أن ترى أمة إسلامية عصرية على وجه الأرض٣.

---

[1] حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٦.

[2] حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٦.

[3] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٠٦.

١٣. إنشاء المشافي:

اجتهد الأمير عبد القادر في تطوير دولته وأحدث أموراً كثيرة، ومن أهمها إنشاء المشافي العامة والخاصة، فكان في كل مقاطعة عدة مستوصفات ومشافٍ خاصة بالمقاتلين تصحبهم في كل موقعة ومعركة، وعيّن لكل مشفى أربعة أطباء أكفاء يرأسهم طبيب مشهور ومن مشاهير الأطباء في دولة الأمير: الحكيم أبو عبد الله الزراوالي، وكان عالماً بخصوص الأعشاب على اختلاف أنواعها، ومن اختصاصاته إخراج الرصاصة من العضو المصاب بوضع نوع من الأعشاب على الجرح فتخرج الرصاصة من دون الحاجة إلى جراحة بعد وقت قصير وبسهولة ومن دون ألم. وكان إنشاء هذه المستشفيات أحد أهم المنجزات التي كان له فيها فضل كبير[١].

واستعان الأمير بالعلماء وفقهاء الإسلام في الجزائر والمغرب لكي يكون على ثقة عن عدم تجاوز دولته أحكام الشرع في قراراتها ودفعته الظروف الجديدة إلى طلب التطوع من السكان لخدمة مزارع الدولة وأملاكها التابعة لبيت المال بشكل نظام تعاوني عرف "بالتدويرة"[٢].

رابعاً: معاركه ومعاهداته

١. إخضاع القبائل:

كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة وعفا عمّن يستحق العفو، وعاقب من يستحق العقاب، وعاد سالكاً طريق الساحل حتى وصل إلى مرفأ أرزيو وكان قاضيها أحمد بن طاهر قد دخل في محادثات مع حاكم وهران الفرنسي وطلب منه احتلال المرفأ،

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٦.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨١.

فقبض عليه الأمير وساقه إلى معسكر حيث أمر باعتقاله، بعد أن عين من يسير أمور الميناء.

وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل التي تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب[1]، وكانت قبيلته فليتة تشتمل على بطون وعشائر، وكان من عادتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وسَطَتْ على أموالها، وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالبطحاء في منطقة تعرف باسم "بهيرة" ومنها أرسل إلى قبيلة فليتة وما جاورها من القبائل رسُلاً يطلب إليهم الالتزام بالشرعية ويبلغهم قرار الشعب الجزائري الذي أصبح بموجبه أميراً للبلاد، فكان جوابهم العصيان ورفض الطاعة، فأسرع بجيشه قاصداً قبائل فليتة فهاجمها وكان أوامره إلى الجند: ألا يحرقوا بيتاً ولا يقتلوا طفلاً أو شيخاً أو امرأة ولا يهلكوا غرساً ولا شجرة، وبعد انتصاره عليهم استأمنوا فآمنهم وردّ عليهم أموالهم وولىّ عليهم عمالاً "أي حكاماً بالمعنى الحديث" يثق بهم[2].

٢. الهجوم على وهران:

تناهت إلى مسامع الأمير أن حاكم وهران الفرنسي قد أغار على قرية الدبة جنوبي قلعة هوارة، ونكّل بأهلها، وأخذ القضية السيد قدور الدمجي أسيراً، فسارع إلى قطع الطريق على العدو ومنعه من تحقيق هدفه، وما إن اقترب العدو من "الدار البيضاء" حتى أدركه الأمير واندفعت سيول فرسان الجيش المحمدي تسابق الريح نحو القوات الفرنسية، وكانت أهازيج الحرب تخرج من صدور هزتها الحماسية وملأها الإيمان وانهال المقاتلون من الأودية والمرتفعات واستشهد في ذلك اليوم من القادة المسلمين علي بن حبيب الرحاوي والميلود المغراوي، أما العدو فقد كانت خسائره كبيرة فادحة.

[1] المصدر نفسه.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٩.

كانت هذه أول معركة للأمير داخل البلاد، وحملت رياح النصر أنباء انتصارات الأمير إلى القيادة في مدينة الجزائر، وفي الخامس عشر من نيسان عام ١٨٣٣م عُزل الجنرال "بويه" حاكم وهران المهزوم وعُيّن الجنرال "دي ميشيل" مكانه حاكماً على المدينة، فسار إليها بقوة كبيرة فوجدها تحت حصار جيش الأمير مغلقة الأبواب وبلغه أن الأمير قبل رجوعه إلى "معسكر" كلّف بعض القبائل بمراقبة حصون المدينة ومساعدة الجيش المحمدي على متابعة حصار وقتال الفرنسيين، وعندما لم يستطيع الدخول إلى المدينة ابتنى حصناً بالقرب منها في منطقة تدعى "بنفور" وأخذ يشتري ضمائر ضعيفي الإيمان من أفراد القبائل المجاورة والدوائر لمساعدته[١].

٣. الإصلاح بين القبائل:

عندما وصل الأمير عبد القادر إلى ناحية نهر "مينة" تناهى إلى مسامعه أن قتالاً نشب بين قبائل البربر فوصل في الوقت المناسب وأصلح بينهم وعاقب مثيري الفتنة وعقد صلح بينهم وقعه رؤساؤهم نصه كما يأتي: قد أبرمنا بحول الله وقوته، الصلح المبرم بين أولاد الأكراد وقبيلة أولاد شريف، وقبائل يسلم وقبائل الشرقية ومحونا أثر ما كان بينهم من بقايا حميّة الجاهلية وألزمنا كل فريق منهم بالانضباط وطاعة الأنظمة المرعية في الدولة، وبرفع كل قضاياهم إلى من ولّيناه أمرهم، وجعلنا عقوبات شديدة على من يخالف الأنظمة أو ينقض أمر هذه المصالحة أو يتسبب بإفسادها فيكون قد عرّض نفسه لسخط الله وغضبه[٢].

كان الأمير يؤكد أن الغاية الوحيدة لقبوله هذا المنصب وهذه القيادة هي أمن البلاد واطمئنان الشعب على نفسه وأمواله وأعراضه وتمتعه بحقوقه الدينية، ثم طرد الغزاة الفرنسيين ولا يمكنه ذلك إلا بمساعدة أبناء هذا الشعب بالمال والرجال، وإن المكاسب التي تحصل عليها الدولة هي عائدة إلى الشعب، وكان في أكثر خطبه التي يضطر إليها

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٠.

يقول: لا أظن أنه يخطر في بال أحدكم أن الأموال التي تدفعونها للجباة أبتغيها لنفسي أو لنفقاتي الشخصية ولعلكم تعلمون بأني من سلالة عريقة وأن عائلتي مليئة، وكان الشعراء والوعّاظ ورجال القوافل والمنشدون في الأسواق يؤكدون هذه المعاني وقد جاء في بعض الأناشيد الشعبية في بلاد القبائل أن الأمير لا يطمح أبداً إلى العرش والعظمة، وأن رغبته فقط هي أن يخضع الناس لأوامره كإخوة ليدخل معهم مدينة الجزائر ويطرد الفرنسيين منها وعندما لا ينفع الإقناع كان الأمير يلجأ إلى الحزم والقوة وعندما ينتصر كان الحزم ينقلب حلماً، والقوة عفواً، ولكنه لم يكن يرحم الذين يتعاونون مع الفرنسيين ويثبت عليهم ذلك، وكان يستشهد بالآية الكريمة " وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا" (النساء، آية : ١٠٦).

ولدى عودة الأمير عبد القادر لمدينة معسكر بلغه خلع ابن نونة قائد الحضر في مدينة تلمسان للطاعة، فسار إليه وهزمه ففر ولجأ بضريح الولي أبي مدين فلحق به ودخل الضريح وأمّن ابن نونة وعاد لمعسكر بعد أن رتب شؤون تلمسان[1].

٤. وفاة والده واستمرار المعارك:

وفي طريق عودته من تلمسان بلغه نبأ وفاة والده وذلك في ٣ ربيع الأول سنة ١٢٤٩هـ الموافق تموز ١٨٣٣م، وبعد قيامه بمراسيم دفن والده العظيم علم أن الفرنسيين المتحصنين على البحر في منطقة مهاجر، راحوا يتعاملون مع بعض قبائل الناحية بالبيع والشراء فباغت جنود الحامية وهم خارج الحصن يرعون قطعانهم فأمعن فيهم قتلاً، فلاذوا بالفرار وعادوا للحصن فأسر بعضهم وغنم سائر قطعان مواشيهم وكان أمام المرسى عدد من المراكب وصلت للتو فتوجه لها وغنم ما فيها من مؤونة وذخائر. وعندما وصل الخبر للقائد العام الفرنسي بالجزائر قام بعزل الجنرال بويه وعيّن مكانه الجنرال دي ميشيل حاكماً على وهران في ١٥ نيسان، أفريل ١٨٣٣م، ووصل وهران فوجدها محاصرة من

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٢.

طرف المسلمين وبعد أيام علم بحضور الأمير نفسه، فخرج بقوات ضخمة لنجدة حصن عقور الذي هاجمه الأمير وتصدى الأمير للقوة الفرنسية التي كانت بقيادة الجنرال بوبريص فهزمها وشتت شملها وهرب عساكر العدو نحو سور المدينة وعلم بعد هذه المعركة أن قبائل أرزيو جددوا علاقاتهم مع الفرنسيين بإيعاز من رئيسهم المعتقل في معسكر، وعلم من عيونه المبثوثة في المنطقة أن شخصاً اسمه طوبال يخرج كل يوم مع ضباط فرنسيين في رحلات صيد، فترصد لهم الأمير وهاجمهم وجردهم من سلاحهم وأسرهم وعندما علم جنود حامية أرزيو الفرنسية بالهجوم ركبوا المراكب وهربوا إلى وهران، ودخل الأمير أرزيو فقبض على رؤوس القبائل التي تعاونت مع العدو، وأصلح بين سكانها وترك حامية تحمي المدينة وعاد لمعسكر فكون مجلس قضاء حاكم القاضي أحمد بن الطاهر البطيوي وحكم عليه بالإعدام.

وعندما لاحظ الفرنسيون نجاح الأمير في تجميع الشعب حوله وكبح القبائل التي أبدت تعاوناً معهم، قاموا بعمل يمس هيبة الأمير فغزو مستغانم مباغتة ودخلوها، ففر أكثر سكانها إلى الريف المحيط بها، وعلم الأمير بذلك فتوجه بجيش ضم الكثير من القبائل التي هبت لندائه بالجهاد وكان العدو قد قام منذ دخوله المدينة بتحصين سورها ونصب المدافع عليها وحاول الأمير تدمير السور بالمعاول والفؤوس فلم تفلح محاولته، فانسحب بجيشه إلى مخيمه وأمر بأن يحفر نفق من المخيم إلى السور ووصل النفق السور فحفر تحت أسسه وملئ بالبارود وأضرمت النار فانفجر لكن الانفجار لم يكن كافياً فقد فتح فتحة صغيرة لا تكفي لدخول الجيش للمدينة وعندما تأكد الأمير أن الجيش الفرنسي تحصن بالمدينة ويرفض الخروج لمنازلته وأن اقتحامها غير ممكن، عاد إلى مدينة معسكر.

وما إن اقتنع القائد الفرنسي دي ميشيل من رفع الأمير للحصار حتى خرج من مستغانم وتوجه إلى أرزيو فاحتلها وترك حامية في حصنها ثم عاد إلى وهران وفي طريقه أغار على قبيلتي الدوائر والزمالة فأسر عدداً من رجالهم ونسائهم، وعندما طلبوا رد أبنائهم الأسرى

اشترط عليهم الانتقال إلى ضاحية وهران والإقامة بها وقبول الخضوع للسلطة الفرنسية، وفي نيته استعمالهم كوسيلة تضمن موارد التموين لجيشه بالحبوب والمواشي فقبلوا وانتقلوا إلى حيث أراد العدو، وعلم الأمير بذلك، فأرسل وفداً حاور رؤساء القبيلتين وبيّن لهم أن رضوخهم لإرادة العدو خروج عن الإسلام فتراجعوا، وعادوا إلى منازلهم الأولى وأفسد بذلك خطة القائد الفرنسي الذي فشل في فك عزلته.

واتبع الأمير خطة تتمثل في إرسال كوكبات من الفرسان خفيفة تغير على القبائل التي تتعامل تجارياً مع العدو وتعاقبها وتفرض عليها تطبيق أوامره بصرامة بعدم التعامل مع جيش العدو، وتغير على حاميات العدو بعد أن ترصد خروج جنودها خارج الأسوار فتعمل فيهم قتلاً وأسراً وغنيمة، فاشتد الحصار على العدو الذي صار يأتي بتموينه عن طريق البحر من خارج منطقة وهران[1].

وأمر الأمير القبائل بعدم التعامل مع الفرنسيين وعدم بيعهم أي شيء، وكانوا يعتمدون في تموينهم على حبوب ومواشي هذه القبائل. وأحس الجنرال دي ميشيل بالخطر الذي يتهدد قواته التي صارت محاصرة بلا غذاء، ونظراً لعدم استطاعة قواته الخروج من وهران ومحاربة الأمير فقد قرر فتح مفاوضات معه، وأرسل للأمير عدة رسائل تجاهلها في بداية الأمر ظناً منه بأنها مجرد حيلة القصد منها تهدئة المعارك ريثما تصله إمدادات جديدة، لكن عندما اقتنع الأمير بجدية الطرف الفرنسي في البحث عن التوصل إلى اتفاق رد على الجنرال بعد أن استشار مجلس شورته، وأرسل وفداً من وزير خارجيته الميلود بن عراش والآغا خليفة بن محمود وتقابل الوفدان خارج مدينة وهران في ٢٥ رمضان سنة ١٢٤٩هـ الموافق ٤ /٢ /١٨٣٤م وبعد مفاوضات طويلة برهن فيها الوفد المفاوض الجزائري مقدرة التفاوض، اتفق الطرفان على صيغة الاتفاق وتحرك الوفد الجزائري نحو معسكر تعرض مسودة الاتفاق على الأمير[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٤.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٥.

ولقد بقي الأمير بعيداً عن أهله وعائلته طيلة اربعة عشر شهراً متصلة في تلك الفترة من حياته حيث نظم قصيدته المشهورة التي جاء فيها:

تسألني أم البنين وإنها
لأعلم من تحت السماء بأحوالي
ألم تعلمي يا ربة الخدر أنني
أجلي هموم القوم في يوم تجوالي
وأغشى مضيق الموت لا متهيباً
وأحمي نساء الحي في يوم تهوال
يثقن النساء بي حيثما كنت حاضراً
ولا تثقن في زوجها ذات خلخال
أمير إذا ما كان جيشي مقبلاً
وموقد نار الحرب إذ لم يكن صالي
إذا ما لقيت الخيل إني لأول
وإن جال أصحابي فإني لها تال
أدافع عنهم ما يخافون من ردى

فيشكر كل الخلق من حسن أفعالي
وأورد رايات الطعان صحيحة
وأصدرها بالرمي تمثال غربالي
ومن عادة السادات بالجيش تحتمي
وبي يحتمي جيشي وتحرس أبطالي

وبي تتقي يوم الطعان فوارس

تخالينهم في الحرب أمثال أشبال

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمحما

أقول لها صبراً كصبري وإجمالي

وأبذل في الروع نفساً كريمة

على أنها في السلم أغلى من الغالي

وعني سلي جيش الفرنسيين تعلمي

بأن مناياهم بسيفي وعسالي

سلي الليل عني كم شققت أديمه

على ضامر الجنبين معتدل عال

سلي البيد عني والمفاوز والربا

وسهلاً وحزناً كم طويت بترحالي

فما همتي إلا مقارعة العدا

وهزمي أبطالاً شداد بأبطالي

فلا تهزئي بي واعلمي أنني الذي

أهاب ولو أصبحت تحت الثرى بالي[1]

٥. معاهدة ديمشال:

توالت الضربات المتتالية على الحاميات الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي، ولما طرحت الميزانية المخصصة

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٢٠٤.

لمواصلة الحرب في الجزائر أمام البرلمان الفرنسي للمناقشة تم إقرار تكوين لجنة من طرف الملك لويس فيليب في ٧ جويلية ١٨٣٣م عرفت فيما بعد باللجنة الأفريقية مهمتها تقصي الأوضاع وجمع المعلومات والحقائق وتقديم اقتراحات وجاءت اللجنة إلى الجزائر ومكثت مدة ثلاثة أشهر، من ٢ سبتمبر ١٨٣٣م إلى ٩ نوفمبر ١٨٣٣م، خلصت إلى نتيجة مفادها ضرورة احتفاظ فرنسا بالنقاط الرئيسية التي تم احتلالها وهي مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة والجهات المحاذية لها فقط، باعتبارها ممتلكات فرنسية بأفريقيا دون الدخول في عمق التراب الجزائري، وذلك لإنقاذ الشرف القومي الفرنسي، كما عللوا ذلك، فوافق البرلمان على هذه المقترحات، غير أن الجنرال فوارول لم يكن ينتظر نتائج اللجنة وراح يأمر الجنرال تريزل للهجوم على ميناء مدينة بجاية ويحتله في ٦ أكتوبر من نفس العام وخلال تلك الفترة استطاع الأمير عبد القادر أن يضرب حصاراً اقتصادياً على المدن المحتلة بعدما أصدر قراراً بمنع المبادلات التجارية مع المحتلين وأصبحت الحاميات الفرنسية في مأزق خطيراً أمام هذا الحصار لأنها كانت تعتمد على القبائل الجزائرية في تموينها بضرورات الحياة وأمام هذا الوضع راح الجنرال ديمشال يستغل كل حادثة ليكتب إلى الأمير رسائل من أجل فتح مفاوضات لعقد اتفاق سلمي معه، منها الطلب الخاص بإطلاق سراح الجنود الفرنسيين الذين اعتقلوا بعد أن هاجمتهم قوات المجاهدين وقتلت منهم وطلب من الأمير يرجوه فيه العفو عن الأسرى المنكودو الحظ ويذكره بأنه شخصياً قد سبق له أن أطلق سراح أسرى من العرب من دون شرط عندما سقطوا أسرى في يده بعدما هجم عليهم في ٨ ماي ١٨٣٣م وكان نص رسالته كالتالي: إنني لا أتردد في أن أكون البادئ في إتخاذ هذه الخطوة إن وضعي كما هو، لا يسمح لي أن أفعل ذلك، ولكن شعوري الإنساني يحملني على الكتابة إليك، لذلك فإنني أطلب حرية أولئك الفرنسيين الذين سقطوا في كمين بينما كانوا يحمون عربياً. إنني لا أتوقع أن تجعل إطلاق سراحهم مرهوناً بشروط معينة، مادمت أنا قد أطلقت في الحال سراح بعض

أفراد قبائل الزمالة وقبائل الغرابة عندما سقطوا في يدي نتيجة الحرب، ومن دون شروط، بل قد عاملتهم أحسن معاملة، فإذا كنت تود أن تكون رجلاً عظيماً فإني أرجو أن لا تتأخر في الكرم وأن تطلق سراح أولئك الفرنسيين الذين هم الآن رهن يدك[1].

وقد رد الأمير عبد القادر على رسالة الجنرال ديمشال بتحرير مختصر يُظهر دقّة أفكار الأمير وحسن سياسته، فقد جعل اللوم على فرنسا التي أرسلت قواتها وجيشها عبر البحار لمحاربة الجنرال[2]، فأرسل الجنرال ثانية يطلب الأسرى، ولما لم يستجيب له الأمير أيضاً أرسل للمرة الثالثة كتاب تهديد، فأجابه الأمير برسالة يقول فيها: أنتم لا تُقدِّرون قوة الإسلام، مع أن القرون الماضية أعدل شاهد على هذه القوة، وانتصارات الإسلام معروفة لديكم ونحن وإن كنا ضعفاء كما تزعمون، فقوتنا بالله الذي لا إله إلا هو والحرب سجال يوم لنا ويوم علينا، غير أن الشهادة في سبيل الله هي ما نصبو إليه، ودويّ القنابل وأزيز الرصاص وصهيل الخيول هي أطرب إلينا من صوت الغواني، فإن كنتم جادّين في الوصول لاتفاقية وعقد صلات وديّة بيننا وبينكم فأفيدونا لنرسل لكم رجلين من كبار قومنا للمفاوضة حيث أننا لاحظنا من رسائلكم المتعددة رغبتكم في الجنوح إلى السلم[3].

وكان في نيّة الأمير من هذه الخطوة مناورة سياسية يحقق بها هدفه للاستعداد والبناء وليس معاهدة ترمي إلى الصلح الدائم.

وفور تسلم الجنرال ديمشال رسالة الأمير أوفد مردخاي موسوي لتسليمه رسالة جديدة عدّل فيها من لهجته يقول فيها: إلى سمو الأمير عبد القادر أيها الأمير لم يكن بعيداً أبداً عن فعل أي أمر حسن، فإن كان سموكم يقبل أن يتفاوض في أمر معاهدة بيننا، نوقف

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٧٥.
[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٦.
[3] المصدر نفسه، ص: ٥٦.

بها سفك دم أمتين اقتضت الإرادة الإلهية ألا تكونا تحت سلطة واحدة، سيكون لي أمل كبير في الحصول على نجاح اتفاقية المفاوضة بيننا[1].

وكان تاريخ رسالة الجنرال هذه في كانون الأول من عام ١٨٣٣م، وعندما تسلّم الأمير هذه الرسالة وقرأها أيقن أن عدوه وقف موقف المستغيث، فعقد اجتماعاً حضره جميع أفراد مجلس الشورى والأعيان وأطلعهم على مضمون رسالة الجنرال دو ميشيل، وبعد تدارس الموضوع الذي كان يحتاج لأكثر من اجتماع قرروا بالإجماع تأجيل الردّ على الرسالة بشكل رسمي، واكتفوا بإبلاغ الرسول رأيهم هذا: أي تأجيل الردّ على الرسالة.

وصلت الرسالة الشفوية إلى الجنرال، ثم أخذت رسائل الجنرال تتوالى في طلب الهدنة وفي الرابع من فبراير ـ شباط عام ١٨٣٤م أرسل الأمير وزير خارجيته الميلود بن عراش والآغا خليفة بن محمود للتداول في أمر الهدنة مع الجنرال ديمشال وكانت المقابلة بين القادة الفرنسيين ومندوبي الأمير خارج مدينة وهران على بعد فرسخين منها، وجرت المباحثات بشكل ودّي.

وقد كان في ذهن مندوبي الأمير صورة كاملة لما يجب القبول به وما لا يجب الاتفاق عليه، لذلك جاء صك الاتفاقية وفق إرادة الشعب الجزائري ومصالحه في تلك الفترة من التاريخ، وفي يوم السابع عشر من شهر شوال عام ١٢٤٦هـ الموافق السادس والعشرين من شهر فبراير ـ شباط عام ١٨٣٤م وقَّع الاتفاقية الجنرال ديمشال وبعد ذلك عرض ابن عراش الإتفاقية المذكورة على الأمير فوقعّها بدوره وقال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت: إن الميلود بن عرش وزير السلطان عبد القادر ومعتمده الخاص في عقد المعاهدة، استُقبل استقبالاً رسمياً فيه كل معاني الاحترام، وكان أمراء الجيش الفرنسي مصطفين كلّ على حسب رتبته العسكرية يستمعون لما جاء في صك الاتفاقية وبعد تلاوتها وقعّها الجنرال ديمشال[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ٥٨.

كانت بالأمير حاجة ماسّة جداً إلى الهدنة لتقوية الجبهة الداخلية، وتنظيم جيشه الفتيّ واعتبر هذه الهدنة مناورة عسكرية يتفرغ فيها لبناء الدولة الإسلامية وتقوية الوحدة الوطنية، ذلك أن عصيان بعض القبائل ووقوف البعض الآخر مع الفرنسيين أربك قواته وأرهق قدراته على الاستمرار في الكفاح ضد المستعمر الغاصب ومن جهة ثانية تمكن بهذه الهدنة من التركيز على جبهة واحدة مهمة، لأن الحرب على عدة جبهات كانت خطيرة وقاسية لذلك لابد من تحييد إحداها.

ولم ترتح الحكومة الفرنسية لهذه الاتفاقية، على الرغم من توقيع الملك عليها، وكانت ترى فيها مكاسب كبيرة للعرب، ومع الأيام أخذت تفكر بشكل جدّي في نقضها.

قال المؤرخ الفرنسي لويس دونلوت: إن دولة فرنسا قد حاولت أن تنقض هذه الاتفاقية، واستعملت الكثير من المكائد، لكن ذكاء الأمير هذا الشاب الحديث السنّ ودهاءه السياسي عرقلا مساعيها وأطالا مدة الهدنة[١].

. نص معاهدة ديمشال:

تمكن الأمير عبد القادر في المرحلة الأولى من مواجهة الجيش الفرنسي وإجباره على التمسك والاكتفاء بالبقاء في مدن مستغانم، أرزو، ووهران، واضطر الجنرال الفرنسي ديمشال أن يبرم معاهدة مع الأمير عبد القادر في سنة ١٨٣٣م والتزم فيها الطرفان بما يلي:

. يعين الأمير وكلاء له في مدن مستغانم ووهران، أرزو، كما تعيِّن فرنسا وكيلاً لها في معسكر.

. احترام الديانة الإسلامية.

. التزام الفريقان برد الأسرى.

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٨.

ـ إعطاء الحرية الكاملة للتجارة.

ـ التزام كل طرف بإرجاع كل من يفر إلى الطرف الآخر.

ـ لا يسمح لأي أوروبي أن يسافر داخل البلاد إلا إذا كان يحمل رخصة من وكلاء الأمير وموافقة الجنرال الفرنسي[1].

كانت شروط الجنرال مكتوبة بالفرنسية وموقعة من الأمير وشروط الأمير مكتوبة بالعربية وموقعة من الجنرال، وهذا يؤكد أهمية اللغة في تجسيد السيادة الوطنية في دولة الأمير عبد القادر.

وبعد تبادل الوثائق جرى حديث طريف بين الجنرال والوزير الميلود نورده في شكل حوار:

ـ كنت عازماً قبل عقد المعاهدة أن أطلب من دولتي عشرة الآف جندي زيادة على ما عندي، وأخرج من هذه المدينة وأتابع محاربتكم مدة شهر، وما يدريك يا ميلود أن حملة كهذه من شأنها أن تلحق الضعف بسلطانكم؟

ـ يا سيادة الجنرال إننا لا نحاربكم محاربة نظام وترتيب، ولكن محاربة هجوم وإقدام ولو فعلت ما قلت وخرجت بهذه القوة كنا نتقهقر أمامكم متوغلين في الصحراء بأهلنا وأثقالنا وفي حال هذا التقهقر نناوشكم القتال حتى لا ترجعوا عنا، ثم نصابركم حتى تضعف شوكتكم ومتى سنحت الفرصة وتورطتم في فيافي الصحراء قلبنا الكرة عليكم وأحاطت جيوشنا بكم من كل ناحية وتكون ذخائركم نفدت وقوتكم ذهبت وعساكركم تعبت، فحينئذ ماذا كنت تصنع أيها الجنرال؟

وتملك الجنرال العجب من بلاغة هذا الجزائري الذي رد على صلفه وغروره في تواضع وإيجاز مبرزاً تكتيكاً عسكرياً لم يكن يخطر على بال.

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١١.

وبعد المعاهدة عيّن الأمير سفراءه سماهم وكلاء في مدن الجزائر ووهران وأرزيو متجنباً إعطاءهم لقب سفراء حتى لا يعترف بملكية هذه المدن لفرنسا، ويوحي بأنها جزائرية وأن ممثليه فيها مجرد وكلاء له يقيمون في أرض جزائرية وهذا يبرهن على رقي دبلوماسية دولة الأمير، وعيّن الفرنسيون سفيراً لهم في معسكر الكومندان عبد الله ويسون وهو من مماليك مصر الذي انخرط في صفوف الجيش الفرنسي.

اعتبرت المعاهدة نصراً للأمير، فقد إعترفت رسمياً باستقلال الأمير الذي فاوض الجنرال الفرنسي عن طريق مندوب عنه وفوضه بالتوقيع عليها، واحتفظ لنفسه بالمصادقة عليها مثله مثل ملك فرنسا، وكتأكيد على سيادة دولة الأمير فقد نصت المعاهدة على تبادل التمثيل القنصلي وتبادل المجرمين بين الطرفين، وناقش وزير الدفاع الفرنسي الشروط التي فرضها الأمير في هذه الاتفاقية، لكنه وافق عليها في النهاية بهدف كسب الوقت ريثما تعد العدة للسيطرة الكاملة على سائر البلاد الجزائرية، وصادق الملك على المعاهدة من ضمن الشروط التي فرضها الأمير على المفاوض الفرنسي احتكاره لتجارة الحبوب، وألا تشتري فرنسا الحبوب الجزائرية إلا عن طريقه وضمن هذا الشرط في ملحق خاص بالمعاهدة، وبالرغم من أن الطرف الفرنسي وقع على هذا الملحق، إلا أن فرنسا تراجعت فيما يتعلق بهذا الشرط بدعوى أن الملحق كتب بالعربية١ والحقيقة إنه لم يكن ملحقاً، إنما كان بنداً داخلاً في صلب المعاهدة، كشروط الأمير٢.

٦. اعتراف سلطان مراكش وبسط الأمير لنفوذه:

في العاشر من شهر تموز عام ١٨٣٤م وصل وفد السلطان عبد الرحمن بن هشام أمير المغرب الأقصى لتهنئة الأمير عبد القادر بالانتصارات الباهرة، حاملاً إليه الهدايا الثمينة

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٧.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٨٧.

مع كميات وافرة من الأسلحة والذخائر وعدد من الجنود الفرنسيين الذين فروا إلى المغرب الأقصى وألقي القبض عليهم هناك وقد أرسلهم السلطان إلى الأمير عبد القادر ليرى رأيه فيهم، فسلمهم الأمير إلى السلطات الفرنسية حسب مضمون المعاهدة ونصوصها[1].

وبعد المعاهدة شرع الأمير عبد القادر يطبق خطته التوحيدية، فقام على الفور بمهاجمة القبائل الرافضة لمبايعته قرب تلمسان وأخضعها وذلك يوم ١٢/ ٧/ ١٨٣٤م، وكان لهذا الانتصار أكبر الأثر في بسط نفوذه على غرب البلاد باستثناء مدينتي وهران ومستغانم وقلعة تلمسان.

بعد أن دان الغرب للأمير توجه إلى ناحية مدينة الجزائر وحاول إخضاع القبائل هناك، لكن ديمشال أبلغه أن هذا العمل سيسيئ إلى علاقاته مع فرنسا، وطلب منه عدم الاقتراب من مدينة الجزائر وشجعه على السيطرة على قسنطينة والأقاليم الداخلية وظل الوجود الفرنسي مقتصراً على مدن الجزائر ووهران وبجاية وعنابة.

وانطلق الأمير في توحيد القُطر تحت سلطته والحد من توغل الفرنسيين داخل البلاد، فقام بضم تيطري إلى دولته بالرغم من احتجاج ديمشال وانتهز فرصة قيام أتباع الطريقة الدرقاوية بثورة دينية فهاجم مليانة ومدية واحتلهما، وتمكن بذلك من الإقتراب من مدينة الجزائر شعر الفرنسيون بأن الأمير يبسط نفوذاً من شأنه أن يجمع الشعب كله تحت دولته، فبدأوا يحيكون المؤامرات ضده فدفعوا بعض القبائل القريبة من مدينة وهران أن تتمرد عليه ولكن الأمير هزمهم وطلبوا منه الأمان واستجاب لهم.

وعاد الأمير إلى مدينة معسكر بعد أن أعاد القبائل المتمردة إلى سلطته في مساحة واسعة من الوطن. وتوجه إلى مدينة تلمسان فدخلها واستقبله سكانها استقبالاً حافلاً وأقام فيها زمناً قام بإصلاح أمورها وعلم وهو في تلمسان أن بعض عشائر الدوائر والزمالة تحركت نحو وهران للاحتماء بالمحتل، فسارع إليها ورد بعضها، ونزل بوادي الكحيل فحضر له

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٤٩.

رؤساء عشائر الدوائر فأمرهم أن يتركوا المنطقة وينتقلوا إلى ناحية معسكرهم وعيّن لهم محلة العرقوب ليقيموا فيها منازلهم.

قام الأمير بحثِّ الناس على العمل المجدي من زرع ورعي وتجارة، تحسيناً لأحوال الرعية، وسرعان ما عم الأمن واختفى الشقاق بين القبائل بسبب قيام خلفاء الأمير بحل النزاعات وفقاً لشريعة الله، وتمكن هذا الأمير الشاب خلال عشرين شهراً من تاريخ بيعته من بسط سلطته على مناطق واسعة بواسطة الترغيب والترهيب مع رجحان كفة الترغيب، وكان المواطنون يستجيبون للأمير طواعية اقتناعاً منهم بأن حكمه مبني على أحكام الشريعة الإسلامية، ولم تشذ سوى عشائر الدوائر والزمالة لتعودها منذ عشرات السنين على العيش على استغلال الشعب واكتساب المال من الناس بدون حق، مستغلين التفويض الذي منحه لهم الحاكم في عهد الأتراك[١].

وقد تمكن الأمير بفرض شرط في معاهدة دي ميشيل تبين عن فهمه لأمور الاقتصاد. وينص هذا الشرط على أن العمليات التجارية التي يقوم بها الفرنسيون لشراء المواد التموينية لابد وأن تتم في ميناء أرزيو تحت نظر ومراقبة موظفي إمارته وأن كل البضائع التي تأتي من الداخل تدخل هذا الميناء ومنه تصدر لفرنسا وأوروبا، وترسل منها المواد التموينية إلى مدينتي وهران ومستغانم اللتين يحتلهما الفرنسيون بالقدر الذي يكفي أهلها.

كان موظفو الإمارة يشترون البضائع من الناس ويقومون بشحنها إلى أوروبا، وسخط التجار الفرنسيون على هذه المعاملات التجارية التي جمدت سائر نشاطهم، وغضبوا على الجنرال دي ميشيل الذي قبل هذا الشرط التجاري المدمر لهم وشكوا للجنرال الذي أجرى اتصالاً مع الأمير الذي أمر بتخفيف هذه الإجراءات التجارية، علم الأمير أن

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٠.

سكان وهران ومستغانم المحتلتين يعودون لمنازلهم، فأمر الأمير وكلاءه بمنعهم من العودة حتى لا يستغلوا من المحتل، وحتى يبقى هذا معزولاً عن الأهالي[1].

٧. استبدال الجنرال ديمشال:

استبدلت الحكومة الفرنسية الجنرال ديمشال الذي فشل في نظرهم، وذلك بإعطائه للأمير قوة بالمعاهدة التي وقعها معه وعيّن بديلاً له كحاكم لوهران الجنرال تريزل، كما عيّن الكونت دوروان دورلون والياً على الجزائر، مع تكليفه بالمحافظة على المعاهدة لكن الجنرال ما إن وصل وهران حتى راح يبت الدسائس ضد المعاهدة التي لم يكن يؤمن بها.

واتفق أن توافق وصول تريزل وهران مع اتصال سكان تيطري بالأمير وإرسالهم بيعتهم له، وفكر الأمير في ذلك ملياً، ثم قرر عدم اتخاذ قرار فيها إلا بعد الاتصال بالوالي الفرنسي، فأرسل وزير خارجيته الميلود بن عراش رسالة إلى الكونت يهنئه فيها بتوليه الولاية ورد فيها: إن معتمدي ابن عراش وجهته إلى حضرتكم ليبلغكم التهنئة والتبريك من قبلي على الجزائر، وقيامي بالمحافظة على أمور المعاهدة وأوعزت إليه أن يفاوضكم في أمور تعين على إجراؤها، لتوطيد الراحة في جميع المقاطعات الداخلية في السهول والجبال والمناطق التي على ساحل الجزائر وجوارها ووهران والمدية، وخشيت أن يكون ذلك سبباً مكدراً لما بيننا من المصافاة.

وقد أوحى الأمير برسالته أن يده ينبغي أن تكون طليقة في جميع الأقاليم ماعدا المدن الأربع التي بيد الفرنسيين، وكان يريد أن يرتكز على جواب الكونت لتبرير ضم التيطري إلى إمارته.

وبعد أن أكرم وفادة مبعوث الأمير رد الكونت بالرسالة التالية: وصلني كتابكم وبلغني معتمدكم ما تعلقت به إرادتكم في الجهة الشرقية، وحيث إن جعل مقاصد سموكم توطيد

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩١.

الراحة العامة كما هو المطلوب والمرغوب فيه عند دولة فرنسا ورجالها وإني آمل نجاح مقاصدكم ورفاهية شعبكم وسعادة البلاد، ولك أن تعتقد بأنك لا تقوم في كل أرض تقصد الاستيلاء عليها، بشرط أن تكون لك قوة على أخذها[1]. وكان الكونت يضع بين عينيه وصية حكومته: بأن لا يغضب الأمير عبد القادر، وأن يعمل على كل ما من شأنه تجنب طلب قوات عسكرية من باريس، وشعر الأمير بأن يديه طليقتان فقرر التوجه إلى تيطري، وعندما تأهب للسفر كتب إلى حاكم الجزائر يخبره بذلك فكان جواب الكونت ما يلي: فهمت ما تضمنه تحرير سموكم والذي أرى أن هذا العزم خال من الصواب، ليكن في علمكم أن الجنرال ديمشال لم تكن له سلطة ولا حكم إلا على إيالة وهران، ولذلك لم يتعرض لما يتعلق بباقي الولايات، ومهما توسعت دائرة التأويل فيما جرى في معاهدة الثامن والعشرين من فبراير، فلا يكون لكم طلب إلا على إيالة وهران، وبناء على ذلك فلا نسمح لكم أن تدخلوا إيالة تيطري، ولا أن تتجاوزوا وادي الشلف شرقاً ونهر أرهيو إلى كوجيلة، وعلى العموم فلكم أن تحكموا في البلاد التي هي لكم الآن بحسب شريعة الإسلام، وبذلك نكون أصدقاء ولا أقدر أن أرضخ لعساكركم أن يدخلوا ولاية تيطري، لأن كل ما يجري هناك يخصني وإني مستمر مع ساكني الأقاليم على السلم، ومرتكز على تعيين مراكز فرنسية في البليدة وبوفاريك متى رأيت ذلك مناسباً، ورد الأمير على مراسلة الكونت برسالة قال فيها: لقد وصلني تحريركم وتعجبت مما ذكرتموه فيه. إن مرمى أفكار حضرتكم بعيد عن الإصابة، لأن محافظتي على السلم لا يجهلها أحد، ولولا ذلك ما احتجت إلى مذاكرتكم فيما أجريه في وطني وقصارى الأمر أنه لا يبعد أن يكون بغض أهل الفساد القى في ذهن حضرتكم من أوجب أن يكون جوابكم على هذا الأسلوب وعلى كل حال فإني عدلت الآن عن النهوض إلى تيطري، إبقاء للسلم ورعاية له[2].

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٣.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٤.

٨. محاربة الأمير للشعوذة والدجل:

كانت الوفود تتسابق مقدمة الطاعة للأمير عبد القادر مثل رئيس قبيلة أنكاد حليف الدوائر، وابن عربي رئيس قبيلة أولاد خويدم وغيرهما.

وقف الأمير متأملاً في رسالة الكونت ولم يتابع السير ورأى التريث وعدم الذهاب إلى تيطري، إذ كان لا يريد أن يأتي حصاد مكاسب المعاهدة قبل الأوان وهو لم يستكمل بعد بناء الدولة والجيش ولا يزال أمامه الكثير من المصاعب لتحقيق الوحدة الوطنية داخل البلاد، فجمع المجلس العسكري لدراسة الأمر وفي هذه الأثناء كان سكان إيالة تيطري يقيمون الزينات ويستعدون لاستقبال أمير البلاد ناصر الدين عبد القادر بن محي الدين، وعندما طال انتظارهم له، ظهر بينهم رجل اسمه الحاج موسى بن حسن ويُعرف بأبي حمارة، جاء هذا الرجل منذ زمن من مصر، فاستوطن بلاد أولاد نائل وأظهر النسك والصلاح وعندما تأخر الأمير في دخول إيالة تيطري جمع أبو حمارة حوله بعض المريدين وخطب في الناس طالباً منهم الطاعة له فقاوموه وأطلقوا عليه وعلى جماعته النار من مدفع كان في حوزتهم من أيام الحكومة العثمانية، فانفجر هذا المدفع فأوهمهم هذا الرجل أن تلك معجزة من معجزاته وكرامة له، فحدث شغب كبير وبلبلة وسادت الاضطرابات إيالة تيطري ووصلت أخبار تلك الاضطرابات إلى القوات الفرنسية[١].

وانتظر الأمير عبد القادر ماذا يفعل الفرنسيون مع أبي حمارة وعندما تأكد أنهم صمتوا عن ذلك قرر التحرك نحو تيطري وبخاصة بعد علمه أن عشائر الدوائر والزمالة بدأت تتحرك ضده متشجعة بحركة أبي حمار وأوعز لأخيه الكبير محمد سعيد أن يراقب الفرنسيين من ناحية مستغانم وأرزيو، وإلى البوحمدي وإلى تلمسان أن ينحدر بجيشه نواحي وهران ليشغل حاكمها وتوجه هو إلى تيطري بعد أن وافق المجلس العسكري

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٤.

بالإجماع. ولما علم أبو حمارة جمع جموعه وخطب الناس وواعدهم بالنصر، وقال لهم: آية نصرنا ستكون أن مدفع ابن محيي الدين لن يعمل فينا، وأن باروده عند المواجهة سيصير ماء. ثم كتب إلى الأمير يدعوه إلى الجهاد.

وقرر الأمير مواجهة أبي حمارة واتخذ هذه المواجهة عملاً تربوياً للقضاء على الخزعبلات التي تشوه الإسلام والبدع والتقى الجمعان في بلاد وامري وكان قد شاع بين الجنود تخوفهم من كرامة الدجال المزعومة فألقى الأمير فيهم الخطاب التالي الذي برهن فيه عن سخطه على الخزعبلات والدجل والبدع وحرصه على تحرير أبناء بلاده من ظلمات الجهل ليدخل بهم بوابة الحضارة والعصور النيّرة، فقال: الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه، أما بعد فاعلموا أن الحق تعالى قلدني هذا الأمر للمدافعة والذب عن الدين والوطن وقد بلغكم خير هذا الرجل فإن تركته وشأنه أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة، وينشأ عن ذلك من المفاسد ما يعسر علينا إصلاحه، هذا وإني أختبر أمره الذي كاد أن يوقع في قلوبكم ما يؤول بكم إلى تشتيت الشمل وتبديد الجمع، وذلك إني أطلق عليه مدافعي فإن كان الأمر كما زعم، فأنا أول مطيع له بعد اختبار أحواله من جهة الشرع وإن كان الأمر يخالف زعمه فهو دجال من دجالي هذا الوقت[١]، ثم أمر بالزحف وإطلاق المدافع على أبي حماره، فلما نزلت القذائف على جموعه انهزموا بعد أن تصوروا أن كرامة قائدهم ستجمد القذائف في مدفعها، وتفرقوا في الجبال والأودية، وفر الدجال تاركاً نساءه وأولاده وسائر سلاحه وعتاده في مخيمه، وانطلق جنود الأمير يطاردون فلول الضالين، وشعر الأمير بانخداع القبائل التي تحارب مع الدجال، وفتح لرؤوسائها المجال للاتصال به عندما علم برغبتهم فتقدموا منه وطلبوا منه العفو، وبينوا له أنهم كانوا واقعين تحت سحر كراماته المزعومة، فعفا عنهم، وجاء الطلب من أبي حماره برد نسائه وأولاده له، فاستجاب الأمير لطلبه، ثم

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٤٩٥.

توجه الأمير إلى المدية فدخلها وجاءته الوفود من سائر أنحاء الولاية فبايعته، وبعد أن قام بإصلاح شؤونهم عيّن خليفة على الولاية وهو السيد محمد البركاني.

وشاع خبر هذا النصر العظيم وحاول الجنرال تريزل أن يتخذ من سيطرة الأمير على ولاية تيطري نقضاً للمعاهدة وطالب بشن حرب على الأمير، لكن الحاكم العام رفض مقترحه قائلاً: لست مأموراً من الدولة بنقض المعاهدة وغير مستعد الآن لفتح باب الحرب ويجب علينا أن نتعامل مع الأمير بالحكمة، ونسعى معه لتجديد المعاهدة مادام في المدينة التي استولى عليها وعلى إيالتها ونتغاضى عما فعله ونتجنب الصدام به، فوافق أعضاء قيادته على ذلك[1].

٩. الحكومة الفرنسية تسعى لتعديل بنود المعاهدة:

في الرابع من يوليو عام ١٨٣٦م وصل وفد من الحكومة الفرنسية برئاسة سنت أيبوليت وبندران يحملان هدايا فاخرة إلى جانب صورة عن تعديل بنود في معاهدة دي ميشيل حررها مستشارون سياسيون وعسكريون ونص هذه الشروط:

. يعترف الأمير برئاسة ملك فرنسا على أفريقيا.

. تكون سلطة الأمير عبد القادر محصورة في إيالة وهران المحدودة بنهر الشلف ونهر أرهيو إلى كوجيلة.

. تعطى الرخصة العامة للإفراج للسفر في سائر جهات البلاد.

. إعطاء الحرية التامة للتجارة الداخلية.

. لا يصير تسليم ولا استلام شيء من الغلال والبضائع إلا في الأساكل التي بيد الفرنسيين.

. يدفع الأمير عبد القادر ضريبة سنوية للدولة مع وضع رهائن للأمن على ذلك.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٤٩٦.

ومعنى هذه الشروط تجريد الأمير من أي نوع من أنواع السيادة وجعله مجرد موظف في الإدارة الفرنسية[1].

استقبل الأمير الوفد ثم أمر بإكرام قادتهم بتقديم واجب الضيافة، وتركهم للاستراحة وطلب اجتماع المجلس الاستشاري المكون من اثني عشر رجلاً بما فيهم الأمير، وبعد جلوسهم قرأ عليهم رسالة التعديل، فكان رأي كل منهم مطابق للآخر، وهو أن الجنرال تريزيل لم يعد أمامه سوى خيار واحد وهو الخضوع لسلطة الدولة الجزائرية في كل ما يتعلق بداخل البلاد، وأن الأمير يستطيع فعل ما يشاء لذلك يريد الآن تعديل المعاهدة بشكل تصبح فيه لاغية، وقال الأمير عبد القادر مخاطباً أعضاء المجلس: نحن الآن في مكانة ممتازة بفضل جهادنا، أما طلب اعترافنا بسيادة فرنسا في البند الأول فهذا أمر مستحيل[2]. ثم جلس وراء مكتبه الخشبي وأمسك بريشته وكتب بخط يده جواباً على المقترحات واحتجاجه بشدة على تعديل بنود المعاهدة وأنه يراه خرقاً صارخاً لمعاهدة ديمشال وكتب: لقد أعطينا أمراً لوكيلنا ميلود بن عراش ليؤكد لكم عن أفضل الطرق لإقامة الهدوء بيننا وبينكم ونطلب:

ـ أولاً: الاستمرار بالوضع الراهن.

ـ ثانياً: رفضنا طلبكم باعتبار ملك فرنسا ملكاً على أفريقيا.

ـ ثالثاً: إن البند الأول في المعاهدة ينص على التوقف على الحرب بيننا وبينكم فقط، ولا ينص على الاعتراف بسلطة فرنسا.

وختم الرسالة ولم يسلمها إلى الوفد إلا بعد أن اصطحبه برحلة استعراضية إلى إقليم تيطري ووهران، وظهر الضابط سانت هيوليت، وعند دخول موكب الأمير إيالة تيطري كانت أشعة الشمس في طريقها إلى المغيب وراء الأفق، ولكنها أضفت على هذا الموكب الكثير من المهابة وأخذت زغاريد النساء تسمع من بعيد، وطلقات البنادق تختلط

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٧.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٦.

بأصوات الرجال "الله أكبر" تعلن عن قدوم موكب أمير البلاد الرسمي، تتقدمه كوكبة من الفرسان حاملة راية الجهاد، ثم ظهر أمير البلاد ببرنسه الأبيض ممتطياً صهوة جواده الأسود وقد مرّ وسط الزحام الشديد وكان الناس يسأل بعضهم بعضاً: ما هذه القوة الإلهية والسياسية الحكيمة التي جعلت أميرنا يتخذ من أعدائه أتباعاً له، وليس ببعيد عنه يجعلهم يستسلمون له ويعتقدون أن أي مقاومة له تعتبر مجرد جنون.

عاد الوفد إلى مدينة الجزائر مبهوراً بقوة أمير البلاد وشعبيته التي تفوق الوصف، وسلموا الرسالة الجوابية إلى الكونت وبعد قراءتها كتب فوراً رسالة جوابية قال فيها: بعد التحية والتعظيم، قد وصلني من سموكم بيد رسولي السنت أيبوليت ومن الأفضل إجراء مباحثات معكم شخصياً عن قرب ويمكن أن يكون في مدينة وهران، لقد أراد الحاكم بعد هذه الرسالة الاجتماع بالأمير في مقره ولكن تريزيل أقنعه بالعدول عن هذه الفكرة لأنها خطوة تفسر بضعف الدولة الفرنسية، عدا عن التزلف للأمير عبد القادر وهذا فعل في غير مصلحة فرنسا، فاقتنع الكونت وترك الأمر للجنرال تريزيل[١].

١٠. حاكم وهران تريزيل ينقض معاهدة ديمشال:

وما إن غادر الكونت وهران حتى راح تريزيل يطبق خطة تآمرية مستفزة للأمير عبد القادر، وفكر فوجد في عشائر الدوائر والزمالة ضالته فأخذ يغريهم بالأموال والحماية، فأذعنوا والتحقوا بالسلطة الفرنسية، وكتبوا وثيقة استسلموا فيها إلى القوات الفرنسية، وأصبحوا بموجبها رعايا فرنسيين، وبعد توقيع الاتفاق عيّن الجنرال تريزيل مصطفى بن

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٨.

إسماعيل قائداً عليهم ومحمد المرازي نائباً له، وجندهم جميعاً وسلحهم بأحدث الأسلحة ووهبهم الرتب العالية والميزات المغرية ودخل على الأمير في أحد الأيام أربعة رجال من مخابرات دولته وأعلموه بأمر تلك القبائل وذلك الاتفاق الخطير، فأرسل على الفور كتاباً إلى مصطفى بن إسماعيل زعيم قبيلة الزمالة يذكره بالقسم الذي أقسمه على مبايعته عام ١٨٣٢م ويذكره أيضاً بأنه مسلم جزائري عربي، وقول الله تعالى :" الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا" (النساء، آية : ١٣٩).

وقوله تعالى:" وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ" (المائدة، آية : ٢).

ثم طلب منه الرجوع إلى منازل القبائل قرب تلمسان[١]، ولم يكتف الأمير بإرسال هذا الكتاب إلى الزعيم مصطفى بن إسماعيل والزعيم المرازي، وإنما بعث خطاباً إلى شيوخ تلك القبائل وعممه جاء فيه: أما بعد، فليكن في علمكم جميعاً أنه طالما قد نصحناكم ووعظناكم وبيّنا لكم ما يجب عليكم شرعاً أن تفعلوه أو تتركوه فلم تقبلوا ذلك ولم تلتفتوا إليه، والآن بلغ السيل الزبى، فلابد أن ترجعوا عن غيكم وتسلكوا جادة الإسلام التي مضى عليها آباؤكم، وتتركوا منازلكم التي أنتم فيها الآن وترجعوا إلى منازلكم الأولى بقرب تلمسان، وإلا فلا تلوموا إلا أنفسكم لما يحل بكم من الانتقام بحول الله وقوته[٢].

ورفض هؤلاء عرض الأمير فاتصلوا بالجنرال تريزيل طالبين الدعم المادي والعسكري والدعم الفرنسي وبعث بمطالبهم إلى الحاكم العام للموافقة على ما تم الاتفاق عليه بين القبائل المتمردة والجنرال تريزيل، وعبَّر الحاكم العام عن تحفظه للجنرال وأرسل مبعوثاً خاصاً للأمير يفاوضه حول هذه المسألة، لكن تريزيل أخبره غاضباً بأن يعتبره مستقيلاً من منصبه في حال إصراره على رفض التعهد بحماية القبائل المتمردة على دولة الأمير عبد

[١] المصدر نفسه، ص: ٧٨.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٩.

القادر، فاضطر الحاكم العام للموافقة على اقتراحه، وجاء رد الأمير حاسماً في رسالة أرسلها للحاكم العام جاء فيها: إن ما قام به حاكم وهران مخالف لنصوص معاهدة ديمشال، التي تنص على أن هروب رعية أحد الطرفين يرده للآخر. إن الحكومة الفرنسية ملزمة بأن ترد إليَّ كل مذنب هارب ولو كان رجلاً واحداً فكيف بالعشيرة والقبيلة وعلى هذا فإن قبائل الدوائر والزمالة من جملة رعيتي التي أحكم فيها بموجب شريعتي والآن أبلغك البلاغ الأخير إنك إن رفعت الحماية عنهم فنحن على ما كنا عليه من المعاهدة التي وقع عليها الاتفاق قديماً، وإلا فإني لا أستطيع مخالفة شريعتي في التخلي عنهم حتى أنهم لو أدخلتهم إلى وهران لقلة دينهم فلابد أن ألاحقهم وأطالبهم بالرجوع عن خطئهم فإن كنت لابد مصرّاً على موقفكم فاطلب وكيلكم من عندي واختر لنفسك ما يحلو، وميادين المعامع تقضي بيننا، ومسؤولية إهراق الدماء وإتلاف الأموال راجعة إليك والله يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد[1].

كان للغة المادة والمكاسب الدنيوية والمراكز الفانية والمغريات التي قدمها الجنرال تريزيل لزعماء القبائل المتمردة أثرها، وجمع مصطفى بن إسماعيل الناس في إحدى الساحات وخطب فيهم قائلاً: إن الفرنسيين سيقدمون لنا كل ما اتفقنا عليه من الهبات والأموال والمواشي والحماية أيضاً والسلاح وإنني اعترفت خطياً برئاسة ملك فرنسا على البلاد ومحاربة كل من يقف في طريق ذلك[2].

١١. إعلان الحرب:

دعا الأمير عبد القادر مجلس الشورى والمجلس العسكري لاجتماع طارئ فور التأكد من هذه الأخبار، وبعد مناقشة هذا الوضع المستجد، أقر الجميع الخروج إلى المساجد وكان يوم جمعة وبعد الصلاة اعتلى أمير البلاد المنبر، وخاطب الناس قائلاً: كلكم تعلمون أن الله قال :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ" (الأنفال، آية : ١٢٣).

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٤٩٩.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٧٩.

إن هؤلاء المحتلين لا عهد لهم ولا ذمة عاهدناهم فنكثوا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا وهدموا هذا الصرح الإسلامي العريق من أساسه على حين غفلة، وها هم قد خدعوا قبائل الدوائر والزمالة من ضعيفي الإيمان والنفوس وفقدان الشعور بالكرامة.

أيها المسلمون قد قررنا العودة إلى المقاومة المسلحة فهلم جميعاً إلى الجهاد، ومن قتل منا قضى شهيداً، ومن بقي حياً نال العز وثواب الجهاد.

ثم رفع سيفه وهزه ثلاث مرات وقال: إن كل حفنة تراب من أرض الجزائر هي أرض محتلة، فصاح الرجال بصوت واحد: "الله أكبر" وصاحوا: إننا نعاهدك يا ناصر الدين على الشهادة أو النصر.

خرج نداء الحرب من المسجد مدوياً وعلا نشيد المقاومة يملأ الآفاق، وأسرع الكثير من الرجال لتسجيل أسمائهم في الديوان العسكري، وتقدموا شيوخاً وشباباً تمهيداً للإنضمام للجيش النظامي[1].

أ. معركة المقطع وانهزام الجنرال تريزيل:

في الأول من أيام سنة ١٨٣٦م سار الأمير على رأس جيش من ألفي فارس وألف من المشاة لملاقاة الجنرال تريزيل الذي بدوره خرج من وهران بفرقة من الخيّالة وخمسة الآف جندي وأربعة مدافع جبلية وعدد كبير من المركبات الاحتياطية، تتقدمهم مجموعات من الدوائر والزمالة، هذه المعلومات نقلت إليه عن طريق جهاز مخابرات دولة الأمير وأكدت له أيضاً أن قوات العدو وصلت إلى تلال مدينة وهران نظَّم الأمير قواته بأن جعل البوحميدي قائداً للمشاة في الميمنة وبو شقور قائداً للميسرة، وجعل مكانه هو في الوسط وخيّم السكون برهة من الزمن، ثم نودي الله أكبر، وملأت أصداء هذه الصيحة الروابي

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٨٠.

والأحراش وإذ بهدير مدافع الفرنسيين يصمّ الآذان، وبدأت معركة حامية الوطيس، كان الفرسان المجاهدون من مهرة الرماة، فحاصروا العدو من كل الجهات وتغلبوا عليه.

وأخذ الفرنسيون المنهزمون يتسارعون إلى داخل الأحراش من دون تنظيم تاركين وراءهم أسلحتهم ومعداتهم الحربية وقتل منهم عدد كبير وكما ذكر المؤرخون أمثال الدوق أرليون: كان من القتلى الكمندان أودينو بن المارشال دون دي تريجو، مما أثر سلبياً في معنويات الجنود الفرنسيين واحتل الأمير منطقة سيلة، وسيطرت قواته على جميع تلك النواحي، وقد قام القتال يومين متتالين دون توقف وقد أجهد العطش المجاهدين، إذ طال عليهم القتال، لكن الله أكرمهم بالنصر، واستمر العدو منهزماً إلى وهران عن طريق أرزيو، فخطط الأمير لملاقاته عند نهر هبرة المعروف بالمقطع، واختار عدداً من الفرسان الأشداء وبينهم عمه علي بو طالب، ففاجأوا الجنرال تريزيل مع من تبقى معه من قواته قرب النهر، فدبّ الذعر في القوات الفرنسية المنهزمة، وأخذ بعضهم يرمي نفسه في الماء لدى سماعهم صهيل خيول المجاهدين، وخاض الأمير ومن معه لججاً من الدماء تحت وابل من الرصاص، وأسرع عدد كبير من جنود العدو الغازي واستولى على سائر العجلات وما فيها من ذخائر، وهكذا استمر المجاهدون على الرغم من التعب الشديد من تمشيط المنطقة.

ولم يجد الجنرال تريزيل مسلكاً يسلكه هارباً منهم فاندفع مع من تبقى معه من القوات إلى ساحل البحر يرجو الخلاص، ولكن وعورة المنطقة والجهل بطبيعتها حالت بينه وبين الانسحاب المنظم، ودبّت الفوضى بين جنوده، وغرقت أكثر العجلات بمدافعها في تلك المخاضات الخطرة، واقتحم أكثرهم سبيل النهر تاركين وراءهم قتلى وجرحى كثيرين، وبدأ الليل يجيش بالعتمة وأخذ الظلام المرعب الممزوج بهدير المياه وأصوات الرصاص يملأ الفضاء الرحب، وفي سرعة الوميض، بعد قليل من الراحة، عادت للمجاهدين حماستهم للقضاء على فلول العدو المنهزم، وكان الأمير في المقدمة وتكللت جميع خططه بالنجاح،

وتمت هزيمة الجنرال الذي وصل مدينة وهران ليلاً بأسوأ حال متخفياً مع قليل من الجنود المجاهدين الذين استشهدوا في هذه المعركة "المقطع" الآغا قدور بن بحر، ومن أعيان الجيش العربي خليفة بن محمود الذي كان وكيلاً في مدينة أرزيو، والسيد محمد بن الجيلاني الورغي والسيد محمد المشرفي الذي كان أيضاً من قادة المجاهدين طلب ناصر الدين الأمير عبد القادر أن يتم دفن هؤلاء المجاهدين وفق الشعائر الإسلامية وبعد ذلك اتجه إلى نواحي سيك وبعث بالأسرى والغنائم إلى العاصمة "معسكر" ثم كتب إلى نوّابه في مليانة والمدية يبشرهم بما تحقق من الانتصار وبهذه المناسبة نظم له ابن عمه علي بو طالب الذي رافقه في هذه المعركة، وكان إلى جانبه قصيدة مطلعها:

رميت يا كهف الأنام للعُلى

وكل با غ سُقته للردى

بُشرى لك الفتح الذي أحرزته

هنئت بالنصر وإدراك المنى[1]

ولما بلغ حاكم مدينة الجزائر المحتلة خبر هذه المعركة أصدر فوراً أمره إلى الجنرال تريزيل بالتخلي عن منصبه كحاكم لمدينة وهران، وعيّن مكانه الجنرال دو لورانج وقال أحد المؤرخين إثر هذه المعارك التي خسر فيها الفرنسيون الآفاً من الجنود بين قتيل وجريح: إن بعض نواب المجلس في باريس أعلن أن احتلال الفرنسيين للجزائر هو من الأعمال الشائنة التي تُضر بسمعة فرنسا[2].

وقال تيري رئيس الحكومة: إن غزونا الجزائر عملية خاسرة إلى الآن لم تنجح، ولا أقول ذلك انتقاداً لمقدرة قواتنا العسكرية ...الخ

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٢.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٢.

وبعد انتهائه من الكلام علا ضجيج النواب في المجلس، واختل نظامه، ثم اجتمعوا مرة أخرى بعد استراحة واتخذوا قرارات منها عزل الكونت دو رولان حاكم مدينة الجزائر وتولية المارشال كلوزيل مكانه، والهجوم على عاصمة الأمير معسكر واحتلالها[1].

ب . الأمير يفرض حصاراً على المستعمر ويهاجم مدينة الجزائر:

أرسل الأمير من عاصمته لخليفته بمليانة السيد محيي الدين بن علال وأمره بأن يجمع جيوشه ويهاجم مدينة الجزائر، فانطلق على رأس خمسة الآف مقاتل فقاموا بتدمير قرى ومزارع الكولون بمتيجة وقتلوا منهم الكثير ووصلوا حتى أبواب مدينة الجزائر، ثم عادوا محملين بالغنائم والأسرى، كما أمر خليفته في تلمسان البوحميدي أن يتحرك بجيشه ويشاغل وهران، وفي أيام استطاع الأمير أن يفرض على المدن التي يحتلها الفرنسيون حصاراً خانقاً[2]، وشارك بنفسه في حصار مدينة الجزائر وكان الأمير يعمل على تحقيق مقولته بأنه لن يسمح للطير بالتسرب إلى المدن التي يحتلها الفرنسيون، حتى أضحى هؤلاء الغزاة مغلولي الأيدي وفي أشد الضيق كأنهم أسرى داخل حصونهم يحاولون التخلص من الحصار بشتى الوسائل[3].

ج . معركة مدينة "معسكر" عاصمة الأمير:

وصل الجزائر الجنرال كلوزيل مصحوباً بالدوق دورليان ولي العهد الفرنسي، وأحضر معه إمداداً عسكرياً هاماً وفي الحال قرر التوجه لوهران واحتلال عاصمة الأمير، وعلم الأمير في الوقت المناسب بتوجه العدو[4]، وجمع الأمير المجلس العسكري ومجلس الشورى وعقد جلسة عمل قال فيها: لقد بلغني أن المارشال الجديد يستعد لاحتلال هذه المدينة ظناً منه أنه بذلك يكسر شوكة قدراتنا ويضعف معنوياتنا، وباعتبار أن مدننا من أجمل مدن

[1] المصدر نفسه، ص: ٧٣.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠١.

[3] الأمير عبد القادر سيرة مجيدة، ص: ٧٥.

[4] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠١.

العالم، وبصورة خاصة تلمسان ومعسكر هذه المدينة الرائعة التي تحتل موقعاً جغرافياً مميزاً، فإذا أراد العدو الوصول إليها سيصل منها بعد قطع مسافات واسعة من السهوب المتعرجة والوعرة المسالك. وكما علمت أن إمدادات ضخمة وصلت كلوزيل، وأنه مصمم على دخول عاصمتنا، وأنا لا أريد حرباً تقوم بداخلها تزهق فيها أرواح السكان الآمنين وحامية حصن سعيدة لا تستطيع الصمود أمام اثني عشر ألف جندي مدرب، لذا أقترح ترك كلوزيل بداخلها ولكن قبل ذلك نخليها من السكان، فإذا دخلها وجدها خالية وإذا طال احتلاله لها قال أحد أعضاء المجلس مجيباً الأمير: حينذاك نعد هجوماً كبيراً على مدينة الجزائر لنخرجهم منها ونستنسخ فرصة ابتعاد عشرات الآلآف من الجنود الذين كانوا يحمونها مع قادتهم سأل آخر: ما الغاية من هذه الخطة أجاب الأمير:

أولاً: المحافظة على السكان من شيوخ وأطفال.

ثانياً: إنقاذ هؤلاء السكان من ويلات الحرب داخل المدينة، والتي ستكون حرب شوارع تهدم أثناءها الدور وتخترق المتاجر ومن لم يمت بقنابل المحتلين سيموت فزعاً ورعباً من أصواتها التي تسبب الأذى لآذان الأطفال وربما تصيبها بالصمم، هذا إذا نجوا من الحرائق والقتل برصاص المحتلين.

ثالثاً: إذا جمعنا قواتنا وحاولنا منعهم من الوصول إلى هذه المدينة فشلنا لا سمح الله، بهذه الحالة ألا يخرج كل مسؤول منا أهله وعائلته منها قبل دخول الأعداء، ويبعدهم عن ساحات القتال إلى أمكنة آمنة؟ كما هي العادة في مثل ظروف كهذه الحالات، فأنا شخصياً أشعر بأن كل أم مؤمنة من هذا الشعب هي أمي، وكل أخت هي أختي، وكل أب هو أبي وأخي، فالذي أريده لعائلتي أريده لكل عائلة في هذا الوطن.

رابعاً: إذا جهزنا أنفسنا للدفاع عن المدينة والوقوف في وجه اثني عشر ألف جندي مهاجمين، واستطعنا الانتصار عليهم وإجبارهم على الانسحاب بعد أيام، أو ربما أسابيع،

ولاشك أن كلوزيل سيعيد الكرّة للمرّة الرابعة وكم ستكون أعداد الخسائر من الشهداء، وما سيكون حجم التدمير لمدينتنا، وبحال فشلنا في إنقاذ مدينتنا ودخلها كلوزيل منتصراً بعد تكبيدنا خسائر فادحة ماذا نكون قد ربحنا؟ فخيم الصمت على المجلس ثم بعد دقائق رفع أكثر الرجال من أعضاء المجلس أيديهم بالموافقة على الخطة.

وبسرية تامة تم نشر الأوامر بإخلاء المدينة وبطريقة نظام البريد المتحرك، يعني كل جار يخبر جاره، وكل زميل يخبر زميله وأمسك الأمير بيد والدته يساعدها العربة التي كانت أمام داره، فسارت بجميع أفراد عائلته ليلاً نحو قصر كاشرو، وهو قصر قديم شيد في غابة. وهي أرض ملكاً لعائلة الأمير منذ غابر الأزمان وتقع على بعد أميال من مدينة معسكر بناه أجداد سيدي محيي الدين والد الأمير منذ قرون، كان بناؤه على الطراز الأندلسي عدد غرفه ثلاثة وأربعون غرفة، وعدد من الحمامات، وخارجه إسطبلات واسعة للخيول، وبئر ماء وكان لا زال صالحاً وماؤه عذب، واستضافت عائلة الأمير في هذا القصر عدداً كبيراً من الأقرباء والجيران وصل كلوزيل إلى مشارف مدينة معسكر بعد ثلاثة أيام من السير، ولم يصادف أي كائن في طريقه أو صعوبات كبيرة ودخلت قواته المدينة فوجدتها خالية من الحركة، وكأنها مدينة أشباح، كانت المتاجر مغلقة وعندما فتحت بالقوة وجدت فارغة، لا أسواق لبيع الخضار والفواكه ولا مخابز ولا مطاحن تعمل، والمخافر خالية من الحرس، حتى المياه كانت مقطوعة وكانت قوات كلوزيل تكاد تسقط من الإعياء والعطش والجوع وكان يأمل ويمنيّ جنوده بغزو المخابز وحوانيت الأطعمة فور وصولهم المدينة، وقبل دخولهم في معارك لاحتلال المدينة وإجبار الأمير عبد القادر على الاستسلام وخروجه من عاصمته إما أسيراً أو قتيلاً، ولكن كلوزيل لم يجد أحداً يقاتله في المدينة، وكما يذكر المؤرخون أن اليهود فقط من سكان المدينة رفضوا تركها، وعندما دخل كلوزيل أسرعوا بالمثول بين يديه وقدموا الطاعة ولكن لم يقدروا أن يفيدوه بشيء، ولم يتمكنوا من تهدئة روعه من هول المفاجأة لأنهم كانوا أعجز من معرفة

فكر الأمير وما كان يخطط له، فشاركوا كلوزيل في شكوكه الذي لم يأمر جنوده بدخول أي دار خوفاً من مفاجأة قاتلة تنتظرهم بداخلها، ولم ينم كلوزيل تلك الليلة وهو يذرع أرض غرفة أحد المخافر التي اختارها وهو يفكر ويتساءل عن سر فراغ المدينة من السكان وظن أن هناك مخططاً لإفناء قواته، فأخذت الشكوك والهواجس تملأ رأسه، وفي صباح اليوم التالي أمر جنوده بالانسحاب من المدينة والعودة بما بقي معهم من المؤن الغذائية التي كانوا يحملونها من وهران، واعتبرها كافية حتى وصولهم إلى المقرّ، انسحب آخر جندي من معسكر يجرّ أذيال الخيبة ويرتجف من البرد وغزارة الأمطار[١].

وصل الأمير أخبار عودة قوات كلوزيل من حيث جاءت وعلى نفس الطريق وكان مختبئاً داخل الأدغال على المرتفعات المحيطة بالطريق، ولم يكن باستطاعة كلوزيل اكتشافها، وعندما شاهد الأمير بمنظاره الحربي جيش العدو يسير ببطء يجر عرباته وخيوله المثقلة بالعتاد وانتظر حتى وصل أمامه آخر جندي، وأمر القائد مصطفى بن التهامي باصطحاب كوكبة من الفرسان ليخبروا سكان مدينة معسكر بزوال الخطر ويساعدهم على العودة إليها حذّر الأمير المجاهدين من إطلاق أي رصاصة على جيش العدو، ثم أمر بالتحرك داخل الأدغال بهدوء، والتخفي بأغصان الأشجار، كان جيش العدو يسير على الطريق وفوقه على المرتفعات، الآف المقاتلين يسيرون بسرعة أكبر لقطع الطريق عليه، ولم يأمر أمير البلاد بالهجوم إلا بعد أن عمّ الظلام، حينذاك انهال الفرسان على الجند الذين فوجئوا بالهجوم فأخذوا يضعون المتاريس يختبئون وراءها ويطلقون النار على غير هدى، فدبت الفوضى بينهم، فوصلت أخبار الهجوم إلى كلوزيل الذي كان يسير في مقدمة جيشه، فعاد ونظم صفوفه، ولكن قوات الأمير كانت أسرع بالهجوم عليه من مواقعها في أعالي الهضاب غير مبالين بقنابل المدفعية وأصوات الرصاص، فهجموا على عربات المدفعية واستولوا عليها والتحم الفريقان حتى منتصف النهار وكثر عدد القتلى في

[١] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٩٦.

جيش كلوزيل فأمر بالانسحاب، فكان جنوده يفرغون العربات من العتاد والذخيرة ويضعون مكانها جرحاهم، ويفرون نحو طرق وعرة، واكتفى الأمير بهذا الانتصار والدرس الذي كبَّد فيه كلوزيل خسائر فادحة، وكانت قواته بأشد الحاجة إلى الراحة، فعاد بها إلى المخيم، فوصله ليلاً، وكعادته قبل دخول خيمته توضأ وصلى جماعة صلاة العشاء بعد سماعه صوت مؤذن المعسكر، وسجد شكراً لله.

وفي اليوم التالي بعد صلاة الفجر أمر بالاستعداد للرحيل والعودة إلى العاصمة، فأطلقت المدفعية كالعادة ثلاث طلقات إشارة للرحيل والعودة إلى العاصمة، ولبث الأمير بينهم برهة من الوقت ترفع أثناءها أعمدة الخيام وتحمل الذخائر ويمتطي الفرسان صهوات جيادهم، وعادة الأمير دوماً بعد هذه الاستعدادات الخروج من خيمته والقفز على جواده ثم يثب به وثبتين، ثم يتقدم الجيش بالمسير، عمت الأفراح بالمدينة عندما وصلت أخبار بقدوم طلائع الجيش الجزائري، وظهر الفارس المنتصر إنه ناصر الدين الأمير عبد القادر ابن محيي الدين على أبوابها، فعلت أصوات النساء بالزغاريد والرجال بصوت واحد "الله أكبر" واصطف رجال المراسم بألبستهم العسكرية بعودة أمير البلاد إلى عاصمته[1].

د. توالي المعارك بين الأمير والمارشال كلوزيل:

علم الأمير عبد القادر بواسطة عيونه أن المارشال كلوزيل قرر الهجوم على تلمسان وأنه أرسل عملاءه من قبائل الدوائر والزمالة لفتح الطريق له، فقرر الأمير تطبيق نفس الخطة التي طبقها في مدينة معسكر، وذلك بإخلائها من سكانها الذين غادروها بما خف وزنه من الأثاث والمتاع، ووصل كلوزيل تلمسان يوم ١٣/ ١/ ١٨٣٦م على رأس جيش ضخم من ١١٠٠٠ جندي فوجد الأمير في استقباله ودارت المعركة من الفجر إلى الزوال، وخرج الذين كانوا متحصنين بالقلعة وفتحوا أبوابها للعدو يوم ١٢ يناير فمكنوه من احتلال المدينة، وفرض كلوزيل ضريبة باهظة على السكان حتى على عملائه وذلك

[1] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٩٧.

قصد تغطية نفقات الحرب واضطر الناس لبيع مجوهرات نسائهم لدفع الضريبة وكان المرابي اليهودي لازاري وسيطاً يشتري المجوهرات بأبخس الأثمان وكانت خسارة العائلات مضاعفة وشارك في هذا النهب الضابط المملوكي التركي العميل يوسف، فضج الناس من ذلك، وقد كتب الضابط بيلسييه دي ريينو على ذلك فقال: كل هذا تم باسم فرنسا، لقد كان الجيش يشعر بالعار والخذلان[1]، وبقي الأمير يترصد خروج كلوزيل من تلمسان، وخرج بعد أن ترك حامية بها قاصداً وهران ووجد جيش الأمير أمامه ودارت معارك بين الطرفين لمدة عشرة أيام وهزم كلوزيل ولم يتمكن من الوصول إلى وهران فعاد إلى تلمسان وتحصن بقلعتها وبقي بها أياماً، ثم حاول الخروج منها فالتقى به الأمير وحاربه وألحق بقواته خسائر كبيرة وصمم كلوزيل على التقدم سالكاً طريقاً آخر عبر الساحل فوصل مرسى رشكون وتحصن بها فحاصره الأمير مدة شهرين كاملين قضاها في مناوشات قتالية وعندما يئس من التقدم بقواته براً استنجد بنائبه فأرسل له مراكب نقلته مع جيشه بحراً بعد أن حمل ما أمكن حمله من العتاد.

غادر كلوزيل وهران إلى الجزائر بعد أن نصَّب الجنرال دار لانج والياً عليها والجنرال بيريجو قائداً على الجيش.

كانت قبائل حجوط مستمرة في حملاتها على الكولون والمراكز العسكرية في المتيجة، والباي العميل ابن عمر هرب من مليانة وهو يعيش بالجزائر، والعميل محمد بن حسين الذي عيّنه الحاكم العام بابا التيطري ثار عليه المواطنون فهرب وتخفى في مطامير للحبوب، فأرسل كلوزيل قوة إلى المدية ضمن حملة دامت ١٢ يوما من ٢٩/ ٣ إلى ٩/ ٤/ ١٨٣٦م، فاحتلها وترك عليها العميل الباي بن عمر وتركت له كمية من السلاح والعتاد لكن هذه الحملة فشلت فما إن عاد الجيش للعاصمة حتى ثار سكان مدية على الباي العميل واعتقلوه وساقوه مكبلاً إلى الأمير، خرج الجنرال بيريجو من وهران على رأس

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٢.

٣٠٠٠ جندي نحو تلمسان وتمكن من ربط الصلة بهذه القوات بين المدينتين، وعلم الأمير فانتقل إلى ندرومة ليتمكن من مراقبة تحركات العدو، واتصل بالقبائل التي كانت تقيم بوادي تافنة ورتب قواتها ووزعها على مواقع اختارها، ثم هاجم العدو بغتة يوم ٧ نيسان . أبريل وألحق به خسائر كبيرة اضطره إلى أن يتخذ خطة دفاعية على شكل مربعات متجهاً إلى وهران[١]، وكان الأمير يقوم بالهجوم على أطرافها يقتل ويأسر ولم يصمد المدفعيون الفرنسيون للهجوم فتخلوا عن بطارياتهم التي غنمها المجاهدون وبعد عناء كبير تمكن الجنرال من الوصول إلى وهران ولكن بعد خسائر كبيرة في الجنود والعتاد.

بعد هزيمة الجنرال بيريجو قررت الحكومة الفرنسية إرسال ٣٠٠٠ جندياً وعلى رأسهم بوجو إلى وهران لمحاربة الأمير وفي ١/ ٧/ ١٨٣٦م توجه إلى تلمسان لفك الحصار عن حاميتهم المحاصرة من الأمير، وعندما التقى بالأمير دارت معركة في واد سكاك غير متكافئة يوم ٦/ ٧/ ١٨٣٦م هزمت فيها قوات المسلمين، وتمكن بوجو من فك حصار تلمسان وربطها بوهران، وعاد لها فأخبر باريس بانتصاره.

قام الأمير بجمع جموعه وفرض حصاراً طويلاً على تلمسان دام تسعة أشهر، لدرجة أن كافينياك قائد الحامية الفرنسية بها قال: كنت أشتري القط الواحد للأكل بأربعين فرنكاً. ويُروى أن الأمير قرأ صحيح البخاري في هذا الحصار أربع مرات وفي أثناء الحصار علم أن الأتراك بالمدية قد تمردوا وأثاروا الفتنة، فترك قيادة الحصار لابن عمته مصطفى بن التهامي، وتوجه على رأس كوكبة من فرسانه إلى المدية فأنزل العقاب على رؤوس الفتنة وأعاد النظام لها وولى عليها أخاه مصطفى بن محيي الدين ثم عاد إلى تلمسان وهكذا تمكن الأمير بعبقرية عسكرية وتنظيمية فذة من ومواجهة كل هذه المشاكل وإيجاد الحلول

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٣.

لها، كان يقطع مئات الكيلومترات حاثاً القبائل على الصمود والتنظيم، ويقيم تحت الخيمة أشهراً محاصراً للعدو دون كلل١.

وقد لخص المؤرخ الفرنسي ألكسندر بالمار هذا كله فقال: لقد تمكن الأمير عبد القادر من إعادة بناء قوته التي اعتراها التفكك والتلاشي ثلاث مرات:

الأولى: عندما استولى الجيش الفرنسي على عاصمته.

الثانية: عندما غزا تلمسان.

الثالثة: بعد معركة سكاك. وكل حادثة من هذه الحوادث كانت كافية لإسقاط أعظم سلطان، ومع ذلك فإنها لم تؤثر في أمره، ولم تحصل منه فرنسا على طائل. ولهذا فإني أقول: لله در هذا الرجل العظيم الذي كانت سياسته العجيبة لا تفارق ذاته طرفة عين، ومن هنا نعلم أنه كان في أقرب وقت يسترجع ما يفقده من قوة٢.

كان الأمير عبد القادر في حروبه يهتم بأخلاق الفرسان ويأمر جنوده بعدم التمثيل واحترام الأسرى، فقد كانت العادة عند القبائل في تلك الأصقاع قطع رأس العدو وتقديمه على حربة للزعيم أو القائد، وكان لكل رأس مكافأة، ولكن أوامر الأمير عبد القادر منذ توليه قيادة حكم البلاد كانت تقضي بأن يجلد كل مقاتل يحمل رأساً، وبتقديم مكافأة مجزية لكل من يأتي بأسير حياً وهذا قرار اتخذه منذ اليوم الأول ووضعه ضمن قوانين الجيش وكانت تعليماته إلى كل مقاتل يأسر جندياً فرنسياً أن يحسن معاملته وكان هذا القرار من طرف واحد.

أما العدو فقد كان يقوم بأعمال يندي لها جبين الإنسانية بالنسبة للأسرى والمواطنين على حد سواء، من هذه الأعمال قطع رأس الأسير أو جذع أذُنه وكانت تُعطى علاوات للجيش، منها علاوة ١٠ فرنكات لكل جندي فرنسي عن كل أذن لأسير جزائري. ولم

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٠٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ٥٠٤.

يبطل هذا القانون إلا في عهد نابليون الثالث. كتب أحد الجنود الفرنسيين رسالة إلى قائده الجنرال مونتياب جاء فيها: قطعت رأسه وعصمه الأيسر وجئت إلى المعسكر أحمل رأسه على حربتي ومعصمه معلق بسوار بندقيتي تلك هي الطريقة التي يجب أن نحارب بها العرب، يجب ترحيل جميع العرب من هنا إلى جزر الماركيز، يجب سحق من لا يركع تحت أقدامنا[١].

١٢. مقاومة أحمد باي بنواحي قسنطينة:

عندما استقر الأمر لأحمد باي في مدينة قسنطينة جمع أعضاء الديوان وتباحث معهم في المسألة المتعلقة باعتراف فرنسا باياً على أن يواصل دفع الجزية إليها، فكان رد جميع أعضاء الديوان هو الرفض لأن قسنطينة تابعة لباشا الجزائر وتمتثل لأوامره وهي بدورها تتمثل لأوامر إسطنبول ولهذا لابد من الكتابة إلى السلطان محمود الثاني والحصول على موافقته، وفي هذه الأثناء علم أحمد باي أن القائد الفرنسي في الجزائر قد عزله من منصبه وعيّن في مكانه سي مصطفى شقيق باي تونس، وبذلك صارت قسنطينة تابعة لتونس حسب رأي الجنرال كلوزيل الذي كان يحكم الجزائر وهذا هو الذي دفع بالباي أحمد أن يعيّن بن عيسى خزناجياً أي أمين الخزينة، ويضرب النقود باسمه.

وعندما تمكنت فرنسا من ميناء عنابة بدأت تهدد أحمد باي بالإطاحة به وأرسلت جيشاً قوياً بقيادة كلوزيل للقضاء عليه ولذلك جند أحمد باي ١٥٠٠ رجل من المشاة و٥٠٠٠ من الفرسان واستعد لمواجهة الجيش الفرنسي في وواد الكلاب واد الأحد الذي يوجد تحت سيدي مبروك، لكنه انسحب إلى مدينة قسنطينة عندما شعر أنه غير قادر على محاربتهم لأن جيشهم كان أقوى، وبناء على ذلك استدرجهم الباي أحمد إلى المدينة ثم هاجمهم من الخلف ومن داخل المدينة وألحق هزيمة بالفرنسيين الذين قهرتهم الطبيعة حيث إن الأمطار الغزيرة التي تهاطلت في تلك الأيام قد ساهمت في التأثير سلبياً على

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٧٨.

خطط الفرنسيين واعترف الحاج أحمد باي أنه كان على استعداد للتفاوض مع الجيش الفرنسي والاحتفاظ بمرتبه كباي، ولكنني عندما رأيت أنهم جاءوا بباي ليستبدلوني وأكثر ليهينوني إذ اختاروا لهذا الغرض مملوكاً من تونس، ولم أعد أرى شيئاً آخر غير المقاومة النشيطة، وهو ما فعلت وقد كان علي أن أفعله من قبل[١]، وبدون شك فإن هذه الهزيمة الثقيلة التي ألحقها الحاج أحمد باي بالفرنسيين في عام ١٨٣٦م هي التي دفعت الجيش الفرنسي إلى إعداد جيش ضخم يتكون من ١٦٠٠٠ جندي يقودهم كبار جنرالات فرنسا المعرفون بقدراتهم القتالية تحت قيادة دامريمون وفي اليوم الأول من شهر أكتوبر ١٨٣٧م ابتدأ الجنرال دامريموت قائد الحملة الفرنسية ورئيس أركانه بيريقو العمليات العسكرية ضد قوات أحمد باي وذلك انطلاقاً من سطح المنصورة المطلة على مدينة قسنطينة. وقد حاول أحمد باي أن يعتمد نفس الخطة التي ساعدته على الانتصار في المرة الأولى وهي مواجهة الجنود الفرنسيين من داخل المدينة المحصنة وضربهم من الخلف، لكن هذه المرة لم تنجح الخطة لأن عدد جنود الفرنسيين كبير، وتمكنوا في هذه المرة من معرفة فجوة ساعدتهم على التسرب إلى المدينة واحتلال الثكنة الكبيرة التي كانت توجد بالمدينة، وعندما رأى ابن عيسى خليفة أحمد باي والمسؤول عن الدفاع، أن الفرنسيين تسربوا إلى المدينة وأن المقاومة أصبحت غير مجدية أمر السكان أن يخرجوا من المدينة. وقد استشهد في هذه المعارك محمد بن البجاوي قائد الدار، وذلك بالإضافة إلى شخصيات كبيرة في المدينة، ولكن الشيء الذي ينبغي التذكير بة هنا هو أن الجنرال دامريموت ورئيس أركانه بيريقو قد لقيا حتفهما في بداية المعارك حيث أن الباي أحمد قد صوب مدفعه الكبير الموجود في باب الجديد نحو مكان تجمع القادة الفرنسيين وتمكن من إطلاق النار على الفرنسيين وقتل رئيس العمليات العسكرية ورئيس أركانه وقد خلفه في منصب القائد العام للقوات الفرنسية الجنرال فالي الذي استولى على المدينة فيما بعد،

[١] المصدر نفسه.

لكن الجنرال كومب مات هو الآخر في معارك قسنطينة وكذلك زميله الجنرال كارامان الذي توفي بعد بضعة أيام.

وبالنسبة للباي أحمد فإن هذا الاحتلال لمدينة قسنطينة سنة ١٨٣٧م ما هو إلا بداية للمقاومة الجزائرية ضد قوة الاحتلال الأجنبية وبالفعل فقد اجتمع بقادة المقاومة وأعد معهم خطة تقضي بقطع جميع الاتصالات مع مركز القوات الفرنسية بمدينة عنابة، لكن أحد مساعديه المقربين بو عزيز بن قانة فقد سلطته في الصحراء لصالح فرحات بن سعيد، اعترض على خطة الباي أحمد واقترح عليه أن لا يبقى الجيش في قسنطينة وإنما يتوجه إلى الصحراء حيث يوجد فرحات بن سعيد الذي أصبح يعمل مع الأمير عبد القادر الذي اعترف به شخصياً على قبائل الصحراء وخوفاً من وقوع انشقاق في صفه وافق الباي أحمد، وأثناء ذهابه إلى الصحراء بعث إليه الفرنسيون رسالة يطلبون فيها منه الاستسلام.

ومع أن فرحات بن سعيد كان يعتبر هو الخليفة المعتمد من طرف الأمير عبد القادر على الصحراء، فإنه كان ينوي الذهاب إلى قسنطينة والتحادث مع أحمد باي أو الفرنسيين، إلا أن ذهاب أحمد باي للصحراء حسب نصائح بن قانه دفع بسعيد بن فرحات أن ينضم إلى الفرنسيين ويتحالف معهم مقابل أن يعترفوا به كشيخ للعرب وأن يمدوه بجيش قوي ليحارب أحمد باي وبن قانه ولكن الفرنسيون رفضوا اقتراحه هذا وطلبوا منه أن يقوم بهجوم على أحمد باي ويأتيهم برأسه وآنذاك يعترفون به وبالفعل دخل مع أحمد باي في معركة حامية الوطيس ضد أعدائه ولكنه انهزم وهرب إلى وادي سوف. ثم إن مرض أحمد باي وعدم قدرته على جمع وتوحيد الصفوف لمحاربة الفرنسيين وتمركز الجيش الفرنسي في كل المناطق، قد أنهكت قواه وأجبرته على التفاوض مع فرنسا والإستسلام لها يوم ٥ جوان ١٨٤٩م. كما هو معروف رفض التوجه إلى فرنسا ومات بمدينة الجزائر سنة ١٨٥٠م وتم دفنه بزاوية سيدي عبد الرحمن.

وباختصار، فإن أحمد باي قد قاوم الفرنسيين لمدة ١٨ سنة وقد ظن الفرنسيون أنه ضعيف نظراً لعدم وجود قبيلة تحميه وتشد أزره لكنه فاجأهم وتحدى جبهة الخونة في الداخل وجبهة باي تونس وقاوم حتى النهاية[١].

وهو صاحب المقولة الشهيرة: لا وطن لي إلا الجزائر، ولا دين لي إلا الإسلام، ولا لغة لي إلا العربية[٢].

وهو صاحب المقولة الأخرى: إذا كان المسيحيون بحاجة إلى بارود سنزوّدهم، وإذا نفذ خبزهم، سنقسم خبزنا معهم، ولكن حتى وإن بقي أحد منا على قيد الحياة لن يدخلوا قسنطينة[٣].

لاشك أن أحمد باي من الشخصيات المتميزة سياسياً وعسكرياً إلا أنه عدم دخوله تحت زعامة الأمير عبد القادر أضعفته وأضعفت موقف المقاومة، وبعد أن توحدت معظم قبائل ومدن الجزائر وأجبرت الدولة الفرنسية على الاعتراف بالأمير عبد القادر، وتبرم معه المعاهدات الرسمية وترسل الدول الأجنبية قناصلها، وعرض الأمير عبد القادر مرات عديدة على أحمد باي بأن ينضم إليه ويتحالف معه كان عليه أن يستجيب لوازع الوحدة وتوحيد الصفوف ضد المحتل الفرنسي.

كان الأمير عبد القادر يحترم أحمد باي ولم يكن له أي خصومة أو بغضاء، وأشاد بجهاد أهالي قسنطينة، والشيخ ابن البجاوي ومن معه من العلماء والأبطال والذين أبوا إلا الموت تحت أسوار بلدتهم على الحياة تحت سلطان فرنسا[٤].

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١١٩.

[٢] الحاج أحمد باي د. بو ضرساية بو عزة، ص: ٧.

[٣] المصدر نفسه، ص: ٣٥٣.

[٤] حوار مع عبد القادر الجزائري، ص: ١٠٤.

١٣. اختراق المخابرات الفرنسية لدولة عبد القادر:

استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر وأن يصل إلى مكان مقرب من الأمير ويصبح مترجمه الخاص ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر، فمن المعروف أن الحملات الاستعمارية الكبرى، باتجاه العالم الإسلامي، كانت تسبقها حملات مركزة للجوسسة للتعرف على الأرضية التي سيتم احتلالها، وكان من العادة أن يقوم بالمهمة مجند في أجهزة المخابرات لديه خبرة واسعة بالأرضية وأكبر مثال على هذا الجاسوس بوتان الضابط في الهندسة العسكرية الذي أرسله نابليون بونابرت إلى الجزائر عام ١٨٠٨م وقام بإجراء دراسة دقيقة والتي على أساسها تم احتلال الجزائر، لكن بعد الغزو العسكري سرعان ما اكتشف المحتل أن هناك مساحات كبيرة لم يتمكن من غزوها، فاحتلال الشعوب يقتضي التعرف بدقة على جغرافيتهم النفسية وخريطة عقولهم، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حركة الجوسسة الاستعمارية وذلك بإرسال رجال ونساء حتى يتغلغلوا في الشعوب وينفذوا إلى أعماق النسيج الاجتماعي ويقدم التقارير الدقيقة والوافية عن تجربتهم في الداخل وستظل أسماء مثل ليون روش بارزة في مسيرة حافلة لهؤلاء الذين اخترقوا وتغلغلوا إلى أعماق المجتمع، فلم تكن التقارير العسكرية والأمنية كافية للسيطرة على هذه المجتمعات، بل كان من الواجب النفاذ بعمق في ألياف الحياة الإجتماعية والدينية والتجوال في دروسها والدخول إلى عمق أعماقها، فليون روش الجاسوس، كغيره من الجواسيس ندبته الحكومة الفرنسية في بداية غزوها للجزائر ليكون جاسوساً على الأمير عبد القادر وأوعزت إليه أن يتظاهر عنده بالإسلام، وأن يتوصل أن يكون موضع ثقته ومحل أمانته، ففعل ذلك ونجح وأقام معه حوالي سنتين، كان خلالها يبعث بكل تفاصيل دولة الأمير عبد القادر إلى حكومته الفرنسية، ولم يكتف بهذا فقط، بل تخصص في

نشب الفتن بين الأمير عبد القادر والقبائل الأخرى، فكان هدفه إضعاف قوة المسلمين وتشتيتها من حول الأمير[1].

أ. قصة دخول ليون روش الجزائر:

ولد بفرنسا بمدينة غرونوبل في يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٠٩م وبعد وفاة أمه كليمونتين شمبانو ذهب عند عمته وبدأ دراسته الثانوية في ثانوية غرونوبل ثم أكملها في ثانوية تورنون ونال شهادة البكالوريا عام ١٨٢٨م وبعدها بدأ دراسته الجامعية في جامعة غرونوبل في تخصص الحقوق وبقي يدرس لمدة ستة أشهر فقط، ثم رحل إلى مرسيليا بعد أن أرسله أبوه للعمل هناك مع تاجر صديق له، فعمل معه وسافر بين فرنسا وشرق أوروبا، وزار العديد من دول شرق أوروبا وكان عمره آنذاك يقارب العشرين عاماً، كان أبوه الفونس محلقاً بخدمات العتاد العسكري في الجزائر منذ الحملة الفرنسية ١٨٣٠م واهتم بالعمل الفلاحي في ضواحي الجزائر واقتطعت له مزرعة في سهل متيجة مساحتها حوالي ٢٠٠ هكتار وكان يقوم بخدمتها بعض الجزائريين، ونظراً لتعدد مهامه، كتب إلى ابنه يطلبه للحضور ليساعده في الفلاحة بعد أن غاب عنه مدة طويلة وجاء إلى الجزائر بعد انقطاعه عن والده لمدة أربع سنوات وعاش في مدينة الجزائر واختلط بالأهالي، الجزائريين والأتراك والكراغلة والحضر وتعلم اللغة العربية على يد رئيس مجلس قضاء الجزائر الشيخ عبد الرزاق بن بسيط وتمكن من اللغة العربية وتحدث بها بطلاقة وتعرف على العلماء والقضاة وأعيان المجتمع وعرض نفسه كمترجم بين الفرنسيين والأهالي وكان تعلمه للغة أمر مدروس ووسيلة مهمة للاختراق الاستخباراتي[2].

ب. مطية الجوسسة:

جعل من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسسة التي كان قد كلف بها من قبل.

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٠٧.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٠٨.

كانت المخابرات الفرنسية أوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة واستغلت المخابرات الفرنسية معاهدة التافنا التي جاء في بندها الرابع على السماح للمسلمين بالعيش أينما أرادوا، ولهم الحرية المطلقة في الانتقال من دولة الأمير إلى الأماكن التي يحتلها الفرنسيون وكذلك يباح للفرنسيين أن يسكنوا دولة الأمير فأوعزت المخابرات الفرنسية إلى ليون روش لمهارته في اللغة العربية ومعرفة تقاليد الجزائريين وثقافتهم، للالتحاق بمعسكر الأمير والتظاهر باعتناق الدين الإسلامي والدخول في وسط جيشه والتقرب منه للتعرف على أحواله والقيام بمهمته، غادر ليون روش مقر أبيه بإبراهيم رايس واستقر عند قبيلة بني موسى في منطقة متيجة وقد كانت تربطهم به علاقة سابقة، إذ كان يخرج معهم في رحلات للصيد خلال السنوات الماضية، وأعلن إسلامه ونطق بالشهادة، وسمي بعمر بن عبد الله. وبدأ بإقامة الصلاة وإعلان الشعائر الإسلامية علناً، ومن بني موسى بدأ ينظم اتصالاته مع بعض الفرنسيين والجزائريين بهدف جمع المعلومات الكافية حول أحوال دولة الأمير عبد القادر الفتية ووصل إلى مدينتي بوفاريك والبليدة وأظهر إسلامه أمام الحاكم لجلب نظره، واستبشر به خيراً، وفرح به أشد الفرح لاعتقاده في أن الله قد هدى نصرانياً من الشرك إلى الإيمان، فاستضافه وأكرمه وقدمه لمرابط المدينة سيدي بلقاسم سيدي الكبير، الذي وثق به على حسن نية، فأقام عنده وعمل على إقناع سيدي بلقاسم بتزكيته والتوسط لدى الأمير حتى يلتحق به ويقدم خدماته له وعاد ليون روش إلى أولاد سيدي موسى وحمل متاعه في طريقه إلى مليانة ففتحت له الطريق ووصل إلى مدينة مليانة حيث كان يقيم صديقه عمر باشا الذي كان يعلم أن ليون روش ينافق ويتظاهر باعتناق الإسلام، فاستضافة وقدم له النصح عن كيفية سيرته وأوصاه بالحذر في تحركاته والفطنة في سلوكه لكي لا يجلب شكوك المسلمين حوله وفي هذه الأثناء كان خليفة الأمير محمد بن علال غائباً عن المدية، فاتصل ليون روش بنائبه وكاتبه قدور بن رويلة، وشرح له قصته المزيفة عن دخوله في الإسلام وأنه يريد الالتحاق بالأمير

عبد القادر ليقدم له خدمات جليلة واستبشر قدور بن رويلة ووعده بأن يصطحبه هو بنفسه إلى معسكر الأمير ويطلب من الخليفة محمد بن علال أن يقدمه للأمير شخصياً.

وعندما سار الأمير عبد القادر إلى الشرق وعسكر على ضفاف وادي نوغه جيء به عند الأمير، فاستقبله فصار يخبره ويؤكد له أنه اعتنق الدين الإسلامي بكل إخلاص وطلب منه الدخول في خدمته[1].

وأمر الأمير عبد القادر أحد العلماء بالاعتناء بهذا الشاب وتفقيهه في أمور الدين الحنيف وقراءة القرآن وآداب الشريعة الإسلامية، وفي وقت قصير أتقن ليون روش هذه العلوم وسُرّ الأمير لذلك، واستجاب الأمير لطلبه الزواج من إحدى الفتيات المسلمات، وهكذا أصبح ليون روش مسلماً ومقاتلاً أيضاً إذ كان يشارك في المعارك في تلك الفترة[2].

وشرع ليون روش يرتب أمور عمله لأداء مهمته الحقيقية كجاسوس، وطفق في جمع المعلومات ومراسلة الفرنسيين وتعريفهم بأحوال الأمير العسكرية والسياسية وغيرها، ووصف الأمير في تقاريره وصفاً دقيقاً في شخصه ومناقبه ولباسه وأوصافه الجسمية والخلقية والدينية والثقافية وبين عدله واحترامه لتعاليم الإسلام وهيبته واحترام الجنود والمواطنين له ولم يترك شاردة ولا واردة تتعلق بالأمير ودولته وقع عليها إلا أرسلها في تقاريره، وفي بداية عام ١٨٣٨م أثناء إقامته في مدينة تلمسان حين أوفده الأمير عبد القادر ليتعلم القرآن وتعاليم الإسلام شك فيه أهلها من نواياه الحقيقية وأخبروا الخليفة البوحميدي، ولما أحس ليون روش بالعيون تراقبه فرّ إلى مدينة وهران إلى أن وصل إلى خيام بني عامر قرب عين تموشنت، وفي خيمة الآغا انكشف أمره، فاسترجع أدراجه إلى الخليفة البوحميدي، ودافع ليون روش عن نفسه من تهمة الفرار إلى العدو دون إذن مسبق والخيانة العظمى التي تستحق الإعدام، وفضلاً عن ذلك طلب وثيقة سفر ليتوجه إلى الأمير عبد القادر ويشتكي له من قسوة المعاملة التي لم تكن تليق بمكانته واتخذ موقف

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٣.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٦١.

المهاجم أمام الخليفة البوحميدي وراح يعاتبه على عدم الثقة فيه رغم أنه مبعوث من طرف أمير المؤمنين، وأن قلبه يعمره الحب والرغبة في الإسلام وله الحق كغيره من المسلمين في حسن المعاملة، حينها اعتذر البوحميدي له في أدب ووعده بمنحه رخصة السفر وتوفير الأمان له إن رغب في ذلك، ولكنه حذره من العودة إلى مثل ما قام به من عملية الفرار وفي شهر فيفري ١٨٣٨م، بعث ليون روش برسالة مطولة إلى جهاز المخابرات فصّل فيها النظام الإداري والعرفي الذي كانت تسير عليه قبائل غرب الجزائر وشرح لهم ما عرفه عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية والدينية التي كان يمارسها الأهالي.

وفي أوائل شهر أفريل ١٨٣٨م وصل إلى مدينة المدية فجثا أمام الأمير عبد القادر راكعاً باكياً واشتكى إليه من ظلم وجور الخليفة البوحميدي ورجاله، وسوء معاملتهم له وأنهم اعتبروه كافراً وليس مسلماً أتى من أجل خدمة الأمير ولنصرة الحق على الباطل، وإظهار النور على الظلام[1]، وبالغ في التضرع والخداع حتى حنّ قلب الأمير عليه، باعتباره مسلماً غريب الديار وصدّقه وأصبح من حاشيته وعيّنه كاتباً ومستشاراً ورفيقاً يقرأ عليه ويترجم له ما يكتب في الصحف الفرنسية، وكان يحضر حتى في مجالسه السرية التي كان يعقدها مع كبار دولته[2]، وكان اختراقاً هائلاً وعظيماً ساهم في القضاء على دولة الأمير ومن الأسباب التي أدت إلى إضعافها وتكسير مقوماتها ومؤسساتها.

ج. انكشاف أمر الجاسوس:

في نهاية عام ١٨٣٩م سافر الأمير عبد القادر إلى تلمسان لتنظيم شؤون الدولة والجهاد دون أن يترك أية أوامر تخص ليون روش، فانتهز فرصة غيابه وخادع الناس بمهمة مزعومة إلى مدينة مليانة ليتفقد مصانع الأسلحة وأخذ كل ما يحتاجه من وثائق من بينها خريطة جغرافية جزائرية، وجهاز بوصلة وخاتمه بصفته كاتب الأمير ورافقه جاسوس آخر هو

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٤.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١١٥.

ايزدور الذي كان يعرفه منذ أن كان يقيم عند أبيه من قبل، كما أخذ عدداً من الرسائل استعملها في شكل برقيات ليخادع بها كل من اعترض طريقه ويساعده في معرفة المواقع، وتوجه نحو مدينة وهران فاراً نحو الجيش الفرنسي ولما وصل إلى منطقة معسكر أخبر من اعترضه من أهلها أنه ذاهب في مهمة إلى معسكر وتلمسان بأمر من الأمير إلى وكيله في وهران، ووصل ليون روش بصحبة رفيقه إلى مركز الجيش الفرنسي في ناحية الكرمة بالقرب من وهران، ثم انتقل من هناك إلى مقر حاكم الإقليم ونسي الأمير ودولته وطفق يحارب مع الجيش الفرنسي ويطارد قوات المجاهدين حتى سنة ١٨٤٤م فكرمته دولته الفرنسية وعيّنته بأعلى المراكز وكافأته على نجاحه في المهمة التي كلف بها[١].

وذكرت الأميرة بديعة الحسني الجزائري في كتابها القيِّم: بأن ليون روش استطاع تزوير رسالة باسم الأمير عبد القادر إلى أمير مكة مقلداً خطّه ووقعها بختمه الخاص وهرب حاملاً الرسالة إلى فرنسا ومتجهاً إلى باريس وأطلع حكومته على الرسالة فحملّته هدية ثمينة، وأمرته بالسفر إلى مكة، فارتدى اللباس الجزائري وأخذ الهدية والرسالة وسافر إلى مكة فوصلها معززاً مكرّماً وهناك قابل الشريف محمد بن عوف أمير مكة وسلمه الرسالة والهدية، فأكرم أمير مكة وفادته وعامله معاملة رسل الملوك، وبعد أيام كما هي العادة وكما كانت تقضي التقاليد العربية سلمه أمير مكة رسالة جوابية، ومعها هدايا ثمينة إلى الأمير عبد القادر، فرجع حاملاً هذه الأشياء إلى فرنسا وسلم إلى حكومته الرسالة التي كان يُفترض تسليمها إلى الأمير، وبعد قراءتهم الرسالة تأكدوا أنه لا علاقة للأمير بأمير مكة، ولم يسبق أن ساعده بشيء وبعد نجاحهم في هذه العملية التجسسية أعادوا الكرّة مرات عديدة، فمرة كانوا يرسلون الجواسيس على أنهم سيّاح ومرة على أنهم تجّار، ولكن جميع تلك المحاولات كانت تبوء بالفشل، إلا أنه بعد هروب ليون روش وافتضاح أمره أصبح الحذر شديداً لدى المسلمين والأوامر صريحة وواضحة بهذا الخصوص.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٩.

وقد ألّف ليون روش كتاباً تاريخياً بعنوان: "اثنتان وثلاثون سنة في الإسلام" أصبح مرجعاً كبيراً لكثير من المؤرخين والكتّاب، وقد وصف فيه مقابلته الأمير في معسكر عين شلالة فقال: رأيت وسط المعسكر خيمة كبيرة يقف ببابها جمهور كبير إنها خيمة السلطان، وكان جالساً وحده في صدر الخيمة، فغضضت من بصري وتقدمت نحوه ببطء، ثم ركعت ولثمت يده كما هي العادة عندهم، ظننت أنني أحلم عندما رأيت عينين خضراوين تحيط بهما أهداب سوداء كثيفة، كان يحمل بيده مسبحة وتحيط بوجهه لحية سوداء حريرية، ولو بحث فنان عن صورة لعابد من عُبّاد القرون الوسطى يضعها على لوحته فإنه لن يجد حسب رأيي نموذجاً أفضل من الأمير ببرنسه الأبيض وجلسته اللطيفة، وعلى الرغم من مكانته العظيمة التي كانت تسمح له بالتعالي والسمّو، كان طيباً لبقاً، ولم يكن أحد من الحرّاس بجانبه[١].

١٤. معاهدة تافنة:

استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفتيه مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران ومحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة البني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتسح الجيش جنودهما واستولى على مواشيها وألحق بها هزيمة قاسية وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر، يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهم ويأسر بعضهم ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها وعاد إلى حاضرة ولايته وبعث رسولاً يخبر الأمير أنه عُيّن دامريمون حاكماً عاماً خلفاً لكوزيل المعزول يوم ١٢/ ٢/ ١٨٣٧م وانتشرت أقاويل في باريس مفادها: أن الأمير عبد القادر هو المعجب الكبير بالمدينة الغربية، ويعمل من أجل تجديد شباب القومية العربية وتصور الفرنسيون أن بإمكانهم أن يجعلوا

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥١١.

منه أميراً مسلماً بالاحتلال يحكم الداخل لصالح فرنسا وعيّن الجنرال بوجو قائداً للجيش الفرنسي في وهران الذي وصلها على رأس ١٥٠٠٠ جندي بتعليمات صارمة بضرورة عقد صلح جديد مع الأمير ووقف الحرب معه.

وجاء هذا القرار الفرنسي بعد أن تمكن الأمير من فرض حصار صارم على المدن المحتلة من الفرنسيين وأرسل الفرنسيون إلى الأمير عبد القادر ابن دران اليهودي ليفاوض الأمير على الهدنة.

أرسل الجنرال بوجو الرسالة الأولى عارضاً شروطاً شديدة رفضها الأمير الذي أجاب برسالة عرض فيها شروطه، ورد بوجو على الشروط بشروط مخففة وهو يلقبه بسلطان العرب وأرسل الأمير مرة أخرى جواباً على الرسالة بشروط رفضها بوجو وقرر وقف التفاوض والخروج للحرب، فخرج واحتل تافنة، وعلم الأمير فأرسل رجاله يستنفرون القبائل للجهاد، وعندما تأكد بوجو من قوة تحرك الأمير وألا قبل له بمواجهته الآن تراجع وقرر العودة للمفاوضات.

وعاد الجنرال بوجو إلى الجزائر في نيسان ـ أبريل ١٨٣٧م مشترطاً عدم رضوخه للحاكم العام بالجزائر، رابطاً علاقته مباشرة مع وزارة الحربية، واستقر في وهران ودخل في مفاوضات مع الأمير عبد القادر، واشتكت الوزارة بأنه كان يتجاوز تعليماتها وبأنه تنازل كثيراً للأمير وكرر يوجو مع الأمير ما سبق أن فعله ديمشال[1].

انتدب الأمير ممثلاً له يتفاوض مع بوجو، وطلب هذا أن يعترف الأمير صراحة بالسيادة الفرنسية على مناطق محددة وتكون للأمير سيادته.

ورفض الأمير شروط بوجو الذي عرض عليه مناطق أخرى لاسترضائه كولاية تيطري، ومن باب إثارة الحزازات بين بوجو والحاكم العام بالجزائر، كان يفاوض الاثنين، فاندلع

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٢.

جدال بين القائدين الفرنسيين حول اختصاص كل منهما، وتدخلت الحكومة الفرنسية فكلفت بوجو بمفاوضة الأمير.

أرسل الأمير مرة أخرى مبعوثاً هو السيد حمادة السقّال رئيس حضرة تلمسان، وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٣٧م وشروطها مختصرة كما يأتي:

أولاً: يعترف الأمير بسلطنة فرنسا على مدينة الجزائر ووهران.

ثانياً: يبقى لفرنسا في إقليم وهران ومزغران وموغران وأراضيها ووهران وأرزيو بحدود معينة يصير كل ما بداخلها من الأراضي للفرنسيين.

ثالثاً: على دولة فرنسا أن تعترف بإمارة الأمير عبد القادر على إقليم وهران وإقليم تيطري والقسم الذي لم يدخل في حكم فرنسا من إقليم الجزائر بحسب التحديد المعين في الشرط الثاني، وألا يمد يده لغير ما ذكر من أرض الجزائر.

رابعاً: ليس للأمير سلطة على المسلمين من أهل البلاد المملوكة لفرنسا، ويباح للفرنسيين أن يسكنوا في مملكة الأمير، كما أنه يباح للمسلمين أن يسكنوا في البلاد التابعة لفرنسا.

خامساً: يمارس العرب الساكنون في أراضي الفرنسيين ديانتهم بحرية.

سادساً: على الأمير أن يدفع للجيش الفرنسي ٣٠٠٠٠ كيلة من الحنطة ومثلها من الشعير بمكيال وهران، وخمسة الآف رأس بقر، يؤدي ذلك على ثلاثة أقساط.

سابعاً: يسوغ للأمير أن يشتري من فرنسا البارود والكبريت وسائر ما يحتاجه من الأسلحة.

ثامناً: على فرنسا أن تتخلى للأمير على أسكلة رشكون ومدينة تلمسان وقلعة المشور مع المدافع القديمة التي كانت فيها.

تاسعاً: تكون التجارة حرة بين العرب والفرنسيين.

عاشراً: يكون رد المجرمين بين الطرفين.

حادي عشر: يتبادل الممثلون بين الطرفين.

بعد التوقيع المعاهدة طلب الجنرال بوجو أن يجتمع بالأمير فعين له هذا مكاناً وتاريخاً، وجاء الجنرال في جيش ضخم قصد التأثير على الأمير، وأعد الأمير عدته وجاء في موكب كبير على رأس جيش يتكون من ١٥٠٠٠ فارس، سائرين بنظام عجيب في سهل يموج بهم وظهر الأمير وقد أحاط به نحو مائتين من رؤساء القبائل ممتطين لخيول عراب، متمنطقين بأسلحة مصقولة والأمير يتقدمهم على جواد عربي أسود من أجمل ما عرف بين جياد عصره، وحوله ستة من السياس. تقدم منه الجنرال فتصافحا ثم ترجلا، ودار الحوار التالي بين الرجلين:

. إنك تكسب أيها الأمير بهذه الهدنة حيث إنني بمدتها لا أخرب المواسم.

. هذا لا يضرنا يا جنرال، حتى إني أعطيك الرخصة بأن تخرب ما تقدر عليه، ولا يمكن لك أن تخرب إلا بمقدار زهيد، ومع ذلك عند العرب حبوب وافرة.

. أظن أن العرب لا يفكرون مثلك فهم يرومون الصلح بعضهم أثنى علي لكوني حافظت على المواسم كما وعدت ومنهم حمادة الصقال.

. فأجاب الأمير مبتسماً: ما هي المدة التي يمكن رجوع الجواب فيها من فرنسا؟

. لا تكون أقل من أسبوعين.

. حيث إن الأمر كما ذكرت فلا نجدد العلاقات التجارية ولا نحدث شيئاً من مقتضيات المواصلة إلا بعد ورود الجواب من فرنسا.

ثم افترق الرجلان، ويروي ابن رابح أحد ضباط الفرسان الذين كانوا في حرس الأمير: أنه عندما وقف الأمير لوداع الجنرال قرّب إليه فرسه الأدهم الشهير ليركبه، وبعد أن صافح الجنرال ونزع يده من يده التفت إلى الفرس وعلا عليه في أقل من لمحة، وحركه بركابه فمرق بين الخيل مروق السهم، واندفع به ثلاث دفعات متوالية وعلى وتيرة واحدة، فانبهر

الجنرال لذلك، وتعجب من سرعة ركوب الأمير وخفة الفرس وبقي واقفاً برهة من الزمان ينظر نظر المتحير ثم ركب فرسه ومضى، وبعد أن سار الأمير على مسافة بعيدة من موضع الاجتماع، أمر الجنرال أحد ضباطه أن يرجع إلى المحل ويأخذ مساحة ما بين تلك الدفعات الثلاث فكانت مساحة ما بين كل منها تقرب من ثلاثين ذراعاً.

نالت اللغة العربية موقعها السيادي بالمعاهدة وهو موقف ثابت للأمير، فقد ورد في نصها ما يأتي: حرر نص المعاهدة على شطرين عربي وفرنسي، فكتب الأمير اسمه بخطه على الشطر العربي وختم عليه بخاتم الإمارة وكتب الجنرال بوجو اسمه بخطه على الشطر الفرنسي بخاتمه الرسمي وأعطى بوجو ٥٠٠٠ بندقية للأمير وصادق الملك لوي فيليب على المعاهدة بتاريخ ١٥/ ٦/ ١٨٣٧م، وقد علق عليها رجال السياسة الفرنسيون: على أنها جعلت الأمير الأقوى بدون نصر عسكري، لكن في ذهن الجنرال بوجو فكرة يعمل من أجلها وهي تأمين جانب الأمير والتفرغ للإعداد لاحتلال قسنطينة وهزم أحمد باي، ثم العودة ومحاربة الأمير. وهذا ما لم يفهمه أحمد باي الذي رفض باستعلاء الانضواء تحت راية الأمير الذي يعتبر أقوى قائد عرفته المقاومة، ولو كتب لهذين الرجلين أن اتفقا لأمكن للتاريخ أن يغير مجراه[2].

وبعد المصادقة على المعاهدة أعطى بوجو أمراً للجنرال كافينياك بإخلاء تلمسان التي دخلها الأمير في موكب مبهر، واستقبله الشعراء بقصائدهم وأنشد هو قصيدة حيا فيها تلمسان ورد فيها:

ونادت أعبد القادر المنقذ الذي

أغشت أناساً من بحار هواها

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٥.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٥.

لأنك أعطيت المفاتيح عنوة

فزدني أيا عز الجزائر جاهاً

وما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته[1]، فتوجه لمحاربة من شقّوا عصا الطاعة.

أ. محاربة من شقّوا عصا الطاعة:

ما إن وضعت هذه المعاهدة موضع التنفيذ حتى اتجه الأمير لتقوية الأوضاع الداخلية لدولته، فتوجه لمحاربة من شقوا عصا الطاعة، وبدأ بقضية محمد بن عبد الله البغدادي، فقد سبق أن حضر هذا الدعي من بغداد قبل سنوات، وزعم أنه من ذرية الولي عبد القادر الجيلاني، وأكرمه الشيخ محيي الدين والد الأمير، واستغل انشغال الأمير في ترتيب أمور دولته فتوجه إلى قبائل الزناخرة وأولاد نائل، والتقى بأكبر مشاغب ضد الأمير وهو مختار محمد بن عودة الذي قدمه على أنه البديل للأمير ووصفه بأنه محمد بن عبد الله المنتظر، فاجتمع له خلق كثير، فقرر الأمير وضع حد لذلك وتوجه له على رأس ثمانية الآف فارس وألف من مشاة وقطع من المدفعية والتقى بالمنشقين في بلاد أولاد مختار، ودامت المعركة ثلاثة أيام تعب فيها الأمير في كسر شوكتهم، ثم نصره الله عليهم.

توالى عليه شيوخ القبائل بالناحية فشفعوا في العصاة فقبل الأمير شفاعتهم وعقد لمحمد بن عودة رئيساً على قبائل الناحية بعد أن طلب العفو.

أما عن البغدادي ففي أثناء هروبه تمكن بعض أنصار الأمير من أسره وتسليمه للأمير الذي عفا عنه أيضاً، فانتقل للمغرب الأقصى واستقر به.

بعد هذا الانتصار قام الأمير بجولة بالجنوب فقدمت له وفود من الأغواط عرضت عليه طاعتها وطلبت منه تعيين من يسوس أمورهم، فعيّن السيد الحاج العربي بن السيد الحاج

[1] المصدر نفسه، ص: ٥١٦.

عيسى الأغواطي، وأقام بالمدية فاستقبل العديد من الوفود التي قدمت له من سائر أنحاء القطر حيث ألقى في الجهاد درساً في التوحيد.

وخرج من المدية على رأس جيشه بهدف تقويم اعوجاج قبائل وادي الزيتون، فهزم جموعهم وأسر رؤساء الفتنة، وجمع العلماء للحكم على هؤلاء الذين سبق لهم أن شقوا عصا الطاعة وشملهم عفو الأمير، فحكم عليهم مجلس العلماء بالإعدام، ومثُل أمامه ١٨ رجلاً منهم لتنفيذ الحكم فيهم فطلب منهم التوبة، فأجاب أحدهم: إن قطع أعناقنا أولى من تقديم الطاعة، فأمر الأمير الجلاد فقطع رأسه، ثم توالى الثاني والثالث فقطعت رؤوسهم إلى أن وصل الدور لشيخ هرم فقدم له وهو يرتعد خوفاً فهجم أطفاله على الأمير ووقفوا يتباكون وبينهم طفلة صغيرة السن خاطبت الأمير بقولها: بحق الله ووالديك وأولادك أن تعفو عن والدي. فلما سمع الأمير كلامها غلبت رحمته على غضبه وأمر بالعفو عن والدها وعن الباقين، واحتضن البنت وقبلها لتسببها في حلمه، وأعلن العفو عمن خالفوه ورد أموالهم لهم، ولما سمعت القبائل المعارضة هرعت إليه وطلبت العفو وعاد إلى المدية بعد أن ثبت كل رئيس قبيلة على قبيلته[1].

ب . التصدي للمتمرد محمد التيجاني:

سبق أن استقبل الأمير وفوداً من قبائل الأغواط الشراقة حيث طلبوا منه قبول انضمام ناحيتهم إلى دولته، فقبل وعيّن على ولايتهم السيد الحاج العربي، لكن محمد الصغير التيجاني رفض الانضواء تحت راية الأمير واستطاع التأثير على بعض القبائل فتبعته، فتوجه له الأمير على رأس جيش يوم ١٢/ ١٨٣٨/٦م قوامه ٦٠٠٠ فارس و٣٠٠٠ من المشاة وثلاثة مدافع وست هاونات ووصل المنطقة بعد عشرة أيام سيراً في الصحراء، وكان التيجاني يتحصن في حصن بعين ماضي، حاول الأمير فتح ثغرة في الحصن، أو نفق يتسلل منه جنوده، لكن المحاولات باءت بالفشل، فقرر فرض حصار منيع عليه دام ستة

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥١٨.

أشهر، وعندما عض الجوع سكان الحصن، ضغطوا على التيجاني الذي أرسل يوم ١٩ نوفبر . تشرين الثاني إلى خليفة الأمير السيد الحاج مصطفى التهامي، يستأمن على نفسه وأهله وسكان الحصن وطلب منه منحه مهلة أربعين يوماً لإخلاء الحصن، فعرض الخليفة الأمر على الأمير، فقبل وأخلى الحصن في التاريخ المحدد وأمر الأمير بتدميره١.

كان محمد التيجاني يعتقد أن الأمير عبد القادر سينهزم وخطب في مريديه بقصره بعين ماضي قائلاً: إن عبد القادر سيفشل بحربه ضد فرنسا حتى إن انتصر لا يفيدنا بشيء فنحن التيجانية خلفاء الله في أرضه٢.

بهذه القناعة كان التيجاني يتعامل مع أمير البلاد الذي كان يعتبرهم من المرابطين على الرغم من ملاحظاته على بعض أفكارهم وتصوراتهم ولكنه اعتبرها بينهم وبين رب العالمين، ولكن عندما قرأ رسالة بخط محمد التيجاني مرسلة إلى المارشال فاليه كتب له فيها: اشغل أنت الأمير من جهة البحر، وأنا سأشغله من جهة الصحراء. هذه الرسالة لم تصل إلى فاليه لأنها وقعت بيد فرسان الأمير أثناء أحد المكائن، ومنذ ذلك الحين والأمير يتحين الفرص لإخضاع هذا المتمرد الذي كان يظنه من المتعبدين فخاب ظنه فيه والذي لم يقتصر عمله على عدم دفع الزكاة التي فرضت على أساس شرعي فقهي، وإنما تطال إلى درجة الخيانة٣.

كان في ذلك المكان من الأغوات جنوب الصحراء نبع ماء منذ أقدم العصور، سمي المكان باسم العين "عين ماضي" شيّد فيه أجداد محمد التيجاني ثلاث مئة بيت وقصراً منيفاً وأبراجاً تحيط بها جدران كثيفة من الحجر، وزاوية تدرس فيها الطريقة التيجانية التي من أهم مبدأ في عقيدتها هو السلام، وهذا ما جعل الأمير وأركان دولته في البداية يظنون بهم الخير والصلاح، ولكن الأيام كشفت حقيقة هذه العقيدة، وأن مفهوم السلام عندهم

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٢١.

[2] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ١١٥.

[3] المصدر نفسه.

هو القبول بحكم الأقوياء حتى لو كانوا من الغزاة المحتلين وتهيئة النفوس لقبول الاستعمار والاحتلال على شرط عدم المساس بهيئتهم الشخصية ومصالحهم الذاتية البحتة، وأيقن الأمير أن الحرب ليست بينه وبين جنرالات المحتلين، فقط وإنما بين قوى الشر أيضاً في البلاد، ومن خيمته داخل الأدغال أخذ يدير أعماله الإدارية، ويوقع على القرارات التي تستوجب توقيعه[1].

اضطر التيجاني نتيجة الحصار إلى التسليم ونزل على شروط الأمير عبد القادر وهي:

. أن يرسل الشيخ أحد أولاده ليظل رهينة عند الأمير ريثما يتم الجلاء عن الحصن.

. أن يدفع الشيخ مصاريف الحصار للدولة.

. له الحق بأخذ جميع أمواله بلا استثناء[2].

فقبل التيجاني هذه الشروط ووقَّع عليها، وأرسل ابنه فأمنه الأمير وأحسن معاملته، وقبل انتهاء المدة كان الشيخ قد خرج بأهله من الحصن، وبعد ذلك بأيام وقبل عودة قواته إلى مراكزها أمر بتهديم الحصن والسور وسائر الأبراج وسواها بالأرض وغور ماء الآبار، فسارعت أكثر القبائل المحيطة بالحصن إلى دفع الزكاة وكاتب وفد منها أمير البلاد وعندما جلسوا بين يديه قال لهم: أيها المسلمون، لقد نصرنا الله على العصاة أيها الرجال إننا نبني دولة تصون أعراضكم وتحميها وتؤمن لكم العزة والكرامة وتحمي أموالكم ودينكم، إن الله سبحانه وتعالى أراد لي تحمل هذه المسؤولية التي ليست مسؤوليتي وحدي إنها مسؤوليتكم وبناء الدولة والمحافظة على نظامها وقوانينها هي جهاد، لأن الجهاد في سبيل الله ليس فقط قتال العدو وإنما أيضاً البناء وتقوى الله فاتقوا الله في أنفسكم وفي دولتكم الإسلامية ونظامها الإسلامي الإلهي العظيم الذي تجدون فيه حلولاً لجميع المشاكل التي تعترض حياتكم الاجتماعية والزراعية والاقتصادية، قفوا بقوة في وجه تحديات المحتلين

---

[1] المصدر نفسه.

[2] المصدر نفسه.

وإغراءاتهم فهي مؤقتة وزائفة فعلت أصواتهم "الله أكبر" وخرجوا وألسنتهم تلهج بالدعاء لأمير البلاد[1].

كانت معاملة الأمير للأسرى الذين وقعوا في قبضته من اتباع التيجاني أثناء الحصار متقدمة ومتميزة فقد كان جلّ هؤلاء الأسرى يقيمون مع المقاتلين بنفس الخيام يأكلون معهم ويصلون خمس أوقات في اليوم معهم، وبعد ايام أعادوهم إلى الحصن، فأخبروا ذويهم عما شاهدوه من قوة جيش الأمير ونظامه، وشاعت هذه الأخبار كالنار في الهشيم بين سكان الحصن، فذهب عدد من المريدين لمقابلة شيخهم قائلين: أنظر ما آل إليه حالنا وأنت الذي علمتنا عدم مجابهة بعثة العدو، وإن كان أقوى منا، وهذا العدو مسلم مثلنا يصلي صلاتنا ويتكلم لغتنا ونحن من بايعناه منذ سنوات، ولقد سمعنا أن الفرنسيين المحاصرين في وهران أضطروا لأكل القطط والفئران نتيجة الحصار الذي فرضه الأمير عليهم فهز الشيخ رأسه وأمرهم بالخروج من الحصن رافعين الراية البيضاء طالبين مقابلة الأمير[2]، وتمّ بعد ذلك ترتيب أمور الاستسلام وفق الشروط التي تمّ ذكرها.

ج. مراجعة علماء المغرب الأقصى:

كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة فأرسل جماعة برئاسة عبد الله سقاط تحمل أسئلة موجهه إلى علماء المغرب الأقصى طالباً منهم الإجابة عليها، وقد أجاب عليها شيخ الإسلام الإمام التسولي. وقبل الاتصال بالعلماء قصدت البعثة سلطان المغرب حاملة رسالة من الأمير.

وكانت الأسئلة تدور حول: كيف تعامل القبائل المنهمكة في المحرمات والعصيان؟ كيف يعاقب الجواسيس والنصاب؟ وما هي الأشياء التي لا يجوز بيعها للنصارى؟ كيف يعاقب

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١١٨.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

العاصي بالمال وما فيه من الخلاف وتضارب الأقوال؟ كيفية تحريم ترك الإمام ونواب الرعية على ما هم عليه من المفاسد وارتكاب المظالم؟ وما هو حكم المتخلف عن الاستنفار للجهاد وما العقاب المسلط عليه؟ وما ينبغي أن يفعله الإمام قبل أن يستنفر الناس؟ ما هي الأمور التي تجوز أن يُتصالح حولها مع العدو؟ ما هي المصادر التي يجوز أن يرتزق منها الجيش في حال فراغ بيت المال في الحال والأبدان والمال؟ ما حكم من ساكن العدو الكفور ورضي بالمقام معهم في ما لهم من البلاد والثغور؟

كان قصد الأمير من هذه الاستشارة القانونية من علماء المغرب إبراء ذمته أمام الله وتجنبه من أن يعاقب خارج أحكام الشريعة، وتقوية موقفه أمام الناس الذين سيشعرون بأن الأمير يطبق عليهم ما أمر به الله بشهادة علماء متعمِّقين في الشريعة وأصول الدين[1].

د. التوسع في بناء الحصون ومصانع الأسلحة:

كانت معاهدة التافنة هدنة مؤقتة يلتقط فيها أنفاسه ويزيد فيها من قوته العسكرية والاقتصادية لا غير ولقد ذكر الصحفي البريطاني شارل هنري شرشل بعضاً من نصوص هذه المعاهدة المهمة وبناء على ذلك اعترف سلطان مراكش عبد الرحمن بن هشام بسلطة الأمير مرسلاً إليه الهدايا الثمينة وكتب ليون روش فقال: لقد خلع المبعوث الرسمي للسلطان عبد الرحمن في ٣ يوليو من عام ١٨٣٩م قفطان المبايعة على الأمير عبد القادر، وهذا يعني اعترافه به كملك مع الهدايا النفيسة، وكذلك حذا حذوه أمير الحجاز وغيره من الحكام الذين اعترفوا بهذه الدولة الفتية[2].

وبهذه الهدنة المؤقتة نظم الأمير الكثير من الأمور التي تَهُمُّ الشعب والجيش، وشيّد الكثير من القلاع والحصون: فأمر ببناء حصن من الخط الفاصل بين السواد والصحراء وحصون أخرى منها حصن سعيدة، وحصن سبدو في الجهة الغربية، وحصن تاكمدت الشهير في الجهة الجنوبية والشرقية وحصن بوغاز، وحصون سبأ وعريب وبو خرشفة وحصن طازة،

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٥.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨١.

وذات جولة مرّ بحصن طازة ورأى المنشآت التي شُيّدت في أقصر زمن وحمد الله وشكره، وارتجل هذه الأبيات وأمر بكتابتها على باب الحصن بخط كبير مقروء:

الله أعلم أن هذا لم يكن
منّي على الأمد الطويل دليلا
كلا وإن منيّتي لقريبة
منّي وأصُّبحُ في التراب جديلا
ورضا الإله هو المنى ويكون
من بعد انتفاعُ الخلق طويلا[1]

كما أن مصانع عديدة أُنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير وأن مطاحن البارود وإذابة الحديد آخذة بالعمل وهي تنتج قناطير من البارود يومياً وأنشئت مصانع كثيرة في قلعة بني راشد وحصن بلال وحصن شرشال، كما تصنع المدافع في تلمسان وغيرها من المدن والحصون.

هذه المعلومات العسكرية، كانت تصل إلى السلطات الفرنسية بواسطة خبراء من جنسيات مختلفة بسرية تامة ويضيف دولا كروا: وإلى الآن يوجد ثلاثة مدافع في متاحف باريس نُقش على سبطاناتها بالخط العربي الجميل "عُمل في تلمسان وقت إمارة ناصر الدين عبد القادر بن محيي الدين سنة ١٢٥٥ للهجرة".

وقد أُمر حينذاك كلُّ من يحصل على بارودة فرنسية أن يسلمها إلى رئيس معامل السلاح ويأخذ ثمنها اثني عشر ريالاً جزائرياً، وجعل الأمير في الحصون الكثير من الكوادر الصناعية لإصلاح الأسلحة وسروج الخيل، وكان أغلبهم من المسلمين القرداحية

[1] المصدر نفسه، ص: ٨٢.

المشهورين بهذا النوع من العمل ووضع الحاميات المسلحة في المضائق والنقط الهامة في البلاد، كمخافر أمن وجعل ألبستها في الشتاء الجوخ الأحمر[١].

كتب الصحفي شرشل فقال: إن هذا الشاب على الرغم من صغر سنه بنى دولة فيها جميع المؤسسات الرسمية التي لم يسبق لغيره أن أسسها قبلُ في تلك البقاع من العالم، ومنها فتح المدارس والمشافي الحكومية.

هـ ـ المارشال بيجو يخشى من توسع دولة الأمير:

أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجني وهزيمة بني عراش أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي، وأنه في طريقه لإنشاء إمبراطورية جزائرية يصعب التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر وما زال يعتبرها مدينة محتلة مع اعترافه بسيطرة الفرنسيين عليها، لأنه أمر واقع ولا يستطيع نكرانه ورسائله إلى الملك تدل على ذلك، وعلى مفهومه للمعاهدة، وبهذا المنطق بدأ المارشال بيجو يقنع زملاءه من المارشالات، والوحيد الذي كان يجد أعذاراً للأمير، كان الدوق أرليون الذي اشتهر بذكائه وصرّح ذات يوم للمارشال فاليه برأيه قائلاً: إنني لا أستطيع المشاركة في أمر يهد السلام مع الأمير عبد القادر ولا أريد استفزازه، وهذه قناعتي ولا أوافق على احتلال مليانة والمدية ونسف المعاهدة ولكن بيجو كان مصمماً على التخلص من المعاهدة بأي شكل[٢].

بعث المارشال بيجو في رسالة في ٢٤ نوفمبر / تشرين ثاني عام ١٨٤١م إلى وزير الدفاع: هل نستطيع أن نجري في كل مكان..؟ هل نستطيع أن نصدّ جميع الضربات؟ هل نستطيع تجنيد مائة ألف رجل لملاحقة رجل واحد هو عبد القادر؟ من الواضح أننا لا نستطيع ذلك مستحيل لذلك يجب علينا الوصول إلى السكان الذين يمدونه بالعون، لا بد من عمل متواصل لحصاره وتقويض أركان قوته من الداخل.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٨٥.

[٢] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢٠.

توهمت فرنسا أن هذه الاتفاقية ستجنبها شروراً كثيرة كانت تتهيب لها، منها دخول قواتها الصحراء واجتياز جبال أوراس الصعبة المسالك والمختلفة المناخ لاحتلال كامل التراب الجزائري، وكما تدل الأحداث كانت تفضلّ بالدرجة الأولى التحالف مع الأمير، ثم تحقيق السيطرة الاقتصادية، ومن ثمّ السيطرة السياسية وهذا أفضل لها من خوض غمار حروب ومعارك دامية طويلة الأمد ترهقها اقتصادياً وعسكرياً ولكن الأمير كان صعب الانضواء مدركاً تمام الإدراك مجريات الأمور[1].

ظل الأمير على هدفه الراسخ وهو أن بقاء الفرنسيين في الجزائر . رغم إنتصاراتهم . إنما هو بقاء السحابة الصيفية وكان يرفض رفضاً قاطعاً الاعتراف بالسيادة الفرنسية على الجزائر في كل المواثيق والمراسلات. وكان على يقين من أن موجة التاريخ وإن تصاعدت مع الفرنسيين في عهده، فإنها ستنحسر وتتراجع لا محالة وتتكشف بعد ذلك عن فظائع ارتكبت في حق الإنسانية تحت غطاء الموجة العاتية، فقد كتب رسالة إلى بوجو سنة ١٨٤١م إن فرنسا ستمضي وسنتراجع نحن، ولكنها بدورها ستضطر إلى التراجع وعندئذ سنعود. وقد شبه الأمير مقاومته وهي في عنفوانها بالموجة التي لا تتأثر بلمسة من جناح طائر: هل تتوقف الموجة عن الصعود والتضخم عندما يلامسها جناح طائر أثناء طيرانه السريع؟ تلك هي صورة مروركم بالجزائر[2]، وبعد ثلاث سنوات من الهدنة وجد كبار السياسيين والعسكريين في فرنسا أن هذه الاتفاقية هي هدنة مؤقتة وليست صلحاً كما أرادوها، وأن الاستمرار فيها ينطوي على أخطار كبيرة على المصالح الفرنسية وتأكدوا أن الأمير عبد القادر بدهائه السياسي وقدراته العسكرية وفريقه المتميز ومجالسه الشورية التي لاحقوها تنمو يوماً بعد يوم، وشعبيته التي تزداد انتشاراً واتساعاً سنة بعد سنة، كان تهديداً لمصالحهم ورأوا ضرورة القضاء عليه بكل الوسائل المتاحة لديهم في مفهومهم الاستعماري وهكذا بدأت الخطط تحاك في باريس وأخذت الإمدادات العسكرية والمالية

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨٦.

[2] حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، ص: ١١.

تتواصل بحراً إلى مدينة الجزائر ووصلت أخبار هذه الإمدادات إلى أسماع الأمير بفضل جهاز مخابراته، فبعث إلى خلفائه في الولايات والثغور ينبِّههم ويحذرهم من غدر الأعداء ويأمرهم بالتأهب للقتال إذا دعت الحاجة لذلك.

كان الأمير يريد إطالة أمد الهدنة، فعمد إلى إرسال رسائل إلى ملك فرنسا يشرح له مساوئ بعض بنود المعاهدة ومغبة انتهاك حرمة البلاد من قبل قواته في بلاد ليست له. ويطلب منه ترك المطامع في التراب الجزائري واحتلاله على الرغم من إرادة أهله قائلاً: وإن ما أقام به أوجبته عليَّ شريعة الدين، الذي أؤمن به وإن واجبي القومي والديني يأمرني بعدم التخلي عن شبر من أرض وطني وقواتكم تحتل قسطاً عظيماً من بلادنا، وتحاول التوسع على حساب شرفنا وكرامتنا وهذه كلها أسباب تلزمنا باستنشاق الحرب وبالله المستعان، فاسحبوا وكلاءكم من بلادنا والمسؤولية عليكم وحدكم. كانت هذه آخر رسالة كتبها الأمير قبل إعلان الحرب[1].

خامساً: استئناف الحرب

قام المارشال بيجو بإرسال قوة مسلحة من جنوده دخلت مناطق دولة الأمير من غير إذن من السلطات، وهذا خرق صريح لبند من بنود المعاهدة ومرت بباب الحديد وجاءت الأخبار عن طريق المختصين للأمير، فكتب إلى سلطان المغرب رسالة حدثه فيها عن استفزازات المحتلين، طالباً منه النصح فجاء جواب السلطان ومختصره ما يلي: بعد الحمد لله وحده والصلاة والسلام على نبيه الكريم ابن عمنا، ومحل ولدنا الذي نظم به الله شمل الأمة وجلّى بنور صدقه الشدائد، حامي حمى الإسلام الأمير المجاهد الحاج عبد القادر بن محي الدين، أيدك الله بنصره وتوفيقه وقد وافانا الوفد من جنابكم وعملاً بحسن ظنكم قابلناه بالقبول الحسن، فأنت والحمد لله من دينك على بصيرة، ومن سياستك على أقوم سيرة، فقد مارست أحوال العدل سلماً وحرباً، واطلعت على بعض

[1] الأمير عبد القادر، سيرته المجيدة، ص: ٨٨.

دسائس الأعداء فأمرهم كله غدر، فكن على بصيرة وأبدي تحبباً ووداداً وانتظر غدراً وعناداً، ولقد فعل ذلك بالأندلس وأهلها، أعدل شاهد وبرهان، وليس الخبر كالعيان، قال تعالى :" خُذُواْ حِذْرَكُمْ" (النساء، آية : ٧١).

وقال تعالى :" وَلاَ تُؤْمِنُواْ إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ" (آل عمران، آية : ٧٣).

وأي خير يحبه العدو للمسلمين، فإذا كانت النهضة لله والعزيمة لنصرة الدين كللت المطالب، وإنما الأعمال بالنيات أيدكم الله بالتوفيق من عنده، ونسأل الله أن يجدد بك الآثار، ويجعلك من الأئمة المهتدين ويصلح بك وعلى يدك، آمين من الولي عبد الرحمن ابن المولى هشام ابن المولى محمد في أواخر ذي القعدة ١٢٥٤هـ وأرسل مع هذه الرسالة عدداً وافراً من الأبقار والأنعام وهدايا من المفروشات وفهم الأمير عبد القادر من جواب السلطان تأييداً لما سيقرر[١].

١. اجتماع الأمير مع أعيان الدولة:

وفي السادس من شهر كانون الأول عام ١٨٣٩م عقد اجتماعاً دعا إليه كبار زعماء القبائل وأعضاء مجلس الشورى ووزراءه وقادة الجيش وأطلعهم على رسالة السلطان عبد الرحمن ورأيه ومرور الجنود من باب الحديد وأمور أخرى تدل على إمكانية الغدر وعدم الوفاء وقال: إنني أقترح إعلان الحرب لئلا نفاجأ بما لا تحمد عقباه، شكل الأمير فوراً وزراء حرب، ولم يفرض ضرائب على السكان مع أن زعماء القبائل عندما سمعوا نداء الحرب تسابقوا لتقديم أنفسهم وأموالهم ولكن لم يطلب منهم شيئاً سوى عدم تقديم العون للمحتلين، وكانت استطلاعات الرأي وحماس السكان حتى في زمن السلم تقول: إن أمير البلاد إن فرض شيئاً لا يكون لنفسه، لأنه مليء بمزارعه في القيطنة وحول قصر كاشرو تمده بأكثر ما تحتاج إليه عائلته من الأموال، وأنه يعيش حياة بسيطة ليس فيها أثر للأبهة

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢١.

والعظمة وعظمة الملوك، وإن واردات الدولة من المناطق الشاسعة بالإضافة إلى الزكاة يبدو أنها ساهمت في بناء الدولة[1].

٢. معارضة بعض القبائل للحرب:

جاءت المعلومات الاستخباراتية للأمير بأن قبائل أولاد نائل وأولاد مختار وموسى وعبيد شكَّلوا وحدة لمعارضة العودة إلى الحرب وأنهم يستعدون لمقاومة الجيش النظامي للدولة، ويجهزون رجالهم، فعرض الأمر على أركان قادة الجيش، وأخذ القرار بالتصدي لهم وأمر أمير البلاد بن علال بتجهيز قوة من ١٢ ألف فارس وعدد من المدافع لمحاصرة تلك القبائل وإرهابهم وفي الموعد الذي حددوه لابن علال خرج من مدينة معسكر وكان قد مضى عليه أسابيع لم يدخل داره فيها، فأرسلت إليه زوجته للعودة إلى الدار وليوم واحد فأجابها برسالة قصيرة كتب لها فيها: أنتِ منذ اليوم الأول لمبايعتي قبلت عقد زفافي إلى أخرى وهي بلادي وما عليك الآن إلا الصبر الجميل، قال تعالى :" وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ" (البقرة، آية : ١٥٥).

دام حصار هؤلاء ثلاثة أيام كانوا خلالها يتحصنون وراء متاريس أقاموها فوق المرتفعات قرب حصن بو غار، وعندما أدركوا أن لا فائدة لهم من تلك التحصينات استسلموا وتقدم ابن المختار شخصياً ورمى سلاحه أمام الأمير وطلب العفو، ولم يكتف الأمير بالعفو عنه وإنما عينه قائداً على تلك القبائل التي هزمت من غير قتال، وهكذا أصبح ابن المختار من أكثر المناصرين إخلاصاً للدولة، وتقدم الزعماء لتقديم الولاء للأمير، والترحيب به وتكونت حول الأمير دائرة واسعة من الرجال فخاطبهم الأمير بقوله: إننا لم نأت إليكم لإخضاعكم بالقوة، وإنما جئت إليكم كمجاهد يقاتل لإعلاء كلمة الله وهزم المحتلين لبلادكم، وإذا قلتم أن أعداءنا أقوى منا فالله سبحانه وتعالى قال :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ الَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَاسِرِينَ" (آل عمران، آية : ١٤٩).

. وقال تعالى :" الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا" (النساء، آية : ١٣٩).

. وقال تعالى :" بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا" (النساء، آية : ١٣٨).

واستمر الأمير بمخاطبتهم بكل ود ومحبة ثم قال: إن الله بشّرنا فذكر في كتابه :" كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ" (البقرة، آية : ٢٤٩).

واعلموا أن الفرنسيين قد تركوا بلادهم وجاؤوا لأخذ أرضنا والاستيلاء على خيرات بلادنا ليزيدوا من رفاهية شعوبهم، غير أننا سنكون الشوكة التي وضعها الله في عيونهم، وإذا وقفتم معي فسنعيدهم إلى بلادهم خاسئين، ولا أطلب منكم سوى المحافظة على قوانين دولتنا الإسلامية، إنني أدعوكم إلى الجهاد في سبيل الله، ولن أولي عليكم إلا من تريدونه وتقبلونه، واقترح بن سالم، ثم طلبوا من الأمير قبول ضيافتهم، ووضعوا أمامه أطباقاً مغطاة باللحوم، من كل قبيلة قصعة، فاضطر الأمير لمجاملة الجميع فتذوق من كل قصعة لقمة وغادروهم ومنذ تلك الزيارة لمناطق جرجرة أصبح اسمه ملهماً لشعرائهم وموضوعاً لأغانيهم الشعبية، وأصبحت قوة الأمن أثناء الهدنة على درجة عالية من اليقظة وبات الناس آمنين في تجوالهم وحياتهم وأصبحت المرأة تستطيع، كما يذكر المؤرخون، أن تخرج وحدها من غير خوف واختفت البدع التي كانت تمارس في الزوايا، وعاد معظم السكان إلى هدي القرآن الذي كانوا مبتعدين عنه، ولم يعد أحد يتجرأ على شرب الخمر أو بيعه، وكذلك الميسر وحرم الغش على التجار وكان رجال الأمن بمثابة المحتسب في فجر الإسلام يتجولون في الأسواق، يراقبون الباعة والأسعار ويمنعون الغش والطغيان والفساد

والمناصب الحكومية لم يكن يشغلها سوى رجال عرفوا بالسمعة الطيبة والنظيفة والشخصية القوية والنسب المعروف، كانوا قدوة يحتذى بهم وحكاماً صالحين[1].

٣. رسائل الأمير إلى ملك فرنسا وقادتها:

عاد الأمير من مناطق جرجرة بعد اطمئنانه على سير الأمور فيها وكلّف لجنة برئاسته بالتحقيق في مرور القوات الفرنسية من باب الحديد ودخولهم مدينة سطيف، وخرجت اللجنة بالتقرير الآتي: عندما شوهدت أعداد كبيرة من الجنود الفرنسيين تتجه نحو مدينة سطيف، أسرعت القبائل المقيمة في ذلك المكان وطلب شيوخهم مقابلة قادة الجنود، فقابلهم كبار الضباط وأطلعوهم على رخص من الأمير بتوقيعه وختمه تسمح لهذه القوات بالمرور كزوار، وطلبوا من يرشدهم إلى باب الحديد، فرأى الشيوخ أن من واجبهم إكرام الضيوف زوار دولتهم، ولم يكن أحد منهم قد سمع بإلغاء المعاهدة والعودة إلى الحرب فأرسلوا معهم من يرشدهم إلى الطريق وهم سعداء بتسهيل زيارة ودية للضيوف، وعادت تلك القوات بعد يومين إلى مدينة الجزائر وكأنها انتصرت، متخيلة أنها احتلت الجزائر كلها، فأقاموا لهم الزينات وقدمت الأوسمة، من جهة أخرى اعتبر أمير البلاد هذا الفعل غدراً ونقضاً هاماً للمعاهدة فأرسل رسالة غاضبة شديدة اللهجة إلى ملك فرنسا، ورسالة أخرى إلى المارشال فاليه الذي قاد الحملة قال فيها: إن القصد من فعلكم هذا إظهار التعدي على حقوقي وما ناقض للمعاهدة مبطل لها، وبناء عليه أعلن لكم أنني عزمت على استئناف الحرب، وبالله المستعان فارفعوا وكلاءكم من بلادي، وأنذروا قومكم المقيمين فيها والمسئولية عليكم وحدكم، إن خرق المعاهدة جاء منكم، وحتى لا تتهموني بخيانة تعهداتي فإنني أخبركم إنني قررت استئناف الحرب، فاستعدوا إذن واتخذوا كل الاحتياطات التي ترونها[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٥.

[2] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٢٦.

٤. نداء للشعب والأوامر إلى خلفاء الأمير:

بينما أمير البلاد كان يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر بنفس الوقت وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب وبزيارات للمستشفيات وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية ويكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له يطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله وتطهير البلاد من المحتلين والغزاة ومما جاء في ندائه الموجه إلى الشعب: ليكن في علم سائر الخلفاء والأغوات والقواد وكافة المسلمين أهل بلادنا الدائنين بطاعة الله ورسوله ثم طاعتنا وفقكم الله للقيام بفريضة الجهاد وأعانكم بالقوة والإمداد، إن الفرنسيين قد ظهر عدوانهم واتضح اعتداؤهم فتجاوزوا الحدود المقررة بيننا وبينهم ومروا في بلادنا بين قسنطينة والجزائر بدون إذن منا، فتأهبوا ـ أعانكم الله ـ للعرب وهيئوا سيوفكم للطعن والضراب، واستعدوا للدفاع عن دينكم ووطنكم، وأجمعوا أمركم للذب عن موردكم وعيشكم وحيث إن ما في بيت المال من النفوذ لا يفي بنفقات الحرب، فقد تعين عليكم أن تفرضوا على أنفسكم ومن يليكم إعانة جهادية، وسارعوا بالحضور إلى المدية، فإنني أنتظركم فيها. واعلموا أن النجاح موقوف على إخلاص النية فوجهوا قلوبكم إلى الله تعالى واطلبوا منه تأييد كلمته وتشييد أركان دينه بكم والسلام عليكم[١].

وأخذ الأمير عبد القادر يعقد اجتماعات يومية للمجلس الحربي ويصرح في كل مرة قائلاً للقادة: إن الوقت كالسيف إن لم نقطع به الوقت قطعنا، وإنني أشعر بإيقاع الزمن الذي يجب علينا استغلاله لصالح دولتنا يجب استدراج العدو إلى المناطق البعيدة عن المدن لئلا تصبح هذه المدن الرائعة ساحات لمعارك دامية وخرائب تحتضن جثث الأطفال والشيوخ والمرضى وتصبح نساؤنا عرضة للقتل أو الأسر، كان الأمير يتحرك بسرعة هائلة ينظم ويتفقد بنفسه حاميات الحصون والمشافي الميدانية، وكان يقول: إن الحاكم الذي لا يهتم

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٨.

بصحة شعبه يعتبر آثماً، ومن الأنظمة التي وضعها للجيش قانوناً يأمر بدقة اختيار الضباط بمواصفات محددة، أولاً: أن يكون الضابط صحيح البنية، ينحدر من أسرة معروفة أصيلة، لم يتهم بخيانة أو قتل مثقفاً دينياً، يقوم بالفروض المعروفة في الشرع ويمتاز بالشجاعة متخلقاً بالأخلاق الإسلامية ورابط الجأش، ونظام الحاميات في الحصون يلزم الضابط بالعيش مع جنوده يشاطرهم معيشتهم ويشرف على تدريبهم اليومي ومن مهمات هذه الحصون أيضاً حماية المدن ونصب الكمائن للعدو، ويذكر المؤرخون أن هذه الإستراتيجية غطت جوانب عسكرية عديدة هجومية ودفاعية، وبعد استكمال الأمير لهذه الجولات الميدانية والتنظيمات الإدارية والعسكرية والسياسية صدرت أوامره إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو[١].

٥. الزحف إلى معسكرات العدو وحصونه:

في السادس من شهر كانون الأول سنة ١٨٣٩م عقد الأمير اجتماعاً دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال وصدرت الأوامر إلى القيادات العسكرية بالزحف إلى معسكرات العدو وحصونه وعُيّنت أماكن وخطط وبرنامج مدروس لكل فرقة، وقبل أن تعطي ساعة الصفر تحرك الأمير على رأس فرقة نحو الشعة الذي كان الحد الفاصل في أثناء الهدنة واشتبك هناك أو تلك الأحراش مع القوات الفرنسية وانتصر عليها وأمر بتشديد الحصار على مدينة وهران، وكلّف عدداً من فرسانه النظامية مراقبة جميع الطرق المؤدية إلى وهران واعتقال كلّ من يحاول فك الحصار والتجارة مع الأعداء المحتلين وقد كان أول من دفع حياته ثمناً للخيانة السيد المدني قاضي أرزيو الذي بعث إلى الحامية الفرنسية قطيعاً من الأغنام يبلغ عدده ٣٠٠ غنمة و ٥٠٠ جواد، وحوكم ومن ساعده ونُفذ فيهم حكم

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٨٩.

الإعدام بالرصاص وحاصر "عين مالفي" واحتلها ثم تحرك على رأس قوة من فرسانه المشاة، وهاجم قبائل الدوائر والزمالة في ضواحي وهران واكتسح معسكراتهم، وأسر الكثير من رجالهم[1]، وانطلق ابن سالم بقبائل الحجاجطة وغيرها فاكتسح المتيجة وهدم سائر المزارع والمعسكرات ودمر في أيام ما بناه الفرنسيون في سنوات، وتحولت بوفاريك من قرية كولونيالية نموذجية إلى مقبرة دفنت فيها كل مشاريع الاستيطان.

ولم تكد تنتهي سنة ١٨٣٩م حتى هرب الكولون الناجون من القتل من المتيجة داخل مدينة الجزائر، فقد طاردهم المجاهدون حتى حديقة التجارب ثم عادوا إلى موقعهم بالمغانم والسلاح والذخائر[2].

وقد وصلت هذه الأخبار إلى بيجو الذي استشاط غضباً واستولى عليه الهلع، وجاء في التقرير السري الذي أرسله رجال الاستعمار إلى وزير الدفاع في باريس: إن الأمير عبد القادر يتابع ملاحقة جيشنا الذي هُزم في سيدي إبراهيم والمئات من جنودنا يتسابقون في أثناء الانسحاب إلى نواحي أرزيو وهم في غاية الإنهاك والخوف، ولم يبق إلا عدد قليل لم يقتل أو يؤسر[3].

أ. تحرك المارشال فاليه الحاكم العام:

في فبراير. شباط ١٨٤٠م تحرك المارشال فاليه الحاكم العام على رأس جيش ضخم نحو المدية، فاحتل البليدة، ثم قصد المدية فاعترضه خليفة الأمير بمليانة وناشبه الحرب واتصل القتال يوماً كاملاً، ولحقت أضرار جسيمة بالفريقين ثم عاد المارشال للجزائر وفي ١٥/ ٣/ ١٨٤٠م احتل الجيش الفرنسي شرشال وعلى رأسه المارشال فاليه وكانت عبارة عن قرية صغيرة يسكنها البربر والكراغلة وقبل أن يصل شرشال اعترضته القبائل القريبة منها

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٨٩.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٢٨.

[3] المصدر نفسه

وأوقفت تحركه أياماً جعلت المارشال يفكر في العودة دون دخول شرشال، وتمكن من التقدم بعد أن كبده المقاومون خسائر جسيمة، ثم عاد المارشال للجزائر بعد أن ترك بها حامية، وكانت الإمدادات تتواصل من فرنسا إلى قواتها بالجزائر وفي أفريل ـ نيسان وصل الجزائر من فرنسا ابنا الملك الدوق دومال والدوق دورليان على رأس جيش ضخم فخرج جيش قوامه ١٢٠٠٠ جندي بقيادة المارشال فاليه إلى المدية يصحبه ابني الملك، وكان الأمير بها فتحرك منها ورابط في مضيق موازية، واصطدم بالعدو ١١/ ٥/ ١٨٤٠م ودامت المعركة حتى سقوط الليل وفي الغد استؤنفت الحرب والتحم الجيشان واستعملت السيوف والحراب والخناجر، وتمكن العدو من اختيار المضيق وتقدم المجاهدون يناوشونه نحو المدية، وكان كلما وصل غابة أو وادياً استقبله المجاهدون بكمين، وعندما أحس الأمير بأن جيش العدو واصل المدية أمر بإخلائها فغادر الناس منازلهم نحو الجبال المحيطة بالمدينة بما خف وزنه ودخل العدو المدية يوم ١٨ مايو ـ أيار وبعد أن ترك بها حامية من ٥٠٠٠ جندي وعلى رأسها الجنرال دوفيبه وعاد للجزائر واصطدم بالكمائن والقنص التي كان ينصبها له الأمير من قمم الجبال وأطراف الوديان وغابات الزيتون، واستغرقت عودة الأعداء اياماً قضوها في أهوال، وقرر ابن الملك الدوق دورليان التوجه نحو مليانة فقتل في إحدى المعارك في الطريق فأشاع الفرنسيون أنه وقع من عربته فمات وقد سميت مدينة الأضام فيما بعد باسمه[1].

وعندما علم الأمير بتوجه العدو إلى مليانة تقدم نحوها بسرعة فوصل لها قبل العدو وأمر سكانها بإخلائها، واعترض المجاهدون الجيش الفرنسي على طويل ففرضوا قوته بحيث وصل مليانة منهوكاً وذلك يوم ٥/ ٦/ ١٨٤٠م. وكان المارشال فاليه قد أرسل وهو في الطريق رسائل إلى قبائل الناحية يدعوها فيها لطاعة الدولة الفرنسية، فأجابه شيوخ القبائل المذكورة برسالة جاء فيها: لقد ارتكبتم عظيم الذنب بتعديكم على بلادنا أولاً، ثم

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٠.

سعيكم في تغيير ديننا، أما علمتم أن سائر الأديان والنواميس الأزلية تأمر بالعدل وتنهى عن الظلم والتعدي على الحقوق، كما هو منصوص عليه في الإنجيل الذي أرسله الله على نبيه ورسوله عيسى على نبينا وعليه السلام، فلو كنتم على دينه كما تدعون ما قطعتم البحر إلينا لتأخذوا بلادنا وتغيروا ديننا[١].

ويعترف الفرنسيون بالخسائر الرهيبة التي تكبدوها وهم يحتلون الجزائر قرية قرية، فقد لخص بيسكا توري الكاتب السابق للجنة الخاصة للتحقيق في معاناة الفرنسيين هذه فقال: إن أفريقيا هي الخراب في السلم، والإنهاك وقت الحرب إن أفريقيا هي الشؤم هي الجنون.. وإذا تقرر الدفع فيها بدون حدود فأنا مع هجرها والتخلي عنها، وفي ١٨٣٩م يكتب الجنرال كفينياك يقول: إن المقاومة الجزائرية في فكر الشعب، تتمثل في مقته للمحتل.

وهكذا احتل فاليه ثلاث مدن بخسائر كبيرة وترك حاميات بها عجزت عن الربط بينها وفرضت عليها كوكبات فرسان الأمير المتحركة سجناً داخل ثكناتهم ينهشهم الجوع والمرض[٢].

وبسبب حرب الجزائر عملت بريطانيا على عرقلة النفوذ الفرنسي، ففي اتفاقية لندن ١٥/ ٧/ ١٨٤٠م أي بعد نقض معاهدة التافنة مباشرة، عزلت فرنسا ولم يسمح لها بالمشاركة فيها بحيث شاركت فيها الدول الكبرى الأربع فقط وهي: بريطانيا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا، وأمام هذه الخسائر الجسيمة التي تكبدها الجيش الفرنسي تحت قيادة الجنرال فاليه لدى احتلاله للمدن الأربع وقتل ابن الملك، قررت الحكومة إعفاء فاليه، وتعيين الجنرال بوجو حاكما عاماً للجزائر يوم ٢٩/ ١٢/ ١٨٤٠م ورأى بوجو تصفية مقاومة الأمير واحتلال الجزائر بالكامل، عسكرياً واستيطانياً تحت راية المسيحية التي جسدتها

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٠.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٣١.

البابوية التي ترى ـ كما كتب جوليان ـ ضرورة افتكاك الأرض التي شرفها القديس أوغستين من البرابرة[1].

ب ـ الجنرال بوجو يطبق خطة تدمير الريف وحرقه:

لقد فهم بوجو بعمق أسلوب الأمير في الحرب المتمثل في تجنب المعارك الكبرى المفتوحة، واعتماد الغارات الخاطفة ولهذا فقد غير تكتيك الجيش الفرنسي وجعله يعتمد على المشاة في وحدات خفيفة صغيرة سريعة المناورة والتنقل المرتكزة على أدلة جزائريين بقيادة ضباط المكتب العربي بالجيش الذين يتكلمون العربية ويعرفون تقاليد البلاد، وكان يكره المدفعية ويرى لا فائدة منها في حرب الجزائر المؤسسة لا على المدن وإنما على الريف المزروع بقنابل يدوية فرحل وأمر بالتوقف على استعمال العربات واستبدالها بالبغال والجمال لحمل الأثقال، ويرى أساس كل هذا تدمير البنية الاجتماعية للشعب بتدمير الريف والقبائل بحرق حقول حبوبه في مواسم النضج وقطع اشجاره المثمرة ومعاقبة كل قبيلة مقاومة بتجريدها من أرضها وتمليكها للكولون وطردها للصحراء وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، بحيث يقدر عدد الذين قتلوا من الجزائريين نصف تعداد السكان الذي قدر عدده سي حمدان خوجة سنة ١٨٣٣م بعشرة ملايين نسمة.

كانت سياسة بيجو: دمّر، إحرق، انهب، وعمل على حرمان خصومه من مواردهم وأرزاقهم حتى أن سكان مقاطعة وهران اضطروا ذات ليلة إلى اللجوء مع أطفالهم ومرضاهم إلى ثلوج جبال أطلس وعمدت القوات الفرنسية التي كانت تراقبهم إلى إغلاق منافذ المغاور التي لجأ إليها هؤلاء السكان في أعالي الجبال وذلك بأغصان الأشجار ـ اليابسة ـ ثم أوقدت فيهم النار فمات من بداخلها خنقاً بالدخان وشدد بيجو هجماته

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣١.

على المجاهدين بشكل لم يسبق له مثيل، محاولاً احتلال بعض القلاع وقام بحرائق ومذابح يندي لها جبين الإنسانية[1].

وفي مراسلة للأمير إلى بوجو قال له: عندما يتقدم جيشك ننسحب، وعندما تنسحب نتقدم، نحارب عندما نرى ذلك مناسباً لنا، أنت تعرف أننا لسنا جبناء. إن مواجهة قواتك الضخمة مباشرة جنون ولهذا نقوم بإنهاكها ثم نطاردها ونجهز عليها ويكمل ما تبقى من جيشك المناخ.

ويقول الضابط سانتارنو: إذا طاردناهم يطيرون كالعصافير، وعندما نذهب يتبعوننا.

ج الإمدادات من فرنسا واستمرار بوجو في التدمير:

وصل بوجو للجزائر يوم ٢٢/ ٢/ ١٨٤١م ومعه ٨٨٠٠٠ جندي علاوة على ما هو موجود بالجزائر، وما أن وصل حتى أرسل له الأمير رسالة جاء فيها: أعلموا أنني بعونه تعالى وقوته لا أخشى كثرتكم ولا أعتبر قوتكم لعلمي أنكم لا تضرونني بشيء، إلا أن يضرني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدره الله علي وقضاه وإني منذ أقامني الله في هذا الأمر وجعلني ضداً لكم ما قاتلتكم بعسكر يكون عدده ثلثاً من عساكركم التي تكافحونني بها، ومدة ملكي كما لا يخفى ثمان سنين ومدة ملككم يتعدى مئات السنين، وعساكركم كثيرة وآلاتكم الحربية قوية، أنا أعرض عليكم أن يخرج ابن الملك ليبارزني، فإن غلبته تتوجهون بعساكركم إلى بلادكم وتتركون سائر المدن التي في أيديكم الآن بما فيها من الذخائر والمهمات، وإن غلبني فإنكم تستريحون مني ويبقى لكم الوطن من غير منازع استمرت المعارك مع الجيوش الفرنسية وكانت خطط الأمير عبد القادر متنوعة ومتجددة وهزم الجنرال بيجو في معركتا إيالة ووهران ومتيجة على الرغم من كثرة جنوده وحداثة أسلحتهم وفي شهر أيلول جرت معركة مريرة قرب مستغانم خسرها أيضاً

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٥٣٢.

العدو الفرنسي وعلى إثر هذه الهزيمة طلب المارشال فالي المزيد من الإمدادات العسكرية من فرنسا، وفي السابع والعشرين من ذي القعدة وصل عشرون ألف جندي مدرب، فسار بهم من مدينة الجزائر ماراً ببليدة ومنها سار نحو المدية فاعترضته حاميتها ونشبت معركة دامت يوماً كاملاً من دون أن يحقق المارشال أي تقدم وخسر في هذه المعركة ما يقارب من ثلاثة الآف جندي بين قتيل وجريح وقد وصف أحد الصحافيين الحربيين هذه المعركة بقوله: مع أن قواتنا كانت أضعاف قوات العرب، تقهقر جنودنا من المشاة النظاميين أمام هجمات قوات الأمير، فقد انقض العرب على القافلة التي كانت في الوسط كالسيل غير آبهين بالرصاص مما اضطر جنودنا لقطع الأحزمة والفرار بينما كان البعض يسقط في الأراضي الموحلة مما جعلهم يسيحون فيها وحتى مؤخرة الجيش أصابها الهلع، إذ لم تتوقع أن تكون ضربات العدو بهذه القوة[1].

ووصف الدوق أرليون أيضاً هذه المعركة فقال: هذه الجموع الكبيرة من قواتنا أصابتها البلبلة ولم تستطع الصمود فلاذت بالفرار، وبقيت تدور حول نفسها في ضياع ولهاث، فقد انتاب هذا الجيش نوع من الهذيان إذ كنا نرى بعضاً منهم عراة مجردين من السلاح يجرون ويصيحون بأعلى أصواتهم أمام الغرب. والبعض الآخر لم يعودوا يبصرون فألقوا بأنفسهم في نهر ليسيحوا فيه وآخرون انحنوا أمام الشمس يلتمسون العون، علَّهم فقدوا شعورهم حتى بغريزة البقاء[2].

كانت قوة الأمير عبد القادر تكمن في استحالة العثور عليه إنها في المكان الرحب الواسع، في حرارة شمس أفريقيا المحرقة، في مكان ندرة المياة، إنها أيضاً في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا[3].

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٩٥.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ٩٦.

[3] المصدر نفسه، ص: ١٠١

لقد اعترف خصومه القادة العسكريون بعبقريته الفذة وأظهروا إعجابهم بالأمير مثل المارشال بيجو ولامور سبير وشاغارنيه وكانوا يتساءلون: الحرب مستمرة ولكن هل يمكن أن نتساءل عمن يستحق مزيداً من الإعجاب؟ أهم جنودنا المدربون الشجعان المجهزون بأحدث الأسلحة؛ أمام الرجل الذي يقاتل مليوناً وستمائة ألف جندي بأقل من عشرة الآف جندي محارب؟

فارس ينزلق بين كتائبنا ويضرب القبائل المتعاونة معنا في المؤخرة ويدمّر أجنحتنا ويُفلت منا في حالات كثيرة، في الوقت الذي نظن أنه لاشك واقع في أيدينا ويشتت صفوفنا[1]؟

قال الجنرال بيجو عن الأمير عبد القادر: خصم صنديد نخشى بطشه.

ومنذ فترة وقعت في يدي رسالة من جندي قتيل كان يودُّ إرسالها إلى أهله في فرنسا سنة إحدى وأربعين. كتب: إلى والدي وإخوتي أخبركم بأن حياتي في خطر، إننا متجهون من مدينة الجزائر إلى المدية ومليانة ولاشك أننا سنصادف أخطاراً ومهالك ولا أدري هل أعود أم لا. ولا يخفى أن الموت ينتظرنا في كل مكان واحتماله قريب، يوجد عندي ألفا فرنك أريد إعطاءها لوالدي لينفقا منها على أولادي، ولا يتركاهم بلا ألبسة جديدة. ثم أقول لكم إن رصاص العرب يصبُّ علينا كالمطر وسيوفهم تحصد رؤوسنا بقوة، هذه هي حالنا هنا.

هذه هي حال جنودنا ولكن إن استطعنا الوصول إلى جبهة العدو الداخلية وتمكنا من تفتيتها نكون قد حققنا نصراً كبيراً[2].

بعد الإخفاق الذريع الذي مني به المارشال بيجو بدأ عملياً بإعداد خطة جديدة، تضمنت حملات عسكرية وغير عسكرية الغاية منها تفتيت الوحدة الوطنية ونشر الإشاعات الكاذبة وتضليل السكان ورجال القبائل وخلق معارك جانبية لا صلة لها بالدفاع عن الوطن، وقد استخدم العدو من جهة أخرى طرق التعذيب والترويع إلى

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٣.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

جانب الترغيب السخي بالأموال والمراكز ونجح بيجو في هذا المجال بعد أن أخفق عسكرياً مدة خمسة عشر عاماً متوالية[١].

٦. خطة بوجو الجديدة الزحف الشامل:

أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر وعقد الجنرال بوجو مجلساً عسكرياً وخاطب قواته قائلاً: إن الأمير عبد القادر كما ترون قد نزل بجيوشه من جبال وانشريس وأصبح قرب التلال، وقد استعاد سائر بلاد الشلف ونهر مينة الجنوبية وأصبحت في قبضته وجميع من يحاذيها من عرب وبربر لم يخرجوا عن طاعته: لذا يجب علينا الخروج دفعة واحدة من قواعدنا في مدينة الجزائر واحتلال المدن والحصون مهما كلفنا ذلك من خسائر[٢]، وبعث بيجو بالرسائل إلى زعماء القبائل فجاءه رد من زعماء الشراقة والغرابة كبني ثقران وبني غدوة وهذا نصُّ الجواب:

إلى من اتبع الهدى:

لقد وصلنا تحريرك وفهمنا مرادك وهو دعوتنا إلى طاعتكم على أن تجعلوا بلادنا سعيدة مباركة ونحن نجيبك أن لا سعادة توازي سعادتنا بالجهاد وحماية الوطن والثبات في وجه مخططاتكم وإن ديننا يأمرنا بالدفاع عن البلاد، ويعدنا بالجنة عند الاستشهاد ويجب أن تنظروا إلى سلطاننا كما ننظر له نحن، فهو يقاتلكم بقوات قليلة العدد والعدة، فلا مزية لكم علينا وأنتم تملكون خزائن الذهب ودولتكم قديمة منذ ألف سنة وهي تجمع الأموال وتهيىء الجيوش وجئتمونا بأعداد من الجنود بعدد نفوسنا وأشجارنا ومواشينا وجبالنا، فلا مزية لكم ولا فخر بأن تخرجونا من دورنا وتحرقوا أغلالنا وتغتصبوا أراضينا ومهما طال الزمن فالنصر لنا، لأن حربكم ظالمة لا تكافؤ فيها ثم تعدوننا بأموال الدنيا والله سبحانه

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

وتعالى وعدنا بالجنة في الآخرة، هذا جوابنا: حُرر في العشرين من ربيع ثان والحادي عشر من حزيران في سنة ١٨٤١م[١].

وفي منتصف ذلك العام وصلت الحشود الهائلة من فرنسا واجتمع بوجو بهيئة حربه وقال لهم ما خلاصته:

. نستولى على سهولهم التي ترعى فيها ماشيتهم ويزرعونها.

. نختار النقاط الإستراتيجية ونبني فيها مراكز تشرف على الطرق التي تتنقل عبرها.

. نضع وحدات قوية في الحدود الفاصلة بين المناطق.

. لا بد أن يتعلم ضباطنا العربية.

أمر بتقوية التحصينات وبناء تحصينات جديدة حول المناطق التي يحتلونها مثل متيجة، وأمر لامور يسيير في تطبيق الإبادة "الرازية" على القبائل، كان يأخذ من القبائل كل ما تملك: المواشي، النساء، الأطفال، وكان يستخرج من المطامير الحبوب المخزنة ويأخذها أو يتلفها عين المارشال بوجو على الجهة الشرقية الجنرال بركو باي ديلي، والجنرال بارتسمي على منطقة الجزائر، وتوجه بالقسم الأكبر من الجيش إلى مستغانم يرافقه دتيمور والدوق دومال، وبعد إقامته أياماً في مستغانم غادرها نحو قلعة تاكدمت عن طريق مجاهر، فأمر الأمير عبد القادر أهلها بالجلاء عنها حاملين ما خف من الذخيرة الحربية والمؤن، وكانت وحدات فرسان الأمير تناوشه على طول الطريق ودخلها في ٢٥/ ٥/ ١٨٤١م فوجدها خالية، ثم توجه منها إلى معسكر التي أخلاها سكانها أيضاً، ثم عاد إلى مستغانم، وفي عودته ترصد له الأمير عند فج عقبة خده وفج فرقوف ودارت معركة في الفج الأول طوال النهار خسر فيها الطرفان العديد من القتلى والجرحى، واستغل بوجو سقوط الظلام وانسل عبر الفجين.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

أرسل الأمير عبد القادر لبوجو رسالة قال فيها: إني أراك أيها الحاكم تبذل جهدك في تعطيل مواسمنا لتقل الحبوب عندنا، ظناً منكم أن ذلك أقوى سبب لخضوع أهل البلاد والحال أن هذا ليس بشيء عندهم، فإن هممهم ليست متعلقة بلذائذ الأطعمة والأشربة مثلكم، بل يكفيهم ما يسدون به رمقهم ويقيم أودهم على أنه يوجد عندهم من صنوف الحبوب المحفوظة في الآبار المعدة لها ما يكفيهم سبع سنين آتية، وما تأخذونه أنتم فهو جزء من جملة أجزاء، ولا أراكم في هذا إلا كمن ملأ قدحه من البحر. وبالجملة فنحن لا نترك قتالكم ما دمتم في طغيانكم، والحروب قد تربينا عليها فنحن أهلها من المهد إلى اللحد، وحروبنا كما علمتم لا نرجع فيها إلى قانون يحصرها، بل نحن فيها مخيرون مطلقون نصرفها كيف ما شئنا، آخر يونيو ـ حزيران ١٨٤١م.

بعد أن قضى بوجو أسابيع بمستغانم إثر عودته من واقعة عقبة خدة خرج بجيوشه بين ١٩/ ٩/ و ١٩/ ١١، إلى شمال ولاية معسكر فتفقد قبائل أولاد خليف وصبح غيرها التي دانت له بالطاعة، ثم قصد قبيلة هاشم بسهل إيغرس فدمر منازلها وأحرق مزارعها ثم قصد سعيدة التي خطها الأمير وأسكن فيها مهاجري مستغانم ودخلها فوجدها خالية فقد أخلاها أهلها، فدمرها وأخضع القبائل القريبة منها كأولاد إبراهيم والحساسنة والجعافرة وحاول فرض باي من طرفه على القبائل لكنه فشل وتجنب الأمير مقاتلة بوجو فتوجه إلى قبائل الدوائر الزمالة قرب وهران العميلة للعدو فحاربها وغنم منها، وعلم بوجو ذلك فعاد إلى وهران وكتب بوجو رسالة إلى رؤوساء قبائل الشراقة والغرابة وبني شقرون وبني غدو يدعوهم إلى الطاعة فأجابوه برسالة طويلة جاء فيها: من القبائل المتمسكين بدينهم الإسلامي الوثيق العرى إلى النصراني بوجو.. قد وصلنا مكتوبك الذي تركته في موضع نزولك من بساتين بني يخلف.. وأما بلدنا فليس لكم في الاستيلاء عليها نتيجة،

وهب أنكم استوليتم عليها وأقمتم فيها ثلاثمائة سنة مثل من ملكها قبلكم، فإنكم لابد وأن تخرجوا منها كما خرجوا وتمسوا كأمس الذاهب في ٢٠/ ٦/ ١٨٤١م[١].

أ. سقوط مدينة تلمسان:

كان عام ١٨٤٢م عاماً ساخناً مليئاً بالأحداث الخطيرة المؤسفة، فقد أخذ ميزان القوى يختلّ بشكل كبير يوماً بعد يوم، بعد ذلك الجسر البحري الذي امتد عبر المتوسط من فرنسا إلى ميناء مدينة الجزائر المحتلة حاملاً الجنود المدربين والعتاد وأجهزة الدمار، وأدرك المجاهدون الخطر الذي يواجههم وعلم الأمير أن المدن وقواعده المحصنة تكاد تصبح مهددة، وفي التاسع من شهر كانون حملت إليه رياح الحرب أخبار حملة يُعدّها المارشال بوجو لاحتلال مدينة تلمسان فأمر بإخلائها لأنها مدينة مفتوحة ولا يمكن الدفاع عنها وأمر أيضاً بتدمير المصانع المتواجدة فيها لئلا يستفيد منها العدو، وتمّ ذلك قبل وصول العدو إليها، وأما السكان الذين بارحوها فلقد عادوا إليها ليلاً وقدموا الطاعة للعدو[٢].

ب. مطاردة القبائل:

وبعد احتلال تلمسان خرج بوجو لسبدو فدخلها ودمرها وجرت بينه وبين القبائل المحيطة بها حروب وتمكن من هزيمتها فعبرت له عن طاعتها ثم عرج على نواحي سعيدة، ثم قصد بلدة القيطنة فأحرقها وهي بلدة عائلة الأمير اختطها جده مصطفى بن المختار سنة ١٢٠٦هـ ووصفها النقيب دي مونرون فقال: تلك البلدة مبنية بوسط واد يانع بالأزهار تندهش منه الأبصار، وكان لا يظن أنه يوجد بأقصى أفريقيا أبنية محكمة البناءة كأبنيتها.

وبعد أن سيطر بوجو في خرجاته على النقاط الإستراتيجية وإخضاع قبائل الجبال بين ندرومة وتافنة وأسس منها "جامعة قبائل ندرومة" تحت شعار "حلفاء لا مهزمون" متبعاً أسلوب الأمير، قسم جيشه إلى ثلاثة أقسام:

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٥.

[٢] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٠٥.

. قسم تحت نظره ومركزه في نواحي الشلف.

. والثاني تحت قيادة الجنرال شانكرني ويكون مركزه البليدة.

. والثالث تحت قيادة الجنرال لاموريسيير ويكون مركزه معسكر.

وفي آخر الشتاء خرج كل إلى المنطقة المحددة له، وراحوا يطاردون القبائل التي تركت منازلها وارتحلت إلى الصحراء: كانوا يستولون على مواشيها ويحرقون أكواخها وخيامها ويفرغون مطاميرها من الحبوب في عمليات إبادية عرفت باسم "الرازيا" تستهدف ضرب مصادر قوت وحياة القبائل وفرض الطاعة عليها، فبوجو مثلاً أرسل تهديداً للقبائل المقيمة بين سفوح الشفة والبحر غرب متيجة بأنه سوف لا يكتفي بحرق حقول الحبوب، بل سيقطع الأشجار المثمرة. ومع هذا فإن القبائل التي تنضم مرغمة للفرنسيين تتمرد عليهم بمجرد أن تسنح الفرصة لذلك[١].

٧. فظائع الجيش الفرنسي:

ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازيا يروي العقيد مونتانياك قائلاً: أخبرني بعض الجنود أن ضباطهم يلحون عليهم ألا يتركوا أحداً حياً بين العرب، كل العسكريين الذين تشرفت بقيادتهم يخافون إذا أحضروا عربياً حياً أن يجلدوه.

ويقول النائب البرلماني طوكفيل: إننا نقوم بحرب أكثر بربرية من العرب أنفسهم، لم نستطع هزم العرب حربياً فهزمناهم بالتدمير والجوع.

ويقول مونتانياك: لقد محا الجنرال لاموريسيير من الوجود خمسة وعشرين قرية في خرجة واحدة، إنه عمل أكثر انعداماً للإنسانية ويروي: فمجرد أن حدد موقع القبيلة انطلق سائر الجنود نحوه ووصلنا الخيام التي صحا سكانها على اقتراب الجنود، فخرجوا هاربين نساء وأطفالاً ورجالاً مع قطعان ماشيتهم في سائر الاتجاهات، هذا جندي يقتل نعجة،

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٦.

بعض الجنود يدخلون الخيام ويخرجون منها حاملين زرابي على أكتافهم، بعضهم يحمل دجاجة تضرم النار في كل شيء يلاحق الناس والحيوانات وسط صراخ وثغاء وخوار، إنها ضجة تصم الآذان، شهدت مدينة معسكر يوم ١٩/ ١٢/ ١٨٤١م الفظائع و"الرازيا" كما يسميها الفرنسيون لا تهدف إلى معاقبة المخطئين وإنما صارت مصدراً لتموين الجيش، كان كل ما ينهب يباع ويوزع ثمنه على الضباط والجنود ربع الغنائم للضباط والنصف للجنود[١].

يقول النقيب لافاي: كان الضباط يخيرون الفلاحين بين أن يقدموا لهم الأكل أو الإبادة، كنا نخيم قرب القرية، يعطيهم الجنرال مهلة لإعداد الطعام أو الموت، كنا نوجه سلاحنا نحو القرية وننتظر ثم نراهم يتوجهون لنا ببيضهم الطازج وخرافهم السمينة ودجاجاتهم الجميلة وبعسلهم الحلو جداً للمذاق[٢].

يعلق ش.أ. جوليان: وتنتشر الرازيا فتصير أسلوباً للتدمير المنظم والمنهجي الذي لم يسلم منه إلا لأشخاص ولا الأشياء. إن جنرالات جيش أفريقيا لا يحرقون البلاد خفية، إنهم يستعملون ذلك ويعتبرونه مجداً لهم سواء كانوا ملكيين أم جمهوريين أو بوناپارتيين.
يقول مونتانياك: إن الجنرال لاموريسيير يهاجم العرب ويأخذ منهم كل شيء: النساء والأطفال والمواشي، يخطف النساء، يحتفظ ببعضهن رهائن والبعض الآخر يستبدلهن بالخيول، والباقي تباع في المزاد كالحيوانات، أما الجميلات منهن فنصيب للضباط[٣].
ويروي الضابط المراسل لسانت أرنو: إن بلاد بني مناصر رائعة، لقد أحرقنا كل شيء ودمرنا كل شيء، آه من الحرب، كم من نساء وأطفال هربوا منا إلى ثلوج الأطلس ماتوا بالبرد والجوع.. إننا ندمر، نحرق،ننهب، نخرب البيوت ونحرق الشجر المثمر.

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦١.
[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٦٢.
[٣] المصدر نفسه، ص: ٥٦٢.

يقول مونتانياك: النساء والأطفال اللاجئون إلى أعشاب كثيفة يسلمون أنفسهم لنا نقتل، نذبح، صراخ الضحايا واللاقطين لأنفاسهم الأخيرة يختلط بأصوات الحيوانات وهي تثغو وتخور، كل هذا آت من سائر الاتجاهات، إنه الجحيم بعينه وسط أكداس من الثلج، إن كل ذلك من العمليات التي قمنا بها تثير الشفقة حتى في الصخور إذا كان عندنا وقت للشفقة، وكنا نتعامل معها بلا مبالاة جافة تثير الرجفة في الأبدان، يقول الجنرال كاروبير: ينفذ جنودنا هذا التدمير بحماس، إن التأثير الكارثي لهذا العمل البربري والتخريب العميق للأخلاق الذي يبث في قلوب جنودنا وهم يذبحون ويغتصبون وينهب كل واحد منهم لصالحه الشخصي[1]، ويقول النقيب لافاي: لقد أحرقنا قرى لخريمس في قبيلة بني سنوس، لم يتراجع جنودنا أمام قتل العجائز والنساء والأطفال. إن أكثر الأعمال وحشية هو أن النساء يقتلن بعد أن يغتصبن، وكان هؤلاء العرب لا يملكون شيئاً يدافعون به عن أنفسهم[2].

٨. شهادات ضباط فرنسيين على صلابة الشعب الجزائري:

اعترف المارشال بوجو بمناقب الأمير وصلابة الشعب الجزائري فقال يوم ١٧/ ٣/ ١٨٤٥م: لم نأخذ من هذا الشعب أي شيء إلا بالقوة، وصرح يوم ١٥/ ٦/ ١٨٤٢م: إن القبائل التي قمعت تبقى مطيعة، أخضعنا العرب بالسلاح ولا يمكن أن نحافظ على هدوئها إلا بالسلاح.

ويصرح بوجو أمام البرلمان الفرنسي: آه لو لم تكن بالجزائر عرب أو لو كان هؤلاء يشبهون تلك الشعوب المخنشة في الهند، لما نصحت بلادي بأن تخصص مبالغ مالية كبيرة للاستيطان، لكن وجود هذه الأمة الصلبة والمعدة جيداً للحرب، أكثر الجماهير الأوروبية التي يمكن لنا أن ندخلها هذا البلد، يفرض علينا أن نغرس وراءها وإلى جانبها وفي وسطها شعباً قوياً قدر الإمكان.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٦٣.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٣.

ويجيب شيوخ القبائل المارشال بوجو: إن تحرق وتدمر مزروعاتنا وتقطع شعيرنا وقمحنا وتنهب مطاميرنا أرسل رجلاً مقابل رجل أو عشرة مقابل عشرة أو مائة مقابل مائة أو ألفاً مقابل ألف، وسترى إن كنا سنتراجع.

ويقول دوق دورليون: إن هؤلاء الرجال يلحقون الضرر بالفرنسيين أكثر مما ألحقته الجيوش الأخرى بهم، إنهم يفرضون على الجيش الفرنسي ألا ينام وأن يكون دائم اليقظة.

ويصرح في ١٧/ ٢/ ١٨٤٣م: إن تنظيم الأمير مبني على معرفة كاملة بالأوضاع المحلية، وبعلاقات القبائل بعضها ببعض وبالمصالح المتنوعة، وباختصار هو مبني على ذكاء كبير للرجال والأشياء، ولابد من الحفاظ على هذا كله في حكمنا.

ويقول الجنرال بودو يوم ٢٧/ ٤/ ١٨٤٧م: كل نساء القبائل أسفوا لاضطرارهم إلى خدمتهم لنا، ويخفون نواياهم الحقيقية إزاءنا، وسوف ينقلبون ضدنا في أية فرصة تسنح لهم وهذا يدخل في طبيعة الأشياء، يجب ألا تكون لنا ثقة كبيرة فيهم، وكأن هذا الجنرال يتنبأ بما سيحدث على يد الباشان مقراني بعد ربع قرن.

كان بوجو يرى أن الاستيطان هو الذي يثبت أقدام الفرنسيين بالجزائر، فيقول: يكون الاحتلال عقيماً بدون استيطان. ويعترف الفرنسيون بصلابة الشعب الجزائري فيلخصها ابن الملك الفرنسي الدوق دومال: لقد كان احتلال الجزائر طويلاً وصعباً، كانت عراقيل النفاذ للداخل من الشمال إلى الجنوب تتمثل في الجغرافية، وفي العداء الشرس لوطنية حربية مؤسسة على إسلام حصين لا يقهر، كلها تطيل التقدم وتزيد من الخسائر.

كان الجيش الفرنسي في الجزائر يزداد عدده كل سنة:

- ففي سنة ١٨٣١م كان عدده ١٨٠٠٠.
- وفي سنة ١٨٣٧م إرتفع إلى ٤٢٠٠٠.
- وفي سنة ١٨٤٤م إرتفع إلى ٩٠٠٠٠.
- وفي سنة ١٨٤٨م إرتفع إلى ١٠٨٠٠٠.

لقد شارك في جيش الاحتلال الفرنسي الكثير من الأوروبيين. ففي سنة ١٨٣٣م كان عدد الفيالق الأوروبية ٣ فيالق ألمان وسويسريان اثنان بالجزائر العاصمة وفيلق واحد إيطالي داخل الجزائر وفيلق واحد إسباني بوهران، وفيلق بلجيكي في عنابة وكل هذه الفيالق كانت منصوبة في إطار اللفيف الأجنبي، قال عنهم الجنرال كاروبير: إن جنود الفيلق الأجنبي هم بقايا جيوش أوروبا، أغلبهم قتلة ولصوص فارون من الجيوش.

ويتغلب الجنود الفرنسيون على أهوال المقاومة بالسكر، يروي بعض الضباط الفرنسيون: كانت الخمر هي الضرورة للبطولة وهي المشجع لاستعمار أفريقيا، تحرك الشجاعة وتمنع الخوف[١].

٩. رسائل الأمير إلى الحكومات العربية والأجنبية:

اقترح بعض كبار القادة العسكريين على الأمير إخلاء الحصون من حُماتها وضمهم إلى قوات الفرسان المتحركة واجتمع المجلس العسكري وأقر الأمر فحرر الأمير رسائل إلى عدد من الحكومات الإسلامية والمجاورة طالباً العون والمساعدة السريعة منها:

. رسالة إلى السلطان عبد المجيد خان في الدولة العثمانية:

يشرح له فيها الأخطار التي تهدد البلاد وهي رسالة مطوّلة فيها صرخة استغاثة.

. ورسالة إلى الحكومة البريطانية: التي كانت على خلاف مع الحكومة الفرنسية بسبب توتر العلاقات بين فرنسا وبريطانيا اتصل بهذه الأخيرة وعرض عليها عقد معاهدة معها، لكن الفرنسيين عملوا على تخفيف التوتر مع البريطانيين، فلم تستجيب لندن للأمير[٢].

. وأرسل رسالة إلى السلطان عبد الرحمن بن هشام حاكم المغرب، ورسالة إلى قاضي فاس الشيخ عبد الهادي يستفتيه في أمور الجهاد، وفيما يتعلق بمهادنة الأعداء ورسالة أخرى إلى علماء فاس والرباط، لم يكن بالأمير حاجة إلى فتاوى فقهية، لكنه أراد من

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٠.

[٢] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٠.

هذه الرسائل إيقاظ الشعوب الإسلامية وحثها على إعلان الحرب على العدو المستعمر[1].

وكانت الدول العربية والإسلامية جميعها تغطّ في سُبات عميق، وليت الأمر اقتصر على هذا فقط، بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة وعلمت السلطات الفرنسية بهذه المراسلات فطلبت من السلطان عبد الرحمن بن هشام ملك المغرب أن يمنع دخول المساعدات عبر حدوده للأمير، ويضع حداً لنشاطه ولنشاط قواته أيضاً، فأجابها بأن بلاد الريف خارجة عن طاعته وتخضع للأمير عبد القادر، وكان يظن أن ذلك ينجيه ويعفيه من المسؤولية، ولكن الذي حصل العكس[2]، وسيأتي الحديث عن ذلك لاحقاً بإذن الله.

سادساً: عاصمة الأمير "المدينة المتنقلة"

دعا الأمير ذات صباح في مدينة المدية المجلس العسكري الاستشاري للانعقاد وخاطب الجميع بقوله: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وبفضل الله وإحسانه مازالت انتصاراتنا مستمرة ومازالت حصوننا تحرس المدن والمصانع فيها تمدنا بالأسلحة، ولكن بحال هوجمت حصوننا بقوات لم تستطع حمايتها الدفاع عنها وعن المصانع التي كلفتنا الكثير، لماذا لا نخلي الحصون من هذه المصانع وننقلها إلى مكان آمن؟ أما المدن التي لا نريدها ساحات قتال ماذا يضرنا لو تركنا العدو يحتلها مؤقتاً ونقاتله بعيداً عنها كما يفعل الآن؟

هذه المدن لن يستطيع العدو تغيير أي نظام إداري فيها ولا في الخدمات ولا في القضاء ولا في أي أمر إداري وكل ما سيفعله هو وضع ضابط فرنسي في غرفة الوالي وعدداً من الجنود يتجولون في شوارعها، ولكنهم لن يرحموا عائلاتنا من النساء والأطفال، ولنتذكر

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٢.

ما فعلوه بعائلة ملكهم لويس السادس عشر، وكيف عذبوها وأهانوا أطفالها وكيف سحبوا زوجته ماري أنطوانيت إلى المقصلة بهذا الأسلوب المتوحش تصرفوا مع ملوكهم فكيف تتخيلون سينصرفون مع عائلاتنا إذا وقعوا في أيديهم؟

وقف القائد الكبير بوحميدي بعمامته البيضاء وبرنسه الأحمر وسيفه الذي لا يفارق خاصرته وأجاب قائلاً: ربما سيأخذونهن أسرى يضعوهن في أقبية سجونهم ويساوموننا عليهم كرهائن، ووقف أحد الأعضاء وقال: أقترح أن يبعدوهن إلى قصر كاشروا، أجاب الأمير: وإذا هاجموا قصرنا في كاشروا بقوات هائلة لا قبل لنا بقهرها؟ فوقف القائد بن علال قائلاً: يا مولاي ماذا في ذهنك من حل؟ وما خطتك؟ فلنستمع إليها، وبعد ذلك نعطيك رأينا فيها. كان الأمير في هذه الجلسات يتكلم وهو جالس فقال: فلننشىء مدينة متنقلة، فأخذ أعضاء المجلس ينظر كل منهما إلى الآخر مذهولاً[1]، وشرح الأمير لهم فكرته واقتنعوا بها وشرع في تأسيس عاصمة كبيرة رحالة مؤلفة من خيام كثيرة ومضارب عديدة، فخطط لبنائها، وفي مدة قصيرة ظهرت الوجود على أروع الأساليب وسمي ما يخصه منها الزمالة وما يخص الأعيان والعامة بالدائرة وما يخص الجند منها بالمحلة، واتخذ فيها مضارب لمعامل السلاح، وأخرى لوضع العتاد الحربي، ومثلها للذخائر، وفسطاطاً كبيراً لاجتماع المجلس العام، وآخر اتخذه مسجداً وأعدت مضارب بعيدة عن السكن للباعة والسوق التي كانت تجبى إليها المؤن وسائر ما يلزم وكانت تضم مضارب للحرفيين بمختلف الأنواع من نجارة وحدادة وغيرها، وكان يسودها نظام تسييري متقن وكانت هذه العاصمة تتمتع بمنظر جميل، وقدر عدد سكانها بعشرات الآلاف وبعضهم يرى أنه كان مائتي ألف نسمة[2].

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٣٠.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٣٧.

ووجد الأمير عبد القادر صعوبة في إقناع من كان يجب عليهم الحياة في الصحراء والانتقال من بيوت الحجر إلى بيوت الشعر فنظم بهذه المناسبة قصيدة غايتها الترغيب بالحياة الجديدة والقصيدة هي:

ياعاذراً لامرئ قد هام في الحضر
وعاذلاً لمحب البدو والقفر
لا تذممن بيوتاً خفّ محملها
وتمدحن بيوت الطين والحجر
لو كنت تعلم ما في البدو تعذرني
لكن جهلت وكم في الجهل من ضرر
أو كنت أصبحت في الصحراء مرتقياً
بساط رمل به الحصباء كالدرر
أو جلت في روضة قد راق منظرها
بكل لون جميل شيّق عطر
تستنشقن نسيماً طاب منتشقاً
يزيد في الروح لم يمرر على قذر
أو كنت في صبح ليل هاج هاتنه
علوت في مرقب أو جلت بالنظر
رأيت في كل وجه من بسائطها
سرباً من الوحش يرعى أطيب الشجر
فيا لها وقفة لم تبقِ من حزنٍ
في قلب مضن ولا كدّاً لذى ضجر
نبادر الصيد أحياناً فنبغته

فالصيد منا مدى الأوقات في ذُعُر

فكم ظلمنا ظليماً في نعامته

وإن يكن طائراً في الجو كالصقر

يوم الرحيل إذا شدّت هوادجُنا

شقائق عمّها مزن من المطر

فيها العذارى وفيها قد جعلن كُوىً

مرقعات بأحداق من الحَوَر

تمشي الحداة لها من خلفها زجل

أشهى من الناي والسنطير والوتر

ونحن فوق جياد الخيل نُركضها

شليلها زينة الأكفال والخصر

نطارد الوحش والغزلان نلحقها

على البعاد وما تنجو من الضمر

تروح للحي ليلاً بعدما نزلوا

منازلاً ما بها لطخ من الوضر

ترابها المسك بل أنقى وجاد بها

صوت الغمائم بالآصال والبكر

نلقي الخيام وقد صُفّت بها فغدى

مثل السماء زهت بالأنجم الزهر

قال الألى قد مضوا قولاً يصدقه

نقل وعقل وما للحق من غير

الحسن يظهرُ في بيتين رونقه

بيت من الشعر أو بيت من الشّعَر

أنغامنا إن أتت عند العشي تَخَلْ

أصواتها كدوي الرعد بالسحر

سفائن البر بل أنجى لراكبها

سفائن البحر كم فيها من الخطر

لنا المهاري وما للريم سرعتها

بها وبالخيل نلنا كل مفتخر

فخيلنا دائماً للحرب مسرجة

من استغاث بنا بشّرّه بالظفر

نحن الملوك فلا تعدل بنا أحداً

وأي عيش لمن قد بات في خفر

لا نحمل الضيم ممن جار نتركه

وأرضه وجميع العز في السفر

وإن أساء علينا الجار عشرته

نبينُ عنه بلا ضُرّ ولا ضرر

وبيت نار القرى تبدو لطارقنا

فيها المداواة من جوع ومن خصّر

عدوُّنا ما له ملجأ ولا وزر

وعندنا عاديات السبق والظفر

شرابها من حليب ما يخالطه

ماء وليس حليب النوق كالبقر

أموال أعدائنا في كل آونة

نقضي بقسمتها بالعدل والقدر

ما في البداوة من عيب تذم به

إلا المروءة والإحسان بالبدر

وصحة الجسم فيها غير خافية

والعيب والداء مقصور على الحضر

من لم يمت عندنا بالطعن عاش مدى

فنحن أطول خلق الله في العُمُر

كان مشهد مدينة الخيام يحرك أفئدة المهاجرين ويستهوي قلوبهم ويشعل مشاعر الحمية والحماسة فيهم، كانت هذه المدينة نشيداً وطنياً يعلو على مناكب الرياح فيصل إلى أسماع الوطن، يخالطه صليل السيوف وأزيز الرصاص وهتاف الرجال "الله أكبر" هذه المدينة خلقت على الروابي والهضاب حُلّة من البهاء، فكانت أينما حلّت حلّ الازدهار وتعطّر الفضاء بنسائم الحرية وما كان المجاهدون يعودون من حملاتهم إلى هذه المدينة المتحركة حتى تنقلب أهازيجهم الحماسية إلى نسائم من الحب والتقوى والعواطف الصادقة ومشاعر الأمل، الأمل بالانتصار والعيش الرغيد بعد تطهير الوطن من الغزاة وتفويض صروح كبريائهم.

١. معركة حصن داكمت:

في صباح الخامس عشر من شهر أيار سنة ١٨٤٢م، سار الجنرال لامور سيير تصحبه قوة كبيرة من الجند إلى حصن داكمت واشتبكوا مع الأمير وكان مخطط العدو احتلال الحصن مرة أخرى، هذا المركز الهام الذي شيده عبد القادر بن محيي الدين وكان أهم حصونه وحاصر لامور سيير الحصن عدة أيام ثم تحصن في مكان قرب الحصن وكان إلى

جانب الجنرال رئيس قبيلة الدوائر مصطفى بن إسماعيل على رأس قوة كبيرة من رجاله، وانتظر الأمير إلى عسعس الليل وفاجأهم بهجوم من عدة اتجاهات، هجوم لم يكونوا يتوقعونه وقد كانت هذه خطته في أكثر المعارك: الهجوم بدل الدفاع، فانهال الفرسان بخيولهم على قوات العدو يدوسون الجموع بحوافرها غير مبالين بالرصاص والقذائف، وقد وصف أحد الصحفيين هذه المواجهة بقوله: إن العرب كانوا يقاتلون بجنون وليس بشجاعة[1]، وقتل في هذه المعركة القائد المتعاون مع فرنسا مصطفى بن إسماعيل عمّ المازري زعيم قبيلة الدوائر، ورآه أحد المجاهدين يتخبط بدمه فقطع رأسه وجاء به على رأس حربه إلى مركز القيادة صائحاً هذا رأس الفتنة الخائن ابن إسماعيل وإنتهت هذه المعركة بنصر المؤمنين وهزيمة الغزاة من دون أن يتمكنوا من دخول الحصن والتمركز فيه[2].

٢. هزيمة المارشال بيجو في مضيق عقبة خده:

شاهد بعض فرسان الأمير شرذمة من جنود العدو بقيادة المارشال بوجو الذي كان يلاحق الأمير، وشاهدوا مؤخرة جيشه تحميها قوات كبيرة فأدركوه ونشبت معركة وهلك أكثر جنده إذ لم تتمكن هذه القوات من الصمود لحين وصول النجدات، وحاصرهم المجاهدون في مضيق من عدة جهات، ثم انقضوا عليهم كالأسود فحاول المارشال النجاة بمن بقي معه من الجنود بعد أن خسر أربعة وخمسين منهم، لكن القتال تواصل عنيفاً حتى بزوغ الفجر، وكان هناك بين الصخور شهيدان صعدت روحهما الطاهرة إلى السماء، الأول القدور بن بحر من كبار قادة الجيش المحمدي والثاني الخليفة محمد بن الجيلاني.

وفي غبش الصباح الباكر هدأ كل شيء ولفّ الصمت ذلك الوادي الموغل في القدم، وأصبح الانضباط على أشده بين المتقاتلين، وأفلح العدو في الانسحاب المنظم حاملاً

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٥ ، ١١٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

جرحاه متسللاً بين الصخور والأودية الوعرة والرماة الجزائريون يلاحقونه بسهامهم مما اضطر البعض منه لاتقاء الأخطار بالاختفاء وراء الصخور وتحدث الجنرال دو فيغير الذي كان يرافق تلك الحملة فقال: بعد خروجنا من مضيق الموت سرنا إلى سهل الزيتون فوجدنا حامية من جنودنا أخذت بمساعدتنا على نقل الجرحى والموتى إلى مدينة الجزائر، وفي طريقنا وجدنا مدينة خالية من السكان ولم يبق من عماراتها سوى مساجدها القوية البنيان فاتخذناها مأوى للمرضى من جنودنا ولعدم وجود حطب للتدفئة استعملنا سقوف المنازل لسد العوز، وكان يجب علينا عدم إطالة البقاء في هذه المدينة الجميلة الواقعة على تل زاهر كبير، وكان يضم آثار قلعة قديمة وكان من عادة العرب عدم ترك أي شيء يُستفاد منه، ورأينا أن الإسراع بإخلائها وعدم المكوث فيها طويلاً أمراً يفرضه الواقع المحزن[١].

٣. بر الأمير بوالدته:

وصل موكب الأمير إلى مدينته الجديدة الزمالة، وكان الأمير يسير في مقدمة الفرسان، وعندما وصل إلى مضارب عائلته ترجّل وسلّم جواده إلى السياس، ثم دخل خيمة والدته وقبل أن يزيل عن جسمه غبار المعارك والطريق تقدم من والدته وانحنى يقبّل يديها وجلس عند قدميها وأخذ يحدثها عن آخر معركة وانتصاره فيها، وعمن استشهد من فرسانه، وعمن قتل من الأعداء وهي تستمع إليه بكل اهتمام، ثم سألته عن بقية المجاهدين وأحوالهم قائلة: يا بني أشعر بوشائج قوية وخيوط تربطني بالمجاهدين من أنصارك أصحاب الوفاء وهؤلاء المؤمنين أشعر بخيوط خفية تربطني بهم، خيوطاً قدسية خفية تجعل يدي في جوف الليل وابتهالاتي في التهجد وصلواتي ترتفع لهم بالدعاء.

---

[١] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١١٨.

أجابها وهو يقبّل يديها بحنان: هذه الجلسات يا أماه تحت قدميك هي من أفضل الأوقات المحببة إلى النفس فهي تزودني بطاقات هائلة من القوة والاطمئنان، وأشكر رب العالمين الذي وهبنا أنا وإخوتي أماً مثلك مجاهدة مثالاً للصبر والتقوى، تستحق الإجلال والاحترام بين يديها الحنونتين[1].

٤. زيارات ميدانية وتوجيهات قيادية:

بعد أيام من الراحة خرج الأمير عبد القادر بصحبة بعض فرسانه من القادة العسكريين والعلماء والأطباء أيضاً للقيام بالزيارات الميدانية التي اعتاد القيام بها قبل انتقاله إلى مدينة الخيام فزار المستشفيات في المناطق التي لازالت تحت سلطته، فوقف أمام أطباء إحدى المشافي وخاطبهم بقوله: عليكم نقل العلوم الطبية في معاهدكم إلى الطلاب المتفوقين في العلوم والاهتمام بعلم النبات وتركيب الأعشاب بشكل طبي لجعلها مفيدة لوضع العقاقير من هذه الأعشاب، لقد دفعت الأموال الطائلة من موارد مزارع عائلتي لشراء كتب طبية لعلماء عرب ومؤلفات نادرة ككتاب "الأدوية المفردة" للطبيب العالم أحمد بن محمد العافقي، ومؤلفات ابن سيناء، وابن البيطار، والصوري، وأبو القاسم الزهراوي. بعد انتهاء الأمير من هذه الجولات عاد إلى الزمالة فوجد رسالة تنتظره من خليفته على مناطق جرجرة أحمد بن سالم فأجابه بالرسالة التالية:

الحمد لله وحده

أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله وشكره في الشدائد كن صبوراً فالصبر مفتاح الفرج، كن شجاعاً واجمع قواتك بين وقت وآخر، واتلُ عليهم الآيات القرآنية، آيات الجهاد، وشدّ من عضدهم، وصارحهم برأيك، واستمع إلى مطالبهم وآرائهم، وخذ بأحسنها ولا تهملها

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٣٥.

وتحمّل هفواتهم، ولكن لا تتهاون مع المتخاذلين منهم فهذه الأحوال الصعبة لن تدوم وإن شاء الله أكون معكم عندما تتاح لي فرصة[1].

وأرفق هذه الرسالة بقصيدة من نظمه ضمنها كل ما يحمله قلبه من محبة لهؤلاء المجاهدين، أقتطف منها هذه الأبيات:

يا أيها الريح الجنوب تحملي
منّي تحية مغرمٍ وتجمَّلي
وأقرِي السلام أُهيل ودَّي وأنثري
من طيب من حُمَّلت ريح قَرنَفُل
أدّي الأمانة يا جنوب وغايتي
في جمع شملي يا نسيم الشمأل
وأهدي إلى من بالرياض حديثهم
أزكى وأحلى من عبير قرنفُل
حاولت نفسي الصبر عنهم قيل لي
مه ذا محالُ ويك عنه تحوَّل
كيف التصبّرُ عنهم وهم هم
أرباب عهدي بالعقود الكمَّل
أيحلُّ ريبُ الدهر ما عقدوا وكم
حلت عقودي بالمنى المتخيَّلِ
تفديهم نفسي وتفدي أرضهم
أزكى المنازل يا لها من منزل
أفدي أناساً ليس يُدعى غيرهم

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٠.

حاشا العصابة والطراز الأوّل

يكفيهم شرفاً وفخراً باقياً

حمل اللواء الهاشميّ الأطول

قد خصّهم وأختصّهم واختارهم

ربُّ الأنام لذا بغير تعّمل

إن غيرُهم بالمال شحّ وما سخا

جادوا ببذل النفس دون تعلُّل

الباذلون نفوسهم ونفيسهم

في حبّ مالكنا العظيم الأجلل

كم يضحك الرحمن من فعلاتهم

يوم الكريهة نِعمَ فعلُ الكُمَّل

الصادقون الصابرون لدى الوغى

الحاملون لكل ما لم يُحمَل

إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً

هم يبتغون قِراع كتب الجحفل

وألذّ شيء عندهم لحمُ العدا

ودماؤهم كزلال عذب المنهل

النازلون بكل ضنك ضيّقٍ

رغماً على الأعداء بغير تهوُّل

لا يعرف الشكوى صغير منهم

أبداً ولا البلوى إذا ما يصطلى

كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا

من سابق لفضائل وتفضّل

كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا

أقوى العداة بكثرة وتموُّل

كم صابروا كم كابروا كم غادروا

أعتى أعاديهم كعصف مؤكل

كم جاهدوا كم طاردوا وتجلّدوا

للنائبات بصارم وبمقول

كم قاتلوا كم طاولوا كم ما حلوا

من جيش كفر باقتحام الجحفل

كم أدلجوا كم أزعجوا كم أسرجوا

بتسارع للموت لا بتمهل

كم شرّدوا كم بدّدوا وتعوّدوا

تشتيت كل كتيبة بالصّيقَل

يومُ الوغى يوم المسرّة عندهم

عند الصياح له مشوا بتهلّل

فدماؤهم وسيوفهم مسفوحة

ممسوحة بثياب كلّ مجندل

لا يحزنون لهالك بل عندهم

موت الشهادة غبطة المتحوّل

ما الموت بالبيض الرقاق نقيصة

والنقص عندهم بموت الهمّل

يا ربُّ يا رب البرايا زدهم

صبراً ونصراً دائماً بتكمُّل
وافتح لهم مولاي فتحاً بيّنا
وأغفر وسامح يا إلهي عجِّل
يا رب يا مولاي وابقهم قذىً
في عين من هو كافر بالمرسل
وتجاوزْ مولاي عن هفواتهم
والطُف بهم في كل أمر مُنزل
يا رب واشملهم بعفو دائم
كن راضياً عنهم رضا المتفضل[1]

٥. الهجوم على المدينة المتنقلة:

في عام ١٨٤٣م باتت البلاد مسرحاً للعمليات العسكرية والنشاط الحربي، كان الأمير يصول ويجول بقواته شرقاً وغرباً، والمجاهدون من حوله يحصدون رؤوس المحتلين ويلقون في نفوسهم الرعب واليأس.

ذات يوم جمع المارشال بيجو زملاءه من الضباط وقال لهم: الحرب مستمرة وعبد القادر يقاتل بعشرة الآف، مائة ألف من جنودنا المدربين، إنه فارس شجاع ينزلق بين كتائبنا ويضرب ثم يختفي بلمح البصر، يدمر أجنحتنا القوية، ويفلت منا في الوقت الذي نظن أنه أضعف منا، يشتت صفوفنا، وليس هذا فقط بل إنه يضرب القبائل التي تتعاون معنا بأسلوب آخر عن حربه معنا ولا توجد معركة خسرنا فيها أقل من ٦٠٠ جندي وعشرات الضباط ولكن هل تعلمون أين تكمن قوته الآن؟ هي في المدينة المتنقلة وعلينا اكتشاف مكانها وتدميرها[2].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٤٣.

بعد مرور سنتين على عمر هذه المدينة الأعجوبة كان على الأمير الهجوم على قوات لامور سيير التي تمركزت في أحراش سرسو، وخرج من الزمالة على رأس ثلاث الآف مقاتل وترك ٥٠٠ كان بينهم جرحى لم تشف كلومهم بعد، كبار السن وإخوة الأمير وأولاد أعمامه. وصل الأمير إلى مشارف أحراث سرسو فشاهد جنود العدو ينصبون الخيام، ويستعدون للراحة، فأمر فرقة من المجاهدين تكمن في تل قريب من الحرش وأعد أخرى جعلها تحاصر العدو، وكعادة الأمير أمر الفرقة الأولى بالهجوم مناوشة من غير أن يعرف العدو مصدر النار، ثم ظهرت وأرخت العنان لجنود لامور سيير باللحاق بها في الغابة وهناك كان الأمير قد وضع الكمائن ونشبت معركة وانهال فرسان الأمير من كل جهة، ودبت الفوضى بين صفوف العدو وشاهد لامور سيير جنوده يتساقطون بين أشجار الغابة بعد أن قاتلوا حتى الرمق الأخير دفاعاً عن أنفسهم، فأمر بالانسحاب يجر أذيال الخيبة وجلس الأمير على إحدى الصخور يداعب سلاحه وشاهده أحد المجاهدين فأقبل عليه يهنئه بالنصر فلم يبتسم كعادته وقال: إن قلبي مقبوض لا أدري لماذا، وسار نحو الغدير فتوضأ وصلى بالمجاهدين، وما إن فرغ من الدعاء حتى أقبل فارس من المدينة المتنقلة وأخبره أن بعض المتعاونين أرشدوا العدو لمكان مدينة الخيام وبالتأكيد لولا هؤلاء المرشدين الخونة لاستحال على العدو معرفة مكانها، وقال الفارس: عندما بدأت الشمس تغيب في كبد السماء بعد مغادرتك يا مولاي بساعات لاحظنا فرساننا بألبستهم البيضاء يظهرون من جديد وكأنكم غيرتم الخطة وعدتم وكانت الشمس تسدد سهامها النارية نحو الرمال فلم نكتشف الخديعة، وأن جنود العدو ارتدوا ملابس فرساننا إلا بعد دخولهم مضاربنا، ففزع كل من في الحي لمقاومتهم حتى النساء ودارت معارك دموية داخل مضاربنا وكانت أصوات الرصاص تتعالى مع أصوات النساء والعدو حرق ودمر كل شيء ونهب، والآن السكان متفرقون بين الشعاب والتلال بعد حرق خيامهم، فنسأل الأمير: هل من شهداء؟ أجاب كثير ولكن الأسرى كانوا أكثر وبينهم محمد بن علال، ومحمد

الخروبي، وقدور بن رويلة على ما أذكر، قفز الأمير فوق جواده وأمر فرسانه بالعودة، ووصل ذلك المكان وهو يسبح في غسق مريع والسكان مبعثرون بين التلال كالنجوم المتناثرة في السماء وتسابق المجاهدون فما من أحد منهم إلا وله أم أو زوجة أو أولاد أو قريب في هذه المدينة وأخذوا يفتشون عن ذويهم بين التلال وراح الأمير يسأل عن والدته وأهله وزوجته فوجد أهله لم يبارحوا مضاربهم ووالدته داخل مسجد قد احترق نصفه تقرأ القرآن وزوجته وعائلته يلملمون ما تبقى من متاعهم وعندما شاهدت الجموع الأمير اجتمع الرجال حوله وشخصت أبصارهم إليه حائرين فما كان من الأمير إلا أن بادرهم بقوله: نحن جميعاً في هذا المكان مجاهدون نساء ورجالاً وأطفالاً ينبغي لنا ألا نجبن ولا نيأس بل نكون أشد إصراراً على تحمل الأذى والقدرة على التضحية لدفع هذا الأذى عن الوطن وتلقين العدو ضربات أكثر قوة وطرده خارج بلادنا، ثم انطلقت هذه الأبيات من فمه محتدمة كاللظى:

وما نبالي إذا أرواحنا سلمت

بما فقدناه من مال ومن نشب

فالمال مكتسب والجاه مرتجع

إذا النفوس سلمت من العطب

قال هذه الأبيات ويده ممسكة بلجام جواده تكاد تتجمد من البرد ثم أمر بتحرك لواء من الفرسان لمطاردة فلول المهاجمين، ولابد من الرد السريع، وانطلق هو على رأس قوة من الجيش نحو أسهل طريق للزمالة وأدرك أن العدو لابد سالكه في طريق عودته[1].

٦. الرد السريع على من هاجم المدينة المتنقلة:

رفع الأمير يده مشيراً إلى الجيش بالتحرك لإنقاذ الأسرى وإعادة ما نهب بعد أن أمر فرقة من الجيش بالانطلاق نحو التلال وقسم آخر من المشاة نحو الأحراش باتجاه منطقة

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٧.

طاكين، وسارت كل من هذه الفرق في دروب مختلفة علّ أحدها تصادف الدوق دومال ابن ملك فرنسا وتنقذ الأسرى، وما أن وصل الأمير إلى التلال حتى شاهد جيش الدوق يسير وهو مثقل بالغنائم، فأمر فرسانه بالهجوم وإذا بذلك الليل البهيم يتحول إلى حزم من نيران البنادق وكان صهيل الخيول يتعالى ممزوجاً بتكبيرات المجاهدين "الله أكبر" وصيحاتهم جعلت أوصال قوات العدو ترتعد خوفاً وتهتز رهبة وعلا غبار المعركة واشتد أزيز الرصاص وأصوات قنابل المدافع، والمجاهدون يقفزون من مكان إلى آخر يفتشون عن الأسرى الأبطال إلى أن وجدوهم مكبلين في العربات ففكوا وثاقهم وجمعوهم بالأمير الذي أصبح برنسه كالغربال من كثرة ما وقع فيه من رصاص وأكثر من ذلك ففي نهاية المعركة قتل حصانه فقفز منه على الأرض وإذا بضابط فرنسي يصيح وقع وعلى الفور التف حوله خمسة من جنود العدو بقيادة هذا الضابط برصاص زملائه وعندما شاهد الجنود الأربعة ملقى على الأرض أسرعوا باللحاق بالمجاهدين، وعندما حقق معهم ووجهت إليهم الأسئلة عن تصرفهم هذا، أجابوا: إنه الإعجاب الشديد بشجاعة هذا الفارس كنا مأخوذين ومبهورين بشخصية هذا البطل الأسطورة، ولم ندر بأنفسنا إلا ونحن نقف بجانبه[1].

حال الظلام بين الأمير وبين باقي قواته فظن بعضهم أنه قتل بعدما رأوا جواده المقتول والمهماز ملقى على الأرض وشاع الخبر كالصاعقة واهتزت له الروابي والجبال ووصل بسرعة البرق إلى الزمالة التي لم تكن قد لملمت جراحها من حملة الأمس وهلعت النفوس وغشي الأفئدة حزن عميق وفي هذه اللحظات المفجعة برز إلى الساحة من بين الخيام فارس ملثم طفر إلى جواد وأندفع يسابق الريح عبر الشواطئ والخلجان إلى أن التقى المقاتلين العائدين من جحيم المعركة وأناط اللثام عن وجهه وإذ به لالا خديجة شقيقة الأمير وصاحت بأعلى صوتها: "الله أكبر" أيها المجاهدون "الله أكبر" يا جنود الحق الله

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٧.

حي لا يموت، وأخذت تجول بجوادها وهي ممسكة بعنانه تزرع الحماسة والثقة بين المقاتلين، وعادوا جميعاً إلى الزمالة ولكن البشائر قد سبقتهم بنجاة الأمير وخليفته محمد بن علال وبقية الأسرى.

بعد هذه المعركة الدفاعية المشرفة عقد الأمير المجلس الإستشاري في المضرب المخصص للديوان واستعرض مع مستشاريه والقادة والأحداث التي مروا بها، ثم قرروا بالإجماع نقل هذه المدينة والإرتحال بها إلى مناطق الحساسنة في الجهة الغربية من البلاد، لم يكن نقلها بالأمر السهل، ولقد بلغ عدد سكانها ثلاثمائة ألف إنسان يذهب القسم الأكبر منهم للقتال والباقي يعيشون كخلية نحل الكل يعمل بنظام عجيب المرأة مثلاً تخرج صباحاً بعد صلاة الفجر إلى الغدرات تحمل الماء ثم تعود لتقوم بتنظيف الأولاد وإعدادهم وإرسالهم إلى المدارس، ثم تذهب إلى الأسواق لشراء حاجيات عائلتها، تحضر الطعام لأسرتها وتنتظر عودة زوجها إن كان عاملاً أو موظفاً، كانت حياتهم قاسية في الشتاء والصيف ولكن الإيمان بوحدة المصير جعلت سكان هذه المدينة من أكثر الشعب الجزائري سعادة وفي كل مرة كان يعود بها المجاهدون وفي مقدمتهم أمير البلاد رافعين رايات النصر، يخرج السكان رجالاً ونساء يزغردون ويكبرون فتختلط أصواتهم بألحان موسيقى القدوم.

وفي كل مرة كان الأمير يقف على الرغم من متاعب القتال والطريق لا يترجل قبل أن يكلم الجماهير التي تلتف حوله يذكرهم بالقيمة العظيمة العيش في هذه الخيام مرة يقول لهم: إن مدينتكم هذه خلفت على الروابي والهضاب حلة من البهاء، فأين وجدت عطرت الفضاء بنسائم الحرية وأين ما حلت تفتحت الأزهار وإن هذه الحماسة التي تستقبلوننا بها تتحول في كل مرة إلى نسائم من الحب والتقوى والشكر لله العلي القدير والأمل بالانتصار والعيش بكرامة بعد تطهير الوطن من الغزاة وتقويض صروح كبريائه.

كان كلام الأمير يستهوي قلوب سكان هذه المدينة ويشعل مشاعرهم الحمية في أعماقهم كان كلامه في كل مرة أناشيد وطنية وإيمانية تدخل القلوب فتؤنسها لأنها تخرج من قلب مؤمن[١].

٧. إعادة بناء المدينة المتنقلة:

أعيد بناء هذه المدينة في جنوب مناطق الحساسنة بسرعة قياسية وعلقت اللافتات على مداخل المضارب، كالعادة ترشد السكان إلى الجارات، وعليها نقشت الأسهم والأرقام لئلا يضيع أحد عن خيمته، فكان التنظيم والتقسيمات مذهلة في تكوين هذه المدينة، وأخذ الناس يتهامسون يقول أحدهم للآخر: لو كنا نعيش في إحدى المدن وحدث مثل هذا الهجوم علينا، ألا نكون الآن نحن وأطفالنا تحت أحجار مساكننا نموت ببطء ولا يدري بنا أحد؟ وقال آخر: زوجتي حامل ولا أدري بأساً من إنجابها فوق الهودج بحال اضطررنا للرحيل فور وصول أخبار تحذرنا من الأعداء في المرة الماضية لو رأينا الخديعة التي تعرضنا لها لرحلنا قبل وصول العدو ونجت مدينتنا المدهشة[٢].

كان الطلاب من القرى المجاورة يشاهدون وهم يحملون أدوات الدراسة على أكتافهم يسارعون للالتحاق بمعاهد هذه المدينة المتنقلة لأن معاهدها كانت تدرس العلوم بجميع موادها.

واصل الأمير حملاته العسكرية منطلقاً من هذه المدينة، وذات يوم سمع أن القوات الفرنسية أخذت تقصف مدينة أغادير، وهددوا السلطان باحتلال مدنه وعلى أثر ذلك عقدت اتفاقية في مدينة طنجة قبل بها ووقع على محاربة المجاهدين بقيادة الأمير عبد القادر والقضاء على مقاومته لفرنسا واعتقاله وتقديمه للسلطات الفرنسية واعتبار المقاومة تمرداً، بعد توقيع السلطان على هذا الاتفاق أخذ يرسل رسائل إلى زعماء القبائل التي تقف مع المقاومة وتساعد الأمير وتقدم له العون.

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٤٩.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

٨. الأمير عبد القادر وسلطان المغرب:

كان تأثير رسائل سلطان المغرب ضعيفاً على النفوس في البداية واستمر الأمير عبد القادر في جهاده بمعاونة هذه القبائل إلى جانب إرسال المبعوثين الأكفياء لتوعية زعماء القبائل في الثغور والصحراء، وتولد لدى الأمير شعور بأن السلطان اتخذ قراره بعد تلك المعاهدة وأن المظاهرات والاحتجاجات التي قامت بها القبائل على الحدود جعلته يعيش في قلق وخوف وليس من قنابل بيجو، وإنما من شعبية عبد القادر التي وصلت إلى حد مبايعته أسوة بأشقائهم الجزائريين ولكن الأمير رفض وبشدة وأرسل السلطان رسائل يطمئنه بها أنه ليس له أطماع بعرشه ولا يهدف لأكثر من تطهير الجزائر من الفرنسيين.

وبعد نقل الزمالة إلى قرب الحدود المراكشية أشار على الأمير خلفاؤه أي وزراؤه بالقيام بعمل أكثر إقناعاً للسلطان من الرسائل.

وفي صباح أحد أيام الخريف عقد اجتماعاً لمجلس الشورى في أحد مضارب الديوان وبعد جلوس الجميع تكلم الأمير فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا يجوز لنا القيام بأي عمل إلا بعد ذكر اسمه تعالى والآن سأطلعكم على رسالة السلطان عبد الرحمن إلى أحد زعماء قبائل بني مسناسن وقعت بيد أحد أعواننا سلمها إليّ وهي من ستة رسائل أرسلت إلى القبائل.

إن السلطان يحرض القبائل على التمرد كما ترون ويتدخل في شؤون دولتنا وأكثر من ذلك إنه يطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين الذين عقد معهم صلحاً دائماً يعدّه مشرفاً، ويعتبر عودتنا إلى الحرب بعد صلح تافنا عملاً جنونياً مخالفاً للشريعة الإسلامية. وتابع الأمير كلامه فقال: يبدو أن السلطان كان يريد منا اقتسام الوطن بيننا وبين العدو، أي تقسيم التراب الجزائري لذلك تراجع عن تأييدنا بعد عودتنا إلى الحرب إنه لا يريد إزعاج العدو ولا مقاومته وإنما القبول بوجوده والاعتراف به رسمياً والخضوع لمطالبه ووضع مصالحه في المقام الأول في سياستنا وجيشنا يجب أن تكون مهمته حماية

نظام يكفل للفرنسيين مصالحهم. وباختصار يريد السلطان منا أن نكون عملاء لا حكاماً أمراء، فوقف محمد عبد الرحمن رئيس قبيلة الأحلاف بعد انتهاء الأمير من كلامه واقترح إرسال وفد من ذوي المراكز الكبيرة في الدولة لمقابلة السلطان باسم الأمير ومحاولة إقناعه بنوايا أمير البلاد الطيبة نحوه، وبأن الأمير ليس له مطامع أكثر من تحرير البلاد وتم تشكيل الوفد في تلك الجلسة بعد أن تقدم خليفة الأمير ونائبه البوحميدي الولهاصي، وتقدم أيضاً محمد بن عبد الرحمن الخليفة الآخر للأمير، وسار الوفد في اليوم الثاني من شهر أيلول عام ١٨٤٧م وأخذت القافلة تبتعد رويداً رويداً والأمير ينظر إليها يا له من حدث موجع ولكن لابد منه إنه أخرسهم في الكنانة، ومضت القافلة تحت ظلال الشفق الممتد فوق الغابات حتى كثبان الصحراء والتفت الفارس يلقي آخر نظرة على الزمالة مودعاً وتوارت القافلة وراء أشجار الصنوبر والبلوط تحف بها قلوب المجاهدين وأيديهم مرفوعة بالدعاء إلى الله ترجو لهم التوفيق.

وقف الأمير عبد القادر وسط ذلك الجمع وارتجل هذه الأبيات فقال وهو في طريق عودته إلى داخل المضارب:

قلدت يوم البين جيد مودّعي
دررًا نظمت عقودها من أدمعي
وحدا بهم حادي المطايا فلم أجد
قلبي ولا جلدي ولا صبري معي
ودّعتهم ثم انثنيت بحسرة
تركت معالم معهدي كالبلقع
ورجعت لا أدري الطريق ولا تسل
رجعت عِداك المبغضون كمرجعي
يا نفس قد فارقت يوم فراقهم

طيب الحياة ففي البقا لا تطمعي[1]

وصل الوفد إلى فاس فاستقبل السلطان المجاهد البطل البوحميدي بكأس من السم أفقدته الحياة واستشهد هذا الفارس وهو يقوم بمهمة جليلة، وفي حصن تازة استشهد أيضاً باليوم نفسه خليفة الأمير على المدية محمود بن عيسى البركاني.

وصلت هذه المصائب للأمير عبد القادر فاستقبلها استقبال المؤمن بالقضاء والقدر، وكانت خيبته في سلطان المغرب كبيرة لقد رضخ لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

وقد استشاط الشعب المغربي غضباً وأراد مبايعة الأمير عبد القادر ولكنه رفض ذلك فقد كان الشعب المغربي يكن للأمير تعاطفاً معه ويعتبره بطلاً للجهاد كان لذلك الاتفاق أثر سيء على الشعب الجزائري والمغربي وكانت تلك المعاهدة بين سلطان المغرب وفرنسا بإشراف إنجليزي[2].

أ. معركة ايزلي "وعواقبها":

كانت معركة ايزلي الشهيرة التي سميت كذلك لأنها وقعت على ضفاف وادي ايزلي بالقرب من وجدة حيث كان ابن السلطان معسكراً هناك فقط بغية حماية حدوده وليس الهجوم.تعد هذه المعركة الحاسمة حسب بيجو من ضمن أحداث الحرب الأكثر إثارة للدهشة وقد ظهرت عنها العديد من التأويلات بحيث لم يصبح أمامنا إلا الافتراضات أولاً وقبل كل شيء فإنه من المستحيل أن يتم سحق الجيش المغربي الذي كان الفرنسيون يقدرونه ٣٠٠٠٠ رجل في بضع ساعات إلا إذا قبلنا بأن المهمة التي أسندت إلى المغاربة

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٥٣.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٧٣.

في حالة هجوم فرنسي هو الاكتفاء بطلقات بارود شرفية خاصة، وأن الاتفاق الذي عقب السلم الذي أرضى السلطان قد توصل إليه بدعم وضمان من إنجلترا.

أما الافتراض الثاني فهو أن عدد القوات المغربية قد بولغ فيه وحسب أحد المؤرخين "الملمين بالموضوع"، فإنه كان أقل حتى من جيش بيجو وكانت ستسحقه "القوة العددية" لجيش بيجو ألا أن هذا الإفتراض لا يفسر كيف يمكن لمعركة أن تنتهي في مثل ذلك الوقت القصير حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار عدم كفاءة الأمير المغربي أمام خبرة الجنرال، فهذا الأخير كان قد أعلن من قبل أنه يملك جيشاً بينما "لا يملك محمد إلا حشداً من الغوغاء وأنه سيخترقه اختراق السكين للزبدة". والحقيقة أن الأمير الذي كان يراقب المعركة بصحبة ١٥٠٠ فارس على بعد بضعة أميال منها لم يكن يستطيع . حتى وإن رغب . أن يتدخل أمام كارثة لم تكن سريعة فقط، بل حاسمة كذلك، ولو أنه لاحظ روحاً قتالية من جانب جيش سلطان المغرب ومعركة حقيقية قد اندلعت لكان وزن بثقل عبقريته وبسالة رجاله الكفة ولتقبلهم اخوانهم المغاربة بالفرح والسرور، الشيء المؤكد الوحيد هو أن هذه المعركة مهما كانت طبيعتها كانت حاسمة بالنسبة لبيجو فقد كان يقول لجنوده: أن مستقبل الجزائر يتوقف على هذه المعركة فإذا خسرناها سوف نضطر للعودة من حيث أتينا. وقد كان يقول الحق لأن الاتفاق الذي كان السلطان قد قبله سيصبح غير ذي موضوع وهذا لن يكون إلا في صالح الأمير وكانت انجلترا ستعدل موقفها دون أن تمنع السلطان من مساعدة الأمير مع الاحتفاظ بعرشه وكانت ربما ستقنع حكومة باريس بضرورة الخروج من مأزقها في الجزائر، لقد كان للانتصار صدى كبير في باريس وتحصل بيجو إثره على لقب "دوق" كما سمي أول شارع كبير في الجزائر باسم هذه المعركة[١].

---

[١] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٧٤.

ب . استمرار الحرب:

على الرغم من عناده ووسائله البربرية فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، كان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي ويعيد إشعال نار الحرب التي لم يكن يريدها وإنما فرضت عليه فرضاً.

وفي الأيام الأخيرة كان من عادة بيجو أن يدلي لمحيطه ببيانات صاخبة حول نهاية عبد القادر فإنه في أوائل ١٨٤٤م عندما كان الأمير لاجئاً في المغرب لإعادة تنظيم قواته قام بيجو باقتراح حقيقي على الأمير بواسطة "ليون روش" رجل المخابرات الفرنسية وكان الاقتراح: بأنه نظراً لأن الحرب قد انتهت بالنسبة للأمير فإن بيجو سيسمح له ويساعده هو وحاشيته على الذهاب للعيش بمكة، وقد كان رد الأمير: إن ساعة جهاد الكفار يساوي أكثر من سبعين سنة في العيش بمكة[١].

إن وضعيته "الخارج عن القانون" التي جاءت بها معاهدة طنجة لم تكن بطبيعة الحال قابلة للمعارضة ولذلك فإنه انطلاقاً من التراب المغربي حيث كان مقره كان يفكر في القرون التي سيرجع فيها إلى الجزائر وأيضاً في الحالة اليائسة التي كان عليها هو ودائرته، وقد تمكن بن سالم بعد الكارثة التي ألحقها به بيجو في ١٧ ماي ١٨٤٤م وما تبعها من تدمير لخمسين قرية قبائلية في أسفل منطقة سباعو من الاتصال بالأمير بعد التعبير عن القلق الذي تولد عن غيابه، طلب ابن سالم من الأمير أن يظهر من جديد ليبعث الأمل في نفوس المسلمين الذين انتابهم اليأس.

ومن المؤكد أن هذا الحدث قد أثبت للأمير بأن النهاية لم تحن بعد وأن الوضعية وإن كانت خطيرة فإنها ليس ميؤوساً منها وأن وجوده مع رعاياه حتى أولئك الذين كانوا تحت نيران الاستعمار كان ضرورياً وسيمكنه من مواصلة الجهاد[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٧٤.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٧٤.

ومن الرسائل التي جاءت من أحمد بن سالم للأمير مكتوب فيها: لقد أشاع المرجفون ما لا نقدر على ذكره ودخل الشك على الناس في وجودكم الشريف وأشاعوا أن والدتكم تصدر المكاتيب والتحارير اللازمة باسمكم الكريم وقد بلغني أن الفرنسيين عازمون على الزحف إلى بلادنا وليس عندي ثقة أكيدة بطاعة القبائل وانقيادهم إلى كلمتي فأنا أسألكم بالله تعالى أن تردوا إلي الجواب عن هذا المكتوب بخط يدكم الشريفة. فأجابه الأمير بخطه: إني اطلعت على مكتوبكم مخبراً بأن خبر موتي قد امتد إلى الشرق، فاعلم أن الموت لا مفر منه ولا محيد عنه إذ هو من قضاء الله الذي لا يرد والاقتدار ما أؤمل به مهاجمة أعداء ديننا، فكن في راحة ساكن البال صبوراً، ومتى استقر الأمر لنا هنا نتوجه إلى نواحيكم[1]. وبعد نقل الأمير الزمالة إلى المغرب الأقصى قرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر، وعمل بيجو على التصدي له وقال لهيئة أركانه: إن قلوب المغاربة تعلقت بعبد القادر بسبب اتباعه للشريعة الإسلامية بحيث صارت القوافل تسير في المناطق التي يتواجد بها بأمان عكس المناطق الأخرى، إنه يمثل خطراً على فرنسا وهو في المغرب الأقصى أيضاً. وأرسل إلى حكومته يخبرها بخطر الأمير بالمغرب ويطلب منها التدخل لدى السلطان لوضع حد لوجوده هناك[2].

وأمر بوجو الجنرال لاموريسيير والجنرال بيدو بالتوجة إلى الحدود المغربية، فنزلا في مقام السيدة مغنية شمال تلمسان وقاما بهدم مقام الولية مغنية التي يجلّها السكان، على إثر استفزاز الفرنسيين للحدود المغربية وسخط الشعب المغربي. من ذلك خشي السلطان ثورة الرعية عليه فبعث إلى عماله بوجدة ابن الكناوي طالباً منه الاتصال بالفرنسيين والطلب منهم الكف عن الاستفزاز.

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ٥٤١.

فاستهزأ الضباط الفرنسيون برسوله، فزحف الكناوي على رأس جيش على الفرنسيين الذين دخلوا التراب المغربي وانهزم الجيش المغربي وهي أول معركة بين المغاربة والفرنسيين[١].

وبعدها كانت معركة إيزلي التي انهزم فيها الجيش المغربي وهددت بريطانيا فرنسا بالحرب ودخل الطرفان في مفاوضات طلب فيها الفرنسيون من السلطان: اعتبار الأمير عبد القادر بالمغرب خارجاً عن القانون ومنع المواطنين المغاربة من التعامل معه، ودفع غرامة ١٢ مليون فرنك فرنسي وأبرمت اتفاقية طنجة في ١٠/ ٩/ ١٨٤٤م ومعاهدة لالة مغنية بين المغرب وفرنسا يوم ١٨/ ٣/ ١٨٤٥م وانتشر السخط بين الشعب المغربي على السلطان الذي انهزم جيشه في أول معركة مع الفرنسيين خلال ساعات وقبل الشروط المجحفة التي فرضها عليه الفرنسيون وارتفعت أصوات الكثير من القبائل تطالب بالثورة على السلطان، وإعطاء الطاعة للأمير عبد القادر الذي كاتبه بعض رؤسائها فرفض مسعاهم طالباً منهم الوفاء للسلطان راح الأمير يرسل الوحدات تغير على القوات الفرنسية بالجزائر وعلى القبائل المتعاملة معها ووصلت هذه إلى سيدي بلعباس وتيارات وتاكدامت فذعر بوجو وجنرلاته لهذا واتصلوا بالسلطان فهددوه ، أرسل هذا إلى الأمير يطلب منه مغادرة المغرب ولما وصل رسول السلطان أدرك أن الأمير لا يمثل خطراً على السلطان بل إنه يحث القبائل المغربية على ولائها للسلطان، وأن هدفه الجهاد داخل الجزائر[٢].

جـ. مساندة أبطال المغرب للأمير عبد القادر:

ومن أبطال المقاومة الجزائرية أبو معزى وهو مراكشي من أولاد سيدي الطيب بنواحي وزان، دخل الجزائر حوالي سنة ١٨٣٥م وقام بنشر دعاية ضد الفرنسيين في مناطق وهران الجنوبية ثم انتقل إلى زواوة يحث أهلها على الجهاد فاستطاع أن يجمع حوله خلقاً كثيراً، وبما أنه كان مستقلاً في حركته عن الأمير عبد القادر فقد ظن الفرنسيون أولاً أنه يمكنهم

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤١.

[٢] المصدر نفسه.

الاعتماد عليه في إضعاف سلطة الأمير، ثم عادوا يرهبون منه، بعد أن نازلهم سنتين كبدهم فيها خسائر فادحة وتوج عمله بالانضمام إلى الأمير عبد القادر الذي عينه خليفة له على جبال زواوة، فقاتل معه إلى أن اضطر الأمير سنة ١٨٤٥م إلى الالتجاء لمراكش فعاد أبو معزى إلى الجزائر واستمر في قتاله، ولما عاد الأمير في نفس السنة انضم إليه مرة أخرى ابو معزى والتفت من حولهما كافة قبائل وهران والجزائر وسجلوا النصر العظيم على الفرنسيين في معركة سيدي إبراهيم بغرب جامع الغزوات الأمر الذي اضطر من أجله "بيجو" لطلب جيش قوامه عشرة الآف جندي قسمها إلى ثمانية عشر جحفلاً طارد بها الأمير وخلفاءه فوقف أبو معزى وقفة عظيمة واستمر في القتال حتى تغلبت عليه هذه الجحافل، واضطر للاستسلام فاعتقل في حصن "هام" بشمال فرنسا في نفس الغرفة التي كان نابليون الثالث معتقلاً فيها قبل توليه الحكم وبعد ما وقع عليه العفو عنه انتقل لتركيا حيث رحب به العثمانيون وخصصوا له معاشاً.

وفي حرب القرم انضم للجيش العثماني وقاتل في صفوفه وسقط في القوقاز في أسر الروم، ثم توفي في مدينة باطوم، وقد ادعى من بعده ستة أفراد جزائريين أنهم هم أبو معزى وقد جرح هذا الأخير في إحدى المعارك وأسر، ثم أحيل إلى المحكمة العسكرية فكان موقفه رهيباً وجرى بينه وبين رئيس المحكمة الحوار الآتي:

. سأله الرئيس: من أنت؟ قال: أنا بو معزى.

. لماذا قاتلت فرنسا؟

. لكونها دولة باغية طاغية معتدية علينا.

. ألم تر أن العرب انضموا إلينا؟

. هؤلاء العرب قسمان: الأكثرية منهم أبرياء يخافون على حياتهم والأقلية سفلة خونة لا يبحثون إلا عن رضا الحاكم مهما كان، وعن توشيح صدورهم بشريط أحمر.

ـ ماذا تنتظر منا؟

ـ لا يهمني ما أنتظره منكم.

ـ وإذا أطلقنا سراحك ماذا تفعل؟

ـ أعود للجهاد في سبيل الله.

ـ وإذا قتلناك؟

ـ سأتقدم لله ناطقاً بالشهادتين.

ـ وإذا سجناك؟

ـ سأقضي أوقاتي عابداً طالباً من الله أن ينصر العدل على الظلم.

ـ لماذا تكرهنا؟

ـ لأنكم ظلّام طغاة.

وقد حكم عليه بالسجن ثم أطلق سراحه بعد ذلك[1].

٩ ـ الأمير عبد القادر ينطلق من المغرب وينجد خليفته ابن سالم في زواوة:

ثم انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولاموريسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها أو تعود له طوعاً اقتناعاً منها بأنه عاد من غيبته قوياً، ولم يزل ينتقل إلى أن وصل إلى زواوة ودخل جبال جرجرة والتقى بخليفته السيد أحمد بن سالم وعلم بتعقب العدو له فقطع أربع رحلات في رحلة واحدة، فسمي بأبي ليلة لأنه لا ينام في مكان أكثر من ليلة. غزا بني هيدورة من القبائل الذين دانوا بالطاعة للفرنسيين وما إن حل ببلاد القبائل حتى اجتمعت له قبائل زواوة فاختار منهم ٥٠٠٠ فارس وغزا بهم متيجة من الشرق وراح يدمر مزارع الكولون ويحرق منشآتهم وهرب من نجا من الموت لائذاً بأسوار الجزائر، قام بكل ذلك بوجو يبحث عنه في عمالة وهران، ثم تحرك عائداً

[1] الحركات الإستقلالية في المغرب العربي علال الفاسي، ص: ٥ ، ٦.

نحو الغرب حتى نواحي المدينة ناشراً بين الناس أنه عاد للجهاد بقوة، ثم عاد لجرجرة ومنها توجه إلى الشمال ونزل بأرض فليسة قرب دلس، وراح يشن الغارات المتتابعة على سهل متيجة وقد مضى عليه أكثر من سنة بعيداً عن زوجته وأهله، فأنشد شعراً قال فيه:

بنيّ لئن دعاك الشوق يوماً

وحنّت للّقا منا القلوب

ورمت بأن تنال منيّ ووصلا

يصح بِعيِده القلب الكئيب

فإني منك أولى باشتياق

وناري في الفؤاد لها لهيب

وإن أخفي اشتياقي في فؤادي

فإن الشوق يكتمه الأريب[1]

وفي تلك الأيام العصيبة قال قصيدة أخرى ذكر فيها أهل الجهاد:

لنا في كل مكرمة مجال

ومن فوق السّماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول

وخُضنا أبحراً ولها زجال

لنا الفخر العميم بكل عصر

ومصر هل بهذا ما يقال؟

ورثنا سُؤدداً للعرب يبقى

وما تبقى السماء ولا الجبال

فبالجد القديم علت قريش

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٥.

ومنا فوق ذا طابت فعال

وكان لنا دوام الدهر ذكر

بذا نطق الكتاب ولا يزال

ومنّا لم يزل في كل عصر

رجال للرجال هم الرجال

لهم همم سمت فوق الثريا

حماة الذين دأبهم النضال

سلوا عنا فرنسا تخبركم

ويُصدق إن حكت منها المقال

فكم لي فيهم من يوم حرب

به افتخر الزمان ولا يزال[١]

وهكذا تمكن الأمير في سنة من قطع مئات الكيلومترات والاتصال بعشرات القبائل والدخول لبلاد زواوة وإعادة خليفته البطل ابن سالم إلى وضعه بعد أن ارتفعت معنويات القبائل، وجن جنون بوجو فهو يطلبه بالغرب فيظهر بالشرق مهاجماً متيجة بجيش قال فيه المؤرخ البريطاني شرشل: عجب الفرنسيون من شجاعة عبد القادر وسرعة اختفائه، فكأنه يطير في الهواء فشهد له في محافل باريس الجنرال يوسف بأنه أشجع ما عرفت الأمم من الرجال وبأن غرابة اختفائه السريع تحير العقول[٢].

ويقول النقيب كلير: إن الحملة التي قام بها هذا الأمير أثارت إعجاب كل العسكريين الذين ينحنون بالرغم عنهم أمام هذه العبقرية، إنه العدو اللامرئي والذي يوجد في نفس الوقت في كل مكان، فهو يخترق الصحارى ويتسلل عبر منحدرات جبل عمور، ويدخل سهول المغرب بعد أن يوجه قبائل الغرب نحو الحدود، ثم يظهر فجأة بالشرق بعد أن

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٦.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٥٤٦.

يقوم بالانتقام من القبائل المتعاونة معنا وبحركة ذاتية يمر بفرسانه الألف والخمسمائة بين طوابيرنا فيقطع عشرين رحلة في ليلة واحدة كيف يمكنك أن تواجه هذه الحركة العجيبة بقيادة طوابير عاجزة ومنهكة في المطاردة، ووحدات متعبة وبمعنويات متدينة بسبب نتائج سلبية؟! إننا نعتمد على الوقت أكثر من اعتمادنا على عبقرية الذين يقودوننا[1].

توجه الأمير غرباً محاذياً للصحراء والعدو يطارده والقبائل تتجنبه خوفاً من بطش وانتقام الفرنسيين وإفقارهم لها، وعندما نزل على أولاد السيد ابن الشيخ البكري في بلدتهم بالبيّض تلقوه بالتكريم والاحترام وقال له كبيرهم: إنا نسألك بالله تعالى ألا تعرضنا للحرب والبلاء مع عدو ديننا ودنيانا بإقامتك عندنا في بلادنا فإن الفرنسيين لا يخفى عنادهم وظلمهم، ولولا أنهم أشد الخلق عنواً وظلماً واعتداء ما تسلطوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا، وأين بلادهم؟ فهم في بر ونحن في بر آخر، ومع ذلك فهم اعتدوا علينا وقصدوا أن يملكوا بلادنا ورقابنا. فلما سمع الأمير عبد القادر قول هذا الشيخ رق لهم وأشفق عليهم وارتحل عنهم مغرباً إلى دائرته وكانت على نهر ملوية فيما وراء جبل بني زناسن[2]

١٠ . موت الأسرى وموقف الأمير من ذلك:

علم الأمير عبد القادر لدى وصوله بقتل الأسرى الفرنسيين الذين أسروا في موقعتي الغزوات وعين تموشنت وكان عددهم ١٧٧، فأسف لذلك ووبخ خليفته الذي نفذ القتل في غيابه ودون مشورته وكان الأمير مشهوداً له بالمعاملة الطيبة للأسرى وفق أحكام الدين الإسلامي وأمر بإطلاق عشرة ضباط فرنسيين أسرى وأرسل معهم رسالة إلى ملك فرنسا قال فيها: لقد شاع في غيابي أن الفرنسيين عازمون على تحرير أسراهم بالقوة من أيدي العرب، ثم فشا بين الناس أن سلطان مراكش عازم على إنقاذهم من يد خليفتنا رغماً عنه، فكان هذا من سوء سلوك نوابكم سبباً لما وقع بالأسرى من غير إذن منا ولا علم

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٤٧.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٧.

لنا، والآن وقد أطلقنا سراح عشرة ضباط مع الرئيس كورلي دي كوفري وهم يعلمون بما اجريناه. ثم سلمهم في أكتوبر سنة ١٨٤٦م[١]، بدون أي مقابل مادي أو مالي، إن الكثير من الضباط والجنود الذين كانوا أسرى عند الأمير عبد القادر قد شهدوا وكتبوا عن فترة أسرهم واحتوت على حقائق تاريخية دلت على حسن المعاملة ورقيها المستمدة من الشريعة الإسلامية التي أمرت بذلك.

كان في إحدى الأيام من الأسرى نساء، فأمرت والدة الأمير بأن تكون إقامتهن في خيم بجانب خيمتها وأن يحرسهن رجال من ذوي الشهامة والعفة وأمرت بالاعتناء بهن، وحتى لم تنساهن من قهوة الصباح[٢].

١١. سلطان المغرب يشن الحرب على الأمير عبد القادر:

لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني يزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم وقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب الحرة واستخدمت فرنسا كل قواها من القصف واستخدام الجيوش لمنع المغاربة من دعم الأمير عبد القادر والتحالف مع فرنسا ضد الأمير وبدأت المشاكل بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل للأمير يأمره بمغادرة التراب المغربي ويذكر له: أنه لا سبيل إلى خلاصك إلا بأحد أمرين، إما أن تسلم نفسك إلينا، وإما أن تخرج من الحدود، فإن أبيت أن تجري أحداهما طوعاً فنحن نجريه كرهاً.. ثم أوعز إلى القبائل القريبة من الدائرة بالتضييق على قواته وأطرق الأمير ملياً مفكراً وكتب إلى السلطان ما ملخصه: أما بعد فإني كاتبتكم أولاً والتمست منكم كف ضرر قبائلكم المجاورة لنا وتعديها على من تبعني وسوء معاملتهم لهم لأنهم كلهم أولاد دين واحد، فلم يأتني جواب على ذلك ومع ذلك فأنا صابر ومتحمل كراهة سفك دماء المسلمين مدة ستة أشهر، طمعاً في رجوعكم عن

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٧.

[٢] الأمير حياته وفكره، ص: ١٥٨.

البغي والطغيان إلى العدل والإحسان، مع قدرتي عليهم في كل آن، فإن لم تردعهم الآن عن أفعالهم وترجعهم عن قبيح تصرفاتهم، ألتزم المحاماة عن حقوقي والمحافظة على شرف أتباعي ولذا بادرت بإخباركم والسلام.

وكتب الأمير إلى علماء مصر يستفتيهم في الخلاف بينه وبين السلطان وأرسل لهم رسالة طويلة جاء فيها: ..ثم أمرني بترك الجهاد فأبيت لأنه ليس له علي ولاية ولا أنا من رعيته، ثم قطع عن المجاهدين الكيل حتى هام جوعاً من يجد صبراً، وأسقط من المجاهدين ركناً، ثم أخذ يسعى في قبضتي فحفظني الله منه، ولو ظفر بي لقتلني أو لفعل بي ما اشترطه عليه الفرنسيين، ثم أمر بعض القبائل من رعيته أن يقتلونا ويأخذوا أموالنا، فأبوا جزاهم الله خيراً. فأجاب العلامة الحجة الشيخ محمد عليش مفتي المالكية بالديار المصرية جاء فيها: نعم يحرم على السلطان المذكور أصلح الله أحواله، جميع ذلك الذي ذكرتم، حرمته معلومة من الدين بالضرورة لا يشك فيها من في قلبه ذرة من الإيمان وما كان يخطر ببالنا أن يصدر من مولانا السلطان عبد الرحمن وفقه الله تعالى مثل هذه الأمور مع مثلكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، خصوصاً وأنتم جسر بينه وبين عدوه[١].

وأشتد الخلاف بين الأمير والسلطان عبد الرحمن الذي أرسل له جيشاً كثيفاً بقيادة قائده الأحمر، وكان الأمير مخيماً بين أرض توزين ومطالسة من قبائل الريف، فاستعد للدفاع عن نفسه، ولما اقترب الأحمر وخيم على بعد مرحلة أرسل الأمير له رسالة قال له فيها: إنني لا أريد إلا المسالمة وإقامة المهاجرين تحت أنظار السلطان، ولا أتمنى الصدام معكم وأنا أحذرك من قتال المسلمين للمهاجرين. وعندما علم الأمير بأن الأحمر توجه لحربه قاد فرسانه الأشداء واعترضه في تافرسيت فاستولى بسهولة على معسكره، وثار بعض الجنود المغاربة سخطاً على حرب المهاجرين فقتلوا قائدهم الأحمر، ثم توجهوا بحريمه وأولاده إلى الأمير، فأرسلهم بحرس إلى السلطان في فاس، وسخط الشعب المغربي على سلطانه لشنه

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٩.

الحرب على مسلمين مجاهدين أرضاء لنصارى معتدين[1]، وجهز السلطان عبد الرحمن جيشاً من خمسين ألف جندي وأسند قيادته لابنه وولي عهده محمد وابنه الثاني أحمد فسار لمحاربة الأمير ونزل الجيش السلطاني على ثلاث مراحل من الدائرة في مكان اسمه سلوان، وقرر الأمير يوم ١٠/ ١٢/ ١٨٤٧م بدء الهجوم وأشار على مساعديه أن يستعملوا حيلة يباغتون بها عدوهم وينشرون في صفوفه الذعر قبل المعركة. فأمر بإحضار جملين وشد على كل منهما حزمتين من الحلفاء بعد أن طلاهما بالقطران والقار والزفت وأمر بأن يكون إيقاد النار في الحزمتين مقترناً بالهجوم على العدو. وفي ليلة الرابع عشر من الشهر المذكور سار الأمير بجيشه نحو سلوان ولما قرب منه رتب جيشه للهجوم دون أن يشعر الخصم وأمر بتقدم الجملين أمام الجيش ثم أضرمت النار في الحزمتين فنفر الجملان وهاجما خيام الجيش السلطاني وحمل جنود الأمير حملة رجل واحد وصحا جنود الجيش السلطاني على مشاعل تنتشر راكضة بين خيامهم فانتشر الفزع بينهم، وعندها انطلق رصاص جيش الأمير فهرب الأعداء تاركين خيامهم وأسلحتهم وتقدم المهاجمون حتى وصلوا إلى سرادق ابني السلطان فوجدوا حراسه قد أحاطوا بهم وراحوا يدافعون عن الأميرين، واستمرت المعركة طوال اليوم وتمكن فيها الأمير من هزم خصمه الظالم[2].

كان سلطان المغرب قد قرر التعاون مع فرنسا وبذل الجهد معها للقضاء على الأمير عبد القادر وراسل زعماء القبائل التي كانت مع الأمير ومن هذه الرسائل التي أرسلها إلى زعيم قبيلة أنكاد وقعت في يد الأمير جاء فيها: بلغنا أن الأمير عبد القادر ما زال مستمراً في إثارة الفتن وجلب الشر للمسلمين ونقض الصلح، الصلح الشرعي الذي عقده مع الفرنسيين وما يقوم به الآن هو عمل غير شرعي، ولا يقبله الدين، ومن يتبع هذا الرجل

---

[1] المصدر السابق.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٥٢.

فقد باع دينه وباء بالضلال وحاد عن شرع الله وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة ١٢٦٣هـ من الوالي عبد الرحمن وختمها بتوقيعه[١].

استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر واستفادت من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد القادر وفي نفس الوقت كان المارشال بيجو يطمع إلى المزيد من تأييد القبائل له واعتمد في سياسته مع السكان طريقة الترهيب والترغيب يحرق المزارع وحقول القمح والشعير ويحمل معه الهدايا إلى جانب الأسلحة المدمرة وتعرّض المارشال بيجو لهزائم متلاحقة وبسبب ذلك أعفي من منصبه وعين بدلاً منه ابن الملك الدوق دومال حاكماً عاماً حيث وصل الجزائر يوم ٤/ ٥/ ١٨٤٧م وثبت الجنرال لاموريسيير على وهران وعين الجنرال بيدو حاكماً على قسنطينة والجنرال كفينياك حاكماً على الجزائر[٢].

وبدا واضحاً في عام ١٨٤٧م أن الطوق الفولاذي بدأ يضيق حول المقاومة وأصبحت هجمات العدو أشدّ ضراوة وقوة بعد أن تمّ له تفتيت جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل له، ودُمّرت الزمالة ولم يبق من أقسامها سوى الدائرة وأحُرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين[٣].

سابعاً: الحصار الشديد واتفاقية مشروطة

اشتد العداء بين الأمير وسلطان المغرب، وبالغ السلطان في تضييق الخناق على الأمير، فسار مع من بقي معه من المجاهدين متجهاً نحو الصحراء وأمر بنقل الدائرة إلى مناطق عجرود، وتقدم بجنوده بمحاذاة النهر، ووضع الكمائن للعدو بين الأحراش، وخطط لها

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٦٧.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٤٩.

[٣] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٣٥.

قواعد تعود إليها بعد انتهاء مهماتها، وسار غازياً إلى الجهات الشرقية، غير عابئ بيجو ولاموريسيير[1].

كان السلطان عبد الرحمن مستمر في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر ويستخدم علماء بلده في اتهامه بأنه زائغ عن الهدى: إن من يتبع هذا الرجل فقد باع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى وقد أعذر من أنذر، في الثالث من رمضان سنة ١٢٦٣هـ من الولي عبد الرحمن بن المولى هشام.

وهذه الرسائل وغيرها فعلت فعلها في نفوس هؤلاء الزعماء، ومن المعروف في ذلك الزمان والمؤكد أن قائد القبيلة أو زعيمها، إذا اقتنع بأمر ما سار على هديه جميع أفرادها من دون مناقشة وعلى القارئ أن يتخيل ما حدث سنة ١٨٤٧م، ١٨٤٨م وبات الأمير عبد القادر يقاتل على عدة جبهات وليس هذا فقط، بل كان يرى بأم عينيه فرسانه الأبطال يتساقطون برصاص إخوانهم العرب المسلمين وشاهد أشهر قائد لديه الشهير محمد بن يحيى يسقط صريعاً في إحدى تلك المعارك المؤسفة:

وظلم ذوي القربى أشدُ مضاضة

على المرءِ من وقع الحسام المهند[2]

١. القرار الخطير:

بالغ السلطان عبد الرحمن في عدائه للأمير إلى الحد الذي جعله يحرّض عليه زعيم الأحلاف في الريف الشيخ بوزيان وزعماء بني سناسن وأنكاد ولم يكتف بذلك بل أرسل ذات مرة جيشاً بقيادة الأحمر وآمره بالاستيلاء على مقر الأمير ـ كما مرّ معنا ـ وفي أواخر سنة ١٨٤٧م لم يعد الأمير يحارب جنرالات فرنسا وجنودها المدربين، بل شُيِّد بينه وبينهم سدٌّ من صدور المسلمين شيده السلطان عبد الرحمن وفرض على الأمير واقعاً مراً مرفوضاً من قبل المؤمنين وهو قتال الإخوة فرضت على الأمير معارك مؤسفة شغلته ومنعته عن

[1] المصدر نفسه، ص: ١٣٧.

[2] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٤٢.

الاستمرار في مقاومة المستعمرين هذا الهدف العظيم الذي حمل الأمير والمجاهدون معه السلاح من أجله سنة بعد سنة ثمانية عشر عاماً، كان فراش الأمير خلالها ظهر جواده وفي أواخر هذه السنة لم يرى الأمير أمامه جنود المستعمرين، بل رجالاً وجنوداً مسلمين يحاصرونه من كل جانب ويتأهبون للانقضاض عليه وعلى من تبقى معه من المجاهدين المؤمنين بعدالة قضيتهم وبالله والوطن وبسيرة أميرهم الصحيحة والشرعية[1].

وفي ليلة ماطرة شديدة الظلام نظر هؤلاء المجاهدون إلى وجه الأمير، وتحدث معهم فقال لهم: إن المعلومات التي لدي بأن الطريق الوحيد للوصول إلى الصحراء هو مضيق غربوس. قال الأمير: بإمكاننا فتح هذا المضيق ولكن بعد اشتباك أخطر من الذي جرى قبله، لأن البدء بالهجوم والقيام بالقتال "قتال الإخوة" وإسالة دماء من يقولون: ربنا الله، وسيدافعون عن أنفسهم حتى الموت، هذا أولاً، وثانياً علينا التحرك فوراً وحمل جرحانا كي لا يقعوا بيد من لا يرحم، لذلك لا أرى إلا التسليم بقضاء الله والرضا به، لقد اجتهدت نفسي عن الذب عن الدين والبلاد وبذلت وسعي في طلب راحة الحاضر والباد، وذلك من حين اهتز شبابي وافتر عني شباة الهندي نابي، وأقمت على ذلك ما ينوف على ثماني عشرة سنة، أقتحم المهالك وأملأ بالجيوش الجرّارة الفجاج والمسالك واستحقر العدو على كثرته واستهل استقصاءه وأتوغل ـ غير خائف ـ أوديته وشعابه وأرتب له في طريقه الرصائد وأنصب له فيها المكائد والمصائد، تارة أنقض عليه انقضاض الجارح وأخرى أنصب له فيها انصباب الطير إلى المسارح وكثيراً ما كنت أبيّته فأفنيه وأصبحه فأبرد غليلي منه وأشفيه ولازلت في أيامي كلها أرى المنية ولا الدنية وأشمر عن أقوى ساعد وبنان وأقضي حق الجهاد بالمهند والسنان إلى أن فقدت المعاضد والمساعد وفنى الطارق من أموالي والتالد ودبت إلى من بني ديني الأفاعي واشتملت عليّ منهم المساعي، والآن بلغ السيل الزبى والحزام الطبيين فسبحان من لا يكيد كائد، ولا يبيد ملكه وكل شيء بائد.

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٤٦.

ثم طرح الأمير فكرة وقف الحرب لأنه المطلوب من الأعداء شخصياً كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة، لأنها بيد الشعب وليس بيده ولن تقف إلا بزوال الاحتلال والشعب الذي سيصحو يوماً عاجلاً أو آجلاً، ويكتشف أكاذيب المحتلين وغدرهم والذين استسلموا للأعداء وحاربوه بسلاح المحتلين سيدركون يوماً أي مصير قادهم إليه تحالفهم مع الأعداء ولمصلحة من كان تحالفهم.

أدرك الأمير ما كان يدور في خلد هؤلاء الأبطال من رجاله فقال مرتجلاً بعض الأبيات لتخفيف جمود تلك اللحظات:

إن يسلب القوم العدا
ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه
لم تسلم القلب الضلوع
أجلي تأخر لم يكن
بهواه ذلّي والخضوع
ما سرت قط إلى قتال
وكان من أملي بالرجوع
شيم الألى أنا منهم
والأصل تتبعه الفروع[1]

ثم قال: نحن لا نخشى الموت، فالشهادة في سبيل الله جلّ ما نبغيه ونسعى إليه، واستشهد بقول الله تعالى :" وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ" (آل عمران، آية : ١٦٩). ثم استشهد بجملة لمفتي المالكية العلامة الحجة محمد علوية في الديار المصرية: ما من ميت يتمنى العودة إلى حياة الدنيا إلا الشهيد لما

[1] الأمير عبد القادر حياته وعصره، ص: ١٧٥.

يجده عند ربه من الخيرات مما لا يخطر على بال بشر: ثم استأنف: الشهادة في سبيل الله هي مطلبنا. ولكن إذا استطعنا الخروج مما نحن فيه الآن، والوصول إلى التخوم المجاورة ووادي عجرود حيث ترابط الجيوش الفرنسية ومهاجمتها، ثم الإنسحاب نحو مقرنا في الدائرة لكان خيراً عظيماً لنا ونصراً مؤزراً: وأجابه أحد المجاهدون: لكن كيف لنا الخروج وقوات السلطان تجوب الطرق، وتحاصر المسالك والمنعطفات بحثاً عنا، والعيون هنا من حولنا تراقب حركاتنا وسكناتنا، وقد بتنا وكأننا في معتقل كبير للأعداء؟

لم تدم هذه الأحاديث بينهم أكثر من دقائق وقف الطيب المختار وسأل الأمير: ماذا بعد وقف الحرب؟ أجاب الأمير: الهجرة من البلاد، لأنني شخصياً مستحيل علي العيش ولو للحظة واحدة تحت راية ليست راية بلادي الإسلامية، وليست راية دولتي. فوافق الجميع على قرار وقف الحرب[1]، حقناً للدماء الغالية التي ستُزهق من الطرفين المراكشي والجزائري بغير طائل.

٢. طرق باب الاستئمان الزمني لأجل الهجرة:

كانت الطريقة من الخروج من هذا المكان وتحقيق مقصد الهجرة عن طريق الاستئمان الزمني وهو طلب الأمان واعطاء الفرصة للخروج من أجل الهجرة في سبيل الله تعالى، فعندما تساءل الحاضرون في مجلس الأمير عبد القادر كيف الخروج إلى الهجرة والخروج من هذا المكان الذي نحاصر فيه، أجاب ابن علال وكان من الفقهاء: سنطرق باب الاستئمان الزمني. قال الأمير: نعم أيها الأخوة سنطرق هذا الباب، وهو باب معروف في الجهاد بالإسلام، والهجرة في ظروفنا هذه أعتقد أنها أصبحت حق علينا وإن لم نطرق بابها نكون آثمين بحق أنفسنا، قال تعالى:" وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً" (النساء، آية : ١٠٠).

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٦.

. وقال تعالى:" وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" (النحل، آية : ٤١).

وذكر أقوالاً كان قد كتبها لبعض خلفائه جواباً لاستفساراتهم حول الهجرة، وقد جاء في القرآن ذكر الهجرة مراراً وذم تاركها، والله جعل لها شروطاً، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لا تنقطع الهجرة حتى يغلق باب التوبة، ولا يغلق باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغاربها**». أما باب الهجرة من مكة إلى المدينة فقد انقطعت بالفتح أي بفتح مكة ثم تابع الأمير كلامه فقال: سأرسل رسالة شفهية إلى الجنرال لاموريسيير ممثل الدولة التي تحتل بلادنا ليخبرها باسمي بأنني أريد طريقاً آمناً يقصد ترك البلاد والسفر إلى الإسكندرية أو عكا، فإن وافق فالخيرة فيما اختاره الله، وإن رفض نكون أمام الله لم نأل جهداً ونتحرك بما عندنا من قوة لفتح مضيق غربوس والإتجاه نحو الصحراء في حال انتصارنا، ولاشك أنها ستكون مغامرة ولكن لا خيار لنا، لأننا حيث ما توجهنا سوف نجد سداً من صدور إخوة لنا في الدين جندهم الأعداء ليتخذوا منهم حاجزاً ودروعاً لهم[١].

لم يطرق الأمير عبد القادر أبواب السلطان عبد الرحمن في أي تسوية معه للأسباب التالية:

. لأن السلطان مرتبط باتفاقية مع فرنسا بشأن الأمير ومقاومته.

. لأن قوات السلطان تحاربه لموجب الاتفاقية وهي إتفاقية طنجة عام ١٨٤٤م التي نصت على موافقة السلطان على مقاومة الأمير والقضاء على دولته والقبض عليه وتسليمه إلى القوات الفرنسية.

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٧.

. السلطان عبد الرحمن لا يمكنه عقد أي اجتماع مع الأمير إن كان استئماناً وطلباً للهجرة أو وقف الحرب مثلاً إلا بعد الرجوع إلى السلطات الفرنسية، لأنه كان مكبلاً بتلك الاتفاقية[١].

٣ . الرحيل:

سار مبعوث الأمير عبد القادر يحمل الرسالة الشفهية فصادف عدداً من الكمائن في طريقه أشهروا السلاح في وجهه وأرغموه على الترجل ومن هذه الكمائن قوة من المسلحين بقيادة بن خيوة من قبيلة الدوائر وبعد أن علم بمهمة المبعوث أرسل معه عدداً من جنوده رافقوه حتى معسكر لاموريسيير، فبلغ المبعوث الرسالة الشفهية إلى الجنرال الذي كان جالساً في خيمته وأمامه على الأرض عدد من الخرائط، فانتصب واقفاً وضرب كفاً بكف سروراً، وعلت وجهة علامات الفرح، فأخذ على الفور ورقة بيضاء من الطاولة ووضع عليها ختمه ووقعها بإمضائه ثم سلمها إلى الفارس قائلاً: فليضع الأمير طلباته ونحن على استعداد لتلبيتها، ثم أعطاه سيفه هدية للأمير دليلاً على قبولهم وقف الحرب، ثم أرسل كتاباً إلى الدوق دومال ولي العهد، ورسالة إلى الملك يقول له فيها إني في هذه اللحظات ممتط جوادي للذهاب للاجتماع بالأمير عبد القادر، ولا يوجد عندي لحظة من الوقت لأبعث لجلالتكم نسخة من هذا الكتاب الشفهي الذي وصلني منه أو نسخة من جوابي عليه ولكنني أستطيع القول: إنني اتفقت مع الأمير على حسب طلبه أن يذهب هو وعائلته إلى الإسكندرية أو بلاد الشام وإني قبلت بجميع طلباته ووقعت عليها وأنا ملزم بتنفيذها حرفياً أرجو أن توافقوا جلالتكم على ذلك. وقبل أن يصل الكتاب الرسمي من الملك ركب الدوق دومال ولي العهد بارجة إلى مرفأ جامع الغزوات، فأرسل إلى الجنرال يخبره بموافقته على طلبات الأمير كلها وأمره أن يعطي الأمير مزيداً من الثقة وأخذت الرسل تسعى بين الأمير والدوق دومال ثلاثة أيام بلياليها من دون توقف

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٧.

للتوقيع الرسمي على جمع الطلبات بشكل رسمي. وأول هذه الشروط تتعهد فيه فرنسا بعدم التعرض للسكان والمجاهدين منهم بالشر وبإعطائهم الأمان في أموالهم وأنفسهم ودينهم وعدم اعتراض أو منع من يريد السفر معه من العسكريين والأنصار والأهل وكان ثمة شرط واحد لنفسه، وهو الأهم الاستئمان الزمني ريثما يصل إلى البلد الذي حدده في الاتفاق وهو عكا أو الإسكندرية١.

بعد عدة أيام من المفاوضات تم التوقيع من قبل الجميع على طلبات الأمير فسار بأهله "من تنخريت" متجهاً إلى مرفأ الغزوات وكان ينتظره الدوق دومال وليّ العهد والجنرال لامور سيير، وعدد من قادة جيش العدو وضباطه وهذا ما لم يتوقعه الأمير وفوجئ به، وفي أثناء سيره مرّ بمقام سيدي إبراهيم المكان الذي هزم فيه القوات الفرنسية عدداً من المرات وكان آخر انتصار له عليهم في هذا المكان منذ وقت قريب، فأمر بإيقاف الموكب وصلىّ ركعتين على أرواح الشهداء وكان يرافقه أهله وبعض أعوانه وعدد من أفراد حاشيته المقربين، وعندما وصل موكبه إلى المرفأ المذكور استقبله الدوق والجنرال بكل احترام استقبالاً رسمياً وترّجل الأمير عن حصانه الأدهم، وقدّمه هدية ثم قدم له الدوق أيضاً بندقيته وساعته هدية فقبلها وبعد فترة من الإستراحة سار الجميع٢ إلى المرسى وقد اصطف الناس يميناً وشمالاً وهم يبكون وكان الفرنسيون الحاضرون يعجبون كيف كان الناس بمن فيهم الجنود الجزائريون بالجيش الفرنسي يبكون ويقبلون برنوسه وهو مار إلى البارجة وركب الأمير يوم ٢٤/ ١٢/ ١٨٤٧م البارجة التي اتجهت به إلى ميناء طولون٣، ولسان حال الشعب ينشد باكياً:

تبكي السماء بمُزنٍ رائح غادي

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٧٨.

[٢] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٥٦.

[٣] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٥٧.

على الأبطال من أبناء بلادي

إن يُغلبوا فبنوا العبّاس قد غُلبوا

وقد خلت قبل حمصٍ أرضُ بغداد

دنا الوقت لم تُخلف له عِدةٌ

وكلٌ شيءٍ بمقيات وميعاد

سارت سفينتهم والنوح يصحبها

كأنها إبل يحدو بها حادي

انتشر خبر رحيل الأميرفي أرجاء الوطن كالنار في الهشيم ووقع هذا الحدث المفاجئ، كالصاعقة على رؤوس السكان، فأخذت النساء بالبكاء والعويل وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة والنفوس كالنار تحت الرماد، ولاحظ المحتلون تلك الظواهر ودبّ الرعب في قلوبهم، فطلب أحد الضباط من الجنرال لامور سيير منع هذه التظاهرات بالقوة فأجابه: دعهم يبكون فلقد ذهب عزّهم وعزّنا أيضاً، فلولا الحروب التي خضناها ضد هذا البطل لما رأيت هذه الأوسمة على صدري، ولما وصلت إلى هذه الرتبة العالية، جئت إلى هذه البلاد وأنا ضابط صغير فانظر إليّ الآن[1].

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٥٧.

٤. نقض فرنسا للعهد واعتقالها للأمير:

وفي الرابع والعشرين من كانون أول سنة ١٨٤٨م رست البارجة في مرفأ طولون في حالة انتظار لبعض الوقت حتى تصل توجيهات من الدول العثمانية، ولكن قبل أن تصل هذه التعليمات دخل على الأمير الكولونيل دوماس وأدّى له التحية العسكرية بكل احترام وتقدير، ثم أخبره أن المفاوضات لم تنته بعد، وأن عليه الانتظار بعض الوقت، فشعر أن هناك نية غدر مبيتة ولم تخنه فراسته وتأكد من الخديعة والغدر عندما ابحرت بهم البارجة، ودخل عليه دوماس وأخبره أنهم قاصدون فرنسا حسب أوامر الملك الذي يعتذر له عن عدم الوفاء بشرط "الهجرة" لأنه لاقى معارضة شديدة من مصادر عليا في فرنسا. وقال له أيضاً على لسان الملك: إن فرنسا مستعدة لأن تمنحكم أراض شاسعة وقصوراً تعيشون فيها مكرمين، ويستطيع أفراد حاشيتك امتلاك مزارع يعملون فيها طيلة حياتهم إلى جانبك. فرفض الأمير قائلاً: لو ملكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه ولو وضعتم فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنقضته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية[1].

وقبل وصول البارجة الحربية إلى ميناء طولون سأله دوماس إن كان يريد زيارة باريس فلقد سبق أن زارها إبراهيم باشا خديوي مصر وكان سعيداً برؤيتها، فأجابه الأمير: إن هذا المذكور زارها سائحاً للنزهة فقط ولكنني الآن لا أرى فرنسا إلا سجناً لي ولمن معي وقد أردت أن أكون ضيفاً على بارجتكم، فأصبحت أسيراً لديكم. وبعد ذلك نقل مع كل من معه إلى حصن طولون الشهير تحيط بهم حراسة شديدة مشددة[2].

كان الهدف من سجن الأمير تحطيم رمزيته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري فرئيس الحكومة فيزو الذي عيّن الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير، كتب في مذكراته: أنه لا

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥٨.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٨٨.

يمكن تحطيم رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر[1]، وفي أواخر شهر نيسان ١٨٤٨م. تم عزل الأمير ذات ليلة عاصفة عن إخوته وعن عدد كبير من مرافقيه، ونقلوا إلى باخرة حملتهم إلى سجن باكريت ونقلوا الأمير إلى قلعة أمبواز من دون أن يكون في صحبته رجال يخشى منهم لأن حصن أمبواز يقع في مدينة "بو" التابعة لمقاطعة أورليان القريبة من الحدود الإسبانية، فكانت هذه السلطات تخشى من أن يخرج الأمير بالقوة بمساعدة مرافقيه الأشداء ويدخلوا الحدود الإسبانية، وبمرافقة حراسة مشددة نُقل الأمير إلى تلك المدينة وفي أثناء الطريق مروا بمدينة بوردو الساحلية، فاستقبله عند مدخلها الأسقف دوبيش بكل احترام وتقدير وكان هذا الأسقف معجباً بالأمير ومن المدافعين عنه، وكان من الذين زاروا الخليفة محمد بن علال في ولايته من أجل بعض الأسرى الفرنسيين فوجد لديه من الإكرام ما لا ينسى.

وأقام الأمير في فندق المدينة بعض الوقت للاستراحة، ثم تابعوا سيرهم إلى مدينة "تور" ومنها إلى "أمبوار" وعندما وصل القطار قال له الجنرال المرافق: أحمد ربك على وصولك بالسلامة إلى هذا المكان، إذ كنت طوال الطريق في أشد الحذر من أن يهاجمك أحد ويغتالك لأنه لا يوجد في فرنسا كلها أحد ليس له عندك ثأر، كان حصن أمبواز لأحد ملوك فرنسا وهو عبارة عن قلعة كبيرة عالية الأسوار تحيط به سهول واسعة ونهر تسير فيه المراكب أحياناً وقد أقام الأمير في هذه القلعة هو وإخوته الأعزاء لديه الذين كان يعز عليه أن يبقوا بعيدين عنه، وكان بعدهم يحزن والدته العظيمة التي كانت تلح عليه باستمرار لكي يسعى إلى ضم إخواته إليه في هذا الحصن الذي كان في نظرهم سجناً كبيراً، وقد أرسل الأمير عدة رسائل إلى الجنرال لامور سيير والدوق أورليون اللذين وقعا أمامه على شروط تسليم نفسه، طالباً الوفاء بالشروط وضمّ إخوته وضباطه إليه[2].

[1] المصدر نفسه.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٠.

استسلم الأمير عبد القادر لقدر الله وقضائه ولكنه ندم على الوثوق بالعهود التي أعطيت إليه من قبل القادة الفرنسيين وقال: لو كنت أعلم أن الحال يؤدي إلى ما إليه آل، لم أكن لأترك القتال حتى ينقضي منا الأجل[1].

وقام الأمير لامور سيير بمساعي كبيرة وكذلك الأسقف دوبيش والدوق دومال، للضغط على حكومتهم قائلين إن عبد القادر ليس بالرجل الذي يهرب من قضائه فهو مؤمن ذو همة وجلد وصبر، ولا يبالي بالشدائد، وهو ذو قوة وعزة نفس وصلابة في دينه وصدق اشتهر به، وهو شديد التمسك بمبادئه الوطنية وهو شخصية نادرة إذ وعد وفى وإذا تكلم صدق.

واستطاعوا التأثير في السلطات العليا فسمحت لمن يريد بزيارته كما أمرت بلمّ شمله مع أهله وقادة جيشه السابقين[2].

وعندما كتب بيجو بطلب من لويس فيليب إلى الأمير ليطلب منه أن يقبل أن يعيش في فرنسا في الإقامة التي يختارها صحبة مجموعة مدينة تليق بمقامه في انتظار الفترة المناسبة لنقله إلى المشرق كان رد الأمير هو التالي: أن فرنسا ملزمة إزائي وإزاء نفسها، إن وعدكم لن أسقطه عنكم، سأموت ووعدكم عندي حتى أفضحكم وحتى تعرف الشعوب والملوك قيمة الوعد الفرنسي وبعد سقوط ملكية جويلية فإن الحكومة المؤقتة كانت غير قادرة على الوفاء بوعد فرنسا مثلها مثل النظام السابق لها، وعندما سأل محافظ الحكومة المؤقتة الأمير عبد القادر عن الضمانات التي يمكن أن يقدمها إلى فرنسا ليؤكد لها أنه لن يظهر أبداً في الجزائر. كان رد الأمير هو التالي: ليس لي ضمانات أخرى أعطيها حول عزمي الثابت فيما يخص المستقبل سوى تلك التي سبق لي أن قدمتها[3].

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٧.

[2] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦١.

[3] الأمير عبد القادر وعبقريته البناء للأمة الجزائرية، ص: ١٨٩.

أ. شخصيات فرنسية وإنجليزية تدافع عن الأمير:

وللحقيقة التاريخية أنه تدخل لصالح الأمير عبد القادر ودافع عنه العديد من الشخصيات الفرنسية مثل الجنرال لامور سيير والأسقف الأول للجزائر أنطوان دوبيش ودوق دومال[١]، والشيء الأكثر إثارة للدهشة في هذه القضية أن كافنياك وهو أحد الجنرالات الذين قاتلوا الأمير قد أعلن بعد تشكيل حكومة الجمهورية الثانية: لا يمكن اعتبار عبد القادر سجيناً فقد كان طريق الجنوب مفتوحاً أمامه وقد فضل هو الرجوع إلى ما يسميه هو بصدق الوعد الفرنسي[٢].

وقد تأثر به الرأي العام الفرنسي والدولي وعبر عنه بصفة خاصة في بريطانيا من طرف اللورد "لندنديري" والشاعر "شاكري" وقد اهتز لهذا الموقف اللورد البريطاني لندندري فكتب رسالة شديدة اللهجة إلى لويس نابليون رئيس الجمهورية الفرنسية المنتخب وألح عليه بإطلاق سراح الأمير عبد القادر لينقذ شرف بلده وعدم نبذ عهودها، ووصل بالسيد لندندري الحد إلى التهديد بكشف المراسلات التي تثبت شروط المعاهدة بين الأمير عبد القادر وبين فرنسا التي أمضيت في ديسمبر من عام ١٨٤٧م[٣].

كما أن سيادة ديبيش الذي أصبح مطران باريس قد خاطب من على أعلى منبر نوتردام حاكم بلاده قائلاً: إنكم ستقتلون هذا الرجل دون أي مراعاة لوعد فرنسا[٤].

لم يقبل الأمير عبد القادر على الرغم من العديد من الطلبات الجد مغرية بأن يبقى في فرنسا حيث وعدته الحكومات المتتالية بمعاملة ومعاش يليقان بمقامه القديم، وظنت فرنسا أن بقاء الأمير كرهينة سيقبل بعد الإرهاق أن يقيم في فرنسا وهو ما يعني في نظر زعمائها الانضمام إلى فرنسا.

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٩.

[٢] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٨٩.

[٣] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٣٩.

[٤] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٩٠.

ومن الواضح أن الأمير عبد القادر قد كوّن مشكلة نفسية وتأنيب ضمير وتشويه سمعة بالنسبة لفرنسا وكان الكل يشعر نحو الأمير بالإعجاب ولذلك حرصوا على أن يبقى في فرنسا لكي يحققوا من خلف بقائه أهداف منها:

. تحية وإكرام لفرنسا.

. وتنكر الأمير لماضيه[1].

إلا أن الحياة الحرة العزيزة الأبية وتعلقه بشعبه ووطنه جعله كل ذلك أن يبقى في أعين الجزائريين والعالم أجمع كرجل وهب نفسه للقيم والمبادئ الإنسانية الرفيعة ومن أهمها حريته وحرية شعبه التي لا مساومة عليها مع المحتلين، ولذلك أصبح من الرموز اللامعة للجزائر والعرب والمسلمين والأحرار من بني الإنسان.

ب . حياته في السجن:

استطاع لامور سيير والأسقف دوبيش التأثير على السلطات الفرنسية فسمحت للأمير عبد القادر لمن يريد بزيارته، وأخذت شخصيات كبيرة من جميع أقطار العالم تتوافد لزيارة الأمير والتعرف على شخصيته الفذة وتسلم رسائل من الشيخ شامل أحد زعماء الداغستانية في الولايات الإسلامية التي وقعت سيطرة تحت روسيا القيصرية، ومن الذين تحملوا مسؤولية الجهاد مدة طويلة منذ احتلال المناطق الإسلامية في بلاد القوقاز من سنة ١٨٣٤م إلى ١٨٥٩م وعمل على تثبيت الشريعة الإسلامية في قلوب أبناء تلك البلاد ونشر الوعي الإسلامي والتمسك بالقرآن والسنة وكان الأمير يستقبل الجميع بالبشر والترحيب وكان يقضي الساعات الطوال مع العلماء والشخصيات العالمية ويجيب عن أسئلتهم التي تتعلق بالدين الإسلامي وبالفقه والآيات القرآنية وتفسيرها، وكان صبوراً لا يظهر الضجر، وكان كل أسبوع يعقد ندوة علمية يجتمع فيها الرجال والنساء، فيقرأ

---

[1] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ١٩٠.

ملخصاً عن كتاب "الصغرى" للإمام السنوسي في معنى الفقه وعلم الكلام، ورسالة محمد ابن أبي زيد الفيرواني في الفقه أيضاً على مذهب الإمام مالك وغيرها من الكتب المفيدة، وأخذ هو وإخوته ومصطفى ابن التهامي وابن علال يدرسون الصغار بعد أن نظموا لهم صفوفاً وكذلك للشباب كل حسب مقدرته وكان الأمير الذي زلزل بقوته أكبر دولة برية في العالم مدة ثمانية عشر عاماً متواصلة يقف أمام اللوح الخشبي مدرساً في سجنه لأطفال أهله ورعيته وثابر على تمسكه بالصبر وظل غير مبال بنوائب الدهر قائماً بواجباته الدينية بخشوع، قال شرشل: إن مطران "أمبواز" كان يحثُّ المصلين في أثناء قيامه بالوعظ يوم الأحد، فيقول لهم انظرو إلى الأمير عبد القادر الأسير في منفاه كيف يقوم هو وجماعته بكل واجبات دينهم من صلاة ليلاً نهاراً. ألا تسمعون الأذان بصوت قره محمد خمس مرات كل يوم من أعلى البرج في الحصن١.

وهكذا ظل الأمير خمس سنوات في سجنه فقد خلالها عدداً من أبنائه وأهله ودفنهم في حديقة القلعة صابراً راضياً بقضاء الله وقدره، ولم يكن في سجنه أقل عظمة مما كان في أيام سلطاته ومقاومته الأعداء، وقد أجاب ذات ليلة أحد أبنائه عن حاله مرتجلاً هذه الأبيات:

تعوّدت مسَّ الضُّر حتى ألفنه

وأسلمني طولُ البلاء إلى الصبر٢

٥. إطلاق سراح الأمير عبد القادر:

بعد أن تغير الحكم في فرنسا إثر الكثير من الاضطرابات الداخلية وعاد لويس فيليب إلى الحكم وأصبح إمبراطوراً باسم نابليون، كان أول عمل قام به هو أن أرسل كتاباً إلى الأمير

---

[١] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦٢.

[٢] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٦٢.

يقول له فيه ما معناه: إن سجنك يعذبني ويقض مضجعي وأشعر بالعار لعدم تنفيذه الاتفاق، وأخبره بأنه يريد زيارته في أول فرصة ممكنة.

وفي السادس والعشرين من تشرين الأول سنة ١٨٥٢م توجه امبراطور فرنسا نابليون الثالث إلى مدينة "تور" يرافقه المارشال سنتارنو وزير الدفاع والجنرال روغو، وعدد من كبار الضباط والحرس الإمبراطوري واستقل هذا الموكب القطار إلى مدينة أمبواز.

بدأ نابليون الثالث جولته هذه بزيارة الأمير عبد القادر وما إن وصل إلى مدخل الحصن حتى وجد الأمير في استقباله فسار وإياه يداً بيد إلى أن وصلا مكان الاستراحة المعدّة مسبقاً، ثم أقبلت والدة الأمير المسنة منحنية على عصا تساعدها على نقل خطواتها نحو الإمبراطور الذي قال للأمير: أكرر أسفي على السنين التي قضيتموها مرغمين في سجنكم هذا، والآن يشرفني التعرف على عدو شريف وضيف كريم أقدر دفاعه عن وطنه ورفضه قتال أبناء دينه، ثم قدّم له سيفاً منقوشاً عليه اسم نابليون الثالث وتاريخ المقابلة مرفقاً بكتاب يقول فيه:

هذا إقرار بالوفاء بشروطكم ومساعدتكم من حكومتي على السفر ومن معك إلى تركيا حسب رغبة السلطان غازي خليفة المسلمين.

ودعاه لزيارة مدينة باريس بعد عشرة أيام حيث يكون قد نظم له احتفالاً كبيراً وعرضاً عسكرياً لجميع أسلحة الجيش التي حاربها بحد سيفه وسيوف المجاهدين مدة ثمانية عشر عاماً. وغادر نابليون الثالث الحصن الذي شهد انتهاء أسر الأمير ومرافقيه عام ١٢٦٩هـ وكان ذلك القصر التاريخي مقرّاً مفضلاً لكثير من ملوك فرنسا وأولهم لويس الحادي عشر وبعد قيام الثورة الفرنسية للقضاء على الملكية تحول إلى حصن وقلعة ثم إلى سجن للأمير عبد القادر[1].

٦. مغادرة فرنسا إلى الدولة العثمانية:

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٤.

سارت قافلة المهاجرين الأبطال في هدأة الليل من حصن أمبواز في طريقها إلى مرسيليا في الثامن والعشرين من شهر صفر سنة ١٢٦٩هـ /١٨٥٣م وعند وصول القافلة إلى مشارف مدينة ليون شوهد مئات من الجند بلباسهم الرسمي يمثلون فرقاً من الجيش، وأطلقت إحدى وعشرين طلقة تحية للمغادرين، وحصل مثل ذلك الاحتفال الرسمي للقافلة في مرسيليا أيضاً، فأطلقت المدفعية إحدى وعشرين طلقة قبل صعودهم البارجة الحربية التي أبحرت بهم نحو جزيرة صقلية، وبعد فترة من الزمن لاحت الجزيرة عن بعد كزمردة خضراء لامعة تحت أشعة الشمس الصباحية الحانية وزرقة السماء الصافية وكان حاكم المدينة قد نظم استقبالاً حافلاً لائقاً وينطوي على كل احترام وتعظيم وبعد استراحة قصيرة تقدم من الأمير عارضاً القيام برحلة لمن يريد في أرجاء الجزيرة وكان عدد من العربات في انتظارهم وتجولوا في صقلية وشاهدوا الآثار الإسلامية التي تشهد على تاريخ هذه الجزيرة العربية الإسلامية وبين أمجاد هذا التاريخ الغابر وهدير الأمواج كانت تغلق نفوسهم الحزينة هذه الذكريات الموجعات، وما أشبه أيامهم الحاضرة بالأمس البعيد[1]، وصعد الأمير مع حاكم صقلية إلى جبل "أتنا" وعند مغادرته ترك رسالة شكر عبّر فيها عن مشاعره بالعبارات التالية:

شاهدنا في كل مكان آثار الشعوب التي سكنت هذه الجزيرة، هذه المشاهد دفعتنا إلى التفكير بالله وأنه في الحقيقة سيد الكون وأنه يعطي الأرض لمن يشاء إن جبل النار هو بلا شك أحد روائع العالم وعند تأمل السهول المزروعة والمأهولة من قيمة هذا الجبل نفكر بقول الحكيم العربي حول الجلاء عن صقلية من قبل العرب:

أن أفكر فيك يا سهول صقلية من ارتفاعات "أتانا" يؤدي إلى يأسي لو لم تكن دموعي مالحة لشكلت أنهاراً لهذه الجزيرة جزيرة المجد، علينا من سكن الفردوس لنتمكن من وصف روائع صقلية[2].

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٠.

[2] فارس الجزائر مصطفى طلاس، ص: ٢٩٤ ، ٢٩٥.

وقبل ركوب الأمير ومن معه أمواج البحر في الباخرة قدم سيدي الطيب بن المختار قصيدة إلى ابن عمه الأمير عبد القادر نقتطف منها هذه الأبيات:

هذي صقلية لاحت معالمها
تجر تيهاً فضول الربط من أمم

كانت منار هدى كانت محط ردى

كانت شموس الفضل والكرم
هذي منازلهم تبكي مآثرهم
بكاء طرف قريح بات لم ينم
هذي المساجد قد دكت قواعدها
هذي المآذن بالناقوس في سقم
هذه المحاريب قد عاد الصليب بها
هذي منابرها قفرى من الحكم
إذا رأت مسلماً قد زارها فرحت
واستبشرت ثم باست موضع القدم
انظر لأرجائها تلق العجائب بها
قد أعلنت بسرور غير مكتتم
كيف لا وحسام الدين حلّ بها
فخر الأكابر من عرب ومن عجم
عبد القادر عز الإمارة ورونقها

بحر السماحة كم أسدى من النّعم

تابعت الباخرة طريقها تمخر عباب البحر ورست في ميناء الأستانة "إسطنبول" يوم الجمعة في شهر كانون أول عام ١٨٥٣م، وكان أول عمل قام به الأمير هو زيادة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وأبو أيوب الأنصاري كانت وفاته ببلاد الروم قريباً من سور القسطنطينية وفي حصارها في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ولما مرض قال لمن معه من المجاهدين: إذا متُّ فاحملوني، فإذا صادفتم العدو فارموني تحت أقدامكم، أما أني سأحدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة**»[١]، ودفن أبو أيوب عند سور القسطنطينية وقالت الروم لمن دفنه: يا معشر العرب قد كان لكم الليلة شأن. قالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا والله لئن نُبش لأضُرب بناقوس في بلاد العرب، وبعد مجيء الدولة العثمانية وفتح القسطنطينية أصبحت مكانه أبي أيوب الأنصاري عظيمة في الثقافة العثمانية، فقد درج السلاطين العثمانيون يوم يتربعون على الملك أن يقيموا حفلاً دينياً في مسجد أبي أيوب حيث يتقلدون سيفاً للرمز إلى السلطة التي أفضت إليهم وكان لأبي أيوب رضي الله عنه عند الترك خواصهم وعوامهم رتبة ولي الله الذي تهوى إليه القلوب المؤمنة وينظرون إليه كونه مضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أكرمه وأعانه وقت العسرة كما أنه له مكانة مرموقة بين المجاهدين واعتبروا ضيافته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجهاده في سبيل الله أعظم مناقبه وأظهر مآثره.

وقد ترك أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه في وصيته بأن يدفن في أقصى نقطة من أرض العدو صورة رائعة تدل على تعلقه بالجهاد، فيكون بين صفوفهم حتى وهو في نعشه على أعناقهم، وأراد أن يتوغل في أرض العدو حياً وميتاً وكأنما لم يكفه ما حقّق في حياته

---

[١] سير أعلام النبلاء للذهبي (٢ / ٤١٢) إسناده قوي.

فتمنى مزيداً عليه بعد مماته، وهذا ما لا غاية بعده في مفهوم المجاهد الحق بالمعنى الأصح الأدق.

وقد مدحه شعراء الأتراك في أشعارهم، وهذا شيخ الإسلام أسعد أفندي يشير إشارة لامحة إلى موقعه بقوله:

شهد المشاهد جاهداً ومجاهداً

ومكابداً بحروبه ما كابدا

حتى أتى بصلابة ومهابة

في آخر الغزوات هذا المشهدا

قد مات مبطوناً غريباً غازياً

فغدا شهيداً قبل أن يستشهدا[1]

وكان من الطبيعي أن يبدأ أول زياراته في إسطنبول من أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه الذي كان ملهماً بسيرته لكثير من الأبطال والمجاهدين عبر العصور والدهور، وبعد زيارة الأمير عبد القادر ضريح أبي أيوب الأنصاري زار جامع أيا صوفيا، وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت لهم قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان الذي رحب به بحرارة بالغة وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين، وعرض عليه عدداً من المدن ليختار إحداها لإقامته الدائمة فاختار مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها وجمال الطبيعة فيها، وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

كان خليل باشا صهر السلطان ووالي بورصة في استقبال موكب الأمير ومن معه من المهاجرين، وعند مدخل المدينة ومعه أعيان البلد ورجالاتها المرموقون فقالوا جميعاً على مشارفها، وسار الموكب على طريق ترابي بين أشجار السنديان والبلوط وأشجار التوت، في اتجاه الأمكنة التي أعدت لهم بالأمر السلطاني في بورصة أجمل تلك المناطق؛ وبعد أن

---

[1] الدولة الأموية للصلابي (١ / ٣٥٢).

استقر بهم المقام انضم إليهم الحاج عبد القادر بوكيخية والعلامة الحاج محمد الخروبي القليعي، وكان كاتباً لدى الأمير وخليفة على أيالة صطيف. والعالم قدور بن رويلة وغيرهم وجميع هؤلاء كانوا أسرى أطلق سراحهم المستعمرون الفرنسيون بعد وصول الأمير إلى بورصة فوجدوا لديه الملاذ والحمى والصدر الرحب، ومن أجلهم اشترى الأمير مزرعة واسعة تسمى "جليك" في ضواحي المدينة وأمر ببناء دور لسكناهم وأشرف على بنائها الجميل مهندسون من دار الخلافة١، وكان الجميع يداومون على حسن مجالسة الأمير وكان يصلي لهم الصلوات الخمس في الجامع المعروف بجامع العرب. وقد شرح لهم في هذا الجامع كتب الكودي والسنوسية وصحيح البخاري والمذاهب الأربعة، وكان يكثر من الصدقات ويكرم المحتاجين فأخذ العلماء وأصحاب الحاجة يقصدونه من كافة بلاد العالم الإسلامي، نذكر منهم الشيخ يوسف بدر الدين المغربي العلامة الشهير الذي يشكو من محنة دهماء لم يجد لها حلاً وبينما كان في غمرة اليأس البؤس طاف به خاطر ألهمه صبراً وأحيا في نفسه أملاً.

ومحنته كانت: في غفلة من الزمن استولى أحد الأجانب المقيمين في دمشق وكان يدعى "يانكو" على دار تابعة لمدرسة الحديث في أشرفية صحنايا من ضواحي المدينة، وتطاول إلى الزاوية الغربية من المسجد وضمها إليه، ولم يكتف بذلك الاعتداء بل عمد إلى إنشاء معمل ومستودع للخمور فيها فثار المسلمون وعلى رأسهم العلامة الشيخ يوسف الذي قدم شكوى إلى الوالي العثماني، فأهملت الشكوى على الرغم من الملاحقة المضنية، فاضطر إلى السفر إلى دار الخلافة في إسطنبول مستغيثاً، لكنه لم يجد هنا أذناً صاغية وبعد أن بذل جهوداً مضنية والكثير من المال حصل "فرمان" من الباب العالي، ولكن في دمشق أهمل الوالي الأمر السلطاني وشعر هذا العالم الجليل بالإحباط والظلم فقرر الهجرة إلى المدينة المنورة، وفجأة لاحت له بارقة أمل: لماذا لا يقوم بمقابلة الأمير عبد القادر

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٢.

أولاً؟ وشد الرحال إلى بورصة، وكان سعيداً بالاجتماع بالأمير فشكا له أمر تلك الدار التي كانت مقصد رجال الدين والعلماء وأئمة المسلمين ومنهم الإمام النووي الذي سميت باسمه وحدثه عن تاريخ هذه البقعة المقدسة التي شرفتها قدم المرسلين صلى الله عليهم وسلم: فجاشت نفس الأمير بمشاعر النخوة والحمية وأرسل فوراً يطلب هذا الرومي ولما حضر فاوضه على بيع المكان المذكور بأكمله، ودفع له الثمن نقداً كما طلب، وانتهت المشكلة وجعل هذا العقار وقفاً شرعياً باسم العلامة يوسف بدر الدين ومن بعده لذريته بحجة شرعية بتاريخ الثاني من جمادى الأولى عام ١٢٧٢هـ، ثم أمر بترميم الدار والمسجد على نفقته وعندما فرغ من إصلاحهما كتب إلى الشيخ يوسف رسالة يرجوه فيها أن يأتي ليسكن هذه الدار فسكنها وتسلم المدرسة في أول يوم من شهر رجب ١٢٧٤هـ[١].

ثامناً: الأمير عبد القادر في دمشق

كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا وإلى دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكنى اللائقة به، وعند وصول الأمير إلى ميناء بيروت وجد ومن معه جموعاً من السكان اللبنانيين في استقبالهم والترحيب بهم وإكرامهم، وفي اليوم الثاني سار موكب العربات تجره الخيول المطهية نحو دمشق الفيحاء، وكان استقبالاً رسمياً دمشقياً أُعدّ على مشارف المدينة وسار الموكب تتقدمه فرق من الخيالة والمشاة بملابسهم الرسمية وأوسمتهم، ودخل موكب الأمير دمشق وأخذ الناس يهتفون بحياة الأمير وبحياة أصحابه الأبطال واختلطت هتافاتهم الحماسية بزغاريد النساء وكان الأطفال بملابس العيد يصفقون فرحين وكأن كل واحد منهم يستقبل أباه الذي عاد للتوّ من الأسر ليحمل مستقبل أيامه البريئة وأخذوا يهتفون لحامي العروبة

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٣.

والإسلام البطل الذي حارب أكبر إمبراطورية برية استعمارية. كان لهذا الاستقبال الكبير الأثر العميق في نفس الأمير الذي شعر بما يعانيه هذا الشعب وما ينتظره من مؤامرة تُدبّر له في ليل من جانب المستعمرين.

دخل الأمير عبد القادر دمشق عام ١٨٥٥م وبلغ احتفال السكان بقدومه حدّ الروعة، فقد خرج لاستقباله جميع السكان حتى النساء والأطفال إلى مشارف المدينة وقد لبسوا ملابس الأعياد١.

١. العبادة والحلقات العلمية وكتبه وفكره:

كانت مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النووي، وكان دؤوباً على عمل الخير والصلاح مواظباً على المطالعة والتأمل وزار بيت المقدس والجليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز وكان يلقي دروساً في القرآن والفقه والحديث فضلاً عن علوم شتى في الجامع الأموي والمدرسة الجقمقية ودار الحديث الأشرفية وفي داره، ومن الكتب والرسائل التي اعتمدها في غالب الأحيان الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، والعقائد النسفية في التوحيد للعلامة نجم الدين عمر النسفي الحنفي، وموطأ الإمام مالك، وصحيح البخاري الذي كان يحفظه عن ظهر قلب وصحيح مسلم، والشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وألفية ابن مالك، والرسالة لابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، واهتم بكتب التصوف فضلاً عن مدارسة كتابات عديدة لمشاهير المؤلفين في التاريخ القديم والحديث وفي الفلسفة واللغة

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٩٤ إلى ١٩٧.

والتاريخ والجغرافيا والطب، وتجمعت لديه مكتبة ضخمة وكانت داره لا تخلو يوم من الزوار من كل أنحاء البلاد العربية والإسلامية[1].

لقد بدأ الأمير كفاحه في خدمة العلوم الفقهية وخدمة الإنسانية، وكان يحب العلم والعلماء الذين ما ان استقر به المقام حتى احتضنهم وحسّن حياتهم وزاد إنتاجهم العلمي واستطاع أن يوجد مناخاً من الحرية، وحال دون عاديات السلطة على الشعب، وأقام الندوات العلمية والفقهية والدراسات الدينية في الجامع الأموي وساعد في رفع الظلم عن الكثير من المضطهدين، وخصص رواتب سخية في كل شهر للعلماء والصالحين والمحتاجين، وتفرغ للعبادة والتأليف وخدمة الناس وألف كتاب "المقرض الحاد" لما كان في سجنه وراجعه في دمشق ونظم ديواناً من شعره الرقيق سماه "نزهة الخاطر" ومجموعة من الكتب.

واهتمّ العلماء بهذه الكتب وتقريظها ومناقشتها من قبل رجال الفكر، وأدرجت جميعة العلماء في باريس اسمه من بين أسماء العلماء والعظماء في "ديوان الأمم".

وكانت أماكن ندوات ومحاضرات وحلقات الأمير عبد القادر تتغير من حين إلى آخر حسب الظروف المتاحة، فكانت أحياناً في مدرسة الأشرفية الشهيرة الآن بدار الحديث النووي، أو في المدرسة الجقمقية، وأحياناً في الجامع الأموي، لكن كان في أكثر الأحيان يدرس ويحاضر في منزله الذي غدا في دمشق مأوى لعباد الرحمن الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ولا يشغلهم شاغل عن نهل العلوم وذكر رب العالمين، وأصبح هو مركز اهتمام العلماء والمثقفين وقبلة الفقهاء وكل من يريد معرفة فتوى، أو رأي في قضية فقهية[2]، وفي السنين الأخيرة من حياته كان إذا حل شهر رمضان المبارك يذهب إلى

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٥.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٧.

مزرعته في أشرفية صحنايا من ضوضاء المدينة وزوارها ويمضي أواخر الشهر معتكفاً في غرفة صغيرة منعزلاً عن الناس لا يدخل عليه سوى الخادم الذي يقوم بخدمته، قائماً لليل ويرتل القرآن ويصلي، ولم يكن طعامه سوى الحليب والتمر والزبيب[1].

وانفتح الأمير على ثقافات بلاد الشام والمشرق المتنوعة التي كان ينظر لها مجموعة من المفكرين والمصلحين وجملة من المثقفين من خريجي مدارس الإرساليات المسيحية التعلمية، ومن ريادة المتعلمين من أمثال ناصيف اليازجي الذي توفي عام ١٨٧١م صاحب كتاب مجمع البحرين الذي حاكى فيه مقامات الحريري، وبطرس البستاني الذي توفي عام ١٨٨٣م الذي ارتبط اسمه بدائرة المعارف التي عمل على إخراجها وأتمها بعده أولاده، كما تأثر بحركة الطباعة ونشر الكتب وتأسيس الصحف ودورها في نشر الثقافة الحديثة والوعي السياسي والاجتماعي، وكان في طليعة النشريات التي أثرت الحياة الثقافية جريدة الأحوال التي صدرت بدمشق عام ١٨٥٥م وجريدة الأخبار الصادرة ببيروت عام ١٨٥٧م، كما تأثر الأمير في دمشق والشام بمحيطها وعمقها الطبيعي العربي، وتكامل إنتاجها الفكري بإنتاج المؤرخين والكتّاب خريجي بعثات محمد علي إلى أوروبا كالترجمات والمؤلفات العلمية والتاريخية مثل العلامة علي مبارك، والشيخ رفاعة الطهطاوي صاحب الكتاب المشهور تخليص الإبريز في تخليص باريز، وإبراهيم الدسوقي وعبد الله أبو السعود وصالح مجدي وغيرهم[2].

أ . مؤلفاته وكتبه:

بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى آخر أيامه، فقد شرح قبل أن يستلم الإمارة حاشية في

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٥.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٦.

علم الكلام كتبها جده الذي عاش في نهاية القرن السادس عشر عبد القادر بن أحمد المدعو بن خده، وبعدها بحسب الظروف والمواقف كانت له تآليف وكتب:

. رسالة بعنوان حسام الدين لقطع شبه المرتدين، كتبها في بداية عهده بالإمارة أي عام ١٨٣٣م وذلك بالرد القاطع من القرآن والسنة النبوية على بعض أشباه الشيوخ الذين استمالهم واستأجرهم الاحتلال ليروجوا بين الناس جواز النزول تحت حكم الفرنسيين وعدم جواز الانضمام إلى دولة الأمير المجاهدة.

. كتاب وشاح الكتائب وزي الجندي المحمدي الغالب. ألَّفه بعد معاهدة التافنة عام ١٨٣٧م وهو كتاب يشتمل على الأحكام والأزياء والقوانين الخاصة بالجيش المحمدي الفتي خطّه بيده المجاهد قدور بن رويلة تحت إشراف الأمير وأضاف إليه بعض الملاحظات.

. مجموعة من المراسلات الفقهية بينه وبين علماء عصره وأجوبة كثيرة عن أسئلة لحل مشكلها وفتح ما استغلق منها، وكذلك مجموعة من المراسلات بينه وبين بعض الشخصيات المدنية والعسكرية وأجوبة كثيرة عن أسئلتهم واهتماماتهم في ميادين شتى[١].

ب . كتاب المقراض الحاد:

كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد ألفه الأمير عبد القادر عندما كان سجيناً في قلعة أمبواز بفرنسا في أواخر عام ١٨٥٢م والسبب في ذلك أنه بلغ الأمير أن بعض الحكام والضباط والأمراء الأوروبيين انتقص من دين الإسلام واعتبر أن الخديعة والغدر من سمات الإسلام نفسه، فوضع الأمير ذلك الكتاب من حفظه دون مراجع مكتوبة للرد عليهم بالدليل الكافي والوافي من القرآن والسنة الصحيحة

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٣.

وبيّن لهم خطأ اعتقادهم ووضح في الكتاب مسائل وأحكام مهمة وظهرت فيه روح الدعوة وحرصه على هداية الناس.

لقد أكد العقلاء في هذا العالم أن الإسلام حمل إلى الإنسانية حضارة عادلة ورحيمة تكمن في سعادة هذا المخلوق في دار الدنيا والآخرة، وتقضي على الشرور في المجتمعات، وفي أعماق النفس البشرية، وقد شمل كتاب الأمير عبد القادر "المقراض الحاد" على المواضيع الرئيسة في الفقه الإسلامي والأخلاقيات الإسلامية والتربية من وفاء وإخاء ورحمة وعدل وبيّن مكانة الفرد في الإسلام في هذا الدستور الإلهي الذي جعله الله يشكل اللبنة الأساسية في كيان الأمة والمجتمع، هذا الفرد الذي جعله الله في المنهج الإسلامي مكلفاً ومميزاً، قال تعالى:" وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ" (الأنعام، آية : ١٦٥).

. وقال تعالى :" وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا" (الزخرف، آية : ٣٢).

ففي المجتمع الإسلامي لا يوجد صراع طبقات وإنما إخوة وتعاون وتكافل اجتماعي ومساواة وعدل ورحمة، فهذه الرسالة التي وجهها الأمير من سجنه عام ١٨٥٢م للقساوسة في فرنسا والمفكرين أراد تضمينها كل هذه الأسس في الدستور الإلهي القرآن. وأعتقد أنه نجح على جعلهم يقرؤونها ويترجمونها ولم يحتجوا على عنوانها الجرئ "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" وقبولهم لها وترجمتها ووضع اسمه بين علماء العالم دليل على نجاحه فيما قدّم، ولابد لكل من قرأ هذه الرسالة "المقراض الحاد" من ملاحظة أن هدف الأمير لم يكن استعراضاً لمعلوماته وإنما الهدف كان الدعوة الإسلامية التي هي واجب على كل مسلم، وأيضاً تعريف هؤلاء المستعمرين لبلاده بدولته التي أرساها على هدي القرآن في الجزائر أراد أن يقول لهم في هذه الرسالة أن الشعب الجزائري يملك حضارة ربانية عريقة لا تقارن بحضارتهم الوضعية التي يريدون فرضها بالقوة

على شعبه بحجة إنقاذهم من التخلف والتوحش وقال لهم في مقدمة رسالته: إنني لا أصلح أن أكون تلميذاً للعلماء في بلادي كان هذا الكتاب موجه إلى جماعات لا تؤمن بالإسلام ولا بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فكان لا بد من مخاطبتهم بأسلوب العقل والمنطق الإنساني للوصول إلى غايته وهي نشر الدعوة الإسلامية التي نزلت إلى الناس أجمعين، ولقد جسد هذه الدعوة بأعماله الملحمية قبلاً وفي سجنه أيضاً وكانت عنده سلوكاً، لقد كان كتابه في السجن يدل على مستودعاته الفكرية والمعرفية وعن كينونته ثم هدفه وكما قال الله تعالى :" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَثلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ" (إبراهيم، آية : ٢٤ ـ ٢٦). صدق الله العظيم.

والكلمة الطيبة هي التوحيد والإيمان بإله واحد لا شريك له، ولكي يصل إلى عقولهم تناول الأمير في المقدمات علوماً مختلفة، تكلم في الفصل الأول من رسالته " المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد" عن العلم والجهل، ثم عن فضل العلم والعلماء، ثم تكلم عن العقل ليخاطب عقولهم، وقيمة هذا العقل والحدود التي وضعها الله سبحانه وتعالى لهذا العقل وتكلم عن الحواس والإدراك، ثم في الفصل الثاني تكلم عن العلوم الشرعية وحاجة الإنسان إلى الرسل والأنبياء الذين اختارهم الله من بين عباده لإرشاد هؤلاء العباد إلى الطريق السوي وسبيل الخير، وتكلم عن إثبات الألوهية والنبوة بأسلوب علمي مبسط وبالأدلة الصادقة على الطريق السليم لمعرفة الله ومعرفة الرسول إن كان صادقاً أو مدعياً، وفي نهاية الرسالة كتب في تاريخ الأمم والوفاء عند العرب. وبعلم الاجتماع وفضل التصنيف وتدوين المعارف وعن آيات الله في الأرض وفي السماء وأشار أيضاً إلى تحريم السحر في الإسلام[١]، وتحدث عن رسالة الأنبياء وعن

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ١٥٧.

رسالة النبي صلى الله عليه وعلاماتها وأدلتها، وتحدث عن القرآن الكريم فقال: إن الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم، وحمله معارف العرب وعلومها وهي أربعة البلاغة والشعر، والخبر والكهانة، فأنزل الله عليه القرآن الخارق لهذه الأربعة من الفصاحة والإيجاز والبلاغة الخارجة عن نمط كلامهم ومن الإخبار عن الكوائن والحوادث والأسرار والمخبآت، فتوجد على ما كانت ويعترف المخبر عنها بصحبة ذلك وصدقه، وإن كان من الأعداء ومن الأخبار عن القرون السالفة وأبناء الأنبياء والأمم البائدة والحوادث الماضية ما يعجز عن تفرغ لهذا العلم عن بعضه إلى أن قال: .. ومعجزة القرآن باقية ثابتة إلى يوم القيامة بينة الحجة لكل أمة، لا تخفى وجوه ذلك على من نظر فيها وتأمل وسائر معجزات انقرضت بانقراضهم وعدمت.

ومعجزة القرآن لا تبيد ولا تنقطع ولا يقدر أحد على تغييرها وتبديلها ولو بلغ الغاية في العداوة والمعاندة والجهل[١]، وقال: وحاصل أن لنا على نبوة محمد عليه السلام دلالة أنه عليه الصلاة والسلام صادق وأمين وأظهر المعجزة وهو خاتم الأنبياء[٢].

وقال: ونزلت الرسالات السماوية كما يشيد بنا الدار بالتدريج، فأصول النبوة كانت بآدم وأصل الرسالة بنوح ولم يزل ينمو حتى وصل إلى سيدنا موسى عليه السلام ثم إلى عيسى إلى أن كمل بناء الدار بالجمع بين العلم والعمل بمحمد صلى الله عليه وسلم، وهذا كان سر ختم النبيين والزيادة على الكمال نقصان، وأكمل شكل الآلة الباطشة كف عليه خمس أصابع، فكم اذا الأصابع الأربع ناقص فذو الأصابع الستة ناقص، لأن السادسة زيادة عن الكفاية، فهي نقصان في الحقيقة وإن كانت زيادة في الصورة، ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد والتنزيه وصلت إلى أكثر بلاد المعمورة في مشارق الأرض ومغاربها، وذلك ما لم يملكه أحد من الأمم السابقة[٣].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٤

[٢] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١١٧.

كان الأمير عبد القادر ملتزماً في أفكاره واعتقاده بالكتاب والسنة وكان كثيراً ما يردد:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

فحيثما سار سر وإن وقف قف

ففكر الأمير ومعتقده واضح المعالم، صادق وصريح، نابع من جذور ثقافته وتربيته وتعليمه وإيمانه والتصوف الذي وصفوه به كان أعمالاً وصلاحاً وتقى وتمسكاً بالقرآن والسنة وزهداً في الحطام الزائل، وكان متمسكاً بالعبادات وأوامر الشرع إلى أن حان أجله وهذه حقيقة دراسة وافية وعميقة ومتجردة في حياة الأمير وتراثه.

جـ. كتاب ذكرى العاقل وتنبيه الغافل:

هذا الكتاب من كتب الأمير عبد القادر قسمه إلى مقدمة وثلاثة أبواب وخاتمة وأدرج تحت كل عنوان مجموعة من العناوين التي تخدم الفكرة الرئيسة للموضوع في هذه المقدمة قدمت لمضمون الرسالة ليضع القارئ أمام الموضوع فيكون على بينة منه قبل الإقدام عليه، فقد أكد على أن مقياس التفاضل بين الناس يكمن أساساً في العقل والعلم، وهما الوسيلتان الوحيدتان لإدراك الحق، ولذلك وجب على العقل في ان ينظر في القول إلى قائله، فإن كان القول حقاً قبله سواء كان قائله معروفاً بالحق أو الباطل لأن الحكمة ضالة العاقل وأن معرفة الرجال تكون بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ولابد من نبذ التقليد وإطلاق حرية الفكر والعقل للتطور والتأمل للاعتبار لمعرفة الحق بالدليل، وفي ذلك يتمايز الناس مراتب، فمنهم عالم مسعد لنفسه ومسعد لغيره، وهو الذي قلد آباءه وأجداده في ما يعتقدون ويستحسنون وترك النظر بعقله ودعا الناس لتقليده والأعمى لا يصلح أن يقود العميان ورغم ذلك فإن هذا العقل لا يمكنه أبداً إدراك الأشياء على حقيقتها إذا حجب الله سبحانه وتعالى عنه أنوار الهداية والتوفيق فيغدو كالعين الباصرة لا يمكنها

إدراك الأشياء إلا عند طلوع النيران كالشمس ونحوها، فكذلك العقل لا يقدر على إدراك الحقائق دون خطأ إلا إذا طلعت عليه أنوار التوفيق والهداية من الله تعالى والعلم علمان علم محمود وآخر مذموم، فأما المحمود فهو العلم الذي ترتبط به مصالح الدين والدنيا كالطب والحساب، وكل علم لا يستغنى عنه في قوم أمر الدين والدنيا كأصول الصنائع والفلاحةوالحياكة والسياسة والحجامة، أما العلم المذموم فيؤدي حتماً إلى ضرر إما بصحابه أو بغيره كتعليم السحر والطلمسات فالعلم هو في حقيقة الأمر الغاية من خلق الإنسان نفسه فالعبادة الصحيحة لا تتأتى عن جهل ولذلك فإن شرف الإنسان وخاصيته التي يتميز بها عن جميع الموجودات هي العلم وبها كماله، والعلماء هم ورثة الأنبياء وقد حذرت من أشباه العلماء الذين يتعاطون العلم وهم ليسوا من أهل فيكون شرهم وبلاؤهم أكبر من نفعهم لأنهم يتغون وراء ذلك عرضاً دنيوياً زائلاً ولو على حساب الدين والأخلاق، كالوعاظ الذين يصعدون المنبر إذا لم يكن وراء كلامهم علم نافع وليس مرادهم إلا اكتساب الدينار والدراهم لكن العقل وإن بلغ من الشرف والاطلاع على حقائق الأشياء ما بلغ فثم علوم لا يصل إليها ولا يهتدي إلى الاطلاع إليها إلا بتصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد إليهم، بمعنى أن علوم الأنبياء زائدة على علوم العقل، فوراء العقل طور آخر وأمور أخرى العقل معزول عنها ولا يصل إليها بنفسه بل بغيره ولذلك وجب الإيمان والتصديق بما جاء به هؤلاء الرسل من أحكام وشرائع وعلوم قد لا تدركها العقول والحواس عن طريق العلم العقلي، فالعلوم التي تحل في العقل قسمان، عقلية وشرعية، أما العقلية فنعني بها ما تحكم به غريزة العقل من غير تقليد وسماع، وأما العلوم الشرعية فهي المأخوذة عن الأنبياء وذلك يحصل بالتعلم لكتب الله المنزلة مثل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان وفهم معانيها بعد السماع، وبها يكمل العقل ويسلم من الأمراض[1].

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٩.

وهذا لا يعني أن العلم العقلي يخالف أو يناقض العلم الشرعي، بل العكس لأن جميع أقوال الأنبياء لا تخالف العقول، ولكن فيها ما لا يهتدى العقل إليه أولاً، فإذا هدي إليه عرفه وأذعن له فكان لزاماً التدين والإيمان والإقرار بنبوة هؤلاء الرسل قولاً وعملاً وأما المكذب للأشياء بعقله عما جاء به الرسل والأنبياء من الأعمال والعبادات فيؤدي إلى الغرور الهادي صاحبه إلى الاستكبار والتعصب وهما سبيل الكفر والعناد وجملة القول أن الدين عند الله الإسلام، فالدين واحد باتفاق الأنبياء وإنما اختلفوا في بعض القوانين الجزئية، إذن فلا بد من التسامح والأخوة والتواضع ونبذ الكراهية بين جميع المنتسبين للأديان، ولابد للإنسان من الابتكار والاجتهاد وعدم الاقتصار لما خلّفه السابقون من التصانيف والتآليف والنظر إليه على أنه الكمال والمثال والنموذج لأن نتائج الأفكار لا تقف عند حد، كما أن تصرفات العقول لا حد لها، ولا يستبعد أن يدخر الله لبعض المتأخرين ما لم يعطه لكثير من المتقدمين، فالعلم في بحر لجي مترامي الأطراف لا تدركه الأبصار ولا تحوطه العقول، يغرف منه المتقدم والمتأخر ولا ينفذ ولذلك فالخطأ أن يقف المرء عند حدود ما خلفه السلف والادعاء بأنه منتهى الغاية والكمال. فقول القائل ما ترك الأول للآخر شيئاً، خطأ القول الصحيح كم ترك الأول للآخر شيئاً. أما بالنسبة للتصنيف والتأليف والكتابة فنجاح الأمر يكمن في إتمام الغرض الذي وضع الكتاب من أجله من غير زيادة ولا نقص وعدم استخدام اللفظ الغريب لا في الرموز ولا في الألغاز وينبغي أن يكون التصنيف مسوقاً على حساب إدراك أهل الزمن وعلى قدر ما تصل إليه عقولهم فالعلم تراث إنساني حق للجميع كل فيه شركاء، فالمآثر العلمية والعقلية ثمر جهد إنساني عام جيل يمضي وآخر يأتي ليضع لبنة في بناء هذا الصرح المعرفي الواسع لتكتمل حلقته ودرته بهذه الأمة[1].

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٠.

د ـ كتاب «المواقف» بطلان نسبته للأمير:

ينسب للأمير عبد القادر بعد وفاته بثمانية وعشرين عاماً حيث طبع في مصر على نفقة السيدة نبيهة خانم زوجة محمود باشا الأرناؤوطي من دون أي دليل على أن للأمير صلة به، سوى الألف واللام التي وضعت على عنوانه "الأمير عبد القادر" فالكتابة كانت بقلم فراج بخيت السيد، والتاريخ كان ١٣٢٨هـ والأمير كانت وفاته ١٣٠٠هـ ولم يذكر السيد فراج أنه مثلاً نقل ما خطته يداه عن مخطوط للأمير، أو أنه كان يحضر ندواته الفقهية ونقل عنه هذا الموقف أو ذلك أو أنه استند إلى أوراق وصلته من ورثة مثلاً لا شيء من هذا البتة والأدلة كثيرة منها:

ـ الدليل التاريخي وهو الزمن الممتد بين وفاة الأمير عام ١٣٠٠هـ وطباعة الكتاب ١٣٢٨هـ وكتاب خطير من هذا النوع لابد لمؤلفه من طباعته في حياته والتأكد من عدم تحريفه بزيادة أو نقصان أو تشويه.

ـ الدليل المنطقي العقلاني العلمي، وهنا لابد لنا من الرجوع إلى علم القياس، فأمامنا كتاب "المقراض الحاد" الذي كتبه الأمير في أمبواز وقدمه إلى القساوسة، فهذا الكتاب أو الرسالة معروف تاريخ كتابتها ومكانها ومناسبتها، وعلى ذلك شهود من أهله وخاصته وبدأها بقوله: حينما طلب مني شرح معتقداتي الإسلامية أجبت بأنني لا أصلح تلميذاً لعلماء المسلمين، ولكن سأبذل جهدي وهذا يعني أن الأمير هو صاحب الرسالة ومؤلفها، أما في كتاب المواقف فأول صفحة تبدأ ـ قال سيدنا وملاذنا ..الخ أي يقال عنه، وهذه ملاحظة تستحق وقفة وتفكير وسؤال أيضاً لمن قال؟ ومتى؟ وأين؟ وهل هذه الأفكار التي كونت كتاب من ألف صفحة هل جمعت من أوراق تخص الأمير أم اختزلت أثناء ندواته الفقهية، وخضعت بعد سنوات من وفاته للتنقيح والتحرير بواسطة خطاطين مأجورين ومن فعل ذلك؟.

التساؤلات كثيرة والشكوك كبيرة والجواب العقلاني والعلمي يقول أن كل ما يناقض فكر الأمير في كتابه "المقراض الحاد" جاء في المواقف، فهو تشويش مدسوس، مثال على ذلك ما جاء في الأسطر الأولى من الموقف ١٨٠ لأنه يناقض ما كتبه الأمير في الباب الأول من "المقراض الحاد" بعنوان الطريق إلى معرفة الله ثم خلق الإنسان تناقض صارخ ومثال آخر ما جاء في صفحة ٤٦٤ من كتاب المواقف في تفسير أين المفر في سورة القيامة، يذكر في المواقف أن العارف يقول أين المفر، وهذا خطأ يستحيل أن يرتكبه عالم كالأمير عبد القادر حتى ولا إنسان عادي فالآية واضحة وضوح الشمس وتعني الكافر بيوم القيامة وليس العارف قطعاً، فالإنسان العارف لا يقول يومها أين المفر، وإنما الكافر بها والحديث جاء في السطر الأخير في الصفحة وهو المهم "زدني فيك حيرة" عن الرسول صلى الله عليه وسلم، ربما هو من الأحاديث الموضوعة والله أعلم ولكن الأمير العالم والمتخصص بصحيح البخاري وقد ختمه وهو يحاصر عين ماضي عام ١٨٣٧م كان يدرسه في سجن أمبواز وأعطى فيه إجازات لعدد من أعيانها.

. الدليل الفكري المعروف عن البخاري شدة حرصه على سلامة الحديث وسنده وصحته، فكيف يخطئ الأمير وهو من كان يدرس صحيح البخاري إلى أن أقعده المرض وانتقل إلى دار الآخرة، وكان يعلم بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**». فهل يوجد فقيه عالم لا يعلم معنى هذا التحذير؟ ومعروف هذا البيت التالي عن الأمير:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

فحيثما سار سر وإن وقف قف

وليس كل ما جاء في المواقف هو خارج عن فكر الأمير وعلى الأرجح والله أعلم، أن مجموعة من أوراق هذا المجاهد العالم كان قد كتبها للرد عليها في ندوته الفقهية أو

للاستئناس بها أثناء ذلك أو ربما كتبها غيره ووجد فيها مغالطات وأراد الرد عليها، كل هذه الأوراق جمعت بطريقة ما ووصلت إلى محمود باشا وكان يحمل معتقدات خاصة يريد نشرها، ووجد بشخصية الأمير ضالته وكذلك تلك الأوراق مرتعاً خصباً لذلك جاء في كتاب "المواقف" بهذا الشكل المشوش المتناقض الذي اختلط فيه الأبيض من الأسود.

. الدليل التوثيقي العلمي الذي قدمه خبراء الخطوط كالأستاذ هشام الغراوي الخبير الدولي المعتمد في القصر العدلي بدمشق، ثم اللواء عبد المنعم ياسين المعتمد في دوائر الأمن العام بدمشق، وأحمد الأنباري المعتمد من الجامعة السورية، وجميعهم أثبتوا أن جميع الرسائل التي قدمت في كتب كثيرة العدد على أنها بخط الأمير، منها إلى الجمعية الماسونية، ومنها إلى مسؤولين فرنسيين مزورة، وليست بخط الأمير ولا بأسلوبه المعروف[1].

. الدليل العائلي، وهو القرب من النبع فأول عمل يقوم به المحقق الناجح هو الاتصال بأقرب الناس من الهدف والشخصية التي هي مجال عمله إن كانت زوجة أو أبناء أو أحفاد أو جيران مثلاً أو أصدقاء ويأخذ بحذر من الأعداء، لكنه يضعهم في دائرة الشك والأحقاد والأغراض السياسية أو الذاتية، فرجل مخابرات معادي للأمير عبد القادر ولشعب الجزائر هل يمكن أن يأخذ منه المحقق معلومة صحيحة؟ أما الإنسان المؤمن الذي يخاف الله ويحذر الوقوع في آثام شهادة الزور التي هي من الكبائر في الشرع الإسلامي، حتى ولو كان ذو قربى، فمثل هذا الإنسان ممكن الوثوق بمعلوماته، لأنها صادرة عنه كأمانة وشهادة حق وعلم بقوله تعالى :" وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"[2].

[1] ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير بقلم الأميرة بديعة الحسني، ص: ٢٢٠.
[2] المصدر نفسه، ص: ٢٢١.

هـ . هل كتب الأمير مذكرات في السجن عام ١٨٥١م؟

وهذه قصة غريبة ملفقة لا أصل لها وأشد غرابة من صدقها، ففي عام ١٩٧٠م قدم الكاردينال هنري تيسيه أسقف الجزائر، وجاك شوفالييه الرجل السياسي الذي عاش ودفن في الجزائر قدم مخطوطاً للمكتبة الوطنية في الجزائر، زاعماً أن مالك قصر أمبواز الجديد وجد هذا المخطوط بين أخشاب قديمة في قبو القصر. فالخلطة العجيبة من المعلومات الصحيحة منها والكاذبة في هذا المخطوط والأسلوب العشوائي والركيك والكلمات العامية والسوقية في بعض النصوص لا يستحق عناء التمحيص في ما كتب، وبراءة الأمير مما نسب إليه ظلماً وبهتاناً وزوراً[١].

إن بعض الأوروبيين لم ينسوا في يوم من الأيام عداءهم للإسلام والعرب، لذلك عمد كتابهم إلى محاربة أعدائهم بشتى الطرق ومنها التشويه والتزييف عن طريق الفكر، ومنها تزوير وثائق وتقليد خطوط إلى نسج مذكرات وبرعوا بهذا الفن وجعلوا لأنفسهم أعواناً، حتى من أبناء أمتنا[٢].

و . كتاب حياة عبد القادر ردود على أباطيله:

للمؤلف شارلز هنري تشرشل صدر الكتاب عام ١٨٦٧م في لندن وكانت تشرشل كولونيل عمل على تشويه صورة الأمير بطريقة الغزو الثقافي ولم ينقل بأمانه الكثير مما قاله الأمير له وحاول تشويه الدولة العثمانية، والشعب الجزائري ونضاله وكفاحه ووضع السم في سيرة الأمير عبد القادر وتعمد أن يشوه تاريخه النضالي وكفاحه البطولي ورمزيته الفذة وعمل على إقامة مذبحة معنوية لتاريخ العرب والمسلمين الوطني والديني واللغوي والأدبي، وتعمد إزالة هيبة الأبطال الوطنيين والتشكيك في سلوكهم وأقوالهم والسلاح الثقافي أكثر فتكاً من المدفعية والصواريخ وحاول أن يجعل من الثائر المجاهد الأمير عبد القادر مواطن فرنسي معارض ومتمرد على قوانين دولته ونظامها ثم ألقى سلاحه واستسلم بعد الهزيمة،

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٣.

[٢] ردود وتعليقات على كتاب الأمير، ص: ٢٢٢.

ثم استغفر وندم وتاب، ووقف أمام الدوق دومال وقفة ذليلة يعتذر ويقدم الدليل على تمسكه بعزة وسمعة الوطن الكبير فرنسا، وكان الهدف من كل هذه الأفكار الماكرة والخداعة بعد أن تتقبلها وتؤمن بها الأجيال العربية والإسلامية والجزائرية، هو شل الذهنيات وكسر سلاح الجهاد والقضاء على كل محاولة للمقاومة فيها بعد أن تموت روح الثقافة الوطنية الأصيلة والسليمة وقد حاول الكولونيل تشرشل أن يرسخ في أذهان قراء كتابه وقومه هذه المغالطات ويضع السم في الدسم، لتصبح خيالاته التي ألفها من غير دليل هي المرجع والحقيقة التاريخية لدى الكثير من الذين كتبوا عن الأمير بعد ذلك[1].

استطاع أن يلتقي بالأمير عبد القادر ونزل ضيفاً عنده في دمشق وكان يجلس مع الأمير كل يوم ساعة من الزمن يسأله ويكتب ويستفسر ويمده الأمير بالوثائق والمستندات والاتفاقيات الأصلية، ولما نشر كتاب حياة الأمير مجد بطولة الأمير وشخصيته ومواقفه الإنسانية مع الأسرى خلال الحرب وعلى إيمان الأمير بالتقدم والحضارة الغربية وقدم أتباع الأمير كقبليين ومتخلفين وكتب عن ظروف الاعتقال والسجن الذي تعرض له الأمير، ولم يتوان في وصف الحكام والولاة العثمانيين في أسوأ صورهم لتأليب حكومته والعرب عليهم[2].

. وحاول صاحب كتاب حياة عبد القادر الكولونيل شارلز هنري تشرشل تشويه الشعب الجزائري من خلال حديثه عن فئة صغيرة من الجهلاء لا تخلو منهم أمة من الأمم حتى بلاده نفسها، يريد تشرشل من هذا الشعب إن قام بأي فعل جيد فهو يعود إلى روح الحضارة الأوروبية، وإن استيقظ من غفوته فيعود إلى نور الحضارة الغربية يريد من الأمير عبد القادر سلخ جلدته بإرادته واستبدال جلده بآخر أوروبي خالص من أي شائبة عربية إسلامية ويريد منه أيضاً السقوط مطأطئ الرأس في نهاية المطاف أمام عظمة حلفاء بلاده

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٦٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

الفرنسيين وأداء الدور الذي رسمه له من خلال هذه الرسائل المزعومة، والحوار الذي وضع فيه بين كل جملة دسيسة رماها هنا وفرية دسها هناك وبكل بساطة أراد أن يقول: استسلمت ورميت بنفسي بين أيديكم وليس أصحابي من رضي بذلك، وإنهم يؤاخذوني ولقد جعلتم مني رجلاً خداعاً ..الخ

ومن الصفحة ٢٤٤ إلى الصفحة ٢٤٦ حشد تشرشل ما بوسعه من الخيالات في أحلام اليقظة تخيل أن القوات الفرنسية كانت على بعد النظر من موقع الأمير وأن هذا المجاهد الأمير كان لديه ثلاث خيارات آخرها الإستسلام، جعل تشرشل الحقائق التاريخية تتناثر مع الهواء بعد أن عبث فيها وحولها إلى ركام، وهذه الصفحات من كتابه أصبحت نكبة ومأساة حقيقية لأنها تحولت إلى مصدر وثائقي مع الأيام، نراها تدرس في المناهج المدرسية في البلاد العربية والجزائر بصورة خاصة.

. مما تقدم نستطيع أن ندرك أن الضابط البريطاني التجأ إلى خياله لراحة أعصابه وهدوء نفسه أولاً، وثانياً لأهداف بعيدة المدى، فبدل اتفاقية الاستئمان الزمني والهجرة إلى إستسلام أي الخضوع بذل تخيل هذا المجاهد رجلاً بلا عقيدة أو بلا كرامة وتغافل وأدار وجهه عن الكلمة التي قالها الأمير في تلك اللحظة وجملة "المنية ولا الدنية".

أدار وجهه عنها كي لا يراها وأراد من عبد القادر القول بنفسه من خلال رسائل متعددة تخيلها، فهو لا يريد من هذه الاتفاقية إلا ما دار في مخيلته فأراد من عبد القادر لوم نفسه لأنه أخذ هذه التأشيرة ويسب نفسه بكلمات نابية ككلمة "خداع" و"استسلام" كما يريد أيضاً من خلال هذه الرسائل أن يجعل منه منافقاً مهزوز الشخصية لا يملك أي نوع من مشاعر الكرامة، تخيل موقفه استسلاماً يريح أعصابه ويقدم نشوة النصر لحلفاء بلاده[١].

[١] ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر، ص: ١٩١.

. وفي الصفحات ٢٥٦ وقبلها من الفصل الواحد والعشرين، جعل هذا البطل يجيب الضابط الفرنسي الذي أخذ يواسيه عن جواب حكومته كما يقول بالحرف الواحد: هذا الجواب جعل عبد القادر يسقط إلى الحضيض من اليأس: أراد عبد القادر جواب الضابط الفرنسي، تلك الإجابات كما أسلفت ويجرد نفسه، وليس نفسه فقط من الإيمان، ويصف نفسه بالجهل وإنما يصف حالة النساء وأصحابه بالنحيب واليأس.

أراد أن ينسى هو أيضاً أنه كتب في مقدمته أن عبد القادر يسمى بالحافظ لحفظه القرآن في سن مبكرة، وأنه كان عالماً يدرس في معهد القيطنة في شبابه ولقد ذكر أيضاً في كتابه "حياة عبد القادر" نصف الحقيقة ومع ذلك بهرته وتجاهل ذكر الذين معه وأخوته الذين نشأوا في مزرعة القيطنة التي يملكها أجدادهم ونهلوا من العلوم في معهدها الذي كان من روافد مدارس وهران ومعاهدها وأن استاذهم الأول كان والدهم محيي الدين ثم الإمام محمد بن سعد، وعبد الله سقط والشيخ المجاوي وغيرهم من علماء مدارس وهران وأساتذها، هذه المعاهد التي كان لها امتداد بجامعة القرويين بفاس وبمسجدها الذي كان منبع الحياة الثقافية والروحية في المغرب والذي كان يفيض بالحيوية والنشاط في ذلك الزمان ومازال، كما يؤكد العلماء والمؤرخون أن جامعة القرويين هي من أقدم جامعات العالم فقد أسست عام ٧٣٩م وكذلك الأزهر في القاهرة والزيتونة في تونس عام ٩٦٣م فالمساجد كانت تعتبر الصروح العلمية وليس فقط أماكن الصلاة وأدخل فيها نظام الجامعات قبل جامعات أوروبا كالسربون وكمبردج وأكسفورد، فإلى جانب إقامة الصلاة كانت تناقش في أروقتها جميع العلوم والسياسة والفقه والاقتصاد في الإسلام وأمور الحكم، وخرجت هذه المساجد علماء شاركوا في صنع الأحداث وأساتذة كبار، وكانت هذه الصروح العلمية والروحية على علاقات مع بعضها، فهؤلاء المجاهدون الذين وقفوا في وجه الاحتلال سبعة عشر عاماً وقفة الند للند كانوا خريجي هذه الصروح العلمية وكان منهم أدباء وشعراء وعلماء في اللغة والفقه والقانون والاقتصاد، يذكر المؤلف أن هؤلاء لم

يوقعوا على وثيقة القسم "المزعومة" لأنهم لا يعرفون الكتابة وأنّ المجاهد وحده من وقع على القسم الذي تخيله قسم يجمع الأنبياء وذكر أسماءهم جميعاً، ولكنه نسي أن هذا المجاهد عالم بالدين الإسلامي الذي لا يجوز فيه للمسلم القسم بغير الله عز وجل ثم جعل عبد القادر يصف الفرنسيين بالكرماء وغير ذلك من كلمات النفاق والاستعطاف والخضوع وإذلال النفس، وهو القائل في الأبيات الذي نظمها والقصائد التي دونت في ديوانه الشهير اقتطفت منها هذه الأبيات:

وابذل يوم الروع نفساً كريمة

على أنها في السلم أغلى من الغالي

إذا ما اشتكت خيلي الجراح تحمماً

أقول لها صبراً كصبري وإجمالي

فما همتي إلا مقارعة العدا

وهزمي طغاة شداداً بأبطالي

فالذي يصف نفسه بالنفس الكريمة، وأنها في السلم أغلى من كل غال وثمين هل يخفضها إلى هذه الدرجة من الهوان والنفاق؟

ولاشك أنه كان يعلم أن اي عدو بالدرجة التي يكره فيها عدوه بالدرجة نفسها يحترم فيه الشجاعة والحفاظ على الكرامة والبعد عن النفاق.

ومن المعروف أن الأمير لم يكن يعيش في أقبية التعذيب الرطبة، وإنما في قصر من قصور الملوك، قصر أمبواز، والأمير كان قائداً لشعب عظيم وقاد ملاحم بطولية في الدفاع عن الدين والوطن، حاول تشرشل أن يجعل من الأمير صورة المهزوم المستسلم الخاضع لعدوه الطالب لعطفه وإحسانه ونسي السيد تشرشل تاريخه قبل الإمارة وبعد الإمارة وحين غدر به ولم ينقل لقارئه الحقيقة من ثبات وصمود وجهاد فالأمير عبد القادر هو القائل:

لنا في كل مكرمة مجال

ومن فوق السماك لنا رجال

ركبنا للمكارم كل هول

وخضنا أبحراً ولها زجال

فلا جزع ولا هلع مشين

ومنا الغدر أو كذب مُحال

ورثنا سؤدداً للعرب يبقى

وما تبقى السماء ولا الجبال

ومنا لم يزل في كل عصر

رجال للرجال هم الرجال

لهم همم سمت فوق الثريا

حماة الدين دأبهّم النضال

سلوا تخبركم عنا فرنسا

ويصدق إن حكت منها المقال

فكم لي فيهم من يوم حرب

به افتخر الزمان ولا يزال[1]

وهو القائل في وصف رجاله في إحدى قصائده:

الصادقون الصابرون لدى الوغى

الحاملون لكل ما لم يُحمل

إن غيرهم نال اللذائذ مسرفاً

هم يبتغون قراع كتب الجحفل

ما منهم إلا شجاع قارع

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٩٢ ـ ١٩٦.

أو بارع في كل فعل مجمل

كم نافسوا كم سارعوا كم سابقوا

من سابق لفضائل وتفضل

كم حاربوا كم ضاربوا كم غالبوا

أقوى العداة بكثرة وتمول

كم صابروا كم كابروا كم غادروا

أعتى أعاديهم كعصف مؤكل

كم قاتلوا كم طاولوا كم ما حلوا

من جيش كغُر بافقام الجحفل

. هذا الرجل الذي يملك هذا التاريخ الحافل بالتمسك بالقيم الشرعية والأعمال البطولية، أيمكن أن يصل إلى الحضيض من اليأس لمجرد أنه تعرض للغدر والخداع من قبل أعداء خَبُرَ غدرهم لسنوات طويلة؟

هذا الرجل الذي سار على هدي القرآن طيلة حياته منذ أن تفتحت براعم طفولته الذي يعلم ثواب الصبر، ويعلم أن الإنسان مبتلى وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان بهذا النظام[١].

كيف يمكن أن ينحدر إلى الحضيض من اليأس من كان على علم بمعاني هذه الآية الكريمة ويؤمن بها وتربى عليها، وهو الذي يختم كتاب الله باستمرار، ويمر عليه تأملاً وتدبراً وفهماً وحفظاً وعملاً، وكم من المرات والمرات مر بقول الله تعالى :" وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ " (يوسف، آية : ٨٧).

[١] المصدر نفسه، ص: ١٩٧.

ـ وقول الله تعالى :" وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ* إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ" (آل عمران، آية : ١٣٩ ـ ١٤٠).

ـ وقول الله تعالى : لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ" (الزمر، آية : ٥٣).

ـ وقول الله تعالى :" وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ" (الحجر، آية : ٥٦).

فهل يمكن أن يكون هذا المجاهد الكبير والأمير النبيل والعالم المؤمن عبد القادر جاهلاً بمعاني هذه الآيات وهو الذي ألف كتاباً في سجنه وجعل عنوانه "المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالكفر والإلحاد" وأرسله إلى رجال الكنيسة؟ هل كان رجلاً يخشى أحداً سوى ربه؟ ويصفه تشرشل بالمتدين ألا يعلم أن صبر المؤمن انصياعاً لأمر الله وإيثاراً للآخرة على الدنيا الفانية، وأن كل ما في الدنيا من عذاب هو هين في سبيل مرضاة الله عز وجل؟

ألا يعلم أن الله سبحانه وتعالى شرع مبدأ الهجرة وجعل لها شروطاً وهي طريق من طرق العذاب والألم؟ وهل هناك عذاب أشد من الغربة؟ وهذه الاتفاقية الأخيرة في الواقع ليست هروباً من الأذى وطلباً للراحة في عكا أو الإسكندرية لأن الهجرة فرضها الله لحفظ كرامة المؤمن، وأمر مسلم به أن هذا العالم ومن معه من الفقهاء يعرفون أنها تنقسم إلى ثلاثة أقسام وجوب وجواز وحرمة، والحرمة تكون حينما يصبح المسلم يعيش في ظروف كالتي يعيشها هو وأصحابه من حصار شديد وتهديد في مثل هذه الظروف أوجبت الشريعة على المسلم الهجرة إن لم يفعل يعد عمله إهمالاً لواجب من الواجبات الشرعية الإسلامية[1].

وحاول تشرشل تشويه الدولة العثمانية ما استطاع إلى ذلك سبيلاً فوصف استقبال الأتراك للأمير عبد القادر بالمظاهر المتصنعة من الاحترام ووصفهم بأنهم على درجة كبيرة

[1] المصدر نفسه، ص: ١٩٧ ـ ٢٠٠.

من العنجهية وغرباء عن العواطف النبيلة وصب غضبه وحقده على العثمانيين بطريقة تدل على أنه جاسوس يخدم لصالح المخابرات البريطانية التي كانت من ضمن دول أوروبية أخرى تسعى للقضاء على الدولة العثمانية واستخدم الكلمات النابية في هجومه[1].

وأطلق لخياله العنان وعبقريته الأدبية وبكل ما يحمله قلبه من أحقاد على الدولة العثمانية وكراهية صارخة، ولم يترك المجال أمام القاري ليفهم رأيه من بين السطور وإنما من الأسطر نفسها.

لقد قاده خياله نحو الدرك الأسفل من تزييف الحقائق وشاهدنا مدى جرأته على ذلك بقوله: بالرغم من وجود عبد القادر بين يدي الترك فإنه لم يكن مضطراً أن يكون تابعاً لهم.

وسيأتي الحديث مفصلاً عن علاقة الأمير بالدولة العثمانية وسلاطينها لاحقاً بإذن الله تعالى ويكفينا هنا قول الأمير عبد القادر في بروسة وأهلها:

ألا فاقر الخليل خليل باشا
سلاماً طيباً عبقاً نفيساً
له قل يا شقيق الروح عني
على ما هجرت بلدنا بروسا
بكم كانت تفاخر كل مصر
وتطلع من شمائلكم شموساً
وكنت لنا بها غيثاً مريعاً
وكهفاً مانعاً ضراً وبؤساً

[1] المصدر، ص: ٢٠٥.

وكان لنا الزمان بكم ضحوكاً

فصار لنا بفقدكم عبوساً

بمن أعتاض عنك فدتك نفسي

وكنت بقربكم خرجاً

ولما وصل الأمير إلى بروسة ونظر إلى موقعها وأجوائها قال: لقد صدق من أخبرنا بأنها تشبه مدينة تلمسان ولولا تكرار الزلازل فيها ما أسرع الأمير بالانتقال منها. ولقد نظم الأبيات السابقة فور مغادرتها وهو دليل على سعادته في الإقامة فيها أي في الدار الضخمة التي أمر بها السلطان وهذا رد على مزاعم تشرشل[1] مشوه الحقائق ومزيف التاريخ وخائن الأمانة العلمية.

إن تشرشل في كتابه الذي فقد المصداقية العلمية والمرجعية الحقيقية للباحثين لم ينظر إلى الأمير عبد القادر من روّاد الظلم والطغيان والاعتداء على حقوق الآخرين، لأن ذلك يمس بسمعة المحتلين الأوروبيين الذين نشروا الفقر والبؤس في الجزائر[2].

لقد قام الدكتور أبو القاسم سعد الله بترجمة كتاب حياة عبد القادر من الإنجليزية إلى العربية وهي ترجمة أولى إلى العربية لم يسبقه إليها أحد صدرت في عام ١٩٨٢م وهي على درجة عالية من الدقة بحيث يستطيع القارئ ملاحظة الحالة النفسية عند المؤلف أثناء سرده للأحداث في كتاب حياة عبد القادر، فإن القارئ أو الباحث سيجد شخصية المؤلف دون قناع وما تحمله في أعماقها من أحقاد موروثة على العرب والمسلمين، وهي سموم منغمة تدفقت بين السطور.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٠٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢١٦.

وقد قامت الأميرة بديعة الحسني الجزائري بمناقشة هذا الكتاب في كتابها القيم: ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير عبد القادر الجزائري.

فالحذر كل الحذر من هذا المرجع المسموم الذي كتبه أحد المستشرقين الذين انتموا إلى المدرسة الاستعمارية لخدمة بلادهم عن طريق الغزو الفكري كما ظهر للباحث المنصف.

د . كتابه تحفة الزائر:

كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير عبد القادر لمحمد باشا الابن الأكبر للأمير عبد القادر الجزائري. تناول المؤلف فيه تاريخ الجزائر الجغرافي والسياسي وتاريخ والده وجعله في جزأين، كتب في الأول تاريخ الجزائر ككل وتاريخ والده العسكري وملاحمه البطولية بالتفصيل، وأكثر المعلومات في هذا المجال أخذها من والده أثناء حياته حيث بدأ بتأليف الكتاب، وأخذ أيضاً معلومات من المجاهدين الذين رافقوا والده أثناء المعارك، وقادة الجيش ومن وزرائه أي من خلفائه في المدن الذين لحقوا به إلى دار الهجرة في دمشق ومن أعمامه الذين شاركوا شقيقهم في الجهاد وهم سعيد وأحمد ومصطفى وسُجنوا معه في أمبواز.

وفي الجزء الثاني تناول حياة والده في السجن وتفاصيل أخرى عن زيارة إمبراطور فرنسا له وإطلاق سراحه وذهابه إلى دار الخلافة واختيار مدينة بروسة ثم دمشق.

ولقد كتب الدكتور المؤرخ الكبير أبو القاسم سعد الله في موسوعته الجديدة "تاريخ الجزائر الثقافي" أن الوالد هو من مكن ابنه من المعلومات والوثائق العسكرية والتاريخية والعائلية الهامة التي ساعدته على تأليف هذا المخطوط الذي انتهى منه بعد وفاة والده الأمير عبد القادر بسبع سنوات، ولكنه بعد انتهائه سرقت منه النسخة[١]، وهذه النسخة بعد أن سُرقت حُرفت وأنقذ منها الجزء الأول، فجمع المؤلف ما تبقى من المواد حسب قوله في مقدمة الكتاب ثم سلمها إلى ناشر في أحد دور النشر بالإسكندرية عام ١٨٩٨م تقريباً

---

[١] المصدر نفسه.

ولقد ذكر الدكتور أبو القاسم أنه عثر على نسخة من هذا الكتاب مهداة إلى السلطان عبد الحميد الثاني عام ١٣٠٧هـ، وبمقارنتها بالنسخة المطبوعة عام ١٩٠٣م في القاهرة وجد فروق هامة في بعض التفاصيل بين النسختين.

على أي حال فكتاب "تحفة الزائر" قيم جداً ذكر تفاصيل هامة للمعارك والانتصارات الباهرة التي أحرزها جيش الأمير على القوات الغازية من هذه الملاحم معركة "المقطع" وسيدي إبراهيم وعشرات غيرها مما لم يذكرها أحد قبله بهذه الدقة، فكان هذا الكتاب المرجع الأول في اللغة العربية للباحثين[١].

قالت الأميرة بديعة الحسني الجزائري: واثناء دراستي لهذا الكتاب النادر "تحفة الزائر" طبعة الإسكندرية وجدت أن المؤلف أو الناشر والله أعلم قد استعان بمؤلفات أجنبية من أكثرها كتاب "حياة عبد القادر" لهنري تشرشل الضابط البريطاني بعد فقدانه لنسخته الأصلية، وبما أنه كان لا يتقن اللغات سوى العربية والتركية، سلّم ما تبقى من النسخة المسروقة إلى دور نشر قامت بعمليات التنقيح والتحرير والنقل، واكتشفتُ الكثير من المتناقضات والانسلاخ عن المضمون الذي أراد المؤلف قوله، فدور النشر في مصر في ذلك العصر كانت تمتاز بالجودة ولكنها لم تكن بعيدة عن الهيمنة البريطانية التي لم يكن غزوها لمصر عسكرياً فقط، وإنما كان فكرياً أيضاً وهدفها السياسي كان إخراج مصر من عالمها العربي والإسلامي وجعل الشعب المصري سداً بين مشرق العالم العربي وغربه، ومحاولة تجنيد الشباب في الجيش البريطاني لقتال إخوتهم في فلسطين، وفشل مشروعها هذا بعد أن ثارت الصحافة المصرية فانبرت "البلاغ" بالإعراب عن الغضب وكذلك الجمعيات والشعب المصري بأكمله، وأصدر علماء الدين فتوى في ذلك الحين بتكفير كل من ينضم إلى الجيش البريطاني لمحاربة إخوانه في فلسطين[٢].

[١] فكر الأمير عبد القادر ص١١٠.

[٢] المصدر نفسه.

كما أن دور النشر لم تسلم أيضاً من الغزو الفكري ولو أن محمد باشا قرأ كتابه بتأن واطلع على المزاعم التي دُست في صفحتين من الجزء الأول لطالب بتقديم الناشر إلى القضاء، والله أعلم، ففي كل احتلال غاشم لابد من وقوع ضحايا وكتاب "تحفة الزائر" من الضحايا، ففي دار النشر ارتكبت الجرائم ضده من دون أن يجد من يدافع عنه أو يحميه من الدّس، لأن المؤلف محمد باشا كان في دمشق والظروف السياسية لم تكن تسمح له بالسفر، فأخذ الناشر المأجور المغرض المسؤول عن الترجمة والتحرير والتنقيح أخذ حريته بانتقاء مدروس من الكتب الأجنبية ما شاء له هواه وبصورة خاصة من كتاب هنري تشرشل[1] الذي تحدثت عنه سابقاً.

إن المدقق والباحث والمطلع على شخصية هذا المجاهد الكبير لا يستطيع التسليم بصحة كل ما كتب عنه في الجزء الثاني من كتاب "تحفة الزائر".

وفي الصفحة الأخيرة من الجزء الأول، إن لم نقل الإنكار الشديد لبعض الألفاظ وليس الوقائع فالأحداث كلها صحيحة لا ريب، ولكن الاستنكار للألفاظ والتحريف والتأويل الخاطىء من حذف وإضافات مغرضة منها مثلاً ما جاء في أسئلة الجنرال دوماس صفحة ١٧٨ من التحفة السؤال الثالث عشر، وجواب الأمير عليها في موضوع تعليم النساء، فإذا حذف كلمة لكن وحذف لا من الجملة "لكن شرع الإسلام لا ينهي عن تعليم النساء الكتابة" وهو أمر بغاية السهولة، فنجد أن المعنى كله قد تغير، فيصبح جواب الأمير بعد هذا الحذف "شرع الإسلام ينهي عن تعليم النساء الكتابة"، فالسائل ضابط فرنسي خاض معارك دامية ضد الأمير سنين طويلة في الجزائر وتعلم اللغة العربية ودرس التاريخ الإسلامي عن طريق مؤلفات المستشرقين وعدد كبير من أمثاله درسوا التاريخ

[1] فكر الأمير عبد القادر، ص: ١١.

الإسلامي وسير العظماء وساروا وراء أحقادهم واندفعوا وراء أوهامهم أرادوها حقائق في ديننا وتاريخ أمتنا وسير أبطالنا[١].

٢. تلاميذ الأمير عبد القادر:

تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير من الشباب تأثروا بسيرته الجهادية وبعلمه وأدبه ومنهجه وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج وطوروه واتسعوا به ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر:

أ ـ عبد الرزاق البيطار المولود عام ١٨٣٧م والذي بات من علماء الشام المشهورين حتى وفاته عام ١٩١٦م رحم الله الشيخ الداعية المجاهد عبد الرزاق السلفي العقيدة الذي لم تأخذه لومة لائم لحظة في إبانه الحق، ولم يصده عتب عاتب ولا قومة قائم، الصادع بالحق، المنكر على أصحاب الخرافات من المتصوفة ولقي في سبيل ذلك عنتاً كبيراً من الجاحدين ويكفيه فخراً هو كذلك أن تخرج على يديه علامة الشام وفقيهها السلفي الكبير جمال الدين القاسمي المولود عام ١٨٦٦م والمتوفى عام ١٩١٤م.

ب ـ الطاهر الجزائري ابن الشيخ صالح السمعوني الذي ولد عام ١٨٥٢م وتوفي عام ١٩٢٠م وأصبح بجلته من أكابر العلماء باللغة والأدب في عصره وانشأ مع الأمير دار الكتب الظاهرية، والمكتبة الخالدية في القدس وله عشرين مصنف وأصبح من أعضاء المجمع العلمي العربي.

جـ ـ الشيخ عبد الغني بن طالب بن حمادة بن إبراهيم الغنيمي الدمشقي وهو من أقران العلماء، ولازم الأمير منذ قدم دمشق من مواليد ١٨٠٧م وتوفي ١٨٨١م كان عالماً فاضلاً من فقهاء الحنفية وله تآليف عديدة، وكان يكره البدع والأوهام والخرافات التي أدخلت على الدين ظلماً وعدواناً[٢].

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٣٠.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨١.

د . شهادة العلماء في الأمير وصلته بزعماء الإصلاح:

شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش، والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد بهجة البيطار والعلامة جمال الدين القاسمي، ومفتي الحنابلة الشيخ محمد جميل الشطي، وآخرون كثر شهدوا للأمير بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام وأشادوا بحرصه على إقامة أحكام الشريعة وحدودها وسعيه الحثيث لنشر علوم الدين، كما كان للأمير دور كبير في إحياء وتجديد فريضة الجهاد ورفع رايتها إلى جانب بعث علوم الحديث النبوي الشريف ونشرها والحث على العمل بها والسعي في القضاء على البدع ونبذ التقليد الأعمى الممقوت والدعوة إلى إستعمال العقل والنظر في فهم ونشر مختلف العلوم[١].

فالعقل مناط التكليف ومحور الثواب وأساس النقل، ولا تعارض بين العقل والنقل ولا يمكن للإنسان المخلوق في هذا الكون أن يدرك بعقله وبنظرياته وفلسفاته أسرار الحياة والكون ووجوده وخباياه وبداية خلقه والسبب من ذلك وفناه بالعقل وحده، فكل ما يتصل بمسائل الغيب والعقيدة في الله والملائكة والكتب السماوية والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر وغايات الحياة وأسرار الكون، ليس له مصدر إلا وحي الله المنزل[٢]، والقرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، وأما عن علاقة الأمير بزعماء الإصلاح والتجديد، فقد كان مواكباً للتطورات التي حدثت في عهده وتواصل مع شخصيات إسلامية لها مكانتها في الجهاد والإصلاح أمثال الشيخ كامل الداغستاني، وخير الدين التونسي، والشيخ محمد عبده الذي يبدو أنه جالس الأمير عدة مرات عندما كان الشيخ منفياً في بيروت، ولاشك أن الشيخ محمد عبده تحدث مع الأمير عن التجديد والإصلاح، وعن جمال الدين الأفغاني وجمعية العروة الوثقى.

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٢.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٨٣.

وأما ميل الأمير للإصلاح الإسلامي فيظهر في الرسائل المتبادلة بينه وبين خير الدين باشا التونسي صاحب كتاب "أقوم المسالك" فقد أهدى خير الدين كتابه إلى الأمير عبد القادر، فقرأه وأعجب بمحتواه وآراء صاحبه، ثم وجه خطاب شكر واعجاب إلى خير الدين، والعبارات التي وردت في هذا الخطاب تصور رأي الأمير في مفهوم الإصلاح الذي دعا إليه خير الدين، فبعد أن عبر له عن شكره لدفاعه عن الشريعة الإسلامية وصلاحيتها للحكم لكل زمان ومكان قال: وقد اطلعنا على "أقوم المسالك" فرأينا فيه ما بهر العقول، وأدى الأفكار إلى الذهول من قضايا المعقول، فاتفقت القلوب على تفضيله واختلفت الألسنة في تمثيله، أما نحن فقد تركنا التشبيه وقلنا ما له في فنه مثيل ولا شبيه، كتاب تنفس الدهر به تنفس الروض في الأسحار.. يزرى بتاج تراجم الأعيان وكأنه مرآة انعكست فيه رسوم أخبار الملوك وأفاضل الزمان، فاتخذته مرتع ناظري، ومنتعش خاطري ولا يخفى أن لكل عصر رجال يقومون بأعبائه ويهيمون في أودية أنبيائه.. فلله درك ودر ما به ألمعت وما قربت من فنون المعارف وبعدت، ثم إنك حميت ضمار الشرع المحمدي وعضدته، وقطعت عنه ضرر الملحدين وخضدته. ورغم هذا السجع والعناية بالبديع فإن رأى الأمير يتلخص في الإعجاب بالكتاب للأسباب التالية:

. دفاع صاحبه عن صلاحية الشريعة الإسلامية للحكم في كل زمان ومكان.

. اهتمامه بقضايا المعقول والمنقول، وفنون المعارف العصرية والإشارة إلى أن لكل عصر رجالاً يقومون به بدور الدعاة إلى الله.

. كونه كتاباً نادراً في أخبار الملوك وأفاضل الزمان . مسلمين وأوروبيين . لذلك اتخذه الأمير منتعش خاطره وهو تعبير لماح وكاشف عما نحن بصدده[1].

[1] حياة الأمير عبد القادر تقديم أبو القاسم سعد الله، ص: ١٥.

٣. علاقة الأمير بكتب ابن عربي وأفكاره:

أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير عبد القادر ونسبوا إليه ما لم يعتقده من غلاة الصوفية، ومن أبرز هؤلاء البشر: الشيخ محمود الأرناؤوطي ومحمد الخاني وضموا إلى كلام الأمير ومراسلاته ووضعوا بعد وفاته بسنين عديدة في عام ١٩١١م وبدون وصية من الأمير وتكليف في كتاب "المواقف" والذي لا علاقة بالأمير به وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير، ومما جاء فيه عن كتاب المواقف الموصوف بالثمين العظيم الجليل وأنه كتب بالنور على نحور الحور ونسبوا إليه من العقائد التي تثبت كتابه ورسائله ومواقفه أنه لا علاقة بالأمير عبد القادر بها لا من قريب ولا بعيد وهذا العمل ليس غريباً في تاريخ البشرية، فقد عظم المسيحيون سيدنا عيسى عليه السلام حتى ألهوه، وزاد ونسب بعض المسلمين الذين لا يخافون الله إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الآف الأحاديث الموضوعة، إما افتراء عليه أو محتجين بالدعوة والانتصار لدينه، أيعقل للباحث والمنصف والساعي للحقيقة المجردة أن يقول مسلم سني ملتزم مثل الأمير عبد القادر يدرس في مجالسه وفي داره وفي الجامع الأموي ودار الحديث النووي في المدرسة الجقمقية وفي ندواته العلمية يغترف من تفسير القرآن الكريم لابن كثير ويعطي الإجازات في صحيح البخاري ومسلم وموطأ مالك يقول أن البشر الذي خلق من ماء مهين قد يتأله وبإمكانية أن يصبح الإمام والله واحد؟ أيجمع الإنسان ويحل لكونه خليفة الله في الأرض؟ أو يفسر القرآن الكريم وأحاديث شريفة خلافاً لما ذكره السلف الصالح وأهل السنة والجماعة وضوابط وقواعد التفسير التي حددها علماء وفقهاء الشريعة؟ وقد رأينا اهتمامه بالعلماء ومراجعة كبارهم في المسائل والنوازل التي يمر بها في حياته باحثاً عن حكم الشريعة، فراسل علماء القرويين بالمغرب والأزهر بمصر.

إن الدراسات العلمية الدقيقة المتجردة في حياة الأمير والتي عشت معها بتمعن وأخذت مني الوقت الكثير وصاحبته خلال البحث في اسفاره وإقامته وفرحه وحزنه في المعارك وفي

حلقات العلم وفي أماكن العبادة ومع القرآن الكريم وفي ندواته العلمية الجزائرية والشامية والتركية ـ تدل على أنه أبعد الناس عن المعتقدات الفاسدة والمتصوف المنحرف وعندما سئل عن عقيدته في الكرامات والوسطاء أجاب: إن ثقتي في الله وحده[1].

إن اتهام الأمير بتأثره بالعقائد المنسوبة والمتهم بها ابن عربي من وحدة الوجود والاتحاد والحلول اتهامات باطلة، فوحدة الوجود تعني ـ بأوجز عبارة: إن الله تعالى والعالم شيء واحد فوجود المخلوق هو وجود الخالق[2]، ومعنى الحلول والاتحاد اصطلاحاً: الحلول والاتحاد عقيدتان نشأتا في بعض الأديان الوثنية والفلسفات القديمة، وظهرتا على وجه الخصوص بين النصارى الذين حرفوا دين الله وألهوا المسيح عليه السلام حيث ادّعوا حلول الله أو اتحاده به، كما ظهرتا في العالم الإسلامي عند بعض غلاة الطوائف وبخاصة بعض الفرق المظهرة للتشيع الزاعمة حلول الله تعالى أو اتحاده بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أو بعض ذريته[3]، فالحلول ـ عند من يعتقده ـ : هو نزول الذات الإلهية في الذات البشرية ودخوله فيها، فيكون المخلوق ظرفاً للخالق بزعمهم[4].

والإتحاد ـ عند من يعتقده ـ : هو اختلاط وامتزاج الخالق بالمخلوق فيكونا بعد الاتحاد ذاتاً واحدة[5].

وحقيقة قول هؤلاء: أن وجود الكائنات هو عين وجود الله ليس وجودها غيره وليس شيء سواه البتة[6].

فالخالق هو المخلوق والمعبود هو العابد والناكح هو المنكوح والله عندهم ـ عين الخنازير والكلاب والكفار تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً[7].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٦.

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢/ ٨٠، ١١٢، ١٤٠، ١٤١).

[3] ابن عربي عقيدته ومواقف العلماء منه د. دغش العاجمي، ص: ٣١.

[4] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

[5] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

[6] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

[7] المصدر نفسه، ص: ٣٢.

وخلاصة الفرق بين الحلول والإتحاد:

ـ أن الحلول إثبات لوجودين، بخلاف الاتحاد فهو إثبات لوجود واحد.

ـ أن الحلول يقبل الانفصال أما الاتحاد فلا يقبل الانفصال[1].

ومن أعظم العقائد المنسوبة لابن عربي قوله بوحدة الوجود، وهي أن الله تعالى والعالم شيء واحد وأن الله عين وجود الكائنات، فكل ما تراه فهو الله[2].

وهذه العقيدة فاسدة وباطلة ولا يمكن لشخص اعتنق عقائد القرآن الكريم وما ثبت عن سيد المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتقد هذه الأباطيل:

ـ فقد دلت النصوص الشرعية الكثيرة على أن الله تعالى هو خالق الكائنات ومصورها وموجدها من العدم، قال تعالى :" اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ" (الزمر، آية : ٦٢).

وقال تعالى :" الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ" (الأنعام ، آية : ١).

وغيرها كثير تثبت أن الله الخالق وثبت أن الوجود ليس واحداً، بل فيه خالق ومخلوق ورب ومربوب.

ـ ودلت النصوص الشرعية على أن الله عز وجل ـ هو المالك الملك الذي له الملك التام، قال تعالى :" تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" (الملك، آية : ١).

وقال تعالى :" أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ" (البقرة، آية : ١٠٧). فالله مالك المخلوقات.

ـ كما دلت الأدلة على أن الله هو المحيي والمميت يهب الحياة لمن يشاء ويسلبها عمن يشاء، قال تعالى :" وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ" (الحج، آية : ٦٦).

وثمة غير الله وهو المخلوق الذي يموت ويحيا.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٥.

[2] المصدر نفسه ص٣٥..

. وأمر الله بعبادته وحده لا شريك له فقال :" يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ" (البقرة، آية : ٢١).

وأخبر سبحانه أنه ما خلقنا إلا لعبادته فقال :" وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ" (الذاريات، آية : ٥٦).

وما أرسل من رسول إلا لهذا الأمر، قال تعالى :" وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ" (النحل، آية : ٣٦).

فهذه النصوص وغيرها كثير . تدل على أن هناك عابداً ومعبوداً.

. نهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك أشد النهي وحذر منه أشد التحذير، وأخبر أن صاحبه محرم على الجنة وأنه خالد مخلدّ في النار، وأنه لن يغفر لمن مات عليه، قال سبحانه :" إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا" (النساء، آية : ٤٨).

وقال تعالى :" إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ" (المائدة، آية : ٧٢).

فهذه النصوص تدل على أن هناك غيراً يجعله بعض الناس شريكاً لله تعالى ولو كان الوجود واحداً كما يقول أصحاب وحدة الوجود لكان الشرك الأكبر هو عين التوحيد الخالص ولكان الذين عبدوا الأصنام والأشجار والأحجار والملائكة ما عبدوا إلا الله لكون هذه المعبودات مظاهر لذلك الوجود الواحد كما نص عليه أصحاب وحدة الوجود[١].

وقد أخبر الله تعالى أن المشركين عبدوا غيره، قال تعالى :" قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ * وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ" (الزمر، آية : ٦٤ ، ٦٥).

---

[١] المصدر السابق، ص: ٥٣ . ٥٦.

وأخبر بوجود المشركين فقال :" ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ" (الأنعام، آية : ٦٤).

وأمر نبيّه أن يتبرّأ من المشركين فقال :" قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" (الأنعام، آية : ١٩).

وبذلك أمر أنبياءه فقال هود عليه السلام لما قال له قومه :" إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ" فقَالَ لهم عليه السلام "إِنِّي أُشْهِدُ اللهِ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ" (هود، آية : ٥٤).

ونزه الله ـ جل في علاه ـ نفسه عن الشرك وأهله فقال :" فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (الأعراف، آية : ١٩٠).

وقال :" وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ" (التوبة، آية : ٣١).

وكان الرسل ينهون عن عبادة مظاهر الوجود ويجعلون ما عبده المشركون غيراً لله، ويجعلون عابده مشركاً بالله جاعلاً له نداً، وكان يُبيّنون بطلان عبادة تلك المعبودات والآيات في ذلك كثيرة جداً.

والرسل هم أعلم الخلق بالله فلو كانت المعبودات هي الله لما نهوا عن عبادتها، فدل ذلك على أنها غير الله فثبت الغيرية وبطلت وحدة الوجود[1].

ـ ونزّه الله نفسه عن مماثلة المخلوقات وعن كل عيب ونقص، فقال تعالى :" لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ" (الشورى، آية : ١١).

وقال سبحانه :" لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ" (البقرة، آية : ٢٥٥).

وقال عز وجل :" لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى" (طه، آية : ٥٢).

وقال سبحانه وتعالى :" قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (الإخلاص، آية : ١ ـ ٤).

---

[1] ابن عربي عقيدته د. دغش العاجمي، ص: ٥٣ ـ ٥٧.

فدلت هذه النصوص ونحوها على أن الله لا يُماثل المخلوقات ولا يتصف بصفات النقائص، ونحن نشاهد الكائنات[1] متصفة بصفات النقائص كالنوم والنعاس والضلال والنسيان والموت والفقر ..الخ وثبت أن النقائص صفات لغيره فانتفت الوحدة وبطلت.

.كما دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أن الله موصوف بعلو الذات، قال تعالى :" يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ" (النحل، آية : ٥٠).

وقال سبحانه وتعالى :" أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ" (الملك، آية : ١٦).

وقال جلا وعلا :" تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ" (المعارج، آية : ٤).

وقال تعالى :" وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ" (الأنبياء، آية : ١٩).

فهذه النصوص تدل على أن هناك خلقاً وخالقاً، وأن الخالق تعالى على عرشه بائن من خلقه عالٍ عليهم فبطل بهذا كون الوجود واحداً لأنه لو كان كذلك لما وصف الله نفسه بالعلو.

. والقول بوحدة الوجود إنسلاخ من الشريعة لأن من البديهيات أن من يرى أن ذات الإله حلت فيه أو اتحد هو بها، وأن الخالق هو المخلوق من البديهيات أنه لا يرى نفسه موضعاً للتكاليف الشريعة، لأن التكليف ملازم للعبودية وأما وقد صار العبد رباً فلا تكليف مع الربوبية[2].

قال ابن تيمية: ولهذا يظهر فيهم من إهمال العبادات والأوراد والأذكار والدعوات ما لا يظهر في اليهود والنصارى ومن سلك منهم مسلك العبادات فإن لم يهده الله إلى حقيقة دين الإسلام وإلا صار في آخر أمره ملحد من الملاحدة من جنس ابن عربي وابن سبعين وأمثالهما[3].

---

[1] درء التعارض (٦/ ٧٧).

[2] المصدر السابق، ص: ٦٣ ، ٦٤.

[3] المصدر نفسه.

وقال ـ رحمه الله ـ ولهذا يصلون إلى مقام لا يعتقدون فيه إيجاب الواجبات، وتحريم المحرمات وإنما يرون الإيجاب والتحريم للمحجوبين عندهم الذين لم يشهدوا أنه حقيقة الكون، فمن العابد؟ ومن المعبود؟ ومن الآمر؟ ومن المأمور[1].

ـ كما أنهم يتجرؤون على مقارفة النواهي الشرعية بما في ذلك الكفر بالله والسجود لغيره والاستهزاء بالشرع والطعن في الدين وغير ذلك.

وقال ابن تيمية في التلمساني : وهو كان أعرفهم بقولهم وأكملهم تحقيقاً له، ولهذا خرج إلى الإباحة والفجور وكان لا يُحرم الفواحش ولا المنكرات ولا الكفر والفسوق والعصيان[2].

إن الأمير عبد القادر الجزائري ليس من عقيدة وحدة الوجود في شيء بدليل سيرته وكتبه ومقالته وقد بينا بطلان ما نسب إليه من كتب في التصوف المنحرف "المواقف" وإنما أراد أصحاب هذه الاعتقادات الاستفادة من شهرته ومحبة الناس له.

كما أن الشعر المذكور في هذا الكتاب المزعوم إلا دليل إضافي على أن الكتاب ليس من تأليفه، فأبياته جلها مختلفة في وزنها تميزت باضطرابات عروضية تجاوزت في بعض الأحيان حتى ما أتاحه العرضيون الشعراء وعدوه شاذاً، فضلاً عن تهويمات وأذكار صوفية لا تدخل في الشعر كما أن أغلب الأبيات والقصائد الواردة هي قريبة من النظم أكثرها منها إلى الشعر في تفعيلاتها المعروفة عند الشعراء، فأكثر هذه النصوص لا يدخل في الشعر، فهو ليس إلا أذكاراً وتسبيحات ونجوى على مذهب القوم، أو إيماءات وتعابير متوسل بها في شطحة من شطحات الفرق الصوفية أسمع معي إلى بعض ما ورد في الكتاب المزعوم، وأحكم وزن بعقلك وإيمانك على هذه العبارات بميزات العقيدة والشرع:

أمطنا الحجاب فانمحى غيهب السوى

---

[1] مجموع الفتاوى (٢/ ٨٢).

[2] ابن عربي عقيدته، ص: ٦٦.

وزال أنا وأنت وهو فلا لبس
ولم يبق غيرنا وما كان غيرنا
أنا الساقي والمسقي والخمر والكاس
تجمعت الاضداد في وأنني
أنا الواحد الكثير والنوع والجنس
فلا تحتجب بما ترى متكثراً
فما هو إلا شخصنا النزه القدس

ومن الأبيات الباطلة التي نسبت إلى الأمير في كتاب المواقف:

أنا العابد المعبود من كل صورة
فكنت أنا رباً وكنت عبداً
فطوراً تراني مسلماً أي مسلم
زهوداً نسوكاً خاضعاً طالباً مدا
وطوراً تراني للكنائس مسرعاً
وفي وسطي الزنار احكمته شدا
أقول باسم قال الباحث والأب
وبالروح روح القدس قصدا ولا كيدا
وطوراً بمدارس اليهود مدرساً
اقرر توراه وأبدي لهم رشدا[1]

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٨٩.

لا حول ولا قوة إلا بالله، أليس قائل هذه الأبيات إلا أن يحدد ويصحح عقيدته، لقد تعمَّد بعض الناس تشويه حقيقة عقيدة وفكر الأمير عبد القادر، وفي أيامنا هذه نرى رأي العين كيف يعمد المفسدون إلى رجل من المشاهير الذين نعاصرهم ونشهد لهم بالخير فيشوهون صورته أمام الناس وينسبون إليه الأباطيل حتى يسقط من أعين الناس، ويعمدون إلى رجل وضيع خسيس فيرسمون له صورة زائفة ويزينونها للناس حتى يظنوا أنهم أنهم أمام رجل عظيم وصدق القائل:

نظرت بحال الحاضرين فرابني

فكيف بحال الغابرين أصدق[1]

لقد تعرض الأمير عبد القادر لحملات تشويه مركزة ومنظمة واختلقوا له الأكاذيب وزعموا أنه سلم نفسه لفرنسا واستسلم في نهاية المطاف وزوّروا عليه رسائل ومعاهدات سخيفة ومخزية وزعموا أنها بخطه، ثم اختلقوا قصة انتسابه للجمعية الماسونية وزوروا عليه رسالة بهذا الخصوص، وكل ذلك كي يسقط اعتباره عند الناس كرجل مخلص لأمته، ولم يكتفوا بذلك بل أسرعوا فور وفاته لتزوير كتاب عليه وهو كتاب المواقف في الوعظ والإرشاد وضمّنوه كلاماً يجعل الأمير يسقط عند الناس باعتباره الإسلامي والإيماني أيضاً، فلا يبقى شيء يصلح لاتخاذه قدوة ولكن الله أبى إلا أن يخرج الحق للناس.

إن الأمور التي تبين بطلان ما نسب للأمير من الأمور المنكرة كثيرة منها:

أ ـ تقرير الخبرة الفنية الذي كتبه الاستاذ الغراوي الخبير المحلّف بشؤون الوثائق لدى وزارة العدل السورية من ١٩٥٢ ـ ١٩٧٩م والذي أثبت فيه أن المخطوطات الخاصة بكتاب المواقف والتي كتب عليها إنها بخط الأمير هي ليست بخطه قطعاً وكذلك الوثائق

---

[1] الأمير عبد القادر فكره وحياته، ص: ٢٥٩.

العسكرية التي تروج لها بعض الكتب الفرنسية، هي أيضاً ليست بخط يده بل مزورة عليه والتزوير مفتضح لكل متأمل.

ب ـ إن الأمير عبد القادر لم يذكر أنه ألف كتاب المواقف ولا غيره ولم يشر إلى ذلك لا في أشعاره ولا في رسائله.

ت ـ إن الأمير عبد القادر كان قائداً عسكرياً وحاكماً وقاضياً وسياسياً وأمضى عمره على صهوات الخيل مجاهداً ثم المنفى ثم متنقلاً بين الإستانة وبورصة ودمشق ولم يكن عنده من الوقت ما يسمح لتأليف كتاب ضخم ككتاب المواقف الذي يقع في أكثر من خمسمائة وألف صفحة.

ن ـ لم يذكر أحد ممن كان يحضر مجالس الأمير عبد القادر الخاصة أو دروسه العامة في الجامع الأموي، أن للأمير كتاباً اسمه المواقف.

ج ـ إن المقربين من الأمير عبد القادر من علماء عائلته كابن أخيه السيد عبد الباقي الحسني وكان مفتي المالكية بدمشق وهو جد والد الدكتور خلدون بن مكي بن عبد المجيد بن عبد الباقي الحسني، وابن أخيه الثاني السيد محيي الدين الحسني وهو جد السيدة بديعة، وهما صهراه أيضاً وكانا ملازمين للأمير، ولم يسمعا أبداً الأمير يتحدث عن هذا الكتاب ولم يسمعا منه كلاماً يوافق الكلام الموجود في كتاب "المواقف" بل على العكس كان كلامه لآخر لحظة من حياته مخالفاً لما في المواقف من العقائد الباطلة، وليس في أسرة الأمير من يقول بتلك العقائد لا في أبنائه ولا في أحفاده، بل ورثوا عنه العلم الصحيح والعقائد الواضحة السليمة.

ح ـ إن الأمير عبد القادر ولآخر يوم من حياته كان يدرس في الجامع الأموي بدمشق صحيح البخاري، وموطأ مالك، ورسالة أبي زيد القيراواني ويشيد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة وكل هذه الكتب تخالف تماماً العقائد الموجودة في كتاب "المواقف"

فكيف يكون مدرس هذه الكتب وكاتب كتاب المواقف شخصاً واحداً؟ مع هذا التناقض الكبير بين الإيمان والكفر[1].

كان الأمير يشيد بمبحث العقائد الذي في مقدمة الرسالة وهذه العقائد التي أشاد بها الأمير وصفها مؤلفها ابن أبي زيد القيرواني بأنها: جملة مختصرة من واجب أمور الديانة مما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب، وتعمله الجوارح وما يتصل بالواجب من ذلك السنن من مؤكدها ونوافلها ورغائبها وشيء من الآداب منها، وجمل من أصول الفقه وفنونه، على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله وطريقته مع ما سهل سبيل ما أشكل من ذلك من تفسير الراسخين وبيان المتفقهين لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان كما تعلمهم حروف القرآن ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركته وتحمد لهم عاقبته[2].

وهذا النص الكامل لمقدمة أبي زيد القيرواني في العقيدة: باب ما تنطق به الألسنة وتعتقده الأفئدة من واجب أمور الديانات:

من ذلك الإيمان بالقلب والنطق باللسان بأن الله إله واحد لا إله غيره، ولا شبيه له، ولا نظير له، ولا ولد له، ولا والد له، ولا صاحبة، ولا شريك، ليس لولايته ابتداء ولا لآخرته انقضاء، ولا يبلغ كنه صفته الواصفون، ولا يحيط بأمره المتفكرون، يعتبر المفكرون بآياته ولا يتفكرون في ما هية ذاته، ولا يحيطون بعلمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم.

العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير العلي الكبير وإنه فوق عرشه المجيد بذاته وهو بكل مكان بعلمه، خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، وما تسقط من ورقه إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين.

---

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٦٣.

[2] شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للأمين الحاج، ص: ٩.

على العرش استوى وعلى الملك احتوى وله الأسماء الحسنى والصفات العلى.

لم يزل بجميع أسمائه وصفاته تعالى أن يكون صفاته مخلوقاته وأسماؤه محدثة.

كلم موسى بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه وتجلى للجبل فصار دكاً من جلاله.

وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفذ.

والإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره، وكل ذلك قدّره الله ربنا ومقادير الأمور بيده ومصدرها عن قضائه علم كل شيء قبل كونه فيجري على قدره لا يكون من عباده قول ولا عمل إلا وقد قضى وسبق علمه به :" أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ" (الملك، آية : ١٤).

يضل من يشاء فيخذله بعدله، ويهدي من يشاء فيوفقه بفضله فكل ميسر تسييره إلى ما سبق من علمه وقدره من شقي أو سعيد، تعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد أو يكون لأحد عنه غنى، خالق كل شيء هو رب العباد ورب أعمالهم والمقدر لحركاتهم وآجالهم الباعث الرسل فيهم لإقامة الحجة عليهم، ثم ختم الرسالة والنبوة بمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم وشرع بدينه القويم وهدى به الصراط المستقيم، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من يموت كما بدأهم يعودون.

وأن الله سبحانه ضاعف لعباده المؤمنين الحسنات وصفح لهم بالتوبة عن الكبائر وجعل من لم يتب من الكبائر صائراً إلى مشيئته :" إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء" (النساء، آية : ٤٨).

ومن عاقبه الله بناره أخرجه منها بإيمانه فأدخله به جنتين :" فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ" (الزلزلة، آية : ٧).

ويخرج منها بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم من شفع له من أهل الكبائر من أمته، وأن الله سبحانه قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم وهي التي هبط منها آدم نبيه وخليفته إلى أرضه بما سبق من سابق علمه.

وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته، وإن الله تبارك وتعالى يجيء يوم القيامة والملك صفاً لعرض الأمم وحسابهم، وتوضع الموازين لوزن أعمال العباد :" فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الأعراف، آية : ٨). ويؤتون صحائفهم في أعمالهم.

وأن الصراط حق يجوز بقدر أعمالهم فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليهم من نار جهنم وقوم أبقتهم فيها أعمالهم، والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ويزاد عنه من بدل وغير وأن الإيمان بحوض باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح يزيد بزيادة الأعمال وينقص بنقصها فيكون بها النقص وبها الزيادة لا يكمل قول الإيمان إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بنية، ولا قول ولا عمل ونية إلا بموافقة السنة.

وإنه لا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأرواح أهل السعادة باقية ناعمة إلى يوم يبعثون وأرواح أهل الشقاوة معذبة إلى يوم الدين.
وأن المؤمنين يفتنون من قبورهم ويُسألون :" يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ" (إبراهيم، آية : ٢٧).
وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ولا يسقط شيء من ذلك عن علم ربهم وأن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، وأن خير القرون الذين رأوا رسول الله وآمنوا به ثم الذين يلونهم.

وأفضل الصحابة الخلفاء الراشدون المهديون أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين.

وأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول إلا بأحسن ذكر والإمساك عما شجر بينهم وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب والطاعة لأئمة المسلمين من ولاة أمورهم وعلمائهم واتباع السلف الصالح واقتضاء آثارهم والاستغفار لهم وترك المراء والجدال في الدين، وترك كل ما أحدثه المحدثون وصلى الله على سيدنا محمد نبيه وعلى آله وأزواجه وذريته وسلم تسليماً كثيراً[1].

هذه العقيدة السنية البهية كان الأمير عبد القادر يشيد بها ويحث عليها في حلقاته ودروسه وندواته وتدريبه في المسجد الأموي.

خ ـ لم يذكر أحد من العلماء المعصرين للأمير عبد القادر رحمه الله صحة نسبة كتاب المواقف إليه.

هـ ـ هناك من يقول إن الأمير قد أوصى أن يدفن بجوار قبر الشيخ ابن عربي، وهذا دليل على أنه كان يتبنى عقائده ومن ثم فهو مؤلف كتاب المواقف، وهذا غير صحيح لأن الأمير عبد القادر لم يوص قط بذلك، بل إنه اشترى أرضاً بطرف مقبرة الدحداح ليدفن فيها وأوقفها على ذريته ليدفنوا جميعهم وبجواره ولكن بعض مشايخ دمشق هم الذين أصرّوا على دفنه بجوار ابن عربي ظناً منهم أنهم يسدون إلى الأمير معروفاً وأما ذرية الأمير فما زالت تُدفن في مقبرة الأمير في الدحداح، إلى أن استولى عليها مكتب دفن الموتى والأوقاف.

د ـ كل من ذكر أن للأمير كتاباً اسمه المواقف مثل الشيخ محمد جميل الشطي في كتابه "أعيان دمشق" نقل ذلك من كتاب تحفة الزائر لمؤلفه محمد باشا الأبن الأكبر للأمير عبد القادر ونحن نعلم أن كتاب "تحفة الزائر" كتبه محمد باشا في حياة والده الأمير ثم حُرق

[1] شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني للأمين الحاج، ص: ١٦ ، ١٧ ، ١٨.

الكتاب كله بعد وفاة الأمير وضاع وحاول محمد باشا إعادة كتابته وأعانه بعضهم في ذلك فكان نتيجة ذلك ولرجوع الناشر إلى مصادر أجنبية غير دقيقة أن شمل كتاب "تحفة الزائر" الكثير من الأحداث المغلوطة ودخل فيه ما كان يزوره المزورون ويدسه المبطلون، فلا يمكن الاعتماد على ما فيه وخصوصاً نسبة كتاب "المواقف" للأمير عبد القادر بعد ذكر كل الأمور التي تنفي عن الأمير هذا الكتاب.

س ـ طبع كتاب المواقف بعد وفاة الأمير بثمان وعشرين سنة في القاهرة وكل المخطوطات الموجودة هناك وفي المكتبة الظاهرية بدمشق يقول ناسخها إنه نقلها عن المخطوطة الأصلية، ولم يكتب على أية مخطوطة اسم ناسخها بل يُذكر دائماً أن كاتبها مجهول أو لا يعرف والمخطوطة الأصلية ليست بخط الأمير بل مزورة عليه، فكيف نصدق المجهولين وكيف نقبل سنداً لكتاب معلول بعلل كثيرة الإنقطاع والجهالة والكذب والمخاطبة؟

وصدق القائل:

هل صح قول من الحاكي فنقبله

أم كل ذاك أباطيل وأسمار

أما العقول فآلت أنه كذب

والعقل غرس له بالصدق إثمار[1]

كان الأمير عبد القادر كعالم من علماء عصره أطلع على كتب ابن عربي ومنها الفتوحات المكية ووجد في إحدى نسخه تناقضات كثيرة، فظن أن شيئاً من التشويه والتحريف طال هذا الكتاب، فحاول التحقيق للوصول للحقيقة عن طريق النظر في

[1] المصدر السابق.

النسخ الأصلية، لا أن يعتمد أكاذيب وأفكار متناقضة لا مرجع لها ولا أصل وهذا ليس جديداً فقد برأ الشيخ سراج الدين البلقيني المتوفى عام ٨٠٥هـ بعد بحث مستفيض برأ الشيخ ابن عربي من القول بالحلول والاتحاد واعتبر العلامة جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١هـ أن هناك دس مفضوح في آثار الشيخ ابن عربي كتب رسالة أهمها تنبيه الغبي في تبرئة ابن عربي، بيّن فيها على حد اجتهاده منهج الشيخ الذي لم يكن يحيد عن القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكان الأمير عبد القادر في دروسه يصحح وينفي عن الشيخ ابن عربي بالدليل والتحقيق، كتب نُسبت إليه وخارجة عن العقيدة الإسلامية مثل كتاب النعمانية والفصوص والفتاوى وكتاب الجفر، فبيّن أنها من أناس أعداء للحق وبالرغم من هذا الاهتمام والتحقيق بكتب ابن عربي وبيان المختلق والمنسوب إليه من خلال البحث العلمي، فإن اهتمامه بهذه الكتب ضئيلاً جداً أمام اهتمامه بعلوم القرآن والسنة النبوية ومنهج أهل السنة ولا يوجد دليل على أن الأمير عبد القادر عقيدته عقيدة ابن عربي وأنه يوافقه على كل الأفكار والتفاسير التي دونت في كتبه، كما أن الأمير لم يترك أية وصية لطبع كتب الشيخ ابن عربي والدليل على ذلك مادياً وليس عقيلاً فقط، فقد كتب وصية في حياته وأودعها المحكمة الشرعية بدمشق تحت رقم ٧٥٦ ورقمت الوثيقة بعد ذلك تحت رقم ٢٥٦ هذه الوصية فتحت بتاريخ الثاني عشر من شعبان ١٣٠٠هـ أي في شهر جوان ١٨٨٣م بعد وفاته بثلاثة أسابيع حسب الأصول المتعارف عليها، ولم يكن فيها أي ذكر لكتاب الموافق المزعوم، أو أي شيء مادي أو عملي يتعلق بتخصيص المال لطباعة كتاب أو غير ذلك، بل كان ما في الوصية هو تخصيص أموال معتبرة من إرثه للفقراء والمساكين ولنسائه ولأولاده[١].

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٩١.

إن ابن عربي شخصية جدلية بامتياز فكثير من العلماء ذكره بسوء واعتبروا الكتب المنسوبة إليه والتي تحتوي على عقيدة وحدة الوجود والعقائد الباطلة. هي كتبه وهناك من كان له أكثر من رأي في الموضع والعلماء الذين أنكروا على ابن عربي كلامه في " الفصوص" و"الفتوحات المكية" اعتبروها كتبه وقد ذكر منهم الدكتور دغش بن شبيب العجمي في كتابه "ابن عربي عقيدته وموقف علماء المسلمين منه من القرن السادس إلى القرن الثالث عشر" ذكر أكثر من مائتي عالم كلهم يثبت كلامه في الفصوص والفتوحات المكية لم يشيروا إلى أن شيئاً مما ذكروه مدسوس عليه لاسيما مع قرب عهد كثير منهم بابن عربي ومعاصرة بعضهم له، با إنهم أنكروا على من أنكر نسبة هذين الكتابين له أو زعم أنه قد دُس فيهما ما لم تخطه يمين مؤلفهما[1].

ويبدو أن العلامة البلقيني ٨٠٥هـ استقر في فتواه في ابن عربي: لا يجوز لأحد أن يعتقد في المذكور ولا يُثني عليه ولا يُحسن الظن به، لاستفاضة عقائده القبائح، وما ظهر عليه من الفضائح في "فصوصه" الزغل كم دسّ فيها من دغل وسم وزلل وفي "الفتوحات الهلكية" التي سماها "الفتوحات المكية" وفي غير مما اشتهر عنه من أردى المسالك، وقد أخبر عنه من يرجع إليه من العلماء الأعلام المشهورين بين الأنام بزندقته وسوء طريقته[2].

وهذا ابن تيمية يقول: وإنما كنت قديماً ممن يحسن الظن بابن عربي ويعظمه لما رأيت في كتبه من الفوائد .. ولم نكن بعد اطلعنا على حقيقة مقصودة ولم نطالع الفصوص ونحوه وكنا نجتمع مع إخواننا في الله نطلب الحق ونتبعه، ونكشف حقيقة الطريق فلما تبين الأمر عرفنا نحن ما يجب علينا[3].

---

[1] ابن عربي عقيدته د. دغش العاجمي، ص: ٧٧٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٧٥.

[3] الفتاوى (٢/ ٤٦٤ . ٤٦٥).

وحاول بعض الناس أن يظهروا بمظهر العلماء المعتبرين وتصوفه صورة التصوف المبني على الزهد والإعراض عن الدنيا وأنه النموذج الذي يجب أن يحتذى وأكثر العلماء الذين أثنوا على ابن عربي لم يطّلعوا على كتبه، بل لم يروها سيما من كان معصراً له[1].

وهناك بعض العلماء من أثنى ابن عربي لم يطلع على كتبه ولم يعرف حقيقة مذهبه، ولكن بلغه ما يتناقله أصحابه من نسبته للزهد والورع والكرامات وغير ذلك، فأثنى عليه بناء على ذلك فمثل هذا يُعرف بحقيقة ابن عربي، ويوقف على كلامه من كتبه حتى يرجع عن ثنائه ومدحه[2].

وقال الحافظ تقي الدين الفاسي "ت: ٨٣٢هـ": وأما من أثنى عليه فلفضله وزهده وإيثاره في العبادة، وأشتهر ذلك عنه حتى عرفه جماعة من الصالحين عصراً بعد عصر، فأثنوا عليه بهذا الاعتبار، ولم يعرفوا ما في كلامه من المنكرات، لاستغالهم عنها بالعبادات، والنظر في غير ذلك من كتب القوم، لكونهم أقرب لفهمهم مع ما وفقهم الله تعالى من حسن الظن بآحاد المسلمين فكيف بابن عربي؟ وقد بان بما ذكرناه سبب ذمّ الناس لابن عربي ومدحه[3].

إن الأمير عبد القادر الجزائري لم يعتقد يوماً من الأيام لا بوحدة الوجود ولا الحلول ولا الاتحاد بل كانت عقيدته سنية صافية بهية ومال إلى القول بأن ما كتب في الكتب المنسوبة لابن عربي من عقائد فاسدة فهو من الأباطيل المنسوبة إليه، إن الأمير عبد القادر اشتهر بالتقوى والخوف من الله والإيمان به وباليوم الآخر وحفظ القرآن وهو في سن مبكرة من حياته، متزن صافي العقيدة على منهج أهل السنة والجماعة مالكي المذهب متقيد بشرع الله في حياته الخاصة وأسرته ومجتمعه ودولته وما نسب إلى الأمير

---

[1] ابن عربي عقيدته ومواقف علماء المسلمين منه، ص: ٧٧٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ٧٨١.

[3] العقد الثمين (٢/ ١٩٧ ـ ١٩٨) باختصار.

من الرموز والحلول والاتحاد وغيرها من الرموز الصوفية ما هي إلا أباطيل واتهامات، وإتهامه بالحيرة وزعمهم أنه كان يكررها في كثير من كتبه.

ايا حيرتي وما الذي اضع

لقد ضقت ذرعاً فما ينفع

أكاد تراني منفطراً

جواهري مبثوثة أجمع

وما نسب إليه:

فحيرتي ما كنت كائنة

وحتى القيامة لا تقلع

فأشكو إلى حيرتي حيرتي

فليس إلى غيرها مفزع

إننا عندما نرجع إلى كتاب المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد نرى عقيدته الصافية وفكره الرشيد ومنهجه المستقيم ففي الفصل الخاص بإثبات الألوهية ذكر الحيرة بالحرف التالي: إن الفلاسفة جرهم الجدل العقلي إلى قصور وحيرة وهذا يناقض ما نسب إليه من فوضى فكرية ظلماً وعدونا، فالأمير عبد القادر نبراسه:

عليك بشرع الله فالزم حدوده

حيثما سار سر وإن وقف قف

وقال من شعره العذب الجميل:

الحمد لله الذي قد خصني

بصفات كل الناس لا النسناس

الجود والعلم النفيس وإنني

لانا الصبور لدى اشتداد البأس

وتحدثي شكراً لنعمة خالقي

إذ كان في ضمني جميع الناس[1]

وهناك أمر مهم ويحدث كثير في ما يتعلق تشابه الأسماء فهناك غير الأمير عبد القادر من العلماء والأسماء المتطابقة مع اسمه وكتبوا كتباً وألفوا في مواضيع التصوف واختلط الحابل بالنابل على بعض الناس وألتبست الأسماء والمؤلفات على بعض الناس ومن هؤلاء العلماء عبد القادر بن محيي الدين الجيلاني المتوفى عام ٥٦١هـ وعبد القادر بن محيي الدين قضيب البان المتوفى عام ١٠٤٠هـ، وعبد القادر بن محيي الدين المتوفى عام ١١٥٠هـ، وعبد القادر بن محيي الدين الصديقي الأربلي القادري الذي عاصر الأمير وعاش بعده خمسة عشر سنة.

إن الأمير عبد القادر نسبت إليه أفكار ضالة وهدّامة بعد مماته وليس في حياته فأصحاب المناهج الضالة أردوه حلولياً اتحادياً مثلهم وأما الفرنسيون فأردوه صديقاً لهم يعترف بفضلهم عليه، ونسوا أنه جزء من شعب يعاني ويلات الاحتلال ووطن افتدته بروحي كما أمره خالقه وأرشدته الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وهوية هذا الوطن ودينه وتاريخه وحضارته تعني له كل شيء في هذه الحياة[2].

إن الأبيات الشعرية التي وضعت في كتاب "المواقف" لا تمت إلى الأمير بصلة ليس لبعدها عن الجمال وإنما لركاكتها وفساد معتقدها وبعدها عن أسلوب الأمير في الشعر الذي اشتهر بعذوبته وسعة افقه الفني والتاريخي والديني والاجتماعي فأسلوبه من نوع السهل الممتنع.

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٩٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٩٤.

ولقد عالج الأمير في أشعاره وأبياته الحكيمة مختلف جوانب الحياة كما عاشها بحلوها ومرها ويظهر من خلال أشعاره تأثره العميق بكتاب الله عز وجل وظهرت في أشعاره فحولة الشعراء ورصانة الحكماء وما أحوجنا إلى أن نغرس في نفوس النشء الجديد من أبنائنا معاني العزة والشهامة والإباء والأصالة والشجاعة التي وردت في حكمه وأن نردد معاً قوله:

وما كل شهم يدّعي السبق صادق

إذا سيق للميدان بان له الخسر

وعند تجلي النقع يظهر من علا

على ظهر جردبل من تحته حمر

وما كل من يعلو الجواد بفارس

إذا ثار نقع الحرب والجوُّ مُغبرُّ

وما كل سيف ذا الفقار بحدّه

ولا كلُّ كرّار عليّا إذا كرّوا

وما كلُّ طير طار في الجو فاتكاً

وما كلُّ صيّاح إذا صرصر الصقر

ولا عجب في اعتزاز الأمير بتراثه العربي الإسلامي الأصيل، ولا عجب في اختياره التراكيب المنبثقة من بيئة أجداده العرب، مثل قوله "عند تجلي النقع" و "ظهر جردبل" واستشهاده بقادة المسلمين الذين ملأت أمجادهم الدنيا في قوله "ولا كلُّ كرّار عليّا"[1].

---

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٦٩.

٤. علاقة الأمير بالدولة العثمانية:

كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية، والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة "مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم".

وكان يكن الإحترام والتقدير للدولة العثمانية وسلاطينها ونظم الأمير قصيدة في مدح السلطان عبد المجيد فقال:

يا رب يا رب الأنام ومن
إليه مفزعنا سراً وإعلانا
يا رب أيد بروح القدس ملجأنا
عبد المجيد ولا تبقيه وحيرانا
ابن الخلائف وابن الأكرمين ومن
توارثوا الملك سلطاناً فسلطانا
أحي الجهاد لنا بعد ما درس
وضاعف المال أنواعاً وألوانا
فانصره نصرا عزيزاً لا نظير له
حتى يزيد العدا هماً وأحزانا
واحفظ علاه وأرسل يا كريم له
من الملائكة حفاظاً وأعوانا
واهدم وزلزل وفرق جمع شائنه
واجعل فؤادهم بالرعب ملآنا

وانصر وأيد مثبت جيش نصرته

أنصار دينك حقاً آل عثمانا

الباذلون بيوم الحرب أنفسهم

لله كم بذلوا أنفساً وأبدانا[1]

والضاربون ببيض الهند مرهفة

تخالها في ظلام الحرب نيرانا

والطاعنون بسمر البيد عالية

إذا العدو رآها شرعت بانا

والراكبون عناق الخيل ضامرة

تخالها في مجال الحرب عقبانا

والمصطلون بنار الحرب شاعلة

مطلوبهم منك يا ذا الفضل رضوانا[2]

ونظم قصيدة عام ١٨٥٣م والتي قال فيها فور وصوله إلى مدينة بروسة أقتطف منها:

الحمد لله تعظيماً وإجلالاً

ما أقبل اليسر بعد العسر إقبالا

وأشكر الله إذ لم ينصرم أجلي

حتى وصلت بأهل الدين إيصالا

وامتد عمري إلى أن نلت من سندي

خليفة الله افياء وأظلالا

[1] الأمير عبد القادر حياته وفكره بديعة الحسني، ص: ٨٨.

[2] المصدر نفسه، ص: ٨٨.

فالله أكرمني حقاً وأسعدني

وحط عني أوزاراً وأثقالا

هذه الأبيات دليل على ما كان يعانيه من ألم وسنيّ عمر في الأجواء الأجنبية واثقال من الحزن أجبر على حملها أثقلت كاهله فيشكر الله سبحانه وتعالى في هذه الأبيات بعدما غمرته شمس الحرية لتتوج صبره في وصوله إلى دار الخليفة الإسلامية.

أبشر بقرب أمير المؤمنين ومن

قد أكمل الله فيه الدين إكمالا

عبد المجيد حوى مجداً وعز على

وجل قدراً كما قد عم أنوالا

هذا مقام التهاني قد حللت به

فارتع ولا تخشى بعد اليوم أنكالا

يا رب فاشدد على الأعداء وطأته

واحم حماه وزده منك إجلالا

فرع الخلائف وابن الأكرمين ومن

شدوا عرى الدين أركانا وأطلال

كم أزمة فرجوا كم غمة كشفوا

كم فككوا عن رقاب الخلق أغلالا[1]

إن كتاب "حياة عبد القادر" الذي كتبه شارلز هنري تشرشل شوه الدولة العثمانية من خلال خياله وأكاذيبه فالدولة العثمانية نظر إليها الأوروبيون المستعمرون في تلك الفترة كامتداد للفتوحات الإسلامية التي تناقض حضارتهم بما تمثله من قيم الفكر ومفاهيم اجتماعية واقتصادية ونظم إدارية وأساطيل بحرية كانت تنافسه أكبر أساطيلهم في البحار

[1] ردود وتعليقات على كتاب الأمير، ص: ١٥٤.

والتي كانت تشيد في كل بقعة من عالمهم مسجداً وتنقل إليهم الحضارة الإنسانية الإسلامية بجوانبها المتعددة، كان الأمير عبد القادر يكن لها الاحترام والتقدير لتمسكها بالمبادئ الإسلامية، ويعتبرها حصن الأمة المنيع الذي يحمي كيانها من أعدائها الطامعين بخيراتها ومقدساتها.

كان الأمير عبد القادر يحترم الخلافة من منطلق إسلامي ديني بحت وكذلك كان أبناؤه الذين كان يُعدون الإمبراطورية العثمانية، لذلك استمروا على علاقتهم الودية بالسلطان، ووصل أربعة من أبناء الأمير عبد القادر إلى لقب "باشا" وشغلوا مراكز مرموقة في عهده وكان الولاة يحترمون الأمير ويعترفون له بصلاحيات واسعة في إدارة بعض شؤون البلاد الشامية وخاصة ما يتعلق بالمهاجرين وكان يرى أن تصحيح الواقع والأخطاء في الحكم يتم بفضل رأي من هم أكثر حكمة بين العلماء والمفكرين المسلمين والأكثر قدرة على اقتراح الحلول المستنبطة من تجارب الماضي من جهة والمعتمدة على نظرة مستقبلية ثاقبة من جهة أخرى.

وكان يقول: الرجل العالم العارف يستطيع استشعار المستقبل من النظر والرجوع به إلى أحداث الماضي في ضوء التواتر، وحقيقة علم التواتر هي التفكير بمحسوس يمكن وقوعه من خلال هذا العلم والإنسان الذي أوتي العلم والمعرفة يستطيع أن يستشعر المستقبل بما يملكه من سعة الرؤية أمامه التي تمكنه إحساس وشعور وتنبؤ، وهو لدى بعض العلماء الفقهاء على جانب كبير من الدقة[١].

ولاحظ الأمير أن الضغوط تتزايد على الإمبراطورية العثمانية، وأن التغلغل الأجنبي عبر القناصل والعملاء التجاريين في البلاد الشامية خاصة أصبح مزعجاً لأصحاب الحرف والصناعات المحلية، وأن احتكارات المحلات التجارية من جانب الطوائف غير الإسلامية يزداد باستمرار بمساعدة الوكلاء التجاريين الغربيين وبنفوذهم، كما لاحظ أن البعثات

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٠.

الدبلوماسية تتدخل بشكل غير معلن في هذه المجالات، وأن نفوذها يتصاعد وأن السلع الأوروبية تغزو الأسواق وتنافس البضائع المحلية بتشجيع من بعض الولاة وبغض النظر من جانب بعضهم الآخر.

وكانت تلك الأمور تؤرق بال الأمير وهو يرى أن شبح الاستعمار ومآربه تقترب ليس فقط على المستوى الشعبي في هذه البلاد، بل إلى دار الخلافة في إسطنبول، وإلى مساجدها وإلى رسالة تلك المساجد وإلى مآذنها ونداءات "الله أكبر حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح" وأن الخطر الداهم يتهدد هذه الأماكن ومكانتها في بنية المجتمع الإسلامي، فكان الأمير في ندواته العلمية في الجامع الأموي وفي دار الحديث النووي وفي داره كان في كل هذه الأماكن يحث الجميع على الحذر من المؤامرات التي تحاك في الظلام، وكان يشير إلى النبع وهو الشريعة الإسلامية ويذكر قوله تعالى :" وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ" (البقرة، آية : ١٩٠).

وكان يبصر الوجهاء والأعيان بعواقب التفرقة بين أبناء الشعب الواحد، وبأخطار الصدام المسلح بين الطوائف وكان يدعوهم إلى عدم الوثوق بوعود الدول الأجنبية لأنه عهد لهذه الدول ولا ذمة ولا وفاء.

ونصح الجميع بالتمسك بالبعد الحضاري لهذه الأمة وبعدم التمادي في زرع الدمار والخراب والأحقاد وكل ما يدوي ويستفحل ويحترق ويصبح رماداً مما يجعل البلاد لقمة سائغة في فم الاستعمار وكان يتكلم وكأنه يقرأ هذا المخطط في كتاب أسود بين يديه، وينطوي هذا المخطط على ضرب الإمبراطورية الإسلامية العثمانية من الداخل وتفتيتها إلى دول تسهل الهيمنة عليها، ثم تحجيم الإمبراطورية العثمانية وبتر جذورها الإسلامية[١].

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٠٣.

كان الأمير عبد القادر مهتماً بدعم الدولة العثمانية والتواصل مع خلفائها وسلاطينها، ففي شهر جوان من عام ١٨٦٥م عزم على السفر إلى الإستانة لزيارة الخليفة السلطان عبد العزيز خان، فاستقبلها وأكرمه وكبر به، فطلب منه أن يصفح ويسرح المنفن إلى جزيرتي قبرص ورودس اليونانية من الذين تورطوا في أحداث ١٨٦٠م بالشام، فلبى رجاؤه وصدر الأمر العالي بتسريحهم[١].

لقد كانت حياة الأمير عبد القادر مجموعة من المآثر الخالدة وأصبح بعد أن قضى على الفتنة الطائفية في سوريا محط أنظار العالم، وأمل دعاة استقلال العرب عن الدولة العثمانية التي تتالت هزائمها أمام روسيا، فاجتمعت الطليعة في بلاد الشام وبحثوا مصير سوريا وعقدوا المؤتمرات السرية في دمشق سنة ١٨٧٧م واقترحوا فصل البلاد عن الدولة العثمانية وتنصيب الأمير عبد القادر ملكاً عليها، لأنهم وجدوا فيه أملهم الوحيد لما يتمتع به من هيبة واحترام عند العثمانيين والعرب على حد سواء وبعد قضائه على الفتنة الطائفية نال تقدير جميع الدول الأجنبية واحترامها وهو الذي سبق له أن أنشأ دولة وقاد أمة وهو بالإضافة إلى ذلك العالم ذو المقام العالي والمجاهد ذو النسب الشريف.

وعندما عُرض على الأمير هذا الموضوع لم يتحمس له، ولم يرفضه ولكنه نصح أن يظل الارتباط الروحي بين البلاد الشامية والخلافة العثمانية قائماً وبدأت رسائل الزعماء اللبنانيين تتوارد على الأمير مبايعة ومنها رسالة من الزعيم اللبناني يوسف كرم الذي كان منفياً في إيطاليا، وأما المشروع الفرنسي الذي كان يرمي إلى إنشاء إمبراطورية عربية تمتد من شمالي بلاد الشام حتى قطاع عكا يرأسها الأمير عبد القادر، فقد رفضه الأمير بشدة في سنة ١٨٦٠م[٢].

---

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٨.

[٢] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٢٨.

رفض الأمير عبد القادر هذا المشروع لأنه مطلب فرنسي استعماري وبعد سبع سنوات عندما ظهر المشروع العربي القومي تردد أيضاً في قبوله، لأنه كان يحترم الخلافة الإسلامية من منطلق ديني وكان عدم تحمس الأمير لهذا الأمر ناشئاً عن احترامه لمبدأ الخلافة الإسلامية ثم جاء مؤتمر برلين وتولى عبد الحميد الخلافة وأصبح سلطاناً فتأخر والحل العربي[١].

٥. موقف الأمير من الفتنة الطائفية بدمشق:

أ. وضع الطوائف في بلاد الشام:

بلاد الشام تتميز بتنوع الطوائف واختلاف المذاهب وتباين العقائد، ففيها الأغلبية المسلمة السنية وفيها الشيعة والمسيحية التابعة لكنيسة روما من اليونان الأرثوذكس، والأرمن والجورجيين واليعقوبيين والبروتستانت ثم الأقلية اليهودية، وقد كان للموارنة الكاثوليك وضع خاص لارتباطهم بكنيسة روما مباشرة ولصلاتهم المتميزة مع دولة فرنسا، والعدد الأكبر من هذه الطوائف يتركز في جبل لبنان وفي فترة حكم محمد علي للشام في الأربعينات من القرن التاسع عشر، قام ابنه إبراهيم باشا باعتماد أسلوب إداري يقوم على مبدأ المساواة بين الطوائف في المعاملات الأمر الذي أخل بالتوازن المتوارث، وأصر بالامتيازات والمكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها بعض الفئات على حساب الأخرى فكان ذلك تمهيداً لتعاون بعض الطوائف مع الدول الأوروبية مباشرة والتزود منها بالسلاح وبالمال دون اعتبار لمصالح الدولة العثمانية وسيادتها فسمح للإنجليز بالاتصال بطائفة الدروز، بينما ساندت فرنسا الطائفة المارونية وشجعتها على الوقوف ضد من يمس بمصالحها، مما هيأ الظروف للبداية حدوث الاضطرابات بعد ذلك بين طائفتي الدروز والموارنة منذ عام ١٨٤٥م، وبعد أن أصدر السلطان عبد المجيد عام

[١] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٢٩.

١٨٥٦م مراسيم عرفت بالخط الهمايوني الذي أقر نهائياً المساواة بين أفراد مختلف الملل والطوائف والأديان مع المحافظة على أحوالهم الشخصية أصبحت الأوضاع في مجمل بلاد الشام وخاصة مع حلول عام ١٨٥٧م تنذر بانفجار خطير، بدأت شرارته بعدما استولى فلاحون موارنة في شمال جبل لبنان على أراضي الاقطاعيين وامتنع موارنة الجنوب عن دفع الإيجارات إلى الملاك من الدروز واشتعلت الفتنة الطائفية في بلاد الشام في شهر جوان عام ١٨٦٠م واعتدى بعض الموارنة على الدروز فقام الدروز والغوغاء من الناس بإيعاز من بعض أشباه المشايخ وكبار القوم الذين يظنون أن أصل دين الإسلام الغلظة والقسوة والبلادة والجفوة حجتهم في ذلك تجبر النصارى وتكبرهم وتجاوزهم حدهم وخروجهم عن العهود الذمية وتعلقهم بالدول الأجنبية، فراحوا يأخذون في كل حدب وصوب الثأر بالحرق والقتل والسلب ونهب الأهالي المسيحيين والراهبات والمبعوثين الفرنساويين في جبل لبنان وطرابلس وصيدا وزحلة ودير القمر واللاذقية وغيرها، وعاثوا في الأرض فساداً وفسقوا واعتدوا على البنين والبنات وخربوا القرى والمدن وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال ومالوا عليهم كل الميل وبادرت لمساعدتهم والغنيمة معهم فرسان دروز الجبل الشرقي، تذبح النصارى ذبح الأغنام وتعتدي على الأموال والأولاد ودام هذا الأمر إلى غاية عيد الأضحى في شهر جويلية من عام ١٨٦٠م ولما هرب كثير من النصارى إلى دمشق، ظانين أن الحكومة سوف تحميهم من بطش الدروز، تغاضت الحكومة في بداية الأمر عن ذلك فزاد الدروز من طغيانهم وبطشهم والتخويف والتهديد والتنكيل بمن فر أو سكن في دمشق[١].

ب . لم يبق الأمير مكتوف الأيدي:

لاحظ الأمير أن الأمر قد خرج من أيدي الأعيان الوجهاء، وكان الأمير قد أعد للأمر عدته وتأهب لكل احتمال معاد، فجمع كل قادر على حمل السلاح من المهاجرين

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٤٩.

الجزائريين واشترى لهم السلاح وكان قد قام بتدريبهم على إخماد الحرائق، وعلى عمليات الإنقاذ الأولى، وعندما تناهى إلى مسامعه ذات صباح أن الجموع تتجه نحو حي القصاع استدعى فرسانه الأشداء وخرج هو وأبناؤه كلهم، وقام بنفسه حملة إخماد الفتنة الطائفية ووزع المهمات على رجاله، من شرفاء الناس وعلماء المسلمين وكبرائهم وغيرهم من أبناء دمشق المخلفين إلى حماية ما استطاع من المعتدى عليهم وإخماد الفتنة وفتح داره وبذل كامل همته بأمواله ورجاله وسلاحه، في خلاص من قدر عليه المهالك، ومرافقة من كان خارج الميدان إلى حصن الأمان في القلعة التي خصصها الوالي لحمايتهم، فكان الأمير وأتباعه من سكان الشام يطوفون على من كان في الميدان في سلامة وأمان ويذودون عليهم ليل نهار، يحرسون النصارى من الأشقياء والأشرار، وكان يواسيهم ويهنيهم بالسلامة ويطيب قلوبهم بالأمن والأمان[1].

وكان الأمير قد أصدر أوامره لحراسة أبنية السفارات الأجنبية في دمشق ونقل البعثات والدبلوماسيين إلى دور الأمير في حي العمارة "زقاق النقيب" وأشرف بنفسه على عمليات الإنقاذ وإخماد الحرائق التي بدأت تشتعل في بعض المنازل في حي القصّاع وكان جنود الأمير يقتحمون النيران لإنقاذ السكان ونقل الأمهات والأطفال إلى الأديرة وكان الأمير يتجول بين الأحياء غير مبال برصاص القناصة والطلقات الطائشة وهو على ظهر حصانه يصدر الأوامر حتى بلغ عدد من نقلوا إلى دوره في حي العمارة خمسة عشر ألفا بين رجل وامرأة، وعندما غصّت الدار بهذا العدد الكبير من السكان نقل بعضهم إلى القلعة.

وفي اليوم الثالث من تلك الأحداث الفظيعة قامت الجموع بمهاجمة حي العمارة، فخرج إليهم الأمير وما أن وقعت عليه الأنظار حتى ألقى الله الرعب في قلوب الجموع المهاجمة فعادوا من حيث أتوا، وقبض فرسان الأمير على بعض منهم وكم كانت دهشة الأمير

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

كبيرة عندما اكتشف أن بينهم عدداً من المسيحيين اللبنانيين، فسأل شاباً كان يتقد حماسة هستيرية ما الذي جاء به إلى هذه المعركة المشينة؟ فأجاب بعد نقاش معه: وما السبيل إلى القضاء على هذه الدولة العثمانية سوى جعل الحكم غير مستقر في البلاد وزعزعة اركانه، إن فرنسا تزيد الأخذ بيدنا نحو حضارتها وما جنودها في ميناء بيروت سوى رسل لهذه الحضارة.

أمر الأمير عبد القادر بإخلاء سبيل هؤلاء وراعه أن يجد البلاد قد أصبحت في محنة حقيقية وكان عليه معالجة الأمر بما أوتي من شجاعة وحكمة وموهبة في القيادة والحوار مع أقطاب الحكومات الأوروبية[١].

ج. وقوف الأمير ضد مخططات فرنسا في الشام:

احتجت الدول الأوروبية وهددت بالتدخل ففي ٢ أوت ١٨٦٠م اتفقت الدول الأوروبية على الوقوف بجانب النصارى وحمايتهم عن قرب وكانت ذريعة مباشرة لاحتلال الشام فتطوعت فرنسا لذلك لداعي قربها المذهبي من المسيحيين في لبنان ولكونها المشرفة على الكنائس في بيت المقدس وراحت بعد أسبوع ترسو بأسطولها الحربي في ميناء بيروت وتنزل قواتها وتهدد الدروز بتأديبهم وقصف دمشق وبذل الأمير كل ما في وسعه لتفادي الاحتلال[٢].

وبعد أن تأكد الأمير أن القوات الفرنسية وصلت إلى رياق في طريقها إلى دمشق، امتطى صهوة جواده خفية وأخذ يقطع الجبال والوديان لا يهاب وحشة الليل أو وعورة الطريق وعندما وصل إلى قرية "قب الياس" أرسل من يخبر الجنرال بوفور قائد الحملة الفرنسية بوجوب الاجتماع به، وعين المكان وكان مشهداً للقاء جزائري ـ فرنسي على مستوى سياسي وعسكري وطلب الأمير من الجنرال أن يخبر حكومته بأن دخول قواتها دمشق أو

[١] الأمير عبد القادر الجزائري حياته وفكره، ص: ٢٠٥.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٠.

قيامها بأي تحركات عدائية يلغي كل تعهد من قبل الأمير للإمبراطور لويس فيليب بعدم العودة إلى الجزائر، وأن الأمير سيكون أول المقاومين لأي حملة عسكرية تهاجم البلاد وكان على الجنرال أن يخبر حكومته التي أعادت حساباتها بعد هذا الإنذار، لأن إلغاء التعهد يعني احتمال عودة الأمير عبد القادر إلى الجزائر وعودة الحرب الضروس إليها[١].

هذه الفتنة التي كان المحتمل أن يذهب ضحيتها عشرات الآلآف من أبناء حيّ القصاع في دمشق في سبيل مخطط استعماري كان هدفه احتلال سوريا ولبنان بحجة الدفاع عن المسيحيين وإنقاذهم ولكن الأمير عبد القادر كان لهؤلاء المستعمرين بالمرصاد، فعمل على إخفاق ذلك المخطط وقضى على المؤامرة التي دُبرت بليل[٢].

وأسرعت الدولة العثمانية فأرسلت فؤاد باشا وزير الخارجية إلى دمشق وفوضت إليه الأمر المطلق للقضاء على الفتنة فأجرى الأحكام العرفية وقبض على الألوف من أهلها غوغائها ومشايخها وكبرائها ورؤساء مجالسها وبعض باشاوات العسكر، فأمر برد المسلوبات وأخذ القصاص من المعتدين وأعدم وسجن ونفي من ثبت عليه الجرم، وقامت عليه البينة، وبعدها جرى الاتفاق مع فؤاد باشا على أن يعوض المسيحيون كل ما خسروه ومنح أهل الجبل حكومة مستقلة تحت سيادة الدولة العثمانية، يرأسها رجل نصراني لمدة ثلاث سنوات اقترحته الدولة العثمانية ووافقت عليه أوروبا، واستتبت الأوضاع وانسحبت فرنسا بقواتها في بداية صيف ١٨٦١م وكفى الله المؤمنين القتال[٣].

وقد طلب فؤاد باشا وزير الخارجية من الأمير عبد القادر السماح له بتعيين كتيبة مسلحة من المهاجرين الجزائريين مهمتها الحفاظ على الأمن في دمشق وضواحيها، وعيّن قائداً لها

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٥.

[٢] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٧.

[٣٣] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥١.

محمد بن فريحة أحد أبناء عمّ الأمير عبد القادر، وأجرى استعراضاً عسكرياً تقديراً للأمير على جهوده في وأد الفتنة، وتقدمت تلك الكتيبة الجزائرية بأسلحتها ذلك العرض[١].

س. الملوك والحكام يشكرون الأمير على فعله الجميل:

أرسل الخليفة العثماني الوسام المجيدي العالي الهمايوني من الرتبة الأولى إلى الأمير عبد القادر مع رسالة تقدير حملها إليه الصدر الأعظم علي باشا في السابع من صفر ١٢٧٧هـ الموافق لعام ١٨٦٠م[٢]، وكان مع فرمان الشكر والعرفان مكافأة مادية، ثم توالت رسائل الشكر وقصائد التهنئة من الأدباء والشعراء والعلماء والأعيان من المسلمين وغيرهم، منها رسالة من المجاهد الكبير قائد الجهاد في داغستان والشيشان الشيخ محمد شامل رحمه الله وأما النياشين والتشريفات والهدايا الأجنبية فكانت كالتالي:

. هدية من الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا الكبرى كانت بندقية مكتوباً على ظهر صندوقها عبارة: من حضرة جلالة ملكة المملكة المتحدة بريطانية العظمة إلى صاحب السمو الأمير عبد القادر، تذكاراً للمساعدة الخيرية المبذولة للمسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠م، كانت الهدية مرفقة برسالة حررها قنصل دولة إنجلترا في دمشق المكلف من الحكومة الإنجليزية مؤرخة في أوت ١٨٦٠م.

. نيشان وسام الشرف من الرتبة الأولى من إمبراطور فرنسا نابليون الثالث، مرفق برسالة من وزير خارجية فرنسا عن الإمبراطور مؤرخة في ٣١ أوت ١٨٦٠م.

. النيشان الكبير رتبة أولى المدعو بنيشان المخلص من ملك اليونان أوتون الأول استلمه في شهر سبتمبر ١٨٦٠م.

. نيشان موريس والعاذر من قاربيالدي ملك إيطاليا الجديدة وهو أقدم نياشين الخيولية والفروسية استلمه في شهر سبتمبر عام ١٨٦٠م.

---

[١] الأمير عبد القادر حياته وفكره، ص: ٢٠٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٠٨.

. نيشان صليب النسر الأحمر من الطبقة الأولى من غيوم الأول ملك بروسيا، استلمه في ١٢ نوفمبر ١٨٦٠م.

. نيشان النسر الأبيض أعظم فرسان رتبة من طرف الملك الكسندر الثاني قيصر الروس استلمه في جانفي ١٨٦١م.

وقد وضع كل هذه الأوسمة على صدري وأخذت صوراً فوتوغرافية بها وهي الأوسمة التي قلدها الخليفة العثماني وضعها في أعلى الصدر وإلى أسفل منها بقية النياشين ولم تكن هذه الصور بالنياشين للتزين أو التفاخر والتكبر، بل كان الغرض منها أن تنشر في الصحف الأوروبية والعالم فيرى الناس صورة المسلم الحقيقي الداعية للسلم والأمان والذي يتعامل مع أصحابها المعاهدين من أهل الذمة وفقاً لأحكام شريعة الإسلام السمحة التي لا تسمح بالاعتداء عليهم وتقتيل العزل منهم، وتذكير وتحذير كل من سولت له نفسه العودة إلى مثل تلك المغامرات الخطيرة التي حدثت في بلاد الشام وهذه الأعمال من الأمير عبد القادر تدل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن الحقد والتعصب وسفك الدماء للمسيحية من عاشوا في أوساط المسلمين مئات السنين بعقد الذمة ،ان حرب الأمير مع فرنسا كانت لكونهم غزاة معتدون لا لأنهم مسيحيون[1].

٦. علاقة المجاهد شامل الدغستاني بالأمير عبد القادر:

شاء المولى عز وجل أن يكون جهاد الإمام شامل ضد الروس في نفس الفترة التاريخية التي حمل فيها راية الجهاد الأمير عبد القادر وتشابهت أحوالهم، فالإمام شامل الدغستاني الملقب بأسد القوقاز وصقر الجبال، جاهد ضد جحافل الروس لمدة خمسة وعشرين سنة بعد أن نجح في توحيد القبائل، رغم تعدد مكوناتها الثقافية واللغوية، وعمل على تأسيس جيش حديث ووضع أسس إدارة منظمة حسب مبادئ الشريعة الإسلامية كما عرف بحنكته السياسية وفروسيته التي أبداها في الحرب واكتسب شرعية في ممارسة السلطة

---

[1] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٢ . ١٥٣.

وقيادة المسلمين بوطنه وبين أهله عن طريق المبايعة، فجمع بين رضا الخاصة والعامة، مما سمح له بأن يلقب بأمير المؤمنين.

كان الأمير عبد القادر يسمع عن الإمام المجاهد شامل وعن جهاده وهو في الجزائر وتعرف عليه وحظى لدى الأمير عبد القادر بالتقدير والإحترام، ولم تشأ الأقدار أن يلتقوا جسدياً ولكنهما كانا متقاربين روحياً وفكرياً وثقافياً، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف**»، كان الأمير عبد القادر يتبادل معه الرسائل طول مدة اعتقاله من عام ١٨٦٠م إلى ١٨٦٩م وكان يسعى بكل الوسائل وبكل ما لديه من معارف من أجل الحرص على مكانته وشرفه وإطلاق سراحه من الأسر، كانت للإمام شامل تربية دينية وورع وثقافة إسلامية متينة، درس العربية والفلسفة والفقه والأدب العربي وتعمق في التصوف السني وتشرب الثقافة الإسلامية وكان على معرفة واسعة بها، عاش حياة تميزت بالبساطة والتمسك بالعقيدة والتثبت بالوطن والوقوف بحزم وشجاعة أمام غزو أجنبي متفوق في المستوى الحضاري وفي العدد والعدة، ولد الإمام شامل علي ابن دنغو عام ١٧٩٦م في غامري بداغستان وتعلم في المساجد مبادئ العلوم الدينية واللغوية، وتفوق بشجاعته على أقرانه، وتمتع بقوة بدنية عظيمة وكان متعطشاً للمعرفة منذ صباه تأثر برفيقه ومعلمه الشيخ محمد الغمراوي المشهور بكنيته غازي مولا، داعية الإصلاح الديني، وصار من أتباعه ومريديه.

واستطاع توحيد المسلمين في داغستان والشيشان في الكفاح ضد الاحتلال الروسي الذي رسخ أقدامه في داغستان والشيشان مستغلاً الخصومات القبلية والتنابذ بين حكامها.

ففي عام ١٨٢٩م بدأ الإمام غازي ملا في تحريض شعوب الجبال للجهاد لوقف الزحف الروسي على أراضي المسلمين القوقاز، وأمام تماسك قوة المجاهدين، شن الروس هجوماً واسعاً وأحرقوا البيوت على ساكنيها كي يجبروا المجاهدين على الخروج والاستسلام وبعد مقتل غازي ملا عام ١٨٣٢م في معركة غمري المشهورة لم ينجو إلا القليل وكان منهم

الإمام شامل الذي تمكن من الفرار رغم غصابته البالغة واعتقد المجاهدون بمقتل الإمام شامل في المعركة، فاختير حمزة بيك قائداً بعد تزكيته من الشيوخ وبعد عامين في ترتيب الصفوف وتدعيم قوة الجيش لقي حمزة بك الهزيمة ثم اغتيل وهو يؤم المصلين في المسجد الجامع بمعقل الجهاد في خترخ بداغستان، فبويع شامل إماماً عام ١٨٣٤م وأعاد تنظيم جيشه بالطرق واستفاد من الأسرى الضباط والهاربين من الجيش الروسي في تطوير قدرته العسكرية على النمط الأوروبي الحديث، كما نظم العمل البريدي في دولته ونسق الانفاق على الجيش مع ريع الأراضي الزراعية التي ضمت إلى المساجد، كما نظم جمع الزكاة لتجهيز الجيش وبدأ في دعم ركائز نفوذه في القوقاز المعتمد على الشيشان وداغستان وحلفائهم، حتى امتدت منطقة نفوذه من بحر قزوين شرقا إلى البحر الأسود غرباً، كان الإمام شامل يسعى للمساواة بين القوميات المختلفة بغض النظر عن اللغة والعرق والطبقة واستمد التشريعات الشخصية والمدنية من الشريعة الإسلامية، وحاول أن يستفيد من القوى الدولية لمساعدته واستمر الجهاد باسلوب الكر والفر إلى أن نفذ شامل انسحاباً تكتيكياً إلى داخل جبال أفاريا وتوغل خلفها عبر الغابات الكثيفة وكان ينقض على العدو من جهات مختلفة واجه الإمام شامل جحافل الروس بالقوقاز وحقق انتصارات مدوية، ولقن الروس دروساً في فن الحرب، واستمات في الدفاع عن دينه ووطنه وخلال حرب القرم التي استمرت من عام ١٨٥٣م إلى ١٨٥٦م سعى إلى فتح خط اتصال بين كل من تركيا وإنجلترا وفرنسا لدعمه العسكري بعد أن تحالف معها في عدائها لروسيا، فمنحه السلطان العثماني رتب خانية قفقاسيا وأمده بالمساعدات العسكرية، ولما وضعت الحرب التركية الروسية أوزارها، بدأت القوات الروسية بتركيز ضرباتها العسكرية على الجبهة القوقازية فحرقت الغابات التي يحتمي بها المجاهدون، وألبت الأهالي عليهم، واستمالت عشرات القبائل التي أنهكتها الحرب والفقر والتشرد وتخلى عنه حكام المسلمين المجاورين له واشتد عليه الحصار واضمحلت قواته وقتلت إحدى أخواته وزوجته وابن

صغير له وبعد احتلال الروس للشيشان في عام ١٨٥٨م التجأ إلى قلعة فيدينو، ثم آوى إلى غونيت على وادي سالاك في أفريل ١٨٥٩م وفي معركة فاصلة انقض الروس على الثوار الأربعمائة الباقية معه، فحاصروهم من كل جانب فسقط جريحاً في ساحة المعركة، وبعد مقاومة مستميتة لأصحابه عرض عليه القائد العام للقوات الروسية وحاكم بلاد القوقاز الجنرال بريانتسكي الإنسحاب إلى الأراضي العثمانية وبعد أن توسط في المحادثات ضابط أرميني في جيش القيصر يسمى لازاريف طلب له الأمان من الروس في ٦ سبتمبر ١٨٥٩م فنال عهد أمان له ولأصحابه يضمن حريته وترك سبيله مع اتباعه الذهاب إلى الأراضي المقدسة بالحجاز، غير أن من أعطى له العهد وكلمة الشرف بإطلاق سراحه غدر به، فسلم أمره لمشيئة الله واستسلم للقدر بعد جهاد دام حوالي خمسة وعشرين سنة.

وفي العاصمة سان بطرسبيرغ استقبله القيصر الكسندر الثاني ثم نقل بعدها إلى كالوغا جنوب غرب موسكو سنة ١٨٦٩م ثم إلى مدينة كييف بأوكرانيا في سنوات الاعتقال الأخيرة، وبعد أن تدخلت في شأنه شخصيات لإطلاق سراحه أرغم العدو على الاعتراف بشهامته مواقفه البطولية، واستقبل من طرف قيصر روسيا ألكسندر الثاني مرة أخرى ورحب به في سان بطرسبيرغ واتجه إلى إسطنبول، ومنها ذهب إلى المدينة المنورة وتوفي بها في ٤ من فيفري ١٨٧١م وبذلك طويت صفحة ناصعة من صفحات التاريخ الإسلامي[١]، وخلال العهد الشيوعي في الإتحاد السوفيتي منذ أكتوبر ١٩٧١م حتى ١٩٩١م شنت حملة شرسة ضد جهاد الإمام شامل وخاصة منذ عهد ١٩٥٠م وصور لدى عامة الناس والجهال بأنه رجعي عميل للإمبريالية الأجنبية وجرت حملة ضخمة لتطهير كتب التاريخ السوفيتية من مسيرته وجهاده ونضاله وكفاحه غير أن الله يدافع عن الذين آمنوا حتى في مرقدهم فأنصفه العقلاء والعلماء والمؤرخون.

[١] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٧٠ . ١٧١.

وأحسب أن مسار حياة الإمام شامل وحتى بعدما التحق بالرفيق الأعلى، في طبيعة جهاده وتخلي حكام المسلمين عنه، واستسلام القبائل المساندة له للعدو وطلبه للأمان، وغدر العدو وإخلافه للعهد والوعد واعتقاله بدون وجه حق وهجرته ووفاته في الغربة ومحاولة طمس ذاكرته الطيبة كل ذلك كان يشبه ويتطابق مع جهاد الأمير عبد القادر واعتقاله وغربته وتاريخه المجيد[1].

أ. رسالة من الإمام شامل إلى الأمير عبد القادر:

كان دفاع الأمير عبد القادر عن المسيحيين العزل بالشام محل تقدير واحترام عند عقلاء البشر من المسلمين وغيرهم ومن بين هؤلاء الإمام شامل الذي أرسل من منفاه بروسيا إلى الأمير عبد القادر رسالة جاء فيها:

إلى الذي اشتهر بين الجميع الكبار والصغار، الذي بصفاته المتعددة والرائعة يتميز عن باقي الرجال الذين أطفأ نار الخلاف قبل أن يستفحل أمرها، الذي اقتلع شجرة الشر والتي ثمارها ليست سوى وجه الشيطان المجد لله الذي منح خادمه القوة والإيمان أننا نتحدث عن الصديق الوفي الحقيقي عبد القادر العادل السلام عليك، ليحمل نخيل الاستحقاق والشرف على الدوام ثماره بشخصك لتعلم أن أذني قد صدقت بما هو مكروه على السمع وفظيع على الطبيعة الإنسانية وإني ألمح هنا إلى الأحداث التي جرت مؤخراً في دمشق بين المسلمين والمسيحيين حيث تصرف الأولون بأسلوب غير لائق باتباع الإسلام والذي لا يمكن أن يؤدي إلا إلى كل أنواع التجاوزات أن غشاءه قد غطت روحي ووجهي الهادئ عادة وامتلأ بطلال من الحزن، كنت أصرخ لنفسي: الشر على الأرض وفي البحر بسبب شرور وحقد الإنسان.

لقد دهش من عموم الموظفين الذين أنغمسوا في مثل هذه التجاوزات الذين نسوا كلمات الرسول صلى الله عليه وسلم في حق المعاهدين وحمايتهم ولكن عندما اطلعت على أنك

[1] المصدر نفسه، ص: ١٧٠ ـ ١٧١.

آويت المسيحيين تحت جناح الطيبة والمحبة وأنك تصديت للذين يتصرفون خلافاً لشريعة الإسلام وأنك ربحت سعف النصر في مسرح المجد "نجاح تستحقه عن جدارة" فإنني قدرتك كما الله تعالى العلي القدير سيباركك يوم لا ينفع مال ولا بنون والواقع أنك نفذت كلام الرسول الأكبر الذي أوفده الله تعالى كدليل على محبته لمخلوقاته المتواضعة وأقمت حاجزاً ضد أولئك الذين تخلوا عن مثاله الكبير ليحميك الله من الذين يخالفون شريعته في رغبتي بالتعبير لك عن الإعجاب الذي أكنّه لتصرفك أسارع بارسال هذه الرسالة كنقطة فائضة من ينبوع مشاعري الودودة[1].

ب . رد الأمير عبد القادر على رسالة الإمام شامل:

جاء فيها: .. هذه الكلمات من يد من هو بحاجة كبرى إلى رحماته الوافرة، عبد القادر بن محيي الدين الحسني موجهة إلى أخيه وصديقه في الله شامل الأمجد ليباركك الله أنت ونحن في بلادنا وفي خارجها، ليعم سلام وبركة الله علينا على الدوام.

لقد إستلمنا رسالتك المحترمة وكلماتك الطيبة التي أسعدت قلبنا إن ما سمعته بخصوصنا والذي منحك هذا القدر من الرضا حول دفاعنا عن المحتاجين، والحماية التي قدمناها لهم سواء لأشخاصهم أو لأملاكهم بقدر ما سمحت لنا به قدرتنا وامكانياتنا كل هذا كما تعلم جيداً ليس سوى طاعة لمبادئ إيماننا المقدس والمشاعر الإنسانية، إن الرذيلة مكروهة من قبل كافة الأديان والسماح لأنفسنا بالانقياد لها ليس سوى ابتلا ع السم والاحتفاظ به في المعدة.

في حين أنه كما قال الشاعر: الرجل عند التجارب معصوب العينين بشكل يجعله يعتقد أن ما يراه هو الأنسب والواقع هو أن العكس هو الصحيح في الواقع أن علينا أن نكرر: إنا لله وإنا إليه راجعون.

[1] فارس الجزائر الأمير عبد القادر ، مصطفى طلاس، ص: ٣٢١.

عندما نفكر إلى مدى قلة الرجال المؤمنين فعلاً وإلى أي مدى نادرون المدافعون وابطال الحقيقة عندما نرى أشخاصاً جهلة يعتقدون أن مبادئ الإسلام هي الشدة والصرامة والتجاوزات الوحشية آن الأوان لنكرر هذه الكلمات، الصبر جميل والله المستعان .. وقبل لنا أيضاً أنك طلبت زيادة الأماكن المقدسة، مكة والمدينة، ونأمل من الله أن يوفقك لتحقيق رغباتك.

الواقع أن إمبراطور روسيا هو أحد الملوك الأكثر احتراماً أنه أحد الذين يرغبون برؤية سيرة الأعمال المذكورة في الكتب، نأمل بالتالي بأن عظمته توافق على رغباتك دون عقبات. هكذا تصرف السلطان نابليون الثالث تجاهنا لقد اتخذ تدابير في صالحنا لا يمكن لعقل الإنسان تصورها ثم علينا أن نضع أملنا في الله وحده وهو وحده الذي يستحق احترامنا[1].

٧. الأمير عبد القادر والماسونية:

اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونيين ثم انتسب إلى محافلهم وقد روّج لهذه الدعاية الكولونيل وليام تشرشل صاحب كتاب "حياة عبد القادر" ولم ينقل بأمانه الكثير مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل عن وليام تشرشل هذه الفرية وأذاعها من العرب، جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والخادع، وبجرة قلم أعلنت الحركة الماسونية بعد وفاة الأمير عبد القادر في ٢٦ ماي سنة ١٨٨٣م أنه انتسب إليهم واحتفوا به ونعتوه، ولكنهم لم يجدوا دليلاً واحداً يقدمونه لإثبات ما روجوا له ذلك، وزعموا أن هناك نصوصاً ماسونية موثقة تثبت انتماء الأمير للحركة الماسونية وأنه كلف من طرف الحكومة الفرنسية بمهمات إنقاذية للمسيحيين في الأحداث الدامية التي وقعت في دمشق في شهر جويلية من العام ١٨٦٠م، فقدر نابليون الثالث هذه المبادرة وقلد الأمير وسام الشرف الفرنسي وأرسل للأمير ما يسمى بالجوهرة أو الرمز المعدني عرفاناً للأمير بجهوده.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٣٢٤.

والحقيقة التاريخية تقول أن الأمير عبد القادر لم يكن يوماً ماسونياً ولا خادماً لفرنسا وقنصلها في دمشق والمبادرة التي قام بها الأمير كانت خالصة لوجه الله تعالى، ولم تكن لدنيا يصيبها أو وسام يبتغيه.

وأما بالنسبة للمحافل الماسونية مثل محفل هنري الرابع الذي أرسل إلى الأمير في ١٦ سبتمبر ١٨٦٠م كتابات شكر وتقدير وإعتراف للأمير في عدة رسائل أخرى بالحب للإنسانية جمعا والأخلاق الحميدة واقترح عليه أن يكون عضواً في الماسونية دون أن يكون عضواً مكرساً لأنه من الرجال العظماء فهذا ثابت تاريخياً ولا جدال فيه.

لكن من يستطيع أن يمنع أحداً من الكتابة للغير وأن يشكره ويقترح عليه أموراً قد يراها بصدق أو بنية مبيتة تناسب قدر من أقترحت عليه ويقدم له هدية، والأمير ليس له ذنب إذ حاولت المحافل الماسونية في كتاباتها ومحافلها أن تستفيد من اسمه وتكذب عليه محاولة من خلال هذا الإفك والكذب والزور البهتان أن ينشر أفكارها الهدامة في المجتمعات العربية والإسلامية بالمشرق[١].

لقد نسبوا إلى الأمير مقولة بأنه لم يلمس في المبادئ الماسونية ما يتعارض وشريعة القرآن الكريم والسنة والفقه الإسلامي وهذا من الافتراء والكذب المبين.

لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها ولكنها لم تفلح وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير مثل الأسئلة عن واجبات الإنسان تجاه الله وتجاه الإنسانية أو الأسئلة حول خلود النفس والمساواة والإخاء والحرية أو حضوره في محفل الإهرام في الإسكندرية أثناء عودته من الحجاز في ١٨ جوان ١٨٦٤م، أو في محفل هنري الرابع للشرق الكبير الفرنسي في ٣٠ أوت ١٨٦٥م وقصة التكريس والامتياز والدرجات الماسونية الثلاثة وغيرها من أكاذيب، فلا أصل لها وهي من نسج خيالهم[٢].

---

[١] المصدر السابق.

[٢] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ١٥٦.

قال تعالى :" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ" (الحجرات، آية : ٦).

لقد حاول تشرشل ومن سار على طريقته من أمثال جرجي زيدان وغيره ربط الأمير عبد القادر بالمحافل الماسونية ولكنهم عجزوا عن تقديم الدليل مما يبطل هذا الخبر المزعوم من أساسه.

. ألا يرى معي القارئ أن هدف هذه الكذبة هو أوسع مما يدركه الإنسان للوهلة الأولى ويعني الدعاية لهذه الجمعية في الجزائر بصورة خاصة وفي العالم الإسلامي؟ فهذا المجاهد هو رمز كفاح أمة وقدوة لعدد كبير من أبناء الشعب الجزائري والشعوب الحرة.

. هذه الكذبة أليست من فنون الدعاية البراقة التي تحتاجها الجمعية رأس الهرم فيها مجهول دوماً متعددة الشعارات والألوان في نظامها الداخلي الغموض والطاعة العمياء لرأس الهرم وربما رؤوس لا تشجع الالتزام بالدين، بل تعتبره عدوها الأزلي؟ وهذا المبدأ غير سري فيها، ففي عام ١٨٥٨م فتح في تونس محفل لأطفال قرطاجة برئاسة أنطونيو فينا، وعدد من المحافل جاءت من فرنسا وإنجلترا وإيطاليا ومحفل "المثابرة" برئاسة بامبيو، ولكن بعد استقلال تونس أمرت الدولة بإحراق وثائق المحافل وإغلاقها، وفي الجزائر كانت المحافل الماسونية سرية جداً ولم يعلن عنها، وعرفت من وثائقها أثناء الحرب العالمية الثانية حينما أمرت حكومة فيشي بحل الجمعيات السرية ومصادرة وثائقها فعرف أن محفل أطفال مارس سكيكدة فتح عام ١٨١٤م سريّاً ومقره عام ١٩٢٦م في شارع يوغرطة برئاسة ألبيرت أوبارتين، وبولاية قسنطينة محفل "نجمة الساحل" عرف عام ١٩٠١م في بجاية ومحفل "أخوة كلاماً" في قالمة، الذي كان يحث في جميع محاضراته العلنية على الطاعة والعمل على تحقيق مجتمع إنساني متضامن حر بعيد عن الله وعن الدين، ثم محفل "سرتا" في قسنطينة ولا يعرف تاريخ لتأسيسه، وشعاره عين الإنسان تحتها مثلث وسطه نجمة خماسية ومطرقة، وفي هذه المدينة يوجد محفل "هبوبة" عرف عام ١٩٠٠م، ويذكر

الباحث الأستاذ يوسف مناصريه أن في الجزائر محافل أخرى منتشرة في الشرق الجزائري ومناطق القبائل في بيجاية وغيرها ومنها محفل "الوفاق الطائفي" بسطيف، ومحفل "جون جوريس" ومحفل "نوميديا" بسوق الأهراس، ويذكر الباحث أن غاية هذه المحافل هي الوحدة والهدف منها منع تعليم أبناء المسلمين اللغة العربية والقرآن في المدارس والكتاتيب بطرق سرية للغاية ولكن المعلن كان محاربة الأديان بشكل عام ويسحق هذه الأديان وإزالة رجالها من طريق الماسونية العالمية، وكان القصد من إشاعة أن الأمير عبد القادر كان من أعضائها هو انتشار هذه الفرية أو هذا الخبر الكاذب في الجزائر بعد ترجمة كتاب تشرشل إلى الفرنسية والدليل أنه في عام ١٩٠١م افتتح عدد من المحافل في الجزائر بشكل علني ولم يبق سريا منها مثلاً "محفل أطفال مارس بسكيكدة" تحت رئاسة "ألبير أوبارتين" وكما يذكر الباحث الجزائري يوسف مناصريه في مجلة الدراسات التاريخية في العدد السادس ١٩٩٢م في بحث له ودراسة عن المحافل الماسونية في كل من بجاية وكالمة وقسنطينة وعنابة وغيرها من المدن الجزائرية كما أسلفت.

. من المعروف عن هذه المحافل أنها لا تشجع على الالتزام بالأديان ولا تناصرها، وهذا الأمر لم تنتبه إليه حكومة فيشي في البداية ولكنه أدركته لاحقاً الحكومات التي جاءت بعدها لأنه يخدم الأهداف الاستعمارية في الجزائر بالقضاء على الدين الإسلامي بالدرجة الأولى والبعد عن لغة القرآن في نفس الدرجة وبالدرجة الثانية ساعد على انتشار أفكار ومبادئ، كحركة فكرية بديلاً عن الإسلام وحاولت أن تزرع في أذهان أبناء الوطن من أطفال وشباب ومثقفين "الإلحاد" وهي حركة فكرية لا تعترف بوجود الله الذي يعبده المسلمون.

. ألا يرى معي القاري الكريم أن هذا الأسلوب في الدعاية وجد نجاحاً إلى حد ما في الجزائر؟ فالمواطن العادي أو المثقف حينما سمع أن رمز كفاح بلاده انتسب إلى هذه الجمعية، من المسلم به أنه لم يجد غضاضة في انتسابه إليها، فلو أن هذه المحافل في الجزائر

لم تجد من ينتسب إليها، لأغلقت محافلها وعادت أدراجها، ولكنها وجدت على ما يبدو إقبالاً عليها وكيف لا تقتدي برمز كفاحها؟ ولكنها لو علمت هذه الجموع من أبناء الشعب أن هذا الخبر كاذب، وأنه من مزاعم مستشرق بريطاني، مزاعم تصب في مجرى تناقضاته بكتابة "حياة عبد القادر" لا نفضت عن هذه المحافل، كما حدث مع حفيد هذا المجاهد الأمير سعيد الذي أغرته شعارات هذه الجمعية في البداية وظن أن جده انتسب إليها فانتسب إليها ولكنه اكتشف بعد فترة أن جده لم يكن يوماً من أعضائها ولم ينتسب إليها، فنفي تلك التهمة في الصحف والمجلات وقام بنفي معلومة كاذبة ذكرت عن جده فنشر في صحف ذلك العصر نقداً لأعضاء هذه الجمعية في لجوئهم إلى الأكاذيب وذكرهم لأسماء شخصيات لم تنتسب إليها قط ومن هذه الصحف "الحقائق" عام ١٩٣٣م١.

. إن كل الرسائل التي جاءت من المحافل الماسونية من رسائل التقدير والإحترام بمناسبة إنقاذه خمسة عشر ألف مسيحي في دمشق والقضاء على الفتنة الطائفية تبين حقيقة واضحة هي عدم وجود أي نص أو إشارة في الرسائل المذكورة يُفهم منها أن المرسل إليه كان عضوا من أعضائها، فلا يوجد فيها ما يدل أو ما يُفهم منه أن المرسل إليه عضو من أعضائها أو أن له أية علاقة بها، أو أنه انتخب عضو شرف فيها كما جاء في رُقم الجمعيات الأخرى٢ فوافق على ذلك.

ففي عام ١٨٦٠م أرسلت الجمعية الفرنسية المعروفة باسم "جمعية عمل الخير وإعانة المصابين في البر والبحر" كتاباً بمناسبة دفاعه عن المسيحيين بالشام جاء فيها:

إن جمعية المصابين المؤلفة من أعيان الأمصار ووجوه المدن الشهيرة في فرنسا اتفقت كلمتها على أن يكون الأمير عبد القادر رئيس شرف لها اعترافاً بما أبداه من أعمال الخير الجسيمة في سوريا سنة ١٨٦٠م وبناء على ذلك بعثت إليه بهذه الرقيم في يونيو/ حزيران

---

١ ردود وتعليقات على كتاب حياة الأمير، ص: ٢٣٢.

٢ فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢٧٠.

١٨٦٢م وفعلت مثل ذلك الجمعية الأمريكية الشرقية فقرر مجلس إدارتها اعتبار الأمير عبد القادر عضو شرف فيها، وأرسلت إليه رقيماً في ١٨٦٠م وكذلك جمعية حماية المدن في فرنسا وفي تلك المناسبة ذاتها وصلت الأمير مئات من رسائل التقدير والأوسمة الرفيعة من حكام العالم وزعمائه ومفكريه ..الخ

. ومن المؤكد أن هذه الرسائل والرُقم والهدايا قد اطلع عليها أبناء الأمير العشرة وبناته الستة وأزواجهن وأولاد أخوته، وكان من بين هذه الأشياء كتب التقدير هذه المومي إليها من هذه المحافل التي انتهزت فيما بعد فرصة وجود الأمير في مصر في تشرين ثان من عام ١٨٦٩م عندما دعا إسماعيل باشا خديوي مصر الأمير عبد القادر لحضور حفل افتتاح قناة السويس، فتوجه الأمير إلى بيروت ومنها إلى الإسكندرية حيث اجتمع بأباطرة فرنسا والنمسا وألمانيا وملك إيطاليا، وعلى متن بارجة حربية وصلوا إلى ميناء بورسعيد لحضور ذلك الاحتفال التاريخي الكبير وفي تلك المناسبة زاره في مقرّ إقامته عدد كبير من الشخصيات العالمية وكبار رجال الفكر ومندوبو بعض الجمعيات الخيرية، كالجمعية الفرنسية وأوفدت إليه هيئة من أعضائها شرحت له مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية[١]، ولكن الأمير أبداً لم يدخل فيها ولم يدعوا إليه وهو رجل العلم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وهدي الخلفاء الراشدين والحافظ للقرآن وصحيح البخاري والمعمق في كتب السلف وإنما كانت دعوته للإسلام كما بينا ذلك في كتابه المقراض الحاد، قال تعالى :" وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (فصلت، آية : ٣٣).

إن بعض المنتمين إلى هذه الجمعية اتخذوا بعد وفاته من تلك الزيارة ذريعة نسبوا للأمير دخوله في جمعيتهم من دون أن يتوفر لهم أي دليل.

---

[١] فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢١٧.

لقد قامت هذه الجمعية الغامضة إلى ذكر انتساب شخصيات تاريخية كبيرة إليها كدعاية ووسيلة لانتشارها، وكان ذلك يتم بعد وفاتهم، كما فعل المؤرخ البريطاني هنري شرشل فذكر في الفصل الأخير من كتابه خبراً وهمياً عن انخراط الأمير في هذه الجمعية، ومن المعروف أن شرشل كتب هذا الفصل "أي الرابع والعشرون" من كتابه المذكور بعد مغادرته دمشق التي كانت قبل حوادث ١٨٦٠م أي قبل الفتنة بعدة أشهر، وكتب الفصول الأخيرة من كتابه في إنجلترا ومنها الفصل الأخير "اي الفصل الرابع والعشرون" كما ذكرت، وقد اعترف شرشل بهذا في مقدمة كتابه المذكور حين قال إنه غادر دمشق في شهر شوال ١٢٧٦هـ / ربيع ١٨٦٠م وأن المعلومات عن الفترة الزمنية الممتدة بين ١٨٦٠م إلى ١٨٦٤م، أي الفترة التي كتب في أثنائها هذا الخبر قد أخذها عن شهود عيان من جماعة منتمية إلى هذه الجمعية وهذا يقلل من أهمية وصحة الفصل المذكور، فلم يذكر المؤلف أسماء شهود العيان أو أي دليل بهذا الخصوص وهذا أكبر برهان على كذب هذا الادعاء إذ لا يوجد أي مستند ولم يعثر على أي دليل مادي بين أوراق الأمير عبد القادر على صحة هذا الخبر ولو كان لدى الجمعية أي دليل لأظهرته للصحفي شرشل التابع للمخابرات البريطانية أو لمن يريد الكتابة في هذا الموضوع[١].

. إن الأمير عبد القادر رضي الله ربًّا وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً وعاش حياته منفذاً لأحكام الإسلام ولا يمكن للأمير أن ينخرط في جمعية غامضة من هذا النوع لكي يعمل الخير بواسطتها، يقول جرجي زيدان أن الأمير كان منتسباً إلى الجمعية الماسونية عام ١٨٦٤م.

إن هذه الأقوال كذب وإفتراء وإختلاق ما لها من دليل ولا برهان لم يستطع هو ومن سار في هذا النفق المظلم أن يأتي بدليل واحد على صحة أقوالهم[٢].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٧١ ، ٢٧٢.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢٧٣.

إن هذا المسلك الخبيث ضد الأمير عبد القادر محاولة فاشلة لتشويه جهاده وسيرته المجيدة فالمستهدف هو ما يمثله من قيم دينية ومثل وطنية وأخلاق ربانية ومبادئ إيمانية ومواقف إسلامية، فالأمير عبد القادر رمز للشعب الجزائري وللأمة الإسلامية والشعوب الحرة التي تسعى لنيل حقوقها وحريتها وكرامتها.

إن حياته صفحة بيضاء ناصعة ونقية طاهرة واتهاماتهم الباطلة تتساقط أمام الحقائق الراسخة وتتلاشى أمام الحجج الدامغة وتذهب جفاء لأنها زبد وسيرته العطرة تبقى نبراساً وقدوة وأسوة لأنها تنفع الناس، إن أعداء الأمة الإسلامية حرصوا على تشويه حتى سير الأنبياء والافتراء على تاريخهم وقد عانى من ذلك أيضاً صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل أبي هريرة رضي الله عنه ولم يسلم أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي رضي الله عنهم من الطعن والإفتراء والتشويه.

إن كل الذين إدّعوا انتساب الأمير عبد القادر إلى هذه الجمعية لم يقدموا أي دليل مادي أو مستند وثائقي يثبت صحة ادعائهم، ومنهم من يعتذر خشية الإطالة عن عدم تقديم الأدلة أو الوثائق ويكتفي بإبراز صورة الأمير عبد القادر المعروفة وهو يرتدي الأوسمة التي وصلته من ملوك ورؤساء العالم، وعلى صدره وشاح الفروسية الأحمر الذي أهداه إياه ملك إيطاليا فيكتور عما نوئيل مع الوسام الذي جاءه بمناسبة إنقاذ أرواح خمسة عشر ألف مسيحي في الفتنة المشهورة، وهذا من دون أي تعليق سوى عدم الرغبة في الإطالة والحقيقة أن هذه الحجة هي أيضاً باطلة لأنه لو توافرت الوثيقة مهما كانت لما أحجموا عن ذكرها والحقيقة أنه لا يوجد أي مستند سوى أقوال تدخل في باب "القيل والقال" نقلاً عن مصدر بريطاني بقصد الدعاية لهذه الجمعية وخدمة غايات استعمارية مكشوفة.

فكثير من المستشرقين كانوا يقدمون خدمات قيمة لبلادهم تشجعهم عليها حكوماتهم لأغراض استعمارية غير خافية ولكن مما يؤلم أن نرى أكاذيبهم وقد تناقلتها أقلام مؤلفين من أبناء أمتنا وكأنهم أفعى ظفرت بصيد ثمين.

لم يكلف أحد من المؤرخين الذين نسبوا للأمير انتسابه إلى هذه الجمعية نفسه عناء البحث والتمحيص، فذكروا ما ذكروه نقلاً لا تحقيقاً وبحثاً من دون أن يقدموا مستندات أو حقائق علمية ما جاؤوا به[١].

. ومن الأدلة الدامغة التي أوردها الدكتور فؤاد صالح السيد مقال للأمير سعيد حفيد الأمير، فيه نفي صريح وشديد وتبرئة للأمير عبد القادر مما نسب إليه في هذا الموضوع ومما جاء في نص الأمير سعيد في مجلة الحقائق في سنة ١٨٦٩م دُعي الأمير عبد القادر مع من دُعي من ملوك لحضور احتفالات فتح ترعة السويس وبينما الأمير عائداً لسوريا عن طريق الإسكندرية اغتنمت الجمعية الماسونية فرصة وجوده في ذلك القطر فأوفدت إليه هيئة من أعضائها تكلمت أمامه عن مبادئ الماسونية وخدمتها للإنسانية، فأثنى الأمير على ما ادّعته من خدمات للإنسانية فاتخذ بعض المنتمين لهذه الجمعية من هذه الزيارة إشاعة حسنة لدخول الأمير في جمعيتهم وبالتأكيد هذا الزعم باطل، ولا يليق بهذا الجمعية، فهو كذب وبهتان ومن المعلوم أن جمعية الماسون لها نظام كسائر الجمعيات في العالم ولا يدخل أحد بها إلا بطلب رسمي يسجل على أنه دخل بإرادته، فأين طلب الأمير الذي يجب أن يطبع على حجر كما جاء في نظامها المعروف؟

. وفي هذا العصر ألف أحد الكتاب الفرنسيين مع اثنين جزائريين كتاباً وضُع فيه ثلاث أو أربع رسائل رغم أنها من الأمير إلى الجمعية، قُلدّ فيها خط الأمير وزوّر توقيعه مع العلم أن تقليد خط الأمير عبد القادر من قبل الفرنسيين وغيرهم أصبح من استراتيجيتهم التي غايتها خدمة أهدافهم، ولقد فضح الدكتور صالح الخرفي عام ١٩٧١م في مجلة الثقافة

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٧٧ ، ٢٧٨.

الجزائرية في عددها الرابع هذه المؤامرة القديمة على فكر الأمير عبد القادر، وذكر الدكتور من أسماء من يرعوا في هذا الفن، فن تقليد خط الأمير منهم هنري بيريس و شيربونو، الذي كان في الجزائر الوصي على اللغة العربية وتقليد أنواع خطوطها قبل استقلال الجزائر[1].

إن اتهام الأمير عبد القادر بالانتساب إلى الماسونية تتهاوى أمام البحث العلمي ولا وجود لها في حقائق التاريخ وإنما تدخل ضمن الحرب الاستخباراتية في تشويه رموز النضال والكفاح والجهاد في هذه الأمة، ويأبى الله إلا أن تظهر الحقيقة بأنوارها لتزيل ظلام البهتان والأكاذيب الشيطانية.

٨. من شعر الأمير عبد القادر في زوجته:

أ. هذه الأبيات يخاطب فيها الأمير الشاعر زوجته ابنة عمه:

ألا قل للتي سلبت فؤادي
وأبقتني أهيم بكل واد
تركت الصبَّ مني ملتهباً خشاه
حليف شجيً يجوب بكل ناد
وما لي في اللذائذ من نصيب
تودّع منه مسلوب الرقاد
أقاسي الحب من قاسي الفؤاد
وأرعاه ولا يرعى ودادي
أريد حياتها وتريد قتلي
بهجر أو بصدّ أو بعاد

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٨٠.

وأبكيها فتضحك ملء فيها

وأسهر وهي في طيب الرقاد

وتعمى مقلتي إما تناءت

وعيناها تعمّى عن مرادي

وتهجرني بلا ذنب تراه

فظلمي قد رأت دون العباد

وأشكوها البعاد وليس تصغي

إلى الشكوى وتمكث في ازدياد

وأبذل مهجتي في لثم فيها

فتمنعني وأرجع منه صاد

وأغتفر العظيم لها وتحصي

عليّ الذنب في وقت العداد

وأخضع ذِلّة فتزيد تيهاً

وفي هجري أراها في اشتداد

فما تنفك عني ذات عزّ

وما أنفكّ في ذُليّ أنادي

فما في الذل للمحبوب عار

سبيل الحب ذُلّ للمراد

رضا المحبوب ليس له عديل

بغير الذل ليس بمستفاد

إلا من منصفي من ظبي قفر [1]

---

[1] ظبي قفر : غزل البرية.

لقد أضحت مراتعه فؤادي

ومن عجب تهاب الأسد بطشي

ويمنعني غزال عن مرادي

وماذا غير أن له جمالاً

تملّك مهجتي ملك السواد

وسلطان الجمال له اعتزاز

على ذي الخيل والرجل الجواد

وهذا الفعل مغتفر وزين

إذا يوماً أبيت على معاد

فإن رضيت عليّ أرت محيّاً

بشوشاً بالملاحة ظل باد

خليلي إن أتيت إلي يوماً

بشيراً بالوصال وبالوداد

فنفسي بالبشارة إن ترمها

فخذها بالطريف بالتلاد

إذا ما الناس ترغب في كنوز

فبنت العم مكتنزي وزادي[1]

وقال أيضاً في ابنة عمه زوجته هذه القصيدة:

إلام فؤادي بالحبيب هتور[2]؟

ونار الجوى بين الضلوع تثور

---

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٣٠٤.

[2] هتور : مولع دنف

وحزني مع الساعات يربو مجدّداً

وليلي طويل والمنام نفور

وحتى متى أرعى النجوم مسامراً

لها ودموع العين ثمّ تفور؟

أبيت كأني بالسماك موكل

وعيني حيث الجديّ دار تدور[1]

أود بأن أرى ظبي الصحارى[2]

وأرقب طيفه والليل سار

وأطلب قربه فيزيد بعداً

قديماً من وصال في نفار

وهذا الظبي لا يرعى ذماماً

ولا يرضى مؤانسة لجار

يتيه بدلّه ويصول عمداً

غني بالجمال فلا يداري

أمازحه فلا يرضى مزاحاً

وأسأله المراء فلا يماري

ويعتبني[3] فيكسو القلب بسطاً

لأن العتب يطفي حرّ ناري

فإن هو لم يجد بالوصل أصلاً

ويدني الطيف من سكني وداري

---

[1] السماك : نجم معروف ، والجدي : برج من أبراج السماء.

[2] ظبي الصحارى : غزال الفلوات.

[3] ويعتبني : يقبل عتابي.

أقلّ للنفس ويك ألا فذوبي

وموتي فالقضاء عليك جاري

ويسلبني الحياة إذا تبدّى

بوجه في الإضاءة كالنهار [1]

٩. أيامه الأخيرة ووفاته:

كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق وكان يستعد للقاء الله عز وجل وينتظر الأجل ومنذ حجه عام ١٨٦٢م وأصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعد الناس.

كان الأمير عبد القادر يستيقظ قبل الشروق بساعتين وينصرف إلى الصلاة وتلاوة القرآن والأذكار والتفكر في فقه القدوم على الله عز وجل ويبقى حتى شروق الشمس وبعد صلاة الشروق يعود إلى منزله ويتناول وجبة خفيفة ثم يعمل في مكتبه حتى الظهر وآذان الظهر يدفعه إلى المسجد من جديد حيث يكون تلاميذه قد تجمعوا بانتظار وصوله فيأخذ مقعداً ويفتح الكتاب الذي اختاره للمناقشة ويقرأ فيه بصوت عال تقاطعه باستمرار طلبات الإيضاح التي يقدم الأجوبة عليها فاتحاً الكنوز العديدة في الدراسات والأبحاث التي تجمعت لديه طيلة حياته المديدة.

وبعد صلاة العصر يعود عبد القادر إلى منزله حيث يمضي ساعة مع أولاده . مستوضحاً عن النتائج التي حصلوا عليها في دراستهم ثم يأكل وعند غروب الشمس يعود من جديد إلى المسجد حيث يدرس لمدة ساعة ونصف وتنتهي مهمته كمدرس لذلك اليوم ومازالت لديه بعض الساعات يقضيها في المكتبة ثم يذهب ليرتاح.

---

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٣٠٥.

وكان الأمير عبد القادر دقيقاً أيضاً في إحسانه كل يوم جمعة كان بالإمكان رؤية الشارع المؤدي إلى منزله مليئاً بالفقراء المجتمعين كالعادة لتوزيع الخبز وكان الفقراء الذين يموتون مفلسين تماماً ليس في حيه فقط وإنما في دمشق كلها يدفنون على نفقته، ويكفي أن يسمع بمعاناة إنسان ليسعفه فوراً وكان يكرس بصورة مستمرة جزءاً من ماله للأعمال الخيرية.

استفاد من ذهابه الآخير للأراضي المقدسة وحج مرتين وبقي في مكة والمدينة تلك الفترة المتواصلة، استقبله شريف مكة وأمر بتخصيص غرفتين له في الحرم واستفاد من العلماء والعباد واجتهد في طلب العلم وفي العبادة، وبقي في مكة اثني عشر شهراً متتالية وصرف كامل وقته للدراسة والصلاة والتأمل والصيام وملاقاة العلماء والزهاد وطلاب الآخرة ثم بعد ذلك ذهب إلى المدينة بقي بها أربعة أشهر على مقربة من المسجد النبوي ثم عاد إلى مكة للحج من جديد وكانت تلك الرحلة زاداً روحياً لبقية حياته حافظ على ذلك حتى أيامه الأخيرة[١].

أ. مرض الأمير عبد القادر ووفاته:

مع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خفّ نشاطه وجهده وعمّت الإشاعات عن حالته الصحية وذهبت بعض الصحف إلى حد إعلان وفاته عام ١٨٨٠م فرثاه الشاعر محمد إسحاق الأدهمي الطرابلسي، واطلع الأمير على ذلك وكتب يشكره وكذلك الجرائد على اهتمامها به وتقديرها له وكان ذلك مبعث للسرور للأمير في نفسه فقد علم بأنه بعد مماته سوف يكون له ذكر حسن " وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ".

وأثناء تلك الأيام زاره الأديب التونسي محمد السنوسي، فأكرمه وأحسن ضيافته وذكر الأديب التونسي جزءاً من سيرته ومرضه بعد ذلك في كتابه الرحلة الحجازية.

---

[١] فارس الجزائر الأمير عبد القادر، ص: ٣٢٧ . ٣٢٨.

وفي بداية شهر ماي ١٨٨٣م وكان معتكفاً بمصيف دمر في داره يتهجد ويتبتل لربه، اشتد عليه مرض المثانة وحصر البول، فزاده الضعف والهرم وفي منتصف ليلة السبت ٢٦ ماي ١٨٨٣م دعاه مولاه وقبضت روحه وحان أجله وغسله نزيله وضيفه الشيخ عبد الرحمن عليش الأزهري وفي الصباح نقل في عربة من قصره في دمر إلى داره بالشام وصلى عليه في المسجد الأموي في مشهد قلّ نظيره وخرج لتشيعه جمع كثير وجمع غفير مع الخضوع والتذلل وشيعته دمشق عاصمة الأمويين في موكب مهيب وبدموع وقصائد رثاء سطرت بمداد مضيء، ويكتب مقالات جاءت لتكون اعترافاً بمكانته النضالية والفقيهة والإنسانية وتكريماً لهذا البطل من الله عز وجل على لسان سكان هذا الكوكب[1].

قال تعالى :" وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ" (النحل، آية : ٤١).

ودفن في الصالحية من دمشق أسفل جبل قاسيون بحي المهاجرين[2]

ب . رثاء في الأمير عبد القادر:

. ومن الشعراء الذين رثوه الشيخ العلامة الكبير طاهر الجزائري فقال في رثاه:

خطب تبدلت الدموع به دماً
وجرى كغيث هاطل مدرار
وغدت به الأكباد وهي كليمة
حرّاء حامية كجذوة نار

إلى أن قال:

وا حسرتا لليل من ذا بعده
يحييه بالطاعات والأذكار
ذهب الذي قد كان برّاً عابداً

[1] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٨٠.

[2] حوار مع الأمير عبد القادر، ص: ٢٤٥.

مستغفراً لله في الأسحار

لهفي على الفقراء من ذا بعده

ينجيهم من مخلب الإعسار

ويرد ناب البؤس عنهم نائياً

وينيل ما راموا من الأوطار

لهفي على الأيتام ماذا بعده

يلقون من ضنكٍ ومن إقتار

ذهب الذي قد كان خيرا أب لهم

يوليهم فيض الندى المدرار

لهفي على الأدباء من ذا بعده

يلقونه ببدائع الأشعار[1]

. ورثاه من أدباء عصره الأديب حسن بيهم من وجهاء مدينة بيروت، فقال في قصيدة من ستين بيتاً منها:

مصاب به العلياء تبكي أميرها

وكل أمر من ذا المصاب به شطر

به جاء ناعي البرق يرعد قلبنا

فأمطرت الآماق ما ضمه الصدر

أجل مات عبد القادر الحسني من

به سادت وافتخر الفخر

قضى العمر شغلاً لم يذق طعم راحة

وما شغله إلا الجهاد والذكر

[1] فكر الأمير عبد القادر، ص: ٢٣٢.

يراقب وجه الله في كل حالة

وما للهوى نهي عليه ولا أمر

غدا في جوار الله أكرم نازل

وبين ملوك الأرض كان له الصدر

به ملتقى البحرين للعلم والندى

ففي صدره بحر وفي كفه بحر

وإن أعمل الصمصام أنشد وقعه

لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وإن شق قلب الحرب يوم كريهة

يرى الموت طوعاً أو يرافقه النصر

فقدناه والآمال ترجو بقاءه

وفي الليلة الظلماء يُفتقد البدر

وساعة ساروا يحملون سريره

قد عرفوا من هولها ما هو الحشر

ترى الناس غرقى في بحر دموعهم

على أنه هول به أقفر البر

لئن مت يا مولاي والموت سنة

ففضلك باق في الأنام له الذكر[1]

ج. نقل رفات الأمير إلى الجزائر عام ١٩٦٦م:

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٣٣.

لم تنتهي ملاحم الكفاح وبطولات الجهاد ونضال الأبطال بالجزائر يستلهمون الصبر والعزيمة جيلاً بعد جيل من عقيدتهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم، وتاريخ آبائهم واجدادهم سيأتي تفصيل نضال الشعب الجزائري ضد الاحتلال من بعد الأمير عبد القادر في الجزء الثاني من هذه الموسوعة.

لقد استمر الشعب في الكفاح وقدم قوافل الشهداء فأصبحت ثورة تعرف بثورة مليون ونصف مليون شهيد واحتضن الشعب بجميع فئاته وأحزابه هذه الثورة وغذاها بالقوة والرجال إلى أن يئست فرنسا من النصر وكان الجنرال ديغول قد وصل إلى الحكم وأصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية وقدّم عدة مشاريع لإنهاء الثورة لصالح فرنسا، فباءت جميعها بالإخفاق الذريع وأخيراً اضطُرّ إلى تقديم مشروع الاستفتاء فنالت الجزائر على إثره استقلالها التام وانتصر الحق وزهق الباطل " إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا".

وأخذت جحافل المستعمرين المنهزمين تغادر البلاد بعد مائة وثلاثين عاماً من الاحتلال، وخرج آخر جندي ومستوطن فرنسي، وعادت الجزائر حرة مستقلة بفضل الله سبحانه وتعالى، وبفضل تضامن أبنائها ووحدتهم الوطنية والدينية، ووقوفهم ضد المستعمرين كالبنيان المرصوم

ولم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها، وزعمائها رفات الأمير عبد القادر فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم وأصروا على نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الدولة السورية وتم الاتفاق.

وفي احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء بعد أن أصبحت دار سلام ليُوارى في التراب الذي روته دماء جروحه وتضحيات إخوانه وجنوده وابناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

سار الموكب المهيب في شوارع دمشق وراء النعش الملفوف بالعلم الجزائري على عربة مدفع تتقدمها فرقة موسيقى الجيش وفرق رمزية من الجيش السوري تمثل جميع أسلحته إلى المطار، وعندما هبطت الطائرة التي تُقله في مطار مدينة الجزائر كان الملايين من الشعب بانتظارها، وعند سُلّم الطائرة وقف رئيس الجمهورية وكافة الوزراء وأعضاء جبهة التحرير، وما إن أطل جثمان الأمير الملفوف بالعلم الجزائري حتى امتدت أيادي رئيس الجمهورية والوزراء لتحمله وفي تلك اللحظات علت أصوات عشرات الآلاف من الجزائريين "الله أكبر" تشق عنان السماء وكانت ترافق الهتافات زغاريد النساء كما كانت دموع الفرح تملأ ما في الجميع وتسيل مدراراً[١].

لقد قال الأمير عبد القادر لحظة الغدر به واعتقاله، إن الجزائر عربية وستبقى عربية حتى لو احتليتموها مائة سنة، ويقال: أن التاريخ لقاء بين إرادة وحدث أما الإرادة فكانت عبد القادر ومقاومته الشعبية، وأما الحدث فكان بعد قرن من ذلك وهو كفاح الشعب الجزائري الذي نجح في التحرر من الغزاة المستعمرين.

وقد نظم الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي قصيدة عصماء حيّا بها دمشق الفيحاء بقوله:

يا دمشقُ الفيحاء الف تحية
قد عرفناك في الندى أُموية
أي بُشرى حملتها لبلادي
برُفات الأمير أي هدية
وهو من قد سعى إليك اشتياقاً
يستحث الخطى ليلقى الحمية

[١] الأمير عبد القادر وسيرته المجيدة، ص: ١٧٦.

إنما قد رعيت حق إخاء

عربي يا أختنا العربية

فاته أن يعود للدار حيّا

ويرى الدار في الكرامة حيّة

ثم قال مخاطباً الجيش الجزائري:

انزلوا في العيون أو في الحنايا

يا جنود الأمير هدي البقايا

أيُّ قبرٍ يضمها وهي أُفقٌ

من معالي وقمة من سجايا

من عُلاها استمد جيشُ بلادي

ذلك العزم يوم خاض المنايا

فدعوها منارة من سناها

يتلقى الهُدى جميع البرايا

هي ليست كما سمعتم رُفاتاً

بل تُراث مقدساً وعطايا

وقال مخاطباً روح الأمير:

أرجع الطرف غير هذي البطاح

لن ترى يا أمير غير النجاح

ذهب الغاصبون لا دو ميشيل

ولا دورليان ولا صليل السلاح

مات بيجو وألف بيجو وأوّدى

كل جيش رمته هُوجُ الرياح

غبت لكن بقيت في كل شخص

ماثلاً في القلوب والأرواح

لم تغب عن عيونهم في مكان

كلُّ شبر ظنوه "خنق النطاح"[1]

أنت في كل ثائر كنت تحيا

عبقريا محنّكاً في الكفاح[2]

ح ـ كلمة الرئيس عبد العزيز بو تفليقة التي ألقاها عام ١٩٩٩م بمناسبة إحياء الذكرى ١٦٧ لمبايعة الأمير عبد القادر هذا نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين

وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين

السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته

لقد جئناك في الموعد وفي المكان وفي البقعة المباركة بالذات التي تمت فيها مبايعتك في ٢٧ من نوفمبر ١٨٣٢م. جئناك بمثل ذلك الحماس الصادق الجياش الذي كانت تطفح به قلوب أولئك الجزائريين والجزائريات الذين وضعوا ثقتهم وأموالهم في إمام الجهاد والمجاهدين عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى المختار الحسني فبايعوه بالإمارة ليقود جهادهم ضد العدو الغازي ومسيرتهم المظفرة نحو الغد الأفضل.

---

[1] خنق النطاح : معركة انتصر فيها الأمير على فرنسا.

[2] الأمير عبد القادر سيرته المجيدة، ص: ١٧٧.

وكيف لا يغمرني الفخر والاعتزاز وأنا أقف وقفتي هذه بهذا المكان وأمام الشجرة المباركة الثابتة في عهدنا هذا الذي استعاد فيه بلد الأمير عبد القادر كامل سيادته وحريته وكرامته بفضل وفاء الأجيال المتعاقبة المتواصلة التي تمسكها بالعهد المقدس الذي قطعه شعب برمته على نفسه وأودع مضمونه في أعماق ذاكرته الجماعية متواصيا جيلاً بعد جيل بالوفاء له والالتزام به ليتوارثه أبناؤه البررة ابأً عن جد.

وكيف ولا ألبي وأنا مدعو إلى حضرة القائد الهمام الذي كان نبراس الأجيال المتوالية وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وكيف لا ألبي الدعوة إلى حضرة من علمنا الرفض، رفض القيم والجور، من علمنا رفع ثوبنا عن كل لوم، من علمنا الذود عن الدين بذلك النضال المستميت، من علمنا ركوب كل هول من أجل المكارم والثبات عليها، من علمنا كيف نجعل الغدر منا محالاً وكيف ترقى بنا المكارم وتتنوع فينا الخصال، من علمنا كيف نكون نحن الرجال رجالاً للرجال كيف لا آتي إلى هذه الحضرة وأقف وقفة من سبقنا من الأجداد وقفة تجلي وإكبار وخشوع وأبايع رمز الأنفة والإباء، رمز المجد والشموخ وأبايع هنا كل عظيم حبلت به الجزائر لنجدتها وتحريرها وإعلاء شأنها، ابايع السيد المهاب الذي يبقى أبد الدهر مهاباً وإن رحل إلى جوار ربه منذ عقود عديدة مضت وأسكنه فسيح جناته.

فيا لها من وقفة لم تبق من حزن في قلب مضني ولا كذا لدى ضجر.

ايتها السيدات أيها السادة:

إن أول ما يترتب علينا في مثل هذه المناسبة الطيبة من واجبات هو أن نشكر الله سبحانه وتعالى على ما أنعم علينا به من استعادة الاستقلال وسيادة كاملة على أرضنا محققاً لنا بذلك الغاية التي كرّس عبد القادر جهاده في سبيلها بعد أن غرس في قلوب أبناء وطنه الغيرة عليها يتوارثونها ابأً عن جد ويحمل شعلتها عبر السنين أبطال وبطلات

من أمثال لا لا فاطمة نسومر والشيخ الحداد والمقراني والشيخ بو عمامة والشيخ بو زيان والأمير خالد وميعالي الحاج وغيرهم من رعيل أول نوفمبر المجيد.

ومن أخلص مظاهر شكرنا لله أيها الأخوة والأخوات أن نلتئم في مثل هذا الحفل المهيب ونجددها مبايعة صادقة صريحة لروح قائدنا الذي لم يطلب الإمارة بل فُرضت عليه فرضاً من أجل تثبيت هويتنا وتنظيم مواجهة الاجتياح العدواني الكاسح للبلاد المبيد للعباد وهو لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره فقبلها مكرهاً وحمل أمانتها محتسباً لخالقه وناكراً للذات متفانياً مخلصاً وراح يستميت في الذود عن حق ربه ويواصل الجهاد بالسيف وبلسان الرشاد والسداد وبالعمل الدؤوب والمثابرة والإصرار رغم شح الوسائل وتفوق العدو عدة وعدداً وخذلان المناصر وفقدان المعين وتقاعس ملوك المسلمين وأمرائهم عن معونته ونصرته حتى باللسان، إنه جاهد وصمد في وجه الغزاة الدخلاء والخونة المارقين والقعدة من ضعفاء النفوس.

وكما بايع المسلمون جدك رسول الله محمد بن عبد الله تحت الشجرة، وقال تعالى في سورة الفتح :" لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا" صدق الله العظيم، كذلك بايعك الجزائريون، إذ كنت أحسننا وأفضلنا فرحم الله أولئك الذين بايعوك تحت هذه الشجرة على سنة أجدادنا الذين اقتدوا بالأسلاف الأوائل في مبايعتهم رسول الله عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم يوم بيعة الرضوان، فما أحوجنا إلى صدق المبايعة التي خص بها أجدادنا الأمير ثم انصرفوا إلى ساحة الوغى يخوضون المعركة تلو الأخرى في خضم وهج السنابك وطعن القنا وخفق البنود ورعد المدافع وقصف البارود لا تثنيهم لا مخاطر ولا صعاب ولا تغريهم محاسن عيش، ولا يحسبون للموت حساباً فكانوا قدوة حسنة لمن خلفهم من أبناء وأحفاد تسلموا منهم مشعل الجهاد فرفعوه عالياً وصانوا الأمانة من خلال معارك متواصلة على مدار القرن والنصف حتى أفضت إلى طرد العدو وإزالة دنسه عن أرضهم وكان سر

نصرهم المبين وحدة الصف ورباط الدين الواحد والانتماء المشترك إلى الوطن والقيم الفاضلة وصدق العزائم وبقيت هذه أعمالهم وأخلاقهم إلى أن أدوا للجزائر حريتها وللشعب عزته وكرامته ومكانته المرموقة بين الشعوب والأمم وكأن الله أبى إلا أن يمحوا عار الخامس من يوليو ١٨٣٠م المتمثل في الاجتياح الجائر الظالم للجزائر بنصر مبين باهر صريح تمّ في نفس اليوم ونفس الشهر من سنة ١٩٦٢م.

ثم تابع رئيس الجمهورية كلامه فقال:

أيتها السيدات أيها السادة:

تمر لشعوب العالم الحية الواعية في مسيرتها التاريخية بمحطات فتتوقف عندها للتأمل في خصلة أعمالها السالفة بمراجعة مضامينها على ضوء الأسباب والأجواء الخاصة التي ساهمت في أخذ كل قرار وإرساء كل اختيار فتكون مناسبة طيبة لمراجعة الذات وتغيير ما بالنفس والرجوع عن غواية أهوائها وتقييم أعمالها وذلك قصد مواصلة الطريق على أسس مجددة سليمة نحو غايات بينة الملامح مثمرة النتائج محمودة العواقب، فتعبئ لها الوسائل الكافية المناسبة وتُشحذ لكسب رهانها الهمم المخلصة الوفية.

إن المبايعة التي نحيي اليوم ذكراها المائة والسابعة والستين لتعد بحق من تلك المحطات المصيرية في تاريخ الجزائر المجيد وخصال شعبها الأصيل الأبي، إذ أقدم الجزائريون والجزائريات على تلك المبايعة دخلوا عهداً جديداً، عهداً متساوياً مع قيمهم السمحاء وتقاليدهم الخيّرة عهداً يتميز بالغيرة على سلامة تراب الوطن واستقلالية والتطلع إلى التطور السريع المبني على العلوم وضروب الفنيات الحديثة، عهداً يفتح المجال أمام المساهمة الكاملة الفعالة للمواطنين في اختيار قادتهم وأخذ القرار عند البت في قضاياهم المصيرية.

إنه ليس من باب المصادفة بعد بدء الغزو وتواصله وإن سقطت العاصمة واستسلم النظام العثماني القائم وأخذت جيوش العدو تكتسح مختلف المناطق تسفك الدماء تفتك

وتهتك الأعراض والممتلكات أن تتجه الأنظار إلى الشيخ محيي الدين لتوليه زمام الأمور وإدارتها على الأسس التي يرتضيها الجميع.

أما الشيخ محيي الدين فقد رفض تولي السلطة لثقل مسؤولياتها وكبر سنه ولم يتولها ابنه غير مخير إلا لخطورة الوضع وجسامة المشاريع الإصلاحية التي تقتضيها في جميع المجالات أية محاولة جادة لمواجهتها وإيجاد حلول لها إن حضورنا في الموعد والمكان قد تكون له أكثر من دلالة فنحن جئنا نجدد العهد ونستقي من معين الجهاد أزكى ما فيه من معاني حب الوطن المقرون بعبادة الله عز وجل هنيئاً لمن قاسموك على مر الأجيال جهادك بجهادهم، وكان سخاؤهم كبيراً وهم يجودون في سبيل الوطن بالنفس والنفيس والدماء الزكية الطاهرة هنيئاً لمن ولو بالاسوة الحسنة حاول الاقتداء بك وبصحابك في الرجولة والاستقامة والتعبير عن المواطنة حقوقاً وواجبات، هنيئاً لمن سخروا أقلامهم وبيانهم وبلاغاتهم فأضفوا المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم صفحات تاريخ البلاد المشرقة، ولكن هنيئاً كذلك لمن لم يتناسوا زعماءنا من شرق البلاد إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها فأعطوا كل ذي حق حقه بنعمةالقصد ونظرة الشاعر ودقة المؤرخ وبأمانة الشاهد النزيه لكل رجل قام هنا أو هناك على مر الزمان مع زرافة من الأحرار ليقولوا رفضهم الذي لا رجعة فيه للمحتل والمغتصب وكل من أراد أن يغير فينا ما هو منا بما هو ليس منا، ولتكن نصيحتي رنانة مسموعة اليوم عند المجتهدين من الطلبة وخاصة أولئك الذين تخصصوا في علم التاريخ وهم لا يزالون يكدحون في الجامعات، فلتصل فرحتي إليهم حتى يزيلوا كل ما كدسه الغزاة من غبار على تاريخنا وأمجادنا ورجالاتنا وماضينا المجيد. ولكم يعلم أهل الذكر قيمة ما تزرعه معرفة تاريخ البلاد من مفعول في همم الرجال ونفوس الشباب الطامحين من غيرة للذود على حاضرهم وتصور مشرق بالأمل لمستقبلهم مفعم بثقتهم بالماضي الثقة التي ترسخ هويتهم وأصالتهم وتضرب في الأعماق بأطناب جذورهم.

وكل من يساهم في دراسة هذه الصفحة المشرقة من تاريخ الجزائر وإضفاء المزيد من الأضواء على من خطوا بسيوفهم ونهجهم وأقلامهم وعلمهم حروف بيانها من أمثال الأمير وخلفائه المتوزعين على مختلف مناطق البلاد.

أيتها السيدات أيها السادة:

إن سر صمود الدولة الجزائرية الحديثة التي وضع أسسها الأمير لمواجهة الغزو الاستعماري العاتي طيلة المجابهة المسلحة التي دامت خمسة عشر سنة كاملة وبقاء مبادئها حية متقدة في وجدان أبنائها عبر مختلف انتفاضاتهم المتواصلة الحلقات إلى غاية إندلاع ثورة نوفمبر المظفرة يعود إلى مميزات المبادئ القائمة عليها هذه الدولة وطريقة توزيع السلطات ضمنها والشروط الواجب توفرها في المسؤولين على المستوى المركزي والمستوى المحلي، ومن أهم مميزات هذه الدولة دولة الأمير عبد القادر:

. أولاً: طابعها الأخلاقي الذي تتميز به قوانينها ويتحلى به الرجال الساهرون على تطبيقها وخلفاؤه.

. ثانياً: التوزيع المحكم للسلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية داخل هذه الدولة بما فيها الجيش وعلاقته الخاصة بالأمير الذي يرعاه بعنايته السامية ليكون الدرع الواقي للأمة.

. ثالثاً: التسامح الديني وتطبيق تعاليم الإسلام السمحاء على المواطنين من أهل من يهود ونصارى وحتى الأسرى من أفراد الجيش الغازي، فكان يرعاهم بعناية خاصة مطبقاً حقوق الإنسان التي شهد له بها العالم من ملوك وأمراء عهده في حادثة المسيحيين بسوريا الحبيبة.

. رابعاً: ومن عظمة هذه الدولة الحديثة التي أنشأها الأمير أنها قامت على المبادئ التي بدأ ظهورها عبر القارة الأوروبية وهي المبينة على القوميات والحدود الفاصلة والرامية إلى إقامة "الدولة الأمة" جامعاً بين الأصالة والعصرنة.

هذا، وكان الأمير في سعيه من أجل تحقيق المشاريع الضخمة يعتمد على التعبئة الشعبية وتضافر الجهود المخلصة عملاً بوصايا الرسول صلى الله عليه وسلم الذي جعل من مجاهدة النفس والعمل الصالح الدؤوب الجهاد الأكبر الذي لا أمل في تحقيق النصر فيه إلا بوقوف أبناء الأمة الواحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا.

وإن لعلاقاته الخارجية وسمعته على الساحة الدولية إنجازات ومناقب يشهد له بها العدو قبل الصديق .

أيتها الأخوات أيها الأخوة:

كان تحرير الجزائر وبناء دولتها الحديثة صفحة من البطولات والتضحيات صور فيها شعبنا بروحه الأبية وبخاصة الشباب مثل الأمير عبد القادر ورفاقه، إصرارهم على عدم التنازل على أدنى ذرة من عزة الوطن وكرامته ورفع مكانته بين الأمم.

وكان شباب الأمس يرمي بنفسه ونفيسه في سبيل تحرير الوطن ناكراً ذاته، فعلى شباب اليوم والغد أن يرمي في سبيل بقاء الجزائر عزيزة كريمة بالتفاني والإبداع.

عزة الجزائر وهيبتها في عزة الجزائر بنفسه وشيمه لا بماله وإنما بأخلاقه وروحه الأبية الوطنية لا بحسب ثروته وعصبيته وإنما في التعاون على النهوض بالمواطنة لا في جمع المال، فثروة العقل والإرادة لا بالذهب والفضة وجمعها.

هذه هي ايتها الأخوات أيها الأخوة رسالة ذكرى المبايعة وعلينا أن نرتفع إلى مستواها، نقبل وننهض بهذه المسؤولية التي سبقنا إلى حملها أجيال وأجيال قبلنا، وننذر أنفسنا للقيام بها خير قيام، ثم يأتي من بعدنا فيواصل على الدرب، وحسبنا أن يقال عنا حينئذ أننا أدينا الأمانة وخدمنا جزائرنا وأضفنا لبنة إلى صرحها الركين.

إن الله تعالى عظم شأن المبايعة وحذر من نكثها بقوله خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم :" إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا" صدق الله العظيم.

فالشعب الجزائري لما هب لاستئناف النضال في أول نوفمبر ١٩٥٤م بايع الله وشهدائه وأسلافه الميامين على مواصلة التضحية من أجل كسب التحدي الكبير الذي يجب على كل أبنائها أن يهبوا لمواجهته ويعينوا كل طاقاتهم لتحقيقه بتحرير البلاد وبعث دولتنا الحديثة واسترجاع سيادتنا السلبية من ثمة علينا أن نسير على هدى من سبقنا ونستكمل المشوار معتمدين على الكفاءة العالية والأمانة التامة والولاء المطلق للشعب والأخذ باسباب التقنيات المتقدمة والوسائط والأساليب الحديثة في مختلف مجالات التسيير والتخطيط والتقييم والمتابعة، ذلكم هو ما عقدنا العزم على التعهد به يرضي الله والشعب الجزائري ومعه في المرحلة الجديدة التي دخلنا بعد ١٥ أفريل الفارط إنه بناء جزائر المستقبل والمجتمع الأفضل البناء الذي نأمل أن يكون ثلاثون مليوناً من البناة والمدربين والمقتدرين المؤهلين إخلاصاً وأمانة وكفاءة تترسخ فيه المنهجية الوطنية القائمة على توظيف نشر الحق والعدل والإخاء والمساواة أي كل شروط المواطنة الصالحة التي لا تُستوفى إلا بوجود الأسوة الحسنة وجوباً في قيادة البلاد من قاعدتها إلى قمتها وإلا تعذر تعميم العيش الكريم بين الجميع وبناء مجتمع الأمل والمحبة والخير قبل أن أودعك أيها الأمير أريد أن ألتمس منك عذراً إن كنا تطاولنا عليك أنا ورفاقي من ساروا إلى رحمة الله فاجتهدنا اجتهاداً مخلصاً وأرجعنا رفاتك إلى وطنك وأنت صاحب المواقف العظيمة وأننا هنا نعتقد أن الجزائر هي دمشق، ودمشق هي الجزائر ولربما كنت هناك في راحة أكثر مما لو كنت في أحضان شعبك وذويك.

إن إخوانك في الشام احتضنوك وبجلوك وكرموك وأنت الكريم وما كانوا يفعلون ذلك حباً فيك فقط ولكن كانوا ينطلقون من أنك من أبنائهم وأن شعب الجزائر شعبهم، كما كانوا آنذاك أنهم لا يزالون اليوم يفرحون لأفراحه ويترحون لأتراحه ويقاسمونه السراء والضراء، فأنعم به شعباً سورياً قوي الشكيمة في الوطنية يعرف قيمة الرجال الذين تساموا بأرواحهم وارتقوا إلى ما لا زلنا نتغنى به من مكارم الأخلاق على أبناء البشرية جمعاء، إننا قوم لا

نتنكر الجميل ونعتذر اليوم لمن اختطفناك منهم تحفظاً ولا يوحي من نية أنانية لقد أتينا بك إلى وطنك، وطنك الأول برضاهم. ارجعناك إلى ديارك حتى نقول لمن أبعوك عن مسقط الراس وبيتك من الشعر لمن قالوا بالأمس عدنا إليك يا صلاح الدين بنفس النخوة والاعتزاز والقوة. لقد عدنا بك يا عبد القادر والوطن العزيز يهتز خفاقاً للحدث العظيم من الشام إلى الجزائر وسيعود صلاح الدين إلى الجولان فيسترجع الجولان كل الجولان وجنوب لبنان، كل جنوب لبنان ويعطي للفلسطينيين حقهم المشروع في دولتهم المستقلة بعاصمتها القدس.

إنك اليوم يا عبد القادر كباقي الشهداء لا امتياز يحيط بك أو يفضلك عليهم إلا ما تركته من حسن الذكر وما تركت من جميل الخصال وكريم الأعمال ومن تراث ثقافي تغبط عليه في الجزائر وخارجها.

هل جئنا اليوم لنتذكر فقط أو جئنا لنتأمل فيما صنعت أنت والصديقين والشهداء الذين توافدوا من بعدك في كل شبر من الوطن، لنتأمل في المعنى العميق للرسالة التي أورثمتوها للأجيال، أو لا تسمحون أن أخبركم بأن الوطن كاد يضيع ولا زال البغاة من أعدائه في الداخل والخارج يريدونه في مهب الريح، ينتهكون الأعراض ولا يستحون، يقتلون الأطفال ويتبجحون يفسدون في الأرض فساداً، يخربون بيوتهم بأيديهم ويدخلوا السرور والبهجة في كل مشؤوم يتربص ببلادنا الشر ويبتغي لها الإنهيار.

ولكن ها هو الشعب قال قولته الفصل وقولة الشعب فصل وما هي بالهزل، إنه شعب جنح إلى السلم والسلام إلى المصالحة والوئام.

وكما جئنا نعاهدك اليوم على أن نبقى على الدرب سائرين لقد عاهد شعبنا نفسه وربه أن يبقى هو أيضاً على العهد يدفع أغلى ثمن من أجل السلام ووحدة الجزائر تراباً وشعباً والدفاع عن النظام الجمهوري والالتزام بهيبة الدولة واحترام صرامة القانون في عدالته.

قد يسمعني شباب لا يفهم لهجتي ولا يفقه كلامي لأنه استقى من وطنية تمخضت عن الاستعمار الاستيطاني والاحتلال وهو لا يعرف شيئاً عن تلك العهود، ينظر إلى واقع الدنيا وكأنه في شاشة التلفزيون ويريد أن يصل اليوم قبل الغد إلى مستوى الدول المتقدمة ولا يعرف إطلاقاً ما دفع في سبيل ذلك من ثمن وجهود وتضحيات شباب طموح منكوب بمآسيه من تزعزع الأمن والبطالة والحاجة إلى السكن والتطلع إلى المدرسة وانتظار المستشفى إلى غير ذلك من حاجيات لا تخفى علينا كما هي لا تخفى عن أبناء شعبنا الصالح منهم والطالح، شباب يرى من يتبجح تبجحاً مشيراً مستفزاً لحرمانه مما دفع به إلى فقدان الأمل والرؤى القائمة للمستقبل، لقد فسدت الأخلاق وعمّ فسادها أمن رجال ونساء لازالوا للعهود حافظين يغيرون على هذا الوطن الذي حباه الله بأهمية الموقع واعتدال المناخ وشساعة الأرض وتعدد الإمكانيات حتى أشارت إليه الأصابع بخير وكذلك بسوء.

أمن غيورين على بلادي ليتعاونوا اليوم على البر والتقوى ويتأكدوا نهائياً أن ليس لهم عن الجزائر وطناً بديلاً، وأنه لابد أن يتقاسموا العيش في أرجاء هذا الوطن الحبيب، وأن لكل شيء بداية وبداية الأمور اليوم عندنا هو استتباب الأمن والاستقرار ومن ثم نقسم بالله، وإنه لقسم لو تعلمون عظيم ما من شيء تعسر اليوم على البعض إلا تيسر غداً للجميع، وإن بلادي من عند الله مرموقة من أحبها أحبها بعشق المتيمين ومن كرهها لا يجد راحة في التآمر عليها وعلى مصيرها.

ومن هذا الباب أتوجه إلى أخواتي وإخواني أبناء شعب جزائرنا الغالية وأغتنم فرصة إحياء ذكرى مبايعة الأمير عبد القادر واستعين بالله وبكم وأدعوهم مرة أخرى إلى طريق الرشاد إلى سبيل العزة إلى نهج الكرامة ولن يكون ذلك إلا منا جميعاً نساءً ورجالاً شباباً وكهولاً مشمرين عن السواعد في بناء الوطن والتوكل على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه ونعم الوكيل.

وبارك الله في كل غيور لا زال يغار على عزة الجزائر وعلى كرامة شعبها.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

س. إطلاق اسم الأمير عبد القادر على مدينة في الولايات المتحدة الأمريكية وإشعاع الأمير في العالم:

إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير يطلبها لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل.

لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء العالم الغربي كما كان له صدى كبير حتى في أمريكا.

وهكذا ففي سنة ١٨٤٦م اسست مدينة صغيرة بولاية إيوا "iowa" من طرف ثلاثة رواد أمريكيين يسمون جون تومسون وتيموثي ديفيس، وتشتر سايج، أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير وهكذا فإن سمعة الأمير قد تعدت بكثير مجال نشاطاته ولم يكن من وراء هذا العمل الذي يشرف عليه إلا الإعجاب بهذا الرجل العظيم وبعد أن إتفق الرجال على تسمية هذه المدينة التي كانوا ينوون تشييدها قال لهم تومسان: فلنتقابل غداً لوضع مخطط هذه المدينة، وهكذا فبعد ١٢٥ سنة سيعلم الناس بأن شيء يتعلق الأمر[2].

وبتعبير هذا فإن تومسون كان يعلم بأنه هو وأصحابه قد أحسنوا الإختيار ولم يخطئوا فيما يخص خلود شهرة هذا الرجل الذي شرفوه وتروي الصحيفة المحلية "سيدير رابيد قازيت" أن يوم ٥ نوفمبر ١٩٨٥م قد خصص "يوم عبد القادر" أي بعد مرور ١٣٩ سنة من وضع أولئك الرواد الأشاوش لمخطط مدينتهم.

إن الذين كانوا يتجاهلون الوزن الكبير لشخصية الأمير هم الوحيدون الذين اندهشوا لتعدي إشعاعه المحيطات في زمن كادت به الإتصالات أن تنعدم، في نفس الوقت كانت

---

[1] فكر الأمير عبد القادر الجزائري، ص: ٢٥٥ . ٢٦٦.

[2] الأمير عبد القادر وبناء الأمة الجزائرية، ص: ٢٧٩.

كل أوروبا تتابع بإعجاب ملحمة الأمير وقتاله البطولي وعبقريته التنظيمية وهذا من قبل حتى معاهدة التافنة التي أقرته كرئيس دولة كتتويج لنضاله الطويل.

وهكذا كتب المؤرخ الإنجليزي لورانس كايف: إن سمعة الأمير قد أصبحت أوروبية منذ ١٨٣٥م، وهذا الإعجاب بعبقرية الأمير الحربية ووطنيته الفياضة سرعان ما تحول إلى تعاطف عميق عندما بدأ نجمه يفل ثم انقلب بعد ذلك إلى سخط على تنكر الدولة العظيمة لوعدها وقد كتبت مجلة "التايمز" مقالاً في هذا الموضوع ١٠/ ١٠/ ١٨٥١م: إن لعبد القادر في سجنه بفرنسا، نفس الصدى العالمي الذي حققه في السابق عندما كان يقود فرسانه العرب.

كما أن كارل ماركس قد أجرى دراسة حول الأمير تكاد تكون مجهولة ويصفه فيها "قائد مغوار" والرأي العام الفرنسي بدوره قد حيّ وبعبارات كثيراً ما كانت طنانة، شجاعة الأمير في القتال وعزة النفس حين البلوى، وزيادة الوسام الرفيع للجوفة الشرفية فإن فرنسا قد منحته وساماً كتبت عليه العبارات التالية: أمير من شمال أفريقيا مدافع عن القومية العربية وحام المسيحيين المضطهدين١.

إلا أن عمله البطولي خلال أحداث دمشق بالذات هو الذي زاد كثيراً من إشعاعه في الغرب، أما فيما يخص الحكومات فإنها جميعاً قد منحته أسمى أوسمة بلادها.

وعلى كل حال فإنه من المؤكد أن عمله البطولي والإنساني لصالح المسيحيين لم يرفع مكانته عند الغرب فحسب ولكن العالم العربي في مجمله قد قدر عمله سواءً من الناحية الإنسانية أو السياسية وفهم أن تقتيل الأبرياء لولا التدخل الشجاع للأمير، كان سيؤدي بفرنسا إلى وضع يدها على سوريا.

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٨٠.

وقد رأينا أن أول من منح الأمير وساماً ووضع صورته بجانب صورة أجداده كان السلطان عبد المجيد نفسه وقد وصلت شهرة الأمير إلى حد أن الخديوي كان يغير منه ويخشى منه على عرشه.

ولنذكر في الأخير هذه الملاحظة التي أبداها الملك فيصل ملك العراق سنة ١٩٢٠م لكاتب فرنسي يدعى "ب. ديسنايور سانتران" "يعد الحاج عبد القادر واحداً من أكبر رجالات الإسلام وأكثرهم مدعاة للإحترام وأجدرهم بتقدير الإسلام وإجلاله"[١].

[١] المصدر نفسه، ص: ٢٨٢.

تاسعا: ثورات الشعب الجزائري بعد الأمير عبد القادر

١. ثورة الزعاطشة:

بعد سنتين من توقف ثورة الأمير عبد القادر اندلعت ثورة الزعاطشة وهي واحة بمنطقة الزاب الظهراوي ٣٥ كيلو جنوب غربي بسكرة قادها بوزيان شيخ الطريقة الدرقاوية بالزيبان الذي عمل في دولة الأمير كشيخ على سكان الزاب الظهراوي، بدأت الثورة بتذمر القرويين من الضرائب الباهظة التي فرضها الفرنسيون على كل نخلة وأيدهم الشيخ بوزيان وتوجه الجيش الفرنسي فاعتقله فهب الناس وافتكوه من معتقله بالقوة وانفجرت عند ذاك الثورة واستمرت المعارك بين فرنسا والثوار وحشدت فرنسا قوات هائلة في ١٢/ ١١/ ١٨٤٩م وبدأت معركة سيدي مرازي وراحت القوات تقذف جدران القرية بالمدفعية لفتح ثغرات في سورها تمكنهم من الدخول ومهاجمة منزل الشيخ بوزيان ومساعديه مثل بو عزوز والحاج موسى والشريف بو عمار واستمر هذا القصف حتى منتصف نهار ٢٦/ ١١ حيث اقتحمت الجيوش الفرنسية القرية داراً داراً وزقاقاً زقاقاً في حرب شوارع شبيهة بحرب شوارع قسنطينة لدى سقوطها سنة ١٨٣٧م ودافع الشيخ بوزيان وابنه ورفيقه الحاج موسى بشجاعة وسقطوا شهداء برصاص العدو وقذائف مدافعه وجز الفرنسيون رؤوسهم وعلقوها على أبواب مدينة بسكرة عدة أيام تكبد الفرنسيون ١٥٠٠ بين قتيل وجريح.

قامت قوات الجنرال هيبربيون بارتكاب فظائع مرعبة فدمرت المدينة وقطعت عشرة الآف نخلة هي كل ما يملك سكانها، ودمرت كل منازلها وشنقت ١٥٠٠ مواطن أمام الملأ ووسط خرائب البيوت وأرغموا من بقي من السكان على الهجرة إلى جهات أخرى حددوها ليعملوا بالسخرة في حظائر العمل التابعة للكولون.

فقد روى المؤرخ بوديكور: هنا جندي قطع ثدي امرأة راحت تتوسل إليه بأن ينهي حياتها وهناك جندي آخر حمل طفلاً صغيراً من رجليه وحطم رأسه على جدار فخرج

رأسه من جمجمته، هنا وهناك كانت مناظر مخزية يحجل أي شريف من سردها، لقد تركت هذه الثورة دوياً كبيراً في الداخل، فالأعمال البربرية هذه لم تكن ضرورية وهي من شأنها أن تثير الذعر بين الناس ولكنها تغرس الكراهية في نفوسهم ضد المستعمرين وتلد ثورات أخرى. قال بيليبسييه دو ريينو: إنني لا أخشى أن أقول إن مجد المهزومين يُشحب لون وجه المنتصرين[1].

٢. ثورة بو بغلة ولالة فاطمة نسومر:

قرر الفرنسيون إخضاع منطقة القبايل والشمال القسنطيني فقد بقيت منطقة الجبال غير خاضعة للاحتلال وهي الممتدة من متيجة غرباً وحتى وادي الصفصاف، ومن البحر شمالاً وحتى السهول المرتفعة لمجانة وسطيف جنوباً في يوم ٩/ ٥/ ١٨٥١م توجه الجنرال سانتارنو من ميلة على رأس جيش قوامه ٨٧٠٠ جندي فوصل جيجل يوم ١٦ وتقدم حتى الوادي الكبير واصطدم بمقاومة كبيرة لكنه تمكن من التقدم نحو القل، وأخضعت القبائل بين القل وجيجل "مايو . يوليو" ثم سلك طريق بجاية سطيف ودمر وأحرق قرى أربعين قبيلة وكتب لزوجته يفتخر بأنه أحرق بنفسه ١٠٠ منزل مغطاة بالقرميد وقطع أكثر من ألف شجرة زيتون، وتصور أنه أخضع المنطقة نهائياً لكنه ما أن عادت قبائل نواحي القل وجيجل للثورة قرر الجنرال هوتبول إخضاع القبائل الكبرى والقبائل الصغرى وبدأ بالكبرى حيث دشرات زواوة ووادي سباو.

وظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله المشهور ببو بغلة سنة ١٨٥١م ودعا الناس إلى الجهاد واستجاب المواطنين له في تلك المناطق وكانت لالا فاطمة نسومر إلى جانب بو بغلة واجه الثوار جيشاً بقيادة الجنرالين راندون وماكماهون وخاضوا معه معركة ضخمة في هضبة تيميزغيدة.

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٥ . ٥٦٦.

وفشل العقيد دوريل في محاصرته وفي أفريل نيسان سار جيش كبير على رأس جنرالات هما كامو وبوسكيه غربي واد ساحل وعاقبا القرى التي استقبلت الشريف كتبت صحيفة "مونيتور": كل قرى أورلزقان نهبت وأحرقت وتركت شوارعها مزروعة بجثث الناس والمواشي.

كان بو بغلة مدعوماً بزواوة: قبائل المعاكطة والقتشولة وبني عيسى والفيليسة، طارده الجنرال جوني نحو الشرق في اتجاه وادي سباو، فأحرق ثلاثين قرية وتوجه العقيد بورياكي نحو قرى بني كوفي فدمرها وهاجم قبائل فليسة نوفمبر ١٨٥١م. واستمر الشريف بو بغلة في كر وفر مع جيوش العدو. يبرر الجنرال روندون التدمير فيقول: لابد أن نترك على الأرض آثاراً لانتصارنا بواسطة تدمير جزء من ثروة الذين هزمناهم[١].

٣. ثورة الشريف محمد بن عبد الله بو رقلة:

ظهرت ثورة الشريف محمد بن عبد الله بالأغواط وامتدت حتى ورقلة وتقرت ووادي سوف في أوائل ١٨٥١م وقد سبق للشريف محمد أن اختلف مع الأمير عبد القادر وهاجر للمشرق حيث قضى هناك ثلاث سنوات ثم عاد للجزائر مؤمنا بضرورة استئناف مهمة الأمير عبد القادر وقيادة الجهاد لتحرير الجزائر من الغزاة، دخل طرابلس ومنها إلى غدامس ثم تقرت وقصد زاوية الرويسان قرب ورقلة ونادى بالثورة واستجابت له الجماهير واتخذ الاغواط قاعدة له ثم راح يشن هجماته على مراكز الفرنسيين بالتل.

قاد الجنرال روندون جيشاً وتوجه إلى الأغواط وانسحب الشريف وانتقم الفرنسيون من النساء والأطفال وفعلوا ما فعلوه في واحة الزعاطشة فأحرقوا المنازل ودمروا كل شيء.

وقد روى العقيد تروملي: كانت مذبحة مرعبة اختلطت فيها جثث النساء والأطفال بجثث الحيوانات وأحرقت الجثث ورميت في الآبار ويعتبر الذي قمنا به عاراً ما يعده عار،

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٧.

لقد اشتكى بعض المطعونين بالسيوف بأن هذه لم تكن حادة فتقتل على الفور بل تركتهم يتعذبون.

ويروي الكاتب الورسام فرومنتان أوجين: لقد روى لي ملازم شارك في مجزرة الأغواط ما حدث لامرأتين شابتين شاهدهما بعد أن اغتصبهما الجنود وقتلوهما بالحربة كانتا جثتين لا تحملان حليا: لا أقراط بالآذان، ولا خلاخيل بالأرجل ولا مشابك كانتا عاديتين تقريباً واستمرت الطيور الجارحة تحلق فوق المدينة مدة شهر كامل أما الحمام فقد هاجر منها[1].

واستمرت المعارك سجالاً بين الشريف وبين العدو كان يجمع الأنصار فيهاجم مراكز العدو، وكلما اشتد عليه ضغط العدو انسحب إلى الصحراء واستمر يقاتل إلى أن اشتد الضغط عليه فاختفى، سجنه سنة ١٨٦١م الباشاغا بو بكر بن حمزة ولد سيدي الشيخ وسلمه للفرنسيين الذين سجنوه، لكنه تمكن من الفرار من السجن ليظهر مرة أخرى كثائر بعد اندلاع ثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٨٦٤م فانضم لها وجاهد مع قادتها إلى أن اختلف معهم فانسحب إلى تونس[2].

٤. ثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة:

ظهر الثائر الشريف محمد بن عبد الله مرة أخرى في ثورة الصبايحية في ناحية سوق أهراس.

والصبايحية وحدات من الجزائريين في الجيش الفرنسي التي انضمت مع الثوار وشارك الشريف محمد مع رفاقه القدامى فاتصل بابن ناصر بن شهرة في تقرت ومحمد بن التومي المعروف بابن شوشه في ورقلة وربط صلاته بأولاد خليفة الثائرين بناحية تبسة وبمحيي الدين ابن الأمير عبد القادر الذي قدم خفية إلى طرابلس عبر نقطة ونفزاوة ليتزعم الثورة في الحدود الشرقية.

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٩.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٦٩.

كانت ثورة الصبايحية سببها قيام الجنود الجزائريين بالتمرد في شرق البلاد في أواخر سبتمبر عام ١٨٧٠م وذلك عندما حاولت فرنسا أن تنقلهم إلى أوروبا لمحاربة الألمان في بروسيا وقد قامت السلطات الفرنسية بإصدار أحكام الإعدام ضد البعض من الجنود ونفذتها بالساحة العامة بمدينة سوق أهراس وصادرت أملاك وأراضي سبعة دواوير وأخذت عشرات المواطنين كرهائن[1].

واشترك الشريف محمد مع ثواره قبيلة النمامشة يوم ١٠/ ٩/ ١٨٧١م في مهاجمة واحة ليانه بالزاب الشرقي، وقاد معارك ضد فرنسا وقويت حركته وعندما اندلعت ثورة محمد المقراني سنة ١٨٧١م كان يمثل جناحها الشرقي واستمر داعماً لها إلى أن فشلت فغادر معسكره يوم ١٢/ ١٠/ ١٨٧١م إلى مدينة الكاف التونسية فاعتقله باي تونس وسجنه وتوفي هذا الثائر الكبير الشريف محمد عبد الله بالجنوب التونسي سنة ١٨٩٥م ودفن بقرية دوز التونسية[2].

في ١٨٧٥م احتل الجنرال راندون قمم تيروردة وبنت آيت يحي والأربعاء ناث إيراثن وأمر ببناء قلاع بها بهدف عزل القبائل بينها وبين بعضها وهي قبائل : آيت يحي وآيت إيراثن، بنى مقلات وبني يني، بعد أن اكتشفوا أن قوة الثورة تكمن في ارتباط القبائل بعضها ببعض، لقد احتل الفرنسيون المناطق الوعرة بحرب شرسة سقط فيها المئات من الجنود الفرنسيين واستمر السكان يقاومون الغزو بالقنص من وراء الصخور.

وبعد معاناة كبيرة من هذه الحرب غير المتكافئة وغير الشريفة المؤسسة على الإفقار والتدمير اضطرت كثير من القبائل إلى طلب الأمان.

٥. أسر لالة فاطمة نسومر وكفاح النساء:

استطاع المحتلون أسر المجاهدة الكبيرة لالة فاطمة نسومر يوم ١١/ ٧/ ١٨٥٧م وبأسرها انتهت المقاومة وهي ابنة محمد بن عيسى مقدم زاوية الشيخ أحمد أمزيان على الطريقة

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٦.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٠.

الرحمانية في ايتسوارع دوار يللتن في بلدية عين الحمام ولدت في هذه القرية سنة ١٨٣٠م أخذت عن أخيها الطاهر الساكن في قرية نسومر التي نسبت إليها ولما قامت ثورة بو بغلة سنة ١٨٥١م تطوعت لالة فاطمة لخوض الحرب مع المجاهدين وسرعان ما انتشر اسمها كبطلة شجاعة فقرر الجيش الفرنسي توجيه حملة للقضاء عليها وعلى بو بغلة لتأثيرها هي على الخصوص في المجاهدين، لكن لالا فاطمة تمكنت من اعتراض طريق الجيش الفرنسي في الأربعاء بمهاجمتها لمراكزه وإلحاق خسائر كبيرة به.

فقرر الحاكم العام توجيه حملة كبرى للقضاء عليها وعلى بو بغلة بقيادة الجنرال روندون والمارشال ماكماهون والجنرال جوزيف في جيش ضخم ودارت معركة بين الطرفين يوم ١٠/ ٧/ ١٨٥٧م في أعراش إيتسوراع ويللتن ولما اشتدت المعركة خشيت لالة فاطمة على النساء والأطفال والأموال، فأخذتهم إلى قرية الخميس قرب ربوة تمزغيدة مما أوقعها في الأسر هي ومن معها من الأطفال والنساء اللاتي كان عددهن ٢٠٠ أمرأة. لقد أدت لالة فاطمة دوراً عظيماً في الثورة الكبيرة التي استمرت من سنة ١٨٥١م وحتى ١٨٥٧ وتوفيت في سبتمبر سنة ١٨٦٣م ببني سليمان حيث دفنت.

لقد لعبت المرأة الريفية دوراً مباشراً في الصمود يروي الضباط الفرنسيون أنه: كنا نسأل القبائل لماذا أنتم مصرون على الدفاع عن القرى ضد جيش يقوده جو؟ فيجيبوننا: كنا مستعدين للاستسلام أمام هذه القوات الضخمة، لكن نساءنا كنّ يرفضن ذلك ويهددن بأنهن سيهجرننا إلى الأبد إذا لم نستمر في الدفاع[١].

٦. ثورة الصادق بلحاج:

أخضع الفرنسيون بلاد القبائل لكن الثورات استمرت في سائر أنحاء عمالة قسنطينة وذلك في السنتين التاليتين ١٨٥٨م ـ ١٨٦٠م وبخاصة منطقة الجنوب، فبعد إخضاع منطقة القبائل قرر الفرنسيون إخضاع بقية العمالة وتوجهوا بجيوشهم للجنوب وتصدى

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٧٢.

لهم عدد كبير من رؤساء القبائل أهمهم الصادق بلحاج الذي ينتمي إلى أولاد سيدي منصور شيخ أولاد أيوب في جبل أحمر خدو بسفوح الأوراس الذي سبق له أن شارك في ثورة سكان الزعاطشة سنة ١٨٤٩م إلى جانب الشيخ عبد الحفيظ مقدم الطريقة الرحمانية بخنقة سيدي ناجي مساندة للشيخ بوزيان وسكان الواحة.

استمرت ثورة الصادق بلحاج تعدّ الناس في السر حتى نوفمبر ١٨٥٨م حيث أدركت القيادة الفرنسية خطورتها فقررت ضربها قبل استفحالها واستطاعت فرنسا إخماد الثورة بواسطة قوات من المرتزقة الجزائريين العارفين بوديان ومسالك المنطقة بقيادة القايد موهوب بن شنوف وتمكنت من اعتراض الثوار في واد العرب يوم ٢٠/ ١/ ١٨٥٩م فاعتقلت قائد الثوار وأكثر من ثمانين من رفاقه وعلى إثر اخماد الثورة قام الفرنسيون كعادتهم بحرق القرى وقتل النساء والأطفال.

كانت لثورة الصادق بلحاج في بسكرة والخنقة والأوراس تأثيرها الكبير على قبائل المنطقة فبعد أشهر في مارس آذار سنة ١٨٦٠م ظهرت بالحفنة ثورة بوخنتاش[١].

٧. ثورة محمد بوخنتاش الباركتي:

هو من أولاد رحاب داعياً الناس للثورة فتجمع الناس حوله وساعد الثائر في تجميع الناس أحمد باي المنصوري والعربي قايد أولاد سحنون وانضم إليهم أولاد زميرة وأولاد منصور وامتدت الثورة لتشمل المنطقة الجبلية الممتدة من سطيف والحفنة. تمكن القادة من جمع ٨٠٠ مقاتل وتمركزوا بهم في واد ذراع البيضاء وقام الخائن بيبي من أولاد عمر بإبلا غ الفرنسيين في باتنة بمواقع قوات بوخنتاش ورفاقه.

تحركت عدة جيوش فرنسية فتوجه الكولونيل بان إلى بريكة وتوجه الجنرال نيس دوماريست من سطيف على رأس قوات أخرى عسكر بها في شجرة أواد والتحم الفريقان في معركة كبيرة صباح يوم ٢٥/ ٣/ ١٨٦٠م في خنق أم الحمام، وسقط من

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٣.

الطرفين العديد من القتلى والجرحى لكن الفرنسيين تمكنوا من تخريب معسكر بوختناش وتقتيل أهالي سكان أولاد عمر وأنصارهم وأرغموهم على تسليم بوختناش في نفس اليوم ومساعده أحمد باي المنصوري إلى الجنرال نيم دوماريست، أما العربي فاستشهد في المعركة.

وتصدى الشعب الجزائري لاستغلال الفرنسيين لغابات الفلين فثارت في سنة ١٨٥٨م قبائل ميلة وأضرمت النار في عشرات الآلآف من هكتارات فلين حتى تحرم شركة فرنسية قررت استغلالها، ثارت قبائل زواغة بالوادي الكبير وامتدت ثورتها إلى شرقي جيجل، وأرسل جيش فرنسي كبير دخل في معارك مع الثوار الذين لم يصمدوا أمام قوته وذلك سنة ١٨٦٠م[1].

٨. ثورة أولاد سيدي الشيخ:

إنتشرت ثورة أولاد سيدي الشيخ وامتدت لتشمل سائر الصحراء وتتوغل أحياناً إلى مناطق في الشمال والشرق والغرب لقد كانت فعلاً ملحمة ثورية امتدت من ١٨٦٤م وحتى ١٨٨٤م ولدى اندلاعها صرح المارشال ماكماهون: ليكن في عملهم أنه بمجرد إشارة من الإمبراطور ستجند فرنسا ٨٠٠,٠٠٠ جندي وقد قاد هذه الثورة سلسلة من القادة: سي لاله، وابن أخيه سليمان بن حمزة بن سيدي الشيخ، وأخوة أحمد ومحمد، وابن أخيهم الأعلى، وبوعمامة. ويتصل نسب أولاد سيدي الشيخ بالخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه. كان لهم شأن دائماً.

وتعتبر قرية الأبيض سيدي الشيخ مركزهم الرئيسي ومقر زاوية زعيمهم الأول عبد القادر بن محمد الملقب بسيدي الشيخ والمتوفى في بداية القرن السابع عشر الميلادي.

وفي الوقت الذي عمت فيه الثورة منطقة جنوب وهران على يد أولاد سيدي الشيخ قامت ثورة في فليتة بجبال الونشريس وحوض الشلف بقيادة الشيخ الأزرق بن الحاج

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٥٧٤.

المنتسب إلى الطريقة القادرية وانضم للثورة ٦٤ دوارا وفي يوم ٢٤/ ٤/ ١٨٦٤م خاض هذا الثائر معركة في خنقة العازر ضد جيش بقيادة الجنرال مارتينو، كما خاض معارك في زمورة بالشلف، ورجع لفليتة فربط الصلة مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، وصارت مدينة غيلزان تحت رحمة الثوار، واضطر الفرنسيون إلى إخلاء سائر قرى الأوروبيين بين غيلزان وواد رهيو وفر الأوروبيين ولجأوا إلى مستغانم وتمكن الشيخ الأزرق من تدمير معسكر الرحوية يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٦٤م وواصل هذا البطل جهاده إلى أن استشهد في معركة ظهرة عبد الله يوم ٨/ ٦/ ١٨٦٤م قادها من الطرف الفرنسي الجنرال روز الذي كلف بملاحقته في فليتة[١].

٩. ثورة بوشوشة: محمد بن تومي بوشوشة:

كان هذا القائد العملاق من الرجال الجزائريين الذين تعاونوا مع ثوار أولاد سيدي الشيخ، ومن المؤسسين لحركة التوارق بالصحراء الذين قرروا حمل السلاح ضد الاستعمار الفرنسي وفي شهر أفريل من عام ١٨٧٠م هاجم مدينة القليعة واستولى في ٥ ماي ١٨٧٠م على مدينة متليلي بعد حصار دم عدة ايام، وابتدأ من هذا التاريخ أصبح بوشوشة هو قائد المقاومة الجزائرية في الجبهة الجنوبية بصحراء الجزائر، وفي أواخر سنة ١٨٧٠م انتقل من مركزه بعين صالح إلى واحة الرويسان قرب ورقلة ثم اتجه إلى وادي سوف وفي ٥ مارس ١٨٧١م هاجم حامية ورقلة فهزمها واستولى عليها بمساعدة أنصاره الكثيرين الموجودين داخلها، وعين ابن ناصر بن شهرة خليفة عليها لكي تكون قاعدة للثورة وفي ١٣ ماي من نفس السنة قام بمهاجمة توقرت وانتصر على القوات الفرنسية المرابطة بها، إلا أن القوات الفرنسية تمكنت يوم ٢٧ ديسمبر ١٨٧١م من شن هجوم كبير على مدينة توقرت، ثم احتلت من جديد مدينة ورقلة يوم ٢ جانقي ١٨٧٢م وذلك بعد معركة عسكرية بقيادة الجنرال "وولاكروا" ضد حاكمها بوشوشة.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٥٧٧.

واستأنف هذا الأخير حرب العصابات ضد القوات الفرنسية في المنيعة وحارب إلى أن وقع في الأسر في معارك ١٨٧٤م فاقتيد إلى ورقلة عاصمته الأولى في بداية ثورته، ثم نقل إلى سجن قسنطينة حيث قدم إلى المحاكمة فصدر الحكم عليه بالإعدام الذي نفذ فيه بتاريخ ٢٩ جوان ١٨٧٥م بمعسكر الزيتون بقسنطينة[١].

١٠. ثورات المقراني والشيخ الحداد وبومزراق:

عندما تدهورت الأوضاع بشرق الجزائر طلب الشيخ محمد المقراني من السلطات الفرنسية أن تقبل استقالته من منصبه بصفته باشاغا لأنه لا يرغب في أن يعمل مع السلطات الفرنسية، لكن السلطات الفرنسية رفضت طلب استقالته يوم ٩ مارس ١٨٧١م قام بمحاصرة مدينة بوعريج إلا أن القوات الفرنسية تمكنت من فك الحصار على المدينة يوم ٢٦/ ٣/ ١٨٧١م. وفي يوم ٨ افريل ١٨٧١م إنضم إلى المقراني الشيخ الحداد، ودارت معركة كبيرة بين القوات الفرنسية وقوات الثوار يوم ١٢ أفريل ١٨٧١م قرب جبل تفارطست وفي معركة أخرى يوم ٥ ماي ١٨٧١م واجهت قوات الشيخ المقراني قوات الكولونيل "تروملي" الذي كان يحكم سور الغزلان، وعندما خف الاقتتال اغتنم المقراني الفرصة لأداء صلاة الظهر مع رفاقه، وبينما كان يؤدي فريضة الصلاة فاجأه جنود الزواف الذين كانوا يراقبون الثوار من بعيد فأصابوه في جبهته وسقط شهيداً مع ثلاثة من رفقائه وقد تم نقل جثمانه إلى قلعة بني عباس ودفن في مسقط رأسه، أما الشيخ الحداد الذي انضم إلى الشيخ المقراني يوم ٨ أفريل ١٨٧١م والذي استقر أجداده في قرية صدوق منذ القرن الخامس عشر الميلادي، فقد استطاع أن يشكل جيشاً جزائرياً يتكون من ١٢٠,٠٠٠ مجاهد، بينما جيش المقراني لم يكن يتجاوز ٢٥,٠٠٠ مجاهد وخاض معارك طاحنة ضد الجيش الفرنسي بحيث أحدث هلعاً كبيراً من الأوساط العسكرية.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٦.

لكن الشيخ الحداد الذي تمكن أنصاره من التطوع للجهاد في مناطق كبيرة من البلاد لم يتمكن من جمع السلاح الضروري لخوض معارك حاسمة ضد قوات الاحتلال وبذلك فشلت خطة الحداد لإيقاف الزحف الفرنسي في جبال القبائل وتمكن الجنرال لالمان الفرنسي يوم ٢٤ جوان ١٨٧١م من تشتيت العائلات وحرق المنازل وإجهاض حركة المقاومة الجزائرية، كما تمكن نفس الجنرال من اعتقال أبناء الشيخ محمد أمزيان الحداد، ثم اعتقال الشيخ الحداد نفسه بعد عشرة أيام وأرسلته القوات الفرنسية إلى بجاية حيث وضع في قلعة "بارال" وكان لاستسلام الحداد أثره الكبير على معنويات القائد أحمد بومزراق شقيق الباشاغا محمد المقراني، الذي ثار على الفرنسيين بناحية سور الغزلان وقد حاول بومزراق أن يخلق الانسجام بينه وبين قادة الأخوة الدحمانيين لكنه لم يوفق. وفي يوم ٨ أكتوبر ١٨٧١م خاض بومزراق معركة فاصلة ضد قوات الجنرال الفرنسي "سوسي" بجوار قلعة بني حماد بناحية بجاية، انتهت بتغلب الفرنسيين على قواته، وبعد ذلك إتجه إلى ورقلة والتقى بالقائد بوشوشة وابن شهرة والزبير ولد سيدي الشيخ.

وعندما أدرك أنه غير قادر على مواجهة القوات الفرنسية بقواته المتواضعة حاول أن يجد مكاناً آمناً يلتجئ إليه في الصحراء تاه هناك، واكتشفته دورية فرنسية يوم ٢٠ جانفي ١٨٧١م أمام بركة ماء قرب واحة الرويسات في حالة إغماء فحملته القوات الفرنسية إلى معسكر الجنرال "دولاكروا" بالرويسات، فتم التعرف عليه وإسعافه ثم أرسل إلى السجن في كاليدونيا الجديدة حيث بقي هناك قرابة ٣٠ سنة إلى أن وافته المنية هناك[١].

وانتشر الكولون المسلحون يقتلون الأهالي العزل بلا تمييز أمام أعين جنرالات الجيش الفرنسي وكتب المؤرخ الفرنسي ألفريد رامبوا " عشرين سنة فيما بعد" فقال: لقد ارتكبت فظائع من الجيش النظامي ومن غير النظاميين يوم ٢٢ أفريل أعدم تسعة من الأهالي في العلمة على أساس شهادة كولون واحد، وفي الغد أوقفت قوة عسكرية القايد لكحل

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٨.

وأهله وهم يقدمون للطابور العسكري البغال المسخرة فقام الجنود بقتلهم بالضرب بأعقاب البنادق وفي ٢٣ مايو قرب مسلوك هاجم خيالة الجيش الفرنسي أسرا من أولاد قاسم كانت تحصد الشعير فقطعوا رؤوسهم رجالا وأطفالا ونساء وعددهم ستون.

ويصرح الأميرال جيدون: عندما يثور الأهالي معنى هذا أنهم أغنياء وإفقارهم هو الوسيلة الوحيدة لنشر الأمن[1].

وطبق قول الأميرال فصادر أراضي سائر القبائل الثائرة والمقدرة ٥٧٤٠٠٠ هكتار وبقدرها أوغستين برنار بمليونين وستمائة ألف هكتار ومُلّكت للكولون.

وصرح النقيب فيلو أمام لجنة التحقيق: إن قانون العنف سينزل ثقيلاً على رؤوسنا، فلابد أن نطبق أحد الأمرين: إما أن نبيد العرب، أو نكون عادلين معهم. إذا قررنا تركهم يعيشون فلا ينبغي علينا أن نجردهم مما يملكون، وإذا قررنا تجريدهم من سائر أراضيهم فأنا أرى من العبث تركهم أحياء يعيشون إلى جواز أراضيهم التي انتزعناها منهم.

وفرضت غرامات كبيرة على المواطنين الذين شاركوا في الثورة، وصودرت منهم الأراضي ما يعادل نصف مليون هكتار، ومئات الآلآف من المواشي بحيث الذي صُدر من هذه المواشي لفرنسا بلغ مليون ونصف مليون رأس من البقر وقام بمهمة الشراء والتقدير والمرابون اليهود وقام الكولون بقتل المئات من المواطنين ويعجب الدكتور فيتال: من أن الكثير من الأسرى القبائل الذين حكم عليهم بالإعدام استقبلوا الحكم بفرح وبهجة وانطلق المدحون في شوارع وقرى ومدن الجزائر وبخاصة في بلاد القبائل، يغنون الأحزان والآلام التي تجمعت عن سياسة القهر والقمع التي مارستها القوة الاستعمارية بعد فشل ثورة المقراني والشيخ الحداد[2].

وبالرغم من ضعف التخطيط والإعداد لثورة المقراني إلا أنها كانت الحدث الكبير الثاني بعد ثورة الأمير عبد القادر فبسبب المشاركة الوطنية الواسعة فيها والخسائر الضخمة التي

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٩٥.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٩٦ ـ ٥٩٧.

لحقت بالشعب في الأرواح والممتلكات تركت آثاراً عميقة في النفس الجزائرية، توارثتها الأجيال لتظهر مستقبلاً في الأحداث.

وأنتهت ثورة المقراني واستمر الشعب في ثوراته[1].

١١. ثورة واحة العمري:

جاءت هذه الثورة ضد العائلات الموالية لفرنسا في جنوب البلاد، وقد قاد الثورة ضد فرنسا والموالين لها السيد يحيى بن محمد "من أولاد بوزيد" ضد بولخراص بن قانة الذي كان متسلطاً على السكان ويعاملهم بخشونة كبيرة وفرنسا تدعمه، وفي صباح يوم ١١ أفريل ١٨٧١م نشبت معركة حامية الوطيس بين قوات يحيى بن محمد وجيشه المتكون من ٢,٠٠٠ مقاتل وبين فرقة كبيرة من القوات الفرنسية بقيادة الجنرال "كارتيري" وبالرغم من وفاة الزعيم يحيى بن محمد وإصابة داعيته أحمد بن عايش بجروح في اليوم الأول من المعركة، فإن الثوار قد واصلوا الكفاح حتى النهاية وفي يوم ٢٢ أفريل ١٨٧١م وصلت نجدات فرنسية من قسنطينة ونجدات أخرى من بوسعادة يوم ٢٤ أفريل ١٨٧١م من تلك السنة والتحق الجنرال روكبرون بزميله كارتيري المتواجد في منطقة القتال بواحة العمري، وآنذاك قامت القوات الفرنسية بشن هجوم على الثوار يوم ٢٧، ٢٨ أفريل ١٨٧١م وأضطر الثوار الذين بقوا على قيد الحياة أن يستسلموا للقوات الفرنسية ومباشرة بعد الانتصار على الثوار، قام الجنرال كارتيري بإعطاء أوامر بتخريب الواحة كلها على غرار ما فعله هيربيون بواحة الزعاطشة عام ١٨٤٩م[2].

١٢. انتفاضة الأوراس:

وهي في الحقيقة مشابهة لانتفاضة واحة العمري حيث كان سبب الانتفاضة هو محاربة الموالين لفرنسا وقد ابتدأت الانتفاضة يوم ٣٠ ماي ١٨٧٩م وذلك حين قام أنصار محمد أمزيان عبد الرحمن "المسمى محمد بن عبد الله" باغتيال قايد بني سليمان ثم قائد

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٠٠.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٤٩.

أولاد داود وذلك لأنهما كانا يقودان مجموعة من عملاء فرنسا للقضاء على الثوار المناهضين للاحتلال الفرنسي في الأوراس وتدخلت القوات الفرنسية لضرب الثائرين وإلقاء القبض على عدد كبير منهم، ونظراً لعدم تكافؤ القوة، إنسحب الثوار وتوجهوا إلى الصحراء ومن هناك دخلوا جنوب تونس، لكن الباي التونسي ألقى عليهم القبض وسلمهم إلى السلطان الفرنسية التي أنشأت مجلساً عسكرياً وحكمت على ١٤ من قادة ثورة الأوراس بالإعدام و٢٦ بالأشغال الشاقة ١٦ بالبراءة. إلا أن رئيس الجمهورية الفرنسية تدخل يوم ٩ نوفمبر ١٨٨٠م وخفف الأحكام الخاصة بالإعدام إلى الأشغال الشاقة وكعادتها قامت فرنسا بمصادرة أراضي هذه القبائل المتمردة عليها بالأوراس والتي تقدر بـ ٢,٧٧٧ هكتار من أخصب الأراضي[1].

١٣. ثورة أبو عمامة:

تعتبر هذه الثورة أطول ثورة في تاريخ مقاومة الاحتلال فقد دامت ٢٣ سنة على فترات متقطعة وتعتبر هذه الثورة امتداداً لثورات أولاد سيدي الشيخ التي بدأت سنة ١٨٦٤م واستمرت متقطعة تلتهب وتخبو. وينتمي الشيخ أبو عمامة بن العربي بن التاج الذي ولد في الفقيق على الحدود المغربية إلى عائلة عريقة وذات سمعة شعبية وهي أولاد سيدي الشيخ التي حاربت فرنسا لمدة من الزمن وقد اشتهر الشيخ بو عمامة بقدراته على مواجهة الفرنسيين وفشل فرنسا في إلقاء القبض عليه، كما هو معروف[2].

وكان بوعمامة يمتاز بسرعة تنقل قواته التي كانت مصدر قصص شعبية نسبت هذه السرعة إلى كرامات الشيخ التي كانت تجعل قوات العدو لا تراه وهذه القصص زادت من رصيده في الوعي الشعبي بحيث راح الناس ينضمون لثورته ويعتبرون ذلك تقرباً إلى الله، والسبب الحقيقي راجع إلى معرفته الجيدة بالصحراء وبالمنافذ التي توصله إلى التل بعيداً

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٥٠.

عن أعين العدو، وقد اعتمد على أدلاء مهرة عارفين بالمناطق جغرافياً وسكانياً، يقومون بدور مزدوج كشف الطرق وكشف مواقع طوابير العدو من أجل تجنبها كما قسم جيشه إلى كتائب وجعل كل واحدة منها تسلك طريقاً مخفياً وجوده، لأن العدو كان يبحث عنه هو.

حيرت المسيرة الكبرى نحو التل الضباط الفرنسيين فقد تمكن في ثلاثة وعشرين يوماً من قطع سبعمائة وثلاثين كيلو متر، وفي الطريق كان الثوار يستولون على حبوب ومواشي العشائر المتعاونة مع العدو. كما قاموا بقطع أعمدة التلغراف بين فرندة والبيض، وهاجموا مستودعات ومراكز للشركة الفرنسية للحلفاء وقتل الكثير من موظفيها وعمالها الذين كانوا إسباناً[١].

وامتدت ثورة بوعمامة إلى ناحية وهران في شمال البلاد، لكن نجاحه الكبير كان في الصحراء حيث أسر الجزائريون في عهده بعثة عسكرية فرنسية كانت متواجدة في الهوقاز بقصد اكتشاف مجاهل الصحراء،

وقتلوا قائد البعثة الكولونيل "فلاتين". وفي معركة أخرى استطاع بوعمامة أن يأسر ثلاثمائة فرنسي[٢].

وفي الأخير استطاع الفرنسيون أن يحاصروا بوعمامة في الصحراء بحيث لا تتسرب أخبار مقاومته إلى شمال البلاد. كما تغلبوا عليه بسبب تفوقهم في السلاح "وخاصة المدفعية"، وكذلك ازدياد النفوذ الفرنسي في المغرب وصعوبة تنقله بين البلدين، وقد توفي بوعمامة بصفة طبيعية يوم ٧ أكتوبر ١٩٠٨م في دائرة وجدة بالمغرب الأقصى الشقيق هذه.

باختصار، بعض الثورات والانتفاضات التي وقعت بالجزائر خلال القرن التاسع عشر، والتي تثبت لنا أن الجزائريين قد تصدوا لقوات الاحتلال الأجنبي وحاولوا باستمرار أن

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٠٥.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٥١.

يناضلوا من أجل استرداد السيادة للدولة الجزائرية وإجبار العدو على مغادرة الجزائر وتركها لأهلها الأصليين، لكن قوة العدو وتفوقه في السلاح وحيله المعروفة بانتهاج سياسة "فرق تسد" واستيلائه على ثورات الجزائريين، ساهمت في أضعاف المقاومة الجزائرية وتحقيق حدتها.

وكما سنرى لاحقاً فإن قوات الاحتلال الفرنسي والمستوطنون الأوروبيون قد قاموا بحركة قمع وتعذيب الجزائريين وحرمانهم من الحقوق السياسية إلى درجو أن الجزائريين تحولوا إلى سجناء وعبيد في وطنهم الأصلي[1].

ويبدو أن الشيخ بوعمامة اصطدم بمعارضة كثير من الزوايا المنافسة لزاويته بسبب سياسة المستعمر في إدراك خطورة الزوايا التي كانت الركيزة الأساسية لثورات الأمير عبد القادر، وسيدى السعدي، والمقراني وغيرها، فركز الفرنسيون بعد ثورة المقراني على التغلغل في الزوايا وشراء ذمم بعض قادتها، ويؤكد ذلك تلك الرسالة التي وقعها محمد بن القاسم الحملاوي رئيس إخوان الطريقة الرحمانية بوسط البلاد، والتي يدعو فيها الشعب والقبائل إلى عدم أتباع بوعمامة، والتي قامت السلطات الاستعمارية بنشرها وتعميمها في سائر أنحاء البلاد في نهاية ١٨٨١م. لقد استمرت سياسة المستعمر وسط الطرق الصوفية نشطة طوال القرن التاسع عشر، والثلث الأول من القرن العشرين وهذا هو الذي يفسر اهتمام حركة عبد الحميد بن باديس الإصلاحية على مناهضة المنحرفين في الطرق والزوايا، التي كانت تقود مشعل الثورات الشعبية بين ١٨٣٠ و ١٨٨٠م والتي تمكن المستعمر من التسرب إليها بعد هذا التاريخ والتأثير على هذا المنبع وإضعافه الذي كان وقوداً وداعماً للثورات الشعبية ضد الغزاة[2]، ولم تنقطع الثورات بعد ثورة الشيخ بوعمامة واستمرت ومن هذه الثورات:

- ثورة سكان عين التركي ومليانة بزعامة الشيخ يعقوب ١٩٠١م.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥١.

[2] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٠٧.

- مجازر عين بسام ١٩٠٦م.
- ثورة سكان بني شقران في جبال معسكر ١٩١٤م.
- ثورة سكان الأوراس والهضاب العليا الشرقية ١٩١٦ ، ١٩١٧.
- ثورة سكان التوارق بأزجر والأهفار ١٩١٦ . ١٩٢١م.
- مجازر مدينة قسنطينة في أوت ١٩٣٤م.
- مجازر ٨ ماي ١٩٤٥م بسطيف وقالمة وخراطة وعموشه وغيرها ١٩٤٥م.
- مجازر دوار السطح بتبسة ١٩٤٧م.
- مجازر برج منابل وسيدي علي بوناب بجرجرة ١٩٤٨م.
- تمرد جنود فرقة الرماة الجزائريين بالحراش ١٩٤١م.
- مجازر قرى جبال الأوراس ١٩٥١م . ١٩٥٣م.
- ثورة نوفمبر الكبرى ١٩٥٤م . ١٩٦٢م.

وكانت هذه كخاتمة لها ونهاية وقدم الشعب خلالها حوالي مليون ونصف مليون شهيد[١].

عاشراً: الحكم العسكري الفرنسي بالجزائر

في ٢٢ ديسمبر ١٨٣٣م تشكلت لجنة ثانية موسعة تتألف من ١٩ شخصية وعسكرية ومدنية برئاسة الذوق ديكازيس الذي كان عضو بمجلس الشيوخ الفرنسي وبعد عقد ٥٦ جلسة أكد أعضاء اللجنة الثانية اقتراحات اللجنة الأولى ونصحوا الحكومة الفرنسية ببسط السيادة الفرنسية على القطر الجزائري بأكمله والعمل على استغلال الأرض والسيطرة على جميع ثروات البلاد، وباختصار، فإن اللجنة لم تكن محايدة ولكنها كانت وسيلة لتنفيذ برنامج الحكومة في الجزائر، وكما قال حمدان خوخية: فقد أجمع أعضاء اللجنة على مواصلة الاحتلال وعدم التخلي على الفريسة، لأن الجزائر تقدم لفرنسا

---

[١] المصادر، مجلة فصلية تعني بشئون المقاومة الشعبية، ص: ٣٧.

منافع كثيرة في الميادن الاقتصادية والسياسية والحربية، فهي سوق لترويج بضائعها ومنفى للمشوشين من أبنائها ومركز استراتيجي تستعمله في حروبها وفي نشر سلطانها على البحر الأبيض المتوسط.

واشتمل التقرير الذي قدمته اللجنة الثانية للحكومة الفرنسية بتاريخ ١٠ مارس ١٨٣٤م اشتمل على اقتراحات ذات أبعاد خطيرة تتمثل في:

١ . خلق منصب الحاكم العام بإدخال عناصر جزائرية إلى المجلس البلدي.

٢ . إنشاء مجالس بلدية في كل من الجزائر وهران، وعنابة.

٣ . إنشاء ميزانية خاصة بالجزائر.

٤ . تخفيض عدد أفراد الجيش إلى ٢١,٠٠٠ جندي ونستخلص من ما تقدم أن الجزائر أصبحت تحكم بطريقه عسكرية خاضعة لوزارة الحربية الفرنسية أي أنها لا تنطبق عليها القوانين الفرنسية بصفة طبيعية لأن عندها نظام عسكري خاص بالجزائر.

كما أن السياسة الرسمية لفرنسا أصبحت على أساس وجود حاكم عام ينفذ السياسة العسكرية لوزارة الحرب الفرنسية، وحسب النصوص القانونية التي وردت في الأمر الرئاسي الصادر بتاريخ ٢٢ جويلية ١٨٣٤م، فإن الحاكم العام يعين من طرف مجلس الوزارة بناء على اقتراح من وزير الحربية الفرنسي، وفي البداية أعطيت له كل الصلاحيات بحيث يقوم بإعداد الميزانية التي تدخل في إطار ميزانية وزارة الحرب على تقدم البرلمان الفرنسي، كما أنه يشرف على قضايا جمع الضرائب وفرضها ومعاقبة من لا يدفعها، كما يختص بقضايا العدالة وإشرافه على أعمال رجال القضاء وبصفته الحاكم العام فإنه المسئول الأول عن قضايا الأمن والشرطة وكل المسائل العسكرية، وانطلاقاً من هذا التنظيم الجديد المتمثل في خضوع الجزائر لوزارة الحرب الفرنسية حتى سنه ١٨٧٠م ووجود حاكم عام يشرف على تنفيذ أوامر وزارة الحرب في باريس، فإن الحكومة الفرنسية قد تركت الجزائر لوزارة الحرب لكي توجهها حسبما تقتضي مصلحة القادة العسكريين ومصلحة المغامرين الأجانب

الذين جاؤوا من جميع أنحاء أوروبا للاستيلاء على خيرات الجزائر وتسخير أبناء هذا البلد لخدمة الغزاة بأنجس الأثمان.

وتحقيقاً لهذه الأهداف، تقرر أن يستعين الحاكم العام بستة شخصيات عسكرية ومدنية لإقامة إدارة قوية قادرة على التحكم في مجرى الأمور بالجزائر وإخضاع الجزائريين بالقوة

إلى رغبات الأوروبيين في هذا الإطار العام قام الحاكم العام بتعيين:

١ . قائد للجيش لكي يساعده في الميدان العسكري.

٢ . قائد للبحرية مسؤول عن القوات الفرنسية في قطاعه.

٣ . مسؤول عن القضايا المالية والإدارية في الميدان العسكري وفي الحقيقة أن الحاكم العام لم يكن هو المسؤول المباشر عن هؤلاء المسئولين من الناحية العملية، لأن وزارة الحرب الفرنسية هي التي كانت تأمرهم بما ينبغي عمله في كل خطة، لكن الحاكم العام كان يشرف بطريقة مباشرة وبتنسيق مع وزارة الحرب وعلى المساعدين الثلاثة المدنيين وهم:

١ . المسؤول الإداري المدني: هو الشخص القوي في الجزائر بعد الحاكم العام. إن سلطاته تعادل سلطاته تعادل سلطة عامل العمالة في فرنسا، حيث كانت تسميته في هذا المنصب تأتي من طرف الملك بناء على اقتراح من وزير الحرب في فرنسا ويعتبر هو المحرك الرئيسي للإدارة الاستعمارية لأنه يشرف على توجيه كبار الموظفين الذين يخضعون لتعليماته وأحكامه.

٢ . النائب العام: ويمكن وصفه هنا بالشخصية القوية التي تسيطر على القضاء والقضاة.

٣ . المدير المالي: الذي كان يعتبر بمثابة وزير المالية في الإدارة الاستعمارية إذ أنه كان يشرف على إعداد الميزانية وجمع الضرائب ويتمتع بحق الأمر بالصرف في الجزائر، وأما الهيئة الثالثة التي كانت تقوم عليها الإدارة الاستعمارية بالإضافة إلى الحاكم العام وكبار الموظفين المساعدين له، فكانت تتمثل في مجلس الإدارة الذين يمكن اعتباره هو السلطة

العليا لاتخاذ القرارات الجماعية وفي إمكان الحاكم العام توسيعه وتعيين أعضاء آخرين فيه ويختص هذا المجلس بدراسة قضايا الميزانية في الجزائر، والجباية المالية في الميدان الجمركي، والأمن والعبادات، ومجلس الإدارة هو الذي كان يحدد سياسة فرنسا في الجزائر، وطبعاً فإن وزارة الحربية الفرنسية هي التي ترجع إليها الكلمة الأخيرة في كل مسألة يناقشها مجلس الإدارة ويعرضها عليها للموافقة وإبداء الرأي قبل تنفيذها.

وتقرر في الأمر الرئاسي الصادر في ١٥ أفريل ١٨٤٥م تقسيم الجزائر إلى ثلاث مقاطعات هي: الجزائر، ووهران وقسنطينة، وبهذا الأسلوب تقلصت سلطات الحاكم العام وأصبحت حكومة باريس تسيطر على مجرى الأمور بحيث أن رئيس الدولة الفرنسي هو الذي يصدر المراسيم المتعلقه بالجزائر، ووزير الحرب الفرنسي هو الذي يصدر التعليمات والقرارات الخاصة بالجزائر، وتمشياً مع هذا التنظيم الجديد، تم تعيين مدير إداري ومدير للشؤون الداخلية، والأشغال العمومية ومدير للمالية والتجارة، ووكيل للجمهورية، ومدير للشؤون العربية، والجميع يعملون تحت إشراف مدير الشؤون المدنية، لكن التغيير الجذري في وضعية الجزائر حدث في عام ١٨٤٨م حيث وقعت الثورة وشارك المعمرون الفرنسيون فيها بوفد وطالبوا بإدماج الجزائر في فرنسا بصفة رسمية وإعطائهم ٤ مقاعد في البرلمان الجديد وبالفعل فقد تمكنوا من القيام بضغوط على الحكومة الجديدة وتعيين ٤ نواب لكي يمثلوهم في البرلمان الفرنسي، وقد تحصلوا على هذا المكسب السياسي بمقتضى الدستور الجديد الصادر بتاريخ ٤ نوفمبر ١٨٤٨م والذي نصت المادة ١٠٩ منه على اعتبار الجزائر أرضا فرنسية[١].

وفي الحقيقة أن استراتيجية الجيش الفرنسي في الجزائر كانت تقوم منذ البداية على تحطيم النظام وقوانين العمل الجزائرية في كل منطقة يتم احتلالها وذلك بقصد تكسير العلاقات العائلية وإقامة نظام جديد يحل محل النظام المألوف عند الجزائريين.

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٢٦.

وتحت غطاء المحافظة على الأمن وتوسيع نفوذ الدولة الفرنسية وتوسيع الأراضي الفائضة عن احتياجات كل عرش قامت السلطات العسكرية بالاستيلاء على أراضي الأعراش لأن وجود الأراضي في حوزة جماعات جزائرية يمنع أو يحول دون توسع الاستيطان الأوروبي بالجزائر، كما أن فلسفة فرنسا في الجزائر، كانت تقوم على أساس أن التحكم في الجزائريين وإخضاعهم لنفوذها يتوقف على تحويلهم من مالكين إلى أجراء يعملون لتنمية ثروات المعمرين الأوروبيين[١].

الحادي عشر: لويس نابليون الثالث

إن انتخاب لويس نابليون بونابرت الثالث كرئيس للدولة من طرف الجمعية الوطنية الفرنسية في شهر ديسمبر من عام ١٨٤٨م غير مجرى الأمور بعض الشيء لأن الجمهوريين اليساريين كانوا يظنون أنه سيخدمهم ويعمل على تحقيق مطالبهم فأيدوه، ورجال الكنيسة والمحافظون اعتقدوا أنه ليس مثل عمه نابليون بونابرت الأول الذي كان يتميز بالثورية واستعمال القوة العسكرية فوضعوا ثقتهم فيه غير أن لويس نابليون فاجأ الجميع بانتهاجه سياسة خاصة به وحسب مزاجه حيث استعان بالفلاحين ورجال الأعمال وجندهم للعمل من أجل المحافظة على الاستقرار والأمن، وتخلص من خصومه، وعمل على كسب ولاء الجيش والشرطة وكبار المسؤولين في الدولة. وفي شهر ديسمبر من عام ١٨٥٢م ألغى النظام الجمهوري وأنشأ الأمبراطورية الثانية التي تربع على عرشها لغاية انهزام جيشه في معركة سيدان واعتقاله من طرف بروسيا سنة ١٨٧٠م[٢].

حاول أن يتقرب للشعب الجزائري، فأخرج الأمير عبد القادر من السجن وقال للجنرال روندون الذي عينه وزيراً للدفاع لابد أن تطبق عدالة تامة بين الفرنسيين والأهالي إن هذا

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٦.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٢٦.

فقط هو العدل والشرف والحقيقة.. إنه لا نفع من أخذ جزء من أراضي الأهالي لزيادة حصة الاستيطان، ينبغي إقناع العرب بأننا لم نأت للجزائر لاضطهادهم وتجريدهم من ممتلكاتهم، لكن لكي ننقل لهم محاسن المدنية لنترك الأهالي تربية الخيول والمواشي والفلاحة الطبيعية للأرض ولنترك لنشاط وذكاء الأوروبيين استغلال الغابات والمناجم وتجفيف المستنقعات والري، وإدخال زراعات راقية، وكل ما يتعلق بتطوير الاستعمار[١].

وأصدر الامبراطور نابليون الثالث سنة ١٨٦٥م مرسومه الشهير "سيناتوس كونسيت" الذي أعلن فيه مساواة الجزائريين للفرنسيين في الحقوق والواجبات مع السماح لهم بالرجوع في أحوالهم الشخصية إلى أحكام الشريعة الإسلامية، وقد زار الإمبراطور بلاد الجزائر من ٣ / ٥ إلى ٧ / ٦ / ١٨٦٥م وخطب قائلا: هذا البلد مملكة عربية ومستعمرة أوروبية، ومعسكر فرنسي ولابد من التعامل مع الجزائريين على هذه الأسس الثلاثة. وسخط الكولون على عبارة "مملكة عربية" ورفضوها علناً، وانتقلت المعارضة إلى فرنسا حيث أصدر البرلمان قراراً يتراجع به عن هذه العبارة ويقر: بأن الأهل فرنسي مع استمراره في أن يسير بالقانون الإسلامي، ويمكن إذا رغب أن يكتسب صفة المواطنة الفرنسية كاملة[٢].

وقد استهل خطابه بقوله: إنني أُعدُّ نفسي إمبراطور العرب كما أني امبراطور الفرنسيين وكلهم في نظري متساوون[٣]، ورفض الجزائريون التجنس الفرنسي بحيث لم يطلبه سوى ١٩٤ بين قانون ١٨٦٥م وقانون ١٨٧٠م[٤].

كانت سياسة نابليون ترمي إلى مدى بعيد فإن المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا قد رحلوا إلى الجزائر ثاروا على هذه التسوية المزعومة وقاموا بكل ما لهم من جهد سياسة

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٧٩.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

[٣] الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص: ٨٦٧.

[٤] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

نابليون، مبرهنين بذلك على ما استمروا عليه من تقديم مصلحتهم الخاصة والمستعجلة على مصلحة فرنسا نفسها.

ومن الذين وقفوا ضد الإمبراطور في سياسته الجزائرية الكاردينال لافيجري الذي صرح قائلاً: لابد من إنقاذ هذا الشعب، ينبغي علينا الكف عن تركه وسط قرآنه بواسطة خلق مملكة عربية مزعومة لابد أن تعطيه فرنسا الإنجيل وذلك بدمجه في حياتنا، أو طرده في الصحراء بعيداً عن العالم المتمدن[١].

وعندما تكلم الكاردينال عن البربر قال: لابد من العمل على مناهضة البربر للعرب. وراحت الإدارة تحقق ذلك فعلاً، وشعر رؤساء العشائر القبائلية بذلك فسخطوا على المستعمر، لدرجة أن العقيد والمؤرخ هانوتو كتب يقول: وهذا التوجه: أي العمل على مناهضة البربر والعرب هو الذي ولد ثورة القبائل.

واستغل الكاردينال المجاعة التي عصفت بالشعب سنتي ١٨٦٧ و ١٨٦٨م وجمع في هذه السنة ١٧٥٣ يتيماً بين ثماني وعشر سنوات، ولم يحتج الكاردينال باسم المسيحية التي تسببت في موت مئات الآلاف من الفلاحين بالمجاعة بسبب إفراغها لمطاميرهم من الحبوب بنهبها أو تخريبها بحيث عندما جاء الجفاف بالمجاعة لم يجد الفلاحون في مخزونهم ما يواجهون به الجفاف، والفلاحون عادة يحتفظون في مطاميرهم بما يكفيهم لسنة إضافية على الأقل. راح الكاردينال يعمل على تمسيح هؤلاء اليتامى ويغرس في نفوسهم الكراهية ضد العرب والمسلمين، كان يطلق أمامهم شتائمه ضد العرب والمسلمين فيقول: لقد جمع الإسلام كل المساوئ: الطلاق، الكسل، تعدد الزوجات، السرقة، الشيوعية الزراعية، التعصب، أكل لحم البشر.

طلبت منه السلطات بضغط من الإمبراطور إعادة هؤلاء الأطفال إلى ذويهم فرفض، بل وراح على تمسيح قرى بالشلف مستغلاً المجاعة قائلا للفلاحين: إذا أردتم أن تبقى أرضكم

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨٠.

فتمسّحوا تصيروا فرنسيين. وحسم الإمبراطور الموقف فقال للكاردينال: اكتف بالحفاظ على المسيحية بين مائتي ألف كاثوليكي يعيشون بالجزائر ودع المسلمين يعيشون وشأنهم[١].

وفي الأيام الأخيرة من حكم لويس نابليون، بدأ المعمرون الأوروبيون يفرضون أنفسهم على الساحة الجزائرية ويؤثرون في مجرى الأمور، وخاصة أن سياسة نابليون الداخلية كانت مهزوزة والباريسيون يعارضون مشاريعه الارتجالية، وقد شعر الإمبراطور بضعفه أمام المستوطنين الأوروبيون بالجزائر وحاول إرضاءهم عن طريق إصدار مرسوم يوم ٣١ ماي ١٨٧٠م، بحيث يتحرر رؤساء العمالات الثلاثة في الجزائر من القيود المفروضة عليهم من طرف السلطات العسكرية، وحسب هذا المرسوم فإن رؤساء العمالات صاروا يتمتعون بالإستقلال التام في العمل، والعسكريون لا يسيطرون على المناطق المدنية، وينحصر نفوذهم في المناطق العسكرية وفي يوم ١١ جوان ١٨٧٠م أصدر الإمبراطور مرسوماً آخر يسمح للمستوطنين الفرنسيين بإجراء الانتخابات في المناطق المدينة واختيار الأعضاء الذين يمثلوهم في المجالس العامة، وقد أثارت هذه التنازلات للمعمرين غضب الجيش والحاكم العام مكماهون الذي استقال من منصبه احتجاجاً على سياسة الخضوع للضغوط المتوالية على الإمبراطور لنقل السلطة في الجزائر إلى يد المستوطنين، لكن انهيار الإمبراطورية ووقوع الإمبراطور نفسه أسيراً في يد الألمان كان بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر[٢].

إن سياسة نابليون الثالث في الجزائر كانت مائعة ولم تحقق أية نتيجة بالنسبة للجزائريين سواء بالنسبة لحصولهم على حقوقهم السياسية والمتمثلة في حرية التعبير أو بالنسبة للمساواة مع الفرنسيين المقيمين بالجزائر، وعليه فإن سياسة إدماج الجزائر في فرنسا والمساواة بين الفرنسيين والجزائريين في الحقوق والواجبات لم تتجسم في أرض الواقع وكل

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٥٨١.

[٢] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٧ ، ١٣٨.

ما عمله في حقيقة الأمر هو تمكين قادة الجيش من التصدي لمقاومة الجزائريين في بلاد القبائل وفي الجنوب وتدعيمهم من أجل الانتصار على رجال المقاومة الجزائرية وبذلك حقق رغبة الفئة العسكرية وبالنسبة للمعمرين، فقد ساعدهم على تحطيم مؤسسات الدولة الجزائرية واستبدال تلك المؤسسات بهياكل إدارية جديدة فرنسية سواء في ميدان التسيير الإداري أو القضائي أو المالي[1].

١ . معركة سيدان وأسر الإمبراطور:

انهارت الإمبراطورية الفرنسية بوقوع الإمبراطور نابليون الثالث أسيراً في يد الألمان وكان ذلك بمثابة النهاية للصراع بين المعمرين والحكومة الفرنسية حول كيفية تسيير الجزائر، فالعسكريون الذين انهزموا في معركة "سيدان" فقدوا مصداقيتهم الاجتماعية في الجزائر وفي فرنسا ذاتها، والمجموعة العسكرية المتواجدة بالجزائر لم تعد تتلقى التعليمات من القيادة المركزية، وبذلك تركوا المبادرة للمدنيين لكي يفعلوا ما يشاءوا بالجزائر، وبمجرد تعيين أدولف كريميو كمسئول عن الداخلية في حكومة الدفاع الوطني قام هذا الأخير بإصدار جملة من القرارات في شكل مراسيم لإنهاء الحكم العسكري في الجزائر وإعطاء السلطات المطلقة للمعمرين وبناء على هذه المراسيم الصادرة بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م تقرر:

أ . أن يتم إلغاء منصب الحاكم العام في الجزائر "التابع لوزارة الحرب" ويعوض بحاكم عام مدني، يوضع تحت تصرفه ٣ رؤساء عمالات أو رؤساء مقاطعات إدارية.

ب . أن تنحصر سلطات القائد العسكري في المناطق التي تخضع للجيش فقط ولا يحق له أن يتدخل في الشؤون المدنية.

ج . أن يقوم الحاكم العام الذي يتم تعيينه من طرف مجلس الوزراء "وليس وزارة الحرب" بتطبيق سياسة الحكومة في الجزائر.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٩.

ح . أن يقوم رؤساء العمالات بإنشاء مجالس عامة منتخبة من طرف الفرنسيين فقط، وفي كل مجلس عام يحق لوزارة الداخلية أن تقوم بتعيين ٦ مسلمين.

ثم جاء المرسوم الثاني والذي سمح لليهود أن يأخذوا الجنسية الفرنسية ويشاركوا في الحكم مع الأوروبيين الغزاة وبذلك تبقى الفئة الوحيدة المحرومة من المشاركة السياسية هي أبناء البلد الأصليين الذين حرموا من حق التصويت في الإنتخابات وحق التعبير عن أفكارهم وآرائهم السياسية[١].

وفي يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م جاء مرسوم آخر لإلغاء المناطق العسكرية وتحويل تلك المناطق تدريجيا إلى يد السلطة المدنية وهذا معناه بسط نفوذ المعمرين على جميع المناطق التي كانت تخضع سابقاً إلى سلطة العسكريين[٢].

٢ . إلغاء المكاتب العربية:

وفي إطار هذه القرارات والمراسيم المؤيدة للمعمرين الفرنسيين قررت حكومة الجمهوريين إلغاء المكاتب العربية وحولت تلك المكاتب إلى مكاتب لشؤون الأهالي أو أبناء البلد، والمكاتب العربية تمّ تأسيسها من قبل الجيش الفرنسي للتواصل مع الأعيان والقبائل وكانت في بدايتها مسئولة عن تسهيل عملية الاتصال برؤساء العشائر والتفاوض معهم وإقناعهم بقبول مبدأ التعاون مع فرنسا مقابل التزام هذه الأخيرة باحترام أساليب عملهم والعادات والتقاليد الموجودة عندهم وتوفير الأمن والطمأنينة في مناطق نفوذهم وحماية مصالحهم، ونظراً لازدياد دور هؤلاء العملاء في مساعدة الجيش الفرنسي على احتلال بقية المناطق في البلاد، فقد قرّر الجنرال بيجو في ١٨٤٤م أن يؤسس بصفة رسمية المكاتب العربية ويضع لها الهياكل الإدارية بحيث تصير هذه المكاتب العربية هي الوسيلة الأساسية التي سيستعملها الجيش الفرنسي لإخضاع الجزائريين والقضاء على ما بقي من مؤسسات الدولة الجزائرية، وحسب التنظيم الجديد للمكاتب العربية التابعة للجيش

[١] المصدر نفسه، ص: ١٣٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٣٩.

الفرنسي، فإن إداراة الشؤون العربية على مستوى القيادة العسكرية قد قامت بتأسيس إدارات فرعية لها على مستوى المقاطعات الثلاثة الموجودة بالجزائر وفي كل مقاطعة توجد وحدات للمكاتب العربية من الدرجة الأولى، ووحدات ثانوية من الدرجة الثانية، وباختصار فإن المكاتب العربية تحولت إلى إدارات محلية للتحكم في السكان الجزائريين وفي عام ١٨٦٥م بلغ عدد المكاتب العربية في عمالة قسنطينة ١٥ مكتباً، وفي عمالة الجزائر ١٤ مكتباً، و١٢ مكتباً في عمالة وهران.

وتتشكل المكاتب العربية في كل مقاطعة أو عمالة جزائرية من:

- مدير.
- ضابط مسؤول عن الصحة.
- ضابط مسؤول عن دفع المكافآت المالية.
- مترجمان.
- ضابط صف.
- خوجة "كاتب عربي".
- وكيل الضياف.
- حاجبان "الشاوش".

وبمضي الوقت ازداد نفوذ المكاتب العربية وأصبح دور المسؤولين في هذه المكاتب هو تعيين وخلع المسؤولين المحليين وجمع الضرائب واستصدار قرارات في المسائل الشرعية أو القضائية.

لكن في واقع الأمر تعتبر المهمة الرئيسية لرؤساء المكاتب العربية بصفتهم ينتمون إلى السلطة العسكرية هي جمع المعلومات التي تخدم الجيش وتساعده على تقوية نفوذه، وتتمثل هذه المعلومات على إحصاء الأراضي والتعرف على مجاري المياه، وأخذ فكرة عن

التنظيم السياسي الموجود في أوساط العشائر وتحديد نوعية المداخيل المالية حتى يتمكن الضباط من الحصول على أموال كبيرة عند جمع الضرائب[1].

وبما أن المكاتب العربية كانت تابعة للجيش وتعمل لتدعيم نفوذه، فقد شن المعمرون الأوروبيون حملة شعواء ضد هذه المكاتب واتهموها بأنها مكلفة لهم مالياً إذ أنهم يتحملون التكاليف الباهظة والأموال الكثيرة التي يقوم بتنفيذها رؤساء المكاتب العربية، وبمجرد سقوط الإمبراطورية وانهزام نابليون الثالث واعتقاله من طرف الألمان، تمّ حل المكاتب العربية بقرراين صادرين بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٠ نوفمبر ١٨٧٠م وتحويل المناطق التابعة للمكاتب العربية إلى مناطق مدينة تابعة للنظام المدني الذي يوجد بين يدي المعمرين في المقاطعات أو العمالات الثلاثة[2].

٣ . الحكم المدني في العصر الجمهوري:

تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الأوروبيين سنة ١٨٧٥م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي مجال القضاء أصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

وبعد تحقيق هذه الانتصارات السياسية، حول قادة الجالية الأوروبية أنظارهم إلى مسألة تعمير الجزائر بعناصر أوروبية قادرة على إستغلال الأراضي والإستفادة من الطاقة البشرية المتوفرة بأبخس الأثمان وقد وضع الأوروبيون خطة لجلب ١,٦٠٠,٠٠٠ مهاجر جديد وهذا بقصد الاستيلاء على نصف أراضي العرب سواء بإبعادهم أو عزلهم أو مصادرتها، ثم الاعتماد على الدولة لتمويل مشاريع الإسكان والإقامة. والشيء الذي جعل المعمرين مقتنعين بنجاح خطة مشاركة الدولة في مساعدتهم للتغلب على الصعاب التي تعترض سبيلهم هو تفاقم عدد اللاجئين الفرنسيين القادمين من مقاطعة "الزاس . لورين" التي

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٣١.

[2] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٣٢.

أصبحت تابعة لألمانيا بعد هزيمة فرنسا سنه ١٨٧٠م فالحكومة كانت مجبورة على إيجاد العمل لأولئك الفرنسيين الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد.

ونستخلص من ما تقدم: أن النظام العسكري بعيوبه ومساوئه التي لا تعد ولا تحصى، يعتبر أهون من الحكم المدني في العصر الجمهوري، فبالرغم من تعنت القادة العسكريين واستيلائهم على الأراضي الخصبة لكي يصبحوا هم أسياد البلاد في القطر الجزائري ويقيموا المخططات الواسعة التي مكنت الدخلاء على البلاد من توطيد قدمهم وقهر أبناء شمال أفريقيا، فإن القادة الجمهوريين هم الذين ساعدوا الأوروبيين على فرض إرادتهم على الملاك الجزائريين وتحويلهم إلى مجرد عاملين بالإجرة أو أجبروهم على الهجرة إلى أماكن أخرى للبحث عن العيش. كما أن القادة الجمهوريين هم الذين جاءوا بالبرامج المسطرة لتوسيع نطاق "التعمير الرسمي" وتقديم المساعدات الحكومية الضخمة لإنشاء المشاريع التجارية والعمرانية الخاصة بتسهيل إقامة الجاليات الأجنبية في الجزائر. وأكثر من هذا، عمد قادة الجمهورية الثالثة إلى اتباع سياسة إخضاع تونس والمغرب ووضعها تحت الحماية الفرنسية وبفضلهم أيضا، منحت الجالية اليهودية بالجزائر حق الحصول على الجنسية الفرنسية دون أن يتخلى هؤلاء اليهود عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية وبهذه القرارات استطاع المهاجرون الفرنسيون والأجانب أن يستولوا على مساحات كبيرة من أراضي الجزائر ويضمنون لأنفسهم مستقبلا في شمال أفريقيا.

وبعبارة أخرى، فإن سياسة الجمهوريين في مطلع السبعينات من القرن التاسع عشر، كانت ترمي إلى رفع معنويات المستوطنين الأجانب بالجزائر عن طريق تقديم معونات مالية وعقارية إليهم حتى يتمكنوا من توطيد إقدامهم بالجزائر وتحقيقاً لهذا الهدف، تعهدت الدولة الفرنسية بتخصيص إعانات مالية لبناء المدن والمدارس والعمارات في

الأماكن التي يقطنها الفرنسيون وتوفير القروض لرجال الأعمال الذين يرغبون في القيام بمشاريع تجارية، كما قدمت الحكومة تسهيلات بشأن الهجرة إلى الجزائر ووضعت تحت تصرف المهاجرين الجدد الأراضي الشاسعة لاستغلالها دون مقابل وتجسدت هذه السياسة في القانون يوم ٢١ جوان ١٨٧١م والذي وافق فيه مجلس النواب الفرنسي على منح ١٠٠,٠٠٠ هكتار للاجئين الفرنسيين من ألزاس ـ لورين. كما اقترحت لجنة برلمانية مصادرة ٣٤٠,٠٠٠ هكتار من أراضي الجزائريين وذلك لتسكين الوافدين الجدد على الجزائر، ولم يكتف البرلمان بهذا، بل استغل ثورة الجزائريين على فرنسا سنه ١٨٧١م وأعطى موافقته على فرض "ضريبة الحرب الإجبارية" كعقاب على حمل الأسلحة ضد فرنسا.

وبعد عامين من تدفق المهاجرين الفرنسيين والأجانب على الجزائر إتجهت نية قادة الجمهورية إلى توسيع رقعة المعمرين على حساب ملاك الأراضي الجماعية حيث تقرر أن لا يسمح لأهل البلد الأصليين بأي شبر من الأراضي يفوق ما يستطيعون خدمته من الأرض، كما نص قانون ٢٦ جويلية ١٨٧٣م الذي أقره مجلس النواب الفرنسي على اعتبار كل الأملاك العقارية خاضعة للقانون الفرنسي. وهذا يعني أن أراضي الوراثة ينبغي أن تقسم وأنه لم يعد من حق المسلمين المحافظة على الأملاك الجماعية التي هي عادة مرعية في الشريعة الإسلامية، وزيادة على ذلك فإنه نتج عن هذا القانون نوع من المضاربة والتسابق إلى التخلص من الأراضي، الشيء الذي أدى إلى قيام نزاعات وحزازات محلية بين المواطنين الجزائريين، ثم أن الفرنسيين أنفسهم استغلوا هذه النقطة بالذات وحرضوا الملاك الصغار والورثة على المطالبة بحقوقهم للتغلب على خصومهم في حالة ما إذا آلت قضاياهم إلى المحاكم لتبت في الأمر، ومما لا شك فيه ولا جدال هو أن عدداً لا يستهان به من سكان البلد الأصليين قد خسروا أراضيهم في النهاية وذلك نظراً لقلة إلمامهم

بالإجراءات القانونية الدقيقة التي ينبغي إتباعها لإثبات حقوق الملكية وربح المعركة ضد المهاجرين الأجانب[1].

٤ . سياسة المستوطنين بعد سنة ١٨٧٠م:

بمجرد الإطاحة بحكومة نابليون الثالث يوم ٢ سبتمبر ١٨٧٠م وإلقاء القبض عليه وسجنه في ألمانيا لغاية ١٨٧١م ثم نفيه إلى بريطانيا حيث مات ١٨٧٣م جاءت حكومته الدفاع الوطني لتتخذ إجراءات خطيرة لصالح المستوطنين الأوروبيين في الجزائر وتحقق جميع مطالبهم ومالت الكفة لصالح المستوطنين الأوروبيين الذين استولوا على السلطة في الجزائر وأصبحوا هم يسيرون البلاد ويحكمونها بأسلوبهم الخاص لغاية أول نوفمبر ١٨٥٤م.

وباختصار فإن المستوطنين الأوروبيين بالجزائر قد قاموا بإعداد برنامج سياسي مكثف لتدعيم نفوذهم في الجزائر وإقامة نظام سياسي يخدمهم للأبد[2].

وتتمثل السياسة الجديدة في دمج الجزائر بفرنسا وذلك عن طريق إصدار ٣٦ مرسوماً تتعلق بالجزائر وبانتقال السلطة من يد العسكريين إلى يد المستوطنين الأوروبيين ومن أهم هذه المراسيم نخص بالذكر:

- المرسوم الصادر يوم ٤ أكتوبر ١٨٧٠م والمتعلق بمنح ٦ مقاعد في البرلمان الفرنسي بدلاً من ٤ فقط عام ١٨٤٨م، وبالتالي تقوية التمثيل السياسي للأوروبيين في فرنسا.
- المرسوم الصادر يوم ٨ أكتوبر ١٨٧٠م والذي انشئ بموجبه منصب الحاكم العام المدني الذي يحكم في ٣ ولايات بالجزائر ويتراسل مع وزراء فرنسا "وليس وزراء الحرب" كما كان الحال سابقاً.

[1] المصدر نفسه، ص: ١٤٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

- المرسوم الصادر بتاريخ ١٠ نوفمبر ١٨٧٠م الذي يسمح للمعمرين الأوروبيين أن يعينوا الولاة في المناطق التي تخضع للحكم العسكري، أي يتحكم المدنيون في المسئولين العسكريين.
- المرسوم الصادر يوم ٢٤ ديسمبر ١٨٧٠م الذي سمح للمستوطنين الأوروبيين أن يوسعوا نفوذهم إلى المناطق التي يسكنها المسلمون الجزائريون والتي تديرها شخصيات جزائرية معينة من طرف فرنسا وكذلك إلغاء المكاتب العربية في المناطق الخاضعة للحكم المدني.
- المرسوم الصادر بتاريخ ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م والمعروف بـ"مرسوم كريميو" وهو الذي سمح فيه لليهود أن يحصلوا على الجنسية الفرنسية والتمتع بجميع الامتيازات التي يخولها القانون للرعاية الفرنسيين دون أن يتخلى هؤلاء عن عقيدتهم أو حقوقهم المدنية.

هذه المراسيم قد جاءت لتحقيق رغبات المستوطنين الأوروبيين المتمثلة في تقوية عدد السكان الأوروبيين واليهود حتى تنجح سياسة الإدماج بسرعة وفعالية والقضاء على المكاتب العربية التي تقوم عادة بالجوسسة لحساب القيادة العسكرية بالجزائر[١].

وبعد تحقيق هذه الانتصارات السياسية، حول قادة الجالية الأوروبية أنظارهم إلى مسألة تعمير الجزائر بعناصر أوروبية قادرة على استغلال الأراضي والاستفادة من الطاقات البشرية المتوفرة بأرخص الأثمان وحسب بعض الإحصائيات الواردة في المصادر الفرنسية، فإن المستوطنين الفرنسيين والأجانب كانوا يطمحون إلى جلب حوالي ٢ إلى ٦ أو ٧ ملايين، إلا أن الرقم الحقيقي الذي كانوا يعملون على تحقيقه هو ١,٦٠٠,٠٠٠ مهاجر جديد، وسعياً وراء تحقيق هذا الهدف رسموا خطة محكمة تتلخص فيما يلي:

- أخذ نصف أراضي العرب سواء بإبعادهم وعزلهم أو مصادرتها ثم الاعتماد على الدولة لتمويل مشاريع الإسكان والإقامة والشيء الذي جعل المستوطنين مقتنعين بنجاح خطة مشاركة الدولة في مساعدتهم للتغلب على الصعاب التي تعترض سبيلهم هو تزايد عدد

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥٧.

اللاجئين الفرنسيين القادمين من مقاطعة "الألزاس ـ لورين" التي أصبحت تابعة لألمانيا بعد هزيمة فرنسا في سنة ١٨٧٠م.

فالحكومة مجبرة، في هذه الحالة، على ايجاد العمل لأولئك الفرنسيين الفارين من المنطقة المحتلة، والمكان الوحيد الذي يسعهم هو الجزائر التي في إمكانها أن تستوعبهم وتجنب الحكومة الفرنسية قضية مزاحمة سكان فرنسا من طرف اللاجئين الجدد[1].

ـ منح الجنسية الفرنسية لجميع الأوروبيين وتوسيع القاعدة بحيث تعطي الجنسية الفرنسية بصفة أوتماتيكية لجميع أبناء الأوروبيين المولودين بالجزائر.

وفي هذا الإطار أعلن "ميزفيل" أول رئيس لمحكمة الجزائر بأنه يتعين على جميع السكان أن يذوبوا في الحضارة الفرنسية وأن يدركوا أن قدوم شعب من الشمال جاء ليستقر، وأكد أن الشكل الذي يواجه سياسة الإدماج هو وجود مجتمعات مختلفات في كل شيء: في العقيدة، في الفكر، في العادات وفي التقاليد، ولذلك لا يمكن دمجهما إلا بإبتلاع شعب لشعب.

ـ في برنامج المستوطنين الأوروبيين بعد سنة ١٨٧٠م سياستهم هي القمع ومصادرة أراضي الجزائريين وخاصة بعد الثورات العارمة من سنتي ١٨٧٠م، ١٨٧١م ويظهر هذا الاتجاه بوضوح في تعليق لأول رئيس للجمهورية الثالثة الذي قال: بأنه: يمكن للعرب أن يقوموا بثورات لكن سيتم إحتواءهم أو إتبلاعهم.

ففي سنة ١٨٧١م قام المستوطنون الفرنسيون بالاستيلاء على ٥,٠٠٠,٠٠٠ هكتار حيث قامت الدولة بمصادرتها على أساس أنها أملاك عامة. كما قام الحاكم العام "قيدون" بفرض غرامات مالية على ٢٩٨ بلدية قام ساكنوها بثورات ضد فرنسا، قدرت بـ ٣٦,٢٨٢,٢٩٨ فرنك دفعها المسلمون كتعويض عن الحرب.

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٥٩.

وللحصول على الأراضي التي يحتاجها المستوطنون الأوروبيون، قامت الولاية العامة بمصادرة أراضي ٣١٣ بلدية قدرت مساحتها بـ ٢,٦٣٩,٦٠٠ هكتار. أما الأراضي التي لا يحتاجها المستوطنون، فقد تقرر السماح ببيعها إلى المسلمين الجزائريين بسعر ٥٠ فرنك للهكتار إذا كانت الأرض مثمرة و١٠ فرنكات إذا كانت غير مثمرة.

وكان المقصود من هذه السياسة هو تفقير الناس وتجويعهم عن طريق إجبارهم على بيع ما عندهم من بقر وغنم وأراضٍ لدفع الديون المفروضة عليهم[١].

بعد أن فشلت فرنسا في حربها أمام الألمان، حولت هزيمتها بدافع مراكب النقص إزاء الألمان إلى مركب العظمة أمام الشعب الجزائري المجاهد في سبيل حريته وكرامته وحقه في الحياة الكريمه.

فراحت تفرض عليه الغرامات العسكرية والمساهمة بطريقة غير مباشرة في دفع التعويضات العسكرية التي فرضتها ألمانيا على فرنسا، فكلما ازداد شعور فرنسا بالضعف في أوروبا ازداد بطشها بالجزائريين.

مع اختفاء عبارات، الشرف العسكري، والمملكة العربية التي تعود الشعب الفرنسي سماعها من نابليون الثالث.

شجعت حكومة الجمهورية الثالثة الفرنسية حركة الاستيطان ونهب الأرض من الفلاحين الجزائريين، لقد عكست فرنسا تلك المهانة التي فرضتها عليها معاهدة فرانكفوت على بطشها في الجزائر من باب التعويض في علم النفس، فاقتطعت مئات الآلاف من الهكتارات المسروقة وملكتها لسكان الألزاس واللورين ومنحتهم الأرض لقاء إيجار رمزي يبلغ فرنكاً واحد سنوياً للهكتار، على أن تصير ملكاً لهم بعد تسع سنوات من الاستقلال[٢].

وتتلخص سياسة المستوطنين الفرنسيين في عهد الجمهورية الثالثة فيما يلي:

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٦٠.

[٢] الجزائر في التاريخ، ص: ١٦٢.

. حصول المستوطنين الأوروبيين على حقوقهم السياسية أي إقامة مؤسسات مدنية تخدم مصالح هذه الفئة الأوروبية المقيمة في أرض الجزائر.

. التمثيل التام في البرلمان الفرنسي، وفي المجتمعات والبلديات المحلية.

. ربط الإدارة في الجزائر بالوزارات المركزية في فرنسا.

. نقل السلطة من يد العسكريين إلى يد المدنيين الأوروبيين في إطار الحكم المدني.

. بيع أراضي الأعراش للمعمرين أو المستوطنين الأوروبيين والتخلص من الدواوير الجزائرية التي تعاونت مع السلطات العسكرية وكانت تحد من نفوذ سلطات الحكم المدني.

. جعل أراضي الجزائريين ملكية فردية وجاهزة لبيع وبذلك يتمكن المستوطنون الأوروبيون من التوسع في كل مكان في الجزائر.

. إقامة تجمعات سكنية في مناطق محدده للعرب وباختصار الإدماج والحقوق السياسية لجميع الأوروبيون، أما الجزائريون فهم لا يريدون أي شيء ولا يحتاجون أي شيء.

فالمستوطنون بعبارة أخرى يريدون الأدماج وضم الجزائر إلى فرنسا لكن بشروط تتمثل فيما يلي:

. الامتناع عن دفع الضرائب.

. عدم أداء الخدمة العسكرية في الجيش.

. عدم دفع أية تكاليف مالية.

. إعتبار ٣٥,٠٠٠ مواطن أوروبي عدد كافي للحصول على نائب يمثلهم في البرلمان الفرنسي.

ولكي تكتمل سياسة الإدماج في فرنسا، فقد دعا لافيجري إلى انتهاج سياسة قوية للتبشير بحيث تجعل من الجزائريين مجموعة الكاثوليكيين المتحضرين، مثلما كانوا أجدادهم من قبل على حد قوله.

وبناء على ما تقدم فقد قرر تقديم مساعدات مالية سخية لكل مشروع يهدف إلى دمج السكان المسلمين في فرنسا[1].

لقد عمل المستوطنون الأوروبيون منذ سنة ١٨٧١م على الإنفراد بالسلطة في الجزائر وحرمان المسلمين من أي تمثيل سياسي أو الحصول على الجنسية الفرنسية وتركزت خطتهم على:

- التخلص من رؤساء القبائل أو الشخصيات الجزائرية التي تعاونت مع المكاتب العربية.
- إنهاء العمل بالشريعة الإسلامية وتطبيق القوانين الفرنسية.
- إلغاء المكاتب العربية في جميع أنحاء الجزائر.
- تحويل المناطق العسكرية إلى الحكم المدني[2].

٥ . قانون الأنديجينا:

وابتداء من عام ١٨٨١م جاء الأوروبيون بقانون جديد يسمى "قانون الأنديجينا" وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسح الهوية الجزائرية واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للأوروبيين، وقد بقي ساري المفعول حتى سنة ١٩٤٤م، ومن خلال هذا القانون حدد المستوطنون إجراءات معاقبة المسلمين وإجبارهم على دفع الضرائب بدون نقاش، ومنعهم من حمل السلاح، وعدم الذهاب إلى الحج بدون رخصة مسبقة، وإظهار الطاعة التامة لسلطة الأوروبيين.

وقد بدأ يستفعل خطر القضاء على الشخصية الوطنية للمسلم الجزائري يوم قرر المستوطنون الأوروبيون تعيين مسؤولين إداريين لتنفيذ العقوبات الواردة في قانون الإنديجينا وذلك بأساليبهم الخاصة.

وقد نجح هذا القانون في قمع الجزائريين وكان القائمون على تنفيذ هذا القانون من المستوطنين وحسب النصوص القانونية فإنهم لا يخضعون لسلطة الوالي أو رئيس أية بلدية

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٦٩.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٦٩.

أو القضاة. وهم في الحقيقة عبارد عن ضباط بدون مراقبة ينفذون الأحكام ويفرضون الغرامات على المسلمين، وفي بعض الأحيان يتحولون إلى قضاة ورجال أمن ينفذون أحكامهم وقراراتهم بأنفسهم على السكان المسلمين وبصريح العبارة، فإنهم أداة لقمع المسلمين لأنه لا توجد سلطة أخرى تلغي قرارات هؤلاء الإداريين الذين تحولوا إلى وكلاء للمحاكم القمعية ابتداء من سنة ١٩٠٢م، وعندهم سلطات مطلقة لتأديب وفرض العقوبات، فالمسلم الذي ينتقل بدون رخصة يدفع غرامة، وإذا لم يستطع دفعها يذهب إلى السجن. وهؤلاء الإداريون مثل رؤساء البلديات يعملون ليلاً ونهاراً لإستغلال المسلمين، والحصول على أموال منهم ونهب ثرواتهم بأية صفة كانت[١].

٦ ـ استغلال الفرنسيين لإمكانات الجزائر:

في عهد الجمهورية الثالثة أدخل الكولون زراعة الكروم التي بنيت عليها صناعة النبيز في بلد مسلم لا يتعاطى الكحول، لتحل محل زراعة الحبوب والبقول، وكان الكولون يصرون على أن يكون لمستعمرة الجزائر وضع خاص له نوع من التميز عن فرنسا، حتى تطلق أيديهم يعيشون فيها مثل ما يريدون وفي سنه ١٩٥٥م تحقق لهم ذلك، فقد عين جونار في منصب الحاكم العام الذي كان يطالب بتحقيق هذه الفكرة منذ ١٨٩٢م، استطاع أن يصدر ميزانية خاصة للمستعمرة وأن يبرز كياناً خاصاً لها جعله يمتص الأزمة التي اندلعت بين الكولون الزراعيين واليهود التجار وصدر قانون ١٩ / ١٢ / ١٩٥٥م الذي يعترف بنوع من التميز لشخصية الجزائر، كمستعمرة طبعاً وليست ككيان مستقل وقد تركت النفقات العسكرية خارج إطار ميزانية الجزائر.

في أوائل القرن العشرين زاد استغلال الفرنسيين لإمكانيات الجزائر الاقتصادية والبشرية، فزادت مساحة المزارع، الكولونيالية وزاد استغلال المعادن والغابات والصيد البحري ووصل في سنة ١٩١١م عدد من المستوطنين إلى ٧٥١,٠٠٠. وفي سنة ١٩٠٨م كانت فرنسا

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ١٧٣.

قد بدأت تعد مشروعاً للتجنيد الإجباري يطبق على الجزائريين، واضطر العديد من الأسر الجزائرية إلى الهجرة لأقطار المشرق العربي وبخاصة سوريا وفلسطين هروباً بأبنائهم حتى لا يجندوا بالجيش الفرنسي الذي رأوا فيه خطراً على دينهم، وصدرت مراسيم الخدمة الإجبارية العسكرية على الجزائريين في ٣١ / ١ و ٣/ ٢/ ١٩١٢م ثم اندلعت الحرب العالمية الأولى وجند الجزائريون في الجيش الفرنسي وكانت مرحلة جديدة ظهرت بعدها مباشرة تنظيمات الحركة الوطنية الجزائرية[١]، يأتي الحديث عنها في الجزء الثاني من حديثنا عن كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٧ . الأقلية الأوروبية في الجزائر:

إن الأقلية الأوروبية في الجزائر مارست ضغوطاً على جميع الحكومات الفرنسية منذ ١٨٣٠م إلى ١٩٥٥م بحيث نجحت الخطة المرسومة والتي اشتملت على ثلاث مراحل متتالية:

المرحلة الأولى: تتمثل في إدماج الجزائر في فرنسا من الناحية القانونية، أي اتخاذ الإجراءات القانونية التي تسمح بإبتلاع الجزائر وجعلها جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وفي هذا المجال، نشير إلى بعض القوانين التي تم سنها بقصد ضم الجزائر إلى فرنسا وهي:

- مرسوم ٢٢ جوان ١٨٣٤م الذي نص على إعتبار الجزائر جزء من الممتلكات الفرنسية.
- مرسوم ٤ مارس ١٨٤٨م الذي نص على أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا.
- قانون ٤ جويلية ١٨٦٥م الذي نص على إعتبار المسلمين الجزائريين رعايا فرنسيين.
- مرسوم ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م الذي أصبحت الجزائر بموجبه تشكل ٣ مقاطعات فرنسية والقوانين الفرنسية تطبق على الجزائريين المسلمين.
- مرسوم ٢٩ مارس ١٨٧١م الذي نص على تعيين حاكم عام مدني في الجزائر خاضع لسلطة وزير الداخلية الفرنسي.

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٢٠.

- قانون ٢٣ مارس ١٨٨٢م الخاص بإنشاء دفاتر الحالة المدنية للمسلمين الجزائريين.
- قانون ١٩ ديسمبر ١٩٥٥م الذي يسمح للجالية الأوروبية في الجزائر أن تنشئ المجلس المالي، ثم المجلس الجزائري فيما بعد، وذلك لكي تحكم قبضتها على الجزائر وتمنع السكان المسلمين من الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية وحقهم في الحصول على تمثيل نيابي عادل سواء في المجالس البلدية أو المجلس الجزائري.

وأما المرحلة الثانية: أو الخطوة المكملة للإندماج من الناحية القانونية فتتمثل في الاستيلاء على الأراضي الخصبة وإعطاء الجنسية لجميع المهاجرين والمقيمين الأجانب في الجزائر والحصول على دعم مالي من الدولة لبناء المدن الصغيرة في جميع أنحاء الجزائر.

لم يكن للمستوطنين الأوروبيين في الجزائر أموال، عندما قدموا إليها لأنهم جاءوا أساساً إلى الجزائر بحثاً عن العمل والعيش فيها، ونظراً لفقرهم وعدم توفر أموال لديهم، قامت الدولة الفرنسية بتخصيص أموال طائلة لإستثمارها في بناء المدارس والطرقات وشراء الأجهزة والمعدات الزراعية وإعطائهم أراضي بدون مقابل لاستغلالها والتمتع بخيراتها على حساب المواطن الجزائري الذي لا يجد من يمد له يد المساعدة. وبهذا الأسلوب الخبيث، ساهمت الدولة الفرنسية في تحطيم عنصر بشري "جزائري" وإثراء عنصر أوروبي دخيل على البلاد، وذلك عندما قامت بتسخير مواردها وموارد السكان المحليين لدعم الأوروبيين وتمكينهم من إخضاع أبناء البلد لنفوذهم السياسي وقوتهم المالية[١].

وعندما اكتملت المرحلة الأولى "مرحلة الإدماج" والمرحلة الثانية "مرحلة جلب المهاجرين" وذلك في بداية القرن العشرين، جاءت المرحلة الثالثة، كتتويج للمرحلتين السابقتين وهي إعطاء الجالية الأوروبية حكم ذاتي يسمح لها بإستعمال الغش والمناورات والدسائس لفرض نفوذها على الجزائريين والتحكم فيهم إلى الأبد لقد كانوا يظنون أن قوانين الإدماج وتحالف الأوروبيين واليهود ووجود هيآت تشريعية ومجالس بلدية شكلية يتحكمون فيها

---

[١] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٢٠٠.

عن طريق الغش في الإنتخابات وإنتقاء العملاء لملء المقاعد المخصصة للجزائريين المسلمين سوف تمكنهم من سد جميع الأبواب الحديدية في وجوه الجزائريين المقهورين في أرض آبائهم، وأجدادهم[1]، لكن الله أراد شيئاً آخر متمثلا في إعداد جيل جديد ليقوم فيما بعد بتوفيق الله ومنه بإحراز نصر عظيم على الغزاة الغاصبين.

الثاني عشر: التبشير بالنصرانية في الجزائر

عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين.

. وتأسيس كنيسة جزائرية. كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنه ١٨٣٨م وعمل من أجل استعادة الكنيسة الأفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر وأعطاها اسم كنيسة سان فيليب، وعندما مات سنة ١٨٦٤م دفن بها وهو الذي أعاد بقايا القديس اوغستين إلى عنابة سنة ١٨٤٢م في احتفالات كبيرة حضرها أساقفة فرنسا وهو الذي حول عدة مساجد إلى كنائس مثل جامع علي بتشين بالعاصمة، وجامع سوق الغزل بقسنطينة وجامع بني عامر بوهران، وهو الذي بنى كنائس في كل المدن التي دخلها الجيش الفرنسي وهو الذي عمل على منح مساجد وزوايا لجمعيات مسيحية كالجزويت، وأقام هو في قصر الأميرة عزيزة بقسنطينة وهو من قصور باي قسنطينة. واستدان دوبوش أموالاً كثيرة أنفقها على مشاريعة التنصيرية، وعجز عن سداد الديوان فتابعه الدائنون فهرب إلى إيطاليا وتولى أسقفية.

. الجزائر بعده لوي بافيه سنة ١٨٤٨م واستمر حتى ١٨٦٦م وهو الذي اعترف بعدم نجاح عملية تنصير الجزائريين بالمدن، كما اعترف بفشل الجزيويت في تنصير القبائل وهو الذي بنى كنيسة السيدة الأفريقية بمكان عال يشرف على البحر بالعاصمة والتي بدئ في

[1] التاريخ السياسي للجزائر، ص: ٢٠٠.

بنائها سنه ١٨٥٨م ودفن عند وفاته سنه ١٨٦٦م في كنيسة السيدة الأفريقية وروي أنه مات حزيناً لأنه لم يحقق طموحه في تنصير الجزائريين[١].

١ . لافيجري ذروة التبشير في الجزائر:

خلف لوي بافيه على رأس الأسقفية لافيجري الذي سيطر على عملية التبشير من ١٨٦٧م وحتى سنة ١٨٩٢م ضمن خطة شاملة استهدفت إدماج الجزائريين في الشخصية الفرنسية عن طريق التنصير والفرنسة وقد سبق للافيجري أن عمل في سوريا وتعلم العربية وحضر أحداث ١٨٦٠م بدمشق التي تدخل الأمير عبد القادر بها وأنقذ مسيحيي دمشق من الإبادة، وصل لافيجري الجزائر سنه المجاعة وبعد مرسوم ١٨٦٣م الذي جرد الجزائريين من أراضيهم وأفقر الناس بمن فيهم الوجهاء[٢].

أ . الظروف العامة لمجاعة عامي "١٨٦٧م . ١٨٦٨م":

اشتد البلاء على الجزائريين وزادت النكبات من سنة ١٨٦٦م حتى ١٨٦٨م بنكبات عديدة اختباراً وامتحاناً من الله عز وجل للشعب وكانت أقسى ما تكون على السكان الجزائريين ولاسيما الفلاحين وعامة الناس منهم، وتمثلت هذه الابتلات والاختبارات الربانية في الزلازل التي ضربت مدينة البليدة وضواحيها والذي تسبب في ضحايا كثيرين وفي هجوم الجراد والجفاف ووباء الكوليرا والتيفوس، وقد تظافرت هذه النكبات كلها فأدت إلى ظهور أزمة اقتصادية وسياسية، نتجت عنها مجاعة عامة بالجزائر سنة ١٨٦٧م واستمرت إلى اواخر ١٨٦٨م. هجم الجراد على الجزائر في افريل ١٨٦٦م، فعم السهل المتيجي وكل المناطق المجاورة له وامتد إلى مدينة المدية وأتلف كل المحاصيل الزراعية، بحيث أصبحت حقول القمح والشعير . وهي أمل السكان ومصدر رزقهم وغذائهم الأساسي، خالية تماماً من الغلة، ولم تكد تنتهي كارثة الجراد حتى شمل الجزائر جفاف عام، وقد كان الأوروبيون أقل الذين تعرضوا لنتائج هذا القحط لأنهم كانوا يملكون أحسن الأراضي

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٣٧.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٦٣٧.

وأكثرها ماء بخلاف الفلاحين الجزائريين الذين كانت السلطة الاستعمارية قد استولت على أراضيهم ووزعتها على المعمرين حينما اتبعت في العهد الإمبراطوري سياسة التهجير والاستيطان للعنصر الأوروبي.

وتبعت هذا الجفاف أمطاراً غزيرة جداً وثلوج قوية أتلفت المحاصيل الزراعية الضعيفة وقتلت المواشي والأغنام فأضاعت بذلك بعض القبائل أغنامها، وثلث ثيرانها بسبب الجفاف، فتشرد المنكوبون، وانتهجوا طرق التسول وخاصة بمنطقة الجنوب والهضاب العليا وتوزعوا في البلاد لطلب العمل أو العشب لما تبقى لهم من الأغنام[١].

وقد اضطرتهم هذه الظروف القاسية على بيع خيولهم بأبخس الأثمان وحلي النساء للحصول على الحبوب والبذور بعد أن استهلكوا كل مخزون مطاميرهم واستنفذوا ما عندهم من المواد الغذائية، فالأرض لم تعد قادرة على الإنبات وارتفعت أسعار الحبوب.

لقد تظافرت هذه العوامل الطبيعية، فكانت أحد الأسباب الهامة في ظهور بلية كبرى كمنت في المجاعة العامة التي هلك بسببها الكثيرون ثم حدث وباء الكوليرا والتيفوس الذي زاد الطين بلة، فانتشر الجياع في البلاد وكثر، وأصبحوا يقتاتون بالجذور والأعشاب والكلاب، بل أن البعض منهم نبشوا القبور وأكلوا جثث الموتى، وذكر البعض بأنهم أكلوا حتى الأحياء من البشر، وبلغ الأمر ببعضهم أن أصبحوا يتنازعون على المزابل والفضلات بالمدن. ويذكر الأب برزي الذي كان قسيساً على مدينة الشبلي بمتيجة" إن الجياع كانوا يفدون إلى المراكز الأوروبية بالمدن منهوكي القوى عراة، وقد غابت عنهم الصورة البشرية، إذ أصبحوا هياكل عظمية.

وامتلأت الشوارع بالمتسولين، وتضاعفت الاعتداءات لا من أجل الحصول على القوت، وإنما من أجل أن يقبض على المعتدي ويزج به في السجن ليضمن قوته بصفة مستمرة ومنظمة. وبطبيعة الحال كان المعمرون يحرسون ضيعاتهم، يدعون انهم كانوا مهددين

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية خديجة بقطاش، ص: ١٠٢.

مستعملين في ذلك بنادقهم الخاصة، ومما زاد الأمر خطورة انتشار وباء الكوليرا بشكل واسع وسط الجزائريين، أما الأوربيون فقد نجوا منه لتوفر الوقاية الصحية لديهم[1].

ب . عدد الضحايا:

ويضيف الأب برزي قائلاً: إنه ليصعب علينا التعرف على العدد الحقيقي للضحايا وهو يقدره بحوالي ٢٥٠ ألف ضحية، وحسب تقدير الجنرال آلار في التقرير الذي قدمه إلى أعضاء المجلس التشريعي في مارس ١٨٦٨م فإن عدد الضحايا بلغ سنة ١٨٦٧م ٨٩,٥٧٧ ضحية، ٨٦,٧٩١ من الجزائريين، ويبدو من هذا محاولة إخفاء للحقيقة المرة بالجزائر، أما جريدة المرشد الجزائري فتذكر بأن العدد بلغ ١٢٨,٨١٢ ضحية في الأشهر الأربعة الأولى عام ١٨٦٨م.

ج . موقف فرنسا من المجاعة:

أمام هذه المصيبة أشعر إسماعيل عربان نابليون الثالث بخطورة الوضع فرأى الإمبراطور أن يكاتب الجنرال ماكمهون الحاكم العام آنذاك بالجزائر ويبدو أن هذا المسؤول العسكري لم يطع الإمبراطور على حقيقة المجاعة، ومما قاله نابليون الثالث: لا ترغب فرنسا في أن يقال عنها يوماً ما أنها تركت الخاضعين لحكمها يموتون جوعاً.

يبدو أن مكماهون عمل على فتح ورشات عمل في الجهات الخاضعة للنظام المدني وملاجئ كانت عبارة عن محتشدات عسكرية جمع فيها هؤلاء المنكوبين لا من أجل إسعافهم وإنما لتوفير الأمن للأوروبيين، كما أنه وزع صدقات على الجائعين، غير أن التقارير الشهرية لعام ١٨٦٨م تذكر حقائق مفجعة بسبب المجاعة وتصفها بالمصيبة الكبرى.

---

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٠٣.

خصصت الحكومة مبلغاً قدره ٤٠٠ ألف فرنك في جانفي ١٨٦٨م مبلغاً قيمته مليونين من الفرنكات في مارس من نفس السنة، لكن هذه المبالغ لم تكن لتكفي لإيصال الحبوب في وقتها المناسب كما كانت هذه المساعدة ارتجالية وغير منظمة[1].

شكلت هذه المأساة أزمة سياسية حادة في الجزائر، عاشها المستوطنون بمختلف فئاتهم، حيث فتحت باباً لأعداء النظام العسكري، وكانت هذه الأزمة ونتائجها محور مقالاتهم بمختلف الجرائد وآتتهم المعارضون لهذا النظام العسكري وردّوا سبب هذه المصيبة إليه، وإذا كان دعاة النظام المدني قد أرجعوا سبب الكارثة إلى النظام العسكري، والبعض الآخر، إلى الكوارث الطبيعية كهجوم الجراد والجفاف فإن الأعيان الجزائريين ردوها إلى سوء تصرف السلطة الفرنسية مع أبناء الوطن الذين أخذت أراضيهم غصباً.

وأما الكردينال لافيجري، فقد ردّ السبب إلى الاقطاع "الأهلي" ويبدو أن هذا غير صحيح لأن الديون التي ترتبت على الملاك الكبار من الجزائريين إثر انقاذهم للجياع كانت كبيرة بحيث أفرغوا مطاميرهم وخسروا ثرواتهم، ومن بين هؤلاء الباشاغا المقراني الذي لعب دوراً عملياً في إغاثة المنكوبين، فبدعوة من الجنرال مكماهون الحاكم العام، تسلف المقراني من السيد مسرين اليهودي وكان يملك سهماً في بنك الجزائر . مبلغ ثلاثمائة وخمسين ألف فرنك في شكل وصولات إلى حساب البنك الجزائري، ولم يلبث المبلغ أن ارتفع مع الأرباح إلى نصف مليون فرنك واقترض من السيد عبّادي اليهودي أبو قاية بسطيف، فارتفعت ديونه إلى مليون فرنك خصها لإنقاذ الجياع من الموت وإعانة الفلاحين على حرث أراضيهم واضطر في الأخير إلى أن يبيع بعض أملاكه لتسديد بعض الديون فيما بعد[2].

٢ . فلسفة التبشير لدى لافيجري:

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٤.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٠٥.

يعتبر الكاردينال لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير، وطبعتها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين وهو يمثل خلال سنوات ١٨٦٨م - ١٨٩٢م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة أفريقية ويعود ذلك إلى ما يلي:

- النشاط الفعّال الذي أبداه في نشر المسيحية.
- روح التعصب الديني عنده وإرادة التعريض بالإسلام ورجاله.
- مواقفه التبشيرية التنصيرية التي استهدفت خدمة المصالح الفرنسية بالجزائر وأفريقية بوجه عام ومكانته المرموقة لدى سلطات الفاتيكان.
- التأييد الذي حصل عليه من بعض المسؤولين الكبار في الجزائر ومن حكومة باريس.

ولم يخف لافيجري نواياه التبشيرية من الوهلة الأولى من التعيين، ويظهر ذلك في مكاتبته لوزير الشؤون الدينية بعد قرار التعيين إذ يقول:... إني الوحيد الذي أبديت اهتماماً بنشر المسيحية وسط العرب، وقد كانت ولازالت لي علاقة طيبة مع مسيحي المشرق العربي وهؤلاء يجب استدعاؤهم إلى الجزائر.

وقبول لافيجري لمنصب أسقفية الجزائر كان أولاً وقبل كل شيء يرمي إلى أبعاد دينية وسياسية في نفس الوقت:

- من أجل خدمة الكنيسة المسيحية الناشئة في الجزائر.
- من أجل تعزيز المكاسب الفرنسية الاستعمارية بالجزائر، واعتبر بلاد الجزائر بوابة تنطلق منها عملية الاستعمار في أفريقية والتبشير فيها، وقد عبرت عن ذلك رسالته الموجهة إلى رهبان الجزائريون ٥ ماي ١٨٦٧م وقال: سآتيكم إخواني في ساعة مشهودة في تاريخ أفريقية المسيحية، أن الكنيسة وفرنسا متحدتان على أحياء الماضي[1].

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٠٧.

والتبشير الذي يريده لافيجري هو ذلك الذي يعمل على تحقيق الادماج عن طريق التنصير وليس الادماج الذي يتم عن طريق القوانين أو القوة، لأن هذه القوة في نظره، لن تؤدّي إلى نجاح فرنسا في الجزائر حتى ولو بقيت فيها عشرة قرون.

وأحسّ بالخجل أمام الأمة الفرنسية التي عاشت مدة أربعين سنة أمام شعب مسلم خاضع لها، دون أن تعمل على تنصيره.

وتعجب من موقف السلطة من التبشير فهي عوض أن تعمل على إدماج الأهالي ـ أي الجزائريين ـ في المجتمع الأوروبي والحضارة المسيحية تركتهم يتخبطون في بربريتهم وقرآنهم.

وقد كان القرآن والإسلام في نظره أشد عدو للمسيحية وإن واجبه يفرض عليه محاربتهما، فالقرآن بالنسبة له شريعة الكذب واللا أخلاق، كبرت كلمة تخرج من فيه.

وعمل على محاربة الإسلام بنشر التنصير بين المسلمين وذلك بوسيلتين:

ـ الأعمال الخيرية التبشيرية.

ـ إنشاء المدارس الفرنسية في كل مكان وهذه هي الإدارة الضرورية لتحقيق الادماج.

لقد كانت كارثة ١٨٦٧م ـ ١٨٦٨م فرصة مناسبة اغتنمها الكاردينال لافيجري ليفتح باب التبشير على مصراعيه، وقاعدة المبشرين أنهم ينتهزون هذه الفرصة، فاستغل وضع الكثير من المرضى والجياع، أنقذهم من الهلاك باسم الصليب، وفرنسا فجمع حوله ما يقرب من ألف وثمانمائة طفل بين مشرد ومريض تتراوح أعمارهم بين الثامنة والعاشرة ووزعهم على مختلف المراكز والملاجئ التي أنشأها في بوزريعة وبولوغين "سان أوجين سابقاً" وبين عكنون والأبيار والقبة، وسلم بعضهم أيضاً إلى سيوعي بوفاريك والأخوات والراهبات بمصطفى، قصد معالجتهم وتنصيرهم[١].

ولما كانت هذه العملية التنصيرية تحتاج إلى أموال وتأييد سافر الكاردينال لافيجري إلى باريس ليطلب الصدقات لهؤلاء الأطفال وليلفت نظر أصدقائه بجامعة السربون، ونظر

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٨.

وزارة الشؤون الدينية إلى نكبة الجزائر وقبل العودة إلى الجزائر ـ في أول جانفي ١٨٦٨م ـ وجه نداء إلى كل الصحف الكاثوليكية يصف فيه المجاعة ويطلب مساعدة المسيحيين الطيبين لفائدة الملاجيء، فلبى هؤلاء النداء وتكونت لجان بالمدن الفرنسية الكبرى لجمع التبرعات، استمرت مساعي لافيجري الخيرية ليدفعه حماسه الديني، وفي ٢٠ فيفري من نفس السنة بعث رسالة إلى كل رجال الدين بفرنسا يطلب منهم قراءة ما جاء في النداء المذكور في مختلف المراكز الدينية والكنائس، لتعريف الفرنسيين بالمأساة رغبة في الحصول على المساعدات وقد تم ذلك بحصول لافيجري على تبرعات مالية مبلغها ثمانمائة ألف فرنك لصالح الملاجيء، وفي ١٥ مارس من نفس السنة أسقافة بلجيكا وإسبانيا وانجلتر يطلب منهم المعونة، وكان البابا بيوس التاسع من الذين لبّوا النداء بإرسال مساعدة مالية قدرها ٥ الآف فرنك وتلقى لافيرجي مبلغ ستين ألف فرنك من كاردينال مدينة رووان بفرنسا لفائدة المستعمرة، ومن الامبراطور نابليون وزوجته اعانة شخصية مبلغها ثلاثة عشر ألف فرنك ودعمت هذه التبرعات الكاثوليكية إعانات بروتستانتية بالرغم من اختلافهما في المذهب إلا أنهما يتفقان في الهدف وهو التنصير، وقال رئيس المذهب البروتستانتي بالجزائر: يمكن للكنيسة المسيحية أن تترك أثراً طيباً في نفوس الأهالي بفضل خدماتها الخيرية[١].

ووجد نداء لافيجري في الجزائر صدى من بعض العسكريين الذين ناصروا التبشير فقد بعث له الجنرال ومبفن بثلاثين خيمة وجنوداً لتنصبها بالملاجيء وشكره على الأعمال التي يقوم بها لصالح الأيتام والمعمرين، واعتبرها أجمل وأجل مشاريع هذا القرن، ورأى بأن هذا العمل الخيري يجب أن يجد تأييداً ليس من الشعب ـ الفرنسي طبعاً ـ فحسب وإنما من الدولة أيضاً.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٠٩.

وكسب لافيرجي ودّ المعمرين الذين ساندهم في مصالحهم الاستعمارية وحصل على تبرعات مالية منهم، وقد استدعت هذه التبرعات التي تأتي من كل حدب وصوب التنظيم، ولهذا الغرض تكونت لجنة خاصة تشرف على إدارة التبرعات وكانت التبرعات تنشر أسبوعياً في مجلة "صدى سيدتنا الأفريقية" وهي مجلة أسسها لافيرجي وأشرف على تحريرها وهي ذات أغراض دينية تبشيرية هدفها اطلاع الرأي العام في الجزائر، وكانت هذه المجلة من الوسائل الإعلامية التي استطاع لافيرجي أن يفرض وجوده وأن يجلب إليه أنصار عديدتين[١].

جند لافيجري فرقاً دينية من الرهبان والراهبات لمعالجة الأطفال المصابين بوباء الكوليرا والتيفوس والجدري، وقد بلغ التفاني من أجل هذه المهمة، أن هلك الكثير من رجال الدين بسبب انتشار العدوى وبالرغم من الجهود التي بذلوها لإنقاذ حياة الأطفال من الموت، فإن الكثير منهم قد هلك وعددهم حوالي ٦٠٠ طفل، واغتنم لافيرجي هذه الحالة فعمَّد الكثير منهم ساعة الاحتضار.

وقد أثار هذا العمل خوف الكثير من أسر الأطفال، فطالبت باسترجاع أبنائها إليها وفرَّ من تمكن من المراهقين عندما أدركوا هذه الحقيقة، ولم يبق بالملاجئ سوى ٣٧٨ طفلاً ٣٤٢ بنتاً أراد لافيرجي أن يحتفظ بهم بدعوى أنه المنقذ لحياتهم من الهلاك ليجعل منهم رجالاً مسيحيين أن أمكن ذلك وليكونوا نواة التبشير الجماعي والعائلة العربية المسيحية بالجزائر والكتابات العديدة التي ظهرت أثناء هذه المجاعة ما بعدها وتصميم هذا الرجل على إبقاء هؤلاء الأطفال لديه يعكس الروح الصليبية والهدف الديني والاستعمار الذي كان يسعى إليه وفي يوم ٦ أفريل ١٨٦٨م أعلن عن تبنيَّه للأطفال الأيتام وتمّ الإعلان عن طريق نشر رسالة مطولة بمختلف جرائد الجزائر، لخص فيها ظروف المأساة وأفصح عن رغبته في تطوير هذه العملية الكبرى ـ عملية التبشير ـ للوصول إلى إدماج الجزائريين

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٠.

السريع في المجتمع الفرنسي، وقرر إبقاء الشبان الذكور بين عكنون لتكوينهم في ميدان الفلاحة، وتسليم البنات للراهبات لتكوينهم في الأعمال المنزلية والحقل، وكانت نية لافيرجي في هذا القرار إيجاد نواة خصبة من العرب المسيحيين الذين سيعملون من أجل الاستعمار الفرنسي، وجسد هذه النية حينما قال: سيكون في ظرف سنوات قليلة مشتلة خصبة من العمال النافعين الذين يساندون علمنا، ولنقلها صراحة من العرب المسيحيين[١].

واصطدم لافيرجي بصمود الجزائريين وتمسكهم بالإسلام وعقيدتهم المعبرة عن وجودهم وكيانهم، ورأي لافيرجي في تمسك الجزائريين بالإسلام تعصباً أعمى فأخذ يسيء إليهم بقوله: إن الانعدام الكلي لمعنى الأخلاق هو السبب في شقاء هذا العرق.

وقال: يجب إنقاذ هذا الشعب وينبغي الأعراض عن هفوات الماضي ولا يمكن أن يبقى محصوراً في قرآنه، ويتعين على فرنسا أما أن تقدم له. بل إني أخطأت التعبير. يتعين عليها أن تفسح لنا المجال لتقدم له الإنجيل وإما عليها أن تطرد هذا الشعب إلى الصحاري بيعداً عن العالم المتمدن. ويبدو من هذا القول لافيرجي أنه أراد تطبيق سياسة أمريكا في القضاء على الهنود الحمر، وأبعادهم من مراكز التمدن، لأنهم رفضوا الاستجابه لدعوة التنصير والتمسك بالقرآن المجيد، والإسلام العظيم.

وكان هذا المنشور محل نقد المعارضين للتبشير ومرد ذلك:

- ليس احتراماً للإسلام والمسلمين، بل تخوفهم من عودة رجال الدين إلى المجال السياسي، وهو الذي عانوا منه مدة طويلة في فرنسا.

- خشيتهم من نتائج التبشير، وعواقبه على المستعمرة، وكان لافيجري محل انتقاد وتولد ردة فعل من الشعب الجزائري، وحاول ماكمهون التخفيف من ردة الفعل وأثار الجنرال ماكمهون في رسالة موجهة إلى وزير الحربية بتاريخ ٢ جوان ١٨٦٨م إلى آخر حديث

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١١.

جرى بين السيد ابن علي الشريف مع نائبه الحاكم العام "ديريو" قال فيه: لقد قرأت رسالة لافيجري المؤرخة يوم ٦ أفريل والتي أعلن فيها عن عزمه على استبدال القرآن بالإنجيل لاعادة الحياة إلى هذا الشعب، لقد أثرت هذه الرسالة في المسلمين، وإني كرجل ديني وكل مسلمي جيلي الذين يفكرون مثلي، إننا نفضل موت جميع أولادنا من أن نراهم منصرين، فليس هناك مساومة في هذا الأمر، لقد وعدتمونا بعدم المساس بديننا، فإذا أخلفتم هذا الوعد وخالفتم قسمكم فإننا بالمقابل غير ملزمين بوعدنا تجاهكم[١].

٣ . الخلاف بين لافيجري وبين الجنرال ماكمهون:

أدرك ماكمهون العواقب التي يترتب عليه قرار لافيجري بتبنيه الأطفال الأيتام، وطالب الجنرال بإرجاع هؤلاء اليتامى إلى ذويهم، وهدّد بغلق الملاجئ في حالة رفضه تطبيق أوامره، لكن لافيجري صممّ على إبقاء الأطفال بالملاجيء، مدعياً بأنه أصبح أباً لهم، وأنه يملكهم لأنه أحياهم بعد أن أوشكوا على الموت، وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور مشادة كلامية بينه وبين الجنرال ماكمهون، وقد تدخلت الحكومة بباريس لحل هذا النزاع، وظل الصراع بين الرجلين محور مقالات متعددة بمختلف الجرائد بالجزائر وباريس وتجاوز الإطار الجزائري ليتحول إلى مشكل إسلامي، إذ أن صحيفة "الجوائب" التي يشترك فيها عدد من الأعيان، ومن أهل قسنطينة بوجه خاص، نشرت العديد من المقالات حول الموضوع، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على روح التضامن بين المسلمين في المشرق والمغرب رغم الضعف السياسي الذي كان يعيشه الحكام.

واشتد الخلاف بين الجنرال ماكمهون والكاردينال لافيجري، واحتج الجنرال على الكاردينال باسم الحكومة أمام حملته الشديدة ضد النظام العسكري، فكتب إليه يذكر له أنه إذا كانت أعماله الخيرية قد تركت في نفوس الفرنسيين المتعاطفين معه انطباعات حسنة، فإنها من ناحية أخرى قد وجدت نفوراً بين الأهالي الذين لم يريدوها على

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٣.

حساب ديانتهم ولأنها استغلال لظروفهم القاسية خدمة للتبشير وذكره أيضا بالعواقب التي تنجم عن طرد المسلمين إلى الصحارى، في وقت تريد فرنسا أن تجلبهم إليها وتعمل على تطبيق ما جاءت به أفكار نابليون الثالث عام ١٨٦٥م، غير أن الكاردينال لافيجري وضع خطته الجديدة في الإدماج وبين للجنرال بأن للتبشير فائدتين هما:

أ . أن تنصيره للأطفال ولكل المسلمين سيعمل على تثبيت الوجود الفرنسي في الجزائر، لأن التبشير يخلق قوة سياسية جديدة تتمثل في الأهالي الأوربيين الذين سيعملون على إخماد الثورات.

ب . أن المسلمين الذين أخذوا عن الأوربيين عيوباً كبيرة سيتعلمون المبادئ الحسنة من المسيحية عن طريق التنصير، ففي نظره أن لا أخلاق ولا مبادئ للمسلمين.

وطالما أن لافيجري رأى في الجزائريين صورة همجية فإنه وعلى خلفية النظرية الاستعمارية التي تذرع بها سابقوه فالاحتلال جاء لتمدين الجزائريين وإخراجهم من التخلف.

ووقف المستوطنون في جبهة لافيجري في موقفه من الأطفال ومن التبشير مكونين واياه قوة متحدة ووقفوا معارضين لتدريس القرآن في الزوايا، واتهم الصحفي كليمان ديفرنوا الذي دافع عن حق المسلمين في تعلم القرآن بالتعصب والتحريض على الثورة.

ولم يكتف المعمرون بهذا فلاموا الإمبراطور نابليون الثالث: حينما أراد نشر اللغة العربية وأبدى اهتماما بالأعياد الدينية، وشجعوا الكاردينال لافيجري على الاحتفاظ بالأطفال اليتامى، مؤكدين على أن الاندماج الذي لا يصلح مع كبار السن المتعصبين سوف ينجح مع الأطفال الصغار.

أحس لافيجري بالقوة بفضل التفاف المعمرين حوله فزاد موقفه تصلباً وأمام هذا قرر الجنرال ماكمهون مكاتبة وزير الحربية الماريشال نييل يوم ٢٣ أفريل ١٨٦٨م ليضع حداً للصراع ووصف له تخوف السكان المسلمين في الجزائر والعالم الإسلامي.

ولكن وزير الحربية كان مسانداً ومؤيداً للتبشير ولذلك لم يستجب لمقترحات ماكمهون.

ويبدو أن الكادرينال استخف قول ماكمهون من تخوف السكان وثورتهم ضد التبشير، فكتب إلى الإمبراطور يقول: لم يعد للعرب قوة ولا إمكانيات للقيام بالثورة. وادعى بأن الادارة العسكرية تتهرب من مسؤولية المجاعة والأمراض، ولذلك استندت إلى تخوف السكان منه[1].

وإذا رجعنا إلى موقف الإمبراطور نابليون الثالث من التبشير وجدنا بأنه أبدى تمسكه بمبدأ حرية العقيده الدينية، وتحت تأثير ماكمهون بعث نابليون خطاباً شديد اللهجة إلى الكاردينال لافيجري يذكره فيه، بان المسئولية الملقاة عليه، هي تهذيب أخلاق المائتي ألف معمر الموجودين في الجزائر، ويأمره بترك شأن العرب للحاكم العام الذي يتولى تأديبهم وتنظيمهم.

وإذا كان موقف الامبراطور موقفاً غير مشجع للتبشير فإن هناك من شجعه من كبار مسئولي الدولة، ففي الجزائر أعلن الجنرال ومفين عن تأييده للكاردينال للمرة الثانية حينما شجعه قائلا: يجب عليكم أن تبذلوا كل مجهوداتكم للحفاظ على الملاجئ وتحسينها، وتركها مفتوحة لكل اليتامى وهذه وسيلة عملية تمكن العرب من اعتناق ديننا، وفي باريس تلقى لافيجري مساندة وزير الشؤون الدينية باروش الذي وقف إلى جانبه، وكذلك وزير الدولة السيد رووي الذي ناصر التنصير في الجزائر، وهذا يدل على أن الكاردينال لم يكن وحده في هذه المهمة، بل كان إلى جانبه جمهور من المعمرين بالجزائر ومن مسئولين كبار بباريس[2].

٤ . لقاء لافيجري مع الإمبراطور:

لكي يدافع الكاردينال لافيجري عن أعماله التبشيرية أمام الامبراطور سافر يوم ٩ ماي ١٨٦٨م إلى باريس وأثناء وجوده بهذه المدينة. قامت معظم صحف الجزائر الموالية للاستعمار والمعمرين بنشر مقالات تأييداً له، واستطاعت هذه الحملة الصحفية أن تعجز

[1] المصدر نفسه، ص: ١١٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ١١٧ ، ١١٨.

الجنرال ماكمهون وتسكت الصحافة الرسمية بباريس وشجعته كذلك رسائل المعمرين من الجزائر وقد جاء في إحداها: لقد قمتم بالدفاع عن الاستعمار في الجزائر ضد المكاتب العربية.. إن القضية التي تدافعون عنها هي الحق والعدل والتقدم. وفي رسالة أخرى: إننا نعتمد عليكم في الدفاع عن أمانينا أمام الإمبراطور.

ويبدو أن هذا الدعم الإعلامي جعله يشعر بالفخر والعجب والإصرار على المعنى في مشروعه الظلامي، تمكن الكاردينال من مقابلة الإمبراطور الذي استقبله ببرودة ورد على كل الاتهامات التي وجهت إليه من ماكمهون، وقال أنه لا يعمل إلا بتوجيه الخطاب الإمبراطوري بالجزائر عام ١٨٦٠م وتطبيق ما جاء فيه: نشر التعليم وسط العرب، مع احترام ديانتهم وتحسين مستوى معيشتهم.

ولكي يضع الإمبراطور حداً للصراع القائم بين ماكمهون ولافيجري اقترح على هذا الأخير تعيينه على أسقفية مدينة ليون بفرنسا، لكن الكاردينال رفض ذلك قائلا: إن قبولي لهذا المنصب الجديد يعني الهروب من معركة بدأت القيام بها وهذا يعتبر مساً لشرفي. ثم صمّم العودة إلى منصبه في الجزائر مهما كانت الظروف واعداً الامبراطور الكاردينال بالسماح له بممارسة الأعمال الخيرية وسط مسلمي الجزائر.

وحتى يطمئن بال الكاردينال، نشر الماريشال نييل وزير الحربية تصريحاً مطولاً بالجريدة الرسمية يوم ٢٨ ماي ١٨٦٨م ومما جاء فيه هذه العبارات المؤيدة للتبشير في الجزائر: تيقنوا سيدي الكاردينال، بأن الحكومة لم تفكر أبد في حصر حقوقكم كأسقف، بل هي تترك لكم الحرية لتوسيع وتحسين ملاجئكم حيث تريدون تقديم الإعانات المسيحية للأرامل والعجزة والأطفال المشردين[١].

وتدعيماً للتبشير وصفت جريدة لورور "الفجر" هذا الفوز بانه فجر جديد على الجزائر. أما جريدة "الديب" المعروفة بمقالاتها التبشيرية فقالت: استطاعت أن تكفكف دموعها

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٩ ، ١٢٠.

الغذيرة بعد أن أسالتها مدة طويلة من أجل لافيجري، عاد الكاردينال لافيجري إلى الجزائر يوم ٧ سبتمبر ١٨٦٨م بعد أن حصل على حرية التبشير من الإمبراطور نابليون الثالث وضمان الحفاظ على الملاجيء، وبمقتضى ذلك تصرف في اليتامى كما يشاء[١].

إن الحرية التي حصل عليها لافيجري بعد قرار وزير الحربية والتسامح الذي أظهره الإمبراطور نابليون تجاه أعماله الخيرية جعلته يتحرر من القيود التي فرضت عليه وعلى من سبقوه في هذا الميدان، وسمحت له تنفيذه مخططاته التبشيرية، غير أنه بالسلطة العسكرية في الجزائر فبدأها بتعميد ستة شبان . نجوا من كارثة المجاعة . في كنيسة السيدة الأفريقية على مرأى ومسمع الجميع، وبعد مدة وبإيعاز من الفاتيكان تم تعميد طفلين يتيمين جزائريين آخرين في مدينة روما، ويظهر من وراء هذه العملية أمران هما:

أ . التعاون الوثيق بين الفاتيكان والكاردينال لافيجري والمعروف أن البابوية بروما وعلى رأسها البابا بيوس التاسع بارك العمل الخيري التبشيري في الجزائر وساند لافيجري مساندة قوية ورأي فيها أحياء للحروب الصليبية التي كانت هجمة قوية على الإسلام والمسلمين.

ب . تنوير الرأي العام العالمي المسيحي في أوروبا وغيرها بأن التبشير في الجزائر يخدم الكاثوليكية والمصالح الأوروبية عموماً، وعليه يجب تدعيمه مادياً ومعنوياً، وهكذا يكون النشاط التبشيري قد توسع واتخذ ابعاداً أخرى، ولكي يستمر لافيجري، ويتمكن من كسب نجاح أوسع وأكبر لابد له من مبشرين كثيرين يحققون هذا الهدف، لذلك أنشأ فيفري من عام ١٨٦٩م فرقة دينية جديدة هي فرقة الآباء البيض[٢].

دون أن يجد معارضة رسمية لذلك، وهذه الفرقة الجديدة هي التي ستأخذ على عاتقها مهمة التبشير في الجزائر أولاً ثم تونس والمغرب ثانياً وفي أفريقيا أخيراً.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٢١.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٢٣.

ويبدو أن فكرة تنصير أفريقيا تعود إلى الأيام الأولى من مجئ لافيجري إلى الجزائر، ألم يعلن عنها حينما خاطب رجال الدين قائلاً:

يجب أن نجعل من الأرض الجزائرية، مهداً للأمة الفرنسية المسيحية، وينبغي أن ننشر حولنا الاضواء الحقيقية للحضارة المستوحاة من الانجيل، وأن نحملها إلى الصحراء وإلى العالم الأفريقي الذي يعيش حياة بربرية، ونعمل على ربط وسط أفريقية بشمالها.

ويريد لافيجري بهذا التصريح بسط النفوذ الكاثوليكي الفرنسي في أفريقية قبل أن تشرع في ذلك عسكرياً وسياسياً. مثلما فعلت كذلك بالهند الصينية سابقاً. ولن يتم لها ذلك إلا بواسطة تحبيب فرنسا باسم السيد المسيح، فالمبشر كان يسبق الجيش في كل مكان ليمهد الأرض اللازمة للنفوذ السياسي والعسكري، ولم يقتصر هذا على فرنسا بل استعملها للدول الأوربية حيث تبارت في استخدام المبشرين لتأييد النفوذ الأجنبي، وكانت النتيجة أن التبشير الممزوج بالسياسة، بل السياسة المغلقة بالتبشير وهو الاستعمار وما نجحت فرنسا في الدخول إلى أجزاء من أفريقية إلا بفضل الآباء البيض الذين مهدوا لها طرق الاحتلال[١].

٥. تأسيس فرقة الآباء البيض والأخوات البيض:

تأسست هذه الفرقة الدينية في الجزائر بعد نكبة المجاعة، وكان ذلك على يد الكاردينال لافيجري سنة ١٨٦٩م وأطلق عليها هذا الاسم إلى اللباس الأبيض الذي يلبسه مبشروها ومبشراتها ليشابه اللباس العربي الجزائري.

ولم ينس لافيجري مقام المرأة في الأسرة فوجه اهتمامه إلى التأثير عليها، فالمرأة في نظره مدار الحياة الاجتماعية، والوصول إليها وصول إلى الأسرة كلها، واستخدام المرأة هو لتحقيق الأهداف النبيلة ولهذا أنشأ في نفس السنة أي في سبتمبر ١٨٦٩م فرقة الأخوات البيض وحملها مسئولية التبشير في الوسط النسائي.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٢٤.

فالمرأة المسلمة الجزائرية التي كانت تمثل حصناً منيعاً ضد كل ما هو دخيل بحكم الدين والتربية والعادات والتقاليد سمح لأخوات البيض التغلغل في صفوفها ـ أي المرأة ـ إليهن في المستوصف، والمستشفى، والزيارات المنزلية التوجيهية والتعليم وهو ما لا يمكن للمبشر الرجل القيام به.

إن فرقة الآباء والأخوات البيض تأسست بالجزائر تحت ظروف المجاعة خصيصاً لتنصير مسلمي الجزائر، وقد اختلفت عن الفرق الدينية في أشياء كثيرة لاسيما في وسائل التبشير وطرقه إلا أن القاسم المشترك بينها هو نشر رسالة الإنجيل خارج العالم المسيحي.

أدرك لافيجري أن اللباس الديني المسيحي سيخلق هوة بين المبشرين والجزائريين، لذلك أشار على أعضاء الفرقة الجديدة أن يتقربوا من "الأهالي" باتخاذ عاداتهم وطرق معيشتهم ولباسهم ولغتهم، فاختار لهم اللون الأبيض ويتكون من طويلة مصنوعة من الصوف أو القطن ويوضع فوقها برنوس أبيض اللون، ومن شاشية حمراء توضع فوق الرأس انسجاماً مع الزي التقليدي الجزائري وتحاط الرقبة بسبحة وردية اللون يتدلى من طرفها صليب أبيض أو أسود، وكثيراً ما كان الأب يترك لحيته طويلة، وهذه الطريقة في اللباس جعلت هذه الفرقة تحتك بالسكان إحتكاكاً شديداً وتتعرف على طرق حياتهم، وقد وضع لإفيجري برنامجاً صارماً لتكوين مبشريه يخضع أثناءها المبشر إلى تنظيم محكم يسمح له بأداء مهمته التنفيذية ويدوم تكوينه خمس سنوات تمر بمراحل هي:

ـ المرحلة الأولى ويقضيها المبشر في المدرسة الابتدائية الدينية بالحراش

ـ المرحلة الثانية في كلية اللاهوت في تيبار بتونس وقرطاج

وأثناءها يأخذ علم اللاهوت واللغات ـ العربية والأمازيغية – ودروساً في الطب التطبيقي يستفيد منه في الأعمال الخيرية، فإذا كانت الجزائر حقلاً للتجارب التبشيرية التنصيرية فقد جعل لا فيجري من تونس معهداً للتكوين الثقافي والديني للآباء.

وقد صور لافيجري عظم المسئولية التبشيرية الملقاة على عاتق هؤلاء قائلاً: إن رجال الدين هم الذين قاموا بإصلاح الأراضي في فرنسا وتعميرها، وتحضير وتمدين سكانها بعد أن إكتسحت هجومات البربار الأراضي الأوروبية، وهذا مايجب عمله في أفريقية بعد زحف الإسلام عليها[1].

وتتم هذه التوصية عن روح التعصب الديني لهذا الرجل فما أبعد حضارة المسلمين المزدهرة في هذا الجزء من أفريقية عن جهل وتأخر أوروبا المعروفين عنها في العصور الوسطى.

وقد وضع لافيجري قواعد ومنهجية عمل لهذه الفرقة، أصبحت تعتمد عليها فيما بعد:

. الإيمان بالعمل التبشيري والتفاني والتضحية من أجله.

. التحلي بالصبر لأن العمل شاق وطويل.

. العمل بحذر لأنه ضروري لبلوغ الهدف.

. إستخدام الخدمات الخيرية لأنها الوسيلة الأساسية لنجاح التبشير.

. أن يكون شعار الفرقة هو المحبة والتكتل لأن في ذلك قوة تعمل على الوصول إلى الأهداف التبشرية فبهذه القواعد إنطلقت فرقة الآباء والأخوات البيض في العمل التبشيري، ويمكن أن نعتبر تأسيسها انطلاقة كبيرة في الميدان التبشيري وذروة كبرى بلغها في الجزائر، بل وفي أفريقية، وبفضل هذه الفرقة تمكن لافيجري رغم الظروف والصعوبات أن يركز نفوذه وذلك بتأسيس عدة مراكز تبشيرية في كل أنحاء البلاد وخارجها، كان أهمها تلك المراكز التي أسسها في منطقة القبائل الكبرى والصحراء[2].

٦ . التنصير في منطقة القبائل:

عملت فرنسا على تزوير تاريخ الجزائر وقامت بدعم الدراسات التي تخدم مخططات المستعمرين ومنها ما تناول تاريخ أفريقيا وعملوا على قلب الحقائق وصوروا الفتوحات الإسلامية على أنها فرضت على البربر الأمازيغ الإسلام بالإكراه والسيف وقطعت صلة

---

[1] المصدر نفسه، ص: ١٢٦.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٢٧.

البلاد مع الحضارة الغربية والكنيسة، وقد حاولت هذه الدراسات ربط ماضي شمال أفريقية المسيحي بالحضارة الغربية التي عادت بالوجود الفرنسي بالجزائر، وكان القصد منها إظهار إمتداد المدينة اللاتينية بالمغرب العربي الإسلامي، مؤكدة بأن هذه البلاد طبعت منذ العهد الروماني بالطابع المسيحي، ومن هذا المنطق اهتم الفرنسيون بالكتابة التاريخية بتوجه يخدم نفوذهم ويؤكد شرعية احتلال البلاد وادعوا حتمية إرجاع الجزائريين إلى حظيرة الدين المسيحي بإعتباره دين الأغلبية منهم في الجزائر.

ولهذا الغرض تعددت هذه الكتابات بعد الاحتلال وساهم فيها العسكريون ورجال الدين، والرحالة، وبعض الكتاب وكلهم أشادوا بالغزو، خصوصاً أنصار الكنيسة الذين كان شعارهم ـ أفريقية اللاتينية والجزائر الفرنسية المسيحية، كما كثرت الحفريات للبحث عن الآثار المسيحية إنطلاقاً من الخرافة أو كتب الرحالة إحياء للكنيسة الرومانية القديمة، ومثلها اهتم الفرنسيون بالتاريخ والآثار إحياء للمدينة والكنيسة، فإنهم فعلوا كذلك حينما تناولوا سكان الجزائر إنتوغرافيا، فما أن إستقر المحتل في البلاد حتى بدأت الإدارة الفرنسية وما حولها من كتاب تحاول وبجميع الوسائل أن تتعرف على فئات الأهالي وأن تعلم ما هي المقاييس والحاجيات والخصوصيات لدى كل واحدة منها أولاً، وتطبيق سياسة فرق تسد ثانياً، وهكذا شهدت الجزائر عشرات من ضباط الشؤون الأهلية، والرحالة والمبشرين الذين إختصوا في دراسة عادات وتقاليد وأنماط المعيشة عند السكان ونظمهم الإجتماعية والاقتصادية ولغاتهم ولهجاتهم بمختلف مناطقهم وكأنهم فسيفساء من الشعوب والقبائل.

وسعى هؤلاء أيضاً إلى تقسيم عام للسكان إلى بربر أو سكان القدامى وعرب وهم الذين وصفتهم كتابات أولئك الباحثين بأنهم دخلاء غزاة هدموا معالم الرومان وعطلوا الحضارة أربعة عشر قرناً، وعلى ضوء ذلك ظهرت دراسات جغرافية إجتماعية وسياسية، الهدف منها بث الروح الإقليمية وزرع الشقاق بين السكان وإستثمار كل هذه المجهودات من أجل تزوير التاريخ ومحو الكيان الجزائري للوصول إلى السيطرة الكاملة على البلاد، وكان

العسكريون أبرز من كتب عن بلاد القبائل، وهم على التوالي: الجنرال دوماس، اوكبتان، كاريت، فابار، دوفو، الطبيب العسكري لوكلير، وهذه المرحلة فقد كتب هؤلاء بالتفصيل عن هذه المنطقة من حيث العادات والتقاليد، والتاريخ، وغيرها، وأغلب هؤلاء كانوا أعضاء في لجنة الإكتشاف العلمي للجزائر التي تأسست عام ١٨٣٧م وكتاباتهم تخلو من الروح العلمية والموضوعية، نذكر على سبيل المثال بعض ما كتب هؤلاء حول بلاد القبائل.

منهم الأب دوقا من رجال الدين اليسوعيين الذين عكفوا على دراسة منطقة القبائل من الجزائر، وقد روج في دراسته هذه بأن الديانة المسيحية ستعمل على فرنسة القبائل وذلك عن طريق الوعظ والإرشاد الديني المسيحي إلا أنه حذر المبشرين قائلاً: بأن العمل المباشر مع هؤلاء السكان هو بمثابة نداء في الصحاري، ولذا فإن لغة العمل الخيري هي الأحسن، ويوصي كذلك بأنه يجب إخفاء الحقيقة وراء هذا العمل، وعند الوصول إلى الهدف يمكن التبشير بالعقيدة المسيحية[١].

إلا أن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططاتهم وجعلها غثاء لا أثر لها في حياة الناس، وإن الإنسان يرى العجب العجاب من محبة الأمازيغ وأهالي القبائل للإسلام والحضارة الإسلامية، وصدق الزعيم عبد الحميد بن بادبس الضهاجي الأمازيغي:

شعب الجزائر مسلم

وإلى العروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله

أو قد مات فقد كذب

أوارم إدماجاً له

---

[١] الحركة التبشرية الفرنسية، ص: ١٣٩ ، ١٤٥.

رام المحال من الطلب

يا نشئ أنت رجاؤنا

وبك الصباح قد إقترب

خذ الحياة سلاحها

وخض الخطوب ولا تهب

فإذا هلكت فصيحتي

تحيا الجزائر والعرب[1].

حاول دعاة التنصير أن يعملوا على تنصير أبناء القبائل ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، ومن أشهر هؤلاء الأب اليسوعي جان بتيست كروزا الذي دخل بلاد القبائل كمرشد ديني ومبشر بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٨٦٣م، وأبدى كروزا من الحماس الديني ما جعله يطوف بالقرى الواحدة بعد الأخرى، فزار حوالي سبعين قرية للتعرف على المجتمع القبائلي وسكانه عله يكسب رضاهم، وأخذ يجلبهم إليه بتوزيع الملابس والسكر والقهوة ويقدم لهم الإرشادات الدينية. وأضاف إلى هذه الأعمال الخيرية فتح مدرسة كانت بمثابة ملجأ للأيتام جمع فيه حوالي عشرين طفلاً.

وبعد أن مهد كروزا لمخططه التبشيري بالأعمال الخيرية أخذ يحدث السكان عن الديانة المسيحية ومزاياها ويبدو أن هؤلاء أرادوا استغلال إندفاعه، فراحوا يستمعون إليه بكل اهتمام، ولذا ركز جهوده على قرية بني فراح لإعتقاده أنه نجح في جلب سكانها، فجاء إليها ذات يوم ليلقي دروسه الدينية وأراد سكانها أن يجعلوا حداً لذلك فوضعوا أوساخاً على المقعد الحجري الذي كان يجلس عليه دائماً وغطوا ذلك بأوراق الأشجار، فجلس الأب ولما نهض وجد ثيابه ملطخة بالأوساخ.

---

[1] ابن باديس فارس الإصلاح، د. محمد بهي الدين، ص: ٣٤.

الأمر الذي آثار ضحك وسخرية الحاضرين، ويفهم من غضب الكولونيل مارتان لهذه الحادثة العطف الذي كان يكنه للأب كروزا بحيث قرر معاقبة (المجرمين) لكن الأب عارضه ظاناً بأن هذا العمل كان من بعض المغامرين، ويظهر أن هذه الحادثة لم تفشل الأب كروزا، لذا آل على نفسه مواصلة مهامه الخيرية التبشيرية، لكن أمين قرية بني فراح لونيس نايت علي عمر تحداه ورد على إدعاءاته، فجمع سكان القرية بمحضر الكولونيل مارتان وكل الأعيان وخاطب هذا العسكري وكل الحاضرين قائلاً:هل ترغبون في إعتناق الديانة المسيحية؟ وهل تسمحون لهذا الأب البقاء بينكم؟ فسكت الحاضرون وبكت عيونهم كثيراً حتى أن أحداً منهم لم يستطع الإجابة وبعدئذ أجابوا الكولونييل بكلمة واحدة قاطعة: أننا لن نترك أو نتخلى عن ديننا وأن أجبرتنا السلطة على ذلك فإننا نطلب منها أن ترشدنا إلى طريق يسمح لنا بمغادرة البلاد، وإذا لم نجد لذلك سبيلاً فإننا نفضل الموت بدلاً من إعتناق المسيحية، أما بشأن أن يقيم بيننا راهب فالله يحفظنا من قبول ذلك. اللهم إلا إذا أجبرتنا الحكومة عليه، وفي هذه الحالة لن نقيم معه أبداً[١].

وأيام هذا الموقف إضطر الأب كروزا إلى الإنسحاب إلى قرية بني يني البعيدة ليستأنف العمل بها، إلا أن سكان هذه القرية أعلنوا رفضهم لأعمال كروزا، وقد حذر شيخ هذه القرية الضابط العسكري من العواقب وقال: إن البلاد لن تعرف هدوءاً إذا جاءها رجال الدين[٢].

كان أهالي الجزائر يرفضون دعوة المنصرين لهم وتصدوا بكل حزم وعزم للإنتهاكات المتعددة التي وقعت على الإسلام من قبل الكاردينال وأعوانه.

ومهما يكن من أمر فإن التبشير في بلاد القبائل لم يجد الأرض التي كان المبشرون يعملون بها، وإذا كان هناك من أقدم على إعتناق المسيحية من بعض العناصر والأفراد، فإن ذلك يعود بسبب عامل الفقر والحرمان والجهل والمغامرة والطمع في المادة وهي الأوضاع التي

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٤٥.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٥٢.

إستغلها المبشرون في تحقيق مسعاهم ويعود هذا الفشل إلى أسباب الآتية:

. موقف السكان المعارض لكل محاولة عامة لتمسكهم بالدين الإسلامي.

. الصراع الذي حدث بين لافيجري وماكمهون وكان له إنعكاسه على النشاط التبشيري ببلاد القبائل لإنشغال لافيجري به.

. تركيز جهود المبشرين على إنقاذ أطفال المجاعة واهتمامهم بإنشاء القرى العربية . المسيحية . بسهل العطاف[1].

. تعلق الجزائريين باشيوخ والعلماء وزعماء الطرق

. إنتشار الثقافة الإسلامية وبُعدها الحضاري، وعقيدة الإسلام في كل المدن والقرى وبين القبائل رجالاً ونساءً شيوخاً وأطفالاً، بحيث شكل سياجاً متيناً مع صفاء الفطرة، ورجاحة العقول وطهارة النفس، وقبل كل شيء توفيق رباني من الله عز وجل لهذا الشعب العزيز الحبيب. قال تعالى:" يُثَبِّتُ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ يُضِلّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء" (إبراهيم ، آية : ٢٧).

٧ . التنصير من أسباب ثورة المقراني:

لقد رأى الجزائريون تساهل وسكوت بعض العسكريين والسلطة بباريس على تصرفات المبشرين في التنصير استفزازاً لمشاعرهم فكانت هذه الاستفزازات من الأسباب الرئيسية لثورة المقراني في بلاد القبائل والجزائر عامة.

إن ثورة المقراني انطلقت سنة ١٨٧١م من منطقه هي أبعد ما تكون عن الكوارث الطبيعية لعام ١٨٦٨م لدليل على رد فعل سكانها لم يكن بسبب اقتصادي وإنما بسبب الغزو والظلم والجور والاعتداء على المقدسات، ففي رسالة الباشاغا إلى الشيخ ابن كابة وكبراء قرية بوجليل ببني عباس قال بعد التحية: وبعد أن تتوكلوا على الله ورسوله، تقدموا

---

[1] المصدر السابق.

إلى الجهاد لنصرة دينهم عزماً. فلا غرابة أن تكون سياسة التنصير عاملاً في دفع الجزائريين إلى الثورة.

وبالنسبة للكردينال لافيجري رأى أن أسباب الثورة تعود إلى السياسة الفرنسية بالجزائر، التي وضعت القرآن الكريم في مرتبة أعلى من الإنجيل، وإلى مواقف الذين أسسوا مدارس إسلامية بأموال فرنسية ومنعوا رجال الدين من نشر الإنجيل، فزادوا بذلك من تعصب السكان إلى أن انفجر فأحرق القرى وقتل السكان.

وتشير تصريحات لافيجري أثناء هذه الثورة وما بعدها إلى مساندته المطلقة للعسكريين الذين أخمدوا هذه الثورة، وإلى دور المبشرين الذين لعبوا دوراً في هزيمة المقاومين ومن أبرز هؤلاء قسيس مدينة باليسترو "الأخضرية حالياً" الذي مات شهيداً من أجل فرنسا، وقد أقام لافيجري قداساً عظيماً في كاتدرائية مدينة الجزائر "كتشاوة حالياً"[1].

وما يفند إدعاء ـ ما يعرف بالقبائل المسيحية ـ ودهشة هذا الرجل هو تعجبه قائلا: إن الذين ثاروا ضدنا، ليسوا عرباً وإنما هم سكان قبائل جرجرة وغيرها ذوي الجذور المسيحية، ثم يناشد السلطة بوضع حد لتعصبهم الديني والقضاء على الإخوان والمرابطين الذين استقروا بهذه المنطقة.

لقد عملت ثورة المقراني وغيرها على التأثير على أعمال لافيجري الهشة وإفلاسها، الأمر الذي دعاه إلى طلب الصدقات من المسيحيين المحسنين في كل من أمريكا وبلجيكا وفرنسا، وبتبرعات هؤلاء استطاع لافيجري أن يستعيد قوته لاستئناف الأعمال التبشيرية.

٨ ـ الأميرال دوفيدون داعم للتبشير:

[1] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٤.

ولقد وقف الأميرال دوفيدون منذ تعيينه على رأس الإدارة المدنية بالجزائر يدافع عن المسيحية وعن الكاردينال لافيجري ولذا تطورت الحركة التبشيرية في عهده لأنه ساندها مساندة مطلقة وحينما حل بالجزائر (مارس ١٨٧١م) كانت المجالس البلدية التي تزعمت الحركة اللادينية العدو المشترك له ولمناصرة لافيجري فشن عليها الأميرال حملة ضدها، ووصف قرارها ورأى في إغلاق المدارس الدينية عملاً خطيراً إجراميا ضد الدين، فكاتبها باسم وزير التربية يحثها على إعادة فتح الأبواب باعتبارها قوة يسند إليها المعمرون لضرب الديانة المحمدية لقد عمل دوفيدون منذ توليه على الربط بين دور الكنيسة ودور الاستعمار، بل جعل الكنيسة رائدة في هذا المجال، ولهذا أطلق عليه لقب: الأميرال كاردينال . ويكفي أنه قال: قضيت حياتي وأنا أساند الحركات التبشيرية في كل جهات العالم، فكيف تسمح لي نفسي في أن أقف ضدها في أرض فرنسية هي الجزائر، وقد آمن واقتنع كما اقتنع لافيجري أن استمالة المسلمين والتأثير فيهم يجب أن يتم بالأعمال الخيرية وليس عن طريق الخطب، ورأى أيضا أن الوقت قد حان لجلب شتات هذا الشعب المغلوب إلى الحضارة المسيحية[١].

وأعلن أيضا وقوفه إلى جانب المبشرين حين خاطبهم قائلاً: هناك من يعرقلكم، أما أنا فأساندكم لتقريب الأهالي نحوكم عن طريق التعليم والأعمال الخيرية، أنكم تقومون بما تقوم به فرنسا، إنه ليس لدى فرنسا من الرجال ما يكفي لتعمير الجزائر، لذلك يجب الاستعاضة عنهم بفرنسة السليونين من البربر، تقدموا بحذر وستجدون العون عندي استمر اهتمام لافيجري بشكل واسع بسكان بلاد القبائل في عهد النظام المدني بالرغم من فشل المساعي التنصيرية بها، واستطاع أن يؤثر في الأميرال دوفيدون ويقنعه بأن أصل هؤلاء السكان مسيحي وأن الدم الذي يجري في عروقهم هو نفس دم الفرنسيين، ولا يرون أفضل من الرجوع إلى ديانتهم القديمة.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١٥٦.

ولكي يمكن لفرنسا أن تستعمر الجزائر استعماراً حقيقياً وناجياً ناشده بفرنسة المليونين من البربر.

ويظهر أن الأميرال الذي كان مقتنعاً بسياسة الاندماج آمن بأفكار ونظرية لافيجري ورآها ملائمة للظروف التي كانت تمر بها الحركة الاستعمارية آنذاك في الجزائر، ويتضح ذلك من قوله: إن الهدف الذي يرمي إليه المبشرون هو نفس الهدف الذي أريد أن أصل إليه، إنه إدماج سكان بلاد القبائل في المجتمع الفرنسي[١].

٩ . دوافع اهتمام لافيجري بمنطقة القبائل:

ومما زاد في اهتمام لافيجري بمنطقه القبائل هي الدوافع الآتية:

. تشجيع الجنرال دوغيدون المطلق للتبشير في كل انحاء الجزائر وتعاطف الجنرال شاتري "الذي أتى من بعده" مع المبشرين.

. تأسيس فرقة الآباء البيض للتبشير في الجزائر وأفريقية.

. وقوف باب روما إلى جانبه "أي لافيجري" ولاسيما عند إعلان ولاء الكنيسة الفرنسية للجمهورية بعد سقوط الملكية في فرنسا.

. تردي الأوضاع الاقتصادية في هذه المنطقة بعد ثورة عام ١٨٧١م الذي أودى إلى تفقير السكان وهو ما استغله لافيجري باسم الأعمال الخيرية.

ويعتقد لافيجري أن الوصول إلى هذا الهدف التنصيري يجب أن يتم في إطار (لبنان أفريقي) وهو لبنان الذي تخلت عنه أوروبا فاندثرت معالم المسيحية بسوريا ولبنان الذين اعتكفوا بالجبال فارين من الفتح الإسلامي ورأى أنه بواسطة الآباء البيض سيعيد "ماروني" بلاد القبائل إلى ديانتهم الأصلية.

أن الحركة التبشيرية التي عرفت عراقيل في عهد النظام السابق ستعرف في النظام المدني . انطلاقة كبرى في بلاد القبائل، والمدن الصحراوية كميزاب، والأغواط ورقلة وبسكرة

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٦.

والبيض وغيرها، وقد اختارها المبشرون مستندين في ذلك إلى عامل الأصل واللغة "أي الأصل البربري الأمازيغي واللهجات"، وستكون هذه المدن بمثابة بوابة للتبشير في أفريقية الاستوائية، وحتى لا تجد هذه الجهود التبشيرية نفوراً من السكان خصص لافيجري إمكانيات ووسائل، وذلك بوضع برنامج يسير عليه المبشرون في عملهم ويمكن حصره فيما يلي:

أ . ينصب اهتمام البرنامج الخاص، لا إلى تنصير الفرد لأن ذلك لا ينجح وإنما التنصير الجماعي، ولذلك ركزوا على بلاد القبائل ذات الكثافة السكانية المرتفعة مما يسمح لهم بتنصير القرية بأكملها وللوصول إلى ذلك لابد من القضاء على روح التعصب الديني[١].

ب . إن المسيحي في نظر السكان، إنسان كافر ولذا أوصى لافيجري مبشريه بأن يتظاهروا بمظهر التدين حتى يكتسوا الاحترام.

ج . التمسك بالصبر والتسامح، وتقبل الشتم والسب.

ح . استمالة السكان بواسطة الأعمال الخيرية: التطبيب، التعليم والتنقل إلى القرى البعيدة لمعالجة المرضى، وتوزيع بعض الحاجيات على الفقراء والمحتاجين.

س . التواضع والتغلغل وسط السكان، واستعمال لغتهم ولباسهم وأنماط معيشتهم.

ش . عدم التعرض إلى الدين المسيحي، لأن ذلك ينفر السكان فيفشل المساعي التبشيرية وهكذا جهز لافيجري لهذه الأعمال وسخر لها الوسائل البشرية والمادية، وما إلى ذلك من طرق تبشيرية هادفة.

وقد لخص أحدهم طريقة التعامل مع السكان بقوله: إذا أردنا أن يخضع الناس للإنجيل، فيجب أن نخضع لهم ونظهر إزاءهم بصفة المغلوب وفي نهاية المطاف نتمكن من أن نخضعهم إلينا[٢].

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٥٨.

[٢] المصدر نفسه، ص: ١٥٨.

انطلق لافيجري في حملته التبشيرية وهو يعتمد أساساً على التشكيك في إسلام هذه المنطقة وضربها في العمق، وفي نظري أن هذا أخطر سلاح استعمله المبشرون للوصول إلى الهدف ولا يمكن النجاح إلا بمحو الإسلام بهذه المنطقة بل وفي كل المناطق الأخرى.

وبعد سنة من هذه الزيارة أي في ١٨٧٣م أسس لافيجري مراكز تعليمية تبشيرية بهذه المنطقة مدعومه بسخاء وروح صليبية.

ويبدو أن الخطر الذي هدد الديانة الإسلامية في التجربة الأولى جعل السكان يشكون في أمر المبشرين، ولا أدل على ذلك ما أظهرته جماعة أو تجماعات قرية توريرت عبد الله من خوف على مصير أبنائها وما أبدته قرية آيت برحال من إستمرار الأعمال الخيرية، ولم يرض سكان مدينة ميشلي بوجود الدين بينهم إلا بعد تدخل قائد القطاع العسكري الذي وعدهم بعدم مس الشؤون الدينية، ويمكن القول بأن أعمال المبشرين في البداية، إقتصرت على الأعمال الخيرية، كالتطبيب والتعليم بإسم الديانة المسيحية، ونظراً للدور الذي تلعبه المدرسة في مجال التبشير، فإن لافيجري أوصى مبشرية (الآباء البيض) بتركيز الجهود عليها بإعتبارها تملك الطفل وتتحكم في مستقبله، وإنطلاقاً من هذه الوصية أسس المبشرون مدارس بكل مراكزهم ولما كانت الأعمال الطبية أهم ما يفتقده السكان، حاول هؤلاء إستعمال هذه الوسيلة لتحقيق المطامع التبشيرية.

ويظهر أيضا أن العمليات التنصيرية الأولى بالمنطقة نفذها المبشرون مع اليتامى والمعوقين والمرضى والأطفال غير الشرعيين وبعض المغامرين بحثاً عن المادة، ولعل أسوأ ما إستغله هؤلاء هم العجزة من الشيوخ الذين لا سند لهم، أو الذين تخلت عنهم أسرهم، وهم يعانون الفقر، والحرمان والوحدة القاتلة.

وإلا كيف نفسر تعميد شيخ أعمى في آخر حياته إذ يبلغ ٩٠ سنة وعجوز ذات ٨٠ سنة والأخرى ذات ٧٥ سنة.

أو ليس هذا إستغلال مباشر للوضع المأساواي وعمل خيري مقنع بإسم الدين[1]؟

لم يستطع الكاردينال لافيجري أن يكسب منطقه القبائل دينياً وبشكل جماعي وبالصورة التي كان يتوقعها من قبل، وبالرغم من الصبر والتفاني في العمل، فإن المحاولات التبشيرية لم تكن لها نتائج أكثر من التي تحصلوا عليها في المناطق الأخرى، وما تمكن منه هؤلاء هو جلب عدد من المغامرين، الذين أقبلوا على التنصير ففقدوا مكانتهم بين عائلاتم والمجتمع وهددوا بالموت، أو بعض الذين أرادوا تحقيق بعض الأغراض المعيشية، فتعرضوا فيما بعد إلى النبذ والإحتقار، وإضطر عدد منهم إلى الهجرة خارج القرية بل وإلى خارج الجزائر.

ويذكر شارفوريات الذي زار بلاد القبائل بعد ستة عشر عاماً من وجود الآباء البيض بها ما يلي: يستحيل التنصير الفردي وما يمكن الإعتماد عليه هو التنصير الجماعي، والسبب في ذلك هو الروابط التي تشد الفرد بمتجمعه وقريته والتي تجعله مبعداً عنها أن هو إرتد عن دينه، وبعترف الآب شاتلان بصعوبة التنصير في هذه المنطقة حيث قال: إذا كان سكان بلاد القبائل قد أبدوا إقبالاً على كل الحضارات، فإنهم ومن ناحية أخرى لم يكونوا ليغيروا عقيدتهم إلا بمشقة كبيرة.

وكتب الأب شارميتان مسئول الآباء البيض في هذه المنطقة عام ١٨٩٢م ليقول: إن القبائل بعيدون كل البعد عن مملكة السماء أي المسيحية، وهم ليسوا مستعدين للتنصير ولا يمكن التأثير فيهم ... أن القبائلي مسلم مثل العربي لا يتقبل الإنجييل بسهولة مثلما يتقبله الوثني، ويفهم من ذلك تمسك هذا الأمازيغي القبائلي بالإسلام، وكتب بعضهم قائلا: أنه وبعد خمسين سنة من إستقرار الآباء البيض بهذه المنطقة أي حوالي ١٩٢٠م تقريباً فإن النتيجة جاءت مخيبة للآمال وليس كما كان متوقعاً ثم يكشف وضعاً آخر

[1] المصدر نفسه، ص: ١٦١.

قائلا: إن الذين أقبلوا على التنصير كانوا يبحثون في ذلك عن الإمتيازات والمصالح المادية التي أصبحت عبئاً ثقيلا عن الإرسالية التبشيرية[1].

ونستنتج من كل ذلك، فإن تمسك السكان الكبير بالإسلام وحضارته والمعارضة التي أظهروها ضد كل محاولة تبشيرية بالمنطقة كما أسلفنا أفشلت مساعيها ورغم الجهود التي بذلت وبشتى الوسائل والاهتمام الخاص الذي أفرد لسكان هذه المنطقة، فإن كل ذلك باء بالفشل بما في ذلك الجهود التبشيرية التي كان لها نفس المصير في مناطق أخرى من الجزائر.

وهو الأمر الذي جعل المبشرين يركزون جهودهم على تعلم اللغة الفرنسية وحضارتها متخذين من ذلك وسيلة أخرى من الوسائل التي تحقق الإدماج في هذه الناحية والنواحي الأخرى[2].

لقد قاوم الجزائريون نشاط هذه البعثات المسيحية بالصحراء وإغتالوا الكثير من رؤسائها الذين أرسلهم لافيجري مثل: (بولمبيه، ومينوري، وبوشار) الذين قتلوا في حاسي عين إيفل كما قتل القسيسان: ريشارد وكيرمابون في الصحراء الشرقية.

وعمل القس شارل دي فوكو بالصحراء وأدى دوراً كبيراً من أجل تثبيت الإستعمار الفرنسي، ونسق مع المرشال ليوتي الذي إحتل المغرب وقام بدراسة القبائل الصحراوية، وركز على الطوارق، فدرس لهجتهم البربرية، وكتب قاموساً لها، وذهب إلى المغرب في مهمة كيهودي سنة ١٨٨٣م، وتنقل بين الأغواط وغرداية، وميزاب ورقله والمنيعة وتقرت، وقام برحلة في المشرق في مهمة وعاد للجزائر وساعد الجيش الفرنسي على إختراق الصحراء والتوجه نحو أفريقيا السوداء وإستقر في منطقة الطوارق بعد أن أتقن لهجتهم،

[1] المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

[2] المصدر نفسه، ص: ١٦٢.

وفي سنة ١٩١٦م تم إغتياله من طرف رجال الطرق الصوفية الغيورين على دينهم ووطنهم وإتهمت فرنسا السنوسية بقتله[١].

وبرغم الجهود التي قامت بها المنظمات التبشيرية في الجزائر، فقد فشل التنصير وخاب أمل الفرنسيين وبرهن الجزائريون على تمسكهم بدينهم بالرغم من المغريات، وأدركوا أن مهمة الآباء البيض لم تكن دينية صرفة وأنما كانت في خدمة الإستعمار ونشر التفرنس الذي يخدم الإدماج، ولقد نبه الجزائريون المتعاونون مع الفرنسيين إلى خطورة عملية التنصير، فقال لهم الباشاغا ابن علي الشريف سنة ١٨٦٨م.

إن سكان زواوة يفضلون الموت لأطفالهم على أن يروهم يتخلون عن دينهم ويصيروا نصارى.

وكان نشاط عملية التنصير بمنطقة القبائل هي التي سهلت مهمة ثورة المقراني والشيخ حداد، لقد هرب الكثير من الأيتام الذين مسحهم لافيجري بعد أن كبروا وعرفوا حقيقة قصتهم هربوا إلى ذيوهم، لقد عملت الكنيسة على العودة بالبربر (القبائل) إلى المسيحية وتمزيق الشعب، فقد ألف سنة ١٨٩٤م أحد عناصرها كتاباً عنوانه (الأجناس والأديان في الجزائر) وأهداه إلى الأسقف لافوما، دعا فيه إلى الحكم بالعرف الزواوي القبائلي البدائي على حساب الشريعة الإسلامية، وهو ما حاوله المستعمر بالمغرب فيما بعد سنة ١٩٣٠م بالظهير البربري، كما دعا ماثيوا إلى نشر القبايلية على حساب اللغة العربية وتدريس القبائل تاريخ جنسهم الذي ربطته الإدارة الإستعمارية بالمسيحية قبل الإسلام، وربطهم بفرنسا والعمل على نشر الفرقة بين البربر وبين الفاتحين المسلمين.

لكن الكثير من الأعيان من أبناء القبائل الشامخة بدينها وحضارتها رفضوا هذه التفرقة فواجهوا تحكيم العرف القبايلي، فقد طالب أحمد بن سليمان: بإستعمال القضاة

---

[١] الجزائر في التاريخ، ص: ٦٣٩.

المسلمين في منطقة القبائل أسوة بكل أنحاء الجزائر لأن الإسلام واحد في البلاد الجزائرية كلها[١].

لقد بينت الدراسة التاريخية العلاقة المتينة بين الإستعمار وحركة التبشير، وإليك أهم النتائج.

. أن للتبشير علاقة بالإستعمار، فأغلب المبشرين يربطون الاستعمار بالتبشير، وهدف الاحتلال في نظرهم هو التقدم الروحي والأخلاقي للمستعمرين (بفتح الميم) .

. أن المبشرين لعبوا دوراً هاماً في الحركة الإستيطانية بإستحواذهم على أراضي فلاحية معتبرة سخروها للفلاحة وزراعة الكروم لإستخراج النبيذ الذي بقي آفة زراعية بعد الإستقلال.

. أن التبشير لعب دوراً هاما أيضاً في توطيد النفوذ الفرنسي بالجزائر والهيمنة الثقافية .

. أن موقف السلطة الفرنسية من التبشير كان متضارباً بحيث كانت تعارض التبشير علانية خشية ثورة الجزائريين وتشجعه سرياً لتدعيم نفوذها في الجزائر، ويتضح ذلك من خلال مواقف ممثليها بالجزائر.

. أن المبشرين بالجزائر كانوا يهدفون إلى خلق النعرة القبلية بين المواطنين، وإتباع سياسة فرق تسد لتدعيم النفوذ الفرنسي، ولكنهم فشلوا في هذه المهمة.

. أن الحرية التبشيرية التي كانت تفتقر إلى حرية واسعة في عهد النظام العسكري، عرفت انطلاقة واسعة وتحررت من بعض القيود المفروضة عليها، وذلك في عهد النظام المدني ولاسيما بعد تأسيس فرقة الآباء البيض .

. أن الحركة التبشيرية عامة قد فشلت أمام صمود الجزائريين لتمسكهم الشديد بالديانة والحضارية الإسلامية.

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٦٤٩.

. أن النشاط التبشيري بالجزائر، فتح الباب على مصراعيه في كل القارة الأفريقية وهو الذي مهد للاحتلال الفرنسي لعدد من الدول والمناطق بها.

. أن من إعتنق المسيحية من أفراد وهم أقلية عاشوا معزولين منبوذين ومجتمعهم، وحتى من المعمرين الفرنسيين[١].

١٠ . المستشرقون والإستعمار:

ومن العناصر التي إستعان بها الإستعمار الفرنسي المستشرقون، من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، وديفوكس، ودي سلان، بين ١٨٣٠ و١٨٧٠، وبعد هذا التاريخ ظهرت مجموعة من المستشرقين ضمتهم كمدرسين بمدرسة الآداب بالجزائر العاصمة مثل: إيميل ماسكري، ورنيه باسيه، وإيدمون فانيان، وهوداس، وبرز جزائريون، كمعاونين لهم ثقافياً من أمثال: إبن سديره، وإبن الونيس، وإبن شنب وبوليفة، ومحمد تهليل، وإبن علي فخار، وقد سيطر هؤلاء المستشرقون على المدارس الإسلامية وصارت تحت سيطرتهم وأفكارهم وثقافتهم منذ ١٨٨٠م واستخدمت للنفوذ الفرنسي في الجزائر والمغرب العربي وأفريقية، وكان من أكثر الشخصيات المؤثرة في الإستشراق بالجزائر وفرنسا رونيه باسيه، الذي وصل الجزائر سنة ١٨٨٠ كأستاذ للآداب في مدرسة الآداب بالجزائر، واستطاع تكوين حلقات دراسة جادة في البربرية والأدب العربي، وبل وبعض اللهجات الأفريقية كالهوسة، وتمكن من الدخول في المكتبات العامة والخاصة بالمغرب العربي، وتسجيل مخطوطاتها في فهارس وساعدته الإدارة الفرنسية على ذلك فذللت أمامه كل الصعاب والمشاق والمتاعب، وختم عمله العلمي الكبير هذا بعقد مؤتمر المستشرقين الرابع عشر في الجزائر سنة ١٩٠٥م، وساعدت على نجاح هذا المؤتمر شخصية رونيه باسيه وعلمه وتلاميذه، ويعتبر رونيه باسيه من أكثر المستشرقين تعمقاً في الدراسات البربرية والسامية بصورة عامة، تخرج على يديه عدة تلاميذ من أمثال: ألفريدبيل وديستان

---

[١] الحركة التبشيرية الفرنسية، ص: ١٦٣.

الذي جلس على كرسي البربرية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس سنة ١٩١٣ وإندريه باسيه وهنري باسيه مؤلف كتاب (اللغة البربرية) سنة ١٩٢٩م وهما من عائلته.

ومن الجزائريين من تتلمذوا عليه: محمد بن أبي شنب، وسعيد بولفيه وقد إستعمل رونيه باسيه أبن شنب في تحرير دراسات عن الأوضاع الإجتماعية والثقافية للمسلمين وفي ترجمة الكثير من الشعر الملحون وبرامج التعليم عند المسلمين، كما قام بتحقيق التراث الجزائري والإسلامي مع ترجمته أو ترجمة خلاصة منه الفرنسية، كما قام بدراسات عن اللغة العربية ودارجيتها الجزائرية، وكانت كل هذه المواضيع تصب في تمكين الإداراة الإستعمارية من فهم المجتمعات التي تحكمها، لا في الجزائر فقط وإنما في أقطار المغرب العربي وأفريقية السوداء، وهذا لايقلل من جهود إبن شنب في خدمة الثقافة العربية بالجزائر بطرق منهجية حديثة مكنه منها أستاذه رونيه باسيه، ووجه باسيه بوليفة لدراسة التراث البربري وعلى الخصوص التراث الزواوي (القبايلي).

ومن غير شك فإن رونيه باسيه إستفاد من هذين العالمين الجزائريين فيما كتبه عن السامية والبربرية وتتلمذوا عليه في إكتسابهم للمنهج العلمي الحديث، كما إستفاد رونيه باسيه من علماء جزائريين آخرين.

لقد إستفادت الإدارة الإستعمارية الفرنسية من جهود المستشرقين ووظفتها في خدمة الإستعمار وتفريق صفوف الجزائريين على أسس من الدراسات والبحوث.

ومن المستشرقين الذين عملوا بفعالية في الصحراء غوستاف مونتيلانسكي الذي ولد في معسكر سنة ١٨٥٤م، وصار من المترجمين العسكريين وتنقل في سائر أنحاء الجزائر وتونس وإختلط برجال القوافل التجارية العابرة للصحراء والواصلة لأفريقية السوداء، وإنتهى به المطاف إلى أن يعين مديراً لمدرسة قسنطينة الإسلامية الفرنسية الكتانية، وكان لهذا المستشرق اتصالات واسعة بعلماء الصحراء وبشيوخ الطرقية، وقام برحلة من غدامس تعقباً لنشاط السنوسية، وسجل كل ذلك في تقارير كان يزود بها حكومته ونشر

مقالات ومخطوطات في المذهب الأباضي، وكما يقول أبو القاسم سعد الله، فإن جهود هؤلاء المستشرقين لم تكن عميقة محضة، فقد كانوا جنوداً في الميدان وليسوا علماء باحثين عن الحقيقة المجردة، كان مثلهم في دعم الإستعمار مثل لافيجري وجنوده من الآباء البيض، ومثل المارشال ليوتي وجنوده من المحاربين، لقد كان يكمل بعضهم بعضاً ويعملون لنفس الغاية وهي مساعدة الإدارة على بسط نفوذها على منطقة العربي وما يتصل به من أفريقية والعالم الإسلامي.

ووسط هذه الحركة الإستعمارية الثقافية وأمام إضطرار فرنسا لتوثيق كل ما يتعلق بالجزائر وتاريخها أسس ضباط المكاتب العربية بالجيش مكتبة هائلة عن الجزائر وتاريخها في مختلف مراحله، وتأسست جمعيات ثقافية أولاها لجنة إكتشاف الجزائر سنة ١٨٣٩م، وأسس الحاكم العام كامبون لجنة ترجمة الكتب العربية سنة ١٨٩٤م، وأسست جمعية آثار قسنطينة سنة ١٨٥٢م، والجمعية التاريخية في العاصمة سنة ١٨٥٦م، وهذه الجمعية هي التي أنشأت (المجلة الأفريقية) الذائعة الصيت، و(جمعية جغرافية وهران) سنة ١٨٧٨م و(جمعية هيبون) بعنابة، وجمعيات أخرى صغيرة في تبسة وتلمسان وسطيف وتأسست في سنة ١٨٩٦م (الجمعية الجغرافية) بالعاصمة، التي قامت ببعثات استكشاف بالمغرب العربي كله والصحراء وجنوب الصحراء، وأشرف عليها ضباط ومدنيون علماء يساعدهم جزائريون. وقد ركزت هذه الجمعيات في عملها على المرحلة الرومانية لأن الفرنسيين يعتبرون أنفسهم ورثة العهد الروماني ويعملون على إعادة الجزائر إليه. وبخاصة إلى المسيحية فيه، وكانت كل هذه الجمعيات والمجلات تعمل تحت العقل المركزي المسير لها وهي المدارس العليا التي صارت سنة ١٩٠٩م جامعة الجزائر.

وقبل هذا التاريخ كان الطالب بهذه المدارس يجري امتحانات الأجازة "الليسانس" في باريس.

واهتمت هذه الحركة الثقافية بالمكتبات فأسس مكتبة عامة هامة بالعاصمة في آخر القرن التاسع عشر ضمت الآلاف من الكتب والمخطوطات التي جمعت من الزوايا والمساجد ووضع لها فانيان فهرساً لمخطوطاتها سنة ١٨٩٣م.

كما تأسست مكتبات تابعة للمكتبة العامة بالولايات وبعض البلديات ومكتبات عسكرية ومكتبات بعض المدارس، وأسس "المتحف الوطني" الذي صار له بنايته المستقلة سنة ١٨٩٧م بعد أن كان موجوداً في مبنى واحد مع المكتبة العامة[١].

الثالث عشر: السيطرة على القضاء والإمامة

١ . القضاء:

عمل الفرنسيون على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول، وكان الداي والباي يعين قضاة المدن، وتعين القبائل قضاة الريف، وكان مجلس أعلى للقضاء يستعرض القضايا الصعبة في صورة استئناف. وأحكامه نافذة، والحكم يكون بالتغريم أو الضرب، أو القتل ولا يكون بالسجن إلا في الحالات القليلة، وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة. لقد عين الأمير قاضياً لكل خوجة يعاونه أربعة علماء متفقهين في الدين، وكان لا يصدر الحكم بالموت إلا بحضور الخليفة شخصياً "أي نائب الأمير في الولاية"، وهذا عناية بالروح البشرية.

في ١٨٤١م بدأت المحاولات لدمج القضاء الفرنسي كقاضي الصلح والمحاكم الابتدائية والمحاكم الاستئنائية والمحاكم العسكرية، ونزعت الجنايات من القضاء الإسلامي، وصارت من صلاحيات المحاكم الفرنسية، بل وصارت المحاكم الفرنسية الاستئنائية تملك حق النظر في الأحكام المدنية المتعلقة بالأحوال الشخصية.

---

[١] الجزائر في التاريخ صـ٦٥٥.

وحتى القانون الفرنسي لا يطبق بكامله على الجزائريين الذين تحكمهم قوانين استثنائية. فالجنرال بوجو يقول لوزير الحربية: إن حرب الجزائر تستلزم نوعاً من القضاء يختلف عن المعمول به في أوروبا.

ويعترف لوي ماسينيون فيقول: إن الواقع الذي يطبق في الجزائر هو أولاً اعتداء على الشريعة الإسلامية. وثانياً إجراءات تعسفية غير خاضعة حتى للقانون الفرنسي[1].

وقال الحاكم العام "دوفيدون" يوم ٢٢ مارس ١٨٧٤م: إن العدالة تدخل في إطار السيادة وعلى القاضي المسلم الانحناء أمام القاضي الفرنسي وعلى كل واحد أن يفهم أننا الغالبون[2].

واستمر الفرنسيون في تفريغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، وما أن حل آخر القرن التاسع عشر حتى لم تبق له سوى عملية تسجيل الزواج والطلاق، وهوت قيمة القاضي الإسلامي[3].

وفي عام ١٩٠٦م منع القضاة والموثقين من كتابة العقود باللغة العربية وأجبرتهم على كتابتها باللغة الفرنسية، لكن رجال القبائل الكبرى، رفضوا كتابة أي قضية باللغة الفرنسية وأصروا على الكتابة باللغة العربية، وهذا ما دفع بأحد الأوربيين المختصين في القانون إلى القول في عام ١٩١٣م بأن الجزائر، ككل يغلب عليها الطابع الإسلامي والبربر ولا تربطهم أية صلة بفرنسا، وهم مثل العرب في هذا الشأن[4].

لقد استخدم الفرنسيون سلاح العدالة لقمع الجزائريين المسلمين وذلك عن طريق تطبيق القوانين الفرنسية عليهم وتشكيل مجالس القضاء من الفرنسيين فقط، وإعطاء الشرعية القانونية للقضايا المسجلة عند الأوربيين الذين يتحكمون في ملفات العدالة وكسب

---

[1] الجزائر في التاريخ ص٦٢٩.

[2] التاريخ السياسي للجزائر ص١٧٥.

[3] الجزائر في التاريخ ص٦٣١.

[4] الجزائر في التاريخ ص٦٢٩.

أموال كبيرة من الجزائريين وإلغاء العمل بالقانون الجزائري والشريعة الإسلامية معناه حرمان آلاف الجزائريين من كسب العيش[1]، والحياة بأمان في ظل شريعة الإسلام العادلة.

وأدرك الجزائريون أن ضرب قضائهم الهدف منه ضرب الهوية الإسلامية الوطنية الجزائرية، فراحوا يناضلون من أجل مقاومة سائر الإجراءات التي تمس هويتهم، كالتجنس بالجنسية الفرنسية، وقانون الأدنجينا، والتفرس، والمطالبة بتعليم العربية والمساواة، وكان من القضاة الذين نشطوا في هذا الميدان حميدو بن باديس، ومحمد بن رحال[2].

٢ . الإمامة:

وفي خط موازٍ للسيطرة على الخطاب الديني وتدمير الهوية الإسلامية أوجدت السلطات الإستعمارية طبقة من رجال الدين الرسميين الموظفين تدفع لهم مرتباتهم بعد أن كانوا يتقاضونها من الأوقاف التي صادرت أملاكها السلطات، وقد خضع هؤلاء خضوعاً مطلقاً للإدارة ففرضت عليهم منذ بداية الاحتلال أن يدعوا على منابر المساجد دعوات عامة مع التوقف عن الدعاء لخليفة المسلمين، بل فرضت عليهم بعد الانتهاء من الصلاة وقراءة الفاتحة، أن يشمل دعاء الإمام في الأعياد ما يلي:

بالتأييد والتمكين لحكومة فرنسا، ومن لم يفعل يعتبر معادياً لفرنسا. يقول حمدان خوجة في كتابه المرآة: واختفت منذ ١٨٣٣م جرأة العلماء، لأنهم إن قالوا أو سكتوا عن خوف حكم عليهم بالنفي أو الحبس. واختفت من المساجد الرسمية حلقات الدروس لتكوين العلماء، بل اختفت دروس الوعظ الفاعلة التي تردد آيات وأحاديث فيها الجهاد ومحاربة الكفر، واستبدلت بدروس استبعد منها ما يفسر على أنه تعريض بالاستعمار، بل حتى هذه الدروس المراقبة كانت تحتاج إلى رخصة، يعين أئمة المساجد بالمدن مدير الشؤون الأهلية بالإدارة الاستعمارية، وبالريف تعينهم المكاتب العربية بالجيش، كان عدد المساجد

---

[1] التاريخ السياسي للجزائر صـ١٧٥.

[2] الجزائر في التاريخ صـ٦٣١.

سنة ١٨٣٠م (١٤٩٤) مسجداً، ويبدو الإجحاف واضحاً ضد المسلمين في توزيع ميزانية الأديان على الديانات الثلاث، كانت المخصصات لسنة ١٨٨٧م كما يلي:

. الإسلام : ٢١٦٣٤٠ فرنك.

. المسيحية : ٩٨٦٤٠٠ فرنك.

. اليهودية : ٢٦٦٠٠ فرنك.

علماً بأن عدد المسلمين ثلاثة ملايين نسمة، وعدد المسيحيين ٣٥٠٠٠٠ نسمة، وعدد اليهود ٣٦٠٠٠ نسمة، كانت مداخيل أملاك الأوقاف تغطي نفقات المساجد والمدارس والتعليم بصورة عامة، صادرها المستعمر وصار ينفق من هذه المداخيل على الأديان الثلاثة، ووفق ما أورده ديبوت سنة ١٨٩٧م فقد قدر المدخول السنوي لأوقاف إقليم مدينة الجزائر وحده ما يقارب خمسة ملايين فرنك، ألغى الفرنسيون منصب شيخ الإسلام، وأبقوا على مناصب المفتون، بل ذهبوا بعيداً فحولوا الكثير من الأئمة والمفتون إلى مخبرين في أجهزة المخابرات، فأوغستين بيرك يقول: تحول بعض المفتين إلى جواسيس للإدارة الفرنسية. ويقول لوي ماسينيون: لقد استعمرت الحكومة الفرنسية العقيدة الإسلامية بالجزائر منذ ١٨٣٠م. كانوا يختارون المفتين والأئمة في معظم الحالات من أشباه الأميين.

وهذا الوضع للمساجد جعل الناس ينفرون من أئمتها الموظفين ويلجأون إلى المرابطين ومقاديهم، ولم يعدم بعض الأئمة النزهاء الشجعان، فالمفتي مصطفى الكبابطي وقف سنة ١٨٤٣م في وجه الجنرال بوجو، ووقف القاضي عبد العزيز سنة ١٨٣٤م في وجه فوارول. لكن كانوا أقلية[١].

٣ . محاربة التعليم الإسلامي:

---

[١] الجزائر في التاريخ ص٦٢٨.

ومن العناصر التي حاربها الفرنسيون التعليم العربي، فقد وجدوا تعليماً منتشراً عبر مدارس في المدن والأرياف، بحيث كانت نسبة الأمية متدنية جداً، وكان هذا التعليم يمول من الأوقاف، ويشهد الفرنسيون بأنه كان يملك ميزانية وافرة ومدارس كثيرة، ومعلمين أصحاب قدرة متميزة، وبرامج تعليمية، ونظاماً للشهادات. وبالرغم أنه لم يكن متقدماً، لكن الجزائريين يرون أنه يغطي حاجة مجتمعهم مع استعدادهم لتطويره. وكان بعض المفكرين الفرنسيين يؤيدون ذلك، فالبارون بيشون يرى: أن أنجع الوسائل هي إدماج الجزائريين في مصالحهم الخاصة، وتطوير التعليم عندهم باللغة العربية، وطالبت عدة تقارير فرنسية كتقرير بيدو سنة ١٨٤٧ وتقرير بارو سنة ١٨٤٩م وتقرير سنة ١٨٥١م الذي طالب: بضرورة الشروع في تكوين جيل جديد من الجزائريين في مدارس فرنسية لم يحضروا الغزو والمقاومة وإنما نشأ في عهد الاحتلال وفتح عينيه على الجزائر الفرنسية.

وبدأوا في فتح مدارس ابتدائية ومتوسطة تستوعب أبناء الجزائريين الموظفين والمستخدمين في الإدارة الفرنسية وسموها بالمدارس الأهلية.

وأما الأطفال الفرنسيون فلهم مدارسهم الخاصة المنتظمة التي فتحت منذ السنة الثالثة للاحتلال، وتأسست أول ثانوية وهي ليسيه بوجو سنة ١٨٦٢م الذي صار يحمل اسم ثانوية الأمير عبد القادر بالعاصمة بعد الاستقلال، ثم تتابع فتح ثانويات أخرى، وفي سنة ١٨٧٩م تأسست أربع مدارس عليا هي: الآداب، والحقوق، والعلوم والطب.

هذه الأخيرة سبق وأن نشأت متعثرة في ثكنة سنة ١٨٥٧م، وكانت هذه المدارس نواة للجامعة الجزائرية التي أسست في خدمة الاستعمار سنة ١٩٠٩م، فالآداب تحولت إلى وكر للاستشراق، والحقوق بؤرة لسيطرة القانون الفرنسي على الشريعة الإسلامية.

وكان التلميذ الفرنسي بهذه المدارس يجري امتحاناته النهائية في فرنسا.

كانت مدرسة الآداب تدرس الفصحى والدارجة، ويتولى التدريس بها المستشرقون الذين تولوا إدارة المدارس الثلاثة العربية ـ الفرنسية، كانت تركز على الدارجة حتى تعلم للإداريين الفرنسيين العاملين بالجزائر.

أما التعليم الابتدائي المخصص للجزائريين فقد بدأ بنوعين: عربي وفرنسي، العربي كان عبارة عن كتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم، وكان الفرنسيون يمنعون تعليم أية مادة أخرى غير حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وفي سن الثالث عشر يغادر الكتَّاب دون مهنة أو مؤهل، وفي بداية العقد الثامن من القرن التاسع عشر قررت إجبارية التعليم بفرنسا، ولم تشمل هذه الإجبارية إلا منطقة زواوة تحت إشراف الآباء البيض ولواء عملية التنصير، وفي العقد التاسع قرر الفرنسيون إنشاء بعض المدارس الأهلية التي تختلف عن المدارس المخصصة للفرنسيين، ويعلم الجزائريون فيها ليعملوا في مزارع وورشات الكولون، ولم يحظ الجزائريون بتعليم معقول مع الفرنسيين إلا في القرن العشرين بين الحربين العالميتين.

وأما التعليم المتوسط فقد خصصت له ثلاث مدارس بالعاصمة وقسنطينة وتلمسان مهمتهما إعداد موظفين في القضاء الإسلامي، وكان يديرها جزائريون متمكنون من العربية، وقد تدعمت في عهد نابليون الثالث الذي نشَّط القضاء الإسلامي ولكنها انكمشت بعد ١٨٧١م عندما أعلن الكولون الحرب على كل ما هو عربي إسلامي، وسيطر عليها المستشرقون، ومنذ ١٨٧٧م خرجت من إطارها كمدارس عربية أهلية وأدمجت في التعليم الفرنسي تحت اسم "المدارس الفرنكو الإسلامية".

وفي سنة ١٨٩٢م زادوا من فرنستها، وشدد المستشرقون سيطرتهم على إدارتها[١].

وبالإضافة إلى هذين النوعين من التعليم وجد نوع ثالث وهو التعليم المزدوج فأنشيء المعهد الكوليج العربي الفرنسي سنة ١٨٥٧م بالعاصمة بإدارة نيقولا بيرون وهو مستشرق سان سيمون، عمل في مصر في تدريس الطب، وكتب في تاريخ العرب والإسلام وأتقن

[١] الجزائر في التاريخ ص٦٣٤.

العربية، كانت مهمة المعهد تكوين نخبة جزائرية مثقفة باللغتين العربية والفرنسية في إطار الاندماج الثقافي وتلاميذ المعهد من العائلات المتعاونة مع الفرنسيين.

وفي عام ١٨٦٧م فتح معهد على غراره بقسنطينة، وبعد ذهاب نابليون الثالث وفي عام ١٨٧١م ألغى المعهدان وتقلص حتى عدد المدارس الابتدائية المخصصة للأهالي، واستمر وضع التجهيل للأهالي حتى سنة ١٨٩٢م حيث أعدت لجنة جول فيري البرلمانية تقريرها المشهور، فأعيدت الحياة للتعليم الابتدائي الأهلي الذي انطلق مع مطلع القرن العشرين انطلاقة متواضعة في حدود ضيقة جغرافياً وبشرياً طبعاً[١].

كان المستوطنون الفرنسيون يريدون أن لا يتعلم الشباب الجزائري خوفاً من أن يطالب بحقوقه السياسية والمساواة مع الفرنسيين، ولهذا نجح المستوطنون في إقامة مدارس لأبنائهم وأكاديميات لمواصلة التعليم العالي لكنهم أغلقوا الباب في وجوه أبناء الجزائر.

ومع تمكن المستوطنين من الجزائر بدأ عدد التلاميذ الجزائريين في الإنخفاض منذ عام ١٨٧٢م، حيث صار العدد ٨٥ تلميذاً فقط في مدرسة الجزائر بالعاصمة، وذلك بسبب محاربة المستوطنين لهذه المدارس العربية الفرنسية، وفي عام ١٨٨٢م لم يكن عدد التلاميذ الجزائريين في جميع مراحل التعليم أكثر من ٣١٧٢ تلميذ مسلم، وفي عام ١٩٠٢م كانت النسبة لا تتجاوز ٤,٢٦% من أبناء الجزائريين المسلمين الذين أتيحت لهم فرص التعليم، ويلاحظ هنا منذ أن استولى المستوطنون على السلطة في نهاية ١٨٧٠م تراجع عدد الأساتذة الذين تم توظيفهم لتعليم أبناء الجزائريين، فقد انخفض العدد من ٢١٦ معلم في سنة١٨٧٧م إلى ١٩٨ سنة ١٨٨٢م.

وفي عام ١٨٨٦م إنخفض عدد المدرسين إلى ١١٥ ثم تقلص إلى ٨١ معلماً في سنة ١٨٨٩م ووصل إلى ٦٩ معلماً فقط سنة ١٨٩٣م.

٤ . التعليم الحافظ للشخصية الوطنية:

---

[١] الجزائر في التاريخ ص٦٣٤.

فقد بقي محصوراً في الزوايا الصوفية التي تخرج منها العديد من قادة الثورات، وكان يقوم على تعليم العلوم الدينية واللغة العربية والتاريخ الإسلامي والتوحيد والمنطق والتصوف، وتسببت الثورات في هدم الفرنسيين للعديد من الزوايا وتهجير معلميها وطلابها، ومع توقف الثورات عادت الحياة للزوايا وبخاصة بعد عملية التدجين الفرنسية، واستأنفت رسالتها التعليمية، وكان خريجو الزوايا هم الذين يتولون القضاء حتى سنة ١٨٨٠م، وبعد هذا التاريخ صار مقتصراً على خريجي المدارس الثلاث التي أنشأها الفرنسيون. وصدر قرار بعدم قيام الزوايا بالتدريس إلا برخصة لا تعطى لها إلا بصعوبة وشروط، ومع كل هذه الصعوبات استمرت الزوايا تؤدي رسالتها التعليمية معتمدة على أوقافها الخاصة أو مواردها من زيارات الأخوان والأنصار والزكاة، وكانت زوايا الريف تعمل مثل زوايا: طولقة والهامل، وقصر البخاري، وأولاد الأكراد.

في آخر القرن التاسع عشر رخصت الإدارة لبعض المدرسين بإعطاء الدروس في الفقه، والتوحيد والنحو بمساجد معينة، مع منع المدارس من الاستشهاد بالآيات والأحاديث التي تشير للجهاد ولمقاتلة الكفار، وتحول الكثير من المساجد إلى مدارس ابتدائية تعد التلاميذ للدخول للمدارس الثلاث التي لا تملك مدارس ابتدائية تزودها بالتلاميذ واستطاع بعض المعلمين بطرق إيحائية بث أفكار وطنية بعيد عن أعين وآذان السلطات وكان من بين هؤلاء الشيخ حمدان الونيسي قبل هجرته إلى المشرق١.

٥- محاربة فرنسا للسنوسية:

بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قياداتها الفاعلة خارج الجزائر، كانت لها علاقة بثورات مثل ثورة شريف ورقلة وثورة بوعمامة وعمل الشيخ السنوسي على إيجاد فروع للطريقة في بسكرة وبوسعادة والأغواط، واضطهد الفرنسيون اتباعها مثل محمد شبيرة فنفوه من بوسعادة إلى تونس وصادروا أملاكه. كما أسست الطريقة فرعاً لها بمستغانم التي ولد بها الشيخ السنوسي وأمام متابعة الفرنسيين

[1] المصدر نفسه، ص: ٦٢٦.

هاجر الشيخ السنوسي إلى ليبيا فاستقر بها سنة ١٨٤٣م فلحق به العديد من الجزائريين وكونوا لهم مركزاً قوياً في الجنوب بليبيا وتمكنت أسرة تكوك من الحفاظ على السنوسية بالجزائر منذ ١٨٥٩م وشاركت في عدة ثورات كثورة فليتة وثورة أولاد سيدي الشيخ ومؤسس زاوية طكوك هو الشارف ولد الجيلاني عبد الله بن طكوك المعاصر للشيخ السنوسي، سجنه الفرنسيون عدة سنوات ثم أطلقوا سراحه، وفي أثناء ثورة أولاد سيدي الشيخ اعتقل بمستغانم مرة أخرى سنة ١٨٧٦م، وتوفي الشيخ الشارف سنة ١٨٩٠م واستمر الفرنسيون يلاحقون سنوسية تكوك ويضطهدون مقدميها بسبب توجيهها من الزاوية الأم بجغبوب التي ساهمت في تأسيس الجامعة الإسلامية، ووجهت زاويتها بالجزائر على مناهضة الاستعمار، وساهمت في إنماء وعي وطني بين الجزائريين في العقدين الأخيرين للقرن التاسع عشر[1].

إن الإمام محمد بن علي السنوسي لم ينس القضية الجزائرية وإذكاء جذوة الجهاد في نفوس أبناء الجزائر ضد فرنسا، وعندما قدم محيي الدين الجزائري برفقة ولده واشراف قومه إلى مكة التقى بهم ابن السنوسي وأكرمهم غاية الإكرام بمكة وبعد أن أرادوا السفر ودعهم وقال لهم: إن الدين الإسلامي يحتم على كل مسلم أن يدافع عنه بقدر استطاعته ويحرم على المسلمين الاستسلام للعدو الغاصب المعتدي والمنتهك لحرمات الدين والإسلام والمعطل لأحكام الله وإني أستوصيك بولدنا عبد القادر هذا خيراً فإنه ممن سيذود عن حرمات الإسلام ويرفع رايات الجهاد. فكان هذا سبباً من الأسباب في إيجاد روح الجهاد والمقاومة فيهما وتفكيرهما فيه[2]، وقد بينا جهاد الأمير عبد القادر في الصفحات السابقة.
لقد اعتبر الفرنسيون الحركة السنوسية عقبة كأداء في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية ولهذا نجد الكاتب الفرنسي دو فريه في غير اعتدال يصاب بحمى الهذيان فيقول: إن

---

[1] الجزائر في التاريخ، ص: ٨٢٦.

[2] الحركة السنوسية للصلابي، ص: ٣٨.

السنوسية خطر عام على أوروبا، وخطر على الدولة العثمانية وخطر على شمال أفريقيا وخطر على مصر[١].

وأما السياسي الفرنسي المعروف هانوتو فيقول: لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست ببعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي مذهباً خطيراً له اتباع وأنصار معدودون ومقر هذا الشيخ بلدة جغبوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون إلى أن قال: ومن مذهب الشيخ السنوسي وأتباعه التشديد في القواعد الدينية، ولقد لبثوا زمناً طويلاً لا يرتبطون بعلاقة مع الدولة العثمانية غير أن هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في أفريقيا الجنوبية ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الأفريقية فإنه يوجد بالأستانة نفسها والشام وبلاد اليمن وكذلك مراكش عصابات خفية ومؤامرات سرية تحيط بنا أطرافها وتضغط علينا من قرب ويخشى أن تعرقلنا إذا ما أغمضنا الطرف عنها[٢].

وقد وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلد[٣].

واستدل العلامة محمد رشيد رضا على صدق الحركة السنوسية بما كانت تقوم به فرنسا من عداوة ومحاربة لهذه الحركة التي أقضت مضاجعها ولم تكتم فرنسا رغبتها في القضاء على شيخ السنوسية واستئصال قوته[٤].

وقد امتدح محمد رشيد هذه الحركة بقوله: استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في أفريقيا وإستمالة شيوخها بالرشوة إلا الطريقة السنوسية[٥].

---

[١] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٢] الحركة السنوسية للصلابي، ص: ١١٨.

[٣] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٤] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

[٥] المصدر نفسه، ص: ١١٨.

لقد شعرت المخابرات الفرنسية بخطورة ابن السنوسي منذ فترة طويلة وحاولت أن ترصد تحركاته مع الحجيج الجزائريين والمغاربة عموماً، فبثت المخابرات الفرنسية عيونها وآذانها على طول الحدود مع تونس خوفاً من دخول ابن السنوسي إليها من ليبيا، وندب ابن السنوسي محمد بن صادق وحمّله بعض الأموال والأسلحة لتوصيلها إلى الأمير عبد القادر الجزائري وعاد إلى طرابلس وتبنى ابن السنوسي دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة والرجال ما استطاع إلى ذلك سبيلا وقد أوفد في فترات متفاوتة عدداً من تلاميذه النجباء من أمثال محمد بن الشفيع وعمر الفضيل المعروف بأبي حواء والشيخ أبو خريص الكزة.

وقد نقل محمد الطيب الأشهب عن دو فربيه الفرنسي ما يشير إلى اعتقاد الفرنسيين بتدخل ابن السنوسي في أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان وصحراء الجزائر سنة ١٨٤٨م ـ ١٨٦١م، وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام ١٨٨١م.

وقد بيّن المؤرخ الليبي عبد القادر بن علي الذي رافق أحمد الشريف السنوسي عقوداً من الزمن أن بعض الإخوان من السنوسية شاركوا في الجهاد الجزائري حتى أن بعضهم أكل ثمرات غرس نواها وطلع وكبر وأثمر وأكل من ثمارها وهو في ميدان الجهاد[١].

وقد ذكر المؤرخ أحمد الدجاني خطاباً أرسله أحد تلاميذ ابن السنوسي من الجزائر إلى مدير غدامس التركي "غدامس في ليبيا" وأرشدنا الخطاب إلى أن دعوة ابن السنوسي بلغت الجزائر وأن عدداً من اتباعه كانوا يقاتلون الفرنسيين فيها ومنهم مرسل الخطاب وتاريخ الخطاب سنة ١٢٦٨هـ وقد كان ابن السنوسي في الحجاز في ذلك التاريخ ومن بين ما جاء فيه :" .. وأما أنا عبد الله حيث قدمت بلاد وارقلة ففتح الله علينا بها وصارت محمدية بعدما كانت في يد الرومي دمره الله وخليفة الرومي فيها، سبحان من

---

[١] الحركة السنوسية، ص: ٤١.

حكم الضعيف في القوي وصار القوي من عبده مخذولاً مذموماً، ولكن من بركة الشريف شيخنا سيدي محمد بن علي السنوسي رحمه الله ونفعنا وإياكم به آمين.

وصار عربان وارقلة وقصورها وقبائل الثعامبة وقصور تغورن وعربانها والأرباع والخرزلية والحجاج وكثير من عربان الظهيرة وقصور بني مصاب كلهم تحت طاعة الله ورسوله وطاعتنا، والمجاهدون كل يوم في الزيادة.. وبعث لنا الرومي دمره الله هذه الساعة ثلاثة أمحل.. تلافينا معهم وصرنا مثل الشامة البيضاء في ثور أسود فنصرنا الله نصراً عزيزاً وأعلننا على أعدائه، ووقع القتال بيننا بالبارود والسيوف حتى كسرناهم كسرة عظيمة وقتلنا منهم نحو ثلاثمائة وستة وثمانون رجلاً وقلعنا من الخيل كثير والبنادق بلا عدد والخزنة والإبل والأحبية والحمد لله على ذلك.

إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك، وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض اتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر اتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م[١].

لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري وواصل الملك ادريس السنوسي جهود آبائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في ١/ ١١/ ١٩٥٤م، وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٦- يقظة أبناء الجزائر:

كان الشعب الجزائري عصي على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً، لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين

---

[١] الحركة السنوسية للصلابي، ص: ٤١ ، ٤٢.

رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم، وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

وفي الحقيقة أن الجنرال شانزي الذي تم تعيينه حاكماً على الجزائر سنة ١٨٧٣م قد حذر السكان الأوروبيين من غضب وثورة أبناء البلد الأصليين إذ طلب منهم أن لا يتوسعوا في احتلال أراضي الجزائريين وقرر أن يعمل على إحتفاظ كل فرد بحقه في الملكية حتى لا يتذمر الناس ويثوروا ويخلقوا الفوضى، لكن الفرنسيين والأوروبيين المقيمين في الجزائر تمكنوا سنة ١٨٨٧م من الحصول على قانون يسمح لهم بتقسيم أراضي الأعراش وبيعها لهم بعد لتحقيق جزئي تقوم به السلطات المحلية.

وفي بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني ويرجع الفضل في هذا إلى التنظيم السياسي إلى رجال النخبة الذين تعلموا في المدارس الفرنسية وأصبحوا يحسون ويشعرون بإنعدام المساواة بين الجزائريين والأوروبيين وعدم وجود أي تمثيل سياسي لأبناء البلد الأصليين في المجالس المحلية المنتخبة، ولهذا فإن المناضلين بدأوا في مطلع القرن العشرين ينتهجون سياسة جديدة ترتكز ليس على مقاومة الغزاة الأجانب بالسلاح فقط ولكن ترتكز أيضاً على الإتصال والقيام بضغوطات متوالية على حكومة باريس لإنصاف الجزائريين وتمكينهم من الحصول على مقاعد في البرلمان الفرنسي والسماح لهم بالمشاركة في الإنتخابات المحلية والإعتراف بالشخصية الوطنية.
ومنذ ١٨٩٢م بدأت حركة الشباب الجزائري تقوم بالإتصالات مع المسؤولين الفرنسيين وتنقل إليهم هموم المواطن الجزائري وإشغالاته وتقترح عليهم ما ينبغي عمله لانصافه.

وفي واقع الأمر كان يمكن أن يقال بأن قادة حركة الشبان الجزائريين كانوا يقومون بنشاط هائل في الميدان الثقافي وفي المدن الكبرى بالذات لأنهم كانوا يجيدون اللغة الفرنسية

ويختلطون بالمفكرين الفرنسيين ويدافعون عن مبادئ تتمثل في التقدم والرقي وحصول الجزائريين على حقوقهم السياسية والاقتصادية.

وفي عام ١٩٠٤م انشأوا جريدة المشعل وحاولوا من خلالها نشر أفكارهم وإظهار التعلق بالشخصية الجزائرية وذلك مثل حرصهم على التمسك بالقيم الإسلامية والتقاليد الجزائرية ولكن مواقفهم السياسية ومعارضتهم العلنية للسياسة الفرنسية ظهرت بوضوح في عام ١٩٠٨م حين صدر مرسوم بتاريخ ١٧ جويلية ١٩٠٨م ينص على إحصاء الشبان الجزائريين الذين بلغوا سن الثامنة عشر وذلك بقصد تجنيدهم في الجيش الفرنسي وقد أثار هذا القرار غيظ وتذمر الجزائريين المسلمين الذين دأبت السلطات الفرنسية على إحتقارهم وتجريدهم من حقوقهم السياسية بدعوى أنهم مسلمون ولا يتخلون عن دينهم وثقافتهم وعاداتهم وتقاليدهم ثم تأتي نفس السلطات وتفرض عليهم في نفس الوقت أن ينخرطوا في جيش هذه الدولة التي تضطهدهم في بلدهم ويدافعوا عن علمها.

وفي شهر أكتوبر من عام ١٩٠٨م قدمت حركة الشبان الجزائريين إحتجاجاً على الحكومة الفرنسية على قرارها المتعلق بتجنيد الشباب الجزائري ودعت إلى إلغائه وعدم قبوله إلا إذا حصل الجزائريون على حقوق أساسية تتمثل في تعديل قانون الإنديجينا وإلغاء بعض بنوده وتخفيض العقوبات الواردة فيه ورفع نسبة التمثيل في الانتخابات المحلية والمساواة بين المسلمين والأوروبيين.

ورفض الشعب الجزائري التجنيد الإجباري وهاجر بعضهم إلى خارج البلاد وأفتى العلماء بعدم جواز الدخول في جيش المحتل والدفاع عن علمهم لأن ذلك يعني تسخير الإسلام لخدمة الدولة المسيحية.

وبعثت حركة الشبان الجزائريين بوفد إلى باريس يوم ١٨ جوان ١٩١٢م وذلك لمقابلة رئيس الحكومة الفرنسية على اتخاذ إجراءات سياسية لصالح السكان المسلمين وطالب وفد الشبان الجزائريين بمنح الجزائريين حقوقاً أساسية مثل:

. إلغاء قانون الإنديجينا.

. المساواة في دفع الضرائب.

. المساواة في التمثيل السياسي بالمجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

وحاولت حركة الشبان الجزائريين الإنفتاح على عامة الشعب وطبقاتهم الفقيرة من الفلاحين وغير المتعلمين فحرصت القيادية في حركة الشبان الجزائريين على مطالبة فرنسا بتعليم اللغة العربية في المدارس بالإضافة إلى الفرنسية، وإحترام الأعياد والشعائر الإسلامية، كما أعلنوا عن تأييدهم للعثمانيين "بصفتهم مسلمين" في حربهم ضد إيطاليا التي احتلت ليبيا وضد الأوروبيين الذين تآمروا على تركيا في البلقان وهزموها وقد نتج عن تأييدهم لتركيا الإسلامية ودفاعهم عن القيم الإسلامية في الجزائر تأييد شعبي لهذا الموقف سواء في داخل الجزائر أو خارجها حيث هب المسلمون في انحاء العالم الإسلامي للدفاع عن الإسلام والمسلمين وطالبوا بأن يتصدى المسلمون للغربيين الذين يتعاونون فيما بينهم للقضاء على الإسلام من خلال قضائهم على تركيا.

واستغل أعضاء حركة الشبان الجزائريين التأييد الشعبي لتدعيم مكانتهم في داخل الجزائر وخارجها، فقاموا بحملة قوية في جريدة "الحق" ضد الإدارة الفرنسية في الجزائر وطالبوا في مقالاتهم بإنشاء بنك إسلامي وإعطاء قروض للفلاحين والتجار، وإعطاء ضمانات للفلاحين بأن لا يغادروا أراضيهم وإنشاء مراكز لتدريب وتكوين الجزائريين في المهن الصناعية والاهتمام بالتعليم الذي ينبغي توفيره لأبناء المسلمين.

ولم يتوقفوا عن المطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا وإعطاء حق التصويت في الإنتخابات لجميع الجزائريين ومنح المسلمين مقاعد في البرلمان الفرنسي لتمثيلهم والدفاع عن مصالحهم فيه[1].

وبالرغم من تعاطف الناس مع حركة الشبان الجزائريين، فإنها لم تعمل على تحريك الشارع الجزائري ولم تكن حركة جماهيرية قادرة على محاربة قوات الاحتلال وإنما كانت عبارة عن حركة تقوم بحملة سياسية تستهدف الضغط على الإدارة الفرنسية لكي تقبل بمبدأ السماح للجزائريين أن يأخذوا مناصب سياسية عليا ويشاركوا في تسيير البلاد، كما يبدوا أن خطتهم كانت ترمي إلى خلق تأييد لهم على مستوى النخبة وكسب إحترام المثقفين الفرنسيين.

وفي عام ١٩١٣م تمكن قادة حركة الشبان الجزائريين من التفاهم والتحالف مع شخصية جزائرية مرموقة على الساحة السياسية الفرنسية والمتمثلة في شخصية الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الذي كان بذوره يلقي محاضرات في باريس ويطالب بإدخال إصلاحات سياسية على نظام الحكم في الجزائر.

وسار الأمير خالد على نفس المنهج الذي كانت تتبعه حركة الشبان الجزائريين، فطالب بالتعليم للمسلمين وتمثيلهم في المجالس المحلية وفي البرلمان الفرنسي وإلغاء القوانين الاستثنائية التي كانت تطبق على المسلمين فقط، وطالب كذلك بحماية العمال الجزائريين في فرنسا، إلا أن إنضمام الأمير خالد إلى حركة الشبان قد أثار ضحية كبيرة في أوسط رجال الإدارة الفرنسية بالجزائر حيث كانوا يعتبرونه العدو رقم واحد بالنسبة إليهم لأن الشعارات السياسية التي كان يستعملها الأمير خالد تعتبر بالنسبة إليهم بمثابة تحريض للسكان الجزائريين على الثورة ضد الأوروبيين في الجزائر وتم محاربة جهود حركة الشبان الجزائريين من قبل المستوطنين وقال رئيس بلدية الجزائر ينبغي منع الجزائريين من الحصول

---

[1] التاريخ السياسي، ص: ٢٠٦.

على أي تمثيل سياسي لأن قبولهم في أية هيئة إنتخابية يعني خلق وتدعيم حركة وطنية من الشبان ضد الاحتلال الفرنسي[1].

٧ـ الهجرة إلى الخارج بسبب الإضطهاد:

ضيق الفرنسيون في الجزائر على المواطنين المسلمين الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الإختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة مغلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

وتوالت على الجزائريين المحن والمصائب بالمجاعة والضرائب وسلب الحقوق ودوس المقدسات وواجهوا ضغوطاً جهنمية من طرف الحكام الفرنسيين المحليين ونوابهم الذين يخضعون لسلطانهم مباشرة حيث كانوا يتفننون في تعذيب المسلمين عن طريق قانون الإندنجينا أو قانون الأهالي، مثلما يسميه بعض الكتاب على المسلمين وازداد نفوذ الحكام المحليون بعد سنة ١٩٠٢م حيث صاروا هم وكلاء المحاكم القمعية، ولا يحكم فيهم نواب الوالي وبالتالي لا يوجد من يراقبهم أو يتحكم فيهم، فقد كانت عندهم الصلاحيات المطلقة لإذلال الجزائريين وخاصة بعد أن أصبحوا هم القضاة وضباط ينفذون القرارات ورجال أمن يفرضون الضرائب، لقد اضطهدوا السكان المسلمين وطبقوا الإجراءات التعسفية على السكان حتى يخضعوا ويرضخوا لإدارة الاحتلال وابتز الحكام المحليون عامة الشعب وجمعوا أموالاً طائلة من الغرامات على الجزائريين وأصبحوا أثرياء على حساب الضعفاء المقهورين[2].

ونتيجة لهذا الظلم وهذه التجاوزات الخطيرة، تأزم الوضع في سنة ١٩١٢م وخاصة بعد أن قررت فرنسا في مرسوم صدر يوم ٣١ جانفي ١٩١٢م وفي مرسوم ثاني صدر يوم ٣ فيفري أن تجند الشبان الجزائريين الذين تتراوح أعمارهم بين ١٩، ٢٠ سنة وذلك للدفاع

---

[1] المصدر نفسه، ص: ٢٠٧.

[2] المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

عن فرنسا بدون أن تمنحهم هذه الأخيرة الحقوق السياسية التي تصحب عادة أداء الواجب العسكري فصدرت إحتجاجات من حركة الشبان الجزائريين الذين اندهشوا من إقدام فرنسا على فرض الخدمة العسكرية بدون إعطاء الحقوق السياسية، كما إجتاحت الجزائر كلها موجة من الاستياء والغضب إلى درجة أن الآف الناس بدأوا يحاولن الهروب إلى خارج الجزائر ويهاجرون إلى أي بلد إسلامي يوفر لهم الحماية من ظلم الفرنسيين المتسلطين عليهم وحسب بعض المؤرخين الفرنسيين فإن أسباب الهجرة إلى الخارج والهروب من جحيم الإستعمار في الجزائر ترجع إلى ما يلي:

. فرض الخدمة العسكرية على الشبان الجزائريين بدون الحصول على حقوق سياسية.

. إستيلاء فرنسا بصفة نهائية على الأموال والأراضي التابعة للحبس.

. خلق عقبات في وجه الجمعيات الثقافية التي أنشئت للمحافظة على الثقافة الإسلامية العربية بالجزائر خاصة وأنه لم يعد للمدارس الحرة مصدر مالي لتسييرها.

. احلال قضاة السلام الفرنسيين محل القضاة المسلمين الذين يتبعون الشريعة الإسلامية.

. إحياء أبناء البلد الأصليين على تسجيل أ راضيهم وإلقاء القبض على الأفراد الذين أحتجوا على هذا الإجراء.

. مضايقة الأشخاص الذين يطلبون التصريح لهم من طرف المسؤولين الفرنسيين بالتنقل من مكان إلى آخر.

. إقامة محاكم استثنائية لفرض عقوبات صارمة.

. تصاعد نسبة الضرائب.

. بروز أزمات اقتصادية وتدهور حالة الأسواق.

. إنخفاض مستوى الصناعات اليدوية بسبب مزاحمة الأوروبيين.

. تعيين اليهود في أماكن حساسة ليقوموا بدور الشرطي السري.

. القضاء على نشاط المنظمات الثقافية التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري.

وعند استفساره من طرف النواب الفرنسيين في الجمعية الوطنية الفرنسية عن أسباب هجرة أبناء البلد الأصليين إلى الخارج أجاب الحاكم العام للجزائر ليتو، أن هذه الهجرة الجماعية جاءت نتيجة لتحريضات من الخارج والتعصب الإسلامي والأزمة الاقتصادية التي تواجهها الجزائر.

وجاءت شهادة الحاكم العام بمثابة أدلة قاطعة على تحيزه إلى جانب الجالية الأوروبية بالجزائر وعدم استعداده لكي يقوم بدور الوسيط بين السكان المسلمين والسكان الفرنسيين مثلما كان ينادي ويصرح وزير المستعمرات الفرنسية آنذاك السيد أدولف ميسيمي وخاصة في سنة ١٩١٥م ومن هنا بدأ رواد الحركة الوطنية الجزائرية يبحثون عن مخرج آخر للأزمة الجزائرية وتنظيم أنفسهم لإبلاغ مطالبهم إلى المسؤولين في باريس لأن مطاردة المستوطنين الفرنسيين للجزائريين في بلادهم وغلق الباب في وجوههم لتوضيح قضيتهم إلى قادة الشعب الفرنسي سيقود في النهاية إلى فرض الأمر الواقع وتقوية النفوذ الاستعماري في البلاد، وبالفعل فقد أخذ قادة حركة الشبان الجزائريين زمام المبادرة يوم ٢٠ جوال ١٩١٢م وتقابلوا مع رئيس الحكومة الفرنسية حيث عرضوا عليه مشروعاً يقضي بقبولهم مبدأ الخدمة العسكرية وفي مقابل ذلك تعترف فرنسا بحقوق الجزائريين وتمثيلهم في البرلمان الفرنسي وكان هذا الاتصال المباشر بين الشبان الجزائريين ورئيس وزراء فرنسا بمثابة تحدي للجالية الأوروبية التي جندت جميع النواب جميع النواب الفرنسيين المناصرين لها لإحباط هذه المساعي الجزائرية وفي اللحظات الحرجة لمناقشة الإصلاحات السياسية بالجزائر عام ١٩١٤م أثبت الأوروبيين سيطرتهم التامة على أعضاء البرلمان الفرنسي حيث حضر ٨ نواب فقط وقاطع جلسة مناقشة الإصلاحات في الجزائر الباقي من جملة ٥٩٧ نائب في البرلمان الفرنسي آنذاك وبهذا الانتصار أثبت قادة الجالية الفرنسية في الجزائر أنهم في مأمن من إمكانية حصول أية مساومة بين الجزائريين وفرنسا

مادامت أصواتهم في البرلمان الفرنسي ضرورية لكل حكومة وأجهزة أعلامهم نشيطة وفي مقدورها حجب الحقيقة عن الرأي العام الفرنسي[١].

ولقد تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العاليمة الأولى بعد أن جندت ٨٢,٧٥١ جزائري في إطار الخدمة العسكرية وإنخراط ٨٧,٥١٩ جزائري آخر من الجيش بصفة دائمة، كما جلبت ٧٨,٠٠٠ عامل جزائري إلى العمل في المصانع الفرنسية وذلك لتعويض العمال الفرنسيين الذين إلتحقوا بالجيش وحسب الإحصائيات الرسمية الفرنسية فقد خسرت الجزائر في هذه الحرب ما لا يقل عن ٢٥,٧١١ قتيل "من المسلمين" و ٧٢,٠٣٥ جريح أي ١٤,٥% من القوات الجزائرية التي جندت للدفاع عن فرنسا وهذه النسبة قريبة جداً من نسبة الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية والتي هي ١٦,٥%[٢].

ومع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والمنظمات الشبابية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحي بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم المخيم على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي شعبي، ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد اسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال توجت بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي:

كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

---

[١] المصدر نفسه، ص: ٢١٢.

[٢] المصدر نفسه، ص: ٢١٥.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخلاصة

١. بعد سقوط دولة الموحدين في عام ٦٦٨هـ /١٢٦٩م مرت بلاد الأندلس بمرحلة طويلة امتدت قرنين ثم بعد ذلك سقط آخر معاقلها في يد النصارى الإسبان في عام ٨٩٦هـ ويظهر جهاد بني الأحمر وزعامتهم القوية لغرناطة بعد سقوط الموحدين.

٢. وهذه المرحلة من تاريخ الأندلس الإسلامي غنية بالعبر والعظات لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وتظهر سنن الله في سقوط الدول واضحة المعالم وكذلك الآثار المترتبة عن الابتعاد عن منهج الله.

٣. تعددت أسباب سقوط الموحدين منها ثورة بني غانية وهم من بقايا المرابطين وثورات الأعراب المتتالية من قبائل بني سليم وبني هلال واندلاع ثورات الأندلس، والنزاع والخلاف بين الموحدين، والإنهيار العسكري الذي حدث بعد معركة العقاب التي انهزم فيها الموحدون، والترف الانغماس في الشهوات وضعف السلطة المركزية التي بسببها تقلصت أراضي الدولة في أفريقيا والمغرب والأندلس وفتور مبادئ ابن تومرت في نفوس الموحدين.

٤. هدفت محاكم التفتيش إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية وبأشد وسائل العنف ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين تحول دون النزعة التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع.

٥. هاجرت جموع المسلمين إلى المغرب ناجية بدينها ومن بقي من المسلمين أخفى إسلامه وأظهر تنصره، فبدأت محاكم التفتيش نشاطها الوحشي المروع في تعذيب المسلمين.

٦. كان أعضاء محاكم التفتيش يتمتعون بحصانة خارقة وسلطان مطلق تنحني أمامه آية سلطة وتحمي أشخاصهم وتنفض أوامرهم بكل وسيلة وكان من جراء هذه السلطة المطلقة أن ذاع في هذه المحاكم العسف وسوء استعمال السلطة والقبض على الأبرياء.

٧. من أهم أسباب سقوط غرناطة، تفتيت كيان الشمال الأفريقي، سعي ممالك إسبانيا نحو الاتحاد، الإنغماس في الشهوات الاختلاف والتفرق بين المسلمين، موالاة النصارى والثقة بهم، التخاذل عن نصرة من يحتاج النصرة، غذر النصارى ونقضهم للعهود، إلغاء الخلافة الأموية بالأندلس وبداية عهد الطوائف عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء، سوء سياسة الولاة وإرهاق الناس بالجبايات، الثورات الداخلية في الأندلس.

٨. حكم بنو مرين المغرب الأقصى بعد الموحدين ثم حكم الوطاسيون ثم جاء من بعدهم السعديون، وأما الجزائر فقد حكم بنو عبد الواد ثم العثمانيون ثم الاحتلال الفرنسي، أما تونس وليبيا فقد استولى عليها الحفصيون ثم العثمانيون.

٩. احتلت إسبانيا أماكن متعددة من سواحل الشمال الأفريقي مثل المرسا الكبير ووهران وبجاية ومستغانم.

١٠. هناك عدة أسباب أدت إلى شن تلك الحملات العنيفة والبغيضة لاحتلال سواحل الجزائر منها الدينية والأمنية والاقتصادية والسياسية وترتب على هذا الاحتلال نتائج اقتصادية وسياسية وأمنية.

١١. كان من آثار التهجير الجماعي للمسلمين من الأندلس نزوح أعداد كبيرة منهم إلى الشمال الأفريقي حدوث العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية في ولايات الشمال الأفريقي وكان من بين النازحين أعداد وفيرة من البحارة واستطاعوا تشكيل قوة لمحاربة الإسبان والبرتغال في البحر المتوسط.

١٢. ظلت حركات الجهاد الإسلامي ضد الإسبان والبرتغاليين غير منظمة حتى ظهور الأخوان خير الدين وعروج بربروسة واستطاعا تجميع القوات الإسلامية في الجزائر

وتوجيهها نحو الهدف المشترك لصد الأعداء عن التوسع في موانئ ومدن الشمال الأفريقي.

١٣. اعتمدت هذه القوى الإسلامية الجديدة في جهادها أسلوب الكر والفر في البحر بسبب عدم قدرتها على الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من الإسبان والبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا وقد حقق المجاهدون نجاحاً أثار قلق القوى المعادية ثم رأوا بنظرهم الثاقب أن يدخلوا تحت سيادة الدولة العثمانية لتوحيد جهود المسلمين فسد البرتغال والأسبان وحلفاؤهم.

١٤. وقد حاول المؤرخون الأوروبيون التشكيك في طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ووصفوا دورها بالقرصنة وكذلك شككوا في أصل قادتها وهما خير الدين وأخوه عروج وكانت حملة إعلامية ضدهما معتمدة على الكذب والبهتان.

١٥. يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين وكان والدهما يعقوب بن يوسف من المسلمين الأتراك الذين استقروا في جزر الأرخبيل وأمهم سيدة مسلمة أندلسية كان لها الأثر على أولادها من تحويل نشاطهم شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقت من بطش الإسبان والبرتغاليين.

١٦. دخل خير الدين بربروسة بعد تحصين مدينة الجزائر تحت ولاء الدولة العثمانية وطالب أعيانها وشيوخها مساعدته على ذلك، لأن السلطان العثماني هو الوحيد القادر على مساعدتهم بالمال والرجال وجميع ما يحتاجونه من عتاد، ولا يكون ذلك إلا بالدعاء له في الخطبة وضرب السكة بإسمه وأشار عليهم أن يكتبوا للسلطان بذلك، فاستحسن أعيان الجزائر ذلك وكتبوا رسالة بإسمهم إلى السلطان وقبل ذلك.

١٧. بدأت الدولة العثمانية في دعم ولاية الجزائر بالسلاح والعتاد والرجال وتم تعيين خير الدين من قبل السلطان برتبة بيلرباي على الجزائر.

١٨. في الحقيقة كان إعلان خير الدين ومعه أهالي الجزائر تبعيتهم الطوعية للدولة العثمانية مبعث سرور كبير للسلطان سليم الذي كان يطمح أن يمد نفوذ الدولة العثمانية إلى المحيط الأطلسي.

١٩. دخلت الجزائر رسمياً تحت الدولة العثمانية اعتباراً من عام ١٥١٩م ودعى للسلطان سليم على المنابر في المساجد وضربت العملة بإسمه وأصبح أقليم الجزائر أول الأقاليم من الشمال الأفريقي يدخل تحت حكم الخلافة العثمانية.

٢٠. توالت انتصارات الدولة العثمانية في شمال أفريقيا بعد ١٥٤١م فقد تم القضاء على دولة بني زيان سنة ١٥٥٥م وضمت تلمسان إلى الدولة العثمانية بشكل نهائي وأجبر الإسبان على الإنسحاب من طرابلس الغرب سنة ١٥٥٢م وميناء تونس سنة ١٥٥٣م وأخرجوا من تونس نهائياً سنة ١٥٦٩م فزادت هيبة العثمانيين في نفوس الأوروبيين وباتوا يعتقدون أن الجزائر مدينة لا تقهر.

٢١. وبقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها وحللها من رخاء الأسعار وأمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه، وشاعت هذه القضية في مشارق الأرض ومغاربها وبقي رعب المسلمين في أعداء الدين مدة من الزمن.

٢٢. تميزت الفترة التي حكم فيها خير الدين الجزائر بتحرير كافة المناطق التي كانت خاضعة للاحتلال الإسباني فلم تبق في أيديهم سوى بجاية ووهران، حيث تم في عهد خير الدين تحرير تنس وشرشال وجيجيل والجزائر ودلس ومستغانم وهنين وقلعة سيدي راشد.. وغيرها، كما تصدى للحملات الإسبانية الرامية إلى إعادة احتلال مدينة الجزائر وشرشال، وغيرها من المدن التي طردوا منها حتى يئسوا من العودة إلى الجزائر.

٢٣. بروز الدور الفعال للأسطول العثماني الذي تولى خير الدين قيادته، حيث تمكن من نقل المعركة مع أوروبا من البر إلى البحر، ونشر الرعب في سائر الدول المطلة على ساحل البحر المتوسط اعتباراً من معركة بروزة سنة ١٥٣٨م وأما في غرب البحر المتوسط فقد

كان البحارة العثمانيون يضربون السواحل الإيطالية والإسبانية بشكل مستمر، ويعترضون السفن الأوروبية في عرض البحر، حتى صار الإمبراطور شارلكان نفسه يجد صعوبة كبيرة في سفره إلى إيطاليا عبر البحر بسبب خطر البحارة العثمانيين الذين كانوا ينطلقون من الجزائر.

٢٤. صنع خير الدين من الجزائر دولة متميزة عن جارتيها وأقامها على نفس الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها الدولة الجزائرية اليوم تقريباً ولذلك فإن اعتبار خير الدين المؤسس الحقيقي للدولة الجزائرية الحديثة، لا يمكن وصفه بالأمر المجانب للصواب، لأن وقائع تاريخ الجزائر الحديث شاهدة على ذلك.

٢٥. يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة، فإليه يعود الفضل أيضاً في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية، إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في إمبراطورية شارلكان وحلفائه.

٢٦. يعود الفضل إلى خير الدين في صنع الكيان السياسي للجزائر كدولة فإليه يعود الفضل أيضاً في الدور السياسي والعسكري المتميز الذي لعبته الجزائر منذ إلحاقها بالدولة العثمانية، إذ تحولت إلى جبهة متقدمة في الصراع مع أوروبا المسيحية ممثلة في امبراطورية شارلكان وحلفائه.

٢٧. نظم خير الدين ٣٦ حملة بحرية نقل خلالها ٧٠,٠٠٠ أندلسي إلى الجزائر وبذلك ساهم في إنقاذ عشرات الآلآف من مسلمي الأندلس ونقلهم إلى الجزائر ومنحهم من إقطاعات كبيرة مكنتهم من أن يجعلوا من بعضها مدنا شكلوا أغلبية سكانها مثل البليدة وتنس وشرشال، بينما شكلوا في مدن أخرى جالية فعالة مثل: الجزائر وبجاية والمدية وغيرها.

٢٨. عندما تولى صالح رايس مقاليد ولاية الجزائر بأمر من السلطان العثماني، عمل في سياسته الداخلية على أمرين:

. تحقيق الوحدة بصفة تامة مطلقة بين كل أجزاء الجزائر.

. إدخال بقية أجزاء الصحراء الجزائرية ضمن هذه الوحدة حتى يتفرغ للأندلس.

أما سياسته الحربية الخارجية، فقد كانت ترمي إلى ثلاثة أهداف:

. إبعاد الإسبان نهائياً عن أراضي الجزائر.

. وضع حد فاصل للمشاغبات والمفاجآت التي تقوم بها الدولة السعدية.

. إعلان نفير الجهاد العام والسير براً وبحراً على رأس الجيوش الإسلامية إلى بلاد الأندلس.

٢٩. بعد عودة فاس للسعديين ظهر محمد الشيخ كخصم عنيد للعثمانيين ومن المعارضين لسياستهم التوسعية في شمال أفريقيا والأكثر من ذلك أنه أعلن إثر دخوله فاس بأنه عازم على الذهاب إلى الجزائر لمنازلة العثمانيين هناك، كان هذا التنافس السعدي العثماني على شمال أفريقيا لصالح الإسبان والبرتغال ولا عجب إذ رأينا بعد ذلك تقارباً بين هؤلاء جميعاً ضد العثمانيين.

٣٠. لقد حالت عدة أسباب دون ضم المغرب الأقصى للدولة العثمانية منها:

. ظهور شخصية قوية حاكمة في المغرب ونعني به المنصور السعدي.

. وفاة قلج في ١٥٨٧م ومن بعده أدخل الشمال الأفريقي في نظام الولايات.

. كان النصر الذي أحرزه المغاربة على البرتغاليين في معركة وادي المخازن سبباً في تقدير السلطات العثمانية للسعديين واحترامهم.

٣١. بوفاة قلج علي انتهى في الجزائر نظام البيلربك الذي جعل من حكام الجزائر ملوكاً واسعي السلطة والنفوذ، واستعيض عنه بنظام الباشوية مثلها في ذلك تونس وطرابلس، ويفسر هذا التغيير في شكل الحكم العثماني بخوف السلطان العثماني في أن يتجه البيلربك بسبب قوتهم وضعف البحرية العثمانية نحو الاستقلال.

٣٢.كانت الدولة العثمانية في جهودنا البحرية في البحر المتوسط أكثر توفيقاً من البحر الأحمر والمحيطات لعدة أسباب منها:

. قرب الشمال الأفريقي من كل من إسطنبول ومصر يجعل الإمدادات متلاحقة ويجعل صورة الأحداث واضحة، والتطورات العسكرية مفهومة، بعكس الحال في المحيطات حيث كانت تطورات الأمور لا تصل إلا بعد وقت طويل وبشكل غير واضح.

. كانت للعثمانيين قواعد قوية في شمال أفريقيا تستند إلى خلفية إسلامية واسعة وخبرة عملية في محاربة النصارى وكانوا على استعداد للتعاون مع العثمانيين والدخول تحت نفوذهم.

. لم تكن هناك مقاومة مذهبية عنيفة في شمال أفريقيا بل كانت الهيمنة للمذهب السني الذي استطاع أن يقف أمام المذاهب المنحرفة ويجتثها من جذورها.

٣٣. اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٤هـ ـ ١٥٦٦م وكانت مقدمات ضعف الدولة العثمانية قد اتضحت في عهد السلطان سليمان.

٣٤. كانت معركة ليبانتو فرصة مواتية لإظهار طمع فرنسا نحو المغرب الإسلامي، إذ بمجرد انتشار خبر هزيمة الأسطول العثماني في تلك المعركة قدّم ملك فرنسا شارل التاسع مشروعاً إلى السلطان العثماني ٩٨٠هـ / ١٥٧٢م وذلك بواسطة سفيره بإسطنبول، يتضمن طلب الترخيص لحكومته في بسط نفوذها على الجزائر، بدعوة الدفاع عن حمى الإسلام والمسلمين بها، وأن فرنسا مستعدة في مقابل ذلك دفع مغرم للباب العالي، فأعرض السلطان عن السفير الفرنسي ولم يهتم به ومع ذلك أوغلت فرنسا طموحها وألحت على طلبها، وسلكت للتوصل إلى هدفها مسالك دبلوماسية عديدة حتى تحصلت على امتيازات خاصة في السقالة وأماكن أخرى على الساحل الجزائري وتصريح من السلطان بإقامة مراكز تجارية.

٣٥. تدخل محمد علي ملك مصر وعرض مشروعه لاحتلال المغرب العربي، ليبيا وتونس والجزائر وضمها لمصر وإسقاط الداي عدو فرنسا، مقابل دعم فرنسا له على أن يضمن لها الحصول على امتيازات اقتصادية وعسكرية بالجزائر وقد عبر عن استعداده للتوجه إلى المغرب العربي على رأس جيش قوامه ٦٢ ألف جندي ولكن بريطانيا عارضت تدخله وتوسعه غرباً وهددت فرنسا رسمياً بأنها قررت استعمال القوة ضد مشروع محمد علي.

٣٦. كانت فرنسا مدفوعة في غزوها للجزائر بأسباب عدة ولكنها ادعت أمام الرأي العام أن هدفها القيام بحملة تأديبية ضد الجزائر وفي الحقيقة إن فرنسا كانت تخطط لاحتلال الجزائر والاستيلاء عليها منذ ١٧٩٢م، أي سنة إبعاد اسبانيا وتصفية قاعدتها العسكرية في المرسى الكبير بوهران، وأما أهم الأسباب في الاحتلال فهي: سياسية، وعسكرية، واقتصادية، ودينية.

٣٧. تأكد نزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج يوم ١٤ جوان ١٨٣٠م وعندما أحس الداي حسين أن المدينة صارت في حكم الساقطة، قرر الاتصال بالفرنسيين وأرسل أمناء سره لمفاوضتهم.

٣٨. وقع الداي حسين حاكم الجزائر في اخطاء من أبرزها: إعدامه لقائد جيشه، ثقته في وزير المالية وكانت في غير محلها، عدم وجود انضباط من بعض رجال الأمن، عدم وجود خطة مدروسة لمواجهة الفرنسيين.. الخ

٣٩. تأكدت جشاعة الفرنسيين وتهافتهم على الثروة وخيرات الجزائر يوم هرع رجال الجيش الفرنسي إلى دخائر قصر الداي والاستيلاء عليها ثم تهريبها إلى فرنسا واختلس ضباط الحملة الفرنسية لأنفسهم ما قيمة ٥٠ مليون فرنك فرنسي وأكتفوا بتسليم ما يعادل ذلك للحكومة الفرنسية.

٤٠. قرر قادة الجيش الفرنسي إنتهاج سياسة احتلال الجزائر وتجريد الجزائريين من أراضيهم والسيطرة على ثروات البلاد وممتلكات المواطنين وأموالهم وتسخير الجزائريين كخدم وعبيد للمحتلين، وكانت الفوضى غامرة والدمار شامل وممارسة العنف على أشده.

٤١. صادر المحتلون الفرنسيون الأوقاف العامة بمدينة الجزائر وعدد غير قليل من المدن الأخرى التي تم السيطرة عليها، لقد نظر الفرنسيون إلى الأملاك الدينية بمنظار فرنسي استعماري همجي بربري حرصوا على كسب ثروات طائلة في أسرع وقت ممكن ولو على حساب الإنسانية، وتم تحويل بعض المساجد إلى كنائس وقد رسمت السلطات الفرنسية خطة ممنهجة للقضاء على الديانة الإسلامية.

٤٢. كان الكثير من الدول لا ينظر لاحتلال فرنسا لمدينة الجزائر على أنه مؤقت، فعندما أعلنت فرنسا سنة ١٩٣٢م أنها ستستمر في احتلال الجزائر طلبت منها بريطانيا تفسيرات رسمية عن ذلك فبينت فرنسا بأنها غير ملزمة بأي تعهد دولي إزاء الجزائر وأنها تفعل ما تريد.

٤٣. إنطلقت المقاومة الجزائرية واتبعت فرنسا وكان من أشهر الثورات، ثورة سيدي السعدي وابن أبي مرزاق وابن زعموم.

٤٤. وأما الخسائر التي تكبدتها الخزينة الفرنسية من جراء مقاومة الشعب الجزائري للاحتلال، ارتفعت أصوات فرنسية ضد الاستعمار وهاجم عدد من النواب في جلسة مناقشة الميزانية والمصروفات الاستثنائية للاحتلال وطالبوا من الحكومة الإسراع في تحرير فرنسا من عبء الجزائر.

٤٥. استمرت المقاومة وبقي الاحتلال محصوراً في مدن الجزائر ووهران وعنابة وحاول الفرنسيون تعيين شيوخ قبائل على الأقاليم الداخلية يحكمون حكماً محلياً مع تسليمهم بالسيادة الفرنسية، فلم يجدوا من يتعاون معهم وبقيت المقاومة مشتتة محلية إلى أن ظهر الأمير عبد القادر، فحول هذه المقاومة من محلية إلى وطنية.

٤٦. بدأ هذه الملحمة العظيمة والد الأمير عبد القادر الشريف الهاشمي محي الدين، وكان يتمتع بمكانة ووقار وهيبة مميزة وكلمة مسموعة بين القبائل، حتى إن الولاة العثمانيين كانوا يحسبون له حساباً، ويحترمون نفوذه بين القبائل ويخشونه.

٤٧. تولى الإمارة وقيادة الجهاد بعد المبايعة الأمير عبد القادر بن محيي الدين الحسني الهاشمي صباح الإثنين يوم الثالث من شهر رجب ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م.

٤٨. جاء الأمير عبد القادر بتجربة جديدة على العصر الذي عاش فيه وليست جديدة في التاريخ عندما رشحه والده للولاية عام ١٨٣٢م، كان أمامه نماذج من حكام المسلمين، سلطان المغرب، وسلطان آل عثمان، وشاه إيران، وملك أفغانستان، ثم ولاة من أمثال باي تونس وباشا مصر، وإمام اليمن وكان يمكنه أن يقلد هؤلاء أو حتى يقلد الداي حسين المخلوع، ولكن الأمير رفض أن يكون نموذجه أحد هؤلاء جميعاً وإنما اختار نموذجاً جديداً يؤصل به الخلافة الراشدية ويرجع به إلى حكم الإسلام في عهده الذهبي.

٤٩. ما إن تمت للأمير البيعة حتى قصد منزله وقال لأم أولاده: إن أردت أن تبقي معي من دون التفات إلى طلب حق، فلك ذلك، وإن أبيت إلا أن تطلبي حقك فأمرك بيدك لأنني قد تحملت ما يشغلني عنك وبطبيعة الحال عبرت له زوجته عن استمرارها في العيش معه وأن تتقاسم معه أعباء المسؤولية.

٥٠. بعد هذه البيعة الشعبية حمل الأمير عبد القادر مسؤولية الحكم وامتد سلطانه إثر معارك دامية حتى شمل ثلاثة أرباع القطر الجزائري، وبعد أن استقام له الأمر شرع في تنظيم أمور الدولة النواة وتشكيل الكوادر الحكومية فعين الأكفاء من الرجال واعتمد الفقه الإسلامي أي التشريعات المنبثقة من القرآن الكريم والسنة نظاماً لحكمه وبناء الدولة والجهاد لتحرير الوطن من الغزاة المحتلين.

٥١. بعد معارك طاحنة خاضها الأمير ضد الجيوش النظامية الفرنسية أدرك ضرورة خلق جيش نظامي قوي يدعم به أهدافه الداخلية والخارجية، فاتجه إلى إنشاء جيش حديث واهتم بتدريبه الفنون العسكرية وزوده بالأسلحة المتقدمة.

٥٢. عمل الأمير على بناء مؤسسات الدولة، من حكومة مركزية وتقسيم البلاد إلى ثمان ولايات، ووضع معايير لتعيين موظفي الدولة ومناصبهم واهتم بالسلطة القضائية، وأقام مجلس شورى، وأنشأ نظاماً اقتصادياً ومالياً عاماً، ودعم حركة التجارة، ونشط الدبلوماسية، وأسس جهاز مخابرات واهتم بنشر الثقافة والحضارة الإسلامية، واستطاع الاستفادة من خام الحديد والنحاس وعمل على تشجيع الصناعة، وأنشأ المشافي.

٥٣. كان أول عمل قام به الأمير حملات إخضاع القبائل التي رفضت البيعة، فخرج مباشرة بعد البيعة وقام بحملة واسعة بين القبائل العربية والبربرية، فأخضع القبائل التي لم تعترف بالبيعة وفرض عليها أن تعترف بقرار الجماعة.

٥٤. وبعد عودته من أرزيو قرر تأديب القبائل تنشر الفوضى بين المواطنين وكانت تقوم بالسلب والنهب وكانت قبيلة فليتة تشتمل على بطون وعشائر وكان من عادتها السلب والنهب وقطع الطرق والتعرض للسابلة وبقي هذا شأنها منذ عهود موغلة في القدم، فكم روّعت من قبائل مجاورة لها وبسطت أموالها وعندما بويع الأمير طلب الشعب منه وضع حد لعدوان هذه القبيلة فاستجاب له وتوجه بالجيش وحط بالطحاء في منطقة تعرف باسم "بهيرة" ومنها أرسل إلى قبيلة فليتة وما جاورها من القبائل.

٥٥. توالت الضربات المتتالية الفرنسية في المدن الساحلية الكبرى من كل حدب وصوب، فاستنكر عدد من البرلمانيين الفرنسيين الاحتلال المنظم للجزائر بسبب الثمن المالي والبشري الباهظ الذي دفعه الشعب الفرنسي واضطر الفرنسيون للمعاهدة مع الأمير عبد القادر.

٥٦. نقضت فرنسا عهدها وأعلن الأمير الحرب من جديد، وتوالت المعارك وانهزم الفرنسيون في الكثير منها.

٥٧. استطاع ليون روش عميل المخابرات الفرنسية أن يخترق دولة عبد القادر وأن يصل إلى مكان مقرباً من الأمير ويصبح مترجمه الخاص ولعب دوراً خطيراً تحت قناع الإسلام ويعتبر حلقة من حلقات الاستعمار في اختراقها للجزائر.

٥٨. جعل ليوث روش من تفانيه في تعلم اللغة العربية والدخول في الإسلام مطية للجوسة التي كلف بها من قبل المخابرات الفرنسية وأوكلت إليه أمر مراقبة الأمير عبد القادر ورسمت له الخطط المناسبة.

٥٩. استغل الأمير توجه كلوزيل إلى قسنطينة فأصدر أمره إلى خليفته مصطفى التهامي والبوحميدي بالتوجه على رأس جيش إلى وهران وحاربة القبيلتين اللتين تحالفتا مع الفرنسيين وهما قبيلة الغرابة وقبيلة بني عامر والعشائر المتحالفة معهما، فاكتسح الجيش جنودهما واستولى على مواشيهما وألحق بها هزيمة قاسية وأمر الأمير خليفته محمد بن علال أن يتوجه إلى الجزائر، فانطلق بجيشه إلى متيجة ونواحي الجزائر يدمر مزارع الكولون ويستولي على مواشيهم ويأسر بعضهم ووصلت قواته إلى أبواب العاصمة التي هرب الفرنسيون وراء أسوارها وأغلقوا أبوابها وعاد إلى حاضرة ولايته.

٦٠. تفاوض الأمير عبد القادر مع الجنرال بوحو وأرسل مبعوثاً من طرفه هو السيد حمادة السقال رئيس حضرة تلمسان وبعد أخذ ورد حررت معاهدة تافنة يوم ٢٠/ ٥/ ١٨٣٧م.

٦١. قام الأمير عبد القادر بمحاربة من شقوا عصا الطاعة مثل محمد عبد الله البغدادي، وتصدى للتمرد الذي قاده محمد التيجاني.

٦٢. كان الأمير يعمل على إحاطة دولته بسائر أنواع الضبط التشريعي والإداري، وكان يضطر إلى إنزال العقاب بالقبائل العاصية المتعاونة مع العدو، وأراد أن يحيط علماء

المغرب ببعض المشاكل التي تواجهه وطلب منهم الإجابة في نوازل متعددة منها التعامل مع حركات التمرد.

٦٣. اهتم الأمير ببناء مصانع عديدة أنشئت في المدن التي كانت تحت سيطرة الأمير وأن مطاحن البارود وإذابة الحديد أخذه بالعمل وهي تنتج قناطير من البارود يومياً.

٦٤. أصاب بيجو غضب شديد عندما علم بانتصار الأمير على التيجني وهزيمة بني عراش أيضاً وإخضاعه لمعظم القبائل وتوسعه في بناء الحصون والمصانع وتطوير الجيش النظامي وأنه في طريقه لإنشاء إبراطورية جزائرية يصعب التفاهم معها، فكيف بالسيطرة عليها وأصبح خطره أكبر على مدينة الجزائر.

٦٥. خرق الجنرال بيجو الهدنة واندلعت الحرب من جديد مع تعزيزات وامدادات ضخمة من فرنسا لصالح المحتلين.

٦٦. بينما أمير البلاد كان يرسل رسائل الاحتجاج إلى ملك فرنسا والمارشالات في مدينة الجزائر بنفس الوقت وجه نداء إلى شعبه والأوامر إلى خلفائه في المدن يأمرهم بالاستعداد للحرب وبزيارات للمستشفيات، وتفقد أنظمتها وتلبية حاجتها من أطباء وممرضين وأدوية ويكتب رسائل إلى زعماء القبائل الموالية له ويطلب منهم الاستعداد للجهاد في سبيل الله.

٦٧. في السادس من شهر كانون الأول سنة ١٨٣٩م عقد الأمير اجتماع دعا إليه أعضاء مجلس الشورى وزعماء القبائل والخلفاء وقادة الجيش والعلماء واتخذوا بالإجماع قرار استئناف القتال وصدرت الأوامر إلى القيادة العسكرية بالزحف إلى معسكر العدو وحصونه.

٦٨. طبّق بوجو خطة تدمير الريف وحرقه، وكل ما فيه من حقول وحبوب في مواسم النضج، وقام بقطع الأشجار والثمار ومعاقبة كل قبيلة مقاومة وذلك بتجريدها من

أرضها وتمليكها للكولون وطردها للصحراء وكانت خطته مبنية على إبادة الشعب، بحيث يقدر عدد الذين قتلوا من الجزائريين نصف تعداد السكان.

٦٩. كانت قوة الأمير عبد القادر تكمن في استحالة العثور عليه، إنها في المكان الرحب الواسع في حزرة شمس أفريقيا المحرقة في مكان ندرة المياه وإنها في حياة الترحال التي خطّها كأسلوب لمحاربة فرنسا.

٧٠. أصبحت الإمدادات تتوالى من فرنسا على قواتها بالجزائر وبدأ ميزان القوى لصالح فرنسا على حساب الأمير.

٧١. ارتكب جيش الاحتلال أكثر الفظائع وحشية ضد المدنيين والتي سماها المؤرخون بالرازيا من محو للقرى وإبادة جماعية وهتك للأعراض..الخ

٧٢. كان موقف الدولة العربية مما يجري في الجزائر سيئاً بل أخذ البعض يساعد العدو، بل يقاتل إلى جانبه بكل ما يملك من قوة.

٧٣. أقام الأمير عبد القادر مدينة الخيام المتنقلة ليجنب المدن الرئيسة من تدميرها بواسطة القنابل والمدفعية الفرنسية، وتعرضت هذه المدينة للاعتداء بيد القوات الفرنسية ورد الأمير مسرعاً على من هاجم المدينة المتنقلة وأعاد بناءها من جديد.

٧٤. دخل سلطان المغرب في معاهدة مع فرنسا وأصبح يحرض القبائل على التمرد ويتدخل في شؤون دولة الأمير ويطلب من هذه القبائل تقديم العون للفرنسيين، لقد رضخ سلطان المغرب لضغوط فرنسا ووقع معها معاهدة سلام يوم ١٠ سبتمبر ١٨٤٤م وكان من أهدافها وضع الأمير عبد القادر في وضعية الخارج عن القانون في كامل التراب المغربي والجزائري.

٧٥. على الرغم من عناده ووسائله البربرية، فإن بيجو لم يتمكن من القضاء على الأمير حيث أنه كان في كل مرة يبشر بنهاية أمره، وكان خصمه الذي لا يقهر يبرز من جديد

بضربات موجهة ضد الجيش الفرنسي ويعيد اشعال نار الحرب التي لم يكن يريدها وإنما فرضت عليه فرضاً.

٧٦. نقل الأمير المدينة المتنقلة إلى المغرب الأقصى، وقرر الاستمرار في غزواته على القوات الفرنسية داخل الجزائر.

٧٧. انتقل الأمير في لمح البصر فغزا قبيلة صدامة في وادي العبد متجاوزاً بوجو ولاموريسيير اللذين لم يكونا بعيدين عنه، ثم قبيلة الأحرار وغنم منها وراح ينتقل من قبيلة إلى قبيلة ويفرض الطاعة عليها، أو تعود له طوعاً.

٧٨. لقد احتضن الشعب المغربي الأمير عبد القادر وخاصة قبيلة بني بزناسن وأهل وجدة والريف وغيرهم ولقد استشهد الكثير منهم مع الأمير في جهاده ضد الغزاة الفرنسيين واختلط دم المغاربة مع الجزائريين وكتبوا ملحمة جديدة في تاريخ شعوب المغرب.

٧٩. استطاعت فرنسا أن تضغط على سلطان المغرب وتجنده لصالح مشروعها في الجزائر والاستفادة من نفوذه للتأثير على القبائل الموالية لعبد القادر في نفس الوقت كان المارشال بيجو يطمع إلى المزيد من تأييد القبائل له واعتمد في سياسته مع السكان طريقة الترهيب والترغيب.

٨٠. بدأ واضحاً في عام ١٨٤٧م أن الطوق الفولاذي بدأ يضيق حول المقاومة وأصبحت هجمات العدو أشد ضراوة وقوة، بعد أن تم له تفتيت جبهة الأمير الداخلية وضمن طاعة أكثر القبائل، ودُمرت الزمالة ولم يبق من أقسامها إلا الدائرة وأحرقت المحاصيل الزراعية لتجويع المجاهدين.

٨١. كان السلطان عبد الرحمن حاكم المغرب مستمر في مراسلة القبائل التي بايعت الأمير عبد القادر ويستخدم علماء بلده في اتهامه بأنه زائغ عن الهدى، وقد جاء في إحدى الرسائل: إن من يتبع هذا الرجل فقد با ع دينه وباء بالضلال والردى وحاد عن شريعة الهدى.

٨٢. بالغ السلطان عبد الرحمن في عدائه للأمير إلى الحد الذي جعله يحرض عليه زعيم الأحلاف في الريف الشيخ بوزيان وزعماء بني سناسن وغيرهم ولم يكتف بذلك، بل أرسل ذات مرة جيشاً بقيادة الأحمر وأمره بالاستيلاء على مقر الأمير.

٨٣. وفي أواخر سنة ١٨٤٧م لم يعد الأمير يحارب جنرالات فرنسا وجنودها المدربين بل شُيّد بينه وبينهم سد من صدور المسلمين، شيّده السلطان عبد الرحمن وفرض على الأمير واقعاً مراً مرفوضاً من قبل المؤمنين وهو قتال الأخوة.

٨٤. رأى الأمير حان وقت وقف الحرب، كحاكم لدولة وقائد للجيش النظامي وليس وقف المقاومة لأنها بيد الشعب، وليست بيده، ولن تقف إلا بزوال الاحتلال.

٨٥. كان رأي الأمير طلب الأمان ليسمح له الهجرة إلى ديار المسلمين الدولة العثمانية في استنبول أو بلاد الشام وليس الاستسلام والطريق إلى ذلك المفاوضات.

٨٦. بدأت المفاوضات ووافقت فرنسا على شروط الأمير في طلب الأمان والسماح له بالهجرة، وعدم الغدر بجنود الأمير.

٨٧. انتشر خبر رحيل الأمير في أرجاء الوطن كالنار في الهشيم، ووقع هذا الحدث المفاجيء كالصاعقة على رؤوس السكان فأخذت النساء البكاء والعويل وعمد الرجال إلى التجمعات الصامتة الحزينة، والنفوس كالنار تحت الرماد.

٨٨. نقضت فرنسا عهدها واعتقلت الأمير وأودعته السجون وعرضت عليه القصور والأراضي الشاسعة فرفض وقال: لو ملكتموني فرنسا كلها فلن أقبلها عن وطن عربي إسلامي أعيش فيه، ولو وضعتم فرنسا كلها في برنسي هذا وفرشتموها بالديباج لنقعته إلى الأمواج التي تضرب جدران هذه البارجة الحربية.

٨٩. كان الهدف من سجن الأمير تحطيم رمزيته الكبيرة في نفوس الشعب الجزائري، فرئيس الحكومة فيزو الذي عيّن الجنرال الأشد عناداً في حرب الأمير فقد كتب في مذكراته: أنه لا يمكن تحطيم رجل عظيم على رأس أمته طالما أنه لم يقتل أو يؤسر.

٩٠. بعد ما تولى الأمبراطور الثالث الحكم في فرنسا عمل على إخراج الأمير من سجنه وكان ذلك عام ١٨٥٢م وزارة في المعتقل قبل إطلاق سراحه.

٩١. غادر الأمير عبد القادر فرنسا متوجهاً إلى الاستانة ووصل إسطنبول ورست الباخرة هناك أول عام ١٨٥٣م وكان أول عمل قام به الأمير زيارة ضريح أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، وبعد ذلك زار جامع أيا صوفيا وبعد استراحة عدة أيام في سراي حكومية خصصت له ولمن معه قام بزيارة السلطان عبد المجيد خان الذي رحب به بحرارة بالغة وأثنى على جهاده العظيم ضد المستعمرين وعرض عليه عدة مدن ليختار أحداها، فأختار مدينة بورصة لما سمعه عن جمالها، وجمال الطبيعة فيها وعذوبة مياهها ومناخها اللطيف.

٩٢. كثرت الزلازل في مدينة بورصة وضواحيها وشكلت أذى للسكان والمهاجرين، مما اضطر السلطان إلى السماح للأمير بالإقامة في دمشق الشام وصدرت الأوامر إلى محمود نديم باشا وإلى دمشق بالاستعداد لاستقبال الأمير وإعداد السكن اللائق به.

٩٣. كانت مدة إقامته في دمشق متفرغاً للصلاة والذكر والتأمل والعلم والتدريس في الجامع الأموي أو في دار الحديث النووي وكان دؤوباً على عمل الخير والصلاح مواظباً على المطالعة والتأمل وزار بيت المقدس والجليل ووقف عند مزاراتها التاريخية، وبعد فترة سافر إلى حمص وتوقف عند ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ثم قدم حماة ومنها انتقل إلى دير سمعان لزيارة قبر الخليفة عمر بن عبد العزيز.

٩٤. بدأ الأمير الكتابة والتأليف منذ ريعان شبابه فضلاً عن نظم الأشعار والقصائد في مواضيع شتى منذ سن مبكرة حتى آخر أيامه.

٩٥. من أشهر كتبه المقراض الحاد لقطع لسان منتقص الإسلام بالباطل والإلحاد، وكتاب ذكرى العاقل وتنبيه الفاضل.

٩٦. نسب إليه كتاب المواقف بعد وفاته بثمانية وعشرين سنة ولكنه باطل من حيث الحقيقة وأمام الدليل العقلي والحجة التوثيقية العلمية ووضعت فيه أفكار وعقائد هو منها براء، كما أنه نسب إليه كتاب مذكرات في السجن عام ١٨٥١م وهو كذلك باطل من حيث الإثبات والحجة في النسبة إليه.

٩٧. تخرج على يدي الأمير عبد القادر كثير مما تأثر الشباب بسيرته الجهادية والعلمية وبأدبه ومنهجه وأصبحوا فيما بعد من العلماء واستمروا على ذلك النهج ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر عبد الرزاق البيطار، الطاهر الجزائري، عبد الغني بن طالب.

٩٨. شهد المؤرخون والعلماء من أمثال مفتي المالكية العلامة محمد عليش وولده الشيخ الأزهري عبد الرحمن عليش والعلامة عبد الرزاق البيطار وحفيده الشيخ محمد البيطار وآخرون كثر بالفضل والديانة والغيرة على دين الإسلام.

٩٩. أراد بعض الناس الاستفادة من اسم الأمير ونسبوا إليه ما لم يعتقده من غلاة الصوفية وبدون وصية من الأمير وتكليف في كتاب "المواقف" والذي لا علاقة بالأمير به وأثبتنا بالحجج والأدلة العلمية بطلان نسبته إلى الأمير.

١٠٠. كان الأمير عبد القادر يحترم الدولة العثمانية من منطق شرعي، فهي كانت تمثل دولة الخلافة الإسلامية والأمير لم يجعل دولته تابعة إدارياً لدولة الخلافة ولكنه كان تابعاً لها روحياً وكان أثناء حكمه يخاطب السلطان العثماني بكلمة "مولاي خادم حضرتكم ومقبل تراب أعتابكم".

١٠١. كان للأمير موقفاً عظيماً للدفاع عن نصارى أهل الشام لما تعرضوا للأعتداء، فدافع عنهم بشهامة ورجولة ومنع المعتدين بالقوة وساهم في دفع أي مبرر لدخول جيوش الدول الأوروبية لحماية النصارى.

١٠٢. اتهم الأمير عبد القادر بأنه تعاطف مع الماسونية ثم انتسب إلى محافلهم وقد روّج لهذه الدعاية الكولونيل ليام تشرشل صاحب كتاب "حياة الأمير" ولم ينقل بأمانة الكثير

مما ذكر له الأمير عبد القادر من صفاء ووضوح تاريخه، ثم نقل وليام تشرشل هذه الفرية وأذاعها من العرب، جرجي زيدان ومن سار على نهجه الملتوي والخادع.

١٠٣. لقد حاولت الحركة الماسونية فعل كل ما في وسعها لتجعل الأمير عبد القادر أحد المنتسبين إليها ولكنها لم تفلح وكل ما ذكر في تاريخهم عن الأمير أكاذيب لا أصل لها ومن نسج خيالهم.

١٠٤. كانت أيامه الأخيرة يغلب عليها الهدوء والبساطة والنظام الدقيق وكان يستعد للقاء الله عز وجل وينتظر الأجل ومنذ حجه عام ١٨٦٢م أصبحت حياته تميل إلى الزهد والعبادة والعلم والتعليم ومساعدة الناس ومع تقدم سن الأمير واعتلال صحته خف نشاطه وجهده وعمت الإشاعات عن حالته الصحية وانتقل إلى رحمة الله يوم ٢٦ ماي ١٨٨٣م.

١٠٥. وبعد تحرر الجزائر لم ينس أبطال الجزائر وثوارها وحكومتها وزعمائها رفات الأمير عبد القادر، فقد كانت سيرته الجهادية وأخلاقه الربانية ملهمة لهم وأصروا على نقل رفاته من دمشق إلى الجزائر وتواصلوا مع الثورة السورية وتم الاتفاق.

١٠٦. في احتفال شعبي ورسمي نُقل رفات الأمير عبد القادر وهو في الواقع ليس رفاتاً، بل تراث وتاريخ ونضال وكفاح وجهاد من دمشق إلى مدينة الجزائر البيضاء، بعد أن أصبحت دار سلام ليُوارى في التراب الذي روّته دماء جروحه وتضحيات اخوانه وجنوده وأبناء جيله في ملحمة نادرة في تاريخنا المعاصر.

١٠٧. إن شعبية الأمير في الغرب لم تكن نتيجة العمل الإنساني الذي قام به إزاء المسيحيين فقط، بل إن أحداث دمشق التي كان الأمير يطلبها، لم تكن إلا لتزيد من تلك الشهرة التي كانت واسعة من قبل، لقد أثار كفاحه البطولي ضد أكبر قوة في أوروبا إعجاباً كبيراً في كافة أنحاء الغربي، كان له صدى كبير حتى في أمريكا، فقد أسست

مدينة صغيرة بولاية ايوا من طرف ثلاثة رواد أمريكيين في عام ١٨٤٦م أطلق عليها اسم القادر على شرف الأمير.

١٠٨. لم تتوقف الثورات بعد مغادرة الأمير للبلاد وكان من أشهر هذه الثورات ثورة الزعاطشة وبوبغلة والشريف محمد بن عبد الله بوزقلة، وثورة الصبايحية وقبيلة النمامشة والصادق بلحاج، ومحمد بوخنتاش الباركتي، وأولاد سيدي الشيخ وثورة بوشوشة، محمد بن تومي بوشوشة وثورات المقراني والشيخ الحداد وبومرزاق، وثورة واحة العمري وانتفاضة الأوراس وثورة أبوعمامة.

١٠٩. سيطر الحكم العسكري على الجزائر فترة طويلة من الزمن وبعد وقوع الإمبراطور نابليون الثالث في الأسر لدى الألمان مالت الكفة لصالح المستوطنين الفرنسيين على حساب العسكر وبدأت المراسيم التي تعزز سلطة المعمرين في ٢٤ أكتوبر ١٨٧٠م.

١١٠. تقرر منح التمثيل النيابي لكل ولاية جزائرية في البرلمان الفرنسي، ثم السماح للمعمرين الفرنسيين سنة ١٨٧٥م أن يكون لكل ولاية ممثل لهم في مجلس الشيوخ الفرنسي وفي مجال القضاء وأصبحت المحاكم تتشكل من الفرنسيين فقط وتصدر الأحكام التي تراها أنها تخدم قضايا المعمرين فقط.

١١١. ابتداء من عام ١٨٨١م جاء المستوطنون الفرنسيون بقانون جديد يسمى "قانون الأندوجينا" وهو عبارة عن مجموعة من النصوص وضعت بقصد مسخ الهوية الجزائرية واستعباد الشعب من خلال الطاعة العمياء للفرنسيين وقد بقي ساري المفعول حتى سنة ١٩٤٤م.

١١٢. عملت أجهزة الاستعمار على تنصير الجزائريين وتأسيس كنيسة جزائرية، كان أنطوان دوبوش أول أسقف فرنسي تولى الأسقفية بالجزائر سنة ١٨٣٨م وعمل من أجل استعادة الكنيسة الأفريقية والمسيحية كما كانت قبل الإسلام مثلما يزعم وهو الذي حول جامع كتشاوة إلى كتدرائية الجزائر وأعطاها اسم كنيسة سان فيليب.

١١٣. يعتبر الكاردينال لافيجري أحد الوجوه التاريخية المسيحية التي أثرت بعمق على فلسفة التبشير وطبعها بتفكيره وسلوكه وجرأته في شتى الميادين وهو يمثل خلال سنوات ١٨٦٨م - ١٨٩٢م قمة التبشير في الجزائر والمغرب العربي وفي قارة أفريقيا.

١١٤. إن تمسك مناطق القبائل والشعب الجزائري بالإسلام وتعاليم القرآن أربك مخططات الكاردينال لافيجري وجعلها غثاء لا أثر لها في حياة الناس وإن الإنسان ليرى عمق محبة الأمازيغ والجزائريين للإسلام من خلال صمودهم وثباتهم العظيم وصدق الزعيم عبد الحميد بن باديس الضهاجي الأمازيغي عندما قال:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عني أصله
أوقال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له
رام المحال من الطلب

١١٥. ومن العناصر التي استعان بها الاستعمار الفرنسي المستشرقون من أمثال: شيريون، وهادمان، وفيرو، ودي رينو، ودبنوكس، ودي سلان.

١١٦. عمل الاحتلال الفرنسي على إفراغ القضاء الإسلامي من صلاحياته، فقد كان قبل الاحتلال مستقلاً بشكل معقول وقد تطور القضاء في دولة الأمير عبد القادر الذي أولاه رعايته الخاصة واستمر الفرنسيون في تفريغ القضاء الإسلامي من صلاحياته وما أن حل آخر القرن التاسع عشر حتى لم تبق له سوى عملية تسجيل الزواج والطلاق وهوت قيمة القاضي الإسلامي.

١١٧. حارب الاحتلال الفرنسي التعليم الإسلامي الذي كان منتشراً في المدن والأرياف والمساجد والذي كان يمول من الأوقاف التي تم مصادرتها.

١١٨. بقيت الحركة السنوسية إلى حد ما متماسكة في الجزائر بسبب وجود قيادتها الفاعلة خارج الجزائر، وكانت داعمة للثورات بالجزائر.

١١٩. إن الحقائق التاريخية تثبت للباحث اهتمام ابن السنوسي بالجهاد في الجزائر ضد فرنسا وحاول أن يشارك بنفسه إلا أن الظروف منعته من ذلك وعمل على إرسال تلاميذه بالأسلحة والمال وتحريض أتباعه في الجزائر على القتال وقد استمر اتباع السنوسية والشعب الليبي في دعم حركة الجهاد حتى تم دحر الاحتلال الفرنسي من الجزائر وتحصلت الجزائر على استقلالها عام ١٩٦٢م.

١٢٠. لقد استمرت قيادة الحركة السنوسية على مر مراحل أجيالها الثلاثة في دعم الشعب الجزائري وواصل الملك ادريس السنوسي جهود آبائه وأجداده في الدعم المادي والمعنوي لثورة الجزائر التي اندلعت في ١/ ١١/ ١٩٥٤م وسيأتي الحديث عن ذلك بإذن الله في المجلد الثاني من موسوعة كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

١٢١. كان الشعب الجزائري عصي على مناهج المستعمرين واستخدمت فرنسا كل الوسائل لإذابة الهوية الإسلامية ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً. لقد كتب أحد المسلمين الجزائريين رسالة إلى الحاكم العام ذات يوم وهو يعبر عن الشعور الحقيقي لأغلبية الجزائريين حيث قال: إننا نفضل أن نحرق نحن وأطفالنا على أن نصير فرنسيين.

١٢٢. في بداية القرن العشرين تغير أسلوب النضال حيث بدأ رجال النخبة في الجزائر يتحركون ويتحالفون ضد إدارة الاحتلال ودسائسها في بلدهم وذلك على المستوى الوطني وطالبوا بإلغاء قانون الإندويجينا والمساواة في دفع الضرائب، والمساواة في التمثيل السياسي بالمجالس المحلية والبرلمان الفرنسي.

١٢٣. ضيق الاحتلال الفرنسي في الجزائر الخناق إلى درجة وجد المسلم نفسه دائماً مضطراً إلى الاختيار بين الهجرة إلى الخارج والعيش في المنفى أو يعيش في زنزانة معلقة مادام يطالب بحقوقه وكرامته.

١٢٤. مع بداية الحرب العالمية الأولى دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والمنظمات السياسية والأحزاب المتنوعة والحراك الشعبي الإصلاحي بقيادة العلماء وعلى رأسهم الزعيم الوطني الشيخ عبد الحميد بن باديس تشق طريقها في وسط الظلام الدامس والظلم الواقع على الشعب الجزائري لتمهيد الطريق لوعي جماهيري ونضال مرير وكفاح شاق وجهاد اسطوري وتضحيات بالأرواح والأنفس والأموال وتوجت تلك الجهود والأعمال بثورة عارمة نادرة في تاريخ البشرية قضت على الوجود العسكري والسياسي الفرنسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري وهذا ما سوف نعرض تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثاني من كتابي "كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي".

١٢٥. إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات بطولية مشرقة من تاريخ الشعب الجزائري الحبيب العزيز لتكون نموذجاً للنضال والكفاح والجهاد تستمد منه الشعوب التي تسعى لنيل حريتها الدروس والعبر.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذه الدراسة وأن يبارك فيها وأن يجعلها من الأعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن ينفع بها شعوباً وأمماً تتعرض حقوقها للإنتهاكات وتسعى لنيل حريتها وكرامتها وإنسانيتها من وحوش البشر إن ربي على كل شيء قدير.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

كتب صدرت للمؤلف:

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
٨. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
٩. تاريخ الحركة السنوسية في أفريقيا.
١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الأفريقي.
١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
١٢. الوسطية في القرآن الكريم.
١٣. الدولة الأموية، عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار.
١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
١٦. خلافة عبدالله بن الزبير.
١٧. عصر الدولة الزنكية.
١٨. عماد الدين زنكي.
١٩. نور الدين زنكي.
٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان بنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القرآن في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. إستراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صلى الله عليه وسلم دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي عوامل الإنتشار وتداعيات الإنكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١ . الشورى في الإسلام.

٤٢ . الإيمان بالله جل جلاله.

٤٣ . الإيمان باليوم الآخر.

٤٤ . الإيمان بالقدر.

٤٥ . الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦ . الإيمان بالملائكة.

٤٧ . الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

٤٨ . السلطان محمد الفاتح.

٤٩ . المعجزة الخالدة.

٥٠ . الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.

٥١ . البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٢ . التداول على السلطة التنفيذية.

٥٣ . الشورى فريضة إسلامية.

٥٤ . الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٥ . العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦ . المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧ . العدل في التصور الإسلامي.

٥٨ . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩ . الأمير عبد القادر الجزائري.

كفاح الشعب الجزائري

ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

الجزء الثاني

1436هـ - 2016م

موسوعة كفاح الشعوب 2

كفاح الشعب الجزائري

ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

دار ابن كثير

دمشق . بيروت

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيَّة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدم قوافل الشهداء ودفع الثمن غالياً وابتلي بالجوع والخوف، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية أن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً *} [فاطر: 43].

قال تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا *} [الكهف: 110].

* * *

موسوعة كفاح الشعوب 2

كفاح الشعب الجزائري

ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس

تأليف

د. علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

ـ قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ *} [آل عمران: 102].

. وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * } [النساء : 1].

. وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا *يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا *} [الأحزاب : 70 . 71].

أمَّا بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضى.

أما بعد:

هذا الكتاب الجزء الثاني من كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، وهو امتداد لموسوعة كفاح الشعوب التي بدأت في كتابتها، والتي سبقتها عدة موسوعات بحمد الله ومنه وتوفيقه منها:

. موسوعة السيرة والخلفاء الراشدين والدولة الأموية.

. موسوعة الحروب الصليبيَّة.

. موسوعة تاريخ شمال أفريقيا.

. موسوعة أركان الإيمان.

. موسوعة التفسير الموضوعي في القرآن الكريم: الوسطية في القرآن، فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم، المعجزة الخالدة.

وأخذت هذه الدراسات عقوداً من الزمن في البحث والدراسة، حتى رأت النور بفضل الله ومنه وتسديده وتوفيقه، واليوم نتحدث عن الجزء الثاني من موسوعة كفاح الشعوب الذي سميته:

«كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس»

فكان على الشكل التالي:

المبحث الأول: الحركات الوطنية ما بعد الحرب العالمية الأولى ويتضمن الحديث عن الحرب العالمية الأولى، والأمير خالد وعن نسبه ومؤهلاته وشجاعته ونشاطه السياسي، وتوحيد صفوف المناضلين، وعن الروح الجديدة، وعن مضايقة فرنسا للأمير ورحيله للمنفى، وعن حياته في باريس ونفيه لسوريا، وعن وفاة الأمير خالد وما قيل فيه من رثاء، وكان الحديث عن أحمد مصالي الحاج، وعن نشأته العائلية والاجتماعية، وعن هجرته واستقراره في فرنسا، وعن تأسيس حزب نجم شمال أفريقيا، وحزب الشعب، وعن تأسيس حركة انتصار الحريات الديمقراطية، وعن المنظمة الخاصة، وعن الحركة الوطنية الجزائرية، وعن أهم الصحف التي أنشأها الحاج أحمد مصالي، وعن اهتمام أحمد مصالي بحركات التحرر العربي، وعن موقفه من صورة الجزائر، وعن وفاته.

لقد شهد العديد من الشخصيات المهمة، في الدور النضالي للحاج أحمد مصالي من مختلف الاتجاهات

الوطنية، ومنها التي عارضته ووافقته في بداية الخمسينيات، ومن هذه الشهادات التاريخية الهامة ما قاله:

. شكيب أرسلان في مصالي الحاج: ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه، لتحرر الإسلام من زمن طويل.

ـ وقال الجنرال ديغول في شخص الزعيم الحاج أحمد مصالي: سخرت من تشرشل، ورزفلت، وستالين وجميع عظماء العالم، ولكني أخفقت مع مصالي.

. وقال أحمد بن بلا أحد القياديين التاريخيين للثورة الجزائرية ورئيس أول جمهورية جزائرية بعد الاستقلال: إن مصالي الحاج رجل عظيم في وطنيته، قد ارتكب بعض الأخطاء، ولكن أخطاء رجل عظيم، كانت في حجمه. ثم يقول:.. أستطيع أن أرسم لك صورة أكثر تفصيلاً عن عبقرية هذا الرجل العظيم، وما فعله والحزب الذي أسسه والجهاز العسكري الذي بناه وظل يشرف عليه بنفسه حتى فجر ثورة أول نوفمبر.. إنني أتكلم وقد خاصمته في بداية الثورة، وحاربناه ولكنني كخصم أقول يجب إعادة الاعتبار إليه، لقد حان الوقت لنقول الحقيقة وحان الوقت بعد عشرين سنة من الاستقلال لأن يأخذ كل واحد حقه[1].

وفي **المبحث الأول**: تكلمت عن شخصية الزعيم فرحات عباس إحدى الشخصيات الوطنية البارزة التي تركت بصماتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إذ كان يطالب بالمساواة في إطار الاندماج والتجنس، إلا أنه غير من مواقفه السياسية فيما بعد.

وتحدثت عن نشأته العائلية والاجتماعية، والتعليمية والدينية، والوطنية والأخلاقية، وعن الاتحاد الشعبي الجزائري، وعن نزول جيوش الحلفاء في الجزائر، وعن تأسيسه لحركة البيان، وعن أحباب البيان والحرية، وتكلمت عن الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وعن الجبهة الجزائرية للدفاع ، وعن انضمام فرحات عباس لجبهة التحرير الوطنية ووفاته.

(1) بن بلا يتكلم، السعيد الصافي حلقة 4 جريدة السفير.

ـ وأثنى عليه معاصروه، فقال فيه حسين ايت أحمد في شهادة عن فرحات عباس: فرحات عباس كان نزيهاً ومخلصاً.

ـ وقال الباحث محمد حربي: إن فرحات عباس لعب دوراً كبيراً أثناء الثورة التحريرية، فلم يعد يطالب بالاندماج، بل طالب بالاستقلال.

ـ وقال عنه حساني عبد الكريم: كافح فرنسا بمنطق السياسة، وسلاحهم، وكان يضرب الفرنسيين في الصميم، محاولاً الكشف عن النفاق في سياستهم(1).

وفي **المبحث الثاني**: تكلمت عن الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس، واحتوى هذا المبحث الحديث عن أسرة ابن باديس ومولده ونشأته وطلبه للعلم، وذهابه لجامع الزيتونة لطلب المعرفة والثقافة والعلم بتونس، وأشرت إلى تأثير مشايخ الزيتونة عليه، وخصوصاً كل من:

ـ الشيخ محمد النخلي الذي أثر في تفكيره عندما شكا لأستاذه النخلي من أساليب القدامى في تفسير القرآن الكريم، فقال له الشيخ النخلي ناصحاً ومرشداً وموجهاً:

اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة وهذه الاراء المضطربة، يسقط الساقط، ويبقى الصحيح وتستريح.

فيقول ابن باديس عن هذه النصيحة: فالله فتح بهذه الكلمات القليلة عن ذهني افاقاً واسعة، لا عهد لي بها، ومن الشيوخ الذين تأثر بهم في تونس:

ـ محمد الطاهر بن عاشور الذي اهتم بجانب القرآن الكريم بعلوم أخرى، له عدة مؤلفات في الأدب والتراث، وكان من الذين نادوا بإصلاح الزيتونة. يقول عنه ابن باديس: عرفت هذا الأستاذ في جامع الزيتونة، وهو ثاني رجلين الذين يشار إليهما بالعلم.. وإن أنسى لا أنسى دروساً قرأتها من عليه، فقد حببني في الأدب

---

(1) منابع الثقافة والسياسة في الخطاب الوطني ص450.

والفقه في كلام العرب، وبثت فيَّ روحاً جديدة في فهم المنظوم والمنثور وأحيت فيَّ الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام، وتأثر في علم التاريخ بالشيخ:

. محمد البشير صفر حيث يقول ابن باديس: أن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر.

وغيرهم من المشايخ والعلماء والفقهاء والساسة، وتعرَّضت في هذا الكتاب لرحلاته إلى المشرق، مصر والحجاز وأداء فريضة الحج، ثم الذهاب إلى المدينة واستقراره بها، وإعطاء درساً في مسجد رسول الله (ص)، وأعجب به العلماء إعجاباً شديداً ممَّا لفت الأنظار إليه، وفي هذه الأثناء أشار عليه شيخه حمدان الونيسي بالبقاء في المدينة، إلا أن العلاَّمة حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده ومحاولة إنقاذها ممَّا هي فيه وبما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح، قائلاً له: ارجع إلى وطنك يا بني فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك. فالعلماء هنا كثيرون، يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون، وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا. واقتنع الشاب عبد الحميد ابن باديس بوجهة نظر هذا الشيخ، وقبل نصيحته وقرَّر الرجوع إلى الوطن، ومكث ابن باديس بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر قضاها متعرفاً على العلماء ومجالساً لهم، والتقى بأخيه في الجهاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بالمدينة.

وهذا اللقاء بين الشيخين كان له ما بعده، وذكرت ما حدث بينهم من حديث ووضع خطط وبرامج مستقبلية لنهضة الجزائر وتحريرها من الاحتلال، ووضحت عناصر الخطة والأهداف المرسومة، وكيفية تنفيذ الرؤية المبنية على خطة شاملة، وتحديد مكمن الداء والمراحل التي ستمر بها تلك الرؤية البعيدة المدى لتربية جيل يحمل روح الجهاد والنضال، وإعداده لمعركة فاصلة، لتحقيق الحرية والاستقلال.

وتحدثت عن مسيرة عودة ابن باديس من المدينة إلى الجزائر ومروره بكل من سوريا ولبنان وفلسطين ومصر ولقاءاته مع رجال الفكر والعلم، وبينت أهم عوامل تكوين شخصيته، كتربية والده وأسرته وشيوخه وأساتذته، والبيئة الثقافية، ومؤازرة زملائه في جمعية العلماء له، كالشيخ البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعربي بلقاسم التبسي، ومبارك الميلي، وتأثره بالشعب الجزائري وثقافته وأخلاقه وقيمه، وعلاقته الخاصة بالقرآن الكريم حفظاً وفهماً ودعوة وتعليماً، فقد كان يؤمن بأن نهضة الجزائر الحقيقية، وتقدمها وتطورها المنشودين ؛ لا يمكن أن يقوما إلا على أساس الرجوع إلى تعاليم القرآن الكريم وهدايته، أي إحداث نهضة إسلامية شاملة تبعث روح العزة والكرامة في المواطنين وتجعلهم يستعذبون الموت في سبيل الحياة.

وقد صور لنا ابن باديس تأثير القرآن الكريم في نفسه وتكوين شخصيته كالاتي: ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بادابه، وإن القرآن الذي كوّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على مناهجه، ثم يقول إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقران إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي للدرجة التي تحمدونها اليوم، فإننا . والحمد لله . نربي تلاميذنا على القرآن من أول يوم، ونوجِّه نفوسهم إلى القرآن الكريم في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرانيين تعلق هذه الأمَّة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[1].

وأشرت في هذا الكتاب إلى أهم صفات وأخلاق ابن باديس، كحيويته العالية، وثباته على المبدأ، وشجاعته وصرامته في الحق، والحلم والتسامح ، والتواضع، والزهد ، والجدية وحسن استغلال الوقت ، والتطوير

(1) عبد الحميد بن باديس (الشهاب) عدد خاص (ج4 . 5م 14 ص291.

والتجديد، وروح الفريق، وكونه مؤثراً، وغيرها من الصفات والأخلاق.

وتحدثت عن تفرغ الشيخ ابن باديس للتدريس والتربية واستقراره بقسنطينة والتعلم بالجامع الأخضر، وبناؤه لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية، وعن التعليم المسجدي، وعن دعم الشعب الجزائري للحركة العلمية التي قادها ابن باديس، وعن تجواله في القطر الجزائري، وعن اهتمامه الكبير وتضحيته العظيمة لبناء جيل من الشباب على أسس عقائدية ومبادئ وقيم وأخلاق راسخة، وبينت اهتمامه بالصحافة وتأسيسه جريدة المنتقد، وجريدة الشهاب، ومجلة الشهاب وغيرها من المجلات.

وفي **المبحث الثالث**: كان الحديث عن تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والعوامل التي ساعدت على ظهورها والظروف التي نشأت فيها، وحاجة الشعب إليها والثورة التعليمية التي فجرتها، والتغيير الفكري الذي أحدثته، وتكلمت عن أول اجتماع لرواد الإصلاح، وعن الخطة البارعة والقانون الأساسي للجمعية، وعن غايتها وموقفها من الطرقية والتعليم والبدع والمنكرات العامة، والإلحاد والتبشير، وبينت أهم رجال الجمعية، ووضحت الأصول الفكرية لجمعية العلماء وخصوصيتها، وتحدثت عن المحاولات المنتمية للاحتلال الفرنسي للقضاء على الجمعية، وكيف أن الله رعاها وحماها وأيد أنصارها وعلماءها.

وفي **المبحث الرابع**: أشرت إلى منهج ابن باديس في التعامل مع القرآن والسنة النبوية والعقائد والسنن الإلهية.

لقد اعتمد ابن باديس على القرآن الكريم في حركته الإصلاحية، واعتبره الأساس المتين، وحث الناس على حفظه وفهمه والعمل به والدعوة إليه والاعتصام به، وتفرغ لتعليمه وتدريسه وتفسيره وتربية الناس على مقاصده وأحكامه وأخلاقه وأصوله وقيمه، واهتم ابن باديس في التفسير بالمأثور وتتبع تفسير القرآن الكريم وما روي عن النبي (ص) من تفسير للقرآن، وما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين مما هو تفسير لآيات الكتاب الكريم ، واهتم بالتفسير العقلاني المقيد بالنقل، والعلمي المدعوم بالدليل، والمنطقي القائم على

الحجة والبرهان، وترك نماذج متميزة من ذلك في مجالس التذكير.

ـ وتحدثت عن عناية ابن باديس بالسنة النبوية الشريفة واعتمادها في حركته الإصلاحية التي أقام دعائمها ووطد بنيانها، واعتبرها من مصادر الدعوة والتشريع واستنباط المسائل الفقهية والفوائد والدروس والعبر ووضع الضوابط لفهم سليم للحديث النبوي، كربط السنة بالقرآن الكريم في الفهم، وبين أن السنة بيان وشرح للكتاب العزيز، ومن الضوابط التي وضعها في فهم السنة: التناول الموضوعي للأحاديث، والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص، ومراعاة الملابسات الزمانية والمكانية.

ـ وتكلمت عن اهتمامه بالعقيدة ومنهجه القرآني في تعليمها وبيان الشارح وهو السنة النبوية، ويرى أن هذه الطريقة أيسر على عموم الناس كي يفهموا عقائدهم، خلافاً لمنهج المتكلمين الذي يتَّسِم بالصعوبة والتعقيد، بل الغموض والتكلف إذ يزج بهم في عالم من المصطلحات، كالجوهر والعرض والجنس والنوع وعالم من الجداليات التي تتعب عقول العلماء إزاءها، ناهيك عن عقول العوام، بل يعتبر السير في طريق المتكلمين، والحرص عليها مع الإعراض عن طريق القرآن في عرض العقائد وبسطها نوعاً من الهجر لكتاب الله عز وجل، فقال عند تفسير قوله تعالى: {يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا *} [الفرقان : 30].

فقال:.. ونحن ـ معشر المسلمين ـ قد كان منّا للقران العظيم هجر كثير في الزمن الطويل ـ وإن كنا به مؤمنين ـ بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها، وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة، فضلاً عن العامة(1).

واهتمَّ بالدعوة إلى التوحيد وأركان الإيمان.

(1) مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير ص 250.

ـ ووضحت اهتمامه بالسنن الإلهية وتركيزه عليها، كسنة الأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس، والمرحلية والتدرج، والابتلاء وقوانين النهوض، ونظرته للفن والجمال، وعن جهده العظيم في التعليم والدعوة والتربية من خلال المدارس الحُرَّة، والصحافة والمجلات والجرائد، والنوادي والرحلات، في القرى والمدن في شرق البلاد وغربها وجنوبها وشمالها.

. وتحدثت عن اهتمامه بالفقه المالكي، وابتعاده عن التعصب وميله للأخذ بالدليل، وتدريسه الموطأ للإمام مالك بن أنس، ومختصر خليل، ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، ومتن ابن عاشور، وكان يرى وجوب التفقه في الكتاب والسنة.

وفي **المبحث الخامس** كان الحديث عن منهجه التعليمي والتربوي والأخلاقي والاجتماعي.

فقد اهتم في منهجه التعليمي، بإصلاح التعليم وتطويره وتجديده، ووضع خطط تناسب عصره وتحرِّر من الوسائل القديمة، ومال إلى بناء مؤسسات تعليمية سواء في المساجد أو المدارس والمعاهد، وكان لجمعية العلماء نشاط عظيم على مستوى القطر الجزائري في قيادة المشروع الحضاري التعليمي المعبر عن هوية وثقافة وحضارة وتاريخ الشعب الجزائري.

واهتم ابن باديس وعلماء الجمعية بالأُطر التنظيمية للتعليم سواء على المستوى العلمي والمناهج، أو إعداد المدرسين، أو الهياكل الإدارية، أو المنظومة التربوية الخاضعة للجان متخصصة وفق الأهداف العليا لحركة العلماء، فعمل نظام للعرفاء، ونظام للدراسة، والأساتذة المساعدين، ونظام لمجلس الأساتذة، ونظام لانتقال الطلبة من طبقة إلى أخرى. واهتم بالجانب القانوني في تأسيس المدارس والمعاهد واعتنى باللغات وخصوصاً العربية.

واستطاع ابن باديس أن يتجاوز الطرق العقيمة في تدريس العلوم التي لا تعدو أن تكوّن عند طالبها ثقافة

لفظية جدلية لا تهذب سلوكاً ولا تغيِّر واقعاً، بل تغرق طالبها في معارك وهمية لا يخرج منها إلا وهو خائر القوة منهك الجسد دون أن يستفيد من ذلك شيئاً، ولذلك يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة مع قليل من العلم، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلاميذنا[(1)].

. وأما المنهج التربوي الذي سار عليه فقد استطاع من خلاله أن يربي جيلاً من عظماء الجزائر، وساهموا في نهضة الجزائر الحديثة، فقد اهتم بأهداف التربية العقلية والروحية والأخلاقية والاجتماعية وحرص على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية، وفق قواعد عامة معروفة، ثم في صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمي وإرشادي يسهل التعريف والدعوة إليه، وكان يردد تلك النداءات في محاضراته ومقالاته وتفسيراته ورحلاته أيضاً، واستطاع بذلك أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والصدق والحب والتسامح وغيرها إلى برنامج عمل إصلاحي أو نظرية متكاملة في كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه، وقدمها كنموذج للأخلاق العملية التي تقوم على أساس ديني وإجتماعي[(2)].

ووضع ابن باديس مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ، كإطار عام لمنهجه في التربية الأخلاقية:

القاعدة الأولى: الالتزام بالمنهج القرآني.

القاعدة الثانية: الجمع بين النظر والعمل.

القاعدة الثالثة: صدق العمل.

القاعدة الرابعة: المطابقة بين الظاهر والباطن.

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 209.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 178 . 179).

القاعدة الخامسة: المطابقة بين العلم والدين.

واهتم ابن باديس في تفسيره لايات القرآن وأحاديث الرسول (ص) ببيان أهم الفضائل الأخلاقية، المستمدة من المصادر النقلية وفي مقدمتها الرحمة، والعدل، والمساواة والأمانة والصدق، والإحسان والبر إلى اليتامى والمساكين والبر إلى الوالدين، والجهاد في سبيل الله، والحب والتسامح والصبر والثبات والإيثار والوفاء بالعهد، وغير ذلك. وذلك عند تفسيره للعديد من الآيات القرآنية[1].

واهتم في تربيته وتعليمه بالمرأة والشباب اهتماماً كبيراً وعظيماً.

وخاطب شباب الجزائر في قصيدته المشهور فقال:

شعـــب الجزائر مسلم	وإلى العـــــروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدمـــاجـــــاً له	رام المحـــال من الطلـب
يا نشء يا ذخر الجزائر	في الشـــتدائد والكـرب
يا نشء أنت «رجاؤنا»	وبك «الصباح» قد اقترب
خذ للحياة ســـلاحها	وخض الخطوب ولا تَهَبْ

إلى أن قال:

من كان يبغي وُدَّنا	فعلى الكرامة والرحب
أو كـان يبغي ذلّنا	فله المـــهانة والحَرب
هذا نظـــامُ حياتِنا	بالنور خُطَّ وباللَّهب
حتى يعـــود لشعبنا	من مجده ما قدْ ذهب
هذا لكم عهدي به	حتى أُوَسَّـــد بالتُّرب
فإذا هلكتُ فصَيْحتي	تحيا الجزائر والعرب[2]

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 42).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. تركي رابح ص 225، 226.

كان ابن باديس حريصاً على المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري وهي من أهم الأهداف التربوية عنده، بل كان هدفه الاستراتيجي المحوري الذي تتفرع عنه كل الأهداف الأخرى التي يأتي التعليم في مقدمتها، وتحرير البلاد في نهايتها، فهو لا يتصور مستقبلاً آخر للجزائر إلا في ظل عروبتها وإسلامها، وهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية. وأما الركن الثالث: فهو الجزائر. فالإسلام بتراثه الروحي العظيم، والعروبة بقيمها العريقة، والجزائر بماضيها المجيد ومستقبلها الزاهر ؛ هي المكونات الثلاثة للشخصية الجزائرية في رأي ابن باديس(1).

والتي صاغ على أساسها شعاره المعروف «الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا»(2).

ـ وبينت في هذا المبحث مكانة الأمَّة العربية والإسلامية ومفهوم الأمَّة عند ابن باديس ومتابعته لقضايا العالم الإسلامي، ودعمه لحركات التحرر في تونس، وثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، بالمغرب الأقصى، وجهاد الشعب الليبي ضد إيطاليا، وحديثه عن استشهاد عمر المختار، وعن موقفه من وحدة الشمال الإفريقي، ومناصرته للقضية الفلسطينية وللشعب السوري ضد الاحتلال الفرنسي، وكان يتابع الأحداث الفكرية والأدبية والثقافية في العالم الإسلامي، ويترجم لرموزه كما حدث في تأبين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وكتابته عن سيرة الشيخ محمد رشيد رضا بعد وفاته، وكذلك الشيخ محمد بخيت المطيعي من علماء الأزهر الشريف.

ـ وتكلمت عن مقاله في أسس قيام الدولة العربية الموحَّدة، كالإطار الخلقي، والجغرافي والسكاني والإجتماعي، والديني والسياسي، وما قاله عن خصائص الدولة العربية الموحدة، لكونها فاضلة، ودولة تعاون ومشاركة وعلم ومدنية، وعن وظائف هذه الدولة ،كامتلاك وسائل القوة، لتحقيق العدل، والسعي لتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي ، وحفظ الأموال باحترام الملكية ، والمحافظة على التراث ومكوناته، والسعي لتحقيق

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 67.

الحرية والاستقلال، وكان الحديث عن عوامل قيام الدولة وبناء الحضارة وعوامل ضعفها وانهيارها، وعن أصول الولاية في الإسلام، ومسألة الخلافة العثمانية، ونظرته لمصطفى كمال أتاتورك، والخلافة القائمة، وما هو البديل عنها بعد سقوطها، وعن المؤتمر الإسلامي بالجزائر، وأهم قرراته وأهدافه ومطالبه، وأثر مشاركة جمعية العلماء فيه، وعن الوفد الذي ذهب لفرنسا بمطالب الشعب الجزائري، ورفض الحكومة الفرنسية لمطالبهم.

وبعد رجوعه وجه خطاباً للشعب الجزائري جاء فيه:..

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمَّة ترى أو أكثريتُها ذلك كثيراً عليها.. ويُسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا.. ثم قال: تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم إنكم أمَّة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا أنكم كما وقفتم معها في الحرب صفاً واحداً تدافعون عنها، تقفون في السلم صفاً واحداً تدفعون الأنانيين منها الذين هم مثل أعدائها[1].

. وتحدثث عن الفكر التحرري عند ابن باديس وإيمانه بالتعددية، وحرية التعليم، والحرية السياسية، وحرية الرأي والتعبير، وعن الثورة في شعر ابن باديس ونثره ودعوته إليها قبل وفاته، وتربية تلاميذه على مبادئ التحرر والاستقلال والحرية والثورة.

. وفي نهاية الكتاب كان الحديث عن وفاته ومرضه الذي أصيب به وهو داء السرطان في الأمعاء، وأضاف البعض سل العظام، ومع شدة مرضه: كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد[2]، مما جعل وفاته غير طبيعية[3].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 371).

(2) نوابغ العرب ص 101 ، مجموعة أساتذة.

(3) جهاد ابن باديس ص 103.

ـ وافى الأجلُ الإمامَ عبدَ الحميد بن باديس مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1395هـ الموافق 16 نيسان 1940م، وشيعت جنازته في موكب جنائزي مهيب ويوم مشهود. وقد رثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة بقصيدة ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، جاء فيها:

يا قبر طبت وطاب منك عبير — هل أنت بالضيف العزيز خبير

هذا ابن باديس الإمام المرتضى — عبد الحميد إلى حماك يصير

العـــالم الفـــذ الذي لعـلومــه — صيت بأطراف البلاد كبير

بعث الجزائر بعد طول سباتها — فالشعب فيها بالحياة بصير

إلى أن قال:

نفحتك من نفحات ربك نفحة — وسقاك غيث من رضاه غزير(1)

لقد غادر ابن باديس الحياة بعد أن نجح في ترسيخ القيم والمبادئ ومقاصد القرآن الكريم في الشعب الجزائري بقلمه ولسانه وتلاميذه وجهاده ودعواته، ولقد أحدث إصلاحاً شاملاً، واحتفظت الجزائر بشخصيتها الإسلامية وقاومت التفرنس والاندماج والاستعمار بفضل الله، ثم ابن باديس ومن كان على منواله في النضال والكفاح والجهاد وأبناء الشعب الجزائري الذين استجابوا لخطاب الهوية والعقيدة والحضارة والتاريخ والقيم والأشواق الروحية، فقد مهد ابن باديس بفكره المستنير وعبقريته الفذة، وتعاليمه العظيمة، وتضحياته الكبيرة، لولادة الثورة الجزائرية سنة 1954م.

ومع بداية الحرب العالمية الثانية دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث وبدأت الحركات السياسية والشعب الجزائري المتشوق لحريته واستقلاله يستعد لملحمة الثورة الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، وتُوِّجت جهود العلماء والمناضلين وأبناء الشعب بثورة قلَّ مثيلها في تاريخ الإنسانية، قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى

(1) ابن باديس حياته وآثاره 95/1.

في الجزء الثالث من كتابي: «**كفاح الشعب الجزائري ضد الإحتلال الفرنسي**».

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة 3 جماد الأولى 1437هـ 12 فبراير 2016م الساعة الرابعة ونصف بتوقيت الدوحة بعد صلاة العصر، والفضل لله من قبل ومن بعد، وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [فاطر : 2].

ولا يسعني في نهاية الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلَّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصِّرني بما يرضيك، واشرح صدري له، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري، وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا إنتشار بين الناس، ونرجو من كل مسلم يطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: {رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ *} [النمل : 19].

وأختم هذه المقدمة بقول الله تعالى:{ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [الحشر : 10].

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

المبحث الأول

الحركات الوطنية ما بعد الحرب العالمية الأولى

أولاً: الحرب العالمية الأولى:

أعلنت الحرب الكبرى سنة 1914م، فجند الفرنسيون أبناء المغرب العربي، وخصوصاً الجزائريين، فأخذ هؤلاء يفرون من الجندية ويلتجأئ الكثيرون منهم إلى شواهق الجبال، حتى بلغ عدد اللاجئين مائة وعشرين ألفاً، ونشأ عن ذلك اضطراب كبير أدى إلى مظاهرات عدائية قتل فيها عدد من الموظفين والمعمرين الفرنسيين من بينهم العامل كاسي لوني والمدبر الرئيسي مارساي، ووافق ذلك حركات منظمة في المدن تنادي بالتحرر وتطالب بالجلاء، وفرت فرق من المجندين الأهالي إلى صفوف الدولة العثمانية، من أهمها فرقة اليوطنا الحاج محمد بوكابويا، فأخذت حكومة باريس تشعر بالخطر يهددها من الجزائر، ولجأت إلى سياستها التقليدية التي هي الوعود الخلابة والتلويح الكذوب[1].

وكانت الدولة العثمانية في المعسكر المعادي، في حين كان بعض الزعماء الجزائريين قد تأثر قبل الحرب بدعوى الجامعة الإسلامية، وعلق الأمل على الباب العالي مثل بعض الوطنيين في مصر وتونس لتخليصه من الاستعمار الأوربي، ولم تفوت ألمانيا أو حكومة اسطنبول استغلال المنابر الإسلامية فضربت بارجتان ألمانيتان مينائي سككدة وعنابة في أكتوبر 1914م، ولعل من بين أهدافها إيقاظ المقاومة على غرار ثورة المقراني سنة 1871م، ومن المؤكد أنها توقعت قيام ثورة عامة.

---

(1) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، علاَّل الفاسي ص11.

وأما العثمانيون فقد حاولوا التأثير على الجزائريين بوسائل شتى، منها إصدار فتوى بعدم جواز الحرب ضد المسلمين، منع الفرنسيون وصولها إلى البلاد، ومنها إرسال سليمان باشا الباروني إلى طرابلس لإثارة المسلمين في شمال إفريقيا ضد فرنسا، كما استخدمت الطريقة السنوسية ذات الصلات الطيبة بالعثمانيين للتأثير على أهالي الصحراء الكبرى الذين وصلتهم الدعوة السنوسية، ومن هذه الوسائل تعيين المثقفين الجزائريين في مناصب هامة، فالأمير علي الجزائري صار نائبا لرئيس «المبعوثان». وهو من نسل الأمير عبد القادر وكانت عائلة الأمير قد اتسعت وقدر أفرادها بثلاثة الاف. فتسابق المعسكران على كسب ودهم. وبينما استقدم الفرنسيون عمر باشا بالإضافة إلى خالد محيي الدين الكولونيل بالجيش الفرنسي، شجع الألمان عبد الملك على القيام بثورة في شرق مراكش، وقد تكونت لجان في برلين وجنيف واسطنبول وكلها تدعو إلى تحرير شمال إفريقيا، وقد ساعدت تلك اللجان على فرار بعض المجندين الجزائريين، وسلحت الأسرى واستطاع بعضهم التسلل إلى الجزائر والاشتراك في الثورات التي وقعت احتجاجاً على التجنيد، وقد قللت المصادر الفرنسية من شأنها وتتحدث على العكس غالباً عن ولاء الجزائريين وخدماتهم بالجيش، وتبرع أغنيائهم بالأموال لفرنسا ؛ بيد أنه ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار عوامل أخرى دفعت الجزائريين إلى قبول الخدمة العسكرية، منها: انخفاض مستوى المعيشة، واحتراف الكثيرين من قبل العمل في فرقة القناصة الجزائريين التي اشتهرت بحروبها في إفريقيا، يضاف إلى ذلك تشجيع بعض رجال النخبة[1].

وابتداءً من سنة 1916م بدأت فرنسا تغير سياستها بعد أن أصبحت تعاني من أزمة اليد العاملة والجنود الذين يدافعون عن عملها وبقائها كدولة ذات سيادة.

وآنذاك صدر مرسوم بتاريخ 7 سبتمبر 1916م على تجنيد جميع الجزائريين الذين ولدوا بعد عام 1895م

(1) المغرب العربي ، د. صلاح العقاد ص 290.

وعدم السماح لأي شخص أن يحصل على أي إعفاء. وبعد أسبوع من ذلك صدر مرسوم آخر يقضي بتزويد فرنسا بـ 17،500 عامل جزائري، ثم ارتفع العدد إلى 78،000 عامل، إلا أن المشكل هنا هو أن معظم الجزائريين قد رفضوا أن يتجندوا وأن يخدموا دولة ترفض أن تنصفهم وتمنحهم حق التمثيل السياسي، ففي خريف 1916م وقعت مناوشات ومصادمات بين الجزائريين وبين المسؤولين الفرنسيين في نواحي خنشلة وبسكرة وباتنة، وقامت فرنسا بإرسال وحدات من جيشها إلى هذه المناطق لتأديب المتمردين وأخذهم بالقوة للانخراط في الجيش الفرنسي، وفي يوم 2 فيفري 1916م بلغت الأزمة أوجها حيث تمكن المقاومون الجزائريون الرافضون للعمل في الجيش الفرنسي من اغتيال حاكم باتنة ورئيس الدائرة، وكانت نتيجة لذلك محاكمة 825 معارضاً جزائرياً، وإصدار عقوبات قاسية ضد 805 أشخاص والحكم عليهم بالسجن لمدة 715 سنة في المجموع، كما قامت السلطات الفرنسية بتقديم 165 شخصاً إلى محكمة عسكرية في قسنطينة «مجلس حرب»، ومحاكمة 45 شخصاً في محكمة عسكرية «مجلس حرب» في باتنة، وانتقمت السلطات من 62،347 شخصاً حيث فرضت غرامات مالية لا تقل عن 706،656 فرنكاً.

وباختصار فقد تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العالمية الأولى بعد أن جندت 82،751 جزائرياً في إطار الخدمة العسكرية، وانخراط 87،519 جزائرياً آخر في الجيش بصفة دائمة، كما جلبت 78،000 عامل جزائري إلى العمل في المصانع الفرنسية، لتعويض العمال الفرنسيين الذين التحقوا بالجيش، وحسب الإحصائيات الرسمية الفرنسية، فقد خسرت الجزائر في هذه الحرب ما لا يقل عن 25،711 قتيلاً «من المسلمين» و27،035 جريحاً، أي 14،5% من القوات الجزائرية التي جندت للدفاع عن فرنسا. وهذه النسبة قريبة جداً من نسبة الفرنسيين الذين ماتوا في الحرب العالمية والتي هي 19،5%[(1)].

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 215.

إن الحرب العالمية الأولى أفادت الحركة الوطنية الجزائرية من عدة وجوه، فهي أخرجتها عن العزلة، ووصل إلى الجزائر صدى ثورة 1917م البلشفية من جهة ومبادئ ولسن من جهة أخرى، وأتيح لعشرات الالاف من الجنود والعمال أن يروا طرق الحياة الجديدة، وأن يشهدوا مظاهر الحرية في فرنسا، وأضحى بوسع زعمائهم أن يطالبوا بالمكافأة على التضحيات الهائلة التي تتمثل في 25 ألف قتيل، 82 ألف جريح من الجزائريين سقطوا أثناء القتال.

علق الضباط الجزائريون بعد الحرب الأمل على مؤتمر فرساي، كي يُلزم فرنسا بتطبيق مبادئ المساواة. ولكن الحكومة أحالت الأمير خالد على التقاعد، فرجع إلى الجزائر ليكوِّن ما أسماه كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين، وهم أعضاء المجالس البلدية الذين استفادوا من التشريع الفرنسي الصادر سنة 1919م، والذي وسع دائرة تمثيل الجزائريين في هذه المجالس[1].

ثانياً: الأمير خالد:

1 . نسبه ومؤهلاته:

ولد الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الحسني يوم 1875/2/20م في دمشق، واستقر والده بالجزائر سنة 1892م، انخرط في كلية سان سير العسكرية الفرنسية وتخرج منها سنة 1897م كملازم ثان، رفض التجنيس واستمر ضابطاً أهلياً، وفي سنة 1908م رقي إلى نقيب، عمل كضابط في الجيش الفرنسي بالمغرب، وكان دائماً محل شك من السلطات العسكرية والمدنية[2].

وبدأ نجم الأمير خالد يعلو نهاية الحرب لاعتبارات تعود إلى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر، وأنه كان عارفاً بالحضارة الإسلامية والأوروبية وأنه كان محارباً قديماً قضى زمن الحرب على الجبهة الأوروبية.

كانت للأمير خالد عدة مؤهلات سهلت له تقلد الزعامة في تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الجزائر، إن

(1) المغرب العربي ص 219.

(2) الجزائر في التاريخ ، عثمان سعدي ص 669.

ذكرى جده كانت ما تزال في ذاكرة الشعب تحيي في نفوسهم ذكرى الاباء والأجداد الرافضين للذل والهوان الباذلين جهودهم لصالح هذا الوطن وهذا الشعب، إن نسبه المرتبط بجدِّه رائد الكفاح المسلح سهّل عليه اكتساب شعبية معتبرة وأمده بطاقة خلافة يشق بها طريقه الصعب، لقد هيأت الأقدار الأمير خالد لأن يكون له شأن، إنه ولد حفيداً للأمير عبد القادر ونشأ في وسط عائلي يطغى عليه احترام القيم والمثل العليا، وتذكره المأثورات العائلية بذلك المجد الخالد الذي سطره جده مع الخالدين من قادة هذا الشعب الأبي.

في ظل هذه الصورة الأميرية السامية التي تجر وراءها ذكريات حية راسخة عن مقاومة مجيدة باسلة ؛ والسمعة التي زادتها أسطورة الشرق تضخماً ؛ وجد الفتى خالد وعيناه تتقدان ذكاء وتتحرقان شوقاً إلى المعرفة ومزيد من الإصلاح لدى جده الأمير عبد القادر صاحب شخصية القائد الذي لا يكل ولا يمل والفيلسوف الورع الجذاب والشاعر المتميز والفارس المغوار.

لقد استلهم الأمير خالد بطولته من جده رائد المقاومة الجزائرية في العصر الحديث(1).

2. شجاعته:

كان عنيفاً في مواقفه عندما أهانه الهاشمي بن شنوف طالبه بالمبارزة، وعندما كان بالمغرب انقذ عمه من سجن سلطان المغرب مولاي حفيظ، متنكراً في هيئة حمّار، ومن القصص التي كانت تروى عن الأمير خالد أنه ركب القطار بزيّه العسكري وعليه إشارة نقيب وكان مغطى ببرنوس وعلى رأسه شاش، وكان في القمرة التي ركب فيها ملازم فرنسي مع زوجته التي معها كلب، وكانت كلما دخل عربي للقمرة تسخر منه وتصفه بالقذر، والأمير يستمع، وعندما وصلت سرعة القطار الثمانين انطلق الأمير نحو الكلب فرماه من نافذة القطار وهو يصيح: «بأي حق تصحبين معك هذا الحيوان القذر مع أناس نظاف؟! وسخط الزوج فوضع يده على

(1) المصادر فصلية تعنى بشؤون المقاومة الشعبية العدد الخامس عام 2001م ص 70 . 71.

مسدسه، ورفع الأمير جناح برنوسه فظهرت إشارة نقيب، فما كان من الملازم إلا أن أدى له التحية العسكرية وراح بعد ذلك الأمير يعطي للجميع درساً في أن الله خلق البشر سواسية لا فرق بين فرنسي وعربي، والعربي إنسان نظيف لأنه يغسل أطرافه في اليوم خمس مرات. وكان شجاعاً حصل على عدة أوسمة بطولة في الجيش. وارتبط بالعاصمة في الجزائر «بالشبان الجزائريين» الذي سعدوا به لمنزلته، فهو حفيد الأمير عبد القادر، وعبر عن سخطه على عدم تطبيق الإدارة لقرار البرلمان الذي يهدف إلى تعديل قانون الأهالي «الأنديجينا»[1].

3. نشاطه السياسي:

ظهرت وطنيته الفذة ونشاطه السياسي بعد الحرب العالمية الأولى وبقوة وبصفة ملموسة في بداية 1919م أي حين طالب زملاءه أن يقوموا بتشكيل وفد جزائري لحضور مؤتمر السلام الذي سينعقد بباريس وذلك مثل وفود الدول المستعمرة من قبل بريطانيا والتي ستحضر مؤتمر السلام بباريس. وبالفعل فقد تم تشكيل وفد جزائري يتكون من الأمير خالد وأربعة من زملائه وتوجه إلى باريس في شهر ماي من عام 1919م لتقديم مطالب الوفد الجزائري إلى المؤتمر. ونجح الأمير خالد في يوم 19 ماي 1919م في تسليم رسالة ممضاة من طرفه إلى الرئيس الأمريكي ويلسن بواسطة أحد المرافقين للرئيس الأمريكي وهو «جورج ب. نوبل» وتتضمن الرسالة مطالب الوفد الجزائري الذي كان متواجداً في باريس مع الأمير خالد.

وهذا الموقف هو الذي جعل المسؤولين الأوربيين في الجزائر يشعرون بالخوف من الأمير خالد، لأنه هو الذي حاول أن يبعث روح النضال والكفاح بأسلوب جديد ضد الاحتلال الفرنسي، وأن يقلد الوطنيين الهنود الذين جاؤوا إلى مؤتمر السلام للمطالبة باستقلال الهند ؛ بينما ذهب الأمير ليطالب هو الاخر باستقلال الجزائر[2].

(1) الجزائر في التاريخ ص 669.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 220.

4. توحيد صفوف المناضلين:

امتاز الأمير خالد بمحاولاته الرامية لتوحيد صفوف المناضلين الجزائريين، وتشجيعهم على خلق حزب جزائري موحد، وذلك قبل المشاركة في الانتخابات البلدية التي تجري في شهر نوفمبر 1919م. لكن والي الجزائر لوفيبور الذي كان متخوفاً من استراتيجية الأمير خالد المتمثلة في توحيد الوطنيين الجزائريين وحثهم على تكوين حزب إسلامي ؛ تدخل في الموضوع وتمكن من خلق التفرقة بين خالد وحركة «الشبان الجزائريين» من جهة وتشتيت بقية المثقفين من جهة أخرى.

فقد أثار والي الجزائر المسألة الواردة في قانون 6 فيفري 1919م والمتعلقة بارتباط الجنسية الفرنسية بالتخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وهنا انقسم أعضاء حركة «الشبان الجزائريين» حول هذا الموضوع، فالدكتور بن شامي والمحامي بوضربة والأستاذ صوالح «وهم يحملون الجنسية الفرنسية» تبنوا موقف والي الجزائر وهو أن تعطى الجنسية الفرنسية للجزائريين بعد التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وذلك على أمل أن يكونوا متساوين مع الأوروبيين، ويصير عدد المسلمين المتجنسين كبيراً، وبالتالي تكون لهم الأغلبية في المجلس المالي الجزائري، في حين تجد الأمير خالد والحاج موسى والمهندس قايد حمود مدير جريدة «الإقدام» يطالبون بحق الحصول على الجنسية الفرنسية لكن بدون التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، وبذلك يتحصلون على تأييد الجماهير التي ترفض التخلي عن الإسلام.

وبعد هذا الانقسام جاءت الانتخابات البلدية في شهر نوفمبر من عام 1919م، ونجحت قائمة الأمير خالد وزملائه الذين يرفضون التخلي عن الهوية العربية الإسلامية، فاغتاظ الدكتور بن شامي واعتبر حصوله على 332 صوتاً مقابل 925 صوتاً للأمير خالد بمثابة مؤامرة ضده، واتهم الأميرَ خالداً بأنه يتامر ضد السلطات الفرنسية وأنه يستعمل نفوذه الديني، وفي الحال ناداه رئيس مكتب والي الجزائر وطلب منه كتابة تقرير ضد الأمير خالد، واصطحبه معه إلى باريس لتقديم حججه إلى المسؤوليين الفرنسيين هناك.

وكانت النتيجة هي إلغاء الانتخابات البلدية التي فاز فيها الأمير خالد وزملاؤه في النضال وذلك من طرف مجلس ولاية الجزائر، وكان التبرير لهذا الإلغاء هو «التعصب الإسلامي».

وتكررت نفس الظاهرة في الانتخابات التي جرت في النصف الأول من عام 1920م «أفريل، جوان»، وتمكن الأمير خالد أن يلحق هزيمة ساحقة بمترشح مدعوم من طرف الإدارة الاستعمارية حيث نال الأمير خالد 7،000 صوت للحصول على مقعد في المجلس المالي الجزائري، بينما لم يحصل منافسه زروق محيي الدين سوى على 2500 صوت، واستطاع أيضاً أن يهزم الدكتور تامزالي بحصوله على 2500 مقابل 256 لخصمه ويحصل على مقعد في المجالس العامة.

واغتاظ الأوروبيون من النجاح الباهر الذي حققه خالد وزملاؤه وأتهموه بأنه زعيم ديني يقوم بتحريض المسلمين ضد الأوروبيين، وبدؤوا يبحثون عن الطريقة المثلى للتخلص من هذا المناضل الجزائري الذي أصبح يرفض الاندماج ويطالب بقيام اتحاد بين الجزائر وفرنسا، كما قامت الصحافة الأوروبية في الجزائر بشن حملة قوية على الأمير خالد، واعتبرته زعيماً للحركة المناهضة للسيادة الفرنسية في الجزائر(1).

5 . زيارته إلى تلمسان:

وفي سنة 1923م زار الأمير خالد تلمسان، وفي مدرسة الشبيبة التي كان مديرها الشيخ مرزوق استقبل استقبالاً رائعاً، حيث تقدمت فتاة اسمها أنيسة تيزاوي وألقت خطاباً ترحيبياً بالعربية الفصحى، فتأثر الأمير خالد لفصاحتها، ودمعت عيناه وأخذ من جيبه قطعة قيمتها 5 فرنك فرنسي .كان لها قيمة نقدية انذاك . وأكرم هذه الفتاة، فلما سئل: لماذا بكيت؟ قال: إن فرنسا زعمت أن اللغة العربية ماتت وقضي عليها، وأنا من هذا المكان بفضل الله وهذه الوجوه النيرة ؛ أتحدى فرنسا وأقول لها أن العربية موجودة وباقية إلى الأبد. ثم

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 222.

قام أطفال القسم وأنشدوا نشيداً من وضعه هو ولحّنوه، فتأثر بذلك اللّحن وأطرب به، وهذه بعض أبياته:

هيا بنا أهل الوطن	نحيي الفرائض والسنن
فالسعد في هذا الزمان	بالاجتهاد مع المـــنن
هيا بنا هيا بنا	نعلي ديار جدودنا
ونحامي عن أوطاننا	بالفعل والقول الحسن
هيا بنا زاد العنا	والجهل أصبح ديننا
والعلم ضاع فليتنا	متنا فقد ضاعت الفطن
سبل الهوى لا تسلكوا	ودينكم لا تتركوا
وعزكم فاستدركوا	ولا تبالوا بالمحن
رجاؤنا في عصركم	تكونوا مثل غيركم
بالمال تهدم الحبال	كذلك الجهل يهان
يا رب يا نعم اللطيف	أعد يقظة الشرع الحنيف
بالخير والفضل المنيف	أصلح لنا أهل الزمن(1)

6. روح جديدة:

بث الأمير خالد روحاً جديدة في الشعب، فانطلقت الصحافة الأهلية تركز على نقاط الظلم المسلطة على الجزائري الذي يعاني منه الإنسان البسيط والفلاح والعامل، فأجر العامل المسلم فرنك واحد مقابل 12 ساعة عمل ثم زيد فصار 5 فرنكات وتوقف. بينما قنطار القمح يساوي 250 فرنك وحتى هذا العمل بهذا الأجر الزهيد غير مضمون فالبطالة منتشرة بين المسلمين، والعاملون الأهالي العاطلون ليس لهم الحق في أي مساعدة، وهذا هو الذي يفسر انفجار المجاعات بين الاونة والأخرى «صحيفة الإقدام» 1921/12/2م.

(1) مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ، خالد مرزوق ص 42، 43.

كونت صحيفة الإقدام «اللجنة الجزائرية لنجدة الأهالي» فجمعت مبالغ هامة وزعتها على الفلاحين الذين عفتهم المجاعة في سنة 1921م، وأسس المعلم إبراهيم قندوز «لجنة الدفاع عن مسلمي الجزائر»، وفي سنة 1925م كلف الأمير خالد صديقه الفرنسي التقدمي سبيلمان بإحياء هذه اللجنة من جديد.

وفي يوم 1920/5/5م طرح خالد مع الحاج عمار في اجتماع المجلس العام اقتراحين، طالبا فيهما بتمثيل المسلمين في البرلمان الفرنسي بغرفتيه، وكما قال: مثل تمثيل زنوج غوادلوب والمارتينيك..

ونظراً لسيطرة الكولون على الإدارة في الجزائر فقد رأى الأمير خالد التوجه لفرنسا وتقديم المطالب إلى البرلمان الفرنسي، فسافر لباريس سنة 1920م، واتصل بشيوخ البرلمان دون أن يجد اذانا صاغية، شن عليه الموالون لفرنسا حملة وراحوا يهاجمونه وجماعته.

وفي 1922م ألقى الأمير خالد أمام رئيس الجمهورية الفرنسية خطاباً معتدلاً بعيداً عن الثورية، ذكّر فيه بوفاء المسلمين لدى مساهمتهم في حرب 1914م ـ 1918م ـ وبالعلاقات والروابط التي نسجت بين الجانبين الجزائري والفرنسي خلال قرن تقريباً من حياة مشتركة، وطالب بضرورة إعطاء المسلمين ممثلين لهم في البرلمان لكي يتمكنوا من عرض مشاكلهم والدفاع عن طموحاتهم، كان الخطاب معتدلاً ومتوازناً، وبالرغم من ذلك اعتبر معادياً لفرنسا، وراحت الصحافة الفرنسية تتحدث عن ظاهرة القومية العربية الخطيرة التي يقودها الأمير.

وقد سبق للأمير خالد أن حرر برنامجه الذي نشرته صحيفة الإقدام مختصراً كما يأتي:

ـ إلغاء كل القوانين الاستثنائية المسلطة على المسلمين وتطبيق القانون العام عليهم.

ـ تمثيلهم في غرفتي البرلمان.

ـ التعليم الإجباري للعربية والفرنسية.

. تأسيس جامعة عربية.

. إلغاء المناطق العسكرية والأحواز المختلطة.

. ربط مباشرة للولايات الجزائرية الثلاث بفرنسا.

. دخول المسلمين صفة المواطنة الفرنسية في إطار الأحوال الشخصية[1].

7 . مضايقة فرنسا للأمير ورحيله للمنفى:

في شهر سبتمبر 1922م جاءت الموجة المضادة أو العاصفة الهوجاء التي ستغير مجرى الأمور وتقضي على طموحات الأمير خالد، فبعد العطلة الصيفية قررت الإدارة الفرنسية في الجزائر أن تتخلص بصفة نهائية من نشاط الأمير خالد، وذلك في إطار اتفاق مسبق بين والي الجزائر لوفيبور وبين الحاكم العام ستيق. وكانت الضربة القاسية التي وجهها والي الجزائر إلى الأمير خالد هي الغش في الانتخابات وتحريض المتجنسين بالجنسية الفرنسية ضد الأمير خالد ونتج عن ذلك تشويه سمعته وهزمه عن طريق الغش والتحايل في انتخابات 1922م المتعلقة بتجديد نصف أعضاء المجالس العامة حيث لم يفز بها أي أحد من أنصاره.

كما تعالت في نفس الوقت أصوات النواب الأوروبيين في البرلمان الفرنسي الذين طالبوا بعدم دفع المستحقات المالية للأمير خالد بالرغم من خدماته الطويلة في الجيش الفرنسي، لأنه يعتبر في نظرهم المحرض رقم واحد لثورة المسلمين ضد الوجود الفرنسي في الجزائر، وتزامنت هذه الحملة مع حملة إعلامية موجهة من طرف الأوروبيين عن طريق الصحافة حيث اتهمته وسائل الإعلام بأنه مهرج وانفصالي ومحرض على الحرب الأهلية وعميل للحزب الشيوعي[2].

لقد تحالفت القوى الحكومية والقوى الاستعمارية والقوى التابعة للاستعمار ضد الحركة التي قادها الأمير

(1) الجزائر في التاريخ ص 672.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 224.

خالد ومعه جماهير الشعب التي رفعته إلى مقام الزعامة الحقيقية واستعدت للسير معه حيث يسير، واكتسحت تحت قيادته من أراد التعرض له في ميادين الانتخابات، فالاندفاع الشعبي الذي حصل في القطر الجزائري كان كبيراً وضخماً وملفتاً للنظر ومهدداً لوضع الاستعمار بالجزائر.

ونتيجة للمجهودات المكثفة التي بذلها المسؤولون الأوروبيون بالجزائر وباريس لتضييق الخناق حول خالدوأنصاره، فقد انفض من كان حوله من أولئك الذين كان يعتمد عليهم، وعاداه من كان قد والاه، ووجد الأمير خالد نفسه وحيداً أمام أمة منقادة طائعة، قصارى ما تستطيع عمله هو أنها توصله إلى كرسي النيابة، وأكد السيد توفيق المدني أنه أصبح من الصعب على الأمير خالد أن يواجه بمفرده قوة استعمارية رهيبة الت على نفسها أن تمحو اسمه من الوجود في الجزائر.

كما تأثر الأمير خالد كثيراً عندما شعر أن هناك رجالاً كونهم من العدم السياسي وأخرجهم لعالم الظهور، فانقلبوا ضده وتعاونوا مع أعدائه. وفي الوقت الذي قررت فيه السلطات الحكومية بالجزائر وباريس أن تستعمل جميع وسائلها الخاصة، وبدأت تجهز قواتها للقضاء عليه بصفة زاجرة، وتهيأئ عدتها لتنفيذ ذلك بعد أن مسكت بين أيديها زمام سائر النواب المسلمين وجعلتهم كتلة مع زملائهم الفرنسيين ضد خالد وجموع الأمة التي تدين له بالولاء، عندئذ تدخل في الموضوع عمر بوضربة من أعيان الجزائر، ومن أضداد خالد سياسياً منذ الساعة الأولى، ومن أصدقائه الشخصيين رغم ذلك ؛ فخابره في أمر التوسط بينه وبين الحكومة على أن يترك القطر الجزائري مختاراً، فتنتهي تلك الأزمة التي وصلت إلى أقصى حدود التحرج، وله أن يعود بعد ذلك عندما تهدأ الأعصاب وتنتهي حالة الهيجان[1].

وبالفعل فقد اضطر الأمير خالد إلى الانسحاب من الميدان السياسي في سنة 1923م، حيث أنه كان

(1) المصدر نفسه ص 225.

من المقرر أن يشارك في انتخابات 23 مارس 1923م، ويتنافس مع خصمه المعهود عبد النور تامزالي الذي تدعمه الإدارة الفرنسية بالجزائر، ولكنه قرر الانسحاب من الانتخابات والتنازل لخصمه عندما شعر بوجود مضايقات رهيبة ضده واستحالة نجاحه في الانتخابات.

وحسب بعض المؤرخين فإن الأمير خالد قد شعر في هذا الوقت: أن بقاءه في الجزائر عديم الجدوى، وأنه ربما استطاع أن يخدم أمته بالابتعاد عن الوطن أكثر مما يخدمها بمواصلة النضال تجاه قوة متحالفة ضده ولا قبل للأمة بمقاومتها، فقبل المفاوضات مع الحاكم العام ستيق على قاعدة الارتحال، وقام السيد بوضربة بهذه الوساطة، فتم الأمر على أن تدفع الحكومة للأمير خالد سائر ديونه، وأن توصله للقطر السوري حيث يقيم أعمامه وبنو عمومته، وإن جريدة ليمانيتي أكدت أن قرار نفي الأمير خالد قد تم إتخاذه في باريس من طرف ريموند بوانكاري رئيس الحكومة الفرنسية انذاك وقام بتنفيذه الحاكم العام للجزائر «ستيق» [(1)].

ويروي صديق الأمير خالد «بلغول»: استدعى الحاكم العام الأمير خالد، وأمره بأن يتوقف عن التشويش، وأن يختار بين تقاعد ذهبي أو عقاب شديد، وأراه طلباً موقعاً من وجهاء مسلمين يطالبون بسجنه، وكان جواب الأمير بأن طالبه بترتيب مواجهة بينه وبين الشعب وإعلامه بما جرى، عند ذاك أمر الحاكم بإيقافه، وحضرت الشرطة فرافقوه إلى منزله، وفي الليلة التالية سلك طريق المنفى، وعلمت الجماهير في ذهول بنفيه إلى الإسكندرية، ولاحقته الدولة المستعمرة حتى في الإسكندرية حيث حاكمته محكمة القنصلية الفرنسية هناك بتهمة اتصاله بالأمير عبد الكريم الخطابي، وزعمت أنه طلب منه العودة للجزائر لشن الحرب على الاستعمار، وحكمت عليه بخمسة أشهر سجناً.

واستأنف الحكم فبرأته محكمة «إكس» بفرنسا، ومن كتابات الصحافة الفرنسية عنه: بطل وطني للشعب العربي، في مستوى واحد، مع زغلول باشا زعيم الحزب العربي المعادي لفرنسا، المطالب باستقلال

---

(1) المصدر نفسه ص 226.

المسلمين بالجزائر، زعيم اعترفت له الجماهير بأنه زعيم الوطنية[1].

وبعد أن طرد الأمير خالد وتراجعت جماعته عن النضال، تعلق الشعب الجزائري بثورة عبد الكريم الخطابي ورأى فيها أمل الخلاص من المستعمر، فمن تقرير محافظ شرطة قسنطينة سنة 1925م نقرأ: سائر روح الأهالي متجهة نحو الغرب حيث ثورة عبد الكريم الخطابي، وانتشرت رسالة الأمير الخطابي التي وجهها لشعوب المغرب العربي يحثهم على الثورة، ولاحقت السلطة المستعمرة البعض واعتقلتهم بتهمة بث الدعاية عن ثورة الريف بين الأهالي ونشر رسالة الخطابي. وتأسست لجان بالجزائر تجمع المال له[2].

وخلاصة القول حول الأمير خالد أنه مثلما قال المؤرخ الكبير توفيق المدني أنه كان: صريحاً إلى أقصى درجات الصراحة، صلباً في الحق، ولا يلين ولا يعترف بوجوب المرونة السياسية، يحسن قيادة الجموع ولا يحسن قيادة الأفراد وكان ذلك من أهم أسباب فشله، كانت صرامته وصلابته سبباً في نجاح المستعمرين في تأليب عصبة من بني جلدته ضده.

وبالرغم من الضغوط التي تعرض إليها لكي يتخلى عن النضال السياسي، فقد حاول عدة مرات أن يجدد نشاطه السياسي ويدافع عن أفكاره التحريرية وخاصة في فرنسا وفي سوريا[3].

8. الأمير خالد في باريس ونفيه لسوريا:

ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة 1924م وانتصرت كتلة اليسار بزعامة يلوم وهيريو ؛ سمح للأمير خالد بالعودة لفرنسا حيث أسس لجنة من أبناء الشمال الأفريقي ضمت عدداً من العاملين، من بينهم السيد مصالي الحاج رئيس حزب الشعب الجزائري فيما بعد وعبد القادر بن الحاج علي وعبد العزيز المنور والسيد علي الحمامي من مراكش. ثم عاد إلى الإسكندرية ، وقد اشتد القتال بين الفرنسيين وبين بطل الريف الزعيم عبد

(1) الجزائر في التاريخ ص 673، 674.

(2) الجزائر في التاريخ ص 674.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 227.

الكريم في مراكش، فاتهم الفرنسيون الأمير خالداً سنة 1925م بالتآمر على فرنسا، وهجم البوليس الإنجليزي على منزله، وقد اعتبر هذا العمل مهيناً له فطلب القنصل الفرنسي للبراز، وعدّ السفير جايار بدوره عمل الأمير إهانة لفرنسا، فطالب باسمها حكومة مصر بإخراجه من بلادها، فأخرج مكبلاً بالحديد إلى سوريا حيث بقي إلى أن مات سنة 1936م.

وأما الدعوة التي نشرها الأمير خالد أثناء إقامته بفرنسا بين الجالية المراكشية والجزائرية فلم تضع بذهابه، بل استمرت في نشاط لا يمكن لمؤرخ الحركة في الشمال الأفريقي أن يتناساها سواء فيما يرجع إلى الجزائر أو مراكش، ومن أهم مظاهر هذا النشاط المؤتمر المغربي الذي انعقد لمعالجة شؤون الشمال الأفريقي السياسية والاقتصادية والنقابية في أواخر سنة 1924م. وكان من جملة مطالبه حرية الصحافة والقول والتجوال للدعاية من أجل القضية المغربية وإلغاء قانون الأنديجينا..الخ

وقد ختم أعماله ببعث برقية للشعب المراكشي في شمال المغرب الأقصى وزعيمه عبد الكريم، وأخرى للشعب المصري والتونسي. ومن المفيد إثبات نص البرقية الأولى:

إن العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية المجتمعين بمؤتمرهم الأول في هذا اليوم التاريخي 7 ديسمبر سنة 1924م يهنئون إخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد الكريم بانتصارهم على الاستعمار الإسباني، ويصرخون بتضامنهم معهم في كل ما من شأنه أن يحرر بلادهم، ويشاركونهم في الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار العالمي والاستعمار الفرنسي[1].

لقد انتقل ثقل حركة الأمير خالد الذي اعتبر بالفعل أبا الحركة الوطنية إلى العمال المغتربين في فرنسا.

(1) الحركات الاستقلالية في المغرب العربي ، علاّل الفاسي ص 13.

وعندما جاء الأمير خالد إلى فرنسا استقبل بحفاوة من المغتربين من شمال أفريقيا، واتصل بمصالي الحاج وعبد القادر بن الحاج علي، وألقى محاضرة يوم 1924/7/12م في قاعة المهندسين تحت رئاسة الأستاذ بهلول أثارت حماساً كبيراً لدى الجمهور، ونتيجة لنجاح المحاضرة رتبت له محاضرة ثانية يوم 7/19 في قاعة أكبر بالدائرة 13 ترأسها الشيوعي الملغاشي ستيفاني، وعلقت صحيفة «لومانيتي» عليها بقولها: لقد قام فيها محاكمة للاستعمار لم يحدث أن قدمها غيره من قبل[1].

9. وفاة الأمير خالد وما قيل فيه من رثاء:

الأمير خالد لم يكن سحابة صيف زائلة بل لبنة من لبنات هذا الوطن العزيز، سجل اسمه في سجل الخالدين وترك بصماته في مختلف مظاهر حياة الشعب الجزائري. وقد عاش الأمير خالد بالمنفى في دمشق إلى أن وافته المنية يوم 9 جانفي 1936م ودفن هناك. وعندما بلغ خبر وفاته إلى الجزائر قامت جمعية العلماء بنعيه واعتباره شهيداً، وصلى عليه 6 ملايين مسلم جزائري صلاة الغائب يوم العيد الكبير[2].

ورثا الشاعر محمد العيد ال خليفة الأمير خالد غداة وفاته بقصيدة رائعة جاء فيها:

ما أطول الموت باعاً — لم يخشَ حتى السباعا
سطا علينا بسوط — من القضاء فراعا
وأودع الترب نجما — منه اقتبسنا شعاعا
وصارماً هاشمياً — به هشمنا القلاعا
اليوم يا قلب فاهلك — تحسـراً والتيـــاعا
ابك الزعيم المفدى — ابك الأمير المطاعا
ابك الكريم المرجى — آبك الغيور الشجاعا

(1) الجزائر في التاريخ ص 675.
(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 228.

إلى أن يقول:

قل للجزائر أدي	حق الزعيم المضاعا
هلا اصطنعت جميلا	لدى الجميل اصطناعا
هلا ذكرت كفاحا	مضى له وصراعا
كم ذاد عنك وقاسى	فيك الأذى والنزاعا
وكيف ناب وثوقا	بصدقه واقتناعا
وكيف نادى فدانت	له الرؤوس اتباعا(1)

ثالثاً: أحمد مصالي الحاج:

يعد الزعيم الحاج أحمد مصالي من الشخصيات الجزائرية التي لعبت دوراً أساسياً في الحركة الوطنية الجزائرية، ومنذ بداية مساره السياسي والنضالي كان يتبنى مطالب الاستقلال والتحرر، هذين الاخرين كانا بمثابة انعكاس للوسط الاجتماعي والعائلي الذي نشأ فيه الزعيم الحاج أحمد مصالي من ناحية، وللوسط التعليمي الذي تلقاه من ناحية ثانية، ناهيك عن احتكاكه بالوسط العمالي والنقابي من ناحية ثالثة.

1 . نشأته العائلية والاجتماعية:

ولد الحاج أحمد مصالي في 2 محرم 1317هـ / الموافق 16 ماي 1898م بمدينة تلمسان التابعة انذاك لعمالة وهران.

وينتمي الحاج أحمد مصالي إلى عائلة عريقة وأصيلة في تلمسان هي من أصل كرغلي، أي من أب تركي وأم جزائرية وقد كان والداه فخورين بانتمائهم إلى هذه الأرستقراطية العسكرية المتمركزة في المدن، وقد عانت عائلة مصالي كثيراً من سياسات الاستعمار الفرنسي الذي وضع أقدامه في الجزائر في عام 1830م، ورغم هذا فقد كانت تتسم بمستوى عال من الأخلاق والتنظيم فضلاً عن سمات أخرى كانت تتصف بها العائلة الجزائرية انذاك، كالتضامن العائلي واحترام الاباء والشيوخ والكبار وهيمنة وطاعة السلطة الأبوية.

---

(1) المصادر فصلية تعنى بشؤون المقاومة الشعبية العدد الخامس صيف 1422هـ . 2001م ص 77.

لقد عاشت عائلة الحاج أحمد مصالي في ظروف تميزت بتجذر الاستيطان الفرنسي، وتدمير البنى التقليدية الجزائرية التحتية والفوقية وانتشار الفقر والأمية بسبب الضرائب المرتفعة المفروضة على السكان، وسيطرة المعمرين على الأراضي الخصبة فكان لكل هذا أثر على الحاج أحمد مصالي.

لقد كانت عائلته تقطن في بيت تمتلكه جدته بن كلفات في حي باب الجياد وهناك ترعرع الطفل الحاج أحمد مصالي مع أطفال الحي إلى غاية أن جُنّد في الجيش الفرنسي في عام 1918م في سن 20 سنة[1]، كان الطفل الحاج أحمد مصالي يحضر اللقاءات المسائية التي تجمع أفراد أسرته وأسرة ممشاوي وهما عائلتان متداخلتان، وكان ينصت ويسمع لكل ما يقوله العم عبد القادر ممشاوي مقدم الزاوية الدرقاوية عن الإسلام ومبادئه ومساوأئ الاستعمار، وما يحدث في المغرب الأقصى والإمبراطورية العثمانية، فكان يحظى بمكانة وسط أسرة مصالي الحاج، هذا الأخير وجد في «ممشاوي» النموذج والقدوة وكان الطفل الحاج أحمد مصالي يتذكر تردد عبد القادر ممشاوي ويكثر الكلمات عن الله وسيدنا محمد (ص) والإسلام ومكة والشام وكلمات المرابطين[2].

عاش الحاج أحمد مصالي فرض التجنيد العسكري الإجباري في عام 1908م، الذي أصبح حديث كل سكان تلمسان خاصة والجزائر ككل عامة، فرفضت العائلات تجنيد أولادها في الجيش الفرنسي، وذهب بعضهم إلى حد اعتبار ذلك مخالفاً للإسلام، وهناك من هاجر إلى المشرق العربي.

وقد كان لقرار التجنيد العسكري الإجباري نتائج وخيمة وكبيرة على الجزائريين فأدت إلى:

---

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني عند كل من مصالي الحاج وفرحات عباس ، د. يوسف حميطوش ص 47 . 53.

(2) المصدر نفسه ص 53.

ـ إقتلاع الجماهير من وسطهم الطبيعي ومن ثمّ خضوعهم التقليدي لمختلف أشكال الهيمنة.

ـ الاتصال المباشر بين النظام الاستعماري والسكان الجزائريين، وهو اتصال مؤسساتي اقتصادي ثقافي لساني ولغوي.

ـ إلى خلق ديناميكية اجتماعية جديدة لدى الجماهير وترقيتهم باكتسابهم لمعارف جديدة، معرفة واكتساب الخبرة العسكرية(1).

ونتيجة لهذا الإجراء الفرنسي جُند الحاج أحمد مصالي في الجيش الفرنسي على غرار الشباب الجزائري انذاك، فتوجه إلى مدينة بوردو بفرنسا، وبقى فيها مدة ثلاثة سنوات تمكن من خلالها من ملاحظة اللامساواة واللاعدل بين ما كان يعيشه الجزائري المسلم في ريف تلمسان من فقر وأمية واستغلال، وريف بوردو حيث يعيش المواطن الفرنسي في رخاء وسعادة، كما تمكن من ملاحظة المعاملة الحسنة والاحترام التي يحظون بهما في فرنسا مقارنة بالمعمرين في الجزائر، فكانوا يحظون بتقدير هام.

وتمكن الحاج أحمد مصالي أثناء الخدمة من استخدام السلاح من ناحية، والتعرف على جزائريين اخرين من مختلف مدن وأرياف الجزائر، فتبادل معهم الأفكار وخلق علاقات صداقة من ناحية ثانية، ومن مختلف المدن الفرنسية من ناحية ثالثة، وهذا ما ساعده فيما بعد على الانخراط في تأسيس وتنظيم حزب نجم شمال إفريقيا، واستطاع أن يوظف عامل الهجرة في النضال السياسي وفي توعية المهاجرين بالقضية الجزائرية(2).

2 ـ هجرته واستقراره في فرنسا:

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رجع الحاج أحمد مصالي إلى الجزائر، وكان يبحث عن إحداث التغيير ؛ فغالبية الشعب في فقر مدقع، وجهل مطبق، وأمام الوضع المزري الذي كانت تعيشه الجزائر والذي تجلى في

(1) المصدر نفسه ص 56.

(2) المصدر نفسه ص 57.

استلاب الأراضي من ملاكها الشرعيين ومنحها للأوربيين، وغياب الحريات، وتطبيق قانون الإنديجينا، واستغلال العمال، وتزايد النمو الديمغرافي، وبروز الأزمة الاقتصادية الناتجة عن الحرب العالمية الأولى، وضعف المحاصيل الزراعية بسبب الجفاف في فترتي 1920م ـ 1921م و1922م ـ 1923م، والتي أدت إلى ظهور المجاعة وانخفاض في انتاج القمح بـ 60% في ظرف سنتين، وارتفاع مستوى المعيشة والذي مس حتى الأجراء، فضلاً عن اقتصاد الجزائر الذي ظل طيلة فترة الاحتلال الفرنسي اقتصاداً استعمارياً يخدم مصالح الأقلية من المعمرين ؛ أمام هذا الوضع قرر الحاج أحمد مصالي الهجرة إلى فرنسا في أكتوبر 1923م، حيث كان سنه حينها لا يتجاوز 25 سنة، وهنا بدأت مرحلة جديدة وهامة في حياته النضالية[1].

إن هجرة الحاج أحمد مصالي بصفة خاصة والسكان الجزائريين عامة بفعل هذه العوامل الاقتصادية والاجتماعية ؛ قد أدى إلى اختلال في التوازن السكاني بين السكان الجزائريين والأوروبيين، وقد كانت المناطق الأشد فقراً هي الأكثر تقديراً للمهاجرين كمنطقة القبائل وتلمسان، وقد كانت هاتين المنطقتين بمثابة المراكز التقليدية للهجرة، فضلاً عن أن الهجرة والنزوح إلى المدن لم يعوضا بإنشاء وظائف جديدة، ولا بإعادة تولي الوظائف الشاغرة ؛ أدى إلى الاقتلاع[2].

كانت هجرة الحاج أحمد مصالي مناسبة هامة التقى فيها بالكثير من أبناء وطنه المغتربين، وأطّلع على أحوالهم وبالخصوص أحوال العمال المهاجرين، التي لم تكن أقلّ سوءاً من أوضاع إخوانهم في الجزائر، واشتغل في بعض المصانع الباريسية وفي التجارة. وعُرف بكثرة احتجاجه ومطالباته لأصحاب المعامل الفرنسيين بضرورة تحسين ظروف العمال ومنحهم الحقوق والأجور التي تناسب أعمالهم والتي يقرّها القانون الفرنسي، وهذا ما

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) المصدر نفسه ص 59.

جعله يشتهر في صفوف العمال كزعيم شبه نقابي، وكان أصحاب المعامل يسمونه بالمشوش لتأثيره على العمال المهاجرين من الجزائريين وغيرهم من أبناء الدول العربية والإفريقية، وهناك تأثرَ بالحركات العمالية والنشاطات النقابية، وبدأت تراوده الأسئلة والأفكار: لماذا لا يقوم بتأسيس حركة أو حزب للمطالبة بحقوق الجزائريين وتحسين ظروفهم؟ ولماذا لا يتنظم الجزائريون في نقابات تعمل على افتكاك حقوقهم من السلطات الفرنسية ومن المستوطنين؟

وفي فرنسا أيقن مصالي الحاج بأنه من الواجب اغتنام فرصة تواجده بها ليتعلم ويحسن من مستواه العلمي، الذي كان لا يزال متواضعاً حين وصلها، وحرص على تكثيف حضور الدروس في مدرسة اللغات الشرقية، كما كان يواظب على حضور محاضرات كانت تُقام في جامعة السوربون، وخاصة في مجال العلوم الإنسانية التي كان ولعُه بها شديداً، والتي أسهمت في صقل أفكاره وتوجيه شخصيته إلى القيم الإنسانية العالية، وقد التقى في فرنسا ببعض الوجوه الأدبية والفكرية العربية كالأمير شكيب أرسلان والروائي الجزائري محمد ديب والزعيم الهندي نهرو.

وكان لهذه العلاقات الأثر الكبير في الاستفادة من تنوع توجهات هذه الشخصيات في الفكر والثقافة والاحتكاك بهم، ليصبح واحداً من المثقفين الجزائريين الذين يحملون الهمّ الجزائري في وجدانهم قبل تفكيرهم، واستفاد من خبرات الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يملك ثقافة عالية وقدرة على المرافعة، المطالبة بالحقوق وأسلوباً فريداً في إقناع الجماهير، وكانت أقدار الله قد وضعته في فترة تكوين وإعداد ليتهيأ للمرحلة القادمة التي سيباشر فيها العمل السياسي، وسيصبح واحداً من أشهر وأقوى رجال الحركة الوطنية بالجزائر، وأكثرهم نفوذاً وشعبية وشخصية فريدة، أثارت الخلاف وتباينت النظرة إليها.

تزوج مصالي واحدة من الفرنسيات المنضويات في الحزب الشيوعي الفرنسي، كما أنه استفاد منها كثيراً في مجال إدارة الحزب والتسيير واليات وطرق التواصل والقيادة والتنظيم، وكانت بالفعل رحلته إلى فرنسا مناسبة

هامة وخطوة أهم في حياته ؛ حددت له مصيره ووضعت رجليه على بداية الطريق في مجال النضال والسياسة ومقاومة الاحتلال.

كما أنه أثناء تواجده في فرنسا في هذه المرحلة من حياته بدأ الحس الوطني يتضاعف ويقوى في نفسه، فكان يرى أنه من الواجب أن ينشط ضمن حزب نجم شمال إفريقيا، هذا الحزب الثائر الذي كان يستجيب لمطامحه وااماله وتوجهاته والذي الت رئاسته وقيادته في الأخير إليه[1].

وعلى الرغم من بقائه في ديار الغربة إلى غاية وفاته في فرنسا في 4 جوان 1974م ومواكبته للحضارة الغربية ؛ فإنه بقي متمسكاً بتعاليم الإسلام قولاً وعملاً.

وخلاصة القول أن حياته حافلة وغنية بالمواقف الشجاعة والاراء الجريئة التي ساهمت في تحقيق الاستقلال والمطالبة بالسيادة الوطنية[2].

3. حزب نجم شمال إفريقيا:

شارك الحاج أحمد مصالي مع سي الجيلاني وبقيادة الحاج علي عبد القادر في تأسيس نجم شمال إفريقيا في 20 جوان 1926م بمركز الجمعية في حر نهج مارشي دي باطرباك، وعين الأمير خالد الجزائري رئيساً شرفياً له والحاج علي عبد القادر كرئيس للحزب، والحاج أحمد مصالي أميناً عاماً، ثم أسندت له رئاسة الحزب فيما بعد في 1927م ليصبح في فترة وجيزة ناشطاً فعالاً، وانطلاقاً من سن الثامنة والعشرين أصبح قدوة لكل المغرب العربي لعبقريته السياسية وقدرته التنظيمية.

وللإشارة بحسب المناضل بانون أكلي ؛ فإن الحاج أحمد مصالي كان عضواً مشاركاً في إنشاء نجم شمال إفريقيا وحضر في اللجنة الفرعية لشمال إفريقيا التي ساهمت في خلق النجم.

---

(1) بناة المجد، أحمد مصالي الحاج ص 34.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني عند كل من مصالي الحاج وفرحات عباس ، د. يوسف حميطوش ص ...

وقد تأسس هذا الحزب على أنقاض جمعية الأخوة الإسلامية التي تعتبر بمثابة النواة الأولى لتأسيس النجم وهي جمعية دينية، لقد كان النجم وليد ظروف معينة في الجزائر، كنفي الأمير خالد، وثورة الأمير الخطابي في الخارج، فضلاً عن التطور الإيديولوجي العالمي كتقرير المصير وظهور الشيوعية، وقد عبر الحزب عن مواقفه في ظل السياق السياسي الفرنسي، خاصة وأن الحرب العالمية الأولى دفعت بفرنسا كقوة رأسمالية واستعمارية إلى الدخول في مجموعة من التناقضات، وكذا التعبير عن الوضع الاجتماعي الإنساني للمهاجرين. ولم يتبين النجم في البداية البعد الوطني ـ الإسلامي، ولكن الحاج أحمد مصالي والاخرين عدلوا من خط الحزب، فأضافوا إليه البعد الإسلامي[1].

لقد لعب النجم دوراً كبيراً وأساسياً في توعية العمال المهاجرين الجزائريين بحقوقهم والمطالبة بالاستقلال، ويعدّ النجم حركة وطنية ذات اتجاه ثوري، يضم العمال المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين، الذين واجهوا حياة صعبة مزدوجة، فمن جهة أخرى يعانون من التهميش والإقصاء بفرنسا، ونشأته وتطوره هو نتيجة لمسار التنشئة السياسية التي تمت في وسط التنظيمات النقابية اليسارية.

لقد شارك الحاج أحمد مصالي في المؤتمر المناهض للإمبريالية في عام 1927م، وعبر خلالها صراحة عن مجموعة من المطالب كتلك المتعلقة بالاستقلال، والتي أصبحت تشكل فيما بعد قاعدة النضال من أجل التحرير الوطني، وبدأ الحاج أحمد مصالي يتبنى موقفاً بعيداً منفصلاً عن الحزب الشيوعي الفرنسي، إلا أن القطيعة لم تتجسد إلا في 1933م مع تشكيل نجم شمال إفريقيا المجيد، فتطرق في قانونه لمنع الانتماء المزدوج مع الحزب الشيوعي الفرنسي، كما رفض فكرة عقدة التفوق والاتجاهات المهيمنة والقيادية لزملائه الشيوعيين الفرنسيين[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 78.

(2) المصدر نفسه ص 79.

وبعد ثلاث سنوات من النشاط تعرض شمال إفريقيا للحل في أفريل 1929م، وهذا بالموازاة مع الاستعداد للاحتفال بمائة سنة من احتلال الجزائر، خاصة وأن نجم شمال إفريقيا أكد على المطلب الثوري الجذري المتعلق بالاستقلال التام للجزائريين، دون أن يجد مساندة من الحزب الشيوعي الفرنسي، وخاصة أن هذا قد تم في وقت لم يكن فيه نجم شمال إفريقيا قد تجذر في فرنسا، فانجرّ عن هذا دخول الحاج أحمد مصالي وزملائه في صراع حضاري مع الحزب الشيوعي الفرنسي. ورغم حل نجم شمال إفريقيا، فقد عمل الحاج أحمد مصالي وزملاؤه كراجف بلقاسم وعيماش عمار ويحياوي على الإبقاء عليه، وعمل على إعادة بعثه في عام 1933م بالمصادقة على البرنامج السياسي الجديد[1].

وكان البرنامج السياسي المعلن يشمل مجموعة من الأهداف والمطالب وهي:

. مطالبة فرنسا بالاعتراف بالحريات الأساسية.

. إلغاء نظام البلديات المختلفة والأراضي العسكرية.

. الاعتراف بحق الجزائريين في الحصول على جميع الوظائف.

. التعليم الإجباري باللغة.

. إلغاء القوانين الجائرة.

. إنشاء برلمان وطني عن طريق الاقتراع العام.

. إنشاء حكومة وطنية ثورية مستقلة بالجزائر تقوم بتشكيل برلمان انتقالي.

. إعادة البنوك والمناجم والسكك الحديدية والأملاك العامة إلى الدولة الجزائرية.

. مصادرة الأملاك الكبيرة الحجم.

(1) المصدر نفسه ص 80.

. مجانية وإجبارية التعليم في جميع المستويات واعتماد اللغة العربية كلغة للتدريس.

. اعتراف الدولة الجزائرية بحق الإعراب والعمل النقابي وسن القوانين الاجتماعية.

. مساعدة الفلاحين بتقديم قروض للفلاحين بدون فوائد(1).

وكان من العوامل التي زادت من شعبية الحزب وانتشاره تركيز مصالي الحاج على موضوع الهوية العربية الإسلامية للشعب الجزائري، وكذا المطالبة بردّ الاعتبار للإنسان الجزائري، الذي كان يُنظر إليه على أنه هو وغيره من العرب لا يرقون إلى مستوى الإنسان الفرنسي والأوروبي المتحضر، وكان الرجل شديداً في ردّ هذه المزاعم واستنكارها، لما تلحقه من مشاعر الغضب والحنق لدى الجزائريين، ولا يمكننا أن ننسى ردّه على الفرنسيين بخصوص الموضوع حين قال: لا يمكن مقارنتنا بالسينغاليين، إننا أناس نبلاء، خلقنا من جنس نبيل، وبفضل الإسلام استطاع شعب شمال إفريقيا أن يتخلص من مصائب المبشرين، وقضى على محاولاتهم الرامية للإدماج(2).

ورغم محاولات السلطات إيقاف الحزب ومنعه من النشاط ؛ إلا أن قرار المحكمة الصادر في 1934/7/4م القاضي بإبطال شرعية القرار القاضي بحل الحزب، وبالتالي صار أكثر شرعية وتمّ له الاعتراف. وأمام نشاط الحزب الذي استشعرت فرنسا أنه أضحى يشكل خطراً وتهديداً لمصالحها ؛ عمدت كعادتها إلى أسلوب القمع والتضييق والاضطهاد، فاعتقلت قائده مصالي الحاج وراجف بلقاسم وعيمش عمار يوم 1934/11/1م، الذين حكم عليهم بعد أربعة أيام بالسجن مدة ستة أشهر مع تسديد مبلغ كبير «6000 فرنك فرنسي عن الجماعة» بتهمة الإضرار والإساءة وتهديد الأمن.

وارتبط النشيد الوطني الجزائري الذي كانت تغنيه الجماهير ومناضلو حزب نجم شمال إفريقيا باسم شاعر

(1) بناة المجد، أحمد مصالي ص 36 ، جيلاني ضيف.

(2) المصدر نفسه ص 37.

الثورة الكبير مفدي زكريا الشاعر العظيم الذي كان من مناضلي هذا الحزب، وقد صدر هذا النشيد في 1936/11/16م ومما جاء فيه:

فداء الجزائر روحي ومالي ألا في سبيل الحرية
فليحيا حزب الاستقلال نجم شمال إفريقية
وليحيا زعيم الشعب مصالي مثال الفداء والوطنية
ولتحيا الجزائر مثل الهلال ولتحيا فيها العربية
سلامًا أرض الجـــدود سلاماً مهد معالـينا
فأنت في الكون دار الخلود غرامك صار لنا دينا
فإنا حولك مثل الجنود لسان هواك يناجينا
سنرعى حقك مثل الأسود ولو قبضوا بتراقينا
سرى بالروح دم الفاتحين فأذكى فيها معاني الفدا
نخوض مع الخائضين ولا نرتد ولو بالردى
ونعلي الصرخة في الصارخين ولا نرتد ولو بالردّى
ونعلي الصرخة في الصارخين ننادي العزّ والسؤددا
فلسنا نرضى مع العالمين حياة نبقى بها أعبدا
فلسنا نرضى الامتزاجا ولسنا نرضى التجنيسا
ولسنا نرضى الاندماجا ولا نرتد فرنسيـــسا
رضينا بالإسلام تاجا كفى بالجهل تدنيسا
فكل من يبقى اعوجاجا رجمناه كـــإبليـــسا

وقد كرّس هذا النشيد الذي انتشر واشتهر وحفظه الصغار والكبار في كل مكان معبراً عن أهداف وبرنامج الحزب الذي كان يريد الاستقلال لهذا الشعب ويرفض أي محاولة من شأنها العبث بهويته وانتمائه العربي الإسلامي[1].

(1) المصدر نفسه ص 38.

وقد حلت السلطات الفرنسية في فيفري 1935م نجم شمال إفريقيا المجيد، وهذا في ظل مجموعة من الأحداث المتمثلة في منع الخطب الدينية الإصلاحية في 4 جويلية 1933م، وكذا أحداث قسنطينة في 1934م بين المسلمين واليهود. وخلال هذه الفترة أقام الحاج أحمد مصالي اتصالات وعلاقات مع الطلبة الجزائريين حيث بدأ التفاعل مع المثقفين.

ورغم هذا فقد استأنف قياديو النجم بقيادة الحاج أحمد مصالي نشاطهم السياسي بإنشاء الاتحاد الوطني لمسلمي شمال أفريقيا، وقد تعرض الحاج أحمد مصالي وزملاؤه للتوقيف إلا أن النجم استمر في ممارسة نشاطاته، ولم ينعكس هذا على التضامن القائم بين العمال الفرنسيين والجزائريين.

وبعد إطلاق سراح الحاج أحمد مصالي، عاد نجم شمال إفريقيا إلى النشاط وبصفة رسمية وقانونية في فيفري 1936م إلا أنه لم يدم طويلاً، حيث حل نهائياً في 25 جانفي 1937م من قبل الجبهة الشعبية، وبضغط من الحزب الشيوعي الفرنسي الذي فقد كل رقابة على نجم شمال إفريقيا، وكذا بسبب رفض نجم شمال إفريقيا إرسال متطوعين إلى اسبانيا ضد فرانكو في صراعه مع الجمهوريين أثناء الحرب الأهلية، وقد أدى هذا إلى تبني الحاج أحمد مصالي وزملاؤه لمواقف أكثر ثورية، هذا بالرغم من أن الحاج أحمد مصالي من خلال نجم شمال إفريقيا ساند الجبهة الشعبية. ورغم إطلاق سراح الحاج أحمد مصالي إلا أنه تعرض للعديد من المضايقات والمحاكمات القضائية مع زملائه، مما جعله يفر إلى سويسرا، حيث ألتقى بأمير البيان شكيب أرسلان للمرة الثانية، بعد أن ألتقى به في المؤتمر الأوروبي الإسلامي في 1934م فكان في النضال معه يومياً وشجعه على المقاومة.

وقد ساعد شكيب أرسلان الحاج أحمد مصالي على الخروج نهائياً من الفلك الشيوعي العمالي إلى الفلك العربي الإسلامي، وإن كان الزعيم الحاج أحمد مصالي قد تشبع بقيم الإسلام والعروبة منذ طفولته وشبابه في الجزائر من خلال الطريقة الصوفية الدرقاوية، فشكيب أرسلان كان يهدف أكثر لربط المغرب العربي بالمشرق العربي ، وفي هذا فقد تجاوز شكيب أرسلان اتصالاته مع الوطنيين على المستوى المغاربي ، واعتبر أن الجزائر

وتونس والمغرب الأقصى هي أجزاء من العالم الإسلامي، تربطهم وحدة الدين واللغة والثقافة، وقد تفطن شكيب أرسلان منذ زمن بعيد لأهمية أفريقيا في رقعة الشطرنج العالمي[1].

لهذا كثف شكيب أرسلان من اهتماماته بالمنطقة التي تحظى بأهمية كبرى لدى الدول الغربية فرنسا وإيطاليا وإسبانيا والولايات المتحدة الأميركية، خاصة الجزائر باعتبارها دولة محورية لها تأثير على الدول الأوروبية المطلة على البحر الأبيض المتوسط وعلى دول المشرق الغربي والدول الأفريقية، وقد كانت الدول المغاربية سابقاً وحالياً محل تنافس بين القوى الدولية العظمى، ومع انعقاد المؤتمر الإسلامي ؛ ألقى خطاباً أمام الجماهير الجزائرية جعله يكتسب المشروعية السياسية، ويخرج نجم شمال إفريقيا من السرية إلى العلانية، لهذا عمل مع زملائه على البحث على تغطية شرعية مناسبة لاستمرار نشاطهم الحزبي، فأسس جمعية أحباب الأمة واستمر نشاطها حتى تأسيس حزب الشعب الجزائري P.P.A.

وللإشارة، فقد عارض الحاج أحمد مصالي بقوة مشروع بلوم فيوليت الاندماجي، مما جعل نائب كاتب الدولة للشؤون الداخلية الفرنسية في عام 1936م يعتبره من أكبر المغامرين والمخاطرين[2].

تميز الحاج أحمد مصالي بخطاباته الثورية للشعب الجزائري، وكان يستشعر في هذه الفترة المسؤولية العظيمة التي تولاها في مجال الذود عن قضية شعبه ووطنه، وقد كشف في النداء الذي وجهه إلى الأمة الجزائرية في الثاني عشر من شهر نوفمبر سنة 1936م عن همومه وانشغالاته والمسؤوليات الملقاة على عاتقه، كما لم يخف المكانة التي أولاها إياه هذا الشعب فقال:

أيها الشعب الجزائري:

سلام عليكم من ابن أقسم بالله أن يضحي في سبيل حريّتك وسعادتك حتى آخر قطرة من دمه وآخر

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 82.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 82.

رمق من حياته {وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ *} [الواقعة : 76].

سلام عليك يا شعب يوم ولدت حرّاً عزيزاً ويوم نشأت حرّاً شريفاً، ويوم تصبح بإذن الله حرّاً طليقاً، ترفرف على هضاب المجد أعلامك، وتتناول نجوم السماء أحلامك، وينتصر لك في العالمين إيمانك وإسلامك.

بفضل تضحيات أبنائك البررة المفتولي السواعد المفعمين قوة وفتوة ووطنية وإيماناً، الواثقين بقول رب العالمين {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *} [العنكبوت : 69].

أيها الشعب الجزائري الكريم:

إنني أشكر لك عظيم احتفائك بي، وجليل تقديرك لهذا الابن الضعيف والتفافك حوله وحسن إقبالك عليه، وإن هذا الإقبال المدهش الذي لقيتني له الأمة أنىّ حللت وهذه الإحساسات الشريفة التي كانت تغمرني أنّى نزلت ما كانت إلا برهاناً صحيحاً على أن هذه الأمة المباركة أدركت واجبها في الحياة وأصبحت تميز بين من يريد لها الخير والحياة وبين من يريد لها الفناء والاضمحلال.

على أن هذا الإكبار وهذا التقدير ليس لشخصي الضعيف الفاني، وإنما هو لهذا المبدأ السامي الشريف، وتلك الأمانة الوطنية المقدسة، التي أخذنا عهداً أمام الله والملائكة والناس أجمعين ؛ أن نصونها من يد العابثين في تحقيقها ولو قطعوا منا الوتين، وبلغت الروح التراقي وانقطع آخر رمق من حياتنا والتي وهبناها راضين مطمئنين حبساً ووقفاً لهذا الوطن العزيز المفدّى، وإن وطناً يشعر هذا التعلق بالمخلصين من رجاله لهو شعب حيٌّ يجب أن يتبوأ مقامه فوق الشمس المشرقة رافع الرأس شامخ الأنف موفور الكرامة، فحيّاك الله أيها الشعب وبيّاك[1].

(1) بناة المجد، أحمد مصالي الحاج، الجيلاني ضيف ص 43.

4 . حزب الشعب:

في 11 مارس 1937م أسس الحاج أحمد مصالي حزب الشعب الجزائري في باريس، فأعطى للحزب صبغة الشرعية وجعل منه وسيلة لتحقيق هدف رفع الجزائر إلى مرتبة الأمم الأخرى التي تتمتع بكل الحقوق، ثم نقل الحزب من فرنسا إلى الجزائر في نوفمبر 1938م، إلا أنه حل في 26 سبتمبر 1939م بسبب مواقفه الوطنية الثابتة المطالبة بالاستقلال.

وما يميز حزب الشعب الجزائري هو طابعه الجزائري البحت، حيث ركز في مطالبه على استقلال الجزائر، وهذا بعد أن كان نجم شمال إفريقيا في برنامج 1927م يطالب باستقلال شمال إفريقيا، ويعود هذا أساساً لانتقال حزب الشعب الجزائري من باريس إلى الجزائر وإلى إعادة تشكيل الحزب الدستوري من جديد فضلاً عن بروز النشاط الحزبي المغربي في 1934م، مما جعل الحاج أحمد مصالي يعطي لحزب الشعب الجزائري طابعاً جزائرياً بحتاً.

للإشارة، فإنه لم يشر مباشرة لمطلب الاستقلال كما هو الحال مع نجم شمال إفريقيا بل تبنى شعار: لا اندماج، لا انفصال، ولكن تحرر. للعلم فقد حكم على الحاج أحمد مصالي في نهاية 1937م بسنتين سجن من قبل محكمة الجزائر، بسبب إعادة تشكيل حزب منحل، كما أنه أثناء الحرب العالمية الثانية رفض التعاون مع حكومة فيشي، وتعرض على إثر ذلك للمقاضاة وحكم عليه بستة عشر سنة أعمالاً شاقة ومنع من الإقامة في الجزائر، وإلى مصادرة أملاكه، وحرمانه من حقوقه المدنية بتهمة المظاهرة ضد سيادة الدولة الفرنسية والمس بأمنها، ولهذا نقل إلى سجن لامبيز لتنفيذ العقوبة عليه، وأبقي به لغاية أفريل 1943م بعد إنزال الحلفاء، حيث أطلق سراحه على غرار الشيوعيين والمقاومين الفرنسيين.

ولكن رغم هذا وضع من جديد تحت الإقامة الجبرية حتى ديسمبر 1943م، ثم نقل إلى عين صالح، ثم إلى الجزائر العاصمة، وأخيراً إلى إفريقيا الإستوائية، حيث عانى من صعوبة المناخ، ولما أطلق سراحه أعاد التأكيد

في 14 جانفي 1944م على مطالب برنامج حزب الشعب المنحل، وانتقد الاستعمار الفرنسي الذي استمر في استبعاد 8 ملايين من الحكم لصالح أقلية من المعمرين وفي التمييز[1].

لقد دافع الحاج أحمد مصالي في ندائه الذي وجهه عن حزبه عن ثبات الحزب واستمراره في الوفاء للمبادئ التي رفعها كشعار وهدف من تأسيسه، وأنه لم يضعف أو يستكين أمام الممارسات التعسفية والضغوط التي واجهته من قبل السلطات الفرنسية، لأنه مؤمن بعظم الرسالة التي يحملها قادته ومناضلوه، وغير مستعد للتفريط في الالتزامات والحقوق الملقاة على عاتقهم، فيقول: وقد برهن لك في تاريخ جهاده خمس عشرة سنة في سبيل إسعاد هذا الوطن، وما لقيه فيها من ضروب التنكيل والتعذيب والتشريد والاضطهاد في أعماق السجون وغياهب السيلونات ؛ أنه حزب يعمل لغاية شريفة ويجب أن ينالها، طوعاً أو كرهاً، قصُر المدى أو طال، وأنه هو هو بالأمس أيام العسف والجور الفاشيتي الغاشم، كما هو هو اليوم في عصر الواجهة الشعبية الباسم، وأن مطالبه هي هي لم تتغيّر ولم تتبدّل، وأن رجاله هم هم لم ينسلخوا ولم يتجنسّوا ولم يندمجوا ولم يتفرّقوا، وسيبقون كذلك مادامت الأرض أرضاً والسماء سماء، ومادام الشرفُ يسمى شرفاً والوطنية تُسمى وطنية والاية صارخة: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ *إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ *} [النمل : 127. 128].

{وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ *} [الحج : 40].

أيها الشعب الجزائري:

إن مبادئ حزبك الوطني الذي أسس على الملية من أول يوم هي السعي لتحريرك بالطرق المشروعة، في دائرة إسلامك وجنسيتك الغالية المتألقة في بطون الأجيال، والدفاع عن كرامتك والذود عن حماك في محيط ذاتيتك الشريفة المقدسة، تلك هي مبادئنا التي فطرنا عليها ونشأنا عليها وقدّمناها للحكومة في كرّاس يوم 23

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 84.

جوان 1936م بواسطة وفد من رجالنا، وعليها نبقى وعليها نحيا وعليها نموت إن وجبت الحياة.

نحن نريد أن تكون لغتك العربية لغة رسمية بالبلاد، نريد أن تكون مساجدك وأوقافك بيدك، تتصرف فيها بحسب القرآن العظيم، ونطلب لك برلماناً جزائرياً يضمن لك ذاتيتك وحقوقك أمام الأغلبية الساحقة من المستعمرين.

ولا نريد إذلالك على يد أقلية ضئيلة في البرلمان الفرنسي لا تنجرّ ضمائرهم من عبث العابثين.

ولا نطلب إلحاقك بفرنسا لتكون فرنسوياً عزيزاً كما يقولون {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} [الكهف : 5].

{إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ *} [المدثر : 35].

يا الله للجزائريين

الاندماج أو الإلحاق أو الارتباط أو الامتزاج أو الاقتران أو الموت والفناء أو الاضمحلال... مترادفات معناها واحد، يلُوكها قوم ولا يعرفون معناها ويفتخرون بطلبها في عهد الواجهة الشعبية، ولا يدركون مقدار ما تحويه من الخزي والعار ومن المضحكات المبكيات في زمن واحد

وكم بالجزائر من مضحكات ولكنّه ضحك كالبكاء[1]

يا للعار ويا للفضيحة، الاندماج الإلحاق ما أقطعها من كلمة {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ *} [الأنعام : 15]. {يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *} [النور : 17].

إن شعباً يطلب الاندماج في شعب آخر لهو شعب قطع الصلة بينه وبين تاريخه وأجداده، وبينه وبين أبنائه من بعده. ونحن الجزائريين لنا تاريخ ماجد ولغة شريفة وذاتية مقدسة وضمير حيّ، وهذه كلها تأبى علينا أن نقطع الصلة بها ونطلب الإلحاق، تنذرنا إن فعلنا قبراً محفوراً وكفناً منشوراً، هناك ندعو ثبورا فلا نجد نصيراً،

(1) بناة المجد، أحمد مصالي الحاج ص 46.

ولا نلقى ظهيراً. ولئن طلب السينغال إلحاقهم فهل ذاتيتنا كذاتيتهم؟ وهل تاريخنا كتاريخهم؟ كلاّ وألف كلاّ فنحن أشراف من أشراف، يجب أن نبقى أشرافاً لأشراف، وإننا لنختار أن نبقى مضطهدين جزائريين من أن نصير أحراراً فرنسيين، تلك كلمة وإن أحرجت بعض الناس إلا أنها كلمة حق حتى نقولها ولا نبالي، ليحق الحق ويبطل الباطل {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ}[آل عمران: 118].

وأما خطابه للخصوم السياسيين فقد قال لهم:

أيها الخصوم السياسيون:

طالما قاومتمونا بطرق شريفة وغير شريفة، وطالما أقمتم الدعايات ضد حزبنا الوطني وضد برنامجنا المليّ، أما نحن فلا نجيبكم بالمثل لأننا قوم أشراف، ولأن مصلحة الجزائر فوق الجميع، بل نحن نشفق لحالتكم التي تستدعي الشفقة ونجيبكم بإخلاصنا وأعمالنا وثباتنا، فهوّلوا أو عرقلوا أو عوّلوا، فلن يزيدنا ذلك إلا ثباتا ورسوخاً وانتشاراً لدعوتنا.

أما نحن فقد ثبتنا مدة خمس عشرة سنة كاملة على برنامج واحد وعلى سيرة واحدة، ولن نتفرّق أو نتزحزح بإذن الله تعالى، مادام فينا قلب يخفق وعرق ينبض بحب هذا الوطن العزيز المفدّى، ولم يطعن أحد منا قطّ في لغة ابائه وتاريخ أجداده وليس بيننا متجنسون، أما أنتم فها هو أحد متجنسيكم يخطب باسمكم في تيزي وزو ويسبّ اللغة العربية، ويتهكم على من طلب أن تكون لغة رسمية للبلاد.

وها هو بوهران يطعن في التاريخ الجزائري في الصميم وأنتم ساكتون تصفقون، وها هو نفسه بعد ذلك بيومين يطعن سمعتكم وسمعة الإسلام والجزائر في أكبر هنيئاتها، يتناول الخمر نهاراً جهاراً أمام نخبة الشعب في مأدبة الشعب، وها هو اليوم ينصب الحبائل للوقيعة بكم وإسقاط جامعتكم مع عدوكم اللدود[1].

---

(1) المصدر نفسه ص 49.

5. انتصار الحريات الديمقراطية:

مع انتهاء الحرب العالمية الثانية وإصدار فرنسا للعفو الشامل، عاد الحاج أحمد مصالي إلى فرنسا ثم إلى الجزائر في أكتوبر 1946م، وأسس حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD للمشاركة في الانتخابات التشريعية المقررة في عام 1946م، وهذا بعد عزله لزميله في الدرب عيماش عمار، وبالتالي وضع حداً لمبدأ مقاطعة الانتخابات.

فظهرت في داخله انشقاقات، إذ من جهة الكثير من إطارات الحزب اصطدموا بنوع من التشدد الكارزماتي للحاج أحمد مصالي، ومن جهة أخرى فإن الشباب الذين تعبوا وسئموا من اللعبة السياسية غير الفعالة، كانوا مؤيدين أكثر للعمل المسلح.

في هذه الفترة، أي بعد الحرب العالمية الثانية أعاد مصالي اتصالاته وعلاقاته مع شكيب أرسلان، الذي ساعده على تنمية حسه الوطني، لذا يقول في هذا «الشاوي توفيق» للحاج أحمد مصالي: بفضل الأمير انتقلت من النقابة إلى الوطنية، فأدرك أن الاستعمار يشكل تهديداً لكل المستعمرين ولحقوقهم.

ولما اقترح القانون الجديد الخاص بالجزائر في عام 1947م رفضه الحاج أحمد مصالي، انطلاقاً من مبادئ الحزب، كما رفض كل مناقشة أو تحدث عن مستقبل الجزائر في الإطار الفرنسي، وهو قانون فرض على الجزائريين واعتبر كخديعة ؛ على أساس أن الإصلاحات السابقة لم تعرف التجسيد ؛ وأن الانتخابات ما هي إلا وسيلة لإخفاء تعيينات الإدارة الفرنسية للموالين لها في مختلف المجالس المنتخبة خاصة ما قام به الحاكم العام نيجلان، ونفس الأمر بالنسبة للجمعية الجزائرية القائمة على اللامساواة في التمثيل، وفي أنها محدودة الصلاحية، وهي في خدمة فرنسا والمعمرين، وقد تمّ التصويت في 20 سبتمبر 1947م على هذا القانون الذي تطرق لإقامة برلمان جزائري يتشكل من 120 عضواً، 50 للمسلمين، و60 للأوروبيين، وقد شاركت حركة انتصار الحريات الديمقراطيةMTLD في أول انتخابات للجمعية الجزائرية المزورة من قبل الحاكم العام نيجلان

في ربيع 1948م وتحصلت على 9 مقاعد[1].

6. المنظمة الخاصة:

وقد تقرر في المؤتمر الأول لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في 15 فيفري 1947م إنشاء المنظمة الخاصة O.S كهيئة عسكرية تتولى الإعداد للثورة، وعين على رأسها الشهيد «محمد بلوزداد». ثمّ ولأسباب صحية حل محله الحسين ايت أحمد ليخلفه أحمد بن بلة، حيث بعد اتهامه بانتمائه إلى حزب الشعب البربري P.P.K، وبكونه أحد مدبري ما يسمى بـ «الأزمة البربرية». ثمّ حلت هذه المنظمة 1950م بعد اكتشافها على إثر خيانة محمد خياري المدعو رحيم.

وقد تولت هذه المنظمة تكوين الرجال الذين فجروا الثورة التحريرية في نوفمبر 1954م كمجموعة، و22 وغيرهم علماً بأن جلهم تكونوا في مدرسة حزب الشعب الجزائري في أكتوبر 1951م.

بدأ الحاج أحمد مصالي يدعو للثورة فقام بجولة في منطقة قسنطينة في 24 أفريل 1952م، حيث استقبلته جماهير كثيرة، ونظراً للمشروعية السياسية التي كان يتمتع بها أمام الجزائريين ؛ منعه الحاكم العام في الجزائر من البقاء في قسنطينة، فأبعد منها، ولكنه واصل جولته في الغرب الجزائري واتصل مباشرة بالجماهير الجزائرية، مما زاد في تعزيز العلاقة بين القائد والأتباع.

وانتهت الجولة بتوقيفه في مدينة الأصنام، وبمنعه من الظهور في كل المناطق الجزائرية، ونقل إلى فرنسا حيث منعه أيضاً وزير الداخلية الفرنسية من الإقامة في كل التراب الفرنسي ماعدا في منطقة دور سيفر، وطلب من المناضلين القياديين الذين استقبلهم في مقر إقامته بشانتي بضرورة إرسال المناضلين للتدريب على السلاح في مصر، إلا أنه لم يلقَ أي رد على ذلك، خاصة وأن منطقة المغرب العربي كانت في ثورة، ونفس الأمر في مصر مع ثورة الضباط الأحرار بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر ضد التواجد البريطاني.

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 86.

كما بعث الحاج أحمد مصالي برسالة من فرنسا للمناضلين في الجزائر، تطرق فيها للكفاح المسلح ضد فرنسا، واعتبر أن سياسة التعايش مع فرنسا قد انتهى عهدها بلا رجعة، ولهذا قرر وزير الداخلية الفرنسي وضعه في إقامة جديدة في مدينة فاندي، ثم في مدينة صابل دولون، تحت رقابة دقيقة من طرف الشرطة مع مراقبة الزائرين بما فيها ابنته جنينة[1].

7. الحركة الوطنية الجزائرية:

في مارس 1952م بعد عودة مصالي من المشرق العربي والتقائه بالوطنيين العرب المشرقيين، تطرق في اجتماع باريس مع التونسيين والمغاربة لمسألة تحرير بلدانهم الجزائر تونس والمغرب من الاستعمار الفرنسي.

وفي مؤتمر هورنو الذي انعقد في بلجيكا في جويلية 1954م تمّ تبني برنامج نجم شمال إفريقيا الذي أكد على ضرورة انتزاع الشعب الجزائري للاستقلال في أقرب وقت عن طريق الكفاح المسلح، كما أسس الحاج أحمد مصالي الحركة الوطنية ةش كرد فعل على إنشاء جبهة التحرير الوطني التي رفض إنشاءها، وعمل على فرض الحركة الوطنية الجزائرية كمنافس لجبهة التحرير الوطني، وعلى أنها القوة الوحيدة القادرة على خوض النضال من أجل التحرير الوطني.

ورغم التنافس بين جبهة التحرير الوطني والحركة الوطنية الجزائرية في بداية الثورة ؛ إلا أن الحركة الوطنية تمكنت من البروز ومن إعادة تشكيل خلايا الحزب والمجموعات العسكرية في كل من مدينة الجزائر ومنطقة القبائل ووهران «التي انضمت لاحقاً لجيش التحرير الوطني» وحتى فيفري 1955م، فإن العلاقات بين كل من كريم بلقاسم، وعمر أو عمران ورابح بيطاط من جهة وأتباع الحاج أحمد مصالي من جهة ثانية ؛ كانت ودية وكانت الحركة الوطنية الجزائرية تقدم مساعدة مالية ومادية، لكن مع بروز المجاهد عبان رمضان في مارس 1955م تمت القطيعة بينهما [2] ، حيث طالب بفتح المجال لكل التيارات السياسية من ليبراليين وعلماء

(1) المصدر نفسه ص 87.

(2) المصدر نفسه ص 88.

مسلمين، وشيوعيين ومصاليين للدخول في الثورة ؛ إلا أنه إذا كانت التيارات الأولى قد قبلت الانصهار ضمن جبهة التحرير الوطني وبحل أحزابها ؛ فإن الحاج أحمد مصالي وأتباعه رفضوا الانضمام واعتبروا أنفسهم الأَولى بقيادة الثورة ؛ مما أدى إلى اشتداد الصراع الدموي بين الطرفين.

وبعد أن أطلق سراح الحاج أحمد مصالي من قبل الجنرال ديغول في 19 جانفي 1959م، أكد مصالي على مطلب الاستقلال، فطرح حل المشكلة الجزائرية في ست نقاط، تتمثل النقطة الأساسية بإقامة دولة جزائرية مستقلة، ورفض هيمنة جبهة التحرير الوطني على الثورة، كما عمل على إعادة بعث الحركة الوطنية الجزائرية، لكنه اتهم بالخيانة، ورغم ذلك لم يستسلم لجبهة التحرير الوطني.

لقد رفض الحاج أحمد مصالي من خلال الحركة الوطنية الجزائرية المشاركة في مفاوضات إيفيان، وبعد توقف المحادثات بين الطرف الفرنسي والجزائري حول مشكلة الصحراء الجزائرية، طلب منه لويس جوكس الحضور في المحادثات إلا أنه رفض[1].

8. أهم الصحف التي أنشأها الحاج أحمد مصالي:

بهدف نشر الوعي الفكري ومبادئ مختلف الأحزاب التي أسسها الحاج أحمد مصالي قام بإنشاء عدة صحف منها:

أ. **جريدة الإقدام** ما بين عامي 1926م و1927م ثم منعت من الصدور.

ب. **ثم عادت للظهور تحت اسم إقدام شمال إفريقيا** صدرت في أعداد ثم منعت من الصدور نهائياً.

ج. **ثم أخذت هذه الجريدة اسم: إقدام نجم شمال أفريقيا**، واستمرت ما بين 1927م إلى 1928م وقد عبرت هذه الأعداد عن مقاومة الاستعمار والمطالبة بالاستقلال ومهاجمة المنتخبين الفرنسيين وتأسيس جيش وطني.

---

(1) المصدر نفسه ص 89.

د . **جريدة الأمة**: تأسست في 1930م ومنعت في 29 سبتمبر 1939م بسبب طرحها الوطني.

و . **البرلمان الجزائري**: وهي جريدة تابعة لحزب الشعب الجزائري، ظهر أول عدد منها في شهر ماي 1939م، ثم توقفت عن الصدور في 27 أوت 1939م، وقد صدر 7 أعداد منها وكانت تصدر بالجزائر وباللغة الفرنسية.

ح . **الشعب**: صدرت بالجزائر باللغة العربية، تولى رئاستها الحاج أحمد مصالي صدر منها عددان، العدد الأول في 27 أوت 1937م، والعدد الثاني في 20 سبتمبر 1937م، وكانت مواقفها وطنية ولذلك منعتها السلطات الفرنسية.

ز . **الجزيرة الحرة**: بدأت نصف شهرية وأصبحت أسبوعية، صدرت باللغة الفرنسية، واستمرت في الصدور من أوت 1949م إلى نوفمبر 1954م، لكن مع انشقاق حركة انتصار الحريات الديمقراطية في أوت 1954م ؛ احتفظ المصاليون بهذه الجريدة، في حين أستأثر المركزيون بجريدة الأمة الجزائرية، علماً بأنها كانت تطالب بالحرية والاستقلال والسيادة الوطنية.

س . **صوت الشعب الجزائري**: هي جريدة كانت تصدر في الأشهر الأولى من الاستقلال، ويبدو من عنوانها أنها كانت تعبر عن المطالب الحقيقية للجزائريين عمّا كانوا يعانونه في الأيام الأولى من الاستقلال.

ش . الصحراء: وصدرت عن الحركة الوطنية الجزائرية في 1958م.

ك . **صوت العمال الجزائريين**: وهي جريدة صدرت عن الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين ما بين 1957م . 1962م.

ي . **أخبار الجزائر**: صدرت في 1959م عن الحركة الوطنية الجزائرية[1].

9 . مصالي الحاج وحركات التحرر العربي:

إن مواقف الحاج أحمد مصالي من قضايا التحرر ومن الهيمنة الاستعمارية؛ أمر بدأ مبكراً أثناء البدايات

(1) المصدر نفسه ص 89 . 91.

الأولى لنشاطه في حزب نجم شمال أفريقيا الذي لما تأسس لم تكن القضية الجزائرية قضيته وهمّه الأول، بل كان يهدف إلى تحرير الإنسان العربي والمسلم من الأقطار المغاربية الثلاث التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال الفرنسي، فكان الهمّ والمعاناة واحداً، وكانت مصالح الاحتلال الفرنسي ومراميه في الجزائر هي ذاتها في المغرب وتونس، ولقد تأكد مصالي بأن المصير واحد، وهذه النظرة كانت موجودة لدى أغلب المثقفين والسياسيين الجزائريين ابتداءً من مفدي زكريا شاعر الثورة رحمه الله حين قال:

فتماسكت بالشرق جمهورية   عربية وجدت بمصر المرتعا

ولمصر دار للعروبة حرة تؤوي   الكرام وتسند المتطلعا

وتعلم «التاميز» عن أبنائها   «والسين» درساً في السياسة مقنعا

دنيا العروبة لا ترجّح جانبا   في الكتلتين ولا تفضل موضعا

للشرق في هذا الوجود رسالة   علياء صدق وحبها فتجمعا

يا مصر يا أخت الجزائر في الهوى   لك في الجزائر حرمة لن تقطعا

كما أن قضية فلسطين كانت لا تزال في أوج المحنة الجزائرية وهي الاحتلال الفرنسي ؛ تشكل الهاجس والهمّ العربي، وتتلاشى أمامه القضايا الأخرى، وهذا الموقف ذاته تبناه مصالي الحاج الذي تأثر كثيراً بالزعيم العربي الإسلامي الكبير شكيب أرسلان الذي تعرف عليه في بروكسل، وكان يومها رئيس اللجنة السورية الفلسطينية، واستمد منه شمولية مواجهة الاحتلال، لتترسخ الفكرة بتأسيس «حزب نجم شمال إفريقيا» و«حزب الشعب». وقد كان نشاطه في دعم قضايا التحرر العربي ما دفعه إلى الانضمام إلى منظمة المؤتمر الإسلامي التي عيّن عضوا فيها في مؤتمرها المنعقد في 12 إلى 15 سبتمبر 1935م. ولم تكن مساهماته في قضايا التحرر العربي نظرية أو اعتقادية فكرية صرفة، بل كانت تتعدى القول إلى الفعل، فها هو يشرف على تنظيم مظاهرات للجاليتين الشقيقتين العربية والسورية في باريس يوم 14 جويلية 1936م، للمطالبة بوحدة واستقلال سوريا.

ومن الموضوعية والإنصاف القول: إن مصالي الحاج واحد من أهم دعاة وداعمي التحرر في العالم العربي والإسلامي، فقد كان من أوائل المساهمين كعمر راسم وغيره من النخب الجزائرية ضمن حزب الشعب في فضح مساعي اليهود الرامية لتهويد فلسطين وتقسيمها، فأنشأ مع لفيف من الأحرار والوطنيين العرب لجنة شمال افريقيا للتضامن والتعاون مع الضحايا العرب بفلسطين سنة 1938م، والتي كانت لجنة إغاثية ساعدت الشعب الفلسطيني مادياً ومعنوياً، وأسهمت في عرض قضيته وتوسيع انتشارها على المستوى الدولي، كما أن موقفه وعلاقته بالحركة الوطنية في المغرب وعلى رأسها الزعيم عبد الكريم الخطابي، وعلاقته بالوطنيين التوانسة ؛ كانت من أهم العوامل التي شجعته وحفزته على العمل من أجل المصلحة العامة لشعوب المغرب العربي ككل.

وكذلك كان تأسيس «لجنة تحرير المغرب العربي» بالقاهرة في السادس من جانفي 1948م منفذاً وواجهة للمساهمة في مشروع تحرير بلدان المغرب العربي الكبير، كما أن علاقات مصالي الحاج الواسعة مع الوطنيين والزعماء العرب وغير العرب في العالم ؛ جعلته يُعرف بمواقفه الرائدة والصريحة في الحرية، وتمكين الإنسان مهما كان جنسه أو لونه ولغته من التمتع بهذه الحرية التي كفلتها الشرائع السماوية قبل القوانين الوضعية متمثلة في المواثيق الدولية.

هذه هي المواقف التي تبناها مصالي الحاج ودافع عنها، وكانت جميعها تقرّ بأحقية الإنسان في العيش، وفي أحقية الشعوب المضطهدة في تقرير مصيرها، ولعل هذه المواقف هي ما جعل فرنسا وحلفاءها في محور الشرّ تقرر سجنه وتعذيبه ومطاردته وتجريده مما يملك، دون أن يستطيعوا تجريده من إنسانيته ومواقفه الرائدة كزعيم وطني وداعم للتحرر في العالم[1].

10 . مصالي وثورة التحرير ووفاته:

لعل هذا العنوان وهذا الجانب من حياة الزعيم الوطني مصالي الحاج يعتبر الحلقة الأكثر سخونة وإثارة في

(1) المصدر نفسه ص 192.

أي حديث، والحقيقة التي خرجت بها: أن مصالي الحاج لم يكن أبداً ضد الثورة، بل كان من الدعاة إليها، ولعل الإشكال في أن المركزيين «من أعضاء حزبه الذين اختلف معهم»، وتسارع الأحداث بعد ذلك هو ما جعله يتأخر، وما جعل غيره ممن فجرّوا ثورة 1 نوفمبر 1954م يعتبرونه خان الثورة وانقلب على ما عليه الوطني ومساره النضالي. إن مسار الرجل في خدمة القضية الوطنية والتضحيات الجسام التي قدمها والمعاناة والمشاكل التي واجهته من أجل الجزائر ومن أجل قضيتها، فكتب المذكرات وقدم اللوائح وحضر المؤتمرات ودافع عن حق هذا الشعب الذي لحقه ضيم الاحتلال وتعسف الغزاة.

كيف لهذا الرجل الذي جاب البلاد العربية وغير العربية، وسافر إلى السعودية طلباً للمساعدة المالية لشراء السلاح أن يتحول يوماً إلى خائن لهذه القضية وعدو لشعبه؟ كيف لمصالي الذي اتفق مع الزعيم عبد الكريم الخطابي على اليات تدريب المتطوعين الجزائريين من الشباب من أجل أن يهبّوا لتحرير وطنهم وتطهير أرضهم من دنس الغازين ؛ أن ينقلب من صاحب قضية فجأة إلى عدو قضية؟ كيف يُعقل أن يتحول هذا الوطني إلى معارض خائن للثورة؟

كان يرى التعددية والتنوع سمة من سمات الديمقراطية، ولذلك قال: إذا كان الإنسان حراً، وإذا كان يتمتع بكل حرياته الديمقراطية في كل مجالات وجوده ؛ فلن يبحث عن ثورة من أجل الثورة نفسها، لكن الإنسان إذا أخضع لنظام الحزب الواحد والديكتاتورية تصبح الثورة حينها واجباً ووسيلة للتحرر من كل العقبات والديكتاتورية مهما كانت قوتها.

لقد انقسم حزبه إلى فريقين: أنصاره والموالون له، والمركزيون الذين اختلفوا معه ولم يقبلوا فكرة أن يعقد مؤتمراً بدونهم، ويقرر استبعادهم من الحزب، ليحدث الشرخ الذي اسقط البناء، ويقوموا بدورهم بعقد المؤتمر الخاص بهم حيث عزلوه ولفيفاً من مناصريه. ولعل السر يكمن في الاختلاف في وجهات النظر التي جاء بها الفريق الشاب الذي انضم إلى الحركة وأرادها أن تتجدد وتكون أكثر ديمقراطية . لكن مصالي الحاج توجس

خيفة من مطالبات هؤلاء له بعدم السيطرة على الحزب والتحكم فيه والتقرير بالنيابة عن الأعضاء وكأنهم قاصرون[1].

ومع كل الاختلافات التي حدثت، إلا أن الحاج أحمد مصالي راسل وكالة «فرنس بريس»، وبارك الثورة ودعا الشعب الجزائري إلى دعمها مادياً والمشاركة فيها بما يملك حتى لا تفشل، ولعل مصالي كان يؤمن بأن فشلها يعني فشل المسار الطويل للحركة الوطنية وعودة الأمور إلى أبعد من نقطة الصفر، ويقول بأنه أرسل أموالاً سُلمت إلى كريم بلقاسم لدعم الثورة وإمدادها بوسائل النجاح من السلاح والذخيرة والأدوية وغيرها من الأمور المادية، كما يذكر بأن كريم بلقاسم نشر مقالاً في جريدة «صوت الشعب» أشاد فيه بموقف مصالي الحاج وذكر فيه قضية الأموال التي دعم بها الثورة[2].

إن الحقائق التاريخية تؤكد أن الحكم على مصالي بخيانة الثورة في نظر الكثيرين هو مجرد تلفيق وكذب، وأن الرجل كان من أوائل الواقفين إلى جانبها إن لم يكن هو من بعثها وهيّأ لها الأرضية لتولد من رحم الحركة الوطنية. وأيا كان الذي فجرها فإن الثورة للجميع ولا يمكن أن يتبناها أحد وأن يزايد على الاخرين بالقول إنه صاحبها، ويحضرني هنا بيت من الشعر للشاعر الجزائري محمد العيد ال خليفة يرد على المختصمين حول الأهلية بهذه الثورة فيقول:

لا تَقُلْ لي أنا ولا أنت فيها كُلُّنا قومها على كلّ حال

لقد رفض مصالي اتفاقيات إيفيان ولم يقبل بجميع بنودها، وكان أن رفض دعوة ديغول إلى الالتقاء بوفد من الحكومة الفرنسية ضمن وفد يختاره مصالي الحاج من حزبه، ليكون موازياً للقاء في إيفيان مع وفد حزب جبهة التحرير الوطني ؛ إلا أن مصالي رفض ذلك، لأن فرنسا تريد بذلك شق صفوف الشعب الجزائري وتمزيقه، وبالتالي إضعافه وإظهاره أمام الرأي العام العالمي أنه يفتقر وعاجز عن اختيار قيادة موحدة للتفاوض معها، كما أنه رأى أن الإقدام على فعل كهذا ؛ من شأنه إفشال ما بدأه إخوانه في جبهة التحرير ، وبالتالي

(1) المصدر نفسه ص 195.

(2) المصدر نفسه ص 199.

إضعاف مواقفهم أمام العدو. ففضل الرفض واثر الوطن على الأمجاد السياسية الشخصية، وأثبت أنه وطني من الطراز الأول، وأنه ليس من المتسلقين الذين لا يهمهم غير المكاسب الحزبية أو الشخصية. وهناك موقف آخر أذكره وهو لما تم وقف إطلاق النار وتقرر إجراء استفتاء تقرير المصير حول الاستقلال، لم يكن مصالي لينأى بنفسه وهو في منفاه عمّا يجري في وطنه وما يعيشه شعبه، باعتباره حُيّد عن الحركة الوطنية ولم يعد فاعلاً، ولم يقف كالمتفرج انتقاماً أو عجزاً، بل كان يؤمن أن النضال لا يزال مستمراً والشعب بحاجة إلى اراء رئيس حزب الشعب، إذ تدخل ودعا الجماهير إلى التصويت بكثافة وقوة على مشروع الاستقلال بـ «نعم»، في الوقت الذي التأم فيه شمل جميع الأخوة الجزائريين ليعيشوا فرحة النصر وانقشاع غيوم الاحتلال عن سماء الجزائر، وتشرق شمس الحرية الباسمة على شعبها، ليهنأ وينعم بها أحفاد المناضلين والمجاهدين من أبناء هذا الوطن العزيز.

لقد أثبت مصالي الحاج أنه طوى خلافاته وراء ظهره وعفا عمن أساءوا إليه في واحدة من شيمه، وهذا الرجل كان كبيراً دوماً في مواقفه ونضاله وجزائريته[1].

إن الحاج أحمد مصالي أثبت ولاشك بأنه ينتمي وبصفة نهائية إلى الفترة المضيئة من الذاكرة الجماعية الوطنية الجزائرية[2].

إن الخلاف في شخصية المناضل الحاج أحمد مصالي مرده طبيعة الاختلاف بين الشباب والشيوخ والكهول، فقد كان أول نوفمبر بداية لصفحة جديدة من تاريخ الجزائر، أشعل لهيب ثورتها وأنار طريقها شباب يتدفق حيوية ونشاطاً لنيل حريته بأي ثمن، فكانت تلك المرحلة والصفحة الجديدة في تاريخ الجزائر تتطلب رجالاً جدداً، وهذا من سنن الله في حركة المجتمعات ونضال الشعوب وكفاح الأمم، وتبقى الشعوب

(1) المصدر نفسه ص 201.

(2) المصدر نفسه ص 18.

الحية تحترم نضال وكفاح وجهاد كل أبنائها شيوخاً وكهولاً وشباباً ورجالاً ونساءً.

لقد واصل الزعيم الحاج أحمد مصالي حياته في المنفى بفرنسا، وبدأ في عام 1967م وعام 1968م بتحرير مذكراته، واتصل به مجموعة من الناشرين الفرنسيين والأجانب، ولكنه لم ينشرها فكتب 17 كراساً من حوالي 6000 صفحة تضمنت مذكراته حتى عام 1938م، فكان يحرر مذكراته التي نشر ما حرر منها في عام 1982م. وقد توفي في 3 جوان 1974م عن عمر 76 سنة، نتيجة لمرض عضال ألمّ به وكان السبب في وفاته، وقد دفن بمسقط رأسه تلمسان في أجواء مهيبة تليق بإنجازات الرجل[1].

لقد شهد العديد من الشخصيات المهمة بالدور النضالي للحاج أحمد مصالي، من مختلف الاتجاهات الوطنية، ومنها تلك التي عارضته في بداية الخمسينات. ومن هذه الشهادات التاريخية الهامة حول شخصيته نشير إلى ما يلي:

ـ يقول شكيب أرسلان في مصالي الحاج: ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه لتحرر الإسلام منذ زمن طويل. إن هذه شهادة من رجل علم وجهاد يشهد له الجميع بذلك.

ـ وها هو عدوّه اللدود الجنرال الفرنسي شارل ديغول يقول في شخص الزعيم الحاج أحمد مصالي: سخرت من تشرشل، وروزفلت، وستالين وجميع عظماء العالم لكنني أخفقت مع مصالي[2]، فشارل ديغول الذي يعتبر أحد كبار الإستراتيجيين العسكريين في التاريخ العالمي في القرن العشرين يعترف بعبقرية الرجل.

ـ وحسب شهادة المناضل حسين الميلي الذي طرح السؤال التالي على المناضل محمد الأمين دباغين، في أي خانة يمكن أن نصنف حالة مصالي الحاج؟ فكان جوابه فوراً: لقد أخطأ التقدير في مرحلة ما، لكنه لم يكن خائناً أبداً... بل إن مصالي الحاج لم يكن سوى وطنياً مخلصاً لشعبه وأمته.

---

(1) المصدر نفسه ص 203.

(2) المصدر نفسه.

إن هذه شهادة مناضل كبير في الحركة الوطنية الجزائرية في شخصية الحاج مصالي.

ـ وأما عن المناضل والرئيس الأول للجمهورية الجزائرية المستقلة أحمد بن بلة، وأحد القياديين التاريخيين للثورة فيقول: إن مصالي الحاج رجل عظيم في وطنيته، قد ارتكب بعض الأخطاء ولكن أخطاء رجل عظيم كانت في حجمه[1].

ثم يقول:.. كان رجلاً عظيماً وعبقرياً بدون حدود.. ويا ليتني أستطيع أن أرسم لك صورة أكثر تفصيلاً عن عبقرية هذا الرجل العظيم وما فعله والحزب الذي أسسه والجهاز العسكري الذي بناه وظل يشرف عليه بنفسه حتى فجر ثورة أول نوفمبر.. إنني أتكلم وقد خاصمته في بداية الثورة وحاربناه ولكنني كخصم أقول يجب إعادة الاعتبار إليه، لقد حان الوقت لنقول الحقيقة وحان الوقت بعد عشرين سنة من الاستقلال لأن يأخذ كل واحد حقه[2].

ويقول المناضل حسين آيت أحمد أحد القياديين التسعة للثورة في مذكراته: إنه هو الرجل الوحيد الكفء ـ بحكم لطافته وهيبته ـ الذي بلور مفهوم الوحدة الوطنية وأعطى سمعة كبيرة للجزائر خارجياً[3].

ـ ويقول الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة «1909م ـ 2000م» في رسالة لمصالي الحاج في عام 1959م: سيشهد التاريخ أنك كنت رائد الحركة الوطنية، وأنه بالرغم من الاضطهادات والقمع، فقد كوّن نشاطك الاف المناضلين المحنكين، هؤلاء المناضلون الذين تكونوا تكويناً حازماً في مدرسة نجم شمال افريقيا، ثم في إطار حزب الشعب الجزائري، فحركة انتصار الحريات الديمقراطية، وهم الذين يشكلون ذراع جبهة التحرير الوطني..

---

(1) بن بلا يتكلم ، السعيد الصافي حلقة 4 جريدة السفير.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 442.

(3) المصدر نفسه ص 443.

وقد ختم رسالته بدعوة مصالي الحاج للالتحاق بجبهة التحرير الوطني[1].

. وهذه شهادة الزعيم فرحات عباس، حيث تأثر كثيراً لموت الزعيم الحاج أحمد مصالي، وبذل جهداً كبيراً لدى السلطات الجزائرية لمنحه جواز سفر يسمح له بالدخول إلى الجزائر، إلا أن هذا الطلب رفض. وقد اعتبر فرحات عباس الزعيم مصالي الحاج أنه إنسان شارط وفارض وشجاع، يعرف كيف يفرض شخصيته وكيف يستغل الظروف[2].

ـ وأما المناضل أحمد مهساس فاعتبر أن مصالي الحاج كان يجمع بين القول والفعل، وكان ينادي بالاستقلال ويقبل بمقابل هذا كل المصائب والصعوبات من أجل تحقيق هذا المطلب، واعتبر أن ما حدث بين مصالي الحاج وأعضاء جبهة التحرير الوطني هو خلاف سياسي وليس خيانة، ومصالي الحاج لم يكن خائناً أبداً. وحسبه دائماً أن يعد أكبر الثوار في العالم[3].

ـ وأما المناضل أحمد بو منجل في حوار مع أنري علاق: لقد عرفت مصالي الحاج لما كنت طالباً في باريس.. لقد كان رجل الشعب، وكانت له حرارة خاصة وديناميكية قوية، فقد عرض علينا المشكل الجزائري بطريقة لم نكن نعرفها كلية، فكنا أمام رجل تعرف وتحكم في المشكل الاستعماري، فليس هناك من سبب أن لا يطالب الجزائري المناضل بماضيه وحاضره[4].

رابعاً: د. فرحات عباس:

يعتبر الزعيم فرحات عباس إحدى الشخصيات الوطنية البارزة التي تركت بصمتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إذ كان يطالب بالمساواة في إطار الاندماج والتجنس، إلا أنه غيّر من مواقفه السياسية فيما بعد.

إن الوسط العائلي والاجتماعي والثقافي الذي ترعرع فيه الرجل من ناحية، وكذا التعليم المدني الذي تلقاه

---

(1) المصدر نفسه ص 443.
(2) المصدر نفسه ص 445.
(3) المصدر نفسه ص 444.
(4) المصدر نفسه ص 444.

كان له الاثر البالغ في تبني هذه المواقف من ناحية ثانية، فضلاً عن أن العصر الذي نشأ فيه تميز بمجموعة من الأحداث الدولية التي أثرت في د. فرحات عباس كالحروب العالمية وغيرها.

1 . نشأته العائلية والاجتماعية:

ولد فرحات عباس في 24 أكتوبر 1899م في دوار «شاملة» التابعة للبلدية المختلطة لمدينة الطاهير المطلة على البحر الأبيض المتوسط، والتابعة لعمالة قسنطينة وهي مرتكزة على الأصالة والتقاليد.

والتي استقر فيها بكثرة المعمرون الفرنسيون ذوو الأصل الألزاسي أو اللوريني.

وهو ابن سعيد بن أحمد عباس، أما أمه فتسمى ماجة بنت مالحة، وقد كان أبوه قايد ثم باشاغا، نشأ فرحات عباس ضمن عائلة بورجوازية ميسورة، لذا فهي لم تعاني الحرمان والفقر اللذين عانى منهما الغالبية العظمى من سكان الجزائر.

فجده ولد في أواخر القرن 18م، شهد حرب الاستعمار الأولى في منطقة الشرق الجزائري، حيث شارك في الحرب ضد الجيش الفرنسي الذي قاده الجنرال الفرنسي سانت أرنوا، والذي أحرق القرى والقبائل وصادر الماشية والقمح، ولم يبق للسكان الفلاحين البسطاء إلا البكاء. فسانت أرنوا على غرار الجنرالات بليسي وراندو تركوا الاماً وجروحاً في المجتمع الجزائري بفعل القتل والقمع الذي مارسوه على سكان القرى، وهو ما يحفظونه في مذكراتهم.

وقد عانت عائلته الاستلاب والنهب من قبل المستعمر الفرنسي، وبعد انتفاضة الشيخ الحاج محمد المقراني في عام 1871م، وإعلان شيخ الزاوية الرحمانية الشيخ الحداد الحرب على فرنسا بقصد مواجهة الفرنسيين ؛ امتدت هذه الانتفاضة إلى كل قبائل منطقة التل في الشرق الجزائري، وتمكنت من تعبئة 250 قبيلة وأعطت للحرب طابعاً وطنياً.

وكان دوار جد فرحات عباس معنياً بهذه الانتفاضة، فحمل جده السلاح ، ومع هزيمة مقاومة المقراني

والحداد قررت السلطات الفرنسية حجز ممتلكات القبائل الثائرة والمقدرة بـ 100 ألف هكتار، مع دفع غرامات مالية عالية، كما صادرت فرنسا الغابات والأراضي الصالحة للزراعة ووزعتها على المعمرين.

وقد كان جده واحداً من الذين انتُزعت منه أرضه وصودرت، وأصبح مجرد فلاح بسيط في الأرض كبقية الجزائريين الاخرين، ونفس الأمر بالنسبة لدواره، فأصبح فقيراً لدرجة أن والده كان يعمل 15 ساعة في اليوم مقابل 150 فرنك فرنسي قديم[1].

لقد تمت هذه الانتفاضة في ظروف دولية معقدة تميزت بأخذ المانيا لأجزاء من الأراضي الفرنسية، مما انعكس على العملية الاستيطانية على حساب الجزائريين، فضلاً عن بؤس الجزائريين بسبب المجاعات والكوارث الطبيعية والظروف المناخية والاقتلاع الثقافي للجزائريين، وكذا وضع التنظيم الإداري الفرنسي محل القبيلة في بنياتها التحتية والفوقية، فأصبح الجزائريون غرباء في وطنهم مشتتين على مستوى الأسرة والقبيلة والقرية[2].

وقد نشأ فرحات عباس في مرحلة الطفولة في مدينة الطاهير التي كان يعيش فيها الألزاسيون واللورانيون، ثم توجه إلى مدينة جيجل لمزاولة التعليم الابتدائي، ثم التعليم الإكمالي في مدينة سكيكدة، وبعدها التعليم الثانوي في مدينة قسنطينة، وأخيراً التعليم العالي في مدينة الجزائر في دراسة الطب «فرع الصيدلة»، وخلال كل هذه الفترة احتك بالأوروبيين وتعرف على الثقافة الفرنسية الغربية وتبناها خاصة في المرحلة الأولى من نضاله السياسي.

وبحصوله على شهادة البكالوريا في عام 1921م استدعي للتجنيد الإجباري لتأدية الخدمة العسكرية إلى غاية 1923م، وتولى وظيفة كاتب في مستشفيات عنابة ثم قسنطينة ثم جيجل ثم تولى وظيفة مساعد صيدلي وبعدها تقلد رتبة رقيب.

---

(1) المصدر نفسه ص 108.

(2) المصدر نفسه.

إن فترة الخدمة العسكرية هذه سمحت له بملاحظة التمييز القائم بين الفرنسيين والجزائريين المجندين، مما جعله يطالب بالمساواة بينهم داخل الجيش الفرنسي.

وأثناء الدراسة الجامعية في الجزائر، واجه مشكلة الإقامة، فأقام عند عدة عائلات فرنسية كعائلة لوران وحوران والسيدة شارل وغنزاليس، وتلقى من هذه العائلات معاملة حسنة واطلع من خلال هذا الاحتكاك الاجتماعي على القيم والثقافة الفرنسية، وفضلاً عن هذا فقد تعرف على عدد كبير من الزملاء المسلمين والفرنسيين، وكذا المسؤولين الفرنسيين في الجزائر.

ومع انتهاء الدراسة الجامعية توجه الزعيم فرحات عباس إلى الحياة المهنية، فبدأ حياة جديدة، إذ فتح في فيفري 1933م صيدلية في مدينة سطيف قرب مكان نشأته، وهذا بطلب من سكان سطيف، فتولى مهنة حرة على غرار الجزائريين المحامين والأطباء، حيث حُرّم عليهم الدخول للإدارة العامة الفرنسية ماعدا القليل جداً من الجزائريين.

لم يوفق د. فرحات عباس في زواجه الأول، وطلق زوجته بعد الحرب العالمية الثانية، وتزوج لاحقاً بالزوجة الثانية الفرنسية الأصل في منطقة الألزاس والتي ولدت بالجزائر وتسمى مارسيل، وكان عمره سبعة وأربعين سنة، وقضت حياتها الزوجية مع الزعيم فرحات عباس في الجزائر، ثم في مصر وتونس لما كان رئيساً للحكومة المؤقتة الأولى والثانية للجمهورية الجزائرية، وتبنت أفكاره ووقفت بجانبه لما كان تحت الإقامة الجبرية بعد الاستقلال. وللعلم فقد سجنت لمدة سنتين من قبل الاستعمار الفرنسي وتعرضت للتعذيب، وقد توفيت في مدينة نيس الفرنسية في 2001م، ولم يرزقا في حياتهما بولد، ولكنهما تبنيا ـ عبد الحميد ـ ابن أخ الزعيم فرحات عباس محمد الصالح.

وقد قضى حياته بعد الاستقلال في الكتابة عن الاستعمار الفرنسي والثورة الجزائرية والاستقلال، وقضى ما تبقى من حياته بين مكان إقامته في الجزائر والعاصمة ومدينة سطيف التي قضى فيها جزءاً كبيراً من حياته ومدينة نيس الفرنسية.

وقد توفي فرحات عباس في 24 ديسمبر 1985م[1].

2. نشأته التعليمية والدينية:

لقد تلقى فرحات عباس ـ كما إخوته الخمسة ـ تعليمه الأول ـ كما هو حال باقي الأطفال الاخرين ـ في المدرسة القرآنية لبني عفير، وقد كانت هذه المدرسة ـ كما هو الحال بالنسبة للمدارس الأخرى ـ تتولى تلقين التعليم الديني للأطفال وتحفيظهم القرآن الكريم وإكسابهم اللغة العربية قبل الدخول للمدرسة الفرنسية، وكذا تربية الأطفال تربية إسلامية قوية، وغرس قيم المجتمع فيهم كالتضامن الاجتماعي والقيم الأخلاقية والبطولية.

وقد عرفت هذه المدارس القرآنية الانتشار الواسع في كل المناطق الجزائرية، وخاصة في الريف وفي المناطق الجبلية، وهذا إما بفضل التعليم الوقفي والزوايا، وإما بفضل نشاطات الجمعيات والأحزاب الوطنية، وتوجد هذه المدارس أو ما يطلق عليها «الكتّاب» في أغلب الأحيان داخل المسجد، وبعدها زاول فرحات عباس التعليم في المدرسة الأولية ـ التحضيرية الفرنسية المفتوحة للفرنسيين والأهالي بالطاهير والتي فتحت أبوابها لأول مرة في عام 1890م[2].

إن السياسة التعليمية التي اتبعتها فرنسا تجاه السكان الجزائريين جاءت بعد القضاء على ثورة الشيخ محمد المقراني والشيخ الحداد رئيس الزاوية الرحمانية، فاعتبرت أن وضع حد لهذه الثورات في المستقبل لن يتم إلا من خلال التحكم بالتعليم، الذي يعد وسيلة فعالة في السيطرة على عقول وقلوب السكان الرافضين للأجنبي. فالتعليم حسب جول فيري سوف يخلق أناساً فرنسيين مسالمين ومعتدلين غير ثوريين ويتقبلون أفكارنا وثقافتنا ووجودنا[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 115.

(2) المصدر نفسه ص 116.

(3) المصدر نفسه ص 117.

لقد عمل الاستعمار الفرنسي من خلال التعليم على تكريس الهيمنة والتبعية، وعلى عرقلة نشاط الزوايا والمدارس العربية الحرة، وبدأ في تجسيد سياسة الاندماج، التي استهدفت خلق نمط حياة جديدة، مختلف عن ذلك القائم بشكل يفصل فيه عن حياتهم الثقافية والتعليمية والاجتماعية وحسب[1]، وقد سمحت المدرسة الفرنسية لفرحات عباس باكتشاف عالم الثقافة الفرنسي، فاعتبر الكتب المدرسية أنها تمثل فرنسا كرمز الحرية، كما اعتبر أن المدرسة تنسي الأطفال الظروف الاجتماعية الصعبة من فقر وبؤس، واللذين كانا يعاني منهما الجزائريون في الدواوير والمداشير، وربما أيقظهم على الوضع المزري.

وكانت الكتب المدرسية تشير للثوار الفرنسيين الذين قاموا بالثورة في عام 1789م مما أثر في نفسية فرحات عباس.

واعتبرت المدارس الفرنسية سواء في الجزائر أو في فرنسا أن الاستعمار يحمل رسالة حضارية، ففي كتاب إرنست لافيس الذي كان مرجع أساسي لفرحات في القراءة، كان يقرأ فيه: أن فرنسا تريد للأطفال العرب أن يصبحوا متعلمين كالأطفال الفرنسيين، وهذا ما يدل على أن فرنسا طيبة وتهتم بالشعوب الخاضعة لها.

وتوظف التاريخ في توجيه حاضرها ومستقبلها، ورغم هذه المبادئ الإنسانية إلا أنه كان يعاني على غرار الجزائريين الاخرين في المدارس الفرنسية من التمييز مقارنة بالتلاميذ الفرنسيين، مما انعكس على نفسيته وعلى نفسية الطلبة الآخرين.

كما تأثر فرحات عباس كثيراً بأساتذته الذين كانوا يلقنونه أفكار فرنسا الحضارية والحرية والمساواة والأخوة، وبالتالي صقل مواقفه السياسية على بصيرة في مراحله الأولى من النضال السياسي، كالمناداة بغياب الأمة الجزائرية، وأن فرنسا حاملة الرسالة الحضارية لمجتمع متخلف.

---

(1) المصدر نفسه ص 119.

وبعدها واصل فرحات عباس تعليمه الإكمالي بمدينة سكيكدة، حيث كان من ضمن 20 جزائرياً يطبق عليهم النظام الداخلي، فيتقاسمون ظروف الدراسة مع 50 إلى 60 أوروبي، وكانت تجمعهم علاقات تبدو حسنة[1].

ثم واصل فرحات عباس الدراسات الثانوية في مدينة قسنطينة إلى أن تحصل على شهادة البكالوريا، وخلالها تأثر بالكتاب والمفكرين الفرنسيين كبالزاك وشاتوبريون وديدرو وفولتير، كما كان يقرأ للجغرافي فيلكس قوتيي، وعليه فالتعليم المدرسي في جيجل والتعليم الإكمالي في سكيكدة والتعليم الثانوي في قسنطينة ؛ قد أثر في تكوين فرحات عباس من ناحية وفي حياته وتوجهه الحضاري والثقافي من ناحية ثانية.

وبعد إنهائه الخدمة العسكرية في عام 1923م ؛ واصل فرحات عباس دراسته الجامعية بجامعة الجزائر في تخصص الطب «فرع الصيدلة»، واختياره لها يعود أساساً لكونها مهنة حرة وإلى اعتبار أن المناصب الإدارية كانت ممنوعة أمام السكان «الأهالي».

وفضلاً عن الصيدلة فقد كان فرحات عباس مهتماً بدراسة الفلسفة والتاريخ والأدب، واطلع على الكثير من الكتب التي سمحت له بالتعرف على الحضارة والثقافة العربية الإسلامية، ومما جعله ـ إلى حد ما ـ يتأثر بمبادئ الإسلام وقيمه ويوازنها مع مبادئ الثورة الفرنسية الثلاثة: الحرية والمساواة والأخوة. وبالموازنة مع مرحلة الدراسة الجامعية انصب اهتمامه حول معيشة الجزائريين العامة، وراح يناضل من أجل تحسين مستواهم المعيشي المتدني، مع الاهتمام بالأحداث الدولية[2].

3 ـ نشأته الوطنية والأخلاقية:

لقد بدأ الحس الوطني لفرحات عباس خلال فترة الطفولة، لما كانت جدته تروي له ولإخواته ما عاناه أجداده من قمع ومصادرة للأراضي أثناء التوسع الاستعماري في الشرق الجزائري، فمن خلال الصور تم نقل

(1) المصدر نفسه ص 125.

(2) المصدر نفسه ص 127.

صورة العالم السياسي القائم، فمنحت له أسرته فرصة التعلم السياسي والنضج السياسي.

وازداد حسه الوطني أثناء فترة جمع الضرائب من قبل الخزناجي، حيث أدرك قيمة الحرية وتحرير الفلاحين المضطهدين من قبل المستعمر الفرنسي حيث قال:.. مساري ونشاطي السياسي الأول بدأ بالتركيز على تحرير هذه الفئة الكبيرة، وكان طموحي الأساسي هو رؤية الفلاح الجزائري . قبل موتي . يتمتع بنفس الظروف المعيشية للأوروبي كأن يأكل جيداً ويقرأ الجريدة.

ومنذ 1915م تعلمت شيئاً آخر وهو أن فلاحي العالم كلهم إخوة في البؤس والشقاء، كلهم عرفوا ويعرفون الاستغلال، وحتى اليوم هناك فئة كبيرة من المستغلين وطائفة تُستغَل، فالفلاح الفرنسي والياباني والصيني يعيشون نفس ظروف الفلاح الجزائري.

وقد بدأ نشاطه السياسي في عام 1932م بعد بداية مزاولته مهنة الصيدلة في مدينة سطيف، وفي هذه الفترة كان الجو السياسي هناك هادئاً، لكن بمجرد وصوله إليها تغيرت الأوضاع، فوزع وعرف بكتابه «الشباب الجزائري» ووجه نقداً لاذعاً لـلإدارة الفرنسية، كما عبر في نفس السنة صراحة وعلانية عن أحاسيسه الفرنكفونية وعن تأثره بالنظام الفرنسي، وتأسفه لعدم تجسيده للمساواة الأمر الذي يعاني منه السكان الجزائريون.

كما أسس الزعيم فرحات عباس في هذه الفترة «جمعية خيرية» كان هدفها نشر الأخوة بين أعضائها، وهي تجمع الأهالي المسلمين. وتتوالى الوظيفة الإعلامية فيما يحدث من أحداث سياسية، فكانت بمثابة ملجأ للسكان المسلمين الذين كانوا يشعرون بالعدوان تجاه فرنسا.

هذا العمل الذي قام به جعله يوسع من شعبيته، حيث أصبحوا يلقبونه حسب أحد أتباعه السيد قماش عمار بـ «أسد سطيف». وتم هذا في وقت كان يترأس فيه جريدة الوفاق، وهي جريدة اتحادية المنتخبين من 1935م إلى 1939م، وفيها أعلن صراحة عن مطلبه الاندماجي وعن ربط مستقبل الجزائر بفرنسا.

بعد إنهاء الدراسة الجامعية والانطلاق في عالم مهنة الصيدلة، بدأ فرحات عباس يهتم بالنشاط السياسي، فشارك في انتخابات تجديد المجالس العامة، كما انتخب مستشاراً رئيسياً لعمالة قسنطينة في 14 أكتوبر 1934م.

ثم قام بالانضمام إلى اتحادية المنتخبين التي أسسها بن جلول في 1927م، وتجمع اتحادية المنتخبين النخبة الجزائرية على أساس مكانتها الاجتماعية في المجتمع الجزائري، فهم ينتمون إلى البورجوازية الجزائرية ومتحصلين على الشهادات الجامعية[1].

وقد تبنى خلالها فرحات عباس نفس أفكار ومبادئ المنتخبين والمتمثلة في الاندماج والتجنس وحينها قال: الجزائر كوطن هي أسطورة وخرافة لم اكتشفها، فسألت التاريخ وسألت الأموات والأحياء وزرت المقابر ؛ ولا واحد تكلم وتحدث عنها.

كما تأثر فرحات عباس ـ إلى حد ما ـ في البداية بالأمير خالد والشبان الجزائريين فيما يتعلق بالمطالب الاندماجية والأخذ بالجنسية الفرنسية، مع المحافظة على الأحوال الشخصية، علماً بأن أطروحة الأمير تختلف عن أطروحة الاندماجيين الليبراليين، للإشارة فقد تصدر الأمير خالد مسرح السياسة الجزائرية مدة أربع سنوات «1919م ـ 1923م» وركز جهوده مع زملائه في النضال على تحسين أوضاع الجزائريين والتخفيف من الامهم، ورغم أنه لم يحقق هدفه إلا أنه ساهم في بلورة الشعور الوطني في الجزائر.

إن تبني فرحات عباس لهذه الأفكار يعود أساسياً للتكوين الذي تلقاه في المدرسة الفرنسية من ناحية ولتأثره بالمفكرين الأوروبيين، ناهيك عن تأثره بالنخبة الجزائرية الموالية للاستعمار[2].

4 ـ د. فرحات عباس والمؤتمر الإسلامي الجزائري:

مع وصول الجبهة الشعبية للحكم في انتخابات 26 أفريل ـ 30 ماي 1939م بدأت بعض القوى

(1) المصدر نفسه ص 131.

(2) المصدر نفسه ص 132.

السياسية انذاك عن غرار العلماء المسلمين والشيوعيين والمنتخبيين في التحضير للمؤتمر الإسلامي الجزائري الأول، الذي انعقد في جوان 1936م في ظل ظروف وتحولات دولية ظهرت انطلاقاً من الأزمة الاقتصادية العالمية 1929م، واستمرت إلى غاية انتهاء الجبهة الشعبية وبداية الحرب العالمية الثانية.

لقد شارك فيها الزعيم فرحات عباس لينتهي هذا المؤتمر بجملة من المطالب منها ربط الجزائر بفرنسا والحفاظ على الأحوال الشخصية للجزائريين الأهالي، وتقديم مطالب اجتماعية كالتعليم الإجباري للجنسين، ومطالب اقتصادية كإنشاء تعاونيات فلاحية، ومطالب سياسية كإصدار العفو العام الشامل ووضع هيئة انتخابية واحدة، وإلغاء القوانين والمؤسسات الاستثنائية، وتمثيل المسلمين في البرلمان.

كانت هذه عبارة عن جملة من المطالب الإصلاحية تم بلورتها في هذا التجمع، بعد تأكدهم من عدم جدوى الصحافة والحوار وتقديم العرائض لدى مؤسسات الاستعمار الفرنسي.

وقد شارك فرحات عباس ضمن الوفد الذي توجه إلى فرنسا لتقديم هذه المطالب السياسية للسلطات الفرنسية، إلا أن بلوم فيوليت رفض تلبية هذه المطالب، وقد تأكد الرفض في العام الذي بعده بسبب رفض المعمرين ومواليهم في باريس من جهة، ورفض حزب الشعب الجزائري بقيادة الحاج أحمد مصالي له من جهة ثانية[1].

5. الاتحاد الشعبي الجزائري:

وفي عام 1938م حدثت القطيعة بين الدكتور بن جلول والزعيم فرحات عباس، وأسس هذا الأخير الاتحاد الشعبي الجزائري في جويلية 1938م، وهذا بعد فشل المؤتمر الإسلامي في تجسيد المطالب الإصلاحية، فأدرك الزعيم فرحات عباس أنه من الضروري إنشاء حزب سياسي جزائري؛ لمواجهة المعمرين ، وللدفاع عن

(1) المصدر نفسه ص 133.

المطالب الإصلاحية وتحقيقها. وهو يستند إلى الجماهير وتكون قاعدته ذات صلة بالمسلمين الجزائريين. فاعتقد أن الطرح النخبوي لوحده لا يكفي، بل لابد من الاعتماد على الجماهير وتبني مبدأ: من الشعب ولصالح الشعب، واعتبر أن الأسواق والمقاهي والأكواخ يجب أن تكون مجالات للنشاط السياسي، وعمل على تشكيل خلايا وفروع محلية لحزبه شارحاً للسكان مطالبه، كمطلب اللغة العربية، وحرية المعتقد، وانتقاد الاندماج، والأمبريالية.

وربما قد تأثر بالدستور الجديد في تونس: النجاح أو الانتصار يجب أن يركز على نشاط الجماهير . والأسواق والمقاهي ويجب أن تكون مراكز النشاط.

فهذه الأماكن التي تجمع الجماهير هي التي يجب الاعتماد عليها في نشر الأفكار، ولم يعد الأمر يقتصر فقط على النوادي والجمعيات والتجمعات النخبوية[1].

6 . نزول جيوش الحلفاء في الجزائر:

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية تطوع فرحات عباس كصيدلي مساعد، ومكث في قسنطينة حتى نهاية مارس 1940م، ثم نقل إلى فرنسا، وكان يريد من هذا أن يعبر عن ولائه لفرنسا، وقد بعث في 15 أفريل 1941م تقريراً للمارشال بيتان وانتقد النظام الاستعماري، واعتبر أن تحرير الجزائريين المسلمين يتم من خلال المساواة في الحقوق مع الأوروبيين، ففي هذا التقرير طالب بـ:

. إنشاء صندوق للفلاحين يخضع لرقابة «اللجان الفلاحية» في كل منطقة بغرض حماية الفلاحين الصغار ولكي يحافظوا على أراضيهم.

. تأميم الشركات الكبيرة ومنح الأراضي للفلاحين.

. تطوير التعليم.

(1) المصدر نفسه ص 134.

فطالب فرحات عباس بإصلاح زراعي يسمح بالقضاء على الإقطاعيات العقارية من جهة، وبتشكيل طبقة الفلاحين من جهة ثانية، هذا في وقت انقسمت فيه اتحادية المنتخبين. فأدرك عباس ضرورة الاعتماد على الجماهير، ولكنه لم يعبر نهائياً عن القطيعة مع فرنسا.

ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ونزول الحلفاء بالجزائر أجرى فرحات عباس اتصالات مع السياسيين والدبلوماسيين الأمريكيين والبريطانيين، منهم الممثل الخاص للرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت «مورفي»، وقدم للحكومة العامة الفرنسية وللممثلين الأمريكي والبريطاني رسالة موقعة من قبل المنتخبين المسلمين للعمالات الثلاثة ؛ تمنوا خلالها تطبيق مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها على الجزائر، وقد رفضت الحكومة العامة الفرنسية هذه الرسالة زيادة على أنه لم يكن هناك أي رد[1].

7. حركة البيان:

في 1942/12/20م وبتشجيع من حزب الشعب قدم فرحات عباس رسالة للسلطات أعقبت برسالة أخرى بعد يومين، فحدثت استجابة وطلب ممثل الولاية منه تقديم الإصلاحات، وعقد اجتماع في مكتب المحامي أحمد بو منجل حضره عباس وعسلة عن حزب الشعب والعربي التبسي، وخير الدين وتوفيق المدني عن العلماء، وممثلو المنتخبين: تامزالي، وغرسي، وقادري، وكلف عباس بتحرير البيان، حيث قام بتحريره في سطيف بصيدليته.

وجرى اجتماع ثان يوم 1943/2/7م درس فيه مشروع البيان الذي حرره عباس، كان البيان معتدلاً لكنه أكد على الجانب الوطني، استهله في ديباجته، باستعراض تاريخ الجزائر، وفشل سياسة الاندماج، واستعرض ثورات البلاد والمقاومة، ثم قدم المطالب التي تتلخص فيما يلي:

- إدانة الاستعمار وإلغاؤه أي إلغاء استغلال شعب من شعب الذي يعتبر نوعاً من العبودية في القرون الوسطى.

---

(1) المصدر نفسه ص 136.

. منح حق تقرير المصير لسائر الشعوب صغيرة وكبيرة.

. منح الجزائر دستوراً خاصاً بها يضمن:

. الحرية والمساواة لسائر السكان دون تمييز بين عرق ودين.

. إلغاء الملكية الإقطاعية بواسطة إصلاح زراعي وضمان حقوق عمال الفلاحة.

. الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في نفس مستوى الفرنسية.

. ضمان التعليم المجاني والإجباري لسائر الأطفال من الجنسين.

. حرية العبادة لسائر السكان وتطبيق فصل الدين عن الدولة على سائر الأديان على غرار فصل الكنيسة عن الدولة.

ـ المشاركة العملية الفورية للمسلمين الجزائريين في حكومتهم كما فعلت بريطانيا والجنرال كاترو بسوريا، وحكومة الجزائر هذه هي الكفيلة وحدها بتحقيق جو من الوحدة السليمة.

. إطلاق سراح سائر المحكوم عليهم سياسياً والسجناء السياسيين المنتمين لسائر الأحزاب.

وافق على البيان العلماء وحزب الشعب ووافق عليه المنتخبون، بالرغم من تحفظ بعضهم. وقدم البيان للحاكم العام بيروتون يوم 1943/3/31م، الذي قام بتأسيس لجنة لصياغة الإصلاحات ضمت 8 باشاغاوات، عملا صريحين للإدارة، وهي إشارة مخيبة للامال، ولم تضم اللجنة أي ممثل لا شيوعياً ولا من حزب الشعب. طلب الحاكم العام تقديم اقتراحات عملية، فحُرِّر محور تكميلي وقعه 21 شخصية قُدِّم له يوم 1943/5/26م تضمن نقاطاً أهمها:

. الاعتراف بوحدة التراب الجزائري الكامل.

. الاستقلال السياسي للجزائر كأمة كاملة السيادة.

. مشاركة المسلمين في حكومة وإدارة الجزائر.

. المساواة بين المسلمين والفرنسيين في ميدان التمثيل بالمجالس والجيش.

. إصلاحات اقتصادية.

وفجأة يصل الجنرال ديغول للجزائر ويعتقل الحاكم العام بيروتون، ويصرح يوم 1943/5/30م: أن قاعدة الوحدة الوطنية ترتكز على مبدأ السيادة الفرنسية الكاملة على سائر أجزاء الإمبراطورية الفرنسية، ولا يمكن التخلي عن هذا المبدأ.

واستقبل فرحات عباس وحوّله على الجنرال كاترو الحاكم العام الجديد دون أن يتحدث معه عن البيان، ورفض كاترو البيان قائلاً: المسألة الجزائرية تحل في الإطار الفرنسي.. استقلال الجزائر خرافة.. الجزائر وفرنسا كيان واحد. ورفض استقبال عباس بل واعتبره خارجاً عن القانون.

أجابه عباس برسالة شديدة اللهجة أرسل نسخة منها لديغول.

وفي 1943/9/30م أمر كاترو باعتقال فرحات عباس، والسايح عبد القادر، بتهمة إحداث اضطرابات في النظام العام في وقت الحرب. وأما الطرف الامريكي الموجود بالجزائر فقد بقي صامتاً بالرغم من استقبالهم الجيد للبيان[1].

وتمّ توجيه عباس فرحات وسايح عبد القادر حيث وضعا تحت الإقامة الجبرية من قبل الجنرال كاترو، ولم يطلق سراحه إلا في 2 ديسمبر 1943م، ليعود لممارسة النشاط السياسي 1944م[2].

8 . أحباب البيان والحرية:

في مارس 1944م أسس حركة أحباب البيان والحرية A.M.I بمدينة سطيف، وتمثلت أهم أهدافها في: استنكار الاستبداد وترويج فكرة دولة جزائرية، وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط اتحادية مع الجمهورية

(1) الجزائر في التاريخ ص 715.

(2) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 138.

الفرنسية الجديدة المناوئة للاستعمار، وقد زاد تأثير الزعيم فرحات عباس ولو لفترة مؤقتة، بسبب غياب حزب الشعب الجزائري، لاعتقال قادته وقمع ما تبقى[1].

وقد أيد الشيخ البشير الإبراهيمي حركة أحباب البيان والحرية، ولم يعترض الحاج أحمد مصالي وهو يقول لعباس: لكن تأكد أن فرنسا لن تعطيك أي شيء، فرنسا لن تستجيب إلا بالقوة ؛ تعطي لنا ما نفتكه منها بالقوة[2].

وبعدما أطلق مصالي من السجن يوم 26 أفريل 1943م بعد أن جاء الحلفاء إلى الجزائر، وصدر عفوعن جميع المساجين الذين تمت محاكمتهم في عهد حكومة «فيشي»، مر زعيم حزب الشعب بسطيف، والتقى بالسيد فرحات والبشير الإبراهيمي والسيد موريس لابور «من الحزب الشيوعي»، وتحاور الزعماء الأربعة في كيفية وضع إستراتيجية مشتركة واتخاذ موقف موحد بالنسبة للقضايا التي تهم مصير البلاد.

وفي هذا الاجتماع اتفق الزعماء الأربعة على إصدار وثيقة مشتركة تعبر عن إرادتهم القوية لتأسيس دولة جزائرية، ووضع دستور لجمهورية جزائرية مستقلة وذلك بقصد تكوين فدرالية مع الجمهورية الفرنسية. وقد أطلق على هذا البيان الذي صدر يوم 14 مارس 1944م اسم «أصدقاء البيان والحرية» وفيه وافق فرحات عباس على اقتراح من مصالي الحاج بأن يلغى منصب الحاكم العام في الجزائر ويتحول الحاكم العام إلى سفير.

وفي اجتماع سطيف بين عباس ومصالي والبشير الإبراهيمي وموريس لابور قال فرحات لمصالي الحاج ما يلي: لقد كنت ضدك أدافع بحرارة عن الاندماج ووقفت ضدك. لقد أثبتت الأحداث أنك كنت على صواب وكنت أنا على خطأ. اليوم أعترف لك بأنني سأتبع خطاك.

ونستخلص مما تقدم أن فرحات عباس قد فقد أي أمل في التفاهم مع الفرنسيين، وأن التعاون مع الأحزاب الجزائرية المعارضة للأوروبيين والداعية لاستقلال الجزائر ؛ هو السبيل الوحيد لتحقيق طموحات أبناء

(1) المصدر نفسه ص 138.

(2) الجزائر في التاريخ ص 176.

الشعب الجزائري. وهذه الحقيقة قد أكدها له مصالي الحاج عندما قال له ذات يوم: إنني أثق فيك، في العمل من أجل إقامة جمهورية جزائرية في نظام فدرالي مع فرنسا، لكنني بالمقابل لا أثق في فرنسا، إن فرنسا لن تعطيك شيئاً ولن تتنازل عن أي شيء إلا بالقوة، لأن ما أخذته بالقوة لا يمكن انتزاعه إلا بالقوة.

وباختصار: فإن تحالف عباس فرحات مع مصالي الحاج وجمعية العلماء والحزب الشيوعي الجزائري في أفريل 1943م، وتعيين الجنرال كاترو حاكماً عاماً على الجزائر ومحافظاً للدولة مكلفاً بالشؤون الجزائرية في شهر جوان من عام 1943م، غيرت مجرى الأمور بالنسبة للمستقبل السياسي لفرحات عباس. وبمجرد أن استلم الحاكم العام كاترو السلطة في بداية شهر جوان 1943م أعلن أنه يعتبر الجزائر جزءاً لا يتجزأ من فرنسا، وأنه لا يقبل أن تكون النقاط المقترحة من طرف الجزائريين قواعد للعمل والتفاوض. وكان هذا الجواب بمثابة صدمة وتأكيداً للحوار الذي جرى بين فرحات عباس ومصالي الحاج.

وفي يوم 22 سبتمبر 1943م جاء الرد من فرحات عباس وزملائه في المجلس المالي، حيث قرروا أن يقاطعوا اجتماع المجلس المالي، وأصدروا بياناً أعلنوا فيه بأنهم متمسكون بالنقاط الواردة في الوثيقة التي سلمت إلى الجنرال «كاترو»، ولابد أن تكون الإصلاحات المقترحة هي القواعد الأساسية لأي عمل أو أي تفاوض.

وانذاك انزعج «كاترو» من هذا الموقف، وأصدر بدوره أمراً بإلقاء القبض على السيد فرحات عباس والسيد السائح عبد القادر «رئيس مجموعة النواب المسلمين في المجلس المالي»، ووضعهما تحت الإقامة الجبرية وذلك بحجة أنهما يحرضان النواب على العصيان في وقت الحرب.

كما أمضى قراراً بتنحية النواب الذين يمثلون العرب في المجلس المالي، إلا أن الحاكم العام تراجع عن قراره بطرد النواب العرب من المجلس المالي بعد أن تدخل النواب الأوروبيون في المجلس المالي.

لكن «كاترو» أصر على بقاء السيد فرحات عباس والسايح عبد القادر رهن الاعتقال، ولم يتم الإفراج عنهما إلا يوم 2 ديسمبر 1943م، بعد أن تحرك الرأي العام وتأزم الوضع في الجزائر بسبب حجزهما بطريقة تعسفية(1).

لقد استطاع قادة النضال في الجزائر تشكيل كتلة وطنية أطلق عليها اسم: (أصدقاء البيان والحرية) وهي حركة سياسية تضم حزب الشعب وجمعية العلماء والحزب الشيوعي الجزائري، وذلك بالإضافة إلى حزب فرحات عباس الذي أصبح يتزعم هذه الحركة، وهكذا استطاع فرحات عباس أن ينجح في خطته الرامية لتوحيد صفوف الأحزاب الجزائرية، وبدأ يعمل لتوسيع قاعدة حزبه في الأوساط الشعبية.

وفي يوم 13 سبتمبر 1944م أصدر جريدة «المساواة» وذلك للدفاع عن الموقف المشترك لـ «أصدقاء البيان والحرية». وأصبحت توزع 50،000 نسخة، وطالب فرحات عباس في العدد الأول من جريدته بإنشاء جمهورية جزائرية، وذلك بقصد تكوين إتحاد فدرالي مع الجمهورية الفرنسية ضد الإمبرالية وضد الاستعمار. وحسب بعض التقديرات ؛ فقد إنضم إلى حركة أصدقاء البيان والحرية 500،000 مناضل(2).

9 . الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري:

حُلّتْ حركة أحباب البيان والحرية في 15 ماي 1945م، بعد مجزرة 8 ماي 1945م، وتمّ توقيف الزعيم فرحات عباس والدكتور سعدان في مكاتب الحكومة العامة، لقد شكلت أحداث 8 ماي 1945م منعرجاً ودفعاً في نضال الحركة الوطنية، وأصبحت القضية الوطنية يتطرق إليها بوسيلة العنف، وقد بينت هذه الأحداث أن العنف يتولد في الأوساط الريفية، مما جعل هؤلاء الريفيين يشكلون نواة جيش التحرير الوطني، فضلاً عن طرح الاتجاه النشيط في الحركة الوطنية للعنف كوسيلة لتحقيق هدف الاستقلال عملوا على إنشاء

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 239.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 239.

المنظمة الخاصة في إطار حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

وبصدور قرار العفو الشامل في مارس 1946م ؛ عاد فرحات عباس إلى الحياة السياسية، وأنشأ حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA. وفي خطابه يوم أول ماي 1946م أعلن فرحات عباس عن سياسيته الجديدة المتمثلة في الشعارات الثلاثة:

. لا للاندماج

. لا للأسياد الجدد

. لا للانفصال

وكان برنامج الحزب يهدف إلى تحقيق ما يلي:

. الاعتراف باستقلال الجزائر وبحكومتها ورايتها.

ـ أن الجمهورية الجزائرية سوف تكون عضواً في الاتحاد الفرنسي كدولة مشتركة، وتكون فيه العلاقات الخارجية والدفاع الوطني للدولتين مشتركة تشرف عليها سلطات الاتحاد.

. فضلاً عن الجنسية المشتركة.إلخ من الأهداف.

وهي أهداف تتمحور حول الجزائر المستقلة بمؤسساتها وبقوانينها، وتكون في تبعية لفرنسا في إطار الاتحادية[1].

في جوان 1946م أجريت انتخابات الجمعية التأسيسية الثانية، وترشح فيها فرحات مع مناضلين اخرين من حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وتحصل على 11 مقعداً من 13 في الجمعية التأسيسية، واقترح قانون يهدف إلى وضع دستور جزائري ودولة جزائرية في شكل اتحادية مع فرنسا، يبقى فيها ميدان الدفاع الوطني والشؤون الخارجية مشتركين للجمهوريتين الجزائرية والفرنسية، أي طرح فكرة الاستقلال الداخلي. وإن كان هذا المشروع يندرج ضمن الاتحاد الفرنسي ككل الذي يجمع فرنسا ومستعمراتها مع الأخذ بعين الاعتبار

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 139.

لوضعية الجمهورية الجزائرية المستقلة ببرلمانها المنتخب وأحزابها على أن تكون مرتبطة بفرنسا.

وللحصول على المشروعية السياسية عند الفلاحين، قام فرحات بجولات في الأرياف الجزائرية، على اعتبار أن الفئات المتوسطة في المدن أصبحت تشكل زبائن الزعيم الحاج أحمد مصالي.

وقد تميزت هذه الفترة بالمعاناة من الام مجازر 8 ماي 1945م، ومن غلق المجال السياسي للجزائريين، وتزوير للانتخابات.

كما كثف من انتقاد المعمرين سواء قبل دخوله البرلمان الفرنسي أو في البرلمان الفرنسي، إذ في الجلسات البرلمانية دخل في مشادات كلامية وفي مناقشات مع النواب الفرنسيين الممثلين للمعمرين.

إن الزعيم فرحات عباس ذي اللباس الأوروبي، والذي يتكلم اللغة الفرنسية جيداً وبطلاقة، ويعرف التقاليد البرلمانية الفرنسية، تمكن من أن يحكم سلبياً على الاستعمار وعلى المعمرين، وقد اعتبر من قبل زملائه النواب في أواخر الأربعينات إنساناً خطيراً.

وفي هذا فقد قال في 1952م للسيد روني ميير: حتى وإن كنت في عمق المقبرة فإني سأبقى أواجهكم بأفكاري، فاستعمل التعليم والثقافة الفرنسية لمواجهة المعمرين، وكان يريد أن يقول لهم سأواجهكم بثقافتكم ولغتكم، وسأبين لكم التناقض بين ما تنشرونه من أفكار وبين ما هو قائم في الواقع[1].

وقد انتخب في أول جمعية للاتحاد الفرنسي في نوفمبر 1946م، إلا أنه تأكد لاحقاً من أنها جمعية شكلية باعتبار أن غالبية أعضائها كانوا منتقين ويتم اختيارهم، ومع تبني قانون 1947م الخاص بالجزائر أنشئت جمعية جزائرية تضم 120 عضواً 60 للأوروبيين و60 للمسلمين، وانتخب الزعيم فرحات عباس نائباً في هذه الجمعية في ربيع 1948م وتحصل حزبه الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA على 8 مقاعد

(1) المصدر نفسه ص 140.

وحركة انتصار الحريات الديمقراطية MTID على 9 مقاعد، وهذا بفعل التزوير الذي قام به الحاكم العام نيجلان، واستمر فرحات عباس في تبني مطلب الاتحادية مع فرنسا.

في مؤتمر حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UDMA من 25 . 27 سبتمبر 1948م تبنى فرحات عباس المبادئ التالية:

. حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

. استمرار الإمبراطورية الفرنسية.

. تحرير المسجونين الفرنسيين.

. إلغاء الانتخابات المزورة.

. التأكيد على التعليم.

وفي المؤتمر الجديد لحزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري عيقش المنعقد من 16 . 19 سبتمبر 1948م وجه دعوة إلى هيئة الأمم المتحدة من أجل تحرير الشعوب(1).

10 . الجبهة الجزائرية للدفاع:

في 1951م شارك فرحات عباس مع حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTID والحزب الشيوعي الجزائري PCF؛ في تأسيس الجبهة الجزائرية للدفاع FADL عن الحريات، كرد فعل على تزوير الانتخابات التشريعية 1951م وإلغائها مع احترام الحريات الأساسية. وقد ساهمت هذه الجبهة في تحديد مسار الاندماج الوطني التي بموجبها جمعت مختلف القوى الوطنية الجزائرية، ومُنحت لقيادة جبهة التحرير الوطني مبادئ السير والعمل التي تسمح لهم بتحقيق هدف الاستقلال، وإن كانت قبلها حركة أحباب البيان والحرية، كأول تجمع للقوى الوطنية الجزائرية(2).

(1) المصدر نفسه ص 141.

(2) المصدر نفسه ص 142.

11. انضمام فرحات عباس لجبهة التحرير الوطنية:

واستمر الوضع متأزماً بين فرحات عباس والفرنسيين إلى أن قامت ثورة أول نوفمبر 1954م وغيرت الموازين، وأدرك فرحات عباس أن الطريق مسدود أمامه ولا يستطيع أن يفعل أي شيء لتغيير مجرى الأمور ؛ فقرر في شهر جانفي 1955م أن يتصل بالمسؤولين في جبهة التحرير عن طريق السيد عمار القامة وجاءه الرد بالإيجاب يوم 26 ماي 1955م، حيث التقى بالسيد عبان رمضان والسيد أو عمران فاستفسرهما عن إمكانية نجاح الثورة وقوة جيش التحرير، فأجابه عبان رمضان: إن جيش التحرير يملك أسلحة كافية وقادر على دحر الجيش الفرنسي ودفعه إلى البحر. وطلب عباس من عبان رمضان إذا كان في إمكانه أن يتكلم مع المسؤولين الفرنسيين عن إمكانية المفاوضات وإيقاف القتال. فقال له عبان رمضان: نحن نوافق على ذلك لكن بشرط أن تكون المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، ويبدو أن فرحات عباس كان متخوفاً من الانضمام المتأخر إلى ثورة الشعب، فسأل عبان رمضان ذات يوم: إننا نخشى أن يتهمنا بعض أعضاء الوفد الخارجي بأننا أخذنا قطار جبهة التحرير وهو يسير، فطمأنه عبان رمضان بقوله: إن جبهة التحرير ليست ملكاً لأحد. إنها ملك للشعب الذي يناضل.

وفي شهر أفريل من عام 1956م التحق بالقاهرة مع الدكتور فرنسيس وانضم إلى جبهة التحرير، وتحول من رجل حوار وتغيير عن طريق القانون إلى رجل ثوري يستعمل العنف والقوة لاسترداد حقوق شعبه المهضومة، ولعله كان يتذكر بإستمرار ما قاله له ذات يوم مصالي الحاج بأن ما أخذته فرنسا بالقوة لا يمكن استعادته وانتزاعه إلا بالقوة[1].

وفي ندوة صحفية بمصر، أعلن فرحات عباس عن الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، على غرار التشكيلات السياسية الأخرى، وهذا ما يعبر عن اتحاد الوطنيين ضمن جبهة التحرير الوطني، وذلك بعدما

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 243.

فشل في إقناع الطبقة السياسية الفرنسية بإحداث إصلاحات جذرية وحقيقية لصالح الجزائريين، معتبراً إصلاحات العشرينات والثلاثينات قد تجاوزها الزمن، واستقال نواب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري من الجمعية الجزائرية في ديسمبر 1955م، كما قررت قيادة الحزب في اجتماع لها بسويسرا الالتحاق بجبهة التحرير الوطني، وبالتالي انتهت وللأبد فكرة الاندماج والاتحادية مع فرنسا، ومع انعقاد مؤتمر الصومام في 20 أوت 1956م عين عضواً في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ـ كسلطة تشريعية ـ ثم انضم إلى لجنة التنسيق والتنفيذ.

وقد قام بعدها بالتوجه إلى مختلف دول العالم كالبرازيل وتونس ومصر ليدافع عن القضية الجزائرية ولكسب التأييد الدولي، ليُصبح فيما بعد معروفاً دولياً بعد أن زار الدول الكبرى كالاتحاد السوفيتي والصين، ولما تشكلت أول حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958م، والتي تضمنت مختلف التيارات السياسية من الليبراليين والعلماء والعسكريين، عين الزعيم فرحات عباس كأول رئيس للحكومة الجزائرية بعد رفض ترشيح كريم بلقاسم.

لقد كان الزعيم فرحات يتمتع بقدرة على قيادة وإدارة المفاوضات بكل سهولة، كما كان يتمتع بمكانة وسمعة عالية لدى العديد من الدول، وقد احتفظ بهذا المنصب في الحكومة المؤقتة الثانية للجمهورية الجزائرية إلى غاية 20 جانفي 1960م، حيث استبدل بين يوسف بن خدة في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي انعقد من 20 إلى 28 جويلية 1961م، وذلك في ظروف تميزت بتململ الولايات الداخلية من الحكومة المؤقتة الثانية للجمهورية الجزائرية، خاصة مع وضع خطي شال وموريس اللذين قللا من التموين بالسلاح، فضلاً عن رفض كريم بلقاسم لكل تعيين للزعيم فرحات عباس على رأس الحكومة المؤقتة الثالثة للجمهورية الجزائرية.

وبعد الاستقلال في 5 جويلية 1962م ؛ عين كأول رئيس للجمعية الوطنية الجزائرية 20 سبتمبر 1962م، ثم استقال من هذا المنصب في 13 جوان 1963م، واعتقل بعدها ثم أطلق سراحه ليعتزل الميدان السياسي بسبب القمع الذي مارسه النظام السياسي الجزائري انذاك، والذي لم يسمح للمعارضة السياسية

بالتعبير بحرية، وقد وصل به الأمر إلى وضعه، أي فرحات عباس تحت الإقامة الجبرية مع بن يوسف بن خدة واخرين بسبب انتقادهم للرئيس هواري بومدين وانتقادهم لدستور 1976م، ولم يطلق سراحهم إلا في 1977م حيث اعتزل الميدان السياسي من جديد.

12 . الزعيم فرحات عباس بعد الاستقلال ووفاته:

بعد انتخاب الجمعية التأسيسية في 20 سبتمبر 1962م ؛ تم تشكيل أول حكومة جزائرية مستقلة، وكان يترأسها الرئيس أحمد بن بلة في 26 سبتمبر 1962م، وتم فيها توزيع الحقائب الوزارية على أساس موازين القوة في التركيبة القيادية انذاك. وأسندت رئاسة الجمعية الوطنية الجزائرية الأولى للزعيم فرحات عباس، بحكم خبرته السياسية من ناحية ومواقفه المؤيدة لجماعة أحمد بن بلة من ناحية ثانية. أما بشأن تركيبة الجمعية الوطنية فكانت موزعة كما يلي: حيث نجد أن غالبية النواب هم ممثلون عسكريون، وأصحاب المهن الحرة، ثم يلي الممثلون للتجار، وبعدها المعلمون، وكذا الفلاحون والعمال، وأخيراً الموظفون والكوادر والطلاب.

كذلك أصبح الأمين لحزب جبهة التحرير الوطني يختار المترشحين للمجلس الوطني بما فيها المترشح لرئاسة الجمهورية الذي هو رئيس الحكومة، لذا أصبحت الدائرة مغلقة. واعتبر الزعيم فرحات عباس في كتابه (الاستقلال المصادَر) أننا أصبحنا أمام نظام حكم مطلق قائم على الحكم الشخصي . باعتباره رئيس الجمهورية . رئيس الحكومة . ورئيس الحزب . ويختار أعضاء الجمعية الوطنية بعد أن يختار هو بنفسه من قبل الحزب، لقد شعر الزعيم فرحات عباس بالقلق إزاء الانزلاقات التي عرفتها الجزائر انذاك، خاصة بعد اغتيال أول وزير للشؤون الخارجية محمد خميستي في ماي 1963م، واستقالة محمد خيفر من منصب أمين عام المكتب السياسي في 16 أفريل 1963م، فأصبح أحمد بن بلة رئيساً للجمهورية وأميناً عاماً للمكتب السياسي لجبهة التحرير الوطني، بالإضافة إلى ذلك أعلن حسين ايت أحمد في 9 جوان 1963م عن معارضته لأحمد بن

بلة ولنظام الحكم القائم، ثم تم توقيف محمد بوضياف في 24 جوان 1963م، كما تم توقيف وإعدام قائد الولاية السادسة محمد شعبان[1].

ففي ظل تزايد سلطان الرئيس أحمد بن بلة حاول الزعيم فرحات عباس تقديم مشروعه حول الدستور، والقاضي بمنح سلطات واسعة للمجلس الوطني الممثل للإدارة، وتقليص سلطات رئيس الجمهورية. إلا أن إعداد الدستور بطريقة سريعة وغير مهيأ لها، وغير شرعية مخالفة للتقاليد السياسية ؛ دفع به إلى تقديم الاستقالة من الجمعية الوطنية التأسيسية، وذلك من خلال رسالة قدمها في 13 أوت 1963م لسادة النواب في الجمعية الوطنية، بررها بالاختلاف في الرؤى حول تنظيم السلطات العمومية في الجزائر، وحدد في الرسالة لماذا لم يكن موافقاً حول مشروع الدستور الذي تم إعداده من قبل الحكومة والمكتب السياسي، واعتبر أن مسألة دستور الجمهورية يجب أن يحظى بأولويات، وهي تقتضي منا جميعاً التأمل والدراسة، لأن بعد الكفاح الكبير الذي خضناه من أجل الاستقلال هناك نضال آخر مفروض علينا خوضه، وعلى كل الشعب والنواب أن يكونوا شجعاناً.

وقد اتخذ أيضاً الزعيم فرحات عباس موقفاً من المكتب السياسي الذي وضع البلاد أمام الأمر الواقع، وجعل الجزائر جمهورية الزملاء حيث استفاد منها بعض زملاء القادة الذين هم في السلطة.

إن الظروف السياسية الصعبة التي مرت بها جزائر الاستقلال والمتسمة بالفوضى السياسية، وغياب المهنية السياسية، وعدم احترام الرأي المخالف، دفعت بالزعيم فرحات عباس إلى إحداث القطيعة مع النظام القائم آنذاك.

إن موقف الزعيم فرحات عباس هذا جعله يتعرض للمضايقة من قبل السلطة، وتم وضعه تحت الإقامة الجبرية في الجنوب الجزائري، واتهامه بتوجهه البورجوازي والمعادي للاختيار الاشتراكي للجزائر، ثم أطلق سراحه في جوان 1965م.

---

(1) منابع الثقافة السياسية والخطاب الوطني ص 433.

ومع ظهور الانقلاب العسكري في 19 جوان 1965م بقيادة العقيد هواري بومدين، انتقد الزعيم فرحات عباس ما قام به الجيش واعتبر أنه خرج عن المهمة الموكلة له والمتمثلة في الدفاع عن الدستور والشرعية والدخول في مرحلة اللاشرعية، وقاد البلد إلى الحكم الديكتاتوري، واعتبر الزعيم فرحات عباس أن العقيد الهواري بومدين استمر في نفس نهج رفيقه أحمد بن بلة، وأن مجلس الثورة بمثابة غطاء لممارسة السلطة الشخصية. ورأى أن الوعود المتعلقة بالتغيرات التي تمّ الإشارة إليها في 19 جوان 1965م، لم تعرف التطبيق والتجسيد، والكتاب الأبيض الذي أعلن عنه في الإذاعة بقي «رسالة ميتة»[1].

وعمل العقيد هواري بومدين على الانتقال من المشروعية التاريخية إلى المشروعية الدستورية، ومن مرحلة اللاشرعية إلى الشرعية القانونية، فبدأ النظام على حد تعبير الباحث جون كلود فاتان يدخل في إطار المأسسة والسير نحو الطريق الشرعي.

ففي ظل هذه الأحداث انتقد الزعيم فرحات عباس مع يوسف بن خدة ولحول الحسين والشيخ خير الدين توجهات النظام السياسي، وذلك من خلال البيان المشهور في مارس 1976م وحمّل المسؤولية للحكم فيما يلي:

. تدني التقاليد السياسية وعبادة شخصية الحاكم.

. غياب الديمقراطية التي ضحى من أجلها الشعب الجزائري.

. قمع الحريات الفردية بما فيها حرية التعبير.

. رفض الحكم الشخصي.

وفي نهاية البيان الجريء . انذاك . اقترحوا ما يلي:

. انتخاب جمعية تأسيسية.

. إنهاء النظام الاستبدادي الشمولي.

---

(1) المصدر نفسه ص 436.

ـ السماح بحرية التعبير.

وقد سلم هذا البيان ـ الذي هو نداء إلى الشعب الجزائري ـ رئيس الدولة الهواري بومدين، وقد كان الرد فوراً بوضع الزعيم فرحات عباس والاخرين تحت الإقامة الجبرية، ولم ترفع عنه الإقامة الجبرية إلا في 13 جوان 1977م، ومع ذلك بقي ساخطاً على النظام المتسلط إلى غاية وفاته في 24 ديسمبر 1985م لكن بعد العقيد الهواري بومدين.

ـ وقد أثنى عليه معاصروه فقال فيه حسين ايت أحمد في شهادة عن فرحات عباس: فرحات عباس كان نزيهاً ومخلصاً وقد خدع من قبل العسكريين لما اندمج في جامعة وجدة.

ـ وقال الباحث محمد حربي: إن فرحات عباس لعب دوراً كبيراً أثناء الثورة التحريرية، فلم يعد يطالب بالاندماج بل طالب بالاستقلال[1].

ـ وأما حساني عبد الكريم فيقول: لقد كان رجل المستقبل، وكانت له رؤية الجزائر المستقبل، والتي تهدف إلى ترقية الإنسان الجزائري. وكافح فرنسا بمنطق السياسة وسلاحهم، وكان يضرب الفرنسيين في الصميم محاولاً الكشف عن النفاق في سياستهم[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 437 ـ 450.

(2) المصدر نفسه ص 450.

المبحث الثاني

الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس

أولاً: أسرة ابن باديس ومولده ونشأته وطلبه للعلم:

1 . أسرة بن باديس:

ينحدر الشيخ الإمام رائد النهضة الحديثة في الجزائر من أسرة عريقة أصيلة في العلم والجاه والسلطة، ولها باع طويل في العلوم الشرعية بمدينة قسنطينة.

أ . منذ عصور تعود أصولها إلى الأمير المعز لدين الله بن باديس الزيري الصنهاجي (406 . 452هـ / 1515 . 1561) الذي ثار على الدولة الفاطمية في مصر، وقطع الصلة السياسية والمذهبية معها، وألغى المذهب الشيعي وأعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي مذهب الأغلبية في ربوع افريقية والمغرب الأوسط «الجزائر»[1].

والفضل في ذلك لله عز وجل ثم لفقهاء المالكية الذين استطاعوا أن يصلوا إلى ديوان الحكم في دولة صنهاجة التابعة للدولة الفاطمية بمصر، وأثروا في بعض الوزراء والأمراء الذين كان لهم الفضل بعد الله في تخفيف ضغط الدولة على علماء أهل السنة. واستطاع العلامة أبو الحسن الزجال أن يؤثر في الأمير المعز بن باديس الصنهاجي في تربيته على منهج أهل السنة، وأعطت هذه التربية ثمارها بعدما تولى المعز أفريقية في ذي الحجة سنة 406هـ، وكان عمل العلامة أبو الحسن في السر بدون أن يعلم به أحد من الشيعة، وكان هذا

(1) البيت الباديسي ، د. عبد العزيز فيلالي وآخرون ص 115.

العالم فاضلاً ذا خلق ودين وعقيدة سليمة، وكان مبغضاً للمذهب الشيعي الباطني. واستطاع أن يغرس التعاليم الصحيحة في نفسية وعقلية وفكر المعز بن باديس، الذي تمّ على يديه القضاء على مذهب الشيعة الإسماعيلية في الشمال الأفريقي.

وقد وصف الذهبيُّ المعزَّ بن باديس فقال: وكان ملكاً مهيباً وشجاعاً عالي الهمة محباً للعلم كثير البذل مدحه الشعراء، وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثر بأفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً للخلاف، وكان يرجع إلى الإسلام فخلع طاعة العبيدية وخطب للقائم بأمر الله العباسي فبعث إليه المستنصر يتهدده فلم يخفه[1]، ورد المعز بن باديس على خطاب المستنصر الفاطمي بمصر الذي هدده فيه وقال له: هل اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء في كلام طويل؟ فأجابه المعز: إن اباءئي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن يتملكه أسلافك ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ولو اخروهم لتقدموا بأسيافهم[2].

وبيّنت لنا كتب التاريخ أن المعز بن باديس تدرج في عدائه للشيعة الرافضة الباطنية ولحكام مصر، وظهر ذلك في عام 435هـ عندما وسع قاعدة أهل السنة في جيشه وديوانه ودولته، فبدأ في حملات التطهير للمعتقدات الباطنية ولمن يتلذذ بسب أصحاب رسول الله (ص)، فأوعز للعامة وللجنود بقتل من يظهر الشتم والسب لأبي بكر وعمر رضي الله عنهم، فسارعت العامة في كل الشمال الأفريقي للتخلص من بقايا العبيديين ليصفى الشمال الأفريقي من المعتقدات الفاسدة الدخيلة عليه.

وأشاد العلماء والفقهاء بهذا العمل الذي أشرف على تنفيذه المعز بن باديس، وذكر الشعراء أشعاراً في مدح المعز.

واستمر ابن باديس في الانفتاح على العامة، والتقرب إلى العلماء والفقهاء من أهل السنة، وواصل السير في تخطيطه للانفصال الكلي عن الدولة العبيدية في مصر، فجعل المذهب المالكي هو المذهب الرسمي لدولته،

(1) سير أعلام النبلاء (18 / 140).

(2) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، للطاهر الزاوي ص 289.

وأعلن انضمامه للخلافة العباسية وغيّر الأعلام إلى العباسيين وشعاراتهم، وحرم أعلام الدولة الفاطمية وشعاراتهم، وأمر بسبك الدراهم والدنانير . التي كانت عليها أسماء العبيديين والتي استمر الناس يتعاملون بها 145 سنة . وأمر بضرب سكة أخرى كتب على أحد وجهيها لا إله إلا الله محمد رسول الله. وكتب على الآخر {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *} [آل عمران: 85] وانضمت برقة كلها إلى المعز بن باديس بعد أن أعلن أميرها جبارة بن مختار الطاعة له، وكان أول من قاد حملة التطهير على الشيعة الإسماعيلية في طرابلس الغرب وحارب تقاليدهم الباطلة ودعوتهم المضللة هو العلامة علي بن محمد المنتصر وكنيته: أبو الحسن المتوفى عام 432هـ[(1)].

ب . وتقلد بعض أفراد الأسرة الباديسية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين العديد من الوظائف السامية بمدينة قسنطينة بحيث تميز حسن بلقاسم بن باديس بالعلم وأصول الدين والخطابة والقضاء، ويعد أحد أعمدة الفقه المالكي في مدينة قسنطينة خلال القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، وعين الشيخ أبو علي حسن بن خلف بن باديس (784هـ / 1382م) قاضياً وخطيباً بمدينة قسنطينة إلى وفاته، كان مشهوراً بغزارة علمه وبراعته في الفقه المالكي والأصول.

وأما أبو علي حسن بن أبي القاسم بن باديس (787هـ /1385م) فقد اشتهر هو الاخر بغزارة العلم وبكثرة تصانيفه ونظمه وشروحه، وشغل هو الاخر منصب الخطابة والقضاء بمسقط رأسه، ثم قاضي الجماعة بالحاضرة التونسية، وتقلد نفس الوظيفة بعد عودته إلى مدينة قسنطينة، كان متشبعاً بالتصوف، ونظم قصيدة شعرية مشهورة بالسينية والمسماة «بالنفحات القدسية» وتتحدث عن المشيخة، وتتضمن الثناء على الشيخ عبد القادر الكيلاني (560هـ / 1165م) ومناقبه وسلوكه وزهده وبركاته.

(1) صلاح الدين الأيوبي ، للصّلاّبي ص 158.

وبرز من هذا البيت كوكبة من العلماء والفقهاء والخطباء والقضاة في العهد العثماني نذكر منهم على سبيل المثال: أبو العباس أحمد المدعو حميدة بن باديس (969هـ / 1561م)، الذي كان يشغل منصب المشيخة والقضاء والإمامة بجامع قصبة مدينة قسنطينة، ومنهم يحيى بن باديس ابن المدعو حميدة، كان كثير المداعبة والتواضع كثير القراءة ذا تلاوة حسنة للقران الكريم، شغل هو الاخر منصب نائب عن قضاة العجم، وخطيب جامع قصبتها يستخلف في كثير من الأحيان ابن لفقون الجد في الصلاة والخطابة[1]، وظهر منهم في القرآن 11هـ / 16م أبو عبد الله محمد بن باديس الذي تتلمذ على عبد الكريم لفقون صاحب منشور الهداية، وكان يكاتبه كثيراً في مسائل فقهية وقضايا نحوية. وعند سفرة إلى البقاع المقدسة التقى في مصر بأبي العباس أحمد المقري صاحب كتاب «نفح الطيب» حيث تباحث معه في قضايا فكرية ولغوية وأخذ عنه الكثي[2]، ومنهم أيضاً حميدة بن باديس الذي تبوأ منصب كاتب البلاط العثماني بمدينة قسنطينة وكذلك بالجزائر ؛ يعد من كبار الأدباء والكتاب يحبه الناس لأنه لا يدخر وسعاً في سبيل قضاء حوائجهم، تولى الخطابة في جامع قصبة المدينة ثم ترقى إلى خطة الإفتاء.

واشتهر منهم المفتي بركات بن باديس دفين مسجد سيدي قموش، يتميز بغزارة التأليف والتصنيف في الفقه والألغاز والتصوف، عاش في القرن 12هـ 18م[3].

واشتهر من هذا البيت أيضاً في القرنين 19، 20 الميلاديين في ميدان العلم والقضاء والنضال السياسي، والده محمد مصطفى بن المكي 1851م، الذي تبوأ مناصب عديدة منها عضو المجلس الجزائري الأعلى وعضو المجلس العمالي قسنطينة، كما تقلد عمه حميدة بن باديس منصب نائب عمالي عن عمالة قسنطينة أواخر

(1) البيت الباديسي ص 112.

(2) المصدر نفسه ص 112.

(3) المصدر نفسه ص 112.

القرن 19 الميلادي، واشترك مع بعض زملائه من النواب في تحرير عريضة سياسية طويلة، شرحوا فيها حالة المجتمع الجزائري المزرية وأوضاعه المتردية وقدموها إلى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الفرنسي سنة 1891م.

وشغل جده الشيخ مكي بن باديس 1899م المعروف بسعة اطلاعه على العلوم الشرعية، منصب القضاء أيضاً بمدينة قسنطينة، وتقلد العضوية في المجلس العام وفي اللجنة البلدية لمدينة قسنطينة وكان شخصية مرموقة استشارية للحكومة الفرنسية، قدم خدمات جليلة لأبناء وطنه ولا سيما منها تلك التي قدمها أثناء المجاعة الكبيرة التي حلت بالبلاد ما بين 1862م ـ 1968م[1].

وتنتمي أمه السيدة زهيرة بنت محمد بن عبد الجليل بن جلول إلى بيت من البيوتات العريقة المشهورة في مدينة قسنطينة، تمتد عراقتها وأصولها إلى أربعة قرون من الزمن، تنحدر من قبيلة بني معافي الأوراسية، انتقل أحد أفرادها إلى مدينة قسنطينة واستقر بها في العهد العثماني، وتزوج من أميرة تركية هي جدة ابن جلول، وتميزت هذه الأسرة أيضاً بالجاه والعلم والسياسة «المخزن»، فكان لها باع طويل في تمثيل المجتمع القسنطيني في النيابة والمجالس المحلية. فكان لهذا الرافد موروث أيضاً أثر في تكوين شخصية الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ومواهبه العلمية والفقهية والسياسية[2]، وتزوج محمد ابن مصطفى بن باديس زهيرة بنت جلول وأنجب منها خمسة ذكور وبنتين، فكان عبد الحميد أكبرهم وعبد الحق أصغرهم.

2 . نشأته:

ولد الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس 1889م وترعرع في أحضان أسرة عريقة في الجاه والمال والعلم والنضال، وليس غريباً أن يكون سليل أجداده العلماء، ولعل التقاليد العلمية التي تعودت عليها هذه الأسرة جعلت والده يختار له منذ البداية دراسة العلوم الدينية والتخصص فيها، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن الثالثة

(1) المصدر نفسه ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 113.

عشـرة مـن عمـره، وتعلـم اللغـة العربيـة علـى علمـاء المدينـة وشـيوخها، ولم يقدمـه إلى المـدارس الفرنسـية الكولونيالية كغيره من أبناء البيوتات الأرستقراطية انذاك وكبار الموظفين في المدينة، لأنه كان يريد له أن يسلك سلوك أجداده في دراسة العلوم الإسلامية(1).

وقد وجهه والده جهة صالحة في الحياة، فاختار له طريق العلم وانتقى له معلمين يتميزون بالكفاءة والعلم والتقوى وهو كبير وأعاشه وبراه كالسهم وحماه من كيد الكائدين، ووقاه من ظلم الاستعمار وبطشه ووفر له كل أسباب الحياة، حتى يتفرغ للعلم والمعارف والنضال من أجل الأمة. وفي ذلك يقول الشيخ الإمام عبد الحميد: إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً وكفاني كلف الحياة(2).

لقد حفظ ابن باديس القرآن الكريم على الشيخ محمد المداسي، وأتم حفظه مبكراً وهو في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤدب بذكائه وسيرته الطيبة، قدمه ليصلي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير.

وفي سنة 1903م بدأ في طلب العلم الشرعي وأدواته المعروفة، فانتخب له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الإسلامية والعربية وهو الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي، فأخذ يعلمه بجامع سيدي محمد النجار مبادئ العربية والمعارف الإسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية، وكان ابن باديس يعترف له بالفضل وبما كان له من تأثير على نفسه، ثم هاجر حمدان الونيسي إلى المدينة المنورة متبرماً من الاستعمار الفرنسي وسلطته ومجاوراً بها ومدرساً للحديث إلى أن توفاه الله ورغب ابن باديس أن يسافر مع شيخه إلى المدينة ولكن

(1) المصدر نفسه ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 114.

أباه منعه وصرفه عن ذلك.

وحين بلغ الخامسة عشرة من عمره 1904م زوّجه والده وأنجب ولداً اسماه عبده إسماعيل توفي وعمره سبعة عشر عاماً، وهذا الاسم له دلالة لأن الشيخ محمد عبده زار الجزائر العاصمة ومدينة قسنطينة سنة 1903م وعمر ابن باديس أربعة عشر عاماً، فمن الممكن أن يكون قد اتصل به أو سمع عنه، ولاسيما إذا أخذنا بالاعتبار تردد ابن باديس الشاب على الجامع الكبير وإمامته بالناس في صلاة التراويح، وهو المسجد الذي زاره محمد عبده في قسنطينة(1).

3. رحلته إلى تونس:

بعد أن استكمل ابن باديس تكوينه الأسري وتحصيله العلمي القاعدي بقسنطينة ؛ ارتأى السفر إلى تونس بجامعها الأعظم جامع الزيتونة، وذلك سنة 1908م ودافعه في ذلك الاستزاده علمياً وفكرياً وثقافياً في هذه المؤسسة العلمية العريقة ـ الشهيرة ـ وكذا لتحقيق مطلب أستاذه لونيسي وأمنية والديه اللذين حرضاه وشجعاه على السفر(2).

ويرى الدكتور عبد العزيز فيلالي: أن الإمام عبد الحميد بن باديس قد سافر إلى جامع الزيتونة بتونس وعمره 21 سنة وليس 19 سنة كما ذهب إليه الكثير من الدارسين، وكان ذلك ـ حسب دفتره ـ في أواسط محرم من سنة 1328هـ الموافق 27 من شهر جانفي سنة 1915م وليس سنة 1908م كما هو عند من كتبوا عن حياته، وهي السنة تقريباً التي هاجر فيها أستاذه محمد حمدان الونيسي إلى المدينة المنورة.

وقد أجري له اختبار لإثبات مستواه العلمي من قبل لجنة علمية مكونة من خيرة أساتذة الزيتونة، ويتضمن اختبار المواد والكتب التي درسها الإمام في مدينة قسنطينة وهي المواد التي صرّح بها أمام لجنة

(1) ابن باديس حياته وآثاره ، د. عمار الطالبي (1 / 74 ـ 75).

(2) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي ، عبد الرشيد زروقة ص 86.

الامتحان وهو الاختبار الذي يحدد مستواه العلمي والفكري ويخول اللجنة العلمية أن توجهه إلى الصف الذي يتناسب مع تحصيله العلمي ويتلاءم معه[1].

أ. نبوغ علمي مبكر والانفتاح على المدرسة الخلدونية:

أظهر الإمام عبد الحميد بن باديس أثناء المحاورة العلمية نبوغاً علمياً مبكراً ونضجاً فكرياً متميزاً، وثقافة إسلامية واسعة وعميقة ولغة عربية سليمة، تدل على أنه يملك زمامها، أبهر ممتحنيه وجذب انتباههم إليه وإلى مخزونه المعرفي، فخوّلوا له بالإجماع الالتحاق بجامع الزيتونة والدراسة بالصف ما قبل الاخير للحصول على شهادة التطويع، وحددوا له الكتب والمواد التي يزاولها بالزيتونة ودونوها له في دفتره[2].

وطلبت نظارة الزيتونة الشيوخ وهيئة التدريس بأن يصححوا له ما يزاوله عليهم من قراءة الكتب والمواد المقررة عليه جاء فيها: الحمد لله من المشايخ النظارة لسائر المشايخ والمدرسين والمتطوعين، بأن التلميذ المسمى أعلاه: عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس الغربي من قسنطينة المتقلد لهذا الدفتر، لمن ادّعى القراءة ببلده وأجري عليه الاختبار من قبل لجنة علمية، فيما أدّعى القراءة فيه من الكتب العلمية، وتبين لدينا أنه أهل لقراءة «الوسطى في التوحيد» ولقراءة المختصر الفقهي «بالشرح من الربع الثاني من علم الفقه».

ولقراءة «الأشموني» على الخلاصة في النحو.

ولقراءة «السقيح» وشرح المحلى في أصول الفقه.

ولقراءة «لامية الأفعال» بالشرح مع «شرح الزنجاني» في الصرف.

ولقراءة «مختصر السعد» في الأول في البلاغة.

ولقراءة «التهذيب» في المنطق.

ولقراءة «علم مصطلح الحديث» ابتداء النووي في الحديث.

وعليه فلتصححوا له ما يزاوله عليكم من قراءة الكتب المذكورة ومحالها المبينة في دفتره، هذا مع تحرّيكم

---

(1) وثائق جديدة عن حياة خفية في حياة ابن باديس الدراسية ، د. عبد العزيز فيلالي ص 21.

(2) المصدر نفسه ص 22.

التام في ذلك والله ولي إعانة الجميع، كتب في أواسط المحرم الحرام فاتح شهور عام 1328هـ الموافق 27 جانفي سنة 1915م.

التحق الإمام عبد الحميد بالزيتونة في التاريخ المذكور وانتظم مع تلاميذها، وبدأ دراسة المواد العلمية المقررة عليه من قبل النظارة، وهي مواد متعلقة بشهادة «التطويع» بكل جدية وشغف ومواظبة على الدروس والمحاضرات محتكاً بمشايخه وملتفاً حول حلقاتهم[1].

مكث الإمام في تونس أربع سنوات كاملة قضاها دارساً ومدرساً وهي فترة يعتبرها الإمام منعطفاً هاماً في حياته العلمية والتكوينية حيث يقول عنها:

ما كنت لأنسى أربع سنوات قضيتها بالزيتونة، شطرها متعلماً وشطرها متعلماً ومعلماً، فكان لي منها اباء وإخوة وأبناء، فأكرم بهم من اباء وأكرم بهم من إخوة وأكرم بهم من أبناء[2].

كان جاداً نشيطاً في تحصيله للعلم والاتصال بالشيوخ والعلماء هناك، حتى أنه استطاع على غرار الطلبة المتفوقين، اختصار مراحل الدراسة التي تستلزم قضاء الطالب سبع سنوات حسب البرامج المقررة إلى ثلاث سنوات فقط[3].

وهذه القدرة الفذة وهذا النبوغ عند ابن باديس ؛ إنما يرجع سببهما أولاً إلى صفاته الذاتية التي فطره الله عليها وحباه بها من فطانة وذكاء وقوة استيعاب للمعرفة، وثانياً إلى ما حصله من تكوين علمي قاعدي بمسقط رأسه، إذ أهلته الدروس التي تلقاها على استاذه لونيسي بقسنطينة للحصول على مستوى السنة الرابعة من التعليم الزيتوني دفعة واحدة[4].

التقى ابن باديس بكثير من علماء الزيتونة انذاك، وتلقى عنهم علوماً مختلفة كل بحسب تخصصه العلمي،

(1) المصدر نفسه ص 23.

(2) مجلة الشهاب ج 10 م 12 ص 440.

(3) جهاد ابن باديس ص 87.

(4) المصدر نفسه ص 87.

فأخذ عن كل من الشيوخ محمد النخلي، الطاهر بن عاشور، الخضر بن الحسين، أبي محمد بلحسن بن الشيخ المفتي، محمد النجار، محمد الصادق النيفر، سعد الفياض السطايفي المصلح المجدد، محمد ابن القاضي، البشير صفر المؤرخ المجدد.. وغيرهم كثير.

ولم يترك الإمام فرصة للاتصال والتتلمذ على شيخ أو الذهاب والانتقال إلى مكان يسمع ويعلم عنه أن فيه خيراً له إلا قصده واتصل به وانتقل إليه وغرف منه ما وجد عنده، ولذلك نجده يتصل بالجمعية الخلدونية التي كانت تخصص دروسها لتلاميذ جامع الزيتونة لاستكمال معلوماتهم في المواد العلمية العصرية كدروس الحساب والمساحة والجغرافيا والتاريخ والكيمياء واللغة الفرنسية ومبادئ حفظ الصحة والطبيعيات[1].

ولم يكن مستواها العلمي زهيداً وإنما كان يتطوع بإلقاء هذه الدروس خيرة الأساتذة بمن فيهم حافظ الجمعية الخلدونية نفسه الشيخ البشير صفر.

وابن باديس كباقي أقرانه وزملائه من تلاميذ الزيتونة كان يتردد على الجمعية، سواء بصورة انتظامية أو غير انتظامية، إذ كانت التراتيب الإدارية لا تمنع الطلبة من الإقبال التلقائي، وحضور الدروس بصفة فردية حرة[2].

لقد تطورت الخلدونية بسرعة إلى معهد متكامل للتعليم العالي بكل ما تعنيه الكلمة، وكانت الموضوعات التي تدرسها هي العلمية أولاً، ثم سرعان ما يقدم علم التاريخ على الرياضيات والجبر والفيزياء أو الكيمياء، وكان من الواضح أن أساتذتها كانوا مطلعين على بقية العالم الإسلامي، ولكن معرفتهم بأوروبا جعلتهم يتميزون على مدرسي الزيتونة. وفي المبنى الذي ضم الخلدونية خلف القصبة وعلى بعد 200 ياردة من مسجد الزيتونة درسوا موضوع نهضة المسلمين وانحطاطهم، ومسألة علوم الأوروبيين، والتأثير الذي كان للفرنسيين والبريطانيين على ديار المسلمين.

---

(1) النشاط العلمي والفكري للمهاجرين، محمد صالح ص 87.

(2) المصدر نفسه ص 88.

لقد عرفت الخلدونية في تونس بميولها التجديدية، وقد وفرت مكتبتها مؤلفات حديثة حول مدارس الإصلاح في مصر وبلاد الشام، وكان أعضاؤها متأثرين بأفكار العروة الوثقى التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده.

وقد نقدت الخلدونية جامعة الزيتونة على انحطاط المجتمع التونسي.

لقد ترد الإمام عبد الحميد بن باديس على الخلدونية بانتظام، وأقبل بلهف على صحف ومجلات لم يكن يمكن للزيتونة أن تحث على قراءتها قطّ.

وقد أصبحت الأمثلة على مفاسد فرنسا من خلال الأراضي الإسلامية واضحة، وكان لابد من صدّ أوروبا بسبب تهديدها لبلاد المسلمين.

لقد وجد عبد الحميد بن باديس أن أعضاء الخلدونية كانوا أكثر معرفة بالأوضاع في الجزائر مما كان يعرف هو نفسه، لقد تأثر الإمام عبد الحميد بالأفكار الجديدة والجذابة والإصلاحية[1].

مكث ابن باديس بالزيتونة أربع سنوات قضاها في التحصيل الجاد لكل ما استطاع من علوم ومعارف وثقافة، والاتصال المستمر بكل شيخ أو استاذ يتوسم أو يسمع عنه خيراً في العلم والدين، وكان لا يشارك الطلاب عبثهم ولهوهم، بل كان يحب الخلوة في حجرته للمطالعة والتفكير[2].

وكان له إصرار عظيم على المطالعة والتحصيل، فقد روى أحد تلاميذه عنه: كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة مستعيناً ببعض المنبهات، لكني حين أحس أن النوم يغالبني ولم تعد المنبهات تنفع في دفعه عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض وأضع مرفقاي على الأرض أو أحدهما فيلامس الاجر بارداً فاستيقظ وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها[3]، وكمحصلة لجهده واجتهاده العلمي والدراسي بالزيتونة كان ترتيب

(1) عبد الحميد بن باديس، أندري ديرليك ص، 159.

(2) ابن باديس مفسراً ، عبد الرحمن حسن سلوداي ص 41.

(3) عبد الحميد باديس، مازن صلاح مطبقاني ص 33.

الإمام: الأول بين جميع الطلبة الناجحين، كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة[(1)]، ونشرت ذلك الصحف التونسية.

وفي سنته الأخيرة التي قضاها أستاذاً ومعلماً بالجامع توثقت صلته العلمية بأستاذية الشيخين محمد النخلي، ومحمد الطاهر بن عاشور والتي كانت قد بدأت من قبل. هذه الصلة التي تركت بصماتها منطبعة في شخصية الإمام والتي يقول عنها: فاتصلت بهما عامين كاملين، كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر[(2)].

ورغم ما وجده ابن باديس في الزيتونة وحصّله منها من معارف وعلوم وعلاقات، سواء من المشايخ والأساتذة أو الطلبة، ورغم ما استفاده من الوسط العام الذي عاش فيه وتأثر به ؛ إلا أنه: يمكن القول بأن الدراسة في جامعة الزيتونة لم تكن في المستوى الذي تتطلبه نزعته العلمية والإصلاحية[(3)].

ولذلك نقد مناهجها التعلمية وبرامجها وموادها، فنجده بنفاذ بصيرته وعمق معرفته وخبرته وسعة ثقافته وعلمه ؛ ينصح القائمين على الزيتونة قائلاً: وإنني أقترح إخوتي القائمين بها، أن يضموا إلى قلم تحريرها رجالاً من الزيتونيين الذين يعرفون بعض اللغات الغربية ولهم خبرة العصر وراء البحر[(4)].

فابن باديس كان يريد ثورة تجديدية في برامج ومناهج الزيتونة، حتى تجمع بين العلوم النقلية والعلوم العقلية المتوارثة والموروثة، وبعبارة جامعة الجمع بين التاريخ والعصر، وبين التراث والمعاصرة[(5)].

ب . حصاد الرحلة:

يمكن القول إن رحلة الإمام عبد الحميد الدراسية العلمية إلى الزيتونة ، كانت منعطفاً حاسماً وهاماً في

---

(1) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زروقة ص 89.

(2) المصدر نفسه ص 90.

(3) الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم ص 16.

(4) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زروقة ص 91.

(5) المصدر نفسه 91.

حياته حيث تلقى تكويناً علمياً واسعاً وعميقاً وشاملاً، ألمّ فيه بالعلوم الشرعية النقلية والعلوم الإسلامية التراثية، وذلك على يد أساتذة وشيوخ عرفوا واشتهروا بالعلم الواسع، والخلق القويم، سواء في الزيتونة وتونس أو خارجهما.

حيث وجدناه يتلقى العلم عن الشيخين الجليلين محمد الطاهر بن عاشور ومحمد النخلي، اللذين يعتبران زعيمي النهضة الفكرية والعلمية والإصلاحية في الحاضرة التونسية(1)، ويلتقي بهما في علاقة علمية وفكرية دامت مع الأول ثلاث سنوات ومع الثاني سنتين.

كما أخذ وتعمق في دراسته التاريخ الإسلامي بمطالعته وقراءته لما كتبه الشيخ البشير صفر، الذي يعتبر من المصلحين المجددين في تونس، ومن بناة النهضة العلمية والفكرية الحديثة بها(2).

ويشير ابن باديس إلى تأثير شيخه النخلي عليه، وكيف أثر في تفكيره، وذلك عندما كان يتبرم من أساليب ومناهج القدامى في تفسير القرآن الكريم، ويقلقه ذلك حتى أنه شكا ذلك لأستاذه محمد النخلي، فقال له هذا الأخير ناصحاً وموجهاً ومرشداً: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الاراء المضطربة، يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح(3).

هذه الكلمة الوجيزة المركزة نبهت ابن باديس إلى منهج كامل في طريقة التعامل مع هذا النوع من التفاسير القديمة للقران الكريم، ويعبر عن ذلك فيقول: فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني افاقاً واسعة لا عهد لي بها(4).

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 76) ، عمار الطالبي.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. تركي رابح ص 167.

(3) جهاد ابن باديس ص 92.

(4) المصدر نفسه ص 92.

وكل هذا وغيره مما استفاده من علمائه انعكس فيما بعد على جهوده العلمية وحركته الإصلاحية الكفاحية، فجاء مثلاً تفسيره للقران على خلاف منهج القدامى، مستفيداً بذلك من قاعدة أستاذه ومطبقاً لها، كما يجب أن نشير إلى التأثير الواسع للوسط الزيتوني في ابن باديس، حيث إن تنقلاته وحركاته ومخالطاته ومتابعاته للأحداث سواء المحلية أو الدولية ؛ كل ذلك . مما لا شك فيه . استفاد منه ابن باديس أيما استفادة، ظهرت نتائجه واثاره بعد رجوعه من تونس ومباشرته . ميدانياً . العمل الدعوي الإصلاحي الجهادي، فالوسط الاجتماعي الزيتوني هو الذي كان له الفضل في تكوينه السياسي بما طالع في الصحافة والمجلات من مقالات سياسية وإخبارية وتحليلية[1].

ج . العودة من تونس:

بعد تكوين وتحصيل علمي . دراسة وتدريساً . بالزيتونة دام أربع سنوات، عاد ابن باديس إلى مسقط رأسه قسنطينة سنة 1913م، وذكر ابن باديس استقبال والده ووالدته له بعد رجوعه من تونس، فقال: حينما ولجت باب الدار أسرع أبي إليّ فعانقني، وقال لأمي في سرور وإبتهاج: ها هو قد جاءك عالماً، فانطلقت من فيها زغرودة مازلت أتذكرها ولن أنساها، وشعرت من أعماقي منذ ذلك اليوم بمدى عبء المسؤولية التي أحملها على عاتقي بصفتي عالماً، وبما أثرت به في نفسي تلك المناسبة الباقية في ذاكرتي ما دمت حيا[2].

وبدأ ابن باديس بعد رجوعه واستقبال أهله له في ممارسة العمل الإصلاحي الجهادي وذلك بالجامع الكبير، الذي أمّ الناس فيه في صلاة التراويح مدة ثلاث سنوات من قبل، فكان يلقي دروساً على جمهور المصلين يشرح فيها كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» للقاضي عياض، ولكن تدريسه لم يستمر طويلاً، إذ سرعان ما كِيد له من طرف خصوم الإصلاح والتجديد[3]، وبإيعاز من الإدارة الاستعمارية، حتى

(1) المصدر نفسه ص 92.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ، جمع د. محمد الدارجي ص 259.

(3) الإمام عبد الحميد بن باديس ، د. تركي رابح ص 170.

أنهم أقدموا على إقلاقه ومنعه، وأطفؤوا عليه الضوء وهو في الدرس[1]، وأمام هذا الوضع ونتيجة لهذا التصرف المغرض الذي حزَّ في نفس ابن باديس قرر السفر إلى بيت الله الحرام[2].

4 . رحلته إلى المشرق:

المعروف منذ دخول بلاد المغرب تحت راية الإسلام ؛ أن رحلات المغاربة من بلادهم إلى المشرق العربي لم تنقطع، وكان لها عدة دوافع مهمة، من أبرزها:

. أداء فريضة الحج وزيارة الأماكن المقدسة سواء في مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو بيت المقدس.

. طلب العلم من المراكز العلمية المشهورة في المشرق الإسلامي، ومنها مكة المكرمة والمدينة المنورة ودمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من المراكز العلمية، التي كانت منذ فترة طويلة محط أنظار طلاب العلم من مختلف الأمصار الإسلامية.

هذا الأمر لم يكن غريباً على طلاب العلم في بلاد المغرب الغربي، لأن طالب العلم كان ينتهز فرصة أدائه لفريضة الحج، لكي يلتقي بأكبر عدد من العلماء المجاورين في مكة المكرمة والمدينة، أو بمن يلتقي بهم في طريق ذهابه وعودته إلى بلاده.

ولعل ذلك ما قام به الشيخ عبد الحميد بن باديس مبكراً، وساعد على ذلك حالة عدم الاستقرار الموجودة في الجزائر، بسبب السياسة الاستعمارية التي كانت تتخذها سلطات الإدارة الفرنسية، ومحاولتها المستمرة فرض القوانين الدنيوية لطمس هوية الجزائر الإسلامية.

وبالتالي عندما عاد ابن باديس من تونس وبدأ في إلقاء دروسه وتعليم أبناء بلده قسنطينة وجد الكثير من المضايقات، فقرر وهو على أعتاب الخامسة والعشرين أن يذهب في رحلة إلى بلاد المشرق العربي، كان غرضها

(1) المصدر نفسه ص 93.

(2) المصدر نفسه ص 93.

الأول تأدية فريضة الحج، ثم طلب العلم واللقاء مع شيوخه الذين تتلمذ عليهم خاصة الشيخ حمدان الونيسي، والمرور على مصر بلد الأزهر الذي كان شيخه محمد عبده قد زار الجزائر في عام 1903م، وعرج خلال الزيارة إلى مدينة قسنطينة، ويبدو أن الشيخ ابن باديس قد تأثر به لدرجة أنه عندما تزوج عام 1904م رزقه الله بأول مولود سماه عبده تيمناً بالشيخ محمد عبده، ومن ناحية أخرى كان هدف الرحلة الاطلاع على أحوال بلاد الشرق العربي، التي كانت تحت الاحتلال البريطاني، ولذلك ومع نهاية شهر رمضان عام 1331هـ/ 1913م ارتحل الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى تونس، ومنها قصد مصر ثم الحجاز ليلحق بتأدية فريضة الحج، وبعد أن فرغ من تأدية فريضة الحج ذهب إلى المدينة المنورة[1].

أ. الاستقرار بالمدينة:

استقر المقام بابن باديس بالمدينة المنورة، والتي كانت انذاك مقصد جميع العلماء وطلبة العلم من جميع أصقاع العالم الإسلامي، وهناك التقى شيخه الجليل حمدان لونيسي، كما التقى بشيوخ وعلماء اخرين منهم على الخصوص الشيخ حسين الهندي والشيخ الوزير التونسي، وألقى بحضورهم درساً في الحرم النبوي الشريف، فأعجبوا به إعجاباً شديداً مما لفت الأنظار إليه.

وفي هذه الأثناء أشار عليه شيخه الونيسي بالبقاء في المدينة إلى جواره ورغبه فيها لما يعرف من أوضاع بلده، لكن الشيخ حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده ومحاولة إنقاذها مما هي فيه بما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح، قائلاً له: ارجع إلى وطنك يا بني فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك، فالعلماء هنا كثيرون يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون، وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا[2].

---

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 346، 347.

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ، عبد القادر فضل ومحمد الصالح رمضان ص 39.

فاقتنع الشاب عبد الحميد بوجهة نظر هذا الشيخ، وقبل نصيحته، وقرر الرجوع إلى الوطن، عند ذلك حذره استاذه الونيسي، من أن يكون عبداً للوظيفة، لأنه تأكد أن الحكومة ستعرض عليه الوظائف، وقال له: احذر أن تقبل الوظيفة الحكومية، فهي قيد لك يحدّ من نشاطك. وأخذ عليه عهداً أن لا يقبل الوظيفة، ولا يتخذ علمه سلماً للأغراض المادية والأطماع الدنيوية، فعاهده تلميذه على ذلك، ووفى بهذا العهد.

كان ابن باديس لا ينسى ذكرياته بالمدينة، فقد قص ذلك على إخوانه وأصحابه. يقول أحمد توفيق المدني: قصّ عليّ يوماً ونحن بين اكام من الكتب بمكتبة الخلد وفيه قصة زيارته للحرم المدني الشريف، وما رأى في مدينة الرسول (ص) من سمو ومن انحطاط، وما شاهده في بعض علمائها . وكان فيها علماء أجلة من ارتفاع في المدارك ومن سفالة في الأخلاق . قال: وقفت وقفة إجلال وخشوع أمام قبر محمد (ص) وصاحبيه، وأحسست أني قد تجردت يومئذ من كل شوائب البشرية، وأصبحت روحاً صافية طاهرة، وغابت عني كل ملابسات الزمان والمكان، وخاطبت روح محمد (ص)، وكأنني أراها فقلت: يا رسول الله هذا عهد بيني وبينك، لأعيش في سبيل دينك وأمتك مجاهداً، ولأموتن في سبيل دينك وأمتك شهيداً، والله على ما أقول وكيل[1].

وقد حرص ابن باديس في هذه الرحلة على الاتصال بالمفكرين والعلماء للتحاور معهم، والاطلاع على أحوال المسلمين، ومقارنتها بأحوال بلاده، ودفعه هذا الاتصال إلى التفاعل مع الحركة الإصلاحية التي انتشرت على يد الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، متأثرين بزعيم المصلحين جمال الدين الأفغاني وبالحركة السلفية التي انتشرت في الحجاز[2].

كان ابن باديس من الذكاء وصفاء النفس وحسن الصلة بالله على مستوى عالي وكبير، كما كان للعلماء وشيوخه مكان كبير في نفسه، خصوصاً حمدان الونيسي وحسين أحمد الهندي هذان العالمان اللذان حاول كل

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع د. محمد الدراجي ص 145.

(2) المصدر نفسه ص 39.

واحد منهما أن يوجه ابن باديس وجهة معينة في مستقبل حياته، فشيخه حمدان الونيسي رغّبه وألحّ عليه في قبول المكث والإقامة الدائمة معه بالمدينة المنورة، وعدم العودة إلى الجزائر. والشيخ حسين أحمد الهندي أشار عليه بعكس وصية شيخه له، بأن يرجع إلى الجزائر ليباشر فيها عمل الدعوة والإصلاح والجهاد حتى لا يبقى فريسة سهلة ولقمة سائغة للاستعمار الفرنسي.

وهكذا وجد ابن باديس نفسه بين خيارين صعبين، إما أن يلبي ويحقق وصية شيخه الونيسي، ذي اليد الكبيرة عليه، وبالتالي يمكث مقيماً بالمدينة المنورة حيث الرغبة النفسية والعلم والعلماء، وإما أن يأخذ بنصيحة الشيخ حسين الهندي فيهجر تلك النعم، ويهاجر إلى حيث العمل الجهادي المضني بتحمل مسوؤلية إحياء الشعب وبعث الحياة فيه بالإسلام.

ويذكر ابن باديس وصيتَيْ هذين الشخصين له، وكيف أن الله ألهمه السداد في التفكير والاختيار، فيقول: أذكر أني لما زرت المدينة واتصلت فيها بشيخي الأستاذ حمدان الونيسي المهاجر الجزائري، وشيخي حسين الهندي أشار عليّ الأول بالهجرة إلى المدينة وقطع كل علاقة بالوطن، وأشار علي الثاني . وكان عالماً حكيماً . بالعودة إلى الوطن، وخدمة الإسلام فيه والعربية بقدر الجهد، فحقق الله رأي الشيخ الثاني ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته[1].

ويعقب الإمام على هذا الاختيار بأنه نابع من قناعة واطمئنان ورضا بالمسؤولية وتوابعها، مبيناً أن لا فرار من مواقع حراسة الذات والأمة، والذب عن حياضها كل معتد عليهما، فيقول: فنحن لا نهاجر، نحن حرّاس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعمّاتها في هذا الوطن[2].

ومكث ابن باديس بالمدينة المنورة ثلاثة أشهر قضاها متعرفاً إلى العلماء ومجالساً لهم[3].

(1) الشهاب ج 8 م 13 ص 355.

(2) المصدر نفسه ص 355.

(3) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زروقة ص 96.

ب ـ اللقاء بين ابن باديس والإبراهيمي:

وأهم عمل قام به في هذه الفترة التي أقامها بالمدينة التقاؤه بأخيه في الجهاد ـ فيما بعد ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي يحدثنا عن حكمة القدر الإلهي في جمعهما فيقول: كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبآت الغيوب لها أن يرد عليّ بعد استقراري بالمدينة المنورة سنة وبضعة أشهر، أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك الشيخ عبد الحميد أعلم علماء الشمال الإفريقي ولا أغالي، وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر[1].

هذا اللقاء الذي قدّره الله بين الشيخين كان لقاء له ما بعده من آثار طيبة في الجزائر وعليها، إذ كانا يجتمعان كل ليلة ـ وعلى مدار الثلاثة أشهر كلها ـ من بعد صلاة العشاء إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الصبح، وهما يتناقشان ويتدارسان أوضاع الجزائر، وما يجب عمله من أجل إصلاحها، وإنقاذها من حالتها المزرية العامة، والتي دفعت بكثير من العلماء والطلبة إلى هجرها وتركها[2].

وعن تلك الأسمار وما دار فيها بينهما يقول الشيخ الإبراهيمي: كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي ونخرج إلى منزلي، فنسمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد، فندخل في أول صلاة الصبح ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية الثلاثة أشهر التي أقامها الشيخ بالمدينة المنورة، وكانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبير للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءىٔ في مُخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله، ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة[3].

ويؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي على أهمية هذه اللقاءات في أنها كانت الأرضية التي أنبنت عليها جمعية

---

(1) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي ص 96.

(2) المصدر نفسه ص 96.

(3) المصدر نفسه ص 97.

العلماء، وتحددت على ضوئها ماهيتها وطبيعتها، فيقول: وأشهد الله على تلك الليالي من سنة 1913م؛ هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز إلى الوجود إلا في سنة 1931م.

وهكذا وبعد هذه السلسلة من اللقاءات بينهما، عزم الإمام على الرجوع إلى الجزائر، لتنفيذ ما اتفقا عليه من خطة وبرنامج إصلاحي جهادي، وبالتالي يحقق وصية شيخه حسين الهندي(1).

وبعد هذه الإقامة لابن باديس بالمدينة، عاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح، وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤشرات الهامة، وصدرت بعضها عن الواقع، وصدرت بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدرت بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعتها حركات الإصلاح والتجديد ودعوات المصلحين في العالم الإسلامي، من أمثال الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والمصلح جمال الدين الأفغاني، والعلاّمة محمد عبده(2).

ج ـ عناصر الخطة لنهضة الجزائر التي تمت بالمدينة:

وقد اتفق الإمامان عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي على الأمور التالية:

ـ دراسة الوضع القائم بالجزائر ووضع تصور شامل للحالة الراهنة في البلاد.

ـ وضع الأهداف الشاملة.

ـ وضع البرامج المفصلة التي تنهض بالبلاد.

ـ تحديد الوسائل الشاملة لهذه البرامج.

(1) المصدر نفسه ص 97.

(2) العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري ، د. عبد الحليم عويس ص 219.

. الأهداف:

وتمّ وضع خطة ترتكز على الأهداف التالية:

. نشر اللغة العربية، لعلمهم أن من أكبر أهداف الاستعمار وتبديل الهوية من جهة اللغة.

. تربية الناس على العقيدة الصافية.

. نشر العلم الشرعي في أوساط المجتمع.

. نقد الطرق الصوفية المنحرفة، وبيان ضلالهم وفضح عمالة بعض زعمائهم للفرنسيين وتخليص المجتمع من الاستعمار الروحي.

. زرع معاداة المستعمر في قلوب الناس.

. محاربة الجهل بالعلم، والجوع بالدعوة للعمل، والقيود بتحرير النفوس أولاً من الخرافات والشعوذة.

. الدعوة والمنادة للعبودية لله الواحد القهار، فلا يبقى عبودية لأحد سواه، لا لفرنسا أو لغيرها.

. توحيد الشعب الجزائري تحت راية الإسلام، وإبطال مخططات فرنسا في تفريق الأمة إلى أشلاء ممزقة(1).

. مميزات الخطة:

لقد امتازت هذه الخطة بالإحكام والدقة وبعد النظر واستشراف المستقبل، ووصف العلاج الناجح، وهو نشر العلم والعقيدة الصحيحة والعبادة السليمة والأخلاق الفاضلة والقيم السامية والمبادئ الحميدة، وتربية الناس على مقاصد القرآن الكريم وتعاليمه، والاسترشاد بهدي النبي (ص)، والمحطات المضيئة من التاريخ الإسلامي والبشري.

(1) الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس ص 111.

وتعتبر هذه الخطة التي نضجت ثمارها وبانت نتائجها حصيلة نضال وكفاح وجهاد استغرق نصف قرن من تاريخ الشعب الجزائري العظيم، ووضعت تلك الخطة في وقت لم يتعود العلماء والمصلحون على مراكز الأبحاث ولا وسائل الاتصال والتقنية الحديثة التي عرف بها المبشرون والمستشرقون والمستعمرون، ولكن بتوفيق الله ومنّه ثم ببصيرة العلم وصدق النية والهمة في العمل، أدّت إلى نسق ما أنتجته مراكز الأبحاث الاستعمارية وأجهزتها المتطورة، التي كانت تعمل على توطين الاستعمار الثقافي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري والأمني بالجزائر، وقد اهتمت الخطة ونصّت على الاهتمام الكبير والموسع بالنشء، وعلى أن لا يتوسعا له في العلم، وإنما يربونه على عقيدة صحيحة ولو مع علم قليل[1]، والأخذ بسنن الله في التدرج وتغيير النفوس، وأهمية الصبر على مشاق الطريق، والاستعانة بالتوكل على الله، والتسلح بتقواه لتحقيق الأهداف النبيلة والمقاصد السامية.

. تحديد مكمن الداء:

يقول الإبراهيمي: كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بيني وبين ابن باديس منذ اجتماعنا في المدينة ؛ أن البلاء المنصبّ على هذا الشعب المسكين ات من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح: من استعمارين مشتركين، يمتصان دمه، ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه.

. استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار.

. واستعمار روحاني يمثله مشائخ الطرق المؤثرون في الشعب، والمتغلغلون في جميع أوساطه، والمتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الإستعمار عن رضى وطواعية، والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الاخر بكل قوته، ومظهرهما معاً تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرهما لئلا تستعين بالمال على الثورة[2].

---

(1) آثار الإبراهيمي (5 / 280).

(2) أثر العلماء في مشروع النهضة ، د. يحيى اليحيى ص 24 . 27.

. تنفيذ الخطة في أرض الواقع:

تميز تنفيذ الخطة بالتأني وجودة البناء، فلم يستفزه الفرنسيون فيغير خطته ويستعجل النتائج، ولم يحمله حماس الشباب والطلاب واندفاعهم على قفز المراحل والإسراع في التنفيذ.

فمنذ أن وطئت أقدام ابن باديس أرض الجزائر شرع في تنفيذ الخطة التي اتفق عليها مع الإبراهيمي، فشرع في التعليم في مسجده في قسنطينة[1].

. مراحل تنفيذ الخطة:

وقد مرّ تنفيذ الخطة بالمراحل التالية:

. المرحلة الأولى من الخطة:

وقد لقيت هذه المرحلة من الشيخ اهتماماً بالغاً بتعليم الصغار والكبار مع الاهتمام بالتربية الدينية والأخلاقية والسياسية للشعب الجزائري، فكانت دروسه في التفسير والحديث حية وعامرة تبعث الحياة في الجماد، وفتح دروساً نظامية في الصباح للطلاب الذين تقاطروا عليه من الجبال والوديان، ممن سبق أن اختارهم حين تجواله في قرى مدينة قسنطينة، فكان مشتغلاً بالتعليم من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء[2].

وكان له اهتمام عظيم بتعليم الأطفال وتربيتهم، فقد ركز على تعليم صغار الكتاتيب القرآنية.

في هذه المرحلة رجع الشيخ الإبراهيمي إلى الجزائر سنة 1920م، فواصل مع الشيخ ابن باديس مشروعه في التعليم والتدريس وإلقاء المحاضرات، فبدأ بتنفيذ الخطة المتفق عليها في بلدته «سطيف». فالتفّ عليه الناس وبدأ نشاطه التعليمي على منهج ابن باديس من بعد صلاة الفجر حتى صلاة العشاء، وبعد العشاء يذهب للنوادي فيلقي فيها المحاضرات عن التاريخ الإسلامي.

---

(1) المصدر نفسه ص 28.

(2) المصدر نفسه ص 28.

. متابعة الخطة وتقويمها:

وكانا يلتقيان ما بين سنتي 1920م . 1930م في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، للمتابعة والنظر في النتائج ووضع البرامج المستقبلية، يقول الإبراهيمي عن هذه اللقاءات المتعددة طوال هذه السنوات: فكنا نتلاقى فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن اثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجات حسابها[1].

. نتائج المرحلة الأولى:

. تكوين جيش عظيم من الطلبة حتى ضاقت بهم المدينة.

. تخريج كوكبة من الطلاب البارزين في الثقافة والأدب والشعر والخطابة، وصفهم البشير بقوله: رأيت شباناً ممن تخرج على يدي هذا الرجل «يعني ابن باديس» وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة ومعان بليغة وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، ورأيت جماعة أخرى منهم وقد أصبحوا يُحبّرون المقالات البديعة في الصحف والمجلات، واخرون يعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثر والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسددة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة إسلامية عربية في الجزائر، وأن هذه المجموعة من التلاميذ التي تُناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر[2].

. المرحلة الثانية من الخطة «من سنة 1925م . 1931م»:

فحين استيقظ الوعي الشعبي وانتشر تلاميذ الشيخ في كل مكان من أرض وطنه يُعلمون الناس ويعظونهم

(1) آثار الإبراهيمي (5 / 280 . 283).

(2) آثار الإبراهيمي (5 / 279).

ويبنون المساجد والمدارس، ويؤسسون النوادي الثقافية ؛ حينئذ رأى ابن باديس مع زميله توسيع نطاق دعوته لتشمل الشعب الجزائري كلّه، فعمد إلى أكثر الوسائل انتشاراً وتأثيراً انذاك وهي الصحافة، فاستصدر تراخيص لعدد من الصحف تحسباً لإيقاف الحكومة لها، فأصدر جريدة المنتقد سنة 1925م، وكانت جريئة في انتقاد الطرق الصوفية الغالية التي ترفع شعار: اعتقد ولا تنتقد، وركزت أيضاً على انتقاد وتعرية الاستعمار، وقد ضاق الاستعمار بها ذرعاً فأوقفها بعد صدور 18 عدداً منها، فأصدر الشيخ جريدة الشهاب الأسبوعية في السنة التي أوقفت فيها المنتقد وكان شعارها: لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[1].

. نتائج المرحلة الثانية من الخطة:

. تأسيس المدارس والمعاهد العلمية لتربية الأجيال.

. تكوين المطابع لإحياء الثقافة العربية والإسلامية.

. إصدار المجلات والجرايد للتكوين العقدي والفكري والسياسي.

. تأسيس المساجد والنوادي لتربية الشباب والرجال والنساء[2].

. المرحلة الثالثة:

يصف الإبراهيمي النتائج الباهرة للمرحلة السابقة وتهيئتها للمرحلة التالية فيقول: أصبح لنا جيش من التلاميذ يحمل فكرتنا وعقيدتنا مسلّح بالخطباء والكتاب والشعراء، يلتف به مئات الالاف من أنصار الفكرة وحمله العقيدة، يجمعهم كلهم إيمان واحد وفكرة واحدة وحماس متأجّج وغضب حاد على الاستعمار[3].

لقد أعدّ ابن باديس والإبراهيمي لقيام جمعية العلماء وهما في المدينة قبل ثمانية عشر عاماً، وكانت المراحل

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 75.

(2) أثر العلماء في مشروع النهضة ، د. يحيى ابراهيم اليحيى ص 31.

(3) آثار الإبراهيمي (5 / 280).

السابقة تمهيداً لقيام هذه الجمعية، وهذا يعني التخطيط الرشيد والرؤية السعيدة واستشراف المستقبل، والتأني في التنفيذ ودقة المتابعة، ورحابة الصدر، وسعة الأفق، التي تمتع بها الإمامان ابن باديس والإبراهيمي[1].

وكان من آثار حركة العلماء الذين قادهم ابن باديس رحمه الله إلى نشر العلم وتعليم الناس في جميع مدن وقرى وبوادي القطر الجزائري ما تجلى بالأمور التالية:

. بث الوعي واليقظة في الشعب حتى عرف ما له وما عليه.

. إحياء تاريخ الإسلام.

. تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضاع الضلال والابتداع.

ـ إبراز فضائل الإسلام وأخلاقه كالاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفور من الذلة والاستكانة والاستسلام، ومنها أخذ كل شيء أُخذ بقوة، ونشر العلم في جميع طبقات الشعب، وبذل النفس في سبيل الدين، ونشر التاخي والمحبة بين أفراد المجتمع، والتمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام.

. إحياء اللسان العربي والنخوة العربية.

فأحيَوا الشعب الجزائري بالعلم والإيمان، فعرف نفسه فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال، ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل حاضره بماضيه التليد، حتى خرجت فرنسا من الجزائر تجرُّ ذيول الخيبة والهزيمة عام 1962م، بعد تسع وأربعين سنة من بداية التخطيط في المدينة بين ابن باديس والإبراهيمي[2]، وسيأتي تفصيلاً كفاح الشعب الجزائري بكل ألوان طيفه في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى.

---

(1) أثر العلماء في مشروع النهضة ص 32.

(2) المصدر نفسه ص 44.

5. مسيرة العودة من المدينة:

قفل ابن باديس راجعاً إلى الجزائر من المدينة المنورة وفي طريق عودته مر بكل من سوريا ولبنان وفلسطين، واجتمع وبرجال الفكر والعلم والأدب فيها[1]، وشاهد عن كثب ما كان حاصلاً وجارياً في هذه الأقطار الإسلامية.

كما مرّ ابن باديس بمصر والتي زار فيها الأزهر الشريف، ليطلع عليه وعلى نظام الدراسة والتعليم فيه، واغتنم فرصة وجوده بمصر ليزور الشيخ محمد بخيت المطيعي في منزله بحلوان، والذي كان زميلاً للشيخ محمد عبده في الطلب، وهو الوحيد من شيوخ الأزهر الذي كان يساميه وينال معه حظاً من الشهرة خارج مصر، ويشهد له ابن باديس بأنه كان عَلَمَاً في سائر العلوم الأزهرية[2].

فاتصل به ابن باديس وأخبره أن شيخه وأستاذه حمدان الونيسي، هو الذي أرسله إليه وأمره بالاتصال به، فأجابه الشيخ بخيت عن الشيخ الونيسي: ذاك رجل عظيم. ثم كان له إجازة في دفتر إجازاته بخط يده[3].

لقد كانت مسيرة عودة ابن باديس إلى الجزائر حافلة بالمشاهد والمواقف واللقاءات التي أجراها وأداها في الأماكن التي توقف بها، والتي تركت . مهما كان تأثيرها . تأثيرات معينة في شخصيته، ويمكن القول أن هذه الزيارات الخاطفة واللقاءات السريعة بالعلماء ؛ أطلعته على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، وفيها خبر أحوال الناس مما وسّع أفقه وبصّره بطريق الخلاص والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين القادة من النخبة أو الصفوة المبدعة[4].

---

(1) الشهاب: المرجع نفسه ص 607، جهاد ابن باديس ص 99.

(2) جهاد ابن باديس ص 99.

(3) المصدر نفسه ص 99.

(4) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 81).

ثانياً: أهم عوامل تكوين شخصية ابن باديس:

إن ابن باديس ككل الرجال العظام تركوا بصماتهم الثابتة على تاريخ أمتهم، ولعبوا دوراً فعالاً في مجرى هذا التاريخ. تأثرت شخصيته بعدة عوامل تضافرت في صقلها، وجعلت منها شخصية فذة في تاريخ الجزائر الحديث، وقد بيّن ابن باديس نفسه هذه العوامل في خطاب له في قسنطينة أثناء الاحتفال بختم القرآن في شهر جوان 1938م.

1 . تربية الأسرة والوالد له تربية دينية وخُلقية فاضلة، وتوجيهه توجيهاً صالحاً، وقد قال في ذلك: إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة اتبعها، ومشرباً أَرِدُه، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم، وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً، وكفاني كلف الحياة[1].

لقد كان لوالده وأسرته العامل الأول . بعد الله عز وجل وتوفيقه له . في تكوين شخصيته واتجاهه العلمي وتوجيهه، لأن أفراد أسرته كانوا من حملة القران، كما كان جده من قضاة قسنطينة وعلمائها، وهكذا نشأ ابن باديس على خلق العلماء وحب العلم والأخلاق النبيلة. وإلى جانب اهتمام أسرته بتعليمه وتوجيهه وأثرها المباشر في تكوينه ؛ كان هناك أثر غير مباشر للأسرة من خلال الاتصال والتواصل المعرفي والوجداني بين ابن باديس وأجداده واقتدائه بهم.

ويصف الدكتور محمد البهيي عند تقديمه للتفسير الباديسي ذلك التأثر والاقتداء، وأثره المباشر على شخصيته وتكوينه فيقول: ولم يكن ابن باديس امتداداً للتأثير الخارجي وحده، أي الأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا وغيرهم، فقط في مجال الدعوة والإصلاح، بل كان امتداداً لجده المعز بن باديس الذي توفي عام 984م وكان له دوره في مقاومة البدع والضلالات التي أدخلت على الإسلام، إذ كان جده يناضل الإسماعيلية الباطنية الشيعية في إفريقية[2].

(1) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 58.

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية، د. عبد الحميد درويش النساج ص 32.

لقد كان والد الشيخ عبد الحميد من ذوي الفضل والمروءة والحفاظ على شعائر الدين والغيرة عليه، وكان يحفظ القرآن ويتعبد بتلاوته وخاصة في شهر رمضان، وقد أمضى ليالي شهر الصيام كلها سنة 1351هـ يقيم صلاة التراويح في مسجد سيدي قموش الذي بناه على نفقته وحيث كلف من طرف الشيخ بإمامة المصلين في صلاة التراويح أثناء ذلك الشهر.

كما خصّص معلماً لتعليم القرآن الكريم في ذلك المسجد على نفقته، وليس صحيحاً ما قيل عنه أنه كان غير راض عن نشاط ابنه العلمي والديني، ودليل ذلك أنه هو الذي سعى لدى الحكومة من أجل الإذن له بالتدريس في الجامع الأخضر، بعد أن سعى المفتي ابن الموهوب لمنعه من التدريس في الجامع الكبير(1).

لقد وجّه والد الشيخ ابنه إلى قراءة كتاب الله منذ أول طفولته ونعومة أظفاره، ولم يوله شطر المدرسة الفرنسية التي لم يغب عنه ما كان يمكنها أن تؤهله من مناصب عالية مثل أقرانه من أبناء الأسر القسنطينية.

وقد أثنى الشيخ على أبيه عاطر الثناء في كلمته التي أجاب بها على الخطباء وقصائد الشعراء في حفل التكريم الذي أقيم له بمناسبة ختمه درس التفسير، حينما كان يذكر بالخير والفضل جميع الذين أثّروا في حياته وعملوا على تكوينه، والذين ازروه في جهاده من إخوانه العلماء، وقال بخصوص والده: فلأشكرنه بلساني ولسانكم ولأَكِلَ ما عجزت عنه لله الذي لا يضيع أجر العاملين(2)، والحقيقة التي يجب أن تقال هي: أن الله عز وجل أكرم والد ابن باديس بهذا الشيخ الجليل، فوهبه لهذه الأمة المسلمة، ليحيي تراثها المجيد وحضارتها الإسلامية العظيمة(3).

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 260.

(2) المصدر نفسه ص 260.

(3) المصدر نفسه ص 260.

2. شيوخه وأساتذته ومن تأثر بهم من علماء الأمَّة:

عاش في بيئة العلم التي ترعرع فيها وتأثير مربيه وأساتذته فيه، ومما قاله في ذلك: ثم لمشائخي الذين علموني العلم وخططوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه[1]، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية وهما «من مشائخي» اللذين تجاوزا بي حد التعلم المعهود.. إلى التربية والتثقيف، والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة، أحد الرجلين: الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني، وثانيهما: الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور[2].

لقد تتلمذ ابن باديس على يدي الكثير من الشيوخ والعلماء ومن أهمهم ممن كان له أثر قوي على حياته العلمية والعملية.

أ. محمد حمدان الونيسي 1920م:

من أهل قسنطينة تلقى دراسته في مساجد ومدارس هذه المدينة على كبار علماء عصره، ولاسيما منهم الشيخ عبد القادر المجاوي 1914م، شيخ شيوخ المدينة ومؤسسة النهضة في الجزائر، تولى التدريس والإمامة بجامع سيدي محمد النجار، ثم التدريس بالجامع الكبير ببطحاء سيدي الشيخ منذ سنة 1881م، وكان أستاذاً بالمدرسة الرسمية في الكتانية أيضاً، كان له نشاط علمي ودعوي دؤوب في المدينة، اعتنى بالإمام عبد الحميد بن باديس عناية خاصة لما وجد فيه من نبوغ فكري مبكر، وشغف كبير للعلم والمعرفة، تعرض حمدان الونيسي لمضايقات الإدارة الفرنسية فأوقفوه عن التدريس في الجامع الكبير، بسبب نشاطه العلمي والديني والوطني، فهاجر إلى المدينة المنورة هرباً من هذه المضايقات، وكان الإمام عبد الحميد يرغب في الهجرة معه، ولكن أستاذه أشار على والد عبد الحميد بن باديس بإرساله إلى الزيتونة لاستكمال دراسته[3].

---

(1) جمعية العلماء ، د. أحمد الخطيب ص 123.

(2) إمام الجزائر ص 58.

(3) وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية، د. عبد العزيز فيلالي ص 49.

ب . محمد النخلي القيرواني «1867م . 1924م»:

تولى التدريس بالزيتونة . وكان من كبار شيوخها . درس فلسفة الأخلاق بالمدرسة الخلدونية، يعد من أهم أساتذة الإمام عبد الحميد بن باديس بالزيتونة، وزعيم النهضة الفكرية في تونس، درّسه التفسير فأثر فيه تأثيراً علمياً كبيراً، ولهذا كان يفتخر به فيقول: إني متبرِّم بأساليب المفسرين وإدخالهم تأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله.. ضيِّق الصدر من اختلافاتهم فيما لا اختلاف فيه من القران، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام اراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله، فذاكرت الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فأجابني النخلي بما يجدد حقيقة الفكر الديني: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه الاراء المضطربة ؛ يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح. فوالله لقد فتح بهذه الكلمات القليلة عن ذهني افاقاً واسعة لا عهد لي بها.

له عدة مؤلفات في التفسير وغيره لكن أغلبها لم ينشر، درّس الإمام عبد الحميد بن باديس في مرحلة ما بعد التطويع، وأجازه إجازات خاصة[1].

لقد وصف ابن باديس شيخه النخلي بأنه: العلاّمة، النظار، المستقبل، زعيم النهضة الفكرية لجامع الزيتونة. وهو وصف نفهم منه أن ما درسه التلميذ على شيخه إنما كان ذا طابع عقلي، غير منفك عن النقد والتأصيل والتنظير. ومعنى ذلك أنه درس على شيخه دون شك كتاباً في علم الكلام. وينبغي الإشارة إلى أن النخلي هو الذي لفت إنتباه ابن باديس وقتها إلى أهمية مخطوط لأبي بكر بن العربي في علم الكلام هو «العواصم من القواصم»، وقد احتفظ ابن باديس بتوجيه شيخه فنشر هذا الكتاب في جزأين سنتي 1926م، و1927م[2].

كان النخلي من دعاة الإصلاح والتجديد، فقد ثار على الأساليب البالية وأخلص للإصلاح في الفكر

(1) المصدر نفسه ص 50.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 93.

والمنهج والبيان، واعتبر الزيتونة مناطاً لمعركة فاصلة بين المجددين والمحافظين، لذلك شارك في التنظيم الذي أسس للدفاع عن مصالح الطلبة سنة 1907م باسم جمعية تلاميذ جامع الزيتونة أولاً، وباسم «الجمعية الزيتونية» ثانياً، وكان أحد أعضائه البارزين[1].

لقد هجّن النخلي مسلك الشيوخ المحافظين، ونقد الكتب المقررة التي قِشرُها أكبرُ من لبابها، ودعا إلى أن تكون الكتب على غرار «رسالة التوحيد» لمحمد عبده، في عرضها ومنهجها، لإشاعة العلم والتيسير على شُداته، إلا أن الحائل دون ذلك «تقليد كل قديم والشغف بالثناء على العظم الرميم»[2].

ومن يتتبع آثار النخلي يدرك أن منهجه قائم على التفريق بين ما هو دين وما هو فكر ديني، إذ الدين: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة الصحيحة مقدس ومطلق، والفكر الديني فكر زمني نسبي يتغير بتغير الزمان والمكان ودرجة تطور المجتمع، لأنه لا يعدو أن يكون فهماً بشرياً[3].

عمل النخلي على إصلاح التعليم الزيتوني، وإلى تجديد الفكر الديني، ومواجهة الإشكاليات المستحدثة، وإنتشال اللغة من الوهن والجمود، والإفادة من مكتسبات العصر. وإن إصراره على تجديد الفكر الديني آثار عليه ثائرة الجامدين، فنقموا عليه وعلى ابن عاشور إيثارهما اراء محمد عبده الإصلاحية، وبثهما هذه الاراء في دروسهما ،ءَ واعتمادهما منهج محمد عبده القائم على الاجتهاد واستقلال الفكر[4].

ولقد قام تجديد النخلي للفكر الديني على ترشيد الخطاب الديني من حيث الفروع والعقيدة ومنظومة القيم، وذلك بتأكيده على نسبية هذه الفروع وبتحليل القيم تحليلاً يجلّي سماحة الإسلام واعتداله، وبتوضيح

(1) المصدر نفسه ص 94.

(2) المصدر نفسه ص 95.

(3) المصدر نفسه ص 96.

(4) آثار ابن باديس (3 / 75).

مسائل العقيدة بما يتسق مع مواصفات اللغة وحقائق الدين ومقتضيات العقل، دون أن يصده عن ذلك رأي مألوف أو قول عالم قدم من الأزمان السابقة. يقول: الإصلاح الديني لا يقدر عليه إلا من عرف طبيعة الدين، وخبر سنة سيد المرسلين، وسير الصحابة والتابعين، لا من كان رأيه الجمود والتمسك بالمألوف لأنه المعروف[1].

وكان ابن باديس حلقة في سلسلة السند الزيتوني، فقد تأثر النخلي بشيخه سالم بو حاجب، وتأثر ابن عاشور بشيخه سالم بو جاجب ومحمد النخلي، وتأثر ابن باديس بشيخه النخلي وابن عاشور، وكأن ابن باديس بذلك قد تتلمذ على سالم بو حاجب «1827م . 1924م»، الذي رفع منذ منتصف القرن التاسع عشر راية الإصلاح الديني والتجديد الأدبي واللغوي والنضال الوطني، حتى لقد لقب بشيخ الشيوخ وطود الرسوخ وإمام العربية في الديار التونسية، وهو الذي زعزع أركان التقليد في جامع لزيتونة، ونشر ألوية الاجتهاد، وبصر بأقوم المسالك إلى التجديد والتحديث[2].

لذلك قام ابن باديس بنقد الموروث ودحض السلبي الذي لا يضيف إلى المعرفة ولا إلى الإيمان والعقل شيئاً، ودعا لاحقاً إلى إصلاح التعليم بجامع الزيتونة، لقد أينع عقله وزكا بيانه على أيدي شيخيه ؛ النخلي أفاده بمنهجه العقلي الذي يسلم به الفكر الديني، وتتهافت دونه الشبه والأساطير والتأويل الباطني، وابن عاشور أفاده في الجانبين الأدبي واللغوي، وفي إحكام الوصل بين الدراسة الأدبية والدينية[3].

ج . محمد الطاهر بن عاشور (1879م . 1973م):

درس بجامع الزيتونة وتحصّل منه على شهادة التطويع سنة 1896م، وصار مدرساً به وبمدرسة الصادقية، تولى منصب قاضي القضاة المالكية بتونس سنة 1944م أو عمادة مجلس الشورى المالكي ومشيخة جامع

(1) المصدر نفسه ص 97.

(2) المصدر نفسه ص 98.

(3) المصدر نفسه ص 99.

الزيتونة اهتم بجانب القرآن الكريم إلى جانب علوم أخرى، له عدة مؤلفات في الأدب والتراث، من الذين نادوا بإصلاح التدريس بالزيتونة، درّس الإمام عبد الحميد بن باديس في مرحلة التطويع وما بعده. يقول عنه الإمام: عرفت هذا الاسناد في جامع الزيتونة وهو ثاني الرجلين الذين سيشار إليهما العلم.. وإن أنسَ فلا أنسَ دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فقد حبّبتني في الأدب والفقه في كلام العرب، وبثّت فيّ روحاً جديدة في فهم المنظوم والمنثور وأحيت فيّ الشعور بعز العروبة والاعتزاز بهما كما أعتز بالإسلام(1).

لقد أفاده ابن عاشور في الجانبين الأدبي واللغوي، وفي إحكام الوصل بين الدراسة الأدبية والدراسية الدينية، حيث كانت الدروس التي تلقاها منه من ديوان الحماسة فتحاً أدبياً ولغوياً فريداً، فقد حببت إليه الأدب والتفقه في كلام العرب، وبث فيه روحاً جديدة هيأت له المتعة بتذوق النثر والشعر على نحو جديد. لقد كان ابن عاشور المصلح لأحوال جامع الزيتونة حين كلف بمشيخة الجامع الأعظم في سنتي 1932م و1933م، وحين تولى المشيخة سنة 1945م كان حقيقاً بالتأثير في الزيتونيين، وهو يعتبر في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية من القلة التي تأتّى لها ـ بعميق ثقافتها ووثيق منهجها وزكيّ علمها وسنيّ أدبها ـ أن تجمع بين هذين الضربين: ـ الدراسة الدينية والدراسة الأدبية ـ، وليس في هذا آية مفارقة ؛ ذلك أن التكامل بين هذين الضربين من الدراسة يفضي إلى أسنى المقاصد وأبعدها شأناً.

فالذائقة الأدبية والكلف بالبيان ؛ هما السبيل إلى التعامل الرشيد مع النصوص مهما يكن مجالها، وهو تعامل يقوم على التحليل والتعليل والتوليد، واعتماد النسبية بالانطلاق من قاعدة أساسية، هي تعدد مستويات

---

(1) وثائق جديدة عن جوانب خفية في حياة ابن باديس الدراسية ص 51.

اللغة وتنوع أساليبها، وبذلك يكتسب المضمون ثراء يزكو بزكاء الزاد المعرفي والاليات المنهجية[1].

وحيث الشيخ، فإن «الدربة الشعرية» تكوّن نباهة مطردة للنفس، بحيث توصّل في الدارس قدرة فنية مطردة، تمكنه من إدراك أسرار اللغة وأساليبها في مستوياتها المختلفة، وتجنبه غائلة الوقوع في وهق التحجر والتعصب والانغلاق، وتجعل العملية الثقافية قائمة على الجانبين المكونين للإنسان: العقل والوجدان.

وكان الشيخ آية على هذا التضافر، فهو الكلف بالشعر، والمجدد للفكر الديني، والعامل من أجل الإصلاح. وفي هذا السياق يجب أن أشير إلى أن الشيخ استشهد في التحرير والتنوير بنحو 2682 من أبيات الشعر وأنصاف الأبيات عن ممارسته له الطويلة في أعماله وتحقيقاته الأدبية، وإلى ذلك فإن الشيخ قد صاغ الشعر منذ فترة طويلة ويناعة الشباب، فكان له إسهام معتبر في مجال القريض، حسب المناسبات ومقتضيات الظروف. وكل ذلك عناه ابن باديس فيما قاله عن تأثره بذائقة شيخه الأدبية ومنهجه الفكري. ومع إكبار التلميذ لشيخه واعترافه بفضله ؛ فقد خالفه في مسائل عرض لها في مجلة البصائر التابعة لابن باديس[2].

لقد لازم ابن باديس شيخه ابن عاشور ثلاث سنوات، وكان بعض أساتذته الجامدين يصرفه عن الاتصال بدعوى أنه من أتباع جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومن العاملين على نشر أفكارهما في أوساط طلبة جامع الزيتونة[3].

د . محمد البشير صفر «1856م . 1917م»:

ولد بتونس سنة 1856م، تعلم بمدرسة الصادقية وحفظ نصيباً من القرآن الكريم، وأخذ بعض العلوم من الزيتونة، وأرسل في بعثة لفرنسا لدراسة الهندسة والرياضيات، تقلد مناصب في الدولة التونسية منها رئيساً

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 99.

(2) المصدر نفسه ص 100.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية ، تركي رابح ص 20.

لجمعية الأوقاف، ثم والياً على مدينة سوسة سنة 1908م، يقول ابن باديس: بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في إطلاعي على تاريخ أمتي، والتي زرعت في صدري هذه الروح التي انتهت اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر[1].

إن تأثر ابن باديس بأستاذه في الخلدونية البشير صفر الموسوم بأبي النهضة التونسية الثاني بعد خير الدين، لم يكن بأقل من تأثره بشيخه النخلي وابن عاشور، اللذين هيا له من المناهج ما به أشتد أزره، وزكا علمه وأدبه، أعني المنهج العقلي البرهاني والمنهج البياني، وكذلك كان تأثير البشير صفر فيه عظيماً، فقد أذكى فيه بدروسه في التاريخ بالخلدونية إحساسه القومي وشعوره الوطني واعتزازه بالإسلام، وفخاره بالإنتماء، وذلك بالرغم من أن مدة تتلمذه عليه لم تطل، إذ لم تتواصل أكثر من خمسة أشهر من سنة 1908م، لأن البشير صفر نُقل بخطة عامل «والٍ» إلى سوسة في 29 جوان 1908م.

ومن البيّن أن التأثير لا يقاس بطول المدة أو قصرها، وإنما يقاس بمدى قدرة الأستاذ ونباهة الطالب، فإن فكرة خفيفة واحدة أو إشراقة بيانية يتلقاها طالب نابه من أستاذ عظيم في دقائق معدودات ؛ قد تحول مساره الفكري وتغني ذائقته الأدبية طيلة حياته، فما بالك بالمحاضرات التاريخية الثرية النافذة إلى الجوهر، الحافلة بالأسباب والنتائج التي يتلقاها ابن باديس من أستاذ اعتبره السبب في حياة أمة[2].

من يطّلع على كتاب (مفتاح التاريخ) للبشير صفر . وجزؤه الغالب في أصله محاضراته التي كان يلقيها في الخلدونية . يدرك إلى أي حد كان متأثراً بمنهج ابن خلدون التاريخي، من حيث احتفائه بالاسباب والنتائج، وبنائه على التحليل والنقد، يجلله وهج وطني وقومي لا يخمد، ومقارنات للوقائع والأحداث في التاريخين العربي

(1) وثائق جديدة عن جوانب خفية ص 52.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 101.

والأوروبي، بقصد استخلاص العبرة، وبعث الروح الوطنية في الشباب، والحضّ على النضال من أجل استعادة العزة، ومن ثمّ كانت محاضراته بحق نداءً إلى التنوير والوحدة والتحرير. ولقد سلك ابن باديس هذه الطريقة مهتدياً بمنهج أستاذه، فأنجز المبتغى في الجزائر بما حققه من نهضة علمية وتربوية، ومِن تحول تاريخي حاسم بدأ فيه النضال الوطني معتمداً ثوابت الشعب الجزائري وخصائصه القاطعة وأمجاده التاريخية[1].

هـ . الأستاذ محمد رشيد رضا:

خصّه ابن باديس بترجمة شاملة في أعداد مجلة الشهاب، وأوضح فيها جوانب عظمة الأستاذ رشيد رضا والجوانب التي تأثر بها، فيقول: لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر، فقهاً في الدين، وعلماً بأسرار التشريع، وإحاطة بعلوم الكتاب والسنة، ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسر العمران والاجتماع، وكفى دليلاً على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها[2].

ويوضح ابن باديس ما للسيد رشيد من آثار على الحركة الإصلاحية الحديثة، فيقول: فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية، بياناً ودفاعاً ؛ كلها من آثاره[3].

ومن خلال ما قدمنا يظهر أن ابن باديس قد تأثر بالأستاذ محمد رشيد رضا في جوانب من منهجه خاصة استقلاليته في التفكير، وأسلوبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبعده عن الوظائف[4].

و . الشيخ محمد بخيت المطيعي:

يعد من المدرسة الإصلاحية الحديثة، وكان . على معارضته للشيخ محمد عبده في نواح . يؤيده في إنكار

(1) المصدر نفسه ص 101.

(2) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ، مصطفى محمد ص 71.

(3) المصدر نفسه ص 71.

(4) المصدر نفسه ص 71.

البدع والمحدثات في الدين، وعن علاقته به يقول الشيخ ابن باديس: ولما رجعت من المدينة المنورة على ساكنها واله الصلاة والسلام سنة 1332هـ، جئت من عند شيخنا العلامة الشيخ حمدان الونيسي المهاجر إلى طيبة والمدفون بها ـ رحمه الله ـ جئت من عنده بكتاب إلى الشيخ بخيت، وكان قد عرفه بالإسكندرية لما مر بها مهاجراً، فعرجت على القاهرة وزرت الشيخ بخيت بداره بحلوان، فلما قدّمت له كتاب شيخنا حمدان قال لي: ذلك رجل عظيم، وكتب لي إجازة في دفتر إجازاتي بخط يده، رحمه الله وجازاه عنا وعن العلم والدين خير ما يجزي العاملين الناصحين[1].

ز ـ حسين أحمد الفيض ابادي الهندي «1878م ـ 1957م»:

ولد بالهند وحفظ القرآن الكريم وتعلم العلوم الشرعية، تصدر التدريس بالمسجد النبوي الشريف، وكان من أشهر مدرسيه، حتى لقبه بخادم العلم بالمسجد النبوي. طلب منه أن يفتي بضرورة الخروج عن الدولة، لكنه رفض فنفي إلى مالطة، وأطلق سراحه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فعاد إلى الهند وتولى بها مشيخة تدريس الحديث الشريف بجامعة «ديوبند»، كما عمل نائب رئيس جمعية العلماء بدلهي عاصمة الهند، أجاز الإمام عبد الحميد بن باديس إجازة عامة بالمدينة المنورة وتوفي سنة 1957م[2]، وكان الشيخ حسين أحمد الهندي يتولى شرح صحيح الإمام مسلم في المسجد النبوي الشريف[3].

ح ـ القاضي عياض وأبو بكر العربي المالكي:

وممن تأثر بهم الشيخ عبد الحميد بن باديس في حياته العلمية ودعوته الإصلاحية: أعلام المدرسة الأندلسية المغربية، الذين قرأ عليهم كتبهم قراءة تمحيص وتحقيق، وهي كثيرة في فنون مختلفة من الفقه والتفسير والحديث واللغة والأدب، وكانت جلّ هذه الكتب تشكل الزاد العلمي والثقافي لتلاميذ المدرسة الباديسية، ومن

(1) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 71.

(2) وثائق جديدة عن جوانب خفية ص 53.

(3) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 73.

هؤلاء الأئمة: القاضي عياض، والقاضي أبو بكر بن العربي، والإمام أبو عمر ابن عبد البر[1].

وأما العلامة القاضي عياض، فقد اختار الشيخ عبد الحميد بن باديس كتابه «الشفا» [2]، لتدريسه لطلبته في المسجد الكبير بقسنطينة سنة 1913م، يقول ابن باديس عن ذلك: ابتدأت القراءة بقسنطينة بدراسة الشفا للقاضي عياض بالجامع الكبير[3].

وأما الإمام أبو بكر بن العربي، فيقول عنه ابن باديس أنه: خزانة العلم وقطب المغرب، وقد حققت مخطوط كتاب العواصم من القواصم، وقدم له بمقدمة طويلة وطبعه سنة 1928م في جزأين بمطابع الشهاب بقسنطينة. وقد تأثر الإمام ابن باديس به وبالإمام أبي عمر ابن عبد البر القرطبي، فأخذ عنهما الكثير من فيض علمهم، وخاصة فيما انتهجاه في إصلاح طرق التدريس التي كانت سائدة في عصرهما بالأندلس، وهو نفس المنهج الذي اتبعه ابن باديس في مقاومة روح التقليد والجمود الفكري الذي واجه دعوته الإصلاحية في الجزائر[4].

أولئك هم أهم شيوخ ابن باديس وأساتذته الذين في أحضانهم نشأ وترعرع، ومن ينابيعهم الصافية استقى العلم والمعرفة وعلى منهاجهم أقام دعوته، وبمقاومة روح التقليد والجمود شق طريقه[5].

3 . البيئة الثقافية:

وقد تمثلت هذه البيئة في الحركة الفكرية الناهضة في التأليف والنشر والاهتمام بالعلم والإصلاح والحرية، فكانت بيئته تموج بتيارات ومذاهب متباينة، أبرزها: تعدد الحركات الإصلاحية، والطرق الصوفية، وانقسام

(1) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 73.
(2) المصدر نفسه ص 74.
(3) المصدر نفسه ص 74.
(4) المصدر نفسه ص 74.
(5) المصدر نفسه ص 74.

أصحاب الرأي، إما إلى الوهبية والسلفية وإما إلى المادية الغربية، فكان على ابن باديس أن يختار الطريق والمنهج الصحيح الملائم لظروف مجتمعه، فجمع حوله العلماء، وأسس جمعية باسمهم في محاولة لمواجهة هذه المتناقضات الفكرية، واتفاقهم في الرأي حول ضرورة الرجوع إلى السلف الصالح، وتغيير ما بالنفس من آثار الانحطاط[1].

ويؤكد عمار الطالبي على أن الواقع الثقافي زمن ابن باديس وظهور بعض الشخصيات العلمية المتأثرة باراء محمد عبده التي نقلتها مجلة العروة الوثقى والمنار إلى المغرب العربي وخاصة الجزائر ؛ كان من أبرز العوامل التي أدت إلى تكوين شخصيته الفكرية.

كما يصف الأثر الإيجابي لزيارة الإمام محمد عبده إلى الجزائر، وزيارته للجامع الكبير بقسنطينة، في إحداث الاتصال والتواصل الفكري، ثم ظهور مجموعة من العلماء يحملون أفكار محمد عبده ومدرسة المنار ويقومون بتدريسها ونشرها، منهم: عبد الحليم بن سماية، وعبد القادر المجاوي، ومحمد بن مصطفى بن الخوجة وغيرهم.. فهؤلاء كانوا على صلة برشيد رضا ومدرسة المنار، وكانوا يدرسون رسالة التوحيد للإمام محمد عبده، إلى جانب دلائل الإعجاز للجرجاني، والاقتصاد في الإعتقاد للغزالي بالمدرسة الثعالبية بالجزائر.

ومن هنا كان تأثر ابن باديس بهذه البيئة، فظهرت منهجيته بوضوح في أسلوبه ودعوته إلى الاهتمام بالعقل والمنهج في رد الفروع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها، واهتمامه بأصول الفقه والبلاغة حيث اعتبر أن كتاب الموطأ للإمام مالك هو خير مناهج الاستدلال، ولذا قام بتدريسه بعد أن أتم حفظه، كما حرص على تدريس كتب الأمالي، وديوان الحماسة، وديوان المتنبي، ومقدمة ابن خلدون، والعواصم من القواصم،

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية ص 32.

ودلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة إلى جانب القرآن وعلومه(1).

وكانت الحركة الإصلاحية في مصر وتونس والجزائر بيئة ثقافية مؤثرة في تكوين شخصية ابن باديس، حيث الاتصال المباشر بينه وبين رجال الإصلاح خاصة رشيد رضا وأتباع المنار في مصر، ومع عبد العزيز الثعالبي في تونس، فكانت هذه الحركات تعبر عن أفكار العصر، وتسعى لتحليل الأوضاع الاجتماعية ووضع طرق مواجهتها. فكان ضرورياً تباحث واتفاق زعماء الإصلاح حول أسس الدعوة الإصلاحية وكيفية انتشارها وتطبيقها، فكان التشابه والاتفاق بين منهج وأسلوب جمعية العلماء في الجزائر، والحركة الإصلاحية في مصر والمشرق العربي وإتفاقهم حول:

. ضرورة أن يكون العلم وسيلة للبناء الفكري والحضاري وتنمية القوى الروحية للفرد.

. ضرورة مواجهة الواقع الاجتماعي والخلقي المتدهور الناتج عن انتشار الجهل والبدع والضلالات.

. ضرورة توحيد الكلمة في الخير والسعي إلى الكسب وعمران البلاد مع الاقتصاد في المعيشة.

. ضرورة نشر العلم والدين والجد في تحليل كافة العلوم الدينية والتربوية.

ـ ضرورة القضاء على عوامل الجمود والجهل وبعث الشعور بالحياة والثقة في الرجال ومن بيدهم الحل والعقد.

ولهذا كان حرص ابن باديس على إبراز هدف جمعية العلماء وخطتها، وكان يقول بأن التعليم العام لابد وأن يكون أول ما نهتم به من شؤون إصلاحنا، ولابد من انتشار العلم على مستوى العامة مع حرية الفكر واستقلاله، وأن خطة الجمعية علمية دينية هدفها نشر العلم والفضيلة ومحاربة الجهل والرذيلة، وأن القرآن الكريم

(1) آثار ابن باديس (1 / 91).

إمامُنا والسنة سبيلُنا والسلف الصالح قدوتنا[1].

ويصف لنا عمار الطالبي هذه البيئة الثقافية المتنوعة التي عاشها ابن باديس فيقول: إذا كانت الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية تمثل جانباً من العوامل الداخلية التي أثرت في ابن باديس ورفاقه ؛ فإن هناك عوامل خارجية أيضاً، كان لها أثرها المباشر في تفكيره، وهي ابتداء النهضة في المشرق، وعودة الاتصال الفكري والثقافي بينه وبين المغرب عن طريق الصحف والكتب والمجلات والحج، هذا بالإضافة إلى الرحلات العلمية إلى جامع القرويين بالمغرب والزيتونة بتونس والأزهر بمصر، ثم كان من رواد هذه النهضة الفكرية السيد قدور بن مراد التركي الذي أسس المكتبة الثعالبية، والشيخ صالح بن مهنا بمؤلفاته الوطنية، والشيخ عبد القادر المجاوي بمؤلفاته التربوية والمدرسية. فهذه المؤلفات كان لها أثرها في رجال الإصلاح والنهضة، وفي مقدمتهم أستاذ ابن باديس حمدان الونيسي، ومن غريب المصادفات أنه في السنة نفسها توفي فيها الشيخ عبد القادر المجاوي ابتدأ عبد الحميد بن باديس حركته العلمية بمدينة قسنطينة، فاتصلت حلقات الإصلاح متطورة إلى مرحلة القوة والنضج[2].

كما كان للحياة السياسية والإعلامية التي حفلت بها تونس أثناء دراسته بها أثر بارز في حياته، لقد شهدت الفترة التي عاشها ابن باديس في تونس «1908م ـ 1912م» حياة سياسية نشيطة قادتها الشبيبة التونسية بزعامة علي باش حانيه ومعه عبد العزيز الثعالبي في 19 أكتوبر 1911م وتأسيس جريدة «الاتحاد الإسلامي» للدفاع عن القضية الليبية والدعوة إلى وحدة النضال وتضافر جهود المسلمين لدحر المستعمر من بلاد الإسلام، فازداد الشباب التحاماً بالقادة وفي مقدمتهم علي باش حانية وعبد العزيز الثعالبي وفي 7 نوفمبر 1911م جدّت أحداث الزلاج التي تعتبر بحق انتفاضة شعبية كبيرة، وقد تمرس فيها التونسيون على أساليب النضال واعتمدوها لمزيد إحكام التنظيم ولنشر الوعي بين المواطنين ومن ثم أصبح العمل السياسي عملاً شعبياً

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية ص 34.

(2) آثار ابن باديس (1 / 18، 19، 24).

وليس عملاً نخبوياً كما كان في السنوات الماضية، وعطلت السلطات الاستعمارية الصحف التونسية عدا جريدة الزهرة دون أن تستطيع دفعاً لما حققته الحركة السياسية. ولم تفلّ أحداث الترامواي في 9 فيفري 1912م من ساعد الحركة، بل إن الحركة ازدادت في ظل هذه الأحداث صلابة ورسوخاً وانبرى الزعماء، وفي مقدمتهم علي باش حانية يحضون المواطنين على مقاطعة الترامواي، ومواصلة الكفاح. فعمدت السلطات الاستعمارية إلى نفي الزعماء السبعة.

في غمرة هذه الأحداث المتعاقبة عاش ابن باديس فشارك في الحركة الطلابية، وانحاز إلى التيار الإصلاحي في الزيتونة، وشهد التحول الحاسم للحركة الوطنية واستخلص العبرة من الأحداث التي عرفتها البلاد، ومما امن به الزعماء وفي مقدمتهم علي باش حانية وعبد العزيز الثعالبي من حتمية وحدة النضال في المغرب العربي، ومن أن الدفاع عن أي بلد مغاربي هو جزء لا يتجزأ من الدفاع عن تونس.

في مطلع جويلية 1937م قدم ابن باديس إليها ممثلاً لجمعية العلماء لتحية الزعيم، فزاره في بيته يوم 23 جويلية 1937م وأبلغه رسالة جمعية العلماء. وإن ما كتبه عن الثعالبي في مجلةالشهاب ليدل على عمق ارتباطه به واعترافه بزعامته وإكبار نضاله[1].

إن الفترة التي قضاها ابن باديس في تونس كانت فترة حافلة بالأحداث وضروب النضال، وتجربته فيها كانت ثرية في مجالات التعليم والإعلام والسياسة، وبعد أن انقضت السنة الدراسية «1911م ـ 1912م» التي تطوّع فيها للتعليم بجامع الزيتونة سافر إلى الجزائر حاملاً في قلبه هوى لتونس لم يبرحه، وفتح بنضاله وبمنهجه الإصلاحي افاقاً جديدة لم يعهدها وطنه من قبل. وحين كان يغذوه الشوق إلى الخضراء يفر إليها منشرح الصدر، مغتبط القلب مشبوب المشاعر لاستعادة ذكرى فترة حافلة من حياته، وللقاء النُخب التي بدت بها تونس حسب تعبيره «عروس الشمال الإفريقي وواسطة عقد وحدته».

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 102، 103.

ولما زار تونس في ديسمبر 1936م أقيمت له احتفالات عديدة أشارت إليها المجلة الزيتونية وأوردت له قوله: إن منبع السعادة والهداية في هذا الشمال الإفريقي هو جامع الزيتونة عمّره الله، وإنه المنبع الفيّاض الذي تصدر عنه كل حركة علمية أو إصلاحية.

لقد توطن في قلبه هوى لتونس لا يعادله إلا هوى تلمسان، ففي مقال نشره في «الشهاب» سنة 1937م بعنوان «في تونس العزيزة» ورد نصه: حقاً إن لتونس هوى روحياً بقلبي لا يضارعه إلا هوى تلمسان، أعرف ذلك من انشراح في الصدر، ونشاط في الفكر، وغبطة في القلب لا أجد مثلها إلا في ربوعها.

ففي رحاب الخضراء تشكل فكره وتألق وجدانه وتنوعت تجاربه، فظلت الخضراء بالنسبة إليه موئل حنين وواسطة عقد وملاذ هوى روحي لا ينقطع[1].

4. مؤازرة زملائه في جمعية العلماء له:

والعامل الرابع يعود إلى مؤازرة زملائه وإخوانه في جمعية العلماء، الذين ساندوه في الأعمال التي قام بها من أجل النهضة الجزائرية، وتحملوا معه المشقات والأتعاب، واحتضنوا معه الحركة الإصلاحية التي بدأها قبل الحرب العالمية الأولى، حتى أينعت وازدهرت فعمت الجزائر من أدناها إلى أقصاها في الفترة ما بين الحربين العالميتين، وفي الأربعينات من هذا القرن والخمسينات.

ومن عادة ابن باديس أنه كالجندي المجهول ينسى نفسه وينسب الفضل فيما حققه من عمل ـ للأمة والوطن ـ إلى إخوانه وزملائه في جمعية العلماء الذين شاركوه في تحمل المسؤولية ووقفوا إلى جانبه في وقت المحنة والشدة.

وقد كانت عصبة ابن باديس التي برزت إلى الوجود في عام 1931م في منظمة «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» عصبة تتصف بغزارة العلم والوطنية الصحيحة وتعمل في انسجام وودّ قل أن يوجدا في الهيئات

(1) المصدر نفسه ص 105.

الأخرى ، يقول ابن باديس: إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمتي، وأخص منهم الأسود الكبار وهم إخوتي الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلا وجدتهم معي كالأسود[1].

لذلك كان هؤلاء العلماء من زملائه ورفاقه في جمعية العلماء عاملاً قوياً من عوامل تكوين شخصيته وبروزها على الشكل الذي عرفها الناس به، صلبة في الحق ثابتة على المبدأ، قوية الإيمان بالله ونصره، لا تتغير ولا تتزعزع في وجه العواصف مهما اشتد هياجها وطمى سيلها.

ومن بين العلماء الذين أشار إليهم ابن باديس في كلمته الانفة الذكر نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر[2]:

أ. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

وهو رفيق ابن باديس وزميله في قيادة الحركة الإصلاحية في الجزائر ونائبه في رئاسة جمعية العلماء، ثم قاد جمعية العلماء بعد وفاته. تعرف عليه ابن باديس في المدينة المنورة سنة 1913م عندما ذهب إلى أداء فريضة الحج كما سبق أن ذكرنا، وربطت بينهما صداقة قوية لم تنقطع إلا بوفاة ابن باديس في عام 1940م، حيث خلفه الإبراهيمي في رئاسة جمعية العلماء وقادها بمهارة حتى أدت رسالتها كاملة للأمة بعد وفاة ابن باديس كما أدتها كاملة في حياته[3].

وكان بعد رجوعه إلىالجزائر في كل بلد يحل فيه لابد أن يبني مدرسة أو يوسع مدرسة وكان يقول للناس: وسعوا المدارس فسيأتي يوم تضيق فيه بأبنائكم ويقول لهم: إن مدارسكم هي مراكز الإصلاح، لا تحسبوها للعلم وحده حتى إذا أغلقت فرنسا أبوابها أهملت أنها مركز للكفاح[4]، ومما يروى عنه في مجال دعوته لفتح المدارس أن أهل وهران جاؤوه بعد الحرب العالمية الثانية وقالوا له: لقد وجدنا أرضاً لبناء المدرسة الواسعة ولكن

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 33.

(2) المصدر نفسه ص 33.

(3) المصدر نفسه ص 34.

(4) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، د. أحمد الخطيب ص 151.

ثمنها مليون فرنك «فرنسي قديم»، وليس في صندوق جمعيتنا إلا 150 ألف فرنك، فقال لهم: أقدموا على الشراء وادفعوا الموجود وأنا أعطيكم المليون، وبما أنه لم يكن يملك مالاً، فقد قال لهم إثر اجتماعهم به بعد الشراء: أريد ألف مصلح في وهران والبلاد المجاورة كل واحد يدفع إلينا ألف فرنك وبذلك جمعوا أكثر من المبلغ المطلوب[1]. واشتهر الإبراهيمي بالكتابة والتعبير البديع، المعبر عن المعاني المصيب لها في أعماقها، المشحونة بالعاطفة الإنسانية والإسلامية، واستعمل العبارات الصريحة في مهاجمة الاستعمار وعملائه مثل قوله في الاستعمار الفرنسي: جاء الاستعمار الفرنسي إلى هذا الوطن، كما تجيء الأمراض الوافدة تحمل الموت وأسباب الموت[2].

وسيأتي الحديث عنه مفصلاً بإذن الله بعد توليه زعامة جمعية العلماء.

ب . الشيخ الطيب العقبي:

وقد كان من أبرز رجالات جمعية العلماء، وهو صحافي قدير وصاحب جريدة «الإصلاح». وقد كان شخصية علمية ممتازة كما كان خطيباً مصقعاً، يستطيع أن يحرك أوتار قلوب الجماهير وعواطفهم بقوة بيانه وفصاحة لسانه ويوجههم إلى حيث يريد. وقد تولى رئاسة تحرير جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء عند إصدارها فترة من الوقت، وكانت دائرة عمله هي العاصمة ومنطقتها، وأما مركز عمله فهو نادى «الترقي»[3].

ولد الشيخ الطيب العقبي 1890م . 1960م، وهو الطيب بن محمد بن إبراهيم، من عائلة محمد بن عبد الله، التي تنتسب إلى قبيلة أولاد عبد الرحمن الأوراسية. وفي سنة 1895م هاجر مع عائلته إلى المدينة المنورة في الحجاز وهناك بدأ دراسته الأولية ولم تمنعه وفاة والده وهو في سن الثالثة عشرة من الاستمرار في تلقي العلم في

---

(1) المصدر نفسه ص 152.

(2) المصدر نفسه ص 153.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 34.

الحرم النبوي، وما لبث أن أصبح معلماً في نفس الحرم، وأخذ يقرض الشعر ويكتب المقالات الثورية مما جعله يكتسب صداقة بعض المصلحين في ذلك الوقت أمثال شكيب أرسلان ومحب الدين بن الخطيب وغيرهما[1].

وعاد العقبي إلى الجزائر في 4 مارس «اذار» 1920م، وحل بعد عودته في مدينة بسكرة الصحراوية، وعند وصوله وكعادة علماء الإصلاح اتخذ العقبي من مساجد المدينة منبراً يبث منها افكاره عن النهضة العربية والجامعة الإسلامية والإصلاح الديني والاجتماعي، والتف حوله جماعة من الأدباء المصلحين يؤازرونه في مهمته وأشتهر من تلاميذه محمد العيد ال خليفة شاعر الجزائر. ودخل العقبي معترك الصحافة الوطنية باشتراكه أول الأمر في انشاء جريدة «صدى الصحراء» في ديسمبر 1925م في بسكرة، التي كان يشرف عليها رسمياً أحمد العابد العقبي، ولكنه اثر بعد ذلك تأسيس جريدة مستقلة به عرفت «بالإصلاح» وبدأت بالظهور عام 1927م.

كانت طريقة العقبي في الدعوة الإصلاحية هي نفس طريقة ابن باديس، يقوم تدريسه على العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية يهتدي بالقرآن والحديث، ولكن المجال الذي اشتهر به وذاع صيته فيه هو الخطابة.

يقول عنه أحمد توفيق المدني بأنه: كان خطيباً مصقعاً من خطباء الجماهير، عالي الصوت سريع الكلام، حاد العبارة، يطلق القول على عواهنه كجواد جامح دون ترتيب أو مقدمة أو تبويب أو خاتمة، وموضوعه المفضل هو الدين الصافي النقي، ومحاربة الطرق ونسف خرافتها والدعوة السافرة لمحاربتها ومحقها[2].

كانت فصاحته تجلب الألباب وصوته يؤثر في الجماهير، وسيرته الفاضلة وسلوكه الديني البحت تؤثران على الجماهير تأثيراً عظيماً[3].

---

(1) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 158.

(2) المصدر نفسه ص 160.

(3) المصدر نفسه ص 160.

وفي عام 1932م وقع الاختيار على العقبي عميداً لجمعية في عمالة الجزائر فانطلق نشاطه الإصلاحي، وظهرت نتيجة أعماله في فتح المدارس العربية الحرة في العاصمة وفي العمالة، وتعزز وضع جمعية العلماء مما أثار قلق المستعمرين، فاستغلوا حادث مقتل الشيخ محمود بن دالي المعروف بكحول أحد موظفي الإدارة الدينيين وإمام الجامع الكبير، وكان قد أرسل برقية إلى الحكومة الفرنسية يشهر فيها بجمعية العلماء التي شاركت في وفد المؤتمر الإسلامي إلى باريس عام 1936م، واتهم علماء الجمعية بأنهم لا يحملون مستندات ولا شهادات.. وتتبرأ منهم الأغلبية الساحقة ولا يمثلون سوى شرذمة من المشوشين الذين يحاولون بث الفوضى في البلاد[1].

ظهر استغلال الإدارة بتوقيفها رجلاً ذا سوابق عدلية ودور مشبوه فيه يدعى «عكاش» ؛ أكد أثناء التحقيق معه أنه تسلم من العقبي خنجراً من صنع «بوسعادة» ومبلغ 30000 فرنكاً، فاعتقل العقبي مع رفيق له يدعى عباس التركي، وزج بهما في السجن، ولوحق أعضاء جمعية العلماء المسلمين في العاصمة، وأغلق نادي الترقي، ولكن المكيدة سرعان ما انفضحت إذ تراجع عكاش عن اعترافه الأول وأنكر علاقة العقبي وجمعية العلماء ونادي الترقي بالجريمة، فأفرج عن العقبي بصورة مؤقتة، ولكنه وضع تحت المراقبة، وسلط عليه سيف المراقبة العدلية وامكانية التوقيف عند الضرورة[2].

توفي الطيب العقبي بتاريخ 21 ماي «أيار» 1960م ودفن بمدينة الجزائر[3].

ج . الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي:

هو العرْبي «بتسكين الراء» بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات من بلدة «أيسطح» النموشية التي تقع في الجنوب الغربي من مدينة «تبسة» في عمالة قسنطينة. ولد العربي عام 1895م في عائلة فلاحية فقيرة، وكان

(1) المصدر نفسه ص 161.

(2) المصدر نفسه ص 161.

(3) المصدر نفسه ص 163.

والده إلى جانب عمله في الزراعة يتولى تحفيظ أولاد القرية القرآن الكريم في كتّابه، وذلك بالطريقة التعليمية البدائية الشائعة في الوسط العربي. وقد تتلمذ العربي على والده الذي توفي تاركاً ابنه في السنة الثامنة من عمره، فاستمر العربي في حفظ القرآن حتى بلغ الثانية عشرة من عمره، وانتقل بعدها إلى زاوية خنقة سيدي ناجي الرحمانية في الجنوب الغربي لجبال النماشة، وهناك أمضى ثلاث سنوات حفظ خلالها القرآن الكريم.

. في تونس:

وبما أنه كان راغباً في متابعة تحصيله العلمي، فقد أوفده أهله إلى الزاوية التي سبق والده أن تلقى العلم فيها، وهي زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في مدينة «نفطة» بجنوب غرب تونس، وكان قد بلغ الخامسة عشرة من عمره، وهناك شرع في دراسة العلوم الشرعية والعربية، وأكبّ على مكتبة الزاوية يطالع ما فيها من كتب. وكان كلما توسع في المعرفة ازداد رغبة في التحصيل. وبعد ثلاث سنوات من وجوده في «نفطة» التحق عام 1913م بجامع الزيتونة ليستكمل دراسته العالية.

الجدير بالذكر أن التعليم والإقامة والطعام في الزوايا هو مجاني يصرف من دخل الأملاك الموقوفة للزاوية ومن تبرع المحسنين، أما في جامع الزيتونة فقد كان فقراء الطلبة يجدون المأوى في الدور العديدة التي أوقفها المحسنون لسكن الطلبة الغرباء، وتسمى هذه الدور «مدارس» نظراً لمذاكرة الطلاب فيها، وقد أوى العربي إلى أحد غرف هذه «المدارس» بينما تكفل عمه بالإنفاق على طعامه ومصاريفه الأخرى المتقشفة.

نال العربي في تونس شهادة «الأهلية» واستعد لنيل شهادة «التحصيل»، ولكنه فضل الانتقال إلى القاهرة عام 1920م تدفعه رغبة جامحة في نفسه لتلقي العلم من منهله الأصيل في جامع الأزهر العريق.

. في القاهرة:

كان يعيش على ما يقتات به من أوقاف رواق المغاربة في الوقت الذي كان يتابع فيه دراسته العالية في الأزهر حتى وصل درجة العالية.

ويبدو أنه تأثر بالجو الفكري والسياسي الذي كان يسود مصر في العشرينات، حيث كانت ثمار النهضة تؤتي أكلها، وكانت الحركة الوطنية في عز انتفاضتها، فصمم على العودة إلى الجزائر لمشاركة رجال الإصلاح هناك جهادهم، وكان مطلعاً على نشاطاتهم، فغادر القاهرة بعد أن أمضى سبع سنوات ينهل فيها العلم من جامعها ومن مكتباتها الغنية(1).

. نشاطه الإصلاحي:

ابتدأ العربي نشاطه الإصلاحي فور عودته من مصر عام 1927م واتخذ مدينة «تبسة» التي أصبح ينسب إليها مركزاً له، وكانت هذه المدينة كالمدن الجزائرية الأخرى تئن من أمراضها الاجتماعية، فالبدع فيها منتشرة والناس يصدقون الخرافات، والجهل يضرب أطنابه، ولم يكن من اليسير على العربي محاربة هذه الافات، ولكنه بما عرف عنه من همة صلبة أبى إلا أن ينطلق في دعوته الإصلاحية، فاتخذ من مسجد صغير في قلب المدينة يدعى مسجد أبي سعيد مركزاً له، والتفت حوله حفنة من الرجال الواعين في المدينة أخذ عددها يزداد كل يوم مع ازدياد نشاط الشيخ حتى ضاق بهم المسجد الصغير، فانتقل بهم العربي إلى الجامع الكبير الذي تشرف عليه الإدارة الحكومية، ولكنه سرعان ما منع من تقديم الدروس فيه نتيجة لتدخل الطرقيين وأعوان الإدارة، فعاد إلى مسجد أبي سعيد يوالي فيه نشاطه على الرغم من ضيق المكان بتلاميذه، وبأنصار الإصلاح المتهافتين على دروسه(2).

وكان درس الشيخ للعامة بعد صلاة العشاء، فيسرع الناس من متاجرهم ومنازلهم ومن المقاهي لصلاة الجماعة وسماع الدرس فيمتلأئ بهم المسجد، وكانت دروس الشيخ في التفسير والحديث، يختار آية قرانية تناسب موضوعه، أو حديثاً نبوياً فيفسرها تفسيراً بارعاً يخلب ألباب السامعين.. ثم يتسرب إلى الأمراض

(1) المصدر نفسه ص 168.

(2) المصدر نفسه ص 169.

الاجتماعية فيشرحها ويبين أسبابها وعواقبها الوخيمة في الدنيا وفي الاخرة، وينقضّ في دروسه على بدع الطرقيين الضالين وإفسادها للعقيدة الإسلامية وسلبها لعقول الناس، فيُظهر بطلانها وفسادها ويُري للناس أولئك المدجلين على حقيقتهم.. ويشرح الشيخ في دروسه الموبقات التي يرتكبها المسلمون، ويغمسهم فيها الاستعمار، ويحدثهم على الواجبات كالصلاة والفروض الأخرى ويحدثهم عن الجهل والأنانية والعصبية، واحتقار اللغة العربية وعلومها، وهو ما يغرسه الاستعمار بكل وسائله في أبناء مدارسه على الخصوص. وبذلك كان العربي يثير العزة في نفوس مستمعيه فيتحسسون ثقل الاستعمار، ويعملون عن طريق إصلاح نفوسهم في إصلاح مجتمعهم. وكان العربي التبسي يعتبر أن إصلاح النفوس هو الشرط الأول للخلاص.

ولم يدع رجال الاستعمار وأعوانهم الشيخ العربي ينطلق في نشاطه على سجيته، فأخذوا يشددون عليه الخناق ويضيقون على أنصاره حتى أحاق به الخطر، فنصحه ابن باديس بالانتقال إلى مدينة «سيق» في عمالة وهران، فانتقل إليها وأمضى فيها عامين من أول عام 1930م حتى نهاية عام 1931م، تمكن من خلالها من نشر الدعوة الإصلاحية في كثير من مناطق الغرب الجزائري.

وفي أول عام 1932م عاد الشيخ العربي إلى تبسة بإلحاح من أنصاره فيها وكانوا قد جهزوا مدرسة عصرية أبوا إلا أن يتولى إدارتها بنفسه.

وساعد الشيخ العربي في تبسة على إنشاء جمعية تهذيب البنين وذلك في عام 1932م، وتمكنت هذه الجمعية من إقامة مدرسة كبيرة مجهزة تجهيزاً عصرياً، بلغ عدد تلاميذها عام 1934م خمسمائة تلميذ وتلميذة، كما أنشأت إلى جانب المدرسة مسجداً حراً لا يخضع لمراقبة الإدارة[1].

. في قسنطينة:

بعد افتتاح معهد عبد الحميد بن باديس في قسنطينة عام 1947م تولى العربي التبسي إدارته، ولم يكن اختيارُه ليملأ الفراغ الذي تركته وفاة ابن باديس في قسنطينة بالأمر الهين، فقد كان عليه بالإضافة إلى مهامه

(1) المصدر نفسه ص 170.

في إدارة المعهد أن يقوم بإلقاء دروس التفسير في الجامع الأخضر، والاهتمام بحل مشاكل الناس، ولقد حاول ما استطاع وقاد الحركة الإصلاحية في عمالة قسنطينة بهمة ونشاط على الرغم من مشاغله في إدارة المعهد، وعرف أهل قسنطينة في الشيخ العربي رجلاً ثائراً على الاستعمار شديد الوطء على الإلحاد ومظاهره.

وكان الشيخ العربي قد سجن مع رجال الحركة الوطنية إثر مجزرة 8 ماي 1945م وأفرج عنه في نهاية ربيع 1946م، وزاده السجن تمسكاً بالدعوة الإصلاحية، وبقي الشيخ العربي في قسنطينة إلى ما بعد قيام الثورة الجزائرية أي إلى أن أغلق معهد بن باديس عام 1956م[1].

. في العاصمة:

بعد أن أغلقت السلطات الاستعمارية معهد ابن باديس انتقل إلى العاصمة لإدارة شؤون جمعية العلماء فيها بعد أن خرج أغلب رجالاتها إلى البلدان العربية، وقد رفض الإصغاء لنصائح زملائه بمغادرة الجزائر مؤقتاً خوفاً على حياته لأن رؤوس رجال الإصلاح أصبحت مطلباً استعمارياً، وأخذ بدلاً من ذلك يكثف نشاطه في العاصمة، فكان يشرف على شؤون الجمعية وعلى ما تبقى من مدارسها ونواديها ومساجدها، واستأنف أيضاً دروس التفسير للعامة في مسجد حي «بلكور» الذي كان يكتظ بالمستمعين، على الرغم من ظروف الحرب. وكانت دروس الشيخ قوية يمزجها بأسلوب حكيم بالدعوة إلى الجهاد وتأييد الثورة[2].

. إستشهاده:

قال الشيخ العربي في خطاب له أمام إدارة جمعية العلماء عام 1952م: إنه لا يمكن إرضاء الإسلام

(1) المصدر نفسه ص 171.

(2) المصدر نفسه ص 171.

والـوطن، وإرضـاء الـزوج والأبنـاء في وقـت واحـد، إنـه لا يمكـن لإنسـان أن يـؤدي واجبـه التـام إلا بالتضحية[1].

وبالفعل فقد اختار الشيخ العربي التضحية عندما اثر البقاء إلى جانب الشعب محاضراً خطيباً واعظاً حاضاً على الجهاد، وقد نقل عنه في هذه الظروف أحد جلسائه قوله: لو كنت في صحتي وشبابي مازدت يوماً واحداً في المدينة، أُسرع إلى الجبل فأحمل السلاح فأقاتل مع المجاهدين[2].

وعندما لاحظت الحكومة الفرنسية مدى الهيمنة المعنوية التي يتمتع بها الشيخ العربي في صفوف المواطنين، حاولت التأثير عليه بطرق شتى لتفصله وجماعته عن حركة الثورة التي كانت تقودها جبهة التحرير الوطني، فأرسلت إليه تباعاً مندوبين عنها محاولين دفعه إلى التفاوض السياسي لإنهاء الحرب، فكان رده عليهم حازماً: إذا أرادت فرنسا إيقاف الحرب فلتفاوض جبهة التحرير الوطني، أما العربي التبسي وغيره فليس لهم أن يتكلموا باسم الشعب وثورته، ولا يستطيعون إيقاف ثورة الأمة كلها. وكان موقفه الوطني هذا دافعاً لخطفه من منزله بتاريخ 17 أفريل 1957م على يد «الجيش السري» الذي شكله غلاة الكولون، وبذلك اختفى الشيخ العربي واعتبر من الشهداء[3].

د . الشيخ مبارك الميلي:

هو مبارك بن محمد الميلي نسبة إلى مدينة الميلة التي نشأ في إحدى قرى دائرتها وبالتحديد في دوار أولاد مبارك من عمالة قسنطينة.

ولد في عام 1898م ونشأ يتيماً بعد وفاة والديه وهو في سن الرابعة من عمره، أدخله جده الكتّاب لتلقي مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم، وبعد تمضية أيام عصيبة في قريته، التحق بمعهد الشيخ محمد الميلي في مدينة ميلة وكان له من العمر خمسة عشر عاماً، وهناك تلقى طيلة ست سنوات العلوم العربية والشرعية قبل انتقاله إلى حلقات الشيخ عبد الحميد بن باديس في قسنطينة، حيث لم يطل به المقام أكثر من

(1) جريدة البصائر عدد 204 تاريخ 20 أكتوبر 1952م.

(2) أعلام الإصلاح (2 / 69) ، محمد علي دبوز.

(3) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 172.

سبعة أشهر، انتقل بعدها إلى تونس لاستكمال دراسته العالية، فحصل على شهادة التحصيل ثم عاد إلى الجزائر عام 1922م، فحلّ في قسنطينة مساعداً لابن باديس في عمله التربوي، وقد أعجب به ابن باديس فأوفده مربياً ومعلماً وداعياً للإصلاح إلى مدينة الأغواط فبدأ فيها نشاطه عام 1923م.

. نشاطه وآثاره:

أمضى مبارك الميلي ثمان سنوات معلماً ومبشراً بالإصلاح الديني والتربوي في منطقة الأغواط، تعرض فيها لمحاولة اغتيال فاشلة من قبل الطرقيين، في نفس الوقت الذي تعرض فيه ابن باديس لمحاولة الاغتيال، وتعرض الميلي أيضاً لضغوطات الإدارة الفرنسية وتهديداتها، مما أرغمه على الانتقال إلى «ميلة» ليتابع منها نشاطه الإصلاحي.

انتخب عام 1931م عضواً في المجلس الإداري لجمعية العلماء واستمر في هذه العضوية حتى وفاته، أهم ما اشتهر به الميلي هو كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» الذي يعتبر أول محاولة وطنية لكتابة تاريخ الجزائر في العصر الحديث، وذلك بعد انفراد المؤرخين الفرنسيين بكتابة تاريخ هذا القطر العربي. وقد انجز الميلي جزأين من هذا الكتاب طبعهما في حياته، وعندما شرع في تأليف الجزء الثالث أدركته المنية.

وإلى جانب «تاريخ الجزائر» ظهر للميلي كتاب يهتم بمحاربة الخرافات والبدع وهو كتاب «الشرك ومظاهره».

ويذكر أحمد توفيق المدني أن الباحثين الغربيين يعتبرون تاريخ الميلي وكتاب الجزائر للمدني وجمعية العلماء، قد ظهروا معاً في عام 1931م ولادة: الملية الإسلامية الوطنية بالقطر الجزائري[1].

ولم يعمّر الميلي طويلاً فتوفي بتاريخ 9 فيفري «شباط» 1945م عن عمر يناهز الثامنة والأربعين[2].

(1) المصدر نفسه ص 164.

(2) المصدر نفسه ص 165.

هؤلاء العلماء الذين أشرنا إلى أبرزهم فقط ؛ كانوا ساعداً قوياً للشيخ ابن باديس، وعضداً له في كل الملمات، وسنداً قوياً له في جميع المواقف السياسية الحرجة التي وقفها دفاعاً عن عروبة الجزائر وإسلامها وقوميتها، وفيما قام به من أعمال جليلة في ميدان التربية والتعليم والإصلاح الديني والاجتماعي يشرح لنا ابن باديس تأثير هذا العامل في شخصيته على النحو التالي:.. ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين ازروني في العمل من فجر النهضة إلى الان، فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار، أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء، وافرة الحظ من العلم، مؤتلفة القصد والاتجاه، مخلصة النية متينة العزائم، متحابة في الحق، مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية، وقد ألف بينها العلم والعمل . مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار، فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي، وتأثل بطاردهم تلادي، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم(1).

5 . الشعب الجزائري:

فالعامل الخامس في تكوين شخصيته يعود إلى الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من خصال الكرم والنجدة والشهامة، وأصول الكمال الإنساني، والاستعداد الكامل للبذل والعطاء والتضحية بكل غالٍ ونفيس من أجل المصلحة العامة، وقد عمل ابن باديس ما وسعه الجهد طيلة حياته على رعاية وتنمية هذه الخصال النبيلة في أبناء الجزائر ومحاولة تغليبها على عوامل السلبية والأنانية والفردية واللامبالاة حتى تستطيع الجزائر أن تتغلب على واقعها الفاسد الذي وصلت إليه بعد قرن من الاحتلال الغاشم للوطن.

ويصف ابن باديس الأمة الجزائرية بأنها:أمة معونة على الخير، منطوية على استعدادات، وأنها ذات نسب عريق في المحامد والفضائل(2).

---

(1) ابن باديس «الشهاب» (ج 4 / 288 . 291).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 36.

ويعتبر الطينة الجزائرية طينة علم وذكاء إذا واتتها الظروف[1].

ويعلل في مقال مشهور له كتبه في الشهاب تحت عنوان «لمن أعيش؟».

لماذا يتوجه بخدماته أول ما يتوجه بها إلى الجزائر؟ لأنها وطنه الخاص الذي تربطه به روابط عديدة، تفرض عليه أن يقوم بواجبه نحوه، وأن كل مقوماته الشخصية مستمدة منه مباشرة، ثم أنه كلما أراد أن يعمل عملاً إلا ووجد نفسه في حاجة إلى رجال وطنه وإلى أموالهم ومؤازرتهم إلى اخره، لذلك يخص وطنه بأعظم حبه وبأكبر خدماته يقول: أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليّ تلك الروابط لأجله .كجزء منه . فروضاً خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أنني كلما أردت أن أعمل عملاً وجدتني في حاجة إليه . إلى رجاله وإلى ماله وإلى حاله وإلى الامه وامانه، كذلك أجدني إذا عملت قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه[2]. وهكذا كان هذا العامل ذا أثر كبير في تكوين شخصية ابن باديس ونفسيته واتجاهه العام الذي التزم به طول حياته.

ويلاحظ أن الشيخ عبد الحميد بن باديس عندما يتكلم عن الشعب الجزائري أو الوطن الجزائري يكون كلامه مشوباً بمسحة من الإجلال والإحترام الكبيرين، ويرى أن خدماته وتضحياته في هذا الميدان مهما كانت ضخمة تعتبر ضئيلة متواضعة، ولذلك أذاب نفسه في عمل متواصل بالليل والنهار من أجل بعث النهضة في الشعب الجزائري وإيقاظه من نومه العميق كي يلاحق الأمم المتطورة ويسابق الشعوب الناهضة[3].

يقول ابن باديس مصوراً هذا العامل في شخصيته من الناحية العملية:.. ثم لهذه الأمة الكريمة المعوانة على

---

(1) المصدر نفسه ص 36.

(2) ابن باديس: الشهاب (ج10، م12 / 424 . 428).

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 36.

الخير المنطوية على أصول الكمال ذات النسب العريق في الفضائل، والحسب الطويل العريض في المحامد، هذه الأمة التي ما عملتُ يوماً ـ علم الله ـ لإرضائها لذاتها، وإنما عملتُ ومازال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها ولكن الله سددها في الفهم، وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه، وأعمالي على حقيقتها، فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي[1].

6 ـ تأثره بالقرآن الكريم:

والعامل السادس والأخير من عوامل تكوين شخصية ابن باديس هو «القران الكريم»، وهذا العامل يفوق غيره من العوامل السابقة، وقد وهب له الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزء الأكبر من حياته الخصبة، يتعلمه ويتدبره ثم يفسره للناس في الجامع الأخضر بمدينة قسنطينة من أجل هدايتهم به، حتى أتمه تفسيراً ودراسة في خمسة وعشرين عاماً.

والمعروف أنه لم يختم القرآن تفسيراً في الجزائر أحد غيره ؛ منذ ختمه «أبو عبد الله التلمساني» في المائة الثامنة للهجرة، وذلك رغم مشاغله الكثيرة التربوية والصحافية والإجتماعية.

وكان ينشر البعض من تلك الدروس كافتتاحيات «الشهاب» تحت عنوان «مجالس التذكير» بعد صدورها ابتداء من عام 1925م ؛ غير أنه لم يتمكن ـ مع الأسف الشديد ـ من تسجيله كله كتابة لكثرة مشاغله، ولم يقيض الله له من يقوم بتسجيله نيابة عنه أثناء الدرس وينشره على الناس، كما فعل الشيخ محمد رشيد رضا بدروس الإمام محمد عبده في التفسير، حيث سجلها ونشرها في مجلة المنار، ثم بعد ذلك جمعها في كتاب خاص تحت عنوان «تفسير المنار»، بعد أن أضاف إليها دروساً أخرى من عنده مكملة لها على طريقة الإمام محمد عبده في التفسير، وقد ضاع على الجزائر والمسلمين كنز لا يقدر بمال بسبب عدم تسجيل تفسير

(1) الشهاب عدد خاص (ج 4 ـ 5، م 14 ص 288 ـ 231).

ابن باديس كله[1].

كان ابن باديس يؤمن بأن نهضة الجزائر الحقيقية وتقدمها وتطورها المنشودين ؛ لا يمكن أن يقوما إلا على أساس الرجوع إلى تعاليم القرآن وهدايته، أي إلا على أساس إحداث نهضة إسلامية شاملة تبعث روح العزة والكرامة في المواطنين، وتجعلهم يستعذبون الموت في سبيل الحياة، وقد صور لنا ابن باديس تأثير القرآن الكريم في نفسه وتكوين شخصيته كالاتي: ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب لأدبه وإن القرآن الذي كوّن رجال السلف ؛ لا يكثر عليه أن يكوّن رجالاً في الخلف، لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه، ثم يقول: إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقران إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي للدرجة التي تحمدونها اليوم، فإننا ـ والحمد لله ـ نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرانيين تعلق هذه الأمة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[2].

ثالثاً: أهم صفات وأخلاق ابن باديس:

اتصف ابن باديس في سيرته العطرة بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق والإخلاص والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام والدقة، والزهد، والورع والاستقامة.. الخ ونحاول في هذا المبحث أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها شخصيته الإصلاحية العظيمة:

1 ـ حيوية عالية:

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ضعيف الجسم نحيله ، ليس من أصحاب الطول الفارع ولا القصير

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 40.

(2) ابن باديس «الشهاب» عدد خاص (ج 4 ـ 5 م 14 ص 291).

المشين، ولو أنه إلى القصر أقرب، شبّه الدكتور مازن حامد مطبقاني بصورة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، الذي عرف عنه صغر حجمه ودقة ساقيه، حتى إذا استهزأ أو ضحك بعضهم من دقة ساقيه قال الرسول (ص): ما تضحكون لرجل عند الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد[1].

كان ابن باديس مجموعة من الإرادات العقلية والنفسية والروحية والقوة والعظمة والعمل. وما ذلك إلا لتفوق حيويته الروحية على حيويته المادية، فجانب الحيوية الروحية في ابن باديس متوفر وغزير. وقد ظهرت هذه الحيوية في حياته ومواقفه فهو:

. حيٌّ في إيمانه بربه وبمبادئه السامية.

. حي في خلقه العالي الملازم لشخصه ملازمة الشمس لنورها.

. حي في علمه الصحيح المبني على البحث الدقيق المؤسس على الطهارة النفسية واليقين القلبي.

. حي في قلبه المطمئن الثابت الذي لا تهزه العواصف ولا تنال منه الخطوب.

. حي في دينه الذي يخلص له ويعتز به أينما حل وحيثما ارتحل.

. حي في لسانه الفصيح الذي أوقفه على بناء الحق وهدم الباطل، وتأييد الهدى ومحو الظلام.

. حي في قلمه البليغ الذي التزم أن لا يخطّ إلا ما يمليه الضمير النزيه وتقتضيه مصلحة «الدين، واللغة، والوطن».

. حي في عمله المتزن المثمر الذي لم يعرقل تدفقه أي سدّ ولم تقف في وجهه أي محاولة.

(1) حديث صحيح أخرجه أحمد ، انظر المسند (1 / 114). عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي مازن صلاح مطبقاني ص 36.

فأي شيء يمنع الشمس أن تطلع أو يصدّ النور أن يسطع؟ ولنقتصر على إيراد مثالين اثنين يتجلى لنا فيهما طغيان هذا الجانب الحيوي الروحي على هذا «الرجل العظيم».

المثال الأول: هجره للسعادة الزوجية التي هي أجمل حلم للإنسان، وعدم احتفاله بالعاطفة الأبوية المحدودة التي هي من أعرف الغرائز في شخص الكائن الحي.

فقد رُزأئ في ولده الوحيد ولم يتخلف عن درسه يوم وفاته، ولما عُوتب في ذلك أجاب: أي مبرر لي أمام الله والواجب إذا ما تخلفت عن الدروس وأضعت على الطلبة وقتاً من أوقاتهم الثمينة(1)؟

وما هذا إلا ظاهرة لمبلغ ما يكمن في طبعه من الانقياد إلى غرضه السامي، والاستجابة لصوت الجانب الروحي المكين من جهة، ودرسٌ عملي في التضحية بالمصلحة الخاصة في سبيل المصلحة العامة من جهة ثانية، واية صادقة على أن «عبد الحميد» ما خلق ليكون أباً لفرد من الأسرة الباديسية، وإنما خلق ليكون أباً لأبناء الجزائر أجمعين من جهة أخرى.

والمثال الثاني: هو أنه لما بلغه أن تلميذه الأستاذ الميلي ألف كتاباً في التاريخ سماه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» بعث إليه برسالة تمنّى لو يغير المؤلف عنوان الكتاب فيسميه بدل التسمية الأولى «حياة الجزائر» فلتستمع إليه إذ يقول: أخي مبارك سلام ورحمة، حياك الله بتحية من علم وعمل وعلم: وقفت على الجزء الأول من كتابك «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» فقلت لو سميته «حياة الجزائر» لكان بذلك خليقاً إلى أن يقول: إذا كان من أحيا نفساً واحدة كأنما أحيا الناس جميعاً ؛ فكيف من أحيا أمة كاملة وأحيا ماضيها وحاضرها وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها(2).

---

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 128.

(2) مقدمة تاريخ الجزائر (1 / 10).

فهكذا نرى ابن باديس ينشد الحياة في كل شيء حتى في أسماء الكتب[1].

كان ابن باديس أبيض البشرة جميل الطلعة، تحفه هيبة الإيمان يدركها من عرفه ومن لم يعرفه. يحكي أحد تلاميذ الشيخ أنه كان يسير في أحد شوارع قسنطينة فلقيه أحد كبار الموظفين الفرنسيين ورئيس تحرير جريدة «لاديباش كونستنتين» فارتبك واضطرب، وحتى يزيل اضطرابه أسرع فتقدم من ابن باديس قائلاً: أنت رجل عظيم، أعرفك بنفسي أنا لوسياني.

وهناك قول للشيخ الإبراهيمي يؤكد هذه الهيبة، فقد كان ابن باديس يذهب إلى وهران لزيارة الإبراهيمي في مدينته وبين تلاميذه، والإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس، فلا يتمالك نفسه حتى يقول «ما أقوى نفوذ هذا الرجل». ويضيف تلميذه الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس خمس سنوات وهو الشيخ محمد الصالح رمضان: إن للشيخ عبد الحميد بن باديس قوة روحية خارقة سببها الجانب الروحي في حياته[2].

2. ثباته على المبدأ:

يقول أحمد توفيق المدني:.. جاءنا عبد الحميد يوماً إلى النادي، وكنا جماعة ننتظر رجوعه من الولاية العامة، فقال: اليوم أدركت السر في أن محمداً (ص) نشأ وعاش يتيماً. فلقد وقفت اليوم أمام والدي محمد المصطفى بن باديس، وهو يجلس إلى جانب ميرانت مدير الأمور الأهلية، موقفاً أرجو أن يحتسبه الله لي يوم القيامة. فلقد ابتدرني ميرانت بحديث حلو العبارة مرّ المذاق، وقال لي: يا شيخ، اتركْ عنك هذا العار، اخرجْ من هذه الحشومة، ودع هذه الجماعة المسكينة التي جمعها عدو فرنسا بالنادي فليس هؤلاء الرجال رجالك، وليست هذه الحثالة من الطلبة ممن يفتخر العالم بالانتساب لهم، أو أن يكون رئيساً عليهم، قال: واستمر على هذا المنوال ودمي يفور، وشعوري الجريح يتأجج كأنه نار، وحاولت أن أرد الصاع صاعين، وإذا بوالدي وهو

(1) عبد الحميد بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 129.

(2) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي ص 37.

كل شيء عندي بالنسبة للحياة الدنيا، يقف أمامي ويبكي ويقول: يا عبد الحميد يا ولدي، ربيتك صغيراً وعلمتك يافعاً وفتحت أمامك أبواب الحياة الهنيئة حتى غدوت عالماً تشد إليك الرحال، فلا تفضحني اليوم يا عبد الحميد في شيبتي، لا تشمت بي الأعداء، لا تتركني للمذلة والهوان، هذا حبيبنا مسيو ميرانت لا يريد لنا إلا الخير، وقد مهد لي سبل الوصول إلى المركز الذي أنا فيه، وإن الإعراض عنه هو إعراض عني أنا، والإساءة إليه هي إساءة لي، ورفضُ طلبه رفضٌ لطلبي، وقد أمر الله بطاعة الوالدين، فأنا امرك بالتخلي عن هذه الرئاسة وعن هذه الجمعية، قال: ثم انحنى أمامي وأنا أذوب، وأكبّ على رجلي يقبلها ويبكي، ويقول: لا تفضحني يا عبد الحميد.

قال: فانتصبت واقفاً، وأنا أرتعد تأثراً لا رفقاً، وتوجهت لوالدي وقلت: حاشا أن أعصي لك أمراً أو أن أخالف لك رأياً، وأنا ابنك المطيع إلا أن هذا الذي تدعوني إليه ليس في استطاعتي إطلاقاً، لأنني إن أطعتك فيه خالفت أمر الله، وأمر الله فوق أمر الوالد بنص القران، ولقد وقف محمد عليه الصلاة والسلام مثل هذا الموقف أمام أكابر قومه ووجوه عشيرته، فراودوه على أن يترك الدعوة لله وله ما يشاء مقابل ذلك من مال ومتاع، فأجابهم الجواب القاطع الصارم: والله لو وضعتم الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته إلى أن ينصره الله أو أقضي دونه. هذه هي كلمتي الأخيرة يا والدي، ويا مسيو ميرانت، وليفعل الله بعد ذلك ما يشاء، وخرجت لا ألوي على شيء.

قال له علاّمتنا العظيم البشير الإبراهيمي على الفور: طوبى لك يا عبد الحميد وحسن ماب، وقمنا إليه فهنأناه وذرفنا الدموع جميعاً، فلقد اعتبرنا انتصارنا في تلك المعركة مقدمة لانتصارات باهرة في معارك أخرى آتية[1].

3. شجاعته وصرامته في الحق:

ومن صفاته البارزة رباطة الجأش والشجاعة، وليس أدل على الشجاعة من وقوفه في وجه الاستعمار منذ بدأ التدريس في الجامع الأخضر، وليست الشجاعة فيما يظن البعض النقد العنيف للمحتل أو إلقاء الخطب

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 156.

الرنانة، بل كانت شجاعته من النوع المثمر، حيث العمل الدؤوب المتواصل لنشر العقيدة الإسلامية الصحيحة، وظهرت شجاعته في مواقفه من أتباع الطرق الصوفية وانحرافاتهم العقدية والفكرية، مع علمه بأن السلطات الفرنسية كانت تقف خلفهم تؤيدهم بالمال والمناصب.

وأما القصص والأحداث التي ظهرت فيها رباطة جأشه وشجاعته ؛ فمنها أن الشيخ عبد الحميد كان يركب سيارة عامة، وراه طبيب فرنسي يعرفه فأحب أن يركب الشيخ معه في سيارته الخاصة، وفي الطريق اصطدمت سيارة الطبيب الفرنسي بسيارة أخرى، فأصيب الطبيب بالرعب وصرخ صرخة ظن منها الشيخ أن روح الطبيب قد خرجت، ولم يبدُ على وجه ابن باديس أي تأثر، وعلل الشيخ ذلك بفراغ قلبه ـ الفرنسي ـ من الإيمان لأن الإيمان يحفظ على المؤمن ثباته واطمئنانه عندما تحل به الملمات.

وإذا ذكرنا شجاعته فلابد من ذكر موقفه حين كان في وفد المؤتمر الإسلامي الذي قابل رئيس الوزراء دلادييه، فتحدث المسؤول الفرنسي إلى الوفد مهدداً بقوة فرنسا[1]، واشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة إلى درجة أنه احتد وجابه الوفد بقوله: لا تنسوا أيها السادة أن فرنسا معها المدافع، فوجم القوم إلا ابن باديس الذي ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان حتى جابه رئيس الحكومة أن الجزائر معها الله، وانتقل الوجوم من الوفد إلى الرئيس.

وبالفعل كان فرنسا معها المدافع، والجزائر معها الله، واستمر اغترار فرنسا بالمدافع واستمر اعتزاز الجزائر بعون الله، وتغيرت الأحوال وتقلبت السياسة إلى أن نفخ الجزائريون الأبطال في صُور الثورة العارمة، يوم فاتح نوفمبر المجيد اقتحموا الميادين باسم الله وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع فما أغنى ذلك شيئاً، ونصر الله، بفضل الشهداء والتضحية، الذين قاموا باسمه {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ *} [محمد : 7].

(1) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني والزعيم السياسي ص 40.

كان آخر موقف علني وقفه ابن باديس العظيم، والأزمة العالمية خانقة تهدد العالم بشر وبيل، هو ردّه ضمن مجلس جمعية العلماء على من قال: يجب علينا أن نوجه برقية تأييد لحكومة فرنسا، إننا بذلك نأمل غائلة أعمالها ضدنا إذا ما اشتعلت نار الحرب، ونضمن كذلك مراعاتها لحقوقنا إذا ما خرجت من الحرب منتصرة، أجابه ابن باديس على الفور . وأيده كل الأعضاء . قائلاً: كلا لن نرسل لحكومة فرنسا أي تأييد، إنها حطمتنا وأذلتنا ساعة رخائها، فلا يجب أن نمد لها يداً أي يد، ساعة عسرها، طالبنا مراراً وتكراراً، فكانت تصم اذانها وتتجنى، ونحن اليوم نصمّ اذاننا عنها ونتجنّى. وانسحب صاحب الاقتراح من الجمعية[1].

كان ابن باديس كثيراً ما يردد هذا البيت:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

وكذلك عندما يتحدث إلى تلاميذه حديثاً فأحيانا يستخدم فيه اللحن والإشارة:

ولقد لحنت لكم كيما تفهموا واللحن تفهمه ذوو الألباب[2]

4 . الحلم والتسامح:

وهو من أبرز صفات الأنبياء والرسل، وقد أوذي رسول الله (ص)، فكان يقول: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[3].

كذلك سار علماء السلف والخلف على هذا الهدي في الحلم والتسامح، فكانوا خير من حمل إلينا هذه الأخلاق العالية والصفات السامية، عن عطاء بن يسار قال: ما أوتي شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم[4].

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 159.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 41.

(3) رواه مسلم، عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 126.

(4) المصدر نفسه ص 126.

وللإمام ابن باديس رحمه الله سجل حافل، وتاريخ زاخر بهذه المعاني الإسلامية السامية، فقد توفرت في شخص الإمام صفات العالم الذي يخاطب عقول المسلمين وقلوبهم، صائغاً إليهم هذا الدين في أحسن صورة لذلك كان موضع سخط السلطات الاستعمارية وأعوانها.

يُروى أن إحدى الجماعات الصوفية المنحرفة التي ضاقت ذرعاً بمواقف ابن باديس، أوعزت ـ بتنسيق مع سلطات الاحتلال ـ إلى نفر من أتباعها باغتيال الشيخ عبد الحميد ظناً منها أن في إغتياله قضاء على دعوته، غير أن الغادر الذي هم بهذه الجريمة لم يفلح في تنفيذها ووقع في قبضة أعوان الشيخ، وكانوا قادرين على الفتك به إلا أن أخلاق الإمام العالية جعلته يعفّ ويعفو ويحلم ويسامح، وينهي أصحابه عن الفتك به متمثلاً قول النبي (ص): رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون[1].

5 ـ التواضع:

من صفاته ـ رحمه الله ـ تواضعه، فقد كان أليفاً مألوفاً، وقد برزت صفة التواضع في حياته العلمية فيقول أحد زملائه: إنه كان في زيارة لوهران، وعرضت قضية من القضايا فقال فيها بغير القول المشهور، ولما عاد إلى قسنطينة واستشار مَراجعه ؛ تبين له أنه لم يكن على صواب، فكتب في الشهاب: إنني كنت مع فلان وفلان وتكلمنا في قضية ما، والحق ما قاله فلان وهو القول المشهور، ويقول الشيخ حمزة بو كوشة ـ راوي هذه القصة ـ سألته لماذا كتبت في الجريدة وقد كان يكفيك لو بعثت رسالة إلى الشخص الذي اختلفت معه؟ فقال رحمه الله: أردت أن يكون لكم درساً في الرجوع إلى الحق. وأضاف: تركت لكم مثلاً أنه إذا كان الإنسان عالماً يجب عليه أن يعيش للعلم[2].

ومثال آخر على تواضعه أن أحد معاصريه قال: لم أستطع طوال عمري أن أسبقه بالسلام[3].

(1) المصدر نفسه ص 126.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 38.

(3) المصدر نفسه ص 38.

وابن باديس في هذه الوقفات الصادقة وهذا الوضوح في المنهج ؛ ينطلق من قناعته العميقة بأهمية القدوة الحسنة في حياة الدعاة وهو ما يجعل الناس يشعرون بصدق الداعي، ومن ثمة يتقبلون دعوة الله ويكونون من جنودها وأنصارها(1).

6 . الزهد:

كان ابن باديس عفيفاً زاهداً في الدنيا، تجلى هذا في مواقف كثيرة منها أنه كان يعمل رئيساً لجمعية التربية والتعليم في قسنطينة، ولكنه لم يكن يتقاضى أي مبلغ من صندوق الطلبة على عمله، بل كان يكتفي بما يحصل عليه من اشتراكات الجريدة(2).

أما زهده فقد تمثل في انتقاله من بيت والده إلى غرفة بجوار مسجد قموش، وكان طعامه قليلاً لا يزيد على الكسرة واللبن وفنجان أو فنجانين من القهوة يومياً، حيث لم يكن يكثر من شرب الشاي أو القهوة. وكان رحمه الله أذا دعي إلى طعام اشترط الاقتصار على صنف واحد من الطعام، وكان يسأل عن الكسكسي «الطعام أو النعمة» فإن وجد لم يأكل غيره. وجميل ما وصفه به باحث فرنسي بأنه: كان لديه فقر مبتغى مستلهم من القرآن الكريم الذي يحذّر الذين يكنزون الأموال(3).

ويُروى أنه خرج من مقصورته بجامع سيدي قموش بقسنطينة ذات يوم، فطلب من أحد أصدقائه أن يبحث له عمن يشتري له نصف لتر من اللبن، وأعطاه انية فراها ذلك الصديق فرصة لإكرام الشيخ، فيذهب بنفسه إلى الشوّاء واشترى له صحناً من اللحم الممتاز، وعاد إلى الشيخ وهو يكاد يطير من شدة الفرح، ولما قدمها إليه استشاط غضباً وقال له في لهجة شديدة صارمة: ألا تعلم أنني ابن مصطفى بن باديس. وأن أنواعاً مختلفة من الطعام اللذيذ تُعدّ كل يوم في بيته، لو أردت التمتع بالطعام ولكن ضميري لا يسمح بذلك وطلبتي

(1) عبد الحميد بن باديس ، مصطفى حميداتو ص 129.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 39.

(3) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 39، 40.

يسبغون الخبز بالزيت وقد يأكله بعضهم بالماء[1].

ويمكن أن نستنتج من هذا الموقف:

. أن الشيخ ابن باديس كان عالماً ربانياً، وعازفاً عن الدنيا وملذاتها متواضعاً لله تواضع العلماء العارفين.

. أن المهمة التي انتصب إليها وهي تربية الجيل وتعليمه قد غلبت على نفسه وهيمنت على قلبه، فتفرغ لها تفرغاً زهّده في الملذات التي يطلبها الناس، والمتع التي يفرط في السعي وراءها الكبار والصغار[2].

7 . الجدية وحسن استغلال الوقت:

تميز ابن باديس بالجدية وحسن استغلاله للوقت، فهو منظم في عمله، دقيق في توزيع وقته على المهام العديدة التي يقوم بها، فقد كان مدركاً لقيمة الوقت، وضرورة استغلاله والاستفادة من لحظاته وتظهر نظرته هذه واضحة في سياق تفسيره لقوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *} [الإسراء : 78].

فيقول: في ربط الصلاة بالأوقات، تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات ونجعل لكل عمل وقته وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته، وتطّرد أعماله، ويسهل عليه القيام بالكثير منها، أما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه لابد أن يضطرب عليه أمره ويشوش باله ولايأتي إلابالعمل القليل، ويحرم لذة العمل، وإذا حُرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلّ سعيه وما كان يأتي به من عمل على قلته وتشوّشه بعيد عن أي إتقان[3].

وليس عجيباً أن يهتم مصلح مثل ابن باديس بالوقت هذا الاهتمام الكبير ؛ وهو الذي يقول عند تعليقه

(1) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى حميداتو ص 125.

(2) المصدر نفسه ص 126.

(3) مجالس التذكير «التفسير» ص 76.

على حديث رسول الله (ص): نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ[1].

عمر الإنسان أنفس كنز يملكه، ولحظاته محسوبة عليه، وكل لحظة تمر معمورة بعمل مفيد، فقد أخذ حظه منها وربحها، وكل لحظة تمر فارغة فقد غبن حظه منها وخسرها، فالرشيد هو من أحسن استعمال ذلك الكنز الثمين، فعمّر وقته بالأعمال، والسفيه من أساء التصرف فيه فأخلى وقته من العمل[2].

بهذه النظرة الصائبة للوقت، نجح ابن باديس في استغلاله أحسن استغلال، فكان يلقي من الدروس في اليوم الواحد ما يعجز عنه غيره، يبدأ دروسه بعد صلاة الفجر ويظل طيلة نهاره يُعلّم طلبته الدين وعلوم العربية ولا يقطع دروسه إلا لصلاة الظهر ولتناول الغداء، ثم يستمر إلى ما بعد صلاة العشاء. وكان رحمه الله مع أخذه بكل ما يستطيع من الأسباب في تأدية رسالته، يلتجأئ إلى الله بثقة لا توهب إلا لأولي العزم من الرجال، ففي إحدى ساعات الشدة والعُسرة قال لأحد طلبته: يا بُنيّ إن جميع الأبواب يمكن أن تُغلق أمامنا ولكن باباً واحداً لن يُغلق أبداً وهو باب السماء[3].

فمن أهم صفات ابن باديس رحمه الله أنه يهتم بوقته، وقد علّمنا الإسلام المحافظة على الوقت حين جعلَ يوم المسلم منظماً، فالصلاة لها أوقات محدودة يجب أن تؤدى في وقتها عملاً بقوله تعالى: {إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا *} [النساء : 103].

وإن المسلم يُسأل يوم القيامة عن عمره وعن شبابه كما حدّث بذلك الصادق المصدوق في قوله: لا تزال قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن ثلاث.. وكان أحدها عن عمره فيما أفناه.

لقد تميز ابن باديس في حياته كلها بإحترام الوقت والنظام، فكان رحمه الله رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته، فكان برنامجه اليومي مما يصعب على الكثير أن يقوم به، وسيأتي تفصيله بإذن الله تعالى وبالإضافة إلى

(1) رواه البخاري عن ابن عباس ، انظر فتح الباري (11 / 229).

(2) مجالس التذكير (2 / 138).

(3) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 130.

اشتغاله بالتعليم فقد ساهم مساهمة كبيرة في إنشاء المدارس والمؤسسات الخيرية وجمعيات التجار وجمعيات الكشافة والجمعيات الرياضية والفنية وكثير غيرها مما سيرد ذكره في حينه إن شاء الله.

8 . التطوير والتجديد:

كان ابن باديس يتصف بنزعة تجديدية ويهتم بتطوير أساليبه الدعوية وحرص على إصلاح التعليم ومناهجه، وكان يرى: أن جامع الزيتونة كلية دينية فلا يكون إصلاح التعليم فيه إلا على مراعاة هذا الوصف الذي هو أساسه وغايته، والرجال الذين يتخرجون من هذا الجامع يقومون بخطط كلها دينية وهم أصناف ثلاثة: رجال القضاء والفتوى، ورجال الإمامة والخطابة، ورجال التعليم، ولكل خطة من هذه الخطط وسائل خاصة لتحصيل الكفاءة فيها والاضطلاع بها، وإن من المعلوم أن ما يحتاج إليه القاضي والمفتي من سعة الاطلاع على الأحكام وتمام الخبرة بتطبيقها على النوازل ؛ غير ما يحتاج إليه الإمام الخطيب من المقدرة على إنشاء الخطب وحسن المعالجة بها لأمراض وقتها وقوة التأثير بها على سامعيها المعالَجين بها ؛ وغير ما يحتاج إليه المعلم من معرفة أساليب التفهيم وفهم نفسية المتعلمين وحسن التنزل لهم والأخذ بأفهامهم إلى حيث يريد بهم، حسب درجتهم واستعدادهم، فلهذا نرى أن أول عمل في الإصلاح هو تقسيم التعليم في الجامع إلى قسمين: قسم المشاركة وقسم التخصص.

. فأما في قسم المشاركة فيتساوى فيه المتعلمون في المعلومات على طبقاتهم، ويحصل الفائزون في الامتحان بعد تمام مدة التعليم التي لا تقل عن ثماني سنوات على شهادة عالم مشارك، بدلاً من لفظة «متطوع»، فإنه لفظ مات معناه وذهبت قيمته بذهاب الوقت الذي وضع فيه والمناسبة التي اقتضته.

. وأما قسم التخصص فيفرع إلى ثلاثة فروع:

فرع للتخصص في القضاء والإفتاء.

وفرع للتخصص في الخطابة.

وفرع للتخصص في التعليم.

وبعد تمام المدة التي لا تقل عن أربع سنوات في فرع القضاء والإفتاء، وعن سنتين في فرعي الخطابة والتعليم ينال الفائزون في الامتحان شهادة التخصص بالعالمية فيما فازوا فيه.

ثم إن المعلمين في قسم الاشتراك يكونون من الحائزين على شهادة التخصص في التعليم، وكذلك المعلمون في فرع التخصص للتعليم، وأما المعلمون في فرع القضاء والفتوى فلابد أن يكونوا ممن تخصصوا فيهما وتخصصوا في التعليم وكذلك المعلمون في فرع الخطابة(1).

ثم قال ابن باديس: هذا رأينا في مسألة التقسيم.

وأما مسألة الفنون وكيفية تعليمها، فنرى أن يشتمل منهاج التعليم المشترك:

ـ على اللغة والنحو والصرف والبيان بتطبيق قواعد هذه الفنون على الكلام الفصيح ـ لتحصيل الملكة ـ وأما قراءتها بلا تطبيق ـ كما الجاري به العمل اليوم ـ فهو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل.

ـ وعلى تاريخ الأدب العربي وعلى تعلم الإنشاء وعلى تعلم حسن الأداء في القراءة وإلقاء الكلام.

ـ وعلى العقائد، ويجب أن تؤخذ هي وأدلتها من آيات القرآن فإنها وافية بذلك كله، وأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة ؛ فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ـ وعلى الفقه، ويجب أن يُقتصر فيه على تقرير المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى بهم إلى ذكر بعض أدلتها.

ـ وعلى أصول الفقه، مسائل مجردة ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية، لتحصل لهم من هذا ومن ذكر أدلة المسائل الفقهية كما تقدم ملكة النظر والاستدلال.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 181، 182).

. وعلى التفسير، يكون بسرد الجلالين على المتعلم وهو يبين ما يحتاج للبيان. والمقصود من هذا أن يطلع المتعلم على التفسير بفهم المفردات وأصول المعاني بطريق الإجمال.

. وعلى الحديث، بقراءة الأربعين وغيرها سرداً على الطريقة المتقدمة في التفسير.

. وعلى دروس التربية الأخلاقية، يعتمد فيها على آيات وأحاديث واثار السلف الصالح.

. وعلى التاريخ الإسلامي على وجه الاختصار.

. وعلى الحساب والجغرافيا بأقسامها.

. وعلى مبادئ الطبيعة والفلك والهندسة.

وإذا لم يكن في الشيوخ المعنيين من يقوم ببعض هذه العلوم فلنأت بأمثال إخواننا المطربسين من تونس أو من مصر إن اقتضى الحال.

وأما فرع القضاء والفتوى من قسم التخصص، فيتوسع لهم في فقه المذهب، ثم في الفقه العام، وتكون «بداية المجتهد» من الكتب التي يدرسونها ويدرسون آيات وأحاديث الأحكام ويدرسون علم التوثيق ويتوسعون في علم الفرائض والحساب ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى الدنيا من مراة الإسلام الواسعة لا من عين المذهب الضيقة.

وأما فرع الخطابة، فيتوسع لهم في صناعة الإنشاء والإطلاع على أنواع الخطب ويدرسون آيات المواعظ والاداب وأحدايثهما، ويتوسعون في السيرة النبوية، ونشرة الدعوة الإسلامية، ويمرنون على القاء الخطب الارتجالية.

وأما فرع التعليم، فيتوسعون في العلوم التي يريدون التصدي لتعليمها مع تمرينهم على التعليم بالفعل، ومدارستهم للكتب الموضوعة لفن التعليم.

هذه أصول ما نراه من كيفية الإصلاح بجامع الزيتونة المعمور، وهي وإن لم تكن وافية بالتفصيل، فإنها

كافية في مقام الأعمال، ولعل اللجنة الموقرة تعيرها التفاتاً فتزنها بميزان العدل والإنصاف فعساها واجدة فيها بعض ما يفيد[1].

لقد استطاع ابن باديس أن يقوم بحركة تجديدية سارت على منهج منظم استوحاه من السنة النبوية والتوجيه القرآني وروح العصر، وهو في هذا المجال يسلك المنهج العلمي فيشخص المرض أولاً ثم يتبعه بالعلاج، يعترف للشيخ محمد عبده بأنه: أول من نادى بالإصلاح الديني نداء سمعه العالم الإسلامي كله في عصرنا. ومن عدل الله وحكمته أن كان مبعث هذه الدعوة الإصلاحية هو مصر التي هي مبعث أكثر البدع والضلالات الاعتقادية والعملية، تؤيدها الحكومات فصارت رسمية في نظر المسلمين، وجاء الأزهر على دين الدولة وهوى العامة يقر علماؤه الضلالات بسكوتهم بمشاركتهم العملية وتأييدهم الفعلي والقولي.

أما الجامعان الاخران في شمال إفريقيا وهما الزيتونة في تونس والقرويين في المغرب فهما شرّ الثلاثة كما قال الشاعر. وكيف يكون حال العالم الإسلامي ومراكزه العملية الدينية في ذلك الضلال المبين؟ ومضى ثلث قرن والدعوة تنتشر وتتقدم ولكن لم تقم في أمة إسلامية هيئة علمية منظمة تعلن الدعوة إعلاناً عاماً وتصمد للمقاومة غير الأمة الجزائرية، فكان من علمائها الأحرار المستقلين الذين لا يعيشون على الوظائف، من جاهدوا وصابروا وأسسوا أعظم مؤسسة دينية حتى أصبحت الدعوة ثابتة الأركان وارفة الظلال لا على الجزائر وحدها بل على الشمال الأفريقي كله[2].

9. روح الفريق:

كان ابن باديس يؤمن بروح الفريق، وأن العلاج لكثير من أمراض شعبه لا يمكن أن يكون بالعمل الفردي بل في تكوين منظمة من الرجال، لها برنامج حافل بالمبادئ والمثل، ولكن أيضاً بمشاريع العمل والتنظيم، وقد استلهم هذا البرنامج من الفلسفة القرآنية وروح الإسلام المتفتحة، وبيّن هذا البرنامج في عشرين

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 183).

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 79.

بنداً يأتي الحديث عنها مفصلاً بإذن الله تعالى.

وكان يرى أن القائمين بهذا البرنامج هم السلاح في المعركة ،يجب أن يعملوا في دائرة المحبة والوئام وإصلاح شؤون أهل العلم ولمّ شعثهم وتنظيم هدايتهم، ويقول: وعلى كل واحد منا أن يكون ممثلاً لفكرة الجمعية في الإنفاق والتاخي، وأن يطرح كل واحد منا فكره الخالص عندما تجيء المصلحة العامة، فكفى ما تقاتلنا على الكلمات.

وفعالية العمل تكمن في التجديد المستمر في العمل، وأسلوبه التجديد في كل عام تجديداً روحياً وعقلياً وأخلاقياً وعلمياً وتاريخياً. تجديداً إسلامياً محمدياً، لنولد في كل عام جديد ولادة جديدة نجدد ونتجدد نتفقد عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا.

ثم قال: وأما كاتب هذه السطور فقد عزم على تجديد ما فني من قلوب المسلمين[1]، وهو يدرك أن قيمة جمعية العلماء ليست في قيمة أفرادها، لأن الفرد ـ كما سيقول العربي التبسي من بعده على رأس هذه ـ لا قيمة لعلمه الفردي في عصرنا مهما كان علمه، فعصرنا عصر الجماعات لا عصر الأفراد.

ويقول ابن باديس: إن الذي قام به رجال الجمعية وضربوا به المثل الرفيع للناس، من تضامنهم في الشدة كتضامنهم في الرخاء، وثباتهم على يقينهم رغم كل زعزعة وإعصار، وتضحيتهم بالمصلحة الخاصة في سبيل الصالح العام، وثقتهم التامة بالله ثم بأنفسهم، ومن ثم كانت هذه الجمعية من الأمة وإلى الأمة وكل ما لها أو عليها فهو للأمة وعليها.

والجمعية تفتخر بأنها قامت بإحياء فريضتي الإسلام التي نسيها المسلمون وعلماؤهم، وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما مرجع عظمة الدولة الإسلامية وحضارتها، لقد كان رجالها مستضعفين يوم كانوا فرادى فمدوا أيديهم إلى بعضهم بعض فأصبحوا متعاونين أقوياء ثم سمعت الأمة كلمتهم فاستجابت

(1) المصدر نفسه ص 80.

ولها الفضل ولها البشر من الله، لقد ضربوا الأمثال بأعمالهم وحملوا الأمانة الإسلامية وأدَّوها وكل شيء يطلب من سبيله وهذا ما جعل عملنا يملك علينا حواسنا وأوقاتنا[1].

ويحصر عبد الحميد بن باديس مهام الجمعية وميادين عملها كما ينص عليه قانونها الأساسي في محاربة الافات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والفجور، وكل ما يفسد على الناس عقولهم أو يضيع أموالهم فهو من الافات. محاربة الجهل والجمود والدجل والخرافة والأباطيل، محاربة كل واقف في طريق التعلم والتعليم أي نوع من أنواع التعليم، محاربة الإسراف وأكل أموال الناس بالباطل وجشع أصحاب المال وقعودهم عن المساهمة في تأسيس المشاريع الاقتصادية والعلمية والخيرية[2].

ويحدد الغاية التي ترمي إليها الجمعية بهذا المنهج العلمي، وهي ترقية الجزائريين في جميع نواحي الحياة إلى أقصى ما تترقى إليه الأمم فيكونوا محترمين من أنفسهم ومن غيرهم، يعرفون كيف يسوسون وكيف يسايسون. وهي كما نرى غاية سياسية تشمل كل نواحي الرقي التي تعمل لها الحكومات الوطنية في مجتمعاتها المستقلة، وقد بلغت الجمعية بمنهجها في عملها وفي نجاحها فيه درجة لم تعد معها مجرد جمعية، وإنما هي سلطة حقيقية قادرة على توجيه الرأي العام أي وجهة شريفة تريدها، ويشير ابن باديس إلى هذه السلطة التي لا يوجد لها مثيل في بلاد المسلمين وخاصة في المشرق العربي الذي تتوزعه المذاهب والفرق والطوائف، فيقول: إن الجمعية أتت هداية الأمة من بابها فخاطبتها بلسانها وقادَتْها بدينها، فاتجه إليها كل مسلم منشرح الصدر مطمئن النفس، بحيث لو كان في الجزائر جميع مذاهب الإسلام لوسعتهم هذه الجمعية بعلاجها النافع بإذن الله للجميع[3].

(1) المصدر نفسه ص 81.

(2) المصدر نفسه ص 81.

(3) المصدر نفسه ص 81.

إن كل هذه النجاحات ينسبها ابن باديس إلى الجمعية وإلى العمل الجماعي، والأسلوب الشوري الذي يسير به أفراد الجمعية مؤسساتهم الإصلاحية والاجتماعية، وعلّموا بها أفراد الشعب في تأسيس المنشات العبادية والتعليمية والتثقفية وهو أسلوب المناقشة في الاجتماعات وطرح الأفكار واتباع رأي الأغلبية، وتقديم الحسابات المالية في كشوفات مضبوطة في الداخل والخارج إلى آخره(1).

10 . مؤثِّر:

من أروع ما وصف به ابن باديس مقال كتبه مراسل جريدة فرنسية هي البتي ماتان، الذي كان يحضر حفلاً في تونس يوم 29 مايو 1937م . أقيم بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاة البشير صفر أستاذ التاريخ .، فمما جاء في هذا الوصف ما يلي: والشيخ ابن باديس يمثل حقاً الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجهوري يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة عالية من التقدير وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أما سُمعتُه فقد اخترقت البحار وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله وإنه لنعم الخلف للبشير صفر.

لقد كانت حياة ابن باديس كتاباً مفتوحاً، ولعل شهادة كاتب فرنسي آخر تغنينا عن الإطالة في هذا الموضوع، ولاسيما هذا الكاتب أستاذ في جامعة ستراتسبورغ حيث يقول: هذا الرجل الذي استطاع ألوف من مواطنيه رؤيته والحكم على حياته، ذلك أن برنامج حياته اليومي يوضح لنا بجلاء شخصيته الحقيقية، لأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يخدع الجميع في كل الوقت. وهذه الأفعال والتصرفات المعروضة والمدعمة بعدة شهود تكفي لأن تُصدر عليه الحكم العادل، وأن نبقى على حذر من أولئك الذين لا يهتمون إلا بالمظهر ومجاراة النفس(2).

---

(1) المصدر نفسه ص 81.

(2) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 43.

كل الأعمال الكبيرة التي كان يقوم بها ابن باديس تدل على نفس كبيرة، فقد كان يكره المديح ولا يسعى إليه، بل يرفضه. ولو كان من الزعامات الحزبية أو الزعامات الهشة لامتلأت الصحف بمدحه في حياته. ولعل مقياس الزعامة الحقة ليس ما يكتب عن الشخص أو القائد وهو حي بل بعد موته، وما كتب عن ابن باديس بعد موته يفوق ما كتب عن جميع الشخصيات الجزائرية مجتمعة، وقد اعترف له بهذه الصفة حتى الذين لم يكن على وفاق مع منهجهم، فصحيفة النجاح التي ساهم في تأسيسها وكتب فيها باسم القسنطيني[1]، أوردت خبراً عن زيارته لوهران وأنها تلقت من بعض الكتاب، مراسلين غير معيّنين رسمياً، وصفاً لهذه الزيارة، ولكن الجريدة لم تنشرها لأن ابن باديس كما تقول الجريدة: رغب منا أن نغفل إدراج كل ما يتعلق بمدحه لأنه لا يرى في المدح فائدة أمام الأعمال[2].

وتكرار هذا الموقف حينما زار ابن باديس بعض جهات الجزائر، فكتب أحد المثقفين وصفاً للزيارة ضمّنه ملخصاً للدروس التي ألقاها ابن باديس لنشرها في الشهاب، فوافق ابن باديس على نشر ما فيه فائدة للقراء، أما ما يتعلق بشخصه من مديح وإطراء فقد حذفه، وأبرز دليل على هذه الخصلة أنه لما ختم تفسير القرآن الكريم وأراد علماء الجزائر إقامة احتفال بهذه المناسبة وطلبوا منه أن يخصصوا عدداً من الشهاب لتخليدها ؛ فسمح لهم شريطة أن لا يجعلوه مخصصاً لمدحه، فوافقوا على هذا الشرط[3].

11. مالك بن نبي يصف ابن باديس:

يعتبر مالك بن نبي ثم عمار الطالبي في مقدمة من قدموا شخصية ابن باديس في شمولها وثرائها، ونبهوا إلى أهمية دراسته ودوره الفعال في تقديم المنهج الإسلامي الصحيح.

(1) المصدر نفسه ص 43.

(2) المصدر نفسه ص 43.

(3) عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني ص 44.

وقد أشار الأستاذ مالك بن نبي عند تقديمه لكتاب آثار ابن باديس في المجلد الأول، أشار إلى التنوع والشمول في شخصية ابن باديس، وما تميزت به من قدرة على الإقناع والمناظرة، كما أشار إلى تماسك منهجه ودوره الفعّال في بناء الشخصية الجزائرية والتاريخ المغربي بوجه عام، وجاء وصفه: إن شخصية ابن باديس تجمع في طياتها جوانب بلغت من التنوع والغنى مبلغاً عظيماً، فقد كان مناظراً مفحماً، ومربياً بناء، ومؤمناً متحمساً، وصوفياً والهاً، ومجتهداً يرجع إلى أصول الإيمان المذهبية ويفكر في التوفيق بين هذه الأصول توفيقاً عذب عن الأنظار إبان العصور الأخيرة للتفكير الإسلامي.

ولم يفصل مالك بن نبي بين شخصية ابن باديس العلمية والدينية وبين شخصيته التربوية والسياسية، ويؤكد على أن وطنية ابن باديس كانت وراء مشاركته في الأحداث البارزة بين 1934م، 1936م، كما كانت وراء نجاحه في إيقاظ الشعور الوطني العام، وأن قصائده ومقالاته هي التي أعادت إلى الشعب الجزائري أبعاده الحقيقية في التاريخ الإسلامي.

كما أكد على تكامل شخصية ابن باديس المفسر السلفي الذي يستنبط من الآيات والأحاديث فروعاً ومعاني للهداية والحجة والاقتداء وإثبات لزوم الرجوع إلى الكتاب والسنة، وأن الإصلاح الحقيقي يبدأ بإصلاح النفوس والضمائر إيماناً بالحقيقة الصادقة: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : 11]. فتلك أولى خطوات الإصلاح الحقيقي[1].

ويصف مالك بن نبي شخصية ابن باديس المفسر حين يقول: إنه عندما يفسر إنما يمدنا بصورة ما من طيف ذاته، فالذي يتكلم إنما هو الذابّ عن الدين والناقد الاجتماعي والعالم المحقق والمصلح الذي يعبر عن الحقيقة القرآنية بوصفها حقيقة متكاملة تشمل الحياة الأخلاقية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية أو ما يعبرون عنه بالدين والدولة أو الدين والدنيا[2].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 24.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 9 . 11).

12. د. عمار الطالبي يصف ابن باديس:

ويحدثنا الدكتور عمار الطالبي عن شخصية ابن باديس في شمولها وتراثها وقدرته الفائقة في التعبير عن أزمة المجتمع العربي، ويتناول جوانب شخصية ابن باديس مع التركيز على الناحية العلمية والتربوية وقدرته على فهم مكنونات النفس البشرية والتعامل مع العصر وفهمه العميق لمتغيرات الواقع وثوابته. ويؤكد ذلك الدكتور الطالبي فيقول:

إن ابن باديس قدم تفسيراً سلفياً للقران راعى فيه مقتضيات العصر معتمداً على بيان القرآن للقران وبيان السنة له وعلى أصول البيان العربي وسننه والنفاذ إلى لغة العرب واداهبا وقوانين النفس البشرية وسنن المجتمع الإنساني وتطور التاريخ والأمم.

. وهو فقيه ومحدث من الطراز العالي لا يستشهد إلا بالأحاديث الصحيحة المسندة إلى الصحاح الست، وفي هذا الإطار ظهرت منهجية ابن باديس في رد الفرع إلى الأصول والأصول إلى مستنداتها مؤكداً أن كتاب الموطأ لمالك هو خير مناهج الاستدلال.

. وهو شاعر يفيض الشعر من قلبه، وخطيب يستولي على النفوس ويملك العقول.

- وهو مصلح ديني واجتماعي يحارب التقليد والبدع ويدعو للنهضة والحضارة ويغرس الحب وأصول الأخلاق التي هي جوهر المدنية. وهذا ما يؤكده ابن باديس بنفسه حين يقول: أنا زارع محبة، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان، فاعملوا للأخوّة، ولكن مع كل من يعمل للأخوّة، فبذلك تكون الأخوة صادقة.

. وهو صحفي قدير يقضي ليله في قراءة المقالات والجرائد وما صدر في الدول العربية والأوربية عن العرب والمسلمين باللغة الفرنسية فيرد عليها ويناقشها.

- وهو مؤرخ يحلل الحضارة ويكتب في أصول السياسة الإسلامية وله نقد لبعض اراء ابن خلدون في المقدمة وهو الجزء الخاص بالحضارات.

ـ وهو صوفي زاهد لا كمتصوفة أهل زمانه وزهادهم، ويتأثر كثيراً باراء الغزالي في الإحياء، حتى أنه أطلق على كتاب الإحياء «كتاب الفقه النفسي»، كما تأثر بأبي بكر بن العربي وخاصة كتاب العواصم من القواصم.

ـ وهوصاحب منهج تحليلي يقوم على النظر العقلي ؛ استجابة لدعوة القرآن إلى النظر في تجارب الأمم وتطورات الأحداث وما تخضع له من سنن وقوانين لا تبديل لها ولا تحويل، وكان يعتقد بأن المدارك الإنسانية التي تمتاز بقوة التحليل والتركيب هي التي تجعلها تتغلب على الطبيعة وتسخرها، وأن الظواهر الاجتماعية تخضع لمبدأ الأسباب والمسببات، وأنه لا ينبغي الوقوف عند مجرد المحسوسات فالجمع بين المشاهد والعقل هو المنهج العقلي والتجريبي الذي قامت عليه الحضارة الحديثة. وفي هذا يقول ابن باديس: لقد علمنا الله ألا ننظر إلى ظواهر الأمور دون بواطنها وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل نعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير(1).

رابعاً: تفرغ الشيخ للتدريس والتربية:

في ظروف تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية عصيبة ومأساوية، كان الشعب الجزائري يعيشها انذاك ؛ بدأ الشيخ عبد الحميد في نهضته العلمية والتربوية والتي يلخصها لنا ابن باديس نفسه في سنة 1939م بقوله: لقد كان هذا العبد يجاهد قبل عقد من السنين في هذا القطر القريب من الفناء، ليست له مدارس تعلمه، وليس له رجال يدافعون عنه ويموتون عليه، بل كان في اضطراب دائم مستمر ويا ليته كان في حالة هناء، وكان أبناؤه يومئذ لا يذهبون إلا للمدارس الأجنبية، التي لا تعطيهم غالباً من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف، حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين دينهم ولغتهم وقوميتهم وقد ينكرونها، هذه هي

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 26.

الحالة التي كنا عليها في تاريخنا الحديث(1).

كانت سياسة الاستعمار الفرنسي تعمل على تخريب العوامل التي تشكل المجتمع الجزائري وتمده بالبقاء والاستمرارية والتميز الحضاري العام، وهي عالم الأشخاص، وعالم الأشياء، وعالم الأفكار ؛ تخريباً شاملاً والذي يعتبر أفظع شيء أصاب الأمة الجزائرية في تاريخها الحديث، لم تستطع ولم تتمكن . بشكل واضح وكامل لا الحركات الثورية ولا السياسية ولا الثقافية ولا الفردية البطولية التي سبقت جهاد ابن باديس . من تداركه وتوقيف نخره واستنزافه لجهود وطاقات وإمكانيات المجتمع الجزائري، الفكرية والبشرية والمادية، وعجزت . بالتالي . عن تحقيق التغيير في بنيته الذاتية مما يؤهله ويمكنه من التحرر من عوامل وأسباب وشروط القابلية للاستعمار، والتي يعني التخلص منها خطوة أولى أساسية وضرورية نحو التحرر من الاستعمار نفسه بكل أشكاله وصوره.

وأمام هذا الوضع الذي كان يعيشه الشعب الجزائري وهذا العجز شبه الكلي من الحركات الجهادية المختلفة السابقة لجهاد ابن باديس، عن إحداث تغيير شامل وجذري لهذا الوضع، وإحداث نقلة نوعية وإقلا ع حضاري للمجتمع الجزائري ؛ فإن اللحظات التاريخية كانت تنتظر شخصية كشخصية ابن باديس، تقوم بدور ثوري يعبر عما يختلج في النفوس من قلق وأمل ويضيء الطريق أمام الحائرين، ويجمع الشتات ويوجه الطاقات ويحيي الشخصية الإسلامية التي أتاها البلاء من كل مكان، وأصابها القرح وتكالبت عليها ذئاب الغرب(2).

وأذِنَ الله عز وجل في تحركات ابن باديس وباركها وأيدها، وجعله من الأسباب المهمة في إنقاذ الأمة وقيادتها نحو التحرير وصناعة تاريخها النضالي والكفاحي الأسطوري.

---

(1) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر ص 109.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 72).

1. الاستقرار بقسنطينة:

شرع الإمام عبد الحميد بن باديس في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي استجابة وتلبية لوصية الشيخ حسين أحمد الهندي، الذي أوصاه بالعودة إلى الجزائر لإنقاذها في مأساتها التي تتخبط فيها منذ زمن طويل، وتنفيذاً وتحقيقاً لما اتفق عليه مع أخيه في الجهاد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، في أسمارهما الليلية بالمدينة المنورة، فعاد إلى الجزائر عازماً على الإصلاح وفق منهج إسلامي تكونت أبعاده في ذهنه من مجموعة من المؤثرات الهامة صدرت بعضها عن الواقع، وصدر بعضها عن الثقافة التي تشبع بها الشيخ، وصدر بعضها عن الروح الإسلامية الجديدة التي أشاعها في سماء العالم الإسلامي الإمام محمد ابن عبد الوهاب والسيد جمال الدين الأفغاني وتلميذه وصديقه محمد عبده(1).

بدأ التدريس أولاً بالجامع الأخضر الكبير، ولكنه لم يستمر طويلاً إذ سرعان ما تدخلت الإدارة الإستعمارية ومنعته، وذلك بسعي من المفتي ابن الموهوب، فكان كلما حضر إلى التدريس منعوه من ذلك، فاستنجد بوالده الذي تدخل واستصدر له رخصة من الإدارة نظراً لمكانته وسمعته لديها، وفي هذا يقول ابن باديس: فأذنت لي بالتعليم فيه . في الجامع الأخضر . بعدما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير، بسعي المفتي في ذلك العهد الشيخ المولود ابن الموهوب(2).

2. التعليم بالجامع الأخضر:

فشرع في التعليم بالجامع الأخضر ورابط فيه مدرساً وفي كل من مساجد سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بو معزة، وسيدي فتح الله، يتنقل بينها ليلاً ونهاراً، حتى أنه لم يكن يعرف الراحة في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي، فيعلم الطلاب مختلف الدروس ويفسر القرآن للمواطنين بالليل.

واستمر يتابع دروسه دون ملل لا يعرف الراحة، ويتنقل عبر الوطن ويلقي دروس الوعظ والإرشاد في

(1) العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري ، د. عبد الحليم عويس ص 219.

(2) الشهاب: (ج4، م14 ص 304).

المساجد والمحاضرات في النوادي ويجمع حوله الرجال الذين يتوسم فيهم القدرة على المشاركة معه في النهضة[1]، لتغطية متطلبات التربية والتعليم، واستيعاب أكبر قدر ممكن من التلاميذ حتى أنه كان يلقي في اليوم الواحد عشرة دروس أو أكثر، يقضي سحابة نهاره ومعظم ليله بين التدريس والتعليم والتحضير والقيام بأعباء العمل الإصلاحي الجهادي الأخرى، الأسفار والتنقلات.

يبدأ التدريس بعد صلاة الفجر ويقضي طيلة نهاره مدرساً للأطفال الصغار، وكان لا ينقطع إلا لصلاة الظهر وبعدها لتناول قليل من الطعام ثم يواصل تدريسه لهم إلى غاية صلاة العشاء فوجاً فوجاً، ومن التاسعة ليلاً إلى منتصف الليل ينتقل إلى تدريس الكبار[2].

وواصل جهاده في صمت حتى لا ينتبه إليه الاستعمار وعيونه، وانهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول إلى أن ضاقت بهم المدينة، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم جماعة من أهل الخير، ومحبي العلم فقويت بهم عزيمته وسار لا يلوي على صائح[3].

واندلعت الحرب العالمية الأولى وهو في بداية الطريق فاعتصم بالله فكفاه شر الاستعمار[4].

3 . مدرسة التربية والتعليم الإسلامية:

تعاظم عدد الطلبة الوافدين على المعهد الصغير الجامع الأخضر حتى أصبح يضم ما يقارب الألف من الطلبة، مما دفع الأمر بالإمام إلى التفكير في ضرورة فتح مدرسة لاستيعاب أفواج الطلبة المتزايدة، فيكّون مدرسة ابتدائية في بناية تقع فوق مسجد سيدي بو معزة كمرحلة أولى، ثم ينقلها بعد ذلك إلى مقر الجمعية

(1) مذكرات محمد خير الدين ص 103.
(2) الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم ص 17 . 18.
(3) جهاد ابن باديس ص 112.
(4) المصدر نفسه ص 112.

الخيرية الإسلامية التي تأسست عام 1917م، ولتحول سنة 1930م في مرحلتها الأخيرة إلى مدرسة، باسم مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، حيث حرر قانونها الأساسي وقدمه باسمها إلى الحكومة فصادقت عليه دون أن تدرك خطورته[1].

وحدد أهدافها في أنها تسعى لنشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنسية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين وذلك باعتماد الوسائل التالية:

. تأسيس مدرسة للتعليم.

. تأسيس ملجأ للأيتام.

. تأسيس نادي للمحاضرات.

. تأسيس مصنع للصنائع.

. وكذا العمل على إرسال بعثات طلابية على نفقة الجمعية للدراسة في الكليات في المعامل الكبرى.

كما يشير قانونها الأساسي إلى الأسس التي أقيمت عليها الجمعية والأهداف التي تسعى إليها في أنها بُنيت من الوجهة التربوية على تربية أبناء وبنات المسلمين الجزائريين تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم، ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين العربي والفرنسي، وتعليمهم الصنائع، ومن الوجهة المالية على تعويد الأمة على العطاء المنظم، وتوسيع نطاق الجمعية بجعل الاشتراك الشهري فيها فرنكين[2].

كما أشار القانون الأساسي إلى نقطة مهمة وأساسية لها مدلول حضاري ومغزى تعليمي بعيد وعميق، أن البنين يدفع القادرون منهم واجب التعليم، وأما البنات فيتعلمن مجاناً[3].

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 354.

(2) المصدر نفسه ص 354، 355.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 115).

ولقد قامت هذه المدرسة بدور حضاري هام في مجال تربية وتعليم الناشئة حيث تخرج منها جيل كامل تحت إرشاد ابن باديس[1].

كما استقطبت الكبار رجالاً ونساءً فكان ابن باديس مخصصاً فيها دروس للعمال يوم الأحد، أما النساء قواعد البيوت فخصص لهن درساً أسبوعياً بالجامع الأخضر[2].

4 . اللقاءات المستمرة بين الإبراهيمي وابن باديس:

وتوثقت الصلة بين ابن باديس وبين الإبراهيمي فيما بين 1920 . 1930م وتعددت اللقاءات بينهما فكانا يلتقيان في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر[3]، يتدارسان ويتناقشان أوضاع الإسلام والجزائر، يقول الإبراهيمي عنها: فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن اثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجات حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[4].

وقد حقق الله وهيأ لابن باديس جملة من الشروط والأسباب التي مكنته ووفقته ليمارس العمل الإصلاحي الجهادي من غير أن يحتاج الوظيفة أو يخاف بطش الاستعمار به، ومن ذلك: ثراء أسرته الذي ساعده على أن يتحرر من الحاجة إلى طلب الوظيفة من الإدارة الاستعمارية، وعلى أن يخصص حياته بأسرها لإحياء الروح الجزائرية[5].

5 . التعليم المسجدي:

يرى الإمام عبد الحميد بن باديس أن المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بني

(1) الحركة الوطنية ، د. أبو القاسم سعد الله (2 / 422).
(2) جهاد ابن باديس ص 114.
(3) المصدر نفسه ص 115.
(4) المصدر نفسه ص 115.
(5) الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم ص 15.

النبي ـ (ص) ـ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم، ولهذه الحاجة مضى النبي (ص) على عمارة المسجد بهما فما انقطع عمره كله عن الصلاة وعن التعليم في مسجده حتى في مرضه الذي توفي فيه، ثم مضى المسلمون على هذه السنّة في أمصار الإسلام يوقفون الأوقاف على المساجد للصلاة والتعليم، ومن أظهر ذلك وأشهره اليوم الجامع الأزهر وجامع الزيتونة وجامع القرويين.

أ ـ نوع التعليم المسجدي:

بين الإمام ابن باديس أن النبي (ص) كان يعلّم أصحابه، يبين للناس ما نزل إليهم ويفقههم في الدين، فما بيّن القرآن وما فقّه في الدين فهو من التعليم الإسلامي وهو من التعليم المسجدي، ولما كان القرآن كتاب الإنسان من جميع نواحي الإنسان، وكتاب الأكوان بما فيها من نعم وعبر، وكتاب العمران بما يحتاج إليه العمران مما يصلح أحوال البشر وما يتصل بالبشر، وكتاب السعادتين الدنيوية والأخروية ؛ كانت العلوم التي تخدم ذلك كله من علوم الإسلام ومن علوم المساجد. ولذا كانت مساجد الأمصار الإسلامية من أيام البصرة والكوفة إلى يومنا هذا مفتحة الأبواب معمورة الأركان بجميع العلوم وإذا خلت في العصر الأخير من بعضها ؛ فذلك للتأخر العام وضعف المسلمين في أسباب الحياة[1].

ب ـ الحاجة إليه:

ويقول ابن باديس أيضاً: الإسلام دين الله الذي يجمع بين السعادتين، وإنما يسعدها به من اعتقد عقائده وتأدب بادابه وارتبط بأحكامه في الظاهر والباطن من أعماله، ولابد لهذا كله من التعليم الديني الذي محله المساجد وبدونه لا سبيل إلى شيء من هذا كله، فصارت حاجة المسلمين إليه حاجتهم إلى الإسلام، وصار

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 226).

إعراضهم عنه هو إعراض عن الإسلام وهجر له. وما انتهى المسلمون اليوم إلى ما انتهوا إليه إلا بذلك الهجر، وذلك الإعراض. ولن يرجى لهم شيء من السعادة الإسلامية إلا إذا أقبلوا على التعليم الديني فأقاموه في مساجدهم كما يقيمون الصلاة، وكما كان النبي صلى الله عليه واله وسلم يفعل مِن إقامتهما بمسجده كما تقدم[1].

ولابد للجزائر من كلية دينية يتخرج منها رجال فقهاء بالدين يعلّمون الأمة أمر دينها. وأستطيع أن أقول أن نواة هذه الكلية هم الطلاب الذين يردون على الجامع الأخضر بقسنطينة[2].

6. دعم الشعب لطلاب العلم:

كان الإمام ابن باديس بعد اعتماده على الله يتوجه إلى شعبه في دعمه المعنوي والمادي، ولما كثر عدد الطلاب والراغبين في تعاليم دينهم توجه بنداء وبيان إلى الأمة المسلمة الجزائرية التي كانت عند حسن ظن الإمام، ومما جاء ذلك النداء:

ـ قال تعالى: {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ *} [التوبة : 122].

ـ وقال (ص): «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة».

ـ وقال (ص): «الدال على الخير كفاعله».

ـ وقال (ص): «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه».

ـ أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم:

تالله لن تكون مسلماً إلا إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلا إذا فقهته، ولن تفقهه إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه. ولهذا فرض الله على كل شعب إسلامي أن تنفر منه طائفة لتتفقه في الدين وترجع

(1) المصدر نفسه (1 / 226).

(2) المصدر نفسه (1 / 228).

إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الإعوجاج إلى الإستقامة، ومن الشقاوة إلى السعادة ومن النقص إلى الكمال، وقد بيّن تعالى على لسان رسوله (ص) أن طرق العلم هي طرق الجنة، فمن سلك طريق هذا سهل له طريق ذاك، وبيّن أن من دلّ على مثل هذا الخير ـ بقوله أو عمله ـ فهو كمن فعله، وبيّن أن المعينين لإخوانهم في الخير يعينهم الله، ومن إعانته لهم تيسير ذلك الخير عليهم إلى مثله من الخير: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى *وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى *فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى *} [الأعلى : 5 ـ 7].

ومن إعانته لهم التعويض عليهم عما أنفقوا بالعطاء المضاعف الكثير: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً} [البقرة : 245].

{وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *} [سبأ : 39].

أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم:

أما أبناؤك الشبان حملة القرآن فقد هبّوا هبّة رجل واحد لطلب العلم والتفقه في الدين، يحملون الإيمان في قلوبهم والقران العظيم في صدورهم، والروح الجزائرية المسلمة في لحومهم ودمائهم لا يقصدون إلا أن يتعلموا فيعلموا، ويتفقهوا فيفقِّهوا، ولا يرجون من ذلك إلا رضا الله ونفع عباده

وقد جاء منهم هذا العام إلى الجامع الأخضر بقسنطينة ما يناهز الثلاثمائة من جميع جهات القطر وذهب نحوهم ـ وأكثره من تلامذة الجامع الأخضر ـ إلى تونس.

وأما هذا العبد العاجز فإنه بفضل الله ثم بفضل كل معين في الخير قد تقبل هؤلاء الكرام الوافدين والأبطال المتجردين وأقام لهم ـ مثل السنوات الماضية ـ ما يلزمهم من دروسهم وما استطاع من نفقاتهم وضم إليه من الشيوخ ومن كبار تلامذته من يعينه على تعليمهم.

وأما أنت أيها الشعب الكريم ـ فإننا ندعوك بدعوة الله إلى مد يد المعرفة على هذا العمل الواجب العظيم، ندعوكم لتمدوا صندوق هؤلاء الطلبة بما استطعتم من خير، ونذكركم ـ وهذا معلوم عندكم من السنوات الماضية

ـ أن صندوق الطلبة تتولاه لجنة من جمعية التربية والتعليم الإسلامية فهي تضبط دخله وخرجه وتنشره على الناس، ونعرفكم أن أمين هذا الصندوق اليوم هو السيد كرماني الحاج حموش التاجر برحبة الجمال بقسنطينة فهلموا إلى التعاون على البر والإحسان ـ أيها الأخوان ـ والله المستعان والسلام عليكم.

من أخيكم عبد الحميد بن باديس[1]

وكان الشعب الجزائري ملبياً لنداءات ابن باديس فيما يخدم الإسلام وطلابه والصالح العام، فقوته كانت مستمدة من الله ثم من الدعم المستمر من أبناء الشعب الجزائري الملتف حول زعيمه الروحي واستاذه الكبير.

7 ـ التجول في القطر الجزائري:

لم يكن الشيخ عبد الحميد يكتفي بالدروس التي كان يقدمها أو يشرف عليها، بل كان يقوم في العطلة الصيفية وفي أيام الراحة الأسبوعية بجولات استطلاعية في القطر، يتعرف فيها على أحوال البلاد والعباد، ويلقى الدروس في المساجد والزوايا وحيثما تيسر له ويعلن عن نشاطه التربوي، وعن الدروس العلمية التي يتلقاها الطلبة في قسنطينة حتى يبين الفائدة المرجوة منها لمن يشاء الالتحاق بها، ويطلب من شيوخ الزوايا الذين يحضرون دروسه ومحاضراته أن يرسلوا أبناءهم وطلابهم للتعلم عليه في قسنطينة... هكذا وبهذا الأسلوب الإعلامي تنامى عدد طلابه من مختلف جهات الوطن، وخاصة عمالة قسنطينة، وأصبحوا يفدون على الجامع الأخضر وعلى دروس الشيخ في مختلف المواد[2].

8 ـ طبقات الطلاب:

قسم الطلاب إلى أربع طبقات حسب مستوياتهم، والذين ينهون دراستهم عنده يوجه القادرين منهم لإتمام دراستهم في تونس بجامع الزيتونة، واستمر عمله هذا بهدوء وحكمة وصبر طوال فترة الحرب العالمية الأولى

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 232).
(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 44.

«1914 . 1918م» وظل يعلم ويربي الصغار والكبار ويعظ ويرشد العامة والخاصة ويوقظ الهمم وينشر الوعي ويدعو إلى الصالح العام، مخططٌ رسمه في ذهنه وطبّقه في الواقع، وكان من طلائع طلابه النبغاء مبارك الميلي، والسعيد الزاهري، والهادي السنوسي، ومحمد بن العابد، والسعيد الزموشي، وابن عتيق، والفضيل الورتلاني، واخرون كثيرون منهم من اكتفى بما تعلمه عليه ومنهم من واصل دراسته في الزيتونة حتى شهادة التطويع[1].

9 . توديعه للطلاب في نهاية العام ونصيحتهم:

في العادة عندما تختم الدروس العلمية بالجامع الأخضر يجمع الأستاذ عبد الحميد بن باديس الطلبة ويلقي عليهم كلمة الوداع ويزودهم بالوصايا النافعة، فيذكرهم بما بينه وبينهم من رابطة الأبوة والبنوة، وما بينهم من رابطة الأخوة، وما تقتضيه هذه الروابط مِن محبةٍ مثمرة للأعمال الصالحة في الخدمة العامة ومِن دوامِ اتصالٍ للتعاون على الخير، ومِن تسامحٍ بين الجميع ومن تناصحٍ بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

ثم يحثهم على أن يمثلوا الأخلاق السامية الفاضلة بين أقوامهم حتى تظهر عليهم آثار ما كانوا فيه من غربة للتربية والتعليم، فيجيبوا الناس في العلم ويكونوا لهم قدوة فيه وفي العمل به.

ويوصيهم بنشر ما تعلموا من خير برفق ولطف وأن يكونوا مظاهر محبة ورحمة على ما قد يلقونه من جفوة من بعض الناس، وأن لا يقابلوا ذلك إلا بالتسامح دون أي شيء من المكروه، وفي إحدى وصاياه للناس قال لهم: اتقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلمه ونشره، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله، وليهن عليكم كل عزيز ولتهن عليكم أرواحكم من أجله.

أما الأمور الحكومية وما يتصل بها فدعوها لأهلها واياكم أن تتعرضوا لها بشيء، وختم الاجتماع بالدعاء والابتهال بما فيه صلاح الحال والمال إن شاء الله تعالى.

(1) المصدر نفسه ص 44.

ثم في المساء ودعهم الأستاذ واحداً واحداً فرجعوا إلى بلدانهم مزودين بالخير دعاة إليه فتح الله عليهم وفتح بهم إنه الفتاح العليم[1].

وكان الإمام عبد الحميد يرد على رسائل الطلبة من خلال الصحافة وهذا نموذج في الرد:

تحية وشكر إلى أبنائي الطلبة:

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته:

جاءتني كتبكم وأفادتني ما يسرني ويسر كل محب للعلم من استمراركم على الجد في مراجعته والترغيب فيه ونشر الهداية . كلٌّ بما استطاع . بين قومه وعشيرته وقد ضاق وقتي عن مكاتبتكم واحداً واحداً فكاتبتكم بهذا على صفحات مجلتكم شاكراً لكم حسن عهدكم وصدق مودتكم سائلاً من الله تعالى أن يجمع قلوبنا على الحق وأعمالنا على الخير.

وسيكون افتتاح الدروس في منتصف شهر أكتوبر أن شاء الله كالمعتاد سهل الله لنا ولكم أسباب العلم النافع ووفقني وإياكم إلى العمل الصالح.

والسلام من أبيكم

عبد الحميد بن باديس[2].

10 . بناء جيل من الشباب:

امتدت المرحلة الأولى من جهاده الإصلاحي ثماني عشرة سنة من العمل والجهد المتواصل، تمثلت أولاً في مرابطته مدرساً ومعلماً بالجامع الكبير ثم بالجامع الأخضر من بعده، وفي سيدي قموش، وسيدي عبد المؤمن، وسيدي بومعزة المسجد العائلي، للصغار والكبار معاً بعد أن كان التعليم في مساجد قسنطينة لا يشمل إلا الكبار، وأما الصغار فإنهم يتعلمون القرآن فقط في الكتاتيب على طريقة المغاربة، التي يذكرها ابن خلدون في

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 224).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 224).

مقدمته، فكان يعلم الصغار من غير تعطيلهم أو توقيفهم عن الدراسة بالكتاتيب صباحاً ومساءً بعد الخروج منها، وفي هذا يقول ابن باديس: فلما يسر الله لي الانتساب للتعليم عام 1332هـ 1913م، جعلت من جملة دروسي تعليم الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة، واخر العشية ؛ فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار[1]، لمبادئ اللغة العربية والدين وعلومهما.

ولم يكن ابن باديس وقتئذ يعرف استقراراً بمسجد معين، بل كان يتنقل بين معظم مساجد قسنطينة نظراً لمضايقات الاستعمار وعيونه له، وتألب خصوم الإصلاح عليه إلى أن استقر به المقام في الجامع الأخضر الذي تحول إلى مؤسسة ومعهد يضم ما يناهز الألف طالب، فكانت دروسه تجذب أفواجاً من الشباب، ودروس الوعظ والإرشاد كانت تجتذب الجماهير إلى حظيرة الإصلاح، وتحدث كل يوم ثغرة في صفوف الضلال، فيأخذ الجميع من علمه وينهل من نبعه، ويتربى على يديه ويتعلم ما يصلح به أمر دينه ودنياه واخرته.

فكانت دروسه . بحق . سبباً قوياً وهاماً في إحياء تعاليم الإسلام وروح العربية والإحساس بالوطنية في النفوس، وحجر الزاوية في إقامة صرح النهضة الإسلامية والعربية في الجزائر؟

واستطاع ابن باديس بعلمه التعليمي التربوي المكثف والمنظم والمتواصل، أن يخرج جيلاً من الشباب المتشبع بقيم الإسلام ولغته واداها. ويعتبر هو نفسه أن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر[2]، التي تخرجت على يديه وأصبح أفرادها ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حر.. ويُحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم، من إخوانهم في المشرق العربي، ويعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثر والوصف الجامع ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ[3].

---

(1) عبد الحميد بن باديس، رابح تركي ص 353.

(2) جهاد ابن باديس ص 117.

(3) المصدر نفسه ص 117.

قضى ابن باديس ثماني عشرة سنة في التعليم والتربية والعمل الهادأئ بعيداً عن الضوضاء وأحداث الصخب، لأنه كان يحب العمل المنظم الهادف ولكن دون ضوضاء أو إثارة نعرات سواء منها السياسية التي تثير أحقاد المستعمرين أو الدينية التي تمزق كلمة المسلمين[1].

ويمكن القول أن ابن باديس قاد ثورة فكرية وحركة ثقافية وتحوّل معرفي، ساهم في نهضة الجزائر وإعداد جيل المقاومة والجهاد، والذي أعلن الثورة على الاستعمار.

خامساً: ابن باديس والصحافة:

ظهرت في الجزائر خلال تلك الفترة صحافة وطنية عربية ساهمت مساهمة فعالة في بعث النهضة الفكرية والإصلاحية الحديثة، فقد عالجت في صفحاتها كثيراً من الموضوعات الحساسة، منها: الدعوة إلى تعليم الأهالي وفتح المدارس العربية لأبناء المسلمين، والتنديد بسياسة المستعمرين واليهود، ومقاومة الانحطاط الأخلاقي والبدع والخرافات، فهذا الأستاذ عمر راسم يجلجل بارائه على غير مواربة ولا خوف فيقول: أجل يجب أن نتعلم لكي نشعر بأننا ضعفاء.. يجب أن نتعلم لكي نعرف كيف نرفع أصواتنا في وجه الظلم، يجب أن نتعلم لكي ندافع عن الحق وتأبى نفوسنا الضيم ولكي نطلب العدل والمساواة بين الناس في الحقوق الطبيعية، وفي النهاية لكي نموت أعزاء شرفاء ولا نعيش أذلاء جبناء[2].

كما ظهر في هذا الميدان كتّاب شاركوا بمقالاتهم وتحليلاتهم في تشخيص الداء الذي ألمّ بالأمة واقتراح الدواء الناجح لذلك. من هؤلاء الشيخ مولود بن الموهوب والشيخ عبد الحليم سماية، والأستاذ عمر بن قدور وغيرهم[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 118.

(2) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 58.

(3) المصدر نفسه ص 58.

كانت الصحافة العربية الجزائرية في تلك العقود نوعين نوعاً ممالئاً للاستعمار، ونوعاً مقاوماً له.

فالصحافة الأولى كانت خادمة للإدارة الاستعمارية، صدرت بإيعاز منها وبمساعدتها للتمويه والتضليل مثل جريدة الجزائري، الذي كانت تصل إليه أصداء الحركة الوطنية المصرية وصحفها، وغير ذلك من الصحف الكثيرة التي كان أصحابها من الأوروبيين الفرنسيين أو الجزائريين الممالئين للإدارة، كجريدة «كوكب أفريقيا» التي صدرت في سنة 1907م.

والصحافة الثانية كانت صحافة وطنية، اضطلع بإصدارها وطنيون جزائريون صادقون مخلصون، مثل مجلة «الجزائر» التي أصدرها في العاصمة الوطني الغيور عمر راسم في 27 أكتوبر 1908م، لتبصير الشعب الجزائري وتثقيفه وإطلاعه على أسرار السياسة.

على أن عمر راسم حاول مرة أخرى سنة 1913م أن يصدر جريدة بعنوان «ذو الفقار» شديدة اللهجة إصلاحية الاتجاه، ولقد عطلتها الإدارة لحدة أسلوبها متعللة باندلاع الحرب العالمية الأولى، وقد صدر منها أربعة أعداد وسيق الوطني الغيور عمر راسم إلى السجن(1).

1 . ابن باديس الصحافي:

انتقل ابن باديس بالعمل الإصلاحي الجهادي من مجال العمل المسجدي والمدرسي إلى مجال العمل الصحفي، فإدراكاً منه لأهمية وسائل الإعلام والاتصال، ودورها في الاتصال بالقاعدة الشعبية العريضة بمختلف شرائحها، بحكم أنها عبارة عن مدارس متنقلة تساهم بشكل فعال في نشر الأفكار والمبادئ(2).

كان ابن باديس صحفياً ممتازاً وأستاذاً للصحفيين بدون منازع، والجانب الصحفي يظهر في مجالات

---

(1) مقدمة مجلة الشهاب ، عبد الرحمن شيبان ص 7.

(2) جهاد ابن باديس ص 114.

مختلفة من حياته، ولذلك انطلق في هذا المسار والاتجاه وحقق نجاحات ملموسة ومؤثرة في الشعب الجزائري.

2 . تأسيس جريدة المنتقد:

أسس جريدة المنتقد الأسبوعية في 11 ذي الحجة 1343هـ تموز 1925م وكان يصدرها صبيحة كل خميس من كل أسبوع، وتولى بنفسه رئاسة تحريرها، بينما أوكل رئاسة إدارتها إلى السيد أحمد بو شمال، وجعل شعارها الحق فوق كل واحد والوطن قبل كل شيء.

وجاء في افتتاحية عددها الأول وفي صفحتها الأولى بيان لخطة الجريدة وأهدافها ومنهجها في العمل الإصلاحي الجهادي تحت عنوان: مبدؤنا وغايتنا وشعارنا ما يلي: بسم الله، ثم بسم الحق والوطن ندخل عالم الصحافة العظيم، شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحملها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون. وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السير عليها، لا مقصرين ولا متوانين، راجين أن ندرك شيئاً من الغاية التي نرمي إليها بعون الله ثم بجدّنا وثباتنا وإخلاصنا وإعانة إخواننا الصادقين في خدمة الدين والوطن[1].

ثم تشرح الجريدة المبادئ التي تقوم على أساسها وينطلق منها عمل مؤسسيها الصحفي والإصلاحي الجهادي والتي حددوها في ثلاث مبادئ هي:

المبدأ السياسي، المبدأ التهذيبي، المبدأ الانتقادي[2].

أراد الشيخ عبد الحميد من خلال الصحافة أن يتخذ منها مدرسة للتعليم والتهذيب والتوجيه.

وقد جاء في افتتاحية العدد الثامن عشر من المنتقد وهو العدد الأخير منها بتاريخ 10 ربيع الثاني 1344هـ / 29 أكتوبر 1925م ، بعنوان «معامل العقول» كما أن لمواهب الأرض معامل تحولها إلى مرافق

(1) المنتقد: (س 1، ع1، ص1).
(2) جهاد ابن باديس ص 114.

الحياة، ووسائل الراحة لبني الإنسان ؛ فكذلك للعقول معامل تُهذبها وتجعلها الة لإصلاح البلاد وإعزاز العباد(1).

وقد كان الشيخ عبد الحميد يهدف إلى القضاء على الجمود الفكري في فهم الإسلام وتخليصه من الضلالات والخرافات الشائعة في العقائد التي بثها بعض أدعياء التصوف في صفوف الشعب المسكين(2).

وقد قاومت الجريدة الجريئة ـ من جهة أخرى ـ أفكار الفرنسة والتغريب، مذكرة الجزائريين المسلمين بأنهم أمة لها قوميتها ولغتها ودينها وتاريخها، يقول الدكتور محمد ناصر في كتابه «الصحف العربية الجزائرية»: إن جريدة المنتقد تعتبر تحولاً هاماً في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر، لأنها تختلف عن الصحف التي سبقتها، سلاسة أسلوب، ومتانة لغة، وعمق أفكار، إذ استطاع ابن باديس أن يضم إليه خيرة الأقلام العربية مثل مبارك الميلي، والطيب العقبي، والفرقد، وأبي اليقظان، ومن الشعراء محمد العيد، ومحمد الهادي السنوسي(3).

إن هذه الجماعة من الكتّاب والشعراء كانت تمثل الفكرة الإصلاحية التي رسخت جذورها في القطر الجزائري. وقد كانت لهجة الجريدة ـ أعني المنتقد ـ لهجة حارة وحملتها ضد الضلالات والبدع حملة صادقة أثارت حفيظة بعض المبتدعين الجامدين، فأخذوا يسعون ضدها لدى سلطة الإدارة الاستعمارية، فعُطلت بأمر حكومي بعد أن صدر منها ثمانية عشر عدداً خلال أربعة أشهر، اشار الشيخ ابن باديس إلى سبب هذا التعطيل في العدد الأول من جريدة «الشهاب» التي خلفت «المنتقد» بعد أسبوعين فقط، فقال: أثار الذين اعتادوا التملقَ صدقَها ، وكبر على الذين تعودوا النفاق صراحتها ، وهال الذين اعتادوا الجبن من الرؤساء أو

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 9.

(2) المصدر نفسه ص 9.

(3) الصحف العربية الجزائرية ، د. محمد ناصر ص 54 ـ 55.

اعتادوا الجمود من الأتباع ؛ صرامتَها... أجمعت هذه الطوائف أمرها، فأخذوا يسعون في الوشاية لتعطيلها وحمل الحطب للمراجع العليا لتحرقها حتى عُطلت[1].

ومن الجدير بالذكر أن تعطيل «المنتقد» كان بقرار من وزارة الداخلية في باريس، ولم يكن من دوائر الولاية العامة في الجزائر أو عامل عمالة قسنطينة، كما كانت تجري الأمور عادة[2].

3. جريدة الشهاب:

وبعد تعطيل «المنتقد» إصدار ابن باديس «الشهاب» فخلفت الأولى في مبادئها وأفكارها وحملت شعارها، على أن الشيخ اصطنع في تحريرها نوعاً من المرونة السياسية، فكان يلين القول ويخفف اللهجة مع السلطة الحاكمة في فرنسا، بينما يغلظه ويحتدّ فيه مع أقطاب الاستعمار ومن لفّ لفهم من المتفرنسين والخونة في الجزائر[3].

يقول الشيخ عبد الحميد بن باديس في الشهاب العدد الأول الصادر في 25 ربيع الثاني 1344هـ الموافق 12 نوفمبر 1925م سواء علينا أُعجبنا أم لم نعجب... فقد وقف المنتقد، ولكن الفكرة الحرة الحقة السليمة الإصلاحية لم تقف ولن تقف، وقف المنتقد فها هو أخوه «الشهاب». واصلت جريدة الشهاب رسالة جريدة المنتقد فلاقت في سبيلها العناء والبلاء وصبرت وصابرت تشتد مرة وتلين أخرى حتى صدمتها في سنتها الرابعة أزمة مالية فتحولت إلى مجلة شهرية[4].

4. مجلة الشهاب:

كانت مجلة الشهاب الشهرية مجلة راقية، تؤرخ للحركة الفكرية والاجتماعية الجزائرية في مرحلة من أهم

(1) المصدر نفسه ص 55.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 11.

(3) الصحف العربية الجزائرية ص 58.

(4) مقدمة مجلة الشهاب ص 11.

مراحلها التاريخية، وكانت بالرغم من حجمها المتواضع غزيرة المادة عديدة الأبواب منها:

ـ مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، وحديث البشير النذير من تحرير الشيخ عبد الحميد، وهي في الغالب افتتاحيات لمجلة الشهاب ويتناول فيها شرح آيات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة على طريقة الشيخ رشيد رضا في المنار.

. «في المجتمع الجزائري» وتعرض فيه قضايا خاصة بمجتمعنا، من تحرير الشيخ أو غيره من كتاب المجلة.

ـ «رسائل ومقالات» وينشر تحت هذا العنوان الرسائل التي ترد على المجلة من مختلف أنحاء القطر وفي شتى الموضوعات.

ـ «نظرة في السياسة العالمية» وقد انقسم الباب بعد فترة إلى عنوان «في الشمال الأفريقي» وعنوان «الشهر السياسي» في الشرق والغرب.

. باب «المباحثات والمناظرات» في المسائل الفقهية أو الحضارية أو اللغوية.

. «مجتنيات من الكتب والصحف» تنشر فيها عيون المقالات والأحاديث لأعلام الكُتّاب والأدباء العرب والمصلحين في البلاد العربية والإسلامية مثل محمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان، ومحب الدين الخطيب، ومن الأدباء مصطفى صادق الرافعي، ومحمد حسين هيكل، وزكي مبارك، وكذا أدباء المهجر.

. «قصة الشهر وأخبار وفوائد» وغير ذلك من الأبواب التي ثابرت المجلة على مواصلة تغذيتها، فقد كانت مجلة جامعة فكرية أدبية إصلاحية وطنية سياسية انشأت بيئة ثقافية واسعة في الجزائر، لا يستغني عنها قراء العربية في تلك السنين، كما كانت المجلة تعبيراً وافياً عن مظاهر النهضة الأدبية وأداة لنشر لغة عربية متينة بينة في أوساط واسعة من الطلبة والقراء في الجزائر(1).

(1) المصدر نفسه ص 13.

وفي مجال الفكر الإصلاحي الديني نشير إلى أن الشيخ عبد الحميد بن باديس وجه في 26 نوفمبر 1925م في الشهاب الجريدة نداء لتأسيس «حزب ديني إصلاحي» وهي فكرة دعا إليها عمر بن قدور في جريدة «الفاروق» من قبل ولكنها لم تتحقق إلا في 5 ماي 1931م بتأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» لكن في صورة جمعية لا في صورة حزب.

إن فكرة تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لم تزل تشغل بال الشيخ عبد الحميد منذ اجتماعه في الحجاز بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي سنة 1913م، ولم يزل يعمل لها حتى تضافرت جهود العلماء المصلحين على إبرازها إلى الوجود، أعني إثر احتفال فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر، فكان ذلك جواباً على الدعاية الصاخبة الطاغية بنجاح الاستعمار في القضاء على الجزائر العربية المسلمة.

وقد دلت الوقائع بعد ذلك على أن الانتصارات المادية التي كانت تتبجح بها أبواق الاستعمار ؛ لم تكن لتمحو الشعب الجزائري من الوجود، ولا أن تنسيه تاريخه وأمجاده وإسلامه الحنيف رمز شخصيته.

وبتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تعززت الصحافة الغربية بجرائد الجمعية وهي:

. السنّة 1933م.

. الشريعة 1933م.

. الصراط المستقيم.

. البصائر التي كتب لها البقاء في أربع سلسلات، أولاها: في عهد ابن باديس، والثانية: في الفترة ما بين 1947م و1956م في عهد الإبراهيمي، والثالثة: أصدرتها الجمعية الخالدة المبادئ في عهد الاستقلال سنة 1992م، وقد صدرت من هذه السلسلة الأخيرة ستة وعشرون عدداً ثم توقفت، واستأنفت البصائر الصدور في 18 صفر 1421هـ / 22 ماي 2000م، لمواصلة كفاحها ودعوتها الأصيلة القائمة على وحدة الشعب

الجزائري في عروبته وعقيدته الإسلامية ولغته وتاريخه(1).

5. منهاج الشهاب:

إن الكلمة التي كتبها صاحب الشهاب الإمام ابن باديس عن فاتحة السنة الرابعة عشرة في محرم 1357هـ / مارس 1938م تعبر أوفى تعبير عن منهاج الشهاب ومجالات جهاده ومواقفه تحت شعارين أساسيين مرفوعين في صدر غلاف المجلة، أحدهما عن اليمين، وثانيهما عن الشمال، فالشعار الأول يمثل المبدأ العام للدعوة التي نذر نفسه لخدمتها وهو قوله تعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف : 108].

ويمثل الشعار الثاني الطريقة التي يبلغ بها هذا المبدأ العظيم وهو قوله تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ} [النحل : 125].

يقول الاستاذ الرئيس صاحب مجلة الشهاب: بحمد الله وتوفيقه وإعانته ثم بشكر المشتركين بعقولهم أو مالهم وتأييدهم نخطو خطوة جديدة بهذه المجلة في ميدان الحياة، على ما عرفه القراء منا من صراحة في الرأي وصلابة في الحق، ورغبة في الخير، نعمل لصالح الأمة في دينها ودنياها على نور الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، فتتمسك الأمة بإسلامها وعروبتها، وتحافظ على قوميتها وتاريخها وتتناول أسباب الحياة والتقدم من كل جنس وكل لغة. وتعمل مع كل عامل لخير البشرية وسعادة الإنسان على هذه الأصول وفروعها. مضت الثلاث عشرة سنة من حياة هذه المجلة وقد شاهدت من آثار تلك الأصول في الأمة بحمد الله . ما زادها إيماناً بهذه الأصول وفروعها وثباتاً وصبراً على ما تلقاه في سبيلها(2).

(1) المصدر نفسه ص 14.

(2) المصدر نفسه ص 15.

6 . ابن باديس وتقاليده الصحفية المميزة:

إن المتتبع لاثار عبد الحميد بن باديس الصحفية ولأقواله حول الصحافة والصحفيين ؛ يمكن أن يصل إلى اكتشاف جوانب فكرية هامة يستحق كل منها الدرس والبحث على حدة:

أ . النزاهة الصحفية: وهذه النزاهة التي كان يحرص عليها ابن باديس هي الوسيلة الفعالة لخلق وبلورة الرأي في الصحافة، والنزاهة في الكتابة الصحفية، وفي المناقشة تفقد الكثير منها مع الأسف، فمازال هناك من ينتقع كلما وجهت إليه ملاحظة حتى ولو كانت في سبيل الحق.

ب . وضوح الفكرة وبساطة التعبير واحترام القارئ: وهذه خصائص لا يمكن أن تنجح صحافة بدونها، وقد تدهش عندما ترى عبد الحميد بن باديس يقدم العدد السنوي من مجلة الشهاب ببضعة أسطر، وليس بمقالة طويلة لا تحمل بين طياتها أكثر مما تحمله هذه الأسطر الموجزة.

ه . الثقة بالأمة والإيمان بإرادة الشعب، والعمل على إسعاده.

فهذه الروح كانت تشع في جميع أعمال ابن باديس وهي التي تميز كل كتاباته الصحفية[1].

* * *

(1) ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير د. محمد بحي الدين سالم ص 55.

المبحث الثالث

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

يقول المفكر الاجتماعي الإسلامي محمد المبارك الذي تابع باهتمام الحركة الإصلاحية في الجزائر وفي فرنسا: إن جمعية العلماء قد أحيت الجزائر، وبعثت فيها عروبتها التي كادت أن تغيب، وإسلامها الذي كاد يقضى عليه. ولو أن حركات التحرر السياسي في الجزائر سارت بطريق آخر وعلى منهج بعض الهيئات التي أنشئت في جو التأثر بالثقافة الفرنسية ؛ لكانت الجزائر اليوم قطراً فرنسياً، ولو أنه مستقل استقلالاً ذاتياً، لكنه استقلال يمحو ذاتيتها ويزيل عنها إسلامها وعربيتها(1).

إن من الوفاء للتاريخ ومن الوفاء لأصحاب الفضل والسابقة أن نضع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في القمة من تاريخ الجزائر الحديث(2).

كان الاستعمار الفرنسي حريصاً على نزع الطابع الإسلامي من الجزائر وإضفاء الطابع المسيحي عليه منذ الأيام الأولى للاحتلال، فقد أعطى القائد روفيقو أوامره الصارمة لتحويل أجمل مسجد في مدينة الجزائر إلى كاتدرائية وقد سارعت قواته إلى تنفيذ هذا المخطط، فحاصرت المسجد بتاريخ 18 ديسمبر 1832م وهو غاص بالمصلين فنزلت عليهم ضرباً بالفؤوس والرماح فاستشهد منهم أربعة الاف مسلم جزائري كانوا مرابطين بالمسجد، وتحول المسجد إلى كاتدرائية وقد عرف مسجد صالح باي وهو أجمل مسجد بقسنطينة مصير جامع

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 57.

(2) المصدر نفسه ص 57.

كتشاوة إذ حوله المحتلون إلى كنيسة، وقد جلب لها القس سوشيه منبراً كان آية في النقش العربي من أحد المساجد، وعلى درجات هذا المنبر قام سكرتير الحاكم العام بيجو خطيباً فقال: إن أيام الإسلام الأخيرة قد حلت، ولن تمضي مدة عشرين سنة حتى لا يبقى في الجزائر من إله سوى المسيح، وها هو العمل الإلهي قد بدأ في اللحظة هذه إذا ما خامرنا الشك في بقاء هذا التراب في حضن فرنسا، فلا ريب على الأقل في كون الإسلام قد خسره، إن الرجوع الشامل إلى الله سيكون العلامة التي أتيقن بأن فرنسا ستحتفظ بالجزائر، وأن العرب لن يصبحوا رعايا لفرنسا إلا عندما يصيرون نصارى[1].

إن الاستعمار قد عمل ما في وسعه لتحويل الشعب الجزائري عن هويته الأصلية معتمداً على الجندي والطبيب والمعلم والراهب.

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في معرض الرد على مزاعم الوالي الفرنسي المشهور «نيجلان» الذي يمن على الجزائر أن فرنسا قد أمدتها بعناصر التمدن الأربعة المذكورة[2]:

. جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب الاستعماري لتفسد به على المسلمين دينهم وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشككهم بتثليثه في توحيدهم، وتضارّ في ألسنتهم كلمة الهادي بكلمة الفادي، ذلك كله بعد أن أمدته بالعون وضمنت له الحرية وكفرت به هناك لتؤمن به هنا.

. وجاءت بالمعلم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم ويلقي الاضطراب في أفكارهم، ويستنزلهم عن لغتهم وادابهم، ويشوّه لهم تاريخهم، ويقلّل سلفهم في أعينهم، ويزهدهم في دينهم ونبيهم، ويعلمهم . بعد ذلك تعليماً ناقصاً هو شرٌّ من الجهل.

وجاءت بالطبيب الاستعماري ليحافظ على صحة أبنائها قبل كل شيء بآية أنه لا يكون إلا حيث

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) البصائر العدد 103 في 16 جانفي 1950.

يكون الأوروبيون، لا في المداثر[1] التي يسكنها الألوف من المسلمين وحدهم ولا في القبائل المتجاورة التي تعد عشرات الألوف منهم. أما هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة إلى المسلمين فكأنما جاء ليداوي علة بعلل، ويقتل جرثومة بخلق جراثيم، ويجرب معلوماته فيهم كما يجربها في الأرانب، ثم يعيش على أمراضهم التي مكّن لها الاستعمار بالفقر والجهل[2].

إن الاستعمار القائم على الجندي والمعلم والطبيب والراهب هيكل حيواني يمشي على أربع، وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر، فرمى مواهبهم بالتعطيل فما أشأم الاستعمار[3]!.

تلك كانت إرادة المستعمرين ومطامعهم منذ أن وطئت اقدامهم أرضنا الطيبة، وهي جعل الجزائر فرنسية تراباً وسكاناً، ولكن القرآن الكريم وتعاليمه الرشيدة وقيمه الخالدة ومقاصده الرفيعة، وتعلق الشعب الجزائري به كان أعظم من فرنسا ومحاولاتها، كما عبّر ذلك أكمل تعبير أحد سدنة الاستعمار في عهده الأخير «روبير لاكوست» الوزير الفرنسي المكلف بإدارة الجزائر تعليقاً على الحادثة التي أوردها الأستاذ عبد الله ناصح علوان: إذ يقول:

من أجل القضاء على القرآن في نفوس شباب الجزائر قامت فرنسا بتجربة عملية، قامت بانتقاء عشر فتيات مسلمات جزائريات، أدخلتهن الحكومة الفرنسية في المدارس الفرنسية، وألبستهن الثياب الفرنسية، ولقنتهن الثقافة الفرنسية، وعلمتهن اللغة الفرنسية فأصبحن كالفرنسيات تماماً، وبعد أحد عشر عاماً من الجهود هيأت لهن حفلة تخريج رائعة دعي إليهن الوزراء والمفكرون والصحفيون، ولما ابتدأت الحفلة ؛ فوجأئ الجميع بالفتيات الجزائريات يدخلن بلباسهن الإسلامي الجزائري فثارت الصحف الفرنسية وتساءلت: ماذا فعلت فرنسا في الجزائر إذن بعد مرور مائة وثمانية وعشرين عاماً (1958م).

(1) المداثر: قرى ريفية.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 59.

(3) المصدر نفسه ص 59.

فأجاب لاكوست: وماذا أصنع إذا كان القرآن أقوى من فرنسا؟

نعم إن القرآن الكريم المنهج الرباني أقوى من فرنسا ومن كل عدوان وشرّ في الأرض، إذا وجد من يحسن فهمه والعمل به في كل عصر ومصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولذا اعتمد عليه الشيخ ابن باديس في حركته التجديدية الساعية نحو التحرير والاستقلال، وقد استطاع ابن باديس تحويل جهوده الفردية إلى عمل منظم على مستوى القطر الجزائري، جمع فيه علماء البلاد في جمعية علماء المسلمين، والتي ساهمت مساهمة عظيمة في توعية الشعب ورفع الجهل عنه، ودعم الثورة ضد الاحتلال بكل ما تملك من أدوات وأفكار ووسائل، إن أول مسمار دق في نعش الاستعمار وأول لبنة وضعت في جدار الاستقلال بعد عهود المقاومة الشعبية المسلحة كانت بانتصاب الشيخ ابن باديس لتدريس القرآن والسنة وعلومهما بقسنطينة منذ سنة 1913م، وصدق رسول الله (ص) القائل: تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه(1).

كما سبق الإشارة إلى ذلك . وذلك مصداقاً لقولته المشهورة: أنا أحارب الاستعمار لأني أعلّم وأهذّب فمتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير.

ويقول ابن باديس: إن الحياة تنبعث من المدارس فيجب أن تكون المدارس أول ما نهتم به ونسعى لتحقيقه، وكل من يعارض في تأسيسها فقد عارض في حياة الأمة ونهضتها.

نعم إن ابن باديس ليس فقط محارباً للاستعمار بل إن الاستعمار ليرى فيه وفي حركته أعظم خطر على سيادة فرنسا على الجزائر، لقد نشرت جريدة البصائر مقالاً عن تقييم الفكر الفرنسي الاستعماري لابن باديس وحركته . جمعية العلماء . فيما كتبته الجريدة الفرنسية « صدى باريس » بترجمة مجلة الصباح التونسية بعنوان

(1) رواه الإمام مالك في الموطأ.

«عرب الجزائر» جاء فيه:.. إن الحركة التي يقوم بها العلماء المسلمون في الجزائر أكثر خطراً من جميع الحركات التي قامت حتى الان، لأن العلماء المسلمين يرمون من وراء حركتهم هذه إلى هدفين كبيرين الأول سياسي والثاني ديني.

والعلماء المسلمون المثقفون هم العالمون بأمور الدين الإسلامي وفلسفته، والواقفون على أسرار معتقداته، فهم لا يسعون إلى إدماج الجزائر بفرنسا، بل يفتشون في القرآن نفسه عن مبادئ استقلالهم السياسي.

أسس هؤلاء العلماء في عام 1931م، أي بعد انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس اجتماعاً عظيماً، وشكلوا على إثره جمعية كبيرة انتشرت في قليل من الزمن انتشاراً سريعاً، ولا تزال هذه الجمعية تنمو نمواً مطرداً يوماً بعد يوم، رأس الشيخ ابن باديس هذه الجمعية، وكانت له اليد الطولى في تأسيسها، وهو رجل سياسي ومتدين يمت بنسبه إلى أسرة عريقة في قسنطينة، وضليع جداً في العلوم الدينية وله نفوذ كبير في الجزائر، ويتظاهر أنه لا يعرف اللغة الفرنسية مع أنه يتقنها كل الإتقان[1].

وإن هذا التصور للمفكرين المدنيين الفرنسيين لخطورة ابن باديس ـ صاحب الشهاب وحركته على الاستعمار ـ لهو عين تصور العسكريين الفرنسيين أنفسهم، من ذلك ما كتبه المرحوم السيد محمود عبدون إذ يقول: بينما أنا أيام الحرب العالمية الثانية بالجنوب التونسي، قريباً من خط مارث، الذي أقامته فرنسا في الحدود التونسية الليبية، وبما أنني من حراس بعض المكاتب، قررت يوماً أن أطلع على وثائق الضابط المكلف بالتموين، فعثرت على وثيقة رسمية «جد سرية» تصنف الشخصيات السياسية الجزائرية الأكثر خطورة على السيادة الفرنسية، ولكم كانت دهشتي عظيمة إذ وجدت ابن باديس على رأس القائمة متبوعاً بمصالي وبحزب الشعب[2].

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 62.

(2) المصدر نفسه ص 62.

أولاً: العوامل التي ساعدت على تأسيس جمعية العلماء:

تضافرت ظروف عديدة وعوامل كثيرة ساهمت جميعها في إظهار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الوجود نذكر منها:

1 . الظروف التي نشأت فيها الجمعية:

مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر واحتفال الفرنسيين بذلك استفزازاً للأمة، وإظهاراً للروح الصليبية الحاقدة التي يضمرونها للإسلام والمسلمين، كانت الاحتفالات سنة 1349هـ 1930م، فأقامت فرنسا مهرجانات بمئوية استعمارها للجزائر واستفزت هذه الاحتفالات ضمير الأمة وفجرت فيها روح الإصلاح وطاقات المقاومة، ففي تلك الاحتفالات خطب أحد كبار الساسة الاستعماريين الفرنسيين فقال: إننا لن ننتصر على الجزائريين ماداموا يقرؤون القرآن ويتكلمون العربية، فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم وأن نقتلع العربية من ألسنتهم.

وخطب سياسي آخر فقال: لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار.

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية . بهذه المهرجانات . فقال: إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر وإن عهد الصليب قد بدأ وإنه سيستمر إلى الأبد، وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهداً لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل.

وفي مواجهة هذا الفجور الاستعماري الصليبي، تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م سالكة طريق المنهاج الإسلامي في الإصلاح والعمل المؤسسي المنظم، وتضاعفت الجهود في تأسيس المدارس

وإلقاء الخطب والدروس في تكوين الجيل العربي المسلم والوطني العامل على استعادة الجزائر إلى حضن العروبة والإسلام والاستقلال[1].

2 . حاجة الشعب لهذه الجمعية:

إن وجود الجمعيات والاتحادات والنوادي المسيحية وغير المسيحية كان معروفاً في ذلك الوقت، مما دفع بالعلماء المسلمين إلى إنشاء جمعية إسلامية تحدياً للجمعيات غير الإسلامية، حتى تنظم التعليم الحر وتقيم الشعائر الإسلامية وبعض الاحتفالات الدينية، بالإضافة إلى تلك الجمعيات الدينية والثقافية، فقد كانت هناك بعض التنظيمات والأحزاب السياسية الأوروبية في الجزائر قد جذبت بعض الجزائريين للانخراط في تنظيماتها، ثم نشأت بعض الأحزاب السياسية الجزائرية لتحقيق بعض المطالب السياسية الاجتماعية.

وكل ذلك ساهم في دفع الشيخ عبد الحميد بن باديس وإخوانه إلى تكوين الجمعية وقفاً للتزيف والتشتت وتقويماً للمطالب والمشروعات الاجتماعية والسياسية[2].

3 . الثورة التعليمية:

لقد كان لحركة ابن باديس التربوية التعليمية التي شرع فيها منذ تفرغه للتدريس بقسنطينة سنة 1913م، إثر تخرجه من جامع الزيتونة . كما سلفت الإشارة إلى ذلك . أثر عظيم في طلابه المتوافدين على رحاب جامع الأخضر بقسنطينة من كل أرجاء الجزائر .. أثر في العقول والقلوب والسلوك لم تشهده البيئة الجزائرية من قبل، مما جعل الإمام محمد البشير الإبراهيمي نائب ابن باديس في حياته وخليفته من بعده يقرر في مقدمة كتاب سجل مؤتمر جمعية العلماء المنعقد بنادي الترقي في العاصمة في سبتمبر 1935م ؛ أن من العوامل الأساسية في نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر ؛ الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية، والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه، والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته ص 173.

(2) سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد ، د. لطيفة عميرة ص 101.

والإعداد البعيد المدى الذي يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من أفكار صحيحة، وعقول نيرة، ونفوس طامحة، وعزائم صادقة، وألسن صقيلة، وأقلام كاتبة، تلك الكتائب الأولى من تلاميذ ابن باديس هي طلائع العهد الجديد الزاهر، وقد سمع الناس ـ لأول مرة في الجزائر ـ من بعض تلك البلابل شعراً يؤدي معنى الشعر كاملاً، وقرؤوا كتابة تؤدي معنى الكتابة(1).

وتلاميذ الشيخ وإخوانه من العلماء ساهموا إلى حد بعيد في تأسيس جمعية العلماء.

ثم زحفت من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضاً كتيبة جرارة سلاحها الفكرة الحية الصحيحة إلى جامع الزيتونة، لتكمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحية وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح بناء علمياً محكماً، ورجعت تلك الطائفة إلى الجزائر فكان من مجموعها وممن تخرج بعدها من تلاميذ الأستاذ ومن تلاميذ جامع الزيتونة جنود الإصلاح وقادته وألويته المرفرفة وأسلحته النافذة.

نعلم إن التعليم الباديسي كان ثورة شاملة تعدّى أثرها تلاميذ ابن باديس ومدينة قسنطينة إلى قطاعات كثيرة في شتى نواحي الوطن وشتى المجالات ومن ذلك:

ـ إنشاء جريدة المنتقد والشهاب وغيرهما منذ عام 1925م كما أسلفنا.

ـ إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931م، وما تبع ذلك من تأسيس مساجد حرة للوعظ والإرشاد للرجال والنساء، ومدارس حرة للتربية والتعليم للبنين والبنات، وأندية للتثقيف والتوجيه للشباب.

ـ اهتمام الزوايا برفع مستوى التعليم فيها، بجلب الأساتذة الأكفاء وتحسين البرامج وطريقة التعليم.

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 17.

ـ اهتمام السياسيين بالتعليم وعنايتهم به بعد أن كانوا يرون أن الاشتغال بالتعليم إنما يأتي بعد الاستقلال.

ـ اهتمام المدارس الحكومية التي تشرف عليها السلطة الاستعمارية بالثقافة العربية الإسلامية، حتى لا تفقد مكانتها الثقافية والإدارية في أوساط الشعب الجزائري.

وبكل هذا يتضح خطأ من يظنون ويكتبون أن حركة الإصلاح إنما ابتدأت بتأسيس جمعية العلماء بتاريخ 5 ماي 1931م، بل تأسيس جمعية العلماء كان إرساء لأركان النهضة وازدهاراً لثمارها[1].

4 ـ التغيير الفكري:

فقد تأثر علماء الجزائر بالحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي منذ محمد ابن عبد الوهاب، وخير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي وغيرهم من زعماء الإرشاد والإصلاح في الشرق الإسلامي وغربه[2]، فكانت لمدارس الإصلاح تأثير مباشر في زعماء جمعية علماء المسلمين، كما أن التغيير الفكري الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى حين سقطت أقنعة المشعوذين، الذين أماتوا على الأمة دينها بخرافاتهم وبدعهم وتسلطهم على الأرواح والأبدان باسم الدين[3].

ثانياً: تأسيس جمعية العلماء:

1 ـ أول اجتماع لرواد الإصلاح:

وبعد اللقاءات المتعددة التي كانت تتم بين ابن باديس والبشير الإبراهيمي، تارة في سطيف وأخرى في قسنطينة، التي كانت تنصب على دراسة الوضع في الجزائر والبحث عن السبل الكفيلة بمعالجة هذا الوضع،

---

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 18.

(2) سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد ص 101.

(3) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 49.

وبعد هذه اللقاءات الممهدة فكر الشيخ عبد الحميد في أن يخطو خطوة عملية تكون تمهيداً مباشراً للشروع في التحضير لتأسيس هذه الجمعية، التي ظلت فكرة لم تجد طريقها للتنفيذ، وتوالت الجهود بعد ذلك الممهدة لإنشاء هذه الهيئة، ويذكر الشيخ خير الدين في مذكراته أنه في عام 1928م دعا الشيخ عبد الحميد بن باديس الطلاب العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي لندوة يدرسون فيها أوضاع الجزائر، وما يمكن عمله لإصلاح هذه الأوضاع، وكان ممن لبى الدعوة من يمكن تسميتهم «رواد الإصلاح» أمثال: البشير الإبراهيمي، ومبارك الميلي، والعربي بن بلقاسم التبسي، ومحمد السعيد الزاهري، ومحمد خير الدين، واجتمعوا برئاسة الشيخ عبد الحميد بمكتبه، وقدم الشيخ حديثاً مطولاً عن وضعية البلاد والقوانين الجائرة التي تحكمها، ليصل بعد ذلك إلى دور العلماء في المقاومة والتضحية، ومن جملة ما قال: لم يبق لنا إلا أحد أمرين لا ثالث لهما: إما الموت والشهادة في سبيل الله منتظرين النصر الذي وعد به عباده المؤمنين، وإما الإستسلام ومدّ أيدينا إلى الأغلال وإحناء رؤوسنا أمام الأعداء، فتكون النتيجة لا قدر الله أن يجري علينا ما جرى ببلاد الأندلس.. ثم عرض خطة عمل مؤلفة من نقاط هي:

. إنشاء المدارس الحرة لتعليم اللغة العربية والتربية الإسلامية.

. الالتزام بإلقاء دروس الوعظ لعامة المسلمين في المساجد الحرة.

. الكتابة في الصحف والمجلات لتوعية طبقات الشعب.

. إنشاء النوادي للاجتماعات وإلقاء الخطب والمحاضرات.

. إنشاء الفرق الكشافة الإسلامية للشباب.

ـ العمل على إذكاء روح النضال في أوساط الشعب لتحرير البلاد من العبودية والخضوع للحكم الأجنبي[1].

ومما يلاحظ هنا أن هذا الاجتماع قد سطر البرنامج الذي تستنهض به الجمعية المزمع إنشاؤها، فكأن

(1) إمام الجزائر ص 51.

ابن باديس أراد أن يسبق الأحداث، فحدد محاور النشاط الإصلاحي، الذي يجب أن تضطلع به الجمعية التي دعا إلى إنشائها، وفعلاً كان ذلك هو البرنامج الذي اتبعته الجمعية بعد ميلادها في عام 1931م.

وقبل ميلاد هذه الجمعية بسنة أنشأ الإمام عبد الحميد بن باديس جمعية أخرى لها وظيفة تربوية محضة هي: جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقد انتظم أعضاء المكتب العربي في هذه الجمعية، وتحول المكتب إلى مدرسة عصرية تحمل اسم هذه الجمعية، وهو الاسم الذي سيصبح من الان فصاعداً شعاراً لكثير من مدارس الإصلاح بالجزائر التي أشرنا إليها سابقاً.

وبهذه الهيئة أصبح للحركة الإصلاحية ثلاث هيئات:

. جمعية العلماء على مستوى الوطن.

. جمعية التربية والتعليم على مستوى قسنطينة.

. والإدارة المشرفة على الشهاب.

أي هيئة دينية سياسية، وهيئة تربوية تعليمية، وهيئة إعلامية.

ويشرح لنا البشير الإبراهيمي كيف نجح هو وابن باديس في اجتذاب العلماء والفقهاء إلى الجمعية فيقول: دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم، فاستجابوا جميعاً للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر 5 ماي 1931م، ودام الاجتماع أربعة أيام في نادي الترقي بالجزائر العاصمة(1).

وهكذا تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يوم الخامس من ماي 1931م في نادي الترقي بالعاصمة، إثر دعوة وجهت إلى كل عالم من علماء الإسلام في الجزائر، من طرف هيئة مؤسسة مؤلفة من أشخاص حياديين ينتمون إلى نادي الترقي، غير معروفين بالتطرف لا يثير ذكرهم حساسية أو تكوين لدى

(1) المصدر نفسه ص 51.

الحكومة، ولا عند الطرقيين، أعلنوا أن الجمعية دينية تهذيبية تسعى لخدمة الدين والمجتمع، لا تتدخل في السياسة ولا تشتغل بها.

ولبى والدعوة وحضر الاجتماع التأسيسي أكثر من سبعين عالماً من مختلف جهات الوطن ومن شتى الاتجاهات الدينية والمذهبية ؛ مالكيين، وإباضيين، مصلحين وطرقيين، وموظفين وغير موظفين، وانتخبوا مجلساً إدارياً للجمعية من أكفأ الرجال علماً وعملاً، يتكون من ثلاثة أعضاء برئاسة ابن باديس الذي لم يحضر إلا في اليوم الأخير للاجتماع وباستدعاء خاص ومؤكد فكان انتخابه غيابياً.

ولم يكن رئيس الجمعية ولا معظم أعضاء مجلسها الإداري من سكان العاصمة، لذلك عينوا لجنة للعمل الدائم، ممن يقيمون بالعاصمة، تتألف من خمسة أعضاء برئاسة عمر إسماعيل، تتولى التنسيق بين الأعضاء وتحفظ الوثائق وتضبط الميزانية وتحضر للاجتماعات الدورية للمجلس الإداري(1).

2 . خطة بارعة:

لم يحضر ابن باديس الاجتماع التأسيسي للجمعية من الأول، وكان وراء ذلك هدف يوضحه الشيخ خير الدين أحد المؤسسين الذي حضر الجلسات العامة والخاصة لتأسيس الجمعية، يقول: كنت أنا والشيخ مبارك الميلي في مكتب ابن باديس بقسنطينة يوم دعا الشيخ أحد المصلحين محمد عبابسة الأخضري، وطلب إليه أن يقوم بالدعوة إلى تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بالعاصمة، وكلفه أن يختار ثلاثة من جماعة نادي الترقي الذي لا يثير ذكر أسمائهم شكوك الحكومة أو مخاوف أصحاب الزوايا، وتتولى هذه الجماعة توجيه الدعوة إلى العلماء لتأسيس الجمعية في نادي الترقي بالعاصمة، حتى يتم الاجتماع في هدوء وسلام، وتتحقق الغاية المرجوة من نجاح التأسيس، ويقول الشيخ خير الدين وأسرّ إلينا ابن باديس أنه سوف لا يلبي دعوة الاجتماع ولا يحضر يومه الأول حتى يقرر المجتمعون استدعاءه ثانية بصفة رسمية، لحضور الاجتماع العام،

(1) إمام الجزائر ص 52.

فيكون بذلك مدعواً لا داعياً، وبذلك يتجنب ما سيكون من ردود فعل السلطة الفرنسية وأصحاب الزوايا ومن يتحرجون من كل عمل يقوم به ابن باديس[1].

وهكذا تأسست الجمعية وتشكل مجلسها الإداري المنبثق عن الاجتماع العام. وقد حرص أعوان الحكومة ومن معهم أن تكون للوجوه التي يرضون عنها مكانة في هذا المجلس، حتى يستطيعوا توجيهه كما يشاؤون ولكن عملية انتخاب الأعضاء خيبت مساعيهم، فقد فاز العلماء المصلحون الموالون لحركة ابن باديس بأهم المناصب فيه، برئاسة هذا الأخير. وهذه النتيجة لم ترض أعوان الإدارة الاستعمارية ولا أتباع الطريقة العليوية بالخصوص، لقد انتخبت الهيئة الإدارية ابن باديس غيابياً للرئاسة، والإبراهيمي نائباً له، وللكتابة العامة الأمين العمودي، وهكذا بدأ العمل الإصلاحي الجماعي ضمن إطار ثابت وتنظيم مقنن، تنظيم يتخذ من المسجد والمدرسة والصحيفة والنادي أدوات لحركته، وقد استقبل المواطنون عامة والمثقفون خاصة هذا الحدث بكامل الارتياح، وقد أصبح الشعار الذي أطلقه ابن باديس على الحركة الإصلاحية، الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا على كل لسان وهكذا تبدأ المرحلة الإصلاحية الحاسمة التي أصبحت الإدارة الاستعمارية تحسب لها ألف حساب[2].

3 . القانون الاساسي للجمعية:

بتاريخ 5 ماي «أيار» 1931م صادقت الهيئة العامة لجمعية العلماء على قانون الجمعية الأساسي وإليك نص القانون:

القسم الأول: الجمعية

الفصل الأول: تأسست في عاصمة الجزائر جمعية إرشادية تهذيبية تحت اسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، مركزها الاجتماعي بنادي الترقي الكائن ببطحاء الحكومة عدد 9 بمدينة الجزائر.

(1) مذكرات الشيخ محمد خير الدين (1 / 105، 106).

(2) إمام الجزائر ص 53.

الفصل الثاني: هذه الجمعية مؤسسة حسب نظام وقواعد الجمعيات المبينة بالقانون الفرنسي المؤرخ بغرة جويلية سنة 1901م.

الفصل الثالث: لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية.

القسم الثاني: غاية الجمعية

الفصل الرابع: القصد من هذه الجمعية هو محاربة الافات الاجتماعية، كالخمر والميسر والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجز القوانين الجاري بها العمل.

الفصل الخامس: تتذرع الجمعية للوصول إلى غايتها بكل ما تراه صالحاً نافعاً لها غير مخالف للقوانين المعمول بها ومنها أنها تقوم بجولات في القطر في الأوقات المناسبة.

الفصل السادس: للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي.

القسم الثالث: أعضاء الجمعية

الفصل السابع: أعضاء الجمعية على ثلاثة أقسام:

مؤيدون وقيمة اشتراكهم عشرون فرنكاً

عاملون وقيمة اشتراكهم عشرة فرنكات

مساعدون وقيمة اشتراكهم خمسة فرنكات

الفصل الثامن: يتألف المجلس الإداري في الأعضاء العاملين فقط.

الفصل التاسع: الأعضاء العاملون فقط هم الذين ينتخبون كل سنة أعضاء المجلس الإداري المتألف من رئيس ونائب له وكاتب عام ونائب له وأمين مال ونائب له ومراقب وأحد عشر عضواً مستشاراً.

الفصل العاشر: للجمعية أن تنشأئ بمركزها بالجزائر مكتباً يكون على رأسه مدير مكلف بإدارة شؤونها ومصالحها.

الفصل الحادي عشر: وللجمعية أيضاً أن تحدث مكاتب عمالية في كل من العمالات، وعلى رأس كل مكتب منها كاتب مكلف بإدارة شؤون الجمعية وهذه المكاتب كلها تكون مرتبطة أتم الارتباط بالمكتب المركزي.

الفصل الثاني عشر: الأعضاء العاملون هم الذين يصح أن يطبق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائري بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية والذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى.

الفصل الثالث عشر: الأعضاء المؤيدون والأعضاء المساعدون يشملون كل من راق له مشروع الجمعية من غير الطبقة المبينة بالفصل المتقدم وأراد أن يساعدها بماله وأعماله على نشر دعوتها الإصلاحية.

القسم الرابع: مالية الجمعية

الفصل الرابع عشر: مالية الجمعية تتألف من معلوم اشتراكات الأعضاء بكافة أنواعهم المبينة في الفصول المتقدمة.

الفصل الخامس عشر: للجمعية أن تلتمس وتقبل من الحكام المحليين إعانات مالية.

الفصل السادس عشر: مبلغ الاشتراكات والإعانات يقبضه أمين المال ويسلم فيه وصلاً.

الفصل السابع عشر: مال الجمعية يوضع باسمها في أحد البنوك المحلية ولا يبقي أمين المال منه تحت يده أكثر من خمسمائة فرنك.

الفصل الثامن عشر: لا يجوز إخراج شيء من المال بقصد صرفه إلا بأمر كتابي ممضي من الرئيس والكاتب العام وأمين المال وذلك تنفيذاً لما يقرره المجلس الإداري.

الفصل التاسع عشر: يصرف مال الجمعية فيما تقتضيه مصلحتها ويوجبه الوصول إلى غايتها المبينة بالفصل الرابع من هذا القانون الأساسي.

القسم الخامس: الاجتماعات الإدارية والعامة

الفصل العشرون: المجلس الإداري يجتمع في الأوقات التي يراها مناسبة، ويجب أن تكون جلساته كلها مسجلة في دفتر محاضر الجلسات، وكل قرار يقرره المجلس ولا يكون مسجلاً بالدفتر المعد لذلك يعتبر لغواً لا عمل عليه، ويجب أن يمضي المحضر رئيس الجلسة وكاتبها.

الفصل الحادي والعشرون: ينعقد الاجتماع العام لسائر الأعضاء مرة في السنة وينعقد هذا الاجتماع بمدينة الجزائر إثر استدعاء من الرئيس، وزيادة على هذا الاجتماع السنوي يجوز عقد اجتماع آخر في أثناء السنة في الزمان والمكان اللذين يعينهما الرئيس، وبعد أن يتفاوض أعضاء الجمعية في أثناء الاجتماع العمومي العادي في برنامج الجمعية وتعرض عليهم أعمال الجمعية في السنة السابقة ؛ تنعقد جلسة ثانية يحضرها الأعضاء العاملون والمؤيدون والمساعدون ويعلمون بحالة الجمعية الأدبية والمالية، ثم يباشر الأعضاء العاملون فقط انتخاب الهيئة الإدارية.

الفصل الثاني والعشرون: إذا شجر خلاف بين عضوين أو أكثر من أعضاء الجمعية، أو تغيرت سيرة أحد الأعضاء بما تراه الجمعية ماساً بحياتها، فلمجلس الإدارة أن يعين لجنة بحث وتحكيم تشمل خمسة من الأعضاء العاملين وخمسة من الأعضاء المؤيدين، وهذه اللجنة تعرض نتيجة بحثها وما تراه في القضية على المجلس الإداري، وهذا الأخير يطبق العقوبات والأحكام المنصوص عليها في اللائحة الداخلية التي ستوضع للجمعية.

الفصل الثالث والعشرون: لا ينظر في طلب متعلق بحل الجمعية إلا إذا كان صادراً من ثلث الأعضاء على الأقل، ولا يعمل به ولا ينفذ إلا إذا صادق عليه أربعة أخماس الأعضاء العاملين، وإذا انحلت الجمعية ـ لا قدر الله ـ يسلم أثاثها ومالها إلى جمعية خيرية إسلامية يعينها المجلس الإداري[1].

(1) عبد الحميد بن باديس ، مطبقاني ص 201.

4 . غاية الجمعية:

كانت الغاية التي أعلنت في القانون الأساسي للجمعية صريحة وواضحة فيما يخص محاربة الافات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل والافات الدينية، كل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل.

ويظهر الهدف التعليمي في الفصل السادس للجمعية أن تؤسس شعباً في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي.

وحتى عام 1931م كانت هذه هي الغاية التي أعلنتها الجمعية، ولكن بعد تصفية أنصار الإدارة الحكومية، وأعوان الطرق المشبوهة في الانتخاب الثاني الذي أجرته الهيئة العامة للجمعية عام 1932م أخذت غاية الجمعية تتوضح أكثر فأكثر، فضمن الإطار الديني دعا ابن باديس للعودة إلى سيرة السلف الصالح، فقال: خطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة . المعتمد عليهم . ودعوة المسلمين كافة إلى السنة النبوية المحمدية دون تفريق بينهم، وغايتنا أن يكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال والسير والأحوال، حتى يكونوا للناس كما كان هو (ص) مثالاً أعلى في الكمال[1].

وبعد مضي خمس سنوات على تأسيس الجمعية حدد البشير الإبراهيمي غاية الجمعية في المجالات التالية:

أ . موقفها من الطرق: بما أن الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين، وأنها هي السبب الأكبر في ضلالهم في الدين والدنيا، وأن هذه الطرق هي أظهر اثاراً وأشنع صورة في القطر الجزائري، لذلك يجب محاربتها ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر، وأننا حين نقضي عليها إن شاء الله نقضي على كل باطل ومنكر وضلال، ونعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمة الجزائرية إصلاح من أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطرقية المشؤومة، ومع ما لها من سلطان على الأرواح والأبدان ومع ما فيها من إفساد العقول وقتل للمواهب.

(1) جمعية العلماء المسلمين ، د. أحمد الخطيب ص 115.

ب . موقفها من التعليم: بما أن التعليم العربي الحر يدور في دائرة ضيقة من أمكنته وأساليبه وكتبه، فإن غاية الجمعية هي أن توسع دائرة الأمكنة بإحداث مكاتب حرة للتعليم المكتبي للصغار، وتنظيم دروس في الوعظ والإرشاد الديني في المساجد، وتنظيم محاضرات في التهذيب وشؤون الحياة العامة في النوادي، وإصلاح أساليب التعليم بالقضاء على تلك الأساليب العتيقة العقيمة[1].

ج . موقفها من البدع والمنكرات العامة:

غاية الجمعية في هذا المجال هي محاربة البدع المرتبطة بالمساجد والجنائز والمقابر والحج والاستسقاء والنذور، والتي أصبحت تشوه هذه المظاهر المقدسة لدى المسلمين.

د . موقفها من الإلحاد:

في اعتقاد الجمعية أن الإلحاد حلّ في الجزائر عن طريق الثقافة الأوروبية، والتعليم اللاديني أو التقليد الأعمى، وأن غفلة اباء وأولياء الطلاب الجزائريين غذت قيم هذه الناحية، كذلك فإن الإلحاد قد تمكن في نفوس الشبان المتعلمين في رأي الجمعية، كما يقول البشير الإبراهيمي بسبب نفور رجال الدين الجامدين منهم، وأن انتشار الخرافات وأضاليل الطرق بين الأمة جعل أبناءنا المتعلمين تعلماً أوروبياً الجاهلين حقائق دينهم يحملون من الصغر فكرة أن هذه الأضاليل الطرقية هي الدين، فإذا تقدم بهم العلم والعقل لم يستسغها منهم علم ولا عقل، فأنكروها حقاً وعدلاً وأنكروا معها الدين ظلماً وجهلاً، لذلك فإن خطة الجمعية تقضي بمخالفة هذه الطائفة وجذبها إلى المحاضرات والدروس الدينية لتقويم زيفها واعادتها لحظيرة الدين.

(1) جمعية العلماء المسلمين ، د. أحمد الخطيب ص 115.

هـ . موقفها من التبشير:

بما أن الجمعيات التبشيرية المسيحية في الجزائر التي تعتبر أداة من أدوات السياسة في ثوب ديني وشكل كهنوتي ؛ قد انتشرت في كثير من المناطق التي تكثر فيها طروق المجاعات، محاولة التأثير بالمال والإغراءات على الوضع الديني للسكان، لذلك فإن على الجمعية مقاومة التبشير بقدر المستطاع.

وبالنتيجة يعرف لنا الشيخ البشير الإبراهيمي الجمعية بأنها جمعية علمية دينية تهذيبية، فهي بالصفة الأولى تعلم وتدعو إلى العلم وترغب فيه وترغب على تمكينه في النفوس بوسائل علمية واضحة لا تتستر، وهي بالصفة الثانية تعلم الدين والعربية لأنهما شيئان متلازمان وتدعو إليهما وترغب فيهما، وتنحو في الدين منحاها الخصوصي وهو الرجوع به إلى نقاوته الأولى وسماحته في عقائده وعبادته، لأن هذا هو معنى الإصلاح الذي أسست لأجله ووقفت نفسها عليه، وبمقتضى الصفة الثالثة تدعو إلى مكارم الأخلاق التي حض الدين والعقل عليها لأنها من كمالها، وتحارب الرذائل الاجتماعية التي قبح الدين اقترافها وذم مقترفيها، وسلكت في هذه الطريقة أيضاً الجادة الواضحة(1).

وأما الغاية السياسية للجمعية، فقد وضعها ابن باديس قبل تأسيس الجمعية ووضع الإطار العام للغاية الوطنية السياسية التي يستهدفها الإصلاحيون بقوله: ولأننا جزائريون نعمل للمّ شعب الأمة الجزائرية وإحياء روح القومية في أبنائهم، وترغيبهم في العلم النافع والعمل المفيد حتى ينهضوا كأمة لها حق الحياة والانتفاع في العالم، وعليها واجب الخدمة والنفع للإنسانية(2).

هذه كانت غاية الإصلاح في الجزائر إحياء الروح القومية والحض على محبة الوطن والانفتاح على الإنسانية العالمية، إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاً ونحب وطننا ونعتبره منها جزءاً، ونحب من يحب الإنسانية

(1) المصدر نفسه ص 117.

(2) المصدر نفسه ص 117.

ويخدمها ونبغض من يبغضها ويظلمها[1]، بل إن ابن باديس صرّح بأبيات من الشعر أصبحت يتغنى بها كل الشعب عندما قال:

شـعب الجزائر مسلم وإلى العــــروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام ادمـــاجاً لـــه رام المحال من الطلب[2]

إن غاية الجمعية تبدو واضحة في إطار هذه الأبيات الجميلة المعبرة عن الهوية والعقيدة والثقافة والانتماء الديني لشعب الجزائر المسلم وتحديد انتسابه القومي إلى العروبة التي هي أصله ولا يمكن أن يحيد عنها، ومن قال بأنه انتهى وتم تحويله عن شخصيته فقد كذب، فمن المحال دمجه في كيان غير كيانه الطبيعي لأنه شعب عربي مسلم.

هذه هي الغاية التي سعت إليها جمعية العلماء وعرضتها فيما بعد كمطالب وطنية، وهي ليست بعيدة عن الأهداف السياسية التي ينسبها المفكر الفرنسي «أوغستاف بيرك» إلى جمعية العلماء والتي تتلخص بما يلي:

. تخليص الجماهير الجزائرية من محاولات دمجها في المجتمع الغربي.

. المشاركة في الدعوة إلى إقامة الوطن العربي.

. تكوين الشعب الجزائري الذي عانى من الرزوح تحت الأوامر القاسية والفوضى.

. العمل على جعل الجزائر دولة مستقلة مرتبطة باتحاد فدرالي مع الأقطار العربية.

كان من غايات جمعية العلماء العمل على فصل الجزائر عن فرنسا تحت راية الإسلام في إطار الوطنية الجزائرية، ووسيلته في تحقيق ذلك الهدف تنشئة جيل جزائري جديد مسلح بثقافة وطنية إسلامية وروح وثابة،

---

(1) المصدر نفسه ص 118.

(2) البصائر السنة الثانية العدد 71، 18 جوان 1937م.

ليتمكن في المستقبل من تحقيق الأمنية العزيزة الغالية: الاستقلال، ولقد قاد جمعية العلماء منذ نشأتها وحتى حلها عام 1956م نخبة من العلماء ناضلت بكل الوسائل الفكرية والعملية، كتابة وخطابة وتنظيماً للوصول إلى الغاية المرجوة، فكان هؤلاء بحق أعلام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[1].

5 . من أهم رجال الجمعية:

. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي «1889 . 1965م».

. الشيخ الطيب بن محمد العقبي «1890 . 1960م».

. الأستاذ محمد الأمين العمودي «1890 . 1957م».

. الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي «1895 . 1957م».

. الشيخ مبارك بن محمد الميلي «1897 . 1945م».

. محمد خير الدين «1902 . 1993م».

. الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى حمدي «1888م . 1973م».

. الشيخ ابراهيم بيوض «1899 . 1981م».

. الشيخ الفضيل الورتلاني «1900 . 1959م».

. الشيخ أحمد توفيق المدني «1889 . 1983م».

. الشيخ محمد العيد ال خليفة «1904 . 1979م».

. الشيخ أحمد حماني «1915 . 1998م».

. الشيخ أحمد سحنون «1907 . 2003م».

. الشيخ عبد الرحمن شيبان «1918 . 2011م»[2].

6 . مدح ابن باديس لرجال الجمعية:

وقد أثنى ابن باديس على رجال الجمعية فقال في حقهم: إن الذي قام به للرجال الجمعية وضربوا به المثل

(1) جمعية العلماء المسلمين ، للخطيب ص 119.

(2) معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، يوسف بو غابة ص 20 . 38.

الرفيع للناس، هو تضامنهم في الشدة وفي الرخاء، وثباتهم على يقينهم رغم كل زعزعة وإعصار، وتضحيتهم بالمصلحة الخاصة في سبيل الصالح العام، وثقتهم التامة بالله ثم بأنفسهم، ومن ثم كانت هذه الجمعية من الأمة وإلى الأمة وكل ما لها أو عليها فهو للأمة وعليها.

والجمعية تفخر بأنها قامت بإحياء فريضتي الإسلام التي نسيها المسلمون وعلماؤهم وهي فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اللذين هما مرجع عظمة الدولة الإسلامية وحضارتها. لقد كان رجالها مستضعفين يوم كانوا فرادى فمدوا أيديهم إلى بعضهم البعض فأصبحوا متعاونين أقوياء، ثم سمعت الأمة كلمتهم فاستجابت ولها الفضل ولها البشر من الله. لقد ضربوا الأمثال بأعمالهم وحملوا الأمانة الإسلامية وأدوها، وكل شيء عندهم بدليله وكل شيء يطلب من سبيله، وهذا ما جعل عملنا يملك علينا حواسنا وأوقاتنا[1].

وقال في حق صديقه وأخيه ورفيق دربه محمد البشير الإبراهيمي: عجبت لشعب أنجب مثل الشيخ البشير أن يضل في دين أو يخزى في الدنيا، أو يذل للاستعمار[2].

ثالثاً: الأصول الفكرية لجمعية العلماء:

إن أي جماعة لا تملك أصولاً نظرية ترجع إليها محكوم عليها بالفشل، إذ سرعان ما يتسلل الشقاق إلى أفراد الجماعة الواحدة، بسبب التأويلات المتباينة، ودرءاً لعاقبة انفراط عقد الجماعة، وسداً لذرائع الاختلاف ؛ وضع الإمام ابن باديس هذه الأصول الفكرية لتستبين الطريق وتتضح معالمه[3].

وتُعتبر هذه الأصول النموذج الأمثل لروعة العلماء في إحاطتهم بالإسلام فهما وتدبراً، ومن يتمعن في هذه الأصول يدرك أنها خلاصة للفكر الإسلامي عقيدة وشريعة وأخلاقاً، والتصور الصحيح مقدمة ضرورية

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 80.

(2) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 176.

(3) معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء ، يوسف بو غابة ص 41.

للتوجه الصحيح، والعمل المستقيم، ولهذا كان العلم عندنا ـ نحن المسلمين ـ يسبق العمل بل العلم عندنا دليل الإيمان وطريق الاعتقاد السليم.

ولو فتح الناس جميعاً بصائرهم على حقائق الإسلام وتعاليمه لعلموا أن شريعة الله رحمة كلها وحكمة كلها وعدل كلها[1].

وقد شملت هذه الأصول الفكرية مقاصد الشريعة وأصولها، وقد شملت محاور كبرى قام يوسف بوغابة في كتابه معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائرية دراسة تحليلية ؛ بترتيب وتنظيم وتصنيف ما كتبه الشيخ عبد الحميد بن باديس ووضعها في محاور:

المحور الأول: العقائد وتحتها أصولاً:

الأصل الأول[2] التوحيد أساس الدين، فكل شرك في الاعتقاد أو في الفعل فهو باطل مردود على صاحبه.

الأصل الثاني[3] اعتقاد تصرف واحد من الخلق مع الله في شيء ما بشرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان.

الأصل الثالث[4]بناء القباب على القبور وإيقاد السرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية، ومضاهاة لأعمال المشركين فمن فعله جهلاً يُعلم، ومن أقرّه ممن ينتسب إلى العلم فهو ضال مضل.

ونلاحظ في هذه الأصول الثلاثة حرص جمعية العلماء على صفاء العقيدة، كما جاء بها رسول الله (ص) وتلقاها السلف ببيضاء نقية، وهذا يترجم ما كان سائداً في المجتمع الجزائري من انتشار بناء القباب على القبور، والمغالاة في شيوخ الزوايا والنظر إليهم بعين القداسة المفضية إلى الاعتقاد بأنهم يعرفون الغيب ويطلعون عليه وما شابه ذلك.

---

(1) المصدر نفسه ص 42.

(2) هذا الأصل الثاني عشر بترتيب البيان.

(3) الرابع عشر بترتيب البيان.

(4) الخامس عشر بترتيب البيان.

وجمعية العلماء جاءت لتصحيح أوضاعاً فاسدة ولم تأتِ لتقيم خصومات مع هؤلاء أصحاب القباب، ولهذا كانت حريصة على اختيار الألفاظ التي صبغت بها هذه الأصول، فلم نجد كلمة تدل صراحة أو تلميحاً إلى التكفير أو الإخراج عن الملة مع هذا الموقف الحساس.

إن صفاء عقيدة الإسلام من شوائب الشرك والوهم والخرافة، كفيل أن يسعد البشرية كما أسعد السابقين من الصحابة والتابعين، وكفيل أن يداوي جراحاتها ويمسح عنها الامها النفسية ؛ إنها العقيدة وما تملكه[1] من قوة ذاتية.

المحور الثاني: خُصص للتعريف بالإسلام وذكروا تحته أصولاً.

الأصل الأول: الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله وكمّله على يدي نبيه محمد (ص) الذي لا نبي بعده.

الأصل الثاني: الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنه:

أ ـ كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر جميعاً.

ب ـ يسوّي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين الأجناس والألوان.

ج ـ لأنه يفرض العدل فرضاً تاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

د ـ يدعو إلى الإحسان العام.

هـ يحرّم الظلم بجميع وجوهه، وبأقل قليله من أي أحد على أي أحد من الناس.

و ـ يمجد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير.

ز ـ بنشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالقتل والإكراه.

ح ـ يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤون.

---

(1) معالم الفكر السياسي ص 44.

ط ـ إشراك الفقراء مع الأغنياء في الأموال، وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة، مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال.

ي ـ يدعو إلى رحمة الضعيف، فيُكفى العاجز ويعلّم الجاهل، ويرشد الضال، ويعان المضطر، ويغاث الملهوف، وينصر المظلوم، ويؤخذ على يد الظالم.

ك ـ يحرّم الاستعباد والجبروت بجميع الوجوه.

ل ـ يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ولو لأعدل الناس.

فقد تبين من خلال سرد فقرات الأصل الثاني أن العلماء كشفوا حقيقة الإسلام الشاملة لإصلاح الفرد والمجتمع والحاكم والمحكوم، وأبرزوا الوجه الحضاري للإسلام في المحافظة على حقوق الاقليات، والدعوة الصريحة لأن يعاملوا معاملة البر والإحسان، وأن لا تتدخل الدولة والمجتمع الإسلامي في خصوصيات عقائدهم وعبادتهم، وأن الحوار بالحجة والإقناع هو المسلك الوحيد للتعامل مع البشر جميعاً، وأن لغة الإكراه والإجبار أسقطها الإسلام من نظمه وشرائعه، كما أظهروا الجانب الاجتماعي، حيث يتقاسم أغنياء الأمة وفقراؤها ثروات البلاد دون أن يظهر في المسلمين ما ظهر في غيرهم من التفاوت الطبقي، وعلاقة الحاكم والمحكوم في شريعة الإسلام أساسها التعاون المثمر بين الجانبين دون استكبار أو استبداد من السلطة الحاكمة أو ذل وهوان من الجهة المحكومة.

أما الإنسانية في الفكر الإسلامي فقد نالت النصيب الأوفر من الاهتمام حينما أسقط الإسلام كل اعتبار جاهلي للتفاوت بين البشر، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أبيض على أسود، إلا بالتقوى والعمل الصالح[1].

فقد سلم الإسلام من الصراعات الداخلية التي تغذيها العنصرية العرقية أو اللغوية أو الإثنية.

(1) المصدر نفسه ص 46.

ونستطيع أن نجمل القول في هذه النقاط بألفاظ مختصرة لنحصل على شعار متكامل وهو العدل والإحسان، الحرية، الكرامة الإنسانية، وهذا ما وصلت إليه الحضارة الغربية بعد عمى امتد لقرون، وصلت في نهاية المطاف إلى النقطة التي بدأ منها الإسلام، فحرمت أجيالها الماضين من نعيم الإسلام.

المحور الثالث: خصص لذكر مصادر الإسلام وجمع سبعة أصول:

الأصل الأول: القرآن الكريم هو كتاب الإسلام.

الأصل الثاني: السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقران.

الأصل الثالث: سلوك السلف الصالح ـ الصحابة والتابعين وأتباع التابعين تطبيق لهدي الإسلام.

الأصل الرابع: فهم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة.

الأصل الخامس: المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياهم ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره الشريعة.

الأصل السادس: البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة، ولم يثبت عن النبي (ص) فعله، وكل بدعة ضلالة.

الأصل السابع: الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحذير لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ[1].

وهذه الأصول المذكورة نستطيع أن نوزعها في نقاط لتكون أكثر وضوحاً.

أ ـ وهي مصادر الإسلام المتعلقة بالوحيين:

قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *} [الحشر : 7].

وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} [النور : 54].

(1) المصدر نفسه ص 46.

وقال (ص): تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي[1].

ب ـ تطبيق السلف الصالح: وفهمهم لكتاب الله وسنة رسول الله (ص) خير ما يستعان به على تحديد معاني القرآن والسنة وترجيح أحد المعاني على الاخر.

ج ـ الأمور التعبدية يشترط فيها التوقف على ما دل عليه الكتاب والسنة، لأن لا مجال للعقل فيه، وهذا ما نص عليه الفقهاء والمجتهدون بقولهم: الأصل في العبادة التوقف وعدم التعليل[2].

وهذا هو الباب الذي زلت فيه أقدام الطرقيين وضلت أفهامهم حينما زادوا في الشريعة ما ليس منها، كاتخاذ القبور مساجد، وكإلزام المريدين بأوراد لم ترد عن صاحب الشريعة (ص).

د ـ إعطاء العقل المجال في البحث عن علة الأحكام ومناط التكليف، ليربط الفروع بالأصول، ويبحث للناس عما يسعدهم في معاشهم خاصة في النوازل المستحدثة، بشرط أن لا يصادم النصوص الشرعية الثابتة بأسانيدها الواضحة في دلالتها، ودون أن يخرق أيضاً أسوار مقاصد الشريعة الإسلامية.

المحور الرابع: جُعل للحديث عن تفاضل الناس وتحته أربعة أصول:

الأصل الأول: أفضل الخلق محمد (ص) لأنه:

أ ـ اختاره الله لتبليغ أكمل شريعة إلى الناس عامة.

ب ـ كان على أكمل أخلاق البشرية.

ج ـ بلّغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته.

د ـ عاش مجاهداً في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة.

(1) المستدرك على الصحيحين رقم 319 (1 / 138).

(2) ضوابط المصلحة ، محمد سعيد رمضان البوطي ص 508.

الأصل الثاني: أفضل أمة بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعهم له.

الأصل الثالث: أفضل المؤمنين هم الذين امنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون فحظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله.

الأصل الرابع: العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عند الله، فلا النسب ولا الحسب بالذي يغني عن الظالم شيئاً.

ويتضح جلياً أن الخيرية عند الله منوطة بالعمل الصالح، كما أكد ذلك الذكر الحكيم في مواضع كثيرة في كتاب الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ *} [البقرة : 277].

من هذا المنطلق المعرفي حدد علماء الجمعية رتب القيادة المصطفاة من الله تعالى على قاعدة الإيمان والعمل الصالح، فأول من توافرت فيه هذه الشروط سيدنا محمد (ص) وهو الذي قال: أنا سيد ولد ادم ولا فخر(1)، وقد شهد غير المسلمين له بعلو المنزلة ورفعة المكانة(2)، ثم يأتي بعده القرون المشهود لها بالخيرية كما في الحديث: خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم(3)، وقد بين رسول الله (ص) مكانة الصحابة وأنهم فوق الجميع: لا تسبوا أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه(4)، ومن بعدهم تأتي مرتبة المؤمنين المتقين الذين نالوا ولاية الله بالعبادة والمراقبة والمجاهدة.

المحور الخامس: المنهج العملي للجمعية وتحته أربعة أصول:

الأصل الأول: ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيّناه منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف

(1) مسند أحمد رقم 10987.

(2) الخالدون المائة ، مايكل هارت ص 287.

(3) صحيح البخاري، ك الشهادات 52 رقم 2652.

(4) صحيح مسلم، ك فضائل الصحابة 44 رقم 2540.

الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان.

الأصل الثاني: الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة.

الأصل الثالث: المعاندون المستغلون أحق الناس بكل مشرع من الشدة والقسوة.

الأصل الرابع: عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التازر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة.

بعد اتضاح الرؤية على مستوى الفكر والتصور ختموا الأصول ببرنامج عملي نوجزه في ثلاث نقاط:

أ ـ إن عمل الجمعية يخضع للشريعة الإسلامية المحددة في الأصول السابقة التي تدعو إلى كرامة الإنسان، وتحافظ على حريته، وتعامله بالإحسان، ولن تنظر إلى لونه، أو عرقه، أو لسانه، أو دينه، أو انتمائه.

ب ـ إذا ما أساء العملَ شخصٌ ما ؛ إن كان جاهلاً عُلّم، أو غرّر به فُهم مع الرحمة والشفقة عليه، وإن كان عالماً بسوء ما يعمل مصراً عليه يشدَّد عليه ليُلجم عن تضليل غيره.

ج ـ يظهر الأصل الأخير الفهم الواسع والعقل الراجح والفكر الراشد لعلماء الجمعية الذين رتبوا أولويات المعركة، فإذا ما دخلت الأمة في صراع مع الاحتلال فلا ينبغي أن تنشغل بالخلافات المذهبية التي يستغلها العدو الأكبر، بل إن العلم والحكمة والفهم السليم يستدعي الجميع إلى تناسي كل خلاف للمّ الشمل وجمع الصفوف[1].

(1) معالم الفكر السياسي ص 51.

وختمت الأصول العشرون[1] بقول الله تعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ *}[يوسف: 108].

رابعاً: محاولة الاستعمار الفرنسي تفجير الجمعية من الداخل:

استعملت الإدارة الاستعمارية في أسلوبها الترهيبي هذا شتى ومختلف الطرق والأساليب، كانت أولها محاولة تفجير الجمعية من الداخل واحتوائها وتحريفها عن مسارها ومنهجها الإصلاحي الجهادي وخطها الحضاري التغييري الأصيل، إذا هي حركت أعوانها من الطرق الصوفية تلك الطرق التي مالت إليها منذ منتصف القرن الماضي، وأسهمت معها في القضاء على ثورة الأمير عبد القادر[2]، لا نقصد كل الطرق الصوفية ولكن التي تورط زعماؤها في التعاون مع المحتل.

وذلك عند إعادة انتخاب المجلس الإداري للجمعية في سنتها الثانية في 23 ايار 1933م، هذه الطرق الصوفية التي كانت ضمن الأصناف الذين ضمتهم إليها الجمعية عند تأسيسها، ولكن ما كان من تلك الجماعات إلا أن سايرت الجمعية في الظاهر وأسرّت لها الكيد في الباطن[3].

وداومت على حضور جلساتها ودوراتها، لا خدمة لغايتها، ولا إعانة لإدارتها، ولكن عيناً عليها فاجرة، تبلّغ وتشي إلى إدارة الأمور الأهلية[4]، وتحينت الفرصة المناسبة لها عند إعادة تجديد انتخاب مكتب الجمعية فكان رئيس لجنة العمل، قد سعى سعياً شديداً في تكوين عدد كثير ممن يوافقونه على القائمة التي يقدمها للانتخاب، وكانت مكاتبات لبعض الجهات في الحث على القدوم يوم الانتخاب[5]، وساعده في ذلك شيخ

---

(1) عبد الحميد بن باديس الآثار (3 / 131).

(2) جهاد ابن باديس ص 222.

(3) المصدر نفسه ص 222.

(4) رسالة الشرك ومظاهرة ، مبارك الميلي ص 268.

(5) الشهاب ج 8، م 8، ص 395.

زاوية مستغانم، وأصبحت الوصولات توزع على كل من يقال فيه طالب، ليأتي للجمعية العمومية وينتخب من كتبت أسماؤهم في ورقة سلمت لهم.

وتضمنت القائمة التي وزعت ثلاثين اسماً منها أعضاء أقدمون في المكتب، مع شطب على أسماء بعضهم زيادة عليهم، وقد ضُمّ رئيس لجنة العمل إلى قائمة الثلاثين شخصاً وكان ابن باديس على علم من ذلك، غير خائف على الجمعية لأنني ـ كما يقول ـ كنت أعتقد أن الاجتماع العمومي سيضم جمعاً عظيماً من أهل العلم وحسبي بعلمهم هادياً لهم إلى ما فيه خير وسداد للجمعية والأمة[1].

ولذلك ـ كما يقول الإمام دائماً ـ: بينما كان السيدان يعملان عملهما ويقويان حزبهما، كنا تاركين للمسألة حالها تسير بطبيعتها ولو كنا على شيء من سوء النية أو القصد إلى الاستيلاء بالأغلبية، لكنا دعونا تلامذتنا دعوة للحضور وهم كثر وكلهم من أهل العلم فملؤوا نادي الترقي والشوارع المتصلة به ولا فخر. ولكن ما كنا ـ والحمد لله ـ لنقصد إلى التكثر ولا إلى العصبية والتحزب وإحداث الفرقة بين الناس[2].

وحسم ابن باديس الأمر بتذكير جميع الناس الذين حضروا بأن المنتخبين لابد أن يكونوا من أهل العلم كما تنص عليه المادة السابعة من القانون الأساسي للجمعية «الفصل الثامن منه» والتي نصها: الأعضاء العاملون هم وحدهم الذين يجب أن يتألف منهم المجلس الإداري، وهم الذين ينتخبون كل سنة، وهم الذين يصح أن يطلق عليهم لقب عالم بالقطر الجزائر، بدون تفريق بين الذين تعلموا ونالوا الإجازات بالمدارس الرسمية الجزائرية وبين الذين تعلموا بالمعاهد العلمية الإسلامية الأخرى.

وذكر الجميع أن مجلس الإدارة عين لجنة لتقييد أسماء من ينطبق عليهم هذا الوصف المذكور في المادة وأنه تقبل من كانت له شهادة ، أو كان باشر التعليم ، أو كان يشار إليه بالعلم في قومه وأنه بعد تقييد أسماء

(1) جهاد ابن باديس ص 223.

(2) المصدر نفسه ص 224.

المنتخبين، يكون الانتخاب[1]، ولكن المتربصين والكائدين وأذناب المندسين رفضوا ذلك، وقامت القيامة، واضطربت أركان القاعة بالضجيج وأبى القوم إلا الانتخاب في الحين، دون اعتبار للمادة القانونية، ولا اعتبار لتقييد أسماء المنتخبين، واستمر ذلك الاضطراب من الصباح إلى قرب الزوال، وتأكد جمع العلماء من أن أهل العلم قد حشر فيهم من ليس منهم وكان معهم من لم يتخلق بأخلاقهم، ولا تأدب باداجم مما حتم الموقف وتطوراته على ابن باديس، أن يجمع أعضاء المكتب ليبين لهم دافع وهدف المكيدة التي يراد من وراءها قلب الجمعية والاستحواذ عليها قائلاً لهم: طالباً: أشيروا عليَّ بما ترون، فقال الأستاذ مبارك الميلي: أرى أن تكون لجنة من العلماء يكون أعضاؤها منا ومنهم، يجري امتحان على من لا تتوفر فيهم الشروط[2].

ووقع الإعلان عن الانتخابات وفق الخطة يوم الثلاثاء صباحاً وتم مساءها، ولما سمع القوم هذا سقط في أيديهم وخرجوا من النادي في غليان واضطراب يتدافعون على الأبواب، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة[3].

وتألف المجلس الإداري الجديد من زعماء الإصلاح وصفوة أنصاره ورأى الناس عجيب صنع الله في نصر الحق على الباطل، الذي انشق وانسحب دعاته من الجمعية محاربين ولأغراض أمور الأهلية منفذين وذلك لأن الإدارة الاستعمارية هي التي حرضت بعض أتباعها على سلوك هذا المسلك والقيام بهذا العمل مخوفة إياهم من الجمعية التي ستقطع عنهم الزيارات واراداتها المالية التي تتوقف عليها رفاهيتهم ويقوم على أساسها نفوذهم[4].

ولكن بعد فشل محاولتهم وخروجهم يائسين مهزومين دفعتهم الإدارة الفرنسية وأعانتهم على تأسيس

(1) المصدر نفسه ص 224.

(2) المصدر نفسه ص 224.

(3) المصدر نفسه ص 224.

(4) المصدر نفسه ص 225.

جمعية خاصة بهم، عرفت فيما بعد باسم ووصل بهم الأمر إلى تحريف اسم ابن باديس إلى إبليس بدلاً من باديس[1].

وفسحت الإدارة الفرنسية المجال واسعاً للجمعية لممارسة نشاطها في الميدان مع كل التسهيلات، لمنافسة جمعية العلماء ومحاصرة نشاطها، ففي السنة الثانية من تأسيسها كان رئيسها يقوم بجولات لنشر دعوتها ويزور العواصم لدعم نفوذها[2].

ولكن الرأي العام الجزائري - إدراكاً منه بخلفيات وأبعاد ظهور هذه الجمعية على الساحة، لم يتجاوب معها ولم يستجب لخطابها بل على العكس من ذلك - قابلها برفض ونفور، وحدث - مثلاً - أن رمي بالبيض والطماطم رئيسها في عنابة عندما زارها وأراد إلقاء درس في جامعها الكبير[3]، ولذلك ورغم سعيهم الحثيث في الميدان وفي المساجد الرسمية، ورغم المساعدات التي كانت الإدارة تغدق بها عليهم، كان مال هذه الجمعية الفشل الذريع في محاربة ومواجهة العلماء.

وإبتداءً من أيار 1933م حدثت القطيعة النهائية بين الإصلاحيين والطرقيين[4]، وتوقفت جريدة الإخلاص عن الصدور في كانون الأول 1933م، ولم تعمد إدارة الاحتلال إلى دفع الطرقيين إلى محاولة تفجير الجمعية والاستيلاء عليها، فحسب، كما يؤكد ذلك الدكتور أبو القاسم سعد الله بقوله: ولا شك أن السلطات الفرنسية هي التي أوحت إلى أتباعها، باتخاذ هذا الموقف من علماء الإصلاح، بتأسيسهم لجمعية علماء السنة السالفة الذكر، وكما يؤكد ذلك أيضاً الشيخ الصالح بن عتيق، بل عمدت علاوة على ذلك إلى إنشاء جمعيات دينية مختلفة ، كالتي أنشأتها في تبسة، باسم الجمعية الدينية الإسلامية ، ووضعت على رأسها

(1) المصدر نفسه ص 226.

(2) المصدر نفسه ص 226.

(3) المصدر نفسه ص 226.

(4) المصدر نفسه ص 227.

معمراً يدير شؤونها، ويوجه أهدافها[1]، الخادمة لأغراضها. ولبثّ الدعاية الكاذبة في عقول العامة من الناس، ومن جملة ما كانت تروجه أن العلماء المصلحين ينكرون وجود الأولياء، وقد جاؤوا بدين جديد، ومنذ أن ظهرت الدعوة الإصلاحية انقطعت البركة، وأمسك الله عنا المطر[2].

خامساً: إصدار القوانين والقرارات التعسفية، في حق رجال الجمعية ونشاطها:

وذلك ابتداء من سنة 1932، إذ أصدرت قوانين لمراقبة وتفتيش وغلق المدارس، التي شرعت الجمعية في افتتاحها، وعزل معلميها، وكل ذلك إذا تطلب الأمر الأمني ذلك[3]. فبعد فشل محاولة تفجير الجمعية، وتحريف مسارها الإصلاحي الجهادي وخطها الثوري التغييري، أصدرت الإدارة الاستعمارية الفرنسية قوانين وقرارات، مست الجمعية في نشاطها التعليمي، سواء المسجدي منه أو المدرسي، وكذا تعطيل وتوقيف الصحف التي تصدرها، وعرقلة ومحاصرة نشاط رجالها، متابعة وتغريماً وسجناً ونفياً، ويمكن أن نشير إلى بعض هذه القوانين:

1. قرارات تعطيل الجرائد عن الصدور:

فبعد تعطيل المنتقد في سنتها الأولى عام 1925م، عطلت كل من السنة النبوية، والشريعة المحمدية، والصراط السوي، جميعاً في سنة واحدة سنة 1933م، ووصل الأمر بالإدارة في سرعة تعطيل الجرائد إلى: أن الحاكم العام قد أصدر مرة أمراً استبدادياً، يقضي بتعطيل كل صحيفة تصدرها جمعية العلماء مسبقاً قبل ظهورها[4].

(1) المصدر نفسه ص 227.

(2) المصدر نفسه ص 227.

(3) المصدر نفسه ص 228.

(4) الجزائر الثائرة، الفضيل الورتلاني ص 146.

2. قرارات فيرناند جيل ميشال لمراقبة حركة العلماء:

والتضييق عليهم ومنعهم من أداء مهام الإصلاحية الجهادية، خصوصاً في المدن الصغيرة والقرى، وكذا الأسواق العامة، هذه القرارات التي أصدرها مدير الشؤون الإسلامية في 16 شباط 1933م، والتي فيها: دعوة كل من يعنيهم الأمر، إلى ملازمة اليقظة والانتباه لمراقبة جميع الاجتماعيات والمحاضرات . التي تنظمها جمعية العلماء تحت زعامة ابن باديس، والعقبي، والعمل على إبعاد المدارس القرآنية عن نشاط هذه الجمعية[1].

وتأمر في الوقت نفسه كل الهيئات: بعدم التردد في كتابة محضر، لكل اجتماع من هذا القبيل، ولا سيما ذلك الذي يأخذ طابعاً تخريبياً، مضاداً لفرنسا[2].

كما نصت قراراته على منع العلماء من دروس الوعظ في المساجد الرسمية، وهي التي تشرف عليها مباشرة، ومنعهم أيضاً من فتح المدارس الحرة، وتعليم اللغة العربية، ومصادرة الصحافة العربية التابعة للجمعية[3]، وقصر الإمامة والإفتاء على من تعينه الإدارة، وحتى يشرف بنفسه على تنفيذ هذه الأوامر، عين فيرناند جيل ميشال نفسه رئيساً للمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

3. تعيين الإمامة والإفتاء:

لا يتم: طبقاً لمشيئة جماعة المسلمين، تبعاً لهوى المستعمرين... وبذلك تجمع . الإدارة . في يديها أنفذ وسائل الإفساد، فاختيار رجل يؤم بالناس في المسجد، لا يكون بناء على تمييزه بضمير حي أو علم بأصول العقيدة، بل يراعى في ذلك ما يقدم للإدارة من خدمات حتى كأنه جاويش صلاة.

(1) الحركة الوطنية ، د. أبو القاسم سعد الله (3 / 21).
(2) المصدر نفسه (3 / 21).
(3) الحركة الوطنية (3 / 21) ، أبو القاسم سعد الله.

4 . منع العلماء من دخول الصحراء:

كما تم في السنة نفسها . أي سنة 1933م . إصدار قرار يقضي بمنع أعضاء جمعية العلماء من الدخول إلى الصحراء[1]، والقيام بالدعوة الإصلاحية فيها، بينما وفي مقابل هذا المنع الصارم: تعطى الإعانات، وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية لتنصير أبناء وبنات المسلمين[2].

5 . إعتبار اللغة العربية أجنبية:

كما قررت الإدارة ابتداء من سنة 1933م رسمياً اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر، وأن المساجد محرمة على العلماء الأحرار بعد أن كان كل هذا منفذاً بالفعل، دون استناد إلى قانون، ومن يومئذ أصبح تعليم العربية في عداد الجرائم، يحاكم عليه قانونياً، ويقضي القاضي بتجريم مقترفيها[3].

وقد نجم على هذا القرار التعسفي ما يلي:

. القيام بغلق مدارس الجمعية في تلمسان وسبق وسيدي بلعباس، وغيرها وطرد معلميها.

. غلق المساجد في وجه العلماء ومنعهم من التدريس فيها.

. تلفيق التهم للعلماء وتشويه سمعتهم عند الرأي العام، ومثال ذلك الشيخ الطيب العقبي الذي اتهم بخلق الاضطرابات ضد الأمن العام، وبأنه داعية وهابي، لتمنعه بعد ذلك من التدريس في الجامع الجديد بالعاصمة، مما أثار غضب الشعب الذي خرج في مظاهرات صاخبة، وعارمة، تصدت لها قوات الشرطة، ولم تهدأ إلا بعد أن وعدت السلطات بالسماح للعقبي باستئناف دروسه. كما يقوم بحملة تشهيرية بهم: يندد . فيها . بهؤلاء الوهابيين الخارجين عن الدين ويطالب المؤمنين بعدم الاستماع إليهم أو الصلاة خلفهم[4].

(1) مذكرات محمد خير الدين ص 273.

(2) الشهاب ج4، م14 ص 103.

(3) جهاد ابن باديس ص 229.

(4) الجزائر المعاصرة ، صلاح العقاد ص 30.

وترسل الولاية العامة كتاباً إلى الإمام ابن باديس، تسأله فيه هل لديه رخصة، تسمح له بالتعليم في الجامع الأخضر وغيره؟ مما أثار تعجب الإمام وحيرته. فكتب مقالاً بعنوان: بعد عشرين سنة في التعليم، نسأل هل عندنا رخصة[1]؟

وابتداء من سنة 1934م، أصدرت الإدارة الاستعمارية أيضاً قراراً منعت بموجبه المسلمين من الاجتماع في الجامع الكبير، وحالت دون لقاء الحجاج مع الشيخ ابن باديس ورفاقه من رجال الإصلاح[2]. ولكن الأمة رفضت هذا الإجراء التعسفي، ولم تُعِرْه اهتماماً.

واجتمعت مع الإمام في الجامع بالحجيج، ولم يقف الأمر عند هذا فحسب، بل تعداه إلى منعها أعضاء الجمعية والمنتمين إليها من أداء فريضة الحج، وكانت تسأل كل طالب لذلك، هل أنت مؤيد لجمعية العلماء؟ واحتج الإمام عن هذا المنع الجائر قائلاً: إننا باسم الحق والعدالة، باسم الإسلام والإنسانية، نحتج ضد هذا الاضطهاد الديني الفظيع وضد الوقوف في طريق أداء هذه الشعيرة الكبرى، وضد كل اضطهاد في الفكر والاعتقاد لأي كان[3].

وبهذه القرارات التعسفية التي أصدرتها الإدارة الإستعمارية ضد العلماء ومؤسسة الجمعية، وضد التعليم؛ وجد العلماء أنفسهم بين شرين ونارين، فإذا أقدموا على التعليم بلا رخصة كان التغريم الثقيل والسجن الطويل جزاءهم، وإذا أجمعوا واستسلموا، تم لأعداء الإسلام والعربية مرادهم، وقضوا على القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام قضاءهم[4].

وأكدت هذه القرارات سنة 1935م، والتي عرفت باسم قرارات «رينييه» والتي تقضي بتضييق الخناق على جميع العلماء ، وكل زعماء الحركة الوطنية ، وكل الأشخاص الذين يظهرون تذمراً ورفضاً لتطبيق القوانين

---

(1) جهاد ابن باديس ص 230.

(2) مذكرات محمد خير الدين ص 254.

(3) البصائر ع150 ص: 330.

(4) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 294).

والمراسيم والتنظيمات وأوامر السلطة العامة، بتسليط عقوبات عليهم تتراوح بين ثلاثة أشهر وعامين سجناً، وبين خمسمائة وخمسة الاف فرنك غرامة(1).

6 . من النتائج التي ترتبت عن هذه القرارات:

وكان من النتائج التي ترتبت عن هذه القرارات، التي أكدت ما صدر قبلها . أن لم تبق حرمة للإسلام ولغته، ومؤسساته ورموزه، من العلماء والمشايخ والأساتذة، وحصلت انتهاكات صارخة وبشعة في حقهم جميعاً، وفي حق التعليم، وفي حق أبناء الشعب الجزائري، الذين يدرسون بمساجد ومدارس الجمعية على مستوى التراب الوطني من حيث المكان، وعلى امتداد سنوات طويلة من حيث الزمان، مما يصعب علينا حصر وعدّ مخلفاتها واثارها، على جميع المستويات، ويكفي أن نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أ . ما حصل من اعتداء سافر على مسجد قنزات العتيق، قرب مدينة سطيف من قبل قوات الأمة.

ب . إهانة الشيخ عمر دردور، رئيس شعبة الجمعية بمدينة باتنة.

ج . ما حدث في 8 نيسان 1938م من مأساة في مدينة الوادي، عندما تدخلت القوات الاستعمارية بقوة ضد سكان المدينة واعتقلت الشيوخ: عبد العزيز الهاشمي علي بن سعد، عبد القادر الباجوري، عبد الكامل بن الحاج بن عبد الله، وساقتهم جميعاً وبإهانات إلى سجن الكدية بقسنطينة دون محاكمة، ووضعوا مع المجرمين، حيث مكثوا فيه طويلاً. كما رحبت بأعداد كبيرة منهم في سجن المدينة، وما حدث أيضاً في هذه الأحداث الأليمة، أن حوالي ثلاثين امرأة أجهضت، وعطلت أسواق الوادي ومحلاته، ودامت عمليات العنف والاضطهاد ضد أهل الوادي، لالتفافهم حول الحركة الإصلاحية وعلمائها ثلاثة أسابيع كاملة، ذاقوا فيها أبشع صور القهر والتنكيل(2).

---

(1) الحركة الوطنية (3 / 27).

(2) جهاد ابن باديس ص 232.

وكتب ابن باديس مقالاً ـ تذكيراً بقضيتهم بعنوان: حول مساجين العلماء، هل في سجن الكدية ما يذكرنا بالباستيل؟ وذلك بعد مرور سنة وأربعة أشهر، على إيداعهم السجن ظلماً.

ـ غلق دار الحديث بتلمسان في 5 كانون الثاني 1938م بأمر من الوالي العام في الجزائر.

ـ إصدار قرار محاصرة النوادي، وتضييق الخناق عليها في 13 كانون الثاني 1938م، والذي يقضي منعها من بيع المشروبات إلا بترخيص من الإدارة. هذه الأخيرة: التي كانت ترفض منح أي تسهيلات للنوادي العربية[1].

وسنت لها قوانين تعجيزية ؛ حيث اشترطت هذه القوانين: أن يكون النادي مستكملاً لشروط صحية وغير صحية، قد لا تتوفر إلا في قصر الحاكم العام الفرنسي[2]، وكانت النتيجة ـ لهذا ـ أن أخليت من روادها ومعتاديها، وحرم ـ بالتالي ـ الكثير من الشباب والكبار من التهذيب فيها بعد ما حرموا منه في المساجد، لأنها قطعت عنها قنوات مواردها المالية، التي كانت تتمول منها.

7 ـ قانون 8 آذار 1938م:

والذي يعتبر أقسى وأفظع قانون أصدرته الإدارة الاستعمارية في حق التعليم الإسلامي والعربي، ومؤسساته والقائمين عليها، وكان ـ بحق ـ سهماً مسموماً أصاب الأمة في روحها وفي صميم فؤادها في مصدر حياتها وعزتها وفي مقعد البقاء منها. وكان ضربة قتالة للإسلام ولغته، ورجاله في الجزائر.

صدر القانون عن حكومة شوطان، وهو عبارة عن مجموع قرارات تتضمن إضافة عقوبات، ضد كل من يباشر التعليم العربي الديني بدون رخصة، في حين امتناع الحكومة عن إعطاء الرخص[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 232 ، الجزائر الثائرة ص 145.

(2) المصدر نفسه.

(3) الحركة الوطنية (3 / 32) ، أبو القاسم سعد الله.

وذلك بعد أن رأت الإدارة: تصميم الأمة على تعلم قراءتها ودينها ولغة دينها، والقران، واستبسال كثير من المعلمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقران، ولغة الدين والقران، واستمرارهم على التعليم، رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم. لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم، وبذلوا جهودهم، حتى استصدروا هذا القانون، قانون العقاب الرهيب[1]، والذي بالغ في تشديد شروط منح الرخص لفتح مدرسة، أو ممارسة التعليم والتدريس بها، أو بالمسجد، فكان الطالبون لها ـ وحسب القانون ـ يفاجؤون بالسؤال عن عقيدتهم، وما تنطوي عليه صدورهم وعن ارائهم وأفكارهم، وهل هم من جمعية العلماء؟ وهل قرؤوا على ابن باديس؟ وهل قرؤوا على بعض تلاميذه؟ وهل عرفوه؟ وهل هم مشتركون في الشهاب؟ وهل هم مشتركون في البصائر؟ فإذا عرفوا منه شيئاً من هذا، تجمعوا له ورفضوا طلبه، وعرقلوا أعماله، وعاكسوه في مصالحه الخاصة، وكان عندهم من المبغوضين[2]، لأنه لم تتحقق فيه الشروط والمواصفات التي يريدونها فيه، والتي ترضيهم وتنيله ـ لديهم ـ القبول الحسن.

وكان رد فعل ابن باديس السريع والقوي من هذا القانون، أن كتب في إصدار جريدة البصائر ليوم 8 نيسان 1938م على الصفحة الأولى منها مقالاً بعنوان كبير جاء فيه: يالله!. للإسلام والعربية في الجزائر، كل من يعلم بلا رخصة يغرم ثم يسجن[3]، قانون 8 اذار: كل من يطلب الرخصة لا يجاب، هذا عمل الإدارة الكثير المتكرر. ومما جاء فيه:.. وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي بحول الله في تعليم ديننا ولغتنا، رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء، فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدينا، وإننا على يقين من أن العاقبة ـ وإن طال البلاء ـ لنا، وأن النصر سيكون حليفنا[4].

(1) جهاد ابن باديس ص 233.

(2) المصدر نفسه ص 233.

(3) المصدر نفسه ص 234.

(4) جهاد ابن باديس ص 234.

وكان لمقالة هذا ردود أفعال قوية، شجبت صدور القانون: وارتفعت أصوات الاحتجاج والاستنكار، من جميع جهات القطر، وشاركت في ذلك جمعيات من قدماء المحاربين، وهيئات أخرى وبلديات عديدة، وتناولته النيابة العمالية بقسنطينة ووهران، ورفعت فيه النيابة المالية تقريراً بإجماع النواب[1].

وذلك لما شاهدوا نتائجه، واثاره المأساوية والتي ذكرها الإمام ابن باديس في خطاب له، أمام المجلس الإداري للجمعية، عندما قال لهم: ذلكم القانون الذي شاهدتم اثاره في المدارس والمكاتب المغلقة، وأفواج الصبيان والصبيات المشردة، وفي وقفات المحاكم التي وقفتموها، والخطايا التي دفعتموها، والسجون التي دخلتموها، وما لقيتم وتلقون من جهد وعنت أشهد أنه لم تُرْمَ الجزائر المسلمة بمثل هذا السهم، على كثرة الرمي وتفنن الرماة، لقد أدركت الأمة هذا والله، فلا أعرف مظلمة قومت مثل هذه المظلمة، ولا جوراً ارتفعت له أصوات الأمة مثل هذا الجور[2].

وأغلقت دار الحديث بتلمسان، وتم نفي الشيخ البشير الإبراهيمي إلى افلو بالجنوب الغربي في 10 نيسان 1940م، مع معاملته معاملة سيئة، وبقي في المنفى ثلاث سنين تقريباً، ولم يطلق سراحه منه إلا في أول سنة 1943م ومثلها مدرسة القليعة وغيرهما كثير لا يمكن حصره. ورغم كل هذا لم يتوان ابن باديس في توجيه دعوة باسم الجمعية، من خلال البصائر يدعو فيها: كل معلم نزع منه رخصته، أو يكاتبنا بما وقع له من ذلك، ويعرفنا بتفصيله وجميع ما يتعلق به، لنسعى في نازلته، السعي المشروع[3].

واعتبر يوم الثامن من اذار من كل سنة: يوم حزن وحداد، على تعليم الإسلام ولغة الإسلام[4].

(1) المصدر نفسه ص 234.

(2) المصدر نفسه ص 234.

(3) جهاد ابن باديس ص 235.

(4) المصدر نفسه ص 235.

8. تشديد المضايقة على طلاب ابن باديس:

ولم ينجُ طلبة الإمام ابن باديس الذين يدرسون عنده أو يزاولون دراساتهم بتونس أو المغرب من هذه الإجراءات، حيث شددت الإدارة متابعاتها لهم، وضايقتهم في تنقلاتهم وحركاتهم، وإلقاء القبض على بعضهم. فكان طلاب معهد ابن باديس بقسنطينة وطلاب جامعة القرويين بفاس، وطلبة جامعة الزيتونة بتونس، يُستنطقون من قبل أعوان الاستعمار، حين كانوا يؤوبون إلى أهلهم بالقرى النائية، أثناء العطل الصيفية وكانوا يتكالبون عليهم تكالباً، يجعل هؤلاء الطلاب المساكين، يقضون عطلهم في جحيم، بحيث لا يكادون يظهرون في الأماكن العامة، والأسواق علناً، إذ كانوا مطمئنين، إلى أن هؤلاء الأعوان كانوا يتربصون بهم الدوائر، ويرقبونهم في كل مكان[1].

كل هذا يمارس في حق العلماء والتعليم، ليعود هذا الأخير إلى الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب ذات العصا والفلقة والحصير، في العصر الذي تتقدم الأمم كل عام في أساليب التعليم، نُرَدُّ نحن إلى الوراء... فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور[2]، بينما يعامل اليهود الأقلية، بإجراءات مناقضة ومعاكسة لتلك، جملة وتفصيلاً: فكانت تسمح لليهود أن ينشئوا المدارس لأبنائهم، ولا تسمح للمسلمين بإنشاء مثلها لأطفالهم، في الوقت الذي تزعم فيه الدولة أنها منفصلة عن كل صبغة دينية[3]، وتتبنى النظام اللائكي (العلماني) الذي يفصل بين الدين والسلطة السياسية[4].

وأصدرت الإدرة الفرنسية أيضاً في 28 اب 1939م، قانوناً يخص إصدار المطبوعات والمنشورات، أعطى للإدارة: الحق في مراقبة جميع المطبوعات، كما يمنحها حق وقف ومنع جميع المطبوعات، وأصبح كل من يخرج

(1) المصدر نفسه ص 235.

(2) المصدر نفسه ص 236.

(3) حياته وآثاره ، د. عمار الطالبي (3 / 244).

(4) جهاد ابن باديس ص 236.

جريدة أو نحوها، لا بد أن يحصل على رخصة[1].

ولا ننسى أن ابن باديس شخصياً، توفي وهو تحت الإقامة الجبرية بقسنطينة، حيث منعته إدارة الاحتلال من مغادرة ترابها إطلاقاً[2].

ولم تستثن الإدارة الاستعمارية أي معامل، يمكن توظيفه في معادلة صراعها مع العلماء، وأي جهة يمكن الاستفادة منها واستغلالها في صفها ضدهم، خصوصاً وأنها قد وجدت بجنبها: حلفاء طبيعيين لها، من الذين هددت الحركة الإصلاحية تأثيرهم الديني التقليدي، أو مصالحهم الآنية[3].

والذين عند اشتداد المواجهة السافرة بين العلماء والإدارة، وأمام ضرورة اختيار الموقف السياسي الذي فرضته الظروف الداخلية، تسارعوا للانتظام علانية في جهة الإدارة، وإعلان ولائهم لها[4]، خوفاً على مصالحهم ونفوذهم ومكانتهم، وأظهروا أو تظاهروا ـ كراهية للعلماء ـ ورفضاً لهم، ومعارضة لنشاطهم وكما استغلت الإدارة كل الجبهات، لإعلان حرب دعائية واسعة لتشويه العلماء ورميهم بالتهم والشبهات التي تقدح في سمعتهم لدى الرأي العام ؛ فأطلقت على الجمعية ألسنة أتباعها في المجالس المحلية، والجمعيات الطرقية والصحافة المضادة لهم، وحتى خريجي المدارس الفرنسية، ودعاة التجنيس بالجنسية الفرنسية[5].

وأوعزت إلى بعض الأئمة المعنيين في المساجد الرسمية من قبلها لرفع دعاوي وشكاوى ضد العلماء حتى تجد الإدارة في ذلك ذريعة لتدخلها، وتبريراً لمواقفها، التي تتخذها للتضييق، أو الحد من نشاطهم وفعلاً وقع كبار ممثلي الأئمة الرسميين وثيقة ، طالبوا فيها الإدارة بالتدخل، لوقف نشاط العلماء ، طالبوا فيها الإدارة

(1) الحركة الوطنية (3 / 33) ، أبو القاسم سعد الله.

(2) جهاد ابن باديس ص 236.

(3) جهاد ابن باديس ص 236.

(4) المصدر نفسه ص 236.

(5) الحركة الوطنية الجزائرية ، أبو القاسم سعد الله (3 / 23).

بالتدخل، لوقف نشاط العلماء بالمساجد، ومنعهم من التدريس والخطابة، ووضع حد لهم[1].

9. كبرى المكائد التي دبرت للجمعية:

ويؤكد الإبراهيمي أن كبرى المكائد التي دبرت للجمعية في تاريخ حياتها المكيدة التي اغتالت الشيخ كحولا، واعتقلت الأستاذ العقبي[2]، وذلك صبيحة يوم الأحد 20 اب 1936م، عندما عقد وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري، بعد رجوعه من باريس، تجمعاً عاماً بالملعب البلدي، في 20 اب الحالي بالعاصمة، حضره حشد عظيم من الأمة والأئمة والعلماء والذين شاركوا في المؤتمر الإسلامي العام، الذي انعقد في 7 حزيران من السنة.

حادثة الاغتيال هذه، التي ذهب ضحيتها مفتي الجزائر وإمام جامعها الكبير، ابن دالي محمود المدعو كحولا، والتي من خلال تتبع ملابسات وقوعها، واستقراء تفاصيلها، يتبين أنها ليست حادثاً اعتيادياً، لأن: موضع الغرابة أن يكون المقتول فلاناً وأن يكون قتله في ذلك اليوم، وفي تلك اللحظة، التي هي منتصف العاشرة، والاجتماع لم ينقض بعد[3].

والسؤال الذي يطرح إذن: من كان وراء اغتيال كحولا؟ ولماذا تم اغتياله وفي ذلك اليوم بالذات؟ ولماذا أُتّهم الطيب العقبي باغتياله؟.

لمعرفة إجابة وتفسيرات لهذه الأسئلة الكبرى والهامة لمعرفة إجابة وتفسيرات ما قبل حادثة الاغتيال هذه، لمعرفة الملابسات التي أحاطت بعملية الاغتيال، وتركتها تأخذ أبعاد تضفي عليها غرابة وتساؤلات، فابن دالي محمود المدعو كحولا، كانت بينه وبين العلماء عامة والطيب العقبي خاصة . بحكم وجوده بالعاصمة . اختلافات في الاراء، التي تخص ميدان الإصلاح، وبعض المسائل الفقهية، وهو كما يقول عنه الإبراهيمي: نحن معه كشأننا مع بقية الناس، نرى رأياً في الدين، ويرى هو خلافه، والحكم بيننا هو الدليل، فإذا لم يقنع

---

(1) جهاد ابن باديس ص 237.

(2) المصدر نفسه ص 237.

(3) المصدر نفسه ص 237.

فأمره إلى الله، والرجل كما عهدناه، ذكي نزاع بطبيعته إلى الاستقلال الفكري، فلو تركته الظروف لكان في عداد المصلحين(1).

وحتى هذا الاختلاف بينه وبين العلماء، الذي دفعه لمعارضتهم معارضة شديدة، وأحياناً عنيفة، كانت هذه المعارضة منه، مصطنعة ومتكلفة، بحكم أنه يجمع إلى وظيفته الدينية وظيفةً اخرى إدارية، وكلتا الوظيفتين بطبيعتهما، لا تخلوان من ملابسات واحتكاكات تغرس لصاحبها البغضاء في نفوس أقوام، والمحبة في نفوس آخرين(2).

ويبدو أيضاً، أن الإدارة الفرنسية كانت وراء اصطناع هذه المعارضة واستغلال كحولاً في وصفها، لخدمة هدفها في تقويض ومحاصرة نشاط العلماء وإثارة الشبهات حولهما بحكم أن الوظيفتين الدينية والإدارية، اللتين كان يشغلهما تمتا بإرادة إدارة الاحتلال، وليس هذا فحسب، بل: دفعت فرنسا هذا الشيخ لإرسال برقية إلى الحكومة الفرنسية، لتتضمن عبارات قاسية ضد الوفد والمؤتمر الذي عقده العلماء ويتبرأ منهم، ويؤكد إخلاص المسلمين لفرنسا وموالاتهم لها(3).

كما يندد فيها: بالعلماء الجزائريين الذين ليس لهم لا مستندات ولا شهادات.. ولا يمثلون سوى شرذمة من المشوشين، الذين يحاولون بث الفوضى في البلاد(4).

ويظهر أيضاً أن هذه الاتهامات العنيفة منه للعلماء وإرساله للبرقية إلى الإدارة الفرنسية: لم تكن صادرة عن المفتي الضيق، بل كانت صادرة عن إدارة الأمور الأهلية(5)، كما يؤكد ذلك أحمد توفيق المدني، وهو يتكلم بلسان العلماء أنه: ما كان أحد منا يعتقد أن كحول هو كاتب البرقية، بل كنا جميعاً نعتقد أن الإدارة التي

(1) المصدر نفسه ص 238.

(2) المصدر نفسه ص 238.

(3) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني ص 254.

(4) أفريقيا الشمالية ، شارل أندري جوليان ص 138.

(5) صراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني ص 338.

يعمل فيها، هي الكاتبة، وهي المرسلة. وأن الشيخ كحول لم يكن له من الأمر إلا الإمضاء[1].

ويزيد الإبراهيمي هذا الأمر تأكيداً، ويصرح أن التلغراف الذي أرسله المفتي «كتب باسمه لا بيده» [2].

ومن هنا استغلت الإدارة بالعاصمة الطيب العقبي خاصة، ووفد العلماء في المؤتمر الإسلامي عامة، كما استغلت ظروف انعقاد التجمع الشعبي بالملعب البلدي وتضرب «عصفورين بحجر واحد»، فأعدت قاتلاً محترفاً وجهته تقتل الشيخ كحول، واتهمت في الوقت ذاته جمعية العلماء، بتدبير جريمة القتل، وتم اعتقال الطيب العقبي، وألقي به في السجن[3]. ليمكث فيه ستة أيام بلياليها في التحقيق.

ولم تقف أمر الإدارة الفرنسية عند الاغتيال واتهام الجمعية في شخص العقبي واعتقاله فحسب، بل تعدى أمرها ذلك، إلى القيام بإجراءات أخرى كان لها:

. **أولاً**: تطويق نادي الترقي بالجند والشرطة والدرك وتفتيشه.

. **ثانياً**: طرد العلماء منه، وغلقه.

. **ثالثاً**: إخراج العقبي منه مسلسلاً مهاناً أمام الناس بكلمات سفهة من قبل رئيس البوليس وبعض أعوانه.

. **رابعاً**: تفتيش إدارات جريدة البصائر، وجمعية العلماء والجمعية الخيرية التي كان يرأسها العقبي، ثم علقها، وكذا غلق إدارة البصائر، التي كان يرأس تحريرها.

. **خامساً**: حجز دفاتر وأوراق الإدارات المذكورة.

---

(1) المصدر نفسه ص 338.

(2) الآثار محمد البشير الإبراهيمي (1 / 203).

(3) عبد الحميد بن باديس ، العسلي ص 138 . 139.

. **سادساً**: شن حملة إعلامية مشوهة، من طرف الجرائد الفرنسية: بعناوين ضخمة، وصور مثيرة، تصف الاغتيال بأنه مؤامرة واسعة النطاق يديرها الوهابيون وتصف العلماء بالإجرام والقتل[1].

وأثارت حادثة الاغتيال، والاعتقال للعقبي، ردود أفعال داخلية وخارجية واسعة، استنكرت العملية، واتفقت على براءة العقبي، والعلماء منها، ووصلت مئات البرقيات والرسائل الخاصة إلى العقبي بعد الإفراج عنه، وإلى الجمعية، مؤكدة امتعاضها، وتأسفها الشديدين على ما حدث.

واعتقد الرأي العام، أنه من المستحيل أن يثبت اتهام الجاني عكاشة للعقبي، بأنه محرضه ودافعه لارتكاب جريمة الاغتيال، واستند في ذلك إلى: أن الأستاذ العقبي، لو لم يمنعه دينه وتقواه مما وصمه به عكاشة، لمنعه شرفه وهمته ومروءته، ولو لم تمنعه هذه الثلاثة، لمنعه عقله وذكاؤه، فهل يعقل أن تهمة سخيفة كهذه، من مجرم كعكاشة، تعلق بمتحصن بهذه الحصون المنيعة كالعقبي، ويكون لها من القيمة ما يُصيِّره متهماً بالإجرام، ومن الأثر ما يدخله سجن بربروس، ومن النتيجة أن يقال له بعد ستة أيام قضاها في السجن، أنت حر، ولكن تحت الطلب[2].

والذي زاد تأكيد براءة العقبي، ومن ورائه العلماء والجمعية عامة من الجريمة، وأنها كانت محبوكة من طرف الإدارة الفرنسية، تراجع عكاشة الجاني عن تصريحه الأول عند بدء التحقيق، والذي اتهم فيه العقبي، بأنه هو الذي أوعز إليه إرتكاب الجريمة وأنه أعطاه الموس التي قتل بها، وأنه وعده بثلاثين فرنك أجرة على القتل، وكان هذا التراجع في اليوم السادس من اعتقال العقبي، بعد أن حصلت مقابلة بينه وبين الجاني، بحضور قاضي التحقيق ومحامي الأستاذ: فلما مثل الجاني أمام القاضي وألقى عليه الأسئلة في الموضوع رجع عن تلك الوصمة التي رمى بها الأستاذ، واعترف اعترافاً صريحاً بأنه مبطل فيه ومفتر على الأستاذ. وأنه يرجو منه في هذا المجلس

(1) مذكرات ص 239 محمد خير الدين.

(2) الآثار لمحمد البشير الإبراهيمي (1 / 197).

أن يسامحه ويعفو عنه، وأعلن أنه راجع عن الباطل إلى الحق[1].

وبعدها تم الإفراج عن العقبي، لعدم وجود أدلة ضده وتبرئة الجاني له.

إن الحوادث التي وقعت حول المؤتمر الإسلامي الجزائري قوت الشعور في سائر طبقات الأمة الجزائرية، بأن هناك سلسلة من المؤامرات السرية دبرت لإحباط مساعي المؤتمر وقتل آمال الأمة في مهدها[2].

وفعلاً حدث ما أرادت الإدارة الفرنسية حدوثه من الأحداث التي افتعلتها وحركت خيوطها خفية، إذ: ما كان ينشر خبر الحادث ـ اغتيال كحولاً ـ حتى نكص الدكتور ابن جلول على عقبيه، وتنكر لأصحابه وشيعته وقال: إنه لا يشترك في حركة تعمد إلى القتل، وإخماد الخناجر في قلوب المعارضين[3].

وأدان بصفة مباشرة:«جمعية العلماء بقتل كحولا»[4]، وهكذا نجحت الإدارة الفرنسية بقيادة مدير شؤون الأهلية بالجزائر السيد ميو، من كيد كبرى المكائد للعلماء بعد نجاحهم الكبير في جمع قوى الشعب وممثليه ـ على مختلف توجهاتهم ـ في أكبر وأضخم تجمع شعبي، شهدته الجزائر منذ دخول الاستعمار الفرنسي.

هذا التجمع الذي كشف بوضوح قوة الجمعية والعلماء الشعبية والسياسية، وأنهم بدعوتهم رَبَّوا الشعب وأعدوه إعداداً قوياً بمواجهتهم انياً، ومستقبلياً، واستطاع هذا المدير، الذي أُتي به خصيصاً من التدريس بالجامعة في فرنسا إلى تولي منصب إدارة الشؤون الأهلية بالجزائر، لمواجهة العلماء بحنكة سياسية وذكاء ودهاء،

---

(1) المصدر نفسه (1 / 95) ، جهاد ابن باديس ص 241.

(2) مظاهر المقاومة الجزائرية ، محمد الطيب العلوي ص 167. جهاد ابن باديس ص 241 ـ 244.

(3) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني ص 255.

(4) المصدر نفسه ص 255.

واستطاع: أن يضرب جمعية العلماء في الصميم وأن يشتت شملها شذر ومذر، يضرب أكبر رجالها في العاصمة، وهو الشيخ الطيب العقبي، ضربة لا قيامة بعدها[1]. لأن اتهام الإدارة له بتدبير الاغتيال واعتقاله فيما بعد وإبقاءه في السجن قيد التحقيق القضائي: قضاء على شخصه وسمعته، وبالتالي على نشاطه، ومن وراء ذلك تشويه سمعة الجمعية والإساءة إلى الحركة الإصلاحية، وزعزعة حركة المؤتمر الإسلامي[2].

ولم تشوه الإدارة سمعة الجمعية، وتلطخ ثياب علمائها فحسب، بل نجحت في التأثير على نفسية العقبي التي اهتزت لتلك الصدمة العنيفة، التي مست شخصه واعتبرها إهانة له وحطاً من قيمته ومنزلته أمام عزة نفسه، وأمام إخوانه العلماء، وأمام الشعب الجزائري عامة، والأكثر من ذلك: استطاعت فصله عن الجمعية، املة أن الفصل يضعف الجمعية، إن لم يحطمها نهائياً[3].

هذا الفصل الذي جاء بعد بداية فتور علاقته بالعلماء منذ سنة 1937م، وظهرت بداية علاماته متجسدة في موقفة المفاجأئ والمحير عشية اندلا ع الحرب العالمية الثانية، عندما وقف ليبادر إخوانه العلماء، عند اجتماع مكتب الجمعية، بقوله: أرى أنه يجب علينا إرسال برقية إلى رئيس حكومة فرنسا، نظهر فيها صدق عواطف الشعب الجزائري، ووقوفه مع فرنسا ضد كل عدوان[4].

ولكن مكتب الجمعية برئاسة ابن باديس، عارضه معارضة مبدئية شديدة ورد عليه ابن باديس قائلاً: كيف نكون مع فرنسا، وهي التي لم تُقيم لنا وزناً، ولم تعترف لنا بحق؟ وأمعنت في إهانتنا واحتقارنا، فكيف تجدنا ساعة الخطر أعواناً وأنصاراً؟

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) الحركة الوطنية (3 / 53) ، د. أبو القاسم سعد الله.

(3) عبد الحميد بن باديس ص 141 ، بسام.

(4) المصدر نفسه ص 141.

يجب علينا أن نسكت عنها إطلاقاً، ولا نقول لها كلمة[1].

وكان الموقف النهائي الذي قرره وخرج به مكتب الجمعية من اجتماعه، هو إيقاف جريدة البصائر عن الصدور، حتى لا ترغم وتحمل قسراً على التصريح بما يخدم إدارة الاحتلال من قريب أو بعيد، لأن التعطيل خير من نشر الأباطيل[2]، على حد تعبير الإبراهيمي، وهكذا تم اغتيال المؤتمر، باغتيال كحولاً، وألقته قتيلاً في مهده بعد شهر فقط من ولادته، وتبخرت في لحظة تلك الوحدة المقدسة، التي ضمت في صف واحد كل القوى الشعبية بعد ربع قرن من سير حثيث موفق نحوها[3].

وتمزقت قيادة المؤتمر، فخرج منها فرحات عباس، وأسس حزب الإتحاد الشعبي، وانفصل ابن جلول عنها وكوّن حزباً باسم المجتمع الفرنسي الإسلامي ووقعت أزمة حادة بين النواب والعلماء[4].

سادساً: خصوصيات الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس:

تميزت الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس بأمور منها:

1 . **أنها استوعبت في منطلقاتها ومناهجها وأهدافها أصول الحركات الإصلاحية السلفية القديمة والمعاصرة**، فأخذت من افكار ابن تيمية في مجال فهمها لحقيقة الدين وأصول الشريعة، وتأثرت بالحركة الوهابية في بعض مواقفها تجاه البدع والخرافات التي لحقت بجوهر العقيدة، واقتدت بالحركة السنوسية في ربط الدين بالدنيا والأخلاق بالسياسة واعتبار محاربة الاستعمار جزءاً من الدين.

وسايرت صيحات جمال الدين الأفغاني في ثورته على الحكم الأجنبي ومقاومة الاستبداد، والدعوة إلى التمرد من أجل التحرر والتوحد.

(1) المصدر نفسه ص 141.

(2) الصحف العربية الجزائرية ، د. محمد ناصر ص 198.

(3) مذكرات مالك بن نبي ص 368.

(4) جهاد ابن باديس ص 246.

وتبنت النهج الإصلاحي المعتدل في نشر الوعي وتربية الجماهير، وتهيئتها لتحمل مسؤوليتها في مواجهة العدو ومكافحة التخلف والجمود، كما تبنت اراء وأفكار الكواكبي وشكيب أرسلان وغيرهما من رجال الفكر وزعماء الإصلاح الذين وإن اختلفت الأساليب التي تبنوها في نهجهم العملي ؛ فإنهم جميعاً ذوو نزعة تجديدية تسعى لبعث يقظة فكرية ووعي قومي وديني يؤديان إلى تحرير الإنسان من ضعفه، والمجتمع من أمراضه، والدين من الشوائب التي لحقت به، والبلاد من كابوس الهيمنة الأجنبية وظلم المستبدين.

2 . **كانت حركة شعبية واقعية عملية،** امتدت إلى جميع الفئات وتغلغلت في أوساط الشعب، لأنها كانت تستهدف التعبئة الشاملة وإعادة تشكيل الشخصية الوطنية التي أصبحت مهددة.

3 . **الوسط الاجتماعي** الذي كان يتحرك فيه ابن باديس وسط أمي في معظمه ؛ إذ لم تكن قبل المعركة الإصلاحية ولا في وقتها معاهد تعليمية عالية كما هو الشأن في تونس والمغرب ومصر، لذلك كانت حركته مسايرة لطبيعة الوسط والهدف من إنشائها، ولم تكن دروسه تقدم المعرفة لذات المعرفة ولم يكن خطابه من أجل إظهار البراعة الأسلوبية إنما كان يخاطب القلب والعقل والوجدان بلغة تحقق المسعى بأسلوب تربوي ينفذ إلى الأعماق، هكذا تحدث عنه تلاميذه الذين لازموه مدة[(1)].

4 . **جاء ابن باديس في وقت كان الاستعمار قد أحكم قبضته على كامل التراب** الوطني وأصبحت أمور البلاد كلها في يده، ففرنس الإدارة والتعليم الذي أنشأه خصيصاً لأبناء رعاياه، وأغلق مؤسسات التعليم الوطنية التي كانت تعلم الثقافة العربية الإسلامية، وشدد الخناق على الدين الإسلامي وعلى اللغة العربية واعتبرها لغة أجنبية، وتم ذلك بتدمير الممتلكات الثقافية وتخريب المكتبات وهدم المساجد أو تحويل وظيفتها، والاستيلاء على موارد الأوقاف التي كانت تغذي التعليم، وجعل الشؤون الدينية بين يدي مسؤول فرنسي في

(1) إمام الجزائر ص 116.

تسيير الشؤون الأهلية، يعين ما يشاء للإفتاء والإمامة، والقضاء الخاص بالأحوال الشخصية، فكان ذلك من نتائج انتشار الجهل والأمية والانحراف الديني والجمود الفكري، وذيوع الخرافة، وحين ظهرت حركة الإصلاح في الجزائر لم تجد قاعدة عملية تنطلق منها مثلما كان الأمر في تونس لذلك كان نضالها متعدد الجبهات من ذلك:

أ ـ إحياء رسالة المسجد بتنظيم دروس تعليمية وتثقيفية للعامة والخاصة.

ب ـ إنشاء المدارس في مختلف جهات الوطن بتمويل من الشعب.

ج ـ تأسيس صحافة خاصة بالحركة الإصلاحية تنقل للقراء الأفكار الإصلاحية وتطلعهم على سياسة الاستعمار وقوانينه الجائرة ومواقف العلماء من ذلك.

د ـ إنشاء النوادي الخاصة بالشباب، وتنظيم تعليم خاص بهم وبالبنات والنساء.

هذه الأمور وغيرها تبين أن الحركة الإصلاحية في الجزائر التي كان يقودها ابن باديس تميزت بشعبيتها وشموليتها ؛ ولذلك تمكنت في ظرف قصير نسبياً من توسيع نظامها ونشر اللغة العربية والثقافية الإسلامية في جهات القطر، وبث الوعي الديني الوطني في نفوس الشباب الذين كانوا يقبلون على دروس التثقيف العام بالمسجد والنوادي وغيرها، وبالإضافة إلى التعليم والوعي والتثقيف العام كان للحركة مواجهات عديدة مع مختلف الفئات ـ كما سبق القول:

ـ مع المستشرقين الذين كانوا يدسون على الإسلام.

ـ ومع هيئات التبشير التي كان همها الوحيد هو صد الشباب والأطفال عن الإسلام.

ـ مع المثقفين ثقافة غربية والذين أصبحوا يميلون إلى التنكر إلى شخصيتهم منبهرين بالحضارة الغربية.

ـ مع حكام الاستعمار وساسته في الجزائر وفي فرنسا الذين كانوا يراوغون في الردود على مطالب الجزائريين، وكانوا يتعسفون في التعامل مع العلماء، ومع التعليم الحر.

فقد اتجه ابن باديس من خلال التعليم ومعاركه الصحافيه إلى تكوين قاعدة شعبية عامة منتظمة، تتبنى أفكاره وترتبط بتوجيهاته، ومن هنا نتبين أن مثل هذه الظروف القاسية لم تعرفها الحركات الإصلاحية الأخرى في المشرق والمغرب.

إن الحركة الإصلاحية في الجزائر تميزت بأمور عديدة، ورغم هذه الظروف الصعبة والمعقدة أحياناً نجحت هذه الحركة أيما نجاح، وهيأت جيشاً من الوطنيين كانوا عدة الثورة عند انطلاقها في عام 1954م[1].

5. رأي مالك بن نبي في حركة الإصلاح:

لقد أعجب مالك بن نبي دون شك بحركة الإصلاح التي قام بها العلماء المسلمون الجزائريون بقيادة عبد الحميد بن باديس، ورأى فيها مزايا لم يرها في الإحيائية الكلامية المجردة ذات العقلانية النظرية المجردة التي بعثها الشيخ محمد عبده وقبله جمال الدين الأفغاني، وذلك لأن حركة ابن باديس قد بدت لمالك بن نبي أقرب الإحيائيات إلى النفوس وأدخلها في القلوب بما تبنَّت من منهج مستلهم من قوله تعالى في سورة الرعد: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : 11].

كانت حركة ابن باديس الإصلاحية روحاً جديدة، ودفعا إيمانياً متواصلاً جعلها تستمر في أداء رسالتها ومواصلة عطائها. ويصف لنا الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تلك اليقظة فيقول: لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدَّر يتحرك، ويا لها من يقظة مباركة[2].

* * *

---

(1) إمام الجزائر ص 117.

(2) عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية ص 88.

المبحث الرابع

منهج ابن باديس في التعامل مع

القرآن والسنة النبوية والعقائد والسنن الإلهية

أولاً: منهج ابن باديس في التعامل مع القرآن الكريم:

1 . القرآن الكريم أساس الإصلاح:

نشرت مجلة الشهاب دروس عبد الحميد بن باديس في تفسير القرآن الكريم، التي اتخذ صاحبها لها عنواناً هو «مجالس التذكير في تفسير كلام العليم الخبير»، وقد استمرت هذه الدروس تلقى كمحاضرات أكثر من عشرين عاماً، وهي شاهد على غزارة علم صاحبها من جهة وواسع معرفته بأحوال مجتمعة وحاجاته الفكرية والاجتماعية في الوقت نفسه، فهو لم يكن يعشق تأويل آيات الكتاب ليحملها ما لا تحمل وينطقها بما يريد ويتجاهل دلالة الآية البينة الصريحة، كما أنه لم يكن يعرف تفاصيل الألفاظ والحروف والمعاني الجزئية، حتى تضيع الحكم والمقاصد والأصول العامة التي توحيها هداية القرآن، بل كان التفسير يحقق أهدافه العلمية التربوية الاجتماعية متضافرة متساندة.

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في تقديم ما نشر من «تفسير ابن باديس»:.. ثم كانت المعجزة بعد ذلك الإرهاص بظهور محمد عبده، ولكنه مات فخلفه في ترجمان أفكاره ومستودع أسراره (محمد رشيد رضا)، فكتب في التفسير ما كتب ودون آراء الإمام فيه ومات قبل أن يتمه.. فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل وبالشمال الإفريقي عبد

الحميد بن باديس[1].

وبالطبع يتكلم الشيخ في تقديمه لما وصله من تفاسير منشورة بالعربية خلال حياته، إذ لم يكن في طوقه أن يحيط علماً بما نشر في شتى ديار الإسلام بمختلف اللغات، وكذلك اختار بن باديس أحاديث رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ما والى شرحه لمجلة «الشهاب»، كما قدم صوراً معبرة لشخصيات من السلف تحمل القدوة والعبرة. وهكذا استخدم ابن باديس «المصادر السلفيبة» الأصلية من كتاب وسنة وتاريخ صحيح في تصحيح المفاهيم لدى المسلمين المعاصرين، وإعادة صياغة النهج السلفي في التفكير الإسلامي[2].

كانت: دروس ابن باديس في تفسيره للقران أو في غير ذلك من الموضوعات ومحاضراته ومقالاته فضلاً عن جهوده العلمية ؛ تمثل حركيته وحرارته خير تمثيل، فهو يطلق من الكلمات إلى قلوب المسلمين وعقولهم تياراً دافقاً متوهجاً من النور والحياة، ويصوغ للإسلام صورة متكاملة للفكر والعمل، ويتواصى مع المؤمنين أن ينفث بعضهم في بعض روح العمل الاجتماعي الحركي[3]، لقد اعتمد ابن باديس في دعوته الإصلاحية.... وتذكيره، وفكره وعقائده، وأخلاقه على هدايات القرآن الكريم ومقاصده، وكان يرى أن القرآن الكريم فيه العقائد الحقة والتشريعات النافعة والأخلاق الفاضلة، وأن غاية التفسير والتذكير الواحدة والواضحة هي هداية البشر إلى الحق وتعريفهم به، وهذا ما أكده ابن باديس حين قال: القرآن هو كلام الجبار وسيد الأذكار، فيه من العلم ما يفتح البصائر ومن الأدب ما ينور السرائر، ومن العبر ما يبهر الألباب ومن الحكم ما يفتح للعلم كل باب، فيه علم مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبسط أسباب الخير والشر والسعادة والشقاوة، وعلم النفوس وأحوالها، وأصول الأخلاق والأحكام وكليات التشريع وحقائق الحياة والعمران والاجتماع ونظم الكون

(1) ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ، د.محمد بهي الدين سالم ص 85.

(2) المصدر نفسه ص 86.

(3) المصدر نفسه ص 89.

المبنية على الرحمة والقوة والعدل والإحسان، فينال كل تال منها على قدر ما عنده من سلامة قصد، وصحة علم بتقدير وتيسير من الحكيم العليم[1].

2. حثه على القرآن ودعوته للاعتصام والعمل به:

أ. حثه على القرآن الكريم:

ذكر ابن باديس في الحث على القرآن الكريم حديث رسول الله (ص) الذي رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»: الذي أخرجه البخاري في كتاب فضائل القران، وعلق عليه فقال: فقد تقاصرت همم المسلمين في هذه المدة الأخيرة عن تعليم القرآن وتعلمه، فقل الحافظون له، فعلى كل من نصب نفسه لإرشاد المسلمين في دينهم أن يحثهم على العناية بحفظ كتاب ربهم، وعلى الكتّاب أن يطرقوا هذا الموضوع الكثير النواحي، هذا يأتيه من ناحية فضيلة القران، وذلك من ناحية اختيار المعلمين وما هي الصفات المطلوبة فيهم؟ والاخر من ناحية أسلوب التعليم وما هو الأقرب إلى التحصيل من أي الأساليب؟ ورابع من ناحية تحسين حال المعلمين وتوفير أجرتهم، وكل من هذه النواحي يلزم أن تتعدد فيها الكتابة حتى تحدث تأثيراً في رأي المجتمع وتكون رأياً عاماً في الموضوع، وحسبنا في هذا الباب باب الآثار والأخبار ما أرشدنا إليه.

والحديث صريح في فضل من جمع بين تعلم القرآن وتعليمه لغيره وأنه خير من غيره، وإنما ثبت له هذه المزية لأن المراد من متعلمه مَن حفظه وفهمه وعمل به، والمراد من معلمه من يلقنه غيره ويفسره له ويرشده إلى العمل به، وإذا كان هذا النوع الممدوح في الحديث المفضل على غيره بشهادة الصادق المصدق مفقوداً من بيننا أو كالمفقود، فالواجب علينا السعي في تكوينه ولهذا دعونا الكتّاب إلى العناية بهذا الموضوع.

قال الحافظ ابن حجر في بيان وجه خيرية معلم القرآن ومتعلمه:

---

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية، د. عبد الحميد درويش النساج ص 101، 102.

ولا شك أن الجامع بين تعلم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره، جامع بين النفع القاصر والنفع المتعدي، ولهذا كان أفضل، وهو من جملة من عنى سبحانه وتعالى: بقوله: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ *} [فصلت : 33].

والدعاء إلى الله يقع بأمور شتى من جملتها تعليم القرآن وهذا أشرف الجميع. هذا كلام ابن حجر، ثم أفاد أن ليس المراد شيئاً من معاني ما يقرأه أو يُقرئه[1].

ب الاعتصام بكتاب الله:

ودعا ابن باديس إلى الاعتصام بكتاب الله واعتمد على حديث رسول الله (ص) الذي رواه علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أتاني جبريل فقال يا محمد أمتك مختلفة بعدك، قال: فقلت له: فأين المخرج يا جبريل؟ قال: فقال: في كتاب الله. به يقصم الله كل جبار، من اعتصم به نجا، ومن تركه هلك«مرتين» قول فصل وليس بالهزل، لا تخلقه الألسن ولا تفنى عجائبه، فيه نبأ من كان قبلكم وفصل ما بينكم وخير ما هو كائن بعدكم أخرجه الإمام أحمد، نقله الحافظ ابن كثير أوائل كتابه فضائل القرآن الذي ختم به تفسيره.

وعلق ابن باديس على هذا الحديث فقال: صدق رسول الله (ص) . فقد وقع الاختلاف، وقد دعونا الناس إلى المخرج وهو كتاب الله وسنة رسوله المبينة له، فقال المعاندون ما قالوا إلا من كان يؤمن بأن محمداً رسول الله، فليمتثل إرشاده، وقد أرشدنا إلى المخرج من هذا الاختلاف، فلنعمل بإرشاده، وهدانا إلى طريق الحق عند الالتباس فلنتعهد، وقد وصف الله كتابه بقوله: {هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} [البقرة : 185]. فهو هدى بين واضح لا يلتبس على مريد الحق التماس الهدى منه، وإذا كانت طباعنا العربية وسلائقنا في فهم لسان العرب قد حالت وفسدت وصعب علينا أو تعذر فهم كلام ربنا، فإن في تعلم اللغة العربية وعلومها ما يجعل لنا سلائق مكتسبة، وإنّ فيما كتبه أئمة التفسير قبلنا ما يجبر نقص السليقة الكسبية عن السليقة الفطرية.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 320).

وقد أوصل الجهل بكتاب الله بعض أدعياء العلم إلى أن جعلوا الدعوة إلى توحيد الله ونبذ ضروب الشرك طريقة خاصة بابن تيمية على معنى أنها بدعة حصلت بعد انعقاد الإجماع، فمن سلك هذه الطريقة فقد عرض دينه للخطر. ولو نظروا في كتاب الله وتأملوه لوجدوا جل آياته دعوة إلى التوحيد ونبذ الشرك.

وإذا ذكرت لهم هذا قالوا: تلك آيات نزلت في مشركي مكة، فكيف تطبقونها على من يشهد الشهادتين، وهذا نوع آخر من جهالاتهم وتلبيس إبليس عليهم، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وقد قال تعالى: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القرآن لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام : 19].

قال المفسرون: معناه: من بلغه القرآن فتخصيص إنذاره بمشركي مكة تعطيل للقرآن.

قال الغزالي في الأحياء: وينبغي للتالي أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن، فإن سمع أمراً ونهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وكذا إن سمع وعداً أو وعيداً، وكذا ما يقف عليه من القصص فالمقصود به الاعتبار.

قال تعالى: {هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ *} [آل عمران: 138].

وقال: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القرآن لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام : 19]..

قال محمد بن كعب القرطبي: من كلمه القرآن فكأنما كلمه الله عز وجل[1].

ج ـ مدح العامل بالقرآن:

وقال ابن باديس في مدح العامل بالقرآن كلاماً جميلاً، واستدل بحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ـ عن النبي (ص): «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والمؤمن الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كالحنظلة طعمها مر وريحها مر» [رواه البخاري ومسلم وغيرهما].

(1) المصدر نفسه (2 / 322).

وعلق ابن باديس على الحديث فقال: جعل رسول الله (ص)، طيب الطعم دائراً مع العمل، وجعل طيب الرائحة صفة التلاوة، والمجدي على المرء هو عمله وأما التلاوة وحدها لا تجدي، فالمنافق يتلو القرآن ولكنه في الدرك الأسفل من النار.

وقد دل الحديث عن أن العمل بالقرآن درجتين أعلاهما الجمع بين التلاوة والعمل، ودل على أن المخالفة لأوامره ونواهيه دركتين أدناهما الجمع بين الأعراض على حفظه والأضراب عما دعا إليه.

والعمل بالقرآن يقتضي فهم معانيه وكذلك كان المخاطبون بهذا الحديث، فإن القرآن بلغتهم نزل، ولهذا لم يقل في الحديث: «المؤمن الذي يقرأ القرآن ويفهمه ويعمل به»، لأن ذكر الفهم لأولئك المخاطبين حشو، تتحاشى عنه البلاغة النبوية.

فيا أيها القراء المؤمنون تطلبوا معاني ما تقرؤون، واعملوا بما تفهمون كي تكونوا أترجة، ويا أيها المؤمنون الأميون أسألوا أهل الذكر والعلم بكتاب ربكم وتحروا العمل بما دعاكم إليه كي تكونوا ثمرة، وقد دلت مقابلة القارئ العامل بالقارئ المنافق على تسمية من يخالف ما يقرؤه منافقاً، والمنافقون في الدرك الأسفل من النار، وهم أخس صنوف الكفار، ولكنا نجد من الناس من لا يختلف في إيمانه ثم هو يخالف ما يقرأه، وقد قال العلماء: أن هذا النوع من المؤمنين يسمى نفاقهم نفاق عمل لا نفاق كفر، ويسمون منافقين مجازاً لأن فيهم خصلة من خصالهم وهي مخالفة للأوامر.

فالقارئ إن لم يعمل بما يقرأه فهو منافق حقيقة أو مجازاً. أعاذنا الله وإياكم من النفاق حقيقيّه ومجازه، وجعلنا ممن يتلو كتابه عالماً بمعانيه عاملاً بما يفهمه منه[1].

(1) المصدر نفسه (2 / 324).

د ـ ذم المباهي والمتعيش بالقرآن:

وعلّق ابن باديس على حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ـ عن النبي (ص): تعلموا القرآن وأسألوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا، فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهي به، ورجل يستأكل به، ورجل يقرؤه لله. وهذا الحديث رواه أبو عبيد من فضائل القرآن وصححه الحاكم، نقله الحافظ في فتح الباري[1].

فقال ابن باديس عن هذا الحديث: وقد دل الحديث على ذم المباهي بتلاوته. وكثيراً ما يقصد قراء زماننا المباهاة بأصواتهم والفخر بحفظهم، ولا سيما إذا كانوا يتلون مجتمعين بصوت واحد، فليحذر من يجد هذا من نفسه، وليعلم أن كتاب الله هداية تخشع لها القلوب وتستسلم لها الجوارح.

ودل أيضاً على ذم المسترزق بالقران، وكثير من قراء زماننا لا يقصدون من حفظه إلا التوسل به للتلاوة على الموتى بأجرة، ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية المحضة.

ولا يتناول هذا الذم من يأخذ الأجر على تعليم القرآن إذا كانت في مقابلة تعبه وشغل وقته، ولم يتخذ تعليمه صناعة من الصناعات المادية المحضة، بل على هذا المعلم ـ أن أراد السلامة من ذلك الذم ـ أن يكون هو نفسه عاملاً بكتاب الله، وأن يقصد من تعليمه الدعوة إلى العمل به[2].

3 ـ مؤهلات التفسير عند الإمام ابن باديس:

إن التفسير ليس كلاماً مباحاً لكل من هب ودب، وإنما يحتاج المفسر إلى مؤهلات علمية وأخلاقية، حتى يكون أهلاً لتعاطي التفسير، وإلا شمله ذلك الوعيد الشديد الذي توعد به النبي (ص): من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار[3].

---

(1) فتح الباري (9 / 82).

(2) المصدر نفسه (2 / 325).

(3) سنن الترمذي، ك تفسير القرآن (2 / 139).

والعلامة ابن باديس قد حقق العلوم والمعارف التي يجب أن تتوفر في المفسر، من الملكة اللغوية وسعة الاطلاع على السنة، ومقاصد الشريعة وأسرار التشريع والأطوار والتقلبات التي مرت بها المجتمعات الإسلامية والبشرية على العموم، ولقد أدرك الإبراهيمي هذه المؤهلات في ابن باديس فقال: ثم جاء أخونا وصديقنا الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس قائد تلك النهضة بالجزائر بتفسيره لكلام الله على تلك الطريقة، وهو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم في استكمال وسائلها في ملكة بيانية راسخة وسعة اطلاع على السنة وتفقه فيها وغوص على أسرارها، وإحاطة وباع مديد في علم الاجتماع البشري وعوارضه وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع، ومستجدات العمران، بعد ذلك كله قوة خطابية قليلة النظير وقلم كاتب لا تفل له شباه[1].

وعاد العلامة محمد بشير الإبراهيمي في موضع آخر إلى الحديث عن مؤهلات التفسير عند الإمام عبد الحميد بن باديس، وكيف أن المؤهلات التي رزقها ابن باديس لم يرزقها إلا الأفذاذ المعدودون من البشر فقال رحمه الله: له ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة سادسة خاص بها، يرفده بعد الذكاء المشرق والقريحة الوقادة والبصيرة النافذة ؛ بيان ناصع، واطلاع واسع، وذرع فسيح في العلوم النفيسة والكونية، وباع مديد في علم الاجتماع، ورأي سديد في عوارضه وأمراضه، يمد ذلك كله شجاعة في الرأي، وشجاعة في القول، لم يرزقها إلا الأفذاذ المعدودون في البشر[2].

كما علق البشير الإبراهيمي على الخطاب الذي ارتجله العلامة عبد الحميد ابن باديس في نادي الترقي والذي كان موضوعه «العرب في القرآن»، وحاول الإبراهيمي نقله إلى قراء الشهاب الغراء، ولكنه أقر بالقصور وهو صاحب البيان الجهير والقلم الخطير، فقال معلقاً:.. وهيهات لما نود من نقله للقراء بجمله وألفاظه، فإنه خطاب عظيم في موضوع خطير لا يضطلع به غير الأستاذ في علمه بفنون القران، وغوصه على مغازيه

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ، د. محمد الدراجي ص 36.

(2) آثار الإبراهيمي (2 / 252).

البعيدة، ونفاده في معانيه العالية[1].

ومما يؤكد تضلع الشيخ عبد الحميد بن باديس في علوم التفسير ما لاحظه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أنه رحمه الله: سلك في درس كلام الله أسلوباً سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى، مستمداً من آيات القرآن وأسرارها أكثر مما هو مستمد من التفاسير وأسفارها[2].

4 . غرضه من التفسير:

إن الإمام عبد الحميد بن باديس رحمه الله، كان يعتبر نفسه خادماً للقران الكريم، فقال في حفل الاختتام كلمة رائعة افتتح بها خطابه: أنتم ضيوف القرآن، وهذا اليوم يوم القرآن وما أنا إلا خادم القرآن[3].

ولقد كان ابن باديس رحمه الله، شديد التأثر بالطريقة الهدائية في التفسير، التي انتهجتها مدرسة المنار، فقد استهدف ابن باديس في تفسيره تخريج أجيال مؤمنة، متخلقة بأخلاق القران، لأنه يؤمن بأن القرآن الذي كون رجالاً في السلف لا يكثر عليه أن يكون رجالاً اليوم لو أحسن فهمه وتدبره، فقال رحمه الله: فإننا نربي ـ والحمد لله ـ تلامذتنا على القرآن من أول يوم نوجه نفوسهم إلى القران، من أول يوم غايتنا التي ستتحقق أن يكوّن القرآن منهم رجالاً كسلفهم، وعلى هؤلاء الرجال تعلق هذه الأمة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[4].

وهذا النص يبين لنا بوضوح الأهداف السامية والغايات النبيلة التي رام ابن باديس تحقيقها من خلال الدرس والتفسير، وهي محاولة بعث المجتمع الإسلامي الذي عرف مرحلة الركود الحضاري منذ أزمنة بعيدة، عن طريق بناء الإنسان المسلم بناء قرانياً يكسبه الفعالية الحضارية ، ويخرجه من مرحلة الذهول الحضاري التي

(1) المصدر نفسه (1 / 328).
(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ، د. محمد الدراجي ص 37.
(3) مجالس التذكير ص 474.
(4) المصدر نفسه ص 476.

يعيشها، فقال رحمه الله: لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه ؛ إلا بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه(1).

وعاود ابن باديس الكرة ثانية عند تفسيره قوله تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا *} [الإسراء : 82].

ليؤكد بأن القرآن هو منطلق الإصلاح، فبعد تقسيمه الأمراض التي تعترض المجتمعات البشرية إلى نوعين، أمراض أرواح وأمراض أبدان، أوضح بأن القرآن الكريم هو منطلق الإصلاح، وهو شفاء المجتمع البشري بما شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل، فقال رحمه الله: على أن القرآن هو شفاء لأفراده، فقد شرع من أصول العدل وقواعد العمران ونظم التعامل وسياسة الناس ؛ ما فيه العلاج الكافي والدواء الشافي لأمراض المجتمع الإنساني في جميع أمراضه وعلله، شفاء العقائد فلا تكاد تخلو آيات القرآن من معالجته وبيان ما هو شفاء لها، ولا شفاء لها إلا بالقران، والبيان النبوي راجع إلى القران، ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضاً، فهذه الأمم الغربية . بسجونها ومشانقها ومحاكمها وقوتها . قد امتلأت بالجنايات والفضائح المنكرة التي تقشعر منها الأبدان، وهذه الممالك الإسلامية التي تقيم الحدود القرآنية كالمملكة النجدية الحجازية والمملكة اليمانية، قد ضرب الأمن رواقه عليهما، واستقرت السكينة فيهما دون سجون ولا مشانق مثل أولئك، وما ذلك إلا أنهم داووا الملك بدواء القران، فكان الشفاء التام(2).

لقد استهدف ابن باديس من خلال تفسيره عدة أهداف من أهمها:

ـ أن يكون الهدف الأول للتفسير هو بيان كيفية معرفة الله المعرفة الحقة والإيمان به الإيمان الكامل قلباً وعقلاً، فكراً وسلوكاً.

. أن تكون الغاية الواضحة التي يجب أن يشترك فيها المفسرون هي هداية البشر جميعاً إلى الحق وتعريفهم به مع العناية بطرح مشاكل الإنسان وتحليلها وكيفية معالجتها.

---

(1) المصدر نفسه ص 252.

(2) مجالس التذكير ص 190، 191.

ـ ضرورة تخليص الفكر الإسلامي مما علق به طوال القرون الماضية من تقاليد وبدع وخرافات وعادات زائفة، فإذا ما تحقق هذا الهدف من خلال التفسير، أصبح التفسير علماً مقنعاً ووسيلة للرد العلمي على اتهامات بعض رجال الاستشراق، الذين يتهمون الدين والقران بالبعد عن المنطقية والعلم، كما يتهمون أصحابه بالرجعية والتخلف على اعتبار أن هذا الفكر يقوم على الظن والسماع وبعيد عن العلم والتجربة، وبالتالي عن الحقيقة لأنه فكر لا منهج له.

. ضرورة تحقيق الوحدة الفكرية عن طريق توحيد المنهج في الاستدلال، فذلك هو السبيل لمنع الخلاف بين رجال التفسير وأصحاب المذاهب مثلما كان يحدث بين الفقهاء والمحدثين من جانب وعلماء الكلام من جانب اخر.

. ضرورة تدعيم الاتجاه نحو الإنسان والعلم، وبدلاً من الاتجاهات التقليدية المصطبغة بالصبغة المذهبية أو البلاغية والنحوية، فذلك هو السبيل لمعالجة نواحي النقص والضعف في الاتجاه العام للتفسير، وتحويل الأنظار نحو الإنسان والعلم بدلاً من نواحي النسخ والإعجاز والقراءات وما نتج عنها من خلافات مذهبية.

. ضرورة أن يكون الهدف العام من التفسير هو تذكير الإنسان، ففي التذكير علم بمبادئ الدين الصحيح وبكيفية بناء الإنسان وحل قضاياه الفكرية والعلمية، وبيان طريق سعادته في الدنيا والاخرة. وعلى ذلك فلا إصلاح حقيقي للإنسان إلا بالتفسير والتذكير، ولا إصلاح شامل للجانب الديني والخلقي والاجتماعي إلا عن طريق الاهتمام بالإنسان وتعليمه وتفهيمه عن طريق التفسير.

وهذا هو الطريق لبناء الإنسان فكرياً وروحياً، وهو الطريق لتحقيق الوعي والنمو الفكري للإنسان والتأكيد على أنه لا تعارض بين الدين والعلم وبين القرآن ومكتشفات العصر، لأن التفسير والتذكير بالقرآن

هو في حقيقته دعوة للعلم وبه تظهر الحقائق العلمية وأسراه الكونية[1].

إن رؤية ابن باديس للإصلاح تنطلق من القرآن الكريم، إذ احتوى كتاب الله عز وجل على علاج كل المشاكل التي تعترض الاجتماع البشري، ولذا فإن ابن باديس استهدف من خلال دروسه في التفسير، بعث إحياء القرآن على الطريقة الصحيحة ليحيي به الأمة الإسلامية التي تدين بهذا القران، وكذا التقريب بين المسلمين وأخلاق القرآن لتعود أمة الإسلام إلى مكانتها التي أرادها الله تعالى لها، تؤدي رسالتها إلى باقي الأمم والشعوب، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنْ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ *} [البقرة : 143].

وقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ *} [آل عمران: 110].

ومن يطالع تلك المقالات النفيسة في التفسير في مجالس التذكير يدرك صدق هذا الذي نقول، ويلاحظ كيف جلّى ابن باديس الهداية القرآنية في أسمى معانيها وأوضح صورها، وكيف ارتقى . الإمام ابن باديس . بدرس التفسير وخلصه من مرحلة الركود والانحطاط التي كان عليها[2].

5 . نقده طرق التدريس للتفسير ومناهجه العتيقة:

قام العلاّمة ابن باديس بنقد المناهج العتيقة في التفسير التي كانت سائدة في المعاهد العلمية في وقته، وأكد بأنها مناهج تحول دون الانتفاع بهداية القرآن، واعتبر هذا مظهراً من مظاهر هجر القران، فعند تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا *} [الفرقان : 30].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 119.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس، السلفية والتجديد ، د. محمد الدراجي ص 40.

دعا إلى الاهتمام بعلم التفسير، باعتباره العلم الذي يحقق لنا تدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، إذ لا يعقل أن يتخرج طالب من معهد من المعاهد العلمية المرموقة ويتصدى للوعظ والإرشاد والتدريس والتعليم، دون أن يكون قد أخذ بحظ وافر من علوم التفسير، وهذا من أكبر العيوب في تلك المعاهد.

وإذا وجد درس في التفسير في أحد هذه المعاهد فإن محتواه لا يعدو أن يكون مماحكات لغوية، وتطبيقات نحوية، فقال رحمه الله: ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكير في آياته ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه، فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في الحلول الالية، دون أن يكون طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير كتفسير الجلالين مثلاً، بل ويصير مدرساً متصدراً ولم يفعل ذلك.

وفي جامع الزيتونة ـ عمره الله تعالى ـ إذ حضر الطالب بعد تحصيل التطويع في درس تفسير فإنه ـ ويا للمصيبة ـ يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل، فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير، وإنما قضى السنة في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات للقواعد على الايات، كأن التفسير إنما يقرأ لأجل تطبيق القواعد الالية، لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية، فهذا هجر آخر للقران مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن[1].

فكل منهج في التفسير لا يجعل من إبراز الهداية القرآنية هدفاً أساسياً له في المنظور الباديسي نوع من أنواع هجر القرآن حتى ولو كان فاعل ذلك يحسب نفسه في خدمة القران، فدرس التفسير ليس من أجل تطبيق القواعد الالية من نحو وصرف وبلاغة، وإنما هو من أجل فهم الشرائع والأحكام وإدراك مقاصد التشريع وأسرار التكليف وتقديم إجابات حول المشاكل التي تواجه الإنسان.

(1) مجالس التذكير ص 251.

ولقد أدرك أحد الباحثين المعاصرين هذه الجوانب في تفسير ابن باديس رحمه الله فقال مقارناً بين هذا المنهج الباديسي في التفسير وغيره: ولكم كان ابن باديس رحمه الله رائعاً متفرداً مسدداً في تفسيره للقران الكريم ورسالته الشاملة للفرد والجماعة والدولة والإنسانية كافة، وكان يعالج مشكلات العصر على اختلاف جوانبها حين يفسر آيات القران، فهو يتكلم في لب قضايا السياسة والمجتمع وهو من آيات الكتاب الكريم دون اعتساف أو حذلقة، ولكم أرى بعض من قد يفتنون العامة الان بدروسهم في التفسير في موقف لا يحسدون عليه ؛ إلى جانب مثل ذلك العملاق الفقيه في كتاب الله الذي كان يقدم تفسيره بعض الدلائل على أن هذا الكتاب حقاً لا تنقضي عجائبه[1].

والعلامة عبد الحميد ابن باديس جعل من أهم قواعد منهجه في التفسير بيان الألفاظ، وشرح معانيها شرحاً وافياً يساعد على فهم النص القرآني المراد تفسيره، ولقد تحدث ابن باديس نفسه عن هذا فقال في خطبة افتتاح دروس التفسير: فقد عدنا ـ والحمد لله ـ إلى مجالس التذكير من دروس التفسير نقتطف أزهارها ونجتني ثمارها بيسر من الله تعالى وتيسيره على عادتنا في تفسير لألفاظ الآية بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية[2].

ونمثل لحمل ابن باديس لألفاظ الآية بأرجح معانيها اللغوية، بأسلوب بعيد عن الصعوبة خال من التعقيد، معتمداً في ذلك على أصح معاجم اللغة ودواوينها، كلسان العرب لابن منظور ومعجم الصحاح للجوهري..الخ أنه عند تفسير قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا *} [الفرقان : 20].

قال: قال في لسان العرب الأزهري وغيره: جماع معنى (الفتنة): الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما لتمييز الرديء من الجيد، ومنه قوله تعالى: { أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } [العنكبوت: 2]، وقوله تعالى:{ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ}

(1) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة ص 7 ـ 8.

(2) مجالس التذكير ص 49.

[التغابن : 15]، وقوله تعالى: {وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً} [طه: 40]، وقوله تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الآنبياء : 35].

{أَتَصْبِرُونَ}: والصبر حبس النفس على المكروه ، والمكروه لها: فعل ما فيه تعب وترك ما فيه لذة، ويكون في المشروع والمقدور، ففي الأول بالقيام بالمأمورات والترك للمنهيات، وفي الثاني ـ وهو المصائب والبلايا ـ بالرضا والتسليم للخالق وعدم الاعتراض عليه، وعدم السعي في إزالتها بغير الوجه المأذون فيه(1).

وبالإضافة إلى الدقة والوضوح في الشرح اللغوي للألفاظ ؛ فإنه ـ رحمه الله ـ قد اهتم بالتراكيب في الآيات وتحليلها بطريقة تبرز خصائص الأسلوب القرآني وإعجازه البياني والبلاغي دون الوقوع في المماحكات اللفظية والخلاف بين النحاة واختلاف مدارسهم.

وسأكتفي بإيراد مثال واحد وهو عند تفسير قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً *} [الإسراء : 56].

فقال رحمه الله: أمروا بالدعاء لتوقيفهم على خيبتهم فيه بظهور عجز من يدعون، وحذف مفعول زعم، والتقدير زعمتموهم الهة، للعلم بهم لأنهم ما دعوهم إلا لكونهم الهة في زعمهم. و(لا يملكون): وقع بعد الفاء ولم يجزم في جواب الأمر لأنه خبر مبتدأ محذوف تقديره فهم لا يملكون، وهذا لأن الفاء قصد بها العطف ولم يقصد بها السببية، لأن ذلك يقتضي أن يكون عدم ملكهم متسبباً عن الدعاء مثلها في قول الشاعر:

رب وفقني فلا أعدل عن ... سنن الساعين في خير سنن

فإن عدم العدول متسبب عن التوفيق وليس كذلك الأمر في هذه الاية، فإن عدم ملكهم متحقق سواء دعوا أم لم يدعوا، فلذلك امتنع النصب ووجب الرفع على التقدير المقدم(2).

(1) مجالس التذكير ص 241.

(2) مجالس التذكير ص 156.

ومن هذا المثال نرى أن ابن باديس رحمه الله لم يغرق تفسيره بمباحث نحوية وقضايا إعرابية يضيع معها المقصد الأساسي للتفسير وهو معرفة الشرائع والأحكام، وإنما كان يأخذ التركيب على هذه الصفة ولم يكن على تلك وهكذا.. ولذا قال أحد الباحثين المعاصرين: فهو يأخذ من النحو بمقدار الضرورة بحيث يكون في تناوله خدمة للمعنى الذي هو بصدده وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة[1].

ونظراً لهذا المنهج الذي اتبعه ابن باديس في التعامل مع الألفاظ والتراكيب، فإنه اشتد في نقد المفسرين الذين لم يولوا في تفاسيرهم هذا الجانب عناية كبيرة، فخلطوا في شرح الألفاظ وحمّلوا التراكيب ما لا تحتمله من المعاني.

ولننظر إليه ـ رحمه الله ـ وهو يفسر قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *} [الشعراء : 128 ـ 131].

فقد أوضح ـ رحمه الله ـ أن هذه الآية كشفت لنا نواحي كثيرة من تاريخ العرب، ومدى ما بلغه العرب من مدنية وحضارة، فهي نص صريح في استحكامهم بعلم تخطيط المدن والعمران بوجه عام.

ولكن الذي لم يعجب ابن باديس هو حمل المفسرين للفظ المصانع في الآية على معنى القصور أو مجاري المياه، وهذا التفسير تشهد له معاجم اللغة ودواوينها بالصحة، ولكن ابن باديس لم يعجبه هذا الاتجاه التفسيري، فقال: ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين على معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟!. والذي أفهمه ولا أعدل عنه، هو أن المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل جمع معمل من العمل، وأنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران، ثم أكد ـ رحمه الله ـ أن هذا ليس كثيراً على أمة وصفها القرآن بما تقدم في الآية؛ لأن المصانع هي أول مستلزمات العمران ثم قال مناقشاً

(1) ابن باديس مفسرا، حسن عبد الرحمن ص 268.

من يتشكك في حملها على المصانع بمعنى المعامل معتمداً على أن الآيات قبحتها ولا يعقل ما يلي:

ولا يقولن قائل: إذا كانت المصانع ما فهمتم، فلماذا يقبحها لهم وينكرها عليهم؟ فإنه لم ينكرها عليهم لذاتها، وإنما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها، فإن المصانع التي تشيد تشيد على القسوة، والقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية، ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن ترعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة[1].

وهذا التفسير الذي انتصر إليه ابن باديس من كون المصانع في الآية جمع مصنع من الصنع، وهو تفسير تشهد له الدلالة اللغوية للكلمة كما وردت في معاجم اللغة، إذ أن من معانيها اللغوية ما يصنعه الناس، ثم ما يقوي هذا الرأي في نظري والله أعلم. أن السياق يفيده ويشهد له فقوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ *} [الشعراء : 128].

يشمل كل المعاني التي ذكرها المفسرون للمصانع، من البناء والحصون ومجاري المياه..الخ، ويأتي بعده قوله تعالىَ: {وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *} [الشعراء : 129].

يفيد معنى جديد، غير مذكور في التركيب السابق وإعمال الكلام أولى من إهماله والتأسيس مقدم على التأكيد[2].

وكما اشتد ابن باديس رحمه الله في نقد بعض المفسرين على شرحهم لبعض الألفاظ القرانية، فإنه وجه سهام النقد كذلك إلى بعض المفسرين في حلمهم للتراكيب في بعض الآيات على غير وجهها الصحيح.

وسأكتفي بإيراد مثال واحد، وهو عند تفسيره لقوله تعالى:{ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ *فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ

(1) مجالس التذكير ص 432.

(2) المصدر نفسه.

وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ *وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ *} [سبأ : 15 . 19].

فأكد أولاً على أن هذه الآيات معجزة في البلاغة إذ استوعبت تاريخ أمة بكاملها في سطور معدودة، ثم قال بأن هذه الآيات شاهد صدق على المدنية الزاهرة والحضارة الراقية التي بلغتها تلك الأمة العربية، فتلك المدينة كانت عامرة بالبساتين عن يمين السائر وشماله، ثم أن أصحابها كانوا متحكمين في بناء السدود وما كانوا ليبلغوا هذا المبلغ لولا تحكمهم في الهندسة التي هي ثمرة عدة علوم فكرية أخرى، ولكنهم كفروا بأنعم الله هذه ووظفوها فيما يغضب الله ويسخطه، فسلط الله عليهم من الأسباب ما خرب عمرانهم وأباد حضارتهم.

وتصرح هذه الآيات أن عمرانهم كان متصلاً بعضه ببعضه، فلا يخرج السائر من قرية حتى تلوح له أعلام القرية الأخرى:َ {وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرىً ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ *} [سبأ : 18].

وبالإضافة إلى قوة العمران، فقد كان الأمن شائعاً ليلاً ونهاراً، ولكن الشيء الذي كان ينقص هو الإيمان والشكر: {فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ} [سبأ : 19].

فما معنى قوله: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا}

هناك اتجاه عند بعض المفسرين مفاده أن هؤلاء بطروا هذه النعمة وأحبوا المفاوز يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في المخاوف فطلبوها، كما طلب بنو إسرائيل من موسى عليه السلام أن يخرج لهم مما تنبت الأرض: {بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا} [البقرة : 61]. مع أنهم كانوا في عيش رغيد، في مَنّ وسلوى ومما يشتهون من ماكل ومشارب وملابس مرتفعة[1].

(1) مختصر تفسير ابن كثير (ج3 / ص 127).

ولكن ابن باديس لم يعجبه هذا الاتجاه التفسيري فقال منتقداً: وأما قوله تعالى: {رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا} فإن السطحيين يحملونه على ظاهره، وأي عاقل يطلب بعد الأسفار؟

والحقيقة أنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم وإنما هو نتيجة أعمالهم، ومن عمل عملاً يفضي إلى نتيجة لازمة فإن العربية تعبر عن تلك النتيجة بأنها قوله، وهذا نحو من أنحاء العربية الطريفة(1).

بمعنى أن الأعمال التي كانوا يقومون بها كانت تستلزم ذلك الجزاء وهو زوال العمران المتلاحم الذي كان يرتاح فيه المسافر.

وهذه الأمثلة التي أوردناها تعكس الحس النقدي الذي كان يتمتع به العلامة عبد الحميد بن باديس، والدقة العلمية عنده في التعامل مع الألفاظ والتراكيب في الآيات المراد تفسيرها، فلم يكن رحمه الله مجرد ناقل لأقوال السابقين من المفسرين، وإنما كان ينقل بفهم وينقد بعقل، فيقبل ما يراه مقبولاً، ويردّ ما يراه غير مقبول(2).

6 . رأي ابن باديس في تفسيره بالمأثور:

اهتم ابن باديس في التفسير بالمأثور، وتتبع تفسير القرآن بالقران، وما روي عن النبي (ص) من تفسير للقران، وما روي عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين مما هو تفسير لاي الكتاب الكريم.

ومظاهر تفسير القرآن بالمأثور ثلاثة:

أ . تفسير القرآن بالقرآن:

إن المصدر الأول والأساسي الذي كان ابن باديس يعوّل عليه في فهم نصوص القرآن الكريم هو القرآن نفسه، لأن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وهو بهذا الاعتبار يشكل وحدة متكاملة، يقول العلامة ابن باديس معجباً بهذه القاعدة الجليلة من قواعد التفسير:

---

(1) مجالس التذكير ص 437.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. محمد الدراجي ص 52.

وما أكثر ما تجد في القرآن بياناً للقران فاجعله من بالك تهتد ـ إن شاء الله ـ إليه[1].

ولقد تعددت مظاهر تفسير القرآن بالقرآن في تفسير ابن باديس، ولا أظن أنني أحيد عن الجادة، أو أبعد عن الصواب، إذا قلت بأن السمة المميزة لتفسير ابن باديس هي هذه، وقد تقدم معنا قول الإبراهيمي المؤكد لهذا الاستنتاج العلمي: فسلك في درس كلام الله أسلوباً سلفي النزعة والمادة، عصري الأسلوب والمرمى مستمداً من التفاسير وأسفارها.

وقد وظف هذه القاعدة في منهجه النقدي في تفسيره لقول الله تعالى: {رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *} فإنه قد ناقش زعم القائلين، بأن كمال التعظيم لله ينافيه أن تكون العبادة معها خوف من عقابه أو طمع في ثوابه، وكتب مقالاً موسعاً تحت عنوان: أيهما أكمل: العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب أم العبادة دونهما؟ يعكس مدى تضلع ابن باديس في علوم الشريعة وإحاطته بأسرارها، ودقة منهجه في المناقشة والرد، وبعد عرضه كثيراً من الآيات في الموضوع وحسن استدلاله منها على المراد قال: ولا تجد في القرآن آية واحدة دالة صريحة على ذكر عبادة ـ هكذا ـ دون خوف أو طمع[2].

ب ـ تفسير القرآن بالسنة:

إن الأمر المتفق عليه بين علماء الشريعة أنه بعد كتاب الله عز وجل في بيان معاني الكتاب، تأتي سنة رسول الله (ص)، التي تشرح وتفسر معانيه وتبين ما ورد من آياته مجملاً، وتقيد ما ورد مطلقاً، وهكذا.

ولقد كان العلامة ابن باديس كثير الاحتفاء بهذا المصدر من مصادر التفسير، كثير الاعتناء به، فعند تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا *} [الفرقان : 51].

(1) مجالس التذكير ص 323.

(2) مجالس التذكير ص 283.

وبعد تأكيده على عالمية الرسالة الإسلامية التي تفيدها هذه الاية، والحكمة من ذلك، فإنه أورد حديثاً نبوياً يؤكد هذا المعنى وهو الحديث الذي يقول فيه (ص): «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ؛ كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

ثم قال رحمه الله معلقاً على هذا التفسير: وما أحسن التفسير تعضده الأحاديث الصحاح[1].

والذي يطالع تفسير ابن باديس يجده حافلاً بالمأثور مما يدل على أن ابن باديس أولى هذه القاعدة الجليلة ـ تفسير القرآن بالسنة ـ عناية فائقة، واهتماماً كبيراً، كيف لا وهو الذي أكد أكثر من مرة في تفسيره على أنه يجب الفزع إلى السنة النبوية لاستجلاء معاني القرآن الكريم: فعلينا أن يكون أول فزعنا في الفرق والفصل إليه «الكتاب»، وأن يكون أول جهدنا في استجلاء ذلك من نصوصه ومراميه، مستعينين بالسنة القولية والعملية على استخراج لاليه[2].

إن ابن باديس كان يفهم السنة في ضوء القرآن الكريم وفي دائرة توجيهاته، وبما أن السنة هي شارحة هذا الدستور ومفصلته فيجب أن لا تعارضه فقال: إن السنة النبوية والقرآن لا يتعارضان[3].

7. خصائص تفسير ابن باديس:

تميز تفسير ابن باديس بعدة خصائص ومميزات عامة، في مقدمتها أنه تفسير عصري متميز لأنه يجمع بين السلفية والمعاصرة، وأنه يميل إلى الناحية العلمية، والاستدلالية، وأنه ينتصر للعقل ويهتم بالإنسان ومشاكله، وأنه لم يأخذ طابع التفاسير التقليدية سواء من ناحية الموضوعات أو أسلوب المعالجة والعرض، بالإضافة إلى خصائص ومميزات أخرى عامة كالبساطة والوضوح والترابط والعمومية والشمول، والبعد عن الطابع الجدلي

---

(1) مجالس التذكير ص 264.

(2) المصدر نفسه ص 228.

(3) المصدر نفسه ص 54.

الكلامي، والبعد عن التقليد والنزعات المذهبية الخاصة.

ومن أبرز هذه الخصائص:

أ. التفسير الباديسي تفسير سلفي:

لقد ظهرت سلفية ابن باديس واضحة عندما حدد أصول منهجه في التفسير والمصادر السلفية التي اعتمد عليها عند ابتداء خطبته افتتاح دروس التفسير حين قال: سنبدأ بتفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات معتمدين في ذلك على صحيح المنقول وسديد المعقول مما جلاّه أئمة السلف المتقدمون أو غاص عليه الخلف المتأخرون، فاعتمدنا على أشياء من كتب أئمة التفسير كابن جرير الطبري في تفسيره وسلفيته واهتمامه ببيان معاني الآيات القرآنية وترجيحاته لأولى الأقوال عنده بالصواب، ثم تفسير الكشاف البلاغي وتطبيقه فنون البلاغة على آيات الكتاب، وتفسير أبي حيان الأندلسي الذي يمتاز بتحقيقاته النحوية واللغوية وتوجيهه للقراءات، وتفسير الرازي الذي يمتاز ببحوثه في العلوم الكونية مما يتعلق بالجماد والنبات والحيوان والإنسان وفي العلوم الكلامية ومقالات الفرق والمناظرة والحِجاج[1].

وقد التزم ابن باديس بالفعل بهذا الاتجاه السلفي حتى أصبح منهاجاً واضحاً له في فهم القرآن وتدريسه وفي تطبيقه لقضايا العقيدة والأخلاق، وهو يعترف بهذا النهج السلفي والتزامه به حين يقول: إن كل قول يراد به إثبات معنى ديني لم نجده في كلام أهل العصر نكون في سعة من رده وطرحه وإماتته وإعدامه كما وسعهم عدمه، وكذلك كل فعل ديني لم نجده عندهم، وكذلك كل عقيدة، فلا نقول في ديننا إلا ما قالوا ولا نعتقد إلا ما اعتقدوا ولا نعمل إلا ما عملوا، ونسكت عما سكتوا عنه[2].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 114.

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية ص 114.

ب . التفسير الباديسي تفسير علمي:

ودليل ذلك أنه ظهر في عصر العلم ويهتم بتفسير الآيات الكونية، وربطها بمكتشفات العلم الحديث، ويهتم بقضايا الإنسان ويربطها بالسببية، وينتصر للعقل ويعتمد على الحجج والبراهين المنطقية، وأثبت في تفسيره أن القرآن لا يقف أمام العلم ولا يعارض البحث العقلي، بل أنه دعوة للعلم واستعمال العقل في النظر والاعتبار، والاهتداء إلى نواميس الكون.

هذا بالإضافة إلى ميل ابن باديس نفسه العلمي الذي يصفه البشير الإبراهيمي بقوله: إن ابن باديس يمتاز بالذوق الخاص في فهم القران، مع بيان ناصع واطلاع واسع وباع في العلوم النفسية والكونية وعلوم الاجتماع والعمران وشجاعة في الرأي والقول ومعرفة السليم والمريض من الآراء والأقوال[1].

والمثال على ذلك تفسير ابن باديس لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آية اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آية النَّهَارِ مُبْصِرَةً} [الإسراء : 12].

وقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} [الزمر : 5].

ومما جاء في تفسيره لهذه الآيات: الليل هو الوقت المظلم الذي يغشى جانباً من الكرة الأرضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل، والنهار هو الوقت الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها، ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكنتها، وبيان تفصيل ذلك فيه دليل علمي على كروية الأرض، وهو المعنى من التكوير . لقوله تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ} [الزمر : 5] بأن يحل محله في جزء من الكرة . وجزء الكرة مكور . فيكون النهار الحالّ مكوراً بحكم تكوّر المحلّ، وكذلك النهار يكوّر عليه فيحل محله من الكرة، فيكون أيضاً مكوراً بحكم تكوّر المحل، وإنما جعل تكوير أحدهما على الاخر بحلوله في محله، لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه نفسه لأنهما ضدان لا يجتمعان، وليسا جسمين يحل أحدهما على الآخر.

---

(1) المصدر نفسه ص 115.

ويستمر ابن باديس في استدلاله فيقول: وبالتعمق في معنى الآية تعرف فيها دليلاً على وجود الله وهو دليل النظام الكوني وما عليه من حسن الترتيب والتقدير بالتسيير، فالآية علامة دالة على الوجود والعظمة لله لأن وجود آية الليل والنهار، وتعاقبهما على هذا الترتيب والتسيير، وأنهما مقدران بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر على نظام محكم وترتيب بديع بحسب الفصول الشتوية والصيفية، وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية وما بينهما حتى يكونان في القطبين ليلة ويوماً في السنة، ليلة في ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم في ستة أشهر هو صيفهم، فهذا الترتيب والتقدير والتسيير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير، ولطيف خبير(1).

كما يشير ابن باديس إلى مدى اتفاق ما في القرآن مع مكتشفات العلم من خلال وصفه وتفسيره لجرم القمر ونشأته ومسترشداً باراء علماء الطبيعة والفلك، ومختتماً تفسيره لهذه الآية بقوله: لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة نبيه (ص) وبرهاناً لديه على البشر مهما ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان(2).

ج. التفسير الباديسي تفسير استدلالي:

والاستدلالية عنده تعني ضرورة الاهتمام بالترتيب المنطقي والترابط من أجل إبراز الغاية القصوى وراء الايات، وبيان أسباب ترتيبها على هذا النحو، وبيان فائدتها للإنسان، فالترتيب والترابط المنطقي يظهر في العناية باللفظ والمعنى مع التركيز على المعنى العام والهدف العام والغاية القصوى، ألا وهي صالح الإنسان، وأن كل معنى جزئي أو خاص للفظ معين لا يمكن اعتباره معنى حقيقياً أو صحيحاً، وذلك لتغير معنى اللفظ

(1) المصدر نفسه ص 116.

(2) المصدر نفسه ص 116.

حسب مقامه وحسب وقوعه في الجملة أو الآية أو الصورة. وأن هذا الاستدلال يعتمد على الربط بين الأصول العامة التي يتوقف عليها حياة النوع البشري وسعادته، وبين وجوه إعجاز القران. والاستدلال عن ابن باديس من أهم لوازم التفسير.

واهتم ابن باديس بالربط بين الألفاظ والمعاني ومدلولاتها في العبارات وقواعد اللغة، ولأن التفسير الباديسي تفسير استدلالي رأيناه يبدأ تفسيره به، فيستدل أولاً بايات القرآن والحديث ثم يستدل بأدلة المنطق والبرهان العقلي، ثم يربط تلك الاستدلالات بالشواهد الواقعية وملاحظات التجربة والمواقف السياسية والاجتماعية ومختلف مظاهر التغير والتطوير، مستدلاً في كل ما يذهب إليه بأحكام السنة وشرائعها لأنها الطريق العملي والتطبيق السلوكي لأحكام القرآن.

ويمكن القول بأن هذه الاستدلالية والانتصار للعقل مع هذه السلفية والمعاصرة ؛ كانت وراء القول بأن التفسير الباديسي يعتبر في مقدمة المحاولات لتقديم تفسير ـ معاصر ـ في العصر الحديث، وأنه نجح في تقديم فكر إسلامي خالص معتمداً على الله ثم على منهجية علمية متميزة[1].

8 ـ أمثلة من تفسير ابن باديس للآيات:

أ ـ الطور الأخير لكل أمة وعاقبته:

قال تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *} [الإسراء : 58].

عنون ابن باديس لهذه الآية العنوان: الطور الأخير لكل أمة وعاقبته.

وقسم شرحه للآية كالآتي:

تمهيد: فقال:

الأمم كالأفراد، تمر عليها ثلاثة أطوار، طور الشباب، وطور الكهولة ، وطور الهرم، فيشمل الطور الأول

(1) المصدر نفسه ص/117.

نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة. ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك، بما كان فيها من مواهب وما كان لها من استعداد وما لديها من أسباب.

ويشمل الطور الثالث: ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال، إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندثارها من عالم السيادة والاستقلال. وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار.

هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار إليها في كتابه العزيز في غير ما آية فذكر أعمال الأمم وأنها مقدرة محددة باجالها في مثل قوله تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *} [الاعراف : 34].

وذكر إنشاء الأمم على أثر الهالكين في قوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [الانبياء: 11].

وذكر طور شباب الأمة ودخولها معترك الحياة في مثل قوله تعالى: {عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ *} [الاعراف : 129].

فإن بني إسرائيل ما استخلفوا في الأرض حتى قووا واشتدوا وتكونت فيهم أخلاق الشجاعة والنجدة والحمية والأنفة بعد خروجهم من التيه، وذلك هو الطور الأول، طور الشباب للأمة الاسرائيلية، وذكر الطور الثاني، وهو طور الكهولة واستكمال القوة وحسن الحال ورغد العيش في مثل قوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [النحل : 112].

وذكر الطور الثالث طور الضعف والانحلال في مثل قوله تعالى:

{وَتِلكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا *} [الكهف : 59].

وإهلاكهم بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم، فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاثة، وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *} [الإسراء : 58].

الألفاظ:

(القرية): المساكن المجتمعة، ومادة (ق ر ي) تدل على الجمع، فتصدق على القرية الصغيرة والمدينة الكبرى، وتطلق القرية مجازاً على السكان إطلاقاً لاسم المحلّ على الحالّ ومنه هذه. و(الإهلاك): الإبادة والإفناء بالاستئصال، كما فعل بعاد وثمود، و«قبل يوم القيامة»: أي في الدنيا، و«العذاب الشديد»: كأمراض الأبدان وفساد القلوب وانحطاط الأخلاق وافتراق الكلمة وتسليط الظلاّم، كما أرسل على بني إسرائيل عباداً أولي بأس شديد فساؤوا وجوههم وجاسوا خلال ديارهم، وكتسليط أهل الباطل على أهل الحق وكالجدب والقحط وجوائح الأرض وجوائح السماء. و«في الكتاب» أي اللوح المحفوظ و«مسطورا»: أي مكتوباً أسطاراً مبيناً.

التراكيب:

(إن) نافية. و(من) زيدت لاستغراق الجنس وتأكيد العموم و(إلا) أفادت مع إن النافية حصر كل قرية في أحد الأمرين من الهلاك والعذاب الشديد، ليعلم أن لا نجاة لكل قرية من أحدهما قطعاً. و(أو) تفيد أحد الشيئين المذكورين على الإبهام وعدم التعيين و(ذلك) إشارة إلى المذكور من الهلاك والتعذيب.

المعنى:

يقول تعالى: ما من قرية على وجه الأرض إلا ولا بد أن يحل بها منا هلاك وفناء بما يبيدها ويفنيها، أو عذاب شديد لا يفنيها ولكنه يذيقها أنواع الآلام ، وشديد النكال، كان هذا قضاءً سابقاً في علمنا ماضياً في

إرادتنا مكتوباً أسطاراً في اللوح المحفوظ.

الأحكام:

أحكام الله تعالى أحكام شرعية، وهي التي فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه، وأحكام قدرية وهي التي فيها بيان تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه، وما سبق في إرادته. والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها فيختلف مقتضاها من الفعل أو الترك، والأحكام القدرية لا تختلف أصلاً ولا يخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعاً. وفي هذه الآية حكم من أحكامه القدرية، وهو أن كل قرية لا بد أن يصيبها أحد الأمرين المذكورين بما سبق من علمه وما مضى من إرادته، فلا يتخلف هذا الحكم، ولا تخرج عنه قرية

إيضاح وتعليل:

الله حكم عدل حكيم خبير، فما من حكم من أحكامه الشرعية إلا وله حكمته، وما من حكم من أحكامه القدرية إلا وله سببه وعلته، لا لوجوب أو إيجاب عليه، بل بمحض مشيئته، ومقتضى عدله وحكمته، قد قضى على قرية بهذه العاقبة من الهلاك أو العذاب الشديد في هذه الاية، وبين في غيرها سبب استحقاقها فقال تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف : 59].

وقال تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ *} [هود : 117].

وقال: {وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ *} [القصص : 59].

وقال تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [الانبياء : 11].

وقال تعالى: {عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا *} [الطلاق : 8].

وقال تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا} {مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ *}[النحل: 112].

فأفادت هذه الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعتوّ والتمرد عن أمر الله ورسله والكفر بأنعم الله. وما ربك بظلام للعبيد.

توجيه:

الطور الأخير للأمم هو الذي ذكر في الآيات كثيراً دون الطور الأول والثاني ووجه ذلك أنه هو الطور الذي ينشر فيه الفساد ويعظم فيه الظلم وينتهي فيه الإعذار للأمة ويحل فيه أجلها، فينزل بها ما تستحقه من هلاك أو عذاب، فكرر ذكر هذا الطور لزيادة التحذير منه والتخوف من سوء عاقبته والحث على تدارك الأمر فيه بالإقلاع عن الظلم والفساد والرجوع إلى طاعة الله تعالى، وإعمال يد الإصلاح في جميع الشؤون، فيرتفع العذاب بزوال ما كان لنزوله من أسباب.

استنتاج وتطبيق:

القرى التي قضى عليها بالهلاك والاستئصال هذه قد انتهى أمرها بالموت وفات عنها العلاج مثل عاد وثمود من الأمم البائدة. وأما القرى التي قضى عليها بالعذاب الشديد فهذه لاتزال بقيد الحياة فتداركها ممكن وعلاجها متيسر، مثل الأمم الإسلامية الحاضرة، فمما لا شك أن فينا لظلماً وعتواً وفساداً وكفراً بأنعم الله، وإننا من جراء ذلك لفي عذاب شديد، ولا نعني بهذا أن الأمم الإسلامية مخصوصة بهذا، بل مثلها وأقوى منها في أسباب العذاب والهلاك غيرها من أمم الأرض، وإنَّ لهم لقسطهم من العذاب الشديد، وإذا لم يأت المقدار المماثل من الهلاك أو العذاب لما عندهم من أسبابهما فلأنَّه لكل أمة أجل ولما يأت ذلك الأجل بعد، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون[1].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 299).

إرشاد واستنهاض:

قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته لنهتدي بالأسباب إلى مسبباتها ونتجنبها باجتناب أسبابها، وقد عرّفنا في الآيات المتقدمة بأسباب الهلاك والعذاب لنتقي تلك الأسباب، فنسلم أو نقلع عنها فننجو، فإن بطلان السبب يقتضي بطلان المسبب. وقد ذكر لنا في كتابه أمَّة أقلعت عن سبب العذاب فارتفع عنها بعد ما كان ينزل بها. ليؤكد لنا أن الإقلاع عن السبب ينجي من المسبب فقال تعالى: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ *} [يونس : 98].

فبمبادرتهم للإيمان وإقلاعهم عن الكفر كشف عنهم العذاب وإبطال أسبابه، وهو الإيمان، كما أرشدنا إليه أيضاً.

في قوله تعالى قبل هذا: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} [يونس : 98].

أي: أنجاها من العذاب، وذكر قوم يونس دليلاً على ذلك وأرشدنا إليها أيضاً في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الاعراف: 96].

فالإيمان والتقوى . هما العلاج الوحيد لنا من حالتنا، لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب، ولا ننهض بهذا العلاج العظيم إلا إذا قمنا متعاونين أفراداً وجماعات، فجعل كل واحد ذلك نصب عينيه وبدأ به في نفسه، ثم فيمن إليه أمره، ثم فيمن يليه من عشيرته وقومه، ثم جميع أهل ملته، فمن جعل هذا من همه وأعطاه ما قدر عليه من سعيه ؛ كان خليقاً أن يصل إلى غايته أو يقرب منها، ولنبدأ من الإيمان ؛ بتطهير عقائدنا من الشرك وأخلاقنا من الفساد وأعمالنا من المخالفات، ولنستشعر أخوة الإيمان التي تجعلنا كالجسد الواحد، ولنشرع في ذلك غير محتقرين لأنفسنا، ولا قانطين من رحمة ربنا، ولا مستقلين لما نزيله كل يوم من فسادنا، فبدوام السعي واستمراره، يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله. وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا، وسنة نبينا، وسيرة صالح سلفنا ، ففي ذلك كله ما يعرفنا بالحق

ويبصرنا في العلم ويفقهنا في الدين ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعز والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الأخرى، وليس هذا عن العاملين ببعيد وما هو على الله بعزيز.

رجاء وتفاؤل:

إن المطلع على أحوال الأمم الإسلامية يعلم أنها قد شعرت بالداء وأحست بالعذاب، وأخذت في العلاج، وأن ذلك وإن كان يبدو اليوم قليلاً لكنه . بما يحيطه من عناية الله وما يبذل فيه من جهود المصلحين . سيكون بإذن الله كثيراً، وعسى أن يكون في ذلك خير لأمم الأرض أجمعين. حقق الله الامال وسدد الأعمال بلطف منه وتيسير إنه نعم المولى ونعم النصير[1].

ب . من وعد الله للصالحين:

وقال تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ *} [الانبياء : 105].

وقد ذكر ابن باديس لهذه الآية عنوان: من وعد الله للصالحين. وشرحها في فقرات على النحو التالي:

المناسبة:

لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم السلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها وأحوال الخلق يوم القيامة . جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد . (ص) ..

توجيه:

وإنما كانت هذه الآية في أمة محمد، لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يبق الكلام إلا عليها، فخوطبت بمقتضاه. الله وكتبه من إرث الصالحين في الأرض، والمخاطبون بهذه الآية المكية هم المؤمنون بالله الموحدون له المتبعون لرسوله محمد . (ص) . المصدق لجميع الرسل عليهم السلام وهم أصحاب النبي . (ص) . وهم الصالحون

(1) المصدر نفسه (1 / 300).

الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلاماً بما كتبه الله لهم ووعداً بإرثهم الأرض.

الألفاظ:

(الزبور): بمعنى المزبور، أي المكتوب، والمراد جنس ما أنزله الله من الوحي على رسله ـ (ص) ـ وأمر بكتابته. وقرأ حمزة: الزبور جمع زبر، أي كتاب، فعيَّنت هذه القراءة المراد بالزبور في القراءة الأولى الكتب المنزلة، لا خصوص زبور داوود عليه السلام. (الذكر): المراد به هنا اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء قبل أن يخلق الخلق، وجاء تسميته بالذكر فيما رواه البخاري في مواضع من صحيحه عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال رسول الله ـ (ص) ـ كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض، ومما كتبه في الذكر ما أنزله على رسله عليهم السلام، كما قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ *فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ *} [البروج : 21 ـ 22].

الأرض:

جنس الأرض الدنيوية لأن هذا اللفظ موضوع لها، فإذا أطلق انصرف إليها، وبهذا فسرها ابن عباس عن طريق علي بن أبي طلحة، وهي أصح طرقه (يرثها): تنتقل إليهم من يد غيرهم، وأصل الإرث الانتقال من سالف إلى خالف، وقد يطلق في غير هذا الموضع على أصل التمليك مجازاً.

(الصالحون): الصالح من كل شيء هو ما استقام نظامه فحصلت منفعته، وضده الفاسد وهو ما اختل نظامه فبطلت منفعته، ويظهر هذا من تتبع مواقع الاستعمال، فإذا قالوا هذه الة صالحة عنوانها محصلة المنفعة المرادة منها لانتظام أجزائها، وإذا قالوا الة فاسدة عنوانها لا تحصل المنفعة منها لاختلال في تركيبها، والصالح في لسان الشرع ـ قراناً وسنة ـ لم يخرج عن هذا المعنى حيثما جاء، فالصالح هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقة وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة ، واستقامت أعماله وطابت أقواله ، فكان مصدر خير ونفع

لنفسه وللناس، استقام نظامه وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء كما في قوله تعالى: {وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ}وكما في التشهد: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» ، وقد بين القرآن من هم الصالحون بياناً شافياً وكافياً بذكر صفاتهم مثل قوله تعالى: {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيات اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ *} [آل عمران: 113 . 114].

المعنى: يخبرنا الله تعالى أنه كتب في الكتب التي أنزلها على رسوله من بعد ما كتب في اللوح المحفوظ الذي هو أصل تلك الكتب أن الأرض يرثها ويملكها عباده الصالحون أهل العقائد الصحيحة والأخلاق الكريمة والأعمال المستقيمة الذين ينفعون العباد والبلاد.

(تطبيق):

خاطب الله بهذه الآية المؤمنين بمكة وهم في قلة عَدد وعُدد يعدهم بذلك . لا بطريق صريح . أنهم يرثون الأرض ويكون لهم فيها القوة والنفوذ، ويتبعهم بتعليق الوعد بوصف الصلاح على التمسك به والازدياد منه والاستمرار عليه، ثم صرح لهم بالوعد بعد في سورة النور وهي مدنية بقوله تعالىَ: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *} [النور : 55].

وقد حقق الله لهم هذا الوعد ففتح وأورثهم ملك كسرى وقيصر ومد لهم ملكهم في الشرق والغرب، وأولئك الذين كانوا في قلة وخوف يوم نزلت الآية المكية ؛ هم الذين شاهدوا ذلك النصر وتلك الفتوح وترأسوا ذلك الملك العظيم.

«**تعميم وتقييد**»:

علق الوعد بالوصف، وهو الصلاح، ليُعلم أنه وعد عام، ولتعلم كل أمة صالحة أنها نائلة حظها . ولا محالة . من هذا الوعد، واقتضى هذا التعليق بالوصف أيضاً تقييده بأهله، فإذا زال وصف الصلاح من أمة زال

من يدها ما ورثت، ونظير هذا التقييد قوله في آية النور: {يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ *} [النور : 55].

«**تنظير**»:

مثل هذه الآية فيما تضمنته من الوعد الذي يقوي به قلوبهم ويثبت إيمانهم ويظهر به صدق نبيه ـ (ص) ـ بما أعلمه به من غيب أحاديث صحيحة، كقول النبي (ص) لخباب رضي الله عنه وقد لقي الصحابة من المشركين شدةً فسأله أن يدعو فقال له النبي ـ (ص) ـ: لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد مما دون عظامه من لحم أو عصب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله.

وكقوله (ص) ـ لعدي بن حاتم: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف الكعبة لا تخاف إلا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى. وقد امتدت به الحياة حتى رأى ذلك. ومثل هذا أحاديث أخرى في الصحيح، فقد تطابقت الآيات والأحاديث في هذا الوعد، وقد صدق الله وعده لعباده الصالحين، وصدق نبيه ـ (ص) ـ بما لم يكن يعلمه أحد ولا يرى شيئاً من أسبابه، بل لا يرى إلا ما هو مناف له. ولكن العاقبة للمتقين[1].

(إشكالٌ وحلُّه):

قال أناس أن أرض الدنيا كما يستولي عليها الصالحون يستولي عليها غيرهم، والأرض التي لا يرثها إلا الصالحون هي أرض الجنة فيجب تأويل الآية بها.

والجواب: إن هذا التأويل إنما يُحتاج إليه لو كانت الآية: هكذا: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} بطريق الحصر فيهم أما لو كانت الآية لا حصر فيها فلا حلاجة إلى هذا التأويل بل في لفظ الإرث وربطه

(1) المصدر نفسه (1 / 354).

بوصف الصلاح دلالة على أنها كانت لغيرهم فانتقلت إليهم، وأنها تزول مع زوال وصف الصلاح، وقد جاء التنبيه على أن الأرض يرثها الصالحون وغيرهم في قوله تعالى: {إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ *} [الأعراف : 128].

فيرثها الصالحون نعمة ويرثها غيرهم فتنة ونقمة، كل ذلك حسب مشيئة الحكيم الخبير.

إيرادٌ وجوابُه:

قد يقال: فما هي الفائدة إذا في تخصيص الصالحين بالذكر في هذه الآية؟

والجواب:

ـ أن هذه الآية خوطب بها أول الناس الصحابة بمكة وهم الصالحون في الأرض ليعلموا ما وعدهم الله به وليعلموا أن قوة الباطل إلى ضعف، وأن ضعف الحق إلى قوة.

ـ ولأن شأن الصالحين ـ أنَّى كانوا أن يكونوا ـ قليلٌ سيّما أول أمرهم فهم بحاجة إلى أن يعلموا هذا الوعد ليزدادوا إيماناً وقوة وثباتاً.

ـ ولأن الخلق مفتونون بالكثرة في العدد والعُدة، غافلون عن القوة الروحية والأخلاقية وما ينشأ عنهما من استقامة لا يحسبون لذلك حساباً، فيحتاجون إلى العلم بأن الصالحين نائلون حظهم من هذا الوعد، وإن كانوا قلة في الناس(1).

وقال: {كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ *} [البقرة : 249].

ـ تحذير من تحريف:

رأى بعض الناس المدنية الغربية المسيطرة على الأرض هي مدنية مادية في نهجها وغايتها ونتائجها، فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان، فقالوا إن رجال هذه المدنية هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث

(1) المصدر نفسه (1 / 355).

الأرض، وزعموا أن المراد بالصالحين في الاية: الصالحون لعمارة الأرض، فيا لله للقران وللإنسان من هذا التحريف السخيف، كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد، وفسدت الأخلاق . واعوجّت الأعمال، وساءت الأحوال، وعذبت الإنسانية بالأزمات الخانقة، وروّعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها، والمدنية أساسها، هذه هي بلايا الإنسانية التي يشكو منها أبناء هذه المدنية المادية التي عمرت الأرض وأفسدت الإنسان، ثم يريد هذا المخرف أن يطبق عليها آية القران: كتاب الحق والعدل والرحمة والإحسان وإصلاح الإنسان ليصلح العمران.

فأما الصالحون فهو لفظ قراني قد فسره القرآن كما قدمناه، وقد شرَّف أهله بإضافتهم إلى الله في قوله: «عِبَادِيَ»، فحمله على الصالحين لعمارة الأرض تحريف للكلام عن مواضعه أبشع التحريف وأبطله، فليحذر المؤمن منه ومن مثله من تحريفات المبطلين والمفتونين.

موعظة وإرشاد:

فعلى الأمم التي تريد أن تنال حظها من هذا الوعد أن تصلح أنفسها الصلاح الذي بينه القران، فأما إذا لم يكن لها حظ من ذلك الصلاح فلا حظ لها من هذا الوعد، وإن دانت بالإسلام، ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيئته من ملك الأرض وسيادة الأمم يؤتي الملك من يشاء ويذل من يشاء، من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت وبلغ بها إلى ما قُدّر له من عز وذلّ وسعادة وشقاء وشدة ورخاء، وكل محاولة لصدها عن غايتها . وهو اخذ بها . مقضي عليها بالفشل، سنة الله، ومن ذا يبدلها أو يحولها؟ {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً *} [فاطر : 43].

ثم: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ *} [الاعراف : 34][1].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 357).

ج . دفاع الله عن المؤمنين:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ *} [الحج : 38].

قال العلامة ابن باديس:

الكلمات:

دفع الشيء: صدّه وردّه، والدفاع عن الشيء حمايته بصدّ ما يؤذيه عنه، وقُرأئ في المتواتر (يدفع) وقُرأئ (يدافع)، وهو بمعنى يدفع، ولكنه أريد قوة الدفع، فجيء بـ (فاعلَ) الذي يقتضي المغالبة في أصله، لأن دفع المغالب أقوى وأبلغ، أو لأن ما يهيئه الله لهم من أسباب الدفع التي يباشرونها مقابلة لما يقصدهم به أضدادهم فكان الدفع من الجانبين، خان إذا ضيع ما جعل في حفظه وعهدته، والخوان الكثير التضييع لما استحفظ، والكفور الجحود للنعم فلا يعترف بها أو لا يؤدي شكرها.

التراكيب:

عندما يكون المؤمنون في قلة وضعف وأعداؤهم في كثرة وقوة .كالحالة التي كان عليها المؤمنون يوم نزلت الآية بعيد الهجرة . تشك النفوس في سلامتهم من كيد عدوهم، فلذا جاء هذا الخبر مؤكداً بإن ولكون هذا الدفع جيء بالجملة المستأنفة بعد الجملة الأولى وأكدت بإن لأن الأولى تحمل المخاطب على أن يسأل سؤال المتردد: هؤلاء المدفوعون أعداء مبغضون. فأجيب بالتأكيد، وحذف مفعول يدافع ليعم كل ما يدفع فشمل كيد الكائدين.

التفسير:

هذا من الله تعالى خبر حق ووعد صدق للمؤمنين بأنه يرد عنهم كيد أعدائهم ويبطل مكرهم ويكفّ شرّهم، وإن عظم ذلك منهم وكثر، وإن هذا منه لهم متكرر متجدد، ذلك لأنهم، بإيمانهم حافظوا على أمانة الله عندهم وعهده لديهم واعترفوا بنعمه وشكروها، فأحبهم الله ورضي عنهم، فأيدهم ونصرهم ودافع عنهم، ولأن أعداءهم ضيعوا أمانة الله عندهم، بارتكاب المنهيات وترك المأمورات وجحدوا وحدانيته أو نبوة نبيه (ص)

أو ما جاءهم به من شرعه، فأبغضهم ورد كيدهم مغلوبين مدحورين.

تحرير في التعليل:

إن الحب في الله والبغض كسائر أفعاله لا تقع إلا على وجه الحق والعدل والسداد، وهذا أمر واجب لأفعال الرب الحكيم، فالمؤمنون أحبهم ونصرهم لإيمانهم، وأعداؤهم أبغضهم وخذلهم لخيانتهم وكفرهم، واقتضت هذه المقابلة أن الخيانة والكفر من صفات أضدادهم وليست من صفاتهم، فإيمانهم مستلزم لأمانتهم بحفظ عهد الله عندهم في نفوسهم وعقولهم وأبدانهم وجميع ما لديهم على جميع أحوالهم، ومستلزم لاعترافهم بنعم الله وشكره عليها، باستعمالها في طاعته وطلب المزيد من بره، وأمانتهم هذه وشكره هي مظهر إيمانهم الذي يميزهم عن أضدادهم ويدل على صدقهم في ذلك الإيمان ورسوخه في قلوبهم، فإذا أعدمت منهم الأمانة فخانوا الله والرسول وخانوا أماناتهم وفشت الفواحش والمناكر والبدع فيهم، وصاروا لا يتناهون عن منكر فعلوه، وإذا بطروا نعم الله عندهم فعطلوا منها ما عطلوا بجهلهم وكسلهم وقعودهم عن الخير وأسباب الحياة والسعادة، واستعملوا ما استعملوا في الشر والفساد واتباع الشهوات ؛ إذا كانوا هكذا فقد استوجبوا غضب الله وبغضه ونقمته، وحرموا نصرته ودفاعه وكانوا هم الظالمين[1].

خيانة دون خيانة وكفر دون كفر:

الخيانة خيانتان، خيانة عقيدة وخيانة أعمال، وكذلك الكفر، وكذلك النفاق، وكذلك الشرك، وإنما يخرج المرء عن أصل الإسلام بما كان في أصل العقيدة، لا بما كان في الأعمال إلا عملاً يدل دلالة ظاهرة على فساد العقيدة وانحلالها. وعلى هذا عقد البخاري رحمه الله في الجامع الصحيح أبواباً في ظلم دون ظلم وكفر دون كفر.

---

(1) المصدر نفسه (1 / 360).

تطبيق:

لما كان المسلمون أهل الإيمان والصدق والشكر والأمانة ودافع الله عنهم، وقد شهد التاريخ بذلك من الله لهم، فلما خانوا وكفروا تركهم ومكن منهم، ولكنه برحمته وعدله لم ينسَ لهم أصل إسلامهم فأبقى لهل أصل وجودهم الذاتي، وهم لحم على وضم بين الأمم لا يستطيعون دفعاً عن أنفسهم، وأبقى لهم أصل وجودهم الروحي بكتابه المتلو بين ظهرانيهم رغم إعراضهم عن تدبره وهجرهم لما فيه ـ عساهم يرجعون ..

تنبيه وتحذير:

كل عمل لا يحلّ فهو خيانة، وإن كان بأدنى إشارة، وقد نبَّه الله على هذا بقوله: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ} [غافر : 19]، وهي مسارقة النظر إلى ما لا يحل، والإشارة لطرف العين فيما يحرم وأعظم الخيانة بعد الكفر خيانة العامة لأن الذنب يعظم بعظم أثره وانتشار ضرره، ولهذا جاء ما جاء من الوعيد الشديد فيمن ولي أمراً من أمور المسلمين فغشهم ولم ينصح لهم، فحق على المسلم أن يحذر من الخيانة دقيقها وجليلها، وخصوصاً ما اتصل بالناس منها وبتنبه من أقل كلمة وأدنى إشارة توقعه في خطرها[1].

سؤال وجواب:

فإن قيل: قد نجد من عباد الله المؤمنين من يصيبه البلاء والشدة فيعذب وقد يقتل وكأين من نبي قتل، وقد أصاب المؤمنين يوم أحد ويوم حنين ما أصابهم.

فالجواب: إن دفع الله يكون بأسباب وأنواع وعلى وجوه تختلف بحسب الحكمة ولا تخلو كلها من دفاع، فإن ما يصيب المؤمنين من البلاء في أفرادهم وجماعتهم هو ابتلاء يكسبهم القوة والجلد، ويقوي فيهم خلق الصبر والثبات. وينبههم إلى مواطن الضعف فيهم أو ناحية التقصير منهم، فيتداركوا أمرهم بالإصلاح والمتاب، فإذا هم بعد ذلك الابتلاء أصلب عوداً وأطهر قلوباً وأكثر خبرة وأمنع جانباً، وأنَّ في صبر الصابر

(1) المصدر نفسه (1 / 361).

منهم وقد نزل به البلاء الذي لا يقدر على دفعه والظلم الذي لا يقدر على إزالته لبعث للقوة في نفس غيره ممن يتأسى به، وضعفاً في قلب ظالمه وفي كليهما دفع من الله عن المؤمنين.

مشاهدة وتوصية:

نعرف في حياتنا مواطن ما نجونا فيها إلاَّ بدفع الله وبُطل كيد الكائدين فيها بمحض صنع الله، وقد كنا فيها ـ فيما نرى ـ على شيء من العمل لله، فكيف بمن كانت أعمالهم كلها لله؟ وهذه المشاهدة التي شاهدنا ـ ولا نشك أن من غيرنا من شاهد مثلنا أو أكثر منا ـ توجب علينا أن نوصي بالإيمان بالله والمحافظة على العهد والثقة به، فإن ذلك يحققه الله بالدفع وينيل أهله العزة والحفظ، فعلى المسلم، ـ أن يعمل لذلك ويعتد به ثقة بالله وصادق وعده، والله لا يخلف الميعاد(1).

د ـ أكل الحلال والعمل الصالح:

قال تعالى: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *} [المؤمنون : 51].

الكلمات:

الطيِّب: ما صلح واعتدل في نفسه وسلم من كل ما يفسده ويخرجه عن اعتداله وأصل خلقته، فكان مستلذاً للنفوس سواء كان مما يدرك بالسمع أو بالصبر أو الذوق أو بالشم أو باللمس أو بالعقل، فالطيب هو اللذيذ لذة حسية أو عقلية، ويقابله الخبيث وهو المستقذر حساً أو عقلاً. وعلى هذا جاء قوله تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف : 157].

فما أحلَّ الله إلا الطيب المستلذ، وما حرم إلا الخبيث المستقذر، فلهذا صار الطيب في لسان الشرع يجيء كثيراً بمعنى الحلال، ويكون ضده الخبيث بمعنى الحرام، ومنه: {كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ} [المؤمنون : 51]،

(1) المصدر نفسه (1 / 362).

أي المحللات، فملك غيرك وإن كان مستلذاً في الحس، فإنه ليس طيباً لك شرعاً، وذلك لأنه مستقذر في العقل بما فيه عند تناوله بدون إذن صاحبه من التعدي المستقبح في العقل، وقد يجيء الطيب بمعنى الجيد، والخبيث بمعنى الرديء، وعليه قوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ} [البقرة : 267].

الصالح هو المستقيم النافع، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات وتناول المباحات من حيث أنها مباحات أو وسائل لفعل المأمورات وترك المنهيات(1).

التراكيب:

للاهتمام بالمأمور به قدمت قبل الأمر جملة النداء، ولأن هذا المأمور به مما يجب عليهم تبليغه نودوا بلفظ الرسل، ولأن كل واحد منهم أوحى الله إليه بهذا النداء والأمر في زمانه كان النداء والأمر للجمع، وقد دخل في الجمع عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان الحديث عليه من الآية التي قبل هذه وهي: {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آية وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ *} [المؤمنون : 50].

كما دخل في الجمع محمد ـ (ص) ـ الذي نزلت عليه هذه الاية، ولأن المقصود من الأكل ـ هو الغذاء واللذة ـ يحصل ببعض قليل «من الطيب» بمن التبعيضية، ولما كان المخاطب يأكل الحلال والعمل الصالح شأنه أن تشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك جاء الخبر مؤكداً بإن في: {إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *} [المؤمنون : 51]، وعلم الله مستلزم لجزائه للعاملين، فكان كتابه عن الجزاء وفي الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيم لهذا الجزاء وتعظيم فهو جزاء الله العليم وكفر به.

التفسير:

خلق الإنسان مركباً من روح وبدن، وإنما بقاء بدنه بالغذاء، وإنما كمال روحه بالعمل، فأمر الله بالأكل

(1) المصدر نفسه (1 / 364).

لبقاء البدن واشترط أن يكون من الطيبات لأنها هي التي تغذي ولا تؤذي، وأما الخبائث وفيها الأذى ويتفه أو يعدم منها العداء وأمر بالعمل الصالح الذي فيه زكاء للنفس ونفع لها في العاجل والاجل وخير للعباد والبلاد، وأخبر بعلمه بعمل العاملين ليجتهدوا في العمل ويخلصوا له فيه وينتظروا جزاءهم من عنده والدِّين كله عمل صالح وتوحيد خالص، وقد انتظمتهما الآية تصريحاً في العمل واستلزاماً في التوحيد. وبيَّن تعالى بهذه الآية أن ما اشتملت عليه هو دين الله لجميع الأمم أوصى به رسله ـ صلوات الله عليهم ـ ليبلغوه لخلقه فهو حقيق أن يؤخذ به ويعمل.

توجيه الترتيب:

تتوقف الأعمال على سلامة الأبدان، فكانت المحافظة على الأبدان من الواجبات، ولهذا قدم الأمر بالأكل على الأمر بالعمل، فليس من الإسلام تحريم الطيبات التي أحلَّها الله كما حرم غلاة المتصوفة اللحم، وليس في الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعله متصوفة اللحم. وليس من الإسلام تضعيف الأبدان وتعذيبها، كما يفعله متصوفة الهنادك ومن قلدهم من المنتسبين للإسلام. والميزان العدل في ذلك هو ما كان عليه النبي (ص) ـ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وقد بيَّن ذلك أئمة الأثر رحمهم الله، وقد جوده مالك ـ رضي الله عنه ـ في كتاب الجامع من الموطأ، وفي تقديم الأكل من الطيبات على العمل الصالح تنبيه على أنه هو الذي يثمرها، لأن الغذاء الطيب يصلح عليه القلب والبدن فتصلح الأعمال، كما أن الغذاء الخبيث يفسد به القلب والبدن فتفسد الأعمال.

بيان نبوي:

خرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم قال: «أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ *} [المؤمنون : 51]، وقال تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} [البقرة : 172].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمده يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك».

فبين الحديث الشريف أن الله طيب، أي منزه عن النقص في ذاته وصفاته وأفعاله تنعم العقول والأرواح بمعرفته .كما يليق به . ومحبته، وأنه لا يقبل من الأعمال إلا طيباً أي صالحاً من نفسه خالصاً من شوائب المخالفة والرياء والشرك، وبيَّن أن الشرع عام للرسل وللأمم ولا يستثنى من هذا إلا ما دل على اختصاصه بالرسل، وبيَّن أن أكل الحلال هو الذي يثمر قبول الدعاء والدعاء هو مخ العبادة، فإذا رُدَّ عليه فقد رُدَّت عليه عبادته، فكان هذا البيان النبوي على مقتضى ما أفاده ترتيب الأمرين في الاية.

تكميل:

في آية الرسل الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالعمل الصالح واستلزام الأمر بالإخلاص، وفي آية المؤمنين الأمر بالأكل من الطيبات والأمر بالشكر، والتصريح بلزوم توحيده تعالى في العبادة لأن تمامها هكذا:

. {وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ *} [البقرة : 172].

واقتصر في الحديث على الأمر بالأكل من الطيبات إما لأن الأكل كان في الحديث على أكل الحلال، وإما لأن الراوي اختصر الرواية.

الاهتداء:

على المؤمن أن يتحرى في مأكله ومشربه وكل ما فيه قوام ذاته الحلالَ الطيب يمتثل بذلك أمر الله، ويقصد التوصل به إلى العمل الصالح وعليه أن يتحرى في فعله وتركه أمر الله ونهيه حتى يكون عمله عملاً صالحاً طيباً متقبلاً ويمتثل بذلك أمر الله ويقصد قبول عبادته ودعائه لديه، والتحري للحق والخير جدير بالتوفيق إليه وكثرة إصابته.

رزقنا الله والمسلمين التحري لطاعته والتوفيق لمرضاته والتأدب بكتابه آمين(1).

---

(1) المصدر نفسه (1 / 341).

هـ ـ الود من إكرام الله لأولياء الله:

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *} [مريم : 96].

سبب النزول، ووعد السابقين:

كان السابقون الأولون ـ من المؤمنين ـ أول الإسلام بمكة ـ مبغوضين من أهل مكة المشركين مهجورين منهم مزهوداً فيهم، ومن أشد الالام على النفس وأشقها أن يعيش الإنسان بين قومه مبغوضاً مهجوراً مزهوداً فيه، وخصوصاً مثل تلك النفوس الحية الأبية، فأنزل الله هذه الآية تأنيباً لأولئك السادة ووعداً لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنه سيجعل لهم وداً فيصيرون محبوبين مرغوباً فيهم، وقد حقق الله وعده فكان أولئك النفر بعد السادة المتقدمين من أقوامهم وعشائرهم لسبقهم وفضلهم وكانوا ـ وهم قادة الجيوش في الفتوحات الإسلامية ـ المحبوبين هم وجيوشهم المرغوب فيهم من الأمم التي فتحوها لعدلهم ورحمتهم ورفعهم لنير الاستعباد الديني والدنيوي، أن بعض الأمم الأجنبية دعتهم إلى إنقاذها من أيدي رؤسائها، فكانت هذه الآية من آيات الإعجاز بالإعلام بما يتحقق في الاستقبال مما هو كالمحال في الحال فكان على وفق ما قال.

عموم الوعد لعموم اللفظ:

الإيمان ـ وهو التصديق المثمر للأعمال ـ والأعمال الصالحة ـ وهي المستقيمة النافعة المبنية على ذلك الإيمان ـ هما اللذان جعلهما الله سبباً في تحقيق هذا الود لما قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *}

فيعم ذلك كل أهل الإيمان والعمل الصالح وهم أولياء الله و {إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ} [الأنفال : 34].

ـ سبب الود وسبب الجعل:

تُكسب مودة الناس، بأسباب متعارفة بينهم، منها القرابة ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف ومآثر

الإحسان وأما هذا الود الذي وعد الله به الذين امنوا وعملوا الصالحات فسببه جعلٌ من الله له في قلوب العباد لهم دون تودد منهم ولا توقف على تلك الأسباب، فيودّهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة ولا وصلَ إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود الخاص يكرمهم الله به وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح ـ ومنه الإحسان ـ من مودة القلوب، أما سبب هذا الجَعْل والوضع والإيجاد من الله لهذا الود والإكرام به ؛ فهو الإيمان والعمل الصالح، وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى، هذا الجعل للود منها.

بشارة وتثبيت:

في الآية من سبب نزولها بشارة لدعاة الحق وأنصار السنة ومرشدي الأمم ؛ عندما يقومون بدعوة القرآن في عشائرهم ويلقَون منهم النفور والإعراض والبغض والإنكار ويجدون أنفسهم غرباء بينهم، يعاديهم من كانوا من أحبابهم ويقاطعهم أقرب الناس قرابة إليهم، ويصبح يؤذيهم من كان يحميهم ويدافع عنهم، في الآية بشارة لهم بأن تلك الحالة لا تدوم، وأنهم سيكون لهم على كلمة الحق مؤيدون، وفي الله محبون، وسيكون لهم ود في القلوب ممن يعرفون وممن لا يعرفون، وفيها أيضاً تثبيت لهم في تلك الغربة ووحشة الانفراد بما يكون لهم من أنس الود وأي ود هو، ود يكون من جعل الرحمن.

دفع إشكال:

الاية منظور فيها إلى مجموع الذين امنوا وعملوا الصالحات وغالبهم، فلا يشكل علينا أن منهم من يموت في غربة الحق قبل أن يكون له على الحق أنصار، ومنهم من يموت غير معروف من الناس، كما أن الود الذي يجعل لهم غير منظور فيه للعموم فلا يشكل ببغض من يبغضهم تعصباً لهوى أو تقليداً أو حرصاً على منفعة أومحافظة على جاه أو منصب أو مال.

تفسير نبوي:

قال رسول الله (ص): إن الله إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل ثم ينادي في السماء، إن الله يحب فلاناً فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل ثم ينادي «جبريل» في أهل السماء إن الله يبغض فلاناً فأبغضوه فيبغضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض. رواه بهذا اللفظ مسلم ورواه البخاري وغيرهما. وزاد الطبراني.

ثم قرأ رسول الله (ص): {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *} [مريم : 96].

فارتبط الحديث بالآية بزيادة الطبراني، وبيّن النبي (ص) بقراءة الآية أن هذا القبول الذي يجعل لمن أحبه الله في أهل الأرض ـ والمراد بهم من يعرفونه منهم، هو نوع الود المذكور في الاية، وبين أن أهل القبول في الأرض محبوبون في أهل السماء قبل أهل الأرض، وبين أن سبب ذلك القبول هو محبة الله لهم، فمن أحبهم حببهم لعباده. ولما كان سبب القبول محبة الله لهم بيَّن صلى الله عليه واله وسلم أن بغض الله سبب في بغض الخلق لهم، إذا ما تسبب عن أحد الضدين يتسبب عن ضده الضد الاخر، وكما كان ذلك الود والقبول يكون شيئاً زائداً على ما تقتضيه أسباب الود بين الناس، كذلك تكون هذه البغضاء بينهم، فيكون هذا الذي وضعت له البغضاء ـ والعياذ بالله ـ مبغوضاً حتى ممن لم يكن منه إليه شيء من أسباب البغض.

تبيين وتعيين:

قد يكون الأتباع والمحبون والراغبون لأهل الحق، ولأهل الباطل، لأئمة الهدى، ولرؤوس الضلال، لدعاة الأتباع ولدعاة الابتداع، ولكن أصل المحبة من الله والود والقبول من العباد هم أهل الحق وأئمة الهدى ودعاة الاتباع للكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالحون، لا لأنفسهم والتحزب لهم وجلب النفع لهم، والذي

يعينهم لهذه الكرامة دون غيرهم هو اتباعهم للنبي (ص) في سيرته ودعوته وما كانت دعوته إلا للقرآن وبالقرآن، دون أن يسأل على ذلك من أجر، وهذا لأن الود والقبول عند العباد مسببان عن محبة الله للعبد، ومحبة الله لا تكون إلا للمتبعين للنبي صلى الله عليه واله وسلم لقوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} [آل عمران: 31].

فكرامة الود والقبول إنما هي للمتبعين له ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ فأما غيرهم فما يكون لهم من قبول عند أمثالهم فهو فتنة وبلاء عليهم.

إرشاد:

أفادت الآية الكريمة والحديث الشريف أنة على المسلم أن يتمسك بالإيمان والعمل الصالح والاتباع للنبي (ص)، ولو كان في قوم انفرد بينهم بذلك وحده، ولا يستوحش من انفراده بينهم، فحسبه رضى الله ومحبته، وكفى بهما أنساً، وليثق بأنه ـ إن صدق ـ ومد الله في عمره يكون له ود وقبول في عباد الله وأنس بمن يحبهم ويحبونه لله، وتلك المحبة النافعة الدائمة والصلة المتينة الجامعة التي تجمع بين أهلها في الدنيا والاخرة. وجعلنا الله والمسلمين من العاملين له والمتحابين فيه[1].

و ـ وقال تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *} [النمل : 20].

ـ الألفاظ والتراكيب:

تفقد: التفقد تطلبك ما فقدته وغاب عنك، وتعرفك أحواله، لا أرى: لا أبصر، الهدد: هو «تبيب» وهو طائر صغير الجرم منتن الريح ليس من كرام الطير ولا من سباعها. مالي لا أرى: أستفهم عما حصل له فمنعه الرؤية حيث ظن أولاً أن الهدهد كان حاضراً، وإنما هو لم يره. أم كان من الغائبين: أستفهم عن غيبته حيث ظن ثانياً أنه غائب فاستفهم عن صحة ما ظن، فكلمة أم فيها إضراب وفيها استفهام، فأضرب إضراب انتقال من ظن إلى ظن، كان من الغائبين: تعريض بقبح فعله لما انحط عن شرف الحضور وكان من الغائبين.

---

(1) المصدر نفسه (1 / 343، 344، 345).

المعنى:

تطلب سليمان ـ عليه السلام ـ معرفة ما غاب عنه من أحوال الطير، فلم ير الهدهد، وأخذ يتساءل فظن أن شيئاً ستره عنه فلم يره، ولما لم يكن شيء من ذلك ظن أنه كان غائباً غير حاضر وذلك هو الظن الأخير الذي حصل به اليقين.

تعليم وقدرة:

من حق الرعية على راعيها أن يتفقدها ويتعرف أحوالها إذ هو مسؤول عن الجليل والدقيق منها، يباشر بنفسه ما استطاع مباشرته منها ويضع الوسائل التي تطلعه على ما غاب عليه منها، وينيط بأهل الخبرة والمقدرة والأمانة تفقد أحوالها حتى تكون أحوال كل ناحية معروفة مباشرة لمن كلف بها، فهذا سليمان على عظمة ملكه واتساع جيشه وكثرة أتباعه قد تولى التفقد بنفسه ولم يهمل أمر الهدهد على صغره وصغر مكانه، وقد كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: لو أن سخلة بشاطئ الفرات يأخذها الذئب ليسأل عنها عمر. وهذا التفقد والتعرف هو على كل راعٍ في الأمم والجماعات والأسر والرفاق وكل من كانت له رعية.

تعليل وتحرير:

تفقد سليمان جنس ما معه من الطير للتعرف كما ذكرنا، وذكر الطير لأنه هو الذي تعلقت به القصة، وليس في السكوت عن غير الطير ما يدل على أنه لم يتفقده، فالتفقد لم يكن للهدهد بخصوصه وإنما لما تفقد جنس الطير فقده، ولم يجده فقال ما قال، فلا وجه لسؤال من سأل: كيف تفقد الهدهد من بين سائر الطير؟

تدقيق لغوي وغوص علمي:

سأل سليمان عن حال نفسه فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ ولم يسأل عن حال الهدهد، فيقل: ما للهدهد لا أراه ؟ فأنكر حال نفسه ، قبل أن ينكر حال غيره، فنقل الحافظ الإمام ابن العربي عن الإمام عبد

الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال: إنما قال ما لي لا أرى لأنه اعتبر حال نفسه ذا علم أنه أوتي الملك العظيم وسخر له الخلق فقد لزمه حق الشكر بإقامة الطاعة وإدامة العمل، فلما فقد نعمة رؤية الهدهد ؛ توقع أن يكون قصّر في حق الشكر ؛ فلأجله سلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: ما لي.. وكذلك تفعل شيوخ الصوفية إذا فقدوا امالهم تفقدوا أعمالهم، وهذا في الاداب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض؟[1].

توجيه:

مثل هذه المعاني الدقيقة القرآنية الجليلة النفيسة من مثل هذا الإمام الجليل من أجل علوم القرآن وذخائره. إذ هي معاني صحيحة في نفسها ومأخوذة من التركيب القرآني أخذاً عربياً صحيحاً، ولها ما يشهد لها من أدلة الشرع. وكل ما استجمع هذه الشروط الثلاثة فهو صحيح مقبول، ومنه فهم عمر وابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أجل رسول الله ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ من سورة النصر، أما ما لم تتوفر فيه الشروط المذكورة وخصوصاً الأول والثاني فهو الذي لا يجوز في تفسير كلام الله وهو كثير في التفاسير المنسوبة لبعض الصوفية، كتفسير ابن عبد الرحمن السلمي من المتقدمين والتفسير المنسوب لابن عربي من المتأخرين.

الآية السابعة وهي: 21 من النمل (27):

{لأَعِذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ *} [النمل : 21].

الألفاظ والتراكيب:

«عذاباً شديداً»: بنتف ريشه، هكذا فسره ابن عباس وجماعة من التابعين، بسلطان مبين: بحجة قاطعة توضح عذره في غيبته، سميت الحجة سلطاناً لما لها من السلطة على العقل في إخضاعه، أفادت (أو) أن المحلوف على حصوله هو أحد الثلاثة، فإذا حصلت الحجة فلا تعذيب ولا ذبح، ولو لم تحصل لفعل أحدهما،

(1) المصدر نفسه (2 / 33 إلى 35).

وقدم التعذيب لأنه أشد من القتل، وحالة الغضب تقتضي تقديم الأشد.

المعنى:

يقسم سليمان على معاقبة الهدهد ـ وقد تحقق غيبته ـ بالتعذيب أو بالذبح إذا لم يأته بالحجة التي تبين عذره في تلك الغيبة ولا يستثني للعفو ولا يجعل سبباً لسلامته من العقوبة إلا الحجة.

توجيه واستنباط:

ليس في الآية ما يفهم خصوص نتف الريش من لفظ العذاب الشديد، وإنما فهم ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ وأئمة من التابعين ذلك بالنظر العقلي والاعتبار، فإنَّ نتف ريشه يعطل خاصية الطيران فيه فيتحول من حياة الطير إلى حياة دواب الأرض، وذلك نوع من المسخ، وقد علم أن المسخ في القرآن أشنع عقوبة في الدنيا، فلهذا فسروا العذاب الشديد بنتف الريش.

والإنسان خاصيته التفكير في أفق العلم الواسع الرحيب فمن حرم ـ إنساناً ـ فرداً أو جماعة ـ من العلم فقد حرمه من خصوصية الإنسانية وحوله إلى عيشة العجماوات وذلك نوع من المسخ فهو عذاب شديد وأي عذاب شديد؟.

صرامة الجندية:

كان هذا الهدهد من جنود سليمان التي حشرت له، وقد كان في مكانه الذي عُيِّن له وأقيم فيه، فلما فارق وترك الفرجة في صفه وأوقع الخلل في جنسه استحق العقاب الصارم الذي لا هوادة فيه، وهذا أصل في صرامة أحكام الجندية وشدتها ؛ لعظم المسؤولية التي تحملتها، وتوقف سلامة الجميع على قيامها بها، وعظم الخطر الذي يعم الجميع إذا أخلت بها.

تقدير العقوبة:

جرم الهدهد صغير وما كُلِّف إلا بما يستطيعه من الوقوف في مكانه والبقاء في مركزه، ولكن جرمه بإخلاله بهذا الواجب كان جرماً كبيراً ؛ فإن الخلل الصغير مجلبة للخلل الكبير، فقدرت عقوبته على حسب كبر ذنبه لا على حسب صغر ذاته.

تنبيه وإرشاد:

كل واحد في قومه أو في جماعته هو المسؤول عنهم من ناحيته مما يقوم به من عمل حسب كفاءته واستطاعته، فعليه أن يحفظ مركزه ولا يدع الخطر يدخل، ولا الخلل يقع من جهته، فإنه إذا قصَّر في ذلك وترك مكانه فتح ثغرة الفساد في قومه وجماعته، وأوجد السبيل لتسرب الهلاك إليهم، وزوال حجر صغير من السد المقام لصد السيل يفضي إلى خراب السد بتمامه.

فإخلال اي أحد بمركزه ولو كان أصغر المراكز مؤد إلى الضرر العام، وثبات كل واحد في مركزه وقيامه بحراسته هو مظهر النظام والتضامن وهما أساس القوة.

الحق فوق كل أحد:

لقد أغضب سليمانَ غيابُ الهدهد، فلذا توعده هذا الوعيد وأكده هذا التأكيد، ولكن سلطان سليمان في قوته وملكه ومكانته يجب أن يخضع لسلطان آخر هو أعظم من سلطانه: هو سلطان الحق، والحق فوق كل أحد، وملك سليمان ملك حق ؛ فلا بد له من الخضوع لسلطان الحجة، ليقيم ميزان العدل، والعدل أساس الملك وسياج العمران[1].

9. ختم تفسير القرآن الكريم:

عندما ختم العلاَّمة ابن باديس تفسير القرآن الكريم اهتم العلماء وإخوانه من أعضاء الجمعية بهذا الحدث الكبير وتمَّ تدوين أحداث الاحتفال، وكان من أفضل من كتب تفاصيل ذلك الاحتفال المهيب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بقلمه المانع وقدرته على التصوير بدقة متناهية، وإليك ما قال محمد البشير في نقاط معنونة:

(1) المصدر نفسه (2 / 37).

أ . الزمن الذي أخذه ابن باديس في تفسير القرآن الكريم:

أتمَّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درساً على الطريقة السلفية، وكان إكماله إياه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدَّخرة لهذا القطر، وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله، تمسح عن نفوسهم الأسى والحزن لما عاق إمام المصلحين محمد عبده عن إتمامه درساً، ولما عاق حواريه الإمام رشيد رضا عن إتمامه كتابة.

إن إكمال تفسير القرآن على تلك الطريقة في مدة تساوي . بعد حذف الفترات . المدة التي أكمل الله نزوله فيها، يعد في نظر المتوسمين إيذاناً من الله برجوع دولة القرآن إلى الوجود، وتمكين سلطانه في الأرض، وطلوع شمسه من جديد، وظهور المعجزة المحمدية كرة أخرى في هذا الكون.

ثم كان الاحتفال بختمه بمدينة قسنطينة في الثالث عشر من ربيع الثاني عام 1357هـ دليلاً على انسياق الأمَّة الجزائرية المسلمة إلى القرآن واجتماع قلوبها على القرآن وشعورها بلزوم الرجوع إلى هداية القران، ولا معنى لذلك كله إلا أن إحياء القرآن على الطريقة السلفية إحياء للأمة التي تدين به.

ثم جاءت حفلات التكريم للأستاذ المفسِّر ولوفود القران، وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة، وكرم اللقاء وبشاشة المظهر وتهلل الأسرة وإكرام المثوى وإغداق الضيافة بالغة، على أن القرآن فعل فعله في تلك النفوس فجمعها على التقوى وهداها لكريم الخلال وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة، فتعارفعت بعد التناكر وتالفت بعد التخالف، ويوشك أن يأتي بعد هذا التعارف الخير الكثير(1).

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، د. محمد درَّاجي ص 24.

ب . تفاوت الاحتفالات:

تتفاوت الاحتفالات بتفاوتها في سمو المعاني التي تقوم لأجلها، فبقدر سمو السبب وعموميته تكون قيمة الاحتفال، ثم تنزل تلك وترخص كلما تفه السبب أو خصَّ حتى تصل إلى درجة الساقط الذي لا وزن له. ولا يدخل في هذا الباب إلا بضرب من التوسع والتساهل، فأسمى هذه الأسباب ما يذكّر الجمهور بأمجاده التاريخية ومفاخره القومية ومنها نخوة أماتها الضيم، وفحولة قضى عليها التأنث، وذكرى أخنت عليها الغفلة والنسيان، وأصالة خبَّثتها الأعراق الدسيسة، وعزيمة أطفأتها طباع الضعف والفسولة، وأريحية غطى عليها اللؤم المخزي والشح المطاع، وشواعر خدرتها تهدئة الدخيل وزمزمة الحاوي وهيمنة الواغل.

ثم ما يجلو عليه حقيقة دينية أو علمية غشيتها الأوهام والخرافات، ثم ما يحقق له مصلحة في الحياة كانت مجهولة أو حقاً فيها كان ضائعاً، ثم ما يكشف له عن وجوه الفساد فيه ليتقيه ثم.. ثم..

هذا من جهة الأسباب والبواعث، فأما من جهت الأشكال والصور، فأعلى ما فيها أن ينساق إليها الجمهور سائقاً وجدانياً، وأخس ما فيها أن يساق إليها سوقاً أو أن يخدع فيها عن وجدانه بالمرغبات الخادعة.

ج . أسباب الاحتفالات:

لكل أمة أسباب طارئة وبواعث تاريخية تدعوها إلى إقامة الاحتفالات، وقد تنبهت الأمم الحية إلى ما فيها من الفوائد فجعلت الاحتفال بها جزءاً من حياتها ومادة من قوانينها الاجتماعية، وإن الأمة الإسلامية لأغنى الأمم من هذه البواعث التاريخية، وكلها من ذلك الطراز العالي الذي أشرنا إليه، ومعظمها بواعث دورية يفضي الباعث منها إلى باعث، فلا تفتأ الأمة مستعرضة ماضيها كله، ولاتزال في غمرة من المنبهات المنعشة.

عندنا معشر المسلمين ليلة الميلاد النبوي وعندنا يوم الهجرة ورأس السنة الهجرية ويوم بدر ويوم أحد ويوم فتح مكة، وغير ذلك من الأحداث التي وقعت في عهد النبوة، ولكل واحد من هذه الأحداث مغزى سام

وأثر بالغ في تاريخنا، وهلم إلى ما بعد من الوقائع الشهيرة الفاضلة حتى تنتهي إلى فتح صقلية ومواقع الحروب الصليبية وفتح القسطنطينية، وهلم ما يخصنا معشر الأفارقة كبناء القيروان واستواء طارق على الجبل، وهلم ما تقتضيه المناسبات في بعض الأوقات كفتح خيبر ودخول عمر لبيت المقدس، وتعال إلى القوَّاد والفاتحين والأجواد والعلماء والحكماء والفلاسفة والشعراء . ولا تعدّ من الدرّ إلا كباره . تجد ما زخره التاريخ وفاضت به العصور ومع هذه المفاخر.

فقلَّ أن تجد قطراً إسلامياً سنَّ أهله سنة صالحة في إحياء هذه الذكريات وإحياء الأمَّة بها إلا في القليل المشوَّه الذي لا ينفع غلة ولا يصيب مرمى[1].

د . غفلة عن إحياء الذكريات النافعة:

إن غفلتنا عن إحياء أمجادنا التاريخية هي التي أزهقت في الأمم الإسلامية روح التأسِّي، فأفقرتها من الرجال وجعلت تاريخها الحديث خلواً من المثل العليا، حتى اندس هذا العرق الخبيث في ادابنا فترانا إذا التمسنا مثلاً في الجود، طوينا تاريخ الإسلام كله كأنه صفحة مغسولة وجئنا من العصر الجاهلي بحاتم، وقل مثل ذلك في عنترة والسموأل، فإذا قصرنا الخطو وقاربنا النجعة ووقفنا عند العصر الأول للإسلام، فهل خلت العصور التي بعدهم من مُثُل كاملة ومن مفاخر خالدة؟ لا، فقد تأسَّى عصر بعصر وجيل بجيل، فجاءت عصور زاهرة وأجيال عامرة، فهل جهل التاريخ وانقطعت العلائق الواصلة بين عصوره وضعفت روح التأسَّي ثم تلاشت وصرنا إلى هذا الفقر الشائن في المثل وهذا الخواء المزري في التاريخ؟

وقد زادتنا أضاليل الغاشين إمعاناً في الغفلة وإغراقاً في الركود، ففقهاء هذه العصور الجرداء يمدون التاريخ علماً لا ينفع وجهالة لا تضر، والأجانب يعيّروننا بأننا أمة تعيش في الماضي ويغشّون سفهاءنا في معرض التنصح بأمثل هذه الكلمات ليّاً بألسنتهم وتزهيداً في هذا الماضي زيادة على زهدنا فيه وهم يعلمون أننا نعيش

(1) المصدر نفسه ص 42.

بلا حاضر، ويوجسون خيفة من أن يلم بنا طيف من ذلك الماضي الزاهر فنبني عليه ـ حاضراً من جنسه أكمل منه.

إلا أنهم من إفكهم يقولون: دعوا ماضيكم، فهل تركوا ماضيهم؟.

إنما نراهم أحرص الناس على الاعتداد به والاستمداد منه والامتداد معه إلى عصور الخرافات والأساطير.

وما لنا وللغاش والناصح، إن لنا لماضياً عبقرياً حسدتنا عليه الأمم التوالي، بعد أن حرضت به الأمم الخوالي، فمن مصلحتنا وحدنا أن نحيي ذكرياته في نفوسنا وأن نستمد منه قوة لأرواحنا، وأن نربي ناشئتنا على احتذاء مثله وعبقرياته، وإن إقامة الاحتفالات لتلك البواعث لطريق قاصد إلى ما نريد من ذلك(1).

ومما جاء في كلمة البشير الإبراهيمي في الاحتفالات وتصوير وصفي للاحتفال العظيم بختم القرآن العظيم أيضاً:

هـ ـ التحذير من بعض الاحتفالات:

لا نريد للمسلمين أن يعكفوا على تلك الاحتفالات المولدية الشائعة التي يقتصر فيها على تلاوة القصص المشوَّهة، فإن ذلك الطراز لا يتفق مع شرف الذكرى وجلالها. وإن القصص المولدية الحشوية، والخطب المنبرية الرائجة هما سبب تنويم هذه الأمة وأصل بلائها، ولا أن نعكف على ذلك النوع الشائع في مصر كمولدي النبوي والرفاعي وغيرهما، فإن ذلك النوع ـ زيادة على إفساده للدين والأخلاق ـ لايثير النفوس إلى ذكريات ماجدة ولا معاني شريفة، وإنما يمكّن فيها للتخريف والدجل، ولا ذلك النوع الشائع من الأوساط الشعبية من احتفالاتهم يوم عاشوراء بذكرى مقتل الحسين ـ عليه السلام ـ فإنه فضلاً عما يقع فيه من المنكرات المخجلة، لا يثير إلا الحفائظ والإحن ولا يثمر إلا توسيع شقة الخلاف ، ولقد حضرت احتفالاتهم مرة واحدة بدمشق في

(1) المصدر نفسه ص 43.

تربة بأرسلان ؛ فعجبت كيف تصدر تلك الشناعات من مسلم وعلمت لأول مرَّة: إلى أي حد ينتهي التعصُّب والغلو، ثم ذاكرت عالم الشيعة بدمشق الشيخ عبد المحسن العاملي وهو عالم فاضل أديب معتدل في ذلك، فأنكر ما أنكرت بالقول واعتذر عن الإنكار بما فوق ذلك بما يعتذر به علماء الدين في كل مكان.

لا نرضى للمسلمين بهذا الطراز البالي من الاحتفالات التي ذكرنا بعض أنواعها، فقد عكفوا عليها قروناً فما زادتهم إلا خبالاً وانحطاطاً، وإنما نريد منهم محوها واستبدالها بما هو خير، وقد تتابع السواد الأعظم من إخواننا المصريين في هذا النوع السخيف مثل ما تتابع الفريق المثقف منهم في تقليد الغربيين في هذا الباب لا تحفظ ولا استمساك، فبينما سواد الأمة وعديدها الأكثر عاكف على الأضرحة، يقيم حولها احتفالات الموالد ويرجو منها الإمداد، وعلماء الدين يمدونهم في الغي بسكوتهم، ومشيخة الأزهر تزكي أعمالهم بتقبيل شيخها لمقود جمل المحمل.

ونرى الطرف الاخر يتهالك على تقليد الغربيين في ولائمهم واحتفالاتهم السخيفة بالتوافه والسفاسف، ويستهتر في هذا التقليد حتى تطغى احتفالات الغرب الدينية والقومية حتى على المواسم الشرقية الدينية، وهذه جرائدهم ومجلاتهم تشهد في ضجر وعتب أو في رضى وإعتاب بأن هذه الطائفة، وهم عمار الحواضر، يحيون ليلة الميلاد المسيحي وعيد راس السنة المسيحية، ولا يأبهون لعيد الفطر ولعيد الأضحى، ولعمري إن هذا لهو الاستعمار الروحي الذي لا يُعد الاستعمار المادي معه شيئاً مذكوراً[1].

ويا ليت إخواننا هؤلاء استبدلوا غرباً بغرب، فقلَّدونا نحن. ما دام التقليد مبلغ جهدهم . في كثير من هذه المعاني التي يقلِّدون فيها الغربيين، ألسنا مغاربة؟ ألسنا أحق باسم الغرب بالنسبة إلى مصر؟ وإنما أوربا شمال مصر، وقد شرع لهم الشاعر حافظ إبراهيم هذه التسمية في قوله:

ودعونا نشم ريح الشمال أم يقولون: إننا برابرة ومتوحشون: فنعم وكرامة عين، ولكننا مع ذلك شداد في

---

(1) المصدر نفسه ص 46.

الاستمساك بحبال الشرقية في كثير من مناحي الحياة، ولقد صاحبنا الاستعمار أكثر من قرن فما استطاع لنا هضماً.

خالفنا الاتجاه ليلاً ولمسنا ببعض العتب علاقة عزيزة علينا وعزيزاً علينا أن نراها مسرفة في التقليد، غالية في المتابعة على غير هدى على حين نأتمّ بها ونعدها لإمامة الشرق كله، فليهنأ إخواننا أننا تلامذتهم، ولكن في غير ما هم فيه تلامذة الغرب[1].

و . احتفالات الجزائر:

لم تعرف الجزائر في ماضيها من الاحتفالات إلا تلك الصور العادية الساذجة في العيدين الدينيين، وإلا الزرد الموسمية في بعض الجهات، وإلا نوعاً آخر هو أقرب إلى الاحتفال المنظم لو خلا من المحظورات الدينية وحلا بالمشارب القومية والفوائد الاجتماعية، والعامة تطلق على هذا النوع اسم «الأركاب» وهم يعنون جمع رَكْب بسكون الكاف كأركاب خالد بن سنان حماد، وركب عامر لقبر عطية قرب قلعة بني حماد، وركب قسنطينة لقبر ابن عبد الرحمن بالجزائر، وركب البليدة لقبر الشيخ أبي مدين بتلمسان، وكلها من شدّ الرحال غير المشروع، وكلها قريبة من النوع الذي نعيناه على المصريين وإن كانت أقل منه فساداً أو إفساداً.

وعرفت الحواضر الجزائرية شبه احتفال بالمولد النبوي، يقتصر فيه على التجمير والتقصير وتلاوة قصة من القصص الحشوية الشائعة، ولقد حضرت . منذ سنوات . حفلة مولدية من هذا النوع بحاضرة الجزائر، وسمعت من بعض ما كان يقول قوله: إن النبي (ص) كان يرى من أمام كما يرى من الخلف بعينين خلقهما الله في قفاه.. وكان بجنبي فقيه مقرأئ خفيف الروح، سلفي النزعة، فتغامزنا بالإنكار ولم نستطع جهرة، إذ كان ذلك قبل انتشار الحركة الإصلاحية، ثم أسرَّ إليَّ على سبيل الدعابة قوله: أبى الله إلا أن نكون أسبق منكم لكل

(1) المصدر نفسه ص 47.

شيء، فعندنا من هذه «المارِكة» من العلماء من يقول ويكتب: إن النبي (ص) لم يولد من السبيل المعتاد[1].

ز . الاحتفالات النافعة:

ولبثت الجزائر محرومة من هذا النوع المفيد الذي يغرس المعاني السامية في النفوس بأسبابه وبواعثه، ويزرع المبادئ العالية والمعارف والاداب في العقول بما يقال فيه إلى أن كان عهدها الأخير وكانت نهضتها العلمية الدينية، فلأوائل هذه النهضة شعرت بما للاحتفالات من أثر صالح في النهضات، فالتفتت إليها وجعلتها إحدى ذرائعها لتعضيد الأعمال والمشاريع ونشر المبادئ الصالحة وبث الأفكار النافعة، وترقت بها مع الزمن حيث النظام واختيار المناسبات حتى أصبحت تنافس أرقى ما عُرف من نوعها عن الأمم الأخرى[2].

ح . أروع احتفالات الجزائر:

لعل أروع احتفال شهدته الجزائر في عهدها هذا هو الاحتفال بفتح مدرسة «دار الحديث» بتلمسان في أواخر شهر سبتمبر من السنة الخالية، فقد كان بدعاً من الاحتفالات في نظامه، وفي ضخامة العمل الباعث عليه، وفي جلال المناسبة والذكرى، وفي احتشاد الأمَّة له، وفي علوّ الطبقة التي شهدته وتكلمت فيه من العلماء والشعراء، وقد وصفته الجرائد في حينه، وإنما جلبته هنا مناسبة الحديث عن الاحتفالات.

ثم جاء الاحتفال بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لدروس التفسير بالجامع الأخضر بقسطينة . وهو الذي ألهمنا كتابة هذه الكلمة، فكان شاهداً لما ذكرناه قريباً من تطور هذه الأمَّة في هذه الناحية، ودليلاً على أن نظام الاحتفالات بلغ في هذا القطر كماله، وعلى أن روح التأسي في الصالحات حييت في هذه الأمة وانتعشت، وأنها أصبحت تهتبل الفرص المواتية فتحسن الاختيار. وأذكر أننا كنا في جماعة من الرفقاء الأوفياء تذاكرنا مرَّة في إقامة حفلة تكريم لرفيقنا الأستاذ ابن باديس تنويهاً ببعض حقه على العلم وشكراً لأعماله

(1) المصدر نفسه ص 48.

(2) المصدر نفسه ص 49.

الجليلة واثاره الحميدة في التعليم بهذا الوطن واعترافاً بكونه واضع أسس النهضة وإنصافاً لكونه أسبقنا إلى التعليم وأشدَّنا اضطلاعاً به، وأكثرنا إنتاجاً وتخريجاً فيه.. وذهبنا في تقدير الفوائد التي تُجنى من هذا الاحتفال مذاهب لا غلوَّ فيها ولا إسراف. ثم فاتحنا أخانا الأستاذ بهذه الفكرة، فكان الجواب قوله: دعوا هذا حتى نختم دروس التفسير ـ وبيننا يومئذ وبين الختم سنوات ـ كأنه يرى أن عمله في التفسير هو أجلّ أعماله في التعليم، وأنه بإتمامه لهذا العمل يستكمل مزية الاستحقاق للتكريم والإجلال من أمته، إذ يكون قدَّم لها عملاً تاماً ناضجاً وصورة كاملة من مجهوداته، وزيادة على ما خرَّج لها من رجال.. كأنه ـ حفظه الله ـ كان معلق البال بهذا العمل ويخشى أن تقطعه قواطع الدهر.

وأراد الله، فحقق للأستاذ أمنيته من ختم التفسير، وللأمة رجاءها في تسجيل هذه المفخرة للجزائر، ولأنصار السلفية غرضهم من تثبيت أركانها بمدارسة كتاب الله كاملاً، وبدت مخايل الختم من أواخر السنة الحالية، فكثر الحديث في الأسمار وفي المنتديات عن الاحتفال، وصوَّرت منه الخواطر احتفالاً ملء الأمل.

وكذلك كان والحمد لله، تألفت لجنة تنظيم بمركز الاحتفال «قسنطينة»، وأعدَّت للاحتفال برنامجاً محيطاً محكماً وجعلت شعاره كله «القران»، فالوفود وفود القرآن والضيوف ضيوف القران، وأذاعت توقيت الاحتفال باليومين الرابع والخامس من شهر ربيع الثاني، ثم عدلت عنهما إلى الثاني عشر والثالث عشر منه لعوارض قاهرة لا يملك معها الخيار[1].

ط ـ توجه الوفود إلى قسنطينة:

انهالت الوفود القريبة الدار على قسنطينة يوم الجمعة وتلاحقت الأمداد يوم السبت، وشعر الناس شعوراً عاماً أن الجامع الأخضر لا يسع الوافدين، إذ انهال سيلهم، وأن محلاً ما من المحلات العامة لا يسعهم أيضاً،

(1) المصدر نفسه ص 51.

فألهموا من غير تواطؤ العمل بقاعدة التمثيل، فأرسلت كل بلدة وفداً محدود العدد يمثلها، فلم تبق بلدة من عمالة قسنطينة كبيرة أو صغيرة إلا ومثّلها وفد في مهرجان القران، فرأينا هناك وفود البلدان الساحلية من بجاية إلى الحدود التونسية ووفود مناطق التلول من سطيف إلى سوق أهراس ووفود المناطق الصحراوية من بسكرة إلى سوف، وتكاملت عقود هذه الوفود بوفد عاصمة الجزائر الضخم المؤلف من مائة وثلاثين شخصاً، ثم وفد تلمسان وهو أقصى الوفود داراً عن قسنطينة، فبينها ما يزيد عن ألف ميل، ولكن جاذبية القرآن هوَّنت عليه النصب واللغوب. رأى الوفد التلمساني أن يقطع الطريق من الجزائر إلى قسنطينة في سيارة أوتوبيس ذات أربعين مقعداً ليجمع بين الفائدة والنزهة، وعمل بالاتفاق مع الوفد الجزائري على أن يخرج الوفدان من الجزائر معاً ويدخلا قسنطينة مساء السبت معاً.

وبلغ أهالي سطيف أن الوفدين يمرَّان ببلدتهم فأبى عليهم كرمهم إلا أن يقيموا لها حفلة شاي فاخرة وأرسلوا للوفدين استدعاء مع رسول خاص، مبالغة منهم في البر والاحتفاء. وخرج الوفدان من العاصمة على الساعة السادسة من صباح السبت في قطار من السيارات الضخمة يتكوَّن منها منظر ساحر خلاَّب ووصلوا سطيف على الثالثة، بعد الزوال، فتلقَّاهم إخوانهم السطيفيون على بضعة أميال من المدينة بباقات الزهر وطيب التحية، واجتمع الجميع على مائدة الشاي الفاخرة.

ثم استقلَّ قسم من وفد سطيف في بضع سيارات للقاء موكب الوفود على خمسة وعشرين ميلاً إبلاغاً في المبرَّة، فتهلَّلت الأسارير عند اللقاء وطفحت الوجوه بالبشر وانطلقت الألسنة بالتحيات المباركات وتصافحت القلوب قبل أن تتصافح الأيدي وشمس الأصيل بشعاع الوجوه المستبشرة، فكان منظراً سحرياً أخَّاذاً لا يستقل بوصفه إلا شاعر ولست بشاعر، ثم انتظمت السيارات موكباً بديعاً وزحفت إلى قسنطينة فدخلتها بعد المغرب وليس وصف مشهد دخول هذا الموكب إلى قسنطينة وانغماس الضيوف والمضيفين في غمرة من نشوة الفرح البالغ إلى حد الذهول بالذي يسعه بياني وإن وسعه إدراكي وعياني.

اجتمعت وفود الغرب بوفود الشرق في مدرسة التربية والتعليم التي أعدَّت مكاتبها وطبقاتها وقاعاتها لهم أحسن إعداد، وبعد أداء فريضة العشاء انصرفوا إلى موائد المضيفين على تقسيم عجيب ومزج غريب يرجع الفضل والشكر فيه إلى لجنة الاحتفال.

ي . كرم القسنطينيين:

وقد تبارى كرام القسنطينيين ـ أحسن الله إليهم ـ في إكرام الوافدين وهزَّتهم الأريحية هزَّةٌ بعُد العهد بمثلها، وتجلَّت الضيافة العربية في أجلى صورها، يزينها نظام دقيق دفع هجنة الفوضى ووصمة الاحتلال التي تصاحب الاحتشاد والكثرة، فلم يتخلف مضيف عن ميعاد، ولم تختل لضيف وجبة، ولم يفترق للمجتمعين في منزل شملٌ، وتضاعفت الوفود صباح الأحد، فتضاعفت الحفاوة والبشر وتجلَّى الاستعداد الهائل واتسعت الصدور، فاتسعت المنازل وتنوَّعت صنوف البر حتى وسعت تلك الوفود الزاخرة سكناً مرفهاً وأكلاً مترفاً في أيام الاحتفال ولياليها وارتفعت الكلف بين كل نزيل وأبي مثواه حتى لتحسبهم إخوة رحم أو عشراء دهر.

ثم تلطفوا فخصُّوا الوفود التي لم تسبق لها زيارة قسنطينة، بنوع من التكريم وهو الطواف بهم في أوقات الفراغ على معالمها وقناطرها العجيبة وواديها المدهش ومناظرها الساحرة وغمروهم بفيض من الرقة واللطف أسرت ألبابهم وأنطقتهم ببليغ الشكر، فانقلبوا إلى أهلهم يحملون الإعجاب والإكبار ويضمرون المحبة الصادقة والولاء المحض.

هذه هي الاجتماعات التي كنا ننشدها فلا نجد هذه الاجتماعات التي تثمر التعرُّف الحقيقي وتجمع أفراد الأمَّة على الدين والخير والعلم، وقد زادها إخواننا القسنطينيون تمكيناً وشرعوا من اداب مناهج سيتحدث فيها المتمرسون ويذكرونها لهم بالجميل.

وما ظن الذين يفترون علينا ويتقوَّلون علينا الأقاويل؟ أفي مثل هذا الاحتفال من أعمالنا شائبة نقد أو رائحة إضرار بأحد؟

كان من المتوقع ـ على بعد ـ أن تسمح الإدارة بوقوع الختم في الجامع الأعظم لاتساعه لأضعاف ما يتسع له الجامع الأخضر، وقد طلب منها ذلك واتخذت وسائله فأبت، فما كان من لجنة الاحتفال وكرام القسنطينيين إلا أن قرَّروا أن يفسحوا في المجالس للوافدين وأن لا يزاحموهم في مقاعد الجامع الأخضر ساعة الدرس، ونفَّذوا هذه الخطة على أن تكون مكافاتهم من الأستاذ إعادة درس الختم في ليلة أخرى بعد انحسار الوفود عن قسنطينة(1).

ك ـ خطبة ابن باديس في الاحتفال:

وما كادت تشرق شمس يوم الأحد حتى اكتظ الجامع الأخضر بالوفود، فلم يبق فيه متنفس، وشمل الخشوع تلك الصفوف المتراصة حتى لا حركة ولا ضوضاء وتجلَّى جلال كلام الله في بيت الله، فكان مشهداً يستنزل الرحمات، ويتكفل باستجابة الدعوات، وصعد الأستاذ المفسِّر منبر الدرس فشخصت العيون وخفتت الأنفاس، واستهل بتلاوة المعوذتين، وشرع في تفسيرهما بما هو معهود منه، فلا يحتاج إلى نعت ولا إلى إطراء «وقد نشر ملخص الدرس في هذا العدد».

استغرق الدرس ما يقرب من ساعة ونصف أخذ الناس فيها على نفوسهم وجلَّلتهم سحابة من الخشية والسكينة، وكذلك المؤمنون الذين يخشون ربَّهم بالغيب تقشعر جلودهم عند سماع كلامه، ثم تلين جلودهم وقلوبهم لذكر الله.

وختم الأستاذ المفسِّر الدرس بأدعية قرانية وابتهالات مأثورة ثم طلب من الحاضرين أن يسألوا الله الرحمة والمغفرة لأخيهم حسين باي، مؤسس الجامع الأخضر ومُحبسه في سبيل العلم وإقام الصلاة وذكر الله كما هو منقوش على رخامة في المسجد، وذكر أن من علامات إخلاص هذا الرجل في عمله وحسن نيَّته أنة يسَّر الله ختم تفسير كلامه من أوله إلى اخره في مدة خمسة وعشرين عاماً بهذا المسجد، فانطلقت الألسنة بالدعاء والترحم وافترقوا على مثل ما اجتمعوا عليه بقلوب خاشعة ونفوس متراحمة وألسنة رطبة بحمد الله وشكره على ما وفَّق إليه من الخير وأعان.

(1) المصدر نفسه ص 53.

وكان هذا اليوم مقصوراً على درس التفسير، حرصاً على كلام الله أن يستقل تأثيره بالنفوس وأسره للأفئدة وعلى عظاته أن تتصل بشغف القلوب، وخصَّ سائر اليوم لاستراحة الوافدين ووقوفهم على معالم المدينة ومناظرها بعد أن أذنت لجنة الاحتفال فيهم باحتفالات الغد وأعماله[1].

ل . خطباء وشعراء الاحتفال:

كان يوم الاثنين الموالي ليوم الختم موعداً لإقامة حفلة تكريم للأستاذ المفسِّر وهي الحفلة التي سبقت الإشارة إليها في كلامنا، وكان لها حظ من تصميمنا، واعتزامنا، فسخر الله أسبابها في هذا اليوم، وقد تلطفت لجنة الاحتفال فأسندت رئاستها إلى كاتب هذه السطور، وكان موضع الاحتفال قاعدة «كلية الشعب» الفسيحة، أهطعت الوفود إلى كلية الشعب قبل الساعة المقرَّرة بساعات، ولم يثنهم طول الانتظار ولا اكتظاظ القاعة حرصاً على ضمان المقاعد، وصنع القسنطينيون في هذا اليوم صنيعهم بالأمس، ففسحوا في مجالس كليَّة الشعب كما فسحوا في الجامع الأخضر إكراماً للوفود، وأبت الوفود إلا أن يكون لها شرك في معنى التكريم، وأن يكون لأسمائها وبلدانها دخل في عداد المكرمين، فكان التكريم باسم العلماء زملاء الأستاذ وشركائه في العمل وباسم تلامذته وباسم هذه الوفود الحاشدة.

دقت الساعة التاسعة، فتصدَّرت هيئة جمعية العلماء سدّة القاعة واكتنفهم خطباء الحفل وشعراؤه من تلامذة الأستاذ عن اليمين والشمال، وتقدَّم رئيس الحفل فقدم مقرئاً، أسمع الناس آيات من كلام الله، ثم فتح الرئيس باب الخطابة بارتجال كلمات.

ثم قدم الخطباء على مراتبهم ثم الشعراء كذلك، وسيرى القارئ في آخر هذا العدد تلك الخطب والقصائد منشورة.

(1) المصدر نفسه ص 55.

ولما كانت ساعات الاحتفال محدودة لا تتسع لجميع الخطباء ولا للقليل منهم، وكان التلامذة يمثلون طبقات تمتد من أوائل النهضة إلى الان، فقد رؤي حرصاً على الوقت والفائدة الاقتصار على من يمثِّل تلك الطبقات، فتقدم من يمثل المتخرّجِين في أوائل الحركة، ثم من يمثلون وسط الحركة واستفحالها، ثم من يمثلون الطبقة المباشرة للتعليم في السنوات الأخيرة، ثم من يمثِّلون الطبقة النازحة إلى جامع الزيتونة، ثم من ممثل الطبقة المستقلة وبالتعليم قام من يمثل تلاميذ التلاميذ، وبعد إنتهاء الخطباء أعلن الرئيس استراحة ربع ساعة ثم الرجوع لسماع الشعراء.

ولما انتهى دور الخطباء والشعراء المقرَّرين في منهاج الحفلة، وقف كاتب هذه السطور وارتجل خطاباً تغنَّى فيه بجمال يوم القرآن وهو يوم الختم، وبفوائد الخير التي سيعود بها على الأمة الجزائرية، وقد حاول كاتبان من كتَّاب الحفلة أن يلتقطاه عند الإلقاء ففاتهما منه الكثير، وتقدَّم إليَّ الحريصون على تخليد الحفلة كاملة أن أكتب ما علق بالذاكرة من ألفاظها ومعانيها، فكتبت ما يقرؤه القارئ في آخر الخطب وأنا أبرأ من إدعاء محاذاته كما ألقي ارتجالاً في ألفاظه ومعانيه.

وبعد خطبة الرئيس، قام الأستاذ المحتفلَ به وارتجل خطبة ضافية نستعيض عن وصفها هاهنا بتلخيص معانيها ونشرها مع الخطب.

م. هدايا ثمينة:

ومن لطائف الاتفاق أنه خطر لبعض الهيئات تقديم هدية تذكارية للأستاد، ولم تعلم هيئة بما اعتزمت عليه الأخرى من نوع الهدية، فلما قدَّمت الهدايا أمام الجمهور بعد انتهاء الخطابة كان تناسقها مفاجأة مدهشة، وهي محفظة كتب عربية ثمينة قدَّمها وفد تلمسان، وقلم تحبير ثمين معه قلم رصاص قدّمتها هيئة جمعية التربية والتعليم، ونسخة من تفسير المنار قدّمتها هيئة جمعية العلماء، ونسخة من فتح الباري قدمتها لجنة الاحتفال، وكما كانت هذه الهدايا لطيفة في معناها التذكاري وفي رمزها العلمي وفي تناسقها، فقد كان سرور

الأستاذ بها عظيماً ووقعُها في نفسه لطيفاً، ثم تمَّ التناسق ولطف الذوق في حفلة المساء حين قدَّم له تلامذة كشافة الرجاء مصباحاً كهربائياً ظريفاً، وقدَّم له تلاميذه الشاب الغني «زربية» سجادة صلاة.

وفي مساء الثلاثاء اشتركت ثلاث جمعيات علمية وفنية ورياضية في إقامة احتفال زاهر فخم في كلية الشعب ابتهاجاً بضيوف القران. أما الجمعيات فهي جمعية التربية والتعليم وجمعية الشباب الغني الفنية وجمعية كشافة الرجاء الرياضية.

وأما الاحتفال فكان ناجحاً إلى أقصى حدود النجاح مؤثراً إلى أبعد غايات التأثير، ظهرت فيه جمعية «الشباب الغني» ـ على حداثة عهدها ـ بمظهر الكفاءة والتجديد وسلامة الذوق والانسجام بين العازفين في المظهر وبين القطع في المخبر، وقد عزفوا قطعاً مشجية وترنم عليها التلامذة بأناشيد أشجى، حتى لقد رأيت كثيراً من عمار الصفوف الأمامية يبكون تأثراً، وإن أنسى فلا أنسى التلميذين اللذين أنشدا نشيد الترحيب على عزف «البيانو» إنهما لطراز عال في رحمات الصوت وسلامة الأداء وجمال المنطق حفظهما الله وأقرَّ بهما أعين الأمَّة التي تعلق رجاءها على أمثالهما[1].

ن ـ زاد روحي عظيم:

إن التطويل في وصف هذه الحفلة يفضية إلى التقصير وخلاصة القول فيها إنها كانت زاداً روحياً قدَّمته قسنطينة لوفودها بعد أن جاوزت الغاية فيما قدمته لهم من أطايب الغذاء البدني، وإن سرَّها وسحرها ليسا اتيتين من الإطراب في العزف والإطراف في الأناشيد والإجادة في التمثيل والاتزان في الحركات، وإنما هما اتيان من شيء آخر وراء هذا كله، هو أمل الأمة في أبنائها، كان صورة في الأذهان ومخيلة في الأدمغة، فرأت منه في هذه الليلة نموذجاً عملياً يبشِّر بتحققه كله، إن الزمان بأحداثه يستطيع أن يمحو من نفوس الوافدين كل ما رأوا وما سمعوا، ولكنه لن يستطع محو شيئين: درس القرآن وهذه الحفلة، وإن الوافدين لا يستطيعون أن يقابلوا

(1) المصدر نفسه ص 57.

إكراماً لقوه من إخوانهم القسنطينيين بمثله أو بأحسن منه، إلا إكرامهم بمثل هذه الحفلة.

وانفضَّ هذا الاحتفال في نهاية الساعة الواحدة بعد نصف الليل بعد أن ختمه الأستاذ بن باديس بكلمة توديع.

من المظاهر التي شاهدها الناس كلهم في هذا الاحتفال سوابقه ولواحقه، الهدوء الشامل، فلم يحدث آية حادثة ولو بسيطة على كثرة الاحتشاد وشدة الازدحام واختناق التعاريج في المدينة وليس مرجع ذلك إلى التنظيم الالي، ففي أدون من هذا الاحتفال نرى الفوضى تطغى على النظام، وطباع السوء لا تنهنه بالزجر وإنما مرجع ذلك إلى التنظيم النفسي وإلى أدب القرآن وقد ملك أزمّة النفوس.

وإن هذا النوع من التربية الدينية هو الذي نريده للأمَّة، وهي تربية كثيرة الفوائد قليلة التكاليف، وقد جُربت فصحّت، فهل من معين لنا على تثبيتها وتعميمها؟

وكأن إدارة الأمن العام بقسنطينة أدركت ذلك فلم نر منها مظاهر الاستعدادات الاستثنائية التي كنا نراها في مثل هذه المشاهد وحسناً فعلت[1].

10 . خطبة الأستاذ الإبراهيمي التي ختم بها حفلة التكريم للأستاذ ابن باديس في كلية الشعب:

ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصد أقلام الكاتبين من ألفاظها إلا قليلاً مشوشاً لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فألح جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها، ويضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصاً على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقق رغبتهم بكتابة ما يراه القارئ منشوراً بعد هذا، وكانت خطبة رائعة مانعة معبرة نقتطف منها الآتي:

(1) المصدر نفسه ص 58.

إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغرّ المحجل في تاريخ الجزائر الحديث ولا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغرّ في قرون من تاريخ الإسلام.

هذا هو اليوم الذي يجب أن نؤرّخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية، ونؤرخ به لمبدأ ازدهارها وإثمارها ونموّها وإبدارها.

هذا هو اليوم الذي التفت فيه الأمة حول دينها ولغتها فأثبتت أنها أمة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للأعاجم وتأبى لها عربيتها أن تدين فيه للأعاجم[1].

إن الأمة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرؤون المدهش المعجب، ويرى الناس اثارها في العلم والتشريع والأدب والحكمة فيرون الطراز العالي البارع، فيستوي المحب والمبغض في الاعتراف بأن أمة هذه أخبارها وهذه اثارها لهي الأمة حق الأمة: إن تلك الأمة ما كانت أمة بذلك المعنى وتلك الأوصاف إلا بالقران.

فالقران هو الذي ربّاها وأدّبها وزكى النفوس وصفّى القرائح وأذكى الفطن وجلّى المواهب وأرهف العزائم وهذب الأفكار وأعلى الهمم واستفزّ الشواعر واستثار القوى وصقل الملكات وقوّى الإرادات ومكّن للخير في النفوس وغرس الإيمان في الأفئدة وملأ القلوب بالرحمة وحفزّ الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهرها منه تطهيراً وعمرها بالخير والحق والصلاح تعميراً[2].

فيا أيها المشفقون على العالم الإنساني أن يأكل بعضه بعضاً، الصحوة بالرجوع إلى الإسلام وكتابه يجد فيهما ظلال السلم وبرد الرحمة وعز القناعة وشرف التقوى ويتمتع من كل ذلك بنعمة السلام.

ويا أيها المسلمون أنتم أطباء هذه المعضلات ولكنكم جاهلون، وأنتم الحكم المرضي في هذه المشكلات

(1) المصدر نفسه ص 61.

(2) المصدر نفسه ص 67.

ولكنكم غائبون، ولو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم ومنازعته العامة لوقفتم .كما وقفوا . بعقائدهم وسطاً بين التناهي والتقصير، وبزكاتهم المرضية حكماً بين الغني والفقير، وبرحمة الإسلام سداً بين الاجر والأجير، وإذاً لزرعتم في طول العالم وعرضه الخير والرحمة وكشفتم عن أقويائه وضعفائه كل كرب وغمّة، وإذاً لرفعتم عن العالم هذه الاصار والأغلال، وفزتم من بين حكمائه وعلمائه بتحقيق نقطة الإشكال.

إن العالم في عذاب وعندكم كنز الرحمة، وإن العالم في احتراب وعندكم منبع السلم، وإن العالم في غمّة من الشك، وعندكم مشرق اليقين، فهل يجمل بكم أن تعطلوه فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا[1]؟

طبقوا على أنفسكم جزئية واحدة من إصلاحاته كالزكاة، وأظهروا بها للعالم على صورتها العملية الكاملة وحقيقتها العملية، ثم قفوا بين الصفين لا كموقف عمرو بمصاحفه يوم صفين وأشربوا نفوسهم ما أشربت نفوسكم في معنى قوله تعالى: {نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *}

ومن معنى قوله تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ *}

وأنا الضمين لكم أنهما يتحاجزان ويتسامحان في طرفة عين، إن دينكم دين إصلاح وسبب إصلاح ومظهر إصلاح وكما أوجب عليكم الإصلاح بين المؤمنين مدح الإصلاح بين الناس.

أحبوا قرانكم تحبوا به، حققوه يتحقق وجودكم به، أفيضوا من أسراره على سرائركم، ومن ادابه على نفوسكم، ومن حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء ويكن بكم دواء، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ *}

(1) المصدر نفسه.

هذه الآية هي دستور الإسلام العام وهذه الآية هي التي نواجه بها كل من رمانا بالتعصب أو بالظلم أو بالأنانية أو بالقسوة، وصدى هذه الآية هو الذي سمعه الناس مردداً في الجامع الأخضر خمساً وعشرين سنة اخرها أمس(1).

أيها الإخوان:

تكلم الخطباء والشعراء في المعنى الذي أقيمت لأجله الحفلة، وهو تكريم أخينا الأستاذ عبد الحميد بن باديس وتمجيد أعماله في خدمة الدين والعربية والعلم، وشغلتهم حقوق هذه الحفلة عن حقوق يوم أمس المشهود وأوشكنا أن نضيع واجبه وأن يمر فلا يتغنى بأوصافه لسان، ولعل الأقلام تجفوه تبعاً لذلك فلا يجري في وصفه قلم.

وقد توزعتني الخواطر حين قمت: أأسلك ما سلكه الخطباء والشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله؟ ولو أني جريت في هذا المضمار وأسلس لي الكلام قياده، كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل والجفاء ليومنا الأغر والمحجل، وإن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق أخ اعتقد أن ما قاله الشعراء والخطباء في حقه قليل، وكيف تفي حفلة مثل هذه محدودة الساعات بتمجيد رجل طوّقت هذا الوطن مننه، فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن وليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته(2).

وعندما توفي الشيخ محمد رشيد رضا ولم يستطع أن يكمل التفسير، ووصل لسورة يوسف، وطبع الجزء الثاني عشر ثم حل الأجل، فأوجد فجوة واسعة في تاريخ الإسلام وثغرة كبيرة في التفسير الأمثل الذي يعتبر شارحاً لدستور الإسلام وهادياً للأنام في جميع المجالات الدينية والدنيوية، فالتقى الشيخان إثر الوفاة بأسبوع، وتحادث ابن باديس والإبراهيمي على ربوة من جبل تلمسان في إحدى زيارات أولهما للثاني، وكانا في حالة حزن عميق لفقد السيد رشيد رضا وتبادلا مشاعر الأسى والأسف لانقطاع التفسير بموت رشيد رضا صاحب

(1) المصدر نفسه ص 68.

(2) المصدر نفسه ص 68.

القدح المعلى، فقال العلامة الإبراهيمي لزميله وصديقه ابن باديس: ليس لإكمال التفسير إلا أنت. وبادله ابن باديس شعوراً بشعور وتقديراً بتقدير، وهما فرسا رهان وبطلا الميدان، وقال الإبراهيمي: حتى لا يكون لي علم رشيد ومكتبة رشيد ومكاتب القاهرة المفتوحة في وجه رشيد؟ فقال ابن باديس: إنا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يغطي على التفاسير من غير احتياج إلى ما ذكرت.

وهكذا عرف هذان العملاقان كل منهما للاخر مقامه ومكانته، وهذا هو شأن العلماء الذين تفخر بهم الأزمان وتقل الفرص لوجود أمثالهما في علمهما وعملهما وتواضعهما، لقد تجدد الأمل في أن يتعاونا على كتابة التفسير الكامل، ولكن العوارض باعدت بين الأمل والعمل ثم حل الأجل[1].

11 . كلمة ابن باديس في الاحتفال:

أيها الإخوان:

أنتم ضيوف القرآن وهذا اليوم يوم القران، وما أنا إلا خادم القران، فاجتماعكم رغم تنائي الديار وتباعد الأقطار هو نفسه تنويه بفضل القرآن ودعوة جهيرة إلى القرآن في وقت نحن أحوج ما نكون إلى دعوة المسلمين إلى قرانهم، فهل علمتم أنكم باحتفالكم هذا قمتم بواجبات أهونها ما سميتموه احتفالاً بشخصي.

إن أقوال خطبائكم وشعرائكم كلها في الحقيقة إشادة بيوم القرآن ووفود القران، وكل ما لي من فضل في هذا هو أنني كنت السبب فيه.

أيها الإخوان:

أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي، وبكل من له يد في تكويني وإن الإنصاف الذي هو خير ما ربى عليه امرؤ نفسه ؛ ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان

---

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ، بأقلام معاصريه ص 104.

لها الأثر في تكويني حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل، فإني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتنويه بأعمالي، وأشهد أن هذا التحفي عسير عليَّ جزاؤه ثقيل على حمله، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه وتقاضت حولها من الثناء الذي أثقلت به كاهلي، فأكون بذلك قد أرضيت ضميري وخففت عن نفسي.

إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي ربَّاني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ومشرباً أرده وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم، وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر، ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين، ثم لمشايخي الذين علموني العلم وخطوا لي مناهج العمل في الحياة ولم يبخسوا استعدادي حقه، وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية، وهما ـ من مشائخي ـ اللذان تجاوزا بي حد التعليم المعهود من أمثالهما لأمثالي ـ إلى التربية والتثقيف والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة، أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله.

وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهداً عهد به إليَّ، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدَّد عليَّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام اراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله، فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي:

اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة وهذه الاراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح، فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني افاقاً واسعة لا عهد لي بها ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذين ازروني في العمل من فجر النهضة إلى الآن.

فمن حظ الجزائر السعيد ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم مؤتلفة القصد والاتجاه مخلصة النية متينة العزائم متحابة في الحق مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية ؛ قد ألف بينها العلم والعمل . مثل ما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي وتأثل بطارفهم تلادي، أطال الله أعمارهم ورفع أقدارهم، ثم لهذه الأمة الكريمة المعاونة على الخير المنطوية على أصول الكمال ذات النسب العربي في الفضائل والحسب العريض في المحامد.

هذه الأمة التي ما عملت يوماً . علم الله . لإرضائها وإنما عملت وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها وهويتها، ولكن الله سددها في الفهم وأرشدها إلى صواب الرأي فتبينت قصدي على وجهه وأعمالي على حقيقتها، فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها وبفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العلمي، ثم الفضل أولاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه والتفقه في أسراره والتأدب بادابه. وإن القرآن الذي كوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه.

أيها الإخوان:

إذا لم يكن في حياتي العلمية من لافت للقران إلا تلك الكلمة التي سمعتها من الشيخ النخلي، وقد فعلت فعلها في نفسي وأوصلتني في فهمي إلى الدرجة التي تحمدونها اليوم ؛ فإننا . والحمد لله . نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنين تعلق هذه الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا

وجهودها، وإن أعز ما وصلنا إليه هو تبين الغاية وتلاقي الجهود. وفقنا الله وإياكم للأعمال الصالحة ورزقنا الإخلاص فيها والثبات عليها إنه سميع مجيب[1].

ومن الكلمات التي ألقاها في ذلك الاحتفال:

أيها الإخوان:

الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وإيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال، وبهذا تحتفل بكم . يا ضيوف القرآن . جمعيات قسنطينة الحيوية التي تمثل القوة والإيمان والجمال.

أيها الإخوان:

إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمتي، وأخص منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلا وجدتهم معي كالأسود، وأما الأشبال الصغار فهؤلاء الأبناء الذين تشاهدونهم يحتفلون بكم الليلة، ولقد جاءت قسنطينة تحييكم بكبارها وصغارها، فذكراكم يا ضيوف القرآن خالدة وهي منقوشة في قلبي لا تفنى ولا تنمحي، إنني أعاهدكم على أن أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما وإنها لواجبات وإِنِّي سأقصر حياتي على الإسلام والقران ولغة الإسلام والقران، هذا عهدي لكم.

وأطلب منكم شيئاً واحداً هو أن تموتوا على الإسلام والقران ولغة الإسلام والقران.

أنا زارع محبة، ولكن على أساس من العدل والإنصاف والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان، من كل جنس من كل دين.

فاعملوا للأخوّة ولكن مع كل من يعمل للأخوّة فبذلك تكون الأخوّة صادقة[2].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 142).

(2) المصدر نفسه (2 / 144).

لقد عشت في هذا الاحتفال بقلبي وروحي ومشاعري وأحاسيسي، ويا لها من روعة وجمال وعظمة، في العطاء والبذل وتحدي الصعاب والقوى الاستعمارية الغاشمة.

كان ذلك الاحتفال إيذاناً من ابن باديس وعلماء الجزائر بأن المرجعية أصبحت واضحة والهوية لا يمكن تغييرها ووجود المستعمر ما هو إلا قضية وقت فقد أذن الله بزواله ورحيله وأن إرادة الشعب الجزائري ستنتصر على المحتل الغازي لا محالة.

ثانياً: الاهتمام بالسنة النبوية:

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس شديد الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة، يرى بأن الاحتفاء بالسنة والاشتغال بعلوم الحديث من العلامات البارزة للحركة الإصلاحية التي أقام دعائمها، ووطد بنيانها، ووصل ليله بنهاره وبياضه بسواده، من أجل التمكين لها والذود عنها، تقرباً إلى الله وخدمة للأمة، ولذلك كان كثير الدعوة إلى الاقتصار على الصحيح من المرويات، ومحاربة الضعيف، وعدم روايته إلا مع بيان رتبته، لتحذير الأمة منه ومحاربة الاثار السيئة التي يتركها الحديث الضعيف . عند رواجه في عموم الناس . على مستوى الفكر والاعتقاد والعلوم والسلوك[1].

يقول رحمه الله تعالى: تقوم الدعوة الإصلاحية على أساس من الكتاب والسنة، فلا جرم كان رجالها من المعتنين بالسنة، القائمين عليها رواية ودراية، الناشرين لها بين الناس، ومن عنايتهم تحرّيهم فيما يستدلون به ويستندون إليه منها، فلا يجوز عليهم إلا ما يصلح للاستدلال والاستناد، ولا يذكرون منها شيئاً إلا مع بيان مخرجه ورتبته حتى يكون الواقف على بينة مما لو التزمه كل عالم كما هو الواجب ؛ لما راجت الموضوعات والواهيات بين الناس فأفسدت عليهم كثيراً من العقائد والأعمال[2].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 388).

(2) المصدر نفسه.

وإيماناً من الشيخ عبد الحميد بن باديس بمكانة السنة النبوية الشريفة في العملية التربوية، فقد جعلها مادة رئيسية وأساسية في البرنامج الدراسي والمقرر التعليمي لتلاميذه وطلابه، ففي البرنامج التعليمي الذي أعلنت عنه «الصراط السوي» لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي تضمن برنامج الدروس العلمية جاء ما يلي: تشتمل الدروس العلمية على التفسير للكتاب الحكيم وتجويده وعلى الحديث الشريف[1].

وفي التقرير الذي نشرته جريدة البصائر الغراء، عن التعليم المسجدي والحركة التعليمية بالجامع الأخضر[2].

والذي تعرض إلى العلوم التي تدرس فذكر «التفسير الحديث»، وهكذا نرى بأن ابن باديس يرى بأن الطالب الذي يعده للتغيير الإسلامي المنشود لابد وأن يكون قد أخذ حظه من الثقافة الحديثية إيماناً منه بأن السنة النبوية الشريفة مصدر أساسي لفهم الإسلام الفهم الصحيح، وبالتالي للوصول إلى تطبيقه التطبيق السليم، وطالب العلم الشرعي ما لم يأخذ حظه الكبير من السنة، وما لم يتضلع في علوم الحديث فإن فهمه للإسلام سيكون فهماً قاصراً أو منحرفاً قائماً على النقص من هذا الدين أو الزيادة فيه وكلاهما فهم يجر إلى أوخم العواقب وأسوأ النتائج.

ولما كان علم «مصطلح الحديث» بمثابة المدخل الطبيعي لعلوم السنة، ذلك: أنه مجموعة من المباحث والمسائل يعرف بها حال الراوي والمروي من حيث القبول والرد[3]، فقد قرره على تلاميذه إلى جانب اهتمامه بالمصطلح، فإنه ـ أي الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ قد اهتم بعلم الرواية الذي يقوم على النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إلى النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير أو صفة ولكل ما أضيف من ذلك إلى الصحابة

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 68).

(2) المصدر نفسه (4 / 100).

(3) تدريب الراوي شرح تقريب النواوي ص 3 ـ 4.

والتابعين على الرأي المختار(1).

ولما كانت دواوين السنة كثيرة ومراجعها متعددة، فهناك الصحيحان وهناك الجوامع والمسانيد والمعاجم والمستدركات والمستخرجات والأجزاء.

ولكن تبقى كتب السنة وهي البخاري ومسلم، وسُنن أبي داود، والترمذي والنسائي وابن ماجه على قول أو موطأ الإمام مالك على قول ثان ؛ في المحل الأرفع والمكان الأول، ولكل كتاب من هذه الكتب ميزة خاصة فالبخاري بالفقه ومسلم بإيراد كل الروايات والطرق للحديث، والترمذي يُعنى بالحديث، وأبو داود حصر أحاديث الأحكام، وابن ماجه حسن التبويب في الفقه، وأما النسائي فقد توافرت له أكثر هذه المزايا.

ولكن السيد عبد الحميد بن باديس، اختار من بين هذه المدونات والمصنفات موطأ الإمام مالك بن أنس وذلك لجملة من الاعتبارات والأسباب منها:

ـ نفي التهمة التي كان أعداء الإصلاح، وخصوم ابن باديس ـ رحمه الله ـ يرفعونها في وجهه وهي أنه صاحب فكر دخيل، لم يحترم فيه المرجعية التي كانت سائدة في هذه الديار، ويحدثنا الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ عن ذلك بقوله في مقاله بعنوان «عبداويون» ثم «وهابيون» ثم ماذا؟ لا ندري والله.

وأخذنا نحث على تعلم جميع العلوم باللسان العربي والفرنسي، ونحبب الناس في فهم القران، وندعو الطلبة إلى الفكر والنظر في الفروع الفقهية والعمل على ربطها بأدلتها الشرعية، ونرغبهم في مطالعة كتب الأقدمين ومؤلفات المعاصرين. لما قمنا بهذا وأعلناه قامت علينا وعلى من وافقنا قيامة أهل الجمود والركود وصاروا يدعوننا للتنفير والحط منّا «عبداويين» ـ دون أن أكون ـ والله ـ يوم جئت قسنطينة قرأت كتب الشيخ محمد عبده إلا القليل، فلم نلتفت إلى قولهم، ولم نكترث لإنكارهم، على كثرة سوادهم وشدة مكرهم وعظيم كيدهم..

(1) علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح ص 107.

فلما كملت العشر سنوات وظهرت ـ بحمد الله ـ نتيجتها رأينا واجباً علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلىالإسلام الخالص، والعلم الصحيح إلى الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فكان لزاماً أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس، فكان المنتقد، وكان الشهاب، ونهض كُتَّاب القطر ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام، وفتحوا بكتاب وسنة رسوله ـ (ص) ـ أعيناً عمياً، وأذاناً صمَّاً، وقلوبنا غلفاً، وكانت هذه المرة غضبة الباطل أشد، ونطاق فتنته أوسع، وسواد أتباعه أكثر وتمالأ على دعاة الحق الجمود والبدعة، وعليها بنيت صروح من الجاه، ومنها جرت أنهار من المال، وأصبحت الجماعة الداعية إلى الله يُدعون من الداعين إلى أنفسهم «الوهابيين». ولا والله ما كنت أملك يومئذ كتاباً واحداً لابن عبد الوهاب، ولا أعرف من ترجمة حياته إلا القليل، والله ما اشتريت كتاباً واحداً من كتبه إلى اليوم وإنما هي أفيكات قوم يهرفون بما لا يعرفون، يحاولون من إطفاء نور الله ما لا يستطيعون وسنعرض عنهم اليوم وهم يدعوننا «وهابيين» كما أعرضنا عنهم بالأمس وهم يدعوننا «عبداويين» ولنا أسوة بمواقف أمثالنا مع أمثالهم من الماضين[1].

ـ أما السبب الثاني فهو القيمة العلمية للموطأ، فهو كتاب حديث ورواية، وهو كتاب فقه ودراية، فقد اعتنى فيه صاحبه بالمرويات، ووضع لتحقيق ذلك منهجاً دقيقاً متقناً، يدل على إمامته في هذا الفن، وهو أمر أطبقت عليه شهادات المحدثين، قال الإمام الذهبي: اتفاق الأمة على أنه حجة الرواية[2].

كما اعتبر الإمام البخاري ـ صاحب الصحيح ـ أن أصح الأسانيد على الإطلاق هو: مالك عن نافع عن ابن عمر، ويذهب أبو داود صاحب السنن إلى أن أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر، ثم مالك عن الزهري عن سالم عن أبيه، ثم مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة: روى الترمذي في آخر سننه

(1) ابن باديس حياته وآثاره (5 / 102 ـ 103).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس ، د. محمد الدراجي ص 106.

عن يحي بن سعيد القطان أنه قال: ما في القوم أحد أصح حديثاً من مالك بن أنس. كان مالك إماماً في الحديث، وهو إلى جانب إمامته في الحديث، كان إماماً في الفقه والاجتهاد، ولذلك لم يقتصر في كتابه الموطأ على جمع الأحاديث التي صحت عنده فقط كما فعل أصحاب السنن بعده، وإنما أضاف إلى جمع الفقه المدني، والأساس الذي قام عليه ذلك الفقه من السنن والاثار واجتهادات الصحابة وفتاواهم وما جري به العمل عندهم، واراء التابعين ثم اجتهاداته هو، وهو الفقيه الذي شهد له كبار الأئمة، بعلو كعبه في الفقه وأنَّه من أئمة الشأن في الاجتهاد، فهذا الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم. ويقول: كذلك مالك أستاذي ولا أحد أمنّ علي في العلم من مالك، ومالك حجة بيني وبين الله.

ومن هنا كان الموطأ كتاباً في الفقه والحديث معاً وكان له مكانة لم تتوفر لأي كتاب اخر، قال الشافعي: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك.

وقال أبو بكر بن العربي في شرحه للترمذي: «الموطأ» هو الأصل الأول واللباب وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب وعليهما بني الجميع.

ولذا أقبلت الأمة عليه، واعتنى العلماء به حتى قال القاضي عياض في المدارك: لم يعتن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ.

ـ وهناك سبب ثالث في نظري، لاهتمام الشيخ عبد الحميد بن باديس بالموطأ للإمام مالك، وهو تأثر هذا الأخير بعالمين جليلين من علماء الأندلس وهما ابن عبد البر المتوفي 493هـ وأبو بكر بن العربي 543هـ، وكلاهما له إعتناء بالموطأ وإحتفاء به، إذ شرحه الأول بشرح مستفيض، حافل بالفوائد وسماه بـ «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد».

وشرحه الثاني شرحاً وافياً وعنوانه: بـ «القبس شرح موطأ مالك بن أنس».

وكان الشيخ ابن باديس يملك نسخة من القبس وأخبرأنها كاملة، وقد بذل جهداً لكي يخرجها لكن المنية عاجلته، فقال في ترجمته لابن العربي: وصنف في غير فن تصانيف مليحة كثيرة مفيدة منها.. وكتاب المسالك

في شرح موطأ مالك: منه نسخة في مكتبة الجزائر بها نقص، وعندنا منه جزء فيه ما يكمل ذلك النقص:

تلك هي أهم العوامل التي كانت وراء اهتمام ابن باديس بالموطأ، والتي يمكن ردها إلى سبب رئيسي وهو أن الشيخ ابن باديس وجد في الطريقة التي اتبعها الإمام مالك رحمه الله المنهجية المثلى في تكوين العالم الجامع بين الفقه والحديث وبين الرواية والدراية، فعبر عن ذلك بقوله: «وإذا رجعت إلى موطأ مالك سيد أتباع التابعين، فإنك تجده في بيان الدين قد بنى أمره على الآيات القرآنية وما صح عنده من قول النبي (ص) وفعله وما كان من عمل أصحابه الذي يؤخذ منه ما استقر عليه الحال آخر حياته»[1].

لذا اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بالموطأ للإمام مالك وانبرى لتدريسه على الطريقة السلفية، لطلابه في الجامع الأخضر، وختمه كله في فترة ناهزت على خمس عشرة سنة وأقيم بالمناسبة حفل مشهود[2].

وقد دعي العلماء والأدباء والأعيان لحضور حفل الاختتام الذي كان يوم 12 ربيع الثاني 1358هـ الموافق لفاتح جوان 1939م، وقد تقاطرت الوفود لحضور هذا الحفل الذي تبارى سكان قسنطينة كعادتهم في الاحتفاء بالوافدين وحسن ضيافتهم، وقد وصف الشيخ الجيلاني بن محمد، أحد طلبة الشيخ هذا الاحتفال وصفاً رائعاً ودقيقاً نشر في الشهاب[3].

1 . السنة النبوية مصدر للدعوة:

وكان الشيخ عبد الحميد بن باديس يحمل رؤيتة الشمولية عن الدعوة إلى الله عز وجل، فكتب عند تفسيره، لقوله تعالى: {قُلْ هَـذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف : 108] كلاماً نفيساً عن الدعوة إلى الله كيف تكون، وعن ماهية الدعوة فقال رحمه الله: فمن الدعوة إلى الله: دروس العلوم مما يفقه في دين الله ويعرف بعظمة الله واثار قدرته ويدل على رحمة

(1) المصدر نفسه (4 / 75).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس د. محمد الدراجي ص 108.

(3) إمام الجزائر ص 280.

الله، وأنواع نعمته، فالفقيه الذي يبين حكم الله وحكمته داع إلى الله، والطبيب المشرح الذي يبين دقائق العضو ومنفعته داع إلى الله، ومثلهما كل مبين في كل علم وعمل.

ومن الدعوة إلى الله: بيان حجج الإسلام ودفع الشبه عنه ونشر محاسنه بين الأجانب ليدخلوا فيه وبين مزعزعي العقيدة من أبنائه ليثبتوا عليه.

ـ ومن الدعوة إلى الله: مجالس الوعظ والإرشاد والتذكير لتعريف المسلمين بدينهم وتربيتهم في عقائدهم وأعمالهم على ما جاء به، وتحبيبهم بيان ما فيه من خير وسعادة لهم، وتحذيرهم مما أدخل من محدثات عليه وهي سبب كل شقاوة وشر لحقهم، وبيان أنه لولا عقيدته المتأصلة فيهم وبقاياه الباقية لديهم ومظاهره القائمة بهم ؛ لما بقيت لهم ـ وهم المجردون من كل قوة ـ بقية ولتلاشعت أشلاؤهم ـ وهم أموات ـ في الأمم الحية.

ـ ومن الدعوة إلى الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو فرض عين على كل مسلم ومسلمة بدون استثناء، وإنما يتنوع الواجب بحسب رتب الاستطاعة، فيجب باليد وإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب وهو أضعف الإيمان وأقل الأعمال في هذا المقام.

ومن الدعوة إلى الله: ظهور المسلمين ـ أفراداً وجماعات ـ بما في دينهم من عفة وفضيلة، وإحسان ورحمة، وعلم وعمل، وصدق وأمانة، فذلك أعظم مرغِّب للأجانب في الإسلام، كما كان ضده أعظم منفِّر لهم منه، وما انتشر الإسلام أول مرة بين الأمم إلا لأن الداعين إليه كانوا يدعون بالأعمال كما يدعون بالقول، وما زالت الأعمال غباراً على الأقوال.

ومن الدعوة إلى الله بعث البعثات إلى الأمم غير المسلمة ونشر الكتب بألسنتها وبعث المرشدين إلى عوام الأمم المسلمة لهدايتهم وتفقيههم.

كل هذا من الدعوة إلى الله ثابتة أصوله في سنة النبي (ص) وسنة السلف الصالح من بعده[1].

وقد وجد الشيخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ في السنة النبوية الشريفة القولية والفعلية والتقريرية مصدراً متميزاً ومادة حيوية في عمله الدعوي، فكان كثير العودة إلى السنة النبوية إذا أراد أن يحارب فكرة خاطئة أو يصحح وضعاً شاذاً، أو يدعو المسلمين إلى أمر جديد نافع، وأنه بهذا العمل كان يقوم بدور التأسيس والتأصيل لما يدعو إليه، ولأنه كان يعلم علم اليقين بأن عموم المسلمين، لما يؤصل لهم ما يدعوهم إليه ؛ فإنه يكون أدعى للقبول عندهم ومن الأمثلة على ذلك:

أ ـ حق النساء في التعلم:

لقد أدرك ابن باديس رحمه الله أنه لا يمكن إحداث تغيير في الأعراف والعادات الجاهلية، وهي أعراف نافذة، وعادات محكمة ؛ ليس من اليسير تجاوزها أو العمل بخلافها، لأن أعداء الفكرة يهيجون العوام ضد الرجل وفكره، فلم يجد الشيخ ابن باديس فرصة مواتية للدعوة إلى تغيير هذا الواقع البئيس أحسن من الاستناد إلى سنة النبي (ص).

فأورد حديث البخاري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبي (ص): غلبنا عليك الرجال اجعل لنا يوماً من نفسك، فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن، ما منكن امرأة تقدم ثلاثاً من ولدها إلا كان لها حجاباً من النار. فقالت إمرأة واثنين؟ قال واثنين[2].

ودعا صراحة إلى تعليم المرأة، لأن المجتمع لا ينهض إلا بالجنسيين معاً، مثل الطائر لا يطير إلا بجناحيه معاً، فقال: النساء شقائق الرجال في التكليف، فمن الواجب تعليمهن، وقد علمهن (ص) وأقرهن على طلب التعليم[3].

(1) المصدر نفسه.

(2) صحيح البخاري، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة.

(3) آثار الإمام عبد الحميد (2 / 158).

وقال في موضع آخر داعياً المرأة: فاستناداً إلى هذه الأدلة وسيراً على ما استفاض في تاريخ الأمة من العالمات الكاتبات الكثيرات ؛ وعلينا أن ننشر العلم بالقلم في أبنائنا وبناتنا، في رجالنا ونسائنا على أساس ديننا وقوميتنا إلى أقصى ما يمكننا أن نصل إليه من العلم الذي هو تراث البشرية جمعاء وثمار جهادها في أحقاب التاريخ المتطاولة وبذلك نستحق أن نتبوأ منزلتنا اللائقة بنا والتي كانت لنا بين الأمم[1].

ولم يكتف رحمه الله بالدعوة إلى تعليم المرأة، بل دعا صراحة إلى خروجها إلى المساجد، لتشهد الخير وتتفقه في الدين، وتكون معولاً للبناء، وأداة للإصلاح في المجتمع، فأورد حديث مسلم في صحيحه بسنده عن سالم ابن عبد الله بن عمر أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: لا تمنعوا نساءكم المساجدإذا استأذنّكم إليها، قال: فقال: بلال بن عبد الله. والله لنمنعهن قال فأقبل عليه عبد الله فسبَّه سباً سيئاً ما سمعت سبَّة مثله قط، وقال: أخبرك عن رسول الله صلى الله عليه واله وسلم وتقول: والله لنمنعهن[2].

ثم كتب يؤكد بأن خروج النساء إلى المساجد، أمر ثابت بالسنة العملية والقولية، لكن بجملة من الشروط والضوابط التي وضحها أهلم العلم في مواضعها من البحث، وأن الواجب في حق المسلم ألا يعارض أمراً ثبت أنه من الدين، وشهدت له الأدلة الشرعية: هذا الذي وقع من بلال كثيراً ما يقع مثله أو نحوه من أهل الجهل أو البدعة الذين شبوا عليها وشاخوا حتى صارت البدعة عندهم سنة وصدوا ونفروا وأبوا واستكبروا وصارحوا بالمخالفة أو سكتوا وأضمروا الخلاف وما هذا شأن المؤمنين، فحذار إذا سمعت حكماً شرعياً أو نصاً قرانياً أو حديثاً صحيحاً نبوياً أن تقابل بالخلاف أو تضمر الخلاف، بل انشرح بذلك صدراً، ولا يكن في صدرك من

(1) عبد الحميد بن باديس حياته وآثاره (2 / 161).

(2) صحيح مسلم، انظر نيل الأوطار (4 / 11).

حرج مما قضى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً[1].

2. السنة النبوية مصدر للفقه والتشريع والعمل على وصل الفقه بالحديث:

كتب ابن باديس يقول: وإذا رجعت إلى موطأ مالك سيد أتباع التابعين، فإنك تجده في بيان الدين قد بنى أمره على الآيات القرانية، وما صح عنده من قول النبي (ص) وفعله، وما كان من عمل أصحابه الذي يؤخذ منه ما استقر عليه الحال آخر حياته، لأنهم كانوا يأخذون بالأحداث والأحداث من أمره وكذلك إذا رجعت إلى كتاب الأم لتلميذ مالك الإمام الشافعي، فإنك تجده قد بنى فقهه على الكتاب وما ثبت عنده من السنة.

وهكذا كان التعلم والتعليم في القرون الفضلى مبناهما على التفقه في القرآن والسنة.

هذا هو التعليم الديني السني السلفي، فأين منه تعليمنا نحن اليوم وقبل اليوم منذ قرون وقرون؟ فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوماً منزلة القرآن من تعلم الدين والتفقه فيه، ولا منزلة السنة النبوية من ذلك.

هذا في جامع الزيتونة فدع عنك الحديث عن غيره مما هو دونه بعد مد المراحل[2].

وعليه، فلقد كان من الطبيعي أن يغتنم الشيخ عبد الحميد بن باديس فرصة شرحه للسنة النبوية الشريفة، لمد جسور التواصل بين علمي الحديث والفقه والرجوع بالتعليم إلى ما كان عليه من عهوده الزاهرة منطلقاً من

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 177).

(2) المصدر نفسه (4 / 76).

التفقه في الكتاب والسنة وربط الفروع بالأصول، وبالتالي التحرر من ربقة التقليد والتعصب[1].

أ . أعنِّي على نفسك بكثرة السجود:

روى مسلم واللفظ له وأبو داوود والطبراني في الكبير، قال ربيعة بن كعب الأسلمي كنت أبيت مع رسول الله (ص)، فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل، فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة، قال أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك. قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود[2]، وبعد أن شرح هذا الحديث من حيث الألفاظ والتراكيب والمعنى المستفاد منه راح يعدد الأحكام التي يتضمنها فذكر[3]:

. جواز قبول التبرع بالخدمة وخصوصاً لأهل المقامات العامة في مصالح الناس.

. فضل القيام من جوف الليل.

. سنة مكافأة المحسن على إحسانه.

. فيه مشروعية سؤال الدعاء وخصوصاً ممن ترجى له الاستجابة.

. وفيه عدم الاكتفاء بالدعاء وحده عن التوسل بالطاعات ونوافل الخيرات.

. وفيه فضل السجود والحث عليه.

. وفيه دليل لمن يقول بأفضلية كثرة السجود على طول القيام[4].

ب . إنما الأعمال بالنيات:

وعند شرحه لحديث الصحيحين: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرأئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

(1) الشيخ عبد الحميد السلفية والتجديد ص 119.

(2) رواه مسلم وأبو داوود والطبراني.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 51).

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 119.

قسم الأعمال إلى طاعات ومخالفات:

والطاعات بقسميها «الوجوب والاستحباب» تؤثر فيها النية بالقبول والرد، وكذلك المباحات فإنما تؤثر فيها النيات فتقلبها طاعة أو معصية. وأما المخالفات وهي كل ما نهى الله عنه فحرمه أو كرهه، فهذه لا تؤثر فيها النيات ولا تقلبها إلى طاعات، لأنها في نفسها عمل غيرصالح، فقصد الشارع إلى تركها وعدم وجودها، فإذا وجده المكلف يكون قد عمل بنقيض مقصود الشارع.

وعلق على هذا الحديث فقال: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرأئ ما نوى . قاصدين إلى تبريرها غير ملتفتين إلى كونها من قسم الطاعات أو المخالفات أو المباحات، وكثيراً ما يرتكبون البدع كدعاء المخلوقات وكالحج إلى الأضرحة وإيقاد الشموع عليها والنذر لها، وكالرقص وضرب الدف في بيوت الله وغير هذا من أنواع البدع والمنكرات ويتوكؤون في ذلك كله على: إنما الأعمال بالنيات. كلا ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب فإن البدع كلها من قسم المخالفات وإن المخالفات لا تنقلب طاعات بالنيات(1).

3. منهجه في شرح الحديث النبوي الشريف:

لقد اتبع الشيخ عبد الحميد بن باديس في عرض الأحاديث طريقة اتسمت بالوضوح، وقوة الإقناع، تقود في النهاية إلى إقناع العقل وإشباع الوجدان ذلك أنه اتبع جملة من الخطوات، كل خطوة منها يبنى عليها اللاحق وتوضح السابق، بعناوين فرعية تساعد القارئ على حسن الاتباع وسلامة الاستنتاج، فلا يسعه في خاتمة القراءة إلا أن يكوِّن فكرة صحيحة عن الموضوع المراد بحثه.

فكان . رحمه الله . يذكر نص الحديث الشريف ومصدره وراويه، ثم يشرح الألفاظ ويحلل التراكيب ويبين المعاني، ثم يجتهد رحمه الله في استخلاص دروس حية وغير مفيدة وعظات بالغة وحكم وأحكام يوجهها

(1) المصدر نفسه ص 120.

توجيهاً اجتماعياً لصالح أفراد المسلمين وجماعاتهم[1].

وكان ابن باديس يهتم بالمباحث الإسنادية عند تعرضه لشرح الحديث النبوي اهتماماً كبيراً، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحقيق هدفين:

ـ **أولها**: طمأنة القارئ بأن الحديث الذي يشرحه الشيخ يستنبط منه الأحكام والحكم حديث صحيح، ومتوفر على مواصفات القبول.

ـ **ثانيهما**: تدريب الطلاب والدارسين على دراسة الأسانيد ومعرفة الرجال، وكيفية التصحيح والتضعيف. ولم يلتزم ابن باديس طريقة واحدة في إيراد الحديث وسنده، فهو في الغالب الأعم يقتصر من رجال السند على ذكر الصحابي الجليل الذي روى الحديث عن رسول الله (ص)، ثم إنه لم يلتزم طريقة واحدة فهو يذكر متن الحديث أولاً[2]، ومن رواه من الأئمة، ثم يذكر الصحابي وكان يترجم للصحابي ترجمة موجزة قبل شرح الحديث. وأما من خرَّج الحديث، فإن القارئ لمقالات الشيخ عبد الحميد بن باديس يلاحظ بأنه لم يكن يذكر جميع من خرج الحديث، وإنما يكتفي بذكر البخاري أو مسلم إذا كان الحديث من تخريجهما مع بيان اللفظ، لمن هو؟ هل هو للبخاري أو مسلم؟ وقلما يذكر غيرهما من أئمة السنة.

أما إذا كان الحديث من تخريج غيرهما فإنه إما أن يقول رواه الأئمة أو أصحاب السنن أو رواه مالك في الموطأ ويورد السند كاملاً، وأمَّا إذا كان من رواية أصحاب السنن، فإنه يذكر من خرَّجه فهو مثلاً يقول رواه الترمذي وغيره وقال حسن صحيح[3]، أو رواه أبو داوود ثم يعلق: رجاله رجال الصحيح إلا إبراهيم بن مهدي البغدادي فلم يخرج له فيهما ولكنه ثقة ، وثقة أبو حاتم وابن نافع وابن حبان وقد تابعه غيره . وأحياناً نجد

(1) المصدر نفسه ص 123.

(2) المصدر نفسه ص 124.

(3) آثار الإمام ابن باديس (2 / 124).

العلامة ابن باديس يستفيض في الدراسة الإسنادية ويذكر كل من خرج الحديث ويحكم على الحديث ببيان رتبته من الصحة[1].

أ . الألفاظ والتراكيب:

لقد كان من منهج الشيخ عبد الحميد بن باديس . رحمه الله . في شرح الحديث النبوي الشريف، أنه بعد الدراسة الإسنادية، يشرع في شرح ألفاظ الحديث شرحاً لغوياً بسيطاً، يبرز معانيها من الأذهان، واستقرارها في الوجدان وكأنه كان يراعي أنه يكتب مقالات علمية في افتتاحيات لجريدته «الشهاب»، فلم يكن ينقل عن دواوين اللغة، وقلما يتعرض إلى المباحث الاشتقاقية والصرفية، بل وقلما يستشهد لذلك بالشواهد.

مثال ذلك:

«الأعمال»: هي الأفعال التي تصدر عن الجوارح فتدخل فيها الأقوال، والغالب أن الأعمال أخص من الأفعال، فهذه فيما كان قصد وغيره وتلك فيها كان عن قصد.

(النية) هي القصد إلى الفعل، (الهجرة) الترك والمراد هنا مفارقة دار الكفر إلى دار الإسلام خوف الفتنة على الدين بالمنع من إقامته (يصيبها) يحصل عليها، ينكحها (يتزوجها)[2].

وبعد شرحه للألفاظ وتبسيطها، كان يتعدى ذلك إلى التراكيب، فيتعرض إلى قواعد اللغة ومباحث الإعراب ويتوقف مع نكات البلاغة، ودقائق البيان يستعين بهما على توضيح المعاني وبسط الأفكار، لكن لا يتوسع في ذلك ولا يغرق في تلك المباحث، وإنما بقدر ما يتوضح المعنى وتبرز جماليات النص.

وفي النموذج الاتي ما يوضح ذلك ففي شرحه لحديث مسلم واللفظ له وأبي داود، والطبراني في الكبير، عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله (ص)، فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: سل؟ فقلت: أسأل مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعني على نفسك بكثرة السجود.

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 125.

(2) المصدر نفسه ص 131.

تعرض إلى التراكيب فقال: حذف مفعول (سل) للتعميم وهو المناسب لمقام الإفضال في النوال.

غير: معطوف على مرافقتك من عطف لفظ في كلام على لفظ في كلام آخر عندما يقصد المتكلم ربط كلامه بكلام المتكلم قبله لنحو تلقين فيكون مجموع الكلام هكذا: أسألك مرافقتك في الجنة أو غير ذلك؟

والكلام إن كان كافٍ خبراً فهو في قوة الطلب ولذلك كانت أو للتخيير هذا كله على وجه أو التي للتخيير.

وأما إذا كانت للإضراب فتقدير الكلام، بل اسأل غير ذلك، وأما إذا كانت الهمزة للاستفهام فإن الواو عطفت جملة على جملة وتقدير الكلام، تترك ما سألت وتسأل غير ذلك، والاستفهام هنا المراد به الطلب، يطلب منه أن يترك سؤال المرافقة ويسأل غيره.

هو ذاك: تفيد الحصر، أي مسؤولي هو المرافقة لا غير.

فلقد تعرض الشيخ رحمه الله إلى جملة من القواعد النحوية والبلاغية واستعان بها في حسن فهم النص النبوي وأهمها:

. قاعدة حذف المعمول للدلالة على العموم.

ـ قاعدة عطف اللفظ في كلام على لفظ في كلام اخر. يقصد من خلال ذلك المتكلم ربط كلامه بالكلام المتقدم قبله لغرض صحيح كالتلقين.

. ورود الكلام على صيغة الخبر لكن المقصود منه الإنشاء والطلب.

. المعاني المختلفة للحرف «أو» فهو يأتي للتخيير وللإضراب وهكذا.

. ورود الاستفهام بمعنى الطلب.

. تعريف الطرفين يفيد الحصر[1].

ب . المعنى الإجمالي للحديث:

بعد كل الخطوات التي تقدم ذكرها، تأتي مرحلة تحديد المعنى الإجمالي للنص النبوي الشريف، فكان رحمه الله، يعمد إلى تبسيط أفكاره وشرح معانيه بجمل بسيطة، وأسلوب واضح مركز بحيث يجعل القارئ يستوعب أهم المعاني والأفكار التي تضمنها النص.

انظر إليه مثلاً وهو يشرح الحديث الذي رواه الأئمة، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله (ص): تحاج ادم وموسى، فحج ادم موسى قال له موسى: أنت ادم الذي أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة، فقال له ادم: أنت موسى الذي أعطاك الله علم كل شيء واصطفاك على الناس برسالته؟ قال نعم. قال أفتلومني على أمر قد قدر علي قبل أن أخلق؟

فقال: المعنى: التقى هذان النبيَّان الكريمان التقاء روحياً في العالم العلوي، فوجه موسى إلى ادم لومه على ما كان منه من الأكل من الشجرة والمخالفة مما أدى إلى إخراجه من الجنة فنسل ذريته بالأرض فكان سبباً في خروجهم إليها، وتمكنت منهم الشياطين في دار التكليف فأغوت وأضلت منهم وكان ذلك كله بسببه فدفع ادم هذا اللوم بأن ما كان مقدراً عليه قبل أن يخلق، فلا لوم عليه فيه، إذ لا دخل له في التقدير. وعرض ادم لموسى بأنه ما كان ينبغي له أن يكون منه هذا اللوم على المقدر مع علو مقامه بالعلم والاصطفاء، فغلب ادم موسى وقامت حجته عليه[2].

ج . الأحكام والفوائد والاستنباط:

إن الأستاذ ابن باديس لم يوجه عنايته ويقصر اهتمامه على الجوانب الفقهية والتشريعية، بل تجاوز ذلك إلى القضايا النفسية الاجتماعية ، بل والسياسية والحضارية . ذلك أن الهدف من وراء شرح السنة عنده هو

---

(1) المصدر نفسه ص 133.

(2) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

علاج مشكلات الأمة على جميع المستويات من خلال رصد مواطن الخلل، ومظاهر القصور، ووصف الحلول الناجعة لذلك كله من السنة النبوية الشريفة.

فخلال شرحه لحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر[1].

وأشار إلى أن الحديث يتضمن معنى عظيماً وهو ارتباط كل فرد بأمته ارتباط الجزء بالكل، وعليه فالفرد ينظر إليه في النظر الاجتماعي العام من خلال ما ينظر به إلى أمته، سواء أساواها في المستوى الذي هو فيه من رقي أو انحطاط أم كان أسمى منها أو أدنى، فقيمته في النظر الاجتماعي العام هي قيمتها[2].

وعمل ابن باديس على توجيه كلامه إلى النخب التي تثقفت بالثقافة الغربية وتخرجت في الجامعات الفرنسية، أن تقوم بواجبها تجاه أمتها كاملاً فوجه إليه إليها حديثه فقال: واليوم ـ وقد تجلت لكم الحقيقة علمياً وعملياً ـ عليكم أن تلتفتوا إلى أمتكم فتنشلوها مما هي فيه بما عندكم من خبرة محافظين لها على مقوماتها سائرين بها في موكب المدنية الحقة بين الأمم، وبهذا تخدمون أنفسكم وتخدمون الإنسانية بإنهاض أمة عظيمة تاريخية من أممها، ثم لا يمنع هذا من أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان واقتباس كل ما هو حسن مما عند غيرنا ومد اليد إلى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام[3].

وتحدث ابن باديس حديثاً للأمة الجزائرية من خلال الحديث السابق فقال: لا عزة للمسلمين إلا باتحادهم وتعاونهم وإن الاتحاد عمل يبدأ بالأفراد، لينتهي بين الحكومات ورجال السياسة، وأن يعمل الكل

(1) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

(2) آثار الأستاذ الإمام (2 / 103).

(3) آثار ابن باديس (2 / 104).

جاهداً على تفقد البناء وتمتينه حالاً بعد حال، ومحاربة كل مظاهر الاختلال التي تعتوره، والفساد الذي يطرأ عليه[1].

كان ابن باديس يغوص في أعماق النص النبوي، ليستنبط منه جملة من الأحكام التشريعية، والسنن الكونية التي تحكم سير الحضارات، وقيام المدنيات، ثم يعرض واقع الأمة الإسلامية على ذلك كله، ليحدد مدى قرب أو بعد واقع الأمة من النموذج الذي حدده لها القرآن والسنة. ذلك أن الهدف الأسمى من وراء دراسة السنة عند ابن باديس هو بناء الأمة الإسلامية وبذل الجهود للعودة بها إلى المكانة التي حددتها لها السنة[2].

د . بعض الضوابط لفهم سليم للحديث النبوي الشريف:

. فهم السنة النبوية لفهم القرآن:

إن الشيخ ابن باديس . رحمه الله . كان من العلماء الذين يرون بأن السنة كلها شرح وبيان للقران الكريم، وعليه فلا يمكن أن يفهم شيء منها إلا في ضوء القرآن الكريم، ولذا قال: كان (ص) يذكر بقوله وعمله وهديه وسمته وكان ذلك كله منه على وفق هداية القرآن وحكمه[3].

قال تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ *} [المائدة : 15].

عاود التذكير بهذه القاعدة الجليلة، وأن السنة تفهم في دائرة القرآن الكريم وفي ضوء توجيهاته، فقال: محمد (ص) والقران نور وبيان: في هذه الآية وُصف محمد (ص) أنه نور. ووُصف القرآن بأنه مبين، وفي آيات أخرى وُصف القرآن بأنه نور، بقوله: {فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا} [التغابن : 8].

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 136.

(2) المصدر نفسه ص 137.

(3) الشهاب ج 1 مجلد 5 سنة 1929م.

ووُصف الرسول بأنه مبين: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ *} [النحل: 44].

وهذا ليبين لنا الله تعالى أن إظهار النبي (ص) وبيانه وإظهار القرآن وبيانه واحد، ولقد صدقت عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن خلق النبي (ص)، فقالت: كان خلقه القرآن.

نستفيد من هذا أولاً ـ أن السنة النبوية والقران الكريم لا يتعارضان ولهذا يردّ خبر الواحد إذا خالف القطعي من القران.

ثانياً: إن فقه القرآن يتوقف على فقه حياة النبي (ص)، وفقه حياته (ص) يتوقف على فقه القرآن وفقه الإسلام يتوقف على فقههما[1].

ـ التتناول الموضوعي للأحاديث والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص:

من أهم القواعد التي كان ابن باديس يراعيها في التعامل مع السنة النبوية الشريفة ويدعو كل قارئ للسنة إلى الأخذ بها، هو التناول الموضوعي للأحاديث أي جمع كل الأحاديث التي وردت في موضوع ما، والاجتهاد في فهم ذلك الموضوع على ضوئها جميعاً، وفهم الحديث الجزئي على ضوء الكليات الواردة وإلا يقع في مطبة القراءة الجزئية للنصوص، الأمر الذي جرَّ الكثير من الويلات والمصائب على الفكر الإسلامي، وشوه الثقافة الإسلامية.

وكمثال على إعماله لهذه القاعدة توجيهه لحديث عائشة رضي الله عنها الذي رواه البخاري ومسلم وقالت فيه: لو أن رسول الله (ص) رأى ما حدث من النساء لمنعهن المسجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل. الذي عول عليه كثير من الفقهاء في منع النساء من الخروج إلى المساجد، كما كان شائعاً في العصور المتأخرة، حيث حيل بين النساء وبين بيوت الله عز وجل، فحُرمن الفقه في الدين، والخير الكثير، ودفعت الأمة الإسلامية الثمن غالياً من جراء ذلك المنع، فأوضح الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ بأن مراد عائشة

(1) مجالس التذكير ص 54.

رضي الله عنها هو: لأن الذي أحدثنه هو الطيب والزينة، وهو نهى عن منعهن، ونهاهن عن مس الطيب عند إرادة الخروج، فلو رأى ما أحدثن لمنعهن لإخلالهن بالشرط حتى يلتزمنه، ولا يمنعهن منعاً يكون إبطالاً لنهيه الأول من منعهن(1).

إذ جاء في بعض رواياته منع النساء عن مس الطيب إذا أردن الخروج أو يخرجن تفلات: أي غير متطيبات(2).

. مراعاة الملابسات الزمانية والمكانية:

ومن القواعد الأساسية في الفهم السليم للسنة النبوية الشريفة، التي أولاها عناية فائقة الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله: مراعاة الملابسات الزمانية والمكانية فبمعزل عن معرفة سبب ورود الحديث، وبعيداً عن الأعراف القولية ؛ لا يمكن أن نفهم السنة فهماً سليماً. فأيّ تنزيل للسنة على واقع معين دون الأخذ بعين الاعتبار لهذا الأمر ؛ فإنه يؤدي إلى الوقوع في الحرج ومثال ذلك: بعض الألفاظ التي اكتسبت من خلال التطور معنًّى جديداً، فإن تنزيل تلك الألفاظ على المعاني الجديدة المكتسبة، أو فهم الأحاديث الواردة فيها تلك الألفاظ على ضوء المعاني المستجدة، فإنه مسلك معيب يحول دون الوصول إلى الفهم الصحيح للسنة.

وكمثال على هذا الذي نقول لفظ «المكس» الوارد في بعض الأحاديث كحديث أبي داود وغيره: لا يدخل الجنة صاحب مكس(3). فإنه في أصل الوضع اللغوي هو النقص، ثم أطلق على ما يؤخذ من بائع السلعة ظلماً، والماكس هو اخذ ذلك حتى قال صاحب المصباح المنير: وقد غلب استعمال المكس على ما يأخذه السلطان ظلماً عند البيع والشراء(4). ولكن هذا مع تطور الزمن أصبح هذا اللفظ يفيد معنى جديداً ،

(1) آثار الأستاذ الشيخ ابن باديس (2 / 176).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 141.

(3) سنن أبي داود.

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 142.

وهو ما يأخذه صاحب السوق من أجرة من رواد السوق الذين يعرضون بضائعهم للبيع، وهذا عقد إجارة تتوفر فيه كل عناصر الإجارة الجائزة، وهذا لا علاقة له بالمكس المنهي عنه شرعاً.

وفي هذا يقول الشيخ ابن باديس .: من هذا البيان يعلم أننا لا نريد تحليل المكس «عياذاً بالله» وإنما نريد أنه غير منطبق على كراء الأسواق واكتراء الانتفاع بالوقوف فيها يوم السوق، وأن العقد الأول بين صاحب السوق ونواب العامَّة، والثاني بين صاحب السوق ومريد الوقوف فيه بسلعة ؛ من عقود الإجارة الصحيحة الجائزة(1).

هـ . افتتاح دار الحديث بتلمسان:

إن بناء مدرسة دار الحديث كان بمثابة تحدٍّ من قبل سكان تلمسان ورجال العلماء للإدارة الفرنسية، وإثباتاً لفرنسا أن الأمة الجزائرية قادرة على النهوض وتعليم أبنائها وبناء حضارتها ومستقبلها بنفسها دون وصاية من أي مكان(2).

. دعوة إلى كل الجزائريين:

في المؤتمر السنوي العام بجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد عام 1356هـ الموفق 1937م بنادي الترقي في العاصمة ؛ وجَّه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى الحاضرين الدعوة التالية: أيها الأخوة الكرام لقد حمَّلني إخوانكم التلمسانيون أمانة يجب أن أبلغها إليكم، وهي أنهم يسلِّمون عليكم ويعاهدونكم على التفاني في خدمة الجمعية ونشر مبادئها، ويبشرونكم أنهم شيَّدوا للإسلام والعروبة معهداً لم يكن له نظير في تاريخ الجزائر الحديث، كما أنهم يتشوَّقون ويتشرَّفون أن يكون فتح هذا المعهد أوَّل مرَّة بيد علاَّمة الجزائر وزعيم نهضتها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، وهذا المعهد هو دار الحديث المسمَّاة على «دار الحديث الأشرفية» التي أسست منذ قرون في دمشق، تلك المدرسة التاريخية التي تخرج منها أئمة في العلوم وفحول في

(1) المصدر نفسه ص 142.

(2) مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ، خالد مرزوق ص 196.

الأدب، والتي كان من مدرِّسيها الإمام الحافظ محيي الدين النووي، والإمام النظار تقي الدين السبكي(1).

. دعوة أهالي مدينة تلمسان:

كما وجّه دعوة إلى أهالي مدينة تلمسان هذا نصَّها:

إن أكبر دعامة تقوم عليها النهضة العربية الإسلامية بالقطر الجزائري هي تشييد المدارس الحرَّة بمال الأمة لأنها فضلاً عن الواجب الذي تقوم به للدِّين واللغة ؛ تحيي في الأمة روح البذل في سبيل العلم وتقوِّي فيها خلق التعاون على الخير.

وقد قامت تلمسان عاصمتكم التاريخية بقسطها من هذا الواجب كلِّه، فجاءت رمزاً لمجد تلمسان التاريخي وعنواناً على نهضة الجزائر الحديثة، ومفخرة للقطر الجزائري كله وحظاً للعربية والإسلام، وستحتفل تلمسان بافتتاحها يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر سبتمبر 1937م احتفالاً مشهوداً يكون عرساً عالمياً للقطر كله، وتتجلى فيها الأخوَّة الإسلامية بأكمل معانيها.

والجمعية الدينية الإسلامية المشرفة على تشييدها تتشرَّف بدعوتكم للحضور في هذا المهرجان المبارك، وتسألكم بحق الأخوَّة الا تقصِّروا في واجب الحضور الذي هو تأييد للعلم وإعانة للإسلام والعربية(2).

. الافتتاح:

لقد كان يوم 27 سبتمبر 1937م يوماً مشهوداً في تاريخ الجزائر عامة وتلمسان خاصَّة، حيث توافد الناس من كامل القطر الجزائري لحضور افتتاح دار الحديث وكان عددهم ثلاثة الاف شخص منهم سبعمائة ضيف، والبقية من أهالي تلمسان.

وخرج يومها أهالي المدينة كباراً وصغاراً، رجالاً ونساءً، مواطنين وبعض المستعمرين للقاء زعيم النهضة

---

(1) آثار الشيخ البشير الإبراهيمي (1 / 306).

(2) مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان ص 198.

الإصلاحية ورئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، الشيخ عبد الحميد بن باديس.

لقد كان الشيخ محمد مرزوق على رأس اللجنة الثقافية والاجتماعية، وتكفل بمراسيم حفل الافتتاح واستقبال الشخصيات والمدعوِّين، وقُدم يومها عمل ممتاز، والكل كان منظماً ولا شيء غاب عن لجنة الاستقبال.

وصل الشيخ عبد الحميد بن باديس على الساعة العاشرة والنصف إلى محطَّة القطار «باب سيدي بومدين» . المدرس . الشارع الوطني المعروف بشارع العقيد لطفي الان، حتى مدرسة دار الحديث، واصطفَّ على طول الطريق شبَّان ينتمون إلى الحركة الوطنية «من حزب الشعب» وكوَّنوا جدار سلسلة عن يمين الشارع ويساره، متماسكي الأيدي وعلى ذراع كل منهم منديل أخضر لتسهيل عملية المرور للشيوخ، فأعجب الوفد بهؤلاء الشباب ونظامهم، وكان الكل يردد «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». وزغاريد النساء مدوية من الشرفات حتى الوصول إلى باب المدرسة. وقد رفضت اللجنة المنظمة مساعدة البوليس لتنظيم المسيرة، لكن هذا الأخير أحضر جنوداً سنغاليين احتياطاً وتركهم داخل ثانوية ابن خلدون حالياً.

وسار الموكب في نظام وخشوع وكان يضم حوالي 3000 شخص من بينهم 600 إلى 700 من الجزائر وقسنطينة ونواحي تلمسان، كما حضر حوالي ثلاثة من تونس وحوالي خمسة عشر من المغرب وثلاثة من الصحفيين العرب وصحفي من جريدة الأمة ومدير جريدة العدالة والثالث من الجزائر.

كان على باب المدرسة الشيخ محمد مرزوق يستقبل الضيوف، وكان الجمع غفيراً حول المدرسة وفي الأزقة المجاورة، والكل جرى على أحسن ما يرام دون تسجيل لأي حدث، بينما كانت مجموعة من فرقة الكشَّافة الإسلامية بتلمسان تقف عن يمين باب المدرسة ويساره يرحِّبون بالضِّيوف وهم ينشدون نشيد مرحباً أهلاً وسهلاً بكم[1].

---

(1) المصدر نفسه ص 201.

وقد روى الشيخ محمد شيعلي أنَّ مصطفى هدَّام أخبره أنه سمع بعض المعلمين بالفرنسية يوم الافتتاح يقولون بأن جمعية العلماء هي عبارة عن قنبلة موقوتة ستظهر نتائجها بعد عشرين سنة.

وتلاحقت الوفود وتجمعت أمام مبنى المدرسة، ووقف الشيخ البشير الإبراهيمي بباب المدرسة يخاطب الرئيس ابن باديس . وهو يناوله المفتاح . بهذه الكلمات البليغة: أخي الأستاذ الرئيس: لو علمت في القطر الجزائري، بل في العالم الإسلامي رجلاً له يد على العلم مثل يدكم وفضل على الناشئة مثل فضلكم لاثرته دونكم فتح هذه المدرسة، ولكن لم أجد، فباسم تلمسان وباسم الجمعية الدينية بالخصوص أناولكم المفتاح لتفتحوها، فهل لهذه المدرسة أن تتشرف بذلك؟

وتناول الاستاذ الرئيس المفتاح وقال: بسم الله الرحمَّن الرحيم ثمَّ على اسم العروبة والعلم والفضيلة أفتح مدرسة دار الحديث، ربنا أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين، ربنا أدخلنا مدخل صدق وأخرجنا مُخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً. جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، ثم فتح الباب ودخل، ودخل خلفه العلماء والضيوف وبقيت جموع غفيرة من أهالي تلمسان لم تسعهم البناية واثروا ضيوفهم عليهم.

بقيت هذه الجموع تصيح خارج المدرسة، ابن باديس ابن باديس، نريد أن نرى ونسمع ابن باديس، فأطل عليهم والإبراهيمي والعلماء من الشرفة في الطابق الأول وخاطبهم قائلاً: يا أبناء تلمسان يا أبناء الجزائر: إن العروبة من عهد تبع إلى اليوم تحييكم، وإن الإسلام من يوم محمد (ص) إلى اليوم يحييكم وإن أجيال الجزائر من هذا اليوم إلى يوم القيامة تشكركم وتثني عليكم أمانة من تاريخنا المجيد فأديتموها فنعم الأمناء أنتم فجزاكم الله جزاء الأمناء والسلام عليكم ورحمة الله.

ثم عاد العلماء إلى المدرسة، وفي قاعة المحاضرات اعتلى ابن باديس وصحبه المنصَّة وتكلم الشيخ الإبراهيمي فقال: الفضل في هذه المدرسة لا يرجع لأحد غير جمعية العلماء، فكل فضل لهذا العاجز الضعيف

هو قطرة من بحر فضل جمعية العلماء، ثم أخبر الشيخ الإبراهيمي الحاضرين بأن الرئيس ابن باديس سيفتتح الكلام في دار الحديث بدرس قيّم يلقيه عليهم الان في الحديث النبوي الشريف.

وافتتح ابن باديس الدرس بحمد الله والصلاة على نبيه (ص) ثم روى حديثاً بالسند المتصل بالبخاري ومسلم وهو قوله (ص): مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا أو «رعوا»، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلَّم ومثل من لم يرفع لذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به. متفق عليه من حديث أبي موسى الشعري.

وأفاض في شرحه بطريقته التي اختص بها وعرف بها، واثناء كلامه عن قوله (ص): فعلم وعلَّم، أخرج من جيبه خمسمائة فرنك إعانة رمزية منه للمدرسة، وبعد انتهائه من الدرس تبارى الناس في البذل والتبرع بما لديهم في سخاء وكرم نادرين، كما شارك النساء بعد ذلك بتقديم جواهرهنَّ وحليّهنَّ[1].

كانت مدرسة الحديث في تلمسان تحفة معمارية جامعة بين الفن العربي البديع والشكل العصري الأنيق، وتبدو آية في الفخامة والجمال والسعة والكمال[2].

ثالثاً: إهتمامه بالعقيدة:

إن القارئ لتراث الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ يجد نصوصاً من الكثرة بمكان، يصرح فيها تصريحاً واضحاً، لا لبس فيه ولا مواربة بأن المنهج الذي يرتضيه في تدريس العقائد هو منهج القرآن نفسه

(1) المصدر نفسه ص 203.

(2) المصدر نفسه ص 204.

وبيان الشارح وهو السنة النبوية الشريفة، ويرى أن هذا المنهج أيسر على عُموم المسلمين كي يفهموا عقائدهم، خلافاً لمنهج المتكلمين الذي يتّسم بالصعوبة والتعقيد، بل الغموض والتكلف ؛ إذ يزج بهم في عالم من المصطلحات، كالجوهر والعرض والجنس والنّوع وعالم من الجداليات، التي تتعب عقول العلماء إزاءها، ناهيك عن عقول العوام، بل ويعتبر السير في طريق المتكلمين، والحرص عليها مع الإعراض على طريق القرآن في عرض العقائد وبسطها نوعاً من الهجر لكتاب الله عز وجل، فقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا القرآن مَهْجُورًا *} [الفرقان : 30].

فقال:.. ونحن . معشر المسلمين . قد كان منّا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمن الطويل . وإن كنا به مؤمنين . بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة وإصطلاحاتها المحدثة مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة[1].

وقال: أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه، وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي (ص) الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم، فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدها الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم، إذ يجب على كل مكلّف أن يكون في كل عقيدة من عقائده الدينية على علم، ولن يجد العامي الأدلة لعقائده سهلة قريبة إلا في كتاب الله، فهو الذي يجب على أهل العلم أن يرجعوا في تعليم العقائد للمسلمين إليه، أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله وتصعيب طريقة العلم إلى عباده وهو في أشد الحاجة إليه، وقد كان من نتيجة هذا ما نراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه[2].

(1) مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير ص 250.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص 142.

وفي المقال الذي كتبه الشيخ ابن باديس حول إصلاح التعليم في جامع الزيتونة المعمور وضمّنه جملة من ارائه في الإصلاح التربوي وجملة من المقترحات التي يراها ضرورية لتخريج العالم العامل بعلمه المتفاعل مع قضايا أمته، فإنه كرَّر الدعوة إلى وجوب تجديد الدرس العقدي ؛ وذلك بالابتعاد عن أساليب المتكلمين في تدريسه وبحث مسائله فقال: وعلى العقائد يجب أن تأخذ هي وأدلتها من آيات القرآن فإنها وافية بذلك كُلِّه، وأما إهمال آيات القرآن المشتملة على العقائد وأدلتها والذهاب مع تلك الأدلة الجافة ؛ فإنه من استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير[1].

وإلى جانب المصدر الثاني وهو السنة النبوية الشريفة، القولية والفعلية والتقريرية، وهو المصدر الشارح والمبين والمفصِّل لما جاء في المصدر الأول، والذي لا استغناء عنه لمن أراد أن يفهم القرآن فهماً سليماً وأن يطبقه تطبيقاً حسناً، ولقد كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ كثير الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة شديد الدعوة إلى والتمسك بها والتعويل عليها في فهم الدين فهماً صحيحاً بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين و تأويل الجاهلين.

فقال في مقال لعنوان «بواعثنا، علمنا، خطتنا، غايتنا»، ـ «فأخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية الشريفة، وتخصيصها بالتقدم والأحجية، فكانت دعوتنا ـ علم لله ـ من أوَّل يوم إليها، والحث على التمسك والرجوع إليها.

ونحن اليوم ما كنا سائرين، وإلى الغاية التي سعينا إليها قاصدين، وقد زدنا من فضل الله، أن أسسنا هذه الصحيفة الزكية وأسميناها «السنة النبوية المحمدية» لتنشر على الناس ما كان عليه النبي (ص) في سيرته العظمى، وسلوكه القويم، وهديه العظيم، الذي كان مثالاً ناطقاً لهدي القرآن وتطبيقاً لكل ما دعا إليه القرآن بالأقوال والأفعال والأحوال، ممَّا هو المثل الأعلى في الكمال، والحجة الكبرى عند جميع أهل الإسلام، فالأئمة

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 59).

كلهم يرجعون إليها والمذاهب كلها تنضوي تحت لوائها، وتستنير بضوئها وفيها وحدها ما يرفع أخلاقنا من وهدة الانحطاط، ويُطهر عقيدتنا من الزيغ والفساد، ويبعث عقولنا على النظر والتفكير، ويدفعنا إلى كل عمل صالح، ويربط أخوتنا برباط الأخوة واليقين، ويسير بنا في طريق واحد مستقيم ويوجهنا وجهة واحدة في الحق والخير، ويحيي النفوس والهمم والعزائم، ويثير كوامن الامال ويرفع عنا الإصر والإغلال، ويصيّرنا ـ حقاً ـ خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

فها نحن اليوم نتقدم بهذه الصحيفة للأمة كلها على هذا القصد وعلى هذه النية: عملنا نشر السنة النبوية المحمدية وحمايتها ممَّا يمسها بأذية، وخطتنا الأخذ بالثابت عند أهل النقل الموثوق بهم، والاهتداء بفهم الأئمة المعتمد عليهم، ودعوة المسلمين كافة إلى السُنة المحمدية دون تفريق بينهم، وغايتنا أن يكون المسلمون مهتدين بهدي نبيهم في الأقوال والأفعال والسير والأحوال حتى يكونوا للناس كما كان هو صلى الله عليه واله وسلم مثالاً أعلى في الكمال[1].

وقال أيضاً: فعلى كل مؤمن أن يسلك هذا السلوك فيحضر مجالس العلم التي تذكره بايات الله وأحاديث رسوله ؛ ما يصحح عقيدته ويزكي نفسه ويقوّم عمله، وليطبق ما يسمعه على نفسه وليجاهد في تنفيذه على ظاهره وباطنه، وليداوم على هذا حتى يبلغ ما قُدِّر له من كمال[2].

1 ـ الاستدلال على العقائد:

يقول ابن باديس في دروس العقيدة التي أملاها على طلابه: أول واجب على المكلف من مُسلم بالغ، أو كافر يريد الدخول في الإسلام، أن يعلم أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ولا يكفي النطق بكلمتي الشهادة إذا كان الناطق بهما لا يفهم أصل معناهما، ويكفي للدخول في الإسلام ما دلَّ على معناهما لحديث

(1) آثار الإمام ابن باديس (5 / 94).

(2) مجالس التذكير ص 320.

بني جذيمة، ولا يكفي النطق بالشهادتين وفهم معناهما إلا مع التصديق التام والاعتقاد الجازم به.. من حصل له اليقين بإخبار الرسول (ص) وكفاه ذلك اليقين.

ويجب على المؤمن مع تصديقه وجزمه ؛ أن ينظر في آيات الله ويستعمل عقله للفهم، كما تجب عليه جميع الواجبات في الإسلام.. النَّظر الواجب على المكلف هو النظر على الطريقة التي جاء بها القران، من عرضت له شبهة وجب عليه أن يبادر إلى إزالتها، وبالنَّظر بنفسه أو بسؤال غيره من أهل العلم، ومن وردت على قلبه خطرات من دون شبهة فليستعذ بالله وليقل امنت بالله ورسوله[1].

لقد عمل ابن باديس على تخليص الدرس العقائدي من المصطلحات المعقدة والقياسات المنطقية، وعاد إلى أدلة القرآن وطريقته في العرض والمحاججة، ولقد أدركَ هذه الميزةَ في العقيدة التي أملاها ابن باديس على طلبته الشيخُ الإبراهيميُّ فقال في المقدمة التي كتبها لها: فجاءت عقيدة مثلى يتعلمها الطالب فيأتي منه مسلم سلفي موحِّد لربه بدلائل القرآن كأحسن ما يكون المسلم[2].

ويقول الإبراهيمي كذلك: حتَّى جاءت دروس الإمام ابن باديس فأحيى بها طريقة السلف في دروسه ـ ومنها هذه الدروس ـ وأكملتها جمعية العلماء، فمن مبادئها التي عملت لها بالفعل لزوم الرجوع إلى القرآن في كل شيء لا سيما ما يتعلق بتوحيد الله وصفاته، وما يرجع إلى الغيبيات لا يكون إلابالقرآن، لأن المؤمن إذا استند في توحيد الله وإثبات ما ثبت له ونفي ما انتفى عنه لا يكون إلا باية قرانية محكمة، فالمؤمن إذا سوّلت له نفسه المخالفة في شأن من أمور الاخرة، أو صفات الله، فإنها لا تسول له مخالفة القرآن[3].

والمهم في مدرسة ابن باديس أن الإنسان المسلم ينبغي أن يبلغ درجة اليقين في العقيدة، وأن يعمق هذا اليقين بالنظر في آيات الله التشريعية والكونية، وأن هذا النظر يكون على الطريقة القرآنية.

---

(1) العقائد الإسلامية ابن باديس ص 40.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة ص 30.

(3) العقائد الإسلامية ص 24.

إن ابن باديس يجعل الواجب الأوَّل: هو النطق بالشهادتين وفهم معناهما مع التصديق التام والاعتقاد الجازم، ثم يسعى إلى النظر على الطريقة القرآنية لتعميق هذا الاعتقاد وتثبيته، وأن يعتمد على القرآن في دحض الشبهات التي تطرأ، فهو عند تفسير قوله تعالى: {وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا *} [الفرقان : 33].

قال: إذا تتبعت آيات القرآن وجدتها قد أتت بالعدد الوافر من شبه الضالين واعتراضاتهم ونقضتها بالحق الواضح والبيان الكاشف في أوْجز لفظه وأقربه وأبلغه، وهذا قسم عظيم جليل من علوم القرآن يتحتم على رجال الدَّعوة والإرشاد أن يكون لهم به فضل عناية ومزيد دراية وخبرة، ولا نحسب شبهة ترد على الإسلام إلا في القرآن العظيم ردُّها بهذا الوعد الصادق من هذه الآية الكريمة، فعلينا عند ورود كل شبهة من كل ذي ضلالة أن نفزع إلى اي القران، ولا إخالنا إذا أخلصنا القصد وأحسنا النظر إلا واجديها، وكيف لا نجدها في آيات ربنا التي هي الحق وأحسن تفسيراً[1].

2. موقفه من علم الكلام:

قال ابن باديس: قلوبنا معرَّضة لخطرات الوسواس، بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع الاضطراب عنها ويربطها باليقين هو القرآن العظيم، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكًّا وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن وأدلة القرآن فشفوا بعد ما كادوا كإمام الحرمين والفخر الرازي[2].

وابن باديس في هذا النص يُشير إلى تجربة هؤلاء الأئمة العظام، الحجة النُّظار، الذين كانت لهم تجارب خاصة في السير مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم العقلية ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، إذا ساروا إلى

(1) مجالس التذكير ص 260.
(2) مجالس التذكير ص 257.

أبعد مدى ممكن في هذا الطريق، حتى أحسوا بأنه ليس وراء سيرهم مزيد، ولكنهم عادوا فارغي الأيدي، بل زادت شكوكهم وما استراحت قلوبهم، فعادوا إلى نقطة البدء، فهذا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني يعلن عند موته: لقد خضت البحر الخضم وخليت أهل الإسلام وعلومهم ودخلت في الذي نهوني عنه. والان فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل للجويني، وهانذا أموت على عقيدة أمي أو قال على عقيدة عجائز أهل نيسابور(1).

وكان يقول: يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو أني عرفت أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغت ما اشتغلت به(2).

وأما فخر الدين الرازي فقد عبَّر عن تجربته بالقول:

نهـاية إقــدام العـقول عــقال	وأكثر سعي العالمــين ضلال
وأرواحنا في وحشة من جسومنا	وحــاصل دنيانا أذى ووبــال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا	سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات قال تعالى: {الرَّحْمَانُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى *} [طه : 5].

واقرأ في النَّفي {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} [الشورى : 11].

ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي(3).

وكذلك قال أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني:

أخبر أنَّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والنَّدم(4).

إن ابن باديس اعتمد على القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهرة في تعليم العقائد للأمة، وحذر من علم

(1) فتاوي ابن تيمية (4 / 73).
(2) فتاوي ابن تيمية (4 / 73).
(3) المصدر نفسه (4 / 72).
(4) المصدر نفسه (4 / 73).

الكلام، وأرشد إلى الاستفادة من تجارب العلماء الكبار في هذا المضمار، كإمام الحرمين والفخر الرازي.

3. الدعوة إلى التوحيد:

إن توحيد الله عز وجل ومحاربة جميع مظاهر الشرك المنافية للتوحيد هي أساس الدين وركنه القويم، وهو المهمة السامية التي ابتعث الله عز وجل بها جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ} [النحل : 36].

وقال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا} [النساء : 36].

وقال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ *} [الذاريات : 56].

وقد أقام ابن باديس مشروعه التجديدي الإصلاحي الدعوي التربوي على تطهير الإسلام من كل البدع والخرافات والشوائب والأضاليل التي ألصقت به كذباً وزوراً، وكذا بناء الإنسان القرآني على أساس من الكتاب والسنَّة وهدي السلف الصالح، لأن إصلاح العقيدة هو منطلق كل إصلاح جاد في المجتمع، لأن فساد العقيدة وسيطرة جملة من المفاهيم الغريبة على الكتاب والسُنَّة على عقل وقلب الإنسان المسلم في عصور الانحطاط؛ هي سبب تدهور المجتمعات الإسلامية وابتعاد الإنسان المسلم عن الفعالية وركونه للسكوت والاستسلام(1).

ومن هذه القضايا التي أولاها ابن باديس عناية فائقة قضية التوحيد والشرك، ففي العقيدة التي أملاها على طُلابه وتحت عنوان «عقائد الإيمان بالله».

يقول: هو الموجود الحق لذاته الذي لا يقبل وجوده العدم، فهو القديم الذي لا بداية لوجوده وهو الباقي الذي لا نهاية لوجوده.

وهو الموجود الذي سبق وجوده كل موجود، فكان تعالى وحده ولا شيء معه، ثم خلق ما شاء من

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية ، د. محمد الدراجي ص 40.

مخلوقاته فهو الغني بذاته عن جميع الموجودات وهي المفتقرة كلها ابتداء ودوماً إليه[1].

ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: وهو الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله فلا ثاني له، ولا نظير ولا شريك له في ذاته.

ولا ثاني له ولا نظير له في أسمائه.

ولا ثاني له ولا نظير له في صفاته.

ولا ثاني له ولا نظير له في أفعاله[2].

إن نصوص الشريعة تقضي بأن الله عز وجل موصوف بصفات الجلال والجمال والكمال ومنزه عن كل صفات النقص التي لا تليق بكمال الربوبية وجلال الإلهية.

. قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيمُ *هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ *هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِىءُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *} [الحشر : 22 ـ 24].

وقد فصل ابن باديس في موضوع التوحيد وبين أقسامه وشرح كل قسم بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة العدول الأثبات فقال: التوحيد هو اعتقاد وحدانية الله وإفراده بالعبادة، والأوَّل هو التوحيد العلمي والثاني هو التوحيد العملي ولا يكون المسلم مسلماً إلا بهما[3].

وبعد هذا التعريف الجامع للتوحيد وهو اعتقاد وحدانية الله وإفراده بالعبادة، شرع في بيان أقسام التوحيد:

(1) العقائد الإسلامية ص 67 إلى 70.

(2) المصدر نفسه ص 77.

(3) المصدر نفسه ص 78.

أ ـ توحيد الربوبية: وعرَّفه بالقول: توحيد ربوبيته: وهو العلم بأن لا خالق غيره، ولا مدبِّر للكون، ولا متصرف فيه سواه[1].

فتوحيد الربوبية هو الاعتقاد الجازم بأن لهذا الكون خالقاً أوجده من عدم بعد أن لم يكن، وأنَّه هو المتصرف في شؤون الكون، فالله وحده هو الخالق والرازق، والمحيي والمميت والمبدأئ والمعيد، الضار والنافع، فهو وحده قيّوم السماوات والأرض، وهذا الأمر تشهد له نصوص القرآن الكريم، ونصوص السُنَّة النبوية الشريفة، من ذلك:

ـ {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ} [فاطر : 3].

ـ {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الاعراف : 54].

ـ {يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ} [السجدة : 5].

ويقول الرسول (ص): لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد[2].

ب ـ توحيد الألوهية: وقال عنه: ومن توحيده تعالى توحيده في الألوهية: العلم بأنه تعالى هو المستحق للعبادة وحده دون سواه والقصد والتوجه والقيام بالعبادات كلها إليه[3].

فالله وحده هو المستحق للعبادة، فلا يعبد إلا الله ولا يعبد إلا بما شرع، والنصوص الشرعية التي تشهد لهذا المعنى كثيرة:

ـ قال تعالى: {أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء : 25].

ـ وقال تعالى: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [الأنعام : 79].

ـ وقال تعالى: {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ *} [الأنعام : 162 ـ 163].

---

(1) العقائد الإسلامية ص 78.

(2) رواه مسلم وأحمد وغيرهما عن ابن عباس.

(3) العقائد الإسلامية ص 79.

فصّل ابن باديس أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية الذي هو أساس الدين، فقال: ووحدانيته تعالى في ربوبيته تستلزم وحدانيته تعالى في ألوهيته، فالمتفرد بالخلق والرزق والعطاء والمنع ودفع الضر وجلب النفع هو الذي يجب أن يفرد بالعبادة التي هي غاية الخضوع والذل مع الفقر والحاجة للعزيز القادر المنعم[1].

ج ـ توحيده في شرعه: وقال ابن باديس: توحيده في شرعه، فلا حاكم ولا محلل ولا محرم سواه[2].

وهو أن الله عز وجل هو المشرع لعباده فهو الذي يأمرهم وينهاهم ويحلّ لهم ويحرم عليهم، ونصوص الشريعة التي تدل على هذا المعنى كثيرة منها:

ـ قال تعالى: {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ} [الأعراف : 54].

ـ وقال تعالى: {وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ} [النحل : 116].

ـ قال تعالى: {أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ} [الشورى : 21].

ـ وقال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ} [الشورى : 10].

وقال تعالى: {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [النساء : 65].

وعن عدي بن حاتم الطائي أنه لما جاء النبي (ص) وسمعه يتلو قوله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ} [التوبة : 31].

قال عدي: يا رسول الله، إنهم لم يكونوا يعبدونهم؟ قال أليس كانوا إذا حرَّموا عليهم شيئاً حرَّموه، وإذا

(1) العقائد الإسلامية ص 80.

(2) المصدر نفسه ص 82.

أحلوا لهم شيئاً أحلوه؟ قال، قلت: نعم ، قال رسول الله (ص): فتلك عبادتهم إيَّاهم[1].

د . توحيد الأسماء والصفات:

يقول ابن باديس: وهو الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله، فلا ثاني له ولا نظير له، ولا شريك له في ذاته، ولا ثاني له ولا نظير له في أسمائه، ولا ثاني ولا نظير له ولا شريك في صفاته[2].

وقال: عقيدة الإثبات والتنزيه: فثبت له ما أثبته لنفسه على لسان رسوله، من ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله. وننتهي عند ذلك ولا نزيد عليه وننزهه في ذلك عن مماثلة أو مشابهة شيء من مخلوقاته، ونثبت الاستواء والنزول ونحوهما ونؤمن بحقيقتهما على ما يليق به تعالى بلا كيف، وبأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد.. ولا تحيط العقول بذاته ولا بقضائه ولا بأسمائه[3].

4 . محاربة الشرك ومظاهره:

وإلى جانب شرحه المستفيض للتوحيد وأقسامه وحسن استدلاله من الكتاب والسنة، فقد أوضح الشرك أيَّما توضيح وتتبع مظاهره في المجتمع، وحذَّر منه ايما تحذير، لأن الشرك ينافي التوحيد، ولا يكون الإنسان موحداً لربه التوحيد الكامل، إلا إذا اجتنب الشرك بكل مظاهره، فعند تفسيره قوله: {لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولاً *} [الإسراء : 22].

قا: فنهى الله الخلق كلهم عن أن يعتقدوا معه شريكاً في ألوهيته فيعبدوه معه، ليعتقدوا أنه الإله وحده فيعبدوه وحده، وبيَّن لهم أنهم إن اعتقدوا معه شريكاً وعبدوه معه ؛ فإن عبادتهم تكون باطلة وعملهم يكون مردوداً عليهم وأنهم يكونون مذمومين من خالقهم ومن كل ذي عقل سليم من الخلق، ويكونون مخذولين لا

(1) الترمذي، ك التفسير.

(2) العقائد الإسلامية ص 77.

(3) المصدر نفسه ص 71.

ناصر لهم، فأما الله فإنه يتركهم وما عبدوا معه، وأما معبوداتهم فإنها لا تنفعهم لأنها عاجزة مملوكة مثلهم فما لهم ـ قطعاً ـ من نصير[1].

وفي الإطار نفسه وعندما تعرض لشرح حديث ثوبان الذي رواه الإمام الترمذي في صحيحه والذي وصفه تحت عنوان مُعبر جداً وهو: «الشرك والوثنية ودعوى النُّبوة».

ونصه: قال رسول الله صى الله عليه وسلم: لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذَّابون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي[2].

تعرَّض إلى إمكانية وقوع المسلمين في الشرك والوثنية.

ولذا كان النبي (ص) يحذر المسلمين كثيراً من الوقوع في الشرك ويدعوهم إلى اجتناب أسباب ذلك.

ثم كتب كلاماً نفيساً تحت عنوان: «اللحوق بالمشركين» جاء فيه: من اعتقد مثل عقيدتهم أو فعل مثل أفعالهم أو قال مثل أقوالهم ؛ فقد لحق بهم وقد يكون اللحوق تاماً مخرجاً عن أصل الإسلام، وقد يكون دون ذلك.

ـ فأصل عقيدة الشرك عند عرب الجاهلية أنهم يعلمون أن الله هو خلقهم وهو يرزقهم وهو المالك لجميع مخلوقاته، ولكنهم كانوا يجعلون توجههم وتقربهم وتضرعهم لالهتهم على اعتقاد أنها تقربهم إلى الله.

ـ وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تتوجه لبعض الأموات وتتضرع لهم وتقف أمام قبورهم بخضوع وخشوع تامين، وتتضرع وتناديهم على اعتقاد أنهم يقربونهم إلى الله ويتوسطون بها إليه، ويزيدون أنهم ينصرفون لها بقضاء الحوائج وجلب الرغائب ودفع المصائب.

ـ ومن أعمال المشركين في الجاهلية أنهم يسوقون الأنعام لطواغيتهم فينحرونها عندها طالبين رضاها ومعونتها.

---

(1) مجالس التذكير ص 96.

(2) رواه الترمذي وأبو داود والبرقاني في صحيحه.

ـ وفي الناس اليوم طوائف كثيرة تسوق الأنعام إلى الأضرحة والمقامات تنحرها عندها إرضاءً لها وطلباً لمعونتها أو جزاء على تصرفها وما جلبت من نفع أو دفعت من ضر.

ـ ومن أقوال المشركين في الجاهلية حلفهم بطواغيتهم تعظيماً لها.

ـ وفي الناس اليوم طوائف كثيرة يحلفون بالله فيكذبون ويحلفون بمن يعظمونه من الأحياء أو الأموات فلا يكذبون، فهذه الطوائف الكثيرة كلها قد لحقت بالمشركين، وصدق رسول الله (ص) في قوله: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين»[1].

ومن خلال هذا النص فقد تتبع الشيخ ابن باديس جملة مظاهر الشرك المتفشية في المجتمع وقارن بينها وبين المظاهر الشركية التي كانت في الجاهلية ليخلص إلى أن فئات من المسلمين لقد لحقت بالمشركين، وبات من اللازم المسارعة إلى الإنكار عليها والتحذير مما وقعت فيه، ومن هذه المظاهر:

ـ إتخاذ الوسطاء والشفعاء على أنها تقربهم من الله.

ـ الذبح عند المقامات إرضاء لها وطلباً لمساعدتها.

ـ الحلف بمن يعظمونهم من الشيوخ والأولياء وأصحاب المقامات والمزارات، فعبارة وحق سيدي فلان، أصبحت قسماً متداولاً مألوفاً ومقبولاً..إلخ.

وعند تفسير قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *} [يوسف : 108].

أوضح بأن الآية تتضمن بالإضافة إلى وجوب تنزيه الله عز وجل عن الشرك، البراءة من المشركين. وأكد بأن مظاهر الشرك كثيرة، فقال رحمه الله:

وهذه البراءة والمباينة، إن كانت مستفادة من أنه يدعو إلى الله وينزهه ، فإنه نص عليها بالتصريح لتأكيد

(1) مجالس التذكير ص 96 ، رواه أبو داود والترمذي.

أمر مباينة المشركين والبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جليَّة وخفية في جميع مظاهر شركهم حتى في صورة القول (كما شاء الله وشاء فلان)، فلا يقال هكذا ويقال: ثم شاء فلان كما جاء في حديث بيناه في جزء من الأجزاء الماضية. أو في صورة الفعل كأن يسوق بقرة أو شاة مثلاً إلى ضريح من الأضرحة ليذبحها عنده؛ فإنه ضلال كما قاله «الشيخ الدردير في باب النذر» فضلاً عن عقائدهم كاعتقاد أن هنالك ديواناً من عباد الله يتصرف في ملك الله، وأن المذنب لا يدعو وإنما يسأل من يعتقد فيه الخير من الأموات وذلك الميت يدعو له الله، ولتأكد أمر المباينة للمشركين في هذا كله نص عليها بالتصريح كما قلنا للبعد عن الشرك بجميع وجوهه وصوره جلية وخفية[1].

ففي هذا النص دعوة صريحة إلى نبذ الشرك بجميع صوره ومظاهره الظاهرة منها والخفية، وفيه استقصاء لمظاهر شركية في المجتمع[2]، عمل ابن باديس على محاربتها بنشر العلم واتخاذ طريق الحكمة، والاعتماد على الله ثم فقهاء المالكية المعتمدين في الجزائر كالعلاَّمة أحمد الدردير الذي هو عمدة المالكية في هذه الديار وغيرها.

لقد بذل ابن باديس جهوداً عظيمة في محاربة أنواع الشرك وتحذير الناس بالحكمة والموعظة الحسنة فعند تفسير قوله تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً *} [الإسراء : 56].

كتب ابن باديس كلاماً نفيساً في التحذير من شرك الدعاء تحت عنوان: «من دعا غير الله فقد عبد ما دعاه»، جاء فيه: إذا علمت هذه الأحكام فانظر إلى حالتنا معشر المسلمين الجزائريين وغير الجزائريين، تجد السواد الأعظم من عامتنا غارقاً في هذا الضلال فتراهم يدعون من يعتقدون فيهم الصلاح من الأحياء والأموات يسألونهم حوائجهم من دفع الضر، وجلب النفع، وتيسير الرزق، وإعطاء النسل وإنزال الغيث، وغير ذلك مما يسألون، ويذهبون إلى الأضرحة التي شيدت عليها القباب أو ظلمت بها المساجد، فيدعون من فيها

(1) مجالس التذكير ص 65.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة ص 49.

ويدقون قبورهم وينذرون لهم ويستشيرون حميتهم بأنهم خدامهم وأتباعهم فكيف يتركونهم وقد يهددونهم بقطع الزيارة وحبس النذور، وتراهم هنالك في ذُلٍّ وخشوع وتوجه قد لا يكون في صلاة من يُصلي منهم، فأعمالهم هذه من دعائهم وتوجههم كلها عبادة لأولئك المدعوين وإن لم يعتقدوها عبادة، إذ العبادة باعتبار الشرع لا باعتبارهم، فيا حسرتنا على أنفسنا كيف لبسنا الدين لباساً مقلوباً حتى أصبحنا في هذه الحالة السيئة من الضلال[1].

5. مفهوم القضاء والقدر:

يقول ابن باديس معرفاً بالقضاء والقدر: وقدرُ الله تعالى هو تعلق بعلم الله تعالى وإرادته أزلاً بالكائنات كلها قبل وجودها، فلا حادث إلا وقد قدَّره الله تعالى، أي سبق به علمه «تعالى» وتقدمت به إرادته[2]، فا من أمر يقع في هذا الكون إلا وقد قدَّره الله تعالى بمعنى سبق به علمه تعالى، ومضت به إرادته سبحانه وتعالى، فهذا تشهد له النصوص الشرعية من ذلك قوله تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ *} [القمر : 49]. فأمره الذي يقدره سبحانه وتعالى يكون لا محالة، ويقع فلا يتأخر فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[3].

وقال الشيخ عبد الحميد بن باديس في القضاء والقدر: وكما سبق قدر الله للأشياء قبل أن يخلقها كذلك كتبها في اللوح المحفوظ قبل خلقها[4].

وهذا أمر تشهد له النصوص الشرعية كقوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ *لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ *} [الحديد : 22 . 23].

(1) مجالس التذكير ص 158.
(2) العقائد الإسلامية ص 87.
(3) العقائد الإسلامية ص 84.
(4) المصدر نفسه.

ما يشاهدونه من الآيات في المخلوقات، ولا أن ينكروا مجيء الرُّسل إليهم وما تلوا عليهم من ايات، وبهذه الأشياء قامت حجة الله عليهم، وكان جزاؤهم على ما اختاروه بعدها لأنفسهم، فأمَّا ما سبق من علم الله فيهم فهو أمر مغيب عنهم غير مؤثر فيهم ولا دافع لهم، فليس لهم أن يحتجّوا به لأنفسهم لأنهم لم يعملوا لأجله، كيف وهو مغيَّب عنهم، وإنما عملوا باختيارهم الذي يجدونه بالضرورة من أنفسهم(1).

وعاد الشيخ ابن باديس إلى إثارة هذا الموضوع الشائك وهو بصدد الإجابة على السؤال التالي وهو: ما دام الله تعالى عالماً بما يكون من عباده بعد امتحانهم قبل امتحانهم فما هي حكمة هذا الامتحان؟.

فقال: والجواب أن الله تعالى إنما يحاسب عباده على ما عملوه وكسبوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك وما عندهم من الاختيار، لا على علمه منهم قبل أن يعملوه، فلهذا يمتحنون، لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم، ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم، لأن تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم، ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم(2).

وهكذا فإن الكافر الذي يموت على الكفر، لا يجوز له أن يحتج بالقدر، والعاصي المذنب لا يجوز له أن يحتج على معاصيه وذنوبه بالقدر.

يقول ابن باديس: لا يحتج بالقدر على الذنوب لأن حجة الله قائمة على الخلق بالتمكن والاختيار والدلالة الفطرية والدلالة الشرعية(3).

ويقول الشيخ عبد الحميد بن باديس: العمل بالشرع والجد في السعي مع الإيمان بالقدر: الشرع معلوم عنَّا أمرنا الله بالإيمان لأنه من مقتضى كمال العلم والإرادة من صفات ربنا، فالقدر في دائرة الاعتقاد، والشرع

(1) مجالس التذكير ص 376.

(2) مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ص 242.

(3) العقائد الإسلامية ص 92.

في دائرة العمل، وعلينا أن نعمل بشرع الله، ونتوسل إلى المسببات المشروعة بأسبابها ونؤمن بسبق قدر الله تعالى، فلا يكون إلا ما قدَّره منها، فمن سبقت له السعادة يُسر لأسبابها، ومن سبقت له الشقاوة يسر لأسبابها[1].

ج ـ الإرادة الكونية والإرادة الشرعية:

إن القارئ لتراث الشيخ عبد الحميد بن باديس، يجد أنَّ هذه المسألة كانت واضحة في فكره، فهو كان يميز جيداً بين الإرادة الكونية وبين الإرادة الشرعية.

وبالتالي فقد تخلص من المتناقضات التي تخبَّط فيها كثير من علماء الكلام وأوردتهم في مهاوي الحيرة وبيداء الضلال، فعند تفسير قوله تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ} [الإسراء : 23].

وأوضح هذا التمايز جيداً فقال: القضاء يكون بمعنى الإرادة، وهذا هو القضاء الكوني التقديري الذي لا يتخلف متعلقه، فما قضاه الله لا بُدَّ من كونه، ويكون القضاء بمعنى الأمر والحكم، وهذا هو القضاء الشرعي الذي يمتثله الموفقون ويخالفه المخذولون والذي في الآية من هذا الثاني[2].

إذا فالقضاء يرد بمعنيين، كليهما تشهد له اللغة ومعانيها، والمعنى الأوَّل هو الفراغ من الشيء، وهذا الجانب يتعلق بالإرادة، فما قضاه الله بهذا المعنى لا بد من تحققه ويستحيل تخلفه وهذا هو القضاء الكوني التقديري.

وأما المعنى الثاني فهو الأمر بالشيء، وهذا هو القضاء الشرعي أي الأوامر والنواهي الشرعية، وهذه تقع مخالفتها من العباد[3]. وقد عبَّر عن هذا ابن باديس بالقول: أحكام الله تعالى قسمان: أحكام شرعية وهي التي فيها بيان ما شرعه لخلقه مما فيه انتظام أمرهم وحصول سعادتهم إذا ساروا عليه، وأحكام قدرية وهي التي

(1) العقائد الإسلامية ص 92.

(2) مجالس التذكير ص 96.

(3) الإمام عبد الحميد بن باديس ، د. محمد الدراجي ص 69.

فيها تصرفه في خلقه على وفق ما سبق في علمه وما سبق في إرادته.

والأحكام الشرعية تقع من العباد مخالفتها، فيتخلف مقتضاها من الفعل أو الترك. والأحكام القدرية لا تتخلف أصلاً ولا تخرج المخلوقات عن مقتضاها قطعاً[1].

وبناء على هذا الأساس وهو التفريق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فليس كل ما أراده الحق تبارك وتعالى كوناً يكون قد أراده شرعاً. أي أحبه ورضيه[2]..

تعامل الشيخ عبد الحميد بن باديس مع مشكلة الشر وهل يصح نسبته إلى الله تعالى؟ فقال: ومعلوم أن المخلوقات كلها خلقت بحق ولحكمة، فهي في نفسها خير، فإن كان لا ينشأ من أعمالها أو اثارها إلا الخير فهي الخير المحض، وإن كان ينشأ عنها الشر أحياناً أو دائماً، فعملها هو الشر، وهو المستعاذ منه. وتصبح نسبة هذا القسم إلى الله من حيث الخلق والحكمة، ونسبة أعماله إليه من حيث التقدير والتكوين ؛ لا من حيث الرضا والتكليف، فالله لا يرضى بالشر ولا يكلف به[3].

وهذا الموقف قد تجاوز به الشيخ عبد الحميد بن باديس مشكلة لطالما أرّقت الفكر الإسلامي الذي تخبط طويلاً أمامها، وتوزعته فرق كلامية متعددة إلى اراء متناقضة وجزئية في الموضوع[4].

إنَّ ابن باديس استطاع بما أعطاه الله من علم ومعرفة أن يلخص الموقف الإسلامي الصحيح في هذه المسألة، فأثبت في ان واحد قدرة الله وحكمته وعدله من جانب، ويؤكد من جانب آخر كرامة الإنسان عندما

---

(1) مجالس التذكير ص 164.

(2) الإمام عبد الحميد بن باديس جهوده في تجديد العقيدة ص 70.

(3) مجالس التذكير ص 164.

(4) الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة الإسلامية ، د.محمد الدراجي ص 70.

وهبه الله العقل وحرّية الاختيار والقدرة على اختيار أحد الضدين، وجعل في ضلال بعضهم صلاحاً لنظام العالم[1].

د . هداية الدلالة وهداية التوفيق:

قال ابن باديس: الهداية ونوعها: قد دلَّ الله الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه كمالهم وسعادتهم ومرضاة خالقهم، وهذه هي هداية الدلالة وهي من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجده كل عاقل في نفسه من التمكن والاختيار قامت حجة الله على العباد، ثم يسر من شاء . وهو الحكيم العدل . إلى العمل بما دلَّ عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته وأقبلوا على ما أتاهم من عنده، فامنوا برسوله والنور الذي أنزل معه كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ *} [محمد : 17].

وأما الذين أعرضوا عن ذكره وأزاغوا عما دلَّهم عليه، فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، كما قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *} [الصف : 5].

فالمقبلون على الله القابلون لما أتاهم من عنده هُدوا دلالة وتوفيقاً، والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة، وحرموا من التوفيق جزاء إعراضهم[2].

6 . موقفه من التصوف:

أدرك ابن باديس أهمية إصلاح مسار التصوف ومواجهة العديد من أصحاب الطرق الذين خرجوا بمذاهبهم عن أصول الدين ومبادئه، كما أدرك أن القضاء على الخرافات وعوامل الجهل من أهم عوامل الإصلاح الديني وبناء المجتمع السليم، ولقد استطاع ابن باديس أن يصحح مسار التصوف الإسلامي في بداية

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، د. محمود قاسم ص 188.

(2) مجالس التذكير ص 55.

القرن العشرين عائداً بشعبه إلى الحقيقة القرآنية وطريق الحياة، واستطاع أن يواجه الطرق المنحرفة وأصحاب الفساد الخلقي والاجتماعي[1].

لقد عاش ابن باديس حياته شاباً وشيخاً كمعظم من عرفهم تاريخ الفكر الإسلامي من الخلفاء الراشدين إلى المصلحين المعاصرين محباً للزهد السني والتصوف السلفي، متجملاً بأخلاق أصحابهما[2].

ولقد حدد ابن باديس موقفه من التصوف عموماً ومن أصحاب الطرق على الخصوص، كما حدد الخطوات العملية للإصلاح الديني والتصوف بوجه عام في:

. ضرورة التمييز بين الدين والتصوف، وبين التصوف الحقيقي وما يدعيه أصحاب الطرق بأنه من الدين أو من التصوف، لأن التصوف الحقيقي هو التصوف السني، أو هو التصوف القرآني الذي يقوم على أصول ثابتة وواضحة من القرآن والسنة، ويتطلب تحققه قراءة القرآن وفهم معانيه واستيعاب أحكامه وتطبيقه لها، فالقران فيه علاج القلوب وشفاء النفوس.

. إن التصوف الحقيقي هو الذي يبعد عن الشرك وينقذ صاحبه من الضلال، ويحقق الوعي الديني ويسهم في إصلاح المجتمع وتطوره.

ـ إن التصوف الحقيق لا يقف عند غاية الوصول إلى الله أو المعرفة بالله عن طريق المجاهدة، بل يجب أن يتعدى ذلك ليكون أسلوباً للحياة وأداة لبناء الإنسان وتحقيق سعادته وتوازنه المادي والروحي لكي يؤدي وظيفته الاجتماعية.

ـ إن التصوف الحقيقي لا بد أن يقوم على التذكير والتفكير في القران، فالقران أفضل الأذكار وتلاوته تطهر القلوب من الغفلة والقسوة والأوهام والشكوك والجهالات.

. إن التصوف الحقيقي لا بد أن يرتبط بالحياة والمجتمع، ولهذا لم يسمح ابن باديس بانتشار صور الغلو في

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 18).

(2) أسس مشروع النهضة عند ابن باديس (1 / 121) ، د. محمد بن سمينة.

التصوف أو الدين بين العامة أو الخاصة، وعمل على بيان خطرها عند إنتشارها، وأنها السبب في هلاك الأمم وتأخرها، ولذا أوجب ضرورة مواجهة أعمال الشرك والجاهلية التي يأتيها بعض أدعياء التصوف وبيان خطرها على الدين والمجتمع.

ـ ضرورة استخدام العقل لكي يفرق به بين الحق والباطل، والخبيث والطيب، عند مواجهة أصحاب الاتجاهات الفكرية الضالة والتي تدعي النبوة والصلاح وتمارس كافة مظاهر الشرك والوثنية ؛ وذلك اقتداء بما في القرآن والسنة ومواقف رجال السلف الذين تأسوا بموقف النبي في الاقتداء بمن سبقه إستجابة لقوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ} [الأنعام : 90].

. الإشادة وإنصاف بعض المتصوفة لما كانوا عليه من استقامة وصدق التدين وصالح الأعمال، فقد أشاد ابن باديس في هذا المضمار بما حفل به تراثنا من عاطر شذى بعض المتصوفة من المتقدمين وطيب ماثرهم في خدمة الدين وقضايا الأمة، كما نوه بما تبرزه بعض أعمال هؤلاء من المتأخرين من تأثيرات حسنة على مجريات الواقع المعيشي، وقدم هؤلاء وأولئك كنماذج قدوة حسنة للتصوف السني والتدين الصحيح، وممن ذكرهم من المتقدمين «الإمام أبي القاسم القشيري» صاحب الرسالة القشيرية في التصوف. ومن المتأخرين جملة من أعلام الإصلاح في العصر الحديث محمد بن عبد الوهاب، جمال الدين الأفغاني، محمد عبده، رشيد رضا، والإمام المجاهد أحمد الشريف السنوسي، وقد أشاد خاصة بصدق تدين هذا الأخير فقال عنه: فقد كان على جانب عظيم من التمسك بالكتاب والسنة والتخلق بأخلاق السلف الصالح(1).

ـ وفي الجزائر نوه خاصة بصدق تدين إخوانه المصلحين وتمثلهم بسيرة السلف الصالح في الاعتقاد والسلوك، كما أشاد بحسن سيرة مجموعة كبيرة من شيوخ الزوايا ورجال العلم في أنحاء عديدة من الوطن من

(1) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 127).

بينهم: شيخ زاوية غليزان[1]، وشيخ زاوية بن طكوك بمستغانم وشيخ القادرية بها أحد شيوخ زاوية الشيخ المختار بأولاد جلال والشيخ «محمد علي ال خليفة» والد الشاعر محمد العيد. وقد ظل طوال حياته وفياً لهذا المنهج ناهضاً بواجب النصح، فاتحاً صدرلاه لجميع إخوانه التائبين الايبين إلى طريق الهدى الصادين عن طريق الضلال، مشيداً بذوي العلم والفضل والصلاح من أهل الزوايا، حريصاً على ربط صلات المحبة والتعاون معهم، عاملاً على رأب الصدع حاثاً على الاعتصام بعرى الأخوة والوئام.

وهاهو ذا في آخر مقال نشره في حياته (سبتمبر 1939م) يشيد فيه بفضل عالمين اثنين من أبناء الطريقة هما: الشيخ المكي بن عزوز (1854م ـ 1915م) والشيخ محمد الخضر حسين، هذان العالمان اللذان لم يقعد بهما انتسابهما إلى التصوف «الطريقة الرحمانية» عن سمو مركزهما إلى درجة مرموقة في العلم والصلاح والإصلاح «وكلاهما من ابناء الطرقية»، ولكن العلم سما بهما إلى بقاع التفكير والهداية والإصلاح، ولكليهما ـ أحسن الله جزاءهما ـ كتابات في التحذير مما عليه الطرقية اليوم تارة بالتصريح، وتارة بالتلميح[2].

وقد قام ابن باديس بمواقف عملية لإصلاح وتوجيه وتصحيح مسار التصوف ووقف ضد أدعيائه.

أ ـ موقفه من أصحاب العزلة وأدعياء الزهد:

أوضح ابن باديس لأدعياء الزهد والعزلة، أن العزلة في الإسلام تختلف عن العزلة الهندية أو الرهبنة المسيحية لأن عزلة النبي (ص) واختلاءه في غار حراء بعيدة في معناها ومضمونها عن فكرة الاختلاء الهندية، حيث ينعزل أحدهم عن الناس تماماً ويذهب في أودية الخيال لتحصيل حالة نفسية خاصة به يعدها نعيماً

(1) المصدر نفسه (1 / 127).

(2) المصدر نفسه (1 / 128).

روحياً، أما الاختلاء النبوي والعزلة كان للتفكير والتدبر لإيجاد طريق خلاص لهذا العالم من الضلال، والقيام بخدمة عظيمة عامة للبشر، وشتان بين الحالتين[1].

ب . موقفه من أصحاب الاتجاهات الحلولية وأدعياء النبوة:

كتب رسالة مكونة من مقدمة وأربعة فصول وخاتمة بعنوان: مقام النبوة والرسالة ومخاطبة ذلك المقام بخطاب الجهالة. وفيها قام بالرد على أصحاب غلاة المتصوفة الذين غلوا في خيالاتهم وفلسفية وحدة الوجود والبرهمية الهندية، وقال واصفاً غلوهم وضلالهم: قد شغل بهذه الخيالات أفراد عن فطرة الله وشرعه معاً فجعلوها أعلى مراتب العبودية، وتأولوا لها بعض آيات الكتاب العزيز كقوله: {يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الكهف : 28].

وما إرادة وجهه تعالى إلا الإخلاص له في كل عمل مشروع من مصالح الدين والدنيا، وإرادة وجهه ليس معناه الوصول لذاته بعد التجرد من كل نعمة في الدنيا والاخرة جميعاً، فإن الاتصال بتلك الذات العلية القدسية التي لا تدركها العقول ولا تدنو من كنهها الأفكار ولا الأوهام مما لم يتعلق به تكليف ولم يرد به شرع[2].

وبين ابن باديس أنه من المستحيل تعقل فكرة الاتحاد أو الامتزاج بين الله والإنسان[3].

ثم كشف ابن باديس في وضوح حقيقة أدعياء النبوة مبيناً أنها ليست من الدين ولا من التصوف فقال: قد ضلت وهلكت باتباع أشخاص ادَّعَوا النبوة من هذه الأمة طوائفُ كثيرة، وقد كان منهم أول الإسلام مسيلمة الكذاب والأسود العشي ثم كان المختار بن عبيد الثقفي، ثم كان منهم في عصرنا قبيلة الباب وإليه تنسب البابية، والبهاء، وإليه تنسب البهائية، وغلام القادياني وإليه تنسب القاديانية. وقد كادت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلو وشيخها لولا أن قام في وجهه العلماء المصلحون وفضحوهم على

---

(1) الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة ، د. مصطفى حلمي ص 227 . 230.

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 22).

(3) المصدر نفسه (2 / 23).

صفحات «الشهاب» أيام كان أسبوعياً، فرد الله كيدهم ووقى الله الجزائر شراً عظيماً، وقد أخبر النبي (ص) عن هؤلاء الكذابين بأنهم ثلاثون، فلا بد أن يصلوا إلى هذا العدد وقد تكون بقيتهم في أحشاء الأيام(1).

ج ـ موقفه من أصحاب الغلو والبعد عن الدين:

الذين أدخلوا السحر والشعوذة، وأعمال الدجل والكهانة في الدين، فكان موقف ابن باديس الحازم في كشفهم وبيان زيف اعتقادهم فقال فيهم: أنهم كانوا يتخذون من القرآن واياته وأسماء الرحمن هزواً، وكانوا يستعملونها في التمويه والتضليل والقيادة والتفريق، ويرفقونها بعقاقير سمية ويهلكون العقول والأبدان، وحاول ابن باديس أن يؤكد على أن التصوف الحقيقي بعيد عن كل هذا الدجل، وأنه يقوم على العلم والعمل الصالح، بدليل أن القرآن الكريم فيه نهي صريح عن السحر والكهانة والاعتقاد في الخيالات والأوهام(2).

ولهذا كان موقف ابن باديس من هؤلاء هو التحذير من خطرهم وكشف أخطائهم وما في أعمالهم من شرك وخرافة وبُعد عن صحيح الدين، وكان يحذر من ذلك بقوله: احذر كل دجال يتاجر بالرقى والطلاسم ويتخذ آيات القرآن هزواً، ويقول الله تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ *} [البقرة : 186].

د ـ موقفه من جماعة ترك العبادة:

الذين يهدمون فكرة الخوف والرجاء، وكان يمثل رأي هذه الجماعة ما أعلنه شيخها المولود الحافظي من مقالة بجريدة البلاغ الجزائرية جاء فيه: أن العبادة يجب أن تكون لله دون رجاء ثواب ولا خوف عقاب لأن كمال التعظيم لله ينافيه أن يصاحب العبادة خوف من العقاب أو رجاء الثواب.

فكان موقف ابن باديس هو الرد العملي في مقالة بجريدة الشهاب ـ عدد رمضان 1351هـ بعنوان: أيهما أكمل العبادة مع رجاء الثواب وخوف العقاب؟ أم العبادة دونهما؟ وجاء فيه:

---

(1) حياته وآثاره (2 / 239).

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 24).

إن حقيقة العبادة هي غاية الذل والخضوع مع الشعور بغاية الضعف والافتقار، ومن مقتضى الضعف أن يخاف ويوجل، ومن مقتضى الافتقار أن يرجو ويطمع، وأن العبادة في الإسلام وضعت على خوف العقاب ورجاء الثواب لما في ذلك من إظهار غاية عبودية العبد بضعفه وافتقاره أمام ربه المهيمن العظيم، فكيف يهدم هؤلاء فكرة الخوف والرجاء التي ترتبط بالثواب والعقاب ويقولون: إن رجاء الثواب وخوف العقاب ينافيان الإخلاص في عبادة الله.

وبين ابن باديس بمختلف الأدلة العقلية والنقلية إثبات أن هؤلاء يهدمون صروح التوحيد بهدمهم أصلاً من أصول العباد لله، وأن هؤلاء الذين يسمون أنفسهم فقراء المدعين لطريقة الزهد المتمسكين بالبدعة ؛ يذهب بهم غلوهم إلى أن يعتقدوا في أن الكمال يكون في عدم طلب الدنيا والاخرة، ويزعمون أن العبادة المجردة عن الرجاء والخوف ليست بالعبادة التي جاء بها الإسلام، لأن العبادة الشرعية موضوعة على الرجاء والخوف وأن الطمع في فضل الله لا ينافي إخلاص العبادة(1).

هـ . موقفه من أصحاب الطريقة التجانية:

بوصفها واحدة من الطرق الضارة بالإسلام، وكان موقفه من محاولته دحض مزاعم أصحابها بمختلف الأدلة العقلية والنقلية وأقوال السلف والأئمة الصالحين.

وبدأ ابن باديس رده عليهم بعرض مزاعمهم الباطلة ومنها:

. أن قراءة صلاة الفاتح أفضل من تلاوة القرآن ستة آلاف مرة وذلك بالنسبة لمن لم يتأدب باداب القرآن.

(1) المصدر نفسه (2 / 26).

. أن صلاة الفاتح من كلام الله القديم ولا يترتب عليها ثواب إلا من أعتقد ذلك.

. أن صلاة الفاتح علمها النبي لصاحب الطريقة الشيخ محمود التيجاني ولم يعلمها لأحد غيره.

. أن من انتسب لهذه الطريقة يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب وتغفر ذنوبه كلها الصغار والكبار حتى التبعات.

ثم بعد ذلك جاء ابن باديس فقال: إن صلاة الفاتح ليست من كلام الله لأنها ليست مثل الصلاة الإبراهيمية، وأن النبي (ص) لم يعلمها لصاحب طريقتهم، وأنه لا فضل لأتباعه إلا بتقوى الله، وأن القرآن الكريم وحده كلام الله، أما صلاة الفاتح فهي من كلام المخلوق، ومن أعتقد أن كلام المخلوق أفضل من كلام الخالق فقد كفر، ومن جعل ما للمخلوق مثل ما لله كفر بجعله لله نداً، فكيف بمن جعل ما للمخلوق أفضل مما للخالق، هذا إذا كانت الأفضلية في الذات، أما إذا كانت الأفضلية في النفع ؛ فإن الأدلة النظرية والأثرية قاطعة بأفضلية القرآن على جميع الأذكار وهو مذهب الأئمة من السلف إلى الخلف(1).

و . مقامات الأدب الصوفي عند ابن باديس:

كان اهتمام ابن باديس بالتصوف والطرق الصوفية لغاية إصلاحية ودينية وهي تنقية الدين من مظاهر الغلو والشرك والضلال.

وفي هذا الإطار قدَّم لنا العديد من الاراء الهامة والقواعد اللازمة لإصلاح الدين والتصوف، وعرض لأهم مقامات الأدب الصوفي وفي مقدمتها مقام القرب من الله والحب والمعرفة والتوبة والزهد... كما بين حقيقة الأدب الصوفي والأسس الواجب توافرها في مقام الأدب مع الله ومع الناس، لأن التصوف القرآني عنده كله أدب ومن شروط الأدب الصوفي التي أوضحها ابن باديس:

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 142 إلى 150)، عبد الحميد بن باديس آراؤه الفلسفية ص 27.

ـ أن هذا الأدب هو الذي يلزم المتصوف التأدب مع الله ومع النبي (ص) ومع الناس، وعلى ذلك فإن أكثر الناس محافظة على الأدب وحرصاً عليه هم شيوخ الزهد والعلم من أئمة التصوف العارفين.

ـ أن هذا الأدب يستلزم إبطال زعم كثير من الألقاب التي لقب بها بعض المتصوفة مثل قطب الزمان الفرد الذي يعتقد أن الكل دونه والعارف بالمسالك وغيرها، فيجب ألا تطلق جزافاً على كل من يدعي التصوف أو المعرفة لأنها من صفات العارفين الواصلين وأسمى درجات العارفين الكاملين.

ـ أن هذا الأدب يستلزم عدم الغرور، لأن من الأدب عدم الادعاء بعلو منزلة الأولياء والصالحين الذين يأتون بما لا يصدر عن العامة الجاهلين، فالغرور والغفلة أعظم أسباب المحنة، وأن حسن الأدب في الظاهر عنوان حسن الأدب في الباطن، وأن غاية الأدب الصوفي الوصول إلى هذا المقام، مقام الأدب مع الله، ومع الناس، فنرى الصوفية أكثر أدباً مع شيوخهم ومربيهم ومريدهم حتى قال قائلهم: من لا أدب له لا شريعة له.

أوضح ابن باديس أن مقام الأدب مع الله يتفرع عنه عدة مقامات أهمها:

ـ مقام القرب من الله:

وهو مقام رفيع يبتغيه كل من سلك الطريق وفيه السكينة والاطمئنان، وفيه يكون السالك في حالة نفسية خالية من كل قلق، وغاية هذا المقام الحصول على مرضاة الله. فشعور العبد برضى الله هو الغاية التي يسعى إليها الساعون ويعمل لها العاملون هو رضي الله.

فالعمل الصالح ترتضيه العقول وتستعذبه الفطر، ولكنه لا يفيد صاحبه إذا لم يبلغ به مرضاة الله.

ويرى ابن باديس أن مقام القرب أدب دائم ؛ لأن الأدب سيكون في الوقت والحال والمقام، ومن لازم

الأدب بلغ مبلغ الرجال، ومن حرم الأدب فهو بعيد من حيث يظن القرب[1].

. مقام التوبة:

ويسميه ابن باديس أحياناً بمقام الإخلاص والعبادة على اعتبار أن العبادة عمادها التوبة والعمل والعلم الجامع الصحيح بقواعد الإسلام وأصوله وهو سبيل الإنسان إلى المغفرة والطهارة.

ويصف ابن باديس، طريق ذلك المقام بقوله: إن كثرة الرجوع إلى الله يقابلها كثرة المغفرة منه، يفتأ العبد راجعاً راجياً المغفرة ولا تصده كثرة ما يذنب عن تجديد الرجوع، فقد كان عباده يذنبون ويتوبون ويغفر لهم ولا يزالون كذلك ولا يزال تبارك وتعالى لهم غفوراً.

فالتوبة هي السبيل السالك الطريق نحو المعرفة والكمال وهو الطريق الوحيد لبناء الإنسان وخلاصه، ومن ثم فلا تصوف إلا عن علم وفهم للشريعة وأصولها والعمل الناتج عن الإيمان القوي بالله ورسله وكتبه واليوم الاخر بالتوحيد التام لله الواحد الأحد[2].

. مقام المعرفة:

والطريق إلى هذا المقام يبدأ بكثرة التفكر والتأمل في آيات الله الكونية وفي آياته القرانية، وبالمزيد من المعرفة والقرب ؛ يقوى الإيمان ويتقدم الإنسان في مراحل أعلى من المعرفة ودرجات الوصول.

ويرى ابن باديس: أن أعلى مراتب معرفة الله تعالى في الدنيا هي معرفة كل شيء به ومعرفته في كل شيء وبكل شيء، وأما أعلى مراتب معرفته في الاخرة فهو مقام الرؤية بتجليته الأعلى في جنات عدن، ولما كان إدراك كنه الذوات المخلوقة له تعالى فوق استطاعة خلقه ؛ فإن الاشتغال بذكر الجزاء عن العمل الموصل

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 29).

(2) المصدر نفسه (2 / 30).

إليه ؛ جهل لا علم ولا معرفة، فلا بد إذن من العمل مع المعرفة، والإقلاع عن العادات والبدع، والإقبال على التهليل والتحميد والتسبيح، فيحرر العارف روحه من سلطان المادة ويسمو إلى عالم علوي، عالم الطهر والكمال، ثم يقبل على تلاوة القرآن بتدبر فينير قلبه وروحه ويحرر عقله من ربقة الجهل وقيود الأوهام والخرافات[1].

مقام الحب:

يرى ابن باديس أن خير مثال على هذا المقام هو الحب النبوي، حيث يبدأ المحب للنبي بالتأدب معه في الأقوال والأفعال، حتى يكون موقف المحب من الأنبياء كموقف العبيد من السادة، فيجب علينا معهم ـ أي الأنبياء ـ اعتقاد الحرمة وإكبار الجانب ولزوم الأدب في الأقوال والأفعال وجميع الأحوال. وأن مقام الأدب في الحب النبوي معروف عند السادة العارفين وهم أرسخ الناس قدماً في محبة النبي (ص) ويظهر ذلك في صلواتهم وأدعيتهم ومناجاتهم وشوقهم.

ـ ويؤكد ابن باديس على عمومية هذا المقام وعلو شأنه، لأن هذا الأدب ضروري لكل مسلم ولكل إنسان، إذ أن من لا يراعي الأدب في خطاب سيد المرسلين كيف يصلح أن يكون من العارفين السالكين، ومن لا يؤدب نفسه كيف لا يؤدب غيره[2].

ويؤكد ابن باديس كذلك على أهمية ذلك المقام، ويرى أن هذا المقام كله خير وقد سار فيه جميع الصحابة، وأن الحب النبوي يجب أن يكون بعيداً عن المصالح الدنيوية ليكون موافقاً لحب الصحابة والتابعين والصالحين ولهذا كان قول ابن باديس لهم:

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 171).

(2) المصدر نفسه (3 / 160، 161).

اعلموا أن خير هذه الأمة هم أحبها في نبيها، وهم أهل القرون الثلاثة المشهود لهم بالخيرية على لسان المعصوم، وعلى قدر حبهم فيه كان تعظيمهم له وأدبهم معه[1].

. مقام الزهد:

وهو مقام رفيع وصل إليه زهاد الصدر الأول في الإسلام، ويقصد ابن باديس كبار الصحابة وأوائل الزهاد أمثال الحسن البصري ت 110هـ، وإبراهيم بن أدهم ت 159، ورابعة العدوية ت 185هـ، وغيرهم.

وهؤلاء تميز تصوفهم بالزهد في الدنيا والاتجاه نحو الاخرة مع التمسك بالطاعات والقربات، وكان الزهد والورع والإخلاص عندهم وسيلة لا غاية، وسيلة إلى القرب من الله والوصول إلى المعرفة. أما أدعياء الزهد هجروا الدنيا والعمل، وابتعدوا عن الحياة والناس وأصبح الزهد عندهم غاية، وهؤلاء عارضهم ابن باديس وبيَّن لهم حقيقة الزهد فقال: صحيح أن حقيقة الدنيا وراء قشورها الظاهرة، ولكن ليس معنى ذلك من الزهد أو التصوف، وأزهد من الصوفي الذي لا يملك الدنيا ذلك الصوفي الذي لا تملكه الدنيا ولا يداخله الوجل ممن يملكونها[2].

ـ وتم بالفعل تصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة التي كان أصحاب الطرق يظنونها عبادة، وهي في الحقيقة مظاهر للشرك بالله، وتراجع عدد غير قليل منهم وانضموا إلى صفوف ابن باديس وجمعية العلماء لينشروا الدين الصحيح.

ـ لقد ظهرت يقظة المصلحين ورجال العلم في الجزائر، كما ظهرت طبقة من المثقفين يؤمنون بضرورة الإصلاح الديني الشامل بوصفه الأساس في بناء الدولة والعمران فأدى ذلك إلى الحد من انتشار ادعاءات الطرق الخارجة عن الكتاب والسنة وتمَّ عزل الكثير منها عن الشعب.

ـ أثبت ابن باديس بالقول والعمل أن القرآن كتاب عقيدة ومنهاج حياة، وأنه مصدر وأساس كل فكر وفلسفة تتخذ منه ومن أحاديث الرسول (ص) قاعدة وهادياً ، ونتيجة لذلك أصبحت الدعوة إلى التنزيه

---

(1) ابن باديس الزعيم الروحي ، د. محمود قاسم ص 92، 93.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 481 . 514).

والتوحيد محوراً لكل تفسير وأساساً لكل دعوة إصلاحية، ومن أجل هذه وصف ابن باديس بأن المخلص والنور والمصلح لأمته ؛ الذي يهديهم ويقودهم إلى المستقبل الأفضل، لأنه العارف بسبيل السعادة والنجاة والسائر على هدى السلف والسيرة النبوية، وكان الأثر المباشر لدعوته الصادقة ظهور مدرسة في الإصلاح الفكري والأخلاقي والاجتماعي في الجزائر والعالم العربي من تلاميذه والسائرين على نهجه في الدعوة والإصلاح[1].

. أثبت أن التوحيد أساس الدين وأساس جميع الأعمال، وأن كل شرك في الاعتقاد أو الفعل فهو باطل، ولذا واجب ترك جميع البدع والمنكرات الدخيلة على الإسلام، وأن البدعة هي كل ما لم يثبت عن النبي قوله أو فعله، ونتيجة لذلك ظهرت بوادر النهضة العلمية، واختفت العديد من الزوايا والطرق الخارجة عن روح الإسلام وانتشار الوعي بضرورة الاعتقاد بأن العلم والعمل معاً أصل الإيمان، وأن ليس للإنسان إلا سعيه وعمله فلا يجزى بعمل غيره، وقد يدخل في عموم عمله ما يكون سبباً له كالذي يعمله ولده أو تلميذه بتأثير تربيته وتعليمه وما سنه من سنة حسنة أو سيئة فله مثل جزاء من يعمل بها من بعده[2].

ـ والاهتمام ملحوظ الان باراء ابن باديس: والأثر الواضح للمدرسة الباديسية في الإصلاح على العديد من المفكرين وأساتذة الفلسفة في مصر والعالم العربي، وانظر في ذلك مؤلفات كل من د. محمود قاسم، د. يحي هويدي، د. مصطفى حلمي، د. أحمد الجزار، د. محمد البهي، د. عمار الطالبي، تركي رابح، نور الدين حاطوم، د. محمد طه الحاجري، فهمي جدعان، ود. السيد محمد عماوي، د. منى أبو زيد.

ويلاحظ أن هذا الأثر قد بدأ منذ ظهور ابن باديس وانتشار ارائه واستجابة العديد من المفكرين والمثقفين المعاصرين له لدعوته الإصلاحية، وكان في مقدمتهم مالك بن نبي، والعديد من شعراء وأدباء الجزائر وعلمائها،

---

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 33).

(2) حياته وآثاره، ابن باديس (1 / 169 . 171).

والذي اعترف بفضل ابن باديس وأثره الإيجابي عليه فقال: كنت قبل صحبتي هذا الإمام ولوعاً بأباطيل الخرافيين من الطرقيين راسخ اليقين في الإيمان بطواغيت الدجالين[1].

رابعاً: فقه السنن الإلهية:

اهتم العلاَّمة ابن باديس بالسنن الإلهية واعتبرها من أهمَّ الهداية القرآنية للإنسان المسلم.

فبناء الدول وتربية الأمم والنهوض بها يخضع لقوانين وسنن ونواميس، تتحكَّم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، ولقد اهتم ابن باديس بفقه السنن الإلهية، وتعامل مع القوانين والسنن الإلهية بحكمة وقدرة فائقة.

1 . سنة تغيير النفوس:

قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ *} [الرعد : 11].

إن التغيير الذي قاده النبي (ص) بمنهج الله تعالى بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرِّجال العظماء، ثمَّ انطلق بهم ليحدث أعظم تغيير في شكل المجتمع، حيث نقل النَّاس من الظلمات إلى النُّور، ومن الجهل إلى العلم ومن التخلف إلى التَّقدُّم، وأنشأ بهم أروع حضارة عرفتها الحياة[2].

إن ابن باديس سار على هدي ونهج رسول الله (ص) في تغيير النفوس واهتم بالمنهج القرآني في تغيير العقائد والأفكار والتصور وعالم المشاعر والأخلاق في نفوس تلاميذه وأبناء الشعب الجزائري، ورأى أهمية التربية والتعليم في إعداد جيل عظيم يكون من أهم أهدافه القضاء على الاستعمار، والطريق إلى ذلك: فهم المسلمين لدينهم، ويكون ذلك عن طريق إصلاح العلماء، لكي يقوموا بتعليم عامَّة الناس.

(1) عبد الحميد بن باديس آراؤه الفلسفية (2 / 35).

(2) نفوس ودروس في إطار التصوير القرآني ، لتوفيق محمد سباع ص 367.

وقال ابن باديس: صلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم الذين كيفما يكونوا يكون عموم المسلمين: فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون.

وبالتالي لا صلاح لهم إلا بإصلاح علمائهم: فإذا أردنا إصلاح المسلمين فلنصلح علماءهم.. لأن العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، مؤكداً أن لا صلاح لعلماء الأمة ؛ إلا إذا تم إصلاح أمر التعليم فيها، لأنه هو الذي يطبع المتعلم بالطابع الذي يكون عليه في مستقبل حياته، وما يستقبل من عمله لنفسه وغيره، فإذا أردنا أن نصلح العلماء فلنصلح التعليم، ونعني التعليم الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون فيه[1].

وهذا هو الهدف البعيد المدى والتصور الناضج للإمام للتعليم، تخريج النافعين للأمة الذين يكونون بمثابة القدوة العلمية والعملية الصالحة والطيبة لهم. ويبين ابن باديس أن الإصلاح الجذري للتعليم لا يتحقق إلا إذا رجعنا به للتعليم النبوي في شكله وموضوعه في مادته وصورته، فيما كان يعلم (ص) وفي صورة تعليمه، فقد صحَّ عنه (ص) فيما رواه مسلم: أنه قال: «إنما بعثت معلماً»[2]، حتى يتمكن التعليم بذلك من أداء دوره الرسالي والحضاري في: نشر العلم لكل واحد، للكبير والصغير، والمرأة والرجل، بحِلَقِ الدرس ومجالس الوعظ وخطب المنابر، وبكل طريق موصل[3] إلى تحقيق أساس التغيير الذي يقوم على تربية الأبناء والطلبة، على العلم الصحيح والخلق المتين ، الذي ينبغي أن ينطلق من داخل الذات ، أو الضمير للإنساني ، لا من المؤسسات

(1) الشهاب ج 11، 10 ص 478.

(2) الشهاب ج11، م10 ص 480.

(3) جهاد ابن باديس، عبد الرشيد زرّوقة ص 169.

الاجتماعية، فإن إصلاح الذوات الفردية، هو الذي يجر بالضرورة إصلاح المجتمع كله. وهو أصل كل انطلاقة حضارية لأي مجتمع، وصانعها وعلى هذا الأساس، وإنطلاقاً من هذا المنطلق ؛ اتجه ابن باديس في عمله وحركته إلى التعليم، وفرَّغ كامل قواه فيه، إيماناً منه أن الإصلاح ينبغي أن ينصبّ على العقل أولاً، أي: إصلاح العقائد، وعلى الأخلاق ثانياً، أي: تقويم النفس وبناء الفضائل، لأن الباطن أساس الظاهر، والعلم مبدأ العمل لا خارجياً، ولأن مبادئ الإسلام هي أصلاً مبدأ الإصلاح، فقد لزم في رأي ابن باديس، أن تتحقق النهضة بما هو ذاتي[1].

فبدأ تعليمه للصغار في المسجد أولاً، الذي حوَّله إلى معهد للدراسة وتخريج أفواج الطلبة منه، ثم لما تزايد العدد وكثر، ولم يعد المسجد قادراً على استيعابهم انتقل إلى تأسيس وفتح المدارس الحرة وكان هدفه، من حركته التعليمية الواسعة، تخريج جيل قرآني: يتقن حفظ القرآن وأداءه، ويحسن فهمه والعمل به، ويتخلق بأخلاقه ويتربى على هديه، ثم ينشر بواسطته دين الإسلام في أرض الله[2].

ولتحقيق ذلك، كان الإمام ابن باديس يربي تلامذته على القرآن الكريم وهداياته، فيقول مؤكداً ذلك: فإننا . والحمد لله . نربي تلاميذنا على القرآن الكريم من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق هذه الأمة امالها، وفي سبيل تكوينها تلتقي جهودها[3].

حتى يصير المسلم الجزائري المربي والمغَيّر على يد حركة ابن باديس الإصلاحية الجهادية: رجلاً عزيزاً قوياً عالماً، محسناً كسوباً، معطياً من نفسه اخذاً لها عارفاً بالحياة سباقاً في ميادينها، صادقاً صابراً، هيناً إذا أريد منه

(1) المصدر نفسه ص 454 . 455.

(2) جهاد ابن باديس ص 170.

(3) الشهاب: ج4، م14 ص 291.

الخير، صلباً إذا أريد على الشر[1].

وإذا صار كذلك من تربية العلماء له: يحسن إدراكه للأشياء وفهمه لمعنى الحياة، وتقديره لوظيفته فيها، وعلمه بحظه منها وينضج عقله وتفكيره، ويلمّ بزمانه وأهل زمانه، ويتقاضى من أفراد المجموعة البشرية، ما يتقاضونه منه من حقوق وواجبات، ويرى لنفسه من العزة والقوَّة، ما يرونه لأنفسهم[2].

وكان الطلبة عندما يقصدون للدراسة على يديه والتعليم في المساجد التي يعلم بها أو المدارس التي كان يشرف عليها أو أشرفت عليها الجمعية كمؤسسة ـ فيما بعد ـ يخاطبهم عند الانتساب إليها مبيناً لهم طبيعة الدراسة ومراحلها وهدفها قائلاً لهم: إنكم جميعاً أبنائي، وخير لي ولكم أن تكون الرابطة بيننا ـ منذ الان ـ لهذا يجب أن تعلموا من أنكم مطالبون بقضاء فترة هنا عندنا، لا تقل ولا تزيد عن ثلاث سنين وبعدها تختارون أحد أمرين:

ـ الالتحاق بالمعاهد العلمية خارج الوطن لإتمام الدراسة أو التجنيد في كتائب المعلمين لأبناء هذه الأمة والعمل في ميادين الجهاد من أجلها، ومن أجل المحافظة على دينها ولغة دينها، ويترك لهم أمر الاختيار الحر المسؤول ليذكرهم بعد تحديده قائلاً: أنتم الان أطفال صغار، وغداً إن شاء الله رجال كبار، وأنا لا أريد من هذه الرجولة إلا الشجاعة، وشدة البأس في الحق والخير والفضيلة، فخذوا حظكم من الشجاعة منذ الان، وحددوا معالم حياتكم منذ البدء، إن أمتكم وبلادكم بحاجة إليكم، فاقرؤوا هذه الآية الكريمة من كتاب اللهَ: {فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ *} [التوبة : 122]، ثم اعملوا في صبر ومثابرة وجلد على تحصيل العلم، الذي به تهيئون أنفسكم لما أنتم عليه مقدمون.

---

(1) البصائر س1، ع37 ص 7.

(2) الآثار للإبراهيمي (1 / 215).

وانتظم الطلبة أفواجاً أفواجاً في المساجد والمدارس التي يعلم فيها ابن باديس وإخوانه العلماء والتي تضاعف عددها حتى: بلغ نحو المائة والخمسين مدرسة تسيرها لجنة مؤلفة من خيرة المعلمين، وتشرف عليها وتتفقدها، وأخذت حركة الإمام ابن باديس تخطو خطوات عظيمة، نحو أهدافها الكبرى، فتتجاوز تأسيس وفتح المدارس الإعدادية إلى فتح المعاهد والثانويات كدار الحديث بتلمسان، ولم يكن هذا هدف ابن باديس فحسب في حركته العلمية التعليمية، بل كان الهدف الأسمى الذي لم يبلغ، هو إنشاء جامعة كبرى بعاصمة الجزائر على غرار الجامعة الزيتونية، تكون مركز إشعاع للثقافة العربية[1].وتنتقي حركة الإمام في تعليمها وبرامجها، الكتب المقررة في المواد الدراسية انتقاءً دقيقاً، فتختار ما هو أقرب إلى الإفادة وأعون على تحصيل الملكة العلمية. وتجتنب الكتب الجامدة المعقدة التي لا تفتق ذهناً ولا تبعث في نفس الدارس نشاطاً، وتختار للمطالعة في مختلف العلوم الكتب الحية السهلة[2].

ويقرر على الطلبة تدريس مقدمة ابن خلدون، لأهميتها العظمى، ليصبحوا بها عقولاً ناضجة راشدة، تعرف كيف تتحرك بالمبادئ من أجل خدمتها، وتحولها واقع حياة، وباعتبارها أساساً لتربية عقلية منهجية متفتحة، وإدراك بصير لسنن الاجتماع والعمران وحياة الدول، وخططِ السياسة والملك وفكر ناقد للأخبار والمعلومات وتنمي الحاسة التاريخية والقدرة على إدراك التطور وديناميكية التاريخ والمجتمعات الإنسانية، مع ملاحظة السنن الثابتة وتتابع المقدمات والنتائج[3].

ويوصي ابن باديس بقراءة ومطالعة الكتب التاريخية النافعة، ككتاب الأستاذ أحمد توفيق المدني (محمد عثمان باشا داي الجزائر سنة 1766م ـ 1791م) والذي فيه ذكرٌ لما كانت عليه الجزائر من قوة وعمران وما أصابها من تخريب وتدمير بعد الاحتلال، فيقول وإنه يتحتم على كل مسلم جزائري أن يقرأ هذا الكتاب،

(1) جهاد ابن باديس ص 171، 172.

(2) جهاد ابن باديس ص 172.

(3) من تاريخ الحركة الإسلامية ، د. محمد فتحي عثمان ص 84.

وإنك إذا ختمته أيها المسلم الجزائري لا بد أن تخرج منه تحبُّ من يجب أن تحب وتبغض من يجب أن تبغض.. لأن الحب والبغض سلاحان لازمان في الحياة، ولا بقاء لأمة بدونهما إذا استعملتهما في محلهما[1].

إن التاريخ مادة مهمة في إحياء الأمم والشعوب، ومفتاح لفهم الحاضر وبناء المستقبل، لقد كان أحد ميادين الصراع المرير الذي خاض غماره الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله ضد المشروع الاستعماري الاستيطاني، ذلك أن الاستعمار الفرنسي حاول جاهداً أن يبرر وجوده في هذه الديار على أطروحة تاريخية مغلوطة، قائمة على جملة من الأوهام والافتراءات كدونية الجنس العربي وتفوّق الجنس الأبيض وتحضره، وكون الأرض الجزائرية كانت في التاريخ القديم لاتينية مسيحية، وأن الجزائر لم تكن في يوم من الأيام أمة موحدة، وإنما هي شتات غير متالف من الأجناس أو هي في أحسن الأحوال أمة في طور التكوين، كما تفتقت عن ذلك عبقرية: طوربيز سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي.

وبالمقابل فإن مظاهر التخلف الحضاري والجمود الفكري، التي كانت المعهد الأول للإستعمار الذي كان ينطلق في فراغ الأمة الإسلامية، والتي اجتهد الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله في محاربتها من أجل الوصول بالأمة الإسلامية إلى مرحلة الصحة الحضارية، قد استند في ذلك إلى التاريخ وأحكامه وقوانينه التي تحكم سير النشاط الإنساني.

والقارئ لتراث الشيخ عبد الحميد بن باديس بتمعن يدرك أن التاريخ كان حاضراً عنده بقوة في كل ما كتب من بحوث ومقالات، وأنَّ مواقفه السياسية كانت مبنية على مواقف ثقافية فكرية استعمل فيها التاريخ ووقائعه وأحداثه. وعليه فلا غرو أن نجد الإمام ابن باديس قد جعل من مادة التاريخ مادة أساسية في دروسه التي كان يلقيها على طلبته في الجامع الأخضر بقسنطينة[2].

---

(1) الشهاب س3 ع136، ص 1.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 215.

ولذلك حين أصدر عضو جمعية العلماء الشيخ مبارك الميلي كتابه «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» راسله الشيخ عبد الحميد بن باديس مبيناً أهمية هذا الجهد في مواجهة الأطروحة الاستعمارية، راغباً إليه في ذات الوقت أن يحمل هذا الأثر النفيس عنوان «حياة الجزائر»، وهذا نص تلك الرسالة: أخي مبارك، سلام ورحمة. حياك الله تحية من علم وعمل وعلم، اطلعت على الجزء الأول من كتابك تاريخ الجزائر في القديم والحديث، فقلت لو سميته حياة الجزائر لكان بذلك خليقاً، فهو أول كتاب صوَّر الجزائر في لغة الضاد صورة تامة سويَّة، بعد ما كانت تلك الصورة أشلاء متفرقة هنا وهنالك، وقد نفخت في تلك الصورة من روح إيمانك الديني والوطني ما سيبقيها حية على وجه الدهر تحفظ اسمك تاجاً لها في سماء العلا، وتخطه بيمينها في كتاب الخالدين(1).

أخي مبارك:

إذا كان من أحيا نفساً واحدة فكأنما أحيا الناس جميعاً، فكيف من أحيا أمة كاملة، أحيا ماضيها، وحاضرها، وحياتها عند أبنائها حياة مستقبلها فليس والله كفاء عملك أن تشكره الأفراد، ولكن كفاءه أن تشكرك الأجيال، وإذا كان هذا في الجيل المعاصر قليلاً، فسيكون في الأجيال الغابرة كثيراً، وتلك سنة الله في عظماء الأمم ونوابغها، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وأنا واحد من هذا الجيل بلسان من يشعرون شعوري، أشكرك لأقوم بما علينا من واجب، لا أقابل مالك من حق، جازاك الله خير ما جازى به العاملين المخلصين للدين والوطن بعلم وتحقيق وإنصاف. والسلام من أخيك عبد الحميد بن باديس.

فالتاريخ في نظر ابن باديس مقوم أساسي من مقومات الشخصية، وباعث من أهم بواعث النهضة. ولذلك كان رحمه الله دائم التذكير للإنسان الجزائري بهذا التاريخ حتى يبعث الاعتزاز بالوجود، ويدفعه للعمل من أجل تغيير واقعه وفي هذا يقول:

وإذا كنتم تثقون بأنفسكم فثقوا بنفوس مؤمنة صادقة،ولم لا نثق بأنفسنا وقد أعطانا الله عقولاً ندرك بها،

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 215.

ومواهب سنسخرها لما يرضي الله ورسوله، لنا مواهب مثل لما لغيرنا، ولنا من هذه القومية العربية الخالدة مثل ما لغيرنا، ولنا من هذا التاريخ الممتد البعيد مجد وملك مثل ما لغيرنا وفوق ما لغيرنا، ولقد أعطانا الله من هذا الدين الإنساني من هذا الدين العقلي الروحي ما يكمل عقولنا ويهذب أرواحنا، أعطانا وطناً شاسعاً مثل ما لغيرنا، فنحن إذاً شعب ماجد عظيم يعتز بدينه، يعتز بلغته، يعتز بوطنه، يعتز بقوميته، يستطيع أن يكون في الرقي واحداً من هذه الشعوب، وأن يفوق كثيراً من هذه الشعوب، ولنا من تاريخه الحافل ما يجعلنا نؤمن بصدق معتقدنا فيه[1]. ويواصل رحمه الله خطابه مبيناً ضرورة معرفة التاريخ.

إننا نعتصم بالحق ونعتصم بالتواضع عندما نقول: إننا شعب خالد، ككثير من الشعوب، ولكننا ننصف التاريخ إذا قلنا: إننا سبقناها في ميادين الحياة، سبقناها بهدايتنا، ونشرنا بينها الشريعة الحقة قبل أن تتكوَّن هذه الأمم، وسبقنا هذه الأمم في نشر هذا الحق أيام كانت في ظلمات من الجهل حالكة، أيام كانت تسبح في لجج من الأوهام والخيالات.

وذلك ما كنا فيه.وما سنعود إليه إن شاء الله، وإنما علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود، ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين، اللغة العربية، لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة[2].

وجدنا الشيخ عبد الحميد بن باديس في افتتاحياته لخطبه ومحاضراته وكلماته التي كان يلقيها في جموع الشعب في المساجد والنوادي والمدارس حريصاً على إثارة هذا البعد التاريخي فها هو يقول: أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم[3].

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 146).

(2) المصدر نفسه (4 / 147).

(3) المصدر نفسه (5 / 316).

كما وجدناه يدعو الإنسان الجزائري أن يحاكم ما يعرض عليه من اراء وأفكار ومشاريع وخطط على التاريخ لأنه الحكم الفصل، فيقول رحمه الله: أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبي، حذار من الذين يمنونك بوحي من غير دينك وأبطال دينك وملتك، استوح الإسلام ثم استوحِ تاريخك، ثم استوحِ قلبك، اعتمد على الله ثم على نفسك، وسلام الله عليك(1).

واستخدم ابن باديس التاريخ في بعث الاعتزاز بالمقومات الذاتية للشخصية، فكتب عن مجموعة من الصحابة والصحابيات، وأعلام السياسة ورجال الفكر، ورجال الفقه والدعوة، إذ كان الهدف من تلك التراجم خصوصاً رجال السلف ونساؤه تقديم النموذج الذي يقتدي به الشاب الجزائري المسلم المتحفز للنهضة والعامل لها، فكتب رحمه الله يقول: هذا باب جديد فتحناه في الشهاب. أردنا منه أن يطلع القراء على تراجم رجالنا ونسائنا من سلفنا الصالح وما لهم من صفات أكسبهموها الإسلام، وما كان منهم من أعمال في سبيله، ففي ذلك ما يثبت القلوب، ويعين على التهذيب ويبعث على القدوة، وينفخ روح الحياة، وما حيي خلف إلا بحياة سلف، وما حياة السلف إلا بحياة تاريخهم ودوام ذكرهم، ولسنا هنا لتتبع الأخبار واستيعاب الأحداث وإنما نقتصر على ما يحصّل أصل القصد(2).

فالهدف هو بعث الحياة في نفوس الشباب من خلال تقديم نماذج حية، عاشت حياتها بالإسلام وللإسلام فقدمت أروع الأمثلة في التضحية والبذل والعطاء والصبر ومواجهة التحديات، وما أحوج شباب الجزائر خصوصاً في تلك الفترة الحالكة إلى معرفة هذه الصفحات المضيئة من تاريخهم المجيد، حتى لا ينشؤوا مبتوتي الصِّلة عن الأصول الثابتة لأمتهم، وفي هذا الإطار يقول ابن باديس: إنما ينفع المجتمع الإنساني ويؤثر في سيره من كان من الشعوب قد شعر بنفسه فنظر إلى ماضيه وحاله ومستقبله، فأخذ الأصول الثابتة من

---

(1) المصدر نفسه (5 / 338).

(2) المصدر نفسه (3 / 21).

الماضي، وأصلح شأنه في الحاضر ومد يده لبناء المستقبل، يتناول من زمنه وأمم عصره ما يصلح لبنائه مُعرضاً عما لا حاجة له به أو ما لا يناسب شكل بنائه الذي وضعه على مقتضى ذوقه ومصلحته.

إن ابن باديس استوعب أن بناء الدول وتربية الشعوب والنهوض بها يخضع لقوانين، وسنن ونواميس، تتحكم في مسيرة الأفراد والشعوب والأمم والدول، ولقد اهتدى بهدي القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين، ولذلك تعامل مع السنن والقوانين بحكمة، وقدرة فائقة.

إن التغيير الذي قاده ابن باديس بين أبناء الشعب الجزائري بدأ بالنفس البشرية، وصنع منها الرجال والأبطال الذين قادوا ثورة المليون شهيد، لقد اعتمد على المنهج القرآني في تغيير العقائد والأفكار والتصور، وعالم المشاعر والأخلاق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد : 11].

لقد انطلق ابن باديس وجمعية العلماء من هذه القاعدة الإلهية التي تدعو إلى صحة العقيدة واستثارة الفكر، وطهارة النفس وكمال الخلق واستقامة العمل[1].

2. الأخذ بالأسباب:

يقول ابن باديس: إن أسباب الحياة والعمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وإن من تمسك بسبب بلغ إلى مسببه، سواء أكان براً أم فاجراً، مؤمناً أم كافراً[2]، والمسلمون لما أخذوا بأسباب العمران كما يأمرهم دينهم، سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، وحين أهملوا تلك الأسباب تأخروا، حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها، فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم، وعوقبوا بما هم عليه من الذل والانحطاط[3].

(1) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 59).

(2) الحركة الإصلاحية ، محمد طهاري ص 38، تفسير ابن باديس ص 78.

(3) جهاد ابن باديس ص 167 إلى 193.

فقد بين ابن باديس: السبب في التقدم والتأخر، وهو التمسك والترك للأسباب[1].

لقد عمل ابن باديس بسنة الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية للوصول إلى أهدافه، واهتم بالتنظيم والقيادة والمشروع، ووضعِ البرامج وإعداد الخطط وتحديد المراحل، وبيان متطلبات كل مرحلة، فاستخدم الوسائل الاتية:

1 . الدروس المسجدية.

2 . تعليم الناشئة وتربية الأجيال.

3 . أرسل الطلبة المتفوقين للدراسة بالزيتونة.

4 . إصدار الصحف والمجلات.

5 . إستغلال النوادي وفتحها.

6 . حضور التجمعات والمؤتمرات العامة والدعوة إليها.

7 . الدعوة الشعبية والاتصال بالجماهير.

8 . الاحتجاجات الشعبية والرسمية، الفردية والجماعية، وبواسطة الوفود والرسائل والبرقيات الاحتجاجية، على كل القرارات التعسفية التي أصدرتها الإدارة الاستعمارية في حق الجمعية ورجالها وطلبتها ومؤسساتها الدعوية ونشاطاتها الإصلاحية، لمحاصرتها وخلق العوائق لها ولتضييق الخناق عليها، وللوصول إلى تعطيلها أو شلها عن العمل كلياً أو جزئياً[2].

9 . تكوين الجمعيات الخيرية، والفرق الكشفية والرياضية والفنية، والجمعيات المهنية، كجمعية التجار المسلمين التي أسستها الحركة بقسنطينة، والجمعية الاقتصادية وذلك لتحقيق الاستقلال الاقتصادي للشعب

(1) جهاد ابن باديس ص 167 إلى 193.

(2) المصدر نفسه.

الجزائري وإنعاش مصادر رزقه وعيشه حتى لا يبقى الاستعمار يتحكم ـ توجيهاً وتسييراً ـ فيها[1].

وكان ابن باديس يدعو ـ مشجعاً ومحرضاً كل جماعة يريدون تأسيس جمعية أو فتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية، أن يكاتبوه ويعرفوه، ليرشدهم إلى الوجوه القانونية، اللازمة لذلك[2].

10 ـ لم ينحصر نشاط ابن باديس داخل الوطن، فحسب بل امتد إلى فرنسا، لاستيعاب العمال المهاجرين، من خلال تأسيس نوادي تربوية، ترمي إلى إنقاذ الإخوان، الذين هم بصدد الانغماس في الرذيلة وفي الشارع، ومدهم بتربية الفكر، حسب التعاليم الدينية، والتي تضاعف عددها مع الزمن حتى وصل إلى ثمانية نوادٍ، اتسعت لالاف الأشخاص وضمتهم إليها، علاوة على فتح المدارس لتعليم الصغار والكبار.

وتخصص حركة الإمام بعثات علمية مكونة من أساتذة لزيارة وتفقد أحوال العمال الجزائريين هناك، ودراسة مشاكلهم والإشراف على استيعابهم تربية وتعليماً لهم ولأبنائهم عبر مؤسسات الحركة التي أنشأتها وفتحتها وكان على رأس الذين خصصوا لذلك الشيخان الفضيل الورتلاني، وسعيد الصلاحي[3].

إن ابن باديس رحمه الله بين أن الأسباب الكونية التي وصفها الله تعالى في هذه الحياة الدنيا وسائل لمسببات ـ موصلة ـ من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه بمقتضى أمر الله وتقديره وسننه في نظام هذا الكون، ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الاخر ولا يصدق المرسلين، ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم، نعم لا يضيع على المؤمن أجر إيمانه، ولكن جزاءه

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه ص 193.

(3) المصدر نفسه ص 194.

عليه في غير هاته الدَّار، كما أن الآخر لم يُضع عليه أخذه بالأسباب فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة إلا النار[1].

وعندما فسر قوله تعالى: {كُلاًّ نُمِدُّ هَـؤُلاَءِ وَهَـؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا *} [الإسراء : 20].

قال: وقد أفادت الآية حسبما تقدم ـ أن أسباب الحياة والعمران والتقدم مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ ـ بإذن الله ـ إلى مسببه، سواء أكان براً أو فاجراً مؤمناً أو كافراً، وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً، فقد تقدموا حتى سادوا العالم ورفعوا علم المدنية الحقة بالعلوم والصنائع، لما أخذوا بأسبابها، كما يأمرهم دينهم، وقد تأخروا حتى كادوا يكونون دون الأمم كلها بإهمال تلك الأسباب. فخسروا دنياهم وخالفوا مرضاة ربهم وعوقبوا بما هم عليه اليوم من الذل والانحطاط، ولا يعود إليهم ما كان لهم إلا إذا عادوا إلى امتثال أمر ربهم في الأخذ بتلك الأسباب.. إن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب[2].

ـ الجمع بين الفكر والعمل والاهتمام بالصناعات:

إن ابن باديس يرى بأن العلم ليس عبارة عن معلومات نظرية يتلقاها الطالب، وإنما هو عبارة عن الجمع بين الفكر والعمل، بين النظرية والتطبيق، ويرى كذلك بأن الميزة الكبرى للجيل الأول من المسلمين الذين فتحوا العالم ونشروا الإسلام في ربوع الدنيا هو تطبيقهم الإسلام على أنفسهم، وهذا جانب عملي.

وحرصاً منه رحمه الله على هذا البعد العملي في التعليم والتكوين، فقد أدخل الصناعات التطبيقية في مناهج التكوين.

فقد أدخل الصناعات التطبيقية في مناهج التكوين، ففي مقال له بعنوان إصلاح التعليم بجامع الزيتونة

(1) مجالس التذكير ص 82.

(2) المصدر نفسه ص 91.

دعا إلى ضرورة تدريس الحساب والجغرافية بأقسامها ومبادئ الطبيعة والفلك والهندسة(1).

وفي سنة 1930م أسس ابن باديس جمعية التربية والتعليم الإسلامية، وقد وقد حرَّر الشيخ بنفسه قانون الجمعية الأساسي، والذي جاء في المادة الثانية منه ما يلي: مقصود الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنساوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين.

وجاء في المادة الثالثة من قانون الجمعية: تسعى الجمعية لمقصدها هذا، أولاً: بتأسيس مكتب للتعليم، ثانياً: بتأسيس ملجأ للأيتام، وثالثاً: بتأسيس نادٍ للمحاضرات، ورابعاً: بتأسيس معمل للمصانع، وخامساً: بإرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى(2).

فهذا الموقف يعبر عن الاهتمام الكبير الذي أولاه ابن باديس للجانب العملي التطبيقي في التكوين، وقد بلغ ابن باديس بالصناعات وإدراك أهميتها لقيام الحضارات، أنه عند تفسير قوله تعالى: {أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آية تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ *وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ *فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ *} [الشعراء : 128 . 131].

فقد أوضح رحمه الله أن هذه الآية كشفت نواحي كثيرة من تاريخ العرب ومدى ما بلغه هؤلاء من مدنية وحضارة، فهي إذاً نص صريح في استحكامهم بعلم تخطيط المدن والعمران بوجه عام، ولكن الذي لم يعجب ابن باديس هو حمل المفسرين للفظ المصانع في الآية على معنى القصور أو مجاري المياه، فقال: ولكن ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن المعنى اللفظي الاشتقاقي والذي أفهمه ولا أعدل عنه، هو أن المصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران، وهل كثير على أمة توصف بما وصفت به

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 60).

(2) المصدر نفسه ص(4 / 53).

في الآية أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنا؟ بلى وإن المصانع لأول لازم من لوازم العمران أو نتيجة من نتائجه[1].

وقال كذلك: ومن محامد المصانع أن تشاد لنفع البشر ولرحمتهم، ومن لوازم ذلك أن تراعى فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة[2].

كما بلغ اهتمام الشيخ ابن باديس بالصنائع أنه كان ينقل كل ما تنشره الصحف العربية والإسلامية داخل القطر وخارجه مما له علاقة بموضوع الصنائع تنويراً للقارئ وتوعية له، من ذلك نقله عن جريدة الأهرام، مقالاً مما جاء فيه: وإذاً فالإسلام يحث على تعلم الصنائع ويسميها علماً، ويعتبرها رحمة ويبين أنه كان يقوم بها ويشرف عليها أفضل الخلق وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو لا يعادي علماً ولا صنعة بل يعتبر القيام بالصنائع والعلوم من الفرائض التي يتقرب بها إلى الله تعالى[3].

. رجل الجماهير:

ـ كان ابن باديس رجلاً حركياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معان ودلالات، وكانت هذه الخاصية فيه أحد المقومات الأساسية في حركته التجديدية ودعوته التغييرية، وكان ينطلق بعلمه ودعوته إلى الجماهير العريضة، فيعمل جاهداً على تثقيفها وتوعيتها وتنوير عقولها وتهذيب طباعها. وتوجيهها وتفجير طاقاتها، واختبار العناصر المهمة في تنظيمه العملي لمساعدته على حمل أعباء الدعوة.

ـ يقول الدكتور محمد فتحي عثمان: أما ابن باديس، فكان بحق رجل الجماهير الصابر عليها، العامل معها ووسطها، مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها، وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة إلى جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديهيته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه.

بل إن دروس ابن باديس في تفسيره للقران أو في غير ذلك من الموضوعات ومحاضراته ومقالاته فضلاً عن

---

(1) مجالس التذكير ص 432.

(2) المصدر نفسه ص 432.

(3) الشهاب العدد 26 تاريخ 30 ماي 1926م.

جهوده العملية، لتمثل حركيته وحرارته خير تمثيل، فهو يطلق من الكلمات إلى قلوب المسلمين وعقولهم تياراً دافقاً متوهجاً من النور والحياة، ويصوغ للإسلام صورة متكاملة للفكر والعمل، ويتواصل مع المؤمنين على أن ينفث بعضهم في بعض روح العمل الاجتماعي الحركي، وهكذا جاب أنحاء الجزائر على اتساعها طولاً وعرضاً، وأنشأ فروعاً لجمعيته أو لمدارسه وجمع على دعوته الأمازيغ والقبائليين والعرب والمولَّدين من سلالات تركية، وجمع المالكية والإباضية ومن صلح من الطرقيين[1].

. العمل على إقناع الناس بمشروع المقاومة:

رسم الشيخ عبد الحميد مشروعه النهضوي وحدَّد الهدف العام جيداً، وهو معاكسته لمشروع الاستعمار الذي استهدف القضاء على مقومات الشخصية الجزائرية المتمثلة في الدين الإسلامي واللغة العربية، ومن ثم فإن كل جهوده التربوية والتعليمية والدعوية والإصلاحية، وكل مواقفه السياسية كانت تهدف إلى تحقيق هدفه العام وهو معاكسته المشروع الاستعماري وإبطاله، من خلال إحياء تعاليم الإسلام في «الجزائر» وبعث الأمة الإسلامية من سباتها العميق لتعود إلى مرحلة الشهود الحضاري ومرحلة القوة والعطاء، والسبيل إلى ذلك هو تجديد الدين، وتجديد النفوس به[2].

قال ابن باديس:.. ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرانها ودينها ولغتها واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ورغم الزجر والتغريم ؛ لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب.

لقد فهمت الأمة أن المعلمين هم المقصودون. فهم معلموا القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام.. بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان ، بل في تأييد بالقوة والمال... فهمت الأمة هذا السر والكيد المدبر لدينها وقرآنها ولغة

(1) عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر ص 75، 76.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 237.

قرآنها ودينها، والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله للأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها، وسنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا.. وإننا على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء لنا وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا عرفنا إيماناً وشاهدنا عياناً أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما(1).

وقال:.. علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا عن طريقه، فعاهدنا الله على أن ننفق حياتنا على خدمته ونشر هدايته، فإذا عشت له فإنني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هكذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص، وتفرض عليَّ تلك الروابط لأجله ـ كجزء منه ـ فروضاً خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوِّماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة. فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة.

وما مثلنا في وطننا الخاص، وكل ذي وطن خاص، إلا كمثل ذوي بيوت من قرية واحدة، فبخدمة كل واحد لبيته تتكون مجموع البيوت قرية سعيدة راقية.. فنحن إذا كنا نخدم الجزائر فلسنا نخدمها على حساب غيرها ولا للإضرار بسواها معاذ الله..

والآن أيها الإخوان وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرة العيش للإسلام والجزائر، فهل تعيشون مثلي للإسلام والجزائر، فلنقل كلنا، ليحيا الإسلام ولتحيا الجزائر(2).

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 109).

(2) المصدر نفسه.

وظل الشيخ ابن باديس وفياً لهاته المبادئ التي نذر حياته لها، يضحي بكل شيء في سبيلها، وها هو يؤكد هذه المعاني مرة أخرة، اخذاً على ذلك العهود والمواثيق من إخوانه وطلبته وعموم الشعب الجزائري قائلاً: إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام، كما قضيت سوادي عليهما وإنها لواجبات.. وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقران ولغة الإسلام والقران هذا عهدي لكم، وأطلب منكم شيئاً واحداً هو أن تموتوا على الإسلام والقران ولغة الإسلام.

. التربية على المبادئ والقيم تسبق العمل السياسي:

بادر الشيخ منذ عودته من جامع الزيتونة إلى مواجهة هذا المخطط الاستعماري الجهنَّمي، وكانت أمامه عدة خيارات للمواجهة، فهناك المجال السياسي إذ كان بإمكانه أن يؤسس حزباً سياسياً ويجمع من حوله المناضلين والأنصار ويُجيّشُهم للمطالبة بالحقوق من الاستعمار، يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس: لو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا، من ثباتنا وتضحياتنا ولقامت الأمة كلّها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على ما نرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسها إلى أقصى غايات التأثير عليها، فإن مما نعلمه ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول لأمته: إنك مظلومة في حقوقك، وأنني أريد إيصالك إليها يجد منها ما لا يجده من يقول لها إنك ضالة عن أصول دينك وإني أريد هدايتك فذلك تلبيه كلّها وهذا لمقاومة معظمها أو شطرها، وهذا كله نعلمه ولكننا اخترنا ما اخترنا لما ذكرنا وبينا، وإننا ـ فيما اخترنا بإذن الله لماضون وعليه متوكلون(1).

إذاً فالشيخ رحمه الله قد اختار ـ عن وعي وإدراك ـ مواجهة الأمة بأمراضها الاجتماعية، وعللها النفسية، وذلك نتيجة لابتعادها عن أصول دينها، فاثر الخطة الدينية القائمة على العلم والتربية، رغم الصعوبات التي تكتنفها والتحديات التي تواجهها، فقال: وبعد فإننا اخترنا الخطة الدينية على غيرها عن علم بصيرة، وتمسكاً

(1) آثار الإمام ابن باديس (5 / 286).

بما هو مناسب لفطرتنا وتربيتنا من النُصح والإرشاد وبث الخير، والثبات على وجه واحد والسير في خطٍ مستقيم، وما كنا لنجد هذا كله إلا فيما تفرغنا له من خدمة العلم والدين، وفي خدمتهما أعظم خدمة وأنفعها للإنسانية عامة(1).

فاتجه الشيخ إلى مجال التربية والتعليم، والتعليم بيئة إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق وتنوير العقول، وشحذ الهمم، وتقوية الإرادة، وبذل في هذا المجال جهوداً جبارة إذ كان يصل رحمه الله ليله بنهاره، يدرس للكبار في المسجد بعد صلاة العشاء، ويعلم الصغار من الجنسين من قبل صلاة الفجر إلى صلاة العشاء، فوفقه الله لإيجاد النواة الصلبة لحركة الإصلاح فيما بعد.

يقول الشيخ مبارك الميلي وهو من الطبقة الأولى من تلاميذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله: إنه كان يدرس في اليوم الواحد خمس عشرة ساعة كاملة(2).

وغني عن البيان أن الشيخ عبد الحميد بن باديس لما ألقى بكل ثقله في ميدان التربية والتعليم، كان الهدف أن يعدَّ كتائب من طلاَّب العلم، وجحافل من المستنيرين سيشكلون قاعدة الإصلاح وجمهورها الواسع(3).

لقد قام ابن باديس بجهد عظيم في بث العلم بين ناشئة الشعب وتفجير طاقات الهدى بين كل أفراد الأمة، وتحطيم جدران اليأس والخيبة التي أحاط بها الاستعمار الجزائر المجاهدة، بعد تضحياتها الجمة وكفاحها العزيز. قال له ذات يوم أحد أخوانه أحمد توفيق المدني وقد رأى عليه الفاقة والإعياء: يا أخي، أما امنت بأن لنفسك عليك حق؟ أما قرأت تفسير قوله تعالى: {وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ} [القصص : 77].

فأجاب في هدوء غريب: كلا يا أحمد، ما عملت طول حياتي إلا بهذه الآية الكريمة، إن نصيبي من الدنيا هو بث العلم وإعداد الناشئة ليوم رهيب ، وتجهيز الشعب بما يقوي روحه ويرجع له الأمل ، وحفر الأسس

(1) آثار ابن باديس (5 / 286).

(2) البصائر جانفي 1938م.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 242.

العميقة التي يقيم عليها الشعب جدار حياته الحرة المقبلة، وبذلك في نفس الوقت أحسن كما أحسن الله إلي[1].

ولقد بين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأن التلاميذ الذين كوَّنهم الشيخ عبد الحميد بن باديس خلال عقدين من الزمان كانوا الكتيبة الأولى في جيش الإصلاح، فقال في البحث القيم والدراسة العميقة التي تقدم بها إلى المؤتمر الذي دعت إليه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والذي انعقد بنادي الترقي بعاصمة الجزائر في سبتمبر 1935م، وقد اختار الإبراهيمي لبحثه عنواناً موحياً وهو «فلسفة جمعية العلماء» ضمَّنه جملة من ارائه في الإصلاح الديني والعلمي وارَّخَ فيه الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي وفي الجزائر على وجه الخصوص فقال محدداً أسباب نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر:

الثورة التعليمية التي أحدثها الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس بدروسه الحية والتربية الصحيحة التي كان يأخذ بها تلاميذه والتعاليم الحقة التي كان يبثها في نفوسهم الطاهرة النقية، والإعداد البعيد المدى الذي كان يغذي به أرواحهم الوثابة الفتية، فما كادت تنقضي مدة حتى كان الفوج الأول من تلاميذ ابن باديس مستكمل الأدوات من فكرة صحيحة، وعقول نيَّرة ونفوس طامحة وعزائم صادقة، وألسن صَقيلة وأقلام كاتبة، وتلك الكتائب من تلاميذ ابن باديس هي طلائع العهد الجديد الزاهر.

وقد سمع الناس لأول مرة في الجزائر من بعض تلك البلابل شعراء تؤدي معنى الشعر كاملاً وقرؤوا كتابة تؤدي معنى الكتابة، ثم زحف من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضاً كتيبة جرَّارة سلاحها الفكرة الحية الصحيحة، إلى جامع الزيتونة لتكتمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحية وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح، بناءً علمياً محكماً، ورجعت تلك الطائفة إلى الجزائر فكان من مجموعها وممَّن تخرج بعدها من تلاميذ

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 146.

الأستاذ، ومن تلاميذ جامع الزيتونة، جنود الإصلاح اليوم وقادته وألويته المرفرفة، وأسلحته النافذة(1).

. العمل الجماعي:

قال ابن باديس: إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله إذا كانت لهم قوّة، وإنما تكون لهم قوّة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكِّر وتدبر، وتتشاور وتتازر، وتنهض لجلب المصلحة ودفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة(2).

وقد جعل الشيخ من أكبر همومه وفي مقدمة أعماله السعي الحثيث لبث روح الاجتماع الشوري في كل ما يهم المسلمين من أمر دينهم حتى لا يستبد بهم مستبد ولا يتخلف منهم متوانٍ، وحتى يظهر الخاذل لهم مِمَّن ينتسب إليهم، فينبذ ويطرح ويُستغنى عنه بالله وبالمؤمنين(3).

وممَّا يؤكد أن التفكير في العمل الجماعي، قديم عند الشيخ ابن باديس، أن الشيخ كان لا يفوت أي فرصة تتاح له مع رجال الفكر وقادة الرأي وحاملي لواء الإصلاح، إلا وتحادث معهم حول الموضوع وما هي الوسائل الكفيلة لتجسيده في الميدان، وما هي الخطوات الواجب اتباعها لبلوغ هذه الأهداف(4).

كان ابن باديس شغوفاً بالعمل الجماعي، دائم التطلع إليه، ولم يكن يفوّت آية فرصة تتاح لتطوير عمل فردي والارتقاء به إلى عمل جماعي ؛ إلا إغتنمها وسعى حثيثاً إلى تجسيدها ميدانياً، لكن العمل الجماعي الأكبر هو «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» والتي ضمت في صفوفها خيرة علماء الجزائر العاملين الذين كانوا يقومون بواجب الدعوة الإصلاح(5).

---

(1) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (1 / 181).

(2) مجالس التذكير (1 / 221)، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 244.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 144.

(4) المصدر نفسه ص 245.

(5) المصدر نفسه ص 247.

قال ابن باديس: من المسلّم به أن أهل العلم في كل قطر هم مصدر الهداية والإرشاد، ومبعث التثقيف والتهذيب، وكل واحد في ناحيته هو نبراسها في ظلمة الجهل ومرجعها في مشكلات الأمور، فإذا كان هذا منهم وهم متفرقون قد يجهل بعضهم بعضاً، فكيف يكون هذا منهم إذا اجتمعوا وتعارفوا وتعاونوا؟

فمما لا شك فيه أن نفعهم يكون أكثر وأسرع، وخيرهم يكون أهم وأنجع، لهذا كنا من المبتهجين بالفكرة التي دعا إليها بعض إخواننا بالعاصمة «فكرة جمعية العلماء»، وكنا من الملبِّين لدعوة الهيئة للاجتماع بالحضور عندما يحين وقته ويدعوننا إليه(1).

فالانتقال من الفردية إلى الجماعية، هو الهدف الأساسي من تأسيس الجمعية، فلا بد من تسطير برنامج محدد، ولا بد من تحديد الوسائل الكفيلة بتحقيقه، ولا بد من تحديد مهمة كل عضو بدقة في البرنامج المسطر، فيُلزم بالعمل الجاد من أجل إنجاز ما كلف به، وهذا البرنامج يكون ملزماً للجميع لا يجوز العدول عنه(2).

بيّن ابن باديس أن العمل الجماعي لكي ينجح لابد من تقديم بعض التنازلات، ولا بد من التضحية بكثير من حظوظ النفس، بل لا بد من الكثير من الصبر والتضحية، وكل هذه الأفكار كانت واضحة جداً في ذهن الشيخ عبد الحميد بن باديس وهو يؤسس لهذا العمل الجماعي تأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» فقال مخاطباً الأعضاء:

أيها السادة، قد أنجزتم أمراً عظيماً، وأسستم مستقبلاً عظيماً، ولقد جئتم من أنحاء القطر ملبِّين داعي الاجتماع، ناسين كل أسباب الافتراق، فبرهنتم علىأن علماء الجزائر متصفون بما يجب أن يتصف به العالم الحقيقي، الذي صار العلم له صفة روحية وحياة قلبية، من سعة الصدر والتسامح ونسيان الفكر الخاص أمام

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 55).

(2) عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 248.

الصالح العام، إن ما أسسناه لا يكفي فيه اجتماعنا هذا، فعلينا أن نوالي الاجتماع مهما دعينا إليه، وعلى كل واحد منا أن يكون داعية للجمعية بقوله وعمله، وأن يكون مثلاً لفكرتها في الاتفاق والتاخي ونشر الخير، وأن يطرح كل واحد منا فكره الخاص، عندما تجيء مصلحة الجمعية، حسبنا ما مضى، كفى تقاتلنا على الكلمات، فكلمة «فرّق» ماتت من بيننا، وما بقي إلا العمل على الوفاق والوئام لنبلغ غاية المرام(1).

وإيماناً من ابن باديس بالعمل الجماعي ؛ أنه كان يسند النجاح الذي كان يُحققه في شتى المجالات إلى الدعم الذي كان يجده من إخوانه العلماء معه في الجمعية، واحتضان الأمة جمعاء للمشروع، فقال:

إذا كنت أستمد القوة والحياة فإنما أستمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمتي وأخص منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلا وجدتهم معي كالأسود، وأما الأشبال فهؤلاء الأبناء الذين تشاهدونهم يحتفون بكم الليلة، ولقد جاءت قسنطينة تحييكم بكبارها وصغارها، فذكراكم يا ضيوف القرآن خالدة وهي منقوشة في قلبي لا تمحى(2).

. الحوار مع المخالف والبحث عن قواسم مشتركة:

إن من الأسباب التي اتخذها ابن باديس لتوحيد جهود الشعب الجزائري لمقاوة الغزاة الفرنسيين ؛ اهتمامه بلغة الحوار مع المخالف من أبناء وطنه والبحث عن القواسم المشتركة، فاجتهد أن يكون الحوار سمة بارزة في منهجه وعلامة مميزة لشخصه، فهو عندما اختاره العلماء المجتمعون بنادي الترقي رئيساً لجمعية العلماء المسلمين وهو غائب عن الاجتماع، فلما حضر وعلم بالأمر، وطلبوا منه أن يلقي كلمة بالمناسبة، قال رحمه الله: إخواني إنني أراكم في علمكم واستقامة تفكيركم لم تنتخبوني لشخصي ؛ وإنما أردتم أن تشيروا بانتخابي إلى وصفين عرف بهما أخوكم الضعيف هذا:

---

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 158).

(2) آثار ابن باديس (4 / 216).

ـ **الأولى**: أنني قصرت وقتي على التعليم، فلا شغل لي سواه، فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى تكريم التعليم إظهاراً لقصد من أعظم مقاصد الجمعية وحثاً لجميع الأعضاء على العناية به كل بجهده.

ـ **الثانية**: أن هذا العبد له فكرة معروفة وهو لن يحيد عنها، ولكنه يبلغها بالتي هي أحسن، فمن قبلها فهو أخ في الله، ومن ردَّها فهو أخ في الله، فالأخوة في الله فوق ما يقبل وما يرد، فأردتم أن ترمزوا بانتخابي إلى هذا الأصل، وهو أن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام، فماذا تقولون أيها الإخوان؟ فأجابوا كلهم بالوفاق والاستحسان[1].

رفع ابن باديس شعار الوفاق، وذمَّ الافتراق، وبحث عن مساحة مشتركة تكون مجالاً للتعاون مع الاخرين، ويحدثنا الشيخ عبد الحميد بن باديس عن رحلة قام بها إلى مدينة مستغانم بالغرب الجزائري اجتمع فيها بشيوخ الطرق ورؤساء الزوايا، فألقى فيهم كلمة جامعة مما جاء فيها قوله:...

لما انتهينا من العشاء ألقيت موعظة في المحبة ولزوم التعاون والتفاهم على أساسهما وأن لا نجعل القليل ممَّا يختلف فيه سبباً في قطع الكثير مما نتفق عليه، وأن الاختلاف بين العقلاء لابد أن يكون، ولكن الضار والممنوع المنع البات هو أن يؤدينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق، وذكرنا الدواء الذي يقلل من الاختلاف ويعصم من الافتراق وهو تحكيم الصريح من كتاب الله والصحيح من سنة رسول الله (ص)[2].

وكان هذا ديدن الشيخ رحمه الله مع الجميع، فحتى مع السياسيين الذين كان يختلف معهم في طريقة العمل وفي سلم الأولويات، فإنه كان حريصاً على تبني قضايا العدل وتجميع قوة الأحرار الصادقين وتأييدهم وتدعيم الصلات بهم ورسم سبل التعاون معهم، مع علمه بأنه قد لا تتطابق مفاهيمهم تفصيلاً مع دعوته

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 159).

(2) المصدر نفسه (4 / 247).

الإصلاحية ونظرته الإسلامية. وعليه فالعلاقة التي تربطه ببعض النواب الأحرار الصادقين في خدمة الشعب وقضاياه العامة ؛ هي علاقة تعاون وتأييد وتوجيه وترشيد، فقال: فلما جاءت الحركة السياسية وتقدم رجال أحرار للنيابة عن الأمة، وكان جميع المنتمين للجمعية مع النواب الأحرار، وفاز النواب الأكثر في أكثر الدوائر، لما كان هذا كله زادت نقمة الحكومة على الجمعية.

ووقف ابن باديس إلى جانب حزب الشعب وزعيمه «مصالي الحاج» لما كانت السلطات الاستعمارية تضايقه، أو تزج به في غياهب السجون، قال: فإن كنا هنا نحتج بأقصى ما لدينا من قوة وشدة على المسلك الأهوج الذي تسلكه الإدارة مع رجال حزب الشعب الجزائري، وإلقائها القبض على زعيم الحزب السيد مصالي الحاج محمد، وعمدته السيد الشاعر الكبير مفدي زكريا وأعوانهما في العمل.. وهم إنما يعملون جهاراً في وضح النهار ؛ إن دلنا هذا العمل على شيء فإنما يدلنا على أن الحكومة عازمة على سياسة الشدة والإرهاق، واليوم دور مصالي وغداً دور الاخرين، لكنها والله سياسة لن تنجح ولن تثمر[1].

إن ابن باديس فهم سنة الله في الأخذ بالأسباب من خلال هدايات القرآن الكريم والسنة النبوية، وعمل بها، وأيقن أن الإيمان بالقدر لا يعارض الأخذ بالأسباب المشروعة، بل الأسباب مقدَّرة أيضاً كالمسببات، فمن زعم أن الله تعالى قدَّر النتائج والمسبَّبات من غير مقدماتها وأسبابها، فقد ذُهِل عن حقيقة القدر، وأعظم على الله الفرية، فالأسباب مقدَّرة كالمسببات[2]، وقد قال رسول الله (ص) لمن سأله عن الرُّقى، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي من قدر الله.

وقد تبين لابن باديس أن حياة الرسول (ص) وأصحابه كانت قائمة على الأخذ بالأسباب، وسيرته تشهد بأنه كان يتخذ كلَّ الوسائل والتدابير وأسباب العمل[3].

(1) المصدر نفسه ص. 255.

(2) منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة (1 / 428).

(3) العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلس ص 391.

إن سنن الله في كونه تُحتِّم علينا الأخذ بالأسباب، كما فعل ذلك أقوى الناس إيماناً بالله وقضائه وقدره، وهو رسول الله (ص)، لقد قاوم الفقر بالعمل، والجهل بالعلم، والمرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد، وكان يستعيذ بالله من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادَّخر لأهله قوت سنة، ولم ينتظر أن ينزل عليه الرزق من السماء وقال للذي سأله: أيعقل ناقته أم يتركها ويتوكل؟ قال: اعقلها وتوكل[1].

وقال (ص): فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد[2].

وما غزوات الرسول (ص) المظفَّرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره، فقد أخذ الحذر وأعدَّ الجيوش، وبعث الطلائع والعيون، وخندق حول المدينة، وأذن في الهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة، وهاجر بنفسه واتخذ أسباب الحيطة من هجرته، وأعدَّ الرواحل التي يمتطيها، والدليل الذي يصحبه، وغيّر الطريق واختبأ في الغار[3].

إن قدر الله حق، وقدر الله نافذ، ولكنه ينفذ من خلال السنن التي أقام الله عليها نظام الكون، من خلال الأسباب التي خلقها سبحانه وشرعها، وليستقيم عليها أمر الوجود ونظام التكليف، فهذه السنن والأسباب جزء لا يتجزأ من قدر الله الشامل المحيط[4].

والقران الكريم حافل بالايات التي توجب على المسلمين الأخذ بالأسباب في شتى مناحي الحياة، والعمل على استقصاء تلك الأسباب للوصول إلى المراد، وخاصة في تلك المواقف الصعبة التي تواجه الأمم والأفراد ومن النماذج القرآنية في هذا الصدد.

قول الله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ *} [الأنفال : 60].

(1) رواه ابن حبان بإسناد صحيح.
(2) البخاري (5 / 5380).
(3) عقيدة التوحيد، سعاد مِيبْر ص 212.
(4) الإيمان بالقدر، للصَّلاَّبي ص 165.

3. المرحلية وسنة التدرج:

لقد أخذ ابن باديس سنة الأخذ بالأسباب، وخطط مع إخوانه ونظم الصفوف ووضع الأهداف وحدَّد المراحل والخطوات للوصول إليها، وأدرك طبيعة كل مرحلة وخصوصيتها، بحيث لا يعمد إلى تجاوز المراحل أو حرقها فيقع في داء الاستعجال المدمر، فيتعجل النتائج قبل أوانها فيعاقب بحرمانها. واستخدم وسائل عصره التي ضمنت الذيوع والانتشار لأفكاره في أوساط الجماهير، وبواسطتها استمرت عملية الإقناع والشحن، حتى انتقل بالجماهير من مرحلة الاستقطاب إلى مرحلة الاستيعاب التام، فطوّر دور كل من:

. المساجد:

كان شديد الإيمان بدور رسالة المسجد التعليمية والتكوينية، فقال رحمه الله مؤسساً للدروس العلمية للمسجد: المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبي (ص) يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتبط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما أنه لا مسجد بدون صلاة، فكذلك لا مسجد بدون تعليم[1].

وكان مُلحّاً في الدعوة إلى بث التعليم المسجدي فقال: ثم لا بد مع هذا من حث كل شعبة من شعب الجمعية على ترسيم مدرس للتعليم في مساجدهم إن كان لهم مسجد، ثم تسعى الجمعية لدى الحكومة لترسم في كل مسجد من المساجد التي تنظرها مدرساً فقيهاً في الدين، ليعلم الناس ما يحتاجون إليه من أمر دينهم، فكلية تخرج المعلمين الدينيين، ومعلمون في المساجد التي تنظرها الحكومة والتي تنظرها الجماعات، تلك هي

(1) آثار ابن باديس (4 / 94).

الحالة التي يجب أن تكون عليها الأمة الجزائرية المسلمة لتبقى مسلمة[1].

واستطاع ابن باديس من خلال جمعية العلماء أن ينظم الجماهير وأن ترتبط بالمساجد، التي قامت بدورها التعليمي والتربوي والاجتماعي والسياسي، وساهمت في تحقيق الهدف الكبير في القضاء على الاستعمار، فالإدارة والتخطيط والتنظيم والقيادة كانت حاضرة بقوة في المؤسسات المسجدية.

. المدارس الحرة:

اعتنى ابن باديس بالمدارس الحرَّة، فحث الشعب وشجعه على التنافس في بنائها، لأنها مصدر الحياة الأبية الكريمة، فقد قال: إن الحياة تبعث من المدارس، فيجب أن تكون المدارس أول ما نهتم به ونسعى لتحقيقه، وكل من يعارض في تأسيسها فقد عارض في حياة الأمة ونهضتها[2]

فكانت المدارس الحرَّة التي ساهم ابن باديس مع شعبه في تأسيسها من وسائل الصراع مع الاستعمار، لأنه من خلال التعليم ينتشر الوعي الوطني، كما أن المناهج التي وضعها ابن باديس تخدم مشروع الشعب الجزائري في التخلص من الاستعمار ومساعدة الشعب في تحقيق اماله وطموحاته.

ولقد أدرك الاستعمار ودهاقنته خطورة ما تقوم به المدارس الحرة من دور خطير، فهذا أحدهم يقول: إن العلماء كانوا يمثلون أكبر الخطر على الفكرة الفرنسية في الجزائر، فشعب مدارسهم عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه مدرسة حقيقية للوطنية[3].

. الصحافة المجلات والجرائد:

فقد استخدمها ابن باديس في الإصلاح الديني وحرب البدع والضلالات، وأدَّت (المنتقد) دوراً كبيراً في إيقاظ الوعي الوطني والإصلاح الاجتماعي والديني والقضاء على الجمود الفكري ومحاربة الخرافات، فقد كانت

---

(1) المصدر نفسه (4 / 97).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 262.

(3) الحركة الوطنية (3 / 10).

المجلات والجرائد التي أنشأها العلاَّمة ابن باديس، قد ساهمت في تحولات في تاريخ الحركة الفكرية والأدبية في الجزائر، وكانت مجلات وجرائد ابن باديس وجمعية العلماء تشتهر بسلاسة الأسلوب ومتانة اللغة وعمق الأفكار، فقد استطاع ابن باديس أن يضم إليه خيرة الأقلام[1].

وقد وصف الشيخ العربي التبسي جريدة الشهاب فقال:

وجريدة الشهاب مدرسة شعبية عصرية على أحدث نظام وأشهر أسلوب، فيها تلتقي الديانة الإسلامية بالمدنية الصحيحة العصرية، لا تفتأ تهدي إلى قرائها من مختلف العلوم وضروب المعارف ما تقر به العين وتحسد عليه الجزائر، وجريدة الشهاب شعبة من شعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللذين هما ملاك صلاح الدين[2].

. النوادي:

لم يغفل الشيخ ابن باديس النوادي، وتواصل مع جمهورها، والنادي عبارة عن قاعة للاحتفالات، وقاعة للصلاة، ومحل لبيع المشروبات الحلال، يلتقي فيه الناس، ويتبادلون الأفكار ويطرحون قضاياهم وانشغالاتهم، وكانت تبرمج فيه المحاضرات واللقاءات في حوارات مفتوحة مع بعض رجال الفكر والسياسة، وقد كان لهذه النوادي دور هام في ترقية الوعي الديني والسياسي بما كانت تقدمه من نشاطات ثقافية وفنية:

المحاضرات الاجتماعات للطلبة والشبيبة، التمثيليات والمسرحيات بمناسبة الأعياد الدينية الإسلامية.

كما قامت بدور مدعّم للمدارس الحرة من خلال الإعانات التي كانت تقدمها لها من الأرباح التي كانت تكسبها من بيعها للمشروبات الحلال، وهذا ما يفسر تبرم الاستعمار من هذه النوادي، فأصدر مرسوماً بتاريخ 13 جانفي 1938م حظر فيه بيع المشروبات الحلال في هاته النوادي، بل وسعى جاهداً من

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 263.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 264.

أجل إغلاقها، والحيلولة دون أن يستفيد الناس مما كانت توفره من تهذيب وتثقيف، وتوعية... فقال: فصدر قانون النوادي الذي يرمي إلى إخلائها وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم بعد ما حرموا منه في مساجدهم[1].

. الرحلات:

ومن جملة ما عوّل عليه الشيخ عبد الحميد بن باديس للتواصل مع فئات عريضة من الشعب، القيام برحلات عديدة إلى أنحاء القطر الجزائري.

وكان في كل رحلة يحرص على إلقاء درس عام في الوعظ والإرشاد في مسجد المدينة التي يحل بها، ويشرح فيه مبادئ دعوته ويبسطها ويستدل لها من الكتاب والسنة، كما يدفع عنها الشبهات التي يثيرها خصومه عن دعوته حتى يحولوا بينها وبين عموم الشعب. كما كان يحرص على زيارة رجال العلم والفكر وشيوخ الزوايا، ويجتهد معهم على تقريب الشقة وإزالة أسباب الخلاف ما أمكن، والتعاون فيما هو محل اتفاق بين الجميع وهكذا.

ولقد أخبر ابن باديس عن محتوى مجالسه هذه بالقول: ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله (ص)، ورفع الأمية والجدّ في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد، وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم[2].

ومن السنن المهمة التي تعامل معها عبد الحميد بن باديس: سنة المرحلية والتدرج، ذلك أن المشروع الذي نذر له الشيخ حياته هو تحطيم المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر، وهذا المشروع ضخم يتطلب جهوداً دؤوبة متواصلة، تكون بمثابة حلقات متسلسلة، تمثل كل حلقة مرحلة معينة، وهذه المراحل يجب أن تكون مشدودة إلى بعضها البعض، بحيث تكون المرحلة السابقة ممهدة للاّحقة، واللاحقة مكملة للسابقة.

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 264.

(2) آثار ابن باديس (4 / 225)، الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 265.

يقول الدكتور محمود قاسم في كتابه الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير، ولقد وضع ابن باديس خطته علىأساس مبتكر، يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر، ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان، فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحَّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى[1].

إذا كانت المرحلة الأولى مرحلة تقويض الأسس ونقض الأركان التي كان يرتكز عليها الاستعمار، لتجسيد مشاريعه وتحقيق أهدافه، وفي مقدمة هذه الأسس الطرقية التي كانت تخدر عقول الجماهير وتميت نفوسهم، بما تشيعه في أوساطهم من بدع وأضاليل، فكان من المنطقي أن يتوجه التفكير إلى وجوب البدء بمحاربة هذا الاستعمار الروحاني ؛ لأن إدراك المرحلة ومتطلباتها، ومن أين يكون البدء، ولماذا؟ من أهم الأسئلة التي يجلب على المصلح الحصيف أن يجيب عنها.

ولقد حدث الشيخ البشير الإبراهيمي، أنه والشيخ عبد الحميد بن باديس كانا قد اتفقا منذ لقائهما المبارك عام 1913م بالمدينة المنورة على هذا البدء، ذلك أنهما وبعد تقليب الأوضاع وطول المشاورة انتهيا إلى أن البلاء المنصب على هذا الشعب المسكين آتٍ من جهتين متعاونتين عليه، أو بعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويفسدان دينه ودنياه، استعماري مادي هو الاستعمار الفرنسي، واستعمار روحي يمثله مشايخ الطرق المؤثِّرون في الشعب والمتخفون في جميع أوساطه والمتَّجرون باسم الدين والمتعاونون مع الاستعمار عن رضا وطواعية .. والاستعماران متعاضدان يؤيد أحدهما الاخر بكل قوته، وغرضهما معاً تجهيل الأمة لئلا تفيق بالعلم، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة، وإذن فلقد كان من سداد الرأي أن يبدأ «العلماء الجزائريون» بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون[2].

---

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس، د. محمود قاسم ص 15

(2) آثار الإمام الإبراهيمي (5 / 283).

وكان ابن باديس يعطي كل مرحلة حقها ولا يتطلب منها فوق طاقتها، إيماناً منه بأنه من السنن الكونية النافذة سنة المرحلية والتدرج، وإن العمل الجماعي كان هاجساً بالنسبة إليه، ومع ذلك لم يسارع إلى تأسيس جمعية العلماء حتى وفرَّ لها كل أسباب النجاح وعدم الانتكاس، من جيوش جرَّارة من تلاميذه الذين كان يخرّج منهم سنوياً المئات مُسلحين بالعلم الصحيح، والخلق القويم، ويجيوش جرَّارة من الجمهور على استعداد للدفاع عن الجمعية والتضحية عن مبادئها، بما كان يبث فيهم من وعي في دروس الوعظ في المساجد والمحاضرات في النوادي والمقالات في الصحف، وعودة كثير من طلاب العلم الذين توجهوا إلى المشرق العربي لمزيد من التحصيل العلمي والتكوين المعرفي. ولما توفرت دواعي التأسيس وتحققت أسبابه كاملة تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، فهل غيّر ابن باديس خطته في العمل؟.

كلا لقد ظل الشيخ ابن باديس مؤمناً بالمرحلية والتدرج، لأنها سنة كونية لا تتخلف، وفريضة شرعية مأمور بها، فها هو الشيخ يحدثنا في خطاب له بعد خمس سنوات من تأسيس الجمعية وعملها في الميدان ؛ يُفصِح عن هذا الفكر الواعي الذي يقرئها فيقول: فالجمعية قد جرت على سنة الله في تطور الكائنات، وكان من أطوارها طور للتمهيد، وطور لإزالة الأنقاض، وهي الان في طورها الثالث، وهو طور البناء والتشييد، ولكل طور حُكمه وحكمته وظروفه وأسبابه ومقتضياته، كما كان لجرائدها السابقة (السنة) فـ (الشريعة) و(الصراط) حظ من هذا التطور، فقد كانت أسماء جرائدها رموزاً لأطوارها.. إن حركة الإصلاح قد فرغ من وسائلها وإعداد أذهان العامة والخاصة لقبولها، ولم يبق إلا الاستقلال بالمقاصد العملية وأهمها بيان الحقائق العلمية والدينية بالدروس والمحاضرات والكتابة[1].

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (5 / 283).

وإدراكاً من الشيخ ابن باديس، أنه لكل مرحلة من المراحل خصوصيتها أو تحديداتها التي قد تصل إلى حد شل النشاط الحركي بالمرَّة، فإنه رفع شعاراً عظيماً وهو: تستطيع الظروف تكييفنا، ولا تستطيع ـ بإذن الله ـ إتلافنا[1].

وإن العمل المنجز مهما كان كبيراً، ومؤثراً ومنتجاً، فلا بد من التفكير الجاد في الخطوات الموالية، والمراحل اللاحقة، فها هو الشيخ يرفع صوته عالياً، مخاطباً الجموع الحاشدة التي جاءت من كل صوب وحدب للاستماع إلى النتائج التي عاد بها الوفد من الدوائر الفرنسية: أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم، كلمته من كلمة الله، وإرادته من إرادة الله، وقوته من قوة الله، أو لست منذ أشهر كونت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالاً وروعة، وكونت هذا الوفد الكريم فحمَّلته مطالبك، فاضطلع بها وأدى الأمانة.. وفداً متحداً متعاوناً متسانداً زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف فعرفك إليها ورفع صوتك؟

أيها الشعب، إنك بعلمك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية، وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها. واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة، ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الممات[2].

كان ابن باديس مستوعباً لسنة التدرج والمرحلية، ونرى ذلك في المراحل التي قطعها على مدار سبع وعشرين سنة، فقد كان بصدد إعداد بناء يستغرق إنجازه وقتاً، ومراحل تكون اخرها الوصول إلى انتزاع الاستقلال الوطني، واسترجاع السيادة الوطنية، وهذا ما أوضحه بقوة عندما قال لجمهرة من الشباب الجزائري المتحمس للقتال ذات يوم من عام 1933م: إن من أراد أن يبني داره، فعليه أن يبني الأسس والجدران أولاً، ثم

(1) الشهاب، فيفري 1929.

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 259.

يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة ؛ فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف[1].

وفي معرض رد ابن باديس على مصالي الحاج الذي كان يطالب بالاستقلال ؛ بين له الشيخ أن الهدف الاستراتيجي لحركته النهضوية هو تحقيق الاستقلال الكامل والشامل، فقال له: وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل أن يتركه بدون سقف؟ وما غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[2].

وعلى هذا الأساس فقد وضعت حركة ابن باديس الإسفين الأول في نعش الاستعمار ما بين الحربين العالميتين، إن ابن باديس اتجه ابتداء إلى التربية والتعليم، وتكوين جيل النصر المنشود، في الكتاتيب القرآنية والمساجد والمدارس والنوادي، ومن خلال الصحف والمجلات، لأنه كان يعلم: أن هذا الميدان هو الذي يكوّن الثورة[3]. بحكم أنه كان يقول بصريح العبارة: أنا أحارب الاستعمار لأني أُعلِّم وأُهذِّب، ومتى انتشر التعليم والتهذيب في أرض ؛ أجدبت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير[4].

ويؤكد الشيخ أحمد سحنون: أنه لولا جمعية العلماء لما كانت الثورة، فهي التي كانت تشكل المرحلة الإعدادية للثورة، حزب الشعب مثلاً كان يبحث عن الغاية فقط دون السؤال عن الوسيلة، في حين أن الجمعية كانت تتخذ من الوسيلة، مطية للوصول إلى الهدف[5].

فثورة الفاتح من تشرين الثاني التحريرية من عام 1954م جاءت وقد وجدت الجيل المؤهل للقيام بها وخوض غمارها، معدّاً كامل الإعداد. ولم يكن ثوار الجزائر إلا أبناء هذا الجيل الذي ربته مدارس جمعية

---

(1) مذكرات محمد خير (1 / 384).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 89).

(3) جهاد ابن باديس ص 257.

(4) المصدر نفسه ص 257.

(5) حوار، جريدة الحقيقة، أحمد سحنون (3 / 4).

العلماء ونواديها في الجزائر وفي فرنسا، ولم تكن الثورة التحريرية نفسها إلا جزءاً من الخطة العامة الواسعة التي رسمت خطوطها تلك العقول الكبيرة التي أسست هذه الجمعية، وليس أعظم ثوار الجزائر بطولة إلا تلاميذ بررة لجمعية العلماء ومنفذين مخلصين لخطتها الحكيمة.

إن ابن باديس يعتبر بحق محيي شعب، وباعث حضارة إلى الوجود، ومعلم أجيال وحامي حمى الدين واللغة والوطن في أرض الجزائر كما يعد القائد الحقيقي والأب الروحي لتلك الثورة المجيدة ثورة تشرين الثاني 1954 الخالدة(1).

إن ابن باديس أدمن تدريس السيرة النبوية والسنة واستلهم من هدي النبوة سنة التدرج والمرحلية، فقد راعت الشريعة الإسلامية سنة التدرج بما تشرعه لهم، من واجب أو محرم، فنجد حين فرض الفرائض كالصلاة، والصيام والزكاة فرضها على مراحل ودرجات، حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة، فالصلاة فرضت أول ما فرضت ركعتين ركعتين، ثم أقرَّت في السفر على هذا العدد وزيدت في الحضر إلى أربع، أعني الظهر والعصر، والعشاء.

والصيام فرض أولاً على التخيير، ومن شاء صام، ومن شاء أفطر وفدى، أي: أطعم مسكيناً على كل يوم يفطره، كما روى ذلك البخاري عن سلمة بن الأكوع تفسيراً لقوله تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ} [البقرة : 184]، ثم أصبح الصيام فرضاً لازماً لكل صحيح مقيم لا عذر له: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : 185].

والزكاة فرضت أولاً بمكة مطلقة غير محددة، ولا مقيدة بنصاب، ومقادير وحول، بل تركت لضمائر المؤمنين وحاجات الجماعة والأفراد، حتى فرضت الزكاة ذات النصب والمقادير في المدينة.

والمحرمات كذلك، لم يأت تحريمها دفعة واحدة، فقد علم الله سبحانه مدى سلطانها على الأنفس، وتغلغلها في الحياة، سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات، فليس من الحكمة منع الناس عنها بأمر مباشر

(1) جهاد ابن باديس ص 258.

يصدر لهم، إنما الحكمة إعدادهم ذهنياً وعقلياً ونفسياً لتقبلها وأخذهم بسنة التدرج في تحريمها كالخمر والربا، حتى الأمر الناهي عن الفعل، فكانوا مسرعين في تنفيذه قائلين: سمعنا وأطعنا[1].

كما أن سنة التدرج ظهرت في سيرة النبي (ص) في الدعوة السرية والجهرية وفي الانتقال إلى المدينة وبناء الدولة، فقد تقابل رسول الله (ص) مع طلائع الأنصار الأولى ولم يفعل سوى ترغيبهم في الإسلام، وتلاوة القرآن عليهم، فلمَّا جاؤوا في العام التالي، بايعهم بيعة النِّساء على العبادات، والأخلاق، والفضائل، فلمَّا جاؤوا في العام التالي، كانت بيعة العقبة الثانية على الجهاد والنّصرة والإيواء.

وجدير بالملاحظة: أن بيعة الحرب لم تتمَّ إلا بعد عامين كاملين، أي بعد تأهيل، وإعداد استمرَّ عامين كاملين، وهكذا تمَّ الأمر على تدرُّج ينسجم مع المنهج التربوي الذي نهجت عليه الدعوة من أوَّل يوم[2].

4 . سنة الابتلاء:

مرَّ العلاَّمة ابن باديس وجمعية العلماء والشعب الجزائري بألوان من الابتلاءات والامتحانات العظيمة، فقد تعرَّضوا للتضييق في المعاش، وسفكت الدماء، وصودرت الأموال والممتلكات وأدخل السجونَ الأحرارُ المطالبون بحقوقهم الطبيعية في الحياة، وعملت السلطات الفرنسية على التضييق على المساجد والمدارس والجمعيات والنوادي، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا، وإنما استمروا في الكفاح والنضال المشروع.

وقد تعرَّض ابن باديس على المستوى الشخصي لابتلاء في الولد والنفس والأذية المعنوية والمادية، ووصل الأمر إلى محاولة اغتيال الإمام عبد الحميد ابن باديس ذات مساء من يوم 9 جمادى الثانية 1345هـ . 14

(1) الوسطية في القرآن الكريم، د. علي الصلابي ص 496.

(2) السيرة النبوية، للصلاَّبي ص 395، 396.

ديسمبر 1926م، بعد قيامه لصلاة العشاء وفراغه من درسه اليومي بالجامع الأخضر وخروجه منه قاصداً بيته، وكانت عناية الله تحرسه فنجا من تلك المكيدة بمزيد من العناية الإلهية(1).

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: فقد تامر العلويون على اغتياله حيث ثقلت عليهم وطأة الحق الذي كان يقوله ولازال يقوله فيهم وفي أمثالهم، وانتدب أشقاها لقتله في قسنطينة وضربه الضربة القاضية لولا وقاية الله ولطفه، ففي ذلك المشهد الذي تطيش فيه الألباب وتتفشى فيه روح الانتقام قوى الله الأستاذ . وهو أعزل . فأمسك خصمه الفاتك المسلَّح ولبَّبه بثيابه، ثم تجلَّى على قلبه المطمئن بالرحمة فقال . وجرحه يثغب دماً . للجمهور المتألِّب المتعطش لدم الجاني: إياكم أن يمسَّه أحد منكم بسوء حتى تسلموه للمحافظة.

ولولا هذه الكلمة لقطعوا الجاني إرباً إرباً، وقد خلد هذه الحادثة شاعر الجزائر الأستاذ محمد العيد في قصيدة يقول فيها:

وكادت يد الجاني المسَخَّرِ تعتلي   يد الشيخ لولا الله أدركه لولا

وإن أنسى لا أنسى الذين تضَافروا   على الفتك بالجاني فقلت لهم مهلا

إن معاملة الأستاذ الرئيس للجاني عليه بالرحمة والاستبقاء، وإطفاءه لثائرة تلك القلوب التي كانت تغلي حقداً عليه بتلك الجملة الرحيمة ؛ لنفحة من نفحات الأخلاق النبوية التي يدعو الأستاذ ورفاقه إليها، وأساس من الأسس التي بنت عليها جمعية العلماء دعوتها، ومثل شرود في الرفق والرحمة والسلام، وحجة قاطعة لألسنة المتقولين على هذه الجمعية والرامين لها بالسوء(2).

وعندما انتشر خبر محاولة الاغتيال، تهاطلت على الإدارة البرقيات والكتب من جميع جهات القطر ومن تونس الشقيقة، بالتهنئة بسلامة الأستاذ والاستياء من توحش الجاني العلوي، مثلما تواردت وفود القسنطينيين من جميع طبقاتهم على داره، فكان رده في مجلة الشهاب ما يلي:

---

(1) سنن مشروع النهضة عند ابن باديس (1 / 100).

(2) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1 / 269).

إنني أشكر الشكر الجمّ الأمة الجزائرية جمعاء على ما أظهرته من العطف والشعور نحو شخصي الضعيف، بما رأيت من القسنطينيين كلهم، وما تلقيته من الكتب والبرقيات من جميع الجهات، وأشكر كذلك الأمة التونسية العزيزة التي لا يفصلنا عنها غير الاعتبارات السياسية من فاصل في الوجود.

إنني ـ وايم الله ـ لأرى نفسي أحقر وأقل من هذا الاعتناء، ولكنني أسرّ وأبتهج عندما أعلم أن هذا الشعور العام دليل على ما في قلوب المسلمين من المكانة العظيمة لكلمة الحق وكلمة الدين، اللذين ما أوذيت إلا في سبيلها من طائفة تدعي الخصوصية في الإسلام، وتبعث أتباعها يسطون على الأبرياء بالظلم والعدوان.

فهذا العاجز يكرر شكره بلسان الحق والدين لأهل هذا الشعور الطاهر الشريف، سائلاً من الله تعالى أن يزيده رسوخاً في قلوبهم على مدى الأيام[1].

إن الابتلاء ـ بصفة عامة ـ سنَّة الله في خلقه، وهذا واضح في حركة التاريخ وتقريرات القرآن الكريم، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا *} [الإنسان : 2].

كما أن طريق الابتلاء سنة الله في الدعوات، كما أنه الطريق إلى الجنة، وقد: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»[2].

وقد جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس ومعرفة المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وذلك لأنَّ المرء قد لا يتبيَّن في الرخاء، لكن يتبين في الشدة قال تعالى: {أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ *} [العنكبوت : 2].

---

(1) آثار ابن باديس (3 / 425).

(2) مسلم رقم 2822.

خامساً: الفقه المالكي عند ابن باديس بين التعصب المذهبي والتحرر الفكري:

1. المنهج التربوي التفقيهي عند الإمام عبد الحميد بن باديس:

إن الشيخ عبد الحميد بن باديس جعل من مادة الفقه مادة أساسية في دروسه العلمية، ولكي نتعرف على المرجعية الفقهية عنده فلا بد من إلقاء نظرة على الكتب التي كان يدرِّسها الشيخ عبد الحميد بن باديس لطلابه ويستقي منها مادته الفقهية في التدريس، لقد نشر الشيخ عبد الحميد بن باديس في التقرير السالف الذكر عناوين الكتب المدروسة، فذكر: الموطأ، أقرب المسالك، الرسالة، ابن عاشر، البرذوي، المفتاح، التنقيح، السلَّم، المكودي، القطر، الأجرومية[1].

وبالإضافة إلى هذه الكتب ذكر الشيخ عبد الحميد بن باديس كتاباً آخر مهماً وهو كتاب بداية المجتهد ونهاية المقتصد، للفقيه المالكي الكبير أبي الوليد ابن رشد (595هـ)، وذلك في التقرير الذي وافى به علماء الزيتونة الكرام وأعضاء لجنتها الموقرين الذين انتدبوا للقيام بإصلاح التعليم في الجامع المعمور[2].

لقد اعتمد ابن باديس في تكوين طلابه فقهياً المذهب المالكي السائد في شتى أقطار الشمال الأفريقي، وهذه المدونات الفقهية هي الموطأ، ومختصر خليل، أقرب المسالك، الرِّسالة، متن ابن عاشر، وغيرها.

أ. موطأ الإمام مالك بن أنس الأصبحي توفي عام (179هـ):

وهو كتاب جليل، حافل بالأحاديث الصحيحة، المرفوعة، والموقوفة والمقطوعة، وكذا المراسيل والبلاغيات وفيه عدد هائل من فتاوى الصحابة والتابعين، وما صح عند مالك من عمل أهل المدينة، وكذا اجتهادات مالك رحمه الله واختياراته الفقهية، فهو كتاب جامع بين الفقه والحديث، وهذا الكتاب عمدة المالكية الأوَّل،

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 100).

(2) المصدر نفسه (4 / 75).

لذا كثر اهتمامهم به وأفردوا له عدة شروح، وفي هذا الإطار، اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بالموطأ، فقرر على طلاَّبه دراسة هذا الكتاب والتفقه فيه، لأنه في نظره يمثل المنهج الأمثل في صنع الملكة الفقهية، وهو التفقه في نصوص الكتاب والسنة، والتعرف على ملاحظة الأئمة في الاستنباط من النصوص، وحسن الاستدلال، فقال ـ رحمه الله ـ: وإذا رجعت إلى موطأ مالك سيد أتباع التابعين، فإنك تجده في بيان الدين قد بنى أمره على الآيات القرانية، وما صح عنده من قول النبي (ص) وفعله، وما كان من عمل أصحابه الذي يؤخذ منه ما استقر عليه الحال آخر حياته، لأنهم كانوا يأخذون بالأحدث، فالأحدث من أمره، وكذلك إذا رجعت إلى كتاب الأم لتلميذ مالك الإمام الشافعي، فإنك تجده قد بنى فقهه على الكتاب وما ثبت عنده من السنَّة[1].

وقد بينا أن الشيخ عبد الحميد بن باديس درَّس موطأ الإمام مالك رحمه الله وختمه لطلابه في الجامع الأخضر وأقيم حفل بهذه المناسبة.

ب ـ مختصر خليل وشرحه:

وثاني الكتب التي قرَّرها الشيخ عبد الحميد بن باديس مصادر لطلابه ينهلون منها مادتهم الفقهية، فهو كتاب مختصر خليل لصاحبه خليل بن إسحاق المتوفى (776هـ)، وهو كتاب طبقت شهرته الافاق، وأقبل عليه العلماء وطلبة العلم حفظاً وفهماً ومدارسة، وشرحاً وتعليقاً، إقبالاً منقطع النظير، لأن صاحبه قد اجتهد فيه في جمع أمهات مسائل الفقه المالكي، بل خلاصة الفقه المالكي وما عليه المعوَّل في الفتوى في المذهب، ولذلك قال رحمه الله في مقدمة المختصر: وبعد، فقد سألني جماعة أبان الله لي ولهم معالم التحقيق، وسلك بنا وبهم أنفع طريق، مختصراً على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى مبيناً لما به الفتوى، فأجبت سؤالهم بعد الاستخارة، مشيراً بـ «فيها» للمدونة وبـ «أوَّل» إلى اختلاف شارحيها في فهمها، وبـ «الاختيار» للّخمي،

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 75).

لكن إن كان بصيغة الفعل فذلك لاختياره هو نفسه، وبالاسم فذلك لاختياره من الخلاف، وبالترجيح لابن يونس كذلك، وبالظهور لابن رشد كذلك، وبالقول للمازري كذلك وحيث قلت خلاف فذلك الاختلاف في التشهير وحيث ذكرت قولين أو أقوالاً فذلك لعدم اطلاعي في الفرع على أرجحية منصوصة[1]، ولما كان لخليل شروح متعددة فإن الشيخ قد اختار شرحاً مختصراً هو «أقرب المسالك»[2].

ج. رسالة ابن أبي زيد القيرواني (386هـ):

وأما الكتاب الثالث الذي قرره الشيخ عبد الحميد بن باديس على طلاَّبه ينهلون منه مادتهم الفقهية كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني المتوفي (386هـ) وهو كتاب جليل الفائدة الفقهية، كثير النفع، تميز بمكانة خاصة بين كتب المذهب، إذ أقبل عليه الجمع الغفير من العلماء بالشرح والتدريس ما لم يعرف لكتاب اخر. قال الشيخ أحمد زرُّوق في مقدمة شرحه على الرِّسالة: إن رسالة ابن أبي زيد شهيرة المناقب والفضائل، عزيزة النفع في الفقه والمسائل، من حيث أنها مدخل جامع للأبواب، قريبة المرام في الكتب والحفظ والاكتساب، وقد اعتنى بها الأوائل والأواخر، وانتفع بها أهل الباطن والظاهر، وحتى صارت بحيث يهتدي بها الطالب المبتدأئ ولا يستغنى عنها الراغب المبتدأئ، ولم يزل الناس يشرحونها على مرَّ السنين والدهور، والعلماء يتداولونها ويتناولون ما فيها من الأمور، نحو من خمسمائة سنة، ولم تنقص لها حرمة، ولا طعن فيها علم معتبر في الأمة، مع ما فيها من عظيم الشكال، ودواعي الارتكاز من الحساد والأشكال، وهذه كرامة من الله لا تنال بالأسباب[3].

د. متن ابن عاشر وشروحه:

ومن الكتب الهامة التي برمجها ابن باديس رحمه الله وقررها على طلاَّبه متن ابن عاشر وهو نظم للعلامة

(1) تسهيل المعاني وأدلة خليل (1 / 16).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 149.

(3) شرح زروق على الرسالة (1 / 2).

عبد الواحد بن عاشر، كثير الفوائد والتحقيقات، قال عن قيمته العلمية العلاّمة محمد بن أحمد ميارة المالكي في مقدمة شرحه لهذا النَّظم: هذه المنظومة العديمة المثال في الاختصار وكثرة الفوائد والتحقيق، وحاذا مختصر خليل، والجمع بين أصول الدين وفروعه، بحيث أنَّ من قرأها وفهم مسائلها خرج قطعاً من ربقة التقليد المختلف في صحة إيمان صاحبه وأدى ما أوجب الله عليه تعلمه الواجب على الأعيان[1].

2. وجوب التفقه في الكتاب والسنة:

إن كل إمام من أئمة الفقه والاجتهاد إنما كان ينطلق من نصوص الكتاب والسنة، في استنباط الأحكام الفرعية، ولكن الذي وحّد عليه ابن باديس الدرس الفقهي في شتى المدارس، وحتى الجامعات هو الاحتفاء بالفروع الفقهية، وحفظها مفصولة عن أدلتها من الكتاب والسنة، فأعلن عن تبرمه ورفضه لهذا الواقع التعليمي المشين فقال: هذا هو التعليم الديني السلفي وأين منه تعليمنا؟

نحن اليوم وقبل اليوم منذ قرون وقرون فقد حصلنا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة ونحن لم ندرس آية واحدة من كتاب الله، ولم يكن عندنا أي شوق أو أدنى رغبة في ذلك، ومن أين يكون لنا هذا ونحن لم نسمع من شيوخنا يوماً منزلة القرآن من تعلم الدين والتفقه فيه ولا منزلة السنة النبوية من ذلك، هذا في جامع الزيتونة، فدع عنك الحديث عمَّا دونه بعديد المراحل[2].

وكان الشيخ ابن باديس مدركاً لصعوبة التغيير، بل ومقدراً لمخاطره، ولكنه مع ذلك اقتحم هذا الميدان، وكله أصرار وعزم على العودة في دراسة الفقه إلى طريق السلف المتقدمين، الذين كانوا يربطون الأقوال بأدلَّتها فقال رحمه الله: فإذا كان الحال هكذا من تلك الأيام في تلك الدِّيار، وقد مضت عليه القرون في هذه البلاد وغيرها ، فإن قلعه عسير والرجوع بالتعليم إلى التفقه في الكتاب والسنة، وربط الفروع بالمآخذ والأدلة أعسر

---

(1) الدر الثمين والمورد المعين، شرح ابن عاشر لميارة ص 4.

(2) آثار ابن باديس (4 / 76).

وأعسر، غير أن ذلك لا يمنعنا من السعي والعمل لصدق الرجاء وقوة الأمل، وسننفذه في دروسنا هذا العام والله المستعان[1].

3. مراعاة المستوى والدعوة للتخصص:

قسَّم ابن باديس طلبته إلى أربع طبقات، فرسالة ابن عاشر، يناسب الطلبة المبتدئين، إذ يقول عنه ناظمه في نظم أبيات للأمي تفيد رسالة أبي زيد القيرواني أرفع مستوى إذ اجتهد صاحبها في تقديم ملخَّص واف عن المذهب المالكي، وأرجح الأقوالَ فيه مركزاً على البعد العملي، وأما مختصر خليل بشروحه المتعددة فهو خلاصة الفقه المالكي، وما هو عليه المعوّل في الفتوى في المذهب، وهكذا نجد العلامة ابن باديس يؤمن بمبدأ التدرج في التعليم، والبدء بالسهل واستيعابه للوصول إلى الصَّعب الغامض وفهمه، وهو أمر كان قد تنبَّه إليه العلامة عبد الرحمن بن خلدون، فقال في مقدِّمته مبيناً أهمية التدرُّج في تلقي المعارف: فاعلم أنَّ تلقين العلوم للمتعلمين يكون مفيداً لو تمَّ ذلك بالتدرُّج شيئاً فشيئاً قليلاً قليلاً، فيلقى على المتعلم مسائل من كل باب من الفن هي أصول ذلك الباب[2].

وفي المقترح الذي تقدَّم به الشيخ عبد الحميد بن باديس لإصلاح التعليم في جامع الزيتونة المعمور، راعى كثيراً مسألة التدرج في التعليم، حين قسم الدراسة في الكلية إلى مرحلتين أساسيتين، مرحلة المشاركة إلى وجوب الاقتصار في تدريس الفقه، على تقرير المسائل دون تشعباتها، ثم يترقى إلى تطبيقها على المسائل الفقهية ليتحصل من هذا ومن ذكر أدلة المسائل الفقهية كما تقدم ملكة النظر والاستدلال، وأما مرحلة التخصص، فالطلبة الذين يخصَّصون في القضاء والفتوى، فيتوسع لهم في فقه المذهب، ثم في الفقه العام، ويكون بداية المجتهد من الكتب التي يدرسونها، ويدرسون آيات وأحاديث الأحكام، ويدرسون علم التوثيق، ويتوسعون في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى

---

(1) المصدر نفسه (4 / 70).

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 100).

الدنيا من مراة الإسلام الواسعة لا من عين المذاهب الضيقة[1].

4 . الاهتمام بعلم أصول الفقه:

وممَّا يشحذ الملكة الفقهية، وينمي قوة الاستيعاب لأقوال الفقهاء، ومعرفة كيفية استدلالهم لها من الكتاب والسنة وغيرها من الأدلة الإجمالية، علم أصول الفقه، ولذا اهتم الشيخ عبد الحميد بن باديس بهذا العلم وقرّره على طلابه، واختار كتاب أبي عبد الله الشريف التلمساني المتوفي (771هـ) المسمَّى «مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول» وهو كتاب بعيد عن تقرير القواعد الأصولية نظرية مجرَّدة، بل هو كتاب عملي عمد صاحبه إلى تخريج الفروع على الأصول، فيتمكن الدَّارس للكتاب، المستوعب له من الاطلاع الواسع على أقوال أئمة المذاهب وكيفية استدلالهم لأقوالهم الفقهية، فيأخذ حظاً وافراً من اختلافات الفقهاء، ويعرف أسباب اختلافهم ويدرك الراجح من أقوالهم، فينشأ بعيداً عن التعصب المذهبي الضيق ؛ لأن القول الراجح لا يكون بالضرورة إلى جانب مذهبه بالضرورة[2].

5 . مؤهلات المفتي عند الشيخ عبد الحميد بن باديس:

الفتوى منصب خطير، وخطة جليلة القدر، ذلك أن المفتي يوقع عن الله عز وجل ويبلّغ أحكامه، ولذلك اشترط العلماء فيمن يتصدَّى لهذا المنصب الخطر جملة من الشروط وهي في الجملة الاستبحار في علوم الشريعة، علوم الالة وعلوم الغاية، وإدراك مقاصد التشريع وأسراره، والتضلع في علوم العربية والإحاطة بالواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي للمستفتين، بالإضافة إلى كون المفتي صالحاً متديناً، حسن

(1) المصدر نفسه (4 / 100).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 156.

السلوك، رضي السيرة، حتى تكون فتواه مقبولة عند المستفتين، يتعبدون الله عز وجل بها وهم كلهم ثقة وإطمئنان[1].

ولا يختلف اثنان في كون الشيخ عبد الحميد بن باديس، كان مستكملاً لأدوات الاجتهاد، فهو عالم بالكتاب والسنة، متبحر في الاطلاع على الفروع الفقهية وربطها بأصولها، متضلع في فنون العربية وادابها، خبير بالواقع الإسلامي، وتكفينا هنا شهادة رفيق دربه في الجهاد، وخليفته في رئاسة جمعية العلماء الإبراهيمي وهو أعرف الناس بابن باديس ومكانته العلمية المرموقة، وتميزه عن كثير من علماء العصر، فقال: وعبد الحميد بن باديس باني النهضة وإمامها، ومدرب جيوشها، عالم ديني ولكنَّه ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان النَّاصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقل اللمَّاح، والفهم الغوَّاص على دقائق القران، وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين، ومناشأئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العلميات والعمليات من فقه الإسلام، والإلمام بمعارف العصر مع التمييز بين ضارها ونافعها[2].

6 . الدعوة إلى تأصيل الفتوى وتعليها:

لقد دعا الشيخ عبد الحميد بن باديس المفتين إلى وجوب بيان الأدلة التي بنوا عليها فتاواهم من الكتاب والسنَّة، لأنَّ الله تعبد المسلمين بالنصوص، وذكرُها في نصِّ الفتوى يكسبها هيبة وجلالاً، ويجعلها أدعى للقبول عند المستفتي، وفي ذكر وجه الاستدلال منها عند الأئمة الأعلام الذين تواترت أدلتهم في تقريب المستفتين من العلم ودرجة النظر، فقال رحمه الله: ومما ينبغي لأهل العلم . أيضاً . إذا أفتوا أو أرشدوا أن يذكروا أدلّة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم، ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته،

(1) المصدر نفسه ص 157.

(2) آثار الإمام الإبراهيمي (2 / 196).

ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من قريب، ويكون لفتواهم ومواعظهم رسوخ في القلب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة ـ أيها العلماء ـ إن كنتم للخير تريدون[1].

وفي هذا الإطار علَّق الشيخ عبد الحميد بن باديس على فتاوى مجلَّة نور الإسلام التي كان يكتب فيها كبار علماء الأزهر الشريف، ومما أخذه على تلك الفتاوى أنها عارية عن الدليل من الكتاب والسنة، خالية من التأصيل بعيدة عن التقعيد، فقال رحمه الله: كنا ننتظر من مجلة يحررها كبار العلماء بالأزهر الشريف ؛ أن تأتينا في باب الفتاوى والأحكام منها بأدلة المسائل، والمستندات الأقوال مع إبدائها رأيها في الترجيح بالطرق المعتبرة عند أهله، وكنا ننتظر لذلك أنها لا ترجع في استدلالها إلا إلى الكتاب والسنة الثابتة، فكنا نخرج منها ـ لو كان ما انتظرناه ـ بمسائل محررة وأدلة معتبرة وأحاديث ثابتة، وفي ذلك زيادة على العلم الصحيح تُعيد لطريق النظر والاستدلال، وربط الأحكام بأدلتها وهو ما لا تزال معاهدها الدينية الكبرى في العالم محرومة منه إلى اليوم[2].

ومراد الشيخ عبد الحميد بن باديس من هذا النص هو تأصيل الفتوى وتعليلها، وليس مراده الاقتصار في الاستدلال على الكتاب والسنة وعدم الأخذ بالقياس والتعليل، كما هو شأن المذهب الظاهري، فالشيخ ابن باديس لم يكن ظاهرياً، بل كان يأخذ بالنصوص ومعقولاتها، من الإجماع والقياس والاستحسان، والأخذ بالمصالح والغوص في أسرار التشريع والبحث عن المقاصد، ولذلك أجاب الشيخ عبد الحميد عن السؤال الاتي وهو المجتهد: إذا أفتى مستنداً إلى ما يفيد الظن من أخبار الاحاد والأقيسة أو النصوص الأخرى الظنية الدَّلالة، هل هو متبع لغير العلم[3]؟

---

(1) مجالس التذكير ص 142.

(2) آثار الإمام ابن باديس (3 / 240).

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 159.

والجواب: لا بل هو متبع للعلم وذلك من ثلاثة وجوه، إن كل دليل يكون ظنياً بمفرده، يصير يقيناً إذا عرض على كليات الشرع ومقاصده وشهدت له بالصواب، وهذا شأن المجتهدين في الأدلة الفردية، إنَّ المجتهد يعتمد في الأخذ بالأدلة الظنية لما له من العلم بالأدلة الشرعية الداعية إلى اعتبارها.

إن تلك الأدلة بمفردها تفيد الظن القوي الذي يكون جزماً ويسمَّى كما تقدَّم علماً، فما اتبع المجتهد إلا العلم(1).

وهكذا يدعو الشيخ عبد الحميد بن باديس المفتي إلى تأصيل فتواه وتعليلها والاستدلال لها استدلالاً صحيحاً، سواء أكان الدليل نصاً من الكتاب أو السنة إن وجدا، أو إجماعاً متيقناً منقولاً، أو قياساً صحيحاً، أو مصلحة راجحة، أو مقصداً من مقاصد التشريع شهدت له الأدلة الإجمالية والنصوص القطعية، مما ينفي عن الشيخ تهمة الظاهرية التي حاول البعض إلصاقها به ظلماً وزوراً.

وبالإضافة إلى الدعوة إلى تأصيل الفتوى وتعليلها فإنَّ الشيخ ابن باديس، كان يدعو المفتين إلى تحرير الفتوى بعيداً عن أيِّ غموض يكتنفها، بما يجعلها واضحة عند المستفتين، أما أن يعمد المفتي إلى إيراد كل الأقوال المذكورة في المسألة دونما مناقشة لها، أو ترجيح بعضها فهو من إيقاع المستفتي في الخلط، والتشويش، وهو أمر منبوذ لأنه يؤدي إلى نتائج غير حميدة.

ولذلك قال معلقاً على فتوى أحد شيوخ الأزهر: لا والله ما مثل فضيلته مع سائله إلا مثل طبيب قدَّم لمريضه زجاجات من الأدوية والعقاقير منها السام القاتل، ومنها المسكِّن، ومنها المهيج، ومنها غير ذلك، ثم قال لذلك المريض ها أنا قدمت لك ما تداوى به أو ما يمكن أن تداوى به، ولك أيها المريض الرأي في اختيار ما شئت منها، ليس من غرضي أن أبين لك ما يصلح لمداواتك وما لا يصلح، وما هي حينئذ قيمة أمانة ذلك الطبيب ونصحه لمريضه؟ وأين هي ثمرة علمه؟ ومن العجيب أن يقول فضيلته ؛ بعد ما نقل أكثر من صفحة

(1) مجالس التذكير ص 142، 143.

من تلك الاحتمالات الواهية والأقوال المسمومة: ـ ولا داعي للاسترسال ـ وأي استرسال أكثر من هذا[1].

7. مناصرة المذهب:

لقد امتازت فتاوى الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ بأنها وفق المشهور، حريصاً على نبذ الأقوال الشاذة وعدم اعتمادها، ولذلك كان يقول ـ رحمه الله ـ: فخير لمن يريد السلامة بدينه أن يقتصر على المتفق عليه وحده أو مع إتيان المختلف فيه مع مبالغته في تحسين قصده وتمام تحرّيه[2].

ومن المسائل الدَّالة على انتصار الإمام عبد الحميد بن باديس لمذهب الإمام مالك، موقفه من مسألة الصلاة الوسطى وما هي؟ فعند تفسير قوله تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *} [الإسراء : 78]، تعرض إلى موضوع أفضلية الصلوات عن بعضها البعض، فكتب قائلاً: من تخصيص صلاة الفجر بجملة التذييل المؤكدة، وما اشتملت عليه من هذه المزية ؛ أخذ جماعة من أهل العلم أفضليتها على غيرها، فإن قلت صلاة العصر أيضاً لها مزية كما تقدم في حديث مالك.

قلت: إنَّ ثبوت هذه المزية للفجر قطعي بنص القرآن ومتفق عليه في روايات الحديث بخلاف العصر، فقد جاء في بعض الروايات دون بعض وتبقى صلاة الفجر ممتازة تخصيصها بالتأكيد في نصِّ الكتاب وكفى هذا مرجحاً لها[3].

وأوضح من هذا النَّص انتصار العلامة ابن باديس للرأي المشهور في مذهب مالك رحمه الله الذي يعتبر أن الصلاة الوسطى التي وردت النصوص الشرعية بالتأكيد على المحافظة عليها، كقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ *} [البقرة : 238]، بأنها هي صلاة الصبح، جاء في الرسالة

(1) آثار الإمام ابن باديس (3 / 241).
(2) المصدر نفسه (3 / 255).
(3) مجالس التذكير ص 175.

لابن أبي زيد القيرواني: أما صلاة الصُبح فهي الصلاة الوسطى عند أهل المدينة وهي صلاة الفجر[1].

لقد انتصر ابن باديس في هذه المسألة إلى الرأي المشهور في مذهب الإمام مالك واستدل بأدلة متنوعة، وعوَّل عليها إلا أنه كان له منزع آخر في الترجيح وهو إشارة القرآن الكريم إلى هذه الأفضلية لصلاة الصبح: {وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *}. ومن الأصول في مذهب مالك رحمه الله تقديم ظاهر القرآن على السنة عند التعارض لم تكن السنَّة متواترة أو معضدة بعمل أهل المدينة[2].

8 . ذم التعصب المذهبي:

بالرغم من اعتزاز الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ رحمه الله ـ بتمذهبه بالمذهب المالكي في الفروع ومناصرته له وإفتاؤه وفق المشهور من الأقوال فيه ؛ فإنه لم يكن متعصباً لا يرى الحق إلا في مذهبه، ولا يتصور الصواب مع غيره، بل كان ـ رحمه الله ـ يؤمن بأنَّ المذاهب الفقهية كلها مناهج اجتهادية صحيحة، إجتهد أصحابها في استنباط الأحكام الفرعية من نصوص الكتاب والسنة ومن العمل بمعقولها أو القياس عليها، فالاختلاف الفقهي في الأحكام الفرعية يمثل ثروة تشريعية تعتبر مبعثاً للافتخار والاعتزاز؛ لأنه في حقيقته ما هو إلا تعدد النظريات والمبادئ والطرائق الحقوقية في استمداد من التشريعات الأخرى، لذلك قال عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ الخليفة الراشد: ما أحب أنَّ أصحاب محمد (ص) لا يختلفون ؛ لأنه لو كان قولاً واحداً لكان الناس في ضيق، إنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ رجل بقول أحدهم لكان سُنَّة[3].

وكان ابن باديس يؤكد على وجوب الاطلاع الواسع على المذاهب وارائها بالنسبة لمن يتخصصون في الفتوى وفي القضاء الشرعي، فيقول: فيتوسع لهم في فقه المذهب ثم في الفقه العام، وتكون «بداية المجتهد» من

(1) حاشية العدوي (1 / 212).

(2) المدخل الفقهي العام، للشيخ د. مصطفى الزرقاء (1 / 212).

(3) الشيخ عبد الحميد السلفية والتجديد ص 172.

الكتب التي يدرسونها، ويدرسون علم التوثيق، ويتوسعون في علم الفرائض والحساب، ويطلعون على مدارك المذاهب حتى يكونوا فقهاء إسلاميين ينظرون إلى الدنيا من مراة الإسلام الواسعة، لا من عين المذهب الضيقة[1].

فالفقيه المعاصر يجب أن يستفيد من جميع المذاهب الفقهية، والمدارس الاجتهادية وألا يكون قد حرم نفسه، وبالتالي أمته، من خير كثير وأوقعها في الحرج، لأنَّ المذهب الواحد لا يسع الأمة بكل احتياجاتها.

وفي هذا الإطار وجدنا العلاَّمة عبد الحميد بن باديس يوجِّه انتقاداً لاذعاً لمجلة الأحكام العدلية، تلك المجلة التي صدرت عام 1286هـ والتي فصلت بمواد ذات أرقام متسلسلة كالقوانين الحديثة وتبلغ عدد المواد فيها 1851 مادة، وكلُّها مستقاة من قسم المعاملات من المذهب الحنفي الذي عليه عمل الدولة، فقال رحمه الله: لسنا نبرر صنيعه في رفض الأحكام، ولكننا نريد أن يذكر الناس أن تلك المجلة المبنية على المشهور وراجح مذهب الحنفية ؛ ما كنت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر، لأنَّ الذي يسع البشرية كُلَّها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه لا مذهب واحد، أو جملة مذاهب محصورة كائناً ما كان، وكائنة ما كانت، ونريد أن يذكر الناس أيضاً أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم، وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك، كما لا يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت إلى اليوم الأحكام الشرعية ـ غير الشخصية ـ معطلة فيها، وما زال كود نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم، وما زال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء ـ غير المذهب الحنفي ـ مهجوراً كذلك إلا قليلاً جدًّا[2].

---

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 60).

بداية ص 479

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (3 / 124 ـ 125).

9. الاختلاف المذهبي ووحدة الصف:

بذل الاستعمار الفرنسي جهوداً جبارة من أجل إفساد ذات البين بين الإباضية والمالكية، وكان بعض قالة السوء من المنتسبين للعلم وأهله يغذون هذا التوجه، ويذكون ناره، واستغلوا حادثة منع الإباضية للمالكية من الأذان، فأعلن كل فريق الحرب ضد الاخر، وأراد كل فريق أن يستميل الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى صفه، ولما لم ينحز رحمه الله إلى أي طرف، زاد كل فريق في لومه والحنق عليه، فكتب رحمه الله يقول: واليوم وقد اتفق الجانبان على إنكار سُكوتنا وحمل الحنق علينا وسوء الظن فينا، فإننا نقول كلمتنا للحق والنصفة، غير منحازين بها إلى إحدى الفئتين، بالغة ما بلغت في إرضاء من رضي، وإسخاط من سخط، حيث كنا نعتقد أننا أرضينا بها الحق والوجدان فنقول:

. قد ثبت عندنا أنَّ بعض الأباضية بغرداية منذ زمان بعيد بنى مسجداً وجعل له مأذنة وأحدث فيه أذاناً ثانياً، فاتفقت كلمة جماعة الإباضيين على منعه وهدم مأذنته، فعلمنا بهذا أن الإباضية لم يمنعوا مالكية غرداية من الأذان تعصباً عليهم لأنَّهم مالكية ؛ كيف وقد منعوا قبل ذلك الإباضية مثلهم وهدموا الصومعة، وإنما منعوهم لأنهم يرون الاكتفاء في البلد بأذان واحد.

. فنحن بهذا قد برأنا الإباضية من تعصبهم على المالكية لأنهم مالكية، ولكننا من ناحية أخرى نرى أنه حق عليهم أن يرجعوا في هذه المسألة عن رأيهم، ويسمحوا لإخوانهم المالكية بأذان.

أولاً: إصلاحاً لذات البين بين المسلمين، وهي في الإسلام من أول ما تجب وتتأكد المحافظة عليه والقيام به.

ثانياً: حفاظاً للوحدة الإسلامية بحفظ القلوب غير متصدعة بداء الفرقة، القتّال المعدود في الإسلام من أكبر المحرمات المهلكات.

ثالثاً: مجاملة لبقية إخوانهم المالكية بالقطر الذين تربطهم بهم رابطة الدين والوطن والمصلحة.

هذه كلمتنا نقولها بعهد الله، لا نقصد بها إلا القيام بواجب الصَّدع بالحق والدعوة إليه والإصلاح بين المسلمين، فإن كانت صواباً فمن الله الكريم الرحيم، وإذا كانت خطأ فمنا وعلينا، وليست بالأولى من خطئنا[1].

فإيمان الشيخ عبد الحميد بن باديس . رحمه الله . بوحدة الأمة الإسلامية وسعيه الدؤوب وعمله المتواصل من أجل تحقيق الاتحاد بين المسلمين ؛ هما الأمران اللذان جعلاه يركز على القواسم المشتركة بين المسلمين، ويقوّيها، ويدعو إلى تمتينها، وينظر إلى القضايا الخلافية التي نتيجة الاجتهاد المذهبي نظرة متفهم متسامح، فكان رحمه الله يقول: هذا العاجز . كما يعلم الناس كلهم . كان ولا زال من دعاة التوحيد والاتحاد، وكنت ولا زلت أقول في مجالس ودروس إنَّ المذاهب الفقهية غير الأربعة المشهورة هي كالأربعة، تتفق وتختلف عن نظر واجتهاد[2].

وقال: عند المصلحة العامة من مصالح الأمَّة يجب تناسي كلَّ خلاف يُفرِّق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التازر والتكاتف حتى تنفرج الأزمة وتزول الشدة، بإذن الله، ثم بقوة الحق وأدراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة[3].

10 . الاجتهاد ومواجهة المستجدات:

رفع ابن باديس صوته عالياً بالدعوة إلى ممارسة الاجتهاد ممن استكمل أدواته، وتحققت فيه شروطه، ذلك أن الاجتهاد هو الذي يكسب الفقه الإسلامي حركية ومرونة، وينفي عنه صفتي الجمود والانغلاق[4]، إنَّ ابن باديس اعتبر التقليد عموماً وصمة عار في جبين الأمة الإسلامية يبوء بإثمها العلماء وطلاب العلم، الذين كلت هممهم وفترت عزائمهم، ورضوا من العلم، بترديد أقوال السابقين، واعتبر هذا الأمر من أهم أسباب

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (5 / 452).
(2) المصدر نفسه (5 / 449).
(3) المصدر نفسه (5 / 156).
(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 183.

تخلف المسلمين، فقال رحمه الله: كما أُدخلت على مذهب أهل العلم بدعة التقليد العام والجامد، التي أماتت الأفكار وحالت بين طلاب العلم ومعين السنة والكتاب، بل صيرتها ـ في زعم قوم ـ غير محتاج إليهما، من نهاية القرن الرابع إلى قيام الساعة ؛ لا في فقه، ولا استنباط، ولا تشريع ؛ استغناء عنهما، (زعموا) بكتب الفروع من المتون والمختصرات، وصارت معانيها الظاهرة بله الخفية مجهولة حتى عند كثير من كبار المقصودين[1].

فطالب العلم أحوج ما يكون إلى التفكير الصحيح، والاستقلال فيه ؛ لأنه بهذه الملكة ترسخ قدمه في العلم ويصبح أهلاً للفتوى والاجتهاد، لمواجهة المستجدات وتقديم الحلول لعويص المشكلات[2].

وفي هذا الصدد يقول ابن باديس: إذا كان التفكير لازماً للإنسان في جميع شؤونه وكل ما يتصل به إدراكه، فهو لطالب العلم ألزم من كل إنسان، فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل، وفيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره يستعين به، ثم لا بد له من استعمال فكره بنفسه.

بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه ويسمى حقيقة علماً، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه.

فالتفكير التفكير يا طلبة العلم، فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجاهل البسيط[3].

ولم يكتف الإمام عبد الحميد بن باديس بالدعوة النظرية للاجتهاد، وذم التقليد، بل كانت نزعة الاجتهاد بادية في الفتاوى التي كان يفتي بها سائليه، إذ لم يكن يكتف بنقل الأقوال من الكتب الفقهية

(1) آثار الأستاذ الإمام عبد الحميد بن باديس (5 / 38).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 186.

(3) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (3 / 91).

المعتمدة كما عليه التقليد، وكانوا يهابون أن يخالفوا ما هو موجود في كتب المتقدمين، بل كان رحمه الله يفحص الأقوال وينظر إلى العلل والمقاصد التي بُنيت عليها الأحكام[1]، ومن ذلك إجابته على السؤال التالي: هل يجوز للمرأة أن تستعمل دواء يمنعها من الحمل لأنها ضعيفة بالمرض؟

أجاب رحمه الله تعالى بما يلي: أصل هذه المسألة هو العزل أي عدم إنزال الرجل المني في الفرج، وهذا كرهه البعض والمشهور في المذهب جوازه ؛ بإذن المرأة الحرة لحقها في الوطء، والإنزال من تمام لذتها، وفي العزل منع الولادة، فيقاس عليه شرب الدواء لمنع الولادة، فيجوز ما لا يلحق ضرراً بالجسم إذا كان بإذن الزوج لأنَّ له حق في الولد، وإذا كانت ضعيفة عن الولادة فلا تتوقف على إذنه[2].

والخلاصة التي ننتهي إليها بعد هذا التجوال في فكر الشيخ ابن باديس وثرائه الفقهي ؛ أنه كان يملك رؤية واضحة المعالم في تفقيه طلبة العلم، وبناء المجتهد المعاصر، وكيفية ممارسة الفتوى[3].

. رأيه في الفن والجمال:

لم يكن ابن باديس من أولئك الفقهاء الذين لا يفكرون إلا في القيم الأخلاقية والمنطقية، بل إنَّه اهتم بالقيم الجمالية أيضاً، فكتب مقالاً عنوانه: الفن الأدبي في الحديث النبوي: فتحدث عن جمال الصوت وعن الصورة الرائعة التي صوَّر بها النبي (ص) النساء في قوله، مما رواه البخاري في صحيحه عن أبي قلابة عن ثابت البناني عن قتادة عن أنس أنه كان للنبي (ص) حاد يقال له أنجشه، وكان حسن الصوت، والنبي (ص) في مسير له، فحدا الحادي وكان يحدو بهنَّ، فقال له النبي (ص): ويحك أنجشه رويداً بالقوارير. وذلك أنه لما غنَّى

---

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 187.

(2) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (3 / 258).

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 190.

أنجشه للإبل، وكان على ظهورها النساء أخذت في السير، وأشفق النبي عليهنَّ، فأمر الغلام الفارسي الحادي وهو أنجشه أن يرفق بهنَّ لشدة ما يجدن من الاضطراب على ظهور الإبل، وهي تسرع في سيرها، فعبر عن ذلك بصورة جذابة فشبه النساء بالقوارير أو الزجاجات لما فيها من بياض ولمعان ورقة، ولما في النساء أيضاً من رقة العواطف ولطفها وسرعة انكسار قلوبهنَّ وتأثيرها وعسر انجبارها.

وقد حاول ابن باديس أن يعرف لنا مفهوم الفن فبين لنا أنه: إدراك صفات الشيء على ما هي عليه من حسن وقبح إدراكاً صحيحاً، والشعور بها كذلك شعوراً صادقاً والتصوير لها تصويراً مطابقاً بالتعبير عنها بعبارات بليغة في الإبانة والمطابقة للحال ذلك هو الفن الأدبي، فالفن الأدبي عنده يتكون من عناصر إدراكية شعورية وتعبيرية، ومن مطابقة. والفنان هو ذلك الإنسان الذي يدرك صفات الشيء الحسنة والقبيحة إدراكاً صحيحاً، وهو الذي يشعر بتلك الصفات وينفعل بها بصدق، ثم يعبر عن إدراكه وتجربته الشعورية تعبيراً مبيناً بليغاً، على أن يكون ذلك مطابقاً للحال.

ويلاحظ القارئ أن ابن باديس جرى على رأي رجال البلاغة في أصل من أصول البلاغة والنقد، ألا وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، كما أنه اشترط التصوير أن يكون مطابقاً، فكأن المطابقة هنا تشبه لحد ما ما يسميه أرسطو بالمحاكاة، والواقع أن الفنان يبدع الصور ويضفي على الأشياء أخيلة وظلالاً ذاتية ما كان لها أن تعتبر مطابقة للواقع الخارجي أو محاكية له.

ويمكن القول بأن ابن باديس ذهب في الفن مذهباً منطقياً يتصل بالحق أكثر من اتصاله بالإبداع الفني، لأنه اعتبر الفن إدراكاً لصفات الشيء على ما هي عليه في الواقع الخارجي، فكأن الصورة الفنية نسخة مما هو واقع في العالم الخارجي، على نحو ما يتصور الفلاسفة الحقيقة التي يرون أنها مطابقة ما في عالم الأذهان لما في عالم الأعيان، ولم يكن بهذا الاعتبار مثل شيء جديد أبدعه الفنان سوى التعبير الذي يمتاز بالإبانة والبلاغة.

ولكننا نجد ابن باديس يضيف إلى عناصر الصورة الأدبية الفنية عنصراً آخر يتوِّجها،وهو اللذة التي تحصل

للمتذوق ؛ لأن هذه اللذة في نظر ابن باديس تدفع عن الإنسان ما يجده من متاعب الحياة وأوصابها والامها ؛ لأن الاثار الفنية تدخل على النفوس انشراحاً وبهجة وصفاء.

وأدرك ابن باديس أيضاً ما يسمى في الفن بالتواصل أو المشاركة الوجدانية فقال: لذا كان أكثر الفن الأدبي في تصوير الحسن وعرضه على الناس، ليشاركوا الفنان في إدراك ذلك الحسن والشعورية والتذوق للذة ذلك الإدراك والشعور. وبين لنا باعتباره مربياً ومعلماً دور تربية الذوق الجمالي وغرسه في النفوس، لتتمكن من الشعور بما في هذا الكون من آيات الجمال.

وذكر أن القرآن الكريم مفعم بصور ومشاهد تعرض علينا افاق الكون في صورها الجذابة الجميلة، وأشار أيضاً إلى أن الحديث النبوي يشتمل على روائع من الفن الأدبي وخوالد من الاثار الرفيعة، كما أنه استشهد بقصيدة كعب بن زهير الذائعة التي ألقاها أمام النبي (ص): فوصف المرأة والماء الذي مزجت به الخمرة والناقة وصورها تصويراً فنياً، ولم ينكر عليه لأنه لم يكن يصف شخصاً معيناً يؤدي وصفه إلى إثارة الشهوة البهيمية نحوه، وإنما للنفوس البشرية صورها الجمالية، وننمي فيها قوة الشعور والذوق.

ولم يخف على ابن باديس أن ينبهنا إلى ما في الحديث من فقه نفسي، فحلل الحديث تحليلاً فقهياً نفسياً، وأوضح أن فيه تنبيهاً على نبذ التشديد والتنطع فيما لا عيب فيه ولا قبح في معناه ولا فحش في لفظه من جهة وفيه أيضاً: التنبيه على المحافظة على قلوبهن «النساء» وعواطفهن ليدوم ودهنَّ وسلامتهنَّ، ويدوم الهناء معهنَّ والاستمتاع بهنَّ لأنهنَّ ضعيفات القلوب رقيقات العواطف، شديدات الإحساس، يصبرن على كل شيء من الرجل إلا على كسر قلوبهنَّ ومسِّ عواطفهنَّ.

ومن جهة أخرى نجد أن ابن باديس يتصور الإسلام على أنه حقيقة قائمة على عناصر ثلاثة: الحياة والعلم والفن، فقال: الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة إيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال.

بيد أن ابن باديس ربط بين القيمة الجمالية والقيمة الخلقية، فذهب إلى أن الدعوة إلى الجمال والتحبب في جميع مظاهر الحياة يجب أن تكون في إطار العفاف والفضيلة وساق عدة آيات قرانية في هذا المعنى منها:

. قوله تعالىَ: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ *} [التين : 4].

. وقوله: {وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ} [غافر : 64].

. وقوله: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ} [يونس : 24].

. وقوله: {فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ} [النمل : 60].

. وقوله: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ} [الأعراف : 32].

. وقوله: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ *} [النور : 30].

ويرى أن القرآن نفسه استخدم الصورة الجمالية في الدعوة إلى الهداية وإلى التأمل في الطبيعة: يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب، يشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها. إن الجمال في نظره يصبح أحياناً فتنة إن لم يُحَط بسياج من الأخلاق، وإذا كان العالم ينطوي على جمال فإنه يصير شراً ووباءً على من اتبع هواه واستبعد عقله. هذا العالم بمائه وأرضه وأزواجه هو فتنة للإنسان بما فيه من لذائذ ومن جمال.

إن ابن باديس زارع محبة وداعي إلى المعاني الحقيقية للمذهب الإنساني، ورحابة الأفق، وعلم الناس أن الجمال مقوم من مقومات الحضارة، وأن التربية الجمالية وتنمية الذوق من أسس التربية الخلاقة للشخصية الحرة الشاعرة بذاتيتها وحريتها وقوتها، المتذوقة لما في العالم من جمال، المتعاطفة مع ما في الإنسان من محبة وما في جوهره من كرامة متأصلة(1).

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء، جمع د. محمد الدراجي، مقال الدكتور عمار الطالبي ص 16.

ـ في مجال الدفاع عن الإسلام والمسلمين: ورده على طه حسين:

كان الإمام ابن باديس على الأهبة والاستعداد كل لحظة للدفاع عن الإسلام ومقدساته والرد على أولئك الذين يناطحون صخرته ويشوِّهون صورته،، ويقيمون الدليل من عملهم وسلوكهم على جهلهم بالإسلام، أو على فساد فطرهم، وعماية قلوبهم، وسوء أخلاقهم ونواياهم، فما إن يرى منهم كفراً، أو يسمع منهم منكراً ؛ حتى يعلنها في وجوههم صرخة مدوية تقمع النفوس، وتخرس الألسن.

وفي هذا المجال يكتب عن «الرسميين» الذين ملكت الوظائف رقابهم: فأنستهم أنفسهم فباعوا ضمائرهم في مرضاة من يبتغون عندهم العزة، وذهبوا من الملق والتزلف إلى أقصى ما يبلغه المتزلفون والمتملقون، ويقول فيهم: لم يكفهم ما قدموا من أنفسهم ومن قومهم، وما كذبوا ولفقوا بألسنتهم عن غيرهم. فمدوا أيديهم[1]، ـ شلت أيديهم ـ إلى الإسلام والقران، يكذبون ويحرفون.

ويكتب الدكتور طه حسين كتابه «على هامش السيرة» الكريمة على منوالها فأظهرها بمظهر الخرافات الباطلة، والأساطير الخيالية، حتى ليخيل للقارئ أن سيرة محمد (ص) ما هي إلا أسطورة من الأساطير. وفي هذا الدسّ والبهت ما فيه ومن العجب أن قام أحد الكتاب في مجلة «الرسالة» يُطري في هذا الكتاب ويجعله الدليل على أن طه حسين ما يزال أزهرياً رغم كل شيء.

فيقوم طه حسين في العدد الثاني من «الرسالة» فيصدق ذلك الكاتب فيما ادعاه له من رسوخ أزهريته وديانته حتى ليظن القارئ للمقالين أنهما ولدا في مجلس واحد، فالدكتور طه حسين الذي كان يقول عن الإسلام ما شاء ولا يبالي بالمسلمين أصبح اليوم ـ بعدما أخرج من الجامعة ـ يحسب للمسلمين حساباً، فلا

(1) المصدر نفسه ص 168.

يكتب شيئاً إلاوهو يكرر أنه مسلم، وأنه يعظم الإسلام، ولكن ما انطوى عليه صدره يأبى عليه إلا الظهور كما بدا في كتابه هذا الأخير[1].

ونشرت مجلة «المقتطف» الشهيرة مقالاً يقول فيه كاتبه تحت هذا العنوان: «مفاخر أور الكلدانيين»: لقد جاء في بعض الخرافات العربية القديمة أن عاصفة من الرمل ظهرت بمدينة عاد، فأصبحت بعد العاصفة لا عين لها ولا أثر[2].

فرد عليه الإمام رداً مفحماً، قوامه العقل البصير، والحجة الدامغة، والعلم الصحيح، ومما قاله فيه: لا نشك أن كاتب المقال ليس مسلماً، كما لا نرتاب أنه لا يجهل أن قصة عاد من قصص القران: فتعبيره عنها بالخرافة من سوء الأدب الذي ما عهدناه في المرحوم الدكتور صروف الذي كان في علمه وفلسفته وشدة تحقيقه ديناً صحيح التدين، محترماً لكتب الأدباء. ثم حقق الإمام القصة في ضوء القرآن والتاريخ بأسلوبه العلمي المشرق ما يجعلها في مجالها وأفقها البين[3].

ونشرت مجلة «الرابطة الشرقية» في عددها الثالث من المجلد الثاني مقالاً بإمضاء علوي، تحدَّث فيه الكاتب عن الخلاف الواقع بين العلويين الأشراف الحضارمة، والإشاديين في جاوة وسنغافورة، وذكر في مستهل حديثه «الجزائر» لينظر بها فقال: إليك نبأ عن الجزائر فإن في أرجائها حركة تحسبها حركة نهوض لشعبها العربي الذي... إلى صورة مشوهة من العجمة بالعسف والجهل وعدم المعونة في سلوك سبيل الحياة إلى آخر هذا الدهر، فرد عليه الإمام رداً علمياً قائماً على الحجة ووضح حقيقة هذه الحركة وأهدافها لمن يجهلها أو يتجاهلها[4].

وكتب الأستاذ عبد الحميد العبادي مقالاً تحت هذا العنوان:

بلاد عربية تحتضر فيها العربية، نشره في الرابطة العربية سنة 1939م، وكان يقصد المغرب العربي، فنشره

(1) الشهاب ج3م1. ذي القعدة 1352هـ/ فيفري 1934م.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 168.

(3) المصدر نفسه ص 168.

(4) الشهاب ج1م1 رمضان 1348هـ: فيفري 1930م.

الإمام في «الشهاب» وعلق عليه بهذه الكلمة الوجيزة الوافية: كلا بل هي ـ العروبة ـ اليوم تزدهر. فقال لهم الله: موتوا ثمَّ أحياهم[1].

كلما يرتفع صوت معادٍ للإسلام هنا أو هناك بما يسيء إليه أو يحط من مكانته، أو ينال من جلاله وجماله ؛ تصدى له ابن باديس بالتفنيد والنقض، أو التوضيح والتصويب[2].

* * *

(1) الشهاب ج3م13 ربيع الأول 1356هـ / مارس 1937.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 168، 169.

المبحث الخامس

المنهج التعليمي والتربوي والأخلاقي

والاجتماعي عند ابن باديس

أولاً: المنهج التعليمي:

قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء : 36].

مهد ابن باديس لتفسير هذه الآية، بالقول: العلم الصحيح والخلق المتين هما الأصلان اللذان ينبني عليهما كمال الإنسان، وبهما يضطلع بأعباء ما تضمنته الآيات المتقدمة من أصول التكليف. فهما أعظم لما تقدمهما من حيث توقفه عليهما، فجيء بهما بعده ليكون الأسلوب من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى. ولما كان العلم أساس الأخلاق قدمت آياته على آياتها تقديم الأصل على الفرع[1].

لقد قرَّر الإمام ابن باديس حقيقة علمية جريئة تبوئه مكانة ممتازة بين المصلحين في العالم الإسلامي، وهي المقولة الخالدة التي يقول فيها: العلم وحده هو الإمام المتبع في الحياة في الأقوال والأفعال والاعتقادات، ثم واصل رحمه الله يشرح سرَّ تقدم العلم في كل شيء، ولماذا جعله الإمام المتبع؟

فقال: سلوك الإنسان في الحياة مرتبط بتفكيره ارتباطاً وثيقاً يستقيم باستقامته، ويعوج باعوجاجه، ويثمر بثماره ويعقم بعقمه، لأن أفعاله ناشئة عن اعتقاداته، وأقواله إعراب عن تلك الاعتقادات ثمرة إدراكه الحاصل

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 190.

عن تفكيرهونظره[1]. فبالعلم يحقق الإنسان التطور ويحسن التجارب والخبرات، ويقترب شيئاً فشيئاً من الكمال الإنساني، عن طريق الاكتشاف التي تذلل له الصعوبات التي كانت تنغص عليه عيشه وتكدر صفوه، ولذلك قال: ولما امتاز الإنسان عن سائر الحيوان بالعقل والتفكير امتاز عنه بالتنقل والتطور في أطوار حياته ونظم معيشته بمكتشفاته ومستنبطاته، فمن المشي على الأقدام إلى التحليق في الجو مثلاً، وبقي سائر الحيوان على الحال التي خلق عليها دون انتقال، وبقدر ما تكثر معلومات الإنسان ويصبح إدراكه لحقائقها ولنسبها ويستقيم تنظيمه لها ؛ تكثر اكتشافاته واستنباطاته في عالمي المحسوس والمعقول وقسمي العلوم والآداب[2].

وهكذا يقرر ابن باديس رحمه الله بأن الاكتشافات العلمية التي نقلت الإنسان من طور إلى طور، وغيرت مجرى حياته تغييراً كلياً، إنما هي نتيجة إعمال الفكر الذي هو ثمرة العلم، وعليه؛ فحيث لا علم ؛ فلا تحول ولا تطور نحو الأفضل، ولا تحسين في مستوى المعيشة وأنظمة الحياة وإنما يكون هناك... الذي يقود إلى الهلاك العاجل والاجل، ولذلك قال: وإذا لم يصبح إدراكه للحقائق أو لنسبها أو لم يستقم تنظيمه لها، كان ما يتوصل إليه بنظرة خطأ وفساد في فساد. ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول. وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئياً وكلياً من قريب أو من بعيد، وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام ؛ وذلك عندما يرتفع منها العلم ويفشو الجهل وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوساً جُهالاً لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فيَضلون ويُضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون.

وما أكثر هذا ـ على أخذه في الزوال بإذن الله ـ في أمم الشرق والإسلام اليوم[3].

---

(1) مجالس التذكير ص 139.

(2) المصدر نفسه ص 138.

(3) مجالس التذكير ص 138.

إن من أهم أسباب التخلف والانحطاط اللذين ال إليهما العالم الإسلامي هو الابتعاد عن الأخذ بالعلم، والاحتكام إلى نتائجه، وفي شتى الميادين وسائر المجالات، فساد الاستبداد المجال السياسي وأنظمة الحُكم، وساد الفساد المالي قطاعات الاقتصاد، وساد القصور التربوي مجالات التربية والتعليم، وساد التقليد والابتداع مجال الفتوى والدين، وهكذا غيب العقل، وقتل الاجتهاد، وحورب التجديد، وسادت الفوضى جميع أنظمة الحياة وتحلل النسيج الاجتماعي، وأصبح إنسان ما بعد دولة الموحدين يحمل في جنباته بذور القابلية للاستعمار كما عبَّر عن ذلك المفكر مالك بن نبي رحمه الله[1].

1. إصلاح التعليم:

إدراكاً لابن باديس للحقائق السالفة الذكر، فإنه قد جعل من إصلاح التعليم أساس النهضة الإصلاحية المنشودة، فقال: رحمه الله: لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم، فإنما العلماء من الأمة بمثابة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، وصلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به، وإنما يصل إليهم هذا على يد علمائهم، فإذا كان علماؤهم أهل جمود في العلم وابتداع في العمل، فكذلك المسلمون يكونون، فإذا أردنا إصلاح المسلمين، فلنصلح علماءهم[2].

ولقد نادى ابن باديس إلى إصلاح التعليم ودعا في سنة 1937هـ إلى عقد مؤتمر للمعلمين المسلمين الأحرار في نادي الترقي في مدينة الجزائر، فنشرت جريدة البصائر نص الدعوة التي وجَّهها ابن باديس للمعلمين الأحرار.

وقد تضمنت هذه الدعوة جدول الأعمال الذي ناقش الأمور التالية:

وسائل توحيد التعليم، أسلوب التعليم، أسلوب تربية الناشئة، تجارب المعلمين الأحرار في التربية والتعليم، دراسة الكتاب المدرسي وإمكانية تأليف كتب تتفق وواقع الجزائر، التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته،

(1) عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 202.

(2) آثار الأستاذ ابن باديس (4 / 74).

البحث عن الوسيلة التي تستعيد بها المرأة المسلمة سيرة سلفها في تلقي العلم، وإعداد تقارير مفصَّلة عن مدى إقبال الأمَّة على التعليم بأقسامه السابقة[1].

لقد اقترح ابن باديس لتغيير برامج التعليم جملة من التطورات تضمنت أفكاراً تتعلق بمناهج التعليم وطرق التدريس، وكذلك بعملية إعداد المعلمين، ودور المسجد في تكميل النقص الذي لا يستطيع التعليم النظامي أن يستكمله[2].

أ. الخطة التعليمية التي سار عليها ابن باديس:

إن العمل التربوي والتعليمي هو السلاح الاستراتيجي الذي فضله ابن باديس على غيره من الأسلحة، وجعل أداته الفاعلة في خوض معارك المواجهة مع الاستعمار، تلك المعارك التي قاوم من خلالها محاولات الفرنسة والتغريب والتجنيس والتنصير، وكل الأساليب الرامية إلى إبتلاع الجزائر أرضاً وشعباً وعقيدة، ولغة وسلوكاً.

لقد رأى ابن باديس في تلك الفترة أن سياسة الاستعمار الثقافية ماضية في طريقها، حريصة على إنجاز مخططها المتمثل في اقتلاع الجزائري من منبته وتشويه لسانه وعقيدته إيمانه، وقتل ذاكرته حتى لا يحس بما يشعره بهويته أو يربطه بحقيقة أمته.

ورأى أن الطريق الأنجع للوقوف في وجه هذه السياسة هو تسليح المواطنين بالعلم والمعرفة وتنوير عقولهم وتعبئة مشاعرهم، ونشر الوعي بينهم، وتصحيح عقائدهم، وإزالة غشاوة الجهل والغفلة عن أبصارهم حتى يروا حقيقة الاستعمار عارية أمام أعينهم فيواجهوها ويجدّوا في محاربتها.

إن مسعى ابن باديس من وراء مشروعه التعليمي هو إحداث تغيير شامل في العقول والأفكار والنفوس، وفي المحيط الثقافي ؛ حتى يستجيب هذا التغيير لمتطلبات الكفاح من أجل إثبات الذات والدفاع عن الكيان،

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 239).

(2) سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 173، لطيفة عمِّيرة.

ودرء الأخطار المحدقة بشخصية المجتمع[1].

إن الخطة التعليمية التي سار عليها ابن باديس في تنفيذ مشروعه العلمي تشتمل على الاهتمام بمؤسسات للتعليم والتي من أهمها.

ـ **مؤسسات التعليم المسجدي**: مرَّ الحديث عنها

ـ **مؤسسات التعليم المدرسي**: وبعد تأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام 1930م، أسند إليها الإشراف على التعليم الذي سيتطور ويتوسع، تحول «مكتب التعليم» إلى «مدرسة عصرية» تحمل اسم هذه الجمعية «مدرسة التربية والتعليم». ومن هذه المدرسة انطلق التعليم العربي الحر في قسنطينة وامتدت فروعه في المدينة، وفي مختلف جهات الوطن، بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين التي أصبحت تنشط هذا التعليم تحت قيادة رئيس الجمعية الشيخ ابن باديس، الذي ظل يدعو الخيرين من ابناء هذا الوطن إلى تأسيس المدارس وتمويل التعليم، ودفع أبنائهم وبناتهم إلى التعليم في هذه المدارس، وبعد ذلك خلفه في ذلك كله البشير الإبراهيمي[2].

وكانت المؤسسة الأولى التي انطلق منها التعليم المدرسي في بدايته هي «مكتب التعليم العربي» الذي تمَّ إنشاؤه عام 1926م في مسجد سيدي بو معزة، وخصص للتلاميذ الصغار «البنين أولاً» وكان عبارة عن كتّاب، ثم نقل من سيدي بو معزة إلى مقر الجمعية الخيرية لاتساعه وعدد حجراته، وأول من باشر التعليم فيه بمقره الأول الشيخ مبارك الميلي بعد تخرجه[3].

. مدارس جمعية العلماء:

من أهم مؤسسات التعليم المدرسي الذي أشرف عليه ابن باديس مدارس جمعية العلماء التي انتشرت في مختلف جهات الوطن بفضل جهود المخلصين من أبناء هذا الشعب وبفضل الحركة الإصلاحية التي كان من

---

(1) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 252.

(2) المصدر نفسه ص 255.

(3) المصدر نفسه ص 256.

أهدافها الأساسية نشر التعليم العربي وتربية الناشئة تربية عربية إسلامية، وقد بلغت جملة مدارس الجمعية حتى عام 1954م، أكثر من مائة وخمسين مدرسة، يتردد عليها أكثر من خمسين ألف تلميذ وتلميذة يدرسون فيها مبادئ اللغة العربية وآدابها وأصول الدين بين أساسيات التربية الإسلامية والقومية والوطنية الصحيحة، وفي سنة 1946م تكونت هيئة عليا للإشراف على التعليم تدعى لجنة التعليم العليا، تابعة لجمعية العلماء، تتكفل بتعيين المعلمين والمفتشين وترقياتهم وتنقلاتهم ووضع البرامج والمناهج والامتحانات..إلخ، وهي التي وحدت التعليم الحر في كل المدارس طبقاً لبرنامج مضبوط، هذا بعد وفاة ابن باديس[1].

ب . الإطار التنظيمي للتعليم المسجدي:

. مجانية التعليم:

التعليم المسجدي مجاني لكل الفئات التي تستفيد من هذا التعليم، فالطلاب لا يدفعون أي رسوم مقابل تعليمهم.

. الإقامة مكفولة لكل الطلاب الوافدين:

لقد حرص ابن باديس على توفير الإقامة والمساعدات الغذائية لكل الطلاب الوافدين حتى يتفرغوا لتلقي العلم، وقد وجد في المحسنين من سكان قسنطينة وغيرهم الاستعداد الكامل لإعانة الطلبة وتوفير ظروف الإقامة والغذاء لهم.

. لجنة الطلبة:

ولأجل ضبط التبرعات والزكوات والهبات أنشأئ صندوق خاص بالطلبة، يتولى الإشراف عليه لجنة مهمتها جمع التبرعات وغيرها وإنفاقها في الوجوه المخصصة لها: دفع تكاليف الإيواء والغذاء وكل ما يتعلق بمرافق السكن: ماء، كهرباء، إصلاح وترميم إلخ.. وضبط المداخيل والمصاريف ونشر ذلك في الصحف حتى يتأكد المتبرعون والمساهمون بأن كل الأموال تصرف في الأغراض الموجهة[2].

(1) المصدر نفسه ص 255.

(2) المصدر نفسه ص 256.

. الشروط المطلوبة للتسجيل في التعليم المسجدي:

يشترط في كل طالب يلتحق بالدراسة في الجامع الأخضر وفروعه بقسنطينة ما يلي:

. أن يكون حافظاً للقران أو لبعضه كالربع.

. أن لا يتجاوز عمره خمساً وعشرين سنة إذا كان مبتدئاً.

. أن يصحب معه فراشه وغطاءه.

. أن يستظهر بكتاب من كبير بيته، أو عشيرته للتعريف به[1].

هذا وقد كان ابن باديس يتساهل بعض الشيء في شروط العمر حتى لا يحرم من كانت له رغبة في التحصيل العلمي، ويتبين هذا المعنى من قوله . بعد أن وضح الشروط: فندعو من فيهم استعداد، وعندهم رغبة إلى الإقبال على العلم والرحلة في سبيله، والله نسأل لنا ولهم التيسير والتوفيق.

كما نتبين ذلك من جولاته في القطر، واتصاله بمشايخ الزوايا وبعض الشخصيات التي كان يعرّفها بالمشروع التربوي الذي يضطلع به ويدعوهم إلى إرسال أبنائهم للتعليم[2].

. نظام العرفاء:

نظراً لاهتمام ابن باديس بسلوك الطلبة والمحافظة على سمعتهم، أنشأ نظام العرفاء الذي كان معروفاً في تاريخ التربية الإسلامية، فقسم طلبته إلى مجموعات حسب المناطق التي جاؤوا منها، واختار طالباً من كل مجموعة جعله عريفاً على طلبة منطقته يضبط أمورهم ويتابع نشاطهم، ويراقب سلوكهم، ويحفزهم على الجد والاجتهاد، ويكون وسيطاً بينهم وبين الشيخ في الأمور التي يريدون مناقشتها، لذلك يجتمع الشيخ مع هؤلاء العرفاء كل أسبوع لمدارسة قضايا الطلبة: فيتولى كل عريف استعراض أحوال الطلبة الذين يشرف عليهم، فإذا

(1) المصدر نفسه ص 256.

(2) المصدر نفسه ص 256.

كان هنالك ما يخالف حسن السيرة ؛ فإن المجلس يتخذ ما يراه صالحاً من إجراءات التأديب أو الطرد.

وقد نشر الشيخ أسماء العرفاء والمناطق التي يشرفون على طلبتها في عدد خاص من الشهاب، كما نشر قوائم بأسماء الطلبة وبلدانهم وعمالاتهم «الجهة التي قدموا منها» مع صور الأساتذة المعلمين والعرفاء وطبقات التلاميذ الأربع.

ويشترط في العريف أن يكون من أقدم الطبة أو من أكبرهم سناً، وقد يكون العريف أستاذاً مساعداً في الوقت ذاته.

. نظام الدراسة:

النظام الدراسي الذي سار عليه ابن باديس في التعليم المسجدي هو نظام الطبقات، وليس نظام الحلقات الذي تتداخل في المستويات والذي كان معروفاً في تاريخ التعليم الإسلامي.

فالطلاب في النظام الذي اتبعه ابن باديس يوزعون على طبقات أربع حسب مستوياتهم، ودرجات التحصيل التي بلغوها، ويخصص لكل طبقة منهاج خاص بها على أن تجمع بعض المواد في شكل جذع مشترك لجميع الطبقات، وقد حدد ابن باديس مدة الدراسة بأربع سنوات، يتخرج الطالب بعدها بحصيلة علمية تمكنه من مواصلة الدراسة . إن أراد . في جامع الزيتونة أو في غيره من المعاهد الإسلامية، كما تمكنه من الانتصاب للتدريس في مدارس جمعية العلماء أو تأطير مساجدها[1].

وحرصاً على إفادة كل الطلاب يتولى الشيخ بنفسه تنظيم الدراسة وتوزيع المهام وتكليف الأساتذة المساعدين بالتدريس لبعض الطبقات، أما الطبقة الرابعة فهي من نصيبه إذ هو الذي يتكفل بإلقاء جميع الدروس المبرمجة لها، وحتى لا يحرم الطلاب من دروس الشيخ فإنه خصص لكل طبقة من الطبقات الثلاثة

(1) المصدر نفسه ص 258.

الأخرى درساً أو درسين، وتترك بقية الدروس للأساتذة المساعدين الذين اختارهم ليكونوا عوناً في هذه المهمة[1].

ج . الأساتذة المساعدون:

كان ابن باديس في البداية يقوم وحده بكل النشاطات التعليمية، ولما كثر أعداد الطلبة الوافدين، وتعددت مستوياتهم أصبح من اللازم الاستعانة ببعض الأساتذة الذين رأى أن لديهم إمكانات علمية، وكفاءة تربوية لتدريس بعض المواد لبعض الطبقات، فوزع مهام التدريس للطبقات الأربع بينه وبين الأساتذة المساعدين الأخرى من دروسه، لذلك خصها ببعض الدروس وترك الباقي للمساعدين. وفيما يلي قائمة الأساتذة المساعدين الدائمين في أواسط الثلاثينات:

. الفضيل الورتلاني.

. عبد المجيد حيرش.

. بلقاسم الزغداني.

. عبد العلي الأخضري.

. الجيلاني الفارسي.

. حمزة بو كوشة.

وهناك أساتذة اخرون غير دائمين كان الشيخ يلتجأئ إليهم عند الحاجة، وحسب المادة، ولكنهم لم يكونوا دائمين، من هؤلاء: عمر دردور، محمد الملياني، عيسى الدراجي، ومحمد صالح رمضان، ومن المساعدين من كان طالباً وأستاذاً في الوقت ذاته كالورتلاني والفارسي والزغداني[2].

د . مجلس الأساتذة:

من القواعد التنظيمية التي كان ابن باديس يعتمدها في تسيير شؤون التعليم المسجدي: مجلس الأساتذة الذي كان ينعقد خاصة في بداية السنة الدراسية لضبط كل الجوانب المتعلقة بسير التعليم، وتحديد المواد المقررة

(1) المصدر نفسه ص 258.

(2) المصدر نفسه ص 258.

والكتب المعتمدة والمواقيت الخاصة بكل مادة، وأماكن التعليم بالنسبة إلى كل طبقة، واستعراض التعديلات المزمع إدخالها على المنهج.

ويحرص ابن باديس في بداية كل سنة دراسية على أن يضبط كل الأمور المتعلقة بالدراسة، ويخبر الطلاب بها، وهكذا يتمكنون من معرفة المواد التي سيدرسونها وكتبها وأوقاتها، وأماكن تعليمها ومعلميها، وكذلك من معرفة مقر سكناهم والمحلات التي تتكفل بإطعامهم، والعريف المسؤول عنهم..الخ.

هـ . نظام الانتقال من طبقة إلى أخرى:

الانتقال من طبقة إلى أخرى في البداية كان انتقالاً الياً لا يستدعي تقويماً، إمتحاناً خاصاً، إنما كان الأمر موقوفاً على إنهاء الكتب المقررة بكل فئة «طبقة» في كل سنة. وبعد أن تطور التعليم رأى الشيخ عبد الحميد باتفاق مع الأساتذة المساعدين إجراء إمتحان في آخر السنة الدراسية بحيث يصبح الانتقال من طبقة إلى أخرى مرهوناً بنتائج هذا الامتحان.

وقد أراد ابن باديس ومن معه أن يكون هذا الإجراء فاتحة لعصر جديد، يشعر معه الطلاب بالتطور، وتطلع الأمة من خلاله على جهود العاملين في هذا الحقل، فأُقِرّ فعلاً في 20 من ماي 1937م على الطبقات الأربع، وحددت درجات النجاح والملاحظات الخاصة بكل درجة، بحيث أعطيت ملاحظة (أحسن) لمن أحرز على أكثر من خمس عشرة نقطة، وملاحظة (حسن) لمن أحرز على خمس عشرة أو أربع عشرة، وينتقل الطالب بدون ملاحظة إذا حصل على علامة تتراوح بين عشرة وثلاث عشرة، والذي يحرز على علامة دون العشرة يستمر في طبقته، ويعيد السنة، وهذا هو الإجراء الذي طبق في عام 1937م، ونشرت نتائجه في العدد 69 من جريدة البصائر[1].

---

(1) المصدر نفسه ص 259.

و . برنامج المواد الدراسية الخاص بالتعليم المسجدي:

تشتمل الدروس التي كانت تدرس في الجامع الأخضر وفروعه على:

. تفسير القرآن وتجويده.

. شرح الحديث النبوي الشريف (من الموطأ).

. الفقه المالكي من مختصر خليل وغيره.

. العقائد الدينية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

. الآداب والأخلاق الإسلامية.

. اللغة العربية بفنونها (من نحو وصرف وبلاغة ولغة وأدب).

. الفنون العقلية كالمنطق وغيرها.

ثم أضيف لهذه المواد بعد سنة 1933م مواد أخرى مثل الفرائض والتاريخ والجغرافيا وأصول الفقه.

. المواد المشتركة لجميع الطبقات:

. تفسير القرآن ودراسة الحديث.

. دراسة الاداب والأخلاق.

. فصول في التاريخ الإسلامي.

. التوحيد والعقائد (إملاءات).

. التجويد.

. إملاءات في الحساب والجغرافيا.

. المواد الخاصة بكل طبقة من الطبقات الأربع:

. الطبقة الأولى:

. الأجرومية في القواعد.

. متن ابن عاشر في الفقه.

. إياغوجي في المنطق.

. البيقونية في مصطلح الحديث.

. أحكام التجويد «إملاءات»[1].

. الطبقة الثانية:

. القطر لابن هشام (في القواعد).

. رسالة ابن أبي زيد (في الفقه).

. متن السلم الأخضري (في المنطق).

. متن الكافي (في العروض والقوافي).

. الطبقة الثالثة:

. ألفية ابن مالك (في القواعد) الجزء الأول.

. مختصر خليل في الفقه، (عوض بأقرب المسالك في السنوات الأخيرة).

. الجوهر المكنون في الثلاثة فنون (البلاغة).

. المفتاح للشريف التلمسانی (في الأصول).

. متن الخزرجية (في العروض).

. الطبقة الرابعة:

. ألفية ابن مالك (تتمة) في القواعد.

. لامية الأفعال في الصرف.

. مختصر خليل (تتمة) في الفقه (عوّض بأقرب المسالك في السنوات الأخيرة.

. سعد الدين التفتزاني (في البلاغة) شرح كتاب تلخيص المفتاح للقزويني الذي هو ملخص كتاب المفتاح للسكاكي.

---

(1) المصدر نفسه ص 260.

.كتب المواد المشتركة:

. موطأ الإمام مالك والبخاري في الحديث.

. مقدمة ابن خلدون (في التاريخ).

. الأمالي لأبي علي القالي وديوان الحماسة (في الأدب).

.كتاب الرحبية في الفرائض.

. البيقونية في مصطلح الحديث.

. إملاءات في الحساب والجغرافيا.

. أحكام التجويد (إملاءات)(1).

ز . خطة العمل الأسبوعي:

تنطلق الدروس في كل أسبوع حسب الجدول الزمني المتبع من صبيحة يوم السبت إلى عشية الأربعاء، وتبدأ الدراسة في كل يوم من أيام الأسبوع بعد صلاة الصبح مباشرة، وتتواصل إلى منتصف النهار، ثم تستأنف بعد صلاة الظهر وتستمر إلى العصر، وما بين العصر والعشاء فترة راحة بالنسبة إلى الطلبة، أما الشيخ فيتفرغ لأعماله الأخرى التي تنتظره في مكتبه ومن يأتون لزيارته أو لاستشارته.

وحتى لا يثقل الشيخ على الطلاب كان يترك بين كل درس واخر وقتاً قصيراً للراحة وتغيير الأفواج.

. أما بعد صلاة العشاء فيفرغ الشيخ نفسه لدرس التفسير الذي يلقيه كل ليلة والذي تحضره مئات من عامة الناس وخاصتهم من الطلاب والأساتذة والشباب، حيث تكتظ بهم رحاب المسجد.

وقد كان الناس يتسابقون لحضور هذا الدرس الذي أصبحت له سمعة كبيرة في داخل قسنطينة وخارجها،لأنه درس جامع يجد فيه المستمعون كل ما يهمهم من أمور الدين والدنيا من قضايا الماضي والحاضر

(1) المصدر نفسه ص 261.

والمستقبل، لأن طريقة الشيخ في تفسير القرآن لم تكن طريقة تقليدية تكتفي بشرح ظاهر للفظ واستعراض أقوال العلماء وخلافاتهم التي لا تفيد المستمع.

وبدرس التفسير ينتهي اليوم الدراسي، وقد يرتفع عدد الدروس في فصل الصيف نظراً لطول النهار، وفي شهر رمضان المعظم يضيف الشيخ إلى دروسه المعتادة درساً في شرح متن البخاري قبيل صلاة الظهر كل يوم، حرصاً على إفادة طلابه وجمهور المصلين.

وأما الدروس الخاصة بالنساء، فيخصص لها يوم الجمعة بعد العصر في الجامع الأخضر، وجعل هذا اليوم خاصاً بهم إقتداءً بالنظام الذي اتبعه النبي (ص) في تعليم النساء، وأما الدروس التي يخصصها للشبان والعمال فوقتها يوم الأحد من كل أسبوع (يوم العطلة)، وقد قسمهم إلى مجموعتين، مجموعة تتلقى تعليمها في الفترة الصباحية ومجموعة أخرى تتلقى تعليمها ليلاً بحسب ما يناسب كل مجموعة، وتلقى هذه الدروس في مقر جمعية التربية والتعليم، وهكذا يمر الأسبوع الدراسي من بدايته إلى نهايته وتعطى للطلاب عطلة أسبوعية تدوم يومين (الخميس والجمعة).

أما الشيخ فلا يأخذ عطلة لأن له أعمالاً أخرى تنتظره في هذين اليومين، منها أنه يسافر في أغلب الأحيان إلى الجزائر (العاصمة) ومنها إلى تلمسان في القطار الليلي للاجتماع بالشيخين: العقبي في الجزائر والإبراهيمي في تلمسان، والاطلاع من خلالهما على أحوال الجمعية في الوسط والغرب، ثم بعد ذلك يعود ليلاً إلى قسنطينة، حتى لا تضيع لطلابه دروس صبيحة يوم السبت، وقد يتجه أحياناً إلى جهات أخرى من الوطن.

ويبدو أن هذه الرحلة قد اختصرت في يوم أو توقفت في السنوات الأخيرة نظراً لكثرة أشغاله في قسنطينة، وخاصة حينما شرع يدرس للنساء عشية الجمعة، وعدا هذا كانت له محاضرات في المناسبات بنادي الاتحاد في

قسنطينة أو غيره كنادي الترقي بالجزائر[1].

ح . طريقة ابن باديس في التدريس:

طريقته في التدريس تجمع بين القديم والحديث، فهو ينطلق مع الطلاب من المتن الذي يطلب منهم حفظه والاستعداد لتلقي الشروح التي تلقى عليهم، ولكنه لا يهمل مساءلة الطلاب ومحاورتهم، ودفعهم إلى التحليل والمناقشة، ولكي يثير انتباههم، ويجعلهم مشدودين إلى الدرس، يتعمد الشيخ توجيه الأسئلة المفاجئة التي تقطع شرود الذهن، وتجعل الطالب في انتباه دائم، ويقظة مستمرة.

ومن الجوانب المنهجية التي يهتم بها الشيخ أنه لا يكتفي بما طرح في المتن من قضايا أو حقائق، وإنما يحاول أن يستغل الفرص والمناسبات ليطرح قضايا معاصرة لها صلة بحياة الناس سواء أكانت قضايا اجتماعية أو وطنية أو تاريخية أو سياسية. وكان دقيقاً في تحليلاته الأدبية، معاصراً في طرحه للإشكالات التي تواجه المجتمع، مجتهداً في استنباط الأحكام، أو تكييفها مع الواقع، كما كان يحرص أشد الحرص على غرس بذور الروح الوطنية الصادقة في نفوس الطلاب، وحينما يتعرض للشواهد النحوية أو البلاغية أو الاستشهادات الشعرية ؛ فإنه يغنيها، ويشرحها شرحاً وافياً يستخرج منها العبر والحكم وينبه الطلاب إلى محل الشاهد ويطبقه على القاعدة المدروسة من خلال الأمثلة الحية، التي تجعل الطلاب يتذوقون العبارة، ويدركون المعنى، ويستوعبون خصائصها. وكثيراً ما يلفت نظر الطلاب إلى النكت البلاغية والخصائص التعبيرية وأسرار البيان، فينير أفكار التلاميذ، ويفيدهم إفادات لغوية وفكرية، ويحبب إليهم المادة التي يدرسونها[2].

ط . بعض آراء طلبته في طريقة تدريسه:

يقول أحد طلبته وهو الجيلاني بن محمد المعروف بالجيلاني الفارسي أو الأضامي: وتكاد تكون ملكة

(1) المصدر نفسه ص 263.

(2) المصدر نفسه ص 264.

التفهيم أبرز صفاته، وأخص نعوته، يختار طريقة الحوار والمراجعة والاستفهام والاستنطاق[1].

ومن أخص صفاته كذلك أنه لا يشعرك بثقل القواعد، وجفاف الحقائق العلمية، بل يفيض عليك من روحه الأدبية وحياته الاجتماعية ونشاطه المستديم ما يكسبك نشاطاً ومرحاً، ورغبة في العلم وتعطشاً له[2].

والذي تجب الإشارة إليه هنا هو: أن التعليم ليس مجرد مجموعة من المواد تدرس، وإنما هو قبل كل شيء روح تسود النظام، فتترك ظلالها على المواد التي تدرس، كما تتركها على الطريقة التي تدرس بها، وعلى إدارة المؤسسات التعليمية وهكذا[3].

ويشير إلى هذا المعنى د. تركي رابح فيقول: وكانت دروسه «الشيخ» بصفة عامة تمتاز بالحيوية والنشاط، وروح الجد المشوب بقليل من المرح والدعابة التي تتخللها بين حين واخر، لكي تخفف من عنائها على الطلبة وتبعث فيهم روح الإقبال على الدراسة والتحصيل، وكان يصب كل تعاليمه التي يدعو إليها في السياسة والدين والاجتماع والاقتصادية الوطنية في هذه الدروس، مهما كانت المادة التي يدرسها حتى ولو كانت القواعد النحوية، لذلك كانت دروسه عامرة وجذابة اسرة تجذب انتباه الطلبة إليها، وتشدهم نحوها وتحملهم على الإقبال عليها بشغف وحماسة لأنهم يجدون فيها ما لا يجدونه في كتاب أو مرجع اخر، وهذه هي ميزة ما لا يجدونه في كتاب أو مرجع اخر، وهذه هي ميزة ابن باديس الكبرى في طريقة تدريسه وهي ميزة عظماء الرجال، وباعثي النهضات الكبرى في التاريخ[4].

ويصف أحد تلامذته، وهو « أحمد بن ذياب » هذه الحيوية في دروسه فيقول: والحيوية في دروس ابن

---

(1) المصدر نفسه ص 264.

(2) الشهاب ج7 م15 أوت 1939 م ص 327.

(3) التربية الإسلامية في القرن 15، عبد الغني عبود ص 34.

(4) عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 308.

باديس زيادة على ما اختصت به من الفضائل ؛ كانت في شدة اتصالها بالحياة أياً كان نوع الفن، وفي تلك النصائح الثمينة التي كان يزود بها تلاميذه والأخلاق الطيبة التي يغرسها فيهم، وفي الروح العظيمة التي يوحي بها إليهم فينشؤون على الطموح والتطلع إلى الجد والاستماتة في سبيل الأمانة التي حملوها[1].

من هذه الأقول نستشف أن ابن باديس لم تكن تهمه المعلومات في حد ذاتها ؛ بقدر ما كانت تهمه الاثار الفكرية والنفسية والأخلاقية التي تحدثها المعلومات، لذلك كان يركز كل التركيز على طريقة التناول، لأنها هي التي تحقق له الغاية التي كان يتطلع إليها، فتكوين شخصية المتعلم هو أهم جانب من جوانب المشروع التربوي الذي كرس له حياته، لأنه كان يسعى إلى الجمع بين التربية والتعليم، فالتعليم الخالي من الروح التربوية لا يكوّن لنا المواطن الواعي الذي يتطلع إليه المجتمع[2].

2. الإطار التنظيمي للتعليم المدرسي:

أ. الجانب القانوني:

إن أهم قاعدة تنظيمية بُني عليها التعليم المدرسي استناده إلى القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية، الذي حدد الغرض من تأسيس الجمعية ومن تنظيم التعليم الذي تشرف عليه، فقد ورد في المادة الثانية من هذا القانون: أن مقصد الجمعية هو نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف العربية والفرنسية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين[3].

وتسعى الجمعية لتحقيق غرضها هذا «كما اشارت المادة الثالثة»، بإنشاء المدارس وتأسيس النوادي، وإحداث نظام البعثات لإرسال التلاميذ على نفقتها للدراسة في الكليات والمعاهد الكبرى، بالإضافة إلى

(1) جريدة البصائر، العدد 77، 28 أفريل 1949م.

(2) إمام الجزائر ص 265.

(3) المصدر نفسه ص 266.

المؤسسات الأخرى مثل الملاجئ لرعاية الأيتام، والمصانع لتدريب التلاميذ على المهارات اليدوية، وهذا هو الإطار القانوني الذي حدد اتجاهات الجمعية ومشروعية التعليم وطابعه المميز.

ويبدو من تحليل المواد الأربع الأولى من القانون أن وظائف المدرسة التي تحرص الجمعية على نشرها وتوسيع نطاقها كانت واضحة في ذهن واضع القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم، الذي هو في الحقيقة قانون يؤسس التعليم المدرسي ويحدد أهدافه وإتجاهاته.

ونتبين من التحديد الذي أوردته نشرة جمعية التربية والتعليم في عددها الأول عام 1936م فقد ورد في هذه النشرة على لسان ابن باديس:

ـ بني القانون الأساسي للجمعية من الوجهة التربوية على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيتهم.

. ومن الوجهة التعليمية على تثقيف أفكارهم بالعلم باللسانين «العربي والفرنسي» وتعليمهم الصنائع.

. ومن الوجهة المالية على تعويد الأمة على العطاء المنظم وتوسيع نطاق الجمعية..الخ:

نتبين أنه هنا يسعى إلى تحديد هدف سلوكي اجتماعي تنمو من خلال تحقيقه روح البذل والعطاء واتجاهات التكافل والتضامن والسخاء لتحقيق المشاريع التي تعود على الأمة وعلى أبنائها بالنفع العميم[1].

ب ـ الأهداف التي يسعى إليها التعليم المدرسي:

يستخلص مما سبق أن أهداف التعليم المدرسي أربعة: هدف تربوي تكويني، هدف تعليمي تثقيفي، هدف عملي مهاري، وهدف سلوكي.

إن نشر الأخلاق الفاضلة التي نص عليها القانون هي البعد الأساسي في العملية التعليمية، لذلك جعله ابن باديس هدفاً من أهداف الجمعية ، ووظيفة من وظائف المدرسة التي لم يحصر وظائفها في تلقين العلوم

(1) المصدر نفسه ص 267.

والمعارف، إنما جعلها تتضمن بالدرجة الأولى تربية الأبناء والبنات تربية عربية إسلامية صحيحة. ويضيف ابن باديس إلى البعد التربوي ـ المتمثل في بناء شخصية المتعلمين، والبعد التعليمي المتمثل في إكسابهم المعارف، يضيف بعداً آخر وهو البعد العملي التطبيقي الذي يكسب المتعلمين خبرة بالحياة ويؤهلهم لممارسة بعض الأنشطة الحياتية النافعة.

لذلك فكر في إنشاء مصنع أو مشغل يتاح فيه للتلاميذ التدريب على بعض المهارات اليدوية، ومعرفة الأساس العلمي الذي يقوم عليه العمل، ومن ثم معرفة قيمة العمل والعاملين، وهذا ما نجده اليوم في مناهج التعليم الأساسي الذي يسعى لتأصيل قيمة العمل في نفوس المتعلمين وأوليائهم[1].

ج ـ تنشيط التعليم المدرسي:

لم يضع ابن باديس شروطاً تعوق الأطفال الراغبين في التعليم حين أنشأ مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، وكذلك في مدارس جمعية العلماء التي انتشرت بعد ذلك، بل جعل فرص التعليم فيها متاحة للجميع، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، وسواء أكانوا متمدرسين أم غير متمدرسين، لأن المبدأ الذي بني عليه هذا التعليم والذي يعد من مبادئ النظم التربوية الحديثة ؛ هو السعي إلى تعميم التعليم ونشره في أوساط المجتمع دونما تمييز، حتى يتاح للأجيال المشاركة في الحياة العامة، والإسهام في بناء المجتمع المتعلم القادر على مواجهة الاستعمار بالأسلحة الملائمة.

وحرصاً من الشيخ على تعليم البنات بصفة خاصة فتح في وجوههن أبواب مدرسة التربية والتعليم مجاناً، ورفع عنهن كل قيد، وحارب الذهنيات التي كانت تقلل من أهمية تعليمهن. وحتى يزيل العوائق التي قد تحرمهن من التعليم ؛ رخص لهن أن يدرسن إلى جانب البنين في مدرسة واحدة، ولكن في إطار تنظيمي يتلاءم مع أخلاق المجتمع ويرفع الحرج عن أوليائهم، ويمنع حصول ما يخشى منه، وحث أولياءهن على تغيير مواقفهم

(1) المصدر نفسه ص 268

ودفع بناتهم إلى التعليم، مبيناً لهم ضرورة ذلك بالعواقب التي تنتج عن بقائهن جاهلات، لأن المرأة لا تستطيع القيام بوظيفتها بالشكل المطلوب إن بقيت جاهلة أو تركت لسياسة الاستعمار تفعل بها ما تشاء.

وفي هذا الإطار حذر من الأخطار التي تنجم عن الوضعية المتدهورة التي تتعرض لها المرأة الجزائرية، والتي تفرض عليها أحد الأمرين: إما أن تبقى جاهلة مهمشة، وإما أن يرمى بها في أحضان تعليم أجنبي ينفرها من دينها أو يحقره في عينها، وفي كلتا الحالتين تكون النتيجة سيئة: «الجهل أو المسح». وما يترتب عن هذه النتيجة هو أن لا تقدم للمجتمع إلا أجيالاً شبيهة بها.

وهكذا استوعب الناس أهداف الجمعية ونبل مقصدها، فهبوا للإقبال على مدارسها، فما كادت تمر بضعة أشهر على تأسيس المدرسة «مدرسة التربية والتعليم» بقسنطينة ؛ حتى رأينا ثمانين فتاة تضمها أقسام المدرسة[1].

د . نظام الدراسة:

نظام الدراسة المتبع في مدرسة التربية والتعليم وفي المدارس المتفرعة عنها شبيهة بالنظام المتبع في المدرسة الابتدائية الحكومية في مدة الدراسة وفي عداد الصفوف، أي أن الدراسة في التعليم العربي الحر تدوم ست سنوات، ومناهجها التعليمية موزعة على ستة صفوف، من الصف الأول إلى الصف السادس. غير أن نظام الدوام في المدرسة الحرة يختلف عن نظام الدوام في المدرسة الحكومية، لأنه موضوع أساساً ليتلاءم مع طبيعة المتمدرسين، فالمدرسة الحرة تعمل وفق نظامين:

نظام النهاريين «المتفرغين لهذا التعليم»، وهو يشبه الدوام المتبع في المدرسة الحكومية، أي الدروس تقدم على فترتين: فترة صباحية وفترة مسائية تتخللها أوقات راحة. أما الدوام الخاص بالتلاميذ المنتسبين إلى المدرسة الفرنسية فهو منظم حسب أوقات فراغهم، بحيث لا يتعارض مع أوقات دراستهم، وغالباً ما يكون قبل بداية

---

(1) المصدر نفسه ص 270.

الدوام، عندما يكون النهار طويلاً، أو بعد الدوام مساء، تضاف إليه دروس في يوم العطلة، وتضيف بعض المدارس دواماً ليلياً لفئة الشباب أو لمحو الأمية.

هـ . نظام الانتقال:

ينتقل التلاميذ من صف لاخر بطريقة الية لا تخضع للاختبارات أو للتقويم المستمر هذا في بداية الأمر، أما بعد ذلك فقد تطور التعليم وتطورت نظمه بحيث أصبح التلاميذ يخضعون للمناداة والمتابعة وتسجيل الغيابات وللامتحانات في آخر كل سنة دراسية[1].

و . شرط السن غير مطلوب:

لم يحدد ابن باديس ورفقاؤه في بداية الأمر السن القانونية التي تشترط في بداية الدراسة وفي نهايتها فكان الالتحاق بالمدارس مفتوحاً بدون شرط، بحيث تجد في الفصل الواحد أعماراً متفاوتة، لأن ابن باديس لم يشأ أن يصنع نظاماً صلباً يحرم من هم في حاجة إلى التعليم، بل كان هدفه الأساسي هو إنقاذ الأطفال المشردين أو الضائعين الذين لم يجدوا مقاعد في المدرسة الحكومية حتى ولو كانت أعمارهم تجاوزت السن القانونية للتمدرس، سواء في بداية المرحلة التعليمية أو في نهايتها.

وهذا لا يعني أن هذا الوضع قد استمر حتى بعد أن انتشرت المدارس وتطورات الجهود التعليمية وخاصة في الفترة الأخيرة من عمر هذا التعليم المدرسي الحر، أي بعد وفاة ابن باديس.

فالمعلمون الذين كلفوا بهذا التعليم، إدارة وتعليماً، ومعهم الجمعيات المحلية وأعضاء جمعية العلماء، الذين كلفهم الشيخ بتنشيط عمليات التعليم والإصلاح في مختلف المناطق ؛ هؤلاء جميعاً خطوا بالتعليم خطوات، جعلته يرقى شيئاً فشيئاً بحسب الإمكانات المتوافرة،مما جعل مدارس التعليم العربي الحر في الفترة الأخيرة تقترب

(1) المصدر نفسه ص 271.

في تنظيماتها وفي أساليبها مما يجري في المدرسة الحكومية، فبدأنا نشاهد سجلات المناداة وإحصاء الغيابات وتحديد سن الدخول المدرسي، واشترط الملف الصحي وشهادة الميلاد، الذي يعتمد في التسجيل..إلخ[1].

3. البرنامج التعليمي (المقررات الدراسية):

لم يحدد ابن باديس ورفقاؤه المشرفون على التعليم المدرسي والممارسون برنامجاً تعليمياً مفصلاً، يتضمن المقررات الدراسية لكل صف من صفوف المدرسة، على غرار التعليم المسجدي. «وهذا في فترة رئاسة ابن باديس» ولم يحددوا كذلك الكتب والطرائق التي ينبغي أن يتبعها المعلمون في تدريس المواد المقررة في هذه المرحلة فضلاً عن توحيد التعليم، فقد ترك ذلك لاجتهادات المعلمين ومبادرات المدرسين والجمعيات المحلية التي تشرف على المدرسة، واكتفى ابن باديس من خلال اجتماعه بالمعلمين والعلماء وكتاباته في المجال التربوي . بتقديم توجيهات عامة تفيد المعلم الذي يدرك أبعاد مهمته وأهداف رسالته في تلك الفترة العصيبة وأبعاد المهمة التي كانت واضحة.

فالتعليم العربي الحر أنشأئ لغرض يعرفه الجميع، وهو تعليم الأطفال الجزائريين لغتهم ودينهم وشيئاً من تاريخ أمتهم وتربيتهم على قواعد السلوك الإسلامي وأخلاقيات المجتمع الذي ينتمون إليه، كما أن للمعارف العلمية والثقافية العامة التي يحتاج إليها الطفل في حياته بصفته فرداً في المجتمع نصيب في المناهج، وكان المطلوب من المعلمين كذلك أن يثبتوا في نفوس تلاميذهم الروح الوطنية، والاعتزاز بالشخصية الجزائرية.

وفي هذا الإطار كانت توجيهات ابن باديس سواء في اللقاءات التربوية أو في الدروس المسجدية، أو في المحاضرات العامة والمقالات التي كان يحررها وينشرها ويسعى من خلالها إلى بث روح جديدة في نفوس المواطنين جميعاً.

وهذا ما جعل جمعية التربية والتعليم التي يرأسها ابن باديس تؤجل العمل الموجّه لوضع برنامج تعليمي

---

(1) المصدر نفسه ص 272.

مفصل وموحد، وتأليف كتب مدرسية مناسبة، واقتراح توجيهات تربوية تعتمد في التدريس، لأن المهمة العاجلة التي كانت على عاتق الجمعيتين «جمعية التربية والتعليم وجمعية العلماء» هي تأسيس شبكة من المدارس تستجيب لاحتياجات الشعب، وتوفير العدد الكافي من المعلمين، ومواجهة الاستعمار الذي كان يضيق على أنفاس هذه المدارس ويتشدد في منح الرخص.

ومع ذلك فقد انطلقت المدارس في أداء مهمتها بالوسائل المتاحة، وهب الخيرون من أبناء الشعب يعضدون هذا المشروع بإنشاء المدارس وتوسيع نطاق التعليم(1).

والأمر الذي تجب الإشارة إليه هو المبادرة التي كان يقوم بها بعض المعلمين والمتمثلة في اقتباس بعض المواد أو الأساليب التي يجري العمل بها في المدرسة الحكومية، وإدراجها في برنامج المدرسة الحرة لأهميتها، مثل دروس الحساب والجغرافيا والمحادثة والأشياء والرسم، ويعني هذا أن المعلم الذي يدرك أبعاد مهمته يحرص دائماً على الاحتكاك بالحقائق التربوية حيثما تكون، ليأخذ منها ما يراه صالحاً لتلاميذه، خاصة إذا كان ما يقتبسه لا يتعارض مع الأهداف المسطرة(2).

4 . العلم في المفهوم الباديسي:

إن العلم في المفهوم الباديسي هو العلم بمعناه القرآني الشامل، وليس العلم الديني فقط، على أهميته في المحافظة على الهوية الثقافية، والحضارية، فهاهو يوجّه نصيحة غالية للإنسان المسلم بهذا الشأن فيقول: فأحذر كل متعلم يزهدك في كل علم من العلوم، فإن العلوم كلها أثمرتها العقول لخدمة الإنسانية، ودعا إليها القرآن بالايات الصريحة، وخدمها علماء الإسلام بالتحسين واستنباط ما عرف منها في عهد مدنيتهم الشرقية والغربية

(1) إمام الجزائر ص 273.

(2) المصدر نفسه ص 276.

حتى اعترف بأستاذيتهم علماء أوربا اليوم[1].

ومن هذا المنطلق قام الشيخ ابن باديس بقراءة للحضارة العربية الإسلامية في الجانب العلمي، وقدَّم نظرة للحضارة الأوربية الحديثة فقال: وهذا كما كان العرب والمسلمون أيام، بل قرون مدنيتهم، عرّبوا كُتب الأمم إلى ما عندهم ونظروا وصححوا، واستدركوا وأناروا بالعلم عصرهم، ومهدوا الطريق، ووضعوا الأسس لما جاء بعدهم، فأدوا لنوع الإنسان بالعلم والمدنية أعظم خدمة تؤديها له أمة في حالها وماضيها ومستقبلها.

وكما نرى الغرب في مدنيته اليوم ترجم كتب المسلمين فعرف علوم الأمم الخالية التي حفظتها العربية وأدتها بأمانة وعرف علوم المسلمين ومكتشفاتهم فجاء هو أيضاً بمكتشفاته التي هي ثمرة علوم الإنسانية من أيامها الأولى إلى عهده، وثمرة تفكيره ونظره فيها. وقد كانت مكتشفاته أكثر من مكتشفات جميع من تقدمه .كما كانت مكتشفات صدر هذا القرن أكثر من مكتشفات عجز القرن الماضي . لتكاثر المعلومات، فإن المكتشفات تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات فيكثر ما يعقبها من المكتشفات على نسبة كثرتها، وهكذا يكون كل قرن . ما دام التفكير عاملاً . أكثر معلوماتٍ ومكتشفاتٍ من الذي قبله[2].

فنظرة ابن باديس وقراءته للحضارة الغربية الحديثة كانت متسمة بالاعتدال وموسومة بالإنصاف، فقد تحدث عن العنصر الجوهري في الحضارة الحديثة وهو العلم والتكنولوجيا، وضرورة التسلح بهما، فدعا صراحة إلى الأخذ بكل الأدوات والوسائل التي تمكننا من التحكم في العلم والتكنولوجيا[3].

5 . الاهتمام باللغات:

يرى ابن باديس الأخذ بالوسائل التي تمكننا من التحكم في العلم والتكنولوجيا وفي مقدمتها اللغات الأجنبية ، فقال رحمه الله: إن الذي يحمل علم المدنية العصرية اليوم هو أوروبا ، فضروري لكل أمة تريد أن

(1) آثار الأستاذ الإمام ابن باديس (4 / 43).

(2) مجالس التذكير ص .138.

(3) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 204.

تستثمر تلك العقول الناضجة وتكتنف دخائل الأحوال الجارية ؛ أن تكون عالمة بلغة حيَّة من لغات أوربا، وكل أمة جهلت جميع اللغات الغربية ؛ فإنها تبقى في عزلة عن هذا العالم، مطروحة في صحراء الجهل والنسيان من الأمم المتمدنة التي تتقدم في هذه الحياة بسرعة لم يسبق لها مثيل، ومما لا يرتاب فيه . والواقع نشاهد . أن مقدار كل أمة في اللحوق والتخلف بركب المدنية بنسبة كثرة وقلة انتشار لغة فيها من لغات الغرب(1).

فهدف الشيخ ابن باديس من وراء الدعوة إلى تعلم اللغات الأجنبية، كل اللغات الأجنبية، إنما هو التمكن من العلوم والتكنولوجيا، فما دام مصدر العلم اليوم هو أوربا والوسيلة إليه هو التحكم في لغتها، فبات من المصلحة الحرص على تعلم هذه اللغات وإتقانها(2).

وهكذا نجد ابن باديس يجعل من تعلم اللغات الأجنبية وإتقانها وسيلة لفك الحصار عل اللغة العربية، فإذا كان الاستعمار يحرص على تعليم لغته لأبناء المستعمرات ليكوِّن منهم جيلاً متنكراً لأصالته، وقيم دينه ولغته وتاريخه، أي جيلاً ممالئاً للاستعمار مشحوناً بالدونية، فإن ابن باديس حرص على أن يبقى المتعلم للّغات الأجنبية موصولاً بأمته، مستشعراً لضرورة القيام بخدمتها، فمن تعلم لغة أجنبية يكون حاله كمن يحصل على سلاح يدافع به عن قومه، أمَّا أن يوجه ذلك السلاح لصدور بني جنسه فهذا هو الجنون والخيانة(3).

فقال: العلوم في الجزائر، كما أظنها في غيرها ؛ منها علوم تؤخذ باللسان العربي وهي علوم الدين واللسان، ومنها علوم تؤخذ باللسان الأجنبي وهي علوم الأكوان والعمران.

وقد كان الذين يزاولون العلوم الأولى على جمود تام، كما كان الذين يزاولون العلوم الثانية على تيه

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 40).

(2) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 205.

(3) المصدر نفسه ص 206.

وضلال، فهؤلاء يعتبرون الاخرين أحجاراً وأولئك يعتبرون هؤلاء كفاراً.

وهكذا كانت الجزائر في الحركة العلمية، إلى أن مرَّت عليها مائة عام وأنشئت جمعية العلماء المسلمين الجزائرين، فتولت إفهام كل طرف قيمة الطرف الاخر، وبينت للجميع أنهم مهما نطقوا بأي لسان فهم من الجزائر إلى الجزائر، ولا تنهض إلا بهم ولا ينهضون إلا بها. ولقد وضعت هذه الجمعية برنامجاً صالحاً لتعليم الصغار اللسان العربي، وتكميل معلومات من تعلموا باللسان الأجنبي، كما خصصت دروساً للكبار[1].

وقال عن الشيخ المصلح التونسي بشير صفر في حفل أقيم بتونس للاحتفاء بذكراه: إنه رجل بنى ما أخذه من العلوم باللغات الأجنبية على ثقافة إسلامية عربية وبذلك استطاع أن يخدم أمته وأن يحتل قلبها[2].

وقال كذلك في محاضرة له بمدينة قالمة: فأرجوكم أيها الشبان الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان وعن أي شخص وجدتموه، وأن تطبعوه بطابعنا لننتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذه الأوربيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به[3].

وهكذا تحافظ الأمة على ذاتيتها وتنفتح على الحضارة المعاصرة، وهذا الموقف من اللغات الأجنبية الذي أملته ظروف الواقع، وحتمته ضرورة ترقية العربية، وبذل المزيد من الجهود لتكون العربية لغة العلوم والفنون كلها، لأنه لا يتم استقلال أمة دون استقلال كامل عناصر هويتها ومقوِّمات شخصيتها، وفي مقدمتها اللغة القومية، فهو يرى بأن «اللغة العربية من اللغات الحية التي تقرن بالإنجليزية والألمانية»[4].

---

(1) آثار الإمام ابن باديس (4 / 166).

(2) آثار الإمام ابن باديس (4 / 317).

(3) المصدر نفسه (4 / 323).

(4) المصدر نفسه (4 / 40).

وأنها قادرة على استيعاب كل العلوم وتدريسها بها. ولذلك كان كثير الدعوة إلى إبراز خصائص العربية، وقدرتها على مواكبة المستجدات[1].

6 . الهدف من العلم:

إن العلم المقصود عند ابن باديس ليس هو حشد العقول بالمعلومات النظرية وإغفال السلوك والأعمال التطبيقية، فالعلم وثيق الصلة بالأخلاق، وبدونها لا ينفع العلم لا في كثرة ولا في قليل، فالعلم والعمل متلازمان، يقول ابن باديس: إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم، وقوة الإدارة، وقوة العمل، فهي أسمى الخلق الكريم والسلوك الحميد[2].

ويقول كذلك: حياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاث، الإرادة، الفكر، العمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لا بد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين، والعمل المفيد من البدن السليم، فلهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم، ويقوِّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى والتريض على العمل[3].

فالهدف من العلم في نظر ابن باديس هو بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة، فهو ذو أبعاد نفسية وعقلية واجتماعية. ولذلك يقول رحمه الله: إن كل ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية. والمثال الكامل لذلك كله هو حياة محمد (ص) في سيرته الطيبة[4].

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 207.

(2) مجالس التذكير ص 269.

(3) المصدر نفسه ص 269.

(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس السلفية والتجديد ص 209.

ويقول كذلك: على المربين لأبنائنا أن يعلموهم ويعلموهن هذه الحقائق الشرعية ليتزودوا وليتزودن بها، وبما يطبعونهم ويطبعونهن عليه من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة[1].

فهو يريد أن يتجاوز الطرق العقيمة في تدريس العلوم التي لا تعدو أن تكوّن عند طالبها ثقافة لفظية جدلية لا تهذب سلوكاً ولا تغيِّر واقعاً، بل تغرق طالبها في معارك وهمية لا يخرج منها إلا وهو خائر القوة منهك الجسد دون أن يستفيد من ذلك شيئاً.

ولذلك يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة مع قليل من العلم، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا[2].

7. من آداب المتعلم حسن التلقي وطلب المزيد:

قال تعالى: {وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا *} [طه : 114].

قال ابن باديس في تفسير هذه الآية: لا حياة إلا بالعلم، وإنما العلم بالتعلم، فلن يكون عالماً إلا من كان متعلماً، كما لن يصلح معلماً إلا من قد كان متعلماً، ومحمد (ص) الذي بعثه الله معلماً، كان أيضاً متعلماً، علمه الله بلسان جبريل، فكان متعلماً عن رب العالمين، ثم كان معلماً للناس أجمعين، أرأيت أصل العلم ومن معلموه ومتعلموه؟ ثم أرأيت شرف رتبة التعلم والتعليم، لا جرم كان لرتبة التعلم آدابها، وكان محمد (ص) أكمل الخلق في آدابه بما أدبه الله وأنزل عليه من الآيات.

(1) المصدر نفسه ص 209.

(2) المصدر نفسه ص 210.

أ ـ لزوم الصمت عند السماع:

كان النبي (ص) إذ أنزل عليه جبريل ـ عليه السلام ـ بالوحي وقرأه عليه قرأ معه وساوقه في القراءة، وكان ذلك منه (ص) لحرصه على حفظه وعدم نسيانه، حتى يبلّغه كما أنزل عليه. ولأن تعلق قلبه بما يسمع من جبريل وامتلاءه به واستيلاء ذلك المسموع على لبه، يدعوه إلى النطق به لما بين القلب واللسان من الارتباط، ولأن شوقه إلى ذلك المسموع ومحبته ورغبته فيه تبعثه على التعجيل بقراءته، غيرأن القراءة عند السماع وقبل تمام الإلقاء تمنع الوعي، لأن عمل اللسان بالنطق يضعف عمل القلب بالوعي والحفظ، فلذا أوصى الله تعالى نبيه (ص) أن لا يعجل بقراءته عند سماعه من جبريل من قبل أن يقضي ويتمم إليه وحيه، فقال تعالى: {وَلاَ تَعْجَلْ بالقرآن مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه : 114].

ب ـ تأكيد الصمت بكف اللسان:

لا يتم تفرغ القلب للوعي إلا بسكون اللسان، فلا يكفي في تفرغه ترك القراءة الجهرية عند السماع حتى يكف اللسان عن الحركة، فلا تكون القراءة الجهرية عند السماع حتى ينكف اللسان عن الحركة فلا تكون قراءة لا جهراً ولا سراً، فلذا أكد الله تعالى طلب ترك القراءة بالنهي عن تحريك اللسان، فقال تعالى: {لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ *} [القيامة : 16].

ثم بيّن أن الله بجمعه في قلبه ـ (ص) ـ بالحفظ وأنه يطلق بقراءته لسانه بقوله: {إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ *} [القيامة : 17]، أي قراءتك إياه، ثم أمره أن يتبع قراءة جبريل إذا قرأه عليه فيقرأه كما قرأه بعد فراغه بقوله: {فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ *} [القيامة : 18]، أي فإذا قرأه جبريل وفرغ منه فاتبع قراءته فاقرأ كما قرأه، وأنه تعالى يبينه بأقوال نبيه ـ (ص) ـ وأفعاله بقوله: {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ *} [القيامة : 19][(1)].

ج ـ هذا الأدب أدب عام:

إنما المقصود من الكلام البيان عن المراد، وإنما المقصود من السماع وعي الكلام ليفهم المراد، فكما كان

(1) المصدر نفسه (1 / 348).

على المتعلم أن يسكت حتى يفرغ معلمه من القدر المرتبط بعضه ببعض مما يلقيه إليه حتى يفرغ المعلم من إلقائه ؛ كذلك على المناظر أن يستمع لمناظره حتى يستوفي دعواه وحجته.

وعلى كل قارئ لكتاب أن يستوفي ما يرتبط بعضه ببعض منه، ثم يبدي رأيه، وعلى كل مستمع لمتكلم كذلك، فبهذا الأدب يتم وعي المتعلم فيحفظ، وفهم السامع لتحصيل فائدة الاستماع، وبترك هذا الأدب كثيراً ما يقع سوء الوعي أو سوء الفهم وفوات القصد من المناظرة أو القراءة أو الكلام.

د ـ دوام التعلم للازدياد من العلم:

يتعلم الإنسان حتى يصير عالماً ويصير معلماً، ولكنه مهما حاز من العلم وبلغ من درجة فيه، ومهما قضى من حياته في التعليم وتوسع فيه وتكمل به فلن يزال بحاجة إلى العلم ولن تزال أمامه فيما علمه وعلمه أشياء مجهولة يحتاج إليها. فعليه أبداً أن يتعلم وأن يطلب المزيد ؛ ولذا أمر الله نبيه (ص) ـ وهو المعلم الأعظم ـ أن يطلب من الله ـ وهو الذي علمه ما لم يكن يعلم ـ أن يزيده علماً فقال: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا *} [طه : 114].

هـ ـ تحذير واقتداء:

ما أكثر ما رأينا من قطعهم ما حصلوا من علم عن العلم فوقف بهم عندما انتهوا إليه فجمدوا، وأكسبهم الغرور بما عندهم فتعظموا وتكلموا فيما لم يعلموا فضلوا وأضلوا، وكانوا على أنفسهم وعلى الناس شر فتنة وأعظم بلاء.

فبمثل هذه الآية الكريمة يداوي نفسه من ابتلي بهذا المرض فيقلع عن جموده وغروره ويزداد مما ليس عنده ممن عنده علم ما لم يعلم، ويحذر من أن يقف عن طلب العلم ما دام فيه زمن من الحياة، ويقتدي بهذا النبي الكريم صلى الله عليه واله وسلم ؛ فلن يزال يطلب من الله تعالى أن يزيده علماً بما ييسر له من أسباب وما يفتح له من خزائن رحمته وما يلقيه في قلبه من نور، وما يجعل له فرقان وما يوفقه إليه من أصل ذلك كله وهو

تقوى الله والعمل بما عليه، نسأل الله لنا وللمسلمين العلم النافع والعمل الصالح، فهو ولي الهداية والتوفيق[1].

ثانياً: المنهج التربوي:

لقد استطاع ابن بادس أن يربي أجيالاً من الجزائريين، كانت أساساً لنهضة الجزائر الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنه ما من أمة يمكن أن تنهض نهوضاً حقيقياً إلا عن طريق التربية والتعليم، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس من العقائد وتقويم الأخلاق الذي يؤدي إلى تطابق الباطن مع الظاهر، فالأخلاق تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع، فصوت الضمير أقوى من مئات القوانين والأحكام.

وقد أدرك ابن باديس أن القرآن الكريم هو مصدر الخلق العظيم، ولهذا سعى إلى تعليم القرآن وتفسيره لتحصين المجتمع الجزائري وإعداده بتربية إسلامية شاملة أساسها القرآن وسنة رسول الله (ص)، ولتتحصَّن هذه الأمة وتتمسَّك بأخلاقها وقيمها، فلا سبيل إلا بالتعليم والتوعية وبث روح القرآن وأخلاقه في نفوس المتعلِّمين.

وقد خاطب ابن باديس الشعب الجزائري مبيناً مكانة التعليم في عملية المحافظة على الإسلام، حيث قال: أيها الشعب الجزائري المسلم الكريم، تالله لن تكون مسلماً إلا إذا فقهته، ولن تفقهه إلا إذا كان فيك من يفقّهك فيه، فلهذا فرض الله على كل شعب إسلامي أن تنفر منه طائفة لتتفقه في الدين وترجع إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الاعوجاج إلى الاستقامة، قال تعالى: {وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ *} [التوبة : 122].

وإذا كان الفرد المسلم هو محور العلمية التربوية التعليمية التي تعتمد في أساسها على التثقيف وتعليم الإسلاميين لمحاربة التغريب والتقليد ؛ فإن إصلاح المجتمع في رأي ابن باديس لا يكون إلا بصلاح الفرد،

(1) المصدر نفسه.

وإصلاح الفرد لا يكون إلا بتطهير نفسه وعقله من البدع والخرافات وتأثيرات الغرب، وذلك بتعليم الإنسان المسلم علوم القرآن والسنة والمعارف الصحيحة، وبتربية الأخلاق والقيم الإسلامية[1].

فصلاح النفس كما يقول ابن باديس: هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجِّهة كلها إلى صلاح النفوس، إمَّا مباشرة وإمّا بواسطة.. فتكميل النفس هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل وشرع الشرائع[2].

إن نهوض الأمم ورقيّها، أو سقوطها وانحدارها ؛ منوط بالعلم والمعرفة والالتزام بالأخلاق السامية أي بالتربية والتعليم، فإذا نجح شعب في برامجه التربوية ـ التعليمية ؛ حقَّقَ أهدافه وغاياته الحضارية، وإن هو أخفق تراجع عن أهدافه[3].

1 . أهداف التربية والتعليم:

التعليم والتربية هما هدف وغاية في تكوين الشخصية عقلياً ونفسياً وسلوكياً، وهما وسيلة وأداة لتحقيق تلك الغاية، وهما نهج وسبيل لا يمكن تجاوزهما لأولئك الذين يريدون بناء الأمم والحضارات أو تجديدها إذا أصابها التقدم والبلى، والتربية والتعليم هما صنوا العلم والعمل، فلا فائدة من العلم دون العمل، كما لا فائدة من التعليم من دون التربية، فمنذ الأزل، التربية والتعليم متلازمان جنباً إلى جنب لتحقيق غاية الحق من الخلق.

وقد طرح بعضهم رأياً طريفاً حول معصية ادم ـ عليه السلام ـ لله ـ عز وجل ـ وهبوطه من الجنَّة إلى الأرض، حيث قال: إنَّ الله سبحانه وتعالى علَّم ادم الأسماء كلَّها، وقال له بصيغة الأمر الموجب للعمل:

(1) سؤال النهضة، د. لطيفة عميرة ص 163، 164.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 232).

(3) سؤال النهضة ص 164.

{وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ *} [البقرة : 35]، فالأمر هنا يمثل التربية، والعمل في مقابل تعليم الأسماء وصيغة الأمر، أي عدم الاقتراب من الشجرة، إلا أنَّه لم يلتزم ادم به فأخذ العلم دون العمل، ولم يتربَّ على الالتزام بمقتضيات العلم، ولأنَّ التربية انفصلت عن العلم لم يكن العلم وحده قادراً على الحيلولة بينه وبين الوقوع في الخطيئة[1].

والمقصود بالتربية هي جملة المبادئ والقيم التي تنتمي إلى ثقافة أو حضارة ما، والتربية غير التعليم، ذلك لأنَّ التربية تعني عملية البناء العقلي والقلبي والسلوكي للإنسان، أي هي عبارة عن تنمية الشخصية لدى الإنسان المتعلم[2].

وقد كانت مهمَّة الأنبياء بالدرجة الأولى هي مهمَّة تربوية، فالنبي (ص) كان المربي الأوَّل في الإسلام، فقد أخبرنا الله سبحانه وتعالى عن مهمَّة الأنبياء في الأرض حيث قال: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ *} [البقرة : 151].

وقوله أيضاً: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياته وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ *} [آل عمران: 164].

والذي ينبغي ملاحظته في الآيات السابقة هو اندماج العلم والعمل، التعليم والتربية، الحكمة والتزكية، حيث يقترن تعلُّم الكتاب باكتساب الحكمة، ومعلوم أنَّ الحكمة هي المعرفة المتعلِّقة بالعمل والخبرة والتجارب، فالغاية من التربية إذن ؛ هي أن يكتسب الإنسان أفكاراً ومعلومات وقيماً وسمات الشخصية، تجعله أكثر قدرة على تحقيق ذاته وأكثر إسهاماً في تحقيق أهداف أمَّته وإنجاز طموحاتها، فتكون التربية على هذا الوجه مغايرة للنظرية المجرَّدة ذات البنية المنضبطة على النحو الذي يجده في العلوم التطبيقية البحتة، كالفيزياء والرياضيات

(1) المصدر نفسه ص 167.

(2) المصدر نفسه ص 167.

والكيمياء... وإنَّما هي علم بمعنى اخر، إنها علم أداء أي أنَّها عبارة عن سلوك وممارسة لمعارف وقيم وثقافة، فهي علم يشتق مبادئه عن طريق ممارسة المعارف واقتباسها من العلوم الأخرى(1).

وهنا يأتي دور العلماء والمعلِّمين حيث يختبرون هذه المعارف النظرية في المجال العملي في مؤسسات التربية والتعليم، وتبدأ عملية التعليم كما يفهمها الجميع، وكما جاء بها سلف المسلمين فهو نشر العلم لكل أحد، للكبير والصغير والمرأة والرجل بحِلَقِ الدرس، ومجالس الوعظ وخطب المنابر، وبكل طريق موصل(2).

فالمسؤولية التي تقع على العلماء في مهمَّة التربية والتعليم برأي ابن باديس كبيرة جداً، وفي وقت الشدة والبلاء في طور الانحطاط والتقهقر تكون المسؤولية أعظم، فمسؤولية العلماء عند الله فيما أصاب المسلمين في دينهم لعظيمة، وحسابهم على ذلك لشديد طويل، ذلك بما كتموا من دين الله وبما خافوا في نصرة الحقّ سواه، ولما حافظوا على منزلتهم عند العامَّة وسادة العامَّة، ولم يحافظوا على درجاتهم عنده، وبما شحوا ببذل القليل من دنياهم فيما يرضيه، وبما بذلوا واسرفوا في الكثير من دينهم فيما يغضبه.. وإن راجعنا تاريخ المسلمين في سعادتهم وشقائهم وارتفاعهم وإنحطاطهم وجدنا ذلك يرتبط إرتباطاً متيناً بقيام العلماء بواجبهم أو قعودهم عمَّا فرضه الله وأخذ به الميثاق عليهم.

يقول تعالى في هذا الشأن: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ *} [آل عمران: 187].

وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *} [البقرة : 159 ـ 160].

(1) المصدر نفسه ص 167.

(2) المصدر نفسه ص 167.

فالعلم إذن أمانة في عنق العلماء، وهم مطالبون بأدائها لمستحقيها ؛ ذلك أنَّ العلم هو هبة الله لهم، وليس ملكاً لهم يفعلون به ما يشاؤون ويستغلونه كيفما شاؤوا، فيكتمونه إن رأوا من مصلحتهم الشخصية ـ إن خوفاً أو طمعاً ـ أن الكتمان أوفق لهم، أو ينشرون منه ما لا يصادم أهواء العامَّة، بل يزيدهم سلطة عليهم وجاهاً، ولا أبخس من يشتري الحياة الدنيا بالآخرة[1].

كان ابن باديس يرى أن الثروة الوطنية إنما هي إنتاج الفضيلة، ومفتاح الفضيلة التربية والتعليم، لقد صرف معظم حياته في التعليم والتربية وأسس المدارس، وطوَّر المناهج، وأعدَّ المدرسين والمعلمين، وكان يعتقد أن التعليم يجب أن يكون متصلاً بطبيعة المجتمع ومشكلاته، وأن يستهدف تغذية قلوب الصغار بالمشاعر والمبادئ الشائعة في بلدانهم، وأن الغاية من التربية والتعليم هي تكوين الشخصية العربية الإسلامية لا مجرد حشد عقل المتعلِّم بكمية من المعارف، ويجب أن تحمل العملية التربوية المتعلِّم على تقدير أهمِّية الصحة والعائلة وواجباتها والصداقة والأخوَّة وفوق كل ذلك حبَّ الوطن الذي هو الدافع الأكبر للناس على محاولة بناء مجتمع مزدهر متطوِّر[2].

وقد بُني القانون الأساسي لجمعية التربية والتعليم الإسلامية في مدينة قسنطينة من الناحية التربوية على تربية وتعليم أبناء المسلمين وبناتهم تربية عربية إسلامية، وذلك بالمحافظة على دينهم ولغتهم وتثقيفهم بالعلم والمعارف وباللغتين العربية والفرنسية، وتعليمهم المهن والصنائع[3].

لقد تمحورت الأهداف التربوية إذن في نهج ابن باديس ونشاطه حول الإسلام والوطن واللغة والإنسان الجزائري، فقد اعتمد الإمام في نشاطه التربوي على تطهير النَّفس، وذلك بإصلاح العقائد وتقويم الأخلاق،

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 311)، وسؤال النهضة ص 168.

(2) المصدر نفسه ص 170.

(3) المصدر نفسه ص 170.

فالباطن أساس الظاهر، كما أنَّ العمل التربوي عنده استهدف تأهيل الشعب الجزائري وتنبيه قدراته الفعلية والاجتماعية والخلقية والاقتصادية والسياسية، لكي يتوصَّل بالنتيجة إلى حياة أفضل في مجتمع أفضل، ثم تستهدف هذه العملية التربوية، الدفاع عن الشخصية الجزائرية، والحفاظ على خصوصية التشكُّل التاريخي الذي لا علاقة أصلاً لفرنسا به لا من قريب ولا من بعيد[1].

2. التربية الروحية:

إهتمَّ ابن باديس بالجانب الروحي وحرص على غرس معاني الإيمان في نفوس من يحضر له في دروسه، فكان يربي الناس على الأذكار وتلاوة القرآن والصيام والصلاة والزكاة، واهتم بالأمور التي تغذي الإيمان وتهذيب السلوك المستمدة من الكتاب والسنة، وكان يستخرج الفوائد التربوية من الآيات القرانية، فمثلاً عندما فسَّر قول الله تعالى: {وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِي لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ *} [النمل : 20]. فقال ما يلي: سأل سليمان عن حال نفسه، فقال: ما لي لا أرى الهدهد؟ ولم يسأل عن حال الهدهد، فيقول ما للهدهد لا أراه؟، فذكر حال نفسه قبل أن يذكر حال غيره.

فنقل الحافظ الإمام العربي عن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري شيخ الصوفية في زمانه قال: إنما قال: {مَالِي لاَ أَرَى}، لأنه اعتبر حال نفسه، إذ علم أنه أوتي الملك العظيم وسُخر له الخلق، فقد لزمه حق الشكر فلأجله سُلبها، فجعل يتفقد نفسه فقال: {مَالِي}، وكذلك تفعل شيوخ الصوفية ؛ إذا فقدوا امالهم تفقدوا أعمالهم، هذا من الأدب، فكيف بنا اليوم ونحن نقصر في الفرائض[2]؟

وكان يوجِّه عامَّة الناس إلى تزكية النفس وتقويم الأخلاق والتحقق بالعبادة والإخلاص فيها، وإدمان تلاوة القران، والمحافظة على الصلاة على النبي (ص)، وقيام الليل.

(1) المصدر نفسه ص 170.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 81، 82.

وكان يدعو للتسامح ويشرح الأدعية:

أ . دعاء القنوت:

إن الإسلام الذي قرَّر التسامح مع أهل الملل أصلاً من أصوله ؛ يجد فيما يتلوه المسلمون من آياته ودعواته وأذكاره ما يقوي تمسكهم بذلك الأصل ويرسخه فيهم، ونحن نذكر هنا على سبيل المثال دعاء القنوت:

«اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونؤمن بك، ونتوكل عليك، ونخنع لك، ونخلع، ونترك من يكفرك، اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك، ونخاف عذابك، إن عذابك الجد بالكافرين ملحق» ويزيد قسم عظيم منهم قوله: «اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيما عافيت، وتولنا فيما توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت، فإنك تقضي ولا يقضى عليك، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز من عاديت، تباركت ربنا وتعاليت، فلك الحمد على ما أعطيت نستغفرك ونتوب إليك»[1].

أرأيت هذا التوحيد لله والإخبات والتعظيم له، والاعتزاز والاعتماد عليه؟ فلما تعرض الدعاء للكافرين لم يزد على تركهم في قوله: «ونترك من يكفرك»، فالمسلم يتمسك بدينه ويترك غير أهل دينه ودينهم، وهذا من باب قوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون : 6].

ولما ذكر عذابهم في قوله: «إن عذابك بالكافرين ملحق». جعله لله فهو الذي يعذب من كفر به من عباده فلم يرج رحمته ولم يخف عذابه، وهذا من باب قوله تعالى: {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ *} [آل عمران: 128].

فالمسلم بهذه التغذية الشريفة الطيبة لا يكون إلا نقي القلب من الحقد الديني واسع الصدر عظيم التسامح، وإذا رأيت ما يدعو في نفس المسلم وما يربيه عليه ؛ فانظر إلى ما ينشره رجال الكنيسة بين أتباعهم من الصلوات اليومية وما تشتمل عليه من آثار للحقد الديني وتقوية له ودعوة صريحة إليه.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 492).

ففي الصلاة اليومية التي نقلناها في العدد الماضي عن (الصدى الكنسي لقسنطينة وبونة) يقول «وأقدم إليك صلواتي بصفة أخص، من أجل اتحاد كل الكاثوليك ومن أجل محاربة الإسلام. بهذا تغذي الكنيسة مؤمنيها وهم في وسط إسلامي لا تكمن سعادته وهناؤه إلا بتعاون سكانه فيه بروح التسامح والتواد، وتملأ صدورهم بهذا التعصب الممقوت ضد قوم مسالمين ومستضعفين، فلا يدري إلا الله كم أثمرت هذه التغذية الخبيثة من علقم، كان وزر من جرعه ومن تجرعه على من بثوه في النفوس ومكّنوه في القلوب. حاشا الأصول الأولى لتلك الملة التي تأمر بهذا، فقد عرفوا ما جاء في «متى» «5: 44»»:

وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيؤون إليكم ويطردونكم.

ولكن الرؤساء الذين يريدون المحافظة على مصالحهم ويرون أن محبة أتباعهم لهم تكون بقدر بغضهم للإسلام، هم الذين يتحملون مسؤولية هذا ويبوؤون بإثمه.

نكتب هذا ليطلع قراؤنا على حقائق واقعية تتصل بالحياة الاجتماعية بينهم وبين من يساكنونهم في وطنهم، وليعلم إخواننا المسلمون عظيم نعمة الله عليهم بما شرعه لهم من أصل التسامح العظيم فيزدادوا به تمسكاً، فيعيشوا سالمي الصدور من داء الحقد الديني والتعصب الممقوت، وليعرف الذين يبثون تلك السموم أن أعمالهم لا تخفى على غيرهم فعسى أن يقلعوا عنها، ويرجعوا للعمل معنا على بث روح التسامح بين عباد الله. والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل(1).

ب ـ الصلاة على النبي:

بين ابن باديس: أن الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ من أصول الأذكار في الإسلام، ومن أعظمها، فإن الله ـ تعالى ـ أمر بها المؤمنين على أبلغ أسلوب في التأكيد، وأكمل وجه في الترغيب، وجعلها من

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 493).

الأذكار اليومية المتكررة في الصلوات وهي ذكر لساني بتلاوة لفظها، وقلبي بتدبر معانيها، ومثمرة لرسوخ الإيمان وشدة المحبة وتمام التعظيم له ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ المثمرَين لأتباعه، المحصل لمحبة الله عبده، وتلك غاية سعادة المخلوق ونهاية كماله:

{قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *} [آل عمران: 31].

وهذه الصلاة تكون من المخلوق ومن الخالق على المخلوق، فمن الأول صلاة النبي ـ (ص) ـ على المؤمنين، كما في ايتي سورة التوبة المتقدمتين، ومنها قوله ـ (ص) ـ: اللهم صلِّ على آل أبي أوفى. فقد دعا لهم وسأل الله تعالى أن يصلي عليهم، وصلاته على نفسه في تشهده في الصلاة، ومنه صلاة الملائكة على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ كما في آية الصلاة من سورة الأحزاب، وصلاتهم على المؤمنين كما في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ} [الأحزاب : 43]، ويفسر هذه الآية قوله تعالى: {وَالْمَلاَئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ} [الشورى : 5]، وهذا منهم دعاء عام[1].

وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [غافر : 7]، وهذا دعاء خاص.

وكما في حديث: «من صلى عليَّ صلاة صلت عليه الملائكة عشراً»، وحديث: «إذا صلى أحدكم ثم جلس في مصلاه لم تزل الملائكة تصلي عليه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»، ومنه صلاة المؤمنين على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ وعلى الأنبياء والملائكة وعلى عامة المؤمنين بطريق التبع فهي سؤالهم من الله تعالى ودعاؤهم إياه أن يصلي على نبيه ومن ذكر قبل معه، فهذه كلها من القسم الأول وهو صلاة المخلوق على المخلوق، وكلها لم تخرج على معنى الدعاء[2].

(1) المصدر نفسه (4 / 377).

(2) المصدر نفسه (4 / 377).

وأما القسم الثاني: وهو صلاة الخالق على المخلوق فمنها صلاته على المؤمنين في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا *} [الأحزاب : 43]، وصلاته على الصابرين في قوله تعالى: {أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ *} [البقرة : 157]، وعلى نبيه محمد ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا *} [الأحزاب : 56].

قد تنوعت عبارات العلماء سلفاً وخلفاً في تفسير صلاته تعالى على من ذكر من خلقه، ففسرت بالرحمة. والجمع في قوله «صلوات» باعتبار أنواع اثارها ومواقعها، وقوله بعدها «ورحمة» نوع منها خاص. وفسرت بالمغفرة، وفسرت بثنائية عند ملائكته على المصلى عليه ـ من باب (ذكرته في ملأ خير منه) ـ وفسرت بإعطائه وإحسانه، وفسرت بتعظيمه. ولا خلاف في الحقيقة بين هذه التفاسير، فإن مغفرته من رحمته وإن ثناءه من رحمته، وإن عطاءه وإحسانه من رحمته، وإن تعظيمه من رحمته، فرجعت كلها إلى تفسيرها بالرحمة[1]،

ومن الصيغ في الصلاة على النبي (ص) ما رواه أبو سعيد الخدري عند البخاري في أحاديث الأنبياء والتفسير قال ـ رضي الله عنه ـ قلنا يا رسول الله هذا السلام عليك، فكيف نصلي؟ قال قولوا: «اللهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وفي رواية أخرى للبخاري: كما صليت على آل إبراهيم بزيادة لفظة «ال»، وليس في آخرها «وعلى آل إبراهيم».

وجاءت روايات صحيحة كلها قد اتفقت واختلفت، اتفقت على عمود الكلام وصلب المعنى ومعظم الكلمات، واختلفت في كلمات قليلة[2].

(1) المصدر نفسه (4 / 378).

(2) المصدر نفسه (4 / 378).

والصلاة عليه ـ (ص) ـ واجبة مرة في العمر، وذهب الشافعي إلى وجوبها في التشهد الثاني من الصلاة، وقيل بوجوبها عند ذكره، وثبت الترغيب فيها إثر حكاية الأذان ويوم الجمعة وليلتها، وعند الدعاء، ثم ما شاء حسب الطاقة.

ويقصد المصلي بصلاته امتثال أمر الله ورجاء ثوابه والتقرب إليه بذكر نبيه على وفق أمره وقضاء بعض حقه والمكافأة بقدر جهدنا لبعض إحسانه وإظهار تمام المحبة فيه والاحترام له، وصحة العقيدة في دينه.

وصيغ الصلاة كثيرة والأمر فيها واسع، وأرفعها قدراً وأعظمها نفعاً هي الصيغة التي قالها النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ لأصحابه ـ وقد سألوه ـ في معرض البيان، وبيانه لهم بيان لجميع الأمة بعدهم، وهو أعلم الناس بما ينفع وأحرص الناس على جلبه لأمته، فلا أنفع ولا أرفع مما جاء به من عند ربه واختاره لأمته[1].

ومظهر الصلاة على النبي صلى الله عليه واله وسلم، كسائر الأذكار، وهو اللسان، وثمرتها في الأعمال، ومنبتها هو القلب. فليحذر المصلي من الغفلة عند جريان الصلاة على لسانه.

والصلاة النبوية صيغة تعبدية، فليحذر من اللحن فيها، وجاء وعيد فيمن تركها عند ذكر النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ فليحذر من تركها عنده وخصوصاً من إعتاد تركها، وقد اعتاد بعضهم أن يقول لصاحبه عند الغضب «صلِّ على النبي»، وهذا وضع لها في غير محلها، وتعريض للاسم الشريف إلى ما لا يليق ممن قد يكون عنده جنون الغضب من تقصير أو سوء أدب، فليحذر من هذا ومثله.

وقد هجر الناس الصلاة النبوية التوقيفية واقتصروا على غيرها، وزاد بعضهم فقال: إن غيرها أنفع منها، فليحذر من هذا الهجر ومن هذا القول، فمحمد ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ أنفع الخلق وأرفعهم، وفعله أرفع

(1) المصدر نفسه (4 / 405).

الأفعال وأنفعها، وقولها أرفع الأقوال وأنفعها، فليجعل أصل صلاته الصلاة النبوية، المروية وليجعل بعدها ما شاء.

ومن الكتب المشهورة بين الناس في الصلاة على النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ كتاب تنبيه الأنام وفيه موضوعات كثيرة لا أصل لها، فبينما قارئه في عبادة الصلاة إذا هو في معصية الكذب، فليكن منه على حذر. والله يفتح علينا في العلم ويوفقنا في العمل له والحمد في الأولى والآخرة لرب العالمين[1].

إن الصلاة على النبي صلى الله عليه واله وسلم من العبادات المهمة في التربية الروحية، وهي من الغنائم المباركة لسالكي طريق المجاهدة في الله، والصلاة على النبي صلى الله عليه واله وسلم لها ثمرات كثيرة وفوائد عظيمة منها:

ـ حصول عشر صلوات من الله عز وجل على المصلي بالصلاة مرة واحدة على النبي (ص).

ـ أنها سبب لشفاعته (ص) إذا قرنها بسؤال الوسيلة أو أفردها.

ـ أنها سبب لكفاية العبد ما أهمه.

ـ أنها تقرب صاحبها من طريق الجنة.

ـ أنها سبب لإبقاء الله سبحانه الثناء الحسن والبركة للمصلي، لأن المصلي طالب من الله أن يثني على رسوله، ويكرمه ويشرفه ويبارك عليه وعلى اله، وهذا الدعاء مستجاب فلا بد أن يحصل للمصلي نوع من ذلك، والجزاء من جنس العمل.

ـ أنها سبب لدوام محبة العبد لرسوله (ص) وزيادتها وتضاعفها وذلك عقد من عقود الإيمان لا يتم إلا به[2].

هذا بعض المعالم في التربية الروحية التي اهتم بها ابن باديس في تغذية أرواح المواطنين بالغذاء الروحي والزاد

(1) المصدر نفسه (4 / 407).

(2) البحر الرائق، أحمد فريد ص 121.

الإيماني الذي يقربهم من الله عز وجل، قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 9 . 10].

ولذلك ركز ابن باديس على تطهير الروح وتنزيهها عن مساوأئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها لتسمو بصاحبها نحو الكمال الإنساني، ذلك لأن الإنسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرَّض للسقوط والنقصان بما فيه من اختلاط عناصر جزئه الأرضي الظلماني وهو جسده، ولا يخلص من كدرات جثمانه، ولا ينجو من أسباب نقصانه، إلا بعبادة ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه، وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه[1].

ج . الصلاة لأوقاتها:

قال تعالى: {أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا *} [الإسراء : 78].

كان ابن باديس حريصاً على أن يلتزم الناس بالصلاة المكتوبة، ظهر ذلك في خطبه ودروسه، وشرحه لايات الذكر الحكيم، فعندما تحدث عن تفسير الآيات السالفة الذكر، قال: أقم يا محمد . صلى الله عليه واله وسلم . وأمره أمر لأمته لأنَّهم مأمورون بالاقتداء به . الصلاة لأجل ميل الشمس، فأدِّ الظهر والعصر، وفي غسق الليل فأدِّ المغرب والعشاء، وأقم صلاة الفجر إنها صلاة مشهودة[2].

وقد جاء عن النبي (ص) . في الترغيب في امتثال هذا الأمر «أقم الصلاة» وفي الترهيب من مخالفته . من الأحاديث ما فيه مقنع ومزدجر، فمما جاء فيها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله (ص) يقول: خمس صلوات كتبهن الله عز وجل على العباد، فمن جاء بهنَّ لم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ولم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة، رواه مالك.

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 181).

(2) المصدر نفسه (1 / 309).

ومما جاء في الترغيب حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمعت رسول الله ـ (ص) ـ يقول: أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هي يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فكذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهنَّ الخطايا رواه الشيخان في صحيحهما.

ومما جاء في الترهيب حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال رسول الله (ص) «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة» رواه مسلم وغيره بنحوه. وحديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً: العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر. رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الترمذي وابن حبان والحاكم(1).

ـ الأحكام:

وقد قال بكفر تارك الصلاة جماعات كثيرة من الفقهاء والمحدثين، سلفاً وخلفاً، مستدلين بحديث جابر وحديث بريدة الصريحين في كفره، وذهبت جماعات أخرى كذلك إلى عدم كفره على عظم جرمه، مستدلين بحديث عبادة ابن الصامت الصريح في جعله في المشيئة، والكافر مقطوع له بدخول النار، ويجيبون عن حديث جابر وبريدة بأن المراد من كفر تارك الصلاة هو الكفر العملي، والكفر قسمان: اعتقادي وهو الذي يضاد الإيمان، وكفر عمل وهو لا يضاد الإيمان، ومنه كفر تارك الصلاة غير المستحل للترك، وكفر من لم يحكم بما أنزل الله كذلك، وبهذا يجمع بين الأحاديث. وكفى زاجراً للمرء عن ترك الصلاة أن يُختلف في إيمانه هذا الاختلاف(2).

ـ تعليم:

في ربط الصلاة بالأوقات تعليم لنا لنربط أمورنا بالأوقات ونجعل لكل عمل وقته، فللنوم وقته، وللأكل وقته، وللراحة وقتها، ولكل شيء وقته، وبذلك ينضبط للإنسان أمر حياته وتطّرد له أعماله، ويسهل عليه

(1) المصدر نفسه (1 / 312).

(2) المصدر نفسه (1 / 312).

القيام بالكثير من الأعمال، وأما إذا ترك أعماله مهملة غير مرتبطة بوقت فإنه لا بد أن يضطرب عليه أمره، ويتشوش باله، ولا يأتي إلاَّ بالعمل القليل، ويحرم لذة العمل وإذا حرم لذة العمل أصابه الكسل والضجر، فقلّ سعيه وكان ما يأتي به من عمل ـ على قلته وتشويشه ـ بعيداً عن أي إتقان.

وقد كان النبي ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ مقسماً لزمانه على أعماله، وفيه القدوة الحسنة، فقد روى عياض ـ رضي الله عنه ـ في «الشفا» عن علي رضي الله عنه قال: كان ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ إذا أوى إلى منزله جزَّأ دخوله ثلاثة أجزاء. فجزءاً لله وجزءاً لأهله، وجزءاً لنفسه، ثم جزَّأ جزأه بينه وبين الناس فيرد ذلك على العامة والخاصة ولا يدخر عنهم شيئاً، فكان من سيرته في جزء الأمة إيثار أهل الفضل بإذنه، قسمته على قدر فضلهم في الدين، منهم ذو الحاجة، ومنهم ذو الحاجتين، ومنهم ذو الحوائج، فيتشاغل بهم ويشغلهم فيما يصلحهم والأمة من مسألته عنهم، وإخبارهم بالذي ينبغي لهم، ويقول ليبلغ الشاهد منكم الغائب وأبلغوني حاجة من لا يستطيع إبلاغي حاجته، فإنه من أبلغ سلطاناً حاجة من لا يستطيع إبلاغها ثبت الله قدميه يوم القيامة لا يذكر عنده إلا ذلك، ولا يقبل من أحد غيره يدخلون رواداً ولا يتفرقون إلا عن ذواق ويخرجون أدلة.

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله ويعمرها كلها بالخير. وكما ربط الله له صلاته بالأوقات، وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه، والله نسأل لنا ولجميع المسلمين أن يقصرنا على طاعته ويفقهنا في أسرار دينه ويوفقنا إلى اتباع سنة رسوله عليه وعلى اله أفضل الصلاة والسلام[1].

د ـ نافلة الليل وحسن العاقبة:

قال تعالى: {وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا *} [الإسراء : 79].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 313).

ومما قاله في تفسيره للآية: أسهر بعضاً من الليل فتعبد بالقرآن في الصلاة زيادة تعبدك به في صلاة فرضك، تكون على رجاء أن يبعثك ربك من مرقدك يوم يقوم الناس لرب العالمين، فيقيمك مقاماً يحمدك فيه جميع الناس لما يرون لك من فضل وما يصل إليهم بسببك من خير[1].

وقد بينت السنة أن النبي ـ (ص) ـ كان ينام ثم يقوم، فبينت السنة العملية أن التهجد المطلوب هو القيام بعد النوم[2].

والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى وهي خاصة به، ويدل عليه حديث جابر الصحيح: من قال حين يسمع النداء ـ الأذان ـ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ات محمداً الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته ـ حلت له شفاعتي يوم القيامة.

قد جعل الله تعالى جزاء نبيه ـ (ص) ـ على تهجده وخلوته بربه في مناجاته هذا المقام الذي يحمده فيه الخلق ويتقبل فيه شفاعته ويستجيب دعوته ويفتح عليه بمحامد من ذكره لم يفتح عليه بها قبل. ففي هذا تنبيه للمؤمنين على حسن عاقبة القائمين لربهم في جنح الليل، وما يكون لهم من مقامات عند ربهم على حسب منازلهم، فكما كان المؤمنون ملحقين بنبيهم ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ في مشروعية هذه العبادة ؛ كذلك هم ملحقون به في حسن الجزاء عليها، وإن كان قد خصص هو عليه السلام بذلك الجزاء الأعظم فلهم جزاؤهم من مقامات القرب والزلفى والقبول والرضا، على ما يناسب منازلهم جزاء بما كانوا يعملون[3].

هـ ـ الدعاء بصدق المدخل والمخرج:

قال تعالى: {وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيرًا *} [الإسراء : 80].

(1) المصدر نفسه (1 / 315).

(2) المصدر نفسه (1 / 315).

(3) المصدر نفسه (1 / 318).

قال ابن باديس في تفسيره لهذه الآية: قل يا محمد سائلاً ربك متضرعاً إليه، يا رب أدخلني إدخالاً حسناً كاملاً تساوى في ظاهره وباطنه في الحسن والكمال، وتماثلت بدايته ونهايته وحاله وعاقبته فيهما أن أكون فيه على بصيرة ويقين وثبات وقوة، وأخرجني إخراجاً كذلك . وإذا كان بمعنى الظرف كان المعنى أدخلني في مكان حسن أو زمان حسن..الخ وأخرجني كذلك، واجعل لي من عندك تسلطاً بالحق على العقول بالحجة والبرهان، وعلى الملك بالعدل والإحسان، ينصرني ويؤيدني على كل من يقف في طريق دعوتي إليك، وهداية خلقك من جبابرة البغي أو رؤوس الضلال(1).

وقال أيضاً: كل فرد من أفراد بني الإنسان في كل لحظة من لحظات حياته لا ينفك عن المداخل والمخارج، فكل ساعة يقضيها من حياته هي مدخل باعتبار دخوله فيها من غيرها، ومخرج باعتبار خروجه منها إلى سواها، فإن قضاها صادق العقد صادق القول، صادق العمل، وفارقها كذلك ؛ فهي مدخل صدق ومخرج صدق، وإن قضاها وفارقها سيأئ العقد سيأئ القول سيأئ العمل فهي ليست كذلك، بل هي مدخل كذب وفجور ومخرج كذب وفجور، فالإنسان محتاج في كل لحظة من حياته لتوفيق الله وتأييده، وحفظه وإمداده.

فجاء هذا الدعاء القرآني منبهاً على هذه العقيدة، مشتملاً على سؤال ما يحتاج إليه الإنسان في جميع شؤونه في حياته، وأطواره فيه من ألطاف ربه، ولما كان الإنسان في كل لحظة من حياته . لا بد . واجداً معارضاً وصاداً عن الخير والصدق وقاطعاً في طريق الحق . من نفسه وشياطين الإنس والجن . قرن الدعاء السابق بالدعاء الثاني الذي فيه طلب التأييد من الله بالسلطان المبين.

فالدعاءان على اختصارهما وإيجازهما . قد جمعا للإنسان كل حاجته من تحصيل الخير ودفع الشر فهما من أعظم الأدوية الربانية للإنسان ومن أعظم وسائله الشرعية إلى خالقه، فما أحراهما بأن يلهج بهما في كثير من أوقاته(2).

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 320).

(2) المصدر نفسه (1 / 322).

وقال أيضاً: فعلينا أن لا ندخل في أمر إلاَّ على بصيرة به وعلم بحكم الله تعالى فيه، وأن دخوله خير، وأن لا نخرج من أمر إلاَّ على بصيرة وعلم كذلك، لا فرق بين أمر وأمر من كبير وصغير وجليل وحقير، ونكون ـ مع بذل غاية ما عندنا من نظر واختيار ـ معتمدين على ربنا واثقين بحسن اختياره لنا مسلمين له فيما اختاره، ضارعين له مظهرين فقرنا وحاجتنا في كل حال، وعلينا أن نحصل من الأسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل، لنكون أهلاً للدفاع عن الحق وحزبه، ومقيمين لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والإحسان، معتمدين مع تحصيل تلك الأسباب ـ على الله وحده ـ ومنتظرين منه الفرج والتيسير.

هذان هما الأصلان الأساسيان في سلوك أهل الله:

التمسك بالحق، ومدافعة الباطل، فاستمسك بهما تكن ـ بإذن الله ـ من الفائزين[1].

والله سبحانه وتعالى يتقبل دعاء الصادقين.

ولما أمره الله تعالى أن يدعوه بحسن المدخل والمخرج والنصرة والتأييد ؛ أمره أن يعلن استجابته لدعوته بمجيء الحق وفي ذلك نصره، وذهاب الباطل وفي ذلك هلاك أعدائه وذهاب دولتهم هذا على النظر العام، وأما على النظر الخاص فإن الله تعالى بعد ما ذكر أن أعداءه كادوا يستفزونه من الأرض وأمره أن يتوجه إلى عبادته ودعائه، ذكرفي هذه الآية ما كان من نصره على المشركين، وفتح مكة عليه، وتنكيس الأصنام التي هي باطلهم وإعلان كلمة التوحيد الذي هو دينه وهدايته، ولذا كان النبي ـ (ص) ـ يتلو هذه الآية عندما كان يشير إلى الأصنام فتسقط إلى الأرض، ففي الصحيح من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنَّ رسول الله ـ (ص) ـ دخل مكة «يعني عام الفتح» وحول البيت ستون وثلاثمائة نصب فجعل يطعنها بعود في يده ويقول: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا *} [الإسراء : 81].

(1) المصدر نفسه (1 / 323).

وقال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ *} [سبأ : 49]، الحق الثابت الذي لا يعتريه زوال الباطل الذي لا ثبات له في نفسه، فالإسلام حق ويشمل كل ما هو معصية، زهقت الروح: خرجت، وزهق الباطل: ذهب واضمحل.

الزهوق: الهالك الذاهب[1].

وقال أيضاً: مجيء الحق هو بظهور أدلته، وقيام دولته، وزهوق الباطل هو ببطلان شبهه وذهاب دولته. فأما القسم الأول فإنَّ الأمر فيه ما زال ولن يزال كذلك ولن تزداد على الأيام أدلة الحق إلاَّ إتضاحاً.

ولن تزداد شبه الباطل إلا افتضاحاً.

وأما القسم الثاني فإنه مرتبط بأحوال أهل الحق وما يكونون عليه من تمسك به وقيام فيه أو إهمال له وقعود عنه، فيدال لهم ويدال عليهم بحسب ذلك[2].

ويرتبط قلب المسلم مطمئناً على أن ماهو عليه من الإسلام حق لا شك فيه، وأنه يومئذ منصور ما تمسك به، وأنه إذا خذل فإنما جاءه ذلك من ناحية نفسه، وعلىأن ما عدا الإسلام هو باطل لا شك فيه، وأن صاحبه هالك عند ربه، وأن ما يكون له من سلطان لم يأته من جهة باطلة، وإنما جاءه من أسباب عمرانية مما يقتضيه الحق، وفرط فيه أهله فحرموا ثمرته[3].

وعلى أهل الحق أن يكون الحق راسخاً في قلوبهم عقائد، وجارياً على ألسنتهم كلمات، وظاهراً على جوارحهم أعمالاً، يؤيدون الحق حيثما كان وممن كان، ويخذلون الباطل حيثما كان وممن كان، يقولون كلمة الحق على القريب والبعيد، على الموافق والمخالف، ويحكمون بالحق كذلك على الجميع، ويبذلون نفوسهم وأموالهم في سبيل نشره بين الناس وهدايتهم إليه بدعوة الحق وحكمة الحق وأسبابه ووسائله، على ذلك

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1/ 324).

(2) المصدر نفسه (1 / 325).

(3) المصدر نفسه (1 / 325).

يعيشون وعليه يموتون، فلنجعل هذا السلوك سلوكنا، وليكن من همِّنا، فما وفينا منه حمدنا الله تعالى عليه، وما قصرنا فيه تبنا واستغفرنا ربنا، فمن صدقت عزيمته ووطّن على العمل نفسه، أُعين ويُسِّر للخير، وربك التواب الرحيم[1].

و ـ القرآن شفاء ورحمة:

قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا *} [الإسراء : 82].

قال ابن باديس: لما جاء في الآية السابقة الإخبار بمجيء الحق، وفي مجيئه صحة الأرواح والأبدان والأحوال، وبزهوق الباطل وفي ذهابه ذهاب العلل والأمراض كذلك ؛ جاء في هذه الآية بذكر القرآن والإخبار عما جاء فيه من الشفاء والرحمة تنبيهاً على أنه هو الشافي من أمراض الباطل وعلله، وأنه هو مصدر الحق وحجة ناصره، ومحصل الرحمة لأتباعه والمتمسكين به[2].

وقال: وصف الله تعالى القرآن بأنه شفاء في مواضع من كتابه منها هذه، ومنها قوله تعالى في سورة يونس عليه السلام:

ـ قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ *} [يونس : 57].

ـ قال تعالى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً} [فصلت : 44].

وأفادت الآيات كلها أنه شفاء لأهل الإيمان الذين يؤمنون به دون غيرهم بإعراضهم عنه كانوا من الخاسرين، وجاءت آية يونس بتقيد الشفاء بما في الصدور الذي هو العقائد، لأن ذلك هو المقصود الأول من هداية القران، وأصل لغيره، فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزغات الشكوك، واعتقدت الحق وارتبطت على اليقين ؛ زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فرده وجماعته، ورقى درجات الكمال، فلا ينافي

(1) المصدر نفسه (1 / 325).

(2) المصدر نفسه (1 / 327).

ذلك أن القرآن شفاء أيضاً للنفوس من سيأئ الأخلاق، كما هو مقتضى الإطلاق في آية الإسراء هذه واية فصلت، لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولازمة لها ولأنهما كليهما ـ العقائد والأخلاق ـ لا تكمل النفس الإنسانية إلا بالشفاء فيهما، ولا ينافي أيضاً حصول الشفاء للأبدان بالقرآن في بعض الأحوال، كما هو مقتضى الإطلاق أيضاً ومقتضى ما سيأتي من الآثار، وإن كان هذا ليس هو المقصود بالقصد الأول من شفاء القرآن(1).

والأمراض الإنسانية قسمان، أمراض أرواح وأمراض أبدان، وكلاهما أنواع. وأمراض الأرواح المقصودة بالذات هنا ترجع إلى نوعين: مرض العقول ومرض النفوس، فالأول بجمود النظر وفساد الإدراك وتقليد الاباء واعتقاد الباطل والشك في الحق، والثاني بفساد الأخلاق وانحطاط الصفات(2).

وقال: فرّط قوم فأهملوا الاستشفاء بالذكر المأثور واقتصروا على الدواء المادي فحرموا أنفسهم من خير كثير، إذا لم يكونوا له كالمنكرين، وأفرط اخرون فأهملوا الدواء المادي وزهّدوا الناس فيه وتزيدوا في جانب المأثور حتى خرجوا عنه واتخذوا لهم من ذلك حرفة وموردا للمعاش، ونسوا أنواع أشفية القرآن الروحية والاجتماعية التي هي المقصود بالقصد الأول من تنزيله، مقتصرين على الوجه الذي وجدوا منه سبيلا إلى الاسترزاق على ما أحدثوا فيه وابتدعوا، فعكسوا الأمر وخالفوا السنة ووقعوا في المحظور من عدة وجوه، هذان الطرفان مذمومان والعدل هو الوسط الذي لا يهمل هذا ولا ذاك، ويقف في الوارد عندما ورد، ويتناوله على ما ورد(3).

ونزول الآيات في الكافرين لا يمنع من تطبيقها على من شاركهم في مثال الحال الذي أنكرته عليهم من المؤمنين، لأن الوصف المذموم سواء أكان المتصف به مؤمناً أم كان كافراً، فالذين تتلى عليهم الآيات القرآنية

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 329).

(2) المصدر نفسه (1 / 330).

(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 223).

والأحاديث النبوية وتفصح لهم الدلائل الشرعية وهم عنها معرضون، وعن تدبرها غافلون وبها متهاونون . ويزدادون بكل مرة إثماً بإعراضهم وغفلتهم وتهاونهم ؛ فيخسرون بقدر ما يفوتهم من الهداية على حسب حالهم وإذا لم يكن خسارهم كخسار الكافرين فهو كخسار المعرضين الغافلين المتهاونين وكفى به خساراً يتنزه عنه المؤمنون ويأباه الراشدون[1].

نتناول القرآن العظيم دواءٌ من عند ربنا، شفاءٌ لأمراض عقولنا وأمراض نفوسنا وأمراض مجتمعنا، فنتطلب ذلك منه بتدبر آياته وتفهم إشاراته ووجوه دلالاته، وشفاءٌ أيضاً لأبداننا، فنفعل كما كان يفعل النبي (ص) إذا أوى إلى فراشه على ما تقدم في حديث عائشة رضي الله عنها وعلى ما جاء من نحو ذلك مما ثبت عنه عليه واله الصلاة والسلام، وانتهى إليه علمنا، غير مقصرين ولا غالين وعلى ربنا متوكلين، سائلين أن يشفينا بالقرآن الكريم أجمعين امين يا رب العالمين[2].

هذه بعض الملامح والمسارات العامة في التربية الروحية التي اهتم بها ابن باديس في نشاطه ودعوته وتربيته وإعداده للشعب الجزائري.

3 . التربية الأخلاقية:

لقد أحيا ابن باديس للجزائريين أخلاقهم الإسلامية واستنبطها من القرآن الكريم وأصلح بها نفوسهم. وإذا تتبعنا تفسيره لايات الأخلاق في القرآن الكريم وجدنا لديه مذهباً متكاملاً لا يعالج فيه الأخلاق من الجانب النظري والفردي فقط، بل يعالج على أساس ديني واجتماعي واقعي، ومنهج ابن باديس في التربية الأخلاقية يعتمد على بساطة الأسلوب ودون اللجوء إلى مصطلحات فلسفية معقدة، ويبين بكل وضوح أن الدين والأخلاق يوجبان على الإنسان، أن يهتم بإصلاح نفسه أكثر من اهتمامه بجسمه وأن صلاح الإنسان

(1) المصدر نفسه (1 / 223).
(2) المصدر نفسه (1 / 234).

وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها وما فلاحه إلا بزكاتها طبقاً لقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 9 . 10].

ومع ذلك فإن ابن باديس يؤكد على ضرورة التكافؤ بين الجسم والنفس، وهذا ما جاء به الإسلام من ضرورة الجمع بين الدين والدنيا، ثم يربط ابن باديس صلاح الفرد بصلاح المجتمع لتحقيق ما جاء به الإسلام من أن إصلاح النفوس يكون بالتزام شريعة الحق والخير والعدل، والكف عن الظلم والشر والباطل. وخير علاج لإصلاح النفوس هو الرجوع إلى رحمة الله تعالى وإلى القرآن الكريم الذي يؤكد أن الله تواب رحيم لأن الإنسان مفطور على الخطأ، ومن هنا وجبت المداومة على إصلاح النفس، وهنا استطاع ابن باديس أن يظهر الأمل في نفوس الجزائريين لكي يحرروا أنفسهم من الاستبداد بشكله الواسع، سواء أكان من رجال التصوف «المنحرف المرتبط بفرنسا»، أو من الاستعمار.

ويبدو أن منهج عبد الحميد بن باديس في الربط بين الدين والأخلاق هو المسلك العملي والواقعي[1].

ومثلما عمل ابن باديس على تطهير عقيدة الجزائريين بالقرآن الكريم، وتحرير الفقه من أسر المتون والفروع وردِّه إلى المنبع القرآني ؛ عالج الافاق النفسية والاجتماعية أيضاً بالقرآن الكريم، وتناولها من هذا الجانب، فأرشد طلبته والجماهير الغفيرة التي كانت تحضر دروسه إلى ما يعتري أخلاق الأمة من نقص، وما يشيع فيها من مساوأئ وأثر ذلك كله في الفرد والمجتمع، وطرح عليهم البديل الإيجابي من القرآن الكريم الذي يتضمن بين دفتيه موسوعة رائعة من الأخلاق الفاضلة والخلال الحميدة: بيّن القرآن الكريم مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوأئ الأخلاق ومضارَّها، وبيّن السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل منه الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة[2].

وهو يقرِّر أنه لا شفاء للأمراض التي تصيب العقائد والأخلاق، فتقتل الفاعلية والإيجابية في الأفراد

(1) الحركة الإصلاحية، محمد طهاري ص 47.

(2) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص 282.

والمجتمعات، إلا بالرجوع إلى القرآن الكريم، ومن طلب شفاءها في غير القرآن فإنه لا يزيدها إلا مرضاً[1].

ويقول: النفس الكريمة هي التي كملت بمحاسن الأخلاق التي تتكون منها إرادة قوية في الفعل والترك تملك بها زمامها[2].

وهذه النفس الكريمة لا تتأتى للإنسان إلا إذا تناولها بالتصفية والتحلية بالخصال الحميدة التي بسط القرآن الكريم أوصافها، وحث المؤمنين على الأخذ بها بعد تنقيتها من الذنوب التي تفسد صلاح القلوب، ولا يتم ذلك إلا بتدبر آيات القرآن الكريم التي تطهر النفس من الذنوب وتزينها بمكارم الأخلاق: المذنبون مرضى القلوب، فإن القلب هو المضغة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، فكل معصية يأتي بها الجسد هي من فساد في القلب ومرض به، وأن الله تعالى قد جعل دواء أمراض القلب تلاوة القران، فقال عز وجل: {قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ} [يونس : 57].

فمقصود الشرع من المذنبين أن يتلوه ويتدبروه ويستشفوا به بألفاظه ومعانيه[3].

أ. ملامح الفكر التربوي الأخلاقي:

. ضرورة الاهتمام بالإنسان:

كهدف رئيسي عام، علماً وعملاً وفكراً وسلوكاً، وهذا الاهتمام يتمثل في ضرورة التعليم المدرسي والتعليم بالقدوة وتنظيم الجماعة وخلق الوعي العام.

وفي هذا يقول ابن باديس: العلم قبل العمل، ومن دخل العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال، وقال أيضاً: إن ما نأخذه من الشريعة المطهرة علماً وعملاً فإننا نأخذه لنبلغ به ما نستطيع من كمال في حياتنا الفردية والاجتماعية، والمثال الكامل على ذلك هو حياة

(1) المصدر نفسه ص 227.

(2) استراتيجية ابن باديس في تدبر القران، د. محمد زرمان ص 78.

(3) استراتيجية ابن باديس في تدبر القران، د. محمد زرمان ص 79.

محمد (ص) في سيرته الطيبة[1].

واستخدم ابن باديس الوسائل المتاحة لتحقيق التربية الأخلاقية، كإلقاء الدروس والتفسير والاستفادة من جهود العلماء السابقين وتدريس كتبهم كالقاضي عياض صاحب كتاب الشفاء، والإمام الغزالي صاحب كتاب علوم الدين، وغيرهم، واهتم بالتذكير والدعوة للتفكير.

ويعلل ابن باديس أهمية العقل في إتمام عملية التذكير والتفكير في الاء الله واثاره، وملاحظة التغيرات الاجتماعية وأطوار الأمم فيقول: إن العقول في حالة البعد عن التفكر والتذكر كثيراً ما تكون مغلولة بقيود أهوائها، محجوبة بحجب غفلتها، فتعمى عن تلك الدلائل والاثار، ويكون تورطها في كبائر الذنوب وصغائرها على مقدار تلك الحجب وتلك الاثار، كما أن التذكر هو عملية تفكر وتأمل في دلائل العظمة والوحدانية، ولذا فإن تمام التوحيد لا يكون إلا بالتفكر في سر دلائل الربوبية والألوهية وإفراد الله بالعبادة، لأن توحيده في ربوبيته يقتضي العلم بأنه لا خالق غير الله ولا مدبر للكون ولا متصرف فيه سواه[2].

. شمولية الإصلاح التربوي:

أي أن يكون الإصلاح كلي لا جزئي، ويتناول كل ميادين التوجيه الأخلاقي والثقافي والسياسي للفرد، لأن الانصراف لإصلاح جانب واحد هو الفرد أو المجتمع لا يؤدي إلى إصلاح حقيقي، بل يؤدي إلى التخريب والهدم، ولهذا فإن تحقيق هذه الشمولية يتطلب:

. موقف حاسم من عناصر الهدم الأخلاقي والديني والاجتماعي ورسم الخطوات اللازمة.

. إثبات مدى الارتباط بين الفكر والسلوك، والاعتقاد والعمل، وأكد ذلك بدليل تاريخي على اعتبار أن المنهج الذي نجح به المسلمون الأولون في تغيير العالم إنما هو سلوكهم وتطبيقهم الإسلام على أنفسهم قبل غيرهم في الحياة.

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 61).

(2) المصدر نفسه (1 / 61).

ـ ضرورة تعاون الإرادة والفكر والعمل، فهذا التعاون سبيل بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة ظاهراً وباطناً، يقول ابن باديس: إن الكمال الإنساني متوقف على قوة العلم وقوة الإرادة والفكر والعمل، فهي أسس الخلق الكريم والسلوك الحميد.. وحياة الإنسان من بدايتها إلى نهايتها مبنية على هذه الأركان الثلاثة: الإرادة والفكر والعمل، وهذه الثلاثة متوقفة على ثلاثة أخرى لابد للإنسان منها، فالعمل متوقف على البدن، والفكر متوقف على العقل، والإرادة متوقفة على الخلق، فالتفكير الصحيح والإرادة القوية من الخلق المتين والعمل المفيد من البدن السليم، ولهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة: عقله وخلقه ودينه، ودفع المضار عنها، فيثقف عقله بالعلم(1).

ـ الاهتمام بالجانب النفسي، وهو ما يسميه ابن باديس بالجانب الباطني، وهذا الجانب هام لأن الباطن عنده أساس الظاهر، وإصلاح النفوس هذا يتطلب:

ـ الاعتماد على الحجة والإقناع والمصارحة والدعوة بالتي هي أحسن ووضع التكاليف والأوامر الإلهية المتوجهة للنفس الإنسانية في صورة وصايا أخلاقية تدعو إلى التحلي بالصبر والثبات والصدق والرحمة والمحبة، لأن ذلك سبيل تحقيق الصفاء والراحة للنفس، وفي هذا يحذر ابن باديس من وسائل العنف والشدة، لأن إصلاح النفوس، لا يكون بالشدة، بل بالرفق والصراحة والصدق والتوبة، ويحذر ابن باديس حتى من استخدام أسلوب التقريع الذي ينفر الناس عند الوعظ ويمنع تقبل النصائح.

ـ ضرورة النظر في النفس وفهمها وإصلاحها فذلك أمر إلهي ومطلب إنساني، ولذا يعتبر ابن باديس أن العناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، لأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، استشهاداً بقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 9 . 10].

(1) آثار ابن باديس (1 / 104)، عبد الحميد بن باديس آراؤه الفلسفية (1 / 63).

ويرى ابن باديس أن فهم النفوس وإصلاحها دعوة إلهية، لأن الله تعالى أمرنا بالنظر في النفوس لفهمها وتوجيهها، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ *} [الذاريات : 21].

وقال تعالى: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا *فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا *قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا *وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا *} [الشمس : 7 . 10].

. القرآن الكريم هو القاعدة الأساسية لبناء الفكر وتوجيه السلوك، وذلك يعني أن التربية والإصلاح تكون بما في القرآن من علم ومعرفة والتزام بتعاليمه وتطبيق لمنهجه والتعمق في فهم قوانين النفس البشرية وسنن الاجتماع الإنساني وتطور تاريخ الأمم، كما يعني ضرورة الاقتداء بالنبي (ص) الذي كان خلقه القرآن، وينطق بالصدق والوحي والبيان، وهذا كله في معنى قول ابن باديس: أننا نربي تلاميذنا على القرآن من أول يوم[1].

لقد ساعدَ ابنَ باديس في نجاح مشروعه محبةُ الشعب الجزائري للقران الكريم، واحتلاله في قلوبهم مكانة مقدسة لا تعلوها مكانة، فقد استطاع المصلح الكبير إزالة تراكم الجهل، وقارع الاستعمار، وربط شعبه بالتغذية الروحية والعقلية والنفسية والقلبية..الخ المستمدة من كتاب الله عز وجل، فتحقق قول أحمد شوقي في ابن باديس عند ما قال:

فعلِّم ما استطعت لعلّ جيلا   سيأتي يحدث العجب العجاب

ب . منهج التزكية الأخلاقية:

لقد حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة، ثم في صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمي وإرشادي يسهل التعريف به والدعوة إليه، وكان يردد تلك النداءات في محاضراته ومقالاته وتفسيراته واثناء رحلاته أيضاً، فاستطاع بذلك أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والصدق والحب والتسامح وغيرها ، إلى برنامج عمل إصلاحي أو نظرية متكاملة في

(1) المصدر نفسه (1 / 64، 65).

كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه، وقدمها، كنموذج للأخلاق العملية التي تقوم على أساس ديني وإجتماعي.

ووضع ابن باديس مبادئ الأخلاق الإسلامية في صورة وصايا يجب اتباعها والعمل بها، وبيَّن مدى فائدة الاقتداء والامتثال لهذه الوصايا فقال: إن من يتمسك بها يكون إنسان المدنية ورجل السياسة، وسيداً حقيقياً، يُرمق من كل أحد بعين الاحترام والتعظيم، كما قدم هذه الوصايا بقوله: هناك اداب تقتضيها إنسانيتك يفرضها عليك دينك وتستدعيها مصلحتك في هاته الحياة، ومن هذه النداءات: ثق بأن سياسة الصدق والصراحة والإخلاص المرتكزة على الحب والعمل والتعاون ؛ لا بد وأن تظهرك أمام العالم بمظهرك الحقيقي رغم كل الغيوم التي ينشرها حولك خصومك ومنافسوك، فتعطيك إذن حقوقك، فبالصدق والصراحة، والإخلاص تحيا طيبة بجميع أبناء العالم العاملين المخلصين[1].

ووضع ابن باديس مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ، كإطار عام لمنهجه في التربية الأخلاقية:

القاعدة الأولى: الالتزام بالمنهج القرآني:

أكد ابن باديس على أن صلاح الإنسان وفساده متوقف على مدى فهمه واتباعه لمبادئ الأخلاق الإسلامية والقران ومعانيه والإمتثال لأوامره والبعد عن نواهيه ؛ فبذلك وحده يمكن الاعتماد على المبادئ الأخلاقية العليا والتي بدونها لا يتغير المجتمع أو أخلاقه[2].

القاعدة الثانية: الجمع بين النظر والعمل:

وهي قاعدة عامة للإصلاح الأخلاقي، لأن تطبيق الأخلاق له الأثر المباشر والمؤثر في إنماء الوعي والتفكير مع الشعور بأهمية الوجود والتطور والحياة،

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 178 . 179).

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 38).

وحسن عاقبتها، ومن هنا كان شفاء النفوس والعقول بالقرآن، فالمطابقة بين الظاهر والباطن، والتلازم بينها عقداً وقولاً وعملاً ؛ ضرورة لتصحيح العقائد وتقويم الأخلاق، وبها تكون سلامة الأرواح وكمالها وعليها قوام الهيئة الاجتماعية وانتظامها[1].

القاعدة الخامسة: المطابقة بين العلم والدين:

بيّن ابن باديس ضرورة تأسيس الأخلاق على العلم والدين معاً. فقد وضح:

. أن الدين أساس الأخلاق وكذلك العلم الصحيح والخلق المتين، فهما الأصلان الذان يبنى عليهما كمال الإنسان، وإن العلم أساس الأخلاق لأنه الأصل وهي الفرع.

ـ أن اتباع الخلق القويم هو سبيل رفعة قدر المسلمين وقدرتهم، تلك القدرة التي تزداد تباعاً بالجمع بين عقائد الدين الواضحة والأخلاق الطيبة والعلم بها على حقيقتها.

. أن العلم هو الإمام المتبع في الأقوال والأعمال والاعتقادات، وأن التمسك به ضرورة حتى تكون عقائدنا حقاً وأقوالنا صدقاً وأفعالاً سداداً.

. أن الاعتماد على العقل ضرورة لكي يتجنب الناس ما هم فيه من شر، وليس صعباً ؛ لأن الله قد وهبهم الدين والعقل، فديننا دين الرحمة والاتحاد والخير، إنه الدين الذي يعلّمنا ألا نتحد على الشر أبداً ولا نضمره لأحد من الناس، كما لا نقبله من أي أحد منهم كائناً من كان[2].

ج ـ الفضائل الأخلاقية عند ابن باديس:

اهتم ابن باديس في تفسيره لآيات القرآن وأحاديث الرسول عليه السلام ببيان أهم الفضائل الأخلاقية المستمدة من المصادر النقلية، وفي مقدمتها الرحمة، والعدل والمساواة والأمانة والصدق والإحسان والبر إلى

(1) المصدر نفسه (1 / 127).

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 42).

اليتامى والمساكين والبر إلى الوالدين والجهاد في سبيل الله والحب والتسامح والصبر والثبات والإيثار والوفاء بالعهد وغيرها، وذلك عند تفسيره للعديد من الآيات القرآنية[1]، وإليك بعض الأمثلة:

فعندما فسَّر آخر الآيات من سورة الفرقان قال: القرآن يصف عباد الرحمن:

. الصفة الأولى والثانية:

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَانِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاَمًا *} [الفرقان : 63].

اشتملت الآية على بيان الأدب في معاملة الجاهلين من أفراد الناس، أكانوا مسلمين أم غيرهم، وما اشتملت عليه من الأدب قد جاء في آيات كثيرة مثل: {وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ *} [الأعراف : 199].

وقوله تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ *} [القصص : 55].

فهو أدب مشروع مؤكد، وحكم دائم محكم، وهو في معاملات الأفراد كما نرى، فلا ينافي ما شرع من الحرب عند وجود أسبابها وتوفر شروطها بين الأمم والجماعات، وهي من الأمور العامة كما ترى، فبطل قول من زعم أن هذه الآية بالنسبة لغير المسلم وهي منسوخة باية السيف، لأن هذه الآية ثابت حكمها في حال واية السيف ثابت حكمها في حال أخرى، فلا تنسخ إحداهما الأخرى، وما أكثر ما قتلت أحكام باية السيف هذه، وهي عند التحقيق غير معارضة لها لمباينة حالها حالها[2].

وقال: القول السلام محمود ومطلوب في كل حال، وإنما خصت حالة خطاب الجاهل لأنها الحالة التي تثور فيها ثائرة الغضب بما يكون من سفهه ومهاترته، فعلى المؤمن أن يكون حاضر البال بهذه الآية عندما

(1) المصدر نفسه (2 / 42).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 429).

تسوق إليه الأقدار جاهلاً فيخاطبه بما لا يرضيه حتى يسلم من شره، ويكسر من شرته، فيسلم له عرضه ومروءته ودينه، ويسلم ذلك الجاهل أيضاً من اللجاج في الشر، والتمادي فيه، فيكون المؤمن بقوله السلام وتأدبه بأدب القران، قد حصّل السلامة للجميع وأعظم به من فضل وأجر في الدنيا والدين، وفقنا الله لذلك والمسلمين أجمعين[1].

الصفة الثالثة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيامًا *} [الفرقان : 64].

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يحيون الليل فيبيتون يصلون لربهم يوافون بين السجود والقيام. هذه الآية من آيات الحث على القيام مثل قوله تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة : 16].

وقد بينت السنة المطهرة مقداره، فثبت في الموطأ من طريق أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ـ (ص) ـ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدي عشرة ركعة يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً لا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً. والسلام بعد كل ركعتين لحديث «صلاة الليل مثنى»، وثبت عند مسلم من طريق سعد بن هشام عنها أنه كان يفتتح صلاته بالليل بركعتين خفيفتين، فتلك ثلاث عشرة، وقد ثبت ذلك في الموطأ من طريق عروة عنها قالت: كان رسول الله ـ (ص) ـ يصلي الليل ثلاث عشرة ركعة، وهذا هو الغالب من أحواله، وقد كان يصلي أقل منه في بعض الأحوال، فقد ثبت عند البخاري من طريق مسروق عنها أن صلاته صلى الله عليه واله وسلم بالليل سبع وتسع وإحدى عشرة سوى ركعتي الفجر، ومثل ما جاء عن عائشة من انتهاء ركعاته إلى ثلاث عشرة.

جاء في الموطأ من حديث ابن عباس وجاء فيه أيضاً من حديث زيد بن خالد الجهني، وفي هذه السنّة

(1) المصدر نفسه (1 / 441).

العملية الثابتة بيان للقدر الأكمل الذي يكون به العبد ممن يصدق عليهم هذا الوصف من صفات عبد الرحمن(1).

الصفة الرابعة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا *إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا *} [الفرقان : 65 . 66].

ومن صفاتهم أنهم يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم عذاب جهنم، لأن عذابها عذاب شديد فادح ملحّ ملزم، ولأنها بئست المستقر الذي يستقر ويثبت فيه وبئست فيه وبئس المقام الذي يقام ويمكث فيه(2).

وقال: إن جهنم هي أقبح مستقر وأقبح مقام، وإن الدنيا هي مطية الاخرة، فمن ساء مستقره ومقامه في الدنيا ساء كذلك مستقره ومقامه في الاخرة وإن ملازمة العذاب في الاخرة على قدر ملازمة المعاصي في الدنيا، فمن لازمها بالكفر ومات عليه ؛ دامت له تلك الملازمة، ومن لازمها بالإصرار على الكبائر، كانت له على حسب تلك الملازمة، فعلى العاقل أن يحسن مقره ومقامه، وأن يتجنب كل موطن تلحقه فيه الملامة، وأن يجتنب مجالس السوء والبدعة ويلازم مجالس الطاعة والسنة، وأن يسرع بالتوبة مفارقاً الذنوب، وأن لا يصر على شيء من القبائح والعيوب، وأن يكون سريع الرجوع إلى الله ولو عظم ذنبه وبلواه فالله يحب التوابين ويغفر للأوابين، جعلنا الله منهم أجمعين، آمين(3).

الصفة الخامسة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا *} [الفرقان : 67].

قال ابن باديس: الإسراف مذموم فهو ما كان في منهي عنه نهي تحريم أو كراهة، أو في مباح قد يؤدي إليهما، فالأول كمن أوْلم وليمة، أنفق فيها جميع ماله، وأصبح بعدها هو وأهله للضيعة والحاجة، والثاني كمن

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 445).

(2) المصدر نفسه (1 / 445).

(3) المصدر نفسه (1 / 445).

أوْلم وليمة دعته إلى الاستدانة، وإن كان يظن القدرة على الأداء، لأن الدين محذر ومستعاذ منه، والثالث: كالاستمرار على إيلام الولائم مع القدرة عليها في الحال مما قد يؤدي إلى أحد الأمرين المذكورين في المال.

والتقتير مذموم أيضاً، فهو ما كان إمساكاً عن مأمور به أمر وجوب، أو استحباب، وعن مباح يؤدِّي إليهما، **فالأول**: كمن يمسك عن أهله شحاً حتى يضيقهم ألم الجوع والبرد.

والثاني: كمن لا يذيقهم بعض الطيبات التي يخص بها نفسه من السوق.

والثالث: كمن يمسك عن تطييب خاطر زوجته ببعض الكماليات مع قدرته عليها مما قد يفسد قلب زوجته عليه أو يحملها على ما لا يرضيه.

والقوام العدل هو الممدوح، فهو أن ينفق في الواجب والمندوب وما يؤدي إليهما، ويمسك عن المحرم والمكروه وما يؤدي إليهما، ويتسع في الحلال دون مداومة في الأوقات واستيفاء لجميع اللذات واستهتار بالمشتهيات[(1)].

الصفة السادسة والسابعة والثامنة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ} [الفرقان : 68].

قال ابن باديس: لما أثبت لهم أصول الطاعات في الآيات المتقدمة نفى عنهم أمهات المعاصي في هذه الآية تنبيهاً على أن الإيمان الكامل هو ما تثبت معه الطاعات وتنتفي المعاصي، وذلك هو غاية الامتثال للأوامر والنواهي، وفيه تعريض لما كان عليه المشركون من الاتصاف بهذه المعاصي من دعائهم الهتهم مع الله وقتلهم النفس وارتكابهم فاحشة الزنى. وقدّم إثبات الطاعات على إنتفاء المعاصي تنبيهاً على أن من راض

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 466).

نفسه على الطاعة ودانت نفسه بالإخبات والانقياد للأوامر الشرعية ضعفت منه أو زالت دواعي الشر والفساد، فانكف عن المعصية[1].

فمن هنا نعلم أن على المسلم الذي يعمل لتزكية نفسه ؛ أن يواظب على الطاعات بأنواعها وأن يجتهد في حصول الأنس بها والخشوع فيها، فإن ذلك زيادة على ما يثبت فيه من أصول الخير يقلع منه أصول الشر ويميت منه بواعثه[2].

ويبين ابن باديس وجه ترتيب هذه الصفات المنفيات، فقال: قامت الشريعة على المحافظة على حقوق الله وحقوق عباده، وحق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، فمن دعا مع الله غيره، وأشرك به سواه، فقد أبطل حق الله وأعدم عبادته، ومن قتل النفس فقد تعدى على أول حق جعله الله لعباده بفضله وهو حق الوجود، وعمل على إبطال وجودهم وفناء نوعهم وزوال عبادتهم، فلهذا قرن قتل النفس بدعاء غير الله معه، ولما كان الزنى فيه بطلان النسب وفساد الخلق والجسد وذلك مؤد إلى الاضمحلال والزوال والشرور والأهوال قرنه بقتل النفس فذلك قتل حقيقي، وهذا قتل معنوي[3].

ومعنى الآية: والذين لا يدعون ولا يعبدون مع الله إلهاً آخر فيشركون به سواه في عبادتهم إياه، ولكنهم يخلصون له العبادة ويفردونه بالطاعة ويوحدونه في ربوبيته وألوهيته، ولا يقتلون النفس التي جعل الله لها حرمة وحرم قتلها بالسبب إلا الحق الثابت في دين الله المعارض لحرمتها المقتضي لقتلها بالزنى بعد الإحصان أو الكفر بعد الإيمان أو القتل للنفس العمد العدوان، ولا يزنون فيأتون ما حرم الله عليهم إتيانه من الفروج[4].

ولما ذكر سبحانه نفي تلك المعاصي عن عباد الرحمن بيّن الوعد بالعذاب الشديد لمن يفعل تلك المعاصي

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 468).

(2) المصدر نفسه (1 / 469).

(3) المصدر نفسه (1 / 469).

(4) المصدر نفسه (1 / 470).

فقال: {وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً *} [الفرقان : 68 . 69].

والقرآن الكريم إذا نهى عن شيء ذكر مضرته وسوء عاقبته للعباد في الدارين، وإذا أمر القرآن بشيء ذكر فائدته وثمرته عليهم فيهما[1].

هذه هي سنة القرآن في التربية وهي أنجح الطرق في جعل المأمور والمنهي يمتثل للأمر والنهي في كل نفسه، ويعمل لتنفيذها بعقله وإرادته، فالتربية التي تنبني على امتثال الأمر والنهي من غير المعصوم والانقياد لهما إنقياداً أعمى، مخالفة لتربية القران، والخير كله في اتباع القرآن في جميع ما يفيده القرآن[2].

والقران يذكرنا بمضاعفة العذاب على كبائر الاثام، لنذكر عندما تحدثنا أنفسنا بالمعصية سوء عاقبتها وتعدد شرورها وتشعب مفاسدها ومضاعفة العذاب بحسب ذلك عليها لنزدجر ونكف فنسلم من الشر المتراكم والعذاب المضاعف ونفوز بأجر التذكر وثمرة التذكير. جعلنا الله والمسلمين ممن انتفع بالذكرى وسلم من فتن الدنيا والاخرة بمنه وكرمه آمين[3].

ولما ذكر تعالى عظائم الذنوب وأكبر كبائرها وتوعد بالوعيد الشديد عليها، عقّبها بذكر التوبة منها ورغب فيها لينبه عباده على طريق الرجوع إليه، وإن من تاب منهم إلى الله تاب الله عليه[4].

قال تعالى: {إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا *} [الفرقان : 70].

يُستثنى من ذلك الوعيد بمضاعفة العذاب والخلود فيه مهاناً ؛ من رجع إلى الله من الشرك وقتل النفس والزنى بالتوبة الصادقة وشفع توبته بالعمل الصالح الدال على صدق تلك التوبة، فهؤلاء بتوبتهم وعملهم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 472).
(2) المصدر نفسه (1 / 473).
(3) المصدر نفسه (1 / 474).
(4) المصدر نفسه (1 / 475).

الصالح يقبلهم الله ويجعل مكان سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً، ويتجاوز عن ذنوب عباده، فقد تجاوز عما كان منهم من شرك أو قتل أو زنا رحيماً منعماً على عباده فقد أنعم عليهم بالحسنات مكان ما تقدم من سيئاتهم(1).

دعا الله بهذا عباده المذنبين حتى لا يتسرب القنوط إلى قلوبهم، وهو محرم عليهم، ولا يحول بينهم وبين خالقهم ذنب وإن عظم، ورغّبهم في التوبة بأنها رجوع إليه وكفى، وإن الرجوع إليه فيه من الخير والشرف فوق ما تصوره الألفاظ، فما أحلمه من رب كريم وما أرحمه بعباده المذنبين(2).

الصفة التاسعة:

{وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ} [الفرقان : 72].

لما وصفهم بالصفات المتقدمة الدالة كلها على كمال أخلاقهم واستقامة أعمالهم في ظواهرهم وبواطنهم، بإنبائها على قوة إيمانهم وصحة عملهم، فكانوا أهل الحق المتصفين به في عملهم وعلمهم القائمين عليه في جميع أحوالهم، وصفهم هنا ببعدهم عن الباطل ومشاهدته، ومجانبتهم لأهله(3).

فهم لا يحضرون مشاهدة الباطل والإثم من كل مجلس تتعدى فيه الحدود، أو تنتهك فيه الحرمات، أو يحكم فيه بالجور، أو تعظيم فيه الطواغيت، أو يدعى فيه بدعوى الجاهلية، أو تحيا فيه معالم الوثنية، أو تطمس فيه السنة النبوية، أو يدعى فيه أحد مع الله، أو يضرع إلى سواه. والاحتمال الاخر: والذين لا يشهدون شهادة الزور: لا يخبرون إلا بالحق الواقع(4).

الصفة العاشرة:

. قال تعالى: {وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا *} [الفرقان : 72].

والمعنى وإذا مروا في طريقهم بقول أو فعل يفعل مما لا فائدة فيه جاوزوه معرضين عنه أزكياء غير متدنسين بشيء ولا ملتفتين لأهله.

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 476).

(2) المصدر نفسه (481/1).

(3) المصدر نفسه (1 /482).

(4) المصدر نفسه (1 / 483).

وفي الإقبال على اللغو شغل للبال به، وتكدير للخاطر بظلمته، وتضييع للوقت فيه، ولكل كلمة تسمعها أو فعلة تشهدها أثر في حياتك وإن قلَّ، وقد يعقبها ضدها فتزول بعد ما شغلت وعطلت، وقد يردفها مثلها فتثبت وتنمو وتسوء عاقبتها ولو بعد حين، وبقدر ما تلتفت إلى اللغو تلتفت عن كرمك، وبقدر ما يعلق بك منه ينقص من ذكائك، وبقدر ما تتساهل بالوقوف عليه تقرب من الدخول فيه، وإذا دخلت فيه واستأنست بأهله جرَّك إلى الزور وعظائم الأمور، وللشرِّ أسباب متواصلة وأنساب متصلة يؤدي بعضها إلى بعض، فينتقل المغرور الغافل من خفيها إلى جليها، ومن صغيرها إلى كبيرها، فالحازم من لم يسامح نفسه في قليلها، ويتباعد كل البعد عنها وعن أهلها، وقد هدتنا هذه الآيات لنهتدي، وذكرت عباد الرحمن لنقتدي. والله المستعان ولا توفيق إلا به(1).

الصفة الحادية عشرة:

. قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَاناً *} [الفرقان : 73].

ولما وصفهم فيما تقدم بإعراضهم عن الباطل، ومجانبتهم لأهله، أو بعدهم عنه وصفهم، بإقبالهم على الحق، وإنكبابهم عليه، متفهمين مستبصرين(2).

فمن صفات عباد الرحمن أنهم إذا ذكرهم مذكر بايات ربهم التي أنزلها على نبيهم ـ صلى الله عليه واله وسلم ـ بما فيها من ذكر مخلوقاته وإنعامه وأيامه في أوليائه وأعدائه ووعده ووعيده وترغيبه وترهيبه ؛ أقبلوا عليها وأكبوا على سماعها بآذان واعية، وأبصار راعية وقلوب حاضرة، وعقول متدبرة، لا كمن يقبلون عليها ويكبون

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 487).

(2) المصدر نفسه (1 / 487).

على سماعها ولكنهم لا يسمعون ولا يبصرون لأنهم لا يعقلون ولا يتدبرون[1].

الصفة الثانية عشرة:

قال تعالى: {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا *} [الفرقان : 74].

لما وصفهم في الآيات المتقدمة بما دل على أنهم أهل خير وكمال في أنفسهم، وصفهم في هذه بما دل على محبتهم الخير والكمال لغيرهم من قرابتهم أزواجهم وذريتهم ومن سواهم، وقدم الأزواج على الذرية لأنهم ألصق ولأنهم الأصل[2].

ومن صفات عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم يسألونه أن يهب لهم أزواجاً وذرية تقر بهم أعينهم بأن يكونوا لهم على ما هم عليه، ويسألونه أن يكونوا على أكمل حال في العلم والعمل والاستقامة يقتدي بهم فيها المتقون[3].

إن الإنسان مهيأ للكمال بما فيه من الجزء النوراني العلوي وهو روحه، ومعرض للسقوط والنقصان بما فيه من أخلاط عناصر جزئه الأراضي الظلمائي وهو جسده، ولا يخلص من كدرات جثمانه ولا ينجو من أسباب نقصانه إلا بعباده ربه التي بها صفاء عقله وزكاء نفسه وطهارة بدنه في ظاهره وباطنه، فبعبادة ربه يكمل فيرقى في مراتب الكمال، ويدنو من الملأ الأعلى عند الرب الأعلى ذي الجلال والإكرام، فالله طيب وإليه يصعد الكلم الطيب، ولا طيب ولا كمال إلا للعابدين، فلا قيمة ولا قبول لغيرهم عند رب العالمين[4].

4 . التربية الاجتماعية:

رأى ابن باديس أن المدخل لتحقيق الإصلاح الاجتماعي الشامل هو تحقيق الوعي القائم على العلم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 488).
(2) المصدر نفسه (1 / 491).
(3) المصدر نفسه (1 / 494).
(4) المصدر نفسه (1 / 505).

والفضيلة لكافة طبقات الشعب، وأن هذا الوعي هو السبيل لانتشار الأخلاق واستلهام القدوة الصالحة في كل مجال والمثل الأعلى الأخلاقي لمواجهة نواحي النقص وعلاج المفاسد الاجتماعية ومواجهتها والقضاء عليها، وفي مقدمتها الجهل والجمود وما يتبعها من مفاسد وتخلف[1].

لقد تسبب الاحتلال الفرنسي في تردّي الأوضاع الاجتماعية للأفراد والمجتمع الجزائري، وما أن وطئت أقدام المحتل الفرنسي الأراضي الجزائرية حتى استحالت حياة الناس إلى جحيم من الفقر والفاقة والعوز، والبطالة والحاجة، وانتشرت بينهم الأمراض العضوية والنفسية والاجتماعية، وهذا ما عبَّر عنه أحد الأوربيين الذين زاروا الجزائر في مطلع القرن العشرين:

إن الحياة التي يحياها الجزائريون هي حياة لا يمكن وصفها بغير البائسة والحقيرة، هذا الشعب الذي كان بالأمس السيِّد المتصرف فيما يملك، أضحى اليوم نتيجة لوجود الفرنسيين على أرضه كالعبد الذليل ينتظر اللقمة التي تُرمى إليه ليسدَّ بها رمقه من الجوع، الحياة البائسة جداً، الناس يعانون من المرض والأوبئة، والأمراض الجلدية تنتشر بصورة مخيفة بين الناس الصغار والكبار، وقليل من الناس يحظون بفرصة العلاج والدواء، لقد تنقلت في أرجاء متفرِّقة من الجزائر، ورأيت مشاهد فظيعة لشعب فقير بائس يسير ببطء نحو الفناء، الأسر الأوربية والفرنسيون يستأثرون بالمال والثروة والطعام والأرض، وأهل الأرض طردوا منها إلى الصحراء حيث الجدب والأرض القاحلة[2].

ومع هذا الدمار فقد جلب الاستعمار معه العادات والافات السيئة باختلافها مما يفضي إلى الفوضى والتسيُّب والفلتات الذي يكون المناخ المناسب لشيوع الرذائل وإنتشار الجرائم والفساد وما إلى ذلك. فقد كانت السلطات الفرنسية تعمل وفق مقاربة اجتماعية، ترمي إلى تشجيع الفساد بما في ذلك تعاطي الخمور

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 88).

(2) بناة المجد، توفيق المدني ص 80.

والبغي وتشجيع المعاملات الربوية التي كانت تجارة رائجة يمارسها اليهود، وسرعان ما انتشرت بين الجزئريين[1].

بالإضافة إلى التساهل والتسامح مع المجرمين والمفسدين والقتلة والمنحرفين، بل إن هؤلاء كانوا واحدة من الأدوات التي تبطش بها القوات الفرنسية، فاستعملتهم كالكلاب المسعورة في إلحاق الأذى بمن يعارضون فرنسا ويناصبونها العداء، وكانت فرنسا تشجع على فتح الخمارات، وتعطي قروضاً وتسهيلات لمن يريد أن يلج هذه التجارة، وانتشرت الرشوة والتواطؤ والتحايل على الناس، سمة من سمات الإداريين الفرنسيين وغير الفرنسيين.

وأمام هذا الوضع الاجتماعي المتدهور قام ابن باديس وشيوخ جمعية العلماء بالتصدي للافات والكبائر والمحرمات، بتوعية الناس وفق أسلوب الدعوة والنصيحة والوعظ، وكتابة المقالات الاجتماعية لتصحيح العادات الخاطئة والغريبة عن المجتمع الجزائري، وكانت مقالات ابن باديس والإبراهيمي في مجال محاربة الفساد أنموذجاً لهذه الالية، وقد كانت الدعوة إلى الدين الصحيح باب الولوج إلى حرب شاملة على الفساد.

يقول الشيخ العربي التبسي:.. نعم الدواء لأمراضنا والترياق المجرب لأمراضنا واحد لا ثاني له، وما ذلك الدواء إلا عودتنا تائبين إلى العمل بشريعتنا الإسلامية المعصومة الكفيلة بإسعاد هذا الفرد الشقي وإصلاحه من جميع نواحيه ومداواته من كل أمراضه، كما داوته يوم فسد قبل الان بأربعة عشر قرناً، وأسألوا التاريخ أيها المرتابون عن ذلك إن كنتم في ريب من هذه الحقيقة، الشريعة الإسلامية المحصورة في كتاب الله وسنة رسول الله (ص)، وفهم السلف الصالح لهما دواء للإنسانية في فردها وجماعتها[2].كما أن الشيخ أبا اليقظان وهو الرجل المصلح الذي كان سباقاً إلى إنشاء بنوك أهلية إسلامية لحماية الجزائريين من المعاملات الربوية وإبعادهم عن هذه الآفة التي لا تبقي ولا تذر ؛ شكَّل وجهاً من وجوه الإصلاح الاجتماعي الاقتصادي لمواجهة الفساد

---

(1) المصدر نفسه ص 82.

(2) المصدر نفسه ص 78.

في المعاملات، فهو يرى أنه من الضروري أن يعتمد الأهالي على تحصيل أرزاقهم بأنفسهم، وألا ينتظروا فرنسا أن تطعمهم، فهي تسرق أقواتهم فكيف يشغل جوعُهم بالها؟

كما دعا الأثرياء من المجتمع الميزابي إلى إقامة بنك أهلي إسلامي غير ربوي، يكون سنداً للناس في نشاطاتهم بهذه الناحية، ويبعدهم عن الحرام الذي تريد فرنسا جرَّهم إلى التعامل به، وقد غضبت السلطات الفرنسية كثيراً لذلك واستدعته شرطتُها للتحقيق والمساءلة وقد برَّر ذلك بقوله: بيَّنت أنه يجب تأسيس ذلك البنك الأهلي على القواعد الإسلامية خلاف ما عليه البنوك الحديثة، ويسرُّنا من جهة أخرى أن يدخل الشباب المسلمون البنوك الأجنبية حتى يتعلموا النُّظُم المالية لإدارة المصارف بفنون حديثة.

ومن بين المظاهر الاجتماعية التي تفشَّت بين بعض الأسر الجزائرية ظاهرة السرف المالي التي لم يهملها الشيخ مبارك الميلي وأفرد لها اهتماماً ودرساً مفصَّلاً في مجموعة مقالات نشرها عن الموضوع منها قوله: عاقبة السّرفِ الماليّ في الاخرة أن يُلقى بصاحبه في النَّار، وعاقبته في الدنيا أن يُلقى به في المتربة والصَّغار. فالسرف الماليُّ أيها السادة هو الذي ألقى بكثير من أسرنا بين أيدي المرابين ؛ إذا ذُكرت لهم الرحمة وأثنيت عليهم حسبوها فينا مُغرماً بكراسي النيابة أو مُبتلى بخصومة العباد أو في معنى هذين. والسرفُ المالي هو الذي وضع بيوتاً كانت ذات مجد وسؤدد، وهو الذي قعد بالأمَّة الجزائرية عن الاضطلاع بمهامها وشغلها بغيرها(1).

ومن تنوع الافات والأمراض الاجتماعية التي كان على الجمعية مواجهتها وإجتثاثها من المجتمع الجزائري لإصلاح أحوال الناس ؛ كانت الأساليب التي انتهجها شيوخ الجمعية تتنِّوع لكنها تصب جميعها في روافد التوجيه الاجتماعي مع تفاوت نسبي بين أساليبهم، فهناك من يغلب عليه اعتماد الحجاج العقلي ومخاطبة

(1) المصدر نفسه ص 88.

الفكر، ومنها ما يغلب عليه الإكثار من توظيف الشواهد والقرائن[1].

وكان ابن باديس متميزاً في قيادة الجمعية وفي خطابه الاجتماعي، وحدد الوسائل والخطوات العملية لتحقيق الوعي والإصلاح في:

أ. ضرورة الالتزام بالمبادئ السامية الداعية إلى الخير العام، والتي تبعد الإنسان عن المعاصي والشرور ومفاسد الأخلاق والمجتمع كالميسر والبطالة والخمور والفجور، فتلك المفاسد هي التي تفسد على الناس عقولهم وتضيع أموالهم وتتلف أبدانهم.

ويرى ابن باديس أن التنفيذ العملي لهذه الخطوة يمكن تحققه عند الالتزام بالعلم والفضيلة والبعد عن عوامل الجهل والرذيلة، ويقول مؤكداً موقفه العملي: لهذا حاربت الجهل والجمود والدجل والخرافة وكل أنواع الأباطيل، وحاربت كل واقف في طريق العلم والتعليم، وكل وجوه السرف وأكل أموال الناس بالباطل، وهذا لن يتأتى إلا في ظل قانون العدالة الإلهية والالتزام بالحق ونصرته حيثما كان، وبإقامة ميزان العدل في القول والحكم والشهادة بين الناس أجمعين المعادين، والموالين، استجابة:

. لقوله تعالى: {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام : 152].

. وقال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} [النساء : 58].

ومن هنا كان من الضروري الالتزام بمبادئ العدالة الاجتماعية ومتطلباتها الأساسية، وفي مقدمتها معرفة ماهية الصواب والخطأ والحقوق والواجبات ووجوب الوفاء بالعهود والعقود وبر الوالدين وشهادة العدل وأعمال الخير، ومن العدالة أيضاً وضع المصلحة العامة فوق المصلحة الفردية، والدعوة إلى الإخاء والمساواة بين الأجناس في المكانة والعمل، ومن العدالة أيضاً حب الخير للناس وللحياة عموماً، وهو ما يعبر عنه ابن باديس بقوله: إننا قوم نريد الحياة لأنفسنا كما نحبها لغيرنا ، ونكره أن ندخل الضرر على أي كان غيرنا، كما لا

---

(1) المصدر نفسه.

نرضى أن يدخل علينا الضرر، ونحترم لغتنا ومجدنا، كما نحترم لغة ومجد غيرنا، لأننا قوم نحب الخير فلا نحرم منه أحد[1].

ب . ضرورة الالتزام بالمبادئ التربوية الناجحة، وتحقيق هذه الخطوة عملياً يتطلب أن توصف هذه المبادئ بالعمومية والشمول، ليتولد عنها الشعور بالانتماء والاهتمام المشترك والحرص على تكامل الشخصية، كما يتطلب انتشار العلم والتعليم وبناء المؤسسات التربوية، وأن يكون الإطار العام لهذه التربية هو الأسلوب النبوي وفق منهج التدرج من الخاص إلى العام، ومن الجزء إلى الكل، ومن الفرد إلى المجتمع، ولكي يحقق ابن باديس الوعي وينشره قام بتحويل المساجد إلى مؤسسات تربوية، وكذلك المدارس والمعاهد والصحف، كما حرص على انتشار الأساليب التربوية القائمة على تدعيم القيم والأخلاق، فكان يقول: على المربين لأبنائنا وبناتنا أن يعلموهم ويعلموهنَّ هذه الحقائق الشرعية الداعية إلى احترام الإنسانية والمساواة والتراحم والتعاطف ليتزودوا وليتزودنَ بها، وبما يطبعونهم ويطبعونهنَّ عليها من التربية الإسلامية العالية لميادين الحياة[2].

ولتحقيق مبدأ العلم والتعليم وفق منهج التدرج من الخاص إلى العام ومن الجزء إلى الكل، قرر ابن باديس: أن المجتمع لا يكون إلا بأفراده الذين يمتازون بالحرص والفناء من أجل مجتمعهم، وأن الاهتمام بالنشء يبدأ من الفرد ثم الأسرة، ثم العائلة ثم القبيلة ثم المجتمع الخاص أو الوطن ثم يمتد إلى الإنسانية أو البشرية بوصفها الوطن الكبير المتكون من ذلك كله، وأن التربية الحقيقية تبدأ بإصلاح نفس الفرد ثم بإرشاد أهله وأقرب الناس إليه من بعدهم . فإذا تحقق ذلك . فلا نلبث أن نرى الخير قد انتشر في الجميع لأن من الأسر تتركب الأمة، وعندما يعني كل واحد بأسرته ترتقي الأمة كلها بارتقاء أسرها، فارتقاء أي كل بإرتقاء أجزائه، ويكون المعتني بأسرته، في الوقت نفسه معتنياً بأمته، وعندما يقصد بخدمة أسرته خدمة أمته يثاب ثواب خادم

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 88).

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 88).

الجميع، أسرته بالفعل، وأمته بالقصد، وكل هذا مما يثاب المرء عليه شرعاً[1].

ـ ولتحقيق مبدأ تكامل الشخصية وفق منهج الاهتمام المشترك، قرر ابن باديس: أن الكمال الإنساني متوقف على التربية السليمة القائمة على العلم أولاً ثم قوة الإرادة والفكر والعمل وهي الأركان الثلاثة التي تبنى عليها حياة الإنسان ولهذا كان الإنسان مأموراً بالمحافظة على هذه الثلاثة عقله وخلقه ودينه ودفع المضار عنها، وهذا لا يكون إلا بالتربية، فيثقف عقله بالعلم، ويُقوِّم أخلاقه بالسلوك النبوي، ويقوي بدنه بتنظيم الغذاء وتوقي الأذى، والتريض على العمل[2].

ويصف ابن باديس كيفية تحقق الوعي بشعور بالانتماء والاهتمام فيقول: لا حياة للشخص إلا بحياة قومه ولا نجاة له إلا بنجاتهم، وأن لا خير لهم فيه إلا إذا شعر بأنه جزء منهم، ومظهر هذا الشعور أن يحرص على خيرهم، كما يحرص على نفسه، وأن لا يكون اهتمامه بهم دون اهتمامه بها:.. وإنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتآزر، وهذه الجماعة المنظمة القوية هي ناتج الفرد موضوع الاهتمام المشترك، ذلك الفرد الذي يكمل إذا كملت جوانبه الثلاثة: العقلي، والخلقي، والعملي[3].

ج ـ الالتزام بمعايير النقد البناء: بوصفها الوسيلة الفعَّالة لتغيير الأنماط الثقافية وتصحيح المفاهيم وتنمية روح المشاركة والتعاون ومواجهة المفاسد الأخلاقية والاجتماعية وتحقيق الترابط الاجتماعي، ولكي يحقق النقد هذه المهام ؛ أكد ابن باديس أن الإطار العام للنقد البناء هو الإطار الأخلاقي ؛ فبه يتحقق الانتصار للحق والعدل والخير ومقاومة الباطل والظلم والشر في جميع المجالات والنواحي:

---

(1) الإسلام والمذاهب الفلسفية المعاصرة، د. مصطفى حلمي ص 230.

(2) آثار ابن باديس (1 / 105).

(3) ابن باديس: حياته وآثاره (1 / 106 . 111).

وأن مهمة النقد الأولى هي:

في المجتمع العربي عموماً والجزائري على وجه الخصوص، وخاصة تلك التي تعوق التطور الاجتماعي وفي مقدمتها: التخلف الفكري واللغوي، ثم الطرقية بمفاسدها وأفكارها، ثم الاستعمار بتوجهاته وأساليبه، وأن هذه المعوقات أو النقائص الثلاث وليدة أسباب مشتركة ومترابطة لأن التخلف وليد الطرقية والاستعمار، والطرقية وليدة الجهل والتعصب، والاستعمار سبب لكل من التخلف والطرقية، كما أن التخلف والطرقية عاملان يساعدان على وجود الاستعمار واستمراره[1].

. والمهمة الثانية للنقد:

عند ابن باديس هي مهمة أخلاقية لأن هدف النقد الأول هو تقويم الأخلاق الذي يتحقق عندما تكون مهمته النظر من الناس إلى أعمالهم لا إلى أقدارهم، ولا يكون للأشخاص فيما يختص بأحوالهم الشخصية، وإنما يتوجه إلى سلوكهم الذي يمس شؤون الأمة، ويكون بنقد الأشخاص الذين يتولون مناصب قيادية كالحكام والمديرين والنواب والقضاة والعلماء وكل من يتولى شأناً عاماً، لأن هدف النقد العام هو مناهضة المفسدين والمستبدين من الناس أجمعين ونصرة الضعيف والمظلوم[2].

. والمهمة الثالثة للنقد:

عند ابن باديس هي مهمة إصلاحية تتمثل في السعي لهدم كل فاسد وتنمية كل صالح، وتحقيق ذلك بالوعي الذي ينمي الروح القومية والقوى الابتكارية، وبالنقد البناء الذي يكشف حقيقة الأوضاع أمام الشعب، والعلم بأسباب الانحطاط دينياً، وسياسياً وأخلاقياً، ولهذا كان تأكيد ابن باديس على أن البناء والوعي لا يتم إلا بنبذ التقليد والتعصب للمذاهب ونبذ الاستبداد ومحو الجهل والقضاء على كل عوامل الخلل والضعف والتخلف وفق مبدأ العلّية على أساس أنه إذا زالت العلة بالنقد زال المعلول، وأن علة الفتور والضعف

(1) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 94).

(2) ابن باديس: حياته وآثاره (1 / 82، 83).

هي الخلل الديني الذي لا يعالج إلا بتوجيه النقد البناء وفحص أسباب الداء ووصف الدواء[1].

د . العناية المستمرة بالإنسان: وتحقيق ذلك عملياً يتطلب حمايته من الافات الاجتماعية واثارها الضارة، ولقد اعتبر ابن باديس أن الطرقية المنحرفة في مقدمة الافات الاجتماعية المعوِّقة للبناء والإصلاح، ولأنها تقوم بعمل ما يحرمه الشرع وينكره العقل.

ولهذا فهي قوة مؤثرة بالسلب على النمو الحضاري للمجتمع، مما جعل ابن باديس يربط بين المعركة ضد التخلف وبين الطرقية من جانبها السلمي، فتصدى لهم وعمل على بيان خطر هذا النوع من التصوف من الوجهتين الدينية والاجتماعية، وخاصة أن القوى الخارجية الاستعمارية كان لها دورها في تحول بعض الطرق عن حقيقة التصوف الإسلامي، فابتعدوا عن الجهاد والزهد الحقيقي وأصبح التصوف عندهم مجرد طقوس وشعوذات، ورغم هذا لم يهاجم ابن باديس التصوف ككل ولم يهاجم جميع الطرق، بل إنه التزم الموضوعية، وميز بين نوعين من الطرقية أحدها إيجابي يعمل من أجل انتشار الدين ويشارك في الجهاد والعمل الجماعي، والاخر سلبي قد انحرف عن أصل الدين ويتعاون صراحة مع الاستعمار ويستسلم للتواكل[2].

وكان موقف ابن باديس العملي في مواجهة هذه الآفة قد بدأ منذ عام 1925م حين بدأ بمعارضة آرائهم في الصحف والتدليل على تهافتها وخروجها عن أصل الدين، ثم مقاومة اتجاههم بتدعيم التربية الروحية والاجتماعية، والتحرر من شوائب التقليد، والدعوة للتعليم المستنير والدين الصحيح، ومن ناحية أخرى حاول تقويم الاتجاهات السلبية لبعض شيوخ الطرق الصوفية وخاصة هؤلاء الذين اشترطوا على جمعية العلماء وعلى

(1) المصدر نفسه (1 / 71 . 82).

(2) ابن باديس الزعيم الروحي، د. محمود قاسم ص 19 . 41.

رأسها ابن باديس أن يهجروا السياسة، وأن يحرِّموا استخدام النظر العقلي والاستدلال، وأن يوافقهم على أفعالهم.

وقد اقترح عليهم ابن باديس أن يعرضوا هذا الرأي على حكم لا يميل مع الهوى وهو الكتاب والسنة، وعندما أيقن من غلوهم وعنادهم رفض الصلح معهم ووصف ذلك بقوله: إننا نعلن لإخواننا أننا على رجاء اليأس من خصوم تضيع معهم حكمة لقمان، ولا يجدي معهم حلم معاوية، ولا يرضيهم عدل ابن الخطاب، ولا تسامح صلاح الدين، وليس لنزاعهم معنا غاية غير كمّ أفواهنا وكسر أقلامنا، ثم إقلاق راحتنا إذا أعجزتهم المقادير عن إزهاق أرواحنا «مشيراً إلى محاولة اغتياله» وليس لهم إلى هذه الغاية غير وسيلتين: إحداهما الوشاية بنا إلى الحكومة بأننا وطنيون ضد الاستعمار وأننا نعمل للجامعة الإسلامية، وثانيهما الاختلاف علينا مع الأمة بأنا ندَّعي الاجتهاد، وأنا نستخف بأمتنا في الدين، وأنا ننكر الولاية والكرامة ؛ لذلك فإنه لا أمل في مثل هذا الصلح وذلك اللقاء[1].

وهذا بالإضافة إلى موقفهم السلبي الضار لأنهم أصبحوا أداة لتخدير الشعب، وصوروا للناس أن الاحتلال الفرنسي وما يفعلونه أنه إرادة الله سبحانه التي لا ترد، كما تزعموا دعوة الاندماج مع فرنسا قائلين: إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك وهو على كل شيء قدير، وإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً، ولكنه كما ترون يمدهم بالقوة وهي مظهر قدرته الإلهية، لنحمد الله ولنخضع لإرادته[2].

هـ ـ العبادات والمواسم الدينية وأثرها الاجتماعي:

إن الإسلام أولى اهتماماً بالغاً بالعبادات الإسلامية والمواسم الدينية، لما لها من فاعلية في التأصيل لهذه الظاهرة، وإبراز فاعليتها في تعضيد قوة الفرد، وانتظام أمر المجتمع، وتوثيق عرى الأخوة بين جميع أفراده، وذلك

(1) المصدر نفسه ص 41.

(2) عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية (2 / 96).

من خلال ما تغرس في نفوس الأفراد وحياة الجماعة من معاني التالف والمحبة والطهر، وما تزرع في ضمير الجماعة من قيم التازر والإتحاد، فتحدث ابن باديس في هذا الإطار عن الزكاة كعامل من أهم عوامل التكافل الاجتماعي الذي يفرض على أفراد المجتمع التعاضد والتعاطف فيما بينهم، مما يجعل من واجبات الجماعة كفالة أصحاب الحاجة من معوزين ومعوقين، وفقراء ومساكين وأيتام وأرامل وأيامى، ويضمن المجتمع لهؤلاء جميعاً ما تدعو إليه الحاجة، من أمور حياتهم الخاصة، من تعليم وإيواء وعطف ومواساة، وما إلى ذلك من ضرورات الحياة الكريمة مما تستوجبه رابطة الأخوة[1].

فالمسلم الذي يشعر بأخوة الإسلام شعوراً صحيحاً ويعتقدها اعتقاداً صادقاً ؛ هو الذي يشاطر المسلمين في سرائهم وضرائهم ويشركهم معه فيما عنده من خير[2].

ولم يقتصر في معالجته لهذه الظاهرة والتنوية باثارها الاجتماعية والإنسانية على حدود الوطن الصغير، وإنما بصره على امتداد دار الإسلام والعروبة مهتبلاً مناسبة إحياء أحد المواسم الدينية . ليلة الإسراء والمعراج . فدعا إلى مشاطرة الإخوة الفلسطينيين في القدس الشريف الامهم ومواساتهم فيما يلقون من إرهاب وظلم على أيدي الإسرائيليين الظالمين، ومد يد العون والإغاثة لهم بالدعاء وبالعطاء، فقد: رُمِّلت الالاف من نسائهم ويُتِّم مثلها من أبنائهم، وضاع عجزتهم ومرضاهم فأكلتهم الفاقة وأنهكتهم الأوصاب وأحاط بهم البلاء من كل جانب.. فلنبادر للقيام بالواجب علينا نحو إخواننا نذكرهم بالدعاء وبرفع البلاء والعطاء لتحصيل القوت والدواء[3].

وفي هذا الإطار يغتنم فرصة حديثه عن موسم الحج بحثّ الحجاج الجزائريين على الإحسان إلى إخوانهم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 83).

(2) المصدر نفسه.

(3) آثار الإمام (5 / 472).

سكان البقاع المقدسة بما يخفف عنهم ما يعانون من جهد ومشقة واحتياج[1].

وأما الصلاة، فمن اثارها أنها تعلمنا . بأوقاتها المحدودة وبوقوف المصلين فيها صفوفاً منتظمة متراصة النظام والدقة واحترام الوقت، كما تمكن في نفوسنا لعوامل التعارف والألفة والاتحاد بما يعود على أمورنا بالانضباط وعلى أعمالنا بالاطراد[2].

فهكذا ينبغي للمسلم أن يقسم أوقاته على أعماله ويعمرها كلها بالخير، وكما ربط الله صلاته بالأوقات وهي من أمور دينه، كذلك يربط هو بالأوقات جميع أمور دنياه[3].

وأما الصوم فيحرر روح الصائم من سلطان المادة، ويرقى بها إلى افاق سامية وكمالات علوية: فيحرر روحهم من سلطان الشهرة وسلطان المادة ويسمو بنا إلى عالم علوي ملكي من الطهر والكمال.

كما يقوي الصوم إرادة الفرد ويعوده الصبر والثبات ويرجع على صحته بالتحسن، ويقوي إحساس الغني بمعاناة الفقير، بما يحمله على التعاطف معه والإحسان إليه[4].

وأما ما يعود من ذاك على الأمة فيظهر في مدى فاعلية تلك الشعيرة في توطيد عرى الأواصر بين الأمة وبين دينها من جهة، والرفع من جهة ثانية من قدرتها على تحصين مقوماتها الشخصية، والتصدي لما يستهدفها من عوامل الاستلاب والتذويب، وتعزيز إمكاناتها الجهادية للتغلب عما يحول بينها وبين أهدافها من مخاطر وأطماع: إن الظهور بمثل هذه المظاهر الدينية لمماً يزيد في إحكام الرباط الملي وتوثيقه، وإن الشعب كلما كان

(1) آثار الإمام (5 / 448).

(2) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 253).

(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 313 . 434).

(4) أسس مشروع النهضة عند الإمام عبد الحميد (1 / 254).

قوياً دؤوباً على القيام بمقدساته، كان قوياً على مقاومة العوامل الهدامة[1].

وعمل ابن باديس على أن يسمو بشخصية الفرد، ويحصّن كيان المجتمع في حديثه عن المواسم الدينية «عيد الفطر» و«عيد الأضحى» و«الإسراء والمعراج» و«المولد النبوي الشريف».

وقد قال في هذه الذكرى العظيمة الخالدة أكثر من عمل شعراً ونثراً، ومن شعره، تحية المولد الكريم، والقومية والإنسانية[2].

ومما جاء في قصيدته الأولى قوله مخاطباً جمهور الحفل الذي يحيي المولد النبوي الشريف:

أحييت مولد من به حي الأنام على الحقب

بالعلم والآداب والأخلاق في نشء عجب

نشء على الإسلام أسس بنائه السامي انتصب

نشء بحـب محـمد غذاه أشيـــاخ نجب

فيه اقتدى في سيره وإليه بالحق انتسب

أما نثره فيتمثل في جملة من الخطب قالها في هذه الذكرى، وقد أطل فيها إطلالة هادفة على الواقع تصويراً، ونهوضاً به، وقد أولى في هذا الباب عناية كبيرة بتوجيه الأمة وحثها على الإفادة من ذكرى ميلاد رسولها العظيم محمد (ص) بما يعمق روحها بالشعور بالتطلع والرقي والكمال ويقوي في نفسها العزم على اهتبال هذه الفرصة للإقبال على تجديد حياتها:

فلنجعل يوم ولادته من كل عام يوماً نعزم فيه على تجديدنا تجديداً روحياً وعقلياً وأخلاقياً وعملياً وتاريخياً، تجديداً إسلامياً محمدياً في جميع ذلك، لنولد في عامنا ولادة جديدة، وهكذا نجدد ونتجدد في كل ذكرى مولد[3].

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 254).

(2) المصدر نفسه (1 / 255).

(3) المصدر نفسه (1 / 256).

ونخلص من هذه الوقفة عندما جاء في آثار الإمام من نتاج في العبادات الدينية والمواسم الإسلامية إلى التأكيد عما في ذلك من بيان أثر تلك العبادات والمواسم في السمو بالسلوك الفردي والاجتماعي إيجاباً وسلباً ويتجلى ذلك بشكل خاص فيما يجب أن يطبع أخلاق الفرد من طهر وكمال، وفيما ينعكس على أوضاع المجتمع من رقي وانسجام(1).

إن ابن باديس ـ رحمه الله ـ كان يرى:

ـ أن الأخلاق الفاضلة ركن ركين في تزكية النفس وتقويم السلوك، وترقية المجتمع والنهوض به، وأما المفاسد فتنحط بشخصية الفرد وتضعف من قدرة المجتمع على العطاء الراشد والمساهمة الفاعلة في مسيرة الحضارة الإسلامية.

ـ لم يتناول ابن باديس الأخلاق من منظور فلسفي على اعتبار أنها قواعد نظرية مجردة، وإنما كان تناوله لها بصفتها قيمة اجتماعية سلوكية ترتكز أساساً على هداية القرآن والسنة النبوية الشريفة وهدى السلف الصالح، ويتجلى ذلك في الميدان تحلياً بالفضائل وتخلياً عن الرذائل ؛ بما يزكو بالنفس ويحدّ من نزواتها ويسمو بالسلوك ويرقى به إلى معارج الرقي والكمال الإنساني.

ـ يرتكز حديث ابن باديس عن الأخلاق على الدعوة المباشرة إلى التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة من دون الشعور بالحاجة إلى شيء من التدليل على أهمية ذلك في حياة الأمة، لاعتقاده أنها تدرك ذلك من موروثها الديني والاجتماعي، بالرغم مما ترسف فيه من جهل وجمود وتقليد.

ـ لم يوقف ابن باديس على موضوع الأخلاق باباً مستقلاً بها في تراثه، يديره على تحليل اثارها إيجاباً وسلباً في حياة الفرد والمجتمع، وإنما كان يعالج ذلك من خلال نظرات مبثوثة في مواطن كثيرة من نتاجه في ثنايا مقالة أو في صلب خطبة، أو في معرض تفسير آية أو شرح حديث، فكان وهو يتحدث في هذه الأشكال عما يتحدث لا يفوته أن يقف وقفة هنا وأخرى هناك يحث على التجمل بهذا الخلق أو التخلي ضده(2).

---

(1) المصدر نفسه (1 / 256).

(2) المصدر نفسه (1 / 256).

وإن إدراك ابن باديس لهذه الأهمية التي تتمتع بها الأخلاق الحميدة في حياة الإنسان من نحو وحرصه من نحو ثان على السمو بالسلوك الفردي والاجتماعي.

إن هذا وذاك دفعا به على أن يولي عناية خاصة بعنصرين اثنين من عناصر المجتمع، وهما المرأة والشباب لما لهما دون غيرهما من الفئات الاجتماعية الأخرى من مكانة فاعلة مؤثرة في حياة الأمة، وقد خصهما بهذه المكانة بشيء من اهتمامه، إبرازاً لدورهما في المجتمع وحرصاً على النهوض بهما تربية وتعليماً وتوجيهاً[1].

و . المرأة:

أدرك ابن باديس رحمه الله أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وشطره يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها، وقد كتب ابن باديس كثيراً عن المرأة، ولعلنا نقتطف بعضاً مما كتبه في هذا المجال حيث كتب في أحد مقالاته مؤكداً: أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديُّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها من رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهنَّ[2].ويقول في مناسبة أخرى: لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل هو وِرْدُ صفاء للرجال ومنهل كدر للنساء؟ هل له تأثير حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث[3]؟

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس في هذا السبيل فإنه لما تأسست جمعية التربية والتعليم حرص رحمه الله أن يتضمن قانونها الأساسي أن يكون تعليم البنات مجاناً سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها، وذلك تشجيعاً لهنَّ على الإقبال على الدراسة[4].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 256).

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مازن مطبقاني ص 61.

(3) المصدر نفسه ص 62.

(4) المصدر نفسه ص 62.

وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصياً بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة.

ولم يكن كافياً أن تتعلم الفتيات الصغيرات، فقد خصَّصَ دروساً للنساء في المسجد الأخضر، وغيره من مساجد قسنطينة، وكنَّ يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهنَّ جنبات المسجد المخصصة للنساء(1).

ولنا أن نتساءل لماذا كل هذا الاهتمام بتعليم المرأة؟

إن داعية كإبن باديس لم يكن ليخفي ما يدبر للمرأة المسلمة خُفية وعلانية، ولم يكن منعزلاً بعيداً عن ساحة المجتمع، فكما كان بعض الجاهلين بالإسلام يحرصون على إبقاء المرأة جاهلة، كان في الطرف الاخر من يدعوها إلى الخروج غير المنضبط، بل وتلقِّي العلوم الغربية، فقد أدركت الدراسات الاستشراقية التنصيرية والاستعمارية ما يمكن أن يؤديه تعليم المرأة تعليماً غربياً من تحولات اجتماعية نحو التغريب، فما إن صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» حتى صفَّقوا له وهلَّلوا. وكانوا يدركون أن التخريب يكون أبلغ إذا كان من الداخل، فقد ذكرت الوثائق الفرنسية، أهمية كتاب طاهر الحداد «امرأتنا أمام الشريعة والمجتمع» الذي نادى فيه بأن الشريعة الإسلامية لم تكتمل في عهد صاحب الرسالة (ص)، وأن المجال مفتوح لمزيد من التشريعات بخصوص المرأة، بإعطائها مزيداً من الحقوق، وبمعنى أدق تقليد المرأة الغربية(2).

وانطلقت بعد ذلك الصحف الفرنسية تدعو إلى تعليم المرأة الجزائرية التعليم الغربي، ومن ذلك ما كتبته صحيفة صدى تلمسان في إجابة للمحرر عن تعليم المرأة الجزائرية بقوله: نعم ويكون أجدى إذا كان باللسان

(1) المصدر نفسه ص 62.

(2) إمرأتنا أمام الشريعة والمجتمع، الطاهر الحداد ص 20.

الفرنسي، فجاء ردَّ ابن باديس عليه: نعلم ونجزم أن تعليم المرأة إذا لم يكن بلسان قومها ـ بلغت من درجات العلم ما بلغت ـ يكاد يضلُّها عن الطريق المستقيم[1].

وقد تقدم ابن باديس خطوة رائدة في تعليم المرأة، حيث إنه بعد أن أنهت بعض التلميذات دراستهنّ في مدرسة جمعية التربية والتعليم القسنطينية فكَّر في إرسالهنَّ إلى مدرسة جمعية دوحة الأدب السورية، وبعث رسالة بهذا الخصوص إلى رئيسة هذه الجمعية جاء فيها:

يسرُّك يا سيدتي أن تعرفين «تعرفي» أن بالجزائر نهضة أدبية تهذيبية تستمد حياتها من العروبة والإسلام، غايتها رفع مستوى الشعب العقلي والأخلاقي، ومن مؤسسات هذه النهضة جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، ولما علمت إدارتها بجمعيتكم المباركة بما نشرته عنها مجلة الرابطة العربية، رغبت أن نرسل بعض البنات ليتعلمن في مدرسة الجمعية، فهي ترغب في حضرتكم أن تعرفوها بالسبل إلى ذلك[2].

فالمرأة عند ابن باديس: خلقت لحفظ النسل وتربية الإنسان في أضعف أطواره {وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف : 15].

فهي ربة البيت وراعيته والمضطرة بمقتضى هذه الخلقة للقيام به، فعلينا أن نعلمها كل ما تحتاج إليه للقيام بوظيفتها، ونربيها على الأخلاق السوية التي تكون بها المرأة امرأة لا نصف رجل ونصف امرأة[3].

والمرأة الجزائرية كونها مسلمة: فعلينا أن نعلمها ما تكون به مسلمة ونعرفها عن طريق الدين ما لها وما عليها، ونفقِّهها في مثل قوله تعالى: {إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا *} [الأحزاب : 35].

---

(1) الشهاب العدد 104 في 7 محرم 1346هـ 7 يوليه 1927م.

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 64.

(3) مقدمة مجلة الشهاب ص 43.

والمرأة المسلمة كونها جزائرية فيقول ابن باديس بأنها:

بدينها، ولغتها، وقوميتها. فعلينا أن نعرِّفها حقائق ذلك لتلد أولاداً منا ولنا يحفظون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الاتية، ولا ينكرون أصلهم، وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر الناس أجمعون[1].

والطريق الموصل إلى هذه الأهداف:

هو التعليم: تعليم البنات تعليماً يناسب خلقتهنَّ ودينهنَّ وقوميتهنَّ[2].

. اهتمامه بالأسرة:

وقد أولى الشيخ عناية فائقة واهتماماً كبيراً بالأسرة، الحضن الذي يتربى فيه الرجل والمرأة، واهتم بترشيد الفتيات والفتيان بكيفية الزواج الناجح، ولذلك لما كتب محمد العابد الجَلاَّلي قصته بعنوان «السعادة البتراء» ذهب فيها إلى أن الزواج بين بطلي القصة سيكون ناجحاً لأنه مبني على التعارف والحب، علق الشيخ عبد الحميد بن باديس على ذلك بمقالة في العدد الموالي من الشهاب (ج3 . م11) في ركن المقالات معرض اراء وأفكار، وقعه بحرف . ع بعنوان «الزواج أيبنى على الحب والتعارف أم على المحبة والمعرفة؟»، ذهب فيه إلى أن الزواج المأمول لا يقوم على التعارف المطلق والحب الشهواني، إنما هو الذي يقوم على الوسطية الإسلامية القائمة على المعرفة البريئة بين الخطيبين، وما ينشأ عنها من محبة بريئة.

فقال: فالزواج الإسلامي مبني على المعرفة البدنية بالرؤية، والمعرفة النفسية بالبحث عن الدين والخلق، وعلى المحبة التي تحصل بذلك، ويدل عليها رضا كل واحد منهما بصاحبه، ولم يراعَ في الزواج الإسلامي الحب الشهواني الذي يثيره الاختلاط لما في الاختلاط من تعريض الفضيلة للخطر، ولأن الحب ثورة وقتية لا تلبث أن تنطفأئ، وأخلق بالزواج المبني عليه أن تنحلّ عراه عند إنطفائه.

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 44.

(2) المصدر نفسه ص 44.

هما أمران، حب ثائر مبني على تعارف مخطر سريع الخمود، ومحبة هادئة مبنية على نظر عفيف وعلم الدين والخلق، تدوم بدوام الدين، وتثبت بثبات الأخلاق، أيُّ هذين أحق أن تبنى عليه الزوجية التي يقصد منها دوام التالف والتعارف والعمل لخير الأسرة والأمة والبشرية؟ لا أحد من العقلاء يتوقف في الجواب عن مثل هذا السؤال[1].

. الشفاء بنت عبد الله القرشية:

كان ابن باديس يكتب في مجلة الشهاب تحت عنوان: رجال السلف ونساؤه، ويشتمل على غرر الاثار ودرر الأخبار ينفض الغبار عن الجامدين ويكبح به جماح الجاحدين، كما كان يكتب فصلاً تحت عنوان: السنة المطهرة يحتوي أحاديث نبوية مختارة لمعالجة المشاكل الاجتماعية، فمما كتبه تحت عنوان رجال السلف ونساؤه الشفاء بنت عبد الله القرشية قال: كانت من عاقلات النساء وفضلياتهنَّ، وكانت تحسن الكتابة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرعاها ويفضلها ويقدمها في الرأي تقديراً لسابقتها وعقلها، ومعرفة فضائلها، وكان ربما ولاَّها شيئاً من أمر السوق في بعض الأحيان، ثم قال مستنتجاً: تتولى المرأة الكتابة وتعلِّم غيرها وتتولى تدبير أملاكها وتجارتها وما تستطيعه من عمل عام، كما تولت الشفاء أمر السوق في بعض الأحيان، ولا شك مما أهّلها لذلك عند عمر معرفتها بالكتابة.

وبهذا الأسلوب اللين الهادأئ يدعو الأستاذ عبد الحميد إلى تعليم المرأة وتوليتها المناصب في الدولة، وإذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه منحها هذا الحق منذ أربعة عشر قرناً، فمن الذي تحدثه نفسه باتِّهام الإسلام بالمحاباة وعدم المساواة. والشفاء بنت عبد الله هذه ذكرها ابن باديس أيضاً تحت عنوان السنة المطهرة، فقال: عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل النبي (ص) وأنا عند حفصة، فقال لي: ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة، وبعد ما شرح الأستاذ هذا الحديث، بما تقتضيه قواعد العلم، ذكر أن من أحكامه

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 45.

وفوائده تعليم النساء الكتابة، ثم قال: وأقوى منه في الاستدلال العموميات القرآنية المتكاثرة الشاملة للرجال والنساء، فإن مذهب الجمهور وهو المذهب الحق أن الخطاب بصيغة التذكير شامل للنساء إلا لمخصص يخرجهن من نص أو إجماع أو بضرورة طبيعة لأن النساء شقائق الرجال في التكليف.

هكذا يرى ابن باديس لزاماً علينا نشر العلم بين أبنائنا وبناتنا على أساس ديننا وقوميتنا، إذ العلم تراث البشرية جمعاء. ومعلوم أن العلم الذي هو يتعلق بالكونيات، فالمرأة إذن على ما ذهب إليه عبد الحميد بن باديس، لها أن تتعلم من العلوم ما تشاء، فلها أن تزاحم النسور في السماء والحيتان في الماء ما دامت متمسكة بدينها، وذلك ما يدعوها إليه الإسلام[1].

. وقف إمام خيالي:

قال ابن باديس: ألقيت محاضرة في هذا الموضوع بنادي الترقي بالعاصمة في شهر ربيع الأول. وفيما يلي أكتبها على ما بقي في ذهني، كنت ألقيتها ارتجالاً وإذا شذ عني شيء فلا يكون إلا قليلاً.

كنت وأنا قادم للعاصمة من مضيق «حصن الماء» ؛ أحوم على موضوع أختاره للمحاضرة التي اقترحها عليَّ أعضاء النادي المحترمون، فوقع فكري على المرأة وحالتها وواجباتها وحقوقها وبينما أنا أفكر فيها وأجمع أطراف الحديث في شأنها ؛ إذ أنا برجل مسلم جزائري ببرنوسه وقنورة وقف أمامي . لم يقف أمام حسي ولكن وقف أمام خيالي . وأخذ ذلك الرجل يخاطبني بشدة وعنجهية ويقول:

أنتم تفكرون في تعليم المرأة فلمن تعلمونها؟ لي أنا.

الرجل الجاهل: ليقعنَّ لها ما يقع للعالم الضعيف المغلوب من الجاهل القوي الغالب. ومن يعلمها؟ أنا الجاهل، كيف أترك نفسي وأعلمها؟

أنتم تفكرون في نزع حجابها وخلطها بالمجتمعات، ألا تخافون عليها غيرتي؟ فلأقاتلنَّ عليها ألا تخافون

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء والشعراء ص 221.

إغارتي؟ فلأضايقهنَّ ولترينَّ مني كل أنواع التعدي والأذى.

إذا أردتم التفكير الصحيح والإصلاح المنتج، ففكروا فيَّ قبلها، فأنا ابوها وزوجها ووليها ومصدر خيرها وشرها.

وإذا أردتم إصلاحها الحقيق فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكاناً عالياً في العلم وهنَّ متحجبات، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء[1].

إن إبراز ما تتسم به مواقف ابن باديس وكتاباته في موضوع المرأة، هو: الحكمة والاعتدال والرصانة في الطرح والمناقشة في تشخيص الداء ووصف الدواء، مما يميز منهجه العام في جميع مواقفه وأعماله، فهو يحافظ في معظم الأحوال على موضوعيته ووسطيته، فكان في هذا الموضوع كعهده في غيره وسطاً بين الإفراط والتفريط، إفراط المستلبين وتفريط الجامدين، فكان بذلك من بين أبرز المفكرين وكتاب تيار الاعتدال والوسطية والروح العلمية في العالم العربي الإسلامي[2].

ز ـ اهتمامه بالشباب:

كان الاحتلال الفرنسي قد شمل بسياسته الظالمة عموم أفراد الشعب الجزائري نسائه ورجاله، شيوخه وشبابه، غير أن التركيز كان منصباً على الشباب أكثر من غيره، لما في الشباب من أهمية في حياة الأمم ـ وكان ذلك بإضعاف قواه وإفساد أخلاقه بهدف ضرب الأمة في أكبر قوة مادية تملكها في حياتها، وكان ابن باديس قد اهتم وركز على الشباب مبكراً، فظهرت رعايته بالشباب في محورين اثنين:

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 218.

(2) أسس مشروع النهضة (1 / 188).

الرعاية العامة للشباب، والعناية الخاصة بالطلبة.

. الرعاية العامة للشباب:

تدخل عناية ابن باديس بالشباب في إطار اهتمامه العام بمجموع أفراد المجتمع الجزائري، وطبيعي أن يتوجه هذا الاهتمام في نطاق النهضة إلى عنصر الشباب أكثر من غيره بما ينتظر أن يقوم به من نشاطات في هذا المشروع، بسبب ما تميزت به من قوة في الإرادة وصدق في العزيمة وثقة في المستقبل، فهو عدة الأمة، وحادي قافلة نهضتها، وحامل مشعل تطلعاتها إلى أهدافها في التحرر والتقدم(1).

يقول ابن باديس عن شباب الجزائر في ذلك العهد، وما ينبغي أن يكون عليه: «أعلن الشهاب» من أول يومه و«المنتقد» الشهيد قبله ؛ أنه لسان الشباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده وقبح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء . إلا منه . أمله، وحقره في نفسه تحقيراً. وإلا شباب جاهل أكلته الحانات والمقاهي والشوارع.

ومن وجد العمل منه لا يرى نفسه إلا الة متحركة في ذلك العمل، لا همّ له من ورائه في نفسه فضلاً عن شعوره بأمر عام، وإلا شباب حفظه الله للإسلام والعروبة، فأقبل على تعلمها، لكنه تعلم سطحي لفظي خالٍ من الروح، لا يعتز بماضٍ، ولا يألم بحاضر، ولا يطمح لمستقبل، اللهم إلا أفراد قلائل جدًّا هنا وهناك.

وأما اليوم فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس ونوادٍ . إلا نادراً . إلا وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات وشعار الجميع،: الإسلام، العروبة، الجزائر(2).

وقد شمل الشيخ بعنايته مختلف قطاعات الشباب: الطفولة، الطلبة، الكشافة، الرياضيين، الفنانين، شمل

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 290).

(2) الشهاب ج2، م14 ربيع الثاني 1357هـ مارس 1938م.

هؤلاء جميعاً، وهم في محاضنهم وفي مدارسهم ونواديهم، فقد عني بالأطفال وهم في حجور أمهاتهم رضعاً، تفتك الأمراض والأوبئة بأجسامهم، يصارعون الموت في كل لحظة من الليل أو من النهار، فيصرعهم ويتخطف منهم زهاء أربعين في المائة من مجموعهم، بسبب الفاقة وسوء التغذية والأمراض. إن موت أربعين في المائة ناتج في الأكثر عن عدم الوجد وسوء الحال، بدليل أن الموت والمرض في أبناء الفقراء أكثر منهم في غيرهم[1].

وتمتد عناية ابن باديس بالشباب إلى الكشافة الإسلامية الجزائرية، فكانت تربطه بها صلة متينة، فكان رئيساً شرفياً لأول مؤتمر كشفي ينعقد بالجزائر سنة 1930م، كما كان رئيساً ومؤسساً لفوج «كشافة الرجاء» سنة 1935م، وكان يوجههم في نتاجه.

ومما جاء في ذلك في قصيدته «تحية المولد الكريم» بوجه ويشجع عناصر هذا الفوج، محملاً إياهم أمانة النهوض بالأمة والعمل على تحريرها والرقي بها، هذه الأبيات:

شعب الجزائر مسلم   وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذِب
أم رام إدماجاً له   رام المحال من الطلبْ
يا نشء يا ذخر الجزائر   في الشدايد والكرب
يا نشء أنت «رجاؤنا»   وبك «الصباح» قد اقترب
خذ للحياة سلاحها   وخض الخطوبَ ولا تَهَبْ
وارفـــع منـــارَ العـــدل   والإحسان واصدم من غصب
وأَذِقْ نفوسَ الظالمين   السُّمَّ يمزجُ باللهبْ
واقلع جذور الخائنين   فمنهم كل العطب
واهزُز نفوس الجامدين   فربما حَيِيَ الخَشَبْ

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 292).

نحن الألى عرف الزمان قديمنا الجمَّ الحَسَب

ومعين ذاك الجوُّ في نسل العُروبة ما نضب

من كان يبغي وُدَّنا فعلى الكرامة والرُّحَبْ

أو كان يبغي ذُلَّنا فله المهانة والحَرَب

هذا نِظَامُ حياتِنا بالنور خُطَّ وباللَّهَب

حتى يعود لشعبنا من مجده ما قدْ ذهب

هذا لكم عهدي به حتى أُوَسَّد بالتُّرَب

فإذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب[1]

ومما جاء في هذه القصيدة توجه ابن باديس إلى المجتمع حاثاً إياه على العناية بهذا النشء قائلاً:

يا قــوم هذا نشؤكم وإلى المعالي قد وثب

كونوا له يكن لكم وإلى الأمام ابناً وأب

ويصور الشيخ الشاعر الصالح رمضان، وهو أحد مرشدي الكشافة الإسلامية الجزائرية بعض مهام هذا الفوج فيقول:

نحن «الرجا» عند المحن لقــومنا وللوطــــــن

لفوجنا سرب نفيس عبد الحميد بن باديس

كأن فيه «ماسنيس» يزجي الصفوف ويسوس

فرقتنا «صلاح الدين» حاضرة في كل حين

فتياتها قــرة عيـــن لفــوجنا والمسلمــين

وكانت تربط ابن باديس بالجمعية الرياضية «المولودية» صلة وثقى، يكاد يعرفها العام والخاص، فكان يشجعها ويحرص على توجيه عناصرها دينياً وأخلاقياً، كما كانت له علاقته مماثلة مع جمعية الفن للموسيقى العربية بقسنطينة[2].

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، د.تركي رابح ص 225، 226.

(2) أسس مشروع النهضة (1 / 293).

. العناية الخاصة بالطلبة:

ويتحول هذا الاهتمام العام بالشباب إلى عناية خاصة بالطلبة، تشملهم وهم يطلبون العلم في كتاتيبهم، ومدارسهم، ومساجدهم، وكان الكاتب قد بذل جهوداً حميدة في هذا الميدان منذ أن رابط بالجامع الأخضر، يربي الناشئة ويكوّن الجيل، ولم تكن عنايته هذه بتربية الشباب لتقتصر على تربية البنين دون البنات، وإنما كانت تشمل الجانبين، كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وكان يحرص في هذا المجال على توطيد أسباب الصلة بينه وبين طلبته بتقديم يد العون لهم، فكان يساعدهم مادياً من ماله الخاص، وما تعود به مساعيه من أجلهم لدى المحسنين بحثِّه إياهم على إغاثة أبناء الأمة، بما يمكّنهم من التغلب على مؤونة التبلغ والتفرغ، ثم مواجهة أعباء الطلب والتحصيل[1].

كانت عنايته بطلابه كبيرة، وكان يؤكد أن مهنته كمعلم ؛ تجعله دائم التفكير في تلامذته[2].

. العناية الشاملة بعموم الشباب: كان ابن باديس يرى ضرورة العناية بجميع هذه الفئات الشبابية، وكان يعمل على تربيتهم وتثقيفهم وتوجيههم إلى المنابع الصافية من أصول دينهم والمناهل العذبة من مبادئ أخلاقهم، والتمكين لهذه وتلك في قلوبهم وفي عقولهم، وقد عني في هذا المضمار بما ينمي قواهم الجسدية والروحية بحثِّهم على المحافظة عل صحتهم البدنية: حافظ على صحتك، فهي أساس سعادتك وشرط قيامك بالأعمال النافعة لنفسك ولغيرك[3].

وحثهم على الاهتمام بقواهم العقلية: حافظ على عقلك فهو النور الإلهي الذي مُنحته لتهتدي إلى طريق السعادة في حياتك. حافظ على حياتك ولا حياة لك إلا بحياة قومك ووطنك ودينك ولغتك وجميل عاداتك[4].

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 231) وما بعدها.

(2) أسسس مشروع النهضة (1 / 295).

(3) المصدر نفسه (1 / 296).

(4) المصدر نفسه (1 / 296).

وكان ابن باديس حريصاً على ما يسمو بأخلاقهم، ويحفظ شخصيتهم، ويحميهم من الانزلاق في مهاوي الرذيلة والفساد، وقد أولى في هذا الباب عناية خاصة بالتصدي لما يهدد الشباب من تيارات هدامة، تزين لهم التنكر لدينهم وقومهم عن طريق ما تبثه في صدورهم من سموم وتزرعه في سلوكهم من افات، وقد ساعد على ذلك ما يغزو العقول يومئذ من الخرافة والتقليد، بسبب الجهل والفهم السقيم لحقائق الإسلام، الذي يشده إلى العقل والعلم حبل متين، فكان خطر ذلك كبيراً على الشباب ولاسيما على أولئك الذين كانوا يتعلمون منهم في المدارس الأجنبية ؛ فإن قلة زاد هؤلاء من الدين الصحيح والعلم النافع، إلى جانب تلك السموم التي كان ينفثها في صدورهم من ينفثها من الأخصائيين في ذلك من دوائر الاحتلال، لقد أوشك هذا النقص أن يؤدي ببعض هؤلاء إلى حافة السقوط في وهدة الشك والمروق من الدين، مما جعل من المهام الرئيسة الإسراع إلى انتشال هؤلاء من هذه المخاطر. ولذلك كان الإقدام على انتشال هؤلاء من هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء[1].

وكان لابن باديس وجمعية العلماء دور كبير في توعية هؤلاء الشباب وتعريفهم بالمكانة السامية التي تحظى بها في دينهم قيم العقل والعلم والحق والعدل، فكان لهذه الجهود أن اتت أكلها فاهتدى بعض الشباب إلى الطريق الصحيح، ومن أقوى الأدلة على ذلك، بل حسبنا في ذلك أن نقايس بين حالة هذه الطبقة المنكرة وهي حالة تمرد ومروق وإلحاد ؛ وبين حالتها الراهنة وهي حالة تدعو إلى الاطمئنان والسرور[2].

كما قام ابن باديس بتقديم نماذج من سير السلف الصالح للشباب، لتكون محل قدوة واعتبار لديهم. فرسم لهم صوراً من أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام، وملامح من سير بعض السلف نسائه ورجاله،

(1) آثار الإمام (3 / 253، 254).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 253، 254).

وبعض القصص الديني، محاولاً بذلك أن يلفت النظر إلى ما في هذه الأمثلة من مواطن الأسوة بما يساعد على بناء نفوس الشباب وعقولهم، مما في تلك المواقف من مبادئ الدين والعلم والأخلاق، فيكون لهم من ذلك ما يجعلهم يحملون أمانة الأجيال الماضية للأجيال الاتية، ولا ينكرون أصلهم وإن أنكرهم العالم بأسره، ولا يتنكرون لأمتهم ولو تنكر لهم الناس أجمعون[1].

لقد اعتنى صاحب الشهاب بالشباب عناية خاصة تكويناً ورعاية وتوجيهاً، فهو لا يفتأ يوجه إليهم نصائحه في آية مناسبة مواتية، من ذلك الكلمة التاريخية التي سدد بها نظرتهم نحو الحياة، وذلك في الاحتفال الذي أقامته جمعيات الحياة بقسنطينة التربية والتعليم، الشباب الفني، الكشافة الإسلامية، والفريق الرياضي «المولودية» . مساء يوم الثلاثاء 13 ربيع الثاني 1357هـ وذلك تكريماً للضيوف الذين حضروا ختم الأستاذ ابن باديس لدروس تفسير القرآن الكريم كما أسلفنا:

أيها الإخوان:

الإسلام دين الحياة والعلم والفن، والحياة قوة وإيمان وجمال، والعلم يمثل القوة، والفن يمثل الجمال، وبهذا تحتفل بكم ضيوف القرآن جمعيات قسنطينة الحيوية التي تمثل القوة والإيمان والجمال[2].

وقد بلغ من اهتمام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بتكوين الشباب أن خصصت لهم جريدة باللغة الفرنسية لتكون لسان حال شبيبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وقد صدر العدد الأول منها بتاريخ 13 رمضان 1371هـ الموافق 6 جوان 1952م.

وكانت متوجهة بصفة خاصة إلى الشبيبة الجزائرية المثقفة بالفرنسية لتعريفها بالثقافة الإسلامية ومبادئها، للتقريب بين أبناء الوطن الواحد، وإحباط مساعي الاستعمار للتفريق بينهم، ليتمكن الجميع متحدين على

(1) أسس مشروع النهضة (1 / 297).

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 39.

خدمة الوطن بتفاهم وتعاون. وكان يحررها نخبة من الشباب الواعي بالثقافة العربية الإسلامية المتشبعة بالروح الوطنية ومجموعة من الشخصيات الفكرية والسياسية المتمكنة من الفكر الإسلامي وتاريخه المجيد[1].

ومن الوسائل التي اعتمدها الشهاب لبث الوعي الوطني والديني والخلقي في نفوس الشباب خاصة وجماهير الشعب عامة: الخطابة والتمثيل يعززان عمل المسجد والمدرسة، والنادي والصحيفة والكتاب والنشاطات الثقافية التي تقام في المسارح وقاعات الاحتفالات والمخيمات الكشفية، ويضاف إلى ذلك مساندتها للجمعيات الفنية من أصحاب الاحتراف والهوية الوطنية منها والوافدة.

من ذلك ما نشره الشهاب عن خطاب مرتجل للشيخ محمد البشير الإبراهيمي جاء فيه: التمثيل والخطابة عند الأمم الحية توأمان وأخوان شقيقان، وإن منزلتهما من دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لأرفع منزلة، وإن مكانتهما من بين مقومات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقومات الجسدية وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا وللتمثيل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولى، وليس موقف الممثل بينهم دون موقف الخطيب، ولا موقع الرواية من نفوسهم دون موقع الخطبة، فإنما الخطيب والممثل شيء واحد، الممثل خطيب إذا أحسن تصوير المغزى وشخّص الحقائق الغائبة للمشاهدين كالحاضر المشاهد وألبس الخيالات لباس الواقع المحسوس، والخطيب ممثل إذا عرف كيف يقص الخبر، وكيف يستخرج العبر، وكيف يسوق المؤثرات فيترك في نفوس سامعيه أعمق الأثر.

بل إن رجال الإصلاح ليغتنمون كل فرصة سانحة لنشر الدعوة الإصلاحية واليقظة الوطنية في أي تجمع كالأعراس والجنائز ومجالس الصلح بين المتخاصمين والأسواق والسجون والمعتقلات[2].

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 40.

(2) مقدمة مجلة الشهاب ص 41.

5. التربية العقلية المعرفية:

يؤكد ابن باديس على ضرورة النظر العقلي في المعرفة حتى تكون يقينية وباعثة على التفاؤل فيقول: يجب على المؤمن مع تصديقه وجزمه أن ينظر في الايات، آيات الكون والإنسان ويستعمل عقله للفهم، كما تجب عليه جميع الواجبات في الإسلام لقوله تعالى: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [يونس : 101].

وقال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ *} [الطارق : 5].

وقال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ} [العنكبوت : 20].

ويشير ابن باديس إلى أهمية التأمل العقلي لأنه شرط أساسي لتمام الإيمان وصحته وتحقيق اليقين، ولأن مَن عَدِمَ إيمانه اليقين خرج من دائرة المؤمنين وكان من جملة الكافرين ولو نطق بالشهادتين وعمل أعمال المؤمنين[1].

واهتم ابن باديس بتقديم صورة للمعرفة الشاملة التي تهتم بالوجود والإدراك معاً، وبتحديد أهداف هذه المعرفة وكيفية عمل العقل ودوره.

وإذا كان أصل المعرفة عنده هو الإدراك والتحليل والفهم للمعلومات والمكتشفات، فإن ميزة هذه المعرفة الكبرى هي الإدراك الناتج عن عمليات التركيب والتحليل والتطبيق، ولولا هذه المعرفة لما ترقى الإنسان أطوار حياته وتميز عن باقي المخاوقات، وذلك لأن العقل هو القوة التي امتاز بها الإنسان وساد هذا العالم الفاني، ولأن العقل هو ميزان وبرهان على صحة كل معرفة[2].

أ. أنواع المعرفة عند ابن باديس:

يرى ابن باديس أن المعرفة تتميز بالشمول والكلية والتغير وبالتطور لأن مصادرها لابد أن تجتمع بين العقل والحس والقلب، لتقدم لنا العلم اليقيني بقسميه النظري والعملي استجابة لقوله تعالى:{وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء : 36].

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 71).

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 73).

ويمكن القول بأن ما قدمه ابن باديس من اراء في المعرفة عموماً، وخاصة عند تفسيره للاية السابقة التي يسميها آية العلم والأخلاق؛ هو رأي يرضى جميع الأطراف المتنازعة حول المعرفة، سواء أصحاب المدرسة الحسية أو العقلية، لأن رأيه يؤكد شمولية المعرفة وأهمية تعاون العقل مع الحس والوجدان.

وابن باديس يقول بالتأمل كوسيلة معرفية للظواهر. فهذا التأمل لا يكون إلا بالنظر «عقل وبصر»، وإذا كان تأمل صور العالم العلوي والسفلي بالبصر، فإن النظر في التاريخ وأحوال الأمم السابقة لا يكون إلا بالعقل، وإذ يقول ابن باديس بتطور المعرفة وشمولها ؛ فإن هذا التطور مرهون بتطور العلم وبالتالي تطور الإنسان. ولأن هذه المعرفة ترتبط بتطور الإنسان والعصر الذي يعيشه والعلم الذي يتحصل عليه فهي تمر بثلاثة أطوار أو مراحل:

ـ **الطور الأول**: هو طور المعرفة السطحية المشوشة حيث يقل الاعتماد على العقل، وهذا الطور يصفه ابن باديس بطور الجمود حيث كثرة المعلومات مع إهمال النظر فيها، فيبقى الإنسان فيه حيث هو جامداً، ثم لا يلبث أن تتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل أو تضمحل.

. **الطور الثاني**: هو طور النضج العقلي والمعرفة الصحيحة ومكتشفات العلم، حيث الاعتماد على العقل مع كثرة المعلومات وهذا الطور يصفه ابن باديس بأنه طور التقدم والحضارة.

ـ **الطور الثالث**: وهو طور التخلي عن العقل والمعرفة، ويسميه ابن باديس بطور الهلاك التام، حيث الانحطاط الذي يصعب فيه إدراك الحقائق أو نسبها ولا يستقيم تنظيم العقل لها، فكل ما يتوصل إليه بنظرة خطأ في خطأ وفساد في فساد ولا ينشأ عن هذين إلا الضرر في المحسوس والضلال في المعقول.

وفي هذين هلاك الفرد والنوع جزئياً وكلياً من قريب أو من بعيد، وهذا هو الانحطاط، أي انحطاط الأمم الانحطاط التام[1].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 268).

وهكذا بدأت محاولة ابن باديس إبراز أهمية المعرفة والعقل، وإثباته أن تمام المعرفة ليس فيما تقدمه الحواس وحدها أو العقل وحده، بل إن تمام المعرفة يتوقف على تعاون وترابط جميع مصادرها من عقل وحس وحدس فطري سليم، وهو ما سيتضح من أنواع المعرفة التي عرضها ابن باديس أثناء شرحه للأحاديث أو تفسيره لايات القرآن الكريم(1).

. المعرفة العلمية:

يقول ابن باديس: إن تمام المعرفة لا يكون إلا بتمام العلم، وهذا سبب التكريم الإلهي للإنسان التكريم العام، أما التكريم الخاص فهو تكريم الإنسان لنفسه وروحه، بتنزيهها عن مساوأئ الأخلاق وتحليتها بمكارمها، وتكريم العقول يكون بتنزيهها عن الأوهام والشكوك والخرافات والضلالات، وربطها بالعلوم والمعارف وجميع الاعتقادات، وتكريم الجوارح يكون بتنزيهها عن المعاصي وتجميلها بالطاعات، فنتحرى بأقوالنا وأفعالنا أكرم الأقوال وأكرم الأفعال، ونترفع عن جميع الرزايا والدنايا(2).

ويوضح ابن باديس مدى التلازم والترابط بين المعرفة والعلم عند بيان مصادر المعرفة والعلم الواحدة، المتمثلة في الحس والعقل والوجدان عند تفسيره لقوله تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً *} [الإسراء : 36]. فهذه الآية تثبت وحدة ترابط مصادر المعرفة ووسائل العلم على اعتبار أن السمع هو القوة التي تدرك بها الأصوات بالة الأذن، والبصر هو القوة التي تدرك بها الأشخاص والألوان بالة العين، وقدم السمع على البصر لأن به إدراك العلوم وتعلم النطق، فلا يقرأ ولا يكتب إلا من كان ذا سمع وقتاً من حياته، والفؤاد هو القلب والمراد به هنا العقل من حيث اعتقاده لشيء ما(3).

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 74).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 306، 307).

(3) آثار ابن باديس (1 / 269).

ويميز ابن باديس بين المعرفة العلمية والحقيقة العلمية، فالعلم عنده إدراك جازم مطابق للواقع عن بينة، سواء كانت تلك البينة حساً أو مشاهدة، بالسمع أو بالبصر أو برهاناً عقلياً كدلالة الأثر على المؤثر، والصنعة على الصانع، فإذا لم تبلغ البينة بالإدراك رتبة الجزم فهو ظن، ومعنى ذلك أن الإدراكات الناشئة عن الظن فهي العلم مجازاً أو الوهم[1].

ويحاول ابن باديس إبراز أهمية العلم ودوره المعرفي في مجال السلوك والأخلاق ولذلك قال: العلم هو المقدمة الضرورية لكل عمل، ومن دخل في العمل بغير علم لا يأمن على نفسه من الضلال، ولا على عبادته من مداخل الفساد والاختلال، وربما اغتر به الجهال فسألوه فاغتر هو بنفسه فتكلم بما لا يعلم فضلّ وأضلّ[2].

ـ المعرفة العقلية:

يقول ابن باديس: علمنا الله ألا ننظر في ظواهر الأمور دون بواطنها، وإلى الجسمانيات الحسية دون ما وراءها من معان عقلية، بل ونعبر من الظواهر إلى البواطن وننظر من المحسوس إلى المعقول، ونجعل من حواسنا خادمة لعقولنا، ونجعل من عقولنا هي المتصرفة الحاكمة بالنظر والتفكير، كما يؤكد على قيمة هذه المعرفة التي تعتمد على العقل، ودورها بوصفها الأساس في ظهور الحضارات، لأن العلم التجريبي يقوم على مبادئها، وكذلك باقي العلوم لأنها تخضع لمبدأ السببية.

وسوف تظهر قيمة هذه المعرفة وأهميتها عند عرض اراء ابن باديس في كيفية عمل العقل ومقتضى دوره وقدراته، والحدود التي يجب ألا يتخطاها، مع الإشارة إلى الخصائص العامة للمعرفة العقلية عنده[3].

وهناك الخصائص العامة للمعرفة العقلية:

---

(1) تفسير ابن باديس ص 149 . 150.

(2) ابن باديس حياته آثاره (2 / 275).

(3) عبد الحميد ابن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 82).

ـ يؤكد ابن باديس على أن هذه المعرفة لا تقف عند حدود الزمان الحاضر، لأن العقل قد استطاع أن يدرك في هذا الزمان ما لم يستطع إدراكه في زمان سابق. وإن إدراك الحقائق يكون باستقراء الواقع ومجموع ظواهره الماضية والحاضرة.

. أن هذه المعرفة تقوم على أساس من المنطق والبرهان وحاجات الإنسان وقدراته.

. أن غاية عمل العقل البشري تحقيق الاستقامة والكمال للإنسان التي تتحقق بالفكر والعمل.

ويعلي ابن باديس من قيمة الفكر الذي يسبق كل فعل، ويعلل أفضلية حالة الفكر على حالة العمل في الإنسان لأن حالة الفكر هي حالة التأمل العقلي في آيات الله الكونية، وهي حالة ينفرد الإنسان لربه ويخلص له قلبه، ويتوجه إلى خالقه بالفكر والاعتبار ودوام المراقبة والإقبال، هذا في حالة الفكر، أما في حالة العمل ففيها يعالج الإنسان بعقله وحواسه شؤون حياته من أمر نفسه وأهله وما إلى رعايته من مصالحه أو مصالح غيره، فيمارس فيها الأسباب ويباشر فيها ما تقتضيه بشريته، وهو في هذه الحالة متعبدٌ مأجورٌ ما جرى فيها على حدود الله وقصد به امتثال شرعه[1].

. دور العقل وأهميته:

أكد ابن باديس أن مهمة العقل الأساسية هي التأمل، والتأمل عنده عملية إدراكية وكشفية، لأن التأمل من أجل الفهم واستجلاء حقائق الكون والاعتبار بعظمتها وتناسقها وعظيم نفعها، وعلى ذلك فإن مهمة العقل ليست ميتافيزيقية بقدر ما هي واقعية وعملية، لأن بالعقل ندرك بدائع عجيبة وأسرار، ولأن التأمل والتفكير وسائل للفهم وتحقيق أغراض الإنسان في الحياة وتحقيق صدق الإيمان واليقين[2].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 138).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 131، 132).

ويصف ابن باديس مهمة العقل الإدراكية والكشفية ومجالها فيقول: ومهمة العقل مهمة إدراكية أي إدراك الآيات والظواهر الكونية في العالم العلوي والسفلي الدال على وحدانية الله تعالى وقدرته وعلمه وحكمته ولطفه ورحمته.

ومهمة العقل مهمة كشفية أي كشف الحقائق والوصول إلى الحكمة في تعاون ؛ لأن الحقيقة والعقل والحكمة مقدمات المنطق السليم وميزان الصدق في المعرفة. فبالحق والحكمة والنور المخرج من كل ظلمة والفرقان في كل شبهة والفصل في كل خصومة، بها تفتح البصائر وتطهر الضمائر وتعرف طريق الحق والهوى من طرائق الباطل والضلال(1).

. حدود العقل:

عندما وضع ابن باديس حدود العقل ومهمته ؛ حصرها في مجال النظر والبحث والاكتشاف والتحليل والتعليل في عالم الممكن، وأكد على أن قصور العقل عن إدراك الحقائق المغيبة عنه ليس بسبب طبيعته، ولكن بسبب إرادة الله. وأن عدم إدراك هذه الحقائق فيه رحمة بالإنسان وفضل من الله ونعمة. وأن قصور العقل عن إدراك حقائق النفس الإنسانية يرجع إلى تشابك العوامل المؤثرة في سلوكه من عواطف وانفعالات. ولذا فإن الأثرة المستولية على النفوس حجاب كثيف يحول دون رؤية الحقائق كما هي(2).

ويعلل ابن باديس ضرورة عدم إطلاق قدرات العقل، لأن مهمة العقل مرتبطة بطبيعته وطبيعة الحقائق التي يستطيع إدراكها والأخرى التي يعجز عن إدراكها، فالعقل عاجز عن إدراك حقيقة القدر والروح وبعض حقائق الكون البعيدة التي لم يكشفها العلم بعد، وتسمى بالمعجزات الكونية، وأن خفاء تلك الحقائق في الآيات الكونية لم تأت عبثاً، بل كانت إيقافاً للعقل عند حده، وتعريفاً له بقدره، وتنبيهاً له على عظيم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 60).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 171، 172).

آيات ربه، حتى أن حقيقة العقل نفسه وطبيعته كانت ضمن هذه الحقائق التي لم يستطع العقل البشري إدراكها بسهولة[1].

والعقل عند ابن باديس لا يعمل بمفرده في مجالي المحسوس والمعقول أو ما يسميه بعالم العلوم والاداب، لأن العقل عنده يستعين في إدراكه وتحقيق مهامه بالنور الإلهي، ويسترشد بمنهج القرآن والسنة حتى يتغلب على العقبات التي تعوق عمله وأداءه لوظيفته، وبذلك يتغلب على حالة الشك والتردد والضعف ويخرج من حالات الحيرة إلى حالة الاطمئنان[2].

وهكذا حدد ابن باديس مهمة العقل وحدوده وقدراته، أما ما فوق قدرته فعليه أن يفوض الأمر لله، لأن مجال الإدراك البشري هو الممكن المحدود بحدود العقل وقدراته، ومهمته فيه هي التأمل للوصول إلى اليقين والإيمان، أما مجال الغيب فليس للعقل فيه مجال، وعليه التصديق به دون محاولة إدراك حقيقته، لأنه عجز عن إدراك كنه هذه الأشياء التي هو عاجز عن إدراكها[3].

ويصف ابن باديس مجالات عمل العقل وحالات قوته وعجزه تفصيلاً أثناء تفسيره لقوله تعالى: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ *} [آل عمران: 7].

إن في خلق الله وفي شرع الله وفي قدر الله وفي كلام الله ما يخفى على العقول إدراك حقيقته أو حكمته أو معناه لطفاً من الله بالإنسان وتنبيهاً له، وقد قامت الحجة عليه فيما جهل بما عرف، وكثيراً ما كانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سبباً في صد العقول عن النظر وطول أمد الخطأ والجهل، ويكون عمله . أي العقل . في قدر الله هو الاعتبار في تصاريف القدر، والاتعاظ بأحوال البشر واستحصال قواعد الحياة من سير الحياة، فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه،ولم يتبين ما فيه من عدل وحكمة

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه (1 / 85).

وإحسان ورحمة ؛ فليذكر عجزه، وليذكر ظهور ما خفي عنه من مثل ذلك في وقت ثم ظهر له فيوقن أن هذا مثله، وأنه إذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجهه ما خفي منه، فيتلقاه الان بالتسليم والتنزيه راداً علمه إلى الله تعالى مفوضاً أمره إليه، ويكون عمله في شرع الله هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف وتحصيل الأحكام وحكمها والعقائد وأدلتها والاداب وفوائدها والمفاسد وأضرارها، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر ما علته ذكر عجزه وتوقف عنده، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين، ولم يمنعه عجزه عن تعليل وتبيين وجهة ذلك القليل من المعنى ؛ من التفهم والتدبر لما بقى له من الكثير.

ويكون عمله في كتاب الله هو التفهم والتدبر لاياته والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالته واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه على ما دلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها وما جاء في التفاسير المأثورة، وما نقل من مفهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم المشهود لهم بذلك من أمثالهم، فإذا وقف أما المتشابه رده إلى المحكم، وإذا انتهى إلى فواتح السور ذكر عجزه فامن بما لها من معنى وقال: الله أعلم. فهذا السير النظري والعمل العملي المبني على اليقين بعدل الخالق جل جلاله وحكمته ورحمته في خلقه وقدره وشرعه وكلامه، ومعرفة العبد بقدره ومقامه ؛ يزداد السائر على مقتضاه إيماناً وعلماً وفوائد جمة[1].

. المعرفة الفطرية:

يرى ابن باديس أن المعرفة الفطرية هي أصل المعرفة الإنسانية، وهي نوع من الإدراك المتطور للمعلومات وللحقائق في بساطتها وبداية نشأتها، وأن هذه المعرفة تتميز عن المعرفة التي للحيوان، لأن المعرفة الحيوانية فطرية بحتة وأنها نوع من أنواع الإدراك الأولي البسيط، أما المعرفة الإنسانية فيمتاز الإدراك فيها بالتركيب والتحليل والتطبيق[2].

(1) المصدر نفسه (1 / 86).

(2) المصدر نفسه (1 / 87).

ويعلل ابن باديس أهمية هذه المعرفة ويحدد حقائقها المميزة في:

أن المعرفة خاصة بالجانب الإلهي وحده وأنها تتحقق من خلال ثلاث مراحل من العلم:

الأولى: علم بالله لمعرفة صفاته ونعوته.

والثانية: علم من الله لمعرفة الظاهر والباطن والحلال والحرام والنهي والأحكام.

والثالثة: علم مع الله وهو معرفة تقوم على الخوف والرجاء والمحبة والشوق.

ـ أن هذه المعرفة تساعد الإنسان في التغلب على عناصر الطبيعة والتحكم فيها بما فيها من حيوان وجماد وتسخيره لمصلحته، أما رقي أطوار التقدم في حياته فيرجع للعقل الذي هو القوة التي امتاز بها وساد هذا العالم الفاني.

ـ وأن هذه المعرفة تتميز بأنها إيمانية وقلبية وكامنة في النفس وأنها يقينية وصادقة بطبيعتها، ويمكن التأكد من وجودها وصدقها بوسيلتين، إما بسؤال الغير من أهل العلم، وإما من طريق معرفة الإنسان لنفسه، لأن هذه المعرفة مغروسة في النفس وواجب الاعتراف بها، وهذا ما يؤكده ابن باديس بقوله: من عرضت له شبهة وجب عليه أن يبادر إلى إزالتها بالنظر لنفسه أو بسؤال غيره من أهل العلم، وإن هذه المعرفة بدون الإذعان القلبي والخضوع لا تفيد شيئاً، ومن لم يخضع قلبه لما عرفه من عقائد الإسلام لم تفده تلك المعرفة ولم يكن بها من المسلمين[1].

ـ إن المعرفة الفطرية الإيمانية لا تتكرر ولا تتعارض مع المعرفة الحسية والعقلية ولا تنفصل عنهما، ولكي تستكمل هذه المعرفة وظيفتها ويستمر صدقها ؛ لابد من أن نحذر العديد من العوامل التي تؤدي إلى فساد الإدراك والفطرة السليمة مثل:

---

(1) المصدر نفسه (1 / 89)، العقائد الإسلامية لابن باديس ص 25 ـ 43.

ـ الأخذ بظاهر الأشياء والتسرع في الحكم، وهو ما حذرنا منه ابن باديس فيقول: علينا أن نحذر الاعتراض أو الحكم بالأنظار السطحية دون بحث عن الحقائق، أو أن نلحق شيئاً بشيء دون أن يتحقق انتفاء جميع الفوارق، فقد انتشر بعدم الحذر من هذين الأمرين جهالات، وارتكبت ضلالات. والجهل المركب والقياس الفاسد هي أعظم أصول الفساد والضلال[1].

ـ الاغترار بقدرة العقل المطلقة على اكتشاف كل مجهول، فيجب أن نحذر ذلك أي خطر الإعجاب بالعقل، وضرورة وضع الحدود له حسب قدرته.

ـ يقول ابن باديس: إن قلوبنا معرضة لخطرات الوساوس والأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم، ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وما حكاه المتكلمين ومناقضتهم فما ازدادوا إلا شكاً وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً، حتى مع كثير منهم في أواخر أيامهم عندما لجؤوا إلى القرآن وعقائده وأدلته فشفوا بعدما كادوا كإمام الحرمين والفخر الرازي.

ـ الحيرة والاضطراب والضلال لناتج عن خفاء الحقيقة، وفي بيان الحقيقة الهدوء والاطمئنان وإنارة السبل للعاملين، وفي معرفة الحقيقة راحة للإنسان وفي بعدها الحيرة والقلق والاضطراب[2].

. الحقد والبغض بين الناس يحول بين معرفة الحق والصدق، وكل من يريد أن يعرف الحق بفطرته عليه أن يخلي قلبه ما استطاع من الحقد والبغض، لأنه إذا سلم القلب وحصل الفهم أثرت كلمة الحق أثرها لا محالة[3].

. المال والجاه والرئاسة والسلطة، بها يطغى الإنسان ويتعالى ويتعاظم، فالسلطة كلها قواطع تبعد الإنسان عن الحق والإدراك السليم وتغلّ الفكر[4].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 293، 294).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 345).

(3) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 90).

(4) المصدر نفسه (1 / 90).

. المعرفة الغيبية:

إن ابن باديس أثناء بحثه في المعرفة العقلية وجد أن هناك بعض الحقائق وقف العقل أمامها عاجزاً عن إدراكها ومعرفة حقيقتها، لأنها تفوق طاقته وقدرته في البحث والنظر والتعليل والاكشاف، كما لاحظ في نفس الوقت أن البعض الاخر ينكر عالم الغيب وينكر قدرة الإنسان على معرفته. ومن ثم تأكيد ابن باديس على أن هذه الحقائق التي لا يستطيع العقل فهم طبيعتها وفي نفس الوقت لا يستطيع إنكارها لأنها موجودة بالفعل، وأنها تمثل جانباً من عالم الغيب مثل بعض الآيات الكونية وحقائق الكهرباء في الكون والقدر والروح، بل العقل نفسه في الإنسان ؛ أضافها ابن باديس إلى هذه الحقائق التي يصعب على العقل إدراك حقيقتها، واطلق اسم المعرفة الغيبية على هذا النوع من المعارف والحقائق التي لا يحكمها البرهان العقلي ويصعب تحديدها.

ورأى ابن باديس أن وقوف العقل عند حدود هذه الحقائق التي تفوق طاقته ووقوفه عند حد النظر والاعتبار في الحقائق الممكنة ؛ فتلك حكمة الله في كونه أن يقف العقل بقدراته في حالة عجز أمام عالم الغيب، حتى لا تختلط الحقائق بالأوهام أو حقائق الغيب بحقائق العلم. ومن هنا يأتي تحذير ابن باديس المتكرر من خطر الإعجاب بالعقل وقدراته المعرفية حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها وأن مدركاته يقينيات بأسرها، فعندها يؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات ويحسب أنه لا شيء بعدها وقد يخرج إلى إنكار خالقها، ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لا نسب بين اليقين وبينها، فكان من لطف الله بالإنسان أن جعل لعقله حداً يقف عنده وينتهي إليه ليسلم من هذا الخطر خطر الإعجاب بالعقل[1].

والمعرفة الغيبية عند ابن باديس هي معرفة غير مباشرة، وظنية وليست يقينية، بل هي نوع من الوهم الذي

(1) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 52، 53).

لا يكون معرفة بحال، لأنه مجموعة من الصور الخيالة المحتوية على مجرد الظن أو التخمين[1].

ومن هنا تختلف تلك المعرفة عن المعرفة المباشرة التي أجازها الله سبحانه لأصفيائه من الرسل والصالحين للإعلام عن أشياء مستقبليه يجب معرفتها من جانب الرسل، وهذه المعرفة لا تتعارض ولا تتنافى مع إطلاع الله تعالى لأنبيائه على بعض ما يكون في المستقبل، إذ أنه علم محدود في شيء مخصوص كان بإعلام الله لهم، ولا يتجاوز علمهم إلى ما عداء في أحشاء المستقبل من الغيب ولا لما في الحال منه مما لم يعلموا به[2].

ويميز ابن باديس بين الظن المؤيد بالشرع وبين العلم بالغيبيات، ويؤكد أن العلم الحقيقي لا يؤيد الدخول في الغيبيات وخاصة أحوال ما بعد الموت، ففيها يكتفى بما جاء في القرآن أو ثبت في حديث عن الملائكة والجن والعرش والكرسي واللوح والعلم بعلامات الساعة وما لم يصل إليه علم البشر[3].

* * *

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 91).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 114).

(3) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 92).

المبحث السادس

مقومات الشخصية الجزائرية، ومكانة

الأمة العربية والإسلامية، والفكر السياسي عند ابن باديس

أولاً: مقومات الشخصية الجزائرية:

إن المحافظة على الشخصية العربية الإسلامية للشعب الجزائري هي أهم الأهداف التربوية عند ابن باديس إن لم نقل هي الهدف الاستراتيجي المحوري الذي تتفرع عنه كل الأهداف الأخرى التي يأتي التعليم في مقدمتها، وتحرير البلاد في نهايتها، فهو لا يتصور مستقبلاً آخر للجزائر إلا في ظل عروبتها وإسلامها، وهما ركنان أساسيان من أركان الشخصية الجزائرية، وأما الركن الثالث فهو الجزائر، فالإسلام بتراثه الروحي العظيم، والعروبة بقيمها العريقة، والجزائر بماضيها المجيد ومستقبلها الزاهر ؛ هي المكونات الثلاثة للشخصية الجزائرية في رأي ابن باديس[1]، والتي صاغ على أساسها شعاره المعروف الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا[2].

ويمكن للباحث أن يحلل شعار الحركة الإصلاحية التي قادها ابن باديس فيتضح له الآتي:

1 . الإسلام ديننا:

الإسلام في منظور ابن باديس منهج هداية ونظام اجتماعي شامل وتنتظم ضمن فصوله أمور الحياة الدنيا

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، د. تركي رابح ص 255.

(2) إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس ص 67.

ومطالب الأخرى، لأن الإسلام في جوهره وكما فهمه أئمة السلف: هو سعي جاد إلى المواءمة بين الطبيعة والإنسان وبين الحياة البشرية في جوانبها المادية والحياة البشرية في جوانبها الروحية، وهو بهذا يسع الأوطان والأقوام والأجناس ويستوعبها ويحترم الأديان ويعترف بها، ويدعو إلى حسن المعاملة حتى مع المخالفين للدين غير المحاربين مصداقاً لقوله تعالى: {لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ *} [الممتحنة : 8].

فالإسلام دين عدل وإنصاف وتسامح، لأنه كما يقول ابن باديس: دين الإنسانية التي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، لأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله[1].

ومن أقواله التي يؤكد فيها هذا المفهوم قوله: الإسلام عقد اجتماعي عام فيه ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام[2]، ويقصد هنا في ضوء المبادئ والقواعد التي يدعو إليها الإسلام: ومن أحدث ذلك ما قرره مؤتمر القانون الدولي العام في حق الفقه الإسلامي وصلاحه لأمور الحياة فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة[3].

وابن باديس يرى أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام كتاب حكمة، والحكمة هي العلم الصحيح والإدراك القويم للحقائق، وهو الخلق الكريم والعمل الصالح ثم يوضح فيقول: ففي الفقه في دين الله الكمال العلمي وفي العمل به الكمال العملي.. وما كمال الإنسان العلمي وكماله العملي إلا بالمعرفة الصحيحة والسلوك المستقيم[4].

(1) آثار الإمام عبد الحميد بن باديس (4 / 112).

(2) الشهاب ج 8 م 13 أكتوبر 1937م ص 260.

(3) إمام الجزائر ص 68.

(4) المصدر نفسه ص 68.

وكان كثيراً ما يردد: لا نجاة لنا إلا بالرجوع إلى القرآن، إلى علمه وهديه وبناء العقائد والأحكام عليه[1]، لأنه ما من فكرة أو سلوك إلا وفي القرآن شاهد عليها، وما من معضلة إنسانية إلا وفي القرآن ما يرشد إلى حلها، إنه نظام تشريعي محكم للعلاقات الإنسانية، فالعدل والأخوة والاحترام، وتحريم الظلم وأشكال الاستعباد والاستغلال، والحرية والتضامن وإقرار الإحسان العام وما إليها ؛ كلها قيم قرانية تشربتها شخصية ابن باديس.

إن غاية ابن باديس من التشديد على تنبيه الناس إلى الحقائق المتضمنة في القرآن الكريم هي:

. إقامة مجتمع إسلامي متكامل، والطريق إلى بناء هذا المجتمع هو فهم القرآن وتدبره واتباعه، والسير على هديه ولذا يقول: وإن القرآن الذي كون رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه وتدبره وحملت الأنفس على منهاجه[2]، ثم يقول: فإننا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستحقق أن يكوِّن القرآن منهم رجالاً كرجال سلفهم. وعلى هؤلاء القرانيين تعلق الأمة امالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودنا وجهودها[3].

إن الإسلام الذي يراه ابن باديس طريقاً لخلاص الأمة من أوضاعها المتردية هو الإسلام الإيجابي، الذي يحارب السلبية والجمود والاستكانة والاستسلام لليأس والكسل، ويناهض كل أشكال الاستغلال والاضطهاد والتمييز العرقي والجنسي، ويدفع المنتمين إليه إلى الثورة على ما في نفوسهم من ضعف وجبن وتردد، وعلى الأوضاع الفاسدة التي تعوق مجتمعهم عن النهوض والتقدم ومقاومة التخلف بكل أشكاله[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 69.

(2) خطوات في العمل الإسلامي، أبو جرة سلطاني ص 47.

(3) إمام الجزائر ص 69.

(4) المصدر نفسه ص 70.

وهكذا يتحدد المفهوم الإيجابي الذي يعطيه ابن باديس للإسلام كما يراه وكما يجب أن يراه العلماء، إنه الإسلام الذي يبنى فيه الاعتقاد على المعرفة والتدبر والتفكير، وليس على الوراثة والتقليد، لأنه يرى أن هناك نوعين من الإسلام في العصر الحاضر:

. إسلام وراثي مبني على التقليد والجمود.

. إسلام ذاتي مبني على التفكير والبحث والتأمل.

والذي ينهض بالأمم والشعوب في رأيه إنما هو الإسلام الذاتي المبني على التفكير، يقول ابن باديس: أما الإسلام الذاتي فهو إسلام من يفهم قواعد الإسلام، ويدرك محاسن الإسلام في عقائده وأخلاقه وادابه وأحكامه وأعماله، ويتفقه حسب طاقته في الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويبنى ذلك كله على الفكر والنظر، فيفرق بين ما هو من الإسلام بحسنه وبرهانه، وما ليس منه بقبحه وبطلانه، فحياته حياة فكر وإيمان وعمل، ومحبته للإسلام محبة عقلية قلبية بحكم العقل والبرهان، كما هي بمقتضى الشعور والوجدان[1].

وكان ابن باديس كعادته كلما همَّه أمر جمع جنده من رجال جمعية التربية والتعليم وحاورهم وخطب فيهم مبيناً حقيقة الأمر الذي يشغله ليسمع منهم رأيهم ويبين لهم رأيه، لأنه لا يريد أن ينفرد برأي خاص في المسائل الجوهرية.

ففي أخريات حياته عام 1937م تحدث إلى أعضاء جمعية التربية والتعليم التي تشرف معه على التعليم العربي الحر، تحدث إليهم في محاضرة نشرتها الشهاب ج/ 10، م12: وقف الإمام أمام ذلك الحشد الطيب من جند الإسلام وحماة العربية ونظر في وجوههم ليقرأ فيها مستقبل الجزائر، ومدى استعدادهم لصنع هذا المستقبل، وبعد أن حياهم بأفضل تحية مهد لموضوعه بكلمات نقتطف منها مايلي:

ينبغي لكل قوم جمعهم عمل أن يفهم بعضهم بعضاً، كما ينبغي أن يفهموا العمل الذي هم متعاونون

(1) الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح ص 228.

عليه، ليكونوا في سيرهم على بصيرة من أنفسهم وعملهم، ونحن أيها الأخوة الذين اجتمعنا على التربية والتعليم من معلم ومتعلم يجب علينا أن يفهم بعضنا بعضاً.. وأنا أظن نفسي مفهوماً عند من يتصلون بي مثلكم، ولو كان ذلك في زمن قليل، لأني ما فتئت أعلن عن فكرتي التي أعيش لها ورغباتي التي أسعى إليها في كل مناسبة.. ثم قال في بيان مؤشر:

. لمن أعيش؟ أعيش للإسلام وللجزائر جاء فيه:

والذي يهمنا هنا في الجواب هو الشطر الأول منه: أعيش للإسلام!

قال: قد يقول قائل أن هذا ضيق في النظر، وتعصب للنفس وقصور في العمل وتقصير في النفع، فليس الإسلام وحده ديناً للبشرية، ولا الجزائر وحدها وطناً للإنسان، ولأوطان الإنسانية كلِّها حق على كل واحد من أبناء الإنسانية، ولكل دين من أديانها حقه من الاحترام، فأقول: إن خدمة الإنسانية في جميع شعوبها والحدب عليها في جميع أوطانها واحترامها في جميع مظاهر تفكيرها ونزعاتها ؛ هو ما نقصده ونرمي إليه ونعمل على تربيتنا وتربية من إلينا عليه[1].

. ولكن هذه الدائرة الإنسانية الواسعة ليس من السهل التوصل إلى خدمتها مباشرة ونفعها دون واسطة، فوجب التفكير في الوسائل الموصلة إلى تحقيق هذه الخدمة وإيصال هذا النفع.

ونحن لما نظرنا إلى الإسلام وجدناه الدين الذي:

ـ يحترم الإنسانية في جميع أجناسها فيقول جلّ وعلا: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء : 70].

. ويقرر التساوي والأخوة بين جميع الأجناس، ويبين أنهم كانوا أجناساً للتمييز لا للتفضيل، وأن التفاضل بالأعمال الصالحة فقط، فيقول الله: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ *} [الحجرات : 13].

(1) إمام الجزائر ص 72.

ـ ويدعو تلك الأجناس كلها إلى التعاطف والتراحم بما يجمعها في وحدة الأصل ووشائج القرابة القريبة والبعيدة فيقول تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا *} [النساء : 1].

ـ ويقرر التضامن الإنساني العام بأن الإحسان إلى واحد إحسان إلى الجميع، والإساءة إلى واحد إساءة إلى الجميع، فيقول: {مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا} [المائدة : 32].

ـ ويقرر شرائع الأمة ويهون عليها شأن الاختلاف ويدعوها كلها إلى التسابق في الخيرات، قال تعالى: {لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} [المائدة : 48].

ـ ويعترف بالأديان الأخرى ويحترمها ويسلم أمر التصرف لأهلها فيقول: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون : 6].

. ويأمر بالعدل العام مع العدو والصديق، قال تعالى: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *} [المائدة : 8].

. ويحرم الاعتداء تحريماً عاماً على البغيض والحبيب فيقول: {وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [المائدة : 2].

. ويأمر بالعدل والإحسان فيقول: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} [النحل : 90].

. ويأمر بحسن التخاطب فيقول {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً} [البقرة : 83].

فلما عرفنا هذا وأكثر من هذا في الإسلام، وهو الدين الذي فطرنا عليه الله بفضله ؛ علمنا أنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وأن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وأن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه، فعاهدنا الله على أن نقف حياتنا على خدمته ونشر هدايته وخدمة كل ما هو بسبيله

ومن ناحيته، فإذا عشت له فإني أعيش للإنسانية لخيرها وسعادتها في جميع أجناسها وأوطانها وفي جميع مظاهر عاطفتها وتفكيرها، وما كنا لنكون هذا إلا بالإسلام الذي ندين به ونعيش له ونعمل من أجله. فهذا ـ أيها الأخوان ـ معنى قولي، أنني أعيش للإسلام(1).

إن اهتمام ابن باديس بالإسلام وارتباطه به يعتبر محوراً جوهرياً في استراتيجية التغيير التي سار عليها في حياته، ويرجع ذلك إلى قناعته على قدرة تعاليم الإسلام على التصدي لمخططات الاستعمار وأكاذيب المستشرقين ودعاة التنصير ومن والاهم من المنفذين لمؤامرات الغزاة، والتي كانوا يستهدفون النيل من الكيان الروحي للجزائر، ومن ثمة ابتلاع الوطن أرضاً وعقيدة وثقافة، لذلك ابن باديس يدافع عن الإسلام ويجاهد في سبيل حمايته من خطر الابتلاع، وحماية بلاده مما يدبر لها، إذ لا فرق عنده بين الدين والوطن، فالدفاع عن الوطن يتضمن حتماً الدفاع عن الدين.

هذه هي استراتيجية ابن باديس التي أصبحت استراتيجية جمعية العلماء، فهو لم يفصل في معاركه التي خاضها في هذا السبيل هو ورفاقه بين الإسلام والجزائر. وكان يرى أن الطريق الأمثل لتحقيق الفوز في هذا المجال هو التعليم وتربية الأجيال، وتثقيف العقول وإذكاء الوعي واحياء الضمائر والقلوب لفهم وظيفة الإسلام الحقيقية، التي ليست محصورة في تلقين الناس كيفية ممارسة الشعائر الدينية، وتعليمهم ما يجوز وما لا يجوز من الأقوال والأفعال فقط ؛ إنما الوظيفة الحقيقية للدين الإسلامي هي محاربة الجمود الفكري، والتدهور الخلقي، والقضاء على روح الخضوع والاستسلام لمخططات الاستعمار، التي يسعى من ورائها إلى إفراغ العقول والقلوب من كل ما يشعرها بذاتيتها وينير طريقها في الحياة، واستطاع أن يجعل من التثقيف جبهة من جبهات الدفاع للتصدي:

ـ لإحباط كل سياسة ترمي إلى التنصير والفرنسة، أو الإدماج والتجنيس، ومواجهة كل المساعي التي كان

(1) إمام الجزائر ص166 .

يتخذها الاستعمار لتضليل الجزائريين وخنق وعيهم واجتثاثهم من منابتهم، بهدف تأييد الاحتلال وإلحاق الجزائر نهائياً بفرنسا عن طريق الإدماج والتجنيس(1).

إن ابن باديس يرى أن المجتمع الجزائري مسلم، ويجب أن يحكمه مسلمون، يرعون حرمة الإسلام وأحكامه، ولذلك قال: الإسلام هو الأساس الذي يجب أن يبنى عليه كل عمل للجزائر، والنهج الذي يجب أن يسير فيه كل من يتولى قيادة ناحية من نواحي سيرها في الحياة، وكل من حاد عنه قولاً أو عملاً فإنه يعد خائناً للأمة، ويجب أن يعامل بما يستحقه الخائنون(2).

إن ابن باديس كان في تحليله يربط بين الوطنية والإسلام، ولكن نظرته على الرغم من أنها منطلقة من الجزائر ؛ لم تكن محصورة في الجزائر، بل كانت تمثل واقع البلاد العربية والإسلامية لأن أحوالها متشابهة، كما كان يدعو في مجال تسيير شؤون المجتمع إلى اعتماد القوة والأخلاق، القوة التي تستخدم في الحق والخير والدفاع عن العدل والسيادة، والقوة الحقيقية هي قوة العلم إذ العلم هو الأساس لكل أمر من أمور الدين والدنيا، والمسلمون لن يحققوا سيادتهم وعزتهم بين الأمم إلا إذا خضعوا في حياتهم لهذا القانون الإلهي الصارم النافذ في تطور المجتمع وعمرانه. وبدون قوة العلم والأخلاق لا يمكن للحاكم أن يحقق العدل والأمن، أو أن يسوس الناس بالإحسان على أساس من الحق والخير والجمال(3).

والأخلاق التي يجعلها ابن باديس أصلاً من أصول الحكم ووسيلة من وسائله هي الأخلاق القرآنية التي كانت أخلاق الرسول (ص) والتي لخصها ابن باديس في الفضيلة واعتبرها ركناً من أركان النهضة، الأخلاق

(1) إمام الجزائر ص 74 . 75.

(2) المصدر نفسه ص 83.

(3) حركة ابن باديس التربوية علي علواش ص 244.

التي ينتفي مع وجودها الظلم والاستبداد والخيانة والعدوان والتمييز والأنانية وغير ذلك من الرذائل التي تهدم المجتمع[1].

وحيث أن القرآن هو المصدر الأول الذي يعتمد في فهم الإسلام، فقد استخلص ابن باديس من خلاله أن العلم والعقائد والأخلاق من أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، وقرر أن أول خطوة في نهضة المسلمين هي بناء حياتهم على قوة العلم والأخلاق اللذين هما أساس كل قوة[2]، ولكن لا علم ولا أخلاق إلا بالعقائد، ولا يحصل شيء من ذلك إلا بالتربية والتعليم[3].

ويرى ابن باديس أن النظام السياسي العادل يسهم في نشر الفضيلة، ويحارب الرذيلة، وينمي في الناس الإحساس بالقوة والعزة والكرامة. ويشير في سياق آخر إلى أن الخضوع للاستبداد يتنافى مع غيرة المسلم وإيمانه بالله وبحقه في الحرية والحياة فيقول: فالذلة من المسلم نقص في إسلامه، والقساوة مثلها نقص فيه[4].

2 . العربية لغتنا:

إن ابن باديس الذي حفظ القرآن وتأثر بحقائقه وتشرب الثقافة العربية الإسلامية منذ صغره ؛ امتلأت نفسه حباً لهذه اللغة وتقديراً لقيمتها الثقافية، فدرسها ودرس تاريخها وادابها وعرف الوظائف الحية التي تضطلع بها، والقيم التي تزخر بها، وأدرك بعمق ارتباطها بالإسلام، وبوجدان الإنسان المسلم، لأنها الأداة التي بها يناجي ربه، ويفهم القرآن ويطلع على حقائق الإسلام والتراث، وبها يتواصل مع أبناء جنسه ويحس بانتمائه القوي إلى أمته، وبأن هذه اللغة جزء من كيانه وركن من أركان شخصيته.

ولذلك جعلها ابن باديس رديفة الإسلام، وخصص لها مكانة في مشروعه الإصلاحي، وأعطاها الرتبة الثانية ضمن بنود شعاره الوطني الثلاثي الأبعاد « الإسلام ، العربية ، الجزائر » الشعار الذي جعلته الحركة

(1) إمام الجزائر ص 83.

(2) المصدر نفسه ص 84.

(3) المصدر نفسه ص 84.

(4) المصدر نفسه ص 84.

الإصلاحية دليلاً موجهاً لنشاطها ومنهاجاً محدداً لمضمون هذا النشاط، سواء في مجال التعليم أو الدعوة الإسلامية، أو في مجال بعث اليقظة السياسية والوعي الوطني[1].

. نظرة ابن باديس إلى اللغة:

يقول ابن باديس: علينا أن نعرف تاريخنا، ومن عرف تاريخه جدير بأن يتخذ لنفسه منزلة لائقة به في هذا الوجود.. ولا رابطة تربط ماضينا بحاضرنا الأغر والمستقبل السعيد إلا هذا الحبل المتين: اللغة العربية لغة الدين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المحروسة... إنها وحدها الرابطة بيننا وبين ماضينا، وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها نقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغر الميامين أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتز به، وهي الترجمان عما في القلب من عقائد وما في العقل من أفكار وما في النفس من الام وامال.

إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين وخدم العلم وخدم الإنسانية، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ سنين فليحقق الله أمانينا[2].

ويقول ابن باديس: هذا هو اللسان الذي ما فتئنا نتحدث عن محاسنه «عن فوائده» منذ أن نصبنا أنفسنا لهذه المهمة أي منذ 1913م إلى هذا التاريخ 1939م. لذلك نرجو من الله أن تتحقق الأماني، وأعظم هذه الأماني هي أن يتخلص الشعب من الاستعمار، وتستعيد اللغة العربية مكانتها في الحياة بين أهلها وفي وطنها، ولقد تحققت هذه الأماني أو بعض منها على الأقل، ولكن بعد رحيل ابن باديس رحمه الله[3].

وبهذا المنطق الحضاري نجحت الخطة الباديسية في إعداد الجيل الذي أحيا الوطن الجزائري في نفوس أبنائه، ومهد الطريق لجيل ات ليسترجع هذا الوطن بالثورة من قبضة الاستعمار، وبذلك أصبحت العربية

---

(1) إمام الجزائر ص 85.

(2) آثار عبد الحميد (4 / 147، 148).

(3) إمام الجزائر ص 89.

والعروبة والقومية على يد الحركة الباديسية طوق نجاة الجزائر من المسخ الحضاري، والسلاح الذي حققت به الباديسية نصراً خيل للكثيرين أن تحقيقه قد غدا أحد المستحيلات، كما ورد في تعليق الأستاذ عدايسية في المجاهد الأسبوعي عدد 1868 بتاريخ 1996/5/3م(1).

. السياسة الاستعمارية تجاه اللغة:

يمكن إجمال الحديث عن السياسة الاستعمارية تجاه اللغة العربية في عهد عبد الحميد بن باديس في كونها سياسة عدائية حاقدة ترمي إلى شيئين:

. فرنسة الشعب الجزائري فكراً ولغة وسلوكاً.

. محاربة اللغة العربية وانتقاص قيمتها وتضييق الخناق عليها.

. سياسة الفرنسة:

لقد نفذ الحكام هذه السياسة علانية وبدون مواربة، وتمثلت البداية في:

. إقصاء اللغة العربية من الميدان من كل الدوائر الرسمية التي كانت تعتمد فيها.

. إحلال اللغة الفرنسية محلها في جميع الدوائر والمرافق بدءاً من المدرسة إلى الإدارة.

. اعتبار اللغة العربية لغة أجنبية لا يجوز أن تعتمد في تحرير الوثائق الرسمية.

. وإمعاناً في إقصاء اللغة العربية ؛ تم سد أبواب التعليم الوطني الذي كانت فيه العربية هي اللغة السيدة، بالاستيلاء على موارد الأوقاف التي كانت مصدر الإنفاق على التعليم، بالسطو على المؤسسات التعليمية وتخريبها، إما بتهديمها أو تحويل وظيفتها التعليمية بجعلها ثكنة أو إدارة أو إعطائها لرجال الكنيسة ينفذون فيها مشاريعهم التنصيرية.

---

(1) المصدر نفسه ص 89.

ـ تضييق الخناق على تعليم العربية ومطاردتها حتى خارج المدرسة الفرنسية التي أنشئت خصيصاً لتطبيق سياسة الفرنسة، «فرنسة العقول، والألسنة، والمحيط الذي يتعامل معه الجزائري».

.كانت سياسة التجهيل التي اعتمدتها حكومة الاستعمار في الجزائر أسلوباً من أساليب الفرنسة، لذلك لم تتح الفرصة التعليمية لأبناء الجزائر في البداية، ثم ظهر لها أسلوب اخر، فأنشأت لهم مدارس خاصة ووضعت لها برامج معينة، وحسب أهداف استعمارية واضحة، وحرصت أن يكون التعليم كله بالفرنسية، فوضعت بذلك الجزائريين في موقف الاختيار بين الفرنسة أو الجهل[1].

وضعتهم أمام خيار صعب، إما أن يقبلوا هذا الوضع ويسجلوا أبناءهم في هذه المدارس التي مستواها التعليمي أقل من مستوى المدارس الخاصة بأبنائهم، وإما أن يمتنعوا فيبقى أبناؤهم جاهلين[2].

والأمر في كلتا الحالتين هو في صالح الفرنسة، وكانوا يظنون أن الجزائري الجاهل أو المفرنس يسهل ابتلاعه واقتلاعه من منبته، لذلك أصروا على تنفيذ هذه السياسة ولكنهم أخطؤوا التقدير، فقد رفض معظم الجزائريين أن يرسلوا أبناءهم إلى هذه المدارس التي اعتبروها فخاً من فخاخ التنصير، كما أشار إلى ذلك بعضهم، ومع ذلك بقي الجزائري محافظاً على دينه ولغته وشخصيته، ولم يرض بالذوبان في الشخصية الفرنسية رغم الإغراءات والحيل.

وقد ترتب على هذه السياسة:

. لا وجود للتعليم باللغة العربية في مدارس التعليم الابتدائي إلا في عدد محدود من الصفوف الأخيرة من هذه المرحلة. وبتعدد عدد الصفوف والمدارس تبعاً لعدد التلاميذ الراغبين في الالتحاق بالمدارس الفرنسية الإسلامية الثلاث وهي مدارس ثانوية انشئت خصيصاً لتخريج بعض الموظفين الذين تحتاجهم حكومة الاستعمار مثل المترجمين والقضاة.

(1) التعريب بين المبدأ والتطبيق، بن نعمان ص 165.

(2) إمام الجزائر ص 90.

ـ وأما في المدارس الثانوية الأخرى فتدرج اللغة العربية لغة اختيارية بين اللغات الأجنبية، وفي مرتبة أقل قيمة من اللغات الأجنبية المطروحة للاختيار، وإذا اختار بعض التلاميذ العربية فإن ما يقدم لهم هو العربية الدارجة في أغلب الأحيان بدعوى أنها اللغة الحية، أما اللغة الفصحى فهي اللغة الكلاسيكية التي لا تستعمل في الحياة، وقد ألفت كتب لتعليم الدارجة «الموغلة في العامية».

. ولا وجود للعربية في المجالات الأخرى باستثناء المصالح الخاصة بالتوثيق الشرعي لأحكام الزواج والطلاق والتي أفردت لها مصالح خاصة.

ـ حظر استعمال اللغة العربية في المجالات الرسمية، وفرض على الجزائريين أن يترجموا المستندات والوثائق القديمة التي كانت في حوزتهم مثل العقود ويصدقوا عليها حتى تصبح مقبولة لدى الإدارة وصالحة للتعامل.

ـ من أساليب الفرنسة فرض حصار محكم على المجتمع الجزائري، وتشديد الرقابة على جميع المنافذ التي تربط الجزائر بالمشرق، والتي يمكن أن يطل منها النور ويتسلل شعاع المعرفة والوعي القومي، لذلك كانت تشدد الرقابة على الكتب والمجالات والجرائد القادمة من المشرق. وكثيراً ما كانت تصادرها وتحجزها، ولم نجد أصدق وصف لتلك العزلة التي كان يعيش فيها المجتمع الجزائري مما قاله محمد فريد المصري بعد عودته من رحلته الاستطلاعية إلى الجزائر سنة 1901م.

إن الأهالي هناك يعاملون بقوانين مخصوصة غاية في الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الاجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجرائد.

لم يرض المواطنون بهذه السياسة التي كان هدفها واضحاً في فرنسة الجزائري فكراً وسلوكاً ولغة، ولم يستسلموا للواقع المفروض عليهم، بل واجهوا الموقف بما يستحق، فقاطعوا المدرسة الفرنسية، واعتبروا تسجيل أبنائهم بها مدخلاً إلى التنصير أو المسخ أو الخروج من الملة[1].

---

(1) إمام الجزائر ص 92.

لقد اكتشف الجزائريون أن الفرنسيين لم يكن هدفهم نشر اللغة الفرنسية في الوسط الجزائري ومحاربة اللغة الفرنسية فقط، وإنما كانوا يسعون لتكون اللغة الفرنسية في الجزائر لغة قومية بالنسبة إلى الجزائريين، أي لها ارتباط قوي بمشاعرهم وأفكارهم وثقافتهم، بحيث تعارض اللغة القومية الأصلية وتقضي عليها. ونقرأ هذا المعنى في نص آخر في قرار 1948م الذي يقول نصه:

إن لغتنا هي اللغة الحاكمة، فإن قضاءنا المدني والعقابي يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة، وبهذه اللغة يجب أن تكتب جميع العقود وليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا، فإن أهم الأمور التي ينبغي أن يُعتنى بها قبل كل شيء هو: السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة وعامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا وإدماجهم فينا وجعلهم فرنسيين[1].

ومن الأساليب التي استعملتها الإدارة الاستعمارية في محاربة اللغة العربية ؛ محاربة أهلها والقائمين عليها، من ذلك محاربة ابن باديس وجمعية العلماء بكل الوسائل وحتى الدسائس، وتشويه صورة العلماء وصورة ابن باديس بالخصوص في أعين الناس، حتى يناصبوهم العداء ويستصغروا قيمتهم ويقاطعوا دروسهم والاتصال بهم.

وقد ذهبت الإدارة في هذا الاتجاه بعيداً ويكفي أنها حاولت إغتيال الشيخ ابن باديس نفسه[2].

لقد طاردوا العلماء والمعلمين، وحاكموهم بالباطل، وسجنوهم مع المجرمين وغرموهم، فكان تعليم اللغة العربية وممارسة الوعظ بها جريمة من الجرائم التي تجعل المعلمين في مستوى واحد مع اللصوص والقتلة ومهربي المخدرات[3].

هذه أمور كلها تندرج ضمن السياسية الاستعمارية التي وجهتها لمحاربة اللغة العربية وكل ما يتصل بها.

(1) المصدر نفسه ص 93.

(2) المصدر نفسه ص 95.

(3) المصدر نفسه ص 96.

. مواجهة ابن باديس للوضع:

في هذا الوضع الصعب ظهرت حركة ابن باديس التي كان فيها وفياً لاتجاهاته وأفكاره، وظهر له أن الأمر يحتاج إلى خطة للمواجهة، خطة محكمة البناء، متعددة الأوجه، وإلى وسائل مادية وتنظيمية وبشرية، فصمم على الشروع في العمل، وانطلق في تنفيذ الخطة التي تمّ شرحها في هذا الكتاب، ونشر التعليم واهتم بتربية الأجيال وتثقيف الناس ونشر اللغة العربية وترقية تعليمها، وجعل من التعليم بالجامع الأخضر بقسنطينة مدخلاً جريئاً لتنفيذ هذا المشروع، فقد كان الجامع الأخضر بمثابة جامعة من ناحية ومعهد لتكوين المعلمين والأساتذة الذي يحتاج إليهم الجزائر في نهضتها الجديدة من ناحية أخرى، وتمكنت الكوادر التي ساهم في تعليمها مع جمعية العلماء من الاطلاع على تاريخها وتراثها وفهم دينها وكتاب ربها، وغرس ابن باديس محبة اللغة العربية في نفوس المتعلمين، وجعلهم يحسون بأنها جزء من كيانهم ورمز معبر عن شخصيتهم.

وانطلق ابن باديس مع الصعاب والعوائق هو ورفاقه وتلاميذه يعملون في المدارس الحرة في شتى أنحاء القطر الجزائري، ولقيت هذه الجهود المخلصة نجاحاً منقطع النظير، كما يصور ذلك ابن باديس حيث يقول:

الشعب الجزائري شعب مسلم طبعه الإسلام على تعظيم التعليم وحب التعليم واحترام المتعلمين، فلما دبت فيه الحياة وهب للنهوض، واندفع للتعلم اندفاعاً أدهش قوماً وحيّر اخرين، فقدم له علماؤه المسلمون قبساً من نور الإيمان الذي هو في حنايا ضلوعه، وناغوه بلغة دينه التي تتصل بروحه ليفهم ذلك الدين ويتذوق معانيه وتتشرب روحُه حقائقَه وأحكامه.. وإذا كنا نصرف أكثر جهدنا للتعليم العربي فذلك لأنها اللغة المهملة بين أبنائها المحرومة من ميزانية بلدها، المطاردة في عقر دارها، المغلقة مدارسها، المحارب القائمون على نشرها من أبنائها، اللهم إلا قليلاً نادراً على خوف يحتج به عند مقتضى الحال وإلا المدارس الرسمية الثلاث التي لا

تقبل إلا عدداً محدوداً، فإلى المسؤولين الذين يقدّرون مسؤوليتهم نوجه نداءنا من أجل حرية ولغة الدين[1].

وهكذا نجد الإمام ابن باديس قد اتجه بكل جهده إلى العناية بالتعليم الإسلامي وتعليم اللغة العربية، وإنشاء المدارس في طول البلاد وعرضها في مدنها وقراها، وكان ابن باديس معاصراً في استعمال أداة التربية والتعليم، لتحقيق مقاصده، وقد أدرك قيمة المدرسة في خدمة الأهداف العقيدية الفكرية على المدى الطويل، وكان معاصراً في إدراك ما يحتاجه الشعب الجزائري بالذات في ذلك الوقت الذي يهدده خطر الابتلاع والاحتواء من قبل السلطة الاستعمارية[2].

إن حرص ابن باديس على التعليم عموماً، وعلى تعليم اللغة العربية وادابها خصوصاً ؛كان الدافع إليه الحفاظ على الشخصية الجزائرية، وفطنت السلطة الاستعمارية للغاية التي كان يتوخاها من جهوده المتواصلة في مجال تعليم الناس لغتهم وأساسياً دينهم وتاريخهم، فجدّت في وضع العراقيل أمام تلك الجهود، ومن ذلك إلزام كل معلم باستصدار ترخيص بذلك وإلا تعرض للغرامة والسجن بمقتضى قانون 8 مارس سنة 1938م والقوانين التي سبقته.

وكانت قد عمدت من قبل إلى التضييق على ابن باديس في أحاديثه ومحاضراته وكتاباته. وقد كتب ابن باديس في جريدة البصائر يوم 8 أفريل 1938م مقالاً بعنوان أعداء الأمة الجزائرية يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قراراً وزارياً بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها، وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها، علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وادابه وأحكامه، وأن لا تعليم له إلا بتعليم لغته، فناصبوا تعليمها العداء، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمكروه والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية ومكاتب التعليم الديني العربي والضن بالرخص واسترجاع

(1) إمام الجزائر ص 100.

(2) عبد الحميد بن باديس، فتحي عثمان ص 81.

بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل قليل، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرانها ودينها ولغة دينها، واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم، واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ورغم الزجر والتغريم ؛ لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب. لقد فهمت الأمة من هم المعلمون المقصودون، فهم معلمو القرآن والإسلام ولغة القرآن والإسلام.. بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان المروجين للنصرانية في السهول والصحارى والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال. إلى أن يقول: سنمضي بعون الله في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا وإننا على يقين من أن العاقبة ـ وإن طال البلاء ـ لنا، وأن النصر سيكون حليفنا، لأننا قد عرفنا إيماناً وشاهدنا عياناً أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودها ولو أجتمعوا كلهم على محاربتهما[1].

ويؤكد الشيخ البشير الإبراهيمي هذه الروح النضالية وهذا التصميم على خوض المعركة مهما كان الثمن فيقول: والأمة الجزائرية من أوفى الفروع العربية لهذه اللغة، وأكثرها براً بها وتمجيداً واعتزازاً لها إلى أن يقول: جاهدت هذه الأمة في سبيل لغتها جهاداً متواصلاً كان من ثمرات النصر فيه هذه النهضة التعليمية التي ولدت الكتاب والشعراء والخطباء والوعاظ، وهي نهضة لم تعتمد الأمة فيها إلا ما في نفسها من حيوية موروثة، ولم تلتمس فيها عوناً من أجنبي، بل لم تلق من الأجنبي إلا المعارضة الحادة والتثبيط القاتل، وكان من نتائج هذه النهضة إلحاح الأمة في المطالبة بمظهر سياسي وطني للغتها،وهي أن تكون رسمية في المدارس والدواوين والأقلام.. والأحكام، وأن يعترف لها بمكانتها في وطنها وأن تمحى عنها تلك الوصمة التي لم تسبّ بأبشع منها وهي أنها أجنبية في دارها[2].

إن هذه العراقيل التي كانت تضعها السلطة الفرنسية أمام جمعية العلماء والإمام ابن باديس خاصة ؛ لم

(1) البصائر (8 / 4 / 1938م).

(2) التعريب بين المبدأ والتطبيق، بن نعمان ص 180.

تفت في عضدهم، ولم تثنهم عن عزمهم، بل زادتهم قوة لأنهم تأكدوا أن عملهم أصبح يخيف الحكام ويقلقهم، وهذا دليل على أنهم في الاتجاه السليم.

ويشخص البشير الإبراهيمي هذه الروح المعنوية فيقول: بدأت دعوة المعلمين إلى المحاكم، ونقدر أنها ستعم، وأن أول المطر قطرة، وأن الأحكام ستكون بالغرامة والسجن، ولكننا سندخل هذه المحاكم برؤوس مرتفعة. وهو هنا يتحدث بلسان جميع معلمي اللغة العربية، ونستقبل هذه الأحكام بنفوس مطمئنة بالإيمان، وسندخل السجون بأعين قريرة، وسنلتقي بإخواننا المجرمين في مجالس الأحكام ومقاعد الاتهام. وحسبنا شرفاً أن يكون ذلك في سبيل ديننا ولغتنا، وحسبنا فخراً أن تكون التهمة «فتح مدرسة دينية وقرانية بدون رخصة» وحسب الاستعمار ديمقراطية أن يحاكم معلمي العربية والإسلام ويسجنهم على التعليم، كما يحاكم المجرمين ويسجنهم على الإجرام في محكمة واحدة وسجن واحد(1).

. الإعتزاز بالعرب وحضارتهم:

قال ابن باديس: على كل من يدين بالإسلام، ويهتدي بهدي القران، أن يعتني بتاريخ العرب ومدنيتهم، وما كان من دولهم وخصائصهم قبل الإسلام ذلك لارتباط تاريخهم بالإسلام، ولعناية القرآن ولاختيار الله لهم لتبليغ دين الإسلام(2)، وابن باديس يرى أن العرب هُيئوا تاريخياً لأجل أن ينهضوا بأعباء هذه الرسالة الإسلامية العالمية: وتفسير ذلك أنه: ما كان ليجعل هذه الرسالة العظيمة لغير أمة عظيمة، إذ لا ينهض بالجليل من الأعمال إلا الجليل من الأمم والرجال.

ولعل أهم ما أعجبه في خصال النفس العربية تلك العزة التي عرفت بها، ونفورها من كل إذعان أو خضوع وانقياد للأجنبي يقول: فمن الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها، ولا

(1) إمام الجزائر ص 102.

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ابن باديس، أعمال الملتقى الدولي 10 / 9 / 1912.

في شيء من مقوماتها، ومن الواضح جداً مبلغ ما في كلام ابن باديس من التوظيف في واقع الجزائريين انئذ، وما ينطوي عليه من الاستفزاز والتحريض، ولن يترك الحديث عن الحديث عن العزة العربية، فهو يذكّر بها في كثير من مقالاته وقد وصف بها الشعب الجزائري مفتخراً بها وبه في شعر له مشهور يقول فيه:

أشعب الجزائر روحي الفدا لما فيك من عزة عربية

بنيت على الدين أركانها فكانت سلاماً على البشرية[1]

. الاحتجاج لعروبة الجزائر:

ما كان باستطاعة الشيخ الإمام أن يمضي في الدفاع عن عروبة الجزائر والجهاد من أجل الهوية العربية الإسلامية من دون أن يثبت هذه الصفة بحجج تاريخية وبراهين مقنعة، في ذلك الوقت الذي كان الاستعمار يعلّم فيه أطفال الجزائر أن أجدادهم هم الغالبون، وهم سكان بلاد الغال، أي من يُعتبرون أجداداً للفرنسيين الحاليين، لذلك طرح السؤال بكل صراحة ووضوح وأجاب عنه بنفس الوضوح والصراحة.

كيف صارت الجزائر عربية؟

يقول ابن باديس في مجلة الشهاب فبراير 1938م: ما من نكير أن الأمة الجزائرية كانت أمازيغية من قديم عهدها. ولم تستطع أمة في التاريخ أن تقلبها عن كيانها أو أن تخرج بها أمازيغيتها.. بل كانت هي تبتلع الفاتحين، فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية، لا لبسط السيادة، دخل الأمازيغ الإسلام، وتعلموا لغة الإسلام العربية طائعين، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجالس العلم، وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش، فاتحدوا في العقيدة والنحِلة، كما اتحدوا في الأدب واللغة، فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً غاية الاتحاد، ممتزجاً غاية الامتزاج. وأيّ افتراق يبقى بعد اتحاد الفؤاد وإتحاد اللسان؟

وقد وجد الشيخ ابن باديس نفسه مجبراً على أن يخوض على جبهة «وحدة الأمة» معارك حامية لسد

(1) المصدر نفسه ص 27.

أبواب الفتنة ؛ ذلك أن شرذمة صغيرة من ذوي النفوس المريضة، قد وقعت في أسر المخطط الاستعماري، وبدت منها سلوكيات وخيمة العواقب على وحدة الشعب التي هي أقوى أسلحته لدحر عدوه المسيطر[1].

. التحذير من الفتنة على الأساس العرقي المزعوم:

ظل الاستعمار حقبة طويلة من الزمن يتامر على وحدة الشعب الجزائري ويروج لنظرية انقسامه إلى أجناس وأعراق شتى، فلما لم تعط المؤامرة النتائج التي كان يرجوها منها ؛ كلف فئة من عملائه أصحاب الامتيازات أولئك الذين لهم مصلحة مصيرية في خدمة السلطة الاستعمارية في أي ميدان تحدده لهم، حتى لو كان وحدة الشعب والوطن، وكان لهم الشيخ الإمام بالمرصاد كعادته أبداً.

وكان رد الفعل في شكل مقال واسع الأصداء أراد له أن يكون ذا طابع تربوي موجه إلى الشعب بغية تنبيهه وتحذيره من خطر الوقوع في الفخ المنصوب له من ألد الأعداء، كان عنوان المقال المنشور في مجلة الشهاب في عدد شهر فبراير 1939م هو: ما جمعته يدُ الله لا تفرقه يدُ الشيطان، يقول فيه بوجه خاص: إن أبناء يعرب وأبناء أمازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرناً، ثم دابت تلك الفروق تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدّهم في السرّاء والضرّاء، حتى كونت منهم خلال حقب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمه الجزائر وأبوه الإسلام.

ولكن معارك ابن باديس لم تكن تنتهي أو تخمد مع فريق في ميدان من ميادين الهوية العربية الإسلامية للجزائر ؛ حتى تندلع مع فريق اخر، وكانت مقاومته لنظرية الاندماج مقاومة مشهودة[2].

. مواجهة الاندماجيين:

الاندماجي مصطلح سياسي تاريخي دل في الجزائر على من يؤمن بما يسمى الاندماج ويناضل سياسياً من أجل تحقيقه، وكان الواقع الجزائري يطلق على جماعات من النخبة الجزائرية يعتقدون أنه من المستحيل

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 31.

(2) المصدر نفسه ص 32.

افتكاك الجزائر من مخالب الاستعمار الفرنسي، لا سلماً ولا حرباً. وعلى ذلك فإن الأنفع والأجدى في نظرهم من المطالبة بالاستقلال ؛ إنما هو السعي إلى مطالبة السلطات الفرنسية بتحقيق المساواة بين كل الفرنسيين مادامت القوانين الفرنسية تنص على أن الجزائر فرنسية، أي تحقيق الانصهار التام بين الشعب والأقلية الأوروبية التي تمثل الوجه القبيح للاستعمار الاستيطاني في الجزائر، وهي التي جاءت في ركابه وملّكها بالقوة أراضي الجزائريين الخصبة، وحوّل القادرين منهم إلى خدم بلا حقوق ولا اعتبار لكرامتهم الإنسانية، ذلك هو الاندماج في مصطلحهم.

وقد كان الشيخ ابن باديس مناهضاً صلباً للاندماج والإندماجيين، وهو المشهور بقصيدته التي يرى فيها أن الاندماج هو الأمر المحال وفي ذلك يقول قصيدته المشهورة التي غدت نشيداً وطنياً تغنت به أجيال كثيرة من أبناء الوطن ومن أشهر أبياتها قوله:

شعــب الجزائر مسـلم وإلى العـــروبة ينتسب

من قال حاد عن أصله أو قال مات فقد كذب

أو رام إدمـــاجاً لــه رام المحـــتال من الطلب

وقد كان من أشهر هؤلاء الاندماجيين في هذه الفترة التي نتحدث عنها السيد فرحات عباس الذي كان من رجال السياسة البارزين في ذلك العهد، وهو الذي صار بعد اندلاع الثورة أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ما بين سنتي 1958م، 1960م، فقد تغيرت أفكاره ومواقفه مع الزمن وانخرط في الثورة الشاملة ضد المحتلين.

كان فرحات عباس قد كتب في جريدة الوفاق التي تصدر باللغة الفرنسية واسمها لانطانت يوم 23 فبراير 1936م مقالاً باللغة الفرنسية تحت عنوان «فرنسا هي أنا» قال فيه ما ترجمته: لو كنت اكتشفت الأمة الجزائرية لكنت وطنياً. ولن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن غير موجود لم أعثر عليه ، وقد

سألت التاريخ وسألت الأحياء وسألت الأموات وزرت المقابر فلم يُحدّثني عن هذا الوطن الجزائري أحد[1].

وتصدّى الشيخ الإمام ابن باديس للردّ عليه في مقال كان له صدى واسع ودويّ كبير تحت عنوان «كلمة صريحة» ردّ فيه على فرحات عباس، بدأه قائلاً:

إن هؤلاء المتكلمين باسم المسلمين الجزائريين، والذين يُصورون الرأي العام الإسلامي الجزائري بهذه الصورة هم في وادٍ والأمة في واد.. ثم يُضيف في صرخة استنكار: لا يا سادتي، نحن نتكلم باسم قسم عظيم من الأمة، بل ندعي أننا نتكلم باسم أغلبية الأمة، فنقول لكم ولكل من يُريد أن يسمعنا.. إننا نحن فتشنا في صحف التاريخ وفتشنا في الحالة الحاضرة، فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال، ولها وحدتها الدينية واللغوية، ولها ثقافتها الخاصة.

ثم يخلص الإمام إلى أهم فقرة في مقاله والتي يقول فيها: ثم إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست في فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها، لا تريد أن تندمج ولها وطن محدود معين، هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة[2].

وقد بلغ من تأثير هذا المقال في المحيط السياسي، أن قامت على الشيخ الإمام ضجة كبيرة، أراد أصحابها من خلالها أن يستفزوا عليه سلطات الاستعمار، بحُجة كونه ضد «الوجود الفرنسي في الجزائر». أما المعني نفسه وهو الأستاذ فرحات عباس، كما يسميه الشيخ ابن باديس بكل أدب، فقد زاره في مكتبه بإدارة المجلة التي يُشرف عليها في مدينة قسنطينة، وهي مجلة الشهاب التي صدر فيها المقال، وشرح له من خلال تلك الزيارة أنه كان يريد أن يُحق حقوق الجزائريين في المساواة مع الفرنسيين.

ثم كتب فرحات عباس يُعيد ذلك مقالاً في جريدة «لاديفانس» «الدفاع» مقالاً توضيحياً حاول أن

(1) المصدر نفسه ص 33.

(2) المصدر نفسه ص 34.

يخفف فيه من وطأة المقال الأول، وما كان من اثاره السلبية في الرأي العام الوطني[1].

وقد أثنى الشيخ ابن باديس على تقبل فرحات عباس للنقد البنّاء فقال: وإنا لنشهد أنه من أكمل الرجال الذين رأينا فيهم ـ بهذه المناسبة ـ الهمة العالية وشرف النفس وطهارة الضمير، ونقدنا له لم يتألم منه ولم يتكدر، وسلك مسلك كبار رجال الساسة الذين يحبذون النقد وينصاعون لكلمة الحق[2].

وبهذا الأسلوب الحكيم استطاع ابن باديس أن يعمل عمله السحري في نفس المرحوم الزعيم فرحات عباس ـ المشهود له بالحصافة والإخلاص ـ فيحوله من حالته التي كان يقول فيها: فرنسا هي أنا، إلى أن يصبح من قادة ثورة نوفمبر 1954م، بل أول رئيس للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وأول رئيس للمجلس الوطني التأسيسي في فجر الاستقلال[3].

فإن الإجراءات الإدارية كانت هي الأخرى مانعاً أمام الراغبين في طلب التجنس[4].

وعموماً فقد شهدت الفترة الأخيرة من القرن التاسع عشر اقتراح مشاريع عديدة لتجنيس الجزائريين المسلمين، وبعد فترة هدوء شهدتها بداية القرن العشرين عاد بعد ذلك الحديث مجدداً عن قضية التجنيس، وعرف أهمية أكبر بمناسبة صدور قانون التجنيد العسكري الإجباري في فيفري 1912م فُرض على الجزائريين ومشاركة الجزائريين في الحرب العالمية الأولى وما قدموه من تضحيات في المعارك التي دارت انذاك في أوروبا ؛ ولذلك فقد تعالت بعض الأصوات تطالب بضرورة تعويض هؤلاء بمنحهم الحقوق السياسية. وقد تمخض في النهاية عن كل النقاشات التي تمت والمشاريع التي قدمت صدور قانون 4 فيفري 1919م.

---

(1) المصدر نفسه ص 34.

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 76.

(3) مقدمة مجلة الشهاب ص 73.

(4) المواقف السياسية للعلامة عبد الحميد بن باديس، عبد العزيز فيلالي، د. أحمد صاري، ص 164.

لقد نص هذا القانون على: أن أهالي الجزائر بإمكانهم الحصول على صفة المواطن الفرنسي بموجب إجراءات السيناتوس كونسيلت 14 جويلية. وبموجب هذا القانون . 4 فيفري 1919م . ودون شك أن هذا القانون جاء نتيجة لفشل قانون 1865م والفرق الواضح ما بين القانونين هو أن الإجراءات في قانون 1865م تقوم به السلطات الإدارية في حين أنه في قانون 1919م تقوم بها السلطات القضائية مهما يكن فمنذ صدور هذا القانون أصبح أمام الجزائريين الراغبين في التجنس والاندماج في المجتمع الفرنسي طريقتين إما طلب التجنس حسب قانون 1865م أو طلب ذلك حسب قانون 1919م.

وقد تعددت الاراء حول هذا القانون ما بين مؤيد ومعارض، وتزامن الشروع في تطبيق القانون مع ظهور الحركة الإصلاحية في بداية العشرينات وظهور الصحافة الإصلاحية، التي كانت منبراً للعلماء للتعبير عن ارائهم ومواقفهم من مختلف القضايا المطروحة انذاك.

ومن بين العلماء الأوائل الذين انبروا إلى هذه القضية الشيخ عبد الحميد بن باديس، فقد استغل في أحد أعداد الشهاب[1]، فرصة التعليق على كلمة وزير الداخلي الفرنسي للوفد الجزائري الذي شارك في حفل افتتاح مسجد باريس في شهر جويلية 1926م ليبين موقفه من هذه القضية، فقد خاطب الوزير الوفد بقوله: إن عرضتكم لوزارة الداخلية لها معنى مخصوص... إن دعوة هذا الوفد دون بقية الوفود إلى وزارة الداخلية له معناه، ويتطرق بعد ذلك لوضعية الجزائري المسلم منذ صدور قانون 1865م.

وفي نظر ابن باديس أن الجزائريين لم يتمتعوا من ذلك الوقت بحقوق المواطن الفرنسي لأنهم لم يكونوا ملزمين بكل الواجبات، أما اليوم فهم يقومون بجميعها، فمن حقهم أن يطالبوا فرنسا بحقوقهم بمقتضى كلمة وزير الداخلية، إلا أن ابن باديس يرفض التجنس بالشكل الذي جاءت به القوانين ويقول أنه بإمكان الجزائري المسلم الحصول على حقوقه دون أن يقدم على التجنس الذي يؤدي حسب القانون الفرنسي إلى التخلي عن

(1) المصدر نفسه ص 166.

الأحوال الشخصية، وهو يرد بذلك على دعاة التجنس المطلق، وبالنسبة إليه لا يوجد تناقض ما بين أن يكون الجزائري فرنسياً يتمتع بجميع حقوقه وفي نفس الوقت محافظاً على شخصيته(1).

وبعد النقاش حول مسألة التجنيس الذي دار في نهاية العشرينات ما بين المصلحين الرافضين لذلك والمدافعين عن الاندماج في فرنسا حتى مع التخلي عن الأحوال الشخصية ؛ يعود ابن باديس إلى الحديث عن هذه المسألة في بداية الثلاثينات، مستغلاً في ذلك خيبة أمل المتجنسين واعترافاتهم بفشل سياسة التجنيس، فبعد نشر الربيع الزناتي لمقال يعبر فيه عن خيبة أمله في الوضعية التي ال إليها المتجنسون من جراء السياسة الاستعمارية والممارسات اليومية غير اللائقة التي يتعرضون لها، يستغل ابن باديس هذا الاعتراف ليعلق عليه تحت عنوان «أقر الخصم وارتفع النزاع، داعية التجنس يعترف بالخيبة».

لقد بات معلوماً ضرورياً أن رفض أحكام الإسلام هو ارتداد عنه، وما كان أكثر الذين فعلوا هذه الفعلة على قلتهم عالمين بهذه الحقيقة. وما أقدموا على ما أقدموا عليه من رفض الإسلام ؛ إلا ببواعث الرغبة في عرض الدنيا ودواعي الطمع من نيل الحقوق الفرنسية كالفرنسيين الحقيقيين، ولكن هذه الرغبة لم تتم، وهذا الطمع لم يتحقق وبقي القوم ويا للأسف معلقين لا من ملة ابائهم ولا من الملة الأخرى(2).

ومع ذلك فإن ابن باديس لم يبعد المتجنسين ولم يقصهم عن مجتمعهم الأصلي، بل فتح لهم الأبواب للعودة، حتى تتكاتف جهود الجميع لأن الجزائر المستقبل في حاجة إلى جميع الطاقات المثقفة(3).

غير أن العلماء لم يكتفوا بهذه المواقف المعتدلة والمتفهمة للمتجنسين ، فأمام إلحاح المتجنسين وغير

(1) المصدر نفسه ص 166.

(2) المصدر نفسه ص 167.

(3) الشهاب أكتوبر 1930م.

المتجنسين في معرفة الحكم الشرعي من قضية التجنس والاندماج لم يتوانوا في تحريمه واعتباره ردة[1].

ففي جانفي 1938م أصدر الشيخ ابن باديس فتوى تكفر كل مسلم قبل التجنس مع تخليه عن أحواله الشخصية، حيث تنص الفتوى بتكفير كل مسلم جزائري أو تونسي أو مغربي يتنازل عن قانون الأحوال الشخصية الإسلامية باختياره، ويتجنس بالجنسية الفرنسية للتمتع بالحقوق المدنية.

قال ابن باديس: ما أكثر ما سئلنا عن هذه المسألة، وطلب منا الجواب في الصحف، ومن السائلين رئيس المتجنسين الأستاذ التركي «الذي لم يجد من يفته في تونس» وكاتبنا برسالتين، فأدينا الواجب بهذه الفتوى: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد واله: التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية، ومن رفض حكماً واحداً من الأحكام الإسلامية عدّ مرتداً عن الإسلام بالإجماع فالمتجنس مرتد بالإجماع، والمتجنس . بحكم القانون الفرنسي يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليه بإخراجه من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجاً عن شريعة الإسلام بسبب جنايته . والعلم عند الله. خادم العلم وأهله، عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء[2].

كما أفتى في قضية تزوج المسلم الجزائري بالفرنسية بالرغم من أن الإسلام يبيح الزواج بالكتابية ؛ فقد أفتى ابن باديس بحرمة زواج الجزائري المسلم بالفرنسية، وعلل ذلك بكون النتيجة التي يؤدي إليها هذا الزواج هي الخروج عن حظيرة الإسلام، لأن القانون الفرنسي يقضي بأن أبناءه منها يتبعون جنسية أمهم في خروج نسله عن حظيرة الإسلام، فإن كان راضياً بذلك فهو مرتد عن الإسلام جان على أبنائه ظالم لهم، وإن كان غير راض لهم بذلك وإنما غلبته شهوته على الزواج فهو اثم بجنايته عليهم وظلمه لهم، لا يخلصه من إثمه هذا

(1) المواقف السياسية للعلاّمة عبد الحميد بن باديس ص 167.

(2) الفكر السياسي عند عبد الحميد بن باديس ص 203.

إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه[1].

وفي ذات الموضوع أصدر فتوى أخرى في قضية دفن أبناء المتجنسين في مقابر المسلمين، سأل أحد أهالي «ميشلي» من القبائل الكبرى عن أبناء المتجنسين بالجنسية الفرنسية هل يجوز دفنهم في مقابر المسلمين؟ فكان جواب ابن باديس كما يلي: بعد الحمد لله والصلاة والتسليم على النبي واله، قال: فابن المطورني أي «المتجنس» إذا كان مكلفاً ولم يُعلم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه فهو مثل أبيه لا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين. وإن كان صغيراً فهو مسلم على فطرة الإسلام يدفن معنا ويصلى عليه. كتبه خادم العلم وأهله عبد الحميد بن باديس[2].

لقد تصدى ابن باديس إلى دعاوى الاندماج والانصهار في الثقافة الفرنسية، واستطاع أن يخلص الجزائر من تلك الأفكار الهزيلة، التي لم تصمد أمام الحقائق وطبيعة الأشياء، وصلابة الشخصية الجزائرية المعتزة بدينها ولغتها وبلادها.

3. الجزائر وطننا:

الجزائر بالنسبة إلى ابن باديس هي وطنه الخاص، وهي عنده ليست إقليماً جغرافياً فحسب، ولكنه كيان حي من البشر الذين يعيشون فيه وتؤلف بينهم روابط الدين واللغة والتاريخ، يقول في الشطر الثاني من السؤال «لمن أعيش» أعيش للإسلام والجزائر.

أما الجزائر فهي وطني الخاص الذي تربطني بأهله روابط من الماضي والحاضر والمستقبل بوجه خاص . وتفرض عليه تلك الروابط لأجله . كجزء منه . فروضاً خاصة، وأنا أشعر بأن كل مقوماتي الشخصية مستمدة منه مباشرة، فأرى من الواجب أن تكون خدماتي أول ما تتصل بشيء تتصل به مباشرة، وكما أني كلما أردت أن أعمل عملاً وجدتني في حاجة إليه، إلى رجاله وإلى ماله، وإلى آلامه وآماله وكذلك أجدني أعمل . إذا عملت . قد خدمت بعملي ناحية أو أكثر مما كنت في حاجة إليه وهكذا.

---

(1) الفكر السياسي عند الإمام عبد الحميد بن باديس، أعمال الملتقى الدولي، تقديم عبد العزيز فيلالي ص 204.

(2) المصدر نفسه ص 204.

هذا الاتصال المباشر أجده بيني وبين وطني الخاص في كل حال وفي جميع الأعمال، وأحسب أن كل ابن وطن يعمل لوطنه لابد أن يجد لنفسه مع وطنه الخاص مثل هذه المباشرة وهذا الاتصال.

نعم، إن لنا وراء هذا الوطن الخاص أوطاناً أخرى عزيزة علينا هي دائماً منا على بال، ونحن فيما نعمل لوطننا الخاص نعتقد أنه لابد أن نكون قد خدمناها وأوصلنا إليها النفع والخير، عن طريق خدمتنا لوطننا الخاص. وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى اللذان ما هما والمغرب الأوسط إلا وطن واحد لغة وعقيدة وادابأ وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة، ثم الوطن الغربي والإسلامي، ثم وطن الإنسانية العالم ولا نستطيع أن نؤدي خدمة مثمرة لشيء من هذه كلها إلا إذا خدمنا الجزائر.

وما مثلنا في وطننا الخاص ـ وكل ذي وطن خاص ـ إلا كمثل جماعة ذوي بيوت في قرية واحدة، فبخدمة كل واحد لبيته لتكون من مجموع البيوت قرية سعيدة راقية، ومن ضيع بيته فهو لما سواها أضيع، وبقدر قيام كل واحد بأمر بيته تترقى القرية وتسعد، وبقدر إهمال كل واحد لبيته تشقى القرية وتنحط، فنحن إذا كنا نخدم الجزائر ؛ فلسنا نخدمها على حساب غيرها، ولا للإضرار بسواها ـ معاذ الله ـ ولكن لننفعها وننفع ما اتصل بها من أوطان، الأقرب فالأقرب، هذا أيها الإخوان مرادي بقولي: إنني أعيش للجزائر[1].

ثم ختم إجابته بقوله: والان أيها الإخوان وقد فهمتموني وعرفتم سمو فكرتي «أعيش للإسلام والجزائر» فهل تعيشون مثلي للإسلام والجزائر؟

وكان الجواب بالإجماع: نعم نعم[2].

---

(1) الشهاب ج 10 م 12، وكذلك آثار الإمام ابن باديس (4 / 112).

(2) إمام الجزائر ص 103.

. الوطن والوطنية:

الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء:

بهاتين الجملتين منذ نيف وعشر سنين توجنا جريدة «المنتقد» الشهيرة وجعلناهما شعاراً لها تحمله في رأس كل عدد منها، هذا أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية لا يستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جداً من يشعر بمعناها، وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس، ككل غريزة من غرائزها، لا سيما في أمة تنسب إلى العروبة وتدين بالإسلام مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد.

أما اليوم وقد صارت كلمة الوطن والوطنية سهلة على كل لسان، وقد يقولها قوم ولا يفقهون معناها، وقد يقولها اخرون بألسنتهم ولا يستطيعون أن ينتسبوا لها في المكتوب من رسمياتهم، ويفزع منها من يتخيلون فيها ما يعرفون في وطنياتهم، وينكرها اخرون زعماً منهم أنها ضد إنسانياتهم وعمومياتهم، فكان حقاً لقراء «الشهاب» علينا أن نقول لهم كلمة مختصرة نبين بها حقيقة هذه الكلمة وأقسامها وأقسام الناس إزاءها، ومن أي قسم نحن من تلك الأقسام؟

من نواميس الخليقة حب الذات للمحافظة على البقاء، وفي البقاء عمارة الكون، فكل ما تشعر النفس بالحاجة إليه في بقائها فهو حبيب إليها، فالإنسان من طفولته يحب بيته وأهل بيته لما يرى من حاجته إليهم واستمداد بقائه منهم، وما البيت إلا الوطن الصغير، فإذا تقدم شيئاً في سنه اتسع أفق حبه وأخذت تتسع بقدر ذلك دائرة وطنه، فإذا دخل ميدان الحياة وعرف الذين يماثلونه في ماضيه وحاضره وما ينظر إليه من مستقبله، ووجد فيهم صوره بلسانه ووجدانه وأخلاقه ونوازعه ؛ شعر نحوهم من الحب بمثل ما كان يشعر به لأهل بيته في طفولته، ولما فيه . كما تقدم . من غريزة حب الذات وطلب البقاء وهؤلاء هم أهل وطنه الكبير، ومحبته لهم في العرف العام هي الوطنية[1].

(1) ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي ص 158، 159.

فإذا غذي بالعلم الصحيح، شعر بالحب لكل من يجد فيهم صورته الإنسانية، وكانت الأرض كلها وطناً له وهذا وطنه الأكبر. هذا ترتيب طبيعي لا طفرة فيه ولا معدل عنه، فلا يعرف ولا يحب الوطن الأكبر إلا من عرف وأحب الوطن الصغير. والناس إزاء هذه الحقيقة أربعة أقسام:

ـ قسم لا يعرفون إلا أوطانهم الصغيرة، وهؤلاء هم الأنانيون الذين يعيشون على أممهم، كما تعيش الطفيليات على دم غيرها من الحيوان، وهم في الغالب لا يكون منهم خير حتى لأقاربهم وأهل بيتهم.

ـ وقسم يعرفون وطنهم الكبير فيعملون في سبيله كل ما يرون فيه خيره ونفعه ولو بإدخال الضرر والشر على الأوطان الأخرى، بل يعملون دائماً على امتصاص دماء الأمم والتوسع في الملك، لا تردهم إلا القوة، وهؤلاء شر وبلاء على غير أممهم، بل وعلى أممهم فهم مصيبة البشرية جمعاء.

. وقسم زعموا أنهم لا يعرفون إلا الوطن الأكبر، وأنكروا وطنيات الأمم كما أنكروا أديانهم . وعدوها مفرقة بين البشر. وهؤلاء عاكسوا الطبيعة جملة وما عرفته البشرية منذ الاف السنين. ودلائل الفشل على تجربتهم حيث أجروا تجربتهم ولا تكاد تخفى.

. وقسم اعترف بهذه الوطنيات كلها ونزلها منازل غير عادية ولا معدو عليها، وترتيبها الطبيعي في تدرجها كل واحدة منها مبنية على ما قبلها ودعامة لما بعدها. وامن . هذا القسم . بأن الإنسان يجد صورته وخيره وسعادته في بيته ووطنه الصغير، وكذلك يجدها في أمته ووطنه الكبير، ويجدها في الإنسانية كلها وطنه الأكبر. وهذا الرابع هو الوطنية الإسلامية العادلة. إذ هي التي تحافظ على الأسرة بجميع أجناسها وأديانها[1].

فهي تخاطب البشرية كلها في جميع أجناسها بقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً *} [الإسراء : 70]. وتخاطبها في جميع أديانها

(1) عروبة الجزائر ص 159.

بقوله تعالى: {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ *} [الكافرون : 6]. وتخاطب الأمم والأوطان بقوله تعالى: {وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ *} [الأنفال : 61]. وبقوله: {فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ *} [البقرة : 194].

وهذه هي وطنيتنا معشر المسلمين الجزائريين الأفارقة ووطنية كل مسلم صادق في إسلامه ووطنيته، وقد أعلناها يوم قلنا على رأس جريدة «المنتقد»: الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء، وسرنا على مقتضاها إلى اليوم في كل ما قلنا وكتبنا، وسنبقى عليها ـ ككل مسلم جزائري ـ حتى نلقى الله إن شاء الله.

أشعب الجزائر روحي الفدا ... لما فيك من عزة عربية

بنيت على الدين أركانها ... فكانت سلاماً على البشرية[1]

وكتلخيص لفكرة ابن باديس في موضوع الوطن والوطنية نورد التعليق التالي للأستاذ الميلي:

فابن باديس في هذا النص يفسر ما يعنيه بالوطنية الإسلامية، فهو لا يتحدث عن الوطن الإسلامي الذي نجده عند كثير من علماء الدين، ولكنه يتحدث عن وطن عربي إسلامي، ومعنى ذلك أنه لا يعتبر الإسلام مرادفاً للقومية، ولكنه يعتبره من حيث علاقته بالوطن عنصراً أساسياً في تكوين الوطن الجزائري أو الوطن المغربي أو الوطن العربي، كما يعتبر الإسلام من حيث علاقته بالإنسانية نوعاً من «الهومانيزم».

ويجب أن نشير هنا إلى حقيقة، وهي أن ابن باديس يمزج بين الجزائر والعروبة والإسلام، فالجزائري هو عربي مسلم، وهو إنسان قبل كل شيء.

ويؤكد ابن باديس هذا المعنى في العدد الأول من جريدة المنتقد حين يقول: إننا نحب الإنسانية ونعتبرها كلاً، ونحب وطننا ونعتبره جزءاً، ونحب من يحب الإنسانية ويخدمها، ونبغض من يبغض الإنسانية ويظلمها،

(1) المصدر نفسه ص 160.

فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري وتحبيب بنيه فيه، ونخلص لكل من يخلص له، ونناوئ كل من يناوئه من بنيه وغير بنيه[1].

إن ابن باديس كان يعمل على تأكيد عروبة الجزائر وإسلامها وهويتها الوطنية وانتمائها الحضاري «كأمة لها تاريخ حافل» لا يجهله إلا الجاحدون، تلك القضية التي خاض من أجلها معارك سياسية وفكرية ضد أطراف عديدة ضد حكام فرنسا وساستها وصحافييها من جهة وضد النخبة الجزائرية المفرنسة من جهة أخرى. تلك النخبة التي انساقت بسذاجة إلى أطروحات الفرنسيين التي تنكر وجود الكيان الجزائري، وتعتبر العرب الموجودين في الجزائر عناصر دخيلة قذفت بهم موجة الفتح الإسلامي الذي يعدونه غزواً، كما قذفت موجات الغزو الأخرى بعناصر شتى من مختلف الأجناس.

ولهذا اعتبر ابن باديس أن الجهاد من أجل الجزائر والذود عن الشخصية الجزائرية باللسان والفكر والمواقف ودحض كل الشبهات والأكاذيب واجب ديني ووطني، يجب أن يضطلع به كل المؤمنين بقضية الجزائر وكل العلماء والمفكرين الشرفاء والنزهاء، والذين يستلهمون دروس التاريخ ويستنطقون الأحداث الحضارية[2].

إن ابن باديس استطاع أن يقنع كل من كان يبحث عن الحقيقة أن الجزائر كيان إسلامي وثقافي وحضاري، وليست مجرد قطعة جغرافية تقترب أو تبتعد عن فرنسا، وليست فقط تجمع بشري يعيش على هذه الأرض من غير أن تكون له روابط تربط بين عناصره، ومن ثم لا يمكن إلحاقه بفرنسا، لأن كل المبررات التي استند عليها دعاة الاندماج باطلة، وإنما أوهام بعيدة كل البعد عن الواقع والحقائق.

لقد دافع ابن باديس عن الجزائر دفاع الأبطال في معارك الفكر والثقافة والتاريخ والحضارة والعقائد، لقد أثبت بالبراهين أن الجزائر لها تاريخ عظيم وهوية مستمدة من الإسلام وشعب رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً ورسولاً.

---

(1) إمام الجزائر ص 110.

(2) المصدر نفسه ص 111.

ثانياً: مكانة الأمة العربية والإسلامية:

1. مفهوم الأمة:

إن لمفهوم الأمة عند الشيخ عبد الحميد بن باديس أبعاداً ترتكز على مقومي «العقيدة» «واللسان»، فالشعب الجزائري مسلم وإلى العروبة ينتسب، هكذا يحدد الشيخ المقومات التي تصنع وجود الأمة بمرجعياتها الثقافية المتأصلة في الذات الجزائرية، والتي يتقاسمها وشعوب عدة حاولت الجغرافيا تضييق افاق توافقاتها التاريخية واللسانية والعقائدية.

لقد شكلت نضالات ابن باديس تجسيداً عملياً لمفهوم الأمة ؛ ذلك المفهوم النابع من وعي عميق ومتجذر بالانتماء، انتماء أكبر من الأرض والتراب تؤطره جوامع ترتكز على ثوابت تنبني عليها الشخصية الجزائرية، وبذلك كان المفهوم يمثل هدفاً تربوياً يبتغي الشيخ ترسيخه، باعتباره استراتيجية تؤسس حصانة للهوية، ومن ثم كانت الجهود الإصلاحية للشيخ بمثابة تأهيل لمفهوم الأمة[1].

فالأمة عند الشيخ كيان يرتبط بظروف تهيأئ وجوده وتبسط تحققه: وأولاها الحرية، ذلك أن الحرية تحيل إلى القدرة على اتخاذ القرار في الأمم المغلوبة على أمرها.. لا تستطيع أن تصنع أمراً لنفسها فكيف تستطيع أن تصنعه لغيرها، ولا تستطيع أن تدافع عن نفسها، فكيف تستطيع أن تدافع عما تقرره مع غيرها، وهي لم تستطع أن تعتمد على نفسها في داخليتها، فكيف يعتمد عليها في خارجيتها؟ فالوحدة السياسية بين هذه الأمم أمر غير ممكن ولا معقول ولا مقبول[2].

وبذلك تفتقد الأمة بالمفهوم الشامل عند ابن باديس لأهم ركيزة لقيامها كوحدة أو ككيان له وجوده العيني وليس النظري فحسب، وهذه الركيزة يعقدها الشيخ في الوحدة السياسية للأمة.

فالوحدة السياسية تكون مقترنة بممارسة واعية ومسؤولة وحرة ولا يمكن من الناحية المنطقية أن تقوم هذه

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 227.

(2) الآثار (3 / 398. 399)، ابن باديس.

الوحدة في ظل التبعية والقبوع تحت نير الإملاءات الاستعمارية ؛ ذلك أن الاستعمار عائق في وجه تشكل الأمة ووحدتها. وهي نظرة وإن فرضها الواقع السياسي للأمة العربية في عهد الشيخ، إلا أنها رؤية استشرافية تنظر لمفهوم الوحدة السياسية، تلك الوحدة التي لم تتجسد بعد في استقلال الأمة العربية وتخلصها من ربقة الاحتلال الأجنبي، فاستبدلته باحتلال آخر هو الاحتلال الأيدولوجي الذي شكل عائقاً أمام الوحدة السياسية باعتباره شكلاً آخر من أشكال القبوع تحت الإملاءات الاستعمارية.

والواقع الاستعماري يفرض على الأمم المغلوبة أن تعمل أولاً على التخلص منه ثم التوجه نحو تحقيق الوحدة، وهو عمل يختص به كل شعب في أطره الجغرافية المحدودة تبعاً لما تراه يتوافق ووضعيتها التاريخية والواقعية دون أن تلغي حقيقة انتمائها وجوهر هويتها الجمعية[1].

يقول الشيخ:... نجد شعوباً أخرى وهي شعوب الشمال الإفريقي المصابة بالاستعمار، فهذه لا وحدة سياسة بينها ولا بين غيرها ولا يتصور أن تكون، ومن الخير لها أن تعمل كل واحدة منها في دائرة وضعيتها الخاصة على ما يناسبها من الخطط السياسية التي تستطيع تنفيذها بالطرق المعقولة الموصلة مع الشعور التام بالوحدة القومية والأدبية العامة والمحافظة عليها والمجاهرة بها[2].

فالوحدة السياسية مرتبطة بالحرية والقدرة على التجسيد الواعي لمفهوم الانتماء، أما الوحدة الثقافية فهي الشعور بذاك الانتماء وتأصله في الذات الجمعية للأمة، وهو شعور تتمخض عنه ممارسات اجتماعية وأدبية ثقافية تعلن عن ارتباط الأمة وصلتها بماضيها وبمحيطها المكمل لها، كوجود وكماهية.

فالأمة تتشكل كمفهوم من ناحيتين: ناحية سياسية دولية وناحية أدبية اجتماعية، فالناحية السياسية من شأن الأمم المستقلة التي تنعم بالقدرة على التوجه العملي نحو مرجعياتها الثقافية المتأصلة فيها لتشكيل الوحدة

(1) المصدر نفسه ص 229.

(2) المصدر نفسه ص 229.

كمنطلق أساس لتجسيد مفهوم الأمة، في حين أن الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها، لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه في الحياة في أي بقعة من الأرض كان ومع أي أمة عاش وتحت أي سلطة وجد(1).

وتتخذ الأمة في مفهوم الشيخ ابن باديس أبعاداً أوسع من أطر الجغرافيا، وتمتد إلى فضاءات التاريخ واللغة والدين، تلك الفضاءات التي تجمع شعوباً عدة في بوتقة واحدة وأمة موحدة، هذا مع إقصاء المكون العرقي الذي لا يمكن أن يشكل ركيزة دعائمية لمفهوم الأمة(2).

ويعتبر عند الشيخ هذا المفهوم انطلاقاً من ملامسته لواقع الجزائر باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من الأمة العربية الإسلامية، حيث يقول: ما من نكير أن الجزائر كانت أمازيغية من قديم عهدها وما من أمة من الأمم استطاعت أن تقلبها من كيانها ولا أن تخرجها من أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها، بل هي التي تبتلع الفاتحين، فينقلبوا إليها ويصبحوا كسائر أبنائها، فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحاً إسلامياً لنشر الهداية ـ لا لبسط السيادة ـ وإقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس لا فرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ العرب أبناء الوطن الأصليين، دخل الأمازيغ من أبناء الوطن في الإسلام وعلموا لغة الإسلام العربية طائعين، فأمتزجوا بالعرب بالمصاهرة، ونافسوهم في مجال العلم، وشاطروهم سياسة الملك، فأقام الجميع «العرب والأمازيغ» صرح الحضارة الإسلامية يعبرون عنها وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة، فاتحدوا في العقيدة والنحلة كما اتحدوا في اللغة والأدب فأصبحوا شعباً واحداً عربياً متحداً غاية الاتحاد ممتزجاً غاية الامتزاج(3).

فالأمة لا تنبني وفق الانتماء العرقي، لأن ذلك تضييق للمفهوم وقصر له، وهو مفهوم لا يقبل التضييق أو

---

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 230.

(2) المصدر نفسه ص 230.

(3) المصدر نفسه ص 230.

التقزيم لأنه يتأسس على العقيدة واللسان والتاريخ والثقافة، وهي دعائم تتسم باتساع الأفق والشمول، فكل من كان دينه الإسلام ولغته لغة القرآن فهو ينتمي لدائرة «الأمة»، باعتبار أن هذين العاملين يشاركان باقي العوامل في بوتقة وحدة العقيدة واللسان، فالتاريخ يخضع لشمولية التاريخ الإسلامي، وكذا تحيل الثقافة إلى مرجعيتها الإسلامية المتأصلة فهي كتفكير وممارسة.

وفي نظرة تنم عن رؤية شمولية ترفض المساحات المؤطرة بالحدود وتتوخى تقديم المفهوم على حقيقته، بعيداً عن السقوط في مغبة النزوع نحو الفرق بما يمثله ذلك من توجه عنصري يفرق ولا يجمع، بل إنه تكاد لا تخلص أمة لعرق واحد، وتكاد لا توجد أمة لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكون الأمة ويربط أجزاءها، ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها ؛ هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد[1].

فالانتماء للأمة العربية يعني ذلك الشعور الذي ينتفض في وجه الجغرافيا والحدود، والأمة هي تلك الأمة الممتدة من المحيط الهندي شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً.. تنطق بالعربية وتفكر بها وتتغذى من تاريخها وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة[2].

وهو انتماء يغوص في عمق التاريخ ليأخذ منه مشروعيته وشرعيته المعرفية، باعتبار أن اللغة العربية تمثل بعداً تاريخياً إلى جانب كونها بعداً لسانياً، وكذا رابطاً بين حاضر الذات وماضيها، وبذلك تكون هذه اللغة بمثابة إعلان عن هوية الأمة وحضورها عبر التاريخ[3].

فابن باديس حينما يتحدث عن اللغة العربية يضمّنها كل هذه المقومات، باعتبارها لغة القران، والرابطة القوية التي تربط بين أفراد الأمة الواحدة، والتي من خلالها تبرز الذكريات التاريخية التي يعيش عليها المجتمع، والشعور المشترك الذي يؤلف بين قلوب أفراد المجتمع..

---

(1) المصدر نفسه ص 231.

(2) المصدر نفسه ص 232.

(3) المصدر نفسه ص 232.

وهكذا فاللغة من الوجهة القومية هي الرابطة الشعورية والفكرية التي تربطنا بجنسنا وبقومنا وثقافة هذا الجنس، والجنس هنا هو العروبة ؛ شعور وجداني وكيان ثقافي واتجاه حضاري[1].

ثم إن العامل الأساسي الذي ينبني عليه مفهوم الشيخ ابن باديس للأمة هو عامل العقيدة باعتبارها الخانة الجامعة والإطار الذي تنصهر فيه الانتماءات الأخرى. فالإسلام هو المعين الذي تأخذ منه الأمة مفهومها وهو المفهوم القرآني الذي يصرح به نصاً حيث يقول: {إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ *} [الأنبياء : 92]. وكذلك يقول عز من قائل {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ} [آل عمران: 110].

فالمفهوم القرآني للأمة كان بمثابة المرجعية الثقافية التي يؤسس ابن باديس مفهومه عليها في الوطنية الإسلامية ؛ هي الدائرة الأوسع والتي تشمل الدوائر الأخرى الأقل شمولاً، على عكس التحليل الذي نجده عند فلاسفة المذهب الإنساني «الهومانيزم» الذي يجعل الدائرة الإنسانية هي الأوسع والأكثر شمولاً، لأن الأجناس والأديان والأوطان والثقافات في رأيهم هي حواجز وعوامل مفرقة بين الناس الذين يرجعون إلى أصل واحد[2].

إن الإسلام هو المقوم الأكبر لبلورة مفهوم الأمة، ذلك أنه يشمل الهوية والانتماء، ويوسع افاقه الدستور الموجه للإنسانية جمعاء، إنه دين الإنسانية الذي لا نجاة لها ولا سعادة إلا به، وإن خدمتها لا تكون إلا على أصوله، وإن إيصال النفع إليها لا يكون إلا من طريقه[3]، وهو الركيزة الأساسية لبلورة مفهوم الأمة عند الشيخ فالانتماء للإسلام يعني وجود رابطة جامعة بين المنتمين لهذا الدين، بل إن الإسلام هو الذي يصنع الفرد ليجعل منه عضواً فعالاً في المجتمع.

(1) المصدر نفسه ص 233.

(2) المصدر نفسه ص 87.

(3) الآثار (4 / 236).

وتربية النشء على المقومات الإسلامية هي التي من شأنها صناعة الأمة ؛ هو منهج ابن باديس الذي عاش من أجله، فالإسلام هو الذي يحوي كل المقومات ليذيبها في بوتقة الانتماء الديني. انتماء يلغي الحدود وتتسع آفاقه[1].

لقد علّم ابن باديس الجزائريين كيف يعلنوا التزامهم الوطني والعربي القومي والإسلامي العقدي، وقد عبّر عنه شعراً قائلاً:

شعب الجزائر مسـلم   وإلى العـروبة ينتسـب

من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذب[2]

إن ابن باديس الذي أكد انتماءه لأمته العربية فكراً تغنّى بذلك في بعض ما نظمه من الشعر، ومما قاله:

المجـد لله ثم المجـد للعـرب   من أنجبوا لبني الإنسان خير نبي

ونشروا في الناس ملة عادلة   لا ظلم فيها على دين ولا نسب

قومي هم وبنو الإنسان كلهم   عشيرتي وهدي الإسلام مطلبي

وقال أيضاً:

أشعـب الجـزائر روحي الفدا   لما فيـك من عـزة عربيـة

بنيت على الدين أركانـها   فكانت سلاماً على البشرية[3]

هذه هي الأمة في فكر الإمام ابن باديس الذي سعى لتعزيز الوطنية الجزائرية في نفوس مواطنيه، وتعزيز القومية العربية، مبيناً العلاقة الراسخة المتأصلة بين العروبة والإسلام[4].

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 234.

(2) المصدر نفسه ص 246.

(3) المصدر نفسه ص 256.

(4) المصدر نفسه ص 256.

2. قضايا العالم الإسلامي:

كان للشيخ عبد الحميد بن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فكانت أول ضربة معول في هذا السور رحلة الشيخ عبد الحميد تلميذاً إلى تونس، وهناك اتصل بعلماء الزيتونة تلميذاً لا كالتلاميذ، يتلقى علم ما في الكتب والمجلدات لينال شهادة، بل تلقى عنهم زيادة على ما في الكتب ما عرفوه من أحوال العالم الإسلامي وما يموج فيه من تيارات فكرية، وحركات إسلامية تحاول النهوض به وإقالته من عثاره(1).

أ. تونس:

وأصبح متعلقاً بتونس عندما كان مقيماً بها وبعد رجوعه، وكانت له عدة أدوار لدعم الإخوة التونسيين في نضالهم، فقد كان من الذين درسوا على يديه بتونس: الشاعر التونسي الطاهر جواد الذي شهد له ابن باديس في دفتره المدرسي بالمواظبة والفهم والأدب، فربما كان لهذه الملاحظة دورها في تفجير طاقات هذا الشاب الذي قدر له أن يقوم بدور مشهود في التاريخ النضالي والعمالي التونسي(2).

كما نادى ابن باديس بضرورة توحد أقطار افريقيا الشمالية من أجل التحرر. فعندما زار تونس سنة 1937م للمشاركة في ذكرى وفاة البشير صفر اعتذر عن اختيار الجمعيتين المنظمتين «جمعية الطلبة الجزائريين والجمعية الودادية الجزائرية بتونس» وأن الحديث عن الجزائر دون المغرب العربي قائلاً: لأنني أومن بأن هذا الشمال الإفريقي لا ينهض إلا بتضامننا مع بعضنا البعض، كما نادى أيضاً بالاحتفاظ بالذاتية العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي كله، والإعلان بوحدة أقطاره في الحاضر والمستقبل.. مثلما هي ثابتة في الماضي.

وأوردت المخابرات الفرنسية أن ابن باديس زار تونس ما بين 22 و29 أوت 1938م وأجرى محادثات مطولة مع الشيخ الثعالبي حول الأوضاع السياسية في شمال إفريقيا، واتفق الإثنان على تمثيل تونس والجزائر في

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 164.

(2) إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية، خير الدين شترة ص 144.

مؤتمر حزب الوفد المصري الذي كان سيعقد في أكتوبر أو نوفمبر من نفس السنة[1].

كما كان ابن باديس أحد الشهود التاريخيين لقضية الوفاق، وقد ورد اسمه في الكلمة الحاسمة، وكان حريصاً على متابعة هذه القضية التي أرقته وشغلت صفحات متوالية من جريدة الشهاب، انطلاقاً من وحدة الشعور بمحنة المغرب العربي، وقد سمي الشقاق في تونس «بالفتنة الملعونة»، واستلهمت الشهاب مقالها بهذه الافتتاحية «الله . الله في وطنكم أيها التونسيون، فالرعاة يتنازعون والذئب على الباب، ولئن أكله الذئب وأنتم عصبة إنا إذاً لخاسرون» وإعادة جريدة الإرادة التونسية نشر المقال تحت عنوان: صوت علماء الجزائر ورأيهم في فتنة الشقاق في تونس[2].

ب . موقف ابن باديس من ثورة الريف في المغرب الأقصى:

ساند الإمام ابن باديس الثورة في المغرب الأقصى وذكر موقف الأمير عبد الكريم الخطابي: أن الأمير صرّح كما يصرّح دائماً أنه لا طمع له غير استقلال بلاده في حدودها الطبيعة. وبعد أن ذكر الصلح المعروض من طرف الإسبان توسطاً عن فرنسا قال: وهل بعد هذا نقول أن الصلح قريب؟ كلا إن استقلال الريف المجهول في الأوراق تحت النفوذ الإسباني لا تطيب به نفوس الماليين والعسكريين من الإسبان، فهم يراوغون ويخالفون وخصوصاً على حساب غيرهم . ويتمسكون بكل سبب لإبقاء الريف تحت نفوذهم رسمياً، ولو كان ملكه فعلياً أبعد عنهم من العيون[3].

ونجد ابن باديس يمدح الأمير عبد الكريم الخطابي ونضاله وشجاعته بقوله: وفي مقابل هذا نجد الأمير عبد الكريم رجلاً سياسياً كبيراً.. يعتقد أن اسبانيا لا قيمة لها أمامه، وقد بطش بها بطشة كبرى بالأمس[4].

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 165.

(2) المصدر نفسه ص 165.

(3) المصدر نفسه ص 165.

(4) المنتقد العدد 3 16 جويلية 1925م ص 51.

ولم تغب عن ابن باديس مشاركته الفكرية والروحية لإخوانه المغاربة، ففي الشهاب ذكر التطهير البربري[1].

حيث كتب يقول: لقد دأب إخواننا المغاربة على إحياء هذه الذكرى المؤلمة كل يوم 16 ماي . مايو 1930م، ثم توجه إليهم ببيان موقف علماء الجزائر ومشاركتهم ومساندتهم لإخوانهم المغاربة في هذه القضية، وينصح لهم بعد ذلك بمواصلة الجهاد: وإننا لنشارك قلباً وقالباً شقيقتنا المغربية في هذا الحداد الوطني الديني، ونرفع أصواتنا إلى جانبها بالاحتجاج العميق والاستياء البالغ. ثم نقول لإخواننا رجال المغرب الأحرار إن هذه المظلمة لا تزول عنهم إلا بفضل جهادهم ونضالهم واستماتتهم في سبيل كلمة الحق، ولن يُكتب لهم الفوز إلا بالتضامن وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف[2].

ج . ليبيا:

كانت فظائع الاستعمار الإيطالي في ليبيا دافعاً لابن باديس أن يظهر مشاركة الشعب الجزائري لإخوانه المسلمين فيما تعرضوا له من محن، فكتب ابن باديس يقول: فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلبي هذا النداء الصادر من القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ارتكبته إيطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابس العربية المسلمة، فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم، وتنذرها بأن الضمير الإسلامي والعربي قد استيقظ من نومه[3].

ولما توالت الهجرات الليبية الجماعية إلى الأقطار المجاورة خلال سنة 1931م، حيث تناقلت الصحف التونسية والجزائرية أخبار تلك الهجرات الجماعية للأسر الليبية التي وصلت إلى الجزائر وهي في حالة يرثى لها، وقد تأسفت صحيفة الشهاب الجزائرية التي يصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس من قسنطينة لوضعية أولئك اللاجئين الطرابلسيين الذين وصلوا إلى التراب الجزائري قائلة: أما الذين قدموا إلى الجنوب الجزائري من هؤلاء

(1) عبد الحميد بن باديس العالم الرباني، د. مطبقاني ص 126.

(2) الشهاب ج 4 م 13 ربيع الثاني 1356 . 1937م.

(3) البصائر العدد 152 في 20 ذي الحجة 1357 . 1938م.

اللاجئين البائسين فيبلغ عددهم نحو السبعة الاف على حافة فقر وبؤس، لا يمكن أن يستطيع قلم وصفها، وقد جمع لهم إخواننا أهل بسكرة الأبرار إعانة من بينهم[1].

كما نددت الصحيفة في عدد لاحق بالسياسة الاستعمارية الإيطالية الفاشستية التي ينتهجها الطليان الفاشست في طرابلس الغرب وبرقة قائلة: إيطاليا القاسية الدموية ماذا فعلت في ربع قرن بنصف مليون من المسلمين؟ أجدر بكِ أن تقضي أمام محكمة التاريخ وضمير الإنسانية لتجيبي جواب المجرمين عن هذا السؤال[2].

كما احتج ابن باديس باعتباره رئيساً لجمعية علماء المسلمين الجزائريين على التصرفات الإيطالية تجاه الطرابلسيين لدى رئيس جمعية حقوق الإنسان الفرنسية قائلاً: الرئيس قيرنوط . نهج لونيفرسيتي رقم 10 باريس: إن الأمة الإسلامية الجزائرية لفي أقسى التأثر مما لحق بإخوانهم الطرابلسيين الذين ذهبوا ضحايا التوحش الفظيع، وهي تريد أن تيسر ذلك أن ترى تدخل جمعيتكم الأليق لمصلحة هؤلاء المنكوبين.

وتعتبر هذه البرقية صرخة احتجاج في وجه إحدى المنظمات العالمية التي تنادي بحقوق الإنسان في أوروبا، في وقت لم يكن فيه أقل صدى في العالم الغربي للاحتجاجات التي أطلق صرختها الليبيون، وناصرهم في ذلك أشقائهم العرب وإخوانهم المسلمين. وهكذا كان موقف الشيخ عبد الحميد بن باديس من الفظائع الإيطالية في طرابلس الغرب وبرقة موقفاً شاملاً واضحاً وصريحاً يتسم بالحدة والصرامة والشجاعة، فلم يفرق بين ما ارتكبته إيطاليا بحق الليبيين وبين ما ارتكبته فرنسا بحق الجزائريين، فكلا الاستعمارين الإيطالي والفرنسي من جهة نظره وجهان لعملة واحدة[3].

---

(1) دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر ص 267، ناصر سعيدوني.

(2) صدى كفاح عمر المختار في الجزائر، ناصر الدين سعيدوني مجلة البحوث التاريخية عدد 2.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 299، 300.

. موقف ابن باديس من استشهاد عمر المختار:

كان استشهاد عمر المختار صدمة عنيفة هزت مشاعر المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بصفة عامة، ورجال الحركة الوطنية في منطقة المغرب العربي بصفة خاصة، والذين كانوا يتابعون باهتمام بالغ حركة كفاح الليبيين ضد المحتلين الإيطاليين، وفي مقدمتهم ابن باديس الذي قام من فوره بتدبيج مقال مطول نشره في صحيفة الشهاب التي يترأس تحريرها بعنوان «سيد الشهداء ورأس الأبرار» جاء فيه:

رحمه الله رحمة واسعة، وحشره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً. اغتالت يد الطغيان الاستعماري بطلاً من خيرة العرب ورأساً من أعظم رؤوسهم، ومجاهداً كان يقف في طليعة مجاهديهم، وصنديداً غالبته الأيام فغالبها، وصارعته الحوادث فصرعها، وحاربته دولة من أكبر دول الأرض بجنودها ودباباتها وطياراتها، فثبت أمامها ثبات الراسيات، متدرعاً بالإيمان متحصناً بقوة العزيمة معتداً بالله ولطالما انتصروا وظفر، ولطالما انكسر واندحر، فما زاده النصر إلا عزيمة، وما زاده الاندحار إلا ثباتاً، واعتكف على قتال المعتدين الظالمين وحوش الاستعمار الإيطالي، فكان في حربهم شريفاً مسلماً مستميتاً ساعة الملحمة، رؤوف حليم ساعة وضع الحرب لأوزارها.

ذلك هو سيدي عمر المختار زعيم السنوسيين في برقة، الذي جاهد عشرين عاماً دفاعاً عن بيعة الإسلام وكرامة الوطن ضد الطغاة المستعبدين. ولم تترك السلطة الإيطالية من وسيلة سافلة وحشية إلا ارتكبتها لإخماد مقاومته، فأغلقت سائر زوايا السنوسية في البلاد وصادرت أملاكها، ثم حصرت ثمانين ألفاً من بقايا السكان الذين نجوا من المذابح وفظائع القتال الإيطالي، ضمن منطقة محاطة بالأسلاك الشائكة كيلا يلتحقوا بعمر المختار، وأقامت على التخوم المصرية حراسة شديدة جداً.

كل ذلك وصنديد برقة رابط لا يأخذه في سبيل الله ضعف ولا وهن، وكان يجول في ميادين القتال ممتطياً صهوة جواده الأدهم، وقد وهن عظمه ولم يتدارك الوهن قلبه، واشتعل رأسه شيباً واكتست لحيته لون القمر، وما استطاعت الثمانون عاماً التي قضاها في طاعة الله وجهاد في سبيله أن تقوس له ظهراً أو تضع له هامة، إلى أن أقام له الإيطاليون كميناً فأسروه إثر قتال عنيف، وأبت الوحشية الإيطالية إلا أن تقيم برهاناً جديداً على فقدها كل شرف وتجردها عن كل عاطفة نبيلة، فحكمت عليه حالاً بالإعدام ونفذت ذلك الحكم رمياً بالرصاص[1]، ألا في سبيل الله تلك الروح الطاهرة النقية التي رجعت إلى ربها راضية مرضية، تستنزل نعمته وسوط عذابه على أدناس الاستعمار الإيطالي المتكالبين. وما الله بغافل عما يعمل الظالمون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون[2].

كما أعاد الشيخ عبد الحميد بن باديس نشر مقال مطول للأمير شكيب أرسلان بعنوان: عمر المختار لم يكن ثائراً على حكومة شرعية، بل كان مجاهداً عن وطن مغصوب بالقوة. كان قد نشر في إحدى الصحف العراقية فور استشهاد عمر المختار واستعرض فيه الكاتب بطولة المجاهد ومواقفه المشرفة ورفضه لكافة المؤامرات الإستسلامية التي ترمي إلى إحباط معنويات المجاهدين وإضعاف عزيمتهم[3].

ومما ذكره شكيب في مقاله الطويل قوله في عمر المختار: أما أن الشهيد عمر المختار هو من أعظم رجال هذا العصر وممن تستزين بسيرته صحائف التاريخ العام فلا يماري في ذلك أحد عنده ذرة من الإنصاف[4]

وقال أيضاً: ولم يكن عمر المختار رجل حرب فقط، بل كان رجلاً محنكاً منجداً خبيراً بسياسة قومه مطلعاً على أحوال وطنه ذا عقل سليم وحكم سديد وتدبير مصيب، وإنما كان العبقري الأكبر في شجاعته

(1) ما قاله ابن باديس عن رمي عمر المختار، بالرصاص غير صحيح، فقد تم اعدامه شنقاً حتى الموت.

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 301، الشهاب.

(3) المصدر نفسه ص 302.

(4) الشهاب ج 11 مجلد 7، نوفمبر 1931م ص 691. 701.

وصبره وثباته وقوة عزيمته وصلابة عوده وشدة إيمانه، وكان كأنه صحابي كبير عاش في هذا القرن[1].

إن عمر المختار عند شكيب أرسلان كما هو عند الشيخ عبد الحميد بن باديس لم يكن خارجاً عن السلطة التي تحكم الوطن بقوة السلاح، والتي لم يعترف بها يوماً بل كان مجاهداً في سبيل وطنه ودينه وعرضه، طالباً الشهادة في سبيل الله، مردداً عبارته الشهيرة «نحن لا نستسلم، ننتصر أو نموت» وبالفعل لاقى عمر المختار وجه ربه وهو يقاتل أعداءه بسلاحه وبقلمه وفكره الثاقب قائلاً: إذا أنا مت تستمر الثورة من بعدي[2].

ومن جانب آخر عندما أقيم حفل تأبين المجاهد عمر المختار في بيت الأمير محمد سعيد الجزائري، وخرجت الجماهير الدمشقية إلى الشوارع، وأغلقت المحال التجارية، ودعا خطباء المساجد إلى مقاطعة البضائع الإيطالية ؛ اشترك الأمير محمد سعيد الجزائري في تلك المظاهرات، وأرسل برقيات الاستنكار إلى عصبة الأمم المتحدة بجنيف، وإلى رئيس وزراء إيطاليا، وفيما يلي نص البرقية الأولى: جنيف عصبة الأمم: اجتمع مئات الأشخاص من علية القوم ووجهاء السوريين لتأييد قائد الحركة الوطنية في طرابلس، برقة السيد عمر المختار الذي أعدمه الإيطاليون بعد أسره، واستفظعوا عمل إيطاليا المخالف لقوانين الحرب، ذلك التصرف الذي أدمى قلوب العرب جميعاً، أرفع إليكم استنكارهم واحتجاجهم على حكومة إيطاليا التي لم تراع شعور المسلمين في إخوانهم الطرابلسيين. دمشق: حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ـ محمد سعيد[3].

وجاء في البرقية الثانية الموجهة إلى موسوليني رئيس الحكومة الإيطالية ما يلي: روما، رئيس وزراء إيطاليا السنيور موسوليني: إعدام السيد عمر المختار زعيم طرابلس ـ برقة الذي أسرته السلطات العسكرية أدمى قلوب

(1) المصدر نفسه.
(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 303.
(3) المصدر نفسه ص 303.

العرب، وأوجب استياءهم الشديد، لمخالفة ذلك التصرف المريع لنظم الحرب والعدالة. باسم مئات المجتمعين من أعيان السوريين أرفع إليكم هذا الاحتجاج وأعرب لكم عن غضب المسلمين على تصرفات رجال حكومتكم في حق الطرابلسيين. دمشق: حفيد الأمير عبد القادر الجزائري ـ محمد سعيد[1].

وهكذا كان يرى الجزائريون بصفة عامة، وقادة الجهاد الإسلامي دعاة الإصلاح في الجزائر وفي مقدمتهم الشيخ عبد الحميد بن باديس جهاد عمر المختار واستشهاده في سبيل وطنه ؛ على أنه جزء من كفاح الأمة العربية جمعاء، لإحياء الأمجاد العربية ورفع راية الإسلام، فلم يفرقوا على الإطلاق بين ما يقومون به من نضال ضد المستعمر الفرنسي، وبين ما يقوم به الليبيون من جهاد ضد المحتلين الإيطاليين بقيادة شهيد العروبة والإسلام شيخ الشهداء عمر المختار[2].

. موقف ابن باديس من زيارة موسوليني إلى طرابلس وبرقة:

أعلن موسوليني عن نفسه بأنه «حامي الإسلام»، وكان الهدف الحقيقي من تلك الزيارة هو الإعلان أمام الرأي العام الأوروبي بأن طرابلس وبرقة أصبحتا جزءاً أساسياً من الإمبراطورية الإيطالية، وخندقاً من خنادق المواجهة المحتملة في البحر المتوسط، وفي المستعمرات الفرنسية في تونس والجزائر ومراكش والمستعمرات الإنكليزية في مصر والمشرق العربي.

وقد علق الشيخ عبد الحميد بن باديس على تلك الرحلة عبر صحيفة الشهاب قائلاً: إن هذه الرحلة ما هي إلا استعراض دجال، ولو كانت لنا بالضحك قوة لضحكنا من هذه الخزعبلة الكبيرة المضحكة، فخزعبلة السيف التي كلفت الحكومة مائتي ألف ليرة إيطالية وحمل إلى طرابلس وقدم هناك من قبل فريق من المسلمين بموجب أوامر عليا أطلقوا عليه اسم «سيف الإسلام».

يا إيطاليا.. يا عديمة الرحمة.. يا دموية.. ماذا فعلت خلال ربع قرن بنصف مليون من المسلمين؟ من

(1) المصدر نفسه ص 304.

(2) المصدر نفسه ص 304.

الذي فوّض طاغيتك في التحدث باسم الإسلام؟ وأن يعلن في انعدام ضمير على الطريقة الرومانية أنه حامي حمى الإسلام[1].

كما سعى ابن باديس من خلال جمعية العلماء المسلمين وجريدة الشهاب الناطقة باسمها أن يذكر الشعب الجزائري بمجاهدي العروبة والإسلام، وعملهم الدائب لتعميق فكرة الأخوة العربية الإسلامية، التي تجمع بينهم وبين أشقائهم الليبيين، فنشر في جريدة الشهاب ثلاث صور لزعماء العرب الذين غدرت بهم السلطات الاستعمارية الإيطالية والفرنسية والإنكليزية، كانت أولها صورة للزعيم عمر المختار كتب بجانبها «عمر المختار ضحية الاستهتار الإيطالي» وعزز بقصيدة أحمد شوقي التي رثى فيها عمر المختار قائلاً:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء   يستنهض الوادي صباح مساء..

ثم علّق على ذلك قائلاً: ومن الغرور الذي تصاب به الدول الطاغية أنها تحسب معسول كلامها ينسي الناس حنظل أعمالها، فلأجل تنبيهها من هذا الغرور نشرنا صور ضحاياها في هذا الجزء من مجلتنا[2].

وإيماناً من الشيخ عبد الحميد بن باديس بأنه لن يصلح حال الأمة الإسلامية إلا إذا صلح علماؤها لأنهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم وقوي إيمانهم، فإنه لم يتردد في توجيه نقده اللاذع إلى بعض المواقف المتخاذلة لبعض العلماء الذين سخرتهم إيطاليا لخدمة أغراضها في السابق.

ويذكر بالموقف المشين الذي وقفه قاضي قضاة طرابلس عندما قام في هيئته الشرعية فقدم سيفاً لموسوليني خلال زيارته السابقة إلى طرابلس. فيكرر استهجانه لذلك الموقف قائلاً: منذ زمن قريب قام قاضي طرابلس فقدما سيفاً لموسوليني فلم يكفه أن يسميه سيف طرابلس، فيكذب على وطنه وقومه ؛ فسماه سيف الإسلام ليكذب على دينه وربه، وزاد في هذا الإفك والجرأة أن سمى مستعبده ومستعبد إخوانه المسلمين: حامي الإسلام[3].

(1) المصدر نفسه ص 306.

(2) المصدر نفسه ص 307.

(3) المصدر نفسه ص 308.

د . وحدة الشمال الإفريقي:

وأما عن وحدة الشمال الإفريقي، فقد كانت شغله الشاغل والركن الركين الذي قامت عليه دعوته، فجعل من الأركان الثابتة والأبواب القارة لمجلته الشهاب ركناً بعنوان «في الشمال الإفريقي» يتتبع فيه ما يجري في أقطار دول المغرب من أحداث، ويتفاعل مع قضاياه إيماناً منه بوحدة أقطار دول المغرب. فقد جاء في الركن مقال بعنوان: «الأيام الخالدة في تاريخ المغرب الحديث» ما يلي: إننا إذ نمد من وراء هذه الحدود الوضعية يد الإخلاص والولاء إلى رجال المغرب الأبرار ـ أبناء بلاد الشمال الإفريقي ـ وإلى مجاهديهم الكرام الأحرار، والأباة وإلى شركائنا في الأصل والنسب، وإلى الذين خلقنا الله معهم أمة واحدة تشترك في وطن يربط الأطلس بين أجزائه رباطاً وضعته يد الله، فلا تستطيع أن تحله يد البشر، وتشترك في لغة ودين وعوائد وتقاليد، وتشترك في أيام خالدة مرسومة على صفحات التاريخ، ثم هي شريكة في المحن والالام وتصرفات الأيام، وشريكة في كل المصالح الدينية والدنيوية، وشريكة في الامال الفسيحة والنظر إلى المستقبل بأعين متفائلة مغتبطة، شريكة فوق كل ذلك في ميدان الجهاد الوطني في سبيل الحرية والتحرر.

ويقول الشهاب عن تونس: لتونس الخضراء أيام عزة وفخار هي أيام الحزب الدستوري، وما أدراك ما هي.

ويقول الشهاب عن الجزائر: وللجزائر أيام شرف وسؤود هي أيام جمعية العلماء المسلمين.

ويقول الشهاب عن المغرب الأقصى: وللمغرب الأقصى أيام بطولة ماجدة وشرف واستشهاد هي ايام كتلة العمل الوطني.

ويؤكد الشهاب ما يربط هذه الأقطار من وحدة بالمعنى الروحي والأدبي فيقول في مقال افتتاحي بعنوان: الشمال الإفريقي كيف يجب أن يعالج [1] ؟ جاء فيه : إن الاتحاد الإسلامي والوحدة العربية بالمعنى الروحي

(1) مقدمة مجلة الشهاب ص 89.

والمعنى الأدبي والمعنى الأخوي ـ هما موجودان ـ تزول الجبال ولا يزول، بل هما في ازدياد دائم، بقدر ما يشاهد الناس من عمل في الغرب ضد العروبة والإسلام، وأما بالمعنى السياسي والمعنى العملي فلا وجود إلى اليوم لهما.

وأما العلاج فقد كتب الشهاب يقول عنه: وكادت كلمة القوم ـ الاستعمار ـ تتفق على أنه الضغط والإرهاق واستعمال القوة والشدة.

نقول ـ بالصدق والصراحة اللذين تعرفهما منا الدوائر الحكومية ـ إنه علاج قد يُسكن الشعب شيئاً ما، ولكنه زرع في القلوب بغضاً وحقداً، وملأ الصدور ثورة وحماساً، وما مال ذلك بطبيعة الامتلاء وطول الزمان إلا الانفجار.

هـ ـ فلسطين:

ولعل قضية فلسطين من أبرز القضايا التي نالت اهتمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، فهو لم يعش حتى تتأسس دولة اليهود على أرض المسجد الأقصى، ولكن الأحداث التي كانت تقع هناك لفتت الأنظار إلى المخطط اليهودي الماكر، فما كان من ابن باديس إلا أن أرسل الاحتجاج على الأحداث الدامية التي وقعت في فلسطين منذ أوائل الثلاثينات، وكان احتجاجه موجهاً إلى وزارة الخارجية الفرنسية، وما كان الاحتجاج هو الوسيلة الوحيدة، بل كان الشعب الجزائري على فقره وحاجته يجود بما يستطيع لمساعدة إخوانه في فلسطين[1].

وعبّر ابن باديس عن موقفه من قضية الأمة الإسلامية فلسطين السليبة من خلال إحدى خطبه التي قال فيها: إخواني إني أحييكم وأحيي جميع إخوانكم الذي خلفهم العذر، ثم أسكب عبرة الأسى على ما تلقاه أرض القدس الشريف من عسف الاستعمار الغاشم، الذي فرّق بين الإخوة الذين عاشوا في هناء وصفاء منذ قرون، كما لطخ تاريخهم من هذه الفعلة بكل نقيصه مخزية ومردية، ولطخ تلك الرحاب المقدسة بالدماء البريئة، فبلسانكم ولسان الجزائر كلها من الأجنة في بطون الأمهات إلى الذين في الأجداث أرفع الشكوى إلى

(1) المصدر نفسه ص 164.

الله، ثم الاحتجاج إلى كل من فيهم إنسانية من جميع الأمم[1].

و . رأيه في الثورة السورية:

حمّل ابن باديس فرنسا مسؤولية الثورة في سوريا، فذكر أن هذه الثورة، جاءت بغتة فلم يدر الناس أسبابها، ومن جرائد سوريا قد عرفنا السبب الحقيقي لهذه الثورة المجهولة العاقبة، وهو صلابة الإدارة فقد وقعت من كاربييه حاكم الجبل إهانة للدروز، وإهانة لبعض زعمائهم، فلم يصبروا عليها.. فلما رأى الشعب الدرزي ذلك.. اتّحد ونهض وأوقد نار حرب لا يدري إلا الله متى تنتهي وإلى أين ينتهي لهيبها[2].

وبعد أن حمّلها المسؤولية ؛ وجّه خطاباً إلى فرنسا قائلاً: ما أحوج فرنسا إلى حكام يسلكون جانب اللين مع من ساقتهم الأقدار إلى كنفها، وأما الصلابة والشدة وقلة الاكتراث بالأمم الضعيفة، فإنها لا تورّث إلا خسارة الأموال والرجال والقلوب، وتشوه السمعة، وتوجد لأعداء فرنسا ثغراً ينفذون إليها منها[3].

ز . المسلمون في روسيا:

فمنذ أول أعداد «المنتقد» نجده ينقل أخبار المسلمين في روسيا، حيث يقول الخبر: هدم الشيوعيون معهداً إسلامياً في مدينة طشقند اسمه «مدرسة كابيلربي»، وأخذوا ينشئون في مكانه تمثالاً للزعيم لينين. ثم يستنتج الخبر أن هذا العمل وأمثاله يؤكد «عداء البولشفيك للإسلام والمسلمين، كما هم أعداء جميع المتدينين»[4].

وبعد سنوات تنشر الشهاب مقالاً مقتبساً من مجلة «الفتح»، يوضح دور اليهود في الثورة البلشفية وأنهم المسيطرون عليها، والدليل على ذلك ما يتمتع به اليهود من حقوق وامتيازات، وهذا ما قاله مندوب مسلمي

(1) المصدر نفسه ص 164.

(2) المنتقد العدد 10 الخميس 14 صفر ص 178.

(3) المصدر نفسه ص 178

(4) المنتقد العدد الأول في 11 ذي الحجة 1343هـ 2 يوليو 1925م.

روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة 1344هـ: إنهم «البولشفيك» لا يفرقون بين أهل دين ودين، بل يضطهدون أهل الأديان جميعاً ؛ إلا أن اليهود سالمون من هذا الاضطهاد، ومتمتعون بحقوق لا تنسى لأحد سواهم، بل الحكومة كلها في أيديهم. وفسر ذلك بأنه النفاق والدهاء، فاليهود بلشفية في الظاهر، وهم في الباطن لا يفرطون في مثقال ذرة من يهوديتهم، وبهذا المكر الكبّار نجحوا دون سائر أهل الأديان[1].

3. الأحداث الفكرية والأدبية في العالم الإسلامي:

أ. أمير الشعراء أحمد شوقي:

واهتم ابن باديس رحمه الله بالأحداث الفكرية، فلما قرر أدباء مصر مبايعة شوقي أميراً للشعراء، أسرع الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى توجيه النداء إلى الأدباء الجزائريين، لإقامة حفل تكريم لشوقي، ولكن السلطات الفرنسية رفضت الإذن لهم بذلك، فكتب في الشهاب يقول: وقد لبّى أدباء الجزائر نداءنا وكدنا نعقد حفلة التكريم لولا تحذير إداري عرض لنا تركنا له ما عزمنا عليه، متعجبين من الوقوف في سبيل حفلة أدبية محضة[2].

نعم إنها حفلة أدبية محضة ولكنها تأكيد للرابطة الإسلامية واحتفاء واهتمام بشأن شاعر معروف، وفي ذلك تمجيد للغة العربية وإعلاء لشأنها الأمر الذي حاربته فرنسا منذ بداية الاحتلال[3].

ب. في تأبين أحمد شوقي وحافظ إبراهيم:

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى:

أيها الإخوان:

إذا كانت الأمم اللاتينية - على ما بينها من تزاحم وتخاصم وتقاتل وتناحر - ترتبط برابطة اللاتينية وتتفاخر بثقافتها، وتعقد المجتمعات العظيمة لتقوية روحها وتمتين حبل التمسك بها، فنحن - أبناء العربية -

(1) الشهاب ج 10 م 7 ص 622.
(2) الشهاب العدد 105 في 14 محرم 1346هـ.
(3) عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني ص 131.

وليس بيننا شيء من تلك المفرقات، بل ما بيننا إلا ما يقرب بعضنا من بعض من المؤلِّفات والمحزنات، أحق بأن نفعل مثلهم وأكثر منهم في لغتنا العربية.

وفوق هذا فإن اللغة اللاتينية ليست لغة العلم والأدب المشتركة ما بينهم مثل العربية التي هي لغة العلم والأدب ما بين سبعين مليون من أبناء الضاد، وليست اللاتينية قريبة من عامياتهم مثل قرب العربية الفصحى من عاميتنا، حتى أنه لو قام خطيب يخطب باللاتينية لما وجد من يفهمه إلا قليلا من أهل القلم منهم، ونحن نلقي دروسنا ومحاضراتنا وأكثر خطبنا بالعربية الفصحى فلا يبعد على السامعين إلا قليل من القول.

فإذا كانت العناية باللاتينية من واجب خاصتهم، فإن العناية بالعربية من واجبنا عامة وخاصة، إذ هي لغتنا أجمعين. وإذا كان تمسكهم برابطتهم اللاتينية لم تخرج أي واحد منهم عن وضعيته الاجتماعية الخاصة ؛ فإن تمسكنا بهذه الرابطة العربية لا يخرجنا عن وضعيتنا الخاصة وما لنا من ارتباطات أخرى يرتبط بها المجتمع الجزائري.

أيها السادة:

إن من حقنا ومن الواجب علينا ـ نحن معاشر المسلمين الجزائريين ـ الذين تشربت عروقنا هذه اللغة الكريمة من معين قوميتنا الشريفة، وتغذت أرواحنا من بيانها العذب بالشرب المصفى من ديننا العظيم، واستنارت عقولنا من شمسها المضيئة بالأنوار الساطعة من تاريخنا الجليل، من حقنا الواجب علينا أن نكرم العربية، ومن يكرم العربية وخصوصاً من خدم العربية بعقله وروحه وحياته مثل شاعرينا الكريمين؟

ومن حقنا ـ أيضاً ـ أن نرتبط بأبناء العربية ارتباط القلب واللسان، ارتباط العقل والتفكير، ارتباط الشعور والتقدير، خصوصاً عندما يتحرر الشعور العام لأمر هام، وتتوجه القلوب العربية لتكريم عظيم أو إحياء ذكرى عزيز، مثل احتفالنا هذا مع العالم العربي لتكريم الشاعرين العظيمين وإحياء ذكراهما العزيزة الخالدة.

أيها السادة:

إننا باحتفالنا هذا بذكرى شاعري العربية العظيمين شوقي وحافظ، نكرم سبعين مليوناً من أبناء العربية الذين يعدون العربية لغتهم القومية، ونكرم خمسمائة مليون من أبناء الإسلام الذين يعدونها لغتهم الدينية، ونكرم الأمم المتمدنة جمعاء التي يعترف أكابر علمائها المنصفين بمزية اللغة العربية التاريخية على العلم والمدنية.

أيها الإخوان:

ليس الشاعران الخالدان بالمحتاجين للتعريف بهما، ولست بالباحث الأديب الذي يستطيع أن يعرض عليكم في بلاغة وإيجاز صوراً فتانة من أدبهما، غير أنني ربما استطيع أن أقول شيئاً من وجوه العبرة والقدوة في حياتهما ووجوه من النعمة العظيمة من الله تعالى على العربية بهما.

قد اتحد الشاعران في المواطن وتقاربا في المولد والوفاة ولكنهما تباينا في البيئة والنشأة والمعيشة، فنشأ شوقي في بيت الأمارة، وفي بيئته الخاصة عاش حافظ عيشة البؤس والشدة، فكان من نعمة الله أن قسمت الحياة بينهما هذا التقسيم ليؤدي كل منهما للعربية رسالته من ناحيته ومؤثراتها الخاصة به.

فلقد أخرجت بيت الأمارة المرتبطة بالخلافة من شوقي شاعر الإسلام والعرب والأحداث الإسلامية الكبرى والتاريخ الإسلامي العام وتاريخ العرب، وأخرجت البيئة العامة الرازحة تحت نير الظلام والمتجرعة لألوان الشقاء والمتقلبة في دركات الانحطاط من حافظ شاعر الأخلاق والاجتماع والوطنية، ولا غناء لواحد من العرب عما جاء به كل واحد من الشاعرين في ناحيته، ولو لم يخلق الله إلا أحدهما لما تمت النعمة من الناحيتين.

كانت العربية القرآنية قد تنوسيت أساليبها وانقطع سند الأمة العربية عنها، فجدد الشاعران من شبابها، وأعادا من بيانها ما حسب الناس أنه مات مع الأيام الزاهرة للعرب بالمشرق والمغرب.

حسب قوم أن العربية لا تتسع لما جد من المعاني إلا إذا خلعت عنها ثوب القرآن ولبست . مثلهم .

منسوجات «لانكشير» وأخوات «لانكشير» فجاء الشاعران ـ خصوصاً شوقي في العقد الأخير من عمره ـ من قصائدهما العصرية المعاني القرآنية اللغة والأسلوب والتراكيب ـ بأوضح الرد وأبلغ التكذيب(1).

عاش الشاعران كل على ما قسم له من الحياة حتى جاءت الحرب العالمية الكبرى ووضعت أوزارها، فإذا بشوقي يخرج إلى العالم من قفص دار الإمارة، وإذا بحافظ يدخله بؤسه إلى قفص الوظيفة في دار الكتب المصرية. فماذا كان من الشاعرين العظيمين بعد؟

كان منهما ما يجب أن تكون فيه أبلغ العبرة، فإن شوقي اتسعت شاعريته العالمية وقويت نزعته الوطنية، وأما حافظ فقد سكت إلا عن قليل كان أكثره رثاء، ولعمر الحق ما أسكته إلا الوظيفة التي ينسى بها الشرقي ـ حتى مثل حافظ ويا للأسف ـ نفسه وأمته وملته، إلى ما شاء الله.

أيها الإخوان:

أن مما نفع شوقي إطلاله على اداب أمم أخرى من لغة أوروبية هي الفرنسية، وأن مما نفع حافظاً ما مسه من الألم مع قومه، وقد كان يطالع «الأغاني» و«العقد الفريد» ويعيد مطالعتهما المرة بعد المرة، فعلى أدباء الجزائر وشعرائها أن يدرسوا ادابهم العربية، وأن يطالعوا الاداب الغربية في اللغة الفرنسية، وأن يمازحوا قومهم ليألموا وينعموا ـ إن كان نعيم ـ لتكون لهم منزلة أدبية عالمية واثار بارزة في الحياة.

أيها الإخوان:

إن حياة الشاعرين العظيمين قد أخمدت نوابع وأماتت قرائح، وإن موتهما بما نشاهد من تكريم العالم العربي لهما سيحيي ملكات ويبعث همماً فكونوا ـ وأنتم أنتم ـ في أول الرعيل.

أيها الأخوان:

ليس للجزائر من حافظ إلا ما للأوطان العربية من شعره وأدبه وفنون قوله،أما شوقي فقد قدر له أن يزور

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 535).

هذه الجزائر في شبابه وينزل بعاصمتها أربعين يوماً للاستشفاء، ويقول عنها: ولا عيب فيها سوى أنها قد مسخت مسخاً، فقد عهدت مساح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية، وإذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية[1].

فاعجبوا للاستدلال على حالة أمة بمساح الأحذية منها، ولا يجمل بي أن أزيد في موقعي هنا على هذا، إلا أن فقيدنا العزيز لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي اخر، ولعلم أن الأمة التي صبغها الإسلام، وهو صبغة الله، وأنجبتها العرب وهي أمة التاريخ، وأثبتتها الجزائر وهي العاتية على الرومان والفاندال، لا تستطيع ولن تستطيع أن تمسخها الأيام ونوائب الأيام.

أيها الإخوان:

باسمي الضئيل، وباسم الجزائر الكبير، وباسم جمعكم الكريم، أرفع التحيات الزكية للفقيدين الخالدين في مرقدهما ولجميع العاملين لإحياء العربية وأدبها من بعدهما.

فليعش العرب، ولتعش العربية، وليعش المحبون لهما من الناس أجمعين[2].

ج. وفاة الشيخ محمد رشيد:

في سنة 1935م توفي الشيخ محمد رشيد بمصر، فكتب ابن باديس: نعت أخبار مصر وفاة هذا الإمام، وقد كانت وفاته إثر رجوعه من مشايعة الأمير سعود إلى الإسكندرية، فابتدأه الألم أثناء الطريق وما بلغ إلى مصر حتى وافاه الأجل. وقد شيعت جنازته في مشهد عظيم ودفن بجوار الأستاذ الإمام محمد عبده. لقد كان الأستاذ نسيج وحده في هذا العصر، فقهاً في الدين وعلماً بأسرار التشريع وإحاطة بعلوم الكتاب والسنة، ذا منزلة كاملة في معرفة أحوال الزمان وسير العمران والاجتماع. وكفى دليلاً على ذلك ما أصدره من أجزاء التفسير، وما أودعه مجلة المنار في مجلداتها التي نيّفت على الثلاثين وما أصدر من غيرهما مثل الوحي المحمدي

(1) المصدر نفسه (3 / 536).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 194).

الذي كان أحب كتبه إليه، وإن ما كان يقوم به من عمل في تفسير القرآن لا تستطيع أن تقوم به من بعده إلا لجنة من كبار العلماء، فهل يكون في رجال الأزهر من يتقدمون لخدمة الإسلام بتتميم هذا العمل الجليل؟ إننا نتمنى أن تتوجه عناية الأستاذ مصطفى المراغي إلى هذا فيكون من أعظم أعماله.

أجر الله الإسلام والمسلمين في هذه المصيبة، وخلف عليهما خيراً منها، ورحم الله الأستاذ حجة الإسلام وجازاه خير ما جازى به عباده الصالحين[1].

وكتب بعد ذلك مقالات في الشيخ محمد رضا نقتطف منها:

مولده: ولد في حدود 1291هـ 1965م بقرية القلمون من قرى لبنان.

. **بيته**: بيت شرف ودين وعلم وفضل وصلاح يعرفون بالمشائخ من قريتهم وإليهم يرجع أهلهم في الدين وإصلاح الشؤون.

ـ **نشأته**: نشأ في هذا البيت الطاهر نشأة علم ودين وتقوى وشعور بواجبات القيام بحاجات الناس وإيصال الخير إليهم.

. **تعلمه وشيوخه**: قرأ القرآن وتعلم الخط والحساب من كتّاب قريتهم، وحبب إليه من الكتب كتب الأدب والتصوف، فكان يقرأ كتاب الإحياء لحجة الإسلام الغزالي، فطبعه بطابع الزهد والتدين، وأكسبه ملكة العربية الفصيحة والأسلوب المرسل في البيان، ثم أدخل مدرسة ابتدائية جميع التدريس فيها باللغة التركية فلم يقم فيها إلا سنة.

ثم سنة 1302هـ دخل مدرسة الأستاذ حسين الجسر، وكان هذا العلامة أنشأ مدرسته لتعليم علوم الدين واللغة العربية واللغات الأجنبية والعلوم الدنيوية على الطريقة العصرية مع التربية الإسلامية الوطنية، فتخرج في العلوم العربية والشرعية والعقلية على الأستاذ الجسر في مدة ثمان سنوات وكتب له شهادة العالمية.

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 194).

وتشبّع بروحه في ضرورة الجمع بين علوم الدين وعلوم الكون المادية والاجتماعية والعمرانية مع التربية الإسلامية لنهضة الأمة، وأخذ الحديث وفقه الشافعية عن شيخ الشيوخ العلامة محمود نشافة، وحضر قليلاً من نيل الأوطار للشوكاني على العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي، واستفاد كثيراً من معاشرته في العلم والأدب والتصوف، وتلقى بعض كتب الحديث عن العالم المحدث الشيخ القوقجي.

. الكتب التي خرجته:

شغف بكتاب الإحياء فطالعه كله وأعاد مطالعته فكان له الأثر الصالح في زهده وأخلاقه وإخلاصه في العلم وتقواه في العمل وكان طريقه منه في فهم الدين أنه دين روحاني أخروي فقط، وأن إرشاد المسلمين محصور في تصحيح عقائدهم ونهيهم عن المحرمات وحثهم على الطاعات وتزهيدهم في الدنيا.

ثم اتفق له في أثناء مدة طلبه للعلم . وهو يقلب أوراقاً علمية لأبيه . أن وجد عددين من جريدة العروة الوثقى التي كان يصدرها حكيم الشرق جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فقرأهما بشوق ولذة بعثاه على البحث عن بقية أعدادها، فلما قرأ ما وجد منها المرة بعد المرة ؛ أحدثت فيه أثراً جديداً ونقلته من طور إلى طور، وصار طريقه في فهم الإسلام أنه دين روحاني جسماني أخروي دنيوي، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق ليكون خليفة الله في تقرير المحبة والعدل[1].

وإن إرشاد المسلمين يجب أن يكون . مع تصحيح عقائدهم، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات . إلى المدنية والمحافظة على ملكهم ومبادرة الأمم العزيزة من العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة.

. نسكه:

حبب إليه كتاب الإحياء مجاهدة نفسه على طريقة الصوفية بترك أطيب الطعام والاكتفاء بقليله والنوم

(1) المصدر نفسه (4 / 197).

على الأرض وغير ذلك. وأخذ أوراد الشاذلية عن شيخه أبي المحاسن القاوقجي أعبد عباد شيوخ الطريق في وقته. ورغب منه أن يسلكه تلاوة الأوراد وحضور الاجتماعات فقال له الشيخ: يا بني إنني لست أهلاً لما تطلب، فهذا بساط قد طوي وانقرض أهله، ثم تلقى الطريقة النقشبندية وقطع مراتبها كلها فكان نسكه ـ أولاً ـ تصوفاً طرقياً شاذلياً فنقشبندياً بما فيه من حق وباطل وهدى وضلال.

ـ تخلص نسكه من الباطل والضلال:

دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه الجليل للإمام المرتضى الحسيني، فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية في تخريج أحاديث الإحياء فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة، وتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطأ الضار ـ وهو قليل ـ ولاسيما عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة، وترك أوراد الشاذلية لما علم أن قراءتها من البدع التي جعلت من قبيل الشعائر والشرائع التي شرعها الله تعالى على ما فيه ـ أي: ورد السحر ـ وأمثاله من الأمور والأقسام المنتقدة شرعاً، واستبدل بها قراءة القرآن ووِرداً آخر في الصلاة على النبي (ص) ليس فيه شبهة بدعة من توقيت وجهر وصيغ منكرة ومضاهاة للشعائر الموهمة للمأثور عن الشارع كما ترك أوراد النقشبندية وذكرها «غير المشروع المخالف لجميع ما ورد في الذكر المأثور» وبين ما في رابطتها من شرك أو بدعة.

فتخلص نسكه ـ بعد طرح ذلك كله ـ للتنسك الإسلامي من تجريد التوحيد وتزكية النفس وتقويم الأعمال وتصحيح النية ومحاسبة النفس ومراقبة الله في جميع الأعمال والزهد في الدنيا والعمل للاخرة والمبالغة في العبادة المشروعة والاعتصام بالورع موزوناً ذلك كله ومضبوطاً بالكتاب والسنة، وما كان عليه أهل القرون الثلاثة الصحابة والتابعون واتباع التابعين رضي الله عنهم أجمعين، وهذا هو الذي يراد بالتصوف إذا جاء اسم التصوف في كلام علماء السنة والأثر، وقد كان السيد محمد رشيد رضا رحمه الله من أئمتهم فهذا هو نسكه وهذا هو تصوفه.

. **تعليمه وإرشاده:**

تصدى للتدريس في مسجدهم حيث كان عمه .كأسلافه يقوم بالأمامة والخطابة والتدريس، فكان يقرأئ الرجال دروساً في الفقه الشافعي ودروساً في التوحيد بالسنوسية. ولما رأى صعوبتها عليهم وضع لهم عقيدة سهلة وكان يربيهم في تعليمهم بما يحثهم عليه من القيام بالشعائر الدينية، وكان يلقي عليهم المواعظ الدينية معتمداً فيها على آيات القرآن العظيم، ثم لم يكتف بما يقوم به من التعليم والإرشاد في المسجد ؛ فكان يذهب إلى مقهى يجتمع فيه العوام فيعظمهم ويرشدهم حتى هدى منهم من هدى الله، ورأى أن على المرشد هداية النساء مثل ما عليه هداية الرجال، فكن يجتمعن في دار أسرته فيلقي عليهن العقائد والأحكام والاداب في عبارات سهلة بدون كتاب، وكان يأمرهن بتغيير زيهن بما هو أستر وأطهر حتى تكون المرأة في الشارع كما تكون في الصلاة.

. **أمره بالمعروف وتغييره للمنكر**:

كان بعد ما قرأ كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من كتاب الإحياء يأمر وينهي لا يخاف لومة لائم وأول حادثة صدع فيها بالنهي عن المنكر في حفل عظيم من الناس .كانت يوم شهد حفلة للطريقة المولوية، ورأى رقصهم وحلقة غلمانهم فصاح فيهم بما معناه «أيها المسلمون إن هذا منكر لا يجوز النظر إليه، ولا السكوت عنه، لأنه إقرار له وأنه يصدق على مقترفيه قول الله تعالى: {اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا} وأنني قد أديت الواجب فاخرجوا رحمكم الله» وخرج مفارقاً لهم .

. **ما وقع بينه وبين شيخه الجسر بسبب هذا الإنكار:**

كان الشيخ الجسر على علمه بالعلوم الشرعية وإلمامه بالعلوم العصرية شيخاً في الطريقة الخلوتية، فكان ينصح لتلميذه بأن يكف عن أهل الطريق ولكن لايأتيه على ما يفعلونه مما يبتدعونه في الإسلام ويشرعونه لأنفسهم مما لم يأذن به الله بدليل وكان السيد يقول له: أقنعني بما تقول بالدليل ليصير عقيدة لي أرجع إلى قولك. فكان يجيبه الشيخ بقوله: أنت أهل علم وصاحب حجة وليس لك عندي غير ما قلته. وكما كان

ينكر على العامة ؛ كان ينكر على الحكام والكبراء ما يراه منهم لا يخص بإنكاره أحداً دون أحد، وكذلك كل ما كان عن عقيدة ولوجه الله من الأعمال لا يتركه صاحبه على كل حال.

هذه ترجمة السيد قبل هجرته إلى مصر وقد رأينا أنه صار عالماً معلماً مرشداً ذا منزلة رفيعة في العلم والتقوى والنصح للمسلمين وهو بعد في أول العقد الثالث من عمره[1].

وجاء في المقال الثاني بعنوان الاعتبار بما كنا نشرناه من القسم الأول من حياة حجة الإسلام السيد محمد رشيد رضا:

لقد بلغ السيد رشيد رضا من الفقه الديني والتمكن من علوم الكتاب والسنة والخبرة بأحوال الزمان منزلة ما استحال أنها تتاح لأحد من بعده إلا في دهر طويل، لأن الأسباب التي يسرت له لا نراها اليوم مجتمعة في مكان، غير أن هذا لا يمنعنا من الاعتبار بحياته والأسباب التي اتيحت له لنأخذ بها ونحث على الأخذ بها، وهذه أهم النواحي التي كان لها ذلك الأثر في مقامه العظيم.

. البيئة المنزلية:

البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتديُّن الأم هو أساس حفظ الدين.

والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت بسبب جهل الأمهات وقلة تدينهن، والسيد رشيد كانت متانة خلقه وقوة دينه من أثر أمه التي كانت .كما قال هو . على جانب عظيم من الدين مع العلم الكافي لمثلها، ولبيئة بيته، فإذا أردنا أن نكوّن رجالاً فعلينا أن نكوّن أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً وتربيتهن تربية إسلامية، وإذا تركناهن على ما هن عليه من الجهل بالدين ؛ فمحال أن نرجو منهن أن يكون لنا عظماء الرجال، وشر من تركهن جاهلات

(1) المصدر نفسه .

بالدين إلقاؤهنّ حيث يربِّيْنَ تربية تنفرهن في الدين أو تحقره في أعينهن، فيصبحن ممسوخات لا يلدن إلا مثلهن، ولأن تكون الأم جاهلة محبة له بالفطرة تلد للأمة من يمكن تعليمه وتداركه ؛ خيرٌ بكثير من أن تكون محتقرة للدين تلد على الأمة من يكون بلاء عليها وحرب لدينها.

فنوع تعليم البنات هو دليل من ستكون من أجيال الأمة في مستقبلها، وقد تفطنت لهذا بعض الأمم المالكة لزمام غيرها فأخذت تعلم بناتهم تعليماً يوافق غايتها، فمن الواجب علينا . ولنا كل الحق في المحافظة على ديننا ومقوماتنا . أن نعنى بتعليم بناتنا تعليماً يحفظ علينا مستقبلنا ويكون لنا الرجال العظماء والنساء العظيمات، وإلا فالمستقبل ليس كالماضي فقط بل شر منه لا قدر الله[1].

وتحدث ابن باديس عن أثر المعلمين في الشيخ محمد رشيد، وهمته في التحصيل الدراسي، واهتمامه بالتربية الروحية، وتعيينه الغاية واستعداده للتضحية في سبيلها، فقد كانت غايته أن يهتدي في نفسه وأن يهدي غيره. وتحدث عن تفكيره الاستقلالي فقد استطاع أن يتخلص في كتاب الإحياء للغزالي من الخطأ الضار . وهو قليل . فتخلص منها ورسم لنفسه ولغيره من خلال سيرته وعلمه الزهد الإسلامي الصحيح والنسك المشروع، وكان بعيداً عن الوظائف الحكومية، وتفرغ لخدمة الإسلام والدعوة إليه وبيان حقائقه لأبنائه وغير أبنائه[2].

. هجرته إلى مصر:

كان لديه رغبة عارمة للتتلمذ على يد الشيخ محمد عبده والأخذ عنه والتكمل به، فقد كانت مطالعته لمجلة العروة الوثقى باعثاً لإعجابه بالإمام جمال الدين الأفغاني وشغفه والشوق إلى لقائه، وكان كاتبه وهو بالإستانة في ذلك، ولم يساعده القدر على لقائه، وكان حبه للإمام جمال الدين مستلزماً لحبه لتلميذه ومعينه ووارث علمه وحكمته، ومحرر العروة الوثقى الشيخ محمد عبده، وكان السيد قد التقى به ببلدة طرابلس من

(1) المصدر نفسه (4 / 302).

(2) المصدر نفسه (4 / 305).

أرض الشام وتعرف به وحضر مجلسه فازداد به شغفه وتعلقه، فلما توفي السيد جمال الدين سنة 1314هـ عزم على الهجرة إلى مصر والاتصال بالاستاذ الإمام.

. آثار اتصاله بالأستاذ الإمام:

جاء السيد رشيد إلى مصر وهوعالم ومفكر وكاتب متبصر، فصحب الأستاذ الإمام صحبة العالم الصغير للعالم الكبير، فكان من أول آثار ذلك اصداره للصحيفة الإصلاحية التي كان يستمد روحها من الأستاذ الإمام، ثم رغبة منه في إلقاء دروس التفسير التي كانت أساساً لتفسير المنار، ورغبته إليه في إقراء علم البلاغة من كتابي إمامها «دلائل الإعجاز» «وأسرار البلاغة»، فكانت قراءتهما فتحاً جديداً في العربية، كما كانت دروس التفسير فتحاً جديداً في الدين[1].

. وفاء السيد للأستاذ الإمام في حياته وبعد وفاته:

كان السيد الساعد الأيمن والعضد الأشد للأستاذ الإمام في جميع ما قام به، كما كان الترجمان الصادق عن أفكاره والمدرأ الصمام في الدفاع عنه، واستمر السيد على وفائه للأستاذ الإمام بعد وفاته كما كان له في حياته، وما عرف المصريون وغير المصريين قدر الأستاذ الإمام وحفظ عليهم أمانته وخلّد لهم اثاره إلا السيد رشيد، وكان إلى آخر حياته. وقد فاق أستاذه في نواح عديدة من العلم. لا يفتر يلهج بأستاذه حتى كاد ينسي الناس نفسه وأثره الخاص في الدين والعلم والإصلاح.

. مواقفه بعد الأستاذ الإمام:

مضى السيد الرشيد بعد الأستاذ الإمام مضطلعاً بأعباء خطته الإصلاحية، واتسعت افاق أعماله إلى العالم الإسلامي كله، وكان لابد له من أن يصطدم بالحالة السياسية التي عليها العالم الإسلامي، والتي هي بطبيعتها العقبة الكؤود في سبيل كل إصلاح. فأصبح السيد رشيد من الفرسان المعلمين في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي، وكان في كليهما يصدر عن إيمان، ويجالد بقوة، ويناظر بحكمة، ويفحم ببرهان.

(1) المصدر نفسه (4 / 206، 207).

. غايته السياسية:

لقد كانت غايته السياسة الكبرى إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب، تكون مركزاً للأمم الإسلامية في العالم، بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية. وعلى هذه الفكرة ولهذه الغاية ناصر الدستور العثماني وجمعية الاتحاد والترقي. فلما تبينت له منهم النعرة الملية الضيقة ؛ ناوأهم وعمل على إيجاد مملكة عربية إسلامية مستقلة عن الدولة العثمانية، التي كان يرى الإتحاديين سائرين بها إلى الانهيار. فانضم إلى الجمعية العربية العاملة في مصر وأوروبا، ولهذا الغرض ولهذه الغاية كان مع الشريف حسين يوم أعلن الثورة العربية، حتى إذا تبين غدر الحلفاء بما كان من معاهدة «سايس . بيكو»، ورأى الشريف حسين لا يرجع عن اغتراره بهم، نفض يده منه وانقلب عليه وعلى البيت الهاشمي كله.

ولغايته التي ذكرنا كان ساير إمام اليمن يوماً حتى تبين له أن نطاق المذهب الزيدي لا يتسع لأمم الإسلام.

وفي أثناء هذا أخذت لوامع الدولة السعودية تلوح في الأفق حتى فاجأت العالم بإزالة العرش الهاشمي المتداعي وانتصابها مكانه بمكة المكرمة، فوجد فيها السيد رشيد ضالته من دولة إسلامية تنفذ الشرع الإسلامي وتقف عند حدوده وتحيي سنته، وتقاوم كل ما ألصق به من بدع وضلالات، وتنتمي إلى أحد المذاهب الأربعة الكبرى.

فشمر عن ساق الجد لمؤازرتها وتأييدها وإرشادها، ووجد من ملكها الملك عبد العزيز ال سعود الرجل المسلم الذي يعمل للدين وينتصح لكل ناصح فيه. فسار معه السيد رشيد إلى غاية واحدة حتى قضى وهو في طريق رجوعه من تشييع ولي عهده، فإذا كان يظهر من السيد رشيد تبدُّل في سيره السياسي ؛ فإنما هو تنقل من طريق إلى طريق في سبيل الوصول إلى غاية معينة، فلما وجد الطريق اللاحب المبين سلكه حتى مات رحمة الله عليه[1].

---

(1) المصدر نفسه (4 / 208).

. أثر السيد رشيد في العالم الإسلامي:

إن السيد رشيد بما نشر من تفسير القرآن الكريم على صفحات المنار وما كتب في المنار وغير المنار، هو الذي جلّى الإسلام بصفاته الحقيقية للمسلمين وغير المسلمين، وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القران، وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أباههم يده إلا أخذ بجنايته، فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية بياناً ودفاعاً ؛ كلها من اثاره فرحمه الله وجزاه أفضل ما يجزي العاملين(1).

د . وفاة الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعي:

قال ابن باديس: ما كاد يندمل جرح العالم الإسلامي بوفاة حجة الإسلام السيد رشيد رضا حتى فجع بوفاة مفتي الإسلام الشيخ محمد بخيت المطيعي في رجب الماضي، ونحن نكتب اليوم كلمة عن فضيلته كما كتبنا من قبل عن السيد رشيد رضا وما كان قلمُنا القاصر ليوفي واحداً منهما حقه.

. منزلته العلمية:

نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى سنة 1293هـ وتصدى لخدمة العلم والإزدياد منه بالتدريس بجد منقطع النظير ومداومة ليس فيها فتور، فكان علماً في سائر العلوم الأزهرية، وكان ممتازاً بين كبراء الأزهر بتحقيق الأصلين علم الكلام وأصول الفقه، وكان بسعة علمه وقوة إدراكه وتمييزه يرفع الخلاف في كثير من أمهات المسائل، ويبين أن الخلاف فيها لفظي وأن أصل المسألة محل اتفاق.

. منزلته في القضاء والفتوى:

دُعي إلى الاشتغال بالقضاء فتقلد وظائفه، وتنقل بينه وبين الفتوى حتى بلغ أعلى درجاتهما، فلما بلغ سن التقاعد تفرغ للإفتاء العلمي، فكانت ترد عليه الأسئلة من جميع أقطار العالم الإسلامي فيجيب عنها.

---

(1) المصدر نفسه (4 / 209).

وكان له كتّاب يتولون له كتابة ما يحرره ويمليه ويرسلونه إلى السائلين وينفق هو على ذلك كله من خالص ماله.

. موقفه من الإصلاح الديني:

كان زميلاً للشيخ محمد عبده في الطلب وهو الوحيد من شيوخ الأزهر الذي كان يساميه وينال معه حظاً من الشهرة خارج مصر، وكان ـ على معارضته له في نواح ـ يؤيده في إنكار البدع والمحدثات في الدين[1].

. إنصافه للأستاذ الإمام وشهادته له:

لما رمى بعض حساد الشيخ عبده أيام تصديه لأخذ شهادة العالمية بالتهاون بالصلاة ؛ شهد له الشيخ محمد بخيت عند مشيخة الأزهر فقال: إننا دائماً نقدمه فيؤمنا في صلاة الجماعة لتقواه وصلاحه.

ولما عقدت أول حفلة لذكرى الشيخ محمد عبده وكانت يوم الثلاثاء 16 ذي القعدة 1340هـ بالجامعة المصرية، كانت تحت رئاسة الشيخ محمد بخيت، فخطب في تلك اللحظة ومن جملة ما قال عن الأستاذ الإمام: ترك فراغاً عظيماً كان يشغله وحده، لم يستطع أحد أن يشغله بعده، فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة والنفوس الكبيرة[2].

علاقتي به:

لما رجعت من المدينة المنورة على ساكنها واله الصلاة والسلام سنة 1332هـ، جئت من عند شيخنا العلاّمة الشيخ حمدان الونيسي المهاجر إلى طيبة والمدفون بها رحمه الله، جئت من عنده بكتاب إلى الشيخ بخيت، وكان قد عرفه بالإسكندرية لما مر بها مهاجراً، فعرجت على القاهرة وزرت الشيخ بخيت بداره بحلوان، مع صديقي الأستاذ إسماعيل جغر المدرس اليوم بالأزهر. فلما قدمت له كتاب شيخنا حمدان قال لي: «ذاك

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 212).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 212).

رجل عظيم»، وكتب لي إجازة في دفتر إجازاتي بخط يده رحمه الله وجازاه عنا وعن العلم والدين خير ما يجزى العاملين الناصحين[1].

4. النقل عن الصحف الإسلامية المشرقية:

كانت مجلة الشهاب تتلقى العديد من الصحف الإسلامية، فتنقل عنها ما تراه مناسباً لنشر الوعي الإسلامي، وتبصرة القارئ الجزائري بقضايا أمته ودينه. ولننقل فيما يلي نماذج من هذه الصحف:

ـ عن مجلة «صدى الشبان المسلمين» بالبصرة «العراق» محاضرة بعنوان «أسباب تحامل أوروبا على الإسلام» للبارون النمساوي عمر افرنهلز ألقاها في الكلية الإسلامية بالهند جاء فيها: أما المانع الاخر في سبيل انتشار الإسلام هناك فنجده في التحامل والتعصب، إن المسألة مسألة جمود نفساني، فقد خلق الكفاح السياسي القديم بين المسلمين والمسيحيين من النفور جواً من الأغلاط وسوء التفاهم، ومن النفور والعداوة، بل من الزور والبهتان والقذف الظالم في حق الإسلام ونبيه الكريم (ص)[2].

. ونقلت الشهاب مقالاً عن مجلة «الكفاح العراقية» من عددها الممتاز في ذي الحجة 1357هـ / يناير 1939م بعنوان: لن يصلح شأن الأمم الإسلامية حتى يوجهوا سياستهم شطر الإسلام جاء فيه: مادامت الشعوب الإسلامية الان وزعماؤها وقادتها لا يفكرون إلا في مصادقة الدول الأجنبية ومحاكاتها وتقليدها والاندماج في أوضاعها ؛ فلن تقوم للشعوب الإسلامية قائمة.. ولن يرجع لهم عزّ ولا يبلغون مجداً. فجعل زعماء السياسة في العالم الإسلامي لهذا العهد لم يدرسوا الإسلام دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية، إنما هم كلهم أبناء مدرسة السياسة الأوروبية المبنية على أنقاض القرون المسيحية الوسطى في أوروبا. وقد كانت الكنيسة إذ ذاك العدو اللدود للسياسة والعلم فنشؤوا هم أشد عداوة لها وجرّوا في سبيل عداوة المسيحية عداوة

(1) المصدر نفسه (4 / 212).

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 132.

كل دين بلا تمييز في طبائع الأديان، وطغت العناية بتاريخ أوروبا على العناية بتاريخ الشرق ودينه ومجده، حتى إن الطبقات الراقية المتعلمة من الأمم الشرقية الإسلامية لا تكاد تعرف عن تاريخ الإسلام ولا عن تاريخ بلادها في عهد النهضة شيئاً يذكر(1).

. وعن مجلة الرابطة العربية حول دعوة العلماء إلى قيام مجمع فقهي إسلامي قالت المجلة: ولقد دعا العلماء في مختلف العصور إلى وجوب توحيد المذاهب والتوفيق بين العقائد، فلم تصادف دعوتهم نجاحاً لأنها كانت دعوة فردية جاءت في عصور الجمود والخمول. وفي هذه السنة وجّه الأستاذ الجليل عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مثل هذه الدعوة إلى فضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر وقام فضيلته بدوره فأخذ اراء كبار العلماء في العالم الإسلامي(2).

ثالثاً: أسس قيام الدولة العربية الموحدة:

لم يكن ابن باديس أول من آثار فكر قيام الدولة العربية الموحدة، فقد أثارها من قديم بعض فلاسفة الإسلام الأوائل أمثال الكندي والفارابي ثم ابن خلدون، كما أثارها في أواخر القرن التاسع عشر رجال الإصلاح الديني والسياسي أمثال الكواكبي والأفغاني، وبعدهم جاء ابن باديس في تفسيره ومقالاته ليحدد أسس قيام هذه الدولة وعوامل بناء الحضارات وأسباب انهيارها، كما حدد الأطر السياسية والجغرافية والسكانية للدولة العربية الموحدة، وأثر المقومات اللغوية والدينية والقومية في تفاعل هذه الأطر وتكوين الإطار المرجعي لهذه الدولة.

وبرغم الملامح المثالية في التصور الباديسي والأمل الواعد في تحقيق هذه الدولة، فقد حاول في واقعية تقديم تصور لما ينبغي أن يكون عليه المجتمع العربي بالفعل، مؤكداً على أن في استقراء التاريخ والواقع بإمكاناته

(1) المصدر نفسه ص 134.

(2) المصدر نفسه ص 134.

ومتغيراته دليل على إمكان تحقق هذه الدولة التي تحكمها مجموعة من الأسس والأطر الأخلاقية والدينية والاجتماعية والجغرافية الواحدة وهي:

1. الإطار الخلقي:

ويتمثل في ضرورة الالتزام بالقانون الذي يساوي ويؤاخي بين الجميع في كل شيء في إطار عام من الحق والعدالة، وفي الثواب والعقاب وفي العمل والتفكير، وحتى في مجال التضحية من أجل بناء وبقاء الدولة ووحدتها وحمايتها، وقد عبر عن ذلك ابن باديس بقوله: الحياة تشترى بالأرواح والأبدان، ذلك هو الثمن، ومن دفع الثمن فمن الحق والعدل أن يأخذ المثمن، وعلى مبدأ الحق والعدل يكون حق الأفراد في التمثيل البرلماني وفي جميع المجالس الإقليمية، وتوحيد النيابة البرلمانية والمشاركة في الانتخابات وحرية التعبير والمساواة في كل شيء، بما فيها الحقوق المدنية والسياسية، وهكذا تكون المؤاخاة الحقيقية والتي لا تكون إلا عندما يشعر الإنسان بأنه لا مغموط الحق ولا مهضوم الجانب من صاحبه[1].

2. الإطار الجغرافي والسكاني:

ويصف ابن باديس التفاعل السكاني في هذه الدولة بقوله:

فالجليل والكبير له مكانه، والصغير والحقير له مكانه، وعلى كل مواطن أن يسد الثغرة التي من ناحيته مع شعوره بارتباطه مع غيره من جميع أجزاء البنيان التي لا غناء لها عنه، كما لا غناء له عن كل واحد منها، فكل واحد من المؤمنين عليه تبعه بمقدار المركز الذي هو فيه والقدرة التي عنده، ولا يجوز لأحد وإن كان أحقر حقير أن يخل بواجبه في ناحيته، فإنه إذا أزيل حجر، صغير من بنيان كبير دخل فيه الخلل بمقدار ما أزيل، وإذا بدأ الخلل من الصغير تطرق الكبير[2].

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 122).

(2) المصدر نفسه (2 / 122).

3. الإطار الاجتماعي:

يرى ابن باديس أن يؤسس الإطار الاجتماعي للدولة على أساس التعاون والمشاركة، ويقول: إن الدولة العربية الواحدة لا بد أن يكون قوامها العمل والإنتاج والنظام، وأن تكون كل مدينة من مدنها هي مدينة الشعب العامل، إذ العمل طريق التغيير والإنتاج، وبه يكون التطور والبناء والنهضة وفق الشعار الدائم، فاعمل وداوم على العمل، وحافظ على النظام، فالعمل ما هو إلا خطوة ووثبة وراءها خطوات وثبات، وبعدها إما الحياة وأما الممات.

4. الإطار الديني:

ويتمثل في الالتزام بالواجبات والتكاليف وبما في الدين من نصح وإرشاد وعلم وبصيرة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، ولكي يصبح الدين من أهم أسس بناء الدولة الموحدة دعا ابن باديس إلى:

ـ ضرورة التمسك بالإسلام الذاتي، أي الإسلام علحقيقته الذي يقوم على الفهم والإدراك للعقائد والأخلاق والاداب الإسلامية والأعمال، شريطة أن يبني ذلك كله على الفكر والنظر ليحيا حياة فكر وإيمان وعمل[1].

ـ ضرورة الالتزام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الأمة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب على يد سفهائها وأهل الفساد منها، وتهجرهم وتنبذهم من مجتمعهم من الشرور والبلايا، وتقل أو تنعدم منها المفاسد والمنكرات، أما الأمة التي تسكت عن سفهائها وأهل الشر من كبرائها وتدعهم يتجاهرون فيها بالفواحش والقبائح هي أمة هالكة متحملة جريرة المجاهرة بالمعاصي[2].

ـ ضرورة التمسك بتعاليم الدين الداعية إلى العلم والثقافة والأدب لأن هذه التعاليم بمثابة الغذاء الذي يحتاجه الجسم، فكما أن الأبدان تحتاج إلى الغذاء كذلك الدول في حاجة إلى غذاء من الأدب والرقي والعلم

(1) المصدر نفسه (2 / 124).
(2) المصدر نفسه (2 / 124).

الصحيح، ولا يستقيم سلوك أمة حتى تنقطع الرزيلة من طبقاتها، وتنتشر الفضيلة بينهم ؛ إلا إذا تغذت عقول أبنائها بهذا الغذاء النفيس[1].

- ضرورة الانتباه إلى ما في الدين من قوة عظيمة لا يستهان بها، وقوة معنوية نلتجأئأ إليها في تهذيب أخلاقنا، وقتل روح الإغارة والفساد والجرائم فينا، ودور كبير في تسيير أمور الدولة وسياستها، ومن ثم فالدولة التي تتجاهل دين الشعب تسيء في سياسته وتجلب عليه وعليها الأضرار والأتعاب والفتن[2].

5. الإطار السياسي:

ويشرح ابن باديس مفهوم السياسة الحكيمة التي تقوم عليها الدولة وعمادها العلم والدين، فيقول: إن العلم هو وسيلة المعرفة لحقيقة الأوضاع السياسية والإجتماعية في الدولة، وهو السبيل ليعرف العرب والمسلمون أنهم المتسببون فيما هم فيه، ووجب عليهم ألا يحملوا مسؤولية ذلك إلى غيرهم أو إلى الأقدار، فهناك أسباب لكل شيء، وهذه السببية يتم معرفتها بالعلم.. فالسياسة الحكيمة تؤكد على أن العلم وكذلك الدين لا ينهض حق النهوض إلا إذا نهضت السياسة بحق، وعلى ذلك وجب على الدولة أن تلتزم في سياستها بقوانين العلم وحدود الإيمان معاً، وأن العلم في هذه الدولة مهمته خلق الوعي وتنبيه الأذهان إلى المشكلات التي تعترض كلاً من الدولة والأفراد وكيفية حل هذه المشكلات، كما أن على العلم تقع مسؤولية توجيه السياسة لهذه الدولة[3].

والسياسة الحكيمة عند ابن باديس تعتمد على أسس وأهداف ثلاثة: هي التعاون على الخير، ثم السعي لتحقيق السعادة، ثم نشر السلام. وذلك لأن الدولة العربية الإسلامية الموحدة هي دولة إنسانية ودينها هو دين الإنسانية العام الذي لم ينزل للعرب وحدهم، بل نزل لبني الإنسان كافة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ} [سبأ : 28]. وقال: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ *} [الأنبياء : 107].

---

(1) المصدر نفسه (2 / 125).

(2) المصدر نفسه.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (2 / 88) (3 / 565).

ومن أجل تطبيق هذا المبدأ عملياً كان ابن باديس يؤكد موقفه العملي المتمثل في:

ـ أصر على وجود العلماء في المجالس النيابية، اعتقاداً منه بأن السياسة ستكون في نظر هؤلاء العلماء المشاركين هي التفكير والعمل والوطنية.

. ضرورة أخذ العلم عن كل أمة وبأي لسان، واقتباس كل ما هو مفيد مما عند غيرنا، ومد اليد إلى كل من يريد التعاون على الخير والسعادة والسلام.

. ضرورة أن تؤسس السياسة على العلم، لأن السياسة بلا علم هي مجرد فكر نظري لا يفيد، وأن السياسة مع العلم تكون كالتربية والتعليم وسيلة إصلاحية فعالة.

ـ رفض ما دعا إليه الإمام محمد عبده من ضرورة فصل الدين عن الدولة والسياسة، على اعتبار أن السياسة لحقت بالعقائد الدينية حين تغلغلت فيها الأهواء السياسية فأورثت شقاقاً وخلافاً. أما ابن باديس فقد رفض هذا الفصل وأصر على إشتراك السياسة مع الدين في بناء الدولة الموحدة، وخاصة إذا كان هذا الاشتراك بأسلوب علمي يوقظ الوعي ويحرك الهمم والعزائم، ويحقق للأمة النهضة، ويساعدها في التغلب على العقبات وفي مقدمتها عوامل التفريق بين الداخل والخارج.

. وأن العلم الذي يوجه السياسة والأمة هو العلم بالأسباب، إنه العلم الذي يبني الأمم ويكون الحضارات، وبه يجعل الله من الأمة الضعيفة أمة قوية عندما تأخذ بأسباب العلم والمدنية، وتضعف الأمة عندما تبتعد عن تلك الأسباب.

ويؤكد ابن باديس أن تلك سنة كونية ثابتة وأن من سنن الله في كونه أن يعلم هذا العالم الإنسان ما لم يكن يعلم، كإخراج الضد من الضد، وإخراج الحي من الميت، وإنقاذ الأمة الضعيفة التي لا تملك شيئاً من وسائل القوة الروحية ولا من وسائل القوة المادية، فتلك سنة ثابتة ولا تختلف باختلاف الأمم ولا تتبدل على الأجيال(1).

(1) جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي ص 120 إلى 121.

رابعاً: خصائص الدولة العربية الموحدة:

حدد ابن باديس تلك المميزات والخصائص، وكيفية المحافظة عليها في مقال بمجلة الشهاب جاء فيه: إن من الطبيعة العربية الخالصة أنها لا تخضع للأجنبي في شيء، لا في لغتها ولا في شيء من مقوماتها، ولذلك نرى القرآن الكريم يذكرها بالشرف، ليفهم العرب السر والحكمة في اختيار الله لهم للنهوض بهذه الرسالة لإنقاذ العالم مما كان فيه من شر وباطل، وأن تظهر دين الله على الدين كله، وأن هذه الدولة غير متعصبة، لأن قوامها الوحدة والاعتصام والوطنية الإسلامية التي تمزج بين العروبة والإسلام، ولا تنكر الوطنيات الأخرى، ولا تتنكر للدائرة الأكبر إذ الوطنية الإسلامية العادلة هي التي تحافظ على الأسرة بجميع مقوماتها وتحترم الإنسانية في جميع أجناسها[1].

ويضيف ابن باديس إلى هذه الخصائص القومية والوطنية عدة خصائص أخلاقية وعلمية واجتماعية ويؤيدها بأدلة عقلية ونقلية، ومن هذه الخصائص:

1. دولة فاضلة:

لأنها تقوم على فضائل الأخلاق الدينية، ومنها التعاون والتفاهم والعدل والإحسان، وأن هذه الدولة الفاضلة هي النموذج العالي للدولة العربية الإسلامية، عندما تحاكي الأصول التي نفذها الخلفاء الأوائل وفي مقدمتهم أبو بكر الصديق، وأن هذا النموذج لم تستطع الكثير من الدول الحديثة أن تصل إلى مستواها، أو تتمكن من تنفيذ نموذجها، لأن الأحكام التي سار عليها أبو بكر لم تكن من تفكيره الخاص، أو اجتهاده الشخصي فحسب، بل كان يستمد أحكامه من أصول الدين وأوامر الله الحكيم الخبير، وهي الأصول التي لا نجاة للعالم اليوم إلا بها[2].

2. دولة تعاون ومشاركة:

يشير ابن باديس إلى أهمية هذه الخاصية من الناحية الاجتماعية والخلقية بقوله: إنه بتطبيق أخلاق الدين

(1) مجلة الشهاب د7 م13 عام 1937م ص 141.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 282. 288).

في التعاون والمشاركة سيكون إصلاح حالهم ومالهم، ويتم تنوير عقولهم وتزكية نفوسهم، وتصحيح عقائدهم وتقويم أعمالهم، وتكمل الإنسانية وينظم الاجتماع ويشيد العمران ويقام ميزان العدل وينتشر الإحسان[1].

3. دولة علم ومدنية:

لأن العلم هو أساس قيام الدول وأصل بقائها، وأن بالعلم تتقدم الدول، ويستمر تقدمها باستمرار العلم وتطور المعرفة، كما تنحط الدولة بإنحطاط العلم.. ودليل ابن باديس على ذلك أنه كلما يتطور العلم تتقدم الدولة بتطور مكتشفات العلم، وأن المتكشفات عندما تضم إلى المعلومات فتكثر المعلومات ويكثر ما يتبعها من المكتشفات على نسبة كثرتها، ويكون كل قرن . ما دام التفكير مستمراً . أكثر معلومات، ومكتشفات من الذي قبله. فإذا قلّت معلوماته قلّ اكتشافاته. وهذا كما كان النوع الإنساني في أطواره الأولى، وإذا كثرت معلوماته وأهمل النظر فيها، بقي حيث هو جامداً، ثم لا يلبث أن يتلاشى من ذهنه تلك المعلومات المهملة حتى تقل وتضمحل ؛ لأن المعلومات إذا لم تتعاهد بالنظر زالت من الحافظة شيئاً فشيئاً، وعلى ذلك يقل العلم وينتشر الجهل والفوضى بجميع أنواعها، وهذا هو طور انحطاط الأمم الانحطاط التام، وذلك عندما يرتفع العلم، ويفشو الجهل، وتنتشر الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوساء جهالاً لأمور دينها ودنياها، فيتعهدونها بغير علم، فيضلون ويضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون[2].

ويستشهد ابن باديس على أهمية العلم والمدنية في بناء الدولة والحضارة بأدلة تاريخية من القرآن الكريم، وهي تلك الدول والحضارات التي أقامها العرب من قديم، مثل أمة عاد وثمود وسبأ التي كانت باليمن، ويرى أن من قيام هذه الدول وتطورها ونهضتها وانحطاطها واندثارها لعبرة بالغة، ففي أخذها بأسباب العلم والمدنية

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 342).

(2) تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص 657 . 661.

والإيمان وصدق الاعتقاد كان نجاحها ونجاتها من العذاب، وعندما بعدت عن أسباب العلم والإيمان واقترفت الكفر والشرك كان هلاكها، وهذا ما يثبته القرآن في غير ما اية، منها قوله تعالى: {وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا} [الكهف : 59].

وقوله تعالى: {إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ *} [يونس : 98].

فتلك أدلة نقلية وعقلية تؤكد أثر الإيمان والأخذ بالأسباب، وأن في استقامة الإنسان نجاحه وفي فساده هلاكه.

وقد تعرض ابن باديس بتفصيل هذه الأدلة في تفسيره وفي محاضرته التي ألقاها بنادي الترقي بالعاصمة الجزائرية في إبريل 1939م.

وجي فيها قوله: قد ربط الله بين الأسباب ومسبباتها خلقاً وقدراً بمشيئته وحكمته، لتهتدي بالأسباب إلى مسبباتها وتتجنبها باجتناب أسبابها، فإن بطلان السبب تقتضي بطلان المسبب، ولذا فإن الأمة التي أقلعت عن أسباب العذاب ارتفع عنها كما في قوله تعالى: {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا} [يونس : 98].

وكما في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ} [الأعراف : 96].

فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد من حالتنا هذه لأننا إذا التزمناهما نكون قد أقلعنا عن أسباب العذاب[1].

خامساً: وظائف الدولة العربية الموحدة:

إذا رجعنا إلى تفسير ابن باديس المسمى بمجالس التذكير، وتفسيره للأحاديث في هدى النبوة، ومقالاته في العروبة والوطنية ؛ تراه يحدد وظائف الدولة العربية الموحدة والأهداف العامة للدولة ؛ من حفظ للنظام،

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 130).

وتحقيق للحرية والعدالة والاستقلال، وحفظ للأموال وتحقيق للأمن والأمان، وتنمية للقوى الابتكارية للفرد، وتحقيق للتقدم والحضارة. ويمكن تفصيل هذه الوظائف كالتالي:

1 . امتلاك وسائل القوة لتحقيق العدل:

وفي ذلك يقول ابن باديس: لا بد لكل أمة تسود وتقوى من بطش، ولكن البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافاً وقصاصاً وإقامة لقسطاس العدل بين الناس، وفيه ما هو بطش الجبارين المنهي عنه، وقد دعت الآيات والأحاديث العديدة إلى امتلاك وسائل القوة والسيادة لبناء الدولة القوية التي ستمتلك البحار وتغزو الأمصار الكبار، وينبه القرآن والحديث إلى ذلك لتستعد الأمة لهذا الهدف وتأخذ له طريقه ولتتوصل إليه بأسبابه إذ لا يكون إلا بأسباب الملك ولا تكون قوة إلا بأسباب السيادة[1].

2 . السعي لتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي:

ففي ظل الأمن تكون الحياة المطمئنة للجميع، فلا يخاف الفرد حاضراً أو مستقبلاً، وإنه في ظل هذا الأمان الذي توفره الدولة القوية يتحقق الابتكار المنتج، بخلق الفرص التي تكفل ممارسة تطبيق هذا الابتكار بما يعود على المجتمع بالنفع[2].

ولتحقيق ذلك لا بد من السعي لامتلاك وسائل السيادة وتشجيع الابتكار الفردي والجماعي، وتحقيق ما يسمى بالرقابة المركزية في إطار عام محدد هو العنصر الديني، لأن الإيمان بوصفه أهم عناصر قوة الدولة هو سياج الأمان والشكر والفضيلة والعدل.. والدولة بدون هذه الوسائل وتوفيرها هي مجتمع فوضوي، وكل مدينة لم تحصن بهؤلاء فمصيرها الخراب[3].

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 131).

(2) من هدي النبوة، ابن باديس ص 100، 101.

(3) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 68. 74).

3 . حفظ الأموال باحترام الملكية:

فتلك وظيفة الدولة التي أشار إليها القرآن في آيات عديدة وفي قوله تعالى: {وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً *وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً *} [الإسراء : 34 . 35].

ففي ذلك إشارة إلى أهمية المحافظة على المال كملكية خاصة وعامل من عوامل البناء والقوة للفرد والدولة، وهو داخل في نسيج القوى الأخرى اللازمة لتنفيذ الأعمال كالقوة الذاتية والقوة الدينية والقوة العقلية وغيرها.

4 . المحافظة على التراث ومكوناته:

إن ابن باديس كانت مواقفه كمصلح وصاحب حكمة واضحة في الدعوة إلى الإصلاح الشامل، وتخليص المجتمع العربي من التقاليد الزائفة والأفكار البالية التي غرستها عهود الاستعباد والإقطاع والجهل، ولهذا فالإنسان العربي في حاجة ماسة إلى أفكار وتقاليد جديدة تتفق وظروفه الجديدة، وليساير التقدم العلمي، وأن ذلك لا يتعارض مع ضرورة التمسك بالتراث الإسلامي الصحيح والمحافظة عليه لأن ذلك من أهم مقومات الشخصية العربية، فالدين بتراثه له الدور الفعال في جمع شمل هذه الأمة ونهضتها، وحتى يحيا الإنسان العربي بإسلامه الذاتي والوراثي وما به من أحكام وعقائد وقيم وأخلاق ؛ يحيا حياة فكر وعمل[1].

5 . السعي لتحقيق الحرية والاستقلال والمحافظة عليهما:

لأن الوجود الحقيقي للدولة لا يكون إلا بحريتها واستقلالها والمحافظة عليها ومقاومة أعدائها، ولكي تتحقق هذه الوظيفة في الدولة العربية الموحدة رأى ابن باديس ضرورة تحرر واستقلال جميع الشعوب العربية، وأن تقاوم الدول العربية كل مستعمر وكل عامل من عوامل التخلف والجهل والرجعية، لأن الشعب الحر هو

(1) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 60.

مصدر القوة الدائمة والمحرك الطبيعي لكل إصلاح، وأن الحرية والاستقلال شرط كل تقدم وكل بناء، وهي الشرط الضروري لإتمام الإتحاد بين أي قطر عربي واخر إلى جانب عوامل الوحدة الأدبية والاجتماعية، وهي شرط ضروري لقيام الدولة ونجاح سياستها، لأن السياسة الدولية هي من شأن الأمم المستقلة وأن الحرية والاستقلال لا يكونا إلا من خلال موقف سياسي يتمكن من حل العديد من المشكلات، ويواجه كل القوى التي تحد من حرية الفرد والمجموع(1).

ولأن هذه الحرية وظيفة وغاية ووسيلة ؛ كان موقف ابن باديس العملي من أجل حرية وطنه واستقلاله، ورفضه لدعوات الاندماج والفرنسة والاستسلام، ودعوته إلى جميع أشكال الحرية، فكانت دعوته لحرية الدين والتعليم وحرية الصحافة، كما كانت دعوته إلى تحرير فلسطين ومساعدة اللاجئين، ورفض التقسيم لذلك القطر العربي الشقيق الذي ضمنت له العهود والمواثيق الدولية حفظ كيانه واستقلاله، مقرراً أن ذلك التقسيم هو اعتداء على جميع الشعوب العربية والإسلامية، وأن بناء الدولة العربية الموحدة ضرورة، وأنها لو قامت لما كان هناك وجود للاستعمار في الشرق، ولما كانت هناك مشكلة فلسطيني(2).

سادساً: عوامل قيام الدولة وبناء الحضارة:

اهتم ابن باديس في تصوره للدولة الحديثة بإبراز عوامل البناء والهدم، وأطوار تطور الأمم والمراحل التي تمر بها وأسباب تقدمها وعوامل انهيارها.

وقد استعرض هذه الأطوار من خلال تفسيره للايات القرآنية التي تعرضت لتطور الحياة والكون والإنسان وواقع الأمم الماضية والحاضرة ومن هذه الآيات قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا *} [الإسراء : 59].

وفي تفسيره لهذه الآية ربط ابن باديس بين أطوار الأمم وتطورها وبين أطوار الإنسان ومراحل نموه، مشيراً

(1) ابن باديس: حياته وآثاره (2 / 411) (3 / 221).

(2) البصائر العدد 31 أغسطس 1937م.

إلى العلاقة الوثيقة بين الإنسان والدولة في حالة قوتها وضعفها ويقول: إن الأمم كالأفراد تمر عليها ثلاثة أطوار هي: طور الشباب وطور الكهولة وطور الهرم.

أما **الطور الأول** فيمثل نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، وفيه تكون مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة.

والطور الثاني: ويشمل ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان، إلى استكمال قوتها وبلوغها ما كان لها أن تبلغه من ذلك بما كان فيها من مواهب، وما كان لها من إستعداد وما لديها من أسباب.

أما **الطور الثالث**، فيشمل ابتداءها في التقهقر والانحلال إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال ؛ إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها في عالم السيادة والاستقلال. وهذه الأطوار الثلاثة قانون كوني عام لجميع الأمم، فما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر، كما تختلف الأعمار.. وأن طور الهلاك هذا إنما يتحقق بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة على الأمم ؛ وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم، فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم[1].

ولتفصيل هذه الأطوار وانعكاسها على الإنسان والمجتمع اهتم ابن باديس بتحديد عوامل قيام الدولة وأسباب انهيارها: وأما عوامل قيام الدولة وبناء الحضارة فهي:

1 . امتلاك واستكمال وسائل البناء والتعمير، وذلك بامتلاك وسائل القوة تمهيداً للدخول في الطور الأول من أطوار الحضارة وهو طور المدنية.

ويؤكد ابن باديس ذلك بقوله: إن وسائل البناء والتعمير هي وسائل قيام الحضارات وإن آية أمة لا تعمر الأرض إلا إذا ملكت وسائل التعمير، وهي كثيرة ومجموعها هو ما نسميه بالحضارة أو المدنية، كالحضارة

(1) ابن باديس: تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ص 189، 191، 661.

المادية وفنونها كالزراعة والصناعة والتجارة وما يستلزمها من علم بحال الأرض وطبائعها.

أو في القوة البدنية التي ترى في القدرة على النحت كما في الحضارة الرومانية[1].

2 . امتلاك وسائل العلم والتعليم، لأن العلم في مقدمة القوى البناءة في صرح الحضارة والمدنية، وهو قوة ناتجة عن اندماج القوة الروحية والإيمان والفكر الواضح السليم، وهذا العلم هو الذي يحصن المدنية تماماً مثل عروق البدن، ومن ثم تكون العلوم كعوامل بناء الجسم الإنساني، والتي تظهر انعكاساتها في صلاح النفس البشرية وتحسين الأوضاع الاجتماعية.

ويصف ابن باديس كيفية امتلاك هذه الوسائل وأثرها في النهضة والحضارة حين يقول: إن بناء الحضارة لا يتم بالفكر اليدوي وحده، بل بالعمل اليدوي الذي يتوقف على علوم كثيرة كالهندسة، والهندسة تتوقف ثمرتها على علوم أخرى كثيرة، وعلوم العمران، كعروق البدن يمد بعضها بعضاً، فهي مترابطة متماسكة متلاحمة[2].

3 . الالتزام بسياسة امتلاك القلوب وتنوير العقول ووحدتها، ويبين ابن باديس أثر هذا العمل في بناء الدولة والحضارة وكيفية توجيهه نحو الحق والخير والرحمة والعدل، فيقول: إن الله قد جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة، والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية، سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة والتمكن من الوصول لخير الإنسانية، وأن حرية الفرد لازمة له لممارسة حقوقه في العمل والإنتاج وتكوين العلاقات وإحداث الانسجام المطلوب للوحدة الوطنية، ولأن حرية الأفراد واجتماعهم ووحدتهم تشكل واحدة من أسباب قوة الدولة التي بها يكون التمكن والبقاء، ثم الاستمرار، وهي غير الحقوق المادية الالية التي يكون فيها البطش والتي لا يدوم لها سلطان[3].

(1) ابن باديس حياته وآثاره (4 / 70 . 73).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 375).

(3) التفسير في مجالس التذكير ص 661 . 668.

4 . امتلاك وسائل الإعداد والاستعداد للقوة: من أجل الدفاع وتطبيق الأحكام، وفي مقدمة هذه الوسائل الالتزام بالقانون، على اعتبار أن قوة القانون من القوى التي يجب على الدولة امتلاكها لأنها من أهم وسائل حفظ الدولة وبقائها، ويرى ابن باديس أن القانون للدولة التي تريد بناء حضارتها بمثابة العقل الذي لا تغلّه التقاليد ولا تقيده حماقة النفس البشرية، ويكون له دوره الفاعل والمثمر عند الالتزام به وتطبيقه، وبه يحدث الانسجام ويتحقق الاستقرار والعدالة، ويؤثر أثره في الفرد والجماعة، إذ القانون هو القوة العادلة التي يكون بها تنظيم الصفوف ورفع الظلم، وإصلاح نظام الحكم ومحاربة الفساد، والإسراف لا بقوة الجبارين، بل بقوة العقل والعلم والقانون(1).

5 . الالتزام بعوامل الوحدة والاعتصام ونبذ عوامل التحزب والتعصب، لأن القوة مع الاتحاد والضعف مع التشتت والانقسام، ومن عوامل الوحدة التي بينها ابن باديس:

التمسك بما في الدين من نصح وإرشاد وعلم وبصيرة ودعوة إلى الاعتصام والاتحاد، وضرورة التمسك بدوافع القومية والشخصية، والحفاظ على مقومات الشعب البناءة كالجنسية ووحدة اللغة والدم والمصير ووحدة العقيدة، وغيرها من المقومات التي ينشأ عنها الشعور المشترك بين الفرد وبين من يشاركه هذه المقومات والمميزات.

وأن الالتزام بهذه العوامل والمقومات من الواجبات التي أمرنا بها كما في:

. قوله تعالى: {وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ} [الأنفال : 46].

. وقوله تعالى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} [النساء : 59].

. ويؤكد ابن باديس على أن تلك عوامل القوة والوحدة والاعتصام التي تطرح بها جميع المفرقات بين

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (1 / 136).

المذاهب والمشارب، ويترسخ الاعتقاد بأن الاتحاد واجب محتم على جميع المؤمنين، لأن فيه القوة والحياة وفي تركه الضعف والممات[1].

6 . السعي لتحقيق الوحدة الفكرية وتعميق أسس الأخوة والكمال الإنساني، وفي هذا الإطار كانت دعوة ابن باديس إلى الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية وضرورة تمسك الشعب الجزائري والعربي بقوميته وعروبته وديانته، ورفض كل رأي أو مذهب يضر ولا يتفق مع عروبته وديانته، مؤكداً على أن المؤمنين باتحادهم في دولة واحدة تكون لهم قوة، وكل واحد فيهم بمفرده يمكن قهره، أما مع اتحادهم فإنهم يكونون في مأمن من كل قهر، وأن التمسك بمقومات الوحدة الفكرية والقومية في الأمة من الأشياء الغريزية، وأن المحافظة عليها والاعتزاز بها مما جبل عليه الناس كما جبلوا على حب البقاء، ولكن قد يطرأ عل بعضهم سوء ظن فيهما نتيجة لجهل أو ضعف، فيتخلى عنهما فيكون ذلك التخلي نذير الفناء[2].

7 . تحقيق البناء الاجتماعي السليم: وهو الذي يبدأ من الأسرة المتماسكة السليمة واتحاد عنصري الأمة وتعاونهما، وهما الرجل والمرأة، وتحقيق الوحدة والوئام الاجتماعي في ظل الارتباط برباط الجنسية السياسية أو ظروف المصلحة المشتركة بين الشعوب العربية، واستجابة لدعوة التعاون والمشاركة في الحديث النبوي:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، فعلى البناء الاجتماعي السليم وتعاون الرجل والمرأة تقوم الحياة ويتوقف العمران.

ـ تدعيم اللغة المشتركة بين عناصر الأمة وشعوبها، لأن اللغة من أهم عوامل وحدة الدولة وقوتها، ويدلل ابن باديس على صدق ذلك بعدة أدلة عقلية ونقلية منها:

. أن الدولة يمكن أن تقوم رغم اختلاف أجناس وأعراق مواطنيها، أما إذا كانت هناك لغة مشتركة واحدة فهناك إذن دولة واحدة.

(1) ابن باديس: حياته وآثاره (2 / 157).

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 138).

ـ أنه لا تكاد تخلص أمة من الأمم لعرق واحد، وتكاد لا تكون أمة من الأمم لا تتكلم بلسان واحد، فليس الذي يكوّن الأمة ويربط أجزاءها ويوحد شعورها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة، وإنما الذي يفعل ذلك هو تكلمها بلسان واحد.

. أن اللغة الواحدة لها أثرها الفعال في بناء الدولة ووحدتها، لأنها العامل الأول في توحيد العقول والقلوب والرابطة القوية لجميع الأفراد.

. أن هناك فرق كبير بين عامل الدم وعامل اللغة في توحيد الأمم، بدليل نقلي هو قول النبي (ص): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالسهر والحمى».. ودليل عقلي هو: أنك إذا وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر وتباين قصد وتباعد تفكير، ثم وضعت شامياً وجزائرياً ينطقان باللسان العربي، لرأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب في ذلك كله... لو فعلت هذا لأدركت بالمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم، فاللغة إذن هي الأصل في الاتحاد، وإيجاد الوحدة الوطنية التي تكون عندما يكون الوطن متحداً غاية الاتحاد، ممتزجاً غاية الامتزاج، ولا يمكن الافتراق بعد امتزاج واتحاد الفؤاد واللسان[1].

. أن الدولة الموحدة بناء متكامل، فيه يتحول الأفراد إلى إنسان واحد وتتحول الشعوب إلى شعب واحد لامتزاج العقل والقلب والروح، وليس تكوّن الأمة متوقفاً على اتحاد دمها، ولكنه متوقف على اتحاد قلبها وروحها وعقولها اتحاداً يظهر في وحدة اللسان وادابه واشتراك الالام والامال، وعلى هذه الوحدة الأدبية يجب أن تؤسس الدولة العربية، كما تأسست منذ فجر التاريخ، فاللغة العربية التي تنطق بها وتتغذى من تاريخها

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 139).

وتحمل مقداراً عظيماً من دمها، وقد صهرتها القرون في بوتقة التاريخ حتى أصبحت أمة واحدة تميزها وحدة اللغة والدم والتفاعل من خلال التاريخ[1].

سابعاً: عوامل ضعف الدولة وإنهيار الحضارة:

يقول ابن باديس: رأينا كما يرى كل مبصر ما نحن فيه معشر المسلمين من انحطاط في الخلق وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة وتعاكس في الوجهة وافتراق في السير ؛ حتى خارت النفوس القوية، وفترت العزائم المتقدمة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الأمال في صدور الرجال، واستوى القنوط القاتل واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة وانصبت علينا المصائب من كل جهة[2].

ويضيف ابن باديس إلى هذه العوامل الشخصية والعامة مجموعة من العوامل الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والتي كانت سبباً مباشراً في ضعف الدولة العربية، والإسلامية منذ الخلافة الراشدة وحتى مطلع القرن العشرين، وهذه العوامل هي:

1 . العوامل الأخلاقية:

ويعددها ابن باديس في كل ما يؤدي إلى فساد الطبع وفساد النفس الإنسانية والنظر إلى المصالح الخاصة دون المصالح العامة، وكل ما يؤدي إلى فساد الخلق وسوء السلوك، ويصف ابن باديس خطر هذه العوامل على الفرد والمجموع فيقول: إن الغرور والتكبر من أسباب الهلاك للأمة فتضعف وتضعف لذلك أمته، وليس أضر على الأمة من زهو أبنائها وطفرتهم والتغرير بنفوسهم، والغرور والتكبر من فساد أحوالهم، يكون بفساد عقائدهم وأخلاقهم وذلك عنوان ذهابهم واضمحلالهم[3].

وعلى عكس الغرور والتكبر فإن الشعور بالذل والمهانة يحدث نفس الأثر الضار على الفرد والمجموع، لأن هذا الشعور مع تأصيل الجهل من أهم عوامل الهدم، لأنه يقتل الشعور بالعزة والشرف من النفوس، والجاهل

(1) المصدر نفسه (2 / 140)، ابن باديس حياته وآثاره (4 / 239).

(2) ابن باديس: حياته وآثاره (3 / 24، 78).

(3) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 49.

يمكن أن تعلمه والجاهل يمكن أن تهذبه، ولكن الذليل الذي ينشأ على الذل يعسر أو يتعذر أن تغرس في نفسه الذليلة المهينة عزةً وإباءً وشهامةً تلحقه بالرجال(1).

وكما وصف ابن باديس عوامل الهدم الخلقية يصف لنا كيفية التغلب عليها فيقول: أما مواجهة ذلك فيكون بأن يحل محل الإفتراق الوفاقُ والتواصلُ، وأن يشعر كل فرد من الأفراد بما ينفع الأمة ويقويها، وأن يهتم بمصالح الأمة ويضعها في المكانة الأولى من الاعتبار والاهتمام، ولا بد من ترك العجب والغرور فذلك سبيل الإنسان إلى الكمال والتقدم، لأن الإنسان بطبيعته مجبول على محبة الكمال وكراهة النقص، وتلك الجبلة مما يسهل تربية النفوس وإصلاحها بالتخلص من الرذائل والتحلي بالفضائل(2).

2 . العوامل الاجتماعية:

والتي تتمثل في سوء التعليم وإهمال الفرد وانتشار البدع والنزعات المذهبية والطائفية، وغيرها من عوامل الافتراق والتفكك الاجتماعي.. وهي العوامل التي يصفها ابن باديس بأنها العامل القتَّال في عظام الأمة، وأن مقاومته لا تكون إلا بنشر ما يغذي العقول، ويحمي الأخلاق، ويقّوم فاسد العادات، ويحارب البدع التي أدخلت على الدين، وكانت سبباً في النزاعات العصبية والعرقية، وانتشار مختلف السلبيات الاجتماعية التي كان يغذيها المستعمر(3).

ويضيف ابن باديس إلى هذه العوامل كل ما يؤدي إلى الظلم والفساد لأن انتشار الظلم في الدولة هو سبب هلاكها المبين بدليل قوله تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ *} [هود : 117].

وقوله تعالى: {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ *} [الأنبياء : 11].

---

(1) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 141).

(2) التفسير في مجالس التذكير ص 666.

(3) صفحات من الجزائر ص 82، ابن باديس وعروبة الجزائر ص 240 . 241.

فأفادت الآيات أن سبب الهلاك والعذاب هو الظلم والفساد والعنود والتمرد عن أمر الله ورسله والكفر بأنعم الله[1].

3. العوامل السياسية:

وبعد أن بين ابن باديس عوامل ضعف الدولة وانهيارها بوجه عام ؛ بدأ يحذر من خطر تلك العوامل السياسية لأنها من أخطر عوامل هدم الدولة بدلاً من كونها عوامل للبناء، ومشيراً إلى أخطار سوء استخدام السلطة من الحاكم واعتماده على القوة الغاشمة، حين يلجأ إلى استنزال الوسائل الغير أخلاقية وما ينتج عن سوء سياسته من فساد وإباحية، واستخدامه للقوة ظناً منه أنها للسلام والعدل، في الوقت الذي لا يعلم أنه السبب المباشر في انتشار المظالم، ودعوة الأنانية، وتفكك الأمة، وظهور اختلافات الرأي والانقسام، وكان هذا الخطر وراء مواقف ابن باديس الحاسمة في نبذ ومواجهة كل أنواع الصراع السياسي الهدام، وخاصة أن الوضع السياسي العام في العالم العربي هو العقبة الأكبر في سبيل تحقيق كل إصلاح أو تغيير أو بناء[2].

ثامناً: أصول الولاية في الإسلام:

قال ابن باديس: لما بويع لأبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ بالخلافة رقى المنبر فخطب في الناس خطبة اشتملت على أصول الولاية العامة في الإسلام، مما لم تحققه بعض الأمم إلا من عهد قريب على اضطراب منها فيه، وهذا نص الخطبة: أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسددوني.

أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم.

ألا أن أقواكم عندي الضعيف حتى اخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى اخذ الحق منه.

(1) تفسير ابن باديس ص 193 ـ 194.

(2) عبد الحميد بن باديس وآراؤه الفلسفية (2 / 143).

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

الأصل الأول:

لا حق لأحد في ولاية أمر من أمور الأمة إلا بتولية الأمة، فالأمة هي صاحبة الحق والسلطة في الولاية والعزل، فلا يتولى أحد أمرها إلا برضاها، فلا يورث شيء من الولايات ولا يستحق الاعتبار الشخصي، وهذا الأصل مأخوذ من قوله: «وليت عليكم» أي قد ولاني غيري وهو أنتم(1).

الأصل الثاني:

الذي يتولى أمراً من أمور الأمة هو أكفؤها فيه لا خيرها في سلوكه، فإذا كان شخصان اشتركا في الخيرية والكفاءة وكان أحدهما أرجح في الخيرية والاخر أرجح في الكفاءة لذلك الأمر، قدم الأرجح في الكفاءة على الأرجح في الخيرية، ولا شك أن الكفاءة تختلف باختلاف الأمور والمواطن، فقد يكون الشخص أكفأ في أمر وفي موطن لاتصافه بما يناسب ذلك الأمر، ويفيد في ذلك الموطن، وإن لم يكن كذلك في غيره ؛ فيستحق التقديم فيه دون سواه، وعلى هذا الأصل ولى النبي صلى الله عليه واله وسلم عمرو بن العاص غزاة ذات السلاسل وأمدَّه بأبي بكر وعمر وأبي عبيدة بن الجراح فكانوا تحت ولايته وكلهم خير منه، وعليه عقد لواء أسامة بن زيد على جيش فيه أبو بكر وعمر، وهذا الأصل مأخوذ من قوله «ولست بخيركم».

الأصل الثالث:

لا يكون أحد بمجرد ولايته أمراً من أمور الأمة خيراً من الأمة، وإنما تنال الخيرية بالسلوك والأعمال، فأبو بكر إذا كان خيرهم فليس ذلك لمجرد ولايته عليهم، بل ذلك لأعماله ومواقفه، وهذا الأصل مأخوذ أيضاً من قوله: ولست بخيركم، حيث نفى الخير عند ثبوت الولاية.

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 402).

الأصل الرابع:

حق الأمة في مراقبة أولي الأمر، لأنها مصدر سلطتهم وصاحبة النظر في ولايتهم وعزلهم.

الأصل الخامس:

حق الوالي على الأمة فيما تبذله له من عون إذا رأت استقامته، فيجب عليها أن تتضامن معه وتؤيده إذ هي شريكة معه في المسؤولية، وهذا ـ كالذي قبله ـ مأخوذ من قوله: «إذا رأيتوني على حق فأعينوني».

الأصل السادس:

حق الوالي على الأمة في نصحه وإرشاده ودلالته على الحق إذا ضل عنه، ونقويمه على الطريق إذا زاغ في سلوكه. وهذا مأخوذ في قوله: «وإذا رأيتموني على باطل فسددوني».

الأصل السابع:

حق الأمة في مناقشة أولي الأمر ومحاسبتهم على أعمالهم وحملهم على ما تراه هي لا ما يرونه هم، فالكلمة الأخيرة لها لا لهم، وهذا كله من مقتضى تسديدهم وتقويمهم عندما تقتنع بأنهم على باطل ولم يستطيعوا أن يقنعوها أنهم على حق، وهذا مأخوذ ـ أيضاً ـ من قوله: «وأن رأيتموني على باطل فسددوني».

الأصل الثامن:

على من تولى أمراً من أمور الأمة أن يبين لها الخطة التي يسير عليها ليكونوا على بصيرة ويكون سائراً في تلك الخطة عن رضى الأمة، إذ ليس له أن يسير بهم على ما يرضيه، وإنما عليه أن يسير بهم فيما يرضيهم، وهذا مأخوذ من قوله: أطيعوني ما أطعت الله فيكم «خطته هي طاعة الله» وقد عرفوا ما هي طاعة الله في الإسلام.

الأصل التاسع:

لا تحكم الأمة إلا بالقانون الذي رضيته لنفسها وعرفت فيه فائدتها، وما الولاة إلا منفذون لإرادتها فهي تطيع القانون لأنه قانونها، لا لأن سلطة أخرى لفرد، وكائنة من كانت تلك الجماعة فتشعر بأنها حرة في تصرفاتها وأنها تسير نفسها بنفسها وأنها ليست ملكاً لغيرها من الناس لا الأفراد ولا الجماعة ولا الأمم ويشعر هذه الشعور كل فرد من أفرادها، إذ هذه الحرية والسيادة حق طبيعي وشرعي لها ولكل فرد من أفرادها، وهذا الأصل مأخوذ من قوله: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم»، فهم لا يطيعونه هو لذاته وإنما يطيعون الله باتباع الشرع الذي وضعه لهم ورضوا به لأنفسهم، وإنما هو مكلف منهم بتنفيذه عليه وعليهم، فلهذا إذا عصى وخالف لم تبق له طاعة عليهم.

الأصل العاشر:

الناس كلهم أمام القانون سواء لا فرق بين قويهم وضعفيهم فيطبق على القوي دون رهبة لقوته، وعلى الضعيف دون رقة لضعفه.

الأصل الحادي عشر:

صون الحقوق في حقوق الأفراد وحقوق الجماعات، فلا يضيع حق ضعيف لضعفه ولا يذهب قوي بحق أحد لقوته عليه.

الأصل الثاني عشر:

حفظ التوازن بين طبقات الأمة عند صون الحقوق، فيؤخذ الحق من القوي دون أن يقسى عليه لقوته فيتعدى عليه حتى يضعف وينكسر، ويعطى الضعيف حقه دون أن يدلل لضعفه فيطغى عليه، وينقلب معتدياً على غيره، وهذا الأصل واللذان قبله مأخوذة من قوله: ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى اخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى اخذ الحق منه.

الأصل الثالث عشر:

شعور الراعي والرعية بالمسؤولية المشتركة بينهما في صلاح المجتمع، وشعورهما ـ دائماً ـ بالتقصير في القيام بها ليستمرا على العمل بجد واجتهاد، فيتوجهان بطلب المغفرة من الله الرقيب عليهما، وهذا مأخوذ من قوله: «أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم»[1].

هذا ما قاله ونفذه أول خليفة في الإسلام منذ أربعة عشر قرناً، فأين منه الأمم المتمدنة اليوم؟ فهل كان أبو بكر ينطق بهذا من تفكيره الخاص وفيض نفسه الشخصي؟ كلا، بل كان يستمد ذلك من الإسلام ويخاطب المسلمين يوم ذاك بما علموه وما لا يخضعون إلا له ولا ينقادون إلا به، وهل كانت هذه الأصول معروفة عند الأمم فضلاً عن العمل بها؟ كلا، بل كانت الأمم غارقة في ظلمات من الجهل والانحطاط ترسف في قيود الذل والاستعباد تحت نير الملك ونير الكهنوت، فما كانت هذه الأصول ـ والله إذن ـ من وضع البشر وإنما كانت من أمر الله الحكيم الخبير ـ نسأله ـ جل جلاله ـ أن يتداركنا ويتدارك البشرية كلها بالتوفيق للرجوع إلى هذه الأصول التي لا نجاة من تعاسة العالم اليوم إلا بها[2].

تاسعاً: مسألة إلغاء الخلافة العثمانية:

1 ـ نظرة ابن باديس للكماليين:

إذا كان بعض الجزائريين قد تسامحوا بداية مع سياسة الكماليين ثم ناصبوهم العداء بعد إلغائهم لنظام الخلافة أمثال «عبد الحفيظ ابن الهاشمي» ؛ فإن العلامة ابن باديس قد سلك نفس المنهج، فقد غض الطرف عن سياسة الكماليين وتفهمهم قبل 1924م، ولكنه منذ إلغاء نظام الخلافة تفاجأ منهم، وأصدر مقالة بعنوان «الفاجعة الكبرى» أو «جنايات الكماليين عن الإسلام والمسلمين ومروقهم من الدين»:

---

(1) المصدر نفسه (3 / 405).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 405).

بدأ ابن باديس مقاله بتبرير ولائه للكماليين قبل إلغائهم لنظام الخلافة فقال: فلئن والينا الكماليين بالأمس ومدحناهم، فلأنهم قاموا يذبُّون عن حمى الخلافة وينتشلون أمة إسلامية عظيمة من مخالب الظالمين، وقد سمعناهم يقولون في دستورهم: إن دين الدولة الرسمي الإسلام، ثم كشف ابن باديس أبعاد سياسة الكماليين، فقال: ما كنا نجهل عقيدة الشبيبة التركية المتفرنجة ولا مبادئها، وكيف نجهل ذلك منها وقد حفظ التاريخ خطب زعمائها، المليئة بالتأفف من الدين، أم كيف تخفى مقاصدهم وقد فتحوا دستورهم بعد عهد عبد الحميد بمحو كلمة الشهادة من رايات الجيش، وختموها في هاته الأيام بنبذ النظام العائلي الإسلامي في مسائل الزواج والطلاق، وبالفصل بين السلطة الروحية والزمنية. إلى أن قال: لا والله ما كانت تخفى علينا عقائدهم وإنما كنا نغض الطرف عن شرورهم ؛ إبقاء على الوحدة الإسلامية.. وما كنا نحسب أبداً أن يقدموا على إبطال الخلافة.

ثم لم يلبث الكاتب أن عدد منكرات الكماليين من تفهم للخليفة العثماني واله، ورفضهم للديانة الإسلامية، وإبطالهم للمحاكم الشرعية، وفي الأخير اعتبرهم مارقين من الإسلام، لأنهم جنوا على الإسلام والمسلمين أربع جنايات، الأولى على الخلافة، لأنها أقوى ما يستعين به دعاة الوحدة الإسلامية السليمة، والثانية على الخليفة ؛ لأنه «خليفة الإسلام»، وقد تُرك مُلقى على أعتاب الأوربيين ؛ والثالثة على عائلة ال عثمان التي تمثل «مجد الترك»، والرابعة والأخيرة على الدين الذي «أخذوا في استئصاله من الأمة التركية».

2. موقف ابن باديس من الخلافة الإسلامية القائمة:

وبعد شرحه لملابسات إلغاء الخلافة طرح ابن باديس موقفه من الخلافة الإسلامية مستقبلاً، فقال: زالت الخلافة بالمعنى الحقيقي والمعنى الصوري، فلنعلمْ أنه لا خلافة بعد اليوم، ولنرفضْ كل خليفة تشم منه رائحة الأجنبي، ولتعمل كل أمة مسلمة على النهوض بنفسها، ولا يكونن ما وقع مضعفاً لعزائمنا ما دام الإسلامُ

الجامعة الكبرى التي تجمعنا[1].

وبعدما نفى عبدُ الحميد وجود خليفة اليوم تتوفر فيه الشروط الشرعية كاملة، فالكماليون حينما ألغوا السلطنة في 1 نوفمبر 1922م 1341هـ، وأبقوا عبد المجيد بن عبد العزيز خليفة له سلطة روحية فقط ؛ فذلك مخالف للإسلام.

3 . ابن باديس وبديل الخلافة الإسلامية:

طرح ابن باديس بديلاً شرعياً لذلك المنصب الإسلامي الحساس، من خلال مقال أصدره بعنوان: الخلافة أم جماعة المسلمين[2]، قال فيه:

إن الخلافة هي المنصب الإسلامي الأعلى الذي يقوم على تنفيذ الشرع الإسلامي، وحياطته بواسطة الشورى من أهل الحل والعقد من ذوي العلم والخبرة والنظر، وبالقوة من الجنود وسائر وسائل الدفاع.

ولقد أمكن أن يتولى هذا المنصب شخص واحد صدر الإسلام وزمناً بعده . على فرقة واضطراب . ثم قضت الضرورة بتعدده في الشرق والغرب، ثم انسلخ عن معناه الأصلي وبقي رمزاً ظاهرياً تقديسياً ليس من أوضاع الإسلام في شيء.

فيوم ألغى الأتراك الخلافة . ولسنا نبرر كل أعمالهم . لم يلغوا الخلافة الإسلامية بمعناها الإسلامي، وإنما ألغوا نظاماً حكومياً خاصاً بهم،، وأزالوا رمزاً خيالياً فتن به المسلمون لغير جدوى، وحاربتهم من أجله الدول الغربية المتعصبة والمتخوفة من شبح الإسلام، علمت الدول الغربية المستعمرة فتنة المسلمين باسم «خليفة»، فأرادت أن تستغل ذلك مرات عديدة أصيبت فيها كلها بالفشل، ليس عجيباً من تلك الدول أن تحاول ما حاولت وغاياتها معروفة ومقاصدها بينة، وإنما العجب أن يندفع في تيارها المسلمون وعلى رأسهم أمراء وعلماء منهم، ومن هذا الاندفاع ما يتحدث به في مصر فتردد صداه الصحف في الشرق والغرب، وتهتم له صحافة الإنجليز على الخصوص، يتحدثون في مصر، وفي الأزهر عن الخلافة كأنهم لا يرون المعاقل الإنجليزية الضاربة في

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 363.

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 410).

ديارهم، ولا يشاهدون دور الخمور والفجور المعترف بها في قانونهم، وكفى غروراً وانخداعاً أن الأمم الإسلامية اليوم ـ حتى المستجدة منها ـ أصبحت لا تخدعها هذه التهاويل، ولو جاءتها من تحت الجبب والعمائم.

للمسلمين ـ مثلما لغيرهم من الأمم ـ ناحيتان: ناحية سياسية دولية وناحية أدبية اجتماعية:

فأما الناحية السياسية الدولية فهذه من شأن أممهم المستقلة ولا حديث لنا عليها اليوم، وأما الناحية الأدبية الاجتماعية فهي التي يجب أن تهتم بها كل الأمم الإسلامية المستقلة وغيرها، لأنها ناحية تتعلق بالمسلم من جهة عقيدته وأخلاقه وسلوكه في الحياة في أي بقعة من الأرض كان، ومع أي أمة عاش وتحت أي سلطة وجد، وليست هذه الناحية الإنسانية المحضة دون الناحية الأولى في مظهر الإسلام، ولا دونها في الحاجة إلى الحفظ والنظام لأجل خير المسلمين على الخصوص وخير البشرية العام.

إن الأمم الكاثوليكية ـ مثلاً ـ على اختلاف أوضاعها السياسية وتباين مشاربها وأنظارها فيها، ترجع في ناحيتها الأدبية إلى مركز أعلى هو بابا روما المقدس الشخص والقول في نظر جميعهم.

نعم ليس لنا ـ والحمد لله ـ في الإسلام بعد محمد صلى الله عليه واله سلم شخص مقدس الذات والقول تُدَّعى له العصمة، ويعتبر قوله تنزيلاً من حكيم حميد، ولكن لنا جماعة المسلمين وهم أهل العلم والخبرة الذين ينظرون في مصالح المسلمين من الناحية الدينية والأدبية، ويصدرون عن تشاور ما فيه خير وصلاح، فعلى الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكوّن هذه الجماعة من أنفسها، بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخّل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها.

لقد كنت كاتبت صاحب الفضيلة شيخ الأزهر الشريف بهذا المعنى، ولكنني لم أتلق منه جواباً، وعرفت السبب يوم بلغنا أن أخواننا الأزهريين هتفوا ـ يوماً ـ بالخلافة لملك مصر فاروق الأول. وسيرى صاحب الفضيلة

الأستاذ الأكبر ؛ أن خيال الخلافة لن يتحقق، وأن المسلمين سينتهون يوماً ما ـ إن شاء الله ـ إلى هذا الرأي[1].

4 ـ ابن باديس يقيِّم مصطفى كمال أتاتورك:

لقد تعجب كثيرٌ من المحليين والمفكرين لمواقف ابن باديس من مصطفى كمال: الذي لم يقم للدين والأخلاق أي وزن، فهل كان ابن باديس جاهلاً لما أصدره الرجل من تشريعات وقوانين منافية للدين؟

هناك مبرر لتحليل ابن باديس لمواقف مصطفى كمال، وأرجعه إلى قوة مصطفى كمال في مقاومة الاستعمار ؛ فطبيعي أن تستهوي هذه السياسة ابن باديس وهو يرغب في تحرير بلاده من الاستعمار[2]، فوصف ابن باديس مصطفى كمال بالآتي:

أ ـ من أعظم عباقرة الشرق:

في السابع عشر من رمضان المعظم خُتمت أنفاس أعظم رجل عرفته البشرية في التاريخ الحديث، وعبقري من أعظم عباقرة الشرق، الذين يطلعون على العالم في مختلف الأحقاب فيحولون مجرى التاريخ ويخلقونه خلقاً جديداً. ذلك هو مصطفى كمال بطل غاليبولي في الدردنيل وبطل سقاريا في الأناضول وباعث تركيا من شبه الموت إلى حيث هي اليوم من الغنى والعز والسمو. وإذا قلنا بطل غاليبولي فقد قلنا قاهر الإنجليز أعظم دولة بحرية التي هزمها في الحرب الكبرى بشر هزيمة لم تعرفها في تاريخها الطويل. وإذا قلنا بطل سقاريا، فقد قلنا هو قاهر الإنجليز وحلفائهم من يونان وطليان وفرنسيين، بعد الحرب الكبرى ومُجليهم عن أرض تركيا بعد احتلال عاصمتها والتهام أطرافها وشواطئها.

ب ـ باعث تركيا:

وإذا قلنا باعث تركيا فقد قلنا باعث الشرق الإسلامي كله، فمنزلة تركيا التي تبوأتها من قلب العالم

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 412).

(2) الفكر السياسي عند الشيخ الإمام ص 68.

الإسلامي في قرون عديدة هي منزلتها، فلا عجب أن يكون بعثه مرتبطاً ببعثتهما.

لقد كانت تركيا قبل الحرب الكبرى هي جبهة صراع الشرق إزاء هجمات الغرب، ومرمى قذائف الشره الاستعماري والتعصب النصراني من دول الغرب، فلما انتهت الحرب وخرجت تركيا منها مهمشة مفككة، تناولت الدول الغربية أمم الشرق الإسلامي تمتلكها تحت أسماء استعمارية ملطفة، واحتلت تركيا نفسها واحتلت عاصمة الخلافة، وأصبح الخليفة طوع يدها وتحت تصرفها، وقال المارشال اللنبي وقد دخل القدس . اليوم انتهت الحروب الصليبية، فلو لم يخلق الله المعجزة على يد مصطفى كمال لذهبت تركيا وذهب الشرق الإسلامي معها.

لكن كمالاً الذي جمع تلك الفلول المبعثرة، فالتف به إخوانه من أبناء تركيا البررة، ونفخ من روحه في أرض الأناضول حيث الأرومة التركية الكريمة، وعُيل ذلك الشعب النبيل، وقاوم ذلك الخليفةُ الأسير وحكومتُه المتداعية وشيوخُه الدجّالينَ من الداخل، وقهر دول الغرب وفي مقدمتها إنجلترا من الخارج، لكن كمالاً هذا أوقف الغرب عند حده وكبح من جماحه وكسر من غلوائه، وبعث في الشرق الإسلامي أمله، وضرب له المثل العالي في المقاومة والتضحية فنهض يكافح ويجاهد، فلم يكن مصطفى محيي تركيا وحدها بل محيي الشرق الإسلامي كله، وبهذا غير مجرى التاريخ ووضع للشرق الإسلامي أساس تكوين جديد، فكان بحق . كما قلنا . من أعظم عباقرة الشرق العظام، الذين أثروا في دين البشرية ودنياها من أقدم عصور التاريخ.

ج . موقف مصطفى كمال من الخليفة وعلمائه:

إن الإحاطة بنواحي البحث في شخصية أتاتورك «أبي الترك» مما يقصر عنه الباع، ويضيق عنه المجال، ولكنني أرى من المناسب أو من الواجب أن أقول كلمة في موقفه إزاء الإسلام، فهذه هي الناحية الوحيدة من نواحي عظمة مصطفى أتاتورك التي ينقبض لها قلب المسلم ويقف متأسفاً، ويكاد يولي مصطفى في موقفه هذا الملامة كلها، حتى يعرِّف المسؤولين الحقيقيين الذين أوقفوا مصطفى ذلك الموقف، فمن هؤلاء المسؤولون؟

المسئولون هم الذين كانوا يمثلون الإسلام وينطقون باسمه ويتولون أمر الناس بنفوذه، ويعدون أنفسهم أهله وأولى الناس به.

هؤلاء هم خليفة المسلمين، وشيخ إسلام المسلمين، ومن معه من علماء الدين، شيوخ الطرق المتصوفين، والأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطان العثماني خليفة لها[1].

. أما خليفة المسلمين فيجلس في قصره تحت سلطة الانجليز المحتلين لعاصمته ساكتاً ساكناً، مستغفراً لله، بل متحركاً في يدهم تحرك الالة لقتل حركة المجاهدين بالأناضول، ناطقاً بإعلان الجهاد ضد مصطفى كمال ومن معه الخارجين عن طاعة أمير المؤمنين.

ـ وأما شيخ الإسلام وعلماؤه ؛ فيكتبون للخليفة منشوراً يمضيه باسمه ويوزع على الناس بإذنه وتلقيه الطائرات اليونانية على القرى برضاه، يبيح فيه دم مصطفى كمال ويعلن خيانته، ويضمن السعادة لمن يقتله.

. وأما شيوخ الطرق الضالون وأتباعهم المنوَّمون ؛ فقد كانوا أعواناً للانجليز وللخليفة الواقع تحت قبضتهم، يوزعون ذلك المنشور ويثيرون الناس ضد المجاهدين.

. وأما الأمم الإسلامية التي كانت تعد السلطات العثماني خليفة لها فمنها . إلا قليلاً . من كانوا في بيعته فانتفضوا عليه، ثم كانوا في صف أعدائهم وأعدائه، ومنها من جاءت من مستعبديها حاملة السلاح على المسلمين شاهرة له في وجه خليفتهم.

فأين هو الإسلام في هذه «الكليتيات» كلها؟ وأين يبصره مصطفى الثائر المحروب، والمجاهد الموتور منها؟

لقد ثار مصطفى كمال حقيقة ثورة جامحة ولكنه لم يثر على الإسلام وإنما ثار على هؤلاء الذين يسمون

(1) المصدر نفسه (4 / 215).

بالمسلمين، فألغى الخلافة الزائفة وقطع يد أولئك العلماء عن الحكم، فرفض مجلة الأحكام، واقتلع شجرة زقوم الطرقية من جذورها، وقال للأمم الإسلامية: عليكم بأنفسكم وعليَّ نفسي، لا خير لي في الاتصال بكم ما دمتم على ما أنتم عليه، فكونوا أنفسكم ثم تعالوا نتعاهد ونتعاون كما تتعاهد وتتعاون الأمم ذوات السيادة والسلطان.

وأما الإسلام، فقد ترجم القرآن لأمته التركية بلغتها لتأخذ الإسلام من معدنه، وتستقيه من نبعه، ومكّنها من إقامة شعائره، فكانت مظاهر الإسلام في مساجده، ومواسمه تتزايد في الظهور عاماً بعد عام، حتى كان المظهر الإسلامي العظيم يوم دفنه والصلاة عليه تغمده الله برحمته.

د ـ مجلة الأحكام:

لسنا نبرر صنيعه في رفض مجلة الأحكام، ولكننا نريد أن يذكر الناس أن تلك المجلة المبنية على مشهور وراجح مذهب الحنفية ؛ ما كانت تسع حاجة أمة من الأمم في كل عصر، لأن الذي يسع البشرية كلها في جميع عصورها هو الإسلام بجميع مذاهبه لا مذهب واحد أو جملة مذاهب محصورة كائناً ما كان وكائنة ما كانت.

ونريد أن يذكر الناس أيضاً أن أولئك العلماء الجامدين ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا غير ما عرفوه من صغرهم من مذهبهم، وما كانت حواصلهم الضيقة لتتسع لأكثر من ذلك، كما يجب أن يذكروا أن مصر بلد الأزهر الشريف ما زالت إلى اليوم الأحكام الشرعية ـ غير الشخصية ـ معطلة فيها، وما زال «كود» نابليون مصدر أحكامها إلى اليوم، وما زال الانتفاع بالمذاهب الإسلامية في القضاء ـ غير المذهب الحنفي ـ مهجوراً كذلك إلا قليلاً جداً[1].

هـ ـ نزع الأحكام الشرعية:

نعم إن مصطفى أتاتورك نزع عن الأتراك الأحكام الشرعية،وليس مسؤولاً في ذلك وحده وفي إمكانهم أن

(1) المصدر نفسه (4 / 216).

يسترجعوها متى شاؤوا، وكيفما شاؤوا، ولكنه أرجع لهم حريتهم واستقلالهم وسيادتهم وعظمتهم بين أمم الأرض، وذلك ما لا يسهل استرجاعه لو ضاع، وهو وحده كان مبعثه ومصدره، ثم إخوانه المخلصون. فأما الذين رفضوا الأحكام الشرعية وعادوا إلى «كود» نابليون، فماذا أعطوا أمتهم؟ وماذا قال علماؤهم؟

و ـ تعزيته للشعب التركي:

فرحم الله مصطفى، ورجح ميزان حسناته في الموازين، وتقبل إحسانه في المحسنين.

وإلى الأمة التركية الشقيقة الكريمة الماجدة، التي لنا فيها حفدة وأخوال، والتي تربطنا بها أواصر الدين والدم والتاريخ والجوار، والتي تذكر الجزائر أيامها بالجميل، وترى شخصها دائماً ماثلاً فيما تركت لها من مساجد ومعاهد للدين الشريف والشرع الجليل.

إلى تركيا العزيزة نرفع تعازي الجزائر كلها، مشاركين لها في مصابها، راجين لها الخلف الصالح من أبنائها ومزيداً من التقدم في حاضرها ومستقبلها.

وإلى هذا، فنحن نهنئها برئيس جمهوريتها الجديد عصمت اينونو، بطل «اينونو» ومؤتمر لوزان وثنيّ مصطفى كمال، وإن في إجماعها على انتخابه لدليلاً على ما بلغته تركيا الكريمة من السعادة والكمال، ما يناسب مجدها المقدس، وتاريخها الحافل بأعظم الرجال وجلائل الأعمال[1].

أجد نفسي أخالف شيخنا العلامة ابن باديس في نظرته لمصطفى كمال، نعم: ما قاله في منصب الخلافة وكونه أصبح اسماً لا معنى ولا فعلاً، كما أن المواقف التي اتخذها الخليفة العثماني لا تنسجم مع مبادئ الحرية والاستقلال والجهاد وتحرير الأوطان وسيادتها، ولم يكن علماء الدولة العثمانية والمشرعين على مستوى حضاري كبير، بحيث يستطيعون أن يتصدوا للتحديات الحضارية والقانونية والتشريعية والسياسية..إلخ.

---

(1) المصدر نفسه (4 / 217).

إن مصطفى كمال نفذ مخططاً مرسوماً، رسم في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة 1340هـ 1923م على تركيا، فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع وهو رئيس الوفد الإنجليزي في مؤتمر لوزان وهي:

. قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.

. إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.

. إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.

. إتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم(1).

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامي، فشوقي الذي مدحه سابقاً بكى الخلافة فقال:

عادت أغاني العرس رَجْع نواح ونُعيتِ بين معالم الأفراح

كُفنت في ليل الزفاف بثوبه ودُفنت عند تبلج الإصباح

ضجت عليك ماذن ومنابر وبكت عليك ممالك ونواح

الهنـــد وآلهـــة ومصر حزينة تبكي عليك بمدمع سحاح

والشام تسأل، والعراق وفارس أمحا من الأرض الخلافة ماح

يا للرجــــال لحُـــــرةٍ موؤودة قتلت بغير جـــريرة وجنـــاح

ثم انبرى شوقي يوجه التقريع والنقد الشديد إلى أتاتورك الذي يريد بجرَّة قلم وبالحديد والنار أن ينقل الأتراك رغم أنوفهم من اسايا إلى أوربا، ومن جذورهم العميقة في الشرق إلى الانتظار على أبواب الغرب:

بكت الصلاة وتلك فتنة عابت بالشرع عربيد القضاء وَقاحِ

أفتى خُزعبلة وقال ضلالة وأتى بكفر في البلاد بواح

(1) تاريخ الدولة العثمانية، د. على حسون ص 287.

إن الذي جرى عليهم فِقهُهُ	خُلقوا لفقه كتيبة وسِـــلاح
نقل الشرائعَ والعقائد والقُرى	والناس نقل كتائب في الساح
تركته كالشبـــح المــؤله أمه	لم تَسْلُ بعد عبادة الأشبــاح
غرته طاعات الجموع ودولة	وَجَد السواد لها هوى المرتاح(1)

ولم يترك شوقي أن يبيِّن سبب ظهور هؤلاء المتسلطين إلى جهل الشعوب واستسلامها للطغاة المستبدين فقال:

مجـــدُ الأمور زوالـــه في زلـــــة	لا ترج لاسمك بالأمور خلودا
خلعته دون المسلمين عِصـــــابة	لم يجعلوا للمسلمين وجـــودا
يقضون ذلك عن سواد غافـــــل	خُلِقَ السواد مضَلّلا ومســودا
إني نظرت إلى الشعوب فلم أجد	كالجهل داء للشعوب مُبيــدا
وإذا سبى الفرد المســلط مجــلساً	ألفيت أحرار الرجال عبيـــدا(2)

لقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الإسلامية، ودخلت تركيا عمليات التغريب البشـعة، فألغيـت وزارة الأوقـاف سـنة 1343هـ 1924م، وعهـد بشـؤونها إلى وزارة المعـارف، وفي عـام 1344هـ 1925م أغلقت المساجد وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني، وواجهت كل نقد ديـني لتـدبيرها بالعنـف، وفي عـام 1350هـ 1351هـ / 1931م . 1932م حـددت عـدد المسـاجد، ولم تسـمح بغير مسـجد واحـد في كـل دائرة من الأرض لا يبلـغ محيطها 2000 مـتر، وأعلـن أن الـروح الإسـلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد، فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحدث عن الشئون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له، وأغلق أشهر جامعين في اسطنبول، وحوّل أولهما وهو مسجد ايا صوفيا إلى متحف، وحول ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

(1) التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي ص 112.

(2) الشوقيات ديوان أحمد شوقي (1 / 112).

أما الشريعة الإسلامية، فقد استُبدلت وحل محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام 1345هـ 1926م، وغيَّرت التقويم الهجري واستخدمت التقويم الغربي، فأصبح عام 1345هـ ملغياً في كل أنحاء تركيا وحل محله عام 1926م.

. في دستور عام 1347هـ 1928م أغفل النص على أن تركيا دولة إسلامية، وغيَّر النص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله، كما كان عليه الأمر من قبل.

. وفي عام 1935م غيَّرت الحكومة العطلة الرسمية فلم تعد الجمعة، بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين.

ـ وأهملت الحكومة التعليم الديني كله في المدارس الخاصة، ثم إلغاؤه، بل إن كلية الشريعة في جامعة اسطنبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التي أغلقت عام 1352هـ 1933م.

. وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب، فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش، وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدول الأوربية.

ـ وفي عام 1348هـ 1929م بدأت الحكومة تفرض إجبارياً استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية، وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية، وحذف من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية، وأما الكتب التي سبق لمطابع اسطنبول أن طبعتها في العهود السالفة، فقد صدرت إلى مصر، وفارس، والهند.

وهكذا قطعت حكومة تركيا ما بين تركيا وماضيها الإسلامي من ناحية، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية.

. وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، واستغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة

السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم، ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي، وخلع مصطفى كمال على نفسه لقب «أتاتورك» ومعناه أبو الأتراك[1].

ـ وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوربي، فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى، ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين أغلبهم من فرنسا والنمسا[2].

وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمرت بالسفور، وألغى قوامة الرجل على المرأة، وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجع الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص.

ـ وفي زواجه من لطيفة هانم ابنة أحد أغنياء أزمير، الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية، واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد، وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ.

. وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية، ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية[3].

. عمل على تغيير المناهج الدراسية، وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، واستبدلت بكلمات أوربية.

---

(1) حاضر العالم الإسلامي (1 /115)، شكيب أرسلان.

(2) المسألة الشرقية، للدسوقي ص 428 . 432.

(3) حاضر العالم الإسلامي (1 / 116).

ـ وأعلنت الدولة عزمها في التوجه نحو أوربا، وانفصلت عن العالم الإسلامي والعربي، وأمعنت حكومتها من استدبار الإسلام، حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي إلى إحياء المبادئ الإسلامية[1].

ـ وكانت خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران، والهند الإسلامية، وتركستان، وفي كل مكان من العالم الإسلامي، إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة، وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر ـ الأهرام والسياسة والمقطم ـ ذات الاتجاهات المضادة للإسلام، والمدعومة من النفوذ الغربي واليهودي والماسوني.

لقد بررت تلك الصحف تصرفات كمال أتاتورك ووافقت عما ابتدعه، ونشرت له أقوالاً منها: ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين. وأنه ـ أي مصطفى كمال ـ ألقى القرآن ذات يوم من يده فقال: إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة.

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية ـ هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وإنجلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ إنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة وتلغي الكنائس[2].

وكان للإعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة، مثلما كان دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة إسلامية، وكانت تزين له أن ما يقوم به من المذابح والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارضة بطولية، كما كانت منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة للتركية،

(1) الإتجاهات الوطنية، لمحمد حسين (2 / 100).

(2) العلمانية، د. سفر الحوالي ص 573.

والـترويج لفنـون الانحـلال الخلقـي معتـبرة أن شـرب الخمـر والمقـامرة والـزنا ليسـت إلا مظـاهر للتمـدن والتحضر[1].

إن الحقيقـة المرة أن مصـطفى كمـال أصبح نموذجـاً صـارخاً للحكـام في العـالم الإسـلامي، وكـان لأسـلوبه الاستبدادي أثر في القضاء على الإسلام ؛ فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد الشمال اللأفريقي وإخراجها من دينها وعقيدتها وإسلامها، بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم[2].

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا اخرتهم بدنياهم الزائلة.

قـاد المسـلمون ثـورات مسـلحة ضـد الحكـم العلمـاني المعـادي للإسـلام، وظهـرت أهـم الثـورات في المنطقـة الجنوبيـة الشـرقية عـام 1344هـ، ثم في منيمـين عـام 1349هـ، وقـد قمعهـا الكمـاليون بشـدة منقطعـة النظـير وذهـب ضـحيتها عـدد كبير مـن العلمـاء، وأهملـت المنطقـة اقتصـادياً وعلميـاً. وقامـت حركـة النـور بزعامـة الشـيخ بـديع الزمـان سـعيد النورسـي وتلاميـذه مـن بعـده، وقـد كتـب العديـد مـن الرسـائل الإسـلامية ومقاومـة مبـادئ الكمـاليين والعلمانيـة، ولم تعمـد حركتـه إلى حمـل السـلاح واقتصـر جهادهـا علـى اللسـان، وقـد حـاول أتاتـورك إستمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه: إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي الصلاة وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود[3].

فسجنه ثم نفاه بعد اتهامه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سرًّاً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى لتهمة أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:إنني لأعجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزته باتباعهم للسياسة

(1) حاضر العالم الإسلامي (1 / 117).
(2) العلمانية، د. سفر الحوالي ص 573.
(3) حاضر العالم الإسلامي (1 / 117).

والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية، أما نور القرآن الذي يأتي إلى أن يشع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره ؛ فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة.

اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق: إنني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوة افعلوا ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق افسلام[1].

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام 1367هـ، حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم بخصوص النشاط الديني[2].

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه «حزب الشعب الجمهوري» لعام 1349هـ مرة، وعام 1355هـ مرة ثانية والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب، وهي: المقاومة، الجمهورية، الشعبية، العلمانية، الثورة، وسلطة الدولة[3].

توفي أتاتورك عام 1356هـ، بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال قبل وفاته بسنين بمرض عضال في الكلية لم يعرف كنهه، وكان يتعرض لالام مبرحة مزمنة لا تطاق كانت السبب في إدمانه على شرب الخمر، مما أدى إلى إصابته بتليف الكبد، والتهاب في أعصابه الطرفية، وتعرضه لحالات من الكابة والانطواء . وقد تدهور في المستويات العليا للمخ . لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريداً في القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة[4].

---

(1) حاضر العالم الإسلامي (1 / 122).

(2) المصدر نفسه (1 / 122).

(3) المصدر نفسه (1 / 116).

(4) الدولة العثمانية، للصَّلاَّبي ص 514.

5. سنية الدولة أو طرقيتها:

نظر ابن باديس إلى واقع العالم الإسلامي ومدى اقتراب دوله من روح الإسلام وبعد الآخر عنه، وخرج من هذه النظرة بأن هناك نوعين من الدول الإسلامية في عصره.

النوع الأول: سماه بالدولة السنية.

والثاني: سماه بالدولة الطرقية.

الدولة السنية وجدها في السعودية التي كانت على يد عبد العزيز ال سعود: قائمة على تنفيذ الشريعة بعقائدها واداها وأحكامها الشخصية والعمومية، فاستتب فيها الأمن والعدل، ويدقق بأنه لا يتكلم عن هذه الدولة من الناحية السياسية بل من الناحية الإنسانية أو الخلقية، فقد ظهرت في الحجاز من البدع والضلالات والخرافات، ورجعت أتباع الطرق التي تسمى الطرق الصوفية إلى عقولهم ودينهم.

أما الحكومات الطرقية، فهي التي توجد في مصر لأنها تؤيد تأييداً رسمياً الاجتماعات الصوفية بما فيها من مناكر وقبح مظاهر وسوء مناظر، ويواطئها على هذا علماؤها الرسميون بسكوتهم وإقرارهم وتأويلاتهم.

والحقيقة أن معيار سنية الحكومة الإسلامية أو طرقيتها عند ابن باديس لا يقتصر على دستور هذه الدولة أو قوانينها، بل لعل هذا المعيار يأتي في الدرجة الثانية.

أما المعيار الأول والمقياس الأساسي للدولة الإسلامية عنده، فهو موقفها من الاستعمار الأجنبي، فبقدر ما تقف الدولة الإسلامية موقف العداء والمقاومة من الدول الغربية بقدر ما تكون في نظره دولة مسلمة، وبقدر ما تتواطأ وتقترب دولة المسلمين من دول الإستعمار بقدر ما تبتعد عن الإسلام. ولذلك يعتبر دولة أتاتورك التي قضت على دولة الخلافة أقرب إلى الإسلام من دولة الخلافة، لأن أتاتورك كان يحارب الإنجليز والخليفة العثماني كان صنيعة لهم، وهو أيضاً نفس الموقف الذي يقفه من الطرفين في الجزائر،فهو لا يقاومهم لأفكارهم

الصوفية، بل يقاومهم لأنهم جعلوا زواياهم في خدمة الاستعمار الفرنسي، وهو يصرح بهذا تصريحاً، ولا يتركنا نستنتجه من كتاباته.

وهو عندما يطبق هذا المعيار الوطني على الحكومة الإسلامية في كل من السعودية ومصر، يجد «الإمام المجاهد» السيد الشريف السنونسي الذي كان على تمسكه بالكتاب والسنة ودعوته إلى الله وإرشاده للعباد والتفقه في الدين والصبر والزهد وحفظ الكرامة، ولكن لم تقبله الحكومة المصرية في أرضها لأنها أعطت وعداً لإيطاليا في ذلك، فاحتضنته الحكومة السعودية، وكرمته، ومرض في أرض الحجاز واشتد به المرض فرغب في التداوي بمصر فطلبت حكومة الحجاز من الحكومة المصرية السماح له بذلك، وكانت الحكومة المصرية في انتظار قدوم ملك إيطاليا، فماطلت ولم تجب حتى توفي الإمام دون أن تسمح له بالدخول لأجل التداوي.

ويقول الشيخ ابن باديس في هذه الواقعة أن في هذا الموقف من هاتين الحكومتين البرهان القاطع على أن الحكومة السعودية ملتزمة بالسنة، وأن الحكومة المصرية تناصر طرق التصوف لأن علماءها الدينيين يعيشون على رواتبهم وعلى رضا العامة واستغلال جهلها، وهل أفسدَ الناسَ إلا الملوكُ، وأحبار سوء ورهبانها؟[(1)].

عاشراً: المؤتمر الإسلامي:

استجاب الشعب الجزائري إلى دعوة ابن باديس رئيس جمعية العلماء والدكتور ابن جلول رئيس جمعية النواب بعمالة قسنطينة إلى عقد مؤتمر إسلامي جزائري عام تعرض فيه مطالب الأمة وحقوقها، وتتبادل فيه الآراء بين علماء الأمة ونوابها وذوي الرأي منها فيما يتفق من هذه المطالب والحقوق مع الأوضاع الحكومية الحاضرة.

هبَّت الأمَّة كلُّها على صوت الداعي، فأعلنت يقظتها وشعورها واستعدادها، وتضامنها واتحادها،

(1) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 64.

وساعدها (اعتدال الزمان)على إظهار قواها الكامنة، وعلى انطلاق ألسنتها بالتعبير الواضح عن الامها، فتجلّت جزائريتها وإسلامها للعيان في يوم مشهود هو يوم 17 ربيع الأول سنة 1355هـ الموافق ليوم 7 جوان 1936م، وفي مدينة تاريخية هي مدينة الجزائر، وفي صالة «الماجستيك» الفسيحة.

لم يمض على الجزائر الإسلامية، في تاريخ ارتباطها السياسي بفرنسا، يوم أغرّ محجل، تمثّلت فيه الأمّة روحاً وجسماً، وتلاشت فيه الفوارق الاعتبارية كهذا اليوم. ففيه التقى، عن فكرة وعقيدة، الجزائري بأخويه القسنطيني والوهراني، وفيه اجتمع ـ على تلك الفكرة ـ المصلحون والطرقيون وعلماء الدين ورجال السياسة، والشيوخ والشبان والتجار والفلاحون والعمال، جمعت الكل صفتا الإسلام والجزائرية، ووحّدتهم قسوة الأيام، وألفت بينهم المحن والهموم، فاندفعت ألسنتهم تعبِّر عن رغائب الدين بلغة الدين، وعن رغائب الدنيا بلغة السياسة.

والنقطة التي يلتقي عندها الكل، هي الإسلام والجزائرية، لذلك كان ضرورياً أن يكون مدار البحث على الإسلام ولسانه، والمسلم وحقوقه في الحياة.

انعقد المؤتمر برئاسة الزعيم الدكتور جلول، نائب قسنطينة المالي[1]. ومستشارها العمالي[2]، ورئيس جمعية نوابها، ومثّل فيه نواب العمالات الثلاث جميع منتخبيهم، ومثّلت فيه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المعنى العالي الذي هو سمة المؤتمر، وهو الإسلام، فحق أن يقال: إن الأمّة الجزائرية كلها حُشِرت في هذا المؤتمر، وإن قدرت الجرائد الفرنسية من ضمّتهم قاعة المؤتمر بخمسة أو ستة الاف شخص، وحزرناهم نحن بسبعة الاف أو يزيدون.

(1) نسبة إلى المجلس المالي الذي أسسته فرنسا سنة 1900 بالجزائر، ليشرف على ماليتها، وقد كان بمثابة البرلمان. أُلْغِيَ سنة 1947، وعُوِّض بما يُسمَّى «المجلس الجزائري».

(2) نسبةً إلى العَمَالَة وهي المحافظة أو الولاية.

سبق يوم المؤتمر يوم تمهيدي بنادي الترقّي، اجتمع فيه أنصار المؤتمر من شبَّان العمالات الثلاث، قدموا في شكل جمعيات مفوَّضة من طبقات الشباب الراقي العامل ليمثِّلوا عنصر التجديد في الأمَّة، ولينصروا المؤتمر ويؤيدوا النواب ويعينوهم بالقول والعمل، وشاركهم في هذا الاجتماع كثير من نواب العمالات الثلاث أيضاً. وكم كان جميلاً من أولئك الشبان ومن أولئك النواب أن يلوذوا بجمعية العلماء المسلمين، ويسترشدوا بها ويمزجوا رأيها برايهم، ويظهروا مجتمعين على معنى الوفاء لها والإخلاص لمبادئها والاعتراف بفضلها على هذه الأمَّة فيما أيقظت من مشاعر، ونبَّهت من إحساسات وجمعت على المصلحة العامة من قلوب.

وكانت الليلة التي أسفر صباحها عن المؤتمر، تمهيدية أيضاً، تقاربت فيها وجهات النظر المختلفة حتى اتفقت، وكانت ليلة بهيجة اجتمعت فيها عناصر القوة الثلاثة: العلماء والنواب والشبان، وتمثلت فيها العمالات الثلاث أكمل تمثيل.

وخلاصة ما استقر عليه الرأي في هذه الليلة، أن المطالب الجزائرية تنقسم إلى قسمين: قسم لا يختلف فيه نظر ولا يتشعب فيه رأي، لأنه عبارة عن مظالم صريحة وأوضاع شاذة كانت تعامل بها الجزائر بصورة استثنائية، كحرية القول والفكر والكتابة والاجتماع والتنقل والتعليم العربي والمساجد وكرفع القوانين الاستثنائية الشاذة..إلخ.

وقسم يحتاج إلى تأمل ودقة نظر، وهي الحقوق السياسية، وأشد مسائل هذا القسم تعقيداً مسألة النيابة في البرلمان[1].

. وقال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

وقد كانت تغمر المحافل الجزائرية أسماء برامج عتيقة في وضعها أو في معناها، ولكل برنامج أشياع وأنصار، وكان من رأي كاتب هذه الأسطر وجماعة من المفكرين، إلغاء تلك البرامج كلها، لأنها وُضعت في

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1 / 230).

ظروف ضيقة وبُنيت على اعتبارات فردية، وفي بعضها ما لا يتفق مع الرغائب الجزائرية الإسلامية، وفي بعضها ما يتصادم مع الذاتية الجزائرية الإسلامية، ووضع برنامج إسلامي جزائري روحاً ومعنىً واسماً، ينتزع من حالة المسلم الجزائري التي هو عليها الآن.

وكان من حسن التوفيق أن رجعت الاراء إلى هذا الرأي، فاجتمع الحاضرون في تلك الليلة التمهيدية على تسمية المؤتمر باسم «المؤتمر الجزائري الإسلامي»، وعلى عدم اعتبار البرامج القديمة أساساً له، وعلى المطالبة بحقوق المسلم الجزائري السياسية تامة غير منقوصة، مع المحافظة التامة على أحواله الشخصية الإسلامية تامة غير منقوصة، مع إصلاح الخلل الواقع فيها الان، وعلى إعطائه حق النيابة في البرلمان على أساس الانتخاب المشترك المتحد، بحيث ينتخب المسلمون مع الفرنسيين نائباً واحداً سواء كان مسلماً أو فرنسياً، وكل مسلم له حق الانتخاب اليوم في المجالس الجزائرية من بلدية وغيرها، له حق الانتخاب في النيابة البرلمانية.

ثم المساواة في الحقوق التي تتبع هذا التساوي في الانتخاب النيابي البرلماني.

وتفاوض الحاضرون في جميع المسائل التي يجب عرضها في المؤتمر وتقديمها باسمه، وفي نظام المؤتمر ومكتبه وخطابه، فوقع الاتفاق الإجماعي على إسناد رئاسة المؤتمر للزعيم السياسي الدكتور ابن جلول، وتأليف المكتب من النواب والعلماء والشبان، فمن النواب على الجزائر: الدكتور تامزالي النائب المالي، والدكتور البشير عبد الوهاب النائب العمالي، والسيد محمد الطاهر طيار، والصيدلي عبد الرحمن بوكردنَّه، النائبان البلديان.

وعن قسنطينة: السيد عبد الرحمن بن خلاف، والدكتور سعدان، والصيدلي عباس فرحات، النواب العماليون.

وعن وهران: السيد محمد بن سليمان النائب البلدي بتلمسان، ونائب رئيس جمعية النواب بوهران، والدكتور الجيلاني بن التهامي، والسيد محمد لالوت، النائبان البلديان.

وعن العلماء: الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي.

وعن الشبان والهيئات الإجتماعية جماعة منهم.

ووقع الاتفاق، على أن يتكلم باسم وهران الدكتور ابن التهامي، فيعلن للمؤتمر تضامن وهران مع العمالتين في جميع المطالب، ويتكلم باسم الجزائر الدكتور عبد الوهاب بمثل ذلك، ويتكلم باسم قسنطينة الصيدلي عباس فرحات، ثم يتعاقب الخطباء(1).

وعندما قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي الجزائري إسناد رئاسته إلى الإمام، خشي أن تعوقه هذه الرئاسة عن مهمته التعليمية والتثقيفية، التي ملكت قلبه ومشاعره وأحاسيسه، أصدر بياناً قال فيه: أنا مع شكري لإخواني الذين أولوني ثقتهم الجماعية، ومع كون الأمة الجزائرية لم تعرف عني في أي وقت من الأوقات الفرار من الواجبات، مع كل هذا أعلي لهؤلاء الإخوان أنهم أغفلوا حين أسندوا الرئاسة إليَّ عن أشغالي العلمية التي تستغرق أوقاتي كلها، والتي أضحي في سبيلها بكل عزيز.. وبناءً على هذا فإني أعلن لهؤلاء الإخوان والأمة الجزائرية كلها أنني لست لنفسي، وإنما أنا للأمة، أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها، وإن كل ما يقطع عليّ هذا الطريق أو يعوقني عن أداء واجبي في هذا السبيل، فإني لا أرضى به، ولو كان ذلك في مصلحة الأمة(2).

وبعد ذلك تم إسناد رئاسة المؤتمر إلى الدكتور ابن جلول.

1. يوم المؤتمر:

ما كادت الساعة المقرَّرة لافتتاح المؤتمر تدق، حتى كانت قاعة «الماجستيك» الفسيحة وإيوانها الفخم

(1) المصدر السابق (1 / 133).

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء ص 170.

وشرفاتها، كلها مكتظة بالوافدين من الأقطار الثلاثة[1]. فكان منظراً مؤثراً وإن الناظر ليدرك لأول نظرة أن طبقات الأمَّة كلها تمثَّلت في المؤتمر، فترى العامل، والتلميذ والفلاح، والغني، والفقير، والوجيه، والخامل، والفتى، والشيخ، ممتزجين متلاصقين، فتحكم بالبداهة كيفما كان سنُّك وحظك من شهود المجتمعات ؛ أنه أول مشهد من نوعه شهدته في عمرك بهذا الوطن.

انتظم المكتب بهيئته التي أسلفنا القول عنها، واستقرَّ رجال الصحافة في المقاعد التي خُصِّصت لهم، وافتتح المؤتمر الدكتور عبد النور تامزالي النائب المالي والبلدي بكلمة رحَّب فيها بالمؤتمرين، وتمنَّى لهم النجاح باسم مدينة الجزائر التي هو عضو في مجلسها البلدي، ونائب شيخها.

ثم قام رئيس المؤتمر الدكتور صالح بن جلول فخطب خطبة طويلة وصف فيها حالة الأمَّة، وبيَّن الأسباب الداعية لعقد المؤتمر والمقاصد التي ستعرض عليه. وأعلن في الأخير أن النواب كلهم مجمعون على المطالبة بالحقوق السياسية، ومنها التمثيل في البرلمان لا على أسس البرامج الشخصية الرائجة، بل على أسس المساواة التامة والتعميم التام، والمحافظة التامة على الأحوال الذاتية الإسلامية بحيث ينتخب الجزائريون على اختلاف أجناسهم نائباً واحداً، ويكون حق الانتخاب البرلماني حقاً لكل مسلم جزائري له حق الانتخاب المحلي، مع المحافظة والاعتراف للمسلم الجزائري بذاتيته الشخصية الإسلامية وأحكامه الإسلامية.

ثم قام بعده الدكتور الجيلاني بن التهامي النائب البلدي بمستغانم متكلماً باسم اتحاد نواب عمالة وهران، فأعلن للمؤتمرين تضامن جمعيته مع جمعيات النواب على هذه المطالب.

(1) جريدة «البصائر»، السنة الأولى، العدد 24، الجمعة 29 ربيع الأول 1355هـ/19 جوان 1936م. أي المقاطعات الثلاث أو المحافظات الثلاث وهي وهران، والجزائر العاصمة وقسنطينة.

وقام بعده الدكتور البشير عبد الوهاب نائب البليدة العمالي، فأعلن باسم نواب عمالة الجزائر تضامنهم مع إخوانهم على تلك المطالب.

وتكلم بعده السيد عباس فرحات نائب سطيف العمالي، فأعلن ما أعلنه زميلاه من قبل، وعلم شاهدو المؤتمر أن كلمة النواب مجتمعة على المطالب ومتفقة في النقطة التي كانت محل نزاع وهي نقطة التمثيل البرلماني وكيفيته.

ثم تكلم الدكتور سعدان نائب بسكرة العمالي عن سكان القسم العسكري الجنوبي(1)، فاقترح على المؤتمر المطالبة بحذف المحاكم العسكرية الشاذة وتصيير الأقسام الجنوبية مدنية، فوافق المؤتمر بالإجماع علىهذا الاقتراح.

ثم فتح الرئيس الباب للخطباء من النواب والعلماء والشبان على ترتيبهم المقرر، فخطب نحو العشرة منهم، وكانت خطب النواب والشباب كلها دائرة على أن الجزائر المخلصة المرتبطة بفرنسا ارتباطاً وثيقاً المقيمة على ولائها لها في أيام الشدة والرخاء وقدمت أصدق البراهين ؛ ليس من العدل ولا من الإنصاف أن لا تأخذ حقها في الحياة مستوفى. وليس من العدل ولا من الإنصاف أن ترزأ في ذاتيتها، وأن تدفعها ثمناً لتلك الحقوق زيادة على ما دفعته من أثمان غالية. وأن تحافظ على هذه الذاتية التي هي مناط فخرها بكل الوسائل، وأنها تساس في القرن العشرين بقوانين إستثنائية لا تليق بمكانتها ولا بسمعة فرنسا. فمن الحق والعدل أن تُلغى هذ القوانين الجائزة وتُمحى من الوجود، وأنها محرومة في القرن العشرين من الحقوق التي يتمتع بها الفرنسيون. فمن الحق والعدل أن تشاركهم في التمتع بتلك الحقوق كما شاركتهم في القيام بالواجبات.

ثم انتهى دور الخطابة إلى العلماء، فخطب الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين خطبة مؤثرة نوَّه فيها بقيمة هذا المؤتمر في تاريخ الجزائر، فعلا الهتاف والتصفيق، ثم تخلص إلى ذكر المطالب الخاصة بالدين واللغة العربية فشرحها للناس شرحاً وافياً، وأعلن أنه قدم بخلاصة تلك المطالب تقريراً لمكتب المؤتمر لينظمه مع المطالب الجزائرية. وتقدم للحاضرين بأن يرفعوا أيديهم إن كانوا موافقين على

(1) كان جنوب الجزائر خاضعاً للحكم الفرنسي العسكري.

هذه المطالب، فارتفعت في لحظة واحدة سبعة الاف يد وعلا الهتاف.

كان الدكتور ابن جلول رئيس المؤتمر قد تعرَّض في الاجتماع التمهيدي للمؤتمر للغة المؤتمر، وهل تقع المفاوضات والمحادثات فيه بالعربية أو الفرنسية، فحكم الواقع في المسألة وهو أن تكون الخطب السياسية باللغة الفرنسية لتؤدى المعاني بألفاظها الاصطلاحية، وليكون مراد المؤتمر منها واضحاً لا شبهة فيه، وليكون صدى المؤتمر مطابقاً لحقيقته، ولتسهل مهمة الصحافيين الأوربيين، وأن تكون الخطب المتعلقة بالمطالب الدينية من علماء الدين باللغة العربية.

لذلك كانت الخطب التي سبقت خطبة الأستاذ الشيخ ابن باديس . ما عدا خطبة الأستاذ العمودي . كلها بالفرنسية. وكانت أول خطبة أُلقيت باللغة العربية الفصحى هي خطبة الأستاذ ابن باديس، فأرهفت الاذان وطفح البشر على وجه الحاضرين. وخطب بعده كاتب هذه الأسطر. والأستاذ الشيخ الطيب العقبي، فتجارّت اللغتان في المؤتمر إلى غاية واحدة وتمثَّلت فيه تمثُّلاً صحيحاً.

كانت خطبة الأستاذ الشيخ الطيب العقبي طويلة، وكانت فيها مواقف فاترة، تعرض فيها لبعض المعاملات الشاذة والقرارات الجائرة، في مسألة المساجد والجمعية الدينية في الجزائر. فنقد تلك المعاملات، وتلك القرارات نقداً حارًّا، ولم يكن فيه خارجاً عن الموضوع كما زعم بعض الناس، لأن الأستاذ العقبي لم يتعرض لقرار منع التدريس الحر في المساجد إلا استدراكاً على الخطباء الذين تعرَّضوا لقرار شوطان وقرار ريني، وطلبوا إلغاءهما فذكرهم الأستاذ بأن هناك قراراً ثالثاً[1]نسوه، مع أنه لا يقلّ عنهما شذوذاً ومنافاة للعدل والإنصاف.

---

(1) المقصود هو القرار المعروف باسم «ميشال» الأمين العام لولاية الجزائر بالعاصمة. وقد صدر القرار سنة 1933، ويقضي بمنع أعضاء جمعية العلماء من إلقاء دروس الوعظ والإرشاد والتعليم في المساجد.

نص المطالب التي قدَّمها لمكتب المؤتمر رئيس جمعية العلماء خاصة بالدين واللغة العربية.

أ. اللغة العربية:

تُعتبر اللغة العربية رسمية مثل اللغة الفرنسية، وتُكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرَّة مثل اللغة الفرنسية.

الديانة:

ب. المساجد: تسلم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها، وتتولى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

ج. التعليم الديني: تؤسس كلية لعلوم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرِّسين ومؤذِّنين وقيِّمين وغيرهم.

د. القضاء: ينظَّم القضاء، بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها في الفصل السابق، وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال المحاكم، منها تدريس تلك المجلة، والتحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، وطبع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها.

«عبد الحميد بن باديس»

ختم المؤتمر بالموافقة الإجماعية على كل ما عُرض عليه من المطالب، وبالموافقة على أن يرفع باسم المؤتمر الشكر للحكومة الشعبية والثقة بها بتلغراف تُليت مسودته على المؤتمر فأقرَّها.

ثم عرضت اقتراحات خاصة قبلت كلها بالإجماع، منها التنوية بالرجال العاملين للقضية الجزائرية وذكرهم بالخير، فتقرَّر إرسال تشكرات المؤتمر للوزيرين فيوليت وموتي علمساعيهما المحمودة لخير الجزائريين. وتقرَّرت إقامة تذكار للأمير خالد الجزائري، وهتف المؤتمرون باسم «م. ألبان روزي» باعتبار أنه أول من رفع صوته من السياسيين بحق الجزائر.

واقترح الأستاذ العقبي عقد مثل هذا المؤتمر كلما جدَّ في القضية الجزائرية شيء، فقبل هذا الاقتراح بالإجماع.

ولما كان من الأصول المتبعة في كل مؤتمر تأسيس لجنة تنفيذية باسمه تنظِّم أعماله ومقرَّراته وتتعقبها وتواصل العمل على تنفيذها ورفعها إلى المراجع الخاصة، فقد كان آخر ما قرَّره المؤتمر الإسلامي الجزائري لزوم تأسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر تقوم بتلك الأعمال، وترك النظر في نظامها وأعضائها لمكتب المؤتمر على أن يؤسسها في مساء ذلك اليوم.

وفي مساء يوم المؤتمر اجتمع زعماء النواب ورؤساء اللجان بنادي الترقِّي، وقرَّروا تأسيس لجنة وقتية تتركَّب من ثلاثة نواب وثلاثة من العلماء وثلاثة من الشبان، تتولى تنظيم المطالب وترتيبها وتسعى في تكوين اللجنة التنفيذية التي يجب أن تكون دائرتها أوسع والتمثيل فيها أعم. فتألفت اللجنة الوقتية من الدكتور ابن جلول، والمحامي طالب عبد السلام، والصيدلي عبد الرحمن بو كردنة عن النواب، والشيخ البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيب العقبي، والشيخ محمد خير الدين عن العلماء، والسيد ابن الحاج، والسيد بو شامة، والسيد عبد الله العنابي عن الشبان.

وقد واصلت هذه اللجنة الوقتية أعمالها وعقدت جلسات متعددة، فرتَّبت المطالب ونظَّمت أوراق المؤتمر، وقرَّرت ـ في سبيل تكوين اللجنة التنفيذية ـ أن تسعى في تأسيس لجان تسمَّى لجان المؤتمر في المدن الكبرى من العمالات الثلاث، وكل مدينة تستتبع ملحقاتها لتكون هذه اللجان الفرعية قوة ومدداً للمؤتمر، وأن تنتدب كل لجنة عضواً من أعضائها ليكون عضواً في اللجنة التنفيذية.

وقرَّرت اللجنة الوقتية عقد اجتماع في الخامس جويلية الاتي بنادي الترقِّي بالجزائر، يحضره نواب اللجان المنتدبون عنها لتكوين اللجنة التنفيذية منهم، وفي هذا الاجتماع تسلَّم اللجنة الوقتية أعمالها والمطالب والأوراق التي تحت يدها، للجنة التنفيذية.

وبعد أن أتمَّت اللجنة الوقتية أعمالها سلَّمت جميع ملفات المطالب إلى هيئة متركِّبة من الأستاذ ابن الحاج، والأستاذ الأمين العمودي، والسيد اوزقان، لأنهم مقيمون بمدينة الجزائر، وعهدت إليهم بحفظ الملفات حتى تسلم إلى اللجنة التنفيذية وبمخابرة لجان المؤتمر وتلقي الأجوبة منهم بعنوان الأستاذ ابن الحاج.

وتفرَّق بقية الأعضاء ليسعوا في تأسيس تلك اللجان قبل الخامس من جويلية.

وفَّق الله العاملين وأعانهم وسدَّد خطاهم ووقاهم شر المفسدين.

هذا وصف مجمل للمؤتمر وخلاصة موجزة من أعماله، وقد وصفته الجرائد الفرنسية الصادقة في مهمتها أحسن وصف، وصوَّرته الجرائد العربية الصادقة في دينها ووطنيتها أصدق تصوير.

ولم يبق بعد هذا إلا عمل الأمَّة، وعملها في هذا الباب محصور في تأييد المؤتمر بالقول والفعل وإزالة العراقيل من طريقه، وحمايته من كيد الكائدين، والمحافظة على روحه ومبادئه، ووصفيه الجميلين الإسلام والجزائرية، فالمؤتمر مؤتمر الأمَّة الجزائرية الإسلامية. باسمها انعقد وباسمها تكلم ولمصلحتها سعى، وعن رغائبها عبَّر، وعن حقوقها دافع وناضل، فلتمدَّه بالتأييد والمعونة، ولتحذر شرور المفسدين والخائنين والموسوسين والدساسين ولتقابلهم بما يستحقونه من النبذ والخذلان.

إن هذا المؤتمر هو حجر الأساس في بناء مستقبل الأمَّة، ولا يبني مستقبل الأمَّة إلا الأمَّة.

2. يوم الجزائر[1]:

وقال الإبراهيمي عن الوفود:

من الوفود تترامى بهم قطر الحديد، من كل فج سحيق، وتتهادى بهم السيارات، من مختلف النواحي والجهات، تهوي أفئدتهم إلى مدينة الجزائر، ولو كان وراء البحر مطلب لخاضوا البحر إليه، أو كان في أعماقه مأرب لغاصوا في لجحه عليه.

---

(1) بيان شامل للمؤتمر الإسلامي الجزائري، مجلة «الشهاب»، الجزء الرابع، المجلد 12، جويلية 1936م.

من الوفود؟ يعلو وجوههم البشر والابتهاج، وتلوح عل قسماتهم أمارات الفرح والسرور، وترتسم على أساريرهم سمات الطرب والارتياح. لم يزدادوا علىالنصب إلا نشاطاً، ولم يورثهم اللغوب إلا عزماً ومضاءً، لم يعقهم شغل، ولم تثبطهم حاجة، ولم يثنهم بعد شقة.

من الوفود؟ توارد القطا على منهل، وتزاحمت تزاحم الحجيج على منسك، تحدثك عنهم سيماهم أنهم قوم تنازعتهم امال دافعة، وأشغال قاطعة، فهجروا الأشغال وانقادوا للامال، وتقرأ من حركاتهم واتجاهاتهم، وتطلعاتهم، وتحسبهم أنهم قدموا لغاية واحدة وأنهم كانوا فيها على ميعاد، وتستعرضهم تصعيداً وتصويباً، فلا ترى فيهم إلا المغوار وأبا المغوار فتقول إنهم جمعوا على تثويب متجاوب الأصداء، وحشروا لميقات يوم معلوم، وأن الذي جمع هذه الأشتات على اتحاد الوجهة وائتلاف المنزع كما تجمع طاقة الزهر على الحسن والشذى لا على التئام الألوان، واتساق الأوراق والأغصان، لأمر خطير ونبأ عظيم.

من العلماء؟ يزجرون المواكب ويقودون الكتائب، ويقدمون الصفوف ويمهدون لأنفسهم مكان العامل في الجملة والطليعة من الحملة. والبسملة من اللوح، يشاركون في الرأي ويساهمون في المشورة ويرتجلون الفتيا في المشاكل المستعصية فتأتي كفلق الصبح، وتعلو أصواتهم بالدعوة إلى الاجتماعات، والخطابة في المجتمعات، يُراع حمى الدين فإذا هم ذادة، وتُدعى إلى العظائم فإذا هم قادة، ويمثِّلون للأمَّة علماء سلفها الذين كانوا معاقلها المنيعة عند حلول النوائب، وأعلامها الهادية عند اشتباه المسالك، ومراجعها إذا ناب خطب أو حَزَبَ كرب، بعد أن كان الظن بهم أنهم قرَّاء فواتح وكتّاب «خواتم» وأحلاس معابد، أكبر شأنهم في الأمَّة أن يقولوا هذا حرام وهذا حلال.

من النواب؟ الموفون بالعهد على شيوع الخطر، المنجزون للوعد على كثرة الإخلاف، الحاملون للأمانة

على انتشار الخيانة والغدر، المضطلعون بما حملوا من أعباء على فشو القصور والتقصير، المسيِّرون للسفينة في موج كالجبال وليل خافت الذبال، وعواصف هوجاء، وطريق محفوفة بالأخطار ملتوية عوجاء، السائرون بالقافلة في صحراء طامسة الأعلام دامسة الظلام على هداية الرأي الأصيل إذا أعوز الدليل، والبصيرة النافذة إذا غش المستشار، والحق البين إذا اشتجرت المطامع والأهواء، والصبر الجميل إذا تقولت السياسة، والعزيمة الصادقة إذا ساور اليأس.

من الشبان؟ فتيان الحمى، وجنود الحق، ورعاة الماضي، وبناة المستقبل، ومعاقد الأمل الباسم، وطلائع العهد الجديد، ومستودع القوة في الأمَّة، وسرَّ التجدُّد والاستمرار فيها، ومبعث النشاط والحياة منها.

ما لهم يتدفقون تدفق السيل، ويندفعون اندفاع الأَتِيّ المزبد؟

ما بالهم متساوون كأسنان المشط، مستوسقين ككعوب الرمح، متسقين كنجوم الجوزاء؟ كأن لم تكفهم قوة الشباب ولم يقنعهم سلطان الشباب فأرادوا أن يسندوهما بقوة الاتحاد وسلطان الاتحاد؟

ما بالهم يخرجون عن طبع الشباب، ويتنصلون من غرارة الشباب، فيتّسمون بوقار الشيخوخة وجلالها، ويظهرون بمظهر الحنكة والتمرُّس؟

مهلاً فلذات الأكباد، وثمرات الأفئدة، وتزوَّدوها نصيحة خالصة محضتها التجربة ومحَّصها الاختبار، قد مضى أمسكم بخيره وشرِّه، وسينطوي يومكم هذا على غرِّه، وإنما أنتم أبناء الغد والغد محجوب، فتدرعوا له بالأخلاق الفاضلة تملكوا أزمته وتتقوا مذمته، وإنما أنتم موكولون إلى العمل والعمل محسوب، فأعيذكم أن يقول التاريخ عنكم ما قال عنا، وإنما أنتم أبناء العروبة والإسلام فكونوا للعروبة والإسلام.

أفتمارونني على ما أرى؟ أما والله ما كذب العيان ولا أخطأ الحدس، إنها ـ وأبيكم ـ لَلأُمَّة الجزائرية المسلمة العربية الفتية الناهضة، نفضت الغبار في غير تثاقل ولا تناعس، وستغبر في وجوه السابقين.

إنها الأمَّة الجزائرية وقد أسلمت مقادتها لمن يحسن القيادة في دينها ودنياها، بعد أن استفاقت على وقع الأحداث، وإلحاح العوادي، وحلول الغير، ونعيق النعاة، وتلاعب الأيدي السفيهة، تعلن حياتها، وتثبت وجودها، وتستأنف تاريخها، وتبني مستقبلها بيدها، وتعيد المعجزات العيسوية كرة أخرى، نطق في المهد، أو قيام من اللحد(1).

3 . أمس واليوم:

كانت حالة الجزائر قبل اليوم حالة مريبة لا تدعو إلى الاطمئنان. تفرُّق شنيع في الأمَّة لم يسلم معه دين ولا دنيا. والتباس حالك في المقاصد لا يظهر معه خطأ من صواب، ولا غيّ من رشد، ولا مفسدة من مصلحة، وسفه فظيع في الانتخابات لم يثمر إلا شَناناً وتمزيقاً. ولم يلد إلا نواباً لا يغنون عند حلول الخَطب بالأمَّة غناء، وكانت السياسة الجزائرية تسير إلى غايات الاستعمار المتطرفة على أوضاع شاذة، هي شر ما خلقت عصور العسف والظلم. وكانت الأمَّة محرومة حتى من رفع الصوت بالشكوى والتظلم، فلم يكن من المرجو لهذه الأمَّة أن يدال ليسرها من العسر ولسعادتها من الشقاء.

حتى قيَّض الله لها من رفع صوته بالإصلاح، وهيَّأها للاجتماع على الصالحات، فتدرجت في هذا السبيل واستبانت طريق الهدى فسارت عليه، وأول ما أونس منها من بواكير الرشد حسن اختيارها لنوابها، ومحاسبتها لهم على أعمالهم، واجتماعها على المطالبة بحقوقها بواسطتهم.

رفعت الأمَّة الجزائرية صوتها مطالبة بحقوقها عدة مرات، بواسطة نوابها الأحرار فرادى ومجتمعين. وخطبوا حكومة الجزائر مراراً فلم يلقوا منها إلا كل معاكسة لما كان يسودها من تأثير حزب الاستعمار، وسافر وفد النواب المعلوم إلى فرنسا في صيف سنة 33 فلقي تلك الخيبة المريرة، التي أذكت حماسة الشعب الجزائري فتضاعف نشاطه، وكانت عليه خيراً عميماً، وأنتجت للسياسة الاستعمارية عكس ما تريد.

(1) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (1 / 245).

وكانت حكومة فرنسا كلما تعالى صوت المطالبة تعمد إلى المسكنات والمخدرات، فأرسلت مرة لجنة من مجلس الشيوخ يرأسها م. فيوليت الوالي العام الأسبق للجزائر لتدرس الحالة وتشير بالعلاج. وأرسلت أخيراً وزير الداخلية لذلك العهد م. ريني. ولم تكن لتلك المسكنات من نتيجة ولا تأثير، والحالة الجزائرية لا تزداد إلا ارتباكاً. وحالة المسلم الجزائري تنتقل من سَّيأئ إلى أسوأ. والحكومة الجزائرية متصاممة عن سماع صوت المطالبة، ممعنة في إخفائه، إلى أن جاءت نتيجة الانتخابات التشريعية الفرنسية الأخيرة بفوز أحزاب الجبهة الشعبية، فارتفع صوت الأمة الجزائرية بالمطالبة من جديد وحدثت فكرة المؤتمر[1].

4. سرّ تعليق الامال على الجبهة الشعبية:

يهرف الجاهلون بحقيقة المسلم الجزائري أو المريدون به شرًّاً بكلمات لا قيمة لها في تأويل المظهر الذي ظهر به الجزائريون من تعليق امالهم وإعلان ثقتهم في الجبهة الشعبية، ويفسِّرون هذا المظهر بأنه اتجاه حقيقي نفساني نحو الاشتراكية المتطرفة أو الشيوعية، وهو تفسير خاطأئ بعيد عن الحقيقة. فإن المسلم الجزائري قد أقام الأدلة التاريخية على تصلبه في جزائريته وإسلامه، وعلى أنه ليس من السهل على الأحداث أن تكيُّفه بغير كيفيته التي طبعها عليه دينه ومقوِّماته. وهو بعد شكور على الإحسان لأول ما يرى مخايله، وقد تعاقبت على فرنسا في عهدها الأخير حكومات تنتمي إلى أحزاب، فلم تر الجزائر من جميعها بارقة خير ولا مخيلة إحسان ولو بالقول، ولا شفقة عليها ولا رحمة بها ولا رثاء لحالها، بل كانت على العكس من ذلك ترى من تلك الحكومات المتعاقبة زيادة في الإرهاق وإمعاناً في العسف، وتسمع عبارات التهديد والوعيد صريحة فصيحة، وقد تسمع في بعض الأوقات الوعود المعسولة فتبادر بالشكر المضاعف، ثم لا تكون النتيجة على طول الانتظار والصبر إلا الخيبة وتجرع مرارة الإخلاف.

(1) المصدر نفسه (1 / 246).

فلما فازت الأحزاب الشعبية، ومبادئها الإنسانية معروفة لجميع الناس، وبادرت بالإعلان بلسان صحفها والإفصاح عما تبيّته للشعب الجزائري من إصلاح سياسي واجتماعي، وما تضمره له من خير ورحمة هو أهل لهما، وَاحْتَفَّ بتلك التصريحات والوعود ما دلَّ على أنها ليست من جنس الوعود السالفة التي لم ينجز منها ولا واحد. لما وقع كل ذلك ؛ كان من المعقول جداً أن يكون هوى المسلمين الجزائريين مع الجبهة الشعبية وميلهم إليها وأن يقابلوا الخير بمثله، خصوصاً وقد كانت تلك التصريحات والوعود من أحزاب اليسار مسوغة في قالب يقتضي العطف على الشعب الجزائري والاعتراف بجميله وأهليته لتلك الحقوق، ويا ما أشرف عرفان الجميل إذا كان متبادلاً بين الطرفين!.

إن من خصائص هذه الأمَّة الجزائرية عرفان الجميل لأهله ومكافأة الإحسان بالإحسان، وهي خلالٌ طبعها عليها دينها. وقد سمعت من أحزاب اليسار وعوداً جميلة عريضة، فقابلتها بشكر جميل عريض طويل، ثم هي تنتظر ؛ فإن خرجت تلك الوعود إلى حيّز الإنجاز جعلت الشكر عليها وقفاً والإخلاص كفاءً. وإن خابت الظنون في هؤلاء كما خابت فيمن مضى قبلهم لجأت إلى الصبر والثبات كعادتها في النائبات، ولا تيأس من روح الله ولا تسمِّي الأشياء بغير أسمائها، فتقول للمسيء أحسنت وللكاذب صدقت.

إن هذه الأمَّة الجزائرية فقدت كل شيء،ولكنها لم تفقد دينها الذي علَّمها كيف تميِّز المحسن من المسيء، وعلمَّها كيف تكافأ الإحسان وإن قلَّ، بالإحسان الكثير، وكيف تكافأ الأساءة بالإساءة عدلاً وبالإحسان فضلاً، فليدع المتخرصون هذه الأمَّة المظلومة، وليعذروها في مظهرها الجديد الذي ظهرت به، ولا يحملوه على أنه نكاية في حزب وتحيّز إلى حزب. فمن الظلم الفاضح أن تلوم الجائع المغرور إذا هش لكلمة الإحسان، ونطقت جوارحه قبل لسانه بشكر المحسن، وقد كانت هذه الأمَّة تقابل أقل من هذا بأكثر من هذا، وعند المسيو فيوليت الخبر اليقين، فسلوه يخبركم أنه لم يظفر سياسي بمثل ما ظفر به من حب الجزائريين وتقديرهم وامتلاك قلوبهم، كل ذلك لكلمة خير قالها فيهم وسعي صالح سعاه في مصلحتهم، على ما يتطرق

ذلك السعي من شكوك واحتمالات وعلى أنه لم ينجز من سعيه قليل ولا كثير[1].

5. فكرة المؤتمر:

يسجِّل التاريخ المنصف فكرة عقد المؤتمر الإسلامي الجزائري للأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس، فقد كان نشر في جريدة (لاديفانس) في عددها الصادر في 3 جانفي سنة 1936 اراء له في السياسة الجزائرية كان لها وقع عظيم، ومن تلك الاراء التي ارتاها الأستاذ عقد مؤتمر إسلامي جزائري، فكان أول من فكَّر في عقد هذا المؤتمر قبل فوز الجبهة الشعبية بأشهر.

وللأستاذ ـ حفظه الله ـ اراء في شؤون الأمَّة الجزائرية ترجع في مردَّها إلى هذا الأصل. وهو أن المرجع في مسائل الأمة هو الأمة، والواسطة لذلك هي المؤتمرات. ونحن مع تسليمنا لوجاهة فكرة الأستاذ، نعتقد مستيقنين أنه لو دعا داعٍ قبل اليوم إلى عقد هذا المؤتمر ـ كيفما كانت منزلة الداعي في الأمَّة ـ لما باء إلا بالخيبة والفشل لأسباب يعرفها كل أحد، أما وقد فازت الجبهة الشعبية في الانتخابات التشريعية، وأصبحت أزمة الحكومة الفرنسية بيدها ؛ فقد أصبح عقد المؤتمر ميسوراً ومتأكّداً في ان واحد، فماذا وقع؟

كانت الدعوة إلى عقد هذا المؤتمر العام من قسنطينة، وكانت قوية مؤثرة بقوة مصدرها ومكانته في الأمَّة، ومصدرها رئاسة جمعية العلماء التي هيأت الأمَّة للاستجابة لدعوة الحق، بعد أن علَّمتها الحق، ورئاسة جمعية النَّواب التي لم تعرف الأمَّة معنى النيابة وحقيقية النيابة إلا منها، والتي ضربت المثل للإخلاص للمصلحة العامة والتفاني في خدمتها، وللأمَّة بهاتين الجمعيتين ثقة واسعة الحدود ثابتة الأسس.

لذلك كان صوتهما مجتمعاً أشدَّ تأثيراً في النفوس وأدعى إلى الاستيثاق والقبول. فما كادت تسمع تلك الدعوة الجامعة وتقرأ في الصحف عن عقد المؤتمر، الصادرة عن رئيس جمعية العلماء ورئيس جمعية النُّواب بقسنطينة حتى تلقَّته الأمَّة باذان مرهفة ونفوس متطلعة مستشرقة.

---

(1) المصدر نفسه (1 / 247).

لم يكن بين الدعوة إلى المؤتمر وبين عقده إلا أيام قليلة، فلم تنظم له دعايات واسعة كما هو الشأن في المؤتمرات الخطيرة، بل كان الاعتماد فيه على إحساس الأمَّة واتجاهها الصادق إلى المطالبة بحقوقها أكثر من الاعتماد على الدعاية والإعلان.

وكل ما وقع من الأعمال التمهيدية: انعقاد لجان تحضيرية من الشُّبان والعمَّال ورجال الصنائع والفلاَّحين وقدماء المحاربين في قسنطينة والجزائر وتلمسان وبعض مدن القطر، لتنظيم المطالب الخاصَّة المتعلِّقة بهذه الهيئات، ولإعانة المؤتمر على أعماله العامة. ولو تراخى الزمن وانفسحت المدة بين الدعوة إلى المؤتمر وبين عقده لكان المظهر أروع، والعديد أكثر.

ولعلَّ بعض الناس يرى من الحكمة أن لو تأخر انعقاد المؤتمر مدة عن الدعوة حتى تعدَّ له العدد اللازمة، وحتى تدرس المطالب وتختمر الاراء، وتتقارب وجهات النظر، إذ ليست المطالب الجزائرية من الأمور الهيِّنة التي لا يضرَّ وقوع الغلط فيها، بل هي في حقيقتها بناء مستقبل الأمَّة بأسرها، وإن غلطة واحدة في تلك المطالب لتؤدِّي إلى تجرُّع الأمَّة مرارتها أحقاباً.

والجواب عن هذه الملاحظة التي سمعناها باذاننا من بعض أولي الرأي، أن السبب الأكبر الداعي إلى التعجُّل بالمؤتمر أقرب إلى الحكمة من هذه الملاحظة على سدادها، وهذا السبب هو مسابقة الحوادث العائقة، والمفاجات الطارئة التي قد تعرقل المؤتمر وتبطئه، أو تفسده وتبطله، وأقلَّ ما يترتب على هذا من المفاسد تفسخ العزائم وفشل الإرادات وإنتكاث القوى، وما أكثر هذه الطوارأئ في هذا الوطن، وما أكثر العاملين على هدم المشاريع، فما عسى أن يكون في التعجُّل أيضاً انعقاد المؤتمرات على إثر تشكيل الوزارة الجديدة، وهو مبرر له مغزاه.

ولعلَّ هذه الملاحظة لا تندفع إلا إذا حلَّلنا المطالب الجزائرية بعض تحليل، ذلك أن هذه المطالب ترجع

إلى أصلين: مفاسد تدرأ ومصالح تجلب. وقد تستقلّ إحدهما عن الأخرى وقد تتلازمان، فإن طلبنا إلغاء (الانديجينة)[1] مثلاً فقد طلبنا درء مفسدة محققة لا يتنازع فيها إثنان من غير أن تترتب على درئها مصلحة إيجابية.

وإذا طلبنا إلغاء قرار شوطان القاضي بتعطيل الصحف العربية قبل بروزها، فهذه مفسدة يترتَّب على درئها مصلحة إيجابية وهي حرية الصحف العربية، فنكون قد حصلنا على فائدتين: درء مفسدة وجلب مصلحة. وهكذا يقال في حرية الفكر والاجتماع والتنقُّل وفتح المساجد، والمطالب التي هي من هذا القبيل لا يختلف فيها جزائريان ولا يتسرَّب إليها الغلط بحال، وليس عندنا إلا مسألة واحدة يعدّ التساهل أو الغلط فيها جريمة بل كفراً، وهي مسألة الحقوق الشخصية الإسلامية، ومسألة أخرى اختلفت فيها الأنظار ثم اتفق المؤتمر فيها على رأي حاسم وهي مسألة التمثيل البرلماني، وسيعلم القارئ تفصيل القول فيهما في هذا المقال.

6 . النقاط التاريخية في المؤتمر:

على الساعة التاسعة من صباح يوم السبت السابق ليوم المؤتمر ؛ اجتمع بنادي الترقي أفواج من شبان العمالات الثلاث، منتدبين من اللجان التحضيرية التي تشكلت في مختلف المدن ومفوضين في النيابة عنها والتكلُّم باسمها. وفي هذه اللجان تجتمع كل القوى الجزائرية وتتمثَّل جميع نواحي الحياة منها.

وشاركهم في هذا الاجتماع نواب تلمسان البلديون من بينهم السيد محمد ابن سليمان نائب رئيس جمعية النواب بوهران، والسادة محمد القلعي المحامي، ومحمد بن مرزوق ومحمد حميدو وبن عودة بوعياد نواب بلديون بتلمسان، والدكتور الجيلاني بن التهامي نائب بلدي بمستغانم، والسيد محمد لالوت نائب بلدي بسيدي بلعباس، والسيد بن عمارة نائب بلدي بتيارت، والدكتور سعدان نائب عمالي ببسكرة. وجمهور من أعيان العمالات الثلاث.

---

(1) كلمة فرنسي Indigenat معناها " الأهالي " ويطلقها الفرنسيون على الجزائريين احتقاراً لهم، وقانون الأنديجينة صدر في سبعينيات القرن الماضي، لا يطبق على الجزائريين ، وهو أبشع القوانين المعروفة في العالم وأقساها .

وتفاوض الجميع . في جو مشبع بالإخاء والتضامن والشعور باشتراك المصلحة . في كل النقاط التي تهم المؤتمر، وحلّلوا كل ما كان مشكلاً من نقاط الخلاف فتوصلوا فيها إلى حل قاطع.

وحضر في المناقشات الأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء، وكاتب هذه الأسطر، والشيخ محمد خير الدين، على معنى المشاورة وإعطاء الرأي في كل ما يتعلق من المطالب بالدين واللغة العربية.

وانفضَّ هذا الاجتماع على الساعة الثانية عشرة، وفي عشية ذلك اليوم اجتمعت هيئات الشبان والأعيان بالنادي الرياضي لإتمام أعمالها التحضيرية، واجتمعت هيئات النُّواب بقاعة «قيون تيل» لذلك الغرض، وعلى الساعة التاسعة من مساء ذلك اليوم اجتمع النُّواب وممثلو جمعية العلماء والشبان والأعيان بقاعة «قيون تيل»، وفي هذا الاجتماع تمَّ الاتفاق على صورة المطالب التي تعرض على المؤتمر للموافقة عليها وعلى الرأي النهائي لكيفية التمثيل البرلماني، وفيه اتفق الحاضرون على نظام المؤتمر وكيفيته، وأن يكون مركباً من النُّواب والعلماء والشبَّان، وعلى إسناد رئاسة المؤتمر العام إلى الدكتور بن جلول. وإنفضّ هذا الاجتماع على الساعة الثانية عشرة ليلاً، وتمادى النواب على أعمالهم الخصوصية إلى الساعة الثانية قبل الفجر.

7 . قائمة القرارات:

عرضت المطالب العامة على المؤتمر فأقرَّها بالإجماع، فأصبحت قرارات يجب على أولي الرأي والمسيرين للمؤتمر السعي بكلِّ الوسائل لتنفيذها باسم الأمَّة، ويجب على الأمَّة أن تتساند وتتعاضد وتقف صفاً واحداً من وراء قادتها المخلصين، وأن تحافظ على المؤتمر وقراراته كما تحافظ على أعزّ عزيز لديها.

. ثقة المؤتمر بالحكومة الشعبية الجديدة وشكرها على عواطفها نحو الأمَّة الجزائرية.

. إلغاء جميع القوانين والقرارات الاستثنائية الخاصَّة بالمسلمين.

ـ تخويل المسلمين جميع الحقوق التي يتمتَّع بها الفرنساويون، مع المحافظة التامَّة على المميزات الإسلامية التي يتمتَّع بها المسلم الجزائري في أحواله الذاتية الشخصية مع إدخال إصلاحات عليها.

. تخويل المسلمين الجزائريين حق التمثيل في البرلمان الفرنسي على هذه الصورة:

. إنتخاب مشترك بين المسلمين والفرنسيين.

. تعميم في المنتخبين المسلمين على الصورة الجارية الان في انتخاباتهم المحلية.

. تأكيد في المحافظة على الأحوال الشخصية الإسلامية.

. تأسيس لجنة تنفيذية للمؤتمر على الوجه الآتي بعد.

8 . قائمة الاقتراحات الفردية:

. إلغاء الولاية العامة وما يتبعها من الأوضاع الإدارية كالدوائر المختلطة[1] والقوَّاد[2]، وإلغاء مجلس النيابة المالية الذي يتحكم في الميزانية، وإلغاء المجلس الأعلى المبني عليه.

. إلغاء المحاكم العسكرية.

. عقد المؤتمر بهذا الاسم وبهذه الروح وعلى هذه المبادئ عند كل مناسبة.

. تكريم الرجال الذين عملوا لخير الجزائر بلا فرق بين أجناسهم، الأحياء بشكرهم باسم المؤتمر، والأموات بإحياء ذكراهم، وجرى في هذا الموقف ذكر فيوليت وموتي والأمير خالد والبان روزي.

---

(1) الأقسام التي يقطنها الجزائريون والفرنسيون ويحكمها قانون عنصري، ويسيِرها شخص يسمَّى «متصرِّف».

(2) جمع «قايد»، موظفون جزائريون مسؤولون عن القرى، وهو كشيخ البلدية في المدينة.

ـ طرح كلمة «انديجان» وهجر استعمالها.

ـ العفو عن المحكوم عليهم في حوادث 5 أوت[1].

ليس من شأن هذه المجلة الشهرية أن تفيض في نقل الخطب وتفصيل الوقائع، وإنما هذا من شأن الصحف اليومية والأسبوعية، وقد قامت الصحف الفرنسية والعربية بهذا الواجب، وأظهرت اهتماماً عظيماً بالمؤتمر، فأرسلت محرّريها ومصوّريها لحضوره، ونشرت عنه صوراً صادقة، وأبى لها إنصافها للتاريخ وإخلاصها لمهنتها إلا أن تعترف بروعته ونظامه وشرف مبادئه، ومن شَذَّ شَذَّ في النار.

وإذا لم يكن التفصيل من شأن هذه المجلة، فإننا كتبنا فيها من نقاط المؤتمر ما فيه إثارة للعبرة وإرسال للمثل، وحسب قرّائها منها هذا[2].

9 ـ أهم مقررات المؤتمر:

أول برنامج عرف في عالم السياسة الفرنسية الجزائرية مختصاً بالمسلمين الجزائريين هو برنامج م. فيوليت، وصاحبه من أبرز المشتغلين بالسياسة الأهلية الجزائرية، وقد أدار برنامجه على اعتبارات سياسية دقيقة لا يفهمها إلا الراسخون في علم السياسة، وأفرغه في قالب لفظي مستهوٍ خلاَّب، وينطوي على معانٍ غامضة ويحتمل وجوهاً كثيرة من الاحتمالات والتفسيرات، ومنها ما يعدُّ في الاعتبار النفسي الجزائري من الشعريات، ومثل هذه المعاني قد تكون عند التطبيق مثاراً للإشكال والعسر. وقد يكون من الحكمة في وضع برنامج مثل هذا يُبنى عليه مصير أمة كاملة ؛ أن تكون معانيه بمقربة من أفهام العامة، خصوصاً إذا كان تنفيذه يتوقَّف على رأي تلك الأمَّة أو على تأييدها.

ثم ظهر بعد برنامج فيوليت برنامج النائب «ڤيرنوت» وتواصل البرنامجان في مجلس الشيوخ، فلم يظفر واحد منهما بقبول، وبين البرنامجين خلاف في النقاط الجوهرية من الموضوع، وفي كليهما جهات صالحة، غير

(1) وقعت في قسنطينة سنة 1934، بسبب سَبّ يهودي رسول الله (ص).

(2) المصدر نفسه (1 / 251، 252).

أن برنامج فيوليت كان أكثر استهواءً لخاصَّتنا وشبابنا وأسيرَ على ألسنتهم، وبذلك بذ قرينه في الشهرة والحظوة، وظهر برنامج «كيطولي» نائب قسنطينة فلم يلقَ في الأوساط الجزائرية أدنى اعتبار.

وظهر في آخر وقت برنامج دوروكس، نائب الجزائر، فكان حظُّه قريباً من حظ سابقه.

فلما أعلنت الدعوة إلى المؤتمر كانت الأنظار مختلفة في أي البرامج يجب أن تكون المطالبة بالحقوق على أساسه، وكان أنصار برنامج فيوليت أكثر عدداً في الطبقات المتنوِّرة وأقوى نفوذاً، ومن العجيب الدالِّ على تقدير هذه الأمَّة للجميل أن معظم تأثُّر أنصار هذا البرنامج اتٍ من اسم صاحبه واشتهاره ببعض المواقف في صالح المسلمين أكثر مما هو ات من التحقُّق بصلاحيته في العاجل أو في الاجل، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ذهاب هذه الأمَّة في المكافأة على الإحسان إلى الأمد الأقصى.

كان من رأينا في هذا النزاع والتحيُّز إلى البرامج أن تُلغى كلها، وأن لا يتَّخذ واحد منها أساساً للمطالب الجزائرية، وذلك لأنها كلها وضعت في ظروف خاصة وبُنيت على اعتبارات خاصَّة، وقد ذهبت تلك الظروف وتلاشت تلك الاعتبارات، وأصبحنا نسمع من شبه المسؤولين في الحكومة الشعبية أن حكومتهم مستعدَّة لإعطاء أكثر ما يمكن من الحقوق للأمَّة الجزائرية، فلا يكون من السداد ولا من الحكمة أن نتقيَّد في ظرف كهذا ببرنامج لو كُلِّف واضعه بوضعه في هذا اليوم لما رضي به لنا ولوضعه على نحو اخر، بل الواجب أن نضع لمطالبنا برنامجاً مستقلاً منتزعاً من حالة الأمَّة الجزائرية منطبقاً على نفسيتها وميولها الخاصة، وقد صارحت بهذا الرأي إخواننا نوَّاب عمالة وهران في اجتماعهم الأخير بتلمسان، عندما رأيتهم مختلفين حول أسماء البرامج، فرجعوا إلى هذا الرأي واقتنعوا بسداده[1].

(1) المصدر نفسه (1 / 253).

ثم لما قدمنا الجزائر وجدنا إخواننا كلهم رجعوا إليه واقتنعوا بسداده، وكانت نتيجة هذا كله أن قرَّر المؤتمر دعم تقييد المطالب ببرنامج معيَّن وعدم بنائها على أساس برنامج مخصوص.

ومعنى هذا كلَّه أن المؤتمر بحكمه هذا وقراره هذا ؛ قد فضَّ أعظم مشكلة، وأزال أكبر خلاف كان يأتي ـ لو ترك ـ بأسوأ الاثار في المجتمع، فشكراً للمؤتمر الإسلامي الجزائري على هذا القرار الخطير[1].

10 ـ اللجنة التنفيذية:

المؤتمرات في الحقيقة قوّات تشريعية تستمدَّ قوتها من الجمهور الحاضر المقرِّر والجمهور الغائب المؤيد، والقوة التشريعية تحتاج دائماً إلى قوة تنفيذية، تتابع الأعمال حتى تنتهي بها إلى التنفيذ، لذلك كان من الأصول المتبَّعة في المؤتمرات أن تؤسس لها لجنة تُسمَّى اللجنة التنفيذية، وظيفتها تنفيذ كل ما يقرره المؤتمر وتطبيقه على النحو الذي قُرِّر عليه، فإذا قرَّر المؤتمر مطلباً أو اقتراحاً سعت اللجنة في تنفيذه بجميع الوسائل، وتتحمَّل مسؤولية كل ما يقع من تقصير أو إخلال.

وعلى هذه السنة جرى المؤتمر الإسلامي الجزائري، فقرَّر تأسيس لجنة وأقرَّها.

إن الأعمال العظيمة أو الكبيرة إذا وكلت إلى فرد ضاعت أو اختلطت، وتوزيع الأعمال ـ مقرونة بالمسؤولية ـ على أفراد معينين أدعى للسرعة والإنجاز وعدم الضياع والاختلال، وإذا كانت مقررات المؤتمر الإسلامي الجزائري كلها مطالب واقتراحات، فإن مهمة اللجنة التنفيذية تنحصر في تنظيمها وترتيبها وطبعها في كرّاس يسمَّى «كرَّاس المؤتمر الإسلامي الجزائري»، وتقديمها للمراجع الحكومية المختصَّة بواسطة وفد من النُّواب توفده أو بما تراه من الوسائط[2].

(1) المصدر نفسه (1 / 253).

(2) المصدر نفسه (1 / 254).

وقد تمّت على الوجه الآتي:

11. ما تمَّ بعد المؤتمر ولم تنشره الصحف:

اجتمع بنادي الترقِّي في مساء يوم المؤتمر رؤساء جمعيات النُّواب وكثير من أعضائها البارزين وممثلو جمعية العلماء ورؤساء لجان الشبّان المؤيدين من العمالات الثلاث، وتداولوا إبداء ارائهم في كيفية تنفيذ قرار المؤتمر النهائي القاضي بتشكيل لجنة تنفيذية للمؤتمر. فاتفقت الاراء على أن اللجنة التنفيذية يجب أن تمثّل فيها الأمَّة تمثيلاً واسعاً، وقبل النظر فيها يجب تأليف لجنة مؤقتة من تسعة أعضاء: ثلاثة من النُّواب، وثلاثة من العلماء، وثلاثة من الشُّبان، على اعتبار واحد من كل طائفة عن كل عمالة، لترتب مطالب المؤتمر وتنظِّم مقرَّراته وتهيأئ العمل للجنة التنفيذية، ويوكل إلى هذه اللجنة المؤقتة النظر في تكوين اللجنةالتنفيذية بما تراه بعد الدرس والتمحيص.

فتألّفت اللجنة المؤقتة فعلاً من ثلاث نواب هم الدكتور بن جلول رئيس المؤتمر، والمحامي عبد السلام بن الطالب، والصيدلي عبد الرحمن بو كردنة، وثلاثة من العلماء وهم المشايخ محمد خير الدين، الطيب العقبي، البشير الإبراهيمي، وثلاثة من لجان الشُّبان، وهم الأستاذ بن الحاج، والمهندس عبد الرحمن بوشامة، والسيد عبد الله العنابي.

وقد وكل النُّواب أمرهم إلى أحدهم وهو الصيدلي عبد الرحمن بو كردنة، وفوَّضوا إليه أن يتكلم باسمهم في هذه اللجنة ويبرم مع إخوانه ما يراه صالحاً، وشارك في أعمالها بصورة فعلية الأستاذ الأمين العمودي والشيخ محمد خير الدين ممثلين لجمعية العلماء، واضطّر السيد عبد الله العنابي إلى الرجوع إلى بلده فوكّل الشاب أوزقان.

لبثت اللجنة المؤقتة أسبوعاً كاملاً ـ بعد ارفضاض المؤتمر ـ توالي اجتماعاتها بنادي الترقِّي، فرتَّبت المطالب والقرارات والاقتراحات ونظمتها، ومهَّدت طريق العمل للجنة التنفيذية وعبّدتها، واستقرَّ الرأي في كيفية تشكيل اللجنة التنفيذية أن يقوم الأعضاء العاملون في اللجنة المؤقتة بعد رجوعهم إلى دوائرهم بجولات منظمة

في أقسام العمالات الثلاث، ويقيمون فيها اجتماعات عامة يشرحون فيها أعمال المؤتمر وقراراته، ويبيّنون فوائده وثمراته الحاصلة والمرجوَّة، ويدعون الأمَّة إلى حمايته وتأييده ويؤسسون في كل قسم لجنة فرعية، تسمَّى (لجنة المؤتمر) برئيسها وكاتبها وأمين مالها، وتنظيم كل لجنة جميع الملحقات التابعة لذلك القسم حتى القرى الصغيرة، على أن تقوم هذه اللجان بالدعاية للمؤتمر والدعوة إلى تأييده، ويراعى في تأسيسها المعنى الذي أسست عليه اللجنة المؤقتة بالجزائر من جميع العناصر الثلاثة: النُّواب والعلماء والشُّبان، فإذا تمَّ تأسيس لجان المؤتمر على هذه الكيفية المنظَّمة انتخبت كل لجنة منها عضواً من أعضائها ليكون عضواً في اللجنة التنفيذية التي ستنعقد أول إجتماعاتها في الخامس من شهر جويلية الاتي بنادي الترقِّي بالجزائر.

وبهذه الكيفية تكون اللجنة التنفيذية للمؤتمر ممثِّلة للأمَّة أكمل تمثيل.

ثم أودعت اللجنة المؤقتة جميع أوراق المؤتمر وملفَّاته بعد فحصها وإحصائها عند ثلاثة من أعضائها المقيمين بالعاصمة، وهم الأستاذ بن الحاج ممثلاً للشُّبان والأستاذ الأمين العمودي ممثلاً للعلماء، والصيدلي عبد الرحمن بوكردنة ممثلاً للنُّواب، وعهدت إليهم بأن يكونوا نقطة اتصال بين المؤسسين للجان المؤتمر، حتى إذا تمَّ تأسيس اللجان وانتخب أعضاء اللجنة التنفيذية وانعقدت الجلسة الأولى في الخامس من جويلية بصفة رسمية، سلَّموا لها كل ما تحت أيديهم من أوراق المؤتمر وقراراته، وبذلك تكون اللجنة المؤقَّتة قد أتمَّت أعمالها وأدَّت الأمانة إلى أهلها.

وسيكون أول أعمال اللجنة التنفيذية طبع المطالب والقرارات باللغتين العربية والفرنسية في كراسة تسمَّى «قرارات المؤتمر الإسلامي الجزائري»، وتشكيل وفد من النُّواب يسافر إلى فرنسا باسم المؤتمر لتقديم مطالبه[1].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 255).

12. مطالب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:

للأستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائرين وصاحب جريدة «المنتقد» الشهيدة ومجلة «الشهاب» آراء ناضجة حكيمة في السياسة الجزائرية، وقد رفع صوته بها قبل أن يرتفع أي صوت آخر من أصوات اليوم، ونشرها في «المنتقد» و«الشهاب» وغيرهما في عدة مناسبات يوم كانت الألسنة خرساء والأقلام مقيَّدة.

ولما قدَّم لمكتب المؤتمر مطالب جمعية العلماء المسلمين المتعلقة بالدين واللسان العربي صدر تقريره الموجز البليغ ببيان رأيه الخاص في المساواة والنيابة، ثم أردفه ببيان مطالب الجمعية.

وهذا نصَّ التقرير:

. حقوق الأمَّة الجزائرية التي تطلبها من الأمَّة الفرنسية:

مقدمة:

إن الأمَّة الجزائرية قد شاركت الأمَّة الفرنسية في مواقف الموت، فمن الحق والعدل أن تساويها في مواقف الحياة.

إن الحياة تُشترى بالأرواح والأبدان، والأمَّة الجزائرية قد بذلت أرواحها وأبدانها مع الأمَّة الفرنسية ومثلها، ومن دفع الثمن فمن الحق والعدل أن يأخذ المثمن.

إن الأمَّة الجزائرية سمعت في أيام الشدَّة ومواطن اليأس من الأمة الفرنسية أنهما يستويان في السلم كما تساويا في الحرب. فأما الذين ماتوا في تلك الأيام فقد ماتوا وقلوبهم تنعم بذلك الأمل المعسول. وأما الذين بقوا بقيت قلوبهم تتجرَّع الخيبة بعد الخيبة وتنطوي على الألم بعد الألم.

إن الأمَّة الفرنسية لا تستغني عن الأمَّة الجزائرية، كما لا تستغني الأمَّة الجزائرية عنها، فمن الخير لهما معاً أن لا تشعر الواحدة منهما من ناحية الأخرى بنقص في الود أو ظلم في الحقوق.

وعلى هذا بنينا ما نقدِّم من الحقوق التالية طالبين من الأمَّة الفرنسية، وخصوصاً من الحكومة الشعبية الجديدة التي تمثِّل الشعب الفرنسي والمبادئ الجمهورية أصدق تمثيل ـ باسم الحق والعدل ـ تنجيزه.

الأوضاع والمعاملات الخاصة:

لا تتحقق المساواة المطلوبة إلا برفع جميع الأوضاع الخاصة مثل المتصرفيات ومجالس «الكريمينال»[1] والمعاملات الخاصة مثل الأنديجينه وأعطيات الجندية، وزيادة مدة الخدمة العسكرية، والبرنامج الخاص بالتعلُّم في المكاتب الابتدائية وغيرها، وحرمان عمَّال الجزائر من كثير مما يتمتع به العمَّال الفرنسيون.

النيابات:

لا يمكن للأمَّة الجزائرية أن تنال حقَّها من الحياة على الأرض الجزائرية ما دامت لا تمثِّلها في جميع المجالس إلا أقلية، فأوَّل مطلب في النيابة هو تسوية نواب الجزائريين بالنُّواب الفرنسيين في جميع المجالس، ثم مطلب توحيد النيابة البرلمانية بكلا المجلسين، بحيث يشارك في انتخاب النُّواب البرلمانيين مشاركة فعلية جميع سكان الجزائر على اختلاف أجناسهم وعقائدهم مع بقاء المسلمين على جميع ذاتياتهم الإسلامية.

هذا التصدير قدَّمه الأستاذ للمؤتمر باسمه الخصوصي، وعلى أنه رأي من الاراء يضمّ إلى نظائره، وبعد هذا بيَّن في إيجاز بليغ مطالب جمعية العلماء وقدَّمها باسمها وهي:

«اللغة العربية»:

تعتبر اللغة العربية مثل اللغة الفرنسية، وتُكتب بها مع الفرنسية جميع المناشير الرسمية، وتعامل صحافتها مثل الصحافة الفرنسية، وتُعطى الحرية في تعليمها في المدارس الحرة مثل اللغة الفرنسية.

(1) كلمة فرنسية معناها الجرائم، الجنايات.

«**الدين**»:

1 ـ **المساجد**: تسلَّم المساجد للمسلمين مع تعيين مقدار من ميزانية الجزائر لها يتناسب مع أوقافها. ويتولَّى أمرها جمعيات دينية مؤسسة على منوال القوانين المتعلقة بفصل الدين عن الحكومة.

2 ـ **التعليم الديني**: تؤسَّس كلية لتعليم الدين ولسانه العربي لتخريج موظفي المساجد من أئمة وخطباء ومدرِّسين ومؤذنين وقيِّمين وغيرهم.

3 ـ **القضاء**: ينظِّم القضاء بوضع مجلة أحكام شرعية على يد هيئة إسلامية، يكون انتخابها تحت إشراف الجمعيات الدينية المشار إليها في الفصل السابق، وإدخال إصلاحات على المدارس التي يتخرج منها رجال القضاء، منها تدريس تلك المجلة والتحقق بالعلوم الشرعية الإسلامية، وطبع التعليم بطابعها لتكوين رجال يكونون من أصدق الممثلين لها.

هذه هي النقاط الأساسية التي تنبني عليها المطالب الدينية، قدَّمها رئيس جمعية العلماء باسمها للمؤتمر، لتكمل بها مطالب الأمَّة الجزائرية في نواحي حياتها الأخرى، وقد وافق المؤتمر على هذه المطالب بإجماع برفع الأيدي بهيئة رائعة مؤثرة، وجمعية العلماء على استعداد تام لشرح هذه النقاط وبيان تفاصيلها وكيفية تطبيقها[1].

13 ـ أثر مشاركة جمعية العلماء في المؤتمر:

كانت تلك اللحظة العلنية التي ظهر بها ممثلو جمعية العلماء المسلمين في هذا المؤتمر، من الدعوة إليه وحياطته وتأييده ؛ مثار ابتهاج عظيم عند المخلصين للوطن والعاملين على خيره، لأنهم يعلمون ما في مشاركة العلماء في المؤتمر من خير وفائدة للأمَّة وما فيها من قوة، وتمكين للمؤتمر، ومثار فرح واغتباط في الطبقات العامية، لأنها ترى في حضور العلماء للمؤتمر ضماناً وكفالة لأعزَّ عزيز لديها ـ وهو الدين واللغة العربية ـ وكانت

(1) المصدر نفسه (1 / 257).

من جهة أخرى مثيرة لسخط أشخاص ومقامات عرفناها وبلوناها، فلم نعرف منها الرضى بما يسرّ المسلمين، ولا الفرح بما يقرب بعضهم من بعضهم. ولم ننل منها إلا كل معاكسة لمصالحهم، ونحن لا يهمُّنا من أمر هؤلاء الأشخاص ولا هذه المقامات شيء ؛ ما دمنا قد أدَّينا واجبنا نحو ديننا ولغتنا وشاركنا في عمل صالح لأمَّتنا.

وإنك لتسمع بعض الألسنة التي تترجم عن قلوب جاهلة أو مريضة تردِّد هذا السؤال: ما معنى مشاركة العلماء في مؤتمر سياسي؟ كأنهم يريدون تخويفنا بهذا الغول الموهوم غول السياسة، وتفويت الفرصة علينا بمثل هذه الترهات. وكم أضاعت هذه الترهات على الغافلين من فرص.

وإننا لنعلم أن وراء الأكنَّة، شخوصاً مجتنة، في كيد الأبالسة وخفاء الجِنّة، وإن هذه الشخوص جربت العلماء فوجدتهم لا يلينون لغامز، فيسوؤها أن ينعقد المؤتمر، ويسوؤها بنوع خاص أن يشارك العلماء فيه، فيكتسب قوة من قوَّتهم وثباتاً من ثباتهم ولوناً راسخاً مما عرفوا به من الرسوخ، ثم يتحوَّل غيظها عنه إلى قالة السوء يشيعونها عليه، وأحدوثة الاستهجان يرمونه بها في طوائف مخصوصة، تردِّد تلك الأصداء وتلبس علينا بأن المؤتمر يهمُّها أكثر مما يهمُّنا، باية أنها لا تستهجن إلا جوانب النقص فيه، ومن جوانب النقص ـ في هذا المنطق الزائف ـ اشتراك العلماء في المؤتمر.

فويحكم.. إن العلماء الذين تعنونهم هم من الأمَّة في الواقع والحقيقة، في حال إنكم لا تعدون منها إلا بالزعم والدعوى، وإن العلماء يمثِّلون الوصف الذي ما كانت الأمة أمة إلا به وهو الإسلام ولسانه، وإن مطالب الأمَّة التي رفعت صوتها بها في المؤتمر ترجع إلى أصول أربعة، الدين والاجتماع والسياسة والاقتصاد، وإن لكل مطلب من هذه المطالب فروعاً متشابكة، وإن كل أصل من هذه الأصول يحتاج إلى بحوث ودراسات تفتقر إلى كفايات واختصاصات، وإذا كان في نواب الأمَّة ومفكريها من فيه الكفاية والمؤهلات لدراسة المطالب السياسية ووصل مقدمتها بنتائجها وإعطاء رأي ناضج فيها، أو كان في فلاَّحينا وتجَّارنا من

نعتمد عليه وعلى رأيه في المطالب الاقتصادية مثلاً، فَمَنْ للمطالب الدينية وما يتبعها من اللغة العربية غير العلماء[1]؟

14 ـ كلمة ابن باديس بمناسبة اجتماع الوفد الجزائري بالشعب:

أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم، كلمته من كلمة الله، وإرادته من إرادة الله، وقوته من قوة الله، أو لست منذ شهر كونت مؤتمراً كما ينبغي أن يكون جلالاً وروعة، فذلك مجلى إرادتك ومظهر قوتك، وكونت هذا الوفد الكريم فحمّلته مطالبك، فاضطلع بها وأدى الأمانة في ثمانية أيام، وهي لا تؤدى إلا في إضعاف ذلك من الأيام، وفدٌ ـ لعمر الله ـ مثلك في قوتك وإرادتك وحياتك وكرمك، وفد متحد متعاون متساند، زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف، فعرفك إليها ورفع إليها صوتك. ولقد كدت تكون أيها الشعب مجهولاً عندهم تمام الجهل، لكن بأعمالك العظيمة وبما قام به الوفد ؛ صرت معلوماً لدى من يعرف الحق ويحترم الكريم وينصف المظلوم.

أيها الشعب، إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها وكيف نحيا ونموت لأجلها؟.

إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا فلا نفتحها إلى الأبد.

أيها الشعب، لقد عملت وأنت في أول عملك فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام، واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو الا خطوة ووثبة ووراءه خطوات ووثبات. وبعدها إما الحياة وإما الممات[2].

---

(1) المصدر نفسه (1 / 258).

(2) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 332).

15 . مشاهدات وملاحظات ابن باديس مع الوفد فقد قال:

. تمهيد:

لقد كان مقرراً أن يزور الوفد تلمسان وقسنطينة بعد اجتماع الجزائر الذي وقع في 14 جمادى الثانية أوت ليطلع الأمّة على أعماله وأماله، وكان مقرراً أن يكون السفر لتلمسان مساء ذلك اليوم. ولكن مكيدة قتل ابن كحُّول المشؤومة حالت دون ذلك، وما ينبغي . في نظرنا . أن تحول. ويا ليتها أدت إلى التأخير فقط، ولكنها كانت تكاة لمن لم تكن له رغبة في تلك الزيارة في الترك والإبطال. ولهذا رأينا أن نطلع قراءنا على شيء مما بقي بأذهاننا مما شاهدنا ولاحظنا، وشيء في الجملة خير من لا شيء[1].

. على ظهر الباخرة:

كان أعضاء الوفد . من النواب والعلماء والشبان . كأسرة واحدة في الأنس والعطف والاتحاد، وكانت أوقات ينفرد فيها الشيوخ الثلاثة فهي التي أتحدث عنها لما فيها من أدب خاص.

. الأستاذ العقبي:

يعرف الناس العقبي واعظاً مرشداً يلين القلوب القاسية، ويهدم البدع والضلالات العاتية بقوة بيانه وشدة عارضته، ولكن العقبي الشاعر لا يعرفه كثير من الناس. فلما ترنحت السفينة على الأمواج وهب النسيم العليل ؛ هب العقبي الشاعر من رقدته، وأخذ يشنف أسماعنا بأشعاره، ويطربنا بنغمته الحجازية مرة والنجدية أخرى.

ويرتجل البيتين والثلاثة والأربعة في المناسبات . وهاج بالرجل شوقه إلى الحجاز، فلو ملك قيادة الباخرة لما سار بها إلا إلى جدة دون تعريج على مرساي، وإن رجلاً يحمل ذلك الشوق كله للحجاز ثم يكبته ويصبر على بلاء الجزائر وويلاتها ومظالمها ؛ لرجل ضحى في سبيل الجزائر تضحية أي تضحية.

(1) المصدر نفسه (3 / 333).

ـ الأستاذ الإبراهيمي:

وبينما كان حكيمنا الإبراهيمي يساجل الأستاذ العقبي ذكرياتهما بالحجاز وأيامهما بطيبة الطيبة، ويفيض في الحديث عن أيامه هو بالشام وتعليمه بالمدرسة السلطانية بدمشق ويحدث عن رفاقه وأصدقائه من أدباء الشام وشعرائها وعلمائها ورجالها ـ الذين لا تخلو الجرائد اليوم من ذكرهم ـ إذا به ينتقل بنا فجأة إلى الأندلس. وعجبنا بادأئ بدء لتلك القفزة من الأستاذ حتى ذكرنا ما بين الشام والأندلس من علاقات في فتحها وانتقال الخلافة الأموية إليها فقلنا إن الأستاذ قد عوضه الله من القوة في عقله ما ضاع عليه في رِجله وكدنا نغبطه على عَرَجِهِ. وهاجت الذكرى الأندلسية بصاحبنا الإبراهيمي وأخذ في الحديث عليها وعلى وطنينا المقري مؤرخها حتى كاد ينثر علينا «نفح الطيب» من حفظه، وعلمنا أننا سنرى أنوار الأندلس بعد الغروب وبدت لنا بعد صلاة المغرب فطار لب صاحبنا وأخذ يهلل ويكبر ويحوقل ويسترجع.

وسبقته إلىقول الشاعر:

كبّرت نحو ديارهم لما بدت منها الشموس وليس فيها المشرق

فكاد يجنّ جنونه، وأخذ يحدث عن شموس العلم التي بدت من ذلك الأفق، وعن الثائر ابن غانية وما يتصل به، وقضيناها سهرة أمام تلك الأنوار، وأين منها عندنا «نار غالب» أو «نار الملحق»[1].

الأستاذ عبد الحميد بن باديس:

هذه هي المرة الأولى والأخيرة أعبر فيها عن نفسي كما عبرت عن رفيقي «الأستاذ»، فإن ما كنا نشعر به من الاتحاد الروحي كرّه إليَّ أن أعبر عن نفسي بغير ما عبرت به عنهما وأنا في قرارة نفسي أبغض التواضع المصنوع، كما أبغض الادعاء الكاذب فلا أعرفه من نفسي ولامرة واحدة، وأما التواضع المصنوع فمما تنقضي به العادة ويحتمه أصل التربية، وقد خرجت عنهما هذه المرة امتثالاً للطبع ولن أعود.

(1) المصدر نفسه (3 / 335).

لقد كنت مأخوذاً بأدب الرفيقين ولطفهما، وكنت أختم إنشادات العقبي بالاهات والأنات، وتارة بالهزات والوقفات، وكنت أساوق الإبراهيمي الحافظة فيما ينشد من «نفح الطيب» وقد طال عهدي به. ولم تفارقني مهنة المعلم فكنت أجدني عن غير قصد أقرر نكتة في بيت من الشعر أو عبرة في حادثة من التاريخ، فيوافق الرفيقان وقد يخالفان. وكنت بحكم مهنتي أيضاً، أفكر في تلامذتي وإعدادهم لمثل مقام هذين العالمين الأديبين العظيمين، فلن يحفظ الإسلام والعربية في الجزائر إلا بأمثالهما فينبعث في عزم على الجد والاجتهاد في التعليم كل ما بقي من حياتي حتى آخر ومضة من الروح واخر قطرة من الدم. ويمر بذهني خاطر مزعج يكدر عليَّ ذلك الصفو ويكاد يضعف ذلك الأمل. أتدري ما هو الخاطر: هو «صندوق الطلبة» الفارغ المدين، ولكنني سرعان ما أزيله بكلمتي التي ألهمت إلى قولها منذ نحو ربع قرن: «نحن على الفيض الرباني» ولن نزال عليه إن شاء الله.

. المقابلات الرسمية:

استقبلت الوزارات المقصودة كلها الوفد كله، فكان رئيس الوفد الدكتور ابن جلول يقدم الوفد للوزير واحداً واحداً، ثم يلقي كلمات في التعريف بالوفد ومقاصده وما يناسب مقام زيارة الوزير، ثم يتكلم الوزير بما يدل على الترحيب وحسن القبول، ثم يتلو الكاتب العام للجنة المؤتمر الأستاذ ابن الحاج مطالب الوفد، وهي التي قررها المؤتمر ويشرحها مطلباً مطلباً شرحاً وافياً، ثم يجيب الوزير أهم تلك المطالب ويناقش في بعضها ثم تكون كلمات من بعض الأعضاء في أثناء الحوار.

هذه هي الصورة الإجمالية العامة لجميع المقابلات على ما يختلف من التفصيل في كل وزارة بما يناسبها[1].

(1) المصدر نفسه (3/ 336).

. عند م. فيوليط:

هو أول من زارنا، ولما أجاب عن المطالب قال: قد أكون نسيت شيئاً. فذكّره الأستاذ العمودي بمطلب حرية التعليم العربي. فأخذ في مدح العربية وأنها لغة تاريخية ولغة علم، فمن المحال أن أحداً يبغضها أو يقاومها فقلت له: لكن مع الأسف أن اللغة العربية محارَبة بالفعل من الإدارة الجزائرية وأن المسلمين يشعرون من أجل ذلك بألم شديد.

ونبهت بعض الإخوان إلى أن م فيوليط لما كان يتكلم على المطالب كان يتكلم بفصاحة واسترسال، فلما أخذ في الكلام على العربية لم يكن كما كان. فوافقوني على ذلك وقد كانوا تنبهوا له مثلي. صحيح أن م. فيوليط يحب الخير للمسلمين، ولكنه لا يحب لهم ما يعرقلهم عن الاندماج التدريجي، وليس كل ما يحبه لنا أحد عن حسن نية هو مما نحبه نحن لأنفسنا.

وقابلنا م. فيوليط مرة ثانية . الشيوخ الثلاثة والدكتور ابن جلول والأستاذ القلعي . فوضّحنا له مطالب المؤتمر في الحرية الدينية وحرية التعليم بالمساجد لكل عالم مسلم، وتأسيس جمعيات دينية في كل ناحية باختيار أهلها، وذكر له الأستاذ الإبراهيمي الظلم الواقع من الإدارة الجزائرية في هذه الناحية من حياة المسلمين، الظلم الذي لم يبق فيه من خفاء كما لم يبق عليه من صبر. فوعد بأنه سينظر المسألة مع رئيس الوزراء.

. عند وزير الداخلية:

ولم تمكن مقابلة نفس الوزير . لتنقلاته في البلدان بسبب الاعتصابات . فقابلنا الكاتب العام للوزارة م أوبو وهو رجل راديكالي صميم، وممن كلمه الأستاذ العقبي فقال له: نريد أن نعامَل في الجزائر بما يعامَل به غيرنا من سكانها من الطليان والإسبان فإننا نعامل بها أدنى من كل جنس. فوعد الوزير بالنظر في الحالة وأنه سيقدم هو إلى الجزائر بنفسه[1].

(1) المصدر نفسه (3 / 337).

. عند وزير الحربية:

م دالاديه راديكالي من يمين الراديكال، وقد صارحنا بأنه لا يمكن أن يوافق على إعطاء النيابة بالبرلمان ما دمنا محافظين على الشريعة الإسلامية في حقوقنا الشخصية. وصرح بأنه يكون مع المعارضين إذا عرضت المسألة في البرلمان. والذين يعرفون م دالاديه لا يستغربون منه ؛ لأن هذا هو رأي الراديكاليين إلا القليل، فلو عرضت مسألة النيابة في البرلمان ولقيها م دالاديه وأكثرية حزبه بالمعارضة مع من يعارضها من أحزاب غير الجبهة الشعبية لقضي عليها بالفشل قطعاً.

. عند رئيس الوزراء:

لطف وبشاشة وجاذبية: هذه الصفات التي يمتاز بها ـ مجموعة ـ م بلوم على كل من لقيناه من رجال الحكومة الفرنسية. بعد خطاب رئيس الوفد وشرح الكاتب لمطالب المؤتمر تكلم كبير الوزراء وافتتح كلامه بقوله: «إنني مسرور بزيارة مسلمين ليهودي وديمقراطيين لديمقراطي وفرانسويين لفرنسوي»، وبهذه الروح ألقى جميع خطابه[1].

.كلمة لكبير الوزراء:

قدمت قبل اليوم مطالب الأمَّة الجزائرية مرات عديدة بطرق متعددة، وكانت تقابل بقبولها للنظر فيها، وبالوعد بانجاز بعضها، ثم لا يكون بعد ذلك شيء من الوفاء من الواعدين، ولا شيء من الاستياء من الموعودين.

غير أن هذه المرة لم تكن كتلك المرات في جميع ما يحيط بها، وبالطبع لن تكون مثلها فيما ينشأ عنها من نفع عند الوفاء أو ضرر عند الإخلاف.

فأحببت أن أصارح كبير الوزراء بالعاقبة السيئة التي تكون لخيبة الأمة الجزائرية في مطالبها هذه المرة إذا خابت، فقلت له ـ بحضور الوفد كله والمترجم رئيس الوفد ـ: «الأمَّة الجزائرية المتألمة ليس ألمها ضد جنس ولا

(1) المصدر نفسه (3 / 338).

ضد دين ولا ضد فرنسا، وإنما ألمها ضد الظلم، ولهذا لما جاءت الحكومة الشعبية وتوسمت فيها الحرية والعدالة أعطتها كل ثقتها، وأعلنت سرورها بها، وأرسلت هذا الوفد. فإذا رجعنا إليها ببعض مطالبها زادت ثقتها، وإذا رجعنا بأيدينا فارغة انعكس ذلك الفرح وحصل عن انعكاسه ضرر عظيم يستغله أضدادنا وأضدادكم» فأجابني . باندهاش .: «كيف ترجعون بأيديكم فارغة وأنا أشتغل وحبيبي فيوليط من الان في مطالبكم»، فقال م فيوليط: «قبل الأحد ينجز العمل»، وقد كنا لخصنا من المطالب بعضاً منها لينجز ونرجع به في أيدينا وهو الذي دار عليه هذا الحديث. ولكن بعد هذا كله ها نحن قد رجعنا بأيدينا فارغة وما زالت فارغة إلى الان. نعم فيها وعود وفيها امال، وسنصبر هذه العطلة الصيفية على كل حال.

. مقابلات الأحزاب الشعبية:

أكبر الأحزاب الشعبية التي تتألف منها الجبهة الشعبية هي الحزب الاشتراكي والحزب الراديكالي والحزب الشيوعي. وقد زار الوفد الأحزاب الثلاثة كلاً في قسمه الخاص به من دار البرلمان، فأما الاشتراكيون والشيوعيون فقد كانوا موافقين على مطالب المؤتمر كلها، وأما الراديكاليون فكان منهم الوفاق على جملة المطالب لا على تفصيلها، وظهر منهم احتراز وتريث، وأشاروا إلى إرسال لجنة برلمانية لبحث الحالة وهذا هو الذي قررته الحكومة بعد كما هو معلوم(1).

. مقابلة الصحافة:

عيَّن رئيس الوفد وقتاً لمكاتبي الصحافة الباريسية في قاعة النزل الذي كان به الوفد، فاستقبلهم الوفد فيها في الوقت المعين وبين لهم المطالب، وقد كتبت الصحافة بعد كل بحسب مشربه، ولكن الأمر الذي كان حاصلاً ولا محالة هو لفتها الرأي العام الفرنسي للمسألة الجزائرية الإسلامية لفتاً جدياً لم يكن قد حصل على هذا الوجه من قبل.

(1) المصدر نفسه (3 / 339).

النتيجة المحققة:

أدى الوفد مطالب مؤتمر الأمَّة الجزائرية المسلمة بصدق وأمانة وشرف.

عرفت فرنسا حكومتها وأحزابها وصحافتها أن وراء البحر أمَّة جزائرية إسلامية، تطالب فرنسا بحقوقها وتحافظ تمام المحافظة على شخصيتها ومقومات شخصيتها.

وهذان الأمران ـ وما حصلا قبل يوم ـ لهما قيمتهما في حياة الجزائر وبناء مستقبلها. والأخير منهما هو الأساس الذي يجب أن يبنى عليه كل عمل للجزائر، والنهج الذي يجب أن يسير فيه كل من يتولى قيادة ناحية من نواحي سيرها في الحياة. وكل من حاد عنه قولاً أو عملاً فإنه يعد خائناً للأمَّة ويجب أن يعامل بما يستحقه الخائنون.

وقد رأينا اقتناعاً به ممن لم يكن منه من قبل على يقين، وسمعنا اعترافاً به ممن كان قيل فيه من المتشككين. وإذا كنا نسمع أحياناً نعقات بما يخالفه فهي من شذاذ لا تخلو منهم أمَّة، ولا يزيدهم ذلك إلا بعداً عن الأمَّة وإسراعاً في دركات السقوط إلى هاوية المقت وقرارة النسيان[1].

ـ العودة إلى الوطن:

رجعنا وأكثر الرفاق يظن أن المطالب المستعجلة إذا لم تكن صاحبتنا فإنها لا تتأخر عنا بأكثر من أسبوع، وإذا تقاعست وتباطأت فلا أكثر من شهر. أما أنا فلم أكن مع الأسف على هذا القدر من الرجاء. فالجبهة الشعبية تعتمد في بقائها على الراديكاليين، وهؤلاء ما يزال فيهم من عرفنا سياستهم الاستعمارية في العهد القديم وهم ما يزالون عليها في العهد الجديد. وقد سمعت منهم حديث لجنة البحث فحق لدي ما ظننته فيهم وتوقعته منهم، فكنت أعتقد أن المطالب ستتأخر وأن هذا الصيف لا يكون فيه شيء، ولكن لا بد من التمسك بحبل الرجاء إلى حين. وقد صدق ظننا وها أن الصيف قد مضى، وها أن لجنة البحث قد تعينت وها نحن من المنتظرين.

(1) المصدر نفسه (3 / 340).

واليوم...

إذا أنت لم تنصف أخـــاك وجـــــدته　　　على طرف الهجـــران إن كـــان يعقل

ويركب حد السيــف من أن تضــيمه　　　إذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل[1]

ومما حدث في تلك الزيارة: اشتد النقاش مرة بين رجال الوفد وبين رئيس الحكومة إلى درجة أنه احتد وجابه الوفد بقوله:

لا تنسوا أيها السادة أن فرنسا معها المدافع. فوجم القوم، إلا ابن باديس الذي ما كاد يسمع ذلك القول بواسطة الترجمان ؛ حتى جابه رئيس الحكومة بمثل حدته:

وأنت لا تنس أيها السيد الرئيس أن الجزائر معها الله.

وانتقل الوجوم من الوفد إلى الرئيس[2]. وكأن القدر قد تكلم ساعتئذ بلسان فصيح وكان المصير قد تقرر تلك الساعة، فرنسا معها المدفع والجزائر معها الله، واستمر اغترار فرنسا بالمدافع واستمرَّ الجزائريون بعون الله، وتغيرت الأحوال وتقلَّبت السياسة إلى أن نفخ نوفمبر المجيد، واقتحموا الميادين باسم الله وقابلتهم فرنسا الاستعمارية بالمدافع فما أغنى عنها ذلك شيئاً[3].

ومما قاله الشاعر محمد العيد ال خليفة في المؤتمر الإسلامي:

شَهِدتُ اليوم مؤتمراً عظيماً　　　أغرَّ لمثله يجب الشهـــود

به تُبنى الجزائر من جـــديد　　　وتُستحيا المآثُر والجــــدود

وتقتحم السُّدودَ إلى حقوق　　　حرمناها وإن علت السُّدود

بلغنا رُشْدَنا يا كون فاشهد　　　وأدْركا فاذعن يا وجـــود[4]

(1) المصدر نفسه (3 / 341).

(2) عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء ص 159.

(3) المصدر نفسه ص 159.

(4) البنى الأسلوبية في شعر محمد العيد ال خليفة، د. نصر الدين زروق ص 26.

16. دعوة وبيان إلى عموم الشعب المسلم الجزائري الكريم من ابن باديس:

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تعلم ما تجتازه الأمة اليوم في طريق نهضتها من وقت حرج، ومصاعب جمة، وما يحف بها من أخطار، وما ينصب لها من عراقيل، وما يتجاذبها من عوامل التفريق من الخارج ومن الداخل، وأن الجمعية التي بثت روح النهضة في الأمة بما دعت إليه من الرجوع إلى الكتاب والسنة والمحافظة على الجنس واللغة، والاعتزاز بالإسلام والعروبة حتى عرفت الأمة نفسها، ووجهت للحياة السعيدة رغبتها، ووجد السبيل إلى مخاطبتها وتفهيمها من أراد . بحق أو بباطل . قيادتها أن الجمعية التي بثت هذه النهضة هي حارستها في جميع أطوارها والمدافعة عنها بكل ما لديها، والصابرة على البلاء من القريب والبعيد في سبيلها.

إن أعداء الأمة الذين تمثلهم الجرائد الاستعمارية الكبرى هنا وهنالك ويصدع بأمرهم كراسي متنوعة، ما فتئوا يوالون ضرباتهم، ويعيدون هجماتهم على الجمعية، لأنهم يرون فيها حياة الأمة ويشاهدون فيها السد الحصين دون ما يرغبون من ذوبان الأمة وانحلالها، لإفنائها وابتلائها وتنقصها من أطرافها. فكل ما تجتازه الأمة اليوم وما تعانيه وما تلاقيه ؛ هو ما تجتازه الجمعية وما تعانيه وما تلاقيه على أبلغه وأشده، لأن الجمعية هي الأمة، والأمة هي الجمعية.

إن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .كالمسلمين الجزائريين . جبلت على النضال والمقاومة والصبر والمصابرة وقد صبرت لغشم الحكومة وأذنابها وكيد الاستعمار وجرائده، ولن تزال ثم لن تزال.

ولقد ولدت الأيام الجارية والظروف الحاضرة مقاومين جدداً ينطحون صخرتها برؤوسهم الحاسرة، وينحتون أثلتها بأظافرهم المتاكلة، ويضربون على نغمات من تقدمهم من أعداء الأمة والجمعية، ويخدمون عن علم أو غير علم، مقاصد من يحاربون في الجمعية روح الإسلام والعروبة،فهنالك في عمالة قسنطينة وهنا بعمالة

الجزائر من يعملون لرفع أنفسهم بالحط من الجمعية، ويموِّهون على الأمة بما يقولونه عليها وعلى رجالها، فمرة يربطون الجمعية بحزب من الأحزاب الأجنبية، والجمعية لا تنتمي لحزب ولا تعادي حزباً إلا من حارب الإسلام والعروبة، فإنها تكون عليه -كائناً من كان- بلاء وحرباً، ومرة يصمونها بالتدخل في السياسة، والجمعية ما تدخلت في سياسة الكراسي والنيابات والمكاتب والممرات.. وإنما وقفت الجمعية في مؤتمر الأمة تضع مطالب الدين واللغة وشروط المحافظة على الجنسية والشخصية. ومثلت ذلك كله بلسانها وهيئتها أصدق تمثيل.

يا هؤلاء... إن الجمعية ليست عاجزة عن مقاومتكم وإظهار خطئكم وكشف باطلكم. ولكنها تعلم ما تحتاج إليه الأمة اليوم من اجتماع الكلمة وعدم الفرقة وتوحيد الصفوف، فلهذا تركتكم وتترككم راجية لكم أن تدركوا حقيقة الموقف فتعملوا بما يقتضيه.

أيها الشعب الجزائري الكريم:

قد بينت لك جمعيتك حقيقة الموقف وحرجه، وكشفت لك شيئاً مما تعانيه أنت وتعانيه هي من الأقرباء والبعداء وهي تدعوك إلى التبصر والتثبت والاتحاد والتجمع والتنبه والتيقظ، وتحثك على الاعتماد على الله وحده، ثم على نفسك والصادقين من أبنائك، وما الصادقون إلا الذين يحافظون بأقوالهم وأعمالهم ومواقفهم على إسلامك وعروبتك وجميع مقوماتك، يناضلون بالنفس والنفيس عن جميع حقوقك، وهم فيك اليوم إن شاء الله كثيرون وسيكونون أكثر والله أكبر.

الجزائر 5 جمادي الثانية 1356هـ

عن الجمعية الرئيس

عبد الحميد بن باديس[1]

(1) ابن باديس حياته وآثاره (3 / 361).

17. نداء إلى رئيس المؤتمر الإسلامي الجزائري وإلى اللجنة التنفيذية:

لقد علمت أن الحكومة الفرنسية لم تجب أي مطلب من مطالب المؤتمر ؛ رغم وعد رئيس الوزارة يوم زاره الوفد بتنجيز بعضها المستعجل على رجاء أن تكون مطالب المؤتمر من أول ما ينظر فيه.

غير أنه قد حدث اليوم ما دل على أن مطالب المؤتمر غير ملتفت إليها ولا منظور فيها، وذلك بما قررته الحكومة من تكليف اللجنة البرلمانية التي يرأسها فرنيت ببحث جديد لا ينتهي إلا بعد ثمانية عشر شهراً، وبعد ذلك تأتي الوفود للبحث والسؤال المدقق.

فزيادة على ما في هذا من التسويف والمماطلة، فإنه دليل قطعي على أن مطالب المؤتمر لا عبرة بها، وهذا يوجب على اللجنة التنفيذية أن تجتمع لتقرر قرارها الصريح الحازم، وتقف موقفاً جدياً إزاء هذا الحادث الجديد، ثم يكون من واجبها أن تدعو إلى عقد مؤتمر عام فوق العادة ليقرر قراراً إجماعياً من طلبات لا يخالف فيها أحد، ويقرر قراراً إجماعياً في الموقف الذي تقفه الأمة الجزائرية إذا لم تُجَب إلى تلك المطالب في أجل محدود.

وعليه فإني «كمسلم جزائري» أطلب من سيادة الرئيس أن يأمر اللجنة التنفيذية للمؤتمر بأن تجتمع في الخامس عشر من أوت الجاري.

هذا وأنا الان قد أديت أول واجب من واجباتي في الوقت الحاضر بهذا النداء. والله المستعان على إتمام الواجبات الأخرى[1].

عبد الحميد بن باديس

18. هل آن أوان اليأس من فرنسا؟

إن الذين كانوا معنا يوم قابلنا رئيس الوزارة م بلوم باسم المؤتمر في جوليت من السنة الماضية، يعلمون تصريحه بأننا لا نرجع بأيدينا فارغة وأنه سيشرع في الحين القريب في تحضير مطالبنا المستعجلة، ويعلمون قول م

(1) المصدر نفسه (3 / 363).

فيوليط وهو بجنبه: ستحضر قبل يوم الأحد، ورجال ذلك الوفد يعلمون أنهم رجعوا بأيديهم فارغة. ولم يصدق لا الرئيس ولا الوزير. وقراء «الشهاب» لا ينسون ما كتبه «الشهاب» عن هذا الإخلاف وعن الوفد في عدد رجب وأكتوبر من السنة الماضية، والذين حضروا المؤتمر الثاني هذه السنة يعلمون ما نبهتهم عليه من أن فرنسا لم تجب أي مطلب من مطالب المؤتمر، والناس كلهم اليوم يعلمون ما نشرته الصحافة الفرنسية ـ رسمياً ـ عن لجنة الثمانية عشر شهراً التي يرأسها م قرنوت وم ستيق وأنها بعد الثمانية عشر شهراً توفد وفوداً تسأل أسئلة مدققة؟ فماذا فهم الناس من هذا كله؟

أما الذين ينظرون إلينا من الخارج نظر الحاكم على الأمم بما يبدو من أعمالها وسيرها فإنهم يقولون: إن فرنسا تَعِد وتُخْلِف لأنها رأت مصلحتها في الإخلاف، ولا يرجى منها إقلاع عنه مادامت تعتقد مصلحتها فيه، والجزائر تنخدع وتطمع ويمكن أن يطول انخداعها ويستمر طمعها، ويمكن أن ينجلي لها سراب الغرور فتقلع عن الانخداع وتقطع حبل الطمع، وتتصل باليأس وما يثمره اليأس ويقتضيه.

وأما نحن ـ الجزائريين ـ فإننا نعلم من أنفسنا أننا أدركنا هذا الإخلاف العرقوبي، وأدركنا مغزاه، وأخذ اليأس بتلابيب كثير منا وهو يكاد يعم، ولا تردد في أنه قد ان أوانه ودقت ساعته.

ماذا تريد فرنسا من مماطلتنا؟

لقد أعلن شاعرنا القومي جواب هذا السؤال في قصيدته التي نشرناها في الجزء الماضي حيث قال

ولعلّ من نظم السياسةأن نغــشّ وأن نغـرّ

ولعلّ منهــا أن يُدَسّ لنــا ونجذب للحفر

ولعلّ منهـــا أن يُبَسّ لنــا لنحلب كالبقـر

ولعلّ منهـــا أن نماطل كي يســاورنا الضجر

كذب رأي السياسة وساء فألها، كلا والله لا تسلمنا المماطلة إلى الضجر الذي يقعدنا عن العمل، وإنما تدفعنا إلى اليأس الذي يدفعنا إلى المغامرة.

أيها الشعب الجزائري! أيها الشعب المسلم! أيها الشعب العربي الأبي! حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين ينومونك ويخدرونك، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، ومن غير تاريخك وقوميتك، ومن غير دينك وملتك وأبطال دينك وملتك.

استوح الإسلام ثم استوح تاريخك ثم استوح قلبك.

اعتمد على الله ثم على نفسك، وسلام الله عليك[1].

عبد الحميد بن باديس

19 ـ نداء إلى الأمة الجزائرية ونوابها:

أيتها الأمة الكريمة. أيها النواب الكرام.

اليوم وقد أيسنا من غيرنا، يجب أن نثق بأنفسنا.

اليوم وقد تجوهلت قيمتنا، يجب أن نعرف نحن قيمتنا.

اليوم وقد خرست الأفواه عن إجابة مطالبنا، يجب أن نقول نحن كلمتنا.

اليوم وقد اتحد ماضي الاستعمار وحاضره علينا، يجب أن تتحد صفوفنا.

أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!

بمحضر الوفد كله في وزارة الحربية من السنة الماضية ـ قال لنا دالادية وزير الحربية، رئيس الحزب الجمهوري الراديكالي والراديكالي سوسياليست:أقول لكم بكل صراحة «إني أعارض كل المعارضة في إعطائكم النيابة البرلمانية ما دمتم على حالتكم الشخصية الإسلامية». من ذلك الحين تحققتُ أن هذه النيابة البرلمانية ميؤوس منها، وقد أشرت إلى هذا فيما كتبته عن الوفد بعد رجوعنا في مجلة «الشهاب». وها هي الأيام جاءت محققة ذلك اليأس. وها هي الجزائر اليوم تنشد بلسان حالها قول الشاعر العربي:

أَزْمَعْتُ يَأساً مُبِيناً مِنْ نَوَالِكُمُ وَلَنْ تَرَى طَارِداً لِلْحُرِّ كَالْيَأْسِ

(1) المصدر نفسه (3 / 365).

أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!

حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيراً عليها.. ويُسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا ويجرح أعز شيء لدينا. لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها، ولنتمسكْ ـ عن إيمان وأمل ـ بشخصيتنا، ولنطالبْ بالمساواة التامة في جميع الحقوق في وطننا، وأولها المساواة في المجالس النيابية.

أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!

قرِّروا يوم 29 أوت وبعد قرار المؤتمر وجمعيات النواب عدم التعاون في النيابة بجميع أنواعها. قرِّروا أن لا تعودوا بدون مساواة إليها. قرِّروا أنه يجب أن يكون كل مسلم جزائري بلغ سن الانتخاب منتخباً وأن يكون عدد نواب المسلمين الجزائريين في كل مجلس مثل عدد الفرنسيين. كونوا جبهة متحدة لا تكون المفاهمة إلا معها على هذا الأصل.

أيتها الأمة الكريمة، أيها النواب الكرام!

تناسوا الحزازات، امحقوا الشخصيات، برهنوا للعالم أنكم أمة تستحق الحياة، برهنوا لفرنسا أنكم وقفتم معها في الحرب صفاً واحداً تدافعون عنها، تقفون في السلم صفاً واحداً تدافعون الأنانيين منها الذين هم مثل أعدائها.

هذا وأنا كمسلم جزائري قد أديت الواجب الثاني من واجباتي في الوقت الحاضر والله المستعان على القيام ببقيتها. وعليكم السلام ورحمة الله من أخيكم[1].

عبد الحميد بن باديس

20 ـ صدى منشور ابن باديس على الأمة والنواب في صحف الاستعمار:

دُعي إلى تسليم النواب ووقع بالفعل في كثير منهم في عمالة قسنطينة، ولم تهتز لذلك صحف الاستعمار

(1) المصدر نفسه (3 / 372).

ودوائره. فلما نشر صاحب هذه المجلة منشوره على الأمة ونوابها في الدعوة إلى التعليم والاتحاد والوقوف الموقف الهائل المشرف، قامت القيامة في الدوائر، وظهر ذلك في جريدة «لابريس» التي تصدر بالعاصمة، وجريدة «الريبوبليكان» التي تصدر بقسنطينة.

ولما كانت الثانية أصرح بالعداء من الأولى خصصنا بالكتاب التالي:

قسنطينة في 8 رجب 1356هـ / 14 سبتمبر 1937م

جناب السيد محرر جريدة «الريبوبلكان» المحترم.

قرأت في عدد 2 سبتمبر الجاري من جريدتكم منشوري على الأمة ونوابها، فشكرت لكم نقله في جريدتكم ليطلع عليه قسم كبير من الرأي العام الفرنسي خصوصاً القسم الذي تمثله جريدتكم.

ولم يسؤني ما علقتم به عليه من عبارات الحقد والتحريش، لأن ذلك دليل حصول ما قصدته من تأثير الحق والصدق ممن لم يتعودوا سماعه من المسلمين الجزائريين أمثالكم.

ولا ألومكم على ذلك ما دمتم ترونه إخلاصاً لأمتكم ووطنكم كما كنت أنا مخلصاً في منشوري لأمتي ووطني.

وإنما أريد أن أحقق لكم أن تحريشكم لا يخيف صغاراً من تلامذتنا، فمن باب أحرى وأولى أن لا يكون له أدنى تأثير على كبارنا في السير على خطتنا إلى غايتنا.

ومما يؤسف له من أمثالكم ؛ أنكم لا تدركون تطورات الأمم وتقلبات الأيام، وتفكرون فينا - في القرن العشرين - بأفكار القرون الوسطى.

إن الزمان - يا زميلي - يسير ولا يقف، وسنن الكون نافذة لا تتخلف والويل لمن قعد أو تعامى.

تقبلوا - سيدي - احترام زميلكم صاحب مجلة الشهاب[1].

عبد الحميد بن باديس

(1) المصدر نفسه (3 / 374).

21 . نداء إلى سكان قسنطينة المسلمين «المقاطعة»:

إخواني القسنطينيين:

في مثل هذه الأيام منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون المدافعون والفرنسيون المهاجرون في ميدان البطولة والشرف، وطويت صفحة من التاريخ على شهادته بالشجاعة والتضحية للغالب والمغلوب.

ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة، وضمد تلك الجروح، وتقريب السكان المتجاورين بعضهم من بعض.

لكن قوماً من الأنانيين الذين يأبون إلا أن يكونوا سادة متفوقين، وإلا أن يُشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين، هؤلاء القوم . وليسوا كل الفرنسيين . أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة، تثير العواطف، وتمس كرامة الأحياء منا والأموات وتنافي مبادئ الأخوة والرحمة التي ندعو إليها.

يحتفلون احتفالاتهم ومطالب الشعب الجزائري بعرقلتهم معطلة، وحقوقه بسعيهم مهملة، وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يوم.

لهذا فقد اجتمعت 14 جمعية إسلامية من جمعيات قسنطينة يوم السبت 18 سبتمبر الماضي في نادي الاتحاد، وكانت كلها مستنكرة لهذه الاحتفالات عازمة على مقاطعتها، فقررت . بالإجماع . ما يلي:

نحن . الممثلين لجمعيتنا . نرى احتراماً لأنفسنا واحتراماً لأجدادنا واحتراماً للإنسانية:

أولاً: أن لا نشارك في هذه الاحتفالات ولا نحضرها.

ثانياً: أن نكون في هدوء تام عام.

إخواني القسنطينيين!

قد فعل المؤتمر الإسلامي الجزائري واجبه، فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الأخير، وقدم مكتبه ذلك الاحتجاج إلى الوالي العام وقدمه مكتب لجنة القسنطينة إلى مير قسنطينة، وفعلت الجمعيات

الإسلامية القسنطينية واجبها بما قررته في قرارها المتقدم. وأخوكم هذا ـ كقسنطيني ـ فعل واجبه بنشر هذا المنشور عليكم، فما بقي إلا أن تقوموا أنتم بواجبكم.

فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها.

كونوا في هدوء وسلام

والسلام عليكم من أخيكم[1].

عبد الحميد بن باديس

الحادي عشر: الفكر التحرري عند ابن باديس:

اهتم ابن باديس بمسألة الحرية، واعتبرها طبيعة في الوجود، وحقاً شرعياً لكل إنسان، والإنسان هو إنسان مادام يتمتع بالحرية[2].

واحتفل ابن باديس بعيد الحرية للتعبير عن شوقه إليها وتسجيل وقفة تأمل ورسم معالم جديدة لتحقيق مكاسب في طريق التحرر، فقال: إننا هنا نحتفل بالحرية ونفرح مع الأحرار، وإن لم نكن نلنا من تلك الحرية المحبوبة حظنا ؛ لأن الحرية والإنسانية محبوبتان ومقدستان لذاتهما، والمسجون الشريف يفرح بحرية الناس وإن كان سجيناً[3].

وقال عن الحرية التي هي من أقدس القيم وأغلى الأشياء التي يملكها الإنسان وما يتعلق بها وبمجدها، تحتفل بأعيادك الأمم وتنصب لتمجيدك التماثيل، وتتشادق بأمجادك الخطباء وتتغنى بمفاتنك الشعراء ويتفنن في مجاليك الكتّاب[4].

ويضحى كذلك من أجلها، ويتهالك من أجلك الأبطال، وتسفك في سبيلك الدماء، وتدك لسراحك

(1) المصدر نفسه (3 / 388).
(2) ابن باديس عيد الحرية الشهاب ج 10 1935 ص 547.
(3) البصائر في عيد الحرية العدد 123، 22 جويلية 1938م.
(4) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 119.

القلاع والمعاقل[1]، والحرية لا لون لها ولا جنس لها، إما أن تكون حرية للجميع أو لا تكون، فنحن ضد أضداد الحرية وأعداء الحرية، ونقاوم من يقاوم الحرية سواء كان من أهل البرانس أو من أهل البرانيط[2].

وقارن ابن باديس الحرية بالمساواة، فحين تطبق هذه القيمة على الجميع تسود الحرية لأنه حينئذ يتمتع كل فرد بحريته دون أن يضره غيره، لكن إذا غابت المساواة أو سادت المساواة العرجاء وقع الخلل، لأنها تعطي الحرية لمجموعة أخرى[3].

لهذا طالب ابن باديس السلطة الفرنسية لتصحح هذا الوضع، فقال: لو كنتم حقيقة تريدون المساواة فلماذا لم تسووا بيننا وبين اليهود تتركون لهم حرية دينهم؟ ولماذا لا تسووا بيننا وبين دعاة النصرانية الذين تؤيدونهم؟ بل لماذا لم تسووا بيننا وبين أعدائكم الطليان يتركون يؤسسون المؤسسات الضخمة لتعليم لغتهم مثل ما فعلوا في بجاية وسطيف، وتغلقون دار الحديث بتلمسان ومدرسة قلعة بني عباس[4].

وبعد شعوره بتعنت السلطة الفرنسية وفشل مهمته إلى فرنسا ؛ في وفد المؤتمر طرح ابن باديس معنى آخر للحرية ويتمثل في التخلص من القيود السياسية وتجاوزها لأنها ظالمة ومستبدة لا يجب الخضوع لها، والسكوت عنها، ويعتبر الالتزام بها عنوان مذلة وهوان، وفي هذه الحالة تتحول الحرية من وضعية أو حالة إلى فعل وعملية قد تكون كلمة تحرر أصدق تعبير عنها[5].

(1) البصائر العدد 175، جويلية 1939م ص 1.

(2) البصائر العدد 123، 22 جويلية 1938م ص 2.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 119.

(4) البصائر: المساواة العرجاء، ابن باديس عدد 177 ص 2.

(5) مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم ص 237.

وهذا ما تضمنته عدة مقالات له التي عبر من خلالها عن يأسه الكامل من فرنسا. وقال: لقد حان الوقت لنعتمد على الله وأنفسنا[1].

كما ثبت أنه جمع صفوة تلامذته وأصدقائه في عام 1939م ليتدبر معهم مسألة الخروج عن السلطة الاستعمارية الفرنسية وتحضير ثورة من أجل تحرير الشعب الجزائري، وعبّر عن هذه المعاني أيضاً نشيده الخالد:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها وخض الخطوب ولا تهب
وارفـــع منـــار العـدل والإحسان واصدم من غصب
وأذق نفوس الظالمين السم يمزج بالرهب
واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب
واهزز نفوس الجامدين فربما حيي الخشب[2]

وهكذا تجد كلمات كالتضحية والثبات المغامرة وغيرها من الكلمات القوية التي تنطلق كالرصاص تتردد على لسانه وتتكرر على قلمه[3].

قال ابن باديس في هذا الشأن: وما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام وما أنزل عليهم الكتب، وما شرع لهم الشرع ؛ إلا ليعرف بنو ادم كيف يحيون ينظمون تلك الحياة حتى لا يعتدي بعضهم على بعض، وحتى يستثمروا تلك الحياة إلى أقصى حدود الاستثمار النافع المحمود المفضي بهم إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة[4].

1 . التاريخ الإسلامي:

ويستلهم ابن باديس العبر والحلول من السيرة النبوية المطهرة، التي هي سجل الحرية، وكتاب مفتوح في الكفاح ضد الظلم والاستعباد. وسأذكر هنا نموذجاً من قراءته للسيرة النبوية من خلال درس له في جمعية التربية

(1) الشهاب مج 13 ج 6 أوت 1937م ص 272 . 273.
(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 121.
(3) المصدر نفسه ص 121.
(4) المصدر نفسه ص 122.

والتعليم بقسنطينة بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، فقد ولد النبي (ص) في بلاد ضعيفة مظلومة، لتعلم الأمم أن الله يقدر أن يوجد من الضعيف قوة ومن المظلوم سيادة حتى يتبين أنه قادر جبار، وحتى لا ييأس الضعفاء المستعبدون ويَدَعوا الكفاح، ولئلا يغتر الأقوياء بقوتهم فيهلكوا[1].

وبيّن ابن باديس كيف تجسدت هذه المعاني في صدر الإسلام الأول بقيادة الرسول (ص) والخلفاء الراشدين والسلاطين المسلمين من بعدهم، ثم توجه إلى الشباب والطلبة الذين ينصتون إلى خطابه ليقول لهم: نخاطبكم أيها الشباب لنوجد من ضعفكم المادي قوة، ومن إيمانكم القوي نفوساً أبية لا تركن إلا إلى الحق، ولا تعبأ إلا بمن يعبأ بها، ولا تنصر إلا العاملين المخلصين، ولا تخذل إلا من خذلها ولو كان من أعز أبنائها[2].

واستنتج ابن باديس من قصة استجابة النبي (ص) لرأي الصحابي الحباب بن المنذر في غزوة بدر، في تغيير مكان نزول الجيش الإسلامي، وردم مجموعة الابار بالتراب حتى لا يستفيد من مائها جيش قريش، ليصف سيدنا محمداً (ص) أنه أعظم قائد يُلزم نفسه بالسماع إلى الاخر والاستفادة من رأيه المختلف، ودعوة الجميع لتجسيده على أرض الواقع، هذه هي الحرية في أبهى صورها تطبيقاً لما جاء به الإسلام من احترام حرية التفكير والتعبير[3].

واستنبط ابن باديس أيضاً من قصة زيد بن حارثة الذي رفض العودة إلى أسرته رغم إلحاحها ؛ إلى شعور زيد بكامل حقوقه وكرامته وهو يخدم النبي (ص)، الذي لم يعتبره يوماً عبداً بل فرداً من عائلته ومن أقرب الناس إليه حتى حسبوه ابنه، ونزلت في هذا الشأن آيات قرآنية من سورة الأحزاب[4].

وهكذا كان النبي (ص) حاملاً لقيم إنسانية، يخرج بها الناس من الظلمات إلى النور، فهو قدوة في احترام

(1) الصائر، العدد 70، 4 جوان 1937م ص 5.

(2) المصدر نفسه.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 123.

(4) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 124.

الغير والتسامح مع الغير، ومثال في الوفاء للمبادئ التي لن تُسعَدَ الإنسانيةُ إلا بالتمسك بها[1].

2. بين حضارتين:

تحدث ابن باديس عن الحضارة الإسلامية مؤكداً على أن التاريخ لم يعرف فاتحاً أرحم ولا أعدل من المسلمين، فهم حرصوا على كرامة الإنسان، فتركوا له حرية اختيار الإسلام أو البقاء على دينه، وحرية الحفاظ على اللغة العربية أو لغته الأصلية، فلم تتعرض الشعوب التي وصل إليها الإسلام للإجبار، بينما تعرض المسلمون دائماً للاضطهاد بكل أنواعه. ويكفي هنا مثال محنة المسلمين في إسبانيا بعد سقوط الأندلس:

وفي السياق نفسه، دخل ابن باديس في سجال طويل مع مثقف فرنسي بيّن له ابن باديس أن الحضارة الإسلامية هي الحضارة التي كرست حرية الإيمان والتدين، ولم تجبر من كان تحت حكمها بالتخلي عن ثقافته ولغته[2].

واستعان كذلك بأدبيات رواد النهضة في العالم الإسلامي، وكذلك إنتاج الأدباء والشعراء المعاصرين، فأعاد نشر مقالاتهم الصادرة في الصحف والمجلات ومقتطفات من كتبهم ومختارات من أقوالهم، كما وظف ابن باديس الفكر الغربي من أجل بناء تصوره عن الحرية، ورسم السبيل للوصول إليها، وإقناع السلطة الاستعمارية في حق الجزائريين في الحصول عليها منطلقاً من كتابات أوروبيين ومستشرقين، ومن أبرزها كتاب «الأبطال» لتوماس كارليل، و«حضارة العرب» لغوستاف لوبون.

وخلاصة القول أن التاريخ الإسلامي أو الغربي سجل نماذج رائعة في الصبر والتضحية في سبيل تحقيق الحرية أو الحفاظ عليها من كل الغاصبين، بهذه النبرة يوجه ابن باديس خطابه لكل من يعتقد ذلك، ويصر على الاضطهاد في الفكر والدين والسياسة[3].

(1) المصدر نفسه ص 124.

(2) نشر ابن باديس 6 مقالات في مجلة الشهاب تحت عنوان الفكرة الإسلامية.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 125.

ويدعو هؤلاء إلى مراجعة التاريخ ليتيقنوا أن الأحرار هم المنتصرون دائماً مهما طال ليل الظلم وتأخرت شمس الصبح، راجعوا تاريخ الأديان وانظروا ماذا لقي أهلها من الاضطهاد، فهل قضي شيء من تلك الاضطهادات المتتابعة في الأزمنة أو في القرون المتتابعة على واحد من تلك الأديان؟

وهل كانت الاضطهادات ـ والتاريخ يشهد ـ إلا ريحاً لا تزداد بها شعلة الفكرة والعقيدة المقدسة إلا شبوباً واستنارة[1].

3 ـ التعددية:

كان ابن باديس يحترم التعددية ويقبل بحرية الاعتقاد، ولذلك قال: نحن كمسلمين لا يضيق صدرنا بأن نرى أهل كل دين يحتفلون بطقوس دينهم ويظهرون تمسكهم بعقيدتهم ويدعون إليه بكل وجه شريف نزيه، بل نريد أن يقع التفاهم بين أهل الملل على أصل التدين ليقع التعاون على نشر أصول الخير والإحسان التي تتفق عليها جميع الملل، وعلى مقاومة الشر والظلم والإلحاد المحرمة عند الجميع[2].

والإسلام لم يحرّم اللغات الأخرى، بل يحرص على تعددية اللسان، يقول ابن باديس: نؤمن بأن اللغات البشرية كلها محترمة وأنها من آيات الله من قول ربنا {وَمِنْ آياته خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ}

ومن هذا المنطلق: لم يعرف عن مملكة إسلامية مقاومة لغة من اللغات ولا معارضة أحد في طريق التعليم والتعلم.. وقد عاش أحبار الأمم ورهبانها وعلماؤها يعلّمون أممهم ما يشاؤون من ألسنتهم وعلومهم تحت ظل الممالك الإسلامية، ولا يلقون إلا التعظيم والاحترام الذي يستحقه المعلم في نظر الإسلام[3].

وكان ابن باديس يسعى إلى التقارب بين الديانات وحوار الثقافات وتعاون الأجناس امتثالاً لدينه الحنيف

(1) البصائر العدد 150، 27 جانفي 1939م ص 1.

(2) البصائر العدد 166، 19 ماي 1939م ص 1.

(3) البصائر العدد 115، 27 ماي 1938 ص 1.

فقد قال: أنا كمسلم أدين بالأخوة الإنسانية واحترامها في جميع أجناسها وأديانها، وأسعى للتقريب بين جميع عناصرها وأجاهد فيما هو السبيل الوحيد لتحصيل ذلك[1].

ومن هذا المنطلق انتقد ابن باديس الأوروبيين الذين لا يتعاملون بالمثل مع الدين الإسلامي ولا يحترمون المسلمين. وبعث رسالة إلى وزير خارجية فرنسا والمقيم العام لفرنسا ليحتج على منع مسلمي مراكش من إقامة احتفالات بمناسبة المولد النبوي الشريف، كما احتج على المؤتمر المسيحي الأفخاريستي المنعقد في تونس في عام 1930م، لأنه اعتبر تنظيمه استفزازاً وإثارة لمشاعر المسلمين، ولم يعارضه لأنه تظاهرة مسيحية هادفة، بل قال أنه كان مستعداً للترحيب به وللمشاركة فيه، فلو كان هذا المؤتمر انعقد على هذه الأصول ولهذه الغاية لكنا من أول المرحبين به، وقد نكون من المشاركين فيه[2].

وكذلك احتج على مؤتمر انعقد في جامعة السوربون حول حوار الأديان برئاسة المستشرق لويس ماسينيون، ولم يُدْعَ إليه العلماء الأحرار الذين يمثلون حقاً الإسلام، ليتحدثوا عنه بكل حرية وبدون خوف من الضغوطات التي تمارس على العلماء الرسميين أو بعض شيوخ الطرق الصوفية والزوايا[3]. ولو كان هذا المؤتمر حراً ويعمل لغاية دينية خالصة ـ كما يقول ابن باديس ـ لما كان يتقيد بهذا القيد ؛ لكنت ترى فيه من رجال الأديان الأحرار مثلما ترى غيرهم، فإن الدين دين الله ليس بدين الحكومات الاستعمارية على الأخص[4].

4 ـ حرية التعليم:

ناضل ابن باديس في سبيل حرية التعليم العربي، واعتبر اللغة الفرنسية لها الحق في الوجود. وقال بكل

(1) الشهاب مج 13 ج 5، جويلية 1937م ص 2.

(2) البصائر العدد 166، 19 ماي 1939م ص 1.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 128.

(4) المصدر نفسه ص 128.

وضوح: لو حرمنا من حرية تعلم اللغة الفرنسية التي هي سبيلنا إلى اداب الغرب وعلومه وفنونه وفهمه من جميع جهاته، كما حرمنا من حرية تعلم لغتنا ؛ لوقفنا إزاء ذلك الحرمان . لو كان . كوقوفنا إزاء هذا الحرمان[1].

ويرى ابن باديس حرية التعليم ليست قضية جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بل هي مسألة الأمة كلها، وندد بالازدواجية في تعامل الإدارة الفرنسية مع تعليم الدين الإسلامي واللغة العربية، فمعلموها يتعرضون للمعارضة والمناهضة، ويجدون مقاومة ومحاكمة ؛ بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحارى والجبال بين أبناء وبنات الإسلام في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال[2].

وبمناسبة زيارة رئيس الوزراء الفرنسي «دلادبي» إلى الجزائر في بداية عام 1939م ؛ وجه له ابن باديس رسالة: إن الجزائر المسلمة تنتظر منكم حرية دينها ولغتها، حرية المساجد لتعليم الكبار، وحرية المدارس لتعليم الصغار، وحرية النوادي.. وسراح مساجينها الفكريين[3].

5 . الحرية السياسية:

حرص ابن باديس على مساندة كل المواقف والاراء التي تطالب بحق الجزائريين في الممارسة السياسية والنضال بكل حرية، وحرص أيضاً في توجيهاته إلى أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، بإبقاء جمعيتهم مستقلة عن كل الأحزاب والتيارات السياسية وقال: إن الجمعية لا توالي حزباً من الأحزاب ولا تعادي حزباً منها، وإنما تنصر الحق والعدل والخير في أي ناحية كان، وتقاوم الباطل والظلم والشر من أي جهة أتى،

(1) البصائر العدد 136، 21 أكتوبر 1938م ص 1.

(2) البصائر العدد 107، 1938 ص 1.

(3) البصائر العدد 147، 6 جانفي 1939م ص 1.

محتفظـة في ذلـك كلـه بشخصـيتها ومبادئهـا، محترسـة في جميـع مواقفهـا مقـدرة للظـروف والأحـوال بمقاديرها[1].

وكثيراً مـا كـان ابـن باديس يخاطـب النخبـة الفكريـة والسياسـية الفرنسية بمبادئ الثورة الفرنسية: الأخـوة، الحرية، المساواة، وكان يطمع في حكمة المفكرين الفرنسيين الأحرار الذين وصفهم بأصحاب الصدور الواسعة والقلوب الكبيرة[2] ؛ للضغط على اللوبي الاستعماري والدفاع عن حقوق الجزائريين: نحن مع فرنسا الحرة التي نراها في وجوه أبنائها الأحرار، وما أبناؤها إلا الذين يسيرون مع الناس كلهم بمبادئها الخالدة: الحرية، والمساواة، والأخـوة، لا يفرقـون في هـذه المبـادئ بـين الأجنـاس والأديان، أولئـك الأحـرار الحقيقيـون، نحـن معهـم وسـنبقى معه[3].

ثم دعـا هـؤلاء الأحـرار إلى الوفـاء لمبـادئهم وتجسـيد شـعاراتهم في الجزائـر، وإلا فـلا قيمـة لاراء وأقـوال بـلا أعمـال: أيهـا الإخـوان الفرنسـيون المحتفلـون بالحريـة، إن الأمـة الجزائريـة تحتفـل معكـم وتشـارككم في الاحتفـال بالحريـة في أيام السـلم، كمـا شـاركتكم في الـدفاع عـن الحريـة على ضـفاف المـارن وتحـت حصـون فـردان، وهـي تسـألكم باسـم الحريـة أن تعملـو لتنـال حظهـا مـن الحريـة خصوصـاً وقبـل كـل شـيء حريـة تعلّمهـا لـدينها ولغـة دينها[4].

وتساءل عن هذا الخوف المفرط لدى السلطة الفرنسية القلقة من جمعية قامت من أجل الإصلاح الديني، في الوقـت الـذي تكـاثرت الجمعيـات الإصلاحية في المستعمرات البريطانيـة، أفتكـون في الهنـد جمعيـات للعلمـاء تقوم بأعمالها بغاية الحرية والهناء عشرات من السنين تحت السلطة الإنكليزية الغاشمة القاسية ؛ وتضيق صـدوركم أنتم عن تكوين جمعية واحدة للعلماء المسلمين بالجزائر تحت المبادئ الجمهورية العادلة المشعة بعلومها

---

(1) البصائر العدد 83، 1937م ص 2، الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 130.

(2) المنتقد العدد 1، 11 ذي الحجة / 1925م.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 131.

(4) البصائر العدد 123 . 1938م ص 2.

على الأمم، فتناهضوها وهي ما تزال في المهد[1]؟

ورداً أيضاً على المقيم العام الفرنسي الذي اتهم جمعية العلماء بالاشتغال بالسياسة، فقال له: إن من حقها أن تقوم بذلك باعتبار الاهتمام بالشأن العام. وضرب أمثلة من رجال الدين الأوروبيين الذين يمارسون السياسة بكل حرية[2]، وتوقف عند الكاردينال ريشلبو الذي كان رئيساً للوزراء في فرنسا وأحد مؤسسي الدولة الفرنسية الحديثة، فالقانون يجب أن يطبق على الجميع.

وفي مجال السجال السياسي في العالم العربي، ساند ابن باديس الأمير شكيب أرسلان في فكرته القائلة بأن الوحدة السياسية العربية تكون فقط بين الدول المستقلة التي تتمتع بالحرية، واعتبر صديقه الليبي سليمان الباروني أن ذلك تهميش للمغرب العربي وتبرؤ منه[3]، قال ابن باديس: إنه ليس من المنطق أو الممكن أن تنضم دول مستضعفة ومستعمرة إلى الوحدة السياسية العربية، ولكن الوحدة القومية والأدبية متحققة بينها لا محالة[4].

6 . حرية الرأي والتعبير:

اختلف ابن باديس مع مصالي الحاج زعيم حزب نجم شمال افريقيا في مسألة مساندة مشروع فيوليت، فقال ابن باديس أنه وافق على هذا المشروع لتحقيق مكاسب سياسية بشرط عدم المساس بالشخصية الإسلامية للجزائريين. بينما رفضه مصالي جملة وتفصيلاً باعتباره يتناقض مع مطالب حزبه بالاستقلال. ورغم هذا الاختلاف، احترم ابن باديس رأي مصالي وأتباعه وقال: نحن نحترم رأي هذه الأقلية ونؤمل بقاءها على رأيها، وهي تطالب بالاستقلال وأي إنسان يا سادة لا يحب الاستقلال؟ إن البهيمة تحن إلى الاستقلال الذي هو أمر طبيعي في وضعية الأمم[5].

(1) الشريعة، العدد 1، 17 جويلية 1933م.
(2) الصراط العدد 15، 25 ديسمبر 1933م.
(3) الشهاب مج 13 ج 10، ديسمبر 1937م ص 438 . 446.
(4) الشهاب، مج 13 ج 11، جانفي 1938م ص 372 . 475.
(5) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 132.

كما دافع عن حق مصالي الحاج في العمل السياسي، واحتج ضد اعتقاله وحلِّ حزبه نجم شمال افريقيا ثم حزب الشعب[1]، بذريعة المساس بالأمن العام والتطرف في مطالبه، وقال ابن باديس أنها تهم ملفقة وذكر أحزاباً فرنسية متطرفة وعنيفة غير أنها لم تمس ولم تتعرض لأي عقاب أو منع نشاطها، بل ذهب ضحيتها ليون بلوم رئيس الحكومة الفرنسية الذي تعرض للضرب المبرح من أنصار حزب متطرف، ومدح الصحافة الحرة واعتبرها بمثابة قوة لا غنى عنها لأمة راقية، ولا رقي لأمة ناهضة في هذا العصر بدونها[2].

ولكن الصحافة أيضاً لها خطورة عندما لا تحترم حرية الأخرس، وتمارس التدليس والتلبيس، وتتجاهل الحقيقة وتتجاهل على الأبرياء، ولم يسلم منها الصحف الكبيرة، فتعرض ابن باديس وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأباطيل نشرتها جريدة لوطان الباريسية[3].

7. الثورة في شعر ابن باديس ونثره:

استعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره، كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية، استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس من يخاطبهم بخطبه أو يلقي عليهم ما نظمه من قصائد، فكانت بدورها دالة على الفكر الثوري التحرري في شخصيته. فقد جاء في القصيدة التي ألقاها ليلة حفلة جمعية التربية والتعليم بقسنطينة يوم الأثنين 13 ربيع الأول 1356هـ / جوان 1937م والتي بعنوان تحية المولد:

وبخلقه يحمي حماهـــا　　أو ببـــارقة الغـــضـــب

حتى يعــود لقـــومــه　　من عزّهم ما قد ذهب

ويرى الجزائر رجّـــعت　　حق الحـياة المستــلب[4]

(1) المصدر نفسه ص 132.

(2) المنتقد، العدد 4، جويلية 1925م.

(3) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 133.

(4) من وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، عبد الرحمن شيبان ص 73.

وفي هذه الأبيات استعمل عبارة حماسية تحث على الجهاد، كإيراده لفظ «حماها» «وعزّهم» الذي قال عنه أنه ذهب ليأمل بأن يرى الجزائر «رجّعت» بتشديد الجيم «حق الحياة المستلب». ثم واصل قائلاً:

يا نشء أنت رجاؤنا وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها وخُض الخطوب ولا تهب

من كان يبغي ودّنا فعلى الكرامة والرحب

أو كـــان يبغي ذلنا فله المهـــانة والحـــرب

هذا نظـــــام حياتنا بالنور خط وباللهـــب

هذا لكم عهدي به حتى أُوَسَّدَ في الترب

فإذا هلكت فصيحتي تحـــيا الجزائر والعرب

ونـرى ابـن باديـس في هـذه الأبيـات استعمل كلمـات ثوريـة مثـل: «سـلاحها» «الخطـوب» «الحـرب» «اللهب» ليذكر أن ذلك عهده إلى أن يموت، فإذا مات «تحيا الجزائر والعرب».

وفي القصيدة التي ألقيت ليلة احتفال جمعية التربية والتعليم الإسلامية بالمولد النبوي الشريف بقسنطينة بعنوان: القومية والإنسانية، دعا ابن باديس إلى تحرير الناس من رق الملوك، مما يعكس شخصيته التحررية فقال:

وحرروا الناس من رق الملوك ومن هم وحـــرروا الدين من غش ومن كذب

وختم ابن باديس خطابه التاريخي في الجلسة الختامية للمؤتمر الثاني لجمعية العلماء سنة 1937م بقصيدة حث فيها الجزائريين على المطالبة والتضحية حتى الفناء من أجل الحصول على حقوقهم، التي ذكّرهم أنهم لن ينالوها إلا بسواعدهم ونفوسهم الأبية فقال(1):

أشعب الجـــزائر روحي الفداء لما فيـــك من عـــزة العـــربية

فدوموا على العهد حتى الفنا وحتى تنالـــوا الحقـــوق السنية

تنالـــــوها بســـــواعـــدكـــم وإيمانكم والنفـــــوس الأبـــية

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ابن باديس ص 75.

فضحـــوا وهـــا أنا بينكـــم　　　　بذاتي وروحي عليكم ضحية[1]

وارتجل ابن باديس في حفل إقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 27 رمضان 1356هـ بمناسبة إحياء ليلة القدر نشيد «اشهدي يا سماء» نشر في جريدة البصائر وممّا جاء فيه:

اشهدي ياسماء　　　　واكتبن يا وجود

إننا للحمى　　　　سنكون الجنود

فنريح البلاد　　　　ونفكّ القيود

إلى أن قال:

ونذيق الردى　　　　كل عات كنود

فيرى جيلنا　　　　ذكريات الجدود

ويرى قومنا　　　　خافقات البنود

ويُرى نجمنا　　　　للعلا في سعود

فتضم اسمنا　　　　صفحات الخلود

هكذا هكذا　　　　هكذا سنعود[2]

ونلمس في الأبيات السابقة العمق الثوري في شخصية الإمام ابن باديس وتعطشه إلى الحرية والتي نلمسها في قوله «فنريح البلاد.. ونفك القيود». كما توعد المحتل بقوله: ونذيق الردى.. كل عات كنود، ونجده أيضاً في هذه الأبيات يستعمل كلمات ذات بعد تحرري وثوري: مثل «الحمى» «جنود» «القيود». واستدل ابن باديس في أحد خطبه ببيت الأحنف بن قيس، ليبرز ما على القائد من واجبات، فقال:

إنّ على كلّ رئيس حقا　　　　أن يخضب الصعدّة أو تندقّا

والصعدّة هي الرمح، يريد أن يخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته للأعداء، ومن خلال استدلاله بهذا البيت نلمس أيضاً ثورية ابن باديس. وقد أتبع كلامه السابق بالقول: لكن صعدتنا هي

---

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد ص 158.

(2) ....

القلم، وخضابه الحبر، ولكن لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل[1].

فعلا القاعة تصفيق عال وهتاف بكلمة الله أكبر.

وذكر ابن باديس في العدد الخامس من جريدة المنتقد الصادرة يوم الخميس 11 محرم 1344هـ / 30 جويلية 1925م قوله نشرنا قصيدة العالم الشاعر الحاج أحمد البوعوني مبتهجين بأن يكون المنتقد ميداناً تلتقي فيه تجربة الشيوخ بنشاط الشبان، حتى يحق له أن يقول أنه يتقدم للجهاد الحيوي، ثم ذكر بيتاً شعرياً:

بشبّان يرون القتال مجداً   وشِيب في الحروب مجربين

فابن باديس اعتبر أن جريدة المنتقد تهدف إلى إعداد الشباب لما سمّاه «الجهاد الحيوي»، الذي عرّفه بأنه «القتال» و«الحروب»، والذي يشارك فيه الشباب المندفعون والشيوخ المجربون، كما كانت الخطب التي يلقيها الإمام عبد الحميد بن باديس مليئة بمعاني الجهاد وإثارة الحماسة في النفوس ورافعة للهمم والمعنويات.

وقد كان ابن باديس في كثير من خطبه يستدل بالأحداث والأمجاد التاريخية، لإثارة الحماسة في نفوس من يخاطبهم، ومن ذلك قوله لما ذكر بلدة سيدي عقبة أنها: مدفن أسلافنا الفاتحين الذين محقوا الشرك والاستبداد عن هذه البلاد، فقد أنجبت لنا المصلح الشيخ الطيب العقبي، الذي يجاهد اليوم ليسحق البدعة والفساد من هاته الأرض، ذرية بعضها من بعض[2]، كما تضمنت خطبه كلمات ذات بعد ثوري، فقد جاء في قوله بمناسبة صدور مجلة الزيتونة والابتهاج بصدورها، قوله: ويحق لي وأنا جندي من جنود الإصلاح الإسلامي العام أن أسرَّ سروراً خاصاً بتعزز معاقل الإصلاح بها[3]، كما وصف في نفس البيان جريدته المنتقد التي صودرت بـ: «الشهيدة».

(1) الشهاب ج 8، مج 12 / نوفمبر 1936م ص 359 . 361، الفكر السياسي ص 159.

(2) المنتقد العدد 6، جويلية 1925 ص 114 . 115.

(3) آثار ابن باديس (3 / 125).

يتبين لنا ممّا سبق أن ثورية الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس أبانت عنها خطبه وأشعاره والعبارات التي كانت تجري على لسانه، ممّا يؤكد لنا البعد الثوري والتحرري في شخصية ابن باديس الثائر على المحتلين والغزاة[1].

8 . دعوة ابن باديس للثورة:

كانت نفسية ابن باديس وأشواقه الروحية تواقة إلى التضحية في سبيل تحرير شعبه وبلاده من المحتل الغازي بالنفس والروح، ويذكر الأستاذ إبراهيم الكتاني، أنه كان في خريف سنة 1937م في تلمسان بمناسبة تدشين مدرسة دار الحديث بها، وقد رافق الإمامُ ابن باديس الوفدَ إلى حيث أطلال مسجد المنصورة، حيث حرر نداء يدعو فيه الأمة الجزائرية للصيام وملازمة المساجد، بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة، ولما قرأه على الوفد جعل أحد تلامذته يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب ابن باديس وقال: يا أبنائي، إنكم تعلمون أني لم أطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئاً واحداً، وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها[2].

ثم التفت إلى الأستاذ إبراهيم الكتاني، قائلاً له: هنيئاً لكم أنكم تجدون في المغرب السبيل للتضحية في سبيل بلادكم، أما نحن في الجزائر فإننا نتحرق على التضحية في سبيلها، ولا نجد للتضحية سبيلاً[3].

ولم يكن يتحرج ـ أبداً ـ من الإفصاح بالهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه، عندما يسألونه طالبين منه الإعلان بالثورة والمطالبة بالاستقلال، فيذكر محمد خير الدين: أنه ذات يوم من عام 1933م، التف نفر من الشباب المتحمس حول الإمام ابن باديس بنادي الترقي ، وطلبوا منه أن يرفع صوته

(1) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس ص 160.
(2) مذكرات محمد خير الدين (1 / 407).
(3) المصدر نفسه (1 / 407).

قوياً مدوياً عالياً، مطالباً باستقلال الجزائر وحريتها، فقال لهم: وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيد الجدران؟

فقالوا: كلا ولا يمكن هكذا.

فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره ؛ فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة ؛ فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف.

وهذا الكلام نفسه الذي أجاب به تلاميذه، قاله لمصالي الحاج الذي كان يطالب بالاستقلال بنص: وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل، أن يتركه بدون سقف، وهل غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[1]؟

وصرّح سنة 1940م في اجتماع خاص في بيته بمبنى جمعية التربية والتعليم الإسلامية مقسماً فقال: والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على الثورة لأعلنتها[2]، وحينما حمي وطيس الحرب العالمية الثانية اجتمع به جماعة من أنصار حركته فقال: عاهدوني، فلما أعطي له العهد بالمصافحة قال: إني سأعلن الثورة في فرنسا عندما تُشهر عليها إيطاليا الحرب.

وذكر عنه أنه عندما كان يسأله تلاميذه: كيف يمكن تخليص الجزائر من قبضة الاستعمار؟ يشير إلى الجبال البعيدة قائلاً: هناك يكون الخلاص. كما يقول عنه أحد تلاميذه: كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالاً يساعدونه[3].

وامتنع عن إرسال برقية المساندة لفرنسا عند دخولها الحرب، قائلاً لأعضاء المجلس الإداري للجمعية: إنني لا أوافق على إرسال هذه البرقية أبداً، ولو قطعوا رأسي، وأشار بيده إلى عنقه، لأن ذلك يعتبر قبولاً مني بتجنيد أبناء هذه الأمة في الحرب، ويشرح للحاضرين الذين وافق معظمهم على سبب امتناعه: وكيف أوافق

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 89).

(2) الفكر السياسي عند الإمام الشيخ ص 162.

(3) المصدر نفسه ص 163.

وألوان الاضطهاد ماتزال تنصبّ على الأمة وتنال من دينها ولغتها وقوميتها؟ وأنا لا أنتظر إلا إحدى الحسنيين: فإما حياة السعادة، وإما الفوز بالشهادة.

ولكن عضواً من المجلس رد عليه قائلاً: إذا كنت تحب الذهاب إلى السجن.. فالناس لها أولاد. فيجيب الشيخ: إذا كان عندك أولاد، فأنا أعتبر أن أولاد الأمة كلهم أولادي[1].

لقد رفض ابن باديس تأييد فرنسا في الحرب ؛ عندما ناشدت فرنسا فجأة عبد الحميد بن باديس ليؤيدها، نظراً لأن مكانته لا تنكر في شعبه ؛ فبالتأكيد سوف يساعد في المجهود الحربي في الحرب العالمية الثانية، فقال ابن باديس: لو أن الحاكم العام طلب مني أن أقول لا إله إلا الله لرفضت أن أقولها[2].

كان الاستعمار الفرنسي يدرك آنذاك أن رجال الدين المتعاونين معه، لن يكون لكلمتهم التأثير المطلوب، لذلك توجه إلى العناصر القيادية في جمعية العلماء يطلب منهم أن يدعوا الشعب إلى التجند ضد النازية، فكان هناك من أجاب متملصاً: هذه حرب سياسية، ونحن علماء دين. فإذا كنتم تطلبون فتوى في هذا الموضوع فاطلبوها ممن تعتبرونهم سياسيين مثل الدكتور ابن جلول[3]، وكان هناك من رجال جمعية العلماء من فضّل التعرض للنفي والتشريد، كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي ؛ على أن يقول كلمة تأييد لفرنسا بمناسبة الحرب. هذا هو الظرف الزمني الذي قال فيه ابن باديس كلمته: والله لو طلبت مني فرنسا أن أقول لا إله إلا الله ما قلتها[4].

وكإجراء عملي أُوقفت البصائر عن الصدور بإرادة من مجلس الجمعية حتى لا تقع في حالة الطوارئ. وحتى لا تتعرض للضغوط والمساومات[5] من قبل الإدارة الاستعمارية، لتمنحها الموافقة والتزكية في تجنيدها

---

(1) جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي ص 163.

(2) عبد الحميد بن باديس زعيم الإصلاح وزعيم القومية ص 198.

(3) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 59.

(4) عروبة الجزائر ص 60.

(5) جهاد ابن باديس ص 164.

لآلاف الجزائريين ـ قهراً ـ ضمن قواتها، والذين كان ابن باديس يعلق عليهم اماله، عندما يحين الوقت لحمل السلاح في وجه المستعمر الغاصب[1].

كما كان يعلق اماله على تلاميذه الذين يدرسهم والكبار الذين يزورهم ويعظمهم، فيلح على الجميع في دروسه ومحاضراته على الاستعداد المادي والمعنوي لمواجهة هذا العدوان في يوم ما[2].

الثاني عشر: وفاة ابن باديس وأقوال المعاصرين فيه:

ـ وفاة ابن باديس:

عاش ابن باديس للفكرة والمبدأ واستمر يواصل الجهاد العلمي والاجتماعي والسياسي ؛ يعلّم ويرشد ويعظ ويحرر وينتقل ويتعبد ويتأمل ويحقق، لا يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار، لم يشفق على نفسه ولا على جسمه، ولم يبال بصحته في سبيل مبدأ أعظم وأمة يسوؤه حالها، ويدمي نفسه احتلالها، ويدفعه للبذل والسهر مالها وآماله وآمالها، أفنى ذاته في سبيل عقيدة، وقضى من أجل رسالة[3]، حتى أنه أصيب بداء السرطان في الأمعاء[4]. وأضاف البعض سلّ العظام[5]، ومع كل هذا كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد[6]، مما جعل وفاته غير طبيعية[7].

وفي نفس اليوم الذي مات فيه، زار والي قسنطينة الشيخ في مرضه بمنزل والده، واقترح عليه أن يصرح بندمه على توريط جمعية العلماء في السياسة ، وأنه لا يحمل حقداً لفرنسا . وهنا حاول الشيخ أن يقوم من

(1) مذكرات محمد خير الدين ص 407.
(2) جهاد ابن باديس ص 164.
(3) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 95).
(4) جهاد ابن باديس ص 103.
(5) حياة كفاح، أحمد توفيق المدني (2 / 12).
(6) نوابغ العرب ص 101، أساتذة.
(7) جهاد ابن باديس ص 103.

فراشه، وقال غاضباً: أخرجوني من هنا أو أخرجوه. وخرج الوالي مذموماً مدحوراً، ولفظ ابن باديس أنفاسه في ذلك اليوم، دون أن يستسلم يوماً لفرنسا أو يستكين لها[1].

في هذه الظروف الحياتية العصيبة والثاقبة وافى الأجلُ الإمامَ عبد الحميد ابن باديس مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ الموافق 16 نيسان 1940م. وشيعت جنازته في موكب جنائزي ويوم مشهود. كان المشيعون له ـ خمسين ألفاً أو يزيدون[2]، تأثر لوفاته جميع الشعب الجزائري، لأن الإمام دخل ضمير الأمة كلها، يذكر لنا ـ على سبيل المثال فقط ـ الأستاذ محمد الميلي أنه لما رجع من المدرسة لأن الدراسة توقفت لما تناقل الناس خبر وفاة الإمام وأخبر أمه بوفاته، وكانت منكبة على تحضير طعام العشاء، فأجهشت بالبكاء، وعند ذلك أحسّ الابن: أن موت الشيخ ابن باديس لم يكن حدثاً عادياً[3].

ويتحدث عن الإمام ابن باديس واصفاً إياه فيقول: ولم يرسب في خاطري من تلك المشاهدة، إلا صورة رجل مهيب صارم الوجه يترك فيك انطباعاً أنك أمام جبل رغم قامته القصيرة[4]، وينقل لنا وصف حالة أبيه محمد مبارك الميلي، إثر رجوعه من قسنطينة بعد تشييع جنازة الإمام إلى مثواه الأخير فيقول: لم يكلمني أبي، أو بعبارة أدق لم يجد القدرة على الكلام.. تحركت شفتاه لكن بدون صوت.. وظل كذلك بضعة أيام.. كان خلالها يعرب عن مطالبه بالإشارة[5].

هذا وقد كُتب على قبر ابن باديس:

س1: الله أكبر

---

(1) المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، عيسى عمراني ص 204.

(2) جهاد ابن باديس ص 104.

(3) ابن باديس وعروبة الجزائر ص 8.

(4) المصدر نفسه ص 8.

(5) المصدر نفسه ص 8.

س2: هنا يرقد العلامة الجليل الأستاذ الإمام الشيخ عبد الحميد

س3: ابن باديس باعث النهضة العربية في الجزائر وزعيمها المقدام

س4: توفي مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول، 16 أفريل سنة 1359هـ / 1940م[1]

وقال يوم موته هذه الأبيات التي اختارها لنفسه:

سينحل جثماني إلى الترب أصله … وتلتحق الورقا بعالمها الأسمى

وذي صورتي تبقى دليلاً عليه فإن … شئت فهم الكنه فاستنطق الرسما

وعن صدق إحساس تأمل فإن … في ملامح المرء ما يكسب العلما

وسامح أخاك إن ظفرت بنقصه … وسل رحمة ترحم ولا تكتسب إثما[2]

وقد رثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة بقصيدة ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، نقشت فيما بعد على رخامة وعلقت على ضريحه، ومما جاء فيها:

يا قبر طبت وطاب فيك عبير … هل أنت بالضيف العزيز خبير

هذا ابن باديس الإمام المرتضى … عبد الحميد إلى حماك يصير

العالم الفذ الذي لعلومه … صيت بأطراف البلاد كبير

بعث الجزائر بعد طول سباتها … فالشعب فيها بالحياة بصير

وقضى بها خمسين عاماً كلها … خير لكل المسلمين وخير

ومضى إليك تحضه بثنائها … وإليه من بين الرجال تشير

عبد الحميد لعل ذكرك خالد … ولعل نزلك الجنة حرير

ولعـــل غرســـك في القرائح … مثمر ولعل وريك للعقول منير

لا ينقضي حزن عليك مجدد … وأسن له بين الضلوع سعير

نم هادئاً فالشعب بك راشد … يختط نهجك في الهدى ويسير

---

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 95).

(2) عبد الحميد بن باديس، مفكر الإصلاح وزعيم القومية الجزائرية تأليف أندري ديرليك ص 199.

لا تخش ضيعة ما تركت لنا سدى　　　فالوارثــون لما تركت كثــير

نفحَتْك من نفحات ربك نفحة　　　وسقاك غيث من رضاه عزيز[1]

1 . شهادة محمد البشير الإبراهيمي في ابن باديس:

عندما رفض الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دعم فرنسا في الحرب العالمية الثانية ؛ تمّ نفيه من قبل السلطات الفرنسية إلى منفاه بمدينة افلو، ووصلت إليه آخر رسالة من أخيه الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكانت وجيزة الألفاظ وقوية المعاني، جاء فيها: الأخ الكريم الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي سلمه الله، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد، فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل فأقول لكم؟ الان يا عمر، فقد صنت العلوم والدين، صانك الله وحفظك في تركتك، وعظمتهما عظم الله قدرك في الدنيا والاخرة، وأعززتهما أعزك الله أمام التاريخ الصادق، وبيّضت محيّاها بيّض الله محيّاك يوم القيامة، وثبّتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتكم والله المستعان.

من أخيكم عبد الحميد بن باديس

وبعد عشرة ايام فقط من نفيه إلى افلو، وبعد أربعة أيام فقط من كتابة هذه الرسالة الخالدة توفي إلى رحمة الله الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس، فجاء نعيه بعد تلك الرسالة بهذا الموت الفجائي، ونشرت جريدة «لا دييبش الحريان» الخبر مقتضباً مع صورة الإمام في الصفحة الأولى في 17 أفريل، فحزن الأستاذ حزناً بالغاً وبكى بكاء مراً، وضاق صدره لعدم تمكنه من حضور جنازته، ففوض أمره إلى الله واسترجع، وكتب إلى اخوانه بقسنطينة رسالة تعزية بث فيها أحزانه وشجونه، وقسم نفسه إلى قسمين: نفس سائلة، ونفس مجيبة. ننقل للقراء من الرسالة الأسئلة والأجوبة.

قال رحمه الله: وسألت نفس أختها بأين؟

(1) ابن باديس حياته وآثاره (1 / 95).

فأجابت المجيبة بلا أين؟

سؤال السائلة:

أين؟ . يا أخت . الحسام المنتضي لصروف الدهر في اليوم العصيب
أين؟ . يا أخت . الإمام المرتضى ذو البيـــان الحر والرأي المصيب
أين؟ من إن أمحل الفكر مضى يرحض الإمحال بالفكر الخصيب

جواب المجيبة:

جاء المحتوم من صرف القضا فقضى لم يرضَ بالدنيا نصيب

سؤال:

أين؟ . يا أخت . هلال الداجية فارس الحلبة كشاف الكرب
كان نوراً في الليـــالي الساجية ويل قومي إن توارى أو غرب
أين؟ . يا أخت . إمام الناجية وأمين الله عن مجـد العــرب

جواب:

حرمت منه النفوس الراجية وتمثلت حظها منها الترب

سؤال:

أين؟ حامي الدين من شوب الضلال ومجير الحق من إفك الهوى
أين؟ . يا أخت . حواري الجـــلال صيقل الأذهان أكسير القوى
عاف خفض العيش في برد الظلال وامتطى للمجد نزاع الشوى

جواب:

خبر الأظعان والحي الحلال أن نجم الدين قد هوى

سؤال:

أين؟ ليث كان بالأمس هنا خـــادراً قد ملأ الدنـــيا زئيـــر
أغلـــبا في لبـتدتين ارتهـــنا عن عـــرين الدين يرمي ويجـــير
ما وني عن فـرصة أو وهـــنا هل رأيت المخذم العضب الطرير

جواب:

هجر الغيل وأسرى موهنا والحمى أصبح نهباً للمغير

سؤال:

أين؟ منا اليوم يا أخت الرئيس	كم به قد رفع القوم الرؤوس
ما له غاب؟ فما منه حسيس	ما له أقصر واليوم عبوس
من رمى الأمة بالجد التعيس	وسقاها جرع الغم كؤوس

جواب:

غاله من خاتل الموت دسيس	فهو قد أصبح رهناً في الرموس

إلى أن قال: والسلام عليكم مجتمعين على الحق ومتفرقين في خدمة الحق.

أخوكم المعتد بوجودكم وعطفكم

محمد البشير الإبراهيمي[1]

أفلو يوم السبت 13 رجب الفرد عام 1359هـ.

وقال عنه الإبراهيمي: عبد الحميد بن باديس باني النهضة الجزائرية وإمامها، ومدرب جيوشها، عالم ديني، ولكن ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والفعل اللماح، والفهم الغواص على دقائق القران، وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين، والإلمام الكافي بمعارف مع التمييز بين ضارها ونافعها، مع أنه لا يحسن لغة من لغاته غير العربية، وكان من التضلع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها إماماً في العلوم الاجتماعية، يكمل ذلك كله قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر، فكان من أخطب خطباء العربية، وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتّابها[2].

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بأقلام محبيه، دار الأمة ص 281.

(2) آثار محمد البشير الإبراهيمي (4 / 336).

ويقول فيه: الحقيقة التي لا يختلف فيها اثنان، والشهادة التي يؤديها لوجه الحق حتى رجال الاستعمار، هي أن أول صيحة ارتفعت بحرية الجزائر كانت من لهاة عبد الحميد بن باديس ولسانه، وأن أول صخرة وضعت في أساس نهضة الجزائر إنما وضعتها يداه[1]

كل ما يوجد اليوم في الجزائر من حركات فهو مدين لجمعية العلماء بوجوده، وكل ما يعلو فيها من أصوات، فهو صدى مردد للكلمات النارية التي كان يقذفها لسان مبين يترجم عن علم مكين ودين متين.

وكتب عنه فصلاً قيماً في البصائر بعنوان «الرجال أعمال» مما قال فيه:... باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر، وواضع أسسها على صخرة الحق، وقائد زحوفها الخيرة إلى الغايات العليا، وإمام الحركة السلفية، ومنشأئ مجلة الشهاب مراة الإصلاح، وسيف المصلحين، ومربي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي والتفكير الصحيح، ومحيي دروس العلم بدروسه الحية، ومفسر كلام الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقن مبادئها، علم البيان وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، رحمه الله ورضي عنه.

وحسب ابن باديس من المجد التاريخي هذه الأعمال التي أجملناها في ترجمته، وإن كان واحد منها لأصلٌ لفروع وفصل من كتاب، وإذا كان الرجال أعمالاً ؛ فإن رجولة أخينا عبد الحميد تقوم بهذه الأعمال. وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيا أمة تعاقبت عليها الأحداث والغِيَر، وديناً لابسته المحدثات والبدع، ولسان أكلته الرطنات الأجنبية، وتاريخاً غطى عليه النسيان، ومجداً أضاعه ورثة السوء، وفضائل قتلتها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية، وهم ألسنتها الخاطبة وأقلامها

---

(1) المصدر نفسه (4 / 336)، إمام الجزائر ص 288.

الكاتبة وهم حاملوا ألويتها، وأن اراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي ؛ هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون، وأن بناءه الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار.

وحسبه من المجد التاريخي أن إخوانه الذين حملوا معه معظم الأمانة في حياته، اضطلعوا بحملها كاملة بعد وفاته، في أيام أشد تجهماً من أيامه، وفي هزاز ما كان يتخيلها في أحلامه، فما وهنوا ولا هانوا ولا ضعفوا ولا استكانوا، وإنهم استخلفوا على النهضة فكانوا نعم الخلف تمموا وعمموا، وأجمعوا وصمموا، وأنهم وفَّوا له ميتاً كما وفَّوا له حياً، واعتزوا باسمه بعد مماته كما كان يعتز بهم في حياته(1).

وأرسل محمد البشير الإبراهيمي رسالة تعزية في ابن باديس للأستاذ أحمد توفيق المدني.

الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله:

أخي، أعتقد أن الراحل أخي العزيز لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس، وأعتقد أن فقده لا يحزن قريباً دون بعيد، وأن أوفر الناس حظاً من الأسى لهذا الخطب هم أعرف الناس بقيمة الفقيد وبقيمة الخسارة بفقد للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها، فلهذا بعثتُ أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن فاض، ببقاء اثاره في الحياض وأنهاره في الرياض، كما يعزى على مغيب الشمس بشفقها، وعن ذبول غضارة الشباب ببقاء رونقها، وإن كانت التعازي تعاليل لا تطفي الغليل، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً إلى كبد تتنزى حزناً.

وظني في أخي أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معزّ لأول معزّى.

واحسرتاه، رحم الله الراحل العزيز جزاء ما بثّ من علم وزَرَعَ من خير، وثقف من نفوس ؛ ولله ذلك

(1) إمام الجزائر ص 289.

اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم، وإنا لفقدك يا عبد الحميد لمحزونون[1].

أخوكم الحزين الإبراهيمي.

2. الشيخ الفاضل بن عاشور:

وقال عنه الخطيب العلامة الأستاذ الفاضل بن عاشور:.. إن فضل النهضة الجزائرية على العالم الإسلامي فضل عظيم، وإن أثر الشيخ عبد الحميد بن باديس في تلك النهضة أثر إنساني رئيسي، وما تكريمنا للشيخ عبد الحميد بن باديس إلا تكريم للفكرة العبقرية، والنزعة الإصلاحية الفلسفية التي دفعت به فريداً إلى موقف إحياء التعاليم الإسلامية، في وطن أوشكت شمس الإسلام أن تتقلص في ربوعه، بعد ثمانين عاماً قضاها في أغلال الأسر، فإن وقع المصيبة واستمرارها وطول أمدها، وخيبة المصارعات الكبرى التي بذلت في سبيل الإفلات من الغل ؛ قد كونت حول الشعب الجزائري دائرة من التصورات المزعجة، إن لم تزرع فيه روح الاستسلام واليأس ؛ فقد زرعت فيه الذهول والسموم، والاستقاء في بحر جارف التيار في غفلة عن غايته، لقد كان يقول في نفسه كلما تلقى حقيقة جديدة في الجامعة الزيتونية، هذه هي نفسي وهذه حقيقتها لأني مسلم عربي، وهذا أمر يشاركه فيه كل أحد، ولكن الذي يزيد به هو على الناس هو تساؤله عن حقيقة الأمر الواقع، هل هي كذلك أم لا؟

وهل الجزائريون يعتبرون عند أنفسهم وعند غيرهم بهذا الاعتبار؟

فيجيب الواقع مخالفاً ويندفع نحو بحث الواقع كما هو، ثم كما ينبغي أن يكون، وذلك هو عماد الفلسفة، ثم يستمد من عزيمته القعساء روح المجاهرة بالدعوة.

فإذا هو يصرح بالحقائق البسيطة في النظر المتعبة في العمل فيقول: أن نتعلم غير تعلمنا، ونعش في غير مجتمعنا، وننظر بغير أبصارنا، وندرك بغير عقولنا، فهل نحن موجودون؟

(1) آثار محمد البشير الإبراهيمي (2 / 37).

كلا، لا يكمل وجودنا إلا بعد أن يستملك عقول وأبصاراً وعيشاً وتعليماً، وأن نخرج من هذه الفوضى الحيوانية «أنت أنت أنا أنا» إلى الحقيقة الناصعة الوضاءة التي وضع قاعدتها في خلاصة فلسفية:

شعـــب الجزائر مسلم   وإلى العـــروبة ينتســـــب

من قال حاد عن أصله   أو قال مات فقد كذب[1]

3. الشيخ العربي التبسي:

وأما الأستاذ الأصولي العلامة الشيخ العربي التبسي فقد كتب مقالاً قيماً بمناسبة الذكرى الثانية عشرة لوفاة الإمام عبد الحميد بن باديس جاء فيه ما يلي: إن الرجال لا تسجل أنسابهم ولا صورهم ولا أموالهم في سجل الإنسانية شرائعها ورجالها، وإنما تسجل عقائد الذين غرسوا عقائدهم في نفوس الناس، وإنما تسجل أعمال الذين أخرجوا الناس من فوضى اجتماعية إلى نظام اجتماعي توارثته الإنسانية بعدهم، وإنما تسجل المبادئ التي تفيء إلى ظلها الإنسانية حين تطغى على الإنسانية الجوائح التي تجتاح الناس بسوط عذابها ولهيب نيرانها.

والذكرى إذا أقيمت لشخص له عروق هذه الصالحات نسب ؛ كانت تلك الذكرى اعترافاً لتلك الشخصية، بأن لها في عنق القائمين بهذه الذكرى نعما ومنناً، شكرها له بإقامة الذكريات والحفلات هو أقل حق له عليهم يؤدونه له.

وعبد الحميد بن باديس جدير بأن تقيم له الأمة الجزائرية الإسلامية العربية الذكرى، وجدير بأن يعدّ من أولئك الذين سجل لهم التاريخ جهوداً تؤهله للحاق بالشخصيات المعترف بها بمزاياها، قدم عبد الحميد لأمتنا في أرضنا الشيء الكثير، مما يعدّ أساساً لهذه الحركة وبذوراً لنواحيها المتعددة[2].

---

(1) إمام الجزائر ص 290.

(2) المصدر نفسه ص 291.

4 . مالك بن نبي:

من مفكري الجزائر الذين هزتهم حركة ابن باديس فكتب عنها الشيء الكثير، ولعل في مقدمة ما كتب قوله في كتابه شروط النهضة، ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس، فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري يتحرك، ويا لها من يقظة مباركة[1].

ويقول في الكتاب نفسه مقارناً بين عمل العلماء ورجال السياسة المحترفين، إن العلماء كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين حين دعوا إلى الإصلاح بمعنى دفع النفس إلى حظيرة الإيمان من جديد[2].

5 . أبو القاسم سعد الله:

من كبار المؤرخين بالجزائر يقول: إن العشرينات من هذا القرن هي الفترة التي ظهرت ونمت فيها الصحافة الإصلاحية والنوادي الحرة، وكان ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه[3].

وحين تحدث عن جمعية العلماء قال: وإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات، فالكلام في الواقع عن ابن باديس، ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء، ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً إنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس[4]. وقال: وحسبنا هنا أن ننبه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها، خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين، وفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والنوادي والصحف والكتب[5].

(1) شروط النهضة ص 79.
(2) المصدر نفسه ص 79.
(3) الحركة الوطنية الجزائرية (3 / 82).
(4) عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني ص 158.
(5) المصدر نفسه ص 159.

ولئن كان الحديث عن الجمعية ؛ فإن ابن باديس كان هو العصب المحرك وينطبق الحديث عليه تماماً[1].

6. حمزة بو كوشة «شنوف»:

من زملاء ابن باديس قال عنه: كان ابن باديس رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته، وليس عنده كِبر، ولا يشعر بأي غضاضة أن يسأل أحد تلامذته عن مسألة ويرجع إلى الحق، وتحدث عن برنامجه اليومي وعن أسرته، وعبّر بجملة واحدة عن أشياء بيناها في هذا الكتاب، فقد قال: إن التضحية التي ضحاها ابن باديس مهمة جداً، فقد كوّن جيلاً من الأجيال[2].

7. محمد خير الدين:

عمل مع ابن باديس قبل تأسيس الجمعية، وأصبح بعد ذلك عضواً في مجلسها الإداري، وظل يعمل في الدعوة الإسلامية إلى ما بعد التحرير، وقد قال: كانت حياة ابن باديس كلها جهاد، ولم يعش لنفسه أبداً ولم يعش لأحد بل عاش لله. كذلك لم يترك وقتاً قصيراً ليقضيه في مسائل دنيوية أو مظاهر أو وظيفة أو طمع، إنما صرف وقته للعلم والتكوين. فالجزائر مدينة للشيخ عبد الحميد بن باديس في ميدان التربية والتعليم حيث لم يكن هناك تربية أو تعليم إلا به، والوطنية قبل أن يسمع بها الناس لم يسمعوا بها إلا منه[3].

8. محمد الصالح رمضان:

من تلاميذ الشيخ ابن باديس قال: يكاد يجمع الناس كلهم الأعداء وغير الأعداء مسلمون وغير مسلمين . والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شراً عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم . كلهم يجمعون على صدقه وتقواه، وحتى الفرنسيون يؤمنون بهذا ويرون أنه أقوى شخصية في الجزائر[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 159.

(2) المصدر نفسه ص 171.

(3) المصدر نفسه ص 170.

(4) المصدر نفسه ص 174.

9. عمار أوزغان:

من معاصري الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذين لم يكونوا يرون في الشيخ عبد الحميد إلا عدواً لاختلاف في الفكر والتوجه، ومن أوائل الجزائريين انتساباً للحزب الشيوعي، بل كان ممن تسلموا قيادة هذا الحزب في الجزائر. ولكن الله منّ عليه بالهداية فترك الحزب الشيوعي، وكان من إنتاجه كتاب «الجهاد الأفضل» الذي قال فيه عن ابن باديس: كان الشيخ عبد الحميد بن باديس ـ أدام الله ذكره ـ أول رئيس لجمعية العلماء، كان خطيباً ساحراً ومتواضعاً كأحد أبناء الشعب، كان مصلحنا الديني ثورياً خالصاً، وحكيماً لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطي. كان أبا المؤتمر الإسلامي حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفاراً عاماً للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية[1].

10. صالح الخرفي:

قال الدكتور صالح الخرفي في مقال بعنوان «الجزائر والأصالة الثورية» جاء فيه: وابن باديس هذا الرجل الذي فجّر أعنف معركة فكرية في أدق مرحلة استعمارية، وإذا كانت معجزة عبد القادر معجزة صلابة في معركة سافرة، فإن معجزة المصلح تبدو هي الأخرى مدعاة للإكبار وهي تبشر بالشخصية الجزائرية تحت سمع العدو وبصره في معركة مقنّعة الجبهات، متعددة الوجوه، ملتوية السبل، سلاحها نفاذ في البصيرة، وعبقرية في المناورة، ومجابهة البطش المتعامي بالإيمان المتبصر، وإدراك حساس للخطوط الدقيقة التي تفصل بين الغايات والوسائل[2].

11. محمود قاسم:

من المفكرين الذين عملوا بجامعات الجزائر وأتيحت له فرصة أن يتعرف على بيئة ابن باديس وعلى زملائه

(1) المصدر نفسه ص 176.

(2) المصدر نفسه ص 176.

واستفاد من المراجع المتوفرة هناك، وأصدر كتابه «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» بعد استعادة الجزائر استقلالها بسنوات قليلة عام 1967م، فقد قال عن ابن باديس: وقد استطاع بصدق فطرته وإخلاصه أن يهتدي إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين، وقد نجحت في أن تجرّ إليها نفراً من السياسيين المحترفين، وقال: ولقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أن تحاصر الجزائر. ولم تفطن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان، فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحّى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى[1].

12. أنور الجندي:

كتب يصف ابن باديس فقال: فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح، ويسيطر على الجموع، وهو الكاتب الدقيق العبارة، النقي الأسلوب، الواضح الفكرة، وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة، وهو الذي ينشأئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها، ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهيرة، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء، وإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته «الشهاب» يكتب ويحرر، ويراسل «البصائر»، ويجيب على الرسائل فيفضي موهناً من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول. ولم تصرفه الصحافة عن التدريس، وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم، أو كشوف العلم والفكر ؛ إلا استوعبها وأبدى رأيه فيها، وما من صحيفة في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته. وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات سياسة الغرب في الشرق ، وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ومن زاوية أمر

(1) الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير ص 14.

العرب والمسلمين، ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر، يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة، ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أو باللغة العربية أو بتفوق العنصر الأوروبي على العنصر العربي الإسلامي[1].

13 . المؤرخ الأستاذ خير الدين الزركلي:

صاحب «الأعلام» والذي عاصر ابن باديس، ويعتبر شاهداً على جهاده، ينقل لنا شهادته قائلاً عنه: كان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليه رئاسة الأمور الدينية، فامتنع واضطهد وأوذي، وقاطعه إخوة له كانوا من الموظفين، وقاومه أبوه[2]، وهو مستمر في جهاده[3].

14 . د. عبد الحليم عويس:

أستاذ التاريخ الإسلامي الذي كتب كثيراً حول الدور الرائد الذي قامت به جمعية العلماء في تصحيح العقائد وتحرير العقول بالعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة، كتاب وسنة رسوله (ص)، يشيد هذا الأخير بدور رئيسها الشيخ ابن باديس ومنهجه في الإصلاح قائلاً: إن ابن باديس.. كان يؤمن إيماناً لا حدود له بدور القرآن الكريم في تكوين الجيل المنشود، على غرار الجيل الذي كونه القرآن في العصور الأولى للإسلام[4].

15 . الشاعر محمد العيد ال خليفة:

رافق شعرُه النهضةَ الإسلامية في الجزائر في جميع أطوارها، فقد ألقى قصيدة في حفل تكريم الإمام ابن باديس وعدّد فيها جهوده العلمية، وجهاده من أجل الحفاظ على شخصية الجزائر الإسلامية، نذكر منها هذه الأبيات:

(1) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 157.
(2) خير الدين الزركلي (4 / 60).
(3) عبد الحميد بن باديس، مصطفى حميداتو ص 85.
(4) عبد الحميد عويس، أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الفكر الإسلامي الإصلاحي في الجزائر ص 255.

بمثلك تعتز البـــلاد وتفـــخر — وتزهـر بالعلـــم المنير وتزخـــر

طبعتَ على العلم النفوس نواشئاً — بمخبر صدقٍ لا يدانيه مخبرُ

نهجت لها في العلم نهج بلاغة — ونهج مفاداة كأنك حيدرُ

ودرسك في التفسير أشهى من الجنى — وأبهى من الروض النظير وأبهر

ختمت كتاب الله ختمة دارس — بصير له حلُّ العويص مُيسّر

فكم لك في القرآن فهم موّفق — وكم لك في القرآن قولُ محرر[1]

16. د. محمد البهمي:

إن معجزة الحياة في الجزائر بدأت بصوت الشيخ عبد الحميد وندائه الذي أيقظ المعنى وحوّل مناجاة الفرد إلى حديث الشعب[2].

17. محمد الغزالي:

قد تكون مواهب الشيخ البشير الإبراهيمي البيانية أو البلاغية أعظم من مواهب ابن باديس، لكن الشيخ ابن باديس إمام وإمام جامع مواهب كثيرة تدير في فلكها الشيخ البشير الإبراهيمي وغيره من العلماء[3].

18. روجي جارودي «مفكر فرنسي»:

قال: إن ابن باديس والإبراهيمي ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري، الهادف إلى تحطيم مقومات الشخصية، وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية «المرابطية»، فتلك العقلية بما فيها من خرافات وإشاعات تتنافى مع روح الإسلام[4].

19. إحدى الصحف الفرنسية:

ولعل من المفيد أن أنقل فقرات مما قالته فيه إحدى الصحف الفرنسية التي كانت تصدر بتونس، حين

(1) عبد الحميد بن باديس، مطبقاني ص 173.
(2) المدرسة الباديسة ومناهجها الدراسية، عيسى عمراني ص 209.
(3) عبد الحميد بن باديس، أندري ديرليك ص 208.
(4) المصدر نفسه ص 209.

سافر ابن باديس إليها من أجل حضور حفل ذكرى وفاة البشير صفر، قالت Le peti Matin : والشيخ ابن باديس يمثل حقًّا الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الناري يستفز الجماهير، فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينة وسلامًا. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة التقديس، وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أما سُمعته فقد اخترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله.

إن عملاً يقوم به ابن باديس لا يمكنه أن يتضاءل ولا أن يقف، إنه لعمل لا يسير إلا إلى الأمام، ولابد له من أن يتضخم وأن ينتشر، وأن يكتسح كالسيل العرم المدن والبادية فيحيي الموات ويتلف المعارضة، لقد حرك الشيخ بكلماته أوتار القلوب، فأبدع وأدهش وقطع الأنفاس من شدة التأثير، وابتلت المحاجر وسالت الدموع.

إن الذين يسوقون الشعوب من أمثال ابن باديس ؛ كانوا دائماً يصلون إلى أعلى الدرجات، إن لم يتموا أيامهم في المضيق المظلم، وإن لم يأت الاعتداد السياسي على تلك الحياة فيختم صفحتها.

وإن ابن باديس من هذه الناحية لقريب إلى «ميرابو» «وجوريس» «وزغلول»، لقد كان يستطيع أن يفعل ما يريد في الجموع التي كانت تستمع إلى خطابه، وهذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة، وهل من اللازم أن أقول بأنه عندما سكت هذا الرجل وصفقت له الناس تصفيقاً لم أر مثله في حياتي أصبح كل كلام بعد ذلك غير مساغ[1].

هذا النص مقال كتب بالفرنسية، وتمّ ترجمته من الصحيفة المذكورة[2].

20 ـ شهادة الكاتب الفرنسي «فرنسيس جانسون»:

حيث قال الكاتب الفرنسي في صراحة واضحة: إن المعركة الباديسية أحدثت إصلاحاً شاملاً فيما وصل إليه الإسلام، بعد تخلصه من التحريف والشوائب التي علقت به نتيجة للتفسيرات المشكوك في صحتها، حيث

(1) ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير ص 59.

(2) المصدر نفسه ص 59.

تراكمت خلال قرون عدة، كما عملت على تعميم الثقافة العربية بإنشاء مدارس تتولى تدريس اللغة العربية ونشرها في الجزائر، كما نشرت الوعي القومي مما وقف عقبة في وجه السيطرة الاستعمارية، ومما أقلق سلطات الاستعمار التي كانت تستخدم فئة من رجال الدين المأجورين لتجعل الإسلام وسيلة لتخدير الشعب، كما قاومت خطة القضاء على اللغة العربية، واستخدام كل سلاح لمحاربة تعليمها ودثر ثقافتها، لتصبح نوعاً من التراث الذي لا يجد مجالاً للبقاء، في غير بضع عشرة مدرسة من المدارس العتيقة التي تقرأئ القرآن[1].

21. المؤرخ الكندي أندري ديرليك:

قدم المؤرخ الكندري أندري ديرليك رسالة علمية نال بها درجة الدكتوراة بعنوان عبد الحميد بن باديس مفكر الإصلاح وقائد الحركة الوطنية الجزائرية.

ولقد بذل المؤلف في رسالته هذه جهداً كبيراً ولعلها من أولى الرسائل الجامعية في العالم الغربي تتناول حياة ابن باديس بهذا الوضوح والقوة، فقد أنجزت عام 1971م أي بعد استعادة الاستقلال بسنوات قلائل[2].

لقد درس المؤلف نشاط ابن باديس بوصفه داعية، وربطه بكبار الدعاة في التاريخ الإسلامي منذ ابن تيمية إلى العصر الحاضر، ووقف على فكر ابن باديس في بعض المسائل التي حاول بعض المؤرخين المسلمين طمسها وتشويهها، مثل مسائل الاقتصاد والعمل.

وفيما يلي بعضاً من أقوال هذا المؤرخ: لقد أخذ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكر الذي ينظّر لمجتمعه نظاماً فكرياً، بل ليكون الحركي الذي تحرك طاقاته الواسعة جماهير شعبه، من حالة الكسل التقليدية التي كانوا عليها[3].

ويتحدث عن نتائج أعمال ابن باديس فيقول: لقد كانت نتائج جهود ابن باديس أن احتفظت الجزائر

---

(1) المصدر نفسه ص 60.

(2) عبد الحميد بن باديس، د. مطبقاني ص 160.

(3) المصدر نفسه ص 160.

بشخصيتها الإسلامية العربية، في حين كانت أهداف فرنسا الصريحة بأن تحطم هذه الشخصية، ولكن الجزائريين استطاعوا تجنب ذلك وتفاديه[1].

ويأتي حديث أندري ديرليك حول اتساع نطاق عمل ابن باديس ليشمل جميع مجالات الحياة والفكر، ليرد على أولئك الذين يريدون قصر مجال العلماء المسلمين على العبادات؟ فيقول ديرليك: إن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشؤون السياسية، ولمس تفكيره الأمور الاجتماعية والثقافية، لقد عبر عن ارائه حول مسألة الحضارة للجزائريين وللبشرية أجمع، لقد أظهر اهتمامه لمبادئ الأخلاق في المجتمعات. وإن الذي دفعه لإبداء ارائه حول هذه الموضوعات المختلفة هي نظرته للعالم.

إن فكر ابن باديس منسجم مع الوضع الذي تبناه لأهمية الإسلام للإنسانية، إنه مما يهم الطالب الجزائري؛ أن يعرف المشاركة التي لا شك في أن ابن باديس قدمها لتغيير المجتمع الجزائري[2].

ويرى الباحث الكندي أن الحركة الإصلاحية ؛ هي التي وضعت قواعد الأمة للشعب الجزائري، فقد كان ابن باديس مقتنعاً بالشخصية الجزائرية المستقلة، فعمل جاهداً لإنضاج هذه الفكرة. ويرى الباحث أن نتيجة هذا العمل وإخلاص ابن باديس لهذه الفكرة ؛ أدى إلى ولادة الثورة الجزائرية سنة 1954م[3].

ومع بداية الحرب العالمية الثانية دخلت الجزائر في مرحلة جديدة من تاريخها الحديث، وبدأت الحركات السياسية والشعب الجزائري العظيم يستعد لملحمة الثورة الكبرى ضد الاحتلال الفرنسي، وتوّجت جهود الحركة الوطنية الجزائرية بألوان طيفها المتعددة المعبرة عن إرادة شعبها ؛ بثورة عظيمة قلّ مثيلها في تاريخ الإنسانية،

(1) المصدر نفسه ص 160.

(2) المصدر نفسه ص 161.

(3) المصدر نفسه ص 163.

قضت على الوجود العسكري والسياسي بالجزائر بقيادة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما سنعرف تفاصيله بإذن الله تعالى في الجزء الثالث من كتابي

كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي

من الحرب العالمية الثانية حتى ثورة المليون شهيد

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الخلاصة

1 . أعلنت الحرب الكبرى سنة 1914م فجند الفرنسيون أبناء المغرب العربي وخصوصاً الجزائريين، فأخذ هؤلاء يفرون من الجندية ويلتجأئ الكثيرون منهم إلى شواهق الجبال حتى بلغ عدد اللاجئين مائة وخمسين الفاً، ونشأ عن ذلك اضطراب كبير أدى إلى مظاهرات عدائية قتل فيها عدد من الموظفين والمعمرين الفرنسيين.

2 . تمكنت فرنسا من اجتياز محنة الحرب العالمية الأولى بعد أن جندت 751،82 جزائرياً في إطار الخدمة العسكرية.

3 . أخرجت الحرب العالمية الأولى الحركة الوطنية الجزائرية من عدة وجوه، فهي أخرجتها عن العزلة، ووصل إلى الجزائر صدى ثورة 1917م البلشفية من جهة ومبادئ ولسن من جهة أخرى، وأتيح لعشرات الالاف من الجنود والعمال أن يروا طرق الحياة الجديدة، وأن يشهدوا مظاهر الحرية في فرنسا، وأضحى بوسع زعمائهم أن يطالبوا بالمكافأة على التضحيات الهائلة التي تمثلت في 56 ألف قتيل و82 ألف جريح من الجزائريين سقطوا أثناء القتال.

4 . علق الضباط الجزائريون بعد الحرب الأمل على مؤتمر فرساي، كي يلزم فرنسا بتطبيق مبادئ المساواة، ولكن الحكومة أحالت الأمير خالد على التقاعد.

5 . أُحيل الأمير خالد على التقاعد، فرجع إلى الجزائر ليكون ما أسماه كتلة المنتخبين المسلمين الجزائريين،

وهم أعضاء المجالس البلدية الذين استفادوا من التشريع الفرنسي الصادر سنة 1919م، والذي وسع دائرة تمثيل الجزائريين في هذه المجالس.

6 ـ كان الأمير خالد محل شك من السلطات العسكرية والمدن، وبدأ نجم الأمير يعلو نهاية الحرب لاعتبارات تعود إلى أنه كان من نسل الأمير عبد القادر، وأنه كان محارباً قديماً قضى زمن الحرب على الجبهة الأوروبية، كانت للأمير خالد عدة مؤهلات سهلت له تقلد الزعامة في تلك المرحلة الصعبة من تاريخ الجزائر.

7 ـ اشتهر الأمير خالد بالشجاعة، وكان عنيفاً في مواقفه، وعندما أهانه الهاشمي بن شنوف طالبه بالمبارزة، وعندما كان بالمغرب أنقذ عمه من سجن سلطان المغرب مولاي حفيظ متنكراً في هيئة حمّار.

8 ـ ظهرت وطنيته الفذة ونشاطه السياسي بعد الحرب العالمية الأولى.

9 ـ عمل على توحيد صفوف المناضلين الجزائريين وتشجيعهم على خلق حزب جزائري موحد قبل المشاركة في الانتخابات البلدية.

10 ـ بث الأمير خالد روحاً جديدة في الشعب، فانطلقت الصحافة الأهلية تركز على نقاط الظلم المسلطة على الجزائري، الذي يعاني منه الإنسان البسيط والفلاح العامل.

11 ـ في 1922م ألقى الأمير خالد أمام رئيس الجمهورية الفرنسية خطاباً معتدلاً بعيداً عن الثورة، ذكّر فيه بوفاء المسلمين ومساهمتهم في حرب 1914م ـ 1918م، وبالعلاقات التي نسجت بين الجانبين الجزائري والفرنسي خلال قرن تقريباً من حياة مشتركة، وطالب بضرورة إعطاء المسلمين ممثلين لهم في البرلمان، لكي يتمكنوا من عرض مشاكلهم والدفاع عن طموحاتهم، وكان الخطاب معتدلاً ومتوازناً، وبالرغم من ذلك اعتبر معادياً لفرنسا، وراحت الصحافة الفرنسية تتحدث عن ظاهرة القومية العربية الخطيرة، التي يقودها الأمير خالد.

12 ـ قدم الأمير خالد برنامجه وكان يحتوي على الأهداف الآتية:

. إلغاء كل القوانين الاستثنائية المسلطة على المسلمين، وتطبيق القانون العام عليهم.

. تمثيلهم في غرفتي البرلمان.

. التعليم الإجباري للعربية والفرنسية.

. تأسيس جامعة عربية.

. إلغاء المناطق العسكرية والأحواز المشتركة.

. ربط مباشر للولايات الجزائرية الثلاثة بفرنسا.

. دخول المسلمين صفة المواطنة الفرنسية في إطار الأحوال الشخصية.

13 . لقد تحالفت القوى الحكومية والقوى الاستعمارية والقوى التابعة للاستعمار ضد الحركة التي قادها الأمير خالد، وتمّ مضايقته ثم رحيله إلى المنفى.

14 . بعد أن طرد الأمير خالد وتراجعت جماعته عن النضال ؛ تعلق الشعب الجزائري بثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، ورأى فيها أمل الخلاص من المستعمر، فقد سارت روح الأهالي نحو الغرب حيث ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، وانتشرت رسالة الأمير الخطابي التي وجهها لشعوب المغرب العربي، يحثهم على الثورة، ولاحقت السلطة البعض واعتقلتهم بتهمة بث الدعاية عن ثورة الريف بين الأهالي ونشر رسالة الخطابي، وتأسست بالجزائر لجان تجمع له المال.

15 . وبرغم الضغوط التي تعرض لها الأمير خالد لكي يتخلى عن النضال السياسي، فقد حاول عدة مرات أن يجدد نشاطه السياسي ويدافع عن أفكاره التحررية وخاصة في فرنسا وسوريا.

16 . ولما سقطت وزارة بوانكاريه سنة 1924م، وانتصرت كتلة اليسار بزعامة بلوم وهيريو ؛ سمح للأمير خالد بالعودة لفرنسا، حيث أسس لجنة من أبناء الشمال الأفريقي ضمنت عدداً من العاملين، من بينهم السيد مصالي الحاج، وعبد العزيز المنور، والسيد علي الحمامي من مراكش، ثم عاد إلى الإسكندرية.

17 . اتهم الأمير خالد سنة 1925م بالتامر على فرنسا ودعم الأمير عبد الكريم الخطابي في ثورته ضدها، وضغط عليه في الإسكندرية، وهجم البوليس الإنجليزي على منزله وأُخرج مكبلاً بالحديد إلى سوريا، حيث بقي بها إلى أن مات سنة 1936م.

18 . استمر الأمير خالد في دعم النضال والكفاح في الجزائر والمغرب، وأرسل رسالة شهيرة للشعب المراكشي في شمال المغرب الأقصى وزعيمه عبد الكريم وأخرى للشعب المصري والتونسي، ومما جاء في الرسالة الموجهة إلى ثوار المغرب، أن العمال المغاربة لمعامل الناحية الباريسية مجتمعين بمؤتمرهم الأول في هذا اليوم التاريخي 7 ديسمبر سنة 1924م ؛ يهنئون إخوانهم المراكشيين وزعيمهم البطل عبد الكريم بانتصارهم على الاستعمار الإسباني، ويصرحون بتضامنهم معهم في كل ما من شأنه أن يحرر بلادهم، ويشاركونهم في الهتاف باستقلال الشعوب المضطهدة وسقوط الاستعمار العالمي والاستعمار الفرنسي.

19 . لم يكن الأمير خالد سحابة صيف زائلة، بل كان لبنة من لبنات الوطن الجزائري العزيز، وسجل اسمه في سجل الخالدين، وترك بصماته في مختلف الحياة النضالية بالجزائر.

20 . لما توفي عام 1936م بدمشق نعته جمعية علماء المسلمين الجزائريين واعتبرته شهيداً وصلى عليه ملايين من أبناء الشعب الجزائري صلاة الغائب يوم العيد الكبير، ورثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة غداة وفاته بقصيدة رائعة جاء فيها:

ما أطول الموت باعا	لم يخش حتى السباعا
سطا علينا بسوط	من القضاء فراعا
وأودع التراب نجما	منه اقتبسنا شعاعا
وصارماً هاشمياً	به هشّمنا القلاعا

إلى أن قال:

قــل للجـــــزائر أدي	حق الزعيم المضاعا
هلا اصطنعت جميلاً	لدى الجميل اصطناعا
هلا ذكرت كفــــاحاً	مضى له وصراعا
كم ذاد عنك وقاسى	فيك الأذى والنزاعا
وكيف نــاب وثـــــوقا	بصدقه واقتناعا
وكيــف نادى فدانت	له الرؤوس اتباعا

21 . يعد الزعيم الحاج أحمد مصالي من الشخصيات الجزائرية التي لعبت دوراً أساسياً في الحركة الوطنية، ومنذ بداية مساره السياسي والنضالي كان يتبنى مطالب الاستقلال والتحرر.

22 . ولد الحاج أحمد مصالي عام 1898م بمدينة تلمسان التابعة انداك لعمالة وهران، وينتمي إلى عائلة عريقة أصيلة في تلمسان هي من أصل كرغلي، أي من أب تركي وأم جزائرية، وقد كان والداه فخورين بانتمائهم إلى هذا الوضع الاجتماعي المتمركز في المدن.

23 . عانت عائلته مثل بقية الشعب من سياسات الاستعمار الفرنسي وتعرضت للاطهاد الفرنسي.

24 . تأثر بالطريقة الدرقاوية، وكان في صغره يتردد على زاويتها واستمع إلى ما يقوله العم عبد القادر ممشاوي مقدم الزاوية، وما يتحدث به عن الإسلام ومبادئه ومساوئ الاستعمار، وما يحدث بالمغرب الأقصى والدولة العثمانية ووجد الشاب مصالي النموذج والقدوة في الجانب الديني ؛ في العم عبد القادر الذي كان يكثر من الحديث العلمي والتربوي عن الله ورسوله (ص) والإسلام ومكة والشام وقصص المرابطين والزهاد والفقراء إلى الله.

25 . نتيجة لقرار التجنيد العسكري الإجباري الذي صدر عام 1908م، تمّ تجنيده في عام 1918م في الجيش الفرنسي، على غرار الشباب الجزائري انداك، وبقي في مدينة بوردو بفرنسا مدة ثلاث سنوات، وتمكن

من ملاحظة اللامساواة واللاعدل بين ما كان يعيشه الجزائري المسلم في ريف تلمسان من فقر وأمية واستغلال، وريف بوردو حيث يعيش المواطن الفرنسي في رخاء وسعادة، وبدأت نفسه تفكر بجدية في خلاص شعبه من أغلال الاستعمار.

26 . بعد الحرب العالمية الأولى رجع أحمد مصالي إلى الجزائر، وأصبحت له شبكة من العلاقات الواسعة مع أبناء الجزائر الذين تعرف بهم في فرنسا، إلا أنه لم يستطع البقاء بالجزائر بسبب المجاعة التي مرت بها الجزائر في الأعوام 1920 . 1921 . 1922 . 1923م، وقرر الهجرة إلى فرنسا في أكتوبر 1923، حيث كان سنه لا يتجاوز 25 سنة، وبدأت مرحلة جديدة في حياته النضالية.

27 . اشتغل في المصانع الفرنسية وفي التجارة، وعُرف بكثرة احتجاجاته ومطالباته لأصحاب المعامل الفرنسيين بضرورة تحسين ظروف العمال، ومنحهم الحقوق والأجور التي تناسب أعمالهم، والتي يقرّها القانون الفرنسي، واشتهر في صفوف العمال كزعيم نقابي.

28 . تأثر بالحركات العمالية والنشاطات النقابية، وحرص على تطوير تعليمه والتزود بالمعرفة والثقافة في العلوم الإنسانية واللغوية، وكان يحضر في المحاضرات التي تقام في جامعة السوربون وخاصة في مجال العلوم الإنسانية التي كان ولعه بها شديداً، والتي أسهمت في صقل أفكاره وتوجيه شخصيته إلى القيم الإنسانية العالية.

30 . استفاد من خبرات الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يملك ثقافة عالية وقدرة على المرافعة والمطالبة بالحقوق وأسلوباً فريد في إقناع الجماهير.

31 . وضعته أقدار الله عز وجل في فترة تكوين وإعداد، ليتهيأ للمرحلة القادمة التي سيباشر فيها العمل السياسي، وسيصبح واحداً من أشهر وأقوى رجال الحركة الوطنية بالجزائر، وأكثرهم نفوذاً وشعبية وشخصية فريدة أثارت الخلاف وتباينت النظرة إليها.

32 . تزوج مصالي واحدة من الفرنسيات المنضويات في الحزب الشيوعي الفرنسي، كما أنه استفاد منها

كثيراً في مجال إدارة الحزب والتسيير واليات وطرق التواصل والقيادة والتنظيم، وكانت بالفعل رحلته إلى فرنسا مناسبة هامة وخطوة مهمة في حياته، حددت له مصيره ووضعت رجليه على بداية الطريق في مجال النضال والسياسة ومقاومة الاحتلال.

33 . تضاعف الحس الوطني مع احتكاكه برموز النضال والكفاح في العالم والبيئة الفرنسية التي عاش فيها، وأصبح يرى من الواجب عليه أن ينشط ضمن حزب شمال إفريقيا، هذا الحزب الثائر الذي كان يستجيب لمطامحه وأماله وتوجهاته، والتي الت رئاسته وقيادته في الأخير إليه.

34 . وعلى الرغم من بقائه في ديار الغربة إلى غاية وفاته في فرنسا في 4 جوان 1974م ومواكبته للحضارة الغربية ؛ فإنه بقي متمسكاً بتعاليم الإسلام قولاً وعملاً، وكانت حياته حافلة وغنية بالمواقف الشجاعة والاراء الجريئة، التي ساهمت في تحقيق الاستقلال والمطالبة بالسيادة الوطنية.

35 . شارك أحمد مصالي في دعم وتطوير حزب نجم شمال إفريقيا الذي أسس في 20 جوان 1926م، وقد تأسس هذا الحزب في ظروف معينة، كنفي الأمير خالد وثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، فضلاً عن التطور الإيديولوجي العالمي كتقرير المصير، وظهور الشيوعية. وقد ساهم الحاج أحمد مصالي مع اخرين في تعزيز البعد الإسلامي في الحزب.

36 . لعب حزب نجم شمال أفريقيا دوراً كبيراً وأساسياً في توعية العمال المهاجرين الجزائريين بحقوقهم والمطالبة بالاستقلال، ويعد النجم حركة وطنية ذات اتجاه ثوري يضم العمال المهاجرين الجزائريين والمغاربة والتونسيين الذين واجهوا حياة صعبة مزدوجة، فمن جهة أخرى يعانون من التهميش والإقصاء بفرنسا، ونشأته وتطوره هو نتيجة لمسار التنشئة السياسية التي تمت في وسط التنظيمات النقابية اليسارية.

37 . لقد شارك أحمد مصالي في المؤتمر المناهض للإمبريالية في عام 1927م، وعبر خلالها صراحة عن مجموعة من المطالب كتلك المتعلقة بالاستقلال والتي أصبحت تشكل فيما بعد قاعدة النضال من أجل التحرير الوطني.

38 . ارتبط النشيد الوطني الجزائري الذي كانت تغنيه الجماهير ومناضلو حزب نجم شمال إفريقيا باسم شاعر الثورة الكبير مفدي زكريا الشاعر العظيم الذي كان من مناضلي هذا الحزب.

39 . بعد خروج الحاج أحمد مصالي من السجن تعرض للمضايقات والمحاكمات القضائية مع زملائه مما جعله يفر إلى سويسرا، حيث التقى بأمير البيان شكيب أرسلان للمرة الثانية، بعد أن التقى به في المؤتمر الأوروبي الإسلامي في 1934م، فكان اتصاله معه يومياً وشجعه على المقاومة.

40 . ساعد شكيب أرسلان الحاج أحمد مصالي الخروج نهائياً من الفلك الشيوعي العمالي إلى الفلك العربي الإسلامي، وإن كان الزعيم الحاج أحمد مصالي قد تشبع بقيم الإسلام والعروبة منذ طفولته وشبابه في الجزائر.

41 . تميز الحاج أحمد مصالي بخطاباته الثورية للشعب الجزائري، وكان يستشعر في هذه الفترة المسؤولية العظيمة التي تولاها في مجال الذود عن قضية شعبه ووطنه.

42 . في 11 مارس 1937م أسس الحاج أحمد مصالي حزب الشعب الجزائري في باريس، فأعطى للحزب صبغة شرعية، وجعل منه وسيلة لتحقيق هدف رفع الجزائر إلى مرتبة الأمم الأخرى، التي تتمتع بكل الحقوق. ثم نقل الحزب من فرنسا إلى الجزائر في نوفمبر 1938م إلا أنه حل في 26 سبتمبر 1939م بسبب مواقفه الوطنية الثابتة والمطالبة بالاستقلال.

43 . ما يميز حزب الشعب الجزائري هو طابعه الجزائري البحت، حيث ركز في مطالبه على استقلال الجزائر، وهذا بعد أن كان نجم شمال إفريقيا في برنامج 1927م يطالب باستقلال شمال إفريقيا، ويعود هذا أساساً لانتقال حزب الشعب الجزائري من باريس إلى الجزائر.

44 . مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، وإصدار فرنسا للعفو الشامل، عاد الحاج أحمد مصالي إلى فرنسا ثم

إلى الجزائر في أكتوبر 1946م، وأسس حركة انتصار الحريات الديمقراطية MTLD للمشاركة في الانتخابات التشريعية.

45 . وقد تقرر في المؤتمر لحركة انتصار الحريات الديمقراطية في 15 فيفري 1947م إنشاء المنظمة الخاصة كهيئة عسكرية تتولى الإعداد للثورة، وعين على رأسها الشهيد «محمد بلوزداد»، ثم ولأسباب صحية حل محله الحسين ايت أحمد ليخلفه أحمد بن بلة.

46 . أهم الصحف التي أنشأها الحاج أحمد مصالي جريدة الإقدام، والأمة، والشعب، والحرة، وصوت الشعب الجزائري، والصحراء، وصوت العمال الجزائريين، وأخبار الجزائر.

47 . إن مواقف الحاج أحمد مصالي من قضايا التحرر من الهيمنة الاستعمارية، أمر بدأ مبكراً أثناء البدايات الأولى لنشاطه في حزب شمال أفريقيا، فقد كان من أهم دعاة وداعمي التحرر في العالم العربي والإسلامي.

48 . حدث خلاف بين مصالي وأنصاره بسبب الاختلاف بين الشباب والشيوخ والكهول، فقد كان أول نوفمبر بداية لصفحة جديدة من تاريخ الجزائر، أشعل لهيب ثورتها وأنار طريقها شبابٌ يتدفق حيوية ونشاطاً لنيل حريته بأي ثمن، فكانت تلك المرحلة والصفحة الجديدة في تاريخ الجزائر تتطلب رجالاً جدداً، وهذه سنن الله في حركة المجتمعات ونضال الشعوب وكفاح الأمم. وتبقى الشعوب الحية تحترم نضال وكفاح وجهاد كل أبنائها شيوخاً وكهولاً وشباباً رجالاً ونساء.

49 . لقد واصل الزعيم الحاج أحمد مصالي حياته في المنفى بفرنسا، وتوفي في 3 جوان 1974م نتيجة لمرض عضال ألم به، وكان السبب في وفاته. وقد دفن بمسقط رأسه تلمسان في أجواء مهيبة تليق بإنجازات الرجل.

50 . يقول شكيب أرسلان في مصالي الحاج: ولو كانت الشبيبة الإسلامية كلها على نمطه لتحرر الإسلام من زمن طويل، إن هذه شهادة من رجل علم وجهاد يشهد له الجميع بذلك.

. وها هو عدوه اللدود الجنرال الفرنسي شارل ديغول يقول في شخص الزعيم أحمد مصالي: سخرت من تشرشل وروزفلت وستالين، وجميع عظماء العالم ولكنني أخفقت مع مصالي. فشارل ديغول الذي يعتبر أحد كبار الاستراتجيين العسكريين في التاريخ العالمي في القرن العشرين يعترف بعبقرية الرجل.

51 . يعتبر الزعيم فرحات عباس إحدى الشخصيات الوطنية البارزة التي تركت بصماتها في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، إذ كان يطالب بالمساواة في إطار الإندماج والتجنس، إلا أنه غيّر مواقفه السياسية فيما بعد.

52 . شارك فرحات عباس في المؤتمر الإسلامي لينتهي هذا المؤتمر بجملة من المطالب منها ربط الجزائر بفرنسا والحفاظ على الأحوال الشخصية للجزائريين الأهالي وتقديم مطالب اجتماعية، كالتعليم الإجباري للجنسين، ومطالب اقتصادية، كإنشاء تعاونية فلاحية ومطالب سياسية، كإصدار العفو العام الشامل، ووضع هيئة انتخابية واحدة، وإلغاء القوانين والمؤسسات الاستثنائية وتمثيل المسلمين في البرلمان، وشارك فرحات عباس ضمن الوفد الذي توجه إلى فرنسا لتقديم هذه المطالب للسلطات الفرنسية.

53 . في عام 1938م، حدثت القطيعة بين الدكتور بن جلول والزعيم فرحات عباس، وأسس هذا الأخير الاتحاد الشعبي الجزائري في جويلية 1938م، وهذا بعد فشل المؤتمر الإسلامي في تجسيد المطالب الإصلاحية، فأدرك الزعيم فرحات عباس أنه من الضروري إنشاء حزب سياسي جزائري لمواجهة المعمرين وللدفاع عن المطالب الإصلاحية وتحقيقها وهو يستند على الجماهير، وتكون قاعدته ذات صلة بالمسلمين الجزائريين، فاعتقد أن الطرح النخبوي لوحده لا يكفي، بل لابد من الاعتماد على الجماهير، وتبنّي مبدأ من الشعب ولصالح الشعب، واعتبر أن الأسواق والمقاهي والأكواخ يجب أن تكون مجالات للنشاط السياسي، وعمل على تشكيل خلايا وفروع محلية لحزبه شارحاً للسكان مطالبه، كمطلب اللغة العربية، وحرية المعتقد، وانتقاد الاندماج والأمبريالية.

54 . في 1943/2/7م أسس فرحات عباس مع قوى سياسية متعددة حركة البيان وكانت مطالبهم معتدلة، ولكنه تاريخ الجزائر، وفشل سياسة الاندماج، واستعرض ثورات البلاد والمقاومة ثم قدم المطالب التي تتلخص فيما يلي:

ـ إدانة الاستعمار وإلغاؤه، أي إلغاء استغلال شعب من شعب الذي يعتبر نوعاً من العبودية في القرون أوسطية.

ـ منح حق تقرير المصير لسائر الشعوب صغيرة وكبيرة.

ـ الحرية والمساواة لسائر السكان دون تمييز بين عرق أو دين.

ـ إلغاء الملكية الإقطاعية بواسطة إصلاح زراعي وضمان حقوق العمال الفلاحية.

ـ الاعتراف باللغة العربية، كلغة رسمية في نفس مستوى الفرنسية وغير ذلك من المطالب.

55 . في مارس 1944م أسس حركة أحباب البيان والحرية شده بمدينة سطيف، وتمثلت أهم أهدافها في استنكار الاستبداد وترويج فكرة دولة جزائرية، وتأسيس جمهورية مستقلة مترابطة بروابط اتحادية مع الجمهورية الفرنسية الجديدة المناوئة للاستعمار. وقد زاد تأثير الزعيم فرحات عباس ولو لفترة مؤقتة بسبب غياب حزب الشعب الجزائري لاعتقال قادته وقمع ما تبقى.

56 . أيد الشيخ البشير الإبراهيمي حركة أحباب البيان والحرية، ولم يعترض الحاج أحمد مصالي وهو يقول لعباس: لكن تأكد أن فرنسا لن تعطيك أي شيء، فرنسا لن تستجيب إلا للقوة، تعطي لنا ما نفتكه بالقوة.

57 . حُلّت حركة أحباب البيان والحرية في 15 ماي 1945م بعد مجزرة 8 ماي 1945م، وتمّ توقيف الزعيم فرحات عباس والدكتور سعدان في مكاتب الحكومة العامة.

58 . شكلت أحداث 8 ماي 1945م منعرجاً ودفعاً في نضال الحركة الوطنية، وأصبحت القضية الوطنية يتطرق إليها بوسيلة العنف، وقد بينت هذه الأحداث أن العنف يتولد في الأوساط الريفية، مما جعل هؤلاء الريفيين يشكلون نواة جيش التحرير الوطني، فضلاً عن طرح الاتجاه النشيط في الحركة الوطنية للعنف كوسيلة لتحقيق هدف الاستقلال، وعملوا على إنشاء المنظمة الخاصة في إطار حركة انتصار الحريات الديمقراطية.

59 . في مارس عام 1946م صدر قرار العفو الشامل، وعاد فرحات إلى الحياة السياسية وأنشأ حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UMDA .

60 . في مؤتمر حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري UMDA من 25 . 27 سبتمبر 1948م تبنى فرحات عباس المبادئ التالية:

. حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها.

. استمرار الإمبراطورية الفرنسية.

. تحرير المسجونين السياسين.

. إلغاء الانتخابات المزورة.

. التأكيد على التعليم.

61 . انضم فرحات عباس لجبهة التحرير الوطنية في 26 ماي 1955م، وتحول من رجل حوار وتعبير عن طريق القانون، إلى رجل ثوري يستعمل العنف والقوة لاسترداد حقوق شعبه المهضومة.

62 .كان أول رئيس حكومة مؤقتة للجمهورية الجزائرية في 19 سبتمبر 1958م، والتي تضمنت مختلف التيارات السياسية من الليبراليين والعلماء والعسكرين.

63 . بعد التحرير مارس العمل السياسي مع جبهة التحرير، إلا إنه اختلف مع أحمد بن بلة، وبعد ذلك اعترض على الانقلاب العسكري الذي قاده العقيد هواري بومدين 1956م، وانتقد توجهات النظام السياسي

وأصدر بياناً مشهوراً سنة 1967م مع مجموعة من السياسيين، وقد سلم هذا البيان . الذي هو نداء إلى الشعب الجزائري إلى رئيس الدولة الهواري بومدين، وقد كان الرد فوراً بوضع الزعيم فرحات عباس والاخرين تحت الإقامة الجبرية، ولم ترفع عنه الإقامة الجبرية إلا في عام 1977م وبقي ساخطاً على النظام إلى غاية وفاته في 24 ديسمبر 1985م.

64 .كان فرحات عباس نزيهاً ومخلصاً ولعب دوراً كبيراً أثناء الثورة التحريرية، ولم يعد يطالب بالاندماج بل طالب بالاستقلال، وكشف نفاق سياسة فرنسا وكافحها بمنطق الفكر الغربي وسلاحها وسدد رميته في الصميم.

65 . ينحدر الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الحديثة في الجزائر من أسرة عريقة أصيلة في العلم والجاه والسلطة، ولها باع طويل في العلوم الشرعية بمدينة قسنطينة منذ عصور، وتعود أصولها إلى الأمير المعز بن باديس الصنهاجي 406 . 452هـ، الذي ثار على الدولة الفاطمية في مصر، وقطع الصلة السياسية والمذهبية معها، وألغى المذهب الشيعي وأعاد الاعتبار إلى المذهب المالكي، مذهب أهالي شمال أفريقيا.

66 . ولد الشيخ عبد الحميد بن باديس 1889م وترعرع في أحضان أسرته العريقة في الجاه والمال والعلم والنضال، وليس غريباً أن يكون سليل أجداده العلماء.

67 . وجهه والده وجهة صالحة في الحياة واختار له طريق العلم، وانتقى له معلمين يتميزون بالكفاءة والعلم والتقوى والاستقامة، ورعاه هو صغير وكفاه مؤونة الحياة وهو كبير.

68 . حفظ ابن باديس القرآن الكريم على الشيخ المداسي، وأتم حفظه مبكراً وهو في الثالثة عشرة من عمره، ومن شدة إعجاب المؤذن بذكائه وسيرته الحميدة قدمه ليصلي بالناس صلاة التراويح ثلاث سنوات متتابعة في الجامع الكبير، وتعلم العربية والمعارف الإسلامية والتربية الأخلاقية والروحية على يد الشيخ حمدان الونيسي.

69 . رحل إلى تونس في طلب العلم وظهر منه نبوغ علمي وانفتاح كبير على المدرسة الخلدونية، ودرس علوم الالة والشرعية على أيدي علماء الزيتونة وكان له إصرار عظيم على المطالعة، وكانت رحلته إلى تونس العلمية منعطفاً هاماً وحاسماً في حياته تلقى تكويناً علمياً واسعاً وعميقاً وشاملاً، ثم بعد أن أنهى دراسته عاد إلى تونس معلماً ومربياً وخطيباً ومفتياً، وكانت مدة دراسته أربع سنوات وعاد إلى قسنطينة سنة 1913م.

70 . ومع نهاية شهر رمضان عام 1331هـ / 1913م ارتحل ابن باديس إلى تونس، ومنها قصد مصر ثم الحجاز ليلحق موسم الحج ويقوم بتأدية الفريضة. وبعد أن فرغ من تأدية فريضة الحج ذهب إلى المدينة واستقر به المقام فيها.

71 . ألقى دروساً في المسجد النبوي الشريف وأعجبوا به إعجاباً شديداً مما لفت الأنظار إليه. وفي هذه الأثناء وهو في المدينة أشار عليه شيخه الونيسي بالبقاء ورغّبه فيها، ولكن الشيخ حسين أحمد الهندي لم يوافقه على ذلك، بل نصحه بضرورة العودة إلى وطنه لخدمة بلاده، ومحاولة إنقاذها مما هي فيه بما توسم فيه من حزم وعزم وصلاح قائلاً له: ارجع يا بني إلى وطنك فهو بحاجة إليك وإلى أمثالك، فالعلماء هنا كثيرون يغنون عنك، ولكنهم في وطنك وفي مستوى وطنيتك وعلمك قليلون، وخدمة الإسلام في بلادك أجدر لك وأنفع لها من بقائك هنا.

72 . وأهم ما قام به في هذه الفترة التي أقامها بالمدينة التقاؤه بأخيه في الجهاد . فيما بعد . الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وهناك وضع الشيخان خطة شاملة مستقبلية لتحرير الجزائر، حيث وضعت الأهداف وحدد مكمن الداء، والوسائل المناسبة لتحقيق الأهداف، ومراحل تنفيذ الخطة ونتائج كل مرحلة.

73 . قفل ابن باديس راجعاً إلى الجزائر من المدينة وفي طريق عودته مر بكل من سوريا ولبنان وفلسطين واجتمع برجال العلم والفكر والأدب فيها، كما مرّ بمصر وزار الأزهر الشريف وعلماءه، وأثرت هذه الزيارات

الخاطفة واللقاءات السريعة بالعلماء على تفكيره وثقافته، وشاهد الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية بالحجاز والشام ومصر، وهذا ساعده على توسيع أفقه وبصّرته رحلة المشرق بطريق الخلاص، والثورة الفكرية التي تعتمد على التربية في تكوين قادة من المجتمع، والدفع بهم نحو الصفوة المبدعة والنخبة المفكرة.

74 . تأثرت شخصيته بعدة عوامل تضافرت في صقلها، وجعلت منها شخصية فذة في تاريخ الجزائر الحديث، ومن أهم هذه العوامل، تربية والده له وشيوخه وأساتذته ومن أشهرهم:

. محمد حمدان الونيسي.

. محمد النخلي القيرواني.

. محمد الطاهر بن عاشور.

. محمد البشير صفر.

وممن تأثر بهم عن طريق كتبهم وأفكارهم أو لقاء سريع:

. محمد رشيد رضا.

. محمد بخيت المطبعي.

. حسين أحمد الفيض ابادي الهندي.

. القاضي عياض.

. أبو بكر العربي المالكي وغيرهم.

ومن العوامل التي أثرت في شخصية ابن باديس كذلك البيئة الثقافية ومؤازرة زملائه في جمعية العلماء له، كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والطيب العقبي، والعربي بلقاسم التبسي، ومبارك الميلي.

75 . ومن العوامل التي أثرت في شخصيته الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من خصال الكرم والنجدة والشهامة وأصول الكمال الإنساني والاستعداد الكامل للبذل والعطاء والتضحية بكل غالٍ ونفيس من أجل المصلحة العامة.

76 . والعامل السادس والأخير من عوامل تكوين شخصية ابن باديس هو «القران الكريم»، وهذا العامل يفوق غيره من العوامل السابقة، وقد وهب له الشيخ عبد الحميد بن باديس الجزء الأكبر من حياته الخصبة، بتعلمه وتدبره ثم تفسيره للناس في الجامع الأخضر من أجل هدايتهم به حتى أتمه تفسيراً ودراسة في خمسة وعشرين عاماً.

77 . اتصف ابن باديس في سيرته العطرة بصفات الدعاة الربانيين، من الصدق والإخلاص والدعوة إلى الله على بصيرة والصبر والرحمة والعفو والعزيمة والهمة العالية والنظام والدقة والزهد والورع والاستقامة.. الخ

ومن أهم الصفات التي تميز بها: حيوية عالية، ثباته على المبدأ، وشجاعته وصرامته في الحق، والحلم والتسامح، والتواضع والزهد، والجدية وحسن استغلال الوقت، والتطوير والتجديد، وروح الفريق، ومؤثر.

78 . في ظروف تاريخية واجتماعية وثقافية وسياسية عصيبة ومأساوية، كان الشعب يعيشها انذاك، بدأ ابن باديس في نهضته العلمية والتربوية واستطاع أن يكوّن جيلاً من العلماء والخطباء والشعراء والأدباء.

79 . شرع ابن باديس في التعليم بالجامع الأخضر، ورابط فيه مدرساً وفي كل من مساجد سيدي قموش وسيدي عبد المؤمن وسيدي بومعزة، وسيدي فتح الله، ينتقل بينها ليلاً ونهاراً، حتى أنه لم يكن يعرف الراحة في ممارسة عمله الإصلاحي الجهادي.

80 . أسس مدرسة للتربية والتعليم الإسلامي، واهتم بالأيتام والمحاضرات في النوادي، وأسس مصنع للصنائع مع أهل الخير، وكانت اللقاءات مستمرة بين الإبراهيمي وابن باديس، توسع التعليم المسجدي وكثر الطلاب وساهم الشعب في دعم التلاميذ، وبدأت الأفواج من الطلبة تتخرج على يدي ابن باديس مع مرور الزمن، وتفتح المدارس والمعاهد والجمعيات في المدن والقرى.

81 . وامتدت المرحلة الأولى من جهاده الإصلاحي ثماني عشرة سنة من العمل والجهد المتواصل، تمثلت أولاً في مرابطته مردساً ومعلماً بالجامع الكبير، ثم بالجامع الأخضر من بعده، وفي سيدي قموش وغيرها من المساجد.

82 . استطاع ابن باديس بعمله التعليمي والتربوي المكثف والمنظم والمتواصل أن يخرج جيلاً من الشباب المتشبع بقيم الإسلام ولغته واداها ويعتبر هو نفسه أن هذه المجموعة من التلاميذ التي تناهز الألف، هي الكتيبة الأولى من جند الجزائر التي تخرجت على يديه، وأصبح أفرادها ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حر، ويُحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في المشرق العربي، ويعتلون المنابر فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية.

83 . يمكن القول أن ابن باديس قاد ثورة فكرية وحركة ثقافية وتحولاً معرفياً ساهم في نهضة الجزائر، وإعداد جيل المقاومة والجهاد والذي أعلن الثورة على الاستعمار.

84 . انتقل ابن باديس بالعمل الإصلاحي الجهادي من مجال العمل المسجدي والمدرسي إلى مجال العمل الصحفي، فإدراكاً لأهمية وسائل الإعلام والاتصال ودورها في الاتصال بالقاعدة الشعبية العريضة بمختلف شرائحها بحكم أنها مدارس متنقلة تساهم بشكل فعّال في نشر الأفكار والمبادئ، وقد أسس مجموعة من الصحف من أشهرها المنتقد والشهاب وتعرضت للمضايقات والمصادرة وسحب الترخيص إلا أنه استمر بعزيمة فولاذية في هذا المجال مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه.

85 . تضافرت ظروف عديدة وعوامل كثيرة، ساهمت جميعها في إظهار «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» ومن أهمها، حاجة الشعب لهذه الجمعية، الثورة التعليمية، التغيير الفكري، والظروف التي نشأت فيها الجمعية.

86 . وبعد اللقاءات المتعددة التي تتم بين ابن باديس والبشير الإبراهيمي بعد رجوعهم إلى الجزائر والتواصل مع العلماء وإعداد جيل مستقبلي نجحوا في إعداده، تمّ الإعلان عن الجمعية في عام 1931م.

87 . تأسست جمعية علماء المسلمين الجزائريين يوم الخامس من ماي 1931م في نادي الترقي بالعاصمة إثر دعوة وجهت إلى كل عالم من علماء الإسلام في الجزائر من طرف هيئة مؤسسة من أشخاص حياديين ينتمون إلى نادي الترقي.

88 . تمّ إختيار ابن باديس رئيساً لجمعية علماء المسلمين في غيابه، وبدأت الحركة الإصلاحية في طورها الجماعي المنظم، واستقبلها الشعب بترحاب عظيم، وبدأت حركة التجديد في الخطاب الديني على مستوى القطر كله، وأعلنت الجمعية قانونها الأساسي، ووضحت فيه غايتها من محاربة الافات الاجتماعية كالخمر والميسر والبطالة والجهل والافات الدينية، وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل، وبينت موقفها من التعليم والبدع والمنكرات العامة والإلحاد والتبشير.

89 . بنت جمعية علماء المسلمين أصولها الفكرية على مقاصد الشريعة وأصولها، وجعلت من القرآن الكريم والسنة النبوية مرجعية عليا لها في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات..الخ

90 . عمل الاستعمار الفرنسي بشتى الطرق والأساليب لتفجير الجمعية من الداخل، ولكنها في النهاية فشلت، وعملت الإدارة الفرنسية على إصدار القوانين التعسفية في حق رجال جمعية علماء المسلمين ونشاطها، ولكنها قوبلت بالصبر والثبات والعزيمة.

91 .كانت حركة ابن باديس الإصلاحية روحاً جديدة، ودفعاً إيمانياً متواصلاً جعلتها تستمر في أداء رسالتها ومواصلة عطائها ويصف لنا الأستاذ مالك بن نبي رحمه الله تلك اليقظة فيقول: لقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات ابن باديس فكانت ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري المخدّر يتحرك ويا لها من يقظة.

92 . اعتمد ابن باديس على القرآن الكريم كمنهج رباني في دعوته الإصلاحية، فاستمد منه العقائد والعبادات والأخلاق والهدايات والمقاصد في تعليمه وتربيته وارشاداته

93 .كان يحث الناس على حفظ القرآن وتلاوته وفهمه والعمل به والاعتصام به، واهتم بالتفسير ونقد طرق التفسير ومناهجه العتيقة، وسار على نهج العلماء الراسخين في فهم القرآن الكريم، واستنبط الاحكام منه، واهتم بتفسير القرآن بالقران، وتفسير القرآن بالسنة.

94 . من خصائص تفسير ابن باديس أنه سلفي النزعة وعلمي المنهج.

95 .كان ابن باديس شديد الاحتفاء بالسنة النبوية الشريفة واهتم بها وقام بدعمها وتوطيد بنيانها، ووصل ليله بنهاره من أجل التمكين لها والذود عنها تقرباً إلى الله وخدمة للأمة، واعتبرها بعد القرآن الكريم من أهم مصادر التشريع والدعوة، ومن خلالها علاج كثير من أخطاء المجتمع، كحق النساء في التعليم، وتصحيح النوايا في الأعمال، واستنبط منها الكثير من الأحكام والفوائد والعبر والدروس.

96 . وضع ابن باديس مجموعة من الضوابط لفهم سليم للحديث النبوي الشريف كفهم السنة النبوية لفهم القران، والتناول الموضوعي للأحاديث والابتعاد عن القراءة الجزئية للنص، ومراعاة الملابسات الزمانية والمكانية.

97 . اهتم ابن باديس بالعقيدة وكان يرى أن أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير، وأدلة الأحكام أصولها مذكورة كلها فيه وبيانها وتفاصيلها في سنة النبي (ص)، وعمل ابن باديس على تخليص دروس العقائد من المصطلحات المعقدة والقياسات المنطقية، وعاد إلى طريقة القرآن في العرض والمحاجة.

98 . اعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في تعاليم العقائد للأمة، وحذر من علم الكلام، وأرشد إلى الاستفادة من تجارب العلماء الكبار في هذا المضمار كإمام الحرمين الجويني والفخر الرازي.

99 . أقام ابن باديس مشروعه التجديدي الإصلاحي الدعوي التربوي على تطهير الإسلام من كل البدع والخرافات والشوائب والأضاليل التي ألصقت به كذباً وزوراً، وعمل على بناء الإنسان القرآني من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح وبذل جهوداً عظيمة على محاربة أنواع الشرك وتحذير الناس منها بالحكمة والموعظة الحسنة.

100 . اهتم العلاّمة ابن باديس بالسنن واعتبرها من أهم الهداية القرآنية للإنسان المسلم، فتحدث عن سنة الله في تغيير النفوس، واعتمدها في مسيرته التعليمية والتربوية، ووضح سنة الأخذ بالأسباب المعنوية والمادية، وعمل بها في حياته، من تعليم الناشئة والتدريس في المساجد للصغار والكبار وبناء المدارس والمعاهد، والانفتاح على النوادي وتأسيس الجمعيات الخيرية وعقد المؤتمرات العامة والدعوة إليها، ومخاطبات الجماهير والاتصال بهم واستخدام وسائل الإعلام المتاحة كالصحافة، وغير ذلك من الأسباب واهتم بالمرحلية والتدرج، واستوعب سنة الابتلاء، وأخذ بسنن التمكين وعوامله ومراحله وأهدافه.

101 . اهتم ابن باديس بالفقه المالكي وجعل مادة الفقه مادة أساسية في دروسه العلمية، كالموطأ للإمام مالك بن أنس ومختصر خليل وشروحه ورسالة ابن أبي زيد القيرواني ومتن ابن عاشور وشروحه، وكان يرى بالنسبة للطلاب والعلماء وجوب التفقه في الكتاب والسنة والرجوع للدليل، وكان من أبعد الناس عن التعصب المذهبي.

102 . رفع ابن باديس صوته عالياً بالدعوة إلى ممارسة الاجتهاد ممن استكمل تحصيل أدواته وتحققت فيه شروطه، ذلك أن الاجتهاد هو الذي يكسب الفقه الإسلامي حركية ومرونة وينفي عنه صفتي الجمود والانغلاق.

103 . اهتم بالمنهج التعليمي وقام بإصلاح التعليم وطرح أفكاراً تتعلق بمناهج التعليم وطرق التدريس،

ووضع مناهج تجديدية لإعداد المعلمين والخطباء، فقد كان مشروعه التعليمي هدفه إحداث تغيير شامل في العقول والأفكار والنفوس وفي المحيط الثقافي ؛ حتى يستجيب هذا التغيير لمتطلبات الكفاح من أجل إثبات الذات والدفاع عن الكيان ودرء الأخطاء المحدقة بشخصية المجتمع.

104 . من أهم مؤسسات التعليم المدرسي التي أشرف عليها ابن باديس مدارس جمعية العلماء، التي انتشرت في مختلف جهات الوطن بفضل الله ثم جهود المخلصين من أبناء هذا الشعب، وخضعت هذه المدارس لنظام إداري متكامل ملبي لظروف المرحلة.

105 . استطاع ابن باديس أن يربي أجيالاً من الجزائريين، كانت أساساً لنهضة الجزائر الحديثة، فقد أدرك منذ البداية أنه ما من أمة يمكن أن تنهض نهوضاً حقيقياً إلا عن طريق التربية والتعليم، وأن هذه التربية لا تكون مجدية إلا على أساس من العقائد وتقويم الأخلاق الذي يؤدي إلى تطابق الباطن مع الظاهر، فالأخلاق تنبع من أعماق الضمير المتدين لا من قهر المجتمع، فصوت الضمير أقوى من مئات القوانين والأحكام.

106 . اهتم ابن باديس بالجانب الروحي وحرص على غرس معاني الإيمان في نفوس من يحضر له في دروسه، فكان يربي الناس على الأذكار وتلاوة القرآن والصيام والصلاة والزكاة، واهتم بالأمور التي تغذي الإيمان وتهذب السلوك المستمدة من الكتاب والسنة، وكان يستخرج الفوائد التربوية من الآيات القرانية.

107 . عمل ابن باديس على إحياء الأخلاق الإسلامية في المجتمع الجزائري وكان منهجه في التربية الأخلاقية يعتمد على بساطة الأسلوب والابتعاد عن المصطلحات الفلسفية المعقدة، ويتعمق في شرح الآيات القرآنية الهادفة لتزكية النفس وتطهيرها من الأخلاق السيئة، وتميز الفكر التربوي الأخلاقي عند ابن باديس بالملامح الاتية: الاهتمام بالإنسان كهدف رئيسي عام، علماً وعملاً، وفكر وسلوكاً، وشمولية الإصلاح التربوي.

108 . حرص ابن باديس على صياغة القيم والفضائل الأخلاقية في صورة منهجية وفق قواعد عامة معروفة، ثم صورة نداءات ووصايا يمكن أن تتحول إلى قالب تعليمي وإرشادي يسهل التعريف به والدعوة إليه، وكان يردد تلك النداءات في محاضراته ومقالاته وتفسيراته وأثناء رحلاته أيضاً، فاستطاع أن يحول قيم الرحمة والعدل والمساواة والحق والصدق والحب والتسامح وغيرها إلى برنامج عملي إصلاحي، أو نظرية متكاملة في كيفية إصلاح الإنسان وبنائه وتقويمه، وقدمها كنموذج للأخلاق العملية التي تقوم على أساس ديني واجتماعي.

109 . وضع ابن باديس مجموعة من القواعد الواجبة الالتزام والتنفيذ كإطار عام لمنهجه في التربية الأخلاقية:

القاعدة الأولى: الالتزام بالمنهج القراني.

القاعدة الثانية: الجمع بين النظر والعمل.

القاعدة الثالثة: الصدق.

القاعدة الرابعة: المطابقة بين الظاهر والباطن.

القاعدة الخامسة: المطابقة بين العلم والدين.

110 . رأى ابن باديس أن المدخل لتحقيق الإصلاح الاجتماعي الشامل هو تحقيق الوعي القائم على العلم والفضيلة لكافة طبقات الشعب، وأن هذا الوعي هو السبيل لانتشار الأخلاق واستلهام القدوة الصالحة في كل مجال، والمثل الأعلى الأخلاقي لمواجهة نواحي النقص وعلاج المفاسد الاجتماعية ومواجهتها والقضاء عليها، وفي مقدمتها الجهل والجمود وما يتبعها من مفاسد وتخلف.

111 . أدرك ابن باديس أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الإمام وشطر منه يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم الفرنسي سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها. وقد كتب ابن

باديس كثيراً عن هذا المجال حيث كتب في إحدى مقالاته مؤكداً أن البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأصلي لتكوين الرجال وتديّن الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتها من رجالنا، معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن. وقد اهتم ابن باديس اهتماماً كبيراً، بتعليم المرأة وتدريسها وتربيتها على كتاب ربها وسنة نبيها، واهتم في خطابه بالأسرة وأعطى لها اهتماماً فائقاً واهتماماً كبيراً.

112 . تدخل عناية ابن باديس بالشباب في إطار اهتمامه العام بمجموع أفراد المجتمع الجزائري، وطبيعي أن يتوجه هذا الاهتمام في نطاق النهضة إلى عنصر الشباب أكثر من غيره بما ينتظر أن يقوم به من نشاطات في هذا المشروع، بسبب ما تميزت به من قوة في الإدارة وصدق العزيمة وثقة في المستقبل، فهو عدة الأمة وحادي قافلة نهضتها وحامل مشعل تطلعاتها إلى أهدافها في التحرر والتقدم.

113 . وتمتد عناية ابن باديس بالشباب إلى الكشافة الإسلامية الجزائرية، فكانت تربطه بها صلة متينة فكان رئيساً شرفياً لأول مؤتمر كشفي ينعقد بالجزائر سنة 1930م. كما كان رئيساً مؤسساً لفوج «كشافة الرجاء سنة 1935م.

114 . وكانت تربط ابن باديس بالجمعية الرياضية «المولودية» صلة وثقى يكاد يعرفها العام والخاص، فكان يشجعها ويحرص على توجيه عناصرها دينياً وأخلاقياً.

115 . اهتم ابن باديس بالتربية العقلية وأنواعها، والتربية المعرفية، والمعرفة الفطرية والغيبية وغيرها.

116 . اهتم بمقومات الشخصية الجزائرية وصاغ على أساسها شعارها المعروف الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا.

117 .كان للشيخ عبد الحميد بن باديس أثر كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فكانت أول ضربة معول في هذا السور رحلة الشيخ عبد الحميد تلميذاً إلى تونس، وهناك اتصل بعلماء الزيتونة تلميذاً وتلقى عنهم زيادة على ما في الكتب ما عرفوه من أحوال العالم الإسلامي وما يموج فيه من تيارات

فكرية وحركات إسلامية تحاول النهوض به وإقالته من عثاره

118 . ساند ابن باديس حركات التحرر في العالم الإسلامي كثورة عبد الكريم الخطابي بالمغرب، وجهاد الشعب الليبي ضد إيطاليا، وتحدث عن استشهاد عمر المختار، ودافع عن قضية فلسطين وشعبها وحمّل فرنسا مسؤولية ظلمها وتعسفها ضد الشعب السوري، واهتم بأخبار المسلمين في روسيا.

119 . اهتم ابن باديس بالأحداث الفكرية والأدبية والثقافية بالمشرق، وتابع أخبارها وكتب عن رموزها كأمير الشعراء أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، وترجم لهم في حفل تأبينهم بالجزائر، وتحدث عن وفاة الشيخ محمد رشيد وعن حياته العلمية والدعوية ونصرته للإسلام والمسلمين وأفكاره التجديدية وحفظه لتراث الشيخ محمد عبده، وكذلك عن الشيخ محمد بخيت المطيعي المفتي الشهير.

120 . تحدث عن أسس قيام الدولة العربية الموحدة، وبين أنها محكومة بمجموعة من الأسس والأطر، كالإطار الخلقي والإطار الجغرافي والسكاني والاجتماعي والديني والسياسي.

121 . حدد ابن باديس خصائص الدولة العربية الموحدة وبين أنها دولة فاضلة، ودولة تعاون ومشاركة وعلم ومدنية.

122 . وحدد وظائف الدولة العربية الموحدة، من كونها تمتلك وسائل القوة لتحقيق العدل، والسعي لتحقيق الأمن والسلام الاجتماعي وحفظ الأموال باحترام الملكية والمحافظة على التراث ومكوناته والسعي لتحقيق الحرية والاستقلال.

123 . اهتم ابن باديس في تصوره للدولة الحديثة بإبراز عوامل البناء والهدم وأطوار تطور الأمم، والمراحل التي تمر بها وأسباب تقدمها وعوامل انهيارها، وقد استعرض هذه الأطوار من خلال تفسيره للايات القرآنية التي تعرضت لتطور الحياة والكون والإنسان وواقع الأمم الماضية والحاضرة.

124 . بيّن ابن باديس أصول الولاية في الإسلام من خلال شرحه لخطاب أبي بكر لما تولى الرئاسة.

125 . تحدث ابن باديس عن مسألة إلغاء الخلافة العثمانية، وبين نظرته للكماليين، وموقفه من الخلافة الإسلامية القائمة وعرض بديلاً عن الخلافة القائمة، ووضح الفرق بين الدولة السنية والدولة الطرقية.

126 . دعا مع مجموعة من الزعماء الوطنيين إلى عقد المؤتمر الإسلامي، واستطاعوا تشكيل جبهة عريضة، وتم الاتفاق في ذلك المؤتمر على مطالب وطنية، وذهبوا إلى فرنسا للمطالبة بها، ولكن فرنسا كعادتها لم تلبِّ تلك المطالب العادلة.

127 . نافح ابن باديس ودافع عن حق شعبه في الحرية واعتبرها طبيعية في الوجود وحق شرعي لكل إنسان، والإنسان هو إنسان مادام يتمتع بالحرية، وكان يحترم التعددية وحرية التعليم والحرية السياسية وحرية الرأي والتعبير.

128 . استعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية، استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس من يخاطبهم بخطبه ويلقي عليهم ما نظمه من قصائد، فكانت بدورها دالة على الفكر الثوري التحرري في شخصيته.

129 . لم يكن ابن باديس يتحرج أبداً من الإفصاح عن الهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه، وهو استقلال بلاده ولكن ما يقوم به هو وضع الأساس المتين لثورة شعبية عارمة ضد الغزاة.

130 . عاش ابن باديس للفكرة والمبدأ واستمر يواصل الجهاد العلمي والاجتماعي والسياسي يعلم ويرشد ويعظ وينظم ويدرب ويتنقل بين القرى والمدن، ولم يهدأ له بال لا بالليل ولا بالنهار، ولم يشفق على نفسه ولا على جسمه، ولم يبال بصحته في سبيل مبدأ أعظم، أفنى في سبيل عقيدة وقضى من أجل رسالة حتى أنه أصيب بداء السرطان في الأمعاء وقيل سل العظام، ومع كل هذا كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في مدينة قسنطينة، ليس له أن يبرحها إلى غيرها من نواحي البلاد، مما جعل وفاته غير طبيعية.

131 . رثاه الشاعر محمد العيد ال خليفة بقصيدة ارتجلها عندما وقف لأول مرة على قبره، قال فيها:

يا قبر طبت وطـاب فيك عبير   هـل أنت بالضيف العزيز خبير
هذا ابن باديس الإمام المرتضى   عبد الحميد إلى حمـــاك يصير
العــــالم الفـذ الذي لعلـــومه   صيت بأطـراف البـــلاد كبير
بعث الجزائـر بعد طول سباتها   فالشـعب فيها بالحـــياة بصير

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

فهرس الكتاب

المبحث الثاني

الشيخ العلاّمة عبد الحميد بن باديس

المبحث الثالث

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

المبحث السادس

مقومات الشخصية الجزائرية والفكر السياسي عند ابن باديس

كتب صدرت للمؤلف

1. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
7. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8. فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم.
9. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12. الوسطية في القرآن الكريم.
13. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16. خلافة عبدالله بن الزبير.

17. عصر الدولة الزنكية.

18. عماد الدين زنكي.

19. نور الدين زنكي.

20. دولة السلاجقة.

21. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

22. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

23. الشيخ عمر المختار.

24. عبد الملك بن مروان وبنوه.

25. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

26. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

27. وسطية القرآن في العقائد.

28. فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ص) دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الشورى في الإسلام.

42. الإيمان بالله جل جلاله.

43. الإيمان باليوم الاخر.

44. الإيمان بالقدر.

45. الإيمان بالرسل والرسالات.

46. الإيمان بالملائكة.

47. الإيمان بالقرآن والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57 . العدل في التصور الإسلامي.

58 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 . الأمير عبد القادر الجزائري.

60 .كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس . الجزء الثاني ..

61 . سنة الله في الأخذ بالأسباب.

* * *

موسوعة كفاح الشعوب (3)

كفاح الشعب الجزائري
ضد الاحتلال الفرنسي

من الحرب العالمية الثانية إلى الاستقلال 1 نوفمبر 1962م
وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

الطبعة الأولى
1438هـ 2017م

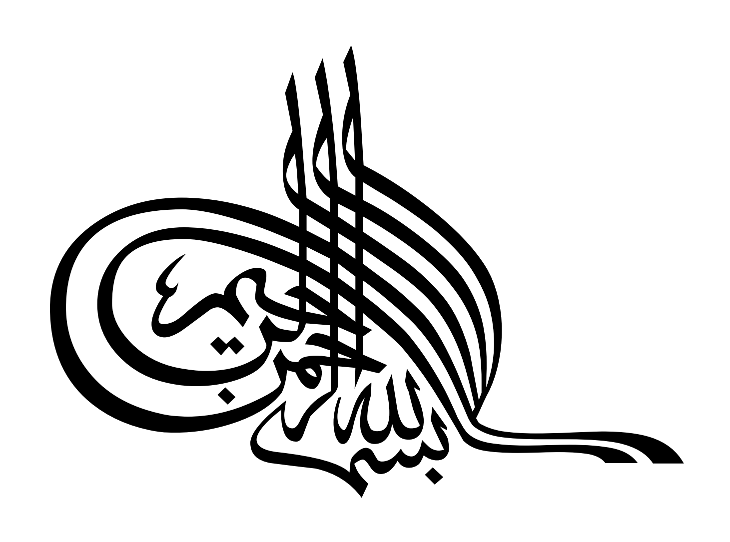
موسوعة كفاح الشعوب
(3)

كفاح الشعب الجزائري
ضد الاحتلال الفرنسي

من الحرب العالمية الثانية إلى الاستقلال 1 نوفمبر 1962م
وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

تأليف
د. علي محمد محمد الصَّلاَّبي

دار ابن كثير


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى الشعب الجزائري الذي رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

إلى الشعب الذي قدّم قوافل الشهداء، ودفع الثمن غالياً، وابتلي بالجوع والخوف، فما وهن لما أصابه في سبيل الله، وما ضعُفَ وما استكان للوصول إلى حريته وكرامته وحقوقه واستقلاله.

إلى الشعب الذي سطَّر ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير، وعلَّم الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله: {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً } [فاطر : 43].

قال تعالى: {فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا } [سورة الكهف:110].

* * *

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

. قال تعالى:{يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ } [سورة آل عمران:102] .

. وقال تعالى:يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا } [سورة النساء:1] .

. وقال تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا } [سورة الأحزاب:71-70]

أمَّا بعد:

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضى.

لقد منَّ الله عليَّ بالعيش في عالم البحث والدراسة والمطالعة والقراءة، ولقد تأثرت بشخصية الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله وأنا في الثامنة عشرة من عمري، وزادت محبتي له مع الزمن والاطلاع في سيرته، ولما أذن الله عز وجل للكتابة عن سيرته شددت الرحال إلى الجزائر العزيزة الحبيبة وزرت معارضها الدولية للكتاب، فوجدت بحراً زاخراً من الكتب والدراسات عن ابن باديس وتاريخ الجزائر وجهاد هذا الشعب العظيم ضد الاحتلال الفرنسي المقيت، فاشتريت ما كتبه الله من المصادر والمراجع، فانكشفت لي مجاهيل في علم التاريخ الحديث، وملاحم بطولية وشخصيات وطنية وربانية وإنسانية تحتاج لإزالة الركام عنها وتوصيلها إلى الشعوب العربية والإسلامية، والشعوب الحرة في هذا العالم الفسيح، فكانت هذه الموسوعة.

فالفضل لله تعالى أولاً وأخيراً، ثم لسيرة ابن باديس العطرة المباركة، التي جعلها الله سبباً لهذه الموسوعة «كفاح الشعوب»، والتي أقدم لها في هذه الصفحات «الجزء الثالث»، وبذلك تمت بحمد الله وفضله، وهي:

1 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الأمير عبد القادر.

2 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الزعيم عبد الحميد ابن باديس.

3 . كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

والدراسة القادمة بإذن الله تعالى ستكون عن الأمير عبد الكريم الخطابي، وكفاح الشعب المغربي المجاهد ضد الاحتلال الفرنسي والإسباني.

والحمد لله الذي منَّ عليَّ بهذا القلم لخدمة تاريخ أمة الإسلام وقادته قديماً وحديثاً، ونسأل الله أن يكون خالصاً لوجهه الكريم.

وأما هذا الكتاب، فكان على الشكل التالي:

المبحث الأول: جمعية العلماء المسلمين بعد وفاة ابن باديس، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي، مولده واسمه ونسبه وأسرته وطلبه للعلم ورحلاته العلمية للمدينة ومصر والشام، ولقاؤه بابن باديس في المدينة، وما ترتب على هذا اللقاء من خير عميم لشعب الجزائر، ورجوعه إلى موطنه وانطلاقته في الدعوة وتأسيس جمعية العلماء، ونفيه إلى «افلو» بجنوب الجزائر بسبب رفضه دعم فرنسا في الحرب العالمية الثانية.

وتولى الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس من خلال الشورى بين علماء الجمعية.

وفي المبحث الأول أيضاً كان الحديث عن أهم صفات الإبراهيمي التي اتصف بها من خلال سيرته العطرة، فقد اتصف بصفات وأخلاق الدعاة الربانيين والعلماء الراسخين، من الصدق والإخلاص، والصبر والرحمة والعفو والعزيمة والهمة العالية والنظام والدقة والزهد والورع والاستقامة، وركزت على بعض هذه الصفات، كعلمه وفقهه وحماسته:

يقول عنه الشيخ محمد الغزالي: وأذكر من أولئك الزعماء اللاجئين إلى القاهرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ؛ عرفته أو تعرفت إليه في أعقاب محاضرة بالمركز العام للإخوان المسلمين.. كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكّنه من الأدب العربي بارزاً في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزق بياناً ساحراً وتأنقاً في العبارة يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها، لكن ليس هذا ما ربطنا به أو شدَّنا إليه على قيمته المعنوية . إنما جذبنا الرجل بإيمانه العميق وحزنه الظاهر على حاضر المسلمين، وغيظه المتفجر ضد الاستعمار، ورغبته الشديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم، وخُيِّل لي أنه يحمل في فؤاده الام الجزائريين كلهم، وهم يكافحون الاستعمار الفرنسي، ويقدمون المغارم سيلاً لا ينقطع حتى يحرروا أرضهم من الغاصبين الطغاة، وكان في خطاباته يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوَجل من أفئدة الهيابين ويُهيّج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول: إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء.

وقال: كان لقاؤنا بالشيخ البشيرالإبراهيمي مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءها يهرعون إليه ويتزاحمون عليه، ولكن الرجل كان يشرد بين الحين والحين، فنحسّ أنه معنا وليس معنا، كان جسمه معنا وقلبه معلقاً بالجزائر، يتحسس أبناءها ويتبع العراك الدائر بين الإسلام والصليبية في هذه القطعة الغالية في دار الإسلام، وكنت أشعر بأنه يكتب إلى رجاله أو المسؤولين عن الكفاح الجزائري، يشير عليهم بالرأي. وأستطيع الجزم بأنه ما ضعف يوماً ولا استكان، ولا يئس من روح الله، ولا شك في أن الله ناصر جنده ومعز المجاهدين المسلمين.

إلى أن قال: وقد كنت ألمح تغييراً عضوياً في وجهه، بل في كيانه كله عندما يتحدث عن ضرورة الجهاد إلى اخر رمق، وعن ضرورة بقاء الجزائر مسلمة تتكلم بلغة الوحي وتحل الفرنسية، وها قد نصر الله الجزائر ونصر وجوه المجاهدين، وعاد الدخيل من حيث جاء، واندحر أتباعه وأعوانه:

فـأدبـروا ووجـه الأرض تـلـعـنـهـم   كبـاطـل من خلال الحق مهزوم[1]

وتحدثت في هذا الكتاب عن الروح التجديدية عند الإبراهيمي، فيعتبر من أنصار المدرسة التجديدية التي تؤمن بشجاعة الرأي وتتقدم الصفوف في بيان مقاصد الشريعة وقيمها النبيلة.

وبينت كونه مصلحاً كبيراً، ومفكراً عظيماً، ومجتهداً شجاعاً، ومبدعاً متألقاً، وبليغاً وأديباً وخطيباً، قال عنه أمير شعراء الجزائر محمد العيد ال خليفة:

قـل للبشـــير: رفعـتَ هـامـة أمـة   ذلـت وشـــعـب كـان قبلـك خـاملا

مـا زلـت تكشـــف عن خفي نبوغـه   حـــتى تـبـــين لـلـنـــواظـر مـاثـلا

أخجلـت أقطـاب البيـان فمن يكن   «سـحبان» أو «قسـا» يلاقك «باقلا»

أدركت في الفصـــحى مـدارك لم يكن   في العصـــر ذو أدب إليهـا واصـــلا

وكان الإبراهيمي من كبار الزهاد، لم يرث مالاً ولم يتموَّل أموالاً، وعاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، وكان يسدد ديونه القديمة بديونه الجديدة، محتفظاً بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطان.

وذكرت أهم أعماله عندما تولى قيادة جمعية العلماء، ومقومات الفكر الإصلاحي عنده من:

. الإسلام والعروبة، والتحرير والتوحيد، والتوعية والتربية والعمل الجماعي، ووضحت اهتمامه بالشباب والنوادي الثقافية، والكشافة والعمل الخيري، والمرأة، وقضايا الزواج والطلاق، وثقافته التاريخية ونضاله السياسي ضد الاستعمار بفكره وتوجيهه وترشيده ومقالاته ومواقفه، وبينت أسفاره وعلاقاته بالعالم الإسلامي، ودعمه لقضايا الأمة والشعوب المتطلعة للتحرر.

والمبحث الثاني: تحدثت فيه عن ثورة أول نوفمبر 1954م، وعن أهم الأحداث التي ساهمت في إعلان الثورة، مثل: اثار أحداث 1945م القمعية التي قتل فيها 45 ألف جزائري من قبل الغزاة الفرنسيين، والاستعداد العسكري للمنظمة الخاصة أو السرية، وظروف دولية ملائمة، وعن كيفية الوصول إلى جبهة تحرير وطني مفتوحة للجميع، وعن اجتماع الأعضاء 22 من الثوريين، واللجنة السداسية والخماسية، وعن بيان أول نوفمبر 1954م وعلاقة الجهاد بالثورة، وعن الجزائر المجاهدة والعوامل التي ساعدت على توحيد الشعب في الثورة، وتكلمت عن ردود الفعل بعد اندلاع الثورة، كردة فعل الحكومة الفرنسية وفرنسيي الجزائر، والجامعة العربية، واثار الثورة الجزائرية في مسار الأحداث في شمال أفريقيا، وموقف جمعية العلماء من الثورة.

(1) اثار الإمام محمد البشير (8/4).

وبينت أن أول الشخصيات العامة والمشهورة والمؤثرة التي أيدت الثورة الشيخ الإمام محمد البشير الإبراهيمي، وكذلك أيدت جمعية العلماء وتعاونت وساندت قادة الثورة والثوّار في السعي لنيل الاستقلال، وذكرت كفاح ونضال الاتحادات الجزائرية، كالاتحاد العام للعمَّال، والاتحاد العام للطلاب، والاتحاد العام للتجار، واتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، والحركة النسائية الجزائرية، وأشرت إلى تاريخ العلم الجزائري وقصة النشيد الوطني، وترجمت لشاعر الثورة مفدي زكرياء صاحب القصيدة المشهورة:

نطق الرصـــاص فمـا يبـاح كلام ... وجرى القصـــاص فمـا يتـاح ملام
وقضـــى الزمـان فلا مرد لحكمـه ... وجرى القضـــاء وتمـت الأحكـام

وقال:

يا ثـورة التـحـريـر أنـت رســالـة ... أزلـيـــة إعـــجـــازهـــا الإلهـــام
لـك في الجزائر حرمـة قـدســيـة ... وبـكـل قـلـب في الـوجـود هـيـام
الشـــعب أنت ضـــميره وصـــوابه ... والجـيـش أنـت دمـاغـه الـعـلام
لـيـس الجـهـاد زعـامـة وثـنـيـة ... زلّـت بهـم في الـثـورة الأقـدام
وتنـاثرت تلـك الهيـاكـل وانطوت ... وتهـــاوت الأنصـــــاب والأزلام
ولـقـد بهرت الـعـالمين وطـأطـأت ... يا ثـورة الـتـحـريـر دونـك هـام
وتقـمصـــت فيـك الجزائر وانبرى ... شـــيخ يحـارب في الوغى وغلام(1)

وذكرت الإصلاحات السياسية والإدارية التي أعلنت عنها الحكومات الفرنسية لتهدئةالشعب وإبعاده عن دعم الثُّوار، ولكنها فشلت جميعها، وازداد التفاف الشعب خلف جبهة التحرير الوطني، وأمدّها بالرجال والأموال ووسائل النضال والكفاح والجهاد، ودوَّنت الأساليب القمعية الوحشية التي استخدمتها فرنسا ضد الشعب الجزائري.

وتحدثت عن مؤتمر الصومام وأهميته في تاريخ الثورة الجزائرية في تطوير جوانبها العسكرية والسياسية والإعلامية والإدارية والتعبوية، وتنظيم وتحشيد الشعب خلف جبهة التحرير، والانتقال بالثورة إلى مرحلة جديدة في صراعها مع الاحتلال الفرنسي.

وبينت وسائل فرنسا للقضاء على الثورة، من وسائل اقتصادية وسياسية وعسكرية واستخباراتية، وقمعية...الخ.
ووضحت وسائل الثورة في مواجهة فرنسا وتخطيطها، من عسكرية، وحرب عصابات منظمة طويلة النفس، وتحشيد اجتماعي، وإضرابات عامَّة، واختراقات أمنية، وعمل دبلوماسي وسياسي إقليمي ودولي، وكسب مناصرين للقضية الجزائرية على مستوى الشعوب والدول، وعن الاهتمام بالتموين والتغذية ووصولها إلى الثوار

(1) اللهب المقدس ص 44، مفدي زكرياء.

والمحتاجين الداعمين للثورة، والاهتمام بالجرحى والمرضى والإعلام، والتطوير الإداري والتنظيمي المستمر لجبهة التحرير، ودور المرأة وجهادها العظيم على كافة المستويات النضالية.

قال الشاعر:

بنت الجزائر والنضـــال يهزها   تاقت إلى خوض الغمار الدامي
شـــقت إلى الجبل الأشـــم مســالكاً   مســـدودة في أوجه الأخصـــام
لقد انتطقنا وما انتطقتن بفضـــة   فســـبائك الخرطوش خير حزام

وكان للأمهات تأثير على المجاهدين في ساحات الوغى، وقد قالت الشاعرة العراقية امال الزهاوي في قصيدتها «نداء الأم» مهداة إلى المجاهدين الجزائريين حيث تقول:

ونداء أمي صـــارخاً أقوى من المتفجرات
أقدم بُنيَّ على العدو كعاصـــفات صـــارخات
فبقرب ضِـــيقك دائماً أخواتك المتذمرات
يشـــددن عزمك للتحرر من ليال حالكات
صـــرخَاتهُن بوجه خصـــمك بالغناء مزمجرات
أصـــواتهن بجنب صـــوتك بالعدو منـدِّدات
يرقبن أيام الكفاح بأعين متطلعات
ينشـــدن فجر الانتصـــار بأنفس متلهفات

واستمر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في دعمه للثورة، وكتب مقالات، وخطب خطباً، وألقى محاضرات، وزار دولاً وشارك في مؤتمرات، ومن أشهر مقالاته: كيف تنجح الثورة؟ وموالاة المستعمر خروج عن الإسلام، وفرنسا وثورة الجزائر.

وفي **المبحث الثالث**: مواقف الدول والشعوب العربية من ثورة الجزائر.

وفي هذا المبحث بيّنت دور الدول والشعوب في دعم الشعب الجزائري.

.كالمملكة الليبية، حيث لعبت ليبيا دوراً كبيراً في دعم القضية الجزائرية، وثورة التحرير، انطلاقاً من إيمان قادتها وشعبها في الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري أيام محنته، ودعم ثورته معنوياً، وقد تجسد هذا الموقف منذ زمن المصلح الكبير محمد بن علي السنوسي وتصديه للاحتلال الفرنسي ودعمه للمجاهدين، ولم تنقطع هذه الصِّلة بين الشعبين الشقيقين، وازدادت قوَّة وتحمساً مع اندلا ع ثورة نوفمبر 1954م، ووقف الملك والحكومة والشعب بكل ما يملكون لتحقيق الانتصار العظيم على الغزاة.

. وكذلك المملكة المغربية، وتونس، ومصر، والسعودية، والكويت، وقطر، والعراق، وسوريا، والأردن، والسودان،، واليمن، ولبنان.

. وكذلك الدول غير العربية كالصين، وأندونيسيا، وكوريا الشمالية، وفيتنام، والهند، وماليزيا، وباكستان، وسنغافورة، وتركيا، وغانا، ومالي، ويوغسلافيا.

. ووضحت موقف الاتحاد السوفياتي المساند لفرنسا، وتغيره بعد دخول فرنسا في المفاوضات مع الحكومة المؤقتة.

. وكذلك الولايات المتحدة المتحالفة والداعمة لفرنسا، في حربها للشعب الجزائري.

وفي **المبحث الرابع**: كان الحديث عن الحكومة المؤقتة والمفاوضات مع فرنسا، وإعلان الحكومة المؤقتة، ووزرائها، والتطور السياسي والإداري لأجهزة الحكومة كوزارة القوات المسلحة والداخلية، وما حدث لها من مشاكل وتامر، واجتماع قادة الداخل، وخلاف الحكومة مع مصر، والاحتكام إلى القادة العسكريين، وكان الحديث عن الحكومة المؤقتة الثانية والمعالم الرئيسية لسياستها وإعادة تنظيم الجيش، وكذلك تطرقت للحكومة المؤقتة الثالثة وظهور فكرة المكتب السياسي كأعلى سلطة من الحكومة المؤقتة.

وأشرت إلى مسار المفاوضات بين الجزائر وفرنسا بعد تولي ديغول السلطة، ودوافع رضوخ ديغول للتفاوض والوصول إلى «اتفاقية إيفيان» وخطاب رئيس الحكومة المؤقتة «يوسف بن خدة» للشعب الجزائري، ونص اتفاقيات إيفيان، وكيفية تطبيق الاتفاقية، ووقف إطلاق النار، تحدثت عن محاولة تخريب اتفاقيات إيفيان من طرف المنظمة المسلحة السرية الفرنسية والنهاية الحتمية للمنظمة، وإجراء استفتاء تقرير المصير، وتطوُّر الوضع بعد ترسيم المكتب السياسي، وإعلان استقلال الجزائر، ودخول القوات الموالية للمكتب السياسي إلى العاصمة، وصلاة الجمعة الأولى بعد الاستقلال في مسجد «كتشاوا» بالجزائر العاصمة، وخطبة الإمام البشير الإبراهيمي المؤثرة، والأيام الأخيرة من حياته ووفاته.

* * *

هذا وقد انتهيت من هذا الكتاب يوم الجمعة 1438/6/11هـ الموافق 2017/3/9م الساعة الرابعة والربع بتوقيت الدوحة بعد صلاة العصر، والفضل لله من قبل ومن بعد.

وأسأله سبحانه وتعالى أن يتقبل هذا العمل قبولاً حسناً، وأن يكرمنا برفقة النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين.

قال تعالى: {مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [سورة فاطر:2].

ولا يسعني في نهاية هذا الكتاب إلا أن أقف بقلب خاشع منيب أمام خالقي العظيم وإلهي الكريم، معترفاً بفضله وكرمه وجوده، متبرئاً من حولي وقوتي، ملتجئاً إليه في كل حركاتي وسكناتي، وحياتي ومماتي، فالله خالقي هو المتفضل، وربي الكريم هو المعين، وإلهي العظيم هو الموفق، فلو تخلَّى عني ووكلني إلى عقلي ونفسي، لتبلَّد مني العقل، ولغابت الذاكرة، وليبست الأصابع، ولجفت العواطف، ولتحجرت المشاعر، ولعجز القلم عن البيان.

اللهم بصِّرني بما يرضيك عني، واشرح صدري له، وجنِّبني اللهم ما لا يرضيك واصرفه عن قلبي وتفكيري.

وأسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا أن تثيبني وإخواني الذين أعانوني على إتمام هذا الجهد الذي لولا أنت ثم هم ما كان له وجود ولا انتشار بين الناس. ونرجو من كل مسلم يطَّلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه.

قال تعالى: {فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ} [سورة النمل:19].

وأختم هذه المقدمة بقول الله تعالى:{وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠} [سورة الحشر:10].

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

المبحث الأول

جمعية العلماء المسلمين بعد وفاة ابن باديس

وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي

بعد وفاة ابن باديس في 16 أفريل «نيسان» 1940م، اجتمع المجلس الإداري بغياب البشير الإبراهيمي نائب رئيس المجلس الإداري، الذي كان منفياً في مدينة «افلو» الصحراوية منذ شهر اذار 1940م، وقرر المجلس انتخابه رئيساً للجمعية خلفاً لابن باديس، وأصبح الإبراهيمي منذ ذلك الحين يقود الجمعية ويصرّف أمورها ويدير أعمالها من مقر منفاه عن طريق الرسائل التي كان يتبادلها مع الأعضاء بواسطة الرسل الثقاة[1]
.

* * *

(1) جمعية علماء المسلمين، دكتور أحمد الخطيب، ص 209.

أولاً: نسبه وأسرته وطلبه للعلم

1 . اسمه ونسبه ومولده وأسرته:

هو محمد البشير الإبراهيمي، ولد يوم الخميس عند طلوع الشمس في الرابع عشر من شهر شوال سنة ست وثلاثمائة وألف، الموافق الثالث عشر من يونيو سنة 1889م.

وينتمي إلى قبيلة تعرف بأولاد إبراهيم بن يحيى بن مساهل، ويرفع نسبها إلى إدريس بن عبد الله الجد الأول للأشراف الأدارسة ـ وإدريس هذا يعرف بإدريس الأكبر ـ وهو الذي خلص إلى المغرب الأقصى بعد (وقعة فخ) بين العلويين والعباسيين، وإليه ترجع أنساب الأشراف الحسنيين في المغربين الأقصى والأوسط، وهذا النسب للإبراهيمي مستفيض بين سكان الأطلس أوراس وسفوحه الجنوبية إلى الصحراء، والشمالية إلى التلول، ولأجداد الإبراهيمي كتابات متناقلة عن هذا النسب(1).

موطنه الذي تقلب فيه أجداده في تاريخ ضارب في القدم وهو السلاسل الغربية المتفرعة من جبل أوراس، وهي قمم تفصل بينها مسالك أودية وطرق هابطة من التلول إلى الصحراء، وموقعها الغرب المائل للجنوب لمدينة قسنطينة عاصمة المقاطعة الشرقية للقطر الجزائري.

2 . أسرته واهتمامها بالعلم:

ويعتبر بيت الإبراهيمي من البيوتات التي حفظت رسم العلم وتوارثته قروناً من لدن خمول بجاية وسقوطها في القرن التاسع الهجري. لقد كانت بجاية دار الهجرة للعلم، وخصوصاً للأقاليم المتاخمة لها، وقد خرج من عمود نسبه بالذات في هذه القرون الخمسة علماء في العلوم العربية، ونشروها بهمة واجتهاد في الأقاليم المجاورة لإقليمه، ومنهم من هاجر إلى القاهرة في سبيل الاستزادة من العلم والتوسع فيه ـ على صعوبة الهجرة إذ ذاك ـ ومن اثار الاتصال بالقاهرة أنه بعد رجوعهم سموا أبناءهم بأسماء كبار مشائخ الأزهر، وأدرك الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في فروع بيته من تسمى بالأمير، والصاوي، والخرشي، والسنهوري(2).

3 . بدايته العلمية وأثر عمِّه فيه:

نشأ الإبراهيمي في بيت والده كما ينشأ أبناء بيوت العلم، وبدأ في التعلم وحفظ القران الكريم في الثالثة من عمره على التقليد المتبع في بيته الشائع في بلاده، وكان الذي يعلمه الكتابة ويلقنه حفظ القران جماعة من أقاربه من حفاظ القران، ويشرف عليه إشرافاً عالياً عالم البيت، بل الوطن كله في ذلك الزمان، عمُّه شقيق والده الأصغر الشيخ محمد المكي الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ، وكان حامل لواء الفنون العربية غير مدافع من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها، أخذ كل ذلك على البقية الصالحة من علماء هذه الفنون بإقليميه، منهم:

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (272/5).

(2) اثار الأمام محمد البشير الإبراهيمي (273/5).

. الشيخ ربيع قري اليعلاوي.

. العلامة الشيخ محمد أبو القاسم البوجليلي.

. العلامة الشيخ محمد أبو جمعة القُلّي، خاتمة المتبحرين في العربية والفقه.

. ولم يكن هؤلاء العلماء رحلوا إلى الأمصار الكبرى ذات الجامعات العلمية التاريخية، كفاس وتونس والقاهرة، وإنما كانوا يتوارثون العلوم الإسلامية طبقة عن طبقة إلى الأجيال المتخرجة من مدن العلم الموجودة بالوطن كبجاية وقلعة بني حماد، وكلتاهما قريبة من مواطن الإبراهيمي، وكلتاهما كانت مناراً للعلم ومهجراً لطلابه ومطلعاً لشموسه إلى الفترة التي تبدأ من دخول الأتراك للجزائر. وكان أئمة العلم لا يعتمدون في تخرجهم على الشهادات الرسمية، وإنما كانوا يعتمدون على الإجازات من مشايخهم الذين يأخذون عنهم.

ولما بلغ سبع سنين استلمه عمُّه من معلِّمي القران، وتولى تربيته وتعليمه بنفسه، فكان لا يفارقه لحظة، حتى في ساعات النوم، فكان عمُّه هو الذي يأمره بالنوم وهو يوقظه منه، على نظام مضطرد في النوم، والأكل والدراسة. وكان لا يخليه من تلقين حتى حين يخرجه . فيأخذه معه . ويماشيه للفسحة، فحفظ متون العلم المهمة في ذلك السن مع استمراره في حفظ القران، فما بلغ تسع سنين من عمره حتى كان يحفظ القران، مع فهم مفرداته وغريبه، وكان يحفظ معه:

. ألفية ابن مالك ومعظم الكافية له.

. وألفيتي الحافظ العراقي في السير والأثر.

. وحفظ جمع الجوامع في الأصول.

. وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني.

. ورقم الحلل في نظم الدول لابن الخطيب.

. وحفظ الكثير من شعر أبي عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس في المائة السابعة.

. وحفظ معظم رسائل بلغاء الأندلس، مثل ابن شهيد وابن برت وابن أبي الخصال وأبي المطرف بن أبي العميرة وابن الخطيب.

ثم لقنه عمه دواوين فحول المشارقة، ورسائل بلغائهم، وحفظ صدراً من شعر المتنبي، ثم استوعبه بعد رحلته إلى المشرق، وحفظ صدراً من شعر الطائيين، وديوان الحماسة، وكثيراً من رسائل سهل بن هارون وبديع الزمان.

وفي هذه الفترة حفظ بإرشاد عمه كل من:

. كتاب كفاية المتحفظ للأجدابي الطرابلسي.

. وكتاب الألفاظ الكتابية للهمداني.

. وكتاب الفصيح لثعلب.

. وكتاب إصلاح المنطق ليعقوب ابن السكيت.

وهذه الكتب الأربعة هي التي كان لها معظم الأثر في ملكته اللغوية[1].

ولم يزل عمه ـ رحمه الله ـ يتدرج به من كتابٍ إلى كتاب، تلقيناً وحفظاً ومدارسة للمتون والكتب التي حفظها حتى بلغ الحادية عشرة، فبدأ له في درس ألفية ابن مالك دراسة بحث وتدقيق، وكان قبلها ـ درّسه ـ كتب ابن هشام الصغيرة قراءة تفهم وبحث، وكان يقرئه مع جماعة الطلاب المنقطعين عنده لطلب العلم على العادة الجارية في الجزائر إذ ذاك، ويقرئه وحده، ويقرئه وهو يماشيه في المزارع، وعلى ضوء الشمع، وعلى قنديل الزيت وفي الظلمة، حتى يغلبه النوم، ولم يكن شيء من ذلك يرهقه لأن الله تعالى وهبه حافظة خارقة للعادة، وقريحة نيرة، وذهناً صيوداً للمعاني، ولو كانت بعيدة. ولما بلغ أربع عشرة سنة مرض عمه مرض الموت، فكان لا يخليه من تلقين وإفادة، وهو على فراش الموت، بحيث ختم الفصول الأخيرة من ألفية ابن مالك وهو على تلك الحالة[2].

4 ـ تصدره للتدريس ورحلته لمصر:

مات عمه سنة (1321هـ/ 1903م) وعمر محمد البشير أربع عشرة سنة، وكان عمه قد أجازه الإجازة العامة، وعهد إليه أن يخلفه في التدريس لطلابه، فأصبح شيخاً وهو في سن الصبا[3]، والقيام عليهم كالعادة في حياة عمه. وانتقل في بعض السنين إلى المدارس القبلية القريبة منهم لسعتها واستيعابها للعدد الكثير من الطلبة، وتيسر المرافق بها للسكنى، ودام على تلك الحال إلى أن جاوز العشرين من عمره، فتاقت نفسه إلى الهجرة إلى الشرق، واختار المدينة المنورة، لأن والده سبقه إليها 1908 فراراً من ظلم فرنسا، فالتحق به متخفياً أواخر سنة 1911م، كما خرج والده متخفياً، ومر في وجهته هذه بالقاهرة، وأقام بها ثلاثة أشهر، وحضر بعض دروس العلم في الأزهر، وعرف أشهر علمائه وحضر دروس كل من:

ـ الشيخ سليم البشري.

ـ والشيخ محمد بخيت، وحضر درسه في البخاري في رواق العباسي.

ـ والشيخ يوسف الدجوي، حضر درسه في البلاغة.

ـ والشيخ عبد الغني محمود، حضر له درساً في المسجد الحسيني.

ـ والشيخ السمالوطي، حضر له درساً في المسجد الحسيني.

ـ والشيخ سعيد الموجي الذي كان له سند عالٍ في رواية الموطأ، وطلب أن يرويه عنه بذلك السند. وحضر مجالسه في جامع الفكهاني مع جمهور من الطلبة، وتولى الإبراهيمي قراءة بعض الموطأ عليه من حفظه[4].

---

(1) المصدر نفسه (274/5).

(2) المصدر نفسه (274/5).

(3) الشيخ البشير الإبراهيمي إمام في مدرسة الأئمة، د. محمد عمارة ص 7.

(4) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (275/5).

وحضر عدة دروس في دار الدعوة والإرشاد التي أسسها الشيخ رشيد رضا في منيل الروضة، وزار شاعر العربية الأكبر أحمد شوقي، وأسمعه عدة قصائد من شعره من حفظه فتهلل ـ رحمه الله ـ واهتزَّ، كما اجتمع بشاعر النيل حافظ إبراهيم في بعض أندية القاهرة، وأسمعه من حفظه شيئاً من شعره كذلك[1].

5 . رحلته إلى المدينة:

خرج الإمام محمد البشير الإبراهيمي من القاهرة قاصداً المدينة المنورة، فركب البحر من بورسعيد إلى حيفا، ومنها ركب القطار إلى المدينة، وكان وصوله إليها في أواخر سنة 1911م، واجتمع بوالده ـ رحمه الله ـ وطاف بحلق العلم في الحرم النبوي مختبراً، فلم يرق له شيء منها واعتبرها غثاء يلقيه رهط ليس لهم من العلم والتحقيق شيء. وقال: لم أجد علماً صحيحاً إلا عند رجلين هما شيخاي:

ـ الشيخ العزيز الوزير التونسي.

ـ والشيخ أحمد الفيض أبادي الهندي.

فهما والحق يقال عالمان محققان وسّعا أفق الإدراك في علوم الحديث وفقه السنة، ولم أكن راغباً إلا في الاستزادة من علم الحديث رواية، ومن علم التفسير، فلازمتهما ملازمة الظل، وأخذت عن الأول الموطأ دراية، ثم أدهشني تحقيقه في بقية العلوم الإسلامية، فلازمت درسه في فقه مالك، ودرسه في «التوضيح» لابن هشام، ولازمت الثاني في درسه لصحيح مسلم، وأشهد أني لم أر لهذين الشيخين نظيراً من علماء الإسلام وقد علا سني، واستحكمت التجربة، وتكاملت الملكة في بعض العلوم، ولقيت من المشايخ ما شاء الله أن ألقى، ولكنني لم أر مثل الشيخين في فصاحة التعبير ودقة الملاحظة والغوص عن المعاني، واستنارة الفكر، والتوضيح للغوامض، والتقريب للمعاني القصية، ولقد كنت لكثرة مطالعتي لكتب التراجم والطبقات قد كونت صورة للعالم المبرز في العلوم الإسلامية منتزعة مما يصف به كتّاب التراجم بعض مترجميهم، وكنت أعتقد أن تلك الصورة الذهنية لم تتحقق في الوجود الخارجي منذ أزمان، ولكنني وجدتها محققة في هذين العالمين الجليلين، وقد مات الشيخ الوزير بالمدينة في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

وأما الشيخ حسين أحمد ؛ فقد سلمه الشريف حسين بن علي إلى الإنجليز في أواخر ثورته المشؤومة، فنفوه إلى مالطا، ثم أرجعوه إلى وطنه الأصلي (الهند)، وعاش بها سنين، وانتهت إليه رئاسة العلماء بمدينة العلم (ديوبند)، ولما زرت باكستان للمرَّة الأولى 1952م كاتبته، فاستدعاني بإلحاح إلى زيارة الهند، ولم يقدر لي ذلك، وفي هذه العهود الأخيرة بلغتني وفاته بالهند[2].

ـ وأخذ أيام مجاورته بالمدينة علم التفسير عن الشيخ الجليل إبراهيم الأسكوبي، وكان ممن يشار إليهم في هذا العلم مع تورع وتصاون هو فيهما نسيج وحده.

---

(1) المصدر نفسه (275/5).

(2) المصدر نفسه (276/5).

. وأخذ الجرح والتعديل وأسماء الرجال عن الشيخ أحمد البرزنجي الشهرزوري في داره أيام انقطاعه عن التدريس في الحرم النبوي، وكان من أعلام المحدثين، ومن بقاياهم الصالحة.

. وأخذ أنساب العرب وأدبهم الجاهلي والسيرة النبوية عن الشيخ محمد عبد الله زيدان الشنقيطي، وهو أعجوبة الزمان في حفظ اللغة العربية وأنساب العرب وحوادث السيرة.

. وأتمَّ معلوماته في علم المنطق عن الشيخ عبد الباقي الأفغاني بمنزله، وكان رجلاً مسناً منقطعاً عن أسباب الدنيا، قرأ عليه الحكمة المشرقية، وكان قيماً عليها بصيراً بدقائقها.

. وذاكر صاحبه الشيخ أحمد خيرات الشنقيطي سنين عديدة في اللغة والشعر الجاهلي ومنه المعلقات العشر، وصاحبه محمد العمري الجزائري أمهات الأدب المشهورة، خصوصاً الكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ، فقد ختماهما مطالعة مشتركة، فاحصة متأنية، وكذلك فعلا بكتاب الأغاني من أوله إلى اخره، وبالجملة فقد كانت إقامته بالمدينة المنورة أيام خير وبركة[1].

وكان ينفق أوقاته على إلقاء دروس في العلوم التي لا يحتاج فيها إلى مزيد كالنحو والصرف والعقائد والأدب، وكان يتردد على المكتبات الجامعة فلا يراه الرائي إلا في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت، حتى استوعب معظم كتبها النادرة قراءة، وفي مكتبة السلطان محمود، وفي مكتبة شيخه الوزير، وفي مكتبة بشير أغا، أو في مكتبات الأفراد الغاصة بالمخطوطات مثل مكتبة ال الصافي، ومكتبة رباط سيدنا عثمان، وفي مكتبة ال المدني، وال هاشم، ومكتبة الشيخ عبد الجليل برادة، ومكتبة الوزير التونسي العربي زروق، كما كان يستعير المخطوطات من أصدقائه وتلاميذه الشناقطة، منها ديوان غيلان ذي الرمة، فيقرأها ويحفظ عيونها، وقد حفظ في تلك الفترة معظم ديوان ذي الرمة، كل هذا والشيخ الإبراهيمي لم ينقطع عن إلقاء الدروس[2].

6 . الحرب العالمية الأولى وهجرته إلى دمشق:

ولما جاءت سنة 1917م أمرت الحكومة العثمانية بترحيل سكان المدينة كلهم إلى دمشق بسبب استفحال ثورة الشريف حسين بن علي، وعجز الحكومة عن تموين الجيش الذي بلغ عدده خمسين ألفاً، وتموين المدنيين الذين يبلغ تعدادهم ثمانين ألفاً، فاقتضى تدبير قوادها العسكريين إذ ذاك أن ينقل سكان المدينة إلى مصدر الأقوات في دمشق بدل أن تنقل الأقوات منها إليهم، فكان الشيخ محمد البشير من أوائل المطيعين لذلك الأمر، وخرج مع والده إلى دمشق في شتاء 1917م، وكان من أول وصوله إلى دمشق اهتم بلقاء رجال العلم، وكانوا أول من بدأ بالفضل، فزاروه في منزله، وتعرف على العلماء، وعرف من خلال مجالسه الأولى مراتبهم، واصطفى منهم جماعة من أولهم صديقه الحميم الشيخ محمد بهجت البيطار[3].

---

(1) المصدر نفسه (276/5).

(2) المصدر نفسه (277/5).

(3) المصدر نفسه (277/5).

وما لبث شهراً حتى انهالت عليه الرغبات في التعليم بالمدارس الأهلية، فاستجاب لبعضها، وحمله إخوانه على إلقاء دروس في الوعظ والإرشاد بالجامع الأموي بمناسبة حلول شهر رمضان، فامتثل وألقى دروساً (تحت قبة النسر الشهيرة) على طريقة الأمالي، فكان يجعل عماد الدرس حديثاً يمليه من حفظه بالإسناد إلى أصوله القديمة، ثم أملى تفسيره بما يوافق روح العصر وأحداثه، فسمع الناس شيئاً لم يألفوه ولم يسمعوه إلا في دروس الشيخ بدر الدين الحسني، ثم بعد خروج الأتراك من دمشق وقيام حكومة الاستقلال العربي دعته الحكومه الجديدة إلى تدريس الاداب العربية بالمدرسة السلطانية، (وهي المدرسة الثانوية الوحيدة إذ ذاك)، مشاركاً للأستاذ اللغوي الشيخ عبد القادر المبارك، فاضطلع بما حمل من ذلك، وتلقى عنه التلامذة دروساً في الأدب العربي الصميم، وكانت الصفوف التي يدرّس لها الأدب العربي هي الصفوف النهائية المرشحة للبكالوريا، وقد تخرّج عنه جماعة من الطلبة هم من عماد الأدب العربي في سوريا منهم:

. الدكتور جميل صليبا.

. والدكتور أديب الروماني.

. والدكتور المحايري.

والدكتور عدنان الأتاسي.

ولما دخل الأمير فيصل بن الحسين دمشق اتصل بالشيخ محمد بشير الإبراهيمي، وأراده على أن يبادر بالرجوع إلى المدينة ليتولى إدارة المعارف بها، ولم يكن ذلك في نيته ولا قصده، لما طرأ على المدينة من تغير في الأوضاع المادية والنفسية، فأبى ذلك عليه، وما فتأئ الأمير يلح عليه فيصدّ ويأبى، إلى أن سنحت الفرصة فكرّ راجعاً إلى الجزائر موطن ابائه وعشيرته[1].

لم يكن الشيخ الإبراهيمي مع ثورة الشريف حسين بن علي ضد الخلافة العثمانية والمتحالف مع الإنجليز، فقد كان الشيخ ضد هذه الثورة، واستقر بدمشق قرابة أربع سنوات.

. وفي دمشق طلب منه القائد التركي جمال باشا بواسطة أحد أعوانه، التعاون مع العثمانيين، ولكنه أبى وفضّل الاشتغال بالتدريس، فعمل أستاذاً للعربية في المدرسة السلطانية.

. وفي دمشق تزوج، وفيها توفي والده وأحد أولاده[2].

7 . لقاؤه بابن باديس في المدينة:

كان من تدابير الأقدار الإلهية للجزائر، ومن مخبّآت الغيوب لها ؛ أن يرد لها عليَّ بعد استقراري في المدينة المنورة سنة وبضعة أشهر أخي ورفيقي في الجهاد بعد ذلك، الشيخ عبد الحميد بن باديس، أعلم علماء الشمال الأفريقي . ولا أغالي . وباني النهضات العلمية والأدبية والاجتماعية والسياسية للجزائر.

(1) المصدر نفسه (277/5).

(2) الشيخ البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 10.

وبيت ابن باديس في قسنطينة بيت عريق في السؤدد والعلم، ينتهي نسبه في سلسلة كعمود الصبح إلى المعز بن باديس، مؤسس الدولة الصنهاجية الأولى والتي امتد ظلها على قسنطينة ومقاطعتها حيناً من الدهر[1].

يقول محمد بشير الإبراهيمي: ومع تقارب بلدينا، بحيث لا تزيد المسافة بيننا على مائة وخمسين كيلومتراً، ومع أننا لِدَتان في السن يكبرني الشيخ بنحو سنة وبضعة أشهر، رغم ذلك كله، فإننا لم نجتمع قبل الهجرة إلى المدينة، ولم نتعارف إلا بالسماع، لأنني كنت عاكفاً في بيت والدي على التعلم، ثم على التعليم، وهو كان يأخذ العلم من علماء قسنطينة متبعاً لتقاليد البيت لا يكاد يخرج من قسنطينة، ثم بعد بلوغ الرشد ارتحل إلى تونس، فأتمَّ في جامع الزيتونة تحصيل علومها.

كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي، فنسهر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى اخر الليل، حين يفتح المسجد فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح، ثم نفترق إلى الليلة الثانية، إلى نهاية ثلاثة الأشهر التي أقامها بالمدينة المنورة.

كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصَّلة لتلك النهضة الشاملة، التي كانت كلها صوراً ذهنية تتراءى في مخيلتينا، وصحبها من حسن النيَّة وتوفيق الله ما حقَّقها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931م.

8 . رجوع ابن باديس إلى الجزائر:

ورجع الشيخ . ابن باديس . إلى الجزائر بعد زيارته للمدينة واتفاقه مع محمد البشير الإبراهيمي على خطة عمل شاملة لنهضة الجزائر في عام 1913م، بعد أن يقنع الإبراهيمي والده بأنه لاحق به إلى الجزائر، وأن رجوعه يترتب عليه إحياء الدين والعربية وقمع للابتداع والضلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسي.

وكان هذا هو المنفذ الوحيد الذي يستطيع أن يدخل منه على نفس والده ليسمح له بالرجوع إلى الجزائر.

وشرع ابن باديس بعد رجوعه من أول يوم في تنفيذ الخطوة الأولى من البرنامج الذي اتفق فيه مع الإبراهيمي ففتح صفوفاً لتعليم العلم، واحتكر مسجداً جامعاً من مساجد قسنطينة لإلقاء دروس التفسير وكان إماماً فيه، دقيق الفهم لأسرار كتاب الله، فما كاد يشرع في ذلك ويتسامع الناس به حتى انهال عليه طلاب العلم من الجبال والسهول إلى أن ضاقت بهم المدينة، وأعانه على تنظيمهم وإيوائهم وإطعام المحاويج منهم جماعة من أهل الخير ومحبِّي العلم، فقويت بهم عزيمته، وسار لا يلوي على صائح.

واشتعلت الحرب العالمية الأولى وهو في مبدأ الطريق، فاعتصم بالله فكفاه شرَّ الاستعمار، وكان لوالده مقام محترم عند حكومة الجزائر، فسكتت عن الابن احتراماً لشخصية الوالد، وظهرت النتائج المرجوة لحركته في السنة الأولى.

---

(1) المصدر نفسه (278/5).

وكانت في السنة الثانية وما بعدها أكبر، وعدد الطلبة أوفر، إلى أن انتهت الحرب[1].

9 . رجوع الإبراهيمي إلى الجزائر:

قال الشيخ محمد البشير: ورجعت أنا إلى الجزائر فلقيني . ابن باديس . بتونس، وابتهج لمقدمي أكثر من كل أحد لتحقيق أمله المعلَّق عليَّ، وزرته بقسنطينة قبل أن أنقلب إلى أهلي، ورأيت بعيني النتائج التي حصل عليها أبناء الشعب الجزائري في بضع سنوات من تعليم ابن باديس، واعتقدت من ذلك اليوم أن هذه الحركة العلمية المباركة لها ما بعدها، وأن هذه الخطوة المسدَّدة التي خطاها ابن باديس هي حجر الأساس في نهضة عربية في الجزائر، ولمست بيدي اثار الإخلاص في أعمال الرجال، ورأيت، ورأيت شباناً ممن تخرَّجوا على يد هذا الرجل، وقد أصبحوا ينظمون الشعر العربي بلغة فصيحة وتركيب عربي حر، ومعان بليغة، وموضوعات منتزعة من صميم حياة الأمة، وأوصاف رائعة في المجتمع الجزائري، وتشريح لأدوائه، ورأيت جماعة أخرى من أولئك التلاميذ وقد أصبحوا يحبرون المقالات البديعة في الصحف، فلا يقصرون عن أمثالهم من إخوانهم في الشرق العربي، واخرون يعتلون المنابر، فيحاضرون في الموضوعات الدينية والاجتماعية، فيرتجلون القول المؤثِّر، والوصف الجامع، ويصفون الدواء الشافي بالقول البليغ[2].

* * *

(1) المصدر نفسه (279/5).

(2) المصدر نفسه (279/5).

ثانياً: انطلاقه في الدعوة وتأسيس جمعية العلماء

1 . انطلاقه في الدعوة:

استقر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ببلده، وبدأ من أول يوم في العمل الذي يؤازر عمل ابن باديس، وشرع في عقد الندوات العلمية للطلبة، والدروس الدينية للجماعات القليلة، فلما تهيأت الفرصة انتقل إلى إلقاء الدروس المنظمة للتلامذة الملازمين، ثم تدرَّج لإلقاء المحاضرات التاريخية والعلمية على الجماهير الحاشدة في المدن العامرة والقرى الاهلة، وإلقاء دروس في الوعظ والإرشاد الديني كل جمعة في بلد، ثم لما تمَّ استعداد الجمهور الذي هزته صيحات الإبراهيمي إلى العلم، أسَّس مدرسة صغيرة لتنشئة طائفة من الشباب نشأة خاصة، وتمرينهم على الخطابة والكتابة وقيادة الجماهير، بعد تزويدهم بالغذاء الضروري من العلم.

وكانت أعماله هذه في التعليم الذي وقف عنايته عليه فاترة أحياناً لخوفه من مكائد الحكومية الاستعمارية، إذ ليس له سند يأوي إليه كما لأخيه ابن باديس، وكانت حركاته منذ نزل بأرض الوطن مثار ريب عند الحكومة ومنبع شكوك، حتى صلاته وخطبه في يوم الجمعة، فكان يتغطى لها بألوان من التمويه، حتى أنه تظاهر عدة سنين بتعاطي التجارة وغشيان الأسواق لإطعام من يعولهم من أفراد أسرته. ولكن الحكومة كانت تراقب بحذر، ولم تطمئن إلى حركته، فكان بوليسها يلاحقه بالتقارير ويضيق الخناق على كل من يزوره من تونس أو الحجاز، وكل هذا ولم ينقطع عن الدروس لطلبة العلم بالليل[1].

2 . تأسيس جمعية العلماء:

قال الإبراهيمي في هذه الفترة ما بين 1920م إلى 1930م: كانت الصلة بيني وبين ابن باديس قوية، وكنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي «سطيف»، أو أزوره في قسنطينة، فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن اثارها في الشعب بالعدل، ونبني على ذلك أمرنا، ونضع على الورق برامجنا للمستقبل بميزان لا يختل أبداً، وكنا نقرأ للحوادث والمفاجات حسابها، فكانت هذه السنوات العشر كلها إرهاصات لتأسيس جمعية العلماء الجزائريين[2].

وقال أيضاً: كملت لنا على هذه الحالة عشر سنوات، كانت كلها إعداداً وتهيئة للحدث الأعظم، وهو إخراج جمعية العلماء من حيِّز القول إلى حيِّز الفعل، وأصبح لنا جيش من التلامذة يحمل فكرتنا وعقيدتنا، مسلَّح بالخطباء والكتَّاب والشعراء، يلتفُّ به مئات الالاف من أنصار الفكرة وحملة العقيدة، يجمعهم كلهم إيمان

---

(1) المصدر نفسه (280/5).

(2) المصدر نفسه (280/5).

واحد وفكرة واحدة، وحماس متأجج، وغضب حاد على الاستعمار، وكانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي:

ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمَّت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا.

كانت سنة 1930م هي السنة التي تمَّ بتمامها قرن كامل على احتلال فرنسا للجزائر، فاحتفلت بتلك المناسبة احتفالاً قدّرت له ستة أشهر ببرنامج حافل مملوء بالمهرجانات، ودعت إليه الدنيا كلها، فاستطعنا بدعايتنا السرية أن نفسد عليها كثيراً من برامجها، فلم تدم الاحتفالات إلا شهرين، واستطعنا بدعايتنا العلنية أن نجمع الشعب الجزائري حولنا ونلفت أنظاره إلينا[1].

تكامل العدد وتلاحق المدد.. العدد الذي نستطيع أن نعلن به تأسيس الجمعية، والمدد من إخوان لنا كانوا بالمشرق العربي مهاجرين أو طلاب علم، فأعلنا تأسيس الجمعية في شهر مايو سنة 1931م، بعد أن أحضرنا لها قانوناً أساسياً مختصراً من وضعي أدرته على قواعد من العلم والدين لا تثير شكاً ولا تخيف، وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال العالم المسلم، وتعتقد أننا لا نضطلع بالأعمال العظيمة، فخيَّبنا ظنها والحمد لله[2].

وقال الشيخ «محمد البشير الإبراهيمي»: دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجَّهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جهودهم، ووصفنا إياهم بأنهم بلاء على الأمة وعلى الدين لسكوتهم على المنكرات الدينية، وبأنهم مطايا للاستعمار يذلُّ الأمة ويستعبدها باسمهم.

فاستجابوا جميعاً للدعوة، واجتمعوا في يومها المقرَّر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام كانت من الأيام المشهودة في تاريخ الجزائر، ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحق، أيقن أولئك الفقهاء أنهم ما زالوا في دور التلمذة، وخضعوا خضوع المسلم للحق، فأسلموا القيادة لنا. فانتُخب المجلس الإداري من رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب، ووحدة الفكرة، ووحدة المنازع الاجتماعية والسياسية، ووحدة المناهضة للاستعمار. وقد وكل المجتمعون ترشيحهم إلينا، فانتخبوهم بالإجماع، وانتخبوا ابن باديس رئيساً، وكاتب هذه الأسطر وكيلاً نائباً عنه، وأصبحت الجمعية حقيقة واقعة قانونية. وجاء دور العمل.

وهذه المرحلة من حياتي هي مناط فخري وتاج أعمالي العلمية والاجتماعية والأفق المشرق من حياتي.

وهذه هي المرحلة التي عملت فيها لديني ولغتي ووطني أعمالاً أرجو أن تكون بمقربة من رضى الله، وهذه هي المواقف التي أشعر فيها كلما وقفت أردُّ ضلالات المبتدعة في الدين، أو أكاذيب الاستعمار، أشعر كأن كلامي امتزج بزجل الملائكة بتسبيح الله.

---

(1) المصدر نفسه (280/5).

(2) المصدر نفسه (281/5).

وكلَّفني إخواني أعضاء المجلس الإداري في أول جلسة أن أضع للجمعية لائحة داخلية نشرح أعمالها كما في أذهاننا، لا كما تتصوّرها الحكومة وأعوانها المضلِّلون منا، فانتبذت ناحية وواصلت طرفي ليلة في سبكها وترتيبها، فجاءت في مائة وسبع وأربعين مادة، وتلوتها على المجلس لمناقشتها في ثماني جلسات في أربعة أيام، وكان يحضر الجلسات طائفة كبيرة من المحامين والصحافيين العرب المثقفين بالفرنسية، فأعلنوا في نهاية عرض اللائحة إيمانهم بأن العربية أوسع اللغات، وأنها أصلح لغة لصوغ القوانين ومرافعات المحامين، وكأنما دخلوا في الإسلام من ذلك اليوم. وخطب الرئيس عند تمام مناقشة اللائحة وإقرارها بالإجماع خطبة مؤثرة أطراني فيها بما أبكاني من الخجل، وكان مما قال: عجبت لشعب أنجب مثل فلان أن يضلَّ في دين أو يخزى في دنيا، أو يُذلَّ لاستعمار، ثم خاطبني بقوله: وري بك زناد هذه الجمعية[1].

3 . الاستعمار المادي والاستعمار الروحاني:

كان من نتائج الدراسات المتكررة للمجتمع الجزائري بين الإبراهيمي وبين ابن باديس منذ اجتماعهما في المدينة المنوَّرة، أن البلاء المنصبّ على هذا الشعب المسكين ات من جهتين متعاونتين عليه، وبعبارة أوضح من استعمارين مشتركين يمتصان دمه ويتعرقان لحمه، ويفسدان عليه دينه ودنياه: استعمار مادي هو الاستعمار الفرنسي يعتمد على الحديد والنار، واستعمار روحاني يمثِّله مشائخ الطرق، المؤثرون في الشعب، والمغلغلون في جميع أوساطه، المتاجرون باسم الدين، المتعاونون مع الاستعمار عن رضى وطواعية. وقد طال أمد هذا الاستعمار الأخير، وثقلت وطأته على الشعب حتى أصبح يتألم ولا يبوح بالشكوى أو الانتقاد خوفاً من الله بزعمه. والاستعماران متعاضدان يؤيِّد أحدهما الاخر بكل قوَّته، ومظهرهما معاً تجهيل الأمَّة لئلا تفيق بالعلم فتسعى في الانفلات، وتفقيرها لئلا تستعين بالمال على الثورة، فكان من سداد الرأي وإحكام التدبير بين الشيخ الإبراهيمي وبين ابن باديس، أن تبدأ الجمعية بمحاربة هذا الاستعمار الثاني لأنه أهون[2].

قال الإبراهيمي: وكذلك فعلنا، ووجد المجلس الإداري نظاماً محكماً فاتبعه، لذلك كانت أعمال الجمعية متشعبة، وكان الطريق أمام المجلس الإداري شاقاً، ولكنه يرجع إلى الأصول الاتية:

. تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدين، بواسطة الخطب والمحاضرات، ودروس الوعظ والإرشاد في المساجد والأندية والأماكن العامة والخاصة، حتى في الأسواق، والمقالات في جرائدنا الخاصة.

. الشروع العاجل في التعليم العربي للصغار فيما تصل إليه أيدينا من الأماكن، وفي بيوت الاباء ربحاً للوقت قبل بناء المدارس.

. تجنيد المئات من تلاميذنا المتخرجين، ودعوة الشبان المتخرجين من جامع الزيتونة للعمل في تعليم أبناء الشعب.

. العمل على تعميم التعليم العربي للشبان على النمط الذي بدأ به ابن باديس.

(1) المصدر نفسه (281/5).

(2) المصدر نفسه (282/5).

. مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا التي استولت عليها، لنستخدمها في تعليم الأمَّة دينها، وتعليم أبنائها لغتهم.

. مطالبة الحكومة بتسليم أوقاف الإسلام التي احتجزتها ووزَّعتها على معمِّريها، لتصرف في مصارفها التي وقفت عليها. وكانت من الكثرة بحيث تساوي ميزانية دولة متوسطة.

. مطالبة الحكومة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشخصية مبدئياً.

. مطالبة الحكومة بعدم تدخلها في تعيين الموظفين الدينيين.

هذه معظم الأمهات التي تدخل في صميم أعمال الجمعية، منها ما بدأناه بالفعل ولاقينا فيه الأذى، فصبرنا حتى كانت العاقبة لنا، ومنها ما طالبنا به حتى أقمنا حق الأمَّة فيه، وفضحنا الاستعمار شرَّ فضيحة، ومجموع هذه المطالب في ظاهرها دينية، ولكنها في معناها وفي نظر الاستعمار هي نصف الاستقلال.

كانت السنة الأولى من عمر الجمعية سنة غليان: من جهتنا في تكوين الشُّعب في كل مدينة وكل قرية لتنفيذ مقاصد الجمعية، وغليان السخط علينا من الاستعمار، لأننا فاجأناه بما تركه مشدوهاً حائراً، لا يدري ما يفعل، ولا من أين يبدأ في مقاومة حركتنا، وتفرَّق أعضاء الجمعية على القطر كله يرشدون ويعظون ويزرعون الوعي، ويراقبون حركة التعليم ويحضرون أماكنه.

وعقدنا الاجتماع العام في السنة الثانية، فكانت النتيجة باهرة، والعزائم أقوى، والأمَّة إلينا أميل، وخرج المتردِّدون عن ترددهم، فانضموا إلينا، وأعيد انتخاب المجلس، فأسفر عن بقاء القديم، وزيادة أعضاء ظهرت مواهبهم في العلم، وكشَّر الاستعمار عن أنيابه، فبدأ يمنعنا من إلقاء الدروس في المساجد الواقعة في قبضته، وثارت نخوة الأمَّة، فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجداً حرَّاً في سنة واحدة في أمهات القرى[1].

4 . عواصم المقاطعات الثلاث:

وفي هذه السنة قررت الجمعية تعيين العلماء الكبار في عواصم المقاطعات الثلاث، ليكون كل واحد منهم مشرفاً على الحركة الإصلاحية والعلمية في المقاطعة كلها.

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: فأبقينا الشيخ ابن باديس في مدينة قسنطينة، وحمّلناه مؤونة الإشراف على الحركة في جميع المقاطعة، وخصصنا الشيخ الطيب العقبي بالجزائر ومقاطعتها، وخصصوني بمقاطعة وهران وعاصمتها العلمية القديمة تلمسان، وكانت هي إحدى العواصم العلمية التاريخية، التي أخنى عليها الدهر، فانتقلت إليها بأهلي وأحييت بها رسوم العلم، ونظمت دروساً للتلاميذ الوافدين على حسب درجاتهم، وما لبثت إلا قليلاً حتى أنشأت فيها مدرسة دار الحديث، وتبارى كرام التلمسانيين في البذل لها حتى برزت للوجود تحفة فنية من الطراز الأندلسي، وتحتوي على مسجد وقاعة محاضرات وأقسام لطلبة العلم، واخترت لها نخبة من المعلمين الأكفاء للصغار، وتوليت بنفسي تعليم الطلبة الكبار من الوافدين وأهل البلد، فكنت ألقي عشرة

(1) المصدر نفسه (283/5).

دروس في اليوم، أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح، وأختمها بدرس في التفسير بين المغرب والعشاء، وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النوادي، فألقي محاضرة في التاريخ الإسلامي، فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسية بضع مئات من المحاضرات[1].

وفي فترة العطلة الصيفية كان يختم الدروس كلها، ويخرج يومياً للجولان في الإقليم الوهراني مدينة مدينة وقرية قرية، فيلقي في كل مدينة درساً أو درسين في الوعظ والإرشاد، ويتفقد شُعبها ومدارسها، وكانت أيام جولاته كلها أيام أعراس عند الشعب، يتلقونه على عدة أميال من المدينة أو القرية، وينتقل بعض الناس معه إلى عدة مدن وقرى. فكان ذلك في نظر الاستعمار تحدياً له ولسلطته، وفي نظر الشعب تمجيداً للعلم والدين وإغاظة للاستعمار. فإذا انقضت العطلة اجتمع في الجزائر العاصمة وعقد الاجتماع العام، وفي أثره الاجتماع الإداري، ويقدم كل واحد من الدعاة حسابه، ويتم تنظيم شؤون السنة الجديدة، ثم ينصرفون إلى مراكزهم.

وبلغت إدارة الجمعية وهي في مستهل حياتها من النظام والقوة مبلغاً قوياً بديعاً، فأصبحوا لا يتعبون إلا في التنقل والحديث. أما الحكومة الاستعمارية ؛ فقد بنى العلماء أمرهم من أول خطوة على الاستخفاف بها وبقوانينها، وقد كانوا يعلنون في جرائدهم كل أسبوع بأن القوانين الظالمة لا تستحق الاحترام من الرجال الأحرار، ويقولون: نحن أحرار فلتفعل فرنسا ما شاءت.

وكان هذا الكلام ومثله أنكى عليها من وقع السهام، لأنها لم تألف سماعه، وقد اطمأنت إلى أن الشعب الجزائري قد مات، كما صرح بذلك أحد ساستها الكبار في خطبة ألقاها على ممثلي الأمم في المهرجان الذي أقامته في عيدها المئوي لاحتلال الجزائر، وكان مما قال: لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار[2].

وكانت أعمال الإخوان في المقاطعتين الأخريين مشابهة لأعمال الشيخ محمد البشير بمقاطعة وهران، لأنهم كانوا على منهاج واحد، ويسيروا على برنامج واحد، عاهدوا الله على تنفيذه[3].

5 . نفيه إلى «افلو» بالجزائر ووفاة ابن باديس:

رفض الشيخ محمد البشير الإبراهيمي دعم فرنسا في الحرب العالمية الثانية، وتمَّ نفيه من قبل السلطات الفرنسية إلى منفاه بمدينة «افلو»، قال الإبراهيمي عن ذلك: ولما ضاقت فرنسا ذرعاً بأعمالي ونفد صبرها على التحديات الصارخة لها، وأيقنت أن عاقبة سكوتها عنا هو زوال نفوذها وخاتمة استعمارها، اغتنمت فرصة نشوب الحرب العالمية الثانية، وأصدر رئيس وزرائها إذ ذاك «دالاديي» قراراً يقضي بإبعادي إلى الصحراء

(1) المصدر نفسه (283/5).
(2) المصدر نفسه (284/5).
(3) المصدر نفسه (284/5).

الوهرانية إبعاداً عسكرياً لا هوادة فيه، لأن في بقائي طليقاً حرًّاً خطراً على الدولة، كما هي عبارته في حيثيات القرار، ووكل تنفيذ قراره للسلطة العسكرية، فنقلوني للمنفى في عاشر أفريل سنة 1940م[1].

ووصلت إليه في منفاه بمدينة «افلو» اخر رسالة من أخيه الشيخ عبد الحميد بن باديس، وكانت وجيزة الألفاظ وقوية المعاني، جاء فيها:

الأخ الكريم الأستاذ الشيخ البشير الإبراهيمي سلمه الله.

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد:

فقد بلغني موقفكم الشريف الجليل العادل، فأقول لكم: الان يا عمر؟، فقد صنت العلوم والدين، صانك الله وحفظك في تركتك، وعظّمتهما عظّم الله قدرك في الدنيا والاخرة، وأعززتهما أعزّك الله أمام التاريخ الصادق، وبيّضت محيّاها بيّض الله محيّاك يوم القيامة وثبّتك على الصراط المستقيم، وجب أن تطالعني برغباتك، والله المستعان.

وبعد أيام فقط من نفيه إلى افلو، وبعد أربعة أيام فقط من كتابة هذه الرسالة الخالدة توفي إلى رحمة الله الشيخ الرئيس الإمام عبد الحميد بن باديس، فجاء نعيه بعد تلك الرسالة بهذا الموت الفجائي، ونشرت جريدة «لاديبيش الحريان» الخبر مقتضباً مع صورة الإمام في الصفحة الأولى في 17 أفريل، فحزن الإبراهيمي حزناً بالغاً، وبكى بكاءً مراً، وضاق صدره لعدم تمكنه من حضور جنازته، ففوض أمره إلى الله واسترجع، وكتب إلى إخوانه بقسنطينة رسالة تعزية بث فيها أحزانه وشجونه، وقسم نفسه إلى قسمين: نفس سائلة، ونفس مجيبة.

ننقل للقراء من الرسالة الأسئلة والأجوبة:

قال رحمه الله:

وسألت نفس أختها بأين؟

فأجابت المجيبة بلا أين؟

سؤال السائلة:

أين؟ـــــ يا أخت الحســـام المنتضــى ... لصـــروف الدهر في اليوم العصـــيب

أين؟ يا أختـــــ الإمـام المرتضـــى ... ذو البيـان الحر والرأي المصـــيب

أين؟ من إن أمحـل الفكر مضـــى ... يرحض الأمحـال بالفكر الخصـــيب

جواب المجيبة:

جـاءه المحتوم من صــرف القضــاء ... فقضـــى لم يرض بالـدنيا نصـــيب

سؤال:

أيـن؟ يا أخـت ..هـلال الـداجيـة ... فـارس الحلبـة كشـــاف الكربكـان

نــوراً في الــلـيـالي الســـاجيــة ... ويـل قـومـي إن تـوارى أو غـربأيـن؟

(1) المصدر نفسه (284/5).

يا أخــت إمــام الــنــاجــيــة وأمــين الله عــن مجــد الــعــرب

جواب:

حـرمـت مـنـه الـنـفـوس الـراجـيـة وتمـثـلـت حـظـهـا مـنـهـا الـترب

سؤال:

أين؟ حامي الدين من شـوب الضـلال ومجـير الحـق مـن إفـك الهـوىأيـن؟

يا أخـــت حـــواري الجـــلال صـــيقـل الأذهـان إكســـير القوى

عـاف خفض العيش في برد الظلال وامـتـطى لـلـمـجـد نـزاع الشـــوى

جواب:

خـير الأظـعـان والحـي الحـلال أن نجـم الـديـن فـيـهـم قـد هـوى

سؤال:

أيـن؟ لـيـث كـان بالأمـس هـنـا خـادراً قـد مـلأ الـدنـيـا زئـير

أغـلـبـا في لـبـدتـين ارتهـنـا عـن عـريـن الـديـن يـرمـي ويجـير

مـا ونى عـن فـرصــــة أو وهـنـا هـل رأيت المخـذم العضــــب الطرير

جواب:

مســــدودة في أوجـه الأخصـــــام والحـمـى أصـــبح نهبـاً لـلـمـغـير

سؤال:

أين؟ منـا اليوم يا أخـت الرئيس كـم بـه قـد رفـع الـقـوم الـرؤوس

مـا لـه غـاب؟ فمـا منه حســيس مـا لـه أقصـــر والـيـوم عـبـوس

مـن رمـى الأمَّـة بالجـد الـتـعـيـس وســـقـاهـا جـرع الـغـم كـؤوس

جواب:

غـالـه من خـاتـل الموت دســيس فهو قـد أصـــبح رهنـاً في الرموس

إلى أن قال: والسلام عليكم مجتمعين على الحق ومتفرقين في خدمة الحق.

أخوكم المعتد بوجودكم وعطفكم

محمد البشير الإبراهيمي[1]

افلو يوم السبت 13 رجب الفرد عام 1359هـ.

---

(1) الشيخ محمد البشير بأقلام محبيه، دار الأمّة ص 281.

وأرسل محمد البشير الإبراهيمي رسالة تعزية في ابن باديس للأستاذ أحمد توفيق المدني:

الأخ الأستاذ أحمد توفيق المدني حفظه الله:

أخي!.

أَعتقد أن الراحل ـ أخي العزيز ـ لم يكن لأحد دون أحد، بل كان كالشمس لجميع الناس، وأعتقد أن فقده لا يحزن قريباً دون بعيد، وأن أوفر الناس حظاً

من الأسى لهذا الخطب هم أعرف الناس بقيمة الفقيد وبقيمة الخسارة بفقد للعلم والإسلام، لا للجزائر وحدها، فلهذا بعثت أعزيكم على فقد ذلك البحر الذي غاض بعد أن فاض ببقاء اثاره في الحياض وأنهاره في الرياض، كما يعزى على مغيب الشمس بشفقها، وعن ذبول نضارة الشباب ببقاء رونقها، وإن كانت التعازي تعاليل لا تطفأئ الغليل، ولكنها على كل حال تحمل بعض الروح من كبد تتلظى شجناً إلى كبد تتنزى حزناً.

وظني في أخي ؛ أنه لو كان يعرف عنواني لكان أول معزٍ لأول معزًّى.

واحسرتاه!. رحم الله الراحل العزيز جزاء ما بث من علم وزرع من خير، وثقف من نفوس، ولله ذلك اللسان الجريء، وذلك الجنان المشع، وذلك الرأي الملهم، وإنا لفقدك يا عبد الحميد لمحزنون.

أخوكم الحزين الإبراهيمي[1]

* * *

(1) اثار محمد البشير الإبراهيمي (37/2).

6. تولي الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء:

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي: وبعد استقراري في المنفى بأسبوع، تلقيت الخبر بموت الشيخ عبد الحميد ـ رحمه الله ـ بداره في قسنطينة بسرطان في الأمعاء، كان يحس به من سنوات ويمنعه انهماكه في التعليم وخدمة الشعب من التفكير في علاجه، وقد شيع جنازته عشرات الألوف من الأمة رغماً عن قسوة الأحكام العسكرية وقت الحرب، واجتمع المجلس الإداري للجمعية ورؤساء الشُّعب يوم موته، وانتخبوني رئيساً لجمعية العلماء بالإجماع، وأبلغوني الخبر وأنا في المنفى، فأصبحت أدير الجمعية وأصرف أعمالها من المنفى بالرسائل المتبادلة بيني وبين إخواني بواسطة رسل ثقاة.

وكنت لما بدأت نذر الحرب تظهر وغيومها تتلبد أجتمع بالشيخ ابن باديس في داري بتلسمان، فقررنا ماذا نصنع إذا قامت الحرب؟ وقررنا من يخلفنا إذا قبض علينا، وقلبنا وجوه الرأي في الاحتمالات كلها، وقدرنا لكل حالة حكمها، وكتبنا بكل ما اتفقنا عليه نسختين، ولكن كانت الأقدار من وراء تدبيرنا فقبضه الله إليه. بقيت في المنفى ثلاث سنين تقريباً، ولما أطلق سراحي من المنفى أول سنة ثلاث وأربعين، كانت فاتحة أعمالي تنشيط حركة إنشاء المدارس[1].

* * *

(1) المصدر نفسه (285/5).

ثالثاً: من أهم صفات الإبراهيمي

اتصف الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في سيرته العطرة بصفات الدعاة الربانيين والعلماء الراسخين، من الصدق والإخلاص، والدعوة إلى الله على بصيرة، والصبر، والرحمة، والعفو، والعزيمة، والتواضع، والإرادة القوية التي تشمل قوة العزيمة، والهمة العالية، والنظام، والدقة، والزهد، والورع والاستقامة.. الخ.

ونحاول في هذه الفقرة أن نركز على بعض الصفات التي تميزت بها الشخصية الإصلاحية العظيمة:

1 . علمه وفقهه وحماسته:

قال الشيخ محمد الغزالي: كانت القاهرة ـ لأكثر من ثلث قرن مضى ـ ملتقى عدة من المجاهدين الكبار، يجيئون إليها في ظل عقيدة جامعة، وأخوة وثيقة، ولغة مشتركة، وامال واحدة.

وكان المسلمون ينظرون إلى الزعماء القادمين نظرة حب جارف وإعزاز بالغ، كانوا يرون النظر في وجوههم عبادة، والحديث معهم والأنس بهم قربى إلى الله... وأذكر من أولئك الزعماء اللاجئين إلى القاهرة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عرفته أو تعرفت إليه، في أعقاب محاضرة بالمركز العام للإخوان المسلمين... كان لكلماته دوي بعيد المدى، وكان تمكنه من الأدب العربي بارزاً في أسلوب الأداء وطريقة الإلقاء، والحق أن الرجل رُزق بياناً ساحراً، وتأنقاً في العبارة يذكرنا بأدباء العربية في أزهى عصورها. لكن هذا ليس ما ربطنا به أو شدَّنا إليه ـ على قيمته المعنوية ـ إنما جذبنا الرجل بإيمانه العميق وحزنه الظاهر على حاضر المسلمنين، وغيظه المتفجر ضد الاستعمار، ورغبته الشديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانهم ويستنقذوا أمجادهم، وخُيِّل لي أنه يحمل في فؤاده الام الجزائريين كلهم وهم يكافحون الاستعمار الفرنسي، ويقدمون المغارم سيلاً لا ينقطع حتى يحرروا أرضهم من الغاصبين الطغاة، وكان في خطاباته يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوَجل من أفئدة الهيابين ويُهيِّج في نفوسهم الحمية لله ورسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول:

«إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشهداء» إن الخطيب أو الكاتب يوم يستمد توجيهاته من قلبه ويصبها في نفوس تلامذته ؛ إنما يُكوِّن فيالق من أولي الفداء، ويصنع قذائف حية من رجال ينسفون الباطل نسفاً، وذلك ما أحسسناه، ونحن نستمع إلى الشيخ البشير الإبراهيمي في القاهرة، فعرفنا لماذا ضاق به الفرنسيون وطاردوه، ومن ثَمَّ قررنا الالتفاف به والاستمداد منه.

ومن الخطأ تصوُّر أن الشيخ الكبير كان خطيباً ثائراً وحسب.. لقد كان فقيهاً ذكي الفكرة بعيد النظرة. ووقع لي معه حوار في مسألتين طريفتين، قال لي مرة: لعلك قرأت في السيرة الشريفة أن أصحاب رسول الله ـ (ص) ـ ما كانوا ينصرفون عن مجلسه إلا عن ذَوَاق ـ وزن جمال ـ؟

قلت: نعم.

قال: فما الذواق الذي ينالونه في مجلسه؟

فتريَّثْتُ قليلاً ثم أجبت: لعلهم كانوا يتناولون بعض الأطعمة أو الأشربة، كما يقع في عصرنا هذا، عندما نقدِّم للأضياف والوافدين أقداحاً من الشاي أو غيره.

قال لي: ظننتك أفضل من أن تجيب هذه الإجابة الساذجة، أذلك شيء ينوِّه به الأصحاب الكرام؟!.

قلت في تلهف: فما هذا الذواق الوارد في السنة؟

قال: إنه تذوق أرقى، ألا تذكر الحديث الشريف:

ذاق حلاوة الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً ورسولاً؟

إن المجلس النبوي تظلله الحكمة، ومقام النبي فيه ترقيق القلوب، ورفع المستوى، وتخليص الروحانية من شوائب الأرض، وجعل البشر في مصاف

الملأ الأعلى، فما ينصرف أحد عن هذا المجلس الزكي إلا وقد تذوق نازلاً من السماء، ولا يعود إلى أهله إلا بذخر يعليه ويعليهم.

الحقّ، إن هذا المعنى كان جديداً عليّ، غير أني شعرت بأنه الحق، وأنه أولى كثيراً من تفسير الذواق بأنه طعام أو شراب.

وسألني مرة: ما تقول في هذه الذبائح التي تملأ ساحات «منى»، يتحلل بها الحجاج والعامرون من مناسكهم؟ فلم أدر ما أقول، كل ما استطعت أن أجيب به أنها من شعائر الحج والعمرة قربة إلى الله وطعمة للفقراء، وفي الاية: {لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ} [الحج:28].

قال: ليت الحجيج يحققون هذه الغاية، فيأكلون ويتصدقون ويفرح بصنيعهم البائسون الفقراء، إنهم يذبحون ويدعون ذبائحهم على الثرى لا يقربها إنس ولا وحش، فتضيع سدى، وقد نهينا عن إضاعة المال، حبذا لو وضعت خطة للإفادة من هذا الخير المبذول وتعميم النفع به.

وما تمناه الشيخ البشير الإبراهيمي نُفذ بعد ثُلُث قرن، فقد عرفت الان أن ما يذبح يكون بقدر حاجة الفقراء، والباقي يوجه لسد ثغرات الجوع والجفاف في أماكن أخرى.. وهذا هو الفقه الصحيح وحسن التصرف في تنفيذ أحكام الشرع الشريف.

كان لقاؤنا بالشيخ البشير الإبراهيمي مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءها يهرعون إليه ويتزاحمون عليه، ولكن الرجل كان يشرد بين الحين والحين، فنحس أنه معنا وليس معنا، كان جسمه معنا وقلبه معلقاً بالجزائر، يتحسس أبناءها ويتبع العراك الدائر بين الإسلام والصليبية في هذه القطعة الغالية من دار الإسلام، وكنت أشعر بأنه ما ضَعُف يوماً ولا استكان ولا يئس من روح الله، ولا شك في أن الله ناصر جنده، ومُعز المجاهدين المسلمين.

وهناك أمر لا يعرفه الكثيرون، لقد حاول أن يسد الفجوة بين جماعة الإخوان ورجال الثورة المصرية،، فإن الفريقين يقدرونه ويصغون إلى نصحه، ولكن الشر كان قد تفاقم بين الفريقين، وعزَّ على العلاج، فتوقف محزوناً.

وظل الشيخ البشير، ومعه بعض الجزائريين، يرتبون الأمور بين القاهرة الموالية للمجاهدين، وبين أرض المعركة التي احتدم فيها القتال وتضاعف الشهداء، ولا أنسى من بين أصحاب الشيخ الأخ الفضيل الورتلاني، الذي زاملني في الدراسة، وأنا في تخصص الدعوة والإرشاد، قبل مجيء الإبراهيمي ببضع سنين، وكان الشيخ الفضيل عملاقاً في مبناه ومعناه ورجلاً له وزنه، وكان يتبع الشيخ البشير على أنه تلميذ وفيّ له، ويتعاونان على نصرة القضية الجزائرية بكل ما لديهما من طاقة.

قال لي الشيخ البشير: إنكم بليتم بالاستعمار مثل ما بلينا، وشعرتم بضرواته مثل ما شعرنا، لكنكم لا تعرفون أن ما أصابنا نوع شاذ من الاستعمار يشبه السرطان من بين أنواع العلل المهلكة، إنه كان يريد محو شخصيتنا وعقيدتنا ولغتنا وتاريخنا وحاضرنا ومستقبلنا، ومن المستحيل الإبقاء عليه أو البقاء معه، إن معنى ذلك الموت الخسيس، وأولى بنا أن نموت جميعاً في ميادين الكفاح والتضحية من أن نموت على هذا النحو الذي يراد لنا. والجزائري إذا غضب تحول إلى شخص اخر، وقد كنت ألمح تغيراً عضوياً في وجهه، بل في كيانه كله عندما يتحدث عن ضرورة الجهاد إلى اخر رمق، وعن ضرورة بقاء الجزائر مسلمة تتكلم بلغة الوحي وتحل الفرنسية.

وها قد نصر الله الجزائر، ونضر وجوه المجاهدين، وعاد الدخيل من حيث جاء، واندحر أتباعه وأعوانه:

فأدبروا ووجوه الأرض تلعنهم   كباطل من خلال الحق منهزم

ومعرفتي بالشيخ البشير الإبراهيمي تجعلني أتساءل عن حدود الوفاء للقيم والمبادأئ التي عاش من أجلها ومات في سبيلها[1].

إني أتخيله حياً، وأتصور أنه يسمع رجلاً يرطن بالفرنسية، ما أحسبه يتركه دون تقريع وتعنيف بالغين، وله الحق في غضبه ؛ فإن الاستعمار العسكري ذَنبُ، والاستعمار الثقافي هو الرأس، والحية لا تموت بقطع ذنبها.

بل الأمر كما قال الشاعر:

لا تقطعن ذَنب الأفعى وترسلها   إن كنت شهماً فأتْبع رأسها الذّنبا[2]

2 . الروح التجديدية:

يعتبر الشيخ محمد البشير الإبراهيمي من أنصار المدرسة التجديدية التي تؤمن بشجاعة الرأي، وتتقدم الصفوف في بيان مقاصد الشريعة وقيمها النبيلة ومبادئها الراسخة، ويعتبر الشيخ محمد عبده من أكبر العقول التجديدية، وتأثر بهذه المدرسة تأثراً بالغاً في حركته ودعوته وطلبه للعلم وحربه على البدع والخرافات والضلالات.

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (8/4).

(2) المصدر نفسه (8/4).

ولقد قال في محمد عبده: ولقد ادخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل وجرأة اللسان والقلب، وهو محمد عبده، فهز النفوس الجامدة، وحرك العقول الراكدة، وترك دوياً ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن[1].

إنه طريق العلماء المجددين، الذين تخطوا حدود الاجتهاد بمعناه الفقهي إلى تجديد دنيا الأمة بتجديد دينها، والذين امتلكوا الشجاعة التي جعلت منهم الشهود والشهداء.. طريق الإمام أحمد بن حنبل، والعز بن عبد السلام، والربيع بن سالم، وابن تيمية، وغيرهم من العقلانيات التجديدية العظيمة في تاريخ الأمة[2].

وفي 1957م كتب الإمام البشير إلى الذين يحتفلون بذكرى جمال الدين الأفغاني . بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة.. يكتب عن أستاذيه الأفغاني في المدرسة الحديثة للإصلاح بالإسلام، فيقول: إن من البر بأنفسنا أن نذكر العبر منها، ونجعلها دليلنا إذا أظلمت علينا السبل، وقدوتنا إذا أعوزنا الإمام القائد.

العلماء الربانيون في هذه الأمة ثلة من الأولين وقليل من الاخرين، والحكمة في هذه القلة قلة أخرى لا تلد القرون منهم إلا الواحد بعد الواحد، ولا يجيء الواحد إلى الوجود إلا بعد فترة من تحكّم الأهواء واستيلاء الخمول وسفه القيادة، والبعد عن هداية الدين، والجهل بأمور الدنيا وبالصلة الوثيقة بينها وبين الدين، وانطماس المعالم المنصوبة والأعلام الهادية فيهما، فيكون ظهوره تجديداً للدين والدنيا، ودعوة للعزة فيهما معاً، وإصلاحاً لما أفسدته الغفلة منهما معاً، ورمّاً لما تشعث من بنائهما معاً. ومن هذا القليل جمال الدين الأفغاني.

والأفغاني ينظر إليه الخليون الفارغون من علماء القشور والرسوم، على أنه ليس عالماً دينياً بالمعنى الذي يفهمونه من الدين ومن العالم الديني، الذي هو عندهم حاكي أقوال وحافظ اصطلاحات وراوي حكايات، يجلس في حلقته فيفيض في الحلال والحرام، وفي الزهد والرقائق، بكلام مقطوع الصلة بالقلب مقصور على اللسان فهو لا يؤثر، ومن ثم فهو مقصور على سمع السامع، فهو لا يتأثر وليس فيه إلا قال فلان، وقال فلان، وليس منه: قلت ولا أرتأيت ولا فكرت، حتى إذا فرغ من الكلام فرغ كل شيء منه، وخرج من الدرس فوجد البدع والمنكرات من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يهتز لها هزة الغضب ولا يتأثر لها تأثر المنكر، بل يجاري البدع والمبتدعين ويكثر سوادهم، ويكون حجة على الدين لا حجة له.

أما أصحاب العقول المتدبرة، والأفكار المثمرة، والبصائر النيّرة، والموازين الصحيحة للرجال، فإنهم يرون الأفغاني عالماً أي عالم، وفرداً انطوى على عالم، وحكيماً أي حكيم، وأنه أحيا وظيفة العالم الديني وأعاد سيرتها الأولى. .. لقد كان الأفغاني عالماً شجاعاً قوّالاً للحق جريئاً فيه، لا يخشى في كلمة الحق يقولها، ولا في الحق يدعو إليه لومة لائم، وجميع الثغر التي أُتينا منها وعلّة العلل فيها اتية من سكوت علماء الدين وبعدهم عن شؤون المسلمين العامة.

(1) الشيخ محمد بشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 39.

(2) المصدر نفسه ص 39.

وقد جزاه الله في الدنيا جزاءً عاجلاً، فرزقه طرازاً من التلامذة المستعدين، نفخ فيهم من روحه، ورباهم على مبادئه، وكانوا من بعده حملة فكرته، الشارحين لها بالعمل، وحسبكم بالأستاذ الإمام محمد عبده.

لقد اقتحم جمال الدين هذا الميدان فكان حجة لبعض العلماء وحجة على بعضهم.

رحمة الله على جمال الدين جزاء ما قدمه للإسلام والمسلمين، وكفاء ما سنه للعلماء من أُسى حسنة لم نزل نتقلب في أعطافها، وندين له بالفضل فيها[1].

هكذا ميز الإمام البشير بين «علماء الرسوم» الذين لا قلوب لهم، ولا حكمة فيهم، ولا شجاعة لديهم، والذين رسم لهم الأفغاني صورة «كاريكاتورية» عندما وصف الواحد منهم بأنه: جبَّة كالخرج، وعمامة كالبرج، ورأس فارغة.

ميَّز الإمام البشير بين هذا الصنف من «العلماء» وبين العلماء الحكماء الذين يجددون الدنيا بتجديد الدين.. وتحدث عن مكانة الأفغاني بين هؤلاء العلماء الحكماء، وعن غرسه الطيب، المتمثل في الإمام محمد عبده[2]، وعن دَيْن هذه المدرسة الإصلاحية، كانت من الصفات البارزة في الإبراهيمي روحه التجديدية التي انعكست في خطبه الدعوية، ونثره المتميز، وشعره التحرري.

3 . مصلح كبير:

كان واضحاً كل الوضوح في فكر الإمام البشير، ومنذ فجر جهاد العلماء المسلمين الجزائريين، أن الأستاذ الإمام محمد عبده هو «المصلح العظيم»، و«إمام المصلحين» و«أعجوبة الأعاجيب» و«صاحب التأثير الأكبر في حركة الإصلاح الجزائرية»..

ولقد كتب في تقرير هذه الحقيقة (1935م): إنه لا نزاع في أن أول صيحة ارتفعت في العالم الإسلامي بلزوم الإصلاح الديني والعلمي في الجيل السابق لجيلنا هي صيحة إمام المصلحين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضي الله عنه، وأنه أندى الأئمة المصلحين صوتاً، وأبعدهم صيتاً في عالم الإصلاح، فلقد جاهر بالحقيقة المرة، وجهر بدعوة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى الرجوع إلى الدين الصحيح، والتماس هديه من كتاب الله وسنة نبيه، وإلى تمزيق الحجب التي حجبت عنا نورهما وحالت بيننا وبين هديهما، مبيناً بصوت يسمع الصم، وبلاغة تستنزل العصم، أن علة العلل في سقوط المسلمين وتأخرهم وراء الأمم، وانحطاطهم عن تلك المكانة التي كانت لهم في سالف الزمن ؛ هي بعدهم عن ذلك الهدي الروحاني الأعلى، وأنه لا يرجى لهم فلاح في الدنيا ولا في الاخرة، ولا صلاح حال يستتبع صلاح المال، ولا عزة جانب، تردّ عنهم عادية الغاصبين من الأجانب ؛ إلا إذا راجعوا بصائرهم واسترجعوا ذلك الهدي الذي لم يغصبه منهم غاصب، وإنما هجروه عن طوع أشبه بالكره، واختيار أشبه بالإضرار، فباؤوا بالمهانة والصغار، والضعة والخسارة.

---

(1) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (193/5، 194، 196).

(2) الشيخ البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 43.

كانت تلك الصيحة الداوية من فم ذلك المصلح العظيم صاخّة لاذان المتربصين بالإسلام، ولاذان المبطلين من تجار الولاية والكرامات وعبدة الأجداث والأنصاب ولاذان الجامدين من العلماء.. وجمعوا لها وملكتهم غشية الذهول ؛ علماً منهم أن أول اثارها إذا تغلغت في النفوس ؛ هو قطع الطريق على المتربصين وهدم سلطان المبطلين الزائف، ومكانتهم الكاذبة، وجاههم الخادع، وجفاف المراعي الخصبة التي كانوا يسيمون فيها شهواتهم ولذاتهم، ونضوب المنابع الروية من المال الذي كانوا يعلّون منها وينهلون..

كان الأستاذ الإمام أعجوبة الأعاجيب في الألمعية،وبُعد النظر، وعمق التفكير، وجدّة الخاطر، واستنارة البصيرة، وسرعة الاستنتاج، واستشفاف المخبات، حكيم بكل ما تؤديه هذه الكلمة من معنى.

منقطع النظير في صدق الإلهام، وسداد الفهم، وصدق العزيمة، وخصب القريحة، واستقلال الفكر، ونصاعة الاستدلال، وتمكّن الحجة.

موفور الحظ من طهارة الدخيلة، والانطباع على الفضيلة، مستكمل الأدوات من فصاحة المنطق، وذلاقة اللسان، وقرطسة الفراسة، ودقة الملاحظة، وسلامة العبارة، ومطاوعة البديهة، ورباطة الجأش، وكبر الهمة، ووفرة الملكة الخطابية، وقوة العارضة في البيان، واتساع الصدر لمكاره الزمان وأهله.

حجة من حجج الله في فهم أسرار الشريعة ودقائقها وتطبيقها، وفي البصر بسنن الله في الأنفس والافاق، وفي العلم بطبائع الاجتماع البشري وعوارضه ونقائصه.

وبالجملة، فالرجل فذ من الأفذاذ، الذين لا تكونهم الدراسات وإن دقت، ولا تخرجهم المدارس وإن ترقت، وإنما تقذف بهم قدرة الله إلى هذا الوجود، وتبرزهم حكمته، في فترات متطاولة من الزمن على حين انتكاس الفطرة، واندراس الفضيلة، وانطماس الحقيقة، فيكون وجودهم مظهراً من مظاهر رحمة الله بعباده، وحجة للكمال على النقص، وإصلاحاً شاملاً وخيراً عميقاً.

ولو أن قول الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله　　　　إن الزمان بمثله لبخيل

لم يبتذله المترجمون للرجال بوضعه في غير موضعه، حتى صاروا ينشدونه في حق أشخاص يتكرم علينا الزمان بمئات من مثلهم في كل جيل، لولا هذا الابتذال السخيف لهذا البيت لقلنا: إن أحق رجل بانطباقه وصحة إطلاقه هو الأستاذ الإمام، فرضي الله عن الأستاذ الإمام[1] .

وبعبقرية حضارية، يلمح الإمام البشير ما بين «العبقرية العلمية» و«عبقرية المكان» الذي ظهرت فيه، فتغذت منه، واستفادت من تأثيراته على ما وراءه من افاق.. يلمح هذا البعد الحاكم في تأثيرات هذه المدرسة الإصلاحية على ما وراء مصر من البلاد.. فيقول:

وسبحان من قسم الحظوظ بين الجماعات فأعطى كل جماعة حظّاً لا تعدوه، وفرّق الخصائص على البقاع، فخصَّ كل بقعة بسرٍ لا يعدوها، فما زلنا نستجلي من صنع الله لك ـ «يا مصر» ـ وللإسلام لطيفة سماوية،

(1) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (177/1 ـ 178).

وهي أنه كلما رثت جدَّة الإسلام وخالطته المحدثات ؛ سطع في أفق من افاقه نجم يهدي السارين إلى سوائه، وارتفع صوت بالدعوة إلى أصول هدايته، ثم لا يلبث ذلك النجم أن يخبو، وذلك الصوت أن يخفت، إلا أن نجماً سطع في أفقك . «يا مصر» . وصوتاً ارتفع في أرجائك، وقد ارتفعت أصوات بالإصلاح الديني في أقطار الإسلام، وفي حقب معروفة من تاريخه، فضاعت بين ضجيج المبطلين وعجيج الضالين، إلا صوت «محمد عبده» فإنه اخترق الحدود وكسر السدود[1].

وتحت عنوان «نشوء الحركة الإصلاحية في الجزائر»:

إن التأثير الأكبر في تكوينها يرجع إلى عدة عوامل:

أولها: نوازع جزئية محدودة، أحدثتها في النفوس المستعدة ؛ الأحاديثُ المتناقلة في الأوساط العلمية عن الإمام محمد عبده، ولو من خصومه الممعنين في التشنيع عليه وسبه ولعنه . وما أكثرهم بهذا الوطن:

فكانت تلك الأحاديث تفعل فعلها في النفوس المتبرمة من الحاضر، والمستشرفة إلى تبدله بما هو خير، وتكيفها تكييفاً جديداً، وتغريها أولاً بالبحث عن منشأ هذه الخصومة العنيفة لهذا الرجل. فإذا علمت أن منشأ ذلك دعوته إلى القران، أو ادعاؤها الاجتهاد كما كانوا يقولون . قرب هذا الاسم منها، فأحبته ولجّت في الانتصار له، إن لم تتبين مشربه كل التبيُّن.

ثانياً: ويضاف إلى هذا العامل قراءة «المنار» . على قلة قرائه في ذلك العهد . واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيمة، ككتب ابن تيمية، وابن القيم «691 . 751هـ/ 1292 . 1350م»، والشوكاني «1173 . 1250هـ/ 1760 . 1834م» ؛ فهذا عامل له أثره في التمهيد للدعوة الإصلاحية[2].

.. لقد نجمت في هذه العهود الأخيرة ناجمة اضطراب وتبرم من طرائق التعليم المتبعة وكتبه الملتزمة، وارتفعت الأصوات بالشكوى من أضرارها وسوء عواقبها، وكأن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أعلى الحكماء صوتاً بلزوم إصلاحها، وأبلغهم بياناً لأضرارها وسوءاتها ومعايبها، وأسدّهم رأياً في تغييرها بما هو أجدى منها وأنفع، وأكثرهم عملاً جدّياً في ذلك[3].

كان الشيخ الإبراهيمي من صفاته الواضحة إيمانه بالإصلاح، إيماناً عظيماً، وتتلمذ على روادها في عصره، وأصبح من رموز المدرسة الإصلاحية بنكهة بلاغية، وأخلاقية وروحية، وعلمية جزائرية، تشهد دعوته للإصلاح قوتها من كتاب الله عز وجل وفهمه الصحيح للإسلام وفي مقاله عن «الإسلام والمسلمون» يقول:

إن التاريخ لم يعرف ديناً من الأديان لم يبق على أساس الجنسية ولم يرجع على قواعدها إلا دين الإسلام، فهو لا يختص بجنس، وهو صالح لكل جنس، وهو موافق لكل فطرة، وهو ملائم لكل نفس.. وقد اندفع في سيره الأول إلى جهات المعمورة الأربع، وانتظم أمماً مختلفة الأجناس واللغات والطبائع والألوان، فأصبحت تلك الأمم

---

(1) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (497/3).

(2) اثار الإمام البشير الإبراهيمي (181/1).

(3) المصدر نفسه (342/1، 343).

ـ على ما بينها من تباين خلقي ـ أمة واحدة مطبوعة بطابع واحد وهو طابع الإسلام، فما هو السر في هذا ..؟

السر هو أنه دين فطري روحي، يحمل في طياته نهاية الكمال الإنساني، وأن أصوله بنيت على حكمة من خالق الحكمة، فتجد في عقائده غذاء العقل، وفي عبادته تزكية النفس، وفي أحكامه رعاية المصلحة، وفي ادابه خير المجتمع، وأن ديناً يأخذ من شرطه التخلق بالأخلاق الشريفة، ويعمد إلى الأرواح مباشرة فيغرس فيها أصول الفضائل الإنسانية، ويعمد إلى الحيوانية فيهذب من حواشيها ويكسر من حدتها، ويفلّ ما فيها من شره وشراسة، ويعمد إلى ما بين المستضعفين والمستكبرين من حاجز وفروق فيجعلها جذاذاً، لحقيقٌ بأن ينتظم تلك الأمم ومثلها معها..

بل وإن التاريخ لم يشهد ديناً جمع بين مطالب الروح والجسم، إلا هذا الدين، وإن السعادة لا تتم في الدارين إلا بالتوفيق بين المطلبين، وهذه عقبة العقبات في طريق السعادة، وسبب الأسباب في استكمالها واختلاقها، وأين تقع القوانين التي هي وضع البشر من التوفيق بين هذين المطلبين.

وإذا كان في الديانات السماوية قبل الإسلام ما لا يفي بحاجة البشر من تحصيل السعادتين ؛ فكيف بالقوانين الوضعية ونحن نرى أرقاها في أرقى الأمم موجهاً إلى استطلا ع البدن، واشباع شهواته ورغائبه، ونراها لا تحمل من جراثيم الإصلاح الروحي إلا قليلاً لا يشفي ولا يكفي[1].

ويقول عن هجر المسلمين للقران وإبتعادهم عنه:

إن أعظم مصيبة أصابت المسلمين ـ وهي جفاؤهم للقران وحرمانهم من هديه وادابه ـ منشؤها من الطرق، فهي التي غشت المسلمين لأول ما طاف بهم طائفها، وغشيهم بهذه الروح الخبيثة روح التزهيد في القران. وكيف لا يزهد المسلمون في القران، وكل ما فيه من فوائد وخيرات وبركات قد انتزعتها منه الطرق وجردته منها، ووضعته في أورادها المبتدعة، ورسومها المخترعة، ونحلته شيوخها ومقدميها وصعاليكها[2].

ولماذا يعنى الناس أنفسهم في فهم القران، وتدبره وحمل النفس على التخلق بأخلاقه والوقوف عند حدوده؛ إذا كان كل ما يناله منه مع هذا التعب يجده في الطريق عفواً بلا تعب وبلا سبب أو بأيسر سبب؟ فإذا كان هذا القران يفيد معرفة الله ـ وهي أعلى مطلب ـ فالقوم عارفون بالله، وإن لم يدخلوا كتاباً ولم يقرؤوا كتاباً، وكل من ينتسب إليهم فهو عارف بالله، بمجرد الانتساب أو مجرد اللحظة من شيخه.

وقال الإبراهيمي أيضاً: وقد قرأنا كثيراً من رسائلهم التي يتراسلون بها، فإذا هم ملتزمون لصفة واحدة يصف بها بعضهم بعضاً، وهي صفة «العارف بالله»، وأكثر الطرقيين سخاء في إعطاء هذا اللقب هم «العلوية»، ونحن قد عرفنا كثيراً من هؤلاء «العارفين بالله» فلم نعرفهم إلا حمراً ناهقة[3].وإذا كان القران متعبداً بتلاوته

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 36.

(2) المصدر نفسه ص 392.

(3) المصدر نفسه ص 392.

اللفظية، وهو ستون حزباً ؛ فإن تلاوة «إنجيل التيجاني» القصير وهو «صلاة الفاتح» مرة واحدة تعدل ستة الاف ختمة من القران.

وإذا كان القران قد شرع الغزو ـ وهو من أحمز الأعمال وأشقها ـ فإن تلاوة الإنجيل التيجاني مرة واحدة تعدل الاف الغزوات، وهي لا تقوم إلا على حركة اللسان، من غير اقتحام للميدان، ولا تعرض للرمح والسنان[1].

فأي تعطيل للقران أعظم من هذا؟ وأي تهويل لشعائر الإسلام ونقض لحكمها أكبر من هذا؟ وأي تزيين للتفلت من تلك يبلغ ما يبلغه هذا الكلام، من مثل هذا الدجال؟[2].

واهتمامات أستاذنا الإبراهيمي بنهضة الأمة في شتى ميادين الحياة، وفي كل أجزائها الطبيعية والاجتماعية اهتمام المصلح الخبير، والمجدد القدير، الذي عرف الأمراض ووصف بنجاح العلاج والدواء الشافي.

4 ـ مفكر عظيم:

من صفات الإبراهيمي أنه كان مفكراً متميزاً من الطراز الأول، وكان مفكراً يحترم نفسه وعقله وفكرته ودعوته.. فيتجنب التناقض والزلل، ويمضي في اثاره الكتابية ضمن قواعد جعلته كاتباً له قضاياه الفكرية الأصلية التي توقف عندها يدعو إليها ويبشر بها، وله منهجه الفكري الذي يتميز به حين يطرح هذه القضايا ويدلل عليها[3]، فقد ساد عمل الإبراهيمي الفكري في القضايا التي عالجها، وخاصة منها ما كان في توضيح رؤية الجزائريين للجزائر، وأسلوبه في ترسيخ المقومات وتثبيت الذات ساده مجموعة من القواعد الفكرية يقوم عمله عليها وينطلق منها، ومن هذه القواعد:

أ ـ قاعدة المقارنة مع الأوضاع المماثلة: عند الشعوب والديانات الأخرى.

والمقارنة أقرب الأساليب إلى نفوس الناس، وأخصر طرق الكاتب إلى توضيح ما يريد إيضاحه:

ـ ونجد لذلك مثلاً واضحاً في مقارنته بين سلوك الأديان الثلاثة في الجزائر وعملها وما خلفته من اثار: فعلى حين تعرّف الإسلام في إبان قوته وعنفوان فورته إلى الدينين الاخرين بالحق والخير، والعدل والإحسان، وأبقى على الدماء والعقائد والمعابد، بل حماها وحافظ عليها أكثر من محافظة الدول المسيحية، وضرب الخراج على الأرض، ولكنه لم يخرج أهلها غصباً، وضرب الجزية على الرقاب، ولكنه حماها من الظلم، وفتح لها باب العلم.. على حسن فعل الإسلام ذلك ؛ فإن الاستعمار الفرنسي جاء الجزائر يحمل السيف والصليب، ذاك للتمكن وهذا للتمكين، فملك الأرض، واستعبد الرقاب، وفرض الجزى، وسخر العقول والأبدان[4].

ـ ونجده كذلك واضحاً في المقارنة بين الاستعمارين الفرنسي والإنجليزي، وبين الاستعمار الفرنسي والعالم الاستعماري كله.

(1) المصدر نفسه (1/ 392).
(2) المصدر نفسه (392/1).
(3) المصدر نفسه (391/1).
(4) عيون البصائر ص 54 ـ 55، الشيخ محمد بشير الإبراهيمي، بأقلام معاصريه ص 184.

فقد خالفت فرنسا هذا العالم الاستعماري كله وخرقت إجماعه، فهو يسالم الأديان حتى الباطل منها وغير المعقول، ويترك أهلها أحراراً في شعائرهم ومعابدهم، أما هي فتضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده وشعائره، وتمتهن رجاله، وتبتلع أوقافه، فلا مسجد إلا ما فتحته، ولا مفتي إلا من حنّفته وملّكته، ولا شيخ طريق إلا من سلّكته، ولا حاج إلا من حجّجته أو نسّكته، ولا صائم ولا مفطر إلا على يد لجنتها، ولا هلال إلا ما شهد برؤيته قاضيها[1].

وقال: والاستعمار كله رجس من عمل الشيطان. ولكن هناك تفاوتاً بين استعمار واستعمار، فاستعمار يباشر وسائله بالحقد، ويشربها معاني من الانتقام، واخر يباشر بنوع التسامح واللين، والاستعمار الفرنسي من النوع الأول، وبين النوعين فرق، وإن كانا بغيضين ممقوتين.. وفي الشر خيار لا يقدره قدره إلا المبتلى بالأشد من أنواعه.. ساء مثلاً الاستعماران، ما يقعد منهما الروحانيات المقعد الحسن، وما يقعدها المقعد الوطيء، وما يتعمدها بالقتل العرضي، وما يتليها بالموت البطيء.. وسيسوءان ـ وإن طال أمدهما ـ مصيراً، وسيخذلهما القاهر الذي يمهل ولا يهمل، ولا يجدون من دونه ولياً ولا نصيراً[2].

ـ وكذلك نجده واضحاً في مثل المقارنات التي كان يعقدها بين عمل جمعية العلماء وعمل الأحزاب والمؤسسات الأخرى.

هذا إلى سلسلة طويلة من المقارنات الأخرى التي عقدها البشير خلال مقالاته بين الحاكم والمحكوم، وبين الأصيل والدخيل، وبين الأحزاب في المشرق والأحزاب في أوربا، وبين الإسلام الحقيقي وبين الإسلام «الجزائري» الذي كانت تريده فرنسا للجزائر[3].

ولا تتخذ هذه المقارنات كلها نمطاً واحداً، وما كان لها ذلك مع اختلاف الموضوع وطبيعته والظروف التي تحيط بمعالجته، ومدى ما يكون انذاك من حرج يواجه الباحث حين يطرقه.. ولذلك تباينت الأبعاد التي تطبق بها هذه المقارنات في طبيعتها، عمقاً وقرباً، وقسوة وليناً، وانكماشاً وانبساطاً، وتصريحاً وتلويحاً، وكما تباينت في حدودها المكانية والزمانية، فقد تتجاوز الحاضر إلى الماضي، وقد تتجاوز الجزائر في الحاضر إلى الماضي في الأندلس، وقد تنعقد بين الجانب النظري والصورة العملية، وبين الأوضاع في الجزائر والأوضاع في فرنسا، ولعل من أبرزها هذه المقارنات:

ـ بين القول والفعل في عمل الفرنسيين.

ـ وبين إكرام الإسلام للمسيحية واليهودية.

ـ وأخص المقارنة بين مفهوم السياسة والدين عند الاستعمار، ومفهوم ذلك عند الإسلاميين في سلسلة مقالاته عن جمعية العلماء.

---

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، بأقلام معاصريه ص 184.

(2) المصدر نفسه ص 184.

(3) محاولة الاستعمار لفصل الجزائر عن بقية المسلمين بكل الوسائل.

وقد يتعذر على الباحث، وهو في ضيق من الوقت، أن يضيف كل أبعاد هذه المقارنات.. ولكنه لن يغفل البعد الذي يطالعه دائماً في النهاية التي تنتهي إليها هذه المقارنات جميعاً، وهي نتائج تتسم بالإيجابية والتفاؤل، وتمضي إلى غايتها في تأصيل مقومات الجزائر، أو في الإشادة بالعمل الإصلاحي لجمعية العلماء، أو بالنعي على الاستعمار وأنصاره، وسيكون لنا فضل حديث على الجانب الإيجابي في الفقرات التالية إن شاء الله.

وفي هذه المقارنات نستبين أقداراً لا تكاد تحصر أو تحصى من الحكمة وحسن المعالجة، وغزارة المادة، والنفاذ إلى القضايا الشائكة ومعالجتها بالحق والصدق، وتلك بعض مظاهر القدرة الفكرية عند الإبراهيمي(1).

ب . النزعة إلى العقل وعلمي المنطق والأصول: إن ثقافة الإبراهيمي الإسلامية، وخاصة في علمَيْ المنطق والأصول، وهما العلمان اللذان يضبطان التفكير عند الإنسان، ويعملان على إيجاد القواسم المشتركة بين المنظرين والمفكرين، والمتناقشين والمتحاورين، ويكونان اللغة المتبادلة بينهم، جعلت معالجته حافلة بالقواعد المنطقية التي ينزل عندها كل ذي عقل سليم، فهو كثيراً ما يتحدث عن علاقة ما بين الأصول والفروع:

وأي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع، أو يتحدث عن العلاقة بين الشرط والمشروط، ولا توجد الأمة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس ولغة ودين وتقاليد صحيحة وعادات صالحة وفضائل جنسية أصيلة، وبتصحيح عقيدتها وإيمانها بالحياة، وبتربيتها على الاعتداد بنفسها، والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله، حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها، فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط.

ويتصل بالنزعة المنطقية أنه كان حريصاً على أن يجمع في دراساته ومقالاته بين الجزئيات والكليات، يستخدم الجزئيات لأنها سهلة على الفهم، قريبة التناول، متصلة بالأحداث نابعة منها.. ثم يسوقها ليكون منها الكليات التي يعمل على تثبيتها.

والنص الذي تقدم مثل صالح لذلك، فهو تحدث عن المقومات وعددها، ثم تحدث عن تصحيح العقيدة، ثم عن التربية بجزئيات منها: وبتربيتها على الاعتداد بنفسها والاعتزاز بقوتها المعنوية، والمغالاة بقيمها وبميراثها، وبالإمعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها وتستميت في سبيلها، وترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها(2).

ولعل مما يتصل بهذه النزعة المنطقية كذلك قدرة البشير على أن يستغل التناقضات بينه وبين خصمه أروع استغلال، وأن يوظفها توظيفاً محكماً لمصلحة الفكرة التي يدعو إليها، فيشكل بأسلوبه الفذ القضية على النحو الذي يؤدي إلى التسليم له بها.

(1) المصدر نفسه ص 187.

(2) المصدر نفسه ص 188.

فإذا كان الخلاف بين فرنسا والجزائر خلافاً بين فهمين متناقضين للدين والسياسة، وخلافاً بين قيمتين مطلقتين هما الحق والباطل، فما كان أقدر الإبراهيمي على أن يصوغ ذلك هذه الصياغة التي تضع القضية في أكمل صورها وأدق مواقفها، وينتهي بها إلى ما يريد.

فقد ختم حول هذه القضية بهذا المقطع الذي يخاطب فيه الاستعمار: وهبنا وإياك فريقين: فريق أخضع الدين للسياسة ظالماً، وفريق أدخل السياسة في الدين متظلماً، فهل يستويان؟ إننا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، وإذا حاكمناك إلى القوة غلبتنا، ولكنا قوم ندين بأن العاقبة للحق لا للقوة(1).

إن لمقالات الإبراهيمي وبحوثه طعماً خاصاً، وهي لا تفتقر إلى العنصر العاطفي ولكنها لا تخضع له، وإنما تحاول أن تكسوه هذه الغلاف العقلاني الذي يدين الخصم، فلا يستطيع . إذ ظل في حدود المنطق السليم . أن يتحلل منه أو يفلت من نتائجه. إنك مع مقالاته في عالم حي تشع فيه العاطفة حيناً، ويشع فيه العقل أكثر الأحايين، ويشترك العقل والعاطفة في إضاءته في كل حين(2).

إن الإبراهيمي من خلال مقالاته وخطبه واثاره ؛ يتبين لنا أنه شخصية مفكرة من طراز فريد، مع تميز في طرحة الدعوي والفكري. ويشعر من يقرأ له مرات عديدة وعلى مراحل من العمر بالجديد في الفكر وتزاحم المعاني وقوة الألفاظ وروعة الأسلوب.

وكان الإبراهيمي بالإضافة إلى ذلك متفوق الذكاء، مصلحاً مجدداً ينادي باستقلال الفكر، ويحارب الجمود والتقليد، يقول فيه الشاعر محمد العيد ال خليفة:

ومـا هو إلا كـاتـب ثاقـب الحجى	ورائــد فــكــر مصــــــلــح ومجــدد
ينــادي إلى حريــة الفكر لا هجــاً	بهـا منـكـراً ومـا يـدعـي المـتـقـيـد
وإن رام إذكــاء العقول فمشــــعــل	وإن رام إرواء الــقــلــوب فــمــورد(3)

5 . مجتهد شجاع:

الإبراهيمي من علماء الإصلاح، وضد الجمود والخمود، وكان ثائراً بمعنى الكلمة، ودعا إلى إعمال العقل وفتح باب الاجتهاد، والبحث عن وسائل نهضة الأمة، وشنَّ حرباً لا هوادة فيها على دعاة الجمود، حيث قال: ثم ما لهم «أسرى المألوف وأحلاف الجمود» . سامحهم الله . يجمعون بين المتناقضات فيحجرون الاجتهاد على الأحياء والأموات، إلا أن طائفة معينة كانت في زمن معين وقد مضت ومضى زمانها وجف القلم بأقوالها، ويبنون على هذا أنه لم يبق من سبيل في سبيل علم الدين إلا التقليد، قلنا: ولمن؟ قالوا: لأولئك المجتهدين. قلنا: سلمنا، فهلم بنا إلى كتبهم وارائهم المتصلة الأسانيد إليهم، ولكنهم يتناقضون فيقلدون حتى في أدق

(1) المصدر نفسه ص 189.
(2) المصدر نفسه ص 190.
(3) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 300.

العبادات العملية التي لا تؤخذ إلا من نص صريح من اية محكمة أو حديث صحيح ـ المهدي الوزاني وابن الحاج ـ حتى فيما لا نسبة فيه ـ ولا غرو ـ لأحد من أهل التخريج[1].

ويقول أيضاً: إن في الفقه فقهاً لا تصل إليه المدارك القاصرة وهو لب الدين، وروح القران، وعصارة سنة محمد (ص)، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله وماخذه ومتاركه، وهو الذي ورثه عن أصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والاخرة، وهو الذي نريد أن نحييه في هذه الأمة، فتحيا به وتصحح به عقائدها وتقوم به فهو معها، فتصح به عبادتها وأعمالها، فإن العبادات هي أثر العقائد، كما أن الأعمال هي أثر الإرادات، وما يبنى منها على الصحيح يكون صحيحاً، وما يبنى على الفاسد يكون فاسداً[2].

ومن المعاني السامية التي احتوى عليها هذا النص:

ـ المجتهد هو الشخص الذي يستطيع أن ينفذ إلى لب الفقه والدين، ولا يركن إلى الجمود والخمود، فيجهل حقيقة الدين، ويجهل تبعاً لذلك الحكم المنطوية تحت أحكامه. ويصور لنا الإبراهيمي بشاعة التقليد والجمود الذي تسبب في جهل المسلمين فيقول: جهل المسلمون حقائق دينهم وجهلوا الحكم المنطوية تحت أحكامه، ومن أسباب ذلك جفاف الفقه عند الفقهاء، لأخذهم إياه من كتب تعلم الأحكام ولا تبين الحكم، فأثر ذلك في نفوس المتفقهة ـ وهم مرجع العام في سياسة الإفتاء ـ اثاراً سيئة منها اعتبار تلك الأحكام تعبدية ؛ تحفظ ألفاظها، ولا يتحرك الفكر في التماس عللها، وطلب حكمها، وتعرّف مقاصد الإسلام منها وتفضح وجوه المصلحة والمفسدة[3].

ـ المجتهد هو الشخص القوي المدارك، الملمّ بأصول الفقه، وبطرق الاستنباط، وبقواعد اللغة العربية، وبمقاصد الشريعة، وهو ما لخصه الغزالي أثناء حديثه عن المجتهد في قوله: وله شرطان: أحدهما، أن يكون محيطاً بمدارك الشرع، متمكناً من استثارة الظن بالنظر فيها، وتقديم ما يجب تقديمه، وتأخير ما يجب تأخيره. والشرط الثاني، أن يكون عدلاً مجتنباً للمعاصي القادحة في العدالة ؛ وهذا يشترط لجواز الاعتماد على فتواه، لأن من ليس عدلاً فلا يقبل فتواه[4].

ـ الفقه الحقيقي الذي يبلغه المجتهد هو جوهر الدين، روح القران وعصارة السنة، وهما المصدران الرئيسيان اللذان تستنبط منهما الأحكام ويؤخذ منهما الفقه الأكمل، يؤخذ من عمل السلف وكتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها وبحكمة الشارع منها.

يقول الإبراهيمي: ولو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القران ومن السنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بأدلتها وتبين حكمة الشارع منها ؛ لكان فقههم

---

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 293.ر

(2) المصدر نفسه ص 295.

(3) المصدر نفسه ص 295.

(4) المصدر نفسه ص 295.

أكمل، واثاره الحسنة في نفوسهم أظهر، ولكانت سلطتهم على المستفتين من العامة أمتن وأنفذ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى.

وإن من يأخذ فقه الطلاق من اية: {ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ} [سورة البقرة:229]، ومما بعدها من الايات الامرة بالوقوف عند حدود الله، الناهية عن تعديها، أو من اية:{ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ } [سورة البقرة:236].

أو من اية الحكمين ووعد الله بالتوفيق عند الإصلاح، وبالإغناء من واسع فضله عند التفرق، أو من اية تخيير النبي أزواجه بين حالين أحدهما التمتيع والسراح الجميل ؛ من أخذ فقه الطلاق من هذا المنبع العذب يعلم أي حكم مبثوثة تحت كل كلمة وكل جملة، ومن تفقه هذا الفقه ونشره في الناس يبعد جداً أن يتلاعب بتلك العقدة الإلهية التي عقدها الله بين الزوجين، فيضعها في موضعها المعروف بين المسلمين الان[1].

. الفقه الحقيقي هو الذي يجلب للمسلمين سعادة الدنيا والاخرة، ويضمن لهم العلو والمجد في جميع المجالات، وما زال مجد المسلمين وعزهم إلا لأنهم تقاعسوا عن التفقه في الدين، وتقوقعوا داخل طقوس جامدة وقوالب جاهزة ؛ ودينهم يحثهم على التدبر والتفقه والتبصر.

. هدف الإبراهيمي وأصحابه من العلماء هو إحياء الفقه لتحيا الأمة به، وهو هدف المصلحين على مر العصور، كالغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين»، وابن تيمية في فتاويه، وهدفه أيضاً تصحيح عقائد الأمة، وتقويم فهومها كي تصح عباداتها وأعمالها. ولا تصح العبادات والمعاملات إلا إذا بنيت على الصحيح.

إن الإبراهيمي كان شعلة من الذكاء النافذ والإيمان الصادق والعزم الثابت، ظهر إلى الوجود بفضل الله ومنّه في عصر الإصلاح، الذي قاده الشيخ عبد الحميد ابن باديس، وقد ألهمته الفطرة أن العلم ما فهم وهضم لا ما روي وطوي، فراح يطلبه بلا كلل ليصل إلى الحِكَم من وراء الأحكام، وإلى الأدلة والحجج من وراء الاراء والمذاهب، ولقد حضر دروس الشيخ أحمد البرزنجي في صحيح البخاري، وكان يسمع من علماء.

. وكان عالماً بالحديث والسيرة وبالمحدثين ومؤلفي السير.

. كما كان عالماً بالتفسير ومناهجه.

. وكان مطلعاً على الفقه وأصوله اطلاعاً واسعاً، ثائراً على العصبيات المذهبية، مستوعباً لمقاصد الشريعة وحكمها، عارفاً بطرق الاستدلال والاستنباط، عليماً بمنطق اللسان العربي وأسراره، ولقد ناقش الكثير من المسائل الفقهية بعمق كبير يدل على صدى معرفته بالفروع.

وأثار في هذه المقالات العديد من المسائل الأصولية.

. وكان الإبراهيمي بالإضافة إلى ذلك متفوق الذكاء، مصلحاً مجدداً ينادي باستقلال الفكر ويحارب الجمود والتقليد، يقول فيه محمد العيد ال خليفة:

وما هو إلا كاتب ثاقب الحجى ... ورائد فكر مصلح ومجدد

---

(1) المصدر نفسه ص 296.

ينـادي إلى حريـة الفكر لا هجـاً بهـا منـكـراً ومـا يـدعـي المتـقـيـد

وإن رام إذكـاء العقول فمشـــعــل وإن رام إرواء الـقـلـوب فـمـورد

لم يخلف لنا الإبراهيمي مؤلفاً خاصاً يتحدث عن علم أصول الفقه، وكل ما سنقوله في هذا الصدد مستخلص من اثاره.

فالشيخ البشير الإبراهيمي عالم بأسرار القران الكريم وبأسرار السنة النبوية والإجماع والقياس، وهي المصادر الأساسية الأربعة للتشريع الإسلامي، وهو مطلع على الكنوز التي خلفها لنا الأصوليون في مجال الاستنباط والاستدلال، وفي مجال القياس، ولا سيما فيما يتعلق بشروط علة الأصل وتعليل الحكم الشرعي وتخصيص العلة المستنبطة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بشروط علة الأصل، إما في عينها أو جنسها، وأن يكون الحكم في الفرع مماثلاً لحكم الأصل في عينه أو جنسه وألا يكون الحكم متقدماً على الأصل(1).

وهو مطلع أيضاً على ما جيء به من مجال جمع الأشباه بالأشباه، والشبه في اصطلاح الأصوليين يطلق على كل قياس من إلحاق الفرع فيه بالأصل لجامع بشبهه فيه.

ويعتقد الإبراهيمي . وهو على حق في اعتقاده . أنه على المجتهد أو الفقيه أن يعرف المصلحة التي قصدها الشارع، والعلة التي ربط بها الحكم.

وقد احتاج الفقهاء إلى المصلحة إذا لم يعثروا على دليل شرعي واضح من الكتاب والسنة والإجماع على جواز شيء أو عدم جوازه، وما لبثوا أن جعلوها معياراً من معايير الاستدلال(2).

كل ما تقدم يدلنا على أن الإبراهيمي قد اطلع على الكنوز الأصولية من تعليل وتأصيل، وتفريع واستنباط، واستخراج علل الأحكام، وجمع الأشباه بالأشباه، ومراعاة المصالح ؛ ليكون التشريع الإسلامي صالحاً لكل زمان ومكان.

يقول الإبراهيمي: إن أصحاب المذاهب لم يفرضوا على الأمة التقليد، بل نصحوا وبينوا وبذلوا الجهد في الإبلاغ، وحكّموا الدليل ما وجدوا إلى ذلك السبيل، وأتوا بالغرائب في باب الاستنباط والتعليل والتفريع والتأصيل. ولهم في باب استخراج علل الأحكام وبناء الفروع على الأصول وجمع الأشباه بالأشباه والاحتياط ومراعاة المصالح ما فاقوا به المشرعين من جميع الأمم(3).

إن ثورة الإبراهيمي على التقليد والجمود والعصبية المذهبية والخمول الفكري تتجلى في أكثر من مكان من اثاره، ويحز في نفسه كثيراً أن يشاهد هذا الجمود يعمّ المسلمين وكتبهم الفقهية، ولا يستطيع أن يصور الدرجة التي وصل إليها الفقهاء المسلمون من الجمود والجفاف، إلا الإبراهيمي الذي يقول بصدد الحديث عن الطلاق: أنا لم أسمع مدة دراستي للفقه في بعض تلك الكتب إلا كلمتين تثيران في النفس شيئاً من الإحساس الحي،

(1) المصدر نفسه ص 301.
(2) المصدر نفسه ص 301.
(3) المصدر نفسه ص 302.

وتنبهان على خيال من الحكمة وتبثان في المشاعر بصيصاً من النور، إحداهما في باب النكاح وهي قولهم: «النكاح مبني على المكارمة». والثانية في باب الطلاق، وهي تناقلهم لأثر: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»[1].

والعلم والاستقلال الفكري: إن الإبراهيمي الذي عرف الدرجة الراقية من التقدم العلمي الذي كان عليه الغرب، ومن العمل والاجتهاد رأى أنه من الضروري أن نحث الشباب على انتهاج طريق العلم، وأن ننصحه بأن يواجه الخصم بالحجة والإقناع لا باللجاج والإقذاع[2].

وهي صفة من بين صفات كثيرة يجب أن يتصف بها الشباب الجزائري في نظر الإبراهيمي. فالشباب الذي لا يحكّم عقله في كل الأمور ليس جديراً بهذا الدين الذي يعتمد على العقل ويأمر باستخدامه في جميع شؤون الدين والدنيا، قال الإبراهيمي متحدثاً عن الإسلام:

العقل مذ كنت من شهودك   والفكر بعد العقل من جنودك

ويتمثل الإبراهيمي المثقف الجزائري: مهذباً مستنير الفكر مجوهر العقل، مستقل الفكر في الحكم على الأشياء، الجاري في تفكيره على قواعد المنطق، لا على أساس التخريف، المطلع على ما يمكن من شؤون العالم وتاريخه، الملمّ بجانب من معارف عصره[3].

كان للإبراهيمي صلة وثيقة بمجتهدي عصره، قرأ لهم وقرأ عنهم، واتصل بمعظمهم، وربط معهم روابط صداقة متينة.

أ ـ المودودي: أعجب الإبراهيمي كثيراً بأبي الأعلى المودودي وبشخصيته الفذة وبفكره السياسي الإسلامي، وهو في نظره أبرع عالم في استخراج ذلك الدستور من القران والحديث، ومن المصلحة العامة في التشريع الإسلامي والأصول المتفق عليها بين الأمة، لذلك يصفه لنا الإبراهيمي وصف المعجب بشخصيته وأفكاره. فيقول: إنه سديد التصرف في المقارنة والموازنة والاستنباط، مستقل في الاستدلال إلى حد يمضي من الشريعة إلى مقاصدها العامة دون احتفال بالجزئيات إلا بقدر ما يدخل من هذه إلى تلك[4].

ب ـ الشيخ محمد بهجت البيطار: يتميز هذا الشيخ الجليل في نظر الإبراهيمي بكونه لا يرضى بالعصبية المذهبية ولا بعلماء التقليد والجمود، ويتصف بالاستقلال في الفهم، يقول الإبراهيمي: إنه مجاوز للحدود المذهبية والإقليمية، يزن هذه المذاهب الشائعة باثارها في الأمة، لا بأقدار الأئمة، ويعطي كلاً ما يستحق، لا يرضى بكبراء الدعوى وأمراء السوء وعلماء التقليد، يرجع في ذلك كله إلى الاستقلال في الفهم والاستدلال[5].

ج ـ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: قال فيه الشيخ البشير الإبراهيمي: ذلك الإمام المدرب الفقيه المجتهد الجامع لشروط الإمامة[6].

---

(1) المصدر نفسه ص 316.
(2) المصدر نفسه ص 316.
(3) المصدر نفسه ص 317.
(4) المصدر نفسه ص 317.
(5) المصدر نفسه ص 317.
(6) المصدر نفسه ص 318.

د . رشيد رضا: وإن إعجاب البشير الإبراهيمي بالشيخ محمد عبده يساوي إعجابه بتلميذه الشيخ رشيد رضا.

ولقد التقى الشيخ البشير الإبراهيمي بالشيخ رشيد رضا، وأعجب بشخصيته الفذة وعبقريته في كتابه تفسير الشيخ محمد عبده، وأعجب بسلفيته الحقة واستقلاله في العلم، لقد أحدث رشيد رضا: انقلاباً فكرياً في فهم الدين وصلته بالدنيا حتى في أصلب البلدان عوداً وأشدها جموداً، لذلك يقول عنه الإبراهيمي: إنه في بناء الإصلاح الركن والدعامة، وفي هيكل الإصلاح الرأس والهامة[1].

هـ ابن باديس: ولقد أعجب أيضاً الإبراهيمي بصديقه وزميله الأستاذ الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، الذي يتميز: بلسان قوال وعزم صوال وفكر جوال، وهو العلم الجم والفضل العد، وصاحب جواهر الحجا والذكاء والعزم والجد[2].

هذه إطلالة سريعة عن دعوة الشيخ البشير الإبراهيم إلى الاجتهاد، وعن حبه واحترامه وتقديره للمجتهدين، وعن ثورته على الجمود والتقليد، فقد كان الإبراهيمي مجتهداً ومستقلاً في الفكر والاستدلال، ولقد استطاع قيادة جمعية العلماء بعد ابن باديس، واستمرت الجمعية في ثورتها العارمة على الجمود والتقليد، وعملت على إحياء ما طمس من علوم نافعة عبر العصور ومعالم الحضارة العربية الإسلامية، ودفع نحو روح الابتكار والاجتهاد لكي ينهض الشعب نهضة أصيلة بقيادة طلائع الجمعية، هذه الطلائع التي نصحها الإبراهيمي أن تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتثأر لأمتها من الجهل بالمعرفة، ومن الفقر بالغنى، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحرير، وتكتسح من ميدان الدين بقايا الدجالين، ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين والأميين[3].

كان الإبراهيمي أحد قادة هذه الحركة الإصلاحية إلى جانب ابن باديس والميلي والتبسي وغيرهم.

لقد أهّلته مواهبه وعلمه الغزير وعلمه بالقران والسنة وأصول الفقه وفروعه وبأسرار اللغة العربية من طرح المسائل الأصولية طرح المتخصص، ومن توضيح قضايا الاجتهاد والتقليد وطرق الاستدلال، وصال وجال في ميادين يهاب من اقتحامها فحول الأصوليين، فتحدث عن «هوس الرواية»، وعن الرواية والدراية، وعن مقاصد الشرع وحكمه، وعن القياس والاستصلاح، وعن الاجتهاد والجمود والتقليد، وعن دور العلماء في المجتمع الإسلامي.

وإن الثورة على الجمود والتقليد لا تعني في نظر الإبراهيمي بأية حال من الأحوال التشهي والتلذذ والانقياد للأهواء في الفتوى، بل على المفتي أن يحترم طرق الاستنباط المفصلة في أصول الفقه.

---

(1) المصدر نفسه ص 318.

(2) المصدر نفسه ص 319.

(3) المصدر نفسه ص 321.

والإبراهيمي يدعو إلى نبذ روح الخمول والكسل والجمود والتقليد والعصبية المذهبية، كما يدعو أيضاً إلى سلوك طريق الابتكار، وإلى النظر وإلى العلم التطبيقي العملي، وإلى تطبيق الجزئيات على الكليات، وهو روح العلم، ولا علم بدونه[1].

6 . مبدع متألق:

ليس متاحاً لكل الناس الوقوف على تجليات الإبداع في فكر الشيخ، فخصائصه ومميزاته ليست في متناول الجميع، ذلك أن كل قراءة منهجية دقيقة وعميقة للشيخ الإبراهيمي ؛ كي تحقق أهدافها المقصودة، لابد من أن تسبق بعملية إعداد واستعداد، تتمثل ـ على الخصوص ـ في التزود بأدوات معرفية معينة، تكون بمثابة المفاتيح الإبستيمولوجية التي تساعد على فك الألغاز والرموز، فيما يوشك أن يصبح بمثابة الطلسم المعرفي لهذا النص عند البعض.

ذلك أن الفكر الإبراهيمي تحكمه صعوبة تجعله مستعصياً على العقل العادي، وهي صعوبة تصنعها غرابة اللفظ، وبراعة الصياغة، وأناقة الأسلوب، ومرجعية المعنى. وهي كذلك معطيات غير متاحة الفهم إلا لمن أوتي مجموعة من الأدوات المعرفية الخاصة، وتتمثل في الإلمام الشامل باي القران، والإحاطة الوافية لقواعد فقه اللغة، والتعمق الدقيق في المحيط التراثي العربي عموماً والجزائري منه بصفة أخص، هذا إلى جانب الثقافة الموسوعية التي تجمع التاريخ الإنساني في شقيه العربي الإسلامي والأجنبي، ويشفع لنا فيما نذهب إليه هذا الاستلهام العجيب الذي يستوحيه من اي القران، فيسيل على لسانه فصاحة، وعلى قلمه بلاغة، فيسمو بأدبه سمو اي القران، ويعلو بمعاني إنتاجه علو الإعجاز القراني في مخاطبة سامعيه، نلمس ذلك في وصف الشيخ لواقع الإنسان والمجتمع والوطن والأمة، وفي مقارعته للخصوم سواء كانوا من بني جلدته، أو كانوا من أعداء أمته.

يقول في وصفه لفاجعة فلسطين، وهي أم القضايا، وواجبات العرب نحوها. يقول بشأنها: أعمال عرب فلسطين مقدمة فأين الكتاب؟ وطليعة فأين الكتائب؟ وواجب، فأين ما لا يتم الواجب إلا به؟ ويغرس قلمه في المعنى القراني: وما على عرب فلسطين بعد ذلك من سبيل، إنما السبيل على العرب في مشارق الأرض ومغاربها.

ومن التجليات لإبداع الشيخ ما نجده في فلسفة اللغة ومنطق المعنى، ففي تشنيعه بمبدأ التجزيئية الذي تعمل به فرنسا في تسمية المذهب الحنفي وليس له أتباع، يصوغ في إبداع عقلي عجيب هذه المعادلة، يقول مخاطباً خصومه: فإذا سوغ لكم منطقكم أن تقولوا: هذا مفتي مذهب، وكل مفتي مذهب له أتباع ؛ فلا تأمنوا أن يقول قائل: إنه مفتي مذهب غير موجود فله أتباع غير موجودين، فإن قلتم إنكم لا تريدون المذهب الفقهي، وإنما تريدون المذهب «الصناعي». قلنا إن هذا المذهب لا يتبع العاصمي فيه إلا الأخسرون أعمالاً، الأضلون سعياً[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 321.

(2) اثار الإمام الإبراهيمي (454/3).

وهناك خاصية تميز بها الإمام الإبراهيمي في فكره الإبداعي، وهو الاستعانة بكل مكونات علمه الدينية واللغوية والسياسية والأدبية لصياغة فلسفة المفتى عنده بعد هندسة لفظه، هندسة تسمو عن الإمكان الفني العادي، ففي تحليلنا لإبداع الشيخ نلمس هذه المحسنات البديعية التي لا يأتي بها إلا من كان له تضلع في علم البيان والبلاغة.

ويزين ذلك فنون من علم البديع والبلاغة، كالطباق والمقابلة والسجع والجناس، وكلها فنون تطبع النص الإبراهيمي بأسلوب خاص متميز، يفيض عذوبة ويتألق جمالاً.

إن صياغة المعنى عنده تخضع للمصطلح النحوي، والمصطلح الفقهي، والمصطلح العربي، إضافة إلى المصطلح الأصولي والمنطقي، وخذ على سبيل المثال نماذج من هذا التوظيف للإبداع اللفظي والمعنوي.. ولنبدأ بإبداع الحكمة التي يقول بشأنها:

إن القوة إذا لم يزنها العقل ضعف، وإن العلم إذا لم تحطه الحكمة جهل، وإن الملك إذ لم يحكمه العدل زائل، وإن سلاح الحق من الحرير، يفلّ بسلاح الباطل من الحديد، ويا ويح الأقوياء من غضب الله، وغضب المستضعفين من عباده[(1)].

وفي مثال اخر من الحكمة، يقول في وصفه للعملاء: واعجباً لما تصنعه هذه الحكومة ببعض الرجال منا، تعمد إلى الواحد منهم فتبقيه على سحنته، ولكنها تفرغه من شحنته[(2)].

فإذا ذهبنا إلى توظيفه للمصطلح النحوي ؛ وجدناه يستعين بقواعد النحو من خفض وضم كما يقول، فيوظفه لتوعية الشعب، وإلى تركيب الإسناد، والتركيب الإضافي، والتركيب الوصفي، والتركيب المزجي، لينتهي إلى نتيجة هامة وهي أن الإسلام وفرنسا كتركيب نحوي، لا يقبل الإسناد، ولا الإضافة، ولا الوصف، ولا المزج.

وأما في استخدامه للمصطلح الفقهي والأصولي ؛ فإننا نجد ذلك في سلسلة مقالاته «فصل الدين عن الحكومة»، وأبين ما يكون ذلك في استعانته بالمصطلح الفقهي الأصولي عندما يقول: ولكننا نغير العنوان هذه المرة، فنقول: فصل الحكومة عن الدين، قلباً في الوضع لا في الموضوع، وتفاؤلاً للحالة بعدم الاستبقاء، كما يتفاءل بقلب الرداء في الاستسقاء[(3)].

ويلجأ أحياناً إلى المصطلح الصرفي، فيبدع إبداعاً لا مثيل له، كما هو الحال في رواية الثلاث، التي هي قمة الإبداع في الأدب الظريف، يقول عن أبطال روايته في وصفه «الشمة والشمامين»، «وهي تبغ محلي جزائري يشم بالأنف».

وعنـدهم مصـطلحـات الصـرف ظـاهـرة في فـعـلـهـم والـظـرف
الـنـقـل والـتـحـريـك والتسـكين والـفـتـح والـتشـديـد والـتـمـكين
والضـم، والصـحـة والإعـلال والحـذف والـتـعـويـض والإبـدال

(1) المصدر نفسه (389/3).
(2) أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، د . عبد الرزاق قسوم ص 51 إلى 54، اثار الإمام (389/3).
(3) المصدر السابق ص 55، اثار الإمام (118/3).

والـقـلـب والـترخـيـم والإدغـام والـفـك، والـتـخـفـيـف والإشمـام
وفـيـهـم الأصـول والـزوائـد وعـنـدهـم في شمـهـا فـوائـد

أي كل مصطلح من هذه المصطلحات، كما نلاحظ، يحمل دلالات معاني في فقة لغتنا العربية وقواعدها النحوية والصرفية، ولا يمكن أن يتم هذا إلا لموسوعيّ كالشيخ الإبراهيمي، أوتي جوامع اللغة بكل مقوماتها فهو يطوعها لبنانه، ويخضعها لحكمة عقله وجنانه.

وإن هذه الأمثلة التي قدمناها ليست إلا عينات مما يحفل به الشيخ الإبراهيمي من جوانب الإبداع، الذي يتجلى في الجد وفي الهزل، وفي الوصف وفي الذم، وفي المدح وفي الهجاء، ويعتقد أننا سنكون أخللنا بالموضوعية إن نحن أغفلنا نماذج من الوصف الممزوج بالنقد والهجاء لمن استحقوا ذلك بسبب مواقفهم الجماعية المتخاذلة، وهو ما يعلي من مكانة الشيخ في إبداعه الأدبي الموصوف.

فهذه الصورة الفنية، على ما فيها من تقزز، والتي يقدمها عن المشعوذين والمجاذيب، يوظفها الشيخ للتشنيع بها على خصومه، بقصد تقبيح مشهدهم في عيون الجميع، ولكنه يستخلص منها حكمة في منتهى الإقناع[1].

يخاطب بهذا الصدد خصومه من المضللين باسم الدين:

ونقول لكم سلموا العلم بالكتاب والسنة وهدي السلف إلى من مارسها بالبصيرة النافذة، وتناولها بالذهن الوقاد والقريحة الحية، وأنفق فيها من عمره مثل ما أنفقتم في اللهو واللغو، والتطبيل والتزمير.. فهل يجب التسليم عندكم للمشعوذ إذا شعوذ، وللشيطان إذا استحوذ، وللمجذوب إذا اختلت أعصابه، وفقد صوابه، وسال لعابه؛ ولا يجب التسليم لكتاب الله إذا قام دليله، ولهدي نبيه إذا اتضح سبيله؟[2].

يقول الدكتور منصور فهمي، معلقاً على محاضرة ألقاها الشيخ في نادي جمعية الشبان المسلمين: إن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ، ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم المقدس، وعلى هذا فإني لم أر ولم أسمع في حياتي من هو أفصح وأبلغ من الشيخ البشير[3]

يقول الشاعر محمد العيد الخليفة من قصيدة في الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

قـل للبشـير رفعـت هـامـة أمـة ذلـت وشـعـب كـان قبلـك خـاملاً
مـا زلـت تكشـف من خفي نبوغـه حـتى تـبـين لـلـنـواظـر مـاثـلاً
أخجلـت أقطـاب البيـان فمن يكن «سـحبان» أو «قسـا» يلاقك «باقلا»
أدركـت في الفصـحى مـدارك لم يكن في العصـر ذو أدب إليهـا واصـلاً

(1) أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، د . عبد الرزاق قسوم ص 56.
(2) المصدر نفسه ص 57.
(3) المصدر نفسه ص 57.

باريت فيها «المجد» [1]عبر محيطه[2]	و«المجد» لا يعدو المجد العاملا[3]
ناهيك بالخُطب الفصائح شواهداً	أدهشت أشهاداً بها ومحافلا
تالله لا أوفيك حقَّك كله	مهما نسجتُ لك المديح غلائلا[4]

7 . بليغ وأديب وخطيب:

كان الإبراهيمي إذا تحدث، تدفق كأنه البحر الثجاج، ويتألق كأنه السراج الوهاج، وكان يشدُّ الحاضرين ببيانه الناصع، وخطابه الرائع، وسعة اطلاعه على الأدب والتاريخ، واستشهاده بحكم البلغاء، وروائع الشعراء، ووقائع المؤرخين[5].

إن الشيخ الإبراهيمي، قبل أن يكون مفكراً مصلحاً وسياسياً محنكاً؛ كان أديباً بليغاً، وشاعراً، وخطيباً مفوهاً، عالماً فقيهاً في العربية»، خبيراً بأسرارها، متضلعاً في ادابها وفنونها، إلى جانب علمه بالتفسير وبالحديث وعلومه وبالفقه وأصوله.

وقد خلَّف إنتاجاً غزيراً يشهد أنه، بحق، مدرسة كاملة، بل فلتة من فلتات هذا الزمان، كما كان ينعته كبار المفكرين والأدباء العرب والمسلمين في المشرق والمغرب، بالرغم من أن واقع أمته في عصره، قد فرض عليه، وعلى غيره من إخوانه العلماء العاملين، الجهاد في جبهات كثيرة، فكان رجل ميدان أكثر مما كان رجل تأليف وتصنيف، فهو من الذين «شغلوا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب» [6].

فلم يكن غريباً أن تشهد له مجلة «الشهاب» لصاحبها الإمام عبد الحميد بن باديس، بالإمارة في مجال الكتابة، كما شهدت لمحمد العيد ال خليفة، بالإمارة في مجال الشعر، وذلك في مقال بعنوان: بين أميرين: أمير شعراء الجزائر وأمير كتّابها، كما لم يكن غريباً أن يحظى بتقدير كبير في الأوساط العلمية والشعبية على السواء، فينتخب عضواً في المجامع اللغوية والعلمية في القاهرة، وبغداد، ودمشق.

لقد كان . رحمه الله .: إماماً في العربية وبلاغتها، تفقه في أسرارها وتغذى بادابها واستنار بقرانها، وكان خطيباً مصقعاً، يهز القلوب ببيان ساحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من سلطان، في عهد قيس بن ساعدة وسحبان، كان محدثاً بارعاً، لطيفاً، يغمر مجالسه بالحكمة، ويجملها بالنكتة، ويعطرها بأريج ينعش الأرواح والعقول[7].

---

(1) المجد الأول: هو مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي.
(2) المحيط: القاموس المحيط للفيروز ابادي.
(3) المجد الثاني: السؤدد والرفعة. الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 385.
(4) ديوان محمد العيد، ص 410.
(5) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته ص 41.
(6) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 73.
(7) المصدر نفسه ص 73.

وكان ديواناً لأيام العرب، واداهم وتقاليدهم، في أفراحهم وأحزانهم، في حرهم وسلمهم، يروي عن فهم وبصيرة، ويصدر عن حافظة واعية، وذاكرة منجدة، وكان إلى جانب ذلك فحلاً في الفصيح والملحون، يذكرك بالمعري في لزومياته، وأبي الطيب في حكمه وأمثاله[1].

أما أسلوبه في الكتابة، فهو جاحظ عصره، وبديع زمانه، مما جعله بحق، معجزة من معجزات الثقافة العربية الإسلامية في القرن العشرين[2].

ونماذجه في أسلوبه البليغ الأديب في مجالات مختلفة ؛ تؤكد تمكّنه من أسرار البيان العربي، وبخاصة في مجال التشبيه الذي هو أخصب المجالات للتعبير عما في النفوس والعقول، فقد كان عمدته في تفصيل المجمل وتقييد العام وتبسيط المركب، وتجسيم المجرد، فإذا المعنى أمام القارئ أو السامع شيء قائم أمامه، يُرى أمامه بالعين، ويلمس بالأيدي.

انظر كيف يصور للناس إيمانه العميق بأن ما انتزعه الاستعمار بالقوة لا يمكن أن يسترد منه إلا بالقوة، فهيهات هيهات أن يغير الاستعمار طبيعته ويتنازل عن حق من حقوقه إذا لم يغير هذا الشعب نفسُه طبيعة الرضوخ والاستكانة، وهو ما ركزت عليه جمعية العلماء في برنامجها الإصلاحي الشامل للنهوض بالأمة، قال رحمه الله: وقد نجحت الجمعية إلى حد بعيد في إفهام الأمة هذه المعاني الاجتماعية وتوجيهها إلى مجاراة السابقين، وتهيئتها لأن تكون أمة عزيزة الجانب، مرعية الحقوق، ثابتة الكيان، محفوظة الكرامة، صالحة للحياة، مساوية للأحياء، وفي إعلامها أن بغي القوي على الضعيف، قد طمس معالم الحق بينهما، وردَّهما إلى نوع من الحيوانية، كالذي بين الذئب والخروف، حتى أصبحت الاستطالة في الأقوياء طبيعة، والاستكانة في الضعفاء طبيعة، وإن طبيعة الأولين لا تتبدل إلا بعد أن تبدل طبيعة الاخرين، وإن الحقوق التي أخذت اغتصاباً لا تسترجع إلا غلابا[3].

وانظر إليه، كيف يؤكد هذه الحقيقة، ويجسد هذا المعنى بتشبيه رائع في بساطته، عميق الدلالة في واقعيته: ليس من سداد الرأي أن يضيع الضعيف قوته في لوم الأقوياء، وليس من المجدي أن يدخل معه في جدل.

إن من تمام معنى اللوم أن يتسبب في توبة، أو يجر إلى إنابة، ونحن نعلم أن القوم لا يتوبون ولا يذكرون، فالواجب أن نلوم أنفسنا على التقصير ونقرعها عن الانقياد لاراء هؤلاء القوم ولإرشادهم، وأما لومنا إياهم فهو لوم الخروف للذئب، وأما طمعنا في توبتهم فهو طمع الخروف في توبة الذئب، فإن أردتم أن تروا المثل الخارق من توبة الذئب، فقلموا أظافره، واهتموا أنيابه.

واستمع إليه في إرهاصاته المبكرة بالثورة على المستعمر وهو يصور الرفض والسخط الكامنين في نفوس أبناء الجزائر، في إحدى مناجاته لوطنه الحبيب، مؤكداً عزمهم الشديد على الثورة لاسترجاع الحق المغصوب، بأسلوب عربي مبين، اعتمد فيه السجع من غير تكلف، فجاء مزمجراً زمجرة الشعب المهان، قوياً قوة الإيمان بانتصار الحق، ولو طال الزمان.

---

(1) المصدر نفسه ص 73.

(2) المصدر نفسه ص 73.

(3) المصدر نفسه ص 74.

سلام عليك يوم لقيت من عقبة وصحبه براً، فكنت شامخاً مشمخراً، ويوم لقيت من بيجو وحزبه شراً، فسلمت مضطراً، وأمسيت عابساً مكفهراً، وللانتقام مسراً، وسلام عليك يوم تصبح حراً، متهللاً مفتراً، معتزاً بالله لا مغتراً[1].

أ. أسس الكتابة الأدبية الراقية لدى الإبراهيمي:

تتمثل أسس الكتابة الأدبية للإبراهيمي في أمور منها:

. رُقي الألفاظ والمعاني والأساليب، ولا يتأتّى هذا الرُّقي في نسيج الكتابة الأدبية للكاتب من الكتاب، حتى يكون ألمّ على محفوظ غزير من النصوص الأدبية راقٍ إذ لا يعقل أن ينبُغ كاتب كبير وهو لا يحفظ نصوصاً أدبية كبيرة، وجمّاع الشأن في المسألة هو ما يطلق عليه الشيخ «معرِض العربية الراقية» [2].

وحرص الشيخ على أن ترقى البصائر بقرائها إلى تذوق اللغة العربية وأدبها الجميل، ولذلك حدَّد مذهب هذه الجريدة العجيبة في الكتابة.. فلينظر الناظر أين كنا بالأمس، من شأن العربية الإعلامية؟ وأين صرنا اليوم؟ والإبراهيمي بتحديده مستوى الكتابة الراقية، حدَّد تلقائياً، بالمقابل، مستوى الكتابة الدّنيا، وهي كما يقول: ما ينحط عن تلك المنزلة، ولا يصل إلى درجة الإسفاف، وبين الطرفين أوساط ورُتب تعلو وتنزل، وهي مُضطربٌ واسع يتقلب فيه كتّابُنا: من سابق إلى الغاية مستشرق لبلوغها، ومقصر عن ذلك[3].

. وقد تمثَّل الإبراهيمي اللغة معرضاً قائماً في سُوق أنيقة تُعرض فيها كرائم الألفاظ، فحدَّد مواصفات هذه السُّوق الأنيقة التي ليست كأيِّ شيء من الأسواق، تُعرض فيها أي بضاعة من البضائع المزجاة، بل هي سوق تُجلب إليها كرائم ألفاظ العربية المؤتنفة، وتُساق إليها عقائل المفردات المؤتلفة[4].

. نجد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي يصطنع مصطلحين اثنين في هذا المقام وهما: المأنوس والغريب، فأمَّا الغريب فهو معروف لدى الناس، وأما المأنوس فمصطلح من مصطلحات الشيخ، فاللفظ المأنوس هو الذي يستأنس له القرَّاء أو المتلقون، فتقبله أذواقُهم، ولا تنبو عنه أسماعهم، وذلك على الرغم من أنه كان من أصله غريباً حوشِيّاً، لأن الاستعمال الكثير لمثل هذه الألفاظ في تمثل الشيخ، هو الذي يصيِّرها مأنوسة مألوفة لدى المتلقين[5].

وبحكم هذه المبادئ التي وضعها الإبراهيمي للغة الكتابة العالية المستوى، التي كان يمكن أن تُقبل للنشر في جريدة البصائر، فقد يضطر إلى إهمال كل الكتابات الرديئة التي كانت تنثال عليه من الكتّاب، وعن ذلك يقول: ولكنَّ بعض الكتاب، هداهم الله رشدهم، بالغوا قبل أن يبلُغوا، فهم يوافوننا بمقالات دون الطرف

(1) المصدر نفسه ص 75.

(2) المصدر نفسه ص 220.

(3) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 220.

(4) المصدر نفسه ص 222.

(5) المصدر نفسه ص 223.

الأدنى، فنضطر إلى إهمالها اضطراراً، فيلوذون بحق (التشجيع)... وليفهموا أن الاعتماد على التشجيع مُعْطش ومُجيع[1].

وبفضل هذه الصرامة في اشترط المستوى اللغوي العالي أو دون ذلك على أن لا يُسفَّ إلى الدَّرك الأسفل، أصبحت جريدة البصائر مدرسة أدبية مثار إعجاب المشارقة والمغاربة جميعاً، فكان أدباءِ ومثقفون منهم يحفظون نصوصاً من مقالات الإبراهيمي، فيستظهرونها استظهاراً[2].

ب . النزعة الخطابية:

إن طغيان الانفعال ـ الذي هو انعكاس للصدق ـ يدفع الإبراهيمي أحياناً إلى استخدام أدوات الخطابة حتى وهو يكتب مقالة أو يلقي محاضرة، ومن ثم يلحظ أنَّ بعض تلك المقالات تحوَّلت فعلاً إلى خطب حماسية لاهبة يحشد لها الكاتب كل الأدوات البلاغية المجسِّدة لهذه النزعة، وقد يتجلَّى ذلك في مواقف تستدعي الحزم والصرامة، وتتطلب الحسم والبتر، كما جاء ذلك في مقالاته عن العرب وفلسطين، أو في مقالاته عن دور الأحزاب المتناطحة في جزائر ما بعد الحرب العالمية الثانية، ومن هذا المقال الأخير نقتبس ما يلي: يا إخواننا!. إنكم أحرجتمونا بأعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، فأخرجتمونا من مقام التلطف في النصيحة إلى مقام الإيجاع في التنديد، وأردتم أن تثلموا سيفاً من سيوف الحق، فلا تلوموه إذا خشن متنه والم جرحه، فتجرَّعوا هذه النصائح على مرارتها، فلسنا لمكاننا في الدين أقل من أن ننصح، ولا أنتم ـ بمكانتكم في أنفسكم ـ أجل من أن تنتصحوا[3].

إن العبارات في النص السابق بنيت كلها على الإثبات والنفي، والأمر والنهي، وافتتحت بأداة النداء، دخلتها أدوات التوكيد والقسم، وهي كلُّها أدوات بلاغية تخدم النزعة الخطابية على النحو الذي بيّنَّاه سابقاً.

وقد يدفعه الحرص على تأكيد المعنى وجعله قائماً في النفوس، فيصوغه صياغة تساويه تأكيداً وقوة، فيكرِّر استخدام أداة التأكيد مرَّات عديدة، حتى ولو جاءت على رأس كل جملة من المقطع:

يا هؤلاء!. إن الاستعمار شيطان، وإنَّ الشيطان لكم عدو، فاتخذوه عدوًّا، وإن الاستعمار شرٌّ، ومحال أن يأتي الشر بالخير، ومحال أن يجنى من الشوك العنب، إن فرنسا نبيَّة في الاستعمار، وإنها ترى أنه شرع لا ينسخ وعقد لا يفسخ، فدعوها وشرعها لله وسنن الله، وللزمان وتصاريف الزمان[4].

على أن الانفعال لا يدفع صاحبه إلى الغضب والثورة دائماً، بل قد يدفعه إلى الحنين والأسيان إلى نغمة مشجية حزينة تكاد النفس تذهب معها حسرات، ولا إخال قارئاً يقرأ مقطوعته الرائعة التي يصف فيها حنينه وشوقه إلى الجزائر وهو بديار الغربة بعيداً، ثمَّ لا يتعاطف مع الإبراهيمي تأثراً وانفعالاً: قل للجزائر الحبيبة هل يخطر ببالك من لم تغيبي قط عن باله؟

---

(1) المصدر نفسه ص 224.

(2) المصدر نفسه ص 224.

(3) البصائر س 42: 74 (1949م) ص 40.

(4) البصائر س 42: (1947م)، نقلاً عن الملتقى الدولي ص 293.

وهل طاف بك طائف السلوّ، وشغلك مانع الجمع وموجب الخلوّ عن مشغول بهواك، عن سواك؟ إنَّه يعتقد أنَّ في كل جزيرة قطعة من الحسن، وفيك الحسن جميعه، لذلك كُنَّ مفردات وكنت جمعاً، فإذا قالوا: «الجزائر الخالدات» رجعنا فيك إلى توحيد الصفة، وقلنا: «الجزائر الخالدة»، وليس بمستنكر أن تجمع الجزائر كلها في واحدة[1].

ومن يتأمل مقاله هذا الذي يناجي فيه الجزائر، وهو بعيد في ديار الغربة، يدرك أن الشاعرية قد تتحرَّك في قطعة من النثر الفني وتبلغ من النفس ما تبلغه بعض الأبيات الموزونة المقفاه. إن تلك المناجاة تعبر بصدق عن نفسية الإبراهيمي الذي خُلق شاعراً رقيق الإحساس، كما يقول ذلك عن نفسه: وأشهد أنِّي خلقت رقيق الإحساس، سليم دواعي الصدر، سريع الاستجابة إلى التسامح والإغضاء، رحيماً بالبائسين، شفيقاً عليهم، مسعداً لهم بما أملك من لسان ثر، وجاه نزر[2].

إن الأديب المبدع لا يأخذ ألفاظه من الكتب وإنما يستمدُّها من نفسه، والكاتب يبدع ألفاظه كالوتر لا تحمل معنى، وإنَّما تحمل معاني، ولا تخرج معانيها من ذاتها إلا إذا وفق الأديب في توقيع انفعالاته عليها[3].

إن أجلّ ما يلفت النظر في كتابات الشيخ الإبراهيمي هو جرأته النادرة على مناقشة كل ما يراه صالحاً للمناقشة، مبدياً رأيه في كل ما يمكن إبداء الرأي فيه.

وقف في مهرجان أحمد شوقي في أكتوبر 1958م أمام الأدباء العرب ليقول رأيه الصريح في شعر شوقي، لا تثنيه سمعة شوقي وصداه عن قول كلمة الحق، التي رأى واجبه الوطني يملي عليه قولها، ولم تشغله كلمة الحق هذه عن إشارة بمكانة شوقي وفضله على الإسلام والعربية، يقول:

إنَّ الجزائر الفتية مدينة بجميع فروع نهضتها، بل في أصول ثورتها لشوقي، فكم حدونا الشباب بشعره المطرب القوي، ووجَّهنا ذلك الشعر إلى مكامن الإحساس في نفوسهم، فكان ذلك أحد الأسباب في ثورته الخالدة التي أقضت مضاجع الفرنسيين، وأتت بخوارق العادات من الشعب الجزائري... ومع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي وعقيدتها التي لا تتخلخل في شاعريته، ومع اعترافها بأنه أوَّل من هزَّ هذا الشرق العربي ببدائعه واياته ؛ فإن أدباء الجزائر، ما زالوا يعتبون عليه، بل ما زالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا وافتتانه بحضارتها المزيَّفة، وتخطِّيه الأصول التاريخية التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما ينوء به شوقي من فضائلها فهو يقول:

دم الثوار تعرفه فرنسا   وتعرف أنه نورٌ وحق
جرى في أرضها فيه حياة   كمنهلِّ السماء وفيه رزق
وحُرِّرت الشعوب على قناها   فكيف على قناها تُسْتَرَقُّ

---

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 294.
(2) المصدر نفسه ص 294.
(3) المصدر نفسه ص 295.

سامحك الله يا شوقي!. أي شعب تحرَّر على قنا فرنسا؟ فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش تأخذ فيه فرنسا أكثر ممَّا تعطي، وليس خالصاً لوجه الحرية والتحرير[1].

ج. التهكُّم والسخرية:

من أبرز الخصائص التي تميَّز بها أسلوب الإبراهيمي ما يشيع في تعابيره من سخرية وتهكُّم، لاذعين حيناً مقبولين حيناً اخر، وتلك سمة عُرفت بها الكتابة عند كبار الأدباء قديماً وحديثاً، يكفي أن نذكر من بينهم الجاحظ في الأقدمين، والمازني في المحدثين، وهذا الطعم الذي تُمزج به الكتابة يعطيها نكهة مستساغة، وذوقاً مُحبباً يُبعد عن الكتابة هذه الصرامة والجدية التي ما لابست كتابة ولزمتها إلا وطبعتها بالجفاف والاستثقال[2].

على أن الشيخ الإبراهيمي لم يكن يستخدم هذا اللون من التعبير في جميع ما يكتب، وإنما هو لون يتخيره عندما يرى أن المقام يفرضه والظروف تقتضيه، سواء أكان ذلك متعلِّقاً بمناقشة قضية من القضايا أم بانتقاد شخصية من الشخصيات، ولكن الشيخ كان في كل ذلك لاذع التهكم مريره، بارع السخرية رائعها، وهذه الخاصية عند الإبراهيمي، تتوزَّعها مقالاته الطويلة، ولا سيما تلك التي خصَّصها للتحدُّث عن الاستعمار الفرنسي وأعماله ورجاله، أو تلك التي يتحدث فيها عن مواقف مناوئي جمعية العلماء وغيرها، أو تلك التي يصف فيها الواقع المزري تجاه قضية فلسطين.

إن التهكُّم في مثل تلك المواقف يمتزج بالألم، والسخرية مبطنة بالأسى والأسف، ولعل خير مثال على هذا الاتجاه عنده: المقطوعة التالية وهو يأسى فيها حزيناً لمصير فلسطين التي ضاعت بين حكام فاسدين، ورعية متخاذلة، وعدوٍ شرس لدود، وذلك حيث يقول، موظفاً القران الكريم، والأمثال العربية تصويراً، وإيقاعاً: ما أضاع فلسطين إلا العرب، وقد جاءتهم النذر فتمارَوْا بها، ثمَّ حق الأمر وهو غاوون فاندهشوا، ثمَّ وقعت الواقعة فأبلسوا، تعمد خطباؤهم إلى الخُطب ينمقونها وشعراؤهم إلى القصائد يزوقونها، وساساتهم إلى الدعاوي يلفِّقونها، وعامتهم إلى الخرافات يصدِّقونها، بينما عمد ملوكهم إلى الأمداد يعوقونها وإلى الأهواء ينعقونها، وقُضي الأمر وأوسعناهم سبَّاً وراحوا بالإبل، وبعد أن كنا أهل فلسطين أصبحنا نقول ما قالته الجهضمية في مكة: بل نحن كنَّا أهلها[3].

والتهكُّم عنده قد يُتخذ وسيلة من وسائل الهجوم الحاد، يرمي من ورائه إلى إرباك الخصم وفضحه، والنيل من مواقفه وأعماله، وبذلك يُحيله إلى مرمى لسهامه المصيبة، ويعرضه لكل صفات المقت والازدراء، ولنسمعه كيف يخاطب المستعمرين الذين كانوا يُغلقون المدارس العربية الحرَّة بدعوى أنها لا تتوافر على المتطلبات الصحية، يقول: وما لهذه الحكومة لا تذكر المحافظة على الصحة إلا في سياق الحديث على مدارسنا؟ وأين هذه من هذه الألوف المؤلفة التي تنام على الأرصفة في زمهرير الشتاء؟ أين هي من هذه العوالم من الأحياء الذين يسكنون القبور؟ أين هي من هذه المناظر المحزنة التي تقع عليها العين في قلب العاصمة وفي أرباضها؟ أودام

(1) المصدر نفسه ص 298.
(2) المصدر نفسه ص 298.
(3) المصدر نفسه ص 300.

يحفرون لسكانهم الغيران كالفئران ينامون فيها هم وأطفالهم، فيفتك بهم السل ويغشاهم الموت من كل مكان، ولو أنَّ طفلاً منهم خرج من غاره ودخل مدرسة عربية لجاءت الحكومة تسعى وهي تخشى أن يصيبه سوء من عدم المحافظة على الصحة[1].

إن براعة الإبراهيمي في هذا المجال تعود إلى موهبته الأدبية، وبصره النافذ بوضع الكلمات والألفاظ في مواضعها من الجملة تستحيل إلى لفظة تتدفَّق حياة، وتتوثب حركة بما يشيعه فيها من سخرية مبطنة وتندّر غير ظاهر. ويمكن أن تدلل على هذه الخاصية من قوله في عبد الحي الكتاني الطرقي، وما يشاء الاستعمار إخماد حركة إلا كانت على يديه البركة. إنَّ لفظه البركة عندما استعملت هنا تحولت إلى لفظة مضحكة، لأن الإبراهيمي استخدمها استخداماً عكسياً بحيث قال: كتبت أيها الشيخ كثيراً من الباطل، وسنكتب قليلاً من الحق، ولكن قليلنا لا يقال له قليل، ولو كنت وحدك تكتب بقلمك وتقول بلسانك وتعبِّر عن فكرك لأوْلَيْناك جانب الإهمال، وسكتنا عنك طول العمر كما سكتنا عنك عن ماضيك القريب، وفي ماضيك البعيد، احتقاراً لشأنك واستهانة بما أهان الله منك، وربما عذرناك في مجانبتك للصدق بأنَّك لا تعرفه وإنما يؤاخذ الإنسان بترك ما عرف، وربَّما أثنينا عليك بالوفاء للصاحب الذي صاحبك منذ عقدت التمائم وهو الكذب، وباستقامتك على الجبلّة التي جبلت عليها، وهي الشر، وبالموهبة التي خصصت بها، وهي البراعة في قلب الحقائق، وربَّما حماك من هذه النار التي تصلاها، وهي نار الحقد، ومعذرة فإن الميسور أن نطفأئ النار ذات الوقود، وليس من الممكن أن نطفأئ الحقد من صدر الحقود[2].

ومن الواضح كيف يستخدم الإبراهيمي براعته الأدبية في النيل من الخصم هذا النيل الموجع، وكيف يستغل الإبراهيمي موهبته الخالية، ومعرفته الدقيقة باللغة العربية وأسرارها، واطِّلاعه على الأساليب البلاغية تقديماً وتأخيراً فصلاً ووصلاً، حتى أصبحت الجملة الاعتراضية حين توضع في موضعها تتقلَّب هي في حدِّ ذاتها من معنى المدح إلى معنى الذمِّ، حين تصبح أداة عاملة على التهكُّم الموجع[3].

ومن تهكُّمه المرير المضحك، تعليقه على أمسية شعرية سمع فيها بعض الشعراء الذين يدَّعون التجديد، وهم يقرؤون شعراً خرجوا فيه عن اللغة والوزن والأخلاق، ويبدو أن ذلك منه كان أواخر الخمسينيات أي مع البدايات الأولى لظهور مثل هذا الشعر، وبالقدر الذي كان تعليقه تعبيراً عن الازدراء والمقت ؛ بالقدر الذي كان تعبيراً عن أصالة عربية إسلامية عميقة الجذور.

لقد دفعته هذه الأصالة إلى أن يرفض رفضاً مطلقاً هذا النوع من الشعر الذي راه دخيلاً غريباً، ولم يجد له تعريفاً ولا تحديداً سوى قوله: إن اللغة العربية على سعتها مفرداتها ناقصة لأنَّنا لا نجد فيها الكلمة أو الصفة التي يمكن أن نصف بها أمثال هؤلاء الشعراء المجدِّدين، إلا أن لي من عروبتي وغيرتي على لغتي ما يشفع لي بالاشتقاق فأقول: إن العرب قد وضعوا للنساء جمعاً ينتهي بألف وتاء، فقالوا: مجدِّدات، وسموه الجمع المؤنث

(1) عيون البصائر ص 377، نقلاً عن الملتقى الدولي ص 300.

(2) الملتقى الدولي ص 302.

(3) الملتقى الدولي ص 302.

السالم، ووضعوا للرجال جمعاً ينتهي بواو ونون، فقالوا: مجدِّدون، وأسموه الجمع المذكر السالم، ولكن هؤلاء المجدِّدين الذين سمعتهم الليلة لا هم بالنساء فيؤنثون، ولا هم بالرجال فيذكرون، إنَّهم بين ذلك، ولا نجد أي حرج في أن نتبع أئمتنا الأجلاء وفقهاءنا الأدلاء، ونعطي أمثال هؤلاء ما أعطوه للخنثى، أي: نصيباً كأنثى وهو ألف وتاء، ونصيباً كذكر وهو واو ونون، فنقول: مجدِّدونات، فإن سألتموني ماذا نسمِّي هذا الجمع؟ أقول: نسميه «جمع المخنث السالم».

إن الإبراهيمي وهو على ما يعرف به من تمسُّك بالشخصية العربي الإسلامية؛ دفعته غيرته إلى رفض هذا النوع من التجديد الذي يراه انسلاخاً. وإن ذوقه العربي الأصيل الذي تشرّب الأدب في منابعه ؛ نبا به عن أن يتذوق هذا النوع من الشعر الذي راه خارجاً عن الشخصية موقفاً، وفناً، وقواعد[1].

د . أثر القران الكريم في نثره الفني:

إن أهم مصدر وأبلغه تأثيراً في أسلوب الإبراهيمي فيما نحسب هو القران الكريم، هذا المعين المتفجِّر سحراً وروعة بيان، المتدفق الذي يملأ النفس ارتياحاً، وما من شك في أنَّ هذا التأثير يعود إلى الحافظة الذهبية التي وهبها الله للإبراهيمي، فقد حفظ القران كلَّه عن ظهر قلب وهو في التاسعة عن عمره، ودأب على تدارسه والمتمعُّن في معانيه، وتذوُّق بيانه طول عمره، فظهر أثر ذلك كله في نفسه، وقلبه، وفكره، ولسانه.

إن الثقافة العربية عند الإبراهيمي ارتكزت على قاعدة القران الكريم، واستمدَّت حيويّتها وتجدُّدها من هذه الجذور الضاربة بعمق في ثرى القران، فهو بالنسبة إليه المورد والمصدر، منه يستقي وإليه يعود. ولقد دلَّت كتاباته عن القران على إدراك عميق لأسراره، وفهم دقيق لمعانيه، وتذوُّق قلَّ نظيره لإعجازه، ولعلَّ هذه الخاصية هي التي جعلت ابن باديس يدعوه إلى أن يخلُف رشيد رضا في إكمال تفسير القران على طريقة المنار[2].

وكيف لا يكون أثر القران في أسلوب الإبراهيمي كذلك؟ وهو يَعُد القران أصل وجود الأمة الإسلامية التي هو واحد من أفرادها المعتزِّين بالانتماء إليها، إن الأمَّة الإسلامية في نظر الإبراهيمي لم تبلغ ما بلغته في العلم والتشريع والأدب والحكمة إلا بفضل القران[3].

وكان يوصي الشعب الجزائري بالعيش مع القران في هذا المجال، قال: أحيوا قرانكم تحيوا به، حقِّقوه يتحقق وجودكم به، أفيضوا من أسراره على سرائركم، ومن ادابه على نفوسكم، ومن حكمه على قولكم، تكونوا به أطباء، ويكن بكم دواء[4].

---

(1) الملتقى الدولي ص 306.

(2) المصدر نفسه ص 283.

(3) المصدر نفسه ص 283.

(4) المصدر نفسه ص 284.

وقال: لا تعتمدوا على حفظ المتون وحدها، بل احفظوا ما يُقوّي مادتكم اللغوية وينمّي ثروتكم الفكرية، ويغذي ملكتكم البيانية، والقران القران.. تعاهدوه بالحفظ، وأحيوه بالتلاوة، وربُّوا ألسنتكم على الاستشهاد به في اللغة والقواعد، وعلى الاستشهاد به في الدين والأخلاق، وعلى الاستظهار به في الجدل، وعلى الاعتماد عليه في الاعتبار بسنن الله في الكون.

وما من شك في أن الإبراهيمي لم يؤمن بجدوى هذه الطريقة في تربية النشء تربية عربية إسلامية سليمة إلا بعد أن لمس ذلك في نفسه.

إن أثر القران الكريم في الأدب الإبراهيمي يمس الظواهر الفنية والمعنوية عنده، سواء جانب التعبير، أو جانب التصوير، أو جانب التنغيم(1).

إن الإبراهيمي حين يرتكز في تكوين الصورة التعبيرية إلى القران الكريم ؛ يفعل ذلك عن تدبر لمعناها وكل ما توحي به من أبعاد، ظلالاً وصوراً وإيحاءات فنية رائعة، ولا يسوقها كما يفعل بعض الكتّاب تبياناً أو توضيحاً لا يتعدّى المعنى المجرَّد الدلالي للجملة. ولنأخذ لذلك مثلاً هذه التعبيرات المستوحاة من القران، قال: هذا الشّمال قد أصبح أهله كأصحاب الشّمال في سَموم من الاستعمار وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم، أفسد الاستعمار أخلاقهم، ووهن عزائمهم، وضرب بينهم وبين العلم بسور ليس له باب(2).

فهو لكي يصور مبلغ ما وصل إليه الاستعمار من فظاعة وبشاعة في الحيف والظلم؛ لم يجد له في تصوُّره مثيلاً إلا تلك الصورة التي ارتسمت بذاكرته بما يلقاه الكفار في جهنم. كما وردت في سورة الواقعة: {وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤} [سورة الواقعة:44-41].

أما الإجراءات التعسُّفية القاهرة التي كانت مطبَّقة على الجزائريين المسلمين حتى لا يتعلموا ولا يتقدموا ؛ فإن الصورة التي تجسِّدها هي هذا السور الذي يتمثله فاصلاً بين المؤمنين والكفّار، كما تصوره الاية الكريمة من سورة الحديد، ولا يجد صورة تجسّد أعمال العملاء إلا تلك الصورة القرانية التي تجسّد المنافقين الذين طالما اذوا رسول الله بكل أنواع الإذاية، ولكنَّه يشير إلى هذه المقارنة بلطف من خلال توظيف هذه الصورة الإشارية المستقاة من القران الكريم: إن في صفوفكم دساسين مدخولين من الرجال، لهم أغراض من المنافع والكراسي، ولهم مقاصد في الإفساد، إنكم تعرفونهم بسيماهم، وتعرفونهم في لحن القول: {وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ} [سورة محمد:30].

وهو لكي يصف اتجاه الصحافة الاستعمارية وكتاباتها التي تناصر سياسة الحيف والظلم ضدَّ الجزائريين؛ لجأ إلى ايات قرانية تصوِّر أعمال المنافقين، أو هي تصوِّر مصير الكفَّار يوم الجزاء والحساب، فيقول: وأما الصحافة في الجزائر، فإنَّها استعمارية خالصة لحماً ودماً، تعيش على ماله، وتسير بتوجيهه.. تأمر في حق الأمة الجزائرية

(1) المصدر نفسه ص 285.

(2) المصدر نفسه ص 286.

بالمنكر، وتنهى عن المعروف وتضع الموازين البخس لصالحها.. ولا تقنع بما يقع من الحكام من ضغط وزجر وإعنات، بل تعدُّه تقصيراً منهم في الواجب، ولذلك كلِّه تراها لا تدعو ثبوراً واحداً، بل تدعو ثبوراً كثيراً[1].

ولإثبات أصالة الشعب العربي المسلم، يوظِّف هذه الصورة التعبيرية الرائعة التي استنجد فيها بمعلوماته القرانية شكلاً ومضموناً، داحضاً بها دعوى الاستعمار: «الجزائر فرنسية». قال: ولو أن الاستعمار شرعها زجلاً بالتسبيح في ناشئة الليل، وجعل كفاء سماعها جزاء الأبرار، لكان في اذاننا وقر من سماعها، ولعددناها غثة مرذولة ممجوجة مملولة، ولهدينا بالفطرة مع الطيب من القول: وهو أن الجزائر ليست فرنسية، ولن تكون فرنسية، كلمات قالها أوَّلنا، ويقولها اخرنا، ومات عليها سلفنا، وسيلقى الله عليها خلفنا[2].

ويقول متهكماً بأولئك الموظفين الرسميين الذين توظِّفهم الحكومة الفرنسية في وظائف دينية، فباعوا ضمائرهم ودينهم، وباؤوا بخزي الدنيا والاخرة:

وإن هذه الحكومة تقدِّم التجريب على التخريب، وقد جربتكم فوجدت منكم جداراً متداعياً للسقوط، فما أقامته بل خرَّبته، لأنه لم يكن لغلامين يتيمين في المدينة، ولا كان تحته كنز لهما، ولا كانت هي تنظر بعين صاحب موسى[3].

إن هذه الخاصِّية التي تميز بها أسلوب الإبراهيمي جعلت نُقاداً ودارسين كباراً يقفون عندها معجبين منوهين، يقول الدكتور إبراهيم السامرائي معلقاً على كتاب عيون البصائر: لقد كانت هذه المقالات نماذج أدبية عالية، ذلك أنَّ صاحبها مَلك من العربية ناصيتها، فذلت له أوابدها، وعرف شوارِدها، فالعبارة سليمة تعتمد أدب العربية في أعصارها الزاهرة، وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذا السفر الغالي من أن صاحبه ثَقِف أدب القران وعرف بيانه ووعى أسراره، فكان ذلك أَمارة من أَمارات أدبه، وطابعاً يتميز به فنُّه الأصيل[4].

هـ مكانته الأدبية:

إن مكانة الإبراهيمي الأدبية لا ينظر إليها من خلال منظور ضيق لا يتعدَّى الجزائر أو المغرب العربي، بل مكانته تتجاوز هذه الحدود إلى الوطن العربي والإسلامي بمحيطه الواسع، ويفرض اسمه ضمن الأدباء المشهورين الذين عرفهم العصر الحديث.

وقد كان الأدباء في المشرق العربي يطلقون عليه الأستاذ الإمام، اعترافاً منهم بفضله وأدبه، وسعة علمه. وقلة هم أولئك الذين حَظُوا بمثل هذه المكانة، ففي مصر كان له معجبون من الأدباء والعلماء، من أمثال الفيلسوف منصور فهمي، وإبراهيم مدكور، وكامل كيلاني، وبنت الشاطأئ، والغزالي وغيرهم، وقد بلغ بهم الإعجاب به أن بويع بإمارة البيان، كما بويع من قبل شوقي بإمارة الشعر.

---

(1) عيون البصائر ص 401، الملتقى الدولي ص 287.

(2) الملتقى الدولي ص 288.

(3) الملتقى الدولي ص 288.

(4) الملتقى الدولي ص 288.

يقول الأستاذ موسى الأحمدي: .. أذكر عندما كنت بمصر في طريقي إلى الديار المقدسة سنة 1953م ؛ أن حضرت إحدى هذه الندوات التي كان فيها الشيخ هو السابق المبرز، وحدث عندما انتهى الشيخ البشير من إلقاء كلمته، أن قام الفيلسوف الكبير الدكتور منصور فهمي . وهو أستاذ طه حسين وزكي مبارك وأدباء كثيرين . ونزع حذاءه معلناً: أن هذا المنبر الذي يقف فيه الشيخ ساحة مقدسة ينبغي أن يدخلها الناس كما يدخلون الحرم، وقال بأنَّه لم يسمع أو يَر في حياته من هو أفصح أو أبلغ من الشيخ البشير، ودعا جميع العلماء والأدباء في الوطن العربي إلى أن يلقوا الله بمقاليد اللغة والبيان، ثم توجَّه إلى الشيخ قائلاً: أنت مِلك العربية بهذا العصر، ملكت نواصيها ونواصينا. ثمَّ ثنى المربِّي الكبير الأستاذ كامل كيلاني فأعلن المبايعة[1].

وفي القاهرة كان الشيخ يجمع الأدباء والعلماء إلى ندواته ومحاضراته بجذبهم إليه بعلمه وأدبه وقوَّة شخصيته[2]، ممَّا جعل اللقاء به كما يقول الشيخ الغزالي: مصدر متعة أدبية وعلمية تجعل أدباء القاهرة وعلماءَها يُهرعون إ ' ليه ويتزاحمون عليه[3].

وقد توِّجت هذه المكانة باعتراف العضوية له في مجمع الخالدين بالقاهرة، كما كان عضواً مراسلاً لمجمعي اللغة في كل من دمشق وبغداد، وكان مرجع العلم والأدب في هذه المجامع، التي تضُم بين جدرانها جلَّة العلماء وصفوة الأدباء في الوطن العربي. ممَّا جعل الدكتور إبراهيم مدكور أحد الأعضاء البارزين بالمجمع اللغوي بالقاهرة يقول عنه: كنَّا نعول التعويل كلَّه على مساهمته والإفادة من علمه وفضله[4].

وفي دمشق ترك صيتاً ذائعاً، وإشادة بالغة، حيث كان يشد الإعجاب ما بين مكتب عنبر، والمدرسة السلطانية، والجامع الأموي، وتخرج على يده من يعد اليوم من مشاهير الأدباء والعلماء، وكان طلبته يعجبون بسعة علمه، وقوَّة ذاكرته، واستقامة منهجه[5].

ولم يقلَّ إعجاب أدباء العراق به عن إعجاب الأدباء به في دمشق أو مصر، ويكون الإعجاب منصبّاً على سعة العلم، وفصاحة اللسان، وشمولية الاطلاع على الواقع ومسايرته. وهذه الخصائص ينوه جمال الدين الأتاسي بها حين يقول: ونحن في العراق عزز عواطفنا وألهب أحاسيسنا في محاضراته وأحاديثه، لم نشهد أديباً أو داعية بمقدراته، وطول نفسه، وإجادته لفن القول، وسعة اطلاعه على ألاعيب الاستعمار، وكان صادق الحب لوطنه ودينه[6].

(1) الإمام الرائد الشيخ الإبراهيمي ص 92، الملتقى الدولي ص 329.
(2) الملتقى الدولي ص 329.
(3) الملتقى الدولي ص 329.
(4) مجلة اللغة العربية القاهرة ج 21 (1966) ص 130.
(5) الملتقى الدولي ص 330.
(6) الملتقى الدولي ص 330.

8 . زهده وإخلاصه:

كان الإبراهيمي من كبار الزهاد، لم يرث مالاً ولم يتموَّل أموالاً، وعاش مع أسرته على مرتب شهري من صندوق «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، والذي كان يسدد ديونه القديمة بديون جديدة، محتفظاً بالحرية والاستقلال عن أصحاب النفوذ والسلطات.. سالكاً في ذلك طريق العلماء الأعلام ـ الذين لم يورثوا درهماً ولا ديناراً ـ مكتفين بالعلم والجهاد، أسوة بالنبيين والصديقين، وحسن أولئك رفيقاً[(1)].

تحدث الشيخ عن حالته المادية فقال: ليس لي مال موروث ولا مكتسب، وأهلي يعيشون في الجزائر على مرتب شهري من صندوق الجمعية، تضايقهم فيها نفقات الولد الذي يدرس في باريس، أما أنا فلا أدري الحكمة التي بنى عليها محرر «المصور» هذا السؤال المحرج، ولا أدري أأجيبه بالواقع؟ أم أجيبه بظن الناس وتقوُّلهم؟ فلأجبْهُ بالاثنين، فالناس يظنون أنني أتقاضى مرتباً من الحكومة السعودية أو من غيرها من الحكومات العربية، وليس لهذه الظنون حقيقة ولا ظل من الحقيقة. أما الواقع ـ وسامح الله الأخ الذي أدمج هذا السؤال في الأسئلة فأحرجني بالسؤال، وأحوجني إلى الإجابة .. الواقع يا سيِّدي السائل أنني أعيش بالدَّين «بفتح الدال»، وفي خلاص هذا الدين طريقة، وهي قضاء الدَّين بالدَّين، كما قالوا فيمن يغسل الدم بالدم، ولا أدري أيؤاخذ القانون على هذا؟ وما دخل القانون إذا لم تقع مطالبة، على أن إقامتي بمصر مؤقتة، وقد دخلتها شريفاً، وسأخرج منها إن شاء الله أشرف مما دخلتها[(2)].

كان رحمه الله زاهداً في الدنيا متفانياً في هدفه الكبير، عاملاً على تحرير شعبه من الاستعمار، وتبليغ رسالات الله لمواطنيه، حريصاً على تعليمهم وتربيتهم وإعدادهم، يقول رحمه الله: لم يتسع وقتي للتأليف والكتابة مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني ألفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته، فأصبح مسلماً عربياً، وصححت له موازين إدراكه، فأصبح إنساناً أبياً، وحسبي هذا مقرباً من رضا الرب ورضا الشعب[(3)].

وبالرغم من احترافه هذه الصناعة الثقيلة ـ تربية الرجال وإيقاظ الأمة ـ فلقد ترك من الاثار العلمية «عيون البصائر»، و«الاطراد والشذوذ في اللغة» و«أسرار الضمائر العربية» و«التسمية بالمصدر» و«كاهنة أوراس» و«رسالة العنب» و«فصيح العربية من العامية الجزائرية» و«أرجوزة» في 36 ألف من أبيات الشعر، ضمّنها تقاليد الشعب الجزائري وعاداته، وأما مقالاته، فإنها قد جمعت فكونت خمس مجلدات قاربت صفحاتها ألفين وخمسمائة صفحة[(4)].

لقد تميزت شخصية الإبراهيمي بزهده في الحطام الزائل، وإخلاصه لدعوته ودينه، وكان يذكر نفسه وإخوانه وتلاميذه بأهمية الإخلاص في الأعمال، ويعتبر ذلك هو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به حيث يقول:

(1) الشيخ البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة، ص 15.
(2) اثار الإمام محمد البشير (170/5).
(3) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، د . محمد عمارة ص 14.
(4) المصدر نفسه ص 14.

لقد صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع، فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول جزاء من الله على الإخلاص، يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يدُعُّ النفوس المدْبِرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العالم وصولة الملك، وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل (164 . 241هـ/ 780 . 855م).

وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام (577 . 660هـ/ 1181 . 1262م).

وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن عاقبتهما لاية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره.

وما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من بعث تلك الشجاعة، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحُرمناه بسوء تربيتنا من خلالهم.. ولعمري إن تلك القوى لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشُعَل لم تنطفأئ، فهي في كنف القران امنة، وما دامت نفحات القران تلامس العقول الصافية، وتلامس النفوس الزكية ؛ فلا بد من يوم يتحرك فيه العلماء فيأتون بالأعاجيب.

وما زلنا نلمح وراء كل داجية من تاريخ الإسلام نجماً يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يخرق، من عالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدي السارين المدلجين إلى حين[1].

9 . إنسانيتة الرفيعة:

من صفات شخصية الشيخ الإبراهيمي صفة الإنسانية الرفيعة، وكان رحمه الله أمة في رجل، وكان طاقة جبارة من العزيمة والنشاط والشجاعة والجرأة في الحق، وفي ذلك عُذِّب وسُجن ونُفي وشُرِّد فما لانت له قناة، ولا وهنت له عزيمة، بل ما زاده ذلك إلا قوّة وصلابة، واسترسالاً في الجهاد الوطني والإصلاح الاجتماعي، وكان يحمل بين جوانحه روحاً شفافة تتمثل فيها العاطفة الإنسانية بأجلى معانيها، حيث كان يحب الخير، ويفعل الخير، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكان صاحب لهفة لا يرد طالب حاجة، فهو يخدم المجتمع ككل ويخدم الأفراد لأنه يعتبر الشيئين مكملين لبعضهما، حيث كان رأيه أن خدمة الأفراد تشكل في مجموعها خدمة للجماعة، لأن الفرد جزء من الجماعة، وكان رأيه هذا رداً على محترفي الزعامة، الذين يتكبرون عن ملاقاة الأفراد وقضاء حوائجهم، وحجتهم في ذلك أنهم يخدمون الشعوب والجماعات، ولا وقت لديهم للنظر في أمور الأفراد، ولكن وقتهم يتسع لخدمة نزعتهم الفردية وزعامتهم المصطنعة، فالزعيم الحقيقي هو الذي يفني ذاته في خدمة الفرد والجماعة، وهكذا كان الإمام البشير.

وكان رحمه الله وفياً لأصدقائه ومعارفه، ويسأل عنهم ويعودهم، ويتتبع أخبارهم على البعد، فإذا عرف أن لدى أحدهم مشكلة أو به خصاصة أو ضائقة ؛ سعى بكل ما أوتي من قوة لحل مشكلته وتفريج كربته، مستخدماً

(1) المصدر نفسه ص 38.

في ذلك ماله وجهده ونفوذه ودالته على الناس، يفعل كل ذلك بنفس راضية ودون كلل أو ملل، وكم من أسرٍ من معضلات كبيرة حلّها، وكم من حوائج قضاها للناس في الجزائر وفي مختلف البلاد التي زارها.

وإلى جانب مواقفه البطولية الصلبة المعروفة، التي كانت لا تلين له فيها قناة، أمام الحكام الجائرين وأصحاب السلطة المتعالين، ممن يرى أنهم انحازوا عن جادة الصواب، حيث كان لا يتزعزع ولا يتضعضع، ولا يبالي ولا يأبه بوزير أو أمير أو رئيس، كانت له نفس شفافة متواضعة أمام الضعفاء وفي المواقف الإنسانية، فقد كان مرة يزور عام 1961م إبان الثورة التحريرية مركز بنات الشهداء بمدينة طرابلس ليبيا، فوقف يلقي كلمة فيهن عن الجزائر وبطولاتها وأمجادها وشهدائها الميامين، ودورهن في جزائر الغد المستقلة، فلم يتمالك نفسه وأجهش رحمه الله بالبكاء، تأثراً من مشهد بنات الشهداء الأبرار، وأثناء خروجه من المركز صادفه أحد المناضلين الجزائريين وقد قطعت رجلاه، فحاول المناضل أن يقبل يدي الشيخ فلم يمكّنه بل سبق إلى تقبيله وعيناه تدمعان.

هذه لمحة من اللمحات الإنسانية لشخصية الشيخ الغنية المتعددة الجوانب[1].

هذه من أهم صفات الشيخ الإبراهيمي، والكثير من الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة سيراها القارئ بإذن الله متناثرة في مباحث هذا الكتاب.

* * *

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 355، 356.

رابعاً: أهم أعمال الإبراهيمي عندما تولى قيادة جمعية العلماء

ولما أُطلق سراح الشيخ محمد البشير من منفاه أول سنة 1943م، كانت فاتحة أعماله تنشيط حركة إنشاء المدارس، فأنشأ في سنة واحدة ثلاثاً وسبعين مدرسة في مدن وقرى الجزائر، بأموال الشعب، واختار لتصميمها مهندساً عربياً مسلماً، فجاءت كلها على طراز واحد لتشهد للأجيال القادمة أنها نتاج فكرة واحدة.

وتسارع الناس على بذل الأموال لبناء المدارس، حتى زادت على الأربعمائة مدرسة، ورجع الشيخ لإلقاء دروسه العلمية للطلبة وللعامة. ولما رأت فرنسا أن عقابها للشيخ بالتغريب ثلاث سنوات لم يكف لكسر شوكته، وأنه عاد من المنفى أمضى لساناً وقلباً وعزيمة مما كان، وأن الحركة التي يقودها لم تزدد إلا اتساعاً ورسوخاً ؛ انتهزت فرنسا فرصة نهاية الحرب ودبرت للجزائر ثورة مفتعلة، فقتلت من الشعب الجزائري ستين ألفاً، وساقت إلى المعتقلات سبعين ألفاً، وألقت بالشيخ في السجن العسكري المضيق، تمهيداً لمحاكمته بتهمة التدبير لتلك الثورة ومجرميها، وكان من زملائه في السجن: الدكتور شريف سعدان، والصيدلي فرحات عباس، والمحامي شريف حاج سعيد، وغيرهم.

ولما خرج من السجن عاد إلى أعماله أقوى عزيمة مما كان عليه وأصلب عوداً وأقوى عناداً، وعادت المدارس التي عطّلتها الحكومة زمن الحرب، وأحيا جميع الاجتماعات التي كانت معطّلة بسبب الحرب، ومنها الاجتماع السنوي العام، وأحيا جريدة «البصائر» التي عُطّلت من أول الحرب باختياره وباتفاق بينه وبين ابن باديس لحكمة، وهي أنهم لا يستطيعون تحت القوانين الحربية أن يكتبوا ما يريدون، ولا يرضى لهم دينهم وهمتهم وشرف العلم، وسمعة الجمعية في العالم ؛ أن يكتبوا حرفاً مما يراد منهم، فحكموا عليها بالتعطيل، وقالوا: بيدي لا بيد عمرو، وحسناً فعلوا، وكذلك عطّلوا مجلة «الشهاب» الناشرة لأفكار الجمعية.

ولما قرّر الشيخ مع زعماء جمعية العلماء المسلمين إحياء جريدة «البصائر» ؛ ألزمه إخوانه أن يتولى إدارتها ورئاسة تحريرها، فقبل مكرهاً، وتضاعفت مسؤولياته، وثقلت الأعباء، فرئاسة الجمعية وما تستلزم من رحلات، وما يتبع الرحلات من دروس ومحاضرات، كل ذلك كان يستنزف جهد الشيخ الإبراهيمي، وزادت عليها أعباء الجريدة وتحريرها.

ولكن عون الله إذا صاحب أمراً خفت عليه الأثقال، وكان يقوم للجمعية بكل واجباتها، ويقوم للجريدة بكل شيء، حتى تصحيح النماذج، ويكتب الافتتاحيات بقلمه، وقد تمر الليالي ذوات العدد من غير أن يطعم النوم، وكان يقطع الألف ميل بالسيارة في الليلة الواحدة، وما من مدرسة تفتح إلا ويحضر افتتاحها ويخطب فيها، وما من عداوة تقع بين قبيلتين أو فردين إلا ويحضر بنفسه ويبرم الصلح بينهما، وبرغم الاستعمار الذي من همِّه بث الفتن وإغراء العداوة والبغضاء بين الناس، فكان معطلاً لتدبيراته في جميع الميادين[1].

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (286/5).

1 . معهد الشيخ عبد الحميد بن باديس:

بلغ عدد المدارس الابتدائية العربية أربعمائة وزيادة، وبلغ عدد تلاميذها إلى اليوم الذي سافر فيه الشيخ الإبراهيمي إلى الشرق مئات الالاف بين بنين وبنات، وبلغ عدد معلميها ألفاً وبضع مئات، وبلغت ميزانيتها الخاصة «وهي فرع من الميزانية العامة لجمعية العلماء» مائة مليون فرنك وزيادة إلى نهاية خروج الشيخ الإبراهيمي من الجزائر سنة 1952م.

ولما بلغ عدد المتخرجين من مدارس الجمعية بالشهادة الابتدائية عشرات الالاف ؛ وجد الإبراهيمي نفسه أمام معضلة تحتاج إلى حل ؛ ذلك أن حاملي هذه الشهادة ذاقوا حلاوة العلم فطلبوا المزيد، وأرهقوا الإبراهيمي وإخوانه من أمرهم عسراً، وألحوا عليه أن يتقدم بهم خطوة إلى التعليم الثانوي.

وناشد الأمة أن تعينه بقوة ليبلغ بها إلى هدف أبنائها، فاستجابت، فكان ذلك مشجعاً على إنشاء معهد ثانوي بمدينة قسنطينة، نسبه الشيخ الإبراهيمي إلى إمام النهضة ابن باديس، تخليداً لذكره، واعترافاً بفضله على الشعب. فاشترى الإبراهيمي مع إخوانه داراً عظيمة واسعة من دور عظماء البلدة، وجعلنا منها معهداً ثانوياً، وهيأنا له من سنته الأساتذة والتلامذة والكتب والمال، فكان التعليم فيه بالمعنى الكامل عند غيرنا من الأمم، ببرامجه وكتبه وأدواته، وكان هذا المعهد تاجاً لمدارس جمعية العلماء وغرَّة من أعمالها.

وكانت نية الإمام الإبراهيمي معقودة على إنشاء معهدين ثانويين اخرين، أحدهما بمدينة الجزائر، والثاني بمدينة تلمسان، وقد بلغ تلامذة المعهد الباديسي في السنة الأولى ألفاً أو يزيدون، وكلهم منتخبون من مدارس الجمعية الابتدائية من جميع أنحاء الجزائر، ثم اشتروا من مال الأمة داراً أخرى تتسع لسكن سبعمائة طالب، وبعد خروج الإبراهيمي إلى المشرق عام 1952م افتتحها إخوان الإبراهيمي من بعده، وقسموها إلى قاعات نوم فسيحة بأسرّتها ودواليب الثياب، وكتب المطالعة، على ترتيب بديع، وفي الدار ما يريح الطالب من مغتسلات، وحمامات، ومطابخ، وغرف طعام[1].

أ . معهد ابن باديس فرع من جامعة الزيتونة:

فكرت جمعية العلماء في أن تجعل هذا المعهد فرعاً من فروع الزيتونة، يستظل بحمايتها ويتمتع بما لها من قوانين وتراتيب إدارية، وللحصول على اعتراف الإدارة الزيتونية بذلك، بادر الشيخ الإبراهيمي بالكتابة إلى جمعية الطلبة الجزائريين كي تتولى الاتصال بفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور مدير الإدارة الزيتونية، وتتدخل لديه لهذه الغاية، ولتنفيذ هذه المهمة الدقيقة، يروي الأستاذ عبد الرحمن شيبان أن: الجمعية أقامت بناديها الكائن بنهج عبد الوهاب بتونس حفلة تكريم للإمام محمد الطاهر بن عاشور بصفته رئيساً شرفياً لها، حضرها بالإضافة إلى الشيخ الشاذلي ابن القاضي: مدير المدارس، وبعض أعضائه الشيخ علي النيفر، والشيخ محمد المختار بن محمود، والشيخ الفاضل بن عاشور.

(1) اثار الإمام محمد البشير (286/5).

وفي هذه الحفلة عرضنا على مدير الزيتونة رغبة جمعية العلماء، فأكبر هذه المبادرة العلمية، وأعرب عن اغتباطه الشديد بأن يعترف بمعهد يحمل اسم أحد التلامذة الأصفياء الإمام عبد الحميد بن باديس، كفرع للجامعة الزيتونية[1].

ونتيجة لهذا الموقف الإيجابي الذي وقفه الشيخ الطاهر بن عاشور من قيام المعهد الباديسي وحماسه لهذا المشروع، ومد يد العون له بمختلف الوسائل والطرق، واعتباره فرعاً من فروع الزيتونة المنتشرة في سائر المدن التونسية ؛ نجد الشيخ الإبراهيمي يجرد قلمه للتنويه بالشيخ الطاهر بن عاشور والإشادة بعلمه ومكانته في أكثر من مناسبة، معتبراً إياه أحد أعمدة الإصلاح وعلماً من أعلام التاريخ المعاصر، قائلاً عنه: الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التاريخ الحاضر في ذخائره، فهو إمام متبحر في العلوم الإسلامية ومستقل في الاستدلال لها، واسع الثراء في كنوزها، فسيح الذرع في تحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، واسع الاطلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي، وتفرد بالتوسع والتجديد لفروع من العلم ضيقها المنهج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل، فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدة، وأشاع فيها مائية ورونقاً حتى استرجعت بعض قيمها في النفوس ومنزلتها في الاعتبار[2].

وإقراراً لما للشيخ ابن عاشور من الفضل في إخراج هذا المشروع الجليل إلى حيز الوجود ورعايته ؛ كان الإبراهيمي لا يذكر المعهد الباديسي إلا مقروناً باسم علمين لولاهما لما تحققت هذه الخطوة العلمية ؛ ولما رأى هذا المعهد النور، أولهما ابن باديس أبو النهضة العلمية في الجزائر، وراسم ملامح هذا المشروع، الذي يحمل المعهد اسمه اعترافاً بفضله على الثقافة العربية في الجزائر، وثانيهما الشيخ الطاهر بن عاشور، أستاذ معظم أعضاء الجمعية، وباعث الروح في المشروع، وراعيه عن بعد، ومديره المباشر باعتباره مديراً للإدارة الزيتونية بأكملها. فلكلا الرجلين يدين معهد ابن باديس في وجوده، وعلى اسميهما يقوم المعهد شامخاً متحدياً لإرادة الاستعمار، مجسماً الإرادة الطموحة للجمعية[3].

ب . من أهم مشايخ معهد ابن باديس:

جندت الجمعية خيرة أساتذتها لتولي التدريس بالمعهد، وضبطت لإدارته الشيخ العربي التبسي، والشيخ محمد خير الدين مساعداً له، وقد جاء في القانون التأسيسي للمعهد ما يأتي: يسمى المعهد معهد ابن باديس، وتتألف إدارته من ثلاث هيئات متضامنة، وكل واحدة منها مسؤولة فيما يخصها من أعمال المجلس الإداري لجمعية العلماء: الأولى الهيئة العلمية، والثانية الهيئة المالية، والثالثة هيئة المراقبة والضبط، وكانت الوجوه البارزة من أساتذة المعهد عند تأسيسه تتمثل في الشخصيات الاتية: العربي التبسي، أحمد حماني، حيرش عبد المجيد، نعيم النعيمي، حسين أحمد، الشيخ العباس بن الشيخ الحسين، ومولود النجار.

---

(1) عبد الرحمن شيبان، مجلة «الأصالة» ماي 1978م ص 88.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 153.

(3) المصدر نفسه ص 153.

وبعد سنة 1949م وظفت الجمعية بالمعهد أساتذة اخرين وهم: بلقاسم البيضاوي، جفري عمر شرفي علي، بوروح أحمد المدعو «أحمد بو رزاق»، وكذلك «أحمد العدوي»، و«معط الله» «خريج جامعة القرويين»، والشيخ الطاهر حراث «سعدي»، والشيخ الساسي، والشيخ «محمد الحفناوي» [1].

ج . شروط الالتحاق بالمعهد الباديسي:

وقد ضبطت شروط الالتحاق بالمعهد بالنسبة للطلبة على النحو الاتي:

. أن يكون التلميذ حاصلاً على الشهادة الابتدائية.

. من لم يكن حاصلاً على الشهادة الابتدائية يدخل عن طريق الامتحان الكتابي والقراءة والحساب واستظهار ربع من القران الكريم على الأقل.

. حدد سن المترشح ألا يَقِل عن 16 سنة.

. القدرة على نفقات الأكل والسكن، وإحضار الكسوة، والغطاء اللازمين،كون المعهد غير قادر على تغطية هذه النفقات لضيق موارده المالية.

. أن يقدم طلب التسجيل في المعهد من قبل الأب أو الوكيل ما دام التلميذ قاصراً.

. أن يكون سالماً من كل الأمراض المعدية[2].

ونظراً لتزايد أعداد الطلبة، فقد حاول القائمون على المعهد السعي لاستغلال الجامع الكبير والجامع الأخضر في التدريس منذ عام 1949م، وجرت عدة محاولات لأعيان المدينة لدى حاكم العمالة دون جدوى، وفي العام المولي حول جزء من الطلبة إلى مسجد سيدي قوش، وفي السنة الدراسية 1952 . 1953م تزايدت أعداد الطلبة وتوجب على إدارة المعهد استغلال المسجد الكبير والمسجد الأخضر دون إذن، وهو ما أثار غضب سلطات العمالة، ولكنها لم تجد أمام الأمر الواقع شيئاً تفعله.

د . إغلاق المعهد الباديسي:

وقد استمر المعهد في أداء مهمته، وفي سنة 1957م، وُضع حد نهائي في ظل الأحكام العرفية لهذا المركز العلمي من قبل السلطات الفرنسية، وذلك على خلفية اكتشاف الإدارة الفرنسية لخلية المعهد الثورية، حيث كان أساتذة المعهد ينشطون ضمنها في دعم الثورة، فقد عثر يوم 11 أوت 1957م على رسالة لدى أحمد حماني ودلتها التحقيقات على اكتشاف عناصر الخلية على أساتذة وطلاب المعهد فقررت إغلاق المعهد.

وفي يوم 24 سبتمبر من نفس العام ظهر على أعمدة جريدة البرقية القسنطينية، مقالاً بعنوان: معهد ابن باديس كان دعامة للثوار في الشرق الجزائري. وجاء فيه ما يلي: إن العلماء لم يقتنعوا قط بالعمل الديني المحض، بل جعلوا من التعليم الذي يديرونه مجالاً للدعاية في صالح الثوار[3].

---

(1) إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس، د . عبد الله مقلاتي ص 35.

(2) المصدر نفسه ص 36.

(3) إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة، د . عبد الله مقلاتي ص 37 إلى 38.

وكانت السلطات الولائية قد قررت بمقتضى المرسوم رقم 572، 372، وبتاريخ الثالث سبتمبر 1957م غلق معهد ابن باديس، وفي يوم 16 أكتوبر سنة 1957م قدم رئيس مصلحة المخابرات الفرنسية تقريراً للأمين العام للحكومة جاء فيه: إن جمعية العلماء التي تظهر بمظهر الحذر والتجديد، تحمل أهدافاً غير معلنة، وتهدف إلى تعميم اللغة العربية والاتحاد الإسلامي والتمسك بالمبادأئ الأصلية للدين ومحاربة الزوايا. ويعتبر المعهد الذي كان له دور تعليمي ووطني هام تاجاً لمدارس الجمعية وثمرة عملها، كان لإنشائه دور هام في تكوين أبناء الأمة وتهيئتهم لقيادة البلاد والنهوض بها في شتى ميادين الحياة، فمنه تخرجت البعثة العلمية التي كانت ترسلها الجمعية إلى معاهد وجامعات الأقطار العربية في المشرق والمغرب، ومن صفوفه تخرج الوعاظ والمرشدون، والخطباء والكتاب والقضاة، والمعلمون الذين تعتمد عليهم الجمعية في تأدية رسالتها لنشر التعليم العربي، والإصلاح الديني والاجتماعي، ومحاربة الخرافات والشعوذة[1].

ومنها تخرجت إطارات كثيرة ساهمت في ثورة التحرير، وكانوا على موعد مع رسالة الجهاد التي تلقوها من شيوخهم، ونصت عليها تعاليم الإسلام العظيم للتصدي ومحاربة الغزاة.

هـ تطور المعهد الباديسي وازدهاره:

تطور المعهد الباديسي وازدهر بسرعة مذهلة بعد إنشائه بسنوات قليلة، ويرجع ذلك إلى عزيمة مسيِّره والامال المعلقة عليه، ويعزو الإبراهيمي عوامل النجاح إلى:

. إخلاص القائمين على تسييره من مسؤولين وإداريين وأساتذة.

. إيمان الممولين للمعهد بضرورة نشر العلم بين أبنائهم.

. بلوغ التعليم الابتدائي هدفه، حيث أصبحت المدارس تخرّج العشرات من تلامذة السنة الخامسة، لم يجدوا سبيلاً لمواصلة التعليم بالمعهد.

. وهناك العامل النفسي، وهو قوة المقاومة من عناصر الإصلاح إلى عناصر الفساد، ومن قوى الخير لقوى الشر، فنشأ من ذلك كله مزيج من التأثر والتأثير.

. اهتمام الشعب بالمعهد، حيث أصبح أولياء التلاميذ يعلقون عليه امالاً عريضة في تخريج أبنائهم بشهادات علمية عالية.

. فشل المعارضة في عرقة سير المعهد، بسبب النائج التي حققها الطلبة في مختلف الأقسام والسنوات الدراسية خلال السنوات الأولى من إنشائه، حيث تجاوزت المستوى العادي.

. إدخال المواد العلمية في المقررات الدراسية: مثل الرياضيات والعلوم الطبيعية، التي كان التلميذ العربي محروماً منها.

. تطوع بعض الأساتذة والأطباء لإلقاء الدروس في المعهد، حيث كان الدكتور: عبد القادر بن شريف يقوم بإلقاء دروس في حفظ الصحة على تلامذة المعهد، مستعيناً بأشرطة سينمائية، وتطوع الصيدلي الأستاذ علاوة

---

(1) المصدر نفسه ص 38.

عباس، بإلقاء دروس أسبوعية في علم وظائف الأعضاء وتركيب الجسم، وكان رفيق دراسة لأحمد رضا حوحو بثانوية سكيكدة، وتطوع الأستاذ «محمد الجيجلي» من أساتذة التعليم الفرنسي بإلقاء دروس في الجغرافيا(1).
وهكذا فقد تمكن المعهد ـ على الرغم من الإمكانيات المحدودة ـ من إنجاح مهمته التعليمية، وبعث نشاط ثقافي واسع في عاصمة الشرق الجزائري، ولا بد من الإشارة إلى أن المعهد مر أحياناً بظروف صعبة، وخاصة خلال مرحلة الثورة التحريرية.

وكان المعهد يؤدي دوراً ثقافياً اخر، موازياً لمهمة التعليم، مثل القيام بمختلف التظاهرات الثقافية داخل المعهد وخارجه وبدار العلماء التابعة لجمعية العلماء أيضاً مثل:

ـ إلقاء دروس الوعظ والإرشاد لعامة الناس ولا سيما في شهر رمضان، حيث يكلف كل أساتذة المعهد بهذه المهمة.

ـ تقديم عروض مسرحية وموسيقية ورياضية.

ـ إلقاء المحاضرات العامة بمناسبة الأعياد الدينية.

ـ الاحتفال بالذكرى السنوية لوفاة ابن باديس، بالإضافة إلى نشاط الكشافة التابعة لجمعية العلماء.

ـ تدريب الطلبة على الخطابة ونظم الشعر في ندوات أسبوعية بالمعهد، كان يشرف عليها الأستاذان الشيخ «الطاهر حراث» والشيخ «عبد الرحمن شيبان» (2).

إن رسالة معهد ابن باديس كانت تتجسد في إحياء اللغة العربية والدين، وبعث الشخصية الوطنية، وقد نجح المعهد في أداء دوره العلمي والحضاري والسياسي، حيث كوّن رجاله نخبة من الطلاب صادقة العزم على تجسيد ما تلقوه من مبادأئ في أرض الواقع، وهو ما تجسد في كدّهم وجدّهم الدراسي، وفي إيمانهم بثوابت الشخصية الوطنية من أجل التحرير، وقد عمّر معهد ابن باديس نحو عشر سنوات، كانت أيام عزه وازدهاره، علَّم فيها أساتذته لأبناء الشعب هويتهم وشخصيتهم وتاريخ أمجادهم ومقاومتهم الوطنية(3)، وساهم تلاميذ المعهد وشيوخه في حرب التحرير، وهذا ما سوف يأتي تفصيله بإذن الله تعالى.

2 ـ تعليم البنات ومعاناة مدارس الجمعية:

حمَّل الإمام الإبراهيمي جسمه المريض ما لا طاقة له به من أسفار كثيرة، وترحال دائم، وتنقل مستمر، ليضع حجر أساس مدرسة في الشرق، ثم ينتقل لتدشين مدرسة في الغرب. وهكذا دواليك... وعلى القارئ أن يقدر الجهد الكبير الذي بذله الإمام طيلة ستة أعوام /1946 ـ 1952م/ إذا عرفنا أنه في سنة 1948م وحدها بُدأئ بناء 37 مدرسة عبر التراب الوطني.

(1) المصدر نفسه ص 43.
(2) المصدر نفسه ص 44.
(3) المصدر نفسه ص 50.

وللإمام الإبراهيمي من وراء هذه التنقلات الكثيرة المضنية فلسفة اجتماعية، وهي معرفة مدى انتشار الوعي وارتفاعه في الأمة، وتعويدها على التجمعات الهادفة بدل تلك التجمعات الحزبية أو البدعية، ونزع رهبة السلطات الفرنسية من قلوب أفرادها.

ويلاحظ في هذه الفترة التوسع في تعليم البنت الجزائرية، في مجتمع كان يعتبر تعليم البنت إحدى الكبر، وقد جادل الإمام الإبراهيمي جدالاً كثيراً عن حقها في التعليم، بل عن واجبه عليها، إذ الإسلام يجعل العلم فريضة على المسلم ذكراً كان أو أنثى، وبذلك وصل عدد الإناث في مدارس الجمعية 5696 بنتاً سنة 1951، ليقفز إلى ثلاثة عشر ألف بنت سنة 1953م، وهو عدد ضخم نظراً لظروف ذلك المعهد الاجتماعية والنفسية والمادية.

وقد كان الإمام يخطط لإنشاء دار للمعلمات، ومعهد للبنات على غرار معهد ابن باديس للذكور، وجامعة عربية بين الروح الإسلامية الشرقية والعلوم الحديثة النافعة.

وساء الاستعمار الفرنسي أن تُقبِل البنت الجزائرية على مدارس جمعية العلماء، حيث تتلقى العلم النافع وتتربى التربية الصالحة وتتخلق بالخلق القويم، فأوحى إلى شياطينه أن يثيروا الغبار حول ذلك التعليم، ويشيعوا قالة السوء عن مدارس الجمعية التي «عرّضت الأعراض للتمزيق».

وسلَّ الإمام قلمه البتار على أولئك الرهط، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون وكشف هدف تلك الحملة، وهو أن الاستعمار: متشائم بتعليمها ـ الجمعية ـ للبنت المسلمة، لأن نتيجة تكوين بنت صالحة، تصبح غداً زوجة صالحة، وبعد غدٍ أماً صالحة، وهاله أن تعمر البيوت بالصالحات فيلدن جيلاً صالحاً صحيح العقائد متين الإيمان، قويم الأخلاق، طموحاً إلى الحياة، فتطول به غصته، ثم تنتهي به قصته.. ولأن الاستعمار بعيد النظر، عارفاً بما للمرأة في أمتها من أثر؛ فهو لذلك حرَّكهم وما زال يحركهم لإثارة هذا الغبار الأسود في وجه جمعية العلماء، لزعزعة ثقة الأمة بالجمعية في خصوص تعليم البنت[1].

وقد عانت مدارس جمعية العلماء كثيراً من عراقيل السلطات الفرنسية، وأصاب معلميها كثير من الأذى، لأنهم كانوا يقومون بعملية «تحصين» و«تطعيم حضاري» ضد الفَرْنسة والتنصير، ولذلك كانت تلك السلطات تعتبر تلك المدارس: عبارة عن خلايا سياسية، والإسلام الذي يمارسونه ـ أي العلماء ـ هو مدرسة حقيقية للوطنية[2].

وللتقليل من تأثير مدارس جمعية العلماء على الأطفال الجزائريين، وإفساداً لذلك التطعيم الحضاري والتحصين المعنوي حاولت السلطات الفرنسية فرض تدريس اللغة الفرنسية لمدة خمس عشرة ساعة أسبوعياً في مدارس الجمعية، قال الإبراهيمي: رفضت المفاهمة في المشروع بحذافيره وفي جملته وتفصيله، وأبى لي ديني أن أعطي الدنية فيه، وأبَت لي عروبتي أن أقر الضيم للغتي، وأبى شرف الجمعية وشرف العلم أن أتمادى في مفاهمة ضالة

(1) اثار محمد البشير الإبراهيمي (22/2)، من مقال محمد الهادي الحسين عام 1996 اسمه السياق التاريخي (1940 ـ 1952).

(2) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (22/2).

عقيمة في حق طبيعي ثابت، وللحكومة أن تسقط السماء علينا كِسَفاً، وأن تتجنى علينا ما شاء لها التجني والظلم[1].

3 . تكوين لجنة التعليم العليا:

يؤمن الإمام الإبراهيمي أنه: إذا اختلفت الأصول والمناهج في أمة كانت كلها فاسدة، لأن الصالح كالحق لا يتعدد ولا يختلف[2]. وأن توحيد الغايات لا يأتي إلا بتوحيد الوسائل، ولذلك قرر . مع إخوانه قادة الجمعية . إنشاء لجنة خاصة بالتعليم، فأنشئت في 13 سبتمبر 1948م وكانت بمثابة وزارة تربية شعبية[3]، وعُهد إليها بوضع البرامج، وتقرير كتب الدراسة، وإصدار اللوائح التنظيمية، وتعيين المعلمين، ووضع الدرجات لهم، واختيار المفتشين، وتنظيم ملتقيات تربوية وندوات بيداغوجية لمناقشة قضايا التعليم وتحسينه، ورفع مستواه، ويدل إنشاء هذه اللجنة على التطور الذي أحرزته الجمعية، وعلى الروح التنظيمية التي أصبحت تطبع أعمالها[4].

4 . المركز العام:

لم يكن للجمعية قبل سنة 1947م مقر خاص بها، وبعد أن استأنفت نشاطها عقب الحرب العالمية الثانية، قررت أن يكون لها في العاصمة مقر خاص، يتناسب ومكانتها الدينية وقيمتها العلمية وأهميتها السياسية، وقد اختير هذا المركز في حي القصبة التاريخي ـ قلب العاصمة ـ لما يمثله هذا الحي من أمجاد وأبعاد في تاريخ الجزائر، ومن أعلم من جمعية العلماء ورئيسها بإيحاءات التاريخ، ودوره في شحذ همم الشعوب وشحن نفوسها، ودفعها إلى استعادة دورها في صنع التاريخ والإسهام في الحضارة؟ وهو ما أشار إليه فضيلة الشيخ أحمد سحنون في قصيدته التي ألقاها بمناسبة افتتاح هذا المركز، فقال:

وفيك يُبعث ماض طالما حييت ... على ماتيه أجيال وأعصاريا
فتية الضاد حان الوقت فاطرحوا ... هذا الْوَنَىَ وانهضوا فالناس
قد طاروا سيروا على نهج اباء لكم سلفوا ... فإنهم في طريق المجد قد ساروا
شقوا الزحام إلى العلياء واقتحموا ... أخطارها إنما العلياء أخطارا
سعوا لتحيوا حياة العز أو فَرِدُوا ... حوض الردى فالردى يمحى به العار
أرواح ابائكم في الخُلد قد هتفت ... تحرروا فجميع الناس أحرار[5]

---

(1) المصدر نفسه (22/2).
(2) المصدر نفسه (22/2).
(3) المصدر نفسه (22/2).
(5) المصدر نفسه (23/2).
(5) المصدر نفسه (24/2).

5 . التوسع في تأسيس الشُّعب:

الشُّعبة: هي أصغر مؤسسة في هيكلة جمعية العلماء، ومهمتها تأطير الحركة الإصلاحية والإشراف على تأسيس المدارس والمساجد في المدن والأحياء، وقد كان عدد هذه الشُّعَب عشية اندلاع الحرب العالمية 58 شعبة، ثم وصل العدد سنة 1953م إلى 300 شعبة، مما يدل على الانتشار الواسع الذي حققته الجمعية، والمكانة الكبيرة التي أصبحت تتمتع بها لدى الشعب الجزائري، مما يؤكد مقولة: إن جمعية العلماء عبارة عن دولة داخل دولة[1].

6 . توسيع المجلس الإداري وتنقيح القانون الأساسي للجمعية:

كان الاجتماع العام لجمعية العلماء الذي عقد بالجزائر العاصمة يومي 30 سبتمبر . 1 أكتوبر 1951م اجتماعاً متميزاً، حيث جُدِّدت فيه مبايعة الإمام الإبراهيمي لقيادة الجمعية، ووُسِّع مكتبها الإداري ووُزِّعت أعمال الجمعية على لجان، ونُقِّح القانون الأساسي الذي وُضع سنة 1931م، حيث تقرر أن يكون للرئيس نائبان بدل نائب واحد، وللكاتب العام ثلاثة نواب بدل نائب واحد، ولأمين المال نائبان، ورُفِع عدد المستشارين إلى ستة عشر بدل أحد عشر مستشاراً.

ومن أهم ما اتخذه المجلس الإداري الجديد، هو منح لقب رئيس شرفي لجمعية العلماء لبعض العلماء غير الجزائريين ممَّن عُرف بحمل الفكرة السلفية الإصلاحية والدفاع عنها، ولا نعلم جمعية . غير جمعية العلماء . في العالم العربي والإسلامي اتخذت مثل هذه الخطوة، وهذا دليل اخر على النظرة الإسلامية والاستراتيجية لقيادة جمعية العلماء، ولا ريب في أن صاحب هذه الفكرة هو الإمام الإبراهيمي نفسه.

أما العلماء الذين تقرر منحهم هذه الرئاسة الشرفية فهم: محمد بن العربي العلوي «المغرب»، أحمد بن محمد التجاني «المغرب»، عبد العزيز جعيط «تونس»، عبد اللطيف دراز (مصر)، محمد أمين الحُسيني «فلسطين»، عبد القادر المغربي «طرابلس الشام»، محمد بهجت البيطار «دمشق»، محمد نصيف «الحجاز»، تقي الدين الهلالي «بغداد»، مسعود الندوي «باكستان» [2].

7 . مالية جمعية العلماء:

مالية جمعية العلماء تأتيها من موردين: اشتراكات الشعب الشهرية، والتبرعات غير المحدودة، وميزانيتها في السنوات الأخيرة أصبحت ضخمة وقد قسمتها إلى أقسام، فمالية بناء المدارس لا تدخل خزينة الجمعية، بل تقبضها الجمعية المحلية وتنفقها على البناء، فإذا تم البناء جرى الحساب علناً على رؤوس الأشهاد بحضرتي، وسُدَّ بابها، والمالية الخاصة بأجور المعلمين والقَوَمة على المدرسة تؤخذ من اباء التلاميذ بواسطة أمين مال الجمعية المحلية في مقابل إيصالات رسمية مختومة بختمها، ولكل مدرسة جمعية محلية قانونية تنتخبها جمعية العلماء

---

(1) المصدر نفسه (25/2).

(2) المصدر نفسه (25/2).

من أعيان المدينة أو القرية، ولا تحاسب جمعية العلماء إلا في اخر السنة في الاجتماع العام، والمال الذي يتحصل من الاشتراك العام في جمعية العلماء هو الذي يدخل إلى خزانتها، ويحاسب عليه أمين مالها في التقرير المالي الذي يتقدم به إلى الاجتماع العام، ويضاف إليه ما يتحصل من التبرعات غير المحدودة.

أما الجريدة فإنها قائمة بنفسها من أثمان الاشتراك فيها.

وقد قررت في كل اجتماع عام أن تعرض على المجلس الإداري جميع المداخيل المذكورة من أجور التعليم، والاشتراكات العامة والتبرعات، كل ميزانية على حدة، وكل مدرسة يفيض دخلها على خرجها يدخل المبلغ الفائض في الخزينة العامة وكل مدرسة ينقص دخلها عن خرجها يعتمد لها من الخزينة العامة، ما يسدد عجز ميزانيتها، وكل هذا على نظام بديع يؤدي إلى اشتراكية بين المدارس مع بعضها، وبين الشعب والجمعية المحلية[1].

8 . أثر أعمال الإبراهيمي وإخوانه على الشعب:

قال الإمام الإبراهيمي: أثر أعمالنا في الشعب بارز لا ينكره حتى أعداؤنا من الاستعماريين، وخصومنا من إخواننا السياسيين، فمن اثارنا:

. بث الوعي واليقظة في الشعب حتى أصبح ويعرف ماله وما عليه.

. ومنها إحياء تاريخ الإسلام وأمجاد العرب التي كان الاستعمار يسدّ عليه منافذ شعاعها، حتى لا يتسرب إليه شيء من ذلك الشعاع.

. ومنها تطهير عقائد الإسلام وعباداته من أوضار الضلال والابتداع، وإبراز فضائل الإسلام، وأولها الاعتماد على النفس، وإيثار العزة والكرامة، والنفور من الذلة والاستكانة والاستسلام.

. ومنها أخذ كل شيء بالقوة.

. ومنها العلم، هذه الكلمة الصغيرة التي تنطوي تحتها جميع الفضائل.

. ومنها بذل المال والنفس في سبيل الدين والوطن.

. ومنها نشر التحابب والتاخي بين أفراد المجتمع.

. ومنها التمسك بالحقائق لا بالخيالات والأوهام.

فكل هذه الفضائل كان الاستعمار يغطيها عن قصد، لينساها المسلمون على مر الزمان بواسطة التجهيل وانزواء العقل والفكر، وقد وصل الشعب الجزائري إلى ما وصل إليه، بفضل جمعية العلماء، وما بذلناه من جهود في محور الرذائل التي مكّن لها الاستعمار، وتثبيت الفضائل التي جاء بها الإسلام، ولو تأخر وجود الجمعية عشرين سنة أخرى لما وجدنا في الجزائر من يسمع صوتنا، ولو سلكنا سبيلاً غير الذي سلكناه في إيقاظ الأمة وتوجيهها في السبيل السوي ؛ لما قامت هذه الثورة الجارفة في الجزائر التي بيّضت وجه العرب

---

(1) المصدر نفسه (287/5).

والمسلمين، ولو نشاء لقلنا إننا أحيينا اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس وتأثيرهما في العقول والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاظ والأسوة، فأحيينا بذلك كل الشعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر[1].

لقد نجح الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وإخوانه من أبطال جمعية علماء المسلمين في:

. تأسيس المدارس العربية الإسلامية الحرة، يتولى أمرها جيل أخرجته مدرسة ابن باديس، ولقد بلغ عدد هاتيك المدارس أربعمائة رغم مقاومة الاستعمار العنيفة، تسير كلها حسب منهاج واحد محكم الوضع، يغشاها ما يزيد عن مائة وخمسين ألفاً من صبيان وبنات، تخرجت من بين صفوفهم أفواج من الطلبة، استكملوا دراستهم الثانوية في معهد ابن باديس، ثم أرسلت بهم الجمعية إلى المعهد الزيتوني الطيب الذكر بتونس وإلى معاهد الشرق العربي، وأسفرت هذه الجهود عن تكوين جيل كامل من الشعراء بلغوا الذروة، وكتاب مجيدين، وخطباء مفوهين، ودعاة مخلصين، ولقد قام كل أولئك بواجبهم على الوجه الأكمل أثناء حربنا التحريرية الكبرى، وإن منهم لفريقاً يتبوأ الان مراكز مرموقة في مختلف ميادين الحياة الجزائرية.

. بناء وتعمير المساجد الحرة، التي تباهى القوم عندنا برفع قواعدها في طراز معماري أندلسي أصيل، وبذلوا في سبيل إقامتها كما بذلوا في سبيل بناء المدارس الحرة ما ملكته أيديهم من مال، وما ملكته نساؤهم من حليّ، فكان الناس عندنا رجالاً ونساء يؤثرون الله والعروبة على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة.

وفي هاتيك المساجد التي أربا عددها على المائة، كان الشعب في كل الاتجاهات يتلقى دروس الدين والحكمة الإسلامية، ويستمع إلى الخطب التوجيهية الحية، ويتلقى سيرة السلف الصالح، والتوجيهات الحكيمة من أجل بناء مستقبل الجزائر الحرة العربية المسلمة، وهجر أكثر الأحرار مساجد الحكومة إلى أن طهرها الله بعد الاستقلال.

. جولات دورية، دائمة دائبة، تقوم بها صفوة مختارة من العلماء ومن كبار الطلبة يغشون كل مجتمعات القطر الجزائري في كل اتجاهاته المترامية الأطراف، يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ويلقون الدروس والمواعظ والمحاضرات، ويبشرون بمستقبل الجزائر ضمن دائرة العروبة والإسلام، فكان الشعب الجزائري كله يتلقى في نفس الوقت، علماً واحداً وتوجيهاً دينياً واحداً، ودعوة للكفاح الصالح واحدة، إلى جانب ما كان يتلقاه من رجال الحركة الاستقلالية من وعي سياسي، وما كان يجده من تنظيم محكم.

. صحافة حرة حية، من طراز ممتاز، على نمط جريدة «البصائر» تناضل في سبيل الإسلام والعروبة، والقومية، تنصر القضايا العادلة في مختلف جهات العالم، وتنشر المبادأئ القومية، وتبث الأفكار الجريئة الحرة، فأضفت على الجزائر صورة وضاءة مشرقة، بما كان فيها من تحرير بليغ ودراسات عميقة، وشعر فحل، يعدّ . ولا فخر . من أمجاد العروبة الحاضرة. كل هذه الحركة العملاقة، كانت تسيرها وسط الزوابع والأعاصير، يد الربان الماهر

(1) المصدر نفسه (288/5).

القدير الإبراهيمي، فيوصلها إلى ساحل السلامة دون أن يمسها سوء، ونمت وبلغت أوجها، فكانت،{كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ } [سورة الفتح:29]، وما غادر الإبراهيمي العظيم الديار، إلا بعد أن أصبح غرسه كشجرة مباركة،{أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ ۝٢٥} [سورة إبراهيم:25]

هذه هي، في أكثر ما يكون من الإيجاز والاختصار، الصورة الحقيقية لذلك البطل الفذ، الذي اجتمعت فيه خصال الأريحية والعبقرية، والذي ألف بين العلم والأدب والجهاد، وكان من كبار العلماء وخيار الأدباء ومن سادة المجاهدين.

هذا هو الرجل الفحل الذي خاطب موطنه أيام الثورة الكبرى بقوله: أي وطني!. ما ملكتُ فوق ثراك شبراً، أتراني أملك تحت ترابك قبراً؟

9 . اهتمام الإبراهيمي بالبعثات العلمية:

لم يكن النشاط السياسي الاجتماعي والثقافي، الذي انغمس فيه الشيخ البشير منذ وصوله إلى الشرق العربي ؛ يصرفه عن المهمة الأساسية التي غادر الجزائر من أجلها، ألا وهو العمل على فتح أبواب معاهد التعليم المختلفة في وجه الشباب الجزائري، المحروم من العلم والمعرفة باللغة العربية في بلاده، وقد كانت أول بعثة أرسلتها جمعية العلماء إلى معاهد الشرق العربي توجهت إلى القاهرة في نوفمبر 1951م قبل أن يسافر الشيخ إليها في 1952، وضمت هذه البعثة 16 طالباً في البداية، ثم ازداد عدد أفرادها بعد وصوله إلى القاهرة إلى 25 طالباً وطالبة واحدة[1].

وكانت بعثات جمعية العلماء في البداية قاصرة على مصر وحدها، حيث تمكنت جمعية العلماء بواسطة مكتبها بالقاهرة، من الحصول على عدد من المنح من الأزهر ووزارة المعارف لأبناء الجزائر خلال عام 1951م والأعوام التالية له، وبعد رحلة الشيخ البشير إلى المشرق العربي تمكن من الحصول على منح أخرى للطلبة الجزائريين في كل من العربية السعودية بعد قيام الثورة الجزائرية سنة 1954م.

وكان المركز الرئيسي الذي يشرف منه الشيخ البشير الإبراهيمي على هذه البعثات ويصرف شؤونها يوجد مقره في القاهرة، حيث يقيم هو في معظم أوقات العام، ولكنه كان يعين نائباً عن خارج مصر من أبناء البلدان التي توجد فيها البعثة، للإشراف على أفرادها من الناحية الأخلاقية والاجتماعية، وكان بين وقت واخر يقوم بزيارات للعراق، وسوريا، والكويت، كي يتفقد بنفسه حال أعضاء البعثات، ويتصل بالمسؤولين من التربية والتعليم في البلدان التي يزورها، بقصد الحصول على منح جديدة للطلبة الجزائريين الذين توفدهم الجمية إلى الشرق العربي من أجل الدراسة، ويغتنم زيارته لتفقد البعثات، فيلقي على أعضائها المحاضرات التوجيهية

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 46.

والإرشادات العلمية والتربوية. وأما أعضاء بعثة الجمعية بالقاهرة، فقد كان يجتمع بهم مرة كل أسبوع في مركز الجمعية الموجودة بشارع شريف بالقاهرة[1].

وقد أثمرت جهود الشيخ البشير الإبراهيمي، التي بذلت في تكوين البعثات العلمية بجمعية العلماء، التي عمل بكل جهوده على فتح أبواب معاهد العلم في وجهها في مختلف البلدان العربية، ورعاها ووجهها أثناء دراستها توجيهاً وطنياً سديداً، حيث نجح ما يقرب من 90% من أفرادها في دراساتهم الثانوية والجامعية، وعندما نشبت ثورة الفاتح من 1954م كانوا من جنودها، وساهم عدد كبير من أفرادها بفكرهم وثقافتهم في مختلف أجهزة الثورة، وهم اليوم بعد الاستقلال يساهمون بفكرهم وثقافتهم في معركة البناء والتشييد الوطني، ونشاطهم يغطي أهم المجالات الوطنية كالإعلام والثقافة والتربية والتعليم والعدل والدبلوماسية، والتدريس في الجامعات الوطنية إلى غير ذلك من الميادين الأخرى.

ولا شك أن الفضل في تكوين هذه النخبة الممتازة من الشباب الجزائري تكويناً عربياً وإسلامياً ووطنياً ؛ إنما يعود إلى الشيخ البشير الإبراهيمي ورفاقه من رجال الحركة الإصلاحية في الجزائر، الذين أعدوا هذا الجيل الذي نتحدث عنه الان وأجيالاً أخرى عديدة سابقة عليه، في ظروف كانت من أصعب وأشد الظروف التي مرت بها الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي، أعدوه من المراحل الابتدائية، وواصلوا جهودهم في إعداده، حتى حصل البعض منهم على الشهادات الجامعية في مختلف الفروع العلمية[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 231.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 235.

خامساً: مقومات الفكر الإصلاحي عند

الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واهتماماته الاجتماعية

من تأمل في سيرة الإمام الإبراهيمي، وفي تراثه الأدبي والفكري، تبين له بوضوح وجلاء خطه الإصلاحي، ومنهجه التجديدي، وأهم مقومات الفكر الإصلاحي والتجديدي عنده في النقاط الاتية:

1 . الإسلام والعروبة: أساساً ومنطلقاً:

يرى الإبراهيمي أن أهم مقوم من مقومات الفكر الإصلاحي: الإسلام، ويقول في ذلك: إن الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين القواعد والأواسي، قد جلا الإصلاح حقائقه، فكان له منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره، فكان له منهم حارس يقظ، وعاد كتابه «القران» إلى منزلته في الإمامة، فكان له منه الحمى الذي لا يطرق، والسياج الذي لا يخرق(1).

وطالما شرح الإمام الإبراهيمي هذا الإسلام العظيم، بقلمه الفياض وعبارته المشرقة، فجلّى أسراره، وجسد اثاره، وكشف اللثام عن عقيدته الحنيفية، وعن شريعته السمحة، وعن قيمه الملائمة للفطرة، والمهذِّبة للغريزة التي تسمو بالإنسان حتى يتميز عن الحيوان.

اقرأ له هذه القطعة التي يتحدث فيها عن الإسلام دين التحرير، فيقول: إن الإسلام هو «دين التحرير العام»، فأرسل هذا الوصف إرسالاً بدون تحفظ ولا استثناء، لأنَّه الحق الذي قامت شواهده، وتواترت بيِّناته، ومن شواهده وشهوده، تلك الأجيال التي صحبت محمَّداً وامنت به، واتَّبعت النور الذي أنزل معه، ثمَّ الذين صحبوهم، ثمَّ الذين اتَّبعوهم بإحسان.

ونحمد الله على أن العلاقة بين الألفاظ ومعانيها لم تنقطع عند جميع العقلاء من أجناس البشر، والعقلاء هم حُجَّة الله على من سواهم، وما زال الخير يُسمَّى خيراً، والشر يُسمَّى شراً، والفضيلة فضيلة، والرذيلة رذيلة، فالسارق يسرق وهو يعتقد أنَّه متعدٍّ على مال الغير، والمتبع لخطوات الشيطان لا يقول: رضي الله عن إبليس، وإنما يقول: لعنه الله، وإن هذه لمن أسرار فطرة الله التي فطر خلقه عليها، يواقعون الشر ولا يسمونه خيراً، فيسجِّلون بذلك الشهادة على أنفسهم، إلا المطبوع على قلوبهم، الفاقدين للشعور، كالذين إذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون، وكصرعى التقليد للحضارة الغربية، الذي استرقتهم الشهوات فاستباحوا المحرَّمات باسم الحرية، وكالمسيرين للدولة الغربية، أسكرتهم القوَّة فبغوا على الضعفاء وسلبوا أوطانهم، وسمَّوا بغيهم استعماراً.

إنَّ من الظلم والحيف والغش والفساد في الأرض تسمية الأشياء بغير أسمائها، لأنه قطع للأسباب عن مسبّباتها، وقد عيب في قوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ} [البقرة: 27]، أن منه قطع الدّوال عن

(1) البصائر، العدد 13 الأولى من السلسلة الثانية 1947م.

مدلولاتها، وإن أعظم شرور هذه الحضارة الغربية أنَّها فتحت الباب لهذا النوع من المسخ وشجعت عليه، فأفسدت الفطرة والضمير الذي سمَّاه محمد (ص) «وازع الله في نفس المؤمن». والتحرير الذي جاء به الإسلام شامل لكل ما تقوم به الحياة وتصلح عليه كل المعاني والأشخاص، والدين الإسلامي لا يفهم التحرير بالمعنى الضيق، وإنما يفهمه على أنَّه كل إطلاق من تقييد، أو تعديل لوضع منحرف، أو إنصاف لضعيف من قوي، أو نقل شيء من غير نصابه إلى نصابه. قالت أسماء بنت أبي بكر حينما بعث لها أبوها بجارية تقوم لها بعلف الفرس: فكأنما أعتقني[1].

أ. الإسلام دين التحرير العام:

حرَّر الإسلام العقل وجميع القوى التابعة له في النفس البشرية، والعقل هو القوة المميزة للمتضادات والمتنافرات التي بني عليها هذا العالم، كالصلاح والفساد، والخير والشر، والنفع والضر، ولذلك جعل مناطاً للتكاليف الدينية والدنيوية، وقد يطرأ عليه ما يطرأ على الموازين المادية من الاختلال فيتعطل أو ينعكس إدراكه، والإسلام يعلو بتقدير العقل والفكر إلى أعلى درجة، ويقرِّر أن إدراك الحقائق العليا في الدين أو الكون ؛ إنَّما هو حظ العقول الراجحة والأفكار المسدَّدة، وأن العقول المريضة والأفكار العقيمة تنزل بصاحبها إلى الحيوانية، بل إلى أحطّ من الحيوانية، ففي القران العظيم: {لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} [سورة الأعراف:179].

ولهذه المنزلة التي وضع الإسلام العقل فيها ؛ حماه من المؤثرات والأمراض والعوائق، وأحطّ دركة يرتكس فيها العقل هي الوثنية، فهي أكبر معطل له عن أداء وظيفته، حين لا يسمو إلى الجولان في العوالم الروحية، وحين تفتنه الماديات بظواهرها من طريق الجوارح الحسِّية. أعلن الإسلام من أوَّل يوم حرباً شعواء على الوثنية بجميع أنواعها، وهي أشد ما كانت سلطاناً على النفوس، وتغلغلاً فيها، وإفساداً لفطرة الخير وإطفاء لنورها ؛ حتى اجتثها ومحا اثارها من النفوس والافاق، وعمر مكانها بالتوحيد.

أتدرون السر في تلك الحملات على الوثنية؟ هو تحرير العقل من نفوذها وسلطانها، حتى يواجه أمانة الدين الجديد صحيحاً معافى، ويؤدِّي الوظيفة التي خلق لأدائها، وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم ؛ إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد، ولولا ذلك لما أقدم خالد على هدم طاغية «ثقيف». وحرر الخلطاء بعضهم من بعض بما شرَّعه الله من أحكام عادلة تقوم بالقسط، وترفع الحيف والظلم، ووقف بكل واحد عند حدَّه وحفظ له حقوقه.

فحدَّ الحدود بين المرأة والرجل، وبين المحكوم والحاكم، وبين الفقير والغني، وبين العبيد والسادة، وبين العمال وأصحاب المال، وهذه الأنواع من الحدود تناولتها النصوص القطعية من القران والأحاديث، واكتنفتها في طلب النصوص مؤثرات من الترغيب والترهيب تزيدها قوة ورسوخاً في النفس، فأما تحرير المحكومين من

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 46.

الحاكمين ؛ فلا مطمع أن يأتي فيه على وجه الدهر ما جاء به الإسلام من شرائع العدل والإحسان والشورى والرفق والرحمة وعدم المحاباة حتى في النظرة والكلمة والمجلس.

وأوَّل ما يسترعي النظر من ذلك سيرة محمد (ص) وأقضيته في حياته وما أدبه به ربه من مثل قوله: {وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ} [سورة المائدة:49] ، وقال تعالى: {لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ} [سورة الأنعام:66] ، وَ{وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ} [سورة ق:45].

ثم سيرة الخلفاء الراشدين في الحكم ؛ فإنّها كانت مثالاً من أحكام النبوة التي هي وحي يوحى، وإنَّ الأمثلة التي ضربها عمر في إقامة العدل وقوة الاضطلاع، لأمثلة خالدة على الدهر، فاق بها من قبله، وأعجز من بعده، وما أروع قوله: من رأى منكم اعوجاجاً فيَّ فليقوِّمه، وأروع منه قول مجيب من أفراد الرَّعية: «لو رأينا فيك اعوجاجاً لقوَّمناه بسيوفنا»، وأبلغ منهما في الروعة أن يحمد عمر ربَّه على أن يكون في أمة محمد من يقوِّم عمز بسيفه.

والتشريع الإسلامي متصل الحلقات من العقائد والعبادات إلى الاداب والمعاملات، وكلُّه يرمي إلى غاية واحدة، وهي إنشاء أمَّة متَّحدة المبادئ والغايات، متناسقة فيما بينها لتحمل الأمانة كاملة صحيحة إلى الأجيال اللاحقة، وقد تمَّ للإسلام وما أراد عدَّة قرون، وما زلنا ـ بحمد الله ـ نحمل بقايا من ذلك، ولولاها لكنَّا في الغابرين.

وحرَّر الإسلام الفقير من الغني، وجعل للفقراء حقاً معلوماً في أموال الأغنياء، ووجه التحرير هنا أن الفقير كان يسأل الغني فيعطيه أو يحرمه تبعاً لخلقه من تسهّل أو كزازة، فإذا أعطاه شيئاً أخذه على أنه مكرمة ممنونة تجرح نفسه، وإن أشبعت بطنه، ولكن الإسلام ألزم الغني بدفع الزكاة للفقير وسمَّاها حقاً معلوماً، وتسمية هذا المال حقاً لله تشعر الغني بالرضا والتسليم والاطمئنان إلى إخلافِهِ ومضاعفته، وترفع عن الفقير غضاضة الاستجداء ومهانة السؤال، وتطهر نفسه مع ذلك من رذيلة الحقد على الغني، وهذا الحقد هو أساس الشيوعية[1].

ومن عجائب الإسلام في إدخال التربية النفسية في الأحكام، أنه لا يأمر بشيء، ولا ينهى عن شيء من العمليات ؛ إلا بعد أن يمهِّد للنفس ويعمرها بخوف الله وحده، ويقنعها بالاثار التي تترتب على المأمور به أو المنهي عنه، فإذا جاء دور العمل كانت النفس مطمئنة بالعلم وراضية بالعمل مهما شق، ولهذا كانت عقائد الإسلام وعباداته وأحكامه وادابه كلها مترابطة، وكلها متعاونة على تهذيب المسلم، ولهذا السر صلح شأن المسلمين الأولين، لأنهم أقاموا الدين كله،عينياً في العينيات، وكفائياً في الكفائيات، وكانوا لا يتهاونون في الصغيرة، احتياطاً للكبيرة، ومن أوامر القران: {أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ} [سورة الشورى:13].

ـ وحرَّر الإسلام المرأة من ظلم الرجال وتحكّمهم، فقد كانت المرأة في العالم كله في منزلة بين الحيوانية والإنسانية، بل هي إلى الحيوانية أقرب، تتحكَّم فيها أهواء الرجال، وتتصرَّف فيها الاعتبارات العادية المجرَّدة من العقل،

(1) المصدر نفسه ص 48، 49.

فهي حيناً متاع يتخطف، وهي تارة كرة تتلقف، تعتبر أداة للنسل أو مطية للشهوات، وربَّما كانت حالتها عند العرب أحسن، ومنزلتها أرفع، يرون فيها عاملاً من عوامل ترقيق العواطف وإرهاف النفس، ودواء لكثافة الطبع وبلادة الحسّ، ويجدون فيها معاني جليلة من السمو الإنساني، وأشعارهم ـ على كثرتها ـ عامرة بالاعتراف بسلطان المرأة على قلوبهم، وبشرح المعاني العالية التي يجدونها فيها، ولا عبرة بما يشاع عنهم من وأد البنات، فإنه لم يكن عاماً فاشياً فيهم، وتعليله عند فاعليه يشعر أنه نتيجة حب طغى حتى انحرف، وأثر عقل أسرف في تقدير العواقب، لا نتيجة كراهية لنوع الأنثى، وعلى كل حال فالوأد خطأ كبير، وجريمة شنيعة، وشذوذ في أحكام الرجال خارج عن نطاق الإنسانية، وحسبه تسفيهاً قوله تعالى: {أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٥٩} [سورة النحل:59].

وحرَّر الإسلام الحيوان الأعجم من الإنسان، وحرَّم عليه أن يحمِّله ما لا يطيق من الأحمال والأعمال، وأن يجيعه أو يعطشه، فإذا فعل فيه شيئاً من ذلك بيع عليه جبراً بحكم الحاكم، وأوصى في الرفق بالحيوان وصايا زاجرة، وفي حديث نبوي أن امرأة دخلت النار بسبب هرة أمسكتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض، وأن إمرأة عاصية لله دخلت الجنة بسبب كلب وجدته يلهث عطشاً على حفّ بئر، فأدلت خفّها وسقته، وما من شيء تفعله جمعيات الرفق بالحيوان في هذا العصر إلا وقد سبق الإسلام إلى أكمل منه[1].

ب ـ ربط الإسلام بالعروبة:

والإسلام الذي يدعو إليه الإبراهيمي مختلط بالعروبة اختلاط اللحم بالدم، وكأنما عنده مركب كيماوي امتزج فيه العنصران، كما امتزج الأوكسوجين والهيدروجين، فكوَّنا «الماء» الذي جعل الله به كل شيء حي.

والعروبة التي يدعو إليها ليست عرقية ولا عنصرية، بل هي عروبة لغة وثقافة، وجوهرها اللسان العربي، وهو الذي نزل به القران الكريم {نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥} [سورة الشعراء:195].

وهو الذي تكلَّم به الرسول عليه الصلاة والسلام، ورويت به أحاديثه، ودوِّنت به سنَّته، التي هي المصدر الثاني للإسلام بعد القران.

والعربية هي لغة الأذان والإقامة، والقراءة في الصلاة، والتلبية في الحج وغيرها.

وقد أوجب الإمام الشافعي على كل مسلم أن يتعلَّم من العربية ما يؤدِّي به صلاته وعبادته.

كما أن القران عربي، ومحمد رسول الإسلام عربي، وأصحابه الذين امنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزله معه: عرب، حتى من لم يكن منهم عربي الأرومة والعرق فقد تعرب باللسان حين تكلَّم العربية، وقد روي حديث عن النبي (ص) يقول: «إنما العروبة اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي».

(1) اثار الإمام محمد البشير (360/4).

وأرض العرب هي أرض الإسلام ومهده ومنبته، فيها نشأت الدعوة، وإليها كانت الهجرة، وبها كانت الوفاة، وهي التي ضمت رفاته عليه السلام. والمساجد الكبرى المقدَّسة في الإسلام، والتي لا تشد الرحال إلا إليها من أرض العرب: المسجد الحرام، والمسجد النبوي، والمسجد الأقصى.

ويَعتبر الشيخ الإبراهيمي أهمَّ مكونات «الذات الجزائرية» ؛ إنما هي «الإسلام والعروبة» [1].

واهتم الإبراهيمي باللغة العربية وأدواتها وروحها وثقافتها اهتماماً عظيماً، وأشاد بها في المحافل والمؤتمرات وخطبه ومحاضراته ومقالاته، ومن أشهر ذلك: الخطاب الذي ألقاه الأستاذ الشيخ الإبراهيمي في إحدى اجتماعات جمعية العلماء المسلمين، والذي نقلته جريدة الشهاب عام 1939، والذي عنوانه:

العربية: فضلها على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية:

جاء فيه: .. لو لم تكن اللغة العربية لغة مدنية وعمران، ولو لم تكن لغة متَّسعة الافاق، غنية بالمفردات والتراكيب ؛ لما استطاع أسلافكم أن ينقلوا إليها علوم اليونان واداب فارس والهند، ولألزمتهم الحاجة إلى تلك العلوم تعلم تلك اللغات، ولو فعلوا لأصبحوا عرباً بعقول فارسية وأدمغة يونانية، ولو وقع ذلك لتغير مجرى التاريخ الإسلامي برمّته.

لو لم تكن اللغة العربية لغة عالمية لما وسعت علوم العالم، وما العالم إذ ذاك إلا هذه الأمم التي نقل عنها المسلمون[2].

لقد فهم العرب لأول عهدهم بالإسلام وبإرشاد القران ؛ أن هناك أمَّما قد خلت عمرت الأرض ومكّن لها الله فيها، وكانت أكثر أموالاً وأعزَّ نفراً وأثبت اثاراً، وامتثلوا أمر القران بالسير في الأرض والنظر في اثار تلك الأمم والاعتبار بمصائرها وعواقبها، ونبَّههم القران إلى أن مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً، فكان هذا الإرشاد القراني المتكرر حافزاً إلى التنقيب عن اثار المدنيات القديمة ودراستها والاطِّلاع على الصالح النافع منها والأخذ به، وكان من اثار هذا التنبيه القراني أن تفتحت أذهان المسلمين إلى دراسة هذه المدنيات واقتباس النافع منها، وكان من فضل القران على العالم أنه أبقى بهذا الإرشاد على علوم كادت تندثر، وعلى اثار مدنيات كادت تطمس.

إن الفائدة الكبرى التي يعلِّقها القران على السير في الأرض والوقوف على اثار الأمم البائدة هو الاعتبار بحال الظالمين وعقبى الظالمين، ليعلم المعتبر أن الظلم هو سوس المدنيات، فيقيم العدل، وإذا جاء العدل جاء العمران، وإذا جاء العمران قامت المدنية، وكان العدل سياجها والعلم سراجها، وهذه مدينة الإسلام.

إن إرشاد الإسلام للمسلمين بأخذ الصالح النافع أينما وجد ؛ هو الذي يدفعهم بعد تمكُّن سلطانهم وتمهُّد ملكهم إلى البحث عن الاثار العقلية للأمم التي سبقتهم، فاطَّلعوا على ما أنتجت قرائح يونان وفارس والهند في العلوم والاداب، فنقلوها إلى لغة القران، ووجدوا فيها خير معين على ذلك[3].

(1) الملتقى الدولي ص 51.

(2) اثار الإمام محمد البشير (376/1).

(3) المصدر نفسه (376/1).

يقول الشيخ محمد البشير في خطابه لمستمعيه: هنا الجانب العامر في لغتكم، وهنا النقطة التي سقنا هذا الحديث كله من أجلها، وهنا الموضوع وهو: فضل اللغة العربية على العلم والمدنية[1].

قامت اللغة العربية في أقل من نصف قرن بترجمة علوم هذه الأمم، ونظمها الاجتماعية، واداها، فوعت الفلسفة بجميع فروعها، والرياضيات بجميع أصنافها، والطب والهندسة والاداب والاجتماع، وهذه هي العلوم التي تقوم عليها الحضارة العقلية في الأمم الغابرة والحاضرة، وهذا هو التراث العقلي المشاع الذي لا يزال يأخذه الأخير عن الأول، وهذا هو الجزء الضروري في الحياة، الذي إما أن تنقله إليك فيكون قوّة فيك، وإمَّا أن تنتقل إليه في لغة غيرك فتكون قوة لغيرك، وقد تفطن أسلافنا لهذه الدقيقة فنقلوا العلم ولم ينتقلوا إليه.

وقد قامت لغتهم بحفظ هذاالجزء الضروري من الضياع بانتشاله من أيدي الغوائل، وبنقله إلى الأواخر عن الأوائل، وبذلك طوَّقت العالم منة لا يقوم بها الشكر، ولولا العربية لضاع على العالم خير كثير.

أيها الإخوان:

إن: كثيراً من العلوم التي بنيت عليها الحضارة الغربية، لم تصلها إلا عن طريق اللغة العربية بإجماع الباحثين منا ومنهم، وإن المنصفين منهم ليعترفون للغة العربية بهذا الفضل على العالم والمدنية، ويوفونها حقها من التمجيد والاحترام، ويعترفون لعلماء الإسلام بأنهم أساتذتهم في هذه العلوم، عنهم أخذوها وعن لغتهم ترجموها، وأنهم يحمدون للدهر أن هيَّأ لهم مجاورة المسلمين بالأندلس وصقلية وشمال أفريقيا وثغور الشام حتى أخذوا عنهم ما أخذوا، واقتبسوا عنهم ما اقتبسوا، ولا يزال هؤلاء المنصفون يذكرون فضل معاهد الأندلس العربية، ومعاهد شمال أفريقيا، ومعاهد الشام على الحضارة القائمة، ولا يزالون ينتهجون بعض المناهج الدراسية الأندلسية في معاهدهم إلى الان، ولا يزالون يردون كل شيء إلى أصله، ويعترفون لكل فاضل بفضله[2].

إن العربية لم تخدم مدنية خاصة بأمَّة، وإنما خدمت المدنية الإنسانية العامة، مدنية الخير العام والنفع العام، ولم تخدم علماً خاصاً بأمَّة، وإنما خدمت العلم المشاع بين البشر بجميع فروعه النافعة، ومن يستقرأئ خاصة هذه اللغة لعلم الطب وحده، يتبين مقدار ما أفاءت هذه اللغة على البشرية من خير ونفع.

وقد كانت هذه اللغة في القرون الوسطى - يوم كان العالم كله يتخبَّط في ظلمات الجهل - هي اللغة الوحيدة التي احتضنت العلم واوته ونصرته.

أيها الإخوان:

هذا فضل لغتكم على المدنية الإنسانية، وفضلها على الأمم غير العربية، وأما فضلها على الأمم العربية، فإنه يزيد قدراً وقيمة على فضلها على الأمم الأخرى، وإذا قلنا الأمم «العربية»، فإننا نعني الأمم الإسلامية كلها، لأنها أصبحت عربية بحكم الإسلام ولغة الإسلام، فاللغة العربية منذ دخلت في ركاب الإسلام على الأمم التي أظلَّها ظلّه ؛ كانت سبباً في تقارب تفكيرهم وتشابه عقلياتهم وتمازج أذواقهم وتوحيد مشاربهم، وإن هذا لمن

---

(1) المصدر نفسه (376/1).

(2) المصدر نفسه (377/1).

المناهج السديدة في توحيد الأمم المختلفة الأجناس، ولولا العربية لاختلفت الأمم الإسلامية في فهم حقائق الدين باختلاف العقليات الجنسية، وقد وقع بعض هذا، ولكنه من القلة بحيث لا يظهر أثره في الحركة العامة للأمة.

إن الأمم التي دخلت في الإسلام متفاوتة الدرجات في الانفعالات النفسية وأنماط التفكير، متفاوتة في الإدراك والذكاء، متفاوتة في القابلية والاستعداد، متفاوتة في التصوير والتخيُّل، ولكن اللغة العربية فتحت عليها افاقاً جديدة في كل ذلك، ما كانت تعرفها لولا العربية، ودفعتها بما فيها من قوة وبما لها من سلطان إلى التفكير والتعقل على منهج متقارب، وحفزت الأفكار الخامدة إلى التحرُّك، وزادت الأفكار المتحرِّكة قوة على قوة.

أيها الإخوان:

إن اللغة العربية هي التي قاربت بين الفكر الفارسي المنفعل القلق وبين الفكر البربري الرصين الهادئ، ثم هيأت لكل فكر قابليته.

واللغة العربية هي التي سهَّلت لهذه الأمم المختلفة أسباب العلم والمدنية، ومهَّدت لها الطرائق المؤدية إليهما، حتى أخذت كل أمة حظها منهما.

واللغة العربية هي التي أفضلت على علماء الإسلام بكنوزها ودقائقها وأسرارها، وأمدتهم بتلك الثروة الهائلة من المصطلحات العلمية والفنية، التي تعجز أية لغة من لغات العالم عن إحضارها بدون استعانة واستعارة، فبحثوا في كل علم، وبحثوا في كل فن، وملؤوا الدنيا مؤلفات ودواوين، ومن عرف كتاب أبي حنيفة الدينوري في النبات، وكتاب أبي عبيدة في الخيل، وكتاب الهمداني في تخطيط جزيرة العرب، وكتاب الجاحظ في الحيوان، وكتاب الأئمَّة في الطب والنجوم والإبل؛ رأى العجب العجاب من اتساع هذه اللغة وغزارة مادتها، وعلم مقدار فضلها على الأمة العربية، كما أن من يقرأ شعر الشعراء النفسيين من الفرس بهذه اللغة، وشعر الشعراء الوصافين في الأندلس ؛ يتجلى به أي إفضال أفضلته اللغة العربية على تلك القرائح الوقَّادة، التي وجدت في العربية فيضاً لا ينقطع مدده، وأضافته إلى فيض الاستعداد، وما أمتن الإنتاج الأدبي إذا كان يصدر عن اتساع في اللغة واتساع في الخيال[1].

ج ـ حماية الإسلام من المتأكلين باسمه:

وكان من حرص الشيخ على حماية الإسلام من الدجالين، أن يصب جام غضبه على أولئك الذين يلبسون لبوس العلماء، ثمَّ هم يعملون لخدمة الاستعمار تحت عنوان الوظائف الدينية، كالإمامة والخطابة والتدريس والفتوى، وهذه هي الكارثة، أن يتحدث باسم الإسلام رؤوس جهال، يُسألون فيفتون بغير علم، فيَضلون ويُضلون، أو أسوأ من ذلك: أن يفتوا بما يرضي سادة الاستعمار، وإن أسخط الواحد القهار، وإنمَّا ينتصر الإسلام بالعلماء لا بالعملاء، وبالدعاة لا بالأدعياء، يقول الإمام الإبراهيمي: إن المسجد لا يؤدي وظيفته، ولا يكون مدرسة للقران ؛ إلا إذا شاده أهل القران وعمروه على مناهج القران، وذادوا عنه كل عادية، وما

(1) المصدر نفسه (379/1).

جعل القران المساجد لله إلا لتكون منبعاً لهدايته، وما وصف الذين يعمرون مساجد الله بأنّهم لا يخشون إلا الله[1]؛ إلا ليقيم الحجة على ضعفاء الإيمان ويعزلهم عن هذه المرتبة.

وصدق الله وصدق رسوله الذي وصف القران بأنه «لا تنقضي عجائبه»، فوالله لكأن هذه الجملة «لم يخش إلا الله» من هذه الاية بهذا الأسلوب المفيد للحصر بأبلغ صيغة نزلت اليوم، وهّاجة بأنوار الرسالة، مطلولة بأنداء الوحي، لتكون حجّتنا القاطعة على هذا النمط من عمّار المساجد الذين يخشون المخلوق ولا يخشون الله[2].

لقد وقف الإمام الإبراهيمي وإخوانه من علماء المسلمين ليذودوا عن الإسلام في شتى الميادين، كما يَذود الأسد عن عرينه، وكما يدافع الحر عن عرضه، وكما يدافع الوالد عن ولده وفلذة كبده، ودافع عنه في ميادين عدة، منها:

. في الميدان الخارجي بما ردَّت به من شُبه الطاعنين، وكفكفت من غلوّ المبشرين، وبما أقامت من حصون في وجوه الملحدين.

. وفي الميدان الخاص بحكومة الاحتلال، وخصوصاً في قضية «فصل الدين عن الحكومة» التي تناولها الشيخ في مقالات عدَّة تحمل النور والنار، تناولتها بالشرح والتحليل، وبالبيان والتدليل، ولم يهن لها عزيمة، ولا خارت لها من المطالبة قوة، ولم يخدعها وعد ولا ردّها وعيد.

. وفي الميدان الداخلي بينها وبين قومها وأبناء ملّتها حتى تعلّم الجاهل واهتدى الضال، وفاء إلى الرشد الغويّ[3].

2 . التحرير:

وكان هدف الشيخ الإبراهيمي من عمله الإصلاحي الكبير الذي بدأه مع ابن باديس ورفقائه في الدرب، هو إعداد الشعب الجزائري المسلم ليوم لا ريب فيه، هو يوم التحرر من الاستعمار الفرنسي الاستيطاني المتغطرس، الذي طال ليله، وطمَّ سيله، ولن يحرِّر الوطن الجزائري من نير الاستعمار إلا الشعب الجزائري، ولن يتمَّ ذلك إلا إذا حرَّرنا نفسية الشعب من الخنوع للمستعمر، ومن التبعية لثقافته، ومن اليأس من مقاومته.

وحينئذ سيتحوَّل هذا الشعب كله إلى جنود للكفاح، بل إلى أبطال تنشد الجهاد والاستشهاد، حين تُحلُّ العقدة، وتتحكم العقيدة، وتتضح الغاية، وتستبين الطريق، وتستحكم العزيمة، ويسود قبل ذلك كله الإيمان بالله، والثقة بنصره، والإيمان بأنَّ الحق مع الشعب المجاهد، وأنَّ الباطل مع العدو المستعمر، وأن الحق لابد أن ينتصر على الباطل: {بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ} [سورة الأنبياء:18].

(1) الملتقى الدولي ص 52.

(2) من مقالة نشرت في البصائر، العدد 153 سنة 1951م.

(3) الملتقى الدولي ص 53.

كان لا بد من غرس العزة في الأنفس، واليقين في السرائر، والأمل في القلوب، والبغض للذل والخنوع، والشعور بالسيادة، والتوق إلى الحرية، وهذا ما فعلته «جمعية العلماء» ورجالها منذ تأسيسها، وفي مقدِّمتهم رئيس الجمعية الأول: الإمام عبد الحميد بن باديس ونائبه الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

وكان الإبراهيمي ـ وهو أديب من الطراز الأول ـ له طابعه المتميّز وأسلوبه الخاص، يرسل قلمه شواظاً من نار على الاستعمار ووحشيته، وأساليبه في القهر والإذلال، ومحاولة طمس الهَوية، وتغيير معالم الشخصية الجزائرية، وكانت «البصائر» تحمل دائماً ما يجود به قلم الشيخ من نفحات على الوطن ولفحات على الاستعمار[1].

ـ التحرير الذي ينشده الإبراهيمي:

والتحرير الذي ينشده الإمام الإبراهيمي: تحرير كامل شامل، يشمل تحرير الإنسان، وتحرير الأرض، وتحرير الفرد، وتحرير المجتمع، وتحرير الرجل، وتحرير المرأة، وتحرير العقل، وتحرير البدن، والتحرير من الاستعمار الخارجي والاستعمار الداخلي، هذا هو التحرير المنشود للإبراهيمي، وإن شئت قلت: إنه التحرير الذي تنشده جمعية العلماء، فما الشيخ في وقفته إلا لسانها المعبر، وعقلها المفكر، وداعيتها المذكر[2].

ـ إشاعة كلمة «الحرية» في محيط الشعب:

وكانت كلمة «الحرية» من الكلمات المحظورة التي لا يجوز ذكرها في حديث ولا خطبة، ولا درس ولا محاضرة ولا كتاب، كأنَّما لا توجد في اللغة أصلاً، وكان الاستعمار حريصاً على إخفائها وإماتتها، فنشروها من قبرها، وأشاعوها بين الناس، وحبَّبوها إليهم.

يقول العلامة الإبراهيمي متحدثاً عن سنوات المخاض والتحضير للنهضة الكبرى:

كانت السنوات العشر ـ التي هي أوائل المرحلة الثالثة في تقسيمنا ـ كلها إرهاصات بتكوين جمعية العلماء، وكانت كلمات: الوطنية، والإسلام وتاريخه، والحرية والاستقلال ؛ قد وجدت مساغها في النفوس، وممرَّها إلى العقول، لأنها كانت تخرج من لسان ابن باديس وصحبه العلماء الشجعان، الموثوق بعلمهم ودينهم وأمانتهم، فيرنّ رنينها في الاذان، ويجاوز صَدَاها إلى الأذهان، بعد أن كانت هذه الكلمات محرَّمة في فقه الاستعمار ومهجورة في فقه الفقهاء، الذين نشؤوا تحت رهبة الاستعمار، ومجهولة عند بقية الأمة، فكان أوَّل من نطق بها على أنها لغة حيَّة صحيحة الاستعمال هو عبد الحميد بن باديس العالم الديني، واثنان أو ثلاثة من طرازه، ولكن ابن باديس كان يقولها لتلامذته في حِلَق الدرس ليطبعهم عليها، فلمَّا أحسَّ بالنجدة من إخوانه أصبحت هذه «الحملة» مطروحة للاستعمال في السوق العامة، ولذلك ارتاع لها الاستعمار وقدّر عواقبها الوخيمة عليه[3].

(1) الملتقى الدولي ص 57.
(2) الملتقى الدولي ص 57.
(3) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته، ص 58.

3 . التوحيد:

كانت الحرية ـ أو التحرير ـ هي الأمل الأوَّل الذي يسعى لتحقيقه الإمام الإبراهيمي، وكانت الوحدة ـ أو التوحيد ـ هي الأمل الثاني الذي يرنو إليه أو يصرُّ عليه.

وهذه الوحدة تبدأ بوحدة الجزائر أولاً، فوحدة الشمال الأفريقي أو المغرب العربي، فوحدة الأمة العربية، وإنتهاء بوحدة الأمة الإسلامية.

وكانت وحدة الجزائر والجزائريين هي شغله الشاغل، فهو يعمل دائباً بعلمه ولسانه وفكره ووجدانه، وحركته مع إخوانه، لصهر عنصري الشعب الجزائري، كما عرَّب المغرب العربي كله.

وهو يعجب من الذين يريدون أن يجعلوا البربر فرنسيين، وليس بينهم وبين فرنسا نسب ولا اصرة دينية ولا عرقية، ولا تاريخية ولا جغرافية ؛ في حين بينهم وبين العروبة أكثر من اصرة.

واجتهد الشيخ الإبراهيمي أن يُجَنب الشعب الجزائري أسباب الخلاف الديني من جرَّاء الاختلاف في قضايا علم الكلام، أو مذاهب الفقه، أو اتجاهات التصوف، كما حذَّر الشيخ من مكايد الاستعمار ودسائسه، ومن همزاته ووساوسه، ومن سياسته المعروفة، التي شعارها «فرِّق تسد».

وحاول الشيخ هو ورفقاء دربه: أن يجمعوا الشعب على الإسلام الصحيح، الإسلام الأول، إسلام القران والسنة، وأن يحرِّروه ممَّا سوى ذلك من مبتدعات العامة، وضلالات الخاصَّة، أو ما سمَّاه الإمام محمد عبده: شهوات سلاطين، أو نزغات شياطين.

وقد حرص الإبراهيمي على توحيد الشعب الجزائري في شعائره الدينية. كما حرص على توحيد مواقفه الوطنية، وقد جاهد وكافح من أجل توحيد الشعب في صيامه وفطره، وكتب في ذلك مقالات ضافية، يَرُدّ بها على لجنة الأهلّة المعينة من قبل السلطة الفرنسية، ويهيب بالشعب المسلم أن يوحِّد صيامه وإفطاره[1].

وبدأ الشيخ دعوته إلى الاتحاد ـ كما قلنا ـ من المنطلق الطبيعي والمنطقي: أن تتَّحد الجزائر وشعبها أولاً في مواجهة الاستعمار الفرنسي بسلطانه وجبروته، فكانت الدعوة إلى توحيد عنصري الوطن: العرب والبربر، ثمَّ كانت الدعوة إلى اتحاد الأحزاب الوطنية التي تعمل لتحرير الجزائر، وكان الشيخ يلحُّ في هذه الدعوة ويؤكدها ويكرِّرها، ويناضل عنها بقوة، يقول في ذلك:

كل مسلم عربي جزائري مخلص يؤيِّدنا في الدعوة إلى هذا الاتحاد ويودّ منه ما نودّ، ويعتقد فيها ما نعتقده، من أنه المعقل الوحيد للقضية الجزائرية، والوسيلة الوحيدة لنجاحها، ويرى ما نرى من اثار هذا التفرق الشنيع الذي شتت شمل هذه الأمة الضعيفة، فزادها ضعفاً على ضعف، في وقت تطلعت فيه إلى المطالبة بحقها، فهي فيه أحوج ما تكون إلى جمع القوى، والتئام الشمل، واتحاد الكلمة.

تَرد علينا رسائل كثيرة من عقلاء الأمة المخلصين لها، السالمين من عصبية الحزبية، وكلها حضٌّ على السعي في الاتحاد بين الأحزاب، وجمع الكلمة المتفرّقة في هذا الوقت، الذي تجمعت فيه جموع الاستعمار على دحض

(1) المصدر نفسه ص 64.

حقّناً بباطله، وفي هذا الجوّ الذي كله نذر ومخاوف، والرسائل على كثرتها بحيث لا يخلو منها بريد يومي، وخصوصاً في الأسابيع الأخيرة، كأنما كتبت بقلم واحد في أمور ثلاثة:

التشهير بضرر الخلاف، والتنويه بضرورة الاتحاد، وتعليق الأمل في جمع الكلمة على كاتب السطور وجمعية العلماء، وقد تغالى بعض الكاتبين، فعصب قضية الاتحاد برأس كاتب هذه الكلمة وجعلها عهدة في عنقه، وبالغ بعضهم - وهو من ذوي الاراء النيرة والعلم الواسع والإخلاص المحقق - فقفز إلى غاية الغايات وهي جمع الكفاءات في حزب واحد، أما ضرر الخلاف على القضية الجزائرية فهو أمر يستوي في إدراكه جميع الناس، وأما ضرورة الاتحاد فهي أمر لا يختلف فيه عاقلان، وهو أمنية كل مسلم مخلص لدينه وجنسه ووطنه، وقد شعر به المسؤولون من رجال الأحزاب فتداعوا إليه جهرة، في حين حِدَّة الخلاف وعنفوانه، ووجود أقوى أسبابه، ولا يماري في لزوم الاتحاد إلا قصير النظر في العواقب، أو خادم لركاب الاستعمار من حيث يدري أو لا يدري، أو مدخول النسب في الوطنية[1].

أ - توحيد الشمال الأفريقي:

وبعد توحيد الجزائر شعباً ووطناً: توحيد فكرتها، وتوحيد عبادتها، وتوحيد وقفتها، ورصُّها صفاً واحداً في مواجهة المعركة المرتقبة، الاتية في يوم لا ريب فيه ؛ اتَّجه الشيخ إلى توحيد الشمال الأفريقي أو المغرب العربي - كله - فإنما هو وطن واحد، وشعب واحد، بعضه من بعض، وأقصاه موصول بأدناه، فهو شعب عربي مسلم، ربطت بينه العروبة والإسلام، كما ربط بينه الهمُّ الواحد، والمصير الواحد، وهو محاربة الاستعمار، وتحرير البلاد من نيره وناره ومن ذله وإساره.

ولذا كان حريصاً أن يثبت بنصاعة بيانه، وفصاحة لسانه، وسطوع برهانه، أن الشمال الأفريقي كلَّه عربي كما أنَّ كلَّه مسلم، وأن الإسلام قد أذاب بين الجميع كل الفروق العرقية، ووحَّدهم خلف القران الكريم والرسول العظيم، كما وحَّدهم في الصلاة خلف إمام واحد، يتلون كتاباً واحداً، ويؤدون حركات واحدة، ويتعرَّفون إلى الله بعبادة واحدة، تفتتح بالتكبير وتُختم بالتسليم.

وتحدَّث الشيخ عن وحدة الشمال الأفريقي بلسان صادق وبيان دافق، وبرهان ناطق، يقيم الحجَّة على الخصم، ويُخرس لسانه فلا يتكلم، ويفحمه فلا يجادل، تقرأ للشيخ مقالاً في «البصائر» تحت عنوان «عروبة الشمال الأفريقي» يقول فيه:

عروبة الشمال الأفريقي بجميع أجزائه طبيعية، كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء، والينابيع التي انفجرت منها الأخلاق والخصائص، والنواحي التي جاءت منها العادات والتقاليد، وهي أثبت أساساً وأقدم عهداً، أصفى عنصراً من إنكليزية الإنكليز وألمانية الألمان.

قضت العروبة بقوَّتها وروحانيتها وأدبها وسُموّ خصائصها وامتداد عروقها، في الأكرمين الأُول من نبات الصحاري، وبُناة الحاضرات فيها ؛ على بربرية كانت منتشرة بهذا الشمال، وبقايا ارية كانت منتشرة فيه، وفعل

---

(1) اثار البشير الإبراهيمي (337/3).

الزمن الطويل فعله حتى نسي الناس ونسي التاريخ الحديث أنَّ هنا جنساً غير عربي، وضرب الإسلام بيسره ولطف مدخله، وملاءمة عقائده للفطر، وعباداته للأرواح، وادابه للنفوس، وأحكامه للمصالح، على كل عرق ينبض بحنين إلى أصل، وعلى كل صوت يهتف بذكرى إلى ماضٍ بعيد، وزاد العروبة تثبيتاً وتمكيناً في هذا الشمال هذه الأبجدية العربية الشائعة التي حفظت أصول الدين، وحافظت على متون اللغة، ودوَّنت الاداب والشرائع وكتب التاريخ، وسجَّلت الأحكام والحقوق، وفتحت الباب إلى العلم، وكانت السبيل إلى الحضارة.

كل هذه العوامل صيَّرت هذا الشمال عربياً قارّ العروبة على الأسس الثابتة: من دين عربي، ولغة عربية، وكتابة عربية، واداب عربية، ومنازع عربية، وتشريع عربي، وجاء التاريخ ـ وهو الحكم في مثل هذا ـ فشهد وأدَّى، وجاءت الجغرافيا الطبيعية فوصلت هذا الشمال بمنابت العروبة من جزيرة العرب.. وجاء الزمن بثلاثة عشر قرناً، تشهد سِنوها وأيَّامها بأنها فرغت من عملها، وتمَّ التمام(1).

ويعود إلى الموضوع في خطابه التاريخي للوفود العربية والإسلامية للأمم المتحدة في باريس فيقول:

وإنَّ هذا الشمال الأفريقي كل لا يتجزأ، تربط بينه وبين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام، وسواحل البحر في الشمال، وجبال الرمال في الصحاري، وسلاسل الأطلس الأشمّ في الوسط، واتحاد الماء والهواء والغذاء، وإنَّها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟

إنَّ تفرق هذه الأجزاء لم يأت من طبيعتها وإنما جاء من طبائعنا الداخلية، ومن تأثراتنا الغربية بالدخلاء، وإنني متفائل بأن هذه الليلة ستكون فاتحة لعهد جديد واتحاد عتيد، ونور من الرحمة والإخاء ينتظم المغارب في سلك.

إنني متفائل بما يتفاءل به السارون المدلجون من انبلاج الفجر، فعسى أن يتحقق هذا التفاؤل فتكون هذه الليلة أول خيط في نسيج الوحدة الأفريقية التي هي اخر أمل للمتفائلين مثلي، وإنَّ العنوان الدَّالّ على ما وراءه هو: اجتماع جميع حركات الشمال الأفريقي في هذا المحفل الزاهر، وإن البشير بتحقق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد، ومن بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، وكلها لسان يعبر، وقلب يفكر، واذان تسمع، وإنا لنرجو أن تكون قلوبنا غداً غير قلوبنا بالأمس، وأن نفيء إلى الحق الذي أمر الله بالفيأة إليه، وإنَّ الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم(2).

ب ـ توحيد العرب والمسلمين:

وهو حين يدعو إلى وحدة الجزائر، فوحدة المغرب العربي، فوحدة العرب، ينتهي إلى الوحدة الكبرى لأمة الإسلام كلها، من المحيط إلى المحيط من جاكرتا إلى مراكش(3).

---

(1) نشرت في العدد 150 من جريدة «البصائر» سنة 1952م.

(2) «البصائر» العدد 183 السنة الخامسة 18 فبراير 1952م.

(3) الملتقى الدولي ص 68.

وطالما كتب الإبراهيمي يستصرخ المسلمين ليجتمع شملهم، ويتّحد صفُّهم، وينعي عليهم تفرُّقهم، ودينهم يوجب عليهم أن يجتمعوا، وينكر عليهم تقاطعهم، ومصلحتهم تفرض عليهم أن يتواصلوا، وقد كتب كلمة قوية في «البصائر» تحت عنوان «أرحام تتعاطف» جاء فيها:

طالما نعينا على المسلمين خصوصاً، وعلى الشرقيين عموماً، هذا التقاطع الذي شتَّت شملهم، وفرَّق جامعتهم، وصيَّرهم لقمة سائغة للمستعمرين، وطالما شرحنا للمسلمين أسرار التواصل والتراحم والتقارب الكامنة في دينهم، وأقمنا لهم الأدلة، وضربنا لهم الأمثال، وسُقنا المثُلات، وجَلونا العبر، وكانت نذر الشر تتوالى، فيتمارون بها وصيحات الضحايا منهم تتعالى، فيصمُّون عنها، والزمن سائر، والفلك دائر، وهم في غفلة ساهون.

دعوناهم إلى الجامعة الواسعة التي لا تضيق بنزيل، وهي جامعة الإسلام إلى الروحانية الخالصة التي لا تشاب بدخيل، وهي روحانية الشرق، وحذرناهم من هذه الأفاحيص الضيقة، والوطنيات المحدودة، التي هي منبع شقائهم ومبعث بلائهم، وبينَّا لهم أنها دسيسة استعمارية، زيَّنها لهم سماسرة الغرب وعلماؤه وأدلاؤه، وغايتهم منها التفرقة، ثم التمزيق ثم القضم ثم الهضم. وإن الاستعمار ـ بهذه الدسيسة وأشباهها ـ يُفسد فكرة الله فيهم، وينقُض دين الله عندهم، ففطرة الله تُلهم نصر الأخ لأخيه، وحماية الجار لجاره، دين الله يوجب حقوق الأخوة، ويدعو إلى إيثار الجار والإحسان إليه، وهو بهذا يعمِّم التناصر، ويقيم في الأرض شرعة التعاون، فما من جار إلا له جار والناس كلُّهم متجاورون جوار الدار للدار، فجوار القرية للقرية، فجوار المدينة للمدينة، فجوار الوطن للوطن، فإذا أخذوا بهذه الشرعية وأقاموا حدودها عمَّ التناصر والتعاون، وسدَّت المنافذ على المغِيرين وعلى المفسدين في الأرض[1].

ج ـ داؤنا الانقسام، ودواؤنا الوحدة:

ويذكر الشيخ الإبراهيمي في خطابه الذي ألقاه في باريس، أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة هذه الكلمات القوية المزلزلة، والمعبرة عن داء الفرقة ودواء الوحدة بقلمه البليغ المبدع.

أيها الإخوان:

إن النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا هي أنَّهم أرادونا على الانقسام، وزيَّنوه لنا كما يزيِّن الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم وانقسمنا، فوسعوا شقة الانقسام بيننا بأموالهم، وأعمالهم وارائهم وعلومهم، ولم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل، ولم يغفلوا الأستاذ والكتاب والراهب والمرأة والتاجر والسمسار حتى بلغوا الغاية في تقسيمنا شيعاً ودولاً وممالك، كما توزع قطعة الأرض الكبيرة الصالحة إلى قطع صغيرة لا تصلح واحدة منها ولا تكفي، ثمَّ عمدوا إلى خيرات الأرض فاحتكروها لأنفسهم واستخرجوها بعقولهم المدبِّرة، وأيدينا المسخَّرة، فكان لهم منها حظُّ العقل، ولنا منها حظُّ اليد، ولو أنَّنا تعاسرنا عليهم من أوَّل يوم في تقسيمنا، ولذنا بكعبة الوحدة نطوف بها ونلتزم أركانها لما نالوا منَّا نيلاً، ولما وصلنا إلى هذه الحالة.

(1) نشرت في العدد 148 من جريدة «البصائر» سنة 1951م.

وأمَّا وقد بلغوا من تقسيمنا ما يريدون، وأصبحنا في درجة من الضعف المادي والضعف العقلي، نعتقد فيها أن خلقنا خلقة الأرنب، وخلقهم خلقة الأسد، وجف القلم، ولا تبديل لخلق الله، فأوَّل واجب علينا، بل أوَّل نقطة يجب أن نبتدأئ منها السير، هي أن نكفر بهذا الانقسام، ونُكفِّر عنه بضدِّه، وهو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء، وكيف يكون ذلك، وقد بنيت على ذلك التقسيم أوضاع جديدة، وممالك وملوك وحدود، وإن تغيير الممالك لصعب، وإنَّ فطام الملوك عن لذَّة الملك لأصعب منه؟

فلنلتمس مفتاح قضيتنا من بين هذا الركام من الأدوات البالية، ولنعتصم بالأمر الميسور، وهو أن نوحِّد التعليم ومناهجه، والتجارة وأوضاعها، ولنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا ببعضنا فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، ولنكن يداً واحدة على الأجنبي، ولنعتبر المعتدي على جزء منّا معتدياً على جميع الأجزاء، وعدو العراق هو عدو مراكش، ولنذكر من خصال الأمم ما فعلته إيطاليا في ضم أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا التي لم تنم لها عين في قضية الألزاس واللورين، ولو أن معتدياً اعتدى على جزء من إنكلترا «وهي كجزيرة العرب» تداعى الإنكليز من أطراف الأرض لاسترجاعه، فلم لا نكون كذلك؟ إنَّهم إن علموا ذلك منَّا، وعلموا جدّنا فيه تابوا عن سيرتهم فينا وأقلعوا، أمَّا من لان للأكل فليس من حقِّه أن يلوم الأكلة.

والذي روحي بيده.. ما يسرني أن للعرب ثماني دول، ولا أن للمسلمين عشرين دولة، ما داموا على هذه الحالة، وإنَّما يسرُّني ويثلج صدري أن يكون المسلمون كلهم شعباً واحداً بحكومة واحدة، وعلى اتجاه إلى السعادة واحد، فإذا وُجِدَ هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلا أن يقولوا: إن في الشرق قوماً جبارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع.

إن القوم استضعفونا، ففرَّقونا، فأكلونا لقمة لقمة، فأوجِدوا هذا الشعب الموحد تَحْيوا وتُحْيوا العالم به، أوجِدوه تَسعدوا وتُسعِدوا العالم به.. إنَّ العالم اليوم مريض، وإنَّه يلتمس الشفاء، فأروه أن في الإسلام شفاءه، وإنَّه في خصام منهك وإنَّه يلتمس الحكم، فأحيوا الإسلام الصحيح يكن حكماً في مشكلة هذا العصر.. مشكلة الغنى والفقر.. تكتَّلوا يمدَّكم العصر بروحه.. إنه عصر التكتُّل، وإن الأقوياء لم تغْن عنهم قوتُهم شيئاً، فأصبحوا يلتمسون أنواعاً من التكتل مع القريب، ومع الغريب، فهذه إنكلترا تتكتل، وهذه أمريكا، وهذه روسيا، فكيف لا يتكتل الضعفاء[1]؟!.

قال الشيخ هذا قبل أكثر من نصف قرن «سنة 1952م»، فكيف لو عاش إلى عصرنا، ورأى ما فيه من تكتُّلات واتحادات مثل الاتحاد الأوربي؟ الذي أمسى حقيقة واقعة بعد حروب بين الأوربيين بعضهم وبعض استمرت قروناً، اخرها الحربان العالميتان، اللتان سقط فيهما من القتلى والضحايا بالملايين[2].

د . بدء تفرُّق المسلمين في الدين:

(1) جريدة «البصائر» 183 في 18 فبراير 1952م.

(2) الملتقى الدولي ص 71.

ويتحدَّث الشيخ الإبراهيمي عن بدء ظهور التفرُّق في المسلمين حديثاً يُنبِأئُ عن وعي بتاريخ الأمة الفكري، فيقول:

أول ما نشأ في المجتمع الإسلامي من جراثيم التفرُّق في الدين: الكلام في القدر والخوض في الصفات، وقارن ذلك حدوث الخلاف في الخلافة: فهل هي شعبة من الدين، تفتقر إلى تنصيص من الشارع؟ أو هي مصلحة دنيوية ترجع إلى اختيار أهل الرأي في الأمة؟

وقد سبق الخلافَ العمليَّ الخلافُ العلمي في هذه المسألة، وهي المعترك الأوَّل الذي اشتجرت فيه الاراء حتى تفرقت بعد أن اشتجرت فيه الرماح حتى تقصفت، كما أنَّها أوَّل مسألة امتزجت فيها الأنظار الدينية بالأنظار الدنيوية «أو السياسية» كما يقولون، وفي هذا المعترك نبتت جرثومة التعقُّب الخبيثة.

ثم توسعت الفتوحات وبسط الإسلام ظلَّه على كثير من الممالك التي كانت لها أثارة من عمران، وشيء من سلطان، ودانت له كثير من الأمم، وفي كل أمة طوائف دخلت في الإسلام وهي تحمل أوزاراً من بقايا ماضيها، وما كادت هذه المجموعات البشرية تمتزج ويفعل الإسلام فيها فعله حتى ظهرت عليها أعراض التفرُّق.

فظهر أصحاب المقالات في العقائد، وأحدثوا بدعة «التأويل»، الذي هو في الحقيقة تحريف مسمَّى بغير اسمه، وتوفَّرت الدواعي لظهور المذاهب الفقهية، والمذاهب الكلامية، والمذاهب الصوفية، في أزمنة متقاربة، وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثر قوي في تعدُّد المذاهب الكلامية والصوفية، بما أتت به الأولى من بحث في الإلهيات على الطريقة العقلية الصرفة، وبما غذت به المتكلمين من الأنظار المختلفة، وأمدتهم به من طرائق الجدل القانونية، وهذا مبدأ التفرُّق الحقيقي في الدين، لأن المتكلمين يزعمون أن علومهم هي أساس الإسلام، والصوفية يقولون: إن علومهم هي لباب الشريعة وحقيقتها[1].

هـ ظهور المذاهب الفقهية والتعصُّب لها:

أمَّا المذاهب الفقهية، فحدوثها ضروري ما دامت السنة لم تُجمع، وبعد جمعها لم تكن وافية بالتنصيص على الوقائع الجزئية، ومتونها وأسانيدها بعد خاضعة للتزكية والتجريح، لأنَّها لم تنقل بطريق التواتر، وما دامت مدارك المجتهدين ـ الذين هم المرجع في هذا الباب ـ متفاوتة بالقوَّة والضعف في الاستنباط ووجوه القياس وعلله، وما دامت الوقائع التي تناط بها الأحكام لا تنضبط، وقد استحدث العمران أنواعاً جديدة من المعاملات الدنيوية لا عهد للإسلام الفطري فيها، وصوراً شتى من المعايش ووجوه الكسب لم تكن معروفة ؛ فمن سماحة التشريع الإسلامي ومرونته أن تتناول هذه المستحدثات الجديدة بأنظار جديدة، وتستنبط من أصوله أحكام لفروعها، وكل هذا لا حرج فيه وليس داخلاً فيما نشكوه، بل نحن أوّل من يقدر قدر أولئك الأئمة الذين هم مفاخر الإسلام.

وهي في حدِّ ذاتها ليست هي التي فرّقت المسلمين، وليس أصحابها هم الذين ألزموا الناس بها، أو فرضوا على الأمة تقليدهم، فحاشاهم من هذا، بل نصحوا وبينوا، وبذلوا الجهد في الإبلاغ، وحكّموا الدليل ما وجدوا إلى

(1) الملتقى الدولي ص 72.

ذلك السبيل، وأتوا بالغرائب في باب الاستنباط والتعليل، والتفريع والتأصيل، ولهم في باب استخراج علل الأحكام، وبناء الفروع على الأصول، وجمع الأشباه بالأشباه، والاحتياط ومراعاة المصالح؛ ما فاقوا به المشرِّعين من جميع الأمم[1].

وإنما الذي نعدُّه في أسباب تفرُّق المسلمين هو هذه العصبية العمياء التي حدثت بعدهم للمذاهب، والتي نعتقد أنهم لو بُعثوا من جديد إلى هذا العالم، لأنكروها على أتباعهم ومقلديهم، وتبرؤوا إلى الله منهم ومنها، لأنها ليست من الدين الذي أؤتمنوا عليه، ولا من العلم الذي وسَّعوا دائرته.

وقد طغت شرور العصبية للمذاهب الفقهية في جميع الأقطار الإسلامية، وكان لها أسوأ الأثر في تفريق كلمة المسلمين، وإنَّ في وجه التاريخ الإسلامي منها لندوباً.

أمَّا اثارها في العلوم الإسلامية، فإنَّها لم تمدَّها إلا بنوع سخيف من الجدل المكابر، لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا عاصم من شرور هذه العصبية إلا صرف الناشئة إلى تعليم فقهي، يستند على الاستقلال في الاستدلال، وإعدادها لبلوغ مراتب الكمال، وعدم التحجير عليها في استخدام مواهبها إلى أقصى حد[2].

و ـ المذاهب الكلامية:

وأمَّا المذاهب الكلامية، فلم يكن أثرها بالقليل في تفرُّق المسلمين وتمزُّق شملهم، ولكنَّها لما كان موضعها البحث في وجود الله وإثبات صفاته، وما يجب له من كمال، وما يستحيل عليه من نقص، كل ذلك من طريق العقل؛ كانت دائرتها محدودة وكان التعمق فيها من شأن الخواص، وقعد بالعامة عن الدخول في معتركها، إحساساً بالتقصير في أدواته من جدل وعقليات يحتاج إليها في مقامات المناظرة والحِجاج، فليس علم الكلام كعلم التصوف مطية ذلولاً يندفع لركوبها العاجز والجازم، فالتصوُّف شيء غامض، يسعى إليه بوسائل غامضة، ويسهل على كل واحد ادِّعاؤه والتلبيس به، فإن خاف مدَّعيه الفضيحة لم يعدم سلاحاً من الجمجمة والرمز وتسمية الأشياء بغير أسمائها، ثم الفزع إلى لزوم السمت، والتدرُّع بالصمت، والإعراض عن الخلق والانقطاع والهروب منهم، ما دام هذا كله معدوداً في التصوف وداخلاً في حدوده، ولا كذلك علم الكلام الذي يفتقر إلى عقل نيِّر وقريحة وقادة وذكاء نافذ، ويحتاج منتحله إلى براعة ولسن ومران على المنطق ومقدِّماته ونتائجه، وأقيسته وإشكاله، ولم كل هذه العدد؟

كل هذه العدد للمناظرات وما تستلزمه من إيراد ودفع وإفحام وإلزام، وأين العامة من هذا كله؟ لذلك لم يكن لها من حظ من هذا العلم إلا معرفة أسماء بعض الفرق والانتصار لها انتصاراً تقليدياً، ولذلك كانت اثار التفريق الناشئة عن هذه المذاهب الكلامية قاصرة على طبقات مخصوصة، ولم تتغلغل في العامة كما تغلغلت اثار التصوُّف.

---

(1) المصدر نفسه ص 73.

(2) اثار البشير الإبراهيمي (1/95 ـ 96).

وقد انقرضت تلك الفرق، وانقرض بانقراضها سبب جوهري من أسباب التفرُّق، بل مات بموتها شاغل طالما شغل طائفة من خيرة علماء المسلمين ببعضهم، وجعل بأسهم بينهم شديداً، وألهاهم بما يضرّ عمَّا ينفع.

تلاشت تلك الفرق، ولم تبق إلا أخبار معاركها الجدلية في كتب التاريخ، وإلا اراؤها المدوَّنة في كتبها فتنة للضعفاء، وتبصرة للحصفاء، ولم يبق من تلك الأسماء التي كوَّنت قاموساً من الأنساب إلا اسمان يدوران في أفواه العامة وأشباه العامَّة، ويستعملونهما في أغراض عامية، وهما «أهل السنة والمعتزلة» [1].

ز . تخلف دراسة علم التوحيد:

ومن المحزن أنَّ دراسة علم التوحيد حتى في كلِّيَّاتنا «الراقية» ـ كالأزهر والزيتونة ـ لا تزال جارية على تلك الطرائق، وفي تلك الكتب، ولا تزال تقرَّر فيها تلك الاراء، ولا تزال تذكر فيها أسماء تلك الفرق التي لم يبق لها وجود، ويستعرض سيدنا المدرِّس تلك الاراء، ثم يدحضها، ويقيمها، ثم ينقضها، وتقطع أوقات الطلبة المساكين في ذلك ويا ضيعة الأعمار.

أمَّا الشبهات التي يوردها كل يوم ملاحدة العصر ومبشِّرو المسيحية على الإسلام، ويفتنون بها العلماء فضلاً عن العوام ؛ فإنَّ كلياتنا «العلمية الدينية» ومدرِّسيها لا يعيرونها أدنى اهتمام ولا يعمرون بها وقت الطلبة.. فيا للفضيحة[2].

وأما المذاهب الصوفية، فهي أبعد أثراً في تشويه حقائق الدين، وأشدَّ منافاة لروحه، وأقوى تأثيراً في تفريق كلمة المسلمين ؛ لأنها ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة مبهمة، تستَّرت في أوَّل أمرها بالانقطاع للعبادة، والتجرُّد من الأسباب، والعزوف عن اللذات الجسدية، والتظاهر بالخصوصية، وكانت تأخذ منتحليها بشيء من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد وإرهاقه، توصلاً إلى كمال الروح ـ زعموا ـ وأين هذا كلُّه من روح الإسلام وهدي الإسلام؟ ولم يتبين الناس خيرها من شرِّها لما كان يسودها من التكتم والاحتراس، حتى جرت على ألسنة بعض منتحليها كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار، فراب أئمة أمرها، وانفتحت أعين حراس الشريعة، فوقفوا لها بالمرصاد، فلاذ منتحلوها بفروق مبتدعة يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة، إلى ألفاظ أخرى من هذا القبيل، لا تخرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينين.

وما كاد السيف الذي سُلَّ على الحلاج وصرعى مَخْرِقَتِهِ يغمد، ويوقن القوم أنهم أصبحوا بمنجاة من فتكاته؛ حتى أجمعوا أمرهم، وأبدوا للناس بعض مكنونات أسرارها ملفوفة في أغشية جميلة من الألفاظ، ومحفوفة بظواهر مقبولة من الأعمال، وحاولوا أن يصلوا نحلتهم تلك بعجرها وبجرها بصاحب الشريعة أو بأحد أصحابه، فلم يفلحوا، وافتضحت حيلتهم، وانقطع الحبل من أيديهم، فرجعوا إلى ادِّعاء الكشف وخرق الحجب، والاطلاع على ما وراء الحسِّ، إلى اخر تلك «القائمة» التي لا زلت تسمعها حتى من أفواه العامَّة وتجدها في معتقداتهم[3].

---

(1) اثار البشير الإبراهيمي (96/1 . 97).

(2) الملتقى الدولي ص 75.

(3) المصدر نفسه ص 77.

4 . التوعية والتربية:

اعتمد الشيخ الإبراهيمي في منهجه الإصلاحي على ركيزتين أساسيتين هما: التوعية والتربية، وهما في الواقع ركيزتا جمعية العلماء، فما كان للشيخ أن يحيد عنهما، وهو الأمين على مسيرة الجمعية والمِضِي بها قُدماً في طريقها الذي رسمته من أوَّل يوم.

وأمَّا التوعية، فهي لجماهير الشعب الذي هو هدف الإصلاح ووسيلته معاً.

وأمَّا التربية فهي للطلائع التي ينتظر منها أن تقود معركة التحرير، ومعركة البناء والتقدم فيما بعد.

وكانت التوعية في نظر الشيخ ـ كما هي في نظر جمعية الإصلاح منذ نشأت ـ تقوم على فهم الدين فهماً صحيحاً، بحيث تنشأئ مسلماً سليم العقيدة، صحيح العبادة، مستقيم السلوك، عزيز النفس، قوي الجسم، حر الإرادة، مستنير العقل، محباً للخير، غيوراً على أهله ووطنه ودينه، عالماً بمن هو صديقه ومن هو عدوُّه.

وكان إنشاء هذا الجيل هو قُرَّة عين الشيخ وإخوانه، وكان هو معقد الأمل في تحقيق النصر المنشود على الاستعمار الفرنسي، وما خلَّفه من اثار في الأنفس والعقول والحياة، وكان الاستعمار الفرنسي اللعين يعرف تمام المعرفة أن هذا الجيل هو الخطر الحقيقي على وجوده وبقائه في الجزائر، ولذا كان له بالمرصاد، وكان يعوّق طريقه بكل ما يمكنه، ولكن الإبراهيمي كان ماضياً في سبيله، مستعيناً بربه، مشدود الأزر بإخوانه من العلماء وشعبه الجزائري الأبيّ.

وكانت جولات الشيخ في طول البلاد وعرضها، ودروسه وخطبه ومحاضراته، وأحاديثه الخاصة والعامة، ومقالاته في «البصائر» ؛ كلها تدور حول إيقاظ الوعي الديني الحقيقي، وتنقية الفكر الإسلامي من الخرافات والأباطيل والبدع التي شوَّهت وجه الدين الجميل، وأضافت إليه من الزوائد والشوائب ما كدَّر صفاءه، ولوَّث نقاءه، ومن المحدثات ما عسَّر الدين الذي أراد الله به اليُسر ولم يرد به العُسر، وما جعل فيه من حرج.

وكل عمل من هذا السبيل يهدم لبنة من لبنات الاستعمار المخرِّب، ويضع لبنة من لبنات الجزائر العربية المسلمة جزائر الغد، ويغرس الامال في أنفس الجزائريين بقدر ما يغرس المخاوف في قلوب الفرنسيين(1).

أ . أشنع أعمال فرنسا في الجزائر:

ويتحدث العلامة الإبراهيمي عن التخريب الهائل الذي مارسته فرنسا في الجزائر منذ احتلالها، فيقول: كانت الجزائر قبل احتلال الفرنسيين لها في سنة 1830م دولة مستقلة غنية، تملك خصائص الدول في ذلك العصر، وأهمُّها العلم بالدين والدنيا، وفيها من الأوقاف الإسلامية الدارَّة على العلم والدين ووجوه البر ما لا يوجد مثله في قُطر إسلامي اخر، ومنذ تغلب عليها الاستعمار الفريد في الخبث، وهو يعمل جاهداً على قتل شخصيَّتها بالقضاء على الدين واللغة العربية، وكان أوَّل عمل قام به هو مصادرة الأوقاف الإسلامية والمعاهد التابعة لها من مساجد ومدارس وزوايا، وتحويلها إلى كنائس وثكنات واصطبلات وميادين ومرافق عامة، ثم أصدرت قانوناً لا نعرف له نظيراً في تاريخ البشرية العاقلة، يقضي باعتبار اللغة العربية لغة أجنبية في وطنها وبين أهلها،

---

(1) المصدر نفسه ص 78.

يتوقَّف تعليمها على إذن خاص وشروط ثقيلة، وزادت تلك الشروط على الأيام ثقلاً وعنتاً، حتى أصبحت في السنوات الأخيرة لا تطاق، وأصبح معلِّم العربية يقف في قفص الاتهام مع اللصوص والسفاكين، وتجري عليه العقوبات مثلهم بالسجن والتغريم والتعذيب.

ثم دأب الاستعمار «من مائة ونيف وعشرين سنة» على طمس كل أثر للإسلام والعربية، وقطع كل صلة بينهما وبين الشرق، ليتم له مسخ الأمة الجزائرية، وإدماجها في الأمة الفرنسية، ولكن المناعة الطبيعية في هذه الأمة، وتصلّبها في المحافظة على التراث الإسلامي المقدس، وعلى خصائصها الشريفة، دفع عنها ذلك البلاء وأنقذها من ذلك المصير[1].

ب . توعية الشعب وتنويره:

ويشرح الشيخ ما تقوم به جمعية العلماء من تنوير وتوعية للشعب الجزائري، وتحرير عقله ووجدانه وإرادته من الأوهام والضلالات، وشغله بمعالي الأمور عن سفاسفها، ووصله بالحق بدلاً من ركضه وراء الباطل، عن طريق المساجد والأندية وغيرها، فيتحدث عن مبدأ جمعية العلماء وغاياتها فيقول: مبدأ جمعية العلماء يرمي إلى غاية جليلة، فالمبدأ هو العلم، والغاية هي تحرير الشعب الجزائري، والتحرير في نظرها قسمان:

. تحرير العقول والأرواح، وتحرير الأبدان والأوطان، والأول أصل للثاني، فإذا لم تتحرَّر العقول والأرواح من الأوهام في الدين وفي الدنيا، كان تحرير الأبدان من العبودية والأوطان من الاحتلال متعذراً أو متعسراً، حتى إذا تمَّ منه شيء اليوم، ضاع غداً، لأنه بناء على غير أساس، والمتوهم ليس له أمل، فلا يرجى منه عمل.

لذلك بدأت جمعية العلماء . من أوَّل يوم نشأتها . بتحرير العقول والأرواح بالدروس والمحاضرات، حتى بلغت من ذلك أقصى غاية من الجهد وأقصى غاية من النتائج، وأصبح الشعب في جملته صافي الفكر، مستقل العقل، متوهج الشعور، مشرق الروح، فاهماً للحياة، واسع الأمل فيها، عاملاً للحرية والاستقلال، مؤمناً بماضيه، عاملاً على ربط الحاضر بالماضي، ووصله بالوطن العربي الأكبر، متبصراً في وزن رجاله، لا ينطلي عليه غش الغشاشين ولا تدجيل الدجَّالين. ومعلوم أن هذه المعاني لا تدخل النفوس دفعة واحدة، وإنَّما تكمل بالتدرُّج. والذي وصل إليه الشعب الجزائري من هذا هو نتيجة نيف وعشرين سنة من أعمال جدّية متواصلة، ولكنَّه لا يتم عادة في أقل من خمسين سنة[2].

ج . أعمال جمعية العلماء في التعليم والتوعية:

ويعدِّد الشيخ ما قامت به جمعية العلماء من أعمال مجيدة للشعب فيقول:

. زادت الجمعية على هذا العمل العام اخر خاصاً، وهو العمل على تخريج جيل جديد، يتلقى هذه المعاني في الصغر، ويثبتها بالعلم الصحيح، لتحارب الاستعمار بسلاح من نوع سلاحه وهو العلم، فأسَّست في هذين

---

(1) المصدر نفسه ص 79.

(2) المصدر نفسه ص 80.

العقدين من السنين نحو مائة وخمسين من المدارس الابتدائية للعربية والدين، وشيَّدتها بمال الأمة وصيرتها ملكاً للأمة، وهي تضم اليوم ما يقرب من خمسين ألف تلميذ من حملة الشهادات الابتدائية من مدارس الجمعية.

. بما أن المساجد التي هي تراث الأجداد صادرتها الحكومة الفرنسية وصادرت أوقافها من يوم الاحتلال، فأحالت بعضها كنائس وبعضها مرافق عامة، وهدمت كثيراً منها لتوسيع الشوارع والحدائق، واحتفظت بالباقي لتتخذ منه حبالة تجرّ أشباه الموظفين الدينيين، وما زالت إلى الان هي التي تعيِّن الأئمة والخطباء، والمؤذنين والقومة، ولكنَّها تستخدمهم في الجاسوسية والمخابرات، وتجري عليهم المرتبات من الخزينة العامة، لذلك التفتت الجمعية إلى هذه الناحية الحيوية، وشيَّدت بمال الأمة نحو سبعين مسجداً في أنحاء القطر، لأداء الشعائر وإلقاء الدروس الدينية، والحكومة الفرنسية تنظر إلى هذه المساجد نظرتها إلى الحصون المسلحة.

. في الجزائر مئات الالاف من الشبان العرب المسلمين، فاتهم التعليم الديني والعربي، ولا تلقاهم الجمعية في المدارس ولا في المساجد، والاعتناء بهم واجب، فأنشأت لهم الجمعية عشرات من النوادي المنظمة الجذَّابة، تلقي عليهم فيها المحاضرات العلمية والدينية والاجتماعية، وأدَّت هذه النوادي أكثر ممَّا تؤدِّيه المدارس والمساجد من التربية والتوجيه.

. أنشأت الجمعية للعمال الجزائريين في باريس وغيرها من مدن فرنسا عشرات من النوادي، وزوَّدتها بطائفة من الوعاظ والمعلِّمين من رجالها، يتعلَّم فيها أولئك العملة ضروريات دينهم ودنياهم، ويتعلم فيها أبناؤهم اللغة العربية تكلُّماً وكتابة، ويتربَّون على الدين والوطنية، وقد استفحل أمر هذه النوادي واتت ثمراتها قبل الحرب الأخيرة، ثمَّ قضت عليها الحرب، ثم حاولت الجمعية تجديدها بعد الحرب، غير أن التكاليف المالية تضاعف واحدها إلى الالاف، فكان ذلك وحده سبباً للعجز.

. أنقذت الجمعية عشرات الالاف من أبناء الجزائر من الأمية بوسائل دبرتها ونجحت فيها نجاحاً عجيباً، وإن هذا العمل من غرر أعمالها، لأن الأمية تشلُّ[1] الشعوب.

د . الميدان الداخلي:

كان أمام الشيخ البشير . ومن قبله الشيخ ابن باديس . ميدانان للكفاح، ميدان الاستعمار الخارجي، وميدان الاستعمار الداخلي، استعمار العقول والنفوس والضمائر بالأوهام والضلالات والبدع، فاختار الشيخان البدء بالميدان الداخلي، فهو أحق وأولى بالاهتمام.

وعلَّل ذلك الشيخ الإبراهيمي فقال: كانت الحكمة لاختيارنا الميدان الأوَّل للهجوم، أنَّ موضوع النزاع ديني، ونحن علماء دين يعترف لنا بالإمامة العلمية حتى الاستعمار وأعوانه، ولا يستطيع الاستعمار أن ينتصر لأوليائه في نزاع ديني انتصاراً سافراً، وإنَّما ينتصر لهم بوسائل أخرى لا تؤثر في هدفنا الذي نرمي إليه، وهو انتزاع الأمة من هؤلاء المستغلين لها باسم الدين، وإنقاذها من جبروتهم، وإننا إذا جرّدناهم من سلطانهم الوهمي، كانت معنا على الاستعمار الخارجي الحقيقي، ومن لم يكن الشعب معه كان مخذولاً في كل ميدان.

(1) نشرت في صحيفة «منبر الشرق»، وصحيفة «الدعوة» أغسطس 1954م.

بدأنا هذه الحركة بجنب حركة التعليم الديني العربي، وأطلقنا عليها اسمها الحقيقي وهو: «الإصلاح الديني»، وهو اسم يهيج الاستعمار الخارجي في الدرجة الثانية، فكان من تفاوت التهيُّج فسحة، سرنا فيها خطوات إلى النجاح، وكانت أعمالنا تسير في دائرة ضيقة، لأنَّ الاستعداد لظهور جمعية العلماء لم يتمّ إذ ذاك، وكان مبدأ «العمليات» بدروس دينية ومحاضرات.

ورأى المرحوم عبد الحميد بن باديس: أنه لابد من جريدة تظاهر الفكرة، وتخدمها، فأنشأ جريدة «المنتقد»، وهي أول جريدة إصلاحية بالشمال الأفريقي، فكانت أرفع صوت وأفعل وسيلة لنشر الإصلاح الديني، فارتا ع لها الاستعمار الفرنسي وعطّلها في مدَّة قريبة بما يملك من قوانين، فأصدر المرحوم جريدة أخرى باسم «الشهاب» كانت أسدّ رماية، وأوسع خطى من سابقتها، وسكت عنها الاستعمار، فنقلها صاحبها من جريدة إلى مجلة، طال عمرها بضع عشرة سنة، ورافقت سنوات الإرهاص لجمعية العلماء، فسجَّلت خطوات الحركة، وكانت لها مواقف رائعة في عدَّة ميادين، فخدمت العلم والدين والسياسة، وتردَّد صداها في المغارب الثلاثة، فتركت في كل قطر أثراً حميداً في النفوس، وفضحت الاستعمار الفرنسي فضائح لا ينسى خزيها[1].

هـ التربية:

وكانت التربية في نظر الشيخ ـ وفي نظر الجمعية ـ هي الوسيلة المثلى لغرس التعاليم الإسلامية التجديدية، ومعها النزعة العروبية الوطنية في عقول الناشئة وفي قلوبهم، ومقاومة تيار «الفرنسة» الذي يعمل منذ احتل الجزائر على أن يجرِّدها من هويتها الإسلامية والعربية، وذلك بفرض الفرنسية لغة وحيدة في التعليم وإبعاد العربية تماماً عن هذا المجال، وحذف الدين الإسلامي من مجال التربية والتعليم حذفاً تاماً، باعتبار أن الدولة «علمانية» «لائكية»، وأنها لا تعلّم الدين في مدارسها.

فكان المطلوب هنا عملاً مضاداً لما يهدف إليه المستعمر، تقوم التربية فيه على أساس أن الدين هو الأساس، والعربية هي اللسان.

فإذا كان التعليم الفرنسي السائد يقصد إلى فرنسة الجزائريين، فإن التعليم الذي قاده من قبل ابن باديس وقاده من بعده الإبراهيمي يقصد إلىإعادة «أسلمة» الجزائريين و«تعريبهم»، أو إلى إبقاء الإسلام والعروبة عند من بقيا عنده. وكان شعار جمعية العلماء منذ البداية: الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا. ولذلك كان تركيزهم المستمر والدؤوب على ضرورة «التعليم العربي»، الذي يجب أن تتاح له فرصة بجوار «التعليم الفرنسي» السائد والمهيمن على الساحة كلها، وكانت مناهج هذا التعليم وكتبه ولغته ومعلّموه وإدارته والجو المدرسي العام ؛ كلها تصبُّ في هذا الاتجاه، حتى الأناشيد التي تحفّظ للطلاب تغرس فيهم هذه المعاني، وتنمّي فيهم هذه المشاعر مثل النشيد المعروف الذي ألَّفه الإمام ابن باديس نفسه ويحفظه الجميع:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات، فقد كذب

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 83.

ومن حسن حظ الجزائر: أن الله تعالى وهبها رجلاً مربياً من الطراز الأول، ومنحه من المواهب والملكات ما قاد به كتيبة التربية على بصيرة ووعي بالهدف المنشود، والمنهج المقصود، وأعدَّ له من الرجال الكفاة من يذلِّل بهم الصعاب، ويتخطى بهم العقاب، إنه الإمام ابن باديس الذي كان هدية الله للجزائر، كما يتحدث عنه الإبراهيمي[1].

يقول الإبراهيمي في إحدى مقالاته أو دراسته عن جمعية العلماء ومؤسسها:

وعبد الحميد بن باديس باني النهضة وإمامها ومدرِّب جيوشها: عالم ديني، ولكنه ليس كعلماء الدين الذين عرفهم التاريخ الإسلامي في قرونه الأخيرة، جمع الله فيه ما تفرَّق في غيره من علماء الدين في هذا العصر، وأربى عليهم بالبيان الناصع، واللسان المطاوع، والذكاء الخارق، والفكر الولود، والعقل اللمَّاح، والفهم الغوَّاص على دقائق القران وأسرار التشريع الإسلامي، والاطلاع الواسع على أحوال المسلمين ومناشئ أمراضهم، وطرق علاجها، والرأي السديد في العِلميات والعمليات، من فقه الإسلام وأطوار تاريخه، والإلمام الكافي بمعارف العصر، مع التمييز بين ضارها ونافعها، مع أنَّه لا يحسن لغة من لغاتها غير العربية.

وكان مع التضلع في العلوم الدينية واستقلاله في فهمها، إماماً في العلوم الاجتماعية. يكمل ذلك كله: قلم بليغ شجاع يجاري لسانه في البيان والسحر، فكان من أخطب خطباء العربية وفرسان منابرها، كما كان من أكتب كتّابها، وهو من بيت عريق في المجد والملك والعلم، يتصل نسبه الثابت المحقَّق بالمعز بن باديس، مؤسس الدولة الباديسية الصنهاجية، إلى صنهاجة القبيلة البربرية العظيمة التي حدَّثناكم عن دولها واثارها بالجزائر، والمعز بن باديس ؛ وهو الذي تولى الدولة الصنهاجية بالقيروان بعد والده، ويزعم بعض النسَّابين أنها يمنية وصلت إلى شمال أفريقيا في إحدى الموجات التي رمى بها الشرقُ الغربَ من طريق برزخ السويس في الأولين، كما رماه بالموجه الهلالية في الاخرين.

هذا الرجل النابغة يشهد التاريخ أنَّه واضع أساس النهضة الفكرية في الجزائر، وقد سلك لها المسلك العلمي الحكيم، وهو مسلك التربية والتعليم، وأعانه على ذلك استعداده الفكري وكمال أدواته، فتصدّر للتعليم حوالي سنة 1914م ببلدة قسنطينة التي هي مستقر أسرته من المائة السابعة للهجرة، وعمره إذ ذاك دون الخامسة والعشرين، فجمع عليه عشرات من الشبان المستعدين، فعلّمهم وربَّاهم، وطبعهم على قالبه، ونفخ فيهم من روحه، وبيانه، تطوّعاً واحتساباً، لا يرجو إلا جزاء ربه، ولا يقصد غير نفع وطنه.

وكان ـ رحمه الله ـ يؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافة في أدمغتهم، ويدرِّبهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام، فما انتهت الحرب العالمية الأولى حتى تخرج على يده وعلى طريقته جيل من الشبان، تتفاوت حظوظهم من العلم النظري، ولكنهم طراز واحد في العمل، وصحَّة التفكير، والانقطاع للجهاد.

(1) المصدر نفسه ص 85.

وكان من طريقته في التربية: أن يرمي إلى تصحيح الفكر، وصقل العقل، وترقية الروح، وتقوية الخلق، وتسديد الاتجاه في الحياة، وأنه يستخرج من قواعد العلوم التعليمية قواعد للاجتماع، وينتزع منها دروساً في التربية والأخلاق[1].

وقد استطاع ابن باديس أن يخرج للأمة الجزائرية في الزمن اليسير جيلاً يفهم الحياة ويطلبها عزيزة شريفة، ويتدرَّع إليها بالأخلاق المتينة، وقد كان يدربهم على الأعمال النافعة، كما يدرِّب القائد المخلص جنوده، ويعدّهم لفتح مصر، أو لقاء مصرع، ولتلامذته إلى اليوم سمات بارزة في إتقان الدعوة الإصلاحية التي أعلنتها جمعية العلماء في حياته، وفي صدق الاتجاه، وفي إتقان صناعة التعليم على طريقته، وهم الرعيل الأوَّل في الثورة الفكرية الجارفة التي نقلت الجزائر من حال إلى حال.

وقد كان تعليمه والافاق التي فتحها ذهنه الجبَّار، وأسلوبه في الدروس والمحاضرات ؛ كل ذلك كان ثورة على الأوضاع التعليمية المعروفة في بلادنا، حيث ابتدأ التعليم، وتوسَّط فيه، وفي جامع الزيتونة حيث انتهى، ولم يكن علمه نتيجة دراسته التقليدية في البلدين المحدودة بسنوات معدودة، وكتب مقروءة على نحو ما في الأزهر، وإنما كان علمه نتيجة استعداد قوي، وذكاء خارق، وفهم دقيق، وذهن صيود لشوارد المعاني، غوَّاص إلى نهايتها، كما وصفناه في أول الحديث[2].

وبعد الشيخ ابن باديس: قاد الإبراهيمي سفينة التربية والتعليم، فكان يعلِّم بنفسه أحياناً، ويوجِّه المعلِّمين، ويؤلف في التربية، حتى أنه صنَّف كتاباً باسم «مرشد المعلمين»، قدَّمه أحد أبناء الجمعية «الأستاذ محمد العُسيري» فقال:

وضع أستاذنا الجليل محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية العلماء منذ سنوات برنامجاً حافلاً للتعليم العربي بجميع أنواعه، وضمَّنه أصولاً عظيمة من علم التربية، وقد سألناه منذ عامين: أن يجرِّد لنا فصولاً عملية تتعلق بالسنوات الست الابتدائية ففعل، وسلّمه لنا لنطبعه وننتفع به، وطالعناه فلم نجده كالبرامج المعتادة، وإنما هو «معلم مكتوب». فهو يأخذ بيد المعلِّم ويسير به خطوة بخطوة إلى الغاية لا يضل عنها ولا يجور، وكأنما هو «ملقِّن» من وراء المعلم يملي عليه الكلام ويرشده إلى كيفية العمل، لذلك اثر جماعة من قدماء المعلمين تسميته «مرشد المعلمين» [3].

5 . العمل الجماعي:

وإذا كان الشيخ الإبراهيمي يؤمن بالتوعية والتربية منهاجاً للإصلاح، ولا يكتفي بمجرَّد الخطب الرنَّانة، والكلمات المسجوعة، أو الدعايات الحزبية ؛ فإنه يؤمن كذلك، كما امن شيخه ورفيقه وأسوته الإمام ابن باديس «بالعمل الجماعي» ضرورة وشرطاً للنجاح وتحقيق الرجاء.

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 83.
(2) الملتقى الدولي ص 88.
(3) المصدر نفسه ص 90.

فالعمل الفردي - مهما يصحبه من الإتقان والإخلاص - محدود الأثر، محصور مقيَّد الإمكانات، ولكن إذا تضامَّت الجهود وتلاحمت القوى، أصبحت اللبنات المتفرقة بنياناً مرصوصاً، يشدُّ بعضه بعضاً.

فالمرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده، قوي بجماعته، ويد الله مع الجماعة، وإنَّما يأكل الذئب من الغنم القاصية، والشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، وقد قال تعالى لموسى: {سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ} [سورة القصص:35] .

وفكرة الإمام ابن باديس ورفقائه هنا، هي نفس فكرة الإمام حسن البنا وإخوانه في مصر، حيث لم يكتف بالوعظ والإرشاد طريقاً للإصلاح، ولكنَّه رأى أن العمل الجماعي المنظم ضرورة لابد منها لنصرة الإسلام وإحيائه، وتجديد أثره في الأمَّة، ولتحرير مصر وبلاد العرب والمسلمين من الاستعمار وكل سلطان أجنبي لإقامة دولة الإسلام فيها.

توافق الإمامان على غير التقاء بينهما، وأنشأ حسن البنا جمعية الإخوان المسلمين سنة 1928م أو 1929م، وأسس ابن باديس جمعية العلماء سنة 1931م، وإن كنت قرأت مقالة العلامة الإبراهيمي أن فكرة الشيخ ابن باديس في إنشاء الجمعية، كانت أسبق من ذلك، فقد حاول أن يُنشأئ جمعية أطلق عليها: جمعية «الإخاء العلمي» سنة 1924م، ولكن حالت الحوائل دون ذلك.

أسَّس ابن باديس جمعية العلماء للنهضة والإصلاح والتحرير، وكان نائبه ورفيق دربه البشير الإبراهيمي، وبعد وفاته كان أميناً على العمل الذي معاً وَفَّيا له، حريصاً على أن يستمر في إيتاء أُكُله، وتحقيق أهدافه الكبيرة، كما كان حريصاً أبلغ الحرص على أن يعطي كل ذي حق حقه، فيتحدَّث عن ابن باديس أنه: هو المؤسِّس والباني، والبادئ، وأوَّل من بذر بذور الإصلاح والتجديد، وأوَّل من ارتفعت صَيْحته بتحرير الجزائر ونهوضها وبنيانها من جديد، بل أوَّل داعية إلى التجديد والإصلاح في المغرب العربي كله.

والعمل الجماعي أقدر على إنجاز المشروعات الكبيرة، وتحقيق الامال الطموحة، ممَّا لا يستطيع الأفراد وإن بلغوا ما بلغوا أن يحققوه، وها هو الإبراهيمي يُعدِّد لنا في مقال له: ما قامت به «جمعية العلماء» من أعمال أصيلة ومنجزات جليلة: {وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ} [سورة الأعراف:58] مدرسة عربية مجهَّزة بكل الأسباب المادية العصرية اللازمة للمدارس، وبجهاز اخر من المعنويات أعظم منها شأناً وأجلُّ خطراً، وبجند من المعلمين الأكفاء قوامه: مائتان وخمسون معلماً من بينهم عشرات النوابغ في التعليم والإدارة، ومشحونة بزهاء ثلاثين ألف تلميذ من أبناء الأمة بنين وبنات، يتلقَّون مبادأئ الدين الصحيح: عقيدة وأعمالاً، ومبادئ العربية الفصيحة: نطقاً وكتابة وإنشاء، ويتربَّون على الوطنية الحقيقية وعلى الهداية الإسلامية والآداب العربية، ويتكوَّن منهم جيل مسلَّح بالعلم، ثابت العقيدة في دينه ووطنه، قوي العزيمة في العمل لهما.

ويزيد في قيمة هذه الحصون أن الأمَّة تملك أعيان نحو الخمسين منها، وتملك الانتفاع بالباقي على وجه الكراء، وسبعة وثلاثون مدرسة أخرى شرعت الأمة الإسلامية في تشييدها في هذه السنة، وفيها ما يحتوي على ستة عشر قسماً، وفيها ما تقدَّر نفقاته بخمسة عشر مليوناً من الفرنكات.

ومعهد تجهيزي عظيم، يخطو إلى الرقي والكمال في كل يوم، في نظامه وفي برنامجه وأساتذته وتلامذته، يؤوي من تخرجه تلك المدارس، ليزوِّد الأمَّة منهم بالوعاظ والمرشدين وخطباء المنابر، ويزوِّد الطامحين منهم إلى المزيد من العلم بالمؤهلات إلى ما يطمحون إليه.

وجمعيات بلغت المئات، مقسَّمة على العلم والإحسان والأدب والرياضة، تبث في الأمَّة: النظام والإدارة وآداب الاجتماع، وديمقراطية الانتخاب، وتعلمها كيف تناقش، وكيف تصوغ الرأي، وكيف تدافع عنه، وكيف تنقضه بالحجة، وكيف تزن الأفكار، وكيف تُحاسِب العاملين، وتدربها على التدرج من الإدارات الصغرى إلى الإدارات الكبرى؟، لأن الأمَّة التي لا تحسن إدارة جمعية صغيرة لا تحسن بالطبع إدارة مجلس فضلاً عن حكومة، ولا كالجمعيات مدارس تدريب ونماذج تجريب.

ونوادٍ بلغت العشرات، غايتها إصلاح ما أفسدت المقاهي والملاهي من أخلاق الشباب، وكلها ميادين للعمل، ومنابر للخطابة، ومستغلات للعلم والتعليم.

والالاف من الشباب العربي المسلم كان كالمجهول في نسبه، وكالجاهل لحسبه، ففتحت المحاضرات الحيَّة أذهانه على تاريخ أسلافه، وفتقت ألسنته على ادابهم، فتقاسم على أن يقفو الأثر، ويجدِّد ما اندثر، وأقبل على العلم حتى إذا ضاقت به الجزائر فارقها كالنحلة، ترحل إلى المكان السحيق، لترجع إلى خليتها بالرحيق[1].

وإصلاح ديني تمكن من النفوس وتغلغل إلى الأفئدة، فطهرها من الشوائب التي شابت الدين، ومن النقائص التي شانت الدنيا، وصحَّح العقائد، فصحَّت القواعد، وصحَّح العزائم، فأقدمت على العظائم، وإذا صحّت العقائد وصلحت النيات، ظهرت الاثار في العزائم والإرادات، وفضائل شرقية كانت مشرفة على التلاشي، فأحيتها مدارسة القران وممارسة التاريخ، وإفشاء الاداب العربية، ونشر الماثر العربية.

وأمَّة كاملة كانت نهباً مُقَسَّماً بين استعمارين متعاونين على إبادتها: مادي متسلِّط على الأبدان، وروحاني متسلِّط على العقول، فصحَّحت حركة الإصلاح الديني عقولها فصحَّ تفكيرها، واتَّزن تقديرها، واستقام اتجاهها للحياة، وإنَّ تحرير العقول من الأوهام، سبيل ممهَّد إلى تحرير الأبدان من الاستعباد.

هذا هو رأس المال الضخم الذي أثلته جمعية العلماء للأمَّة الجزائرية في بضع سنين، وغذت به البقايا المدَّخرة من ميراث الأسلاف.

وهذه هي الأعمال التي عملتها جمعية العلماء للعروبة والإسلام، فحفظت لهما وطناً أشرف على الضياع، وأمَّة أحاطت بها عَوَامِل المسخ، فأصبحت أمَّة عربية مسلمة شرقية نضاهي بها أخواتها من العروبة والإسلام، بل نتباهى بها.

وما شيَّدت جمعية العلماء هذا البناء الشامخ من الماديات والمعنويات ورفعت سمكه ؛ إلا بعد أن أزالت أنقاضاً من الباطل والضلال تنوء بالعصب أولي القوة والأيد، وبعد أن نازلت جيوشاً من المبطلين المضللين نكص عن

(1) الملتقى الدولي ص 94.

لقائها الأبطال، وبعد أن لقيت من حماة الاستعماريين ما تلقاه فئة الحق من فئات الباطل: كانوا أكثر وأوفر، وكنَّا أثبت وأصبر، وكانت العاقبة للصابرين[1].

6 . اهتمامه بالشباب:

كان وضع الشباب في الجزائر في مقدمة المسائل التي اهتمت بها جمعية العلماء، لأنها أدركت منذ اللحظات الأولى بأن تطوير الحركة الإصلاحية يتوقف على الشباب، لذلك فقد وجهت قسماً كبيراً من نشاطاتها الاجتماعية نحو الشباب بشكل خاص، فبالإضافة إلى المدارس والمساجد التي سبق وتحدثنا عنها، عمل الشيخ الإبراهيمي وابن باديس من قبله على إنشاء النوادي الثقافية والفرق الكشفية بهدف تربية الشباب تربية اجتماعية وطنية.

أ . النوادي الثقافية:

كان هدف جمعية العلماء من وراء تشجيعها إقامة النوادي الاجتماعية، هو إيجاد أمكنة عامة تجمع الشبان الجزائريين على اختلاف نزعاتهم الفكرية والسياسية والثقافية، ويمكن عن طريق البرامج الثقافية والعظات الدينية التي تقدم في النادي وضع هؤلاء الشبان في جو مشبع بمبادئ الإسلام والعروبة[2]. كان كل نادٍ من النوادي الثقافية التابعة للحركة الإصلاحية يتألف بصورة عامة من قاعة اجتماعات، وغرفة للصلاة، ومقصف صغير تقدم فيه المشروبات المباحة، وكانت ميزانية هذه النوادي تتكون من الاشتراكات المنتظمة التي يدفعها أعضاؤها المنتسبون من ناحية، ومن حصيلة بيع المشروبات لروادها من ناحية أخرى، وكانت النوادي تخصص جزءاً هاماً من إيراداتها سنوياً لمساعدة المدارس الإصلاحية التي تقع في ناحيتها، ولعل هذه المساندة للتعليم العربي الحر ؛ هي من الأسباب الرئيسية التي دفعت الحكومة الفرنسية في إطار سياستها المناوئة لجمعية العلماء ورسالتها التعليمية؛ إلى إصدار مرسوم 13 جانفي 1938م، الذي كان من أهم ما ورد فيه: حظر بيع المشروبات المباحة داخل النوادي الثقافية إلا بترخيص من الإدارة الفرنسية[3].

اقتصرت نشاطات النادي الإصلاحية على المجالات الثقافية والفنية والاجتماعية والدينية، ففي قاعاتها وغرفها كانت تعقد مؤتمرات الشبيبة والطلبة، وتلقى المحاضرات العامة، وتقام التمثيليات والمهرجانات الثقافية، والدينية بمناسبة الأعياد الإسلامية[4].

وانتشرت النوادي الثقافية في كثير من المدن الجزائرية وكان أهمها:

. نادي الترقي في العاصمة، الذي أسس قبل ظهور الجمعية، ثم أصبح فيما بعد من النوادي الإصلاحية الرئيسية.

---

(1) «البصائر» العدد 46 . السنة الثانية من السلسلة الثانية . 23/أوت/1948م.

(2) جمعية العلماء المسلمين، د . أحمد الخطيب ص 227.

(3) المصدر نفسه ص 229

(4) المصدر نفسه.

. نادي صالح باي في قسنطينة، الذي أسس عام 1926م، وأصبح يعرف فيما بعد باسم: نادي عبد الحميد بن باديس.

. نادي الاتحاد في قسنطينة.

. النادي الإسلامي في الميلة.

. نادي التقدم في البليدة.

. نادي النجاح في سيدي بلعباس.

. نادي العمل في سكيكدة.

. نادي الشبان المسلمين في قالمة.

اهتمت جمعية العلماء عن طريق النوادي، بملء الفراغ الذي كان يعاني منه الشباب، فأخذت تنشط فيهم الملكات الرياضية والفنية، وتشجعهم على إقامة الفرق الرياضية والمسرحية والموسيقية(1).

وبالإضافة إلى النوادي الثقافية شجعت جمعية العلماء الشبان الجزائريين على تكوين المنظمات الكشفية، وقد شملت هذه المنظمات منذ بدء ظهورها بالرعاية والاهتمام(2).

ب . الكشافة:

كانت الكشافة في الجزائر قبل الثلاثينيات فرنسية خالصة، وكانت تضم فرقاً كشفية دينية وعلمانية، مثل الكشافة الكاثوليكية والكشافة اللائكية، ويبدو أن بعض الشبان الجزائريين الذين بهرهم الزي الخاص، والنياشين، والنظام والانضباط، انخرطوا في صفوف الكشافة الفرنسية، إلى أن جاءت احتفالات الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر عام 1930، ومشاركة الكشافة الفرنسية في عرض التحدي والاستفزاز للشعور الوطني الجزائري، فانسحب الكشافون الجزائريون من بين صفوفها، وأخذوا يسعون إلى تنظيم كشفي مستقل بهم، يشجعهم ويشد أزرهم رجال الإصلاح، الذين كانوا يطمحون إلى تكوين منظمات وطنية لها مظهر عسكري، يمكن أن يصبح أفرادها تحت الغطاء الكشفي «جنود العروبة والإسلام» (3).

وبالفعل فقد أنشأ رائد الحركة الكشفية الجزائرية «محمد بوراس» أول فوج للكشافة الجزائرية عام 1930م في مدينة مليانة، أطلق عليه اسم «فوج الخلود»، ثم أنشأ فوجاً اخر في العاصمة باسم «فوج الفلاح».

تأثر بوراس بعلماء الحركة الإصلاحية أمثال العقبي وابن باديس والمدني، وسعى عام 1935م إلى إنشاء جامعة للكشافة الإسلامية، نظير الكشافة الكاثوليكية والإسرائيلية واللائكية، بقصد جمع الأفواج الكشفية المشتتة في المدن الجزائرية في تنظيم كشفي موحد، ولكن الإدارة الفرنسية رفضت طلبه، وكان عليه أن ينتظر حتى تتولى

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه ص 230.

(3) المصدر نفسه ص 230.

«الجبهة الشعبية» الحكم في فرنسا، لكي يؤسس عام 1937م أول تنظيم كشفي وطني، عرف باسم «الكشافة الإسلامية الجزائرية» [1].

وانعقد أول مؤتمر للأفواج الكشفية الجزائرية بعد توحيدها في شهر جويلية عام 1939م في العاصمة، برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس الفخرية، وكان الشعار الذي رفعه المؤتمر هو نفس شعار جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا». ويبين لنا محمد صالح رمضان أن الكشافة الإسلامية الجزائرية نشأت وترعرعت في أحضان الحركة الإصلاحية العامة، التي تشرف عليها وتوجهها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، واسمها دال على ذلك، كما نبتت معظم أفواجها وأكثر جمعياتها في أوساط وبيئات إصلاحية إلى جنب المدارس الحرَّة الشعبية، بل كان أغلب فتيان الكشفية وقادة مسيرتها من تلاميذ هذه المدارس، أو من أعضاء جمعياتها المحلية، وكان مرشدوها جميعاً من معلمي تلك المدارس.. وكان أقطاب الحركة الإصلاحية وأئمتها يشجعونها ويساعدونها، بتأييدهم ومشاركتهم لها في تجمعاتها، كابن باديس في قسنطينة، والعقبي في العاصمة، والإبراهيمي في تلمسان[2].

وكانت أناشيد الحركة الكشفية الجزائرية من وضع شعراء الحركة الوطنية والحركة الإصلاحية الجزائرية، أمثال: محمد العيد، ومفدي زكريا، وحسن بلكيزد[3]. وكانت هذه الأناشيد مشبعة بالروح الوطنية الاستقلالية، وبالانتماء القومي العربي.

ويبدو مما تقدم أن اهتمام الجمعية كان منصباً على النواحي الاجتماعية التي تغذي الإحساس الوطني، ولم يتسنَّ لها الاهتمام ببعض النواحي الاجتماعية الأخرى، مثل: مساعدة المحتاجين، ومداواة المرضى، ورعاية الأيتام[4].

ج ـ عناية الإبراهيمي بتكوين الشباب خلقياً وعلمياً:

أمران كان الشيخ البشير الإبراهيمي يركز عليهما كثيراً في تربية الشباب وتكوينهم، وإعدادهم لمواجهة أعباء الحياة العامة بكل أبعادها الفردية والاجتماعية والوطنية، هذان **الأمران هما**:

ـ الأخلاق.

ـ العلم بمعناه الواسع، أي: علم الدين، وعلم الدنيا.

فقد كان رجلاً متنوِّراً، منفتح الذهن والفكر لمتطلبات عصره، يعيش همومه، وينفعل بأحداثه وتطوراته، ولذلك كان يحث الشباب على القراءة والمطالعة في كل علم وكل فن، وعدم الاقتصار على فن واحد واختصاص واحد فقط، فطالب العلم في رأيه مثل النحلة، ترتشف من رحيق جميع الأزهار كي تنتج عسلاً مصفى، وكذلك

---

(1) المصدر نفسه ص 231.
(2) المصدر نفسه ص 231.
(3) المصدر نفسه ص 231.
(4) المصدر نفسه ص 231.

طالب العلم يجب ألا يكون أفقُه محدوداً بنوع واحد من القراءة، حتى يكون ابن عصره في الثقافة والمعرفة والفكر، وهذا لا يناقض التخصص في نوع معين من الدراسات العلمية.

وقد كان هو يقرأ في سائر فروع العلوم الإنسانية، ولم تنحصر قراءاته ـ كمعظم علماء الدين الإسلامي أمثاله ـ على الفقهيات، وما يتصل بها من حديث وتفسير، وسير وأدب، وشيء قليل من التاريخ الإسلامي العام[1].

وعندما كان يجتمع بالشباب صباح يوم الجمعة في كل أسبوع في مركز جمعية العلماء بالقاهرة، كانت أحاديثه في معظمها تدور حول شيئين اثنين:

ـ الثقافة العربية المحارَبة من طرف فرنسا في الجزائر، وواجب طلاب العلم نحو إحيائها وبعثها للوجود بعد انتهاء دراستهم.

ـ الوطن الجزائري وما يعانيه من الاستعمار الفرنسي، في لغته وسيادته الوطنية، وواجب الشباب، وطلاب العلم، في تحريره من الاستعمار، والنهوض به في شتى الميادين.

وقد كان كثير التذكير للشباب وطلاب العلم لما كانوا بالقاهرة بالأعباء التي تنتظرهم في الوطن بعد عودتهم إليه، وكان يقول لنا ما معناه: إنكم لن تستطيعوا أن تنفعوا وطنكم وأمتكم إلا إذا ملكتم سلاحين هامين، بدونهما لن تفلحوا في الحياة، ولن يستفيد منكم وطنكم شيئاً هاماً:

ـ الأخلاق القويمة المتينة.

ـ العلم القوي المتين أيضاً[2].

وكان يحذر طلاب العلم من الشباب من اللفظية والسطحية، في الدراسة والتحصيل، ويطلب منهم العمق في الفهم لكل ما يقرؤون، والنقد الموضوعي لكل ما يطالعون، ووجوب عرض أفكار واراء مؤلف الكتاب الذي يقرؤونه على عقولهم لغربلتها قبل التسليم بها، وكان يحثهم على أن تكون المكتبات هي مكانهم المفضل للقراءة والبحث والمطالعة، والتحصيل وزيادة المعارف.

وكان عندما يتحدث عن الأخلاق والعلم تكون لغته حارة نابعة من أعماق وجدانه، تفيض بالحب والإيمان والقوة في كل جملة وكل عبارة من كلامه، مما يدل على إيمانه العميق بدور الأخلاق والعلم في نهضة الشعب وتحريره وبنائه على أسس سليمة.

استمع إليه وهو يتحدث في التقرير الأدبي في مؤتمر جمعية العلماء في أكتوبر 1951م عن دور المدرسة التي تقوم جمعية العلماء بتشييدها في الجزائر في النهضة القومية والوطنية، يقول:

..فالمدرسة هي جنة الدنيا، والسجن هو نارها، والأمة التي لا تبني المدارس تبنى لها السجون، والأمَّة التي لا تصنع الحياة.. يُصنع لها الموت، والأمَّة التي لا تعمل لنفسها ما ينفعها ويسعدها، يعمل لها غيرها ما يضرها ويشقيها، والأمَّة التي لا تغضب للمذاهب، ترضى بالذل الجليب، والأمَّة التي تتخذ الخلاف مركباً، يغرقها في

(1) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 231.

(2) المصدر نفسه ص 232.

اللجة، والأمَّة التي لا تكرم شبابها بالعلم والتثقيف، مضيعة لرأس مالها، والأمَّة التي لا تجعل الأخلاق ملاكها أمَّة تتعجل هلاكها، والأمَّة التي لا تلد لغيرها، أمَّة تلد العبيد، لا أمَّة تلد الأحرار الصناديد، والأمَّة التي تعتمد في حياتها على غيرها طفيلية على موائد الحياة، حقيقة بالقهر والنهر وقصم الظهر.

ثم يقول: والحياة بلا علم متاع مستعار، والوطن بلا علم عورة مكشوفة، ونهب مقسم، سنة من سنن الله، كسنته في تكوير الليل على النهار، ثم يضيف: وإن المدرسة هي طريق الحياة، وطريق النجاة، وطريق السعادة، وإن الوطن أمانة الإسلام في أعناقنا، ووديعة العرب في ذممنا، فمن بعض حقه علينا أن نحفظ دينه من الضياع، وأن نحفظ لسانه من الانحراف، وأن لا سبيل إلى ذلك إلا بالمدرسة، التي تبنيها الأمَّة بمالها، وتحوطها برعايتها، وتجعلها حصوناً تقي أبناءها الانحلال الديني والانهيار الخلقي، وتحفظهم من ترف الغنى وذلّ الفقر، وتربيهم على الرجولة والقوة، وتوحيد النزعات، وتصحيح الفطرة، وتقويم الألسنة، وتمتين الإرادات والغرائز، وتغرس الفضيلة في نفوسهم، وتصلح فيهم ما أفسده المنزل والشارع، وتروضهم على حب الوطن وبنائه طبقاً على طبق[1].

وفي إحدى افتتاحيات البصائر التي كتبها في عام 1947م تحت عنوان: إلى أبنائي الطلبة الجزائريين في سبيل العلم، نقتطف الفقرات التالية:

يا أبناءنا!. إن الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، وإن الثانية منهما تنبأئ على الأولى قوة وضعفاً وإنتاجاً وعمقاً، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل، إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله.. ثم يضيف..: أنتم اليوم جنود العلم، فاستعدوا لتكونوا غداً جنود العمل، فإن الوطن يرجو أن يبني بكم جيلاً قوي الأسر، شديد العزائم، سديد الاراء، متين العلم، متماسك الأجزاء، يدفع عنه هذه الفوضى السائدة في الاراء، وهذا الفتور البادي على الأعمال، وهذا الخمول المخيم على الأفكار[2].

د ـ المعلمون والشباب في فكر الإبراهيمي:

قال الإبراهيمي للمعلمين: ثمَّ احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال، فإن الناشأئ الصغير مرهف الحس.. فإذا زيَّنتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسَّنتم له الصبر فكونوا من الصابرين،.. ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة فهو ربح وفائدة[3].

إن هذه اللفتة من الإبراهيمي يحتاجها المربون في كل مرحلة، لأن الواجب تقديم التربية بالقدوة الصالحة على ضخ المعلومات وفروع المعرفة، لأن التلقين وبعده حفظ المعلومات أمر سهل ومتيسر، والأهم منه أن يستميل

(1) المصدر نفسه ص 233.
(2) المصدر نفسه ص 234.
(3) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر ص 291.

المعلم تلامذته، وأن يحبُّوه فيشكِّل لهم القدوة، مضافاً إلى ذلك أن واجبه مراقبة نفسه وأن يسأل في كل مرّة: هل يصلح ما أمارسه ليكون منهجاً لإعداد الجيل[1].

قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [سورة البقرة:44].

وقال الشاعر:

لا تنه عن خلق وتأتيَ مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

وهذا ما وجَّه إليه الإبراهيمي، بأن المعلّم قدوة ونموذج، قائلاً: إن المعلم لا يستطيع أن يربي تلاميذه على الفضائل إلا إذا كان هو فاضلاً.. ولا يستطيع إصلاحهم إلا إذا كان هو صالحاً، لأنهم يأخذون منه بالقدوة أكثر مما يأخذون منه بالتلقين[2].

ووجّه الإبراهيمي المعلمين كي يعدُّوا الشباب على أسس الفضيلة ومحاسن الأخلاق، لأن العلم وحده لا يحقق هذه الغاية. لقد توجَّه إلى المعلمين مخاطباً: إن العلم لم ينهَ مفسداً عن الإفساد، ولم يزعْ مجرماً عن الإجرام، ولم يُمِت في نفوس الأقوياء غرائز العدوان والبغي على الضعفاء، بل ما زاد المتحرّرِين من الفضيلة إلا ضراوة بالشر، وتفنُّناً في الإثم، فاجعلوا الفضيلة رأس مال نفوس تلامذتكم، واجعلوا العلم ربحاً[3].

ودعا الإبراهيمي المعلمين إلى مخالفة كل ما يقوم به المستعمر إذا أرادوا الإصلاح، حيث قال: إن أردتم أن تعرفوا الطريقة المثلى لخدمة أمتكم وتتبينوا الطريق القاصد، فانظروا إلى الاستعمار، واعرفوا الطرق التي سلكها لقتل أمتكم، فاسلكوا ضدَّها لإحيائها، وادرسوا الوسائل التي تذرَّع بها لاستعباد أمتكم، فاستخرجوا منها وسائل تحريرها[4].

وقال في المعلمين: إنهم دعائم هذا البناء التي تمسكه أن يزول، وتصونه أن يختلّ، أو يحول، فهم أشبال الغاب، وحماة الثغور، وعمَّار المدارس، وسقاة المغارس، مربو الجيل وأئمته، المعلمون المستحقون لأجر الجهاد، .. جيش الحق.. وألسنة الصدق[5].

وإذا سأل بناةُ الجيل، وحماةُ ثغور الشباب عن الاختراقات المعادية، والمجاهدون في بناء جيل واعد عن أسس التربية المطلوبة منهم، أجابهم الشيخ المربي بما يلي: ربُّوهم على الرجولة، وبُعد الهمَّة، وعلى الشجاعة والصبر، وعلى الإنصاف والإيثار، وعلى البساطة واليسر، وعلى العفة والأمانة، وعلى المروءة والوقار، وعلى الاستقلال والاعتداد بالنفس، وعلى الدين والعلم والوطن والوالدين والمعلم[6].

(1) الملتقى الدولي ص 347.
(2) المصدر نفسه ص 347.
(3) المصدر نفسه ص 348.
(4) اثار محمد البشير الإبراهيمي (116/2).
(5) الملتقى الدولي ص 348.
(6) المصدر نفسه ص 349.

إن هذا النَّص التوجيهي يحوي قواعد ومقوِّمات نافعة في عالم إعداد الشباب، وتنشئتهم النشأة المرضية، ويمكن استخلاص القواعد التالية منه:

. يدعو الإبراهيمي المعلمين إلى تربية الناشئة على القدرة على تحمُّل المسؤولية، لأن الرجولة ما هي إلا هذا الأمر، وهي مع ذلك جدية، وجدارة على حمل التبعات، والتصرف بروح مسؤولية، فالرجولة تكليف لا تشريف.

. يبرز الإبراهيمي أهمية الشجاعة والجرأة، لأن الجبان متردد مرتبك قلق، لا يقوى على اتخاذ قرار، ولا على البناء وصنع التقدم، وليس عنده استعداد للتضحية، وهذا شأن مهم نبَّه إليه الصحابي خالد بن الوليد رضي الله عنه قال: خضت نيفاً ومائة معركة، ولم يبق في جسمي موضع إلا فيه ضربة من سيف، أو طعنة من رمح، أو رمية من سهم، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي، فلا نامت أعين الجبناء.

. ويطرح الإبراهيمي أن يربِّي الشباب والجيل على التزام «الإنصاف»، أي العدل، ولا يخفي على أحد أهمية ذلك، فمن قام بنيان شخصيته على العدل والإنصاف يمارس ذلك مع سواه، وفي الوقت نفسه فإنه يقاوم كل ظالم مستبد، والعدل أساس مكين في حياة الأمم، والعرب قالت في حِكمها: العدل إن دام عمَّر، والظلم إن دام دمَّر.

والحرية في منهج حياة الفرد تقاوم الاحتلال والاستعمار، وتفتح الباب للإبداع والعطاء.ز والاستسلام للاستبداد والاستعمار من أكثر الأسلحة فتكاً في الفرد والمجتمع، ومفيد هنا أن نتذكر قول الفاروق «عمر بن الخطاب» رضي الله عنه لعمرو بن العاص بشأن استبداد ابنه بقبطي حيث خاطبه: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمَّهاتهم أحراراً[(1)]؟

. أمَّا خلق الإيثار فإنه يصنع التضامن، ويشدُّ روابط المجتمع، ويرفع درجة الاستعداد للتضحية، انطلاقاً من قوله تعالى: {وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [سورة الحشر:9].

. والعفَّة نحتاج إليها في عالم التربية، حيث يمطر الغربي ساحتنا بضروب الفتن، وألوان الرذائل، ولا حسن كالعِفَّة والترفع فوق سوافل الأشياء.

. الأمانة ضرورة لتوليد الثقة بين أبناء الأمَّة، كما أنها تعلو بالهمم باتجاه الشعور بالمسؤولية، وحملها بكل جدارة، وإذا اقترنت بالقوَّة . وهو مطلب للشباب سبق ذكره . تصل بنا إلى ركني القيادة الناجحة المطلوبة، والتي وردت في الاية الكريمة: {إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦} [سورة القصص:26].

. الاعتداد بالنفس والعزَّة والكرامة، مفردات تحتاجها التربية للإعداد لجيل يصنع الاستقلال ويحرِّر الأرض والمقدسات، هذا في عصر الإبراهيمي، كما هو الحال في أيامنا هذه، لأن من كان في شخصيته مثل هذه

(1) المصدر نفسه ص 350.

المقوِّمات فإنه لن يتهاون أو يتخاذل، وهو الملتزم دين الله تعالى الذي أبلغه في الاية الكريمة: {وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ } [سورة المنافقون:8] .

. والحب والسماحة، ركنان في الإسلام دين الرحمة، فالمحبة تشدّ وثاق المجتمع، وتعمِّم قاعدة التاخي في الله تعالى، والسماحة هي ما أصل إليه الإسلام قراناً وسنَّة لجهة قبول الاخر المسلم، والاخر الإنسان، والاخر أي معتقد ؛ شرط أن لا يتعدَّى على دين المسلمين أو أوطانهم وحقوقهم، قال الله تعالى: {لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨} [سورة الممتحنة:8].

. أما الحب فإنه أساس في العملية التربوية، وفي استجابة الشباب الذي يحب والديه وأساتذته لتوجيههم، فالقاعدة المأثورة تقول: المرء يطيع من يحب[1].

هـ الإبراهيمي وإعداد جيل الشباب:

إن الشباب هم الرأسمال البشري، صاحب الدور المتميّز في الأمَّة، والشباب يحتاج لإعداد خاص يؤهلهم باتجاه ما تنتظره أمَّتهم منهم، وهذا يتطلب التهذيب الأخلاقي، والتزوّد بالعلوم، والتمرين على دور نافع في مسار الأمة الحضاري. والأمَّة التي تهمل شبابها تكون قد فرَّطت بالعناصر الأَولى بالعناية، وهذا يهدِّد مستقبلها.

لقد وجَّه الإبراهيمي إلى هذا قائلاً: إن الأمَّة الرشيدة هي التي تحرس شبّانها في طور الشباب من الافات التي تصاحب هذا الطور، طور له ما بعده من زيغ أو استقامة، وتحافظ على أهوائهم أن تتجه اتجاهاً غير محمود، وتحافظ على عقولهم أن تعلق بها الخيالات، فتنشأ عليها، ويعسر أو يتعذَّر رجوعهم عنها، وتحافظ على ميولهم وعواطفهم أن تطغى عليها الغرائز الحيوانية، لأن هذا الطور هو طوار تنبُّهها ويقظتها[2].

إنها قراءة موضوعية لمرحلة الشباب واستعداداته، تحتاج العناية الكافية كي يصل الشاب إلى برِّ الأمان، وشبابنا في تصارع الأنواء، وهياج عواطف المغريات، يحتاج أوَّل ما يحتاج إلى الالتزام الديني، والالتزام القومي العربي الذي يعني الالتزام بالقيم الناظمة للمسار الحضاري للأمَّة، فهذا هو العامل الحاسم في تكوين شخصية الشاب المحصَّن، ضد ما ينشره الأعداء والخصوم من مفاسد، تبعث نوازع المادة على حساب القيم والضوابط والفضائل. وينبِّه الإبراهيمي إلى هذا في قوله: إذا أحبَّ الشباب دينه وفضائل دينه ولغته وأسرار لغته، أحبَّ العرب جميعاً، وأصبح في نفسه دافع إلى الاجتماع في الدين والعروبة[3].

إن التوجيهات الانفة الذكر بشأن الشبان تتحقَّق بالرتبية، التي تتدرج في إعطاء التلامذة الجرعات التي ترتقي بالطلاب، ليكونوا شباب اليوم المستقيم ورجال الغد المأمول، بناء على ذلك اعتنى الإبراهيمي بالمنهاج والمقررات في هيكلية التعليم العربي في الجزائر الذي يقاوم مفاعيل التعليم الاستعماري، لأنه لكل منهج فلسفته ومنطلقاته،

(1) الملتقى الدولي ص 351.

(2) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (294/3).

(3) المصدر نفسه (301/5).

وما يكون في المناهج في الدورة الحضارية الإسلامية والعربية، هو حكماً غير تلك التي تكون في الدورة الحضارية الغربية، لذلك يكون الاستيراد خطيراً، كما أن التسليم بقيم التربية غير النابعة من هويَّة الأمة خطر داهم، هذا بالإضافة إلى الخطر الذي يتولَّد عن الانبهار بما عند غيرنا، لأن استيراد منتجات التقنية والالات مع الانفتاح على تجارب الشعوب أمر مقبول، أمَّا تسليم أجيالنا لمناهج تربوية غير أصيلة فيتهدَّدُ شبابنا وأجيالنا(1).

إنَّ المرحلة الأولى من التعليم عند الإبراهيمي تستغرق ستَّ سنوات، ومن تجاوز المرحلة الابتدائية هذه: يصبح صحيح التأدية للقراءة، طيّع اليد والقلم بالكتابة، محصِّلاً لمبادأئ الدين الإسلامي علماً وعملاً، ولمبادأئ التاريخ الإسلامي الذي هو جزء من الدين، وأول تلك المبادأئ: السيرة النبوية،ءْءْ وسيرة الخلفاء الراشدين، وذوي الاثار الخالدة من الصحابة والتابعين، فإن انقطع عن التعليم استطاع بمعونة حظه من العربية أن يبلغ ما شاء بالدراسة والمطالعة، لأنه يقرأ قراءة صحيحة ويفهم فهماً صحيحاً، وخرج على الحالين برأس مال عظيم من دينه وفضائل دينه، وقوميته ولغته وتاريخه، ونتيجة هذا أن يكون عضواً حقيقياً من أمَّته، صالحاً للحياة لها وبها ومعها(2).

ويكمل الإبراهيمي فيقول: إنَّ مراحل التعليم الابتدائي هي ـ بالأصول ـ مراحل التكوين الأولى للناشئة، وعلى أساسها يُبْنى مستقبلها في الحياة، فإن كان هذا التكوين صالحاً كانوا صالحين لأمتهم ولأنفسهم، وإن ناقصاً مختلاً زائفاً بنيت حياة الجيل كله على فساد، وساءت اثاره في الأمَّة(3).

إن مناهج التعليم الابتدائي ـ كما حدَّدها الإبراهيمي ـ تشكِّل ثوابت لا غنى عنها في تكوين شخصية الشاب الجزائري والعربي عموماً، كي يتأهل بعدها لاستكمال مراحل الدراسة أو كي يخرج إلى الحياة وإلى سوق العمل، ومع العمل يستطيع، بناء لهذا الزَّاد الذي تناوله في وجبة التعليم الابتدائي، يستطيع أن يواصل تحصيل المعارف بواسطة المطالعة وتمحيص الكتب، كي يرتفع بنيان علومه لبنة بعد أخرى.

والمرحلة التأسيسية يتوزَّع فيها التحصيل فيما يلي:

ـ إتقان العربية قراءة وكتابة.

ـ مبادأئ الدين الإسلامي وأساساته التي لا تتقوَّم الشخصية إلا بها.

ـ الاطلاع على السيرة النبوية الشريفة وسيرة الصحابة والسلف، فذلك يشكل موطن نظام القدوة الحسنة التربوي للناشئة.

ـ تحصيل العلم بالتاريخ العربي الإسلامي، ففيه العبر والدروس، ويحمل التراث، وينقل الخبرات إلى الأجيال، ويحقق التواصل، وكما قيل: التاريخ ذاكرة الأمم والشعوب.

ـ ما سبق ذكره من العلوم يثبِّت الانتماء، ويربط الشباب مع هويته، ويؤصِّل تكوينه ديناً وقوميَّة ووطنية، وهذا هو منطلق جمعية العلماء الذي حدَّدته بالإسلام، والعروبة، والوطنية الجزائرية.

(1) الملتقى الدولي ص 353.
(2) اثار الشيخ محمد البشير (109/2).
(3) الملتقى الدولي ص 353.

والشباب يحتاج مؤسسات الرعاية، ومواضع إبراز المواهب، وعند هذا لا يلبي المسجد بمفرده هذه الحاجة رغم أفضلية موقعه في فرائض المسلم، وارتباطه بالإسلام، فالمعلوم أن الشباب لهم هوايات وعواطف وانفعالات، وأوقات فراغ، وحاجات للتسلية وصرف الطاقات، لهذا عملت الجمعية، وفي قلبها الإبراهيمي، على تأسيس الأندية، فكما المسجد حاجة مسيسة للشيوخ وكبار السن، والحضانات والمدارس حاجة للأطفال والفتيان ؛ فإن الأندية حصن حصين للشباب إن قامت على التقوى، وسادتها القيم السامية، والأنماط الأخلاقية الفاضلة، هذا مع توفير ما يطلبه الشباب.

قال الإبراهيمي عن الأندية الشبابية: أنشأت الجمعية في مدَّة قصيرة عشرات النوادي في المدن والقرى، ودعت إليها الشبّان فاستجابوا وأقبلوا عليها لأنَّها أقرب إلى أمزجتهم، ولأن فيها شيئاً من التسلية والمرح، ولأن فيها قليلاً من جوّ المقهى.. وفي ظلِّ هذه الجواذب التقت الجمعية بالشبان، وقامت بحق الله فيهم، فنظمت لهم فيها محاضرات تهذب بها أخلاقهم، وتعرِّفهم بأنفسهم وقيمتهم ومنزلتهم في الأمَّة، وتجمع قوتهم، ودروساً تعلمهم بها دينهم ولغتهم وتاريخهم، فكان لمشروع النوادي اثار من الشباب تساوي اثار المدرسة في الأطفال، وتفوق اثار المساجد في الشيوخ والكهول[1].

إنَّ نوادي جمعية العلماء التي يشير إليها الإبراهيمي تشكِّل ضرورة تربوية، وفقدانها أو عدم وجودها سيخلف مشكلة، والمتفحِّص لشوارع المدن في الوطن العربي وسواه ؛ يعرف أهمية ما قرَّرته جمعية العلماء، حيث نجد مقاهي شبكة المعلومات الدولية، وأماكن تسلية أخرى تعجُّ بالمفاسد وبعوامل الانحدار والانحراف، ولو أقامت الحكومات والمؤسسات الأهلية أندية كما فعلت جمعية العلماء لكانت أدَّت للشباب حقوقه، وعصمته من الزلل والانحرافات، التي تدفع الأوطان والأسر الثمن غالياً عندما يجنح الأحداث أو الشباب.

ولكن الإبراهيمي يكمل توجيهاته الحكيمة للشباب، حتى يدعوهم إلى الوسطية والاعتدال والابتعاد عن الغلو، ونجده يوجِّههم إلى تخصيص قدر من الوقت لكل نشاط بدني أو فكري بعد إتمام الواجبات المناطة بالفرد، ويقول للشباب: لا تقطعوا الفاضل من أوقاتكم في ذرع الأزقة إلا بمقدار ما تستعيدون به النشاط البدني، ولا في الجلوس في المقاهي إلا بقدر ما تدفعون به الملل والركود، ولا في قراءة الجرائد إلا بقدر ما تطّلعون به على الحوادث الكبرى.. خذوا من كل ذلك بمقدار، ووفروا الوقت كله للدرس النافع والمطالعة المثمرة[2].

إنَّ حاجات الشباب متنوعة خارج إطار العمل أو الدراسة، ولا بأس أن يخفف الشباب عن نفسه، ويروِّح في وقت بعد اخر، وضمن الحدود المقبولة، وقد أرشد إلى ذلك الحديث النبوي الشريف الذي جاء فيه: «روِّحوا عن النفس ساعة فساعة».

والإبراهيمي الذي امن بضرورة السعي لتحصيل المعارف عمل بشكل مستمر التزاماً بالقول المأثور: «اطلب العلم من المهد إلى اللحد». وهذا التحصيل لا يكون في قاعات المدارس والمعاهد والجامعات، وإنما له مصدر

(1) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (173/4 . 174).
(2) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (203/3).

اخر أولى بالاعتماد من قبل الشباب، هذا المصدر هو المطالعة. ويشخِّص الإبراهيمي الدَّاء ويصف العلاج، فيقول: إنَّ شبابنا المتعلِّم كسول عن المطالعة، والمطالعة نصف العلم أو ثلثاه، فأوصيكم يا شباب الخير بإدمان المطالعة والإكباب عليها، ولتكن مطالعتكم بالنظام، حرصاً على الوقت أن يضيع في غير طائل، وإذا كنتم تريدون الكمال فهذه إحدى سبل الكمال.

تأسيساً على ما تقدَّم نخلص إلى أن الإبراهيمي يحدِّد القواعد لإعداد الجيل بما يلي:

. الإعداد السليم من جهة الالتزام الديني.

. المناهج التعليمية التي تسهم في تكوين شخصية الناشئة مع التحصين من الزيغ والأهواء والمغريات.

. توفير الرعاية الدائمة للشباب بعد الخروج إلى سوق العمل أو قبله، وهذا يحتاج إلى المرافق العامة التي توفِّر له فرص الترويح عن النفس، وقضاء أوقات الفراغ بما هو مفيد، وبما يبعده عن شواطأئ الخطر، ومنزلقات الفساد.

. تنبيه المواهب والمعارف بالمطالعة ومتابعة البحث، لأن التحصيل والاكتساب من الأمور التي يحتاجها الفرد من المهد إلى اللحد.

. تفعيل العمل المؤسسي الأهلي، كي توظف من خلاله الطاقات المتطوعة من أجل الصالح العام، وفي رحابه يتم صقل شخصية الفرد، وتتم رعاية مواهبه، وتنمية ملكاته كي تتفتَّح له سبل الإبداع والعطاء دون حواجز أو معوقات(1).

إن الإمام محمد البشير الإبراهيمي يرى أن: الشباب في كل أمَّة هم الدم الجديد الضامن لحياتها واستمرار وجودها، وهم الامتداد الصحيح لتاريخها، وهم الورثة الحافظون لماثرها، وهم المصحِّحون لأغلاطها وأوضاعها المنحرفة، وهم الحاملون لخصائصها إلى من بعدهم من الأجيال(2).

وقال الإبراهيمي منادياً الشباب: يا شباب الإسلام!. وصيَّتي إليكم أن تتَّصلوا بالله تديناً، وبنبيكم اتباعاً، وبالإسلام عملاً، وبتاريخ أجدادكم اطلاعاً، وباداب دينكم تخلقاً، وباداب لغتكم استعمالاً، وبإخوانكم في الإسلام ولداتكم في الشبيبة اعتناءً واهتماماً، فإن فعلتم حزتم في الحياة الحظ الجليل ومن ثواب الله الأجر الجزيل(3).

7 . اهتمامه بالمرأة:

كان وضع المرأة الجزائرية في أوائل القرن العشرين متخلفاً للغاية، فأبواب التعليم موصدة في وجهها، ومشاركتها في المجتمع لم تتعد دور ماكينة الأولاد، بالإضافة إلى بعض الأعمال الإنتاجية البدائية، كغزل الصوف، ونسج البرانس، ومساعدة الرجل في الريف في أعماله الزراعية، وما عدا ذلك فقد كان يخيم على وضعها الاجتماعي جو قاتم، فلا رأي لها في الزواج، وكانت تعاني من اثار الطلاق.

---

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 356.

(2) اثار الإمام محمد البشير (120/4).

(3) اثار الإمام محمد البشير (121/4).

وكان للحركة الإصلاحية الجزائرية التي قادها عبد الحميد بن باديس ـ والبشير الإبراهيمي من بعده ـ رأيها في الموضوع، فكانت الحركة الإصلاحية ترى بأن التعليم والتعليم الوطني والديني على الخصوص هو المدخل الأول لتحرير المرأة، وأن الحجاب لا يقف عائقاً أمام تطورها، وفي ذلك يقول ابن باديس: إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها، فإن حجاب الجهل هو الذي أخرها، وأما حجاب الستر فإنه ما ضرها في زمان تقدمها، فقد بلغت بنات بغداد وبنات قرطبة وبنات بجاية مكاناً عالياً في العلم، وهنَّ متحجبات، فليت شعري ما الذي يدعوكم اليوم إلى الكلام في كشف الوجوه قبل كل شيء[1].

إن جمعية العلماء بقيادة العالمين ابن باديس والإبراهيمي سارت في المجال الاجتماعي بخطى متقدمة، ونظرت إلى المرأة كعنصر مهم في نهضة الجزائر والتصدي للمشروع الفرنسي الاحتلالي، وذلك من خلال تعليمها وتهذيبها، وغرس مفاهيم الحشمة والفضيلة والصيانة في نفوس الفتيات المقبلات على التعليم في مدارسها. وعمل الإبراهيمي على توجيه المجتمع نحو قيم القران الكريم وتعاليمه في شؤون الحياة، ومنها الاجتماعية، فتحدث عن الزواج والصداق والطلاق.

أ ـ الزواج:

ورأيه في هذه القضية يتمثل في ضرورة الحث على الزواج في الوقت المناسب، ويقول في هذا الشأن:

حتى لا يضيع على الجنسين ربيع الحياة، ونسماته وأزهاره وبهجته وقوته، ويضيع على الأمَّة نبات ذلك الربيع وثمر الخصب، والنماء والزكاء فيه، ثم تضيع بسبب ذلك أخلاق وأعراض وأموال، وإذا زادت هذه الفاشية فشواً، واستحكم هذا التقليد الفاسد ؛ فإن الأمَّة تتلاشى في عشرات السنين[2].

ويقصد بالتقليد الفاسد إعراض الشباب عن الزواج. وحين كان الإبراهيمي يدعو إلى الزواج المبكر والتناسل، كان واعياً جداً بالمراحل الصعبة التي كان يمر بها المجتمع الجزائري، والتي تميزت بارتفاع معدل الوفيات عند الأطفال والشيوخ، نتيجة الجوع والمرض والفقر، إضافة إلى عمليات التقتيل والنفي والتشريد والضياع والهجرة التي كان يمارسها الاستعمار الفرنسي بالجزائر، حيث لم يتجاوز عدد السكان يوم دخول الاستعمار الفرنسي، و لم يكن بعيداً عن هذا التقدير، إضافة إلى ما كانت تدفع به الثورات والانتفاضات الجزائرية المتتالية من الشباب من أعداد هائلة من الشهداء من أجل الحرية والاستقلال[3].

ب ـ في الصداق:

غير أنه بقدر ما كان يحث على الزواج المبكر، بقدر ما كان مدركاً للأسباب والعوامل التي تبعد التفكير في الزواج عند الشباب، لقد كان ينتقد كثيراً أولئك الاباء الذين يغالون في مهور بناتهم، يقول: لو أننا وقفنا عند حدود الله، ويسرنا ما عسرته العوائد من أمور الزواج ؛ لما وقعنا في هذه المشكلة، ولكننا عسّرنا وحكّمنا

(1) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، د . أحمد الخطيب ص 232.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 90.

(3) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 90.

العوائد، والعجائز القواعد، في مسألة خطيرة كهذه، فأصبح الزواج الذي جعله الله سكناً وإلفة ورحمة ؛ سبيلاً للقلق والبلاء والشقاء، وأصبح اللقاء الذي جعله الله عمارة بيت، وبناء أسرة ؛ خراباً لبيتين، بما فرضته العوائد في مغالاة المهور، وتفتن في النفقات والمغارم(1).

وعمل الإبراهيمي على مساعدة الراغبين في الزواج بشكل عملي وتنظيمي، بالإشراف على زواج معظم الفتيات المتعلمات بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة، ومدن أخرى غيرها، على أساس مهور رمزية تمثلت في كثير من الحالات يكتب شعر وأدب وتربية، ومصاحف قرانية، وهدايا رمزية قدر المستطاع، ولعل أكثر هذه الزيجات نجاحاً في بلادنا، هي هذه الزيجات، كما أثبتت الأيام فيما بعد.. لأنها لم تبن على المصالح المادية، بل بنيت على البر والتقوى والمودة والرحمة من جهة، وحافظت على صحة البنية الاقتصادية للأسرة من جهة أخرى.

وقد استمر العمل بهذا القرار الحكيم حتى أيام الكفاح المسلح، حيث بقي الصداق رمزياً عند زواج المجاهدين والمجاهدات، لقد كان سابقاً عصره في تقديس الحياة الأسرية بوصفها القاعدة الصلبة والأساسية لبناء المجتمعات، وكان يعمل مصلحاً وواعظاً على المستوى الفردي والجماعي، على الارتفاع بمستوى هذه الأسرة وتفتحها وازدهارها، فكان التوافق الاجتماعي والفكري من أهم الشروط التي يطلب احترامها عندما يتدخل إيجابياً، وكالأب الروحي العطوف في زواج المجاهدين والمجاهدات، وزواج الأساتذة والمعلمين بالمدارس الحرة، كانت الأسرة بالنسبة إليه من أسس نهضة المجتمع الجزائري، والمرأة فيها يجب أن تكون من شروط القيادة الأسرية لتربية الجيل وتهذيب النشء.

في وقت كانت فيه الفتاة تباع وتشترى في سوق المزايدة، خصوصاً داخل بعض الأسر التي تغلبت عليها الروح المادية والإقطاعية والبرجوازية، فكان أن وجد لدى معظم الأسر من عامة الناس. خصوصاً في مدينة قسنطينة . الاستجابة الكاملة لارائه ووصاياه الإصلاحية تجاه تعليم البنت، واحترام إنسانيتها في الزواج، فكانت هذه أولى الخطوات في تطبيق المبادأئ الاجتماعية السليمة والمطلوبة في إنشاء مجتمع سليم(2).

ج . رأيه في الطلاق:

أما في القضية الثالثة وهي الطلاق: فإنه يبني رأيه فيها على الحديث الشريف: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، ويقول: الطلاق حل عقدة، وبتّ حبال، وتمزيق شمل وزيال خليط، وانفضاض سامر، فيه كل ما في هذه المركبات الإضافية التي استعملها شعراء العرب، وجرت في ادابهم العاطفية مجرى الأمثال، من التياع وحرارة، وحسرة ومرارة، ويزيد عليها جميعاً بمعنى اخر وهو ما يصحبه من الحقد والبغض والتألم والتظلم(3).

إنه رأي مبني على الوضعية الأسرية المتردية التي كان يشاهدها يومياً ككاتب مفكر وحكيم مصلح، حيث يتفشى الإهمال العائلي، والتفكك الأسري، واليتم والتشرد وانحراف الأحداث، نتيجة نظرة استعبادية متخلفة

---

(1) المصدر نفسه ص 91.

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص .92.

(3) المصدر نفسه ص 92.

للمرأة من جهة وللأسرة ودورها القيادي في المجتمع من جهة أخرى، كحالة من حالات التخلف الاجتماعي التي فرضها المستعمر.

هكذا كان الإبراهيمي.

الكلمة الصادقة التي لا تبلى فيها جدة، والكلمة المخلصة النابضة أبداً، والكلمة المنهج الرشيد شامخة وارفة الظل، دانية القطوف.

كان فريداً بين علماء الإسلام، ولكنه نمط ليس غريباً، لأنه جمع في نسق واحد بين القيادة والزهادة والنزاهة، بين علوم الشريعة وعلوم اللسان والمعرفة بالسير والأخبار، ومذاهب أهل الفرق والديانات، وجاءت كتاباته الوافرة متنوعة الفنون متشعبة المقاصد، حتى أنه عالج كل الموضوعات الإنسانية والحضرية.

وهكذا يتراءى لنا أنه كان يعيش حياة قومه متكاملة، ويتفاعل معها سواء في مجال العلم والأدب، أو الفكر والسياسة، وكان دوماً متطلعاً إلى الأحسن، يخلق كل مرة افاقاً جديدة بفكره وعلمه، باحثاً دوماً عن صيغ جديدة لحياتنا الفكرية، صيغ تجمع بين أصالة ثقافية بمقوماتها الأساسية، ومعاصرة تجعلنا جزءاً من زماننا فكراً وجسداً، وذلك بالاجتهاد والتنقيب في الموروث من تراثنا الحضاري، لنأخذ جزأه العاقل المبدع الخلاق وننبذ جزأه الخامل البليد.. ونتحول من حضارة اللفظ إلى حضارة الفعل[1].

8 . رأيه في علماء الدين:

يرى الإمام الإبراهيمي أنه لا توجد في الإسلام «وظيفة» أشرف قدراً، وأسمى منزلة، وأرحب أفقاً، وأثقل تبعة، وأوثق عهداً، وأعظم أجراً عند الله من وظيفة العالم الديني، لأنه وارث لمقام النبوة، واخذ بأهم تكاليفها، وهو الدعوة إلى الله، وتوجيه خلقه إليه، وتزكيتهم وتعليمهم، وترويضهم على الحق حتى يفهموه ويقبلوه، ثم يعملوا ويعملوا له.

فالعالم بمفهومه الديني في الإسلام، قائد، ميدانه النفوس، وسلاحه الكتاب والسنة وتفسيرها العملي من فعل النبي (ص) وفعل أصحابه، وعونه الأكبر على الانتصار في هذا الميدان ؛ أن ينسى نفسه ويذوب في المعاني السامية التي جاء بها الإسلام، وأن يطرح حظوظها وشهواتها من الاعتبار، وأن يكون حظه من ميراث النبوَّة أن يزكّي ويعلّم، وأن يقول الحق بلسانه ويحققه بجوارحه، وأن ينصره إذا خذله الناس، وأن يجاهد في سبيله بكل ما اتاه الله من قوَّة.

ويرى الإبراهيمي أن الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة هي أن يبدأ بنفسه في نقطة الأمر والنهي، فلا يأمر بشيء مما أمر به الله ورسوله حتى يكون أول فاعل له، ولا ينهى عن شيء مما نهى الله ورسوله عنه ؛ حتى يكون أول تارك له.

(1) المصدر نفسه ص 93.

كل ذلك ليأخذ عنه الناس بالقدوة والتأسي أكثر مما يأخذون عنه بوساطة الأقوال المجرَّدة، والنصوص اللفظية، لأن تلاوة الأقوال والنصوص لا تعدو أن تكون تبليغاً، والتبليغ لا يستلزم الاتباع، ولا يثمر الاهتداء ضربة لازم، ولا يعدو أن يكون تذكيراً للناس، وتبكيتاً للقاسي، وتنبيهاً للخامل، وتعليماً للجاهل، وإيقاظاً للخامل، وتحريكاً للجامد، ودلالة للضال.

أما جرّ الناس إلى الهداية بكيفية تشبه الإلزام ؛ فهو في التفسيرات العملية التي كان المرشد الأول يأتي بها في تربيته لأصحابه، فيعلمهم بأعماله أكثر مما يعلمهم بأقواله، لعلمه وهو سيد المرسلين بما للتربية العملية من الأثر في النفوس، ومن الحفز إلى العمل بباعث فطري في الاقتداء، وقد رأى مصداق ذلك في واقعة الحديبية حين أمر أصحابه بالقول فتردَّدوا مع أنهم يعلمون أنه رسول الله، وأنه لا ينطق عن الهوى، ثم عمل فتتابعوا في العمل اقتداء به وكأنهم غير من كانوا.

كان الصحابة لاستعدادهم القوي لتحمُّل الإسلام بقوة يحرصون على أخذ همات العبادات من فعله (ص)، كما يحرصون على التمثُّل بأخلاقه والتقليد له في معاملته لله، ومعاملته لخلقه، وعلى التأسي به في الأفعال والترك في شؤون الدين والدنيا، لعلمهم أن الفعل هو المقصد والثمرة، وأن الأقوال في معظم أحوالها إنما هي أدوات شرح وقوالب تبليغ والات أمر ونهي، ووسائل ترغيب وترهيب، وأن في قول قائلهم: أنا أشبهكم صلاة برسول الله لدليلاً على تغلغل هذه النظرة في مستقرِّ اليقين من بصائرهم، وأنهم كانوا يتشدَّدون في أخذ الصور العملية من أفعاله (ص) كما هي، ويتحرجون من التقصير فيها، ومرماهم في ذلك أن العمليات المأخوذة من طريق العيان أقرب إلى اليقين وموافقة مراد الله منها، وبذلك تتحقق اثارها في النفوس.

وقد كانوا يفهمون العبادة بهذا المعنى: أن تعبد الله كما شرع على الوجه الذي شرع، فالكيفيات داخلة في معنى التعبُّد، لذلك لم يُحدث السلف زوائد على العبادات من أذكار وغيرها بدعوى أنها زيادة في الخير، كما عمل الخلف، وكانوا يفهمون يسر الدين بمعناه السامي وهو أنه لا إرهاق فيه ولا إعنات، وأنه ليس في المقادير الزائدة عن إقامة التكاليف أو في المعاذير الصحيحة العارضة للتكاليف ـ لا كما نفهمه نحن ـ تساهلاً وتطفيفاً[1].

فهمَ علماء السلف الإسلام كاملاً بعقائده وعباداته وأحكامه وأخلاقه، وفهموا ما بين هذه الأجزاء من الترابط والتماسك ووحدة الأثر والتأثير، وأنها ـ في حقيقتها ـ شيء واحد، هو الدين، وهو الإسلام، وأن ضياع بعضها مؤذن بضياع سائرها، أو هو ذريعة له، فلا يقوم دين الله في أرضه إلا بإقامة جميعها، وإذا قال القران: {أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ} [سورة الشورى:13] فمعناه إقامة جميعها، وأنه ليس من هذا الدين أن يصلي المسلم ثم يكذب، ولا أن يذكر الله ثم يحلف به حانثاً باللسان الذي ذكره به متقرباً إليه، ولا أن يمسك عن الطعام، ثم يأكل لحوم الخلق، ولا أن يخاطب ربه: {إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥} [سورة الفاتحة:5] ثم يتوجه إلى غيره عابداً ومستعيناً فيما هو من خصائص الألوهية، ولا أن يقول بلسانه ما ليس في قلبه، ولا أن

(1) المصدر نفسه (110/4).

يأمر الناس بالجهاد ثم يرضى لنفسه أن يكون مع الخوالف، أو ببذل المال في سبيل العلم ثم يقبض يديه كأنه خارج من التكليف، أو بالبر وينسى نفسه، ولا أن يترخَّص في الحق إرضاءً لغويّ أو غنيّ، ولا أن يؤخِّر كلمة الحق عن ميقاتها حتى يضيع الحق(1).

أ . رأيه في العلماء السابقين:

كان كل واحد منهم يرى أنه مستحفظ على كتاب الله ومؤتمن علسنَّة رسوله، في العمل بها وتبليغها كما هي، وحارس لهما أن يحرفهما الغالون أو يزيغ بهما عن حقيقتهما المبطلون، أو يعبث بهما المبتدعة، فكل واحد حذر أن يؤتى الإسلام من قبله، فهو . لذلك . يقظ الضمير، متأجج الشعور، مضبوط الأنفاس، دقيق الوزن، مرهف الحس، متتبع لما يأتي الناس وما يذرون من قول وعمل، سريع الاستجابة للحق إذا دعا إليه داعيه، وإلى نجدته إذا ريع سربه أو طرق بالسر حماه.

وكانوا يأخذون أنفسهم بالفزع لحرب الباطل لأول ما تنجم ناجمته، فلا يهدأ لهم خاطر حتى يوسعوه إبطالاً ومحواً، ولا يسكتون عليه حتى يستشري شرَّه ويستفحل أمره، فتستغلظ جذوره، ويتبوَّأ من نفوس العامة مكاناً مطمئناً.

وكانوا يذكرون دائماً عهد الله، وأنه أخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق، وأن الحق هو ما جاء به محمد عن ربه لهداية البشر وصلاح حالهم، وكانوا يزنون أنفسهم دائماً بميزان الكتاب والسنة، فما وجدوا من زيغ أو عوج قوَّموه في الحال بالرجوع والإنابة، كما يفعل المفتونون بالجسمانيات في عصرنا هذا في وزن أبدانهم كل شهر.

وكان العلماء يردُّون كلَّ ما اختلفوا فيه من كل شيء إلى كتاب الله وسنة رسوله، لا إلى قول فلان، ورأي فلان، فإذا هم متّفقون على الحق الذي لا يتعدد، ولقد أنكر الإمام مالك على ابن مهدي . وهو قرينه في العلم والإمامة . عزمه على الإحرام من المسجد النبوي، فقال ابن مهدي: إنما هي بضعة أميال أزيدها. فقال مالك: أو ما قرأت قوله تعالى:{فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦٣} [سورة النور:63] ؟

وأية فتنة أعظم من أن تسوّل لك نفسك أنك جئت بأكمل مما جاء به رسول الله (ص)؟ أو كلاماً هذا معناه.. ثم تلا قوله تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة:3]، وقال كلمته الجامعة التي كان عليها لالاء الوحي، وهي قوله: «فما لم يكن يومئذ ديناً فليس اليوم بدين».

وكانوا يحكمون دينهم في عقولهم، ويحكمون عقولهم في ألسنتهم، فلا تصدر الألسنة إلا بعد مؤامرة العقل، ويعدون العقل مع النص أداة للفهم معزولة عن التصرُّف، ومع المجملات ميزاناً للترجيح، يدخل في حسابه المصلحة والضرورة والزمان والمكان والحال، ويميز بين الخير والشر، وبين خير الخيرين، وشر الشر الشرّين، لذلك غلب صوابهم على خطئهم في الفهم والاجتهاد، ولذلك أصبحت فهومهم للدين وسائل للوصول إلى الحق،

---

(1) المصدر نفسه (111/4).

واراؤهم في الدنيا موازين للمصلحة، وما هم بالمعصومين، ولكنهم لوقوفهم عند الحدود وارتياض نفوسهم على إيثار رضى الله، وشعورهم بثقل عهده، وفّقهم الله لإصابة الصواب.

وكانوا يزنون الشدائد التي تصيبهم في الطريق إلى إقامة دين الله بأجرها عنده، ومثوبتها في الدار الاخرة، لا بما يفوتهم من أعراض الدنيا وسلامة البدن وخفض العيش وراحة البال، فكل ما أصابهم من ذلك يعدُّونه طريقاً إلى الجنة ووسيلة إلى إرضاء الله، وكانوا ملوكاً على الملوك، واقفين لهم بالمرصاد، لا يقرونهم على باطل ولا منكر، ولا يسكتون لهم على مخالفة صريحة للدين، ولا يتساهلون معهم في حق الله، ولا يترضونهم فيما يسخط الله.

بتلك الخلال التي دللنا القارئ عليها، باللمحة المنبِّهة، قادوا الأمَّة المحمَّدية إلى سعادة الدنيا وسعادة الاخرة، وبسير الأمراء المصلحين على هداهم سادوا أغلب الجزء المعمور من هذه الأرض بالعدل والإحسان، إذ كان الأمير في السلم لا يصدر إلا عن رأيهم، والقائد في الحرب لا يسكن ولا يحرِّك إلا بإشارتهم في كل ما يرجع إلى الدين، فجماع أمر العلماء إذ ذاك أنهم كانوا «يقودون القادة».

ما رفعهم إلى تلك المنزلة بعد العلم والإخلاص، إلا أنهم كانوا «حاضرين» غير «غائبين»، كانوا يحضرون مجالس الرأي مبشرين شاهدين، وميادين الحرب مغيرين مجاهدين، طبعهم الإسلام على الشجاعة بقسميها: شجاعة الرأي وشجاعة اللقاء، فكانوا يلقون الرأي شجاعاً فيقهر الاراء، ويخوضون الميادين شجعاناً فيقهرون الأعداء. وللاراء اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي، كما للأناسي اقتتال يظفر فيه الشجاع القوي، والعالم الجبان في أمة عضو أشلّ، يؤود ولا يذود، ولعمري إن في اتحاد صف الصلاة وصف القتال، في الاسم والاتجاه والشرائط لموقف عبرة للمتوسمين.

صدق أولئك العلماء ما عاهدوا الله عليه، وفهموا الجهاد الواسع، فجاهدوا في جميع ميادينه، فوضع الله القبول في كلامهم عند الخاصة والعامة، وإن القبول جزاء من الله على الإخلاص، يعجله لعباده المخلصين، وهو السر الإلهي في نفع العالم والانتفاع به، وهو السائق الذي يَدُعُّ النفوس المدبرة عن الحق إلى الإقبال عليه، ونفوذ الرأي وقبول الكلام من العالم الديني الذي لا يملك إلا السلاح الروحي، هو الفارق الأكبر بين صولة العلم وصولة الملك.

وهو الذي أخضع صولة الخلافة في عنفوانها لأحمد بن حنبل، وأخضع صولة الملك في رعونتها للعز بن عبد السلام، وإن موقف هذين الإمامين من الباطل لعبرة للعلماء لو كانوا يعتبرون، وإن في عاقبتهما الحميدة لاية من الله على تحقيق وعده بالنصر لمن ينصره.

نصر الله أولئك الرجال الذين كانوا يوم الرأي صدور محافل، ويوم الروع قادة جحافل، وفي التاريخ محققين لنقطة الاقتراب، بين الحرب والمحراب، ولقد كانوا يقذفون بكلمة الحق مجلجلة على الباطل، فإذا الحق ظاهر وإذا الباطل نافر، ويقذفون بعزائمهم في مزدحم الإيمان والكفر، فإذا الإيمان منصور، وإذا الكفر مكسور، ووصل الله ما انقطع منا بهم بإحياء تلك الخلال، فما لنا من فائت نتمنى ارتجاعه أعظم من بعث تلك الشجاعة، فهي أعظم ما أضعنا من خصالهم، وحرمناه ـ بسوء تربيتنا ـ من خلالهم.. ولعمري إن تلك القوى

لم تمت، وإنما هي كامنة، وإن تلك الشعل لم تنطفأئ، فهي في كنف القران امنة، وما دامت نفحات القران تلامس العقول الصافية، وتلابس النفوس الزكية؛ فلا بدَّ من يوم يتحرَّك فيه العلماء، فيأتون بالأعاجيب، وما زلنا نلمح وراء كل داجية في تاريخ الإسلام نجماً يشرق، ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يخرق، من عالم يعيش شاهداً، ويموت شهيداً، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق، يهدي السارين المدلجين إلى حين.

وما علمنا فيمن قرأنا أخبارهم وتقفينا اثارهم من علماء الإسلام، مثلاً شروداً في شجاعة النزال بعد الحافظ «الربيع بن سالم» عالم الأندلس، بل أعلم علمائها في فقه السنّة لعصره، فقد شهد وقعة تعدّ من حوامد الأعمار، فبذ الأبطال المساعير، وتقدم الصفوف مجلّياً ومحرّضاً والحرب تقذف تياراً بتيار، حتى لقي ربه من أقرب طريق.

ولا علمنا فيهم مثالاً في شجاعة الرأي العام أكمل من الإمام أحمد بن تيمية . وعصراهما متقاربان . فقد شنَّها حرباً شعواء على البدع والضلالات، أقوى ما كانت رسوخاً وشموخاً، وأكثر اتباعاً وشيوخاً يظاهرها الولاة القاسطون، ويؤازرها العلماء المتساهلون المتأوِّلون.

وقد ادَّخر الله لهذا العصر الذي تأذن فجر الإسلام فيه بالانبلاج، الواحد الذي بذ الجميع في شجاعة الرأي والفكر وقوة العلم والعقل، وجرأة اللسان والقلب، وهو محمد عبده، فهز النفوس الجامدة وحرَّك العقول الراكدة، وترك دوياً ملأ سمع الزمان، وسيكون له شأن(1).

ب . رأيه في علماء عصره:

وأما علماء الخلف فهم أقل من أن تسمِّيهم علماء دين، وأقل من أن تسميهم علماء دنيا. أما الدين فإنهم لم يفهموه على أنه نصوص قطعية من كلام الله، وأعمال وأقوال تشرح تلك النصوص من كلام رسول الله (ص) وفعله، ومقاصد عامة تؤخذ من مجموع ذلك ويرجع إليها فيما لم تفصح عنه النصوص، وفيما يتجدد بتجدُّد الزمان، لم يفهموه على أنه عقائد يتبع العقل فيها النقل، وعبادات كملت بكمال الدين، فالزيادة فيها كالنقص منها، وأحوال نفسية صالحة هي أثر تلك العقائد والعبادات، واداب تصلح المعاملة وتصحِّحها بين الله وعباده، وبين العباد بعضهم مع بعض، بل فهموا الدين وأفهموه على أنه صور مجرَّدة خالية من الحكمة، وحكّموا فيه الاراء المتعاكسة والأنظار المتباينة من مشايخهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى إطراح النصوص القطعية إلى كلام المشايخ، وإلى سدِّ باب الفكر بالتقليد، وتناول حقائق الدين بالنظر الخاطأئ والفهم البعيد. والفكر كالعقل نعمة من نعم الله على هذا الصنف البشري، فالذي يعطله أو يحجر عليه جانٍ مجرم، كالذي يعطل نعمة العقل، ولعمري إن سدَّ باب الاجتهاد لأعظم نكبة أصابت الفكر الإسلامي، وأشنع جريمة ارتكبها المتعصبون للنزعات المذهبية.

وأما الدنيا فليسوا علماء دنيا بالمعنى الأعلى لهذه الكلمة، وهو أن يعالجوا الكسب بطرق علمية، ويدرسوا وسائل الثراء بعزائم صادقة، ويضربوا في الأرض لجمع المال بكد اليمين وعرق الجبين، وأما المعنى السخيف

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (113/4).

لهذه الكلم فهم أوفر الناس حظاً منه، فهم يطلبون المعيشة بأخس وسائلها، فيحصلون منها على فتات الموائد يشترونه بدينهم وماء وجوههم، هانوا على أنفسهم فهانوا على الله وعلى الناس، فرضوا بالدون والهون(1).

. بداية التفكك:

نعني بعلماء الخلف هذه العصابة التي نشهد اثارها ونسمع أخبارها، ونحدِّدها تحديداً زمنياً بمبدأ المائة العاشرة للهجرة، من يوم بدأت الشعوب الإسلامية في التفكُّك والانهيار، ولم يظهر لهؤلاء العلماء أثر في دفع البلاء قبل إعضاله، بل كانوا أعواناً له وكانوا بعض أسبابه، وإنما نحدد هذا التحديد متساهلين وإن كان المرض ممدود الجذور إلى ما قبل ذلك الحد من القرون، ولكن المرض لم يصل إلى درجة الإعضال إلا في المائة العاشرة وما بعدها(2).

إن الناظر في تاريخ العلم الديني الإسلامي يرى أن طوره الأول كان علماً متيناً، وعملاً متيناً، وأن طوره الوسط كان علماً سميناً وعملاً هزيلاً، وأما طوره الثالث والأخير فلا علم ولا عمل، إنما هو تقليد أعمى ونقل أبكم، وحكاية صماء، وجفاف جاف، وجمود جامد، وخلاف لا يثبت به حق، ولايُنفى به باطل، ولا تتمكن به عقيدة، ولا تثبت عليه عزيمة، ولا تقوى عليه إرادة، ولا تجتمع معه كلمة، ولا ينتج فيه فكر، ولا تستيقظ معه عزة، ولا تثور كرامة، ولا تتنبَّه رجولة ولا نخوة، لأن الشخصية فيه موءودة، والروح المستقلة معه مفقودة، إنما هو تواكل يسمُّونه توكلاً، وتخاذل يسكّنونه بالحوقلة والاسترجاع، وخلاف ممزِّق لأوصال الدين يسمُّونه رحمة(3).

لقد أذل الطمع أعناق علماء الخلف، وملكت «الوظيفة» عليهم أمرهم، وجرّت عليهم الأوقاف المذهبية كل شر، فهي التي مكَّنت لنزعة التقليد في نفوسهم، وهي التي قضت على ملكة النبوغ واستقلال الفكر فيهم، وهي التي طبعتهم على هذه الحالة الذميمة وهي معرفة الحق بالرجال، وهي التي ربطتهم حتى في أحكام الدنيا وأوجه الحياة بالقرن الثاني لا في قوَّته وعزَّته وصولته، بل في حبس ركاب عنده، وتعطيل دوران الفلك العقلي بعده، ولذلك لم يسايروا الزمن ولم يربطوا بين حلقاته، فعاشوا بأبدانهم في زمن، وبأذهانهم في زمن، وبين الزمنين أزمنة، تحرَّكت وهم ساكنون، ونطقت وهم ساكتون(4).

ج . خطابه إلى علماء عصره:

أرأيت لو كان علماء الدين قائمين بواجب التذكير بالقران، مؤدِّين لأمانة الله، راعين لعهده في أمة واحدة، أكانت الأمة الإسلامية تصل إلى هذه الدركة التي لم تصل إليها أمة؟ فهي كثيرة العدد تبلغ مئات الملايين ولكنها غثاء كغثاء السيل.

(1) المصدر نفسه (114/4).
(2) المصدر نفسه (115/4).
(3) المصدر نفسه (115/4).
(4) المصدر نفسه (115/4).

واجب العالم الديني أن ينشط إلى الهداية كلما نشط الضلال، وأن يسارع إلى نصرة الحق كلما رأى الباطل يصارعه، وأن يحارب البدعة والشر والفساد قبل أن تمدَّ وتبلغ أشُدَّها، وقبل أن يتعوَّدها الناس، فترسخ جذورها في النفوس ويعسر اقتلاعها.

وواجبه أن ينغمس في الصفوف مجاهداً ولا يكون مع الخوالف والقعدة، وأن يفعل ما يفعله الأطباء الناصحون من غشيان مواطن المرض لإنقاذ الناس منه، وأن يغشى مجامع الشرور لا ليركبها مع الراكبين بل ليفرِّق اجتماعهم عليها.

وواجبه أن يطهِّر نفسه قبل ذلك كله من خلق الخضوع للحكَّام والأغنياء، وتملقهم طمعاً فيما في أيديهم، فإن العفَّة هي رأس مال العالم، فإذا خسرها فقد خسر كل شيء وخلفها الطمع فأرداه.

إن علماء القرون المتأخرة ركبتهم عادة من الزهو الكاذب والدعوى الفارغة، فجرّتهم إلى اداب خصوصية، منها أنهم يلزمون بيوتهم أو مساجدهم كما يلزم التاجر متجره، وينتظرون أن يأتيهم الناس فيعلموهم، فإذا لم يأتهم أحد تسخَّطوا على الزمان وعلى الناس، ويتوكؤون في ذلك على كلمة إن صدقت في زمان، فإنها لا تصدق في كل زمان وهي: إن العلم يؤتى ولا يأتي. وإنما تصدق هذه الكلمة في علم غير علم الدين، وإنما تصدق بالنسبة إليه في جيل عرف قيمة العلم فهو يسعى إليه، وأما في زمننا وما قبله بقرون، فإن التعليم والإرشاد والتذكير أصبح باباً من أبواب الجهاد، والجهاد لا يكون في البيوت وزوايا المساجد، وإنما يكون في الميادين حيث يلتقي العدو بالعدو كفاحاً، وقد قال لي بعض هؤلاء وأنا أحاوره في هذا النوع من الجهاد

وأكتب عليه تقصيره فيه: إن هذه الكلمة قالها مالك للرشيد، فقلت له: إن هذا قياس مع الفارق في الزمان والعالم والمتعلم، أما زمانك هذا فإن هذه الخلة منك ومن مشائخك ومشائخهم أدَّت بالإسلام إلى الضياع وبالمسلمين إلى الهلاك، فالشبهات التي ترد على العوام لا تجد من يطردها من عقولهم ما دام القسيسيون والأحبار أقرب إليهم منكم، وأكثر اختلاطاً بهم منكم، والأقاليم الإفرنجية تغزو كل يوم أبنائي وأبناءك بفتنة لا يبقى معها إيمان ولا إصلاح، ففي هذا الزمان يجب على عليَّ وعليك وعلى أفراد هذا الصنف أن نتجنَّد لدفع العوادي عن الإسلام والمسلمين حتي يأتينا الناس، فإنهم لا يأتوننا، وقد انصرفوا عنا وليسوا براجعين، وإذا كان المرابطون في الثغور يقفون أنفسهم لصدّ الجنود العدوَّة المغيرة على الأوطان الإسلامية؛ فإن وظيفة العلماء المسلمين أن يقفوا أنفسهم لصدّ المعاني العدوَّة المغيرة على الإسلام وعقائده وأحكامه، وهي أفتك من الجنود لأنها خفيَّة المسارب، غرَّارة الظواهر، سهلة المداخل إلى النفوس، تأتي في صورة الضيف، فلا تلبث أن تطرد ربّ الدار.

فقد علماء الدين مركزهم يوم أضاعوا الفضائل التي هي سلاح العالم الديني، وأمهاتها الشجاعة والقناعة والعفة والصبر. وإن تجرُّدهم من هذه الفضائل ليرجع في مبدأ أمره إلى خدعة من أمراء السوء المتسلطين، حينما أثقلت عليهم وطأة العلماء وقيامهم بالواجب الديني في الأمر والنهي، وعلموا أن العامة تبع للعلماء، وأن سلطان العلماء أقوى من سلطانهم، وأن كلمة مؤثرة من عالم مخلص تقع في مستقر التصديق من العامة قد تأتي على

السلطان الحاكم المتسلط ؛ فسوَّلت لهم أنفسهم أن يحدّوا من هذا التأثير الواسع القوي، فأخذوا يروِّضون علماء الدين على المهانة، وألصقوا ما بهم من الحاجة إلى ما في أيديهم من متاع الدنيا، ليجعلوا من ذلك مقادة يقودونهم بها إلى ما يهون، ثمَّ ربَّوهم على الطمع والتطلُّع إلى الاستزادة ومدِّ الأعين إلى زهرة الحياة الدنيا، فزلّوا ثم ضلّوا ثم ذلّوا، وتعاقبت الأجيال وتقلبت الأحوال فإذا العالم الديني تابع لا متبوع، ومقود بشهواته لا قائد، يراد على العظائم فيأتيها طائعاً يتحيَّل على دين الله إرضاءً للمخلوق، ويحلِّل ما حرَّم الله من دماء وأموال وأعراض وأبشار،يشتري بذلك جاهاً زائلاً وحالاً حائلاً ودراهم معدودة[1].

ومن الكيد الكبار الذي رمى به الأمراء المستبدون هؤلاء العلماء الضعفاء في العصور الأخيرة أنهم يعفونهم من الجندية التي هي حلبة الرجال، وأن في قبول العلماء لهذا الإعفاء وسعيهم له لشهادة يسجِّلونها على أنفسهم بفقد الرجولة، وقد استطابوا هذا الإعفاء وأصبحوا يعدّونه تشريفاً لهم وتنويهاً بمكانتهم ومعجزة خصّوا بها، ودليلاً تقيمه الحكومات الإسلامية على احترامها للعلماء.. فهل يعلمون أن الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الملوك الصالحين، ما كانوا ليعفوا عالماً من بعوث الجهاد والفتح؟ وما كان مسلم فضلاً عن عالم ليطلب الإعفاء أو يتسبب له أو يرضى به لو عرض عليه، بل كانوا يتسابقون إلى ميادين الجهاد، والعالم الديني ـ دائماً ـ في المقدمة لا في الساقة، ولقد كانوا يعدون الاعتذار عن الخروج من سمات المنافقين.

أيها العلماء:

هذا قليل من مساوينا، فلا تظنُّوا أني متجنّ أو متزيّد، كونوا منصفين للدين من أنفسكم، إني أحاكمكم إلى ضمائركم حين تستيقظ فيها معاني الإرث النبوي والاستخلاف المحمدي، أليس من الحق أن هذه المساوأئ وأمثالها معها مجتمعة فينا؟

ألسنا نأمر الناس بالجهاد ثم نكون من الخوالف؟ ونأمرهم ببذل المال في سبيل البر ثم نقبض أيدينا؟ كأن الجهاد بالنفس والمال ـ وهو ثمن الجنة ـ لم يُكتب علينا؟

إنني ـ يا قوم ـ أعتقد أن أقسى عقوبة عاقبنا بها الله على خذلنا لدينه؛ هي أنه جرَّد كلامنا من القبول والتأثير، فأصبح كلامنا في أسماع الجيل القديم مستثقلاً وفي أسماع الجيل الجديد مسترذلاً، ومن ظن خلاف ذلك فهو غر أو مغرور أو هما معاً.

أصبحنا في أمتنا غرباء تزدرينا العيون، وتتقاذفنا الظنون، لأننا أصبحنا كالدراهم الزيوف، فيها من الدراهم استدارتها ونقوشها وليس فيها جوهرها ومعدنها[2].

---

(1) المصدر نفسه (118/4).

(2) المصدر نفسه (118/4).

⁕ ⁕ ⁕

سادساً: الثقافة التاريخية عند الإبراهيمي

طوّف الشيخ الإبراهيمي في كتاباته وخطاباته ومحاضراته في مواضيع شتى، تناولت السياسة والتربية والنفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ.. ولم يخل موضوع منها إلا وفيه إشارة إلى الماضي القريب والبعيد يستمد منه الخبرة، ويستخلص منه العظة، ويتخذ منه مدداً لثورته على المستعمر وفضح مكايده وردِّ أحقاده وأطماعه.

وهو - وإن لم يؤثر عنه كتاب في التاريخ بمعناه الخاص - فقد كان شغوفاً بقراءة التاريخ الإنساني عموماً، وتاريخ المسلمين على وجه الخصوص، لكنها قراءة الواعي، الراصد لبواعث الفعل التاريخي، المتتبع للخط البياني لأمة الإسلام عبر تاريخها الطويل، صعوداً وهبوطاً، وصولاً إلى القمة أو نزولاً إلى القاع.

لذلك لا نقرأ عند الإبراهيمي الأحداث التاريخية مزدحمة بالتفاصيل والجزئيات، ولا نجد ذكراً لمصادر التاريخ القديمة، كالطبري والمسعودي وابن الأثير، وابن عبد الحكم، بل نجد ذكراً لدواوين الشعراء، ومدوّنات الفقه، ومتون اللغة، التي التهمها أثناء حياته المبكرة.

ويرى الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ؛ أن مصدر الإبراهيمي الأساسي في الثقافة التاريخية إنما هو التجربة الشخصية والمطالعة الحرة، فقد عاش منذ سنوات المراهقة متنقلاً بين عواصم العالم متأملاً في أهلها، مخالطاً لعلمائها، مطالعاً في مكتباتها، وفي هذه الأثناء قرأ الكثير من كتب التاريخ والرحلات والتراجم دون أن يذكر ذلك بالاسم والعنوان إلا نادراً، كذكره ابن خلدون وابن الخطيب ورسائل الضابط الفرنسي سان طارنو[1].

وقراءة الإبراهيمي للتاريخ لم تكن قراءة العابر المعجول، الذي يفاخر بكثرة ما جمع من التصانيف وعديد ما يحفظ من العناوين، إنما كانت قراءة الفقه بطبائع الشعوب، وعلل الحضارات، وسنن الاجتماع، المتسائل عن سبب النكوص بعد الإقدام، والذلة بعد العزة، والانكسار بعد الازدهار. إن حديثه في ثنايا اثاره عن التاريخ لا يخلو من إلماعات واستنتاجات تدل على عميق فقهه وعظيم حكمته، وبراعة استشهاده، ويتضح ذلك في مقاله في هجرة النبي (ص) من مكة إلى يثرب، حيث ينفذ إلى لطائف القران الكريم في حديثة عن الهجرة المحمدية، فسمَّاها «إخراجاً» ولم يسمها «هجرة» بصريح اللفظ.

يقول الإبراهيمي: وإنما سمَّى الصحابة «المهاجرين»، ونوه بالهجرة وحض عليها، وقرنها بالإيمان، وجعلها شرطاً في الولاية، فقال: {وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ } [**سورة الأنفال:72**].

وبعض الحكمة في ذلك أن التذكير بالإخراج من الديار يُذكي الحماس، ويُبقي الحنين إلى الديار متواصلاً، ويُنمِّي غريزة الانتقام والأخذ بالثأر. ويبعث الحميّة في نفوس الأحرار منهم، ويقرع عليهم خصامهم وتلاحيهم فيما بينهم، وهم في هذا الظرف أحوج ما يكونون للوئام والتصافح والتاخي.

(1) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د . نجيب بن خيرة ص 395.

ثم يوجه الشيخ خطابه إلى الجزائريين يستثير شهامتهم ويذكرهم بإخراج المستعمر لهم، وصدِّهم عن سبيل الله فيقول: إن للإخراج من الديار لشأناً أيّ شأن في القران، فهو يُبدأئ ويعيد في تقبيحه وإنكاره وتحريمه، وهو يقرنه بالقتل تشويهاً له وتشنيعاً عليه، وإن له في نفوس الأحرار لأثراً يتعاصى عن الصفح والعفو[1].

ثم يقول: وما زالت منذ درست السيرة بعقلي، أقف في بعض مقاماتها على ساحل بحر لُجِّي من العبر والمثلات، ومن بين تلك المقامات حادثة الهجرة، فلا يكاد عقلي يستثير بواعثها الطبيعية حتى أتلمَّح العوامل الإلهية فيها، فأستجلي من بعض أسرارها التمهيد للجمع بين أصلَيْ العرب اللذين كانا في الجاهلية يتنازعان ملاءة الفخر، ويؤرث الرؤساء والشعراء بينهما نار العصبية، حتى أضعفتهما العصبية، وحتى أطمع الضعف فيهما جاريهما القويين: جار الجنوب الحبشي، وجار الجنب الفارسي، وكادا يستعبدان هذا الجنس الحر لولا أن فال رأي أبرهة في الفيل، ومالت رايات فارس في ذي قار[2].

وقد تحدث الإبراهيمي عن تاريخ الإسلام، والرومان، وأحوال المغرب العربي وفلسطين والجزائر.

1 . تاريخ الإسلام:

ترجع صلة الشيخ الإبراهيمي بالتاريخ الإسلامي إلى كتب السيرة النبوية والغزوات، وحياة الصحابة، والتابعين، وهذه الصلة ترجع بدورها إلى ثقافته الدينية والشرعية، فمصادره الإسلامية هي القران والسنة، وأمهات كتب التفسير والحديث، بالإضافة إلى تاريخ الأدب والسياسة والمذاهب والفرق.

ومن خلال هذه الثروة اطلع الشيخ على تراجم الرجال، وأصول الأحكام، وقواعد الاجتهاد، وحركة التأليف، والصراع السياسي والفكري بعد وفاة الرسول (ص)، وعهد الخلفاء الراشدين، ثم قيام الدولة العربية الإسلامية بعصورها المختلفة، بما في ذلك أدوار الدولة المملوكية والدولة العثمانية ودول ملوك الطوائف ودول المغرب العربي خاصة.

ونحن نلاحظ هذه الثقافة التاريخية الإسلامية عند الشيخ الإبراهيمي من وصفه المسهب لبعض الغزوات مثل غزوة بدر الكبرى، ومعاني الهجرة النبوية والأعياد الإسلامية، فهو يتناول هذه الأحداث والمناسبات من الناحيتين الدينية والتاريخية، ثم يربط بينها وبين الواقع، كأحداث الثورة الجزائرية، والدعوة إلى النهضة والوحدة لمواجهة الاستعمار.

وليس كالإبراهيمي من يحسن سوق العبرة من الحدث التاريخي، ولا أدل على ذلك من إيراده قصة العزِّ بن عبد السلام «سلطان العلماء» مع مماليك مصر، حين أفتى بأن على هؤلاء المماليك الأمراء بيع رقابهم لأنها مملوكة لبيت مال المسلمين..

فقد علَّق الإبراهيمي على ذلك بقوله: إنَّ العز بن عبد السلام قد قوَّم بكلمته وضعاً مقلوباً كان سبباً في انقراض كثير من الدول الإسلامية، وهو احتكار المماليك لمراتب الإمارة، ثم أضاف الإبراهيمي إلى ذلك

---

(1) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د . نجيب بن خيرة ص 396.

(2) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د . نجيب بن خيرة ص 396.

تعميماً عظيماً واستنتاجاً حكيماً فقال: لو رزق الله بغداد عالماً كابن عبد السلام في شجاعته ؛ لأنقذ الخلافة العباسية من المماليك الأتراك ببيعهم في سوق الرقيق، ولو رزق الأندلس عالماً مثله؛ لأنقذ الدولة الأموية فيها من موالي المنصور بن أبي عامر.

وطالما أحال الإبراهيمي قارئه على أحداث تاريخية في العالم الإسلامي كالحروب الصليبية وظهور الفرق والمذاهب والأحزاب وغارات الدول الأجنبية، مستنتجاً منها استنتاجات شُجاعة ؛ مما يجعله في مقدِّمة المثقفين ثقافة تاريخية إسلامية عميقة قلّ من يشاركه فيها من أبناء جبله، لأن المعرفة التاريخية إذا لم توظف لمصلحة الحاضر والمستقبل؛ فإن المتحف أو حتى القبر، أولى بها[1].

2 . الاستعمار الروماني:

الاستعمار عند الشيخ الإبراهيمي ليس فرنسياً فقط، بل هو ممتد ومتمثل في صراع الشرق والغرب، وفي تثاقف الحضارات ذاتها، سواء في العهد الروماني الظالم، الذي غطى بظلامه المغرب والمشرق على السواء، أو في العهد الفرنسي الذي لا يقلّ في نظره ظلاماً وظلماً.

ففي كلمة له بعنوان «الجزائر المجاهدة» حلَّل الشيخ أوضاع الجزائر القديمة والحديثة انطلاقاً من موقعها الجغرافي قائلاً ؛ إن هذا الموقع هو الذي رشَّحها لتحوز السبق في الجهاد، وهو يعني به موقعها على الضفة اليسرى للبحر المتوسط وبالضبط في مواجهة مرسيليا، حيث تتشكل أوسع نقطة بين ضفتي هذا البحر بالنسبة لجيران الجزائر «تونس والمغرب».

وقد حلَّل الإبراهيمي طموح الأمَّة اللاتينية في استعمار جيرانها في الضفة الأفريقية تحليل الخبير بأوضاع الأمم الغابرة، فقال عن الأمم اللاتينية: إنها ذات أطماع وفتوحات وكبرياء ودماء منذ كانت، ولم يزدها ظهور الدين المسيحي السامي الروح إلا ضراوة وطموحاً في الغلبة، لأن الطبيعة المادية المتكالبة لتلك الأمم غلبت طبيعة الدين المسيحي الروحية المتسامحة، وبذلك أصبح الدين المسيحي ديناً رومانياً لا شرقياً[2].

ومن تحليلات الشيخ الإبراهيمي القائمة على الاستقراء والاستنباط، ما جاء على قلمه حول روح المقاومة والجهاد، التي تميَّز بها سكان شمال أفريقيا منذ القدم، فهو يرى أن الإسلام قد مزج بين البربر والعرب مزجاً قوي فيهم معنى الحِمى والعِرض والحِفاظ.. وهو الذي ترك الأمة الجهادية أمة جهاد بجميع معانيه، وعلى هذا يجب أن يبني المؤرخ تاريخ الجهاد النفسي في هذه الأمة.

وقد حدث الجهاد بالنفس في الجزائر عبر العصور الإسلامية، لأن الجارين المتقابلين روما وقرطاج، أصبح كل منهما بالمرصاد للاخر. وللإبراهيمي في العلاقة بين هذين الجارين المتصارعين رأي طريف وواقعي، فهو يقول إنَّ العلاقة بينهما كانت صراعاً على العيش المادي أو القمح والزيت، وهما المادتان اللتان جلبتا الاحتلال الروماني لإفريقيا الشمالية، ثم صار صراعاً على الدين، وقد زاد من حدَّة هذا الصراع في نظره أن العرب بدينهم

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 118.

(2) المصدر نفسه ص 119.

قد خلفوا الرومان على حضارتهم في أفريقيا، ثم دخول العرب إسبانيا قد جعل الرومان يتطيرون ويظنون أنها القاضية على روما وديانتها وحضارتها وشرائعها.

وهنا تبهرك ثقافة الشيخ التاريخية، إذ يظهر كأنه صاحب اختصاص في تطوُّر الحضارات وفلسفة التاريخ، فقد تحدَّث أيضاً عن انقسام الكنيسة إلى شرقية وغربية، وعن تدهور حالة الرومان وصعود نجم العرب، كما عرض لضعف الأندلس بعد ذلك وظهور ملوك الطوائف، وتداعي اللاتين إلى إحياء روح الثأر والانتقام وشنِّ الغارات على سواحل شمال أفريقيا، وعندئذ تصدرت الجزائر الجهاد المنظم على أيدي الدول، وغير المنظم وهو الجهاد الفردي الدائم عن طريق «الرباط»، الذي وصفه بأنه يشبه حرب العصابات.

وبذلك كانت الثغور الجزائرية دائماً عامرة بالمرابطين، الذين نذروا أنفسهم لله وحماية دينه من مالهم الخاص لا من مال الحكومات، ولم ينقطع دور الرباط في نظره إلا عند الاحتلال الفرنسي، وهو الاحتلال الذي وصفه بالمدبَّر لإعادة شمال إفريقيا إلى الحظيرة اللاتينية، كما كان قبل الإسلام، وقد أنحى الشيخ باللائمة على سكوت العرب والمسلمين على هذه الفاجعة عندئذ[1].

3 . أحوال المغرب العربي:

تناول الشيخ من الناحية التاريخية موضوعات عديدة حول أقطار المغرب العربي غير الجزائر، مثل تونس، ومراكش، وليبيا.

فقد تحدَّث مثلاً عن «العرش المحمدي العلوي»، وأرجعه إلى القبائل التي خرج منها أو ساندته من إدريس الأكبر وأبناء علي «رضي الله عنه» إلى ارتباط العرش بالبربر من لمتونة وهنتانة وبني مرين، وقال: إن هذا العرش قد مدّ بظلاله حتى وصلت إلى عتبات «برقة»، فالإبراهيمي هنا لا يتحدث عن الأمجاد فقط، ولكنَّه يتحدَّث عن تاريخ المنطقة التي لعب فيها أشراف المغرب دوراً بارزاً، وقد مدح الإبراهيمي هذا العرش من أجل ما بناه وحافظ عليه من حضارة عربية إسلامية عريقة، فهو عرش حرس في نظره اللغة العربية وحمى الدين الإسلامي، ودافع عن الإسلام والعروبة، وهي الايديولوجية العزيزة على الشيخ الإبراهيمي.

إنَّ أشراف المغرب ـ خلافاً لحكَّام الجزائر العثمانيين ـ قد رعوا العلم والبيان، وأنجبت دولهم أعلاماً في الأدب، ونوابغ في الفقه والتشريع، وأساطين في الفلسفة، وأثباتاً في التاريخ والأخبار.

أمَّا حديثه عن ليبيا، فقد جاء في شكل سلسلة من المقالات لم تخل من إشارات تاريخية، فقد مشى على أرضها الصحابة والتابعون الذين فتحوا المغرب والأندلس، أمثال إدريس بن عبد الله، وعبد الرحمن الداخل، ولم ينس الإبراهيمي الرحالة والحجاج الذين أقاموا في ليبيا أو عبروها وهم في طريقهم إلى مراكز العلم والحج، وقد ذكر منهم ابن بطوطة والعياشي والعبدري والفهري والتيجاني والورتلاني. كما ذكر منهم رواداً في الشعر الملحون استطاعوا وصف ركب الحج وصفاً دقيقاً، ثم جاء على أسماء المدن والبلدات الليبية التي شاهدها هؤلاء أو

(1) المصدر نفسه ص 120.

عاشوا فيها زمناً، وبالإضافة إلى ذلك أطال في وصف الكفاح الليبي في مقاومة الاحتلال الإيطالي وصف خبير بالاستعمار ومقاومته[1].

وتحت عنوان «عروبة الشمال الإفريقي» أشاد الإبراهيمي بدور الدول البربرية التي قامت في المنطقة وأعطتها صفتها العربية، فقد نوّه بفضل دول لمتونة و الريستمية و الموحدية والصنهاجية و المرينية و الزيانية قائلاً: إنها دول ليس لها من البربرية إلا النسبة العرقية، فيما عدا ذلك فهي دول عربية صميمة، فهي التي أنبتت ورعت الإدارة والقضاء والحضارة.. وأكد الإبراهيمي أنَّنا لم نقرأ أن الشعراء تقرَّبوا لملوك هذه الدول بالشعر البربري، إلا أن يكون في النادر المصطبغ بالبداوة[2].

إن هذه العروبة عنده، هي التي صيرت شمال أفريقيا وطناً واحداً، ولم تفرّقه إلا سياسة الخلاف في عصوره الوسطى والاستعمار الفرنسي الحديث، وأكَّد الإبراهيمي أن الاستعمار يعمل على توهين العربية بالبربرية، وهو يسمي ذلك «قتل الموجود بالمعدوم»، ومن أباطيل الاستعمار في نظره، أنه يسمِّي السوداني المتجنِّس لتوه فرنسياً، بينما ينكر على البربري المتعرِّب منذ ثلاثة عشر قرناً أن يكون عربياً[3].

4 . تاريخ الجزائر:

تبرز ثقافة الشيخ البشير الإبراهيمي التاريخية فيما كتب عن تاريخ الإسلام في الجزائر ومؤسساته:

فالإسلام في رأيه انغرس في الجزائر منذ القرن الأول للهجرة، بعد أن اجتثت بقية الصحابة الوثنية عن البربر وعتوّ الرومان، ونشروا عقائد الإسلام حتى استقرت في النفوس وسادت المحبة بين السكان، لأن الفتح الإسلامي كان بعيداً عن معنى الفتح المتعارف عليه عند المؤرخين والحربيين، فهو ليس فتحاً مبنياً على القسوة والقهر.

ويرى الإبراهيمي أن الإسلام انحدر في شمال إفريقيا مع تاريخه، فهو مرَّة يضعف ومرَّات يقوى، ولكنَّه احتفظ دائماً بسلطانه على النفوس، ومن اثار الإسلام في الجزائر (وشمال إفريقيا عموماً) ازدهار العلوم والاداب وكثرة التأليف وظهور النوابغ، وعمران المساجد والمدارس والحصون والقصور، وانتشار الأوقاف التي قضت .كما قال . على الافات الثلاثة المبيدة للشعوب وهي الجهل والفقر والمرض.

واللافت للنظر أن الشيخ كتب عن هذه الإنجازات والاثار وكأنه أحد المؤرخين المعاصرين، فيقول: من اطلع على رواية المؤرخين وترجماتهم، ورأى بقايا الوثائق الوقفية المسجونة في مكاتب الاستعمار بالجزائر، عجب لما فعل الإسلام في نفوس أسلافنا، ومن قرأ تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كان لها من الحضارة أوفر نصيب، مثل: تلمسان وبجاية وتيهرت وقلعة بن حماد والمسيلة وطبنة وبسكرة ؛ علم أية سمات خالدة وسم بها الإسلام هذا القطر.

---

(1) المصدر نفسه ص 121.

(2) المصدر نفسه ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 122.

ويقف الإبراهيمي وقفة مؤرخ حديث أيضاً ليعرّف قرّاءه بتكوين خريطة الجزائر ودولتها، فيلاحظ أنها اليوم جديدة من حيث الحدود الجغرافية والإدارية[1].

لقد تشكَّلت خريطة الجزائر في العهد العثماني، وتمَّت في عهد الاحتلال الفرنسي، أمَّا قديماً فقد كانت قطعة من المملكة العربية الإسلامية التي أقامها الفاتحون منذ القرن الأول الهجري، وجعلوا عاصمتها القيروان، لقد كانت القيروان هي التي تتحكم في تونس والجزائر ومراكش ثم الأندلس بعد فتحها، وكان والي القيروان هو الذي يعين ولاة هذه الأقطار، ولا دخل لمركز الخلافة في المشرق في تعيينهم. ولما ظهرت الدعوة الأموية في الأندلس على يد عبد الرحمن بن معاوية انفصلت مراكش عن القيروان، وليس بين مراكش والجزائر ولا بين تونس والجزائر حدود فاصلة، بل إن الأطلس زاد العلاقة بين هذه الأقطار متانة، كما زادها الإسلام متانة أخرى، لأنه هو الذي جمع الأقطار الثلاثة في ملاءة واحدة[2].

تناول الشيخ الإبراهيمي تاريخ الجزائر في مناسبتين على الأقل: الأولى في أربع محاضرات بعنوان: «الاستعمار الفرنسي في الجزائر» ألقاها على طلبة معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة سنة 1955م، والثانية مقالة بعنوان «فرنسا وثورة الجزائر» كتبها في القاهرة 1959م، أما محاضرات المعهد فقد ارتجلها ثم كتبها وقدمها لإدارة المعهد لطبعها وتوزيعها على طلبته، «وهو تقليد كان المعهد يتعامل به مع الأساتذة الزائرين».

ابتعد الشيخ في المحاضرات عن أسلوب الأدب والسياسة والصحافة وعالج الموضوع بأسلوب تاريخي، وقد اعترف بأنه كان في الكتابة أكثر هدوءاً منه في الإلقاء، أي أنه كان أكثر علمية ومنهجيَّة.

وفي هذه المحاضرات قسم تاريخ الجزائر إلى مراحل، وجعل المرحلة الأخيرة هي الاحتلال الفرنسي، وتحدَّث أثناء المرحلة الأخيرة عن دور الأحزاب والجمعيات والقادة، ووصف منهجه بقوله: ألممت فيما كتب بشيء من تاريخ الجزائر من يوم أسلمتْ، ومن يوم تعرّبت، ثم بشيء من أخبار الدول التي قامت بها من أهلها، ثم مررت بتاريخ العهد التركي «كذا»، وهو أطول العهود فيها، مروراً أهدأ مما سمعه الطلاب مني وأبطأ.

وأما مقالته «فرنسا وثورة الجزائر»، فقد ظهر فيها عارفاً بواجبات المؤرخ وأدواته، بل ظهر فيها كأحد المنظّرين وليس فقط أحد رواة الأخبار، فمن رأيه أن التاريخ لا يكتب «ساخناً»، وإنما يكتب بعد برودة الحدث وسكون غباره، والأهم من ذلك عنده هو ألا يكتب عن الحدث التاريخي إلا بعد توفُّر الوثائق والأدوات، ولا بد مع ذلك من تمتُّع المؤرخ بميزات تتمثل في الثقافة العميقة والذكاء الحاد والنزاهة الخالصة.

ويرى الإبراهيمي أنَّ التاريخ الوطني لا يكتبه إلا مؤرخ وطني، وهذه قضية حيوية في كل العصور وعند مختلف الأمم، فالمؤرخ هو صوت أمته، وهو المعبر عن هويتها الحقيقية مهما تفنَّن الاخرون وأخلصوا في الكتابة عنها. لقد تمنَّى الإبراهيمي في هذا الصدد أن يقيض الله للجزائر مؤرخاً من أبنائها تتوفَّر فيه الميزات التالية: وهو أن يكون مستنير البصيرة مسدد الفكر والتعليم، صحيح الاستنتاج.. لكي يكتب: تاريخاً لا يقف عند الظواهر

(1) المصدر نفسه ص 124.

(2) المصدر نفسه ص 125.

والسطحيات.. بل يتغلغل إلى ما وراء ذلك من الأسباب النفسية التي تحرك فرنسا إلى «ارتكاب» هذه المجازر البشرية، وإلى العوامل التي تدفع المقاتلين «الجزائريين» إلى هذه الاستماتة في حرب حارت فيها عقول ذوي العقول[1].

وقد تواضع الإبراهيمي فقال إنه لا يضع بذلك خطة لكتابة تاريخ الثورة، مثلاً، ولا يرسم الطريق لهذا المؤرخ الوطني أو الفارس المنتظر، ولكنه يريد أن يقول: لعل هذا المؤرخ الذي أعدَّه الله لهذه المنقبة لم يولد بعد، وإنما الشرط أن يكون جزائرياً[2].

هذه الجملة من المواصفات التي ساقها الشيخ الإبراهيمي للمؤرخ عموماً، ومؤرخ الثورة خصوصاً، يجب أن تكون ضمن مواصفات الكتابة التاريخية عندنا، فالمؤرخ في نظره يجب أن يكون متين الثقافة، قوي الاستنباط، قادراً على ربط الأسباب بالمسبِّبات، عارفاً بطرق الغوص فيما وراء مظاهر الأشياء واستكناه الدوافع الباطنة، لكأن الشيخ الإبراهيمي وهو يضع هذه المواصفات للمؤرخ ينظر في «مقدمة ابن خلدون» التي نعرف من مقالته «تلمسان وابن خلدون» أنه قرأها وأعجب بها وبصاحبها[3].

5 . ملامح منهج الإبراهيمي في تناول قضايا التاريخ:

أ . تاريخ أمة متصل الحلقات:

يتناول الإبراهيمي التاريخ . وخاصة التاريخ الإسلامي . باعتباره تاريخ أمة متصل الحلقات، مترابط الأزمنة، وليس على أساس أُسر تعاقبت على الحكم، ليثبت أن الأمَّة هي التي تصنع العظماء في تاريخها، وعظماؤها هم نتاج وضع الأمَّة وظروفها، مما يحقق العبرة والعظة والاستنباط بعيداً عن التعصب المقيت لهذه الدولة أو تلك أو لهذا العنصر، وهو منهج أقرب إلى الروح العلمية من طريقة الأجزاء المبتورة والجزر المعزولة، لأن الدارس يتتبع تطور تاريخ أمته خطاً متصلاً، يرقب فيه أسرار النمو والازدهار وعوامل الضعف والانكسار.

ب . الاهتمام بالأحداث الكبرى:

لا يُعنى الشيخ الإبراهيمي بالتفاصيل والجزئيات، بل يعرض للأحداث الكبرى، والخطوط العريضة، ويأخذ بيد القارئ إلى لُبِّ الحدث وجوهر الموضوع. فعصر الإبراهيمي وجيله الذي يخاطبه أو يقرأ له يواجه من التحديات ما يمنعه من تتبع التفاصيل والإغراق فيها، بل يريد أن ينفذ سريعاً إلى الأدواء والعلل، ويصف الدواء الناجح، ويساعده على هذا المنهج: أدب رفيع، وبيان ساحر، ولغة محكمة.

ج . أهمية الوثائق والأدوات:

(1) المصدر نفسه ص 126.

(2) المصدر نفسه.

(3) المصدر نفسه ص 127.

يرى الإبراهيمي أن التاريخ لا يُكتب «ساخنا»، وإنما يكتب بعد برود الحدث وسكون غباره، وهذا منهج المؤرخ العارف بواجبات المؤرخ وأدواته، فالحدث التاريخي لا يُكتب إلا عند توفر الوثائق والأدوات، ولا بد مع ذلك من تمتع المؤرخ بميزات تتمثل في: الثقافة العميقة، والذكاء الحاد، والنزاهة الخالصة، وقوة الاستنباط، والبحث عن العلل والأسباب، والغوص وراء الظواهر، ومعرفة الدوافع الباطنية[1].

د . تركيزه على التاريخ الجامع للمشرق والمغرب:

ركّز الإبراهيمي في أكثر مقالاته ومحاضراته وأحاديثه . وخاصة تلك التي كتبها أو ألقاها في بلاد المشرق العربي . على التاريخ الإسلامي الجامع للمشرق والمغرب، فيأتي بالشواهد من عصر الرسالة، ثم تاريخ الراشدين ومن بعدهم الأمويين والعباسيين، باعتبار أن هذه العصور تمثل الوحدة التاريخية للأمة الإسلامية، وهو منهج ذكي حصيف يقوم على قاعدة: خاطبوا الناس بما يفهمون، أما تواريخ المغرب الإسلامي من الفتح إلى الاحتلال فلا يعرض لها إلا قصد التعريف أو شرح السياق التاريخي، مبيناً أن أفق المغرب جزء لا يتجزأ من جسم الأمة، إن أضاعته أو تناسته أو فرّطت فيه هِيض جناحها، وضُربت في مقتلها. وأعداء الأمة لا يفرقون بين مشرق الأمَّة ومغربها[2].

هـ تعامله مع سنن التاريخ:

لقد رصد الإبراهيمي الواقع الإسلامي بكل ما يحمل من علل وأدواء وتخلف وتراجع حضاري شامل، من خلال رؤية تحليلية وبصيرة نافذة، فراح يستمد العلاج من سنن التاريخ ويتعرف على القوانين التي تحكم الاطراد الحضاري، محاولاً استجلاءها من الأصول الإسلامية: قراناً وسنة وتراث الإسلام الثقافي، غيرمتجاوز ذاتية الأمة ومقوماتها العقيدية والفكرية، التي صاغت وبلورت التجربة الإسلامية في التاريخ.

ففي مقال له بمجلة «الأخوة الإسلامية» بعنوان «حالة المسلمين» كتب مشخّصاً الداء وواصفاً الدواء:

نعترف أن نومنا كان ثقيلاً، وبأن عمر أمراضنا كان طويلاً، نعرف أن النوم الثقيل لا يصحو صاحبه إلا بصوت يصخّ أو بضرب يصكّ، وأن المرض الطويل لا يشفى المبتلى به إلا بتدبير حكيم قد يفضي إلى البتر أو القطع، وقد أصابنا من القوارع ما لو أصاب أهل الكهف لأبطل المعجزة في قصتهم، ومما كانوا فيه مثلاً في الاخرين، ولكننا لم نصحُ من نوم إلا لنستغرق في نوم، ولم ننفلت من قبضة منّوِم إلا لنقع في قبضة منوّمِ[3].

ثم يُرجع العلة كلها إلى رجلين: رجل سياسة لم يتديَّن، ورجل دين لم يخلص، فيقول: وما أضلّنا إلا المجرمون الذين يدعون بعضهم إلى الجمع بوسيلة التفريق، ويدعون بعضهم إلى النجاة بطريقة التغريق، والأولون هم رجال الدين الضالون الذين فرّقوه إلى مذاهب وطوائف، والاخرون رجال السياسة الغاشون الذين بدلوا المشرب الواحد فجعلوه مشارب[4].

---

(1) المصدر نفسه ص 401، 402.

(2) المصدر نفسه ص 402.

(3) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (220/4).

(4) المصدر نفسه (220/4).

ثم يدعو إلى الرجوع إلى الأصل الذي صلح به سلف هذه الأمَّة، ووضعوا عليه أساس نهضتهم: فهل هبّة من روح الإسلام على أرواح المسلمين تذهب بهؤلاء وهؤلاء إلى حيث ألفت، وتجمع قلوبهم على عقيدة الحق الواحدة، وألسنتهم على كلمة الحق الجامعة، وأيديهم على بناء حصن الحق على الأسس التي وضعها محمد صلى الله عليه وسلم[1]؟

ويمكن أن نلمس اثار هذا المنهج في قضايا عديدة عرض لها الإبراهيمي، ونحن في هذا المقال نختار بعض القضايا مثل: أثر الدين في النهضة، وعروبة الشمال الأفريقي، والوحدة الإسلامية، لما بينها من التدخل، ولما فيها من حضور للتاريخ، واستشهاد بحوادثه، لخدمة الحاضر وبناء المستقبل، وقد قيل: إن التاريخ كله تاريخ معاصر، وذلك لما للتأثير البالغ للتجربة التاريخية على واقع الفرد والجماعة، وإلى إمكان تجدد الوقائع ذاتها إذا تهيأت الشروط وتشكلت الدوافع كما تشكلت أول مرة[2].

و . تتبع أسباب الصعود والنزول:

والشيخ الإبراهيمي يقرأ تاريخ الإسلام بفقه بصير يتابع فيه خطّه السائر، صاعداً إلى الأوج، أو نازلاً إلى القاع، ووراء ذلك أسباب دافعة وعلل مطّردة.. ويوم أن خرج الإسلام من جزيرة العرب وشرَّق وغرَّب في الأقطار الموات، استنهض الفكر في العقول والأنس في القلوب، وغزا مجاهيل البيد والفيافي والقفار وأحالها إلى روض ينسم بالحرية والحضارة والحياة.. وما كان ليحدث شيء من ذلك لولا الإسلام.

لذلك نراه . أي الإسلام . في جميع مراحل التاريخ يقطع الفيافي بلا دليل، ويقطع البحار بلا هادٍ، ويغزو مجاهل أفريقيا في الوسط والجنوب ومنتبذات اسيا في الوسط والشرق، ثم يدخل شرق أوربا مع الفتوحات العثمانية، كما دخل غربها في القديم في الفتوحات الأموية، وكما دخل جنوبها مع الفتوحات القيروانية ؛ وهو في كل ذلك يقحم الأذهان من غير استئذان، وليت تلك الفتوحات العربية هي التي غرسته أو مكّنت له، لأن الفتح في الإسلام لم يكن في يوم ما إكراهاً على الدين، وإنما مكّنت للإسلام طبيعته ويسره ولطف مدخله على النفوس وملاءمته للفِطر والأذواق والعقول[3].

ثم يقرر الشيخ الإبراهيمي بعد هذه الحقيقة التاريخية، أن أمَّة الإسلام لو أبقت على هذا الدين سائقاً وقائداً، سليم العقائد، مجلوّ الحقائق، صافي الفطرة، لما وصلت إلى هذا الضعف والتفرق والشتات.. فيقول: ولو بقي الإسلام على روحانيته القوية، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه به من ضلال، لطبّق الخافقين، ولجمع أبناءه على القوة والعزة والسيادة حتى يملكوا به الكون كله، ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه، وفرَّقوه شيعاً ومذاهب، فضعف تأثّرهم به، فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلى ما نرى ونسمع[4].

(1) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (221/4).
(2) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ ص 404.
(3) المصدر نفسه ص 408.
(4) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (385/2).

ويعود الإبراهيمي إلى الموضوع ذاته في موضع اخر ليثبت المعادلة التي تقررت عبر التاريخ الإسلامي، وهي أن العزة لن تعود إلى المسلمين ما بقوا يستمدون عزتهم من غير دينهم، ويستلهمون الرشد من غير كتابهم. ودين الإسلام تقوى اثاره بقوة فهم المسلمين له، وإقامتهم لشعائره، ووقوفهم عند حدوده.

ففي حديث له ألقي من إذاعة «صوت العرب» بالقاهرة عام 1955م يقول: الجزائر . أيها المستعمرون الكرام . من أزكى المغارس التي غُرست فيها شجرة الإسلام، فنمت وترعرعت، ثم اتت أكلها طيباً مباركاً فيه من القرن الأول للهجرة، فقد حمل الفاتحون وفيهم أولو بقية من أصحاب رسول الله (ص) تعاليم الإسلام إلى شمال أفريقيا، وقلب هذا الشمال: هو ما نسمِّيه اليوم: الجزائر، فنشروها بالإقناع، وثبتوها بالشواهد العملية، بعد أن اجتثوا من الشمال وثنية البربر وبقايا العتوّ الروماني، نشروا عقائد الإسلام حتى استقرَّت في النفوس، وعباداته حتى اطمأنت إليها النفوس، وأحكامه حتى حققت العدل، وحفظت الحقوق، وصانت المصالح، وضمنت المساواة، وأخلاقه حتى تعايش الناس على المحبة وتعاونوا على البر والتقوى[1].

ويُرجع الشيخ الإبراهيمي كل تنوير حصل في هذا الشمال الإفريقي مبعثه إلى نور الإسلام الذي أشرف من المشرق، فبدد الظلمات وأزال الجهالات، وبعث سكان هذا الشمال خلقاً اخر، وما الاثار العلمية والأدبية والعمرانية التي كان لهذا الأفق فيها أوفر نصيب إلا من خير هذا الدين، فعمرت حواضر كانت مفاوز، وقفار لا يعرفها حيّ ولا يقف عندها إنسان[2].

فيقول: ومن قرأ تاريخ المدن الجزائرية العلمية التي كان لها في الحضارة أوفر نصيب: تلمسان وبجاية، وتيهرت، وقلعة بني حماد، والمسيلة، وطبنة، وبسكرة، من قرأ هذه التواريخ؛ علم أية سمات خالدة وسَمَ بها الإسلام هذا القطر[3].

هذه جولة قصيرة في ثقافة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي التاريخية وكتاباته عن بعض القضايا ذات الطابع التاريخي، ونلاحظ على ذلك باختصار أن الإبراهيمي: كان ظاهرة فريدة بين جيله في تفسيره العقلاني للحوادث التاريخية، سواء منها القديمة أو الحديثة أو المعاصرة، في وقت لم يدرس فيه التاريخ في مدرسة ولا جامعة، ولا شك أن ذلك يغير من نظرتنا المسبقة القائمة على أن علماء الفقه والأدب والدين لا يعرفون التطوُّرات التاريخية ونتائجها إلا سطحياً، أو أنهم لا يعرفون، إذا عرفوا، أكثر من وقائع التاريخ الإسلامي، وأنهم على كل حال لا يتقنون قواعد البحث العلمي، فقد أظهرت هذه الصفحات أن الشيخ الإبراهيمي كان له تصوُّره لمسيرة الحضارة الإنسانية في مختلف عصورها وروافدها، وهو إن لم يكن فيلسوفاً بالمعنى التقليدي للكلمة؛ فإنه استطاع أن يزاوج بين الدين والتاريخ والفلسفة[4].

---

(1) اثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي (72/5).

(2) أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ ص

(3) المصدر نفسه ص 408.

(4) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 127.

❋ ❋ ❋

سابعاً: نضاله السياسي

مع دخول فرنسا الحرب العالمية الثانية في سبتمبر 1939م، رفضت جمعية العلماء تأييدها لفرنسا أو التعاطف معها، وكان رد فعل فرنسا التضييق على جمعية العلماء، وأمرت الإبراهيمي بتوقيف دروسه ومحاضراته «بدار الحديث»، وطردت الطلبة الداخلين بها، وتقرر نفيه إلى مدينة «افلو» الصحراوية في 10 أفريل من عام 1940م، كما مرَّ معنا، وبعد خروجه من السجن شرع في عمله الوطني من خلال قيادته لجمعية العلماء. وتعتبر المرحلة التاريخية التي تلت الإفراج عن الشيخ الإبراهيمي مع نهاية ديسمبر 1942م، وحتى أفريل 1945م من المراحل المتميزة في حياة رئيس جمعية العلماء، باعتبار أنه سيحاول تجسيد استراتيجية الجمعية بصفته رئيساً لإدارتها، وذلك بخلق ديناميكية لاستئناف نشاطها، خصوصاً عندما تشعر «الجمعية» بالمضايقات التي تتلقاها من طرف الإدارة الاستعمارية والتعسفات «الارتجالية» المطبقة ضد إطاراتها ومسؤوليها، كما حدث للشيخ العربي التبسي الذي اعتقل في 25 مارس 1943م من قبل السلطات العسكرية، متهمة إياه بالتجسس لصالح ألمانيا النازية[1].

وخلال هذه الفترة، تشير جميع التقارير الإدارية الاستعمارية والبوليسية التي كانت تراقب تنقلات البشير الإبراهيمي وتحللها ؛ إلى الاستمرارية والدابة التي صحبت رئيس الجمعية داخل العواصم الإصلاحية الأساسية، والتي جعلت عجلة استئناف النشاط التعليمي تمشي تدريجياً مع توسعه بفتح المدارس الجديدة ولترقى إلى وتيرة حسن التنظيم والفعالية بإلقاء الدروس والمحاضرات في المقرات والنوادي التابعة لجمعية العلماء[2].

وفي إطار نشاطه الدؤوب وتحركاته المستمرة، وزيارته للمدن والأرياف، كان ينسّق ويتشاور مع العلماء وإطارات ومسؤولي الجمعيات الإصلاحية، بدون إغفال الاتصال بالأعيان الجزائريين والشخصيات السياسية من النواب كفرحات عباس وغيره، كان يتم ذلك دائماً وفق العمل على توحيد الجبهة الداخلية ضد الاحتلال الفرنسي، فقد كان الإبراهيمي يسعى لإيجاد مؤازرة ومساندة معنوية وسياسية مستمرة تكون بجانب جمعية العلماء، إضافة إلى الدعم الشعبي والنخبوي الذي كسبته داخل الأوساط الجزائرية في المدن والقرى[3].

1 . إستيلاء الحلفاء على الجزائر:

بعد استيلاء الحلفاء على الجزائر وتحريرها من جماعة «فيشي» الموالين للألمان، وفي شهر ديسمبر من عام 1942م اتصل الجنرال دارلان بفرحات عباس، وطلب منه أن يقوم قادة الحركة الوطنية الجزائرية بمساعدة فرنسا الحرة . وهي «حركة المقاومة الفرنسية التي يرأسها ديغول» . في تجنيد الجزائريين من أجل المشاركة في تحريرها، وانذاك اتصل فرحات عباس بدوره بجمعية العلماء التي شاركت في تحرير البيان المقدم للمسؤولين الفرنسيين فيما بعد، والذي اشترط فيه فرحات عباس وتوفيق المدني على جمعية العلماء أن تظهر فرنسا رغبتها

(1) الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ محمد البشير الإبراهيمي، إبراهيم مهديد ص 179.

(2) المصدر نفسه ص 183.

(3) المصدر نفسه ص 184.

في الإصلاح الحقيقي، وذلك بإنجازات علنية وصادقة وسريعة. وقد طلب الوفد الجزائري من المسؤولين الفرنسيين الجدد في الجزائر، أن يعقد مؤتمر عام يضم النواب الجزائريين وممثلي كل الهيئات الإسلامية، وذلك بقصد إصدار قانون أساسي يشتمل على الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبذلك يشعر المسلمون أن مطالبهم هي في طريق التحقيق، ويفهموا جيداً الواجبات التي يقومون بها في سبيل المجهود الحربي. لكن القادة الفرنسيين رفضوا هذه المطالب(1).

2. تحالف الحركات الوطنية:

وفي شهر جانفي من عام 1943م، اتفق قادة الحركات الوطنية في الجزائر أن يعقدوا اجتماعاً مشتركاً بقصد تكوين تحالف بين الحركات السياسية في الجزائر، وتحديد المطالب السياسية للشعب الجزائري، وحضر الاجتماع التأسيسي لهذا التحالف الدكتور بن جلول وفرحات عباس وتوفيق المدني من جمعية العلماء، وقد تم الاجتماع في مكتب المحامي أحمد بو منجل، وكان يرأسه الدكتور بن جلول، وبعد نقاش طويل اتفق الجميع على إصدار وثيقة تتضمن النقاط الاتية:

. إنشاء مجلس تأسيس لتحرير دستور لدولة الجزائر.

. تكوين حكومة جزائرية مستقلة تشارك مع فرنسا ومع المتحالفين في المجهود الحربي بصفة جزائرية معترف بها.

. إلغاء تبعية الجزائر لفرنسا على أن تكون العلاقات بينهما محددة بواسطة معاهدة حرة.

. إلغاء نظام الاستعمار، وتحديد ملكية الأرض وتوزيع الأرض من جديد على الفلاحين الذين انتزعت منهم في الماضي.

. الكف عن سياسة وحدة العلم البحري، التي تجعل الجزائر أسرة خاضعة لشركات النقل البحرية الفرنسية وتخسر بذلك أموالاً طائلة.

. إنشاء النقد الجزائري الخاص بالدولة الجزائرية على قاعدة الدينار يساوي 1،000 فرنك، الدرهم يساوي 100 فرنك، الفلس يساوي فرنكاً.

. دخول الجزائريين المستحقين حالاً ميدان الوظائف العامة، على أن تصبح بعد قليل أغلبية الوظائف بيدهم حسب عددهم.

. إعلان وجود «الجنسية الجزائرية» على أن تشمل كل المسلمين، مع من يريد من الفرنسيين واليهود.

. إنشاء مجلس استشاري يضم نخبة الجزائريين حالاً، لكي يقف على تنفيذ هذا المنهج.

. تدعى الدولة الجزائرية حالاً دولة مشاركة مع المتحالفين، تقاتل معهم، ثم تحضر كل مؤتمرات السلام، وتكون عضواً بهيئة الأمم المتحدة، بعد قرار السلام.

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د. عمّار بوحوش ص 265.

ومن خلال هذه الوثيقة قام فرحات عباس بكتابة «بيان الشعب الجزائري» الذي قدمه لرجال المقاومة الفرنسية، والسيد مورفي ممثل الولايات المتحدة بالجزائر، لكن ديغول وجماعته رفضوا مطالب الحركات السياسية الجزائرية، وأعلنوا عن تشكيل لجنة لدراسة الإصلاحات السياسية في الجزائر، وقد تم استدعاء فرحات عباس نيابة عن الحركة الوطنية لتقديم مطالب جمعية العلماء وبقية الحركات السياسية، إلا أن النتيجة كانت سلبية، ولم تظهر أية بادرة لتغيير الأوضاع السياسية في الجزائر إلا يوم 12 ديسمبر 1943م عندما خطب ديغول بقسنطينة، ووعد فيها بإعطاء الجنسية لبعض الجزائريين مع المحافظة على هويتهم العربية الإسلامية[1].

3. اجتماع القمة في مدينة سطيف:

وفي شهر أفريل من عام 1943م، أي بعد خروج مصالي الحاج من السجن ووضعه تحت الإقامة الجبرية في قصر البخاري، شارك البشير الإبراهيمي في اجتماع القمة الذي انعقد في مدينة سطيف بين فرحات عباس ومصالي الحاج، والسيد موريس لابور في الحزب الشيوعي الجزائري، والذي تم الاتفاق فيه بين هؤلاء الزعماء على مبدأ إقامة دولة جزائرية بعد أن تنتهي الحرب، وإنشاء برلمان انتقالي يتكلف بوضع الدستور الجزائري الجديد، لكن البيان الثاني الذي حرره فرحات عباس وقدمه إلى الجنرال كاترو رفضه الفرنسيون، لأنه يتضمن مبدأ دولة جزائرية، لها برلمانها الخاص بها.

وبعد انتهاء الحرب، قررت جمعية العلماء يوم 6 ماي 1945م توسيع نشاطاتها السياسية والثقافية إلى بقية دول المغرب العربي، فأرسلت وفداً إلى تونس واخر إلى المغرب الأقصى، وذلك بقصد توحيد العمل على مستوى أقطار المغرب العربي[2].

4. أحداث مايو 1945م والأسبوع الأسود:

لقد كان الثامن من ماي 1945م مرحلة أساسية من أساسيات الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، يقول المؤرخ الجزائري المتميز (أخي وصديقي) الدكتور محمد الأمين بلغيث عن هذه المجزرة الوحشية والأعمال الإجرامية: أعطت هذه المرحلة نقلة نوعية في وعي الحركة الوطنية بالخطر الذي ترتب على جميع المستويات، إذ تقرر بعد هذا «اليوم الحزين» تهيئة الظروف المناسبة للعمل المسلح والثورة الشاملة على الوجود الاستعماري. فعلى الرغم من البؤس الذي عرفته الجزائر منذ مطلع الأربعينات من هذا القرن، كما وصفته التقارير والدراسات المعاصرة، من أمراض وأوبئة حصدت الالاف، إلى مجاعة أدت إلى بؤس شديد، أدى بغالبية الجزائريين إلى أكل الأعشاب وشرب المياه العفنة. كما كانت الجزائر منذ 1942م عرضة لاحتلال الحلفاء من أمريكان

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 267.

(2) المصدر نفسه ص 268.

وبريطانيين ومعهم أنصار فرنسا الحرة، وعلى الرغم من ذلك ؛ فإن عهداً جديداً من الحياة السياسية قد بدأ في الجزائر أكثر حركية وأكثر همة[1].

وعدَّ المؤرخون الجزائريون أن مجازر شهر ماي 1945م، حلقة من حلقات السلسلة الطويلة لعمليات الإبادة، التي دشنتها فرنسا الاستعمارية منذ 1823م، عندما قامت بعملية إبادة رسمية ضد مشاتي قبيلة العوفية في السادس أفريل من السنة المذكورة أعلاه، والتي وصفها دي روفيقو: بشماتة المنتصر، وصفاً لا يليق بالشرف الإنساني ولا الشرف العسكري[2].

ولا يمكن أن ندرك أبعاد حوادث شهر ماي 1945م إلا بعد طرح إشكاليتين طالما عالجهما المؤرخون والسياسيون من أوجه مختلفة، حيث تساءل كثير من الملاحظين عن حوادث ماي ؛ هل هي ثورة فاشلة حاولها الوطنيون الجزائريون ضد الوجود الفرنسي في بلادهم؟ فاستحقوا بذلك القمع الشديد الذي عانوه والدرس القاسي الذي أخذوه، أو كانت مجزرة دبرها الفرنسيون ضد الجزائريين الأبرياء، بينما كانوا يحتفلون بعيد انتصار الحلفاء الذي يرمز إلى انتصار الحرية والديمقراطية[3]؟

والمتتبع للوثائق المعاصرة والتقارير الأجنبية والوطنية، يدرك النقلة السياسية التي وصلت إليها الحركة الوطنية، ممثلة في «حركة أحباب البيان والحرية» التي انضمت إليها معظم الأحزاب الوطنية، والتي وجد حزب الشعب وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فيها تطلعاتهم الوطنية والحضارية[4].

لقد حاول فرحات عباس أن يكون الشخصية المحورية بقيادة الحركة الوطنية الجزائرية بعد مرحلة مطلع الأربعينات، التي كانت فيها الحركة الوطنية ما بين 1940 . 1942م تفتقر إلى قيادة قوية، فقد مات الإمام عبد الحميد بن باديس الذي كان محلّ تقدير الجميع تقريباً، ودخل مصالي الحاج السجن والمنفى، وفقد ابن جلول ثقة الجزائريين منذ ظهوره في الثلاثينات بمظاهر مترددة وشخصية غامضة، لهذا ظهر فرحات عباس في أفق الحركة الوطنية ليسد الفراغ السياسي الذي تركه غياب ابن باديس ومصالي والعقبي وابن جلول، وهذا من خلال حركة أحباب البيان الجزائري، وهي المنظمة التي التف حولها الجزائريون بصورة ملفتة، وما كادت سنة 1944م تنتهي حتى كانت الحركة الوطنية أكثر صلابة وأكثر وعياً وأعمق تجربة، بالإضافة إلى أنها دخلت مع الاستعمار الفرنسي وإدارته في الجزائر عهداً من التحدي والمواجهة لم تعرفه من قبل، وهو العهد الذي انتهى بمأساة 8 ماي 1945م[5].

أ . ماي 1945 المجازر الفرنسية في الجزائر:

---

(1) تاريخ الجزائر المعاصر، د . محمد الأمين بلغيث ص 173.

(2) المصدر نفسه ص 173.

(3) المصدر نفسه ص 173.

(4) المصدر نفسه ص 174.

(5) المصدر نفسه ص 176.

لقد كان نشاط الحركة الوطنية يعود في أصله إلى النقلة النوعية التي قام بها أنصار «أحباب البيان والحرية» والمطالب القوية التي تقدم بها أصحاب البيان، التي رفضت الإصلاحات الفرنسية المعهودة والمتكررة والتي لا تحقق للجزائريين طموحاتهم في الحرية والتقدم، لقد خرج الجزائريون إلى الشوارع يوم الثلاثاء الثامن ماي 1945م، وهم يعلنون لفرنسا الاستعمارية أن زمن العبودية قد ولّى، وأن عصراً جديداً قد أطل في أفق الجزائر، التي تحمَّل أبناؤها وأبناء المستعمرات الأخرى مسؤولية حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل، وفقدوا الالاف في جبهات الحرب في إيطاليا وفرنسا وغيرها من الجبهات أثناء مرحلة الصراع مع الفاشية والهتلرية، وتحمَّل أبناء المستعمرات ـ ومنهم شعوب المغرب العربي ـ عنتها ووحشيتها.

فكانت وحشية المستعمرين وقوات الشرطة والجيش الفرنسي بالمرصاد، منذ أن أخرج الجزائريون الأعلام الوطنية تعبيراً منهم عن شخصيتهم التي جاؤوا للدفاع عن شرفها، وإعلان مطالبهم في تحقيق مبادأئ ميثاق سان فرانسيسكو، وتحقيق أماني الشعوب في الحرية والديمقراطية.

وكانت إشارة بدء المجزرة في سطيف قد بدأت عقب إطلاق المحافظ أوليفيري النار في الهواء. وكانت تلك الطلقة بمثابة الإشارة التي جعلت رجال الشرطة والقمع يستعدون للقيام بعملياتهم القمعية على مختلف أجنحة موكب المتظاهرين في مدينة سطيف، والذي قدر عدد أفراده بحوالي 15،000 متظاهر، وتجمع الموكب وقدم رجال الشرطة من كل مكان، فقتلوا بوزيد سَعّال حامل الراية الجزائرية وأحد حاملي الزهور، واعترض المتظاهرون رجال الشرطة والمعمرين الأوربيين، فقتل منهم 29 شخصاً، ومنذ ذلك الحين بدأت العملية المدبرة في إبادة الجزائريين في قالمة وسطيف وخراطة، واستخدم العدو كل الأسلحة البرية والطائرات والبوارج البحرية، نسفوا المباني وأحرقوا المشاتي، وكانت عملية الإبادة المعبرة عن حقد دفين وعنصرية لا مثيل لها في تاريخ البشرية عنوان هذه المجازر، التي ما زادت الجزائريين إلا تصلباً في مطالبهم، وقوة في تقرير مصيرهم بأيديهم وبقوة السلاح، لا بورقة انتخاب مزورة سلفا[1].

ب ـ بين الإبادة الجماعية وحقوق الجزائريين في محاكمة القتلة:

لقد كانت المجزرة كبيرة ولا يمكن تصورها في العقد الخامس من القرن العشرين، حيث اتضح للساسة الاستعماريين أن عصر الإمبراطوريات قد انتهى، وأن مبادأئ سيادة فرنسا على ممتلكاتها فيما وراء البحار قد بدأ نجمها يعرف شروقاً غير ما توقعته «فرنسا المنتصرة»، كما يحلو للجنرال «شارل ديغول» أن يسميها، وهو الشاهد والمسؤول الأول عن جرائم الثامن ماي 1945م في الجزائر، والمسؤول عن جرائم الثامن ماي 1945في الجزائر، والمسؤول عن جرائم جنرالاته الجبناء في مرحلة عودته إلى السلطة (1958 ـ 1962) [2].

ج ـ أعداد الشهداء:

(1) المصدر نفسه ص 176، الحركة الوطنية الجزائرية، أبو القاسم سعد الله (227/3).

(2) تاريخ الجزائر المعاصر، د ـ محمد الأمين بلغيث ص 177.

إذا عدنا للحديث عن أعداد القتلى في مذابح «مغول القرن العشرين»، فنجد الوثائق الرسمية الفرنسية والتقارير الأجنبية تتباين في تحديد أسباب الإبادة وأعداد القتلى الأوربيين والجزائريين. وقد اختلفت أرقام وإحصائيات الجامعة العربية وأرقام جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وبقية أحزاب الحركة الوطنية، وقد أجمع المؤرخون استناداً إلى تقارير رجال الحركة الوطنية على تحديد ضحايا الإبادة ومجازر عصابات الإجرام من غلاة المعمرين وجبناء الجيش الفرنسي . الذين دخلت عليهم القوات النازية إلى باريس بالموسيقى العسكرية بعد تحطيم تحصيناتهم الهشة في خط ماجينو ..

قال الدكتور محمد الأمين بلغيث: فقد أجمع رجال الحركة الوطنية على قتل 45 ألف شهيد من ضحايا الأسبوع الدموي، حيث استخدم غلاة الاستعمار شتى أنواع التقتيل والإعدام والحرق، وقد توالت أيام المجزرة الرهيبة، حيث تفنن فيها أحفاد بيجو وكلوزيل ودي روفيقو وغيرهم في قتل المواطنين الجزائريين العزل والتمثيل بهم، حيث أحرقوا الأحياء بعد جمعهم بالعشرات ورشهم بالبنزين في حظائر بيع الحيوانات، وبقروا بطون الحوامل على رهان زجاجة خمر بين جنديين؛ إن كان ما في بطن الحامل ذكراً أم أنثى، وألقوا بالشيوخ من أعالي الطائرات، كما رشوا الاف الجثث بالجير حتى لا تؤذي الأوربيين، وتركوها أياماً وليالي على أرصفة الطرقات لتكون عبرة لمن بقي حياً من الجزائريين، ولتكون مسرة وابتهاجاً لحثالات الأوربيين.

وهكذا أسفرت حوادث الثامن ماي 1945م التي شملت القطر الجزائري، أسفرت بعد 15 يوماً عن قتل 89 أوربياً، بعضهم قتل بأيدي أوربيين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، وما يقرب من 45 ألف مواطن جزائري لقوا حتفهم في عمليات القمع والقتل والإبادة الجماعية، كما اعتقل 5،000 مواطن، وهناك المشاتي والقرى التي لم يبق منها إلا الدخان المتصاعد، وكانت هذه المجازر من إمضاء كل القوات الفرنسية العامة في الجزائر وعلى رأسها قوات اللفيف الأجنبي.

إن مجازر الثامن ماي 1945م التي تركزت أساساً في مناطق قالمة وسطيف وخراطة لم تُنه روح المقاومة لدى الشعب الجزائري، بل كانت بداية مرحلة جديدة، أعيد خلالها النظر في الاستراتيجية وفي وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة.

ويمكن حصر النتائج الإيجابية في:

1ً. ظهور جيل جديد شاب عركته المحنة والمأساة، يرفض أسطورة الحضارة الفرنسية المتحررة والتحريرية، التي كانت النغمة المفضلة لعدد من مثقفي الجيل القديم.

2ً. اقتناع الشعب الجزائري بأن تحقيق الاستقلال لا يمكن أن يكون إلا بالسلاح والسلاح وحده، وبذلك أصبحت دعوة الكفاح المسلح تجد سبيلها في أوساط شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية[1].

لقد أوضحت أحداث ماي 1945م الطريق للشعب الجزائري بأن الحرية لا تُوهب وتهدى، ولكن تنتزع انتزاعاً من الطغاة المستعمرين، وتروى شجرتها الزكية بدماء الأحرار.

---

(1) المصدر نفسه ص 178.

وقد كانت ذكرى الاعتداء الفرنسي المسلح والبربري ضد الشعب الجزائري الأعزل مجال تذكير من رجال الحركة الوطنية في الجزائر والقاهرة ودمشق، لأن استعراض وتعدد الماسي التي مر بها الشعب الجزائري شكلت أزمة ضمير لدى رجال الحركة الوطنية، الذين عالجوا الأخطاء التي عرفتها كل الانتفاضات المباركة والأساليب التي سحقت بها، إلى حين إعداد الأمة والشعب والرأي العام المحلي والإقليمي لما يعرفه هذا الوطن من مأساة، كان ولا يزال سببها المباشر فرنسا الاستعمارية[1].

قال الشاعر:

قـتـل امـرأئ في غـابـة جـريـمـة لا تـغـتـفـر

وقـتـل شـعـب كـامـل مسـألـة فـيـهـا نـظـر

د . أحداث شهر ماي 1945م «الجريمة والعقاب»:

قال الدكتور محمد الأمين بلغيث: إن من أفظع جرائم الدولة: الإبادة الجماعية، إن المسؤول الأعلى عن كل إبادة جماعية هي الدولة التي وقعت فيها الجريمة وتحت مسؤوليتها، فهذا ما قررته محكمة الشعوب الدائمة المنعقدة بباريس في أفريل 1984م، فما هو حظ مرتكبي الجرائم والأعمال الوحشية والإبادة الجماعية ضد الجزائريين؟ وكما تثبت الشهادات التاريخية والوثائق الحية، فهل وجد الضحايا من محكمة الشعوب إنصافاً وعدلاً؟ وهذا باعتراف الدولة الفرنسية سليلة الثورة الفرنسية وقانون المواطنة وحقوق الإنسان، فهل من حقنا كجزائريين ومؤرخين أن نطالب بحقوق الضحايا المادية والمعنوية من السلطات الفرنسية الحالية؟ أم ننسى أننا قد خنا ذكرى هؤلاء الشهداء، ولم ننصف العدالة والحقيقة التاريخية بمحاكمتنا للمجرم أي كان؟؟[2].

5 . دستور عام 1947م وموقف جمعية العلماء:

كان موقف جمعية العلماء من دستور عام 1947م واضحاً، وأصدرت الجمعية بلاغاً إلى الأمة الجزائرية جاء فيه:

إن الدستور الذي وضعته الحكومة الفرنسية للجزائر ووافق عليه برلمانها في أكتوبر 1947م هو دستور ناقص من جميع جهاته، لم يحقق رغبة واحدة من الرغائب الوطنية للجزائر، وافته أنه فرض عليها فرضاً ولم يؤخذ رأيها فيه. والدستور النافع هو الذي يكون للأمة رأي في وضعه، واختيار لمناهجه ويد في تشريعه، ويكون ناشئاً عن رغائبها ليكون محقِّقاً لرغائبها. ولتلك الافة لم يرضه حزب من أحزاب الأمَّة ولا نائب من نوَّابها، على اختلاف مشاربهم الحزبية، وعلى تفاوت حظوظهم في الوطنية، بل قابله جميعهم بالاستنكار.

والمجلس الجزائري الذي ينفذ ذلك الدستور، هو مجلس ناقص أيضاً من جهات كثيرة، بعضها في أصل وضعه، كعدم اعتبار النسبة العددية في السكان، وبعضها في وسائل تشكيله كاستبداد الحكومة بتخطيط الدوائر

(1) المصدر نفسه ص 179.

(2) المصدر نفسه.

الانتخابية، وتدخلها في توجيه الانتخاب إلى جهاتها، وضغطها على حرية المنتخبين، كما عهدناه منها فيما هو أقل من هذا الانتخاب قيمة وأحط منه اعتباراً.

ومع تلك النقائص كلها ؛ فإن مصلحة الأمة الحقيقية توجب عليها أن تجاري الظروف، وأن تستغل ما في هذا الدستور من خير ولو كان كقطرة من بحر.

وجمعية العلماء التي هي جمعية الأمة كلها تفرض عليها حقيقتها ووضعيتها أن تكون فوق الطوائف والأحزاب، لتكون حكماً بينهم إذا اختلفوا على مصلحة، وهي التي لا تستمد حكمها إلا من منطق الواقع والحكمة والمصلحة العامة والنظر البعيد.

وعليه، فهي تتقدَّم إلى الأمة العربية الجزائرية بأحزابها وهيئاتها وأفرادها بالحقائق الاتية:

أولاً: إن اختلاف الأحزاب، وما جرَّه الخلاف من سباب، وما جرَّه السباب من أحقاد، وما جرَّته الأحقاد من تضييع للمصلحة، كل ذلك استنكرته الجمعية بالاعتقاد وأنكرته بالقول الصريح، وسعت في إزالته بالعمل الجدِّي، لأنها تعلم أن عواقبه وخيمة، وأن أدنى عواقبه تمزيق الشمل وإضعاف القوة: وأنه - أولاً وأخيراً - ليس من مصلحة الوطن والأمَّة، وإنما هو من مصلحة خصوم الوطن وأعداء الأمة.

وقد قامت الجمعية في أوقات ومناسبات شتى بمساعٍ جدِّية صريحة للتقريب بين الأحزاب، وإقرار روح الأخوة والتسامح في النفوس، لتصل من ذلك إلى اتحاد متين يوجِّه الجهود والكفاءات إلى خدمة المصالح الحقيقية للوطن. واخر جهودها ما قامت به في هذه الأسابيع الأخيرة المتصلة بكتابة هذه السطور..

وهي - وإن لم تصل إلى غايتها من جمع الكلمة - لم تيأس من ذلك ولم تفشل، وما زالت تفترص الفرص لتجديد السعي في جمع الكلمة على الحق، وتوحيد الأحزاب على المصلحة العامة للوطن، وهي تعتقد أن الاتحاد الذي تنشده الأمة، وتعلِّق امالها على جمعية العلماء في تحقيقه، إذا لم يتم اليوم فسيتم غداً. والجمعية تعلن أنه ليس من مصلحة الأمة ولا من مصلحة الأحزاب ولا من مقتضيات الذوق ؛ أن تشرح مساعيها للاتحاد في هذه الظروف[1].

ثانياً: يجب على الهيئات الداعية للانتخابات باسم الحرية أن تجرِّد دعايتها من السب والقدح وجرح العواطف وإثارة الأحقاد، وأن تبني تلك الدعاية على أشرف ما تُبنى عليه الدعايات في الأمم الحيَّة، وهو المبادأئ والبرامج ووسائل تحقيقها، وعلى القادة والمترشحين أن لا يقولوا ولا يعملوا إلا ما يبقي على الأخوَّة، ويعين في المستقبل على جمع الكلمة. وعلى عقلاء الأمَّة أن يُلزموا أولئك الدعاة عند حدود الاعتدال، ويُفهموهم أن في مكافحة الاستعمار ما يستفذ أقوال القائلين وأعمال العاملين، وليعلموا جميعاً أن هذه النقطة من أسس تربية الأمَّة تربية رشيدة.

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (191/2).

ثالثاً: يجب على الأحزاب التي تجعل رائدها مصلحة الوطن العليا ؛ أن تجري في الدورة الثانية على قاعدة متبادلة وهي أن تسلم الأقلية منهم للأكثرية، وأن تعاونها على الفوز، لكي يسدوا الطريق في وجه الحكوميين والانتفاعيين الذين لا يمثلون إلا أنفسهم.

رابعاً: يجب على الناخبين أن يقدِّروا هذه الانتخابات حق قدرها، وأن لا يستخفوا بها، ولا يقاطعوها، وأن لا يتخلف أحد عن الانتخاب، وأن لا يتأثر بتهديد الإدارة وتخويفها، وليعلم أن إعطاء ورقته شهادة للوطن أو عليه، فليعرف أين يضع ورقته، ولمن يعطي شهادته، وإن المقاطعة وإعطاء الورقة لغير الرجال العاملين هو تضييع لحقوق الوطن يعود عليه بأشأم العواقب.

خامساً: يجب على الأمَّة أن تميِّز بين أصحاب المبادئ وأصحاب الأغراض والمنافع الشخصية، وأن تفرِّق بين من يقدِّمه حزب أو جماعة من الأمة وبين من يقدِّم نفسه.

والواجب عليها بعد أن تميِّز هؤلاء من هؤلاء ؛ أن تعطي أصواتها لأصحاب المبادئ، وتنبذ الفريق المستغل المستعمر المفتون بكراسي النيابة لا ليخدم الأمَّة بل ليخدم نفسه، وقد جربت الأمة هذا النوع من النوَّاب، ولا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين، وإن أخزى الرجال رجل يتوصل إلى النيابة عن الأمة بوسائل سخيفة وأوراق مسروقة وحريات مغصوبة.

سادساً: يجب على الأمَّة أن تحذر كل الحذر من المرشحين المستقلين، فإن هذا الوصف خداع يلوذ به كل حكومي وينتحله كل انتفاعي، ولا يصدق منه إلا القليل، وإذا وجد من هذا القليل مترشح فأهل دائرته أعلم به. فليستوثقوا منه ومن صلاحيته وخدمته للمصلحة الوطنية.

أيتها الأمة:

إننا نعرف الإدارة الجزائرية الاستعمارية، ونعرف أنها لم تغيِّر شيئاً من عاداتها القديمة، ونعلم أنها تجهد جهدها لتقيم من هذا الانتخاب دليلاً على أن نوَّاب الجزائر لا يطلبون لها إلا الخبز والثياب، وأن هذا هو كل ما تطلبه الأمَّة الجزائرية وكل ما تستحقه، فكَذِّبي هذا الدليل بدليل يدحضه بحسن اختيارك للرجال ذوي المبادئ المطالبين بحقوقك السياسية، المثبتين لاستحقاقك الحرية الكاملة، التي ترفعك إلى المكانة العالية بين الأمم الحية.

عن المجلس الإداري

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي

إن العلامة محمد البشير الإبراهيمي يسطر لنا بقلمه الممتع وتجربته الثرية فقه الكلمة، وعلماء أحبوا اللغة ومعلمين راضو الأجيال على ذلك، أين نحن وأحزابنا من ذلك؟

يا إخواننا ـ خطاب عطف وتشريف ـ لسنا والله نبغضكم، فما أنتم إلا جزء منا، ولسنا والله نحتقركم، فما أنتم إلا رأس مال هذه الأمة الفقيرة، ولسنا والله نتهمكم بممالأة الاستعمار فأنتم عندنا أجلّ من ذلك، ولكننا

نعدّ مقاومة المقاومين منكم لجمعية العلماء ناشئة عن بعدهم عن التربية الإسلامية والثقافة العربية، ونجد في كل عيب من عيوبهم أثراً بارزاً من اثار الاستعمار في تربيتهم.

إن أقبح ما في أساليبكم أنكم تقسرون المبادأئ على الخضوع للشخصيات في أمة حديثة عهد بعبادة الأشخاص، فتعرضونهما معاً للضياع، وإن أسوأ أعمالكم احتقاركم للسواد الأعظم من الأمة ـ وهي أمتكم ـ فلا تفكرون في إعدادها ولا في درجة استعدادها، ولا تلتفتون إلى تصحيح الأسس فيها، ولا تعبؤون بدينها ولا بلغتها، ولا تظهرون بالمظاهر التي تقربكم منها، ولا تنيرون أمامها السبل ببرامج واضحة ومبادأئ معقولة، ولا تشركونها في رأي ولا مشورة، ولا تتصلون بها إلا حين ينعق غراب الانتخاب[1].

إن منكم من يحتقر لغة الأمة فلا يقيم لها وزناً، وفيكم من يحتقر دينها فلا يقرأ له حساباً، وفيكم من يحتقر بناتها فلا يتزوج منهنَّ، وفيكم من يأنف من خؤولتها لأبنائه فيختار لهم أخولاً غرباء، وإن بعض ذلك لقدْح محسوس في أمتكم الحاضرة، وإن بعضه لسم مدسوس في أعراق أمتكم المقبلة. فيا ويحكم!. هل هذا كله إلا من اثار الاستعمار في نفوسكم، شعرتم أم لم تشعروا؟

ويا إخواننا.. إنكم أحرجتمونا بأعمالكم وأقوالكم وأحوالكم، فأخرجتمونا من مقام التلطف في النصيحة إلى مقام الإيجاع في التنديد، وأردتم أن تثلموا سيفاً من سيوف الحق، فلا تلوموه إذا خشن متنه والم جرحه، فتجرَّعوا هذه النصائح على مرارتها في لهواتكم. فما نحن ـ بمكاننا في الدين ـ أقل من أن نَنصح، ولا أنتم ـ بمكانكم في أنفسكم ـ أجل من أن تنتصحوا.

يا إخواننا.. إن الدعوى والزعم وسفاسف الأقوال وتوافه الأعمال وتصغير الكبائر وتكبير الصغائر؛ كل ذلك مما لا تقوم عليه عقيدة سياسية ولا تربية وطنية.

إننا لو جمعنا كل ارائكم في السياسة وفرضنا تحقيقها لما أفادت الأمة شيئاً، وهي بهذه الحالة من التربية فكيف وأنتم متباينون؟ وكيف وأنتم مع الخلاف يكفر بعضكم ببعض، ويلعن بعضكم بعضاً؟

إن وراء السياسة شيئاً اسمه الكياسة، وهي خلق ضروري للسياسي. وإن السياسي الذي يحترم نفسه، يحترم غيره مهما خالفه في الرأي، ومهما كان الخلاف جوهرياً، فإذا لزم النقد فلا يكون الباعث عليه الحقد، وليكن موجهاً إلى الاراء بالتمحيص، لا إلى الأشخاص بالتنقيص[2].

إننا لا نتصور كيف يخدم السياسي أمته بتقطيع أوصالها وشتم رجالها وتسفيه كل رأي إلا رأيه، ولا نتصور أن مما تخدم به الأمة هذه الدروس «العالية» في أساليب السب، التي يلقنها بعض الأحزاب لطائفة من شباب الأمة في «معاهد» المقاهي والأزقة، إن تضرية الشباب على الشتم والسباب جريمة لا تغتفر.

---

(1) اثار الأمام محمد البشير الإبراهيمي (67/3).

(2) المصدر نفسه (67/3).

إن شباب الأمة هو الدم الجديد في حياتها، فمن الواجب أن يصان هذا الدم عن أخلاط الفساد، ومن الواجب أن يتمثل فيهم الطهر والفضيلة والخير، ومن الواجب أن تربى ألسنتهم على الصدق وقول الحق، لا على البذاء وعورات الكلام.

يا قومنا: إننا نخشى أن تفسدوا على الأمة «بهذه الدروس» جيلاً كاملاً كنا نجهد أنفسنا في تربيته على طهارة الإسلام، وهمم العرب، ومجد العروبة، والإيمان بحقوق الوطن، والعمل على تحقيق استقلاله وحرِّيَّته، ونبنيه طبقاً عن طبق، ونعلي أخلاقه خلقاً عن خلق، نخشى أن تضيّعوا على الأمة هذا الجيل، وتفسدوا مواهبه، وتلهوه بالمناقشات الحزبية عن الحقائق القومية(1).

نخشى ذلك.. ونخشى أكثر منه على هذه الطائفة المقبلة على العلم المنكبّة على تحصيله.. هذه الطلائع التي هي امال الأمة ومناط رجائها والتي لا تحقِّق رجاء الأمة، إلا إذا انقطعت إلى العلم وتخصَّصت في فروعه، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات تامة التسلُّح، تتولى القيادة بإرشاد العلم، وتحسن الإدارة بنظام العلم، فتثأر لأمَّتها من الجهل بالمعرفة، ومن الفقر بالغنى، ومن الضعف بالقوة، ومن العبودية بالتحرير، وتكتسح من ميدان الدين بقايا الدجالين، ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتَّجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين والأميين.

هذه الطائفة الطاهرة، الطائفة بمناسك العلم، قد ألهبتم في أطرافها الحريق بسوء تصرفكم، فبدأت تنصرف من رحاب العلم إلى أفنية المقاهي، ومن إجماع العلم إلى خلاف الحزبية.

إن من طلاب العلم هؤلاء من يدرس الدين، وإن الدين لا يجيز لدارسه أن يفتي في أحكامه ؛ إلا بعد استحكام الملكة واستجماع الأدلة، حذراً من تحليل محرّم. وإن منهم الدارس للطب، وإن قانون الطب لا يُجيز لدارسه أن يضع مبضعاً في جسم إلا بعد تدريب وإجازة خوفاً من إتلاف شخص، فهل بلغ من هوان الأمة عليكم أن تضعوا حظها في الحياة في منزلة أحطّ من حظ امرأة في طلاق، وأن تجعلوا حقَّها في الدواء أبخس من حق مريض على طبيبه؟

إنها ـ والله ـ لجريمة يقيم بها مرتكبوها الدليل على أنهم أعداء للعلم وقطَّاع لطريقه، أم يقولون: «لا علم بدون استقلال» (2).

فيعاكسون سنة الله التي تقول: «لا استقلال بدون علم»، أم يقولون ما قاله كبير منهم: «إن محمداً لم يأت بالعلم، وإنما أتى بالسياسة». و«إن روسيا لم تفلح بالعلم، وإنما أفلحت بالسياسة».

يا قومنا.. إن الأمة تنظر إلى الأعمال لا إلى العقائد، وإننا لنتوقع أن تشعر الأمة بما في سلوككم من اضطراب وتناقض بين المبادأئ والأعمال، فتتزعزع ثقتها بالأحزاب جميعاً، ويذهب الحق في الباطل، وإننا ـ والله ـ لا نرضى لكم هذه العاقبة، ولا نرضى لأمة فقيرة من الرجال أن يسوء ظنّها برجالها.

---

(1) المصدر نفسه (68/3).

(2) المصدر نفسه (68/3).

هذه نصائح مريرة، وحقائق شهيرة، لم نسمّ فيها أحداً، فمن استفزَّه الغضب منها، أو نزا به الألم من وقعها، فهو المريب، يكاد يقول خذوني.

جمعية العلماء فوق الأحزاب كلها:

وبعد.. فإن جمعية العلماء فوق الأحزاب كلها، ما ظهر منها وما بطن، وإن مبدأها أعلى من المبادأئ كلها، ما استسرّ منها وما علن، ولقد اتصلت بجميع الأحزاب فرادى ومجتمعين في المصالح العامة، فأرتهم بأقوالها وأعمالها أنها فوق الأحزاب، وقد احتكت بها جميع الأحزاب، مِن خاطب لوُدِّها إجلالاً، إلى رائم من نفوذها استغلالاً، إلى عامل على الكيد لها احتيالاً، فأرتهم بمعاملاتها لجميعهم أنها فوق الأحزاب، ودعت الأحزاب إلى الصلح والاتحاد، وجمعتهم للاشتراك في العمل، فكانت في ذلك كله فوق الأحزاب[1].

وما دامت تعمل في ميدان لا يختلف فيه الرأي، ولا يتشعَّب فيه الهوى، فإن منطق الواقع لا يسمح لها بغير ذلك، وإن تاريخها يشهد بأنها تنصر الحق حيثما وجد، وتدور معه حيث دار، وأنها تزن الرجال بأعمالهم الصحيحة، ومبادئهم الثابتة، وتزن الأحزاب ببرامجها الواضحة وارائها العملية، وأنها تقارب الجميع وتباعدهم على قدر قربهم من الإسلام والعروبة وبعدهم عنهما.

هذه هي الحقيقة لا يماري فيها إلا ذو دخلة سيئة وهوى مضلّ.

أما حين تمتد الأيادي الاثمة إلى حمى الدين أو حمى القومية العربية، أو حين يتساهل السياسون في حقهما ؛ فإن للجمعية في ذلك كلمتها الصريحة التي لا جمجمة فيها، وموقفها المشرِّف الذي لا هوادة فيه.

حاربت سياسة الاندماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس ونازلت أنصاره الخُمس ودعاته المقاويل، حتى قهرتهم وأخرستهم وقطعت الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه، يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل باباً من العذاب، فكان ذلك منها تحدياً للاستعمار، وإبطالاً لكيده، وتعطيلاً لسحره، وأثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها، وحاربت العنصرية التي كان الاستعمار يغذيها ويعدّها من أمضى أسلحته لقطع أوصال الأمة، فقطعت دابرها والاستعمار خزيان ينظر، وأثبتت بذلك للجزائر قوميتها العربية.

وحاربت ـ اخر ما حاربت ـ لائحة 7 مارس بشدة وقوة، وشنعت بها في دروسها وخطبها، وبينت للأمة الدسائس التي تنطوي عليها اللائحة، وأنها وسيلة «شيطانية» إلى الاندماج، جيء بها بعد خيبة الوسائل التي تقدمتها[2].

هذه هي الميادين التي تفردت فيها جمعية العلماء بالبطولة في حرب الاندماج ودعاته والمروِّجين له، وهذه أعمالها فيه قائمة بشواهدها، داحضة لافتراء المفترين وأقاويل المتقوِّلين، بأنها أيدت أو تؤيِّد سياسة الاندماج، ولو كانت الجمعية تحارب الاندماج باسم السياسة وبأسلوب السياسيين لجاز أن يقال: قد بدا لها بداء. وما أكثر البدَوات في السياسة، ولكنها حاربته باسم الدين، والدين كله يقين لا يتزعزع، وبصائر لا تزيغ[3].

(1) المصدر نفسه (69/3).

(2) المصدر نفسه (69/3).

(3) المصدر نفسه (70/3).

7. قضية فصل الدين عن الحكومة:

لقد اهتم الإمام الإبراهيمي بهذا الموضوع الخطير، وعمل على فصل شؤون الدين عن سيطرة الحكومة الفرنسية في الجزائر، وكافح كفاحاً عظيماً، وناضل نضالاً مريراً لتكون شؤون الدين الإسلامي من حج وإمامة وصيام وصلاة وتعاليم وقضاء وغير ذلك، بعيدة عن سيطرة الحكومة الفرنسية في الجزائر، ومما كتبه في هذا المجال:

أ. الواجب على أعضاء المجلس الجزائري المسلمين أن يطلبوا إدخال الدين المسيحي بكنائسه وأمواله ورجاله تحت سلطة الحكومة دخولاً عملياً، بحيث تكون هي التي تتصرف في الأموال، وتولي من يكون جارياً على هواها، وتعزل من يدعو إلى نزعة سياسية أو إلى حزب أو إلى إنتخاب، وأن يطلبوا إدخال الدين اليهودي ببيعه وأحباره وأوقافه تحت سلطتها أيضاً، بحيث لا يجري شيء من التصرفات في ذلك الدين، إلا بأمرها وعلى ما يرضيها، فتسمي الموظفين الدينيين، وتقوم لهم بأجورهم، وتحاسبهم على الأنفاس، وتعزل كل من يستحق العزل، كل ذلك على ما يشهد «الدوسي» المبارك.

يجب على النواب أن يطالبوا بهذا ويتشددوا فيه، لأنه إنصاف وعدل وحكومة الجزائر منصفة عادلة. تبارك الله أحسن الخالقين. ولأنه المظهر الواضح لقوة الحكومة وسلطتها، ولأنه زيادة في تلك القوّة وتلك السلطة.

فإذا أبى عليهم ذلك زملاؤهم من النواب الفرنسيين واليهود، وقالوا: إنهم لا يتدخلون في الأديان، أو أبت الحكومة، وقالت: إنها حكومة لائكية، فليقل النواب المسلمون في صراحة وحق: والإسلام؟ لماذا يبقى غريباً شاذاً بعيداً عن هذه اللائكية؟

إن الأديان في الوطن ثلاثة، فمن الواجب أن تعامل معاملة واحدة، وإن المسلمين ومعابدهم أكثر عدداً، فمن الإنصاف أن يكونوا هم القاعدة في المعاملة والأصل في وضع الأحكام، وما دام دينهم مستعمَراً فمن العدل أن يكون الدينان مستعمَرين أيضاً، فإذا لطفنا العبارة قلنا: ما دام الإسلام في قبضة الحكومة، فليكن الدينان الاخران في قبضتها أيضاً.

هذا هو المنطق المعقول الحكيم الصائب المتزن، فليتمسك به النواب المسلمون وليكونوا رجالاً، فإذا رضيت الحكومة «واستطاعت» ضمَّ الدينين إلى حوزتها، ووضعتهما تحت تصرفها، كما ضمت الشركات المالية مثلاً، فإن الأمة الإسلامية من وراء النواب ترضى ببقاء مساجدها وأوقافها بيد الحكومة، ونحن نكسر الأقلام، ونكمّ الأفواه، ونحبس الألسنة، فلا نتحرك في هذه المسألة بحرف ولا نفس، لأن هذه الحالة الخاصة بنا إن كانت خيراً ؛ فنحن لا نرضى أن نستأثر بها دون جيراننا المسيحيين واليهود، وإن كانت شرَّاً فلماذا نختص بها وحدنا، ونحن نريد أن يشاركونا فيها حتى يخفّ ثقلها ويهون وقعها، والمصيبة إذا عمّت هانت، ومن معاني الديمقراطية الاشتراك في الخير والشر.

إن المسألة خطيرة، وإنها مسألة تهم تسعة ملايين من المسلمين، وإن النواب مسؤولون عنها عند الله، محاسبون عليها من الأمة، وإن حجة الأمة فيها أوضح من الشمس، وإننا سنشرحها للنواب حتى يكونوا على بصيرة، وحتى لا يغتروا بالاراء المسخرة من الطوائف المسحرة[1].

ب . **لو كانت الحكومة الفرنسية صادقة** في فصل الإسلام عن حكومة الجزائر، مجتهدة فيه غير مقلدة للإدارة الجزائرية، ولا متأثرة بأفكارها الاستعمارية الضيقة، لو كانت كذلك لتولت بنفسها ذلك الفصل قبل تقرير دستور الجزائر، ولنفذت الفصل بأصوله وفروعه حتى يكون الدستور .كدساتير الأمم الديمقراطية . خالصاً للدنيويات التي يشترك فيها جميع الناس، خالياً من الدينيات التي تخص الطوائف، وبذلك يكون دستوراً لأمة جزائرية منسجمة حرة في أديانها مقيدة بدستور واحد في دنياها، ولكن الحكومة الفرنسية . فيما بلونا من أمرها . يدركها الغرق في تيار المستعمرين وأعوانهم من الحكام الإداريين كلما اعترضتها مشكلة من مشاكل الجزائر، فلا تسنّ إلا ما يرضيهم وإن أغضبت الحق والإنسانية وهدمت الجمهورية والديمقراطية، ولا ندري أذلك كله دلال أم هيبة أم هما معاً[2].

وفي فصل الدين عن الحكومة وإيكاله إلى أهله شرف عظيم للحكومات الديمقراطية، وأيُ شرف أعظم لفرنسا . مثلاً . من أن يعلن رئيس جمهوريتها أو رئيس وزرائها . بموافقة برلمانها . أنها فصلت الإسلام بمساجده وأوقافه وقضائه عن حكومة الجزائر، وتركته لأهله يتصرفون فيه بحرية كما يتصرف إخوانهم في المغرب وتونس والهند والصين، فتفوز فرنسا وبرلمانها بالذكر الحسن والثناء الطيب في العالم الإسلامي أولاً، وفي العالم الديمقراطي ثانياً، لأن التسلط على الأديان بالصورة التي في الجزائر ليس من الإسلام ولا من الديمقراطية ولا من الإنسانية، فلا عجب أن يطرب لتحرير دين عظيم من ربقة الاستعباد في ناحية من الأرض، كل مسلم على وجه الأرض، وكل ديمقراطي، وكل إنسان.

ولكن الحكومة الفرنسية تتنازل عن هذا الشرف العظيم، وهو إعلان الفصل القطعي تشريعاً وتنفيذاً، للمجلس الجزائري، وهو محجور للبرلمان الفرنسي، وللحكومة الجزائرية وهي فرع الحكومة الفرنسية، فهل كان هذا التنازل تواضعاً وزهداً وإيثاراً للمجلس الجزائري ومحبة؟ لا لا.

ونحن نعرف السر في هذا التنازل، ونعرف أن حكومة فرنسا وحكومة الجزائر كانتا على اتفاق فيه، ونعرف أن من تقاليد الحكومة الجزائرية التمسك الشديد بهذه السلطة المطلقة على مساجد المسلمين وأوقافهم، وما هي سلطة، بل هي ملك مديد، رعاياه هذا العدد العديد من المفتين والأئمة، والمؤذنين و«رجال الدين»، وإن لحكومة الجزائر في بقاء هذا الجيش تحت يدها مارب أخرى تفوتها بإنفلاته من يدها. وما زالت هذه الحكومة منذ عشرات السنين تعارض في قضية الفصل وتطاول وتمدّ الاجال، إلى أن أرهقتها المطالبة وحدثت فكرة

(1) المصدر نفسه (84/3).

(2) المصدر نفسه (84/3).

«دستور الجزائر»، فأوحت إلى حكومة فرنسا أن تنص على الفصل، وتكل تنفيذه إلى المجلس الجزائري الذي ولّده الدستور، لتصل عن طريقه إلى فائدتين:

الأولى: بقاء ما كان على ما كان.

الثانية: إفهام العالم بأن نواب المسلمين هم الذين رضوا بل طلبوا إبقاء ما كان على ما كان.

وما فعلت هذا إلا لاعتمادها على نفسها، وعلى وسائلها المعروفة في تكوين المجلس الجزائري، وتشكيله على الكيفية التي تضمن لها ما تريد، وقد فعلت كل ذلك وكونت لنفسها وسائل الفوز، ولم تبق إلا غيرة السادات النواب على كرامة دينهم وتقديمها على كل اعتبار، فليفهم النواب المسلمون هذا جيداً، وليحاسبوا ضمائرهم، وليعلموا أن الدين لا مساومة فيه ولا مهاودة، وأن جميل الحكومة مع بعضهم في الأول لا يكون على حساب الدين في الأخير.

ج. ...**ووقع الفصل في باريز لفظاً وكتابة ونصَّاً** في الدستور، فهل يقع الفصل هنا في الجزائر؟ وهل يقع على ما تريده الأمة، أو على ما تبغيه الحكومة؟ والنواب المسلمون مهما يبلغ ببعضهم التأثر، فإنهم لا يوافقونها على إبقاء ما كان على ما كان، لأن ذلك مناقض للفصل الذي نص عليه الدستور نصَّاً صريحاً.

أما الحكومة الجزائرية فإنها تحلف برأس كل عزيز عليها أنها قادرة على الجمع بين الفصل والوصل في ان واحد، وأنها زعيمة بالجمع بين المتناقضات ولا عجب من حكومة كاثوليكية لائكية، أن تضيف لهما نقيضاً ثالثاً هو «التمسك بالإسلام».

قال الرواي: وكيف يتم ذلك؟

د. ذلك أن الحكومة الجزائرية معروفة بالحزم في مثل هذه القضية من شؤون المسلمين، ومعروفة بادخار الرجال لأوقات الشدة، وبوضع الإحسان عند من يشكره ولا يكفره، ومن بين من ادخرتهم لهذه القضية وجربتهم فكشفت التجربة عن إخلاص وطاعة، واصطنعتهم وكان الاصطناع في محله. رجل طموح إلى المناصب، يركب لأجلها الصعب والذلول، ويستسهل في سبيلها إخراب البصرة وإحراق روما، وهو الحاج، الحاج فعلاً، الحاج نية، أمير الحج الجزائري في إحدى الحجات، الشيخ محمد العاصمي المفتي الحنفي بالجزائر.

ما زلنا نتتبع أعمال هذا الرجل منذ سنين، ونتوسم من حركاته أنه نصب وخفض معاً، وأنه مهيأ من الحكومة لأن يكون «حلقة مفقودة» لقضية ما في يوم ما، حتى أوقفنا حسن حظنا أو حظه في هذه الأيام على تقرير مطول في هذه القضية مرفوع باسمه إلى المجلس الجزائري، مقدم إلى بعض أعضائه دون بعضهم، ومما يلفت منه نظر القاصرين «أمثالنا». وبين لهم أن الأمر مدبر من زمان بعيد. أن التقرير مؤرخ بيوم 21 مارس سنة 1948م مع أن المجلس الجزائري لم ينتخب أعضاؤه إلا يوم 4 إبريل سنة 1948م[1].

وقرأنا التقرير من أوله إلى اخره، وأعدنا قراءته استجلاء أو استحلاء، فوالذي خلق العاصمي. وقدّر أن يكون مفتياً في العاصمة. ما وجدنا فيه من العاصمة إلا اسمه وختمه، أما ما عدا الاسم والختم فهو وضع إدارة الفتيا

(1) المصدر نفسه (86/3).

ورجال «غير رجال الدين». وقد فهمنا التقرير ومراميه والمحور الذي يدور عليه، وسنشرحه شرحاً يفك معضلاته ويفتح مقفلاته، ومعذرة إلى القراء فهذه طلائع يتبعها الجيش العرمرم، ومقدمات بعدها الحكم المبرم[1].

8. ملاحظات عامة على التقرير الحكومي العاصمي:

قال الإبراهيمي: في الإدارة الجزائرية العليا مطبخة. ليست كالمطابخ. تُطبخ فيها الاراء والأفكار في كل ما دقَّ وجلَّ من شؤون المسلمين. والقائمون على هذا المطبخ طهاة يُحسنون الفن، ودهاة يحكمون بأول الظن، وهم منتخبون من طراز خاص، أول الشروط فيهم أن يكونوا قد أفنوا أعمارهم في حكم المسلمين، واجتازوا المراتب الإدارية من أدناها إلى أعلاها، وتمرسوا بمحكوميهم وفهموا ميولهم واتجاهاتهم ودرسوا مواطن الضعف والقوَّة فيهم، واخر الشروط فيهم أن يكونوا استعماريين قبل كل شيء، والسيد السند من هؤلاء هو الذي يُثبت أنه حكم المسلمين حكماً استبدادياً، وعرف كيف يُرهقهم وكيف يُذلهم وكيف يضرب بعضهم ببعض، ويمزق شملهم، وكيف يستلب منهم العقل والإدراك، وكيف يروّضهم على أن يقابلوا اللكم بالبكم، والصفع بالشكر، حتى يكتسب من كل ذلك ملكة فيما يسمونه «السياسة الأهلية»، بحيث لو كانت لها درجات كالدرجات العلمية ؛ لمنحوا صاحبها لقب أستاذ في الشيطنة، كما يقال أستاذ في الفلسفة.

في هذا المطبخ طبخ التقرير العاصمي ملفوفاً بتوابله، وفيه وُلد محفوفاً بقوابله، فجاء كما رأيناه وفيه طعم الإدارة ولونها وريحُها، ولو نطق لشهد بالمطبخ والطابخ[2].

وفي تلك الإدارة نفسها معمل لصنع الرجال على أشكال ومقادير مخصوصة، لا يشترط في المادة الخام إلا أن تكون ذات قابلية واستعداد وطوع وانقياد، وفي المعمل جهاز كيموي من خصائصه إحالة الأعيان معاني، والمعاني أعياناً، فيحيل الرجال مكائد، والمكائد رجالاً.

وفي هذا المعمل صُنع العاصمي وامتحن، فكشف الامتحان عن استيفاء الخصائص والصلاحية للاستعمال، وأصبح. بعد استكمال التجربة والاختبار. موظفاً في إحدى هذه الوظائف المدَّخرة لوقت الحاجة، ولمن تدعو إليهم الحاجة، وهي الإفتاء الحنفي بالجزائر، أي مفتي الجامع الحنفي بالجزائر، إذ لم يبق من الحنفية فيها إلا جامع يحمل هذه النسبة المجردة، ورأى أن الجامع يجمع ولا يفرق، فوضع فيه رجلاً. أيًّا كان. ليفرق به ولا يجمع، وحفظ به هذه الوظيفة لهذه الغاية.

ومن دأب الاستعمار فينا أن يُعمر الرجال بالوظائف لا الوظائف بالرجال، وإذا لم يبق في الجزائر من يتعبد على مذهب أبي حنيفة أو يتعامل عليه، فأي معنى لوجود مفتٍ حنفي أو قاضٍ حنفي، لولا أن للاستعمار مأرباً في بقاء هذه المعالم الصورية من بقايا العهد التركي، على أن نسبة المساجد إلى المذاهب ليست من الإسلام في شيء، إذ هي منافية لروح الإسلام، ومناقضة لحكمته في المساجد[3].

---

(1) المصدر نفسه (87/3).

(2) المصدر نفسه (87/3).

(3) المصدر نفسه (88/3).

إن وظيفة المفتي من أساسها تزوير على الإسلام، لأن الفتيا في الحلال والحرام حق على كل عالم بالأحكام مستوفٍ للشرائط المقررة في الدين.. وإن وجود وظيفة مفتٍ حنفي في الجزائر تزوير على المذهب الحنفي، وابن العاصمي ومن جرى مجراه من فقه أبي حنيفة ودقائقه وقياسه؟

إن نسبة الحنفي تشترك في بني حنيفة وأبي حنيفة، فلينظر العاصمي أشبه النسبتين به، وبنو حنيفة هم قوم مسليمة الذين اووه ونصروه، ومن غرائب الشبه أن مسيلمة الحنفي كان تشويشاً على مطالب المسلمين الحقة والتقرير محبوك الأطراف حبكاً استعمارياً، مسبوك الألفاظ سبكاً إدارياً، يبدأ من الحكومة وينتهي إليها، يلوح من خلال ألفاظه ومعانيه حرص الحكومة على أن لا يفلت هذا الصيد من يدها، فهي تستنجد التاريخ وتستشهد بعوائد المسلمين ونظم الأقطار الإسلامية، وهو ينطوي على تلك الروح التي نعرفها في المعاهدات السياسية من دس الحيلة وإخفاء الغرض، والاستهواء بالمصلحة، والتزوير على التاريخ، والقياس مع الفارق، وهو يدور على أصل واحد، ولكنه أصل فاسد، يفسد كل ما انبنى عليه، وهو أن أولى الناس بالتصرُّف في المساجد هم الموظفون الرسميون ويسميهم التقرير «رجال الدين»، كأن الأمة كلها نساء الدين، وليس من رجاله إلا العاصميُّ واله وصحبه، ويستشهد على ذلك بأن الحالة كانت على هذا في العهد التركي، وهو على هذا في الأقطار الإسلامية، وهذا كله افتراء على الحقيقة وعلى التاريخ سنكشف أمره، ويستنتج التقرير من هذا أن المسألة كانت إدارية ويجب أن تبقى إدارية، ويبدأئ في هذا ويعيد لأنه هو بيت القصيد.

وهو يقبح الانتخاب (يعني انتخاب الجمعيات الدينية في تكوينها، وانتخابها هي للمجلس الإسلامي الأعلى، الذي أجمع عليه كل المطالبين وأهل الرأي)، ويغالط في الأمر بأن انتخاب تسعة ملايين هو الفوضى بعينها ويقدح في الجمعيات الدينية.. بأن وظيفتها الترميم والإصلاح والفرش، ويهوّل بأن الانتخاب مدخل من مداخل السياسة إلى المساجد، كما يقدح في الجمعيات والهيئات المطالبة بحقوق الأمة في دينها ؛ بأن وراء كل واحدة منها حزباً سياسياً يؤيدها، إلى غير ذلك مما سننقله عند المناقشة التفصيلية[1].

يا هذا أو يا هؤلاء، أعني البارز منكم والمستتر، إن الإسلام دين «ديمقراطي» سمح، وليس فيه نظام «أكليريكي» متسلط كبقية الأديان، وإنما هو دين روحي، تقوم بمصالحه المادية الخلافة إن كانت، فإن لم تكن فالحكومة القائمة، فإن لم توجد فجماعة المسلمين، وإن من تسمونهم رجال الدين، تعينهم - في غير «الجزائر» - الحكومات الإسلامية أو جماعة المسلمين، وجماعة المسلمين لا تكيد لدينها بل تنصح وتسدد وتقارب، ولا تختار للوظائف الدينية إلا أصحاب المؤهلات العلمية المستكملين للشروط الدينية، لأن وراء الجميع رقيباً وعتيداً من الدين، وأمام الكل حساباً شديداً يوم الدين.

وأما «رجال الدين» عندنا، فقد اختارتهم حكومة لائكية متسلطة، وما اختارتهم إلا بعد أن عرفتهم ووزنتهم بميزانها لا بميزان الإسلام، وراعت فيهم شروطها لا شروط الإسلام، وما رأيناها تحفل في هذه الوظائف بالعلم

---

(1) المصدر نفسه (89/3).

ولا بالكفاية الدينية، وإنما تحفل بشيء واحد هو ما يشهد به «الدوسي»[1]، وما عهدنا موظفاً من هؤلاء جاءته الوظيفة وهو في داره من غير أن يسعى لها سعيها، بل ما وصلت الحكومة حبلهم بحبالها إلا بعد أن اتخذوا لها الأسباب وطافوا بالأبواب.

وما زلنا نقول: إن الحكومة تحتفظ بهذه الوظائف الدينية لأصحاب الخصائص المطلوبة لها، وإنها في حقيقتها مصائد لا وظائف، وإنها لا تدفع لهم الأجور على الصلاة والأذان والصيام، فسواء عندها أصلَّى المسلمون أم لم يصلوا، إنما تدفعها لغايات ومقاصد يجمعها قولك: «القيد والصيد». ومحال على الحكومة أن تُطعم ثمرها من يعصي أمرها. وقد قرأنا في محاضر المجلس المالي القديم أسماء عجيبة لأجور هذا النوع من الموظفين، أليس تسليم الحكومة المساجد إلى هؤلاء الموظفين تسليماً من الحكومة إلى الحكومة، وهل يستطيع واحد من هؤلاء أن يعصي لها أمراً، ولو كان فيه خراب مكة[2].

أما ما يغالط به التقرير من أن الانتخاب يجر السياسة إلى المساجد، وما يتهمنا به معشر المطالبين برفع سلطة الحكومة عن الدين وتسليمها للأمة، من أن وراءنا أحزاباً سياسية، فهو سلاح من أسلحة الحكومة المغلولة ما زالت تحارب به كل عامل، وكلمة من كلماتها المعلولة، ما فتئت تسكت بها كل قائل، ونحن نرد عليها هذه التهمة بالحقيقة، وهي أن تسلطها على مساجدنا وأوقافنا - وهي لائكية - هو عين السياسة، وإسنادها الوظائف الدينية إلى من تختاره وترتضيه هو رأس السياسة، ووضع هذا التقرير باسم العاصمي هو ذنب السياسة، ولولا السياسة ما كان للمفتي الحنفي وجود، ولولاها ما تيسرت حجاته المتعددة ولا قضيت حاجاته المتجددة، وإذا كان غير العاصمي منسوباً إلى السياسة أو متهماً بها، أو لصيقاً فيها ؛ فالعاصمي ابن السياسة لصلبها ولرحمها، ولكنه ولد من غير السبيل المعتاد، على رأي عبد الحي الكتاني[3].

9 . هل دولة فرنسا لائكية؟:

في مقاله: هل دولة فرنسا لائكية؟ تحدث الشيخ الإبراهيمي عن الوزير الوالي فقال: لم نتعرَّض لأعمال الوزير الوالي وخطبه المتكررة، حتى سمعنا خطبته الأخيرة «بعين صالح» وقرأناها في الصحف، فلفتتنا كلمات منها، جلَّى فيها مقاصد الاستعمار بالجزائر، ونبَّهنا على السر في تشدُّد حكومته في قضيتنا الدينية، وتصامِّها على سماع كلمة الحق فيها. تلك الكلمات هي ثناؤه - في معرض الامتنان على الجزائر - على الجندي والمعلِّم والطبيب والراهب، وقرنه إياهم في قرن، ومعنى هذه الكلمات عندنا أن فرنسا قذفت هذا الوطن بأربعة أنواع من القوى، مختلفة التأثير، متَّحدة الأثر، متباعدة الميادين، ولكنها تلتقي على هدف واحد، وهو التمكين للاستعمار، وأنها حاربته بأربعة أصناف من الأسلحة البشرية، أخفّها فتكاً وأقصرها مدى: الجندي.

---

(1) «الدوسي»: كلمة فرنسية بمعنى الملف.

(2) المصدر نفسه (90/3).

(3) المصدر نفسه (96/3).

جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب «الاستعماري»، لتفسد به على المسلمين دينهم، وتفتنهم به عن عقائدهم، وتشككهم بتثليثه في توحيدهم، وتضار في ألسنتهم كلمة «الهادي» بكلمة «الفادي»، ذلك كله بعدما أمدته بالعون، وضمنت له الحرية، وكفرت به هناك لتؤمن به هنا.

وجاءت بالمعلِّم الاستعماري ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، ويلقي الاضطراب في أفكارهم، ويستنزلهم عن لغتهم وادابهم، ويشوِّه لهم تاريخهم، ويقلِّل سلفهم في أعينهم، ويزهدهم في دينهم ونبيهم، ويعلِّمهم ـ بعد ذلك ـ تعليماً ناقصاً: شر من الجهل.

وجاءت بالطبيب «الاستعماري» ليحاري على صحة أبنائها قبل كل شيء، باية أنه لا يكون إلا حيث يكون الأوربيون، لا في المداشر التي يسكنها الألوف من المسلمين وحدهم، ولا في القبائل المتجاورة التي تعد عشرات الألوف منهم.

أما هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة إلى المسلمين فكأنما جاء ليداوي علة بعلل، ويقتل جرثومة بخلق جراثيم، ويجرِّب معلوماته فيهم كما يجرّبها في الأرانب، ثم يعيش على أمراضهم التي مكن لها الاستعمار بالفقر والجهل، مما جعل الجزائر كلها ـ إذا استثنينا الحواضر ـ بستان المشمش في نظر ابن الرومي. هذا هو المعنى الذي نفهمه من مجيء هؤلاء ومن ثناء السيد الوزير عليهم، وبعد فهل تتسع الصدور لمناقشة هذه الكلمات الصريحة بكلمات صريحة؟

جاءت فرنسا إلى الجزائر بالجندي ففتح بالقوَّة ومهَّد بالقوة وسجَّل لها في تاريخ الإنسانية صحائف لا ندري ما لونها، إلا إذا قرأنا «رسائل سانت أرنو»، وتقرير لجنة البحث البرلمانية سنة 1833م، وكتاب «كريستيان»، وكلام النائب المنصف «روجي» في مجلس الأمة الفرنسي شهر جانفي سنة 1834م.

ثم جاءت بعده بالمعلِّم والطبيب والراهب بعد أن أجرت لهم عملية التلقيح بمبادئ «الاستعمار»، وهي مادة من خصائصها تعقيم الخصائص، فلم يبق المعلم معلماً علميًّا، ولا الطبيب طبيباً إنسانياً، ولا الراهب أباً روحياً. وإنما جاؤوا في ركاب الاستعمار ليخدموه ويثبِّتوا أركانه.

ونظر الناس بعد مرور مائة وعشرين سنة على هذه «الرحمات» الثلاثة المرسلة إلى الجزائر من سماء فرنسا، فإذا تسعة وتسعون في المائة من أبناء الأمة الجزائرية أمِّيون، لم يَروا مدرسة، ولم يسمعوا بمعلم، فقدوا قديمهم ببركة الاستعمار ولم يجدوا الجديد. وإذا الطب الاستعماري لم يقض على المرض وإنما قضى على الصحة، فأربعمائة ألف من مجموع الأمَّة مسلولون والباقون معلولون، وعشرات الالاف من الأجنَّة تسقط لفقد العناية، ومثلها من الصبيان يموت لسوء التغذية، ومثلها من الأحداث يذبل عوده لفقد وسائل التنمية. وإذا الراهب المبشِّر ذئب فلاة يتربص اليتيم لينصّر الأبناء والمجاعات ليفتتن الاباء، فكان من وصايا المسيح عنده أن لا يطعم البطن إلا إذا أخذ القلب، وأن لا يكسو الظهر إلا بالتجريد من الدين، ولا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء والبائسين.

حاشا لدين المسيح عليه السلام وكلمته التي ألقاها إلى مريم أن يكون هذا طريقه إلى النفوس، وهذه طريقته في الانتشار. إن المسيح كان عدوًّاً للظلم والباطل، وإن الاستعمار أقبح الباطل وأشنع ظلم على وجه الأرض، فهل يُعدُّ من أتباع المسيح وورثة هديه من ينصر الاستعمار؟.

إن الاستعمار القائم على الجندي والمعلم والطبيب والراهب هيكل حيواني يمشي على أربع.

وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر، فرمى مواهبهم بالتعطيل، وعقولهم بالخمود، وأذهانهم بالركود، وأفكارهم بالعقم، وأضاع على الإنسانية بضياعهم عشرة ملايين من المواقف والعقول والأذهان والأفكار، وهي رأس مال عظيم كانت تستعين به ـ لولا الاستعمار ـ على الخير العام والمنفعة وتنفع به في إقامة دعائم المدنية، فما أشأم الاستعمار على الإنسانية.

إن هذه الأمة كانت قبل الاستعمار ذات مقومات في دينها ولسانها، وذات مقومات من ماضيها وحاضرها، وكانت أرقى عقلاً، وأسمى روحاً، وأوفر علماً، وأعلى فكراً من أمم البلقان لذلك العهد، بدليل أن هذه الأمة كان لها حظ من حكم نفسها بنفسها لم تصل إليه تلك، ولو سارت سيرها الطبيعي ولم يعترضها الاستعمار بعوائقه وبوائقه، لأنجب المعلم يملي الحكمة لا المعلم الذي يمالأئ الحكومة، ولأنجبت الجندي الذي يحرس الحق لا الجندي الذي يخرس الحق، ولأنجبت المتأله الذي يؤمن بمحمد وعيسى ويوحِّد الناس على هديهما، لا المتأله الذي يسخر لإحياء فريق بإماتة فريق.

إننا أمة علم ودين لم ينقطع سندنا فيهما إلى ابائنا الأولين، وإننا أمة شكران لا أمة نكران، فلو أن المعلِّم الذي جاءتنا به فرنسا علّم ناصحاً، وربِّى مخلصاً، وثقف مستقلاً، وبث العلم لوجه العلم، ونشر المعرفة تعميماً للمعرفة، وزرع الأخوة الصادقة في سبيل الإنسانية الكاملة، ولم يقيده الاستعمار ببرامجه ولا سيَّره على مناهجه ؛ لظهرت اثاره الطيبة في الأمة، ولأنطقتنا تلك الاثار بالاعتراف والثناء بالجميل، ولكنه علّم متحيزاً إلى فئة، وأورد على غير مشربنا، وغرس في نفوس أبنائنا التنكر لما فيهم والتسفيه لتاريخهم والنسيان للغتهم ودينهم، أفهذه هي النعمة التي تمنها فرنسا علينا وتتقاضانا شكرها؟

ولو أن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا جاء لينشر تعاليم عيسى بين أتباعه وبث تسامحه بين أشياعه وغير أشياعه ؛ للقي منا التبجيل والاحترام، لأننا أعلم الناس بتعاليم المسيح، ولأننا لا نفرِّق بين أحد من رسل الله، ولأننا نعتقد أن النبوات كلها حق وهداية وخير، ولأن لاحقها ينسخ سابقها بما هو أكمل وأفضل وأجمع لشمل البشر، وأنضى للشر والفساد بينهم، ولكن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا إنما جاء ليبارك على القاتل، ويدني الصيد من الخاتل، ويعاون المعمر على امتلاك الأرض، والحاكم على انتهاك العرض، وإنما جاء ليغفر للذين يسفكون دماء الأبرياء ما اقترفوه من ذنوب واثام، أفهذه هي المنقبة التي تفتخر بها فرنسا وتعدّها من وسائل التمدين وتتقدم بها إلى التاريخ؟

هناك المظهر وهنا المخبر.. هناك يقولون إن فرنسا حاملة لواء الحرية وحادية الأمم إليها، وإنها حامية حقوق الإنسان، وإنها زعيمة التحرير في العالم، وإنها أستاذة المثُل العليا للإنسانية، وإنها منارة العدل التي يهتدي بها

المظلومون، يبدؤون القول في ذلك ويعيدونه وينشرونه في العالم، ويكتبونه في كل سطر من صحفهم ومؤلفاتهم، وهنا يفرضون علينا العبودية، ويمنون بها علينا، ويريدون منا أن نسمِّيها بغير اسمها، وأن نكافئهم عليها حمداً وشكراً، ويزور بلادنا من سمع تلك الدعاية وتأثر بها، فتصوَّرَنا بها أحراراً في ملكوت وأبراراً في نعيم، فلا تقع عينه إلا على عهود بائدة من الأشخاص والأحكام والمعاملات، لا تصلح إلا لمتاحف الأثريات، ولا ترى من هذه الأمة إلا عظاماً معروقة وجموعاً مفروقة، وأشكالاً من الجحيم مسروقة، ويتردَّد بين تكذيب السماع وتصديق العيان، ولكن الحقيقة أن ذلك مظهر، وهذا مخبر، ويا بعد ما بينهما!.

وقبل وبعد: فهل حكومة فرنسا بعد إعدادها للرهبان، واعتمادها على الرهبان، دولة لائكية(1)؟

10. كتاب مفتوح إلى رئيس الجمهورية الفرنسية:

لم يترك الإبراهيمي وسيلة ولا طريقة للدفاع عن بلده ووطنه وشعبه ودينه، فخاطب الجميع بوسائل عصره، ومن بينهم رئيس الجمهورية الفرنسية، حيث كتب إليه كتاباً مفتوحاً، جاء فيه: أيها الرئيس:

نحييكم على كثرة الحوائل بيننا، كما يحيي العربي الكريم ضيفه، ويسوءنا ويسوء الحقيقة أن تزوروا الجزائر فتروا كل شيء إلا الجزائر.

يسوء الحقيقة أن تزوروا الجزائر زيارة تعدُّ من أعمالكم، وتسجل في تاريخكم، وتشغل نقلة الأخبار ومستمعيها أياماً، ويسيل فيها نهران من مال ومداد، وأنتم لم تروا الجزائر الحقيقية بما فيها من ماسٍ وبلايا، وجهل وفقر وظلم، وشعب كامل يتألم، وطائفة قليلة تتحكم، وإنما رأيتم زُمراً لم يحدُها إليكم أمل واسع، ولم يحفزها إلى لقائكم ضمير حر، ولم يعرضها أمامكم سائق من عقيدة، ولا داع من اختيار، وإنما جمعت بوسائل كالتجنيد الإجباري، وسيقت بأسباب من الترهيب والترغيب ليس فيها إيمان ولا وجدان.

يسوء الحقيقة والواقع أن تزوروا الجزائر هذه الزيارة التقليدية التي تقابل بالمظاهر المصطنعة والخطب المصنوعة، وأن تحاطوا بالمواكب الرسمية التي تحجب عنكم الحقائق، كما يحجب الضباب نور الشمس، وأن تصافح سمعكم أصوات ليس فيها صوت حر، فلو كنتم أجانب عن الجزائر وعما يجري فيها لخشينا أن تصدروا عن الجزائر وفي ذهنكم منها صورة غير صورتها.

كل الذي ترونه وتسمعونه في زيارتكم هذه مجموعاً ومتفرقاً ليس هو الجزائر ولا صوت الجزائر، وإنما هو شيء مألوف في الجزائر لا يثير اهتماماً من عاقل، ولا حركة من مجنون.

أما حقيقة الجزائر فاستجلوها ـ إن كنتم تريدون الحقيقة ـ مما وراء المظاهر تجدوها في جملة: وطن تسعة أعشار من فيه رقيق زراعي وخدم صناعي، مفروض عليه الحرمان من كل حق، وعشر العاشر سادة مفروض لهم التمتع بكل حق، وبين الفريقين فريق انفصل عن الأول ولم يصل إلى الثاني، وهو الذي ترونه(2).

أ ـ لم تتغير الحكومة:

(1) المصدر نفسه (98/3، 99).

(2) المصدر نفسه (92/3).

تغير الكون وما فيه ولم تتغير الحكومة في نظرتها إلى الدين الإسلامي والمسلمين، فالدين الإسلامي مملوك للحكومة الجزائرية، تحتكر التصرف في مساجده ورجاله وأوقافه وقضائه، وقضية فصل الدين عن الحكومة معلقة بين السماء والأرض، لا يهبط بها إنصاف ولا يصعد بها عدل، واقفة بين حكومة فرنسا وحكومة الجزائر موقف التنافس، تلك تحكم بالفصل قولاً وهذه تحكم بالوصل عملاً، وهي تماطل في الفصل لأنها لا تريده، وهي تهيأئ الوسائل لتعطيل تنفيذه، أو لجعله صورة بلا حقيقة وجسداً بلا روح، وهي تملك من وسائل التعطيل مجلساً يقدم البحث في مرتباته وألقابه على البحث في مصالح الأمة، التي لم يكن لها في تكوينه رأي ولا في انتخابه حرية.

ب . التعليم الديني:

والتعليم الديني في هذا الوطن المسلم معطل بتعطيل المساجد، ومئات الالاف من شباب المسلمين تتشوق إلى تعلم دينها، ولكن مساجدهم الموقفة لذلك مغلقة في وجوههم، والدين الإسلامي وتعلمه وتعليمه حق طبيعي وضروري لتسعة ملايين من المسلمين، ولكنهم محرومون منه، والتعليم العربي في هذا الوطن العربي جريمة يعاقب مرتكبها بما يعاقب به المجرم من تغريم وتغريب وسجن، ومدارسه تعاني من التضييق والتعطيل ألواناً متجددة، ورجاله عرضة في كل حين للمحاكمات، في المحاكم الجمهورية التي تتسم بوسمكم، والمحاكمات على التعليم جارية على قدم وساق في هذه الأيام التي تسبق زيارتكم، كأنها إعداد لها وابتهاج بها، ولو كانت قضايا المحاكم وسجلات البوليس وأعمال الحكام مما يعرض عليكم، أو كان عمار السجون ممن يمثلون بين يديكم ؛ لرأيتم من الأولى عشرات القضايا المتعلقة بالتعليم العربي في ضمن الجرائم والمخالفات، ولرأيتم من بين الاخرين كثيراً من المعلِّمين في عداد المجرمين. وإن قانوناً يمنع التعليم كيفما كان لونه، ويعاقب المعلم كيفما كان جنسه ؛ لهو قانون عدو للعلم، فكيف تسيغه فرنسا «العالمة»؟ وكيف تشرعه فرنسا «المعلمة»؟.

ج . يأس من العدالة:

أيها الرئيس!. إن الشعب الجزائري قد أصبح . من طول ما جرب ومارس . في حالة يأس من العدالة وتسفيه للوعود والعهود، وكفر بهذه الديمقراطية التي يسمع بها ولا يراها، وإنه أصبح لا يؤمن إلا بأركان حياته الأربعة: ذاتيته الجزائرية، وجنسيته ولغته العربيتين، ودينه الإسلامي، ولا يستنزل عنها بأرقى الخطب والمواعيد، ولا يبغي عنها حولاً ولا بديلاً.

وإن الشعب الجزائري لا ينتفع بنتائج شيء لا رأي له في مقدماته، وإن الدستور الجزائري على نقصه واختلاله لم يكن للأمة فيه رأي، فكيف يجنى منه ثمرة؟ أو ينتفع منه بنتيجة؟ إن المجلس الذي انبثق منه ناقص بنقصه، مختل باختلاله، وقد جالت الأيدي في تكوينه، فجاء كالمولود سقطاً ليس فيه شيء من خصائص الحياة، فكيف ترجى منه الحياة؟.

د . مريض متطلع للشفاء:

وإن الشعب الجزائري مريض متطلع للشفاء، وجاهل متوثب إلى العلم، وبائس متشوق للنعيم، ومنهوك من الظلم مستشرف إلى العدالة، ومستعبد ينشد الحرية، ومهضوم الحق يطلب حقه في الحياة، وديمقراطي الفطرة والدين يحنّ إلى الديمقراطية الطبيعية لا الصناعية، ولكنه ليس كما يقال عنه: جائع يطلب الخبز، فإن وجده سكت.

أيها الرئيس:

إن حكومات الجزائر تعاقبت في ألوان من المذاهب، ولكن الشعب الجزائري لم ينل على يدها خيراً، ولم يصل إلى قليل ولا كثير من حقه المهضوم، لا في دينه ولا في دنياه، وإنما هي مظاهر تتبدل بلا فائدة، وسطحيات بلا جدوى، وأسماء بلا معان، والحقيقة هي هي.

هـ الحكومات المتعاقبة:

وإن هذه الحكومات المتعاقبة تجري ـ من يوم كانت ـ على أسلوب من شر أساليب الاستعمار وأقبحها، فهي تتخذ الدين الإسلامي الة لخدمة السياسة، ولذلك تتمسك هذا التمسك بمساجده وأسبابه، وهي تجعل السياسة الة لهدم الدين الإسلامي، وهي تحارب اللغة العربية والتعليم العربي لتجعل من ذلك وسيلة إلى محو الجنسية العربية، وهي تسد أبواب العلم في وجوه المتعلمين بوسائل شتى، ليبقى الشعب أمِّياً جاهلاً فينسى نفسه وتاريخه، ويقنع بأخس الحظوظ في الحياة، وإن بقاء نحو من مليونين من أبناء الشعب محرومين من التعليم بجميع أنواعه لأصدق دليل على ذلك.

إن حكومة توسع السجون، وتضيق المدارس، حكومة سيئة الظن بنفسها قبل أن تكون سيئة الظن بالشعب(1).

و ـ الوحدة الفرنسية:

ظهرت في عهد هذه الجمهورية الرابعة نغمة جديدة أنكرناها وكفرنا بها، لأنها لا تنسجم مع ماضينا ولا تتناسق مع حالنا ولا مستقبلنا، وانتقدنا الرأي العام العالمي العاقل اليقظ المنطقي، لأنها ناشزة عن قرارها، مخالفة للواقع المحسوس، هذه النغمة هي نغمة «الوحدة الفرنسية». ولا يشك عاقل في أن كلمة الوحدة هذه مقطوعة الصلة من معناها، وكأن واضعها هازأئ بنفسه أو بالناس أو بهما معاً، وكأنها سخرية ساخر، لم تسبقها روية، ولم يحكمها منطق، ولم يحكها تدبر.

ولا يسيغ منطق ولا عقل كيف تكون الوحدة بين سيد وبين مسود؟ وكيف تتصور بين حاكم مزهو بعصبية تظاهرها عصبية دينية وبين محكوم؟ وكيف تتفق في وطن ساكنوه صنفان وقوانينه صنفان؟ وكيف تتم في بلد كنيسته حرة وبيعته حرة؟ ومسجده مستعبد؟ وكيف تتجاوز في عقيدة أو لسان مع كلمة السيادة الفرنسية التي تلوكها الألسنة، وتنضح بها الأقلام خصوصاً في هذه الأيام؟.

إنكم أقمتم في الجزائر في عهدها الأخير عامين، وأُحطتم رؤية وعلماً بما يجري فيها، وأنها باقية حيث تركتموها ما تقدمت إلا في التأخر، وما ترقت إلا في الانحطاط. فنعيذكم بشرف الحرية وحرمة الضمير الإنساني، وكرامة

---

(1) المصدر نفسه (93/3).

العلم ؛ أن لا تغتروا بما تسمعونه من خطب وبما ترونه من مظاهر، فكل ذلك مهيأ لتغطية الحقيقة والتضليل عنها، فالتمسوها في جدب العقول لا في خصب الأرض، وفي فوضى الحياة لا في نظام المواكب، وفي بؤس البادية لا في نعيم المدينة، تجدوها ماثلة للعيان ناطقة بالبرهان، صادقة في البيان[1].

11 . خطاب للشعب ضد فرنسا:

باءت الحوارات والمساعي السلمية للحصول على حقوق الشعب الجزائري من فرنسا بالفشل الذريع، فأعلن الإمام الإبراهيمي رأيه للشعب، ووجه إليه خطابه الشهير المسمى «الكلمة الأخيرة»:

أما ان لعشاق سلمى أن يقولوا: صحا القلب عن سلمى؟

أما ان للحالمين بالوحدة الفرنسية أن ينفضوا عنهم الأحلام؟

أما ان للمنتظرين أن يقطعوا حبل الانتظار؟

أما ان للمستضعفين بالأمل أن يُريقوا صُبابة الأمل؟

يا هؤلاء!. إن الاستعمار شيطان، وإن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً، وإن الاستعمار شر، ومحال أن يأتي الشر بالخير، ومحال أن يُجنى من الشوك العنب.

ارجعوا واجتمعوا واجمعوا الأمة في مؤتمر واشرحوا لها الحقيقة، ودعوا لها الكلمة الأخيرة في تحديد الموقف وتقرير المستقبل، لا اندماج إلا لبعضكم في بعضكم، ولا اتحاد إلا لأجزائكم الطبيعية بعضها مع بعض[2].

12 . مصطلح الاستعمار:

تحدث الإبراهيمي عن مصطلح الاستعمار، فقال: مادة هذه الكلمة هي العمارة، ومن مشتقاتها التعمير والعمران، وفي القران: {هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا} [سورة هود:61]، فأصل هذه الكلمة في لغتنا طيب وفروعها طيبة، ومعناها القراني أطيب وأطيب.. ولكن إخراجها من المعنى العربي الطيب إلى المعنى الغربي الخبيث ظلم لها، فاستحقت الدخول من هذا الباب، والإدراج تحت هذا العنوان، فالذي صيّر هذه الكلمة بغيضة إلى النفوس، مستوخمة في الأذواق، هو معناها الخارجي ـ كما يقول المنطق ـ وهو معنى مرادف للإثم والبغي والخراب والظلم والتعدِّي، والفساد والنهب والسرقة والشره، والقسوة والانتهاك والقتل والحيوانية، إلى عشرات من مئات من هذه الرذائل تفسِّرها اثاره وتنجلي عنها وقائعه.

وواعجبا!. تضيق الأوطان على رحبها بهذه المجموعة وتحملها كلمة لا تمتّ إلى واحد منها بنسب، وإذا كنَّا نسمِّي من يجلب هذه المجموعة ـ من كبائر الإثم والفواحش إلى وطن ـ ظالماً، فأظلم منه من يحشرها في كلمة شريفة من لغتنا: ليخدع بها ويغرُّ، وليهوِّن بها على الفرائس شراسة المفترس وفظاعة الافتراس.

(1) المصدر نفسه (94/3).

(2) المصدر نفسه (289/3).

أما والله لو أن هذا الهيكل المسمَّى بالاستعمار كان حيواناً لكان من حيوانات الأساطير بألف فم للالتهام، وألف معدة للهضم، وألف يد للخنق، وألف ظلف للدوس، وألف مخلب للفرس، وألف ناب للتمزيق، وألف لسان للكذب وتزيين هذه الأعمال، ولكان مع ذلك هائجاً بادِيَ السوءات والمقابح على أسوأ ما نعرفه من الغرائز الحيوانية.

سمّوا الاستعمار تخريباً ـ إذ لا تصح كلمة استخراب في الاستعمال ـ لأنَّه يخرب الأوطان والأديان والعقول والأفكار، ويهدم القيم والمقامات والمقوِّمات والقوميات.

وخذوا العهد على المجامع اللغوية أن تمنع استعمال هذه الكلمة في هذا المعنى الذي لا تقوم بحمله عربة مزابل[1].

13 . مفهوم الديمقراطية:

قال الإبراهيمي: والديمقراطية رأي يوناني نظري جميل، منسوب إلى اسم صاحبه، وهو قائم على أن الشعب هو مصدر السلطة، ومن ثم فهو صاحب الحق في الحكم والتشريع، وعلى أن الأفراد متساوون في هذا الحق، ويناقضه رأي اخر يوناني النشأة أيضاً. اصطرع الرأيان في ميدان الجدال، ثم اصطرعا في ميدان العمل، حتى أصبحا مذهبين في سياسة الحكم وبابين في فلسفة الاجتماع، وكانت هذه الاراء الجميلة في الحياة مثل رأي ديمقراط تدور بين فلاسفة اليونان وقياصرة الرومان، أولئك يدرسونها جدلاً وهؤلاء يدرسونها عملاً، إلى أن انتصف الله للحق بالإسلام، فجاء بالشورى والمساواة ـ حكماً من الله ـ وأين حكم العقول من حكم خالق العقول؟

وجاء عمر فلقَّن العالم درساً عملياً في المثل الأعلى للحكم، ثم جاءت الحضارة الغربية المجتهدة في إثمار الحقول، المقلدةُ في إثمار العقول، وكان من اثار التعصُّب فيها للارية والمسيحية أنها اثرت الديمقراطية على العُمرية، اثرتها في التسمية والنسبة، أما في التطبيق والعمل، فإن هذه الحضارة ـ وهي حاضنة المتناقضات ـ اتسعت لرأي ديمقراطي ولرأي ميكيافيلي صاحب كتاب «الأمير». فإذا أرادت التلبيس ألبست الثاني ثوب الأول. لم تُظلم هذه الكلمة ما ظُلمت في هذه العهود الأخيرة، فقد أصبحت أداة خداع في الحرب وفي السلم، جاءت الحرب فجندها الاستعمار في كتائبه، وجاء السلم فكانت سراباً بقيعة، وقد كثر أدعياؤها ومدَّعوها والداعون إليها، والمدّعي فيها لابس ثوب زور، أصبح استعمار الأقوياء للضعفاء ديمقراطية، وقتلهم للعزّل الأبرياء ديمقراطية، ونقض المواثيق ديمقراطية، لك الله أيتها الديمقراطية[2].

إن مفهوم الشورى في الإسلام أعمق من الديمقراطية، لأن الإسلام أضاف لها بُعداً تعبدياً، وجعلها من القيم الإنسانية الرفيعة، ومن المقاصد الكبرى لهذا الدين. ورتب على العمل بها ثواباً وعلى تركها عقاباً، كما أن فلسفة الحكم في الدولة المدنية الحديثة التي مرجعيتها الإسلام، ترتكز على الشورى التي ذكرت في القران الكريم،

---

(1) المصدر نفسه (508/3).

(2) المصدر نفسه (508/3).

ومارسها الرسول (ص) والخلفاء الراشدون ؛ فقد عرفت طريقها إلى الحياة السياسية وأصبحت من ركائز الدولة في عصر صدر الإسلام.

إن الإسلام العظيم اعتبر الشورى منهج حياة إنسانياً، فضلاً عن كونها ضرورية في نظام الحكم.

إن تشريع الشورى بذاته قائم على المصلحة ودرء المفسدة، وهذا لا ينحصر في الشورى، فالتشريعات الإسلامية كلها قائمة على ذلك من جلب المصلحة ودرء المفسدة، كما يقول العز بن عبد السلام: الشريعة كلها نصائح، إمّا بدرء مفاسد، أو بجلب مصالح[1].

ولو احتسبتْ الشورى وانتسبتْ لقالت: أنا الخير، وأبي العدل، وأمي الإحسان، وأخي الوفاء، وأختي العِزَّة، وعمِّي النفع، وخالي الرفعة، وابني الغنى، وبنتي العمل، ووطني العمار، وعشيرتي العلم.

14 . حدِّثونا عن العدل فإننا نسيناه:

وظف الإبراهيمي قلمه الشجاع في كشف الاستعمار وتعريته أمام الشعب الجزائري بدون تردد ولا تلعثم، ومن هذه المقالات العظيمة في معانيها ومبناها هذا المقال الذي قال فيه:

. ومن أين نلتمس العدل؟

. أمن فرنسا الاستعمارية؟

إن فرنسا اثنتان، تلك التي يتمجد التاريخ بصحائفها البيضاء في العلم والعرفان، ويتغنَّى بروائعها في الأدب والفن، ويتحدَّث عن وقائعها في تحرير نفسها من الاستعباد الروحي والعقلي والبدني، ويشيد بأعلامها في السياسة والبيان. ونحن لم نر فرنسا الموصوفة بهذه الصفات ولم نعرفها، ولم نحسّ بها، ولا شأن لنا معها إلا شأن البعيد الدار، المختلف الأوطار عن الأوطار.

وأما فرنسا الثانية، التي تاريخها بتاريخنا من سنة 1830م إلى الان، فهي التي عرفناها فاتحة بالسيف، حاكمة بالحيف، وأيأسنا من عدلها أنها حققت لنا معنى المثل: المستجير بعمرو.. وكيف نستدفع البلاء بما هو أصل البلاء؟

إن فرنسا هذه التي نعرفها، دولة أشربت معاني الاستعمار وما يتبعه من احتقار وظلم واستعباد، وما يستلزمه من عتو وغطرسة وأنانية، ومن العجب أنها مع هذا تنتحل الصفات الأخرى التي تدَّعيها وتفخر بها في العالمين، فهي كالجزار يذكر الله ويذبح، ونحن لا نعرف إلا صحائفها السوداء في معاملتنا ووقائعها في ظلمنا وتقتيلنا، ولا نصدق بشيء مما تدّعيه لنفسها أو يدَّعيه لها المفتونون بها من العدل والديمقراطية.

لم نرَ من فرنسا الاستعمارية إلا الهضم لديننا، والمحو للغتنا ومقوِّماتنا، والزراية بجنسيتنا، والمنّ علينا بما لم نذق طعمه ولم نَرح رائحته، والاستكبار في الأرض بغير الحق، والنكران لفضلنا عليها في الأزمات، أفلا يعذرنا العقلاء، إذا أنكرنا كل فضيلة تتسم بها، أو يسمُها بها المفتونون بمدنيتها، المسبِّحون بحمدها.

(1) المصدر نفسه (508/3).

والنـاس أكيس من أن يمـدحوا رجلاً حـتى يـروا عـنـده اثار إحســـــان

تريدنا فرنسا الاستعمارية على أن نحمدها بما لم تفعل، فنقول: عسى ولعلّ.. ثم تريدنا على أن نحمدها بما فعلت معنا من ظلم وعدوان، وأن نصوِّر مساوئها فينا محاسن، وأن نسمِّي شرَّها خيراً، وجورها عدلاً، وإساءتها إحساناً، وإهانتها تشريفاً، وأن ننكر إحساسنا وعقولنا، وأن نتنكر للمنطق وللواقع، فلا نقول إلا ما يرضيها وإن جانب الحق، ولا نعمل إلا ما يوافق هواها وإن أسخط الله، فنقول: لا، ثم لا، لأن ترجمة هذا كلِّه أنها تلطمنا فتشكرها على اللطمة، وتعذِبنا فنقدم لها شواهد الإخلاص.

هذه هي فرنسا التي نعرفها، أو هذا هو الجانب الذي نعرفه من جوانب فرنسا، قلنا فيه ما نعرف، وشهدنا بما نعلم، فإن كان لها جانب غير الذي عرفناه، فسلوا عن العسل من ذاق طعمه، أما نحن فقد ذُقنا الحنظل، فوصفنا الحنظل.

ولو أن حاتماً جمع كل ما قاله في نفسه وقاله الشعراء فيه في ديوان، وقرأه على جار له حُرم رفده فلم ينل من لحوم نحائره حُزة ولا من أوبارها جزة، أكان يهتز لذلك ويشكره عليه، إن لم يكذبه؟ وكذلك نحن، لا نهتز لما تمتدح به فرنسا، أو يمدحها به المادحون ؛ ما دمنا لم نرَ منه في أنفسنا إلا عكسه ونقيضه، وقلْ أنت: أنا غني، فلعلك لا تجد من يكذبك، ولكنك حين تقول: أنا الجواد المفضل، تجد - لا محالة - من يقول لك: وأين الأثر؟ ولو أن ذكرك بالإحسان والعدل استفاض حتى ملأ مسامع الدنيا، لما أغنى عنك يوم الفخار شيئاً، إذا جاء جارُ بيتك يحمل من ترويعك له دلائل، ويستظهر على تجويعك له بشواهد وبينات.

إن الاستعمار غشاوة على الأبصار، ورين على البصائر. فهو - كما يرمي فاعله بالعمى عن الحقائق - يرمي المبتلى به بالعمى عن المحاسن، فلو أن فرنسا خلعت ثوب الاستعمار ومحت رسومه، لزالت هذه الغشاوة عن بصرها، فعرفت لنا حقوقنا، ولزالت عن أبصارنا فعرفنا لها محاسنها، وما دام الاستعمار، فالرين على البصائر والغشاوة على الأبصار، وليس في طبائع الأشياء غير هذا.

وإلى عقلاء العالم، وساقة القوافل البشرية نسوق الحديث، وإن كنا في شك من أن المادية الخبيثة أبقت في العقلاء معنى التعقُّل، حتى يدركوا كيف يسعد الأقوياء بشقوة الضعفاء، وفي مرية من أن الاستعمار ترك لأولئك الساقة وجهة غير وجهته التي يزاحم عليها سائق سائقاً ويجاري فيها متخلف سابقاً[1].

ثم قال: هل أتاكم نبأ عشرة ملايين من سلائل البشر الراقية، تحكمها فئة تعادل عشرها، ليس بينهما من الجوامع إلا الادمية، ولا من الصلات إلا صلة القوي بالضعيف، ولا من العلائق إلا امتصاص الأقل لدم الأكثر، وسمنه بهزاله، واعتزازه بإذلاله.

إن هذه الملايين تُساس بقوانين لا رأي لها فيها، وبمجموعة من النُّظم لا يد لها فيها، وبأنواع من الإدارات غابت عن وضعها، وهي موضع تنفيذها، وبعُصَب من الرجال ليس فيهم واحد منها.. إلا واحد يمسك عنقها للذبح واخر يضرب بدنها للإرضاء، وكيف ترجو هذه الملايين العدل أو تتخيله؟ وليس من أبنائها قاضٍ مستقل

(1) المصدر نفسه (372/3).

في محكمة، ولا رئيس مسؤول في إدارة، ولا ضابط كبير في ثكنة، ولا حاكم كبير ولا صغير في مركز، ولا مدير حرّ في مصلحة، بل كل فرد منها خادم مطيع، وكل أجنبي عنها مخدوم مطاع، وكل الوظائف الرئيسية في وطنها محتكرة لغيرها، وكل المنافع الثابتة أو النابتة في أرضها محرَّمة عليها.

تشريك المواطنين في الرأي والحكم هو سمة زمنكم، ولكن هذه السمة مطموسة في الجزائر، وحرية المعتقدات والأديان هي شعار زمنكم، ولكن هذا الشعار لا يوجد في الجزائر، وحرية التنقُّل هي مفخرة زمانكم، ولكنها معدومة في الجزائر، والمساواة في القانون والعدالة من ثمرات زمنكم، ولكنها محرَّمة في الجزائر، والديمقراطية هي دعوى زمنكم ولكنها باطلة في الجزائر، وحرمات المنازل والأعراض من تبجحات زمنكم، ولكنها مهتوكة في الجزائر، وعصمة الأبدان من الضرب والتعذيب من أكاذيب زمنكم، ولكن الجزائر أصبحت مدرسة عالية لتعليم النمط الرفيع من أنواع الضرب وأساليب التعذيب، وأصبحت تجاربه الأولى في أبداننا، ولولا هدير البحار وصخب الساسة، لسمعتم أنين المكلومين، ولامتزج في اذانكم حفيف السياط بالصراخ و«العياط»، وليوشكن إن تمارى زمنكم في التفنُّن، ولم تبادروا جرثومة الاستعمار بالاستئصال ؛ أن تستمرئوا لذة نيرون باحتراق روما، وأن يهاجر أبناؤكم إلى الجزائر للتخصص في فن التعذيب على أساتذته.

نعم نعم . ولا نُنكر الفضل . إن حرية الفضيلة من افات زمنكم، وهي موجودة على أكمل وجه وأتمَّ حال في الجزائر.

ويحكم!. إنكم لسائرون بهذه القوافل إلى الدمار، وإن حاديكم إليه هو الاستعمار، فعاملوه بالقطيعة تتواصلوا واقضوا عليه قبل أن يقضي عليكم.

ويحكم!. إن هذا العارض الذي تسمُّونه الاستعمار ليس ذاتياً في زمنكم، ولا هو من طبيعته، فإن تركتموه حتى يُلبس العصر الجديد لبوسه كان عوناً عليكم، إن الزمان لا تؤمن غوائله وتقلباته، أم أنتم في أمان من الزمان؟

ويحكم!. إن هذا الاستعمار الذي تؤيدونه، وهذه الديمقراطية التي تنوون إقرارها في العالم أو إقرار العالم عليها، ضدان لا يجتمعان، فلماذا تغشُّون أنفسكم وتغشُّون العالم وتكذبون على الحق؟

ويحكم!. أحيوا العدل وانشروه، وأميتوا الاستعمار واقبروه ؛ تكن الأمم كلها معكم بقلوبها وعقولها وأبدانها وأموالها، وتأمنوا البوائق التي تخشون انفجارها، فإن لم تفعلوا فأيقِنوا أن كل ما تنفقونه من جهد ووقت ومال في تمكين الاستعمار ضائع، ولا الحمد مكسوباً ولا المال باقياً، ثم ما يزال بكم هذا الغول الذي تربُّونه وتحتضنونه حتى يُرديكم في هاوية.

أفكلما رثَّ حبل الاستعمار، وتصدَّع جداره، وأشرف على الفناء في حربين ماضيتين، جاءت أمريكا حاضنة الديمقراطية، تكفكف دموعه، وتنظم جموعه، وترمِّم جداره، وتعمر بالدولار داره؟

إن الأمم الضعيفة قد لُدغت من جحر واحد مرتين، فاحذروا الثالثة، وقد أصبحت هذه الأمم تلقب أمريكا بلقب لا يشرِّفها وهو أنها «نصيرة الاستعمار»، الاستعمار عمل أوَّله ختل، واخره قتل، وشر لا بقاء عليه، ثم لا بقاء له، ووحش مروض اخر صرعاه رائضه، ومرض اكل يأتي على المكاسب، ويثني بالمواهب، ومخلوق

لئيم يُدان ولا يفي، وينتقم ولا يشتفي، ويستأصل ولا يكتفي، ويجاهر بالسوأى ولا يحتفي، وكنود أوْلى الأيدي عنده بالقطع يد مُدَّت بإحسان إليه.

والمساواة عدل تنمو عليه الأخوة، وتنبعث منه القوة، والاستقلال تكافؤ في الادمية واحترام الإنسانية، وتبادل المنفعة والخير، وتحقيق لسنة الله، والعدل من الأقوياء هو الميزان الذي يُقرّ كل شيء في نصابه، ولكن أين هو؟ لم يبق منه، إلا الحديث عنه، فحدِّثونا عنه، فإننا نسيناه[1]؟

إن شيخنا العلامة الإبراهيمي يتحدث بمرارة عن مبدأ إنساني أصيل غرس الله محبته في فطرة الإنسان التي لم تتلوث ولم تنحرف، والذي بيّنه الله عز وجل في محكم كتابه، وجعله مقصداً من مقاصد القران الكريم، كيف غاب عن شعبه؟ وكيف مارس الاستعمار الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة من ظلم الأفراد إلى ظلم الجماعات والشعب بأكمله.

إن الإبراهيمي ينطلق في مفاهيمه ودعوته ونضاله وكفاحه من الفكر الإسلامي الأصيل المستمد من القران الكريم والسنة النبوية المطهرة، ولذلك يرى أن العدل الحقيقي هو ميزان الله في الأرض، الذي يؤخذ به للضعيف من القوي، وللمحق من المبطل، والعدل إعطاء كل ذي حق حقه، وهو المساواة بين الناس جميعاً في إعطاء الحقوق، والمساواة في المكافأة، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

والعادل هو الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه دون إفراط أو تفريط، أي القسط في الشيء، وأداء حقوق الله وحقوق العباد.

15. نحن سياسيون:

عندما اطلع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي على موقف المجلس الجزائري من قضية فصل الدين الإسلامي عن الحكومة الفرنسية، وعلى البرقية التي أرسلتها جمعية العلماء في الجزائر للحكومة الفرنسية بباريس والمنشورة في البصائر، كتب مقالاً عام 1953م من القاهرة في صميم القضية الدينية، بداية النهاية، فقال:

أيظن الخليّون الغافلون من الفريقين أن المعارك بيننا وبين الحكومة الاستعمارية في قضية المساجد والأوقاف انتهت بهذه الطريقة الهازلة الشوهاء، التي تمخض بها المجلس الجزائري، ووضعها لأقصى أمد الحمل سقطاً بعد الام وأوجاع زاد في فظاعتها أن حمله بها كان عن سفاح؟ ولا عجب إذ حملها كرهاً أن يضعها كرهاً، إنما هذه نهاية طور من أطوارها الغريبة التي صحبتها العقلية الفرنسية منذ كان الاستعمار في الجزائر، وقد تعوَّدنا من هذه العقلية المذبذبة بين الدين والإلحاد الملقحة بجراثيم اليهودية والمادية ؛ أنها كلما عرضت لقضية الدين الإسلامي في الجزائر جالت بها في مثل هذه المجالات الملتبسة، وعالجتها بنصوص لا يعرف فيها عموم من خصوص، وتركت القضية دائرة، والعقول معها حائرة، ولكنها لم تحشد لها في مرة من المرات مثل هذا الحشد.

(1) المصدر نفسه (374/3).

كنا نقدِّر هذه النهاية ونحن في مراحل العراك، ونصوِّرها بقريب مما وقعت عليه مما دلَّتنا عليه التجارب، ومما استقيناه من مقاصد هذه الحكومة، وأنها نذرت عن نفسها، فوفت بالنذر أن تكون عدواً للإسلام ما دام لها وجود، وخصماً للمسلمين ما امتدَّت بها الحياة، وحرباً على الحق في أي ميدان ظهر.

ومن عجيب صنع الشيطان في هذه الحكومة أنها كلما ضعفت فيها النزعة الدينية بكثرة المذاهب العقلية وتيار الحضارة المادية، أمدَّها الشيطان بلقاح من اليهودية المعادية للإسلام والنصرانية معاً، فأذكت فيها ما برد، وضربت منها ما ضعف بما قوي، وشفت غيظها من الفريقين، أليس حاكم فرنسا اليوم والمتحكم في مصائرها يهودياً، ومن ورائه يهود العالم؟

كنا نعلم هذه النهاية لقضية الإسلام في الجزائر من يوم عرفنا اليمين من الشمال، وبلونا أحزاب اليمين في فرنسا وأحزاب الشمال، لأننا عاصرناهم جميعاً وعاشرناهم قائلاً وسميعاً، فما وجدنا منهم في جانبنا منصفاً، ووجدناهم يختلفون إلى درجة الشقاق، ويشتجرون إلى نهاية اللجاج، حتى إذا لاح شبح من أشباحنا لعيونهم، وعرضت قضية من قضايانا تحت أيديهم ؛ تألفت الأحزاب وتالفت الاراء وتألبت الجموع، لأننا نحن وديننا عدو مشترك في نظرهم، وكأن منافرة الضاد للهواتهم مستلزمة لمنافرة دينه لأذواقهم، واللهاة هي نهاية المقاطع الحرفية، كما أنها نهاية الحاسَّة الذائقة.

جاهدنا في سبيل هذه القضية عشرين سنة أو تزيد، لم يقلّ لنا فيها رأي ولم تقلّ عزيمة، ولم يكلّ لنا فيها قلم ولا لسان، ووقفنا فيها مواقف صادقة خالصة لله ولدينه ولهذه الأمَّة، التي كتب الله عليها أن يكون بعض أبنائها وبالاً عليها وعلى دينها وأعوناً عليها مع الغاصب، وألجأنا الاستعمار مرات إلى إبرازها بعد أن كان حريصاً على إضمارها، وإلى الحديث عنها بعد أن كان الحديث عنها محرَّماً، وإلى نقلها من ميدان إلى ميدان، ومن وراء البحر إلى ما دون البحر، وشغلناه بها عن كثير من مهماته، ونقضنا شبهاته فيها بالحجج والبيّنات، وأفادنا الاشتغال بها والاهتمام بالبحث فيها فوائد، أقلها الاطِّلاع على الوثائق الأصلية التي أملاها التعصُّب الديني والحقد الصليبي، وأجلّها افتضاح المارقين منا الذين باعوا جوهر الدين بعرض الدنيا، وظن الاستعمار أنه يغالبنا بهم وبأسمائهم وألقابهم، فخذله الله بهم وفضح بعضهم ببعض، وحصلنا من ذلك كله على ذخيرة مادية وأخرى معنوية، وسنترك القضية للأعقاب المجاهدين واضحة المعالم كاملة الوثائق، ناطقة بالحق على الأعوان والخوان، وكأن هذا الدور أخير . وما هو بالأخير . ولكنه انفرد بمظاهر هي التصميم والحزم منَّا والعناد والكيد من خصمنا، فقد بالغنا في التحدي فبالغ في التداهي والتحايل، فلفَّ القضية بلفافتين من الدستور الجزائري والمجلس الجزائري، ونقلها ملفوفة بهما من فرنسا إلى الجزائر، وحملت المجلس الجزائري على أن يحمل هذا الحلَّ الأخير نتناً ويضعه يتناً.

وكان في هذا المجلس كثير ممن اسمه محمد، وهو عدو لمحمد ودين محمد، وإننا لنجزم بأن هذا الحل المشوَّه موضوع مع الدستور الجزائري في ان واحد، وإنما أخَّروه ليخرجوه إلى الناس باسم مجلس يجمع المذبح والمسبح،

ويجمع السيد والعبد، والزبد بلا زبد، وفيه جماعة ينطقون بالعين من مخرجها، مع علمنا بالنتائج قبل سوق مقدماتها.

دعانا إلى خوض تلك المعارك وإلى إثارة ذلك النزاع المحتدم، عهد الله في نصرة دينه يجب أن نفي به، وعهد من محمد (ص) في الجهر بكلمة الحق في وجه من يثقل عليه سماعها، وقد جمجم بها الجبناء من أسلافنا فأضاعوا الحق وباؤوا بإثم الإضاعة، والجبناء من معاصرينا فكانوا حجة الباطل علينا، ولله الحجة البالغة.

وشيء اخر جعلنا نلجّ في خصومة الاستعمار، وهو أنه يعدّ سكوت الساكت رضى بالمسكوت عليه، فيصبح حقاً مكتسباً ثلاث مرات: مرة بالقوة التي يملك أسبابها، ومرة بالحيلة التي يفتح أبوابها، ومرة بسكوت أهل الحق على حقّهم. فأردنا أن لا يسجِّل التاريخ علينا ما سجَّله على الأقدمين من سلفنا، من مهانة السكوت بعد الإضاعة. أو السكوت الذي سبب الإضاعة، ومن وقاحة الاستعمار أنه يسمّي الحقوق المغتصبة حقوقاً مكتسبة، وقد أفحمناه مراراً بأن أملاك الدولة المغلوبة قد تصبح بحكم السيف والمدفع أملاكاً مكتسبة للدولة، ما دام السيف سبباً رابعاً من أسباب الميراث، أما أملاك الله التي هي الأوقاف الدينية، وبيوته التي هي المساجد؛ فهي ميراث للدين وأهله، لا تغتصب ولا تكتسب، إلا لعدو لله يحاربه كما يحارب المخلوقين، ثم يلجّ في طغيانه فيعتقد أنه انتصر عليه[1].

أما جمعية العلماء، فهي لم يجدّ عليها جديد، وما رأت من نتائج جهادها إلا أنها كشفت الستر عن حقيقة الاستعمار للمغرورين فيه، وجرّأت المكافحين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان، على الأخذ بتلابيبه، حتى لا يستريح ولا يهدأ له بال، وعلى زعزعة أركانه إن لم يقدروا على إتيانها من القواعد. ولا ترى جمعية العلماء إلا أن المسألة ما زالت في النقطة التي منها بدأت، وأن هذه الأصباغ الحائلة لم تنقل خطأ إلى صواب، ولم تقر حقيقة في نصاب.

ولا نقول ربحنا أو خسرنا، فالربح والخسارة من مفردات قاموس التجّار، أما الجهاد الذي غايته تثبيت الحقائق الإلهية في الأرض وغرس البذور الروحية في الوجود فلغته سماوية لا تحمل معاني التراب، متسامية لا تسفّ إلى ما تحت السحاب، وأما المجاهدون في ذلك السبيل، فلا يعدون الربح والخسارة في ارائهم، ولا يدخلون الوقت ـ طال أم قصر ـ في حسابهم. ولو كانت فرنسا تتقابض مع الناس بالضمائر والعقول والقيم والمثل والغايات ؛ لقلنا ـ إنها بتصرفها في القضية الإسلامية ـ خسرت تاريخها ومبادئها ومقوّماتها ودعاويها التي تذيعها في الناس وبضائعها المزوَّرة التي تعرضها على العالم، ولكنها لا تتقايض ـ فيما تكشفت عنه في العهد الأخير ـ إلا بالتنمُّر للضعفاء والتذلل للأقوياء والكيد فيما بين ذلك.

ووالله!. لو أنها تركت في قلوبنا مكاناً للشفقة لأشفقنا عليها من هذا التخبُّط الذي تعانيه، ومن هذا الإفلاس الذي أصابها في الرأي والرجال، حتى أصبح أعداؤها هم الذين يسيرونها، والموثورون لها هم الذين يتحكمون في مصائرها.

---

(1) المصدر نفسه (259/4).

إن فرنسا اليوم تتحرك في سيادتها معنا بطريقة الاحتراق الداخلي، ووقود ذلك الاحتراق هو الحقد، فهل ينفعها هذا الوقود؟ أم يعود فيحرق المحرِّك والمحرَّك؟ وهل تحفظ لها الحياة هذه الحركة؟ أم هي ذاهبة بها إلى الزوال؟ الحكم لله العلي الكبير(1).

ـ جمعية العلماء لا تستكين:

وواصل الإبراهيمي حديثه فقال: وما ظن الاستعمار بجمعية العلماء؟ أيظن أنها تملّ وتكلّ فتضعف فتستكين؟ لا والله!. ولقد خاب ظنه وطاش سهمه، إنما يكلّ من كان في ريب من أمره، وعماية من عمله، أما من كان في أمره على بينة، ومن عمله على بصيرة، ومن ربه على عهد ؛ فهيهات لما يظنه به الظانون، وإن جمعية العلماء لفي موقعها الثابت، وعلى عقيدتها الراسخة، وفي ميدانها الفسيح من الكفاح، ولقد جاهرنا هذه الحكومة مراراً بأن هذه القضية دينية محضة، فلتنفض يدها منها، ولتبق المجال خالصاً لسياستها معنا ولنا مع سياستها، فأما إذ أبت إلا أن تجعل ديننا جزءاً من سياستها، فسننتقل معها إلى الميدان الذي أرادته واختارته لنفسها ولنا، وسنقود كتائب السياسة في أضيق مواجها، جالبة علينا ما جلبت، وسوف تجدنا ـ كما عرفتنا ـ حيث تكره، لا حيث تحب، وسوف نعلّمها فقهاً جديداً، وهو أن أرض الجزائر حتى سجونها مساجد لإقامة الصلوات، وأن كل عود فيها حتى المشانق منابر خطبة ومطية خطيب، وأن كل صخرة فيها مئذنة ينبعث منها «الله أكبر». وسوف يُريه بنا أن عاقبة المعتدي على الإسلام وخيمة.

أ ـ نحن سياسيون منذ خلقنا لأننا مسلمون منذ نشأنا، وما الإسلام الصحيح بجميع مظاهره إلا السياسة في أشرف مظاهرها، وما المسلم الصحيح إلا المرشح الإلهي لتسيير دفَّتها أو لترجيح كفَّتها، فإذا نام النائمون منا حتى سلبت منهم القيادة ثم نزعت منهم السيادة، فنحن ـ إن شاء الله ـ كفَّارة الذنب وحبل الطُّنُب.

ب ـ نحن سياسيون طبعاً وجبلة، ونحن الذين أيقظنا الشعور بهذا الحق الإلهي المسلوب، فما سار سائر في السياسة إلا على هدانا، وما ارتفعت فيها صيحة إلا وكانت صدى مردداً لصيحاتنا، ولكننا كنَّا لا نريد أن نخلط شيئاً كل وسائله حق، بشيء بعض وسائله باطل، وأن نميّز بين ما لا جدال فيه ممَّا فيه جدال، وكنَّا نريد أن نبدأ بأصل السياسات كلها وهو الدين لنبني عليه كل ما يأتي بعده، فنسالم ونحن مسلمون، فيكون في إسلامنا ضمان للمعادلة حتى مع خصومنا، فمن كان من أبنائنا في ريب من الحكمة في سلوكنا، فلينظر تشدد الاستعمار معنا، وشدة «تمسُّكه». إنه لا يعاديكم فيسرف في العداوة، ويظلمنا فيمعن في الظلم؛ إلا لأنكم مسلمون، ولأن هذا الإسلام منبع قوة تقتل الضعف، ومبعث روحانية تقهر المادة، فهل لكم أن تقابلوا «تمسُّكه» بالمعنى الذي يريده، بتمسُّك من جهتكم بالمعنى الذي يريده الله؟

ج ـ نحن سياسيون لأن ديننا يعدّ السياسة جزءاً من العقيدة، ولأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، ولأنها اية البطولة، ولأن وضعها يصير نوع من الجهاد، ونحن مجاهدون بالطبيعة، فنحن سياسيون بالطبيعة، ولأن الاستعمار الفرنسي بظلمه وعسفه لم يغرس في الجزائر إلا ثمرتين:

---

(1) المصدر نفسه (260/4).

ـ بُغض كل جزائري لفرنسا حتى الأطفال.

ـ وصيرورة كل جزائري سياسياً حتى الأئمة.

ليت الاستعمار يأخذ من هذه الصراحة ما يغريه بزيادة التشدُّد، ظناً منه أنه يشغلنا بجانب عن جانب، ويلهينا بديننا عن دنيانا، حتى يعلم أننا أصبحنا ـ والفضل له ـ لا يلهينا شيء عن شيء، وإننا إذا لم نستطع شيئاً استطعنا أشياء، وأننا إذا لم نستطع أن نكون عطشاً لخصمنا كنا كدراً في الماء، وأننا إذا حرمنا قمح الأرض زرعناها أشواكاً، وأنه لم يبق قلب في الجزائر يتَّسِع لذرة من حب فرنسا، أو يتسع لخيط أمل فيها، وليعلم أخيراً أن الله للظالمين بالمرصاد.

إن كانت مهزلة المجلس الجزائري وقراراته في قضيتنا هي نهاية البداية في ظنّه، فإنها بداية النهاية في يقيننا، وإن درسها الأول كلمتان: شحذ الرأي وتصميمه، ومواصلة الكفاح وتعميمه.

إن الاستعمار الفرنسي استعمار صليبي، بنى أمره من أول يوم على ابتلاع الأوقاف الإسلامية، ليجرّد الإسلام من السلاح المادي، فيتسلط على معابده ورجاله، ويقودهم بزمام الحاجة إلى حيث يريد، ولولا فهمنا لهذه الحقائق لما تشددنا كل هذا التشدد في قضية الأوقاف[1].

* * *

(1) المصدر نفسه (261/4).

ثامناً: سفر الإبراهيمي إلى المشرق عام 1952م

كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، قد أعطت لكل مرحلة حقها، ولم تطلب منها ما لا تحتمله ظروفها الاجتماعية وأحوالها النفسية وأوضاعها السياسية، فلم تتجاوز مرحلة إلى التي بعدها إلا بعد الاطمئنان إلى تمام المرحلة السابقة، فأقامت كيانها طبقاً عن طبق، وأعلنت بنيانها سافاً عن ساف، مما جعلها تسلم من الانتكاس وتنجو من الارتكاس. وبلغت الجمعية ـ بعد عشرين سنة من تأسيسها ـ أشدها، واستوت على سوقها واستغلظ عودها، وتجذرت مبادئها في عقول الجزائريين ورسخت في قلوبهم، بعد أن رأوا بأعينهم وأدركوا ببصائرهم حجم التغيير النفسي والتطور العلمي والوعي السياسي التي أحدثته، فعلّقوا عليها امالهم:

جمعية علماء المسلمين ومن ... للمسلمين سواك اليوم منشود

خاب الرجا في سواك اليوم فاضطلعي ... بالعِبءِ مذ قرَّ دجال ورعديد

أمانة الشعب قد شُدَّتْ بعاتقكم ... فما لغيركم تُلقَى المقاليد

وأدركت الجمعية أن المسؤولية الملقاة على عاتقها ـ دينياً وعلمياً وسياسياً ـ أكبر من طاقتها وأضخم من إمكاناتها، فوّلت وجهها إلى أخواتها وقررت أن تستغل عمقها الاستراتيجي، وهو العالم العربي والإسلامي.

لقد بدأت جمعية العلماء هذه المرحلة بفتح مكتب لها في اخر سنة 1950م بالقاهرة، فهي أهم مركز حضاري وثقافي وسياسي في الشرق انذاك، وهي مقر جامعة الدول العربية، وملتقى صفوة المفكرين وخيرة العلماء العرب، ثم خطت الجمعية خطوة أخرى في خريف سنة 1951م، فعينت كوكبة من العلماء ذوي السمعة الواسعة والشهرة الذائعة، والمكانة الرائعة، والمصداقية الكبيرة في أوطانهم وفي العالم الإسلامي ؛ عينتهم رؤساء شرفيين لها، ليقوموا بالتعريف بها، وبالقضية الجزائرية التي تجاهد في سبيلها، في أوساطهم ولدى المسؤولين في أوطانهم.

ثم اتصلت مباشرة بواسطة رئيسها الإمام الإبراهيمي في اخر سنة 1951م بالوفود العربية والإسلامية في مؤتمر الأمم المتحدة الذي عقد في باريس، حيث اقترح عرض قضية الجزائر على الجمعية العامة في دورتها الحالية[1].

1 ـ الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في خطاب أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة:

في مساء الثلاثاء 29 جانفي أقامت شعبة جمعية العلماء بباريس مأدبة عشاء بنزل «العالمين» (دوموند) في شارع الأوبرا، على شرف الوفود العربية والإسلامية في منظمة الأمم المتحدة، وقد ألقيت في هذا الحفل ثلاث خطب:

الأولى: للأستاذ عبد الرحمن عزّام الأمين العام لجامعة الدول العربية.

والثانية: للأستاذ محمد البشير الإبراهيمي رئيس علماء الجزائر.

والثالثة: للأستاذ فارس الخوري رئيس الوفد السوري.

(1) المصدر نفسه (10/4).

وقد ألقى الأستاذ الإبراهيمي خطبته ارتجالاً، ولخصها الأستاذ أحمد بن سودة تلخيصاً وافياً، بحيث لم يندّ عنه إلا القليل من ألفاظها ومعانيها.

. حضرات أصحاب المعالي والوزراء.

. حضرات أصحاب السعادة والعزّة.

. حضرات الزملاء حملة الأقلام.

. حضرات الإخوان.

هذه ليلة ارتفعت فيها الكلف وغاب عنها العواذل، وغفل عنها الرقباء . إن شاء الله . فاسمحوا لي أن أخرج عن الوضع المتعارف في رسوم الخطاب، فأنا بصفتي رجلاً مسلماً ودينياً أمثل الإسلام في بساطته وسماحته واعتباراته الروحية، يحلو لي أن أخاطبكم بما جاء به الإسلام في ادابه الراقية، ومثله العليا، وهو وصف الأخوة.

إن النبوة هي أكمل الخصائص الإنسانية، واشرف المواهب الإلهية، ولكن الله حين يرفع ذكر الأنبياء يضعهم في الدرجة الأولى في معارج الرقي، وهي درجة العبودية لله، فمحمدٌ عبد الله قبل أن يكون رسوله، وفي القران: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ} [الأنفال : 41]. {وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ } [سورة ص :45].

فأنا حين أخاطب إخواني الكرام، الذين أتاح لي الحظ السعيد أن أقف أمامهم في هذه اللحظة، لا يحلو لي إلا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل، وهو وصف الأخوة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا، وكأننا حبات انقطع سلكها فانتشرت، فأصبحت كل حبة منها في كفٍّ لاقط، فمعذرة إلى إخوتي الذين أعتزّ بأخوتهم أن خرجت عن النمط المألوف في رسوم الخطاب، وخاطبتهم بـ (يا أيها الإخوان) «تصفيق متواصل».

أيها الإخوان المتلاقون على هوى واحد وهو هوى الوطن الجامع، المتعبدون بعقيدة واحدة هي عقيدة تحرير هذا الوطن الجامع، الطالعون كالكواكب من أفق واحد، هو هذا الشرق الذي أطلعت سماؤه الشمس والقمر، وأطلعت أرضه الأنبياء والحكماء.

أحييكم باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وباسم شعبتها المركزية بباريس، تحية العروبة التي هي أكرم ما أنجبت البشرية من سلائل، وتحية الإسلام الذي هو أصفى ما تشظفت عنه صدفة الوحي من لالأئ، وتحية الشرق الذي أعتقد مخلصاً أنكم أزكى نباته، وأنكم الصفوة المختارة من بُناته، وأحييكم باسم الجزائر العربية المسلمة المجاهدة الصابرة، التي هي غصن فينان من دوحة الإسلام، وفرع ريَّان من شجرة العروبة، وزهرة فوَّاحة من رياض الشرق «تصفيق حاد» تغرَّبت هذه الزهرة كما تغربت قبلها نخلة عبد الرحمن الداخل، فلم تشْنْها غربة، وما زالت متَّصلة بالشرق العربي تستمد منه القوَّة والفتوَّة، وما زالت متَّصلة بالشرق الإسلامي، تستصبح بأنواره وتتغنى بأمجاده، وتعيش على ذكرياته، وهي على صلة بالشرق متينة، كانت وما زالت متمسكة بحبله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها «تصفيق».

وما زالت قائمة على غرس عقبة والمهاجر وحسَّان بن شريك، بالتعهُّد والحفظ، وما زالت ناطقة بلسان هلال بن عامر بن صعصعة منذ طغت موجة أبنائه عليها.. تلك الموجة التي يسمِّيها المؤرخ المجحف: إغارة على الأوطان، وتخريباً للعمران، ويسمِّيها المؤرخ المنصف: إنارة للأذهان، وتعريباً للسان، فحيثما حلَّ هلال من سهولها حلت العروبة، وأينما سار، سار في ركابه البيان العربي الذي من بقاياه ما تسمعون.

هذه هي الجزائر التي أحييكم باسمها، والتي ترون أبناءها أمامكم بين شيخة وشباب يلتقيان في غاية واحدة، وإن نزغ بينهما الشيطان، فكما ينزغ بين الأخوين، ولكنهما في النهاية إلى التجمُّع والاتحاد، وهؤلاء أبناء الجزائر الذين أحييكم باسمهم يا إخواننا وأستحي، وكم وددنا لو اجتمعت هذه الوفود في دارنا «الجزائر» فترون ما يشرح صدوركم، ويهيج خواطركم، من ارتباط الجزائر بالشرق والعروبة والإسلام(1).

. أيها الإخوان.. أيها الزملاء حملة الأقلام:

أحقيقة ما ترى عيني أم خيال؟ إخوة طوَّحت بهم الأقدار وفرَّقتهم صروف الدهر في الأقطار، حتى ما يلتقي رائح منهم بمبتكر، ثم يجتمعون في هذه الليلة وفي هذه البلدة على غرة وعلى غير ميعاد، كما تجتمع أشتات الزهر في إبَّانها وفي مكانها، تختلف منها الألوان والأشكال ويجمعها الشذى والطيب والجمال.

أحق أن باريس، وهي منبع شقائنا، وهي الصفحة العابسة في وجوهنا ؛ تنزل لحظة من عادتها، فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الاجتماع الرائع؟ فلولا حقوق الأوطان في أعناقنا، ولولا عهود يجب أن نرعاها لديارنا ؛ لكنَّا نغفر لباريس جميع ما جرَّته علينا من جرائر. ونمحو لها بهذه الحسنة جميع السيئات، ولكن تأبى علينا ذلك دماء في تونس تسيل «تصفيق وتأثر»، وشعب في المغارب الثلاثة يعذب، وشباب تفتح له السجون والمعتقلات، وتغلق في وجهه المدارس والمعابد، ودين في الجزائر ممتهن الكرامة، فهيهات أن نصفح عن باريس أو نصافحها بعد أن جنينا المر من ثمراتها، وهيهات أن يسمِّيها دار العلم، من لم ير

منها إلا الظلم، وهيهات أن يدعوها عاصمة النور من لم تغشه منها إلا الظلمات، وهيهات أن يلقبها دار المساواة من لم تعامله إلا بالإجحاف(2).

أيها الإخوان:

هذا هو الشرق رمى باريس بأفلاذ كبده، يدافعون عن حماه بالحق، ويجادلون عن حقِّه بالمنطق، وما منهم إلا السيف مضاءً، والسيل اندفاعاً، فإن وراءهم لشباباً سينطق يوم يسكتون، وسيتكلم بما يُخرس الاستعمار ويسوءه، وإن بعد اللسان لخطيباً صامتاً هو السنان، وإننا لرجال وإننا لأبناء رجال وإننا لأحفاد رجال، وإن أجدادنا دوَّخوا العالم، ولكن بالعدل، وسادوه، ولكن بالإحسان، وإن فينا لقطرات من دماء أولئك الجدود، وإن فينا لبقايا مدَّخرة سيجليها الله إلى حين.

---

(1) المصدر نفسه (466/2).

(2) المصدر نفسه (466/2).

رمى الشرق باريس بهذه الأفلاذ، فخاطبوا الأمم وخطبوا في منظمة الأمم، هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحُلّيت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه، وما هو إلا سوق تُشترى فيه «الأصوات» بأعلى مما كانت تشترى به أصوات «الغريض» و«معبد»، غير أن الأصوات القديمة كانت فَنّاً يمتزج بالنفوس وموسيقى تتسرَّب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات، فإنها تنصر الظلم، وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتَّان بين الصوتين، وتباع فيه الذمم والهمم والأمم بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشر، وعقدوه للعدل والتناصف، فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف.

رمى الشرق باريس بأفلاذ كبده، فعزَّ على المغرب أن يبقى بعيداً معقرب الدار، فرمى باريس بأفلاذ من كبده، ليلقى الأخ أخاه فيتناجيان بالبر والتقوى ويتطارحان الألم والشكوى، ويهش وجه لوجه ويخفق قلب لقلب وتصافح يد يداً، وتردّ تحية عن تحية، ثم يقوى ساعد بساعد ويشتد عضد بعضد، ويمتزج ضعف بضعف فينبثقان عن قوَّة، وضعيفان يغلبان قوياً «تصفيق».

أيها الإخوان:

لم يؤثّر الفاتحون المتعاقبون على الشمال الأفريقي، ولا أثَّرت الأديان الراحلة إليه جزءاً مما أثّر الإسلام وأثرت العروبة، ذلك لأن الفاتحين لهذا الوطن قبل الإسلام إنما جاؤوه بدين القوة وشريعة الاستغلال.

أما الإسلام، فقد جاء بالعدل والإحسان، وجاء وافياً بمطالب الروح ومطالب الجسم، وجاء لإقرار الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض، لذلك كان سريع المدخل إلى النفوس، لطيف التخلل في الأفكار، قوي التأثير على العقول، ولذلك طال في هذا الشمال أمده، وسيبقى ما دامت الفوارق قائمة بين الإنسان والحيوان، وإن هذا الشمال الأفريقي كل لا يتجزأ «تصفيق» تربط بين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام،وسواحل البحر في الشمال، وحبال الرمال في الصحارى، وسلاسل الأطلس الأشم في الوسط، واتحاد الماء والهواء والغذاء. وإنها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟ إن تفرق هذه الأجزاء لم يأت من طبيعتها، وإنما جاء من طبائعها الدخيلة، ومن تأثراتنا الغريبة بالدخلاء، وإنني متفائل بأن هذه الليلة ستكون فاتحة لعهد جديد واتحاد عتيد ونور من الرحمة والإخاء ينتظم المغارب في سلك.

إنني متفائل بما يتفاءل به السارون المدلجون من انبلاج الفجر، فعسى أن يتحقق هذا التفاؤل، فتكون هذه الليلة أول خيط في نسيج الوحدة الأفريقية التي هي اخر أمل للمتفائلين مثلي. وإن العنوان الدال على ما وراءه هو اجتماع جميع حركات الشمال الأفريقي في هذا المحفل الزاهر، وإن البشير بتحقق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد. ومن بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، وكلها لسان يعبِّر، وقلب يفكِّر، واذان تسمع، وإنا لنرجو أن تكون قلوبنا غداً غير قلوبنا بالأمس، وأن نفيء إلى الحق الذي أمر الله بالفيأة إليه: {إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ } [سورة الرعد:11].

أيها الإخوان:

يقول المستعمرون عنَّا: إننا خياليون، وإننا ـ حين نعتز بأسلافنا ـ نعيش في الخيال ونعتمد على الماضي ونتكل على الموتى، يقولون هذا عنَّا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا، وإنا لا أدري متى كان إبليس مذكِّراً؟ ما يرمون إليه أنهم يريدون أن ننسى ماضينا فنعيش بلا ماضٍ، حتى إذا استيقظنا من نومنا أو من تنويمهم لنا لم نجد ماضياً نبني عليه حاضرنا، فاندمجنا في حاضرهم، وهو كل ما يرمون إليه. وسلوهم،.. هل نسوا ماضيهم؟ إنهم يبنون حاضرهم على ماضيهم، إنهم يعتزون بابائهم وأجدادهم، إنهم يخلدون عظماءهم في الفكر والأدب والفلسفة والحرب والفن، إنهم لا ينسون الجندي ذا الأثر، فضلاً عن القائد الفاتح، وهذه تماثيلهم تشهد، وهذه متاحفهم تردد الشهادة. إن القوم يحتقرون حاضرنا الذي أوصلونا إليه، ويعتقدون أننا صبيان. فيتذكَّرون ماضيهم ليبنوا عليه حاضرهم ومستقبلهم، وينكرون علينا ذلك.

فمن حقِّنا، بل من واجبنا أن نعرف ماضينا والرجال الذين عمروه في ميادين الحياة، فنعرف من هو أبو بكر ومن هو عمر؟ ونعرف ما صنع عقبة وحسان وطارق وموسى وطريف في الغرب؟ وما صنع المثنى وسعد وخالد وقتيبة في الشرق؟ إلا أنهم يذكّرون أبناءهم بماضيهم ويلقِّنونهم سير أجدادهم وأعمالهم، وإنهم يذكّرون أبناءنا المتأثرين بعلومهم وصناعاتهم بذلك، ويأتونهم بما يملأ عقولهم ونفوسهم حتى لا يبقى فيها متسع لذكريات ماضينا وأسلافنا، وإن الواحد من هذا الصنف من أبنائنا ليعرف الكثير عن نابليون ولا يعرف شيئاً عن عمر، ويحفظ تاريخ «جان دارك» عن ظهر قلب، ولا يحفظ كلمة عن عائشة وخديجة، وإن هذه لهي الخسارة التي لا تعوَّض.

وإنّي أتخيل أن لهم في تحريف الكثير من أسماء أعلامنا مأرباً يوم كانوا يأخذون العلم عنَّا: كأنهم ألهموا من يومئذ أن الزمان سيدول وأن دورة الفلك علينا بالسعد ستنتهي، وأننا سنعود إلى الأخذ عنهم، فحرَّفوا أسماءنا لتشتبه على أبنائنا، فلا يعرفون أن «أفيرويس» هو ابن رشد، وأن «أفيسن» هو ابن سينا، وأن «جيبرال طار» هو جبل طارق، وهكذا يتكلم أبناؤنا اليوم بهذه الأسماء، وهكذا ينطقون بها، ولا يهتدون إلى أصحابها حتى يقيض الله لهم من يكشف الحقيقة، ثم يبقى أثر الشك في نفوسهم، لما يصحب تثقيفهم الأجنبي من تحقير لجنسهم وحكم علتاريخهم بالعقم الفكري...

وإنها لمصيبة يجب علينا أن نتنبَّه إلى خطرها ونبادرها بالعلاج، وإن دواءها الوحيد هو تثقيف أبناءنا تثقيفاً عربياً شرقياً موحداً، وأقول موحداً لأنني أعتقد أن الخلافات السياسية التي مُني بها الشرق يرجع معظمها إلى اختلاف الثقافات، فالمثقف ثقافة إنكليزية يحترم إنكلترا، والمثقف ثقافة فرنسية يحترم فرنسا، وهكذا وزَّعنا الاحترام على الغير، فلم يبق من احترامنا لأنفسنا شيء، وكأننا استبدلنا بجنسيتنا الواحدة جنسيات متعددة، كلها غريبة عنا، وكلمة مجمعة على اهتضامنا وهضمنا، ولولا نزعات موروثة عن الأجداد الذين قهروا الرومان في أفريقيا ودفعوا الصليبيين عن الشرق ؛ لم يبق لنا من ذلك التراث الغالي شيء بفعل التجهيل الذي هو غاية الاستعمار فينا، وبفعل هذه التعاليم الغريبة عنَّا.

أيها الإخوان:

ليس من سداد الرأي أن يضيّع الضعيف وقته في لوم الأقوياء، وليس من المجدي أن يدخل معه في جدل. إن من تمّام معنى اللوم أن يتسبَّب في توبة، أو يجرّ إلى إنابة، ونحن نعلم أن القوم لا يتوبون ولا يذّكّرون، فالواجب أن نلوم أنفسنا على التقصير، ونقرّعها عن الانقياد لاراء هؤلاء القوم ولإرشادهم.. أما لومنا إياهم فهو لوم الخروف للذئب، وأما طمعنا في توبتهم فهو طمع الخروف في توبة الذئب، فإن أردتم أن ترو المثل الخارق من توبة الذئب فقلِّموا أظافره، واهتموا أنيابه، كذلك إن أردتم توبة القوي فاحتقروا قوته، واحذروا أن تكونوا زيادة فيها، فإنه يتصاغر ثم ينخذل، ثم يساويكم، فإذا هو أقل منكم وأضعف. إن هذه هي الأمثال التي يعقلها الطغاة، وإن هذه هي التوبة التي يجب أن يُحملوا عليها حملاً ويُلجؤوا إليها إلجاءً.

كذلك يجب أن لا نقضي أعمالنا في التلاوم، وأن لا نكون كمن قال فيهم القران: {فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ} [سورة القلم:30]، فإذا تلاومنا فليكن ذلك زجراً عن الشر، وردعاً عن الخلاف، ثم رجوعاً سريعاً إلى الحق، ولقد نهى شوقي إخواننا المصريين حينما كانوا يتلاومون فيشغلهم التلاوم عن قضيتهم والاستعداد، وبرأهم في موقف تجب فيه المؤاخذة الوطنية، ليردَّهم إلى سبيل الرشاد فقال:

أيـهـا الـقـوم، كـلـكـم أبـرياء	لا يلم بعضكم على الخطب بعضاً

فلندع اللوم والعتاب جانباً، ولنفعل ما يفعله الصاحي حين يستيقظ من النوم من حزم وتشمير وجد، فبذلك يلحق القوافل المبكِّرة، لا بالتباطؤ والإخلاد ولعن الشيطان ومعاودة النوم.

إن شبابنا هم أحق الناس باستجلاء هذه العبر، وهم أحق بوصل مبتدئهم بالخبر، وهم أحق بأخذ مواعظ الحياة عن المتنبي، وبتلقي دروسه الفطرية البدوية عنه، وأن لا يكونوا شباباً . بالمعنى الذي يملأ هذه الكلمة . حتى يؤدُّوا امتحاناً في الحياة على منهج المتنبي وطريقته، إذ يقول:

وأهوى من الفتيان كلَّ سُميدع	نجيب كصدر السمهري المقوَّم
خطت تحته العيس الفلاة وخالطت	به الخيل كَبّات الخميس العرمرم

فإن فعلوا ذلك فأنا كفيل لهم أن يدخلوا هذا البحر المتلاطم من حضارة عصرهم ولا يغرقوا، وأن يعبُّوا من هذه التعاليم المتباينة في حياة عصرهم ثم لا يشرفوا «تصفيق».

أيها الإخوان:

إن القوم درسونا وفهمونا وتيقَّنوا أننا لن نضيع ولن نفنى ما دمنا متمسكين بالعرى القوية من الإسلام والعربية والشرق، فرمونا بالوهن في مقوِّماتنا حتى تضعضعت، وبدؤوا بالدين فسخروا علماءه بوسائل شتى حتى أضعفوا سلطانهم وأزالوا هيبتهم من نفوس المسلمين، ووجدوا ثغراً قديمة من ضلالاتنا فيه فوسَّعوها، وأدخلوا فيه ما ليس منه، وشجَّعوا البدع المحدثة في الدين بتشجيع أهلها، وأعانهم على ذلك كله الانحطاط العام الذي ابتليت به العلوم الإسلامية من المائة الثامنة إلى الان، فكاثروها بعلومهم المادية حتى غمروها، وزهدوا أهلها فيها وأصبحت عقيمة جامدة، ثم عمدوا إلى الكبراء فأغووهم بالأموال والألقاب والرتب، وأغروا بينهم العداوة والبغضاء وشغلوهم بالتوافه عن العظائم، وببعضهم عن الأجنبي، وبأنفسهم عن الشعوب، فما استفاقوا وما

استفقنا إلا وأوطاننا مقسَّمة وقسمتنا هي القليلة وممالكنا كثيرة، ولكن معانيها للأجنبي، وألفاظها لنا، ثم عمدوا إلى الشباب فرموه بهذا التهويل من الحضارة الغربية وبهذه التعاليم التي تأتي بنيانه الفكري والعقلي من القواعد، وتحرف المسلم عن قبلته، وتحول الشرقي إلى الغرب.

وإن من خصائص هذه الحضارة أن فيها كل معاني السحر وأساليب الجذب، وحسبكم منها أنها تفرّق بين المرء وأخيه والمرء وولده، فأصبح أبناؤنا يهرعون إلى معاهد العلم الغربية عن طوع مِنَّا يشبه الكره، أو عن كره يشبه الطوع، فيرجعون إلينا ومعهم العلم وأشياء أخرى ليس منها الإسلام ولا الشرقية، ومعهم أسماؤهم وليس معهم عقولهم ولا أفكارهم، وإن هذه لهي المصيبة الكبرى التي لا نبعد إذا سمَّيناها مسخاً، وليتها كانت مسخاً للأفراد، ولكنها مسخ للأمم ومسخ لمقوِّماتها.

أيها الإخوان:

إن النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا وشقاؤنا أنهم أرادونا على الانقسام وزيَّنوه لنا، كما يزيّن الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم وانقسمنا، فوسعوا شقة الانقسام بيننا بأموالهم وأعمالهم وارائهم وعلومهم، ولم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل، ولم يغفلوا الأستاذ والكتاب والراهب والمرأة والتاجر والسمسار، حتى بلغوا الغاية في تقسيمنا شيعاً ودولاً وممالك، كما توزّع قطعة الأرض الكبيرة الصالحة إلى قطع صغيرة لا تصلح واحدة منها ولا تكفي، ثم عمدوا إلى خيرات الأرض فاحتكروها لأنفسهم واستخرجوها بعقولهم المدبِّرة وأيدينا المسخَّرة فكان لهم منها حظ العقل، ولنا منها حظ اليد، ولو أننا تعاسرنا عليهم من أول يوم في تقسيمنا، ولذنا بكعبة الوحدة نطوف بها ونلتزم أركانها ؛ لما نالوا منا نيلاً، ولما وصلنا إلى هذه الحالة، أما وقد بلغوا من تقسيمنا ما يريدون، وأصبحنا في درجة من الضعف المادي والضعف العقلي نعتقد فيها أن الله خلقنا خلقة الأرنب وخلقهم خلقة الأسد، وجفَّ القلم، ولا تبديل لخلق الله.

فأول واجب علينا، بل أول نقطة يجب أن نبتدأئ منها السير هي أن نكفر بهذا الانقسام، ونكفِّر عليه بضدِّه، وهو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء، وكيف يكون ذلك، وقد بُنيت على ذلك التقسيم أوضاع جديدة وممالك وملوك وحدود، وإن تغيير الممالك لصعب، وإن فطام الملوك عن لذة الملك لأصعب منه؟ فلنلتمس مفتاح قضيتنا من بين هذا الركام من الأدوات البالية، ولنعتصم بالأمر الميسور، وهو أن نوحِّد التعليم ومناهجه والتجارة وأوضاعها، ولنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، وليرتفق بعضنا ببعضنا، فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، ولنكن يداً واحدة على الأجنبي، ولنعتبر المعتدي على جزء منا معتدياً على جميع الأجزاء، وعدو العراق هو عدو مراكش، ولنذكر من خصال الأمم ما فعلته إيطاليا في ضم أجزائها، وما فعلته ألمانيا، وما فعلته فرنسا التي لم تنم لها عين، ولم ينعم لها عيش في قضية الألزاس واللورين، ولو أن معتدياً اعتدى على جزء من إنكلترا، «وهي كجزيرة العرب»؛ لتداعى الإنكليز من أطراف الأرض لاسترجاعه. فلمَ لا نكون كذلك؟

إنهم إن علموا ذلك منّا، وعلموا جدَّنا فيه تابوا عن سيرتهم فينا وأقلعوا، أما من لان للأكل فليس من حقه أن يلوم الأكلة.

والذي روحي بيده!... ما يسرّني أن للعرب ثماني دول، ولا أن للمسلمين عشرين دولة، ما داموا على هذه الحالة، وإنما يسرني ويثلج صدري أن يكون المسلمون كلهم شعباً واحداً بحكومة واحدة وعلى عقيدة في الحياة واحدة، وعلى اتجاه إلى السعادة واحد، فإذا وُجد هذا الشعب لم يبق لهؤلاء الأقوياء إلا أن يقولوا: إن في الشرق قوماً جبَّارين، وإنه لم يبق لنا بينهم موضع.

إن القوم استضعفونا ففرّقونا فأكلونا لقمة لقمة، فأوجِدوا هذا الشعب الموحَّد تَحيوا وتُحيوا العالم به، وأوجِدوه تَسعدوا وتُسعدوا العالم به.

إن العالم اليوم مريض، وإنه يلتمس الشفاء، فأروه أن في الإسلام شفاءه، وإنه في خصام منهك، وإنه يلتمس الحكم، فأحيوا الإسلام الصحيح يكن حكماً في مشكلة هذا العصر، مشكلة الغنى والفقر، تكتَّلوا ففي استطاعتكم أن تتكتلوا.. تكتلوا يمدّكم العصر بروحه، إنه عصر التكتل وإن الأقوياء لم تغن عنهم قوَّتهم شيئاً، فأصبحوا يلتمسون أنواعاً من التكتل مع القريب ومع الغريب، فهذه إنكلترا تتكتَّل، وهذه أمريكا، وهذه روسيا.. فكيف لا يتكتل الضعفاء؟

إننا ضعفاء، ومن القوة أن نعترف بأننا ضعفاء، لأن من كتم داءه قتله، فمن الواجب علينا أن لا نتعاظم بالكذب ما دمنا لا ننال إلا الفتات من مائدة الحياة.

أيها الإخوان:

إذا حدَّثتكم عن الإسلام، أو أجريته علي لساني، فلست أعني هذه المظاهر الموجودة بين المسلمين، وإنما أعني تلك الحقائق التي سارت الإنسانية على هداها قروناً فما ضلَّت عن سبيل الحق ولا زاغت، إنما أعني تلك الاداب التي صحَّحت العقل والفكر، وصحَّحت الاتجاه والقصد، ووحَّدت القلوب والشواعر، فإن أردتم أن تستبدلوا السعادة بالشقاء فعودوا إلى ذلك الطراز العالي المتَّصل بالسماء، إن السعادة منبثقة من النفوس وإن الشقاء لكذلك، وإن إرادة الإنسان هي زمامه إلى الجنة أو إلى النار.

أن أول من يجب عليه أن يؤذن بهذا الصوت جهيراً مدوياً هم علماء الإسلام، فكل عالم مسلم لا يدعو إلى اتحاد المسلمين، وإلى إحياء حقائق الإسلام العالية، وإلى إسعاد الشرق بها فهو خائن لدينه، ولأمانة الله عنده، وإن العالم المسلم الذي يسكت عن كلمة الحق في حينها، والذي لا يعمل لإقامة الحق، ولا يرضى أن يموت في سبيل الحق، جبان، والجبن والإيمان لا يلتقيان في قلب مؤمن، إن عهد الله في أعناق علماء الدين ثقيل، وإن أمانة الإسلام في نفوس علمائه لعظيمة، وإنهم لمسؤولون عليها يوم تنشر الصحائف في هذه الدار، وفي تلك الدار.

أيها الإخوان:

إن الكلام لطويل، وإن الوقت لقصير، فليكن اخر ما نتواصى به: الحق والصبر والاتحاد.

والسلام عليكم ورحمة الله[1].

2 . أهدافه في السفر إلى المشرق:

سافر الإمام الإبراهيمي إلى المشرق بتكليف من جمعية العلماء للسفارة بينها وبين الشرق العربي، فطاف العراق والحجاز وسوريا والأردن ومصر ولبنان، وتردد على هذه الأقطار مرات في ثلاث سنوات، ولقي ملوك العرب ورؤساء حكوماتهم ووزراء معارفهم وجميع أهل الرأي فيهم، وأدى رسالته الخاصة والعامة أكمل تأدية.

أما الرسالة العامة:

فهي: تعريف الشرق العربي بالغرب العربي تعريفاً تاريخياً شاملاً، وبيان أنه قطع متجاورات متصلة الأجزاء بالشرق، وأن سكان هذه القطع يشكلون نصف العرب تقريباً، فإذا تمادت القطيعة وعدم التعاون بين شرق العرب وغربهم . كما هو واقع . التهمت أوربا شمال أفريقيا العربي وهضمته إلى الأبد، وضاع على العرب نصف عددهم. والأمم في هذا الزمان تتكتل وتتكاثر حتى بمن ليس منها في عرق ولا دين ولا صلة، فكيف لا يتكتل العرب ويتكثرون بمن هو من صميمهم في النسب واللغة والخصائص؟

ففي سبيل أداء هذه الرسالة العامة وشرحها قضى الشيخ الإبراهيمي ثلاث سنوات، وألقى مئات الأحاديث والمحاضرات، واستصرخ واستنجد ونصح ووعظ وسمى الأشياء بأسمائها، وقال كلمة الحق جهيرة، وشرح وعلل وانتقد، وصاحبه توفيق الله في أداء هذه الأمانة[2].

وأما الرسالة الخاصة:

فهي استنجاد جمعية العلماء الجزائريين بالحكومات والهيئات العربية، وطلب العون المادي والمعنوي منها، حتى تستطيع الجمعية الاستمرار في عملها العظيم، وهو إنقاذ الجزائر العربية من البربرة والاستعجام، وقطع الطريق على الاستعمار الفرنسي ومقاصده السيئة التي بيّتها للجزائر، وقد أعلنها وأصبح يعمل لها في وضح النهار بعد ما استيقن أن الهيكل العربي تقطعت أوصاله، وبعد ما سحر طائفة من إخواننا العرب الشرقيين بلغته وحضارته وتهاويله فأصبحوا يسبّحون بحمده، وفي اذانهم وقر عن استغاثتنا، ومن بيننا وبينهم حجاب. والعون الذي تريده جمعية العلماء الجزائريين من حكومات العرب وهيئاتهم، نوعان:

النوع الأول: قبول طوائف من أبناء الجزائر ترسلهم الجمعية ليدرسوا في المعاهد العربية على اختلاف أصنافها، ثم يرجعون إلى وطنهم الجزائر، فيقومون بالتعليم في مدارس الجمعية الابتدائية والثانوية ويسدون فراغاً بدأت الجمعية تشعر به من الان، ويسيّر النوابغ منهم فروع الأعمال الأخرى للجمعية وهي كثيرة مقسمة على لجان منظمة، ولكنها تفتقر إلى رجال ذوي كفاءات، فهذا إجمال النوع الأول.

أما **النوع الثاني** من العون الذي تطلبه جمعية العلماء الجزائريين من الحكومات والهيئات العربية والشعوب العربية أيضاً: أن يمدوها بمبالغ من المال ناجزة أو مقسمة على السنين، لتستعين ببعضها على حفظ القديم من

(1) المصدر نفسه (472/2).

(2) الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه ص 426.

مدارسها ومشاريعها، ولننشأئ ببعضها مدارس جديدة للمشردين من أبناء الأمة، المحرومين من التعليم بجميع أصنافه.

فكيف كانت سفارته؟ وماذا كانت نتائجها؟

تحدث عن مشكلة العروبة في الجزائر، والتي سمَّاها مشكلة المشكلات في نهضة الجزائر الإصلاحية العلمية العربية، وأن على الحكومات العربية منفردة في عواصمها، مجتمعة في مجلس الجامعة العربية، وممثلة في أمين الجامعة العامة، وقدم المذكرات المتتابعة في هذه المشكلة موضحاً وشارحاً ومنذراً بالعواقب، ومحذراً من الإهمال والتقصير، وبين للملك سعود بن عبد العزيز ولحكومة العراق ببغداد مرات، ولحكومة سورية ممثلة في الشيشكلي، وفي وزارة المعارف بعده بدمشق، ولحكومة مصر في العهدين ومعظم المسؤولين فيها، ولوزارة الأوقاف المصرية، ووجه عدة مذكرات إيضاحية عن هذه المشكلة لجميع الحكومات العربية بواسطة سفرائها في القاهرة[1].

والمحور الذي تدور عليه تلك الأحاديث والمذكرات بالنسبة للنوع الثاني، يدور على النقط الاتية:

أولاً: النهضة التعليمية العربية التي تضطلع بها جمعية العلماء الجزائريين معرضة لأخطار مالية تؤدي إلى انهيارها.

ثانياً: هذه النهضة العلمية أصبحت حقيقة قوية يعترف بقوتها وخطرها الاستعمار قبل غيره، والحق ما شهدت به الأعداء.

ثالثاً: النهضة العلمية يجب أن تكون مقدمة في الاعتبار على جميع أنواع النهضات، مقدمة في العون المالي لأنها هي الأصل وهي الطريق إلى الحرية والاستقلال، وما تحررت أمة أمية.

رابعاً: لم تستطع هذه النهضة ـ بعد جهاد عشرين سنة ـ أن تعلّم أكثر من عشرات الالاف، من مليوني طفل محرومين من التعليم.

خامساً: جمعية العلماء الجزائريين متدرجة في الإنقاذ حسب استطاعتها، وهذه الاستطاعة محدودة لأن قدرة الأمة المالية محدودة.

(1) المصدر نفسه ص 427.

سادساً: جمعية العلماء الجزائريين في حاجة ملحة إلى الأنواع الاتية من المدارس:

أ. مائة وخمسون مدرسة ابتدائية علىالأقل في كل خمس سنين، حتى ينتهي عدد المدارس إلى ألف مدرسة.

ب. ثلاثة معاهد ثانوية على الأقل للذكور واثنان للبنات، في ظرف خمس سنوات، لترضي بها جزءاً من هذا الجيش المتكاثر من حملة الشهادات الابتدائية.

ج. معهدان كبيران على أقل للمعلمين، ومعهد على الأقل للمعلمات، في أقرب زمن، لتسد بمن يتخرج منها حاجة المدارس الابتدائية الجديدة إلى المعلمين.

أما رجال التعليم العالي، فالجمعية معتمدة في تخرجهم على الكليات العربية والجامعات في الشرق العربي.

لقد طلب الإبراهيمي من الحكومات العربية أن تبني للأمة الجزائرية . التي هي جزء منها . هذه الأنواع من المدارس كما تبني في أوطانها لشعوبها، ولها أن تباشر ذلك بنفسها إن سمحت لها الأوضاع السياسية، ولها أن توكل جمعية العلماء وتحاسبها على الفلس كما هو دين جمعية العلماء.

وكانت نتائج هذه الرحلة الشاقة:

أولاً: قررت حكومة مصر الملكية قبول عشرة طلاب بعثة من جمعية العلماء في معاهدها على حسب استعدادهم، وخصصت للواحد منهم خمسة جنيهات مصرية للشهر، وتتقاضى من كل واحد منهم في أول كل سنة دراسية رسوماً ذات أنواع تتحيف المخصص الشهري إلى أربع جنيهات وأقل في بعض الأوقات.

. وقررت حكومة الثورة لأول عهدها قبول أربعين طالباً على نفقتها عشرين على المعارف، وعشرين على الأزهر، فثبت نصيب المعارف بكل سهولة وحزم، ولم يثبت شيء من نصيب الأزهر. وأتعب الإبراهيمي التردد سنتين ثم سكت.

وفي سنة 1954م قبل اندلاع الثورة بقليل صرح الرئيس جمال عبد الناصر بقبول مائة طالب جزائري بعثة لجمعية العلماء، وتمت الإجراءات ولكن قيام الثورة في الجزائر عطل البعثة عن السفر.. وكانت المخصصات التي أرصدتها الحكومة المصرية لا تكفي للضروريات التي يحتاجها الطلاب، واستلزم ذلك جهداً كبيراً من الإبراهيمي ليقوم لطلبة البعثة بالبقية، وهي لا تقل عن مبلغ ما تدفعه الحكومة المصرية، وقد تزيد في كثير من الأوقات.

ثانياً: قررت حكومة سوريا قبول بعثة جمعية العلماء من عشرة تلاميذ لسنة 1954/53م، وعشرة لسنة 1955/54م.

ثالثاً: قررت حكومة العراق قبول عشرة طلاب لسنة 1953/52م، وقبول خمسة اخرين سنة 1954/53م.

رابعاً: قررت حكومة الكويت قبول خمسة عشر طالباً لجمعية العلماء الجزائريين من سنة 1953م.

خامساً: قرار إمام اليمن ببرقية رسمية الإنفاق على طالبين من بعثة جمعية العلماء الجزائريين في مصر من شهر مارس سنة 1953م، ولكن لم يتحقق شيء من ذلك إلا متأخراً.

سادساً: قررت الحكومة السعودية قبول خمسة طلاب في المعهد العلمي بالرياض على نية الزيادة في العام الدراسي الذي بعده.

فنتيجة هذه المساعي الجدية من الإبراهيمي في ثلاث سنوات متوالية، مع الحكومات العربية باسم الأمة الجزائرية أن أصبح لجمعية العلماء في الشرق العربي مائة تلميذ، أنفق عليهم الاف الجنيهات في السنة، زيادة على ما تنفقه الحكومات، وأما أحوال هذه البعثات في كفاية المخصصات الحكومية وعدم كفايتها، فبعثة الرياض موسع عليها إلى ما فوق الكفاية، وتليها بعثة الكويت في التوسعة، وتليها بعثة العراق، أما بعثة مصر وبعثة سوريا ؛ فكان الإبراهيمي منها في عذاب أليم لعدم كفاية المخصصات الرسمية[1].

واستطاع الإبراهيمي أن يجمع بضعة عشر ألف جنيه مصري، أرسلت من أقطار عربية مختلفة وفي أزمنة متفاوتة إلى مركز جمعية العلماء الجزائريين، وأرسلت الإيصالات إلى أصحابها مقرونة بالشكر، ومجموعها لا يبني للجزائر مدرسة ابتدائية ذات عشر فصول، وعلى هذا فهي لا تحل «مشكلة العروبة في الجزائر» [2].

واستمر نضال الإبراهيمي وجهاده لقضية الإسلام والعروبة وإخراج المحتلين من بلاده.

وقد تركت رحلته إلى المشرق اثاراً سياسية وفكرية وثقافية، وألقى محاضرات وكتب مقالات مهمة في التاريخ الجزائري الحديث والفكر الإسلامي المستنير. وكتب مقالات سمَّاها (رحلتي إلى الأقطار الإسلامية) من رغبته لدراسة الشعوب والالتقاء بعلمائها، ودراسة أحوال الحكومات الإسلامية القديمة والحديثة، ومعرفة دراسة نفسية شباب الأمم الإسلامية المتباعدة الديار، ومبلغ تأثرهم بالعوامل الخارجية التي تبعدهم عن روح الإسلام، والبحث عن كيفية العلاج.

ووصف في هذه المقالات رحلته إلى باكستان بشيء من التفصيل، ألقى هناك المحاضرات المؤثرة التي نفع الله بها، فتكلم عن أخوة الإسلام، ودعا إلى الرجوع إلى هدي القران والسنة، وتحدث عن خماسيات عمر الأميري، وديوانه مع الله، في كراتشي بباكستان.

3 . وفي العراق:

كانت له صولات وجولات ولقاءات، وأحبه الشعب العراقي، وتفاعل مع قضية الجزائر، وألقى محاضرة عنوانها: (لا يصلح اخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) فنقلتها إذاعة بغداد.

ـ وحديث اخر عنوانه: تعارف المسلمين مدعاة لقوتهم وعزتهم.

ـ وألقى كلمة في الموصل الحدباء.

وكرَّمته بغداد غاية التكريم في احتفال مهيب عام 1952م.

كما أنني أذكر أن شيخي الدكتور عبد الكريم زيدان من كبار علماء العراق حدثني عن محبة الشعب العراقي للشيخ الإبراهيمي، وذكر لي تأثير تلك الزيارة ونجاحها في تحقيق أهدافها.

---

(1) المصدر نفسه ص 430.

(2) المصدر نفسه.

واعتبر الإبراهيمي تكريم الشعب العراقي له في بغداد ليس لشخصه، وإنما موجَّه إلى وطنه وأبناء وطنه الزائدين عن حماه، وألقى خطاباً كعادته، أسر القلوب وبهر العقول، جاء فيه:

أحييكم عن جمعية العلماء الجزائريين، التي أتت بما يُشبه معجزة موسى في إنقاذ أمة، وبما يشبه معجزة عيسى في إحياء ميِّت، وكانت في نفسها من معجزات محمد (ص) في خدمة دينه وإحياء لسانه.

وأحييكم باسم الشمال الأفريقي الجبَّار على الأعداء وعلى العوادي، الثائر على الهوان والظلم منذ برأه الله، مقبرة الطغاة، وجحيم البغاة، لا مقصِّراً إن شاء الله في جزائه ولا مفرِّقاً لأجزائه، ولا معترفاً بالحدود الي خطتها يد الظلم والعدوان. إلى أن قال:

أيها الإخوان:

إن الشمال الأفريقي كله فلذة من كبد الإسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبير، وبقية مما فتح عقبة والمهاجر وحسَّان، وإن هذا الوطن هو أحد أجنحتكم التي تطيرون بها إلى العلاء، وإنه لامتداد لوطنكم الأكبر، وإنه متصل بكم اتصال الكف بالساعد، تصلون إليه كما وصل أجدادكم مشياً، ويصل إليكم كما وصل أسلافه حبواً، فريشوا هذا الجناح المهيض حتى تقوى قوادمه على الطيران، وصونوا حماه فإنه حماكم، وذودوا عن حوضه فإنه حوضكم، لأنَّه يحمل أمانة الأجداد التي تحملونها، فأعينوه على التحرير وأنقذوه من سوء المصير.

إن في هذا الشمال الذي يحدثكم لسانه كنوزاً من تراث العربية والإسلام، طمرها الاستعمار برطانته عمداً وطمس محاسنها بحضارته قصداً، فأعينونا بقوة نستخرج هذه الكنوز بإحياء الأخلاق والاداب والتاريخ.

إن بينكم وبينه صلات من اللغة والدين، وأرحاماً من الجنس والخصائص، فصلوا هذه الأرحام يكن بعضنا لبعض قوة.

إنكم لنا أئمة في الخير، وإنَّا بكم مؤتمُّون في الحق، فحققوا شروط الإمامة فيكم وطالبونا بتحقيق شروط الاقتداء، وَلنُقم الصفوف في معترك الحتوف تحت ظلال السيوف وإلا هلك الإمام والمأموم.

أما والله لن نُفلت من مخالب الاستعمار فُرادى، ولا نفلت منه إلا يوم نصبح أمة واحدة تلقى عدوَّها برأي واحد وقلب واحد، فإن لم نفعل، ولم نكفر بهذه الفوارق التي وضعها الشيطان بيننا، فلا نلم الاستعمار، ولنلُم أنفسنا.

أيها الإخوان:

إن أضعف سلاح رَمانا به الاستعمار هو سلاح الحديد والنار، إن سلاح الحديد يقتل الأجسام، فينقل الأرواح إلى مقام الشهادة. أما السلاح الفتَّاك الذي رمانا به فهو يقتل الأرواح ويجردها من أسباب السعادة، هذا السلاح هو حضارته وعلومه التي اتخذها رماداً يغطي به الصليبية الحقيقية التي لم تنطفأئ نارها في هذه القرون كلها[1].

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (105/4).

4 . في المملكة العربية السعودية 1954:

التقى بالأمراء والملوك والعلماء والدعاة، وحاضر وناقش وكتب المقالات المدوية، ومن أشهر ما كتب:

. وظيفة علماء الدين، في مجلة المنهل محرم 1372هـ أكتوبر 1952م.

. الشباب المحمدي، قي مكة في 1 صفر الخير 1372هـ، وجاء في هذه الكلمة:

والشباب المحمدي أحقّ شباب الأمم بالسبق إلى الحياة، والأخذ بأسباب القوة، لأن لهم من دينهم حافزاً إلى ذلك، ولهم في دينهم على كل مكرمة دليل، ولهم في تاريخهم على كل دعوى في الفخار شاهد.

أعيذ الشباب المحمدي أن يشغل وقته في تعداد ما اقترفه اباؤه من سيئات، أو في الافتخار بما عملوه من حسنات، بل يبني فوق ما بنى المحسنون، وليتق عشرات المسيئين، وأعيذه أن ينام في الزمان اليقظان، أو يهزل والدهر جادّ، أو يرضى بالدون من منازل الحياة.

يا شباب الإسلام! وصيتي إليكم أن تتصلوا بالله تديناً، وبنبيكم اتِّباعاً، وبالإسلام عملاً، وبتاريخ أجدادكم اطلاعاً، وباداب دينكم تخلقاً، وباداب لغتكم استعمالاً، وبإخوانكم في الإسلام ولِداتكم في الشبيبة اعتناءً واهتماماً، فإن فعلتم حزتم من الحياة الحظ الجليل، ومن ثواب الله الأجر الجزيل، وفاءت عليكم الدنيا بظلها الظليل.

. وتحدث عن أصدقائه الذين التقى معهم بالمدينة لما كانت مهاجراً وطالباً في مطلع شبابه، وخص بالذكر الشيخ الوجيه «محمد نصيف»، وقال في حقه:

أيها الإخوان:

إذا لم يُنصف الحجاز شيخه ومخلد مجده ورافع رايته أستاذنا الشيخ نصيفاً ؛ فإن العالم الإسلامي كله ينصفه، فكلنا ألَسِنة شاهدة بأنه مجموعة فضائل نعدّ منها ولا نعدِّدها،وإنه مجمع يلتقي عنده علماء الإسلام وقادته وزعماؤه، فيردون ظماء ويصدرون رواء، والتي أقولها بصيحة صريحة، وأؤدِّيها شهادة للحق والتاريخ بأنه محيي السنة في الحجاز من يوم كان علماؤه . ومنهم أشياخنا . متهورين في الضلالة، وأنه صنع للسلفية وإحياء اثارها ما تعجز عنه الجمعيات والحكومات، وأنه أنفق عمره وماله في نصرها ونشرها في هدوء المخلصين وسكون الحكماء، وسيسجل التاريخ العادل اثاره في عقول المسلمين، وسيشكر الله له غزوه للبدع بجيوش السنن، المتمثلة في كتبها وعلوم أئمتها، وجمعية العلماء نفسُها مَدِينة له، فإن الكتب السلفية لم تصلنا إلا من يده، وسيسجَّل أنه مفخرة من مفاخر الإسلام، وأنه كفَّارة عن تقصير العلماء، وأنه زهرة فوَّاحة في أرض الحجاز، وأنه جماله الذي يغطِّي كل شين.

إني كنت قلت في الشيخ نصيف أبياتاً منها:

قـل للـذي عـاب الحـجـاز ... وجـانـب المـثَـلَ الحصـيـفـا
هـيـهـات لسـت بـبـالـغ ... مُـدَّ الحجـاز ولا «نصـيـفـا» (1)

(1) اثار محمد البشير الإبراهيمي (125/4).

وتواصل مع علماء الحجاز ونجد، وخاطب علماء نجد في قصيدة طويلة مطلعها:

إنَّا إذا مـا ليـلُ نجـد عسـعسا   وغـربـت هـذي الجـواري خُـنَّسـا
والصـبح عن ضـيـائـه تنفَّسـا   قُمنـا نؤدِّي الواجـب المقـدسـا[1]

5. في مصر: 1952م

جالس العلماء والساسة والحكَّام وناظر وخاطب، وألقى المحاضرات وكتب المقالات تعريفاً بقضية شعبه ودينه وعروبته، وطالباً العون من إخوانه المسلمين لمساعدة شعب الجزائر على التخلص من المحتلين.

ومما كتبه في مجلة الرسالة: صوت من نجيب فهل من مجيب؟

أ. في ذكرى المولد النبوي الشريف، ونقتطف شيئاً مما قاله في هذه المناسبة حيث قال:

ومولد محمد (ص) هو الحد الفاصل بين حالتين للبشرية.

. حالة في الظلام جللها قروناً متطاولة، وحالة من النور كانت تترقبها، وقد طلع فجرها مع فجر هذا اليوم، فميلاد محمد (ص) كان إيذاناً بنقل البشرية من الظلمات إلى النور، ومن الضلال إلى الهداية، ومن الوثنية إلى التوحيد، ومن العبودية إلى الحرية، وبعبارة جامعة: من الشر الذي لا خير فيه إلى الخير الذي لا شر معه.

مولد محمد (ص) هو مولد تلك التعاليم التي حرَّرت العقل والفكر، وسمت بالروح إلى الملأ الأعلى، بعد ما تدنت بالمادة إلى الحيوانية، وبالشهوات إلى البهيمية، وبالمطامع إلى السبعية الجارحة.

ومولد محمد (ص) هو مولد الإسلام، ذلك الفيض العميم من المعاني التي أصلحت الأرض، ووصلتها بالسماء، وفتحت الطريق إلى الجنة.

فقولوا لمن جاء بعد محمد من زاعم يزعم الانتصار للحق، وزعيم يهتف بالحق، وداعٍ يدعو إلى الحرية، ودعيّ يكذب على الحرية، وعاقل يبكي على العقل، ومفكِّر يجهد في تحرير الفكر، وروحاني يعمل لسمو الروح، وأخلاقي يضع الموازين للمثل العليا، وحاكم يحاول إقامة العدل في الأرض، وحائر لا يدري من أين يبتدئ ولا أين ينتهي، قولوا لهم جميعاً: قد سبقكم محمد (ص) إلى هذا كله، وقد نصب لكم بقرانه وسيرته أعلام الهداية في كل مصعد وكل منحدر، ولكنكم قوم لا تفقهون أو لا تصدقون، فارجعوا إليه إن كنتم صادقين، تجدوه منكم قريباً.

هذه المعاني التي يجب أن نستشعرها حينما نذكر المولد، وحينما نحتفل به، أما عدا ذلك مما نفعله ونقوله، فزوائد لا قيمة لها في العقول، ولا أثر لها في النفوس[2]..

ثم قال: لو فهمنا المولد المحمدي بهذه المعاني لكان إظلاله لنا في كل عام تجديداً لهممنا، وإيقاظاً لشواعرنا، وصقلاً لأذهاننا، وجلاء لأرواحنا، ولكانت اثار ذلك سموّاً في أرواحنا، وسداداً في ارائنا، وتحولاً إلى الخير في أحوالنا، وجمعاً لكلمتنا على الحق، وتوحيداً لصفوفنا في النوائب.

(1) المصدر نفسه (126/4).

(2) المصدر نفسه.

ولكننا فهمناه على قياس من عقولنا وهي جامدة، وعلى نحو من هممنا وهي خامدة، وعلى نمط من عاداتنا وهي سخيفة، وقصرناه على هذه التوافه: لعب للصغار ليس فيه فائدة، وخطب للكبار ليس فيها عائدة، فعلنا بمولد محمد (ص) ما فعلناه بسيرته، فاقتصرنا في كليهما على أضعف جانبيه، فنحن في مولده نلهو ونلعب، وقد نفرح ونطرب، ونعمر يومه وأسبوعه بحفلات تقليدية ليس فيها روح، كذلك نحن نتدارس سيرته التي هي التفسير العملي للإسلام، فلا ندرس إلا جانبها البشري من كيفية أكله ولباسه ونومه، لا جانبها الملكي من صبره وجهاده وتربيته لأمته وبناء الدولة الإسلامية.

يختلف الفقهاء في هذه الحفلات المولدية، وهل هي مشروعة أو غير مشروعة؟ ويطيلون الكلام في ذلك بما حاصله الفراغ والتلهي وقطع الوقت بما لا طائل فيه، والحق الذي تخطَّاه الفريقان أنها ذكرى للغافلين، وإنما لم يفعلها السلف الصالح لأنهم كانوا متذكرين بقوة دينهم، وطبيعة قربهم، وعمارة أوقاتهم بالصالحات.

أما هذه الأزمنة المتأخرة التي رانت فيها الغفلة على القلوب، واستولت عليها القسوة من طول الأمد، واحتاج فيها المسلمون إلى المنبِّهات، فمن الحكمة والسداد أن يرجع المسلمون إلى تاريخهم يستنيرون عبره، يدرسون سيره، وإلى قرانهم يسجلون حقائقه، وإن من خير المنبِّهات مولد محمد (ص) لو فهمناه بتلك المعاني الجليلة.

أيها المسلمون: قبل أن تقيموا حفلات المولد أقيموا معاني المولد، وتدرَّجوا من المولد المحمدي الذي هو مولد رجل، إلى البعثة المحمدية التي هي مولد دين نسخ الأديان، لأنه أكمل الأديان، وهناك تضعون أيديكم على الحقيقة التي تهديكم إليها هذه الذكرى.

حاسبوا أنفسكم في كل عام من أين انتقلتم وإلى أين وصلتم، أشيعوا بينكم في هذه الذكريات المحبة والأخوة والاتحاد على الحق، واذكروا أن صاحب هذه الرسالة بعث بالعزَّة والكرامة والعلم والقوة، فكونوا أعزَّة، وكونوا أحراراً، وكونوا أقوياء، واعرفوا محمداً بدينه وقرانه وسيرته لا بمولده، وأقيموا دينه ولا عليكم بعد ذلك أن تقيموا مولده أو لا تقيموه.

إن محمداً (ص) يطالبكم بإقامة الدين لا بإقامة المولد، وإن دينكم دين الحقائق والأعمال والنُّظم، فارجعوا إلى تلك الحقائق، وانصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم[1].

واستمرت المحاضرات والمقالات والكلمات في مقامه بالقاهرة.

ب ـ ألقيت كلمة للإبراهيمي في الحفل الذي أقيم في فندق «سمير أميس» بالقاهرة تكريماً للأستاذ الفضيل الورتلاني في شهر نوفمبر 1952م، ومما جاء في هذه الكلمة:

وأقول في ولدي وتلميذي وخالصتي الأستاذ الفضيل الورتلاني ما يقوله الوالد العاقل الحساس في ولده البرّ، وما يقوله الشريك الأمين في شريكه الأمين، وما يقوله الزميل الشريف في زميله الشريف، وأقول فيه في المشهد ما أقوله في المغيب، ولا أقول ـ إن شاء الله ـ إلا حقاً.

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (144/4).

أقول: إنه رجل أي رجل، أو إنه الرجل كل الرجل، بالمعنى الذي تعرفه العرب من هذين التركيبين القصيرين الجاريين مجرى لغة البرقيات في زمننا تجمع ضيق اللفظ واتساع الدلالة[1].

ج . وتحدث عن سيد قطب عندما أرسل مقالاً له إلى صحيفة البصائر عنوانه «كفاح الجزائر»، وكان مقاله الأول من سلسلة مقالات كتبها الأستاذ سيد قطب خصيصاً لـ«البصائر».

وقال الإبراهيمي في سيد: تمتزج فكرة الوطن الإسلامي الأكبر بنفس الأستاذ سيد قطب امتزاج الروح بالجسد والعقيدة بالعقل، فهو حفظه الله لم يفتأ يدعو المسلمين في الشرق والغرب بكتاباته الضافية إلى السير على ضوء هذه الفكرة في حركاتهم التحريرية، وكفاحهم العام، والاعتصام بأخوتهم الإسلامية التي هي المهيع الأمين، لتحقيق أمانيهم وامالهم في الحياة كمسلمين، لهم من تعاليم دينهم ومجد تاريخهم كل ما يهديهم سواء السبيل، إذا غشيتهم الظلمات وألمت بساحتهم خطوب وملمَّات.

وقد وجد الأستاذ في صحيفة «البصائر» التي هي اللسان المعبِّر عن كفاح الجزائر، في سبيل المحافظة على إسلامها وعروبتها، وربط نهضتها بالعالم الإسلامي صدى دعوته الصارخة، فأحبَّها وبادر بإرسال هذه الكلمة البليغة الجامعة لها، وهي إذ تحلّي صدرها بها، إنَّما تنشر صفحة من جهاد أحد العلماء العاملين من أعلام هذه النهضة، التي لن تقف دون أن تصل بالإسلام والمسلمين إلى أهدافهم السامية، في طريق كفاحهم من أجل الوحدة والحرية والاستقلال[2].

د . وأرسل من القاهرة برقيات على إثر اغتيال الزعيم التونسي فرحات حشَّاد إلى «الاتحاد العام التونسي للشغل» جاء فيها:

إن الجريمة الفظيعة، جريمة اغتيال رئيسكم العظيم المرحوم فرحات حشَّاد، قد تركت في أنفسنا ألماً شديداً، ونحن نقاسمكم امالكم والامكم، وقضيتكم قضيتنا، وتقبلوا باسم الشعب الجزائري أحرَّ التعازي[3].

هـ وقدَّم الإمام الإبراهيمي مذكرة إيضاحية لوزارة المعارف المصرية ومشيخة الأزهر الشريف وللأمانة العامة لجامعة الدول العربية في يناير 1953م، تحدثت تلك المذكرة عن الشعب الجزائري، وجمعية العلماء، ونشأة هذه الجمعية، وعن تشكيلات الجمعية في عصره، وجرائد الجمعية، ومالية الجمعية، وأعمال الجمعية لحفظ الإسلام على مسلمي فرنسا، ومواقف مشهودة لجمعية العلماء وموقفها من المبشرين المسيحيين، ومن الإلحاد، ومن الخمر، ومن تعليم النساء، وموقف فرنسا من الجمعية، وعن أمهات أعمال جمعية العلماء، من مقاومة الأمية، والمحاضرات الدينية والاجتماعية، وتأسيسها للنوادي العلمية، وبناء المدارس والمعهد الباديسي، وعن طموحات جمعية العلماء لإقامة مشروع جامعة عربية إسلامية في الجزائر، وبين لهم خلاصة النتائج الإيجابية من أعمال جمعية العلماء وتوجيهاتها:

في المعنويات:

---

(1) المصدر نفسه (148/4).

(2) المصدر نفسه (153/4).

(3) المصدر نفسه (153/4).

. استقرار الإصلاح الديني الإسلامي بمعناه الصحيح الواسع، وأساسه الرجوع إلى القران.

. إذكاء النزعة العربية في النفوس.

. تقوية الشعور السياسي وتكوين رأي عام له.

. التوجه إلى الشرق والتنويه بتاريخه وأمجاده.

. إحياء الفضائل والأخلاق المتينة، وعقد جملتها بالقلوب لا بالألسنة.

. خطوات سديدة في بناء الأسرة على المحبة، وبناء المجتمع على التعاون.

. وضع المرأة المسلمة في موضعها من الفطرة ومنزلتها في الإسلام.

. التقليل من الافتتان بالحضارة الغربية.

. قمع الإلحاد.

. إيقاف التبشير عند حده.

. التخفيف من ويلات الأمية.

. نظام الوعظ والإرشاد تظهر روعته في كل رمضان على الخصوص، قوامه 140 واعظاً.

في الماديات:

. تشييد سبعين مسجداً حرًّاً على نماذج مما كان يؤديه المسجد في التربية.

. مائة وبضع وأربعون مدرسة ابتدائية مجهَّزة أحسن تجهيز تتسع لخمسين ألف تلميذ.

. معهد ثانوي كامل الأدوات والمرافق يحتوي على ألف تلميذ.

. بعثات إلى جامع الزيتونة تبلغ ألفاً وخمسمائة تلميذ.

. بعثات إلى جامع القرويين تبلغ مائتي تلميذ.

. هذه البعثات التي بدأت طلائعها تزحف إلى مصر والعراق، وسوريا والكويت.

. حركة مباركة لحفظ العروبة والإسلام على العمَّال النازحين إلى فرنسا.

. مكتبة جديدة حافلة في المعهد تهّيأئ للباحثين مراجع البحث، وتعوِّض ما أتلفته يد الاستعمار من كتبنا ومكتباتنا، وقد زوَّدها سمو الأمير سعود ولي عهد المملكة العربية السعودية في السنة الماضية بألف مجلد.

. إنشاء مكتب ثقافي للجمعية في القاهرة، ليكون صلة بين الجزائر والشرق، ويشرف على البعثات الحاضرة والمنتظرة، وستجني العروبة والإسلام منه خيراً كثيراً.

خاتمة:

هذه هي الأعمال الجليلة التي قدَّمتها جمعية العلماء للأمة الجزائرية، بل الأمة الجزائرية، بل قدمتها الجمعية والأمة معاً للعروبة والإسلام، فحفظت للعرب طائفة من رأس مالهم، وربحت للمسلمين جزءاً كبيراً من مجموعهم كاد يضيع منهم.

قامت جمعية العلماء بهذه الأعمال مستعينة بالله، معتمدة على الأمة، مع كيد المستعمرين، وخذلان الضالين، وتشويش الجاهلين الذين يخربون بيوتهم بأيديهم(1).

لم تتوجَّه الجمعية في هذه المراحل القاسية إلى خارج الجزائر، لأن من مراميها البعيدة تربية الأمة على الاعتماد على نفسها، وعلى التكافل في المصلحة العامة، وهو باب من أبواب التربية الاستقلالية المفضية إلى الاستقلال الحقيقي.

ولكنها بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة التي بينَّاها في الفصول السابقة أجهدها الإعياء ووقفت مبهورة، والتفتت إلى إخوانها في الشرق وإلى حكوماتهم تلتمس العون والمدد، وتحمل صحيفة أعمالها بيمينها، ولا مجال للتراجع لأن معناه الموت، ولأن نتيجته شماتة الأعداء، وهي أنكى على الحر من الموت، وأنا رائدها إلى الروض وفارطها على الحوض، وقد بلَّغت.

ليست القضية قضية شخص أو أشخاص، فلا نحن ولا الأمة من ورائنا نرضى بهذا، ولا ندين به، فقد ربيناها بعد أن ربينا أنفسنا علىتقديس المبادئ ونسيان الأشخاص والشخصيات إلا في مقام التأسي والوزن، وإنما هي مسألة أمَّة تعدّ أحد عشر مليوناً من صميم العروبة، مصمِّمة على تصحيح نسبتها وتثبيت إسلامها، لتبني عليهما استقلالها، لأنها تؤمن بأن الاستقلال على غير أساس العروبة والإسلام هو استقلال على غير أساس، فهو منهار من ساعته، فإذا تمَّ فهو استقلال لأمة لا تعرفها العروبة ولا يعرفها الإسلام،ولا ينفع استقلالها العروبة ولا الإسلام.

قد وجب حق الأخ علىأخيه، ووجب على حكومات العرب أن تقف موقف الجد والتضحية والواجب من هذه الحركة حتى تصل إلى غاياتها، وإن كل ما تنفقه الحكومات العربية في هذا السبيل فهو قليل، وهو ضربة في الصميم، وهو عائد عليها في القريب بأرضه وثمراته(2).

إن جمعية العلماء واسطة بين الطرفين، وترجمان صادق بينهما، وإنها لا ترضى بما دون الواجب، ولا ترضى لنفسها بالتصدّق والامتنان والمجاملة، وللحكومات العربية عليها حق المحاسبة الدقيقة، فقد أخذت بذلك في جميع أعمالها.

قد بلّغت، اللهم اشهد

محمد البشير الإبراهيمي

---

(1) المصدر نفسه (179/4).

(2) المصدر نفسه (180/4).

رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

القاهرة في 5 رجب 1382هـ

الموافق 20 مارس 1953م[1]

و . تحية غائب كالايب:

اشتاق الإبراهيمي في رحلته إلى المشرق إلى وطنه، وحتى إلى بلده وشعبه وإخوانه وتلاميذه، فعبَّر عن شوقه وحنينه بكلمات صادقة معبرة عن معاني عظيمة في حب الأوطان من أصحاب الفكر السليمة.

فكتب في مقال له في صحيفة البصائر عام 1953م مقالة بعنوان: «تحية غائب كالايب» نقتطف منها:

سِر يا صبا . يقصد ريح الصبا . طاب مسراك وصفا مجراك، في جو ضاحك الصفحة، وفضاء سافر الغرَّة، لا جبلا نعمان يعترضان مهبَّك، ولا عواصف الدبور تعارض مدبَّك، فإذا لاحت لك بواذخ الأطلس فاسلك منها ما سلك بنو هلال، فرقة عن اليمين وفرقة عن الشمال، وخذ من اثارهم بما يُجدي، فكلاكما نجدي، وستقع في شمالك على الخؤولة، وفي يمينك على العمومة، فابثُث أسرارك وانثُث أخبارك، فهناك محطة الهوى والشوق.

أدِّ التحية عني للجزائر التي غذّت وربَّت، وأنبتت القوادم في الجناح، وأسلفت الأيادي البيضاء، وأسدت العوارف الغر، وأشربت من الطفولة حب العروبة والإسلام، وأخذت باليد إلى رياضهما، ففتقت اللسان على أشرف لغة وسِعت وحي الله ووحي العقول، وفتحت القلب لأكمل دين جمع الروح والمادة، ثم أورثت . فيما أورثت من ماثر العرب وفضائل الإسلام . أنفاً حمياً، وفؤاداً ذكياً، ولساناً جريئاً، وهمة بعيدة، وإباء للمشارب الكدرة، وقناة لا تلين إلا للحق، وذياداً عن حُرمات الحِمى والدين، ونفساً لو تراءت لها زخارف الدنيا من وراء الدنايا ما خاضتها إليها، وروحانية أحد طرفيها في الأرض والاخر في السماء تأمر في ذلك كله وتنهى.

ثم عمِّم التحية إلى كل من تديّر الجزائر من إخوان الصدق، وأحلاف الحق، من علماء جلاهم الإسلام سيوفاً، وبراهم سهاماً، وقوَّمهم رماحاً، ثم وحَّدتهم العقيدة على غاية، وجمعهم الحق على بساط، وألف بينهم الجهاد في ميدان، فاجتمعت قلوبهم على هداية بها، وألسنتهم على دعاية إليها، وأيديهم على بناء

لها، ومن أنصار كانوا للدعوة السلفية الإصلاحية خزرجها وأوسها، وكانوا للنهضة الجزائرية عمادها وأُسَّها، وكانوا الأحجار الأولى لبناء الجزائر الجديد، والكتائب المبكِّرة لإحياء مجد العرب بعز الإسلام[2].

ومن شبَّان ربيناهم للجزائر أشبالاً، ووتَّرناهم لعدوِّها قسيّاً ونبالاً، وصورنا منهم نماذج للجيل الزاحف بالمصاحف، وعلمناهم كيف يُحيون الجزائر؟ وكيف يحيون فيها؟

وقال: لن أنسى . يا أم . أنك كنت لي ماخِطة الغِرس وماشطة العِرس، فلا تنسي أني كنت لك من عهد التمائم إلى عهد العمائم، ما شُغلت عنك إلا بك، ولا خرجت منك إلا عائداً إليك، لا تنسي أنني ما زلت

(1) المصدر نفسه (180/4).

(2) المصدر نفسه (182/4).

ألقى الأذى فيك لذيذاً، والعذاب في سبيلك عذباً، والنصب في خدمتك راحة، والعقوق من بعض بنيك برّاً، والحياة في العمل لك سعادة، والموت في سبيلك شهادة، ولا تنسي أنني عشت غيظاً لعداك وشجىً في حلوقهم، وكدراً لصفوفهم، وأنني ما زلت أقارع الغاصبين لحقِّك في ميدان، وأكافح العابثين بحُرماتك في ميدان، وأعلِّم الغافلين من أبنائك في ميدان، ثلاثة ميادين، استكفيتني فيها فكفيت، ورميت بي في جوانبها فأبليت، ولا منَّة لي يا أمَّ عليك، وإنما هي حقوق أوجبتها شرائع البر، قام بها الكرام، وخاس بعهدها اللئام.

خطت الأقدار في صحيفتي أن أفتح عيني عليك وأنت موثقة، فهل في غيب الأقدار أن أغمض عيني فيك وأنت مطلقة؟ وكتبت الأقدار عليَّ أن لا أملك من أرضك شبراً، فهل تكتب لي أن أحوز في ثراك قبراً[(1)].

وقال: لله في تقدير السنين أسرار، فيها تحسب الأعمار، وفيها تُؤتي الأشجار الثمار، وفيها يتجدد الحنين والادِّكار، وفيها يهيج الشوق بين المتجانسات فينشأ بين الفعل والانفعال وجود، ولقد غبتُ عن الجزائر سنة وبعض السنة، فكنت أغالب الشوق فأغلبه، فلما قيل: هذا يوم 7 مارس ـ وهو موفِّي سنة الفراق ـ هجم عليَّ من الشوق ما لا يُغلب، فتمثَّلت بقول الوزير ابن الخطيب السلماني:

وجاشت جنود البين والصبر والأسى ... عليَّ فكان الصبر أضعفها جنداً

غبت عن الجزائر بجسمي سنة وبعض السنة، ولكنني ما غبت عنها بروحي وفكري دقيقة ولا بعض الدقيقة، وما عملت لغيرها عملاً ولا جزءاً من عمل، فلساني رطب بذكرها، وشخصي عنوان عليها ورمز إليها، وأحاديثي تعريف بها وإغلاءٌ لقيمتها، ومحاضرتي في المحافل الحاشدة في الشرقيين هي فضائلها شائعة، ومفاخرها ذائعة، ومباخرها ضائعة، وأعمالي تمجيد لها ورفع لشأنها وتنويه بنهضتها وتشريف «لجمعية علمائها».

وما الجزائر إلا جمعية العلماء، لولاها لكانت الجزائر مثل جزائر واق الواق، اسماً يجري على اللسان، ومسمًّى معدوماً من الوجود، لا يُنكر هذا إلا صبيٌّ أو غبيٌّ أو عقل وراءه خبي[(2)].

أشهد لقد كنت ألقى في أسفاري أنواعاً من التعب، فلا يهوّنها عليَّ ولا يغريني بالإقدام على غيرها ؛ إلا يقيني أنها مقلد في قيمة الجزائر وقيمة جمعية العلماء، وكنت ألقى من إخواني في العروبة والإسلام إقبالاً عليَّ واحتفاءً بي على نسق من فضلهم وتكرُّمهم، فلا يزدهيني من ذلك إلا أنه احتفاء بالجزائر وبجمعية العلماء، وسعدت بلقاء كثير من عظماء الشرق وعلمائه وأمرائه وقادة الرأي فيه، فما عددت ذلك إلا من سعادة الجزائر وجمعية العلماء، ووالله ما أنسانيهما تبدُّل المناظر وتنوّع الأشخاص، ولا لفتني عنهما تعاقب المحاسن على بصري وتوارد معانيها على بصيرتي، بل كانتا دائماً شغل خواطري ونجوى سرائري، وطالما طرقتني منهما أطياف كأنها أسياف، فأرتاع وألتاع،وأكاد أطير شوقاً، ثم يمسح ذلك كله عن نفسي أن في سبيلهما سكوني واضطرابي،

(1) المصدر نفسه (183/4).

(2) المصدر نفسه (184/4).

ولو خرجت تاجراً لكنت في الأخسرين صفقة، ولو خرجت متروِّحاً لكنت كمن هجر الجام ومديره، والروض وغديره، إلى جفاة السَّفر وجفاء القفر[1].

وقال: ويميناً لو تبرَّجت لي المواطن في حُللها، وتطامنت لي الجبال بقُللها، لتفتنني عنك لما رأيت لك عديلاً ولا اتخذت بك بديلاً، وإذا كان أوطان الإسلام كلها وطن المسلم بحكم الدين، فإن اختصاصك بالهوى والحب من حكم الفطرة السليمة ولنا في رسول الله أسوة حسنة في حبِّه لمكَّة وحنينه إليها.

ورضيت أكمل الرضى أن كان جهد المقلّ مني يرضيك، وما هو إلا لبنة في بنائك وقطرة في إنائك ورعيٌّ لذمتك وسعيٌ في كشف غمتك، ورضيت من الجزاء على ذلك كله برضى الله وقبوله، فلا يهولنَّك فراغك مني أياماً، فعسى أن يكون المسك ختاماً، وعسى أن تسعدي باثار غيبتي أعواماً...[2]

أيها الوطن الحبيب:

أما الشوق إليك فحدِّث عنه ولا حرج، وأما فراقك فشدَّة يعقبها الفرج، وأما الحديث عليك فأزهار تضوَّع منها الأرج، وأما ما رفعت من ذكرك فسلْ من درب ودرج، وأما الانصراف عنك فإجحاف بالغيّ لم يجاوز صاحبه اللوى والمنعرج، وأما الأوبة فما زلت أسمع الواجب يهتف بي: أن يا بشير، إذا قضيت المناسك فعجِّل التوبة إلى ناسك.

وسلام عليك يوم لقيت من «عقبة» وصحبه بِرَّاً فكنت شامخاً مشمخراً، ويوم لقيت من «بيجو» وحزبه شراً، فسلَّمت مضطراً، وأمسيت عابساً مكفهراً وللانتقام مسرَّاً، وسلام عليك يوم تصبح حرَّاً، متهللاً مفتراً بالله لا مغتراً.

ومعذرة إليك إذا كنت ارتخيت، ثم انتخيت، فإنما هي نخوة الأُباة الأشاوس، يدفعون بها وساوس الصدور، ويدفعون بها في صدور الوساوس[3].

إن الإمام الإبراهيمي كان في الخمسينيات نسيجاً نسيجاً وحده، وأوتي من الذكاء، ورجاحة العقل، وحضور القلب، وروعة البيان، والثبات على المبادأئ والقيم، ومحبة الإسلام، والتعلق بالقران، والدفاع عن الأوطان، ما يجعله من كبار المصلحين في وطنه الصغير «الجزائر» ووطنه الكبير «العالم العربي الإسلامي».

ز ـ سعيه لإطلاق سراح المودودي من السجن:

كان المودودي من كبار علماء الإسلام، ومن الدعاة لتحكيم شرعه وإقامة حكومة إسلامية ودستور إسلامي. واصطدم بالحكَّام في باكستان الذين حاربوا اراءه وتوجهاته، وحدثت اضطرابات وسالت دماء، واعتقل المودودي وسجن الكثير من أصحابه، وأحالته إلى محكمة عسكرية عقدت بمدينة لاهور، وحكمت عليه بالإعدام ثم خفضت حكم الإعدام بالسجن أربعة عشر عاماً.

---

(1) المصدر نفسه (184/4).
(2) المصدر نفسه (185/4).
(3) المصدر نفسه (185/4).

واهتز المسلمون بباكستان لهذا الحكم القاسي بنوعيه الثقيل والخفيف، وانصبَّ على الحكومة تيار من الاحتجاج والتظاهر بالغضب، بسببه تمَّ تخفيف الحكم على المودوي، وقامت الهيئات الإسلامية القوية بالاحتجاج والاستنكار من مصر وسوريا والعراق والكويت، وتأكدت الأخبار عند الإبراهيمي وهو بالكويت، فغضب وحزن لما بينه وبين الرجل من صلات، ولما بينه وبين جمعية العلماء من تقدير.

وكان الإمام الإبراهيمي يرى بأن المودودي ليس رجل إقليم أو قطر، إنما هو للمسلمين كلهم، فمن بعض حقه على الأمة أن تسعى في خلاصه من السجن بعد أن تراجعت الحكومة عن حكم الإعدام، ولذلك أبرق برقية لكل من حاكم باكستان العام ورئيس حكومتها باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وباسم المغرب العربي كله لأن حظ المودودي في الإسلام والانتصار لحماته ليس بقليل[1].

نص البرقية التي أرسلها الإبراهيمي، والورتلاني إلى حاكم باكستان وإلى رئيس وزرائها في قضية المودودي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

حضرة صاحب الفخامة السيد غلام محمد حاكم باكستان العام ـ كراتشي

حضرة صاحب الدولة السيد محمد علي رئيس الوزارة الباكستانية ـ كراتشي

شاع في أنحاء العالم أن المحكمة العسكرية بمدينة لاهور حكمت بالإعدام على عالم من أكبر علماء الإسلام، ومن أعظم دعاته، وهو الشيخ أبو الأعلى المودودي، ثم شاع الخبر بأن الحكومة الباكستانية خفضت هذا الحكم إلى السجن أربع عشرة سنة.

إن هذه الأخبار أحزنت مئات الملايين من المسلمين في العالم، وسرَّت أعداء الإسلام كلهم، ومهما تكن الدواعي لهذه الأحكام القاسية ؛ فإن المسلمين في جميع الدنيا لا يرضون لحكومة باكستان الإسلامية أن يسجِّل عليها التاريخ قتل علماء الدين أو سجنهم، لأنها لا تعدم بإعدام المودودي شخصاً، وإنما تحطم سيفاً من سيوف الإسلام، وتسكت صوتاً من أصوات الإسلام، وتطمس مفخرة من مفاخر الإسلام، ويا فرحة أعداء الإسلام بذلك.

إننا باسم جمعية العلماء الجزائريين، وباسم ثلاثين مليون مسلم في المغرب العربي، نتوجَّه في شدة وإلحاح إلى دولة باكستان الرشيدة التي نفخر بها، ونعلِّق عليها الامال في إعلاء كلمة الإسلام، أن ترجع عن هذه الأحكام التي تزعج نفوس المسلمين، وتطلق سراح المودودي عاجلاً لتردَّ الاطمئنان إلى نفوس جميع المسلمين.

إن فرح المسلمين بنشأة باكستان وعطفهم عليها، وانتصارهم لقضاياها، هو رأس مال عظيم للدولة الباكستانية، الواجب أن تزكيه بإطلاق حرية رجل من أكبر رجال الإسلام مهما كانت جريمته السياسية، فإنها لا تعدو أن تكون جريمة رأي[2].

(1) المصدر نفسه (190/4).

(2) المصدر نفسه (191/4).

ولم يكتف الشيخ الإبراهيمي بذلك، فكان يرى من تمام الواجب عليه لصديقه المودودي ؛ أن يعرّف به بني وطنه وقرّاء «البصائر» فكتب مقالاً في التعريف به ختمه بقوله: وسلام على المودودي طليقاً وسجيناً، ومما جاء في هذا المقال:

الأستاذ العلامة أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان، أصفه وصف العارف الذي قرأ وشاهد، فهو رجل لم ترَ عيناي كثيراً من مثله، بل لم أرَ مثله في خصائص امتاز بها على علماء الإسلام في هذا العصر، منها الصلابة في الحق، والصبر على البلاء في سبيله، والعُزوف عن مجاراة الحاكمين، فضلاً عن تملُّقهم، وهو أفقه من رأيته أو سمعت به في باكستان والهند في حقائق الإسلام تشريعاً وتاريخاً.

واسع الاطِّلاع، دقيق الفهم، بارع الذهن، نيّر الفكر، كبير العقل، مشرق الروح على تجهُّم في ظاهره، سديد التصرف في المقارنة والموازنة والاستنباط، مستقلٌّ في الاستدلال إلى حد يمضي من الشريعة إلى مقاصدها العامة، دون احتفال بالجزئيات إلا بمقدار ما يدخل من هذه إلى تلك، عميق الغوص في استخراج النكت، متين العقدة، تظهر اثارها على أعماله ومواقفه قوة وثباتاً، كما تظهر اثار الغذاء الصالح على البدن فراهة ونعمة، فلسفي النزعة العلمية لا العقلية، يذوده افتتانه بالنص والواقع عن أن يكون فيلسوفاً عقلياً، ولولا ذلك لكانه، فهو يؤمن بالنص، ويؤمن بعمل العقل في النص، ثم لا يزيد إلا بمقدار.

جمهوري العشرة، ولكنه خصوصي الزعامة، يرى أن لها ـ لا للزعيم ـ حقوقاً تحفظ النظام، وتوزّع الأعمال على الكفاءات، وتقف بالمتطفلين عند حد، فهمت هذا من مجموع أحواله ومن ملابستي لبعض أنصاره، فصورته بهذه العبارات، وأنا أرى أن الفرق بين الزعامة والزعيم شيء دقيق، ودقَّته هي التي غرَّت الزعماء بأنفسهم، وغرَّت الأتباع بهم[1].

وهو هيوب للتحدث بالعربية، مع دقة فهمه للقران والحديث وكتب الدين، واقتداره على تطبيقها، ويرجع سبب ضعفه في الكلام بالعربية إلى قلة استعماله لها في الحديث والكتابة، فهو مع كثرة مؤلفاته التي تبلغ العشرات لم يكتب كتاباً واحداً بالعربية، وكل مؤلفاته بالأوردية والإنكليزية، وكلها في المواضيع الإسلامية الخطيرة، التي تقتضيها النهضة والتجديد، ويكثر الخوض فيها في هذا العصر، ويتناولها الغربيون بالنقد والتشويه، وللأستاذ مشاركة قوية في معارف العصر واطِّلاع على حضارته وهو يزنها بالميزان القسط، فلا إنكار ولا اندفاع، بل إنه يقف منها موقف الحذر والانتباه، وقد ترجم أحد أعضاء الجماعة طائفة من كتبه إلى العربية، فمكن بذلك أبناء العرب من الاطِّلاع على أفكاره، وهذا العضو هو صديقنا الوفي الشيخ مسعود عالم الندوي، وقد أهدى لي جميعها منذ سنوات وأنا في الجزائر، فلمحتُ فكراً شفافاً، ورأياً حكيماً، وفكراً عميقاً، وتساوقاً بين الألفاظ ومعانيها[2].

(1) المصدر نفسه (186/4).

(2) المصدر نفسه (187/4).

والعلامة المودودي وثيق الصلة بجمعية العلماء الجزائريين عن طريق جريدة «البصائر»، متتبع لحركتها، معجب بها وبأعمالها، قويُّ الشعور بقرب المسافة بين مبادئها ومبادئه.

وهو يحمل بين جنبيه قلباً عامراً بالاهتمام بأحوال المسلمين، والأسى لحاضرهم، والإعجاب بماضيهم، والتنويه بالنظام الحكومي في الإسلام، يراه أعدل نظام إنساني وأضبط نظام للنزوات البشرية، وأحفظ نظام للمصالح المتشابكة، ومن هنا نشأت فكرته في الحكومة الإسلامية، وقد سرَّ كثيراً بالمعاني التي تنطوي عليها رحلتي، لأن تقارب المسلمين بالتعارف يُفضي بهم إلى التعاون على إصلاح شؤونهم، وهو ينعي عليَّ شيئاً واحداً، وهو أنني لم أشتغل بتأليف كتب عن أحوال المسلمين على النمط الذي سمعه من كلامي، فأجبته بما لم يقتنع به، لأنه يعتقد أن هذه الأحاديث العادية التي سمعها مني كتب لا ينقصها إلا التدوين، ورأيه في التأليف أن تكون الكتب صغيرة الحجم حتى تسهل قراءتها وتصريفها، وهذا هو المسلك الذي سلكه في كتبه، فكلها كراريس مستقلة بموضوعات.

وقد التقى البشير الإبراهيمي بالمودودي عند زيارته في باكستان، وقال الإبراهيمي عن هذا اللقاء في مدينة لاهور في إحدى فنادقها:

فزارني وتعارفت الأجساد بعد تعارف الأرواح، فإذا هو رجل رَبعة مهيب الطلعة، ممتلأئ صحة وحيوية، يغلب السواد البياض على لحيته الكثة المهيبة، ثم استدعاني إلى داره، وهي مركز الجماعة، فاجتمعنا على الشاي في ثلة من أعضاء الجماعة، وطلبوا مني كلمة ونحن على موائد الشاي، فخطبت وأفضت في المواضيع الإسلامية الشاغلة للأفكار، وكان ـ خفَّف الله محنته ـ يستوقفني كلما علت لغتي وتخللتها الإشارات والكنايات، ليترجم له أحد تلامذته البارعين في العربية ما غمض عليه، تقصِّياً منه للمعاني وحرصاً على أن لا يفوته منها شيء.

أما ما بينه وبين حكومة باكستان، فأكبر أسبابه وأظهرها أن مبدأ الجماعة الإسلامية هو إقامة حكومة إسلامية في باكستان، بالمعنى الصحيح الكامل الذي لا هوادة فيه ولا تساهل، يتضمن دستورها الحكم بما أنزل الله في المعاملات والحدود والقصاص. وللأستاذ المودودي في ذلك اراء بعيدة المدى ومناهج وتخطيطات مدروسة لا تقبل الجدل، بل له دستور كامل مهيأ، وقد نقلت منه مجلة «المسلمون» الغرَّاء التي تصدر بمصر قطعاً دلَّت على ما ذكرناه، وعلى انفساح ذرع العلاَّمة المودودي في فهم النظام الإسلامي، وحجة الجماعة في ذلك، أن المسلمين ما رضوا بالانفصال عن الهند، وما هانت عليهم التضحيات الجسيمة التي لم تضحِّ بها أمة في الدماء والأموال ؛ إلا في سبيل إقامة دينهم على حقيقته، أما إبقاء ما كان على ما كان، فهو لا يساوي تلك التضحيات ولا جزءاً منها.

وحكومة باكستان ـ وإن كانت إسلامية المظهر ـ مدنية المخبر، لم تزل تسير على النظم التي وضعها الإنكليز في الهند، وهي تريد أن يكون دستورها إسلامياً، لأن الشعب يريد ذلك، أو لأن معظم الشعب يريد ذلك، ولكنها تريده تدريجياً، ومع التسامح والتسهُّل ومراعاة مقتضيات الأحوال، وهناك طائفة من المستغربين لا تريد الدستور الإسلامي، ولكنها تعمل في الخفاء غالباً لقلتها بالنسبة إلى الشعب، ويعتقد المتبصِّرون أن هذه

الطائفة تلقى تأييداً أجنبياً قوياً، ولا تتسع هذه الكلمة لترجيح إحدى الفكرتين، وإن كان لنا في ذلك رأي صارحنا به بعض المسؤولين في ذلك الحين.

لهذا الذي شرحناه ضاقت الحكومة ذرعاً بالمودودي وتشدُّده وصلابته، وصراحة ارائه وتسرُّعه «في نظرها»، فكانت تحبسه كلما ظهرت اراؤه المؤثرة، أو فتاواه في الحوادث الخاصة، وتنظر إليه بعين الحذر دائماً[1].

واستمر في حديثه عن المودودي ثم قال: فإننا نقول كلمة صريحة لوجه الحق، وهي أن المودودي وحده أقدر رجل على وضع الدستور الإسلامي المنشود لدولة باكستان، وأبرعُ عالم في انتزاع ذلك الدستور من القران والحديث ومن المقاصد العامَّة في التشريع الإسلامي والأصول المتَّفق عليها بين الأمة، وأنا مع هذا مؤمن بأن العقبة الكأداء في طريق المودودي ودستوره ليست هي الحكومة وحدها، بل العقبة التي تنبهر فيها الأنفاس هي جمود فقهاء المذاهب، وما أكثر المذاهب في باكستان[2].

استقر الإبراهيمي في المشرق محاضراً وكاتباً، وخطيباً يدافع عن قضية شعبه في دول المشرق وشعوبها حتى اندلعت الثورة الجزائرية، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً بإذن الله تعالى.

* * *

تاسعاً: اهتمامه بليبيا وفلسطين

1 ـ ليبيا:

أ ـ ليبيا موقعها منا:

تحدث الإبراهيمي عن ليبيا في أماكن متعددة من تراثه، منها هذا المقال، الذي تكلم فيه عن موقعها من الجزائر وشعبها فقال:

---

(1) المصدر نفسه (189/4).

(2) المصدر نفسه (189/4).

ليبيا ـ بأجزائها الطبيعية ـ قطعة ثمينة من وطن العروبة الأكبر، ومعقل حصين من معاقل الإسلام الباذخة مكتنفة الشمال والجنوب بجمالين من مياه البحر الأبيض ورمال الصحراء المغبرة، مسورة الشرق والغرب بجمالين من عظمة مصر ومجد تونس فهي رقعة من صنع الله مطرزة الحواشي بما يسحر الألباب، ويفتن النفوس، ويستهوي الأفئدة، ويذكر بالعزة، ويفتق القرائح عن روائع الوصف وبدائع التمثيل، وهي ـ لذلك كله ـ نازلة من نفس كل عربي في مستقر الغيرة والحفاظ، ومن نفس كل مسلم في منزلة الحب والكرامة، وننفرد نحن سكان الشمال الأفريقي بمعنى من معاني التقدير لهذه القطعة العزيزة من وطن العروبة والإسلام، وهو أنها كانت مجرَّ عوالي الفاتحين من أسلافنا، ومجرى سوابقهم إلى هذا الشمال، يحملون إليه التوحيد والحكمة والسلام، فعلى ثراها مرَّ عقبة والمهاجر وحسان، ومن بعدهم موسى وطارق، وإدريس وعبد الرحمن، وفي جنباتها تصاهلت جياد الكماة الصيد من مضر ويمن، وأنها كانت كذلك مجازاً للأبطال من بني هلال الذين غرسوا العروبة بهذا الشمال، وأنها كانت أخت الجزيرة، تلك أنبطت، وهذه أحْرَتْ، وتلك أنبتت، وهذه أرْوَتْ، وتلك قدحت، وهذه أورت، وأنها صارت ـ بعد ذلك ـ بابنا إلى الشرق، يوم كان أبرَّ ببنيه وأحنى عليهم من البحر، لا نلج حظائره القدسية إلا منه، حجاجاً، وتجاراً، ومستبضعي علم[1].

ـ الرَّحالة وقوافل الحجيج:

إن كل قارأئ مطلع في هذا الوطن الجزائري ليعرف عن ليبيا وقراها وجبالها وأوديتها ودُروبها مثل أو أكثر مما يعرف عن وطنه، لكثرة ما يقرأ عنها في كتب الرحالين المغاربة من أمثال: الفهري، والعبدري، وابن بطوطة، والتيجاني، والعيَّاشي، والورتلاني، وإن كل عامي راوية للشعر الملحون ليحفظ أسماء قراها ووديانها وجبالها، أكثر مما يحفظ من أمثالها في بلاده، لكثرة ما يسمعها في قصائد شعراء الملحون الواصفين لركاب الحج، المعَدّدين لمنازله، احتذاء للبوصيري في «عدة منازل»، ومن أمثال: محمد الشلالي، وابن السنوسي، وابن خلوف، وابن يوسف وغيرهم من الشعراء الشعبيين في المائة الثانية عشرة إلى الان.

وهؤلاء هم الذين انتهت إلينا أخبارهم وأشعارهم عن طريق الحفظ والرواية، وقد كانوا يُرحِّلون ركب الحج من مراكش إلى مكة، ويصفون الجادَّة التي يسلكها وصفاً شعرياً مشوقاً، أحسن مما يصفه الجغرافي المتقصِّي، وأدخل في النفس منه، حتى يخيل إلى السامع أن هذه الموصوفات منه بمرأى العين. وأذكر أنني في سن الصبا كنت سمعت أسماء زوارة، وطرابلس، والجبل، ومصراته، والخمس، وزليطن، وبنغازي ودرسة وأجدابية متناثرة في هذا الشعر، موصوفة، محددة المسافات التي تفصل بينها، قبل أن أقرأها في كتب الرحلات والجغرافيا، وقبل أن أسمعها من أفواه السفار، أو من أفواه أهلها[2].

علاقة الأخوّة:

(1) المصدر نفسه (403/3).

(2) المصدر نفسه (403/3).

ولإخواننا الليبيين ـ أو الطرابلسيين، كما نسميهم ـ علينا حق الدين، وحق اللغة، وحق الجنس، وحق الجوار، وحق الاشتراك في الالام والمحن، وفي الامال المقترحة على الزمن، وهذه كلها أرحام، يجب أن تبلّ ببلالها، وحقوق في ذمة المروءة والوفاء يجب أن تؤدى، وإن من حسن القضاء عند الكرام الأوفياء أن يكون في وقت الحاجة إليه، وإن هؤلاء الإخوان اليوم في طور امتحان عسير معقد، تتخلله الأهواء والمطامع، ويحيط به الكيد والتعنيت من كل جانب، وإن نجاحهم فيه يتوقف على جمع الكلمة، وتسوية الصف، وتوحيد الرأي، ومتانة الإيمان بالحق، والحذر الشديد من الأشراك المنصوبة، والعُصب الدخيلة، والنظر البعيد في العواقب المخبوءة والمكايد الخفية، والاحتفاظ بكلمة الفصل يقولها الواحد فترددها الملايين، وإنهم في حالة انتقال من حال إلى حال، كانوا يواجهون فيه ثلاثة أعداء متشاكسي المصالح، متبايني المطامع، متظاهرين بالتقوى والعدل والنصيحة الرشيدة للمستضعفين، ولكنهم متفقون على الاستغلال لا على الاستقلال، ومن ورائهم ذلك الثعلب القديم ـ وقد قصمت الحرب ظهره ـ جائعاً يتضوَّر، وقابعاً يتحفز، وحانقاً يتلظى، وراجياً يتعلق، وطامعاً يتملق، ينتصر بالمتات، وينتظر الفتات[1].

ـ جهاد الليبيين:

قاوم هؤلاء الإخوان الكرام الاستعمار الإيطالي، ووقفوا في وجهه وقفة المستميت، لم يثنهم التقتيل والتشريد، حتى إذا استيأسوا، وظنوا أن هذا الجبار العنيد ختم عليهم بالعبودية المؤبَّدة، جاءت الحرب الأخيرة، وعاد الرجاء، ونبض عرق البطولة، وهبَّ المغاوير من سلائل العرب، يثأرون لعمر المختار والشهداء الأبرار، حتى اشتفوا، وأوبقت إيطاليا جرائرها، فأبادها الله، وما كان إخواننا يدرون أنهم يعينون استعماراً على استعمار، أو أنهم سينتقلون من شِدق الأفعى إلى ناب الأفعوان، ولكنهم لم يهنوا ولم يفشلوا في طلب استقلالهم، فصمَّت الاذان عن سماع صوتهم حيناً، ثم تصادمت المطامع، فكان لأصوات الدول الضعيفة في مجلس الأمم مجال في الاذان الصماء ومنفذ إلى القلوب الغلف، فقضى ذلك المجلس باستقلال ليبيا طائعاً كمكره، ولكنه أرجأ الإنجاز إلى أول سنة 1952م.

كنا نعرف أن الاستقلال جنة لا يعبر إليها إلا على جسر من الضحايا، وكنا نعدّ إخواننا الليبيين أو الداخلين إلى هذه الجنة بغير حساب، لأنهم قدَّموا من الضحايا ما لم تقدمه أمة شرقية، ولأنهم جمعوا أسباب الفلاح الأربعة: الصبر والمصابرة والمرابطة والجهاد، ولكن شيطان الاستعمار أبى عليهم ذلك، ووضع في طريقهم برزخاً زمنياً أو جسراً ثانياً غير الضحايا والقرابين والأعمال الصالحة، وهو هذا الأجل المحدد سنة 1952م.

ويقول الاستعمار: إنه وضعه للإعداد والتشويق، ونقول نحن: إنه وضعه للإبعاد والتعويق، ومرحباً بالسنتين إذا كنا نقضيهما في الاستعداد والتأهل وإصلاح الفاسد من أخلاقنا ورجالنا وأعمالنا.

واهاً لهذا الوطن المتردِّد في لهوات الزمان، الذي جنى عليه موقعه من البحر الأبيض ومن الصحراء، فثبتت عليه أعين الطامعين، وازدحمت عليه أقدام الأقوياء، وحامت عليه حوائم الدرهم والدينار، تغرّ وتُغري وإنَّ لها في

(1) المصدر نفسه (404/3).

نفوس ضعفاء الإيمان وفاقدي الضمائر لموقعاً، ومن وراء الدرهم والدينار سماسرة تتخطف، وصَواجة تتلقَّف، وأبالسة تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، وتدفع الألقاب قيماً للمالك، ومن أبناء الوطن فريق من أعوان التفريق، وأعواد التحريق، وهذا أصل البلاء، وهنا منبت العلة وهنا ـ فقط فقط ـ جرثومة الطاعون، وهنا العدو الحقيقي فاحذروه.

وحناناً على إخواننا المجاهدين.. كتب عليهم أن يتجرَّعوا ثلاث مرارات في جيل واحد: مرارة الإهمال في العهد التركي، ومرارة الاستعباد في العهد الإيطالي، وهاهم أولاء يتجرَّعون مرارة التنكر من حلفاء دلوهم بغرور، وسجروا بهم التَّنُّور، ثم أخلفوا الوعد ونقضوا العهد.

من بعض حقكم علينا ـ أيها الإخوان ـ أن نسعدكم، ولو بقول معروف، من نصيحة خالصة، ودعاية نافعة، وتذكير منبه، وليسعد النطق إن لم يسعد الحال[1].

ب ـ ليبيا ماذا يراد بها؟

كتب الإمام الإبراهيمي مقالاً عن ليبيا في الخمسينيات سمَّاه «ليبيا ماذا يراد بها؟». أحاول أن أعرضه في فقرات مهمة، منها:

ـ العمل للاستقلال:

شاعت بيننا ـ معشر المستضعفين ـ كلمة خاطئة ألجأنا إليها الضعف، وأملاها علينا العجز، فألفناها حتى غطَّى الإلف خطأها وسخافتها، ويسَّرها التعوّد على الألسنة والأقلام، كما يسّر كلمة الكفر على لسان قائلها، وكأننا ورثناها عن الساسانيين أصحاب الكُدية لا أصحاب الملك والدولة، كانت لغة الساسانيين مبعثها الجبلة، والجبلة شعبة من القوَّة، فكلمتنا هذه مبعثها الاستخذاء، والاستخذاءُ وليد الضعف.

هذه الكلمة الخاطئة هي «طلب الاستقلال»، ومعناها في الواقع طلب الحق من غاصبه، أو طلب الملك من سالبه، ولو كان من طبيعة الغاصب السالب أن يرد المغصوب فيئة إلى الرشد وإنابة إلى الله ؛ لردَّه من غير طلب، ولا رفع دعوى، ولا إقامة دليل، أما الكلمة المصيبة لهدف الحق فهي «العمل للاستقلال»، إن العامل للشيء سائر إليه بذرائعه الطبيعية، خطوة خطوة، فهو واصل إليه لا محالة، وهو اخذ له حين يأخذه بالاستحقاق الطبيعي، أما طالب الشيء في مفهومه العرفي فهو كطالب الصدقة، إما أن يعطى وإما أن يُحرم، فإن أعطِيَ فبفضل، وإن حُرم فبعدل، وعجيب أن نعيش هذه الكلمة الجوفاء بيننا مع كلمة عبقرية تضارها وتناقصها وهي أن «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى».

شروط الاستقلال الحقيقية هي: الإيمان به مع التصميم، ثم العمل له مع الإصرار، ثم المحافظة عليه بعد تحصيله. وليس منها ـ عندنا ـ إلا طلبه. وإخواننا الليبيون عملوا للاستقلال على قرب عهدهم بانتزاعه منهم، وبذلوا في استرجاعه فوق ما يبذله من في منزلتهم من الضعف والقلة، وإن حبله لم ينقطع من أيديهم وإن روائحه العطرة لتُفعم أنوفهم، وإن أخيلته الجميلة لتتراقص في أذهانهم، وإن ذكرياته لماثلة في نفوسهم مثول ذكريات الشباب

(1) المصدر نفسه (404/3).

في نفوس الشيوخ، وليس بين إشراق الشباب وأفوله إلا فسحة في العمر، وإن كثيراً من الأحياء في ليبيا أدركوا زمن انتزاعه، وسيدركون زمنارتجاعه[1].

. مجلس الأمم المتحدة:

هذا الشيء الذي يسمونه «مجلس الأمم المتحدة» لم يبلغ من العدل والرحمة أن يقسم الحقوق بالسوية، وأن يقتص للجمَّاء من القرناء، بل دينه وديدنه أن يركّب للقرناء قروناً أخرى تنطح بها المستضعفين وتذودهم بها عن مراتع الحياة ومواردها، وقد قرر ذلك المجلس استقلال القطر الليبي العزيز، استقلالاً شابه الدخن وشانه بالتأجيل. ومع ذلك فقد تهللت أسرَّة وخفقت قلوب وحييت امال كانت كامنة في النفوس، وتشوَّف المدلجون . بعد هذه التباشير . إلى الفجر الصادق، بتبلُّج عموده على هذه التباشير . إلى الفجر الصادق، بتبلُّج عموده على هذه الرقعة، املين أن يعمَّ بقية الرقاع، لكن المتعمقين كانوا يرون أن هذا القرار ليس من طبيعة الروح الشريرة التي تصرف ذلك المجلس وتسيره، وإنما هو ثمرة من ثمرات الجهاد المتواصل، من ذلك الشعب الذي نقص الاستعمار عدده وأمواله، ولم ينقص اعتداده بنفسه وإيمانه بحقه، وإنه أثر من اثار أصوات الدول الصغيرة التي أكسبها الاتحاد قوة في ذلك المجلس، فاتجه سعيها إلى نصرة الضعفاء، وكل ضعيف للضعيف نسيب.

. التشاكس بين مطامع الأقوياء:

«وعن استقلال ليبيا» يرى الإبراهيمي: وأنه نتيجة من نتائج التشاكس بين مطامع الأقوياء ومخاوف بعضهم من بعض، فلولا التنين الذي ابتلع الصين، ولم تزل كبده حرّى إلى نُغبة من ماء البحر الأبيض، لما وافقت أمريكا وإنكلترا على قرار الاستقلال، ولولا العملاق الذي يضع رجله على طهران، ويده على الظهران، وعينه على وهران، لما صادقت روسيا على ذلك القرار، فهو بما حقّه من هذه الأسباب، استقلال كِياد من الدول الغربية لروسيا، يردن منه إقصاءها عن البحر المتوسط، ليأمنَّ شرها وشركها، ثم يقسمن الفريسة أجزاء، كما شاء لهن الهوى بأسماء خلابة من ورائها قوى غلابة، وما كان ذلك التأجيل إلا لهذا، وقد ظهرت الحقائق جلية بما بدر منهنّ، الواحدة بعد الأخرى، قبل أن يجفّ مدادُ قرار الاستقلال، هذه في فزان، وتلك في برقة، وثالثة تنتظر طرابلس، وإنهن لبالغات إلى أهدافهن وواجدات فينا من يأخذ بأيديهن إليها، ومن يمدون لها في أسباب المطامع فيقطع لأجلها صلته بالله، وعلاقته بالوطن، إلا إذا بدأنا بالأشراك المنصوبة بيده فأزلناها، وبادرنا إلى الأوثان المرفوعة باسمه فكسرناها، وعمدنا إلى النقائص المتأصلة في نفوسنا فاستأصلناها، وصمدنا إلى الجموع المتفرقة فجمعناها، وإلى الألسنة الجامحة فقمعناها، وإلى الألقاب المهينة فمحوناها، وإلى العزائم المرتخية فقوَّيناها بالحق وشددناها، وإلى جميع الثغر التي يأتينا منها العدو، فأغلقناها في وجهه وسددناها، ثم لقيناه بعد ذلك بصف واحد وإرادة واحدة، ولسان واحد، ورأي جميع، وعزيمة ترتد عنها المحاولات حسرى، وكلمة واحدة لا يقبل معناها التأويل وهي: «أن هذا الوطن الواحد لا يقبل التقسيم، وأن أبناءه وحدة لا تقبل التجزئة، وأنهم

(1) المصدر نفسه (406/3).

يريدون حياة حرة كريمة»، ولو فعلنا ذلك لجاء الاستقلال، عفواً بلا طلب، صفواً بلا كدر، بمعناه في لغتنا لا في لغة قياصرة مجلس الأمم.

إن هؤلاء الأقوياء قد راضونا على الشهوات الخسيسة، حتى عرفوا مواقعها ومداخلها إلى نفوسنا، فأصبحوا يقودوننا بزمامها ويبتزُّون ضمائرنا بالشهوات النفسية كالرتب والألقاب، وأموالنا بالشهوات الحسية، كفضول اللباس والطعام والشراب، وإن أوقى الجُنن منها الزهد فيها والتعفف عنها، ولو أن أهل فزان ـ مثلاً ـ استنارت بصائرهم، ونالت منهم الموعظة بغيرهم، فرفضوا لقب «الباي» وهجروا شرب «التاي» ؛ لسعت إليهم الحرية حبواً[1].

ـ داء الليبيين:

من كتم داءه قتله، وقد ان أن نعلن داءنا، ونعترف بنقائصنا، وإن لم يكن لنا فضل المعترف، فقد فضحنا الزمان قبل أن نفيء إلى أنفسنا، ونتدارك الوهي بالترقيع، فصيَّرنا بذلك مثلة في الإنسانية. وداء إخواننا الليبيين هو داؤنا جميعاً، ليس لأحدنا فيه فضل إذ لا فضل في النقص، ولا بيننا فيه تفاضل لأن علة العلل واحدة، هو الداء الذي ترك جزيرة العرب تضم ملاءتها على بضع دول وإمارات وعلى عدة ملوك وأمراء، ولولا ذلك الداء لكان للعرب دولة واحدة لأنهم أمة واحدة في رقعة واحدة، ولكن ذلك أرهب لعدوِّهم وأحفظ لحقيقتهم، ولولا ذلك الداء لما ضاعت فلسطين، ولما بؤنا بسبّة الدهر وعار الأبد.

أصل دائنا التفرق والخلاف، بدأ صغيراً في الدين، ثم بدأ كبيراً في الدنيا، ومن الخلاف تشعب شعب تلتقي معه في الأثر والنتيجة، والشر والضر، والطعم المر، كما يحمل الفرع خصائص أصله، فاذكر الخلاف تذكر التخاذل والأنانية ووهن العزائم، واذكر الخلاف تذكر عدم الاعتداد بالنفس، وعدم الثقة بين الإخوان، واذكر الخلاف تذكر تعدد الزعماء والأحزاب في الوطن الواحد، واذكر الخلاف تذكر ضعف العقيدة وخطل الرأي، واذكر الخلاف تذكر بيع الذمم والضمائر والتفريط في المصالح الوطنية، واذكره تذكر كل مرض عقلي نعانيه وكل حقيقة في الحياة نغلط فيها، فالرجولة مائعة والتفكير سطحي، والتضحية أقوال، والأهواء متبعة، والزعامة زعم، والنصر تصفيق، والقضايا الخطيرة نلقاها بالعقول الصغيرة، والألسن القصيرة، وهذه الأمراض هي التي أدركها المستعمرون فينا فاحتقرونا، ولو لم يعتبرونا أطفالاً لما وضعوا في أيدينا هذه اللعب يلهوننا بها عن أعمال الرجال.

أيها الإخوة الليبيون: إن لكم إخواناً يصل بينكم وبينهم الماء والصحراء، ويشرفون عليكم من محارم هذه السلاسل الشامخة في الأطلس الكبير، وإنهم يشاركونكم في الشدائد والمحن، كما شاركوكم في الألسنة والسحن، وإنهم يقاسمونكم مرارة الامتحان الذي أنتم فيه، فانظروا في أيّ موضع وضعتكم الأقدار؟ إنكم في موضع قدوة لشعوب ترجو ما ترجون، وتعمل لما تعملون، فاحذروا أن تكونوا قدوة في الهزيمة ومثالاً لخيبة الأمل، واقتلوا

(1) المصدر نفسه (407/3).

الألقاب تحيوا الحقائق، إننا نعيذكم بشرف الرجولة أن تكون فيكم سيوف اليمن وجنرالات تونس[1]، فتلك لا تصلح للضرب، وهذه لا تغني في الحرب[2].

ج. التهنئة باستقلال ليبيا:

. نصّ البرقية التي أرسلها رئيس جمعية العلماء إلى الملك إدريس السنوسي.

الجزائر في 24 ديسمبر 1951م.

جلالة الملك إدريس السنوسي ملك ليبيا. بنغازي.

جمعية العلماء المسلمين المترجمة عن إحساسات الأمة الجزائرية تُعلن مشاركتها للشعب الليبي في ابتهاجه بتحقيق استقلاله، وترفع إلى جلالتكم تهانيها الأخوية، راجية تتويج هذا الاستقلال بالوحدة الشاملة، والتقدُّم المطَّرد، تحت رعايتكم الحكيمة.

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي

. نصَّ البرقية التي بعث بها رئيس جمعية العلماء إلى سعادة بشير بك سعداوي، رئيس المؤتمر الوطني بطرابلس.

الجزائر في 24 ديسمبر 1951.

جمعية العلماء المسلمين المعبِّرة عن عواطف الشعب الجزائري تشارككم في الفرح بإعلان الاستقلال وتتقدم إلى شعب ليبيا بالتهنئة الأخوية، وتتمنَّى أن تتضافر الجهود لتحقيق وحدة ليبيا.

الرئيس: محمد البشير الإبراهيمي[3]

د. كلمة إلى الشعب الليبي:

هذه الكلمة أُلقيت في إذاعة «صوت العرب» بالقاهرة سنة 1953م، وكان الإبراهيمي معترضاً على المعاهدة التي تريد إبرامها المملكة الليبية مع الإنكليز، وطالب الليبيين بالوقوف صفاً واحداً في طريق هذه المعاهدة.

فوجَّه خطابه إلى الليبيين فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

أيها الإخوان الليبيون الكرام:

حيَّاكم الله وبصَّركم بالعواقب، وجعل لكم في الماضي عبرة للحاضر وعظة للمستقبل، ونصركم في معارك الرأي كما نصركم في معارك الحرب، وأراكم الخير خيراً لتتبعوه، والشر شراً لتتقوه وتجانبوه، ووقاكم شر تحكُّم الأفراد وزلل الساسة، وأخرجكم من ظلمات الاستبداد إلى نور الشورى، ووفَّق قادتكم إلى التي هي أحسن عاقبة، وجعل لكم في كل مسلك ضيِّق فرجاً عاجلاً ومخرجاً حسناً.

---

(1) من الألقاب العسكرية الموروثة في تونس في العهد التركي، ولما احتلت فرنسا تونس بقيت الألقاب مجردة من معانيها.

(2) المصدر نفسه.

(3) البصائر العدد 178 . 179 السنة الرابعة 7 جانفي 1952م.

وسلام عليكم بما جاهدتم في سبيله، وناضلتم عن دينه، وبما حافظتم على هذه القطعة الثمينة من الوطن العربي العزيز التي هي ميراث مشترك بينكم وبين إخوانكم العرب بالفرض وإخوانكم المسلمين بالتعصيب.

ـ أثمان غالية في سبيل الحرية:

أيها الإخوان:

لم يعرف العصر الحديث شعباً غيركم دافع عن حريته كما دافعتم، ولا شعباً دفع من أثمان الحرية مثلما دفعتم، فقد قدمتم من دمائكم وأموالكم ما لم يقدِّمه غيركم من الأمم التي ابتليت بتسلط الأقوياء عليها.. قدمت الأمم شبَّانها فداء لأوطانها، أما أنتم فقدمتم الشبَّان والكهول والشيوخ، وناهيكم بشيخ المجاهدين وإمام الشهداء عمر المختار، فضربتم الأمثال وملأتم التاريخ بالأعمال، وصبرتم في سبيل وطنكم على الجوع والعطش والعري والتشريد، ولم تهن لكم عزيمة ولا ضعف إيمان ولا تزعزعت عقيدة، ولم تخطئوا كما أخطأ غيركم في فهم الحقيقة الكاملة للحياة، وهي أن يحيا الإنسان كريماً أو يموت كريماً، وإن الحياة بلا حرية موت أفظع من الموت، كذلك لم يبتلِ الله فيمن ابتلى من خلقه بمثل ما ابتلاكم به من استعمار حيواني شره أذاقكم لباس الجوع، ولم يستطع أن يذيقكم عذاب الخوف، ولكنكم أذقتموه الهزائم التي سجَّلها التاريخ، وقاوم ضعفُكم الذي يمدّه الإيمان قوَّته التي يمدُّها الطغيان، وصدقتم ما عاهدتم الله عليه، فمنكم من قضى نحبه ومنكم من ينتظر، وما بدَّلتم تبديلاً[1].

ـ استقبال الناس لاستقلالكم:

أيها الإخوان:

لم تتفق جمعية الأمم على قضية مثلما اتفقت على استقلالكم ؛ على ما شاب ذلك الاستقلال من شوائب، وعلى ما حفَّه من مصائب، وعلى ما سبقه وتبعه من مناورات وألاعيب فكل ذلك يشفع له أنه مولود، والمولود يولد ضعيفاً ثم تقويه العناية والرعاية والحياطة والمحافظة، وكذلك قال الناس عنكم وبذلك استقبلوا استقلالكم مع الرحمة بكم والإشفاق عليكم.

أيها الإخوان:

فرح إخوانكم العرب والمسلمون باستقلالكم، لأنهم يعدُّونه جزءاً من استقلالهم أو تثبيتاً له أو وسيلة لاستقلال غير المستقل منهم، بل لأنهم يرون فيه تحقيقاً لأكبر حاجة في نفوسهم وهي الاتصال بين شرقهم وغربهم، فقد كانت ليبيا ـ وما زالت ـ كما وضعها الله جسراً بين الشرق والغرب، مرَّ عليه الفاتحون من أسلافنا يحملون إلينا الهدى ودين الحق، ومرَّت عليه مواكب العروبة ممثلة في بني هلال بن عامر بن صعصعة، يحملون إلينا الخصائص الجنسية والبيان، ومرَّ عليه الدعاة إلى الحق من أئمة الدين، والحاملون للعدل والإحسان من الغزاة المجاهدين،

(1) المصدر نفسه (239/4).

فعلى سهول أرضكم مرَّ عقبة فاتحاً، وأبو المهاجر منبتاً، وحسَّان معمراً ومطهراً للبقعة، وطارق موسعاً للرقعة، وعليها مرَّ إدريس ليغرس في المغرب شجرة النبوَّة، وعبد الرحمن ليقيم فيه الخلافة المروانية[1].

. واجبات الملك والحكومة:

فكان أول الواجبات على مليككم وحكومتكم أن يحافظوا على هذا الاستقلال، وأن يقدِّروا الأثمان التي اشتُري بها، وأن يسوسوه بالحكمة والحذر، وأن يحفظوا ذمة الشهداء الأبرار من بنيه، وأن يرعوا حرمة ما أريق على جوانبه من دموع ودماء، وأن يديجوه على الذلل السماح من الطرائف، وأن يجنِّبوه وهو في خطواته الأولى مزالق المعاهدات مع من لا عهد له ولا ميثاق، وأن يربطوا مستقبله بالشرق لا بالغرب وبالقريب لا بالغريب.

ولكنهم . مع الأسف . جاؤوه بالكفن وهو في ثياب العرس، وعرضوا النوائح في مواكب الفرح، وأرادوا أن يعالجوه من الفقر فعالجوه بالفقر ومعه الذل، وأن يداووه فداووه من الحمَّى بالطاعون، وقيَّدوه بقيد من حديد مع مستعمر عتيد وجبَّار عنيد وعدوّ لدود عرف بنقض العهود وتجاوز الحدود، ومع مفترس ما زالت أظافره حمراء من دماء المسلمين والعرب، وما زال واضعاً قدميه النجستين على البقاع الطاهرة من أرضنا في «القناة» من مصر وفي «الحبانية» من العراق وفي «المفرق» من الأردن، وما زال ممتداً كالسرطان على الشواطئ الشرقية لجزيرة العرب، وما زال في السودان يماطل بالوعد الباطل.

كل هذه الأوصاف تعبير لجنس اسمه الإنكليز، وكل تلك البلايا وأمثالها معها شرح للمعاهدة التي تريد حكومة ليبيا أن تعقدها مع الإنكليز.

أيها الإخوان الليبيون:

إنها ليست معاهدة.. إنها استعمار أشنع من الاستعمار الإيطالي، بلوتم مُرَّه، وعانيتم شرَّه، إنها في مالها تضييع للوطن واستعباد لبنيه.. إنها تمكين اختياري للعدو في رقابكم، إنكم ستصبحون بسببها غرباء في أوطانكم مستعبدين لأعدائكم.. إنها مكيدة خفيت حتى اتضحت، واستترت حتى افتضحت، ودُبِّرت بليل لتغطية ما فيها من الويل.

أيها الإخوان:

سلوا إخوانكم وجيرانكم في مصر: ماذا لقوا من العدو الغادر في مدة سبعين سنة؟ سلوهم هل صدق له معهم عهد أو برَّ له يمين؟ سلوهم هل جلا عن أرضهم في المواعيد الكثيرة التي قطعها على نفسه بالجلاء؟ وهل وقف عند نصوص المعاهدات التي أبرمها ووقع عليها؟

العاقل من اتَّعظ بغيره، فاتَّعظوا ولا تقدموا على أمر فيه هلاككم وهلاك إخوانكم، فإن معاهدته معكم معناها الكيد لمصر وتطويقها، فبينما تجاهد لإخراجه من القناة الضيِّقة، إذا به يحادها بكم وبوطنكم الواسع الغني.

أيها الإخوان:

(1) المصدر نفسه (239/4).

إذا نفذت هذه المعاهدة فسترون بأعينكم بعد سنوات قليلة سماءكم وقد ملئت بطياراته، وأرضكم وقد غصَّت بجنوده ومطاراته، خيرات أرضكم مما على ظهرها وبطنها وهي في قبضته يصرفها بمشيئته وفي قبضته، والاتصالات بينكم وبين إخوانكم في الشرق وفي الغرب وقد أصبحت مقطوعة ممنوعة.

أيها الإخوان:

إننا نخاطب الليبيين، وإن حكَّامكم منكم فهم داخلون في الخطاب، فليراجعوا بصائرهم، وليرجعوا إلى أمتهم يستهدونها ويسترشدون بها، وإلى إخوانهم العرب يستعينونهم ويستنجدون بهم، وليخافوا عذاب الله وحساب التاريخ.

أيها الإخوان:

إن الضرورة الدافعة إلى هذه الصفقة الخاسرة مليون جنيه، ولكنكم ستبيعون فيها الوطن كله وشرف الوطن كله وحرية الوطن كله، وإن هذا الثمن البخس الذي تبيعون به وطناً كاملاً وشعباً كاملاً تستطيع كل حكومة عربية أن تسدَّه عنكم في كل سنة، ومن حدَّثكم بغير هذا فهو مخدوع أو خادع.

أيها الإخوان:

قفوا كلكم صفاً واحداً في طريق هذه المعاهدة المخسرة حتى تمزِّقوها قبل أن تمزقكم[1].

2 . فلسطين:

كانت اهتماماته بكل قضايا الأمة وعلى رأسها قضيتها المحورية قضية أرض الإسراء والمعراج والأقصى: فلسطين.

فلسطين، التي خصَّها بالمزيد من الاهتمام، فهو يعيش فيها وتعيش فيه، يذكّر بمحنتها، ويحامي عن حقَّها، ويحرِّض العرب والمسلمين على الذود عن حياضها، ويدعو الجزائريين خاصة أن ينهضوا بواجبهم نحوها، ولا يتخاذلون عن نصرتها بكل ما يستطيعون، كان هذا موقفه قبل أن تقوم دولة الكيان الصهيوني وبعد أن قامت.

استمع معي إلى ما كتبه في البصائر في العدد «5» سنة 1947م:

يا فلسطين، إن في قلب كل مسلم من قضيتك جروحاً دامية، وفي جفن كل مسلم جزائري من محنتك عبرات هامية، وعلى لسان كل مسلم جزائري في حقِّك كلمة مترددة هي: فلسطين قطعة من وطني الإسلامي الكبير قبل أن تكون قطعة من وطني العربي الصغير، وفي عنق كل مسلم جزائري لك يا فلسطين حقٌّ واجب الأداء وذمام متأكِّد الرعاية، فإن فرَّط في جنبك، أو أضاع بعض حقِّك، فما الذنب ذنبه، وإنما هو ذنب الاستعمار الذي يحول بين المرء وأخيه، والمرء وداره، والمسلم وقبيلته.

يا فلسطين، إذا كان حب الأوطان من أثر الهواء والتراب، والمارب التي يقضيها الشباب، فإن هوى المسلم لك أن فيك أولى القبلتين، وأن فيك المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وأنك كنت نهاية الرحلة الأرضية

(1) المصدر نفسه (241/4).

وبداية الرحلة السماوية، ومن تلك الرحلة الواصلة بين السماء والأرض صعوداً بعد رحلة ادم الواصلة بينهما هبوطاً، وإليك إليك ترامت همم الفاتحين وترامت الأيْنُق الذلل بالفاتحين، تحمل الهدى والسلام وشرائع الإسلام، وتنقل النُّبوة العامة إلى أرض النبوات الخاصة، وثمار الوحي الجديد، إلى منابت الوحي القديم، وتكشف عن الحقيقة التي كانت وقفت عند تبوك بقيادة محمد بن عبد الله، ثم وقفت عند مؤتة بقيادة زيد حارثة، فكانت الغزوات تحويماً من الإسلام عليك، وكانت الثالثة ورداً، وكانت النتيجة أنَّ الإسلام طهَّرك من رجس الرومان، كما طهَّر أطراف الجزيرة قبلك من رجس الأوثان[1].

وفي هذه المقالة يقول: أيظن الظانون أن الجزائر بعراقتها في الإسلام والعروبة تنسى فلسطين؟ وتضعها في غير منزلتها التي وضعها الإسلام من نفسها؟ لا والله: يأبى لها ذلك شرف الإسلام، ومجد العروبة، ووشائج القربى. ولكنَّ الاستعمار الذي عقد العقدة لمصلحته، وأبى أن يحلَّها لمصلحته، وقايض بفلسطين لمصلحته، هو الذي يباعد بين أجزاء الإسلام لئلا تلتئم، ويقطع أوصال العروبة كيلا تلتحم، وهيهات.

ويستمر الشيخ علىهذا النهج في التركيز على فلسطين، والتعريف بعدالة قضيتها، وجمع الأمة كلها حولها، في سبع مقالات مطوَّلة، بأسلوب الشيخ الذي يُحرِّك السواكن، ويثير الكوامن، ويفجِّر المكنون من الطاقات.

انظر ما كتبه عن «عيد الأضحى وفلسطين»:

«النفوس حزينة واليوم يوم الزينة، فماذا نصنع؟».

إخواننا مشرَّدون، فهل نحن من الرحمة والعطف مجرَّدون؟

تتقاضانا العادة أن نفرح في العيد ونبتهج، وأن نتبادل التهاني، وأن نطرح الهموم، وأن نتهادى البشائر، وتتقاضانا فلسطين أن نحزن لمحنتها ونغتمّ ونُعنَى بقضيتها ونهتمّ.

ويتقاضانا إخواننا المشرَّدون في الفيافي، أبدانهم للسوافي، وأشلاؤهم للعوافي ؛ أن لا ننعم حتى ينعموا، وأن لا نطعم حتى يطعموا.

ليت شعري... هل أتى عبَّادَ الفلس والطين، ما حلَّ ببني أبيهم في فلسطين؟

أيها العرب، لا عيد حتى تنفذوا في صهيون الوعيد، وتنجزوا لفلسطين المواعيد، ولا نحر حتى تقذفوا بصهيون في البحر، ولا أضحى حتى يظمأ صهيون في أرض فلسطين ويضحى.

أيها العرب: حرام أن تنعموا وإخوانكم بؤساء، وحرام أن تطعموا وإخوانكم جياع، وحرام أن تطمئن بكم المضاجع وإخوانكم يفترشون الغبراء.

أيها المسلمون: افهموا ما في هذا العيد من رموز الفداء والتضحية والمعاناة، لا ما فيه من معاني الزينة والدعة والمطاعم، ذلك حقُّ الله على الروح، وهذا حقُّ الجسد عليكم.

إنَّ بين جنبيَّ ألماً يتنزَّى، وإن في جوانحي ناراً تتلظى، وإن بين أناملي قلماً سُمته أن يجري فجمح، وأن يسمح فيما سمح،، وإن في ذهني معاني أنحى عليها الهم فتهافتت، وإن على لساني كلمات حبسها الغم فتخافتت.

(1) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 97.

ولو أن قومي أنطقتني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجَرَّت[1]

وكتب مرة أخرى ببراعة مقالاً يقول فيه: هل لمن أضاع فلسطين عيد؟

ولنقرأ هذه الكلمات البليغة المعبِّرة التي ارتجلها الإبراهيمي في حفل أقامته جمعية الأخوة الإسلامية في العراق، ونشرتها مجلتها قال:

إن معرفة كارثة فلسطين لا تعدو أن تكون أسئلة وأجوبة، فإن استطعنا أن نعرف الأجوبة استطعنا أن نعرف الداء، ثم نعالجه.

أما **السؤال الأوَّل**، فهو:

هل أضعنا فلسطين؟

الجواب: نعم.

السؤال الثاني:

هل أعطيناها أم أخذوها منا؟

الجواب: أعطيناها نحن.

السؤال الثالث:

هل يمكن استرجاعها؟

الجواب: يمكن استرجاعها.

ثم قال: بماذا أضعنا فلسطين؟

الجواب: أضعناها بالكلام.

فقد كان الشعراء ينظمون القصائد الطويلة العريضة في مديح العرب وتسفيل اليهود، والكُتَّاب يكتبون، والسَّاسة يصرِّحون، فبين النظم والتصريح والكتابة والخطابة ضاعت فلسطين.

ثم قال:

الرجل البطل يعمل كثيراً ولا يقول شيئاً[2].

وفي مقال اخر ختم مقالته بهذه الكلمات المضيئة التي يكاد يحفظها الجزائريون كافة:

أيها العرب، أيها المسلمون:

إن فلسطين وديعة محمد عندنا، وأمانة عمر في ذمَّتنا، وعهد الإسلام في أعناقنا، فلئن أخذها اليهود ونحن عصبة إنَّا إذن لخاسرون[3].

---

(1) نشرت في العدد (53) من جريدة البصائر 1948م.

(2) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي ص 99.

(3) الملتقى الدولي ص 99.

3 . تونس:

كتب تحت عنوان «كوارث الاستعمار» مواسياً لتونس يقول:

فات «البصائر» . بسبب عطلة المطبعة أسبوعين في اخر رمضان . أن تشارك الأمة التونسية العزيزة في إعلان الحزن، على ما أصابها في العهد الأخير من كوارث الاستعمار، التي تجلّت في الحادثتين الداميتين، حادثة (جبل الجلود) و(حادثة صفاقس).

أمّا التألم والامتعاض من قتل الأبرياء المسالمين، وأمّا الحزن والأسى لإخواننا الذين ماتوا مظلومين، ولأطفالهم وزوجاتهم الذين بقوا بلا مال ولا عائل، فإنَّ حظَّنا منها لا يقلّ عن حظ إخواننا التونسيين، ومحال أن يتألم عضو من جسد، ولا يتألم له سائر الأعضاء، وقد ألَّفت هذه المصائب المتوالية، وهذه المصائب المتَّحدة المصدر بين قلوبنا تأليفاً جديداً محكم النسج، وأرهفت إحساسنا وصيَّرتنا كتلة من لحم مرضوض، في لجة من الدموع المرفضة، فلا يمتاز في مصائبنا معزٍّ من معزّى.

عذرنا إلى إخواننا أنَّنا لم نخسر في باب التعزية إلا سطوراً سوداً في أوراق بيضاء تقرأ وتهجر، وعوضنا الغالي عنها إحساسات مضطربة في نفوس متألمة[1].

ويكتب المقالات في الصفحات المتعددة عن «المغرب»، وقد كان يسمّى في ذلك الوقت «مراكش» أو المغرب الأقصى، ويتحدَّث عن الملك محمد الخامس الذي وقف ضدَّ فرنسا، وقامت بنفيه خارج البلاد، وأثنى عليه جميلاً على قلة ثنائه على الملوك والأمراء، بل كثيراً ما يصليهم ناراً من كلمه، الذي نراه أحياناً أحدَّ من السيف[2].

4 . لمصر مكانة خاصة:

وهذه مصر كنانة السهام، أرض العبقرية وسماء الإلهام، وقبلة العرب ومحراب الإسلام، تدفع بقوة إيمانها ألوهية فرعون جديد، وتدفع بيقظتها كيد شيطان مريد، بعد أن أنقذها الإسلام من تعبد الفراعنة الأوَّلين، وإن فرعون الجديد لعال في الأرض . كأخيه . وإنه لمن المفسدين[3].

ويتحدَّث في مقال خاص رائع يخاطب فيه مصر «يا مصر» فيقول وما أبدع ما يقول:

انثري كنانتك . يا كنانة الله . فإن لم تجدي فيها سلاح الحديد والنار فلا تراعي، واحرصي على أن تجدي فيها السلاح الذي يفلّ الحديد، وهو العزائم. والمادة التي تطفأئ النار، وهي اتحاد الصفوف، والمِسنّ الذي يشحذ هذين، وهو العفة والصبر.

فلعمرك . يا مصر . إنهم لم يقاتلوك بالحديد والنار، إلا ساعة من نهار، ولكنَّهم قاتلوك في الزمن كلِّه بالأستاذ الذي يفسد الفكر، وبالكتاب الذي يزرع الشك، وبالعلم الذي يمرض اليقين، وبالصحيفة التي تنشر الرذيلة،

---

(1) الملتقى العدد «5» . السنة الأولى من السلسلة الثانية 1947م.

(2) الملتقى الدولي ص 100.

(3) المصدر نفسه ص 102.

وبالفيلم الذي يزيِّن الفاحشة، وبالبغيِّ التي تخرب البيت، وبالحشيش الذي يهدم الصحة، وبالممثلة التي تمثِّل الفجور، وبالراقصة التي تغري بالتخنث، وبالمهازل التي تقتل الجدَّ والشهامة، وبالخمرة التي تذهب بالدين والبدن والعقل والمال، وبالشهوات التي تفسد الرجولة، وبالكماليات التي تثقل الحياة، وبالعادات التي تناقض فطرة الله، وبالمعاني الكافرة التي تطرد المعاني المؤمنة من القلوب.

فإن شئت أن تذيبي هذه الأسلحة كلها في أيدي أصحابها ؛ فما أمرك إلا واحدة، وهي أن تقولي: إني مسلمة. ثم تصومي عن هذه المطاعم كلها.. إن القوم تجَّار سوء فَقَاطِعِيهم تنتصري عليهم، وقابلي أسلحتهم كلها بسلاح واحد وهو التعفُّف عن هذه الأسلحة كلها.. فإذا أيقنوا أنك لا حاجة لك بهم، أيقنوا أنهم لا حاجة لهم فيك وانصرفوا.. وماذا يصنع «المرابي» في بلدة لا يجد فيها من يتعامل معه بالربا[1]؟

5 . حركة الإسلام في أوربا:

ولا يكتفي الشيخ بحمل هموم الإسلام وأمَّته في العالم الإسلامي فقط، بل تمتد همه إلى الأقلِّيات الإسلامية التي تعيش في الغرب، وفي غيره، فتراه يكتب عن حركة الإسلام في أوربا قائلاً:

الإسلام روح تجري، ونفحة تسري، وحقيقة ليس بين العقول وبين قبولها إلا مواجهتها لها، وليس بين النفوس وبين الإذعان لها إلا إشراقها عليها من مجاليها الأولى.

لذلك نراه في جميع مراحل التاريخ يقطع الفيافي بلا دليل، ويقطع البحار بلا هاد، ويغزو مجاهيل أفريقيا في الوسط والجنوب، ومنتبذات اسيا في الوسط والشرق، ثمَّ يدخل شرق أوربا مع الفتوحات العثمانية، كما دخل غربها في الجنوب مع الفتوحات الأموية، وكما دخل جنوبها مع الفتوحات القيروانية، وهو في كل ذلك يقتحم الأذهان بغير استئذان.

وليست تلك الفتوحات الحربية هي التي غرسته، أو مكنت له الان. الفتح في الإسلام لم يكن في يوم ما إكراهاً على الدين، وإنَّما مكنت للإسلام طبيعته ويسره، ولطف مدخله على النفوس، وملاءمته للفطر والأذواق والعقول. ولو بقي الإسلام على روحانيته القوية، ونورانيته المشرقة، ولو لم يفسده أهله بما أدخلوه عليه من بدع، وشانوه من ضلال ؛ لطبّق الخافقين، ولجمع أبناءه على القوَّة والعزَّة والسيادة، حتى يملكوا به الكون كلَّه، ولكنهم أفسدوه واختلفوا فيه وفرَّقوه شيعاً ومذاهب، فضعف تأثرهم به، فضعف تأثيره فيهم، فصاروا إلى ما نرى ونسمع.

لا يعود المسلم إلى العزّةِ والسيادة حتى يغيِّر ما به، فيرجع إلى حقائق القران يَسْتَلهمها الرشد، ويستمدّ منها تشديد العزيمة، وتسديد الرأي، وإصابة الصواب، ومتانة الأخلاق، فيأخذ دينه بقوة، تهديه إلى أن يأخذ دنياه بقوة، ويقوده كل ذلك إلى أخذ السعادة بأسبابها.

(1) المصدر نفسه ص 103 جريدة البصائر العدد 178 سنة 1952م.

ولو كان المسلم مسلماً حقاً لعرف نفسه، ولو عرف نفسه لعرف أخاه، ولو عرف أخاه لكان قوياً به في المعنى كثيراً به في المادة، ويوم نصل إلى هذه الدرجة نكون قد أعدنا تاريخ الإسلام من جديد، ونكون قد أضفنا إلى هذا العُنْصُر المادي العصري الفوار عنصراً روحانياً فواراً يلطف من حدَّته، ويخفِّف من شدَّته، فيتكوَّنُ منهما مزاج صالح، يصلح عليه الكون كله، لا المسلمون وحدهم.

إنك لترى للمسلمين وجوداً في كل قطر، وتسمع عنهم نبأ في كل ناحية، ولكنَّهم متفرِّقون في زمن أصبح فيه التكتُّل شرطاً للحياة، ومتباعدون في وقت أصبح فيه التقارب أساساً للقوة، ومتناكرون في عصر أصبح فيه التعارف أقوى وسائل التعاون، ومنصرفون عن الجامعة الإسلامية الواسعة إلى جوامع أخرى ضيِّقة الافاق، من جنسية وإقليمية، في هذا الزمن الذي يتداعى فيه أتباع الأديان القديمة، ومعتنقوا النحل الحديثة، إلى التجمُّع حول المبادأئ الروحية أو الفكرية.

وهناك في الأقاصي من شمالي أوربا طوائف من إخواننا المسلمين المنحدرين من السلائل التركية والصقلية التي امتزجت في شبه جزيرة البلقان، ثم مدت مدها إلى النمسا، وهنغاريا، ثم نزحت منها مجاميع إلى الشمال، فكانت بقاياها هذه المجموعة المتوطِّنة في «فنلندا»، ولا نشك أن إخواننا هؤلاء قد اصطبغوا بصبغة ذلك الوطن في حياتهم الدنيوية وطرق معايشهم، ولا نشك أنهم أخذوا فيها بنظام العصر وقوَّته وجدِّه، ولكنهم في حياتهم الدينية مستضعفون محتاجون إلى إمْدَاد من إخوانهم المسلمين في جميع الأقطار، تقوِّي ضعفهم المادي، وتكمل نقصهم العلمي، وتشعرهم بالعزَّة والكرامة، وترفع رؤوسهم بين مواطنيهم[1].

وقد كتب الشيخ حبيب الرحمن شاكر إمام المسلمين في فنلندا، يظهر من ذلك كله ما هم في حاجة إليه، فليس لهم مسجد جامع يؤدون فيه الشعائر الدينية، وإنما يصلُّون الجمعة في قاعة سينما يكترونها لساعات، وليس عندهم من الكتب الدينية العربية شيء إلا المصاحف. وإنما يتمتعون بشيئين مهما تكن قِيمَتُهُما غالية فإنهما لا تغنيان عن المفقود، وهما:

العقيدة المتينة، والحرية التامة.

وجمعية العلماء تبتهج بهذه الصلة الجديدة بإخواننا مسلمي فنلندا، وتصل بهذه الكلمة وشائج القربى الدينية، وتحرك بها سواكن هِمَم المسلمين في الشرق والغرب، ليلتفتوا إلى هذه الناحية من جسمهم، فيداووا علَّتها، ويسدّوا خلتها، ويربحوا بها ما يزيد في عددهم، وإن هذا لأقلَّ ما يوجبه الإسلام على المسلم[2].

* * *

(1) المصدر الملتقى الدولي ص 108.

(2) الملتقى الدولي ص 94.

المبحث الثاني

ثورة أول نوفمبر 1954م

للشعب الجزائري نضال كبير، وكفاح مرير وجهاد عظيم، توارثته الأجيال منذ دخول المحتلين الفرنسيين إلى بلادهم، وأصبحت الأجيال تسلّم راية الجهاد لبعضها على التوالي، وكان جهاد الشعب الجزائري شاملاً وعظيماً، وعلى كل المستويات السياسية والعسكرية والحضارية... الخ.

بني على روح الإسلام وحب الأوطان، والاستعداد للشهادة في سبيل الله عز وجل. وكان للفكر الإصلاحي الذي قاده ابن باديس وجمعية العلماء تأثير كبير في كل مدن وقرى ووديان وجبال وسهول وصحارى الجزائر، فقد أعدّ ابن باديس جيلاً مؤمناً بحقه في الحياة معتزاً بهويته، رافضاً للاحتلال متشوقاً لحريته.

كان ابن باديس توّاقاً إلى التضحية في سبيل تحرير شعبه وبلاده من المحتل الغازي بالنفس والروح. ويذكر الأستاذ إبراهيم الكتاني أنه كان في خريف سنة 1937م في تلمسان بمناسبة تدشين مدرسة دار الحديث بها، وقد رافق الإمام ابن باديس الوفد إلى حيث أطلال مسجد المنصورة، حيث حرر نداء يدعو فيه الأمة الجزائرية للصيام وملازمة المساجد، بمناسبة ذكرى مرور مائة سنة على احتلال قسنطينة، ولما قرأه على الوفد جعل أحد تلاميذه يثبط عزيمته ويحذره مغبة نشره، فغضب ابن باديس وقال: يا أبنائي، إنكم تعلمون أني لم أطلب أي شيء لنفسي، ولكني اليوم أطلب لنفسي شيئاً واحداً، وهو أن تسمحوا لي أن أكون أول ضحية في سبيل الجزائر عندما يحين الوقت للتضحية في سبيلها[1].

ولم يكن يتحرج ـ أبداً ـ من الإفصاح بالهدف الاستراتيجي البعيد من وراء حركته الجهادية لتلاميذه، عندما يسألونه طالبين منه الإعلان بالثورة والمطالبة بالاستقلال، فيذكر محمد خير الدين أنه ذات يوم من عام 1933م التف نفر من الشباب المتحمس حول الإمام ابن باديس بنادي الترقي، وطلبوا منه أن يرفع صوته قوياً مدوياً عالياً، مطالباً باستقلال الجزائر وحريتها، فقال لهم: وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيد الجدران؟ فقالوا: كلا ولا يمكن هكذا.

فقال لهم: إن من أراد أن يبني داره فعليه أن يبني الأسس ويقيم الجدران أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقيم أمة فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف.

وهذا الكلام نفسه الذي أجاب به تلاميذه، قاله لمصالي الحاج الذي كان يطالب بالاستقلال: وهل يمكن لمن شرع في تشييد منزل، أن يتركه بدون سقف، وهل غايتنا من عملنا إلا تحقيق الاستقلال[2]؟

---

(1) مذكرات محمد خير الدين (407/1).

(2) كفاح الشعب الجزائري (716/2)، للصلابي.

وصرّح سنة 1940م في اجتماع خاص في بيته بمبنى جمعية التربية والتعليم الإسلامية مقسماً، فقال: والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقني على الثورة لأعلنتها[1].

وحينما حمي وطيس الحرب العالمية الثانية، اجتمع به جماعة من أنصار حركته فقال: عاهدوني. فلما أُعطي له العهد بالمصافحة قال: إني سأعلن الثورة ضد فرنسا عندما تُشهر عليها إيطاليا الحرب.

وذُكر عنه أنه عندما يسأله تلاميذه: كيف يمكن تخليص الجزائر من قبضة الاستعمار؟ يشير إلى الجبال البعيدة قائلاً: هناك يكون الخلاص، كما يقول عنه أحد تلاميذه: كان يريد الخروج على فرنسا إلى جبال الأوراس ليعلنها ثورة على فرنسا لو وجد رجالاً يساعدونه[2].

كان ابن باديس يعلق اماله على تلاميذه الذين يدرسهم، والكبار الذين يزورهم ويحترمهم، ويلح على الجميع في دروسه ومحاضراته على الاستعداد المادي والمعنوي لمواجهة هذا العدو في يوم ما[3].

واستعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية، استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس من يخاطبهم بخطبه أو يلقي عليهم ما نظمه من قصائد، فكانت بدورها دالة على الفكر الثوري التحرري في شخصيته. وهذه أبيات من قصيدته التي ترنم بها الشعب الجزائري ولازال يذكرها حتى يومنا هذا:

شعب الجزائر مسلم ... وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله ... أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له ... رام المحال من الطلب
يا نشء يا ذخر الجزائر ... في الشدائد والكرب
يا نشء أنت «رجاؤنا» ... وبك «الصباح» قد اقترب
خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تَهَبْ

إلى أن قال:

من كان يبغي وُدَّنا ... فعلى الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا ... فله المهانة والحَرب
هذا نظامُ حياتنا ... بالنور خُطّ وباللّهب
حتى يعود لشعبنا ... من مجده ما قدْ ذهب
هذا لكم عهدي به ... حتى أُوَسّد بالترب
إذا هلكت فصَيْحتي ... تحيا الجزائر والعرب[4]

(1) المصدر نفسه (716/2).
(2) المصدر نفسه (716/2).
(3) المصدر نفسه (716/2).
(4) الشيخ عبد الحميد بن باديس، د . تركي رابح ص 225 . 226.

وارتجل ابن باديس في حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 27 رمضان 1356هـ بمناسبة إحياء ليلة القدر نشيد «اشهدي يا سماء»، نشر في

جريدة البصائر، ومما جاء فيه:

اشهدي يا سماء   واكتبن يا وجود
أننا للحمى   سنكون الجنود
فنزيح البلا   ونفكّ القيود

إلى أن قال:

ونذيق الردى   كل عات كنود
فيرى جيلنا   ذكريات الجدود
ويرى قومنا   خافقات البنود
ويُرى نجمنا   للعلا في صعود
فتضم اسمنا   صفحات الخلود
هكذا هكذا   هكذا سنعود[1]

ونلمس في الأبيات السابقة العمق الثوري في شخصية الإمام ابن باديس وتعطشه إلى الحرية، والتي نلمسها في قوله «فنزيح البلا... ونفك القيود»، كما توعّد المحتل بقوله «ونذيق الردى... كل عات كنود». ونجده أيضاً في هذه الأبيات يستعمل كلمات ذات بعد تحرري وثوري مثل: «الحمى» «جنود» «القيود». واستدل ابن باديس في أحد خطبه ببيت الأحنف بن قيس، ليبرز ما على القائد من واجبات فقال:

إنّ على كلّ رئيس حقاً   أن يخضب الصعدة أو تندقّاً

والصعدة هي الرمح، يريد أن يخضب بالدماء أو تنكسر وتندق في يده أثناء محاربته للأعداء، ومن خلال استدلاله بهذا البيت أيضاً نلمس ثورية ابن باديس، وقد أتبع كلامه السابق بالقول: لكن صعدتنا هي القلم، وخضابه الحبر، ولكن لا يندق هذا القلم حتى تندق أمامه جبال من الباطل، فعلا القاعة تصفيق عال وهتاف بكلمة الله أكبر.

وذكر ابن باديس في العدد الخامس من جريدة المنتقد الصادرة يوم الخميس 11 محرم 1344هـ/ 30 جويلية 1925م قوله نشرنا قصيدة العالم الشاعر الحاج أحمد البوعَوني مبتهجين بأن يكون المنتقد ميداناً تلتقي فيه تجربة الشيوخ بنشاط الشبان، حتى يحق له أن يقول أنه يتقدم للجهاد الحيوي، ثم ذكر بيتاً شعرياً:

بشبان يرون القتال مجداً   وشيب في الحروب مجربين

(1) كفاح الشعب الجزائري (714/2).

فابن باديس اعتبر أن جريدة المنتقد تهدف إلى إعداد الشباب لما سمّاه «الجهاد الحيوي»، الذي عرّفه بأنه «القتال» و «الحروب»، والذي يشارك فيه الشباب المندفعون والشيوخ المجربون، كما كانت الخطب التي يلقيها الإمام عبد الحميد ابن باديس مليئة بمعاني الجهاد وإثارة الحماسة في النفوس ورافعة للهمم والمعنويات.

وقد كان ابن باديس في كثير من خطبه يستدل بالأحداث والأمجاد التاريخية لإثارة الحماسة في نفوس من يخاطبهم، ومن ذلك قوله لما ذكر بلدة سيدي عقبة أنها: مدفن أسلافنا الفاتحين الذين محقوا الشرك والاستبداد عن هذه البلاد، فقد أنجبت لنا المصلح الشيخ الطيب العقبي، الذي يجاهد اليوم ليسحق البدعة والفساد من هاته الأرض، ذرية بعضها من بعض[1]. كما تضمنت خطبه كلمات ذات بعد ثوري، فقد جاء في قوله بمناسبة صدور مجلة الزيتونة والابتهاج بصدورها قوله: ويحق لي وأنا جندي من جنود الإصلاح الإسلامي العام أن أسرّ سروراً بتعزز معاقل الإصلاح بها[2]، كما وصف في نفس البيان جريدته التي صودرت بـ «الشهيدة».

يتبين لنا مما سبق أن ثورية الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس أبانت عنها خطبه وأشعاره والعبارات التي كانت تجري على لسانه، مما يؤكد لنا البعد الثوري والتحرري في شخصية ابن باديس الثائر على المحتلين والغزاة[3]، كان لابد لابن باديس وجمعية العلماء في عهد الإبراهيمي دور كبير في قيادة الأمة الجزائرية، وصياغة المقومات الشخصية الجزائرية، التي ساعدت في إيجاد أرضية فكرية وعقائدية ساهمت في إنجاح ثورة نوفمبر 1954م.

* * *

(1) المنتقد العدد 6 جويلية 1925، ص 114 . 115، كفاح الشعب الجزائري (714/2).

(2) كفاح الشعب الجزائري للصّلاّبي (715/2).

(3) المصدر نفسه (715/2).

أولاً: أهم الأحداث التي ساهمت في إعلان الثورة

كان الشعب الجزائري لا يكلّ ولا يملّ في التصدي للغزاة المحتلين، وكان يتطلع إلى وقت الخلاص ويستعد للفرصة التي تتاح لكي يحقق استقلاله. وساهم ظلم المحتلين وعوامل عدة في اندلاع ثورة نوفمبر، من أهمها:

1 . اثار أحداث 1945م:

إن مجازر الثامن ماي 1945م التي تركزت أساساً في مناطق قالمة وسطيف وخراطة لم تنه روح المقاومة لدى الشعب الجزائري، بل كانت بداية مرحلة جديدة أعيد خلالها النظر في الاستراتيجية، وفي وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة.

ويمكن حصر النتائج الإيجابية في ظهور جيل جديد شاب عركته المحنة والمأساة، يرفض أسطورة الحضارة الفرنسية المتحررة والتحريرية، التي كانت النغمة المفضلة لعدد من مثقفي الجيل القديم.

واقتناع الشعب الجزائري بأن تحقيق الاستقلال لا يمكن أن يكون إلا بالسلاح والسلاح وحده، وبذلك أصبحت دعوة الكفاح المسلح تجد سبيلها في أوساط شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد كانت ذكرى الاعتداء الفرنسي المسلح والبربري ضد الشعب الجزائري الأعزل، مجال تذكير من رجال الحركة الوطنية، وخاصة حزب الشعب في الجزائر والقاهرة ودمشق، لأن استعراض وتعداد الماسي التي مر بها الشعب الجزائري، شكل أزمة ضمير لدى رجال الحركة الوطنية، الذين عالجوا الأخطاء التي عرفتها كل الانتفاضات المباركة، والأساليب التي سحقت بها، إلى حين إعداد الأمة والشعب والرأي العام المحلي والإقليمي لما يعرفه هذا الوطن من مأساة، كان ولا يزال سببها المباشر فرنسا الاستعمارية(1).

لقد أيقنت الأحزاب والجمعيات الجزائرية أن الهوّة بين أهداف الاستعمار الفرنسي والمستوطنين المحتلين للجزائر والشعب الجزائري واسعة، والان ازدادت الهوّة واتسعت ولا تقبل الترقيع.

واستنتج الوطنيون أن الاستعمار الفرنسي لن يُقتلع من الجزائر إلا بالقوّة(2).

ولم يستطع تجمع الاحزاب نفسه أن يقاوم الزلزال السياسي الذي هزّ الجزائر في سنة 1945م، وظن فرحات عباس بأنه يرفض الاندماج كما يرفض الانفصال، وبأنه يريد أن يحرر الجزائر من النظام الاستعماري، وأن يندد بالفرنسيين الذين أصابهم مُركّب الاستعلاء، والذين عذّبوا وقتلوا مدّة أسابيع جزائريين أبرياء، وصرّح أيضاً بأنه يشجع الأخوة بين المسلمين والفرنسيين المسيحيين منهم واليهود.

وفي التاسع من أوت 1946م، اقترح فرحات عباس جمهورية جزائرية متمتعة بالحكم الذاتي داخل الاتحاد الفرنسي، كما اقترح انتخاب برلمان جزائري ورئيس للجمهورية، ثمّ على الحكومة الفرنسية أن تعيّن ممثلاً لها في الجزائر.

---

(1) تاريخ الجزائر المعاصر، د . محمد الأمين بلغيث ص 179.

(2) الثورة الجزائرية، د . بو علاّم بن حمودة ص 140.

وبالنسبة إلى مصالي الحاج فقد قرر أن ينشأئ حزباً رسمياً، ليتمكن الوطنيون من الترشح في الانتخابات التشريعية المقررة في نوفمبر 1946م، واسم هذا الحزب هو «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية»، ورفضت السلطات الاستعمارية بعض الترشحات منها ترشح مصالي الحاج ولَحَول حسين. ونجح في انتخابات 1946م التشريعية كل من محمد الأمين دبّاغين، وجمال دردور، ومسعود بو قادوم، وأحمد مزغنّة، ومحمد خيضر، وهم من حزب الوطنيين « MTLD ».

وأما الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر فقد اخطأ في تحليله لأحداث 1945م، فقد أعلنت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي « PCE »، في جريدة يوم 12 ماي 1945م: لابد أن نعاقب في الحين وبدون هوادة منظمي التمرد ومن أداروه[1].

وقد استقبل الحاكم العام يوم 10 ماي 1945م وفداً من الحزب الشيوعي الفرنسي والحزب الشيوعي الجزائري، تكلم هذا الوفد عن «استفزازات ناشطين هتلريين من صفوف حزب الشعب الجزائري وحزب الشعب الفرنسي»، وعن ناشطين اخرين مختبئين في منظمات تدعي بأنها ديمقراطية، وهاجم الوفد مصالي والوطنيين الذين لم يعينوا فرنسا لما كانت محتلة ويطالبون الان بالاستقلال، وبعد ذلك يضيف الأمين العام للحزب الشيوعي: أن من يطالبون بالاستقلال هم عملاء وأعوان أو غير واعين للإمبريالية.

ولكن بعد الجرائم التي ارتكبها الاستعمار عند وقف المظاهرات، وقع المكتب السياسي للحزب الشيوعي الجزائري موقفه بنداء وجهه لإنشاء لجان تُعين المعتقلين، وشجع المطالبة بالعفو الشامل[2].

2 . الاستعداد العسكري «المنظمة الخاصة أو السرية»:

إن حزب الشعب الجزائري: (الحركة من أجل انتصار الحريات) استخلص الدرس من أحداث 1945م: ولابد من تنظيم الصفوف، ومن التسلح، ومن إعداد العدة للشروع في الكفاح من أجل التحرر الوطني، لأن هذا الكفاح المسلح أصبح حتمياً، فتقرر إحداث منظمة «خاصة أو سرية»، حتى انعقد أول مؤتمر للحركة في الجزائر العاصمة يومي 15 و 16 فبراير 1947م. وقد استعمل مصطلح تسمية «المنظمة السرية» محمد بوضياف، واستعمل أحمد مهمساس مصطلح «المنظمة الخاصة».

ثم تأكد هذا القرار لما اجتمعت اللجنة المركزية في زذين بالقرب من «عين الدفلي» في ديسمبر 1948م. وقد انعقد الاجتماع بحضور مصالي الحاج في ضيعة تملكها أسرة عبد القادر بلحاج جيلاني، الذي كان في قيادة المنظمة الخاصة عضواً مكلفاً بالتدريب العسكري وبالمفتشية العامة، تواصل الاجتماع في البليدة لأنه جاء خبر خاطأئ، أن الشرطة متأهبة لحملة تفتيش في مكان الاجتماع، وقررت اللجنة المركزية منح الكفاح المسلح الأولوية، أي قررت تقوية المنظمة الخاصة. وذلك لأن الانتخابات الأخيرة لاختيار أعضاء الجمعية الجزائرية بينت أن التزوير كان سائداً ومشجعاً من طرف الحاكم العام «نيجلان»، ومن اللازم ومن المفيد أن نذكر

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علاّم بن حمودة ص 141.

(2) المصدر نفسه ص 141.

القيادات المختلفة على رأس المنظمة الخاصة، لأننا سنجد معظم الأشخاص معنيين عند اندلاع ثورة التحرير في أول نوفمبر 1954م.

. تكونت القيادة الأولى من محمد بلوزداد «رئيس»، وحسين ايت أحمد «مساعد»، وأحمد بن بلة «عضو مكلف بالناحية الوهرانية»، وجيلاني رجيمي «عضو مكلف بالجزائر» وبالمتيجة وبالتيتري، ومحمد بوضياف «عضو مكلف بنواحي قسنطينة»، وعبد القادر بلحاج جيلاني «عضو مكلف بالجزائر» وشلف والظاهرة، وحسين ايت أحمد مساعد الرئيس مكلف ببلاد القبائل.

. وتكونت قيادة المنظمة السرية الثانية «من اخر سنة 1947م إلى سبتمبر 1949م» من حسين ايت أحمد الذي خلف بلوزداد الذي كان مريضاً، وعبد القادر بلحاج جيلاني «عضو مكلف بالتدريب العسكري وبالمفتشية العامة، ومحمد ماروك «عضو مكلف بالجزائر والظاهرة وشلف»، ومحمد بو ضياف «عضو مكلف بنواحي قسنطينة»، وأحمد بن بلة «عضو مكلف بنواحي وهران»، وجيلاني رجيمي «عضو مكلف بالجزائر» والمتيجة والتيتري وبلاد القبائل.

. وتكونت القيادة الثالثة من سبتمبر 1949م إلى ماي 1950م من أحمد بن بلة «رئيس»، وعبد القادر جيلاني «عضو مكلف بالتدريب العسكري وبالمفتشية العامة»، ومحمد يوسفي «عضو مكلف بالمرافق العامة وبالمتفجرات وبالمواصلات»، وعبد الرحمن بن سعيد «عضو مكلف بنواحي وهران»، وجيلاني رجيمي «عضو مكلف بالجزائر وبالمتيجة وبالتيتري وببلاد القبائل»، وأحمد مهساس «عضو مكلف بالجزائر وبالشلف وبالظاهرة»، ومحمد بوضياف «عضو مكلف بنواحي قسنطينة»، والعربي بن مهيدي «عضو مساعد لمحمد بوضياف».

وقد كان لَحَول حسين الأمين العام للحزب يلعب دور الوسيط بين جهاز الحزب وقيادة المنظمة السرية إذا تعلق الأمر بالقضايا الهامة.

ولقد حرصت المنظمة الخاصة على تجنيد مناضلين ملتزمين ومقتنعين وشجعان وناشطين وقادرين جسدياً على حسب المادة الثانية من النظام الداخلي، فعندما يكشف المناضل المتصف بتلك الصفات يمتحن، ثم إذا كانت النتيجة إيجابية يؤدي اليمين، فلن يستطيع بعد ذلك أن يفارق المنظمة، فإذا فارقها بدون سبب اعتبر فاراً منها فيتعرض لعقوبات قاسية.

إن أعضاء قيادة المنظمة الخاصة كانوا هم أيضاً يشاركون في التدريب، يروي حسين ايت أحمد في كتابه المتعلق بمذكراته قصة تبين ذلك: ذهبت جماعة من القياديين وهم لابسون كالكشافة إلى ناحية شرشال لدراسة الميدان وتصور حرب العصابات: ذهبت الجماعة المتكونة من حسين ايت أحمد ومحمد بوضياف وأحمد بن بلة وأحمد مهساس وعمر ولد حمودة وجيلاني رجيمي وعبد القادر بلحاج جيلاني ومحمد مازوك من شرشال إلى سيدي غيلاس، ثم توجهت نحو جبال الظاهرة مارة بسيدي محمد أسميان ثم ببوحرب، واتجهت نحو جبل زكار لتصل إلى عين الدّفلي. في أثناء السفر «أوت 1948م» درست الجماعة الميدان والخرائط وتقنيات حرب العصابات

دام السفر أكثر من أسبوع، ومن غريب الصدف أن بعض أعضاء الجماعة أصبحوا قياديين في الثورة، وأصبح اثنان منهم «أحمد بن بلة ومحمد بوضياف» رئيسين للجمهورية الجزائرية بعد الاستقلال.

. ومن أجل الحصول على مال يخصص لشراء الأسلحة والذخيرة، تقرر مهاجمة مركز بريد وهران، وصدرت الموافقة على العملية من طرف الأمين العام للحزب حسين لحَول، وقد شارك فيها مناضلون من المنظمة السرية، فهكذا تحصلت قيادة الحزب على 4 ملايين من الفرنكات القديمة الناتجة من مهاجمة المركز البريدي بوهران.

. وعلى حسب أحمد مهساس عدد المنضمين في المنظمة بلغ في سنة 1949م ألفين من المناضلين الخارجين من صفوف حزب الشعب الجزائري والحركة من أجل انتصار الحريات[1] الديمقراطية، وقدكان يوجد انذاك «50،000» مناضل ومحبّ داخل صفوف الحزب، لكن المنظمة الخاصة اهتزت بسبب حادث بسيط، اختطف مناضل «كان عضواً في المنظمة في ناحية تبسة» من طرف إطارات محلية، وذلك بسبب معلومات عن المنظمة سربها بدون حذر، فعندما نُقل في سيارة محاطاً بإطارات حزبية محلية «سوف تستجوبه عن تصرفاته» هرب يوم 18 مارس 1950م خوفاً من العقاب، واتصل بالشرطة فأخبرها بما وقع. وتمكنت الشرطة من إلقاء القبض على الذين اختطفوه بعد ايقاف سيارتهم في «واد زناتي» بين قالمة وقسنطينة، فالتحقيق أدى إلى عدد من الاعتقالات التي هزت المنظمة الخاصة. إذ أُلقي القبض على 400 مناضل، وصدرت أحكام على مئتين منهم، إلا أن البعض من المتابعين تمكنوا من الفرار وعاشوا في السرية حتى اندلعت ثورة أول نوفمبر 1954م فالتحقوا بصفوفها.

بعد هذه الهزة أمرت قيادة حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» المناضلين المعتقلين بإنكار وجود المنظمة السرية، وبالحديث عن مؤامرة بوليسية، وكل ذلك للمهاجمة على مسير الحزب وعلى ما تبقى من المنظمة الخاصة.

لكن مصالح الأمن الفرنسي استطاعت أن تصل إلى معلومات دقيقة عن الهيكل النظامي وعن قائمة الكثير من أعضاء المنظمة الخاصة، إلا أن البعض منهم بقي مجهولاً، والبعض الاخر التحق بالسرية كما قلنا، وقد تمكن أحمد بن بلة وأحمد مهساس من أن يفرا من سجن البليدة، وأن يلتحقا بعدد من إطارات الحزب المتواجدين في الخارج، ويساهما في تحضير الوسائل لقيام الثورة التحريرية.

بعدكل ما وقع للمنظمة الخاصة، قررت قيادة الحزب أن تحلها تخوفاً من الأخطار 1951م[2].

ولكنها في الحقيقة استمرت من خلال أفرادها الذين خارج سلطة المستعمر، وتولت تكوين الرجال الذين ساهموا في تفجير الثورة الجزائرية في نوفمبر 1954م.

---

(1) المصدر نفسه ص 144.

(2) المصدر نفسه ص 145.

3 . الإغراء الانتخابي:

وبالرغم من ظلم النظام الانتخابي، وتشكيل هيئتين انتخابيتين واحدة للفرنسيين وواحدة للمسلمين، وقلة التمثيل للمسلمين، وحرمان المسلمات الجزائريات من الانتخاب حتى مرسوم جويلية 1958م، والتزوير الشامل عند العمليات الانتخابية ؛ حاولت الأحزاب السياسية الجزائرية أن تلعب ورقة الانتخابات لانتزاع الحقوق الفردية والجماعية.

. وعند انتخاب المجلس الوطني الفرنسي التأسيسي لم يشارك إلا الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وأما حزب الشعب الجزائري العامل في سرية فقد رفض المشاركة لأنه اعتبرها اعترافاً بالسيادة الفرنسية على الجزائر «2 جوان 1946م».

وتقدمت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية « MTLD »، وهي الوجه الرسمي لحزب الشعب الجزائري الممنوع، للمشاركة في الانتخابات التشريعية التي نظمت يوم 10 نوفمبر 1946م، وتمكنت من نيل 5 مقاعد في البرلمان الفرنسي من بين 13 مخصصة للمسلمين، وقد احتل تلك المقاعد كل من أحمد مزغنّا، ومحمد خيضر، والدكتور محمد الأمين دبّاغين، ومسعود بوقادوم، والدكتور جمال دردور.

إن وجود هؤلاء المناضلين في البرلمان الفرنسي سمح للحركة الوطنية بأن تعرف بمواقفها الوطنية وبمطالبتها بالاستقلال، ولا سيما عندما نوقش في البرلمان الفرنسي مشروع القانون الأساسي الذي أصبح قانون 20 سبتمبر 1947م الأساسي.

وشارك الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري في انتخاب مجلس الجمهورية الفرنسية «نوع من مجلس الشيوخ» المنصوص عليه في دستور 27 أكتوبر 1946، ونال 4 مقاعد من بين السبعة المخصصة للمسلمين، والمعلوم أن مجلس الجمهورية يُنتخب من طرف أعضاء المجموعات المحلية، وامتنعت حركة انتصار الحريات الديمقراطية عن المشاركة لأسباب إجرائية، نوفمبر وديسمبر 1946م.

وفي الانتخابات المحلية التي جرت في أكتوبر ونوفمبر 1947م، حصلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية على 31% من المقاعد، بينما حصل الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري على 27% من المقاعد، فهكذا بدأت تظهر أغلبية للجزائريين في المجالس المحلية 58%. لكن السلطة الاستعمارية تنبهت لذلك، فلجأت إلى اختلاق العراقيل أمام المرشحين، كما لجأت إلى التزوير الشامل، فعند انتخاب الجمعية الجزائرية طبقاً للقانون الأساسي 1947/20م رفضت الإدارة الفرنسية 33 مرشحاً من 59 مرشحاً في قائمة الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وذهبت إلى أبعد من ذلك إذ ألقت عليهم القبض. واشتهر الحاكم العام الجديد المعين في بداية 1948م نيجلان بالتزوير الشامل للانتخابات.

ففي انتخابات الجمعية الجزائرية في أفريل 1948م حصلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية على 9 مقاعد، والاتحاد الديمقراطي على 8 مقاعد، والمستقلون على مقعدين، والمؤيدون من طرف الإدارة الفرنسية على 41 مقعداً.

والجدير بالذكر أن للجزائريين في هذه الجمعية 60 مقعداً، وللفرنسيين 60 مقعداً، وذلك ظلم لأن عدد السكان الفرنسيين عُشر عدد السكان الجزائريين.

وعند التجديد الجزئي للجمعية الجزائرية سنة 1952م وسنة 1954م، فضلت الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية أن تمتنع عن المشاركة في الانتخابات، والحصيلة من تجربة الانتخابات أنه لا يمكن الاعتماد عليها للحصول على إصلاحات تخدم تحرر الجزائر والجزائريين[1]، وساعد ذلك على إيمان الساسة بالعمل المسلح الثوري لتحقيق الاستقلال.

4 . الأزمة الداخلية للحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية:

قد كان هناك إجماع داخل حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» فيما يخص هدف الاستقلال، لكن الخلافات تطفو عندما يتعلق الأمر بالطريقة وبالوقت المناسب للشروع في الكفاح من أجل بلوغ الهدف المذكور والمتفق عليه، هل يواصل الحزب مشاركته في الانتخابات بالرغم من ظلمها للأغلبية المسلمة ومن تزويرها الواضح؟ وإذا أضفنا التنظيمية فهمنا لماذا وصل الحزب إلى الجمود ثم إلى مؤتمرين منفصلين، وفي النهاية إلى حركة من مناضلين فضلوا الثورة على النقاشات السياسية العقيمة، وفضلوا وضع الثقة في الشعب الذي كان يريد الدخول حيناً في معركة التحرير النهائي من الاستعمار[2].

. بدأ مصالي الحاج يطلب رئاسة الحزب مدى الحياة في مارس 1950م، كما طلب التمتع بحق النقض في اجتماع اللجنة المركزية بالأربعاء، وهي مدينة قريبة من العاصمة، فاستطاعت هذه القيادة أن تناور من أجل رفض هذا الطلب.

. وقد ساعد تفكيك المنظمة الخاصة من طرف السلطات الاستعمارية على إحداث جو من الشكوك داخل صفوف المناضلين، فاستقال الأمين العام حسين لحَول من منصبه في مارس 1951م، خوفاً من أن يصبح كبش الفداء كلما يتلقى الحزب ضربات.

. ثم تطرقت اللجنة المركزية إلى مجموعة تنسيق العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، وجمعية العلماء «ماي 1951م»، لكن حزب فرحات الشعب الجزائري المحظور كان اشترط الالتزام بعدم اللجوء إلى العنف، فاقترح شوقي مصطفاي الجملة الاتية: سنعمل في إطار الشرعية. وأضاف أنه لا يرى مانعاً من إمضاء الاتفاق بذكر الحركة فقط، عند ذلك تفجر مصالي الحاج وقال غاضباً: يُراد قتل الحزب. ولم توافق اللجنة المركزية على اقتراح شوقي مصطفاي، ولكن تأثر بعض أعضائها من سلوك مصالي الحاج تجاه شوقي مصطفاي، الذي لم يقدم إلا اقتراح صيغة لحل المشكل.

وإثر هذه الحادثة استقال من اللجنة المركزية شوقي مصطفاي وسعيد عمراني وعبد الرزاق شنتوف، واجتمعت اللجنة المركزية من جديد بحضور مصالي الحاج في مدينة الأربعاء (تقع جنوب غرب العاصمة بحوالي 30 كلم)

---

(1) المصدر نفسه ص 146.

(2) المصدر نفسه ص 147.

في مارس 1952م، فرفضت رسمياً توحيد العمل مع الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري وجمعية العلماء، وقررت عقد مؤتمر في جويلية 1952م[1].

وفي أفريل 1952م طلب مصالي الحاج من الحزب تنظيم جولة له عبر الوطن، وحاولت قيادة الحزب أن تقنعه بالعدول عن هذا المشروع، تجنباً لاستفزازات المصالح الأمنية ضده وضد المناضلين المنظمين للمهرجانات، لكنه أصر على قيامه بالجولة، فعند زيارته للشلف قُتل مناضلان وجُرح الكثير من المناضلين، فألقي القبض على مصالي الحاج يوم 14 ماي 1952م ثم نُفي إلى نيور، وهي مدينة توجد في الجنوب الغربي من باريس على بعد 340 كيلو متراً، وبعد استقالة لَحَول حسين من منصبه عين بن يوسف بن خدّة كأمين عام في أوت 1951م، يروي بن خدة أنه عرض على مصالي الحاج مخططاً لفراره، فقبله، إلا أنه تراجع عن ذلك، وذلك في فبراير 1953م، حيث كان من المفروض أن يفرّ إلى سويسرا حيث يسترجع حريته في التحرك والنشاط[2].

وأما المؤتمر المقرر لجويلية 1952م، فلم يتمكن من الانعقاد إلا في سنة 1953م «أيام 3،4،5، من أفريل»، حضر المؤتمر الثاني للحزب في مقر هذا الأخير حوالي مائة من المناضلين، ولقد شارك في المناقشات بالقاعدة عدد من أعضاء المنظمة الخاصة، وقد تكلم باسمهم رمضان بن عبد الملك في المؤتمر، والشيء الجديد في المؤتمر هو توضيح التوجهات المستقبلية للجزائر المستقلة، ستكون الجزائر جمهورية مستقلة، وسيدة ومحايدة تجاه الكتلتين «كتلة الشرق وكتلة الغرب»، ومؤسسة لمجموعة مغاربية، ومؤيدة لحركات التحرير، ومؤسسة لاقتصاد وطني يقوم بإصلاح زراعي وبتأميم وسائل الإنتاج، ومصممة لثقافة عربية إسلامية، ومانحة الأقلية الفرنسية حق الاختيار بين الجنسية الجزائرية والجنسية الفرنسية. وقرر المؤتمر الثاني للحزب تقوية المنظمة الخاصة، وعيّن لجنة مكونة من خمسة أعضاء لاختيار تشكيلة اللجنة المركزية بالتراضي.

وتكونت اللجنة المركزية في الجزائر العاصمة يومي 4 و5 جويلية 1953م، وانتخب بالاقتراع السري بن يوسف بن خدّة كأمين عام، فعينت في هذا الاجتماع لجنة لإعادة تنشيط المنظمة الخاصة، وهي متألفة من: مصالي الحاج، وحسين لَحَول، ومصطفى بن بولعيد، وبن يوسف بن خدّة، ومحمد دخلي[3].

وحضر بن يوسف بن خدّة اجتماع اللجنة المركزية المقبل، فذهب بالمشاريع إلى نيور لمقابلة مصالي الحاج، وتلقي ارائه بالنسبة إلى القضايا المطروحة، لكن مصالي الحاج فضل أن يرسل مذكرة إلى اللجنة المركزية عند اجتماعها من 12 إلى 16 سبتمبر 1953م.

وفي مذكرته، عرض مصالي الحاج كل انتقاداته تجاه قيادة الحزب، إنه يلومها على تنظيمها للتنسيق بين منتخبي الهيئة الأولى الفرنسية والهيئة الثانية الخاصة بالمسلمين، وعلى اقتراحها لمؤتمر وطني يضم أهم الأحزاب السياسية والجمعيات للمطالبة بانتخاب مجلس سيد بالاقتراع العام.

(1) المصدر نفسه ص 148.
(2) المصدر نفسه ص 148.
(3) المصدر نفسه ص 149.

وفي الحقيقة كان مصالي الحاج يلوم قيادة الحزب على شيء واحد، وهو رفضها لمنحه السلطات المطلقة. انتهت المذكرة بسحب الثقة من بن يوسف بن خدّة كأمين عام بهذه العبارات: أسحب الثقة من الأمين العام، وأطلب السلطات المطلقة لتقويم الحزب.

وقبل بن يوسف بن خدّة سحب الثقة منه، ولو أنه انتخب بالاقتراع السري من طرف اللجنة المركزية، لكنه طلب إلغاء فكرة السلطات المطلقة.

وذهب مصالي الحاج إلى أبعد من ذلك، إذ أرسل تعليمات إلى القاعدة لتؤسس لجاناً للخلاص العمومي، ولتقطع علاقتها مع القيادة الحزبية الحالية، وتعترف بمرباح مولاي وبأحمد مزغنا كممثلين له حصرياً لتجنب انفجار الحزب.

قبلت اللجنة المركزية في اجتماعها المنعقد يوم 28 مارس 1954م أن تمنح مصالي الحاج السلطات المطلقة لتحضير مؤتمر استثنائي تعرض فيه الأفكار لنقاش ديمقراطي، وسلطات تسيير الحزب بغرض تحضير المؤتمر، فهكذا أصبح مصالي الحاج مكلفاً بتحضير المؤتمر، لكنه فهم أنه سيحضره، كما يشاع، وبالفعل لم يستدع للمؤتمر الذي عقده هورنو إلا أوفياؤه.

نظراً إلى هذه الظروف التي يمر بها حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية» [(1)]، اجتمع عدد من المناضلين الإطارات في الجزائر العاصمة، وأسسوا اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

نعود الان إلى المؤتمرين اللذين جسّدا الانفصال داخل حزب الشعب الجزائري «الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية».

وانعقد مؤتمر «هورنو» ببلجيكا من 13 إلى 15 جويلية 1954م بحضور الأوفياء لمصالي الحاج. في التقرير الذي أرسله مصالي الحاج إلى المؤتمر، يركز انتقاداته على قيادة الحزب ويوجه إليها التهم التالية: لم تقم قيادة الحزب بتحضير تقرير موضوعي عن أحداث 1945م، وتركت الكُتل تتكون وتهاونت بالنسبة إلى فرض الانضباط، وتميزت بالجمود والبيروقراطية، وأساءت تسيير المؤامرة ضد المنظمة الخاصة، وابتعدت عن تجديد صفوف الحزب، وعن التنسيق مع الأحزاب السياسية الأجنبية، واتهمها أيضاً بإبعاده عن كل ما يهم الحزب، وبعدم تقديم حساب عن نشاطها أمامه.

وقد عمق مؤتمر «هورنو» الأزمة، إذ وافق على منح مصالي الحاج رئاسة الحزب مدى الحياة، وعلى حل اللجنة المركزية القائمة، وعلى إقصاء حسين لحَول وبن يوسف بن خدّة وسيد علي عبد الحميد وأحمد بودة ومصطفى فروخي ومحمد يزيد ومحمد الصالح لوانشي من الحزب.

وأتى جواب اللجنة المركزية القائمة شهراً من بعد، فاجتمع مؤتمر الأوفياء للجنة المركزية بالجزائر العاصمة سراً من 13 إلى أوت 1954م، فأدانوا عمل التفرقة الذي قام به مصالي الحاج في بلجيكا، وقرروا إسقاط عضويته وعضوية أحمد مزغنا ومرباح مولاي في اللجنة المركزية، وإلغاء منصب رئيس الحزب، وعينوا لجنة مركزية فيها

---

(1) الثورة الجزائرية، ثورة أول نوفمبر 1954م.

28 عضواً: هذه اللجنة عينت بدورها هيئة مديرة انبثق منها أمانة عامة فيها ثلاثة أو خمسة أعضاء من بينهم أمين عام.

إن المادة الأولى من القانون الأساسي تحدد أهداف الحزب وهي: إنهاء النظام الاستعماري، وانتخاب مجلس تأسيس من طرف هيئة ناخبة واحدة، وتأسيس دولة مستقلة على شكل جمهورية ديمقراطية اجتماعية.

إن الذين يسميهم المؤرخون «مركزيين» هم مناضلون مؤيدون لمواقف اللجنة المركزية، فلا ينبغي الخلط مع أعضاء من اللجنة المركزية القديمة الذين قد انضموا إلى مصالي الحاج أو إلى اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

في الحقيقة لم تعش نزعة المركزيين طويلاً: إنها أنشأت جريدة جديدة عنوانها «الأمة»، ثم عقدت دورة واحدة في أكتوبر 1954م، فقررت إرسال أمينها العام حسين لحول ومحمد يزيد إلى القاهرة، بحثاً عن المساعدة التي قد تدفعها مصر للكفاح التحرري الجزائري.

إن اندلاع ثورة التحرير في أول نوفمبر 1954م سيحث المناضلين على الاختيار الحاسم مع الثورة أو ضد الثورة، فهكذا التحق أغلبية أعضاء اللجنة المركزية بالثورة بصفة فردية، وعلى حسب ظروف وكيفيات كل شخص[1].

5 . ظروف دولية ملائمة:

إن العمل الجماعي والملتزم شكّل الوسيلة الوحيدة لتجاوز الخلافات بين الوطنيين، والشعب الجزائري من جهته وجّه لوماً للأحزاب على عجزها عن تقليد الأسلوب التحرري في تونس والمغرب، وفي الوقت نفسه كان الشعب الجزائري مطلعاً على ما جرى في ثورة الريف بالمغرب «من سنة 1921م إلى سنة 1926م».

وفي «ديان بيان فو» بالهند الصينية، حيث هُزم الجيش الفرنسي بين 13 مارس و7 ماي 1954م.

وبالفعل لقد ثار الأمير عبد الكريم الخطابي سنة 1921م على المحتلين الإسبان في الريف، وألحق هزيمة بالجيش الإسباني المتألف من 18،000 جندي، وقد انتحر العميد سيلفيسر بعد هذه الهزيمة، إلا أنه ألقي القبض على الأمير في ماي 1926م، ثم نُفي من طرف فرنسا، التي تدخلت خوفاً من تزعزع وجودها في المغرب، واستطاع الأمير عبد الكريم الخطابي أن يفر عندما كان منقولاً من منفاه عبر قناة السويس سنة 1948م في مصر. وترأس حتى سنة 1963م لجنة تحرير المغرب العربي، المكلفة بتنسيق أعمال البلدان المغاربية بالتحرير، وفي المغرب رفض الملك محمد الخامس الانصياع لسياسة فرنسا الاستعمارية، فنفي إلى «مدغشقر» يوم 20 أوت 1953م، إثر أحداث الدار البيضاء العنيفة. وبدأت المقاومة المغربية تنتظم، فأرغمت الحكومة الفرنسية على إرجاع محمد الخامس إلى بلده وإلى عرشه 16 نوفمبر 1955م.

وبعد محادثات شمال فرساي أعلن استقلال المغرب يوم 2 مارس 1956م أي 16 شهراً بعد اندلاع الثورة الجزائرية التحريرية.

---

(1) المصدر نفسه ص 151.

وفي تونس أنشئت لجنة وطنية للمقاومة بقيادة أحمد تليلي، بعد اعتقال عدد من الوطنيين المنتمين إلى حزب الدستور الجديد، «منهم الحبيب بورقيبة مؤسس هذا الحزب سنة 1934»، وشرعت المقاومة التونسية في القيام بأعمال تخريبية وهجومات تستهدف تدمير المزارع التابعة للمعمرين ومنشات اقتصادية أخرى، كما تستهدف بعض الخونة وبعض المعمرين «يناير 1956م».

أجابت السلطات الفرنسية هذه الحركة بعنف أعمى، ونشأت حركة إجرامية اسمها «اليد الحمراء» لتغتال المناضلين. ففي 5 ديسمبر 1952م اغتالت زعيم النقابة التونسية فرحات حاشد فتضاعفت أعمال التخريب، كما تقوى الضغط السياسي من طرف حزب الدستور الجديد سنتي 1953م، 1954م، وتدخلت القوات الفرنسية بقوة وصل عددها إلى 000،70 جندي، لكن العمليات الفدائية والضغط السياسي المستمر أرغما فرنسا على التفاوض، فأمضيا اتفاقيات الحكم الذاتي يوم 3 جوان 1955م بين الوزير الأول الطاهر بن عمر ورئيس مجلس الوزراء «ايدوقار فور».

واستُؤنفت المفاوضات بين ذلك، فتوصلت إلى إعلان استقلال تونس يوم 20 مارس 1956م، مع بقاء قاعدة (بنزرت) بين أيدي فرنسا لمدة. إن تاريخ استقلال المغرب «2 مارس 1956م»، وتاريخ استقلال تونس «20 مارس 1956م»؛ يدلان على أن الثورة الجزائرية سرّعت مجرى التنازل لدى الفرنسيين، ليتسنى لهم تركيز قواتهم على منع الجزائر من حصولها على الاستقلال.

لقد كان الجزائريون على علم بكل هذه الأحداث، وكانوا يسجلون تأسفهم حين كانت فرنسا تجند جزائريين للمشاركة في حرب الهند الصينية، مستغلة ظروفهم الاجتماعية. بكلمة واحدة شعر الشعب الجزائري بأنه حان الوقت لجعل حد نهائي للاستعمار المصحوب بالظلم والعنصرية والاستغلال والأعمال الإجرامية[1].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 153.

ثانياً: تحويل المنظمة الخاصة إلى جبهة للتحرير الوطني الجزائري

كان قادة المنظمة السرية يتهيؤون للعمل الثوري على مستوى المغرب العربي، وذلك بقصد أن لا تبقى الحركة الثورية في الجزائر منعزلة، وخاصة أن فرنسا كانت عندها استراتيجية للتفاهم مع التونسيين والمغاربة، مقابل عدم تعاونهم مع الجزائريين، والالتزام بعزلهم.

ولتجنب الانعزال ؛ قام الجزائريون بإنشاء مكتب في القاهرة، واتصل بن بلة بالحبيب بورقيبة في تونس عدة مرات، ثم جاء بعده بوضياف وشنتوف إلى تونس للقيام بنفس المهمة، وذهب عبد الحميد مهري إلى العراق، حيث حصل على السلاح من نوري السعيد، وتمكن الجزائريون من الحصول على دعم مالي من المملكة العربية السعودية، تم تحويله إلى الجزائر عن طريق مصر.

غير أن الخلاف الخطير الذي نشب بين أعضاء اللجنة المركزية للحزب ومصالي الحاج في خريف 1953م، هو الذي كان له الأثر الكبير على نشاط جميع المناضلين، وأكد عبد الحميد مهري أن نسبة كبيرة من المناضلين في الحزب كانوا في البداية يؤيدون مصالي الحاج لأنه بسط القضية وقال: نحن راقدون والعالم يتحرك. وهذا يستجيب لرغبات المناضلين بما في ذلك منطقة القبائل. ولكن الأمور تغيرت فيما بعد، أي حين عاد محمد بوضياف وديدوش مراد من فرنسا في بداية سنة 1954م، وأقنعوا المناضلين بأن مصالي الحاج لا ينوي القيام بالعمل المسلح حقيقة، وأن هدفه الأول هو تطهير القيادة.

وأكد بوضياف أنه أعرب عن رغبته للدخول إلى الجزائر في بداية مارس 1954م، بقصد رد «العناصر الضالة» إلى طريق الصواب، أي الذين تأثروا بالدعاية المصالية وأخذوا يفكرون في الانحياز إلى رئيس الحزب، ولكن جوهر المهمة التي كان ينوي القيام بها هي الحيلولة دون انحياز العناصر الباقية من المنظمة الخاصة إلى صف المصاليين(1).

وبالفعل فقد اتصل بوضياف بزملائه في المنظمة الخاصة بعد عودته إلى الجزائر العاصمة أمثال مصطفى بن بولعيد، العربي بن مهيدي، ورابح بيطاط، وتدارس أعضاء المنظمة الخاصة فيما بينهم لعمل شيء ما، لوقف التصدع والانشقاق في الحزب، وإبعاد القاعدة النضالية عن الانقسام الخطير الجاري على مستوى القمة، ومن خلال هذا اللقاء انبثقت فكرة إنشاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل»، التي برزت إلى الوجود بصفة رسمية يوم 23 مارس 1954م(2).

وهكذا تم تكوين «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» من الحياديين أمثال محمد بوضياف، مسؤول التنظيم في فدرالية الحزب بفرنسا، ومصطفى بن بولعيد عضو اللجنة المركزية للحزب، ومن المركزيين وأعضاء اللجنة المركزية المناهضين لمصالي الحاج، وبشير دخلي عضو اللجنة المركزية للحزب، والمراقب العام للتنظيم بالحزب، وأكد محمد بوضياف أن مصالي الحاج وأنصاره قد استاؤوا من تنظيم اللجنة الثورية للوحدة والعمل.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمار بوحوش ص 350.

(2) محمد بوضياف، حوار جريدة الشعب الجزائرية 16 . 17 نوفمبر 1988م.

في الوقت الذي كانوا فيه على وشك الانتصار على أعضاء اللجنة المركزية لرئيس الحزب، وإعطائه قسماً من مالية الحزب، لتحضير المؤتمر الوطني للحزب خلال ثلاثة أشهر.

لقد كان ميلاد «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بمثابة مبادرة قد يترتب عنها إعادة النظر في الانتصارات التي حققها المصاليون على اللجنة المركزية.

وقد تضمن إعلان «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» ما يلي:

. المحافظة على وحدة الحزب من خلال عقد مؤتمر موسّع وديمقراطي للحزب، وذلك لضمان الالتحام الداخلي والخروج بقيادة ثورية.

. دعوة المناضلين إلى التزام الحياد، وعدم الانضمام إلى أي فريق.

وكانت خطة بوضياف ومصطفى بن بولعيد تقوم على أساس الاستيلاء على القاعدة للبدء في الكفاح المسلح، وعملت اللجنة الثورية للوحدة والعمل على توحيد صفوف الحزب من جديد، ولكنها فشلت، وحافظت العناصر الثورية في اللجنة الثورية للوحدة والعمل على علاقتها بأعضاء اللجنة المركزية، إلى أن تأكدت أنها حققت إلى حد ما ما كانت تنتظره من هذه العلاقة، وهو تبليغ نداء الكفاح المسلح باعتباره الطريق الوحيد لحل مشاكل الجزائر، وعندئذ تقرر حل «اللجنة الثورية للوحدة والعمل»، والدعوة إلى اجتماع تحضره الشخصيات المؤيدة للعمل المسلح، وذلك بقصد دراسة الوضعية المترتبة عن الطريق المسدود الذي الت إليه اللجنة الثورية وتقرير ما ينبغي عمله[1].

1 . اجتماع الأعضاء 22 من الثوريين:

في يوم 25 جوان 1954م اجتمع الأعضاء 22 من الثوريين، الذين قرروا الانتقال إلى العمل المسلح، بعد أن عجزت قيادة حزبهم عن الانتقال من مرحلة النضال السياسي من خلال الانتخابات المحلية المزورة إلى مرحلة النضال العسكري، واسترجاع السيادة الجزائرية بقوة السلاح. وقد ترأس الاجتماع الذي انعقد بمنزل الياس دريش في المدينة بالجزائر العاصمة المناضل مصطفى بن بولعيد، بينما قام محمد بوضياف والعربي بن مهيدي وديدوش مراد بتقديم تقارير مختلفة عن تطور الحزب، والأزمة التي يتخبط فيها بالعبارات التالية: نحن الأعضاء السابقون في المنظمة الخاصة، ينبغي علينا أمام أزمة الحزب ووجود حرب تحرير بكل من تونس والمغرب أن نتشاور ونقرر ما ينبغي عمله مستقبلاً[2].

وبعد تقديم التقرير في الصباح، خصصت جلسة ما بعد الظهر لمناقشة محتواه. وقد تبين بعد الحوار الطويل بين الحاضرين، أن هناك من كان يفضل التريث في القيام بالثورة إلى أن يحين الوقت المناسب، ويكون هناك استعداد تام لخوض المعركة، بينما كان هناك قسم اخر يدعو إلى الشروع في العمل المسلح بسرعة.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . بوحوش ص 354.

(2) التاريخ السياسي للجزائر.

وبعد أخذ ورد قام المناضل سويداني بوجمعة، وألقى كلمة مؤثرة في الحاضرين وتساءل أمامهم: هل نحن ثوريون أم لا؟ وإذا كنا نزهاء مع أنفسنا فماذا ننتظر للقيام بالثورة؟

وانتهى بالمصادقة على اللائحة التالية:

. إدانة انقسام الحزب والمتسببين فيه.

. الإعلان عن عزيمة مجموعة من الإطارات على محو اثار الأزمة، وإنقاذ الحركة الثورية بالجزائر من الانهيار.

. ضرورة القيام بثورة مسلحة كوسيلة وحيدة لتحرير الجزائر، وتجاوز الخلافات الداخلية[1]. وتتكون لجنة 22 من المناضلين الاتية أسماءهم:

المنظمون الرئيسيون:

. محمد بوضياف «مولود بمسيلة».

. مصطفى بن بولعيد «مولود في اريس».

. العربي بن مهيدي «مولود بعين مليلة».

. مراد ديدوش «مولود بالجزائر».

. رابح بيطاط «مولود بالوادي».

المشاركون من منطقة العاصمة:

. عثمان بلوزداد «مولود بالجزائر العاصمة».

. محمد مرزوقي «مولود بالجزائر العاصمة».

. الزبير بوعجاج «مولود بالجزائر العاصمة».

. الياس دريش «صاحب المنزل . مولود بالعاصمة».

المشاركون من منطقة البليدة:

. بوجمعة سويداني «مولود بقالمة».

. أحمد بوشعيب «مولود بعين تموشنت».

المشاركون من منطقة وهران:

. عبد الحفيظ بوصوف «مولود بميلة».

. رمضان بن عبد الملك «مولود بقسنطينة».

المشاركون من منطقة قسنطينة:

. محمد مشاطي «مولود بقسنطينة».

. عبد السلام حباشي «مولود بعنابة».

. رشيد ملاح «مولود بالميلية».

---

(1) المصدر نفسه.

. السعيد بوعلي «مولود بالميلية».

المشاركون من شمال قسنطينة:

. يوسف زيغود «مولود بسمندو».

. لخضر بن طوبال «مولود بقسنطينة».

. عمار بن عودة «مولود بعنابة».

. مختار باجي «مولود بسوق أهراس».

المشارك الوحيد من جنوب قسنطينة:

. عبد القادر العمودي «مولود ببسكرة».

وبعد الانتهاء من النقاش والموافقة الجماعية على الشروع في العمل لانطلاق الثورة المسلحة، قام أعضاء مجموعة 22 بانتخاب محمد بوضياف بالاقتراع السري كمسؤول وطني، وكلف بتشكيل أمانة تنفيذية تتولى قيادة الحركة الثورية، وتطبيق القرارات التي اتخذتها مجموعة 22 في ذلك الاجتماع التاريخي بالمدينة.

وفي اليوم الثاني قام بوضياف بتشكيل الأمانة التنفيذية من نفس المسؤولين الذين يرجع إليهم الفضل في تنظيم الاجتماع وهم: بوضياف رئيساً، والأعضاء الأربعة: العربي بن مهيدي، مصطفى بن بولعيد، مراد ديدوش، ورابح بيطاط(1).

2 . اللجنة الخماسية:

وفي أول اجتماع للجنة الخماسية وهم: بوضياف، والعربي بن مهيدي، ومصطفى بولعيد، ومراد ديدوش، ورابح بيطاط، وكان في حي القصبة بالجزائر العاصمة في منزل عيسى كيشيدة «شارع بربروس»، عقدت الأمانة التنفيذية اجتماعها الأول، ودرس الأعضاء الخمسة لمجموعة «22» اللائحة المصادق عليها في اجتماع 25 جوان 1954م، ووضعوا قانوناً داخلياً للجنة، وقرروا ما يلي:

. تقوية المنظمة الجديدة عن طريق ضم الأعضاء السابقين في المنظمة الخاصة وهيكلتهم في التنظيم الثوري الجديد.

. استئناف التكوين العسكري اعتماداً على كتيّبات المنظمة الخاصة التي أعيد طبعها.

. تنظيم الفِرَق التي تتولى جمع السلاح وصنع المفرقعات اللازمة للثورة المسلحة(2).

كما تم في ذلك الاجتماع الأول توزيع المهام بين أعضاء اللجنة الخماسية، والتعهد بمواصلة العمل كقيادة جماعية، وذلك حتى لا تتكرر الأخطاء التي أدت إلى انقسام الحزب بسبب النزعة الفردية للمسؤولين في القمة. وتقرر في ذلك الاجتماع كذلك تكليف مراد ديدوش، بصفته مسؤولاً عن منطقة العاصمة، أن يتصل بجماعة

---

(1) المصدر نفسه ص 356.

(2) محمد بوضياف في حديثه مع محمد عباس، المنشور بجريدة الشعب الجزائرية بتاريخ 16، 17 نوفمبر 1988م.

القبائل الكبرى ويحاول إقناعهم بالانضمام إلى مجموعة 22، حتى تكون الثورة عارمة ويصعب على فرنسا أن تحتويها وتقضي عليها في المهد إذا كانت منحصرة في منطقة واحدة.

وأما القوة الثانية التي كانت مؤيدة للثورة، ولكنها لم تكن مشاركة في لقاء 22 فهي منطقة القبائل الكبرى، وكان قائدها كريم بلقاسم من أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل»، ويميل إلى رئيس الحزب مصالي الحاج، الذي كان ينادي بالعمل من أجل الثورة لكن بدون مشاركة أعضاء اللجنة المركزية. كما أن كريم بلقاسم كان متحفظاً من محمد بوضياف وأعضاء اللجنة الثورية، وذلك بسبب وجود علاقة قوية تربطهم باللجنة المركزية للحزب، ولذلك أرسل وفداً إلى مؤتمر بلجيكا لتمثيل منطقة القبائل الكبرى في مؤتمر المصاليين، الذي انعقد في الفترة الممتدة من 14 إلى 17 جوان 1945م.

لكن كريم بلقاسم وجماعته الذين كانوا يؤيدون فكرة القيام بعمل مسلح بدؤوا يغيرون فكرتهم عن أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بعد أن اجتمعوا في يوم 25 جوان 1954م وقرروا الشروع في العمل المسلح، وابتدأت الاتصالات في الحقيقة تجري بين أعضاء «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» وبين كريم بلقاسم وجماعته في شهر ماي من عام 1954م، وذلك بواسطة الهاشمي حمود. وبعد اجتماع 22 تقرر إرسال ديدوش مراد للتباحث مع كريم بشأن الانضمام إلى مجموعة الثوريين، ولكنه لم يوفق في مهمته أيضاً، فتقرر انذاك إرسال مصطفى بن بولعيد الذي استطاع أن يقنع كريم بلقاسم وجماعته بحضور اجتماعات قيادة الثورة، على أن يقرروا عقب ذاك ما يشاؤون. وارتاح كريم بلقاسم لهذه الفكرة[1].

3 . اللجنة السادسية:

شارك كريم بلقاسم في اجتماع قادة مجموعة 22 برفقة عمر أوعمران، واستمع إلى تدخلات مسؤولي النواحي، وخرج بفكرة طيبة عن مجهودات الثوريين لبدء العمل المسلح، واقتناع بجدية الجماعة التي تحاول إقناع كريم بلقاسم ورفيقه عمر أوعمران بتضخيم الإمكانيات حيث لا ينفع التضخيم؟

وفي نفس الوقت استطاع كريم بلقاسم أن يلتقي ويتباحث مع مولاي مرباح، الرجل الثاني في حركة مصالي، لكن مولاي مرباح عامله بخشونة وجفاء وسأله بلهجة حادة: ما مصير النظام في منطقة جرجرة؟ وماذا كنتم تفعلون منذ 6 شهور؟ ولماذا هذا التقارب مع عناصر ندد بها رئيس الحزب؟ ثم طلب منه بلهجة امرة: ينبغي أن تترك هذه الجماعة[2].

وأكد محمد بوضياف أنه كان يدرك أهمية انضمام منطقة القبائل إلى مجموعة 22، ولذلك قررت اللجنة الخماسية المنبثقة عن مجموعة 22 تحرير استبيان وتقديمه إلى كريم بلقاسم، لكي يعرضه على المصاليين والمركزيين في ان واحد. وخلاصة هذا الاستبيان الاتي:

. هل أنتم مع الثورة؟ وإلا لماذا؟

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، بوحوش ص 358.

(2) محمد عباس مع المناضل بلقاسم كريم «أسد جرجرة»، الشعب الجزائرية عدد 12، 26 ديسمبر 1988م.

. ما هو نوع المساعدة التي يمكن أن تقدموها للثورة في حالة اندلاعها؟

. كيف يكون موقفكم إذا اندلعت الثورة من خارج صفوفكم؟

وكان رد المصاليين هو رفض المبادرة، ووصف أصحابها بالديماغوجية والعمل الانقسامي. وأما المركزيون فكان جوابهم: نعم للثورة ولكن ليس في الحين. وانذاك اقتنع كريم بلقاسم بصواب رأي الثوريين، وتخلى عن تحفظاته إزاءهم، وقبل الانضمام إلى اللجنة الخماسية المنبثقة في مجموعة 22، وسمح له بإطلاع نائبه أوعمران على كل القرارات التي تتخذها قيادة الثوريين[1].

وأما المجموعة الثالثة التي لم تشارك أيضاً في اجتماع 22 وكانت مؤيدة للعمل المسلح ؛ فهي مجموعة الوفد الخارجي للحزب التي استقرت بالقاهرة. ويتكون الوفد الخارجي من محمد خيضر وأحمد بن بلة وايت أحمد، وإذا كان بن بلة هو المسؤول عن شراء السلاح وتزويد الثورة بما تحتاجه من مؤونة وذخيرة، فإن محمد خيضر كان هو المسؤول السياسي ويساعده ايت أحمد، وباختصار فقد عقد القادة الستة سلسلة من الاجتماعات ابتداء من شهر سبتمبر 1954م، وقاموا بمناقشة الترتيبات الأساسية لإعلان الثورة، وفي النهاية اتفق القادة الستة على ما يلي:

. تسمية المنظمة السياسية «جبهة التحرير الوطني الجزائري».

. تسمية المنظمة العسكرية بـ «جيش التحرير الوطني الجزائري».

. اللامركزية في العمل، نظراً لاتساع الجزائر وصعوبة قيام جهاز مركزي بتسيير الثورة تسييراً فعالاً، وخاصة في وقت صعبت فيه الاتصالات.

. ترك حرية العمل في البداية لكل منطقة حتى يحين موعد عقد مؤتمر وطني في المستقبل.

. نظراً لفشل الأحزاب في توحيدهم، واستحالة الاتفاق على من يقود حركة التحرير ؛ فقد تقرر خلق جبهة جديدة ينضم إليها الأشخاص بصفة فردية إذا كانوا متفقين مع أهدافها وتوجيهاتها.

. اعتبار يوم 15 أكتوبر هو انطلاق عملية تحرير الجزائر، إلا أن هذا اليوم تغير إلى أول نوفمبر 1954م بعد أن تسرب وقت إعلان الثورة.

. إعطاء الأولوية للداخل، لأن الوفد الخارجي يقتصر دوره على شراء السلاح والذخيرة والقيام بالدعاية، والقرارات تنبع من القادة المحاربين داخل الجزائر.

. توزيع المسؤوليات في داخل الجزائر كالتالي:

المنطقة الأولى: بقيادة مصطفى بن بولعيد ونائبه بشير شيهاني.

المنطقة الثانية: بقيادة مراد ديدوش ونائبه يوسف زيغود.

المنطقة الثالثة: بقيادة كريم بلقاسم ونائبه عمر أوعمران.

المنطقة الرابعة: بقيادة رابح بيطاط ونائبه بوجمعة سويداني.

(1) محمد بوضياف في حديث مع محمد عباس، المنشور في جريدة الشعب بتاريخ 16 . 17 نوفمبر 1988م.

المنطقة الخامسة: بقيادة العربي بن مهيدي ونائبه عبد الحفيظ بوصوف.

المنطقة السادسة: تعين قيادتها فيما بعد.

وأما فيما يتعلق برئيس اللجنة الذي هو محمد بوضياف، فقد تقرر أن يلتحق بالقاهرة ويتصل بالوفد الخارجي، حيث يزوده بالوثائق اللازمة لإعلان الثورة وإذاعة بيان أول نوفمبر على أمواج «صوت العرب» من القاهرة، غير أن إجراءات الحصول على التأشيرة من سفارة مصر بسويسرا جعلته يتأخر ولا يصل إلى

القاهرة إلا يوم 2 نوفمبر 1954م. ومع ذلك فقد تمكن من إرسال بيان أول نوفمبر بالبريد السريع إلى القاهرة، وأذيع في الوقت المحدد له، ولكي لا تتسرب المعلومات عن بيان أول نوفمبر 1954م، قرر قادة الولاية الثالثة فرض رقابة على الصحفي محمد العيشاوي، الذي تولى طباعة وسحب بيان أول نوفمبر بعد أن قام بتحريره محمد بوضياف ومراد ديدوش[1].

وفي يوم 10 أكتوبر، ويوم 24 أكتوبر 1954م عقد أعضاء اللجنة الستة الاجتماعين الأخيرين قبل قيام الثورة، وفيهما تقرر تسمية المنظمة الثورية الجديدة جبهة التحرير الوطني الجزائري، وفتح باب العضوية فيها لكل من يرغب في المساهمة في تحرير الجزائر من الاستعمار الفرنسي. أي أن الانضمام يكون فردياً وليس حزبياً، كما تمت الموافقة في هذين الاجتماعين على جميع الترتيبات الخاصة بالشروع في العمل الثوري.

وبإيجاز، فإن اللجنة التي تضم 6 أعضاء قد قررت الشروع في العمل الثوري صبيحة يوم الأحد أول نوفمبر 1954م، ثم بعد ذلك يتم تنظيم الثورة وهياكلها وتكييف مؤسساتها. وحسب رأي لخضر بن طوبال، وهو من مجموعة 22 الذين ساهموا في الإعداد للثورة المسلحة، فإن الثوريين قد فكروا جيداً في مسألة التحضير الجيد للثورة وأخذ الوقت الكافي لذلك، بحيث يتم تجنب أي فشل محتمل لها. لكن في الأخير استقر الرأي على الشروع في العمل الثوري حالاً، ثم يأتي التنظيم فيما بعد، لأن انتهاء الحرب في الهند الصينية، وتفاوض فرنسا مع تونس والمغرب من جهة أخرى؛ قد ينتج عنهما تمركز القوات الفرنسية بالجزائر.

وعليه فإن قرار الثوريين كان هو «الكفاح المسلح في أسرع وقت بالوسائل المتوفرة»، ونفس الحقيقة أكدها محمد بوضياف عندما قال بأنه لم تكن لدينا صورة دقيقة عن كيفية العمل، لكن الشيء الواضح في أذهاننا هو الشروع في العمل حالاً من أجل نيل الاستقلال والإطاحة بالكيان الاستعماري[2].

ويبدو أن قيادة اللجنة الثورية لجبهة التحرير الوطني قد وضعت استراتيجية بسيطة في الاجتماع الأخير ببولوغين يوم 24 أكتوبر 1954م، وخلاصتها وضع الجميع أمام الأمر الواقع، أي الشروع في حرب التحرير، ومن لا يتقدم للمساهمة فيها يعتبر غير وطني، وتحقيقاً لهذا الهدف افترق القادة الستة في الأسبوع الأخير من شهر أكتوبر 1954م، والتحق كل واحد بالمنطقة التي يرأسها وتنطلق منها العمليات العسكرية في ليلة الأحد أي

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمار بوحوش ص 361.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 362.

اليوم الأول من نوفمبر 1954م، على أن يلتقي الجميع في شهر جانفي 1955م في القاهرة لمراجعة استراتيجية العمل الثوري[1].

أما رئيس اللجنة الثورية لجبهة التحرير الوطني الجزائري السيد محمد بوضياف، فقد سافر إلى سويسرا يوم 27 أكتوبر 1954م حيث كان من المفروض أن ينقل بيان أول نوفمبر إلى الوفد الخارجي للجبهة بالقاهرة ويذيعه من هناك، وفي نفس الوقت كان عنده موعد بسويسرا مع أصدقائه من اللجنة المركزية للحزب، محمد يزيد وحسين لحول، ومع فيلالي مبارك وأحمد مزغنة من حزب مصالي الحاج، والمفروض أن يتوجه الجميع إلى القاهرة وتقع المصالحة النهائية بين الجميع، وعندما تندلع الثورة في أول نوفمبر 1954م سيجد هؤلاء أنفسهم أمام الأمر الواقع، وما عليهم إلا الاختيار بين الالتحاق بالثورة، أو بطلان ادعاءاتهم بأنهم يحبذون العمل من أجل استقلال الجزائر[2].

4 . ماذا وقع لقادة الثورة بعد انطلاقها:

أ . قائد المنطقة الأولى:

فيما يخص قائد المنطقة الأولى مصطفى بن بولعيد، فقد اجتمع بمساعديه وطلب من كل واحد منهم أداء اليمين على كتمان السر، ثم أطلعهم على تاريخ وساعة اندلاع الثورة، وقرأ عليهم بيان أول نوفمبر باللغتين العربية والفرنسية، وفي ذلك الاجتماع تم تحديد المراكز التي تشن عليها هجومات المجاهدين ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م.

وقد قال مصطفى بن بولعيد لقادة العمليات العسكرية أن قيادة الثورة تعلق امالاً كبيراً على المجاهدين في المنطقة الأولى بحكم أن هناك أسلحة متوفرة في تلك الناحية، وتنتظر منها الصمود لمدة ستة أشهر ريثما تلتحق المناطق الأخرى بركب الثورة، وأكد لهم مصطفى بن بولعيد بأنه وعد قادة الثورة بالصمود لمدة 18 شهراً[3].

وكما كان مخططاً فقد تمكنت أفواج المجاهدين من ضرب الأهداف المحددة في الساعة الواحدة من صبيحة أول نوفمبر 1954م، إلا أن المشكل الكبير الذي واجه مصطفى بن بولعيد هو مشكل السلاح الذي كان ينقص كثيراً، ولهذا قرر أن يتولى بشير شيهاني نائبه قيادة المنطقة، ويتوجه في شهر جانفي 1955م إلى تونس ثم إلى ليبيا لجلب السلاح، وبحث هذه المسألة مع أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير الوطني الجزائري، لكنه وقع في الأسر يوم 11 فبراير 1955م على الحدود الليبية التونسية، وتم نقله إلى تونس حيث تم استنطاقه وتحويله إلى سجن الكدية بقسنطينة، حيث تمت محاكمته وإصدار حكم الإعدام عليه، إلا أنه تمكن من الهروب من سجن قسنطينة يوم 4 نوفمبر 1955م رفقة الطاهر الزبيري والعيفة مغلاوي، وعاد إلى الأوراس لاستئناف الكفاح، حيث اطلع على مأساة حصلت في غيابه، وهي اغتيال نائبه بشير شيهاني من طرف مجموعة من

---

(1) المصدر نفسه ص 362.

(2) أحمد بوشعيب في حديث مع محمد عباس، جريدة الشعب، 30 مارس 1987م.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 363.

زملائه في الكفاح، إلا أن المخابرات الفرنسية تمكنت من اغتياله يوم 27 مارس 1956م بعد أن أرسلت إليه جهازاً للاتصال انفجر في وجهه عندما كان يجري تجارب عليه بقصد استعماله[1].

ب . قائد المنطقة الثانية:

وأما القائد الثاني، مراد ديدوش ونائبه يوسف زيغود، فقد تمكنا من القيام بعمليات عسكرية رائعة ليلة الفاتح من نوفمبر 1954م، وقد كان ديدوش مراد من أكبر المخططين للثورة، ونجح إلى حد بعيد في تنشيط عمليات القتال بالمنطقة الثانية، وذلك بقصد تخفيف الضغط على منطقة الأوراس. وفي يوم 18 يناير «جانفي» 1955م تمكنت القوات الفرنسية من التعرف على مكانه، فقامت قوات من المظليين الفرنسيين بمحاصرته وأصابته برصاصات قاتلة، عندما كان يواجه القوات الفرنسية بقصد إعطاء فرص لجنوده للانسحاب بسرعة، ثم خلفه في القيادة زيغود يوسف الذي يرجع إليه الفضل في القيام بعمليات 20 أوت 1955م، وتخفيف الضغط على منطقة الأوراس، وكذلك يرجع إليه الفضل في عقد مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م، حيث اقترح على كريم بلقاسم وعبان رمضان عقد مؤتمر وطني للثورة الجزائرية، ووضع نظام جديد يوحد بين مختلف المناطق، ويستجيب للتطورات التي تعيشها مسيرة الثورة.

وبعد النجاح الذي حققه زيغود يوسف في مؤتمر الصومام، وتشكيل مجلس وطني للثورة ولجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عنه، تقرر أن يتوجه عمار بن عودة إلى تونس لحل مشكلة السلاح، وأن يتوجه زيغود يوسف رفقة إبراهيم مزهودي إلى منطقة الأوراس، لحل بعض المشاكل التي برزت بعد استشهاد مصطفى بن بولعيد قائد تلك المنطقة، وفي يوم 26 سبتمبر 1956م وقع في كمين نصبه له العدو، وقاتل إلى أن استشهد[2].

ج . المنطقة الثالثة:

أما قائد المنطقة الثالثة، كريم بلقاسم ونائبه عمر أوعمران، فقد توفقا في المساهمة في عمليات التحرير منذ البداية حتى النهاية. وفي فاتح نوفمبر 1954م كان كريم بلقاسم يوجه العمليات العسكرية من مقر قيادته في قرية إيغيل إيمولا، وفي يوم 26 جانفي 1955م بعث بنائبه عمر أوعمران لمقابلة عبان رمضان في «عزوزة» قرب عين الحمام، وذلك بقصد تجنيده للعمل الثوري، وبعد اتصالات عديدة التقى كريم بلقاسم ورابح بيطاط مع عبان رمضان في الجزائر، ووافقا على تكليفه بمهام معينة، وبالتعاون مع ياسف السعدي، لكن بعد إلقاء القبض على رابح بيطاط يوم 23 مارس 1955م بالجزائر العاصمة، شعر كريم بلقاسم بحزن شديد، لأن عدم وجود قيادة ثورية قوية بالعاصمة سوف يحدث خللاً كبيراً في مسيرة الثورة.

وعليه فقد قرر تعيين عبان رمضان مسؤولاً عن الجزائر العاصمة، ونائبه عمر أو عمران مسؤولاً عن المنطقة الرابعة التي هي ناحية الجزائر وما جاورها من مدن قريبة منها، ثم قام عبان رمضان بدوره بتعيين بن يوسف بن

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 364.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 364.

خدة وسعد دحلب ومحمد بجاوي في مراكز مسؤولية كبيرة بالجبهة، كما قام بتدعيم ياسف السعدي وشجعه على القيام بأعمال الكومندوس في الجزائر العاصمة.

وفي نفس الوقت قام كريم بلقاسم بمساعدة عبان رمضان بالعمل من أجل انضمام قادة الحركات السياسية الوطنية إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري، ولم يتخلف عن ذلك إلا الحركة الوطنية الجزائرية التي يرأسها مصالي الحاج، فقد انضم إلى الجبهة فرحات عباس والأمين دباغين والشيخ أحمد توفيق المدني، والشيخ محمد خير الدين، ثم الصادق هجريس من الحزب الشيوعي الجزائري.

وعندما انعقد مؤتمر الصومام يوم 20 أوت 1956م، وتقرر إنشاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية ولجنة التنسيق والتنفيذ المنبثقة عنه، تم تعيين كريم بلقاسم بلجنة التنسيق والتنفيذ، بصفته قائد عام لجيش التحرير الوطني الجزائري، وخلفه في منصبه العقيد محمد السعيد. وعليه فقد انتقل كريم إلى العاصمة، لكي ينسق مع زملائه في لجنة التنسيق والتنفيذ بين الولايات الستة التي أقرها مؤتمر الصومام.

وعندما استحال العمل في العاصمة في مطلع 1957م، قرر أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ يوم 25 فيفري 1957م الخروج من العاصمة، حتى لا تنطفأئ شعلة الثورة في حالة إلقاء القبض على قادة الجبهة في الداخل. وإذا كان القائد الكبير للثورة العربي بن مهيدي قد تم إلقاء القبض عليه في ذلك اليوم، فإن كريم بلقاسم ومعه بن يوسف بن خدة قد تمكنا من الذهاب إلى تونس، ثم القاهرة وواصلاً عملهما في الخارج إلى غاية 1962م[1].

كان كريم بلقاسم مؤمناً إيماناً عظيماً بالثورة ضد المحتلين، ومن أقواله إلى المجاهدين الذين جمعهم له مساعده علي زعموم بين إيغل إيمولة وذراع الميزان، بعد مدة من انطلاق الحوادث الأولى، وذلك في معصرة قرب ايت عيسى، وكانت المواصلات صعبة ومنقطعة والأسلحة قليلة ونادرة، فقال لهم: اليوم راحة وأريد أن أحدثكم واحداً واحداً، جئتم للثورة عن اختيار واقتناع وإدراك، وقبلتم أن تغادروا الجميع عائلاتكم وأعمالكم، وأعاهدكم بأننا سنحرر البلاد، إنه عمل لا رجعة فيه، أخذتم قراراً خطيراً عندما التحقتم بنا، ولا بد من الذهاب إلى اخر المشوار، إما التحرير أو التضحية الكاملة. إنني أعلم أن هناك حاجة تشغلكم ؛ وعدناكم بالأسلحة ولكنها لا توجد هنا إنها حقيقة، يمكن أن نتهم إخواننا في الأوراس أو في الخارج، وبإمكانكم أنتم أن تتحققوا من ضخامة القمع.

إن الأسلحة يمكن أن تكون قد حجزت في الطريق في بعض الأماكن من طرف القوات الاستعمارية أثناء توجيهها إلينا، وأمامنا جيش عسكري قوي يتزود باستمرار بالعتاد، ونحن لا نملك شيئاً فماذا نفعل؟ قولوا أنتم، البعض يحارب باسلحة متوسطة أحسن منا وبإرادة لا تحدّ، وفي بعض ثورات التحرير هناك بندقية واحدة لاثني عشر رجلاً يربطونها بحبل ويحارب بها الواحد حتى يسقط، فيسحبها اخر بالحبل ليحارب بها، وهكذا. فكروا جيداً، وبإمكانكم أن تفكروا فينا نحن رؤساءكم الذين وعدناكم بالأسلحة، ونحن هنا معكم وبينكم

---

(1) المصدر نفسه.

ومن جملتكم في الجبل، نخوض معاً وجميعاً الحرب بالأسلحة التي لدينا والتي سوف نغنمها من العدو، وقلت لكم إنها التضحية الكاملة وإلى النهاية سنضحي حتى نغنم الأسلحة في الجبهة، وسنسحق الضباط الذين يقولون ويزعمون أننا جبناء ومخنثون نخاف أن نهاجمهم، وسيكونون مسرورين عندما يجدوننا أمامهم ليقضوا علينا جميعاً مادامت القوة غير متكافئة، ولكي ننجح لا بد من أن نطهر منطقتنا من الوشاة والأعوان الفرنسيين[1].

د . المنطقة الرابعة:

أما بالنسبة لقائد المنطقة الرابعة، رابح بيطاط ونائبه بوجمعة سويداني، فقد حاول الأول تنظيم مجموعة الفدائيين التي تقوم بالعمليات العسكرية في الساعات الأولى من صبيحة أول نوفمبر 1954م، لكنه اصطدم بمشكلة عويصة وهي أن مجموعة المناضلين بالبليدة قد رفض أعضاؤها المشاركة في العمليات العسكرية، وذلك نتيجة لبعض الاتصالات التي أجراها معهم زعيم المركزيين هناك لحول حسين على ما يبدو، ولذلك اضطر كريم بلقاسم أن يبعث بنائبه عمر أوعمران لكي يشارك في عمليات الفاتح نوفمبر بمدينة البليدة ويتعاون مع سويداني بوجمعة.

أما بيطاط قد شارك مع زميله أحمد بوشعيب، فقد قاما بالهجوم على ثكنة بيزو بمدينة البليدة، وفي يوم 23 مارس 1955م تمكنت القوات الفرنسية من إلقاء القبض على رابح بيطاط، وحكمت عليه محكمة فرنسية يوم 16 أفريل 1955م بالأشغال الشاقة، وفي شهر ماي من عام 1961م تم نقله إلى السجن الذي يتواجد فيه الزعماء الخمسة في فرنسا، وبقي هناك مسجوناً حتى 20 مارس 1962م حيث تم إطلاق سراحه.

أما نائبه سويداني بوجمعة الذي كان مسؤولاً عن الشريعة، فقد استشهد يوم 16 أفريل 1956م في معركة مع رجال الدرك الفرنسيين[2].

هـ المنطقة الخامسة:

وفيما يختص المنطقة الخامسة «ناحية الغرب الجزائري» التي أسندت رئاستها إلى العربي بن مهيدي ونائبه عبد الحفيظ بوصوف، فقد كانت فيها العمليات العسكرية صعبة في البداية، وذلك بسبب قلة السلاح والمؤونة، إلا أن بن مهيدي تمكن من تنظيم عملية تهريب السلاح من المغرب وإسبانيا وتسريبه إلى ناحية الغرب الجزائري، وبذلك استطاعت الثورة أن تعم أنحاء الجزائر كلها، ولم تبق منحصرة في الأوراس أو جرجرة.

وبعد إلقاء القبض على رابح بيطاط في بداية 1955م ووجود فراغ في قيادة العاصمة، جاء العربي بن مهيدي إليها ليساهم في تنظيمها والعمل على نجاح العمل الفدائي فيها، وفي مؤتمر الصومام في أوت 1956م، ترأس جلساته وأشرف على تنظيم المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وساهم في تكوين لجنة التنسيق والتنفيذ التي كان عضواً بها. وقد كان العربي بن مهيدي هو المسؤول عن العمل الفدائي بلجنة التنسيق والتنفيذ، إلا أن قوات

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 366.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 366.

الجنرال «ماسو» قد تمكنت من إلقاء القبض عليه صدفة يوم 25 فيفري 1957م في الجزائر العاصمة، وذلك عندما كانت تبحث عن بن خدة، وقد قدم للمحاكمة وحكمت عليه محكمة فرنسية بالإعدام الذي نفذ فيه يوم 4 مارس 1957م[1].

5 . بيان أول نوفمبر 1954م:

وُزّع البيان داخلياً وخارجياً، وكانت إذاعة صوت العرب من القاهرة أول من بثه على أمواجها إلى العالم الخارجي في اليوم الموعود، وهو يتضمن في خطوطه العامة إشعار الشعب الجزائري بأن الوقت قد حان للشروع في الكفاح من أجل التحرر الوطني، علماً بأن الشعب الجزائري كان مهيأ نفسياً ومترقباً لهذا الحدث الكبير بفارغ الصبر، مثلما تبين فيما بعد، مما يؤكد مقولة القائد الكبير محمد العربي بن مهيدي الذي قال في اجتماع «22» قولته المأثورة « ارموا الثورة للشعب فإنه سيحتضنها».

وقد ساعد على ذلك أن الوضعية الخارجية الإقليمية والدولية كانت ملائمة مغاربياً وعربياً وإسلامياً ودولياً، وخاصة وأن الكفاح التحريري كان قد بدأ في المغرب وتونس قبل ذلك بعدة شهور[2].

وهذا نص البيان:

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

نداء إلى الشعب الجزائري

أيها الشعب الجزائري:

أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية:

أنتم الذين ستصدرون حكمكم بشأننا . نعني الشعب بصفة عامة والمناضلين بصفة خاصة . نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل، بأن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ومقومات وجهة نظرنا الأساسية، التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الأفريقي، ورغبتنا أيضاً هو أن نجنبكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه الإمبريالية وعملاؤها الإداريون وبعض محترفي السياسة الانتهازية.

فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية . بعد مراحل من الكفاح . قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية، فإذا كان هدف أي حركة ثورية . في الواقع . هو خلق جميع الظروف الثورية للقيام بعملية تحريرية، فإننا نعتبر الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحداً حول قضية الاستقلال والعمل.

أما في الأوضاع الخارجية، فإن الانفراج الدولي مناسب لتسوية بعض المشاكل الثانوية التي من بينها قضيتنا، التي تجد سندها الدبلوماسي، وخاصة من طرف إخواننا العرب والمسلمين.

---

(1) المصدر نفسه ص 367.

(2) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 21.

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحريري في شمال أفريقيا، ومما يلاحظ في هذا الميدان أننا منذ مدة طويلة أول الداعين إلى الوحدة في العمل، هذه الوحدة التي لم يُتح لها مع الأسف التحقيق أبداً بين الأقطار الثلاثة، إن كل واحد منها اندفع اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين يقينا في مؤخرة الركب، فإننا نتعرض إلى مصير من تجاوزته الأحداث، وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محطمة نتيجة لسنوات طويلة الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار يطير فرحاً ظناً منه أنه قد أحرز أضخم انتصاراته في كفاحه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة:

أمام هذه الوضعية التي يُخشى أن يصبح علاجها مستحيلاً، رأت مجموعة من الشباب المسؤولين المناضلين الواعين، التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة ؛ أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من المأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص والتأثيرات، لدفعها إلى المعركة الحقيقية الثورية إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين.

وبهذا الصدد فإننا نوضح بأننا مستقلون عن الطرفين اللذين يتنازعان السلطة، إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية الأشخاص والسمعة.

ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار، الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمية أن يمنح أدنى حرية.

ونظن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم:

جبهة التحرير الوطني وهكذا نتخلص من جميع التنازلات المحتملة، ونتيح الفرصة لجميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية أن تنضم إلى الكفاح التحرري دون أدنى اعتبار اخر.

الهدف الاستقلال الوطني بواسطة:

. إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادأئ الإسلامية.

. احترام جميع الحريات الأساسية دون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية:

. التطهير السياسي بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي، والقضاء على جميع مخلفات الفساد وسياسة التقارب مع الاستعمار، وهي سبب تخلفنا الحالي.

. جمع وتنظيم جميع الطاقات الحية من الشعب الجزائري للقضاء على النظام الاستعماري.

أهدافنا الخارجية:

. تدويل القضية الجزائرية.
. تحقيق وحدة شمال أفريقيا في إطاره العربي الإسلامي الطبيعي.
. في إطار ميثاق الأمم المتحدة التعبير عن تعاطفنا مع جميع الأمم التي تساند كفاحنا التحرري.
وسائل الكفاح:
طبقاً للمبادأئ الثورية ونظراً للظروف الداخلية والخارجية مواصلة الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا، وللوصول إلى هذه الغاية ؛ فإن جبهة التحرير الوطني ستقوم بمهمتين أساسيتين في نفس الوقت: نشاط مكثف في الميدان السياسي في الداخل وفي الخارج، لجعل القضية الجزائرية حقيقة ملموسة في العالم كله بمساعدة حلفائنا الطبيعيين.
إنها مهمة ثقيلة تتطلب تجنيد جميع الطاقات في البلاد. سيكون الكفاح طويلاً ولكن النتيجة محققة في الأخير. ولتفادي التأويلات المغرضة، ولنبرهن على رغبتنا في السلم وفي تجنب مزيد من الخسارات البشرية ؛ فإننا نقدم قاعدة مشرّفة للتفاوض مع السلطات الفرنسية إذا كانت نيتها سليمة وتعترف بصفة نهائية للشعوب بحقها في تقرير مصيرها:
. الاعتراف بالأمة الجزائرية في تصريح رسمي يلغي جميع التدابير التي جعلت الجزائر أرضاً فرنسية متناسية التاريخ والجغرافيا واللغة والدين وتقاليد الشعب الجزائري.
. فتح مفاوضات مع ممثلي الشعب الجزائري الحقيقيين.
. إحداث جو من الثقة بإطلاق سراح جميع المسجونين السياسيين، وبإلغاء جميع التدابير الاستثنائية، وبوقف جميع المتابعات القضائية.
وفي المقابل:
. فإن المصالح الفرنسية الثقافية والاقتصادية المكتسبة بصفة نزيهة تكون مضمونة مع احترام الأشخاص والعائلات.
. جميع الفرنسيين الذين يرغبون في البقاء في الجزائر يكون لهم الخيار بين المحافظة على جنسيتهم الأصلية ويصبحون أجانب، وبين الجنسية الجزائرية. وفي هذه الحالة يتمتعون بجميع الحقوق والواجبات.
. العلاقات بين الجزائر وفرنسا ستحدد في اتفاق بين الطرفين على أساس المساواة والاحترام.

أيها الجزائري:
إننا ندعوك إلى اعتبار ميثاقنا هذا. واجبك أن تنضم إليه لإنقاذ بلادنا واسترجاع حريته، إن جبهة التحرير الوطني هي جبهتك وانتصارها هو انتصارك، أما نحن فإننا مصممون على مواصلة الكفاح، ولنا اليقين بأنك تبغض الاستعمار، وإننا نضحي بأنفسنا في سبيل الوطن.
الجزائر في فاتح نوفمبر 1954م

الأمانة الوطنية[1]

6 . تعليق وتحليل واستنتاج على بيان نوفمبر:

إن البيان يحدد الأهداف المسطرة للثورة الجزائرية بلغة واضحة لا يشوبها أي إبهام، ولا تقبل أي تأويل أو تضليل، حيث يقول بأن الهدف من قيامها هو تحقيق الاستقلال الوطني بواسطة:

. إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية ذات السيادة ضمن إطار المبادأئ الإسلامية «غير الشرعية وغير اللائكية».

. تحقيق وحدة شمال إفريقيا في إطارها الطبيعي العربي الإسلامي. ونلاحظ هنا الإعلان الصريح عن الانتماء الطبيعي والهوية الوطنية ذات الأصل الثقافي والبعد الجغرافي والطبيعي العربي الإسلامي، وليس الإفريقي أو المتوسطي أو حتى النوميدي، فضلاً عن الروماني أو اللاتيني أو الفرنكوفوني.

. احترام جميع الحريات الأسياسية دون تمييز عرقي أو ديني، وهو ما يعني صراحة أن البيان النوفمبري الوحدوي والسيادي يقر حرية الاعتقاد وتعدد الأديان داخل المجتمع، كما هو شأن كل البلاد الإسلامية في العالم، وكما يقره الإسلام ذاته حيث يقرّ مبدأ {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ} [سورة البقرة:256.

. تفادياً لاحتمالات المستقبل الذي قد يخبئه للدولة المستقلة ؛ يطالب البيان بحس وطني منقطع النظير، بالاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل القرارات والقوانين التي تجعل من الجزائر أرضاً فرنسية التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائري.

ونعتقد أن هذا الرفض القاطع للجنسية الفرنسية وهويتها اللغوية والدينية والثقافية من أصحاب البيان، والذي يصرح فيه الثوار بأن للجزائر هوية وشخصية متميزة تتكامل فيها كل المقومات التاريخية والجغرافية واللغوية والدينية والثقافية التي تجعلها غير فرنسية، وتمدّ بالتالي أبناءها المجاهدين وقادتها السياسيين بمشروعية المطالبة بالاستقلال التام عن فرنسا، وإفحام ساستها بالحجج الدامغة في المحافل الدولية طوال كل سنوات الكفاح.

وإذا لم تكن لغة الشعب الجزائري هي الفرنسية، كما ينص البيان، ولم يكن دين الشعب الجزائري هو المسيحية كما ينص البيان أيضاً، فما هو بديل هذه اللغة وبديل هذا الدين غير العربية والإسلام المؤكدين في البندين «1 و2» المذكورين انفاً.

وإذا قال بعضهم بأن اللغة المقصودة في البيان ليست العربية، فإننا نحيلهم على نص نشيد «فداء الجزائر» لحزب الشعب الجزائري إليه ينتمي كل مفجري ثورة نوفمبر المجيدة، والقائل في أحد مقاطعه:

فلتحيا الجزائر مثل الهلال ولتحيا فيها العربية

ويجسده شعاره الخالد المطبوع على بطاقات انخراط المناضلين في كافة أنحاء الوطن وهو «الجزائر وطننا، الإسلام ديننا، العربية لغتنا»، وهو الشعار ذاته الذي كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد وضعته عند تأسيسها

(1) المختصر في تاريخ الثورة الجزائرية، زهير إحدادن ص 103، الثورة الجزائرية، د بوعلام حمودة ص 169.

سنة 1931م، مع اختلاف بسيط في ترتيب الثوابت الوطنية، دون زيادة أو نقصان، عما هو مثبت في البيان المحرر بعد ذلك بعقود، وهو ما يثبت وحدة الهدف لكل الوطنيين مع اختلاف الوسائل والبدائل حسب الإمكانيات والمراحل(1).

ويتبين من روح البيان النوفمبري، أن الجزائر وإن انهزمت عسكرياً بعد وقوعها تحت الاحتلال سنة 1830م ؛ فإنها لم ترضخ أبداً ولم تستسلم قط لإرادة المحتل، ولم تتخلّ عن روحها الوطنية الأصيلة، ولم ترض بالاندماج في الكيان الأجنبي الدخيل، وطوال 132 عاماً، لم تعرف المقاومة الشعبية معنى الراحة. وقد سارت هذه المقاومة في خطين متوازيين دون هوادة أو انقطاع.

. المقاومة المسلحة.

. والمقاومة الثقافية والسياسية(2).

وقد بينت ذلك بالتفصيل في كتابي الأول والثاني في كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

7 . علاقة الجهاد بالثورة:

الجهاد في الإسلام من الفروض الكفائية عند جمهور أهل العلم من السلف والخلف، ومعنى هذا أنه إذا قام به من يكفي في دفع غائلة الأعداء ونصر الإسلام سقط عن الباقين، ولا يكونون اثمين، وإن لم يقم به من يكفي أثمت الأمة كلها، ولا يرتفع الإثم إلا بخروج من فيهم الكفاية، والدليل على هذا قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ١٢٢} [سورة التوبة:122] .

ولكنه ينبغي أن نعرف، وأن يعرف الناس جميعاً أن القتال في الإسلام لا يكون حتى يسبقه إعلان وتخيير بين قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال، ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد، والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية.

ويكون الجهاد في الإسلام واجباً وفرض عين في الحالات الاتية:

. إذا التقى الجيشان وتقابل الصفان فإنه يتعيّن الجهاد على من حضر، وحرم عليه الفرار، إلا أن يكون ذلك لمكيدة أو خدعة حربية، أو لأخذ مكان أفضل وأحسن، أو للانحياز إلى فئة أخرى من الجيش، حيث قال الله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ١٥ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٦} [سورة الأنفال:16.

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 26.

(2) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 49.

. إذا هاجم الكفار بلداً من بلاد الإسلام أو نزلوا فيه تعيّن على أهله قتالهم ودفعهم بما استطاعوا لقوله تعالى: {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣} [سورة التوبة:123] .

ووجب على إخوانهم المسلمين «كما أسلفنا» في كل قطر وبلد ؛ أن يخفوا إليهم بالعون والمساعدة أداء لحق الأخوة الإسلامية، وإذا كان هذا واجب المسلمين إزاء إخوانهم في الدين، فكيف بهم إذا كان هذا الاعتداء الصليبي قد وقع على المسلم المعني هو ذاته، مثلما هو واقع في الجزائر، كما يتبين من الشواهد التالية:

. لقد أعلن الملك شارل العاشر يوم 12 ماي 1830م عقد ندوة دولية حول مصير الأرض الجزائرية بعد احتلالها. وقد أراد أن يبين من خلال هذا الإعلان أن الحملة الحربية ضد الجزائر شُنت لصالح أوروبا كلها ولصالح المسيحية، وكانت الحكومة الفرنسية قد استغلت قضية حجز سفينتين تابعتين للفاتيكان قبل، وهما تحملان العلم الفرنسي، وذلك لتجنيد الرأي العام المسيحي لصالح احتلال الجزائر، مما أعطاها طابعاً صليبياً في نظرهم وفي نظرنا أيضاً، كما ذكر «أندري نوزبار» في كتابه «الجزائر: المسيحيون في الحرب».

. لقد قال «لوي فيو» إثر سفره إلى الجزائر سنة 1841م، بأن الأيام الأخيرة للإسلام دنت.. ولن يكون إله للجزائر بعد 20 سنة إلا المسيح، وأن الجزائر أصبحت مُلكية فرنسية وهي الان غير إسلامية، وكذلك سيكون عما قريب مصير كل من تونس والمغرب.

ويضيف هذا المؤلف الذي رافق المارشال «بيجو» سنة 1841م «حينما كان حاكماً للجزائر»: مادام العرب غير مسيحيين فلن يصبحوا فرنسيين، وماداموا غير فرنسيين؛ فلن يستطيع أي حاكم وأي جيش أن يضمن ولو لمدة شهر دوام السلم.

وهو ما يثبت بالدلالة القاطعة أن الفكرة الصليبية تبقى سائدة طوال الاحتلال الفرنسي للجزائر، حيث يُصرح الكردينال المتعصب «لافيجري» بأنه: لابد أن يُمنح الشعب الجزائري الإنجيل، وإلا فإن على فرنسا أن تطرده إلى الصحراء(1).

وفي عنابة يتوجه رئيس الأساقفة «لينو» بالقول نحو القديس أوغستان: انظر إلى الخطر الكبير الذي يُحدق بوطنك العزيز الذي أصبح وطناً لنا، فلا تسمحوا . أرجوكم . أن يسقط من جديد في البربرية، التي نجا منها بفضل الذراع القوية لفرنسا المسيحية 28 أوت 1945م. وهو ما يؤكده خليفته الصليبي المنصِّر «الأب دوفوكو» سنة 1912م في رسالة إلى أحد أصدقائه، يصرح له فيها بقوله حرفياً: إنني أعتقد بأنه إذا لم نستطع تحويل المسلمين بالتدرج عن دينهم وحملهم على اعتناق المسيحية ؛ فإن النتيجة الحتمية هي تكوّن روح قومية جديدة تؤدي إلى طردنا من الإمبراطورية الاستعمارية في شمال أفريقيا. ويضيف قوله في الرسالة ذاتها: إن السبيل الوحيد لضمان عدم طردنا من هذه الإمبراطورية هو أن نجعل سكان البلاد فرنسيين، والسبيل الوحيد لذلك هو جعلهم مسيحيين.

---

(1) المصدر نفسه.

والخلاصة هنا: أن القتال مشروع لغاية وهي منع الفتنة والاضطهاد في الدين، ورفع أساليب الضغط والإكراه المادي والأدبي عن الناس، وتأمين الحرية للدعوة والدعاة ليؤمن من امن بحريته ويكفر من كفر باختياره إذَ {لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ} [سورة البقرة:256] .

قال تعالىَ {قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ} [سورة يونس:108] .

وقد رجّح المحققون من العلماء أن كل ايات الجهاد ليس فيها شيء منسوخ، ولكنها على الاختلاف في الأحوال، فعلى المسلمين في كل زمان ومكان أن يأخذوا بها بحسب ما هم فيه من الضعف والقوة، فإذا كانوا في حالة ضعف جاهدوا بحسب حالهم، وإذا عجزوا عن ذلك اكتفوا بالدعوة باللسان، وإذا قووا بعض القوة قاتلوا من بدأهم من قرب منهم، وكفوا عمن كف عنهم، قال ابن تيمية: أما قتال الدفع فهو أشد أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدين، فواجب إجماعاً، فالعدو الصائل الذي يفسد الدين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلايشترط له شرط، بل يدفع بحسب الإمكان(1).

ويجمع على أن يكون الجهاد مؤدياً إلى مصلحة راجحة، وأن لا يترتب عليه مفسدة أعظم، وذلك لأن الجهاد بجميع صوره إنما شرع لما فيه من تحقيق المصالح، ودفع المفاسد عن الإسلام والمسلمين أفراداً وجماعات، فلا يزال مشروعاً إذا عُلم باليقين أو غلب على الظن تحقيقه لهذه المقاصد الشرعية، فإذا تيقن أو ظن أنه يترتب على القيام به من المفاسد ما هو أعظم من المصالح ؛ لم يكن حينئذ مشروعاً ولا جهاداً مأموراً به(2).

وعن هذا التأصيل الجهادي الإسلامي للثورة الجزائرية، يقول الشيخ البشير الإبراهيمي في تصريح له في إذاعة صوت العرب من القاهرة تحت عنوان:

ـ الجزائر المجاهدة:

يقول الإمام الإبراهيمي: «لو قسمت حظوظ الجهاد بين الأمم لحازت الجزائر قصبات السبق، ونطلق الجهاد على معناه الواسع الذي يقتضيه اشتقاقه من الجهد. ولنبدأ بمعناه الخاص، وهو جهاد العدو الأجنبي المغير على الوطن، وقد وضع الله الجزائر في موضع يدعو إلى الجهاد، وعلى وضع يدعو إلى الجهاد.. إلى أن يقول: لم تخلُ العصور الإسلامية من الجهاد بالنفس في الجزائر، لأن الجارَين المتقابلين على ضفتي البحر الأبيض أصبح كل واحد منهما بالمرصاد لصاحبه، وانتقل لبّ الصراع بينهما من ميدان إلى ميدان..

فبعد أن كان صراعاً على العيش، أو التوسّع في العيش، أو صراعاً على الزيت والقمح «وهما المادتان اللتان جلبتا الروماني على إفريقيا الشمالية»، صار صراعاً على الدين، زاد من شدته أن العرب بدينهم خلفوا الرومان على حضارتهم في إفريقيا، ثم لمسوهم من جبل طارق تلك اللمسة المؤلمة التي تطيروا بها وطاروا فزعاً، وظنوا أنها

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 52.

(2) جهاد الجزائر ص 52.

القاضية على روما وديانتها وحضارتها وشرائعها. وهذا الميدان الذي انتقل إليه الصراع أعمق أثراً في النفوس، ويزيد في عمقه أن حامليه العرب قوم لا تلين لهم قناة ولا يصطلى بنارهم».

ثم يضيف قوله: «فكانت الثغور الجزائرية المشهورة والمهجورة التي يتطرق منها العدو عامرة دائماً وأبداً بالمرابطين، وهم قوم نذروا أنفسهم لله ولحماية دينه يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، ولا يرزؤون الحكومات شيئاً من سلاح ولا زاد، وإنما يتسلحون ويتزودون من أموالهم ليجمعوا بين الحسنيين: الجهاد بالمال، والجهاد بالنفس.. وسلسلة الرباط لم تنقطع إلا بعد استقرار الأمر لفرنسا، وإنما كانت تشتد وتخف تبعاً لما يبدو على الضفة الأخرى من نشاط وخمود. وكانت على أشدها في المائة التاسعة والعاشرة والحادية عشرة في الوقت الذي عادت فيه الكرّة للإسبان على المسلمين في الأندلس، واغتنمها الإسبان فرصة لاحتلال ثغور البحر المتوسط الإفريقية، ومعظمها في جزائر اليوم.

لقد احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830م تنفيذاً لخطة مرسومة تقتضي إعادة شمال إفريقيا لاتينياً كما كان قبل الإسلام، وإذا كان قديماً على يد الرومان، وكان اليوم على يد الفرنسيين، فإنما ذلك توارث بين ابن العم وابن عمه، والخطة تقتضي احتلال الجزائر اليوم، واحتلال جناحيها يوم مجيء الوقت، ومعاونة من يريد احتلال جزء اخر من التراث الإسلامي»[1].

وعن هذا التأصيل الشرعي لجهاد الجزائر يقول في أحد أحاديثه أيضاً بإذاعة صوت العرب من القاهرة:

«إن الجزائر قد أعربت عن نفسها بالأعمال الخالدة التي قامت بها ثورتها وثائروها، وإنما أحيت من شرائع الجهاد، وسجلت من مواقف البطولة والشجاعة، ووقوف العدد القليل من أبنائها بما يملكون من سلاح يدوي قليل - لا يغني فتيلاً في مجرى العادة - في وجه عدو يفوقه أضعافاً مضاعفة في العدد والعدة والنظام والتدريب، تسانده جميع الأسلحة العصرية الفتاكة من طائرات ودبابات ومدافع ثقيلة وقادة، باشروا الحروب الاستعمارية وقادوها في ميادين مختلفة بالمشرق والمغرب وتمرنوا على أساليبها، يستمدون لوازم الحرب من سلاح وعتاد ومال من بلدهم، فلا يردّ لهم طلب ولا يتأخر إمداد.. ثم يقول في الحديث ذاته:

أعربت الجزائر عن نفسها بهذا كله، فحققت الجهاد بالنفس وهو أحد نوعي الجهاد، وهو النوع الذي عُلمت أخباره واشتهرت في العالم، ورفعت اسم الجزائر إلى السماء، وأصبح ذكرها مقروناً بالإعجاب والإكبار، وذكر بنيها مقروناً بالمدح والثناء، وأصبحت بطولتهم وشجاعتهم وصبرهم واستماتتهم في سبيل حرية بلادهم مضرب الأمثال وحديث الركبان.

وأما النوع الثاني من الدعائم التي تقوم عليها الثورة، وهو الجهاد بالمال، فقد قامت الجزائر وحدها بما تتطلبه الثورة من مال، ولم تدخر عزيزاً على أبنائها الثائرين المباشرين للجهاد، وإذا كانت فرنسا تنفق على جيشها في الجزائر المبالغ الطائلة، (فيقول المقلّون: إنها تنفق يومياً ملياراً من الفرنكات، ويقول المكثرون: إنها تنفق ملياراً ونصفاً في اليوم الواحد، مما أثقل ميزانيتها وأوقف ماليتها على حافة الإفلاس، لولا إعانة أمريكا التي عرفنا

---

(1) المصدر نفسه ص 54.

عنها أنها حاضنة الاستعمار وممرضته) ؛ فإن الجزائر المسكينة تنفق على ثورتها كل ما تملك من مال وسلاح وكسوة وطعام وهي صامدة في ذلك محتسبة»[1] .

وعن هذا التطبيق الشرعي للجهاد الإسلامي على الأرض، يقول الشيخ يوسف اليعلاوي، وهو ضابط في جيش التحرير الوطني في الولاية الأولى والولاية الثالثة ما يلي:

«لقد أبرّ الله قسم المجاهدين، وانتصرت كلمة «الله أكبر»، التي كانت الشعار الذي يرتفع وينطلق من أفواه المجاهدين عند انطلاق الرصاص من فوهات بنادقهم، ومما يؤكد هذا أن التعليمات التي ترسل من قيادات جيش وجبهة التحرير الوطني تحثّ . بالإضافة إلى التنظيم السياسي والعسكري . على أداء الصلوات والمحافظة على الشعائر الدينية والأخلاق الإسلامية، وقد يعاقب من لا يقف عند حدود الله، ولا يحترم أوامر الثورة التي لم تخرج قط عن تعاليم الإسلام، وكثيراً ما كان يعاقب المجاهدون عقاباً شديداً لارتكابهم الأخطاء التي يعتبرها الإسلام خطيرة تستوجب العقاب، كما أن الثورة قد دعمت تعليم القران الكريم في كل الولايات وهي التي تدفع أجور المعلمين، بل شجعت مادياً ومعنوياً كل المدارس العربية الموجودة على مواصلة سيرها لتعليم أبناء الشعب اللغة العربية والإسلام تحت دويّ القنابل»[2].

ويقول المجاهد حسين زهوان: «.. منذ البداية كانت هناك نساء مجاهدات في الولاية الثالثة، لكن في أواخر سنة 1959م كان هناك مخطط شال الذي شكل ضغطاً كبيراً على جيش التحرير، فتفككنا إلى وحدات صغيرة، وصرنا مُضطرين إلى أن نعيش تحت الأرض وفي المغارات، والمجاهدات أصبحن غير قادرات على العيش في القرى منعزلات عن الرجال، ولهذا فإنه من الضرورة، وربما تحت القصف ؛ تجد المرأة نفسها أحياناً مجبرة في البقاء في المغارات مع رجل مجاهد غريب عنها، مما جعل قيادة الولاية الثالثة تتخذ قراراً بإبعاد النساء، إذ أرسلت مجاهدات للعاصمة لكي يعملن هناك حتى لا يعشن ذلك الوضع، خاصة وأننا محافظون، والثورة كانت صارمة في هذه المسألة، وعقوبة من تثبت ضده تهمة في هذا الشأن هي الإعدام المحتوم»[3].

8 . العوامل التي ساعدت على توحّد الشعب في الثورة:

لقد بينا التطورات السياسية ودور الحركات الوطنية الجزائرية في العمل من أجل تحرير البلاد من السيطرة الاستعمارية، وبدون شك فإن الحركات الوطنية هي التي أثرت في الرأي العام الجزائري، وحرضته على القيام بثورة مسلحة ليلة أول نوفمبر 1954م على سيطرة الأجانب في بلدهم، وإنهاء سياسة تزوير الانتخابات المحلية وحرمان الجزائريين من حقوقهم السياسية في وطنهم.

لقد توحد الجزائريون بالرغم من اختلاف أحزابهم، وقاموا بتأييد الثورة منذ البداية، وضحوا بكل ما يملكون من أجل نجاح ثورتهم التحريرية، بسبب الشعور بالظلم والحرمان، وتطبيق القوانين الجائرة على الجزائريين، وهي

(1) المصدر نفسه ص 55.

(2) المصدر نفسه ص 55.

(3) من حوار مع حسين زهوان في جريدة «الجزائر» بتاريخ 8 سبتمبر 2012م.

العوامل الرئيسية التي دفعت بأبناء الجزائر أن يلتحقوا بالجبال، أو ينخرطوا بخلايا جبهة التحرير في المدن، والمساهمة في تحرير وطنهم من الأوروبيين الغاصبين لخيرات الجزائر.

وفي الحقيقة كان هناك من يطالب بتأجيل عملية القيام بعمل مسلح إلى أن يتم تدريب الرجال وشراء السلاح وتوحيد العمل السياسي، لكن الرأي الذي اتفق عليه قادة الحركة الوطنية هو الشروع في الثورة حالاً، والسلاح يمكن اقتناؤه، والأحزاب تتوحد في جبهة واحدة عندما تجد نفسها أمام الأمر الواقع، والشعب سيساند الثورة لأن جميع أبنائه يشعرون بالظلم والحرمان، وهم على استعداد للانضمام لأية حركة سياسية تقوم بالثورة ضد الأجانب في بلدهم، وقد كانت هناك عدة عوامل ساعدت على توحيد الجزائريين وتحمّسهم للعمل الثوري، ومن هذه العوامل نخص بالذكر النقاط التالية، التي نعتبرها حيوية لمساندة الثورة، وحصول الجزائر على استقلالها في سنة 1962م:

1. النقطة الأولى: انعدام المساواة بين الجزائريين والأوروبيين، حيث نجد في فرنسا كل السكان يصوتون على اختيار ممثليهم في البرلمان الفرنسي، بينما نجد في الجزائر أن أبناء البلد الأصليين لا يحق لهم التصويت على أي مرشح للبرلمان الفرنسي أو المجلس الجزائري، الذي تم إنشاؤه بمقتضى قانون 20 سبتمبر 1947م، فالأوروبيون في الجزائر الذين لم يكن يتجاوز عددهم في أول نوفمبر 1954م حوالي 1،042،000 نسمة، كان يحق لهم في القانون الفرنسي انتخاب 60 نائباً في المجلس الجزائري، و15 نائباً في البرلمان الفرنسي، و6 نواب في مجلس الشيوخ الفرنسي حسب قانون 5 أكتوبر 1946م، بينما كان لا يحق لحوالي 8،745،000 جزائري أن يساهموا في انتخابهم أو اختيار عدد النواب الذين يمثلونهم في هذه المجالس حسب عددهم السكاني.

فالمسلمون في القانون الفرنسي لا يتمتعون بالجنسية الفرنسية، وبالتالي هم محرومون من الحصول على عدد من النواب يتماشى مع عددهم الحقيقي، وبعبارة أخرى: إن عدد المسلمين يزيد ثماني مرات عن عدد الأوروبيين في الجزائر، لكن المساواة منعدمة بينهم وبين الأوروبيين في التمثيل السياسي، وإذا كان القانون الفرنسي قد منحهم الحق لأول مرة بعد الحرب العالمية الثانية أن يختاروا 60 نائباً لتمثيلهم في المجلس الجزائري، و15 نائباً في البرلمان الفرنسي، و6 نواب في مجلس الشيوخ ؛ فإن الإدارة الفرنسية في الجزائر قد التجأت إلى تزوير الانتخابات وتعيين عملائها في المجالس المنتخبة من طرف المسلمين، ولهذا توحّد أبناء الشعب وقادة الأحزاب ضد فرنسا، لأنهم فقدوا الأمل في الحصول على التمثيل السياسي في المجالس المنتخبة، وعدم وجود مساواة بينهم وبين الأوروبيين.

2. النقطة الثانية: هي انعدام الديمقراطية، واستعمال «الفيتو» أو حق الاعتراض على أي قرار يتخذه المجلس الجزائري. وحسب قانون 20 سبتمبر 1947م، فالمجلس يتكون نصفه من الأوروبيين والنصف الاخر من الجزائريين، والقرارات في هذا المجلس تتخذ بالأغلبية، لكن المادة 39 من القانون تعطي الحق للحاكم العام في الجزائر أو اللجنة المالية بالمجلس أو رُبع أعضاء المجلس ؛ أن يعترضوا على قرارات المجلس لمدة 24 ساعة، وانذاك لا تتخذ القرارات إلا بأغلبية الثلثين من أعضاء المجلس، وهذا معناه عرقلة المجلس ومنعه من اتخاذ

قرارات لتطبيق النصوص الواردة في القانون، وهذا ما حصل بالفعل، حيث أن القانون كان ينص على اعتبار الأعياد الإسلامية، عيد الفطر، عيد الأضحى، عاشوراء، المولد النبوي الشريف، كلها أعياد إسلامية، لكن نظراً لاعتراض الأوروبيين على ذلك ورفضهم لتطبيق النصوص القانونية ؛ رفضت الإدارة الفرنسية في الجزائر أن تعترف بهذه الأعياد الإسلامية[1].

ونفس الموقف اتخذته الإدارة الفرنسية ضد اللغة العربية التي كان من المفروض أن تستعمل كلغة رسمية، مثل الفرنسية، في التدريس والإعلام ونشر الكتب. ومعنى هذا أن المجلس الجزائري وضع بقصد حماية مصالح الأوروبيين فقط، مادام عندهم حق الاعتراض والمطالبة باتخاذ القرارات بأغلبية الثلثين[2].

3. النقطة الثالثة: هي الزيادة الهائلة في السكان الجزائريين والنتائج المترتبة على ذلك، سواء من ناحية صعوبة العثور على عمل، أو من ناحية الحصول على تعليم، فالإحصائيات الرسمية تشير إلى أن عدد السكان المسلمين في الجزائر قد زاد بما لا يقل عن مليون نسمة في الفترة الممتدة من 1948م إلى غاية 1954م.

ونتيجة لهذه الزيادة الهائلة في السكان كثرت البطالة، وتجاوز عدد العاطلين عن الشغل 1،000،000 عامل في سنة 1954م، واضطر 300،000 عامل جزائري إلى الهجرة إلى فرنسا، والبحث هناك عن عمل وتوفير العيش لحوالي 1،500،000 نسمة في الجزائر. وباختصار فإن الفقر انتشر في الجزائر بشكل لا مثيل له، ولذلك شعر الناس بالظلم والتحقوا بالثورة وأيدوها بدون تردد في بداية 1954م[3].

4. النقطة الرابعة: هي أن الأوروبيين في الجزائر قد استولوا على نسبة كبيرة من الأراضي الخصبة في الجزائر، واستأثروا بخيرات الوطن وذلك على حساب أبناء البلد الأصليين، فالإحصائيات تشير إلى أن 72% من الجزائريين كانوا يعيشون على الفلاحة مقابل 16% من الأوروبيين، لكن نسبة ملكية الأرض الصالحة للزراعة هي 109 هكتارات للأوروبي و14 هكتار فقط للجزائري. كما يلاحظ أن الجزائريين كانوا يعانون من الفقر والمجاعة في سنة 1954م، حيث أن المدخول المالي للفلاح الجزائري لم يكن يتجاوز 20،000 فرنك فرنسي قديم، أي أن الفلاح الجزائري كان يحصل على أقل مدخول مالي في العالم بعد الفلاح الهندي الذي كان يقل عنه بعض الشيء.

فقد كان 7 ملايين فلاح جزائري يشعرون بالظلم والفقر والبطالة، وكانوا على استعداد تام لتدعيم الثورة والانضمام إليها لاستعادة حقوقهم المهضومة.

5. النقطة الخامسة: التي تؤخذ بعين الاعتبار، هي قضية القروض والدعم المالي للزراعة والصناعة، فالإحصائيات تشير إلى أن الأوروبيين كانوا يسيطرون على المؤسسات التي تقدم دعماً للزراعة، ففي سنة 1952م كان هناك 14،082 مزارع أوروبي تلقّوا قروضاً مالية لا تقل عن 12،300 مليون فرنك قديم، في حين تلقّى 8،401 مزارع جزائري قروضاً لا تتجاوز 2،600 مليون فرنك قديم، وبالنسبة للقروض التي تعطى

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 370.
(2) المصدر نفسه ص 371.
(3) المصدر نفسه ص 371.

لتدعيم الصناعات الخفيفة، فإن إحصائيات 1954م تؤكد حقيقة مذهلة، وهي أن 92% من القروض ذهبت إلى 65،000 مؤسسة صناعية أوروبية، حيث تلقت 375 مليار فرنك قديم، بينما تلقت 100،000 مؤسسة جزائرية 33 مليار فرنك قديم فقط.

ونستخلص من هذه الفروق الكبيرة في القروض، أن الجزائريين كانوا لا يحصلون إلا على مساعدة مالية ضئيلة في ميدان القروض لا تتجاوز 8%، وهذا ما جعلهم يشعرون بالظلم ويؤيدون الثورة بدون تحفظ[1].

6 . النقطة السادسة: التي يتعين علينا أن نشير إليها ؛ هي أن الموظفين الجزائريين بصفة عامة كان عددهم ضئيلاً، وذلك بسبب عدم حصول أبناء الشعب الجزائري على مستوى رفيع من التعليم، ولهذا لم يكن بإمكانهم منافسة أي أوروبي. ففي بداية الثورة المسلحة عام 1954م لم يكن يتجاوز عدد الجزائريين الذين يحصلون على راتب شهري أكثر من 375،000 عامل، في حين كان عدد الأوروبيين الذين كانوا يحصلون على راتب شهري بانتظام حوالي 250،000 عامل[2].

وأما الجزائريون الموظفون في الحكومة العامة فلم يكن عددهم يتجاوز 8 أشخاص من جملة 2،000 موظف،وبدون شك فإن هذه الحقائق تؤكد حرمان الجزائريين من الحصول على وظائف في الدولة، وهذا ما شجع كل متعلم لم يحصل على وظيفة أن يؤيد الثورة عند اندلاعها بدون تردد.

7 . النقطة السابعة: هي حرمان الجزائريين من التعليم، لأن الفرنسيين كانوا يعتقدون أن التعلم يخلق الوعي واليقظة ومقاومة الاحتلال والمطالبة بالحقوق السياسية، ولهذا كان الأوروبيون يتذرعون بحجة أن الفلوس غير موجودة لتلبية حاجيات الجزائريين، لكنها كانت موجودة لتنفق على كبار الأثرياء والمساهمين في البورصة والأملاك العقارية.

ففي سنة 1954م كان عدد الطلاب الجزائريين في 49 ثانوية بالجزائر لا يتجاوز 5،308 تلميذ مقارنة بـ 34،468 تلميذ أوروبي، ومعنى هذا أنه كان هناك تلميذ واحد في التعليم الثانوي بالنسبة لـ 300 مواطن في فرنسا، بينما كانت النسبة في الجزائر تلميذ واحد لـ 227 مواطن فرنسي، ولهذا كان هناك 1،800،000 طفل جزائري بدون تعليم ولا يعرفون القراءة والكتابة في سنة 1954م، ومستقبلهم مظلم، وبكل تأكيد فإن هذا الجيش من الأميين قد ساند الثورة منذ البداية وبدون نقاش[3].

وبطبيعة الحال، فإن شعور الناس بالظلم والحرمان والفقر قد مهد الطريق للثورة. وليست هناك مبالغة إذا قلنا أن هذه العوامل قد عجلت باندلا ع الثورة المسلحة في أول نوفمبر 1954م.

لكن الغليان السياسي، وإقدام الإدارة الأوروبية في الجزائر على تزوير الانتخابات البرلمانية والبلدية ؛ هي التي غيرت مجرى الأمور بصفة ملموسة بعد قانون 1947م، فالقادة السياسيون المسلمون قد تأكدوا بما لا يدع مجالاً للشك أن الإدارة الفرنسية كانت مصممة على حرمانهم من الحصول على مقاعد في البرلمان الجزائري،

(1) المصدر نفسه ص 373.
(2) المصدر ننفسه ص 374.
(3) المصدر نفسه ص 374.

أو مقاعد في المجالس البلدية المنتخبة، وإعطاء تلك المناصب لعملائها المتواطئين مع الإدارة الاستعمارية. وكان زعيم هذه الحركة الاستعمارية الذي اشتهر بتزييف الانتخابات في الجزائر هو الحاكم العام «مارسيل إدموند نايجلان»، الذي عينته الحكومة الفرنسية في سنة 1948م لتطبيق القانون الجديد.

ففي انتخابات أفريل 1948م الخاصة بانتخاب النواب للمجلس الجزائري، قام نايجلان بتزوير الانتخابات، ومنح 43 مقعداً للمستقلين «عملاء فرنسا»، والسماح لحركة أنصار الحريات الديمقراطية أن تحصل على 9 مقاعد فقط، والاتحاد الديمقراطي لحركة البيان الجزائري 8 مقاعد. وهذا معناه أن الأوروبيين نالوا 60 مقعداً في المجلس الجزائري، بالإضافة إلى 43 مقعداً انتزعت من الأحزاب الوطنية وأعطيت لعملاء فرنسا.

وقد قام نائب في البرلمان الفرنسي بكتابة رسالة إلى وزير الداخلية الفرنسي جيل موك بتاريخ 14 أفريل 1949م، وحذره من الأسلوب الذي استعملته الإدارة الفرنسية في الجزائر لتزوير الانتخابات، لأن الإدارة هي التي عينت النواب المسلمين الموالين لها، لكن الحكومة الفرنسية لم تبال ولم تقم بأي مجهود لاحترام قوانين الانتخابات[1].

وبعد أن كثرت الفضائح السياسية وتزوير الانتخابات بطريقة مفضوحة، قررت الحكومة الفرنسية استدعاء الحاكم العام نايجلان يوم 15 أفريل 1951م، وتعيين «روجي ليونارد» حاكماً عاماً على الجزائر الذي ينتمي إلى سلك الشرطة.

وفي الانتخابات البرلمانية يوم 17 جوان 1951م أثبت الحاكم العام الجديد مهارته في سلك الشرطة، حيث تحالف مع عمداء بلديات الجزائر ضد الوطنيين الجزائريين، ونجح في منع قادة الأحزاب الجزائرية من الحصول على أصوات تمكنهم من الدفاع عن أبناء البلد الأصليين. وقد استفاد روجي ليونارد من دعم وزير الداخلية الفرنسي السيد «ميتران» في سنة 1954م، حيث أعلن «فرنسوا ميتران» أن تمرد الجزائريين يعتبر بمثابة تمرد مجموعة من المواطنين الفرنسيين في الأراضي الفرنسية، وهذا معناه في رأيه أن الثوار الجزائريين يعتبرون أعداء للوطن، والمفاوضات الوحيدة التي يمكن إجراؤها معهم هي الحرب[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 375.

(2) المصدر نفسه ص 376.

ثالثاً: ردود فعل بعد اندلاع الثورة

1 . رد فعل الحكومة الفرنسية:

غداة اندلاع الثورة صدر بيان من وزارة الداخلية الفرنسية يقول: وقعت عدة اعتداءات في هذه الليلة عبر نقاط كثيرة من التراب الجزائري، إنها صادرة من أشخاص أو مجموعة أشخاص منعزلة، ولقد اتخذت تدابير فورية من طرف الحاكم العام للجزائر، ووضعت وزارة الداخلية تحت تصرف هذا الأخير قوات إضافية من الشرطة، يسود الان هدوء كامل في مجموع الجزائر «يظهر من هذا البلاغ أن الحكومة الفرنسية لم تكن واعية بما كان يحضّر أو أنها تريد طمأنة النفوس».

ويوم 5 نوفمبر 1954م أعلن حلّ حزب الحركة من أجل انتصار الحريات الديمقراطية، وألقي القبض على عدد من مناضليها، وأرسلت قوات مدد إلى الجزائر.

ويوم 12 نوفمبر 1954م صرّح رئيس مجلس الوزراء «بيار مانداس فرانس»: سنعامل التمرد بدون هوادة. وأضاف وزير الداخلية «فرانسوا ميتران»: «الجزائر هي فرنسا».. هذه هي القاعدة لا لأن دستورنا يفرض ذلك، بل لأن ذلك يتماشى وإرادتنا.

في الوقت نفسه طلب رئيس مجلس الوزراء من الولايات المتحدة أن تمارس ضغوطاً على مصر حتى لا تساعد «المتمردين»، وطلب من إسبانيا مراقبة حركة الأسلحة في المنطقة، وتدخل لدى منظمة الحلف الأطلسي فحصل على رخصة استعمال الأسلحة المخصصة لها.

والجدير بالذكر أن الولايات المتحدة حافظت على موقفها الرامي إلى اعتبار القضية الجزائرية مسألة داخلية لفرنسا، وذلك حتى انتخب جون كينيدي رئيساً لها في سنة 1960م.

وأما موقف الاتحاد السوفياتي فإنه عبّر عنه بيان مشترك صدر عند زيارة «غي مولي» لموسكو. في هذا البيان المنشور في جريدة « Le Monde » يوم 22 ماي 1956م، وضعت الحكومة السوفياتية ثقتها في فرنسا لحل مسألة الجزائر «على حسب أفكار الزمان العصري وفي صالح الشعوب».

واحتجت فرنسا رسمياً على إذاعة صوت العرب التي كانت تدعو للتضامن مع الشعب الجزائري.

إن الثورة الجزائرية تسببت في عدة أزمات داخل الحكومة الفرنسية، سقطت حكومة «مانداس فرانس» يوم 5 فبراير 1955م، فجاءت بعدها حكومة «أدقار فور» فعاشت أقل من سنة، لأن الاشتراكي «غي مولي» نجح في الانتخابات التشريعية التي جرت في يناير 1956م[1].

لقد قامت السلطات الفرنسية في الجزائر بحملة واسعة ضد كل الوطنيين الجزائريين، وألقت القبض على كل من تشم فيه رائحة الوطنية الجزائرية.

---

(1) الثورة الجزائرية، د . بوعلام بن حمودة ص 176.

كانت السلطات الفرنسية لا تفرق بين جزائري شارك في الإعداد للثورة، وجزائري اخر لم يقم بعمل وطني ضدها، فالجميع يتعرضون للاضطهاد والعقاب.

وهذا العمل التعسفي من طرف الأوروبيين في الجزائر هو الذي وحد بين جميع الجزائريين ضد السلطات الفرنسية، والدليل على هذه الحقيقة هي أن بن خدّة «من حركة انتصار الحريات الديمقراطية» قد التحق بالثورة في شهر جوان من عام 1955م بعد سجنه، واقتناعه بأنه لا مفر من الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني والمشاركة في التنظيم السياسي للجبهة، الذي كان يشرف عليه عبان رمضان بالجزائر العاصمة، ونفس الشيء حصل بالنسبة لجمعية العلماء، والاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، حيث انضم الجميع إلى جبهة التحرير، وتعاون قادة هذه الحركات الوطنية مع جبهة التحرير ضد السلطات الفرنسية في الجزائر، وكما هو معلوم فإن «اليد الحمراء» الفرنسية قامت باغتيال نائب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ العربي التبسي في سنة 1957م، وأما عباس فرحات فقد تمكن من الهروب إلى القاهرة والانضمام إلى جبهة التحرير في أفريل 1956م[1].

2. رد فعل فرنسيي الجزائر:

تيقن فرنسيو الجزائر بأن وقت الحقيقة قد حان، فأحسوا بأنه يجب خنق الثورة وإطفاؤها، وذلك بتجنيدهم وحملهم السلاح، ولقد سارع المعمرون إلى وهب مزارعهم لتُحوّل إلى مراكز للدفاع الذاتي وللتعذيب. من جهة أخرى قرروا أن يمارسوا ضغوطاً على الحكومة الفرنسية لكي لا تتنازل عن امتيازاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأما جرائد فرنسيي الجزائر فنادت بإلحاح لإبادة المتمردين بكل الوسائل[2].

3. ردّ فعل الجامعة العربية في البداية:

أعلن الأمين العام المساعد في الجامعة العربية أحمد الشقيري بوضوح في نوفمبر 1954م أن الجامعة العربية تؤيد حركة التحرير بالجزائر، وتعتبر قضية الجزائر قضية دولية «لا قضية داخلية لفرنسا»، كما تعتبر أن للجزائر حقاً لتحكم نفسها بنفسها[3].

4. اثار الثورة الجزائرية في مسار الأحداث في شمال إفريقيا:

بفضل الله ثم الثورة الجزائرية، استرجعت ليبيا ناحية فزّان بسرعة، فعجلت فرنسا بمنح الاستقلال الذاتي للمغرب وتونس ثم الاستقلال لتتفرغ لحرب الجزائر، وقد كانت الثورة الجزائرية معتمدة على استمرار الكفاح المشترك لإرغام فرنسا على التنازل بسرعة وبأقل ثمن.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 377.

(2) الثورة الجزائرية، بوعلام حمودة ص 178.

(3) المصدر نفسه ص 179.

فقدت الثورة الجزائرية إذاً أمل توسيع رقعة الكفاح، إلا أنها استفادت من استقلال تونس والمغرب، لأن هذين البلدين الشقيقين فتحا لها المجال لتمركز قيادة جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير كما سنرى فيما بعد.

والجدير بالذكر أن اتفاقيات الاستقلال الذاتي لتونس أمضيت يوم 3 جوان 1955م، وأن اتفاقيات الاستقلال التام في العشرين من مارس 1956م.

وأما المغرب فقد عاش غلياناً بعد عزل محمد الخامس من طرف فرنسا في العشرين من أوت 1953م ونفيه إلى مدغشقر، فبعد ضغط الشعب المغربي وانتفاضته أعادت فرنسا الملك إلى عرشه 16 نوفمبر 1955م، وفتحت مفاوضات مع حكومته أسفرت عن استقلال المغرب 2 مارس 1956م[1].

5 . رد فعل الأحزاب الجزائرية:

كوّن أنصار مصالي الحاج أفواجاً خاصة تدّعي أن المصاليين هم الذين يقومون بالثورة، وبعد وقت من الالتباس التحق البعض منهم بجبهة التحرير الوطني، وبقي البعض منهم يحاربون جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني.

. وأما حزب فرحات عباس «الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري»، فقد حلّ نفسه يوم 22 أفريل 1956م، فالتحق فرحات عباس بالوفد الخارجي للثورة، والتحق أنصاره كذلك بصفوفها.

. أبدى الحزب الشيوعي حذراً في بداية الثورة، فأعلن معارضته للعنف وتأييده لحل ديمقراطي يضمن تعايش المجموعات السكانية المختلفة، وفسر العنف الثوري بوجود استغلال استعماري وتمييز عنصري. إن جريدة النقابة الشيوعية إشارت في عددها المؤرخ في 23 نوفمبر 1954م إلى أن الشعب الجزائري في حاجة إلى العمل والخبز، لا إلى قنابل ورشاشات، في الوقت نفسه رفض الحزب الشيوعي الجزائري أن يتبنى موقف المكتب السياسي الفرنسي، الذي صرّح بأنه لا يقبل اللجوء إلى أعمال فردية، من شأنها أن تصبّ في لعب الاستعماريين، وربما تكون هذه الأعمال مدبرة من طرف هؤلاء الاستعماريين في الجزائر. والتحق كثير من الشيوعيين فردياً بالكفاح السياسي والكفاح المسلح.

أما في فرنسا فقد صدرت مساعدة الثورة من مناضلين شيوعيين فردياً بدون موافقة حزبهم[2].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 180.

(2) المصدر نفسه ص 177.

رابعاً: موقف جمعية العلماء من الثورة

1 . محمد البشير أول مؤيد للثورة الجزائرية:

أخذت الصيحة في أول نوفمبر 1954م الذين ظلموا حين أعلن الشعب الجزائري جهاده، فعقدت الدهشة ألسنة بعض السياسيين الجزائريين، وانطلقت ألسنة «التقدميين» تندد «بالإرهاب» وتشجب «العنف»، ولكن شخصية واحدة كانت يقظة مع خيوط فجر ذلك اليوم، وعرفت أن الفجر صادق، وأن المؤذن حقيقي، فاستجابت للنداء، إنها شخصية الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

إن أول مؤيد للجهاد الجزائري هو الإمام محمد البشير الإبراهيمي، فقد أصدر مكتب جمعية العلماء بالقاهرة يوم 2 نوفمبر 1954 بياناً حمل فيه على فرنسا وحمّلها عاقبة ما ارتكبته في الجزائر، وأكد لها أنها «ستكون سبب موتها».

ثم ذكّر حكومات المشرق العربي بواجبها في «إمداد وتشجيع» هذه الحركات المتأججة في المغرب العربي[1].

وقد جاء في هذا البيان الذي تم توزيعه على الصحافة المصرية ووكالات الأنباء العالمية: ... أما نحن المغتربين عن الجزائر، فوالله لكأنها حملت الرياح الغربية ـ حين سمعنا الخبر ـ روائح الدم زكية فشارك الشم الذي شم، والسمع الذي سمع، والبصر الذي قرأ، فيتألف من ذلك إحساس مشبوب يصيرنا ـ نحن في القاهرة ـ وكأننا في مواقع النار والنار من خنشلة وباتنة[2].

ثم أكد ذلك البيان ببيان اخر يوم 3 نوفمبر 1954م، حيّا فيه الثائرين الأبطال الذين سفهوا زعم فرنسا أن الجزائر راضية بها مطمئنة إليها، والذين شدوا عضد إخوانهم في تونس والمغرب، والذين وصلوا حلقات الجهاد الذي هو طبيعة ذاتية في الجزائري، ثم ذكّرهم بجرائم فرنسا في حق دينهم ودنياهم، وأنه ليس أمامنا إلا «بقاء كريم أو فناء شريف» [3].

ثم عزز الإمام ذانيك البيانين بثالث وجّهه إلى الشعب الجزائري المجاهد، حياه فيه وذكّره بغدر فرنسا وأياديه البيضاء عليها، ونكرانها لجميله «فلم تُبق لكم ديناً ولا دنيا»، وحذر فيه الجزائريين من النكوص والتراجع، وأكد لهم أن فرنسا: تنظر إليكم مسالمين أو ثائرين نظرة واحدة، وهي أنها عدو لكم وأنكم عدو لها، ووالله لو سألتموها ألف سنة لما تغيرت نظريتها العدائية لكم، وهي بذلك مصممة على محوكم ومحو دينكم وعروبتكم وجميع مقوماتكم. ثم يدعوهم جميعاً إلى الكفاح المسلح.. فهو الذي يسقط علينا الواجب ويدفع عنا وعن ديننا العار[4].

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (20/5).

(2) جمعية العلماء المسلمين والثورة التحريرية، محمد بن ساعو ص 82.

(3) اثار الإبراهيمي (21/5).

(4) المصدر نفسه (21/5).

لقد كانت هذه البيانات الصادرة كلها في العشر الأوائل من نوفمبر 1954م، عن أهم شخصية دينية وسياسية جزائرية ـ من غير أن يطلب منه طالب أو يضغط عليه ضاغط ـ كانت تلك البيانات ضربة قاضية على كل مناورة يمكن أن تلجأ إليها فرنسا في حال سكوته[1].

واقترح الشيخ الإبراهيمي على شيخ الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954، أن يدعو إلى الجهاد ضد فرنسا، كل هذه المواقف الأولية لقيادة الجمعية في الخارج ؛ جعلت الضابط الفرنسي «سيرفي» يتهم الجمعية بالضلوع في تفجير الثورة[2].

لقد قدمت تلك البيانات دعماً قوياً للمجاهدين، ونفخت في الثورة روحاً، وهي في أوهن مراحلها، حيث أخرجت الشعب الجزائري من التردد والحيرة اللذين كان يمكن أن يُصاب بهما، لجهله بمصدر الثورة وتوجهها، فبيانات الإمام الإبراهيمي شهادة للشعب الجزائري على شرعية المولود ـ الثورة ـ وصحته، وكما أدت هذه البيانات دوراً هاماً في تقبل الشعب بسرعة للثورة، وكانت بمثابة جواز مرور للمسؤولين عنها ـ الثورة ـ إلى قادة جل الدول العربية والإسلامية، الذين لم يكونوا يعرفون مسؤولاً واحداً من مسؤولي الثورة، وزاد مِن تقبُّل قادة تلك الدول للثورة ومسؤوليها طلبُ الإمام الإبراهيمي من شيخ الجامع الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954م أن يدعو المسلمين إلى الجهاد ضد فرنسا، الأمر الذي جعل الضابط الفرنسي «سيرفي» المتخصص في علم الاجتماع يكتب في جريدة «لُومُوند»: إن جمعية العلماء هي المسؤولة عن هذه الحوادث[3].

ولاشك أن هذا الضابط يعلم أن الجمعية ليست هي التي أطلقت الرصاصات، ولكنها هي التي حررت عقول من أطلقوا تلك الرصاصات وأنفسهم، فثورة الفاتح من نوفمبر كانت ترجمة عملية لفكرة جمعية العلماء التي أسسها ابن باديس.

لقد أزعجت هذه البيانات الذين في صدورهم غلّ، وفي قلوبهم مرض، لجمعية العلماء ولرئيسها الإمام محمد البشير الإبراهيمي، لأنهم كانوا يتمنون أن لا تؤيد الجمعية جهاد شعب علّمته معنى الجهاد ووجوبه، أو أن يتأخر تأييدها فيصبح لا قيمة له، كإيمان فرعون الذي لم يعلنه إلا بعد أن أدركه الغرق، فرُدّ عليه لذلك، فإن بعض من كتبوا عن ثورة الشعب الجزائري أهملوا الإشارة إلى هذه البيانات وموقف الإمام محمد البشير الإبراهيمي من جهاد شعبه، ومنهم من أشار إلى تلك البيانات وإلى ذلك الموقف على استحياء، ومنهم من فرّق بين موقف الإمام الإبراهيمي وبياناته وبين موقف الجمعية، فقالوا إن هذه البيانات تعبير عن موقف شخصي للإمام الإبراهيمي الذي كان بالقاهرة، وبالتالي فهي لا تعبر عن موقف الجمعية.

ولنسأل هؤلاء عن الحقيقة التاريخية: إذا كان الإمام يتكلم باسمه الشخصي وليس باسم جمعية العلماء، فلماذا يوقع تلك البيانات بصفته رئيس جمعية العلماء؟ ولماذا يصرّ على ذكر مصدر تلك البيانات وهو مكتب جمعية العلماء بالقاهرة؟

(1) المصدر نفسه (21/5).
(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية ص 83.
(3) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (21/5).

ولنسألهم مرة أخرى: لو لم تكن تلك البيانات باسم جمعية العلماء ؛ فلماذا سكت عنها هؤلاء العلماء؟ ولماذا لم يستنكروها؟ أو يتبرؤوا منها؟ أو يشجبوا موقف الإمام؟

إن الحقيقة التاريخية تقول: إن جمعية العلماء برئيسها كانت متقدمة على غيرها في احتضانها لجهاد الشعب الجزائري.

لقد كان في إمكان الإمام الإبراهيمي أن يلتزم الصمت وينتظر تطور الأوضاع كما فعل بعض السياسيين المحترفين، أو أن يندد بالإرهاب ويستنكر «العنف» كما فعل الشيوعيون أدعياء الثورة، أو أن يصدر البيانات باسمه الشخصي ليجنّب الجمعية التي يرأسها ويقودها السوء، ولكنه أدرك بحسّه العميق وتحليله الدقيق أن هذا الذي وقع في أول نوفمبر بالجزائر هو «ثورة» وليس «فورة»، وأن هذه الثورة تتميز «بحسن التدبير والنظام والإحكام»، وأن الثورة شعبية غير متأثرة بالتأثيرات الحزبية، وأن طابعها عسكري حازم عارف بمواقع التأثير.

من أجل ذلك فهذه الثورة في أمسّ الحاجة إلى مساندة هيئة ذات مصداقية لدى الشعب الجزائري، وتزكية شخصية موثوق بها لديه، ليحتضن الثورة ويُمِدّها بأمواله وبنيه.

ولم يكن في الجزائر انذاك هيئة موثوق بها وبرئيسها وأعضائها إلا جمعية العلماء، فالشيوعيون لا تأثير لهم على الشعب الجزائري، لا قبل الثورة ولا في أثنائها ولا بعدها، فإدارتهم إدارة مكتبية ـ بروقراطية ـ لا صلة لها بالشعب، ولم تكن قادرة على تحليل الحالة الثورية تحليلاً صحيحاً، وكان خضوع الحزب الشيوعي الجزائري للحزب الشيوعي الفرنسي ـ خضوعاً كبيراً ـ وكانوا أسارى نظريتهم الخيالية القائلة: بأنه من المحال تحرير الوطن الجزائري قبل انتصار طبقة العمال في فرنسا[1]، والقائلة بنفي: صفة الثورة عن طبقة الفلاحين عامة والفلاحين الجزائريين منهم خاصة[2].

وأعضاء حزب أحباب البيان كانوا محدودي التأثير على الشعب الجزائري بسبب منطلقاتهم الفكرية التغريبية، وإيمانهم بإمكانية الوصول إلى نوع من الكيان السياسي المشترك بين الجزائريين والفرنسيين تحت السيادة الفرنسية.

وأما أعضاء حزب حركة الانتصار للحريات الديمقراطية، فقد كان بأسهم بينهم شديداً، فقد اختلفوا وانقسموا على أنفسهم.

إن بيانات الإمام الإبراهيمي المتتالية المؤيدة للثورة، الداعية إلى تأييدها، كانت مدداً إلهياً لها في أول عهدها وفي مرحلة ضعفها، لأنها جعلت الشعب الجزائري يطمئن إليها ويثق بها، ويقبل عليها من غير تردد ومن غير ضغط أو إكراه، فدفع الجماهير إلى الثورة ضد المستعمر يكون دائماً باسم الدين، لأن الجزائري ـ الذي لا يملك شيئاً يقتات به ـ ليس لديه إمكانية أخرى للتعبير عما يريده وما يرفضه في المجال السياسي ؛ سوى السير وراء ما يعتقد أنه طبقاً لعقيدته الإسلامية، ومن هنا كانت استجابته لتوجيه العلماء.

---

(1) اثار الإمام محمد البشير (23/5).

(2) المصدر نفسه (23/5).

ويلعب هؤلاء العلماء دوراً كبيراً في إشعال الروح الدينية لدى الشعب، وفي دفعه من الناحية الدينية إلى الثورة ضد المستعمرين. ولم يمض إلا ثلاثة أشهر منذ إعلان الجهاد حتى تداعى أبناء الجزائر المقيمون في القاهرة وفي مقدمتهم الإمام الإبراهيمي، وحرروا ميثاقاً وأسسوا تنظيماً سُمي «جبهة تحرير الجزائر»، لخدمة الجزائر والكفاح في سبيل تحريرها واستقلالها مساندين بذلك جيش التحرير.

وراح الإمام الإبراهيمي ـ وقد أنقضت السنون ظهره وأوهنت السبعون عظمه ـ يتنقل بين البلدان العربية ليحثّ مسؤوليها على تقديم المساعدات للجهاد الجزائري، ويدعوهم إلى الضغط على فرنسا ويطالبهم بمقاطعتها اقتصادياً، ومن هذا القبيل ما شهد به أحد المسؤولين العرب انذاك محمد فاضل الجمالي المسؤول العراقي حيث قال: كان ـ الإبراهيمي ـ يلتقي بصاحب العرش وولي العهد، كما كان يلتقي برئيس الوزراء ووزير الخارجية، حاثاً إياهم على نصرة الجزائر سياسياً وعسكرياً ومادياً[1].

ولاشك في أن للشيخ بشير تأثيره الأكبر على الوفد العراقي ـ في الأمم المتحدة ـ في اندفاعه دفاعاً عن الجزائر، كما كانت له جهود موجّهة إلى رجال الفكر القومي والصحافة وعلماء الدين، يُذكي فيهم الحماس والغيرة دفاعاً عن الجزائر، ففي كل الأحوال كان الشيخ البشير ـ رحمه الله ـ محفزاً للحكومة العراقية، ومتتبعاً ما يجري في العراق من أجل الجزائر المجاهدة[2].

وقد سجل الشعراء بعض نشاط الإمام الإبراهيمي، الذي لم تقعده الأمراض والسن عن السعي الحثيث لحشد التأييد الشعبي والرسمي لقضية وطنه، ومن ذلك ما جاء في قصيدة «الفجر الوليد» للشاعر العراقي مصطفى نعمان البدري:

الله أكبر من جلال الفجر يستبق البشائر
حين أفاق على الحياة تدبُّ من قلب الجزائر
وأطلّ من خلف الخنادق يهزم الليل المغادر
فأعاد للإيمان ديدنه مع البأس المخاطر
وأجال في خير الربوع مسالك النصر المؤازر
غنّاء تُقبلُ بالسّنا المصطف في الأفق المظاهر
فإذا البشير يجوب افاق البلاد بقلب كابر
ويحاضر العُربان في تاريخ أمجاد غوابر
ويحشد الرأي العميم لنصرة البلد المصابر
فيمدّ فيهم نخوة الشجعان تثأر للعوائر[3]

(1) محمد فاضل الجمالي: الشيخ البشير الإبراهيمي كما عرفته، مجلة الثقافة عدد 87 ا الجزائر 1985م ص 124 ـ 126.
(2) المصدر نفسه ص 126.
(3) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، عثمان سعدي (403/2).

وكان الإمام الإبراهيمي ـ عندما لا تسمح له ظروفه الصحية أو التزاماته بالتنقل ـ يزوّدُ مبعوثي الثورة إلى بعض البلدان العربية برسائل إلى علمائها من ذوي التأثير المعنوي والكلمة المسموعة، ليسهلوا لدى سلطات بلدانهم مهمة أولئك المبعوثين.

وقد بلغ اندفاع الإمام الإبراهيمي في الدعوة إلى مساندة وطنه والعمل على دعم جهاده إلى درجة كبيرة من الاهتمام، حيث بعث برقية إلى الملك سعود يقترح عليه تكليف الأستاذين أحمد الشقيري وعبد الرحمن عزام، أو أحدهما «بالاستعداد لمتابعة قضايا الجزائر والدفاع عنها».

وقد قدّم الإمام الإبراهيمي للثورة الجزائرية خدمات كبيرة في الميدان الإعلامي بأحاديثه التي ألقاها في الإذاعات العربية، وخاصة في إذاعة «صوت العرب» سنة 1955م، حيث لم يكن للثورة انذاك جهاز إعلامي منظم، فكان لتلك الأحاديث دورها الكبير في تحسيس الشعوب العربية بالقضية الجزائرية والمسارعة إلى دعمها، كما كان لها تأثير بالغ على الجزائريين للالتفاف حول الثورة، وتأييدهم لها، ومساعدة أسر المجاهدين والشهداء[1].

وكانت بيانات الإبراهيمي لا تنقطع في دعم الثورة، ومن أشهرها نداء إلى الشعب الجزائري المجاهد، حثه فيه على المشاركة في الجهاد من أجل تحرير البلاد من الهيمنة الاستعمارية، وطلب من الجزائريين الصبر في سبيل الحق، وأكد الإبراهيمي أنه يخجل من أن يراه الله ويرى الجزائريين مقصرين في الجهاد لإعلاء كلمة الله: إنني كلما استعرضت الواجبات وجدت أوجبها وألزمها في أعناقنا الجهاد المقدس[2].

وفي يوم 15 نوفمبر 1954م صرّح الإبراهيمي عن طريق راديو القاهرة قائلاً: أيها المسلمون الجزائريون!. هذا هو الصوت الذي يُسمع الاذان الصمّ، هذا هو النور الذي يفتح الأعين المغلقة، إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه نهايته الموت، فاختاروا موتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت، سيروا على بركة الله وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلح، فهو السبيل الأوحد إلى إحدى الحسنيين: إما موت وراءه جنة، وإما حياة وراءها العزة والكرامة[3].

ويروي الشيخ محمد الغزالي أن الإبراهيمي خاطبه قائلاً: إنكم بُليتم بالاستعمار مثلما بُلينا.. لكنكم تعلمون أن ما أصابنا نوع شاذ من الاستعمار يشبه السرطان من بين أنواع العلل المهلكة.. ومن المستحيل الإبقاء عليه، أو البقاء معه، إن معنى ذلك الموت الخسيس، وأولى بنا أن نموت جميعاً في ميادين الكفاح والتضحية من أن نموت على هذا النحو الذي يراد لنا[4].

ويخاطب الورتيلاني ـ أحد تلاميذ الإبراهيمي ـ الأمة الجزائرية: لقد كنا ندعو إلى العلم والتعليم حين كنا نعد العدة لهذا اليوم، أما وأن الأمة الجزائرية أدركت واجبها وفتحت واجهتها للجهاد والكفاح المسلح ؛ فإن على

(1) اثار الإمام محمد البشير (26/5).
(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد بن ساعو ص 84.
(3) المصدر نفسه ص 84.
(4) المصدر نفسه ص 84.

كل أبناء هذه الأمة أن يحمل كل ما أمكنه من السلاح ليخوض به المعركة، ويكتب بدمه اخر سطر من سجل الجهاد المقدس فوق تربة الوطن[1].

انعقد اجتاع القاهرة في جانفي1955م بمنزل السيد فتحي الديب، وحضره الشيخ البشير الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني عن جمعية العلماء، وأحمد بيوض عن حزب البيان، وأحمد مزغنة عن المصاليين، وبينما مثل المركزيين الشاذلي المكي وحسين لحول، ومن جانب جبهة التحرير حضر محمد يزيد وأحمد بن بلة ومحمد خيضر وحسين ايت أحمد، وانتهى اللقاء بتوقيع ميثاق جبهة تحرير الجزائر، الذي أذيع عبر أثير صوت العرب لمدة ثلاثة أيام متتالية، وكانت هذه الجبهة تكتلاً للنضال من أجل الحرية والاستقلال[2].

لقد أيد الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني الثورة التحريرية منذ انطلاقها، كفعل شعبي يستحق المثابرة والكفاح الطويل والشاق حتى دون معرفة حقيقة الجهة التي فجّرتها، وساهم الإبراهيمي في التنظير لما يجب أن تكون عليه الثورة، حيث كتب في بعض مقالاته بُعيد انطلاق الثورة: سبل تحقيق أهدافها والاستراتيجية الواجب تطبيقها[3].

2 . قادة جمعية العلماء في الداخل:

قال أحمد توفيق المدني أحد قادة جمعية العلماء في الجزائر أنه خلال زيارة قادته لباتنة في أكتوبر 1954م، علم من مصدر موثوق أنه بعد أيام ستندلع الثورة، وحرصاً منه على تلبية نداء الوطن استدعى أعضاء المجلس الإداري للجمعية لاجتماع في 1 نوفمبر 1954م، وقرر المجلس مساندة الثورة دون تحفظ. كما بعث الأمين العام رسالة إلى الرئيس بالقاهرة يبلغه بأمر الثورة ويدعوه إلى تأييدها[4].

وخلال شهر جانفي 1955م، نشرت الجمعية بياناً للشعب الجزائري حررته وقدمته للمجلس، فصادق عليه ونشر بجريدة البصائر عدد 304 ومما جاء فيه: إن البلاد في حاجة إلى تغيرات أصولية أساسية تتناول سائر الأسس التي بني عليها النظام الجزائري، لا إلى إصلاحات صورية طفيفة تؤيد الحالة الحاضرة المنكرة.. ولا تقبل الأمة بأية حال ولا ترضى عن برنامج إصلاحي ؛ إلا إذا حقق رغبتها التحريرية الكبرى في كل ما يتعلق بدينها ولغتها[5].

من الفقرتين وغيرهما نتأكد تماماً أن جمعية العلماء قد ثبّتت موقفها من الثورة الصادر يوم 2 نوفمبر 1954م من طرف رئيس الجمعية، ومن داخل الجزائر من علماء الجمعية الذين دعموا العمل الثوري، الذي يعمل على التحرر من كل قيود الاستعمار، وأما ما ورد في البصائر فيمكن أن نعتبره أسلوب «تقية» لصرف نظر الاستعمار ورفع يده عن الجمعية، وخاصة أن هذا البيان جاء بعد شهرين تقريباً من اندلاع الثورة المسلحة.

(1) المصدر نفسه ص 85.
(2) المصدر نفسه ص 86.
(3) المصدر نفسه ص 87.
(4) المصدر نفسه ص 88.
(5) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، محمد بن ساعو ص 92.

من خلال بيانات الجمعية بالقاهرة 15/11/2 نوفمبر 1954م، وبيانها في الجزائر جانفي 1955م، وأغلب افتتاحيات جريدة البصائر ؛ يتبين أن جل عناصر الجمعية كانوا مع الثورة المسلحة كسبيل وحيد للتحرر[1].

أ. الشيخ العربي التبسي:

تعدّ مدارس الجمعية ومعهدها بقسنطينة نموذجاً صادقاً في التأكيد على انخراط الجمعية في دعم الثورة منذ اندلاعها، حيث تجند معلموها وشيوخها وطلابها في إسناد ودعم الثورة، وهو ما نستشفه من خلال استعراضنا لمساهمة خلية معهد ابن باديس الثورية، ودور أساتذته في دعم الثورة التحريرية.

فقد كان الشيخ العربي التبسي يدير المعهد عندما اندلعت شرارة ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وقد عرف عن الشيخ وطنيته الصادقة وأفكاره الثورية، تلك الأفكار التي نشرها على نطاق واسع في بلدته تبسة، وعبر الوطن، ومما يؤثر عنه أنه عندما كان يلقي دروسه الوعظية اليومية في تبسة سأله أحد المستمعين عن قصة أهل الكهف السبعة الواردة في القران الكريم هل هي حقيقة؟ فما كان من الشيخ سوى أن أجابه جواباً سياسياً رمزياً بالقول: ما نعرف غير سبع ملايين رقود في الجزائر أنت واحد منهم، ورسالة التبسي المشفرة واضحة، وهي إشعار الجزائريين بواقعهم الاستعماري المرير وبضرورة تفطنهم لتغييره[2]، وطبعاً قصة أصحاب الكهف حقيقية وفيها دروس في الصراع بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والعاقبة للموحدين المتقين.

كما تدل وقائع أخرى كثيرة أوردها مقربون منه عن ثورية التبسي الجامحة، ومنها أنه وخلال الحرب العالمية الثانية ألقى الألمان بالمظلات أسلحة في جبال النمامشة بقصد استعمالها ضد فرنسا، لكن الإدارة الفرنسية طالبت السكان بتسليمها لها، فتوجه السكان لسؤال التبسي في الأمر، فقال لهم: أرجعوا قليلاً منها واحتفظوا بأكثرها، وسوف يأتي يوم استعمالها، ولما بلغ ما قاله الشيخ للإدارة الفرنسية لفقت له تهمة التعاون مع الألمان، وسجنته بسجن «لامبيز» ثم أطلقت سراحه لعدم ثبوت التهمة.

وقد نقل عنه المقربون منه أنه عندما زار مصر في جولته المشرقية والتقى عبد الناصر في سبتمبر 1954م، طلب منه صراحة أن يساعد الجزائريين بالسلاح، وهو ما ترك انطباعاً جيداً لدى عبد الناصر، الذي كان الداعم الأساسي للثورة وهي في مهدها[3].

وفي اليوم الثاني لاندلاع ثورة 1954م خرج التبسي من منزله بتبسة، فلقي شخصين مناضلين يعرفهما، فدعا أحدهما وسلمه مبلغ خمسمائة ألف فرنك طالباً منه إيصالها للجماعة، بعد أن أبلغه أنها من حرّ ماله وليست من مال الجمعية[4].

(1) المصدر نفسه ص 92.
(2) اسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية، د . عبد الله مقلاتي ص 51.
(3) المصدر نفسه ص 52.
(4) المصدر نفسه ص 269.

وقد كشفت شهادة مساعده إبراهيم مزهودي حقائق أخرى عن مساهمة التبسي وجمعية العلماء في الثورة، حيث يذكر مزهودي أن تشجيع الشيخ التبسي كان يقف وراء التحاقه بصفوف الثورة، ويورد حادثة وقعت في بداية الثورة، إذ اتصل بعض قادة الثورة ومنهم شيخاني بشير بالشيخ العربي في تبسة وطلبوا منه مساعدة الجمعية في توفير الألبسة والأغطية لمواجهة برد الشتاء القارس، وأعربوا عن رغبتهم في لقاء الشيخ العربي خارج المدينة وفي مكان قريب من الجبل الأبيض.

فاتصل الشيخ العربي بمزهودي وأعلمه باتصال الجماعة، وبعد التشاور تبين أن خروج الشيخ يثير الشبهات، ويمكن اكتشافه من قبل الإدارة الفرنسية وعيونها، وتقرر أن يقوم بالمهمة مساعده مزهودي.

وتم إرساء اتصال وثيق بين الجمعية وقيادة الأوراس النمامشة، انطلاقاً من جبل تازينت، وامتد الاتصال بعدها إلى قيادة الشمال القسنطيني وعبان بالعاصمة، حيث طلب عبان من الشيخ التبسي تجنيد الجمعية لربط الاتصال بين قيادات الثورة وتقديم الدعم للثورة، وهي مهمة كلف بها التبسي مساعده مزهودي، وذلك بحكم وظيفة هذا الأخير مفتشاً للتعليم وعلاقاته بمعلمي المدارس الحرة في كامل الشرق الجزائري. وهكذا نهض التبسي ومزهودي بمهام جسورة في بداية الثورة وجعلا خلية الدعم الأساسية تتخذ من معهد ابن باديس مقرا[1].

وقد كان التبسي يتعهد نشاط هذه الخلية، ويؤدي بعض المهمات والرسائل التي يكلفه بها عبان، وتعاون معه في مسائل التنسيق وجمع المال وتجنيد إمكانيات الجمعية في خدمة الثورة، وقد واصل التبسي تهجمه على الاستعمار في خطبه وكتاباته، وتعرض للاعتقال مرات عدة.

وفي 4 أبريل 1957م قررت الإدارة الفرنسية التخلص منه، فاختطفته عصابة اليد الحمراء من منزله واغتالته، وأنكرت الإدارة الفرنسية علمها بالحادث، ولا يعرف إلى اليوم له قبر، وقبل اعتقاله الأخير واغتياله زار مدينة قسنطينة وتفقد المعهد وسير الدراسة، واجتمع بالشيوخ والطلبة وأوصاهم خيراً بالدين والوطن، وقد أثار خبر مقتله صدمة داخل الوطن وخارجه[2].

ب . مزهودي إبراهيم:

من رجال جمعية العلماء، ومسؤول خلية دعم الثورة بالمعهد، ورائد في جيش التحرير الوطني، ولد بالحمامات قرب تبسة عام 1922م. تلقى تعليماً دينياً بمسقط رأسه وعلى يد العربي التبسي بتبسة، وواصل تعليمه بجامع الزيتونة إلى أن تخرج منه عام 1946م بشهادة التحصيل، وعاد إلى أرض الوطن وانخرط في نشاط جمعية العلماء، وتولى عدة مسؤوليات في الإشراف على التعليم الحر، منها مفتش مدارس التعليم بالشرق الجزائري.

وانضم إلى جبهة التحرير الوطني منذ ميلادها بتوجيه من العربي التبسي، حيث ربط الاتصال بين قيادات الثورة وعبان، وتولى عدة مسؤوليات في مدينة قسنطينة، حيث أنشأ خلية لدعم وإسناد الثورة بمعهد ابن باديس، وأنجز بنجاح عدة مهام متعلقة بالتنسيق والاتصال والتموين والتجنيد، وذلك إلى غاية اكتشاف أمره في 10

(1) اسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس ص 53.

(2) المصدر نفسه ص 65.

مارس 1956م والتحاقه بالشمال القسنطيني، وعمل مساعداً لزيغود يوسف، وكان له دور هام في كسب بعض شيوخ الجمعية وطلبة معهد ابن باديس لصالح الثورة، وحضر مؤتمر الصومام وعين رائداً واقترح لقيادة الولاية الأولى ولكنه أبى، فكلف بمهمة رأب الصدع بين قيادات النمامشة، وكذا إعادة النظام إلى قاعدة تونس المضطربة، فواجه صعوبات جمة في أداء مهامه، خاصة مواجهة المعارضين لقرارات الصومام[1].

لقد تسلم مزهودي مهمته منذ أفريل 1955م، حيث بدأ عبان ينشط بالعاصمة، وظل يؤدي مهمته السرية في ربط الاتصال بين قادة الثورة نحو عام كامل. وفي فيفري 1956م اكتشف أمره، حيث علم عبان عن طريق عيونه في الإدارة العامة الفرنسية، أن رأس مزهودي مطلوب في قسنطينة، وبعد مشاورات بين عبان والتبسي ومزهودي تقرر التحاق هذا الأخير بقيادة يوسف في أوائل مارس. وقد كانت الخلية الأم تضم في عضويتها كل من بوغابة مصطفى ومحمد الميلي، وقد أنشأت فروعاً تابعة لها في مدن الشرق الجزائري، وكانت تنسق عملها مع خلايا الفداء المشكلة بمدينة قسنطينة، ومنها الخلايا التي يتولاها كل من: مصطفى عواطي، وصالح بوذراع، ومسعود بوجريو، ولما التحق مزهودي بالجبل استخلف بوغابة في تولي مسؤولية خلية المعهد. وفي بداية نوفمبر 1956م اضطر بوغابة للالتحاق بالجبل إثر محاولة اعتقاله، وترك المسؤولية للطاهر سعدي حراث الأستاذ بالمعهد وذلك إلى غاية جوان 1957م، حيث انتقل متخفياً إلى تونس، واستخلف الصادق مخلوف في قيادة المهمة، فواصل مهمته إلى غاية اعتقاله إثر أسر مساعده أحمد حماني متلبساً في أواسط أوت 1957م، وفي الوقت ذاته أسر مساعده حمادي الهاشمي، وتمكن محمد كحلوش من الفرار للجبل[2].

وخلال السنة التي نشّط فيها مزهودي الخلية، قدمت للثورة خدمات جليلة لم ينفض عنها الغبار، ولم يكن معروفاً منها سوى أن مرسولي عبان، عمارة رشيد وسعد دحلب، اتصلا بقيادة الشمال القسنطيني عن طريق خلية المعهد التي يديرها مزهودي، ولكن نشاط الخلية كان واسعاً وثرياً، وإن كان أهمه ربط الاتصال بين قيادة الثورة في العاصمة والمناطق الأولى والثانية والثالثة[3].

إن خلية الدعم التي أنشأها مزهودي من معلمي المدارس الحرة، لعبت الدور الأساسي في ربط الاتصالات بين قيادة الثورة، وكان هدفها الأولي تقديم الدعم والمساندة للثورة، واتخذت من معهد ابن باديس مقراً رئيسياً وبه مكتب مسؤول الخلية مزهودي وأساتذة وطلاب المعهد، وأنشأت فروعاً لها في الشرق الجزائري الكبرى اعتماداً على سواعد معلمي المدارس الحرة وأعضاء جمعية العلماء ومحبيها. وبواسطة شبكة فروعها مكنت الخلية أساتذة المعهد وطلابه من لعب دور طلائعي هام في دعم الثورة، كما أنها قامت بأدوار هامة في دعم ومساندة الثورة في وقت مبكر من اندلاعها، ومن تلك الأدوار نذكر:

. مهمة الاتصالات:

---

(1) اسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس ص 74.

(2) المصدر نفسه ص 55.

(3) المصدر نفسه ص 55.

قامت الخلية بمهمة تجديد وإحياء قنوات الاتصال المنقطعة بين مسؤولي الجبهة في العاصمة وقادة الثورة في المناطق بالداخل وفي الخارج عبر تونس، وذلك في ظروف صعبة تميزت بازدياد حجم الضغط العسكري الفرنسي، واستشهاد أو اعتقال بعض قادة المناطق، فكان على عبان أن يتواصل مع القيادة التي خلفت ابن بولعيد في الأوراس وديدوش في الشمال القسنطيني، وأن يربط الاتصال بتونس، واهتدى إلى شبكة الدعم بمعهد ابن باديس، حيث تكفل الشيخ التبسي وإبراهيم مزهودي بأداء المهمة وتجنيد أساتذة المعهد وطلابه لإنجاحها.

وبذلك أعادت الخلية ربط الاتصالات المقطوعة ومدّ قنوات جديدة، وأسهمت في ربط الاتصالات وبعث الحيوية المطلوبة لتواصل قيادات الثورة، فبخصوص منطقة الأوراس كلفت الخلية الشيخ الطاهر حراث الاستاذ بالمعهد محاولة ربط الاتصال في منطقة تبسة بواسطة الأستاذين العيد مطروح ومحمد الشبوكي. وكلفت الخلية تلميذي المعهد عالية بلقاسم والهاشمي حمادي إيجاد اتصال مع قيادة الأوراس عن طريق خنشلة. وكلفت أستاذي المعهد أحمد السرحاني وإبراهيم مازوزي، والشيخ محمود الواعي الذي كان يتردد على قسنطينة، ومدير مدرسة عين التوتة محمد درنوني بالسعي لربط الاتصال بقيادة الثورة في باتنة، وبواسطة هذه القنوات استطاع قادة الثورة في العاصمة من الاطلاع على أوضاع منطقة الأوراس التي كانت مترديه عقب استشهاد ابن بولعيد وتصدوا لمعالجة مشاكلها وأزمتها الحادة[1].

وبخصوص ربط الاتصال بقيادة الخارج عبر تونس، فقد كانت المهمة دقيقة وحيوية، وخاصة في ظل عسر الاتصالات وأهمية تونس كقاعدة دعم استراتيجية.

وكانت المهمة الأساسية حسب توجيهات عبان تتمثل في تبليغ أو تلقي بعض الرسائل المكتوبة أو الشفهية بواسطة المسافرين خصوصاً. وتؤكد شهادة مصطفى بوغابة أن جوهر المهمة كان ينحصر في أمرين: طلب تزويد الثورة بما تحتاجه من سلاح وعتاد، وإبلاغ قيادة الخارج دعوة المشاركة في مؤتمر الصومام، وقد أخذ الأمر الثاني المشار إليه طابع السرية التامة، حيث يذكر بوغابة أن: اخر مبعوث لنا في هذه المهمة إلى تونس في ربيع سنة 1956م أثناء التحضير لمؤتمر الصومام. الأخ الشاب عبد الحميد الإبراهيمي حفظه الله[2].

وسجل هذا الأخير فعلاً في شهادة حديثه أنه كُلف بمهمة إلى تونس في هذا الوقت من قبل مصطفى بوغابة، حيث قال: كنت مسؤولاً عن الطلبة الداخلين في المدرسة الفرنسية للمسلمين بقسنطينة، وفي عام 1955م التحقت عن عمر يناهز 19 عاماً بجبهة التحرير الوطني في ظل قيادة الأخ مصطفى بوغابة الذي لا يزال حياً، وفي عام 1956م انضممت إلى الولاية الثانية لجيش التحرير الوطني[3].

لقد أدى معهد ابن باديس واجبه الوطني على أكمل وجه وجند أستاذته وطلابه في خدمة الثورة، وفي هذا الشأن يقول بوغابة: ولقد واصل المعهد بأساتذته وطلابه المتواجدين بالمعهد ودار الطلبة . أثناء الدراسة .

---

(1) إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس ص 57.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه ص 59.

والموزعين على مدنهم ومداشرهم وقراهم أثناء مواسم الراحة الصيفية والأعياد الدينية والعطل الأسبوعية، لقد واصل هؤلاء جميعاً مهمتهم في خدمة الثورة بكل الإمكانيات والوسائل عبر مختلف أماكن تواجدهم، إلى أن ألقي القبض على مدير المعهد بالنيابة وعضو الخلية الأم الشيخ أحمد حماني بتاريخ 11 أوت 1957م.

وإثر إغلاق المعهد بسبب الحادثة السابقة، وما تبعه من مضايقة نشاط المدارس الحرة في مختلف الجهات ؛ كان مصير المعلمين والطلاب الالتحاق بصفوف جيش التحرير الوطني أو التجنيد في خدمة الثورة.

ولقد انخرط أساتذة وإطارات المعهد في خدمة ثورة التحرير الكبرى، وذلك منذ الأشهر الأولى لاندلاعها، حيث أسهموا بكل إخلاص وتفان في توفير ما تحتاجه الثورة من دعم وإسناد، وانخرطوا في خلية المعهد التي أنشئت عام 1955م بأمر من الشيخ التبسي والتحقوا بصفوف جيش التحرير[1].

وقد تحدث الدكتور عبد الله مقلاتي عن إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس في كتابه «إسهام شيوخ معهد عبد الحميد بن باديس وطلابه في الثورة التحريرية» فأفاد وأجاد وذكر قائمة من الشهداء وترجم لهم، منهم:

. الشيخ العربي التبسي.

. وحوحو أحمد رضا.

. وجعفر محمد العدوي.

. وبوشمال أحمد.

. محمد الزاهي.

. وبوشاشية بلقاسم.

. محمد الطاهر مزيان.

. إبراهيم مازوزي[2].

وذكر الأساتذة المجاهدين والمناضلين وترجم لهم شيئاً من حياتهم:

. الشيخ محمد خير الدين.

. مزهودي إبراهيم.

. بوغابة مصطفى.

. أحمد حماني.

. العباسي ابن الشيخ الحسين.

. محمد الميلي براهيني.

. الطاهر سعدي «حرات».

. عبد الرحمن شيبان.

---

(1) المصدر نفسه ص 63.

(2) المصدر نفسه ص 64 . 71.

. نعيم النعيمي.

. الصادق مخلوف، ومحمد كحلوش، وعبد المجيد حيرش، وعلي مرحوم، وأحمد حسين، ومحمد الحفناوي، وعبد الرحمن بلغمراني، وعمر جفري، والسعيد الزموشي، وعبد اللطيف السلطاني، ورمضان محمد الصالح، وعبد القادر الباجوري، وأحمد السرحاني، والمولود النجار[1].

وارتبط طلبة جمعية العلماء وخصوصاً معهد ابن باديس بالثورة التحريرية في ظروف خاصة، وذلك قبل اندلاعها وفي مرحلتها الأولى 1954م . 1957م، حيث كانوا بفعل تكوينهم العربي والديني، ووطنيتهم وحماستهم الجهادية المرشحين الأوائل للالتحاق بصفوف الثورة.

وساهم طلاب جمعية العلماء في العمل الفدائي والتعبوي الداخلي والخارجي. وقد ذكر الدكتور عبد الله مقلاتي في كتابه بعض أسماء الطلبة الشهداء وترجم لهم منهم: محمد لعموري، وإسماعيل مختاري، ونور الدين الصعيد، والصادق بوكريشة، وعثمان عثماني، وعبد الله خبابة، وبلقاسم بن عافية، وعلي سعادة، ومحمد الطاهر زعروري، وعبد الحميد خبابة، والهاشمي عبد الصمد، وعلي قالة، وإدريس يخلف، وموسى تيطوح، وإبراهيم يخلف، ومحمد قدوري، ومحمد بخوش، وعبد الهادي سويسي، محمد شهرة، وموسى بعطوش، وعمار بلالطة، والحاج طيايبة، وحملاوي قنفود، ولخضر بشان، وعبد الرحمن عبداوي، ومحمد شعباني، وغيرهم ممن كان لهم تأثير ملموس في ثورة الجزائر[2].

إن طلاب جمعية العلماء ومدارسها ومعاهدها انخرط الكثير منهم في صفوف الثورة وقاموا بأعمال مختلفة، وإنهم كانوا أوفياء لرسالة جمعية العلماء، فقدموا خدمات هامة للثورة في الميدان السياسي والعسكري والدعوي والتعبوي ساهم في تحرير الجزائر من الاحتلال الفرنسي.

إن معهد ابن باديس نجح في أداء دوره العلمي والحضاري والسياسي، حيث كون أساتذته نخبة من الطلاب عربية اللسان إسلامية التوجه وطنية المشاعر، وكانت سباقة للتضحية من أجل تجسيد ثوابت الشخصية الوطنية والتحرر الوطني.

إن معهد ابن باديس يعتبر مقياساً لدرجة النضج الذي وصل إليه الجزائريون، في إطار الثقافة العربية الإسلامية، مقابل الثقافة الفرنسية الدخيلة التي عمرت طويلاً، وإن هذه المؤسسة التعليمية تعتبر خطوة هامة لإعادة بناء الشخصية الوطنية الجزائرية.

لقد عمّر معهد ابن باديس نحو عشر سنوات، خرّج خلالها الاف الطلاب من مختلف مناطق الوطن، بعضهم انخرطوا في صفوف الثورة ولقوا الشهادة، وبعضهم الاخر واصلوا أداء الرسالة على أحسن وجه وأسهموا في بناء الدولة والمدرسة الجزائرية الحديثة[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 72 . 91.

(2) المصدر نفسه ص 104 . 163.

(3) المصدر فسه ص 167.

إن جهود شيوخ وأبناء معهد ابن باديس الذين ساهموا في الثورة ولعبوا دوراً أساسياً في المرحلة الأولى منها، حيث تكفلوا بربط الاتصالات بين قيادات الثورة، وجعلوا من المعهد ودار الطلبة مركزاً للثورة في مجال التوجيه والدعم وجمع الاشتراكات، وانخرط أساتذة وطلاب من المعهد في جيش وجبهة التحرير.

لقد كانت أفواج جموع طلاب معهد ابن باديس دعماً أساسياً للثورة وخاصة في مرحلتها الأولى، ففي ظروف مختلفة وعبر مراحل متعددة أسهم هؤلاء الطلاب بدور هام في صفوف جيش التحرير، أو في مهمات سياسية وإعلامية وإدارية لجبهة التحرير الوطني[1].

وقد نقل الدكتور عبد الله مقلاتي في كتابه عن إسهام شيوخ معهد عبد الحميد ابن باديس وطلابه في الثورة التحريرية كل من:مصطفى بوغابة مكتوبة بخط يده بعنوان مدى مساهمة معهد ابن باديس في الثورة 1954م . 1962م[2]، وتكلم فيها عن الشبكة السرية المحكمة من الخلايا والمناضلين، التي عمل على وضع دعائمها الاستاذ إبراهيم مزهودي ورفاقه في الخلية الأم، والتي اتخذت من معهد ابن باديس ودار الطلبة مقرها الرئيسي أثناء وجوده على رأسها، أو بعد التحاقه بقيادة الولاية الثانية الشمال القسنطيني واستخلافه بزميله مصطفى بوغابة، بهذه الشبكة استطاع أساتذة المعهد وطلابه أن يكونوا في طليعة من لبوا نداء الواجب الوطني، بتجاوبهم مع الثورة تلقائياً واحتضانهم لها ومناصرتها بدون تحفظ أو تردد، وفيها تفاصيل كثيرة تدحض الافتراءات والأكاذيب التي حاولت تشويهها وإنكار دور جمعية العلماء وطلابها وشيوخها في الثورة.

وجاء في شهادة محمد كشود: .. فمن باب الوفاء والنزاهة فإن طلبة معهد عبد الحميد بن باديس ولا أقول جميعهم، فمعظمهم كان قد التحق بالثورة التحريرية في بدايتها ثم على مختلف مراحلها بطبيعة الحال، وكان ذلك حسب ظروف وإمكانيات كل طالب.

لقد ساهم بعض من طلاب معهد ابن باديس في انطلاقة نوفمبر 1954م، وأذكر ذلك كأمثلة لا على سبيل الحصر اسم شخصين أحدهما مازال على قيد الحياة أطال الله في عمره، وهو المجاهد قتال الوردي من الولاية الأولى التاريخية، وثانيهما رحمه الله المجاهد محمد رويبح المدعو «بالمرخي» من الولاية الثانية، كما

أن المدارس التابعة للفرنسيين أو المدارس الحرة وعلى رأسها مدارس جمعية العلماء المسلمين، ومعهد ابن باديس على الخصوص ؛ قد مدت الثورة بشباب يافع من ذكور وإناث، وذلك من أجل تأطير الثورة في مختلف مهامها في الداخل والخارج، فبالنسبة للبنات مثلاً، لقد أصبحن يتولين مهام مختلفة ففيهن من أصبحن جنديات أو فدائيات أو مرشدات أو ممرضات أو تتكفلن بالاتصال والمواصلات أو عاملات تلازمن جيش التحرير الوطني إلى غير ذلك من احتياجات الثورة.

---

(1) المصدر نفسه ص 168.

(2) المصدر نفسه ص 172.

وبالنسبة للشباب فقد تكفل بالمهام التي أنيطت له من قبل الثورة، فنجد أن معظم خريجي الجامعات سواء كانوا بالخارج أو بجامعة الجزائر، وكذا خريجي معهد ابن باديس، سواء الذين كانوا يزاولون دراساتهم في مختلف الدول العربية، أو الذين مكثوا بين صفوف الثورة التحريرية وأذكر على سبيل المثال لا الحصر اسمين:

أحدهما: تولى رئاسة الولاية الأولى التاريخية وهو الشهيد محمد لعموري.

وثانيهما: بلغ رتبة رئيس الولاية السادسة التاريخية وهو المرحوم محمد شعباني، وهما من خريجي معهد ابن باديس كما نعلم[1].

إن جمعية العلماء المسلمين كانت إحدى القوى الفاعلة في الساحة السياسية قبل اندلا ع الثورة، فقد تعرضت لاتهامات من بعض الأطراف بعدم مساندة الثورة وتأييدها، وكان أحمد بن بلة من بين أشد المتحاملين على الجمعية حيث يقول:

كانت مواقف القوى السياسية كلها من الثورة سلبية بما فيها الحزب الرسمي لنا وهو الحركة من أجل انتصار الحريات، أما جمعية العلماء المسلمين فلم أطلع على شيء أصدرته لكنهم كانوا متفقين مع فرحات عباس، وفرحات عباس جمع اللجنة المركزية وندد بالعمل الذي قمنا به... كل الأحزاب نددت: جمعية العلماء لم تصدر بياناً لكنها كانت مع فرحات عباس ... لكن جمعية العلماء لم تصدر بياناً ضد الثورة مثل الاخرين، لكنها كما قلت من قبل كانت معروفة بصلاتها مع فرحات عباس، وفرحات عباس كان ضد الثورة في الأول من نوفمبر وهي كانت تتبعه[2].

وهذا كلام غير صحيح وفيه تحامل على جمعية العلماء، فقد ثبت بالأدلة القاطعة والبراهين الساطعة أن رئيس الجمعية محمد البشير الإبراهيمي ونائبه العربي التبسي وقفوا بكل ما يملكون مع الشعب في ثورته، كما أن الجمعية لم تكن يوماً من الأيام تابعة لفرحات عباس ولا لغيره، وإنما تابعة لتعاليم القران وسنة سيد الأنام والقيم والمبادأئ التي بذل الشعب الجزائري في سبيلها الغالي والنفيس.

إن مثل هذه التصريحات في وقتها ساهمت في تغطية الجهاد العظيم الذي قامت به الجمعية ويشوّه صورتها المشرقة، ولقد عمل خصومها على تهميشها والتشكيك في مواقفها الوطنية وطمس حقيقتها.

إن ما قاله السيد أحمد بن بلة رئيس الجزائر الأول بعد الثورة والتحرير بعيد عن الواقع والحقيقة واتهام بالباطل، وزعم أن: «الاتجاه الذي كانت تدعو إليه صحافة جمعية العلماء ـ على طول الخط ـ اتجاه غير ثوري لا يؤدي إلى الاستقلال أو المطالبة به، لذلك تجدها حينما قامت الثورة في أول نوفمبر 1954م وقفت صحافة الجمعية ضدنا، وكانت تطلق علينا صفات المراهقة والمغامرة والتهور».. «كانت هكذا منذ البداية إلى النهاية .. منذ تأسيسها إلى أن قامت الثورة، وهي اليوم على ذات المنهج المعادي للثورة».

---

(1) المصدر نفسه ص 200.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية ص 98.

ثم يخص الإبراهيمي بالذكر فيقول: «سأضيف لك شيئاً اخر من تاريخ الثورة مع الإبراهيمي غير معروف حتى الان أيضاً عندما رفض باعتباره رئيساً للجمعية أن يؤيد الثورة وبدأت صحافتهم تكتب ضدنا وبدؤوا هم بتحركات عملية ضدنا قررنا أن نعتقله».

هذه الاتهامات تنسب لزعيم وطني كبير كابن بلة، وهي اتهامات مبالغة من أجل إرضاء نزوات حزبية وتصفية حسابات قديمة، دون المبالاة بما تحمله من تناقض صارخ مع الحقائق التاريخية(1).

فعن أي اعتقال يتحدث بن بلة؟ ثم هل الإبراهيمي لم يساند الثورة وهو الذي أصدر بيانات الدعم من القاهرة وأحمد بن بلة كان هناك؟ فبماذا نفسر تحامل ابن بلة على الإبراهيمي؟

وانتقد يوسف بن خدة جمعية العلماء وزعم أنها لم تطالب باسترجاع الاستقلال، فهو يرى أن ابن باديس طالب بإلحاق الجزائر بفرنسا في المؤتمر الإسلامي 1936م، لذلك يعتبر بن خدة أن القول بمساهمة الجمعية في اندلاع الثورة يعد تزويراً أو تحريفاً للتاريخ وجب التصدي له.

وهذا أيضاً من الأخطاء، ودليل على عدم الإنصاف، وتعمّد إنكار الشمس في رابعة النهار الصيفي، إن الذين طعنوا في جمعية العلماء وحاولوا طمس الحقائق والشواهد التاريخية على دور جمعية العلماء في تخليص الشعب الجزائري لم يحالفهم الصواب، ولم يطلعوا على حقيقة النضال والكفاح المرير الذي قادته الجمعية بقيادة ابن باديس والإبراهيمي، لإعداد الشعب للجهاد في سبيل حقوقه وحريته واستقلاله.

إن بعض أصحاب التوجهات الماركسية والناصرية حاولوا طمس الحقائق تنفيذاً لأجندة معلومة للباحثين، ومحاولة إبعاد دور العقيدة والقران الكريم وروح الدين الإسلامي في تفجير ثورة المليون شهيد، ولقد حاولت الصحف المصرية تشويه موقف الجمعية من الثورة، فبعض الصحف كالأخبار والأهرام اقتطفت بعض فقرات بلاغ الجمعية الذي نشر بالبصائر، فسارعت الجمعية لإصدار بيان احتجاجي على التشويه الذي تعرض له موقفها، مبينة أنها لم تدعُ الجزائريين إلى وقف العمليات المسلحة ولا إلى احترام القوانين الاستعمارية، بل إنها تحمِّل السلطات الاستعمارية مسؤولية التقتيل الجماعي للجزائريين(2).

إن أغلب الاتهامات التي وجهت لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، تنمّ عن حساسيات سياسية جعلت أصحابها يقذفون التهم بدون أدلة، خاصة وأن تهمهم تتعارض مع الوقائع والحقائق التاريخية، التي تثبت في مجملها أن الأغلبية الساحقة من أعضاء ومنتسبي الجمعية كانوا مع العمل المسلح، وباركوا الثورة التحريرية منذ بدايتها، ودعوا الجزائريين للانخراط في هذه المبادرات التي تهدف إلى تحقيق الحرية والاستقلال، وهو رأي الكثير من الباحثين الموضوعيين في تاريخ الثورة الجزائرية(3).

---

(1) المصدر نفسه ص 99.

(2) المصدر نفسه ص 102.

(3) المصدر نفسه ص 103.

3 . شهادة الأستاذ أحمد توفيق المدني الأمين العام لجمعية العلماء:

قال: العلماء أصبحوا منذ غرة نوفمبر 1954م إلى يوم النصر العظيم سنة 1962م جزءاً لا يتجزأ من الثورة، من الكفاح المسلح، من كل مسعى قامت به الثورة العملاقة من أجل تحقيق رغائب الشعب المزمجر كالأسد الهصور، وقال: وضعت البصائر منذ اليوم الأول، وباتفاق العلماء في صميم المعركة، وتوليت بتفويض من المجلس الإداري التصرف بالبصائر وتحرير افتتاحياتها ولم يكن يسيراً، فقد كان عليّ أولاً أن أتولى النضال عن حق الشعب الجزائري في الحرية والاستقلال، وفضح الأساليب الاستعمارية القذرة التي كان الاستعمار الخبيث يرتكبها، من أجل إذلال شعب حر أبيّ، ومقاومة حركة ثورية متأججة الأوار، والمدّ في حكم استعمار حكم عليه الله والشعب بالموت الذريع.

وكان عليّ ثانياً أن أتجنب في مقالاتي ما تتخذ منه الحكومة ذريعة للإيقاع بالبصائر وضرب جمعية العلماء، فكنت أزن كل كلمة يخطها يراعي بميزان دقيق وأتحرى دون أن يصاب الموضوع بأذى.

وكان عليّ ثالثاً أن أعرض كل مقال افتتاحي بصفة سرية بحتة على المكلف من طرف قيادة الثورة بالإشراف على العمل، أي: إنه كان عليّ أن أكتب ما يرضي الضمير وما يعبر عن رغبة الشعب، وما توافق عليه هيئة الثورة، وما لا يجعل الحكومة تجد ذريعة لإعطاء الضربة القاصمة، ولقد نجحت في اعتقادي واعتقاد العلماء واعتقاد رجال الثورة نجاحاً غريباً[1].

أ . علمه بالثورة قبل 1 نوفمبر 1954م:

قال: جاء يوم افتتاح مدرسة باتنة خلال شهر أكتوبر من سنة 1954م، فوقفت أقول للشعب العظيم الذي أمّ المدينة من مختلف جهات البلاد، مشيراً بيدي إلى جبال أوراس الشامخة التي كانت تشرف علينا، وتحيط بنا، كأنني أتنبأ بما سيقع قريباً: من هذه الجبال الشامخة ارتفع صوت الشعب المزمجر طيلة الاف السنين، فكان صوتاً كهزيم الرعد الصاعق يمحق الظالمين، ويحطم جبروت المحتلين، ومن هذه الجبال الأبية الصامدة الرافعة رأسها للسماء سيرتفع من جديد . عما قريب . صوت الشعب القاهر الغلاب، يملي إرادته على الدنيا ويقوّض أركان الظلم والطغيان[2]

إلى أن قال: ... علمت بعد أيام من أحد موقدي نار الثورة أنها ستقع يوم غرة نوفمبر 1954م، وأقسمت له يميناً صادقاً أنني لا أبوح باسمه لأحد ولا أتكلم عن ذلك الموعد لأحد، إلا أنني أردت أن تكون جمعية العلماء مستعدة لتكون أول من يستجيب لذلك النداء، وأول من يدفع رجاله وشبابه في ميدان التضحية والاستشهاد، ذلك الميدان الذي كنت أبشر به وكنت أصوره بألوان ناصعة أثناء دروسي العامة بمركز جمعية العلماء، عن تاريخ الجزائر وتاريخ الإسلام، وأقف الموقف الطويل في تحليل معارك الحرية والاستقلال.

---

(1) حياة كفاح أحمد توفيق المدني (93/3).

(2) حياة كفاح (567/2).

فدعوت رجال الجمعية لعقد الاجتماع الإداري بمدينة قسنطينة يوم غرة نوفمبر من سنة 1954م، فأصبحنا بها ونحن نقرأ أنباء حوادث الانتفاض الأولى. وقررنا بإجماع أننا مع الثورة وبعثنا لكل رجالنا وشبابنا قرارنا هذا، وجاءت الساعة التي حددها الله، فإلى الميدان الشريف إلى الشهادة أو إلى النصر، وكان الزحف المقدس وكان النصر العظيم[1].

ب . الذين عينوا للثورة يومها وساعتها:

أثنى الأستاذ أحمد توفيق المدني على حزب انتصار الحريات الديمقراطية وقال: إن هذا الحزب كان عظيماً حقاً، وإنه جاهد في سبيل الاستقلال جهاداً مريراً قاسياً، وإن ضحاياه الذين يفوق عددهم الحصر قد فتحوا أمام الشعب كله سبيل التضحية والفداء، وكانوا معالم الطريق الذي قادنا نحو الثورة المطهرة ونحوالحرية الغالية ونحو الاستقلال العزيز[2].

وقال: كانت الهيمنة السياسية لحزب الانتصار، إذ أن كلمة الاستقلال الرهيبة التي كان ينادي بها عالياً، والتي كان يسعى جاهداً لنشرها وإقرارها ؛ قد جمعت حوله كل متعطش للحرية، وكل ناقم على الاستعمار وكل راغب في الثورة والانتفاض[3].

ونقد زعيمه «مصالي الحاج»: إن قيادته كانت بسيطة دون مستوى المسؤوليات ودون مستوى الأحداث، وإن هذا الرجل الذي قاوم وضحى وسجن ونكب وأبعد وجابه الموت جهاراً لا يصلح لقيادة ... وأنه لا يمكن أصلاً أن يحافظ على مكانته، إذا ما تسربت للحزب طائفة مثقفة ونخبة صالحة تعرف كيف تتصرف وتعرف كيف تدير دفة السياسة[4].

ثم قال: إن فكرة الحزب عالية رفيعة مقدسة وإن دعوته صالحة مستقيمة، لكن هذه الثمرة لا تؤتي أكلها إلا إذا غيرت قيادتها ووضعت على رأسها طائفة مستنيرة صالحة.

لكنني لا أنسى ولا يجب أن أنسى، وأكون مجرماً إذا نسيت، أن هذه الزعامة .. قد ابتكرت نظاماً غريباً، وشكلت هيئة من أعجب ما ألف في عالم المقاومة من هيئات: هو «المنظمة السرية» أو ما يدعونه « O.S » كانت هذه الهيئة لا تهتم بالسياسة إنما تهتم بالثورة وتهيأئ السلاح وتجند الرجال الصالحين القادرين وتستعد وتعد الشعب لليوم العظيم، كان على رأس هذه المنظمة السرية رجال من أمثال: أحمد بن بلة، ومحمد بوضياف، وحسين ايت أحمد، ورابح بيطاط، وعبد الحفيظ بوالصوف، رجال امنوا بالوطن وحدة، وبالاستقلال مبدأ، وبالثورة سبيلاً، وبطريق الدم والضحايا مبلّغاً للأهداف موصلاً للحرية[5].

---

(1) المصدر نفسه (569/2).
(2) المصدر نفسه (32/3).
(3) المصدر نفسه (31/3).
(4) المصدر نفسه (32/3).
(5) المصدر نفسه (33/3).

وتحدث أحمد توفيق عن الصراعات داخل الحزب: وأنه دخلته في اخر عهده طائفة من الرجال المفكرين المثقفين الصالحين، وانتخب هؤلاء الرجال ضمن اللجنة المركزية، وكانوا يؤمنون بالفكرة ولا يؤمنون بالزعامة المعصومة، وكانوا يؤمنون بالشورى والمفاوضة الصالحة، ولا يؤمنون بإرادة تلقى جزافاً ولا أوامر تصدر فتطاع، وما عتم الحزب بعدها أن انقسم على نفسه، فئة تثور على مصالي وعلى أوامره، وفئة تبقى مع الزعيم كأنه مفروض من الله أو كأنه صوت القدر وتنادي برئاسته مدى الحياة.

وذاق الحزب وذاق الشعب أثر ذلك الخلاف أوصاباً والاماً، وانقلبت القضية إلى مهاترات ثم مضاربات ثم مصادمات جماعية، يخرج منها البعض جريحاً ويخرج منها البعض مكدوماً، وأما جماعة المنظمة السرية ومن ازرها من الرجال؛ فقد كانتْ أرسلت للقاهرة وفداً قوامه أحمد بن بلة ومحمد خيضر ومحمد يزيد وحسين الأحوال، وقابلتْ بواسطة الأخ فتحي الديب من إدارة المخابرات العسكرية السيد الرئيس جمال عبد الناصر، فأطلعَتْه على منهاجها الثوري وعزمها على إيقاد نار الثورة، بعد أن اجتمعت أولاً وقبل سفر الوفد بقرية «زدين» وقررت أنه قد جاءت ساعة القدر، وأن الحرب التحريرية قد ان أوانها. ثم اجتمع التسعة:

. مصطفى بن بولعيد.

. محمد العربي بن مهيدي.

. ديدوش مراد.

. أحمد بن بلة.

. محمد خيضر.

. رابح بيطاط.

. كريم بلقاسم.

. حسين ايت أحمد.

. محمد بوضياف.

مرة أخرى في أوروبا واتخذوا القرار النهائي، وأعلنوا تأسيس «لجنةالاتحاد والعمل» وحرروا نداءها وعينوا للثورة يومها وساعتها[1].

إن الذين فجروا الثورة في 1 نوفمبر 1954م هم مجموعة صغيرة من مناضلي الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية. فهذه حقيقة تاريخية واحتضنها الشعب العظيم، وكان لعلماء الجزائر وخصوصاً جمعية العلماء الأثر الفكري والعقيدي والإسلامي في تفجير طاقات الشعب الكامنة وأشواقه للحرية والاستقلال والسيادة، ففي علم الأسباب وبعد توفيق الله ما كانت الثورة تندلع لولا الله سبحانه وتعالى وتوفيقه ثم أولئك الأبطال من مجموعة المنظمة السرية الذين غلب عليهم الحس الثوري والنضالي، واستعدادهم للتضحيات والشهادة في سبيل قيمهم ومبادئهم، وما كان لهؤلاء الطلائع النادرة في تاريخ الشعوب أن ينجحوا لولا استعداد الشعب بكل

(1) المصدر نفسه (24/3).

ألوانه وأطيافه وعلى رأسهم العلماء للشروع في ملحمة شعبية عظيمة، تقدم الغالي والرخيص وأعز ما لديها في سبيل حريتها واستقلالها.

ج ـ الرئيس جمال عبد الناصر ومعرفته بأول نوفمبر:

تحدث السيد أحمد توفيق المدني عن جماعة المنظمة السرية التي قابلت جمال عبد الناصر ثم قال: .. كشفوا كل ذلك للرئيس جمال عبد الناصر، وقد صرح لي بنفسه من بعد في حديث شخصي معه خلال شهر أكتوبر من سنة 1956م: أنه درس بغاية الاهتمام ما قاله له الوفد.. وأنه طلب من الوفد مهلة تفكير ثلاثة أيام، قال: وكنت أخذت فكرة سيئة عن الحركة الجزائرية، واستهجنت الطريقة التي زعم مصالي أنه يقود بها الشعب للاستقلال.

لقد كان تفكيراً عقيماً وطريقة سخيفة، لكنني بعد اطلاعي على منهاج الوفد، وتأملي العميق في طريقة عمله وتهيئة مراحله؛ ارتحت له واطمأنت نفسي لنتائجه، وعلمت أنها عملية ناجحة لا محالة. وعاد إليّ الوفد فصارحته برأيي وتداولنا طويلاً وحددنا إمكانياتنا، ووعدتهم أنني أكون معهم إلى النهاية، وأمدهم حالاً بما يمكن من سلاح خفيف، وأن أسعى شخصياً لدى الدول العربية وخاصة السعودية، لكي تمد الحركة بالمال، وهكذا أمرت الأخ فتحي والأخ عزت سليمان، بأن يكونا مع الوفد دوماً ممثلين لي شخصياً، وكنت أكتم الأمر على عدد من الوزراء الذين حولي، خوفاً من تسرّب السرّ وإسراع فرنسا إلى ضرب الحركة قبل بروزها. ثم إن السعودية قررت الاستجابة بدفع مائة ألف جنيه «100 مليون فرنك»، فأمرنا بأن ترسلها إلى إسبانيا حيث محمد بوضياف، وأعطيت الأمر للملحقين العسكريين المصريين ـ أينما كانوا ـ أن يكونوا في خدمة الحركة الجزائرية، واستمرت الأعمال إلى يومنا هذا كما قصه عليك الأخ فتحي، وبعثنا بالأسلحة مما عندنا ومما اشتريناه من الخارج إلى رجال الثورة[1].

د ـ مراسلة الإبراهيمي وإعلامه بالثورة وأهدافها:

قال الأستاذ أحمد توفيق المدني عن الاجتماع للمجلس الإداري لجمعية العلماء الذي انعقد في غرة نوفمبر 1954م على الساعة العاشرة صباحاً: .. وبعد مذكرات طويلة ومفاهمات خاصة وعامة رأينا أننا من الثورة ومع الثورة، ولا يمكن إطلاقاً أن لا نكون مع الثورة مع الحذر التام.. وانتهى الاجتماع ورجعنا إلى المقر ليقوم كل منا بواجبه، وكان أول ما عملته هو أنني راسلت الرئيس محمد البشير الإبراهيمي أعلمه بالثورة وأهدافها، ومما قلت له: وهكذا أيها الشيخ الجليل، استجابت الأمة لدعوة الجهاد التي نشرناها مدى عشرين عاماً، وأعلنتها ثورة عارمة على الغاصبين، وأسندت قيادتها لجبهة تحرير وطني لا لحزب ولا لفرد، إنما هي قيادة جماعية على قاعدة سعد زغلول رحمه الله: في ميدان التضحية متسع للجميع.

أما وقد انضممنا نحن للثورة بقضيتنا، وسارت مواكب من شبابنا وشيوخنا تتصدر المعركة أو تتوسطها، فنرجوك أستاذي الجليل أن تفجر من ينبوع فكرك الصافي مورداً عذباً يشفي غلة الأمة الصادئة، وأن تنشر باسمك

(1) المصدر نفسه (36/3).

وبصفتك رئيساً للعلماء المسلمين الجزائريين منشوراً عاماً يبارك الثورة ويمجدها، ويدعو الأمة للمشاركة فيها روحاً وبدناً ومالاً، فالساعة حاسمة والمسؤولية جسيمة، ومن تأخر عن كفاح اليوم فلن يتقدم بعدها للكفاح إطلاقاً ويقيناً، ننتظر استجابة الرئيس للنداء[1].

4 . نتائج تأييد ومشاركة الجمعية في الثورة:

أدى تأييد جمعية العلماء المسلمين للثورة التحريرية ومشاركتها الفعالة فيها إلى العديد من النتائج نذكر أهمها:

أ . تحول موازين القوى:

لقد نتج عن الاستراتيجية الوحدوية التي تتخذها مختلف أطياف الحركة الوطنية بانضمام الجمعية ومختلف التيارات السياسية إلى الجبهة، وخوضهم مسار الكفاح في إطار هذا التنظيم ؛ نتيجة ملموسة حيث اتسعت قاعدة جبهة التحرير الوطني وتعززت صفوفها وزاد نطاق تدخلها.

ب . رجال الجمعية في قلب المعركة:

لعبت الجمعية دوراً مهماً في إعداد رجالات الثورة، الذين كانوا من خريجي مدارسها خاصة، وإن الكثير من رجال الإصلاح كانوا وقوداً مباركاً للثورة طوال سنواتها، ومن جملة زعماء وشهداء الثورة الذين كانوا في مدارس الجمعية، فقد كان مصطفى بن بولعيد من رؤساء مدارسها ومحمد العربي بن مهيدي أحد تلامذتها بمدرسة التربية والتعليم ببسكرة، كما أن الشهيد ايت حمودة عميروش «31 أكتوبر 1926م/ 29 مارس 1959م» كان شديد الصلة بالجمعية وبشعبها في فرنسا حيث كان داعماً لحركة الإصلاح ومساهماً في نشاطاتها.

ومن رجالات الثورة أيضاً الذين تلقوا تعليمهم في مدارس الجمعية: لعموري محمد الذي تخرج من معهد بن باديس بقسنطينة وارتقى لمنصب قائد الولاية الأولى بين 1957م . 1958م، ومنهم أيضاً أبوبكر بن عبد الله مسعودي، ومن رجال الجبهة الذين تكونوا أيضاً في جمعية العلماء: عبد اللطيف رحال، الذي بدأ نضاله مع أحباب البيان والحرية ثم تحول إلى جمعية العلماء، والتحق بالثورة وهو لا يزال طالباً، حيث أسندت له مسؤوليات سياسية وعسكرية، ثم عينته قيادة الثورة عضواً في الهيئة التنفيذية المكلفة بإدارة الشؤون الإدارية وتسليم السلطات عقب الإعلان عن وقف إطلاق النار[2].

فضلاً عن قوافل الشهداء الذين تربوا وترعرعوا في أحضان ومدارس جمعية العلماء المسلمين، وتقلدوا المسؤوليات الإدارية والتربوية في مؤسساتها، على غرار الأديب الشهيد أحمد رضا حوحو «1911م/ 29 مارس 1956م» والذي كان مديراً لمدرسة التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة، حيث نقلته قوات المحتل من عنابة إلى قسنطينة حيث عذّب واغتيل ومزقت أعضاؤه التي وجدها الرعاة صبيحة 20 مارس 1956م، كما أن الشهيد الربيع

(1) حياة وكفاح (43/3).
(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 119.

بوشامة «ديسمبر 1916/ 14 ماي 1959م» نشأ على صحف ومنشورات الجمعية وتقلد مناصب تربوية فيها[1].

واستشهد من رجال الجمعية أيضاً: عبد الكريم العقون شاعر ومدير مدرسة تليملي بالعاصمة، واستشهد الصديق بوشاش «من قلعة بني عباس» وكان مراقباً لدار الطلبة بمعهد بن باديس بقسنطينة، ومحمد الأمين سلطاني من القنطرة، وكذلك الشيخ صالح بوذراع (1920/10 . 1961/1م) أحد معلمي الجمعية من الولاية الثانية.

واعتقل وسجن الكثير من أعضاء الجمعية بسبب مواقفهم الإيجابية من الثورة ومساهمتهم فيها، مثل الأساتذة عبد القادر الياجوري الذي كان في معتقل بوسوي، إلى جانب محمد الصالح بن عتيق الذي قضى فترة طويلة في المعتقلات، والشيخ السعيد الصالحي والجيلالي الفارسي وحمزة بوكوشة.

وتزودت جبهة التحرير الوطني بمجموعات هائلة من الطلبة المتعلمين المثقفين الذين كانوا دفعاً جديداً للثورة. يقول السيد محمد كشود الذي كان طالباً بمعهد بن باديس والتحق بالثورة: كنت طالباً في معهد ابن باديس، وكان من أساتذتنا الشيخ أحمد حماني الذي كان يقول لنا: من أراد أن يتورس فليتورس، ولم أكن وحدي وإنما كان معي إخوة منهم من يزال على قيد الحياة وفعلاً تورسنا، أي أننا التحقنا بجبل الأوراس بصفوف جيش التحرير الوطني.

وقد قام الشيخ العربي التبسي بتجنيد العديد من شباب الجمعية في صفوف جيش التحرير[2].

فالكثير من الذين تعلموا حرف الضاد ونهلوا من منابع جمعية العلماء المسلمين؛ لم يتأخروا يوم أن كانت الجزائر على موعد مع التاريخ، فكانوا وقود ثورتها ودروعاً لها في ساحات الوغي ورموزاً وقادة في دفع عجلة الثورة إلى الأمام، ولم يتخلف عن الركب إلا قلة ضئيلة جداً، والشاذ يحفظ ولا يقاس عليه[3].

وتعرض الكثير من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلى الاغتيال من طرف القوات الاستعمارية مثل العربي التبسي، كما اغتال الفرنسيون أحمد بوشمال «1929/ 1958م» الذي كان أول من طبع بطاقات التعريف لجيش التحرير في مطبعة الشهاب بقسنطينة التابعة لجمعية العلماء، ومحمد العدوي الذي اختطف واغتيل عام 1956م، والأمين العمودي الذي قام بعدة مهام، وساهم في تحرير التقرير الذي عرضته الجبهة في الأمم المتحدة، وكان استشهاده يوم 10 أكتوبر 1957م على يد منظمة اليد الحمراء التي رمته من القطار بالعاصمة، والربيع بوشامة الذي بدأت اتصالاته مع عميروش منذ 1955م لسابق معرفته به أيام كانا منتميين إلى خلية جمعية العلماء في باريس، واكتشف أمره عندما كان يقوم بإعادة تنظيم الجبهة في مدينة الجزائر، حيث اقتحمت مدرسته واقتيد إلى التعذيب ثم الاغتيال في 1959م.

---

(1) المصدر نفسه ص 119.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 121.

(3) المصدر نفسه ص 121.

وزودت الجمعية الثورة بقادة عسكريين ممتازين أشهرهم: قتال الوردي بالولاية الأولى، والعقيد محمد صالح يحياوي الذي أصبح عضواً في قيادة أركان الولاية الأولى، والرائد إبراهيم مزهودي الذي كان من أعلام جمعية العلماء المسلمين .. وانضم إلى الجبهة منذ أيامها الأولى فعمل مساعداً لزيغود يوسف، وساهم في تجنيد الكثير من شيوخ وطلبة الجمعية وحضر مؤتمر الصومام، ورقي إلى رتبة رائد وكلف بتسوية الخلاف الذي حدث بين قيادات الأوراس، وساهم في إعادة النظام إلى قاعدة تونس المضطربة،ۛ وعين مساعداً للرائد قاسي في تمثيل الجبهة بتونس[1].

ومن كبار القادة العسكريين المحسوبين على الجمعية: عمار ملاح، والعقيد الهاشمي هجرس الذي أصبح نقيباً سنة 1958م، وعيّن مسؤولاً للمحافظة السياسية لقيادة الأركان سنة 1960م، وصالح بن حميود، إضافة إلى بن رابح علي الذي التحق بجيش التحرير في مارس 1957م وعرف بشجاعته وحنكته العسكرية، لذلك عيّن في بداية 1960م عضواً بمجلس المنطقة السادسة برتبة ضابط مكلف بالأخبار إلى غاية استشهاده في ماي 1961م إثر معركة بجبل ششار.

كما أن عبد العزيز لكبير المناضل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ساهم في التحضير للثورة، وقاد معارك ضد الفرنسيين حقق فيها انتصارات هامة، وارتقى إلى رتبة ملازم أول ثم نقيب، وفي 5 مارس 1958م سقط شهيداً في معركة بجبل بولقرون قرب بني سليمان، إضافة إلى العقيد محمد العموري، والرائد الطاهر فراج، والمدعو محمد لعوج، وشيحاني بشير، والنقيب عبد اللطيف طولبة، وبوعلام باقي، والرائد محمد الشريف مساعدية، والنقيب محمد عرعار، والنقيب محمد الشريف خروبي، والنقيب محمد يعقوبي، والنقيب عبد الرحمن كريمي، ومحمد بن أحمد الذي كان ضمن قيادة طرابلس ؛ كلهم من تلاميذ جمعية العلماء المسلمين وكانت لهم مساهمات فعالة، وتولوا مناصب قيادية في الثورة التحريرية[2].

ويقول رئيس الجمهورية عبد العزيز بوتفليقة في سياق حديثه عن البشير الإبراهيمي في هذا الجانب: .. وقد التحق بثورة التحرير الكثير من طلابه منهم من هو حي عند الله يرزق، ومنهم كثير من إطارات الدولة في مختلف إداراتها ومؤسساتها[3].

ج ـ الجانب القضائي:

---

(1) المصدر نفسه ص 123.

(2) المصدر نفسه ص 124.

(3) الملتقى الدولي للإمام محمد البشير ص 28.

بناء على تكوينهم الديني في الغالب ؛ فقد تولى بعض أعضاء وأساتذة جمعية العلماء مناصب قضائية في التنظيمات التي أرستها جبهة التحرير، التي أصبحت بديلاً عن المؤسسات القضائية الفرنسية، التي منعت جبهة التحرير الجزائريين من اللجوء إليها لفض نزاعاتهم ومشاكلهم.

ومن رجال الجمعية الذين أصبحوا قضاة نذكر: المجاهد حسين أحمد، كما أن محمد الصالح رمضان كان عضواً بالمحكمة المدنية لجبهة التحرير بالجزائر العاصمة، وأحمد قادري المناضل والأستاذ في جمعية العلماء، الذي اختاره عميروش لتولي مصلحة الأوقاف والفتوى، وعيّنه عضواً في مجلس قيادة الولاية الثالثة، وكان يلازمه دائماً، والشهيد محمد بن ربيع الذي عينته جبهة التحرير قاضياً شرعياً في الناحية الثالثة في المنطقة الأولى للولاية الرابعة، إضافة إلى المجاهد قادة محمد الصغير الذي تولى مهاماً قضائية في جبهة التحرير.

وكانت القضايا التي يتكفل بها قضاة جبهة التحرير تتعلق بتحرير العقود والتعليم والفتوى والإمامة والأحوال الشخصية والمواريث والنزاعات الأسرية والعقارية، ويستند القضاة إلى سلم عقوبات مقسم إلى درجات حسب طبيعة المخالفة[1].

د . تأطير المنظمات الشعبية:

ساهم بعض رجال الجمعية في تأطير المنظمات الشعبية المساندة لجبهة التحرير الوطني، والتي تجندت ضمن مخططات الجبهة الرامية إلى تحقيق الالتفاف الشعبي حولها، ومن ذلك التركي عباس الذي كان يشرف على جمعية التجار بمدينة الجزائر، وأشرف على تأسيس وقيادة الاتحاد العام للتجار والحرفيين الجزائريين سنة 1956م، لكن بسبب التضييق عليه نقل نشاطه إلى تونس[2].

هـ الدعم الإعلامي:

لعب المنتسبون لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدواراً إعلامية بارزة في صحافة الجبهة والصحافة المساندة للقضية الجزائرية، ومن ذلك تيجاني الهاشمي الذي اشتغل بالإذاعة السرية بالناضور، حيث كان أحد محرريها باللغة الفرنسية، وعبد الرحمن شيبان الذي عمل محرراً بجريدة «المقاومة» في طبعتها التونسية، ثم «المجاهد»، وساهم في تحرير نداءين للشعب الجزائري يدعوه للالتحاق بالثورة، وذلك في 12 فيفري 1955م و 11 مارس 1955م، إضافة إلى علي مرحوم الذي كان يعدّ برنامج صوت الجزائر في إذاعتي تطوان وطنجة إلى غاية الاستقلال، ومحمد الميلي الذي كان عضواً في لجنة تحرير جريدة المقاومة ثم المجاهد، كما كان محمد الصالح الصديق محرراً في جريدة المقاومة[3].

وتكفل عبد الحفيظ أمقران بالإذاعة السرية للولاية الثالثة . بغابة أكفادو . حيث يقدم عبر أمواجها حصصاً إذاعية باللغات الثلاث: الأمازيغية، العربية، الفرنسية، وكان تأسيس هذه الإذاعة خلال الذكرى الثانية لمؤتمر الصومام في سنة 1958م، وبُثت برامجها عبر جهاز إرسال، وأطلق عليها «صوت الجزائر المجاهدة من قلب

---

(1) المصدر نفسه ص 127.

(2) جمعية العلماء المسلمين، محمد بن ساعو ص 127.

(3) المصدر نفسه ص 128.

الجزائر»، لكن بثها لم يتجاوز الساعة الواحدة يومياً، وبسبب بطارية ملغمة انفجر عتاد الإذاعة يوم 9 ديسمبر، مما أدى إلى استشهاد ثلاثة مجاهدين تقنيين، وإصابة مقدم البرامج أمقران والرائد محند الحاج بجروح.

كما أن الشاعر والإعلامي أحمد حاج حمدي «أرسلان» تولى القسم العربي لمصلحة الدعاية والإعلام التابعة لجبهة التحرير الوطني، وحققت المصلحة نجاحات كبيرة خلال إشرافه عليها رغم نقص الإمكانيات، وكان محمد الصالح رمضان عضواً في خلية الاتصال والأخبار بالولاية السادسة.

وكانت البصائر منبراً إعلامياً فضح الأساليب الاستعمارية في قمع الثورة التحريرية، وكانت تنقل أخبار الثورة وعملياتها العسكرية وانتصاراتها، وتفند الادعاءات الفرنسية التي تحاول تشويه الثوار، فأصبحت البصائر مصدراً إعلامياً ودعائياً هاماً للثورة، لذلك قامت السلطات الاستعمارية بتوقيف صدورها في أفريل 1956م[1].

و . الوساطة وتسوية الخلافات:

عمل بعض رجال الجمعية على وأد الخلافات التي نشبت بين قادة الثورة، على غرار ما حدث بين عبان رمضان وكريم بلقاسم، فقد حاول البشير الإبراهيمي إقناع عبان رمضان بعدم جدوى مواجهة كريم بلقاسم وضرورة التهدئة معه، لكن فيما يبدو أن عبان رمضان لم يأخذ بنصيحة الإبراهيمي، كما أن إبراهيم مزهودي كان قد عُيّن ضمن المجموعة التي حاولت تسوية الخلاف الذي نشب بين قيادات الثورة في المنطقة الأولى أوراس النمامشة[2].

ز . الاتصالات:

ساهم أعضاء جمعية العلماء في ضمان الاتصال داخل هياكل جبهة وجيش التحرير، وكانت مؤسسات الجمعية معاهد ومدارس ومكاتب وإدارات.. الخ تقوم بدورها لصالح الثورة، وقد كان الشيخ الإبراهيمي يقول قبل اندلا ع الثورة: إن هذه المؤسسات ستحتاج إليها الأمة في يوم من الأيام لمهمات فوق ما نتصوره الان[3].

وفعلاً فإن ذلك ما حدث، حيث أنه في عام 1955اضطلعت الجمعية بمهمة الاتصال بالمناطق. وفي هذا يقول الشيخ أحمد حماني: من عام 1955م تحملت مسؤولية جمعية العلماء في الاتصال بالولايات، وقد شهد العقيد ابن طوبال أن الانقطاع قد تم تقريباً «عاماً كاملاً»، حتى أعاده إبراهيم مزهودي والشهيد رشيد عمارة، وكان مركز انطلاق الاتصال هو معهد ابن باديس بقسنطينة والذي يمثله بوغابة، وفي عنابة يمثله سي الذيب، وفي شاطودان سليمان بشنون، في سطيف باقي بوعلام، وفي برج بوعريريج العربي سعدون، وفي الجزائر أحمد حماني الذي ساهم أيضاً في ربط الاتصال بين قيادة الشمال القسنطيني وعبان رمضان منذ بداية 1956م، وهؤلاء كلهم كانوا يباشرون العمل بين 1955م . 1956م، كما أن أمين مال الجمعية الشيخ عبد اللطيف سلطاني كان في الجزائر.

(1) المصدر نفسه ص 129.
(2) المصدر نفسه ص 129.
(3) المصدر نفسه ص 130.

يقول الشيخ أحمد حماني: عندما جاءنا الاتصال من المغرب لأول مرة الذي يمثله عبد الحميد بن أشنهو، طلب منا أن نكون مسؤولين عن الاتصال الذي يجمع السيد رمضان عبان وقادة الحركة في الجزائر، وبين ممثل الاتصال في المغرب السيد عبد الحميد بن أشنهو، وقد كنا ملزمين على إيجاد مقر لذلك، حيث ذهبت إلى الشيخ عبد اللطيف سلطاني أمين مال جمعية العلماء وطلبت منه أن يوفر لنا المقر، فلبى الطلب على الفور، حيث خصص لنا جناحاً بمنزله الواقع ببلدية القبة بالجزائر العاصمة، بحيث أصبحت تعقد فيها اجتماعات لقادة الجبهة(1).

وبالتالي فإن مؤسسات الجمعية وشبكة اتصالاتها التي كانت مسخرة للتنسيق بين شعب ومدارس الجمعية في سبيل التربية والتعليم والإصلاح، استفادت منها جبهة وجيش التحرير، وحتى خارج مؤسسات الجمعية كان رجال الجمعية يشرفون على البريد السري، أمثال: حمزة بوكوشة، أحمد سحنون، الجيلاني الفارسي، مصباح الحويذق ؛ الذين كانوا يركبون القطارات ويبلغون الأوامر والرسائل لقادة الثورة(2).

ح ـ الدعم الدبلوماسي:

الدعم الدبلوماسي الذي ساهمت به إطارات جمعية العلماء بعد انضمامها للثورة كان فعالاً، خاصة في الدول العربية والإسلامية التي كانت ترتبط بها الجمعية بعلاقات وطيدة منذ تأسيسها، من خلال البعثات الطلابية، والعلاقات بين الحركات الإصلاحية المنتشرة في ربوعها، لذلك كانت استراتيجية الجبهة ترمي لاستغلال هذا الحضور في دعم الدول العربية والإسلامية للثورة، من خلال الاعتماد على رجال الجمعية كسفراء للقيام بهذه المهمة، حيث أثبتوا نجاحهم من خلال الدعم المادي والدبلوماسي العربي والإسلامي للثورة التحريرية.

وفضلاً عن الأسماء المعروفة في جمعية العلماء التي ساهمت في هذا المسعى، هناك شخصيات جمعوية كثيرة نشطت في مجال حشد الدعم العربي والإسلامي للثورة التحريرية أيضاً، أمثال: سعدي الطاهر حراث، الذي أوفدته الجبهة إلى تونس بعد أن تولى تجنيد الطلبة وربط الاتصال بين الولايات إلى غاية جويلية 1957م، وأحمد بودا ممثل جبهة التحرير الوطني في طرابلس، والعباس بن الشيخ الحسين الذي كان ممثلاً للجبهة في المملكة السعودية منذ 1958م، والشيخ خير الدين في الرباط، وعمر دردور الذي انضم إلى الوفد الخارجي للجبهة في القاهرة، وفي 1960م تم تحويله إلى تونس حيث عمل تحت إشراف العقيد محمدي السعيد إلى غاية الاستقلال(3).

وأما محمد الغسيري فقد عيّن على رأس مكتب جبهة التحرير بدمشق عند تأسيسه سنة 1956م، لكن بعد انضمام سوريا إلى مشروع الجمهورية العربية المتحدة سنة 1958م لم يعد للمكتب نشاطات دبلوماسية،

(1) أول نوفمبر بداية النهاية، أحسن بومالي ص 211.
(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ص 131.
(3) دور جمعية العلماء، صالح فركوس ص 265.

واقتصرت مهامه في ضمان عبور الأسلحة ومتابعة تكوين الطلبة الجزائريين بالمدارس العسكرية، وعبد الرحمن شيبان كان ضمن الوفد الممثل لجبهة التحرير في طرابلس وتونس[1].

ط . الجانب التعليمي والتربوي:

شكل المنتسبون لجمعية العلماء عصب المدارس التي كانت تابعة لجبهة التحرير الوطني، حيث تقلدوا فيها مناصب تربوية وإدارية، ليس في داخل الوطن فقط بل حتى خارجه، من خلال قيامهم بتأطير المدارس الخاصة باللاجئين خاصة في تونس والمغرب، فرغم أن الجزائر تعيش ظروفاً صعبة إلا أن الجبهة لم تهمل التعليم، حيث استغلت المؤسسات التعليمية التقليدية كالمدارس القرانية والكتاتيب والمساجد والزوايا، وعيّنت لها المفتشين والمعلمين، وتأطير المساجين والمعتقلين من خلايا تقديم الدروس وفق برنامج تعليمي متنوع يشمل العلوم اللغوية والدينية والرياضيات والجغرافيا وتشجيع المطالعة، وقد تولى هذه المهمة عدد من أعضاء وخريجي الجمعية، الذين قضوا بعض الفترات في السجون، مثل: أحمد حماني الذي تنقل بين عدة سجون في شرق البلاد، وكان عدد هؤلاء المعلمين بالمئات، تمكنوا من تحويل المعتقلات إلى ما يشبه المدارس والمعاهد[2].

* * *

(1) النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، عمر بوضربة ص 132.

(2) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين والثورة التحريرية ص 133.

خامساً: التجنيد الشعبي الشامل

إن انطلاقة أول نوفمبر الثورية كانت عملية حاسمة في تاريخ الجزائر، فقد استفاد ثوار 1954م من تجارب الأجداد في القيام بثورات شعبية في مناطق محدودة، وعدم قدرتهم على صد الهجومات الفرنسية ضدهم، ففي هذه المرة انطلقت الثورة في عدة أماكن، واعتمد الثوار أسلوب حرب العصابات الحديثة، وبذلك صعب على الفرنسيين أن يقضوا على الثورة أين تقع، واستحال عليهم سحق قوات الثوار المتواجدة في جميع المناطق الجبلية بالجزائر.

إن الالتجاء إلى السلاح لاسترجاع السيادة الوطنية، وإقامة نظام سياسي مستمد من المبادأئ الإسلامية، واحترام مبادأئ الحرية دون تمييز بين الأفراد في الجزائر «حسبما جاء في بيان نوفمبر 1954م» ؛ تعتبر قرارات رائعة بالنسبة لجميع الفئات الاجتماعية في الجزائر. ومنذ البداية أظهر الأفراد والأحزاب والجمعيات الوطنية تأييدهم التام، لأن الهدف المشترك لجميع الجزائريين المسلمين هو التخلص من الهيمنة الفرنسية واسترجاع السيادة الوطنية، وهذا الهدف المشترك هو الذي دفع بالجزائريين إلى التخلي عن خلافاتهم الإديولوجية والسياسية، والانخراط في جبهة التحرير الوطني بصفة فردية أي جبهة جديدة لمواجهة العدو المشترك الذي هو فرنسا، وتأكدت هذه الحقيقة إلى الأطراف المتنازعة على السلطة، وأن حركتهم قد وضعت المصلحة الوطنية فوق الاعتبارات التافهة والمغلوطة .. وهي موجهة فقط ضد العدو الوحيد(1).

1 . تحالفات داخل جبهة التحرير الوطني:

لقد نجح المنشقون عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية وعن مصالي الحاج في إنشاء جبهة التحرير الوطني، وحملوا مشعل الحرية بقصد تحرير الجزائر من الهيمنة الفرنسية، لكن مشكلة قادة الجناح العسكري هي أن الثورة انطلقت بدون زعيم لها، وبدون خطة مرسومة، وبدون وجود أسلحة كافية لخوض معركة التحرير الفاصلة، وفي الحقيقة أن القادة الستة للثورة كانوا على قناعة تامة بأن انطلاق الثورة سيضع الجميع أمام الأمر الواقع، وأن المناضلين على مستوى القاعدة سيلتحقون بالثورة ويؤيدونها بدون تحفظ، وهذا هو الشيء الذي حصل. فقد تسارع المناضلون من جميع الأحزاب إلى الانضمام إلى جبهة التحرير الوطني، وقاموا بتقديم الدعم المادي والمعنوي للثورة بدون تحفظ، لكن السؤال المطروح هنا:

هل يقبل الثوريون أن ينضم «المركزيون» و «المصاليون» الذين يتصارعون على السلطة فيما بينهم، ويتسلموا زمام قيادة الثورة التي لم يساهموا في التحضير لها؟

والجواب على ذلك أنه: بمجرد الانطلاقة القوية للثورة في بداية نوفمبر 1954م، وانتقال محمد بوضياف إلى الخارج والتحاقه بالسيد أحمد بن بلة والسيد محمد خيضر بقصد اقتناء السلاح لخوض معركة التحرير الكبرى

(1) بيان فاتح نوفمبر 1954م، ملفات وثائقية رقم 24 نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني الجزائري 1954م. 1962م . الجزائر وزارة الأعلام 1976م ص 7.

؛ برزت على السطح بعض علامات الضعف في قيادة جبهة التحرير، شعر الجميع بالفراغ السياسي في قيادة الجبهة، وقد تأكدت هذه الحقيقة بوضوح بعد اعتقال مجموعة كبيرة أمثال بيطاط رابح في شهر مارس من عام 1955م، ومحمد بوضياف، أحمد بن بلة، وخيضر، وحسين ايت أحمد، وبعد اختطاف الطائرة المغربية التي كانت في طريقها إلى تونس يوم 22 اكتوبر 1956م.

كما عانت جبهة التحرير الوطني من فراغ سياسي كبير بعد استشهاد قادتها الأوائل أمثال مراد ديدوش في يناير 1955م، ومصطفى بن بولعيد يوم 22 مارس 1956م، والعربي بن مهيدي يوم 4 مارس 1957م، وباختصار نلاحظ أنه بعد إقدام الجيش الفرنسي على إعدام العربي بن مهيدي يوم 4 مارس 1957م ؛ لم يبق في ساحة النضال من القادة الستة للثورة الجزائرية سوى كريم بلقاسم[1].

2 . قيادة جديدة في العاصمة:

تغيرت استراتيجية العمل في الثورة نتيجة لتغيرات الأوضاع واختفاء قادة الثورة من ميادين المعركة، سواء نتيجة لاعتقالهم أو استشهادهم في المعارك التي كانوا يخوضونها ضد الاستعمار. وكان من المفروض أن يلتقي قادة الثورة في بداية 1955م ويعيدوا النظر في استراتيجيتهم وإنشاء هياكل جديدة للثورة، لكن هذا الموعد الذي حدده قادة الثورة لم يكن من السهل الوفاء به، وذلك نظراً لصعوبة الاتصال بين قادة الداخل والخارج، وانشغال كل قائد بالمهام الملقاة على عاتقه.

وابتداء من شهر جانفي 1955م شرع قادة الجبهة في انتهاج سياسة جديدة تقوم على أساس توسيع الجبهة، وتمكينها من استقطاب جميع العناصر الوطنية، التي تلتزم بالنضال من أجل تحرير الجزائر واستعادة السيادة الوطنية.

ففي يوم 19 جانفي 1955م خرج عبان رمضان من السجن وعاد إلى مسقط رأسه «بمدينة عزوزة» فاتصل به كريم بلقاسم عن طريق نائبه عمر أوعمران، وطلب منه الالتحاق بالثورة ومساعدة قادتها في التنظيم والتنسيق والإعلام والدعاية، ونتيجة لهذا التعيين الذي وافق عليه رابح بيطاط، المسؤول عن منطقة الجزائر العاصمة «الولاية الرابعة»، أصبح عبان رمضان هو الذي يلعب الدور الحساس في الثورة والمتمثل في التنسيق بين الولايات، وهذا معناه في الواقع خلق نواة جديدة والعمل من أجل برنامج عمل موحد، وخلق قيادة مركزية مشتركة بين جميع الولايات.

وفي الحقيقة إن تسارع الأحداث في الجزائر منذ بداية نوفمبر 1954م، واتساع رقعة الثورة بسرعة مذهلة، وانشغال كل مسؤول بولايته أو منطقته بالمهام الملقاة على عاتقه والمتمثلة في تقوية العمل الثوري ؛ قد أظهرت الضرورة القصوى لإنشاء قيادة مركزية جديدة لجبهة التحرير، وذلك بقصد تنسيق المجهودات بين مختلف المسؤولين، واتخاذ قرارات مشتركة ومتجانسة، وتحقيقاً لهذه الأهداف قام عبان رمضان بمجهودات كبيرة بقصد

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 385.

توحيد التيارات السياسية، حتى يتسنى لجبهة التحرير أن تنتصر على العدو، وانطلاقاً من هذه الفكرة قام عبان رمضان بتوسيع الجبهة، بحيث أصبحت تضم المناضلين في حزب الشعب، وحزب البيان برئاسة عباس فرحات، وجمعية العلماء المسلمين برئاسة البشير الإبراهيمي، ولم يلتحق بركب الثورة الحزب الشيوعي الجزائري بسبب رفضه أن يحل نفسه، وأنصار مصالي الذين كانوا يصرون على أن يكون مصالي الحاج هو قائد الثورة.

وبصفة إجمالية نستطيع أن نقول بأنه ابتداء من مطلع 1955م، برزت قيادة جديدة للثورة الجزائرية تمركزت في العاصمة بقيادة الثلاثي: كريم بلقاسم، عبان رمضان، عمر أوعمران الذي تم تعيينه مسؤولاً على المنطقة الرابعة بعد إلقاء القبض على رابح بيطاط في مارس 1955م[1].

3 . قيادة جماعية للثوار:

تدعّمت هذه النواة الجديدة للثورة بعناصر موالية لعبان رمضان، أمثال يوسف بن خدة الذي تربطه علاقات وثيقة بعبان رمضان منذ لقائهما في ثانوية البليدة، وخاصة أن عبان رمضان كان عضواً باللجنة المركزية لحزب الشعب عند إلقاء القبض عليه سنة 1950م، وبتعبير اخر فإن المركزيين الذين رفضوا الانضمام إلى بوضياف، وبقية أعضاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل والمشاركة في انطلاقة ثورة أول نوفمبر 1954م ؛ قد بدؤوا يتزعمون ثورة التحرير بعد تعيين عبان رمضان في جبهة التحرير في جانفي 1955م، أي يوم خروج بن يوسف بن خدة وأعضاء اللجنة المركزية لحزب الشعب من السجن، بعد أن تأكد وثبت للسلطات الفرنسية أنه لا ضلع لهم في إعلان الكفاح المسلح مثلما قال بن خدة نفسه[2].

وحسب الوثائق الفرنسية، فقد تم إطلاق سراح بن خدة وزملائه بفضل مساعدة الرائد «فينسان مونتاي»، الذي اعتمد عليه الحاكم العام للجزائر جاك سوستيل، لكي يقيم علاقات وجسور تعاون بين الإدارة الفرنسية في الجزائر والوطنيين الجزائريين.

وبمرور الوقت استطاع عبان رمضان في شهر أفريل 1956م توسيع الجبهة ودعمها بقادة حزب البيان أمثال فرحات عباس وأحمد فرنسيس، وقادة جمعية العلماء أمثال إبراهيم مزهودي، أحمد توفيق المدني، والعربي التبسي. وحسب تصوره فإن توسيع الجبهة يعتبر عنصراً هاماً لتوحيد جميع الجزائريين وتحقيق الانتصار على العدو، وبفضل الله ثم هذه النواة الجديدة استطاع عبان رمضان وجماعته تكثيف الاتصالات بين الولايات، والعمل وفق استراتيجية مشتركة لجميع الولايات، والدعوة لعقد مؤتمر وطني للثورة الجزائرية، وبعبارة أخرى فإن النواة الجديدة للثورة الجزائرية قد نجحت في خلق قيادة جماعية للثورة في داخل الجزائر[3].

ظهرت براعة الثلاثي عبان رمضان، كريم بلقاسم، عمر أوعمران بوضوح في سبتمبر 1955م، حيث تقرر إرسال الدكتور الأمين دباغين إلى القاهرة بصفته رئيساً للوفد الخارجي لجبهة التحرير، مع أنه ليس أحد القادة

(1) المصدر نفسه ص 387.
(2) المصدر نفسه ص 387.
(3) المصدر نفسه ص 387.

الستة الذين أنشؤوا جبهة التحرير الوطني الجزائري في عام 1954م، وكان معنى ذلك التخلص من زعامة بن بلة وبوضياف وخيضر وايت أحمد، وإجبارهم على العمل في إطار القيادة الجماعية الجديدة التي يتزعمها كريم بلقاسم وعبان رمضان وعمر أوعمران. لكن مشكل عبان رمضان أن تأييد جمال عبد الناصر للثورة الجزائرية مرتبط بقيادة بن بلة، الذي تثق فيه القيادة المصرية وتعتبره أحد القادة الرئيسيين للثورة الجزائرية.

وامتد نفوذ كريم بلقاسم وعبان رمضان إلى فدرالية فرنسا، حيث تم تعيين صالح الونشي كمستشار سياسي لعبان رمضان ويتعاون معه في المجال السياسي. وبذلك تحولت فدرالية فرنسا إلى خلية ثورية تعمل بانسجام مع القيادة الجديدة لجبهة التحرير الوطني التي يتزعمها بلقاسم وعبان رمضان. ونفس الأسلوب استعمل مع اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، واتحاد العمال الجزائريين، حيث انضمت قيادة هذه المنظمات المهنية والجماهيرية إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري[1].

4 . الاتحاد العام للعمال:

انعقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للعمال الجزائريين يوم 24 فبراير 1956م في مقر الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بالقرب من جامع كتشاوة بالعاصمة، وقد وضع القانون الأساسي لدى محافظة الجزائر، والهدف الرسمي المذكور في القانون الأساسي هو الدفاع عن المصالح المادية والمعنوية للعمال الجزائريين، لكن المقصود ضمنياً في المرحلة الحالية هو تجنيد العمال حول الثورة التحريرية.

وبعد بضعة أشهر من المؤتمر التأسيسي أي يوم 24 ماي 1956م، اعتُقل كل فريق الأمانة العامة، منهم الأمين العام إيدير عيسات الذي اغتيل في أثناء اعتقاله يوم 26 جويلية 1959م فمات شهيداً.

وفرضتْ الحرب على الاتحاد العام للعمال الجزائريين أن يواصل عمله من تونس، وذلك تحت قيادة مولود قايد ثم مبارك جيلاني.

وحظي مولود قايد بمساعدة الاتحاد العام للعمال المغاربة والاتحاد العام للعمال التونسيين، فحصل على انخراط الاتحاد العام للعمال الجزائريين في الكنفدرالية الدولية للنقابات الحرة، التي لها مقرّها في بروكسل «بلجيكا» تمّ ذلك يوم 7 جويلية 1956م.

والجدير بالذكر أن النقابيين الفرنسيين ذات النزعة الاشتراكية وذات النزعة الشيوعية عارضتا انضمام الاتحاد العام للعمال الجزائريين، كما عارضه الاتحاد النقابي للعمال الجزائريين «ذو النزعة المصالية»، وظهرت فوائد الانخراط في الكنفدرالية بسرعة إذ أنها نادت ابتداء من سنة 1957م لحل مسألة الجزائر عن طريق المفاوضات، وعلى أساس الاعتراف بالأمة الجزائرية، وبحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، وساهم الاتحاد العام للعمال الجزائريين في إضراب 5 جويلية 1956م وإضراب أول نوفمبر 1956م، اللذين أيّدا كفاح جبهة التحرير الوطني، كما ساهم في إضراب الثمانية أيام 28 يناير 1957م إلى 4 فبراير 1957م.

---

(1) المصدر نفسه ص 390.

والمعلوم أن القوات الاستعمارية اعتقلت 5 أمانات عامة للاتحاد العام للعمال الجزائريين بين ماي 1956م وجويلية 1957م، وقد قادها على التوالي إيدير عيسات ثم محمد فليسي فرحمون دكار مرتين ومحمد شناف، نظراً لتتابع اعتقالات المسؤولين النقابيين، وتوقف النشاط النقابي للاتحاد العام للعمال الجزائريين بالجزائر في جوان 1957م[1].

وفي 12 أكتوبر 1958م جمع بن يوسف بن خدة بتونس إطارات الاتحاد العام للعمال الجزائريين، لأنه كان وزيراً للشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة في هذا عُيّنت لجنة تنفيذية متكونة من 12 عضواً، وعيّن من بينهم 5 مناضلين لتشكيل الأمانة: عبد القادر معاشو شغل منصب منسق في هذه الأمانة، ثم خلفه علي يحيى عبد النور سنة 1961م.

فصدرت من جديد جريدة «العامل الجزائري» وبقيت حتى فبراير 1961م مدافعة عن الثورة التحريرية، وداعية إلى تجنّد العمال في صفوفها. في المجال الخارجي تدخل الاتحاد العام للعمال الجزائريين بنجاح في الملتقيات الدولية، لشرح القضية الجزائرية وكشف جرائم القوات الاستعمارية الفرنسية، وقد ساهم الاتحاد في نجاح الاستفتاء من أجل تقرير المصير يوم 3 جويلية 1962م، فدعا العمال الجزائريين إلى بعث الاقتصاد الجزائري المتأثر بالاحتلال الاستعماري وبسبع سنين من حرب مدمرة.

والجدير بالتنبيه أن الاتحاد العام للعمال الجزائريين كان له امتداد في فرنسا بواسطة الودادية العامة للعمال الجزائريين المحدثة يوم 16 فبراير 1957م، وهذه الودادية دافعت عن حقوق العمال الجزائريين وأيّدت الثورة الجزائرية، فلذلك حلّتها السلطات الاستعمارية في أوت 1958م، واعتقلت العديد من مسؤوليها.

بالرغم من هذا القمع واصلت الودادية عملها سرياً، وواصلت كفاحها الإعلامي، وربطت اتصالات ببعض النقابات الفرنسية والأوساط الدينية، من أجل إقناعها بتأييد مفاوضات الحكومة الفرنسية مع حكومة جبهة التحرير الوطني[2].

النشيد الرسمي للاتحاد العام للشغالين الجزائريين نظم بسجن بربروس في 12 جويلية سنة 1956م بزنزانة رقم 69.

قال مفدي زكرياء:

نحـن جـنـد الاتحـاد والـعـمـل ... ننجز الأشـغال لا نرضـى الكسـل
نـعـقـد الـعـزم لـتـحـقـيـق الأمـل ... نـرفـع الـرايـة مـا بـين الـدول
لا نكلّ لا نملّ في الجزائر
نحـن عـمـال نهضـنـا لـلـبـنـا ... ووهـبـنـا روحـنـا والـبـدنا
وضـعـنـا مـن دمـانا وطـنـا ... وانـدفعنـا فسـبقنـا الزمنـااللازمـة

(1) الثورة الجزائرية، د . بوعلام حمودة ص 195.
(2) المصدر نفسه ص 195.

نحن في الشــــعــب نؤدي فرضــــنــا | ننقـذ العمــال من عيش الضــــنــا
نحـن بالأشـــغــال نحيـي أرضــــنــا | ثورة التحرير تحمي عرضـــنــااللازمــة
نحـمـل الجـيـل عـلـى أكـتـافـنـا | نرفع الشـــعــب على أضــــلاعنـا
نصـــنع التـاريخ من أعصــــابنـا | ننســـج الرايـة من أكبـادنااللازمـة
كلنـا للشـــعــب والشـــعــب لنـا | نحـن في الشـــعــب عـرفـنـا المحنـا
وزعــوا الأرض عــلــى فــلاحـنـا | وانشــــروا الصـــنعـة في أوطننــا(1)

5 . الاتحاد العام للطلاب:

لقد أولت جبهة التحرير الوطني الشباب المثقف عناية خاصة منذ بداية الثورة، وذلك بهدف استيعاب العديد من الطاقات الفكرية والعلمية بين صفوف الطلبة، للعمل معها في صفوف الجيش كمجندين، أو للاشتغال في ميادين أخرى كالدعاية والإعلام والتموين وتعليم الجنود والمناضلين، وغيرها من الميادين الحيوية التي تعتبر أساسية لدفع عجلة الثورة قدماً.

وكانت جبهة التحرير الوطني قد أولت القطاع الطلابي اهتماماً خاصاً واعتبرته سنداً قوياً للثورة، نظراً لما يتمتع به الطالب من إمكانيات سياسية وفكرية تدفعه للقيام بمهام ثورية ضد سيطرة الاحتلال الفرنسي. فدور الطالب في الحركة الثورية . كما أكده مؤتمر الصومام . يرتبط بوضوح بكل من الثورة وأهدافها النضالية بالتعبئة الجماهيرية، ومقاومة الاحتلال بالنضال الفكري والمسلح، بل إن مؤتمر الصومام قد حيا الشباب الجزائري الذي يمتاز بالنضج المبكر والذي . نظراً لعامل البؤس والشقاء والاضطهاد الفرنسي . ينتقل من طور الطفولة إلى طور الرجولة بسرعة، مختصراً مرحلة المراهقة إلى الحرية التي يصبو بسيره وراء منظمته الثورية بولع وشغف مع ازدراء للخوف واستهانة بالموت، كما أن مؤتمر الصومام قد رأى بأن الشباب يمثل الجانب الأعظم من قوة جبهة التحرير الوطني وركناً جميعاً من أركان مقاومتها الجبارة.

ولم يخيب الطلبة الجزائريون أمل جبهة التحرير الوطني، فبمجرد أن اندلعت الثورة المسلحة في أول نوفمبر 1954م لم يتردد الطلبة في الالتحاق بها، وكانت في بداية الثورة الجمعيات الطلابية هي الإطار الوحيد الذي انصبت فيه الحياة الطلابية اجتماعياً وسياسياً(2).

أ . المؤتمر التأسيسي:

وبوحي من جبهة التحرير الوطني، عقد اجتماع تحضيري في باريس بين الرابع والسابع من شهر أفريل 1955م للنظر في كيفية إنشاء منظمة طلابية جزائرية، وقد ضم هذا الاجتماع ممثلين جزائريين عن كل الجامعات في فرنسا.

(1) اللهب المقدس، مفدي زكرياء ص 85 . 87.
(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة، د . عقيلة ضيف الله ص 333.

وفي جويلية 1955م عقد الطلبة مؤتمرهم التأسيسي في باريس، وقد ضم هذا المؤتمر الطلبة الجامعيين من مختلف دول العالم، وكذلك تلاميذ المدارس الثانوية، وكان المؤتمر يهدف إلى تحديد موقف هذه الفئة من الشعب من الكفاح المسلح الذي تخوضه جبهة التحرير الوطني ضد الاحتلال الفرنسي، وكذلك وضع برنامج عمل يحدد طرق ووسائل النضال التي ينبغي استعمالها في هذا الكفاح.

وانتهى المجتمعون بالإعلان عن تأسيس منظمتهم، التي أطلقوا عليها اسم الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين « U.G.E.M.A »، وذلك بالرغم من المعارضة الشديدة التي أبداها الطلبة الشيوعيون، حيث رفضوا أن يشمل الاسم كلمة مسلمين[1]، ولعل الشيء الذي يكون قد أقلقهم كثيراً إدراج كلمة مسلمين في تسمية الاتحاد، وليس تأسيس الاتحاد في حد ذاته. غير أن المنظمة الطلابية الجزائرية الجديدة أصرت على إدخال كلمة «مسلمين» في تسميتها، وذلك بهدف التمييز بينها وبين المنظمات الطلابية الأخرى التي كانت تنشط في الجزائر وفرنسا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا النعت مسلمين يحمل أكثر من معنى بالنسبة لها: فهو يرمز إلى انتماء الطلبة الجزائريين إلى الحضارة العربية الإسلامية التي يستمدون منها مبادأئ فلسفتهم وثقافتهم وسياستهم.

وهكذا فقد أعلن الطلبة في مؤتمرهم التأسيسي هذا أنهم مجندون وراء جبهة التحرير الوطني، وأنهم مستعدون للتضحية بكل ما لديهم من أجل تحقيق الاستقلال، والتحق الكثير منهم بالثورة عاملين على الخصوص في الميدان الصحي والإداري، كما قام الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين على الصعيد الدولي بحملة إعلامية واسعة النطاق، للتعريف بالقضية الجزائرية لدى مختلف التجمعات الطلابية وحركات الشباب في أنحاء العالم ولدى المنظمات الدولية، وبعد تسعة أشهر من إنشاء الاتحاد العام للطبة المسلمين الجزائريين، عقد الطلبة الجزائريون مؤتمرهم الثاني خلال شهر مارس من عام 1956م في مدينة باريس، أعلنوا فيه: أن كفاح الشعب الجزائري هو كفاح عادل وشرعي ويساير تيار تاريخ الثورة[2].

ب . نتائج المؤتمر الطلابي وإضرابهم عن الدراسة:

كان الطلبة خلال المؤتمر قد اتخذوا موقفاً ثورياً حازماً وواضحاً تجاه الثورة التحريرية الجزائرية وكفاح الشعب الجزائري، وطالبوا باستقلال الجزائر ودعوا الحكومة الفرنسية إلى التفاوض مع جبهة التحرير الوطني، بالرغم من معارضتها لذلك[3].

لكن إعلان الاتحاد لنتائج المؤتمر التي تضمنت الدعوة الصريحة إلى استقلال الجزائر، قد دفعت بالسلطات الفرنسية إلى شن حملة اعتقالات واسعة النطاق في صفوف الطلبة المناضلين المنتمين إلى الاتحاد ومنع كل نشاطاتهم.

(1) المصدر نفسه ص 334.

(2) المصدر نفسه ص 335.

(3) الثورة الجزائرية، مصطفى طلاس ص 191.

غير أن ذلك لم يزد الطلبة إلا صموداً وتصدياً لقرارات السلطات الفرنسية الجائرة، بل إن تلك القرارات قد دفعتهم إلى التفكير في اتخاذ إجراء اخر أكثر جرأة وتحدياً بالنسبة للكفاح المسلح، إنهم رأوا وتأكدوا أن مكانهم ليس في مقاعد الثانويات والجامعات الفرنسية ومدرجاتها، ولكن في الجبال إلى جانب جنود ومناضلي جيش وجبهة التحرير الوطني.

وهكذا وجدت المنظمة الطلابية ـ المتمثلة في اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين ـ نفسها أمام الأمر الواقع، فقررت بالاتفاق مع جبهة التحرير الوطني وثانوياتها وفي الجامعات الفرنسية أيضاً إعلان الإضراب عن الدروس والامتحانات بتاريخ 19 ماي 1956م، وفي نفس الوقت وجهت نداء للطلبة تحذرهم فيه من خطورة الوضع وتدعوهم إلى الالتحاق بصفوف المجاهدين(1).

وقد بدأت المنظمة الطلابية بيانها بالتطرق إلى ذكر أسماء الطلبة الذين تمّ اغتيالهم من طرف الشرطة الفرنسية أمثال: زرود بلقاسم، والطبيب ابن زرجب، والتلميذ الإبراهيمي الذي أكلته النار حياً في قريته التي احرقها الجيش الفرنسي، وكذلك اختطاف الطالب فرحات حجاج وذبحه بعد حبسه وتعذيبه لمدة عشرة أيام من طرف شرطة مدينة جيجل، وبمساعدة الحراسة المحلية المسلحة، وأيضاً تنفيذ حكم الإعدام بدون تحقيق ولا استنطاق ولا محاكمة على الأديب «رضا حوحو» الكاتب بمعهد ابن باديس بقسنطينة، وقد كان ضمن جماعة ممن أخذتهم الشرطة الفرنسية كرهائن، بالإضافة إلى شن حملات دامية من الاعتقالات والتعذيب لكثير من الطلبة، بهدف إدخال الرعب في قلوب أعضاء اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين، ثم ختمته بتوجيه النداء التالي للطلبة والتلاميذ: وعليه فإننا نقوم من الان بالإضراب عن الدروس والامتحانات لأجل غير محدود، فلنهجر مقاعد الجامعات ولنتوجه إلى الجبال والأوعار، ولنلتحق كافة بجيش التحرير الوطني وبمنظمته السياسية جبهة التحرير الوطني.

أيها الطلبة والمثقفون الجزائريون!. أنرتد على أعقابنا والحال أن العالم ينظر إلينا والوطن ينادينا والبلاد تدعونا إلى حياة العز والبطولة والمجد(2).

وقد استجاب الطلبة والتلاميذ للنداء، فقاطعوا الدروس والامتحانات، والتحقوا بصفوف الجيش وجبهة التحرير الوطني، وأدوا دورهم النضالي على أكمل وجه على الصعيدين الداخلي والخارجي.

وكان تنفيذ الطلبة والتلاميذ لنداء اتحادهم على المستوى الداخلي يتمثل خاصة في الالتحاق بالجبال وحمل السلاح مع المجاهدين، فبرهنوا بذلك للسلطات الفرنسية على مدى الالتحام القوي بين كل فئات الشعب الجزائري، من أجل الدفاع عن قضيتهم العادلة وتحقيق الاستقلال التام.

---

(1) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، يحي بوعزيز ص 352 ـ 353.

(2) مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ص 353 ـ 355.

أما على الصعيد الخارجي فقد تمثل دورهم في تكثيف جهودهم لدى الاتحادات الطلابية في كل دول العالم، والعمل على تحقيق جبهة طلابية عالمية قوية تقف إلى جانب الثورة الجزائرية. ولتحقيق ذلك توزع عدد كبير من الطلبة على معظم دول العالم، وقاموا بدور فعال في مشاركتهم في عدة ندوات عالمية للطلبة، حيث تمكنوا من التعريف بالثورة الجزائرية وشرح قضيتها العادلة، وذلك بإعطاء صورة واضحة لكل طلبة العالم على وحدة الشعب الجزائري، ووقوفه صفاً واحداً وراء قادة جيش وجبهة التحرير الوطني، الذين يعود إليهم الفضل في تفجير الثورة وتنظيمها وتسييرها، كما قام الطلبة من جهة أخرى بشرح مأساتهم كطلبة يعانون تمييزاً عنصرياً فظيعاً منذ عدة أجيال، وكذلك شرح أسباب اللجوء إلى الإضراب العام غير المحدود عن الدروس والامتحانات وتحديد الأهداف المرجوة منه[1].

وهكذا استطاع الطلبة بنشاطاتهم المكثفة عبر دول العالم تفويت الفرصة على السلطات الفرنسية، التي أصيبت بصدمة عنيفة من جراء قرار الإضراب الطلابي، والتي شرعت فوراً في السعي إلى تشويهه لدى الرأي العام العالمي، لكنها فوجئت باستنكار الرأي العام العالمي للسياسة الفرنسية في الجزائر، وإدانة عملية الاعتقالات الدامية والاغتيالات، وكذلك أعمال القمع والتعذيب التي تمارسها السلطات الفرنسية في صفوف الطلبة والتلاميذ بسبب قرار الإضراب العام عن الدروس والامتحانات[2].

ج. حلّ الإضراب الطلابي:

وفي 17 أكتوبر 1957م أمر قادة الثورة الجزائرية الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين. وقد أصبح خلية أساسية من خلايا جبهة التحرير الوطني. بحلّ الإضراب، وتوجيه نداء للطلبة والتلاميذ بالعودة السريعة إلى الدراسة، فالأهداف التي قرروا من أجلها الإضراب قد تحققت، ومرحلة الكفاح بالإضراب قد انقضت، وبالتالي فقد جاء دور مرحلة تاريخية حاسمة، وهي مرحلة تحضير الأساس وبناء المستقبل الذي يفرض عليهم المزيد من العلم والاختصاص في الميادين الأخرى الضرورية للحياة.

وهنا أدرك الطلبة في الجامعات الأجنبية مدى أهمية مرحلة ما بعد الاستقلال وبناء المستقبل، فقرروا الاستجابة لنداء وقف الإضراب، والعودة إلى مقاعدهم في الجامعات والمدارس الفرنسية، بعد 17 شهراً من مقاطعة الدروس والامتحانات، لكنهم عادوا إلى ممارسة نشاطاتهم السياسية كالسابق، حيث قرر الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين عقد مؤتمره الثالث في شهر ديسمبر 1957م في قلب باريس عاصمة فرنسا نفسها، وذلك بهدف دراسة الأوضاع المادية والمعنوية للطلبة وأوضاع الثورة وتطوراتها، وأمام هذا النشاط المكثف والمتعدد الجوانب للاتحاد قررت السلطات الفرنسية حلّه يوم 28 جانفي 1958م كما اعتقلت عدداً من مسيّريه وأعضائه[3].

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 337.

(2) المصدر نفسه ص 338.

(3) المصدر نفسه ص 338.

وأمام هذه الحملة المسعورة التي شنتها الحكومة الفرنسية على الطلبة الجزائريين في الجامعات الفرنسية، وأمام كثرة المضايقات والاعتقالات التي كانوا يتعرضون لها باستمرار، اضطرت اللجنة التنفيذية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين أن تغادر فرنسا إلى سويسرا، كما اضطر معظم الطلبة الجزائريين أن يغادروا ويهاجروا إلى معظم بلدان العالم عبر سويسرا، التي تحولت إلى نقطة عبور بالنسبة لهم، حيث تولى فرعا الاتحاد في لوزان وجنيف استقبالهم، وحل مشاكلهم وتدبير منح لهم لمواصلة دراستهم في البلدان الأخرى[1].

وأما بالنسبة للطلبة الذين قرروا البقاء في فرنسا ومواصلة دراستهم في جامعاتها، فإنهم قد عزموا على مواصلة نشاطاتهم السياسية ولكن في سرية تامة هذه المرة، وبالتنسيق مع اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني[2].

وأما في الجزائر فإن الطلبة قد فضلوا ميدان الكفاح المسلح على العودة إلى الجامعة، وحتى أولئك الذين قرروا العودة فإنهم حاولوا مواصلة نشاطاتهم السياسية بالتنسيق مع الاتحاد العام للطبة المسلمين الجزائريين، ولكن صعوبة الاتصال قد جعلت مسألة العمل والتنسيق أمراً مستحيلاً، خاصة وأن قيادة المنظمة الطلابية قد انتقلت إلى سويسرا بعد أن منعت من ممارسة أي نشاط في فرنسا، ثم إلى تونس. وهكذا اضطر الطلبة إلى ممارسة نشاطاتهم في سرية تامة وبالتنسيق مع قادة جيش جبهة التحرير الوطني[3].

د . أثر الاتحاد الطلابي في ثورة نوفمبر:

كان للجنة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين نشاطات مكثفة على مستوى المغرب العربي، وذلك في إطار «جامعة طلبة المغرب العربي» «الكنفدرالية»، التي تأسست في ندوة تونس المنعقدة خلال الفترة الممتدة من 31 ديسمبر 1957م إلى جانفي 1958م. وكانت هذه الكنفدرالية تهدف إلى تكوين وحدة طلابية بين الاتحادات الثلاثة: الاتحاد الوطني لطلبة المغرب، والاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، والاتحاد الوطني لطلبة تونس، ويتمثل دورها الأساسي في العمل على حماية الطلبة، والسعي لتحقيق التعاون بين الطلبة في كل دول العالم، ومن الجدير بالملاحظة أيضاً أنه مثلما انتشر أعضاء الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين في كل دول العالم للتعريف بالثورة الجزائرية وكسب مساندة وتأييد تلك الدول لقضيته العادلة ؛ فإنهم فد قاموا بدور مماثل على مستوى دول العالم العربي، التي جعلت كل الإمكانيات المتوفرة لديها في متناولهم للتعريف بالثورة ونقل أخبارها وتطوراتها.

وخلاصة القول: إن الطلبة الجزائريين قد قاموا بدور فعال في ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، مثلهم مثل غيرهم من الفئات الشعبية الجزائرية الأخرى، ولعل ذلك يعود إلى أن جبهة التحرير الوطني قد أولت اهتماماً خاصاً لهذا القطاع الذي اعتبرته سنداً قوياً للثورة، إذ دعا مؤتمر الصومام إلى الاهتمام بهذه الفئة من المجتمع،

(1) المصدر نفسه ص 339.

(2) المصدر نفسه ص 339.

(3) المصدر نفسه ص 339.

لأن دور الطالب في الحركة الثورية يرتبط بكل من الثورة وأهدافها النضالية، بالتعبئة الجماهيرية ومقاومة الاحتلال بالنضال الفكري والمسلح[1].

وهكذا يكون الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قد ساهم مساهمة معتبرة في ثورة التحرير، إذ استطاع أن يدافع عن حقوق الطلبة الجزائريين، وأن يحمي مصالحهم سواء في الجزائر أو في فرنسا. كما قام ببذل مجهودات جبارة من أجل تجنيد الطلبة والتلاميذ وراء جبهة التحرير الوطني. وبالإضافة إلى ذلك فإن الاتحاد قد تمكن من أن يخطو خطوات جبارة على الصعيد الدولي، حيث قام بنشاطات مكثفة من أجل التعريف بالقضية الجزائرية لدى المنظمات الطلابية وحركات الشباب في العالم[2].

وبذلك يكون الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين قد فرض شخصيته على كل التنظيمات الطلابية العالمية، وقدم خدمات جليلة للثورة الجزائرية على الصعيدين الداخلي والخارجي، وذلك بالرغم من المشاق والصعوبات وإجراءات القمع والتنكيل المسلطة عليهم من طرف السلطات الفرنسية[3].

6 . الاتحاد العام للتجار الجزائريين:

لقد أولت جبهة التحرير الوطني فئة التجار كباقي الفئات الاجتماعية اهتماماً خاصاً، وذلك نظراً لما لهذه الفئة من دور في تموين الثورة الجزائرية، فأنشأت لهذا الغرض منظمة الاتحاد العام للتجار الجزائريين « U.G- C.A » في سبتمبر 1956م بالجزائر العاصمة، وتتكون هذه المنظمة من التجار والحرفيين الجزائريين.

ويلاحظ أن إنشاء هذه المنظمة قد جاء استجابة لنداء مؤتمر الصومام، الذي أكد قبيل انعقاده على أنه: من واجب جبهة التحرير الوطني أن تساعد هذه المنظمة النقابية على التطور والتوسع بتكوين الظروف والشروط السياسية المناسبة[4].

وقد حددت وثيقة الصومام تلك الشروط فيما يلي:

. مكافحة الضرائب.

. مقاطعة كبار التجار الاستعماريين الذين يمدون الحرب الاستعمارية بمؤازرة نشيطة.

وتمكنت هذه المنظمة في بضعة شهور فقط من تقديم خدمات جليلة للثورة الجزائرية، كما قامت بعمل نضالي معتبر إذ استطاع الاتحاد أن يجند التجار وراء جبهة التحرير الوطني وأن يدعم الثوار بالمال[5].

ومن الجدير بالملاحظة أن الاتحاد العام للتجار الجزائريين قد شارك مشاركة فعالة في إضراب الثمانية أيام الذي شنه الشعب الجزائري كله، بما في ذلك الجالية الجزائرية في فرنسا، من 28 جانفي إلى 4 فيفري 1957م،

---

(1) المصدر نفسه ص 340.
(2) كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة ص 80.
(3) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 341.
(4) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وزارة الإعلام والثقافة ص 40.
(5) كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة ص 80.

وذلك امتثالاً لأوامر جبهة التحرير الوطني وتطبيقاً لتعليماتها، وتمثلت مساهمة الاتحاد في هذا الإضراب في غلق كل المجالات التجارية.

وهكذا قد أظهرت تلك الإضرابات التي شارك فيها الاتحاد العام للتجار الجزائريين وغيره من الاتحادات الأخرى . اتحاد الطلبة، اتحاد العمال، إلخ . .. المساهمة الواسعة النطاق لصغار التجار والحرفيين، وكان ذلك دليلاً قاطعاً للرأي العام العالمي على تلاحم الشعب الجزائري مع جيش وجبهة التحرير الوطني، كما أكد الصيغة التمثيلية لجبهة التحرير الوطني قبيل انعقاد الدورة الحادية عشر للجمعية العامة للأمم المتحدة، وفند مزاعم فرنسا من أن قوات جيش وجبهة التحرير الوطني ما هي إلا عصابات ومجموعة من قطاع الطرق لا نشاط لها سوى الجبال. لكن السلطات الفرنسية لم تقف مكتوفة الأيدي أمام ما يحدث، بل راحت تسلط كل أنواع القمع والتنكيل على أعضاء الاتحاد، فاعتقلت أغلبهم وزجت بهم في السجون، وأذاقتهم كل أنواع التعذيب، وذلك على غرار ما فعلت بالاتحادات الأخرى. وأمام كثرة المضايقات والاعتقالات اضطرت قيادة الاتحاد العام للتجار الجزائريين إلى مغادرة الجزائر إلى تونس، ومواصلة نشاطاتها من هناك، وبالتنسيق مع جبهة التحرير الوطني. وأما في فرنسا فإن الاتحاد قد أصبح يمارس نشاطاته بالتنسيق مع اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، وفي إطار منظمة جديدة تحمل اسم «الودادية العامة للتجار الجزائريين » A.G.C.A[1]

7 . اتحادية فرنسا لجبهة التحرير الوطني:

لقد اهتمت جبهة التحرير الوطني بتنظيم الثورة الجزائرية عن طريق تنظيم كل فئات الشعب، ووضع تنظيم سياسي إداري بهدف محاصرة الإدارة الفرنسية وإضعافها. ويلاحظ أن هذا التنظيم لم يقتصر على الجزائر فحسب، بل تعداها إلى الخارج حيث يوجد الجزائريون، ذلك لأن جبهة التحرير الوطني قد أدركت أن الثورة لن تتمكن من تحقيق أهدافها إلا بضرب السلطات الفرنسية في عقر دارها، ومن ثم إشعار الرأي العام الفرنسي بمطالبها العادلة.

وبذلك تكون جبهة التحرير الوطني قد فكرت وعملت منذ الوهلة الأولى على تنظيم المهاجرين الجزائريين في الخارج، وخاصة في فرنسا، فقد كان تنظيم وتأطير الهجرة الجزائرية وتعبئة العمال الجزائريين لمواجهة فرنسا من الداخل ؛ يعتبر من المهام الأساسية التي أسندت لممثلي الجبهة في فرنسا منذ الإعلان عن ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م[2].

وقام ممثلو الجبهة في الهجرة بممارسة المهام كما أسندت إليهم ؛ ولكن جهاز الأمن الفرنسي كان يتابع كل نشاطاتهم وتحركاتهم، وبالتالي استطاع أن يكشف التنظيم الجبهوي يوم 26 ماي 1955م وأن يلقي القبض على البعض من قادته، وذلك قبل أن يعطي هذا التنظيم النتائج المرجوة من نشاطاته. وقد حاولت جبهة التحرير الوطني أن تواصل نشاطها في فرنسا، ولكنها واجهت صعوبات كبيرة في تنظيم العمال المهاجرين،

(1) التنظيم الإداري والسياسي للثورة ص 343.

(2) المصدر نفسه ص 343.

نتيجة ظهور «مصالي الحاج» كزعيم لـ «الحركة الوطنية الجزائرية» « M.N.A » ابتداءً من ديسمبر 1954م، إذ انقسم المهاجرون إلى مناصرة مصالي وحركته، أو الاستجابة لدعوة جبهة التحرير الوطني.

ونتج عن هذا الانقسام أن وقعت خلال سنتي 1955م، 1957م تصفيات واغتيالات بين أنصار الجبهة وأنصار الحركة في صفوف العمال المهاجرين، ونتج عن ذلك أن اقتتل العمال المهاجرون الجزائريون، وكان لذلك تأثير كبير على الثورة وعلى المبادأئ العقائدية للوحدة الوطنية.

وقد اعتقدت السلطات الفرنسية أن في استطاعتها القضاء على ثورة الجزائر عن طريق الاعتقالات والمضايقات في فترة وجيزة، ولكن حسن تنظيم الثورة والإيمان بها من طرف كل الجزائريين خيب امال أعدائها المتربصين بها، فقد أوصى مؤتمر الصومام بضرورة تنظيم الهجرة في فرنسا، باعتبار العمال المهاجرين الجزائريين يمثلون رأس مال ثمين بالنسبة إلى عددهم وطابعهم الذين يتميزون به من الفتوة وقوتهم السياسية، وإن مهمة جبهة التحرير الوطني في تعبئة هذه القوى كلها كبيرة الخطورة، لا سيما وأنها تستلزم في نفس الحين كفاحاً شديداً لا هوادة فيه لاستئصال النزعة المصالية[1].

وهكذا فبعد مدة قصيرة من انعقاد مؤتمر الصومام، تمكنت جبهة التحرير الوطني من ترسيخ تنظيم محكم على غرار ما حصل في الجزائر، فقد قسمت الجبهة فرنسا من الناحية الجغرافية، وحسب الكثافة السكانية للمهاجرين الجزائريين، وفق التقسيم السياسي ـ الإداري الذي اعتمدته الثورة إلى ست ولايات، وتنقسم كل ولاية إلى مناطق، وكل منطقة تضم مجموعة من النواحي، التي تتكون هي الأخرى من مجموعة الأقسام، وتحتها الفروع، وفي القاعدة هناك الخلايا.

وإذا كان لابد من معرفة ما قدمته اتحادية فرنسا للثورة الجزائرية ؛ فإنه ينبغي الإشارة إلى ما تميز به نشاط أعضائها الذين احتلوا مراكز متقدمة في قيادات جبهة التحرير الوطني بفضل ما يتمتعون به من قدرات تنظيمية وفكرية وتجربة نضالية ؛ مما أعطى للثورة دعماً ونفساً جديداً للمضي قدماً من أجل تحقيق أهدافها.

ولم تكد تحل سنة 1958م حتى أصبحت اتحادية فرنسا ذات تنظيم سياسي ـ

إداري وعسكري محكم، مكّن الثورة الجزائرية من ضرب المواقع الاستراتيجية، الاقتصادية منها والعسكرية في قلب فرنسا نفسها. وبذلك أعطت الثورة الجزائرية الدليل للسلطات الفرنسية على أنها قادرة على نقل الثورة المسلحة إلى أرض فرنسا نفسها، ونشر الذعر والخوف وعدم الاستقرار في داخل فرنسا ذاتها، لتبين للشعب الفرنسي نوع الإرهاب والرعب والقمع والاضطهاد والقتل والتشريد، الذي يتعرض له الشعب الجزائري منذ نوفمبر 1954م من طرف جيش الاحتلال الفرنسي[2].

---

(1) النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني ص 47.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 346.

8 . الحركة النسوية:

تشكل المرأة في نظر جبهة التحرير الوطني قوة هائلة، وذات أهمية أساسية في دعم ومساندة الكفاح المسلح، ولذلك أولتها الجبهة اهتماماً خاصاً واعتبرتها سنداً قوياً لها، كما اعتبرت مشاركتها في الكفاح من أجل تحرير الوطن ضرورة تفرضها متطلبات الثورة التحريرية، واعترافاً بالدور الذي يمكن للمرأة أن تلعبه في الثورة التحريرية ؛ فقد حددت وثيقة الصومام المهام الأساسية التي يمكن للمرأة أن تقوم بها، وذلك في حدود عادات البلاد وتقاليدها الخاصة وهي:

. مؤازرة المحاربين والمقاومين مؤازرة أدبية.

. تقديم الأخبار والمشاركة في الاتصالات والتموين وتهيئة الملاجأئ.

. مساعدة عائلات وأبناء المجاهدين والأسرى المعتقلين.

وقد أخذت مشاركة المرأة في الثورة الجزائرية بعداً واسعاً ابتداءً من سنة 1955م، حيث بدأت الخلايا النسائية في جبهة التحرير الوطني تتلقى طلبات الانضمام إلى صفوف الثورة بالجملة. وكانت المرأة الجزائرية منذ التحاقها بالثورة تطالب بأن تسند لها أهم وأخطر المهمات، حتى ولو كانت حديثة العهد بالالتحاق بالثورة، ويمكن تصنيف عمل المرأة في الكفاح المسلح إلى الأصناف التالية:

. المجندات المتعلمات: وهن من بدأن العمل بالمدن في صفوف الفدائيين، وقد لعبن دوراً مشرفاً في العمليات الفدائية والاتصالات والأخبار وجمع الأموال الخ... ولما تمكنت السلطات الفرنسية من إلقاء القبض على العديد منهن، فرت الأخريات والتحقن بالجبال، حيث شغلن مناصب هامة في ميادين الصحة، والتمريض، والإرشاد، والإعلام والتربية.

. والمجندات غير المتعلمات: ومعظمهن من سكان البادية حيث توجد قلاع الثورة ومراكز التحرير الوطني، وقد لعبن دوراً هاماً في تغذية الجيش، وفي إعلامه، حيث كان لكل فرقة من جيش التحرير مسبلتان أو ثلاث، وهؤلاء كن يسمين بالمسبلات لا المجاهدات، وكن لا يحملن السلاح في أغلب الظروف(1).

. المناضلات في جبهة التحرير الوطني: وهن من شغلن مناصب سياسية في الأرياف والبوادي والمشاتي بحيث كل مشتى به مسؤولة ونائبة لها، ويتمثل دورهن الأساسي في جمع الاشتراكات والتبرعات والتوجيه والإعلام وتقصي الأخبار، وقد ازداد دورهن أهمية عندما قامت السلطات الفرنسية بترحيل سكان البوادي وحشرهن في المحتشدات الإجبارية، وذلك بعد مجيء الجنرال «ديغول» إلى السلطة، باختصار كان هؤلاء المناضلات عيون الثورة بالمحتشدات.

وهكذا وبإسناد هذه المهام للمرأة الجزائرية إبان الثورة التحريرية، تكون جبهة التحرير الوطني قد فتحت حقاً المجال لكل الطاقات في البلاد، ورحبت بكل من يريد العمل من أجل تحرير الجزائر واستقلالها، ولم تخيب المرأة امال قادة الجبهة وطموحاتهم، حيث كانت سباقة للعمل والجهاد والتضحية والاستشهاد، وهذا ما جعل جبهة

---

(1) التظيم السياسي والإداري للثورة ص 346.

التحرير الوطني تشيد دائماً بالصورة البطولية للمرأة الجزائرية عبر كل الانتفاضات التي تلاحقت منذ احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830م[1].

إن هذه الهياكل التنظيمية التي أنشأتها أو تواصلت معها وطورتها جبهة التحرير الوطني إبان الثورة، قد ازدادت أهميتها بعد إنشاء لجنة التنسيق والتنفيذ من طرف مؤتمر الصومام، فقد سمح هذا الإجراء الأخير لجبهة التحرير الوطني بأن تجند أعضاء المنظمات العمالية والتجارية والطلاب والنسائية لخدمة الثورة، وإقامة تعاون وثيق بين القيادة المركزية في الجزائر العاصمة وبين الولايات والمسؤولين في الداخل والخارج، على الرغم من الاعتقالات والملاحقات والمضايقات الشديدة التي شنتها السلطات الفرنسية على مناضليها في كل مكان بدون هوادة[2].

9 . العلم الجزائري:

العلم الجزائري يعبر عن تاريخها وحاضرها ومستقبلها، ويذكّر بتضحيات الأبطال وماسي الأبرياء، ويرمز إلى عبقرية العلماء ورجال الفكر،ويشد كل المواطنين الذين يعملون تحت ظله. فهو الشعار الذي يؤكد قوة الوطن خارج التراب الإقليمي في البحار والأقطار الأجنبية على صواري السفن وشرفات السفارات.

ويرمز اللون الأخضر للأمل.

واللون الابيض للسلم.

والهلال يذكر بالإسلام.

والنجمة قواعد الإسلام الخمس.

واللون الأحمر للتضحية.

على صفحاته الأولى سجلت الانتصارات على العدو، وعلى الصفحة الثانية التواريخ التي تذكر بشهداء التحرير. ولذلك فهو رمز هوية الوطن والثورة وسيادة الدولة وشخصية الشعب وصورة الأمة في ان واحد، وهو الرمز الوطني الجامع بين الدنيا والدين، فهو راية الثورة وراية الاستقلال، ويمثل العمق الحضاري.

وهو في الوقت نفسه أمر يتناسق مضمونه في جوهر الدورة التاريخية ذات الصبغة الحديثة المتمثلة في المقولة الشهيرة «الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا»[3].

وقد ارتبط تاريخ العلم الوطني الجزائري بهذا العمق في الحركة الوطنية وهو من صنعها، وبرزت الفكرة عند إنشاء نجم شمال أفريقيا الذي كان التعبير الصريح عن أمل التحرير والتطور في التكوين والاستعمال عبر المسيرة النضالية، فقد كان العلم الأول الذي رفعته الجماهير في المظاهرات العارمة في عمق باريس والجزائر العاصمة وكبريات المدن الجزائرية الأخرى من خلال الفترة الممتدة من 1926م إلى 1945م يختلف عن العلم الحالي بعض الشيء.

(1) المصدر نفسه ص 347.

(2) المصدر نفسه ص 325 و ص 347.

(3) ملحمة المظاهرات الشعبية، علي بوادري ص 13.

ففي أول الأمر كان أخضر وفي إحدى زواياه نجمة وهلال، على غرار الدول الإسلامية الأخرى. ومن 1936م . 1945م صار العلم بشكله الحالي، وقد تجسد شعاراً في أزياء الملابس والشارات التي كان يرتديها ويستعملها مناضلو الحركة الوطنية، وفي الأزياء الرياضية التي كان يرتديها رياضيو الفرق الموالية لنجم شمال أفريقيا وحزب الشعب وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية فيما بعد.

ولقد برز العلم الوطني الجزائري بوضوح سنة 1944 بعد تجمع أحباب البيان والحرية، الذي تم تبنيه كعلم رسمي للوطن الجزائري بعد تحديد شكله وألوانه من طرف قيادة حزب الشعب، ووقع تقديمه على هذا الأساس في الندوة الوطنية لأحباب البيان والحرية في مارس 1945م.

وقد رفع هذا العلم أثناء المظاهرات التاريخية في ماي 1945م، والتي سقط فيها عشرات الالاف من الشهداء الجزائريين، ومما يروى عن بعض المعاصرين الشاهدين عن بشاعة الأحداث وشناعتها أن المستعمرين الفرنسيين كانوا يلزمون الجزائريين في بعض الجهات من التراب الوطني بالقوة لحفر القبور تحت تهديد حد السلاح بالموت، ويأمرونهم مرغمين بدفن العلم الوطني الجزائري في أعماق باطن الأرض والبصق عليه[1].

وأصبح العلم الوطني يرفع بعد أحداث مارس 1945م، وأصبح المناضلون الوطنيون عند تشييع جنازة مناضل وطني يغطى بالعلم، وكان يجري التعريف به برفعه في الاجتماعات العامة وحتى في الأسواق والأعراس المخفية عن أعين الاستعمار. وعند إبلاغ الثورة المسلحة الكبرى في غرة نوفمبر 1954م أصبح العلم بالنسبة لجبهة وجيش التحرير الوطني الرمز الموحد، الذي استشهد تحت لوائه الأبطال، فضربت بذلك أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء في المعارك الكبرى ضد المستعمر.

ونصب العلم الجزائري على قمم الجبال العالية، تحدياً للطائرات وأمام عساكر العدو في المعارك والمراكز العسكرية في شهر سبتمبر 1958م بالولاية الثانية في الشمال القسنطيني عند الإعلان عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية، وغيرها من الولايات وربوع الوطن في 19 سبتمبر، وإجراء الاستفتاء الأول لديغول في يوم الثامن والعشرين منه. وقد التف الجزائريون حول هذا العلم الذي يمثل وحدة البلاد وهويتها ونضالها وانتماءها، وأصبحت رايات الجزائر خافقات على كل قمم الجبال المجاورة لمواقع الجيش الاستعماري، والربوات القريبة من مراكزه أو المقابلة لها، وعلى حافات الطرق وأشجارها وفي كل مكان، يوم أول نوفمبر 1961م وبصورة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الجزائر الوطني[2].

ولقد أصدرت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من جهتها سنة 1961م قراراً تقر فيه العلم الوطني الجزائري، وبعد استفتاء تقرير المصير يوم 1 جويلية 1962م، وظهور النتيجة التاريخية بنسبة 97،4% بنعم يوم 2 جويلية، ثم في يوم 3 جويلية 1962م رفع العلم الوطني بسيدي فرج من طرف جيش التحرير للولايتين 3، 4 بحضور ممثلين عن الولايات الأخرى، وجمهور كبير جاء من كل الجهات ليعيش تلك اللحظات الرمزية،

(1) المصدر نفسه ص 16.

(2) المصدر نفسه ص 19.

وهي أن يرفع العلم في المكان الذي دخل منه المحتل في 1830م، وأمام ذلك الموقف التاريخي المهيب استلم القادة العلم وعزف النشيد الوطني، وطلب العقيد حسان قائد الولاية الرابعة من العقيد محمدي السعيد قائد الولاية الثالثة لكونه الأكبر سناً أن يرفع العلم، فكان مشهداً عظيماً في يوم خالد(1).

ولقد كتب الدكتور لحسن زغيدي كتاباً قيماً عن العلم الوطني الجزائري، وأشار فيه إلى دلالات رمزية وأوضح مسيرته النضالية، يقول الدكتور محمد لحسن زغيدي على صفحة كتابه: إن العلم الجزائري ربما ليس كسائر الأعلام، ولد من رحم قساوة الأيام ومرارة السنين والأعوام، فكان مبعثه أمل لتحقيق الأحلام، ونور لفجر الاستقلال وتبديد الظلام، فكانت رمزيته للوحدة والتوحيد، وربط القديم بالجديد فصبغ بقداسته الجهاد ودم الشهيد، فاختصر التاريخ في دلالاته وكان في أبعاد العلم الوحيد فنال احترام الإنسانية لما يحمل من ثورية، وقسم النشيد وهو للأجيال الضامن للاستقلال والجامع الأكيد، لقد كان العلم الجزائري معولاً وسلاحاً في يد الوطنيين والمجاهدين، وكان المعول الذي حطّم أسطورة الجزائر الفرنسية التي صنعها حلم الاستعمار، ونسجتها سنوات القهر والمسخ والتشريد والدمار بالقوانين والمراسيم والإجبار، والسلاح الذي رفعه المجاهدون والشعب في يد ترفعه والأخرى تذود عنه، وأجبروا العالم لإقراره والمحتمل للاعتراف به، وتجسيد دلالته ورمزيته وهي الوحدة والتمثيل والسيادة الكاملة.

ذلك هو العلم في نشأته وسيرته ومسيرته وأبعاده(2).

10. مفدي زكريا شاعر الثورة:

اندمج الشاعر في الثورة اندماجاً كلياً، وكان يهرّب قصائده وأناشيده من سجن بربروس، وكان ينفعل بأحداث الثورة فينظمها شعراً بليغاً يتساوى مع عظمة الأحداث، فكان يتمثلها ثم يحولها إلى امال وتحديات، وكأنه ينظم شعره في هذه الأثناء بالرصاص لا بالكلمات. كان اسم الشاعر مفدي زكريا يظهر في جريدة المجاهد «ابن تومرت» مستحضراً به مئات السنين من التاريخ، وهو اسم يرمز إلى الثورة والوحدة من قرطبة إلى بنغازي، أي الإمبراطورية الموحدية بالمعنى العقائدي والسياسي.

فالثورة الجزائرية عنده لن تقف عند حدود الجزائر الجغرافية، ولكنها ستمتد لتشمل بلاد المغرب وجوارها، ويمكننا أن نظل نتخيل في مكانه الصور التاريخية المتعاقبة إلى أن نصل إلى عهد الموحدين، الذي اعتبره المفكر مالك بن نبي هو نهاية المجد الإسلامي وبداية الانحطاط(3).

ومفدى زكريا من الشخصيات المناضلة والشعراء الفحول ودعاة الوحدة المغاربية، ويعتز بانتمائه العربي والإسلامي وتاريخه وحضارته، وكان منذ شبابه حائزاً على تكوين كبير في مجالي النضال الثوري والإصلاحي، بالإضافة إلى أنه كان يختزن تجربة جميع الذين كانوا يلتقون في بيت عمه للتداول في موضوع واحد وهو: كيفية

---

(1) العلم الوطني الجزائري، د . محمد لحسن زغيدي ص 230.

(2) المصدر نفسه صفحة الغلاف الخلفية.

(3) أعمال الملتقى الدولي، مفدي زكرياء شاعر الوحدة، 15، 26 مارس 2006م ص 78.

تقويض أركان الاحتلال الفرنسي في شمال إفريقيا، وإعادة توحيد المغرب العربي، سعياً إلى ربط مع زمن الموحدين(1).

أ . خطابه في مؤتمر عام 1934م بتونس بطلاب شمال أفريقيا:

القى خطابه فجاء فيه على الخصوص بالنقاط الاتية:

. امنت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبالقران إماماً، وبالكعبة قبلة، وبسيدنا محمد نبياً ورسولاً، وبشمال إفريقيا وطناً لا يتجزأ.

. أقسم بوحدانية الله أنني أؤمن بوحدانية شمال إفريقيا وأعمل في سبيل ذلك مادام فيَّ قلب خافق ونفس عالق.

. الإسلام ديننا . شمال إفريقيا وطننا . العربية لغتنا.

. لست مسلماً ولا مؤمناً ولا عربياً إذا لم أبذل نفسي ومالي ودمي في سبيل تحرير وطني العزيز من أغلال العبودية وإخراجه من ظلمات الجهل والفاقة إلى نور العلم والرفاهية والعيش السعيد.

.كل مسلم بشمال إفريقيا يؤمن بالله ورسوله ووحدة شماله هو أخي وقسم روحي، فلا أفرق بين تونسي ولا جزائري ومغربي، ولا بين مالكي وحنفي وشافعي وإباضي وحنبلي، بل كلهم إخواني أحبهم واحترمهم وأدافع عنهم ماداموا يعملون لله وللوطن، وإذا خالفت هذا المبدأ فإنني أعتبر نفسي أعظم خائن لدينه ووطنه.

.كل من عمل التفرقة بين أجزاء وحدة وطني أعتبره أكبر عدو لي ولوطني وأحاربه بكل وسيلة ولو كان أبي أنجبني أو أخي من أمي وأبي.

. وطني شمال إفريقيا له ذاتيته المقدسة وتاريخه الباذخ ولغته الكريمة وجنسيته الشرقية، وكل من سولت له نفسه الانسلاخ عن هذه الجنسية أو المروق من هذه الذاتية اعتبرته ابقاً من وحدة وطني، وخارجاً عن جماعة المسلمين، ليدخل لقيطاً بجنسية غيره، فعليه غضب الرب وغضب الشعب.

. قد تبين الرشد من الغي، فلا سياسة اندماج ولا سياسة استجداء، نحن طلاب حق مغصوب وتراث مسلوب يجب أن نناله وكفى، فلا منزلة بين المنزلتين ؛ إما وطنيّ صميم وإما خائن أثيم.

. نحن لا نبغض الأجناس، فالكل عباد الله، والأجانب الذين يعيشون في بلادنا نحترمهم ماداموا يحترمونا، ولا نؤذيهم ماداموا لا يؤذوننا في حريتنا وكرامتنا وخيرات بلادنا، فإذا راعوا حق صاحب الدار رعينا حق الضيوف، لهم ما لنا وعليهم ما علينا، وبهذا تأمر ضمائرنا الطاهرة.

. وطننا شمال إفريقيا لا يتجزأ من جسم الشرق العربي، نفرح لفرحه ونتألم لالامه، ونتحرك لتحركه، ونسكن لسكونه، تربطنا به إلى الأبد روابط اللغة والعروبة والإسلام(2).

(1) المصدر نفسه ص 58.

(2) المصدر نفسه ص 58، 59، 60.

في سنة 1934م مفدي في ريعان شبابه يبلغ من العمر 26 سنة يدعو إلى الوحدة باسم عقيدة التوحيد، ذكر الإسلام والإيمان بالله ورسوله (ص) والمذاهب الفقهية الإسلامية المعروفة وذكر الأخوة مرتين «هو أخي» «كلهم إخواني» وذلك مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [سورة الحجرات:10].

ويشير إلى جملة من الواجبات يراها ضرورية تجاههم، حبهم احترامهم الدفاع عنهم، غير أنه يشترط فيهم العمل لله والوطن فقدم العمل لله على العمل للوطن، كما اعتبر نفسه أعظم خائن لدينه ووطنه . إن خان هذا المبدأ. إن في تقديم العمل لله والدين دلالة على عمق الإيمان عند مفدي، كما أن الاختلاف لا يفسد للود قضية، إن احترام الاخرين واستيعابهم وتقبّل الاختلاف دليل تحضّر وسلامة قلب وسعة أفق.

جمعنا لحرب الخلاص شتاتا ... سلكنا به المنهج المستبينا
ولولا التحام الصفوف وقانا ... لكنا سماسرة مجرمينا

إن مفدي عندما يضع الوحدة الإسلامية في المقام الأول لا ينفي أي واحد من أشكال الوحدة الأخرى، بل هي ممتزجة مع بعضها البعض عنده، فها هو يربط بين حبه وتمسكه بدينه وحبه وتمسكه بشعبه دون أي نشاز أو تعارض، كما يعبر عن ذلك بقوله:

ولولا العقيدة تغمر قلبي ... لما كنت أومن إلا بشعبي(1)

وكان مفدي زكريا رجلاً ملتزماً بمبادئه، ودفع ثمنها سجناً إبان مرحلة الاحتلال، وكتب النشيد الوطني الجزائري بدمه، ومازالت المبادأئ التي نادى بها في «خطاب عقيدة التوحيد» شاباً سنة 1934م تلازمه يخطها ويتلفظ بها في الإلياذة سنة 1972م وهو يشارف على الشيخوخة:

شربت العقيدة حتى الثمالة ... فأسلمت وجهي لرب الجلالة
ولولا الوفاء لإسلامنا ... لما قرر الشعب يوماً منالهو
لولا استقامة أخلاقنا ... لما أخلص الشعب يوماً نضاله

إلى أن قال:

هو الدين يغمر أرواحنا ... بنور اليقين ويرسي العدالة
إذا الشعب أخلف عهد الإله ... وخان العقيدة فارقب زواله(2)

ب . مفدي زكريا وجمعية العلماء:

أشاد مفدي زكريا في أشعاره بجمعية العلماء في خدمة القضية الوطنية، واستمر في الاعتراف بجلائل أعمالها في الشعب والوطن، فقال في إلياذته التي هي عصارة لتاريخ الجزائر وملاحمها، فأشار إلى جهادها الذائع وجهدها الرائع ومناقب رئيسها ابن باديس والإبراهيمي عليهما وعلى رفقائهما رحمة الله عليهم جميعاً فقال:

وفي الدار جمعية العلماء ... تغذي العقول بوحي السماء

(1) المصدر نفسه ص 393.

(2) المصدر نفسه ص 394.

وتهـدي النفوس الصــراط الســوي — وتــغــرس فــيــهــا مــعــاني الإباء
تواكـب نجم الشــمـال انـدفـاعـاً — وتــغــمــر أكــوانــه بالسّـــنــاء
ويعضــــد باديس فيـهـا البشــير — فــتــزخــر بالخـلّـص الأصــــفــيــاء
وتـغـزو الضـــلالات في التـائـهين — مـع الـوهـم في مـوكـب الأغـبـيـاء
وترســي جذور الأصــالة في الشـعب — تمــحــو بها وصــــمــة الـدخـلاء
وتــبــني المـدارس عــرض الــبـلاد — فيعلي ابـن باديس صـــرح البنـاء
ويـرتاع مســــتـعـمـر مســـتـبـد — وتخشـــى الخفـافيش نبع الضـــيـاء
ويـرهــب ظـل الأســـود ابـن اوى — ويـؤذي المـنـافـقَ صــــدق الـنـداء
كـذا عـبّـد الـعـلـمـاء الـثـنـايا — بوحي الســـمـاء ووحي الـدمـاء[1]

ج . مفدي زكريا وشعوره بوحدة الانتماء:

أدرك الشاعر مفدي زكريا أهمية دول المغرب أولاً لوجود عوامل عديدة تساعد على تحقيق هذا الهدف النبيل فقال:

إن الجـزائـر في الـغـرام وتـونسـا — والمغرب الأقصـــى خلقن ســواء
نحـن الـعـروبـة والشـــمـال بـلادنا — وبــه نــعــيــش أعــزة كــرمــاءأرض
مــطــهــرة تضــــم ضــــلـوعـهـا — مـهـجـاً هـنـاك ذكـيـة ودمـاءبـدم
الصـــحـابـة قـد تعطر ظهرهـا — قـدمـاً وأوى بـطـنـهـا الشــــهـداء
وتعـانـقـت فيـهـا البنود خوافقـاً — حمــراء تحــمـــل لـــلأنام رفـــاء
شـــعـب أغـرّ وأمـة عـربـيـة — مـا إن تـطـيـق مـذلـة وشـــقـاء
إن الحيـاة على الصَّـــغـار جريمـة — إني رأيــت الصـــاغــريــن إمــاء
وطني بـروحي أفتـديـك ومـهـجـتي — ودمــي الشـــريـف مـبرة ووفـاء
وإذا الـفـتى لم يـرعَ عـهـد بـلاده — فـأقِـم عـلـيـه مـاتمـاً وعـزاء[2]

د . من قصائده في دعم الثورة:

نظم الشاعر مفدي زكريا بسجن بربروس، القاعة التاسعة في فيفري «شباط» 1957م . بمناسبة خذلان المنظمة الدولية لقضية الجزائر في دورتها الرابعة . قصيدة بعنوان «وتعطلت لغة الكلام» جاء فيها:

نطق الرصـــاص فمـا يبـاح كلام — وجرى القصـــاص فمـا يتـاح ملام
وقضـــى الزمـان فلا مردّ لحكمـه — وجرى القضـــاء وتمت الأحكـام

---

(1) المصدر نفسه ص 95.

(2) مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، د . محمد ناصر ص 316.

وسعت فرنسا للقيامة وانطوى يوم النشور وجفت الأقلام
والقابضون على البسيطة أفصحوا والكون باح وقالت الأيام
وتعلّم المستعمرون شعوبها أن التحكم في الشعوب
حرامهم حرروا الميثاق هلاّ حرروا أمماً تسام حقارة وتضاما
إن تقام لما يسطر حرمة أو يعضد القلم الرفيع حسام
السيف أصدق لهجة من أحرف كتبت فكان بيانها الإبهام
والنار أصدق حجة فاكتب بها ما شئت تصعق عندها الأحلام
إن الصحائف للصفائح أمرها والحرب حرب والكلام كلام
عز «المكاتب» في الحياة «كتائب» زحفت كأن جنودها الأعلام
خير المحافل في الزمان جحافل رفعت على وحداتها الأعلام
لغة القنابل في البيان فصيحة وضعت لمن في مسمعيه صمام
و«لوافح» النيران خير «لوائح» رفعت لمن في ناظريه ركام«وروائح»
البارود مسك نوافح سجرت لمن في منخريه زكام
والحق والرشاش إن نطقا معاً عنت الوجوه وخرّت الأصنام
ما للجزائر ترجف الدنيا لها والكون يقعد حولها ويقام
ما للقيامة في الجزائر أرعدت فغدا لها في الخافقين غمام
لا تعجبوا فالدهر سجل دورة ما للخطوب على الشعوب دوام
والزرع أخرج في الجزائر شطأه فمضى وهبّ إلى الحصاد كرام
والشعب شق إلى الخلود طريقه فوق الجماجم والخميس لهام(1)

وقال:

يا ثورة التحرير أنت رسالة أزلية إعجازها الإلهام
لك في الجزائر حرمة قدسية وبكل قلب في الوجود هيام
الشعب أنت ضميره وصوابه والجيش أنت دماغه العلام
ليس الجهاد زعامة وثنية زلت بهم في الثورة الأقدام
وتناثرت تلك الهياكل وانطوت وتهاوت الأنصاب والأزلام
ولقد بهرت العالمين وطأطأت يا ثورة التحرير دونك هام

(1) اللهب المقدس ص 43 مفدي زكريا.

وتقمصت فيك الجزائر وانبرى — شيخ يحارب في الوغى وغلام[1]
يحدوهم للنصر مجلس ثورة — أركانه صهرتهم الالام
وحباهم طول الجهاد حصافة — وزكت بهم في المحنة الأعوام
وأنالهم صدق الضمير كرامة — وسما بهم في «الطامحين» مرام
شقت إلى الجبل الأشم مسالكاً — وعلى يديك إلى المصير زمام
شقي طريق الخالدين وسطري — بدم الشهادة فالدماء قوام[2]

هـ بين ابن جندي ثائر وأب شاعر ثائر:

كتب ابن مفدي زكرياء رسالة إلى أبيه بعد خروجه من السجن ومغادرة الوطن من ساحة الجهاد جاء فيها: يوم فاتح نوفمبر 1960م أبتِ العزيز ـ رضاك ـ أزكى تحياتي اخترت هذا اليوم ـ بالذات ـ يوم الذكرى السابقة لثورة الجزائر العتيدة، لأزف إليك بشرى التحاقي بصفوف جيش التحرير الوطني الجزائري، وقد حققت بهذا أمنية غالية ما انفكت تداعب خيالي، لقد أصبحت ـ أبت ـ في الثامنة عشرة من عمري وأنا أشعر بعاملين يتنازعاني، مواصلة دراستي العالية أو القيام بفرض الكفاح من أجل تحرير بلادي، فاخترت ـ عن عقيدة ـ أن أتخرج ـ أولاً ـ من معهد الزحف المقدس، ولن يفوتني ـ إن عشت ـ أن أستأنف دراستي وبلادي رافعة الرأس موفورة الكرامة، فأسهم في بناء جرائد الغد بنفس العزيمة التي تدفعني للإسهام في معركة تحريرها. وها أنا ذا ـ أبتِ ـ أصعد الجبل نفحة من روحك، ونبضة من قلبك، وقبساً من نورك. أصعد الجبل ـ وأنت بلبنان، تطبع ديوانك «اللهب المقدس» ـ لأطبع بدوري ـ وأنا ذرة من ديوانك ـ بحروف من لهب، صفحات من ديوان «اللهب المقدس».

حقاً ـ يا أبت ـ إني معتز فخور أن كنت ابناً لوالد يصنع المجد، ويرفع سمعة قومه، غير أني ـ وقد علمتني أن أعتمد على نفسي ـ حبيب إلى قلبي، أن أضيف إلى مجدك مجداً جديداً أصنعه أنا ـ كما صنعته أنت بكد اليمين ـ ثم ماذا عسى أن تفيدني دراسة الحقوق وأنا لم أتدرب بعد في قمم جبالنا على «المرافعة بالسلاح» في محكمة الوعد الحق والدفاع عن حقوق وطني السليب في ساحة الشرف، بشريعة السماء لا في جلسات القضاء البشري، بقوانين من وضع الإنسان الظلوم الجهول؟ وإني سأدفع منحتي الدراسية من ضريبة الدم قبل أن أتمتع «بمنحة جامعية» قد تغريني بحب السلامة، لتجعلني أعيش ـ أبد الدهر ـ تحت وخز الضمير.

أنت.. أنت.. ـ يا أبت العزيز ـ أنت الذي غرست فيَّ هذه الروح السامية، ونشّأتني هذه التنشئة الصالحة، ولاتزال نصائحك الغوالي ترن في أذاني وتصرخ في عروقي، ولم أصطحب معي ـ من متاع دنياهم ـ غير الرسالات التي كتبت بها إليَّ من أعماق سجنك، وكنت تبث بها الوعي العربي والحماس الوطني في فؤادي، ولازلت أحفظ منها قولك: «لست أريد من وراء تعليمك أن تصبح كتاباً في خزانة، أو الة تسجيل في مكتبة، أو

(1) اللهب المقدس ص 44.
(2) المصدر نفسه ص 45.

إنساناً ميكانيكياً فاقد الإرادة، ميت الشعور سقيم الإدراك، بل أريدك أن تكون روحاً من لهب، وفكراً من علم وأدب، ومفخرة من مفاخر العرب».

سأكون أبت العزيز ـ بعون الله ـ كما شئت، فإذا كتبت لي السلامة عشت مع إخواني حراً سعيداً، وإذا متُّ فما أنا بأول شهيد يغرس في أرض الجزائر، فلأمت ولتحيا الجزائر.

سلامي وقبلاتي الحرار الحنون التي فارقتها من سبع سنوات، ثم إلى الحبيبتين أختي عايشة استقلال وصالحة فدا، الله أكبر والمجد للجزائر والعزة للعرب.

ابنك الذي يقدسك ويقبلك ويتبع خطاك الجندي الصغير سليمان صلاح الدين[1]

فرّد الشاعر مفدي زكرياء على ابنه:

أي بني!. هكذا يفعل أبناء الجزائر:

هـكـذا يـفـعـل أبـنـاء الجـزائـر — يا صـــلاح الـدين في أرض الجزائر
ســـر إلى الميـدان مـأمون الخطى — وتـطـوّع في صـــفـوف الجـيـش ثائـر
أنــت جنـدي ســـاحـات الفـدا — وأنا في ثـورة الـتـحـريـر شـــاعـر
زغـــردي يا أمـــة وافـــتـــخـــري — فـابـنـك الشـــهـم فـدائيّ مغـامر
كـن شـــواظـاً وتـنـزل كـالقضـــــا — ونـفـخـر فـوق هـامـات الجـبـائـر
صـــــلـواتي لـك والله مـعــك — ســـوف ألقـاك بأعيـاد البشــــاير
فـإذا مـا عشــــت حققـت الرجـا — وإذا مـــتّ فـلـتـحـيَ الجـــزائـر

هكذا يفعل أبناء الجزائر

بيروت 15 نوفمبر «تشرين الثاني 1961م

والدك الذي يدعو لك ويفخر بك[2]

11 . النشيد الوطني الجزائري:

النشيد الوطني الجزائري الرسمي «قسماً» من إنتاج شاعر عبقري فذ وطني ثائر على الاستعمار، من تحدثنا عنه مفدي زكرياء شاعر الثورة الجزائرية والمغرب العربي الكبير، وصاحب اللهب المقدس، وناظم إلياذة الجزائر التاريخية وذلك سنة 1956م، وهناك من يقول نظمها داخل سجن بربروس بالجزائر[3]، وهناك من قال في دكانه بالعاصمة[4]، قبل سجنه وبعد ذلك ألقي القبض عليه.

(1) اللهب المقدس ص 10.
(2) اللهب المقدس ص 13.
(3) تاريخ ملحمة نشيد قسماً، الأستاذ الأمين بشيشي الاستاذ عبد الرحمن بن حميدة ص 23.
(4) الثورة الجزائرية، د . بوعلام حمودة ص 185.

والشاعر مفدي زكرياء: هو سليمان بن يحيى بن الشيخ الحاج سليمان ولقبه «ال الشيخ»، ولد في جمادى الأولى سنة 1326هـ الموافق 12 من شهر أفريل 1908م في بني يزقن بغرداية جنوب الجزائر، وهو شاعر الوطنية والنضال والثورة. وله مؤلفات وأناشيد وطنية عديدة في الدواوين اللهب المقدس وإلياذة الجزائر، ومن الأناشيد: فداء الجزائر، واعصفي يا رياح، وقسماً موضوع هذا الحديث. وقد توفي يوم 3 رمضان 1397هـ الموافق 17 أوت 1977م بتونس بنوبة قلبية، وقبره موجود بمسقط رأسه.

وكان صاحب فكرة النشيد الوطني الأستاذ حسين بالميلي، وفاتحَ رمضان عبان، مسؤول شؤون الثورة في العاصمة وما جاورها، وبيّن له أهمية نظم نشيد يواكب المرحلة، واقتنع عبان رمضان بالموضوع وطرحه على بعض مساعديه الذين زكوا الفكرة، وكلف بن يوسف بن خدة والأخضر رباح بالاتصال بالشعراء الكفيلين بنظم قصيدة يراعي المعايير الثلاثة الاتية:

. دعوة الشعب للالتحاق بالثورة تحت لواء جبهة التحرير الوطني.

. التشهير بالدولة الاستعمارية الباغية الهاضمة لحقوقنا والمستهينة بمقوماتنا.

. تحاشي ذكر اسم أي شخص مهما كان ماضيه أو حاضره النضالي[1].

ووقع الاختيار على المناضل الشاعر مفدي زكرياء، واستقر تلحين النشيد الوطني الجزائري في نهاية الأمر على الفنان الشهير محمد فوزي من مصر عام 1957م.

والفنان محمد فوزي ملحن النشيد الوطني الجزائري «قسماً»: اسمه الحقيقي فوزي عبد العالي، ولد سنة 1918م بمدينة طنطا القريبة من القاهرة في مصر، ويعد هذا التلحين إسهاماً مهماً ومشاركة فعالة منه في الثورة الجزائرية[2].

وأصبح بعد ذلك نشيد الثورة الجزائرية الرسمي الذي فاقت شهرته الافاق، وحفظه وتغنى بإنشاده الجيش والشعب والصغار والكبار في رؤوس الجبال . والمدن والقرى والأرياف . وكان صوت النشيد وموسيقاه يزمجران في إذاعة صوت الجزائر، وفي «برنامج أباطيل تكشفها حقائق» من إذاعة صوت العرب في القاهرة والكثير من الإذاعات العربية في المغرب والمشرق، واعتمد فيما بعد نشيداً رسمياً للدولة الجزائرية المستقلة[3].

وهذا نص النشيد الوطني الجزائري

قسماً بالنازلات الماحقات والدماء الزاكيات الطاهرات

والبنود اللامعات الخافقات في الجبال الشامخات الشاهقات

نحن ثُرنا فحياة أو ممات وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر

فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

---

(1) تاريخ ملحمة نشيد قسماً ص 28.

(2) ملحمة المظاهرات الشعبية ص 85.

(3) المصدر نفسه ص 25.

نحن جند في سبيل الحق ثرنا
وإلى استقلالنا بالحرب قمنا
لم يكن يُصغى لنا لما نطقنا
فاتخذنا رنة البارود وزنا
وعزفنا نغمة الرشاش لحناً
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

يا فرنسا قد مضى وقت العتاب
وطويناه كما يُطوى الكتاب
يا فرنسا إن ذا يوم الحساب
فاستعدي وخذي منا الجواب
إن في ثورتنا فصل الخطاب
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

نحن من أبطالنا ندفع جندا
وعلى أشلائنا نصنع مجدا
وعلى أرواحنا نصعد خُلدا
وعلى هاماتنا نرفع بندا
جبهة التحرير أعطيناك عهدا
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا

صرخة الأوطان من ساح الفدا
اسمعونا واستجيبوا للندا
واكتبوها بدماء الشهدا
واقرؤوها لبني الجيل غدا
قد مددنا يا مجد يدا
وعقدنا العزم أن تحيا الجزائر
فاشهدوا.. فاشهدوا.. فاشهدوا(1)

* * *

سادساً: الإصلاحات السياسية والإدارية

في بداية الفاتح من نوفمبر 1954م حين أدركت السلطات الفرنسية مع مطلع السنة الجديدة أن سياسة القمع التي انتهجتها في الجزائر لخنق الثورة والقضاء على الثوار لم تعد تجدي نفعاً، وبدأ يتضح أن كل تلك الأساليب الجهنمية التي استعملتها لإرهاب الجماهير الشعبية وعزلهم عن الثورة قد باءت بالفشل، حينئذ التجأت إلى البحث عن إرساء قواعد سياسة جديدة تتماشى والوضع المتأزم الذي تمر به البلاد. ومما تجدر الإشارة إليه أيضاً أن بعد مرور شهرين فقط على انطلاق الثورة التحريرية المدعمة من طرف الشعب تغيرت الأوضاع كلية.

(1) المصدر نفسه ص 29.

فقد بدأت السلطات الفرنسية تشعر بأنها تتخبط في بحر من التناقضات ليس له حدود، وذلك نتيجة التصريحات الكاذبة والمخادعة التي كانت تصدرها عقب كل عملية عسكرية قصد تمويه الرأي العام الفرنسي، وعلى الخصوص المستوطنين الأوربيين الذين بدؤوا يدركون زيف البلاغات العسكرية، كما تفطنت السلطات الفرنسية بدورها لعدم قناعة الرأي العام بصحة البيانات الواردة في بلاغاتها. وأمام ظاهرة صعوبة احتواء الثورة والقضاء عليها في مهدها، وقبل أن يفلت زمام الأمور من يدها ؛ قررت الحكومة الفرنسية مناقشة مشروع إصلاحات سياسية إدارية يكون مقبولاً بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين على الأقل من جهة، ويساعد على تهدئة الوضع وإخماد نار الثورة من جهة أخرى(1).

1 . الإصلاحات السياسية والإدارية في عهد حكومة مانديس فرانس:

قام وزير الداخلية الفرنسي «فرانسوا ميتران» في 5 جانفي 1955م بتقديم مشروع إصلاحات سياسية إدارية إلى مجلس الوزراء الفرنسي، وكانت تلك الإصلاحات تتمحور حول النقاط الأساسية التالية:

أ . تطبيق قانون 20 سبتمبر 1947م بدمج الجزائر في فرنسا، وذلك تحقيقاً لمقولة «الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا».

ب . إنشاء المدرسة الوطنية للإدارة « E.N.A » في الجزائر، وذلك قصد تكوين فئة من المسؤولين الجزائريين وتعيينهم في مناصب عليا في جهاز التوظيف العمومي.

ج . دمج شرطة الجزائر في شرطة فرنسا، وذلك قصد توحيد النظام وتطبيق قانون واحد على الجميع مثلما هو الحال في فرنسا.

ومن الجدير بالملاحظة أن مجلس الوزراء برئاسة «مانديس فرانس» انذاك . بعد اطلاعه على مضمون تلك الإصلاحات . قرر تغيير الحاكم العام، وأصدر بياناً بتاريخ 25 جانفي 1955م يتضمن تعيين السيد «جاك سوستال» حاكماً عاماً للجزائر خلفاً للجنرال «روجي ليونارد» زيادة على كونه قد فشل في إخماد نار الثورة، لم يكن يراه مؤهلاً لتطبيق تلك الإصلاحات، وبعبارة أدق لقد قرر رئيس مجلس الوزراء إجراء هذا التغيير، لأنه لم يكن يرى في «روجي ليونارد» الرجل المناسب لتلك المرحلة الصعبة، بالإضافة إلى هذا التغيير فقد تضمن البيان الإعلان عن دمج شرطة الجزائر في فرنسا.

والواقع أن الحكومة الفرنسية قد اضطرت اضطراراً إلى اتخاذ هذين الإجراءين والإعلان عنهما في شكل بيان صادر عن مجلس الوزراء بتاريخ 25 جانفي 1955م.

فقد كانت تهدف من وراء تعيين «جاك سوستال» حاكم عام للجزائر إلى التخلص من الضغوطات التي كان يمارسها المستوطنون الأوروبيون . من إقطاعيين وأصحاب رؤوس أموال كبار بالعاصمة . على الحاكم العام السابق «روجي ليونارد»، الذي كان أسير هذه الشرذمة التي كانت تملي عليه المراسيم التي تخدمها وتخدم

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة، د . عقيلة ضيف الله ص 197.

مصالحها، دون أدنى مراعاة لمصلحة فرنسا أو مصلحة المسلمين الجزائريين، وبعبارة أخرى لقد اتخذت الحكومة الفرنسية قرار تعيين «جاك سوستال» حاكم عام جديد للجزائر قصد الاعتماد عليه في تطبيق الإصلاحات[1].

وعند عرض مشروع الإصلاحات السياسية الإدارية أمام المجلس الوطني الفرنسي، كانت المعارضة قوية بسبب قوة المستوطنين الأوروبيين وسعة سلطانهم في فرض اتجاهاتهم وسيطرتهم على المجلس، فقد قاموا بحملة مضادة لمشروع الإصلاحات السياسية الإدارية الذي تقدمت به الحكومة الفرنسية، وبالرغم من محاولة رئيس الحكومة الفرنسية «مانديس فرانس» طمأنة الجميع بأن مشروع الإصلاحات ما هو إلا مناورة ومراوغة لتهدئة الشعب الجزائري؛ فإن المستوطنين الأوروبيين قد ركزوا هجومهم ضد الحكومة على الوضعية العسكرية المتدهورة في الجزائر، كما اتهموا رئيسها بأنه ينوي التفاوض مع الثوار الجزائريين مثلما تفاوض مع التونسيين والمغاربة، ولأجل ذلك رفعوا شعارات معادية لسياسة الحكومة المركزية وجندوا كل طاقاتهم للإطاحة بها، باختصار لقد اعتبروا السيد رئيس الحكومة الفرنسية «مانديس فرانس» واهب الاستقلالات ومخرباً للإمبراطورية الفرنسية[2].

وسقطت الحكومة الفرنسية التي يترأسها مانديس فرانس بعد أن نزع المجلس الوطني الفرنسي الثقة منه بـ 319 صوتاً ضد 273 صوتاً. وبانهزام حكومة مانديس فرانس في 6 فيفري 1955م ؛ يكون المستوطنون الأوروبيون قد حققوا انتصاراً كبير في معارضتهم الشديدة لأي تغيير سياسي إداري في الجزائر يمس بمصالحهم أو يحقق المساواة بينهم وبين المسلمين الجزائريين[3].

وباختصار إن مشروع الإصلاحات السياسية الإدارية قد اختفى باختفاء فرانس وحكومته.

والواقع أن هزيمة حكومة مانديس فرانس التي تعد أكبر دليل على قوة المستوطنين الاوروبيين وسعة سلطانهم، قد أغرقت فرنسا في أزمة سياسية تركتها بدون حكومة مدة تسعة عشر يوماً، ظهرت خلالها عدة محاولات فاشلة قامت بها شخصيات ذات انتماءات سياسية وعقائدية مختلفة[4].

ويلاحظ في هذا الصدد أن حكومة السيد «بينو» قد لقيت نفس مصير حكومة مانديس فرانس، وذلك على إثر عرض برنامج حكومته على المجلس الوطني الفرنسي، فقد نزعت هذه الأخيرة الثقة من حكومة بينو بـ 312 صوتاً ضد 268 صوتاً، وذلك بالرغم من تأكيد مجلس الوزراء الفرنسي على أن مشروع الإصلاحات الذي تقدم به «بينو» أمام المجلس الوطني الفرنسي ؛ لن يشرع في تطبيقه إلا بعد استتباب الأمن في كافة أرجاء البلاد، وقد بقيت فرنسا عدة أيام بدون حكومة.

وقد قرر رئيس الجمهورية الفرنسي «روني كوتي» انذاك تعيين رئيس حكومة جديد هو «ادقار فور»، الذي كلف بتشكيل حكومة جديدة، وعرض برنامجه الحكومي على المجلس الوطني الفرنسي لمناقشته[5].

---

(1) المصدر نفسه ص 199.

(2) المصدر نفسه ص 202.

(3) المصدر نفسه ص 202.

(4) الثورة الجزائرية في عامها الأول، محمد الزبيري ص 103.

(5) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 204.

2 . الإصلاحات السياسية الإدارية في عهد حكومة «ادقار فور»:

لقد عانت فرنسا أزمة سياسية خانقة وفراغاً سياسياً فظيعاً لمدة حوالي ثلاثة أسابيع بعد الهزيمة التي لحقت بحكومة مانديس فرانس في 6 فيفري 1955م، وفشل حكومة «بينو» الذريع في الحصول على موافقة أعضاء المجلس الوطني الفرنسي على برنامجه الحكومي. ولعل هذا هو السبب في تزكية «ادقار فور» من طرف المجلس الوطني الفرنسي وفوزه بالثقة التي مكنته من الإعلان عن تشكيل الحكومة يوم 24 فيفري 1955م[1].

ومن الجدير بالملاحظة أن الحاكم العام الجديد «جاك سوستال»، الذي تم تعيينه من قبل رئيس الحكومة السابق «مانديس فرانس»، لم يرض بالمجيء إلى الجزائر إلا بعد أن طمأنه رئيس الحكومة الجديدة «ادقار فور» بأن منصبه في الجزائر مضمون، وبأن برنامج الحكومة المتعلق بالإصلاحات السياسية الإدارية

الذي اقترحه «مانديس فرانس» سيزكى من طرف البرلمان الفرنسي، ثم حثه على القبول بتلك المهمة، والذهاب إلى الجزائر للشروع في العمل وتطبيق تلك الإصلاحات[2].

وبالفعل فقد بدأ «جاك سوستال» في تطبيق تلك الإصلاحات مركزاً بصفة خاصة على الجانب الاقتصادي الاجتماعي، بينما أهمل الجانب السياسي الإداري تماماً، وكانت سياسته هذه قد مكنته من الاقتراب أكثر من المستوطنين الأوروبيين وكسب ثقتهم وعطفهم.

ولكن الثورة أدركت منذ الوهلة الأولى أن هذه السياسة التي جاء بها جاك سوستال والتي تقوم على أساس إبقاء الجزائر فرنسية، قد كانت تهدف إلى عزل الثورة عن الشعب والتشكيك في المبادئ التي تضمنها بيان أول نوفمبر، والهادفة أساساً إلى تحقيق الاستقلال التام.

وهكذا رفضت الثورة تلك الإصلاحات شكلاً ومضموناً، وعبرت عن ذلك بانتشارها أكثر في كافة أرجاء الوطن واشتدادها أكثر من ذي قبل، ورفضها الشعب الجزائري أيضاً، وعبر عن ذلك بتبنيه للثورة والتفافه حولها، واشتد وطيس الثورة والقضاء عليها من جهة أخرى، ونتيجة لهذا الاضطهاد شعر الجزائريون بضرورة التكاتف أكثر إذا أرادوا التخلص النهائي من نظام الاحتلال الفرنسي الذي عانت منه بلادهم منذ أمد بعيد. أما الفرنسيون فلم ييأسوا، وحاولوا أن يواجهوا ذلك التمرد باللجوء إلى اتخاذ تشريعات استثنائية وسن قوانين زجرية ترغم الجزائريين على الخضوع للسلطات الفرنسية، والقبول بسياسة الإصلاحات المفروضة عليهم، وبذلك التجأ الحاكم العام بالجزائر «جاك سوستال» إلى مطالبة الحكومة الفرنسية بتدعيم الجهاز القمعي بالجزائر، وذلك بإصدارها لمشروع «قانون حالة الطوارئ»، وقد رحبت حكومة ادقار فور بالفكرة، حيث عمدت إلى طبخ على عجل لمشروع قانون أسمته «قانون حالة الطوارئ»، وتقدمت به للمجلس الوطني الفرنسي للمصادقة عليه.

(1) المصدر نفسه ص 204.

(2) المصدر نفسه ص 206.

وبالفعل فقد عقد المجلس الوطني الفرنسي دورة استثنائية ابتداءً من 23 مارس 1955م لمناقشة مشروع قانون حالة الطوارأئ، وقد تمت المصادقة على ذلك المشروع بـ 379 صوتاً ضد 219 صوتاً، وبذلك أدخلت السلطات الفرنسية قانون حالة الطوارأئ حيز التنفيذ ابتداءً من 3 أفريل 1955م[1].

وهكذا فبوضع قانون حالة الطوارأئ حيز التنفيذ، تكون الجزائر قد دخلت مرحلة جديدة من حياتها السياسية. ويمكن حصر أهم ما جاء به ذلك القانون المشؤوم فيما يلي:

. إنشاء المحتشدات التي اختارت السلطة الفرنسية أن تقيمها في المناطق النائية ليصعب الاتصال بالمجبرين على الإقامة فيها.

. إعطاء صلاحيات للسلطات الفرنسية بحيث يحق لرجال الأمن نفي وفرض الإقامة الجبرية على الجزائريين ومحاكمتهم من قبل المحاكم العسكرية.

. السماح للشرطة باعتقال أي شخص في أي وقت بدون الحصول على موافقة الجهات القضائية.

. إنشاء جهاز للشرطة الريفية المتنقلة.

. منع تحرك الاشخاص والسيارات إلا بعد الحصول على إذن من السلطات المعنية.

وباختصار فإن قانون حالة الطوارأئ يعني نقل السلطة من الجهات القضائية والإدارية إلى الجيش الذي أصبح هو السلطة الفعلية للبلاد، وبدأت الحملات العسكرية مصاحبة بالدعاية السياسية للقضاء على الثورة، وعملت السلطات الفرنسية على إرهاب الشعب الجزائري بكافة أشكال وألوان وأنواع العنف الممنهج، من قتل وتشريد وحرق وسجن وحصر للأهالي. كما أصدرت السلطات الفرنسية تعليمات تتعلق بزيادة عدد المحتشدات والتجمعات، وشددت في نفس الوقت الرقابة السياسية في ميدان الإعلام والثقافة.

ولكن بالرغم من كل تلك الإجراءات المتخذة، فإن السلطات الفرنسية لم تتمكن من إخماد نار الثورة، بل إن النتيجة قد كانت جدّ إيجابية بالنسبة للثورة الجزائرية، إذ الخسائر الفرنسية 2/3 الخسائر الجزائرية وذلك كما سبق القول، رغم كل المجهودات التي بذلتها قصد القضاء على الثورة.

وكان جاك سوستال قد انتبه إلى هذه الحقيقة، ولاحظ بأن الجماهير الجزائرية قد بدأت تتبنى الثورة التحريرية، فقام بمحاولة جديدة أطلق عليها اسمه، وهي عبارة عن برنامج إصلاحي يشتمل على عشر نقاط يمكن تلخيصها في الاتي:

. تقسيم إداري جديد يتمثل في إنشاء عمالات ودوائر جديدة في اعتقاد جاك سوستال، فإن هذا الإجراء سيسهل عملية المراقبة ويضبط تحركات المواطنين.

. مكننة الفلاحة قصد شد الجزائريين إلى الأرض ومنعهم من الالتحاق بصفوف الثورة.

. توسيع الصناعات الخفيفة قصد خلق الوظائف ومناصب الشغل، وبالتالي امتصاص طوابير العاطلين عن العمل قبل أن تمتد إليهم يد الثورة الزاحفة.

(1) المصدر نفسه ص 208.

. إلغاء البلديات المختلفة قصد إيجاد الانسجام الإداري، ومن أجل الاستجابة لأحد مطالب النخبة في الجزائر.

. فصل الدين الإسلامي عن الإدارة الفرنسية، وذلك يكون استجابة لأحد المطالب الأساسية التي تنادي بها جمعية العلماء المسلمين.

. تعليم اللغة العربية في المدارس الحكومية، مع العلم أن هذه النقطة تشكل مطلباً تنادي به كافة التشكيلات السياسية الوطنية في الجزائر.

. محاربة الأمية بواسطة اللغة الفرنسية، لعل ذلك يقرب الجزائريين أكثر إلى الأمة الفرنسية.

. فتح أبواب التكوين المهني للجزائريين، حتى يشعر الشباب خاصة بأن هناك مساواة بينهم وبين أبناء المستوطنين الأوروبيين.

. تمكين المسلمين الجزائريين من الالتحاق بالتوظيف العمومي، حتى لا يبقى ذلك السلك حكراً على المستوطنين الأوروبيين، وحتى تحضر الشروط الضرورية بخلق قوة ثالثة تستفيد من خدمات الإدارة الفرنسية وترفض الالتحاق بركب الثورة(1).

. مطالبة الوطن الأم بتكثيف المساعدة للمشاريع الاجتماعية، التي من شأنها أن توفر جواً من الارتياح والرضى لدى أغلبية سكان الجزائر.

تلك هي أهم نقاط برنامج جاك سوستال. وعند التأمل فيها جيداً، يلاحظ المرء أن هذا البرنامج لا يختلف في جوهره كثيراً عن البرامج التي سبقته، بدءاً بمشروع «بلوم فيوليت» وإنتهاءً بقانون الجزائر. غير أن الشيء الذي كمم أفواه المستوطنين الأوروبيين وجعلهم يقبلون بهذا البرنامج الإصلاحي، هو تصعيد الثورة وإشعال نارها في كل مكان، خاصة وأن أمنيتهم الوحيدة قد أصبحت تتمثل في العودة إلى ماقبل نوفمبر 1954م واسترجاع الأمن والسلام المفقودين.

وفي اجتماع مجلس الوزراء الفرنسي بتاريخ 15 جوان 1955م، أوضح الحاكم العام جاك سوستال عند عرض مشروع برنامجه على أعضائه أن هذا المشروع سيطبق على المناطق المحرومة بداية، كما اشترط أن يسبق تطبيق قانون حالة الطوارأئ في كافة أنحاء الجزائر. ومن أجل تحقيق كل ذلك طالب الحكومة الفرنسية بمساعدات مالية، وقد انتهى ذلك الاجتماع بالمصادقة على برنامج سوستال، كما جدد المجلس ثقته في شخص الحاكم العام جاك سوستال وأوكل إليه مهمة إنجاز البرنامج.

وفي الواقع أن برنامج جاك سوستال لم تنفذ منه أية نقطة، ذلك أن جاك سوستال قد أصر على تطبيق سياسة الإدماج مثله مثل من سبقه من حكام الجزائر، فالمتفحص جيداً للبنود الواردة في برنامج سوستال، يمكنه أن يلاحظ أن هذا البرنامج يخفي في طياته مخططاً رسم بدقة، يرمي إلى دمج المجتمع الجزائري ومحو الشخصية الجزائرية العربية الإسلامية، فتأخذ أولاً صفة تابع ثم تتدرج نحو الدمج والذوبان داخل الإطار الفرنسي(2).

(1) المصدر نفسه ص 211.

(2) مجلة أول نوفمبر المصادرة بتاريخ 1977/8/1م.

وقد اصطدمت سياسة الإدماج التي أراد جاك سوستال تطبيقها في الجزائر بأرض الواقع، ففي الجزائر قرر المستوطنون الأوروبيون رفضها، لأن هذه السياسة تعني في نظرهم تحقيق المساواة بينهم وبين المسلمين الجزائريين، وبالتالي إزالة الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر.

ولهذا السبب لاقى البرنامج تذمراً ونقداً ومعارضة شديدة من طرف المستوطنين الأوروبيين، الذين نادوا بإيصاد الأبواب في وجه كل إصلاح وكل استجابة لرغبات الشعب الجزائري، وطالبوا باستعمال الزجر الجماعي والقمع الدموي على نطاق واسع قصد القضاء على الثورة[1].

وأما في فرنسا، فإن الساسة الفرنسيين قد رفضوا تطبيق برنامج جاك سوستال، الذي يقوم على أساس دمج الجزائر في فرنسا لسبب واحد فقط، وهو أن الاندماج يعني في نظرهم إعطاء حق التمثيل السياسي في البرلمان لـ 9 ملايين من المسلمين الجزائريين، لأن هذا يعني خلق قوة سياسة إسلامية داخل الهيئة التشريعية في فرنسا ذاتها، وبالتالي فرض ضمهم ونفوذهم على الفرنسيين، وهكذا فقد وجد المسؤولون الفرنسيون أنفسهم غير قادرين على اتخاذ أي إجراء، سواء بانتهاج سياسة الإدماج التي تنعكس سلباً على التمثيل السياسي بفرنسا، أو بانتهاج سياسة التعاون مع المسلمين الجزائريين لأن ذلك يعني تصويت الأوروبيين في البرلمان ضد حكومتهم والإطاحة بها.

ويستنتج مما تقدم أن كل المحاولات والمساعي لتحقيق السلام من طرف المسؤولين الفرنسيين قد باءت بالفشل الذريع، ذلك لأن الواقع الجزائري كان يختلف اختلافاً كلياً عن التحليلات والتصريحات التي كان يدلي بها أولئك المسؤولون في باريس والجزائر، ففي الوقت الذي كان فيه أغلب المسؤولين الفرنسيين يناقشون مشاريع الإصلاحات في مجلس الوزراء والبرلمان الفرنسيين، كان رجال الشرطة والجيش الفرنسي يستعملون أبشع وسائل التعذيب لاستخراج الأسرار والاعترافات من الجزائريين، وبذلك قضوا على إمكانية وجود أي تعاون بين السلطات الفرنسية وأبناء الشعب الجزائري.

والتجأت السلطات الفرنسية إلى تمديد حالة الطوارأئ، وذلك ظناً منها أن النصر لن يكون إلا عسكرياً، فقد قرر مجلس الوزراء الفرنسي في اجتماعه المنعقد في 6 جويلية 1955م تمديد حالة الطوارأئ بالقطر الجزائري إلى ستة أشهر أخرى ابتداءً من شهر أكتوبر 1955م، كما صادق البرلمان الفرنسي على ذلك القرار خلال الدورة التي عقدها بين 28 و29 جويلية 1955م، وذلك بـ 382 صوتاً ضد 233، بالإضافة إلى قرار إنشاء عمالة عنابة وتنصيب مجلس للاستئناف بقسنطينة ووهران[2].

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 213.

(2) المصدر نفسه ص 214.

غير أن ذلك الحلم ـ الانتصار العسكري ـ ستبدده هجومات 20 أوت 1955م كما سيتضح في الصفحات القادمة بإذن الله تعالى، فكلما تفنن القادة الفرنسيون في مضايقة الثورة وخنقها كلما ازدادت الجماهير إيماناً والتحاماً بها[1].

3 ـ التفاف الشعب حول جبهة التحرير وهجوم 20 أوت 1955م:

استخدم جاك سوستال كل الوسائل الممكنة للقضاء على الثورة الجزائرية، وتطبيق فكرة إدماج الجزائر سياسياً وإدارياً في فرنسا، فقد كانت كل محاولة إصلاحية من محاولاته تحمل في طياتها فكرة الإدماج، مثل ما ورد في بعض تصريحاته التي جاء فيها:

ــخ إن الجزائر تؤلف جزءاً لا يتجزأ من فرنسا.

ــخ إن فرنسا لن تترك الجزائر.

ــخ إنه لابد من العمل كل يوم أكثر لإدماج الجزائر في فرنسا[2].

ولما واجه جاك سوستال صعوبات شتى في تطبيق فكرة الإدماج، التجأ إلى تطبيق قانون حالة الطوارأئ، الذي مدد العمل به ستة أشهر أخرى، قصد تهيئة الأرضية والمناخ المناسبين لتطبيق برنامجه الإصلاحي، وقد استعان في ذلك بأولئك الضباط السامين الذين اكتسبوا خبرة وشهرة واسعتين في ممارسة حرب العصابات أمثال الجنرال «بارلنج» والعقيدين «ديكورنو وبيجا». وأعطيت الإشارة الخضراء لبدء الهجومات المكثفة على جبال المنطقتين الأولى والثانية[3].

ويلاحظ أن كل التدابير التعسفية التي اتخذها جاك سوستال كان الهدف الأساسي منها هو الحدّ من روح المقاومة لدى الجماهير الشعبية، وأيضاً تسليط كل أنواع القمع على المناضلين الوطنيين قصد إبعادهم عن جبهة التحرير الوطني ومنعهم من الالتحاق بصفوف جيشها، وخاصة وضع حد لامتداد تأثير ما يجري بالأوراس إلى مناطق أخرى.

واستطاع الشعب الجزائري بصموده ووقوفه بجانب جبهة وجيش التحرير الوطني أن يتصدوا لكل الخطط والمشاريع التي عملت على القضاء على الثورة، فلم تنفع عملياتهم العسكرية المكثفة، التي أشرف عليها الضباط السامون ذوو الخبرة العالمية في تفكيك صفوف الجبهة وجيش التحرير الوطني واعتقال مناضليها.

وكانت ردة فعل جبهة التحرير الوطني إزاء تطبيق السلطات العسكرية الفرنسية قانون حالة الطوارأئ ومبدأ المسؤولية الجماعية ؛ موقفاً جهادياً منظماً أشعل لهيب الثورة وزادها قوة وانتشاراً.

أ ـ هجوم 20 أوت 1955م:

---

(1) المصدر نفسه ص 214.

(2) لمحات من ثورة الجزائر، الأخضر جودي ص 37.

(3) الثورة الجزائرية في عامها الأول، محمد الزبيري ص 216.

يجمع المسؤولون الجزائريون الذين عاشوا تلك الفترة على أن الشهيد زيغود يوسف هو صاحب فكرة تنظيم تلك الهجومات، وعندما اختمرت الفكرة في ذهنه نقلها إلى مساعديه الأقربين وفي مقدمتهم لخضر بن طوبال وعمار بن عودة.

وقد كان زيغود يوسف من قدماء المنظمة الخاصة، ومن المناضلين البارزين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية. وتعتبر هجومات 20 أوت 1955م بقيادة القائد البطل زيغود يوسف قائد منطقة شمال قسنطينة تعتبر مرحلة هامة في مسيرة الثورة الجزائرية، إذ وضعت حداً فاصلاً لتلك التأويلات التي كانت تروجها السلطات الفرنسية عن جيش التحرير الوطني، وبعبارة أخرى إن هجومات 20 أوت 1955م قد جاءت لتجعل حداً لسياسة الإدماج التي طالما نادى بها الحاكم العام الفرنسي بالجزائر «جاك سوستال»، كما أنها كانت عبارة عن قرار تاريخي هام وحاسم اتخذته الثورة الجزائرية كرد فعل على القرار الذي اتخذه البرلمان الفرنسي المتمثل في تمديد قانون حالة الطوارأئ لمدة ستة أشهر أخرى على القطر الجزائري، قصد القضاء النهائي على جيش التحرير الوطني وبالتالي القضاء على الثورة.

وباختصار يمكن القول: إن هجوم 20 أوت 1955م قد شكل منعطفاً حاسماً في تطور كفاح الشعب الجزائري، وذلك للأسباب التالية:

. السبب السياسي: فقد فضحت هجومات 20 أوت 1955م محاولات التضليل والتشكيك في الثورة، وذلك بوضع حد نهائي للنضال السياسي في ظل مؤسسات الاحتلال الفرنسي، الذي كان ينادي به القادة التقليديون للأحزاب الوطنية، والذي كانوا يريدون من ورائه إجهاض الكفاح المسلح والاستيلاء على الحركة.

. السبب العسكري: فقد جاءت هجومات 20 أوت 1955م لتوسيع نطاق مناطق الكفاح المسلح، وفك الحصار المضروب على منطقة الأوراس التي كانت معقل الثوار، ورفع الضغط الكبير المفروض من طرف القوات العسكرية للاحتلال الفرنسي على المنطقة.

. أما السبب الثالث، فإنه يتمثل في التصعيد الخطير في موقف السلطات الفرنسية وخططها الهادفة إلى سحق الثورة في عامها الأول وذلك من خلال:

1ً. تعيين جاك سوستال حاكم عام للجزائر في مطلع سنة 1955م، وذلك كرد فعل مباشر على الثورة المسلحة، فالسيد جاك سوستال يعتبر قائداً محنكاً في السياسة وخبيراً في التجمعات البدائية التي درسها في أمريكا اللاتينية، وهذا ما جعل السلطات الفرنسية تستنجد به لتوظيف خبرته السياسية والعسكرية في القضاء على الثورة[1].

2ً. قرار تعميم قانون حالة الطوارأئ على أغلبية مناطق القطر الجزائري.

3ً. ادعاء السلطات الفرنسية بأن تطبيق قانون حالة الطوارأئ قد حال دون تعميم الثورة المسلحة، وأن القوات الفرنسية تسيطر على الموقف وتتحرك عبر أنحاء القطر الجزائري بكل حرية وأمن.

---

(1) جريدة الشعب/عدد 6473 ص 4، عمار بن عودة.

4ً . قيام السلطات الفرنسية بحرب نفسية وتوظيفها في سبيل ذلك كل ما تملك من إمكانيات حربية وإعلامية، وهذا بإشاعتها داخل الأوساط الجزائرية والفرنسية والدولية بعدم وجود ثورة في الجزائر[1].

كل هذه الأسباب وغيرها دفعت بالقائد زيغود يوسف إلى اتخاذ قرار تاريخي وحاسم لمواجهة الخطر الذي يهدد الثورة، يتمثل في تنظيم هجومات 20 أوت 1955م لنسف خطط جاك سوستال الرهيبة، وكذلك النزول بالثورة إلى الشارع لتصبح ثورة الجماهير لا ثورة نخبة من الشعب، فقد نظم أسبوعاً للزحف العام على مراكز السلطات الفرنسية بواسطة قوات المجاهدين وكل أفراد الشعب في كل أنحاء القطر، وذلك كما سبق القول رداً على سياسة القمع المسلطة على المسلمين الجزائريين من طرف السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر، ولكن واجهته صعوبات شتى جعلته يكتفي بتنظيم هجومات في المنطقة التي كان يقودها، وهي منطقة شمال قسنطينة التي صارت فيما بعد تسمى بالولاية الثانية[2].

وبعد التفكير الجاد والتدبير العميق في الظروف الصعبة السالفة الذكر، انتهى الشهيد زيغود يوسف بعد أن اقتنع بضرورة العملية إلى اتخاذ قرار 20 أوت الخطير . فقد كان أخطر قرار يمكن أن يتخذه قائد . فاستدعى مساعديه وعرض عليهم المسألة، ثم طفق الجميع يرسمون الأهداف الداخلية والخارجية للعملية التي يمكن حصرها فيما يلي:

. الأهداف الداخلية:

. فك الحصار الشديد عن المنطقة الأولى التي كانت في خطر، وذلك بعد أن وصلت القائد زيغود يوسف ومساعديه رسالة من شيحاني بشير، يصف فيها الوضع بالمنطقة وتشديد الحصار عليها، ويستنجد بمناضلي المنطقة الثانية.

. التأكيد للقوات العسكرية الفرنسية أن جبهة وجيش التحرير الوطني قادران على فرض جو عام من عدم الاستقرار في كامل المنطقة الثانية، وذلك عن طريق مضاعفة عدد مراكز التوتر في أماكن كثيرة من المنطقة، فتثبت بذلك أن الثورة في كل مكان.

. إثبات أن جيش التحرير الوطني ليس مجموعة من قطاع الطرق، كما تزعم الإدارة الفرنسية، وإنما هو جيش ثوري مساند من قبل الشعب، وبإمكانه أن يضرب قوات العدو في الصميم.

. إحباط سياسة جاك سوستال الإصلاحية، وذلك بإحداث القطيعة الكاملة بين الشعب الجزائري والمحتلين والإدارة الفرنسية التي تمثلهم.

.كسب انضمام كل تيارات الحركة الوطنية والشخصيات الجزائرية المرتبطة بالأحزاب في صفوف جبهة التحرير الوطني، لتوحيد صفوف وجهود الحركة الوطنية الجزائرية، وإثبات تعلق الشعب الجزائري كله بالكفاح المسلح من أجل الاستقلال الوطني التام.

---

(1) مجلة أول نوفمبر سنة 1981م عدد 51 ص 6.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 219.

. تكذيب ادعاءات الإدارة الفرنسية بتبعية الثورة الجزائرية لبعض العواصم الخارجية، وإثبات وطنية الثورية وشعبيتها.

. يعتبر هجوم المنطقة الثانية بمثابة رسالة إعلامية موجهة إلى كل المناطق الأخرى، حيث كانت الاتصالات معدومة بينهم، ولا يعرفون أخبار بعضهم بعضاً إلا عن طريق الجرائد الفرنسية، ففكر قائد المنطقة الثانية في الهجوم ليجعلوا كل الجرائد الفرنسية تتكلم عنهم، فيدرك مجاهدو المناطق الأخرى أن الثورة مستمرة فيقومون بدورهم، وبذلك تعم العمليات كل التراب الجزائري[1].

. أن يكون الهجوم عبارة عن انتفاضة شاملة لإفشال محاولات الإدماج التي لا يزال البعض يدعون إليها.

. الأهداف الخارجية:

ويمكن حصرها في التالي:

. إعلان التضامن مع الشعب المغربي في الذكرى الثانية لإبعاد الملك محمد الخامس ونفيه إلى مدغشقر.

. تدويل القضية الجزائرية وذلك بحمل الجمعية العامة للأمم المتحدة على إدراجها في جدول أعمال الدورة الخريفية، خاصة وأن الكتلة الأسيوية ـ الأفريقية في مؤتمر باندونج قد قررت لأول مرة عرض القضية الجزائرية على المنظمة.

. إقناع الرأي العام الفرنسي والرأي العام العالمي بأن الشعب الجزائري قد تبنى جبهة التحرير الوطني.

وهكذا إذن خطط قادة المنطقة الثانية لعمليات 20 أوت 1955م، مراعين في كل ذلك الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الثورة عشية تلك العمليات. وقد انطلقت فعلاً كما تم التخطيط لذلك، وكانت النتائج فوق ما كان قادة المنطقة الثانية والمجاهدون يتوقعونه، إذ أن الهجومات قد جعلتهم يمسكون بزمام المبادرة العسكرية والسياسية في داخل المنطقة، كما برهن الشعب الجزائري خلالها على مدى ثوريته واستجابته لقادة المنطقة، لقد كان إيمانه بالثورة التي يخوضها يفوق كل تصور[2].

ب . نتائج هجوم 20 أوت 1955م:

من الناحية العسكرية:

. فك الحصار المضروب على المنطقة الأولى بحيث تم نقل الضباط السامين الذين استنجد بهم جاك سوستال للقضاء على الثورة عند انطلاق شرارتها بمنطقة الأوراس أمثال «يكورنو وبيجار» إلى منطقة الشمال القسنطيني لمواجهة عمليات 20 أوت 1955م.

. تحطيم أسطورة تفوق الجيش الفرنسي ووصفه بـ «الجيش الذي لا يقهر»، فقد أثبت هجوم 20 أوت 1955م قدرة جبهة وجيش التحرير الوطني على ضرب القوات الفرنسية، مما جعل السلطات الفرنسية تغير استراتيجيتها العسكرية لتتماشى والتطور السريع للثورة، وكانت النتيجة تشتت قواتها العسكرية إذ لم يعد في

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 223.

(2) المصدر نفسه ص 224.

إمكانها تركيز ثقلها في مكان معين، ليس بالنسبة لمنطقة الأوراس فحسب، بل منطقة الشمال القسنطيني ذاتها.

. تزويد جيش التحرير الوطني بالعناصر المقاتلة، فقد أعطى هجوم 20 أوت 1955م للعمل العسكري دفعاً قوياً، إذ استجابت الجماهير الشعبية لنداء قادته والتفت حوله.

. إثبات وطنية الثورة التحريرية وشعبيتها، فقد أسقط هجوم 20 أوت 1955م جميع الادعاءات التي تقول أن الثورة المسلحة مسيّرة من الخارج، كما أثبتت أن جيش التحرير الوطني ليس مجموعة من قطاع الطرق كما تزعم السلطات الفرنسية بل هو جيش مدعوم من طرف الشعب[1].

من الناحية السياسية:

. يقظة الحس الوطني لدى مجموعة 61 المكونة من النواب الجزائريين الموجودين في المجلس الجزائري الدرجة الثانية من المسلمين الجزائريين في 26 سبتمبر 1955م . خلال الاجتماع الذي انعقد بعد حوالي شهر من وقوع الهجوم . بتوقيعهم على لائحة عبروا فيها عن إدانتهم للقمع الفرنسي، وعن

رفضهم لسياسة جاك سوستال الإصلاحية، ويطالبون فيها بالاعتراف بالكيان الوطني الجزائري. وبذلك أحدثت القطيعة التامة بين الشعب الجزائري وإدارة الاحتلال الفرنسي، وبعبارة أخرى إن اللائحة التي حررتها مجموعة «61»، والتي اتخذت فيها موقفاً صريحاً ضد الاندماج وضد الإصلاحات الجزئية، وصرحت فيها بأن أي حديث ينبغي أن يكون مع الذين يقاتلون انطلاقاً من أن الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري كانت قد أدانت هذه السياسة وما يماثلها ؛ فإن تلك اللائحة قد جعلت كل مخططات الاندماج تتلاشى، كما جعلت الأحلام المعلقة على القوة الثالثة تتبخر، وبذلك تكون هجومات 20 أوت 1955م قد حفرت هوة عميقة بين الفرنسيين والجزائريين[2].

. القضاء النهائي على سياسة جاك سوستال الإصلاحية، وقد أدى هذا إلى إحداث انقلاب جذري في عقلية جاك سوستال، الذي أجبره الهجوم على إعادة النظر في سياسته، فقد انضم بصفة علنية إلى صف المستوطنين الأوروبيين وقوات الجيش الفرنسي، وأصبح شغله الشاغل في تسخير كل الوسائل المتوفرة من أجل القضاء على الثورة، وإخضاع الثوار للسلطات الفرنسية بالقوة، ولهذا يعتبر هجوم 20 أوت 1955م نهاية مرحلة الإصلاحات وبداية حرب حقيقية بين الشعب الجزائري وإدارة الاحتلال الفرنسي.

---

(1) المصدر نفسه ص 226.

(2) المصدر نفسه ص 226.

. تدويل القضية الجزائرية، إذ أدرجت في جدول أعمال دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة لسنة 1955م بأغلبية صوت واحد، وذلك بالرغم من احتجاج الوفد الفرنسي، الذي قرر الانسحاب من الدورة بعد أن قرر مكتب الجمعية إدراج القضية، وهكذا فإن تسجيل القضية الجزائرية وإدراجها في جدول أعمال الدورة العاشرة لهيئة الأمم المتحدة بعد مرور عشرة أشهر فقط من اندلا ع الثورة المسلحة يعد انتصاراً كبيراً للقضية، فقد كان الرد على فرنسا يتمثل في أنه لا يمكن إدماج أي شعب مع شعب اخر إلا بموافقته، كما أنه لا يمكن إلحاق بلد ببلد اخر بمقتضى مرسوم[1]، وبذلك تكون هجومات 20 أوت 1955م قد حطمت الصمت المفروض على القضية.

. تعزيز التضامن بين الشعبين الجزائري ـ المغربي، فقد تلاحقت الأحداث وتفاعلت في المنطقة وفي فرنسا نفسها بخصوص إرجاع المرحوم ملك المغرب محمد الخامس إلى عرشه، وبعد خطوات عديدة وإجراءات كثيرة قررت فرنسا الاعتراف رسمياً بـ محمد الخامس سلطاناً للمغرب بعد طرده من المغرب الأقصى، ونفيه إلى جزيرة مدغشقر، وبذلك عاد سلطان المغرب إلى عرشه بعد أن ردد المسؤولون الفرنسيون وعلى رأسهم رئيس الحكومة الفرنسية انذاك ادقار فور، وتكراراً أن الملك لن يعود أبداً.

. تأسيس المجالس الشعبية: نتج عن هجوم 20 أوت 1955م قيام جبهة التحرير الوطني في نوفمبر 1955 بتأسيس المجالس الشعبية وتنصيبها على مستوى القرى والدوائر بالمنطقة الثانية، وتعيين المسؤولين عليها، وكذلك وضع نظام لدفع الاشتراكات وتموين جيش التحرير الوطني، كما تم تأسيس مجالس للعدالة لفض الخصومات بين أفراد الشعب أطلقت عليها اللجان الشرعية. وكان الشعب الجزائري قد تقبل كل هذه التنظيمات كما تعامل معها.

إن هذه النتائج الإيجابية على مختلف الأصعدة وفي جميع الميادين ؛ تؤكد القيمة الحقيقية لهجومات 20 أوت 1955م في مسيرة الثورة التحريرية، والدليل على ذلك:

. أن مؤتمر الصومام قد انعقد في الذكرى الأولى لهجوم 20 أوت 1955م وذلك تخليداً لمبادرة المنطقة الثانية.

. أن التنظيم العسكري للمنطقة الثانية قد اعتمد كنظام للثورة التحريرية.

وهكذا تنتهي هذه السنة الأولى من الكفاح المسلح بعد أن حققت الثورة انتعاشاً في الروح الوطنية لم تعهده من قبل، وتمكنت جبهة التحرير الوطني من استعادة نفس جديد لمواصلة مشوار الثورة التحريرية.

وانطلاقاً من هذه النتائج، فقد أصبح 20 أوت 1955م أحد المعالم الرئيسية لثورة التحرير ومنعطفاً حاسماً لها[2].

(1) المصدر نفسه ص 227.

(2) المصدر نفسه ص 228.

4 . موقف السلطات الفرنسية من هجوم 20 أوت 1955م:

لقد اعترف المسؤولون الفرنسيون أنفسهم بالذهول والقلق وخيبة الأمل مما لحق بالقوات العسكرية والمدنية من خسائر وأضرار مادية وبشرية، وصرحوا إثر تلك العمليات بقولهم: إن مبادرات المجاهدين قد سببت حيرة واضطراباً في صفوف الجيش الفرنسي المحارب في الجزائر.

وأما فيما يخص الإجراءات العسكرية التي قررت السلطات الفرنسية اتخاذها عقب تلك العمليات، فيمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ . تعزيز القوات العسكرية الفرنسية في الجزائر:

بعد هجومات 20 أوت 1955م وما ترتب عليها من خسائر مادية وبشرية، أصبح هم السلطات العسكرية الفرنسية الوحيد هو إعادة الأمن إلى نصابه بأي طريقة كانت، وفرض إرادة فرنسا على الثوار الجزائريين، وإخضاعهم بالقوة للسلطات الفرنسية، وأن هجومها على الثوار سيتواصل وأن الحرب ضدهم لن تنتهي إلا بعد إعادة السلم العام.

وللتمكن من ضرب الثورة الجزائرية والقضاء عليها وعلى القائمين بها، لجأت السلطات الفرنسية إلى تعزيز قوات الجيش الفرنسي في الجزائر، عن طريق مضاعفة عدد الجنود والضباط الفرنسيين، الشيء الذي جعل هذه القوات ترتفع من 80،000 جندي وضابط في بداية 1955م إلى 190،000 جندي وضابط خلال نفس السنة، وبالإضافة إلى ذلك فإنها قد قامت بإجراء عسكري اخر، يتمثل في إرسال الفيالق وتوزيع السلاح على المستوطنين الأوروبيين المقيمين في القرى البعيدة عن المراكز العسكرية.

غير أن الشيء الذي ينبغي الإشارة إليه هو أن عمليات 20 أوت 1955م قد أثرت في القوات العسكرية الفرنسية نفسها، حيث انتشرت بين الأفراد المجندين روح التمرد والعصيان ضد قرار تعزيز القوات العسكرية الفرنسية لمواجهة جبهة التحرير الوطني والشعب المساند لها، فقد تمرد أكثر من 400 جندي فرنسي . في القوات الجوية . في محطة ليون بفرنسا، ورفضوا الذهاب إلى الجزائر لأداء الخدمة العسكرية، ولتحاشي أي حادث تقرر إعادة الجنود إلى ثكناتهم، كما تمرد أكثر من 200 جندي من فرقة المدفعية رقم 401 وتظاهروا في كنيسة سان سيفيران، وقاموا بتوزيع منشورات عبروا فيها عن قلقهم وخجلهم من استخدامهم بالقوة في قضية ليست في صالح الفرنسيين[1].

ب . أساليب القمع الوحشية التي استخدمتها فرنسا:

لقد عمد المسؤولون العسكريون الفرنسيون في الجزائر عقب تلك الهجومات، إلى استعمال أساليب وحشية جهنمية، وإلى توظيف سلوكيات عنيفة لا مسؤولة، تمثلت في اضطهاد المسلمين الجزائريين والانتقام منهم دون تفريق بين الكبار والصغار، وبين النساء والرجال، فقد أشعلوا النار في كل مكان، ونشروا الموت في المناطق كافة، باختصار لقد كان انتقام القوات العسكرية الفرنسية من الثورة والقائمين بها في المنطقة الثانية شديداً،

---

(1) المصدر نفسه ص 230.

فقد قامت بمجازر رهيبة واسعة النطاق، كما مارست أقسى أنواع التعذيب والتنكيل والإبادة الجماعية على سكان القرى والمشاتي والمدن التي وقعت بها هجومات 20 أوت 1955م.

ولم يكتف الضباط العسكريون الفرنسيون باستعمال تلك الأساليب اللاإنسانية، بل ذهب بهم حقدهم إلى أبعد من ذلك.. فقد أصبحوا يتفننون في تعذيب الشعب الجزائري إلى درجة فاقت النازيين في حد ذاتهم، حيث يقول أحد الضباط الفرنسيين في هذا الشأن: لقد كان الألمان في أساليبهم غلمان صغار بجانبنا[1].

كان الانتقام في كل المدن والقرى بالشمال القسنطيني شديداً، فبمجرد أن وقع هجوم 20 أوت 1955م الذي فاجأ وأذهل كل الأوساط الفرنسية ؛ أسرع المستوطنون الأوروبيون إلى تنظيم أنفسهم على هيئة حرس غير نظامي، وفتكوا بسكان المنطقة الثانية معتمدين في ذلك على سياسة الإبادة الجماعية، والقضاء على الحيوانات وإحراق القرى والمداشير، فأعادوا إلى الأذهان ذكرى مذبحة 8 ماي 1945م، ففي وادي زناتي مثلاً كانت الإبادة جماعية، فقد امتلأت شوارع وطرقات هذه المدينة بجثث القتلى، التي كان الفرنسيون يجبرون الجزائريين على جمعها ودفنها لكي يعدَموا هُم بدورهم بعد ذلك.

وفي مدينة سكيكدة يكفي ذكر تلك الإبادة الجماعية التي ارتكبتها القوات الفرنسية بالملعب البلدي للمدينة، والتي ذهب ضحيتها 1،500 مواطن، لأخذ فكرة واضحة عن شراسة وهمجية أولئك الذين يدعون الحضارة والتمدن، وفي مدينة القل السياحية قامت القوات العسكرية الجوية الفرنسية بقنبلة القرى والمشاتي وتدمير المنازل، أما في مشنة الزفران بضواحي سكيكدة فقد قتلت القوات الفرنسية ما لا يقل عن 3،500 مواطن جزائري، كما استعملت القوات الجوية لحرق المزارع والبحث عن المجاهدين في الجبال والغابات، وتضاف إلى كل هذه المجازر الرهيبة تلك الاعتقالات العشوائية التي لم ينج منها أي جزائري، والزج بالمعتقلين في المعسكرات المزدحمة بالمساجين وإعدامهم في غالب الأحيان بدون أية محاكمة.

وباختصار لقد أصبحت الحالة السائدة في الجزائر انذاك يسودها قانون الإرهاب أو إرهاب من غير قانون[2].

كل الأساليب الوحشية المستعملة قد أدت إلى نشر الوعي بين أفراد الشعب الجزائري، الذين أدركوا أكثر من أي وقت مضى، أن الطريق الوحيد للتخلص من الاحتلال الفرنسي هو مواصلة الكفاح المسلح ضده، فغادر سكان المنطقة الثانية المدن والقرى والمشاتي والتجؤوا إلى جبالها للوقوف بجانب الثوار.

ومن جهة أخرى فقد أدت تلك الأساليب إلى وضوح الرؤيا لدى الصحافة الفرنسية، التي اعترفت عقب هجمات 20 أوت 1955م ببشاعة وهمجية القوات الفرنسية، ونقلت تلك المجازر والإبادة الجماعية لإطلاع الرأي العام الفرنسي بما ترتكبه القوات الفرنسية في الجزائر.

---

(1) المصدر نفسه ص 231، ضد التعذيب في الجزائر، ترجمة بهيج شعبان ص 51 سنة 1957م بيير هنري

(2) التنظيم السياسي والإدراي للثورة ص 232.

وأما الصحافة الإنجليزية فقد علقت على الإعدامات التي تقوم بها السلطات العسكرية الفرنسية في الجزائر بقولها: متوسط عدد القتلى الجزائريين منذ 1954م زاد على 200 قتيل في الشهر، وأما في سنة 1956م فقد وصل المتوسط إلى 1400 قتيل في الشهر[(1)].

ج. إنشاء الأقسام الإدارية المتخصصة « S.A.S »:

لقد تقرر في 26 ديسمبر 1955م عقب هجوم 20 أوت 1955م إنشاء أقسام إدارية متخصصة « S.A.S » بكل أنحاء القطر الجزائري، وهي عبارة عن مكاتب متخصصة في إدارة وتسيير شؤون الجزائريين بالأرياف الجزائرية، وقد تم استقدام ضباط عسكريين فرنسيين لتولي إدارتها، وذلك نظراً لما اكتسبوه من خبرة في المغرب الأقصى، الذي لا يختلف مجتمعه عن المجتمع الجزائري من حيث العادات والتقاليد واللغة، فقد تنقلوا في الأرياف وتدربوا فيها واطلعوا على حياة سكانها ودرسوا عاداتهم وتقاليدهم وتعلموا لغتهم، فأصبح الاتصال بهم والتعامل معهم أمراً سهلاً.

ويتمثل الدور الأساسي لهذه الأقسام في الاحتكاك بالمسلمين الجزائريين في الريف، والتقرب منهم بهدف الحصول على معلومات منهم حول الثورة والثوار، تخدم القوات العسكرية الفرنسية وتمكنهم من القضاء عليها، وذلك مقابل خدمات اجتماعية تقدم إليهم في شكل توفير العمل والغذاء والتعليم قصد تحسين مستوى معيشتهم، وهي محاولة استعمارية لتطويق الثورة وعزلها عن الشعب،وكذلك اختراق وتصفية وتدمير جيش التحرير الوطني[(2)].

د. الإجراءات السياسية الإدارية:

فهجومات 20 أوت 1955م جعلت الحاكم العام بالجزائر يدرك خطورة الوضع السياسي الذي أصبح يهدد الجمهورية الفرنسية الرابعة، وهذا ما جعله يلتجأئ في شهر سبتمبر 1955م إلى تحضير مشروع لإحداث إصلاحات سياسية إدارية في الجزائر،وقدمه للمجلس الجزائري للموافقة عليه، وكان جاك سوستال قد ركز في ذلك المشروع على دمج الجزائر في فرنسا وإلحاقها بها وجعلها جزءاً لا يتجزأ من التراب الفرنسي، وذلك عن طريق التطبيق الفعلي لقانون 20 سبتمبر 1947م.

وكان جاك سوستال يعتقد أن إحداث بعض الإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية، ومنح الجزائريين بعض الحقوق السياسية والإدارية، سيكون كافياً لعزل الثورة والقائمين بها عن الشعب، وبالتالي القضاء عليها نهائياً، ومما تجدر الإشارة إليه أن جاك سوستال عند وضعه لبرنامجه الإصلاحي، قد كان اعتماده كبيراً على تلك المجموعة من النواب الممثلين للمسلمين الجزائريين بالمجلس الجزائري، أطلق عليها مجموعة المعتدلين أو مجموعة المثقفين المتنورين، غير أن جاك سوستال كان يجهل تماماً بأن جبهة التحرير الوطني قد جعلت إنذارات شديدة

(1) المصدر نفسه ص 234.

(2) المصدر نفسه ص 234.

اللهجة لهذه الإطارات المثقفة والمتنورة، وذلك عن طريق المناضلين «عبان رمضان وبن خدة»، وكانت تلك الإنذارات تتمثل في الاتصالات الشخصية وتوزيع المناشير والمراسلات التهديدية، الخ..

وهكذا فبعد تلك الإنذارات، وبعد قتل وجرح كل من يتقرب من فرنسا، أو يبدي رغبته في التعاون معها ؛ قرر المنتخبون من المسلمين الجزائريين عشية انعقاد دورة المجلس الجزائري تكثيف التشاور فيما بينهم، وانتهوا إلى تحرير وثيقة أصدروها في شكل لائحة، أصبحت فيما بعد «لائحة مجموعة الواحد والستين».

وكانت اللائحة التي صيغت في 26 سبتمبر 1955م قد تمحورت حول ما يلي:

. وقف العلميات العسكرية.

. إلغاء قانون حالة الطوارأئ ومبدأ المسؤولية الجماعية.

. إطلاق سراح المساجين.

. التفاوض مع المحاربين.

. التنديد بسياسة الإدماج التي تجاوزها الزمن.

وأهم ما جاء فيها هو الاعتراف بأن جبهة التحرير الوطني هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري، وبذلك تكون هذه اللائحة قد جاءت لتضفي الطابع الوطني على القضية الجزائرية.

إن سياسة الإدماج التي بقي جاك سوستال يدعو إليها ويدافع عنها قد تجاوزت الزمن، وفشل في مشروعه وتحطمت معنوياته في تطبيق سياسة الإدماج، واتخذ رئيس الحكومة الفرنسية ادقار فور بتاريخ 2 ديسمبر 1955م قراراً لحل المجلس الوطني الفرنسي ونتج عنه حل المجلس الجزائري، وتدهورت العلاقات السياسية بين رئيس الحكومة الفرنسية ادقار فور والحاكم العام بالجزائر جاك سوستال[1].

5 . سقوط حكومة «ادقار فور»:

أما الضربة القاضية التي ستؤدي إلى الانهيار التام لسياسة جاك سوستال، فقد كانت يوم 2 جانفي 1956م، عندما قرر ادقار فور إجراء الانتخابات التشريعية، وكان جاك سوستال قد عارض ذلك القرار بشدة، وقرر في النهاية عدم إجراء تلك الانتخابات في الجزائر في التاريخ المحدد وبالتالي تم تأجيلها، والسبب الحقيقي في ذلك هو تخوف جاك سوستال من انتقام المسلمين الجزائريين من سياسته التي تقوم على أساس دمج الجزائر في فرنسا والتصويت على قائمة الذين يؤيدون جبهة التحرير الوطني ويطالبون بالاستقلال الوطني وفصل الجزائر عن فرنسا.

غير أن نتائج تلك الانتخابات قد جاءت مخيبة لامال ادقار فور وجاك سوستال معاً، فقد فاز الحزب الاشتراكي بزعامة غي مولي، وفي 31 جانفي 1956م حصل غي مولي على التزكية من طرف البرلمان الفرنسي ليصبح رئيساً للحكومة الفرنسية، ويكلف بتشكيل حكومته الجديدة، وبذلك سقطت حكومة ادقار فور

(1) المصدر نفسه ص 238.

وتسلم السلطة على إثرها الاشتراكيون بزعامة غي مولي، الذي قام فور توليه لمنصبه بإقالة جاك سوستال من منصب الحاكم العام للجزائر وتعيين الجنرال كاترو، بدله، وفي 6 فيفري 1956م قرر القيام بزيارة رسمية إلى الجزائر ليتولى هو بنفسه تنصيب الحاكم العام الجديد في الجزائر الجنرال كاترو، غير أن تلك الزيارة لم تكن موفقة، حيث استقبله المستوطنون الأوروبيون بمظاهرات عدائية عارمة أجبرته على التخلي بسرعة عن فكرة تعيين كاترو[1]، وقرر تعيين روبير لاكوست وزيراً جديداً مقيماً بالجزائر بدل الجنرال كاترو، وقدم لاكوست إلى الجزائر في 10 فيفري 1956م لتولي مهامه وتنصيبه من طرف رئيس الحكومة الفرنسية «غي مولي» قبل مغادرته للجزائر في اليوم نفسه[2].

ومن الجدير بالملاحظة أن هناك من المؤرخين الفرنسيين من يصف يوم 6 فيفري 1956م بأنه يعتبر يوم استسلام وانقلاب خطير في تاريخ الحرب بين الجزائر وفرنسا[3].

ويلاحظ أن هذه التجربة التي عاشها «غي مولي» قد غيرت اراءه وسياسته تغييراً جذرياً، فبعد أن ساد فرنسا والجزائر شعور عام بأن «غي مولي» سينتهج سياسة مصالحة بين المستوطنين الأوروبيين والمسلمين الجزائريين في الجزائر، والقيام بالتسوية السلمية بينهم .كما وعدهم بذلك خلال الحملة الانتخابية الفرنسية . غيّر الرجل موقفه وتراجع عن تنفيذ تلك الوعود، وألقى خطاباً يُطمئن فيه المستوطنين الأوروبيين الذين قاموا بمظاهرات احتجاجية على زيارته للجزائر في 6 فيفري 1956م، قال لهم فيه: إن الحكومة ستحارب وإن فرنسا ستناضل من أجل بقائها في الجزائر وإنها ستبقى هناك، إن الجزائر لا مستقبل لها بدون فرنسا[4].

ويعتبر ذلك التحول المفاجئ في سياسة رئيس الحكومة الاشتراكي «غي مولي» بداية عهد جديد، التحم فيه الفرنسيون . يساريون ويمينيون . صفاً واحداً ضد الجزائر، معتقدين بذلك أن القضاء على الثورة الجزائرية قد أصبح أمراً ميسوراً.

أما جبهة التحرير الوطني، فقد أصيبت بخيبة أمل إثر ذلك التغيير الجذري المفاجئ في سياسة رئيس الحكومة الفرنسية الاشتراكي «غي مولي»، ووجهت نداء شديد اللهجة إلى أولئك الوطنيين المترددين المنتمين إلى التشكيلات السياسية الوطنية الأخرى، تحثهم فيه على الالتحاق بصفوفها، ونزع الثقة بصفة نهائية من السلطات الفرنسية التي تخلف وعودها في كل مرة، وعزم جبهة التحرير الوطني على مواصلة الكفاح المسلح، وبدأت تفكر بعمق في هيكلة نفسها وتنظيم شؤونها[5].

(1) المصدر نفسه ص 239.
(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 339.
(3) المصدر نفسه ص 239.
(4) العمال الجزائريون في فرنسا، د . عمار بوحوش ص 118.
(5) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 240.

وبعد أن يئس القادة البارزون للتشكيلات السياسية الوطنية من السلطات الفرنسية ووعودها الكاذبة، وبعد أن أصبح الموت يهددهم من كل جانب[1]، وخاصة بعد الانتصار الملحوظ الذي حققته جبهة التحرير على الصعيدين الوطني والدولي بعد هجوم 20 أوت 1955م، وجدوا أنفسهم مجبرين على الاستجابة لنداءات جبهة التحرير الوطني المتعددة والمتكررة، فأعلنوا عن حل تلك التشكيلات والانضمام الرسمي إلى جبهة التحرير الوطني[2].

وهكذا يكون أكبر نتيجة قد حققها هجوم 20 أوت 1955م، هي توحيد جميع الاتجاهات الهامة داخل جبهة التحرير الوطني، مما جعلها تنتعش من جديد وتسترجع أنفاسها لمواصلة الكفاح المسلح، وتحقيق نتائج إيجابية على جميع الأصعدة والرفع من مكانتها الدولية.

وخلاصة القول من كل ما تقدم: أن المرحلة الممتدة من أول نوفمبر 1954م إلى غاية فيفري 1956م، تشكل مرحلة هامة في تاريخ الاحتلال الفرنسي للجزائر، فقد كانت هذه المرحلة مرحلة متغيرة وحاسمة جداً، حيث انعكست اثارها على التنظيم السياسي والإداري في الجزائر كما تبين فيما مضى، والعامل الجوهري والأساسي في كل ذلك هو: اندفاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م في المنطقة الأولى، ثم هجوم 20 أوت 1955م في المنطقة الثانية.

ففي الوقت الذي كانت جبهة التحرير الوطني تسعى إلى تعميم الثورة ونشرها في كل مكان، وكانت السلطات الفرنسية تعمل كل ما بوسعها من أجل تدمير التنظيم الثوري وإبادة القائمين به، ولكنها كانت في نفس الوقت وكعادتها دائماً، تحاول إدخال إصلاحات سياسية ـ إدارية جزئية حتى تمتص غضب الشعب الثائر، غير أن المشكلة العويصة التي كانت تواجهها في كل مرة هي: كيف يمكن إشراك المسلمين الجزائريين في تحمل بعض المسؤوليات السياسية الإدارية دون إثارة غضب وسخط المستوطنين الأوروبيين.

إن السلطات الفرنسية لم تعد تركز ـ بعد هجوم 20 أوت 1955م وامتداد الثورة إلى كل مناطق الجزائر ـ على الإصلاحات السياسية الإدارية ـ كالسابق ـ لقد أصبح شغلها الشاغل هو اتخاذ إجراءات عسكرية للقضاء على الثورة والقائمين بها، حتى لا تمتد إلى المناطق الأخرى بعد امتدادها الواسع في المنطقتين الأولى والثانية.

وأما جبهة التحرير الوطني، فقد أصبح شغلها الشاغل بعد تلك الانتصارات التي حققتها عقب هجوم 20 أوت 1955م ـ خاصة بعد الانضمام الرسمي والفعلي لمناضلي التشكيلات السياسية الوطنية الأخرى إليها ـ هو التركيز على التنظيم العسكري والسياسي للثورة وهيكلتها[3].

(1) المصدر نفسه ص 240.

(2) المصدر نفسه ص 241.

(3) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 243.

❋ ❋ ❋

سابعاً: مؤتمر الصومام

بعد مرور حوالي سنتين على اندلاع ثورة الفاتح من نوفمبر 1954م، وبعد أن تمكنت الثورة من أن تتوسع توسعاً قوياً، بات من الضروري تحديد استراتيجية سياسية عسكرية عامة لجبهة التحرير الوطني، تهدف إلى وضع تنظيم سياسي إداري وعسكري يعبر عن امال الشعب وطموحاته، ويزيل الاغتراب السياسي الإداري الذي عانى منه الشعب الجزائري طيلة قرن وربع قرن من الزمن. غير أن السؤال الذي يطرح نفسه هنا بإلحاح شديد هو:

ما هو التنظيم السياسي الإداري الذي أنشأته جبهة التحرير الوطني؟

ثم متى ابتدأ هذا التنظيم بصفة فعلية؟

وماذا كان موقف السلطات الفرنسية من ذلك التنظيم[1]؟

بعد محاولات ومساع واتصالات عديدة، تم عقد أول مؤتمر وطني للجبهة في 20 أوت 1956م بوادي الصومام ببلاد القبائل حيث مركز الولاية الثالثة، واجتمعوا تحت خطر عظيم واخترقوا صفوف الأعداء الساهرين، وكان مع القادة الكرام عدد من كتابهم ومعينيهم، فاشتغلوا بهمة ونشاط ودون انقطاع عدداً من الأيام، وأخرجوا الثورة الجزائرية منذ ذلك اليوم من عهد يمكن أن يوصف بشيء من الارتباك في القيادة والاضطراب في السياسة، إلى عهد نظام واستقرار ووحدة وتحديد مسؤولية، ولا أعرف ثورة تمكنت من إحداث ذلك النظام وإقرار تلك المسؤولية وتحديد تلك الأهداف ؛ كما نجحت الثورة الجزائرية العملاقة بذلك المؤتمر الصغير في حجمه العظيم بأعماله.

من تلك الساعة أصبح الناس يعرفون من المسؤول؟ وخضع الجميع لسلطة مركزية واحدة تأمر فتطاع، وتحددت مناطق النفوذ ومناطق القيادات. ومنذ تلك الساعة تعين المسؤولون رسمياً عن الولايات الجزائرية الحربية الست، وأعلنوا جميعاً في نظام وانقياد خضوعهم لتلك المقررات، وتزاحمهم على تحقيقها منذ تلك الساعة.

لقد وضحت معالم الطريق، وتعين المسؤولون عن السلاح وعن حمله وعن تبليغه لمراكز التموين العسكري، وأصبحت للثورة قيادة عسكرية واحدة هي المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وأصبحت لها هيئة عليا تنفيذية واحدة: هي لجنة التنسيق والتنفيذ، منذ تلك الساعة أنشأ جيش التحرير الوطني الجزائري جيشاً واحداً منظماً مدرباً منقاداً، له نظامه المحكم، وله ألقابه الرسمية، وله مخصصاته[2]،{وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ } وقد ذكر الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاح» النص الرسمي لمحضر جلسات مؤتمر الصومام، بعثت به لجنة التنسيق والتنفيذ إلى قيادة جبهة التحرير بالقاهرة.

جبهة التحرير الوطني الجزائري محضر جلسة الاجتماع الذي عقده المسؤولون عن عمالات وهران والجزائر وقسنطينة، في 20 أوت 1956م.

---

(1) المصدر نفسه ص 300.

(2) حياة كفاح (333/3)، أحمد توفيق المدني.

. الأعضاء الحاضرون:

. ابن مهيدي عن وهران: رئيس الجلسة.

. أوعمران: عن منطقة الجزائر.

. كريم: عن منطقة القبائل.

. زيغود: عن شمال قسنطينة.

. ابن طبال: نائب زيغود.

. الأعضاء الغائبون:

ابن بوليعد مصطفى: شمال الأوراس.

سي الشريف: شمال الجنوب «معذور» بعد أن وجه تقريره إلى المؤتمر.

أ . شرح الأسباب التي دعت إلى الاجتماع وموضوع الاجتماع.

ب . تقديم التقارير.

. تقرير نظامي: عن كيفية التقسيم والهيكل العام للجيش.

. تقرير عسكري: عدد المجاهدين والمناضلين، الوحدات ونظام تركيبها، الأسلحة.

. تقرير عن المالية: الداخل، المصاريف، المتبقي في الصندوق.

. تقرير سياسي: عن معنويات المجاهدين والشعب.

. القاعدة السياسية والنشريات الثلاثة:

. التوحيد:

أ . توحيد النظام في تقسيم المناطق، وتعيين مراكز القيادات المحلية، وإجراء تغيرات على القيادات.

ب . توحيد عسكري: في الوحدات والرتب العسكرية والنياشين والأوسمة في المرتبات العائلية.

ج . توحيد سياسي: المرشدون السياسيون ومهماتهم.

د . توحيد إداري: مجلس الشعب.

هـ جبهة التحرير الوطني:

المذهب والقانون الأساسي والنظام الداخلي، والبيئات والسيرة، مجلس الثورة، لجنة التنسيق والتنفيذ، اللجان.

و . جيش التحرير الوطني:

الألفاظ المستعملة «المجاهد، المسبل، الفدائي»، المرحلة الحاضرة، توسيع الهجومات والإكثار من العمليات.

ز . العلاقة بين جبهة التحرير وجيش التحرير.

ح . العلاقة بين الداخل والخارج، وخصوصاً تونس والمغرب وفرنسا.

. العتاد.

ط. نظام العمل سياسياً وعسكرياً، وسائله المادية، إيقاف القتال، المفاوضات، هيئة الأمم المتحدة والحكومة المؤقتة.

ي. مواضيع مختلفة: الأوراس، القبائل، وما عداها.

. افتتحت الجلسة على الساعة الثامنة.

. الأسباب التي دعت إلى الاجتماع، والمواضيع التي تدرس في الاجتماع، شرحها ابن مهيدي وعبان.

. التقارير:

. المنطقة رقم 2: قدمت تقريراً مكتوباً قرأه زيغود.

ملاحظات: لا يوجد بالتقرير ذكر عدد المناضلين داخل الجبهة، عدد الأسلحة الحربية «انظر ملخص التقرير في الختام».

. المنطقة رقم 3: تقرير شفهي قدمه كريم، وهذه المنطقة تشتمل على القبائل العليا والسفلى، وعلى القبائل الصغرى، وهي مقسمة إلى ثلاث مناطق صغيرة، تنقسم بدورها إلى عشر نواحي، والنواحي منقسمة إلى ثلاثين قسماً:

في فاتح نوفمبر 1954م كان بالمنطقة 450 مجاهداً، في الصندوق مائة ألف فرنك.

والان يوجد بالمنطقة:

. المناضلون داخل الجبهة عددهم: 87،044.

. المسبلون عددهم: 7،470.

. المجاهدون عددهم: 3،100.

الوحدات العسكرية:

«الفوج» يقوده عريف يتركب من عشرة إلى عشرين جندياً، وثلاثة أفواج تكوّن فرقة يقودها مساعد.

حدود المنطقة رقم «3»

جيجل، سطيف، برج بوعريريج، مسيلة، سور الغزلان، عين بسام، بالسترو، منرفيل، والبحر الأبيض المتوسط.

السلاح: 404 بنادق حربية، 106 رشاشات، 8 بنادق رشاشة، 4 بنادق رشاشة، 4،425 بندقية صيد.

ملاحظات:

المالية: بالصندوق 445 مليوناً، والان تبلغ المداخيل الشهرية، معدل 110 ملايين، والمصاريف الشهرية تبلغ معدل 55 مليون، فيتبقى كل شهر 55 مليون.

معنويات المجاهد والشعب: قوية جداً، ولكن الناس كلهم يلاحظون لنا دائماً، وبصفة ملحة، نقص الأسلحة، إن الشعب متضامن معنا، وهو مستعد للمشاركة في نفير عام إذا لزم الحال.

مسألة حركة أو رابح، وإعلان الولاء من جانب سكان دوار أريش وذراع الميزان أما حركة أو رابح فهي مشكلة في طريق الحل، أما دوار أريش فهو دوار مصالي، وقد طهرته جيوشنا، وقسم من هذا الدوار طلبت بالفعل

حماية فرنسا، أما دوار نسليوية «ذراع الميزان» فهو دوار عرف دائماً بضعف عواطفه الوطنية، ولم يعمل جيوشنا هنا أي إرهاب لأن هذا الدوار لم يدخل مطلقاً.

. المنطقة رقم 4: قدمت تقريراً مكتوباً قرأه أوعمران في فاتح نوفمبر 1954م كان هناك خمسون مجاهداً، والان يبلغ عدد المناضلين داخل الجبهة أربعين ألفاً.

والمسبلون يبلغ عددهم ألفين.

المجاهدون عددهم ألف.

هذا ويلاحظ أن المناضلين والمجاهدين والمسبلين، في نواحي برواقية، ومدية، وشايلان، وبوقاري، وثنية الحد، ومليانة، وتنس، والأصنام، وشرشال، ليسوا داخلين في الأعداد المذكورة أعلاه.

السلاح: خمس بنادق رشاشة منها بندقية بار، مائة بندقية حربية، 80 رشاشة، 300 بيستولي، 500،1 بندقية صيد.

المالية: بالصندوق مائة مليون فرنك، تدخل فيها العاصمة.

المنطقة رقم 5: تقرير شفاهي قدمه ابن مهيدي.

ملاحظة: فارق ابن مهيدي المنطقة في فاتح ماي 1956م.

حدود المنطقة: عمالة وهران،وبها ست نواحي، مغنية، الغزوات، وهران، مستغانم، معسكر، الجنوب «كولمب بشار».

في فاتح نوفمبر 1954م، كان هناك ستون مجاهداً منهم خمسون بين قتيل وجريح وأسير.

المالية، في فاتح نوفمبر 1954م كان في الصندوق 000،80 فرنك، وعدد المجاهدين في الاندلا ع الثاني في أول أكتوبر 1955م 500 مجاهد، 500 مسبل، وفي فاتح ماي 1956م كانت هناك 50 بندقية رشاشة، 165 رشاشة، 400،1 بندقية حربية، مائة مسدس، ألف بندقية صيد.

المالية: إلى فاتح ماي 1956م «35 مليون من الفرنكات»، منها 25 مليون في الخارج «الريف».

معنويات المجاهد والشعب: قوية جداً، والعلاقات بين الجيش الجبهة وبين الشعب حسنة للغاية، وسوف يطلب من منطقة وهران أن تقدم تقريراً أكثر دقة عن الحالة الحاضرة.

المنطقة رقم 6: تقرير شفاهي قدمه أوعمران، عوض سي الشريف، هذه المنطقة تكونت حديثاً وهي تشمل على الجهات الواقعة في أحواز سور الغزلان، سيدي عيسى، عين بوسيف شلالة، وهذه النواحي بلغتها فرقتنا، أما أحواز الجلفة والأغواط ومزاب، أقصى الجنوب فلم تدخلها جيوشنا بعد[1].

والان يوجد بهذه المنطقة 300 مجاهد، مائة مسبل، خمسة الاف مناضل داخل الجبهة.

السلاح: مائة بندقية حربية، بندقية رشاشة واحدة، عشر رشاشات، 50 بيستولي، مائة بندقية صيد.

المالية: عشرة ملايين أعطيت للمنطقة رقم 4.

---

(1) حياة كفاح (340/3).

القاعدة السياسية، والنشريات الثلاثة: قرأ الحاضرون هذه الوثائق، وانتقدوها وناقشوها.

التوحيد:

أ. توحيد النظام: تقسيم المناطق:

المنطقة الأولى: الأوراس النمامشة، وحدودها من الشمال: مداوروش سدراته، القرزي، سطيف، من الجنوب: الصحراء القسنطينية، من الغرب: البرج، المسيلة بوسعادة، واد جلال، من الشرق: الحدود التونسية.

المنطقة الثانية: منطقة الشمال القسنطيني: وحدودها من الشمال: من القالة إلى سوق الاثنين، من الجنوب: سطيف، طريق الجزائر قسنطينة إلى القرزي، ثم تمتد حتى الحدود التونسية، مارة بسقوس وسدراته، ومداوروش، ومن الناحية الغربية: سطيف، خراطة، سوق الاثنين، ومن الناحية الشرقية: الحدود التونسية.

المنطقة الثالثة: القبائل.

حدود المنطقة: من الشمال: سوق الاثنين، كوربي مارين، من الجنوب: خط السكة الحديدية الواصل بين قسنطينة والجزائر إلى سطيف، ثم تمتد إلى البرج، والمسيلة، وعين الحجل، وسور الغزلان، وعين بسام، وبالسترو، ومن الغرب: كوربي مارين، منرفيل، ومن الشرق: سطيف خراطة، سوق الاثنين.

المنطقة الرابعة عمالة الجزائر: حدودها من الشمال: كوربي مارين تنس، من الجنوب بويرة، عين بسام، بئر غبال، برواقية، بوقاري، تيارت، ومن الغرب: حدود عمالة وهران، ومن الناحية الشرقية: منرفيل، بالسترو، تيير، بويرة، عين بسام.

ملاحظة: العاصمة ودوائر حسين داي والروبية، والأبيار، وبوزريعة، بيير مندريس، وسانت أوجين، ليست تابعة للمنطقة رقم 3، وإنما تؤلف منطقة مستقلة.

المنطقة الخامسة: عمالة وهران، حدودها: عمالة وهران.

المنطقة السادسة: جنوب عمالة الجزائر، وحدودها من الشمال: بيردو، وبوقاري، وبرواقية، بئر غبالو، عين بسام، ومن الناحية الأخرى بل النواحي: الصحراء الجزائرية.

تنبيه: مدينة سطيف تابعة رقم 3 القبائل، ولكن منظمة هذه المدينة يجب أن تبذل مجهوداتها لتسهل المهمة، وتعيين المنطقتين رقم 1، 2.

وابتداءً من هذا اليوم تغير لفظة المنطقة، وتستعمل مكانها كلمة «ولاية» والناحية تصير منطقة، والقسم يصير ناحية.

مراكز القيادة: لما كان مبدأنا هو الإدارة الجماعية فيجب على جميع منطقتنا اتباعه بصفة مدققة، ومركز القيادة مركب من القائد «وله صفتان عسكرية وسياسية»، والقائد يمثل السلطة المركزية لجبهة التحرير الوطني يحيط به نواب ومعينون يعتبرون ضباطاً وعددهم ثلاثة، ويعتنون بالفروع التالية:

الفرع العسكري، والفرع السياسي، وفرع الاستعمالات والاتصالات.

وتوجد مراكز قيادة للولاية، وللمنطقة، وللناحية، وللقسم.

النقلة: تصدر بأمر الهيئة التي تكون أعلى علواً مباشراً من الهيئة التي ينتسب إليها المأمور، وقد قبل مبدأ التغيير والنقلة في جميع الدرجات والرتب.

ب . التوحيد العسكري:

الفوج: يتركب من أحد عشر جندياً من بينهم عريف واحد، وجنديان أولان، ونصف الفوج يشتمل على خمسة جنود من بينهم جندي أول.

الفرقة: تتركب من خمسة وثلاثين رجلاً، ثلاثة أفواج مع رئيس الفرقة ونائبه.

الكتيبة: تشمل على 110 من الرجال، ثلاث فرق مع خمسة إطارات.

الفيلق: يشتمل على 350 رجلاً، ثلاث كتائب مع عشرين إطاراً.

الرتب العسكرية: الرتب العسكرية المستعملة في القبائل أقرت وهي:

الجندي الأول: «كابران» وشعارها على شكل ثمانية أحمر اللون، يوضع على الذراع الأيمن.

العريف: «سارجان» اثنان على شكل 8 أحمران[1].

العريف ألاول: «سارجان شاف» ثلاث، 8 أحمر.

المساعد: «أجودان» شعار رتبته على شكل 7 تحته خط أبيض.

ملازم: شعار رتبته نجمة بيضاء.

ملازم ثان: «سوليوطنان» نجمة حمراء.

ضابط أول: «اليوطنان» نجمة حمراء ونجمة بيضاء،

ضابط ثاني: «كبتان» نجمتان حمروان.

صاغ أول: «كوموندان» نجمتان حمراوان ونجمة بيضاء.

صاغ ثاني: «كولونيل» ثلاث نجوم حمر.

قائد الولاية: يكون برتبة كولونيل أي صاغ ثان، ونوابه الثلاثة يكونون برتبة صاغ أول.

قائد المنطقة: يكون برتبة ضابط ثان، ونوابه الثلاثة ضابط أول.

قائد الناحية: يكون برتبة ملازم ثان، ونوابه الثلاثة برتبة ملازم.

قائد قسم: يكون برتبة مساعد، ونوابه الثلاثة برتبة العريف الأول.

تنبيه: الكوميسارات السياسيون، تكون لهم نفس الرتب العسكرية، التي تكون لضباط الهيئة التي يكونون تابعين لها.

الشعار: نجمة وهلال أحمر، ذلك الشعار الذي يوضع على غطاء الرأس «تصنعه كل ولاية».

علامات الرتب: «القالوات» الولاية رقم ثلاثة.

الأوسمة: لجنة التنسيق والتنفيذ، كلفت بدراسة هذه المسألة.

---

(1) على صورة 8 بالشكل الهندي القديم.

تنبيه: كل هذه الرتب العسكرية مؤقتة، فبعد استقلال الوطن، سوف تتكلف لجنة عسكرية بدراسة كل حالة، وتوضع كل من له رتبة عسكرية في مكانه في الجيش الوطني.

رتبة الجنرال لا توجد إلا بعد أن تتحرر البلاد.

تعيين الضباط ونزع الرتبة من اختصاصات لجنة التنسيق والتنفيذ بعد اقتراحات قادة الولاية، ونواب الضباط يعينون أو تنتزع رتبتهم بأمر من قائد الولاية.

تعيين الجندي الأول، ونزع رتبته يكون بأمر قائد المنطقة.

المرتبات والمنح العائلية:

كل مجاهد يقبض مرتباً حسب السلم الاتي:

الجندي1،000 فرنك في الشهر

الجندي الأول1،200

العريف1،500

العريف الأول1،800

المساعد2،000

الملازم2،500

الملازم الثاني3،000

الضابط الأول3،500

الضابط الثاني4،000

الصاغ الأول4،500

الصاغ الثاني5،000

الممرضون والممرضات يتبعون العريف، إذن فمرتبهم 1،500 فرنك شهرياً، والأطباء المساعدون يتبعون الملازم فمرتبهم 2،500 فرنك شهرياً، أما الأطباء فهم تابعون للضباط الأول فيقبضون إذن 3،500، وكل ما يحتاجه الجندي من غذاء ولباس يتكلف به الجيش، ماعدا شؤون النظافة من صابون وغيره فإن المجاهد هو الذي يتكلف بشرائها.

المنح العائلية: كل مجاهد وراءه عائلة يطالب بالإنفاق عليها، تعطى له منحة شهرية، ولكن تجب دعوة وطنية كل أحد، حتى لا تمس أموال الثورة، وسوف تعطى التعليمات إلى رؤساء الفرق، والكوميسارات السياسيين فيما يخص هذا الموضوع.

والمسبلون تجري إعانتهم على نفس القاعدة التي يعان عليها المجاهدون، وذلك عندما يقومون بعمل دائم أي: ثلاثين يوم في الشهر، يعطى لهم نصف المنحة عندما يعملون خمسة عشر يوماً في الشهر، وربع المنحة إذا عملوا أسبوعاً في الشهر، والأسرى وعائلات الشهداء سوف تبذل لهم نفس الإعانات التي تمنح للمجاهد.

المنحة لسكان القرى: ألفا فرنك قارة مع زيادة ألفين لكل شخص «في الشهر».

لسكان المدن: خمسة الاف قارة مع زيادة ألفين لكل شخص. «في الشهر».

ج . التنظيم السياسي:

الكوميسارات السياسيون وشمولاتهم:

المهام الأساسية لكل كوميسار هي:

أولاً: تنظيم وتثقيف الشعب.

لا الدعاية والأخبار والتوجيه.

ثالثاً: الحرب النفسية «حرب الأعصاب»، العلاقة مع الشعب، العناية بالأقلية الأوروبية ومساجين الحرب، والكوميسارات السياسيون يعطون اراءهم في جميع برامج الأعمال العسكرية لجيش التحرير الوطني.

د . الأموال والتموين:

«انظر الدراسة رقم 2». مجالس الشعب سوف تشكل بواسطة الانتخابات، وسوف تتركب من خمسة أعضاء، من بينهم واحد رئيس. ومجالس الشعب هذه تنظر في القضايا العدلية والإسلامية والقضايا المالية والاقتصادية والشرطة.

هـ جبهة التحرير الوطني:

المبدأ، القانون الأساسي، والنظام الداخلي، والمنظمات المسيرة، مثل لجنة التنسيق والتنفيذ، والمجلس الوطني للثورة الجزائرية، واللجان.

المبدأ: انظر الوثائق.

القانون الأساسي والنظام الداخلي: تكلفت بتحريره لجنة التنسيق والتنفيذ.

المنظمات المسيرة:

أ . مجلس الثورة الجزائرية: ويتركب من 34 عضواً، 17 دائمون و17 مساعدون.

الرسميون:

1 . ابن بولعيد مصطفى.

2 . زيغود يوسف.

3 . كريم بلقاسم.

4 . أوعمران عمار.

5 . ابن مهيدي محمد العربي.

6 . بيطاط رابح.

7 . عبان رمضان.

8 . ابن يوسف بن خدة.

9 . عيسات أدير.

10 . بوضياف محمد.

11 . ايت أحمد حسين.

12 . خيضر محمد.

13 . ابن بلة أحمد.

14 . الأمين محمد.

15 . فرحات عباس.

16 . توفيق المدني.

17 . يزيد محمد.

الأعضاء المساعدون:

1 . نائب مصطفى بن بولعيد.

2 . ابن طبال الأخضر.

3 . محمدي السعيد.

4 . دحلس سليمان.

5 . بوالصوف عبد الحفيظ.

6 . ملاح علي.

7 . ابن يحيى «محمد».

8 . يحياوي محمد.

9 . مالك.

10 . دحلب سعد.

11 . الاتحاد العام للعمال الجزائريين.

12 . الاتحاد العام للطلاب الجزائريين.

13 . الونشي صالح.

14 . ثعالبي الطيب.

15 . مهري عبد الحميد.

16 . فرنسيس أحمد.

17 . سي إبراهيم «مزهودي».

تنبيه: لجنة التنسيق والتنفيذ هي التي تستدعي مجلس الثورة الجزائرية، عندما ترى ذلك ضرورياً، أو عندما يطلب نصف أعضائها مع واحد زيادة على النصف، لا يتم اجتماع مجلس الثورة إلا إذا حضر 12 عضواً، الدائمون أو المساعدون، ومبدئياً لا يجتمع مجلس الثورة إلا مرة في العام مدة وجود الحرب.

ب . لجنة التنسيق والتنفيذ:

تتركب من ابن خدة ابن يوسف، رمضان عبان، العربي ابن مهيدي، كريم بلقاسم، سعد دحلب، وإن كان هذا الأخير لا يزال بالسجن، فسوف يقع تعويضه نهائياً بمالك.

تنبيه: كل عضو من لجنة التنسيق والتنفيذ، أو نائب له تفويض من هذه اللجنة ؛ له السلطة الكافية لمراقبة نشاط كل منظماتنا في الداخل والخارج، ويلاحظ بدقة أن أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ لهم سلطة مراقبة المنظمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ..الخ..

وقادة الولايات يجب عليهم أن يقدموا قرارات عامة عن الوضعية السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية كل ثلاثة أشهر.

اللجان: لجنة التنسيق والتنفيذ مكلفة بإنشاء ومراقبة اللجان المختلفة التي يكون مركزها الجزائر العاصمة.

و . جيش التحرير الوطني: الالفاظ المستعملة «المجاهد، المسبل، الفدائي»

الوضعية الراهنة: الانتشار والتوسع، والإكثار من الهجومات.

من الان فصاعداً لا تستعمل إلا الكلمات الاتية:

المجاهد: هو جندي جيش التحرير الوطني.

المسبل: هو المشارك في العمل الفدائي: هو عضو الجماعة المكلفة بالهجومات على المراكز في المدن.

إن الاتصالات بين جميع الفرق في كل الولايات قد تمت، والان يجب أن تولى العناية إلى التوسع في العمليات والحركات في جميع الميادين.

العلاقات بين الجبهة والجيش: العلاقات الداخلية والخارجية، الوضعية في تونس، المغرب، فرنسا .

ز . العلاقات بين الجبهة والجيش: تعطى الأولوية للسياسي على العسكري.

وفي مراكز القيادة، يتعين على القائد العسكري السياسي أن يسهر على حفظ التوازن بين جميع فروع الثورة.

ح . العلاقات بين الداخل والخارج: تعطى الأولوية للداخل على الخارج، في مراعاة مبدأ التشارك في الإدارة.

الوضعية في تونس: قدم عنها التقرير، الوضعية الراهنة لنا مندوبون أربعة، يضاف إليهم ابن عودة الذي يتكلف بصفة خاصة بتوجيه المواد الحربية من تونس إلى الجزائر.

الوضعية في المغرب: قدم عنها التقرير إيدير، مبعوثنا هنالك تعالبي الطيب تحت مراقبة بوضياف.

فرنسا: قدم تقرير جامعة فرنسا للجبهة، وأهم المطالب قبلت وأمضيت رسالة من طرف جميع المسؤولين وبعث بها إلى اللجنة الجامعية لجبهة التحرير الوطني.

المواد الحربية: لا تنقل أية كمية من الأسلحة الان من ولاية لأخرى، لأن الأسلحة الموجودة هي مما أخذ من العدو. وفي المستقبل، لجنة التنسيق والتنفيذ، هي وحدها التي لها الأهلية التامة لتوزيع الأسلحة توزيعاً عادلاً، مع مراعاة الوضعية الخاصة لكل ولاية.

ط . نظام العمل:

الرجوع إلى الهجومات العسكرية بكل ثمن.

البدء في عمليات هجومية من تاريخ.. فاتح نوفمبر سوف يكون ذكرى سياسية فقط، يحافظ فيها على الإضراب العام.

ومقاطعة المدارس الفرنسية تستمر، وانتخابات لاكوست إن وجدت يجب أن تقاطع.

واستعمال القوة المسلحة في ذلك يلجأ إليه المسؤولون إن ظهر لهم صلاحية ذلك.

إيقاف النار، المفاوضات: مجلس الثورة الجزائرية هو الوحيد الذي يستطيع أن يأمر بإيقاف النار، مراعياً في ذلك الإطار الذي عينته القاعدة السياسية.

هيئة الأمم المتحدة: من هنا فصاعداً يجب على الداخل أن يعطي جميع المعلومات التي لدينا لتسهيل مهمة ممثلينا في هيئة الأمم المتحدة.

الحكومة المؤقتة:

هذه القضية سوف تنظر فيها لجنة التنسيق والتنفيذ، مع المندوبين في الخارج.

ي. أمور مختلفة:

الأوراس: درست وضعية الأوراس، واتخذ لها الحل الاتي: يبعث زيغود، وسي إبراهيم وتعطى لهم السلطات الكافية، لحل مسألة سوق أهراس، والنمامشة، ويبعث أوعمران وسي الشريف وعميروش لحل مشاكل الأوراس والجنوب.

ولجنة التنسيق والتنفيذ وهي وحدها لها الأهلية للبت في النهاية.

المحاكم: ليس من حق أي ضابط مهما كانت رتبته العسكرية أن يحكم بالإعدام على شخص، وإذن فيجب تشكيل محاكم في الجبهة والمنطقة، لتحاكم المدنيين والعسكريين، والذبح ممنوع منعاً باتاً، وفي المستقبل كل محكوم عليه بالإعدام يقتل رمياً بالرصاص، وللمتهم الحق في أن يختار من يدافع عليه.

والتمثيل والتشويه، ممنوعان مهما كانت الأسباب التي قد تقدم لتبرير ذلك.

المساجين السياسيون: يمنع منعاً باتاً قتل مساجين الحرب، وفي المستقبل سوف يجعل نظام خاص بمساجين الحرب في كل ولاية، ومهمة هذا النظام الأولى هي نشر وتبيين عدالة كفاحنا.

كتيب خاص: كل مجاهد في المستقبل سوف يعطى كتيباً خاصاً.

تسجيل الجنود: كل ولاية تقدم مشروعاً في هذا الشأن للجنة التنسيق والتنفيذ والعمل.

الرخص: سوف يؤذن في الرخص.

الفحص الطبي: كل جندي جديد، يجب أن يمر بالفحص الطبي إن كان ذلك ممكناً.

ملحق مختصر تقرير رقم 2:

عدد الجنود في فاتح نوفمبر 1954م: مائة مجاهد.

والان يبلغ عدد المجاهدين 669،1.

وعدد المسبلين 5،000.

والأسلحة: 13 بندقية رشاشة، 325 بندقية حربية، 3،750 بندقية صيد.

المالية: 203 ملايين، وخمس مائة ألف فرنك.

معنويات المجاهدين والشعب: معنوياتهم مفرحة جداً.

ملاحظة: كل الجهة المحاذية للحدود التونسية مراقبة من طرف الأوراس، مع أنه كان من المقرر منذ بداية الثورة أن تكون الجبهة التي تمتد من سوق أهراس

إلى القالة تابعة للشمال القسنطيني «انتهى التقرير» [1].

لا نستخلص من هذه القرارات المنبثقة عن مؤتمر الصومام الذي ابتدأت أشغاله يوم الثلاثاء 20 أوت وانتهت يوم 5 سبتمبر 1956م، أن الثورة الجزائرية قد انتقلت من مرحلة المبادرة الفردية إلى مرحلة التنظيمات الفعلية، من مرحلة الأشخاص إلى مرحلة النظام، وبفضل التنظيم الجديد أصبح المجلس الوطني هو الهيئة العليا التي يحق لها إبرام المعاهدات والاتفاقيات والتفاوض مع فرنسا، وبذلك تخلص القادة الجدد لجبهة التحرير من التخوف الذي كان يساورهم، وهو أن قادة الثورة في الخارج قد يتفاوضون مع فرنسا ويقبلون بالحلول التي لا تحقق الاستقلال التام.

.كما أن إنشاء لجنة التنسيق والتنفيذ قد سمح لجبهة التحرير أن تجند أعضاء المنظمات الجزائرية لخدمة الثورة، وإقامة تعاون وثيق بين القيادة المركزية في الجزائر العاصمة وبين الولايات والمسؤولين في الداخل والخارج.

. ثم إن إنشاء نظام موحد للجيش وقيادة واحدة مشتركة، قد ساعد على تعيين خلفاء للقادة الثوريين الذين يستشهدون، بدون إراقة دماء أو نشوب خلافات بين المسؤولين على من يتولى القيادة.

. وبالفعل فقد نجح عبان رمضان وكريم بلقاسم في خلق قوة ثورية جديدة منبثقة منهما ومن المركزيين أمثال بن يوسف بن خدة وسعد دحلب، وأصبح القادة المؤسسون للمنظمة الخاصة العسكرية التي حولوها إلى جبهة التحرير في عام 1954م أمثال: محمد بوضياف، وأحمد بن بلة، مجرد ممثلين للجبهة في الخارج، ينتظرون التعليمات من القيادة الجديدة في الجزائر، بعد أن كانوا يتصرفون على أساس أنهم قادة الثورة في الخارج.

. ويلاحظ هنا أن عبان رمضان قد نجح في تعيين عدة شخصيات من مختلف الأحزاب في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، الذي يمكنه اتخاذ القرارات الإلزامية بموافقة 12 عضواً فقط من مجموع أعضائه الذين يبلغ عددهم 34 عضواً، ولكن واقع الأمر أن السلطة الحقيقية كانت في يد أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ الذين ينتمون إلى حزب الشعب، حيث يمكنهم الحصول على 7 أصوات أخرى من أعضاء المجلس لكي تكون مداولات المجلس الوطني للثورة الجزائرية مقبولة وجائزة قانونياً.

كما أن النهج الذي سلكه عبان بعد مؤتمر الصومام قد غير مجرى الأمور في داخل الجزائر وخارجها، فالقرارات المتخذة في مؤتمر الصومام والتي تنص على إعطاء الأولوية للداخل على الخارج، وإعطاء الأولوية للعمل

---

(1) حياة كفاح (3/361).

السياسي على العمل العسكري ؛ قد نتج عنهما نقل السلطة إلى نواة جبهة التحرير الوطني في العاصمة وتوجيهها لجيش التحرير الوطني والقادة العسكريين في الولايات الستة بالقطر الجزائري[1].

. أصبحت جبهة التحرير الوطني الجزائري منذ 5 سبتمبر 1956م، أي انتهاء أشغال مؤتمر الصومام، هي القوة السياسية الوطنية الوحيدة التي التف الشعب حولها لتحرير الجزائر من قوات الاحتلال الفرنسي، وقد اتضح في مؤتمر الصومام أن جبهة التحرير أصبحت قوية وممثلة لامال وطموحات الشعب الجزائري، وذلك بفضل نجاحها في:

. القضاء على النفوذ الشخصي لأي فرد، وإقرار مبدأ القيادة الجماعية.

. وضوح الهدف، فالغاية المنشودة هي الاستقلال الوطني، والوسيلة هي الثورة لتدمير الحكم الاستعماري.

. توحيد أبناء الشعب الجزائري وتجنيده للكفاح ضد العدو المشترك، لأن تحرير الجزائر هو عمل جميع الجزائريين وليس عمل فئة واحدة من أبناء شعب الجزائر. وأشارت وثيقة الصومام إلى أن نشاط جيش وجبهة التحرير قد غير مجرى الأمور بالجزائر.

. فبفضل الله ثم ثورة أول نوفمبر 1954م تجددت الهمة والعزيمة في مواجهة العدو، وتوحد الشعب وفاق من سباته، وأظهر تصميمه على استعادة حريته وكرامته، وباختصار فإن الكفاح ضد العدو قد خلق اتحاداً روحياً وسياسياً بين جميع الجزائريين، وبذلك حصل الإجماع الوطني على مواجهة العدو حتى النهاية وانتزاع استقلال الجزائر[2].

3 . وبالنسبة لأهداف الحرب، فقد لخصها قادة مؤتمر الصومام فيما يلي:

. إضعاف الجيش الفرنسي بحيث يستحيل عليه الانتصار بالسلاح.

. تحطيم الاقتصاد الاستعماري حتى يصاب بالشلل، والإدارة الفرنسية تصبح عاجزة عن مواصلة الحرب.

. إحداث إخلال بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بفرنسا بحيث يتعذر عليها مواصلة الحرب.

. العمل على عزل فرنسا دولياً وفي داخل الجزائر.

. توسيع نطاق الثورة وتدعيم مؤسسات الدولة الجزائرية، حتى يمكن الاعتراف بالنظام السياسي الجزائري والتفاوض معه في حالة الرضوخ إلى الحوار والسلم.

. ضرورة الحصول على تأييد الشعب باستمرار، حتى يصمد أمام المجهودات التي يبذلها الفرنسيون لإبادته.

4 . وبالنسبة لوقف القتال

فقد تقرر في مؤتمر الصومام أنه لا يمكن وقف القتال إلا في حالات:

. الاعتراف بالشعب الجزائري شعباً واحداً لا يتجزأ.

. الاعتراف باستقلال الجزائر وبسيادتها في جميع الميادين، بما فيها الدفاع الوطني والدبلوماسية.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر، د . عمار بوحوش ص 398.

(2) المصدر نفسه ص 400.

. الإفراج عن جميع الجزائريين والجزائريات الأسرى والمعتقلين والمنفيين بسبب نشاطهم الوطني قبل وبعد نشوب الثورة في فاتح نوفمبر 1954م.

. الاعتراف بجبهة التحرير الوطني بصفتها الهيئة الوحيدة التي تمثل الشعب الجزائري، وأنها وحدها المؤهلة للقيام بأية مفاوضات، والمسؤولة عن وقف القتال والتحدث باسم الشعب الجزائري[1].

5 . وفيما يتعلق بعلاقة الجزائر ببقية دول المغرب العربي:

فقد حرص أعضاء مؤتمر الصومام على الدعوة لإقامة علاقات سياسية قوية مع تونس والمغرب، وتنسيق المجهودات الدبلوماسية بقصد الضغط على الحكومة الفرنسية في الميدان الدبلوماسي. وأشار المؤتمرون في وثيقة الصومام إلى أن الوضع في شمال إفريقيا يتميز بحقيقة واضحة للعيان، وهي أن القضية الجزائرية مندمجة في القضية المغربية وفي القضية التونسية، بحيث أن القضايا الثلاث تكون قضية واحدة.

واعتبرت وثيقة المؤتمر استقلال المغرب وتونس بدون استقلال الجزائر لغواً ولا قيمة له، فالتونسيون والمغاربة لم ينسوا أن احتلال فرنسا لبلديهما قد جاء عقب احتلال الجزائر. وأكدت وثيقة الصومام أنه لخطأ فاحش أن يعتقد أحد أن باستطاعة المغرب وتونس التمتع بالاستقلال الحقيقي إذا ما بقيت الجزائر محتلة من طرف فرنسا[2]؟

6 . مؤتمر الصومام والهوية الإسلامية:

ذهب البعض إلى القول أن وثيقة الصومام قد تخلت عن البعد الإسلامي وأعادت النظر فيه، ويستند هؤلاء في طرحهم على ما ورد في وثيقة الصومام على أن الثورة «ليست حرباً دينية» وهدفها إقامة دولة جزائرية على شكل جمهورية ديمقراطية واجتماعية وليس إقامة ملكية أو ثيوقراطية، وما غاب عن هؤلاء هو أن هذا الكلام كان موجهاً إلى الرأي العام الغربي أكثر مما كان موجهاً إلى الداخل، وليس معناه التخلي عنه، بل يعود إلى الخوف مع استغلال فرنسا لذلك وتأليب الرأي العام الغربي على الثورة الجزائرية وإثبات تهمتها للمجاهدين بأنهم متعصبين دينيين، وكانت هذه الفكرة توضع دائماً في ذهن قيادة الثورة، وللاستدلال على ما نقوله هو مثلاً عندما وقع الاختيار على عنوان للسان حال جبهة التحرير الوطني، وتم اقتراح ثلاثة عناوين «المكافح» و«الجزائري» و«المجاهد» ووقع اختيار عبان رمضان على العنوان الأخير لأنه أقرب إلى الشعب حسب قول عبان لزملائه، ثم أضاف لهم بقوله: أما الغرب فيكفي اقناعه بافتتاحية كي لا تستغل فرنسا ذلك واتهامنا بالتعصب الديني، فقام عبان بذلك فعلاً في افتتاحية العدد الأول الصادر في جوان 1956م وشرح مصطلح «المجاهد» بأنه كل جهد يقوم به الفرد ضد النظام الاستعماري في أي وقت كان[3].

وقد وقع نفس الإشكال تقريباً في المؤتمر الثاني للحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية عام 1953م، حيث طرح البعض فكرة «جمهورية إسلامية» حسب عبد الرحمن بن اليعقوب وبن يوسف بن خدة، لكن

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 401.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 401.

(3) دراسات حول إيدلوجية وتاريخ الثورة الجزائرية.

أقنعتهم بعض الشخصيات الدينية بالتخلي عن هذه الفكرة، لأن ذلك يسمح بإعطاء سلاح لفرنسا فتثير الغرب المسيحي ضد الجزائر، وتحويل حربها ضد الجزائريين إلى حرب صليبية. وتم الاتفاق في الأخير على عبارة «جمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية في نطاق المبادأئ الإسلامية» وهي نفس عبارة بيان نوفمبر 1954م تقريباً[1].

وما غاب عن الذين يستندون على ما ورد في وثيقة الصومام، وفهموه أنه تخلّ عن المبادأئ الإسلامية، أن ذلك القول لا يناقض البيان الذي لم يقل بدولة ثيوقراطية يحكمها رجال الدين الذين لا وجود لهم في الإسلام أصلاً، بل لقد قال البيان بالممارسة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إطار مبادأئ الإسلام العامة التي أجمع عليها المسلمون والمعروفة بوضوح لدى الجميع، وأن العمل في هذا الإطار لا يمنع من استيراد أي تجربة في الحكم أو الاقتصاد أو المجتمع أو منظومة قانونية، مادام أنها لا تناقض تلك المبادأئ العامة للإسلام، ونعتقد أن ما ورد في بيان نوفمبر 1954م قد فتح أبواباً واسعة للجميع.

يتبين لنا من الدراسة المتأنية لإيديولوجية الثورة ومختلف الممارسات أثناءها، أن مبادأئ الإسلام كانت تحظى بمكانة خاصة رغم الوضع في الحسبان عدم إثارة الغرب المسيحي كما سبق.

وتعود هذه المكانة إلى اعتبار الإسلام أداة لتحريك الجماهير، وأن أي مساس بمبادأئ الإسلام كان بمقدوره أن يحطم كل ما بنته الثورة.

بل إن مبادأئ الإسلام وعقيدته السليمة هي التي فجرت ثورة المليون شهيد، لقد كان الإسلام يمثل القلعة التي تحطمت عندها كل محاولات المسخ والدمج الاستعماري لأكثر من قرن وربع، كما كان يمثل العنصر الأساسي في الشخصية الوطنية الجزائرية[2].

ولقد تم التمسك بالإسلام وقيمه ومبادئه قبل الثورة وأثناء الثورة المباركة.

إن وثيقة أول نوفمبر تعتبر مرجعية مهمة للثورة الجزائرية، ويمكننا أن نستخرج منها مبادأئ أساسية لبناء الدولة الوطنية وتتمثل في:

- الجمهورية كنظام للحكم.
- الحريات الديمقراطية كأسلوب للحكم.
- العدالة الاجتماعية.
- مبادأئ الإسلام كإطار للدولة.
- السيادة للدولة والأمة.
- الانتماء الأمازيغي العربي الإسلامي للشعب الجزائري[3].

7. موقف أحمد بن بلة من مؤتمر الصومام:

---

(1) الدكتور رابح لونيسي ص 103.

(2) المصدر نفسه ص 105، 106.

(3) المصدر نفسه ص 135.

ومن الانتقادات التي وجهت للمؤتمر انذاك نذكر:

. أن المؤتمر لم يشر في قراراته لا للعروبة ولا للإسلام.

. أن المؤتمر كان منقوصاً من الولاية الأولى والخامسة والوفد الخارجي واتحادية فرنسا، ونرى من هنا كيف أن أحمد بن بلة كان يسعى بتصرفاته هذه إلى خلق فتنة داخل صفوف الثورة.

كان أحمد بن بلة متشبعاً بفكرة القيادة التي غرست في ذهنه بفعل احتكاكه بالمخابرات المصرية، وعلى رأسها فتحي الديب الذي حكم على مؤتمر الصومام بأنه أوقع الثورة الجزائرية في المحظور، وأنه لم يعقد سوى لتحقيق هدف واحد وهو: إزاحة أحمد بن بلة من طريق توليه لزعامة الثورة، وذلك بمحاولة إقناع قادة الكفاح المسلح بضرورة سيطرة قيادة الداخل على كل شؤون الكفاح داخلياً وخارجياً، واقتصار أحمد بن بلة على تمثيلهم بالخارج، وتنفيذ التوجيهات والتعليمات التي تصدرها قيادة الثورة بالداخل.

إن الموقف المعارض الذي وقفه أحمد بن بلة من قرارات مؤتمر الصومام نابع أساساً من كون هذا المؤتمر قد فصل نهائياً في مسألة الزعامة والصراع على السلطة، بعد اعتماده على مبدأ القيادة الجماعية الذي تم الاتفاق عليه منذ اندلاع الثورة، وهو ما يتناقض مع رغبة بن بلة الذي يسعى إلى تسيير الثورة من الخارج، والمعروف عنه أنه كان يحضر نفسه لهذا الدور على أساس أنه من القادة التاريخيين، وكان رئيساً للمنظمة السرية الخاصة، ويحظى بدعم مباشر من الحكومة المصرية ومخابراتها[1].

وهذا ما نستنتجه بشكل واضح عندما طرح أحمد محساس على مصطفى بن عودة الذي ذهب إلى تونس ليشرح قرارات مؤتمر الصومام. والمعروف أن محساس محسوب على بن بلة. فكرة أهمية الزعامة وسعى إلى إقناعه بذلك وبأهمية دورها، إلا أن ابن عودة أجابه بأن الثورة لا رئيس لها وقيادتها جماعية. وكفانا ما عانينا من مصالي الذي جعلنا منه زعيماً فكان ما كان[2].

8. اختطاف طائرة بن بلة ورفقائه:

ومن أقدار الله العجيبة أنه في الوقت الذي كان يسعى فيه الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة والملك المغربي محمد الخامس للقيام بوساطة بين الجزائر وفرنسا في إطار المغرب العربي، قامت السلطات الفرنسية باختطاف الطائرة المقلة لوفد جبهة التحرير الوطني الجزائري وذلك يوم 22 أكتوبر 1956م. وبهذه القرصنة الجوية وإلقاء القبض على أحمد بن بلة ومحمد خيضر وايت أحمد ؛ نجت الثورة الجزائرية من حدوث انقسام خطير في القيادة.

(1) الصراع السياسي داخل جبهة التحرير، د . إبراهيم لوينسي ص 60.

(2) المصدر نفسه ص 60.

والفصل في قضية الزعامة، هل تكون بالداخل أو الخارج؟ والسلطة هل تكون في يد العسكريين أو المدنيين؟ ومن يتحكم في المراكز الاستراتيجية للسلاح سواء بتونس أو المغرب؟

وكما قال أحمد توفيق المدني فإن سجن القادة في الخارج قد أزال عقبة كأداء في طريق وحدة القيادة، وانتهى أمر قيادة القاهرة وقيادة الداخل[1].

وأكد أحمد توفيق المدني أن سجن الزعماء الخمسة قد ترتب عنه خلق اتحاد بين مختلف الجزائريين، بما في ذلك الذين لم يشتركوا في إشعال الثورة، وحسب نفس المصدر فإنه لو تم عقد مؤتمر تونس ونجح المشاركون فيه في المصادقة على قرار تحت تأثير الملك المغربي والرئيس التونسي ؛ لما كان ذلك القرار لفائدة الاستقلال التام حتماً، ففرنسا يومئذ لم تكن مستعدة لذلك، ولوقع من جراء ذلك خلاف مرير في القيادة كان يضر حتماً بمصلحة الثورة[2].

وقال: الذي أعتقده هو أنه لو بقي ابن بلة وخيضر على رأس الوفد لما وافقا إطلاقاً على مقررات مؤتمر الصومام أو على جل تلك المقررات، ولوقع من أجل ذلك خلاف مرير كان يردينا ويحطم جهودنا[3]، ولم يتطرق أحمد توفيق المدني إلى ايت أحمد لأن هذا الأخير كان يؤيد عبان رمضان وقرارات مؤتمر الصومام[4].

وهكذا أصبح عبان رمضان هو الرجل القوي في الثورة الجزائرية، الذي غير الرجال والمسؤولين، وأقام المؤسسات السياسية والإدارية للدولة الجزائرية، وأسس القيادة الجماعية، وأعطى الأولوية لرجال السياسة على العسكريين، واتخاذ القرارات من طرف رجال الجبهة في داخل الجزائر، لكن تهب الرياح بما لا تشتهي السفن، فاستشهاد العربي بن مهيدي، وزيغود يوسف، وخروج كريم بلقاسم من الجزائر في شهر جوان 1957م والتحاقه بالقاهرة، وإدخال تعديلات على تشكيل لجنة التنسيق والتنفيذ ؛ قد غيرت مجرى الأمور واضمحل نفوذ عبان رمضان، وبرزت القوة العسكرية المتمثلة في كريم بلقاسم قائد الولاية الثالثة، ولخضر بن طوبال قائد الولاية الثانية، وعبد الحفيظ بوصوف قائد الولاية الخامسة، ومحمد الشريف قائد الولاية الأولى، الذين تمكنوا من أخذ السلطة من يد عبان رمضان وعزله، ثم التخلص منه في ظروف غامضة يوم2 7 ديسمبر 1957م، بعد أن تمرد عليهم ورفض الخضوع لتوجيهاتهم ومخططاتهم، وهددهم بالعودة إلى داخل الجزائر[5].

9 . العقيد عميروش وتأمين مؤتمر الصومام:

بعد عدة اتصالات ومشاورات بين قادة المناطق والمسؤولين في العاصمة ؛ تم الاتفاق على اختيار منطقة وادي الصومام لعقد هذا اللقاء نظراً لموقعها الاستراتيجي الذي يجعل منها حصناً منيعاً للمجاهدين، بالإضافة إلى

---

(1) حياة كفاح (394/3).

(2) حياة كفاح (394/3).

(3) المصدر نفسه (394/3).

(4) التاريخ السياسي للجزائر ص 402.

(5) التاريخ السياسي للجزائر ص 403.

كون المواطنين في هذه المنطقة قد احتضنوا الثورة، بحيث أصبح التنظيم الثوري فيها محكماً شاملاً وفعالاً، مما جعل كل الظروف مساعدة لاجتماع قادة المناطق في جو الأمن والأمان والاطمئنان.

ولقد أشرف على توفير هذه الظروف المثالية قبل وأثناء المؤتمر السيد عميروش ايت حمودة قائد الناحية، حيث شرع فيها منذ مطلع عام 1956م، بعد أن أعطيت له الأوامر من قيادة المنطقة بخصوص الشروع في التحضيرات المتعلقة باستقبال المشاركين، وتهيئة مكان انعقاد المؤتمر وذلك تحت مسؤوليته المباشرة.

وكان المكان الأول المحدد والمتفق عليه من طرف القيادة هو قلعة بن عباس، ولكن لظروف أمنية وتحركات عسكرية للجيش الفرنسي تقرر تغيير المكان المقرر لعقد المؤتمر، وقد جاءت فكرة تغيير المكان المقرر للمؤتمر بعد اتصالات بين كريم بلقاسم قائد المنطقة ونائبه على ناحية الصومام عميروش، الذي اقترح منطقة أخرى أوزلاقين على الضفة الغربية لوادي الصومام، ببلدية إغزر أمقران بدائرة أقبو لحصانتها وموقعها الاستراتيجي المطل على حوض الصومام، ولكونها مفتوحة مباشرة على جبال جرجرة المغطاة بغابات كثيفة، مما يسهل مراقبة حركات العدو لمسافات كبيرة، كما يفسح المجال الواسع للانسحاب نحو جبال جرجرة الحصينة بكل سهولة وبسرعة أكبر من سرعة العدو. هذا إلى جانب تجنيد سكانها الكلي مع الثورة لقوة التنظيم الثوري بها، والذي سهر لعدة أشهر على إرسائه في كل الناحية، لذلك لم يتردد في اقتراح المكان الحصين القوي لانعقاد مثل هذا الحدث الخطير الهام.

وقد كلف قائد المنطقة السيد كريم بلقاسم رسمياً عميروش بالتحضير للمؤتمر من جميع النواحي سواء الجانب البشري أو المادي أو الأمني، وحتى التنظيمي، بحكم أن هذا الأخير كان أكثر دراية واطلاعاً بالناحية، كما كان يحظى باحترام وحب سكان المنطقة الذين كانوا يكنون للثورة ولعميروش ولاءً كبيراً[1].

ويعود اختيار منطقة وادي الصومام إلى اعتبارها مظهراً من مظاهر السيطرة العسكرية لجيش التحرير، لأن هذا المكان بالذات الذي اختير للمؤتمر كان الفرنسيون يزعمون ويدعون أنهم سيطروا عليه، لذلك أراد قادة جيش التحرير أن يكون المؤتمر قوياً في بدايته، وأن يتحدّوا العدو ويظهروا للرأي العام الفرنسي والعالمي مدى قوة وسيطرة جيش التحرير الوطني في حربه هذا على الاستعمار، وأن المكان الذي أعلن القادة المستعمرون أنهم سيطروا عليه وتمت تصفيته من الثوار ؛ استطاع قادة الثورة أن يعقدوا فيه أول مؤتمر لهم[2].

ومن أجل إنجاح تنظيم المؤتمر أنشأ عميروش لجنة للتحضير المادي والعملي والأمني تتكون من: قاسي حماي نائب سياسي في حوض الصومام، وأحمد فضال «سي حميمي» وعبد الرحمن أوميرة، الأول مكلف بتكثيف العمليات والكمائن بناحية بوقاعة لاستدراج العدو وشغله، والثاني مكلف بتأمين الطريق، كما سخر حوالي 500 جندي لحماية المؤتمر، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من المسبلين لمراقبة تحركات العدو في المنطقة، وكلف السيد حسين صالح بتوفير التموين والإشراف عليه، وإحضاره من أماكن بعيدة لكي لا يختل الاستهلاك المحلي

(1) دور العقيد عميروش في الثورة الجزائرية، شوقي عبد الكريم ص 107، 108، 109.
(2) المصدر نفسه ص 109.

فيتفطن العدو لأي تغيير أو أمر غير عادي، وكلف السيد نايت كعباش بالاستعلامات ومراقبة سكان المنطقة أيام المؤتمر والحفاظ على السرية التامة لأشغاله، فسهر ومن معه على توجيه السكان، وكلف أيضاً السيد عبد الحفيظ أمقران وسي الطاهر عميروش بمتابعة محاضر المؤتمر[1].

ومن خلال هذه التحضيرات أظهر عميروش كفاءة عالية في التنظيم والإعداد، كان قد اكتسبها خلال نشاطه السياسي في باريس قبل الثورة، أما عن الجانب الأمني فقد أشرف شخصياً على تأمين المكان بزرع رجاله في مختلف أرجاء الناحية، بحيث أصبحت كلها تحت سيطرة جيش التحرير، كما أرسل أعوانه ومساعديه لاستقبال ومرافقة الوفود القادمة للاجتماع، وفي هذا الإطار أرسل مساعده السيد قاسي حماي مع مرشدين لاستقبال وفد المنطقة الثانية، حيث يقول السيد علي كافي بهذا الخصوص، وتم اللقاء بين ممثلي المنطقة الثالثة المنظمة للمؤتمر وبين المشاركين من بقية المناطق على مشارف حدودها مع مرشدين، وبالنسبة للمنطقة الثانية التي كنت من ضمن وفدها كان في استقبالها المسؤول قاسي على حدود المنطقة، والذي أصبح فيما بعد رائداً، وبالنسبة للرابعة ذهب عميروش لاستقبالهم[2].

وعموماً أرسل عميروش دوريات لاستقبال وفود المناطق الحربية بهدف ايصالها إلى مقر المؤتمر، وتجنُّب العدو الذي كان يقوم بعملية مسح للمنطقة، ولكن برغم ذلك فإن وفد المنطقة الثانية احتك بقوات العدو خلال الاشتباك معها في عدة مواقع جعلته يتأخر قليلاً بسبب انقسامه نتيجة دخوله في مواجهة مع بعض تلك القوات التي كانت منتشرة بكثرة في المنطقة[3].

والمتتبع للأمور يجد أن مصير قادة الثورة كان في يد عميروش، الذي برهن من جديد على عبقريته وحنكته العسكرية، التي جعلت من كريم بلقاسم يثق به وبإجراءاته وتدابيره التي كانت تقريباً في كل الأحوال ناجحة، لأن الرجل كان عارفاً بالناحية وسكانها، كما أنه اكتسب الأسلوب الأمثل للتعامل مع القوات الفرنسية كراً وفراً وتأميناً لجنوده وضيوفه وقادة الثورة المباركة في الداخل، فقد نجح في تأمين المكان لعقد المؤتمر. وقد استطاع عميروش ـ بفضل الله ثم تنظيمه المحكم وسهره الدائم ليل نهار ـ أن يوفر الجو الأمثل لانعقاد المؤتمر الذي دام لعدة أيام، حيث أن الوفود لم تصل في وقت واحد، وتحتم على المؤتمرين الانتظار ترقباً لوصول وفود أخرى، وهذا ما جعل مهمة عميروش ورجاله تطول وحرصه يزيد[4].

وقد سهر على أمر المؤتمر وخدمته حوالي 800 جندي، بالإضافة إلى حوالي 1،600 مسبل وهو عدد ضخم.

وأما خلال أيام المؤتمر، فإن الأمور سارت على أحسن مايرام سواء من حيث التنظيم أو التموين أو الحراسة والتمويه، الذي كان يتم بشن الهجومات ونصب الكمائن ضد العدو في مناطق بعيدة نوعاً ما عن مقر المؤتمر،

---

(1) المصدر نفسه ص 110.
(2) المصدر نفسه ص 111.
(3) المصدر نفسه ص 111.
(4) المصدر نفسه ص 113.

قصد شغله واستدراجه إلى مناطق يريد جيش التحرير أن يجذبه لها، وهي نفس المهمة التي أسندت إلى السيد أحمد فضال «السي حميمي» من طرف عميروش الذي سخر كل جهده ووقته وذكائه وخبرته للقيام بالمهمة التي أسندت إليه على أكمل وجه[1].

وعموماً فإن عميروش ساهم في نجاح مؤتمر الصومام بما وفره هو ورجاله من أجواء مناسبة لانعقاده فوق أرض الوطن[2].

* * *

ثامناً: وسائل الفرنسيين للقضاء على الثورة

استخدمت فرنسا كافة الوسائل البشعة للتصدي للثورة، وصنعت جيوب وقادة تابعين لها من الخونة ودعمتهم بالمال والسلاح، وساهمت في سفك الدماء بين أبناء الشعب، ولكن حركات الخيانة باءت بالفشل بتوفيق من الله ثم صمود وثبات ووحدة جبهة التحرير، من هذه الوسائل:

(1) المصدر نفسه ص 114.

(2) المصدر نفسه ص 115.

1 . مشروع قسنطينة الاقتصادي وأهدافه:

تم إعداد هذا المشروع بعد الإتيان بالجنرال ديغول إلى الحكم، وأعلنه هو بنفسه بمدينة قسنطينة يوم 13 أكتوبر 1958م، قبل يومين من الشروع في شن عملية شهر الضباب، على اعتبار أن أسباب الثورة اقتصادية واجتماعية وليست سياسية، ولا صلة لها بفكرة الاستقلال والحرية وطرد الاستعمار الأجنبي.

وقد استهدف ديغول بهذا المشروع أن يكسب الرأي العالمي ويجلبه إليه، ويوهمه بأن فرنسا تعمل جاهدة على تحسين أوضاع الجزائريين، وتنمية الجزائر عن طريق إنجاز هذا المشروع الاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وأهم ما في هذا المشروع:

. إقامة أحياء سكينة بصورة استعجالية دون مراعاة لشرط الحياة العامة فيها، وذلك بقصد تسهيل السيطرة على الجزائريين وتشديد الرقابة عليهم، وقد انجر على إقامة هذه الأحياء أمراض اجتماعية خطيرة.

. منح بعض الوظائف للجزائريين للتخفيف من حالة البطالة في أوساطهم ظاهرياً، وكسبهم إلى جانب السلطات الاستعمارية ضد الثورة، وترقية بعض العملاء إلى الوظائف الإدارية السامية، ومنحهم امتيازات مادية معتبرة، فأسندت إليهم مسؤوليات معتبرة في الإدارة، وعينت بعضهم ولاة ورؤساء دوائر وموظفين سامين.

. محاولة خلق جو نفسي اجتماعي يلهي الشعب عن الثورة، وذلك بتكوين فرق رياضية وتنظيم ألعاب مسلية، وتشجيع الحفلات والسهرات الفنية والمادب في ضيعات المعمرين واستغلالها لمناهضة الثورة.

. إدخال عناصر جزائرية في مجلس الشيوخ الفرنسي، وتعيين ضباط جزائريين سامين في الجيش الفرنسي، ومنح رخص ومحلات تجارية لبعض الجزائريين.

. استغلال موارد البلاد ووضعها تحت تصرف الشركات الرأسمالية الأجنبية لاستغلالها، وتنشيط عمليات التنقيب عن البترول في الصحراء الجزائرية لدعم الاقتصادي الفرنسي المتضرر من الثورة الجزائرية. وفي هذا الإطار تم تجنيد أكثر من نصف مليون جندي لحماية المصالح الحيوية الفرنسية في الجزائر ذات المجالات الاستراتيجية وذلك ابتداءً من نوفمبر 1959م.

. 50 ألف جندي لحماية ومراقبة الخطوط الشائكة المكهربة شرقاً وغرباً على الحدود الجزائرية.

. 30 ألف جندي لحماية ومراقبة الجسور والمعامل والمصالح الاقتصادية للكولون المعمرين.

. 200 ألف جندي لحماية ومراقبة أنبوب بترول حاسي مسعود بجاية، بينهم 35 ألف للخط الممتد بين بني منصور وبجاية.

. إنشاء بعض المرافق الصحية كمستشفى رجاونة بتيزي أوزو، الذي لم يستفد منه سوى المعمرين وأذنابهم.

. شق شبكة من الطرق لتنشيط الاقتصاد الفرنسي وخدمة الأهداف العسكرية الاستعمارية والوصول إلى القرى الريفية المعزولة.

. فتح مجال محدود لتعليم اللغة الفرنسية لبعض الشبان الجزائريين، من أجل استمالتهم وجعلهم أدوات لخدمة مصالح الاستعمار عن طريق النوادي والمنتديات واللقاءات المختلفة.

. إنشاء بعض مراكز التكوين المهني لإعداد أيدي عاملة مختصة تستغل في تطوير الاقتصاد الفرنسي وترقيته.
. تقديم بعض المؤون والمنح الشكلية للشيوخ العجزة والمكفوفين المحتاجين تحت غطاء المساعدات الإنسانية(1).

2 . عملية برومير أو أشهر الضباب:

شن الجيش الفرنسي هذه العملية العسكرية الضخمة يوم 15 أكتوبر 1958م بقيادة الجنرال فور، على رأس خمسة وثلاثين ألف جندي ومئات العربات العسكرية والطائرات المقنبلة والحوامات، وذلك بعد يومين من إعلان مشروع قسنطينة الاقتصادي، مما يدل على أنه للتعمية فقط، وليس لمعالجة وإصلاح أوضاع الجزائريين الاقتصادية والاجتماعية. وقد دامت هذه العملية إلى يوم 27 من نفس الشهر، واستهدفت القضاء على مراكز قيادة الولاية الثالثة بجبل أكفادوا الحصين والكثيف الغابات، ولم يزد عدد المجاهدين الذين واجهوها على 1،500 مجاهد، إلا أن الله عز وجل نصرهم على هذه القوات الاستعمارية التي انسحبت تجر أذيال الخيبة والهزيمة، لأن جيش التحرير تدرب على تفويته الفرص عليها.

وعلى إثر ذلك عقدت قيادة الولاية اجتماعاً عاماً في بونعمان يوم 11 نوفمبر 1958م برئاسة العقيد عميروش وتم فيه توزيع الأوسمة على المجاهدين، وأعطيت تعليمات لإعداد الملاجأئ والمخابأئ وتخزين المؤن والذخائر استعداداً للطوارأئ والظروف الصعبة المقبلة. وبعد ذلك أخذ القائد عميروش طريقه إلى تونس، مروراً بالولاية السادسة، حيث استشهد مع قائدها العقيد سي الحواس في جبل ثامر قرب بوسعادة يوم 29 مارس 1959م، فخلفه على رأس الولاية عبد الرحمن أوميرة بالنيابة إلى أن استشهد، فخلفه القائد محند أولحاج كعقيد بصفة رسمية، وكان العقيد عميروش قد استخلفه في غيابه بصفته رائداً للولاية(2).

3 . برنامج شال العسكري الضخم:

بعد أن استلم الجنرال ديغول الحكم على إثر 13 ماي 1958م بالجزائر، أحدث تغييرات هامة في قيادات الجيش الفرنسي العامل بالجزائر، وبمقتضاها عين الجنرال شال قائداً عاماً للقوات العسكرية في الجزائر خلال شهر ديسمبر 1958م خلفاً للجنرال الار، فعمل على تطوير أساليب عمل القوات العسكرية المجندة المحاربة للثورة، ووضع مشروعاً عسكرياً ضخماً حمل اسمه وهو مشروع شال، وشرع في تنفيذه ابتداءً من يوم 24 فيفري 1959م، واستهدف من ورائه تحقيق المكاسب التالية:

1 . غلق الحدود الشرقية والغربية بالأسلاك الشائكة المكهربة والألغام والمناطق المحرمة والمراكز العسكرية المكثفة، لعزل الثورة تماماً عن العالم الخارجي.

2 . إبادة جنود جيش التحرير واحتلال المناطق التي يتمركزون فيها.

3 . إقامة إدارة أخرى مخلصة لفرنسا بدلاً عن خلايا جبهة التحرير الوطني(3).

---

(1) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية، د . يحيى بوعزيز ص 163 . 177.

(2) المصدر نفسه ص 179.

(3) المصدر نفسه ص 180.

4 . القضاء على المقاومة السرية لجبهة وجيش التحرير الوطني في أوساط الشعب وذلك بالوسائل التالية:
. المحافظة على مراكز التربيع واستعمال وحدات عسكرية خفيفة سريعة الحركة والتنقل لملاحقة الثوار.
. مواصلة المراقبة الدائمة والحازمة لملاحقة الثوار خارج الحدود.
. تكثيف عمليات الاستطلاع بسلاح الطيران والرقابة الدائمة ليلاً ونهاراً.
. تجنيد المزيد من فرق القوم والحركة والدفاع الذاتي في العمليات العسكرية لأنهم أعرف من غيرهم بالمخابأئ ومراكز الثوار وأنصارهم.
. القيام بعمليات عسكرية ضخمة تشترك فيها القوات البرية والجوية والبحرية، وتتمركز مدة طويلة في منطقة واحدة حتى تطهرها من الثوار ثم تنتقل إلى غيرها لتقوم بنفس العملية ونفس الأسلوب.
. احتلال تلك المناطق والتمركز فيها حتى يتم التأكد من انتهاء نشاط الثوار بصفة نهائية، وإنشاء فرق للفدائيين تتخصص في محاربة الثوار وملاحقتهم في كل مكان.
. تمكين الجيش الفرنسي من أسلحة وأساليب عصرية حديثة ومتطورة، وتوفيرها له بسخاء حتى يقوم بمهامه العسكرية على أحسن حال.
. الزيادة في أعداد القوات الفرنسية بالجزائر لتصل إلى مليون شخص وأكثر من ذلك، وستصل إلى مليوني رجل مع نهاية الثورة[1].

4 . مراحل المشروع:

وقد تم تنفيذ هذا المشروع العسكري الضخم حسب الكيفية والمراحل التالية:
. القيام بتطهير الهضاب العليا الغربية الوهرانية خلال شهر فيفري ومارس 1959م، وذلك في المنطقة المحصورة ما بين سعيدة جنوباً ومعسكر غرباً وفرندة وسعيدة شرقاً وحوض الشلف شمالاً.
. شن عملية الحزام على جبال الظهرة وزكار والونشريس والسرسو والتيطري والسفوح الغربية بهذه الجبال ما بين منتصف شهر أفريل ومنتصف شهر جوان 1959م.
. وخلال عملية الحزام هذه شنت القوات الفرنسية عمليتين مكملتين لها، واحدة على جبال عمور من أفلو شرقاً إلى جهات عين الصفرة، والثانية على جبال أولاد نايل وقسم من بلاد امزاب.
. شن عملية الشرارة على جبال الحضنة في بداية شهر جويلية 1959م، تمهيداً لعملية المجهر الضخمة والكبيرة والخطيرة في نفس الوقت.
. عملية المجهر على جبال جرجرة وحوض الصومام وجبال البيان، على شكل مثلث زاويته الجنوبية البويرة، وزاويته الشمالية الغربية دلس، وزاويته الشمالية الشرقية خليج بجاية، ودامت من 22 جويلية 1959م إلى مارس 1960م.

(1) المصدر نفسه ص 180.

. شن عملية الأحجار الكريمة على الشمال القسنطيني كله من خليج بجاية غرباً إلى عنابة شرقاً على الساحل، ومن بوقاعة غرباً إلى ميلة على الداخل، ودامت من نوفمبر 1959م إلى ماي 1960م(1).

5 . عملية المجهر:

تعد هذه العملية من أضخم العمليات العسكرية التي شنها الجيش الفرنسي ضد الثورة الجزائرية في منطقة القبائل بقسميها الكبرى والصغرى، على شكل مثلث زواياه الثلاثة خليج بجاية شرقاً، دلس غرباً، والبويرة وبني منصور جنوباً، ودامت قرابة ثمانية شهور من 22 جويلية 1959م إلى مارس 1960م، وجند فيها خمسة وسبعون ألف جندي من الأسلحة الثلاثة، البرية والجوية والبحرية، ومن اللفيف الأجنبي، وأربعة الاف سيارة عسكرية، وألفي دبابة مصفحة، ومئات من الطائرات المختلفة الأشكال والأحجام، وعشرات من البواخر والبوارج الحربية الراسية والمتنقلة بين دلس وبجاية.

وقبل أن يشرع الجنرال شال في هذه العملية العسكرية الضخمة ؛ مهد لها بشن عملية الشرارة على جبال الحضنة وحوضها الغربي التابع للولاية الأولى، كتعمية للثوار والمجاهدين بالولاية الثالثة حتى يبقوا في أماكنهم، ويلحق بهم كذلك ثوار ومجاهدو منطقة الحضنة ليطبق عليهم جميعاً هناك.

ففي أول يوم من شهر جويلية 1959م شنت القوات الفرنسية عمليات عسكرية واسعة على برج بوعريريج، والمسيلة، وبوسعادة، وحاصرتها بالطائرات والمصفحات وأنزلت الجنود في الربى وقمم الجبال والوهاد، ووضعت مراكز للتفتيش والمراقبة في كل مكان خاصة في الضلعة بين تيكستار وعين تاغروط والحمادية وبئر حمادي بين رأس الوادي وقلالة صالح بمزيتة.

وأخذت الطائرات المروحية والحوامات من هذه المراكز تنقل الجنود إلى الربى وقمم الجبال، وتنقل إليهم الأغذية والمؤون والذخائر الحربية، وتنقل المساجين إلى هناك لتسخيرهم في الأعمال الشاقة وتقديمهم إلى الموت والمخاطر قبل الجنود الفرنسيين(2).

وقد شملت عملية الشرارة هذه المنطقة المحصورة ما بين خط السكة الحديدية شمالاً وطريق بريكة والمسيلة وأولاد سلطان. وأحكم الحصار على السكان براً وجواً، ومكن الجنود من الات حديثة متطورة للاستكشاف والاستعلام، فاستعملوا الكلاب المدربة وشددوا على تفتيش القرى والمشاتي ومنعوا الناس من التنقل إلا برخص، ووضعت مراكز للمراقبة والتفتيش على كل طرق المنطقة، وسخرت عشرات من الطائرات للمراقبة والحراسة ليلاً ونهاراً، والقنبلة والتدمير، ودامت هذه العملية شهراً كاملاً من أول الشهر إلى يوم 28 منه وتم خلالها:

1 . إلقاء القبض على بعض المجاهدين والمسبلين.

2 . وحرق عدد من المراكز والمشاتي التي كان يتردد عليها المجاهدون.

3 . قتل عدد كبير من المجاهدين والمسبلين وحرق عدد من الغابات وإهلاك عدد من الحيوانات كذلك.

---

(1) المصدر نفسه ص 181.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 182.

وبعد ذلك انتقلت القوات الفرنسية إلى الولاية الثالثة لتنفيذ عملية المجهر الضخمة والتي هي لب مشروع شال برمّته.

أ ـ الشروع في تنفيذ عملية المجهر:

قاد هذه العلمية الجنرال شال بنفسه واتخذ قمة ثافيجوت بجبل أزرو نطهور «جبل الظهر» في شلاطة مقر القيادة، نظراً لموقعها الاستراتيجي الممتاز، المشرف على كل من القبائل الكبرى غرباً والصغرى شرقاً وحوض الصومام وخاصة جرجرة وثامغوط وأكفادو والبيبان وانطلقت يوم22 جويلية 1959م[1].

وتعاون مع شال الجنرال دولبير قائد ناحية سطيف والبرج وبوني، وشنوا عمليات عسكرية ضخمة على المناطق المذكورة، وركزوا جنود الرماة على قمم الجبال والربى والهضاب، ونصبوا المدافع البعيدة المدى إلى جانبهم، وتم حصار الطرقات الكبيرة والمسالك الهامة بأكثر من أربعة الاف سيارة ودبابة مصفحة، لمنع المجاهدين من الخروج والانسحاب إلى الأماكن الامنة، وقامت عشرات من فرق وكتائب المشاة بمحاصرة كل المدن والقرى لمنع أي اتصال بين جنود جيش التحرير والسكان المدنيين، وتفتيش كل المنازل والمشاتي والمغارات والمسارب بحثاً عن المجاهدين.

وزحفت القوات الاستعمارية على المنطقة واكتسحتها شبراً بشبر، وقرية بقرية، بجبالها وشعابها، ودمرت القرى وهتكت الأعراض والحرمات، وقتلت الناس بالجملة، واعتقلت بالجملة كذلك. وتمركز جنود البحرية على كل الربوات والقمم والهضاب والشعاب، وكلفوا بالحراسة والمراقبة الشديدة والمتواصلة ليلاً ونهاراً، وأعطيت لهم الأوامر بقتل كل من يشاهَد متحركاً حتى الحيوانات الأليفة التي هي دليل على وجود الحياة البشرية، وأعطي لكل جندي مجهر ليراقب به ويحرس ويكتشف، واستعملت حتى الأضواء الكاشفة ليلاً حتى يتعذر على المجاهدين الظهور والانتقال من مكان إلى اخر.

ب ـ الجنرال ديغول يزور المنطقة خلال العملية ويعلن عن سلم الشجعان:

وخلال إنجاز عملية المجهر هذه، زار الجنرال ديغول مدينة برج بوعريريج وذهب إلى قرية زمورة في قلب جبال البيبان يوم 28 جويلية 1959م وخطب هناك، ووجه نداءه المعروف بسلم الأبطال الشجعان للثوار، طالباً منهم تسليم أسلحتهم، ورفع العلم الأبيض، والاتجاه إلى أقرب مركز عسكري لهم، وقد استهدف الجنرال ديغول من زيارته لزمورة وتوجيه ندائه هذا ثلاثة أمور هامة في نظره طبعاً:

1 ـ إقناع العالم بأنه اقتحم جبال البيبان رغم كونها منطقة محرمة، وهذا يعني أن الثورة ضعفت، وأن جنود جيش التحرير على وشك الانتهاء والاختفاء بالقتل والموت جوعاً وبالاستسلام.

2 ـ اقترابه من مراكز الثورة الحساسة، وإسماع صوته للثوار بصفة مباشرة، حتى يستسلموا ويسلموا أسلحتهم وفق شعاره سلم الأبطال الشجعان.

---

(1) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية، د ـ يحيى بوعزيز ص 183.

3 . تشجيع الخونة وأعداء الثورة من القوم والحركة والأعوان والأذناب الاخرين وطمأنتهم على مستقبلهم، وعلى قوة فرنسا وقدرتها على حمايتهم.

أما الجنرال شال فقد وجه نداء إلى المجاهدين خيّرهم فيه بين واحد من ثلاثة أمور:

1 . الاستسلام قبل فوات الأوان لمن أراد.

2 . أو الموت الجماعي المؤكد لهم.

3 . واعتبار من تبقى منهم مجانين، لأنهم لا يقدرون على مواجهة القوات الفرنسية.

ج . أهداف عملية المجهر:

لقد استهدف الجنرال شال من وراء هذه العملية الضخمة تحقيق الأمور التالية:

1 . اقتحام الولاية الثالثة وحصارها وعزلها تماماً عن كل الولايات الأخرى.

2 . اقتحام مقر قيادة الولاية الثالثة بأكفادو بونعمان.

3 . كشف مخابئهم وملاجئهم ومقراتهم وأماكن تواجدهم.

4 . تكثيف المراقبة العسكرية على كل مناطق الولاية لشل حركة ونشاط المجاهدين، وإرهاب السكان وعزلهم عنهم، وإيقاف مساعداتهم لهم.

5 . فرض حصار غذائي واقتصادي على كل السكان لتحطيم معنوياتهم وإرغامهم على التخلي عن الثوار وعدم تقديم أي عون أو مساعدة.

6 . إرضاء المتطرفين من العسكريين والمدنيين في الجزائر وفرنسا معاً، وإعطاء الدليل لهم على أن الجيش الفرنسي قادر على الأخذ بزمام المبادرة وإنقاذ الموقف[1].

د . الأساليب المتبعة في العملية:

وقد طبقت القوات الفرنسية خلال هذه العملية أساليب جهنمية وتفننت فيها، ومن ضمنها:

1 . تمشيط الولاية كلها تمشيطاً كاملاً وبكيفية حقودة وقاسية على مدى ثمانية أشهر، واتخذت ذلك نموذجاً لباقي العمليات التالية.

2 . تم حرق الغابات والحقول والبساتين وإتلاف كل المزروعات والمحاصيل في إطار أسلوب الأرض المحروقة، وتغوير ينابيع المياه كذلك.

3 . تم جمع السكان كلهم في مراكز احتشاد خاصة وضعت تحت الرقابة العسكرية المشددة لفصلهم عن الثوار المجاهدين بصفة نهائية وكاملة.

---

(1) المصدر السابق ص 184، 185.

4 . منع أي اتصال بين السكان في المراكز، وتحديد تحركاتهم وتنقلاتهم إلا برخص خاصة من الإدارة العسكرية الفرنسية.

5 . تم تكثيف عمليات التفتيش والاستنطاق والتعذيب والاعتقال والإبعاد بصورة متواصلة في إطار سياسة الإرهاب والتخويف والزجر.

6 . نظمت كتائب وفرق عسكرية متنقلة اعتمدت نظام وتكتيك جيش التحرير الوطني في السير والتنقل والحركة، وذلك لمضايقة جنود جيش التحرير في الجبال والغابات، استعمل فيها خاصة جنود الحركة والقوم.

هـ خطط جيش التحرير في مواجهة عملية المجهر:

إن عملية المجهر هذه ضخمة وخطيرة تسببت في مقتل واستشهاد حوالي ثمانية الاف مجاهد، ولكن جيش التحرير واجهها بصبر وشجاعة، واتخذ عدداً من الإجراءات من ضمنها:

1 . السير فرادى أو في أفواج صغيرة جداً ومنع تجمع المجاهدين في مكان واحد وبأعداد كبيرة.

2 . تجنب المواجهة مع العدو في المعارك والاعتماد على نصب الكمائن وتكثيفها.

3 . نصب الألغام والمتفجرات في الطرق والجسور التي تمر عليها القوات العسكرية الفرنسية لنسفها وعرقلة نشاط تلك القوات.

4 . الاعتماد على عنصر النساء في التموين والاتصال والعلاج ونقل الأخبار وذلك لضعف الشبهة فيهن، وقدرتهن على تلك الأعمال بعد أن دمج كل المسبلين في جيش التحرير.

5 . استغلال المزارع والقرى الواقعة بالسهول التي تخلت عنها القوات الفرنسية مؤقتاً وذلك لجلب المؤن منها، ونقلها إلى المخابأئ المعدة لذلك في المراكز الجبلية فور انسحاب القوات الفرنسية منها، وبذلك كان يتم يومياً تبادل المواقع بين جنود جيش التحرير وقوات الاحتلال، التي لم تشعر بذلك ولم تتفطن، وبالطبع كان يتم ذلك بواسطة الأعوان المجندين لصالح الثورة.

و . أسباب فشل عملية المجهر:

إن عملية المجهر رغم العدد الضخم الذي جند فيها من الجنود والأسلحة، ورغم الأساليب المتطورة التي طبقت خلالها ؛ إلا أنها انتهت إلى الفشل الذريع الذي لم يستطع الفرنسيون إخفاءه، ومرد ذلك يعود إلى عدد من الأسباب والعوامل، منها:

1 . انهيار معنويات الجنود الفرنسيين خاصة الضباط والإطارات منها بسبب طول أمدها.

2 . عدم جدوى مخطط شال العسكري رغم كل الإمكانيات التي حشدت فيه، وذلك لكونه بني على معلومات خاطئة بالنسبة للثورة وموقف الشعب منها.

3 . كانت معظم القوات الفرنسية التي استعملت فيها منهكة في العمليات السابقة بجنوب وهران والونشريس والحضنة وجبال عمور وأولاد نايل، ولم يكن بمقدورها أن تبذل جهوداً أخرى أكثر في هذه العملية.

4 . كان جيش التحرير مدرباً مسبقاً على مواجهة مثل هذه العمليات العسكرية الضخمة منذ بداية الثورة، ولم تكن هذه العملية شيئاً جديداً ومفاجئاً له، والشيء الجديد فقط هو كثرة العدد وطول المدة.

5 . كان جيش التحرير يتوفر على أجهزة استعلامات قوية ومحكمة سمحت له بالاطلاع على خطط العدو وباستمرار وعلى نواياه ومشاريعه وتحركاته، وكل ذلك مكّنه من المواجهة المطلوبة والتكيّف مع الأوضاع الجديدة بالكيفيات المناسبة والملائمة في الميدان.

6 . لم يكن الجيش الفرنسي يتوقع أن يجد أمامه فراغاً رهيباً في الميدان، حيث اختفت عناصر جيش التحرير والمسبلين، وفشل في القضاء النهائي عليها كما كان يأمل، وفاته زمام المبادرة والمفاجأة رغم ضخامة القوات والمعدات التي جندها للعملية.

7 . وقد أثبتت عملية المجهر هذه مدى ارتباط الشعب الجزائري بالثورة وتمسكه بالجهاد والمقاومة، وتفانيه في دعم المجاهدين والمسبلين مادياً وبشرياً وروحياً بشكل لا نظير له، يعتبر إحدى معجزات هذه الثورة المباركة. وأثبتت كذلك مدى حرص الشعب على ضرورة استرجاع حريته وانتزاع استقلاله الوطني، وطرد الغزاة المعتدين مهما تكن التضحيات التي سيقدمها[1].

6 . مراكز التجمع والاحتشاد:

كان لفشل مشروع شال العسكري الضخم أثره السيء والكبير على فرنسا سياسياً وعسكرياً وداخلياً، وأخذ ديغول يصعّد مناوراته ومخططاته العسكرية الجهنمية، وأخذ الجيش الفرنسي يعمد إلى تطبيق سياسة عزل الشعب عن الثورة، ومنع المجاهدين من التزود بالمؤن والأغذية والأدوية والمعلومات والأخبار عن تحركاته.

وفي إطار هذه السياسة مارس الجيش الفرنسي أسلوب تجويع الثوار، وإرغامهم على الاستسلام أو الموت جوعاً، وتهجير السكان من قراهم ومداشرهم ومشاتيهم في الأرياف والسهول والجبال وحشدهم في مراكز ومحتشدات خاصة أعدت خصيصاً لذلك، وأحيطت بالأسلاك الشائكة ومراكز المراقبة والحراسة الشديدة ليلاً ونهاراً.

وقد بلغ عدد هذه المحتشدات في الجزائر كلها 250 مركزاً ومحتشداً، بينها عدد كبير في الولاية الثالثة وحدها، وبدأ أسلوب إقامة المحتشدات منذ عام 1956م، ولكن تم التوسيع في إقامتها بعد عام 1958م ووصلت إلى القمة عام 1961م، وبلغ عدد السكان المهجرين إلى هذه المحتشدات أكثر من ثلاثة ملايين شخص، وهو ما يقدر بأكثر من ثلث سكان البلاد كلها، والنسبة الكبيرة منهم في هذه الولاية ذات الطابع الجبلي الشائك والمعقد التضاريس، وسلط عليهم القهر، والبؤس، والعري، والإهانة، والخصاصة، والأمراض والتعذيب.

---

(1) المصدر السابق ص 189.

ومارس الضباط العسكريون وضباط المصالح الخاصة عليهم مختلف ألوان التعذيب والتحقير والإهانة والقتل والتشريد، وفي بعض الأحيان يظهرون للبعض منهم الرأفة والرحمة والعناية الصحية والغذائية لاستمالتهم واستخدامهم في مصالحهم الخاصة، وعاش السكان ظروفاً صعبة وقاسية على مدى سنوات الثورة كلها.
ومع ذلك فإن هذا الأسلوب لم يفد في تحطيم الثورة وإضعافها، لأن السكان المهجرين واصلوا دعمهم لها داخل هذه المحتشدات، وكونوا الخلايا لجمع الأموال ونقل الأخبار والأسلحة والذخائر وحطموا هذا الحصار الجهنمي واخترقوه، ونجحوا في تجنيد عملائهم حتى داخل المتعاونين مع القوات الفرنسية من الحركة والقوم، الذين جندوا للقيام بمهام المراقبة والحراسة لهذه المحتشدات، فأخذوا يزودون الثورة بالأخبار والمعلومات عن تحركات القوات الفرنسية وبالأدوية والأغذية والألبسة والذخائر والاشتراكات المالية.

7 . إقامة المناطق المحرمة:

وبعد تهجير السكان من قراهم ومداشرهم، أعلنت تلك المناطق محرمة لخنق الثورة، خاصة المناطق التي تعتبر قلاعاً ومراكز حصينة في جرجرة، وحوض الصومام، وغيرها بالنسبة للولاية الثالثة، وباشر الطيران الفرنسي قنبلة القرى والمداشر وتهديمها بالقذف بالقنابل الضخمة التي تزن الأطنان وبالمدافع البرية في المراكز العسكرية المجاورة لتلك المناطق المحرمة، وعن طريق البواخر من البحر بالنسبة للقرى الساحلية القريبة من البحر أو المجاورة له، وواصلت القوات البرية المتنقلة ـ خاصة فرق القوم والحركة ـ حرق القرى وإتلاف المزروعات وتخريب الحقول والبساتين، وتلغيم البعض منها حتى لا يتاح لجنود جيش التحرير والمسبلين أن يعتصموا بها أو يلجؤوا إليها عند الضرورة عندما تداهمهم الطوارئ وتباغتهم القوات الفرنسية، كل هذا تطبيقاً لسياسة الحصار والتجويع.

8 . المصالح الإدارية الخاصة S.A.S :

ومع سياسة مراكز الاحتشاد والمناطق المحرمة، أنشأت القوات الفرنسية المصالح الإدارية الخاصة، التي تعارف الناس على ذكرها باسمها المختصر الصاص « S.A.S »، من أجل محاربة الثورة بوسائل إدارية ونفسية بسيكولوجية، ولكسب أفراد الشعب وثقة المواطنين جنباً إلى جنب مع العمل العسكري.
ولذلك كان كل مركز عسكري مقروناً بمركز أو مصلحة إدارية خاصة بجانبه، يقودها ضباط متخصصون يتظاهرون بالمعاملة الإنسانية الحسنة والشفقة والإحسان والرأفة، وبمساعدة المواطنين والعمل على تخليصهم من العقوبات والعذاب المسلط عليهم، ويفتعلون البشاشة وحسن الاستقبال للمقبوض عليهم، والمسجونين، والمعوقين، ولكل المواطنين بصفة عامة، على أمل الحصول على ثقتهم كوسيلة للحصول منهم على المعلومات المطلوبة عن الثورة ورجالها[1].
وفي أغلب الأحيان تتولى هذه المصالح المختصة توزيع المواد الغذائية على المحتاجين والراغبين في الحصول عليها لكسب ثقتهم واستمالتهم إليهم، واستعمالهم في الأغراض التي تخدم مصالح القوات الفرنسية ضد الثورة وذلك

(1) المصدر السابق ص 190 . 191.

بطريقة ذكية وماكرة، وعندما تتأكد من ثقتهم هذه تطلب منهم قطع الصلة بالثوار وعدم التعامل معهم، ومساعدة القوات الفرنسية على محاربتهم والقضاء عليهم.

ومع ذلك فإن المواطنين لم ينخدعوا بهذه السياسة الاستعمارية وتفطنوا لها، ولما تبيته هذه المصالح الإدارية الخاصة لهم، فأفشلوا سياسة ضباطها الماكرين ولم ينجحوا إلا نجاحاً محدوداً جداً، وفي بعض المناطق دون أخرى، وهو الأمر الذي دفعهم إلى تجنيد القوم والحركة من المدنيين وتكوين فرق خاصة منهم، مكّنوها من النيل منهم بصورة بشعة ودنيئة ورخيصة.

9 . تكوين فرق الحركة والقوم:

بدأ تكوين فرق القوم والحركة منذ بداية الثورة من الجزائريين، وتم التوسع فيها بعد مجيء الجنرال ديغول إلى الحكم عام 1958م، ولا يختلفون عن القوم والصبايحية في القرن الماضي، كذلك بالنسبة لطبيعة مهامهم ضمن القوات الفرنسية، وقد تضاعف عددهم وتعددت مهامهم ضمن القوات الفرنسية، وتحملوا مسؤولية التنكيل بالشعب وارتكاب أبشع الجرائم ضده بأمر من أسيادهم الاستعماريين.

فكانوا يقتحمون القرى والمنازل على غفلة من أهلها في الليل والنهار، ويعتدون على حرمات النساء والبنات ويهتكون أعراضهن، ويحرقون المنازل والقرى ويسلبون وينهبون كل ما يجدونه ويقدرون عليه من الحلي والأمتعة والألبسة والأغذية ويتلفون الباقي ويفسدونه، ويقتلون الحيونات الزائدة عن حاجتهم، ويقتلون الناس بالجملة، ويعتقلون من شاؤوا، ويعذبون الشيوخ الكبار والأطفال الصغار والنساء، ويغررون بالمواطنين فيتظاهرون في زي المجاهدين ويطلبون المأوى والغذاء والمعلومات المطلوبة، ثم يكشفون عن حقيقتهم بعد أن يتوصلوا إلى ما يريدون، ويقومون بتعذيبهم وعقابهم بمختلف الوسائل والبطش بهم، ومصادرة أملاكهم وثرواتهم وأمتعتهم وسَوقهم إلى مراكز القوات الفرنسية.

ولذلك احتقرهم الشعب وتصدت الثورة لمحاربتهم وتصفية الغلاة منهم، وكلفت من يتربص بهم لتصفيتهم في كل مكان من الريف والمدينة، بالأسواق والشوارع والأزقة والثكنات وفي مختلف المناسبات، فقلّ نشاطهم، وأصبحوا عالة على القوات الفرنسية ابنداءً من عام 1961م ولا يخرجون إلا معها وفي حمايتها، ولا يمارسون مهامهم إلا بدعمها، ونال الكثير منهم جزاءهم خلال الثورة، وبعدها فر الكثير منهم إلى فرنسا مع القوات الفرنسية الراحلة، ويعانون هناك الحياة العنصرية من طرف الشعب الفرنسي الذي يحتقرهم ويذلهم ولا يرعى حرمتهم ولا يقدر خدماتهم له.

10 . فرق الدفاع الذاتي:

ومع فشل سياسة فرق الصاص والحركة والقوم ؛ عمدت القوات الفرنسية إلى إنشاء وتطبيق أسلوب الدفاع الذاتي AUTO DEFENSE للمواطنين بعد تسليحهم، وجعل المواطنين الاخرين ينظرون إليهم نظرة الريبة واعتبارهم محاربين ضد الثورة والثوار إلى جانب القوات الفرنسية، وقد روجت وسائل الإعلام الفرنسية

لهذا الأسلوب من الدفاع الذاتي وشخصته على أنه دفاع ضد القتلة والمجرمين والخارجين عن القانون، والمعتمدين على أبناء جلدتهم الذين طلبوا بإرادتهم الأسلحة من الجيش الفرنسي لمحاربتهم وقتالهم في إطار الدفاع الذاتي[1]. ولكن هذا الأسلوب أيضاً لم ينفع ولم يقدم أية نتيجة، لأن الكثير من عناصر قوة الدفاع الذاتي تحولوا إلى خدمة الثورة دون أن يشعر العدو بذلك.

11 . سياسة الحصار الغذائي والتجويع:

طبق الاستعمار الفرنسي هذه السياسة لخنق الثورة، وتوسع فيها عن طريق تقسيط المواد الغذائية وفرض حصار غذائي شديد على المواطنين حتى لا يزودوا المجاهدين بالمؤن، وعمل على ربط الشعب به بواسطة اتصاله الدائم بالإدارة الفرنسية للحصول على احتياجاته الغذائية، ولاستمالة البعض من الناس تدريجياً للتعامل معه، والانفصال عن الثورة والمجاهدين.

وفي إطار هذه السياسة ركز الاستعمار الفرنسي جيشه في الأماكن الاستراتيجية، لمراقبة جميع تحركات ونشاطات المجاهدين وأفراد الشعب، وقام بعمليات مسح وتمشيط للسهول والجبال والغابات والقرى والمداشر والمباني والمنازل، ودمر كل ما له صلة بالثورة من بشر ونبات وحيوان وعقار، وسمم ينابيع المياه والابار وأشجار الفواكه والخضر في الحقول والبساتين، لتقتل كل من يأكلها ويشربها من الثوار وأنصارهم، وأتلف كل ما يمكن أن يعتبر مصدراً للغذاء.

وقد حددت الإدارة الاستعمارية الكميات التي ينبغي أن يزود بها كل سوق من المواد الغذائية، بصورة شحيحة ومقترة لا نظير لها إلا في سنوات المجاعات الحادة، ومنها سنوات الحرب العالمية الثانية التي أكل الناس فيها جذور تار الغدى وغيرها من الحشائش.

وواجه الجزائريون والشعب في الولاية الثالثة كما في غيرها سياسة التجويع هذه بالمزيد من الصبر والتحمل لا نظير لها كذلك، واعتمد على الحشائش الطبيعية والأعشاب والثمار كالبلوط والخروب والزعرور والحيونات البرية والتين والزيتون وأسيسنو والعناب وغيرها، وتمكن من اجتياز الأزمة وإفشال هذه السياسة الاستعمارية، وأبدى الأثرياء تضامناً لا يقدّر مع القاعدة الشعبية في هذه المعاناة.

وعندما أقدمت قيادة الولاية الرابعة على إرسال وفد إلى الإليزي، لمقابلة الجنرال ديغول والتفاوض معه في إطار سلم الشجعان الذي أعلنه في زمورة يوم 28 جويلية 1959م دون علم جبهة التحرير الوطني في الخارج، واشترط ديغول ضرورة اشتراك باقي الولايات خاصة الثالثة.

ورفضت قيادة الولاية الثالثة ذلك بشدة إلا في إطار الاعتراف بالاستقلال التام ووحدة التراب وتقرير المصير بقيادة جبهة التحرير الوطني الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، وقامت هذه القيادة بإخبار باقي الولايات وإطلاعها بالأمر، فبالغت القوات الفرنسية في الضغط على الولاية جزاء على موقفها المبدئي،

---

(1) المصدر السابق ص 192، 193.

وتعرضت لخسائر فادحة مادية وبشرية، لكنها صبرت حتى لا يتم التفريق بين الداخل والخارج وبين الولايات فيما بينها.

12 . أسلوب ضباط العمل البسيكولوجي:

جندت القوات الفرنسية ضباطاً متخصصين في العمل البسيكولوجي، واستعملتهم لفصل الشعب عن الثورة والمجاهدين، وذلك بوسائل متنوعة أهمها:

1 . المصالح الإدارية الخاصة التي تدعى بالصاص، والتي تأسست عام 1956م وتم التوسع فيها منذ عام 1957م، وازدادت أهميتها في عهد الجنرال ديغول وضباط المصالح الخاصة من خريجي المدارس المتخصصة في فنون الدعاية وغسل الأمخاخ، وانتشرت في مختلف أنحاء البلاد خاصة الولاية الثالثة بقسميها الشرقي والغربي، حيث كثافة السكان عالية جداً والمظاهر التضاريسية معقدة وحماس الشعب لا حدّ له(1).

وعندما لا يوجد ضباط متخصصون من هذا النوع يتولى ضباط الثكنات والمراكز العسكرية مهمتهم، ويستعملون جنود الحركة والقوم في الاتصال بالشعب، والترجمة والاستجواب والحراسة وما إلى ذلك من المصالح.

2 . إحصاء الشبان واستدعاؤهم للخدمة العسكرية الإجبارية حتى لا يلتحقوا بصفوف الثورة.

3 . وضع بطاقة إحصائية لكل السكان ومتابعة تحركاتهم بالمراقبة والتفتيش والاستعلام والاستدعاء.

4 . وضع بطاقة خاصة لكل الشبان الذين تتجاوز أعمارهم سن 14 سنة لإحكام الرقابة عليهم وعلى أنشطتهم وأماكن تواجدهم.

5 . إصدار رخص الخروج وفرض الرقابة المشددة على الدخول كذلك.

6 . إصدار بطاقات التموين ومراقبة الشعب في استخدام تلك المؤن بوسائل العملاء، تحت إشراف ضباط المصالح الإدارية الخاصة نفسها والمشرفة على التوزيع.

7 . إصدار بطاقات خاصة لعملائهم ورعايتهم لهم وعنايتهم بهم.

8 . القيام بمهام الحالة المدنية.

9 . ترقيم المنازل والبيوت والمساكن، واستدعاء أصحاب الحوالات والطرود البريدية لاستفسارهم والاستعلام عن مصادرها وأوجه صرفها، وحجز تلك الحوالات لديها وتجزئة صرفها لهم شهرياً حسب عدد أفراد العائلة.

10 . القيام بحملات دعائية مسمومة لكسب المواطنين، ومحاولة إقناعهم بأن جيش التحرير الوطني إنما يريد بهم إضراراً وليس نفعاً.

11 . ربط وتوزيع التموين ووسائل العيش بتقديم المعلومات عن المجاهدين والمسبلين والثورة.

12 . السهر الدائم على تنشيط الإذاعات المحلية المجندة ضد الثورة ودعم وسائلها ودعايتها وترويج أخبارها ومنها: صوت البلاد.

---

(1) المصدر السابق ص 194، 195.

13 . استنطاق المعتقلين والموقوفين في المحتشدات والسجون والمعتقلات وإجراء حوارات معهم للتمكن من إضعاف معنوياتهم وغسل أمخاخهم.

وقد واجهت الثورة أساليب هؤلاء الضباط كما واجهت الأساليب والخطط الأخرى، وأفشلت وأشلت العمل البسيكولوجي الذي اعتمدوا عليه، واستعملت الرشاوي وباقي المغريات المادية والمعنوية للحصول على المعلومات المطلوبة من بعض المعمرين، ورجال الاستخبارات الفرنسية، وأذنابها من الجزائريين في صفوف الحركة والقوم والدفاع الذاتي،والموظفين في البلديات والدواوير والمصالح الإدارية المختلفة.

وبذلك افتضحت دعاية الإذاعة والتلفزة وصوت البلاد والمنشورات والجرائد وشعارات الجدران في الأماكن العامة والأسواق وفي الساحات العامة للقرى والمداشر والدواوير.

13 . وسائل التعذيب ومراكزها:

لقد تفنن الاستعمار الفرنسي في تعذيب الجزائريين طوال سنوات الثورة السبعة والنصف، وارتكب ما عجزت عنه مصالح الغستابو النازية الألمانية وليس من السهل الإحاطة بها، ولذلك نقدم عينة منها تمثل نموذجاً من جهة، وقطرة من بحر من جهة أخرى، على مستوى الجزائر كلها في الولاية الثالثة بالذات.

ومن ضمن مراكز التعذيب فيها: مجانة، ثنية الخميس، بوني، الكانطيلة، أولاد خليفة، تفرق، إلماين، أولاد سيدي إذير، ثاموقرة، أورير، أوعمولي، بني حافظ، بني ورتلان، اقبو، فريجة، بني وغليس، أوقاس، ثكنة بني ورتلان، أمالو، ملعب اقبو، تيشي، أزفون، تقزيرت، واد عيسى، زموري، قالوطة،كورتسي تيزي نصليب، قيندوز، دار خيوطي، ثاله نتسكرين المايدة، تروني، أيفوغالين، موزاية، توجه، اعقار، ايثوغليس، واد اميزور، تورنو، زياتين بوحلو، مزرعة ميشال، مزرعة رال ايمشدالني، أهل القصر، الشرفة، واد اخريص، بني منصور، حيزر، صهاريج، الهاشمية، سور الغزلان، وغيرها.

ومعظم الذين يساقون إلى هذه المراكز يخرجون منها إلى القبور الجماعية مباشرة، والأقلية الناجية يعودون إلى منازلهم مشوهين ومعطوبين ومعوقين جسدياً وعقلياً، وذلك بسبب قساوة وسائل التعذيب التي تطبق عليهم ومنها:

الكي بالنار . تسليط التيار الكهربائي على أجزاء الجسم الحساسة، وباقي الأعضاء الأخرى . والغطس في المياه العفنة ومياه الصابون وإرغام المعذبين على شربها، وإطلاق الكلاب على المساجين لنهشهم، ودق المسامير في الأجسام، وسلخ جلود الأحياء وطليها بالأملاح، وخلع الأظافر والأسنان بالكلاليب، ونزع الأصابع والأذان والنهود، والأعضاء التناسلية بالأمواس والسكاكين، وحرق الجفون بالنار وفقء العيون، وحرق شعر الرأس والجسم، وإجلاس الناس على رؤوس الزجاجات المكسرة والمسامير، وجرهم على أرضية مشوكة بالمسامير، وطلي الجسم بالزفت الحار، وهتك أعراض النساء، واغتصاب شرف الفتيات بحضور الأزواج والاباء والأخوة والأخوات والأقارب، والضرب بالسياط والعصي حتى الموت أو فقد الوعي، والرفس بالأرجل، وإدخال مقابض

الفؤوس والعصي والزجاجات في الأدبار، وغطس الرؤوس في المياه العفنة، وإدخال خراطيم المياه في الأفواه، وإرغام المعذبين على الشرب حتى تمتلأئ البطون وتخرج من جميع المخارج، وربط المعذبين إلى سيارتين في اتجاهين معاكسين ليقطعوا أنصافاً وأطرافاً، وإرغام الكثيرين على حفر قبورهم ودفن أنفسهم إلى الرقبة أحياء، وكنس الساحات العمومية والطرقات بالألسن، والزج بالعشرات في الابار، وغلقها عليهم حتى الموت، وحشد عدد كبير في أقبية وملئها بالماء وتركها حتى تتعفن أجسامهم، وتعلّق البعض على النار، وبقر بطون الحوامل، وإرغام الأسرى على الأكل وشرب المواد السامة، والقتل الجماعي لسكان القرى والمشاتي والدواوير، بعد التعذيب والتنكيل والدفن في مقابر جماعية بالعشرات والمئات بل والالاف، وترك الكثير منهم في العراء للوحوش الضارية، ورمي الناس في الحفر والخنادق الكبيرة وقيام الجنود الفرنسيين بالتبول عليهم، والتخلص من فضلاتهم عليهم كذلك أسابيع وشهوراً، هكذا مما لا يمكن للإنسان أن يحصره ويعدّه بما في ذلك رمي الأسرى من الطائرات الحوامة ليسقطوا على الأرض قتلى ومهشمي الأجسام.

14 . بعض النماذج من أشكال التعذيب:

في عام 1957م انتهك ستون جندياً فرنسياً حرمة وشرف فتاة في سن السابعة عشرة، هذا وراء الاخر في قرية أبويعلى ببلدية ايت خليلي في أربعاء نايت ايراثن، وذبحوا سبعة عشر شيخاً مسناً على شكل نحر الجمال.

. وفيما بين 23 و26 جويلية 1957م قام العساكر الفرنسيون بذبح سبعة وعشرين مدنياً في قرية يلولة «ايليلاتن».

. وفي نفس العام قام الجنود الفرنسيون بقتل عدد من الرجال وقطعوا أعضاء تناسلهم «ذكورهم» ووضعوها في أفواههم وتركوهم في العراء.

. وفي عام 1960 ذبح العساكر الفرنسيون ستة وعشرين مدنياً بقرية ايت أيسلي قرب تقزيرت.

. قام بعض العساكر الفرنسيين بهتك شرف أم أمام أبنائها، وأمروا شيخاً بنزع لباسه فرفض، وقاموا بنزع لباسه بالقوة ورموه على فتاة عارية على شكل وضع للعملية الجنسية، وقام أحد الجنود بفض بكارة البنت بأصابعه واتهم الشيخ بفض بكارتها وألصق التهمة به.

. قام عدد من الجنود في إحدى قرى الولاية الثالثة بفض بكارة عدد من الفتيات على مرأى من سكان القرية كلهم رجالاً ونساء وشيوخاً وشباباً.

. جمع الجنود الفرنسيون في إحدى قرى ايعكرون نساء المجاهدين وأودعوهن السجن مع حرمانهن من الأكل والشرب ثلاثة وثلاثين يوماً، حتى اضطررن أن يشربن ماء بولهن ويقسمنه على بعضهن، وفي كل ليلة يتعدى الجنود على شرف إحداهن[1].

(1) المصدر السابق 196، 197، 199.

. قام الجنود الفرنسيون في ضيعة المعمر طورنو بأوقاس شرق بجاية باستعمال صهاريج الخمر في تعذيب الرجال، فيفرغونها تماماً من الأكسجين ويملؤونها بالمساجين ويغلقونها عليهم حتى يحترقوا ويموتوا ثم يخرجونهم ويعوضونهم باخرين وهكذا.

. وفي قرية أولاد سيدي عمر ببلدية ثنية الخميس «ثنية النصر» وخلال شهر مارس 1957م جمع الجنود الفرنسيون كل رجال القرية ليلاً، وأمروهم بحفر خندق كبير ثم أعدموهم فيه واحداً وراء الاخر، وعددهم اثنان وأربعون رجلاً وذلك بحضور زوجاتهم وأطفالهم.

. وفي قرية المعاتقة جمع جنود العدو أكثر من مائتي شاب، وأمروهم بحفر خندق كبير ثم اختاروا منهم أحد عشر ورموهم داخله، وأرغموا الباقي على ردم الخندق بالتراب عليهم وهم أحياء حتى ماتوا.

. وفي قرية مشتراس قام العدو بجمع أخ مع أخته في ساحة عمومية وكان الأخ يعمل في مصلحة الدفاع الذاتي والأخت تعمل لصالح الثورة واستغلت أخاها في الحصول على المعلومات، وأرغم الجنود الفرنسيون البنت على نزع ثيابها وأرغموا أخاها على نكاحها أمام الجميع، واضطرت البنت أن تغادر القرية إلى العاصمة واختفت بصفة نهائية.

15 . مراكز التعذيب في القسمات: 2 و3 و4 الناحية 5 . المنطقة 1 . الولاية 3:

في ثاسامرت: بني لعلام، العسة.

في أولاد دحمان: طكوكة، أولاد دحمان.

في حسناوة: الشرشار، حسناوة.

في إلماين: إلماين، أولاد سيدي إذير.

في الجعافرة: الكانطية.

في تفرق: أولاد خليفة، تفرق.

في القلة: ثازلامت.

في ثنية الخميس: الفرقة، أدماع.

في مجانة: عين السلطان، مجانة.

في عين تاسرة: صدراتة، عين تسرة.

في بن داود: لباشيش، حنانتة، بن داود، الحرش.

في سيدي ابراهيم: تزمرت، منول، باشغة.

في المهير: سلاطنة، لمهير.

في المنصورة: الربيعية، المنصورة، عين الدفلة.

16 . مراكز التعذيب في القسمة 4، الناحية 4، المنطقة 1 . ولاية 3:

في زمورة: زمورة.

في خليل: الشفة، خليل، الخربة، شعبة الخولة.

في عين تاغروط: عين تاغروط.

في سيدي مبارك: سيدي مبارك.

في بني حافظ: بعد التعذيب يلقى في حفرة . مطمورة ليموت بالاختناق.

17. مراكز التعذيب في القسمتين 3 و4 الناحية 1. المنطقة 2. ولاية 3:

في القصور: القصور، الحامة، ثوبو، تازروت، أوراسن، أولاد بوبحريز.

18 . مراكز التعذيب في القسمتين 3 و4 الناحية 3 . منطقة 1 . ولاية 1:

في رأس الوادي: رأس الوادي، بئر حمودي، طمولة.

في أولاد إبراهيم: شعبة العون، بوخداش، سيدي عبد الله.

في تيكستار: أولاد مورسلي، بير الكرمة.

في برج الغدير: برج الغدير، أولاد مخلوف، الدشرة، أولاد سليني.

في غيلاسة: غيلاسة، أولاد سيدي أحسن.

في أولاد حناش: أولاد حناش.

في بليمور: عياضات، بليمور.

في الحمادية: الحمادية، الواد لخضر.

في الرابطة: الرابطة، أولاد عيسى، أم الديسة، العكريشة.

في العش: المطاوشة، غافستان، المخازن، أولاد حامة، المجاز.

19 . مراكز العدو بالولاية 3 . المنطقة 1 . الناحية 4 . القسمة 3 و4

زمورة: زمورة.

خليل: خليل، الشفاء، الخربة، شعبة الغولة.

عين تاغروت: عين تاغروت.

سيدي مبارك: سيدي مبارك.

20 . مراكز العدو بالولاية 3 . المنطقة 2 . الناحية 1 . القسمة 3 و4

القصور: القصور، الحامة، توبو، تازورت، أوراسن، أولاد بوحريز.

21 . مراكز العدو بالولاية 3 . المنطقة 1 . الناحية 4 . القسمة 3 و4

تسامرت: بني لعلام، العسة.

أولاد دحمان: طاكوكة، أولاد دحمان.

حسناوة: حسناوة، الشرشار.

إلماين: إلماين، سيدي إدير.

تفرق: تفرق.

الجعافرة: الجعافرة.

ثنية النصر: الفرقة، أدماغ.

القلة: تازلامت.

مجانة: مجانة، عين السلطان.

عين تسرة: عين تسرة، صدراته.

بن داود: لباشش، حنانته، بن داود، الحراش.

سيدي إبراهيم: تزمرت، منول باشغة.

المهير: المهير، سلاطنة.

المنصورة: المنصورة، الربيعية، عين الدفلة(1).

وهذا على سبيل المثال لا الحصر.

وقد فصّل خميسي سعدي في كتابه «معتقل الجرف بالمسيل أثناء الثورة التحريرية» في أنواع المعتقلات ووسائل التعذيب لمن أراد التوسع في هذا الموضوع.

إن ما لاقاه الشعب الجزائري خلال الاحتلال وخلال ثورته المجيدة من أنواع الظلم والقهر، ومن أنواع التنكيل والتعذيب ؛ هو الذي سيظل عزيمة فولاذية في الأعماق، وقوة موحدة وطاقة دافعة، وقيم راسخة تنفر من كل ما يمس بكرامة الوطن وينال من سيادته واستقلاله.

ولاشك أن الإيمان بالله القوي العزيز ثم الوطنية الصادقة، والوفاء لثوابت الأمة، هو الذي جعل أبطال ثورة التحرير رجالاً ونساء، شيوخاً وشباناً، يستميتون في مجالات التضحية والإيثار والفداء، وجعل الشعب الجزائري بمختلف فئاته يصمد أمام فظاعة التعذيب، فإن هذه المعاني وهذه القيم أيضاً جعلت من تاريخ الثورة الجزائرية كنزاً ومنهجاً للبطولات والمواقف التي تضاهي بها الشعوب والأمم في مجال النضال والكفاح من أجل الحرية والاستقلال والكرامة الإنسانية، ومن الكتب التي دونت وقائع التعذيب بشهادات أصحابها والمعاصرين للأحداث مع الصور الوثائقية كتاب: من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة وجرائم الاستعمار الفرنسي للدكتور

---

(1) الثورة في الولاية الثالثة ص 201 . 204.

محمد قنطاري الذي تميز بالحقائق والوثائق والدراسات والتحقيقات والشهادات على جرائم المستعمر البغيض عدو الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان.

إن هذا الكتاب في مستوى حدث الثورة الجزائرية وملحمات بطلاتها، كالمجاهدة خليف فاطمة الشهيدة التي لم تمت وغيرها من أخواتها المجاهدات.

فهذا الكتاب في واقع أمره وأبعاده العميقة، كتاب قيم وصورة عن التعذيب ناطقة معبرة وصفحة سوداء معتمة مخزية من جرائم فرنسا في الجزائر، ويمكن إيجاز خصائصه ومميزاته وأبعاده بما يلي:

. يصور أبلغ تصوير وحشية المستعمرين وحقدهم على الجزائريين.

. يختصر خصائص الشعب الجزائري في النضال والمقاومة وحب الحرية، كما يصور رغبته الملحة في الحرية والاستقلال.

. يصور فساد الفطرة والأخلاق ونذالة النفوس وخسة الطبائع عند المستعمر الفرنسي.

. يعكس بوضوح ضعف المستعمر، الذي يمارس التعذيب لأنه وجد نفسه أمام قوة قاهرة، فهو من هنا يحاول أن يحطمها بقوة الإذلال والإجرام والظلم، ولكن أنى له ذلك؟

. يصور بطولة المرأة الجزائرية في هذه المرأة فاطمة خليف التي جاهدت وقاومت وعذبت أفظع تعذيب وقطعت يداها، ومع ذلك لم تهن ولم تضعف وتشتكي، وهان عليها كل ذلك كما هان عليها أن تعيش بلا يدين وتقاسي من جراء ذلك حياة صعبة للغاية، لا يدركها إلا من يعيش بلا يدين.

. يعرض صوراً فظيعة للتعذيب الوحشي تنخلع منها القلوب، وترتاع منها النفوس، وتلبس الطبيعة من جرائها ثوب الحداد.

هذه بعض اثار تلك الصور في نفس من يراها، وكيف بأثرها في نفس من عاشها؟

. الكتاب باختصار صورة معبرة صادقة للبطولة والتعذيب في أقصى حدودهما وأبلغ دلالتهما في الجزائر خلال ثورة التحرير(1)

* * *

(1) من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة ص 229.

تاسعاً: وسائل الثورة لمواجهة السياسة الاستعمارية

لقد كانت السياسة الاستعمارية التي طبقها واتبعها جيش الاحتلال في الولاية الثالثة، كما في غيرها قاسية جداً وطاغية وشرسة ومدمرة، ولكن قادة جيش وجبهة التحرير الوطني أساساً والشعب الجزائري بصفة عامة، كانوا أكثر قدرة ونجاعة في المواجهة والتحدي، فتصدوا لمحاربته ومقاومة كل خططه العسكرية والسياسية والبسيكولوجية والاجتماعية والتنظيمية والأمنية والإعلامية والمخابراتية وغيرها، بكيفية جدّ ناجعة.

فمن ناحية التنظيم العام أشرنا وذكرنا سابقاً كيف تم تقسيم الولاية إلى أربع مناطق، وكل منطقة إلى نواحي وكل ناحية إلى أقسام أو قسمات. واستحدث جهاز تنظيمي محكم عسكري وسياسي على مستوى هذه المناطق والنواحي والأقسام، أوكل إليه تسيير شؤون الثورة والإشراف على كل أعمالها ومنجزاتها وتوجهاتها، وأثبت هذا الجهاز نجاعته في الميدان، وأفشل كل أساليب جيش الاحتلال وإداراته الاستعمارية على مدى سنوات الثورة كلها[1].

1 . من الناحية العسكرية:

اعتمد جيش التحرير الوطني أسلوب حرب العصابات والكر والفر والغارات الخاطفة المدروسة في مجموعات صغيرة وخفيفة وسريعة، وحسب الظروف والمواقع والأزمنة والأمكنة والمستجدات التي تضمن له في أغلب الأحيان التفوق والانتصار، وتجنبه كثرة الضحايا والخسائر، ومن أهم الميزات التي كانت تضمن له دوماً الانتصارات معرفته الجيدة للأرض والطبيعة وتلاحمه مع الشعب الذي يدعمه ويمده بكل الامكانيات المطلوبة مادياً وأدبياً وإعلامياً، وتواصل هذا الدعم إلى أن تحقق الانتصار الأكبر في صيف عام 1962م[2].

إن العمليات التي قامت بها جبهة التحرير الوطني في المدن وجيش التحرير الوطني في الجبال والأرياف أخذت عدّة أشكال، ولكن لها هدفاً واحداً وهو مناوشة مراكز العدو والهجوم على مواقعه وتخريب منشاته الاقتصادية، في الوقت نفسه كانت العمليات تطهر المحيط من المعذبين ومن الخونة، وقد سبقتها حملة خاصة سماهاالنظام الجبهوي التوغل، والقصد منها شرح أهداف الثورة واختيار أهل الثقة واكتشاف جيوب المعارضة، ولضمان أمن أفواج المجاهدين فرض تقتيل الكلاب حتى لا تنبه بنباحها على الزائرين، واقترنت حملة التوغل بالاستيلاء على بنادق الصيد من أجل هدفين: كسب سلاح «ولو بسيط»، وحرمان القوات الفرنسية من الحجز عليه[3].

أ. استغلال فرار الجزائريين من الجيش الفرنسي:

(1) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 205.

(2) المصدر نفسه ص 205.

(3) الثورة الجزائرية ثورة أول نوفمبر 1954م، بوعلام بن حمودة ص 227.

سعت جبهة التحرير الوطني لإقناع الجزائريين المجندين طوعاً أو كرهاً في الجيش الفرنسي بالالتحاق بجيش التحرير الوطني، إن العملية ليست سهلة لأنها محفوفة بخطر توغل العدو في صفوف الثورة، فإليكم أمثلة من هذه العمليات التي وفرت عدداً معتبراً من الأسلحة الالية لصالح جيش التحرير الوطني.

. في أكتوبر 1955م التحق الرقيب مصطفى خوجة بجيش التحرير الوطني بصحبة رفيقين، وهم حاملون عشر رشاشات من نوع 49 أ Mat وكمية من الذخيرة مع مصطفى خوجة، بمؤهلاته الحربية وشجاعته وإيمانه في صفوف جيش الولاية الرابعة، ثم استشهد يوم 11 أكتوبر 1956م ببرج الكيفان قرب العاصمة، وذلك في أثناء زيارته للجنود المجروحين المعالجين في منزل عائلة بن مرابط، واستشهد مصطفى خوجة و17 مجاهد من رفاقه، وسمي كوماندو الولاية الرابعة باسمه، وأصبح يلقن دروساً عسكرية للعدو في مستوى وسط الجزائر.

. إن طاهر زبيري، يذكر في كتابه فرار كتيبة من الجنود من سوق أهراس وعلى رأسها عبد الرحمن بن سالم «مارس 1956م» وجلبت معها أسلحة وذخيرة، إلا أن العدو تتبعها وقتل عشرات من أعضائها، وأما الناجون منها فقد واصلوا الكفاح في صفوف جيش التحرير الوطني، وعاش بعضهم حتى الاستقلال ومنهم عبد الرحمن بن سالم.

. على حسب محمد لمقامي: إن فرار الجزائريين من الجيش الفرنسي، بدأ في 1956م بالغرب الجزائري، ويذكر حالات مماثلة حتى في الغرب «في القنيطرة مثلاً»، ويذكر أيضاً فرار عدد من جنود اللفيف الأجنبي الذين رفضوا أن يكافحوا من أجل قضية ليست قضيتهم، وقد وصل عدد الفارين من اللفيف الأجنبي نحو ألف بين سنة 1956م وسنة 1958م في الغرب الجزائري، في حين يقدم فاروق بن عطية عدد 281،3 جندياً من اللفيف الأجنبي الذين استقبلتهم بلدانهم بواسطة اللجنة الدولية للصليب الأحمر[1].

ب . عملية خاصة قامت بها الولاية الثالثة:

حاول الجيش الفرنسي أن يجند ويسلح شباناً جزائريين ينتظمون على شكل وحدات صغيرة مثل المجاهدين، ويتتبعون وحدات جيش التحرير الوطني، وكانت هذه العملية خاضعة للمصالحة الأمنية الفرنسية، وجرت هذه العملية من نوفمبر 1955م إلى سبتمبر 1956م ببلاد القبائل، وكُلف أحد الضباط الفرنسيين بتجنيد الشبان الجزائريين بموافقة الحاكم العام، وكان الحاكم العام ينسق مع القيادة الوطنية والقيادة المحلية للجيش الفرنسي.

فاتصل الضابط الفرنسي « Ousmer » بشخص كان يعرفه وهو الطاهر حشيش، وهذا الأخير اتصل بصاحب مطعم في عزازفة اسمه أحمد أوزايد، ولكن كان هذا الأخير مناضلاً في حزب الشعب الجزائري وصديقاً لبلقاسم كريم وعمر أوعمران، فاتصل أحمد أوزايد بهما بواسطة سعيد بريروش «يا زوران» الذي عُيّن فيما بعد عقيداً وقائداً للولاية الثالثة، فكلف أحمد أوزايد بالإشراف على العملية، ولكن بتجنيد مناضلين جبهويين لهذه القوة بدلاً من أعداء الثورة، فقد وصل عدد المجندين 500،1 شخص تحركوا على شكل وحدات أوهمت القوات الفرنسية بأنها تقوم بتصفية «المجاهدين»، بينما هي كانت تصفي أعداء الثورة. ونظراً إلى مخاطر العملية

(1) الثورة الجزائرية، د . بوعلام بن حمودة ص 228.

تقرر في مؤتمر الصومام إصدار الأوامر لكي تلتحق هذه القوة بجيش التحرير الوطني، هرب هؤلاء بسلاحهم إلى جيش التحرير الوطني يوم 30 سبتمبر 1956م، غداة هذا الالتحاق نظمت القوات الفرنسية حملة واسعة للتفتيش، فاستشهد 300 مجاهد وأسر 600 والتحق 600 بجيش التحرير الوطني فامتزجوا بوحدات المجاهدين.

إن هذه العملية الكبيرة والجريئة والذكية قد رفعت معنويات الشعب كما أشارت إلى ذلك جريدة المجاهد رقم «3»[1].

ج . تعدد أشكال هجومات جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني:

إن هجومات جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني انتشرت في كل أنحاء الوطن بأشكال متعددة.

. استهدفت عمليات التخريب: المحصولات الزراعية والمزارع التابعة للمعمرين والطرقات والجسور والسكة الحديدية والمحولات الكهربائية والأعمدة.

. صناعة القنابل ظهرت في كل ولاية: وقد أشرف عليها جنود لهم تجربة في الجيش الفرنسي،ء وتحايلوا في استعمال القنابل الفرنسية التي لم تنفجر، وتمكنوا من تشغيل الألغام عن بعد، فهكذا تكرر تفجير القطارات في «واد جرّ» غرب العاصمة، الأمر الذي أدّى إلى حراسة شاملة للسكك الحديدية من طرف عدد كبير من القوات الفرنسية، وقد لجأت هذه الأخيرة إلى وضع المسافرين الجزائريين في الأمام وقاية من التفجيرات. فوجه جيش التحرير هجوماته على قطارات البضائع[2].

في الجزائر العاصمة كلف الطالب في الكيمياء المسمى عبد الرحمن طالب بصنع قنبلة تُستعمل كجواب على القصف الذي يتعرض له السكان في الجبال.

لقد توصل الطالب إلى صنع أول قنبلة بمساعدة شريف دبيح في أوت 1956م، فتطوعت نساء وطالبات لوضعها في أماكن يتردد إليها فرنسيون متطرفون. إن هذا النوع من العمليات أحدث هلعاً في صفوف العدو.

. تشكلت أفواج من المجاهدين في وقت مبكر تحت إشراف مصطفى فتّال وبلقاسم بوشافة، المتصلين بجيش التحرير في المنطقة الرابعة «الولاية الرابعة»، ثم أشرف سعدي ياسف على النظام السياسي والعسكري بالعاصمة، حيث وجهت ضربات قوية ضد الخونة والفرنسيين المتطرفين ومسؤولي الجيش الفرنسي والشرطة والثكن ومراكز الشرطة.. وذلك على يد علي عمارا المدعو علي لابوانت وعمر حمادي واخرين. وقد ارتفع عدد العمليات بالجزائر حتى أن العميد «راؤول صالان» يعترف في مذكراته بأنه في شهر نوفمبر 1956م وحده شنت جبهة التحرير الوطني 2900 عملية هجومية في العاصمة.

وهناك قوات أخرى واجهتها جبهة التحرير الوطني بالعاصمة، وهي التنظيمات السرية التي تكفلت بقتل الجزائريين واستفزازهم.

(1) المصدر نفسه ص 229.

(2) المصدر نفسه ص 230.

ولقد هوجمت كنائس بالعاصمة بيد أن سعدي ياسف قائد منطقة الجزائر يذكر أنه لم يُصدر أمراً بالهجوم، فهدف المتطرفين كان جرّ الفرنسيين إلى عمليات إشعال النار ضد الجزائريين الأبرياء «ديسمبر 1956م».

. ويذكر علي هارون أن خلايا العمليات في فرنسا بدأت تظهر ابتداءً من اخر 1955م تحت إشراف أحمد دوم وعبد الكريم سويسي، ركزت العمليات في البداية على الدفاع الذاتي ضد اعتداءات المصاليين والشرطة. إن هذه الإضاءات تعطي صورة عن حجم العمليات بالمدن. ولكن كيف جرت العمليات في الأرياف[1]؟

د . هجومات وكمائن واشتباكات في الأرياف:

نشير في بداية الفقرة إلى أن العمليات العسكرية لم تكن في شكل واحد «كمين هجوم اشتباك..» لأنها قد تبدأ بكمين وتتواصل باشتباك، وقد تتضمن عملية تفتيش «يقوم بها العدو» كميناً في أثنائها تنصبه وحدة لجيش التحرير، زيادة على أن كل عملية يشنها جيش التحرير الوطني تكون متبوعة بحملة تدميرية وتقتيلية تقوم بها القوات الفرنسية ضد السكان الموجودين جغرافياً في مكان الكمين أو الاشتباك.

إن العمليات كانت يومية وفي كل الجهات، أحصتها الملتقيات التي نظمتها المنظمة الوطنية للمجاهدين ولكنها غير مكتملة، فعلى المجاهدين الباقين على قيد الحياة أن يكملوها لأنها تبين حجم المعارك وعظمة التضحيات، كما تبين الجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبتها القوات الفرنسية، كما تقدم نماذج من المعارك التي وقعت من سنة 1954م إلى سنة 1956م، حتى نبين جو الحرب بين فئة قليلة من المؤمنين بقضيتهم التحررية وفئة كثيرة مدججة بالسلاح، وهي لا تؤمن بقضيتها بل هي الة قتل يحركها النظام الاستعماري[2].

هـ نماذج من المعارك المختلفة:

. وقع اشتباك بين وحدات من جيش التحرير الوطني يقودها كل من عباس لغرور والحاج لخضر واخرين تحت إشراف ناجي ندوي في خفقة أمعاش بالقرب من أريس «8 نوفمبر 1954م». إن القوات الفرنسية أرادت أن تقضي على الثورة عند ميلادها إلا أنها فقدت 150 جندياً «مجموع القتلى والجرحى»، استشهد في هذه المعركة 12 جندياً وجُرح اخرون من بينهم قائد وحدات المجاهدين ناجي ندوي الذي فقد عينه في الاشتباك.

. في أم الكماكم في ناحية تبسة جابه مائة مجاهد «تحت قيادة بشير شيهاني» 1،500 جندي فرنسي مسلحين بأسلحة خفيفة وثقيلة ومستعملين دبابات وطائرات، استشهد في الاشتباك 12 مجاهداً وجُرح 20 اخرون، لكن القوات الفرنسية فقدت 80 جندياً «مجموع القتلى والجرحى» وطائرة أسقطها المجاهدون وعدداً من الشاحنات التي أحرقها المجاهدون المهاجمون.

. على حسب علي كافي، إن هجوم المجاهدين والسكان في الشمال القسنطيني يوم 20 أوت 1955م ؛ كان محضراً منذ ثلاثة أشهر من طرف يوسف زيغود قائد المنطقة الثانية «الولاية الثانية فيما بعد»، الهدف العسكري

(1) المصدر نفسه ص 230، 231.

(2) المصدر نفسه ص 231.

للهجوم هو مناوشة مواقع العدو وتخفيف الحصار على «الأوراس النمامشة» تلبية لطلب المنطقة الأولى «الولاية الأولى فيما بعد».

أما الأهداف السياسية فهي داخلية: إيقاظ المتمردين من الشعب، وإحداث حالة «لا أمن» دائمة، وإظهار الجانب الشعبي للثورة، وخارجية: ممارسة ضغط حتى تُسجل قضية الجزائر في جدول أعمال الأمم المتحدة، والتعبير عن التضامن مع الشعب المغربي الذي يتظاهر للمرة الثانية احتجاجاً على نفي الملك محمد الخامس إلى مدغشقر[1].

. يوم 22 سبتمبر 1955م وقعت معركة الجُرف الشهيرة جنوب شرق «مدينة تبسة» التي أصبحت أسطورة يفتخر بها المجاهدون عبر الوطن، وقد خلدها المجاهد والشاعر الكبير محمد الشبوكي في نشيده الخالد: «جزائرنا يا بلاد الجدود...» بقوله في أحد الأبيات:

«سلوا جبل الجرف عن جيشنا فيخبركم عن مدى بطشنا»

وقد دامت هذه المعركة 8 أيام فقد العدو فيها حوالي 600 جندي، وجرح أكثر من ذلك، بينما استشهد 80 مجاهداً، وقد كان المجاهدون تحت قيادة بشير شيهاني وعباس لغرور وعجول عاجل، ويمكن الاطلاع على تفاصيل هذه المعركة في كتاب العقيد الطاهر الزبيري الذي يقول: إن المجاهدين تمكنوا من إسقاط عدد من الطائرات ومن تدمير عدة دبابات، ويقول: إن بعض المجاهدين المحاصرين من طرف قوات ضخمة للعدو كانت تستعمل السلاح الثقيل والخفيف، قد استطاعوا أن يصلوا إلى مغارة كبيرة اختفوا فيها، فعندما اكتشفتها القوات الفرنسية سدّتها، ولكن بعد حين أحس المجاهدون تياراً هوائياً اتياً من مدخل ثان بعيد عن الأول، فاستطاعت الوحدات المنسحبة إلى المغارة أن تخرج من الباب الاخر فنجت بأعجوبة.

. وفي 13 يناير 1956 وقعت معركة بقيادة مصطفى بن بولعيد «قائد المنطقة الأولى» بالأوراس جابه فيها ألفين من جنود العدو بإفري لبلح، أسفرت المعركة عن استشهاد 28 مجاهداً و16 مدنياً منهم امرأة وطفل، ومن جهة العدو سقط 110 جندياً «بين قتلى وجرحى».

. رجعت قوات العدو 12 جويلية 1956م إلى المنطقة بجيش مكون من حوالي 8،000 عسكري ومحمي بـ 22 طائرة من كل نوع وبالأسلحة الثقيلة، وقد كان عدد المجاهدين 75، دام الاشتباك من الفجر إلى الليل، فأسفر عن استشهاد 14 مجاهداً وعن مقتل حوالي 300 جندي فرنسي وعدد من الجرحى يناهز هذا الرقم، وقد أسقطت طائرتان عموديتان.

حاول الجيش الفرنسي تحطيم مركز جيش التحرير بقرية أولحاج في بلدية ششتار قرب خنشلة، فهاجم المركز بألفي جندي وهو متستر بعدد من السكان وضعهم في الصف الأمامي، وكان ذلك في شهر جويلية من سنة 1956م.

---

(1) المصدر نفسه ص 232.

. وقد دامت المعركة ثلاثة أيام بين ألفي عسكري فرنسي أتوا من المراكز القريبة، ومائتي مجاهد مسلحين بأسلحة الية و9 بنادق ورشاشة، فقتل حوالي 500 جندي فرنسي واستشهد 60 مجاهداً وجُرح 20 وأسر 3، في اليوم الثالث من المعركة استطاع المجاهدون أن ينسحبوا من الحصار.

. في يوم 19 أوت 1956م اشتبكت كتيبتان من جيش التحرير الوطني مع الجيش الفرنسي في سطحة الدير بالكويف شمال تبسة، كانت الكتيبتان مسلحتين بأسلحة الية ونصف الية، وبنادق صيد و3 بنادق رشاشة، وقد تدخل العدو بثلاثة الاف عسكري مدعمين بـ 15 طائرة وبدبابات ومصفحات وأسلحة ثقيلة.

. يوم 27 نوفمبر 1956م وقع اشتباك كبير في جبل نوال على بعد 7 كيلو مترات جنوب تبسة، كان الجيش الفرنسي متألفاً من حوالي 20،000 عسكري، وأما عدد المجاهدين فقد كان يقدر بـ 700 موزعين على 5 كتائب، وقد فاجأ المجاهدون العدو عند نزول العساكر من الشاحنات، فأطلقوا عليهم النار بالبنادق الرشاشة، وعند ذلك تدخل الطيران فأطلق النار خطأ على القوات الفرنسية، مما رفع حصيلة العدو إلى حوالي 500 جندي قتيل و700 جريح و6 طائرات مُسقطة، وقد استولى المجاهدون على 20 رشاشة وثلاث بنادق رشاشة وعدد من القنابل اليدوية.

. وفي 2 أفريل 1957م وقعت معركة في بوشقوف «ولاية قالمة»، اشتبكت فيها فصيلتان من جيش التحرير الوطني مع 7000 جندي فرنسي مدعمين بالطائرات والدبابات والأسلحة الثقيلة، تفرقت الفصائل إلى 7 أفواج وتمركزت في أماكن صخرية، واستعملت أسلحتها الالية وبندقيتها الرشاشة، أسفرت المعركة عن قتل حوالي 300 جندي فرنسي وجرح 200 وقد أسقطت طائرتان، في حين استُشهد 54 مجاهداً وأُسر 12.

. يوم 28 جوان 1957م عرف جبل فوه «بين تبسة وبئر العاطر» اشتباكاً كبيراً بين 6،000 جندي فرنسي وثلاث فصائل من المجاهدين مسلحين ببنادق الية وثلاث رشاشات ثقيلة، صدّ المجاهدون هجمات العدو وتمكنوا من اختراق خط المحاصرة، بعد قتل 300 جندي فرنسي وجرح ما يقارب هذا العدد وتدمير دبابتين وشاحنات، وقد استشهد في هذا الاشتباك 29 مجاهداً وجُرح 7[1].

. وعن معركة كيمل يقول الرائد مصطفى مراردة: كنا ذات يوم متمركزين في غابة «لبراجة» في كيمل، وكان العدو قد جاء إلى المنطقة بأعداد كثيفة من العساكر، وخلال عدة أيام أنشأ مراكز أحاط بها كل المكان الذي كنا متمركزين فيه وكنا نلاحظ تحركاته قبل أسبوع، لكن القائدين زبيري وسوايعي لم يصدرا الأوامر بتفريق المجاهدين ولا بالخروج من الغابة الكثيفة التي كان يتعذر على الواحد أن يرى غيره حتى على بعد عشرة أمتار، وكان أي اقتراح بالخروج من الغابة والانصراف من مواجهة العدو سيُعتبر جبناً ومحاولة للفرار من مواجهة العدو، ولذلك تم البقاء في نفس المكان حتى هاجم العدو الجبل الذي كنا متمركزين فيه، فلما رأينا هجوم العدو أيقن الجماعة أن الأمر جدّ وأننا هالكون لا محالة إذا بقينا في نفس المكان.. حاولنا أن نتسلل عبر الوادي، لكن العدو كان قد أخذ احتياطاته لذلك فتربص بنا على جنبي الوادي، ولذلك وقعنا في الكمين

---

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 165.

الذي أعده لنا وكان الرصاص ينهال علينا من كل صوب، ولم يكن بإمكاننا الرد لأن كل واحد منا كان همه النجاة ولسنا في وضعية تسمح لنا بأي رد فعل.

وكانت النتيجة أن تمت تصفية عدد كبير من المجاهدين ووقع علي سوايعي شهيداً إلى جانب مجموعة كبيرة من الثوار وجرح الطاهر الزبيري في يده.

وتمكنت أنا وجماعة من كتاب القيادة من النجاة، حيث خرجنا واتجهنا إلى زريبة الوادي مع رجل كان يعرف المنطقة جيداً اسمه «إبراهيم عقالي»، ومنها تفرقنا بعد أن فشل العدو في إدراكنا. في هذه المعركة استشهد الكثير من الأبطال الأوائل يبلغ عددهم أكثر من سبعين شهيداً، أذكر منهم: عباس المعروف باسم «تراكسيون»، بلقاسم البرجي، الشريف جيلاني، عبد العزيز عشي، عبود زرقيني، عمار محماح، لخضر قوارف، محمد الدراجي، الذين كانوا عيوناً لنا في الغابة، كما استشهد كل المسؤولين الذين كانوا قادة للمنشقين من قبل، وكان استشهاد كل هؤلاء خسارة كبيرة للثوار[1].

وقد ذكر الدكتور أحمد بن نعمان في كتابه جهاد الجزائر حقائق التاريخ ومغالطات الجغرافيا، بعض المعارك التي وقعت أثناء الثورة نقلت منه ما حدث في الولاية الأولى، ومن أراد التوسع عن المعارك في الولاية الثانية والثالثة والرابعة والخامسة فليرجع إلى الكتاب المذكور[2]

وقد توسع كذلك الدكتور يحي بوعزيز في كتابه «الثورة في الولاية الثالثة التاريخية»، وكذلك الدكتور بوعلام حمودة، الثورة الجزائرية، يقول الدكتور أحمد بن نعمان عند حديثه عن المعارك: تعمدنا وضع هذا الفصل لذكر بعض المعارك بصفة رمزية وليست حصرية، وذلك لدلالتها الزمانية والمكانية، وقد اعتمدنا فيها على شهادات المجاهدين الذين شاركوا في هذه المعارك، وكذلك بعض التقارير الولائية والوثائق الفرنسية المنشورة[3].

ومن الملاحظات عن المعارك التي ذكرناها كنماذج:

. عدد القوات الفرنسية في كل معركة أكثر بكثير من عدد المجاهدين المقاتلين في الميدان، ففي كل عملية نجد الاف العساكر الفرنسية يجابهها المجاهدون بفصيلة أو كتيبة أو كتيبتين أو ثلاث كتائب «نادراً».

. هناك فروق كبيرة بين سلاح القوات الفرنسية وسلاح جيش التحرير الوطني، فالجيش الفرنسي متزود ببنادق الية وبمدافع رشاشة وأسلحة ثقيلة ودبابات ومصفحات ووسائل المواصلات ومتحرك تحت تغطية الطائرات الاستكشافية أو المقنبلة، أما جيش التحرير فإنه يستعمل نصيباً من البنادق الالية ونصيباً من البنادق نصف الالية وقليلاً من البنادق الرشاشة والرشاشات الثقيلة والباقي من بنادق صيد، والأسلحة معظمها منتزعة من العدو في المعارك، والباقي اتِ من بعض الفارين من الجيش الفرنسي، ومن الكميات الداخلة من تونس والمغرب وليبيا[4].

---

(1) جهاد الجزائر د . أحمد بن نعمان ص 166.

(2) المصدر نفسه ص 167 . 190.

(3) المصدر نفسه ص 163.

(4) الثورة الجزائرية، بوعلام حمودة ص 240.

. وبالرغم من هذه الفروق الكبيرة في التسلح وفي الوسائل وفي عدد المقاتلين في كل معركة ؛ نلاحظ أن خسائر الجيوش الفرنسية مرتفعة، وهذا راجع إلى شجاعة المجاهدين وإلى إيمانهم بالنصر وإلى قبولهم للتضحية الكبرى، وإلى تحركهم وإلى طبيعة الميدان الملائمة لحرب العصابات، وإلى تأييد الشعب الجزائري وسرعة التدرب على استعمال الأسلحة غير المعروفة سابقاً.

. بعد كل معركة مهما يكن نوعها تنتقم القوات الفرنسية من السكان الجزائريين الذين يعيشون بالقرب من ميادين العمليات، فيُقتل الأبرياء، وتُغتصب النساء، ويُعتقل الرجال بدون بينة، وتُدمر المساكن، وتُقتل الحياة الريفية بتأسيس مناطق محرمة ومحتشدات «مراكز تجميع السكان» [1].

2 . من الناحية الاجتماعية:

اهتم قادة جيش وجبهة التحرير الوطني بتنظيم الشعب في خلايا وتجمعات منضبطة وواعية ومطيعة، وبتوعيته بالقضية وحشده لدعم الثورة دعماً مطلقاً، وفي المقابل اهتموا برعاية مشاكله هو، ونجدته كلما تعرض لضربات جيش الاحتلال وطغيانه وجبروته وما أكثرها، وما أشد قساوتها.

وبهذه الكيفية وهذه السياسة الحكيمة تم التلاحم الكبير بين الشعب وقادة الثورة، وفشل الاستعمار فشلاً ذريعاً في فصلهما عن بعضهما، رغم كل ما قام به من أساليب متوحشة كالتعذيب والتقتيل والتشريد والتهجير الجماعي للسكان، وإقامة محتشدات مسيجة ومحروسة وتجويعهم وإهانتهم وإفقارهم وإخلاء القرى والمداشر وتهديمهما وتخريبهما تماماً، وإفساد المؤن وتحطيم الأثاث والأدوات وكل وسائل العيش مهما كان نوعها[2].

أ . إضراب الأيام الثمانية:

لقد ساهمت التشكيلات الاجتماعية المنظمة من قبل جبهة التحرير الوطني في نجاح إضراب الأيام الثمانية، فقد استطاعت قيادة جبهة التحرير أن تصدر توجيهاتها إلى لجان المناطق والنواحي والأقسام، وإلى المسؤولين المحليين للمدن والقرى، وأعلمت المسؤولين السياسيين والعسكريين بأنه أثناء الأسبوع المقبل، وبالتحديد أثناء مناقشة القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة ؛ أن ينطلق الإضراب بكفاءة تنظيمية عالية فوق كامل التراب الوطني.

والهدف الأساسي لهذا الإضراب هو إظهار تعلق المواطنين الثابت واللامشروط وبصورة واضحة بجبهة التحرير الوطني وبرنامجها.

كانت التعليمات قوية ومؤثرة وحازمة فقد جاء فيها: إن هذا الإضراب سيكون وسيلة لكل واحد كي يعبر عن إخلاصه للشهداء الذين لا يمكن نسيانهم وللقضية الوطنية.

إن هذا الإضراب سيكون عاماً، وسيمس بدون استثناء كافة «الطبقات» الجماهير العاملة «الشغيلة» عمال وأرباب العمل للقطاعين الخاص والعام موظفون وصيادلة وفلاحون ..الخ

(1) الثورة الجزائرية، بوعلام حمودة ص 241.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 206.

لن يسمح بأي استثناء، وإن التعليمات سوف تبلغ المناسب لتحديد التاريخ المحدد للإضراب وكلمة السر والشعارات المطلوب توزيعها وكذا المهام المطلوبة، ثم فيما بعد تم تحديد تاريخ الإضراب من يوم الاثنين 28 جانفي إلى يوم الاثنين 4 فيفري 1957م.

غير أنه في انتظار هذه التعليمات ؛ فإنه على مختلف المسؤولين أن يقوموا بعمل دعائي كبير في الحال، وذلك لتحضير العقليات أكثر للاختبار نظراً لأهمية الهدف المنشود.

إن هذا الإضراب الحاسم يجب أن يعرف نجاحاً تاماً.

. تعيين لجان موجهة خصوصاً لتنظيم الإضراب في المدن والقرى التي لا توجد بها بعد اللجان المحلية للجبهة والتي تبلغ إليها التعليمات الضرورية.

. لفت انتباه الفدائيين منذ الان إلى الدور الذي سوف يوكل إليهم قريباً بهدف التنفيذ اللامشروط لكلمة السر الخاصة بالإضراب، ولهذا يجب عليهم تحضير القنابل والقنابل اليدوية والمتفجرات اللازمة وأن يكونوا على استعداد يوم انطلاق الإضراب.

. يجب على المسؤولين العسكريين فيما يخصهم أن يدرسوا كيفية تحضير كمائن على الطرق الوطنية والرئيسية لمنع مرور السيارات والأشخاص أثناء فترة الإضراب[1].

ولقد اتُخذ هذا القرار في الثلث الأول من شهر نوفمبر 1956م بمقر لجنة التنسيق والتنفيذ الواقع بشارع بلقاسم كريم . تيلملي سابقاً . رقم 113، ولفهم أبعاد هذا القرار ينبغي وضعه في سياقه على الصعيد الدولي والفرنسي والجزائري:

. على الصعيد الدولي: كان السياق يتميز بحدثين بارزين:

. أولاً: اختطاف الطائرة المغربية التي كانت تنقل أربعة ممثلين قياديين وهم في طريقهم إلى تونس، وحسب صحافة ذلك العهد، إن المخطوفين الأربعة كانوا سيشاركون يوم 22 أكتوبر 1956م في لقاء مع الملك محمد الخامس والرئيس بورقيبة لمناقشة افاق السلام في المغرب العربي، وكان العاهل المغربي والرئيس التونسي يعتزمان التوسط بين الجبهة وفرنسا لإيجاد تسوية سلمية للقضية الجزائرية.

. ثانياً: العدوان الثلاثي على مصر، وقد جاء هذا العدوان الذي قامت به كل من بريطانيا وفرنسا والكيان الصهيوني إثر تأميم قناة السويس من طرف جمال عبد الناصر، وقد كانت تسيّر القناة شركة مساهمة بريطانية فرنسية. وقد ترك هذان الحدثان أثراً عميقاً وانفعالاً قوياً في صفوف الشعب الجزائري[2].

. على الصعيد الفرنسي: كانت هناك حكومة يسارية على رأسها الاشتراكي غي مولي، وقد قررت هذه الحكومة اليسارية تصعيد الحرب بعد أن منحها المجلس الوطني الفرنسي كامل السلطات بتصويت أغلبية النواب بما في ذلك النواب الشيوعيون، وقد تجسد هذا القرار في إرسال مزيد من القوات الفرنسية إلى الجزائر.

(1) مجموعة القوانين الداخلية لجيش التحرير، جمعها علي بوداري ص 99.

(2) ثوار عظماء، محمد عباس ص 387.

. على الصعيد الجزائري: كان الغالة من الكولون يلحون في طلب إعدام المجاهدين الأوائل الذين وقعوا في الأسر ليكونوا عبرة ورادعاً لغيرهم في نظر أولئك الطغاة.

في هذا السياق الدولي الفرنسي والجزائري المشحون بالتوتر، قررت لجنة التنسيق والتنفيذ تنظيم إضراب الأيام الثمانية الشهير، الذي شكل أحد المعالم البارزة في مسيرة الثورة الجزائرية.

وكان توقيت الإضراب في البداية يوم 10 ديسمبر 1956م، وهو تاريخ مناقشة القضية الجزائرية كما أعلن بادئ الأمر في الأوساط الأممية بنيويورك، لكن هذه الأوساط أجلت تاريخ المناقشة إلى 20 ديسمبر، فأُجِّل موعد الإضراب. وجاءت أعياد اخر السنة لتؤجل الموعد مرة ثانية، وهكذا من تأجيل إلى تأجيل حتى استقر رأي اللجنة على تاريخ 28 يناير 1957م لبدء الإضراب قبيل فتح ملف القضية الجزائرية في نيويورك.

وكانت لجنة التنسيق والتنفيذ ترمي من وراء هذا الإضراب غير المألوف إلى تحقيق عدة أهداف من أهمها:

. دعم مساعي جهود المجموعة العربية الاسيوية أثناء مناقشة القضية الجزائرية. وكانت فرنسا يومئذ تعتبر القضية مسألة داخلية تتعلق بالسيادة الفرنسية وحدها، باعتبار أن الجزائر هي مجرد ثلاث عمالات تابعة لفرنسا، والجبهة عبارة عن مجموعة من «الفلاقة» المشوشين، ومن ثمة فلا حق لأية قوة خارجية بما في ذلك الأمم المتحدة أن تتدخل في هذه القضية.

. تدمير خرافة «الجزائر الفرنسية» أمام الرأي العام الدولي، بتبيان طبيعة النزاع الدائر على الساحة الجزائرية، نزاع بين أمة وأخرى بهدف استقلال الجزائر[1].

. تعزيز سيطرة جبهة التحرير في أوساط الشعب، وكانت يومئذ ما تزال تعاني من النشاط التخريبي للعناصر المتعاونة مع فرنسا، وترجمة ذلك في الظهور أمام العدو والرأي العام الدولي كممثل شرعي وحيد للشعب الجزائري وناطق واحد باسمه.

وكانت فرنسا يومئذ تتهرب من المفاوضات بدعوى أن ليس هناك طرف مسيطر على الوضع يمكن التفاوض معه، مروجة في نفس الوقت لفكرة «الطاولة المستديرة أي التفاوض مع عدة أطراف جزائرية» واعتبار الجبهة واحداً منها فقط.

. دفع جماهير المدن في خضم معركة التحرير لتخفيف الضغط عن الجبال والأرياف، فجماهير المدن لم تكن يومئذ مجندة بالقدر الكافي، ولم ترم بعد بكامل ثقلها في الحرب.

لتحقيق هذه الأهداف الأربعة الأساسية إذن كان إضراب الأيام الثمانية الذي لم يكن مألوفاً في مدته وشموليته، وقد تولى المرحوم عبان رمضان تحرير نداء الإضراب باسم «لجنة التنسيق والتنفيذ»، ووجه إلى الولايات واتحادية الجبهة بفرنسا وإلى ممثلي الجبهة في كل مكان من المغرب وتونس ومصر. وكان جوهر النداء يتلخص في

(1) المصدر نفسه ص 388.

الاستعداد لشن إضراب لمدة ثمانية أيام، بالتوقيت مع الشروع في مناقشة القضية الجزائرية من الجمعية العامة للأمم المتحدة[1].

وبدأ تنفيذ الإضراب في 28 يناير حتى 4 فبراير 1957م، وكان النجاح تاماً بشهادة الصحف الفرنسية نفسها، فصحيفة «لوموند» كتبت في عدد 29 يناير تصف الإضراب بالعاصمة: سكون مؤثر يخيم على مدينة خالية، وقدرت مجلة «فرانس أوبسارفتور» الأسبوعية نسبة نجاح الإضراب 99%.

إن هذا النجاح بالإضافة إلى مفاجأة إدارة الاحتلال بالإضراب واتساعه، كان مدعاة لتدخل عسكري فوري وعنيف، فقد قام جنود «ماسو» بتمريناتهم الأولى في القمع والنهب من خلال تحطيم أبواب وواجهات المحلات التجارية المغلقة، وإخراج المضربين من ديارهم ونقلهم إلى أماكن عملهم بالقوة، واعتقال واغتيال العديد من المواطنين والمناضلين.

وحوصرت الأحياء العربية في المدن الكبرى بالأسلاك الشائكة، لتوضع بعد حين تحت عمليات التمشيط والتفتيش المنتظمة، وهكذا انتقلت الحرب إلى المدن بأكثر ما تكون شراسة وعنفاً[2].

ب . نتائج الإضراب:

ومن النتائج الهامة التي أسفر عنها إضراب الأيام الثمانية الشهير كما يستخلصها بن خدة:

1 . تزكية الشعب وجماهير المدن بصفة خاصة لمطلب الاستقلال، وفي ذلك ضربة قاسية لمقولة «الجزائر فرنسية».

2 . تعزيز وحدة الشعب تحت طائلة القمع الاستعماري الذي كان شاملاً وبدون تمييز.

3 . تعزيز مكانة وسمعة جبهة التحرير الوطني داخلياً وخارجياً.

4 . تخريب أسس الثقة والتعاون بين المناضلين وبين المواطنين وإدارة الاحتلال بالعاصمة، مما خفف الضغط إلى حد ما على الولايات.

5 . تعود العسكريين على الحكم، وكان في ذلك بداية نهاية الجمهورية الرابعة بفرنسا التي لفظت أنفاسها يوم 13 ماي 1958م.

6 . تزايد الشعور بالخوف وانعدام الأمن لدى الكولون رغم وجود الجيش الفرنسي، هذا الشعور الذي كان له أثر في الهجرة الجماعية التي عرفتها الجزائر عشية وغداة الاستقلال.

وهناك الوجه الاخر لإضراب الأيام الثمانية الذي تجدر الإشارة إليه كذلك، ويتمثل في الانعكاسات السلبية كما يستخلصها عضو لجنة التنسيق والتنفيذ بن خدة:

---

(1) المصدر نفسه ص 388.

(2) المصدر نفسه ص 390.

1ً. الثمن الباهظ الذي دفعته الثورة، ويتجلى في تدمير جانب كبير من هياكل الجبهة في العاصمة خاصة، وإلقاء القبض على المواطنين والمناضلين بصفة جماعية، وتعذيب وإعدام نخبة من العناصر القيادية التي لا تقدر خسارتها بثمن، ومن هؤلاء الشهداء:

. محمد العربي بن مهيدي عضو لجنة التنسيق والتنفيذ.

. المحامي علي بومنجل.

. صالح بوقادوم ومحمد لانجريط اللذين زج بهما في زنزانات مع الكلاب البوليسية، وقد أصيبا لذلك بانهيار عصبي، ولم يتورع جلادو فيلا سوزيني من الإجهاز على الشهيد لانجريط.

. محمد وعمارة الذي جعل للجنة التنسيق والتنفيذ من مسكنه مقراً لها وقد أعدم بعد خروج اللجنة من العاصمة.

. عبد القادر قدوش مسؤول الأفواج المسلحة بالعقيبة «أعالي بلكور»، وقد عذب بلهب الشاليمو حتى لفظ أنفاسه.

. ومن المناضلين الذين ألقي عليهم القبض وعذبوا تعذيباً شديداً المناضل إبراهيم الشرقي مسؤول النظام السياسي بمنطقة الجزائر العاصمة.

2ً. خروج لجنة التنسيق والتنفيذ من العاصمة تحت ضغط قوات الاحتلال، إلى الولاية الرابعة ومنها إلى القاهرة عبر تونس والمغرب. ومع كل ذلك ومن أجل كل ذلك يعتبر إضراب الأيام الثمانية الشهيرة حدثاً هاماً في مسيرة الثورة التحريرية[1].

ج . بيان إضراب الثمانية أيام:

أيها الشعب الجزائري:

إن كفاحك البطولي ليرجع عهده إلى سنة 1830م، إن الاستعمار الفرنسي يحاول منذ مائة وسبعة وعشرين عاماً أن يبيدك ويمحق شخصيتك ويقضي على شخصيتك ولكن دون جدوى.

إن الاستعمار الفرنسي ظل طيلة مائة وسبعة وعشرين عاماً يقتل ويسحق ويعذب خيرة أبنائك البررة.

إن الاستعمار الفرنسي جعل من جزائرنا طيلة مائة وسبعة وعشرين عاماً موطن البؤس والرعب والخنق والكبت، لقد بقيتَ طيلة هذه المائة وسبعة وعشرين عاماً رافعاً لواء الكفاح لواء الجزائر المكافحة المجاهدة، لواء جنود عبد القادر، لواء ثوار بني سناسن، وأولاد سيدي الشيخ، والمقراني، وأبطال جبال أوراس «1916 . 1926م»، وضحايا سطيف، وقالمة، وشهداء سيدي علي بوناب، ولواء جيش التحرير الوطني منذ أول نوفمبر 1954م.

أيها الشعب الجزائري:

إن القيادة العليا لجيش وجبهة التحرير الوطني التي هي مرشدك في النضال والتي تعززها ثقتك المطلقة بها، ترسل إليك هذا النداء لتنفيذ إضراب شامل لمدة ثمانية أيام في كل التراب الوطني.

---

(1) المصدر نفسه ص 393.

إن واجبكم هو أن تستعدوا للقيام بهذا الإضراب الثوري العظيم في إجماع كامل ووحدة لا انفصام لها.

إن من واجبكم أن تساعدوا بعضكم بعضاً في هذا الاستعداد، وأنكم لتجعلون جميعاً من هذا الإضراب تظاهرة شعبية تشمل طول البلاد وعرضها، من تبسة إلى مغنية، ومن الساحل البحري إلى الصحراء.

يا أبناء الأمة الجزائرية من عمال وفلاحين وتجار وموظفين طلبة وتلاميذ، رجالاً ونساء وأطفالاً.. إنكم ستبعثوها صرخة مدوية في وجه الاستعمار، صرخة تنبعث من أعماق ثورتنا العظيمة عندما تنفذون إضرابكم التاريخي الأكبر، وإن القيادة العليا لجيش وجبهة التحرير الوطني الجزائري توصيكم بجمع حاجياتكم لهذه المدة، أعينوا بعضكم بعضاً.

شيدوا بناء الأمة الجزائرية الحرة المستقلة بالكفاح والتضامن.

أيها الجزائريون، أيتها الجزائريات:

إن نجاح هذا الإضراب سيكون معناه أمام العالم أنكم تعتبرون وفد جيش وجبهة التحرير الوطني هو المتكلم الأوحد لشعب الجزائر المناضل.

إن تنفيذكم للإضراب الثوري العظيم بما فيه من نصب المكامن في الطرق، ومن التخريب والاشتباكات والهجومات على المدن والمراكز العسكرية ؛ سوف يكون الخطوة الحاسمة على سبيل النصر العظيم.

أيها الشعب الجزائري:

لتقف صفاً واحداً متراصاً وراء جيشك الفتي، وجبهتك العتيدة، لينجح إضرابك العظيم، العزة للأبطال، والمجد للشهداء.

يحيا جيش وجبهة التحرير الوطني، تحيا الجزائر حرة مستقلة[1].

3. من الناحية الغذائية:

اهتم قادة جيش التحرير الوطني بالتموين وضمان وصوله إلى كتائب جيش التحرير في الجبال والأرياف، وإلى المحرومين والمعذبين في القرى والمداشر المعزولة وفي المخابأئ والمغاور والملاجأئ، فألفوا فرقاً خاصة لذلك، تكلفت بجمع المؤن وتدبيرها وتخزينها ونقلها وتوزيعها حسبما يتطلب الأمر في كل أطراف الولاية، وتعاون الجميع بما في ذلك الجنود، والمدنيون، النساء، الرجال،الأطفال، وتحملوا تبعات ذلك طوال سنوات الثورة[2].

وتحدث الأستاذ علي بوداري في كتابه: «نافذة على اقتصاد الثورة في الشمال القسنطيني» وهو يتضمن من الجلب إلى الاستهلاك، وهو مستمد من تقارير الثورة منذ النشأة، ومروراً بالتطوير والتنظيم والتقنين والتسيير والتعليمات ورسائل الأخبار والتقارير المتنوعة من مستويات مختلفة، وجهد الثورة المضني الكبير المبذول في العمل والمقاومة والصمود، لإفشال خطط العدو الاستعماري في الحصار الاقتصادي المضروب، وبرنامج القطع

(1) المصدر نفسه ص 398.

(2) الثورة في الولاية الثالثة ص 206.

والتجويع والمنع القمعي المفروض على الثورة والشعب في الجبال، عبر المراحل من المناطق الحربية والمناطق السلمية في 1956م إلى المناطق المحرمة 1957م.

إن التموين يعتبر من الضروريات الأولية الأساسية للثورة مثل المال والسلاح والقيادة والجندي المحارب وأرض ميدان الحرب والشعب المؤيد لها في الميدان الداخلي، وهي كلها أمور وعناصر حيوية وشروط مرتبطة ببعضها البعض ارتباطاً قوياً ووثيقاً، ولذلك فكل ميادين الثورة تكون متشابكة ومتكاملة ومتماسكة مع بعضها البعض أيضاً، إذ ينطلق عملها من نقاط متفرقة وقواعد مختلفة ويصب جهدها كله ويلتقي في اتجاه هدف واحد، وهو انتصار الثورة، وهذا الوضع صار أمراً عاماً وشعوراً يشترك فيه كل الناس أفراداً ومنظمات دون استثناء[1].

أ . تسيير التموين:

كان تسيير التموين لسنوات عديدة بعد اندلاع الثورة بالتحديد من 1955م إلى أواخر 1958م وأوائل 1959م مدمجاً في الميدان السياسي. ويشرف عليه المسؤولون المكلفون بالميدان في الدواوير ومقاطعات الأقسام الأولى، وبعد تنصيب لجان الإدارات أواخر سنة 1956م صار المحافظ السياسي مسؤولاً رسمياً وقانوناً عن المال والتموين في ان واحد. وكان القانون ينص كما ورد في المنشور رقم 7 المؤرخ في 20 مارس 1957م الصادر عن إدارة الولاية الثانية المتضمن اختصاصات مختلف أعضاء لجان المناطق والنواحي والأقسام عن التموين ما يلي:

. يقوم المحافظ السياسي بشراء المؤونة والملابس الضرورية لعناصر نظام دائرته الترابية.

. يراقب إرسال واستعمال المواد، ويسهر على تكوين مخزون للتموين لمواجهة كل احتمال، وفي اجتماع الإدارة يقدم التقرير المالي.

وقد استمر الوضع وعلى هذا الحال إلى غاية تنصيب العضو المكلف بالتموين في الإدارة. وأول ظهور رسمي لمسؤول التموين في هياكل نظام الثورة كان على مستوى المجالس الشعبية للدواوير بعد مؤتمر الصومام، في 20 أوت 1956م، التي تم تنصيبها بعد انتخاب من الشعب خلال شهور أكتوبر نوفمبر ديسمبر 1956م، والقول بوجود رسمي لمسؤول التموين قبل هذا الوقت فيه نظر[2].

ب . هياكل التموين ومهامها:

كان تنصيب عضو خاص مسؤولاً بميدان التموين ضمن تشكيلة المجالس الشعبية الخماسية في الدواوير عند إنشائها أواخر سنة 1956م، كان أول ظهور فعلي لهيكل فرع التموين في ميدان النظام والتنظيم الميداني الرسمي للثورة في ذلك الوقت.

(1) نافذة على اقتصاد الثورة، علي بوداري ص 9.

(2) المصدر نفسه ص 13.

وبدأت عبارة ومصطلح الاقتصاد تتردد على ألسنة المسؤولين، مما جعل البعض منهم في أول الأمر يصف مسؤول التموين بوزير الاقتصاد ومسؤول المال بوزير المال، وكانت اختصاصات ومهام مسؤول التموين المحلي في المجلس الشعبي للدوار محددة في قانون المجالس الشعبية للدواوير وهي كالتالي:

. أنه المسؤول الوحيد عن تسيير التموين في الدوار.

. أنه يسهر على حفظ وأمن مستودعات التموين الموجودة في الدوار.

. أنه ينظم سلاسل جلب التموين ليتمكن له تموين الشعب في الدوار.

. أنه يشجع الاستغلال الفلاحي، أي يحث السكان على فلاحة الأرض.

. أنه ينظم قائمة للعائلات المحتاجة ويحض على فكرة الإعانة والاستغاثة[1] .

ج . مصادر تكوين تموين الثورة:

المصادر المادية التي يتكون منها تموين الثورة تتوزع على الأبواب والعناصر التالية:

. الشراء بالمال: ويشمل جميع الاحتياجات من الأغذية والألبسة والأغطية والأدوية والمواعين والأشياء المختلفة الأخرى التي تستعملها الثورة.

. الزكاة: وهي تشمل كل الأصناف التي حددها الشرع وتدخل ضمن هذا العنوان بشروطها المحددة.

. التبرعات بمختلف تكويناتها.

. الغنائم من العدو والخونة العاملين معه، والهبات وغير ذلك من المصادر المتاحة.

د . تخزين التموين:

وشرع نظام الثورة منذ ذلك الوقت في أوائل سنة 1957م في تنفيذ خطة بناء المخابأئ «الكازمات» في أعماق الغابات، لخزن الحبوب من القمح والشعير وبقية مختلف مواد التموين الأخرى المتنوعة، من المعلبات والعجائن والأدوية والملابس والأسلحة والذخيرة والوثائق..الخ

وكان حفر وتهيئة هذه المخابأئ وبناؤها ينجز من قبل أشخاص من الجنود ذوي الخبرة والأمانة والسيرة والثقة في أفواج الأشغال «الجيني»، المشكّلة في كل قسم للقيام بهذه المهمة، وقد عين المجاهد لخضر بوالشمة الذي كانت له تجربة وخبرة في هذا الميدان لمتابعة ومراقبة أعمال بناء المخابأئ في جميع أقسام الناحية 221 بالميلية، وتتوزع مخابأئ الخزن على كل غابات الجبال في الدواوير، عبر الأقسام في شرق الوادي الكبير وغربه، ليسهل استغلالها في حالات حصار العدو، وعزلة الطبيعة[2].

وكل عمليات الإنجاز والتخزين والتوزيع تجري في سرية تامة من قبل أشخاص معينين خاصين، ومساحات المخابأئ في الداخل منظمة ومتقنة وواسعة كالبيوت، ولها منافذ وثقب صغيرة للتهوية، وكان لكل إدارة ومجلس ومنظمة محطة مخابأئ خزنها الخاصة بها[3].

---

(1) نافذة على اقتصاد الثورة، علي بوداري، ص 9.

(2) المصدر نفسه ص 156.

(3) المصدر نفسه ص 157.

وفضلاً عن مخابأئ التموين، كانت هنا وهناك وهنالك سواء في المدن أو القرى وفي السهول والجبال مخابأئ مخصصة لإيواء الأشخاص، وبالخصوص خلال عمليات شال ما بين 1959م إلى 1962م.

وكانت تعليمات نظام الثورة تؤكد بقوة على ضرورة بناء ووجود «كازمات» للأشخاص بسرية تامة، لكل منظمات وأفواج الفرق المقلة والموزعة منها إلى درجة التهديد بالعقاب، وقد استغل الأفراد والمنظمات في هذا الغرض . أي مثل الكازمات الغيران والكهوف والصخور الطبيعية في الجبال والشعاب والوديان وجروف شواطأئ البحر، والأنفاق المنجمية وأكوام الحجارة والقرط والتبن وغيرها[1].

ومع كل ما تقدم من الاحتياطات، فإن المخابأئ كلها معرضة لخطر كشف العدو في كل زمان ومكان، وهذا إما أن يكون عن طريق الصدفة بسبب التفتيشات الدقيقة، أو العثور على وجود الاثار على الأرض، أو بوشاية الخونة والمستسلمين، أو باعترافات الأسرى من النظام والمقبوض عليهم من الشعب.

وقد استشهد أو أسر أو جرح العديد من أفراد النظام في مثل هذه الحالات بالمخابأئ، وفي سياق الحديث عن المخابأئ، فإن الثورة كانت توجه الشعب وتدعوه بل وتأمره ببناء المخابأئ وحفر الخنادق قرب الديار، للوقاية والاحتماء من الغارات الجوية وقنابل المدافع منذ أوائل الثورة[2].

وظاهرة خزن التموين في جوف الأرض والزيت بصفة خاصة في الدواوير بالجبال ؛ قد عرفها وعاشها الناس من قبل، وهي تعود إلى أيام الحرب العالمية الثانية، خوفاً من التفتيشات العدوانية للقومية الذين كونتهم سلطات الإدارة الاستعمارية الفرنسية في ذلك الوقت.

هـ شبكة توزيع التموين:

رغم كثرة المراكز وتنوعها وانتشارها وتباعد المسافات فيما بينها وقلة وسائل النقل ومضايقات العدو ؛ فإن توزيع التموين على المراكز داخل كل قسم كان يتم بصورة يومية دائمة من قبل شبكة التوزيع التابعة للجنة المكلفة بذلك في فرع التموين، وهذا في الأحوال العادية وحسب الإمكان، أو من قبل المجالس الشعبية للدواوير التي تساهم في تخفيف حدة النقل بواسطة الشعب أو المقاومين العاملين في التموين. وفي تقرير الشهر يجمع المدخول للمحطة والخروج إلى مراكز منظمات الثورة[3].

و . تقنين الاستهلاك:

لم يترك نظام الثورة استهلاك التموين في المراكز مطلق اليد يسير جزافاً، بلا نظام ولا ضوابط ولا حساب، بل حدد الكمية اللازمة من الطعام المخصص للشخص في اليوم «الرسيون»، والمقادير الغذائية اليومية الكاملة للفرد الجندي في جيش التحرير الوطني في الوجبات الثلاثة التالية:

. الفطور في الصباح.

. الغداء في منتصف النهار.

---

(1) المصدر نفسه ص 157.

(2) المصدر نفسه ص 158.

(3) المصدر نفسه ص 159 . 161.

. العشاء في الليل.

ومقادير التموين اليومي كانت محددة كالتالي:

. الدقيق 600 غرام أو ما يعادلها من العجائن والمواد الأخرى.

. الزيت 70 غرام ويستعمل زيت الزيتون في جميع المراكز.

. القهوة أو التيزانة في اليوم 3 مرات.

. الحليب مرة واحدة في الصباح.

. أكل اللحم ثمان مرات في الشهر.

. تموين الجيش بالخضر بحيث أن تكون الخضر في غذاء الجيش ومأكله.

. وكذلك كان يلفت نظر المسؤولين في النواحي أن يمدوا يد المساعدة لبعضهم في كامل المنطقة.

. يلزم على القسم أن يبذل جهده في مدّ وحداته بالخضر والفواكه وذلك للاحتفاظ بصحة وحداتنا ومدّ الجيش هذا يكون على الأقل مرتين في الأسبوع والفواكه ثلاث مرات في كل شهر على الأقل أيضاً.

. وكانت بعض التعليمات تؤكد على مدّ الجيش بالخضر يومياً وعلى أساس مائة غرام للشخص في كل يوم.

. الأغطية بطانية «زورة» لكل شخص، لكن في عمق الحرب تكاد لا تكون تماماً صيفاً وشتاء.

. الملابس والأحذية حسب الحاجة لكل شخص أو منظمة.

هذا النظام عام يشمل جميع منظمات وأفراد الثورة، وهذه التعليمات تعتبر كقانون يطبق على المراكز كلها[1].

ز . المحاسبة على التموين:

المحاسبة على التموين العام لنظام الثورة تجري كل شهر بانتظام مثل سائر الميادين والهياكل والأعمال الأخرى للثورة، وذلك بإعداد وضبط وتقديم تقرير كامل شاملة فيه المواعيد المحددة للمحاسبات خلال الاجتماعات في الأوقات الامنة العادية، مثل ما كان يقع في الفترة الممتدة من 1957م إلى 1959م، أما في الظروف غير العادية التي نشأت بعد ذلك عند هجوم شال، فصارت التقارير ترفع عن طريق السلم خارج الاجتماعات بسبب العدو، وتبدأ عملية تقارير التموين قاعدياً على مستوى كل مركز الذي تقيم فيه منظمة أو عدة منظمات أو مركز الفرق والأفواج على مستوى مكان الإقامة في كل دوار، وهذه التقارير توحد على مستوى المجلس الشعبي للدوار ليصبح تقريراً واحداً شاملاً سواء مشتريات الشهر الكلية او المدخول ومخرج مجموع التموين العام في الشهر ويوجد على مستوى لجنة التموين، ليرفع صعوداً إلى القسم فيوحد ويرفع إلى الناحية، وهكذا أيضاً يرفع إلى المنطقة فالولاية وتنجز هذه التقارير من قبل كتاب إداريين خاصين، ويراعى في شكلها النموذجي المثال الموحد لعمل الجميع داخل الإقليمي النظامي وفي محتواها تكون ضمن القوانين ومتطابقة معها ولا تخرج عن التعليمات التي تحكم تسيير التموين.

(1) المصدر نفسه ص 173.

والتموين من أصعب الأعمال والمحاسبات في الثورة للمطالب اليومية الكثيرة والتعقيدات الناتجة عن طبيعته وأثره الفعال في حياة الناس. والعبء الأكبر للتموين بصفة خاصة وأعمال الثورة بصفة عامة يقع على عاتق الأقسام والدواوير لأنها قاعدة أساس الارتكاز والتمركز، وتمثل الفضاء الواسع والميدان المهم المناسب في حقل النشاط اليومي العسكري والسياسي والاقتصادي المباشر مع الجيش والشعب.

واجتماعات المحاسبة في الظروف الامنة كانت مدرسة تكوينية هامة، لكن امتحانها كان صعباً جداً حيث كان يتعلق بكل صغيرة وكبيرة في مواد التموين المتشعبة، وكان الرفض يمس بعض المواد الممنوعة الاستهلاك في المراكز مثل الفلفل الأكحل «رأس الحانوت» [1]..الخ

وكانت الأجهزة المختصة في توفير التموين تهتم اهتماماً خاصاً بتوفير القمح والزيت واللحم.

ولقد استخدم الثوار وسائل نقل متعددة في إيصال التموين لأبناء جبهة التحرير المجاهدة، وتعاملوا مع الخيل والبغال والحمير في جبال شمال الجزائر والجمال والمهاري في الجنوب بالصحراء، إذ لعبت دوراً بارزاً وشاركت بقوة وفعالية في نجاح الثورة وانتصارها، سواء باستعمالها في الركوب عند التنقل أو نقل المرضى والجرحى أو نقل التموين أو نقل السلاح وذخائره في داخل الجزائر، أو في إطار تنظيم قوافل جلب السلاح ونقله من تونس إلى ولايات الثورة في داخل الجزائر[2].

4 . من الناحية الصحية:

جندت جبهة التحرير الوطني عدداً هاماً من الأطباء والممرضين رجالاً ونساءً، ووزعتهم على مختلف مناطق الولاية ونواحيها وأقسامها لعلاج المرضى والمعطوبين، وإسعاف الجرحى وتدبير الأدوية، والأدوات الطبية اللازمة للعلاج، وقد تطور هذا الجهاز الصحي للثورة بمرور الزمن، عدة وعدداً ونجاعة، وأفاد الثورة والمجاهدين، وتوسع عمله وامتد إلى خارج الجزائر، تونس، والمغرب، وبلدان شرق أوروبا[3].

وكانت مصالح الصحة تهتم بالمواطنين وتزورهم لتقديم نصائح في الوقاية والنظافة وتقديم العلاج عند الإمكان.

في خارج الجزائر كان مسؤول الصحة تابعاً لمسؤولي القواعد الخلفية، ثم إلى قيادات العمليات العسكرية، وبعد يناير 1960م لقيادة أركان جيش التحرير الوطني، إن الدكتور محمد الصغير النقاشي سيّر نظام الصحة بالخارج من سنة 1956م إلى سنة 1962م باستثناء الفترة التي خلفه فيها الدكتور تيجاني هدّام أي بين مارس 1957م وأكتوبر 1958م.

الفرق بين وسائل الصحة بالخارج ووسائل الصحة بالداخل شاسع.

---

(1) المصدر نفسه ص 249.

(2) المصدر نفسه.

(3) الثورة في الولاية الثالثة ص 206.

وبعد تجميع السكان ونظراً إلى القصف بالمدافع وبالطائرات للمناطق المحرمة كان من اللازم أن تُبنى مراكز الصحة والعلاج تحت الأرض، يشير المجاهدون الذين بقوا على قيد الحياة إلى أن عمليات البتر أو اقتلاع الرصاص كانت تجرى بدون مخدّر.

فالجريح يُقيد من طرف رفاقه حتى لا يتخبط، ثم تُخاط الجروح بخيوط عادية تُغلى في الماء، وعملت المجاهدات والمجاهدون المكلفون بالصحة في هياكل جيش التحرير الوطني في ظروف صعبة جداً، قلة الأدوات الطبية والأدوية، والعيش في مخابأئ تحت الأرض، والتنقل المستمر للنجاة من ضربات العدو، وصعوبة نقل الجرحى من جهة إلى جهة أو نقلهم إلى الخارج.

إن عدد الشهداء في مصالح الصحة بجيش التحرير مرتفع، وذكر الدكتور بوعلام بن حمودة أسماء منهم في كتابه[1]، وعملت قيادة جبهة التحرير الوطني على تنظيم المصالح الصحية للولايات، وصدرت تعليماتها للجهات المختصة، وكان لمصالح الصحة في الداخل والخارج جهد عظيم في الوقوف مع الثورة، وقدمت عملاً متميزاً وفريداً في أحداث ثورة شعب الجزائر.

واستعمل قادة جبهة التحرير كذلك مستشفيات البلدان المجاورة لعلاج المجاهدين الجرحى بمساعدة أطباء جزائريين، ثم أحدث جيش التحرير الوطني مراكز علاج تابعة له في «غاردماو» و«تاجروين» و«تالا»، وقاعدة العربي بن مهيدي في وجدة للأمراض المزمنة، وقد قنبلها العدو مرتين في سنة 1960م ويوم توقيف القتال أي 19 مارس 1962م، ومركز المعاقين في بركان بالمغرب، ومركز المعوقين بالدّار البيضاء المحدث سنة 1960م، ومركز إعادة تمرين المرضى المحدث سنة 1960م بالقرب من تونس من طرف الأستاذ زهير يعقوبي، وأنشئت بالخارج مراكز التكوين الطبي مثل سنغنغن بمنطقة الريف بالمغرب، وقد سيّره الدكتور محمد بن عيسى أمير، ونُظم التكوين في مراكز تابعة للمستشفيات أو لمدارس التدريب العسكري.

. الهلال الأحمر الجزائري:

أحدث يوم 7 يناير 1957م في طنجة بعد أن نال مشروع القانون الأساسي الذي حضّره فوج من المناضلين الجبهويين المقيمين في تيطوان بالمغرب، قبول لجنة التنسيق والتنفيذ « CCE » بواسطة سي علال «الطيب الثعالبي»، الذي كان يشرف على اتحادية الجزائريين بالمغرب، فتكونت قيادة الهلال الأحمر الجزائري من حسن بوعلي «رئيس»، والدكتور مصطفى مكاسي أمين عام، وقد كان بن إسماعيل بومدين مذكوراً في القانون الأساسي كأمين عام، والدكتور جيلاني بن تامي مندوب لدى اللجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف في سويسرا.

ثم حوّل مقر الهلال الأحمر الجزائري من المغرب إلى تونس يوم 25 ديسمبر 1957م، وأصبحت اللجنة المديرة ابتداءً من يوم 21 أكتوبر 1958م متألفة من مصطفى بن باحمد «رئيس»، وأحمد بودربة «أمين عام»، وجيلاني بن تامي «مندوب الهلال لدى اللجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف».

---

(1) الثورة الجزائرية، بوعلام بن حمودة ص 302.

كانت للهلال علاقة نظامية بمسؤول الشؤون الاجتماعية في لجنة التنسيق والتنفيذ « CCE »، ثم بوزير الشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة « GPRA ». في النشاط اليومي كان الهلال الأحمر الجزائري ينسق مع مصلحة الصحة في الجيش والمصلحة الاجتماعية التابعة لنظام جبهة التحرير الوطني.

تميز الهلال الأحمر بنشاط كثيف أهمه: إعلام المحافل الدولية بجرائم القوات الفرنسية وبحالة اللاجئين، وتوجيه نداء لاحترام اتفاقيات جنيف «حول أسرى الحرب» من طرف فرنسا، وإجراء مساع لإطلاق سراح الأسرى، وتكوين الممرضين والممرضات، وتجنيد الأطباء الجزائريين، وجمع الأدوية لصالح المجاهدين واللاجئين، وإعانة مادية للاجئين، وإرسال فرق طبية لعلاجهم، ومرافقة فرق الصليب الأحمر الدولية عند زياراتها التفقدية.

وساهم الجزائريون العائشون في تونس والمغرب في إيواء المجاهدين وفي تمويلهم، وقد انخرط أولادهم في كل هياكل الثورة فتنظموا في تونس داخل 7 نواح، حيث عُينت لجنة للمتابعة ولتشجيع جمعيات مختلفة لها صلة بالثورة، أما الجزائريون العائشون بليبيا فقد أدمج نظامهم في اتحادية الجزائريين بتونس لأن عددهم كان قليلاً.

في المغرب تكفلت اتحادية الجزائريين بتنظيم الجزائريين القاطنين هناك.

قيادة الولاية الخامسة اهتمت أيضاً بالجزائريين العائشين قرب الحدود المغربية الجزائرية، فكونت لجنة للمتابعة ابتداء من سنة 1955م، تكونت اللجنة من رئيس ومسؤول على الحالة الاجتماعية والسكن ومسؤول على التموين نظراً إلى تزايد عدد اللاجئين ومسؤول على الأمن واليقظة، في ماي 1956م أحدثت قيادة الولاية الخامسة فرعاً للتنظيم والسكن، ومصلحة لاستقبال اللاجئين، ولجنة لاستقبال الجرحى والتكفل بهم. وعند تكوين الحكومة المؤقتة تكفلت هذه الأخيرة بالجانب المدني للجزائريين، في حين تكفلت قيادة الولاية الخامسة بالجانب العسكري[(1)].

5 . في ميدان التربية والتعليم:

اهتم قادة الثورة بالتعليم في القرى والمداشر، وجندوا المعلمين وحفّاظ القران الكريم لذلك، وكان لجهود جمعية علماء المسلمين دور عظيم في هذا المجال وبذلوا وقتاً وجهداً لا يستهان به، كما كان لقادة جبهة التحرير دور في دعم ميدان التربية والتعليم، وقد لعب القائد الشهيد ايت حمودة عميروش دوراً رائداً في هذا الميدان، وحرص كل الحرص على تعليم كل الأطفال في المساجد والكتاتيب القرانية في كل القرى والمداشر والدواوير المحررة، وجند كل المعلمين وحفاظ القران الكريم لذلك، ولم يكتف بهذا فوجه بعثات طلابية إلى تونس خلال عامي 1956م، 1957م، 1958م، ليواصلوا دراستهم هناك وفي كل بلدان المغرب العربي. وأنشأ بتونس داراً خاصة بهم في حي داندان غرب مدينة تونس يأكلون فيها ويشربون وينامون ويتابعون دراستهم في معاهد الزيتونة وغيرها[(2)].

---

(1) الثورة الجزائرية ص 304، بوعلام حمودة.

(2) الثورة في الولاية الثالثة ص 207.

وخصص أموال الأوقاف في الولاية الثالثة للإنفاق عليهم، وسعى لدى كل الولايات لفعل ذلك ونجح مسعاه في الأخير، وتكفلت جبهة التحرير الوطني بكل الطلبة الجزائريين وشرعت في إرسالهم إلى الخارج في بعثات مختلفة إلى بلدان المشرق العربي، وشرق أوروبا وغربها، وأمريكا الشمالية، واللاتينية للدارسة في مختلف الفروع والتخصصات العلمية والأدبية والمدنية والعسكرية[1]، يقول الدكتور يحيى بوعزيز: ومن المفيد هنا أن أشير إلى أني لما تخرجت في تونس عام 1956م وطلبت من القائد عميروش عام 1957م أن أدخل إلى الجزائر، رفض بإصرار وقال: لسنا بحاجة إليكم في الجزائر واصلوا دراستكم لتكونوا إطارات للجزائر المستقلة سواء هنا في تونس أو في غيرها من البلدان[2].

6 . في ميدان القضاء:

اهتم قادة الثورة بمعالجة المشاكل والقضايا التي تحدث بين المواطنين، وكلفوا المشرفين على شؤون الأوقاف الإسلامية وعلماء الدين بالتكفل بها وإصدار الأحكام في إطار الشريعة الإسلامية، ومنع أصحاب القضايا من اللجوء إلى القضاء الفرنسي الاستعماري، فاستجاب الجميع لذلك أيضاً وانصاعوا وأطاعوا بكل عفوية خدمة للثورة وأهدافها، وإفشالاً للسياسة الاستعمارية التي كانت تسعى دائماً من أجل إحداث الشرخ، وفصل الشعب عن الثورة[3].

لقد أتى مؤتمر الصومام ببعض التوجيهات إلا أنها غير كافية. كوّن المؤتمر لجاناً شعبية من خمسة أشخاص، منها رئيس مُكّلف بالحالة المدنية والشؤون المدنية والإسلامية، كما قرر تأسيس محاكم تنظر في قضايا المدنيين والعسكريين، لكن ظروف الحرب وقرار ترحيل السكان من طرف القوات العسكرية الفرنسية لم يسمح ذلك بتنفيذ حرفي لتوجيهات مؤتمر الصومام في هذا الميدان، فاجتهد المسؤولون محلياً: تعيين قضاة واللجوء إلى «الجماعات»، تعيين لجان القضاء النصح بالصلح، لجوء إلى الفقه الإسلامي، أخذ بالاعتبار قائمة الممنوعات التي قررتها جبهة التحرير الوطني، تنفيذ الأحكام فوراً لأن الاستئناف صعب التطبيق.

أمام هذه الصعوبات صدر نص توجيهي أمضاه بلقاسم كريم يوم 12 أفريل 1958م بعد مداولة جرت داخل لجنة التنسيق والتنفيذ «ءِء CCE »، نشر هذا النص في كتاب عبد الحميد زوزو: فإلى القارأئ هذه الخلاصة: وضّح فصل من فصول التوجيه مفهوم المجاهد وواجباته وحقوقه، ووضح فصل اخر الأخطاء البسيطة والأخطاء الخطيرة والأخطاء الخطيرة جداً، وذكرت العقوبات المناسبة لكل حالة. تنظر محاكم الولايات في قضايا الاعتداءات الجنسية، تنظر المحكمة العليا في قضايا الضباط السامين، وتنظر محاكم الولايات في قضايا الضباط، وتنظر محاكم المناطق في قضايا ضباط الصف والجنود، ويُعين القضاة على حسب مستوى المحكمة من طرف لجنة التنسيق والتنفيذ أو الولاية أو المنطقة.

---

(1) المصدر نفسه ص 207.

(2) المصدر نفسه ص 207.

(3) الثورة في الولاية الثالثة ص 208.

لكل متهم الحق في اختيار محام وإن لم يفعل ذلك تُعين المحكمة محامياً تلقائياً تُرفع الدعوى إلى المحكمة المسؤولة عن تعيين المحكمة فيُعين قاض للتحقيق في القضية.

بيّن بلقاسم كريم أن التعذيب ممنوع، وأن الحكم بالإعدام ينفذ بالرصاص.

إن ظروف الحرب لم تسمح بتطبيق كلي لهذه التوجيهات ولم تسمح للهيئة التنفيذية العليا بمراقبة درجة التطبيق في الميدان.

ثم صادق المجلس الوطني للثورة الجزائرية في السداسي الثاني من سنة 1959م على نصّ المؤسسات المؤقتة للدولة الجزائرية، حيث أكد على حق الدفاع، في حين أن القانون الأساسي لجبهة التحرير الوطني الذي صادق عليه المجلس الوطني للثورة الجزائرية في يناير 1960م ينصّ على أن كل مخالفة يرتكبها مناضل أو مسؤول هي من اختصاص الهيئة التي ينتمي إليها المعنيّ.

ونصّ القانون الأساسي أيضاً على أن لجنة ستؤسس لتحضير قائمة الأخطاء والعقوبات المناسبة لها، والإجراءات الخاصة بالتحقيق والمحاكمة.

وخارج الجزائر نُصّبت محاكم كلما طُرحت قضايا، محكمة تبورسق في تونس في جويلية 1957م، محكمة تونس لمحاكمة لعموري وأنصاره في مارس 1959م، ومحكمة وجدة لمحاكمة النقيب الزبير في صيف 1960م، إلا أن رمضان عبان اغتيل من دون مثوله أمام محكمة.

ومن الجدير بالذكر أن المرسوم رقم 163،62 الصادر يوم 31 ديسمبر 1962م اعتبر قرارات اللجان القضائية الجبهوية في المجال المدني صالحة وقابلة للتنفيذ، بشرط أن تحمل الصيغة التنفيذية على حسب الإجراءات المذكورة في المرسوم المشار إليه أعلاه[1].

7 . وفي المجال الأمني:

وضع قادة وجيش جبهة التحرير الوطني جهازاً أمنياً قوياً لضبطه وتنظيمه ودعمه، والحفاظ على سلامة المواطنين والمجاهدين ومراقبة تحركات العدو، وترصد خططه العدوانية الغادرة، وترصد أعوانه وأذنابه، وقد زرع أعوان الأمن على كل أطراف الولاية، وكلفوا بتتبع كل تحركات جيش الاحتلال وأعوانهم والتعرف على توجهاتهم وخططهم وإبلاغها إلى المسؤولين ليقوموا بالواجب، وتعاون مع هذا الجهاز أعوان الاتصال والاستعلام ونقل الأخبار في الاستعلام عن كل صغيرة وكبيرة للعدو، ومراقبة كل تحركاته وتعاون الجميع على إفشال كل خطط جيش العدو، وكشف مراميه ومساعيه الاستعمارية الخبيثة. وبفضل ذلك استطاعت الثورة أن تتخطى كل العراقيل والصعوبات والعقبات والمكائد وأن تحقق النصر المؤزر في النهاية[2].

كانت مؤسسة المخابرات والدعاية والإعلام R.P.I هي تنظيم ثوري تحت الإشراف المباشر للقيادة العامة لجيش التحرير. إن R.P.I يعني المخابرات والدعاية.

(1) الثورة الجزائرية ص 297.

(2) الثورة في الولاية الثالثة ص 208.

أ . مفاهيم التنظيم:

.كل العناصر التي تكون هذا التنظيم يجب أن تتمتع قبل كل شيء بنضج عقلي وتكوين نظامي محكم، وهذا يعني أن مبادأئ التضحية والطاعة والمثابرة والصلابة ينبغي أن تكون متوفرة بل ومشروطة مسبقاً.

. إن هذا التنظيم يقوم على أساس السرية المطلقة، وحركة مرنة ومنهجية، إن الفصل بين مختلف العناصر «الأفراد والأعضاء» ينبغي أن يكون تاماً، وأي عرقلة لهذا العمل يجب أن تعاقب بشدة.

. إن عدد العناصر الذين يمكن إدماجهم غير محدد بشرط الحرص الدائم على الفصل والسرية.

وهكذا فإن عون المخابرات والدعاية والإعلام يجب عليه دائماً أن لا يعمل ما لا يعنيه، وأن لا يكون معروفاً إلا من طرف مسؤوله المباشر، وأن يجهل نشاطه كلية صديقه الأكثر ائتماناً.

. إن كل عناصر «م.د.أ» ينبغي عليهم أن يكونوا في الموعد لأداء اشتراكهم بانتظام، وأن يعدّوا تقاريرهم وتحقيقاتهم بضمير واع.

إن هذه الخصال والسلوكيات ضرورية، وبهذه الصفة وحدها يمكن إدراك كل الأهداف المرسومة من قبل هذا التنظيم.

ب . الاستخبارات:

هناك إخبار خاص وإخبار عام «المعلومات».

. المخابرات الخاصة «المعلومات الخاصة»: وتستهدف مصالح العدو العسكرية والسياسية التي قد تكون إما:

. مصالح الشرطة وملحقاتها.

. القوات المسلحة وملحقاتها «مراكز وثكنات ومكاتب».

. السجون ومراكز الإقامة.

. الأحزاب السياسية والنقابات أو الجمعيات الأخرى.

يجب إقحام عدة أعوان للأخبار في الدعاية والإعلام في عدد من الميادين. فيمكنهم أن يكونوا أعواناً مزدوجي المهمة، بل يمكن أن يتسللوا بوسائل مناسبة ومباشرة، إذ يجب عليهم أن يقدموا المعلومات كاملة عن نشاطات وحركة الميادين السالفة الذكر.

ج . المعلومات العامة:

وتستهدف كل الجماهير، كل السكان، وكل الأفراد. فهي قد تعني الجار، كما تعني الأجنبي. وتستهدف كذلك كل أصناف المعلومات والأخبار، وقد تعنى بالوضع العام والروح المعنوية، والنشاطات، والعقلية العامة للجماهير وكذلك الأفراد.

إن عون «م. د. أ» يجب عليه أن يلاحظ ما حوله ويتدخل في كل شيء دون أن يفشي أو يكشف انتماءه لأي كان.

د . الدعاية والإعلام:

إن عون «م. د. أ» في هذا الدور يجب عليه أن يقاوم كل أنواع التشهير والنميمة وكل محاولات المضايقة بمواقفه أو بأقواله، وعليه أن يعمل على عدم احتقار كل ما يمكن أن يفيد العدو، بل يجب عليه على العكس أن يضاعف نضاله، وأن يمجد الأعمال البطولية للمقاتلين، ويجب عليه أن يندد بكل المؤسسات التي يقيمها العدو، وعليه أن يعلم المواطنين بإبلاغهم كل الحقائق.

إن عليه أن يزرع الروح الوطنية وروح العمل لدى كل الجزائريين دون أن يكشف عن انتمائه[1].

وكان لجهاز الأمن والاستخبارات دور عظيم في إفشال مخططات الاحتلال وإنجاح ثورة الشعب الجزائري وتحرير البلاد من العدو الفرنسي.

8 . المرأة الجزائرية:

إن للمرأة دوراً رائداً في هذه الثورة بالولاية الثالثة، على مستوى الجزائر كلها، وقاسمت الرجل المجاهد كل أعماله وأتعابه ومشاقه المدنية والعسكرية والسياسية، فتولت الطهي، والإطعام، والإيواء للمجاهدين، وباشرت عمل الإعلام كنقل الأخبار، وترصد حركات العدم، وإيصال الرسائل والمعلومات، وتولت التمريض، والعلاج للمرضى والمجروحين، والمعطوبين، وتنقلت في الجبال والشعاب، وحملت السلاح وشاركت في المعارك، وأخفت المجاهدين، ونقلت إليهم المؤن والأغذية والملابس والمعلومات والأخبار، وشجعتهم على الصمود والثبات والاستبسال في المقاومة والجهاد، وأعطت المثل بالصبر والجلد والتحمل، وكانت خير مثل وعلى كل لسان لكل نساء الجزائر وبلدان العالم العربي والإسلامي والأوربي، ومن أمثلتهن ورموزهن: مليكة قايد، وفضيلة سعدان وأختها مريم، والجميلات الثلاثة، جميلة بوباشة وجميلة بو حيرد وجميلة بو عزة[2].

أ . جميلة الجزائرية والمجاهدات:

احتلت المناضلة الجزائرية «جميلة» حيزاً كبيراً في الشعر العربي وخصوصاً العراقي الذي قيل في هذه الثورة الجزائرية، فأكثر من ثلاثين قصيدة من قصائد موسوعة الثورة الجزائرية في الشعر العراقي حملت عنوان جميلة، وحديث الشعراء عن جميلة. كما قدم الشعراء جميلة في عدة صور، فهي ابنة العروبة وخولة بنت الأزور الجديدة وهي نغمة في قلب كل أم عربية، وهي شعلة عز وكبرياء وهي المناضلة الحبيبة.

وقصيدة «أنا فكرة» للدكتور جواد البدري، التي نظمها وأهداها لجميلة عام 1958م تعتبر من أجمل ما قيل في نضال جميلة، فقد جسد الشاعر الثورة الجزائرية في جميلة المناضلة، واعتبر الثورة فكرة وليست كائناً من لحم ودم، ولهذا فإنها لا تموت بموت الأشخاص، وهي فكرة كامنة في العقول والنفوس، وفي دموع الكادحين منذ أن ظهر الإنسان على ظهر الأرض:

اقتلوني

أنا فكرة

(1) قوانين مجموعة: علي بوداري ص 55 إلى 158.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 109.

في العقول النيِّرة

في النفوس الخيِّرة

في دموع الكادحين

في قلوب الطيبين

عبر الاف السنين

مستقرة

أنا فكرة

إن الثورة فكرة، نور تضيء للشعوب، طريق الانعتاق، وبناء مصير عادل، وهي نار تحرق أعداءها وأعداء الإنسان، وهي زهرة تنشر عطرها بين الشعب عبر النسيم، لتروي الملايين من البشر، وهي أمل الناس ودفء أحلامهم[1].

أنا أنوار ونار

أنا فكرة

اسحقوني

أنا زهرة

عطرها تنشره الأنسام

في كل مكان

ترتوي منها الملايين

عبير النسمات

تبعث النشوة والدفء

وأحلام الأمل

لبني الأرض جميعاً

ويطلب الشاعر منا أن نسأل التاريخ: كم إنسان حر كريم مزق الطاغية جسمه؟ ودقَّ وشقَّ صدره؟

لكن الجلاد انقرض مشيّعاً باللعنات، ويبقى الأحرار الشهداء فكرة يستلهمها الناس:

أسألوا التاريخ

واستوهوه ذكره

كم فتى كريم

مزق الجلاد جسمه

دق عظمه

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، عثمان سعدي (128/1).

شق صدره

ومضى الجلاد ملعوناً

ولكن بقي الأحرار فكرة

اقتلوني

أنا فكرة

فأنا جميلة إن كبلني المستعمر بقيد من حديد، وضرب جسدي العاري حتى أدماه بالسياط والنار، فلأني رمز شعب لا يحيد عن هدفه في التحرر ولأني حرة تأبى الذل والخضوع.

أنا إن قيدني الباغي		بقيد من حديد

وتدمي جسدي العري		بضربات البليد

بسياط ولهيب		فلأني رمز شعب لا يحيد

ولأني حرة تأبى الخضوع		والمذلة أنا حرة

ويستمر الشاعر في التحدث باسم جميلة التي تعلن للأعداء: اقتلوني فأنا فكرة، والفكرة لا تموت، أنا رمز لنضال الشعب من أجل تحقيق سلام يتخلص فيه الإنسان من الحروب والاستغلال معاً، حيث يسود حياته الحب بين الناس والوئام بين الشعوب، فأنا أضحي من أجل الحق:

اقتلوني أنا فكرة

اسحقوني أنا زهرة

أنا رمز لنضال الشعب من أجل السلام

وشعار الود والإخلاص في دنيا الوئام

أنا إن ضحيت بالنفس، وغايات المرام

فلأجل الحق أمضي وأضحي

بشباتي

وبعزمي(1)

وأما الشاعر أيوب صبري يقول على لسان جميلة:

إذا كانت يدي رفيقة فأنا على الأعداء صواعق ورعد، وهي عزم كالموت لا يحيد.. لكن مع الناس الطيبين، فأنا على كل عاطفة وحب، فأنا ابنة الجزائر والعروبة، وأنا في مستوى «جان دارك» المناضلة الفرنسية التي ضحت بحياتها في سبيل وطنها.

كفِّي الرقيقة كف والدة بها رأم وسعد

(1) المصدر نفسه (130/1).

لكنها أبداً علىالأعداء صاعقة ورعد
الموت حتم لا يرد وإن عزمي لا يرد
لكنني إنسانة أبداً وعاطفة وود
إني أنا بنت الجزائر والعروبة لي تمد
قد مجدوا «جان دارك»، هلا مجدوني وهي ند[1]

وأما الشاعر سعيد قاسم فقد قال عن جميلة:

البطلة جميلة
أختي جميلة والأسى يُدمي فؤادي في الحياة
ما أنت إلا زهرة ذبلت بتعذيب الطغاة
في غيْهب السجن المريب

* * *

من صوتك الحُلو الجميل سمعت ألحان الكفاح
فعلمت سرَّ العيش في الدنيا بسيف أو سلاح
فلتشعل نارُ الحروب

* * *

هم أوقدوها فتنة سوداء عارمة اللهيب
حرب الإبادة هذه شُنَّت على شعب نجيب
جَاروا على أرض الحبيب

* * *

الظلم يَخْذل يا جميلةُ والعدالة تنتصر
وبنو فرنسا في الجزائر ذنبُهم لا يُغفرُ
سادوا على دروب العيوب

* * *

أختاه يا بنت العروبة رفرفي فوق الرَّوابي
يا راية الأحرار قد رُفعت علىتلك الهضاب
تفديك حبَّات القلوب

* * *

(1) المصدر نفسه (487/1).

لبيك يا رمز الكفاح وخيرَ درس في الحياة
يا من رفعتِ لنا منارَ الحق في هذا الثبات
والصبر نصرٌ عن قريب[1]

* * *

إني من الحدباء، باسمك أنشد الشِعرَ الحزينا
كالبلبل الغريد يَسكبُ دمعه لحناً حنُونا
في ظلمة الليل الرهيب

* * *

لم يشهد التاريخ أهدر من فرنسا للدماء
عاثت فساداً في الشعوب وقوضت صرح البناء
كم هيَّجت قلب اللبيب

* * *

هذا «حزام الموت» ينطقُ باسم «تحرير الشعوب»
فرضوه تشريداً لشعب هامَ في طيِّ الدروب
في مطلع اليوم العصيب

* * *

هذا عذابُ الكهرباء وغيره في ذي السجون
الروح أقوى يا جميلة منه في غيب المنون
والله في عون المنيب

* * *

أختاه فجرُ النصرِ لاحَ فحطمي قيدَ العبيد
واستقبلي ظُلم الطغاة بعزم جبار عنيد
فالويل للباغي الكذوب

* * *

أبناء قومي ما عَهِدْنا فيكم رجلاً جباناً
هذِي جميلة أختكم هيَّا أنقذوا شرفاً مهاناً
من علج باريس الغصوب[2]

* * *

---

(1) المصدر نفسه (487/1).
(2) الحدباء: الموصل

كان لمشاركة المرأة الجزائرية في حروب التحرير صدى في شعر الثورة، فقد عكس ونقل لنا هذا الشعر أجواء الثورة بالامها واماالها، وإن المتصفح لهذه النصوص الشعرية تطالعه صورة المرأة المجاهدة البسيطة التي قاومت المستعمر الفرنسي، بصبر وإيمان كبيرين، كما تطالعه صورة المجاهدة وهي تقوم بمختلف المهام التي كانت تسند إليها.

فهذا شاعر الثورة مفدي زكريا، يسجل في قصيدته بنت الجزائر سنة 1956م في صورة واقعية تلبية بنت الجزائر لنداء الكفاح، إذ ينقل لنا عبر القصيدة أجواء الثورة ووقائعها، حيث المعركة، والعدو، والقنابل، والجراح، والموت، والفداء، والنصر.

ويورد الشاعر هذه المعاني الثورية في أسوب إنشادي على لسان البنت الجزائرية التي تحارب العدو بكل جوارحها ووجدانها وهي تنشد قائلة:

أنا بنت الجزائر　　　أنا بنت العرب
يوم نادى المنادي　　　ودعا للكفاح
قمت أحمي بلادي　　　وتركت المزاح
وصدقت جهادي　　　وغدوت الجناح
في صفوف القتال　　　أنا ألهب نارا
من أعالي الجبال　　　أنا أدعوا البدارا
في معاني النضال　　　أنا كنت المنارا
أنا أرمي القنابل　　　والمسدس جنبي
أنا أفدي المقاتل　　　بعيوني وقلبي
أنادي البواسل　　　حطموا غلّ شعبي

أما الشاعر صالح خباشة فينقل لنا من خلال شعره سنة 1957م جوانب أخرى من صورة المجاهدة وهي تمارس الأعمال في الجبل.

زيادة على هذا فالشاعر يعطينا المواصفات الجمالية المتميزة لهذه المجاهدة والتي لا شك أنها تختلف عن المواصفات الجمالية للمرأة العادية، فحزام هذه المجاهدة ليس فضة، لكنه من سبائك الخرطوش، وكفُّها مخضبة بالدم وليس الحناء، ويدها تلمع بمسدس وليس بسوار، وهي ملاك مع الجريح، ولبؤة مع العدو. وغيرها من المواصفات الأخرى التي تتميز بها المجاهدة التي أبرزها الشاعر من خلال استخدامه أسلوب التقابل بين الصور، وهذا ليجسد لنا الصورة الكلية للمجاهدة، وهذا في أسلوب وصفي إخباري إذ يقول:

بنت الجزائر والنضال يهزها　　　تاقت إلى خوض الغمار الدام
يشقت إلى الجبل الأشم مسالكا　　　مسدودة في أوجه الأخصام
لقد انتطقنا وما انتطقن بفضة　　　فسبائك الخرطوش خير حزام

ولهـا يـد لمـاعـة لا بالسـوار   وإنمـا بمسـدس رجـام

والكف منهـا تنكر الحِنَّـا وقـد   ألفـت خضـاب الـدم كـالأقـدام

ويواصل الشاعر خباشة في القصيدة نفسها تعداد الأعمال التي تقوم بها المجاهدة في الجبل، فهي إلى جانب إعدادها للطعام تخيط الملابس وتقوم بالتمريض وتحنّ على الجرحى في الوقت نفسه، تواجه العدو في ضراوة، يورد الشاعر هذه المعاني في أسلوب إخباري مباشر فيقول:

مـا بين مختلف الثيـاب تخيطهـا   والنـار تضـرمهـا لطهي طعـام

أو حـول راقـنـة أناملـهـا   تبـاري سـرعـة ألفـا من الأقلام

فـهـي المـلاك مـع الجـريـح   وللـمعـادي لبـؤة ترديـه في إقـدام

كما أن حضور المجاهدة مع إخوانها في الجبل يشكل رافداً معنوياً قوياً، فهي تقوي عزائمهم وتشجعهم بزغاريدها وثباتها على مقاومة العدو، وبذلك فهي حقاً . نموذج فذ للفداء، ورمز للبطولة وفي ذلك يقول الشاعر:

ش إن زغـردت في كـرة ذعـر العـدا   مـنـهـا وأذكـت نارهـا بضـرام

أو رتـلـت في نصـرنا أنشـودة   نـزلـت عـلـى الأحـرار بـرد سـلام

أصـبـحـت يا بـنـت الجـزائـر   للبطولـة والفـدا علمـاً من الأعلام

وسـخرت بالتعـذيـب وهو فواجع   بالصـبر كم أفللت حـدَّ سـهـام[1]

وهذا الشاعر صالح الجعفري العراقي يقول عن نضال النساء الجزائريات ومساهمتهن في إنجازات الثورة الجزائرية، حيث قال:

أرأيتَهُنَّ كأنهنَّ شحذن من زُبر الحديد

أو أنَّهنَّ بُعثنَ يوم الرَّوع خلقاً من جديد

كافحن بالصبر الجميل وبالحجارة والجريد

متهللات كالربيع مغرِّدات بالنشيد

متحليات بالشجاعة لا الحُليِّ ولا العقود

يجررْن أذيال الفخار نُسجن من كرم الجدود

يطلعن في أفق الجزائر مثل أقمار السعود

وينرن للأحرار أرجاء الطريق إلى الخلود

فإذا الغد المجهول وضَّاحُ المعالم والحدود

وإذا الغد المكتوم ذو لُسُن وذو شأن وطيد

يرجُمْنَ بالعزمات تُنذر بالهلاك وبالوعيد

---

(1) المصادر، العدد الخامس. 2001م ص 92.

زُمر الجبابرة الطغاة وكلَّ شيطان مريد[1]

ب . صورة الأم:

إن بطولة المرأة الجزائرية لا تنحصر في صورة المجاهدة فحسب، بل تتعدد في صور شتى مختلفة، وهذا بتعدد أداور المرأة الجزائرية في المجتمع خلال الكفاح المسلح. وبطولة المرأة الجزائرية برزت أيضاً في صورة الأم التي أثبتت للمستعمر شجاعتها أمام المحن، والمواقف الصعبة التي تجاوزتها بصبر وأناة.

ويتصدر هذه المواقف الصعبة التي عايشتها الأم الجزائرية إبان الثورة المسلحة، وسجلها شعر الثورة الجزائرية في صفحاته الخالدة ؛ موقف الأم في قصيدة محمد العيد المعنونة «من وحي الثورة والاستقلال»، وهي تودع ابنها الوحيد ليلتحق بصفوف الثورة وتلقي عليه النظرة الأخيرة ولا تعرف هل يعود أم لا، ولا يخفى ما في هذا الموقف من حزن وأسى وما يسببه من معاناة واضطراب نفسي للأم إثر فراق ابنها، فلنتأمل مشهد الوداع بين الأم وابنها المثير للأشجان وهي تقول له:

ولـرب ثـكـلـى مـن وراء وحـيـدا ... صـــرخـت ودمع العين يـدمي المجمر

ايا ذخر عمري، يا حشـاشـة مهجتي ... يا طيـب عيشـــي يا غنـاي الأوفر

ايا أنـس مـأوى الحـزيـن وأنســـه ... مـأواي أوحـش منـذ غبـت وأقفـر

ايا برء قلبي هـل تؤوب فـأشـــتفي ... يا نور عيني هـل غبـت فـأبصــر

ادنيـاي مظلـمـة إلى يوم اللـقـاء ... وحشـــاي مضـــرمـة إلى أن تظهرا

إني أحس من الأســى كبدي انمحت ... ونـيـاط قـلـبي مـن نـواك تـبـتر

أأتـكـون حيـاً يا تـرى؟ فيـجيـبـهـا ... رجع الصدى «أتكون حياً يا ترى؟» [2]

نوفي الشمال القسنطيني في سنة 1955م، حين أحضر أحد الضباط الفرنسيين جثة ابنها الذي استشهد في غارة جوية وطلب من الحاضرين التعرف على هويته، فتقدمت الأم، وانحنت في جلال على ابنها الشهيد ثم أطلقت في الفضاء زغرودة أدهشت الحاضرين، وزادت دهشة الضابط الفرنسي، عندما قالت له الأم بكل اعتزاز: أنا فخورة بابني لأنه مات من أجل بلاده ولمثل هذا أعددته[3].

وقد قالت الشاعرة العراقية امال الزهاوي تصف في أثر الأم على المجاهدين في ساحات الوغى في قصيدتها «نداء الأم»، مهداة إلى المجاهدين الجزائريين حيث تقول:

ونداء أمي صارخاً أقوى من المتفجّرات

أقدم بُنيَّ على العدو كعاصفات صارخات

فبقُرب ضِيقك دائماً أخواتك المتذمرات

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي (16/2).

(2) المصادر، العدد الخامس 2001م ص 94.

(3) المصدر نفسه ص 97.

يشددن عزمك للتحرر من ليال حالكات
صرخاتُهن بوجه خصمك بالغناء مزمجرات
أصواتهن بجنب صوتك بالعدو مندِّدات
يرقبن أيام الكفاح بأعيُنٍ متطلعات
ينشدن فجر الانتصار بأنفسٍ متلهفات(1)

إلى إن قالت:

أمَّاه صوتك لا يزال له بأعماقي رنين
فهو الضياء بظلمتي ولعُزلتي نصح ثمين
قد عشت في هذا النداء بكلِّ روحي من سنين
متحفزاً للثورة الكبرى بوجه الغاصبين
أمَّاه صوتك في الكفاح يرن من قلب حنون
يطغى على صوت التفجر كاسحاً وجه المنون
يبقى بأعماق الفؤاد صدىً تفجُّره دفين
من بعد عهد بيننا وأنا في عهد أمين
أماه إني في التحرر ماضياً لا بعد حين
سيظل عزمي كاسحاً بطش الفرنسيِّ اللعين
ويظل صوتي ساخراً بالمقصلات وبالسجون
حين يدوي صارخاً في فرحة النصر المبين
أمي الجزائر حرّرت من قبضة الظلم المهين(2)

ج ـ صورة الزوجة:

وهناك صور أخرى للزوجة سجلها شعر الثورة، وهي تمثل نموذج الزوجة المخلصة الوفية لزوجها في أحلك الظروف، هذه الصورة تطالعنا في قصيدة قصة ثائر «للشاعر محمد الأخضر السائحي» ومن خلال أسلوب القصة، يجسد لنا الشعر موقف الزوجة الشجاعة التي تشد عزيمة زوجها، بل نجدها هي التي تحثه على الالتحاق بصفوف الثورة ليعود إليها بالنصر، لتحيا معه حياة كريمة، وبرهنت الزوجة الجزائرية عن مدى شجاعتها وعمق وعيها، إذ أنها لم تكتف بتشجيع زوجها لمحاربة العدو، بل انضمت هي الأخرى في صفوف المجاهدين، وهذا ما تلخصه لنا قصيدة «بالفداء تحيا الجزائر» للشاعر أبو الحسن علي بن صالح، إذ يحكي لنا قصة فدائي

(1) الثورة الجزائرية في الشعر العراقي (220/1).
(2) نفس المصدر (221/1).

وزوجته الفدائية الذين يلتحقان بالجبل ويضحيان بحياتهما في سبيل حرية الجزائر، وهذا سنة 1956م، يورد الشاعر أحداث هذه القصة في أسلوب الحكاية، والحوار بين الزوجين، فهذا الزوج يخاطب زوجته قائلاً:

عـزمـنـا أن نضـحـي بالـغـوالي وبالأمـوال والمـهـج الـغـوالي
نضـحـي بالـنسـاء وبالـرجـال ونـبـذل كـل مـرتخـص وغـالي
لـتـحـريـر الـعـروبـة في الجـزائـر وداعـاً واصـبري صـبراً جمـيـل
اوإياك والـبـكـا ودعـي الـعـويـلا فـإن أمـامـنـا دربـاً طـويـل
ابـغـير الـعـز لا نـرضـى بـديـلا عـقـدنا الـعـزم أن تحـيـا الجـزائـر

وبعد أخذ ورد بين الزوجين تفاجأئ الزوجة زوجها بنضالها وعدتها الحربية التيكانت تخفيها عنه فيندهش الزوج لتكتمها وبطولتها، ويقرران في الأخير الالتحاق معاً إلى الجبل حيث الكفاح المسلح، ويصف الشاعر هذا الموقف الأخير بقوله:

هـنـا فتحـت حقيبتهـا وكـانـت أعـدتها مجـهـزة ودارت
لـتـلـبـس بـذلـة زرقـاء وراحـت تريـه مسـدسـاً ومُـدى، وقـالـت
أنا بـنـت الـفـدا بـنـت الجـزائـر تعجّـب من تكـتـمهـا الـعـجـيـب
ومـن إخـفـاء بـطـولـتـهـا الـغـريـب فصـاح بـفـرحـة هـذا مُـنـايا
لـبـاة الـلـيـث لا تخـشـى الـرزايا تخـوض بجـرأة بحـر المِـنـايا
وتـرسـلـهـا مـدويـة الشـظـايا لـتـحـرق كـل محـتـل وغـادر

فتجيبه الزوجة قائلة:

فـهـيـا لـلـمسـير بـكـل عـزم لـنـبـلـغ ذروة الجـبـل الأشـم
وحـاذر أن تـرانا يا ابـن عـمـي جـواسـيـس الـعـدو المـدلهـم
فإن الليل للثوار ساتر

وهكذا تلتحق الزوجة مع زوجها إلى ساحة الوغى ليفديا الجزائر وفي ذلك قال الشاعر:

إلى سـاح الـوغـى انـبريا وراحـا ومـن روح الـتـحـمـس مـا اسـتراح
اتقـلـد مسـرعـاً كـل سـلاحـا ومـن روح الـفـدا اتخـذا وشـاح
اوصاحا: بالفدا تحيا الجزائر(1)

وهكذا تجلو لنا صورة الزوجة في شعر الثورة التحريرية، في مواقف شتى، وهذا ببطولتها ومعاناتها وإسهامها، في صناعة الحدث الثوري مع قافلة المجاهدين، وبتشجيعها لزوجها على الالتحاق بالكفاح المسلح، وهذا في «سبيل الله عز وجل» ثم عزة وكرامة الوطن(2).

---

(1) المصادر العدد الخامس عام 2001م ص 102.

(2) المصدر نفسه.

كما كان للأخت والبنت والعمَّة والخالة والجدة دور كبير في الثورة ونجاحها والتصدي لأساليب الغزاة.

وفي كتاب قوانين مجموعة: القوانين الداخلية لجيش التحرير الوطني لعلي بوداري ذكر:

المنشور رقم 9 بتاريخ 1957/5/2م

الموضوع: دور النساء المجاهدات

بمقتضى قرار لجنة الولاية يصدر القانون التالي للفتيات المجاهدات:

. التعيين:

يتم تعيين النساء المجاهدات في مراكز التمريض وهن ملزمات بمتابعة تربص طبي إجباري مسبقاً تحت إشراف مسؤول المصلحة الصحية للولاية، غير أن لهذا الأخير صلاحية إعفاء أية مجاهدة لا تتمتع بالتكوين المطلوب من متابعة التربص.

تخضع النساء المجاهدات داخل مركز التمريض لنفس النظام بالنسبة لعمال ذلك المركز ما عدا فيما يتعلق بشروط السكن والنقل اللذين كانا موضوع بلاغ خاص «إرسال خاص».

. دور النساء المجاهدات:

تقوم النساء المجاهدات بدور مزدوج:

. دور طبي.

. دور سياسي.

. في الدور الطبي: تقوم النساء المجاهدات داخل مراكز التمريض بدور الممرضة لدى المرضى، أما خارج المركز يعتنين بكافة العلاجات الطبية وبأعمال المرأة المدنية.

ولدى ممارسة هذا الدور تكون المرأة المجاهدة تحت مسؤولية الممرض الرئيس للقسم الذي تم تعيينها لديه.

. الدور السياسي والاجتماعي: فوق إقليم القسم الذي وجد لديه منصب التعيين تقوم المرأة المجاهدة لدى أخواتها الجزائريات بدور اجتماعي وسياسي.

. الدور الاجتماعي: يجب على المرأة المجاهدة أن تكون مؤمنة اجتماعية حقيقة في خدمة المرأة الجزائرية، فيجب عليها أن تسعى لتمكينها من العلاجات الضرورية التي يمكن أن تساهم في تخفيف متاعب المرأة أو تحسين ظروفها أو ظروف العائلة، وتنصحها فيما يتعلق بتربية الأبناء وشروط النظافة والصحة ..الخ..

ولممارسة هذه المهمة فإنه يجب على المرأة المجاهدة أن تلعب دور المستشارة الناصحة التي تنير وتقنع، ولا يجوز لها أن تعطي أمراً مهماً كان.

. الدور السياسي: إن المرأة المجاهدة يجب عليها أن تعلم المرأة الجزائرية كيف تدرك مشاكل الساعة، وعلى الأخص فهي ملزمة بأن تشرح لها معنى «حقيقة» جبهة التحرير الوطني، ما هي أهداف الثورة الجزائرية وافاق المستقبل.

إن النساء المجاهدات يجب عليهن أن يكن قادرات على الإجابة عن أي سؤال يمكن أن يطرح عليهن من طرف أخواتهن في هذا الموضوع، ثم تعريف المرأة الجزائرية بواجباتها والتزاماتها، وعليهن بصفة خاصة أن يبيّنّ لهن ماذا تنتظر منها جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني في دورها السياسي والاجتماعي؟ إن النساء المجاهدات يعملن تحت مسؤولية المحافظ السياسي للقسم، حيث يوجد منصب التعيين.

إن لجان المناطق والنواحي والأقسام وكذا الأطباء والممرضون والممرضات مكلفون بتنفيذ هذا المنشور[1].

9 . التعبئة المعنوية بالإسلام وقيمه:

لقد تمسك الشعب الجزائري بالإسلام وعقيدته السمحة، وعمل بها وبمبادئه. وردَّ بذلك على سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح التي طبقتها فرنسا الاستعمارية على مدى قرن وثلث القرن في إطار الحرب الصليبية التي شنتها على الشعب الجزائري منذ عام 1830م إلى مطلع عام 1954م تاريخ اندلا ع ثورة أول نوفمبر المباركة، وعملت بكل وسائلها وإمكاناتها المادية والأدبية من أجل تنصير وتمسيح الشعب الجزائري وبلاد الجزائر، ولكن بدون جدوى على أي حال، لأن الشعب الجزائري مؤمن ومسلم بالأصالة، وشديد التمسك به وبعقيدته الإسلامية وقرانه ولغته القرانية أباً عن جد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وبفضل ذلك الإيمان الراسخ والتمسك به، صمد كالجبال الراسيات ووقف وقفة العمالقة، وأفشل كل محاولات الاستعمار من أجل اختراقه وفصله عن دينه وعقيدته الإسلامية، التي بفضلها وفضلها فقط مع شجاعة المجاهدين حقق الانتصار الأكبر غداة شهر جويلية 1962م على أعتى قوة عسكرية انذاك.

لقد أسهم الإسلام والقران، ولغة القران، وحضارة القران في حشد قوى الشعب الجزائري للدفاع عن الحرية والاستقلال ومقاومة ومحاربة الظلمة والمعتدين والكفرة الجاحدين عبر التاريخ، وتعتبر ثورة أول نوفمبر 1954 . 1962م بالنسبة للشعب الجزائري مثالاً ونموذجاً للتحدي والمواجهة والصمود ضد المحتلين الفرنسيين الاستعماريين تحت مظلة الإسلام، ولواء كلمة «الله أكبر».

وفي إطار الجهاد والمجاهدين، إذ إسترخص المجاهدون الجزائريون المسلمون أرواحهم وحياتهم وأسرهم وأملاكهم في سبيل حماية الإسلام والعقيدة الإسلامية والقران، ولغة القران، وحضارة القران، وقاوموا سياسة الفرنسة والتنصير والتمسيح التي مارسها الاستعمار الفرنسي قرناً وثلث القرن ضد الشعب الجزائري دون أن يحقق أهدافه الاستعمارية التي تلاشت أمام صمود الشعب الجزائري بفضل الله ودينه العظيم.

فالإسلام هو مفتاح سعادة الشعوب الإسلامية والشعب الجزائري الذي ندوِّن في تاريخه المجيد.

ولولا الإسلام ما كانت ثورة أول نوفمبر الكبرى أصلاً، ولما كتب لها النصر بعد أن اندلعت، لأن الإسلام هو الجدار والخندق الفاصل بين الشعب الجزائري، وفرنسا المسيحية الاستعمارية، ولولاه لنجحت في تمسيحه[2]، وتنصيره.

(1) المصدر نفسه.

(2) الثورة في الولاية الثالثة التاريخية ص 270.

أ . محمد البشير ومقالاته التعبوية:

استمر العلامة محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته وتوجيهاته الحماسية للشعب الجزائري، فكتب الكثير من المقالات، وسافر وجمع المال لدعم الثورة وجلب لها الدعم المعنوي والمادي، ومن أشهر مقالاته في تأجيج حماس الشعب والثوار ضد الاحتلال.

.كيف تنجح الثورة؟

الثورة القائمة في الجزائر، يتوقف نجاحها على تحقيق ثلاثة أشياء: الإطالة، والتعميم، والسلاح،وبهذه الثلاثة نجحت كل الثورات التي وقعت في العصور القريبة علىالاستعمار، فثورة ليبيا على الاستعمار الإيطالي دامت عشرات السنين حتى أقضّت مضاجع الطليان من عسكريين وسياسيين، وثورة الهند الصينية على الفرنسيين الغاصبين دامت ثماني سنوات.

وإذا كان من سر نجاح ثورة الشهيد عمر المختار اعتصامه بالجبل الأخضر، فإن في الجزائر عشرات من الجبال تفوق الجبل الأخضر في الارتفاع ووعورة المسالك وكثافة الغابات الطبيعية، وليس جبل أوراس بأولها ولا باخرها، وهي ممتدة على طول القطر الجزائري من حدود تونس إلى حدود مراكش، وتوازيها سلسلة الأطلس الصغرى على طول سواحل مقاطعة قسنطينة، وثلثي مقاطعة الجزائر، وفيها من القمم الصخرية الوعرة والغابات ما لا يقل عن قمم وغابات الأطلس الأكبر.

فالجزائر مسلحة بهذا السلاح الطبيعي الذي لا يوجد في غيرها إلا قليلاً، غير أنه لا يحسن الاعتماد عليها كثيراً في هذا العصر الذي من أسلحته الطائرات والقنابل الثقيلة وأسلوب التطويق والحصار الذي يقطع الإمداد على المعتصمين بالجبال، ثم هذا الأسلوب الذي اهتدت إليه إيطاليا في أخريات ثورة عمر المختار، وهو ترحيل سكان القرى بالجبل وسفوحه وإبعادهم عن المجاهدين، ثم وضعهم في الأسلاك الشائكة المكهربة على ما يقرب من مئتي كيلومتر على الحدود المصرية، وهذا الصنيع نفسه قد بدأت فرنسا في سلوكه بجبل أوراس، فقد أفادت وكالات الأنباء أنها أمرت سكان القرى الامنة بالنزوح عنها كيداً لهم ومكراً بهم، حتى تنزل النكال بالثائرين ولو بتسليط النار على الغابات كلها.

وأما تعميمها فهو شرط أساسي لنجاحها لأنه يوزع القوى الفرنسية، ويقوي تأثير الرعب في نفوس المعمرين أصحاب المزارع والضياع، وهذا التعميم متوقف على الأسلوب الذي يجري عليه الثائرون في جبل أوراس، وعلى التوجيه السري الذي يباشره الدعاة إلى الثورة، والمغذون لها بالرأي والإمدادات المادية.

وأما التسليح فهو أصعب الأشياء، لأن الجزائر محاطة بمراكش وتونس، ولا يمكن التسليح إلا منها، وفرنسا محتاطة من عشرات السنين لهذه القضية بخصوصها، وما احتلت فزان إلا لهذا، وما بادرت بمفاوضة التونسيين وإسكات الفدائيين في تونس إلا لهذا، فعلى الرجال والهيئات العاملة لخير الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة حصر أعمالها واهتمامها في هذه النقطة، ومع الجد والعزيمة والصدق والصبر وحسن التدبير يهون كل عسير[1].

(1) موقف الإمام الإبراهيمي (498/1).

ب . موالاة المستعمر خروج عن الإسلام:

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في كلمة أُلقيت بإذاعة صوت العرب بالقاهرة عام 1955م جاء فيها:..

إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا في غاية، فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد.

. والإسلام شرع الرحمة والرفق وأمر بالعدل والإحسان.

. والاستعمار قوامه على الشدة والقسوة والطغيان.

. والإسلام يدعو إلى السلام والاستقرار.

. والاستعمار يدعو إلى الحرب والتقتيل والتدمير، والاضطراب.

. والإسلام يثبت الأديان السماوية ويحميها، ويقر ما فيها من خير ويحترم أنبياءها وكتبها، بل يجعل الإيمان بتلك الكتب وأولئك الرسل قاعدة من قواعده وأصلاً من أصوله.

والاستعمار يكفر بكل ذلك، ويعمل على هدمه، خصوصاً الإسلام ونبيه وقرانه ومعتنقيه.

نستنتج من ذلك أن الاستعمار عدو لدود للإسلام وأهله، فوجب في حكم الإسلام اعتبار الاستعمار أعدى أعدائه، ووجب على المسلمين أن يطبقوا هذا الحكم الإسلامي وهو معاداة الاستعمار لا موالاته.

الاستعمار الغربي . وكل استعمار في الوجود غربي . يزيد على مقاصده الجوهرية وهي الاستئثار والاستعلاء والاستغلال، مقصداً اخر أصلاً وهو محو الإسلام من الكرة الأرضية خوفاً من قوته الكامنة، وخشية منه أن يعيد سيرته الأولى كرة أخرى.

وجميع أعمال الاستعمار ترمي إلى تحقيق هذا المقصد، فاحتضانه للحركات التبشيرية وحمايته لها وسيلة من وسائل حربه للإسلام.

وتشجيعه للضالين المضلين من المسلمين غايته تجريد الإسلام من روحانيته وسلطانه على النفوس ثم محوه بالتدريج، ونشره للإلحاد بين المسلمين وسيلة من وسائل محو الإسلام، وحمايته للافات الاجتماعية التي يحرمها الإسلام ويحاربها .كالخمر والبغاء والقمار. ترمي إلى تلك الغاية، ففي الجزائر . مثلاً . يبيح الاستعمار الفرنسي فتح المقامر لتبديد أموال المسلمين، وفتح المخامر لإفساد عقولهم وأبدانهم، وفتح المواخير لإفساد مجتمعهم. ولا يبيح فتح مدرسة عربية تحيي لغتهم، أو فتح مدرسة دينية تحفظ عليهم دينهم.

ويأتي في اخر قائمة الأسلحة التي يستعملها الاستعمار الغربي لحرب الإسلام اتفاقه بالإجماع على خلق دولة إسرائيلية في صميم الوطن العربي وانتزاعه قطعة مقدسة من وطن الإسلام وإعطائها لليهود الذين يدينون بكذب المسيح وصلبه، وبالطعن في أمه الطاهرة.

فالواجب على المسلمين أن يفهموا هذا، وأن يعلموا أن من كان عدواً لهم فأقل درجات الإنصاف أن يكونوا أعداء له، وأن موالاته بأي نوع من أنواع الولاية هي خروج عن أحكام الإسلام، لأن معنى الموالاة له أن تنصره على نفسك وعلى دينك وعلى قومك وعلى وطنك.

والمعاذير التي يعتذر بها الموالون للاستعمار كالمداراة وطلب المصلحة، يجب أن تدخل الموازين الإسلامية، والموازين الإسلامية دقيقة تزن كل شيء من ذلك بقدره وبقدر الضرورة الداعية إليه، وأظهر ما تكون تلك الضرورات في الأفراد لا في الجماعات ولا في الحكومات.

وموالاة المستعمر أقبح وأشنع ما تكون في الحكومات، وأقبح أنواعها أن يحالف حيث يجب أن يخالف، وأن يعاهد حيث يجب أن يجاهد، وأقبح ما فيها من القبح أن يحالف استعمار على حرب استعمار.

وقد كانت الحروب قبل اليوم لمعان بعضها شريف، وقد يكون أحد الجانبين فيها على حق، أما هذه الحروب التي لا تنتهي الواحدة منها إلا وهي حامل مقرب بأخرى أشد منها هؤلاء، وأشنع عاقبة، فلم يبق فيها شيء من معاني الشرف ولا من معاني الرحمة ولا من معاني الكرامة الإنسانية، وإنما هي حروب مجنونة يبعثها الاستعلاء والتسلط على الضعفاء والاستئثار بخيرات أرضهم، والضعفاء دائماً هم الأدوات التي تقع بها الحروب، وتقع عليها الحروب، فهم في السلم محل النزاع، وفي الحرب ميدان الصراع.

لا مثال للبلاهة والبلادة أوضح من مخالفة الضعيف للقوي ؛ إلا إذا صح في الواقع وفي حكم العقل أن يحالف الديك النسر، أو تحالف الشاة الذئب.

كيف نحالف الأقوياء وقد دلت التجارب أنهم إنما يحالفوننا ليتخذوا من أبنائنا وقوداً للحرب، ومن أرضنا ميداناً لها، ومن خيرات أرضنا أزواداً للقائمين بها، ثم تنتهي الحرب ونحن المغلوبون الخاسرون على كل حال، وقد تكررت النذر فهل من مدكر؟

أيها المسلمون أفراداً وهيئات وحكومات:

لا توالوا الاستعمار فإن موالاته عداوة لله وخروج عن دينه.

ولا تتولوه في سلم ولا حرب، فإن مصلحته في السلم قبل مصالحكم وغنيمته في الحرب هي أوطانكم، ولا تعاهدوه فإنه لا عهد له، ولاتأمنوه فإنه لا أمان له ولا إيمان.

إن الاستعمار يلفظ أنفاسه الأخيرة، فلا يكتب عليكم التاريخ أنكم زدتم في عمره يوماً بموالاتكم له، ولا تحالفوه فإن من طبعه الحيواني أن يأكل حليفه قبل عدوه[1].

ج . فرنسا وثورة الجزائر:

مسودة هذا المقال كتبها الشيخ العلامة الإبراهيمي في القاهرة سنة 1959م:

إذا كانت النتائج تنتزع من المقدمات ؛ فإن النصر للثورة الجزائرية. هذا ما تحكم به العقول الراجحة، وتقتضيه أصول الاجتماع الإنساني، وتؤيده العادات الجارية، إنما نحن في عالم أسباب ومسببات، تصطرع فيه سنن ثابتة لا تبديل فيها ولا تغيير، والثورة الجزائرية دائرة في هذا المدار من أول يوم، جارية على السنن التي يقتضيها التدافع البشري في الحياة، على مقدار من حالها وظروفها وإعداد ما يطلب مثله من مثلها، وهي تجبر نقصها في الإعداد الحسي الذي تقتضيه السنن بإعداد روحاني له أثر في نتائج الصراع بين كل مجموعتين، وله وزنه في

(1) المصدر نفسه (503/1، 504).

ترجيح كفة على كفة، وله قيمته في نصر العدد القليل على العدد الكثير، ذلك كله ثابت بشهادة الدين وشهادة الحس، فالقوة المادية التي ساقتها فرنسا على المجاهدين الجزائريين في هذه الحرب تفوق قوة الجزائريين أضعافاً مضاعفة، بل نسبة قوة الجزائر إلى قوة فرنسا هي نسبة الصفر.

وأين من لا يملك طائرة واحدة ممن يملك الاف الطائرات، ويزاد عليها وفرة العدد، واتصال المدد، ووفرة القوات، وكل ما يعرفه الناس من الأسلحة المضادة، ولكن الجزائريين يملكون قوة أخرى لا يملكها الفرنسيون، يملكون القوة الروحية، وقوة النفوس الطاهرة، وقوة العزائم الثابتة، وقوة التصميم الذي لا يطرقه الوهن.

يملكون توحيد القصد، وصدق التوجه، وشرف الغاية، بحيث لا يضل بهم فيها سبيل، ولا تختلف لهم وسيلة، ولا يزيغ لهم رأي، ففرنسا تقاتل على باطل وهو الاستعمار، والمجاهدون يقاتلون على حق وهو عزة الحياة وكرامة العروبة ومجد الإسلام. وفرنسا تقاتل في سبيل استعباد الإنسان وامتهان كرامته، وهم يقاتلون في سبيل تحريره وإسعاده وعزته، فهل يستويان مثلاً[1]؟

. فرنسا استعمارية:

واستمر العلامة الإبراهيمي في مقاله وبين بأن:

فرنسا استعمارية بطبيعتها ولا تلتذ من ثمرات الاستعمار إلا بإستعباد المستضعفين من خلق الله، وانتهاك حرماتهم،والرقص على جثثهم، والطرب لأنينهم، وعندها أن نهب الأموال وسلب الأرزاق وتجريد الضعفاء من أسباب القوة، ونشر البؤس والأمراض، كل ذلك يأتي في الدرجة الثانية بعد تعذيب الأبدان وسلب الإرادات وقتل الضمائر، وكأنها في القرن الأخير تنبهت إلى أنها وارثة الرومان الأقدمين فأرادت أن تبلغ مثل ما بلغ الرومان، أو فوق ما بلغ الرومان، من اتساع الرقعة وبسط السلطان، وسَوق العالم بعصا القوة والبطش، وكان يمكن أن تبلغ هذا في غفلة من الدهر وفي ساعة انكدار النجوم وإدبار الأيام، وتسلط النحس على كثير من الشعوب، كما كان يمكن أن تبلغ هذا من طريق الإحسان والعدل.. ولكنها الأعراق المتأصلة في الخبث لم تدع لها منفذاً لتصوير شيء اسمه العدل، أو شيء اسمه الإحسان[2].

. فما رأينا استعماراً أفجر من فرنسا:

تنتحل فرنسا وصف العظمة، والعظمة نوعان:

عظمة نفسية طبيعية في الأفراد أو في الشعوب، وعظمة مزورة مصطنعة، ومرجع الأولى إلى سمو الروح الإنساني الذي تنشأ منه الفضائل كلها، كالرحمة والمحبة والعدل والإحسان والوفاء والصدق والعفة، وهذه هي أمهات الفضائل في الأفراد وفي الشعوب، ومن فضل الشيطان على فرنسا أنها عارية من هذه الفضائل كلها، وتاريخها الاستعماري المديد كله شهادة ناطقة بهذا، فما رأينا استعماراً أفجر من الاستعمار الفرنسي، ولا أخشن منه

(1) مواقف الإمام الإبراهيمي (602/1).

(2) المصدر نفسه (302/1).

مساً، فهو يتعمد جعل الرذائل أساساً لحكمه ومعاملته للضعفاء الذين يقعون في قبضته، فمن ظلم لا رحمة معه إلى استئثار لا عدل فيه، إلى نهم لا قناعة فيها، إلى لصوصية لا حد لها، ولو اقتصر بلاؤه على الظواهر المادية لهان الأمر قليلاً، لكنه يجاوزها إلى الدين، وإلى عقائده في النفوس، وإلى مدب السرائر ومعتلج العواطف، وإلى الصلات الروحية بين الأخ وأخيه، وبين الجار وجاره.

ومن لئيم المكر والكيد والإضلال في هذا الاستعمار ؛ أنه يعتمد على القانون، والقانون هو الذي يضعه، وهو الذي ينفذه وهو الذي يطبقه، كما شاءت أهواؤه في التشريع والتنفيذ. ومن تعمقه في المكر وقلب الحقائق، أنه يسخِّر تلك القوانين لحماية الرذيلة، فالذي يفتح مدرسة لتعليم الأطفال مبادئ دينهم ولغتهم مجرم مخالف للقانون، أما الذي يفتح مخمرة يفسد بها عقول الناس ويتلف أموالهم فهو حر تحميه تلك القوانين، وأمثال هذا كثير.

هذه وأمثالها هي الأساطين التي بنيت عليها العظمة الفرنسية التي أثمرت هذا الاستعمار، والتي ما زال يتبجح بها ساسة فرنسا والمغرورون من رجال الاستعمار فيها، ولو أن هذا التبجح ارتفع صوته قبل الحربين العالميتين ويوم كانت تتمتع بسمعة عسكرية، ترهب وتخيف، لقلنا: لعل وعسى، فأما بعد تلك الحربين، وبعد ثورة الهند الصينية، وبعد ثورة الجزائر، فقد كشفت المحسوسات أن النفسية التي لا تعتمد . أول ما تعتمد . على الروح هي عظمة زائفة دعية.

إن هيبة الأسد تنبعث من أظافره وأنيابه، فإذا أصبحت أظافره مقلمة وأنيابه مهشمة، فقد بطل سحره وضاعت هيبته.

إن العظمة الحقيقية لا تتحدث عن نفسها بلغة الكلام، وإنما تفصح عنها الحقائق الملموسة من أعمال ومعاملات وصدق يحوط ذلك كله، ولأمر ما لم تعل هذه النغمة بالتحدث عن عظمة فرنسا قديماً في أيام صعود نجمها، وإقبال أيامها، وإنما كثرة تردادها في هذه السنوات الأخيرة، كان ذلك مقصوداً لتغطية الهزائم المتلاحقة على فرنسا في الميدانين السياسي والاجتماعي.

ولو كان الساسة الفرنسيون عقلاء لهداهم العقل الرصين الرزين إلى التي هي أقوم، وهي تبديل العقلية العتيقة كما يبدل أحدهم ثوبه إذا اتسخ، ولأرشدهم إلى تطهير الروح المدمرة، واستبدال السيئة بالحسنة، والظلم بالعدل، والاستئثار بالإيثار، والأنانية بالمساواة، وسوء المعاملة للناس بحسن المعاملة، ولكنهم عموا عن رؤية الحقائق الماثلة، وصموا عن سماع الكلمة العاقلة، فكان نظافة البدن عندهم أهم من نظافة النفوس، وكأن تدبير الجسد ألزم في نظرهم من تدبير الممالك.

كانت فرنسا وما زالت ثائرة على الشعب الجزائري، ثورة متماسكة الحلقات من قرن وربع قرن، يعني من معارك الاحتلال الأول، فلم ينطفأئ لها غيظ باستسلام الجزائريين وبإلقائهم السلاح، بل بقيت الأحقاد تغلي وتظهر اثارها في كل ما تعاملنا به فرنسا.. تظهر في القوانين المسنونة لحكمنا، وهي قوانين خاصة بنا، وفي التعاليم

التي يسير صغار حكامها فينا، وهي استمرار نزع الأرض الصالحة من الأهالي بالقوة وإعطائها إلى المعمر الأوروبي أيا كان جنسه، وفي الاستيلاء على جميع معابدنا وأوقافنا وزيادتها في رقعة الاستعمار.

ولم يكفها هذا، بل حرمتنا من اختيار أئمتنا ووضعت المساجد تحت يدها، وأصبحت هي التي تعين الإمام والمؤذن والقيّم، لتسخرهم في أعمال بعيدة عن الدين، امتهاناً لكرامة الدين، ولقد بلغ هذا الامتداد حدّه في المدة الأخيرة. فسخرت جميع رجال الدين الموظفين للتجسس على إخوانهم، وأصبح تجسسهم لها شرطاً في الوظيفة الدينية.

وحرمت علينا تعلم ديننا إلا بمقدار لا يغني ولا يفيد، وحرمت علينا تعلم لغة ديننا حتى المبادأئ الطفيفة، وحرمت علينا تعلم لغتها إلا بمقدار ضئيل تهيئنا به لخدمة الحكومة في وظائف الترجمة ولخدمة السادة المعمرين، ولولا تيار من النهضة طغى منذ ثلاثين سنة تقريباً فدفع طائفة من شباب الأمة إلى اقتحام أسوار الكليات والجامعات إليها، لولا ذلك التيار لما وجدت هذه الطائفة القليلة التي تحمل لواء الثورة اليوم، ولما كانت النهضة السياسية التي تقدمت الثورة.

وضربت فرنسا بيننا وبين إخواننا في الشرق سداً منيعاً وستاراً حديدياً، أين منه ستار الروس، ومن فروع هذا السد أنها لا تسمح برخصة الحج الذي هو فرض ديني إلا لأتباعها المخلصين، ومع إخلاص هؤلاء الأتباع فإنها تحيطهم بسياج من الجاسوسية، ولا تسافر قافلة الحج إلا تحت رئاسة حكم إداري استعماري من الطراز الأول، يبقى في «جدة» ويدخل جواسيسه من الحجاج إلى الحرمين وهو متصل بهم في كل دقيقة.

هذه جوانب بارزة من ثورة فرنسا المستمرة علينا، وهي حقائق يراها كل جزائري، ولكننا ضربناها أمثلة وأقمناها شواهد، وبعدها فروع تتناول جزئيات حياتنا الفكرية والعقلية والمادية.. فانظروا هداكم الله كيف تحيا أمة على قوانين جائزة يضعها عدوها ولم يشركها في وضعها ولا تنفيذها[1].

. أسباب حرب فرنسا للثورة:

ومن أسباب هذه الثورة في فرنسا علينا أننا عرب، وأقوى أسبابها أننا مسلمون، وأننا لم ننس الوشائج المتشابكة بيننا وبين بني أبينا من الشرق العربي، وبيننا وبين إخواننا من الشرق الإسلامي، وأننا نؤمن بالقومية العربية إيماناً راسخاً ونفخر فخراً طالما أطار صواب رجال الاستعمار، ولحقنا بسببه من الأذى ما لا يعلمه إلا الله، وأننا نولي وجوهنا شطر البلاد العربية التي هي مشرق ديننا، ومجتمع أنسابنا، والصفحة الأولى التي خط عليها تاريخنا، فما بال فرنسا حاضنة الإنسانية بزعمها، بثورتنا عليها أربع سنوات، ويطيش صوابها إلى درجة الجنون، فتسوق علينا الجيوش الجرارة بالأسلحة الفتاكة وتتدلى بأخلاقها إلى الوحشية، فتعذب الأبرياء فنوناً من العذاب لا تخطر على بال، ثم تقتلهم بطريقة يتبرأ منها الوحش الضاري الموكل إلى غرائزه، ثم تمعن في تقتيل الأمهات الحوامل والأطفال العجزة الذين تحرم قتلهم قوانين السماء وقوانين الأرض، مما يدل دلالة على أنها مصممة على إبادة الجزائريين.

---

(1) المصدر نفسه (605/1).

من هنا يأخذ العلماء والأخلاقيون الدليل على أن الشر أصيل، وأن حديث الخير والمدنية والعلم في الشعب الذي تنبت فيه هذه الموبقات حديث خرافة.

صحيح أن الاستعمار والاستعباد استغلال في أول أمره، ثم ينقلب التذاذاً بالتسلط والاستعباد في وسط أمره، فإذا بلغ أشده أصبح سعاراً كالكلب المكلوب، ثم يصبح مرضاً عضالاً في أهله لا ينفع فيه علاج، والحكيم كل الحكيم هو من يكتشف دواء لداء الاستعمار في نفوس الاستعماريين، فهو والله أخطر وأشد فتكاً بالبشرية من داء السل والسرطان، وإنني أتلمح أن داء الاستعمار أيسر علاجاً من داء السل والسرطان، وأنه لو تداعى عقلاء الأمم وأطباؤه الروحانيون وأخلصوا في مكافحته لاجتثوه من أصوله[1].

ـ ثورة الجزائر على الظلم والجور والاستعباد:

كانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل فيما تحمل من معان أنها ليست ثورة على فرنسا من حيث أنها دولة، ولا على الفرنسيين من حيث أنهم أمة، فنحن أعقل من أن نثور ثورة مستميتة على حكومة أو على جنس كيفما كانت تلك الحكومة أو ذلك الجنس، ونحن قوم أدبنا ديننا أن الحرب مفسدة ولا ترتكب إلا لدفع مفسدة أعظم منها، وأوصانا بأن لا نغمس يداً في فتنة وأن لا نبدأ أحداً بالقتال، وأن لا نقاتل إلا من قاتلنا، ولا أن نركب إلا أحسن المحامل ما دام جزء من المائة حسناً، وأعلمنا أن الحسنات يذهبن السيئات، ولكن ما ذنبنا إذا بدأنا الاستعمار الفرنسي بالشر وسوء المعاملة، وحرمنا من جميع مقوماتنا واعتدى على ديننا فتعمده بالمسخ وعلى شعائرنا فتعمدها بالتعطيل، وعلى مساجدنا فتعمدها بالهدم، واتخذ من بعضها كنائس، وعلى لغتنا فتعمدها بالمحو، وعلى فضائلنا فغمرها بالرذائل حتى أصبح الجو الذي يجمعنا وإياه كله عاتم غائم ليس فيه إشراق ولا صفاء، وقد صبرنا على هذه الحالة التي لا يصبر عليها إنسان ولا حيوان مدة تزيد عن القرن، فهل من عاذر؟ وهل من منصف؟ وهل من عاقل؟ وهل من معين؟

وكانت ثورة الجزائر من أول يوم تحمل فيما تحمل من معان أنها ثورة على الظلم والجور والاستعباد، وتلك الشرور التي ضربنا الأمثلة على سائرهافي هذه الكلمة، وكذلك النفوس الحرة إذا بلغ بها الضيم مبلغاً تزنه بالموت فيرجح، وتيأس من خير الحياة وخير الأحياء، وتتلمس المخرج إلى نور الحياة من جهاتها الست فلا تجده إلا ضرباً من المحال، فهي معذورة حين تتلمس الراحة من طريق التعب، والحياة من طريق الموت، وهي معذورة إذا اندفعت في طلب الموت بأكباد حرار إليه، ظمأى إلى موارد الردى لا ترهبها قوة عدوها ولا تخيفها وفرة سلاحه، لأنها وزنت أمسها وغدها بالقسط، فأقدمت وعلى بصيرة من أمرها، وقرأت حسابها لما تجره عليها الحرب من تشتيت شمل وتحيّف مال، وعلمت أنها إن لم تلق الموت مرفوعة الرأس لقيها الموت وهي مطأطئة ذليلة، وهو ميزان ـ كما ترون ـ لا يستخدمه ولا يركن إليه إلا من كان في مثل حالة الشعب الجزائري في الظلم والهضيمة، وهي ـ كما ترون ـ مغامرة لا يغامرها إلا من يؤثر الموت المعجل على الموت البطيء.

(1) المصدر نفسه (606/1).

وإن لم يكن إلا الأسنَّة مركباً فلا يسع المضطر إلا ركوبها[1]

فهذا شعب أصيل وقفت به صروف الدهر على صراط أدق من الشفرة، وحملته على تجرّع واحد من اثنين أحلاهما مرّ، فلا تلوموه إذا حكَّم السيف وترك للأقدار تقدير العواقب، وقد تولته العناية الإلهية، فلم يزل منذ خطا الخطوة الأولى في السبيل الذي رضيه، يستنشق من نفحات النصر الإلهي والتأييد الرباني ما ينعشه ويشدّ عزيمته، وما زالت تنفحه من روائح النصر في كل خطوة ما يدفعه إلى الخطوة الثانية مسدد الخطى، وهو إلى هذه الساعة مغتبط بما يقدمه لعدوه من هزائم يزيد من مرارتها في ذوق العدو وحرارتها في صدره.. أن هؤلاء المجاهدين لا يقاتلونه بالأسلحة التي تعرفها الحرب، وإنما يقاتلونه بسلاح الإيمان والثقة بالله وبالنفس، إنما يقاتلونه بالسلاح الذي يعرفه منهم يوم كانوا معه جنباً إلى جنب في الحربين الماضيتين، وما ذلك السلاح إلا الشجاعة والإقدام والثبات، وإذا جاء نصر الله بطل كيد الأقوياء.

ليت شعري، أية فائدة حقيقية تجنيها فرنسا من وراء هذه الحرب؟ وأي مغنم منها؟ نحن نعرف الجواب الصحيح:

إن الفوائد من هذه الحرب لا تعود إلى فرنسا كدولة، ولا إلى الفرنسيين كأمة، ولا تعود إلى التاريخ الفرنسي بصفحات زاهرة بالفخر، مشرقة بالمجد، وإنما تعود إلى طائفة مخصوصة يسمونها ظلماً «المعمرين»، وهي التي خربت الجزائر ويوشك أن تخرب فرنسا، وتأتي بنيانها من القواعد لجشعها وأنانيتها وحرصها على جمع المادة[2].

إن هذه الثورة أثارت كوامن الأحقاد الدفينة في صدور الفريقين، وكلما امتد عمر الثورة يوماً ازدادت نار الحقد اضطراماً، فلا يبقى في قلب واحد من المتحاربين مكان للصفاء، فالمعمرون والجيش المسخر لخدمة أغراضهم وفرض أنانيتهم يمعنون في التنكيل بمن أوقعهم القدر في قبضتهم من المستضعفين، وما ينقمون منهم إلا أنهم حملوا السلاح في وجه أسيادهم، ورجال المقاومة من المجاهدين ممعنون في التنكيل بالجيش الفرنسي وبجميع أفراد هذه الطائفة وإلحاق الهزائم الفاضحة بهم، وتلطيخهم بالعار الذي لا يمحوه الدهر، وعذر المجاهدين في هذا أن هذه الطائفة هي أصل البلايا التي أحاطت بالشعب الجزائري، فكيف يمكن، بل كيف يتصور مع هذا كله أن يتناسى الفريقان أيام القتال وما صاحبها من تقتيل وتشريد للجزائريين؟ وما وقع فيها من انتهاك لحرمة هؤلاء الفراعنة المتألهين، وتحطيم لمزارعهم وقضاء على سلطانهم، وخرق لحجاب هيبتهم وتكدير لمعيشتهم، واغتيال لطائفة كبيرة من أعوانهم الذين كانوا يجرون في أعنتهم، وإنه لأمر عظيم عندهم.

والخلاصة أن الحالة بيننا وبينهم وصلت إلى حد لا يمكن معه أن نجتمع تحت سقف واحد، ولا أن نعيش في وطن واحد[3].

. طلب الدعم للثورة الجزائرية:

---

(1) المصدر نفسه (608/1).

(2) المصدر نفسه (609/1).

(3) المصدر نفسه (612/1).

أيها الإخوان:

إن إخوانكم يستنصرونكم فعليكم النصر، وإنهم يقاتلون لأجلكم فاعرفوا لهم حقهم في هذا القتال، وإن مواقفهم المجيدة في هذه الثورة شرّفتكم جميعاً، وإن نصرهم نصر لكم، وإن فشلهم محسوب عليكم، وإن الاستعمار عدو لكم جميعاً، وإنه إن انتصر فسيذيقكم عذاب الهون جميعاً.

أيها الإخوان:

لا تخطبوا للجزائريين، فقد شبوا في طوق الخطب، ولا تنشدوا لهم القصائد فعندهم ما هو أفصح منها، إن العضب الطرير في يد الشباب الضرير لأفصح من كل خطيب، لقد خطبنا فيهم يوم كانت لهم اذان تسمع للخطب والأشعار، لنغمز إباءهم ونستثير حميتهم، فلما تأثروا ثم ثاروا نطقت البنادق وسكت الخطباء والشعراء، إن شعراء الجزائر وخطباءها الذين أفلتوا من عذاب فرنسا في سجونها ومعتقلاتها كلهم في الجبال قد شغلهم أخذ الثأر عن قول الأشعار، وجّهوا خطبكم لهذه الجموع المقصرة، وللجماعات غير السامعة ولا المبصرة، املؤوا أيدي إخوانكم سلاحاً يملؤوا تاريخكم محامد وماثر، ويملؤوا قلوب أعدائكم رعباً ورهبة، اكفوهم مؤونة الأيام يكفوكم مؤونة القتال.. إن بقايا الموت من أطفال ونساء وشيوخ عجَّز قطع الموت كل ما بينهم من صلات فهم هائمون مشردون، وقد وصلت فلولهم إلى هذا الشرف.

إن إخوانكم المجاهدين قد قاموا دونكم بواجب القتال، وإنهم لا يحتاجون منكم عوناً من الرجال، فقوموا لهم ببقية الواجبات.

إن المسألة ليست تكفين ميت وتجهيزه يقوم بها غني واحد، لا بل الأمر أعظم من ذلك، إنها ثورة التهمت الأخضر واليابس من جنود فرنسا وثروتها وأموالها المخزونة، وأوقفتها على حافة الإفلاس، كما التهمت ثروة الجزائريين على تفاهتها، فالفلاحة والتجارة وهما كل ما يعتمد عليه الجزائري، قد رمتها الجيوش الفرنسية بالنهب والإتلاف، وإن أخوف ما نخافه على ثورة الجزائر هو أن يجوع الشعب الجزائري، فقفوا عند هذه النقطة واقرؤوا لها ألف حساب.

إنكم أيها العرب والمسلمون من ورائكم، تنالون القسط الأوفر من غنم هذه الثورة، فما لكم لا تشاركون بكل ما تملكون في غرمها؟

الان وجب حق الأخ على أخيه.. إن الأرحام تشابكت وتعددت بينكم، فالعربي أخو العربي في الدم والجنس، والمستضعف بالذل والاستكانة، والمظلوم أخو المظلوم، والأفريقي المضطهد أخو الأفريقي المضطهد، والشرقي أخو الشرقي، ومن حسنات الاستعمار ـ إن كان الشر يريد الخير ـ أنه طوانا في ملاءة واحدة، ومسنا بعذاب واحد، وأذاقنا ظلماً متشابهاً، وإن فينا لقوة، وإن عددنا ليربو على عددهم، وقد تلاقينا على ظلمه، فلماذا لا نتلاقى على التخلص منه؟

إن الأمر جدّ فجِدّوا، وإن العدو مستعد فاستعدوا.

أيها الإخوة:

إن إخوانكم الجزائريين لا يعتمدون قليلاً ولا كثيراً على هذه المؤسسات الكاذبة المتحدة على الضلال، ولا على هذه الألفاظ التي تلوكها الألسنة المقطوعة الصلة بالقلوب من حقوق الإنسان وحق تقرير المصير، فإن هذه الألفاظ كلهامن أكاذيب الاستعمار لينوِّم بها الشعور وليُلْهينا بها إلى حين.

إن الجزائريين يقاتلون فرنسا على ما سامتهم من أنواع العذاب وسلاحهم الوحيد هو إيمانهم بالله ناصر المستضعفين وقامع الطغاة ومُذل الجبابرة، وإنهم يقاتلون لأجلكم، ويضحون بالأهل والأبناء انتصاراً للعروبة وللإسلام[1].

إن العلامة الإبراهيمي يعتبر من أكبر المرجعيات الفكرية والدينية والثقافية للثورة الجزائرية، وساهم في دعم مسيرة الثورة بكل ما يملك من بيان ناصع، وعلاقات واسعة، وخطابة قلَّ نظيرها، وعقل رشيد، وقلب موصول بالله العزيز الجبار.

* * *

(1) المصدر نفسه (620/1).

المبحث الثالث

مواقف الدول والشعوب العربية من ثورة الجزائر

كان من الطبيعي تفاعل الشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الجزائري والوقوف معه في ثورته المباركة، وكان الدعم على المستوى الشعبي والحكومات التي تمر بها الدول العربية، فكان لدول الجوار القدح المعلى خصوصاً المملكة المغربية وتونس وليبيا، كما أن لمصر دوراً متميزاً، وكذلك المملكة العربية السعودية، والعراق وسوريا، وكل الدول العربية ومعظم الدول الإسلامية والشعوب الحرة وحكوماتها في العالم.

ويمكن القول بأن أفراد الأمة العربية والإسلامية ساندوا دعم جهاد ثورة الجزائر ونصر شعبها بإخلاص نادر المثال في العطاء والتضحية بالمال والرجال والأقوال والأفعال، مثلما وقفت الشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الجزائري طوال سنوات ثورته المجيدة من بدايتها إلى نهايتها المشرفة له ولها.

لقد ظهر تضامن البلدان العربية وشعوبها منذ الوهلة الأولى لانطلاق الثورة، ولكن هذا الدعم كان متفاوت الحجم والنوع في الميدان، لأن بعض هذه البلدان كان مايزال هو نفسه تحت الاحتلال أو الحماية، كالإمارات وعمان وقطر وجنوب اليمن والبحرين، التي كانت تحت الحماية البريطانية ولم ينل الكويت استقلاله إلا سنة 1961م، وكان العراق مستقلاً ولكن لم تتجسد مساعدته إلا بعد وصول العميد عبد الكريم قاسم إلى السلطة سنة 1958م[1].

وإذا كان من الصعب حصر كل أوجه المساعدات التي قدمتها الدول العربية الشقيقة وشعوبها للثورة الجزائرية التي اعتبروها قولاً وفعلاً ثورتهم.. فإننا نقتصر هنا على ذكر الأهم والأعم منها للحقيقة والتاريخ والاعتبار وهي:

. تنظيم أيام أو أسابيع تضامنية مع الثورة الجزائرية.

. أعمال ضد مصالح فرنسا بعد عملية القرصنة التي تعرضت لها الطائرة المقلة للوفد الجزائري يوم 22 أكتوبر 1956م.

. تضامن واسع بعد هجوم الطيران الفرنسي على ساقية سيدي يوسف «8 فبراير 1958م».

. مساعدات مالية متفاوتة من جميع البلدان العربية.

. تكوين عسكري للمجاهدين الجزائريين في بعض البلدان العربية.

. فتح مجال الإعلام للثورة الجزائرية «صوت العرب مثلاً بالقاهرة». وكذلك إذاعة الرباط وتونس وطرابلس ودمشق وبغداد.

---

(1) جهاد الجزائر، د . أحمد بن نعمان ص 313.

. وقوف البلدان العربية ككتلة متراصة عند تناول القضية الجزائرية في المحافل الدولية.

زيادة على هذه الأعمال المشتركة، لابد أن نشير إلى عمليات متميزة قامت بها بعض الدول العربية من أجل الثورة الجزائرية منها:

.كون القاهرة منارة للوطنية العربية ومركز إشعاع للثورة الجزائرية، ففيها تنصبت الحكومة المؤقتة الجزائرية وفيها اجتمعت، وفيها اجتمع المجلس الوطني للثورة.

. في أوت 1956م أخبر الرئيس جمال عبد الناصر أحمد بن بلة وفرحات عباس بأنه خصص مساعدة مالية للثورة الجزائرية وأخذ أسلحة وذخيرة من الجيش المصري إلى جيش التحرير الجزائري، إلى جانب ما تعرضت له مصر من عدوان ثلاثي فرنسي بريطاني صهيوني في سنة 1956م، والذي كان من أسبابه الأساسية مساعدة مصر للثورة الجزائرية في مختلف المجالات السياسية والإعلامية والعسكرية.

. رفض سكان طرابلس الليبيون الخروج لتحية الوزير الأول التركي عدنان ماندريس لما زار ليبيا في خريف سنة 1957م، وذلك للاحتجاج على الموقف السلبي لتركيا في الأمم المتحدة، ونشير إلى أن ليبيا كانت البلد العربي الوحيد الذي قاطع شراء منتوجات فرنسية.

. وضع العراق كل وزنه لمساعدة الثورة الجزائرية، وذلك بعد مجيء العميد عبد الكريم قاسم إلى الحكم بين سنتي 1958م و 1961م، وكان الترتيب الأول من بين الواهبين الماليين، وقد كان متبوعاً بالجمهورية العربية المتحدة «أي مصر» والكويت ثم المملكة العربية السعودية.

. خصصت سوريا أياماً برلمانية للجزائر المكافحة.

. خصص الكويت اقتطاعات من موارده المالية لصالح الثورة الجزائرية.

. خصص ملك الأردن بناية في عمان لممثلي الثورة الجزائرية في الأردن.

. وضع أمير قطر قصره في سويسرا تحت تصرف الوفد الجزائري المتفاوض مع فرنسا.

. إعانة خاصة قدمتها الكويت لالاف اللاجئين الجزائريين عندما أرادوا الرجوع إلى الجزائر بعد الاستقلال، كما أنه نظراً لأن النظام المالي التونسي لم يكن يسمح لهم بتحويل العملة التونسية، فوضعت الحكومة الكويتية مبلغاً مالياً بالجنيه الإسترليني لتغطية عملية تحويل 3 ملايين فرنك نحو الجزائر صبيحة الاستقلال[1].

وإليكم شيء من التفصيل لما قامت به الحكومات والشعوب العربية والإسلامية لدعم الشعب الجزائري وثورته.

(1) جهاد الجزائر ص 321.

أولاً . ليبيا:

لعبت ليبيا دوراً كبيراً في دعم القضية الجزائرية وثورة التحرير، انطلاقاً من إيمان قادتها وشعبها الراسخ في الوقوف إلى جانب الشعب الجزائري أيام محنته ودعم ثورته معنوياً، وقد تجسد هذا الموقف منذ زمن المصلح الكبير محمد بن علي السنوسي وتصديه للاحتلال الفرنسي ودعمه للمجاهدين، ولم تنقطع هذه الصلة بين الشعبين الشقيقين وازدادت قوة وتحمساً مع اندلا ع ثورة أول نوفمبر 1954م، ووقف الملك والحكومة والشعب بكافة ما يملكون لتحقيق الانتصار العظيم على الغزاة المحتلين.

1. اهتمام الملك إدريس بالثورة الجزائرية:

كان السنوسيون منذ زمن المؤسس الأول للحركة الإمام محمد بن علي السنوسي مهتمين بأمر الجهاد في الجزائر، وواصل الملك إدريس جهوده المادية والمعنوية لدعم ثورة الجزائر التي اندلعت في 1954/11/1م. وقد أثبتت الوثائق التاريخية جهوده العظيمة وأعماله الجسيمة في هذا الباب، فقد ذكر السيد مصطفى أحمد بن حليم في كتابه «صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي» في الباب التاسع تحت عنوان «ثورة الجزائر ودور ليبيا الخطير في مساندتها» ما يقيم الحجة والبرهان على صدق الملك إدريس لدعمه للثورة الجزائرية.

فقد ذكر السيد مصطفى بن حليم عندما كان بالقاهرة أن الرئيس جمال عبد الناصر اتصل به ودعاه لاجتماع منفرد معه وفاجأه قائلاً أنه يود أن يتحدث معه عن الثورة الجزائرية التي اندلعت، وشرح جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم أنه اتفق مع الملك سعود والأمير فيصل على أن تقوم المملكة العربية السعودية بتقديم كافة الأموال اللازمة لشراء السلاح والعتاد والإمدادات اللازمة للثورة الجزائرية، وأن يقوم رجال الجيش المصري والمخابرات بشراء ذلك السلاح والعتاد وإيصاله إلى الحدود الليبية، وهو يأمل أن يشرف رئيس الحكومة السيد مصطفى بن حليم بنفسه بنقل ذلك السلاح والعتاد عبر ليبيا إلى الحدود الجزائرية، حيث يستلمه منه ممثلو الثورة الجزائرية. ثم قال جمال عبد الناصر لمصطفى بن حليم: أو لعلك تخشى الفرنسيين وتخاف بطشهم؟

فرد عليه مصطفى بن حليم رئيس وزراء ليبيا سابقاً وقال له: يا ريس!. لعلك لا تعرف أن جد الملك إدريس جاء إلى ليبيا من الجزائر هارباً من الطغيان الفرنسي وأمضى حياته في نشر الدعوة الإسلامية وإيقاظ الأمة الإسلامية، لتقاوم موجة الطغيان والتنصير الفرنسي، ووالد الملك إدريس ظل يقاوم تغلغل المد الفرنسي في تشاد والسودان والنيجر، حتى لقي وجه ربه، والسيد أحمد الشريف والملك إدريس أفنيا عمرهما ضد الطليان.

ورد جمال عبد الناصر على هذه الإجابة المقنعة بقوله: ألا تستوعب الدعابة؟ إنني أعرف كل هذا، وأعرف أن الليبيين أبطال جهاد، ولكنني أرغب أن أرى رد فعلك.. وتبين لي أنك مغربي حاد المزاج لا تتقبل الدعابة بروح مرحة[1].

كانت القوات البريطانية المتواجدة في ليبيا والمنتشرة على طول البلاد من طبرق إلى غرب طرابلس والجواسيس الإنكليز يسيطرون على مراكز حساسة، وموظفون من الإنكليز أيضاً في شرطة ولاية طرابلس، وفرنسا لاتزال تحتل جنوب «فزان»، ولسفارتها في طرابلس وبنغازي جهاز مخابرات من الطراز الأول وله أعوان وعيون منتشرة في طول البلاد وعرضها.

بيّن السيد حليم تلك الملابسات لجمال عبد الناصر الذي أجاب: إنني على علم تام بأن ما أطلبه منك عمل ينطوي على خطورة كبيرة ومغامرة خطيرة[2]، ثم أضاف: لولا أنني مطمئن لوطنية الملك إدريس ووطنيتك وحرصكما الشديد على تحرير الشمال الإفريقي من نير الاستعمار الفرنسي البغيض لما طلبت منكم ما طلبت، وعلى أية حال فأنا رهن إشارتكم لأي عون أو نصح أو مساعدة في سبيل هدفنا النبيل لتخليص الجزائر من ربقة الاستعمار. بعد ذلك قام جمال عبد الناصر بتعريف مصطفى بن حليم بالسيد أحمد بن بلة[3].

كان قائد قوة دفاع الفريق محمود بوقويطين لا يثق في جمال عبد الناصر، ويراه حريصاً على تفجير القلاقل وزعزعة النظام داخل ليبيا، واتخذ من ستار مرور السلاح إلى الجزائر وسيلة لتوزيع السلاح داخل ليبيا ضد المملكة.

وعُرض الأمر على الملك رحمه الله فقال: من ناحية لا يمكننا أن نتردد في القيام به.. ومن ناحية أخرى فإنني لا أريد أن أعرض استقلال هذا الوطن الذي ضحينا في سبيله بكل عزيز وغال، واستشهد في سبيله مئات الالاف من الليبيين، ولا أود أن أقامر بهذا الاستقلال خصوصاً مع فرنسا التي خرجت عن طورها وترتكب كل يوم الكثير من الجرائم والحماقات في قمع كل حركة استقلالية في الشمال الإفريقي، ومع توتر علاقتنا مع فرنسا بعد طلبنا إجلاء قواتها عن فزان ؛ فإنها ستلتمس أي عذر لترتكب معنا حماقة كبرى[4].

ويبدو أن مرور السلاح من خلال البر أخذ فيها قرار بمنع ذلك من جهة مصر.

أ ـ بين أحمد توفيق المدني وملك ليبيا:

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: رجعت للقاهرة يوم 23 ماي، فإذا بالأخ العقيد فتحي الديب ـ رئيس المخابرات المصرية ـ يدعوني بسرعة: القضية خطرة. ذهبت إليه فبادرني: أفتدري ماذا فعل الكلام في ليبيا؟ قلت: أخيراً إن شاء الله، قال: إن الملك أعطى أوامره بأن لا يدخل السلاح الجزائري أصلاً إلى ليبيا بواسطة البر، وأعلمونا رسمياً بأن ذلك السلاح يجب أن يرسل عن طريق البحر. ومعنى هذا أن فرنسا تتسلمه لقمة

(1) صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مصطفى بن حليم ص 351.
(2) المصدر نفسه ص 352.
(3) المصدر نفسه ص 352.
(4) المصدر نفسه ص 353.

باردة كما تسلمت السفينة «اتوس» من قبل. ونحن نرفض إطلاقاً أن نسلم فرنسا سلاح الجزائر، فعليك يا شيخ توفيق أن تسافر حالاً دون أدنى انتظار إلى ليبيا وتقنع هؤلاء ال.... بوجوب فتح الحدود، وإعادة الحالة إلى سالف عهدها، وإلا فسيمنع السلاح عن الجزائريين، والأمر يومئذ لله[1].

وبعد سفر شاق بالسيارة وصل إلى طرابلس، وقال: وأسرعت بمقابلة الرئيس ابن حليم، فإذا به مهموم كئيب، قلت دون مقدمات: كيف وقع هذا؟ قال: العلم عند الملك، قلت: وكيف العمل لإنقاذ الموقف؟ قال: الشايب «الملك» وحده هو الذي يستطيع أن يعمل شيئاً، قلت بصراحة: هل للأجانب من

إنكليز وفرنسيس دخل في هذا؟ فابتسم ابتسامة صفراء وقال: ربما كان هذا، وإنما لا حجة لي عليه، أسرعْ بالذهاب لطبرق، وسأخبر الأخ الشلحي رئيس ديوان الملك بقدومك عليه، ورتّب الشلحي موعداً للأستاذ المدني، قال:

ذهبت وأنا متوتر الأعصاب متجهم عابس، وقد فارقني في تلك المناسبة ما كان مشتهراً عني من تفاؤل ومن ابتسام يكاد يكون تقليدياً، وأدخلوني على الملك في غرفة صغيرة بسيطة بلغت الحد الأقصى من البساطة، ووقف لي الملك كعادته مرحباً، فما كاد بصري يقع عليه حتى تشنجت وسالت دموعي مدراراً وما كنت قبل ذلك أعرف البكاء، إطلاقاً. قال لي الملك مندهشاً: يا لطيف، ماذا جرى؟ ماسبب هذه النوبة العاطفية؟ قلت وصوتي متهدج لا يكاد يبين:

أبكي على هذه اللحية البيضاء التي شابت في الإسلام والجهاد، وستساق إلى جهنم مجرمة اثمة، أبكي على هذا الجهاد الطويل الذي كان ماله الانهيار والاستخذاء، أبكي وأنا أرى المجاهدين والمجاهدات في الجزائر الدامية يمسكون بتلابيبك يوم القيامة، يقولون: ربنا هذا الذي أسلمنا للقتل، هذا هو سبب ما قاسينا من موت وخراب وانتهاك حرمات، هذا هو الذي منع سلاحنا، فمكّن العدو منا، فنكبنا بعد عز، وأجهز علينا بعد نصر مبين، هذا..

وما تركني الملك أستمر، بل تقدم خطوة، وأخذني من يدي وأجلسني إلى جانبه، وأصفرّ لونه فوق اصفراره الطبيعي، حتى أصبح كليمونة الصيف، وقال وصوته الضعيف لا يكاد يسمع: إن الذي قلته فظيع، فظيع جداً، فبيِّن لي الأمر، وإن كنت أنا قد أسأت عن غير علم، فأنا مستعد لإصلاح ما أفسدت، وأستغفر الله العظيم.

هدأ روعي شيئاً، وشرحت له فداحة الأمر الذي أصدره بمنع ورود السلاح الجزائري من مصر إلى ليبيا إلا بحراً، وفرنسا تتبعنا بجواسيسها في كل مكان، وقصصت عليه قصة السفينة «اتوس»، وكان على علم منها، وقلت له وأنا أتعمد المبالغة: إن لم يدخل السلاح الجزائري ليبيا فوراً حالاً، فإن الجهاد الجزائري يوشك يكون ماله الاندحار والانهيار والمسؤولية عليك وحدك.

(1) حياة كفاح (454/3).

قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفكر قليلاً، ثم دق جرساً فجاءنا أحد الرجال بقهوة طيبة فتناولناها ونحن سكوت، وقال: إن إخواننا المصريين وخاصة ملحقهم العسكري إسماعيل صادق، قد فقدوا اتزانهم عندما وقع العدوان الثلاثي، وحاولوا إحداث فتنة نكراء بالبلاد الليبية، ودفعوا بالعامة المتحمسة إلى إحراق بعض المحلات، ووزعوا عليهم شيئاً من السلاح الجزائري، فاضطررنا لإصدار أمر بأن لا يدخل ذلك السلاح إلا بحراً، حتى تتسلمه الأيدي الجزائرية دون واسطة بمرفأ طرابلس، هذا فقط ما وقع، ولم يخطر ببالي أصلاً أن ذلك سيكون بلاء على الكرام المجاهدين. لكننا سنصلح الأمر حالاً، ثم ألقى بيده على الجرس فدقه مرتين، أو أكثر، فإذا بقائد عسكري ذي رتبة رفيعة يقف على الباب ويحيي التحية العسكرية ويقول في حزم: سيدي.

قال له الملك: أعط الأمر حالاً لقيادة الحدود الشرقية، بأن تفتح الطريق أمام السلاح الجزائري، وأن تسهل له أسباب المرور. فاندهش القائد العسكري، وظهرت على وجهه علامات الحيرة، وظل واقفاً[1].

فقال له الملك بحزم: نفذ ما أمرتك حالاً، حالاً دون تردد. فألقى التحية العسكرية بقوة، ضارباً برجله الأرض، وما كاد يرجع أدراجه حتى قال له الملك: اسمع إذا ما نحن خسرنا استقلال ليبيا وكسبنا استقلال، فنحن الرابحون. وذهب «القائد محمود أبو قويطين». وقلت للملك وقد شرح الله صدري: هنيئاً لك يا سيدي. قال في شبه ابتسامة: بل هنيئاً للكرام المجاهدين في الجزائر، فإذا ما انتصر الإسلام يوماً، وسينتصر لا محالة، فالفضل لله أولاً، والفضل لهم أخيراً.

وفي صبيحة الغد، وأنا على مقربة من طبرق، رأيت سيارات النقل الضخمة تسير بأقصى سرعتها تحمل الأحرار المجاهدين الأبرار، طوبى لهم وحسن ماب[2].

ب ـ ليبيا قاعدة خلفية ولوجستية:

أصبحت ليبيا قاعدة خلفية ولوجستية وسياسية للثورة الجزائرية، حيث كانت بها مستودعات الأسلحة، ومراكز التدريب، وشبكات التسليح، كما وفرت إقامة خاصة لقادة جبهة التحرير وأمّنت تنقلاتهم، وأصبحوا يتصرفون بكل حرية دون مراقبة أو إزعاج. وللإشارة فإن شبكات التسليح بليبيا لم تتلق أية ضغوطات ولم يجمد أي نشاط للثورة بها عكس ما كان يحدث في بعض ـ البلدان الأخرى ـ وبذلك احتلت ليبيا مكانة رائدة في مجال دعم الأسلحة لصالح الجزائر[3].

وقد أشار رئيس الجزائر الأول أحمد بن بلة الذي أجرى انذاك اتصالات بالحكومة الليبية والفعاليات الشعبية: إن حركة التحرير الجزائرية قد اتصلت بالحكومة الليبية منذ وقت مبكر، وإن التعاون مع الحكومة الليبية كان قائماً، والمساعدات كانت حقيقية، ولكنها تعطى لنا في سرية مطلقة.. ويشير بن بلة أن ثورة أول نوفمبر

(1) حياة كفاح (456/3).

(2) المصدر نفسه (457/3).

(3) المصدر نفسه.

1954م التي انطلقت بقليل جداً من السلاح يتراوح ما بين 350 إلى 400 قطعة من البنادق الإيطالية، وصلت سراً من ليبيا عن طريق غدامس إلى بسكرة، وبقيت مخبأة لمدة طويلة مثلما ذكرنا ذلك سابقاً.

وقد كان عبد العزيز شوشات يتولى رئاسة مكتب تونس في طرابلس، وكان على الزليطي مسؤول المكتب نظرياً، لأن العنصر النشيط والبارز هو عبد العزيز شوشات، وقد ضم المكتب أشخاصاً لاجئين وفدوا إلى طرابلس، وشكل بهم عبد العزيز شبكة للتسليح، وقد اقتفى الجزائريون أثرهم وتعاونوا معهم لاستخدام شبكاتهم لتمرير وتهريب السلاح إلى الجزائر، ومن أعضاء الشبكة نذكر محمد بوعزة، ومحمد عرعار، وعمر البرجي، وهم من بين الجزائريين الذين تم تسليحهم بأسلحة جمعت من صحراء طرابلس بفضل الشبكة التونسية، بحكم أنهم من السابقين في مجال تكوين شبكات التموين والتسليح. ومن أنواع الأسلحة التي كانت تجمع: الخماسي الألماني، والستاتي الإيطالي، والعشاري الإنجليزي، والرشاشات من نوع «ستارن».

وتجدر الإشارة إلى أن عملية تهريب الأسلحة إلى الجزائر تمت بمعرفة الجزائريين أو بالتنسيق معهم ؛ بحيث يتم نقلها من ليبيا عبر مسلك زوارة بواسطة الشاحنات، ثم بن قردان لتصل إلى الأرضي التونسية، ومنها إلى الجزائر عن طريقين هما[1]:

. ولاية شمال قسنطينة عبر سوق أهراس بوسائل مختلفة.

. ولاية الأوراس بواسطة الجمال عبر ممر الجرف بأقصى الجنوب.

وأحياناً أخرى كان السلاح ينتقل بواسطة الشاحنات الكبيرة عبر الأراضي الليبية، ثم بواسطة الجمال عبر الصحراء بعد غلق ممر أهراس.

وتجدر الإشارة أن استعمال الأراضي الليبية لنقل الأسلحة من المشرق كان يتم تحت رقابة الحكومة الليبية، وبتغطية منها. وذلك بأمر من الملك إدريس السنوسي نفسه. كما بذل مدير عام الشرطة بطرابلس عبد الحميد بيّ درنة قصارى جهده لتسهيل عملية نقل السلاح، كما كانت تدخلاته تبعث الطمأنينة في نفوس المهربين الليبيين.

إن نجاح عمليات التهريب الأولى دفع بالحكومة الليبية إلى إرسال برقية إلى أعضاء الجبهة بالقاهرة عن طريق سفارة تونس تدعوهم إلى إرسال ممثل عنهم إلى طرابلس، وبذلك تم تعيين السيد محمد خيضر لهذه المهمة، ومن جهة أخرى لجأت السلطات الفرنسية إلى تشديد الرقابة للحدّ من عمليات تهريب السلاح، حيث كثفت من نشاطها بواسطة دوريات عسكرية على الحدود الليبية التونسية، إضافة إلى نشاط الضابط «جايلز» البريطاني إلى منطقة غريان بغرض التصدي لعمليات التهريب، متستراً بحجة القيام بمناورات في المنطقة، ولولا تدخل مدير عام الشرطة بطرابلس عبد الحميد بيّ درنة الذي أوقف عملية التفتيش التي كان رجال «جايلز» يقومون بها لانكشف أمر السلاح المخزن بالمنطقة[2].

---

(1) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية، د . الطاهر جبلي ص 353، 354، 355.

(2) المصدر نفسه ص 356.

واستمر نقل السلاح من مصر براً تارة عن طريق شاحنات التجار الليبيين المتنقلين بين مصر وليبيا بانتظام، وقد كان بينهم رجل الأعمال عبد الله عابد السنوسي، الذي وافق على عملية حمل السلاح بعد التنسيق مع السلطات المصرية والليبية[1].

ج ـ مطارات ليبيا في خدمة ثوار الجزائر:

بعد اجتماع 27 أبريل 1956م رأت لجنة السلاح الجزائري بالقاهرة أنه من الضروري السعي لدى رئيس الوزراء الليبي بن حليم لكي يضع تحت تصرف اللجنة الفرعية للأسلحة بليبيا مطاراً أو مطارين على الحدود الجزائرية الليبية جنوباً بقصد إيصال الأسلحة بصفة فورية، ومباغتة للفرنسيين.

ولهذا الغرض أرسل وفد جزائري مكون من السيدين أحمد توفيق المدني، والأمين دباغين إلى طرابلس، التي وصلاها في يوم 30 أبريل من نفس السنة، حيث التقيا في اليوم الموالي بالوفد الليبي المكون من السادة: مصطفى بن حليم رئيس الحكومة، وقائدي الجيش والطيران، ومسؤول المطارات الليبية، وبحضور سفير مصر بطرابلس السيد أحمد الفيقي[2].

وقد قررت الحكومة الليبية بعد هذا اللقاء وبناء على طلب الوفد الجزائري ما يلي:

ـ تضع الحكومة الليبية مطاري بلدة نالوت جنوب فزان تحت تصرف القيادة الجزائرية بعد إصلاحهما من طرف الحكومة المصرية.

ـ نقل السلاح بواسطة الطائرات من نوع «داكوطا»، نظراً لخصوصيتها في التحليق على انخفاض يسمح لها بالتسرب بين الجبال بعيداً عن مراقبة رادارات الطيران الفرنسي.

ـ ضرورة دخول السلاح من مصر إلى ليبيا بواسطة الطائرات وبعلم رئيس الحكومة الليبي بغرض تأمين العملية[3].

ـ العمل على شراء السلاح بليبيا وتوفير كل الشروط الضرورية لإنجاح العملية.

وبعد هذا اللقاء ختم الوفد الجزائري زيارته بزيارة الملك إدريس السنوسي حيث خصه باستقبال كبير، وأعرب له عن وقوف ليبيا الدائم والداعم للقضية الجزائرية، وعن تقديم كل التسهيلات لتمرير السلاح، وتنقل المجاهدين عبر كل التراب الليبي[4].

د ـ السلاح التركي لإعانة الجزائر:

كانت سياسة تركيا ـ الرسمية ـ سياسة منكرة بالنسبة للثورة الجزائرية، بينما كان الشعب التركي المجاهد العملاق يقف موقف المؤيد الصلب للثورة الجزائرية، يؤازرها في صحفه وفي منتدياته، وكانت حكومة عدنان مندريس

(1) المصدر نفسه ص 358.
(2) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ص 358.
(3) المصدر نفسه ص 358.
(4) المصدر نفسه ص 359.

تصادم الثورة الجزائرية وتدلي بصوتها في هيئة الأمم المتحدة إلى جانب فرنسا أو تحاول أن تقف موقفاً حيادياً، هو لفائدة فرنسا أولاً وأخيراً.

وجاء اليوم المحدد وحل ركب عدنان فرأوا المطار خالياً من الناس تماماً، وركبوا السيارات فلم يكن في الطرقات أحد، أي أحد، كانت المدينة خالية بصفة مطلقة لا ترى فيها رجلاً ولا امرأة ولا شيخاً ولا صبياً، هكذا دفعت النخوة والشهامة في الليبيين في طرابلس لإعلان غضبهم على تركيا، واستنكاراً لسياستهم تجاه الجزائر المجاهدة، فأغلقوا قاطبة أبواب ديارهم وحوانيت تجارتهم وأضربوا عن العمل الإداري في دواوين الحكومة.

فكاد عدنان مندريس ومن معه يصعقون، وقال لمن حوله من الرسميين: أهكذا يقابل الليبيون وفد الحكومة التركية، ونحن أصدقاؤكم وإخوانكم منذ قرون، وسالت دماؤنا معاً في شتى المعارك الإسلامية، ونصرناكم في كل أزمة حلت بكم، فما هي هذه المقاطعة الشعبية، وما هي أسبابها العميقة؟

قال له رئيس الحكومة: نحن أيضاً لا علم لنا بهذا، ولم نشعر بوجود هذا الإضراب الشعبي إلا هذه الساعة، أما الأسباب فهي بلا شك ولا ريب، موقفكم من الثورة الجزائرية وانتصاركم لفرنسا على الجزائريين، وهم يخوضون معركة الحياة والموت ويقومون بجهاد قاس مرير من أجل استرجاع حريتهم السليبة، واستقلالهم الضائع، وكرامتهم التي امتهنت شر امتهان.

قال مصطفى بن حليم للأستاذ أحمد توفيق المدني: ما كدت أقول له هذا حتى غصّ بريقه، واختلجت عضلات وجهه، وقال بصوت متهدج: إنكم لا تفهمون ولا يفهم إخواننا الجزائريون حقيقة موقفنا اليوم، نحن عاطفياً وقلبياً مع الجزائر في نضالها الحر الشريف، لكننا من جهة أخرى لنا ارتباطات مع فرنسا، ولنا في الوقت الحاضر مصالح اقتصادية كثيرة معها، وهي تعيننا فلا نستطيع أن نتنكر لها جهاراً.

قال مصطفى بن حليم: فأجبته: إذن تستطيعون أن تتنكروا لمبادئكم ولضمائركم ولعواطف شعبكم ولا تستطيعون أن تتنكروا لمصالحكم الاقتصادية؟

قال لي: إن كل شيء يمكن تقويمه وإصلاحه في عالم السياسة، فما هو ـ برأيكم ـ العمل الذي يرضي إخواننا الجزائريين والليبيين ويصلح الموقف معهم؟

قلت: ومع كل العرب كافة، لأن العرب كافة من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب قد أعلنوا تضامنهم الفعال مع الثورة الجزائرية، فكل عمل ضد الجزائر إنما هو في الحقيقة ضد العرب عموماً، وأما ما يجب عمله فسأخبرك به غداً، بعد استشارة جبهة التحرير وهم الان هنا.

وكان الأستاذ أحمد توفيق المدني متواجداً في ليبيا فقال لمصطفى بن حليم: لا نريد من تركيا إلا أمرين لا ثالث لهما: أن تقلع عن إعانة فرنسا ضد الجزائر، وأن تنصر كغيرها مبادأئ العدل والإنصاف، وأن ترسل للجزائر مدداً من الأسلحة الحديثة الموجودة لديها، وبذلك نطوي صفحة الحاضر ونفتح صفحة جديدة تصل المستقبل بالماضي.

قال له مصطفى بن حليم هذا، فأجابه: أما تغيير مسلكنا السياسي فسنقوم به تدريجياً حتى نلتقي بعد حين مع إخواننا الجزائريين والعرب في موقف واحد، وأما السلاح فنحن مستعدون لإمداد إخواننا الجزائريين بنصيب وافر منه، وإنما كيف السبيل لايصاله؟

قال له ابن حليم: أرسلوه هدية من الشعب التركي إلى الشعب الليبي ونحن نسلمه للجزائريين.

قال عدنان: اتفقنا، إنما الأمر موكول بمصادقة رئيس الجمهورية جلال بايار، وسأخبرك بصفة سرية عندما تتم هذه المصادقة.

وأخبرت الحكومة الليبية الملك إدريس بهذا، فقال لعدنان أثناء استقباله له: أنا مسرور جداً بوعدكم الذي قطعتموه للحكومة بإعانة الجزائر المجاهدة، وأرجو أن يتحقق الوعد قريباً، فأبلغوا رجائي هذا للسيد الرئيس جلال بايار[1].

كان عدنان مندريس يخشى عواقب اكتشاف أية شبهة بأن تركيا تمد الثورة الجزائرية بأي عون مادي، وكرر عدة مرات بأن هذا سبب طرد تركيا من حلف الأطلسي، وهو الركيزة الرئيسية التي يرتكز عليها دفاع تركيا في مواجهة الخطر الروسي العظيم.

وكان ابن حليم يشعر بأن مخاوف عدنان مندريس حقيقية، فهدّأ من روعه وقال له: إن الثورة الجزائرية في أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة الحديثة وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كشفاً مفصلاً بهذه الأسلحة وأهديتموه أنتم إلى شقيقتكم ليبيا، فليس في هذا ما يثير أي شك أو ريب لدى فرنسا.

وقال مصطفى لعدنان مندريس: إن الليبيين سوف يقومون بتسريب السلاح إلى الإخوان الجزائريين تدريجياً، ووعده بأن لا يُعلم هذا السر للقيادة الجزائرية العليا، بل عدد قليل من أفراد تلك القيادة العليا. وواصل ابن حليم حديثه مع ضيفه رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس واستعرض له ماضي تركيا الإسلامي وتاريخها في الذود عن الإسلام، وإعلاء كلمته، ومزج السياسة بالعاطفة الدينية، إلى أن قال عدنان مندريس: سنقدم لكم هدية السلاح، وأرجو الله أن يوفقكم في إيصالها لأولئك الذين يحتاجونها في الدفاع عن دينهم، أما نحن في تركيا فإننا نقدم الهدية لجيش الشقيقة فقط، وشدد على المحافظة على السرية المطلقة، وبعد أسابيع قليلة وصلت هدية السلاح التركي واستلمها الجيش الليبي في احتفال عسكري، ثم بدأ تسريبها تدريجياً إلى مجاهدي الجزائر[2].

هـ سفارة ليبية في باريس:

كان الملك إدريس رضي الله عنه بعيد النظر، فبعد أن استقال السيد مصطفى بن حليم من الحكومة في اخر مايو 1957م عينه مستشاراً خاصاً له بمرتب رئيس وزراء، وأصر على بقاء ابن حليم في خدمة الدولة، وشرح الملك لرئيس وزرائه السابق أنه يحتاج إليه قريباً، ثم عرض عليه أن يرسله سفيراً لليبيا في باريس، لأن علاقته

(1) حياة كفاح (517/3).

(2) صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي ص 361، 362، 363.

ممتازة مع رجال الثورة الجزائرية، ولأن الحكومة الفرنسية قد وصلت لقناعة بأن قضية الجزائر لا تُحل عسكرياً وإنما بالمفاوضة مع سكان الجزائر.

وعندما رد ابن حليم على الملك بقوله: إن الحكومة الفرنسية أصبحت على علم تام بالدور الذي قام به في مساعدة الثورة الجزائرية، وتهريب السلاح والعتاد لها، وإن الثقة منعدمة بينهم وبينه، رد الملك بأن هذا هو خير مؤهل ليجعل الحكومة الفرنسية تستعمل مساعيك كقناة للوساطة مع الثورة الجزائرية، لتأكدها من أن زعماء الجزائر سيتقبلون نصحك قبولاً حسناً ويثقون بما تنقل لهم من اقتراحات، وأضاف الملك: عليك أن تكمل رسالتك نحو الثورة الجزائرية.

لقد كانت مهمة سفير ليبيا في فرنسا البحث مع الحكومة الفرنسية عن سبل سلمية لإعطاء شعب الجزائر حق تقرير مصيره، وتشجيع الحكومة الفرنسية على انتهاج سياسة التفاهم والتفاوض مع جبهة تحرير الجزائر، والإقلاع عن سياسة القمع والعنف والتشريد ضد الشعب الجزائري[1].

وبدأ السفير مصطفى بن حليم بتنفيذ دوره الذي رسمه له الملك، وقام الملك إدريس بطلب رسمي من الجنرال ديغول الذي أصبح رئيساً للجمهورية، بأن يطلق سراح أحمد بن بلة ورفاقه من السجن، أو على الأقل أن يخفف وطأة السجن إلى إقامة جبرية أو شيء من هذا القبيل، وأجاب الجنرال ديغول على طلب الملك إدريس بواسطة سفير ليبيا بفرنسا مصطفى بن حليم، الذي حمّله ديغول رسالة إلى الملك إدريس بأن مسعاه لن يذهب سدى، وبعد أيام نُقل أحمد بن بلة ورفاقه إلى فيلا في ضاحية «شاشيبي» بجوار باريس[2].

وفي يناير عام 1961م زار ليبيا الكونت دوباري موفداً من طرف الجنرال ديغول رئيس الجمهورية انداك، واستقبله محمد عثمان الصيد بصفته رئيساً للحكومة في طرابلس، وكان الكونت دوباري يحمل رسالة خطية من ديغول للملك إدريس السنوسي، وأبلغ المبعوث الفرنسي السيد محمد الصيد رئيس الوزراء أن الجنرال ديغول يريد إبلاغ الملك إدريس عبر هذه الرسالة، أن فرنسا ستعمل قريباً على حل لقضية الجزائر يضمن مصلحة الجزائريين ويلبي المطامح العربية، لكنه يرجو من القادة العرب خاصة أولئك الذين تعرّف عليهم إبان الحرب العالمية الثانية، ومنهم الملك إدريس تفهم ظروف فرنسا الداخلية، ومساعدته حتى يمكن إخراج هذا الحل إلى حيز الوجود، وبالفعل لم تمض أربعة أشهر حتى بدأت مفاوضات الاستقلال بين فرنسا والجزائر في 20 مايو 1961م في «إيفيان».

عقب إطلاق سراح أحمد بن بلة ورفاقه الأربعة، وكان يطلق عليهم «الزعماء الخمسة» من السجون الفرنسية، قام هؤلاء الزعماء بزيارة إلى ليبيا واحتفى بهم الليبيون حكومة وشعباً احتفاء كبيراً، واستقبلهم الملك إدريس السنوسي وحثهم على التضامن ونكران الذات، وذكّرهم بالحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول (ص):

---

(1) المصدر نفسه ص 364.

(2) صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي ص 375.

رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. وطلب منهم الاهتداء بهذا الحديث، ودعاهم إلى نبذ جميع أشكال الخلاف والشقاق والأنانية التي تضر ـ إن وجدت ـ بالجزائر واستقلالها[1].

و ـ الملك إدريس يتبنى يتيمة جزائرية:

أنشأ الديوان الملكي الليبي مركزين لإيواء والتكفل مالياً وتربوياً بأبناء وبنات الشهداء في مملكته، واختار الملك وزوجته السيدة فاطمة يتيمة جزائرية لتربيتها، ووقع الخيار على فتاة اسمها عقيلة من مدرسة اليتامى، بالتنسيق مع المسؤول على هذا المركز الأستاذ محمد الصالح.

وفي اليوم التالي ليوم استلامها أذاعت إذاعة ليبيا خبراً قالت فيه: إن البرلمان الليبي قد اجتمع في مقره المعهود وأصدر بياناً يفيد أن الملك «إدريس السنوسي» قد تبنى بنت شهيد جزائرية تدعى عقيلة، وستصبح من الان وابتداء من يوم قراءة هذا البيان على الشعب الليبي أميرة في القصر باسم «سليمى السنوسي»

واستمرت مع الملك وزوجته، وبعد استقرار الملك في مصر بعد الانقلاب في ليبيا كانت معه، ومضت أعوام تتبعها أعوام حتى كانت سنة 1976م، حيث تم تزويجها من قبل الملك للدكتور أحمد رضوان، وأقام إدريس السنوسي لها حفلة كبيرة ودعا لها الرئيس أنور السادات وقرينته[2].

2 ـ مؤتمرات مصيرية للثورة الجزائرية في ليبيا:

تواصل الدعم الليبي للقضية الجزائرية وثورة أول نوفمبر، حيث شهدت الأراضي الليبية عدة اجتماعات ومؤتمرات مصيرية بالنسبة للشعب الجزائري وثورته المباركة. ومن أهم هذه المؤتمرات:

أ ـ مؤتمر طرابلس الأول: الاجتماع الثالث للمجلس الوطني للثورة الجزائرية:

انعقد هذا المؤتمر بمدينة طرابلس عاصمة ليبيا، وبمعية من ملكها الذي سهل العملية وسخر لها كل الوسائل الضرورية لإنجاحها، وكان ذلك في 16 ديسمبر عام 1959م، وكانت قد حدثت بين الدورتين الأولى والثانية تطورات هامة، منها تشكيل الحكومة المؤقتة في 19 سبتمبر 1958م، والاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره في 16 سبتمبر 1959م. وأشرفت اللجنة السباعية على التحضير لمؤتمر طرابلس، وكان من مهام هذه اللجنة إعادة الاعتبار للثورة، وكذلك إعادة النظر في تشكيلة الحكومة المؤقتة، ووضع قائمة جديدة للجنة تضم ممثلي الولايات الثورية داخل التراب الجزائري، وممثل فدرالية جبهة التحرير في فرنسا، وممثلها في المغرب الأقصى، إلى جانب ضباط جيش التحرير الموجودين في الخارج، ومنهم: أحمد قايد، والطاهر الزبيري، وعلي منجلي، وعلي السواعي، وأحمد بن شريف، ومن المدنيين: أحمد بومنجل، والشيخ خير الدين، وتضمن جدول أعمال المؤتمر:

ـ دراسة وتحليل الوضع العسكري داخل الجزائر.

ـ دراسة الوضع السياسي وبالتحديد موضوع المفاوضات مع إدارة الاحتلال الفرنسي.

---

(1) الحركة السنوسية، للمؤلف علي الصلابي ص 584.

(2) المجاهد محمد صالح الصديق، إسماعيل ميرة ص 148 إلى 155.

. التطرق للأوضاع الداخلية وأوضاع اللاجئين جراء سياسة القمع الفرنسية.
. دراسة الوضع المالي دراسة معمقة وشفافة.
. دراسة تشكيلة الحكومة المؤقتة المقبلة بما في ذلك قيادة الأركان العامة.
وقد نتج عن مؤتمر طرابلس الأول عدة نتائج انعكست على تطور الأحداث بالنسبة للثورة التحريرية من أهمها:
. وضع نظام جديد لجبهة التحرير الوطني الجزائرية.
. إعطاء صلاحيات واسعة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية.
. إعادة تشكيل تنظيم الحكومة المؤقتة بتعيين فرحات عباس رئيساً لها للمرة الثانية.
. إنشاء قيادة عسكرية جديدة، ومطالبة ضباط الخارج بالالتحاق بالثورة، وهذه القيادة هي اللجنة الوزارية للحرب: وتضم السادة: كريم بلقاسم، وعبد الحفيظ بوصوف، والأخضر بن طوبال.
. التأكيد على أن تكون قاعدة المفاوضات هي مبدأ تقرير المصير بإشراف من هيئة الأمم المتحدة.
. بعث وإحياء فكرة وحدة المغرب العربي.
. دفع الإخوة الأفارقة المؤمنين بالثورة الجزائرية إلى إقناع رعاياهم بالانسحاب من الجيش الفرنسي.
. ضرورة الاعتماد على المساعدة العسكرية للدول الصديقة، ومنها:
الصين، والاتحاد السوفياتي.
. توسيع العمل المسلح على أكثر من نطاق داخل الجزائر وداخل التراب الفرنسي.
. تأسيس هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الجزائري، ومهمتها إعادة تنظيم جيش التحرير حسب المتطلبات العسكرية الجديدة في الداخل[1].

وفي 18 جانفي من عام 1960م، وبعد حوالي أكثر من ثلاثين يوماً من أشغال المؤتمر، تم تعيين السيد فرحات رئيساً للحكومة الجزائرية المؤقتة الثانية، في حين تم تعيين العقيد هواري بومدين مسؤول هيئة الأركان العامة للثورة، وكان ذلك موافق 23 جانفي من عام 1960م إلى جانب دخول العديد من ضباط جيش التحرير إلى الجزائر بناء على توصيات المؤتمر، ومنهم العقداء: لطفي بودغن من الولاية العسكرية الخامسة، والحاج الأخضر عبيد من الولاية العسكرية الأولى، والطاهر الزبيري من نفس الولاية، وأحمد بن شريف وسليمان دهيليس من الرابعة.

ومن هذا المنطلق كانت ليبيا قبلة للسياسيين الجزائريين الذين كثفوا نشاطاتهم السياسية والدبلوماسية من طرابلس وبنغازي من أجل نصرة قضيتهم، وقد لقوا الدعم الضروري من طرف الحكومة الليبية وعلى رأسها الملك إدريس السنوسي وبتوجيه منه، حيث مهدت هذه الأخيرة كل الظروف الملائمة للجزائريين لعقد مؤتمرهم الرابع بطرابلس الغرب بتاريخ 27 أوت 1961م، والذي يعد من أهم المؤتمرات الوطنية بعد مؤتمر الصومام

(1) مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية، د . مريم صغير ص 105.

في 20 أوت 1956م، ومؤتمر القاهرة 1957م، والذي جاء في فترة تولي السيد بن يوسف بن خدة رئاسة الحكومة المؤقتة[1].

ب . مؤتمر طرابلس الثاني: الاجتماع الرابع للمجلس الوطني للثورة الجزائرية:

انطلقت أشغال هذا المؤتمر في 9 أوت من عام 1961م، في ظل صراع شديد لم تظهر ملامحه إلا عند أصحاب القرار الثوري انذاك بمختلف أطيافهم واتجاهاتهم، وعلى وجه الخصوص بين الحكومة المؤقتة التي جردت تقريباً من كل صلاحياتها وهيئة الأركان العامة، وهذا يعني بالدرجة الأولى ظهور الصراع بين المدنيين والعسكريين، وتؤكد بعض المصادر أن هذا الخلاف استغله السيد بن يوسف بن خدة الذي كان ناقماً على تيار كريم بلقاسم وبوصوف وبن طوبال لصالحه، وهذا ما أشار إليه السيد هشماوي بقوله: تظاهر بالتأييد والتلاعب بين الفئتين، واستطاع أن يجد فيه كل طرف مبتغاه املاً استغلاله، واستطاع بذلك أن يزيح فرحات عباس ليجلس مكانه بموافقة الطرفين، ولكنه لم يلبث بعد أخذ مكانه أن انحاز إلى الجناح العسكري في الحكومة المؤقتة.

وقد انصبت أشغال المؤتمر حول قضية المفاوضات مع فرنسا، لتنتهي يوم 27 أوت من عام 1961م بتعيين بن يوسف بن خدة رئيساً للحكومة المؤقتة، وظهور تشكيلة حكومية جديدة أخرى، ومع ذلك فإن الصراع بين الأجنحة داخل الثورة بقي مستمراً لكن دون أن يؤثر تأثيراً مباشراً على مسار الثورة، خاصة بين رئيس الحكومة السيد بن يوسف بن خدة وجماعته من جهة وقيادة الأركان بزعامة هواري بومدين من جهة أخرى[2].

ج . مؤتمر طرابلس الثالث: الاجتماع الخامس للمجلس الوطني للثورة:

حفاظاً على مكتسبات الثورة الجزائرية سياسياً وعسكرياً، وانطلاقاً من حرص قادتها على مصالح الشعب الجزائري في ظل الأوضاع الراهنة دولياً وإقليمياً وداخلياً ؛ تقرر عقد مؤتمر ثالث للثورة في المدينة نفسها التي احتضنت المؤتمرات السابقة ابتداءً من 27 ماي 1962م.

وقد بدأت جلساته الأولى في هذا اليوم، والتي ستستمر إلى غاية 7 جوان من نفس السنة، وترأسها السيد محمد الصديق بن يحيى إلى جانب نائبيه السيدين عمر بوداود رئيس فدرالية جبهة التحرير الجزائرية في فرنسا، والعقيد علي كافي قائد الولاية الثانية، وكانت أولى نتائج هذا المؤتمر، هي دراسة المفاوضات الثنائية مع فرنسا حول قضية الاستفتاء ومن ثم التفكير في وضع برنامج مستقبلي للجزائر.

وبذلك جاء مؤتمر طرابلس ليواجه تحديات المستقبل ومسؤوليات الموقف الجديد، بعد إخضاع السلطات الاستعمارية الفرنسية للاعتراف باستقلال الجزائر، وكذلك الاستعداد للاستفتاء حول تقرير مصير الشعب الجزائري المقرر إجراؤه في أول جويلية عام 1962م.

---

(1) المصدر نفسه ص 106.

(2) المصدر نفسه ص 108.

لقد دعت مرة أخرى الحكومة المؤقتة الجزائرية برئاسة بن يوسف بن خدة، المجلس الوطني للثورة إلى الاجتماع بمدينة طرابلس بالمملكة الليبية، وذلك بعد تهيئة كل الظروف من 25 ماي إلى 7 جوان من عام 1962م، فكان المؤتمر الذي حضره أعضاء الحكومة الجزائرية المؤقتة، وكذلك القيادة العامة لجيش التحرير الوطني إلى جانب قادة الولايات الستة.

وبذلك تم وضع برنامج مستقبلي للعمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي لمرحلة الاستقلال، يعود الفضل في نجاحه إلى وقوف ملك ليبيا وحكومتها وشعبها لرعاية الثوار السياسيين والعسكريين، حتى يتسنى للجزائريين وضع الأسس الأولى لبناء الدولة الجزائرية المستقلة، والذي جعل من جهة ثانية جبهة التحرير الوطني هي مصدر التوجيه الحقيقي لكل التنظيمات الأخرى مثل الحكومة وجيش التحرير.

وكانت أهم نقطة خرج بها المؤتمر هي إقراره بإقامة دولة جزائرية ديمقراطية شعبية، وتحويل جبهة التحرير بعد دورها الثوري إبان مرحلة الحرب إلى حزب طلائعي جماهيري تعبوي.

وقد بقي برنامج طرابلس مصدر إلهام الحكومة بالنسبة لسياستها الداخلية والخارجية، خاصة السنوات الأولى التي تلت الاستقلال، وقد بقى العمل به إلى أن تم صدور ميثاق الجزائر في أفريل عام 1964م[1].

3 . الدعم الشعبي الليبي لثورة الجزائر:

ونظراً للأواصر الدينية والقومية والجغرافية والتاريخية بين الشعبين الجزائري والليبي، كان الشعب الليبي المه الوضع الاستعماري بالجزائر، الذي كانت تعيشه طوال عهد الاحتلال، وهزها ابتهاجاً انفجار الثورة التحريرية في مختلف أرجاء التراب الجزائري، وأخذت القطاعات الشعبية تفكر جدياً في إيجاد الطريقة التي يمكن بها دعم ثورة الجزائر ومناصرتها في المجالين المعنوي والمادي، وكانت الفكرة التي لمعت في الأفكار وواجهها الجميع بالرضى والتأييد، هي تأسيس لجنة من الأعيان الذين اشتهروا بالوعي الديني والقومي، ولهم تحمسهم للقضايا المشتركة في العالم العربي والإسلامي، فانعقد الاجتماع لهذا الغرض في محل تجاري حضره السادة:

. الشيخ محمود صبحي.

. محمد بن طاهر.

. عمر طلوبة.

. راسم باكير.

. محمد الكريكيشي.

. محمد العربي.

. الهادي المشيرقي.

(1) المصدر نفسه.

وقرروا تشكيل لجنة لمناصرة الشعب الجزائري، فراسلوا في هذا الشأن الجهات الرسمية في الدولة لطلب الإذن بالشروع في العمل، ومشاركة الحكومة.

واشتمل المشروع على تكوين هيئة مكونة من عدد من الأعضاء وفتح باب التبرع الشعبي لنجدة الثوار في الجزائر، والقيام بالدعاية للإعلان عن المشروع، وتسليم المبالغ المتحصل عليها لممثل الثورة الجزائرية بطرابلس، وبإشراف السلطات المحلية المختصة.

وتكونت أول لجنة لمناصرة الجزائر في اجتماع في منزل المناضل الهادي المشيرقي على النمط التالي:

. الشيخ محمود صبحي، رئيساً.

. محمد بن طاهر، عضواً.

. الهادي المشيرقي، أمين الصندوق المالي.

. راسم باكير، عضواً.

. عمر طلوبة، عضواً.

. سعد الشريف، عضواً.

. محمد العربي، عضواً.

. محمد البهليل، عضواً.

. عبد العزيز الزقلعي، عضواً.

. محمد بورقيبة، عضواً.

. عبد الله بوفيطة، عضواً.

. جميل المبروك، عضواً.

. الأمين بن حامد، عضواً.

. الهادي بن شنشن، عضواً[1].

وكان مقر الجمعية في منزل السيد الهادي المشيرقي، الذي كان يوفر للأعضاء الجو الملائم لهم حتى يضطلعوا بمهمتهم على أحسن وجه.

وما إن انطلقت الجمعية في طريقها واتجاهها المعين المحدود، حتى تفرعت عنها لجان فرعية في كافة مناطق البلاد، وأخذت تقوم بحملات التبرعات على أصعدة مختلفة[2].

وتألفت هذه اللجان من: المثقفين، والكتاب، والشعراء، والتجار، وأصحاب الحرف، والطلاب، والعمال، والجمعيات النسائية. واستغلت كل الوسائل والأساليب والإمكانات المتاحة من: حفلات خيرية، ومقالات،

---

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي، محمد الصالح الصديق ص 113.

(2) المصدر نفسه ص 113.

وطبع لصور الشهداء، وعرض الأشرطة التي تجسد بسالة الشعب الجزائري، وتجسم الأساليب الهمجية الفرنسية الاستعمارية.

وكان الانضمام إلى عضوية اللجان الفرعية يتم عن طريق اللجنة المؤسسة أو من قبل المواطنين الذين يشهدون للعضو بحسن سيرته وسلوكه.

وإذا كانت اللجان كلها قد بذلت جهدها وأدت رسالتها المنوطة بها، فإن هناك لجنة رائدة في الميدان كان لها الدور الكبير الفعال، الذي يذكر على الدوام بالشكر والتقدير، وتلك هي اللجنة المالية التي تشكلت في شهر يوليو سنة 1956م، وتألفت من هؤلاء السادة:

. الهادي المشيرقي، أميناً للصندوق.

. سعد الشريف، مساعداً.

. جميل المبروك، مساعداً.

. الهادي بن شنشن، عضواً.

. الأمين بوحامد، عضواً.

. محمد بن طاهر، عضواً.

. سعيد السراج، عضواً.

. عمر بهليل، عضواً.

وجلّ أعضائها . كما ترى . من اللجنة الليبية لمناصرة الجزائر.

وارتاح الشعب الليبي إلى هذه اللجنة، وتوالت تبرعاته من مختلف أنحاء المملكة الليبية، بشكل يدعو إلى الفخر والاعتزاز، مما جعل السيد الهادي يسجل هذا الرضا ويشيد بهذا الإقبال المشجع والمتميز على مساندة الثورة التحريرية، يقول فيه: يسرّ لجنة جمع التبرعات لجيش التحرير الوطني الجزائري أن تتقدم بوافر شكرها وخالص تقديرها لجميع أفراد الشعب على ما أظهروه من همة عالية وروح طيبة نحو الجزائر المجاهدة، وما أبدوه من تشجيع وتعاون مع اللجنة طوال مباشرتها هذا المشروع الذي لا تبتغي من ورائه إلا عزة الإسلام ونصر العروبة والمسلمين، راجين من الله أن يوفق إخواننا الجزائريين في كفاحهم ونضالهم، ويثبت أقدامهم وينصرهم نصراً مبيناً.

ولما اتسعت أعمال اللجنة وكثر المقبلون عليها، وأخذ مؤيدوها يتضاعفون يوماً بعد يوم، ورغباتهم في المناصرة والتأييد تتنوع بتنوع الرغبات والحاجات، ضاق بهم مكتب السيد سعد الشريف الذي كان مركزاً لهم، فانتقلوا إلى عمارة الأوقاف بباب الحرية، وإثر ذلك وقع تعزيز اللجنة بأعضاء جدد، وصار أعضاء اللجنة الثانية كما يلي:

. محمود عبد السلام صبحي رئيساً

. مختار ناصف مسؤولاً إدارياً

. محمد بن طاهر	عضو من أعضاء اللجنة الأولى
. سعد علي الشريف	عضو من أعضاء اللجنة الأولى
. يوسف العرابي	عضو جديد
. الهادي إبراهيم المشيرقي	عضو مؤسس اللجنة الأولى
. أحمد راسم بكير	عضو من أعضاء اللجنة الأولى
. يوسف سليمان مادي	عضو جديد في اللجنة الأولى
. عمر طلوبة	عضو جديد في اللجنة الأولى
. حميدة الحامي	عضو جديد في اللجنة الأولى

وسارت اللجنة الجديدة على نفس النهج، وأظهرت نفس الفعالية، وسارت على الدرب بانضباط منقطع النظير، وكأن الأعضاء قد أصبحوا أسرة واحدة[1].

وقد ظلت اللجنة طوال الثورة على نشاطها، وظل الشعب الليبي الشقيق على كرمه، وتضحياته ومناصراته، وكان هناك أسبوع الجزائر يفتتحه رئيس الدولة أو الحكومة بمبلغ مالي يقدمه للثورة، ثم تنطلق الهيئات والمنظمات والمؤسسات وعامة الطبقات الشعبية، وتشرف عليه بل تسيّره وتديره اللجنة، ويستمر أكثر من شهر أحياناً، هذا الأسبوع تتبارى فيه الهمم وتتنافس في العطاء والتضحية والجود، كل بما قدر عليه.

والمثير أنك ترى خلال هذا الأسبوع أطفالاً صغاراً يتنافسون في جمع التبرعات، وكلهم جد وعزم وحيوية ونشاط، ولا يلهيهم عن ذلك شيء.

وفي الأسبوع الذي يخصص فيه دخل هام من المتاجر والفنادق والأعمال الحرة لصالح الثورة، بتسجيل صور لا أروع منها ولا أدل على متانة اللحمة الأخوية بين الشعبين الجزائري والليبي، منها[2]:

أ. مواقف تهز المشاعر:

. متسول في شوارع طرابلس:

في صبيحة يوم من أيام رمضان 1958م بكّر متسول إلى مكان استراتيجي في قلب مدينة طرابلس تلاقت فيه عدة شوارع، وجلس على الرصيف وتحته حصير أبلاه مر الأيام وعلى فخذه عصا طويلة عتيقة، وعلى كتفيه مزق من عباءة بالية قد اتخذها في عراك الأيام وقاية، ولكن الرياح القاسية تتنازعه هذا الستار فتكشفه عن كتفيه من حين لاخر.

يقول محمد الصالح الصديق: واتفق أن وقفت بالقرب منه مع سفير عربي، نتحدث عن تطورات الثورة وتضامن ليبيا مع الشعب الجزائري، وخاصة في هذا الأسبوع. وكنت من حين لاخر أرمي بعيني إلى المتسول العجوز سيما عندما تمتد إليه يد محسنة في رفق فيقابلها بابتسامة.

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 117.

(2) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 117.

وبعد ساعة من الإفطار ذهبت إلى مكتب الهلال الأحمر الجزائري بباب الحرية، حيث تجمع التبرعات، ووجدت المكتب غاصاً بمختلف الطبقات، الأطفال، الشباب، والكهول، والشيوخ، وكلهم جاؤوا لتلبية النداء المقدس وتأدية فروض الأخوة، فبينما كنت أتحدث مع المسؤولين وأتابع حركة المتبرعين إذ بشيخ أعمى تسبقه عصاه، ويقوده طفل صغير يشق الطريق بين الناس المتزاحمين وهو يقول:

أين من يجمع التبرعات؟

ففسحوا له الطريق وقادوه، فلم أكد أراه بلحيته البيضاء وعباءته البالية وعصاه الطويلة، حتى ثارت في قلبي دوامات عنيفة من شتى العواصف والأفكار، وعصفت بكياني مختلف المشاعر: إنه الشيخ الذي رأيته صباح اليوم[1].

أخرج من جيبه صرة بها كل ما جمعه في بياض ذلك اليوم، وقدمها إلى المسؤول عن التبرعات، فعندما رفض المسؤول أن يقبلها مؤكداً له أن مثله لا يقل حاجة إلى المساعدة عن المجاهدين، استشاط غيظاً وأبى مصرّاً أن يعود بها، ولم يهدأ حتى قبلت منه.

ـ ولدي من شهداء الجزائر:

ذات يوم خرج بالسيارة مجاهد يعمل في لجنة التبرعات في أسبوع الجزائر إلى إحدى ضواحي طرابلس لمهمة كلّف بها، فدهس شاباً دون العشرين من عمره فقتل، وما إن بلغ الخبر والده حتى أسرع مذعوراً إلى مكان الحادث يعتصره الألم ويهزه هول المصاب، فما إن علم أن قاتل ولده جزائري كان يسوق سيارته بسرعة حتى يؤدي مهمة للثورة في موعدها المحدد ؛ حتى هدأ وسكن وتقدم بخطى وئيدة إلى ابنه ممرغاً في الدماء، فحدجه بنظرة ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

ثم التفت إلى السائق وقال له والدموع تترقرق في عينيه: اذهب يا أخي لمهمتك حتى لا تفوت، فإن الوقت لا ينتظر، أما ولدي فإنه من شهداء الجزائر، وللشهداء مكانتهم عند ربهم. وكانت دهشة السائق بالغة عندما احتضنه بذراعيه وقال له: اذهب ولا تتأخر عن موعد المهمة، أما ابني فإنه لم يمت لأنه ذهب شهيداً في سبيل الجزائر.

ـ العرائس الليبيات يتبرعن بحليهن للثورة:

تبرع العرائس الليبيات اللاتي صادف زفافهن أسبوع الجزائر، فتبرعن بحليِّهن للثورة الجهادية المقدسة لديهن مثل كل الشعب الليبي[2].

علماً أنه وفي كل ليلة من أسبوع الجزائر الذي يمتد إلى شهر أو شهرين، تنظم حفلة أو حفلات في مختلف أحياء مدينة طرابلس وفي مختلف المدن الأخرى، ويتكلم فيها الخطباء عن الدور البطولي الذي يقوم به الشعب الجزائري منذ اندلاع الثورة التحريرية، والانتصارات الضخمة التي يحققها الأبطال الجزائريون.

(1) المصدر نفسه ص 118.

(2) جهاد الجزائر ص 312.

وفيما نشاطات أسبوع الجزائر قائمة على قدم وساق في نواح متعددة من المملكة الليبية ؛ مرت عروس بدوية مثقلة بمصوغات ذهبية وفضية في موكب من أهلها يزفونها إلى زوجها زفاً، وفيما هي في الهودج حانت منها التفاتة إلى مكان هناك، فرأت منظراً أثار فضولها رأت الناس يتهافتون متسائلين على سيارة فيها علم جزائري ونفر من الناس، يأخذون منهم ما يشبه الهدايا، فاستوقفت الموكب تسأل وليَّ أمرها عما ترى، فقال لها: إنهم يتصدقون بما توفر لهم من عملة وذهب وفضة مساندة لإخواننا الجزائريين في حربهم المشروعة على الاستعمار الفرنسي، فتصدقت بكل ما تملكه من مصوغات ومجوهرات محتسبة الأجر عند الله تعالى(1).

ب . مقاطعة المنتجات الفرنسية:

في عام 1961م ظهر الأثر الإيجابي للجنة مقاطعة فرنسا التي كان مقرها بطرابلس، حيث استطاعت جر العديد من الشركات الليبية إلى قطع علاقاتها التجارية مع فرنسا، وهذا ما حدث بالنسبة لشركة القافلة التي تعهدت بأن لا تستورد أي بضاعة أو قطع الغيار من أي بلد كان إذا كانت هذه البضاعة أو قطع الغيار فرنسية الصنع(2).

ج . خدمات الهادي المشيرقي للثورة الجزائرية:

كان من أبرز الشخصيات الليبية التي ساندت الثورة الجزائرية، والتي وقفت بكل جهدها لصالح هذه القضية العادلة، الهادي إبراهيم المشيرقي، وقدم كل ما يملك من أجل ذلك:

. بيوت في فنادق لصالح الثوار:

كان يدير شؤون ستة فنادق بطرابلس، منها اثنان كبيران مشهوران في قلب المدينة، هما فندق المهاري والفندق الكبير، وكان ينزل فيهما المناضلون الجزائريون وخاصة منهم قادة الثورة . إذ ذاك . أمثال كريم بلقاسم، وعبد الحفيظ بوصوف، ومحمد يزيد، وعبد الله بن طوبال، ومحمدي السعيد، وأحمد فرنسيس، وعبد الحميد مهري، ويوسف بن خدة، وسعد دحلب، فيكرمون غاية التكريم، ويخدمون خدمة متميزة، ثم عندما يشكرونه على كرمه المتميز يقول لهم: الشكر لكم لأنكم أتحتم لي هذه الفرصة الثمينة لأنال بهذا العمل المتواضع شرف المساهمة في هذه الثورة التاريخية الماجدة.

. إقامة حفلات على شرف المشاهير:

اعتاد أن يقيم حفلاً على شرف أية شخصية تزور مدينة طرابلس أو تمر بها، وسواء أكانت هذه الشخصية سياسية، أم علمية، أم رسمية، أم نضالية، فيدعو لها رئيس البعثة والمكلف بالإعلام للثورة، فتطرح الثورة بوجهها قضاياها، ويبرز ذلك في أجهزة الإعلام من صحف ومجلات ومطبوعات وإذاعات. وكانت المادب التي يقيمها من أجل هذا الغرض تكلفه أموالاً طائلة، ولكنه لا يكترث لذلك أبداً مادامت قد حققت غرضه، ومن أمثال المشاهير:

---

(1) المجاهد محمد الصالح، إسماعيل ميرة ص 161.

(2) مواقف الدول العربية ص 120.

. الحاج الأمين الحسيني.

. مالك بن نبي.

. البشير الإبراهيمي[1].

وإذا كان السيد الهادي المشيرقي عظيم التقدير لكل المناضلين الجزائريين بالخصوص ؛ فإن خمسة منهم كانوا عنده في مستوى متميز لاعتبارات مختلفة شخصية أو نضالية، هؤلاء هم: الشيخ البشير الإبراهيمي، حسين ايت أحمد، أحمد بن بلة، عمرو أوعمران، بشير القاضي[2].

. ماذا يضير موتي بعد موت مليون من إخوتي؟

يقول الهادي إبراهيم المشيرقي في كتابه «قصتي مع ثورة المليون شهيد»: في الأسبوع الأول من شهر مايو 1960م زارني خليفة العروسي وكيل وزارة التموين والتسليح، وكان معه وزير التموين والتسليح عبد الحفيظ بوصوف.. جاء الاثنان إلى مكتبي وسألني خليفة سؤالاً مباشراً:

. هل تعرف شخصاً اسمه «بيزنرويلي»؟

فأجبته على الفور: نعم.. أعرفه جيداً فقد كان يورد الأسلحة لمكتب المغرب العربي بالقاهرة.

وجاء السؤال الثاني مباشراً أيضاً.. وقاطعاً مثل سابقه:

. هل أنت مستعد للعمل مع الثورة الجزائرية بأقصى حد؟

والجواب:

نعم.. وهذا شرف يُمنح ولا يُفرض.

وعقّب الوزير الجزائري رداً على جوابي:

. المسألة فيها خطورة على حياتك؟

ورددت:

. ماذا يضير موتي بعد موت مليون من إخوتي؟

وهز رأسه متمتماً طيب.. ثم بلع ريقه وأردف قائلاً، والكلمات تخرج من بين شفتيه بصعوبة:

. حتى نكون واقعيين، وهذا ما يجب إزاء الأشخاص الثوريين ؛ فإن الأمر يتطلب . للاحتياط . أن تكتب وصيتك وبراءة للثورة من دمك.

. أكتبها من كل قلبي، وأنا مرتاح وسعيد بشرف انضمامي إليكم، وهذا شرف طالما تمنيته وطلبته منكم مراراً.. وها قد تحقق ولله الحمد.

---

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 123.

(2) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 145.

وبالفعل كتبت وصيتي وورقة أخرى أبرأئ فيها الثورة تماماً من دمي، وأعفيها من أية مسؤولية خاصة بمصيري، كما كتبت رسائلي لأسرتي، وفي الصباح يوم 29 مايو 1960م أخذني خليفة العروسي إلى السفارة السعودية في طرابلس.

وهناك كان في انتظارنا الوزير المفوض بكري عبد الكبير، وتسلم مني ما أحمله من وصايا وبراءة ورسائل لأسرتي، فوضعها في مظروف كبير وأودعها في الخزانة الحديدية.

وكنت قد حررت ايضاً عدة رسائل أخرى لأفراد أسرتي وأودعتها بدورها في مظروف مغلق، وسلمتها لصديقي عبد الرحمن شرف الدين..

واتفقنا على أن نتقابل أنا وخليفة العروسي في فندق «كونتس هوف» بمدينة ميونيخ الألمانية[1]..

والتقيا هناك وقال: وبدأنا على الفور العمل وناقشنا المطلوب، وتوالت الاجتماعات حول التفاصيل، وكانت عصابة اليد الحمراء في أقصى حالات نشاطها في محاولة مسعورة لقطع طرق الإمداد والتسليح على الثورة الجزائرية، وقد ارتكبت عدة جرائم اغتيالات..

ولم يكن «ويلي» بعيداً عن مراقبتها، وكان هو بنفسه يعرف ذلك، ويتخذ احتياطات كثيرة للخداع. وبعد مفاوضات ومباحثات. بدأت الأمور تستقر على حال، فقد حددا الكميات والنوعيات والأسعار وجاء دوري هنا، فباختصار، فإن «ويلي» كسمسار سلاح لم يرد التعامل مع الثوار مباشرة، فهم في رأيه بعيدون عن الاستقرار في مكان، وحياتهم عرضة للمخاطر، كما أن مراكزهم تتغير، وبالتالي فإن مسؤولياتهم متغيرة، وهو يريد مسؤولاً يسدد له مستحقاته في مواعيدها وتفاصيلها، وفي المقابل فإن الثوار لا يثقون في تجار السوق السوداء وفي سلعة خطيرة كالأسلحة بصفة أخص، حيث يكثر النصب فضلاً عن التلاعب والخديعة وغيرها مما يزال وسيظل بحكم هذه التجارة.

وقد اتفق الطرفان «الثوار والتاجر» على البحث عن حل لهذه الثقة المفقودة بين الطرفين، واقترح التاجر اسمي بحكم المعرفة السابقة منذ أيام مكتب المغرب العربي، وبدأ «ويلي» عمله على الطبيعة، فأخذ يلف على المخازن والمخابأئ طلباً للأسلحة، وودعني خليفة على موعد أن يعود بعد ثلاثة أيام أو يومين ومعه ثمن ما اتفقنا عليه، واتفقنا أن نلتقي في فندق اخر حدده «ويلي».

وبعد يومين فقط عاد خليفة العروسي من دمشق.. وسلمني ثلاثة صكوك باسمي وبها مبالغ ضخمة:

. الأول تحت رقم 316/ 87804 بقيمة مليون و189 ألف دولار، وهو محول على مصرف «تشيس مانهاتن بنيويورك».

. الثاني بقيمة 712 ألف و50 مارك ألماني، وهو تحت رقم 326/ 187805 ومحول على مصرف «دوت شبانك دوسلدروف».

---

(1) قصتي مع الثورة الجزائرية ص 480.

. والثالث بقيمة 822 ألف و200 مارك ألماني غربي، وهو تحت رقم 327/ 187806 ومحول على المصرف السابق نفسه.

والصكوك الثلاثة صادرة باسمي، وقد سلمت خليفة إيصالاً واحداً بالصكوك الثلاثة، وذكرت في الإيصال أنه في حالة موتي أو فقداني للوعي فإنه على ورثتي أن يعيدوا قيمة الصكوك حالاً إلى جبهة التحرير الوطني الجزائري، كما حررت رسالة للمصرف بنفس المعنى وظللنا نلتقي ثم نفترق، وتطول الاماد بين اللقاءات وصديقي «ويلي» مشغول تماماً بتجهيز الصفقة.

وحان وقت التسليم، وبدأت اللقاءات تكتسب سمة النهاية عندما فوجئنا بأن «ويلي» بعد إحدى هذه اللقاءات يحاول إدارة محرك سيارته، فإذا بإنفجار ضخم يطيح بكل شيء في السيارة ويحولها إلى شظايا، وخاصة ذلك المقعد المجاور له، والذي طالما جلست عليه غادياً ورائحاً حتى قبل لحظات الانفجار، ولكن قلَّ صدق الله{لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا} [سورة التوبة:51]

لقد نجوت، ولكن صديقي المسكين بتر الانفجار ساقه وأصابت الشظايا وجهه، وتسببت في إصابته بضعف شديد في الإبصار[1].

وقد دفن السيد الهادي إبراهيم المشيرقي بالجزائر مع الشهداء الذين أحبهم وأوصى أن يدفن بجوارهم، وكانت وفاته في مساء يوم الاثنين الثالث من شهر شوال من عام 1428هـ الموافق 15 أكتوبر سنة 2007م، واستقبل جثمانه في مطار هواري بومدين من طرف شخصيات جزائرية وطنية وسياسية وعلمية، ثم نقل في موكب مهيب إلى مقبرة العالية، وصلى عليه صلاة الجنازة الشيخ محمد الطاهر ايت علجت، ثم أبّنه الأمين العام للمنظمة الوطنية للمجاهدين بكلمة جاء فيها:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

الله أكبر الله أكبر الله أكبر

{مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣} [سورة الأحزاب:23] .

ها أنت أيها المجاهد الكبير والمناضل الوفي الأخ الكريم الهادي إبراهيم المشيرقي، نزيل أديم أرض الجزائر الطاهرة التي حلمت بأن يضم ثراها جثمانك، وكانت تلك خير شهادة على حبك لهذا الوطن إلى أن قال: .. وإنه لمن شرف الاعتزاز أن يحتضن تراب الجزائر المجاهدة جثمانك الطاهر إلى جانب رائد المجاهدين الأمير عبد القادر، ورمز الشهداء محمد العربي بن مهيدي، والمناضلين الكبيرين الرئيسين محمد بوضياف وهواري بومدين، فنم قرير العين صحبة هؤلاء الأفذاذ الذين ستبقى أسماؤهم حية في ضمير شعبهم وفي وجدان أمتهم العربية والإسلامية.

---

(1) جهاد الجزائر ص 315.

فالله نسأل أن يتغمدك برحمته الواسعة، وأن يرزقنا جميل الصبر في فقدانك أيها المجتهد والمناضل الذي عرف كيف يضع نفسه وإمكانياته في خدمة القضايا الكبرى والمصيرية للأمة.

{يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ7ٱرْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ٢٨فَٱدْخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩وَٱدْخُلِي جَنَّتِي ٣٠}
[سورة الفجر:30] .

إنا لله وإنا إليه راجعون[1]

إن المملكة الليبية بحكوماتها وشعبها ساعدت ثوار الجزائر في معركتهم المقدسة ضد فرنسا، وقاموا بمد الثورة بالسلاح والذخائر والأموال والمساعدات، إن جميع الساسة والقادة العسكريين زمن المملكة الليبية والذين كانت لهم علاقة مباشرة بمدّ الثورة في الجزائر يشهدون أن الملك كان مسانداً لحركة الثورة وحريصاً على نجاحها، ولم يقصر معها لا مادياً ولا معنوياً. وتميز الموقف الليبي تجاه الثورة الجزائرية بالوحدة بين الشعب والحكومات والملك خلال كل مراحل حرب التحرير. وكل تأييد الملك والحكومة والشعب مطلقاً للشعب الجزائري في ثورته.

* * *

(1) المناضل الليبي الهادي المشيرقي ص 211.

ثانياً: المغرب:

أثر اندلاع الثورة الجزائرية في عمق المجتمع المغربي، الذي راح حكومة وشعباً يتضامن معها ومع الشعب الجزائري، وقد تجلى ذلك في مطالبة ممثل المغرب الأقصى لدى هيئة الأمم المتحدة عام 1955م السيد أحمد بلا فريج بوضع حد وبسرعة للمجازر المرتكبة في حق الشعب الجزائري، والكف فوراً عن إراقة دماء هذا الشعب الذي حرمته فرنسا من أبسط حقوقه، كما أكد موقف المغرب الأقصى حكومة وشعباً الرافض للطرح الاستعماري القائل إن الجزائر جزء لا يتجزأ من التراب الفرنسي، معتبراً ذلك ضرباً من الخيال لا يسعها إلا أن تنهار أمام حقيقة القضية الجزائرية وثورة الشعب الجزائري(1)

إن ضغط الثورة المستمر على السلطة الاستعمارية الفرنسية ما بين 1954م و1956م، وضغط الحركة الوطنية المغربية وضربات المقاومة المغربية الباسلة؛ دفع إدارة الاحتلال الفرنسي أن تسارع إلى الاعتراف باستقلال المغرب الأقصى الشقيق، لكي تتفرغ كلية للثورة في الجزائر وذلك عام 1956م، لكن استقلال المغرب الأقصى الشقيق كان وراء بعث سياسة فرنسية جديدة تجاه هذا البلد العربي، الذي وجد نفسه مرغماً على أمرين اثنين: إما الدخول في نطاق التعاون مع فرنسا والالتزام به، وإما مساندة ودعم الثورة الجزائرية وقضيتها العادلة والتضامن معها طبقاً لما نصت عليه مواثيق الحركات الوطنية في المغرب العربي ومطالب شعوب المنطقة. وكان الأمر الثاني هو الذي اختاره الشعب المغربي بزعامة الملك الراحل محمد الخامس(2).

واستبشرت جبهة التحرير الوطني الجزائرية خيراً في استقلال المغرب الأقصى، من خلال فتح جبهة ثانية لدعم الثورة التحريرية، هذا إلى جانب كسب حليف طبيعي له حق الدفاع عن القضية الجزائرية ودعم ثورة الشعب الجزائري مادياً ومعنوياً. وفعلاً كانت البداية في الدعوة التي وجهها العاهل المغربي الملك محمد الخامس إلى الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة وزعماء الثورة الجزائرية في الخارج لعقد ندوة سلام بالمغرب الأقصى، حيث أبدت فرنسا الاستعمارية رغبة شديدة في حضورها، وهدفها من ذلك هو الوقوف بقوة ضد القضية الجزائرية حتى لا تتمكن من كسب الصف المغربي وانطلاقاً من هذا الموقف الرسمي المغربي لإيجاد حل للقضية الجزائرية، بادرت الصحف المغربية إلى التعبير عن موقفها المؤيد لقضية الشعب الجزائري وثورته المجيدة، حيث أكدت على ضرورة دعمه حتى يحقق استقلاله الكامل واللامشروط انطلاقاً من توصيات ومبادأئ هيئة الأمم المتحدة. كما بادر الطلبة المغاربة إلى احتضان الثورة الجزائرية من خلال تقديم الدعم الضروري لها لرفع الغبن الذي يعاني منه الشعب الجزائري، وتجلى موقفهم البطولي في دعوة اتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين لحضور المؤتمر الطلابي المنعقد بالمغرب الأقصى، والذي ضم إلى جانب الطلبة الجزائريين كلا من الاتحاد الوطني لطلبة المغرب الداعي لانعقاد المؤتمر، والاتحاد العام للطلبة التونسيين، وقد وجه المؤتمرون مطالب أساسية لكل من الحكومتين

(1) مجلة دعوة الحق، الأوقاف المغربية العدد 403 سنة 2012م ص 69.

(2) المصدر نفسه.

المغربية والتونسية تدعو إلى دعم الثورة الجزائرية، ومطالبتهما ببذل الجهود لإيجاد مخرج مشترك لأزمة المغرب العربي، في إطار مواجهة فرنسا لكونها العدو المشترك لسكان المغرب العربي[1].

1 . مواقف من الملك محمد الخامس:

في تاريخ 15 سبتمبر 1956م، ألقى العاهل المغربي محمد الخامس خطاباً بمدينة وجدة الحدودية، تناول فيه معاناة شعوب المغرب العربي من السياسة الاستعمارية المطبقة من حكام فرنسا المتعاقبين، مركّزاً في ذات الخطاب على معاناة الشعب الجزائري، وأكد من جهته كذلك على ضرورة إيجاد حل سلمي وعادل للقضية الجزائرية، وأن مستقبل الجزائر يدخل ضمن إطار وحدة المغرب العربي، ومما جاء في هذا الخطاب: إننا نود أن يوضع حد لحرب الجزائر بسرعة حتى نحافظ على علاقات الصداقة بين أقطار شمال إفريقيا وفرنسا[2].

لقد كان دعم المغرب الأقصى للثورة الجزائرية وقضيتها العادلة بزعامة الملك محمد الخامس صفعة قوية بالنسبة لفرنسا، خاصة وأنها كانت تتوقع وقوف المغرب الأقصى إلى جانبها في مطلبها الرامي إلى كون الجزائر جزءاً لا يتجزء من ترابها، لذا كان ردها سريعاً، فبعد شهر واحد من خطاب العاهل المغربي، قامت باختطاف الطائرة التي كانت تقل قادة الثورة الجزائرية من جبهة التحرير الوطني الذين نزلوا ضيوفاً على الملك محمد الخامس، وكان الجميع في طريقهم إلى تونس لعقد ندوة خاصة بالسلام في المنطقة[3].

أ . الموقف من القرصنة الفرنسية:

في 23 أكتوبر 1956م أي بعد يوم واحد من وقوع القرصنة الجوية، أعلنت السلطات الاستعمارية الفرنسية عن تجميد كل مفاوضاتها الجارية مع الحكومة المغربية، معتبرة التصريحات الرسمية المغربية تجاه الثورة الجزائرية دعماً معنوياً للقضية الجزائرية، وهي في نظرها مساس بسيادتها على اعتبار الجزائر جزءاً من ترابها.

لقد كان موقف المغرب الأقصى من العملية التي تعرض لها بعض قادة الثورة في الخارج أنها مساس بسيادتها وكرامة شعبها، لذا راحت تستنكر بشدة هذه العملية، واستدعت على الفور سفيرها بالعاصمة الفرنسية باريس، وطالبت بشدة بإعادة المختطفين إليها دون قيد أو شرط مسبق، وهددت رسمياً برفع القضية إلى محكمة العدل الدولية بلاهاي، في حالة عدم إذعان فرنسا لذلك، على خلفية أن الطائرة المختطفة من طرف الحكومة الفرنسية هي طائرة مدنية مغربية.

وهكذا توالت الاحتجاجات المغربية ضد العملية التي اعتبرها العاهل المغربي محمد الخامس كارثة مصرحاً في صحيفة فرانس تيرور، بأن عملية القرصنة هذه هي طعنة أكثر خطورة بالنسبة لشرفه من حادثة تنحيته عن العرش، على اعتبار أن اختطاف زعماء الثورة الجزائرية وقع في بلاده، كما صرح من جهته أحد مسؤولي جيش التحرير المغربي إثر هذه العملية لجريدة الإكسبريس أيام ندوة تونس حول السلام بما يلي:

---

(1) المصدر نفسه ص 70.

(2) جريدة المجاهد، العدد 27 تاريخ 25 فبراير 1959م.

(3) وهم: أحمد بن بلة، محمد خيضر، بوضياف، حسين ايت أحمد، والصحفي مصطفى الأشرف.

دعونا الجزائريين لندوة تونس التاريخية لنلقنهم دروساً، لكن انقلب الأمر فالجزائريون هم الذين أعطوا دروساً للمغاربة والتونسيين، لقد كنا نقول لهم كيف تتهيؤون لفعل السلم مع فرنسا، والان هم يقولون لنا ماذا يشكل الاستقلال الذي تزعمون أنكم أحرزتم عليه؟ فالعالم أصبح يعرف أنه لا توجد قضية الجزائر أو تونس أو مراكش، بل هناك قضية المغرب العربي، سنكون جميعاً مستقلين أو نكون جميعاً في حرب[1].

لقد فشلت فرنسا في خنق القضية الجزائرية من خلال عرض الصفقات التجارية المربحة، فبعد فشلها الذريع في جلب كل من ليبيا وتونس، جاء دور المغرب الأقصى الذي حاولت إغراء حكومته بالنفط الجزائري عن طريق تجديد العرض، لكن الملك محمد الخامس رفض بشدة هذه الصفقة عام 1957م واعتبرها مساساً بكرامة الشعب الجزائري الشقيق، الذي هو بأمس الحاجة لدعم بلاده المعنوي أكثر من أي وقت مضى من عمر الثورة[2]

ب . مطالبة أحرار العالم لدعم القضية الجزائرية:

وبمناسبة الاحتفالات بذكرى العيد العالمي للشغل وهو أول ماي، ألقى الملك محمد الخامس كلمة في هذا المهرجان العالمي في ماي 1957م، تطرق فيها إلى التأييد المغربي المطلق لكفاح الشعب الجزائري ونصرة قضيته العادلة، كما أصدر بهذه المناسبة العمالية الاتحاد العام للعمال الجزائريين نداء إلى كل أحرار العالم طالبهم فيه بدعم قضية الشعب الجزائرية وكفاحه من أجل الاستقلال.

وفي 31 جانفي عام 1957م شن العمال المغاربة عن طريق اتحادهم إضراباً من أجل دعم الثورة الجزائرية، وإشعار السلطات الاستعمارية أن الطبقة العاملة في المغرب الأقصى واعية تمام الوعي بالقضية الجزائرية، التي تعتبر بالنسبة لهم قضيتهم الأولى، وقد استجاب الجميع لهذا الإضراب الذي عمّ مدينة الرباط، كما نظم مهرجاناً نسوياً بمدينة تطوان، تُوّج بإرسال برقية من طرف النساء المغربيات إلى هيئة الأمم المتحدة لإبلاغها بمعاناة الشعب الجزائري من سياسة الظلم والقهر المسلطة عليه من طرف إدارة الاحتلال الفرنسي[3].

لقد تمكنت الثورة الجزائرية من تصدّر القضايا المغربية الهامة، ولقيت الدعم المعنوي الكافي في الداخل والخارج، وهو ما عبر عنه مرة أخرى كذلك العاهل المغربي محمد الخامس بقوله: إننا لا نستطيع الاستمرار في احترازنا الحالي، إن لم يحلّ المشكل الجزائري ويعترف للشعب الجزائري بالحرية والاستقلال.. وكل ما يمس الجزائر يحدث صدى عميقاً بالمغرب بسبب العلاقات الوثيقة. كما صرح في شهر مارس 1958م لرجال الصحافة الدولية، بأن امتداد الحرب إلى كامل الشمال الإفريقي لم يعد عبارة تقال للتخويف، ولكنه أصبح حقيقة مجسدة[4].

ج . مقابلة الملك لممثلي جبهة التحرير:

(1) دعوة الحق، العدد 403 السنة الخامسة والخمسون سنة 2012م الأوقاف المغربية ص 71، 72.

(2) المصدر نفسه ص 72.

(3) المصدر نفسه ص 72.

(4) المصدر نفسه ص 72.

في يوم السادس من شهر فيفري 1957م تقابل الملك محمد الخامس مع وفد من جبهة التحرير الجزائرية في مدريد فحضروا حفل استقبال الملك محمد الخامس، وكان برئاسة أحمد توفيق المدني، وسلموا عليه سلاماً حاراً أسرع من البرق، وفي اليوم الثاني عند الساعة الخامسة كان اللقاء الخاص بين وفد جبهة التحرير والملك ومرافقيه، وكان الصحفيون في الردهة يسجلون ويصورون كل داخل، فذكرت كل الصحف الفرنسية نبأ تلك المقابلة، وقالت صحيفة باريسية مشهورة: إن الملك قد استقبل وفداً من جبهة التحرير الجزائرية «يرأسه توفيق المدني الذي هو من أمهر المناضلين عن القضية الجزائرية».

وبعد حديث ونقاش وحوار قال لهم الملك: إنه مهما كانت الظروف فهو مع الجزائر وشعبها وثورتها يقف وقفة المجاهد لا وقفة المؤيد، وإن سلاح الثورة يتجول في المغرب بكل حرية، وإن المعاملة بين الجزائريين وبين المغاربة تقع باستمرار على بساط المحبة والوئام، وإنه مستعد لإمدادنا إذا لزم الأمر بشيء تكونوا في مسيس الحاجة إليه. وخرجوا من عنده وكأنهم خرجوا من حضرة ولي حميم وأخ كريم(1).

وبعد ذلك سافر أحمد توفيق المدني ومن معه إلى المغرب بعد طلب من عبد الحفيظ بوالصوف، وتردي العلاقة بين ثوار الجزائر بالمغرب وبعض المسؤولين المغاربة، حيث أن المخابرات الفرنسية زرعت مجموعة من الجزائريين لإشاعة الشائعات المغرضة، ويتعمدون إشاعتها في الأوساط التي تمس من قريب حزب الاستقلال والمقاومة والقصر، وكانوا يشيعون أن الجبهة تعمل لفائدة الشيوعية مما عكّر الجو وتلبدت الغيوم.

والتقى أحمد توفيق بالمسؤولين الجزائريين وممثل الجبهة السيد محمد خير الدين، والذي قدم خدمات جليلة للجبهة في المغرب وجهوداً خارقة للعادة في ذلك السبيل، ويشهد الجميع أنه لولا حنكته ولولا سلوكه السياسي الحكيم، لخرجت القضية عن نطاقها السياسي ولاتسعت شقة الخلاف على كل الراقعين.

وتم اللقاء بين أحمد توفيق والإخوة المغاربة عند الشهيد المهدي بن بركة، وكان يومئذ روح حزب الاستقلال وكان قوته المحركة، وحضر الاجتماع سادة أبرار أحرار مثل الفقيه غازي، رجل الدين القوي ورجل السياسة المتين، وعمر ابن عبد الجليل المقاوم وبقية من رجال الاستقلال ورجال المقاومة.

وبعد تناول الطعام افتتح الحديث والجماعة تنصت، كأن كل طيور الدنيا حطت فوق رأسها، فذكر الكدر الذي يسود العلاقات بين إخوة كان عليهم أن يتضامنوا في الكفاح وأن يشتركوا في الجهاد، وذكر أحمد توفيق المدني: بعض أمثلة على ذلك، ورجا أن لا يخرجوا من اجتماعهم إلا متضامنين عاملين اليد في اليد من أجل خير الجزائر واستقلالها ووحدة المغرب العربي.

قال المهدي بن بركة متكلماً باسم الجماعة: يا أخ توفيق إن علاقتنا بك قديمة ترجع إلى عهد الكفاح الأول، ولا تنسى ولا ينسى أحد ما قمت به من واجب النضال عن المغرب واستقلاله وملكه الزعيم، إلى أن زالت الغمة وانفرجت الأزمة، والان نكلمك بما تعرف عنا من صراحة ومن ضرب الهدف في الصميم.

---

(1) حياة كفاح (424/3).

يوجد بيننا خلاف فعلاً، حول المقاصد وحول الأهداف، وهذا الخلاف يزداد اتساعاً يوماً بعد يوم، سببه الأساسي أننا نسمع من الكثير من الجزائريين، بل من بعض مسؤوليهم هنا ما يفيدنا أن الجبهة تسير في طريق شيوعي، وتعمل لفائدة الشيوعية، وأن انتصارها هو انتصار للمبادأئ الهدامة التي تقوض ديننا، وتقوض نظامنا، وتقضي على وحدتنا، وقد خاطبنا الشيخ خير الدين في الأمر، فكذبه ونفاه وقال: لو أن الأمر كان كذلك لما انضمت جمعية العلماء للجبهة، ولما كان هو عاملاً على رأس الجماعة بالمغرب، إنما نحن خاطبنا بعض المسؤولين الاخرين، فمنهم من قال لنا: ليس هذا وقت المذاكرة في مثل هذه الأمور، ومنهم من أكد لنا أن الجزائريين سيقولون كلمتهم في النهاية بعد الاستقلال وسيختارون لأنفسهم ما يريدون، وأنت ترى ولا ريب أنه يصعب علينا جداً، بل يكاد يستحيل أن نعمل على مساعدة حركة ليست لها أهداف واضحة.

انفجرتُ انفجاراً ثورياً، وكأنني فنبرة ألهب فتيلها فتكلمت بحماس وإيمان، وكنت أثناء كلامي خطيباً لا متحدثاً، ومما قلت: إنني أقبل كل شيء، وأتكلم عن كل شيء ؛ إلا أننا نتهم في ديننا، وفي أهدافنا المقررة المرسومة، وفي مبادئنا التي أعلناها مراراً على الناس، وما لكم يا إخواني تسمعون كلام زيد من الناس، وعمرو من الناس، وفيكم مثل هذا الزيد ومثل هذا العمرو، ولا ترجعون لقادة ثورتهم كأنهم يسكنون الزهرة أو المريخ ولا ترجعون لتلاوة بياناتها، وتصريحاتها الرسمية؟

أقولها لكم مرة أخيرة وأرجو أن تسمعوا لها جيداً: إن ثورتنا إسلامية مطهرة، وإن شعبنا من أعمق شعوب الأرض إيماناً وإسلاماً، وإن جيش التحرير يعتبر نفسه مجاهداً في سبيل الله، من مات منه شهيداً فقد وصل إلى الله جل شأنه من أقرب طريق، لسنا شيوعيين ولا نكون شيوعيين، ولن تتغلغل الشيوعية بين صفوفنا كيفما كان الحال، ومهما تطور الأمر، ثم وأنتم الطبقة المفكرة الواعية في البلاد وعندكم حزب شيوعي، لا يستهان به، ألا تعرفون موقف الحزب الشيوعي منا؟ ألا تعرفون مقاومته لنا؟ ألا تعرفون أن الشيوعيين لم ينضموا إلى الجبهة، ولن ينضموا لها.

وأقول بحضور أخي الدكتور محمد أمين الدباغين، والحاضر معي هنا، إننا لا نعمل إلا في دائرة الإسلام والعروبة، ووحدة المغرب العربي، وفي سبيل حرية الأمم واستقلالها قاطبة، وأؤكد لكم رسمياً وعلناً وسجلوا على قولي هذا، وسجلوه على أخي المرافق لي: إن الجزائر في جهادها، وفي استقلالها، لن تتخلى إطلاقاً أبداً عن إسلامها وعروبتها ووحدتها، وإن الله سينصرها النصر الذي وعد به المجاهدين الصابرين، وطوبى لمن كان معها ساعة الشدة، وويل لمن وقف في سبيلها أو اعترض طريقها. يا دكتور أمين الدباغين: أتصادق على ما قلتُ؟ قال: والله ما قلتَ إلا حقاً، هذا هو مبدأنا الذي عليه نحيا وعليه نموت.

تكلم الفقيه الغازي بعد حديثي الطويل وقال: والله لقد كانت فرصة حسنة لنسمعك مرة أخرى بعد خطابك يوم فدالة بالرباط، وأنا أقول أنني امنت واقتنعت وزال عني كل ريب.

وتكلم ابن عبد الجليل المفضل بمثل ذلك، وتكلم ممثل المقاومة الشعبية وأجاد، وبعد أن تداول القوم الحديث ونحن نسمع، قال المرحوم ابن بركة متأثراً: أؤكد لكما أنه لم يبق لنا أي خلاف معكم حول المبادئ والأهداف، وإننا سنخبر كل رفقائنا بهذا والحمد لله، وخرجنا وكانت الساعة السادسة مساء[1].

. مقابلة الملك ودعم سخي لشراء السلاح:

قال أحمد توفيق المدني: في نفس ذلك اليوم جاءنا رسول من القصر يقول: إن جلالة الملك يرجو مقابلتكم اليوم في منتصف الليل بالقصر.

وبعد أن اجتمعنا ببقية أصحابنا محمد خير الدين والمبروك ومن معهما، قال لي المبروك وخير الدين: توجد في مرفأ طنجة سفينة تحمل سلاحاً جيداً وذخيرة حية وهي مهربة يريد صاحبها بيعها، وليس لنا من النقود ما يكفي لابتياعها، وإن تركناها نكن قد خسرنا كثيراً، فاغتنم فرصة مقابلتك لجلالة الملك وأخبره بالأمر واطلب مساعدته، فلعل الله يمهد الأسباب.

وبعد اللقاء بالملك: تكلم الملك بصوت خافت، مرحباً بنا ترحيباً أخوياً صادقاً، وقال: لقد أطلعني الإخوان الذين اجتمعتم بهم على كلامكم معهم، وأعلموني أنهم امنوا به واقتنعوا، فبارك الله فيكم، وأؤكد لكما ما كنت قلته لك بمدريد، من أن المغرب كله لا فرق بين حاكم ومحكوم، مشارك لكم في جهادكم إلى نهايته المشرفة، وإن كانت بعض الشكوك سببها تصريحات وأعمال طائشة، ساورت أنفس بعض رجالنا قد قشعتم سحبها بارك الله فيكما.

قال أحمد توفيق المدني: يا جلالة الملك!. إننا لم نشك إطلاقاً في عونكم وفي شدّكم لأزرنا، وما كنا نتوقع أن يشك بعض الإخوان من ذوي المكانة عندكم في أهدافنا وفي حقيقة اتجاهنا، والحمد لله أن زال كل ذلك، وقد جاء في القران بمناسبة حديث الإفك قوله تعالى: {لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ} [سورة النور:11]، قال: هو خير إن شاء الله.

حدثته عن السفينة الراسية بطنجة، وما فيها من خير كثير، وحاجتنا الأكيدة إليها ثم أردفت: من دلائل الخير أن نجتمع بجلالتكم الان لنسألكم مد يد المساعدة القوية لإخواننا العاملين مع «المبروك» حتى يتسنى لهم إتمام الصفقة، وماتنفقوا من خير تجدوه عند الله هو خيراً.

قال الملك في شبه ابتسامة: لا أرد لك رجاء. ليتصل بي الأخ المبروك بوسيلته المعروفة وأنا أكمل له الثمن المطلوب، اشتراكاً مني خاصاً في الجهاد، وقد برّ بوعده قدس الله روحه، وكان اشتراكاً ضخماً شكرناه وخرجنا من عنده[2].

---

(1) حياة كفاح (426/3، 427).

(2) حياة كفاح (429/3).

2 . الحكومة المغربية تفتح حدودها للمجاهدين:

فتحت الحكومة المغربية بتوجيه الملك محمد الخامس حدودها للمجاهدين الجزائريين، وجعلت من أراضيها ميداناً لتدريبهم، وبعض مدنها قواعد خلفية للثورة. وهذا الدعم الكبير زاد من قوة الثورة، بل شتت خطط العدو الفرنسي الذي أصبح لا يقوى على رد هجمات المجاهدين.

ونشطت قيادة الثورة في وضع الخطط وتكوين شبكات تتولى مهمة الحصول على السلاح من أوروبا وتوصيله إلى المنطقة الغربية من البلاد عبر المغرب الأقصى، وقد أنشأت لهذا الغرض إدارة الاتصالات الخاصة بالمعلومات، ومن الطرق والوسائل الناجعة في تهريب الأسلحة عبر التراب المغربي: استعمال صناديق الخضر والفواكه، فبعد تفريغها كانت تملأ بالذخيرة الحربية، وكذلك الأواني الفخارية التي تحضر في مدينة فاس وتملأ بالذخيرة ومنها تدخل التراب الجزائري، هذا إلى جانب خزانات وقود السيارات التي كانت تشحن هي الأخرى بالأسلحة وتمر عبر الحدود الغربية إلى الجزائر، ويعود مصدر شراء هذه الأسلحة والذخيرة الحربية بالدرجة الأولى إلى مساهمة الجزائريين في الاشتراك داخل وخارج الوطن إبان الثورة التحريرية، هذا إلى جانب الأسلحة التي كان يستولي عليها المجاهدون الجزائريون من جنود الاستعمار(1)، إلى جانب دعم الحكومات والشعوب الشقيقة والصديقة للجزائر.

وخلال المراحل التي مرت بها الثورة التحريرية بالنسبة للمغرب الأقصى، فقد وضع حوالي خمسمائة «500» متطوع مغربي من مدينة مراكش تحت تصرف جيش التحرير الوطني بأمر من العاهل المغربي محمد الخامس، الذي أصدر أمراً بالسماح بمرور المعدات العسكرية وحتى المتطوعين الأجانب إلى الجزائر عبر الحدود المغربية الجزائرية، هذا إلى جانب سماح الحكومة المغربية للشعب بالتظاهر لفائدة القضية الجزائرية ودعم الشعب الجزائري.

كما أن كل العمليات الفدائية التي كان يقوم بها المجاهدون في الناحية الغربية مصدر تموينها ات من الحدود المغربية الجزائرية، خاصة العمليات التي شهدتها مرحلة 1958م. 1962م بالولاية الخامسة(2)، كما فتح جيش التحرير المغربي أبوابه لتدريب المجاهدين بمنطقة الريف ليعودوا بعد ذلك إلى الجزائر، يحمل كل مجاهد معه قطعتين حربيتين بذخيرتهما.

بالإضافة إلى ذلك شكلت الأراضي المغربية ملجأ امناً للمصابين من رجال الثورة يتلقون فيها علاجهم ليعودوا بعد ذلك إلى أرض المعركة، كما كانت ملاذاً للمطاردين من المناضلين في جهات أخرى، خاصة بعد اشتداد الخناق على الولايات الأخرى.

وأمام هذا الدعم للثورة والتسهيلات المقدمة لرجالها ؛ قامت السلطات الفرنسية بتقديم احتجاجات رسمية إلى مجلس الأمن تشكو فيه المغرب على موقفها هذا، كما قامت بزرع الألغام وإقامة الخطوط الشائكة المكهربة

(1) دعوة الحق العدد 43 ص 77.

(2) دعوة الحق العدد 43 ص 77.

على طول الشريط الحدودي بين الجزائر والمغرب، إضافة إلى تكثيف دوريات الحراسة ليلاً ونهاراً، إلا أن ذلك لم يمنع المجاهدين من الاستمرار في عملياتهم انطلاقاً من الأراضي المغربية التي اتخذوها قاعدة خلفية[1].
لقد أدى المغرب الأقصى ملكاً وشعباً واجبه لنصرة قضية الشعب الجزائري والوقوف معه في محنته ودعمه مادياً ومعنوياً حسب ما تقتضيه الظروف الداخلية والخارجية وواجب الأخ تجاه أخيه[2].

3 . مؤتمر طنجة:

دعا الأستاذ علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المغربي إلى عقد مؤتمر يضم . إلى جانب حزبه .كلاً من الحزب الحر الدستوري التونسي، وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، قصد دراسة الأوضاع المستجدة على الساحة المغربية، والعمل على توحيد المواقف المغربية ضد الاستعمار الفرنسي، وانطلاقاً من القناعة المغربية المؤيدة لفكرة ضرورة دعم القضية الجزائرية وإيجاد حل عادل لها.

تجسدت فكرة عقد مؤتمر طنجة في 27 أفريل 1958م، الذي اكتسب أهمية كبيرة بالنسبة للمغرب العربي، من خلال التركيز على دعم القضية الجزائرية وإبراز مكانتها العربية والدولية. وعلى هذا الأساس حضرت كل من تونس التي مثّلها حزب الدستور التونسي وضم وفدها السادة: الباهي لدغم، والطيب مهيري، وعبد الله فرحات، وأحمد التليلي، وعلي البلهوان، وعبد المجيد شاكر، وعن المغرب الأقصى كان حزب الاستقلال الداعي للمؤتمر، ومثّله وفد ضم السادة: علال الفاسي، والمهدي بن بركة، وعبد الرحيم بوعبيد، وأحمد بلا فريج، والمحجوب بن الصديق، والفقيه البصري، وأبو بكر القادري، وأما جبهة التحرير الوطني الجزائرية فقد شاركت بوفد مكون من السادة: عبد الحميد بوصوف، وعبد الحميد مهري، وفرحات عباس، وأحمد فرنسيس، وأحمد بومنجل، ومولود قايد، وكان هدف مشاركة جبهة التحرير الوطني الجزائرية في المؤتمر:

. تمتين التضامن بين شعوب المغرب العربي الثلاثة.

. طرح التواجد العسكري في القطرين الشقيقين التونسي والمغربي الذي يهدد الثورة الجزائرية.

. تهيئة الرأي العام العالمي لدعم الثورة من خلال كشف الدعم العسكري الذي تتلقاه فرنسا من الحلف الأطلسي.

. المؤتمر هو الفاصل بين المرحلة التي كان الاستعمار يواجه فيها كل قطر مغربي على حدة، والمرحلة التي سيواجه فيها مغرباً عربياً موحداً.

. إن وحدة المغرب العربي ضرورة ملحة للقضاء على الاستعمار في الجزائر ومخلفاته الخطيرة في كل من تونس والمغرب الأقصى[3].

---

(1) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ص 371.

(2) دعوة الحق عدد 403 ص 79.

(3) مؤتمر طنجة، معمر العايب، رسالة ماجستير ص 77 إلى 81.

لقد كانت افتتاحية جلسات المؤتمر علنية بقصر المارشال بمدينة طنجة على الساعة الخامسة والنصف مساءً، تحت رئاسة زعيم حزب الاستقلال المغربي السيد علال الفاسي، حيث أعطيت كلمات الافتتاح لممثلي الوفود، فألقيت كلمة الوفد المغربي من طرف السيد أحمد بلا فريج، ثم تلتها كلمة ممثل الوفد الجزائري السيد عبد الحميد مهري، وأخيراً كلمة الوفد التونسي التي ألقاها السيد الباهي لدغم[1].

وبعد ثلاثة أيام من الحوار والمناقشة خرج المؤتمرون في اليوم الرابع بالتوصيات التالية:

. دعم حرب التحرير الجزائرية ومتابعة تطوراتها وانعكاساتها القريبة والبعيدة على المغرب العربي وإفريقيا والعالم.

. تصفية التواجد الاستعماري الفرنسي في منطقة المغرب العربي بما في ذلك موريتانيا.

. تشكيل أمانة دائمة للمؤتمر تتكون من ستة أعضاء، مهمتها تنفيذ قرارات المؤتمر.

. قرار توحيد منطقة المغرب من خلال اتحاد فدرالي[2].

شكّل انعقاد ونتائج مؤتمر طنجة عاملاً إيجابياً لجبهة التحرير الوطني، ورأت هذا الحدث بأنه تعبير عن إرادة 25 مليوناً من المغرب العربي بجانب كفاح الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي[3].

4 . استقبال الحكومة المؤقتة:

ورغم الدعم المعنوي الذي لاقته القضية الجزائرية من طرف الحكومة المغربية، إلا أن هناك خلافاً ظهر بين جبهة التحرير الجزائرية والحكومة المغربية حول قضية الحكومة الجزائرية المؤقتة، حيث تمسكت الحكومة المغربية مثل تونس بفكرة أن يتم الإعلان عن ميلاد الحكومة المؤقتة، بموافقتها المسبقة، وحق مساهمتها في إبداء الرأي حول تشكيلة الحكومة الجزائرية، لكن جبهة التحرير الوطني عارضت ذلك، ورأت أن المغرب الأقصى مثل تونس لها حق الاستشارة والاطلاع فقط، وأن تأسيس الحكومة المؤقتة الجزائرية من صلاحيات لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية وحدها، وهذا بناء على ما أقرته وقررته هيئات الثورة الجزائرية[4].

انطلاقاً من اعتبار الإعلان عن قيام الحكومة الجزائرية قضية جزائرية داخلية، وبناء على توصيات مؤتمر طنجة 1958م ؛ أعلمت لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية الحكومة المغربية بخبر الإعلان عن قيام الحكومة المؤقتة، وبناء على أهمية المغرب الأقصى من الناحية الغربية للجزائر، فقد أعلن عن نبأ تأسيس هذه الحكومة في كل من القاهرة والرباط هذا إلى جانب تونس، على الساعة الواحدة بعد الظهر بتوقيت الجزائر، ليأتي الاعتراف الرسمي للمغرب الأقصى بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية.

لكن هذه الخلافات لم تؤثر على مسار العلاقات المغربية الجزائرية، وبقي التواصل الأخوي بين الشعبين واستمر الدعم المعنوي المغربي للقضية الجزائرية، وقد برهن زعماء الثورة الجزائرية في مرات عديدة عن العلاقة الحميمية

---

(1) دعوة الحق العدد 403 ص 74.

(2) جريد المجاهد، العدد 23 تاريخ 7 ماي 1958م ص 11.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية، د . اسماعيل دبش ص 107.

(4) مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني، محمد لحسن لزغيدي، المؤسسة الوطنية للكتاب 1989.

التي تربطهم بالمغرب الأقصى، وقد جسدوا هذا الشعور في تلبيتهم لطلب الحكومة المغربية بإطلاق سراح الفرنسيين الذين تم إلقاء القبض عليهم من طرف الثورة في ترابها، وهو ما قام به الهلال الأحمر الجزائري في شهر فبراير عام 1959م.

وبحلول شهر مارس من عام 1960م استقبل العاهل المغربي الملك محمد الخامس في مراكش وفداً حكومياً جزائرياً، عرض عليه المضايقات التي يتلقاها الجزائريون من طرف القنصليتين الفرنسيتين المتواجدتين في كل من وجدة وبوعرفة، وقد استجاب الملك محمد الخامس لطلب الوفد الجزائري وأمر بغلق القنصليتين مباشرة، وهذا ما دفع برئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة السيد فرحات عباس إلى القيام بزيارة عمل إلى المغرب الأقصى، حيث صرح على ضوء ذلك بما يلي: إن الجزائر هي المغرب، وإن تضامننا أبدي، وإن الصحراء هي مسألة تهم الجزائر والمغرب فقط، ولا تهم من بعيد أوقريب الاستعمار الفرنسي[1].

وقد استمرت العلاقات الأخوية بين الحكومتين مرة أخرى في التزايد من خلال الزيارة التي قام بها السيد بن يوسف بن خدة رئيس الحكومة المؤقتة الثالثة إلى المغرب الأقصى، والتي دامت من 4 جانفي إلى 1 فبراير من عام 1962م، والتي نتج عنها التصريح المهم الذي تناول النقاط الأساسية التالية:

. تم إطلاع الحكومة المغربية على جميع جوانب الثورة.

. إطلاع المغرب الأقصى على المشاكل المرتبطة بتفاوض محتمل بين السلطات الاستعمارية الفرنسية والجزائر.

. تأكيد المغرب الأقصى على التضامن وإعانة الشعب الجزائري في كفاحه من أجل استقلاله ووحدته الوطنية وحرمة ترابه.

. اعتراف الشعب الجزائري بالجميل وبتأييد المغرب الأقصى وملكه لقضية تحرير الجزائر.

. تقدير الجزائر للجهود المبذولة من طرف المغرب الأقصى بقيادة الملك محمد الخامس لتحرير الزعماء الجزائريين المختطفين المسجونين في فرنسا وإشراكهم في الحوار[2].

لقد قامت المغرب ملكاً وشعباً بالمساندة المطلوبة والمناصرة الرائعة لقضية الشعب الجزائري والوقوف معه في محنه، ودعمه مادياً ومعنوياً حتى تحقق نصر الجزائر والعرب والمسلمين والأحرار في العالم، وإعلان الاستقلال والتحرر من الاستعمار البغيض.

* * *

---

(1) دعوة الحق ص 76.

(2) المصدر نفسه ص 76.

ثالثاً: تونس:

يقول المجاهد الرائد عثمان سعدي في مذكراته: وبإمكاننا القول إن عدداً لا بأس به من الثوار التونسيين التحقوا بصفوف جيش التحرير الوطني إلى جانب إخوانهم المجاهدين الجزائريين، مما يدل على أن كفاح الشعبين التونسي والجزائري كان كفاحاً واحداً، وفي خضم المعركة استشهد عدد من المجاهدين التونسيين في الجزائر، ومن بقي على قيد الحياة استمر في الكفاح إلى جانبنا إلى أن طلبت منهم الحكومة التونسية العودة إلى بلادهم، وفي هذه المرحلة لم تكن تونس قد حصلت على استقلالها، فالجيش الفرنسي ظل متواجداً على أراضيها[1].

كان الشعب التونسي مسانداً مادياً ومعنوياً وعسكرياً لثوار الجزائر، وكانت تونس البوابة الشرقية للثورة الجزائرية في دخول الأسلحة والمؤونة الحربية إليها، وكانت تونس من أهم معابر المجاهدين ونقل الأسلحة القادمة من ليبيا ومصر.

1 . اتفاق بين الطرفين:

تم عقد العديد من اللقاءات الثنائية بين الطرفين الجزائري والتونسي حول موضوع دعم الثورة التحريرية والبحث عن سبل إنجاح العملية، ومن أهم هذه اللقاءات لقاء القاهرة الذي جمع الأستاذ أحمد توفيق المدني عن الطرف الجزائري والسيد الباهي لدغم عن الطرف التونسي، وقد توج اللقاء باتفاق يتعلق بنقل الأسلحة فقط.

في الوقت نفسه عارض السيد صالح بن يوسف ورجاله سياسة بورقيبة تجاه الثورة الجزائرية معتبرين استقلال تونس ناقصاً ما لم تستقل الجزائر، وهي القضية التي خلقت شقاقاً بين الرجلين في تونس، خاصة وأن صالح بن يوسف رفض التخلي عن مقاومة الاحتلال الفرنسي بالسلاح، بل وضع رجاله تحت تصرف الثورة التحريرية الجزائرية، وقد استاءت الحكومة التونسية برئاسة بورقيبة من تدخلات هذا الأخير خاصة ما يخص نقل الأسلحة من مصر إلى الجزائر مروراً بتونس[2].

كانت نتيجة لقاء القاهرة هي توقيع اتفاق ثنائي جزائري ـ تونسي في 22 جانفي 1957م مثّل الجزائر كل من السادة أحمد توفيق المدني والأمين دباغين، ومثّل تونس كل من السادة الصادق مقدم والطيب سليم، وقد جاء فيه ما يلي:

ـ تتعهد الحكومة التونسية بنقل الأسلحة الجزائرية التي تصلها عبر الحدود من ممثلي جبهة التحرير الوطني، وتتعهد بتسليمها لمن تعيّنه الجبهة لهذه المهمة.

ـ تكون اللجنة التي تشرف على العملية تحت حراسة وضمان هيئة مشتركة مؤلفة من ممثلين عن الديوان السياسي التونسي وممثلين عن جبهة التحرير الوطني الجزائرية.

ـ تتعهد الهيئة المشتركة بأن لن تتسرب إلى البلاد التونسية أية قطعة.

---

(1) جهاد الجزائر ص 307.

(2) مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية ص 147.

. المسائل المتعلقة بتنفيذ هذا الاتفاق بصفة سريعة وعملية تتولاها لجنة مشتركة.
. تبدأ اللجنة أعمالها حال مصادقة الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة على هذا النص النهائي بعد رجوع الوفد التونسي من القاهرة إلى العاصمة التونسية[1].

لقد برز إحساس قوي لدى التونسيين بأن الواجب يدعوهم للمقاومة والكفاح إلى جانب إخوانهم في الجزائر، بعد نية الاستعمار الفرنسي في الانفراد بهم وحدهم، وكان التيار المطالب بالنضال تياراً قوياً يطمح إلى تحقيق الوحدة المغربية، وقد شعرت فرنسا بهذا الخطر فسخرت كل إمكانياتها المالية والإعلامية والعسكرية من أجل القضاء على هذا التيار، والوقوف إلى جانب تيار الحبيب بورقيبة الذي وجد نفسه في حرج شديد أمام دعاة مساندة ودعم الثورة الجزائرية.

لقد كان التيار الوحدوي بين تونس والمغرب والجزائر قوياً، وكان من أكبر دعاته صالح بن يوسف الذي عقد اجتماعاً في بيته لقيادات جيش التحرير المغربي، وللإشارة فإن تكوين جيش تحرير مغربي كان يدعو إليه باستمرار الأمير عبد الكريم الخطابي، وقد أصبحت ضرورة ملحة في ظل المتغيرات التي كانت تمر بها كل من الجزائر وتونس والمغرب الأقصى[2].

وكانت تلك الجهود والمواقف أوراق ضغط حقيقية على نظام بورقيبة الحريص على إرضاء فرنسا، مما جعله يحرص على توثيق العلاقات المتينة مع جبهة التحرير الجزائرية وتقديم المساعدات اللازمة لها، فلم تبخل تونس عن الثورة الجزائرية حيث كانت قاعدة خلفية للثورة وعبر أراضيها كانت تتدفق الأسلحة للجزائر، كما أصبحت أراضيها مراكز لجيش الحدود ومأوى لالاف المشردين من اللاجئين جراء تداعيات السياسة الاستعمارية[3].

وظل السيد صالح بن يوسف يرى أن استقلال تونس يعتبر ناقصاً ما لم تستقل الجزائر، ورفض وضع السلاح، وأمر رجاله بأن يكونوا سنداً للثورة التحريرية، الأمر الذي عرّضه لاستياء الحكومة التونسية وخصوصاً عندما تعلق الأمر بنقل الأسلحة من مصر إلى الجزائر عبر تونس، مما أدى في الأخير إلى عقد اتفاق ثنائي بين الطرفين الجزائري والتونسي[4]، كما مر معنا.

2 . الغضب الفرنسي:

رغم قلة الدعم المادي التونسي للجزائر، إلا أن تونس لم تسلم من غضب السلطات الفرنسية التي اتهمتها بدعمها عسكرياً للثورة الجزائرية، وبررت هزائمها بالإعانة التونسية، خاصة بعد فشل خط موريس المكهرب والجهنمي على الحدود الشرقية بين الجزائر وتونس.

---

(1) المصدر نفسه ص 48.
(2) الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية ص 364.
(3) المصدر نفسه ص 365.
(4) المصدر نفسه ص 365.

وقد حاولت السلطات الاستعمارية خلق قوة عسكرية مشتركة تونسية فرنسية لحراسة الحدود، الهدف منها ليس كبح جماح المجاهدين فقط وإنما تقييد حرية تونس عسكرياً وإخضاعها لإدارتها.
وانتقاماً لهذا الموقف راحت فرنسا تدمر القرى والمداشر وتقوم بأعمال وحشية يندى لها جبين البشرية، من أبرزها أحداث ساقية سيدي يوسف التونسية في 8 فبراير عام 1958م، حيث شنت القوات الفرنسية هجوماً جوياً قوامه ست وعشرون طائرة حربية، حصد أكثر من مائة «100» قتيل من المدنيين العزّل، وجرح أكثر من مائتين اخرين. وبررت قوات الاحتلال اعتداءها هذا بحق متابعة المتمردين عن إرادتها من الجزائريين في التراب التونسي[1].

3 . ردة فعل الحكومة التونسية:

كان رد الفعل التونسي سريعاً وقوياً إزاء هذه المجزرة، حيث رفعت القضية إلى مجلس الأمن بتاريخ 12 فبراير 1958م، ثم فرضت مباشرة حصاراً على قاعدة بنزرت، التي كانت تابعة للقوات الاستعمارية الفرنسية، كما عرقلت كل نشاط للقوات الفرنسية العاملة على أراضيها، وهو ما دفع فرنسا إلى رفع شكوى ضد تونس لمجلس الأمن بتاريخ 15 فبراير 1958م مبررة ذلك بالمساعدات التي تقدمها تونس للثورة الجزائرية، لكن رد الرئيس التونسي بورقيبة كان قوياً حيث صرح بغضب شديد أن هناك عشرات ومئات ساقية سيدي يوسف داخل التراب الجزائري[2].
كما جاء على لسان السيد الباهي لدغم مايلي: إن هذه الحادثة تغذي شعور الأخوة والتضامن والدين واللغة والذي نشعر به إزاء إخواننا الجزائريين.
أما رد جبهة التحرير الوطني، فقد جاء على لسان لجنة التنسيق والتنفيذ حيث جاء في الرسالة التي وجهتها هذه الأخيرة إلى الحكومة التونسية: نجدد لكم باسم الشعب الجزائري المجاهد تضامننا الكامل مع الشعب التونسي ووقوفنا إلى جانب القوات العسكرية التونسية لإنقاذ الاستقلال التونسي[3].
لقد دفعت أحداث ساقية سيدي يوسف . إضافة إلى هذا الموقف البطولي لجبهة التحرير الوطني . بالحكومة التونسية إلى السماح بمرور القوافل المحملة بالسلاح عبر أراضيها، وكذلك تسهيل عملية عبور أفراد جيش التحرير الوطني.
وفي 19 ديسمبر 1960م وقعت الحكومتان التونسية والجزائرية المؤقتة اتفاقية نصت على أن كل سلعة أو تجهيز يخص الحكومة الجزائرية المؤقتة أو جيش التحرير الوطني أو الهلال الأحمر الجزائري معفي من الضرائب والرسوم الجمركية[4].

---

(1) مواقف الدول العربية، د . مريم صغير ص 149.
(2) المصدر نفسه ص 149.
(3) المصدر نفسه ص 150.
(4) المصدر نفسه ص 150.

لا يمكن أن ننفي أبداً مواقف الحكومة التونسية الإيجابية والشجاعة وخاصة السياسية والدبلوماسية تجاه القضية الجزائرية. وقد كان التنسيق بين تونس وبقية الأقطار العربية مكثفاً وجاداً، من أجل تدويل القضية الجزائرية في مواجهة الدعاية الفرنسية بصفة خاصة، والغربية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية بصفة عامة، متضمنة أن ما يحدث بالجزائر هو تمرد جماعة متطرفة خارجة عن القانون، وأن ما يحدث في الجزائر لا يرقى لطرحه على مستوى الجمعية العامة بالأمم المتحدة.

السيد المنجي سليم ـ ممثل تونس في الأمم المتحدة ـ «نوفمبر 1957م»، كان طرحه واضحاً ونقيضاً للطرح الفرنسي حيث أكد: من يصدق فرنسا بأنها تقوم بعملية تهدئة لمتمردين إذا كان عدد أفراد جيشها في أكتوبر، قبل شهر من بداية نوفمبر 1954م حرب الجزائر، لم يتجاوز 50،000 ألف واليوم نوفمبر 1957م عدد القوات الفرنسية وصل 900،000، أي أن فرنسا تخصص رجلاً واحد من قواتها لعشر من السكان الأهالي[1].

ويمكن القول بعد هذا العرض أنه رغم الإمكانات المحدودة لتونس، وانطلاقاً من إيمانها بالمصير المشترك وأخوة الدين والعروبة والتاريخ المشترك ؛ راحت السلطات التونسية تدعم الجزائر جاعلة من أراضيها قاعدة خلفية للثورة الجزائرية، وموقعاً امناً للفارين من الاضطهاد الفرنسي، ومن بنوكها مستودعاً للتبرعات المالية التي كانت تجمع عبر الأراضي التونسية[2].

* * *

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 117.

(2) الإمدادات بالسلاح ص 368.

رابعاً: مصر:

كان للتأييد المصري أهمية كبرى وتأثير إيجابي على مسار الثورة الجزائرية يعترف به كل من درس بعمق تاريخ الثورة الجزائرية.

1 . عبد الناصر قبل اندلاع الثورة:

كانت القاهرة مستقر النخبة الثورية الجزائرية، ومصدر إلهام لكل الشعوب العربية التي تسعى للاستقلال والحرية، وإن كانت مرحلة الملك فاروق بالنسبة للجزائريين تميزت بوضع لبنات قوية في صرح بناء مغرب عربي موحد، انطلاقاً من مساهمتهم في مكتب المغرب العربي إلى لجنة تحرير المغرب العربي ؛ فإن مصر الثورة أكملت مشوار النضال وقدمت كل ما في وسعها لنصرة كل القضايا العربية ومنها قضية الجزائر، التي كانت تصل إلى كل العرب من المحيط إلى الخليج عن طريق إذاعة صوت العرب من القاهرة.

كما أن هذه المرحلة هي الأخرى تميزت بالتنسيق الكبير بين جماعة المنظمة الخاصة « OS » والرئيس المصري جمال عبد الناصر، وهذا ما يعكس روح الثقة التي كان الجزائريون الثوريون يضعونها في إخوانهم المصريين انذاك. فقد أوفدت المنظمة الخاصة مجموعة من مناضليها إلى مصر قوامه أحمد بن بلة ومحمد خيضر ومحمد يزيد وحسين الأحول، وقابلت بواسطة فتحي الديب من إدارة المخابرات العسكرية السيد الرئيس جمال عبد الناصر، فأطلعته على منهاجها الثوري وعزمها على إيقاد نار الثورة . بعد أن اجتمعت أولاً وقبل سفر الوفد بقرية «زدين» . وقررت أنه قد جاءت ساعة القدر وأن الحرب التحريرية قد ان اوانها.

ثم اجتمع «التسعة» مرة أخرى في أوروبا واتخذوا القرار النهائي وأعلنوا تأسيس «اللجنة الثورية للاتحاد والعمل»، وحرروا نداءها وعينوا للثورة يومها وساعتها، وكشفوا كل ذلك للرئيس جمال عبد الناصر. وقد صرح بذلك للسيد أحمد توفيق المدني في حديث شخصي معه خلال شهر أكتوبر من سنة 1956م: أنه درس بغاية الاهتمام ما قاله له الوفد، وأنه طلب من الوفد مهلة تفكير ثلاثة أيام.

قال: وكنت أخذت فكرة سيئة عن الحركة الجزائرية، واستهجنت الطريقة التي زعم مصالي أنه يقود بها الشعب للاستقلال، لقد كان تفكيراً عقيماً وطريقة سخيفة، لكنني بعد اطلاعي على منهاج الوفد، وتأملي العميق في طريقة عمله وتهيئة مراحله ارتحت له، واطمأنت نفسي لنتائجه، وعلمت أنها عملية ناجحة لا محالة، وعاد إليّ الوفد فصارحته برأيي وتداولنا طويلاً، وحددنا إمكانياتنا ووعدتهم أنني أكون معهم إلى النهاية وأمدّهم حالاً بما يمكن من سلاح خفيف، وأن أسعى شخصياً لدى الدول العربية وخاصة السعودية، لكي تمد الحركة بالمال. وهكذا أمرت الأخ فتحي والأخ عزت سليمان بأن يكونا مع الوفد دوماً ممثلين لي شخصياً، وكنت أكتم الأمر على عدد من الوزراء الذين حولي، خوفاً من تسرب السر، وإسراع فرنسا إلى ضرب الحركة قبل بروزها. ثم إن السعودية قررت الاستجابة بدفع مائة ألف جنيه 100 مليون فرنك، فأمرنا بأن ترسلها إلى إسبانيا حيث محمد بوضياف، وأعطيت الأمر للملحقين العسكريين المصريين . أينما كانوا . أن يكونوا في خدمة الحركة

الجزائرية. واستمرت الأعمال إلى يومنا هذا كما قصه عليك الأخ فتحي، وبعثنا بالأسلحة مما عندنا ومما اشتريناه من الخارج إلى رجال الثورة.

هذا ما قاله لي عبد الناصر، بصفة تكاد تكون حرفية[1].

وكان من الضروري على مفجري ثورة نوفمبر توزيع البيان خارج الحدود الجزائرية، وليس هناك ما هو أضمن لهم في نجاح العملية غير أرض مصر. وفعلاً فإنها كانت أقرب لهم من غيرها من الدول الأخرى وذلك لجانبين اثنين:

.كون الشعب المصري الشقيق تعامل منذ البداية مع القضية الجزائرية وتعاطف معها.

. ظهور تيار قومي عربي بزعامة جمال عبد الناصر دعم من قوة الجزائريين وحماسهم في تفجير الثورة وإحساس أشقائهم العرب بها[2].

لم يكن يخفى على السلطات الاستعمارية الفرنسية الخطر الذي تشكله الدولة المصرية حكومة وشعباً في موقفها من القضية الجزائرية وثورة التحرير، خاصة بعد اندلاعها في أول نوفمبر عام 1954م وارتباطها العضوي بالأمة العربية وعلى رأسها مصر انذاك التي تعرضت لانتقادات الفرنسيين، منها تصريح أحد النواب الذي صب جام غضبه على مصر، واعتبرها مصدر الخطر كله بقوله: إن الشر جاء من إذاعة القاهرة[3].

ومع ذلك بقيت مصر على موقفها في تدعيم القضايا العربية، خاصة وأنها كانت تؤمن بفكرة توحيد العمل المسلح بين أقطار المغرب العربي الثلاثة، وهو الأمر الذي جعل بعض قادة الثورة ومن بينهم المجاهد أحمد بن بلة يتحفظون على ذلك، حيث أقنع هذا الأخير السلطات المصرية بصعوبة العمل الجماعي بين أقطار المغرب العربي الثلاثة، وسبب ذلك هو أن هناك فئة تؤمن بالعمل المسلح كوسيلة لتحقيق الاستقلال وفئة رافضة لهذا الطرح.

وانتهى الأمر باتفاق الطرفين الجزائري والمصري على ضرورة تفجير الثورة، بعد أن تعهدت القيادة المصرية بتقديم العون المادي والمعنوي للجزائريين. وإذا كان الرئيس المصري جمال عبد الناصر وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة قد أعطوا الضوء الأخضر لدعم الثورة انطلاقاً من قناعاتهم كعرب ؛ فإن هناك تياراً داخل مجلس قيادة الثورة المصرية كان رافضاً لدعم ومساندة الجزائريين، على اعتبار أن الثورة داخل مصر مازالت فتية وتحتاج إلى نضال طويل تتطلبه أوضاع البلاد الداخلية، وأن أولوية الأولويات هي إصلاح هذه الأوضاع قبل فتح جبهات خارجية بإمكانها إضعاف مصر داخلياً وقد تعود عليها بالسلب.

ومعنى ذلك أن التيار المعارض لدعم الثورة الجزائرية كان يرى أن الثورة الجزائرية في حد ذاتها مجرد مغامرة خاسرة لا أكثر ولا أقل.

---

(1) حياة كفاح (36/3).

(2) مواقف الدول العربية ص 188.

(3) مواقف الدول العربية، د . مريم صغير ص 189.

لكن التيار الناصري داخل مجلس قيادة الثورة المصرية، استطاع إقناع التيار الرافض لدعم الثورة الجزائرية بعدة معطيات موضوعية تضمنت ما يلي:

. اعتبار الثورة الجزائرية ليست قضية الشعب الجزائري وحده بل هي قضية مصر وكل العرب.

. الجزائر كجبهة ثورية تشكل خط دفاع أمامي بالنسبة للثورة المصرية.

. الثورة الجزائرية، سند قوي لمصر والأمة العربية في نضالها للاستعمار بكل أشكاله.

. إن استقلال مصر دون باقي الدول العربية التي مازالت تحت نير الاستعمار لا يضمن للثورة المصرية الاستقرار لا الداخلي ولا الخارجي لتحقيق أهدافها البعيدة والقريبة المدى على حد سواء.

. رفع القيادة المصرية لشعار الوحدة العربية، فهذا الشعار لا يمكن تحقيقه دون استقلال باقي الدول العربية، ومنها بالدرجة الأولى الجزائر، وبالتالي لابد من مساندة الشعب الجزائري والوقوف إلى جانب قضيته العادلة من خلال دعم ثورته.

هذه المعطيات الموضوعية والواقعية في ان واحد ؛ جعلت مصر الثورة تتبنى دعم الثورة الجزائرية سياسياً وعسكرياً، ورجحت كفة عبد الناصر الذي كلف السيد فتحي الذيب وعزت سليمان بأن يكونوا مع الوفد . الجزائري . ممثلين لي شخصياً وكنت أكتم الأمر على عدد من الوزراء الذين حولي خوفاً من تسرب السر وإسراع فرنسا إلى ضرب الحركة قبل بروزها[1].

لم يقتصر دعم مصر للقضية الجزائرية على جانب معين، بل كذلك الجانب السياسي، على اعتبار أن الثورة الجزائرية قضية عربية ولا بد من دعمها، خاصة وأن فرنسا تشن على العرب في جزء من المغرب العربي معركة مزدوجة عسكرياً وسياسياً، عسكرياً لأنها تواصل بحملاتها إبادة المدنيين بالجملة في كل منطقة من مناطق الجزائر، وسياسياً لأنها تجعل من الوسطاء المؤيدين لفرنسا سفراء لها ينطقون باسمها ويدافعون عن مصالحها، بعد أن أصبحت فرنسا عاجزة عن أن تدافع عن نفسها بنفسها[2].

ومن هذا المنطلق رأت مصر ضرورة تقديم الدعم السياسي للثورة الجزائرية، فكانت البداية مع الجانب الإعلامي وذلك من صوت العرب بالقاهرة، هذه الإذاعة التي كان لها شرف بث أول بيان للثورة الجزائرية هو بيان أول نوفمبر 1954م وذلك على أمواج الأثير، هذا إلى جانب البيانات الأخرى التي كانت تصدر عن جبهة جيش التحرير الوطني[3].

ومن المؤسسات المصرية كذلك التي لعبت دوراً بارزاً في الدعاية للقضية الجزائرية «جماعة الكفاح من أجل تحرير الشعوب الإسلامية»، التي كان يرأسها الشيخ الأزهري «دراز»، والشبان المسلمون التي كان رائدها المصلح والداعية أحمد الشرياصي، وكذلك مؤتمر الخريجين العرب الذي كان يرأسه الدكتور فؤاد جلال، والذي ساعد الأستاذ أحمد توفيق المدني في تأليف كتابه عن الجزائر.

---

(1) المصدر نفسه ص 191.

(2) المصدر نفسه ص 192.

(3) المصدر نفسه ص 192.

لقد سمحت حكومة عبد الناصر لكل الشخصيات الوطنية من استعمال أراضيها للنشاط السياسي قصد دعم القضية، حيث تم تكليف الأستاذ توفيق المدني بتجهيز نشرة إخبارية يومية عن حوادث الثورة وتوزيعها على كل الجرائد والصحف ووكالات الأنباء[1] .

2 . مؤتمر القاهرة: الاجتماع الثاني للمجلس الوطني للثورة الجزائرية 1957م:

هناك إجماع يكاد يكون شاملاً وكاملاً لدى شريحة كبيرة من المؤرخين والباحثين المتخصصين في تاريخ الثورة، أن مؤتمر القاهرة المنعقد في أوت 1957م جاء ليصحح الأخطاء الاستراتيجية والمنهجية التي وقع فيها اجتماع الصومام المنعقد في 26 أوت عام 1956م، خاصة وأنه أحدث فجوة كبيرة في صفوف زعماء الثورة، كاد من خلالها أن يؤثر على الثورة التحريرية بقراراته التي خرجت عن مبادئ أول نوفمبر 1954م، وبأمر من عراب الصومام المرحوم عبان رمضان، وقد اعترف هو نفسه بإخفاء لقاء الصومام بدليل قبوله المشاركة في مؤتمر القاهرة.

لقد كانت هناك ظروف عديدة مهدت لانعقاد مؤتمر القاهرة يمكن حصر أهمها فيما يلي:

. النتائج التي انبثقت عن مؤتمر الصومام وبالتحديد قضية الأولويات، أو مبدأ التفضيل بين زعماء الثورة وبالتحديد أولية الداخل عن الخارج، والسياسي عن العسكري، وكذلك محاولة إفراغ الثورة من بعدها العربي الإسلامي الذي لم يرد تماماً في محتوى الصومام.

. قضية اختطاف الطائرة المغربية التي كان على متنها زعماء الثورة في 22 أكتوبر 1956م، وهم السادة أحمد بن بلة ومحمد بوضياف ومحمد خيضر وحسين ايت أحمد.

. العمليات الفدائية المكثفة التي كان يقوم بها المجاهدون الجزائريون داخل العاصمة الجزائر، وكان من أهمها وأبرزها معركة الجزائر الكبرى ما بين عامي 1956م، 1957م.

. سياسة فرنسا التعسفية ضد الشعب الجزائري، وبالتحديد السياسة التي انتهجها رئيس الحكومة الفرنسي غي مولي ما بين فبراير 1956م وجوان 1957م، والقائمة على الحديد والنار ضد الثورة الجزائرية، بالإضافة إلى سياسة خليفته الرئيس بورجي مونوري الذي سد كل المنافذ المتعلقة بمحاولة إيجاد حلول مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية من خلال مبدأ المفاوضات، وعمد إلى دعم إقامة الأسلاك الشائكة المكهربة لعزل الثورة الجزائرية عن محيطها العربي، خاصة وأنه كان يمثل اليمين المتطرف في فرنسا.

. بروز مؤشرات الصراع الداخلي بين عبان رمضان وجماعته، الذين حاولوا السيطرة على زعامة الثورة مستغلين الظروف الصعبة التي كانت عليها الثورة الجزائرية في هذه المرحلة، خاصة وأنها فقدت العديد من زعمائها الأوئل من مفجري ثورة أول نوفمبر الذين استشهدوا في ساحة المعارك من أمثال العربي بن مهدي، ومصطفى بن بلعيد، وديدوش مراد، وزيغود يوسف، ومنهم من سجن منذ اندلاعها، والمجموعة الأخرى التي تعتبر نفسها

---

(1) المصدر نفسه ص 192.

ممثلة للرعيل الأول من مفجري الثورة ومنهم عبد الحفيظ بوصوف والأخضر بن طوبال وكريم بلقاسم ومحمود الشريف.

وابتداءً من 27 أوت 1957م بدأت أشغال مؤتمر القاهرة، وقد تركزت قراراته فيما يلي:

. تفويض لجنة التنسيق والتنفيذ لتولي اختصاصات القيادة العليا للثورة الجزائرية، بحيث تكون تعليماتها لها صفة الإلزامية لكل الهيئات بالنسبة لجبهة وجيش التحرير الوطنيين.

. إقرار مبدأ رفض المفاوضات مع الحكومة الفرنسية ما لم تعترف هذه الأخيرة باستقلال الجزائر وسيادته الوطنية.

. التأكيد على عروبة الجزائر وسيادته.

. لجنة التنسيق والتنفيذ مقيدة بالعودة إلى المؤتمر الوطني إذا ما تعلق الأمر بقبول مبدئي للمفاوضات مع الحكومة الفرنسية أو حول أية قضية تخص تقرير مصير الشعب الجزائري.

. تقدم لجنة التنسيق والتنفيذ تقريرها السنوي حصيلة نشاطها في الداخل والخارج في المؤتمر القادم عام 1958م.

. إعطاء الحرية لأعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ في العمل بين العواصم العربية، خاصة بين القاهرة وطرابلس وتونس ومراكش، توسيع النشاط الدبلوماسي للجنة التنسيق والتنفيذ على الصعيد الدولي، قصد كسب المزيد من الدعم والتأييد الدوليين للقضية الجزائرية في المحافل الدولية خاصة بالنسبة للهيئات الدولية.

. إلغاء كل ما جاء في مؤتمر الصومام يمس بمبادئ أول نوفمبر بما في ذلك قضية الأولويات.

. توسيع المجلس الوطني للثورة من أربعة وثلاثين عضواً إلى أربعة وخمسين عضواً.

. توسيع أعضاء لجنة التنسيق والتنفيذ من خمسة أعضاء إلى أربع عشر عضواً.

. اعتبار المجلس هو الممثل لجميع التيارات السياسية التي انضمت للثورة التحريرية.

. إعطاء صلاحيات مطلقة للمجلس على حساب لجنة التنسيق والتنفيذ التي حددت صلاحياتها نوعاً ما.

. اعتبار زعماء الثورة المسجونين في فرنسا أعضاء شرفيين في لجنة التنسيق والتنفيذ.

انطلاقاً من هذه المعطيات التاريخية، فإن مؤتمر القاهرة كان وراء عودة بعض القادة الأوائل لأول نوفمبر، كما استطاع أن يقلص إلى حد كبير نفوذ عبان رمضان وجماعته سياسياً وعسكرياً، بدليل أنه كلف فقط بالإعلام داخل لجنة التنسيق والتنفيذ.

وانتهت العملية بتوزيع المهام الرئيسية بين هؤلاء القادة الذين ينتمون إلى الرعيل الأول للثورة، بحيث تشكلت لجنة جديدة ضمت السادة:

. كريم بلقاسم، مسؤول الشؤون الحربية.

. عبد الحفيظ بوصوف، مسؤول التموين بالسلاح وجهاز الاستعلامات.

. محمود الشريف، منصب الشؤون المالية.

. الأخضر بن طوبال، منصب التنظيم الإداري والشؤون الداخلية.

. فرحات عباس، مكلف بالإعلام والصحافة.

. عبد الحميد مهري، مكلف بوزارة الشؤون الاجتماعية.

بالإضافة إلى تأسيس لجنة التنظيم العسكري التي سبقت الإشارة إليها في شهر أفريل من عام 1958م، والتي ضمت كلاً من السادة: هواري بومدين، والسعيدي محمدي، وعمار بن عودة، ولعموري، وعمار بوقلاز.

لقد وقفت مصر ضد كل المحاولات التدميرية للثورة الجزائرية[1].

3 . تأييد الحكومة المؤقتة:

بمناسبة تأسيس الحكومة الجزائرية المؤقتة، لعبت مصر دوراً أساسياً في دفع أعضاء جامعة الدول العربية لتخصيص 12 مليار فرنك فرنسي قديم للثورة الجزائرية، وبقرار من الرئيس عبد الناصر نفسه خصصت مصر المداخيل الأولى من تأميم قناة السويس للكفاح الجزائري ؛ هذه المبالغ التي وصلت إلى ثلاثة مليارات فرنك فرنسي قديم[2].

وكانت أهم مجالات التنسيق الدبلوماسي الجزائري كانت تتم عن طريق مصر، ومعظم النشاطات السياسية والدبلوماسية لجبهة التحرير الوطني والحكومة الجزائرية المؤقتة انطلقت من القاهرة.

الرئيس عبد الناصر نفسه، أو عن طريق مستشاره الشخصي فتحي الديب، كان يشرف على عملية التأييد المعنوي والمادي للثورة الجزائرية، والتأكيد من تعميق قوة التضامن المصري مع الجزائر، بما فيها حتى حضوره الأسابيع الخاصة للتضامن مع الشعب الجزائري، والتي كانت تنظم دورياً عبر أنحاء التراب الوطني المصري، متضمنة جمع التبرعات المالية والتعبئة المعنوية والإعلامية، تنظمها وتنشطها القيادة المصرية وعلى رأسها الرئيس جمال عبد الناصر وتحت إشراف القيادة المصرية.

كذلك كان الشعب المصري يحتفل بالذكرى السنوية لاندلاع ثورة نوفمبر دورياً، مصحوبة بتعبئة جماهيرية وإعلامية لا تقل أهمية عن احتفال الشعب المصري بالثورة المصرية نفسها، مرفوعاً بنوابه وأعضاء الحكومة المصرية.

وبمناسبة الذكرى السادسة «نوفمبر 1960» لثورة نوفمبر كان الرئيس جمال عبد الناصر على رأس الاحتفال والتجمع الجماهيري الكبير، في هذه المناسبة ذكر الرئيس عبد الناصر:

إننا ونحن ننظر إلى شعب الجزائر وهو يستقبل العام السابع لثورته نحمد الله الذي مكن شعب الجزائر من أن يصمد ويثابر بدون وهن، ليجابه أكثر من 800 ألف جندي من قوات فرنسا بقواته وأسلحته القليلة، ثم يدوخ فرنسا وجيوشها وأسلحة الحلف الأطلسي التي تعتمد عليها فرنسا، ويدوخ الدول التي تدعي أنها تمثل العالم الحر[3].

---

(1) مواقف الدول العربية ص 200.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية، د . إسماعيل دبش ص 71.

(3) المصدر نفسه ص 71.

4. الإمداد بالسلاح:

أول شحنة سلاح جاءت من مصر قدرت بحوالي 8،000 جنيه، وتم تمريرها عن طريق ليبيا، وكانت أول صفقة سلاح من أوروبا الشرقية بتمويل مصري حوالي مليون دولار، ومعظم الأموال 75% التي كانت تقدمها جامعة الدول العربية للثورة الجزائرية والمقدرة 12 مليون جنيه سنوياً كانت تأتي من مصر، وأهم التدريبات العسكرية الفعالة لجيش التحرير الوطني خارج الجزائر كانت تتم بمصر[1].

كان التنسيق بين أحمد بن بلة وفتحي الديب مندوب المخابرات المصرية على مستوى عال جداً، للبحث في الوسائل والطرق التي تكفل توفير السلاح والذخائر للثوار الجزائريين. كانت الخطة المسطرة هي استعمال كل الطرق للحصول على الأسلحة، فكانت تشترى من المهربين الدوليين عن طريق مصر، وهم يقومون بعد ذلك بإيصالها إلى أماكن محددة داخل التراب الجزائري، وفي حالة فشل عملية من عمليات الشراء يتم تزويد الثوار بالأسلحة من مخازن الجيش المصري[2].

وكان الترتيب مع السلطات الليبية لمرور السلاح من خلالها إلى الجزائر على قدم وساق إلى جانب الطريق البحري، حيث كانت الأسلحة والمؤونة الحربية تصل إلى الجزائر بإستعمال السفن المصرية من جهة، وكذلك تأجير سفن أجنبية إذا اقتضت الضرورة لذلك، وكانت عمليات إمداد جيش التحرير بالاسلحة في بداية الأمر تتم بواسطة السفن المصرية، إلا أن القيادة المصرية استبعدت قضية شحن السفن المصرية لما لها من تأثير سلبي على سمعة مصر إقليمياً ودولياً في حالة اكتشافها من طرف السلطات الاستعمارية، وفي مارس 1955م تم شحن «اليخت دينا» بالسلاح إلى المجاهدين الجزائريين بعد أن تم تأجيرها من طرف مصر.

ومن السفن الأجنبية التي اشتهرت بحمل السلاح إلى الثورة الجزائرية إلى جانب اليخت دينا هناك اليخت «نمو»، واليخت «جودهوب»، هذا الأخير هو الذي تمت بواسطته إيصال الأسلحة إلى الجبهة الغربية الجزائرية. هذا إلى جانب السفينة الشهيرة «اتوس» التي كانت محملة بالسلاح في اتجاه الجزائر، لكن الفرنسيين اكتشفوا أمرها وهذا ما دفعهم إلى تقديم شكوى شديدة اللهجة إلى مجلس الأمن ضد الحكومة المصرية.

لم يتوقف الدعم العسكري المصري للجزائر بعد هذه الحادثة بل واصل المصريون عملية إمداد السلاح، وهو الأمر الذي دفع بفرنسا إلى المشاركة في العدوان الثلاثي على مصر، إلى جانب كل من مصر وإسرائيل، خاصة بعد إعلان الرئيس جمال عبد الناصر تأميم القناة[3].

تواصلت عمليات تهريب السلاح ولم تنقطع خلال ليبيا عن طريق التنسيق مع سلطاتها وبعض رجال الأعمال الليبيين الذين لهم خبرة في تهريب الأسلحة، وكللت هذه العمليات بوصول دفعة من الأسلحة استلمها المناضل علي مهساس في شهر فيفري 1957م، وأمّن وصولها إلى الولايات الشرقية بالجزائر[4].

(1) المصدر نفسه ص 71.
(2) مواقف الدول العربية ص 203.
(3) المصدر نفسه ص 205.
(4) الإمداد بالسلاح ص 333.

ولم ينحصر الدعم العسكري على الأسلحة التي فاقت فيه مصر كل تصور، وكان الرئيس عبد الناصر باراً بوعده في وقوفه مع ثوار الجزائر، بل كانت القاهرة مركزاً لتدريب الجزائريين على حرب العصابات ثم إيفادهم إلى الجزائر للالتحاق بالثورة، ولم يتوقف الدعم العسكري واستمر عبر الحدود الشرقية الجزائرية وخضعت فرنسا للأمر الواقع وامنت تحت الضغط بحتمية الثورة الجزائرية[1].

5 . الدعم في المحافل الدولية:

كان تأييد مصر للقضية الجزائرية ولكل مطالب جبهة التحرير الوطني كان مطلقاً ومتشدداً وبدون تحفظ، حتى لو تعلق الأمر بعلاقة مع دولة كبرى لها مصالح حيوية واستراتيجية معها مثل الاتحاد السوفيتي، ذلك ما عبر عنه الرئيس عبد الناصر في تحذيره إلى خروتشوف الرئيس السوفيتي من الانسياق وراء محاولات ديغول لإقناعه بزيارة حاسي مسعود، منطقة ابار بترولية جزائرية كبرى بالصحراء، لأن ذلك سوف يتسبب في هوة فاصلة بين الشعب السوفيتي والشعوب العربية[2].

أ . التدخل للإفراج عن المخطوفين:

جاء اختطاف زعماء الثورة الجزائرية أحمد بن بلة، محمد بوضياف، ومحمد خيضر، وحسين ايت أحمد، يوم 22 أكتوبر 1956م، وكان موقف مصر من القضية قوياً وسريعاً، حيث قامت وزارة الخارجية المصرية بإعلام كل السفارات العربية والأجنبية بملابسات القضية، وأخبرت الأمين العام للأمم المتحدة بذلك وطلبت منه التدخل للإفراج عن المختطفين الجزائريين، كما كلفت إذاعة صوت العرب بشن حملة دعائية كبيرة ضد فرنسا، والعمل على رفع معنويات المجاهدين.

وبأمر من جمال عبد الناصر كلف الملحق العسكري المصري في الرباط القيام باختطاف بعض الشخصيات الفرنسية بمراكش والاحتفاظ بهم كرهائن إلى غاية الإفراج عن المعتقلين الجزائريين[3].

ب . منظمة تضامن الشعوب الأفرو. اسيوية:

سياسياً ودبلوماسياً لعبت مصر دوراً هاماً في تدعيم مشاركة الجزائر في مؤتمر باندونغ «ماي 1955م»، كما كان لمصر دور فعال في تمكين الجزائريين من لعب دور مؤثر في منظمة تضامن الشعوب الأفرو. اسيوية منذ نشأتها بالقاهرة «ديسمبر 1957م».

ما يميز مؤتمر باندونغ، هو ليس تدويل القضية الجزائرية ومساندتها معنوياً فقط، بل أكثر من ذلك التزام أعضاء المؤتمر بتقديم المساعدة المادية لحرب التحرير الجزائرية، وتأكيد شرعية مطالب الشعب الجزائري وشرعية الوسائل

---

(1) مواقف الدول العربية ص 206.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية، د . إسماعيل دبش ص 73.

(3) المصدر نفسه ص 195.

المستعملة «العمل المسلح» من أجل الاستقلال والحرية، كان ذلك من بين التزامات الدول المشاركة في مؤتمر باندونغ، التي أكدت تقديم مساعداتها المحسوسة إلى الشعوب المكافحة من أجل استقلالها[1].

شكّل مؤتمر باندونغ «أفريل 1955م»، والذي جاء شهوراً قلائل بعد اندلا ع ثورة نوفمبر «1954م»، أول فرصة واسعة لطرح القضية الجزائرية على المستوى الدولي، لم يؤكد المشاركون في المؤتمر فقط تأييدهم المعنوي للقضية الجزائرية دولياً، بل التزموا بالمساندة المادية لحرب التحرير الجزائرية.

إن مؤتمر الدول الأفرو. اسيوية يؤيد حقوق شعوب الجزائر والمغرب الأقصى وتونس في تقرير مصيرها بنفسها ونيل استقلالها.. وتلتزم بتقديم مساعدتها المحسوسة إلى الشعوب المكافحة من أجل استقلالها[2].

لقد كان التنسيق الجزائري المصري مكثفاً ومتكاملاً في تعامله دولياً، لتعبئة الرأي العام العالمي لمناصرة أهداف التحرير الوطني في الجزائر.

نشاطات خاصة للساسة المصريين، تحت توجيهات الرئيس عبد الناصر، كانت مخصصة لتدويل وتدعيم القضية الجزائرية. وفي نفس الاتجاه كان لمصر دور دبلوماسي فعال سواء على مستوى علاقاتها الثنائية، أو على مستوى المحافل والمنظمات الدولية.

محمود فوزي، ممثل مصر لدى منظمة الأمم المتحدة، أكد في تدخله «ديسمبر 1957م»: إن الشعب الجزائري العظيم قد أكد . بدمائه التي قدمها . عزمه على نيل الاستقلال بصفة لا تترك المجال للشك، وأن هذه الحقيقة لا يمكن أن تعدل، بل يجب الاعتراف بها وقبولها في الوقت اللازم وبكل تعقل. إن الشعب الجزائري قد صمم العزم على أن يعيش في ظل الكرامة والحرية[3].

ج . المفاوضات مع فرنسا:

ومع تقهقر فرنسا على الصعيد العسكري وتغيير موازين القوى لصالح الثورة الجزائرية سياسياً ؛ أدركت فرنسا قوة الدعم المصري للجزائر، لذا لجأت إلى الرئيس جمال عبد الناصر طالبة منه مساعدتها في إجراء مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني، من خلال لقاء وزير خارجيتها كريستان بينو مع جمال عبد الناصر، الذي طلب من الوسيط الفرنسي أن تفضي المفاوضات إلى حل مشرف يضمن للجزائريين حقوقهم الكاملة في السيادة على أرضهم، شريطة أن تكون جبهة التحرير هي الممثل الشرعي والوحيد للجزائريين. وجاءت مرحلة ديغول التي تميزت بتصريح رئيسها حول حق الجزائريين في تقرير مصيرهم، وإبداء رغبته في إجراء مفاوضات معهم، وكانت مصر سابقة في إعطاء رأيها حول عملية المفاوضات، حيث قام الأستاذ أحمد توفيق المدني بإجراء مشاورات مع ممثلي الدول العربية بالقاهرة، والاتصال بالرئيس جمال عبد الناصر الذي وافق على ذلك، شريطة أن تصب المفاوضات في قضية الاستقلال اللامشروط للشعب الجزائري[4].

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 71.

(2) المصدر نفسه ص 72.

(3) المصدر نفسه ص 72.

(4) المصدر نفسه ص 202.

ومع بداية مفاوضات إيفيان، أصدرت حكومة الجمهورية العربية المتحدة 20 ماي 1961م بياناً أكدت فيه مساندتها للحكومة الجزائرية المؤقتة في المفاوضات التي ستجرى مع الحكومة الفرنسية، والتي ترمي إلى الاعتراف للشعب الجزائري بحق تقرير المصير، حتى يتحصل على استقلاله وسيادته التامة ووحدة ترابه، وتؤكد الجمهورية العربية المتحدة أنها تعتبر الصحراء الجزائرية كجزء لا يتجزأ من الوطن الجزائري يخضع إلى سيادة الشعب الجزائري كبقية تراب الوطن، كما أنها تساند المساندة التامة مواصلة الكفاح الوطني بجميع الطرق الناجعة حتى يتحصل الشعب الجزائري على حريته واستقلاله ووحدته بدون قيد أو شرط(1).

6 . في الأمم المتحدة:

إن تدعيم وتأييد الشعب الجزائري في صراعه الوطني القومي والحضاري مع الاستعمار الفرنسي أصل مميز في الدبلوماسية المصرية وسياستها الخارجية، ذلك ما أكده الرئيس عبد الناصر دورياً في تعبئته لتدويل القضية الجزائرية، في خطابه في الدورة 15 للأمم المتحدة ذكر الجميع أنه:

ليس ما يخالجنا شك في أن الحرب الدائرة في الجزائر اليوم، والتي قدم لها الشعب الجزائري طواعية أرواح مليون من أبنائه حتى الان ؛ لا يمكن أن تنتهي بغير انتصار الحرية، إن الأمم المتحدة اليوم ليتعين عليها أن تقوم بواجبها، ما أظن أننا نغالي إذا ما تقدمنا بطلب الشعب الجزائري في تقرير مصيره.. لا يمكن للحكومة الفرنسية أن تغير إرادة الله الذي جعل الجزائر قطعة من القارة الإفريقية وجعل شعبها جزءاً من الأمة العربية(2).

إن مصر بقيادتها التاريخية في تلك المرحلة تعدّ حليفة للثورة الجزائرية الأكثر فعالية والأكثر أهمية، فيما يتعلق بالدعم المادي والمعنوي والسلاح والعتاد والمواقف الداعمة دولياً للجزائر بدون حدود وبدون تحفظات.

ومع بداية مفاوضات إيفيان أكد الرئيس عبد الناصر دعمه للجزائر فقال: إننا نتجه بكل تأييدنا المادي والمعنوي بدون حدود وبدون تحفظات لنضعها في نصرة الجزائر في هذه المفاوضات، واثقين أن نتيجتها لابد أن تكون على مستوى التضحيات والأعمال البطولية للشعب الجزائري الذي خاض المعركة لا ضد فرنسا وحدها بل ضد الحلف الأطلسي كله(3).

* * *

(1) السياسة العربية، د . إسماعيل دبش ص 73.

(2) المصدر نفسه ص 75.

(3) المصدر نفسه ص 73.

خامساً: السعودية:

لقد كان التحدي السعودي للغرب في أول دعم سياسي علني من طرف المملكة العربية السعودية للثورة الجزائرية وقضيتها العادلة، وهو لفت انتباه هيئة الأمم المتحدة بواسطة ممثلها في نيويورك بتاريخ 5 جانفي 1955م، وذلك بعد شهرين من اندلاع ثورة نوفمبر 1954م إلا أن الحالة التي تسود الجزائر خطيرة جداً ولابد من التطرق إلى معاناة الشعب الجزائري من السياسة التسلطية الفرنسية، كما حمّلت المملكة العربية السعودية من خلال الأستاذ أحمد الشقيري فرنسا المسؤولية الكاملة عما يحدث للشعب العربي في الجزائر، وكردّ فعل قامت بحملة قوية وشرسة ومضادة لسياسة الاحتلال الفرنسي المطبقة ضد شعب أعزل هو الشعب الجزائري[1].

واستمرت المملكة العربية السعودية تدافع عن حق الجزائر في الحرية والاستقلال حتى تحررت الجزائر. وكانت لها صولات وجولات على منبر الأمم المتحدة، ففي دورة عام 1956م كشف الوفد السعودي لوفود الدول الحاضرة في الجمعية العامة جرائم الاستعمار الفرنسي المرتكبة في حق الشعب الجزائري الأعزل، إلى جانب كل أنواع الإرهاب والتعذيب والتقتيل الفردي والجماعي المرتكبة في حقه، وقد وجه ممثل الوفد السعودي كلامه من على منبر الهيئة الأممية إلى دول الحلف الأطلسي، التي قامت مقام فرنسا في إزاحة القضية الجزائرية من جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة قائلاً: كيف تقفلون أبواب الأمم المتحدة في وجه القضية الجزائرية، نحن لا نريد لفرنسا إدانة ولا إهانة، كل ما نريده هو الوصول إلى حل سلمي ديمقراطي وفق أهداف الأمم المتحدة[2].

لقد تبنت السعودية القضية الجزائرية على مستوى هيئة الأمم المتحدة، وفتحت المواجهة مع الحلف الأطلسي عموماً وفرنسا بوجه خاص، وبالتالي ربطت مصيرها بمصير القضية الجزائرية، وهذا ما جعلها عرضة لانتقادات الطرف الفرنسي والدخول معه في مواجهات قوية، وهذا ما ميز دورة عام 1956م الأممية، حيث عرض الوفد السعودي القضية الجزائرية ودافع عنها دفاعاً مستميتاً، توج بتسجيل الوفد الجزائري ضمن قائمة الوفد السعودي، وهو الأمر الذي أثار ثائرة الوفد الفرنسي برئاسة رئيس الخارجية السيد «بينو»، الذي اتهم السعودية بانتمائها إلى الشيوعية على اعتبار أنها تدعم الثورة الجزائرية[3].

بعد مرحلة المواجهة العنيدة بين السعودية وفرنسا، جاءت دورة 1958م التي سمحت للدول العربية تعزيز موقفها في الهيئة الأممية والدفاع عن القضايا العربية منها قضية الجزائر، حيث راح ممثل المملكة العربية السعودية في هذه الدورة يوجه سهام الانتقادات اللاذعة للسياسة الفرنسية في الجزائر، ويرد بقوة وحزم على مزاعم فرنسا، ويناشد الدول الأعضاء في الهيئة الأممية العمل من أجل إقناع فرنسا والضغط عليها بكل الوسائل لإخراجها من الجزائر ورفع المعاناة عن شعبها، انطلاقاً من الواقع التاريخي الذي أكد على سيادة هذا الشعب عبر مراحل

---

(1) مواقف الدول العربية ص 215.

(2) المصدر نفسه ص 219.

(3) المصدر نفسه ص 221.

تاريخه في أرضه، وأنه لا يمت للشعب الفرنسي بأية صلة كانت، وبالتالي فإن الشعب الجزائري له كيانه القائم بذاته هو الكيان العربي لا غير.

وقد انتهت دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة في عام 1958م بقرارها الذي صرح بحق الشعب الجزائري في الاستقلال والحرية، على غرار كل شعوب العالم.

ومع انعقاد الدورة الرابعة عشر للجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة عام 1959م، أعلن الوفد السعودي من على منبرها مرة أخرى عن ضرورة تطبيق كل القرارات السابقة المتعلقة بالقضية الجزائرية، ووقف ممثل الوفد في هذه الدورة يشرح للمجتمع الدولي كل الأخطار الناجمة والتي ستنجم مستقبلاً عن الإدعاءات الفرنسية الباطلة، والهادفة إلى الاحتفاظ بالجزائر بحدّ السيف متحدية بذلك الشعور الجزائري والعربي والدولي، وهذا ما يناقض تماماً أطروحات الرئيس الفرنسي الكاذبة حول إيجاد حل للمعضلة الجزائرية، لكنه حل يتماشى والمصالح العليا الفرنسية.

لقد اتسمت هذه الدورة بالتحدي السعودي للأطروحات الفرنسية التي لا تستند إلى الفعل القانوني والموضوعي للقضية في حد ذاتها، ومن التساؤلات الحادة والمحرجة في ان واحد التي طرحها الوفد السعودي في تدخلاته بشأن القضية الجزائرية ما يلي: هل تريد الأمم المتحدة وهي أعلى هيئة أممية أن تضع نفسها في خدمة المصالح الاستعمارية؟

وقد ركز الوفد السعودي في هذه الدورة على أن الثورة الجزائرية ماضية إلى الأمام ومن ورائها كل شعوب العالم التواقة إلى الحرية والاستقلال وعلى رأسها الشعب العربي، وأن الشعب الجزائري ومن خلال كفاحه المستمر وثورته المظفرة سيحقق حريته في نهاية المطاف[1].

كما شهدت دورة عام 1960م نفساً جديداً بالنسبة للوفد السعودي، الذي راح وبصورة علنية يوجه الاتهام إلى الولايات المتحدة الأمريكية بتواطئها ضد ثورة الشعب الجزائري وقضيته، ومؤازرة حليفتها فرنسا صاحبة وثيقة حقوق الإنسان ؛ هذا التواطؤ الذي جسده طلب الوفد الأمريكي في التروي عند طرح القضية الجزائرية دون أن يعطي لها أدنى اهتمام، وغير مبالي بما حققه على الصعيد الدولي من انتصار وتأييد واسعين. وما ميز التدخل السعودي في القضية هو صراحة ممثلها وهجومه الشرس على فرنسا وحلفائها، حيث جاء في إحدى تدخلاته ما يلي: ترى من الذي جعل القضية ملتهبة؟ أهي خطبي النارية؟ أم أسلحتكم النارية الفتاكة[2]؟

واحتج المندوب السعودي على جعل الاستفتاء على مصير الجزائر يقوم به الشعب الفرنسي فقال: نحن نرفض الاستفتاء، ولكن ما هو الاستفتاء؟ فقد جعل منه ديغول عملية مزدوجة ذات استراتيجية ذكية يريد من ورائها فرنسة الجزائر، ما هو شأن الشعب الفرنسي في تقرير مصير الجزائر، إن الشعب الجزائري هو الذي يقرر المصير، وتقرير المصير عند الجنرال ديغول هو إفناء المصير[3].

(1) أحمد الشقيري زعيماً فلسطينياً ورائد عربياً، خيرية قاسمية ص 429.

(2) المصدر نفسه ص 484.

(3) المصدر نفسه ص 387.

وفي دورة 1961م الأممية بدأت فرنسا تشعر بدنو أجلها في الجزائر، لذا راحت تبحث لها عن مخرج اخر وبطرح مغاير لطروحاتها السياسية السابقة. وقد تمثل هذا الطرح الجديد في الاحتفاظ بالصحراء الجزائرية والمناطق الاستراتيجية العسكرية مثل ميناء أرزيو، إلى جانب حقول البترول التي اكتشفت من طرفها، لكن الوفد السعودي عارض هذه السياسة الجديدة، واعتبر المطالب الفرنسية غير منطقية، على اعتبار أن هذه المناطق هي جزء من الوحدة الترابية للجزائر، ولا حق لفرنسا في المطالبة بها.

ومما قاله ممثل الوفد السعودي في هذا الصدد ما يلي: طال كلامنا في الأمم المتحدة عن قضية الجزائر، وطال عصيان فرنسا لقرارات الأمم المتحدة، لكن صبر الشعب الجزائري لن ينفذ، وسيظل يحمل السلاح حتى تتحقق له حريته واستقلاله[1].

وفي عام 1962م دعمت السعودية طلب الجزائر المستقلة على أن تكون عضواً في الهيئة الأممية، فكان للجزائر ما أرادت لتزيد من التمثيل العربي قوة في هذه الهيئة، وقد وقف ممثل الوفد السعودي كعادته يلقن فرنسا دروساً في التاريخ العربي وبطولات شعوبه قاطبة، مرحباً بالعضو العربي الجديد، وملتفتاً في نفس الوقت إلى الوفد الفرنسي قائلاً له: الان انتهت الحرب بين الجزائر وفرنسا، والان ينتهي الحوار بيننا وبين فرنسا في الأمم المتحدة، وإني أرى من واجبي أن أعترف من غير أن أعتذر: لقد كنت قاسياً على فرنسا وعلى الجنرال ديغول، لكن هذه هي الحرب[2] .

1 . دعم الملك سعود بن عبد العزيز:

يمكن تقييم دعم السعودية للقضية الجزائرية من خلال مخاطبة الملك سعود عند استقباله «6 مارس 1959م» الوفد الحكومي الجزائري برئاسة السيد فرحات عباس، رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة بحضور رئيس مجلس الوزراء والأمراء، وكبار الدولة وأعيان المملكة: بأنكم لستم جزائريين أكثر مني.. وبأن القضية الجزائرية هي قضية مقدسة، وبذلك هي فوق القانون وتشريع الدولة، ولذلك تعطل القوانين إذا هي وقفت في وجه ما تتطلبه من الجهاد في الجزائر.

واعتبرت «المجاهد» الاستقبال الخاص للوفد الجزائري من طرف الملك ورجال دولته: عطف صادق للقضية الجزائرية، كما وصف فرحات عباس تدعيم السعوديين هذا بأنه استمرارية لما بذلوه ومازالوا يبذلونه من مساهمة فعالة في معركة التحرير الجزائرية التي هي معركة العروبة جمعاء، ولم تبد السعودية تحفظاً في تأييدها للقضية الجزائرية حتى ولو أدى ذلك إلى التاثير السلبي على علاقاتها الودية مع الغرب، وذلك ما يمكن إبرازه من خلال مثلاً تأكيد الملك سعود خلال استقباله «9 جانفي 1958م» الأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة السيد هامر شولد:

---

(1) مواقف الدول العربية ص 231.

(2) المصدر نفسه ص 232.

إن علاقتنا السياسية مع فرنسا متوقفة على حل القضية الجزائرية حلاً يعيد لأهلها العرب حريتهم واستقلالهم، وإن العرب مرتبطون معهم برابطة الأخوة التي لا تنفصم.. وإن البلاد العربية لن تكتفي بإرسال المساعدات المالية لإخوانهم المجاهدين، بل إنني اقترح على الدول العربية اتخاذ خطوة إيجابية جديدة وهي مقاطعة فرنسا حتى تقر حق إخواننا الجزائريين في حريتهم واستقلالهم(1).

وكرر الملك سعود ذلك باستمرار، واحتفالاً بالذكرى السابعة «1961م» لثورة نوفمبر،ء وجه الملك خطاباً في الإذاعة السعودية أكد فيه أن المملكة العربية السعودية لن تعيد علاقتها الدبلوماسية مع فرنسا إلا بعد استقلال الجزائر، وأكد أنه سيبقى السند المتين للثورة الجزائرية(2).

وفي أثناء زيارة الملك سعود إلى سوريا «أكتوبر 1957م»، أعطى اهتماماً خاصاً لممثلي جبهة التحرير الوطني هناك، مؤكداً مساندته المستمرة للقضية الجزائرية، ومبرزاً عمله المشترك مع الرئيس السوري شكري القوتلي من أجل نصرة الجزائر. وتأكيد المملكة هذا برز كذلك في مساندتها المطلقة لكل مطالب جبهة التحرير الوطني والحكومة الجزائرية المؤقتة في مفاوضاتها مع الفرنسيين في إيفيان «20 مارس 1961م» (3).

2. الدعم المالي السعودي:

قال أحمد توفيق المدني أحد ممثلي جبهة التحرير في الخارج: كانت الضيافة ـ بالرياض ـ ممتعة وقابلنا الملك سعود بن عبد العزيز مقابلة حارة، واستمع إلى كلامي في تفهم عميق، وقال: أبشروا سيكون لكم بحول الله ما تطمئن إليه قلوبكم، إني أكلف بكم وزير المالية الشيخ سرور الصبان، وإنني أدرس معه كل الإمكانات فكونوا على ثقة من أننا نعمل ما يوجبه الله والضمير.

كان ذلك يوم 11 ديسمبر ويوم 15 ديسمبر أعلمنا الشيخ سرور الصبان أن الملك فهم الواقع على حاله، وأنه الان بصدد التشاور مع كل ملوك ورؤساء العرب، ليعرف ما فعلوا وما هم عازمون على فعله، وسيكون بحول الله في المقدمة والطليعة، وتواعدنا على اللقاء بعد عودتنا من الأردن(4).

وعدنا لجدة فكنا بها يوم افتتاح سنة 1958م وأخذنا نتصل ونوالي الاتصال ؛ ثم طرنا إلى الرياض يوم 3 جانفي، وقابلنا الملك سعود وكان في جمع حاشد من رجاله وال بيته وزائريه، وتعشينا على مائدته الملكية.. وأمسك الملك بيدي بعد العشاء وقال: قد أرسلت لكم كشفاً بكل ما دفعناه للجزائر إلى هذا اليوم، قلت: وصلنا، قال ما نصه بالحرف: نحن معكم إلى النهاية ولا نتخلى عنكم أبداً، إنما ليست لنا الان إمكانيات مالية، فقررت أننا نقوم بعد شهر بفتح اكتتاب شعبي عام، أبدأ فيه بنفسي وأضع فيه مقداراً جسيماً ويشارك فيه الأمراء، ويشارك فيه الشعب، وستكون النتيجة فوق ما تتصورون. وسيخبركم الصبان بتفاصيل هذا القرار.

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 78.

(2) المصدر نفسه ص 78.

(3) المصدر نفسه ص 79.

(4) حياة كفاح (79/3).

كان الصبان مريضاً، فانتظرنا شفاءه، ثم من الله علينا بالاجتماع به فحدثنا وكان فحوى حديثه:
ـ الملك قرر أن يفتح الاكتتاب بمبلغ مائة مليون فرنك على أن يكون نصيب الحكومة 250 مليون وهو يضمنها.
ـ أن يكون الدفع لكم رأساً حسب ما طلبتم، يوضع في حسابكم بدمشق.
ـ مهما أردتم سلاحاً أو مالاً أو مسعى سياسياً، فاتصلوا بالملك رأساً بواسطة رسالة أو رسول وهو موجود لتحقيق ذلك حسب الجهد والطاقة.
ـ يقول جلالة الملك: إنه يفكر الان في أمر جمع مؤتمر عام لملوك ورؤساء المسلمين لتدارس قضية الجزائر والنظر في حاجاتها، وطريقة إسهامهم في إمدادها، فطلبنا إليه أن يتولى نيابة عنا تقديم شكرنا للملك وأن الاتصال بيننا سيكون مستمراً بحول الله[1].

وفي يوم 6 مارس سنة 1959م يقول الأستاذ المدني: نزلنا أول في مطار جدة، فإذا بنا نستقبل رسمياً بصفة مرموقة وبين صفوف حرس الشرف، وكان ينتظرنا رجال الحكومة ووالي جدة، كان يوم 6 مارس سنة 1959م. بعد استراحة قصيرة ذهبنا ممتطين سيارتنا الرسمية إلى منبع النور ومصدر الهدى مكة المكرمة، حيث أدينا العمرة وصلينا بساحة مسجدها المطهر فريضتي

المغرب والعشاء، ورأيت الرئيس فرحات عباس، المتفرنج، رأيته والله يرتعد فرقاً وهو بين يدي الله، وقد اصفرّ لونه حتى أصبح ليمونة صيف، وارتعش إلى درجة أنني كنت أمسك به حتى لا يقع، ووجم كأنما هو صوفي من رفقاء الجنيد أمام جلال الله وعظمة الله وروعة بيت الله، وهكذا تفجر إيمانه فإذا هو أصدق وأقوى إيمان[2].

أخذنا صباحاً طائرة الملك الخاصة وذهبت بنا إلى الرياض، حيث كان ينتظرنا على السلم سمو الأمير فيصل «الملك فيما بعد» وكان ولياً للعهد ورئيساً لمجلس الوزراء، ويحف به رجال الدولة وأساطين الحكم. وكان لنا معه عشية حديث هام، فكان هو الجزائري المطالب وكنا نحن المجاهدين المطلوبين، ثم أطلعنا على حقيقة الحالة المالية المرتبكة في الدولة... وقال الأمير فيصل: إنني أحاول رغم مرضي وهرمي أن أضع حداً لهذه الحالة المؤلمة التي لا يمكن أصلاً أن تدوم، وسأضع لميزانية الدولة وأموالها ـ بإعانة الله ـ أسس قارّة لا تتعداها، وعندئذ لن نقع بمشيئة الله في أزمة مالية إطلاقاً. أما كفاح الجزائر فهو الجهاد الحق ومن لم يشترك فيه بنفسه وبماله فقد باء بغضب من الله، وإننا زيادة عن دفع حصتنا مما قررته الجامعة العربية ومع استعدادنا لدفع كل حصة تقررها سنبذل بحول الله فوق ذلك حسب الجهد والطاقة.

ومن الغد يوم 8 مارس.. وكانت مقابلة مودة وعطف وإخلاص، وأكد لنا خلالها ما قال من قبل أخوة الأمير فيصل عن القضية الجزائرية، وأما ليلاً فقد أقام لنا جلالة الملك مأدبة حافلة حضرها نحو الثلاثمائة من رجال الدولة وأعيانها وكبرائها.. وعند تناول القهوة العربية في البهو الوسط، أحطنا بالملك فأعلمنا أنه أمر لنا كتحية

(1) حياة كفاح (534/3).
(2) حياة كفاح (597/3).

قدوم بمليار فرنك، تدفع لحسابنا بدمشق وأن ذلك المقدار سيتبع بمقدار اخر، وقال مبتسماً: أنتم تدفعون ضريبة الدم ونحن ندفع ضريبة المال والله يوفقنا[1].

كما خصصت السعودية 250 ألف جنيه سنوياً لحرب التحرير الجزائرية سلمت عن طريق جامعة الدول العربية، بالإضافة إلى ذلك حدد الملك يوم 15 شعبان يوم الجزائر لجمع التبرعات المالية. وفي مناسبة 15 شعبان 1958م كان الملك أول المتبرعين بمليون ريال سعودي بالإضافة إلى مليونين ونصف من الحكومة.

ومن بين المساعدات المالية الخاصة التي كانت تقدمها السعودية هو تقديم مليون جنيه إسترليني للحكومة الجزائرية المؤقتة «جويلية 1961م»، وبهذه المناسبة وجه السيد فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة رسالة إلى الملك مؤكداً فيها أنه: لا يسعني يا صاحب الجلالة إلا أن أرفع إلى جلالتكم شكري الصادق، واعتراف وتقدير حكومتي وشعب الجزائر لما بذلتم وتبذلونه في سبيل نصرة قضيتنا، التي هي قضية الأمة العربية التي باعتزازها يعز الإسلام. وإن حكومة وشعب صاحب الجلالة الذي ناصر قضيتنا ولا يزال يناصرها منذ البدء ؛ لا يستغرب منه أن يظل النصير الأول لقضيتنا العادلة[2].

* * *

(1) حياة كفاح (599/3).

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 79.

سادساً: الكويت:

قال الأستاذ أحمد توفيق المدني في زيارته للكويت: لم نجد كويت اليوم، بل وجدنا كويت الأمس، أنزلونا في دار للضيافة بسيطة جدّ البساطة لم نجد فيها ونحن في يوم 6 ديسمبر أي مكيف للهواء ولا أي أثر من اثار النعمة التي أضفاها الله على الكويت فيما بعد، وتشرفنا بمقابلة سمو الأمير عبد الله السالم الصباح في بيت متواضع تداعى للخراب، وقد استمتعت نفسي بما وجدته مكتوباً على باب ما كانوا يدعونه قصراً: لو دامت لغيرك ما وصلت إليك.

وكان الأمير الجالس إلى مكتب متواضع في غرفة بسيطة كثير الوعي واضح الذكاء واسع الاطلاع بادي الهمة يتحدث فيمتع، صوته هادأئ، وكلامه رصين، وهو راوية للشعر العربي الفحل، يتمثل في كلامه بأبيات منه، كأنما هو قائلها، لشدة انطباقها على الواقع.

كان يقول: نحن نشارككم في كفاحكم، فلا تهنوا ولا تحزنوا، سيزداد مقدار إعانتنا على مقدار ما ستزداد مداخيلنا، وإنكم لواجدون عندنا بحول الله ما تحبون.

وقابلنا بعده بعض الأمراء، واجتمعنا طويلاً مع لجنة الجزائر المكلفة بتنظيم أسبوع الإعانة وهي لجنة من الواعين المدركين المضحين، كانت تجتمع حول قطبين هما، الدكتور الخطيب والسيد الأستاذ يوسف الفليج. وقد سمت وتعالت أعمال الكويت فيما بعد معنا إلى أن بلغت القمة في اخر عهد الكفاح(1).

وبمناسبة الذكرى السابعة لاندلا ع الثورة الجزائرية، تبرع أمير الكويت بمبلغ صبه في حساب جبهة التحرير لدعم الثورة الجزائرية، وقد قدر انذاك بثلاثة ملايين دولار.

وفي إحدى زيارات وفد جبهة التحرير الوطني الجزائرية برئاسة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية انذاك السيد فرحات عباس إلى الكويت، أكد أميرها مرة أخرى للوفد الجزائري تمسك بلاده وشعبه بدعم الثورة الجزائرية مادياً ومعنوياً. ومما جاء في تأكيده هذا ما يلي: كنا معكم قلباً ثم صرنا معكم قلباً ومالاً ومهما اتسعت أموالنا زدنا في إعانة الجزائر، لا نتقيد بميزانية ولا نحدد المدد بعدد(2).

ودعمت حكومة الكويت أسبوع الجزائر لمناصرتها، وبادرت إلى تأسيس لجنة كويتية تقوم بجمع الإعانات والتبرعات لصالح الثورة، ولمواصلة هذا الدعم أجبرت الحكومة الكويتية كل العمال في القطاعات الحكومية على دفع مبالغ مالية من أجورهم تضامناً مع الشعب الجزائري، بالإضافة إلى إصدار طوابع بريدية خاصة بدعم الثورة الجزائرية على أساس أنها واجب قومي(3).

وكانت الكويت من الدول العربية التي فتحت أبوابها للطلبة الجزائريين، وكان بها قبل الإعلان الرسمي عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ثلاثة وعشرون طالباً يدرسون بالمرحلة الثانوية بمعهد الشيوخ

---

(1) حياة كفاح (528/3).

(2) مواقف الدول العربية ص 324.

(3) المصدر نفسه ص 325.

النموذجي، وكانت الحكومة الكويتية هي التي تتكفل بكل نفقات الطلبة الجزائريين، إلى جانب منحهم مبلغاً من المال قدره ثمانون ألف فرنك مع تذكرة سفر خارج الكويت، يضاف إليه مبلغ اخر قيمته ستة الاف فرنك لتغطية مصاريف كل طالب.

وفي نفس السياق تمكن وفد الحكومة الجزائرية المؤقتة عند زيارته للكويت من الحصول على أربعين مقعداً إضافياً للطلبة الجزائريين، وقد وعدت الحكومة الكويتية رفع العدد في المستقبل ورفع المنح المخصصة لهم إلى مائة ألف فرنك، وقد وصل عدد طلاب الثانوية من الجزائريين في الكويت إلى سبع وثلاثون طالباً كانت نفقاتهم كلها على حساب السلطة الكويتية الرسمية[1].

وسمحت السلطات الكويتية بتخصيص ساعات في إذاعتها الوطنية للثورة الجزائرية، وكانت بقدر ثلاث ساعات أسبوعياً مما سمح لشرائح واسعة من سكان الخليج العربي يتعرفون عن القضية الجزائرية وأن هناك شعب عربي في منطقة المغرب العربي يعاني ويلات الاستعمار الفرنسي هو الشعب الجزائري.

لقد وقفت الكويت أميراً وحكومة وشعباً بجانب الثورة الجزائرية وواكبت أطوارها، وأدركت تماماً أن فرنسا الحضارة هي فرنسا الدمار والإبادة في الجزائر[2].

واقترنت المساعدات المادية الكويتية للشعب الجزائري منذ انطلاقة الشرارة الأولى للثورة سنة 1954م بمؤازرة وجدت ترجمتها على كافة الأصعدة المعنوية والإعلامية والسياسية، وأدركت الكويت منذ انطلاقة الثورة الجزائرية، أن المساندة المطلوبة للشعب الجزائري ليست مساندة مادية فقط وإنما هي مساندة ومناصرة الشقيق ضد المغتصب، الأمر الذي انطلقت منه الكويت حكومة وشعباً تعلن موقفها المساند واستعدادها للتضحية بكل ما تملك في سبيل نصرة الحق واستعادة الكرامة والاستقلال، هذا على الرغم من أن الكويت لم تكن نالت استقلالها السياسي بعد[3].

وقد صرّح رئيس الحكومة المؤقتة لدى استقباله للبعثة الطبية الكويتية «1962م» فقال: صحيح أن كفاح الشعب الجزائري في الداخل قد حطم الاستعمار ولكن هناك جهود الشعوب العربية.. الكويت وقادتها الأشاوس بما قدموا من تبرعات ومساعدات وتأييد ؛ أثرت كلها في سير المعركة[4].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 325.

(2) المصدر نفسه ص 327.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 100.

(4) المصدر نفسه ص 100.

سابعاً: قطر:

شارك القطريون أميراً وشعباً في دعم الثورة الجزائرية ومناصرتها معنوياً ومادياً. في المدارس كان التلاميذ يقومون بتحية المجاهدين بالجزائر بعد تحية العلم القطري، ويرددون أبيات ثورية جزائرية، والزائر لمتحف المجاهد بمحافظة الجزائر الكبرى يجد صورة الأمير الوالد حمد بن خليفة ال ثاني، وهو ينشط داخل المدارس لجمع التبرعات المالية والمادية لدعم حرب التحرير الجزائرية، وشارك في التعبئة الجماهيرية داخل المدارس لمساندة الشعب الجزائري في صراعه مع الاستعمار الفرنسي، لذلك ومن باب الامتنان قُلد أمير دولة قطر وسام الاستحقاق «أصدقاء الثورة الجزائرية» خلال زيارته للجزائر ديسمبر 1996م عرفاناً له بهذه الجهود.

تلاميذ المدارس والشعب القطري ككل كان دائماً يردد أبيات شعرية من التراث الشعري القطري حول الثورة الجزائرية:

عاش شعب الجزائر، عاش أبو خالد «الرئيس عبد الناصر»، والجزائر تفوز بحرب الابطال عزها الله على كل من يعاديها.

في المدارس كانت الأناشيد الوطنية الجزائرية تردد يومياً، وكانت التجمعات الطلابية دورياً تدين الاستعمار الفرنسي وتدعو لمقاطعة البضائع الفرنسية. الدعم المعنوي المالي لم يكن فقط من الشعب القطري، بل كذلك من السلطات القطرية نفسها عن طريق تخصيص أموال خاصة بالثورة الجزائرية، بالإضافة إلى فرض رسوم على الكثير من الخدمات لصالح الثورة الجزائرية، وسمحت بتأسيس لجان لجمع التبرعات المختلفة من حلي وذهب وأشياء مادية أخرى[1].

وأهم حدث ميز الموقف القطري تجاه الثورة الجزائرية هو المبادرة القوية التي قام بها أمير دولة قطر عام 1961م، عندما سلم قصره المتواجد في سويسرا لوفد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، الذي كان يجري مفاوضات مع الحكومة الفرنسية حول تقرير مصير الجزائر، وكان هدف أمير قطر هو أن تكون للوفد الجزائري المفاوض كامل الحرية المطلقة في تحديد قراراته حول مستقبل الجزائر، دون أي ضغط من أية جهة غربية أخرى، وقد رفع العلم الجزائري على مدخل القصر[2].

وقام أمير قطر بتمويل وتموين وتوفير احتياجات الوفد المفاوض في إيفيان، وشعر الوفد وكأنه يتفاوض على أرضه بعيداً عن أية مضايقات[3].

وكانت الوفود الجزائرية المكلفة بالتعبئة والإعلام حول بشاعة الاستعمار الفرنسي ؛ تجد استقبالاً حاراً وتحية متزايدة على المستوى الشعبي وعلى مستوى الدوائر الحكومية. وكان الاهتمام الإعلامي القطري بالثورة الجزائرية

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 101.

(2) مواقف الدول العربية ص 321.

(3) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 102.

مكثفاً، وتنقل للشعب القطري أحداث حرب التحرير الجزائرية، وتلقى محاضرات وتنظم ندوات تنشطها وفود جزائرية زارت قطر دورياً.

وخرج القطريون في الشوارع للتعبير عن فرحتهم بالانتصار عند إعلان استقلال الجزائر يقولون: تعلمنا من الثورة الجزائرية الصبر والعز والكرامة.

وبنفس المحتوى أثناء استقباله للسيد عبد القادر قارة، سفير الجزائر بقطر سابقاً، عبّر له أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة ال ثاني عن مدى تقديره الخاص للثورة قائلاً:

من ثورة الجزائر تعلمنا الصبر والكفاح، ومن ثورة الجزائر تعلمنا الاعتماد على النفس، وأتمنى لكل ثورة عربية ضد الاحتلال أن تتعلم من ثورة شعبكم[1].

* * *

(1) المصدر نفسه ص 102.

ثامناً: العراق:

مر الموقف العراقي تجاه الثورة الجزائرية بمرحلتين، الأولى انتهت مع الإطاحة بالنظام الملكي «14 جويلية 1958م» في هذه المرحلة بحكم نفوذ أو ضغوط الدول الغربية خاصة بريطانيا ذات التأثير الكبير، واضطرت الحكومة للاستجابة النسبية لضغوط الشعب العراقي الذي خرج يندد بالاستعمار الفرنسي ومعلناً التأييد للثورة الجزائرية، وشكّل لجان المساندة المادية بما فيها جمع تبرعات مالية وطبية وغذائية، وكانت المساعدات العراقية الغذائية فعالة لأنها تأتي في الأزمات، وضمنت الحكومة العراقية 250 مليون فرنك فرنسي سنوياً لدعم حرب التحرير الجزائرية، وخصصت 250 ألف جنيه استرليني تدفع لجامعة الدول العربية لمساندة القضية الجزائرية.

وكان شعراء العراق في الموعد، ويعتبرون من أكثر شعراء الدول العربية غزارة في الثورة الجزائرية، واستطاع الأستاذ عثمان سعدي أن يجمع في مجلدين شعر العراق في الثورة الجزائرية وسمّاه «الثورة الجزائرية في الشعر العراقي».

وفي الدورة العاشرة للجمعية العامة للأمم المتحدة جاءت أول محاولة لإدراج القضية الجزائرية في أعمالها العادية، وهي أول دورة عادية تنعقد بعد قيام الثورة الجزائرية، وذلك على إثر طلب تقدمت به أربع عشرة دولة أفرو. اسيوية في 26 جانفي «يناير» 1955م، وكان الوفد العراقي برئاسة فاضل الجمالي في هذه الدورة من بين الوفود التي طالبت بإدراج القضية الجزائرية في جدول أعمال الجمعية العامة، وقد ركز رئيس الوفد العراقي على أن الثورة الجزائرية تطرح الان على أساس أنها قضية إنسانية لكونها قامت من أجل تحرير شعب اغتصبت أرضه وسلب استقلاله، وأنه في الوقت الذي تقوم فيه الطائرات الفرنسية بإلقاء القنابل ؛ فإنه لا يمكن لأعضاء الأمم المتحدة عرض هذه المسألة على اعتبار أنها تخص قضايا فرنسا الداخلية(1).

ونظراً للمعارضة القوية التي واجهتها الدول الأفرو. اسيوية في الجمعية العامة للأمم المتحدة من طرف فرنسا وحلفائها وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية ؛ اكتفت هذه الأخيرة ومنها العراق بالتصويت في اللجنة الأولى على إدراج القضية الجزائرية بأغلبية صوت واحد(2)، كما لعبت العراق دوراً بارزاً تجاه الثورة الجزائرية من خلال دعم قضية الشعب الجزائري في الدورة الحادية عشر التي طرحت في الجمعية العامة، وكانت العراق من بين الدول التي قدمت مذكرة شديدة اللهجة، اتهمت فيها فرنسا القيام بأعمال قمع عسكرية واسعة النطاق في الجزائر، وهو انتهاك للاتفاقية الدولية التي تحرم إبادة الجنس البشري، وكشف سياسة فرنسا القائمة على إبادة شعب الجزائر وقمعه، وذكرت المذكرة أن فرنسا رفضت سياسة التوفيق في الجزائر(3).

وركز فاضل الجمالي على أهم الأسباب التي تجعل من الثورة الجزائرية قضية دولية، وأنها ليست مسألة داخلية فرنسية كما أدعى وزير خارجية فرنسا السيد «بينو»، فكان رده هو أن الادعاءات الفرنسية بأن المسألة الجزائرية تخص فرنسا وحدها إدعاء باطل، والحقيقة أن الجزائر ليست فرنسا وأن الجزائريين ليسوا فرنسيين، لذا فإن هذه

---

(1) مواقف الدول العربية ص 256.

(2) المصدر نفسه ص 256.

(3) المصدر نفسه ص 257.

القضية أصبحت مسألة دولية وليست مسألة داخلية فرنسية، ومن بين أهم الأسباب التي أوردها مندوب العراق السيد فاضل الجمالي ما يلي:

. الوضع داخل الجزائر يمكنه أن يحدث خلافات حادة في العلاقات الدولية، وأن تواطؤ فرنسا مع إسرائيل في ضرب مصر كان انتقاماً من جانب فرنسا ضد مصر التي دعمت شقيقتها الجزائر.

. تواطؤ الحلف الأطلسي مع فرنسا في حربها ضد الجزائر بدعمه إياها لنصف مليون من قواته في الجزائر، إلى جانب نفقات فرنسا العسكرية في الجزائر والتي تفوق مليون دولار يومياً، وبذلك يكون الحلف الأطلسي قوة قائمة لسحق الحريات والديمقراطية في الجزائر.

. اعتراف تسع وعشرين دولة في مؤتمر باندونغ بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره، والنضال من أجل استرجاع سيادته واستقلاله. ولحل القضية الجزائرية، أكد ممثل العراق على الطرق السلمية لتحقيق ذلك مركزاً على ما يجب أن تقوم به الدول الغربية بالدرجة الأولى في التخلي عن أساليبها القديمة القائمة على الاستعمار والاستغلال[1].

وخلص ممثل العراق إلى القول بأن على هيئة الأمم المتحدة أن تؤدي واجبها أخلاقياً وقانونياً تجاه الثورة الجزائرية وقضيتها العادلة، وذلك بالضغط على الشعب الفرنسي وحكومته قصد معالجة هذه القضية بنفس الطريقة والروح التي عولجت بها قضيتا تونس ومراكش[2].

وكانت إعانة العراق في الحكم الملكي بسبب الضغوط الشعبية من الأفاضل وأصحاب النخوة، وفي زيارة أحمد توفيق المدني عبّر عن استيائه في زيارته في العهد الملكي في مذكراته، وتحدث مع علي جودت الأيوبي رئيس الحكومة وجهاً لوجه، قال المدني بلغة التلميح التي فتحت بصيرته إلى واقع راه فيما بعد رأي العين: إن العراق لم يستطع أن يتقدم للميدان الجزائري كما يريد، لقد أعانتكم الحكومة إعانة بسيطة خضعت فيها لظروف الزمان والمكان، لكن لن يطول بكم الانتظار فيما أعتقد سترون من العراق إعانة لا تتصورونها الان، فما من شعب كشعب العراق يقدّر قيمة الكفاح الجزائري ويحدب على الكفاح الجزائري، إن معركتكم لا تزال طويلة وستجدون العراق ليكمل معكم المسيرة[3].

1 . الدعم المالي بعد إسقاط الملكية بالعراق:

زار وفد من الحكومة المؤقتة العراق يوم الثلاثاء 21 أفريل 1959م برئاسة فرحات عباس وكان معه: أحمد توفيق المدني، وكريم بلقاسم، ومحمود الشريف، إبراهيم مزهودي، وعبد الرحمن اليعلاوي، من ضمن رحلات قاموا بها للبلاد العربية، وهذا أحمد توفيق المدني يصف لنا ماذا حدث: خرج لاستقبالنا بحر من البشر هائج

(1) المصدر نفسه ص 258.

(2) المصدر نفسه ص 258.

(3) حياة كفاح (527/3).

مائج احتل الطرق والساحات واحتل المطار واحتل نفس مجال الطيران، فاضطربت الطائرة المقلة لنا لاختراق الصفوف المتراصة وهي تسير سير الغيلم خشية إحداث مجزرة بشرية.

بعد نصف ساعة على الأقل أسكنت الطائرة محركاتها ونزلنا فتلقفتنا أيدي الجماهير، وبعد لأي وعناء تمكن الرئيس عبد الكريم قاسم من اللحاق بنا، بينما كانت أكف نحو المائة ألف رجل تتلقف أعضاء بقية الوفد، وتسير بهم حسبما تسمح به حركة الجماهير ذات اليمين وذات الشمال، وسقط أحدنا أثناء الزحام فداسته أقدام الجماهير وسال دمه من جراحاته، وبعد ساعة أو أكثر من ساعة التحق بنا في غرفة المطار بقية رجال الوفد، وكانت المظاهرة الصاخبة قد أحيت امالهم وأنعشت أرواحهم، وكادت في نفس الوقت تقضي على أجسامهم، وقال عباس فرحات بلسان عربي قلّما نطق به: هؤلاء أحبونا ففعلوا بنا ما فعلوا، فماذا كانوا يفعلون لو أنهم يكرهوننا؟

بعد ثلاثة أيام عقد عبد الكريم قاسم مجلس الوزراء ودعانا إلى حضوره في بناية وزارة الحربية، فرحب بنا ترحيباً حاراً بليغاً، وكانت به شبه لُكنة تخالف ما اتصف به أهل العراق قاطبة من فصاحة اللسان وجزالة القول وضخامة الألفاظ، وأناط بي الأستاذ فرحات عباس مهمة الإفصاح عن رغائب الجزائر، ووضعية كفاحها وحاجتها الملحة إلى المدد السريع الفعال.

فشكرت العراق شعباً وحكومة على ما أبداه من روح ثورية عالية، ونددت بما كانت أبدته حكومة قبل الثورة من تقاعس عن المدد لا يتجانس مع روح العراق، ولا يتفق مع عاطفته الملتهبة نحو الجزائر وجهادها.

وقلت بعد أن شرحت الموقف الحربي فوق المصور الجغرافي: الان جاءت الساعة الحاسمة، ساعة بعدها النصر، أو بعدها الفناء، المال والسلاح، هذا ما نطلب من العراق. نريد المال الجزيل والسلاح الوافر، فالعرب كلهم تقدموا فيما مضى بما يستطيعون . والان جاء دوركم فانظروا ماذا أنتم فاعلون؟

قال عبد الكريم قاسم: كفاح الجزائر أمر أساسي في كفاح العرب العام، ولن ينجح العرب أصلاً في مستقبل أيامهم، ما لم تفز الجزائر باستقلالها، كلنا للجزائر، أما السلاح فسنعطيكم سريعاً ما لدينا، ومن أجود الأنواع، وأما المال فهو الان قليل بين أيدينا لكنا لا نبخل عليكم بشيء، وسنتحمل فوق ما نستطيع.

قلت: المال بالنسبة لنا اليوم كالسلاح، وقد تطورت المعركة سياسياً كما تطورت حربياً، فالسلاح للتطور الحربي، والمال للتطور السياسي.

نطق السيد حديد وزير المالية فقال: لا نجد بين أيدينا اليوم شيئاً من المال. فكيف نستطيع أن نعطي من خزينة خاوية على عروشها؟

فأجابه عبد الكريم قاسم بلهجة شديدة وقال: سواء كان لدينا المال أو لم يكن عندنا منه شيء فواجبنا إمداد الجزائر حالاً، أخِّرْ دفع مرتبات الموظفين، أخِّرْ إنجاز المشروعات التي لديك، أخرّ كل شيء إلا الجزائر، يجب أن تغاث حالاً.

ودخلنا في جدال من أجل تعيين مقدار المال، طلبت ستة مليارات من الفرنكات القديمة، فصرخ السيد حديد وكاد يلطم وجهه، لا نستطيع إطلاقاً أبداً . ونحن على حالنا الان . أن نجد أكثر من مليارين، على أن ينالنا منها ضيق شديد، قال قاسم . وبقية الوزراء لا يقولون كلمة .: إن الستة التي طلبها الأخ توفيق غير ممكنة الان، وإن المليارين اللذين قال عنهما حديد لا يكفيان، فأنا أقترح أن يكون المقدار ثلاثة مليارات، نتعهد بدفعها سنوياً ما دام الكفاح الجزائري مستمراً إلى أن يتم الاستقلال.

قلت: فلو زدت عليها ملياراً؟ قال: غير ممكن وأرجو الأخذ باقتراحي. فسكت الجميع وتلك علامة المصادقة.

قلت مغتنماً: أما وقد تقرر هذا ونحن شاكرون؛ فلنعين اجال الدفع، قال حديد: إننا ندفع حسب الإمكان.

قلت:

أبداً، إن تكاليفنا كثيرة ويجب أن نعرف مداخيلنا بصفة مضبوطة، فما رأيكم لو قسمناها أربعة أقساط يكون كل قسط «750» مليوناً، تدفع في اجال محددة كل 15 يناير، و15 افريل، و15 يوليو، و15 أكتوبر؟

أراد حديد أن يتكلم، فقاطعه الرئيس قاسم قائلاً: أنا قبلت هذا الاقتراح، فسجل عندك اجال الدفع، وأريد أن لا يتأخر الدفع أصلاً إطلاقاً.

وهكذا كان والله!. فمنذ تلك الساعة، إلى يوم استقلال الجزائر لم يتأخر قسط عن موعده المحدد، فحيا الله همة العراق، وحيا الله شعب العراق[1].

2 . الدعم بالسلاح:

كان التنسيق بين العسكريين العراقيين والجزائريين مكثفاً ومنظماً وسرياً، والنقل كان مباشرة عن طريق الطائرات العراقية نزولاً بليبيا، بإشراف مباشر عراقي جزائري، بالتنسيق مع السلطات الليبية، ولم يتوقف الطيارون العراقيون من إيصال السلاح للمكان، وفي الموعد المحدد، وقدم العراق للجزائر حتى أدق الأسلحة، وأجهزة اتصال عسكري «50 جهازاً» يصعب الحصول عليها في مكان اخر، لأن العراق تحصل عليها من منظمة الحلف الأطلسي عندما كان عضواً في حلف بغداد[2] قبل . انقلاب عبد الكريم قاسم .

3 . طلبة الجزائر في العراق:

سمحت الحكومة العراقية للطلبة الجزائريين بالتدريب في كلياتها العسكرية، وذلك تحت نفقتها، حيث بلغ عدد الخريجين الجزائريين من هذه الكلية العراقية الحربية ما يقارب الأربعين عسكرياً برتبة ملازم ثان، هذا إلى جانب كلية الطيران التي استقطبت ما يقارب 27 طالباً عام 1962م منهم خمسة طيارين[3].

(1) حياة كفاح (627/3).

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 96

(3) مواقف الدول العربية ص 271.

4 . مقاطعة فرنسا:

قررت الحكومة العراقية في 13 نوفمبر 1958م وقف كل نشاط اقتصادي وتجاري للفرنسيين في العراق، وكان لهذا القرار تأثير سلبي كبير على المصالح الاقتصادية الفرنسية بالعراق، بحيث أن 70% من المشاريع العراقية الكبرى مثل الطرق، وإقامة الجسور وبناء السدود، والمنشات العامة والمصالح الكبرى ؛ كانت تنفذ من طرف شركات فرنسية، واعتبرت مجلة المجاهد هذا القرار موقفاً رائعاً جاء تدعيماً عملياً لثورة الجزائر، وتعبيراً قوياً عن وحدة النضال العربي الذي صهرته بوتقة الالام والامال المشتركة، مشاعر قومية أصيلة رسبت في أعماق النفس العربية أجيالاً طويلة لتظهر اليوم كأشد ما تكون حرارة وحيوية وقوة[1].

5 . تعبئة شعبية ودعم في المحافل الدولية:

على المستوى الجماهيري كان الانسجام متكاملاً وقوياً بين الحكومة والشعب على كل المستويات، من أجل التعبئة المعنوية والمادية للمعركة القومية في الجزائر، بما فيها المظاهرات والاحتجاجات الجماهيرية المتكررة والمكثفة دورياً وفي كل مناسبة، وعلى رأسها ذكرى أول نوفمبر التي مثلت حدثاً بارزاً في العراق، وأعطيت اهتماماً خاصاً من طرف العراقيين حكومة وشعباً.

ومن بين مظاهر الاعتبارات الخاصة خصصت الحكومة العراقية العشرة دقائق الأولى في المدارس إلى تدريس القضية الجزائرية والتحسيس بها، وكانت إذاعة بغداد تخصص برنامجاً يومياً حول الثورة الجزائرية لمضاعفة تدعيم وتعبئة الشعب العراقي والعربي بصفة عامة للوقوف لجانب إخوانهم بالجزائر، وعممت وكثفت الحكومة العراقية التعبئة الجماهيرية والاحتجاجات الشعبية عبر التراب العراقي منددة بالأعمال الإجرامية والأساليب الوحشية، التي تستخدمها جيوش فرنسا ضد الشعب الجزائري[2] .

وعلى مستوى العلاقات الثنائية الرسمية، وصل الموقف العراقي لدرجة النقد والهجوم القوي ضد أي إجراء يمس أو يؤثر مباشرة أو غير مباشرة على مسار حرب التحرير الجزائرية، حتى ولو حدث ذلك مع دولة مثل الاتحاد السوفياتي التي تهم المصالح الوطنية الحيوية للعراق، فعبد الكريم قاسم الرئيس العراقي دون تردد حذّر خروتشوف الرئيس السوفياتي من زيارة حاسي مسعود «بالجزائر»، معتبراً ذلك مساساً بالعلاقات الثنائية بين العراق والاتحاد السوفياتي والعلاقات العربية السوفياتية ككل[3].

وكان العراق أول قطر عربي يعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة، يقول الأستاذ توفيق المدني: ما كدت أنتهي يومئذ من قراءة النص العربي لإعلان الحكومة المؤقتة ومناهجها حتى تقدم سفير العراق المحامي فائق السامرائي

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 95.
(2) المصدر نفسه ص 93، 94.
(3) المصدر نفسه ص 91.

الثائر الفائر، فأعلن اعتراف العراق بالحكومة الجديدة ووعد العراق بالإعانة الكاملة للثورة الجزائرية والتأييد المطلق[1].

كما كانت العراق في مقدمة الأقطار العربية سياسياً ودبلوماسياً في العمل على تدويل القضية الجزائرية، وفي خطاب للسيد هاشم جواد وزير خارجية العراق في افتتاح مؤتمر وزراء الأقطار العربية ببغداد «30 جانفي 1961م» أكد فيه: إن معركة الجزائر التي خضناها في الأمم المتحدة مازالت تستدعي مزيداً من العمل والتضحية، وتستوجب توفيقاً في الخطط في الشدة على العدو بشتى الوسائل الاقتصادية والسياسية المتيسرة مساندةً للجهود العسكرية الجبارة والكفاح المرير الذي يخوضه إخواننا الجزائريون[2].

وكان العراق يستغل أية فرصة لعلاقاته الثنائية لتوظيفها لصالح القضية الجزائرية، خلال زيارة. «أفريل 1960م» مثلاً. وفد حكومي أندونيسي للعراق، أصدر وفدا الحكومتين بياناً مشتركاً أدانا فيه الاستعمار الفرنسي، ومطالبته بفتح مفاوضات سريعة ومباشرة من أجل استقلال الشعب الجزائري. وبنفس النشاط والتعبئة كانت مواقف العراق في المحافل والهيئات الدولية: لقد ان الأوان لكي تتخذ الأمم المتحدة موقفاً أكثر إيجابية من المشكل الجزائري، ويجب عليها اليوم أن تخطط برنامجاً يساعد على تطبيق مبدأ حرية تقرير المصير بالجزائر بعد أن خيب الجنرال ديغول الرأي العام[3].

كان التاييد العراقي للجزائر جدياً وملتزماً، ونتائجه كانت ملموسة ومؤثرة إيجابياً على مسار الثورة الجزائرية، وهذا باعتراف السيد فرحات عباس بعد زيارته للعراق أفريل 1959م: زيارتنا للعراق الشقيق تعتبر نصراً كبيراً للقضية الجزائرية، حكومة العراق أدت واجبها كاملاً، وعلى الخصوص فيما كانت قد تعهدت به إلينا[4].

ونفس التقييم تضمنه البيان المشترك بين حكومتي العراق والجزائر أثناء زيارة الوفد الجزائري برئاسة السيد فرحات عباس: العراق حكومة وشعباً يؤازر القضية الجزائرية بالأسلحة والأموال وفي الميدان العالمي، كما تضمن البيان مطالبة الشعوب والبلدان العربية بمضاعفة المساعدات والدعم السياسي والمادي للثورة الجزائرية والإسراع بتنفيذها[5].

تاسعاً: سوريا:

تميز موقف الشعب السوري بالتأييد المطلق للثورة الجزائرية، والانتقاد الشديد لأي موقف لحكوماتهم لا يرقى للأهداف والوسائل الكاملة لحرب التحرير الجزائرية، ومطالبين سواء إعلامياً أو عن طريق المظاهرات أو في

(1) المصدر نفسه ص 91.
(2) المصدر نفسه ص 92.
(3) المصدر نفسه ص 94.
(4) المصدر نفسه ص 98.
(5) المصدر نفسه ص 98.

المجلس النيابي «الممثل نوابه من مختلف الأحزاب» بمقاطعة فرنسا، والضغط على جامعة الدول العربية لاتخاذ موقف فعال وواضح ومؤيد دون تحفظ لتحرير كل الأراضي العربية المحتلة.

1 . مواقف للبرلمان السوري:

تزامناً مع تحول حرب التحرير الجزائرية إلى مرحلة هامة في التنظيم والشمولية عقب مؤتمر الصومام «أوت 1956م» ؛ كثف مجلس النواب السوري من جلساته، من أجل متابعة تصاعد حرب التحرير الجزائرية وتضاعف قمع الاستعمار الفرنسي للشعب الجزائري، وخصص جلسات خاصة لمناقشة مدى التأييد العربي للثورة الجزائرية من خلال مداخلات النواب، والجميع قدم انتقادات شديدة لعدم وصول التأييد العربي للثورة الجزائرية إلى مستوى تضحيات الشعب الجزائري ومستوى قوة القمع الفرنسي، وانتهوا بتبني القرارات التالية:

. استنكار مجلس النواب اختطاف الجزائريين.

. تكليف الحكومة لتبادر فوراً إلى دعوة الحكومات العربية لتخصيص مبلغ لا يقل عن خمسين مليون ليرة سورية لنصرة إخواننا العرب في المغرب، ومدهم بما يحتاجون لممارسة حقهم بتقرير مصيرهم.

. تكليف الحكومة بالاتصال فوراً بالحكومات العربية لإقرار مقاطعة فرنسا سياسياً واقتصادياً وثقافياً.

. تكليف الحكومة بالاتصال فوراً بالحكومات العربية لتهيئة اجتماع على مستوى عال من المسؤولين العرب، بما فيهم المسؤولين في تونس ومراكش وممثلي الجزائر، لإقرار الخطط الواجب اتباعها لمساعدة الجزائر في بلوغ أهدافها في الحرب والاستقلال.

. إبلاغ حكومتي تونس ومراكش تأييد سوريا لموقفها السليم من الأحداث الأخيرة.

وجدت هذه القرارات موافقة دون تحفظ من طرف رئيس الحكومة السوري السيد صبري العسلي الذي حضر الجلسة ووعد بتنفيذها، وبرز التجاوب الحكومي مع رد الفعل الجماهيري وممثليه في مجلس النواب، وخرجت الجماهير منددة بالاستعمار الفرنسي واختطافه لقادة الثورة الجزائرية بعد عملية القرصنة الجوية، وأدان السوريون بشدة الاستعمار الفرنسي، مطالبين بمضاعفة التأييد المادي في جميع المجالات، من أجل إفشال خطط الاستعمار الغاشم لإضعاف الثورة الجزائرية[1].

2 . الرئيس شكري القوتلي:

تضاعف الدعم الحكومي السوري في عهد الرئيس شكري القوتلي، ومنذ البداية اتخذ مواقف مبدئية مؤيدة للثورتين المصرية والجزائرية، ومندداً بكل محاولات التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان العربية من طرف القوى الكبرى وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، وبهدف تدعيم الوجود السياسي الجزائري دولياً ؛ عملت سوريا على استغلال أي حدث وطني بسوريا له طابع دولي للتحسيس بالقضية الجزائرية وإشراك الجزائر مباشرة فيه، مثلما حدث في معرض دمشق الدولي «أكتوبر 1957م»، وأثار الجزائريون فيه دوياً، ويستغل ممثلو

(1) المصدر نفسه ص 82.

الجزائر هذه التظاهرة لدعم قضيتهم، واللقاء مع الوفود الرسمية بتشجيع وتنسيق قادة الحكومة السورية، وعلى رأسهم الرئيس القوتلي نفسه، وخلال زيارته لجناح الجزائر أكد القوتلي وقوف حكومته دون تحفظ بجانب أي قضية عربية ذات بعد قومي، داعياً العرب حكومات وشعوباً إلى مد يد العون وتأييد الجزائر في جهادها ضد الاستعمار[1].

وأكد للوفد الجزائري الذي زار سوريا في مارس 1957م: إن سوريا مشتركة معكم في القتال، إن أردتم سلاحاً أمددناكم بالسلاح، وإن أردتم مالاً عندنا ما نستطيع بذله، وإن أردتم رجالاً فرجال سوريا مستعدون لخوض الوغى إلى جانبكم، أقول لكم هذا علناً وجهراً لكي تسمع فرنسا قولنا، ولكي تعلم أننا قوم جد لا هزل، وأنا أكلم قائد الجيش السوري هنا أمامكم ليفتح مخازن الذخيرة حتى يأخذ منها المجاهدون الجزائريون ما يريدون، لقد عقدنا العزم النهائي على أن نموت أو نحيا معاً، وستكون لنا الحياة الحرة الكريمة بإذن الله[2].

وبمناسبة يوم 30 مارس 1958م الذي دعت إليه منظمة تضامن الشعوب الأفرو. اسيوية لتنظيم تظاهرات وجمع التبرعات والتحسيس بالقضية الجزائرية عبر البلدان الإفريقية والاسيوية ؛ أكد الرئيس القوتلي إلى ممثلي جبهة التحرير الوطني بدمشق بأن قضية الجزائر قضيتنا، وحدودها حدودنا، ونضالها نضالنا، ومصيرها مصيرنا، وإني على يقين بأن شعب الجمهورية العربية المتحدة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر سيكون على رأس كل حركة قومية تنازع أطماع المستعمرين[3].

3 . يوم الجزائر:

في يوم 10 رمضان عام 1377هـ الموافق 30 مارس 1958م، كانت دمشق العاصمة السورية على موعد مع يوم الجزائر الذي تميز بإقامة الاحتفالات والمهرجانات الثقافية، أبرزها ذلك الاحتفال الذي أقيم تحت الرعاية السامية لرئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي، وبحضور العديد من الوزراء والشخصيات البارزة منها: وزير الداخلية انذاك عبد الحميد السراج، نوري الإيبش، وفاخر عاقل، والسيدة قمر قزعون شورى، والسيد أكرم الحوراني نائب رئيس الجمهورية، والسيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم، والأمين العام لجامعة الدول العربية السيد عبد الخالق حسونة، ومنظر القومية العربية ميشال عفلق، وكذلك سفير المغرب في دمشق السيد المحجوب بن الصديق، وممثل جبهة التحرير الوطني الغسيري[4].

وقد تم تشكيل هيئة بالعاصمة السورية دمشق يتمثل عملها في جمع التبرعات المالية، وقد عرفت هذه الهيئة بجماعة أسبوع الجزائر، حيث كانت تقدم الأموال بعد جمعها إلى مكتب جبهة التحرير الوطني الجزائرية بدمشق، وهو من جانبه يقوم بوضعها في أحد البنوك هناك، وكان عمل جماعة أسبوع الجزائر تجاه الثورة الجزائرية بتوجيه

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 84.
(2) المصدر نفسه ص 85.
(3) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 85.
(4) مواقف الدول العربية ص 243.

من الرئيس شكري القوتلي، وبأمر منه. وخلال الأسبوع الجزائري في مارس 1957م مثلاً تسلم الوفد الجزائري 1،800،000 ليرة سورية و 49،130،132 دولار بصكوك موقعة من الرئيس القوتلي نفسه، وفي نفس السنة تسلم ممثل مكتب جبهة التحرير الوطني بدمشق صكاً اخر قدره مليار وخمسة ملايين فرنك[1].

4 . أطفال سوريا:

في وصف السيد أحمد توفيق المدني لزيارته لسوريا قال: .. وعند خروجنا من المقبرة قبيل الغروب وجدنا أنفسنا أمام جماعة من الصبية يعودون من المدرسة إلى ديارهم وأحاطت بنا شلة منهم، وقال قائل: من أنتم أيها السادة؟ قلت له: نحن من الجزائر. فصاح التلاميذ كلهم بصوت واحد: لتحيا الجزائر لتحيا الجزائر، وقال لي أصغرهم سناً: بالله سلموا على كل من يضرب البارود في الجزائر.

بهذه الكلمة البسيطة الحارة الصادرة عن قلب مؤمن مطمئن انطبع حب دمشق وأهل دمشق فوق صفحات قلبي إلى الأبد أعيش به، وأموت به، وأبعث حيا[2].

5 . فتح أرصدة بنكية:

وإلى جانب التبرعات المالية، سمحت الحكومة السورية بتسهيل مهام الوفد الجزائري بفتح أرصدة بنكية قابلة لتحويل العملة الصعبة. ومن أبرز البنوك التي كانت مسرحاً لهذه العمليات بنك الرافدين، الذي كانت توضع فيه الأموال باسم رئيس مكتب دمشق السيد عبد الحميد مهري، الذي تحصل على مكانة مرموقة في دمشق، تفتح في وجهه كل الأبواب، وتذلل أمامه كل الصعاب، يعينه في أعماله إعانة فعالة الأخ الشيخ الغسيري عليه رحمة الله وبركاته[3].

6 . الدعم بالسلاح والذخيرة والرجال والغذاء:

سهلت الحكومة السورية عملية جلب الأسلحة واقتنائها، وقامت بفتح حدودها مع العراق وجعلتها منطقة عبور للأسلحة الاتية من العراق، وهذا بناء على الاتفاق الثنائي بين الحكومة السورية ولجنة السلاح الجزائري، الذي يشترط على سوريا التكفل بتأمين الأسلحة وضمان إرسالها إلى الجهة التي تعينها الهيئة المشار إليها[4].

ولم ينحصر الدعم المادي في الناحية المالية وتزويد الثورة الجزائرية بالأسلحة سواء من مخازن الجيش السوري أو عن طريق فتح حدودها لنفس الغرض، وإنما تجسد هذا الدعم في أرض المعركة حيث فتحت سوريا باب التطوع لكل السوريين سواء الوسط الشعبي أو الوسط العسكري، وبالتالي أصبحت الرغبة في الجهاد لدى السوريين أمراً ضرورياً، لأنه نصرة لإخوانهم الجزائريين الذين هم بأمس الحاجة إليهم أكثر من أي وقت مضى.

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 85.

(2) حياة كفاح (302/3).

(3) حياة كفاح (301/3).

(4) مواقف الدول العربية ص 248.

ومن هذا المنطلق توافد على أرض الجزائر بعض الإخوة السوريين الذين انضموا إلى صفوف الثورة المباركة، ودعموها بضباط سامين ساهموا بدرجة كبيرة في تدريب وتوجيه أفراد جيش التحرير الوطني في الجبال وتلقينهم الأساليب الحربية الجديدة[1].

وإذا كان السلاح بالنسبة للجزائريين قضية ضرورية، فإن المواد الغذائية هي الأخرى كانت ذات أهمية، ودعمت سوريا جبهة التحرير الوطني بكمية كبيرة من القمح بحوالي ألفي قنطار من القمح السوري مجاناً، واستمر الدعم العسكري بالسلاح والعتاد لثوار الجزائر، وتدريب فرق من أعضاء جيش التحرير بما فيها التدريب على الطيران العسكري. وكان الطلبة الجزائريون هناك يعاملون كسوريين ويشاركون الاحتفالات والأعياد الوطنية الرسمية كجنود وضباط سوريين مرتدين الزي العسكري السوري، ويشاركون حتى في الاستفتاءات الوحدوية مثل الاستفتاء على الوحدة بين سوريا ومصر[2].

7 . الدعم العلمي والثقافي:

لم تبخل سوريا على الطلبة الجزائريين في نهل العلم والثقافة والمعرفة، بل دعمت هذا الاتجاه عن طريق فتح المجال لهم، حيث تزايد عددهم ليصل إلى 107 طالب، وهذا بعد المجهودات التي قامت بها جبهة التحرير الوطني ممثلة في مكتبها التمثيلي الذي فتح مفاوضات مع الوزير السوري للتربية والتعليم، انتهت بعقد اتفاق بين الطرفين قبلت فيه سوريا مطالب الجزائريين ومن أهمها: دفع الحكومة السورية منح للطلبة الجزائريين، وإعفاؤهم من رسوم الدراسة، كما يمكنهم التزود مجاناً بالكتب الضرورية[3].

والعلاقة العلمية والثقافية بين الجزائر وسوريا مستمرة إلى يومنا هذا وممتدة جذورها في أعماق التاريخ وعبق الحضارة الإسلامية، وشهدت ازدهاراً واضحاً مع هجرة الأمير عبد القادر إلى سوريا، فلقد لعب الأمير والمهاجرون من الجزائر دوراً ملموساً في التعليم والتربية.

لقد وقفت الحكومة السورية وشعبها قلباً وقالباً مع دعم ثورة الجزائر، وكان للاستعمار والمعاناة والمواجهة المشتركة للشعبين الجزائري والسوري ضد الاستعمار الفرنسي، تأثير متميز في دعم سوريا للكفاح الجزائري العظيم.

* * *

(1) المصدر نفسه.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 86

(3) مواقف الدول العربية ص 242.

عاشراً: لبنان:

كان الدعم المعنوي والمساندة الشعبية والحكومية من لبنان منسجمة مع الخط العربي العام على المستوى الشعبي والحكومي، وعاش الشعب اللبناني أحداث حرب التحرير الجزائرية ومناسباتها وذكرياتها بكل جوارحه، وعبّر باستمرار عن حزنه على قمع الشعب الجزائري، وإدانته للاستعمار الفرنسي وحلفائه بمناسبة الذكرى السادسة «1960» لثورة أول نوفمبر مثلاً، مظاهرات ضخمة عمت لبنان وعبرت فيها الجماهير اللبنانية عن سخطها تجاه الاستعمار الفرنسي، ومنادين بحياة جيش التحرير الجزائري. وبحديقة السفارة الفرنسية ببيروت علق المتظاهرون العلم الجزائري منادين بعروبة الجزائر ولبنان.

وفي نفس المناسبة ألقى السيد صائب سلام رئيس الحكومة اللبنانية خطاباً أكد فيه مساندة لبنان الشقيق لكفاح الجزائر المجاهدة.. لقد قلتم «مخاطباً المتظاهرين» كلمتكم اللبنانية العربية الصميمة، وكان لها وقعها عند العرب وعند إخواننا الجزائريين، إن عهد الاستعمار قد ولى إلى غير رجعة، وقد حطمه أبطال الجزائر[1].

دولياً كان للموقف الرسمي اللبناني بجانب الأقطار العربية الأخرى تأثير فعال في تعبئة المواقف الدولية للوقوف بجانب قضية الجزائر العادلة ومناقشة الموضوع بطريقة شرعية، والعمل على إقناع الجميع بضرورة إعطاء الشعب الجزائري الحرية المطلقة في تقرير مصيره، ذلك ما أكده السيد صائب سلام رئيس الحكومة اللبنانية أثناء تدخله أمام الدورة الخامسة عشرة للأمم المتحدة «أكتوبر 1960»:

بما أن الحكومة الفرنسية لم ترض بالتفاوض حول شروط الاستفتاء الحر، طالبت الحكومة الجزائرية بتنظيم استفتاء تحت رقابة الأمم المتحدة وهو طلب معقول. إنه من واجب الأمم المتحدة أن تضمن حرية الاستفتاء بالجزائر، إذ أن من مصلحة الجزائر وفرنسا والعالم أجمع ألا يتطرق الشك إلى ذهن أحد فيما يتعلق باختيار الشعب الجزائري ونزاهة الاستفتاء[2].

وفي إطار الدعم الرسمي للثورة الجزائرية، فقد أدلى رئيس الحكومة اللبنانية بتصريح رحب فيه برد الحكومة الجزائرية المؤقتة الإيجابي، حول قبول مبدأ المفاوضات، واعتبرها الممثل الوحيد للشعب الجزائري المجاهد. كما جاء إعلان وزير خارجية الجمهورية اللبنانية بعد عام من تصريح رئيس الحكومة وذلك في يوم 17 فيفري 1961م، ليؤكد فيه مرة أخرى على التضامن مع القضية الجزائرية مادياً ومعنوياً، وتضمن قرار بلاده المساهمة بمبلغ مالي قدره 500 ألف ليرة لبنانية لتضاف إلى حساب ميزانية الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[3].

وقد برز دور الطلاب اللبنانيين في تحريك مشاعر الشعب اللبناني من خلال لافتات كتب عليها مطالبة الدول العربية بالعمل السريع لإنقاذ الجزائر، والتنديد بأعمال الاستعمار الفرنسي الوحشية، وأكدوا في هذه المظاهرات العارمة على ضرورة تزويد الجزائر بالسلاح والمال والمتطوعين. وما جلب الانتباه هو تصدر فتاة لبنانية تحمل

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 87.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 87.

(3) مواقف الدول العربية ص 297.

العلم الجزائري وبجوارها فتاة أخرى تحمل العلم اللبناني، ومن بيروت إلى مدن لبنانية أخرى منها طرابلس وصور، التي شهدت بدورها مظاهرات أقيمت على إثرها مهرجانات شعبية كبيرة، طالب فيها المشاركون إرسال برقيات تأييد وتضامن للشعب الجزائري، وضرورة الإسراع في مساعدة الثورة الجزائرية بالأموال والسلاح والمتطوعين، والتأكيد على مقاطعة فرنسا سياسياً واقتصادياً وثقافياً، وتنبيه حكومتهم بالإسراع في دفع مستحقاتها في الميزانية المخصصة للجزائر(1).

ومن جهة ثانية كانت سنة 1961م سنة التضامن الطلابي المتزايد، حيث استنكر شباب مدينة صيدا اللبنانية المؤامرة التي أعلن عنها الرئيس الفرنسي شارل ديغول، لكونها تهدف إلى تقسيم الجزائر، ومحاولة فصل الصحراء عن شمالها لغناها بالبترول، وقد أكدوا وقوفهم الدائم مع الشعب الجزائري في جهاده من أجل استرجاع الاستقلال الكامل والغير منقوص(2).

لم يمر عام على مظاهرات بيروت عام 1960م حتى انفجرت مظاهرات عارمة في ذكرى أول نوفمبر من عام 1961م، وكانت العاصمة بيروت ميداناً لها، حيث جسدت التأييد المطلق للقضية الجزائرية، وجاءت تحية للذكرى السابعة، وقد طاف المتظاهرون كل شوارع بيروت الرئيسية مارين بالسفارات العربية والأجنبية. وكانوا يرددون عبارات التأييد والدعوة لنصرة الشعب الجزائري، واستنكار العدوان الفرنسي الغاشم، وقد استمرت المظاهرات أوقاتاً طويلة. ونفس الحدث شهدته باقي كبريات المدن اللبنانية ومنها طرابلس حيث أقيمت فيها مهرجانات كبيرة إحياء ليوم الثورة الجزائرية(3).

وفي زيارة وفد الحكومة المؤقتة للبنان، وكان أعضاء الوفد: عباس فرحات، كريم بلقاسم، وأحمد توفيق المدني الذي ذكر قصة الزيارة في كتابه فقال:

.. وباشرنا الأعمال فقابلنا الرئيس الكيّس اللبق فؤاد شهاب، ورئيس الوزراء الحازم الفطن رشيد كرامي، ووزير الخارجية النابه الحاج حسين العويني، ورئيس مجلس النواب، وكانت كلها زيارات ودّ ومجاملة تكلمنا خلالها عن كل شيء خاصة قضية الجزائر، وما تتطلبه من جهود وموقفنا الخاص من فرنسا، وقالوا لنا جميعاً: إنهم معنا قلباً ولكن المال والسلاح على مراد الله، ووعدوا بالتأييد التام لدى هيئة الأمم المتحدة وبالسعي لدى فرنسا وهم مدللون لديها.

ثم قابلنا خشبة مسندة تدعى مفتي لبنان، كان يمتاز بصمته وبرودته وبما يظهر عليه من لا مبالاة مطلقة، وبسطت له وضعية الجزائر، فكنت كأنني أخاطب أوثان الكعبة في عصر الجاهلية، ثم قمنا للخروج فودعنا بقوله: الله ينجح المساعي، وخرجنا لا نلوي على شيء.

(1) المصدر نفسه ص 299.
(2) المصدر نفسه ص 300.
(3) المصدر نفسه ص 300.

ومن الغد قابلنا زعيم المسيحيين البطريك «المعوشي» كان رجلاً كاملاً شهماً بديع الكلام جليل الإنصات تحادثنا معه نحو ساعتين، كنا خلالهما في حضرة سياسي من الطراز الأول، وطني عربي من الصادقين، ومناضل يدرك معنى الثورة ويدرك ما تتطلبه الثورة، جادلنا فأحسن جدالنا، ووضعت القضية الجزائرية برمتها على المحك وبسط عنها من ارائه ما ملأنا إعجاباً وتقديراً قال:

إن استقلالكم أمر لا شك ولا ريب فيه، فقد امن به كل الناس، إنما الموضوع الحقيقي هو إدراك هذا الهدف بأقصى ما يكون من السرعة، وأقل ما يمكن من الضحايا، إنكم بذلتم إلى الان أقصى ما يمكن بذله من دماء ومن جهد ومن تضحيات، وقد جاءت ولا ريب ساعة الحصاد فلتكونوا حكماء ولتعرفوا كما قال العرب الأول: من أين تؤكل الكتف.

إنني سأكون بعد يومين في باريس ماراً بروما، وسأخاطب بإطناب قداسة الباب في الموضوع وأقنعه بوجوب قيامه بمسعى حميد في الموضوع، كما سأخاطب الجنرال ديغول ورجال حكومته ورجال الكنيسة الفرنسية، حتى تتضافر الجهود، وتقترب ساعة الخلاص، وأود أن ترسلوا لي بعد رجوعي رجلاً أخبره بما علمت وبما سمعت، وبما حققت.

ودعناه ورافقنا إلى الباب الخارجي، وعدنا أدراجنا نعادل في داخل نفوسنا بين مقابلة حضرة المفتي وحضرة البطريق الحكيم[1].

لقد استمر الدعم المعنوي والمالي بقدر المستطاع من الشعب اللبناني لثورة الجزائر من مصادر جماهيرية منظمة ومتعددة، وكانت تجمع وتوصل لممثل جبهة التحرير الوطني المساعدات المالية، كما كانت للحكومة اللبنانية مساهمات مالية ومعدات طبية توجه لمساندة حرب التحرير[2].

* * *

(1) حياة كفاح (635/3).

(2) السياسة العربية والسياسة الدولية ص 87.

الحادي عشر: الأردن:

كان للأردن موقف إيجابي تجاه الثورة الجزائرية، وذلك راجع للتأثير الشعبي الكبير على التوجه السياسي في الأردن الداعم للقضية الجزائرية والفلسطينية. والموقف الأردني عبّر عنه الملك اثناء زيارة الوفد الحكومي الجزائري لعمان في 23 . 27 مارس 1959م حيث قال:

إن ثورة الجزائر هي صوت القدر، وإن استقلال الجزائر هو حكم التاريخ، ولا يمكن ولا يعقل ولا يتصور أن تنتهي حرب تحريركم هذه دون أن ترفعوا أعلام الاستقلال زاهية فوق كل بقاع الجزائر، فالصبر والإيمان والثبات، إن عامل النصر الأول والأخير هو اقتناع المجاهد بالهدف الذي يجاهد من أجله، ولقد برهنتم للدنيا على أن المجاهد الجزائري هو أكثر الناس إيماناً بهدفه واستماتة في سبيل تحقيقه، إنكم تعتمدون على ركنين أساسيين هما مصر والسعودية، ومن بعدهما سوريا والعراق فاعتقدوا أنكم ما ازددتم جهاداً، إلا ازدادت الإعانات تدفقاً، أما نحن أهل هذه المملكة الضعيفة عدداً وعدة فليس لدينا إلا لقمة عيش، نحن مستعدون لاقتسامها معكم، هذا هو جهد المقل[1].

وخلال مراحل الحرب التحريرية الجزائرية كان للأردن مواقف غير متحفظة أو مترددة في مناصرة كل مطالب الجزائر، لاستقلال تام ومطلق لا يخضع لشروط ويضمن الوحدة الترابية للجزائر، ذلك ما أكدته الحكومة الأردنية في بداية مفاوضات إيفيان 20 مارس 1961م.

كانت السلطة الأردنية مؤيدة ومساندة للحراك الشعبي من تظاهرات وتجمعات منتظمة ومستمرة داعمة لثورة الجزائر، وبمناسبة يوم الجزائر 30 مارس 1958م نظم الأردن تظاهرات مساندة، وجمعت أثناءها تبرعات مالية بما فيها تنظيم مباراة في كرة القدم بين جيش التحرير الشعبي الجزائري والفرقة العسكرية الأردنية، وخصصت مداخلها لتدعيم حرب التحرير الجزائرية، وخصصت المملكة الأردنية سفينة أردنية لنقل الأسلحة من الإسكندرية إلى مراكز جيش التحرير الوطني بالجزائر.

وبعد استرجاع استقلال الجزائر جسّد الملك الاعتبار الخاص للثورة الجزائرية وقضيتها العادلة، بمنحه بناية عريقة وفي مكان متميز واستراتيجي بالعاصمة عمان مقراً لسفارة الجزائر مجاناً اعترافاً لثورة نوفمبر وشهدائها الأبرار[2].

* * *

(1) حياة كفاح (530/3).
(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 89.

الثاني عشر: السودان:

كان السودان يحتفل دورياً بالذكرى السنوية لثورة نوفمبر على المستوى الشعبي والحكومي، وبهذه المناسبة تتضاعف تعبئة وتحسيس الشعب السوداني بالعمل على تقوية الدعم المعنوي والمادي لإخوانهم بالجزائر، وإدانة الاستعمار الفرنسي بقوة جماهيرياً وحكومياً.

بمناسبة الذكرى السابعة 1961م لثورة نوفمبر ؛ السيد طلعت فريد عضو المجلس الأعلى للثورة السودانية أكد على ديغول أن يعترف باستقلال الجزائر، وإلا فإن الجزائريين سيفرضون إرادتهم ويجبرونه على الخروج من الجزائر مكبلاً بالعار[1].

ولعبت السودان دوراً فعالاً خاصة مع الدول الإفريقية المجاورة للوقوف بجانب مطالب التحرر الجزائرية، وكان له تأثير إيجابي على أثيوبيا لاتخاذ موقف لصالح القضية الجزائرية في منظمة الأمم المتحدة.

مندوب السودان في الأمم المتحدة أحمد الصياد أكتوبر 1960م ؛ تحدث داعماً للجزائر وخاطب الجمعية العامة قائلاً: الحكومة الجزائرية تتصف بالنضج السياسي وتسلك سياسة سليمة، إن حكومتي تساند طلب الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بإجراء استفتاء تنظمه وتراقبه الأمم المتحدة[2].

وأثناء زيارة فرحات عباس «1959» رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة إلى السودان، وجد الوفد الجزائري ترحيباً خاصاً واستعداداً كبيراً لتدعيم حرب التحرير الجزائرية. وخلال هذه الزيارة أكد الرئيس السوداني الجنرال إبراهيم عبود للوفد الجزائري: رغم أننا مادياً فقراء، إلا أننا نقوم بواجبنا فوق استطاعتنا[3].

وفتح مكتب لجبهة التحرير الوطني الجزائرية رسمياً في العاصمة الخرطوم، ونتج عن ذلك أيضاً عقد عدة ندوات لشرح القضية الجزائرية وسبل دعمها مادياً ومعنوياً، وكان من أهمها الندوة التي عقدها الشيخ أحمد توفيق المدني رئيس الوفد الجزائري، وهذا ما دفع من ناحية أخرى إلى بروز دور الطبقة المثقفة السودانية في نصرة القضية الجزائرية جماهيرياً، حيث قام أساتذة وطلبة جامعة الخرطوم بمظاهرات وتجمعات تناولت التأييد المطلق لقضية الشعب الجزائري[4].

كما توالت دعوات السلطات السودانية الرسمية لجبهة التحرير الوطني، قصد المزيد من توعية الجماهير السودانية بالقضية الجزائرية، وكللت الزيارات المتكررة للسودان بزيادة ربط العلاقات الأخوية بين الشعبين الشقيقين، وأصبحت السودان من بين الدول العربية التي دافعت باستماتة عن الثورة الجزائرية، وأصبحت لها من الجرأة السياسية ما جعلها فاعلة عربياً، حيث اتخذت الحكومة السودانية قراراً شجاعاً، تمثل في سحب سفيرها من العاصمة الفرنسية باريس جراء السياسة القمعية المسلطة على الشعب الجزائري، وفي الخرطوم وجهت مذكرتي احتجاج شديدتي اللهجة للسفارة الفرنسية، عبّرت فيهما عن استنكارها الكبير للمجازر المرتكبة من طرف

---

(1) المصدر نفسه ص 77.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 77.

(3) المصدر نفسه ص 76.

(4) مواقف الدول العربية ص 307.

الجيش الفرنسي في حق الشعب الجزائري، ومن جهة أخرى طالبت الحكومةَ الفرنسيةَ بوقف تنفيذ أحكام الإعدام المتواصلة ضد الوطنيين الجزائريين، والإسراع في الاعتراف باستقلال الجزائر الكامل[1].

وأرسلت السودان عن طريق سفيرها بالقاهرة مبلغاً مالياً حسب طاقتها لجبهة التحرير الجزائرية، وفي عام 1961م كان مؤتمر الاتحاد الدولي للنقابات العربية الذي كان يضم نقابة العمال في مصر والعراق وليبيا واليمن والسودان، وكان يضم أكثر من ستة ملايين منخرط من العمال العرب، وفيه تم اتخاذ قرار هام تضمن التدابير الضرورية واللازمة من مقاطعة البضائع الفرنسية إلى جانب وسائل النقل من بواخر وطائرات، وحدثت هذه الجرأة بعد أن كانت هذه النقابات قد قاطعت البواخر الأمريكية، وقد نجحت المقاطعة وجاءت بنتائج إيجابية لصالح الثورة الجزائرية[2].

وكان التجاوب الشعبي كبيراً جداً. وهذا أحمد توفيق المدني يصف لنا تجمعاً شعبياً كبيراً ألقى فيه كلمة مؤثرة بخصوص ثورة الجزائر حيث قال: كان للاجتماع الشعبي العظيم الذي سمحت لنا السلطة بإقامته في أم درمان أعظم الأثر في نفسي وفي إخواني. وكان الاجتماع ليلاً ووقع في مكان فسيح جداً، يسع نحو خمسة أو ستة الاف من الناس، ورتبوا منصته أحسن ترتيب، ووضعوا على جوانبه مكبرات الصوت بصفة فنية محكمة لا أذكر أنني رأيت مثلها في الشرق، كان المنظر بديعاً حقاً، لقد اختلط سواد البشرة مع سواد الليل، ما كنت أرى من فوق المنصة إلا بحراً من الألبسة البيضاء الفضفاضة التي تتراءى للناظر وكأنها بناء مرصوص يشد بعضه بعضاً وفوقه بحر اخر بعد انفصال قليل، هو بحر العمائم البيضاء الضخمة التي يستعملها إخوتنا من أجل مقاومة اشعة الشمس وحرارتها.

والسوداني مستمع جليل يقدر قيمة الخطيب، فلا يقاطعه بهتاف أو صراخ أو بأناشيد هوجاء كما يقع بمصر وبالعراق خاصة، وتحمست وأسهبت في وصف الام الجزائر مما تقاسيه من بطش وإرهاق، وما يرتكب فيها من مجازر وفظائع لم تشاهد البشرية مثلها، وأكدت حاجة الجزائر إلى العونين المادي والأدبي، وبينما أنا في عنفوان الحماس أضع في الكلام قنابل محرقة، إذ بزوبعة هوجاء صارخة مدوية تنفجر في القاعة فتجرف معها كامل المستمعين، كأنما مسهم تيار كهربائي في ان واحد، وأخذت أستمع رغم إرادتي لصوت هو صوت أمة، صوت جهاد، هو صوت الضمير الحر انطلق من عقاله فجأة في سماء الشعور والإحساس، نادى الناس كافة بأصوات تشبه هزيم الرعد أثناء زوبعة عاتية عاصفة: الجهاد: الجهاد السلاح إلى الجزائر، وقال بعضهم: لا نترك النساء تذبح ونحن رجال قاعدون، وقال اخرون: لنشترك في حرب الجزائر فإن تحررت تحررنا جميعاً.

---

(1) مواقف الدول العربية ص 308.

(2) المصدر نفسه ص 309.

وهكذا أصبحت الخطابة من القاعة والقوم وقوف، وأصبحت أرى منظراً لم أره طوال حياتي في الكفاح، وأصبحت أرى بين بحر العمائم البيضاء وبين بحر الأردية البيضاء نوراً أحمر بلون الدم إلى أن كاد يفقدهم الشعور، وصعدت الدماء دفعة واحدة إلى الرؤوس، فاحمرت الأحداق حتى باتت وكأنها النار الحامية[1].

إلى أن قال:.. وأشرت إلى القوم بالسكوت وأعدت الإشارة مراراً إلى أن خفت وطأة الموجة العارمة ما تمكنت من إسماع صوتي بواسطة المكبرات حتى عدت إلى الحديث عن تلك الفظائع والموبقات بمثل لهجتي الأولى، وعقبت على ذلك بقولي:

إن إخوانكم مجاهدي الجزائر الأبية يتمتعون بحمد الله بقوة في البدن، وبكثرة عالية في العدد، ولو استطعنا أن نسلح مليوناً من الرجال، لوقف في الميدان مليون رجل يتقدمون بثغر باسم نحو النصر أو الشهادة. لا يا إخوان، لسنا في حاجة إلى الرجال، نحن في حاجة إلى مال وإلى السلاح، وإلى عمل سياسي خارجي يتوازن مع الكفاح الداخلي ويسانده، هذه هي حاجتنا الأكيدة وهذا هو واجبكم المفروض[2].

قال: وما كدت أنتهي حتى بادر القوم بتكوين لجنة من أحسن رجالهم الشعبيين من أجل جمع المال، على مقدار ما يستطيع السودان بذله إعانة لإخوانه المجاهدين في سبيل الله. ثم اجتمعنا بعد ذلك بقليل مع رجال اللجنة الشعبية وقررنا أنهم يرسلون لنا بالقاهرة، وبواسطة سفارة السودان، ما يجمعونه من شعب يذوق الجوع والحرمان لكنه يستطيع أن يجوع أكثر، وأن يتبرع بجزء من الضروري من قوته لإخوانه المجاهدين.

يا رجال السودان الأبرار، يا أبطال أفريقيا، يا غطارفة الإسلام، يا أباة الضيم، أسجل لكم على هذه الصفحة كلمة إعجاب وإكبار وإجلال، إن كان ما بين أيديكم قليلاً، فقد حملت قلوبكم الندية كنوز الدنيا وثروة العالم وليس الغنى هو غنى الجيب، إنما الغنى هو غنى القلب والروح، وقد متعكم الله بتلك الثروة الخالدة[3].

* * *

(1) حياة كفاح (281/3).

(2) المصدر نفسه (282/3).

(3) حياة كفاح (283/3).

الثالث عشر: اليمن:

انحصر دعم اليمن سياسياً في المحافل الدولية وعلى وجه الخصوص في هيئة الأمم المتحدة، حيث ناصرت القضية الجزائرية بجانب أشقائها العرب، في جدول أعمال الجمعية العامة للأمم المتحدة، وكان ذلك في الفاتح من شهر أكتوبر عام 1955م. وكان صوت اليمن داعماً للموقف العربي الموحد من أجل نصرة القضية الجزائرية العادلة، رغم اعتبار فرنسا هذه العريضة عبارة عن أجل أعطي لفرنسا بطريقة غير مباشرة للإسراع إلى حل القضية الجزائرية مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية الممثل الشرعي للشعب الجزائري[1].

وفي 19 سبتمبر 1958م عندما تم الإعلان عن تأسيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية كانت اليمن من الدول السباقة إلى الاعتراف بها رسمياً وكان ذلك في 21 سبتمبر 1958م.

ومن المواقف الإيجابية تجاه الثورة الجزائرية هي مواصلة الدعم المعنوي في أعلى هيئة دولية، ففي دورة عام 1959م أكد ممثل اليمن على أنه يجب على الحكومة الفرنسية أن تقبل فكرة محاورة ممثلي الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، خاصة ما يتعلق بالطرق الكفيلة التي يمكن تطبيقها في الفترة الانتقالية، وذلك قبل البدء في عملية الاستفتاء مع ضرورة ضبط الضمانات التي أقرتها هيئة الأمم المتحدة لممارسة كل الحريات ولنجاح عملية الاستفتاء نفسها.

وفي سياق مساندة اليمن للثورة الجزائرية دبلوماسياً، فقد كان الوفد اليمني ضمن وفود الاتحاد الدولي للعمال العرب، الذي أكد في مؤتمره المنعقد 1961م على ضرورة مقاطعة الطائرات والبواخر والسلع الفرنسية.

وأما مؤتمر دول عدم الانحياز المنعقد في بلغراد عام 1961م، فقد شاركت فيه اليمن، وندد فيه مندوبها بالاستعمار العالمي وفضح مناورات الاستعمار البريطاني لتثبيت أقدامه في جنوب اليمن، وأكد على ضرورة احترام ومصداقية على قرار بمنع استعمال الأسلحة النووية في إشارة إلى فرنسا، والدعوة إلى عقد مؤتمر دولي بهذا الشأن خاصة وأن الظرف كان مناسباً، بحيث كانت فرنسا في الوقت نفسه قد بدأت تجاربها النووية في الصحراء الجزائرية[2].

كان التفاعل الشعبي والرسمي مع ثورة الجزائر كبيراً، وحتى الدول التي كانت تحت الاستعمار المباشر وغير المباشر ساهمت شعوبها وسلطاتها في دعم القضية الجزائرية كسلطنة عمان، والإمارات، والصومال، وجيبوتي، وجزر القمر والدول الإسلامية عموماً، وكان دعمها مادياً ومعنوياً وتنظيم مظاهرات جماهيرية دورية.

وكان تفاعل الشعب اليمني عظيماً مع الثورة الجزائرية، ولم يقتصر على التضامن المعنوي والتجمعات الشعبية للتنديد بالاستعمار الفرنسي أو على جمع التبرعات المالية، بل امتد حتى للحياة الثقافية والفنية اليومية للشعب اليمني. وعبد الهادي السبيت كان أحد الفنانين المشهورين الذين نشطوا فنياً، وكانت الأجواء الحماسية المؤثرة في داخل الشعب اليمني من خلال ترديد أبيات شعرية حول الثورة الجزائرية:

---

(1) مواقف الدول العربية ص 313.

(2) المصدر نفسه ص 316.

يا شـاكي السـلاح شـوف النصـر لاح   حـط يـدك على المدفع زمن الذل راح[1]

* * *

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 125.

الرابع عشر: المواقف الدولية تجاه ثورة التحرير:

دولياً شكّل عالم الجنوب «العالم الثالث» أهم مصدر «بعد الوطن العربي هو طبعاً جزء من عالم الجنوب» لدعم الثورة الجزائرية، كما كان لبعض الدول الاشتراكية والتيارات اليسارية والقوى التحريرية والإنسانية في عالم الشمال دور إيجابي بجانب القضية الجزائرية، وفي نفس الوقت واجهت الثورة الجزائرية مواقف دولية مناقضة لأهدافها خاصة من عالم الشمال، وبالأخص من حكومات الدول الأعضاء في منظمة حلف شمال الأطلسي[1].

وهناك عدة عوامل ساهمت في توطيد تضامن مستعمرات وشعوب عالم الجنوب، من بينها: التجربة والمعايشة المشتركة أو المتجانسة للاستعمار، القمع، التخلف، التمييز العنصري بين الأبيض الأوروبي الأصل وغير الأوروبي الأصل، الاستغلال «من طرف القوى الاستعمارية»، التعايش أو التوافق السياسي. الثقافي في مواجهة الثقافة الأوروبية النخبوية ذات البعد العنصري والاستغلالي التي طبعاً لا تعكس ثقافة وقناعة أغلبية الشعوب الأوروبية[2].

ومثل بقية قارات عالم الجنوب؛ كان الجزء الأكبر من اسيا ضحية للتوسع الاستعماري، حيث عاشت مناطق كثيرة منها مثل الهند الصينية مقاومة مسلحة مكثفة ضد الاستعمار لأكثر من 30 سنة «1975 ـ 1945م».

1 ـ الصين:

جاء أهم تأييد مطلق لحرب التحرير الجزائرية في عالم الجنوب خارج الوطن العربي من الصين، ولإبعاد التساؤل حول تصنيف الصين في عالم الجنوب؛ يكفي التذكير بأنها كانت ضحية للتوسعات الاستعمارية مثل معظم الدول في اسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية، فقد كانت الصين ضحية للاستعمار الياباني المباشر حتى الحرب العالمية الثانية، وهيمنة المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية حتى انتصار الثورة الصينية «1949م» والإطاحة بنظام تشان كاي شيك، بل وحتى بعد انتصار الثورة الصينية بقيت أراض صينية تحت استعمار أو هيمنة الدول الرأسمالية الكبرى مثل هونغ كونغ، التي بقيت تحت الاستعمار البريطاني المباشر حتى 1997م، وتايوان التي هي عملياً مازالت إلى يومنا هذا تحت التأثير المباشر للولايات المتحدة الأمريكية خاصة عسكرياً، بالإضافة إلى ذلك لازالت هناك جزر صينية تقع بين تايوان واليابان تحت سيطرة هذه الأخيرة، ولازلت جزر ماكاو الصينية كذلك تحت الاستعمار البرتغالي، هناك اتفاق بين الصين والبرتغال لتسليم المستعمرة إلى الصين في ديسمبر 1999م[3].

(1) المصدر نفسه ص 140.
(2) المصدر نفسه ص 141.
(3) المصدر نفسه ص 142.

والصين دولة تعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة، وفي ثلاثة أيام فقط «22 سبتمبر 1958م» بعد تكوين هذه الأخيرة 19 سبتمبر 1958، في حين صدر الاعتراف السوفياتي سنتين من بعد 3 أكتوبر 1960م.

اعتبر ماو تسي تونغ القائد الصيني بأن تشكيل الحكومة الجزائرية المؤقتة كان تعبيراً عن إرادة الشعب الجزائري غير المساومة مع الاستعمار، ووصف السيد فرحات عباس الاعتراف الصيني بأنه تشجيع عظيم لأنه يعبر عن 600 مليون صيني، لقد تضمن الدعم الصيني للجزائر تغطية مالية وتجهيزات عسكرية مباشرة منذ بداية حرب التحرير الجزائرية، بما فيها 12 مليون دولار. وسنة 1959م وحدها سلمت الصين للجزائر 2 مليون فرنك فرنسي[1].

وكانت زيارات جبهة التحرير للصين متكررة، وفي إحدى لقاءاته بالوفود الجزائرية التي زارت الصين أثناء حرب التحرير الجزائرية، عقب ماوتسي تونغ على أحد المتدخلين من الوفد الجزائري عندما قال: بأننا جئنا لنتعلم الحرب الشعبية حرب العاصابات من الصين، أجابه ماو: كيف جئتم تتعلمون من تجربة الصين في الحروب الشعبية، ونحن تعلمنا ذلك منكم من مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري؟

وفي مارس 1959م كانت زيارة وفد جزائري برئاسة السيد عمر أو صديق كاتب دولة في الحكومة الجزائرية المؤقتة، وخلال هذه الزيارة تسلم الوفد الجزائري معدات وتجهيزات عسكرية وطبية[2].

كما حضر الوفد الأسبوع الجزائري في الصين 13 . 20 مارس 1959م لمناصرة الثورة الجزائرية، وكانت هذه المناسبة تنظم دورياً وباستمرار من طرف الصينيين حزباً وحكومة، وتتضمن معارض ومظاهرات تأييداً لكفاح الجزائر، وفي هذه المناسبة تجمع التبرعات، مثلاً في «مارس 1958م» وصل حجم التبرعات من ثلاث هيئات شعبية «لجنة تضامن الشعوب الاسيوية، جامعة النقابات الصينية، والجمعية الإسلامية» إلى أكثر من 200 ألف دولار.

وكانت الصحافة الصينية تعطي اهتماماً خاصاً لحرب التحرير الجزائرية، وبمناسبة زيارة يوسف بن خدة وزير الشؤون الاجتماعية في الحكومة الجزائرية المؤقتة إلى الصين «3 ديسمبر 1958م»، اعتبرت هذه الصحافة الصينية هذه الزيارة حدث اليوم، ووجد الوفد الجزائري استقبالاً خاصاً وترحيباً متميزاً من طرف القيادة الصينية وعلى رأسها ماوتسي تونغ، وفي هذه الزيارة كانت للسيد بن خدة اتصالات مكثفة ونشاط خاص مع القيادة العسكرية الصينية وعلى رأسها المارشال يونج ته هواي، نائب رئيس الوزراء ووزير الدفاع، أكد هذا الأخير للوفد الجزائري:

إن الشعب الصيني والحكومة الصينية يرحبان ترحيباً خاصاً بمندوبي حكومة الجزائر، بالرغم من بعد المسافة بين قطرينا إلا أن قلوبنا قريبة جداً من بعضها، ذلك أن تجربة الجزائر وتجربة الصين تجربة واحدة[3].

---

(1) المصدر نفسه ص 147.

(2) المصدر نفسه ص 149.

(3) المصدر نفسه ص 149.

وبعد انتصار الثورة الجزائرية، وجد الصينيون لدى الجزائريين تقديراً واعترافاً مستمراً بالمساعدات المعنوية والمادية التي قدمتها الصين الشعبية للجزائر من أجل انتصار الثورة الجزائرية، مثلما عبر عنه السيد عبد الرحمن كيوان رئيس البعثة الدبلوماسية الجزائرية بالصين «ماي 1961م»:

الشعب الجزائري لن ينسى أن حكومة الجمهورية الشعبية الصينية كانت من بين أولى الحكومات التي اعترفت بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، ومنذ ذلك الحين ما انفك بلدكم العظيم يقدم مساندة مستمرة لثورتنا. إن الصداقة الصينية الجزائرية تنصهر في الكفاح، لذلك فهي قوية ودائمة(1).

2 . أندونيسيا:

كان لأندونيسيا دور أساسي في تدعيم مشاركة الوفد الجزائري في مؤتمر باندونغ على الأراضي الأندونيسية رغم ضغوط الدول الغربية بقيادة فرنسا، واعتبر أحمد سوكارنو الرئيس الأندونيسي الممثلين الجزائريين في مؤتمر باندونغ قادة لقضية عادلة، ووجودهم يشكل الهدف الأساسي لمؤتمر باندونغ، وهو مساندة تحرير الشعوب المستعمرة، بالنسبة إلى الرئيس سوكارنو عدم الانحياز لا يعني عدم إدانة ومحاربة كل أنواع الاستعمار والهيمنة التي تمارسها القوى الاستعمارية، إننا محايدون حقاً، لكننا لسنا محايدين بالنسبة للاستعمار(2).

وأكد الرئيس أحمد سوكارنو في كل مناسبة دولية وقوف أندونيسيا بجانب حرب التحرير الجزائرية، وعمل دبلوماسياً من أجل تدويل القضية الجزائرية، وحتمية استرجاع الجزائر لسيادتها: من الواضح أن الشعب الجزائري يريد الاستقلال، هذه حقيقة لا يتطرق إليها الشك.. إذن فيجب تنظيم استفتاء بالجزائر تحت رقابة الأمم المتحدة.. ويجب أن يكون موضوع الاستفتاء، هو الاستقلال، فهذه القضية قد سويت بالدماء والدموع، ومن المؤكد أن الجزائر المستقلة ستتحقق(3).

3 . كوريا الشمالية:

وجد الوفد الحكومي الجزائري خلال زيارته إلى كوريا الشمالية «أفريل» 1960م برئاسة السيد كريم بلقاسم ترحيباً خاصاً وعناية متميزة واستقبالاً حاراً من طرف قيادة كوريا الشمالية.

إن الوفد الحكومي للجمهورية الديمقراطية الشعبية لكوريا ينظر بإكبار وإعجاب عظيم إلى الكفاح البطولي، الذي يخوضه الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي من أجل الاستقلال الوطني والحرية، ويعبر له عن تضامنه التام(4).

---

(1) المصدر نفسه ص 151.
(2) المصدر نفسه ص 153.
(3) المصدر نفسه ص 153.
(4) المصدر نفسه ص 155.

4 . فيتنام:

عاش الشعب الفيتنامي الاضطهاد والقمع الفرنسي، كما تذوق روح الانتصار على فرنسا، فلم يكن بحاجة لتوعية أو تعبئة لإدانة الاستعمار الفرنسي للجزائر. في أماكن ومدن مختلفة عبر التراب الفيتنامي ؛ وجد الوفد الجزائري بقيادة السيد يوسف بن خدة استقبالاً خاصاً، بداية بالقائد الفيتنامي هوشي منه، واستعداداً مطلقاً للتضامن مع الشعب الجزائري، وتدعيم معركته العادلة، وكان ذلك في 13 ديسمبر 1958م. وبنفس الروح والمحتوى والحماس استقبل وفداً حكومياً جزائرياً اخر برئاسة السيد كريم بلقاسم أثناء زيارته لفيتنام «أفريل 1960م».

يعبر الوفد الفيتنامي عن ابتهاجه بالنجاح العظيم الذي حققه الشعب الجزائري بمقاومته البطولية، ويشهّر الشعب الفيتنامي بالجرائم الفضيحة التي يرتكبها الجيش الفرنسي في الجزائر، ويستنكر بالخصوص الإعانات التي تقدمها أمريكا للمعتدين الاستعماريين ليواصلوا حربهم الاستعمارية ضد الشعب الجزائري[1].

رغم الإمكانيات المادية المحدودة لفيتنام، ورغم أن هذه الأخيرة في حد ذاتها كانت تعيش معركة تحررية ثانية ضد المعسكر الرأسمالي بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ؛ فقد جسدت القيادة الفيتنامية دعمها للثورة الجزائرية ليس فقط في مجال المساندة المعنوية وتبادل الخبرات، بل تجاوز ذلك إلى إرسال (2 ماي 1961م) مساعدات غذائية بما فيها 201 طناً من الدقيق للاجئين الجزائريين بتونس[2].

5 . الهند:

المسلمون الهنود بما فيهم البنغلاديش. انفصلت عن الهند سنة 1971م. كان لهم تأثير هام على صانعي القرار الهندي في التعامل مع القضية الجزائرية بحكم وضعهم كقوة شعبية وجماهيرية أساسية داخل الهند، وكما كان لنشاطهم الشعبي بما فيه المهرجانات والمظاهرات المكثفة دور هام في تعبئة الجماهير الهندية ككل بعدالة القضية الجزائرية.

وكان للجالية العربية في الهند دوراً أساسياً في تنظيم المساندة الجماهيرية الهندية للثورة الجزائرية، وخلال زيارة الرئيس فرحات والوفد المرافق له لبومباي «2 فيفري 1961م» عايشوا شخصياً ومباشرة هذه التعبئة والمساندة الجماهيرية[3].

ودبلوماسياً كانت الهند بحاجة لربح أكبر عدد ممكن من الدول والحركات الاستقلالية باسيا وأفريقيا وأمريكا الجنوبية، وبالنسبة للهند، مساندة القضية الجزائرية سوف يدعم حملتها الدبلوماسية لكسب حركات تحررية ودول فاعلة في الوطن العربي وعالم الجنوب ككل[4].

(1) المصدر نفسه ص 156.
(2) المصدر نفسه ص 157.
(3) المصدر نفسه ص 157.
(4) المصدر نفسه ص 159.

6 . ماليزيا:

وجد الشعب الماليزي في القضية الجزائرية عمقاً وهدفاً حضارياً مشتركاً لا بد من مساندتها، معاناة الشعب الماليزي من الاستعمار البريطاني أضاف عاملاً اخر لتعميق المساندة الماليزية لحرب التحرير الجزائرية، وترامي استقلال ماليزيا «1957م» مع أهم مرحلة في حرب التحرير الجزائرية، وبالتالي شكلت ماليزيا عضواً إضافياً فعالاً في تدعيم القضية الجزائرية دولياً، وأضافت وجود دولة إسلامية واسيوية أخرى تساند قضايا الاستقلال والتحرر في العالم، وكان للضغط الجماهيري تأثير خاص على ممثلي حكومات الدول الإسلامية في المحافل الدولية من أجل الوقوف بجانب حركات الاستقلال والتحرر الوطني في العالم الإسلامي(1).

7 . سنغافورة:

معايشة الشعب السنغافوري للتجربة الاستعمارية مع المستعمر البريطاني ؛ كانت عاملاً أساسياً وراء وقوف سنغافورة بجانب حرب التحرير الجزائرية، ذلك ما لمسه الوفد الجزائري برئاسة السيد عباس فرحات خلال زيارته إلى سنغافورة «26 جانفي 1961م». واستقبل السنغافوريون الوفد الجزائري بمظاهرات مندددة بالقمع الفرنسي للشعب الجزائري، بالإضافة إلى حرق صورة رمزية لعلم الاستعمار الفرنسي، والمناداة بحياة الشعب الجزائري واستقلال الجزائر، وسقوط فرنسا(2).

8 . باكستان:

أكدت السلطات الباكستانية باستمرار مواقفها الإيجابية تجاه حرب التحرير الجزائرية واسترجاع استقلال الجزائر، ومنها تصريح الرئيس الباكستاني أيوب خان إلى السيد محمد قلو رئيس البعثة الجزائرية بالباكستان «نوفمبر 1961م»:

إنني كرئيس دولة شاعر بمصالح شعبه، وكرئيس عسكري مقتنع بأحكامه، أتحدث إليكم بكل صراحة وبساطة، وأجدد للشعب الجزائري والممثلية تأييد حكومتنا، وتأييد الشعب الباكستاني للجزائر المكافحة من أجل استقلالها.

وتأخرت باكستان في اعترافها الرسمي بالحكومة المؤقتة وكان بعد 3 سنوات من تأسيسها، ولهذا مهما كانت مواقف الباكستان بجانب قضايا الاستقلال والتحرر؛ فإن سلوكها السياسي والدبلوماسي والعسكري كان دائماً متأثراً بارتباطها الوطيد بالمعسكر الرأسمالي، ورغم تأثير المعسكر الرأسمالي . المؤيد لفرنسا . فإن رئيس الحكومة المؤقتة فرحات عباس وجد استقبالاً معتبراً بالباكستان «أفريل 1959م»، واستعداداً جماهيرياً لدعم الثورة الجزائرية معنوياً ومادياً.

(1) المصدر نفسه ص 160.

(2) المصدر نفسه ص 160.

9 . تركيا:

بعد زيارة السيد عدنان مندريس «أفريل 1958م» رئيس الحكومة التركية إلى ليبيا والاستقبال الرسمي الليبي الفاتر مرفوقاً بالاحتجاج والمقاطعة الجماهيرية ؛ بدأت تركيا تغير من سياستها تجاه الثورة الجزائرية خاصة في مجال التدعيم العسكري، وتم ذلك بالتنسيق مع الحكومة الليبية، كما بدأت الحكومة التركية تدريجياً بتغيير سياستها بما فيها السماح بفتح مكتب لجبهة التحرير الوطني في أنقرة وكان الموقف الشعبي داعماً ومؤيداً للثورة الجزائرية.

10 . إيران:

كانت دولة إيران في تلك الفترة حكومتها منسجمة مع الغرب، وتتماشى أكثر مع الانتماء الغربي، وأما على المستوى الجماهيري فقد كان للشعب الإيراني مواقف مساندة وداعمة للثورة الجزائرية، دفعت النظام الإيراني إلى عدم الوقوف علنياً ضد القضية الجزائرية في المحافل الدولية خاصة مع اقتراب انتصار حرب التحرير الجزائرية.

* * *

الخامس عشر: دعم بعض الدول الأفريقية:

قال نيلسون مانديلا 1998م: الجزائر كانت وستبقى قلعة الثوار والأحرار، والسند القوي لكل الشعوب المناضلة من أجل العدالة والحرية، ومواقفها الأصيلة ترجمتها إلى عطاء ودعم وإسهام مباشر في تحرير القارة الأفريقية، إن عطاء ثورة الجزائر وجبهة التحرير الجزائرية كان عظيماً وقوياً وفاعلاً، وستظل كل الشعوب الأفريقية تذكر باعتزاز للجزائر دورها الرائد في تحريرها من الاستعمار، وتثمن جهودها في توحيد وتضامن القارة وشعوبها، والنهوض بالتنمية والاقتصاد فيها[1].

وحين انتقلت حرب التحرير الجزائرية، كانت معظم البلدان الأفريقية تحت الاستعمار، وكان واضحاً أن الاستعمار لن يتنازل عن مناطق كثيرة منها: أنغولا، جنوب أفريقيا، وناميبيا، واعتبرت جبهة التحرير الوطني باستمرار بأن عملها التحرري جزء مكمل، وله تأثير متبادل من أجل تحرير أفريقيا ككل.

لقد وجدت حركات الاستقلال والتحرر الأفريقية في الثورة الجزائرية نموذجاً ليس فقط في إخراج استعمار تقليدي، بل كذلك نموذجاً لمواجهة الاستعمار الاستيطاني وخاصة في أنغولا، الموزمبيق، زمبابوي[2].

وكانت دافعاً قوياً لحركات الاستقلال لعدم المساومة مع المستعمر مثل ما حدث في غينيا والكونغو وغانا ومالي، وأما عن التأييد الأفريقي للثورة الجزائرية، فقد كانت لبعض الدول الأفريقية مواقف جد إيجابية ومتشددة ضد الاستعمار الفرنسي، ومساندة بدون تحفظ للقضية الجزائرية دولياً ولحرب التحرير الجزائرية داخلياً، مثل:

1 . غينيا:

كان لدى غينيا قيادة وطنية برئاسة أحمد سيكوتوري، الذي عرف بمواقفه الثابتة ضد الاستعمار وهيمنة القوى الرأسمالية ليس فقط على غينيا، بل على أفريقيا والعالم ككل. وكان سيكوتوري أحد القادة البارزين والقياديين المناوئين للاستعمار، والمطالبين باستقلال وتحرير الشعوب دون قيد أو شرط، ومناصراً لكل الوسائل التي تضمن ذلك بما فيها العمل المسلح حين قال:

.. فنحن مصممون تصميماً راسخاً على تقديم مساعدتنا غير المشروطة للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من أجل استقرار السلم في الجزائر، حسب الشروط والضمانات التي حددتها الحكومة الجزائرية... ونحن نعلم بصفة واضحة أن موقف الحكومة الفرنسية نحو الرغبات الشرعية للشعب الجزائري ؛ سيحدد بشكل أقوى وأوضح موقف الشعب الغيني وحكومته من الحكومة الفرنسية[3].

ولم يتوقف الرئيس أحمد سيكوتوري في تأييده المطلق للثورة الجزائرية على العلاقات الثنائية بين البلدين الجزائر وغينيا، بل حمّل كل دولة أو حكومة مسؤولية إجرامية في حالة التردد أو التحفظ من مساندة الثورة الجزائرية:

---

(1) المصدر نفسه ص 165.

(2) المصدر نفسه ص 165.

(3) المصدر نفسه ص 166.

إن كل حكومة لا تهتم بقضية الشعب الجزائري في استقلاله إنما تشارك الاستعمار في جرائمه، وإن أية حكومة تعلن أنها غير مسؤولة إزاء القضية الجزائرية ؛ فإنما تتحمل بموقفها هذا مسؤولية تأييد الاستعمار ومناصرة الظلم والعدوان[1].

2 . الكونغو:

اتخذ السيد لومومبا أثناء إدارته للحكومة الكونغولية مواقف هادفة وقوية بجانب حرب التحرير الجزائرية والأفريقية بصفة عامة، ولو على حساب وجوده على رأس الحكومة الكونغولية، وذلك ما تضمنته مثلاً تأكيدات السيد لومومبا إلى السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة أثناء لقائه بهذا الأخير «13 أوت 1960م»:

إن المشكل الجزائري بالنسبة لنا هو مشكل القارة الأفريقية بأكملها، إن أفريقيا لا تحمل أي حقد للرجل الأبيض، وإنما تطالب بحقها في الكرامة والحرية مثل جميع بلدان العالم.

إنه لا وجود لجزائر فرنسية في نظرنا، وإنما هناك جزائر وكفى، وهذه الجزائر توجد في القارة الأفريقية.

على الغرب اليوم أن يختار: أما أن يقبل بتحرير أفريقيا بأكملها ويعيش معها في ظل الصداقة، وإما أن يرفض صداقة أفريقيا[2].

3 . غانا:

الرئيس الغاني كوام نكرومة أكد دورياً انسجام مواقف حكومته مع الشعب الغاني، مبرزاً قناعته وتأكيده من حتمية الانتصار الجزائري على فرنسا، في خطابه أمام الدورة الخامسة عشر للجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة أكتوبر 1960م، وكرر الرئيس نكرومة وأكد موقف بلاده والمتمثل في:

إن فرنسا لا تستطيع أن تنتصر عسكرياً، والطريق الوحيد للخروج بفرنسا من هذا المأزق هو طريق التفاوض[3].

4 . مالي:

كانت مالي حكومة وشعباً بقيادة موديبو كابتا داعمة للتحرر الجزائري، وكانت ممراً هاماً لعبور الأسلحة عبر الجنوب الجزائري لتدعيم حرب التحرير الجزائرية، وكانت تنظم مظاهرات شعبية خاصة في المناسبات الوطنية للثورة الجزائرية، منددة بالاستعمار الفرنسي، مؤكدة تضامن الشعب المالي مع معركة تحرير الشعب الجزائري[4].

وقال مندوب مالي في الأمم المتحدة نهاية سبتمبر 1960م: إن حرب الجزائر وحدها كانت سبباً كافياً لحمل الدول الأفريقية على قطع علاقاتها مع فرنسا، إذ أن فرنسا تقود في الجزائر حرباً إبادية.

---

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 166.

(2) المصدر نفسه ص 167.

(3) المصدر نفسه ص 168.

(4) المصدر نفسه ص 169.

وبالنسبة إلى مالي لم يكن هدف ونموذج الثورة الجزائرية فقط لتحرير الجزائر، بل لتحرير أفريقيا ككل لأن تضحيات الوطنين الجزائريين بعد تضحيات الوطنين في فيتنام ؛ هي السبب في تطور الموجة التحريرية، التي تعدّ جميع الدول الأفريقية مدينة لها بالاستقلال.

وساندت حكومة مالي كل مطالب الحكومة الجزائرية المؤقتة في مفاوضات إيفيان، ذلك ما أكده الرئيس موديبو كابتا نفسه في رسالة موجهة إلى السيد فرحات عباس رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة[1].

ومهما كان مستوى حجم المساندة للثورة الجزائرية من بعض الدول الأفريقية ؛ فإنها لا تخفي التأييد الأفريقي الجماهيري الواسع على مستوى البلدان الأفريقية، سواء التي كانت مستقلة، أو التي كانت انذاك ما زالت تحت الاستعمار.

وشعبياً كان الجميع في تضامن مطلق مع الثورة الجزائرية، ومساندة مستمرة على مستوى التنظيمات والتجمعات غير الحكومية إقليمياً ودولياً. كما كان بالمقابل لممثلي جبهة التحرر الوطني والحكومة المؤقتة تنسيق وتضامن دائم مع قوى وحركات التحرر الأفريقية في المحافل الدولية، من أجل مناصرة استقلال وتحرير كل الأراضي المستعمرة في أفريقيا خارجياً[2]

* * *

(1) المصدر نفسه ص 169.

(2) المصدر نفسه ص .170.

السادس عشر: الاتحاد السوفياتي ودول أوربية:

1 . الاتحاد السوفياتي:

لم يخفِ الرئيس خروتشوف النظرة السوفياتية لحرب التحرير الجزائرية من خلال المنظور الفرنسي، معتبراً القضية الجزائرية مشكلاً فرنسياً ويجب أن يحل داخلياً، وأن «المشكل القائم» في شعوب الاتحاد الفرنسي. ولهذا لا يمكن للاتحاد السوفياتي التدخل في الشؤون الداخلية للدولة، وذلك ما أكده كذلك مولوتوف، أحد قادة السوفيات:

إن رغبة الحكومة السوفياتية هي أن تبقى فرنسا في الجزائر. وتعامل الاتحاد السوفياتي الداعم لفرنسا على حساب الجزائر وجد انتقاداً شديداً من طرف الحكومات العربية، مؤكداً للرئيس خروتشوف أن ذلك سوف يعمق الهوة الفاصلة بينه وبين الأقطار العربية، ولم يعترف الاتحاد السوفياتي بالحكومة المؤقتة الجزائرية، إلا بعد 3 أكتوبر 1960م، أي بعد أن تأكد للاتحاد السوفياتي ـ مثله فرنسا ـ حتمية نهاية وجود الاستعمار الفرنسي[1].

بعد ذلك تغير الموقف السوفياتي، وفي أكتوبر 1960م:

إن فرنسا تشن حرباً استعمارية طاحنة في الجزائر، مستعملة الطائرات والمدافع والدبابات وقنابل النابالم وغيرها من وسائل الإبادة ضد الجزائريين، الذين يكافحون منذ سنوات بكل شجاعة وبطولة من أجل حرية وطنهم لاستقلاله. لقد قتلت فرنسا مئات الالاف من الجزائريين ودمرت وأحرقت مئات المدن والقرى وقذفت بخمس السكان في المحتشدات، إن هذه الوضعية لا يمكن أن نسمح باستمرارها، ولا يمكن أن تدوم أكثر مما دامت، أساند اقتراح الحكومة الجزائرية، إن الجزائريين يعرفون أحسن من أي أحد أليق الحلول بهم. إن عواطفنا معهم، لأن عواطفنا تميل مع المكافحين من أجل الحرية والاستقلال[2].

2 . يوغسلافيا:

يوغسلافيا الدولة الوحيدة الأوربية التي اتخذت مواقف متشددة من الاستعمار الفرنسي بعيدة عن توظيف لعبة المصالح السياسية والاستراتيجية مع فرنسا، وقدمت مساندة سياسية ودبلوماسية للقضية الجزائرية دولياً، ودعمت مالياً وعسكرياً حرب التحرير،وأشاد الرئيس اليوغسلافي تيتو، أثناء زيارته إلى تونس أفريل 1961م ولقائه بالحكومة المؤقتة برئاسة السيد فرحات عباس:

إن الشعب الجزائري بكفاحه البطولي، والدم الغزير الذي بذله خلال 7 سنوات ؛ قد أعطى أدلة لا تحصى على عزمه الراسخ في انتزاع حريته واستقلاله، وإن هذا الكفاح البطولي قد لقي وسيلقى دائماً عطفاً وتأييداً

(1) المصدر نفسه ص 181.

(2) الرئيس خروتشوف، في ندوة صحفية خلال تواجده في الدورة 15 للأمم المتحدة بنيويورك، المجاهد العدد 3178، أكتوبر 1960م ص 2.

مطلقاً من طرف شعوب يوغسلافيا، التي بذلت هي نفسها تضحيات جسيمة لتحقيق حقها المقدس في الاستقلال.

وفي الدورة الخامسة عشرة (15) للأمم المتحدة «أكتوبر 1960م» قال السيد جوزيف تيتو، رئيس يوغسلافيا: .. إن الشعب الجزائري الذي يواصل تقديم تضحيات كبرى يطالب بحقه الطبيعي والشرعي في تقرير المصير، هذا الحق اعترفت به فرنسا، لكن المفاوضات التي تلت برهنت مع الأسف أن الفرنسيين لم يستخلصوا النتائج العملية المترتبة على الاعتراف بحق تقرير المصير، ولهذا تبحث الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية عن مخرج بواسطة استفتاء يجري تحت رقابة الأمم المتحدة، ونحن لا نملك إلا أن نحيي ونؤيد هذا الاقتراح.. فإن لم يحل المشكل الجزائري في أمد قريب حلاً ديمقراطياً، فإن ذلك لا يعني ضمنياً مشروعية إباحة استعمال القوة لخنق مطامح شعب، وذلك يؤدي في الواقع إلى إباحة الحرب بصفة عامة[1].

وكانت الزيارة الأولى للرئيس فرحات عباس إلى يوغسلافيا «جوان 1959م»؛ بداية عملية لاعتراف يوغسلافيا بالحكومة الجزائرية المؤقتة، وهكذا كانت يوغسلافيا أول بلد أوربي يعترف بالحكومة الجزائرية المؤقتة.

أثناء زيارة الوفد الحكومي الجزائري إلى يوغسلافيا، أكدت هذه الأخيرة مساندتها المطلقة لحرب التحرير الجزائرية، وتعاملت مع الوفد الجزائري على أساس علاقات ثنائية بين دولتين، وليس فقط علاقة دولة مع حركة تحررية سواء في الاستقبال أو في الإيواء أو البروتوكولات التي تمت بين الحكومتين.

وصفت «المجاهد» الاعتراف والتدعيم اليوغسلافي للجزائر:

إن يوغسلافيا كانت هي أول بلد أوربي عبر عن مساندته للكفاح التحريري الجزائري، بمثل هذه القوة، وبمثل هذه الصراحة، وبمثل هذا الحماس، وبمثل هذه الرسمية، ونحن لا نشك أن الأمة اليوغسلافية إذ تفعل ذلك ؛ فلأنها تعرف أنه كفاح شبيه بالكفاح الذي قادته المقاومة اليوغسلافية، وعلى رأسها الماريشال تيتو، ضد الاحتلال الأجنبي[2].

وثاني لقاء على أعلى مستوى بين قيادتي الحكومتين الجزائرية واليوغسلافية تم مع الرئيس اليوغسلافي تيتو أثناء زيارة هذا الأخير إلى تونس «أفريل 1961م».

في هذا اللقاء قرر الرئيس تيتو مضاعفة المساندة اليوغسلافية المالية والعسكرية لحرب التحرير الجزائرية[3]، داعياً الحكومة الجزائرية لإرسال طلابها وجنودها للتكوين بيوغسلافيا مجاناً، وإرسال الجرحى من الثوار الجزائريين إلى المستشفيات اليوغسلافية، حتى داخل تونس كانت يوغسلافيا بواسطة سفيرها تزود باستمرار ممثلي جبهة التحرير الوطني بأجهزة صحية وطبية لمعالجة ضحايا حرب التحرير الجزائرية[4].

وأثناء تسليمه لأدوية وأجهزة صحية للجزائريين أكد سفير جمهورية يوغسلافيا بتونس:

---

(1) المجاهد، العدد 78، 3 أكتوبر 1960م، ص 2.

(2) المجاهد، العدد 44، 14 جوان 1959م ص 3.

(3) المجاهد، العدد 94، ص 3.

(4) المجاهد، العدد 94، ص 3.

إن التضحيات التي قدمتموها خلال كفاحكم من أجل حرية واستقلال الشعب الجزائري ؛ تحتم على جميع القوى وجميع الشعوب التقدمية والديمقراطية في العالم، أن تقدم مساعدتها وتأييدها في هذه الفترة الحاسمة من النهاية المشرفة لمجهوداتكم النضالية، في سبيل انتزاع حريتكم الكاملة ووحدة ترابكم الوطني[1].

كما أكد السفير اليوغسلافي استعداد بلاده الدائم لمضاعفة المساعدة للاجئين الجزائريين، وكان محسوساً عبر مراحل حرب التحرير الجزائرية، بما فيها تقديم إعانات مالية[2].

وعقب لقاء الوفد الجزائري بالرئيس تيتو «أفريل 1961م» أكد السيد محمد يزيد وزير الأخبار في الحكومة المؤقتة قائلاً:

إن العلاقات مع الشعوب اليوغسلافية، وخاصة مع الماريشال تيتو ؛ كانت منذ يوم غرة نوفمبر 1954م أخوية ومثمرة، إن الوفد الجزائري عبّر للرئيس تيتو عن تقديره للمساندة الحارة التي يقدمها للثورة الجزائرية.

وكان ثالث لقاء بين قيادتي الحكومتين تم بيوغسلافيا «سبتمبر 1961»، حينما زار السيد فرحات عباس يوغسلافيا لتمثيل الجزائر في المؤتمر الأول لدول عدم الانحياز[3]، ووجدت القضية الجزائرية في هذا المؤتمر تدعيماً خاصاً ولهجة متشددة من معظم رؤساء الحكومات والدول من القارات الثلاث: اسيا، إفريقيا، وأمريكا. خاصة من دول مثل: يوغسلافيا، مصر، العراق، أندونيسيا، غينيا، وكوبا[4].

أدت هذه المساندة اليوغسلافية المطلقة للثورة الجزائرية إلى تعرضها للعدوان الفرنسي على غرار مصر، والمغرب وتونس، بما فيها قرصنة الأسطول الفرنسي باستمرار لسفن يوغسلافية أو حجزها من طرف البوارج الحربية الفرنسية[5].

3. مساندة الولايات المتحدة الأمريكية لفرنسا:

لم يكن الدعم العسكري الأمريكي لفرنسا فقط عن طريق منظمة الحلف الأطلسي، بل كان كذلك مباشراً كلما أحست بأن جيش التحرير الوطني الجزائري يهدد فرنسا. ذلك ما يفسر مشاركة طائراتها مع فرنسا في ضرب ساقية سيدي يوسف.

وفي المحافل الدولية لعبت الولايات المتحدة الأمريكية الدور القيادي في التعبئة والتأثير من أجل تدعيم المنظور الفرنسي، بما فيها الحملة لوقف طرح القضية الجزائرية في منظمة الأمم المتحدة، وحتى محاولة التأثير على الدول العربية مثلما حدث لملك المغرب محمد الخامس 25 نوفمبر 1958م، أثناء زيارة هذا الأخير إلى الولايات المتحدة الأمريكية، رفض الملك محاولة التأثير عليه، وأكد الموقف المغربي المؤيد بصفة مطلقة لاستقلال الجزائر

(1) المجاهد، العدد 114، ص 2.
(2) المجاهد، العدد 37، ص 11.
(3) المجاهد، العدد 104 «11 ديسمبر 1961».
(4) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 189.
(5) المصدر نفسه ص 189.

الكامل، من أن الأهداف الأساسية لزيارة الملك إلىالولايات المتحدة كانت محاولة كسب الراي العام العالمي بجانب القضية الجزائرية.

وفي اجتماع لأعضاء حلف بغداد بأنقرة «ديسمبر 1957م»، رفضت الولايات المتحدة طلب العراق دراسة القضية الجزائرية، والتوصل لحل يضمن استقلال الجزائر. وتجاهلت الولايات المتحدة الأمريكية حتى اراء خبرائها وممثليها ونصائحهم لتبني موقف معتدل تجاه استقلال الجزائر لأنه أمر محتوم، كما ذهبت الولايات المتحدة حتى لدرجة الضغط على الحكومة التونسية من أجل تقييد نشاط الحكومة الجزائرية المؤقتة وجبهة التحرير الوطني بتونس، وعرقلة مسيرة حرب التحرير الجزائرية. وأكدت الولايات المتحدة الأمريكية في لقاء لأعضاء منظمة الحلف الأطلسي بباريس «ديسمبر 1957م» مساعدتها وتدعيمها المادي والمعنوي لفرنسا، بما فيها تسليم نصف مليار دولار في هذه المناسبة فقط لتدعيم فرنسا لمواجهة جيش التحرير الوطني.

وبالنسبة للحلف الأطلسي، الجزائر قطعة من فرنسا، وبالتالي فهي تحت النفوذ والنطاق الاستراتيجي للحلف، ولهذا شكلت الثورة الجزائرية بالنسبة لأعضاء الحلف تهديداً لمجالهم الحيوي منذ البداية، فيجب مجابهتها. واتفقوا جميعاً على إرسال قوات أطلسية دفاعاً عن المجال الحيوي للحلف.

وأدانت جبهة التحرير الوطني باستمرار موقف الولايات المتحدة الأمريكية، وكانت واعية لتحالفها العضوي مع فرنسا، واعتبرت القمع الفرنسي المباشر للشعب الجزائري قمعاً أمريكياً أيضاً[1].

* * *

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 194، 195، 196.

المبحث الرابع

الحكومة المؤقتة والمفاوضات مع فرنسا

أولاً: الحكومة المؤقتة:

إن فكرة تأسيس حكومة جزائرية مؤقتة لم تكن من بنات أفكار لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية «أوت 1957 سبتمبر 1958»، ولم تكن أيضاً ثمرة لمقررات أول دورة للمجلس الوطني للثورة الجزائرية «20 . 28 أوت 1958م»، كما أنها ليست وليدة لتوصيات مؤتمر طنجة في أفريل 1958م، ولكنها ظهرت للمرة الأولى من صلب مشروع اقترحه عناصر الوفد الخارجي على القيادة التنفيذية المركزية للثورة في العاصمة في منتصف عام 1956م.

لقد جوبهت فكرة تأسيس الحكومة التي أعلنها انذاك كل من محمد خيضر وأحمد بن بلة بالرفض الشديد من طرف عبان رمضان، الذي أبدى امتعاضاً كبيراً من فكرة تشكيل حكومة جزائرية في المنفى، وقد أدى تباين المواقف حول هذا المشروع إلى احتقان وتوتر في العلاقة بين ما أصبح يعرف بالداخل والخارج في قيادة الثورة انذاك، كما أدت التطورات السياسية التي عرفتها حرب التحرير في خريف 1956م إلى تأجيل فيه إلى بداية عام 1958م.

وكان خروج القيادة التنفيذية للثورة من الجزائر في بداية عام 1957م، إلا أن فكرة إنشاء حكومة جزائرية مؤقتة لم يتم طرحها كأولوية بالنسبة لقيادة الثورة، وذلك بسبب التأزم الداخلي الشديد الذي عرفته صفوف لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية ابتداء من اجتماع أوت 1957م.

ولعل انشغال قيادة الثورة التي استقرت بصورة نهائية في الخارج مطلع عام 1958م بترتيب أوضاعها وتوزيع المهام بين أبرز عناصرها، هو الأمر الذي أدى إلى إرجاء البدء في مشروع تشكيل الحكومة الجزائرية في المنفى إلى غاية ربيع 1958م[1].

ويرى بعض المؤرخين بأنه أصبح لزاماً أمام ألاعيب فرنسا ومناورات ديغول المتعددة، أن يعلن عن تأسيس تلك الحكومة، وأخذت الفكرة تسري كالنار في الهشيم، يتكلم الناس عنها في كل مكان، فرنسا، في الشرق، في تونس، المغرب، وتوالت المذكرات في القاهرة وغيرها، واعتكف الناس على دراسة ذلك العمل وطريقة إنجازه[2].

يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني: وقد فهمت من مذاكراتي مع الإخوة المصريين أنهم لم يكونوا مؤيدين لقيام حكومة مؤقتة، وأنهم كانوا يؤمنون إيماناً أعمى بزعامة أخلصت لهم وأخلصوا لها، ورجال تلك الزعامة يوجدون

---

(1) الولايات التاريخية لثورة التحرير الجزائرية، د . محمد صالح بجاوي ص 301.

(2) حياة كفاح (579/3).

بالسجون الفرنسية، فإما أن تكون الحكومة منهم أو لا تكون أصلاً، ثم إنهم زيادة على كل ذلك لم يكونوا يثقون بالأستاذ فرحات عباس، وهو من جهته لا يثق بهم، إنهم لم يتفاهموا معه أصلاً، فلا يتكلم بالعربية معهم ولا هم يتكلمون بالفرنسية معه، ويرون فيه رأياً حاسماً قاطعاً: إنه رجل دُسَّ على الثورة، قصد جرها إن عاجلاً أو اجلاً إلى مفاوضات مع فرنسا تخرج الجزائر من ميدان العمل الثوري العربي إلى ميدان العمل مع فرنسا، والسير في ركاب الغرب. وعمل المصريون بمختلف الوسائل على إحباط ذلك المسعى، فأخفقوا، بينما كان رجال كل الدول يؤيدون ويحبذون، وبعد استشارات طويلة ومذاكرات متشعبة.. بقيت خارجاً عنها بصفة تامة، بأنه وقع تشكيل حكومة وُضعت بها رغم أنفي[1].

1 . إعلان الحكومة المؤقتة:

قال المدني: وسُلِّمت بياناً عنها ـ أي عن الحكومة المؤقتة ـ ليلة الإعلان، إلى كل السفارات العربية، وإلى السيد فتحي الديب ليبلغها بدوره إلى السيد الرئيس عبد الناصر، قال لي الأخ فتحي وهويضحك ضحكة صفراء، فاقع لونها: سجل من الان، إننا أول معترف بهذه الحكومة، إنما سجل عندك خاصة أننا لسنا راضين بها، ونخشى أن تسوء العاقبة من جراء وجودها.

وكان يوم 19 سبتمبر 1958م، هو يوم إعلان الحكومة، وقد اجتمع رجال الصحافة، ومختلف ممثلي وكالات الصحف الأجنبية بقاعة في عمارتنا بشارع مديرية التحرير، وحضر معنا سفير العراق الثائر بالقاهرة، الأستاذ رفيق السامرائي، وتولى الرئيس فرحات عباس تلاوة قرار التأليف، وأخذت الكلمة بعده، فعرّبتُ للحاضرين ذلك القرار، وأعلنت أن حكومة الجمهورية المتحدة، قد أعلنت اعترافها بهذه الحكومة، وقدم لي حالاً الأخ السامرائي بياناً تلوته على الحاضرين وفيه اعتراف العراق بالحكومة، وتلا ذلك فوراً سفير ليبيا معترفاً رسمياً بالحكومة، وكذلك سفير دولة باكستان، وهكذا بين الساعة الواحدة و5 دقائق والساعة الواحدة و10 دقائق تم اعتراف خمس دول بالجمهورية الجديدة، وعلى السادسة من مساء ذلك اليوم جاء اعتراف دولة اليمن[2].

2 . وزراء الحكومة المؤقتة:

تكونت الحكومة المؤقتة من:

ـ فرحات عباس رئيس الحكومة.

ـ كريم بلقاسم نائب الرئيس.

ـ أحمد بن بلة «سجين» نائب الرئيس ووزير القوى المسلحة.

ـ محمد خيضر «سجين» نائب الرئيس.

ـ حسين ايت أحمد «سجين» نائب الرئيس.

---

(1) المصدر نفسه (580/3).

(2) حياة كفاح (581/3).

. محمد بوضياف «سجين»	نائب الرئيس.
. رابح بيطاط «سجين»	نائب الرئيس.
. دكتور محمد أمين الدباغين	وزير الخارجية.
. محمد الشريف	وزير التسليح والتموين.
. عبد الحميد بو الصوف	وزير المواصلات والاتصالات العامة.
. عبد الحميد مهري	وزير أمور الشمال الأفريقي.
. الدكتور أحمد فرنسيس	وزير المالية.
. محمد يزيد	وزير الأخبار والإعلام.
. ابن يوسف بن خدة	وزير الشؤون الاجتماعية.
. أحمد توفيق المدني	وزير الشؤون الثقافية.
. الأمين خان	كاتب دولة.
. عمر أو صديق	كاتب دولة.
. مصطفى استامبولي	كاتب دولة.

وهكذا انطلقت الحكومة المؤقتة وخرجت الجزائر للعالم، مجاهدة، عاملة، ساعية، ذللت الصعاب وحطمت العراقيل، ورفعت الاستقلال[1].

3 . التطور السياسي والإداري لأجهزة الحكومة المؤقتة:

تحولت الحكومة المؤقتة إلى هيئة سياسية وإدارية أكثر تطوراً ونشاطاً مقارنة ببقية التنظيمات الثورية الأخرى، بعد أقل من سنة واحدة من إنشائها، إذ يسمح لها الاستقرار في القاهرة وتونس بأن تتلقى دعماً مادياً ومعنوياً كبيراً من طرف عدد من الدول العربية والأفرو . اسيوية، إلى جانب بعض دول أوربا الشرقية، وتمكنت أيضاً من تنظيم سبل التمويل التي كانت تصلها من فدرالية جبهة التحرير في فرنسا عن طريق عدد من البنوك التونسية والسورية والمصرية والمغربية.

واتخذت الحكومة المؤقتة الجزائرية من القاهرة مقراً أولياً لرئاستها حين أعلن عن ميلادها، ولكنها شرعت منذ مطلع عام 1959م في تنظيم أجهزتها وتأسيس مقرات لوزاراتها في كل من ليبيا وتونس والمغرب، وفي تشكيل بعثاتها الدبلوماسية التي تم توجيهها إلى عدد معتبر من الدول في مختلف قارات العالم، كما سارعت إلى احتواء التنظيمات الفيدرالية القديمة في كل من فرنسا وتونس والمغرب وضمها إلى سلطة وزارة الداخلية[2].

وكان من أهم أجهزة الحكومة المؤقتة التي تطورت تطوراً ملحوظاً، والتي كان يتم اختزال القيادة السياسية والعسكرية من الفعلية للثورة من خلالهما: وزارة القوات المسلحة والخارجية والتموين والاتصالات.

(1) المصدر نفسه.

(2) الولايات التاريخية لثورة التحرير، د . محمد بجاوي ص 323.

4 . وزارة القوات المسلحة:

كانت وزارة القوات المسلحة من أهم وزارات الحكومة المؤقتة عند إنشائها في سبتمبر 1958م، وقد تولى بلقاسم الإشراف عليها بسبب حرصه الشديد على البقاء في الموقع الذي كان يشغله في صفوف لجنة التنسيق والتنفيذ الثانية، واستمر لمدة تقارب العام في مهام الإشراف على تنظيم جيش الحدود، وفي الإشراف على جيش التحرير في الداخل، كما شكلت تلك التولية حلاً وسطاً قبل المنافسين الرئيسيين له في قيادة الثورة انذاك بوصوف وبن طوبال، اللذين سعيا إلى قطع الطريق عليه عندما أظهر طموحه لرئاسة الحكومة المؤقتة.

قام كريم بلقاسم بتعيين نفس العناصر التي كانت تحيط به من قبل في ديوان وزارته، ثم شرع في انتقاء مجموعة من الضباط الفارين من الجيش الفرنسي بغرض الاستعانة بهم في الإشراف على المعسكرات والمدارس العسكرية ودوائر التسليح والتموين المنتشرة في عدد من المدن التونسية والمغربية.

وقدَّر بعض الباحثين عدد الإطارات الذين كانوا يشرفون على إدارة هذه الوزارة «200» إطار، وكان أداء هذه الوزارة موضع نقد شديد من طرف أعضاء الحكومة المؤقتة، الذين حملوا كريم بلقاسم مسؤولية الفشل في تنظيم جيش الحدود، وفي مواجهة السدود المكهربة، وأيضاً في تراجع وتيرة قوافل السلاح نحو الولايات، ونجحت الضغوط التي مارسها كل من بوصوف وبن طوبال، في إرغام كريم بلقاسم على التخلي عن عدد من أبرز مساعديه وعلى رأسهم الرائد إيدير، بسبب تعرض هذا الأخير لحملة واسعة من الانتقادات من طرف قدماء المقاتلين، وقد مهدت تلك الضغوط لإلغاء وزارة القوات المسلحة في اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في ديسمبر 1959م جانفي 1960م، وإنشاء هيئتين بديلتين له هما:

. اللجنة الوزارية الحربية.

. وهيئة الأركان العامة.

وعلى إثر إلغاء وزارة القوات المسلحة أسندت إلى كريم بلقاسم مهمة الإشراف على وزارة الخارجية في التشكيلة الثانية للحكومة المؤقتة التي أعلن عنها في جانفي 1960م، وخلف بذلك الدكتور محمد الأمين دباغين الذي غادرها في منتصف عام 1959م.

إن كريم بلقاسم الذي كان يتمتع بسمعة ثورية، نتيجة لتجربته الطويلة كقائد لمعقل منطقة القبائل قبل انطلاقة الثورة، وحتى خلال سنواتها الثلاث الأولى، فشل في القيام بمهام كانت تبدو مناسبة لكفاءته في المجال العسكري، وعندما تولى الإشراف على وزارة القوات، لكنه حقق نجاحاً لم يتوقعه الكثير من رفاقه على رأس وزارة الشؤون الخارجية، لعدم امتلاكه للمؤهلات الكافية لقيادة دبلوماسية الثورة، نظراً لطبيعة ومستوى تكوينه العام.

لم يهمل كريم بلقاسم الحاشية التي كانت تحيط به في وزارته السابقة، فقام بإرسال عدد منهم على رأس بعثات في مهمات دبلوماسية، إذ أرسل أو عمران على رأس بعثة إلى تركيا، والرائد إيدير إلى باكستان، والرائد قاسي إلى تونس، وعمران صديق إلى غينيا، وبو علام أو صديق إلى مالي، ولجأ كريم بلقاسم إلى الاعتماد على

مجموعة من الإطارات السياسية والعناصر المثقفة لمساعدته في الإشراف على وزارة الخارجية، ومن أبرز هؤلاء كان سعد دحلب الذي خلفه على رأسها بعد أوت 1961م، إلى جانب عبد الملك بن حبيلس «محامي» ومبروك بلوحسين «محامي»، محمد حربي «طالب في التاريخ»، وعبد العزيز بن ميلود، وتوفيق بوعتورة، وعزيز حسن، وعبد القادر بن قاسي وغيرهم، وقد اشتغل معظم هؤلاء من قبل في لجان الصحافة والإعلام، وفي صفوف فيدرالية فرنسا، وفي دواوين الوزارات الأخرى للحكومة المؤقتة[1].

5 . وزارة الداخلية:

شكلت وزارة الداخلية نواة رئيسية في قيادة الجهاز التنفيذي للثورة في السنوات الأربع الأخيرة من حرب التحرير، وعلى عكس سابقتها عرفت هذه الوزارة استمرارية مميزة، لأن مقاليد إدارتها بقيت في يد بن طوبال لمدة ثلاث سنوات كاملة، قبل أن تتم إزاحته عنها في أوت 1961م، ثم إسنادها إلى كريم بلقاسم الذي جمع حينها بينها وبين منصب نيابة رئاسة الحكومة، إن تسمية هذه الوزارة لم تكن تتناسب مع مجال عملها، لأنها كانت تشرف على تنظيمات فرعية للثورة في الخارج، ولم تكن تتمتع بسلطة فعلية مباشرة على ولايات الداخل التي كانت علاقتها بها تقتصر على تبادل التقارير أو استلام التعليمات الصادرة عنها.

ويمكن توضيح هذا بالإشارة إلى أن مجال نشاط هذه الوزارة، كان محصوراً في الإشراف على فيدراليات فرنسا وتونس والمغرب، وأما صلاحياتها فكانت متعددة تتضمن القضايا المتعلقة بالتأطير والتكوين السياسي في المدارس والقواعد العسكرية الخلفية، وبالتدخل لحل الأزمات الداخلية في صفوف وحدات جيش الحدود ومراقبة حركة العبور، كما أنها كانت تشرف على تنظيم عملية انخراط الإطارات الجزائرية من طلبة وعناصر عسكرية في صفوف الجيش الخارجي، وداخل المصالح الإدارية للحكومة المؤقتة، وفي بعض الأحيان كانت تتجاوز هذا الإطار إلى التدخل في شؤون اللاجئين الجزائريين في دول الجوار، خاصة في كل ما كان يتعلق بالرقابة وبالخدمات الاجتماعية والثقافية.

وكان بن طوبال يسعى إلى تكوين ما يشبه الشرطة السرية في صفوف جبهة التحرير الوطني وهو ما كان يبديه حول قناعته بالفوائد العملية للقبضة الحديدية التي تؤدي إلى انضباط الجماهير. وظهر في شكل ملفت في عدد من المحاكمات التي عقدت من أجل معاقبة عدد من أعضاءالهيئات العسكرية وقادة المناطق الذين تمردوا على الجهاز التنفيذي أو على قادتهم ممن هم أعلى مرتبة، مثل محاكمة مجموعة العمودي في تونس في ربيع 1959م، والتحقيق في قضية الملازمين، وقضية النقيب الزبير في القواعد العسكرية الغربية لجيش الحدود في المغرب الأقصى سنة 1958م وسنة 1960م[2].

---

(1) المصدر نفسه ص 328.

(2) المصدر نفسه ص 328، 329، 330.

6 . وزارة التسليح والاتصالات العامة:

كانت وزارة التسليح والاتصالات العامة التي أشرف عليها عبد الحفيظ بوصوف بصورة مستمرة خلال الفترة (1958 . 1962)، كانت من أكثر الدواوين الوزارية أهمية ونفوذاً داخل الحكومة الجزائرية المؤقتة، وكانت الوزارة الوحيدة التي تمتلك مقرات في كل من تونس وطرابلس ليبيا والرباط بالمغرب، وكانت تولية بوصوف على رأس هذه الوزارة دفعاً مهماً في جمع كم معتبر من أجهزة الاتصال منذ صيف 1956م، حين كان مشرفاً على قيادة الولاية الخامسة خلفاً لابن مهيدي، وهو الأمر الذي سمح له بتكوين فريق تقني أشرف على شبكات الاتصالات من القواعد الغربية لجيش الحدود.

وجنَّد بوصوف العديد من الطلبة الجامعيين والثانويين ابتداءً من مارس 1957م، ولم يبت طويلاً حتى راح يفاخر بما أنجزه في مراكز التكوين التقني للاتصالات، وهو ما أثار رغبة رفاقه في قيادة الثورة بعد معاينة ذلك، وصادف أن كان عبان رمضان وسعد دحلب أول من قام بزيارة تلك المراكز في 15 . 16 ماي 1957م، وتوالت الدفعات التي أشرف على تكوينها عبد الحفيظ بوصوف، وازداد عدد العناصر المجندة في صفوف المصالح المختلفة التي تم استحداثها فيما بعد، إلى درجة أنه في عام 1959م أصبح عدد الإطارات التي نجح بوصوف في جمعها وتأطيرها في وزارته يتجاوز ال300 بين إداري وتقني[1].

وكانت وزارة التسليح والاتصالات العامة تتكون من مجموعة من المصالح، كالاتصالات اللاسلكية والرموز والشفرة والتموين العسكري «شراء الأسلحة والعتاد» والوثائق والجوسسة المضادة والإذاعة.

وقد اعتمدت هذه الوزارة على تكوين أعداد معتبرة من الإطارات التي كانت تشرف على التسليح والتموين والاتصالات، والاستعلامات، كما لجأت إلى تجنيد عناصر جزائرية كانت تمتلك مؤهلات احترافية في المغرب وفي فرنسا على وجه الخصوص. وكانت وزارة بوصوف تمتلك «6» مخازن للأسلحة والعتاد في تونس، و«5» مخازن أخرى في المغرب إلى جانب قاعدة طرابلس، وتوفرت إلى جانب ذلك مراكز عديدة للاتصالات في المدن المغربية والتونسية التي كانت بها قواعد جيش الحدود.

إن الدور الهام الذي لعبته هذه الوزارة سمح لقيادة الثورة في الخارج بالاحتفاظ بقدر كبير من الانسجام والاستقلالية والمقاربة في المسائل المتعلقة بالاتصالات والاستعلامات التي كان بإمكانها إحداث ثغرة كبيرة للتدخل في الشؤون الداخلية لها، كما أنها ساهمت بقسط كبير في كسر عزلة الولايات المتحدة عن القيادة الخارجية، لأن جهود بوصوف أتاحت هامشاً كبيراً للمحافظة على قنوات اتصال مستمرة في أغلب الأحيان بين الهيئات السياسية والعسكرية مع ولايات الداخل، وقد أكسبت الإنجازات التقنية والعملية لهذه الوزارة عبد الحميد بوصوف سمعة كبيرة ومكانة مرموقة في أعلى مراتب قيادة الثورة في سنوات 1957م . 1961م[2].

(1) المصدر نفسه ص 333.

(2) المصدر نفسه ص 335.

6 . القدماء في الحكومة المؤقتة:

كانت وزارة التسليح والاتصالات العامة 1958 . 1962م تستقطب لوحدها أكثر من ثلثي عدد القادة والإطارات والتقنيين في صفوف الحكومة الجزائرية المؤقتة، وهو ما يعني أن بقية الوزارات بما فيها رئاسة الحكومة لم تتمكن من أن تتحول إلى أجهزة تنفيذية، فالقيادة الفعلية كانت إلى درجة كبيرة بيد جهاز التسليح والاتصالات العامة، وهو ما أدى إلى حجب الأدوار التي كان يقوم بها كل من فرحات عباس وسعد دحلب وأحمد فرنسيس وعبد الحميد مهري وأحمد المدني وأحمد يزيد وأمين دباغين، وإلى التظليل على أداء الوزارات التي أسندت إليهم، لأن المشاركة السياسية لتلك الوزارات في صناعة القرارات كانت هامشية، ودورها كان يقتصر على تجميل واجهة قيادة الثورة في الخارج، في صورة شبيهة بذلك الذي كانت تقوم به البعثات الخارجية المنتشرة في 38 دولة عبر العالم.

إن الدور الذي كان يقوم به فرحات عباس لم يكن يتجاوز مهمة القيام بدور الناطق السياسي باسم الحكومة المؤقتة، لأنه كان محاصراً في ديوانه الصغير، بين كريم بلقاسم، وبن طوبال، وبوصوف «الباءات الثلاثة»، الذين كانوا لا يسمحون له بإصدار أي بيان أو تصريح سياسي يتضمن الإشارة إلى قرارات مهمة إلا بعد مناقشتها في جلسات موسعة ومغلقة، يمكن اعتباره دليلاً مهماً على أن الحكومة المؤقتة لم تكن تمثل جهازاً تنفيذياً يضم في صفوفه أعضاء القيادة السياسية للثورة، كما يوحي بذلك تعدد مهامه وتمثيل مختلف عناصر النخبة الوطنية في صفوفه.

وكما يمكن القول بأن الكثير من الهيئات والمناصب التي تم استحداثها داخل الحكومة المؤقتة، لم تكن تهدف إلى تحقيق التجاوب مع الضرورات الميدانية، بقدر ما كانت تخضع إلى منطق تحقيق صفات ذات مكاسب سياسية ومعنوية مرتبطة بالتنافس حول مواقع القيادة.

ويمكن الإشارة هنا إلىأن كتابات الدولة التي أسندت إلى ثلاثة ضباط من الداخل عند تشكيل الحكومة المؤقتة ؛ كانت من الناحية العملية مجرد عملية لذر الرماد في أعين قادة الولايات الذين لم تتم استشارتهم في قضية تأسيسها، لأن تلك الغاية منها إشعار الداخل بأنه كان في موضع اهتمام عند قيادة الخارج[1].

إن إلغاء وزارة هامة ثم تكليف المشرف عليها بوزارة دونها أهمية أو وزير بدون حقيبة، كما حدث مع كريم بلقاسم في جانفي 1960م، ثم مع بن طوبال في أوت 1961م ؛ كان مؤشراً على تراجع نفوذهما ومكانتهما لصالح أطراف أخرى، كما أن اللجوء إلى تولية قائد عسكري مثل محمدي السعيد لوزارة دون حقيبة، لم تكن الغاية منه سوى إبعاده وإزاحته عن الترشح لمنافسة بو مدين على رأس هيئة الأركان العامة.

ولم تستقر وضعية الوزارات المساعدة في التعديلات الحكومية الثلاث، لا لأنها لم تنجز حصيلة إيجابية كما كان حال وزارة القوات المسلحة التي أشرف عليها كريم بلقاسم أو وزارة الخارجية عندما تولاها الأمين دباغين، ولكنها كانت رهينة لسيطرة العقداء الوزراء على السلطة الفعلية في قيادة الثورة، وقد انعكس تنافس هؤلاء

(1) المصدر نفسه ص 337، 338، 339.

فيما بينهم حيناً، وتوحدهم في مواجهة الوزراء السياسيين حيناً اخر على وتيرة تطور واستقرار تلك الوزارات، التي ألغي بعضها بعد إدماجها مع أخرى، مثل ما حدث مع وزارة الشؤون الثقافية التي أدمجت مع الشؤون الاجتماعية، ووزارة التسليح والتموين العام التي ألحقت بوزارة بوصوف بعد إبعاد محمود الشريف.

وعندما كان يتم تفادي إدماج وزارتين مع بعضهما البعض كانت النتيجة غالباً ما تنتهي إلى عزل واستبدال عناصر بأخرى، حتى ولو كانوا من المشهود لهم بالكفاءة في عملهم، مثلما حدث بالنسبة لكل من الأمين دباغين في بداية عام 1960م وأحمد فرنسيس وفرحات عباس في أوت 1961م، وهذا ما كان يكشف أن الوزارات «الفنية» كانت الضحية الأولى للأزمات الداخلية في الحكومة المؤقتة، وأنها لم تكن في الواقع سوى واجهة سياسية رمزية تخفي القيادة الثورية التي كانت بأيدي الباءات الثلاثة[1].

7 . التامر على الحكومة المؤقتة:

وبطريقة سرية عاد العقيد العموري الذي تم نفيه إلى القاهرة في شهر سبتمبر من عام 1958م إلى تونس مع أحد أنصاره الذي يسمى الجمعي سعدية «والمعروف باسم مصطفى لكحل»، وحاولا تنظيم انقلاب ضد الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، والتخلص خاصة من العقيد محمود الشريف وزير التموين بالسلاح، والعقيد كريم بلقاسم، ويبدو أن العقيد عبد الحميد بوصوف والعقيد لخضر بن طوبال ؛ كانا على علم بالمؤامرة لأنهما زوّدا محمد العموري والجمعي سعدية بجوازين جديدين للسفر إلى تونس، وكان القصد من هذا التشجيع هو التخلص من كريم بلقاسم. قد اكتشفا المؤامرة قبل تنفيذها.

وخلال اجتماع العموري مع 28 من أنصاره في مدينة الكاف التونسية، تمكن كريم بلقاسم من الاستعانة بالجيش التونسي لإلقاء القبض على 28 من المتامرين على الحكومة المؤقتة يوم 16 نوفمبر 1958م، وتقديمهم للمحاكمة. ولعب بوصوف دوراً كبيراً في محاكمة القادة العسكريين المتامرين على الحكومة المؤقتة، حين تقرر تعيين العقيد هواري بومدين رئيساً للمحكمة، وزميله علي منجلي وكيلاً للجمهورية، والعقيد الصادق محامياً، وفي الأخير أصدرت المحكمة العسكرية أحكامها بالإعدام على العقيد العموري، والعقيد نواورية، والرائد عواشرية، والرائد الجمعي سعدية، الذين تم تنفيذ حكم الإعدام فيهم في اليوم التالي.

أما بقية المتهمين بالمشاركة في المؤامرة على الحكومة المؤقتة، أمثال: عبد الله بلهوشات، أحمد دراية، ومحمد الشريف مساعديه وغيرهم من الضباط، فقد تم سجنهم لغاية 1960م، أي أن الحكم كان لمدة سنتين.

وباستعمال الجيش التونسي للاستيلاء على أجهزة اللاسلكي وإلقاء القبض على الثوار الجزائريين، الذين كانوا يعارضون كريم بلقاسم وأعضاء الحكومة المؤقتة بسبب الخلافات حول التزود بالسلاح، ونوعية القادة الذين ينبغي أن تسند لهم القيادة، وخاصة في الولاية الأولى والحدود ؛ فقدت الحكومة المؤقتة مصداقيتها، وأصبحت تعتمد على جيش دولة أخرى للتغلب على الخلافات التي تحصل بين المسؤولين، وبفضل هذه المحاكمة السريعة

---

(1) المصدر نفسه ص 341.

والأحكام القاسية ضد الثوريين غير المنضبطين ؛ برز بومدين كشخصية عسكرية قوية وقادرة على إعادة الأمن والاستقرار في الحدود الشرقية للجزائر[1].

8 . اجتماع قادة الداخل:

في الفترة الممتدة من 6 إلى 12 ديسمبر 1958م، تمكن معظم قادة الداخل من تنظيم لقاء بينهم وذلك بقصد دراسة الأوضاع السائدة بداخل الجزائر، والتعرف على الحلول الممكنة لفك العزلة المضروبة حولهم من طرف القوات الفرنسية، التي عرقلت عمليات الاتصال بقيادة ثورة الجزائر بالخارج، وقد قام بهذه المبادرة العقيد عميروش، وبارك هذه الفكرة السيد كريم بلقاسم الذي أصبح يشعر بالخطر الذي يداهم ثورة التحرير إذا لم تكن هناك اتصالات مستمرة بين قادة الثورة في الخارج ورؤساء الولايات في الداخل، وإذا كان العقيد عميروش «قائد الولاية الثالثة» قد نجح في الالتقاء بالعقيد سي محمد بوقرة «قائد الولاية الرابعة» ؛ فإنه لم يتمكن من إقناع العقيد كافي «رئيس الولاية الثانية»، والعقيد لطفي «مسؤول الولاية الخامسة»، بالمشاركة في ذلك اللقاء الذي جمع رؤساء الولايات في الداخل، وذلك لأنهما كانا متخوفين من محاولة العقيد عميروش لتوحيد قيادة الداخل، بقصد تقوية نفوذ كريم بلقاسم وجعله زعيماً وحيداً للثورة الجزائرية، وعند انتهاء اجتماع العقداء الذين حضروا الاجتماع الذي دعي إليه العقيد عميروش.

قام الرائد عمر أو صديق بنقل محضر ذلك الاجتماع إلى الحكومة المؤقتة بالخارج. وبناء على ما جاء في محضر الاجتماع، قررت الحكومة المؤقتة استدعاء قادة الولايات العسكريين في الداخل لتنظيم اجتماع بين رؤساء الولايات خارج الجزائر. وأثناء توجههم لحضور المؤتمر المقرر في تونس في شهر أفريل من عام 1959م، وقعت معركة كبيرة بين فرقة من جنود جيش التحرير تتكون من 40 جندي وضابط وبين 2500 جندي من قوات الكولونيل «ديكاس»، وفيها استشهد العقيد عميروش قائد الولاية الثالثة والعقيد سي الحواس قائد الولاية السادسة، بعد الاستماتة في الدفاع عن فرقة جيش التحرير حتى اخر خرطوشة، وكان ذلك يوم 29 مارس 1959م، وقام ديغول بمنح وسام الشرف للعقيد «ديكاس» على هذا العمل الجبار بالنسبة لفرنسا، الذي قام به هذا الضابط الفرنسي.

ولسوء الحظ فإن العقيد سي محمد بوقرة قائد الولاية الرابعة قد استشهد بدوره يوم 5 ماي 1959م، وبذبك فقدت الثورة الجزائرية ثلاثة عقداء رؤساء لثلاث ولايات هامة في البلاد، وهبوا حياتهم فداء لحرية الجزائر واستقلالها[2].

(1) التاريخ السياسي للجزائر، ص 475 . 479.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 484.

9 . خلاف الحكومة المؤقتة مع مصر:

حصل خلاف كبير بين أعضاء الحكومة المؤقتة وحكومة الجمهورية العربية المتحدة، التي كانت تتزعم العالم العربي في سنة 1959م. وخلال اللقاء الذي جمع الرئيس عبد الناصر وأعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية يوم 6 فبراير 1959م بالقاهرة، تطرق الرئيس عبد الناصر إلى قضية السلاح الذي كانت تبعث به حكومته إلى الثوار الجزائريين، وأبلغهم بأنه على علم بتكديس السلاح بمخازن ليبيا وتونس، وحجبه عمن لا يساير بعض المسؤولين في الحكومة المؤقتة.

وأكد السيد جمال عبد الناصر للسيد فرحات عباس وأعضاء حكومته أنه بالرغم من الخلافات التي كانت موجودة بين أعضاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من جهة، وبين حكومة جمهورية مصر العربية، فإن حكومة القاهرة سوف تواصل دفع المعونة للجزائر في صورة سلاح ومعدات وذخيرة، وكذا عملة صعبة ومحلية تسلم لحكومتهم وبصفة مستمرة وطبقاً للميزانية المحددة لنا[1].

* * *

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 486.

ثانياً: الاحتكام إلى القادة العسكريين

بعد أن أدرك قادة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أنه لا فائدة تجدي من حكومة ضعيفة، فقد كثر النقد وتوجيه الاتهام، ودخلت في أزمة مع معارضيها، وظهرت خلافات كبيرة بين أعضائها، فقرروا تقوية الثورة عن طريق إدخال قيادة جديدة ذات نفوذ مرموق في داخل البلاد وخارجها. وتحقيقاً لهذا الهدف، تقرر تشكيل لجنة من القادة العسكريين للتغلب على الصعاب التي تواجهها الثورة على الحدود وفي داخل الجزائر.

وتتكون اللجنة العسكرية من العقداء الاتية أسماؤهم:

. محمد السعيد، «قائد الناحية الشرقية».

. هواري بومدين، «قائد الناحية الغربية».

. عبيد حاج لخضر، «قائد الولاية الأولى».

. علي كافي، «قائد الولاية الثانية».

. محمد يازورين، «قائد الولاية الثالثة».

. سليمان دحيلس، «قائد الولاية الرابعة».

. لطفي، «قائد الولاية الخامسة».

.كريم بلقاسم، «وزير القوات المسلحة».

. عبد الكريم بوصوف، «وزير الإتصالات والمخابرات».

. لخضر بن طوبال، «وزير الداخلية».

واجتمع هؤلاء القادة واستمر اجتماعهم «110» يوماً من النقاش والحوار، وأسفر اجتماعهم في النهاية على تشكيل مجلس وطني جديد للثورة الجزائرية يتشكل من قادة عسكريين من ممثلين للثورة الجزائرية في فيدرالية فرنسا لجبهة التحرير الوطني، ومن ممثلين لجبهة التحرير في تونس والمغرب، كما تعزز المجلس الوطني للثورة الجزائرية بتعيين قادة المجالس الولائية فيه، وذلك بالإضافة إلى القادة العسكريين المتواجدين بالحدود، أمثال علي منجلي، قايد أحمد، علي سواحي، عمار رجائي، الطاهر زبيري،وأحمد بن الشريف.

وباختصار، فإن القادة الجدد الذين يتكون منهم المجلس الوطني للثورة الجزائرية ينتمون إلى جيش التحرير، ومتفقون على ضرورة تقوية الثورة عن طريق خلق سلطة قوية قادرة على توجيه الأمور السياسية والعسكرية.

وفي الفترة الممتدة من 16 ديسمبر 1959م إلى 18 يناير «جانفي» 1960م، اجتمع أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الجدد بمدينة طرابلس في ليبيا، واتخذوا إجراءات دقيقة تتعلق بالاستراتيجية العسكرية وتنظيم وتدعيم إمكانيات جيش التحرير الوطني الجزائري، واتخذوا الإجراءات التنظيمية الضرورية لجعل كفاح أبناء الشعب الجزائري أكثر فاعلية. وفي هذا الإطار قرر أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية إعادة تشكيل الجهاز الحكومي، وأوصوا بإنشاء لجنة وزارية مشتركة للدفاع الوطني ضمن الحكومة تلتحق بها قيادة أركان.

وبعد 33 يوماً من النقاش والحوار بين الأعضاء الجدد للمجلس الوطني للثورة الجزائرية، تقرر العمل على إطار جماعي وتقليص نفوذ الشخصيات العسكرية القوية داخل الحكومة المؤقتة، أي أن القرارات بدأت تتخذ على مستوى مؤسسات تشريعية وتنفيذية وليس على مستوى فردي، مثلما كان الحال قبل 1960م، كما تقرر تشكيل لجنة استشارية تتكون من السادة دحلب والعقيد هواري بومدين والعقيد محمدي السعيد(1).

1 . الحكومة المؤقتة الثانية:

وفي اجتماع طرابلس، ظهرت قوة المجلس الوطني للثورة الجزائرية، فقد تقرر تشكيل حكومة للوحدة الوطنية يترأسها فرحات عباس، ويكون كريم بلقاسم عضواً بها ومسؤولاً عن الشؤون الخارجية في الحكومة الجديدة. وأما المنصب السابق الذي كان يشغله كريم بلقاسم وهو وزير القوات المسلحة فقد تقرر إلغاؤه وتعويضه بـ «لجنة وزارية للحرب»، كما تم إبعاد يوسف بن خدة من منصبه كوزير للشؤون الاجتماعية، وحل محله في هذا المنصب عبد الحميد مهري.

وتتشكل هذه اللجنة العسكرية من عبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال وكريم بلقاسم، غير أن هذه اللجنة التي اعتمد في أعمالها على قيادة الأركان العامة، والتي تقرر أن تسند إليها جميع الأعمال العسكرية المتعلقة بالثورة الجزائرية، وفي هذا الإطار، استطاع عبد الحفيظ بوصوف أن يعين العقيد هواري بومدين رئيساً للأركان العامة، وأما العقيد محمدي السعيد فقد تم تعيينه وزيراً للدولة في الحكومة الجديدة.

وباعتباره قائداً للأركان قام العقيد هواري بومدين باختيار القادة العسكريين المقربين إليه أمثال على منجلي وقايد أحمد، وكانت هذه الخطوة الأولى لإحلال القادة العسكريين محل القادة التاريخيين، الذين سيطروا على الوضع منذ أول نوفمبر 1954م، إلى غاية الاجتماع التاريخي للمجلس الوطني للثورة الجزائرية في مدينة طرابلس ليبيا من 16 ديسمبر 1959م إلى 18 جانفي 1960(2).

2 . أعضاء الحكومة المؤقتة الثانية «18 جانفي 1960 . أوت 1961م»

تتكون هذه الحكومة من كل من:

. عباس فرحات	رئيساً.
.كريم بلقاسم	نائب الرئيس ووزير الخارجية.
. ابن بلة أحمد	نائب ثاني للرئيس.
. بوضياف محمد	وزير دولة.
. ابن طوبال الأخضر	وزير الداخلية.
. بوصوف عبد الحفيظ	وزير الاتصال والاستعلامات.

(1) المصدر نفسه ص 494.

(2) المصدر نفسه ص 495.

. أحمد أفرنسيس وزير المالية.

. مهري عبد الحميد وزير الشؤون الاجتماعية.

. محمد يزيد وزير الأخبار.

. محمدي السعيد وزير دولة.

. خيضر محمد وزير دولة.

. ايت أحمد حسين وزير دولة.

. بيطاط رابح وزير دولة[1].

3 . المعالم الرئيسية لسياسة الحكومة الثانية:

حدد المجلس الوطني الجديد للثورة الجزائرية المعالم الرئيسية للسياسة الجديدة، التي يتعين على الحكومة المؤقتة الثانية أن تنتهجها في المستقبل، ومن جملة المحاور الرئيسية التي أقرها المجلس الوطني للثورة الجزائرية، التي تقوم عليها السياسة الجزائرية نخص بالذكر النقاط التالية:

. تطبيق تقرير المصير عن طريق استفتاء يجري تحت إشراف الأمم المتحدة، أو التفاوض مع فرنسا إذا اقتضت الضرورة ذلك.

. تقوية علاقات التعاون والتحالف مع دول المغرب العربي ودول المشرق العربي، وكذلك دول الكتلة الاشتراكية.

. انتهاج سياسة جديدة تهدف إلى إجبار فرنسا على سحب جيوشها من المراكز المتواجدة بها بكل من تونس والمغرب.

. القيام بمجهودات لدى الدول الأفريقية من أجل إقناعها بسحب الجنود الأفارقة من الجيش الفرنسي بالجزائر.

. الدخول في مفاوضات مع الاتحاد السوفياتي والصين الشعبية، بقصد جلب المتطوعين والفنيين وإرسالهم إلى حدود الجزائر مع تونس والمغرب.

. اختراق الحواجز والأسلاك الكهربائية على الحدود من طرف جيش التحرير، وتدويل القضية الجزائرية.

. دخول قادة الثورة وقادة الولايات في جيش التحرير إلى داخل الجزائر.

. إرسال مبعوثين إلى داخل الجزائر، وتقوية العلاقات مع قادة الولايات بالداخل.

. تشكيل لجنة للمالية، وتكليفها بتقديم الدعم المالي للولايات في داخل الجزائر.

. هيكلة الجيش ودعمه مادياً وبشرياً.

. وأكد الرائد على منجلي الذي اختاره بومدين لكي يكون مساعده الأيمن في إعادة تنظيم الجيش ورفع معنوياته، بأن أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية الذين شاركوا في ديسمبر 1959م جانفي 1960م قد أقسموا بالمصحف الشريف على الالتزام بتنفيذ القرارات المذكورة أعلاه[2].

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 250.

(2) المصدر نفسه ص 496.

4 . إعادة تنظيم الجيش واستقالة بومدين:

وفي مدة قصيرة استطاعت قيادة الأركان أن تقيم سلطة مركزية قوية، بحيث أصبحت وحدات الجيش منضبطة ومطيعة للقيادة، وفي منتصف 1961م اتضح أن قيادة الأركان أصبحت تسيطر على الوضع في تونس والمغرب، حيث قامت بتجنيد الطلبة والأطباء، وطلبت من الجميع مساندة الثورة، غير أن الوضع تغير يوم 21 يونيه «جوان» 1961م حيث تمكن جيش التحرير من إسقاط طائرة فرنسية في الأراضي التونسية، وتم أسر طيار فرنسي قفز بمظلته في التراب التونسي، وهنا تدخلت الحكومة التونسية، وطلبت من هيئة الأركان تسليم الطيار الفرنسي حالاً وبدون شرط، وإلا فإنها ستضطر لغلق الحدود ومنع عربات جيش التحرير من التحرك في الأراضي التونسية، وقطع المياه عن وحدات الجيش الجزائري.

وعندما رفضت قيادة الأركان هذا الطلب التونسي، تدخلت الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وطلبت من قيادة الأركان تسليم الطيار الفرنسي لتونس، وكانت حجة بوصوف وبن طوبال أن الثورة في خطر، وأن الأخوة التونسيين سيعلنون في وسائل الإعلام عن تمرد هيئة الأركان العامة عن الحكومة المؤقتة، وعند خروجهما من قاعة الاجتماع، رافقهما هواري بومدين بمفرده وأعطاهما موافقته بالإفراج عن الطيار الفرنسي، ثم عاد إلى قيادة الأركان والدموع تنهمر من عينيه، وهو يقول: لقد قدمت استقالتي.

وأثارت استقالة بومدين التي قدمها إلى رئيس الحكومة المؤقتة يوم 15 جويليه 1961م ضجة كبيرة في الأوساط السياسية والعسكرية، وقد اتهم بو مدين الحكومة المؤقتة في رسالة استقالته بالانحراف، وعدم تطبيق قرارات طرابلس، والعمل على تصفية الأركان العامة باعتبارها العقبة الوحيدة أمام بروز المطامح الشخصية، التي تتنافى مع مبدأ القيادة الجماعية.

وبعد استقالة أعضاء قيادة الأركان: بومدين، قايد أحمد، وعلي منجلي، توجه القادة الثلاثة إلى ألمانيا الغربية، حيث التقوا بأحد كبار المسؤولين في فيدرالية فرنسا السيد عمر بوداود وتناقشوا معه في الموضوع، وأرسلوا رسالة إلى الزعماء الخمسة المسجونين في فرنسا، لإطلاعهم على الوضع، ثم توجهوا إلى المغرب من هناك[1].

5 . الحكومة المؤقتة الثالثة:

وعندما فشلت المفاوضات بين فرنسا والحكومة المؤقتة في «لوقران»، والتي جرت في الفترة من 20 إلى 28 جويليه 1961م، اضطرت الحكومة المؤقتة إلى استدعاء أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية لعقد اجتماع في طرابلس، وذلك ابتداء من 2 إلى 27 أوت «أغسطس» 1961م.

وخلال ذلك الاجتماع التاريخي قام علي منجلي وقايد أحمد «من هيئة الأركان» بشن هجوم كبير على الحكومة المؤقتة، وخاصة على كريم بلقاسم، الذي نجح في إضعاف هيئة الأركان عن طريق «اللجنة الوزارية للحرب التي تتكون منه ومن عبد الحفيظ بوصوف ولخضر بن طوبال»، ثم جاء دور يوسف بن خدة فتهجم

---

(1) المصدر نفسه ص 500.

على فرحات عباس، والحكومة المؤقتة، وطالب بإنشاء هيئة عليا من جبهة التحرير الوطني لتحل محل الحكومة المؤقتة، وأثناء تدخله في النقاش أظهر بن خدة موافقته على أحد مطالب هيئة الأركان، والمتمثل في توحيد الجيش في الداخل وفي الحدود تحت قيادة هواري بومدين وعلي منجلي وأحمد قايد، واستفاد بن خدَّه من الخلافات بين أعضاء الحكومة المؤقتة وهيئة الأركان، وتمت الموافقة على تعيينه رئيساً للحكومة[1] الجديدة، والتي تكونت من كل من:

. يوسف بن خدِّة	رئيس الحكومة ووزير المالية.
.كريم بلقاسم	نائب الرئيس ووزير الداخلية.
. ابن بلة أحمد	نائب رئيس المجلس.
. محمد بوضياف	نائب رئيس المجلس.
. محمد السعيدي	وزير الدولة.
. رابح بيطاط	وزير الدولة.
. ايت أحمد	وزير الدولة.
. بوصوف عبد الحفيظ	وزير التسليح والاتصالات العامة.
. ابن طوبال الأخضر	وزير الدولة.
. سعد دحلب	وزير الخارجية.
. محمد يزيد	وزير الأخبار[2].

وبعد انتهاء اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، كشف بن خدِّة عن أوراقه وتوجهاته الحقيقية، وبدأ المواجهة مع هيئة الأركان. وعندما استؤنفت المفاوضات الفرنسية . الجزائرية في بداية يناير 1962م بمدينة إيفيان، لم يشارك أعضاء هيئة الأركان في تلك المفاوضات، وشكل أعضاء هيئة الأركان سلطة موازية لسلطة الحكومة المؤقتة، وبدأ بن خدّة يتعاون مع كريم بلقاسم ويحاول إرسال بعض قادة الجيش إلى الداخل، وتجنيد قادة الولايات ضد هيئة الأركان، وتقديم الولاء والطاعة للحكومة المؤقتة.

وحاول بن خدّة أن يحل الإشكال مع هيئة الأركان في غار الدماء «مقر هيئة الأركان بالأراضي التونسية»، وتفاوض معهم في كيفية تسوية الخلافات القائمة بين هيئة الأركان والحكومة المؤقتة، لكن بن خدّة أعطى انطباعاً لهيئة الأركان بأن الحكومة الجديدة قد ورثت التناقضات السابقة، ولا تستطيع تطبيق القرارات المتخذة في المؤتمر الوطني للثورة الجزائرية في شهر يناير 1960م، والخاصة بتوحيد الجيش وتزويده بالأموال والسلاح لمواصلة الحرب حتى النصر.

(1) المصدر نفسه ص 502.

(2) السياسية العربية والمواقف الدولية ص 251.

وبعبارة أخرى، إن التغيير في الحكومة قد انحصر في تغيير الوجوه، والاستمرار في انتهاج نفس السياسة التي كانت تنتهجها حكومات فرحات[1].

كانت استراتيجية الحكومة المؤقتة في بداية 1962م بقيادة بن خدة تقوم على أساس:

. احترام اتفاقية «إيفيان» المبرمة مع فرنسا، بصفتها هي الطرف المتفاوض مع فرنسا.

. عدم استدعاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية لعقد اجتماع له، حتى لا تكثر المناقشات حول مستقبل الوطن في وقت غير ملائم لهذا النقاش، والمفروض أن تقوم الهيئة التنفيذية المنبثقة عن اتفاقية «إيفيان» بتطبيق هذه الاستراتيجية للحكومة المؤقتة، وذلك بالتعاون مع قادة الولايات في داخل البلاد. لكن الخلل الكبير الموجود في استراتيجية الحكومة المؤقتة أنه لم تكن هناك هيئة للتنسيق بين الولايات أو بين الولايات والهيئة التنفيذية، وبهذا بقيت قوات ولايات الداخل مشتتة وقواتها مبعثرة، وذلك بسبب عدم وجود أي تنسيق بين قادة الولايات من جهة وبين الولايات والهيئة التنفيذية من جهة أخرى، كان من استراتيجية يوسف بن خدة الاحتفاظ بالسلطة عن طريق سلطة جبهة التحرير[2]، ولكنه فشل في ذلك بسبب صدامه مع هواري بومدين وهيئة الأركان.

6 . تحالف أحمد بن بلة مع هيئة الأركان:

عندما خرج الزعماء الخمسة من السجن، تواصل قادة هيئة الأركان معهم، وتقاربت وجهات النظر مع أحمد بن بلة، الذي كان على اتصال بهيئة الأركان عندما كان في سجن «أولنوا»، وذلك عن طريق عبد العزيز بو تفليقة وعلي بن بلة ؛ فإن الحل السليم للأزمة هو إنشاء مكتب سياسي لجبهة التحرير تكون له سلطة سياسية على الحكومة المؤقتة، وفي مؤتمر طرابلس من قبل الاستقلال اقترح أحمد بن بلة إنشاء مكتب سياسي وبرنامج اقتصادي واجتماعي للجزائر، وانضم إليه فرحات عباس فيما بعد، وذلك بقصد محاصرة بن خدة ودحلب وكريم بلقاسم، الذين أبعدوه من السلطة في شهر أغسطس من عام 1961م.

وبالنسبة لقيادة الأركان، فإن استراتيجيتها كانت تتمثل في عقد مؤتمر للإطارات، وذلك بقصد حل الخلافات الموجودة بينها وبين الحكومة المؤقتة، ولهذا كانت قيادة الأركان تطمح لتجسيم فكرة بن بلة المتمثلة في جمع القوات الوطنية الحية حوله، وذلك في إطار جبهة التحرير الوطني، اتفق أحمد بن بلة وهيئة الأركان على استراتيجية واحدة، وهي تحرير ميثاق يتضمن المحاور الرئيسية، وبرنامج عمل للحكومة الجزائرية، وانتقال السلطة إلى مكتب سياسي لجبهة التحرير الوطني الجزائري تخضع له الحكومة المؤقتة[3].

وظهر بوضوح التنسيق بين قادة الأركان وأحمد بن بلة يوم قررت هيئة الأركان استدعاء القادة الخمسة لزيارة جيش التحرير المتواجد بمدينة وجدة المغربية، وذلك عقب خروجهم من السجن، وفي تلك الزيارة انفرد عبد

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 503.

(2) المصدر نفسه ص 504.

(3) المصدر نفسه ص 505.

العزيز بو تفليقة وأحمد مدغري بالسيد بن بلة، وشرحا له موقف هيئة الأركان من الحكومة المؤقتة، وإذا كان قايد أحمد وعلي منجلي يفضلان عدم الاعتماد على أي زعيم ومواجهة الحكومة المؤقتة، فإن هواري بو مدين كان يرى أن مصلحة البلاد تقتضي عدم مواجهة الحكومة والتحالف مع أحمد بن بلة.

واشتد الخلاف بين هيئة الأركان ويوسف بن خدّة، وساءت العلاقة بين بن خدّة وبن بلة، الذي ردَّ على بن خدّة في اجتماع طرابلس الأخير بعنف وكلام غير لائق، فاستاء بعض أعضاء المجلس الوطني للثورة من تدخل بن بلة وخاصة أعضاء الحكومة المؤقتة وغادروا الاجتماع، وإثر وصوله إلى تونس قام رئيس الحكومة المؤقتة السيد يوسف بن خدّة باتخاذ قرار حاسم يتمثل في عزل هيئة الأركان العامة للجيش، أي عزل العقيد هواري بومدين والرائدين قايد أحمد وعلي منجلي. وانذاك توجه بو مدين رفقة السعيد عبيد إلى الولاية الأولى وخلفهما عشرة الاف من جنود جيش التحرير المرابط على الحدود، ومن هناك زحف هواري بو مدين على بقية الولايات بجيشه المزود بالأسلحة الثقيلة والخفيفة[1].

7 . المكتب السياسي:

وبعد إعلان نتائج الاستفتاء وقرار الشعب الجزائري بالمصادقة على استقلال الدولة الجزائرية عن دولة فرنسا يوم 3 جويليه 1962م، قام بن بلة بإنشاء قيادة مؤقتة له في مدينة تلمسان،وذلك في رعاية أحمد مدغري والي تلمسان والمعروف بتعلقه الكبير بالسيد أحمد بن بلة، وبعد جدل ونقاش طويل أعلن أحمد بو منجل في 22 جويليه 1962م المتحدث الرسمي باسم مجموعة تلمسان في مؤتمر صحفي عن التشكيلة الجديدة للمكتب السياسي الذي اقترحته هيئة الأركان.

وطبعاً فإن محمد بوضياف وكريم بلقاسم لم يعجبهما القرار المتخذ من طرف واحد، وأعلنا عن استقالتهما من المكتب السياسي الذي اقترحته هيئة الأركان بطرابلس، وقررا إنشاء لجنة وطنية للدفاع عن الثورة في تيزي وزو، ثم عقد مؤتمر وطني فيما بعد. وفي يوم 2 أوت 1962م جرت مفاوضات بين كريم بلقاسم وبو ضياف من جهة ومحمد خيضر من جهة ثانية، واتفق الجميع على الإبقاء على المكتب السياسي المقترح في طرابلس، لكن بشرط أن تكون السلطات المعطاة للمكتب السياسي محدودة، وتقتصر على تنظيم الانتخابات التشريعية والدعوة لاجتماع اخر للمجلس الوطني للثورة الجزائرية، غير أن توزيع المهام على أعضاء المكتب السياسي يوحي بأن الهيئة السياسية جاءت لتعمل كسلطة سياسية ذات سيادة تامة:

. أحمد بن بلة، يشرف على السلطة التنفيذية.

. بن علا، مسؤول عن الجيش.

. بيطاط، مكلف بجبهة التحرير الوطني.

. محمد السعيد، مسؤول عن قطاع التربية الوطنية.

---

(1) المصدر نفسه ص 507.

. محمد بوضياف، مكلف بالعلاقات الخارجية.
. خيضر، مكلف بالتنسيق بين الجميع والمخابرات.
. ايت أحمد، رفض أن يشارك في أعمال المكتب السياسي.
وفي منتصف شهر أوت 1962م، وقع خلاف بين المكتب السياسي الذي قام بإعداد قائمة المترشحين للانتخابات البرلمانية، التي كان من المفروض أن تجري يوم 2 سبتمبر 1962م، وبين قادة الولاية الرابعة الذين يرفضون ترشيح الشيخ خير الدين وعبد الرحمن فارس والسيدة شنتوف في منطقة الجزائر العاصمة.
وفي يوم 1962/8/19م تم نشر قائمة المرشحين من طرف المكتب السياسي لجبهة التحرير إلى الانتخابات التشريعية القادمة، وعندما التجأ قادة الولاية الرابعة إلى العنف للاحتجاج على اللجنة الانتخابية المعينة من طرف المكتب السياسي ؛ قرر أحمد بن بلة وأعضاء المكتب السياسي يوم 1962/8/30م استعمال جيش هيئة الأركان للزحف على الجزائر العاصمة، وإسكات أصوات المعارضة للمكتب السياسي. وفي يوم 9 سبتمبر 1962م بسط الجيش الوطني الشعبي سلطته على العاصمة وانسحبت قوات الولاية الرابعة بعد وساطة ناجحة للعقيد حسان، والعقيد محند ولد الحاج.
وفي يوم 20 سبتمبر 1962م جرت الانتخابات التشريعية، ونجح جميع الأعضاء الذين اقترحهم المكتب السياسي للحزب الواحد، وبعد أسبوع، أي يوم 26 سبتمبر 1962م قام السيد أحمد بن بلة بتشكيل حكومته الجديدة، وتقاسم فيها المناصب الحساسة في الدولة مع قيادة الأركان التي استأثرت بوزارة الدفاع، التي أسندت إلى العقيد هواري بومدين، ووزاة الداخلية التي أسندت إلى أحمد مدغري[1].
أما أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية، الذين عارضوا المكتب السياسي وهيئة الأركان، وكان يطالبون بعقد مؤتمر وطني لحل الأزمة، فقد تم حذف أسمائهم من قائمة المترشحين للبرلمان الجديد، ومن جملة الشخصيات التي حرمت من الترشيح للبرلمان الجديد «بينما كانوا في المجلس الوطني للثورة»:
عبد الحفيظ بو صوف، لخضر بن طوبال، سعد دحلب، العقيد صالح بو بنيدر، والعقيد علي كافي، والعقيد عمار بن عودة، والرائد الطاهر بو دربالة، والرائد عبد المجيد كحل الرأس، ومحمد الصديق بن يحي، ومصطفى لشرف، ونفس الشيء حصل للسيد بلعيد عبد السلام الذي كان عضواً بالهيئة التنفيذية ببو مرداس.
وفي يوم 1965/6/19م قام العقيد هواري بو مدين وزملاؤه في هيئة الأركان بانقلاب ضد بن بلة وعزله من السلطة بصفة نهائية[2].

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 509.
(2) التاريخ السياسي للجزائر، ص 509.

⁂ ⁂ ⁂

ثالثاً: مسار المفاوضات بين الجزائر وفرنسا

1 . إضراب عام من فرنسيي الجزائر:

إن الإضراب العام الذي نظمه فرنسيو الجزائر يوم 13 مايو 1958م استهدف الاحتجاج على عجز الحكومات الفرنسية عن التغلب على «المتمردين»، وعن إيجاد حل عسكري في إطار إدماج الجزائر بفرنسا، ذلك الإضراب قرَّرته لجنة اليقظة التي تضم في صفوفها المحاربين القدامى والطلبة الذين اتفقوا على التجمع قرب النصب التذكاري في وسط العاصمة، لتكريم الأسرى الثلاث الذين قتلهم جيش التحرير الوطني بعد محاكمتهم، لم تكن الحجة إلا ذريعة لتجنيد الفرنسيين ضد سياسة التنازل التي تنتهجها الحكومة الفرنسية.

بالفعل لقد تحوَّل التجمع أمام مبنى الحاكم العام يوم 13 ماي 1958م إلى احتلال المبنى وتدمير كل أثاثه ووثائقه، مما جعل السلطات المدنية والعسكرية في حيرة من أمرها وعاجزة عن القيام بمسؤولياتها، وطالب المتظاهرون بتعيين حكومة للإنقاذ. وحاول العميد «صالان» تهدئة المتظاهرين فلم ينجح، فتدخل العميد «ماسو» بصفته مكلفاً بالحفاظ على أمن العاصمة، فأعلن على الساعة التاسعة إلا الربع مساء إحداث «لجنة الخلاص الوطني» حتى تُعيَّن في فرنسا حكومة برئاسة العميد «شارل ديغول».

وقد برَّر هذا الموقف بوجود حكومة ضعيفة في باريس، حكومة تجري اتصالات غريبة على حسب زعمهم بجبهة التحرير الوطني، في الوقت الذي ترتفع خسائر الجيش الفرنسي. ففي منتصف الليل، وبعد مشاورات مع عدة مسؤولين، وجَّه العميد «ماسو» نداء إلى العميد «ديغول» لكي يترأس حكومة الإنقاذ العمومي من أجل ضمان دوام الجزائر «كجزء من فرنسا».

وفي اليوم نفسه خاطب «صالان» الجمهور المتظاهر أمام مقر الحاكم العام، وأكد إرادته في إبقاء الجزائر فرنسية، وختم خطابه بالهتاف «يحيا العميد ديغول»، ومن ثم انطلق مسار رجوع العميد ديغول إلى الحكم، وتقدم المستشار الفني في وزارة الدفاع الوطني ونائب رئيس لجنة الخلاص العمومي فقرأ على الجمهورية رسالة العميد «ديغول» التي جاء فيها ما يلي:

في الزمان الماضي وضع بلدي بأكمله ثقته فيَّ لقيادته نحو الخلاص، فليعلم اليوم أنني مستعد في ظروف المحن التي تصيبه لتحمل أعباء السلطة الجمهورية.

بعد التصريح لم تبق إلا مسألة إجراءات لتسليم السلطة في إطار احترام الدستور الفرنسي[1].

2 . تولي ديغول السلطة:

عندما تأكد الجنرال «ديغول» أن العسكريين قد قرروا الإطاحة بالحكومة الفرنسية بالقوة، أصدر بياناً أعلن أنه بصدد تكوين حكومة جمهورية قادرة على حماية وحدة واستقلال الوطن.. وبأنه يأمل من القوات العسكرية

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام حمود ص 277، 278.

البرية والبحرية والجوية أن تلتزم بأوامر قادتها، لكن رئيس الحكومة الفرنسية «فليملان» أبدى استياءه من ذلك البيان، خاصة وأنه لم يعده في لقائهما الأخير بالتخلي له عن السلطة.

وفي 28 ماي 1958م، قرر رئيس الحكومة الفرنسية اقتراح عقد اجتماع لمجلس الوزراء، اعترف من خلاله لأعضاء المجلس بأنه من المستحيل تجنب حرب أهلية إذا ما استمرت الأمور على ما هي عليه، والحل الوحيد في رأيه يكمن في التنازل عن السلطة للجنرال «ديغول» بطريقة سلمية وشرعية. وهكذا قرر «فليملان» تقديم استقالة حكومته لرئيس الجمورية «روني كوتي»، الذي رحب بها وقبلها على الفور، لأنها تعتبر المخرج الوحيد من الأزمة التي تتخبط فيها فرنسا.

وبالتالي العدول عن فكرة القيام بثورة على نظام الحكم الفرنسي القائم، ويلاحظ أن رئيس الجمهورية الفرنسية قد تلقى في نفس اليوم برقية من قادة الجيش في الجزائر، أخبروه فيها بأنهم سيشرعون في تنفيذ مخططهم في 30 ماي 1958م، فما على رئيس الجمهورية إلا الاختيار بين تسليم السلطة للجيش بطريقة شرعية، وإلا فإنهم سيقومون بالاستيلاء عليها بالقوة وعن طريق الثورة.

وفي 29 ماي 1958م، ازدادت الأزمة السياسية . العسكرية حدة، ولم يُخفِ رئيس الجمهورية الفرنسية الرابعة تخوفه من اندلا ع حرب أهلية، فقرر التدخل من أجل حماية الجمهورية، حيث وجه رسالة مساء ذلك اليوم نفسه إلى كل من رئيس المجلس الوطني «أندري لو تروكي» ورئيس مجلس الجمهورية «غاستون مونرفيل»، يدعوهما فيها إلى التفاوض فيما بينهما من أجل تسليم السلطة بطريقة سلمية وشرعية للجنرال «ديغول». كما أطلعهما أنه في حالة فشل هذا التفاوض، ورفض تعيين الجنرال «ديغول» كرئيس للحكومة مع إعطائه «سلطات مطلقة» لإدارة شؤون البلاد، ومنحه صلاحيات خاصة لتسيير شؤون الجزائر ؛ فإنه سيقدم إستقالته من رئاسة الجمهورية.

وفي مساء ذلك اليوم دائماً . أي: يوم 29 ماي 1958م استقبل رئيس الجمورية «روني كوتي» الجنرال «ديغول» وطلب منه أن يتولى رئاسة الحكومة، ولكن في إطار الشرعية دائماً بحيث ينبغي عليه أن يقف أمام نواب البرلمان الفرنسي للموافقة على تعيينه رئيساً جديداً للحكومة الفرنسية. وقد وافق الجنرال ديغول على هذا الطلب، ولكنه اشترط أن يمنحه البرلمان الفرنسي السلطات المطلقة لتسيير شؤون البلاد، وصلاحيات دستور 1946م قصد وضع أسس متينة لسلطة تنفيذية قوية.

ولتحقيق ذلك، اشترط الجنرال ديغول تجميد دور البرلمان وتأجيل اجتماعاته لمدة 6 شهور، وفي الفاتح من شهر جوان 1958م وقفت حكومة الجنرال «ديغول» أمام المجلس الوطني الفرنسي الذي منحها الثقة بأغلبية 329 صوتاً ضد 224 صوتاً[1].

(1) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 396.

3 . نجاح الانقلاب العسكري الديغولي:

وهكذا أصبح الجنرال «ديغول» رئيساً لمجلس الوزراء ووزيراً للدفاع الوطني في نفس الوقت. وقد رحب قادة الجيش . وعلى رأسهم الجنرال «راؤول سالان» .

بهذا التعيين، وهللوا للانتصار الذي حققوه، لقد اعتبروه عودة إلى الشرعية. أما المدنيون فإنهم لم يخفوا استغرابهم لما يحدث حولهم، واعتبروا أنفسهم مخدوعين، وتواصوا بالحيطة والحذر. والواقع أن قادة الجيش قد قاموا بانقلاب عسكري وأطاحوا بالجمهورية الفرنسية الرابعة، وذلك بالتعاون مع القادة الأوربيين المتمردين في الجزائر، والديغوليين الذين تمكنوا من التسرب في الجيش منذ شهر مارس 1958م، وكوّنوا خلية عسكرية وخططوا لإعادة ديغول إلى الحكم من جديد.

وقد كان هدف المستوطنين الأوربيين من المشاركة في الانقلاب فرض حكومة جديدة يثقون بأنها ستدافع عن مصالحهم وتساعدهم في تحقيق رغباتهم، وترفض التفاوض مع جيش وجبهة التحرير الوطني الذي هدد كيانهم، وبذلك يكونون قد برهنوا مرة أخرى على مدى قدرتهم على التحكم في السياسة الفرنسية، وتوجيهها الوجهة التي تخدم أغراضهم، أما هدف الديغوليين من الانقلاب، فيتمثل في إعادة زعيمهم الجنرال ديغول إلى الحكم. وفيما يخص الجيش، فإن هدفه الأساسي من الانقلاب يتمثل في استعادة مجده وسمعته بعد أن ضيعهما نتيجة انهزامه في كل من الهند الصينية وتونس والمغرب.

وبالنسبة لمواقف الأحزاب السياسية من الانقلاب، فقد أبدى قادتها شعوراً بالارتياح لمجيء الجنرال «ديغول» رئيساً جديداً للحكومة الفرنسية، فقد رأوا في ذلك فرصة لوضع حد لحرب الجزائر التي أرهقت فرنسا مالياً، وحل الأزمة السياسية والعسكرية القائمة، ثم ترك المجال لها بعد الانتهاء من المهمة التي كلفت بها.

وفيما يتعلق بقادة جيش وجبهة التحرير الوطني، فإنهم قد تلقوا خبر تعيين الجنرال ديغول رئيساً جديداً للحكومة الفرنسية بيقظة وحذر شديدين، ذلك لأنهم لم ينسوا أن هذا الرجل هو مدبر مجزرة 8 ماي 1945م، مقابل التضحيات الجسام التي قدمها الجزائريون خلال الحرب العالمية الثانية، لهذا، فإن قادة جيش وجبهة التحرير الوطني قد سارعوا إلى استراتيجية دقيقة، تستهدف إعلاء مكانتها وتوطيد ثقة الجزائريين بقدرتها على مقاومة أية حكومة فرنسية مهما كانت قوتها.

غير أن أحلام كل أولئك الذين تعاونوا فيما بينهم من أجل إعادة الجنرال تبددت، فالسياسة التي عمل على اتباعها بعد توليه الحكم فاجأت الجميع وخيبت اامالهم، ذلك لأن الاستراتيجية الجديدة للثورة الجزائرية قد كان لها تأثير كبير في الحياة السياسية في فرنسا، وإذ أصبحت هي التي تتحكم في مصير سياستها وأمنها، فقد قررت جبهة التحرير الوطني فتح «جبهة قتال» ثانية في فرنسا نفسها، مهمتها نقل الثورة إلى هناك، وقد عرفت كل المدن الفرنسية سلسلة من العمليات الفدائية، اندلعت في وقت واحد يوم 24 أوت 1958م في كل القطر الفرنسي.

وهكذا كلما جاءت حكومة فرنسية إلى الحكم، وأرادت أن تبرز قوتها للثوار عن طريق برامجها الإصلاحية، التي تقوم أساساً على توفير كل الوسائل المتاحة لقمع الثورة الجزائرية والقضاء عليها قبل إحداث إي إصلاح سياسي، إداري، أو اجتماعي، اقتصادي ؛ إزداد الثوار قوّة واقتناعاً بأن التصعيد في الكفاح المسلح هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الاستقلال الكامل، وأنه لا بد من الاستمرار في البحث عن استراتيجية قتل، تجعل الجيش الفرنسي بكل فرقه المجندة، وبكل قواعده العسكرية، واقعاً تحت الضربات القاضية للثورة الجزائرية[1].

4 . مناورات الجنرال ديغول:

استطاعت الظاهرة الديغولية أن يعمّ مفعولها السيكولوجي مختلف أنحاء الجزائر، ابتداء من الثالث عشر من ماي سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف، فالدعاية الاستعمارية استطاعت في ظرف قصير جداً أن تثبت في أذهان المواطنين الجزائريين عظمة الجنرال ديغول وقدرته على تسوية المشكل الجزائري، واستعداده لتحقيق السلام في ربوع البلاد، ولم ينج من تأثير هذه الغاية حتى بعض كبار المسؤولين في جبهة التحرير الوطني وفي التنسيق والتنفيذ بالذات.

إن الجنرال ديغول يعدّ من أعظم الرؤساء الذين عرفتهم فرنسا ما في ذلك شك، وعظمته هي بالضبط ما يكذب الدعاية الاستعمارية المذكورة، وقد أورد هو نفسه في مذكراته ما يدعم هذا القول، فعندما توقف طويلاً عند المسألة الجزائرية مؤكداً: رجالاً تاريخيين أمثال دويرمون، وبيجو، وكلوزيل، وهم الذين بذلوا جهوداً جبارة من أجل إلحاق الجزائر بفرنسا، وليس من المعقول أن تضيع هذه المستعمرة في عهد حكومتنا.

لأجل ذلك فكر وقدر ثم وضع بنفسه خطة للقضاء على الثورة ترتكز على دعائم أساسية هي:

. التنمية الاقتصادية قصد تشغيل المواطنين وعزلهم عن جبهة التحرير الوطني، وقد وظف لذلك أرصدة مالية كبيرة في إطار ما يسمى بمشروع قسنطينة، الذي أعلن عن ميلاده والشروع في تجسيده يوم الثالث من شهرأكتوبر سنة ثمان وخمسين وتسعمائة وألف.

. إيهام الرأي الفرنسي والعالمي بالجنوح إلى السلم، قصد الحد من الانتصارات التي حققتها وتحققها جبهة التحرير الوطني في حظيرة الأمم المتحدة ولدى منظمات الجمهورية المختلفة.

ففي هذا الإطار أعلن في اليوم الرابع من أكتوبر في نفس السنة أنه يأمر العسكريين بمغادرة لجان السلامة العامة، وفي اليوم الثالث والعشرين من ذات الشهر عرض على جيش التحرير الوطني ما يسمى بسلام الشجعان.

. إعادة تنظيم الجيش وتزويده بأحدث أنواع الأسلحة مع أمره بتكثيف العمليات العسكرية الهجومية، وبهذا الصدد استدعى الجنرال «صالان» إلى باريس، واستبدله في اليوم الثاني من شهر ديسمبر بالجنرال شال، كقائد عام للقوات المسلحة، وبول دولوفريبي كمندوب عام لفرنسا في الجزائر.

---

(1) التنظيم الإداري والسياسي للثورة ص 298.

وإذا كان الجنرال ديغول في العلانية يبدي نفس الاهتمام بالدعائم الثلاث المذكورة؛ فإنه في الواقع كان يراهن فقط على الدعامة الثالثة، معتقداً أن الاستراتيجية الجديدة التي بشر بها الجنرال شال قادرة على إنهاء الثورة في أجل قريب.

وبالفعل لقد وضع تحت تصرف قائد القوات المسلحة الجديد إمكانيات ضخمة في المجالين المادي والبشري، ولمساعدته تمّ تعيين وترقية مجموعة من الجنرالات والعقداء الذين تخرجوا من المدارس العسكرية العليا، أو الذين اكتسبوا في الميدان خبرة واسعة في حرب الفيتنام وفي الجزائر نفسها.

ولم تكن استراتيجية شال مجرد حبر على ورق، بل إن كل المصادر تؤكد على أن كل العمليات العسكرية التي انطلقت مع بداية العام الجديد قد شكلت خطراً كبيراً على جبهة التحرير الوطني، خاصة في الولايتين الثالثة والرابعة[1].

إن هذه العمليات قد تواصلت إلى غاية عام ستين وتسعمائة وألف، ملحقة أضراراً بالمدنيين، وخسائر بجيش التحرير الوطني لم يعرف لما مثيل لا من قبل ولا من بعد، وهو الأمر الذي جعل فرحات عباس يقول في كتابه «تشريح حرب»:

إن الجزائر لم تعرف ثقل الحرب مثل ما عرفت ذلك في عهد الجنرال ديغول، لكن على الرغم من كل هذه الجهود، فإن الجنرال شال لم يحقق الانتصارات العسكرية التي طلبها منه رئيس الدولة الفرنسية، الذي اضطره الواقع إلى الحل المبني على التفاوض، وهو الحل الذي شرع في تطبيقه منذ 1959/5/16م، عندما صرح ـ باسم فرنسا ـ أنه يعترف للشعب الجزائري بحقه في تقرير مصيره.

ولم يلجأ الجنرال ديغول إلى تقرير المصير، إلا عندما تأكد بنفسه أن مخطط شال استهلك، ولم يعد قادراً على التوصيل، بسبب المقاومة غير المنتظرة التي أبدتها وحدات جيش التحرير الوطني، التي عرفت كيف تتكيف مع الوضع الجديد من جهة، ونتيجة ظهور معارضة شديدة للمخطط المذكور في صفوف الضباط السامين في الجيش الفرنسي نفسه من جهة ثانية.

فمن المعلوم أن شال أسس مخططه على النتائج المستخلصة من تجريد الجيش الاستعماري في الهند الصينية، محاولاً توظيف أساليب الحرب الثورية، والدعاية النفسية التي طبقها «ماوتسي تونغ»، لكنه لم يأخذ في الاعتبار شيئاً أساسياً، هو أن تلك الأساليب الثورية والدعاية النفسية ما كنت لتنجح في تقويض أركان الاستعمار الفرنسي بالهند الصينية لولا نبل الهدف المقصود، وطبيعة التيار التحريري، وتفاعل الشعب مع قيادته، كلها عوامل لا يمكن للجنرال شال أن يتوفر عليها لإنجاز مخططه، الذي لم يكن مصيره أحسن من مصير مخطط الجنرال نافار في الهند الصينية[2].

---

(1) تاريخ الجزائر المعاصر، د . محمد العربي الزبيري (176/2).

(2) المصدر نفسه (178/2).

5 . الشاعر مفدى زكريا يرد على ديغول:

بمناسبة مناقشة القضية الجزائرية في الدورة الرابعة العادية للمنظمة الدولية المنعقدة في سبتمبر «أيلول» 1959م، والتي أسفرت عن تواطؤ دول التحالف الأطلسي على خذلان اللائحة الأفريقية الاسيوية، قال مفدى زكريا:

«ديغول» يعلم ما نريد ويفهم ... ما باله حيران لا يتكلم
فقد الصراحة أم أضاع فصاحة ... أم أن تقرير المصير توهم
إن السياسة لا تزال تناقضاً ... وحديثها أبداً حديث مبهم
وقف القتال، خرافة إن لم يكن ... للشعب في أمر «المصير» تحكم
أرض الجزائر لابنها ثرواتها ... ومن الخيانة أن تباع الأسهم
ومن السفاهة أن تضيع حقوقها ... فيما يدبر في الظلام ويبرم
ومن الحماقة أن يقسم قدسها ... إن الجزائر وحدة لا تقسم
وقفت مضرجة تسيل جراحها ... من بعد «خمس» في الورى تتظلم

إلى أن قال:

أهدافنا في العالمين صريحة ... الشعب أعلنها وفسرها الدم
الشعب أكسبه الجهاد حصافة ... وروية فهو الحكيم الملهم
وسراته الأحرار ما استهواهم ... دون المصير مخدر ومنوم
السلم، نحن رجاله، لكننا ... شجعان ـــ يا ديغول ـــ لا نستسلم
إن كان في طي السلام مذلة ... فالموت أشرف للكرام وأسلم
أو كان تقرير المصير خديعة ... فلنعم تقرير المصير جهنم[1]

6 . دوافع رضوخ ديغول للتفاوض:

في مذكراته التي نشرت مطبوعة سنة سبعين وتسعمائة وألف، تعرض الجنرال ديغول إلى الأسباب الحقيقية التي جعلته يختار تقرير المصير كحل نهائي للمسألة الجزائرية، فقال: كما هي العادة فإن الإتصال المباشر مع الناس في مواطن نشاطهم قد وضع في ذهني معطيات ما كانت جميع التقارير لتستطيع تبيانها، لقد تأكدت الان أن الثورة قادرة وستبقى قادرة إلى ما لا نهاية على إبقاء المقاومة في المناطق خاصة وأن ذلك بمساعدة السكان[2].

كما أن الثورة الجزائرية تسببت في أزمات سياسية ومالية داخل فرنسا نفسها:

أ . مالياً:

---

(1) اللهب المقدس ص 126.

(2) تاريخ الجزائر المعاصر (179/2).

كلفت فرنسا الحرب ضد الجزائر 500،1 مليون دولار سنوياً، كما اضطرت فرنسا إلى اتخاذ قرارات اقتصادية متشددة، مثل تجميد الأجور، ورفع الضرائب، وتخفيض الفرنك، هذا الإجراء الأخير تسبب في التأثير على علاقاتها مع مستعمراتها الأفريقية، وامتد التأثير حتى إلى الشباب الفرنسي، حيث طلب 500،7 منهم تأجيل الخدمة الوطنية خوفاً من إرسالهم إلى الجزائر، وأدى العجز المالي الفرنسي رغم المساعدات المالية المكثفة خاصة من طرف أمريكا بفرنسا إلى اقتراض نصف مليار دولار من صندوق النقد الدولي، ووجهت هذه الأموال إلى نفقات عسكرية على الحرب، التي بلغت 33% من نفقات الميزانية العامة الفرنسية مع نهاية سنة 1957م[1]. ومضاعفة المساعدات المالية المكثفة، والتدعيم العسكري للجيش الفرنسي الذي بلغ تعداده 700 ألف مقابل 000،50 جندي جزائري ؛ لم يضع حداً لمعركة الجزائر، بل ضاعفت مع الإدارة الجزائرية في كسب انتصارات يومية، وأدى في الأخير إلى استعانة فرنسا حتى بجنود سنغاليين، وإيطاليين وبلجيكيين، وألمانيين، والبعض من هؤلاء فر من الجيش الفرنسي بعد معرفته للحقيقة الإنسانية والشرعية لحرب التحرير الجزائرية، وانضم إلى جيش التحرير الجزائري، وحتى بعض الضباط الفرنسيين ثاروا على قادتهم[2].

ب . سياسياً:

كانت الثورة الجزائرية سبباً في سقوط الجمهورية الفرنسية الرابعة، ووضعت حداً للطروحات الفرنسية بأن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا، وأن القضية كانت داخلية، وأن ما يحدث كان عملاً إجرامياً قام به إرهابيون وعصابات متمردة.

وأخيراً لقد أضاف انتصار الثورة الجزائرية سجلاً اخر لهزائم فرنسا المتتالية، بدءاً على الأقل بفشل نابليون في التوسع الأوربي في مصر وسوريا، وفشل روسيا كما كانت مهزومة أثناء الحرب العالمية الأولى لولا حلفائها، وفي الحرب العالمية الثانية فقدت سيادتها باحتلالها من طرف ألمانيا، ولم تحرر نفسها إلا بعد تدخل الحلفاء[3].

ج . نشاط الحركات الفرنسية المناهضة للحرب:

إن تطورات الثورة الجزائرية السريعة والانتصارات المستمرة التي حققتها قد دفعت بالجنرال (ديغول) نفسه إلى الاعتراف رسمياً . بعد ما تنبه إلى ما أصاب الجيش الفرنسي من خسائر بشرية أثناء المعارك مع جيش التحرير الوطني . بانهزام بلاده سياسياً واقتصادياً واجتماعياً. فقد صرّح في أواخر سنة 1960م بقوله:

قد أضحى ثابتاً لديّ أن استمرار هذا الوضع لا يمكن أن يجلب لبلادنا سوى الخيبة والماسي، وأنه حان الوقت للخلاص منه[4].

(1) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 198.

(2) السياسة العربية والمواقف الدولية ص 198.

(3) المصدر نفسه ص 198.

(4) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 473.

وأما فرحات عباس: رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، فقد وجه في 17 فيفري 1960م نداء إلى أوربيي الجزائر ليوضح لهم حقيقة الثورة الجزائرية، جاء فيه:

إن الحرب الدائرة في الجزائر ليست حرب العرب ضد الأوربيين، ولا هي حرب المسلمين ضد المسيحيين، وليست كذلك حرب الشعب الجزائري ضد الشعب الفرنسي، وإنما حرب فرضت على شعب بقي دهراً طويلاً في الإهمال الذي هو مصدر الامه ومتاعبه، إنها حرب شعب بقي زمناً طويلاً مداس الكرامة مهان الشخصية، ولقد ان الوقت لإدراك الأسباب الحقيقية لكفاحنا المشروع.

ومن تصريح الرئيس الفرنسي الجنرال «ديغول»، ونداء رئيس الحكومة المؤقتة «فرحات عباس» ؛ تمكن الرأي العام الفرنسي من الاطلاع على حقيقة الثورة الجزائرية، ومدى تأثيرها على الوضع الفرنسي. ونتج عن ذلك أن أصبح يسوده جو من الامتعاض واليأس إزاء حرب الجزائر.

ولعل المثير للانتباه في هذا الشأن، هو الانقسام الشديد في الرأي العام الفرنسي فيما يتعلق بالقضية الجزائرية، حيث انضمت فئات كثيرة إلى الحركات المعارضة للحرب في الجزائر، ولم تعد المسألة تقتصر على الخلاف التقليدي بين اليمين واليسار. وقد راحت الفئات التي انضمت إلى معارضة حرب الجزائر تنشط بهدف توعية الرأي العام الفرنسي وتعبئته لمطالبة الحكومة الفرنسية بوضع حد لحرب الجزائر، وكانت تعتمد في نشاطها هذا على بيانات تكشف فيها عن الأعمال العنصرية والجرائم الفظيعة التي ترتكبها السلطات الفرنسية باسمه في حرب الجزائر.

ويمكن حصر أهم الحركات المعارضة التي انضمت إليها مختلف الفئات في الاتي:

. حركة السلام الفرنسي:

وقد أصدر مكتب الحركة بياناً يكشف فيه للرأي العام الفرنسي القمع الذي تمارسه الشرطة الفرنسية ضد الجزائريين. ومن أهم ما تضمنه هذا البيان:

إن مثل هذه الأعمال العنصرية والأحقاد التي يقوم بها المدنيون الأوربيون في الجزائر، وخصوصاً وهران ؛ لن يكون لها من نتيجة ـ اللهم ـ إلا توتير العلاقات المقبلة بين فرنسا والجزائر[1].

. الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا:

وقد قام بإصدار بيان يدعو فيه الحكومة الفرنسية إلى مواصلة المفاوضات مع الحكومة المؤقتة بهدف إنهاء حرب الجزائر، وقد جاء في هذا البيان:

إن الاتحاد الوطني لطلبة فرنسا يؤكد من جديد أن المفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، والوصول بهذه المفاوضات إلى هدفها المنشود، هو وحده الكفيل بوضع حد لهذه الوضعية الدامية[2].

. الشخصيات الثقافية الفرنسية:

---

(1) المصدر نفسه ص 475.

(2) المصدر نفسه ص 475.

وقد أصدرت هذه الشخصيات بياناً تدعو فيه الشباب الفرنسي إلى التنديد بالأعمال التي لا تتفق مع المبادئ الإنسانية.

ومن أهم ما تضمنه هذا البيان: والفرنسيون ببقائهم صامتين يعتبرون متواطئين في هذه الأعمال الاضطهادية العنصرية، التي أصبحت باريس مسرحاً لها، والتي تعود بنا إلى تلك الأيام السوداء أيام الاحتلال النازي، إن الموقعين يتوجهون بالنداء إلى جميع الأحزاب والنقابات والمنظمات الديمقراطية، ليس فقط للمطالبة بإيقاف هذه التدابير المهيمنة، ولكن للإعراب عن تضامنهم مع العمال الجزائريين[1].

وباختصار، فإن النشاطات المكثفة لهذه المنظمات المعارضة لحرب الجزائر، قد كان لها الصدى العميق في الأوساط الفرنسية، التي أصبحت تدافع عن الشباب الفرنسي وتعارض توريطه في حرب الجزائر، كما أنها قامت بتنظيم مظاهرات في أواخر سنة 1961م، نددت فيها بسياسة القمع وأعمال التعذيب التي يتعرض لها الجزائريون، وطالبت الحكومة الفرنسية بمواصلة المفاوضات بهدف إنهاء الحرب، ومن الجدير بالذكر أن هذه المنظمات قد لعبت دوراً فعالاً في توعية الشعب الفرنسي، وتعبئته من أجل التصويت لصالح اتفاقيات إيفيان ووقف إطلاق النار في 8 أفريل 1962م[2].

7 . عوائق أمام الجنرال «ديغول»:

في يوم 8 يناير «جانفي» 1959م، أعلن في خطاب تنصيبه كرئيس للجمهورية الخامسة، أن الجزائر في حاجة إلى تهدئة وإعطائها شخصيتها الخاصة بها، على أن تبقى متعاونة مع فرنسا ؛ وفي يوم 25 مارس 1959م أعلن عن فكرة الجزائر الجزائرية. وتبلور موقف «ديغول» من القضية في خطابه إلى الشعب الفرنسي يوم 16 سبتمبر 1959م، والذي قال فيه بأن الوقت قد حان لإعطاء فرصة للجزائريين لكي يعبروا بأنفسهم عن مستقبلهم ويقرروا مصيرهم بأنفسهم. واختتم ديغول خطابه التاريخي الذي وجهه إلى الشعب الفرنسي عبر تلفزته الوطنية بقوله: إن الوقت قد حان لكي يقرر الجزائريون مصيرهم بأنفسهم على أساس المساواة، ويختاروا بين الانفصال عن فرنسا، أو إقامة نظام فيدرالي معها[3].

أ . تحالف قادة الجيش والمستوطنين ضد ديغول:

وبسرعة مذهلة تحالف قادة الجيش وزعماء المستوطنين الأوربيين بالجزائر ضد ديغول، وأعلنوا عن معارضتهم لأي تفاوض مع جبهة التحرير الوطني الجزائري. وفي يوم 18 يناير 1960م أعلن الجنرال «ماسو» في حديث له مع جريدة ألمانية بأن الجيش قد ارتكب غلطة عندما اختار ديغول ودعمه من أجل الوصول إلى السلطة في فرنسا. واستاء ديغول من تصريح «ماسو» واستدعاه إلباريس لتعيينه في وظيفة ثانوية بفرنسا.

---

(1) المصدر نفسه ص 475.

(2) المصدر نفسه ص 476.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 518.

وفي يوم 22 يناير 1960م طار الجنرال «شال» إلى باريس، وطالب «ديغول» بعودة الجنرال «ماسو» إلى الجزائر لأن الدماء تسيل هناك بغزارة إذا لم يعد الجنرال «ماسو» إلى منصبه. وبالفعل فقد أقام الأوربيون المتاريس في الجزائر العاصمة، وتعاهدوا على العمل من أجل الإطاحة بحكومة ديغول إذا لم يتراجع عن فكرة تقرير المصير التي أعلن عنها يوم 16 سبتمبر 1959م.

وحسب خطة الأوربيين، فإن الغاية من التمرد الذي قاموا به ابتداء من يوم 1960/1/22م هو الإطاحة بديغول وتعيين الجنرال «شال» في مكانه، لكن ديغول لم يستسلم ولم يخضع لقادة الجيش وقادة الجالية الأوربية في الجزائر، وخرج منتصراً من المواجهة معهم في يناير 1960م، لأن الرأي العام الفرنسي لم يؤيد المتمردين في الجزائر، والجنود استجابوا لنداء «ديغول»، وعملوا من أجل إعادة الأمن إلى نصابه مثلما طلب منهم رئيس دولتهم.

وابتداء من أول فبراير 1960م شرع «ديغول» في تنقية الأجواء، وإبعاد القادة العسكريين عن السياسة، وخاصة أولئك الذين أظهروا تعاطفاً مع زعماء الجالية الأوربية بالجزائر، مثل المكتب الخامس الذي كان تابعاً للجيش وقادته متحالفون مع زعماء الجالية الأوربية بالجزائر، وكان قد لعب دوراً هاماً في التأثير والضغط على المسلمين الجزائريين لكي لا يقبلوا تقرير المصير الذي اقترحه «ديغول».

وفي يوم 4 فبراير 1960م اتخذ ديغول إجراءً هاماً يتمثل في نزع السلطات المعطاة للجيش لكي يحل محل الشرطة في القيام بعمليات التعذيب وإلقاء القبض على الجزائريين بدون مراقبة قضائية، وأعاد تلك السلطات الأمنية إلى رجال الشرطة الذين يعملون ويخضعون لسلطات الولاة أو الحكومة.

وبهذه التغييرات الهامة في الجيش، وإبعاد قادته عن السياسة، وتحويل الجنرال «شال» إلى أوربا ؛ بدأ ديغول يتحرك بحرية تجاه قادة الثورة الجزائرية لكي يستدرجهم إلى إجراء مفاوضات أولية، والتعرف على وجهات نظرهم في كيفية إيقاف عملية الاقتتال، والتوصل إلى حل سلمي للمشكل الجزائري[1].

ب . محاولة شق صفوف الثوار:

لقد تكلم «ديغول» كثيراً عن سياسة تقرير المصير في الجزائر، لكنه لم يفصح عن محتوى تلك السياسة التي بقيت غامضة لمدة طويلة من الوقت، وفي شهر ماي من عام 1960م شرع «ديغول» في وضع مشروعه الخاص بتقرير المصير موضع التنفيذ، حيث قام وكيل الجمهورية في مدينة الجزائر بإجراء اتصالات مع القاضي مريض قدور المتواجد بمدينة المدينة، وذلك بقصد تنظيم لقاء بين قادة الولاية الرابعة وأربعة من كبار الضباط الفرنسيين.

وفي يوم 10 يونيو «جوان» 1960م، استقبل «ديغول» بقصر الأليزي قادة الولاية الرابعة في ذلك الوقت وهم: صالح زعموم «قائد الولاية»، ونائبه محمد بو نعامة «السياسي بنفس الولاية»، واثناء إجراء المفاوضات

---

(1) المصدر نفسه ص 519.

مع وفد الولاية الرابعة اقترح ديغول على زائريه من الولاية الرابعة أن يتم الاتفاق على وقف إطلاق النار ووضع الأسلحة في أماكن يتم تحديدها مسبقاً بناء على اتفاق مسبق بين الطرفين.

وفي الحقيقة كان واضحاً من هذه الاتصالات أن الغاية منها هي تفجير الثورة الجزائرية من الداخل، فإذا نجحت خطة التفاوض مع رجال الداخل، يستطيع «ديغول» تقسيم الجزائريين وتشتيت قواهم، وذلك عن طريق خلق انشقاق بين قادة الثورة في الداخل والخارج، وإذا لم تنجح خطة التفاوض مع القوات المحاربة في داخل الجزائر ؛ فإن ديغول يستعمل ورقة التفاوض مع بعض الأشخاص في الداخل كوسيلة للضغط على الحكومة المؤقتة، لكي تقبل بشروطه المتمثلة في وقف إطلاق النار وتسليم السلاح ثم إجراء الانتخابات لاختيار قادة جدد[1].

واتضح من الاتصالات التي تمت يوم 10 يونيه «جوان» 1960م بين ديغول وسي صالح في قصر الإليزي بفرنسا، أن كلاً منهما كان يدرك في قرارة نفسه أنه لا بديل عن التفاوض مع جبهة التحرير، التي كانت تجسم إرادة الشعب الجزائري في النضال ومواصلة الحرب حتى نيل الاستقلال التام، فقد اعترف «سي صالح» أمام ديغول بأن هذا اللقاء لا يمكن اعتباره موقفاً انعزالياً، أو معارضاً لبقية الرفاق في السلاح في جيش التحرير الوطني الجزائري، وأبلغه كذلك أنه جاء ليتعرف على وجهة النظر الفرنسية بالنسبة لإجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، ثم إجراء اتصالات مع المسؤولين الجزائريين الاخرين في الجزائر وخارجها.

وبنفس الصراحة قال له ديغول: بأن فرنسا ستتوجه بدورها بنداء إلى قادة الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، تطلب فيه من قادة هذه الحكومة اتخاذ الإجراءات الضرورية لوقف إطلاق النار، وأثنى «سي صالح» على هذه المبادرة من طرف فرنسا، وأكد للجنرال «ديغول» إن وفده جاءإلى فرنسا بقصد دعم فكرة التفاوض ودفع هذه الحركة إلى الأمام، واعترف بأنه لا يملك صلاحيات إجراء حوار مع فرنسا باسم الثورة الجزائرية، ومن الأحسن أن تتفاوض فرنسا مع جبهة التحرير الوطني الجزائري[2].

ج. محاكمة من تفاوض مع ديغول:

انتهت المحاولة التي قام بها ديغول بالفشل، لأن قادة الثورة الجزائرية في الداخل والخارج توحدوا واتفقوا على اعتبار جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، وهي المؤهلة لإجراء أي تفاوض مع فرنسا والدفاع عن حقوق الشعب الجزائري.

وبمجرد عودة الوفد الجزائري المفاوض من باريس، ألقي القبض على أعضاء المجموعة وتقديمهم للمحاكمة.

وكانت التهمة الموجهة إليهم هي: أن قيادة الولاية الرابعة ارتكبت سابقة في حق الإجماع العام للثورة، بحيث تجاوزت صلاحياتها كقيادة ولاية من بين ست ولايات أخرى، ووافقت على الالتقاء برئيس دولة تحاربنا منذ سنوات، وتحتل وطننا منذ قرن وربع قرن، دون إذن القيادة العامة السياسية أو العسكرية، وكانت نتيجة التحقيق

(1) المصدر نفسه ص 520.

(2) المصدر نفسه ص 521.

والمحاكمة إعدام أعضاء المجموعة التي تجرأت على الاتصال بفرنسا، والتفاوض مع «ديغول» بدون موافقة القيادة الجزائرية في تونس[1].

8. بداية التفاوض بين حكومة ديغول وجبهة التحرير:

في يوم 14 يونيه «جوان» 1960م، ألقى الرئيس ديغول خطاب هاماً أعلن فيه عن استعداد فرنسا لاستقبال أي وفد جزائري ترسله الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، بقصد التفاوض مع الحكومة الفرنسية. وتفاءلت الأوساط الدبلوماسية بهذا النداء الموجه للثوار الجزائريين لكي يتحاوروا مع ديغول، بعد أن تخلص من ضغوط الجنرالات وقادة الجالية الأوربية في الجزائر، ورحبت الحكومة المؤقتة للجزائر بدعوة ديغول للتفاوض، وأرسلت إلى فرنساوفداً يتكون من محمد الصديق بن يحي مسؤول الإعلام بالمحكمة المؤقتة والمحامي أحمد بن منجل «مسؤول الإعلام بالحكومة المؤقتة»، وأما الوفد الفرنسي فقد كان يقوده «روجي موريس» المكلف بالشؤون الجزائرية في قصر الإليزي، والعقيد ماتون الذي كان يتفاوض مع «سي صالح» من الولاية الرابعة بالجزائر.

ومثلما توقع الملاحظون السياسيون فقد باءت هذه الجولة الأولى من المفاوضات بالفشل، لأن الوفد الجزائري لم يعامل كوفد جاء للتفاوض، ولكنه اعتبر بمثابة مجموعة من المتمردين يتعين على فرنسا أن تتعامل معهم بحذر شديد.

وعليه، فإن المفاوضات التي ابتدأت يوم 1960/6/25م واستمرت لغاية 1960/6/29م لم تحقق أية نتيجة إيجابية، لأن الوفد الفرنسي كان يسعى بالدرجة الأولى إلى التفاوض من أجل وقف إطلاق النار وإجبار جيش التحرير على تسليم سلاحه، واستعمال ذلك اللقاء كدعاية له بأن فرنسا ترغب في السلام، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ترفضه، كما أن وفد جبهة التحرير قد استاء من معاملة السلطات الفرنسية له، حيث فرضت عليه حصاراً إعلامياً وحرمته من إجراء الاتصالات مع الخارج، ولم تسمح له بالزيارات والاتصالات بالصحافة.

ولهذا فشلت محادثات مولان، وعاد الوفد الجزائري إلى تونس وتوقف مسار السلام لمدة 8 أشهر كاملة، وحسب الانطباعات التي عاد بها الوفد الجزائري المفاوض، فإن الحكومة الفرنسية كانت متخوفة من تمرد رجال الجيش وقادة الجالية الأوربية بالجزائر، والأمل لازال يساورها في إحراز انتصار عسكري على الثوار الجزائريين. وبالفعل، فقد عمد ديغول في صيف 1960م إلى تدعيم الجيش المتكون من 000،500 جندي في الجزائر، وخصص ميزانية كبيرة لتموين الحرب، التي كانت تكلفه يومياً 3 مليارات من السنتيمات الفرنسية، وتماشياً مع هذا المنطق فقد تجسم في أرض الواقع خطر التمرد على ديغول من طرف قادة الجيش والجالية الأوربية بالجزائر، والعمل من أجل الإطاحة بحكومته.

---

(1) المصدر نفسه ص 521.

ففي يوم 14 سبتمبر 1960م عاد إلى الجزائر الجنرال «سالان» بعد أن أعلن عن تقاعده في شهر يونيه «جوان» 1960م، وذلك بقصد تزعم «جبهة الجزائر الفرنسية»، والمشاركة في المؤامرات التي كانت تحاك ضد ديغول والحكومة الفرنسية بصفة عامة. وفي نفس اليوم الذي وصل فيه «سالان» إلى الجزائر أي 1960/9/24م، أعلن في تصريح للصحافة بأنه لا يحق لديغول أو أي سلطة فرنسية أن تقرر مصير أية أراضي فرنسية توجد تحت سيادة فرنسا. وفي الحال تمَّ استدعاؤه إلى فرنسا ومنعه من الإقامة في الجزائر، غير أن الجنرال «ماسو» الذي كان مصمماً على منع ديغول من التفاوض مع الثوار الجزائريين لم يمكث طويلاً في فرنسا، حيث هرب إلى إسبانيا، ثم التحق بالجزائر التي عاد إليها وهو خارج على القانون.

وفي يوم 4 نوفمبر 1960م، قرر «ديغول» أن يتقدم خطوة ثانية إلى الأمام في طريق المفاوضات، ففي خطابه التاريخي يوم 1960/11/4م أعلن الرئيس الفرنسي عن ميلاد «الجزائر الجزائرية»، وأكد في خطابه بأنه سيواصل العمل من أجل تحقيق السلم في الجزائر. وتحقيقاً لهذا الهدف، قام بإرسال وزيره للدفاع «بيير مسمير» إلى الجزائر، وذلك لإبلاغ قادة الجيش أن الوقت قد حان للتفاوض وتطبيق الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، وتسيير الجزائر من الجزائر العاصمة بطريقة مستقلة.

وفي يوم 1960/11/23م أقدم «ديغول» على تنحية المندوب العام في الجزائر «بول ديلو فريبي»، الذي كان يهادن الأوربيين ويخاف من تمردهم على فرنسا، وتعويضه بالسيد «جين موران» الذي لم يكن متخوفاً من مواجهة الأوربيين في الجزائر.

وفي الأسبوع الثاني من شهر ديسمبر 1960م بدأ يتحرك «ديغول» ويثبت الأوربيين في الجزائر أنه سيد الموقف في فرنسا، وأن الأوربيين لن يستطيعوا من الان فصاعداً فرض إرادتهم على فرنسا[1].

9 . زيارة الجنرال ديغول للجزائر والمظاهرات الحاشدة:

ففي يوم 1960/12/8م قام الرئيس الفرنسي بزيارة إلى الجزائر، وذلك بقصد تهيئة الجو لإجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، الذي تقرر أن يجري في كل من الجزائر وفرنسا في شهر يناير «جانفي 1961م»، وقد انتهز الأوربيون هذه الفرصة لكي يقوموا بمظاهرات صاخبة ضد ديغول، وضد سياسته في الجزائر، وفي هذه المرة قام الملايين من الجزائريين المسلمين بمظاهرات مضادة ينادون فيها باستقلال الجزائر والتفاوض مع جبهة التحرير الوطني.

وباختصار فإن مظاهرات ما يزيد عن 8 ملايين مسلم جزائري في الفترة الممتدة من 10 إلى 13 ديسمبر 1960م ؛ أقنعت «ديغول» بأنه من الصعب على فرنسا أن تسترد ثقة المواطنين الجزائريين، وكما قال بن يوسف بن خدَّة، فإن هذه الانتفاضة الشعبية كانت منعرجاً في مسيرة وحدة الثورة، وحدثاً حاسماً في تاريخ معركتنا المسلحة وفي سير المفاوضات.

---

(1) المصدر نفسه ص 524.

لقد أظهرت هذه الانتفاضات روح الكفاح والقدرات النضالية التي ظلت مرتفعة لدى الجماهير رغم الإرهاب البوليسي والعسكري، فأقنعت ديغول بضرورة التفاوض، وأن كل محاولة ترمي إلى حل عسكري ستبقى بدون جدوى، وعليه كانت هذه الانتفاضة الشعبية عاملاً حاسماً في التعجيل بسير المفاوضات[1].

إن مظاهرات 11 ديسمبر 1960م قد بينت للشعب الفرنسي حقيقة الثورة الجزائرية، حيث برز فيها تيار مناهض للسياسة الفرنسية يطالب بحل القضية الجزائرية عن طريق التفاوض مع قادة الثورة[2].

لقد فتحت هذه المظاهرات جبهة جديدة شعبية مستمرة ضد العدو، ولم تتوقف المظاهرات هنا وهناك. سواء كانت تلقائية غير منظمة، أو بأمر وتنظيم من طرف الثورة. إلى غاية تحقيق النصر.

ولقد استغلت قيادات إدارات الثورة في مختلف المستويات. سواء في الحكومة المؤقتة بالخارج أو في الولايات بالداخل. هذه المظاهرات استغلالاً سياسياً حسناً، بالقيام بحملة دعائية وإعلامية واسعة النطاق لتقوية وترسيخ وتعميق تضامن الشعب لفائدة الثورة، فيما بين بعضه، وبين الثورة في وقت واحد[3].

10. عودة المفاوضات مع جبهة التحرير الوطني:

نال الجنرال ديغول تأييد أبناء شعبه لسياسته في الاستفتاء التاريخي يوم 8 يناير 1961م، حيث أيَّد 75% من الشعب في فرنسا 53% في الجزائر لسياسة تقرير المصير، وكان قد رأى بنفسه المظاهرات في الجزائر عند زيارته لها، وما اتسمت به من التنظيم المحكم، وقد برهنت له أن جبهة التحرير الوطني هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الجزائري، ولهذا قرر استئناف المفاوضات مع الحكومة المؤقتة عن طريق الاتصالات السرية بهدف دراسة الخطوط العريضة[4]، وطلب من قادة الجبهة العودة إلى مائدة المفاوضات لاستئناف محادثات «مولان» التي توقفت يوم 1960/6/29م.

أ. وساطة سويسرية:

نجحت الدبلوماسية السويسرية في تهيئة الظروف بين فرنسا والحكومة المؤقتة للبدء في المفاوضات، وفي يوم 19 فبراير 1961م وصل إلى مدينة «لوسيرن» السيد جورج بومبيدو رئيس بنك روتشيلد والسيد «برينو» الفرنسية، كما وصل إلى نفس المدينة الوفد الجزائري، الذي كان يضم أحمد بو منجل المحامي المشهور في القانون ومدير الإعلام بالحكومة المؤقتة، وكذلك السيد الطيب بولحروف ممثل الجزائر في روما وسويسرا، وأما الجانب السويسري الذي كان يعمل على تهيئة الظروف اللازمة لنجاح المفاوضات، فقد كان يقوده السيد «جيانريكو بوشي» والسيد «أوليفيبي لونق».

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 525.

(2) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 477.

(3) ملحمة المظاهرات الشعبية، على بوداري ص 153.

(4) التنظيم السياسي والإداري للثورة ص 481.

وفي يوم 1961/2/20م، التقى بمدينة «لوسيرن» السويسرية الوفدان الفرنسي والجزائري، واقترح بومبيدو على وفد جبهة التحرير أن يوضح موقفه من عدة قضايا تتعلق بكيفية إجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، والضمانات التي ينبغي تقديمها للجالية الأوربية بالجزائر، والمرسى الكبير بمدينة وهران والصحراء الجزائرية، ثم أكد الوفد الفرنسي الذي يعبر عن وجهة نظر حكومة باريس بأن القيادة الفرنسية مستعدة لإجراء الانتخابات الخاصة بتقرير المصير واحترام نتائجها، واقترح بأن تبدأ المفاوضات الرسمية بعد وقف إطلاق النار، وبالنسبة لقضية الصحراء فلا نقاش فيها لأن الصحراء منطقة شاسعة تحيط بها عدة دول، والجزائر ما هي إلا إحدى هذه الدول، وعلى فرنسا أن تستشير الجميع، وفيما يخص المرسى الكبير فقد اعتبره الوفد الفرنسي تابعاً لفرنسا، مثل جبل طارق الخاضع للسيادة البريطانية في التراب الإسباني، وقد ألح «بومبيدو» على ضرورة الاتفاق على هدنة ووقف إطلاق النار قبل الشروع في أية مفاوضات، كما لمح «بومبيدو» إلى ضرورة إشراك تيارات أخرى في المفاوضات بحيث لا تكون جبهة التحريرهي الممثل الوحيد للشعب الجزائري.

واستمر الوفدان في المفاوضات لغاية 1961/2/15م، وهو اليوم الذي اكتشف فيه كل طرف أن المواقف متباعدة، ولا يمكن التغلب على الصعاب التي برزت أثناء النقاش بين أعضاء الوفدين، فالجزائريان رفضا الأفكار التي عرضها المفاوضان الفرنسيان والمتمثلة فيما يلي:

. منح الحكم الذاتي للجزائر.

. فصل الصحراء عن الجزائر.

. تقسيم الجزائر من الناحية العرقية إلى مسلمين وأوربيين.

. بحث القضايا حول طاولة مستديرة.

. قبول هدنة قبل إجراء المفاوضات الرسمية[1].

واشترط أعضاء الوفد الجزائري أن تتم المفاوضات لتحقيق الأهداف التالية:

. الاستقلال التام.

. السيادة التامة للجزائر.

. وحدة التراب الوطني بما في ذلك الصحراء.

. وحدة الأمة الجزائرية وعدم وجود أية تجزئة.

. جبهة التحرير هي الممثل الوحيد للشعب الجزائري بأكمله.

. وقف إطلاق النار بعد التوصل إلى اتفاق.

ثم إن الخلاف الحاد الذي حصل بين الوفدين يتمثل في طلب الوفد الجزائري بإطلاق سراح الزعماء الخمسة المسجونين، حتى يتسنى لهم المشاركة في المفاوضات، في حالة إصرار الوفد الجزائري على هذا الطلب، كما

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 275.

رفض الوفد الفرنسي الطلب الذي تقدم به الوفد الجزائري، والخاص باستقبال الجنرال «ديغول» للسيد فرحات عباس رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية[1].

وخلال شهر مارس من عام 1961م توقفت المفاوضات لمدة قصيرة من الوقت، وعاد كل وفد إلى قيادة بلده، والتشاور مع كبار المسؤولين بدولته.

وفي يوم 30 مارس 1961م، اتفق الطرفان على الدخول في مفاوضات رسمية ابتداء من يوم 7 أفريل 1961م في مدينة «إيفيان»، غير أن تصريح «لويس جوكس» وزير الشؤون الجزائرية يوم 1961/3/31م بأن فرنسا ستتفاوض مع «الحركة الوطنية الجزائرية» التابعة لمصالي الحاج ؛ قد غير مجرى الأمور. حيث أعلنت الحكومة الجزائرية أنها ترفض أن تحضر مفاوضات «إيفيان» ما دامت فرنسا تنوي التفاوض مع حركة أخرى لا تلعب أي دور في حركة تحرير الجزائر من قوات الاحتلال الفرنسية.

وحاولت فرنسا أن توضح للجزائريين أن تصريح «جوكس» ليس له أي أثر سواء على مستقبل الجزائر أو اعتراف فرنسا بالتفاوض مع جبهة التحرير، كما ورد في البيان الصادر بتاريخ 1961/3/30م، وقد أدلى «جوكس» بذلك التصريح قبل أن يطلع على البيان المشترك الصادر بتاريخ 1961/3/30م، والذي اعترفت فيه فرنسا بجبهة التحرير الوطني، كطرف مفاوض مع الحكومة الفرنسية، غير أن الحكومة الجزائرية لم تقتنع بهذه الحجج ورفضت التفاوض مع فرنسا، إلا إذا أعلنت هذه الأخيرة أنها لن تتفاوض في نفس الوقت مع الحركة المصالية[2].

ب . محاولة انقلاب فاشلة:

في الفترة الممتدة من 22 إلى 26 أفريل 1961م قام جنرالات فرنسا «شال، جوهو، سالان، زيلر» بمحاولة انقلاب فاشلة ضد «ديغول» في الجزائر. وفي هذه الفترة من تاريخ فرنسا شعر «ديغول» بالخطر الذي يهدد فرنسا، وانقسامها إلى مؤيد ومعارض للاستفتاء الخاص بتقرير المصير في الجزائر، وتأكد لدى «ديغول» أنه إذا لم يستطيع أن ينهي الحرب في الجزائر ؛ فإنها ستقضى عليه وتدخل الأمة الفرنسية في غمار حرب أهلية[3].

واستغل «ديغول» فرصة القضاء على الجنرالات المتمردين ضد حكومته وتقديمهم للمحاكمة، وتجريدهم من جميع الرتب والامتيازات التي كانوا يحصلون عليها، فأظهر استعداداً كبيراً لاستئناف التفاوض مع جبهة التحرير والتخلص من المشكل الجزائري الذي أصبح يقلقه، وعندما استلم لويس جوكس اقتراحاً من الحكومة المؤقتة عن طريق الحكومة السويسرية باستئناف المفاوضات الجزائرية الفرنسية، أجاب «ديغول» بأن فرنسا على استعداد لاستئناف المفاوضات مع جبهة التحرير بسرعة، وذلك بقصد وضع الأوربيين في الجزائر أمام الأمر الواقع، بدلاً من العمل على إقناعهم.

(1) المصدر نفسه ص 528.

(2) المصدر نفسه ص 529.

(3) اتفاقيات إيفيان، يوسف بن خدة «معرّب» ص 23.

واقترح الوفد الفرنسي أن تبدأ المفاوضات من جديد يوم 1961/6/15م، وفي نهاية الأمر استقر الرأي على استئناف المفاوضات بصفة رسمية يوم 20 ماي/ 1961م[1].

* * *

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص.

رابعاً: اتفاقية إيفيان

بدأت المباحثات الجزائرية الفرنسية يوم 20 ماي 1961م،ودامت إلى 13 جوان 1961م.

مكان الاجتماع موجود في إيفيان، مدينة فرنسية على الحدود مع سويسرا.

وكان أعضاء الوفد الجزائري يبيتون بسويسرا بقصر وضعه تحت تصرفهم أمير قطر، وكانوا يُنقلون بطائرة عمودية أو سفينة في ظروف أمنية مشدَّدة، وقد كان أعضاء الوفدين يتبادلون التحية ولكن بدون مصافحة.

وتألف الوفد الجزائري من بلقاسم كريم نائب رئيس الحكومة الجزائرية مكلَّف بالشؤون الخارجية، وسعد دحلب أمين عام لوزارة الخارجية، وأحمد بو منجل مدير سياسي في وزارة الإعلام، والرائد أحمد قائد، والرائد علي منجلي من هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني، والطيب بولحروف ممثل جبهة التحرير في روما، ومحمد بن يحيى إطار في الحكومة، ورضا مالك مكلَّف بالعلاقات مع الصحافة.

فيما يخص مشاركة ممثلي هيئة الأركان العامة لجيش التحرير الوطني في مباحثات إيفيان، يقول سعد دحلب ما يلي: إن سلوك هيئة الأركان العامَّة في مباحثات سنة 1962م، هو عبارة عن امتناع وترك الحكومة تعمل بدون تدخلها، وذلك حتى تنزع مسؤوليتها عند تطبيق السياسة المترتبة على اتفاقيات إيفيان[1].

وتألف الوفد الفرنسي من رئاسة الوفد لويس جوكس وزير الشؤون الجزائرية في الحكومة الفرنسية، والمرافقين له حوالي ثمانية أشخاص، وتأزم الوضع بين الفريقين منذ البداية. فالفرنسيون قد جاؤوا إلى «إيفيان» بقصد التفاوض بشأن تحديد الشروط الخاصة بالفترة الانتقالية من الإدارة الفرنسية إلى الإدارة الجزائرية، والحصول على الضمانات الخاصة بالأوربيين وأملاكهم بالجزائر، وكذلك المطالبة بمنحهم جنسية مزدوجة، غير أن الجزائريين رفضوا هذا الطرح واقترحوا التفاوض بشأن الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، وحصول الجزائر على استقلالها.

واتهم السيد كريم بلقاسم وفد فرنسا بأن هذه الأخيرة تريد أن تفرض وضعاً معيناً قبل إجراء انتخابات تقرير المصير، واعتبر كريم بلقاسم الاقتراحات الفرنسية بمثابة محاولة تهدف إلى وضع قوانين خاصة للاحتفاظ بامتيازات الأوربيين في الجزائر وفرض الأمر الواقع على الجزائريين[2].

1 . انسحاب الوفد الفرنسي وعودة المفاوضات:

في يوم 1961/6/13م، قرر «ديغول» أن يسحب وفده من المفاوضات التي أصبحت تدور في حلقة مفرغة، واتهم «ديغول» الوفد الجزائري بأنه جاء إلى المفاوضات بقصد القيام بالدعاية، وفرض الشعارات الثورية التي تتبناها الثورة الجزائرية. وتساءل «ديغول» كيف يمكن تحقيق أي تقدم على طاولة مفاوضات يوجد حولها 19 متفاوضاً؟ وتساءل لماذا لا يقبل الوفد الجزائري بتخفيض العدد حتى يمكن إحراز تقدم ملموس؟

---

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام بن حمودة ص 558.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 530.

وأثناء توقف المفاوضات ذهب «لويس جوكس» إلى الجزائر لكي يتعرف على الشعور السائد هناك تجاه المفاوضات، وبعد عودته إلى باريس هتف إلى الوسيط السويسري السيد «أوليفي لونت»، وأبلغه بأن جميع الجهات التي اتصل بها في الجزائر كانت مؤيدة للتفاوض مع وفد جبهة التحرير، وأنه سيتصل بالجنرال «ديغول» ويعرض عليه فكرة استئناف المفاوضات عن قريب.

واستُؤنفت المباحثات يوم 20 جوليه 1961م بمدينة لوقران الفرنسية القريبة من الحدود السويسرية[1]، إلا أن الوفد الجزائري غاب عنه الرائد أحمد قايد والرائد علي منجلي، لأنَّ هيئة الأركان قاطعت الأشغال بسبب خلافها مع الحكومة المؤقتة، ودام الاجتماع من 20 إلى 28 جويليه 1961م[2].

2 . الوفد الجزائري يقطع المفاوضات:

توقفت المفاوضات يوم 1961/7/28م من نفس الشهر، وذلك بطلب من الوفد الجزائري في هذه المرة. وجاء هذا الانقطاع بمثابة صدمة للفرنسيين والسويسريين بسبب رفض فرنسا أن تكون الصحراء خاضعة للسيادة الجزائرية حتى بعد استقلال الجزائر، ولم يبق أي مسؤول كبير في الحكومة المؤقتة بجنيف لمواصلة الاتصالات، وعاد أعضاء الوفد الجزائري كله إلى تونس، ما عدا السيد الطيب بو لحروف سفير الجزائر بسويسرا وإيطاليا.

وفي الفترة الممتدة من 9 إلى 1961/8/27م اجتمع أعضاء المجلس الوطني للثورة في طرابلس، وذلك بقصد دراسة نتائج المفاوضات مع فرنسا، وتقييم مسار الثورة الجزائرية بعد حوالي 7 سنوات من الحرب المتواصلة ضد الاستعمار الفرنسي، وبعد نهاية الاجتماع في يوم 1961/8/27م صدر بيان من المجلس الوطني للثورة الجزائرية، يدعو فيه إلى تقوية العمليات العسكرية لجيش التحرير الوطني الجزائري، وتجنيد الجماهير الجزائرية لمواصلة الكفاح حتى نيل الاستقلال التام، وتحقيق مبدأ الوحدة الترابية للوطن، ووحدة الشعب الجزائري. كما تقرر في هذا المؤتمر تغيير عدد من أعضاء الحكومة التي يرأسها فرحات عباس، حيث تم تعيين بن يوسف بن خدة رئيساً للحكومة الجديدة، وسعد دحلب وزيراً للخارجية،، وكريم بلقاسم وزيراً للداخلية، ونائباً لرئيس الحكومة[3].

3 . المفاوضات السرية:

قرَّر المتفاوضون اختيار اتصالات سرية للتهرب من الصحافيين، ومن تسريب أخبار قد تضر بسير المفاوضات.

---

(1) المصدر نفسه ص 531.

(2) الثورة الجزائرية، د . بو علام ص 559.

(3) التاريخ السياسي للجزائر ص 533.

وفي يوم 28 أكتوبر 1961م انطلقت المفاوضات السرية بين الوفد الجزائري المتكون من رضا مالك ومحمد الصديق بن يحيى، والوفد الفرنسي المتكون من دولوس وشايي. وبعد يومين من التفاوض السري، قرّر الوفدان الافتراق على أن يلتقيا من جديد في الفترة الممتدة من 8 إلى 10 نوفمبر 1961م.

وتعقد الوضع من جديد يوم طلبت الحكومة المؤقتة من الحكومة الفرنسية أن تسمح لوفد جزائري بزيارة الزعماء الخمسة الذين لا زالوا في السجن بفرنسا. واشترط «ديغول» أن يحصل هذا بعد أن يسفر اللقاء بين جوكس ودحلب على نتائج إيجابية في اجتماعهما القادم، وبالفعل فقد اجتمع «جوكس» ودحلب يوم 9 ديسمبر 1961م بمدينة «روس» الفرنسية، وتوصلا إلى نتائج مرضية.

وفي يوم 1961/12/15م، وافقت السلطات الفرنسية للسيد محمد الصديق بن يحيى أن يتوجه إلى فرنسا، ويجري اتصالات مباشرة بالزعماء الخمسة المسجونين في قصر «أولنوا»، وبعد عودة بن يحيى من فرنسا، التقى الوزيران الفرنسي والجزائري يوم 1961/12/25م بنفس المدينة «روس»، وفي هذا اللقاء قامت فرنسا بتقديم مشروع بيان إلى الحكومة المؤقتة، والتزمت هذه الأخيرة بدورها بتقديم مشروع بيان إلى فرنسا في مطلع يناير 1962م، وفي الفترة الممتدة من 27 إلى 29 ديسمبر 1961م قام بن طوبال بزيارة الزعماء الخمسة، والتقى للمرة الثالثة «جوكس» ودحلب يومي 29 و30 ديسمبر 1961م، وذلك بقصد تقديم وثيقة إضافية من الحكومة الفرنسية إلى الحكومة المؤقتة[1].

وفي يوم 9 يناير 1962م، جاء محمد الصديق بن يحيى بمشروع الحكومة المؤقتة الذي سلمه إلى المسؤولين الفرنسيين، وبعد دراسته طلب «ديغول» من جوكس أن يعجل بإنهاء المشكل الجزائري، والإقلال من الاتصالات المتواصلة برئيس الوفد الجزائري. والسبب في هذا التوجه الجديد هو أن المنظمة السرية للجيش قد كثفت من نشاطاتها في الجزائر، وأصبحت هي التي تؤثر في الأوربيين بالجزائر، والحكومة الفرنسية أصبحت غير قادرة على التحكم في زمام الأمور هناك، كما أن البلبلة والقلق والتخوف من المستقبل قد بدأت تزعج أبناء الشعب الفرنسي في فرنسا ذاتها.

وعليه ؛ فإن أبناء الشعب الفرنسي، والرئيس «ديغول» نفسه، بدؤوا يحسون أنه لا فائدة تجدي من هذه المراوغات، وأن المفاوضات هي الطريقة الوحيدة لإنهاء المشكل الجزائري، ثم إن أبناء الجزائر قد أصبحوا يتعرضون للاغتيالات والمضايقات من أعضاء منظمة الجيش السرية في الجزائر.

وهذا الموقف والتطور المفاجأئ، دفع بأعضاء الوفد الجزائري في المفاوضات أن يستعجلوا ويتوصلوا إلى اتفاق مع الحكومة الفرنسية في أسرع وقت ممكن، قبل أن تفلت الأمور من يد المسؤولين الفرنسيين المتواجدين بالجزائر[2].

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 534.

(2) المصدر نفسه ص 535.

4 . استمرار المفاوضات:

في يوم 10 فبراير 1962م، وصل إلى سويسرا الوفد الجزائري المتكون من كريم بلقاسم «نائب رئيس الحكومة» ووزير الداخلية، سعد دحلب وزير الخارجية، وبن طوبال «وزير دولة»، محمد يزيد «وزير الإعلام»، ويرافقهم محمد الصديق بن يحيى، رضا مالك، الصغير مصطفاوي.

وفي نفس اليوم وصل أيضاً الوفد الفرنسي المتكون من: «لويس جوكس» وزير الشؤون الجزائرية، جين دوبرقلي كاتب الدولة مكلف بالصحراء «من حركة الاستقلاليين»، روبير بيرون وزير الأشغال العمومية، من حركة الجمهورية الشعبية، ويرافقهم المستشار «برينو دولوس» و«رولان بيليكار» والجنرال «دو كاماس» و«كلود شايي».

وخلال تسعة أيام من العمل المتواصل بمدينة لي روس من 9 إلى 20 فبراير 1961م، حاول كل وفد أن يحصل على نتائج مرضية لحكومته، وكل طرف أدرك أن الصعوبة لا تكمن فيما يتفق عليه رجال الاختصاص في المفاوضات، وإنما تكمن في إقناع المسؤولين في المجلس الوطني للثورة الجزائرية، وفي الحكومة الفرنسية التي تسعى لطمأنة الأوربيين في الجزائر أن الاتفاق يمنحهم ضمانات كافية لحمايتهم بصفتهم أقلية من أي قرار تتخذه الأغلبية، والذي قد يضر بمصالحهم وامتيازاتهم في الجزائر وما أكثرها[1].

وفي هذه الاجتماعات السرية والحاسمة «10 . 20 فبراير 1961م» عكف الخبراء على دراسة مشروع الاتفاق الخاص بوضع حد للحرب الجزائرية التي دامت ما يزيد عن 7 سنوات، ونتج عنها تشتيت أبناء الشعب الجزائري، واستنزاف طاقة أبناء الشعب الفرنسي مالياً وبشرياً ومعنوياً. وقد كانت النقاط الحساسة التي تشغل بال الخبراء وتختلف التصورات والحلول المقترحة بشأنها، وتتلخص فيما يلي:

. مطالبة فرنسا ببقاء الجيش الفرنسي في قواعد معينة بالجزائر مثل المرسى الكبير، وقواعد التجارب العسكرية بالصحراء، في حين يرفض الجزائريون بقاء جيش الاحتلال ببلادهم، لأنه يمس بالسيادة الوطنية.

. إصرار فرنسا على فصل الصحراء، وذلك لأنها مشتركة بين عدة دول، ولا يمكنها أن تتخلى عنها بسبب الاستثمارات الكبيرة في البترول، بينما تمسك الجزائريون بوحدة التراب الوطني والسيادة الكاملة على جميع الأراضي الجزائرية.

. تمسك فرنسا بمبدأ ازدواجية الجنسية للأوربيين المقيمين بالجزائر وعدم التعرض لأملاكهم، ورفض الجزائريون هذه الفكرة أو المبدأ وأصروا على عدم إعطائهم أي امتياز، وعليهم الاختيار بين أخذ الجنسية الجزائرية والخضوع للقوانين أو البقاء كأجانب.

. طالبت الجزائر أن يشارك الزعماء الخمسة المسجونون في المفاوضات، والمشاركة أيضاً في الاجتماع القادم للمجلس الوطني للثورة الجزائرية الذي يعتبر السلطة العليا للثورة الجزائرية، وهو الذي يوافق أو لا يوافق على

---

(1) المصدر نفسه ص 536.

أي اتفاق تبرمه الجزائر مع فرنسا، غير أن الوفد الفرنسي رفض إطلاق سراحهم إلى أن يتوصل الطرفان المتفاوضان إلى اتفاق رسمي مقبول من طرف فرنسا والجزائر.

. اعتبرت فرنسا قضية وقف إطلاق النار قضية أساسية، ولا بد من الاتفاق على يوم معين لوقف إطلاق النار قبل الشروع في المفاوضات، لكن الحكومة المؤقتة رفضت فكرة إيقاف العمليات الحربية قبل التوصل إلى اتفاق رسمي بين الجانبين.

. اقترحت فرنسا أن لا يدخل جنود جيش التحرير إلى المدن بألبستهم العسكرية وأسلحتهم، حتى لا يشعر السكان أنهم انتصروا عسكرياً على فرنسا، كما طالب الجانب الفرنسي بدخول جنود جيش التحرير إلى الثكنات التي يتخلى عنها الجيش الفرنسي، وهو مجرد من سلاحه وكأنه جيش مهزوم، هذه الخطة لم يقبلها الوفد الجزائري شكلاً ومضموناً.

. اشترط الجزائريون على فرنسا أن لا تكون هناك متابعة قانونية وتعسفية ضد الفرنسيين الذين تعاونوا مع الثورة الجزائرية، لكن الوفد الفرنسي اعتبر ذلك تدخلاً في شؤون فرنسا الداخلية، ورفض هذا الطلب الجزائري.

. تمسكت فرنسا بفكرة بقاء الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية خارج الجزائر لغاية يوم إجراء الاستفتاء الخاص بتقرير المصير، بينما طالبت الحكومة المؤقتة المشاركة في تسيير الجزائر منذ اليوم الأول الذي يتم فيه إبرام معاهدة السلام بين البلدين[1].

5 . الوصول إلى اتفاق إيفيان:

وبعد أخذ ورد وتبادل الاراء حول هذه المواضيع، وتأزم الوضع بالجزائر حيث أصبح زعماء الجالية الأوربية يهددون بالقيام بثورة مضادة ضد حكومة فرنسا وحكومة الجزائر ؛ توصل الوزراء والخبراء إلى مشروع اتفاق على جميع النقاط المدرجة في جدول الأعمال، وحولوا ذلك المشروع إلى الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية وحكومة الجمهورية الفرنسية، لإبداء الرأي فيه وتقديمه للسلطات المختصة في كل بلد للموافقة أو الاعتراض عليه.

وفي يوم 20 فبراير 1961م عاد الوفد الجزائري إلى تونس، وقدم مشروع الاتفاق إلى الحكومة المؤقتة التي درسته دراسة دقيقة، ثم استدعت 71 عضواً من أعضاء المجلس الوطني للثورة الجزائرية «البرلمان» لمناقشة مسودة الاتفاق، وفي الفترة الممتدة من 22 إلى 27 فبراير 1962م، اجتمع قادة المجلس الوطني للثورة بمدينة طرابلس «ليبيا»[2]، وقد حضر الاجتماع «33» عضواً، وأرسل 16 عضواً وكالات على التصويت.

إن رئيس الحكومة المؤقتة يوسف بن خدّة هو الذي قدَّم نتائج المفاوضات، ثمَّ تدخل سعد دَحَلب كمُقرِّر، وذكر رئيس الحكومة المؤقتة أن يوم توقيف القتال سيكون يوم 19 مارس 1962م في منتصف النهار على حسب ما أُتفِق عليه.

---

(1) المصدر نفسه ص 537.

(2) التاريخ السياسي للجزائر ص 538.

وجرى نقاش داخل المجلس الوطني للثورة الجزائرية، أما الأصوات الرَّافضة، فإنها انحصرت في أعضاء هيئة الأركان العامَّة «باستثناء رابح زيراري»، وقد طلبوا تحسين الوضع السياسي الداخلي قبل كلِّ شيء، وأثاروا نقصاً في النصوص.

وفي التشاور أعضاء الأركان العامة لم يعارضوا توقيف القتال ولا الاستفتاء من أجل تقرير المصير، إلا أنهم استنكروا قبول قوَّة محلية لحفظ الأمن. وحاول خليفة العروسي انتقاد الجوانب الاقتصادية للاتفاقيات، إلا أنَّ حُججه لم تصمد أمام شروح سعد دحلب.

صوّت المجلس الوطني للثورة الجزائرية على مشروع اتفاقيات إيفيان بـ «45 صوتاً مؤيداً، 33 عضواً كانوا حاضرين في الاجتماع و16 عضواً أرسلوا وكالات، وقد صوَّت ضد اتفاقيات إيفيان أعضاء من هيئة الأركان العامَّة وهم: هواري بومدين، «محمَّد بو خرّوبة»، وعلي منجلي، وأحمد قائد، وانضم إليهم مختار بويزم قائد الولاية الخامسة، والحقيقة أن تصويتهم كان ضد الحكومة المؤقتة لا ضدَّ النصوص، علماً بأن المصادقة على اتفاقيات ايفيان كانت تقضي أغلبية 2/3 من الحاضرين والموكِّلين، فهي مضمونة في 45 صوتاً مؤيداً من بين 49 صوتاً.

ولقد جدَّد المجلس الوطني للثورة الجزائرية الثقة للحكومة المؤقتة، وكلَّفها بإمضاء الاتفاقيات[1].

وفي يوم 5 مارس 1962م صدر بيان في باريس وتونس في ان واحد، يؤكد للعالم أن وفداً عن الحكومة الفرنسية ووفداً عن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية سيلتقيان بمدينة «ايفيان» يوم 7 مارس 1962م، وذلك لإجراء مفاوضات رسمية وعلنية بينهما.

ونظراً لتدهور الأوضاع بالجزائر، فقد جاء الوفد الفرنسي بإرادة قوية للتغلب على المشاكل التي لا زالت مثار خلاف حاد بين الطرفين، كما أن الوفد الجزائري قد تجاوب معه وقام بتقديم بعض التنازلات، وأظهر ليونة كبيرة في مواقفه ؛ ما دامت الحكومة الفرنسية مستعدة للاعتراف بسيادة الجزائر على جميع أراضيها.

وفي يوم 18 مارس 1962م توصل الجانبان إلى اتفاق نهائي، وتم الاتفاق على وقف إطلاق النار يوم 19 مارس على الساعة الثانية عشر من ظهر ذلك اليوم. وفي اليوم التالي أفرجت فرنسا عن الزعماء الخمسة المسجونين لديها، والذين توجهوا إلى المغرب من سويسرا، وذلك في طائرة أمريكية مؤجرة من طرف ملك المغرب.

ثم هاجروا بعدها المغرب لزيارة بعض الأقطار العربية، وفي مقدمتها مصر، إذ وصلوا يوم 29 اذار/ مارس 1962م، واستقبلهم بعد ذلك الرئيس جمال عبد الناصر وسط موكب رسمي وشعبي كبير، ثم غادر الوفد بعدها إلى بغداد في 5 نيسان/ أبريل من العام نفسه. إذ استقبله في المطار الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس وزراء العراق، وتم استقبال الوفد بحفاوة رسمية وشعبية كبيرة فاقت الخيال كما ذكر ابن بلة، فقد أحاط مد جماهيري

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام ص 563.

كبير موكبهم من كل جانب، وكانت الهتافات تدوي بحياة الجزائر الحرة ومجاهديها الأبطال، وبعدها تمت زيارتهم إلى ليبيا وتونس.

والجدير بالذكر، أن شخصية أحمد بن بلة كانت محط أنظار المسؤولين واهتمامهم في الأقطار العربية التي زارها، وقد أكد ابن بلة في مصر والعراق أن الثورة الجزائرية جزء من الثورة العربية الكبرى وحركة التحرر الأفريقية، مؤكداً مواصلة كفاحه حتى تتحقق أهدافه كاملة في الميدان العربي والأفريقي بالكفاح ضد الاستعمار، وبشكل خاص النضال من أجل تحرير فلسطين(1).

6 . خطاب رئيس الحكومة المؤقتة يوسف بن خدّة للشعب الجزائري:

هذا الخطاب وجهه السيد يوسف بن خدّة رئيس الحكومة المؤقتة إلى الشعب الجزائري مساء يوم 18 مارس 1962م الساعة الثامنة والنصف من إذاعة تونس.

أيها الشعب الجزائري:

بعد عدة شهور من المفاوضات الصعبة الشاقة، تحقق اتفاق عام في ندوة إيفيان بين الوفد الجزائري والوفد الفرنسي، وهذا نصر عظيم للشعب الجزائري الذي أصبح حقه في الاستقلال مضموناً. ونتيجة لذلك، باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المفوضة من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية، فإنني أعلن وقف إطلاق النار في كامل أنحاء الوطن الجزائري ابتداء من يوم الاثنين 19 مارس 1962م على الساعة 12 بالضبط، وإنني باسم الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية أصدر الأمر إلى جميع قوات جيش التحرير الوطني المحاربة بالتوقف عن العمليات العسكرية، وعن النشاط المسلح في مجموع التراب الجزائري.

أيها الجزائريون والجزائريات:

مضى الان سبع سنوات ونصف منذ أن حمل الشعب الجزائري السلاح ليفتكّ حريته واستقلاله وسيادته الوطنية، فالمجد للشعب الجزائري الذي سجل في هذه الملحمة الكبرى أروع صفحة في تاريخه، ورحم الله كل ضحايا الكفاح وجميع الشهداء الذين سقطوا في ميدان الشرف ليحيا الوطن الجزائري، والمجد لجرحانا الذين لا حصر لهم، والذين واجهوا قوى الاستعمار المتكالبة وعرَّضوا حياتهم للخطر.

والمجد للمناضلين في جبهة التحرير الوطني الذين كانوا في طليعة المعركة.

والمجد للمساجين والموقوفين في المحتشدات الذين تألموا في سجون الاستعمار.

إليكم جميعاً تعلن الأمة اعترافها الأبدي، وتتخذ منكم الأجيال القادمة مثلاً أعلى، وتجعل منكم ذكرى خالدة، فبفضلكم وبفضل إخلاصكم وتضحياتكم التي لا حدَّ لها، تحققت انتصارات ضخمة في طريق التحرر، واليوم وفي هذا الظرف التاريخي أحيِّي الشعب الجزائري البطل الذي دفع ثمناً غالياً في هذه الحرب وبذل من شجاعته، وأبدى من نزاهته وإخلاصه ما استرجع به الوطن السليب الجزائري وأعاد إليه كرامته.

---

(1) المغرب العربي المعاصر، د . محمد علي داهش ص 113.

أيها الجزائريون والجزائريات:

منذ سبع سنوات ونصف من الحرب القاسية وقف الشعب الجزائري أمام إحدى القوات العظمى العالمية في عصرنا، لقد تجند أكثر من مليون جندي فرنسي لقهر شعبنا، واستعملوا في سبيل ذلك كل أسلحتهم العصرية من طائرات ومدافع ودبابات وسفن حربية، وبلغ بفرنسا أن أنفقت ثلاثة ملايين فرنك في اليوم في هذه الحرب، وكانت مع ذلك تستفيد من الإعانات الضخمة التي يمدها بها الحلف الأطلسي في جميع الميادين العسكرية والمالية والسياسية والمعنوية، وحاول الاستعمار الفرنسي بواسطة قسم كبير من المستوطنين في الجزائر أن يتشبث بالجزائر الفرنسية.. كل هذه القوة بماذا قابلها الشعب الجزائري؟ قابلها أولاً بإيمانه بعدالة قضيته وبثقته بنفسه ومستقبله، وقابلها بإرادته التي لا تتزعزع، وعزمه على فك أغلال الاستعمار، وقابلها أخيراً وبالخصوص بوحدة صفوفه في الكفاح.

إن الجزائريين.. إن كل الجزائريين.. نساءً ورجالاً، شيوخاً وشباباً، من الجزائرالعاصمة الى تمنراست، ومن تبسة إلى مغنية.. وقفوا كلهم وقفة رجل واحد في حربهم التحريرية، فلا محاولات التفريق ولا أعداء الثورة، ولا المستفزون.. لم يكن لأي واحد من أولئك أن يمس إيمانهم أو وحدتهم القوية.. لقد شعر الجزائريون أنهم كالجسد الواحد في هذه المعركة الهائلة، وكانت جبهة التحرير الوطني وجيش التحرير الوطني في طليعة هذه المعركة من أجل الشعب، وبفضل كفاحهم المتواصل استطاعوا أن يسددوا ضربات قاسية للعدو.

إن الثورة الجزائرية قد انتزعت إعجاب الجميع، وهي اليوم تتمتع بسمعة عالمية وبتأييد عدد كبير من الأصدقاء في العالم، فإلى إخواننا العرب في المغرب والمشرق، وإلى جميع الأفريقيين، وإلى الأقطار الاشتراكية، وإلى شعوب العالم الثالث، وإلى الديمقراطيين في فرنسا وأوربا.. إلى كل أولئك نحن مدينون بالشكر والاعتراف بالجميل عمَّا وجدنا من طرفهم من مساندة وتأييد.

إن الشعوب التي ما تزال تحت نير الاستعمار قد استخلصت من كفاحنا عبرة ودرساً ثميناً في نضالها.

إن هذه المعركة قد أزالت الخرافة القائلة بأن الاستعمار لا يُغلب.. وإنها قد ساهمت في تحرير القارة الأفريقية، وبرهنت من ناحية أخرى على أن أي شعب، مهما كان صغيراً، ومهما كانت وسائل كفاحه متواضعة، يستطيع أن يقف ويصمد وينتصر على الاستعمار مهما كانت قوته.. إن الكفاح البطولي الذي قام به الشعب الجزائري، والمساندة الدولية، قد أجبرت العدو على أن يتخلى عن مواقفه القديمة وعن حلمه بالجزائر الفرنسية، وأن يعترف بحتمية استقلال الجزائر.

إن الاستعمار بالرغم من الوسائل التي استعملها ؛ قد انتهى به الأمر بعد سنوات طويلة من المعارك إلى التخلي عن حلمه في الانتصار العسكري، ووجد نفسه مضطراً للدخول في المفاوضات مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وإننا إذا اعتبرنا المواقف الفرنسية التي كانت تشترط وقف القتال قبل أي تفاوض، فإننا نجد أن الشعب الجزائري قد حقق في هذا الميدان نصراً عظيماً، وهذا النصر في الاستقلال الذي سيكون هو النتيجة الحتمية لتقرير المصير.

إن نهاية المفاوضات بين الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية والحكومة الفرنسية، هي عبارة عن مرحلة جديدة في تاريخ البلاد، وإن قرار وقف العمليات العسكرية فوق مجموع التراب الوطني هو نتيجة لاتفاقيات أبرمت على أساس ضمانات تتعلق بتقرير المصير وبمستقبل البلاد.

إن محتوى هذه الاتفاقيات يتماشى مع مبادئنا الثورية التي أعلناها أكثر من مرة وهي:

أولاً: الوحدة الترابية للجزائر في حدودها الحالية، وهذا ما يقضي على كل محاولة مكشوفة أو متسترة لتجزئة الجزائر في الشمال أو لفصلها عن صحرائها.

ثانياً: استقلال الجزائر: إن الدولة الجزائرية ستتمتع بجميع مقومات السيادة، بما في ذلك الدفاع الوطني، والسياسة الخارجية، واتجاهها الخاص في الداخل وفي الخارج.

ثالثاً: وحدة الشعب الجزائري التي اعترفت بها فرنسا، وبهذا تخلت عن فكرتها الاستعمارية بتجزئة الشعب الجزائري إلى فئات وطوائف.. إن الوحدة الوطنية للشعب الجزائري تدعم حضارته العربية الإسلامية التي انصهرت في المعركة من أجل الاستقلال.

رابعاً: الاعتراف بالحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بوصفها المفاوض الوحيد والممثل الحقيقي للشعب الجزائري، إن هذا الاعتراف قد فرضه الواقع.. وهكذا فإن المفاوضات التي دارت أول الأمر حول ضمانات تقرير المصير قد تطورت بشكل حاسم نحو مفاوضات عامة تشمل كل مستقبل الجزائر، وإن الدول الجزائرية ستختار بكل حرية مؤسساتها الخاصة وتسطر نظامها السياسي والاجتماعي الذي يتلاءم مع مصالحها، وفي ميدان السياسة الخارجية فإن الجزائر ستخطّ وتطبق سياستها التي ستختارها بكل حرية وبسيادة تامة.. إن هذه الدولة ستكون دولة ديمقراطية، إنها ستوقع بدون أي تحفظ على ميثاق حقوق الإنسان، وإنها ستقيم مؤسساتها على المبادأئ الديمقراطية والمساواة في الحقوق السياسية بين جميع المواطنين بدون تمييز في الجنس أو الدين.

وفيما يتعلق بالأوربيين بالجزائر فإننا سوَّينا هذا المشكل في نطاق سيادة الدولة الجزائرية، وبمقتضى وضعياتهم الخاصة في بلادنا.. إننا رفضنا نظام المجموعة للأوربيين في الجزائر، كما رفضنا مبدأ الجنسية المزدوجة التي تمس بوحدة الدولة الجزائرية وتعرقل تطورها، وتوصلنا إلى اتفاق يسمح للأوربيين بممارسة الحقوق المدنية الجزائرية لمدة معينة، ابتداء من تقرير المصير، وبعد هذه الفترة من الوقت يمنح للأوربيين في الجزائر حق الاختيار في الجنسية الجزائرية التي يطلبونها بصفة فردية وبين البقاء على جنسياتهم، وعندئذ يعاملون بمقتضى الاتفاقية الخاصة بالرعايا الفرنسيين، أما الذين يختارون منهم الجنسية الجزائرية فستحفظ لهم ثقافتهم ولغتهم ودينهم، وسيكون لهم تمثيل عادل في الشؤون العامة وخاصة في المجالس، ومما يميز الوطنية الجزائرية أنها سوَّت مشكلة الأوربيين بروح ديمقراطية وإنسانية.

منذ أول نوفمبر 1954م ونحن نكرر بأننا لا نحقد على الأوربيين في الجزائر، وبالرغم من أعمال العنف والجرائم التي تسلط تسلطاً أعمى على الأبرياء، فإن شعورنا نحوهم لم يتغير.. إننا نفرق بين العصابات الفاشية من

المغامرين وبين بقية الأوربيين، وإنني أدعو الأوربيين الذين يدركون واقع عصرنا، والذين يفكرون في مستقبلهم إني أدعوهم أن يبتعدوا عن العنصريين وعن غلاة المستعمرين الرجعيين، إن الأوربيين الذين يريدون أن يعيشوا في الجزائر المستقلة، ويعملوا في أمن وسلام في إطار التعاون المثمر، إن هؤلاء قد أعطيناهم الضمانات الضرورية العادلة.

أما فيما يخص المسائل العسكرية، فقد سويت على أساس جلاء القوات الفرنسية المسلحة.. إن هذه القوات بعددها الكبير وعتادها الهائل، سيتم جلاؤها حسب توقيت مضبوط، وبالرغم من وجود قاعدة المرسى الكبير في الجزائر، فإننا سنبقى أوفياء لسياسة الحياد وعدم الانحياز التي سُطرت أخيراً في مؤتمر بلغراد، وإن الأمثلة في البلدان المحايدة التي توجد فيها قواعد عسكرية أجنبية ليست قليلة في العالم.

إن الجزائر المستقلة لن تشارك في أي حلف عسكري، وستنظم دفاعها الخاص بسيادة مطلقة، وإن إقامة التوقيت المحدد لجلاء القوات الفرنسية عن الجزائر التي عانت الاحتلال الأجنبي أكثر من قرن، يعتبر نصراً مبيناً.

أما فيما يخص التعاون الذي ستقيمه الدولة الجزائرية مع فرنسا ؛ فإنه سيقام على أساس المساواة والاحترام لسيادة كلا البلدين، وعلى المصالح المتبادلة، ويشمل هذا التعاون الميادين الاقتصادية والفنية والمالية والثقافية، وكذلك استثمار ثروات الصحراء، ويمكن قبول بلدان أخرى مجاورة ضمن هذه المؤسسة.

أما بالنسبة للإصلاح الزراعي، فإن من المقرر هو أن فرنسا ستساهم في دفع تعويضات للمعمرين.

وبالنسبة للفترة الانتقالية، فلكي تتهيأ الجزائر لممارسة الاستقلال، ولتتوفر الشروط السياسية والإدارية لتقرير المصير بحُريَّة، حصلت اتفاقيات ترمي خصوصاً إلى تشكيل هيئة تنفيذية مؤقتة وقوة محلية، وتعيين مندوب سامي لفرنسا بالجزائر يقوم مقام الوالي العام، وإطلاق سراح المعتقلين والمساجين، وإزالة المحتشدات ومراكز التجمع، ورجوع اللاجئين والذين أُبعدوا عن ديارهم.. وفي هذه الفترة الانتقالية سيمتنع الجيش الفرنسي عن العمليات العسكرية، وعن كل نشاط يعرقل التعبير الحر عن إرادة الشعب الجزائري، ويبقى جيش التحرير الوطني على حاله محتفظاً بنظامه وبسلاحه وبإطاراته في المناطق التي يوجد بها الان.

إن الفترة الانتقالية تتطلب تيقظاً كبيراً، وإن وقف إطلاق النار ليس هو السلم، والخطر لا يزال ماثلاً في منظمة العصابات العنصرية الفاشية التي تحاول أن تغمر بلادنا في موجة من الدماء بعد أن يئست من إبقاء الجزائر فرنسية، وإن السلطات الفرنسية المدنية والعسكرية كانت لحدّ الان تتواطأ كثيراً أو قليلاً مع هذه المنظمة، وإن من المصلحة العليا للسلم والتعاون بين البلدين أن يوضع حد لهذا التواطؤ.

إن الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية من جهتها عازمة على الوفاء بعهودها، والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية المؤتمنة على السيادة الجزائرية، والمتكلمة باسم الشعب الجزائري، ستواصل تحمل مسؤولياتها إلى أن تتكون حكومة نهائية منبثقة عن المجلس الوطني الجزائري الذي سينتخب بعد مدة قصيرة من يوم الاستفتاء.

أيها الشعب الجزائري..

يجب أن نستعد لتحقيق الاستقلال.. إن الاستقلال ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة فقط تمكننا من تغيير وضعية شعبنا، إنه سيتيح لنا الانتقال من حالة التعفن الاستعماري إلى طور التحرر والاندفاع في معركة البناء الاقتصادي والتحرر الاجتماعي.. إن عدة مهمات تنتظرنا، وفي مقدمتها تشييد ما تهدم طيلة سبع سنوات من الحرب، وتضميد الجراح، ومقاومة البطالة والتخلف، وإن من مهماتنا أن نبني مجتمعاً جديداً يكون صورة لوجه الجزائر الفتية، الجديدة، الحرة.. الجزائر التي يجب أن يساهم في تشييدها كل مواطن، وكل هذه المهمات تتطلب منا منذ الان مجهودات أكثر من ذي قبل، وتجنيد كل طاقاتنا ووحدتنا وانسجامنا جميعاً حول الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، وتتطلب اليقظة والامتثال لإحباط مناورات الاستفزازيين والديماغوجيين والمفرقين..

إن كل الجزائريين يجب أن يعتبروا في حالة طوارأئ.

إن تنظيم الجماهير في الجزائر سيتعزز ويتقوى.. إن المحالفات السياسية والدبلوماسية التي تحصلنا عليها طيلة سبع سنوات من الكفاح ستتعزز وتتسع.

أيها الجزائريون والجزائريات:

إن وقف إطلاق النار ليس هو السلم، إن الفترة الانتقالية هي الاستعداد للاستقلال، وليست هي الاستقلال، وما لم يقع الإعلان عن الاستقلال، وما لم تقم دعائم الدولة، وما دامت حكومة الجزائر الحرة غير مستقرة فوق التراب الوطني ؛ فإن الشعب والمجاهدين والمناضلين يجب أن يبقوا في حالة التجنيد.. يجب أن لا نتخلى عن يقظتنا طيلة هذه الفترة الانتقالية، إن كل مسؤول وكل مناضل يجب أن يبقى في مركزه. إن الجزائر ستكون كما نريدها نحن الجزائريين أن تكون، وإن الشعب الجزائري القوي بوحدته، وأمام العالم الذي يراقبه، سيواصل نضاله لتحقيق الأهداف التي استشهد من أجلها مئات الالاف من الأبطال الجزائريين.. إن الشعب سيبقى ساهراً على تطبيق الاتفاقيات الفرنسية الجزائرية، وإن شعبنا سيستطيع الاعتماد على جميع الشعوب في العالم، بما فيها الشعب الفرنسي الذي تهمه أيضاً قضية السلم في الجزائر.

أيها الشعب الجزائري:

يجب أن نقوي من طاقاتنا ونهيأئ بعث الدولة الجزائرية المستقلة ذات السيادة، الدولة التي تتيح لنا إرساء قواعد سليمة لجمهورية جزائرية ديمقراطية واجتماعية.

نصر الله الشعب الجزائري المناضل، وعاش استقلال الجزائر[1].

(1) قوانين مجموعة «القوانين الداخلية لجيش التحرير الوطني» ص 162 إلى ص 170.

7 . نص اتفاقيات إيفيان:

وفيما يلي محتوى الاتفاقيات التي وقع ضبطها بين الجانب الجزائري والجانب الفرنسي، والتي ستصبح نافذة بعد الاستقلال، والتي أبرمتها الحكومة المؤقتة مع الحكومة الفرنسية، وهذا هو النص الكامل لتلك الاتفاقيات:

«إن المحادثات التي جرت بإيفيان من 7 إلى 18 مارس 1962م بين حكومة الجمهورية الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية انتهت إلى النتيجة التالية:

أبرم اتفاق لوقف القتال وسيوضع حد للعمليات العسكرية وللكفاح المسلح في مجموع التراب الجزائري يوم 19 مارس 1962م في منتصف النهار.

إن الضمانات الخاصة بتطبيق تقرير المصير وتنظيم السلطة العمومية بالجزائر أثناء الفترة الانتقالية قد حددت باتفاق مشترك.

ونظراً إلى أن تكوين دولة مستقلة وذات سيادة على إثر تقرير المصير بتلاءم مع الواقع الجزائري، ونظراً إلأن التعاون بين فرنسا والجزائر يتجاوب في هذه الحال مع مصالح القطرين ؛ فإن الحكومة الفرنسية تعتبر بالاشتراك مع الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية بأن حل استقلال الجزائر بالتعاون مع فرنسا هو الحل الذي ينسجم مع هذا الوضع.

إن الحكومة الفرنسية والحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية اتفقتا تبعاً لذلك على تحديد هذا الحل في التصريحات التي ستعرض على موافقة الناخبين أثناء اقتراع تقرير المصير.

تنظيم السلطات العمومية:

أثناء الفترة الانتقالية وضمانات تقرير المصير:

1 . ستسمح الاستشارة حول تقرير المصير للناخبين بأن يعلنوا هل أنهم يريدون الجزائر مستقلة؟، وفي هذه الحال هل يريدون أن تتعاون فرنسا والجزائر في ظروف تضبطها التصريحات الحالية؟.

2 . تجري هذه الاستشارة بعموم التراب الجزائري، أي: في المقاطعات الخمس عشرة التالية: العاصمة الجزائرية . باتنة، عنابة، قسنطينة، المدية، مستغانم، الواحات، وهران، الأصنام، سعيدة، ساورة، سطيف، تيارت، تيزي وزو، تلمسان.

3 . تكون حرية الاستشارة وصدقها مضمونين وفقاً للقانون الذي يضبط ظروف استشارة تقرير المصير.

4 . يكون تنظيم السلطات العمومية حتى إنجاز تقرير المصير مقاماً، ووفقاً للقانون المرفق للتصريح الحالي تحدث سلطة تنفيذية مؤقتة ومحكمة للنظام العمومي، ويمثل الجمهورية الفرنسية في الجزائر مندوب سام، وتنتصب هذه المؤسسات وخاصة السلطة التنفيذية المؤقتة فور دخول وقف إطلاق النار حيز التنفيذ.

5 . يكون المندوب السامي الممثل لسلطة الجمهورية الفرنسية لا سيما في ميدان الدفاع والأمن وحفظ النظام بوصفه صاحب الكلمة عند الضرورة القصوى . أي: عندما تطلب منه ذلك الهيئة التنفيذية.

6 . تكلف السلطة التنفيذية المؤقتة خاصة:

. بالتصرف في الشؤون العامة التي تهم الجزائر وتسهر على تسيير إدارة الجزائر وترجع لها مهمة إدخال الجزائريين إلى مختلف هذه الإدارة.

. وبحفظ الأمن العام، وتكون لها لهذه الغاية مصالح شرطة وقوة أمن توضع تحت نفوذها.

. وبإعداد تقرير المصير وتنفيذه.

7 . تتألف محكمة النظام العام من عدد متساو من حكام أوربيين وحكام مسلمين (عرب).

8 . تعاد في أقرب الاجال ممارسة الحريات الفردية والحريات العامة بصفة مطلقة.

9 . تعتبر جبهة التحرير الوطني تشكيلة سياسية ذات طابع شرعي (قانوني).

10 . يفرج عن المعتقلين سواء بفرنسا أو بالجزائر في أجل أقصاه عشرون يوماً ابتداء من وقف إطلاق النار.

11 . يعلن فوراً عن العفو ويفرج عن الأشخاص المعتقلين.

12 . الأشخاص اللاجئون بالخارج يمكنهم أن يعودوا إلى الجزائر، وستتولى لجان تنتصب في المغرب وتونس لتسهيل هذه العودة.

. الأشخاص الذين وقع جمعهم يمكنهم أن يعودوا إلى مكان سكناهم الاعتيادي.

. السلطة التنفيذية المؤقتة تتخذ التدابير الاجتماعية والاقتصادية وغيرها الرامية إلى ضمان عودة هؤلاء السكان إلى الحياة العادية.

13 . الاقتراع على تقرير المصير يجري في أجل أدناه ثلاثة أشهر وأقصاه ستة أشهر، وسيضبط التاريخ باقتراح من السلطة التنفيذية المؤقتة في بحر الشهرين الموالين لانتصابها.

الاستقلال والتعاون:

إذا وقع اختيار على الاستقلال والتعاون فإن فحوى التصريحات التالية يكون ملزماً للدولة الجزائرية.

أ . استقلال الجزائر:

1 . الدولة الجزائرية تمارس سيادتها المطلقة والتامة في الداخل والخارج. وتمارس هذه السيادة في كل الميادين وبالخصوص في الدفاع الوطني والشؤون الخارجية.

تتخذ الدولة الجزائرية لنفسها بكامل الحرية مؤسساتها الخاصة، وتختار النظام السياسي والاجتماعي الذي تراه الأكثر ملاءمة لمصالحها، وفي الميدان الدولي تختار وتنفذ بكامل السيادة السياسية التي تختارها.

تصادق الدولة الجزائرية بدون تحفظ على التصريح العالمي لحقوق الإنسان، وتقيم مؤسساتها على مبادأئ ديمقراطية وعلى التساوي في الحقوق السياسية بين كل المواطنين دون ميز في الجنس أو الأصل أو الدين. وتطبق خاصة الضمانات المعترف بها للمواطنين من ذوي الحالة المدنية الفرنسية.

2 . حقوق الأشخاص وحرياتهم وضماناتها:

. تراتيب مشتركة:

لا يمكن أن يستهدف أي شخص لتدابير الشرطة أو العدالة أو عقوبات زجرية أو أي تمييز مهما كان بسبب أفكار عبر عنها بمناسبة الحوادث التي جدت بالجزائر أو أعمال ارتكبها بمناسبة هذه الحوادث نفسها قبل يوم الإعلان عن وقف القتال.

ولا يمكن لأي جزائري أن يجبر على مبارحة التراب الجزائري أو أن يمنع من الخروج منه.

أحكام تخص المواطنين الفرنسيين ذوي النظام المدني من الحق العام:

1 . نظم الوضع القانوني للمواطنين الفرنسيين ذوي النظام المدني للحق العام في نطاق التشريع الجزائري الخاص بالنسبة للجنسية الجزائرية حسب:

. طوال مدة ثلاث سنوات ابتداء من تاريخ تقرير المصير يستطيع المواطنون الفرنسيون ذوو النظام المدني للحق العام المبادأئ التالية:

. إذا كانوا مولودين بالجزائر، ومقيمين بها منذ عشر سنوات إقامة عادية منتظمة حتى يوم تقرير المصير.

. وإذا كانوا مقيمين بالجزائر منذ عشر سنوات إقامة عادية منتظمة حتى يوم تقرير المصير، وكان أحد والديهم مولوداً بالجزائر ومتمتعاً أو في استطاعته التمتع بالشروط المطلوبة لممارسة حقوق المواطنة.

. أو كانوا مقيمين بالجزائر منذ عشرين سنة إقامة عادية، ومنتظمة حتى يوم تقرير المصير.

. يستطيع هؤلاء التمتع بالحق الكامل في حقوق المواطنة الجزائرية ويعتبرون بذلك رعايا فرنسيين ممارسين لحقوق المواطنة الجزائرية. وإن التابعين الفرنسيين الممارسين لحقوق المواطنة الجزائرية لا يمكنهم في الوقت نفسه ممارسة حقوق المواطنية الفرنسية.

وبانتهاء أجل السنوات الثلاث المشار إليه يحصلون على الجنسية الجزائرية بواسطة مطلب تسجيل أو مطلب تأكيد لتسجيلهم في القائمات الاتحادية، وفي حالة عدم تقديمهم هذا المطلب يقبل تمتعهم باتفاقية الاستيطان.

2 . حفظاً وضماناً لحماية الأشخاص والأملاك والمشاركة النظامية في حياة الجزائر خلال السنوات الثلاث بالنسبة للتابعين الفرنسيين الممارسين لحقوق المواطنية الجزائرية، وبالنسبة للجزائريين ذوي النظام المدني الفرنسي بعد انقضاء هذا الأجل تقررت التدابير التالية:

. تتاح لهم مساهمة عادلة وحقيقية في الشؤون العامة، فيكون تمثيلهم في المجالس مناسباً لقيمتهم العددية الفعلية، وتضمن لهم مشاركة عادلة في مختلف فروع الوظيفة العمومية.

. وتضبط مساهمتهم في الحياة البلدية بمدينتي الجزائر ووهران في أحكام خاصة. وتحترم حقوق ملكيتهم فلا تتخذ أي إجراءات انتزاع ملكية ضدهم بدون تقديم التعويض العادل الذي يتم تحديده مسبقاً.

. يتلقون الضمانات الملائمة لميزاتهم الثقافية واللغوية والدينية، ويحافظون على نظام حالتهم الشخصية الذي يحترم وينفذ من قبل المجالس العدلية الجزائرية المشتملة على قضاة منتسبين لنفس النظام. ويستعملون اللغة الفرنسية داخل المجالس وفي علاقاتهم مع السلطات العمومية، وستساهم جمعية صيانة حقوقهم في حماية هذه

الحقوق المضمونة لهم، وستقوم محكمة الضمانات وهي مؤسسة من مشمولات القانون الجزائري الداخلي بالسهر على احترام هذه الحقوق.

ب . العلاقات بين فرنسا والجزائر:

العلاقات بين البلدين تقوم على الاحترام المتبادل لاستقلالهما وعلى تبادل المصالح والمزايا بين الجانبين. فالجزائر تضمن مصالح فرنسا والحقوق المكتسبة فيما يتعلق بالشخصيات المادية والمعنوية حسب الشروط المحددة في هذه البيانات. وفي مقابل هذا تمنح فرنسا للجزائر إعانتها الفنية والثقافية وتقدم إعانة مالية ممتازة لفائدة تطورها الاقتصادي والاجتماعي.

1 . الإعانة الفرنسية محددة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد، وسيحدد مبلغها حسب الظروف وحسب مستوى يماثل مستوى المشاريع الجارية. وسيحدد البلدان في نطاق احترام الاستقلال التجاري والجمركي للجزائر مختلف الميادين التي تتمتع فيها المبادلات التجارية بنظام امتيازي.

وستكون الجزائر داخلة في منطقة الفرنك، ستكون لها عملتها الخاصة وخزينة العملة الصعبة الخاصة بها، وستكون بين الجزائر وفرنسا حرية تحويل الأموال حسب شروط تتلاءم مع التطور الاقتصادي والاجتماعي للجزائر.

2 . في مقاطعتي الواحات والصاورا يتم استثمار ثروات ما تحت الأرض حسب المبادأئ التالية:

1ً . التعاون الفرنسي الجزائري يتضمن إنشاء جهاز فني للتعاون الصحراوي يمثل فيه الجانبان بنسبة متساوية، ودور هذا الجهاز على الأخص هو تطوير الشبكات اللازمة لاستثمار ما تحت الأرض، وإبداء رأيه في مشاريع القوانين والتنظيمات ذات الصبغة المنجمية، ودراسة المطالب المتعلقة بإعطاء رخصة تنقيب. لكن الدولة الجزائرية هي التي تمنح رخص التنقيب، وهي التي تملي وتحدد التشريع المنجمي في نطاق السيادة الكاملة.

2ً . المصالح الفرنسية تكون مضمونة على الأخص بواسطة:

أ . ممارسة الحقوق المتعلقة بالرخص المنجمية التي منحتها فرنسا حسب قوانين التشريع البترولي الصحراوي كما يوجد حالياً.

ب . في حالة ما إذا كانت العروض متساوية، ستعطى الأولية للشركات الفرنسية فيما يتعلق بإعطاء الرخص الجديدة حسب الإجراءات التي ينص عليها التشريع المنجمي الجزائري.

. الدفع يقع بالفرنك الفرنسي فيما يخص الوقود الصحراوي المعين لسد حاجات الاستهلاك الداخلي الفرنسي والبلدان الأخرى التي تنتمي لمنطقة الفرنك.

ج . فرنسا والجزائر ستطوران علاقاتهما الثقافية: كل بلد يستطيع أن ينشأئ فوق تراب الاخر ديواناً جامعياً وثقافياً يكون مفتوحاً للجميع.

وستقدم فرنسا إعاناتها لتكوين الفنيين الجزائريين، وسيوضع فرنسيون وخصوصاً المعلمون والفنيون تحت تصرف الحكومة الجزائرية بواسطة اتفاق بين البلدين.

تسوية المسائل العسكرية:

فيما إذا ما تمت المصادقة على حل استقلال الجزائر والتعاون بين الجزائر وفرنسا ستسوى المسائل العسكرية حسب المبادأئ الاتية:

. القوات الفرنسية التي سيخفض عددها تدريجياً إبتداءً من إيقاف القتال، ستنسحب من الحدود الجزائرية في وقت ممارسة تقرير المصير، وسينخفض عددها إلى ثمانين ألف جندي في ظرف اثني عشر شهراً، ابتداءً من تقرير المصير، وعودة هذه القوات إلى وطنها يجب أن يتم في ظرف أجل ثانٍ يمتد على أربعة وعشرين شهراً. وسيقع الجلاء عن المنشات العسكرية بنفس التدريج.

. الجزائر تسوغ لفرنسا استعمال قاعدة المرسى الكبير لمدة 15 عاماً قابلة للتجديد باتفاق بين البلدين.

.كما ستسوغ الجزائر لفرنسا استعمال بعض المطارات والميادين والمنشات العسكرية التي هي ضرورية لها.

تسوية الخلافات:

فرنسا والجزائر تسويان مختلف الخلافات التي تنجم بينهما بوسائل التسوية السلمية، وسيلجان إلى وسائل التسوية السلمية سواء بواسطة التصالح أو التحكيم، وفيما إذا لم يتم الاتفاق على هذه الإجراءات يستطيع كلٌ من الطرفين أن يتوجه مباشرة إلى محكمة العدل الدولية.

عواقب تقرير المصير:

بمجرد الإعلان الرسمي المنصوص في المادة 27 من قانون تقرير المصير يبدأ تنفيذ الأعمال المنصوص عليها:

وفيما إذا ما تمت المصادقة على حل الاستقلال والتعاون:

. استقلال الجزائر يقع الاعتراف به حالاً من طرف فرنسا.

. تحويل الصلاحيات يتم في الحين.

. القوانين المنصوص عليها في التصريح العام والتصريحات التي ستلحق بها ستصبح نافذة المفعول في نفس الوقت.

. الهيئة التنفيذية المؤقتة تنظم في ظرف ثلاثة أسابيع بعد استفتاء الانتخابات لتعيين المجلس الوطني الجزائري الذي ستحول له سلطاتها.

وهكذا بعد سبع أعوام وستة أشهر من كفاح مرير، وجهود مضنية، وعذاب أليم، تحمّله شعب مجاهد صبور تم الاعتراف بالاستقلال. وأمضيت معاهدة الشرف والفخار[1].

8 . تطبيق اتفاقيات إيفيان:

أ . نشر النصوص:

---

(1) حياة كفاح (806/3 إلى 816).

عنوان إيفيان التي أمضاها من الجانب الفرنسي Robert و Louis Joxe Jean de Broglie Buron، وأمضاها من الجانب الجزائري بلقاسم كريم حملت عنوان «نتائج محادثات إيفيان» (18 مارس 1962م).

هذه الوثائق نُشِرت في الجريدة الرسمية يوم 20 مارس 1962 على شكل نصَّين:

. نصٌّ يتعلق بتوقيف القتال ويحمل عنوان «اتفاق توقيف القتال».

. ونصٌّ يحمل عنوان «تصريحات حكومية متعلقة بالجزائر بتاريخ 19 مارس 1962م.

لا يوجد خلاف بين نصوص جبهة التحرير ونصوص الحكومة الفرنسية إلا في الترتيب فقط، وفي شكل بعض النصوص، ففيما يخص تنظيم الاستفتاء والسلطات بصفة انتقالية، وفيما يخص إحداث محكمة الأمن العمومي بالجزائر؛ لجأت الحكومة الفرنسية إلى مراسيم لنشرها ولضمان تطبيقها.

فيما يخص العفو الشامل أصدرت الحكومة الفرنسية يوم 29 مارس 1962م مرسومين:

مرسوم يتعلق بالجزائريين الذين شاركوا في ثورة التحرير، ومرسوم اخر يعني من شارك في قمع ثورة التحرير.

والجدير بالذكر أن الحكومة الفرنسية استعملت المراسيم لتجنُّب بُطء النقاش في البرلمان، وهي معتمدة على الاستفتاء الذي أُجري يوم 14 يناير 1961 والذي سمح لها بالتشريع عن طريق مراسيم.

عُيِّنَ Christian Fourquet محافظاً سامياً ممثلاً للجمهورية الفرنسية، وحلَّ العميد Michel Fourquet على رأس القوات المسلحة الفرنسية بالجزائر.

ب . تطبيق توقيف القتال:

. في خطاب رسمي ألقاه يوم 18 مارس 1962م، أعلن الرئيس ديغول أن مرحلة جديدة سترى النور، وهي جزائر مستقلة متعاونة مع فرنسا تعاوناً وثيقاً، ويضيف أنَّ ما اتفق عليه يُرضي العقل.

. من جهته أعلن بن يوسف بن خدّة رئيس الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية توقيف القتال على كل التراب الوطني ابتداء من منتصف نهار 19 مارس 1962م، وقد تكلم باسم الحكومة الجزائرية التي أُعطِيَت الإشارة الخضراء من طرف المجلس الوطني للثورة الجزائرية.

. أعلن العميد Aillert توقيف القتال ابتداءً من التاريخ المتَّفق عليه.

. نُصِّبَت اللجنة المختلطة لمراقبة توقيف القتال في Rocher Noir (بومرداس) فعُيِّنَ الرائد محمد علاهم كممثل لجيش التحرير الوطني، والعميد Navelet كممثل للجيش الفرنسي، في كل محافظة عُيِّنَت كذلك لجان مختلطة تتألف من ممثلين للجيش الجزائري وممثلين للجيش الفرنسي.

. أُطلِقَ سراح المسؤولين المعتقلين وذلك يوم 18 مارس 1962م على الساعة الحادية عشرة فالتحقوا بالوفد الجزائري المفاوض بسويسرا، وذهب الجميع إلى الرباط حيث استقبلوا استقبالاً شعبياً ورسمياً كبيراً يوم 19 مارس 1962م.

. موضوع القُوَّة المحلية المنصوص عليها في اتفاقيات إيفيان أصبح مشروعاً ميّتاً للأسباب التالية: بالنسبة للأمن العام كان جيش التحرير الوطني هو المتحكم في الميدان، والتحق كثير من وحدات القوة المحلية بجيش التحرير الوطني، وبرزت تحفظات من جيش التحرير الوطني تُجاه وجود هذه القُوة.

. بصفة عامَّة طُبِّقَ توقيف القتال بصفة مُرضية، فاستطاعت اللجان المحلية واللجنة الوطنية أن تجد حلاً لقضايا نشأت هنا وهناك.

إن الخطر جاء من المنظمة المسلحة السرية، التي قررت أن تخرب اتفاقيات إيفيان بكل الوسائل، حتى الوسائل الإجرامية، سنخصص فقرة لهذا الموضوع.

. أثيرت في بعض الكتب مسألة «تقتيل» أعضاء «الحركة» الباقين في الجزائر بعد توقيف القتال، قد درست اللجان المختلطة المنصوص عليها في اتفاقيات إيفيان حالات الاختطاف أو المفقودين، فالعدد لم يصل إلى عشرات الالاف، كما تدعي بعض الكتب، يذكر عبد الرحمن كريمي (سي مراد) الذي كان مسؤولاً عن الونشريس أنه عقد اجتماعاً مع المعمرين، وطلب منهم استئناف العمل فصفقوا لخطابه.

من جهته إن العقيد طاهر زبيري قائد الولاية الأولى يخبرنا بأنه أطلق سراح 500 «حَركيّ» وأقنعهم بحتمية الاستقلال، وبضرورة تسليم أسلحتهم لجيش التحرير الوطني حتى لا تستغلهم المنظمة المسلحة السرية (OAS).

في حديثي مع العقيد سي حسن (يوسف خطيب) قائد الولاية الرابعة، أعلمني بأن الشُّبَّان من القوة المحلية كانوا يفرون من وظائفهم ويلتحقون بجيش التحرير الوطني، فقررت الولاية نزع سلاحهم وردَّهم إلى أُسَرهم.

يكتب Maurice Faivre في الصفحة 207 من كتابه «لا يمكن أن نقدم رقماً لعدد أعضاء «الحركة» المقتولين (في مرحلة ما بعد توقيف القتال) بدقة، ويضيف في الصفحة نفسها أن المؤرخ Xavier Yacono يشكك في عدد 000،300 المذكور هنا وهناك، ويظن أنَّ العدد هو ما بين 000،50 و000،70.

ذكرنا هذه الواقائع لحمل بعض المؤرخين على التزام الحذر حينما يتعلق الأمر ببعض الأرقام.

أما مغادرة الفرنسيين للجزائر بعد توقيف القتال، فإن هذا الأمر ناتج عن تصرفات المنظمة المسلحة السرية التي مارست سياسة الأرض المحروقة ممَّا جعل كل الفرنسيين يخافون من ردّ فعل الجزائريين المحتمل.

. إن استفتاء أفريل 1962م في فرنسا طلب من الشعب الفرنسي أن يوافق على سياسة الرئيس ديغول تجاه الجزائر. سنعود إلى هذه المسألة في الفقرة الرابعة من هذا الفصل.

ج . تنصيب الهيئة التنفيذية عملها:

دائماً في إطار تطبيق اتفاقيات إيفيان، نُصِّبت الهيئة التنفيذية المؤقتة في Rocher (ببومرداس) يوم 8 أفريل 1962م، وبدأت تشتغل يوم 13 أفريل 1962 تحت رئاسة عبد الرحمن فارس الذي عُيِّن بعد موافقة الحكومة المؤقتة.

تألفت الهيئة التنفيذية من تسعة جزائريين، وثلاثة فرنسيين (ليبيراليين ومسيحيين)، ويوجد مناضلون جبهويون من بين الجزائريين.

وقد احتفظت تشكيلة الهيئة التنفيذية بالتسميات المنصوص عليها في اتفاقيات إيفيان وكانت كما يلي:

. رئيس الهيئة التنفيذية: عبد الرحمن فارس.

. نائب الرئيس: Roger Roth .

الأعضاء:

. مندوب للشؤون العامة: شوقي مصطفاي.

. مندوب للشؤون المالية: Jean Mannoni .

. مندوب للشؤون الإدارية: عبد الرزاق شنتوف.

. مندوب للشؤون الأمنية: عبد القادر الحصار.

. مندوب للشؤون الاجتماعية: بومدين حميدو.

. مندوب الأشغال العمومية: Charles Koenig .

. مندوب للشؤون الثقافية: الشيخ إبراهيم بيوض.

. مندوب للبريد: محمد تفتيفة.

والمعلوم أن الحكومة الجزائرية عينت شوقي مصطفاي كمسؤول على خلية جبهة التحرير الوطني بالهيئة التنفيذية المؤقتة، وقد تكونت الخلية من شوقي مصطفاي (كمسؤول) وعبد الرحمن فارس وعبد الرزاق شنتوف وعبد السلام بلعيد ومحمد بن تفتيفة (كأعضاء).

مهام الهيئة التنفيذية المؤقتة محدودة إلا أنها أساسية وصعبة: كان عليها أن تكسِّر المحاولات الإجرامية للمنظمة المسلحة السرية (OAS)، وأن تحضّر الاستفتاء، وأن تعين الموظفين لسد الفراغ الموجود في الإدارة بعد فرار الفرنسيين، وأن تُنعش الاقتصاد، وأن تحضّر انتخاب المجلس التأسيسي...الخ. وقد كان من المفروض أن تنتهي مهام الهيئة التنفيذية رسمياً يوم أول جويليه 1962م، إلا أنها امتدت بفعل الواقع نظراً إلى الخلافات في قمة جبهة التحرير الوطني.

توصل الرئيس عبد الرحمن فارس إلى نيل استسلام الشريف بن سعيدي الذي كان يحارب جيش التحرير الوطني في ناحية عين بوسيف (جنوب شرق لمدية) وذلك على رأس 800 شخص، كما نال استسلام عبد الله سالمي الذي كان على رأس وحدة مصالية بالقرب من بوسعادة، وتمكن عبد الرحمن فارس من تكوين القوة المحلية لحفظ الأمن ولو جزئياً، ولقد حدد تاريخ جويليه لإجراء الاستفتاء وذلك بعد استشارة الرئيس ديغول والحكومة الجزائرية.

وقد حاول الرئيس عبد الرحمن فارس أن يُجَنِّب الجزائر جرائم المنظمة المسلحة السرية عن طريق لقاء أحد قادتها Jean Jacques Susini، وبفضل مساعي الرئيس السابق لبلدية الجزائر Jacques Chevallier سنتكلم عن ذلك فيما بعد.

. تطبيقاً لاتفاقيات إيفيان أمضى عبد الرحمن فارس رئيس الهيئة التنفيذية و Louis Joxe وزير الدولة المكلف بالشؤون الجزائرية تسع اتفاقيات فرعية، تم الإمضاء يوم 28 أوت 1962م بعد الترخيص المكتوب الذي صدر من الرئيس ديغول يوم 27 أوت 1962.

هذه الاتفاقيات الفرعية تناولت:

1 . وضعية الموظفين العاملين بالجزائر.

2 . وضعية المعلمين الفرنسيين بالجزائر.

3 . المسائل القضائية.

4 . طرق تنفيذ العمليات المالية بين الجزائر وفرنسا.

5 . المراقبة المالية.

6 . تنفيذ التزامات المنظمة المشتركة للنواحي الصحراوية (OCRS).

7 . تطبيق التصريح المبدئي حول التعاون لاستغلال الثروات الباطنية في الصحراء.

8 . تنظيم تقنية استغلال الثروات الباطنية في الصحراء.

9 . تطبيق مدونة المحروقات وتحويل المسؤوليات في ميدان البترول.

نشير من جهة أخرى إلى أن الهيئة التنفيذية رفضت طلب ملك المغرب الحسن الثاني الرّامي إلى فتح ملف رسم الحدود بين الجزائر والمغرب، وأجابت أن هذا الأمر من صلاحية الحكومة الجزائرية التي ستُنْتَخَب في المستقبل القريب[1] .

9 . محاولة تخريب اتفاقيات إيفيان من طرف المنظمة المسلحة السرية:

لم تولد المنظمة المسلحة السرية (OAS) في سنة 1962م، بل كانت لها جذور في منظمة المقاومة من أجل جزائر فرنسية (ORAF) التي بدأت ترتكب جرائم ضد الجزائريين منذ سنة 1955، ولقد ارتكبت جريمة يوم 10 أوت 1956م ضد سكان القصبة وقتلت 70 مدنياً (من بينهم سبعة أطفال)، وكان ذلك في شارع Thebes (شارع بودرياس الأب والابن حالياً).

ولقد كانت لها جذور في تشكيلات أخرى: أُسِّسَت الجبهة الوطنية الفرنسية FNF يوم 11 نوفمبر 1958م، وقد كان على رأسها Joseph Ortiz الذي أصبح قيادياً في المنظمة المسلحة السرية (OAS) فيما

(1) الثورة الجزائرية، د . بو علام ص 573 إلى 578.

بعد، هدف تلك الجبهة معارضة سياسة ديغول الرامية إلى التخلي عن الجزائر، تجسدت المعارضة بالعنف وبتوريط الجيش الفرنسي.

والمعلوم أن Jean Jacques Susini طالب في الطب، اقترح على Ortiz مخططاً للتمرد بعدما سمع خطاب ديغول المتعلق بتقرير المصير (16 سبتمبر 1959م).

تأسست جبهة الجزائر الفرنسية (FAF) ثم حاولت هذه الحركات المناصرة للجزائر الفرنسية أن توحد صفوفها، فعقد العقيد Raoul Salan (الذي قاد القوات الفرنسية بالجزائر من نوفمبر 1956م إلى ديسمبر 1958م) ندوة صحفية يوم 25 أكتوبر 1960م، وقد حضر الندوة كل من الباشاغا بوعلام و Georges Bidault والعميد Zeller : في هذه الندوة التوحيدية، ينكر Salan حق الرئيس ديغول في التخلي عن الجزائر وفي التفاوض مع «المتمردين»، ويؤكد أن الحل الوحيد هو التاخي الذي برز في 13 ماي 1958م الذي سيؤدي إلى إدماج الجزائر في فرنسا.

إن إحداث المنظمة المسلحة السرية (OAS) أُعلِنَ في مدريد يوم 11 فبراير 1961م، وذلك من طرف Pierre Lagaillarde (الرئيس السابق لمنظمة الطلبة بالجزائر)، و Jean Jacques Susini (طالب في الطب)، وكانا قد هربا من الاعتقال بعد قضية المتاريس، في الإعلان أُشيرَ إلى أن رئاسة المنظمة راجعة إلى العميد Raoul Salan الذي كان في حالة فرار أيضاً.

وفي منشورها الأول طلبت المنظمة المسلحة السرية (OAS) من مناصري «الجزائر الفرنسية» أن يطبقوا أوامرها وأوامرها فقط، وأن يشاركوا بالسلاح ضد التخلي عن الجزائر الفرنسية.

في ماي 1961م صرح العميد Raoul Salan بأنه يقود لجنة عسكرية تعتمد على أفواج المنظمة، وعلى تشكيلات كوماندوس مثل الكوماندوس Delta الذي يقوده Roger Degueldre (مظلي سابق).

كان عدد الناشطين في المنظمة المسلحة السرية (OAS) يُقدَّر بألف شخص.

مارست المنظمة الإجرامية سياسة الأرض المحروقة ونهب البنوك والتقتيل للجزائرين وقتل الفرنسيين التقدُّميين.

من بين جرائم المنظمة المسلحة السرية: قتل الأستاذ Pierre Popie (الذي كان يدافع عن المعتقلين الجزائريين) وذلك يوم 25 يناير 1961، وقتل ثلاثة مناضلين من جبهة التحرير الوطني حُكِمَ عليهم بالإعدام من قبل (وقد أخرجوا من سجن وهران ليُقتلوا في 23 يناير 1962م)، وقتل ستة مربّين ومن بينهم مولود فرعون الكاتب الشهير وذلك يوم 15 مارس 1962م بالجزائر العاصمة، وتقتيل 72 جزائرياً من البطَّالين الذين كانوا ينتظرون التشغيل في ميناء الجزائر (2 ماي 1962م)، وقد جُرِحَ في الاعتداء 250 شخص، وتقتيل 30 شخص بقذائف موجَّهة إلى الحي الشعبي بلكور (بلوزداد حالياً) يوم 4 ماي 1962م، وإحراق مكتبة الجزائر فأُتلف 60،000 كتاب...[1]

---

(1) المصدر نفسه ص 579، 580.

10 . النهاية الحتمية للمنظمة المسلحة السرية (OAS):

عجلت عدة أسباب وعدة أحداث بنهاية المنظمة المسلحة السرية:

.كانت القضية فاشلة مسبقاً لأن استقلال الجزائر كان حتمياً.

. وجهت المنظمة ضرباتها إلى المسلمين فظهرت نزعتها العنصرية.

. مارست المنظمة سياسة الأرض المحروقة التي أرهبت حتى الفرنسيين الذين لاذوا بالفرار.

. اتهام المنظمة من طرف العميد Ailleret قائد القوات المسلحة الفرنسية بالجزائر باللجوء إلى العنف والإرهاب، من أجل قلب مؤسسات الجمهورية وفرض رأي الأقلية بالقوة، ولقد أضاف في مذكرة يوم أول أكتوبر 1962م تهمة أخرى متمثلة في محاولة المنظمة تأسيس جمهورية فرنسية في الجزائر ووهران.

. محاولة الانقلاب التي قام بها أربعة عُمداء في أفريل 1961م أثرت في مصير المنظمة المسلحة السرية.

.كانت المنظمة تنتظر دعماً من الجيش الفرنسي، ولكن بعد فشل محاولة الانقلاب، قام الرئيس ديغول بتصفية عميقة داخل صفوف الجيش والشرطة: تم اعتقال 400 شخص وتوقيف 5 عمداء و6 عقداء وإقصاء 220 ضابط و250 موظف (ماي 1961م)، كما أُصْدِرَت أوامر بالإحضار ضد عسكريين وشرطيين فارين، وأُلقي القبض على العُمداء: Faure Challe و Petit و Nicot و Gouraud و Bigot و Zeller، وحُلّت منظمة الطلبة، ووُقِّفَت جرايد مثل La Depechere و L,Echo D,Alger, quptidienne، وحُلّت وحدات هامة من المظليين.

بدأ الفرنسيون يغادرون الجزائر منذ أفريل 1962م بالرغم من منع المنظمة السرية (OAS)، فقدت هذه المنظمة مصادر المساندة والإيواء والنقل والتمويل...

. فشلت محاولات تكوين وحدات خارج المدن، ففي سكيكدة أقنع العميد المسؤول على المنطقة المتمردين بالرجوع إلى ديارهم لأنَّ مشروعهم انتحاري، وفي الونشريس قضى الطيران الفرنسي بسرعة على الوحدات المتمردة التي أرادت أن تعتمد على «حركة» الباشاغا بوعلام، وحدة أخرى من المتمردين تحت قيادة الرائد Bazin قضى عليها جيش التحرير الوطني يوم 9 أفريل 1962م بالونشريس، عدد من الفروع التابعة للمنظمة الإجرامية حطمتها أفواج من المجاهدين والفدائيين (14 ماي 1962م) في العاصمة.

. انتهت المنظمة المسلحة السرية بعد اعتقال 11،000 شخص، ومعاقبة 3،493 شخص بالسجن، وإصدار أحكام بالإعدام على 44 شخص، وقد نُفِّذَ الحكم في أربعة منهم.

. قد ساهمت الأفواج المسماة Les Barbouzes في محاربة أعضاء المنظمة المسلحة السرية (OAS).

فمن هم Les Barbouzes ؟ التسمية هذه كانت مخصَّصة لمئتي شرطي فرنسي مكلَّفين من طرف الحكومة الفرنسية بمحاربة منظمة (OAS)، ثم استُعمِلت التسمية لتعيين الأفواج التي جنَّدها Lucien Bitterlin تحت غطاء الحركة المؤيدة للرئيس ديغول BPC والممتدة إلى الجزائر على شكل اتحادية الجزائر،

هدف هذه الأفواج Barbouzes محاربة المنظمة المسلحة السرية بسلاح اتٍ من الأمن العسكري وتموين سري صادر من المندوبية العامة للجزائر.

شاركت أفواج Les Barbouzes في إلصاق شعارات لصالح الحكومة الفرنسية، وفي الهجوم على مقاهي منظمة (OAS)، وقد خَسِرَت تلك الأفواج 27 من أعضائها.

في يناير 1962م طلب زعيم حركة MPC السيد Jacques Dauer من فرعه في الجزائر أن ينحلّ نظراً إلى اختلاط الأمور، إن العناصر الباقية من Les Barbouzes عادت إلى فرنسا في الثُّلاثيّ الأوَّل من سنة 1962م، وذلك بعد أن فجرت المنظمة المسلحة السرية مقرهم المركزي بشارع Fabre بلبيار (شارع علي بجاوي حالياً) وفندقهم بحي ديار السعادة بالجزائر.

. حاولت المنظمة المسلحة السرية أن تغطي فشلها بالعمل على تحقيق اتفاق يوقف العمليات المسلحة، من جهته حاول رئيس الهيئة التنفيذية أن يقنع مسؤوليها بفشل حركتهم المبنية على العنف، وبصلاحية ما جاء في اتفاقيات إيفيان من ضمانات لصالح الأقلية الفرنسية. وقد سُهِّلَت الاتصالات بواسطة Jacques Chevallier الرئيس السابق لبلدية الجزائر و Jean Marie Tine وهو رجل أعمال ليبيرالي.

وقع لقاء أول في منزل Jacques Chevallier يوم أوَّل جوان 1962م: حضر اللقاء عبد الرحمن فارس رئيس الهيئة التنفيذية من جهة، Jean Jacques Susini والعقيد Gardes من جهة المنظمة المسلحة السرية، في هذا اللقاء طلب Susini اتصالاً بعضو من الحكومة الجزائرية، ففهم عبد الرحمن فارس أنَّ المنظمة فشلت وتفتش عن مخرج، ولا سيما أنَّ حالتها تتدهور يوماً بعد يوم، أُلقِيَ القبض على العميد Sagan في وهران يوم 25 مارس 1962م، وصرح العميد Edmond Jouhaud في بداية جوان 1962م أن استقلال (الجزائر) أصبح مكسباً نهائياً، فلا بد أن يُبحَث في تفاهم يجعل حدّاً لكل عمل مسلح.

تدخل المحافظ السامي Christian Fouchet في موضوع الاتصالات مع قياديي المنظمة المسلحة السرية، واستقبل مسؤول خلية جبهة التحرير الوطني في الهيئة التنفيذية شوقي مصطفاي، وأفهمه أن الرئيس ديغول لا يرى مانعاً إذا حصل اتفاق من أجل حقن الدماء.

ذهب وفد الهيئة التنفيذية إلى تونس في جوان 1962م ليخبر الحكومة المؤقتة بما جرى في الأسابيع الأخيرة، تكون الوفد من عبد الرحمن فارس وشوقي مصطفاي ومحمد بن تفتيفة. تلقى الوفد جواباً من أحمد بن بلة وسعيد محمدي بطرابلس ومن يوسف بن خدّة بتونس: لا بد من احترام تاريخ أوَّل جويليه لإجراء الاستفتاء ولا بد من تجنُّب اتفاق مكتوب مع منظمة (OAS).

نظم لقاء يوم 17 جوان 1962م بالقرب من فندق الجزائر بين عبد الرحمن فارس وشوقي مصطفاي من جهة و Jacques Susini Jean بحضور Jacques Chevallier و Jean - Marie Tine من جهة أخرى.

أثار Jacques Susini مسألة الضمانات الممنوحة للأقلية الفرنسية، فأجاب شوقي مصطفاي بأنَّ ما جاء في اتفاقيات إيفيان كافٍ وشرح أهمَّ بنودها، وقد رفض شوقي مصطفاي أن يكون اتفاق مكتوب، بعد المناقشة اتفق الجانبان على توجيه نداء بعد تبادل الموضوعات التي تُشرَح.

فهكذا صرَّح شوقي مصطفاي من إذاعة الجزائر يوم 17 جوان 1962م بأن قوات الأمن مفتوحة للجميع، وبأن ممارسة الحقوق المدنية مضمونة للجميع في الجزائر المستقلة، في ندائه أشار شوقي مصطفاي إلى الاتصالات بين الهيئة التنفيذية وممثلي منظمة (OAS) قائلاً: حضرت اللقاء لأن منفعته اعترف بها القادة الجزائريون الذين تنتظرون منهم التأمينات الضرورية.

في اليوم نفسه وجَّه Jean – Jacques Susini نداء إلى الفرنسيين يرجوهم فيه أن يلبوا طلب العميد Raoul Salan بوقف العنف، لأنَّ التأمينات المطلوبة بدأت تتجسَّد.

تدخل العميد Raoul Salan يوم 19 جوان 1962م من خلال رسالة وجَّهها للفرنسيين يقول فيها على الخصوص «علينا أن نتشجع الان لمصلحة الوطن، وأن نتكيف مع الوضعية الجديدة» (رسالة مذكورة في الصفحة 338 من كتاب Bernard Tricot).

بعد هذه التصريحات، صدرت انتقادات من طرف أحمد بن بلة وبن يوسف بن خدّة بالرغم من موافقتهما على الخطوط العريضة. والحقيقة أنَّهما كانا متأثرين بجو التسابق إلى السلطة الملحوظ في تلك المرحلة. سنعود إلى موضوع الخلافات فيما بعد.

تبعاً لهذا الجو من عدم الثقة، قرر أعضاء الهيئة التنفيذية الاستقالة من مناصبهم يوم 27 جوان، وشرحوا الأسباب في الرسالة ذاكرين أن المسؤولين في الحكومة الجزائرية المؤقتة لم يعارضوا فكرة القوة المحلية وفكرة العفو الشامل لصالح أعضاء المنظمة المسلحة السرية (OAS).

إن الرسالة أمضاها عبد الرحمن فارس وشوقي مصطفاي وعبد الرزاق شنتوف وعبد السلام بلعيد ومحمد بن تفتيفة بصفتهم أعضاء خلية جبهة التحرير الوطني في الهيئة التنفيذية.

بعد شرحها لظروف الاتفاق مع منظمة (OAS) لِحَقنِ الدماء، رسمت الرسالة الخطوط العريضة بالنسبة إلى المستقبل القريب: ضرورة إحداث هيئة للتنسيق بين الولايات، وضرورة تكميل اتفاقيات إيفيان بتعديل يبين تشكيلة الهيئة التنفيذية المؤقتة وصلاحياتها في المدة التي تجري بين تاريخ الاستفتاء وتنصيب المجلس التأسيسي ثمَّ تعيين الحكومة.

فرضت الحكومة المؤقتة استقالة أعضاء الهيئة التنفيذية نظراً إلى اقتراب موعد الاستفتاء، فبقيت الهيئة تعمل حتى الانتخابات التشريعية في سبتمبر 1962م[1].

(1) الثورة الجزائرية، بوعلام ص 580 إلى 584.

11 . إجراء استفتاء تقرير المصير:

يوم 8 يناير 1961م استُفتِيَ الشعب الفرنسي في مشروع قانون يسمح لرئيس الجمهورية باستشارة الشعب الجزائري عن مصيره السياسي في علاقته بفرنسا، ويسمح له باتِّخاذ المراسيم اللازمة لتطبيق استفتاء تقرير المصير وتنظيم السلطات حتى الاستفتاء.

نتائج الاستفتاء كانت لصالح الموافقين فهي كما يلي:

عدد الناخبين المسجلين	233،520،23.
عدد المصوتين	913،986،23.
عدد الأصوات المعبَّر عنها	444،265،23.
عدد المصوتين بنعم	669،447،17.
عدد المصوتين بلا	775،817،5.

بمقتضى القانون الملحق بسؤال الاستفتاء والصادر يوم 14 يناير 1961م تمكنت الحكومة الفرنسية من اتخاذ مرسومين يوم 19 مارس 1962م، مرسوم ينظم استفتاء تقرير المصير بالجزائر ومرسوم ينظِّم السلطات العمومية الانتقالية.

. أما استفتاء 8 أفريل 1962م في فرنسا فقد طلب من الفرنسيين أن يوافقوا على محتوى اتفاقيات إيفيان وعلى كيفية تطبيقها بمراسيم، فكانت النتائج لصالح الموافقين فهي كالتالي:

عدد الناخبين المسجلين	072،582،27.
عدد المصوتين	404،779،20.
عدد الأصوات المعبر عنها	497،675،19.
عدد المصوتين بنعم	423،866،17.
عدد المصوتين بلا	074،809،1.

. بعد استشارة الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية، حدَّدت الهيئة التنفيذية تاريخ إجراء الاستفتاء وهو أول جويليه 1962م. رُسِّمَ هذا التاريخ في لقاء تم بين Louis Joxe وزير دولة مكلف بالشؤون الجزائرية وسعد دحلب وزير الخارجية في الحكومة الجزائرية.

. سيطرت جبهة التحرير الوطني على الحملة المتعلقة بالاستفتاء، فأشرفت على مهرجانات في كل مكان، مهرجانات أكدت فيها على أهمية النصر المحقق، وعلى جسامة تضحيات الشعب، ونبَّهت إلى ضرورة اليقظة لأنَّ أعداء الاستقلال ما زالوا يناورون؟

هناك تيارات سياسية شاركت في الحملة ولو بحجم هامشيّ، نجد فيها شيوعيين جزائريين، ومناضلين من الحزب الاشتراكي الفرنسي SFIO، والحزب الاشتراكي الموحَّد (PSU)، والحركة الجمهورية الشعبية (NRP)، واللجنة الليبيرالية من أجل جزائر جديدة، لكنَّ هذه التيارات غابت عن الساحة السياسية بعد الاستقلال.

يوم 8 جوان 1962م، تدخل الرئيس ديغول بخطاب موجَّه إلى الشعب الفرنسي وإلى الشعب الجزائري يقول فيه على الخصوص:

«بعد 23 يوماً سيصادق الشعب الجزائري من خلال الاستفتاء على اتفاقيات إيفيان، وسيُرَسِّم الاستقلال والتعاون (مع فرنسا) كما فعل الشعب الفرنسي عن طريق استفتاء 8 أفريل 1962، فهكذا تجاوزاً لكل الأزمات ولكل المشاعر الحماسية ستُفتَح مرحلة جديدة من العلاقات بين الجزائر وفرنسا، وسيُفتح فصل جديد لانتصارهما وذلك نتيجة لقرار حر واتفاق معقول بين الشعبين...».

إن السؤال الذي طُرِحَ على الشعب الجزائري في الاستفتاء جاء كما يلي:

«هل تريدون أن تُصبِح الجزائر دولة مستقلة متعاونة مع فرنسا في إطار الشروط التي حدَّدتها تصريحات 19 مارس 1962م؟».

نتائج الاستفتاء كانت كالتالي:

عدد الناخبين المسجَّلين	6،549،736.
عدد المصوتين	6،017،680.
عدد الأصوات المعبَّر عنها	5،992،115.
عدد المصوتين بنعم	5،975،581.
عدد المصوِّتين بلا	16،534.

فهكذا صوَّتت الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري على الاستقلال.

قد وقَّع على هذه النتائج أعضاء اللجنة الوطنية للمراقبة وهم:

الرئيس: قدّور ساطور.

والأعضاء: الهادي مصطفاي ـ عمار بن تومي ـ Alexander Chaulet ـ عبد اللطيف رحّال ـ Jean Guyot ـ أحمد هنّي.

أُعلنت النتائج الرسمية يوم 3 جويليه 1962م، في اليوم نفسه وجَّه الرئيس ديغول رسالة إلى رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس، وذلك بواسطة المحافظ السامي Christian Fouchet، تؤكد هذه الرسالة أن فرنسا سجلت نتائج استفتاء أول جويليه 1962م وتطبيق تصريحات 19 مارس 1962م، فاعترفت باستقلال الجزائر، وتضيف هذه الرسالة أنَّ الصلاحيات المتعلقة بالسيادة في الجزائر حُوِّلَت منذ اليوم إلى الهيئة التنفيذية المؤقتة بالجزائر.

أفاد عبد الرحمن فارس باستلام رسالة الرئيس ديغول، وسجَّل الاعتراف الرسمي باستقلال الجزائر من طرف الجمهورية الفرنسية، وصرَّح بأنه استلم الصلاحيات المنوطة بالسيادة في التراب الجزائري.

ـ يوم 3 جويليه 1962م أُنزِلَ العَلَم الفرنسي من طرف جنود فرنسيين في ساحة (Rocher Noir) (بومرداس)، ورُفِعَ مكانة العَلَم الجزائري من طرف شاب من الكشافة الإسلامية الجزائرية ومجاهد من المجاهدين.

. في اليوم نفسه أي يوم 3 جويليه 1962 فُتِحَت الحدود الجزائرية التونسية والحدود الجزائرية المغربية فرجع الاف اللاجئين إلى ديارهم.

توجَّه رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية بن يوسف بن خدّة إلى مقر ولاية الجزائر، وهو مصحوب بأعضاء من الحكومة المؤقتة وهم: بلقاسم كريم ومحمد وحُسَين ايت أحمد ولخضر بن طوبال وعبد الحفيظ بوصوف ومحمد يزيد.

وقد كان سكان العاصمة في الموعد فحيَّوهم أحسَن التحية.

. قام مجاهدون من الولايات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة باستعراض في شوارع العاصمة. فلمَّا وصلوا إلى ساحة الشهداء طلب منهم سكان باب الواد مسيرة في حيهم لتخويف ما تبقّى من المجرمين التابعين للمنظمة المتطرفة (OAS). قطعت وحدات جيش التحرير الوطني حي باب الواد وهي مصحوبة بالمواطنين الهاتفين بحياة الجزائر المستقلة، ثمَّ توجهت إلى سيدي فرج حيث رُفِعَ العَلَم بحضور عدد من المجاهدين الضباط، الذين رجوا من العقيد مُحند أولحاج (مقران أكلي) أن يشرف على مراسيم رفع العَلَم وتحيته، لكبر سنه وتكريماً له[1].

12 . تطور الوضع بعد ترسيم مع المكتب السياسي:

. من بين 12 عضواً في الحكومة المؤقتة، خمسة أصبحوا أعضاء في المكتب السياسي: أحمد بن بلة ورابح بيطاط ومحمد بوضياف ومحمد خيضر وسعيد محمدي، رفض عضو اخر وهو حُسَين ايت أحمد الدخول في المكتب السياسي وطالب بعقد مؤتمر لتجاوز الخلافات.

ونشير إلى أن محمد بوضياف رفض أيضاً الدخول في المكتب السياسي، ثم قَبِلَ بعد أن ظن أنَّ المجلس الوطني للثورة الجزائرية سيجتمع من جديد للفصل في الأمر، ولكنه استقال بعد تطور الأحداث.

دائماً داخل الحكومة المؤقتة نسجل أن محمد خيضر وسعد دَحلَب استقالا في حين بقي رئيسها بن يوسف بن خدّة يتحرك، أما محمد يزيد فإنه كان يسعى إلى التوفيق بين الاراء، نَشِطَ بلقاسم كريم في تيزي وزّو من حيث حاول أن ينسق مع الولايات الأخرى.

. منذ تصريح تلمسان، تصرف المكتب السياسي كمركز للسلطة فتعاملت الهيئة التنفيذية معه بدلاً من الحكومة المؤقتة. والمعلوم أن هيئة أركان الحرب أيَّدته منذ انتهاء اجتماع المجلس الوطني، وشرعت في حملة انتقاد ضد الحكومة المؤقتة.

سعى المكتب السياسي إلى نيل الولايات، وقد تم له ذلك مع قيادات الولاية الأولى والخامسة والسادسة التي ربطت اتصالات بهيئة الأركان، في الولايات المعارضة للمكتب السياسي بدأت تُقام هياكل تنشِّطها عناصر مؤيدة للمكتب السياسي: أُرسِلت مجموعة من ضباط جيش التحرير الوطني إلى قسنطينة لاستمالة مسؤولي الولاية الثانية، فوجدوا التأييد من الرائد العربي برجم المدعو «سي العربي الميلي» الذي عارض موقف قائد

---

(1) المصدر نفسه ص 945 إلى 948.

الولاية صالح بوبنيدر، يشير طاهر زبيري في كتابه إلى أن هواري بومدين أرسل سعدي ياسف ومصطفى فتَّال وأحمد بن شريف إلى العاصمة، لتحضير دخول جيش الحدود، لكنهم وجدوا في الميدان رابح زيراري الذي أرسله بن يوسف بن خدّة لتنظيم العاصمة، في حين كانت الولاية الرَّابعة قد ضمَّت بموافقة الحكومة العاصمة إلى الولاية الرابعة كمنطقة سادسة، تعقَّدت الأمور بتعيين لجان يقظة أشرف عليها محمد خيضر عضو المكتب السياسي.

. نلاحظ أنَّ بعض البلدان الخارجية أبدت تحيزها لبعض الأطراف، فمصر عوَّلت منذ زمان على أحمد بن بلة فكثَّفت الاتصالات معه، أما الملك الحسن الثاني فقد عيَّن على حسب سعد دَحلَب محمد الغزاوي المدير العام للأمن المغربي «كسفير جلالته لدى أحمد بن بلة» بدون أن يقطع العلاقات مع الحكومة المؤقتة، وهو يلومها على عدم تأييدها في ملف موريتانيا، وعلى عدم قبولها فتح ملف رسم الحدود بين الجزائر والمغرب.

. اعتمدت معارضة المكتب السياسي على عدم انتخاب المكتب السياسي وعدم حصوله على أغلبية الثلُثَين المطلوبة، واحتجت الولايات الثانية والثالثة والرابعة والمنطقة السابعة من الولاية الخامسة على العمل الموازي المنافِس لها بتحريك هيئة الأركان، وقد ظهرت مجموعة تيزي وزّو بإشراف بلقاسم كريم ومحمد بوضياف وتأييد قائد الولاية الثالثة محند أولحاج (مُقران أكلي) وسمَّت نفسها «لجنة الدفاع والاتصال للجمهورية»، وذلك بهدف توحيد صفوف جيش التحرير الوطني، وتحضير مؤتمر جبهة التحرير الوطني، وإعداد انتخابات المجلس التأسيسي[1].

13 . مبادرات لإيجاد حل سلمي للخلافات:

. موازاة مع التصريحات والتكتلات والمجابهات في بعض الأحيان، بُذِلت مساعٍ لإيجاد حل سلمي بين المتعارضين: لقد عُقِدَ اجتماع زمّورة يومَي 24 و25 جوان 1962م، واجتماع الجزائر يوم 2 أوت 1962م بين ممثلي مجموعة تلمسان ومجموعة تيزي وزّو (كما سنرى بعد قليل).

. وقد تنقَّل سي حسن (يوسف خطيب) وسي محند أولحاج (مقران أكلي) إلى الرباط في بداية جويليه 1962م، وقابلا أحمد بن بلة ومحمد خيضر.

لم يُسفِر اللقاء عن شيء إيجابي، بل بالعكس، لقد عبَّر محمد خيضر (على حسب ما قال يوسف خطيب المدعو سي حسن سنة 2011) عن إرادة المكتب السياسي في تحمُّل مسؤولية السلطة مهما يكن الثمن.

. ليَّنت الحكومة المؤقتة موقفها يوم 23 جويليه 1962م بقبولها المكتب السياسي بشكله الحالي، ولكن بشرط أن يجتمع المجلس الوطني للثورة الجزائرية ليصادق رسمياً على القائمة لأنه هو الهيئة العليا للثورة.

. التقى يوم 2 أوت 1962م بالجزائر عضوان من مجموعة تلمسان وهما محمَّد خيضر ورابح بيطاط وعضوان من مجموعة تيزي وزّو وهما بلقاسم كريم ومحند أولحاج (مُقران أكلي)، فاتفق الجانبان على تحديد تاريخ 27

---

(1) المصدر نفسه ص 603، 604.

أوت لإجراء الانتخابات التشريعية، وتاريخ بداية سبتمبر لعقد اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية، في الوقت نفسه يُكَلف المكتب السياسي بتحضير هذين الحدثين فقط.

غداة هذا الاتفاق أي يوم 3 أوت اقترح بن يوسف بن خدّة مخططاً مماثلاً: انتخابات تشريعية يوم 27 أوت، وعقد اجتماع المجلس أسبوعاً من بعد لترسيم المكتب السياسي أو لتعديل تشكيلته، ثم تحضير المؤتمر المقرر لاخر سنة 1962م.

. تنازل بن يوسف بن خدّة عن صلاحياته كرئيس الحكومة المؤقتة وحوَّلها للمكتب السياسي، وفي الوقت نفسه تبقى الحكومة المؤقتة كهيئة للثورة حتى انعقاد المؤتمر.

. نسجِّل أن الشعب الجزائري بقي بعيداً عن هذه الخلافات، بالعكس فقد قام بمظاهرات تلقائية رافعاً هتافات تنادي لجعل حد للعنف بين الإخوة، وقد كان الشعار المردَّد «سبع سنين بَرَكات» أي تكفي سبع سنين من الحرب مع فرنسا.

. ولوحظ أن عدة شخصيات سياسية ساندت المكتب السياسي المعلن، منهم فرحات عباس والشيخ محمد خير الدين والعقيد عمارا العسكري المدعو «عمارا بوفلاز»...[1]

14 . الحوادث والمجابهات:

. تقدمت وحدات جيش التحرير الوطني تدريجياً من الحدود الشرقية والغربية واستقرت أولاً في الولايات الموالية للمكتب السياسي، أي الولاية الأولى (الأوراس)، والخامسة (الغرب)، والسادس (الجنوب)، ولكن قد بدأت المناورات منذ يناير 1962م: فقد أرسل بن يوسف بن خدّة رابح زيراريّ وموسى شارف كعضوين في مجلس الولاية الرابعة، في حين كان عدد من ضباط الداخل ينتظرون الترقية، وفي مارس 1962م أرسل إلى قيادة الولاية الرابعة ضباطاً كانوا مارسوا مسؤوليات فيها من قبل، وهم سليمان دهيلس (المدعو سي الصادق) وعمر أوصديق (المدعو سي الطيب) وبوعلام أوصديق وعلي أونيسّ.

فشرح قائد الولاية الرابعة سي حسن (يوسف خطيب) للإخوان أن مجلس الولاية الرابعة قائم وأنَّ التعيينات الجديدة لها أغراض سياسية، فتوقفت عملية الاستيلاء على السلطة في الولاية الرابعة.

قبل اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية في طرابلس (27 ماي . 5 جوان 1962م)، أُرسِلَ الشاذلي بن جديد من طرف هواري بومدين رئيس هيئة الأركان إلى قسنطينة، لإقناع قادة الولاية الثانية بمواقف هيئة الأركان العامَّة، ولإعداد رجوع وحدات جيش التحرير الوطني من الحدود إلى داخل البلاد.

يقول الشاذلي بن جديد في الصفحة 209 من كتابه: وجدت مسؤولي الولاية الثانية يستعدون للذهاب إلى اجتماع طرابلس، وقد كانوا مجتمعين في دورة مفتوحة «فَهِمتُ بعد نَفسها» أنهما لا يعترفان بسلطة هيئة

(1) المصدر نفسه ص 605.

الأركان العامَّة، وأنَّهما يطالبان بإدماج الوحدات، اعتُقِل الضابطان محمد عطايلية والهاشمي هجرس اللذان أُرسِلا إلى قسنطينة للبحث عن مصيره، واعتُقِلَ أيضاً ضباط اخرون كأحمد قائد عضو هيئة الأركان العامة.
أُطلِقَ سراحُ هؤلاء الضباط بعد الاتفاق السياسي الذي وقع بين أحمد بن بلة وصالح بوبنيدر قائد الولاية الثانية.

. بعد دخول وحدات الولاية الرابعة إلى العاصمة يوم 29 جويليه 1962م، أُلقي القبض على عمر أوصديق ورابح زيراريّ المعيَّنَين للعاصمة من طرف الحكومة المؤقتة ثمَّ أُطلِقَ سراحهما، وقد اعتبرت قيادة الولاية الرابعة أنها هي المسؤولة عن العاصمة منذ سنة 1960م.

. ألقي القبض كذلك على محمد بوضياف في المسيلة ثم أطلق سراحه بعد تدخل المكتب السياسي (30 جويليه 1962م).

. وقعت عدة مناوشات في الجزائر العاصمة في شهر أوت 1962م بين أفواج تابعة للولاية الرابعة وأفواج تابعة لسعدي ياسف الذي كُلِّفَ بتحضير دخول المكتب السياسي في العاصمة.

. لم تنجح الولاية الثالثة والولاية الرابعة في إقناع المكتب السياسي بإيجاد حل توافقي للخلافات، فصرَّحتا أن نظام جبهة التحرير الوطني سيبقى قائماً حتى انتخاب حكومة من طرف المجلس التأسيسي، فهذه الحكومة هي التي ستتكفل بتحوير جيش التحرير الوطني، أما تحوير جبهة التحرير الوطني إلى حزب سياسي، فلن يتم ذلك إلا من خلال المؤتمر المزمع عقده في اخر سنة 1962م.

. زيادة على الولاية الأولى والخامسة والسادسة الموالية للمكتب السياسي، سعت الهيئة العامة لجيش التحرير إلى إيجاد إطارات تساندها في الولايات الأخرى أي الثانية والثالثة والرابعة، فهكذا جاءت وحدات من الولاية الأولى والحدود لاحتلال قسنطينة بمساعدة أفواج موالية يشرف عليها المدعو سي العربي الميليّ، فألقي القبض على قائد الولاية الثانية صالح بوبنيدر وعلي لخضر بن طوبال ثم أُطلِقَ سراحهما (في صيف 1962م) فوقعت في قسنطينة مناوشات انتهت بقبول صالح بوبنيدر سلطة المكتب السياسي.

. دخلت وحدات الولاية الرابعة العاصمة (وقد كانت تشرف عليها نظامياً منذ 1960م) فراقبت الإذاعة والتلفزة الوطنية لعدة أيام من جويليه وأوت 1962م[1].

15 . دخول القوات الموالية للمكتب السياسي إلى العاصمة:

عُقِدَ اجتماع في بوسعادة يوم 27 أوت 1962م فأخذ القرار لدخول العاصمة. حضر الاجتماع أحمد بن بلة ومحمد خيضر وسعيد محمدي والحاج محمد بن عَلا وأعضاء هيئة الأركان العامة هواري بومدين (محمد بوخرّوبة) وعلي منجلي وأحمد قايد والشريف بلقاسم عضو قيادة الجيش بالغرب، كما حضر الاجتماع ممثلو الولايات الوفية أي طاهر زبيريّ والعربيّ الميليّ (العربي بَرْجَم) وبوحجر بن خدّو (سي عثمان) ومحمد شعباني.

(1) المصدر نفسه ص 606، 607

إن البلاغ الصادر من الاجتماع يندد باحتلال العاصمة من طرف وحدات تابعة للولاية الرابعة (ولو أنها موجودة فيها منذ 1960م)، ويعلن تأخير الانتخابات التشريعية إلى تاريخ 20 سبتمبر 1962م.

. يوم 30 أوت 1962م تَلَقَّت وحدات من الولاية الأولى والولاية الثانية والولاية الخامسة والولاية السادسة أمراً بالتقدم نحو العاصمة. وقد سارت الوحدات على ثلاثة محاور: المسيلة وسيدي عيسى وسور الغزلان وتابلاط والأربعاء ثم الجزائر (تحت قيادة العقيد طاهر زبيريّ)، ومحور الجلفة وعين وسارة وقصر البخاري والمدية والبُليدة، ثم العاصمة (تحت قيادة العقيد محمد شعبانيّ)، ومحور تلمسان ووهران والشَّلف ثم العاصمة (تحت قيادة بوحجر بن حَدّو).

اتصل الرائدان من الولاية الرابعة لخضر بورقعة ومحمد بوسماحة بالعقيد محمد شعبانيّ في المحور الثاني لتجنُّب الاشتباك، لكنَّ المحادثات لم تنجح، شرحا له الموقف الحياديّ للولاية الرابعة لكنه صمم على تطبيق أمر السير نحو العاصمة.

وقعت اشتباكات بين الوحدات في عدد من الأماكن: عين وسارة وسيدي عيسى (حيث تعاونت وحدات من الولاية الرابعة والولاية الثالثة لوقف مسيرة الوحدات الأخرى)، وسور الغزلان والشَّلف حيث دامت الاشتباكات 7 ايام (سبتمبر 1962م).

ولقد تظاهر سكان المناطق لوقف الزحف، وفي بعض الأحيان تمدَّدوا على الطريق لمنع الاشتباكات.

ولقد عبر المجاهدون عن غضبهم أمام كل هذه الأسلحة الثقيلة التي كان من المفروض أن تُوجَّه إلى القوات الاستعمارية في أثناء ثورة التحرير.

يكتب بن يوسف بن خدّة أن عدد القتلى من الجانبين بلغ الألف، وذلك على أساس معلومات بثتها الصُحُف انذاك.

. لجعل حدّ لهذه المواجهات قَبِلَ العقيد سي محند أولحاج (مُقران أكلي) قائد الولاية الثالثة والعقيد سي حسن (يوسف خطيب) لقاء مع أحمد بن بلة، فاتفق الجميع على فتح الطريق أمام وحدات الجيش، وعلى قبول مبدأ تحوير جيش التحرير الوطني، وعلى المشاركة في تحضير قوائم المرشحين للانتخابات التشريعية. أما بخصوص المواقف السياسية، أي قضية اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية وعقد مؤتمر جبهة التحرير الوطني ؛ فقد احتفظ كل واحد منهم بمواقفه(1).

. بعد هذا الاتفاق تسارعت الأحداث: استقر أحمد بن بلة يوم 4 سبتمبر 1962م بالعاصمة وهو مرفوق بالمكتب السياسي الذي نظَّم أموره في فيلا Joly قبالة قصر الشعب الحالي، وقد كان أياماً من قبل وزَّع الصلاحيات بين الأعضاء.

(1) المصدر نفسه ص 608.

فتكفل محمد خيضر بأمانة الحزب والإعلام والمالية، وتكفل أحمد بن بلة بالتنسيق مع الهيئة التنفيذية، وتكفل محمد بوضياف بالشؤون الخارجية لكنه استقال من المكتب السياسي، وتكفل سعيد محمدي بالتربية الوطنية، وتكفل محمد بن علا بالمسائل العسكرية.

. بواسطة طائرة عمودية تنقل أحمد بن بلة ويوسف خطيب إلى أماكن الاشتباكات يوم 6 سبتمبر 1962م وأوقفا التقاتل بين الإخوة.

فهكذا استطاعت وحدات هيئة أركان جيش التحرير الوطني أن تدخل العاصمة يوم 9 سبتمبر 1962م وأن تستقر في الثكن المتروكة من طرف الجيش الفرنسي، مباشرة بعد ذلك أُدمِجَت وحدات الولاية الثانية والثالثة والرابعة في الجيش الذي سُمِّيَ منذ بداية مسيرته بالجيش الوطني الشعبي (ANP)[1].

16 . تحويل السلطات:

. إن كيفيات انتخاب المجلس التأسيسي حَدَّدتها الأمرية التي أمضاها رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس وصدرت يوم 16 جويليه 1962م.

الدائرة الانتخابية أساسها الولاية، وقد كان عدد الولايات خمس عشرة في سنة 1962م.

وقد كان عدد المقاعد متناسباً مع عدد السكان، أما نظام الانتخاب فقد اعتُمِدَ نظام القائمة والأغلبية بدور واحد.

. إن المكتب السياسي هو الذي حضَّر قوائم المرشحين بعد أن طلب من الولايات التاريخية تقديم اقتراحات، فكانت الفرصة ثمينة لإقصاء عدد من الإطارات من طرف المكتب السياسي. يشير عمر بوداود إلى إقصاء حق اتحادية جبهة التحرير بفرنسا في 16 مقعداً، فاضطُرَّت الاتحادية إلى تقديم مترشحين في قوائم الولاية الثالثة والولاية الرابعة، والمعلوم أن مواقف الاتحادية السياسية في الخلافات كانت قريبة جداً من مواقف قادة الولاية الثالثة والولاية الرابعة، فابتداء من أكتوبر 1962م حُوِّلت الاتحادية إلى ودادية الجزائريين بفرنسا وعُيِّن على راسها مسؤولون جُدُد.

. قدم المكتب السياسي 196 مرشحاً للانتخابات، ومن بينهم 16 فرنسياً من الجزائر، فحصلت القوائم على قبول أغلبية الناخبين.

زيادة على انتخاب النواب، دُعِيَ الشعب الجزائري للجواب على السؤال المنصوص عليه في أمرية 17 جويليه 1962م، والمتعلق بقبول مبدأ تعيين الحكومة من طرف المجلس التأسيسي، ومبدأ التشريع من طرف المجلس التأسيسي في انتظار الدستور.

صادق الشعب الجزائري على مشروع القانون الملحق بالسؤال بأغلبية 324،267،5 صوتاً من بين 004،286،5 أصوات معَبَّر عنها.

---

(1) المصدر نفسه ص 609.

يوم 20 سبتمبر 1962م، جرت الانتخابات في ظروف حسنة، لأن الشعب الجزائري فضّل الرجوع إلى مؤسسات تخدم الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي خلفها الاستعمار وسبعة أعوام ونصف من الحرب.

اجتمع المجلس التأسيسي يوم 25 سبتمبر 1962م، فانتخب فرحات عباس رئيساً له.

في اليوم نفسه صرَّح المجلس التأسيسي بأن الجزائر «جمهورية ديمقراطية شعبية»، وبأنه الوحيد الذي سيسهر على السيادة الوطنية في الداخل وفي الخارج، وقد سُجِّلَ في الجلسة نفسها أن الحكومة المؤقتة للجمهورية والهيئة التنفيذية وضعتا حداً لصلاحياتهما (من خلال برقية بن خدّة ورسالة عبد الرحمن فارس).

. يوم 28 سبتمبر 1962م انتُخِبَ أحمد بن بلة رئيساً للحكومة، فشكلها وقدم برنامجها، فصادق عليه المجلس.

راعى رئيس الحكومة في التشكيلة: التوازن الجهوي، وإرضاء المكتب السياسي، وهيئة الأركان العامَّة، وتمثيل تشكيلات قديمة كحزب فرحات عباس (من خلال أحمد بومنجل وأحمد فرانسيس)، وجمعية العلماء المسلمين (من خلال أحمد توفيق المدنيّ) فهنا يبتدأئ تاريخ جديد، تاريخ الجزائر المستقلة[1].

لقد انتصرت ثورة الشعب الجزائري بفضل الله ومنّه، وثورته الشعبية العظيمة، وعقيدته الإسلامية المتينة، وقيادته الفذة في كوادرها المتعددة، والمتنوعة والمتشعبة، وحسها الوطني الكبير، واشترك فيها جميع ألوان الطيف الجزائري، الغني والفقير، الأبيض والأسمر، العربي والأمازيغي، المهندس والطبيب، الشيخ والتاجر، الرجال والنساء.. الصغار والكبار..الخ.

إن فكرة المقاومة والثورة كانت موجودة في أذهان الجزائريين منذ اليوم الأول الذي وطئت به أقدام الفرنسيين أراضيهم تحركهم عقيدة الجهاد، وقد كانت العمليات الجهادية والثورات الشعبية حلقات متواصلة، لكن الوضع تغير في عام 1954م، حيث انطلقت الثورة على المستوى الوطني وأخذت طابعاً شمولياً وتنسيقاً محكماً، وعبرت عن امال كل جزائري مضطهد، وخلقت قناعات عامة بأن الأسلوب الثوري هو الأسلوب الوحيد الذي يمكّن كل فرد من المساهمة في تغيير الأوضاع لصالحه ولصالح المجموعات المحرومة مثله، فالثورة بالنسبة للمواطن الجزائري أصبحت هي الوسيلة الوحيدة لإعادة الاعتبار إليه، وتمكينه من تشييد حياة أفضل، وإعطائه الفرص الذهبية لتحقيق ما يصبو إليه من رفاهية وحياة كريمة.

لقد ساند الشعب مساندة مطلقة الكفاح المسلح لاسترداد الحرية والكرامة، وتحقيق الاستقلال، ولقد نجحت الثورة بفضل الله ثم وعي الجماهير والأخذ بفقه النضال والكفاح والجهاد لتحقيق المقاصد والامال والأهداف المشتركة للمواطنين.

لقد طالت المعارك، وتحمل الشعب جميع ألوان التعذيب، وأضاف الاضطهاد وأنواع الحرمان، ووسائل التشريد خلال سنوات طويلة، لكنه انتصر في النهاية.

---

(1) المصدر نفسه ص 610.

لقد ساهمت تعاليم الإسلام في الدفع المعنوي، والزاد الروحي لتحقيق هذا الفوز العظيم[1].

17 . صلاة الجمعة الأولى بعد الاستقلال في مسجد كتشاوا بالجزائر العاصمة:

خطب الأستاذ الإمام محمد البشيرالإبراهيمي يوم الجمعة 5 جمادى الثانية 1382 هجرية الموافق الثاني من نوفمبر 1962م ميلادية، بحضور أركان الدولة ووفود غفيرة من مختلف الدول الإسلامية فقال:

الحمد لله ثم الحمد لله، تعالت أسماؤه وتمت كلماته صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته، جعل النصر يتنزل من عنده على من يشاء من عباده، حيث يبتليهم فيعلم المصلح من المفسد، ويعلم صدق يقينهم وإخلاص نياتهم، وصفاء سرائرهم وطهارة ضمائرهم.

سبحانه وتعالى جعل السيف فرقاناً بين الحق والباطل، وأنتج من المضادات أضدادها، فأخرج القوة من الضعف، وولّد الحرية من العبودية، وجعل الموت طريقاً إلى الحياة، وما أعذب الموت إذا كان للحياة طريقاً، وبايعه عباده المؤمنون الصادقون على الموت، فباؤوا بالصفقة الرابحة، وِ{۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا } [سورة التوبة:111].

سبحانه وتعالى جده، تجلى على بعض عباده بالغضب والسخط، فأحال مساجد التوحيد بين أيديهم إلى كنائس للتثليث، وتجلى برحماته ورضاه عن اخرين، فأحال فيهم كنائس التثليث إلى مساجد للتوحيد، وما ظلم الأولين ولا حابى الاخرين، ولكنها سنته في الكون واياته في الافاق، يتبعها قوم فيفلحون، ويعرض عنها قوم فيخسرون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شرع الجهاد في سبيل الله، وقاتل لإعلاء كلمة الله حتى استقام دين الحق في نصابه وأدبر الباطل على كثرة أنصاره وأحزابه، وجعل نصر الفئة القليلة علىالفئة الكثيرة منوطاً بالإيمان والصبر.

صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه وكل متبع لهداه، داعٍ بدعوته إلى يوم الدين.

ونستنزل من رحمات الله الصَّيِّبة وصلواته الزاكية الطيبة لشهدائنا الأبرار، ما يكون كفاء لبطولتهم في الدفاع عن شرف الحياة وحرمات الدين وعزة الإسلام وكرامة الإنسان وحقوق الوطن.

وأستمد من الله اللطف والإعانة لبقايا الموت واثار الفناء، ممن ابتلوا في هذه الثورة المباركة بالتعذيب في أبدانهم والتخريب لديارهم والتحيُّف لأموالهم.

وأسأله تعالى للقائمين بشؤون هذه الأمة ألفة تجمع الشمل، ووحدة تبعث القوة، ورحمة تضمد الجراح، وتعاوناً يثمر، وتسديداً يقوِّم الرأي ويثبت الأقدام، وحكمة مستمدة من تعاليم الإسلام وروحانية الشرق وأمجاد العرب بعد أن قطعت دابرة في الأرض.

---

(1) التاريخ السياسي للجزائر ص 569، 570.

ونعوذ بالله ونبرأ إليه من كل داعٍ يدعو إلى الفرقة والخلاف، وكل ساعٍ يسعى إلى التفريق والتمزيق، وكل ناعق ينعق بالفتنة والفساد.

نحيي بالعمار والثمار والغيث المدرار هذه القطعة الغالية من أرض الإسلام الني نسميها الجزائر والتي فيها نبتنا، وعلى حبها ثبتنا، ومن نباتها غذينا، وفي سبيلها أوذينا.

أحييـك يا مغنى الكمـال بواجـب وأنفق في أوصـــافـك الغر أوقـاتي

يا أتباع محمد عليه السلام!. هذا هو اليوم الأزهر الأنور.

وهذا هو اليوم الأغر المحجل، وهذا هو اليوم المشهود في تاريخكم الإسلامي بهذا الشمال، وهذا اليوم هو الغرة اللائحة في وجه ثورتكم المباركة، وهذا هو التاج المتألق في مفرقها، والصحيفة المذهبة الحواشي والطرر من كتابها.

وهذا المسجد هو حصة الإسلام من مغانم جهادكم، بل هو وديعة التاريخ في ذممكم، أضعتموها بالأمس مقهورين غير معذورين واسترجعتموها اليوم مشكورين غير مكفورين، وهذه بضاعتكم ردت إليكم، أخذها الاستعمار منكم استلاباً،وأخذتموها منه غلاباً، بل هذا بيت التوحيد عاد إلى التوحيد، وعاد إليه التوحيد فالتقيتم جميعاً على قدر.

إن هذه المواكب الحاشدة بكمٍّ من رجال ونساء يغمرها الفرح، ويطفح على وجوهها البشر لَتجسيم لذلك المعنى الجليل، وتعبير فصيح عنه، وهو أن المسجد عاد إلى الساجدين الركع من أمة محمد، وأن كلمة لا إله إلا الله عادت لمستقرها منه كأن معناها دام مستقراً في نفوس المؤمنين، فالإيمان الذي تترجم عنه كلمة لا إله إلا الله، هو الذي أعاد المسجد إلى أهله، وهو الذي أتى بالعجائب وخوارق العادات في هذه الثورة.

وأما والله لو أن الغاشم أعاده إليكم عفواً من غير تعب، وفيئة منه إلى الحق من دون نصب، لما كان لهذا اليوم ما تشهدونه من الروعة والجلال.

يا معشر الجزائريين: إذا عُدَّت الأيام ذوات السمات والغرر والشيات في تاريخ الجزائر فسيكون هذا اليوم أوضحها سمة وأطولها غرة وأثبتها تمجيداً، فاعجبوا لتصاريف الأقدار، فلقد كنا نمر على هذه الساحة مطرقين ونشهد هذا المشهد المحزن منطوين على مضض يصهر الجوانح ويسيل العبرات، كأن الأرض تلعننا بما فرطنا في جنب ديننا، وبما أضعنا بما كسبت أيدينا من ميراث أسلافنا، فلا نملك إلا الحوقلة والاسترجاع، ثم نرجع إلى مطالبات قولية، هي كل ما نملك في ذلك الوقت، ولكنها نبهت الأذهان وسجلت الاغتصاب وبذرت بذور الثورة في النفوس حتى تكلمت البنادق.

أيها المؤمنون: قد يبغي الوحش على الوحش فلا يكون ذلك غريباً، لأن البغي مما ركب في غرائزه، وقد يبغي الإنسان عرقاً نزاعاً إلى الحيوانية وشيطاناً نزاعاً بالظلم وطبعاً من الجبلة الأولى ميالاً إلى الشر، ولكن العجيب الغريب معاً، والمؤلم المحزن معاً، أن يبغي دين عيسى روح الله وكلمته على دين محمد الذي بشَّر به عيسى روح الله وكلمته.

يا معشر المؤمنين: إنكم لم تسترجعوا من هذا المسجد سقوفه وأبوابه وحيطانه، ولا فرحتم باسترجاعه فرحة الصبيان ساعة ثم تنقضي، ولكنكم استرجعتم معانيه التي كان يدل عليها المسجد في الإسلام ووظائفه التي كان يؤديها من إقامة شعائر الصلوات والجمع، والتلاوة ودروس العلم النافعة على اختلاف أنواعها، من دينية ودنيوية، فإن المسجد كان يؤدي وظيفة المعهد والمدرسة والجامعة.

أيها المسلمون: إن الله تعالى ذم قوماً فقال: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْ } [سورة البقرة:114] ، ومدح قوماً فقال: {إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨} [سورة التوبة:18]

.

يا معشر الجزائريين: إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا (ص): «إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك».

فهو قد خرج من أرضكم ولكنه لم يخرج من مصالح أرضكم ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.

يا معشر الجزائريين: إن الثورة قد تركت في جسم أمتكم ندوباً لا تندمل إلا بعد عشرات السنين، وتركت عشرات الالاف من اليتامى والأيامى والمشوهين الذين فقدوا العائل والكافل والة العمل، فاشملوهم بالرعاية حتى ينسى اليتيم المشوه أنه عالة عليكم، وامسحوا على أحزانهم بيد العطف والحنان، فإنهم أبناؤكم وإخوانكم وعشيرتكم.

يا إخواني: إنكم خارجون من ثورة التهمت الأخضر واليابس، وإنكم اشتريتم حريتكم بالثمن الغالي، وقدمتم في سبيلها من الضحايا ما لم يقدمه شعب من شعوب الأرض قديماً ولا حديثاً، وحزتم من إعجاب العالم بكم ما لم يحزه شعب ثائر، فاحذروا أن يركبكم الغرور ويستزلكم الشيطان، فتشوهوا بسوء تدبيركم محاسن هذه الثورة أو تقضوا على السمة العاطرة.

إن حكومتكم الفتية منكم، تلقت تركة مثقلة بالتكاليف والتبعات في وقت ضيق لم يجاوز أسابيع، فأعينوها بقوة، وانصحوها فيما يجب النصح فيه بالتي هي أحسن، ولا تقطعوا أوقاتكم في السفاسف والصغائر، وانصرفوا بجميع قواكم إلى الإصلاح والتجديد والبناء والتشييد، ولا تجعلوا للشيطان بينكم وبينها منفذاً يدخل منه، ولا لحظوظ النفس بينكم مدخلاً.

وفقكم الله جميعاً، وأجرى الخير على أيديكم جميعاً، وجمع أيديكم على خدمة الوطن، وقلوبكم على المحبة لأبناء الوطن، وجعلكم متعاونين على البر والتقوى غير متعاونين على الإثم والعدوان.

قال تعالى: {وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ٥٥} [سورة النور:55] .

أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم لي ولكم وهو الغفور الرحيم[1].

18. بيان 16 أفريل 1964م للشيخ البشير الإبراهيمي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ

كتب لي أن أعيش حتى استقلال الجزائر، ويومئذ كنت أستطيع أن أواجه المنية مرتاح الضمير، إذ تراءى لي أني سلمت مشعل الجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام الحق، والنهوض باللغة العربية. ذلك الجهاد الذي كنت أعيش من أجله. إلى الذين أخذوا زمام الحكم في الوطن، ولذلك قررت أن التزم الصمت.

غير أني أشعر أمام خطورة الساعة، وفي هذا اليوم الذي يصادف الذكرى الرابعة والعشرين لوفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس. رحمه الله. أنه يجب عليّ أن أقطع ذلك الصمت، إن وطننا يتدحرج نحو حرب أهلية طاحنة ويتخبط في أزمة روحية لا نظير لها، ويواجه مشاكل اقتصادية عسيرة الحل.

ولكن المسؤولين. فيما يبدو. لا يدركون أن شعبنا يطمح قبل كل شيء إلى الوحدة والسلام والرفاهية، وأن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية، لا من مذاهب أجنبية.

لقد ان للمسؤولين أن يضربوا المثل في النزاهة، وألا يقيموا وزناً إلا للتضحية والكفاءة، وأن تكون المصلحة العامة هي أساس الاعتبار عندهم، وقد ان أن يرجع لكلمة الأخوة. التي ابتذلت. معناها الحق، وأن نعود إلى الشورى التي حرص عليها النبي (ص)، وقد ان أن يحتشد أبناء الجزائر كي يشيدوا جميعاً «مدينة» تسودها العدالة والحرية، «مدينة» تقوم على تقوى من الله ورضوان[2].

* * *

وزار الرئيس أحمد بن بلة الشيخ الإبراهيمي في بيته وقبل رأسه وقال: أعترف أنني تأخرت في زيارتك، على أنك أنت الشيخ الذي بينت لنا الطريق إلى الإسلام والعروبة، وهو طريق سلكناه ولا زلنا نسلكه.

وردَّ الشيخ: إذا كنت حقاً على طريق الإسلام والعروبة سأظل إلى جانبك، لكن إذا حدت عنهما، سأكون لك بالمرصاد[3].

19. وفاة الإمام محمد البشير الإبراهيمي:

في أوائل شهر ماي، تدهورت حالة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الصحية، فجأة، ووافته المنية ببيته يوم ماي 1965م، وأذيع خبر وفاة الإمام عبر أمواج الأثير، وانتشر بسرعة البرق في أرجاء الجزائر، وتوافدات الحشود إلى بيته، وكان من بينهم العقيد هواري بومدين وزير الدفاع، وألقى النظرة الأخيرة على الجثمان الطاهر، فقرأ

---

(1) اثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (305/5، 306، 307، 308).

(2) المصدر السابق (317/5).

(3) مذكرات جزائري، أحمد طالب الإبراهيمي (188/1).

الفاتحة وخاطب الحاضرين، قائلاً: إن رحيل الشيخ البشير الإبراهيمي لا يعد خسارة لأسرته وحدها، فبرحيله تفقد الجزائر، بل والعالم الإسلامي قاطبة، رجلاً كرَّس حياته كلها من أجل عزة الجزائر والإسلام، تغمد الله الفقيد برحمته الواسعة.

ونقلت مراسم الدفن مباشرة في التلفزة، وقطعت الإذاعة الجزائرية ـ الليلة التي سبقت ـ البرنامج المعتاد، وبثت ايات بينات من القران الكريم حداداً على فقدان العالم الرباني والمجاهد الكبير، وأظهرت يومية «الشعب» الرسمية تغطية عن حياة الراحل، ونشرت في عددها الصادر بتاريخ 22 ماي مقالاً بعنوان «الشعب في جنازة الإمام»، مشيرة إلى ذلك التلاحم بين الشعب وأفكار الراحل.

انطلقت الجنازة من الجامع الكبير الذي كان يؤمه الشيخ أحمد سحنون يومئذ، واتجه المشيعون مشياً على الأقدام، نحو مقبرة سيدي أمحمد الكائنة بحي بلكور، وكان هناك ما لا يقل عن مائتي ألف من المواطنين، حسب تقدير الإذاعة الوطنية نفسها، أبوا إلا أن يسيروا في الموكب الجنائزي تعبيراً عما كانوا يكنونه للشيخ من احترام ومحبة، واستغرقت المسيرة زهاء ساعتين لقطع مسافة بضعة كيلومترات.

حضر رفاق بومدين من بينهم: الشريف بلقاسم وزير الإرشاد الوطني، وأحمد مدغري وزير الداخلية، وعبد العزيز بوتفليقة، وسفراء الجزائر المعتمدين في الخارج ممن كان بالجزائر، وحضر الدفن عليه القوم وكبارهم وكان أحمد بن بلة خارج العاصمة.

وكتب فرحات عباس من أدرار فيما بعد: بلغني نبأ وفاة الفقيد الشيخ البشير الإبراهيمي.. إنها شخصية كبيرة ترحل عنا.

إن الشيخ البشير رفيق سجن، بعد حوادث ماي 1945م بالسجن العسكري لقسنطينة، وكان أيضاً أبي الروحي.

وقرأ خطبة التأبين الشيخ محمد خير الدين، أحد الأعضاء السابقين في أول مكتب إداري لجمعية العلماء، القليلين ممن بقوا على قيد الحياة، هو الذي قرأ خطبة التأبين، وتأثر الناس عندما قام أمير شعراء الجزائر محمد العيد ال خليفة يلقي قصيدته التأبينية ذات المستوى الأدبي الرفيع والشحنة العاطفية الكبيرة، لقد أبكى جميع الحاضرين، ولم يستطع هو ذاته التحكم في دموعه وراح يجهش بالبكاء عندما قال:

فسلاماً ولا اقول وداعاً ... أبت النفس أن تراك عديما

عشت فوق الثرى عظيماً ... فأحرى بك أن تسكن السماء عظيما[1]

ـ لقد قال الشيخ العربي التبسي عن الإبراهيمي: إن الإبراهيمي فلتة من فلتات الزمان، وإن العظمة أصل في طبعه، والعظمة الحقيقية في رأيي تكمن في القلب، والحقيقة أن الإبراهيمي كان عظيماً بعقله ووجدانه، بقلبه ولسانه، فكل من تقلب في أعطافه نال من ألطافه، فالقريب والرفيق والسائل والمحروم والمريد والتلميذ ؛ يجد فيه الأب الشفيق والأخ الصديق، الذي لا يبخل بجهده وجاهه وماله ـ وإن قلّ ـ لتفريج الكروب وتهوين

---

(1) المصدر نفسه ص 219.

الخطوب، وما تقربتَ منه إلا ملك قلبك بحلمه وغمر نفسك بكرمه، قبل أن يشغل عقلك بعلمه ويسحر لبَّك بقلمه، وكانت الخصال البارزة فيه: الإيثار والحلم والوفاء(1).

ـ وقال الأستاذ أحمد توفيق المدني ـ رحمه الله ـ عندما تبوأ كرسيه في مجمع اللغة العربية بالقاهرة: فتقدم الإبراهيمي الأمين يحمل الراية باليمين، لا يأبه للمكائد ولا للسجون، ولا يبالي بالمنافي في الفيافي، بل دخل المعمعة بقلب أسد وفكر أسدّ، ووضع في ميزان القوى المتشاكسة يومئذ تلك الصفات التي أودعها الله فيه:

ـ علماً غزيراً فيَّاضاً متعدد النواحي، عميق الجذور.

ـ واطلاعاً واسعاً عريضاً، يُخيل إليك أن معلومات الدنيا قد جمعت عنده.

ـ وحافظة نادرة عزَّ نظيرها.

ـ وذاكرة مرنة طيِّعة جعلت صاحبها أشبه ما يكون بالعقل «الأليكتروني».

كدائرة معارف جامعة سهلة التناول من علوم الدين التي بلغ فيها مرتبة الاجتهاد بحق، إلى علوم الدنيا مهما تباينت واختلفت، إلى شتى أنواع الأدبين القديم والحديث بين منظوم ومنثور، إلى تاريخ الرجال والأمم والدول، إلى أفكار الفلاسفة والحكماء من كل عصر ومصر، إلى بدائع الملح والطرائف والنكت، كل ذلك انسجم مع ذكاء وقاد، ونظرات نافذة، تخترق أعماق النفوس وأعماق الأشياء.

وفصاحة في اللسان، وروعة في البيان، وإلمام شامل بلغة العرب لا تخفى عليه منها خافية، وملكة في التعبير مدهشة، جعلته يستطيع معالجة أي موضوع ارتجالاً على البديهة، إما نثراً أو نظماً.

ودراية كاملة بجميع ما في الوطن الجزائري يحدثك حديث العليم الخبير، عن أصول سكانه وقبائله وأنسابه ولهجاته، وعادات كل ناحية منه، وأخلاقها، وتقاليدها وأساطيرها الشعبية وأمثالها، وإمكاناتها الاقتصادية، وثرواتها الطبيعية.

ـ كل ذلك قد توِّج بإيمان صادق، وعزيمة لا تلين، وذهن جبَّار منظَّم، يخطط عن وعي، وينفِّذ عن حكمة، وقوة دائبة على العمل، لا تعرف الكلل والملل.

هذا هو البطل الذي اندفعنا تحت قيادته الموفقة الملهمة نخوض معركة الحياة التي أعادت لشعبنا بعد كفاح طويل لسانه الفصيح، ودينه الصحيح، وقوميته الواعية الهادفة(2).

كان الإبراهيمي ـ طيب الله ثراه ـ يدرك في أعماقه أن الاستقلال اتٍ لا محالة متى هانت التضحيات في سبيله، وكان يدرك أن هذا الاستقلال لن يكون سوى مرحلة في صراعنا الحضاري ضد قوى الاستعمار في مختلف أشكاله، أي أن أبناء الجزائر مطالبون بالإبقاء على الجذوة الروحية حية في صدورهم، لأنها تعطي لحياتهم معنى،

(1) اثار الإمام محمد البشير (17/1).

(2) المصدر نفسه (17/1).

وتجعل لوجودهم عنواناً، وكان يحلم بذلك المجتمع الذي يضمن لأبنائه العفاف والكفاف، ويجمع بين الأصالة والمعاصرة، ويعتز بمقوماته الشخصية الوطنية وأخذ سبيل العلم على مدارج الرقي والتقدم[1].

. رحم الله شهداء الجزائر وعلماءها وقادتها وأبطالها ومن ناصرهم وازرهم وحمل رسالتهم المقدسة في تحرير الشعوب.

. رحم الله كل من رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وحقوقه وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل، وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

. رحم الله قوافل الشهداء، وتقبل الله الأثمان الغالية من مهج وجوع وخوف ومال قدموها في سبيل الله عز وجل.

. رحم الله أولئك الأحرار الذين سطَّروا ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير، وعلَّموا الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة، لأن ذلك من سنن الله:

{فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }.

«واخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

* *

الخلاصة

1 . تولى الإمام محمد البشير الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء بعد وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس.

2 . يعتبر بيت الإبراهيمي من البيوتات التي حفظت العلوم وتوارثتها، وظهر فيها العلماء ونشروا الفقه والمعرفة والتراث في الجزائر.

3 . نشأ الإبراهيمي في بيت والده كما ينشأ أبناء بيوت العلم، وبدأ في التعليم وحفظ القران الكريم في الثالثة من عمره، ولما بلغ سبع سنين استلمه عمه من معلّمي القران وتولى تربيته وتعليمه بنفسه، فكان لا يفارقه لحظة حتى في ساعات النوم، فكان عمه هو الذي يأمره بالنوم وهو الذي يوقظه.

4 . تصدّر للتدريس بعدما شهد له العلماء برسوخه ونبوغه وتميزه واطلاعه الواسع.

5 . سافر الإبراهيمي إلى عدة دول طالباً للعلم ومعلماً، مصر، المدينة، سوريا.

6 . في المدينة المنورة كان لقاؤه مع الشيخ ابن باديس لقاءً تاريخياً، وضعوا الخطط والمناهج والوسائل لإعداد جيل يحمل رسالة الإسلام وقيم الحرية والعدالة وحقوق الإنسان، ويعمل على التحرر من الاستعمار.

---

(1) المصدر نفسه.

7 .كانت جهود ابن باديس العلمية والتربوية ومساندة العلماء له مؤثرة في حياة الشعب الجزائري، واستطاع ابن باديس تنظيم عمله الدعوي والتعليمي والإرشادي من خلال جمعية العلماء المسلمين، وأصبحت أعمال العلماء منظمة ومدروسة وواضحة الأهداف والمقاصد.

8 . تولى الإبراهيمي قيادة جمعية العلماء بعد وفاة ابن باديس، وشرع في مهامه بعد خروجه من المنفى.

9 . من أهم صفات الإبراهيمي، علمه وفقهه وحماسته، والروح التجديدية، ومصلح كبير، ومفكر عظيم، ومجتهد شجاع، ومبدع متألق، وبليغ وأديب وخطيب، وزهده وإخلاصه، وإنسانيته الرفيعة.

10 .كانت أهم أعماله بعد ما تولى قيادة جمعية العلماء بناء معهد الإمام عبد الحميد بن باديس، وتطويره بعد إنشائه بسنوات قليلة، وكان له أثر في تخريج كوادر متميزة عملت لنشر الدعوة وانخرطت في الثورة فيما بعد.

11 . توسعت الجمعية في عهد الإبراهيمي في بناء المساجد والمدارس ودعم الأنشطة الخيرية والشبابية وإرسال الدعاة إلى المشرق للدراسة، وتوسع المجلس الإداري للجمعية وتمّ تنقيح القانون الأساسي.

12 . مقومات الفكر الإصلاحي عند الشيخ محمد البشير الإبراهيمي واهتماماته الاجتماعية، الإسلام والعروبة، والإسلام دين التحرر العام، ربط الإسلام بالعروبة، واهتم بالتحرر وتوحيد جهود الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، وكان خطابه توحيدياً فيما يتعلق بتوحيد الشمال الإفريقي والعرب والمسلمين، وتحدث عن داء الأمة وعوامل الانقسام، وأسباب الوحدة في قراءة تاريخية سننية متميزة، وأوضح بداية تفرق المسلمين في تلك الدراسة، وظهور المذاهب الفقهية والتعصب لها، وبروز المذاهب الكلامية، واهتم بالتوعية والتربية وتنوير الشعب من خلال خطابه وخطاب جمعية العلماء الفكري والعلمي والمقاصدي، واهتم بتقوية العمل الجماعي وتطويره من خلال الجمعيات والمدارس والنوادي والمساجد والكشافة، واهتم بتربية الشباب وتكوينهم علمياً وخلقياً، وعمل على إعداد جيل من الشباب يحمل رأية الحرية والاستقلال، واهتم بالمرأة والزواج والطلاق.

13 . طوّف الشيخ الإبراهيمي في كتاباته وخطاباته ومحاضراته في مواضيع شتى، تناولت السياسة والتربية والنفس والاجتماع والأخلاق والتاريخ، ولم

يخل موضوع منها إلا وفيه إشارة إلى الماضي القريب والبعيد، يستمد منه الخبرة، ويستخلص منه العظة، ويتخذ منه مدداً لثورته على المستعمر وفضح مكايدة وردّ أحقاده وأطماعه.

14 .كان على دراية واسعة واطلاع كبير بتاريخ الإسلام، والاستعمار الروماني وأحوال المغرب العربي وتاريخ الجزائر.

15 . من ملامح منهج الإبراهيمي في تناول قضايا التاريخ: تاريخ أمة متصل الحلقات، الاهتمام بالأحداث الكبرى، ويرى بأهمية الوثائق والأدوات المعرفية، وكان يركز على التاريخ الجامع للمشرق والمغرب، ويستنبط السنن التاريخية ويعمل على ربطها بواقعنا المعاصر، وكان معنياً بأسباب الصعود والنزول.

16 . يعتبر الإبراهيمي مناضلاً سياسياً ومكافحاً للاستعمار من الطراز الأول، ومجاهداً في سبيل الله أولاً وأخيراً. ومع دخول فرنسا الحرب العالمية الثانية رفضت جمعية العلماء تأييدها لفرنسا أو التعاطف معها، وكان ردّ فعل فرنسا التضييق على جمعية العلماء، وأمرت الإبراهيمي بتوقيف دروسه ومحاضراته، وتقرر نفيه إلى مدينة افلو الصحراوية في 10 أفريل من عام 1940م.

17 . بعد خروجه من السجن كانت حركته اتسمت بالنشاط والانتشار والتواصل مع العلماء والأعيان والساسة والعمل على توحيد الجبهة الداخلية ضد الاحتلال.

18 . وفي شهر جانفي من عام 1943م، اتفق قادة الحركات الوطنية في الجزائر أن يعقدوا اجتماعاً مشتركاً بقصد تكوين تحالف بين الحركات السياسية في الجزائر وتحديد المطالب السياسية للجزائر، وحضر الاجتماع التأسيسي لهذا التحالف الدكتور بن جلول وفرحات عباس وأحمد توفيق المدني من جمعية العلماء.

19 . بعد انتهاء الحرب قررت جمعية العلماء يوم 6 ماي 1945م توسيع نشاطاتها السياسية والثقافية إلى بقية دول المغرب العربي، فأرسلت وفداً إلى تونس، واخر إلى المغرب الأقصى، وذلك بقصد توحيد العمل على مستوى أقطار المغرب العربي.

20 . الثامن من ماي 1945م، مرحلة أساسية في الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري، فقد تعرض الجزائريون لإبادة جماعية دشنتها فرنسا الاستعمارية ضد مظاهرات الشعب السلمية، معلنة أن زمن العبودية قد ولّ وأن عصراً جديداً قد أطل في أفق الجزائر، فاستخدم العدو كل الأسلحة البرية والطائرات والبوارج الحربية ونسفوا المباني وأحرقوا المشاتي وقتلوا 45 ألف شهيداً في ضحايا الأسبوع الدموي واعتقلوا زعماء الحركة الوطنية والألوف من المواطنين.

21 . اقتنع الشعب الجزائري أن طريق النضال السلمي للوصول للحقوق أصبح مسدوداً ومغلقاً، ولا طريق للحرية ونيل حقوقهم المسلوبة إلا بالسلاح والسلاح وحده، وبذلك أصبحت دعوة الكفاح المسلح تجد سبيلها في أوساط شباب ما بعد الحرب العالمية الثانية، واقتنع الشعب بأن الحرية لا توهب ولا تهدى ولكن تنتزع انتزاعاً من الطغاة المستعمرين، وتروى شجرتها الزكية بدماء الأحرار.

22 .كان العمل السياسي ما بين 1945م إلى 1954م يلاقي صعوبات وعوائق من قبل المستعمر، الذي أظهر حرصه على استغلال واستعباد الشعب الجزائري وقمعه بالحديد والنار وتكبيله بالقوانين الجائرة.

23 . لم تستطع الأحزاب في تلك الفترة أن تتوحد في مشروع وطني واحد وجامع، ونقد الإبراهيمي الساسة وأحزابهم في مقالات قوية ومؤثرة.

24 . استمر الإمام الإبراهيمي في توجيه الشعب ونقده لسياسة الاستعمار الثقافية والسياسية والاجتماعية والقمعية، وكتب رسائل مفتوحة إلى الفرنسيين ورئيس الجمهورية الفرنسية قال فيها: تغير الكون وما فيه ولم تتغير الحكومة في نظرتها إلى الدين الإسلامي والمسلمين، فالدين الإسلامي مملوك للحكومة الجزائرية، تحتكر

التصرف في مساجده ورجاله وأوقافه وقضاته.. ولكن بدون جدوى، وكانت رسالة مفصلة عن أعمالهم البشعة وتجهيلهم للشعب.

25 . باءت الحوارات والمساعي السلمية للحصول على حقوق الشعب الجزائري من فرنسا بالفشل الذريع، فأعلن الإمام الإبراهيمي رأيه للشعب ووجه إليه خطابه الشهير المسمى «الكلمة الأخيرة» دعا فيه لتوحيد الصفوف ومكاشفة الشعب بالحقيقة بأن الاستعمار لن يعطيكم حقوقكم.

26 . خرج الإبراهيمي عام 1952م إلى المشرق لتوسيع نشاطه العلمي والحصول على فرص دراسية من الدول العربية للطلبة الجزائريين، وكان من أهدافه تعريف الشرق العربي بالمغرب العربي وطلب العون المادي والمعنوي، من دول وشعوب المشرق حتى تستطيع الجمعية الاستمرار في عملها العظيم، وهو إنقاذ الجزائر العربية من البربرة والاستعجام، وقطع الطريق على الاستعمار الفرنسي ومقاصده السيئة التي بيتها للجزائر.

27 . لقد تركت رحلته إلى المشرق اثاراً سياسية وفكرية وثقافية، وألقى محاضرات وكتب مقالات في التاريخ الجزائري الحديث والفكر الإسلامي المستنير، وزار السعودية ومصر والعراق والشام.

28 . اهتم الإبراهيمي بقضايا العالم الإسلامي والعربي، وكان له اهتمام بقضية ليبيا وفلسطين وغيرها، وتحدث عن ليبيا، وعن موقعها من الجزائر، وقوافل الحجيج والرّحالة، وعلاقة الأخوة، وجهاد الليبيين وما يراد بها، وعن استقلالها والأثمان الغالية التي قدمها الليبيون للتخلص من المستعمر ونيل استقلالهم، وساند ودعم وأيد القضية الفلسطينية بكل ما يملك، ولمصر مكانة خاصة عند الإبراهيمي.

29 . للشعب الجزائري نضال كبير وكفاح مرير وجهاد عظيم توارثته الأجيال، منذ دخول المحتلين الفرنسيين إلى بلادهم، وأصبحت الأجيال تسلم راية الجهاد لبعضها على التوالي، وكان جهاد الشعب الجزائري شاملاً وعظيماً.

30 .كان ابن باديس في استراتيجيته هو وعلماء الجمعية يرون لا بد من العمل للاستقلال عن طريق الجهاد والإعداد الشامل لمواجهة المحتل، من تربية عقائدية، وتنوير للعقول، وتوحيد للصفوف والتحقيق العاقل..الخ

31 . استعمل عبد الحميد بن باديس في العديد من مواضيع شعره ونثره، كلمات وعبارات تحمل دلالات ثورية وتحررية استعملها من أجل بث الحماسة في نفوس الشعب الجزائري، ومن أشهر قصائده الدالة على الفكر الثوري التحرري التي ترنم بها الشعب الجزائري قوله:

شعب الجزائر مسلم — وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله — أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له — رام المحال من الطلب
يا نشء يا ذخر الجزائر — في الشدائد والكرب
يا نشء أنت «رجاؤنا» — وبك «الصباح» قد اقترب
خذ للحياة سلاحها — وخض الخطوب ولا تَهَبْ

32 .كان لابن باديس وجمعية العلماء دور كبير في قيادة الأمة الجزائرية وصياغة مقومات الشخصية الجزائرية، التي ساعدت في إيجاد أرضية فكرية وعقائدية ساهمت في إنجاح ثورة نوفمبر 1954م.

33 . ساهمت عوامل عدة في اندلاع ثورة نوفمبر من أهمها، اثار أحداث 1945م، كان القمع الوحشي الفرنسي للشعب مضجراً لروح المقاومة لدى المواطنين، بل كانت تلك الأحداث مرحلة جديدة أعيد من خلالها النظر في وسائل العمل والكفاح للمرحلة المقبلة، واستنتج الجزائريون أن الاستعمار الفرنسي لن يقتنع من الجزائر إلا بالقوة.

34 . إن حزب الشعب الجزائري استخلص الدرس من أحداث 1945م، وشرع في تنظيم «المنظمة الخاصة أو السرية» لإعداد العدة للشروع في الكفاح المسلح.

35 . في يوم 25 جوان 1954م اجتمع الأعضاء 22 من الثوريين الذين قرروا الانتقال إلى العمل المسلح.

36 . يعتبر بيان 1 نوفمبر 1954م مرحلة جديدة في تاريخ الجزائر، فقد حدد الأهداف المسطرة للثورة الجزائرية بلغة واضحة لا يشوبها أي إبهام، ولا تقبل

أي تأويل أو تضليل، حيث يقول بأن الهدف من قيامها هو تحقيق الاستقلال الوطني.

37 . علاقة الثورة بالجهاد، نظر علماء الجزائر وعلى رأسهم الإبراهيمي بأن ثورة الجزائر ضد الاستعمار هي جهاد شرعي بالمفهوم الإسلامي.

38 . توحد الجزائريون بالرغم من اختلاف أحزابهم، وقاموا بتأييد الثورة منذ البداية، وضحوا بكل ما يمتلكون من أجل نجاح ثورتهم.

39 .كانت ردة فعل الحكومة الفرنسية عنيفاً، واستخدمت وسائل القمع من قتل وسجن وتشريد وهتك للأعراض واستيلاء على أملاك الناس..الخ للقضاء على الثورة.

40 . فشلت الإصلاحات الإدارية والسياسية المزيفة لإقناع الشعب بمصداقية فرنسا في توجهاتها الجديدة.

41 .كان الإمام محمد البشير أول مؤيد للثورة الجزائرية من الشخصيات العامة.

42 . اقترح الشيخ الإبراهيمي على شيخ الجامع الأزهر يوم 12 نوفمبر 1954م أن يدعو إلى الجهاد ضد فرنسا.

43 . ما قدمه الإبراهيمي من دعم معنوي وبيانات مؤيدة، شكلت دعماً قوياً للمجاهدين ونفخت في الثورة روحاً وهي في أوهن مراحلها، حيث أخرجت الشعب الجزائري من التردد والحيرة اللذين كان يمكن أن يُصاب بهما، لجهله بمصدر الثورة وتوجهها، فبيانات الإمام الإبراهيمي شهادة للشعب الجزائري على شرعية المولود ـ الثورة ـ وصحته.

44 . إن الحقيقة التاريخية تقول إن جمعية العلماء برئيسها كانت متقدمة على غيرها في احتضانها لجهاد الشعب الجزائري.

45 . إن بيانات الإمام الإبراهيمي المتتالية المؤيدة للثورة الداعية إلى تأييدها دون تردد، كانت مدداً إلهياً لها في أول عهدها وفي مرحلة ضعفها.

46 . أيّد أعضاء المجلس الإداري للجمعية اجتماع 1 نوفمبر 1954م وقرر المجلس مساندة الثورة دون تحفظ كما بعث الأمين العام رسالة إلى الرئيس بالقاهرة يبلغه بأمر الثورة ويدعوه إلى تأييدها.

47 . الشيخ العربي التبسي «الشهيد» ومزهودي إبراهيم وغيرهم من العلماء التابعين لجمعية علماء المسلمين قاموا بجهود عظيمة، ومؤثرة ومركزة ومشكورة في دعم الثورة.

48 . إن الذين فجروا الثورة في 1 نوفمبر 1954م هم مجموعة صغيرة من مناضلي الحركة من أجل الانتصار للحريات الديمقراطية، فهذه حقيقة تاريخية واحتضنها الشعب، وكان لعلماء الجزائر وخصوصاً جمعية العلماء الأثر الفكري والعقدي والإسلامي في تفجير طاقات الشعب الكامنة وأشواقه للحرية والاستقلال والسيادة.

49 . أدّى تأييد ومشاركة العلماء المسلمين للثورة إلى نتائج مهمة منها، تحول موازين القوى، وساهموا في الجانب القضائي، وأصبح رجال الجمعية في وسط المعركة، وأطّروا المنظمات الشعبية، ودعموا الإعلام الثوري بخطبهم ومقالاتهم ومحاضراتهم وأقلامهم، وساهموا في ضمانات الاتصالات بين هياكل جبهة وجيش التحرير، وكانت مؤسسات الجمعية معاهد، ومدارس، ومكاتب، وإدارات..الخ تقوم بدورها لصالح الثورة. وكان الإبراهيمي يقول قبل اندلاع الثورة: إن هذه المؤسسات ستحتاج إليها الأمة في يوم من الأيام لمهمات فوق ما تتصوره الان، وفعلاً فإن ذلك ما حدث، وساهم قادة جمعية العلماء المسلمين في الدعم الدبلوماسي والمالي والسياسي والتعليمي والتربوي للثورة.

50 . إن إنطلاقة أول نوفمبر الثورية كانت عملية حاسمة في تاريخ الجزائر، فقد استفاد قادة الثورة من تجارب الأجداد في القيام بثورات شعبية في مناطق متعددة، واستخرجوا منها الدروس والعبر، وانطلقت الثورة في عدة أماكن واعتمد الثوار أسلوب حرب العصابات الحديثة.

51 . استطاعت جبهة التحرير الجزائرية أن توحد جهود الأحزاب والمنظمات والنقابات...الخ في جبهة عريضة داعمة للثورة متحدية للغزاة.

52 . العلم الجزائري يعبر عن تاريخها وحاضرها ومستقبلها، ويذكر بتضحيات الأبطال ومآسي الأبرياء، ويرمز إلى عبقرية العلماء ورجال الفكر، ويشد كل المواطنين الذين يعملون تحت ظله، فهو الشعار الذي يؤكد قوة الوطن خارج التراب الإقليمي في البحار والأقطار الأجنبية على صواري السفن وشرفات السفارات

. ويرمز اللون الأخضر للأمل.

. واللون الأبيض للسلم.

. والهلال يذكر بالإسلام.

. والنجمة قواعد الإسلام الخمسة.

. واللون الأحمر للتضحية.

53 . مفدي زكريا لقب بشاعر الثورة، وترك قصائد ملهمة للحس النضالي الشعبي، وهو صاحب النشيد الوطني الجزائري، من أشهر دواوينه «اللهب المقدس».

54 . اشتدت المعارك ضد الاحتلال الفرنسي، ومن أشهر هجومات الثوار ضد الغزاة هجوم 20 أوت 1955م وكان له نتائج سياسية وعسكرية داخلية وخارجية لصالح الثورة.

55 . لقد أصيب المسؤولون الفرنسيون أنفسهم بالذهول والقلق وخيبة الأمل بسبب ما لحق بالقوات العسكرية والمدنية من خسائر وأضرار مادية وبشرية.

56 . عززت فرنسا قواتها بالجزائر وضاعفت أساليبها القمعية ضد الشعب الجزائري.

57 . بعد مرور حوالي سنتين على اندلا ع الثورة وتمكنها من أن تتوسع توسعاً قوياً، وبات من الضروري تحديد استراتيجية سياسية عسكرية عامة لجبهة التحرير الوطني، كان مؤتمر الصومام لوضع تنظيم سياسي وإداري وعسكري يعبر عن امال الشعب وطموحاته.

58 . بعد مؤتمر الصومام تطور الأداء الثوري بعد تنظيم الجوانب العسكرية والإدارية والسياسية والتشريعية والتنفيذية، وأصبحت جبهة التحرير هي القوة السياسية الوطنية الوحيدة التي التف حولها الشعب الجزائري لتحرير الجزائر من قوات الاحتلال الفرنسي، وأصبحت جبهة التحرير قوية وممثلة لامال وطموحات الشعب.

59 . استخدمت فرنسا كافة الوسائل البشعة للتصدي للثورة، وصنعت جيوب وقادة تابعين لها من الخونة ودعمتهم بالمال والسلاح، وساهمت في سفك الدماء بين أبناء الشعب، ولكن حركات الخيانة باءت بالفشل بتوفيق من الله ثم صمود وثبات ووحدة جبهة التحرير.

60 . لقد تفنن الاستعمار الفرنسي في تعذيب الجزائريين طوال سنوات الثورة السبعة، وهذا التعذيب استمرار لمنهجهم القمعي منذ الاحتلال، وكانت سياسة فرنسا ضد الثوار والشعب قاسية جداً وطاغية وشرسة ومدمرة، ولكن قادة جبهة التحرير مع الدعم الشعبي الكبير أفشل خطتهم وأربكهم وولد لهم مشاكل سياسية واقتصادية وهزائم عسكرية.

61 . أبدع قادة الثورة في تطوير قوتهم العسكرية وتواصلهم الإقليمي والدولي، وتنظيم الجانب الإداري والاستفادة من الطاقات الكامنة في الشعب وتوجيهها لخدمة المشروع العام المتمثل في تحقيق الاستقلال.

62 . ساهمت التشكيلات الاجتماعية المنظمة من قبل جبهة التحرير الوطني في نجاح إضراب الأيام الثمانية، فقد استطاعت قيادة جبهة التحرير أن تصدر توجيهاتها إلى لجان المناطق والنواحي والأقسام، وإلى المسؤولين المحليين للمدن والقرى وأعلمت المسؤولين السياسيين والعسكريين، بأنه أثناء الأسبوع المقبل وبالتحديد أثناء مناقشة القضية الجزائرية في الجمعية العامة للأمم المتحدة أن ينطلق الإضراب بكفاية تنظيمية عالية فوق كامل التراب الوطني، والهدف الأساسي لهذا الإضراب هو إظهار تعلق المواطنين الثابت واللامشروط وبصورة واضحة، بجبهة التحرير الوطني وبرنامجها.

63 . نظمت جبهة التحرير هياكل التموين ومهامها وكيفية وصولها للثوار، ومصادر تموينها وتخزين ما تراه مناسباً للغذاء الأساسي للثوار وشبكة توزيعها.

64 . جندت جبهة التحرير الوطني عدداً هاماً من الأطباء والممرضين رجالاً ونساءً، ووزعتهم على مختلف مناطق الولايات ونواحيها وأقسامها، لعلاج المرضى والجرحى وتدبير الأدوية والأدوات الطبية اللازمة للعلاج. وقد تطور هذا الجهاز الصحي للثورة بمرور الزمن، عدة وعدداً ونجاعة، وأفاد الثورة والمجاهدين وتوسع عمله وامتد إلى خارج الجزائر في تونس والمغرب وبلدان شرق أوروبا.

65 . وضع قادة وجيش جبهة التحرير الوطني جهازاً أمنياً قوياً لضبطه وتنظيمه ودعمه، والحفاظ على سلامة المواطنين والمجاهدين، ومراقبة تحركات العدو وترصد خططه العدوانية الغادرة وترصد أعوانه وأذنابه.

66 . كان للمرأة الجزائرية دور رائد في هذه الثورة وعلى مستوى الجزائر كلها، وقاسمت الرجل المجاهد كل أعماله وأتعابه ومشاقه المدنية والعسكرية والسياسية، وتولت الطهي والإطعام والإيواء للمجاهدين وباشرت عملاً أمنياً، كنقل الأخبار وترصد حركات العدو وإيصال الرسائل والمعلومات وتولت التمريض وعلاج المرضى وحملت السلاح وشاركت في المعارك.

67 . استمر العلاّمة محمد البشير الإبراهيمي في مقالاته وتوجيهاته الحماسية للشعب الجزائري، فكتب الكثير من المقالات، وسافر وجمع المال لدعم الثورة، وجلب لها الدعم المعنوي والمادي. ومن كلماته التي ألقيت بإذاعة صوت العرب بالقاهرة 1955م جاء فيها: إن الإسلام والاستعمار ضدان لا يلتقيان في مبدأ ولا في غاية، فالإسلام دين الحرية والتحرير، والاستعمار دين العبودية والاستعباد.

68 . كان من الطبيعي تفاعل الشعوب العربية والإسلامية مع الشعب الجزائري والوقوف معه في ثورته المباركة، وكان الدعم على المستوى الشعبي والحكومات، وكان لدول الجوار القدح المعلى في الدعم، المغرب الأقصى، وتونس، وليبيا، وكذلك بقية الدول العربية مصر، والسعودية، والكويت، وقطر، والعراق، وسوريا، والأردن، والسودان..الخ

69 . كما كان للصين دور مهم في دعم الثورة الجزائرية، بعكس الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، ومن الدول التي ساندت الشعب الجزائري في جهاده، أندونسيا، كوريا الشمالية، فيتنام، والهند، وماليزيا، وتركيا، وغانا، ويوغسلافيا.

70 . كانت هناك مواقف متميزة وعظيمة لملوك وزعماء من العالم في مساندة الثورة الجزائرية:

. الرئيس جمال عبد الناصر مصر

. الملك سعود بن عبد العزيز والملك فيصل السعودية

. الملك إدريس السنوسي ليبيا

. الملك محمد الخامس المغرب الأقصى

. الرئيس تيتو يوغسلافيا

. الزعيم ماو تسي تونغ الصين

. القائد الفيتنامي هوشي منه فيتنام وغيرهم.

71. كان يوم 19 سبتمبر 1958م هو يوم إعلان الحكومة المؤقتة الجزائرية، وهي مرحلة جديدة في النضال والكفاح، وتشكلت ثلاث حكومات مؤقتة إلى ما قبل إعلان الاستقلال وقامت بجهود متميزة لدعم الثورة.

72. طوّرت الحكومة المؤقتة أجهزتها التنفيذية بما يلائم وينسجم مع المرحلة وخصوصاً وزارة القوات المسلحة، والداخلية والخارجية، والتسليح والاتصالات العامة.

73. حدث تحالف بين أحمد بن بلة ورئيس الأركان هواري بومدين بدعم من مصر، لتولي السلطة بدلاً من الحكومة المؤقتة.

74. اضطرت فرنسا بعد الخسائر الاقتصادية والعسكرية وسقوط حكوماتها بسبب الثورة الجزائرية أن تدخل في مفاوضات مع الحكومة المؤقتة في عهد الجنرال ديغول، وكانت شاقة وعنيفة ومرت بمراحل صعبة انتهت بحق الشعب الجزائري في تقرير المصير واتفاقيات إيفيان.

75. ألقى يوسف بن خدّة رئيس الحكومة للشعب الجزائري مساء يوم 18 مارس 1962م من إذاعة تونس خطاباً تاريخياً لإعلام الشعب بنتيجة الانتخابات وبالاتفاق الذي تمّ مع فرنسا.

76. سعت الحكومتان الفرنسية والجزائرية، لتطبيق توقيف القتال وتهيئة الظروف لإجراء استفتاء تقرير المصير.

77. يوم 8 جوان 1962م تدخل الرئيس ديغول بخطاب موجه إلى الشعب الفرنسي وإلى الشعب الجزائري يقول فيه على الخصوص: بعد 23 يوماً سيصادق الشعب الجزائري من خلال الاستفتاء على اتفاقيات إيفيان، وسيرسم الاستقلال والتعاون مع فرنسا، كما فعل الشعب الفرنسي عن طريق استفتاء 8 افريل 1962م، فهكذا تجاوزاً لكل الأزمات ولكل المشاعر الحماسية ستفتح مرحلة جديدة من العلاقات بين الجزائر وفرنسا وسيفتح فصل جديد لانتصارهما وذلك نتيجة لقرار حر واتفاق معقول بين الشعبين.

78. صوّتت الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري على الاستقلال، ووقع على هذه النتائج أعضاء اللجنة الوطنية للمراقبة، وأعلنت النتائج الرسمية يوم 3 جويلية 1962م. وفي اليوم نفسه وجه الرئيس ديغول رسالة إلى رئيس الهيئة التنفيذية عبد الرحمن فارس، وذلك بواسطة المحافظ السامي، وأكدت هذه الرسالة: أن فرنسا سجلت نتائج استفتاء أول جويلية 1962م وتطبيق تصريحات 19 مارس 1962م فاعترفت باستقلال الجزائر. وتضيف هذه الرسالة أن الصلاحيات المتعلقة بالسيادة في الجزائر حولت منذ اليوم إلى الهيئة التنفيذية المؤقتة بالجزائر.

79. في يوم 3 جويلية 1962م أنزل العلم الفرنسي من طرف جنود فرنسيين في ساحة «بومرداس» ورفع مكانه العلم الجزائري من طرف شاب من الكشافة الجزائرية الإسلامية ومجاهد من المجاهدين.

80 . توجه رئيس الحكومة المؤقتة الجزائرية يوسف بن خدة إلى مقر ولاية الجزائر وهو مصحوب بأعضاء من الحكومة المؤقتة وهم: بلقاسم كريم، ومحمد بوضياف، وحسين ايت أحمد، ولخضر بن طوبال، وعبد الحفيظ بوصوف، ومحمد يزيد.

81 . منذ تصريح تلسمان تصرف المكتب السياسي كمركز للسلطة، فتعاملت الهيئة التنفيذية معه بدلاً من الحكومة المؤقتة، والمعلوم أن هيئة الأركان أيدته منذ انتهاء اجتماع المجلس الوطني، وشرعت في حملة انتقاد ضد الحكومة المؤقتة.

82 . تنازل يوسف بن خدة عن صلاحياته كرئيس الحكومة المؤقتة وحولها للمكتب السياسي.

83 . عُقد اجتماع في بوسعادة يوم 27 أوت 1962م فأخذ القرار لدخول العاصمة، حضر الاجتماع أحمد بن بلة ومحمد خيضر، وسعيد محمدي، والحاج محمد بن علا، وأعضاء هيئة الأركان العامة هواري بومدين، وعلي منجلي وأحمد قايد والشريف بلقاسم وغيرهم.

84 . وقعت اشتباكات بين الوحدات في عدد من الأماكن وتظاهر سكان المناطق لوقف الزحف، وفي بعض الأحيان تمددوا على الطريق لمنع الاشتباكات، وتدخل الوسطاء بين الطرفين وفتحت الطريق أمام وحدات الجيش وعلى قبول مبدأ تحوير جيش التحرير الوطني، وعلى المشاركة في تحضير قوائم المرشحين للانتخابات التشريعية.

85 . بعد هذا الاتفاق تسارعت الأحداث واستقر أحمد بن بلة يوم 4 سبتمبر 1962م بالعاصمة وهو مرفوق بالمكتب السياسي الذي نظم أموره داخل العاصمة.

86 . وتمّ تنظيم الانتخابات وقدّم المكتب السياسي 196 مترشحاً، وحصلت القوائم على قبول أغلبية الناخبين.

87 . يوم 20 سبتمبر 1962م جرت الانتخابات في ظروف حسنة لأن الشعب الجزائري فضّل الرجوع إلى مؤسسات تخدم الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي خلّفها الاستعمار وسبعة أعوام ونصف من الحرب.

88 . اجتمع المجلس التأسيسي يوم 25 سبتمبر 1962م فانتخب فرحات عباس رئيساً له.

89 . يوم 28 سبتمبر 1962م انتخب أحمد بن بلة رئيساً للحكومة فشكلها وقدم برنامجها فصادق عليه المجلس.

90 . راعى رئيس الحكومة في التشكيلة التوازن الجهوي وإرضاء المكتب السياسي وهيئة الأركان العامة وتمثيل تشكيلات قديمة كحزب فرحات عباس «من خلال أحمد بومنجل وأحمد فرانسيس» وجمعية العلماء المسلمين «من خلال أحمد توفيق المدني» فهنا يبتدأئ تاريخ جديد.

91 . لقد ساند الشعب مساندة مطلقة الكفاح المسلح لاسترداد الحرية والكرامة، وتحقيق الاستقلال، ولقد نجحت الثورة بفضل الله ثم وعي الجماهير، والأخذ بفقه النضال والكفاح والجهاد لتحقيق المقاصد والامال والأهداف المشتركة للمواطنين.

92 . لقد ساهمت تعاليم الإسلام في الدفع المعنوي والزاد الروحي لتحقيق هذا الفوز العظيم.

93 . خطب الأستاذ الإمام محمد البشير الإبراهيمي يوم الجمعة 5 جمادى الثانية 1382هـ الموافق الثاني من نوفمبر 1962م في مسجد كتشاوا بالجزائر العاصمة بحضور أركان الدولة ووفود غفيرة من مختلف الدول الإسلامية.

94 . توفي الإمام محمد البشير الإبراهيمي يوم 20 ماي 1965م وشيّع إلى مثواه الأخير في جنازة مهيبة حضرها عشرات الألوف من أبناء الشعب الجزائري. وقال وزير الدفاع هواري بومدين بعدما ألقى النظرة الأخيرة على جثمانه وقرأ الفاتحة عليه وخاطب الحاضرين قائلاً: إن رحيل الشيخ البشير الإبراهيمي لا يعد خسارة لأسرته وحدها فبرحيله تفقد الجزائر، بل والعالم الإسلامي قاطبة، رجلاً كرّس حياته كلها من أجل عزة الجزائر والإسلام، تغمد الله الفقيد برحمته الواسعة.

95 . رحم الله شهداء الجزائر وعلماءها وقادتها وأبطالها ومن ناصرهم وازرهم وحمل رسالتهم المقدسة في تحرير الشعوب.

. رحم الله كل من رفض الدنيئة في دينه وعرضه وكرامته وإنسانيته، فقاوم الاحتلال الفرنسي جيلاً بعد جيل وتصدى لكل ألوان الظلم بكافة أشكاله وأنواعه وصوره البشعة.

. رحم الله قوافل الشهداء وتقبل الله الأثمان الغالية من مهج وجوع وخوف ومال قدموها في سبيل الله عز وجل.

. رحم الله أولئك الأحرار الذين سطروا ملحمة الجهاد الغالية والكفاح المرير وعلموا الشعوب المتعطشة للحرية بأن إرادة الشعوب تنتصر على إرادة الطغاة لأن ذلك من سنن الله. {فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً }.

96 . إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة جادة لإزاحة الركام عن صفحات بطولية مشرقة من تاريخ شعب عزيز وحبيب الذي قدّم صفحات من نور في طريق الجهاد والكفاح والنضال تستمد منه الشعوب التي تسعى لنيل حريتها الدروس والعبر.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم، أن يتقبل هذه الدراسة، وأن يبارك فيها، وأن يجعلها من الأعمال الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن ينفع بها شعوباً وأمماً تتعرض حقوقها للانتهاكات وتسعى لنيل حريتها وكرامتها وإنسانيتها من وحوش البشر، إن ربي على كل شيء قدير.

«وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»

المصادر والمراجع
لموسوعة كفاح الشعب الجزائري
الأجزاء الثلاثة
(بالترتيب الألفبائي)

1 . أبحاث إسلامية في الفكر والتاريخ، د. نجيب بن خيرة.

2 . ابن باديس الزعيم الروحي، د. محمود قاسم.

3 . ابن باديس حياته واثاره، عمَّار الطالبي.

4 . ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير، محمد بهي سالم.

5 . ابن باديس فارس الإصلاح، د. محمد بهي الدين.

6 . ابن باديس مفسراً، عبد الرحمن حسن سلوداي.

7 . ابن باديس وعروبة الجزائر، محمد الميلي.

8 . ابن عربي عقيدته ومواقف العلماء منه، د. دغش العجمي.

9 . الاتجاهات الوطنية، محمد حسين.

10 . الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، عزيز سامح.

11 . اتفاقيات إيفيان، يوسف بن خدّة.

12 . اثار الإبراهيمي، إشراف ابنه أحمد طالب الإبراهيمي.

13 . أثر العلماء في مشروع النهضة، د. يحيى اليحيى.

14 . أثر دعوة محمد بن عبد الوهاب على الفكر الإسلامي الإصلاحي في الجزائر، عبد الحميد عويس.

15 . أحمد الشقيري زعيماً فلسطينياً ورائداً عربياً، خيرية قاسمية.

16 . أحمد بوشعيب في حديث مع محمد عباس، جريدة الشعب، 30 مارس 1987م.

17 . أخطاء في التاريخ يجب أن تصحح، جمال عبد الهادي.

18 . استراتيجية ابن باديس في تدبر القران، د. محمد زرمان.

19 . الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس أحمد الناصري.

20 . أسد جرجرة، حوار مع المناضل بلقاسم كريم قام به محمد عباس، عدد 26 ديسمبر 1988م.

21 . الإسلام والمذاهب الفلسفة المعاصرة، د. مصطفى حلمي.

22 . إسهام شيوخ معهد عبد الحميد باديس في الثورة الجزائرية، عبد الله مقلاتي.
23 . إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية، خير الدين شترة.
24 . أطوار العلاقات المغربية الثمانية، إبراهيم شحاتة.
25 . أعلام الإصلاح، محمد علي ديوز.
26 . أعلام ومواقف في ذاكرة الأمة، د. عبد الرزاق قسوم.
27 . أعمال الملتقى الدولي، مفدي زكريا شاعر الوحدة، 15، 16 مارس 2006م.
28 . إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، عبد القادر فضل ومحمد الصالح رمضان.
29 . الإمام عبد الحميد بن باديس من خلال مقالات الإمام محمد البشير الإبراهيمي.
30 . الإمام عبد الحميد بن باديس وجهوده في تجديد العقيدة، محمد الدراجي.
31 . الإمام عبد الحميد بن باديس، محمود قاسم..
32 . الإمام عبد القادر الجيلاني، للصلابي.
33 . الإمداد بالسلاح خلال الثورة الجزائرية، د. الطاهر جبلي.
34 . أمير أمراء الجزائر، علج علي باشا.
35 . الأمير عبد القادر الجزائري، بديعة الحسيني.
36 . الأمير عبد القادر رائد الشعر العربي الحديث، د. محمد بشير بويجرة.
37 . الأمير عبد القادر سيرته المجيدة في حقبة من تاريخ الجزائر.
38 . الأمير عبد القادر وبناء الأمة، عبد القادر بو طالب.
39 . أول نوفمبر بداية النهاية، أحسن بومالي.
40 . الإيمان بالقدر، علي محمد الصلابي.
41 . بداية الحكم المغربي للسودان الغربي، لمحمد الغربي.
42 . البداية والنهاية، لابن كثير.
43 . بن بلة يتكلم، السعيد الصافي.
44 . بناة المجد، أحمد مصالي الحاج، جيلاني ضيف.
45 . بناة المجد، توفيق المدني.
46 . بيان فاتح نوفمبر 1954م، ملفات وثائقية رقم 24 نصوص أساسية لجبهة التحرير الوطني الجزائرية 1951. 1963م الجزائر، وزارة الإعلام 1976م.
47 . البيت الباديسي، د. عبد العزيز فيلالي واخرون.
48 . تاريخ أفريقيا الشمالية، جوليان.
49 . التاريخ الأندلسي، عبد الرحمن الحجي، دار ابن كثير.

50. تاريخ الجزائر الحديث، للجيلاني.
51. تاريخ الجزائر الحديث، محمد خير فارس.
52. تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي.
53. تاريخ الجزائر المعاصر، د. محمد الأمين بلغيت.
54. تاريخ الجزائر، للميلي.
55. تاريخ الدول، لابن خلدون.
56. تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون.
57. التاريخ السياسي للجزائر، د. عمار أبو حوش.
58. التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، محمد زاهد عبد الفتاح أبو غدة.
59. تاريخ العرب الحديث، د. حلمي محروس.
60. تاريخ الفتح العربي في ليبيا، الطاهر الزاوي.
61. تاريخ المغرب العربي الحديث، محمود علي عامر.
62. تاريخ المغرب والأندلس من القرن السادس إلى العاشر، مجموعة من الأساتذة.
63. تاريخ المغرب وحضارته، حسين مؤنس.
64. تاريخ المغرب، لمحمد بن عبود.
65. تاريخ جودت، أحمد جودت.
66. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، علي محمد الصلابي، دار ابن كثير.
67. تاريخ عصر النهضة، د. نور الدين حسام.
68. تاريخ ملحمة نشيد قسماً، الأستاذ الأمين بشيشي، الأستاذ عبد الرحمن بن حميدة.
69. تحفة الزائر، محمد باشا.
70. التداول على السلطة التنفيذية، للصلابي.
71. تدريب الراوي شرح تقريب النواوي، لابن حجر.
72. تسهيل المعاني وأدلة خليل.
73. التعريب بين المبدأ والتطبيق، ابن نعمان.
74. تفسير الألوسي روح المعاني، للإمام الألوسي.
75. تفسير الرازي، للإمام الفخر الرازي.
76. تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد القرطبي.
77. تلمسان عبر العصور، محمد الطمار.

78 . التنظيم السياسي والإداري للثورة، د. عقيلة ضيف الله.
79 . ثوار عظماء، محمد عباس.
80 . الثورة الجزائرية في الشعر العراقي، عثمان سعدي.
81 . الثورة الجزائرية في عامها الأول، محمد الزبيري.
82 . الثورة الجزائرية ودور جمعية علماء المسلمين، د. عبد الرحمن بن عمير النعيمي.
83 . الثورة الجزائرية، بو علام بن حمودة.
84 . الثورة الجزائرية، دراسات حول إيدلوجية وتاريخ الثورة، د. رابح لونيسي.
85 . الثورة الجزائرية، مصطفى طلاس.
86 . الثورة في الولاية الثالثة التاريخية، د. يحيى بو عزيز.
87 . جريدة البصائر، من جرائد جمعية علماء المسلمين.
88 . جريدة الشعب، عدد 6473، عمار بن عودة.
89 . جريدة المجاهد، العدد 27 تاريخ 25 فباير 1959م.
90 . الجزائر الثائرة، الفضيل الورتلاني.
91 . الجزائر المعاصرة، صلاح العقاد.
92 . الجزائر في التاريخ، عثمان سعدي.
93 . الجزائر والحملات الصليبية، للعسيلي.
94 . جمال الدين الأفغاني، عبد الرحمن الرافعي.
95 . جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، د. أحمد الخطيب.
96 . جمعية العلماء والثورة التحريرية، محمد بن ساعو.
97 . جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي، عبد الرشيد زروقة.
98 . جهاد الجزائر، د. أحمد بن نعمان.
99 . جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث، نبيل عبد الحي رضوان.
100 . الحاج أحمد باي، د. بو ضرساية بو عزة.
101 . حاشية العدوي.
102 . حاضر العالم الإسلامي، شكيب أرسلان.
103 . حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، أحمد توفيق المدني.
104 . الحركات الاستقلالية في المغرب، علال الفاسي.
105 . حركة ابن باديس التربوية، على علواش.
106 . الحركة الإصلاحية، محمد طهاري.

107 . الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر، خديجة بقطاش.
108 . الحركة السنوسية، علي محمد الصلابي.
109 . الحركة الوطنية، د. أبو القاسم سعد الله.
110 . الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، للمطاري.
111 . الحروب الصليبية في المشرق، لمحمد العمروسي.
112 . الحريات العامة، راشد الغنوشي.
113 . الحرية أو الطوفان، د. حاكم المطيري.
114 . حقائق الأخبار عن دول البحار، إسماعيل سرهنك.
115 . حوار جريدة الحقيقة، أحمد سحنون.
116 . حوار مع الأمير عبد القادر، د. عبد الكريم منصور.
117 . حوار مع حسين زهوان في جريدة الجزائر، بتاريخ 8 سبتمبر 2012م.
118 . الحوليات الجزائرية، محمد إحسان الهندي.
119 . حياة الأمير عبد القادر، مقدمة أبو القاسم سعد الله وترجمته.
120 . حياة كفاح، أحمد توفيق المدني.
121 . الخالدون المائة، مايكل هارت.
122 . خطوات في العمل الإسلامي، أبو جرة سلطاني.
123 . خلاصة تاريخ الأندلس، شكيب أرسلان.
124 . الخلفية الدينية، للتميمي.
125 . الدخول إلى الجزائر، د. محمد دراج.
126 . الدر الثمين والمورد المعين، شرح ابن عاشور لميارة.
127 . درء التعارض، لابن تيمية.
128 . دراسات في تاريخ المغرب الإسلامي، عز الدين عمر.
129 . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، للعبادي أحمد العبادي.
130 . دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ناصر سعيدوني.
131 . الدور الإصلاحي والنشاط السياسي للشيخ البشير الإبراهيمي، د. إبراهيم مهديد.
132 . دور العقيد عميروش في الثورة الجزائرية، شوقي عبد الكريم.
133 . دور جمعية العلماء، صالح فركوس.
134 . الدولة الأموية، علي محمد الصلابي.
135 . الدولة العثمانية دولة إسلامية، عبد العزيز الشناوي.

136 . الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، إسماعيل أحمد.
137 . الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط، جواد العزاوي.
138 . الدولة العثمانية، جمال عبد الهادي.
139 . الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي.
140 . الدولة العثمانية، د. علي حسون.
141 . الدولة العثمانية، د. علي محمد محمد الصلابي، دار المعرفة، لبنان.
142 . ديوان محمد العيد.
143 . الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام أبي الحسن الشنتريني.
144 . الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب.
145 . ردود وتعليقات على كتاب «حياة الأمير»، الأميرة بديعة الحسيني الجزائري.
146 . رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.
147 . رسالة الشرك ومظاهره، مبارك الميلي.
148 . رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان، عبد الجليل التميمي.
149 . الرئيس خروتشوف في ندوة صحفية خلال تواجده في الدورة 15 للأمم المتحدة بنيويورك، المجاهد، العدد 3178، أكتوبر 1960م.
150 . زاد المعاد في هدى خير العباد، لابن القيم.
151 . سقوط غرناطة، د. ناصر العمر.
152 . السلطان محمد الفاتح، عبد السلام عبد العزيز.
153 . السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان.
154 . سنن الترمذي.
155 . سؤال النهضة عند الشيخ عبد الحميد، د. لطيفة عميرة.
156 . السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر، أرجمنت كوران.
157 . السياسة العربية والمواقف الدولية، د. إسماعيل دبش.
158 . السياسة والقضاء عند ابن باديس وابنه حميدة، د. عبد العزيز فيلالي.
159 . سير أعلام النبلاء، للذهبي.
160 . السيرة النبوية، على محمد الصَّلابي.
161 . سيرة خير الدين باشا، عبد القادر عمر.
162 . الشاذلي بن جديد، مذكرات.
163 . شرح زروق على الرسالة.

164 . شرح مقدمة ابن أبي زيد القيرواني، للأمين الحاج.
165 . شروط النهضة، مالك بن نبي.
166 . الشعوب الإسلامية، د. عبد العزيز سليمان.
167 . الشهاب، مجلة تصدر عن جمعية العلماء.
168 . الشوقيات، ديوان أحمد شوقي.
169 . الشيخ البشير الإبراهيمي، إمام في مدرسة الأئمة، محمد عمارة.
170 . الشيخ البشير الإبراهيمي، كما عرفته، محمد فاضل الجمالي، مجلة الثقافة عدد 87 الجزائر 1985م.
171 . الشيخ عبد الحميد بن باديس، السلفية والتجديد، د. محمد الدراجي.
172 . الشيخ عبد الحميد بن باديس، تركي رابح.
173 . الشيخ عبد القادر الجيلاني، د. سعيد القحطاني.
174 . الشيخ عبد القادر، الإمام الزاهد القدوة، د. عبد الرزاق الكيلاني.
175 . الشيخ محمد البشير، بأقلام معاصريه.
176 . الصحف العربية الجزائرية، د. محمد ناصر.
177 . صحيح ابن حبان.
178 . صحيح البخاري بشرح ابن حجر.
179 . صحيح مسلم.
180 . صدى كفاح عمر المختار في الجزائر، ناصر الدين سعيدوني، مجلة البحوث التاريخية.
181 . صراع بين السنة والبدعة، أحمد حماني.
182 . صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، مصطفى بن حليم.
183 . صلاح الدين الأيوبي، علي محمد الصلابي.
184 . صوت الإمام الإبراهيمي في الثورة، أحاديث الإمام عن الثورة في إذاعة صوت العرب، الأستاذ عبد القادر نور.
185 . ضوابط المصلحة، محمد سعيد رمضان البوطي.
186 . عبد الحميد بن باديس بعيون العلماء والأدباء، محمد الدراجي.
187 . عبد الحميد بن باديس واراؤه الفلسفية، د. عبد الحميد درويش النساج.
188 . عبد الحميد بن باديس وجهوده التربوية، مصطفى حميداتو.
189 . عبد الحميد بن باديس، «الشهاب» عدد خاص ج 4 م 14.
190 . عبد الحميد بن باديس، أندري ديرليك.
191 . عبد الحميد بن باديس، بسام العسلي.

192 . عبد الحميد بن باديس، فتحي عثمان.
193 . عبد الحميد بن باديس، مازن مطبقاني.
194 . العقائد الإسلامية لابن باديس، عبد الحميد بن باديس.
195 . العقل المسلم في مرحلة الصراع الفكري، د. عبد الحليم عويس.
196 . العقيدة الإسلامية، د. أحمد جلس.
197 . عقيدة التوحيد، د. سعاد منير.
198 . العلاقات بين الجزائر والمغرب، بن خروف.
199 . العلم الوطني الجزائري، د. محمد لحسن زغيدي.
200 . العلمانية، د. سفر الحوالي.
201 . علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح.
202 . العمال الجزائريون في فرنسا، د. عمار بوحوش.
203 . عوامل النصر والهزيمة، شوقي أبو خليل.
204 . الغنية، للجيلاني.
205 . فارس الجزائر، العماد مصطفى طلاس.
206 . الفتح الرباني، للجيلاني.
207 . فتح العثمانيين عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي.
208 . فتح عدن، محمد عبد اللطيف البحراوي.
209 . الفتوح الإسلامية عبر العصور، د. عبد العزيز العمري.
210 . فتوح الغيب، للجيلاني المقالة السابعة والخمسون.
211 . فتوحات خير الدين، محمد أمين.
212 . فكر الأمير عبد القادر، للأميرة بديعة الحسيني الجزائري.
213 . الفكر السياسي عند الإمام الشيخ عبد الحميد.
214 . الفكر السياسي عند مالك بن نبي، بوراس يوسف.
215 . فلسفة التاريخ العثماني، محمد جميل بيهم.
216 . في أصول التاريخ العثماني، أحمد عبد الرحيم مصطفى.
217 . قادة فتح بلاد المغرب، محمود شيت خطاب.
218 . قراءة جديدة في التاريخ العثماني، زكريا سليمان بيومي.
219 . قصتي مع الثورة الجزائرية، الهادي المشيرقي.
220 . قلائد الجواهر، للتادفي.

221. قوانين مجموعة، القوانين الداخلية لجيش التحرير، جمعها علي بو داري.
222. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، د. علي محمد الصلابي.
223. كيف تحررت الجزائر؟ وزارة الإعلام والثقافة.
224. لسان المعرب، لأبي عبد الله السليماني.
225. لمحات من ثورة الجزائر، الأخضر جودي.
226. اللهب المقدس، مفدي زكريا.
227. ليبيا بين الماضي والحاضر، حسن سليمان محمود.
228. مجالس التذكير في كلام الحكيم الخبير، لعبد الحميد بن باديس.
229. المجاهد محمد صالح الصديق، إسماعيل ميرة.
230. المجاهد، العدد 114.
231. المجاهد، العدد 37.
232. المجاهد، العدد 78، 3 أكتوبر 1960م.
233. المجاهد، العدد 44، 4 أجوان 1959م.
234. مجلة الأصالة، عبد الرحمن شيبان، ماي 1978م.
235. مجلة اللغة العربية، القاهرة ج 21.
236. مجلة أول نوفمبر، الصادرة بتاريخ 1977/8/1م.
237. مجلة دعوة الحق، الأوقاف المغربية، العدد 203.
238. مجموع الفتاوى، لابن تيمية.
239. مجموع رسائل ابن حزم.
240. محمد بوضياف حوار جريدة الشعب الجزائري.
241. محنة المورسيكوس في إسبانيا، لمحمد قشتيليو.
242. مختصر تفسير ابن كثير.
243. المختصر في تاريخ الثورة الجزائرية، زهير إحدّادن.
244. مدخل إلى تاريخ المغرب العربي الحديث، محمد العربي الزبيري.
245. المدخل الفقهي العام، للشيخ د. مصطفى الزرقاء.
246. المدرسة الباديسية ومناهجها الدراسية، عيسى عمراني.
247. مذكرات جزائري، أحمد طالب الإبراهيمي.
248. مذكرات مالك بن نبي.

249 . مذكرات محمد خير الدين.
250 . مراة الزمان، سبط ابن الجوزي.
251 . المسألة الشرقية، للدسوقي.
252 . المستدرك على الصحيحين.
253 . مسند أحمد.
254 . مسيرة الحركة الإصلاحية بتلمسان، خالد مرزوق.
255 . المشرق العربي والمغربي، د. عبد العزيز فائد.
256 . مشكلة الحرية، زكريا إبراهيم.
257 . المصادر، فصلية تعنى بشؤون المقاومة، العدد الخامس عام 2001م.
258 . مظاهر المقاومة الجزائرية، محمد الطيب العلوي.
259 . مع الثورة الجزائرية، جمعية الأدباء، تقديم د. عبد الرزاق قسوم.
260 . مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، يحيى بو عزيز.
261 . معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، يوسف بوغابة.
262 . معتقل الجرف بالمسيلة أثناء الثورة التحريرية، خميسي سعدي.
263 . المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان.
264 . المغرب العربي الكبير، شوقي الجمل.
265 . المغرب العربي المعاصر، د. محمد علي داحش.
266 . المغرب العربي، صلاح العقاد.
267 . المغرب الكبير، جلال يحيى.
268 . المغرب الكبير، د. السيد عبد العزيز سالم.
269 . المغرب في بداية العصور الحديثة، د. صلاح العقاد.
270 . المغرب في تاريخ الأندلس والمغرب، د.عبادة كحيلة.
271 . المغرب في عهد الدولة السعدية، عبد الكريم كريم.
272 . مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، د. محمد ناصر.
273 . مقدمة مجلة الشهاب، بقلم عبد الرحمن شيباني.
274 . المقدمة، لابن خلدون.
275 . الملتقى الدولي للإمام محمد البشير الإبراهيمي بمناسبة الذكرى الأربعين لوفاته.
276 . ملحمة المظاهرات الشعبية، على بو داري.
277 . من بطولات المرأة الجزائرية في الثورة، د. محمد قنطاري.

278. من تاريخ الحركة الإسلامية، محمد فتحي عثمان.
279. من هدي النبوة، ابن باديس.
280. من وثائق جمعية العلماء المسلمين، عبد الرحمن شيبان.
281. منابع الثقافة والسياسة في الخطاب الوطني عند كل من مصالي الحاج وفرحات عباس، د. يوسف حميطوش.
282. المناضل الليبي الهادي المشيرقي، محمد الصالح الصديق.
283. المنتقد، مجلة جزائرية.
284. منهج الحافظ ابن حجر في العقيدة.
285. مواقف الإمام الإبراهيمي، مقدمة الدكتور محمد دراجي.
286. مواقف الدول العربية من القضية الجزائرية، د. مريم صغير.
287. مؤتمر الصومام وتطور ثورة التحرير الوطني، لحسن لزغيدي.
288. الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب.
289. موسوعة المغرب العربي، عبد الفتاح مقلد الغنيمي.
290. موطأ الإمام مالك.
291. نافذة على اقتصاد الثورة، علي بو داري.
292. النشاط الدبلوماسي للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية، عمر بو ضربة ص.132
293. النشاط العلمي والفكري للمهاجرين، محمد صالح.
294. النصوص الأساسية لجبهة التحرير الوطني، وزارة الإعلام والثقافة.
295. نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر الحديث، جمال فنان.
296. النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية، ناصر الدين سعيدوني.
297. نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين الخطيب المقري، تحقيق د. إحسان عباس.
298. نفوس ودروس في إطار التصوير القراني، لتوفيق محمد سباع.
299. نهاية الأندلس، محمد عبد الله عنان.
300. نوابغ العرب، مجموعة من الأساتذة.
301. نيل الأوطار، محمد علي الشوكاني.
302. هكذا ظهر جيل صلاح الدين، د. ماجد عرسان الكيلاني.
303. وادي المخازن، لشوقي أبي خليل.
304. وثائق جديدة عن حياة خفية في حياة ابن باديس الدراسية، د. عبد العزيز فيلالي.

305 . وثائق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دراسة تحليلية، يوسف بو غابة.

306 . الوسطية في القران الكريم، د. علي الصلابي.

307 . وصف أفريقيا، للوزان.

308 . الولايات التاريخية لثورة التحرير الجزائرية، د. محمد صالح بجاوي.

* * *

جدول المحتويات

كتب صدرت للمؤلف

1 . السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.
2 . سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
3 . سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
4 . سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
5 . سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: شخصيته وعصره.
6 . سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب. شخصيته وعصره.
7 . الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.
8 . فقه النصر والتمكين في القران الكريم.
9 . تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.
10 . تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.
11 . عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.
12 . الوسطية في القران الكريم.
13 . الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.
14 . معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.
15 . عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.
16 . خلافة عبدالله بن الزبير.
17 . عصر الدولة الزنكية.
18 . عماد الدين زنكي.
19 . نور الدين زنكي.
20 . دولة السلاجقة.
21 . الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.
22 . الشيخ عبد القادر الجيلاني.
23 . الشيخ عمر المختار.
24 . عبد الملك بن مروان وبنوه.
25 . فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.
26 . حقيقة الخلاف بين الصحابة.
27 . وسطية القران في العقائد.
28 . فتنة مقتل عثمان.

29. السلطان عبد الحميد الثاني.

30. دولة المرابطين.

31. دولة الموحدين.

32. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

33. الدولة الفاطمية.

34. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

35. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

36. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (ص)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

37. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

38. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

39. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

40. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

41. الشورى في الإسلام.

42. الإيمان بالله جل جلاله.

43. الإيمان باليوم الاخر.

44. الإيمان بالقدر.

45. الإيمان بالرسل والرسالات.

46. الإيمان بالملائكة.

47. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

48. السلطان محمد الفاتح.

49. المعجزة الخالدة.

50. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

51. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

52. التداول على السلطة التنفيذية.

53. الشورى فريضة إسلامية.

54. الحريات من القران الكريم، حرية التفكير، وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

55. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

56. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

57. العدل في التصور الإسلامي.

58 ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

59 ـ الأمير عبد القادر الجزائري.

60 ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس ـ الجزء الثاني ..

61 ـ سنة الله في الأخذ بالأسباب.

62 ـ كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

* * *